الموسوعة المفصلة

في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة







إعداد / مكتب التبيان

إشراف علمي

حسن عبد الحفيظ أبو الخير

دار ابن الجوزي

القاهرة

الموسوعة المفصلة

في

الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات

القديمة والمعاصرة

إعداد

مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث

لصاحبه أبو عيسى محمد بن حسين المصري

إشراف علمي

حسن عبد الحفيظ عبد الرحمن أبو الخير

الجزء الأول

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

٢٠١١

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١م
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٣٤٤٧

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة

٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠

E-mail: dar_ebnelgawzy@yahoo.com

فرق المسلمين

المقدمات

الباب الأول: الخوارج

الباب الثاني: الشيعة

الباب الثالث: القدرية

الباب الرابع: المرجئة

الباب الخامس: الجبرية

الباب السادس: المعطلة

الباب السابع: المجسمة

الباب الثامن: الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَاتُ

وفيه سبع مُقَدِّمَاتٍ:

المُقَدِّمَةُ الأُولَى: حديث الفرق.

المُقَدِّمَةُ الثَّانِيةُ: موقف العلماء من حديث الفرق.

المُقَدِّمَةُ الثَّالِثَةُ: عدد الفرق وتعيينهم.

المُقَدِّمَةُ الرَّابِعَةُ: أصول الفرق.

المُقَدِّمَةُ الخَامِسَةُ: ضابط الفرقة.

المُقَدِّمَةُ السَّادِسَةُ: التسلسل الزمني لظهور الفرق.

المُقَدِّمَةُ السَّابِعَةُ: دراسة الفرق.

المُقدِّمَةُ الأُولَى

حَدِيثُ الفِرَقِ

جاء هذا الحديث عن عدد من الصحابة، على النحو الآتي:

١- حديث أبي هريرةَ: قال: قال رسولُ الله ﷺ: «افْترقَتِ اليهودُ على إِحْدَى أو ثِنْتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وتَفَرَّقَتِ النَّصارَى على إحْدَى أو ثِنْتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثَلاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً».

٢- حديث معاوية بن أبي سفيان: قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الكتابِ افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّة، وإنَّ هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

٣- حديث أنس بن مالك: عن النبي ﷺ قال: «إنَّ بَني إسرائيل افْتَرَقَتْ على إحْدَى وسبعين فِرْقَةً، وإن أمتي ستفترق على ثِنْتَيْنِ وسبعين فِرْقَةً كُلُّهَا في النَّارِ إلا واحِدَةً، وهي الجَمَاعَةُ».

٤- حديث عبد الله بن مسعود: عن رسول الله ﷺ قال: «اختلف من كان قبلنا -وفي لفظ: بني إسرائيل- على ثِنْتَيْنِ وسبعين فِرْقَةً، نجا منها ثلاثٌ، وهلك سائِرُهُن...».

٥- حديثُ أبي أمامةَ الباهلي: عن رسول الله ﷺ قال: «افْتَرَقَتْ بنو إسرائيل على إحْدَى وسبعين فرقةً -أو قال: اثنتين وسبعين فِرقةً- وتزيدُ هذه الأمَّةُ فرقةً واحدةً، كُلُّها في النَّارِ إلا السواد الأعظم».

٦- حديث عبد الله بن عمر: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في أمتي لنيفًا وسبعين داعيًا، كُلُّهم داعٍ إلى النارِ، لو أشاء لأنبأتكم بآبائهم وقبائلهم ...».

٧- حديث عبدِ الله بن سلام: سأله النبي ﷺ: «على كم تفرقتْ بنو إسرائيل؟» فقال: على واحدةٍ -أو اثنتين- وسبعين فِرْقَة، قال: «وأمَّتي أيضًا ستفترقُ مثلهم، أو يزيدون واحدة، كُلُّها في النارِ إلا واحدة».

٨- حديث سعد بن أبي وقاص: عن رسول الله صلى اله عليه وسلم قال: «افْتَرَقَتْ بنو إسرائيلَ عَلَى إحْدَى وسبعين مِلَّة، ولن تذهب الليالي والأيامُ حتى تفترقَ أمَّتي عَلَى مِثْلِها، فكُلُّ فِرْقَةٍ منها في النارِ إلا واحدةً، وهي الجماعةُ».

٩- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بني إسرائيل تفرقتْ على ثنتين وسبعين مِلَّة، وتفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة، كُلُّهم في النارِ إلا ملة واحدة»، قالوا: ومن هي يا رسول الله، قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

١٠- حديث عمرِو بنِ عوف المزني: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بني إسرائيلَ افترقتْ على

مُوسَى سبعين فرقةً، كُلُّها ضَالَّةٌ إلا فرقة واحدة؛ الإسلام وجماعتهم، ثم إنها افترقتْ على عيسى ابن مريمَ على إِحْدَى وسبعينِ فرقةً، كُلُّها ضالةٌ إلا واحدة الإسلام وجماعتهم، ثم إِنَّكُم تكونون على اثنتين وسبعين فرقةً، كُلُّها في النارِ إلا واحدة الإسلام وجماعتهم».

١١- حديث عوف بن مالك الأشجعي: عن رسول الله ﷺ قال: «تَفْتَرِقُ أُمَّتِي على بِضْعٍ وسبعين فِرْقَةً».

١٢- حديث أبي الدرداء، وأبي أمامةَ، وواثلةَ بن الأسقع، وأنس بن مالك: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بني إسرائيلَ افترقوا على إِحْدَى وسبعين فرقةً، والنصارى على ثنتين وسبعين، كُلُّهم على الضَّلَالَةِ إلا السواد الأعظم»، قالوا: يا رسول الله، ومن السواد الأعظم؟ قال: «مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْه وَأَصْحَابِي...».

١٣- حديث جابر بن عبد الله: عن رسول الله ﷺ قال: «تَفَرقَتْ اليهودُ على إحدى وسبعين فرقةً، كُلُّها في النارِ، وتَفَرقَتْ النصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، كُلُّها في النارِ، وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقةً كُلُّها في النارِ إلا واحدة»، فقال عمر بن الخطاب: أخبرنا يا رسول الله، من هم؟ قال: «السوادُ الأعظم».

الكلام عن سند الحديث:

١- حديث أبي هريرة:

أخرجه أحمد (٨٣٧٧)، وأبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأبو يعلى (٥٩١٠)، (٥٩٧٨)، (٦١١٧)، والحاكم (١٠)، (٤٤١)، (٤٤٢)، وابن حبان (٦٢٤٧)، (٦٧٣١)، والبيهقي (٢٠٦٩٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٦)، (٦٧)، والمروزي في السنة (٥٨)، والآجري في الشريعة (٢٢).

جميعًا من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به.

ومُحَمَّدُ بنُ عَمْرِو بنِ عَلْقَمَة بن وَقَّاص اللَّيْثِي المَدَنِي، صَالِح الحديثِ، وكان يُخْطِئ[1].

ورواه عنه محمد بن بشر العبدي، وخالد بن عبد الله، والفضل بن موسى، والنضر بن شميل، ومحمد بن أبي عدي، وهم جميعًا ثقات، ولم يختلِفوا عليه.

وهو من أروى الناس عن أبي سلمة، فقد قال أبو زرعة الدمشقي: محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي من أروى أهل المدينة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن[2].

ولم أجد من خالفه فيه.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال (٢٦/ ٢١٢)، تهذيب التهذيب (٥/ ٢٤٠)، التقريب (٦١٨٨).

(٢) انظر: الفوائد المعللة.

٢- حديث معاوية بن أبي سفيان:

أخرجه أحمد (١٦٩٧٩)، وأبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥١٨)، والحاكم (٤٤٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٦/ ٨٨٤)، (١٩/ ٣٧٧/ ٨٨٥)، وفي مسند الشاميين (١٠٠٥، ١٠٠٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١)، (٢)، (٦٥)، (٦٩)، والمروزي في السنة (٥٠)، (٥١)، والآجري في الشريعة (٢٩)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠١)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ١٩٢)، (٣/ ٣٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ١٣١).

جميعًا من طريق صفوان بن عمرو، عن أزهر بن عبد الله الحرازي، عن أبي عامر عبد الله بن لحي الهوزني، عن معاوية به.

وصفوان بن عمرو بن هرم السكسكي، أبو عمرو الحمصي، ثقة [1].

وأزهر بن عبد الله بن جميع الحرازي، الحميري، الحمصي، قال البخاري: أزهر بن عبد الله، وأزهر بن سعيد، وأزهر بن يزيد، واحد نسبوه مرة مرادي، ومرة حمصي، ومرة هوزني، ومرة حرازي.

وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وتعقبه الحافظ بقوله: لم يتكلَّموا إلا في مذهبه، وقال في التقريب: صدوق تكلَّموا فيه للنصب.

وقال الذهبي: تابعي حسن الحديث لكنه ناصبي ينال من عليٍّ. وذكره ابن حبان والعجلي في الثقات [2].

وعبد الله بن لُحي الحميري، أبو عامر، الهوزني، الحمصي، صدوق، من كبار التابعين [3].

٣- حديث أنس بن مالك:

وله عن أنس سبع طرق:

١- أخرجه أحمد (١٢٢٢٩)، من طريق النميري، عن أنس به.

والنميري هو زياد بن عبد الله البصري، وهو ضعيف، قال ابن حبان: منكر الحديث يروي عن أنس أشياء لا تشبه حديث الثقات، لا يجوز الاحتجاج به. ولكن قال ابن عدي بعد أن ذكر له عدة أحاديث: ولزياد بن النميري غير ما ذكرت من الحديث عن أنس، والذي ذكرت له من الحديث من يرويه عنه فيه طعن، والبلاء منهم لا منه، وعندي إذا روى عن زياد النميري ثقة فلا

---

(١) انظر: تهذيب الكمال (١٣/ ٢٠١)، تهذيب التهذيب (٢/ ٥٥٥)، التقريب (٢٩٣٨).

(٢) انظر: التاريخ الكبير (١/ ٤٥٦)، الثقات (٤/ ٣٨)، معرفة الثقات (١/ ٢١٤)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (١/ ٩٤)، ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٢)، الكاشف (١/ ٢٣١)، اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٢٥٢)، تهذيب الكمال (٢/ ٣٢٧)، تهذيب التهذيب (١/ ١٣٢)، التقريب (٣١٠).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (١٥/ ٤٨٥)، تهذيب التهذيب (٣/ ٢٤١)، التقريب (٣٥٦٢).

بأس بحديثه[١]. قلت: والراوي عنه هنا صدقة بن يسار الجزري، وهو ثقة[٢].

٢- وأخرجه أحمد (١٢٥٠١)، من طريق سعيد بن أبي هلال، عن أنس به.

وفي إسناده عبد الله بن لَهِيعَة بن عُقْبَة الحَضْرَمِي، أبو عبد الرحمن المِصْريّ القَاضي، فيه كلام طويل، والظاهر أنه ضعيف[٣].

وسعيد بن أبي هلال الليثي، أبو العلاء المصري، صدوق؛ إلا أن الساجي حكى عن أحمد أنه يخلط في الأحاديث، وذكر مثله ابن حزم عن يحيى، وقال المزي: روى عن أنس بن مالك يقال مرسل، وجزم الحافظ به[٤].

٣- وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٤)، جميعًا من طريق قتادة، عن أنس به.

وفي إسناده هشام بن عمار المقرئ، وهو صدوق، ولكنه كان يتلقن الحديث[٥].

وفيه أيضًا الوليد بن مسلم، وهو ثقة، يدلس تدليس التسوية[٦]، ولم يصرح بسماع قتادة من أنس، وإن كان قتادة قد سمع من أنس، وهو مدلس أيضًا[٧].

٤- وأخرجه أبو يعلى (٤١٢٧)، وعبد الرزاق (١٨٦٧٤)، والمروزي في السنة (٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٢)، والطبري وابن أبي حاتم كلاهما في تفسير سورة آل عمران آية ١٠٣، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠٠)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٧٣).

جميعًا من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس به.

ويزيد بن أبان الرقَاشي، أبو عمرو البصري القاصّ، زاهد، ضعيف[٨].

٥- وأخرجه الطبراني في الصغير (٧٢٤)، وفي الأوسط (٥/ ١٣٧/ ٤٨٨٦)، (٨/ ٢٢/ ٧٨٤٠)، والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٦٢).

---

(١) انظر: المجروحين (١/ ٣٠٦)، الكامل في الضعفاء (٣/ ١٨٦)، تهذيب الكمال (٩/ ٤٩٢)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢٢١)، التقريب (٢٠٨٧).

(٢) انظر: تهذيب الكمال (١٣/ ١٥٥)، تهذيب التهذيب (٢/ ٥٤٩)، التقريب (٢٩٢٢).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (١٥/ ٤٨٧)، تهذيب التهذيب (٣/ ٣٤١)، التقريب (٣٥٦٣) وغيرها.

(٤) انظر: تهذيب الكمال (١١/ ٩٤)، تهذيب التهذيب (٢/ ٣٤٢)، التقريب (٢٤١٠)، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٥).

(٥) انظر: تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٤٢)، تهذيب التهذيب (٦/ ٣٦)، التقريب (٧٣٠٣).

(٦) انظر: جامع التحصيل ص(١٠٣، ١١١).

(٧) انظر: جامع التحصيل ص(١٠٨)، ص(٢٥٥).

(٨) انظر: تهذيب الكمال (٣٢/ ٦٤)، تهذيب التهذيب (٦/ ١٩٥)، التقريب (٧٦٨٣).

جميعًا من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس به.

وقال الطبراني عَقِبه في الصغير: لم يروه عن يحيى إلا عبد الله بن سفيان، وقال عقبه في لأوسط: لم يروِ هذا الحديث عن يحيى بن سعيد إلا عبد الله بن سفيان المدني وياسين الزيات.

أما عبد الله بن سفيان الخزاعي، واسطي، فقد قال العقيلي عنه: لا يتابع على حديثه [١].

وأما ياسين بن معاذ الزيات فهو ضعيف جدًا [٢].

٦- وأخرجه أبو يعلى (٣٦٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢٦)، والآجري في الشريعة (٢٥)، وابن مردويه كما عند ابن كثير في تفسير سورة المائدة آية ٦٦، وكما في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٤٨).

جميعًا من طريق زيد بن أسلم، عن أنس به.

وفي إسناده أبو مَعْشَر، وهو نَجِيحُ بن عَبْدِ الرَّحْمَن السِّنْدِي المَدَنِي، مَشْهُورٌ بِكُنْيَتِهِ، وهو ضَعِيفٌ، ٔسنَّ واختَلَطَ [٣].

٧- وأخرجه أبو يعلى (٣٩٣٨)، (٣٩٤٤)، والآجري في الشريعة (٢٧).

جميعًا من طريق عبد العزيز بن صهيب، عن أنس به.

وفي إسناده مبارك بن سُحَيم، أبو سحيم البناني البصري، وهو متروك [٤].

٤- حديث عبد الله بن مسعود:

وله عنه ثلاث طرق:

١- أخرجه الحاكم (٣٧٩٠)، والبيهقي في الشعب (٩٥١٠)، والطبراني في الصغير (٦٢٥)، وفي الأوسط (٤/ ٣٧٦/ ٤٤٧٩)، وفي الكبير (١٠/ ٢٢٠/ ١٠٥٣١)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٠)، والطبري في تفسير سورة آل عمران آية ١٠٣، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٠٩).

جميعًا من طريق الصعق بن حزن، عن عقيل الجعدي، عن أبي إسحاق السبيعي، عن سويد بن غفلة، عن عبد الله بن مسعود به.

وقال الطبراني عقِبَه في الصغير: لم يروه عن أبي إسحاق إلا عقيل تفرد به الصعق.

قلت: وعقيل الجعدي قال عنه أبو حاتم والبخاري: منكر الحديث. وقال ابن حبان: منكر

---

(١) انظر: ضعفاء العقيلي (٢/ ٢٦٢)، المغني (١/ ٣٤٠)، ميزان الميزان (٤/ ١٠٩)، لسان الميزان (٣/ ٢٩١).

(٢) انظر: المجروحين (٣/ ١٤٢)، الكامل في الضعفاء (٧/ ١٨٣)، ضعفاء العقيلي (٤/ ٤٦٤، ٢٠١)، ميزان الاعتدال (٧/ ١٥٤)، لسان الميزان (٦/ ٢٣٨، ٥٦).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (٢٩/ ٣٢٢)، تهذيب التهذيب (٥/ ٦١٠)، التقريب (٧١٠٠).

(٤) انظر: تهذيب الكمال (٢٧/ ١٧٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ٣٦٤)، التقريب (٦٤٦١).

الحديث يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات فبطل الاحتجاج بما روى وإن وافق فيه الثقات. وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به. وأغرب العجلي فذكره في الثقات[١] .

٢- وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٧١/ ١٠٣٥٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٧١)، وابن أبي حاتم كما عند ابن كثير في تفسير سورة الحديد آية ٢٦.

جميعًا من طريق القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن جده عبد الله بن مسعود به.

وفي إسناده بكير بن معروف الأسدي، أبو معاذ الدامغاني، وهو صدوق فيه لين[٢] .

وفي سماع عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود من أبيه خلاف بين الأئمة، ورجح الحافظ أنه سمع منه شيئًا يسيرًا[٣] .

٣- وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٨٩)، من طريق عمارة بن عمير، عن الربيع بن عميلة، عن عبد الله به.

ورواته ثقات؛ إلا سعدان بن نصر المخرمي، أبو عثمان البغدادي، وهو صدوق[٤] .

والأعمش مدلس وقد عنعن، إلا أن العلائي ذكره فيمَّن احتمل الأئمة تدليسه[٥] .

٥- حديث أبي أمامة الباهلي:

أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٨٩٢)، والطبراني في الأوسط (٧/ ١٧٥/ ٧٢٠٢)، وفي الكبير (٨/ ٢٦٨/ ٨٠٣٥)، (٨/ ٢٧٣/ ٨٠٥١)، (٨/ ٢٧٣/ ٨٠٥٣)، (٨/ ٢٧٤/ ٨٠٥٤)، والبيهقي (١٦٥٦٠)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٣٣٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٨)، والمروزي في السنة (٥٥)، (٥٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠٢، ١٠٣).

جميعًا من طريق أبي غالب، عن أبي أمامة به.

وأبو غالب صاحب أبي أمامة، بصري نزل أصبهان، قيل: اسمه حزور، وقيل: سعيد بن الحزور، وقيل: نافع، فيه ضعف[٦] .

---

(١) انظر: التاريخ الكبير (٧/ ٥٣)، الجرح والتعديل (٦/ ٢١٩)، المجروحين (٢/ ١٩٢)، ضعفاء العقيلي (٣/ ٤٠٨)، الكامل في الضعفاء (٥/ ٣٨٢)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٢/ ١٨٢)، معرفة الثقات (٢/ ١٤٣).

(٢) انظر: تهذيب الكمال (٤/ ٢٥٢)، تهذيب التهذيب (١/ ٣١١)، التقريب (٧٦٨).

(٣) انظر: جامع التحصيل ص(٢٢٣)، تحفة التحصيل ص(٢٠٠)، التقريب (٣٩٢٤).

(٤) انظر: الجرح والتعديل (٤/ ٢٩٠)، الثقات (٨/ ٣٠٥).

(٥) انظر: جامع التحصيل ص(١١٣).

(٦) انظر: تهذيب الكمال (٣٤/ ١٧٠)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٩)، التقريب (٨٢٩٨).

٦- حديث عبد الله بن عمر:

أخرجه أبو يعلى (٥٧٠١)، من طريق ليث، عن سعيد بن عامر، عن ابن عمر به.

وليث بن أبي سليم، ضعيف[١]

وسعيد بن عامر، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن معين: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: لا يعرف، وقال الحافظ: مجهول[٢]

٧- حديث عبد الله بن سلام:

وله طريقان:

١- أخرجه عبد الرزاق (١٨٦٧٥)، من طريق معمر، عن قتادة، عن النبي ﷺ.

وهو مرسل، ومراسيل قتادة بمنزلة الريح[٣]

٢- وأخرجه الآجري في الشريعة (٢٦)، من طريق شبابة بن سوار، عن سليمان بن طريف، عن أنس، عن النبي ﷺ.

وسليمان -أو سلمان- بن طريف، أو طريف بن سليمان -أو سلمان-، أبو عاتكة البصري أو الكوفي، منكر الحديث[٤]

٨- حديث سعد بن أبي وقاص:

أخرجه البزار (١١٩٩)، والمروزي في السنة (٥٧)، والآجري في الشريعة (٢٨).

جميعًا من طريق موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن عائشة ابنة سعد، عن أبيها به. وسقط في رواية الآجري عبد الله بن عبيدة.

وقال البزار عقبه: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن سعد إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى عبد الله بن عبيدة عن عائشة عن أبيها إلا هذا الحديث.

قلت: عبد الله بن عبيدة بن نَشِيط الرَّبذي ذكره ابن حبان وابن خلفون في الثقات، ووثقه يعقوب بن شيبة والدارقطني والحافظ، وضعفه أحمد وابن معين وابن عدي وابن حبان أيضًا، وقال النسائي: ليس به بأس[٥]

وأخوه موسى بن عُبيدة بن نَشِيطِ الرَّبذي، أبو عبد العزيز المدني، ضعيف[٦]

---

(١) انظر: تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٧٩)، تهذيب التهذيب (٤/ ٦١٢)، التقريب (٥٦٨٥).

(٢) انظر: تهذيب الكمال (١٠/ ٥١٤)، تهذيب التهذيب (٢/ ٣١٦)، التقريب (٢٣٣٩).

(٣) انظر: جامع التحصيل ص(٧٩، ٩١).

(٤) انظر: تهذيب الكمال (٣٤/ ٥)، تهذيب التهذيب (٦/ ٣٩٢)، التقريب (٨١٩٣).

(٥) انظر: تهذيب الكمال (١٥/ ٢٦٣)، تهذيب التهذيب (٣/ ٢٠١)، التقريب (٣٤٥٨).

(٦) انظر: تهذيب الكمال (٢٩/ ١٠٤)، تهذيب التهذيب (٥/ ٥٧١)، التقريب (٦٩٨٩).

٩- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص:

أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (٤٤٤)، والمروزي في السنة (٥٩)، والآجري في الشريعة (٢٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٩٨).

جميعًا من طريق عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو به.

وعبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم الإفريقي، ضعيف في حفظه[1].

١٠- حديث عمرو بن عوف المزني:

أخرجه الحاكم (٤٤٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣/ ٣).

جميعًا من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد، عن أبيه، عن جده به.

وكثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني المدني، ضعيف جدًّا[2]، وقال ابن حبان: يروي عن أبيه عن جده نسخة موضوعة، لا يحل ذكرها في الكتب، ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب[3].

١١- حديث عوف بن مالك الأشجعي:

وله ثلاث طرق:

١- أخرجه الحاكم (٨٣٢٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٠/ ٩٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٦، ١٣٤)، والطبراني في مسند الشاميين (١٠٧٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ١٥١- ١٥٦)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٢٨)، (٧/ ١٧)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٤٥٠)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٠٧)، والبيهقي في المدخل (٢٠٧).

جميعًا من طريق نُعَيْم بن حماد، عن عيسى بن يونس، عن حُرَيْز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عوف بن مالك به، وفي آخره: أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال.

ونعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي، أبو عبد الله المروزي، نزيل مصر، صدوق كثير الخطأ والوهم، لا يقبل ما تفرد به، وهو صاحب سنة.

وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد: كل من حدَّث به عن عيسى بن يونس غير نعيم بن حماد فإنما أخذه من نعيم، وبهذا الحديث سقط نعيم بن حماد عند كثير من أهل العلم بالحديث، إلا أن يحيى بن معين لم يكن ينسبه إلى الكذب، بل كان ينسبه إلى الوهم.

(١) انظر: تهذيب الكمال (١٧/ ١٠٢)، تهذيب التهذيب (٣/ ٣٦٠)، التقريب (٣٨٦٢).

(٢) انظر: تهذيب الكمال (٢٤/ ١٣٦)، تهذيب التهذيب (٤/ ٥٨٣)، التقريب (٥٦١٧).

(٣) انظر: المجروحين (٢/ ٢٢٢).

وقال أبو زرعة الدمشقي: قلت لعبد الرحمن بن إبراهيم: حدثنا نعيم بن حماد، عن عيسى بن يونس، عن حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عوف بن مالك، عن نبي ﷺ قال: «**تفترقُ أمتي عَلَى بِضْعٍ وَسبعين فِرْقَةً، أعظمها فتنة على أمتي قومٌ يقيسون الأمورَ برأيِهم فيحلون الحرامَ ويحرمون الحلالَ**». قال: هذا حديث صفوان بن عمرو؛ حديث معاوية[١].

قال أبو زرعة: قلت ليحيى بن معين في حديث نعيم هذا وسألته عن صحته، فأنكره. قلت: من أين يؤتى؟ قال: شبه له.

وقال محمد بن علي بن حمزة المروزي: سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث، فقال: ليس له أصل. قلت: فنعيم بن حماد، قال: نعيم ثقة، قلت: كيف يحدث ثقة بباطل، قال: شبه له[٢].

٢- وأخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٥١/ ٩١)، من طريق أبي تقي عبد الحميد بن إبراهيم الحمصي، عن معدان بن سليم الحضرمي، عن عبد الرحمن بن نجيح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، عن عوف بن مالك به، وفي آخره: واحدة في الجنة وسائرهن في النار.

قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢٤): وفيه عبد الحميد بن إبراهيم، وثقه ابن حبان، وهو ضعيف، وفيه جماعة لم أعرفهم.

٣- وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠/ ١٢٩)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠١)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٧٣).

جميعًا من طريق عباد بن يوسف، عن صفوان بن عمرو، عن راشد بن سعد، عن عوف بن مالك به. وفي آخره: «**فإحدى سبعون في النارِ، وواحدة في الجنةِ، والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقةً، واحدةٌ في الجنة وثنتان وسبعون في النارِ**»، قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «**الجماعة**».

وعباد بن يوسف الكندي، أبو عثمان الحمصي الكرابيسي، قال ابن عدي عنه: روى عن صفوان بن عمرو وغيره أحاديث ينفرد بها، وقال الذهبي: ليس بالقوي، وقال مرة: صدوق يغرب، وقال الحافظ: مقبول، وذكره ابن حبان في الثقات[٣].

١٢- حديث أبي الدرداء، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع، وأنس بن مالك:

أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٢/ ٧٦٥٩)، والآجري في الشريعة (١١١)، وابن عساكر في

---

(١) هو الحديث رقم (٢) فيما تقدم.

(٢) انظر: تهذيب الكمال (٢٩/ ٤٦٦)، تهذيب التهذيب (٥/ ٦٣٥)، التقريب (٧١٦٦).

(٣) انظر: الكامل في الضعفاء (٤/ ٣٤٦)، ميزان الاعتدال (٤/ ٤٥)، الكاشف (١/ ٥٣٣)، المغني (١/ ٣٢٨)، تهذيب الكمال (١٤/ ١٧٩)، تهذيب التهذيب (٣/ ٧٥)، التقريب (٣١٥٤).

تاريخ دمشق (٣٣/ ٣٦٩).

جميعًا من طريق كثير بن مروان الفلسطيني، عن عبد الله بن يزيد بن آدم الدمشقي، عنهم به.

وكثير بن مروان بن محمد بن سويد، أبو عبد الله الفهري السلمي المقدسي الفلسطيني، قال ابن حبان عنه: منكر الحديث جدًّا لا يجوز الاحتجاج به ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب[1].

وعبد الله بن يزيد بن آدم الشامي الدمشقي، تابعي، قال أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال أبو حاتم: لا أعرفه، وقال الجوزجاني: أحاديثه منكرة[2].

١٣- حديث جابر بن عبد الله:

أخرجه بحشل في تاريخ واسط -كما في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٥٠)- من طريق محمد بن الهيثم، عن شجاع بن الوليد، عن عمرو بن قيس، عمَّن حدثه، عن جابر به.

وإسناد منقطع.

---

(١) انظر: المجروحين (٢/ ٢٢٥)، الكامل في الضعفاء (٦/ ٦٩)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٣/ ٢٤)، ضعفاء العقيلي (٤/ ٧)، المغني (٢/ ٥٣١)، ميزان الاعتدال (٥/ ٤٩٦)، لسان الميزان (٤/ ٤٨٣).

(٢) انظر: الجرح والتعديل (٥/ ١٩٧)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٢/ ١٤٦)، ميزان الاعتدال (٤/ ٢٢٩)، لسان الميزان (٣/ ٣٧٨)، المغني (١/ ٣٦٣).

المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ

مَوْقِفُ العُلَمَاءِ مِنْ حَدِيثِ الفِرَقِ

علماء الحديث النبوي والشريعة قد قبلوا هذا الحديث، ما بين مصحِّح ومحسِّن له، وإليك أقوال من أمكننا الوقوف عليه:

- قال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح[١].

- قال أبو عبد الله الحاكم: هذا حديث كثر في الأصول[٢].

وقال بعد ذكره لحديث أبي هريرة ومعاوية السابقَيْنِ: هذه أسانيد تقام به الحجة في تصحيح هذا الحديث[٣].

- قال العراقي: أسانيدها جياد[٤].

- قال الكتاني: فهذا حديث كما ترى وارد من عدة طرق بألفاظ مختلفة وله ألفاظ أُخَر، وقد أخرجه الحاكم من عدة طرق، وقال: هذه أسانيد تقوم بها الحجة[٥].

- قال العيني: وقد ورد في الحديث المروي من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ستفترقُ أمتي عَلَى ثلاثٍ وسبعين فرقةً كُلُّها في النارِ إلا واحدة**»[٦].

- قال ابن كثير في تفسير سورة آل عمران آية ١٠٤: وقد ورد هذا الحديث من طرق.

وقال في تفسير سورة هود آية ١١٨: كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشدُّ بعضُها بعضًا ... فذكره.

وقال في تفسير سورة البينة آية ١: كما جاء في الحديث المروي من طرق ... فذكره.

- قال الشاطبي: صح من حديث أبي هريرة ... فذكره[٧].

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ، وسعد، ومعاوية، وعمرو بن عوف، وغيرهم. ثم ذكر أحاديثه[٨].

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٤٠).

(٢) المستدرك (١/ ٤٧).

(٣) المستدرك (١/ ٢١٨).

(٤) تخريج الإحياء (٧/ ٢٩٦).

(٥) نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص(٤٧).

(٦) عمدة القاري (١٨/ ٢٢٤).

(٧) الاعتصام (٢/ ١٩٢).

(٨) اقتضاء الصراط المستقيم ص(٣١، ٣٢).

وقال: الحديث صحيح مشهور في السنن والمساند؛ كسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم. ثم ذكره(١).

وقال: فإن النبي روي عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد؛ كالإمام أحمد، وأبي داود، والترمذي، وغيرهم أنه قال: **«ستفترق هذه الأمةُ على ثنتين وسبعين فرقةً كلُّها في النارِ إلا واحدة وهي الجماعةُ»** وفي رواية: **«مَن كان على مثلِ ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**(٢).

وقال: والحديث المشهور عنه ﷺ في السنن وغيرها أنه قال: **«تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقةً»** . . . الحديث(٣).

وقال: الحديث الذي في كتب السنن والمسانيد عن النبي من وجوه أنه قال: **«ستفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، واحدة في الجنةِ واثنتان وسبعون في النارِ»**(٤).

وأما علماء المقالات فقد وقفوا تجاهه مواقف مختلفة، وهي على النحو الآتي:

١- منهم من لم يتعرض له بنفي ولا إثبات، كالأشعري صاحب كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

٢- ومنهم من لم يصححه، ولم يجوز الاستدلال به، كابن حزم صاحب كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل(٥).

٣- ومنهم من أخذ به وحاول أن يحصر الفرق في العدد المذكور، وهؤلاء أكثر علماء المقالات، كالإسفراييني صاحب كتاب التبصير في الدين، والبغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق، والشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل، والرازي صاحب كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، والسكسكي صاحب كتب البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، والعلوي صاحب كتاب بيان الأديان، والإيجي صاحب كتاب العقائد العضدية، وكتاب المواقف، والملطي صاحب كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، وغيرهم(٦).

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٦٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧١).
(٤) بغية المرتاد ص(٣٣٧).
(٥) انظر: الفصل (٣/ ١٣٨)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٦)، (٥/ ٢٤٩).
(٦) انظر: مقدمة الفرق بين الفرق ص(٥، ٦)، وغيرها.

المُقَدِّمَةُ الثَّالِثَةُ

عَدَدُ الفِرَقِ وَتَعْيِينُهم

وَقَعَ خلاف بين أهل العلم في تحديد عدد الفرق التي أشار إليها الحديث، وفي تعيينهم، وفي طريقة التعيين، وحاصل الخلاف على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن هذه الفرق قد حدثت، ووصلت إلى العدد الذي ذكره الحديث؛ وهو ثلاث وسبعون فرقةً.

ثم أصحاب هذا القول قد اختلفوا في تعيين أسماء هذه الفرق، وفي الطريقة التي يمكن بها تعيينهم.

القول الثاني: إن هذه الفرق ما زالت تظهر إلى عصرنا هذا بمرور الزمان، حتى تصل إلى العدد المذكور في الحديث، وهؤلاء أيضًا اختلفوا في تعيين أسماء هذه الفرق.

القول الثالث: إن هذه الفرق غير معينة، ولا يمكن تحديدها بزمن من الأزمنة، ولا عصر من العصور، وإنما يمكننا معرفتها أو معرفة أوصافها عن طريق الشرع.

وإليك أقوال أهل العلم في ذلك:

قال الإسفراييني: وقد اختلف مشايخ أهل التحقيق من علماء المسلمين فيه، فقال بعضهم: لم يتكامل وجود هذه الفرق من أهل البدع بين المسلمين بعدُ، وإنما وُجد بعضُهم، وسيوجد بعدهم قبل يوم القيامة جميعهم، فإنَّ ما أخبر الرسولُ كائنٌ لا محالةَ.

وقال الباقون -وهم الذين يتتبعون التَّواريخ ويفتشون عن المقالات المنقولة من أرباب المذاهب المتَّسمة بسمة الإسلام-: إنَّ تمامَ هذه الفِرقِ الضَّالةِ قد وجدت في زمرة الإسلامِ، ووجب على المرءِ المحصلِ أن يميز عقيدتَه عن عقائدهم الفاسدةِ، ودينَه عن أديانِهم الضالةِ[1].

وقال المناوي: واختلف العلماءُ؛ فقال بعضهم: لم تتكاملْ هذه الفرق إلى الآن، وإنما وُجِدَ بعضُها.

وقال بعضُهم -وهو من يتبع التواريخ-: وُجِدَتْ بتمامِها؛ فعشرون منهم الروافض، وعشرون الخوارج، وعشرون القدرية -أي المعتزلة-، وسبع المرجئة، وفرقة النجارية، وفرقة الضرارية، وفرقة الجهمية، وفرقة كرامية خراسان، وفرقة البكرية، وفرقة المشبهة، فهؤلاء اثنان وسبعون، والثالثة والسبعون الناجية[2].

---

(١) التبصير في الدين ص(١٦).

(٢) فيض القدير (٥/ ٣٤٦).

وقال ابن الجوزي: فإن قيل: وهل هذه الفرق معروفة؟ فالجواب: إنا نعرف الافتراق، وأصولَ الفرقِ، وإنَّ كلَّ طائفة من الفرقِ قد انقسمت إلى فرقٍ، وإن لم نُحُطْ بأسماء تلك الفرقِ ومذاهبِها، وقد ظهر لنا من أصولِ الفرقِ: الحرورية، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية.

وقد قال بعض أهلِ العلمِ: أصل الفرقِ الضالةِ هذه الفرق الستة، وقد انقسمتْ كلُّ فرقةٍ منها على اثنتي عشرة فرقةً، فصارت اثنتين وسبعين فرقةً[1]. ثمَّ ذكرَ أسماءَ هذه الفرقِ ومذاهبَها مجملًا.

وقال الطرطوشي: فإن كان رسولُ الله ﷺ أرادَ بتفرُّقِ أمتِه أصولَ البدعِ التي تجري مجرى الأجناسِ للأنواعِ، والمعاقدِ للفروعِ، فلعلهم -والعلم عند الله- ما بلغوا هذا العددَ إلى الآن، غير أن الزمانَ باقٍ، والتكليف قائمٌ والخطرات متوقعةٌ، وهل قرنٌ أو عصرٌ يخلو إلا وتحْدَثُ فيه البدع؟!

وإن كان أراد بالتفرقِ كلَّ بدعةٍ حدثت في دين الإسلام مما لا يلائم أصولَ الإسلامِ، ولا تقبلها قواعدُه، من غير التفاتٍ إلى التقسيمِ الذي ذكرنا، سواء كانت البدعُ أنواعًا لأجناسٍ، أو كانت متغايرة الأصول والمباني.

فهذا هو الذي أراده عليه الصلاةُ والسلامُ -والعلمُ عندَ اللهِ- فقد وُجِدَ من ذلك عددٌ أكثر من اثنتين وسبعين.

ووجه تصحيح الحديث على هذا أن تخرج من الحساب غُلاةُ أهل البدع، ولا يعدون من الأمة، ولا في أهل القبلةِ، كنُفاةِ الأعراضِ من القدرية؛ لأنَّه لا طريق إلى معرفةِ حدوثِ العالمِ، وإثباتِ الصانعِ إلا بثبوت الأعراض، وكالحلوليَّة، والنصيرية، وأشباههم من الغلاة[2].

وقد استدرك الشاطبي عليه قائلًا: هذا ما قال الطرطوشي -رحمه الله تعالى- وهو حسنٌ من التقديرِ، غير أنَّه يبقى للنظر في كلامِه مجالان:

أحدهما: أن ما اختاره من أنَّه ليس المراد الأجناس؛ وأنَّ مراده مجرد أعيان البدع، وقد ارتضى اعتبار البدعِ القوليَّةِ والعمليَّةِ؛ فمشكل لأنَّا إذا اعتبرنا كلَّ بدعةٍ دقَّت أو جلَّت، فكل من ابتدع بدعة كيف كانت لزم أن يكون هو ومن تابعه عليها فرقةً، فلا يقف العدد في مائة ولا مائتين، فضلًا عن وقوفها في اثنتين وسبعين فرقة، فإن البدع -كما قال- لا تزال تحدث مع مرور الأزمنة إلى قيام الساعة.

وقد مرَّ من النقلِ ما يُشعر بهذا المعنى، وهو قول ابن عباس: ما من عامٍ إلا والناسُ يحيون فيه بدعةً ويُميتُون فيه سنةً، حتى تحيا البدعُ وتموت السننُ.

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢٨).

(٢) الاعتصام (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

وهذا موجود في الواقع؛ فإن البدع مُذ نشأت إلى الآن، لا تزال تكثر، وإن فرضنا إزالة بدع الزائغين في العقائد كلِّها؛ لكان الذي يبقى أكثر من اثنتين وسبعين؛ فما قاله -والله أعلم- غير مخلص[(١)].

وقال محمد محيي الدين عبد الحميد: والحق أن أصول الفرقِ لا يصل إلى هذا العددِ، بل ولا يبلغ نصفَه ولا رُبعَه، وأن فروعَ الفرقِ يختلف العلماء في تفريعها، وأنت في حيرةٍ حين تأخذ في العدِّ، بين أن تعتبر في عدِّك الفرق أصولَها أو فروعَها، وإذا استقر رأيك على اعتبار الفروعِ فإلى أي حد من التفريعِ أنت آخذ في اعتبارك.

وفي الحق أنه -على فرضِ صحةِ الحديثِ- لا ينحصر الافتراق فيما كان في العصور الأولى، ومن قبل أن يدون هؤلاء العلماء مصنفاتهم، بل لا يزالُ الأمر يسير على المنهج الذي سار عليه أول الأمرِ، تكون الفرقة واحدة، ثم يكون من رجالها اثنان أو أكثر يبتدعون في مقالتهم شيئًا لم يكن عليه أسلافُهم، فيصبح كلُّ واحدٍ منهم فرقةً منفصلةً عن قُدامَاها في كلِّ ما كانوا ينتحلون، أو في بعضِه، ويُجَدُّ في العصرِ بعد العصرِ مبتدعةٌ يبتدعون ما لم يكنْ عليه أحدٌ من أهلِ الفرقِ الأولى، من أجلِ ذلك كلِّه رأينا أن الأخذَ بهذا الحديثِ على ظاهرِه، ومحاولة إيجادِ هذا العددِ من الفرقِ من أهلِ القرونِ الثلاثةِ الأولى التي جاء في أعقابِها هؤلاءِ المؤلفون -قصورٌ وتقصيرٌ وقصرُ نظرٍ؛ فإن حديثَ الترمذيِّ يتحدث عن افتراقِ أمةِ محمدٍ ﷺ، وأمتُه مستمرةٌ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها وهو خيرُ الوارثين، فيجبُ أن يُتَحدَّث في كلِّ عصرٍ عن الفرقِ التي نجمتْ في هذه الأمةِ من أولِ أمرِها إلى الوقتِ الذي يتحدث فيه المتحدثُ، ولا عليه إن كان العددُ قد بَلَغَ ما جاء في الحديثِ أو لم يبلغْ.

ونحن نجزم أنه إذا كان الحديث صحيحًا، وأن رسول الله صلواتُ الله وسلامُه عليه قد قاله، فلا بد أنه كائن على الوجه الذي أراده ﷺ؛ لأنه صادق في كل ما يقوله؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يلقي كلامَه إلقاءً غيرَ مبالٍ بما يكون من بعد، والله تعالى يؤيدُه، ومن تأييدِه وقوعُ الأمرِ في واقعِ الناسِ على وفقِ ما أخبرَ به[(٢)].

وقال الدواني فيما نقل عنه المناوي: وما يُتَوَهم من أنه إن حُمِلَ على أصولِ المذاهبِ فهي أقلُّ من هذه العدةِ، أو على ما يشمل الفروعَ فهي أكثر -تَوَهُّم لا مستندَ له؛ لجوازِ كونِ الأصولِ التي بينها مخالفةٌ مقيَّد بها هذا العدد، أو يقال: لعلهم في وقتٍ من الأوقاتِ بلغوا هذا العددَ وإن زادوا أو نقصوا في أكثرِ الأوقاتِ[(٣)].

قلت: الذي يظهرُ في هذه المسألةِ هو رجحانُ القولِ الثالثِ؛ القائلُ بعدم تعيين هذه الفرقِ إلا

---

(١) الاعتصام (٢/ ٢٢٣).

(٢) مقدمة كتاب الفرق بين الفرق ص(٦، ٧).

(٣) فيض القدير (٢/ ٢٠).

بما دلَّ عليه الدليل على وجه التعينِ، أو على وجه التوصيفِ، وبما يقتضيه جلب المصلحةِ الشرعيةِ في واقع الناسِ ودفع المفسدةِ والمضرةِ عنهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأمَّا تعينُ هذه الفرقِ فقد صنَّفَ الناسُ فيهم مصنفاتٍ، وذكروهم في كتبِ المقالاتِ؛ لكنَّ الجزمَ بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بدَّ له من دليلٍ؛ فإنَّ الله حرَّم القولَ بلا علم عمومًا، وحرَّمَ القولَ عليه بلا علم خصوصًا، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: الآية ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦].

وأيضًا فكثيرٌ من الناسِ يخبرُ عن هذه الفرقِ بحكمِ الظَّنِّ والهوى فيجعل طائفتَه والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة، ويجعل من خالفَها أهل البدع، وهذا ضلالٌ مبينٌ[١].

وقال الشاطبي في التعقيب الثاني على كلام الطرطوشي السابق: إنَّ حاصلَ كلامَه أن هذه الفرق لم تتعيَّن بعدُ، بخلاف القولِ المتقدِّمِ، وهو أصحُّ في النَّظرِ؛ لأن ذلك التعينَ ليس عليه دليلٌ، والعقلُ لا يقتضيه.

وأيضًا فللمنازع له أن يتكلَّفَ من مسائلِ الخلافِ التي بين الأشعريَّةِ في قواعد العقائدِ فرقًا يسميها ويبرئ نفسَه وفرقتَه عن ذلك المحظور.

فالأولى ما قاله من عدم التعينِ. وإن سلَّمنا أن الدليلَ قام له على ذلك؛ فلا ينبغي أيضًا التعيين:

أمَّا أولًا: فإن الشريعة قد فهمنا منها أنَّها تشير إلى أوصافهم من غيرِ تصريحٍ ليحذر منها، ويبقى الأمرُ في تعيينِ الداخلين في مقتضى الحديثِ مرجًى، وإنما ورد التعينُ في النادرِ، كما قال عليه الصلاةُ والسلامُ في الخوارج: «**إنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هذا قومًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان** ...» الحديث، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يُعَرِّف أنَّهم ممن شملهم حديثُ الفرقِ، وهذا الفصلُ مبسوط في كتاب الموافقات[٢]. والحمد لله.

وأما ثانيًا: فلأنَّ عدمَ التعينِ هو الذي ينبغي أن يلتزم ليكون سترًا على الأمةِ، كما سُتِرَتْ عليهم قبائحُهم، فلم يفضحوا في الدنيا في الغالبِ.

وأُمِرْنَا بالسِّترِ على المذنبين ما لم يُبْدُوا لنا صفحة الخلافِ، ليس كما ذُكِرَ عن بني إسرائيلَ أنَّهم

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٦).

(٢) انظر: الموافقات (٤/١٧٨، ١٨٥).

كانوا إذا أذنبَ أحدُهم ليلًا أصبحَ وعلى بابِه معصيتُه مكتوبةٌ، وكذلك في شأن قربانِهم، فإنَّهم كانوا يتقرَّبوا لله قربانًا، فإنَّ كان مقبولًا عند الله، نزلت نارٌ من السماء فأكلته، وإن لم يكن مقبولًا لم تأكله النارُ، وفي ذلك افتضاحُ المذنبِ، ومثل ذلك في الغنائم أيضًا؛ فكثيرٌ من هذه الأشياءِ خُصَّت هذه الأمَّة بالسترِ فيها.

وأيضًا؛ فللسترِ حكمةٌ أخرى، وهي أنَّها لو أظهرت -مع أن أصحابَها من الأمَّةِ- لكان في ذلك داعٍ إلى الفُرقةِ وعدمِ الألفةِ التي أمر الله ورسولُه بها، حيث قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]، وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ١]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٥].

وفي الحديث: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا**».

وأمر عليه الصلاة والسلام بإصلاح ذات البَيْنِ، وأخبر أن فساد ذات البين هي الحالقة التي تحلق الدين.

فإذا كان من مقتضى العادةِ أن التعريفَ بهم على التعيينِ يورث العداوةَ بينهم والفرقةَ؛ لزم من ذلك أن يكون منهيًّا عنه؛ إلَّا أن تكون البدعةُ فاحشةً جدًّا؛ كبدعة الخوارج، فلا إشكال في جواز إبدائها وتعيين أهلها، لكن كما عيَّن رسول الله ﷺ والخوارج وذكرهم بعلامتهم، حتى يعرفوا، ويلحق بذلك ما هو مثله في الشناعة أو قريب منه بحسب نظر المجتهد، وما عدا ذلك؛ فالسكوت عنه أولى.

وخَرَّجَ أبو داود عن عمر بن أبي قُرَّةَ؛ قال: كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياءَ قالها رسول الله ﷺ لأناسٍ من أصحابِه في الغضبِ، فينطلق ناسٌ ممَّن سمعَ ذلك من حذيفةَ، فيأتون سلمانَ، فيذكرون له قول حذيفةَ، فيقول سلمانُ: حذيفةُ أعلم بما يقول، فيرجعون إلى حذيفةَ، فيقولون له: قد ذكرنا قولك لسلمان فما صدَّقك ولا كذَّبك، فأتى حذيفةُ سلمان وهو في مَبْقَلة، فقال: يا سلمانُ، ما يمنعك أن تصدِّقني بما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: إن رسول الله ﷺ يغضب فيقول في الغضب لناس من أصحابه، ويرضى فيقول في الرضا لناس من أصحابه، أمَا تنتهي حتى تورثَ رجالًا حبَّ رجالٍ، ورجالًا بغضَ رجالٍ، وحتى توقعَ اختلافًا وفرقةً، ولقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال: «**أيُّما رجلٌ من أمتي سببتُه سبةً، أو لعنتُه لعنةً في غضبي، فإنَّما أنا من ولدِ آدمَ، أغضبُ كما يغضبون، وإنما بعثني الله رحمةً للعالمين، فأجعلها عليهم صلاةً يومَ القيامةِ**»، فوالله لتنتهينَّ أو لأكتبن إلى عمر.

فتأملوا ما أحسن هذا الفقه من سلمان ﷺ! وهو جارٍ في مسألتنا.

فمن هنا لا ينبغي للراسخ في العلم أن يقولَ: هؤلاء الفرق هم بنو فلان، وبنو فلان، وإن كان يعرفهم بعلامتهم بحسب اجتهاده، اللهم إلا في مواطنين:

أحدهما: حيث نبَّه الشرع على تعيينهم؛ كالخوارج، فإنَّه ظهر من استقرائه أنهم متمكِّنون في

الدخول تحت حديث الفرقِ، ويجري مجراهم من سلك سبيلهم؛ فإن أقرب الناس إليهم شيعة المهدي المغربي؛ فإنَّه ظهر فيهم الأمران اللذان عرَّف النبيُّ صلى الله عليه بهما في الخوارج؛ من أنَّهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وأنَّهم يقتلون أهل الإسلام ويَدَعُون أهلَ الأوثانِ. فإنَّهم أخذوا أنفسهم بقراءة القرآن وإقرائه حتى ابتدعوا فيه، ثم لم يتفقَّهوا فيه، ولا عرفوا مقاصده، ولذلك طرحوا كتبَ العلماءِ وسمَّوها كتب الرأي، وحرقوها، ومزقوا أدمها، مع أن الفقهاءَ هم الذين بيَّنوا في كتبهم معاني الكتابِ والسنةِ على الوجهِ الذي ينبغي، وأخذوا في قتال أهل الإسلام بتأويلٍ فاسدٍ؛ زعموا عليهم أنَّهم مجسِّمون، وأنَّهم غير موحِّدين، وتركوا الانفراد بقتالِ أهلِ الكفرِ من النصارى والمجاورين لهم وغيرهم.

فقد اشتهر في الأخبار والآثار ما كان من خروجهم على عليِّ بن أبي طالب ﷺ، وعلى من بعدِه؛ كعمر بن عبد العزيز رحمه الله، وغيره.

حتى لقد روي في حديث خرَّجَه البغويُّ في معجمِهِ عن حميد بن هلال: أن عبادة بن قرط غزا مرة، فمكث في غزاتِه تلك ما شاء الله، ثم رجع حتى كان قريبًا من الأهواز سمع صوَّت أذان، فقال: والله، مال لي عهد بالصلاة مع جماعة المسلمين منذ زمانٍ، فقصد نحو الأذانِ يريد الصلاةَ، فإذا هو بالأزارقةِ -وهم صنف من الخوارج- فلما رأوه؛ قالوا له: ما جاء بك يا عدوَّ اللهِ؟ قال: ما أنتم يا إخوتي؟ قالوا: أنت أخو الشيطانِ، لنقتلنَّك، قال: أما ترضون مني بما رضي به رسول الله ﷺ مني؟ قالوا: وأي شيءٍ رضي به منك؟ قال: أتيتُه وأنا كافرٌ، فشهدني أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، فخلَّى عني. قال: فأخذوه فقتلوه.

وأما عدم فهمهم للقرآنِ؛ فقد تقدَّمَ بيانُه.

وقد جاء في القدريَّة حديثٌ خرَّجه أبو داود عن ابنِ عمرَ: أن رسول الله ﷺ قال: «**القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذه الأمَّةِ، إنْ مَرِضُوا، فَلا تَعُودُوهمْ، وإنْ مَاتُوا فلا تَشْهَدُوهمْ**».

وعن حذيفةَ أنَّه ﷺ قالَ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجوسُ هذه الأُمَّةِ الَّذين يقولون: لَا قَدَرَ. من ماتَ منهم، فَلَا تَشْهَدُوا جنَازَتَهم، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُم؛ فَلَا تَعُودُوه، وَهم شيعةُ الدَّجَّالِ، وَحَقٌّ عَلَى الله أَنْ يَلْحِقَهم بِالدَّجَّالِ**».

وهذا الحديث غير صحيح عند أهل النقل.

قال صاحب المغني: إنَّه لم يصح في ذلك شيءٌ.

نعم، قول ابن عمر ليحيى بن يعمر -حين أخبره أن القولَ بالقدرِ قد ظهر-: إذا لقيت أولئك؛ فأخبرهم أني بريء منهم وأنَّهم بُرآء مني، ثم استدل بحديث جبريل؛ صحيح لا إشكال في صحته.

وخرَّج أبو داود أيضًا من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «**لَا تُجَالِسُوا أهلَ القَدَرِ وَلَا تُفَاتِحُوهم**». ولم يصح أيضًا.

وخرَّج ابنُ وهب عن زيد بن عليٍّ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِن أمتي لَا سَهْمَ لَهُمَا فِي**

«الإِسْلَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ المرجئة والقدريَّة».

وعن معاذ بن جبل وغيره -يرفعه- قال: «لُعِنَتْ القَدَرِيَّةُ والمُرْجِئَةُ على لسانِ سبعين نبيًا، آخِرُهم محمد عليه السلام».

وعن مجاهد بن جبر: أن رسول الله ﷺ قال: «سَيَكُون من أمتي قدرِيَّةٌ وزنديقيَّة، أولئك مجوسٌ».

وعن نافع قال: بينما نحن عند عبد الله بن عمر قعُودُ، إذ جاءه رجل، فقال: إنَّ فلانًا يقرأ عليك السلام -لرجل من أهل الشام- فقال عبد الله: بلغني أنَّه قد أحدث حدثًا، فإنَّ كان كذلك؛ فلا تقرأنَّ عليه السلام، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي مَسْخٌ وَخَسْفٌ، وهو في الزنديقيَّة والقدريَّة».

وعن ابن الدَّيْلَمي؛ قال: أتينا أُبَيَّ بن كعب، فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدِّثني بشيءٍ لعلَّ الله يذهبه من قلبي. فقال: لو أنَّ الله عذَّبَ أهلَ سمواتِه وأهلَ أرضِه عذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالِهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبلهَ الله منك حتى تؤمن بالقدرِ، وتعلم أنَّ ما أصابَك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلتَ النارَ.

قال: ثم أتيت عبدَ الله بنَ مسعودٍ، فقال لي مثل ذلك.

قال: ثم أتيت حذيفةَ بنَ اليمانِ، فقال لي مثل ذلك.

ثم أتيت زيد بن ثابت، فحدثني عن النبيِّ صلى الله عليه مثل ذلك.

وفي بعض الحديث: «لا تَكَلَّمُوا في القَدَرِ، فإنَّه سرُّ اللهِ». وهذا كلّه أيضًا صحيح.

وجاء في المرجئة والجهميَّة والأشعريَّة شيءٌ لا يصح عن رسول الله ﷺ، فلا تعويل عليه.

نعم، نقل المفسرون أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، نزل في أهل القدر.

فروى عبد بن حميد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال جاء: مشركو قريش إلى النبيِّ ﷺ يخاصمونه في القدرِ، فنزلت الآية.

وروى عن مجاهدٌ وغيرُه: أنها نزلت في المكذِّبين بالقدرِ.

ولكن إن صحَّ؛ ففيه دليلٌ، وإلَّا؛ فليس في الآية ما يعين أنَّهم من الفرق، وكلامنا فيه.

والثاني: حيث تكون الفرقة تدعو إلى ضلالتها وتزيّنها في قلوب العوامِّ، ومَن لا علم عنده، فإن ضرر هؤلاء على المسلمين كضرر إبليس، وهم من شياطين الإنس، فلا بدَّ من التَّصريح بأنَّهم من أهل البدعة والضلالة، ونسبتهم إلى الفرق، إذا قامت له الشهود على أنَّهم منهم، كما اشتهر عن عمرو بن عبيد، وغيره.

فرُويَ عاصم الأحْوَل؛ قال: جلستُ إلى قتادة، فذكر عمرو بن عبيد، فوقع فيه ونال منه، فقلت: أبا الخطاب، ألا أرى العلماء يقع بعضهم في بعض؟ فقال: يا أحول أوَلَا تدري أن الرجل إذا ابتدع بدعةً فينبغي لها أن تذكر حتى يحذر؟! فجئت من عند قتادة وأنا مغتمٌّ بما سمعت من قتادة في عمرو بن عبيد، وما رأيت من نسكه وهديه، فوضعت رأسي نصف النهار، وإذا عمرو بن عبيد والمصحف في حجره، وهو يَحُكُّ آية من كتاب الله، فقلت: سبحان الله! تحك آية من كتاب الله؟! قال: إني سأعيدها، قال: فتركته حتى حكَّها، فقلت له: أعِدها، فقال: لا أستطيع.

فمثل هؤلاء لا بدَّ من ذكرهم والتَّشريد بهم؛ لأنَّ ما يعود على المسلمين من ضررهم إذا تُرِكوا أعظم من الضرر الحاصل بذكرهم والتنفير عنهم، إذا كان سبب ترك التعيين الخوف من التفرُّق والعداوة.

ولا شكَّ أن التفرقَ بين المسلمين وبين الداعين للبدعةِ وحدهم إذا أقيم عليهم أسهلُ من التفرقِ بين المسلمين وبين الداعين ومن شايعهم واتَّبعهم، وإذا تعارضَ الضرران، فالمُرْتَكَب أخفهما وأسهلهما، وبعض الشر أهون من جميعه؟ كقطع اليد المتآكلة، إتلافها أسهل من إتلاف النفس، وهذا شأن الشرع أبدًا: أن يطرحَ حُكمَ الأخفِّ وقايةً من الأثقلِ.

فإذا فُقِد الأمران؛ فلا ينبغي أن يُذكروا لا أنَّ يُعينوا وإن وجدوا؛ لأنَّ ذلك أولُ مثيرٍ للشَّحناء وإلقاءِ العداوةِ والبغضاء، ومتى حصل باليد منهم أحد ذاكره برفقٍ، ولم يُر أنَّه خارج عن السُّنَّة، بل يُريه أنَّه مخالف للدَّليلِ الشرعيِّ، وأنَّ الصوابَ الموافقَ للسنةِ كذا وكذا، فإن فعل ذلك من غيرِ تعصُّبٍ ولا إظهارِ غلبةٍ؛ فهو أنجح وأنفع، وبهذه الطريقة دُعِيَ الخلق أولًا إلى الله تعالى، حتى إذا عاندوا وأشاعوا الخلاف وأظهروا الفرقةَ قوبلوا بحسب ذلك[1].

فالحاصل أنه ينبغي أن يكون هديُنَا مثل هدي الصحابةِ؛ فحينما ذَكَرَ لهم النبيُّ ﷺ افتراقَ الأمةِ إلى فرقٍ لم يسألوه عن هذه الفرقِ وعن أسمائِها وأوصافِها وغيرِ ذلك، وإنما كان سؤالهم عن الناجيةِ منهن وعن صفتِها؛ لأن هذا هو ما يؤدي إلى سعادةِ المسلمِ وهو معرفة ما ينجيه من النارِ ويدخله الجنةَ، فعلى المسلمِ أن يكون جلّ همِّه هو معرفة ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه من عقيدةٍ وشريعةٍ.

وأما مَعْرِفَةُ الفِرَقِ وتَحْدِيدُها والتَّصْرِيحِ والإِعْلام بها فلا ينبغي الاهتمامُ به والكلامُ عنه إلا في موضعين:

الأول: حيث نبه الشرع على تعيينهم أو توصيفهم، كالخوارج ومن سلك سبيلهم.

والثاني: حيث يكون فيهم من الضرر على المسلمين والتضليل لعوامهم ومن لا علم عنده.

قال شيخ الإسلام: والنبيُّ ﷺ إنما ذكر الخوارج الحرورية؛ لأنهم أولُ صنفٍ من أهلِ البدع خرجوا بعده؛ بل أولُهم خرج في حياته، فذكرهم لقربهم من زمانه، كما خصَّ الله ورسولُه أشياء

---

(١) الاعتصام (٢/ ٢٢٣- ٢٣٠).

الذكرِ لوقوعِهَا في ذلك الزمانِ، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: الآية ٣١] وقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: الآية ٥٤]، ونحو ذلك. ومثل تعيين النبيِّ ﷺ قبائل من الأنصار، وتخصيصه أسلم، وغفار، وجهينة، وتميم، وأسد، وغطفان، وغيرِهم بأحكام؛ لمعانٍ قامت بهم، وكلُّ من وجدت فيه تلك المعاني أُلحق بهم؛ لأن التخصيصَ بالذِّكرِ لم يكن لاختصاصِهم بالحكمِ، بل لحاجةِ المخاطبين إذ ذاك إلى تعيينِهم؛ هذا إذا لم تكن ألفاظه شاملة لهم[1]

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٧٦، ٤٧٧).

المُقَدِّمَةُ الرَّابِعَةُ

أُصُولُ الفِرَقِ

اختلف أهلُ العلمِ في أصولِ الفرقِ؛ فمنهم من عدَّهم أربعًا وهم: الخوارجُ، والشيعةُ، والقدريةُ، والمرجئةُ.

ومنهم من عدَّهم خمسًا بإضافة الجهميةِ عند البعضِ، أو الزَّنَادِقَةِ عند آخرين.

ومنهم من عدَّهم ستًّا وهم: جميع المذكورين عند البعض، أو الخمسة الأولون مع الجبرية عند آخرين.

ومنهم من عدَّهم سبعًا وهم: الأربعة الأولون مع الجبريةِ والنَّجَّاريةِ والمشبهةِ.

ومنهم من عدَّهم ثمانٍ بإضافة الفرقة الناجية إليهم.

ومنهم من عدَّهم عشرًا.

وإليك بعض أقوالهم في ذلك:

أخرج ابن بطة بسندٍ صحيح، عن حفص بن حميد، قال: قلت لعبد الله بن المبارك: على كم افترقت هذه الأمة؟ فقال: الأصل أربع فرق: هم الشيعةُ، والحروريةُ، والقدريةُ، والمرجئةُ، فافترقت الشيعة على ثنتين وعشرين فرقةً، وافترقت الحرورية على إحدى وعشرين فرقةً، وافترقت القدرية على ست عشرة فرقةً، وافترقت المرجئة على ثلاث عشرة فرقةً.

قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن، لم أسمعك تذكر الجهمية، قال: إنما سألتني عن فرق المسلمين.

قال أبو حاتم: وأخبرت عن بعض أهل العلم: أول ما افترق من هذه الأمة: الزنادقةُ، والقدريةُ، والمرجئةُ، والرافضةُ، والحروريةُ، فهذا جماع الفرقِ وأصولِها، ثم تشعبت كل فرقة من هذه الفرق على فرقٍ، وكان جماعها الأصل، واختلفوا في الفروعِ، فكفر بعضهم بعضًا، وجهل بعضهم بعضًا[1] ثم ذكر تفرقهم وفرقهم.

وقال يوسفُ بن أسباط: أصولُ البدعِ أربع الروافضُ، والخوارجُ، والقدريةُ، والمرجئةُ، ثم تتشعب كل فرقة ثماني عشرة طائفةً فتلك اثنتان وسبعون فرقة، والثالثة والسبعون الجماعة التي قال النبي ﷺ «إنها ناجية»[2]

وقال الطرطوشي: قال جماعة من العلماء: أصول البدعِ أربعة، وسائر الثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرَّقوا؛ وهم: الخوارجُ، والروافضُ، والقدريَّةُ، والمرجئةُ.

---

(١) الإبانة (١/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) الشريعة (١/ ٣٠٤).

قال يوسف بن أسباط: ثم تشعبت كل فرقة ثمان عشرة فرقةً؛ فتلك اثنتان وسبعون فرقة، والثالثة والسبعون هي الناجية[(١)].

وقال شيخ الإسلام: وأما تعيينُ الفرقِ الهالكةِ فأقدم من بلغنا أنه تكلَّم في تضليلهم يوسفُ بن أسباط، ثم عبدُ الله بن المبارك، وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين، قالا: أصول البدع أربعة: الروافضُ، والخوارجُ، والقدريةُ، والمرجئةُ، فقيل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب: بأن أولئك ليسوا من أمةِ محمدٍ. وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية.

وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماءِ من أصحاب أحمد وغيرهم، قالوا: إن الجهمية كفار فلا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقةً، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهم الزنادقة.

وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، وجعلوا أصول البدع خمسة، فعلى قول هؤلاء: يكون كل طائفة من «المبتدعة الخمسة» اثنا عشر فرقةً، وعلى قول الأولين: يكون كل طائفة من «المبتدعة الأربعة» ثمانية عشر فرقةً[(٢)].

وقال الشهرستاني: وانحصرت كبارها -أي: كبار الفرقِ- في أربع بعد أن تداخل بعضها في بعض: القدريةُ، الصفاتيةُ، الخوارجُ، الشيعةُ، ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقةً[(٣)].

وقال ابن حزم: فرق المقرين بملَّة الإسلام خمسة، وهم: أهل السُّنَّةِ، والمعتزلةُ، والمرجئةُ، والشيعةُ، والخوارجُ، ثم افترقت كلُّ فرقة من هذه على فرق[(٤)].

وقال الملطي: اعلموا رحمكم الله أن أول من افترق من هذه المذاهب: الزنادقة وهم خمس فرق، والجهمية ثماني فرق، والقدرية سبع فرق، والمرجئة اثنتا عشرة فرقةً، والرافضة خمس عشرة فرقةً، والحرورية خمس وعشرون فرقةً، فذلك اثنتان وسبعون فرقة فهذه جملتهم[(٥)]

وقال المناوي: وأصول الفرق ستة: حروريةٌ، وقدريةٌ، وجهميةٌ، ومرجئةٌ، ورافضةٌ، وجبريةٌ، وانقسمت كل منها إلى اثني عشرة فرقةً فصارت اثنين وسبعين.

---

(١) الاعتصام (٢/ ٢٢٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٠، ٣٥١)، (١٧/ ٤٤٧)، (٣٥/ ٤١٤)، (١٢/ ٤٨٦)، (٥/ ١٢٢، ١٢٣)، (١٣/ ١٤٣)، (١٧/ ٤٤٧).
(٣) الملل والنحل (١/ ١٤، ١٥).
(٤) الفصل (٢/ ٨٨).
(٥) التنبيه والرد ص(٩١).

وقيل: بل عشرون روافض، وعشرون خوارج، وعشرون قدرية، وسبعة مرجئة، وواحدة نجارية، وواحدة ضرارية، وواحدة جهمية، وثلاث كرامية. وقيل: . . . ، وقيل: . . . ، وقيل: [١]

وقال الإيجي (٧٥٦ هـ): اعلم أن كبار الفرق الإسلامية ثمانية: المعتزلةُ، والشيعةُ، والخوارجُ، والمرجئةُ، والنجاريةُ، والجبريةُ، والمشبهةُ، والناجيةُ[٢]

وقال الطرطوشي: منهم من عدَّ أصولها ثمانية، فقال: كبار الفرق الإسلاميَّة ثمانية: المعتزلةُ، والشيعةُ، والخوارجُ، والمرجئةُ، والنجَّاريةُ، والجبريةُ، والمشبهةُ، والناجيةُ. ثم ذكر افتراق كل فرقة من هؤلاء إلى أن يصل العدد إلى ثلاث وسبعين فرقة[٣]

وقال الأشعري: اختلف المسلمون عشرة أصناف: الشيعُ، والخوارجُ، والمرجئةُ، والمعتزلةُ، والجهميةُ، والضراريةُ، والحسينيةُ، والبكريةُ، والعامةُ، وأصحابُ الحديثِ، والكلابيةُ أصحاب عبد الله بن كُلَّاب القطان[٤]

---

(١) فيض القدير (٢/ ٢٠).
(٢) المواقف (٣/٦٤٩).
(٣) الاعتصام (٢/٢١٨ -٢٢٠).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٥).

المُقدِّمةُ الخامِسَةُ

ضَابِطُ الفِرْقَةِ

اعلم أن وضع ضابط يضبط حد الفرقةِ مما قد فات كثير من المصنفين والمتكلِّمين في الفرق والمقالات، وذلك لعدم الوقوف على ضابط محكَم تتميز وتتحدد من خلاله الفرقة.

قال الشهرستاني: اعلم أن لأصحاب المقالات طرقًا في تعديد الفرق الإسلاميَّة، لا على قانون مستند إلى أصلٍ ونصٍّ، ولا على قاعدة مخبرة عن الوجود، فما وجدت مصنفين منهم متفقين على منهاجٍ واحدٍ في تعديد الفرقِ.

ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أن ليس كل من تميَّز عن غيره بمقالة ما، في مسألة ما؛ عُدَّ صاحب مقالة، وإلَّا فتكاد تخرج المقالات عن حد الحصر والعد، ويكون من انفرد بمسألة في أحكام الجواهر مثلًا معدودًا في عِداد أصحاب المقالات. فلا بدَّ إذًا من ضابط في مسائل هي أصول وقواعد يكون الاختلاف فيها اختلافًا يعتبر مقالة، ويعد صاحبه صاحب مقالةٍ.

وما وجدت لأحدٍ من أربابِ المقالاتِ عنايةً بتقريرِ هذا الضابطِ، إلَّا أنَّهم استرسلوا في إيراد مذاهب الأمةِ كيف اتفق، وعلى الوجهِ الذي وُجِدَ، لا على قانونٍ مستقرٍّ، وأصلٍ مستمرٍّ[1].

ولكي نستطيع التوصل إلى ضابط يضبط حد الفرقة التي تفترقها الأمة سنورد مناقشة الشاطبي لحقيقة الافتراق المذكورة في الحديث، ومنه يمكننا التوصل إلى ذلك، فقال رحمه الله تعالى:

المسألة الأولى: في حقيقة هذا الافتراق.

وهو يحتمل أن يكونَ افتراقًا على ما يعطيه مقتضى اللفظِ، ويحتملُ أن يكونَ مع زيادة قيد لا يقتضيه اللفظُ بإطلاقِه، ولكن يحتمله؛ كما كان يقول لفظُ الرقبةِ يشعر بمطلقها ولا يشعر بكونها مؤمنةً أو غير مؤمنةٍ، لكن اللفظَ يقبلُه.

فلا يصح أن يُراد مطلق الافتراقِ؛ بحيث يطلق صور لفظِ الاختلافِ على معنًى واحدٍ؛ لأنَّه يلزم أن يكون المختلفون في مسائلِ الفروعِ داخلين تحت إطلاقِ اللفظِ، وذلك باطل بالإجماعِ؛ فإنَّ الخلافَ مذ زمانِ الصحابةِ ﷺ إلى الآنَ واقعٌ في هذه المسائلِ الاجتهاديَّةِ، وأولُ ما وقع الخلافُ في زمانِ الخلفاءِ الراشدين المهديين، ثم في سائرِ الصحابةِ، ثم في التابعين، ولم يعب ذلك أحد منهم وبالصحابةِ اقتدى من بعدهم في تسويغ الخلافِ؛ فكيف يمكن أن يكونَ الافتراقُ في المذاهبِ مما يقتضيه إطلاق الحديثُ؟!

وإنما يُراد افتراق مقيَّد، وإن لم يكن في الحديثِ نصٌّ عليه، ففي الآياتِ ما يدل عليه، كقوله تعالى:

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٣).

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٩]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على التفرُّق الذي صاروا به شيعًا، ومعنى صاروا شيعًا؛ أي: جماعات بعضهم قد فارق البعض، ليسوا على تألُّف ولا على تعاضدٍ ولا تناصُرٍ، بل على ضد ذلك، فإنَّ الإسلامَ واحدٌ، وأمره واحدٌ، فاقتضى أن يكونَ حكمُه على الائتلاف التامِّ لا على الاختلافِ.

وهذه الفرقة مشعرة بتفرُّقِ القلوبِ المشعرِ بالعداوةِ والبغضاءِ، ولذلك قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]، فبيَّن أن التأليف إنما يحصل عند الائتلاف على التعلُّق بمعنًى واحد، وأمَّا إذا تعلق كل شيعة بحبل غير ما تعلَّقت به الأخرى؛ فلا بدَّ من التفرُّق، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٣]

وإذا ثبت هذا تنزل عليه لفظ الحديث، واستقام معناه، والله أعلم.

المسألة الثانية: إن هذه الفرق إن كانت افترقت بسببٍ موقع في العداوةِ والبغضاءِ، فإمَّا أن يكون راجعًا إلى أمر هو معصية غير بدعة، ومثاله أن يقع بين أهل الإسلام افتراق بسبب دنياوي، كما يختلف مثلًا أهل قرية مع قرية أخرى بسبب تعدٍّ في مالٍ أو دمٍ، حتى تقع بينهم العداوةُ، فيصيروا حِزبين، أو يختلفون في تقديمِ والٍ أو عزل والٍ أو غير ذلك فيفترَّقون، مثل هذا محتمل.

وقد يشعر به: من فارق الجماعةَ قيدَ شبرٍ فمات فميتته جاهلية.

وفي مثل هذا جاء في الحديث: «**إذَا بُويعَ لخَلِيفَتَين فاقْتلُوا الآخر منهما**».

وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجرَات: الآية ٩] إلى آخر القصة.

وإمَّا أن يرجع إلى أمر هو بدعة؛ كما افترقت الخوارج من الأمَّة ببدعهم التي بنوا عليها في الفرقةِ، وكالمهدي المغربي الخارجِ عن الأمَّة نصرًا للحقِّ في زعمه، فابتدع أمورًا سياسيةً وغيرها خرج بها عن السنة؛ كما تقدمت الإشارة إليه قبل، وهذا هو الذي تشير إليه الآيات المتقدمة والأحاديث؛ لمطابقتها لمعنى الحديث.

وإما أن يراد المعنيان معًا.

فأما الأول؛ فلا أعلم قائلًا به -وإن كان ممكنًا في نفسه- إذ لم أر أحدًا خصَّ هذه الفرقة بما إذا افترقت الأمة بسبب أمر دنيوي لا بسبب البدعة، وليس ثَمَّ دليل يدل على التخصيص؛ لأنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ فَارَقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ...**» الحديث، لا يدل على الحصر، وكذلك: «**إذا بويعَ لخليفتين؛ فاقتلوا الآخرَ منهما**».

وقد اختلف العلماء في المراد بالجماعة المذكورة في الحديث حسبما يأتي، فلم يكن منهم قائل بأن الفرقة المضادة للجماعة في فرقة المعاصي غير البدع على الخصوص.

وأما الثالث، وهو أن يراد المعنيان معًا؛ فذلك أيضًا ممكن، إذ الفرقة المنبَّه عليها قد تحصل بسبب أمر دنيوية، لا مدخل فيها للبدع، وإنما هي معاصٍ ومخالفات كسائر المعاصي.

وإلى هذا المعنى يرشد قول الطبري في تفسير الجماعة -حسبما يأتي بحول الله- ويعضده حديث الترمذي: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل . . .» إلى أن قال: «حتى إن كان منهم من أتى أمّه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك»، فجعل الغاية في اتباعهم ما هو معصية كما ترى.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: «لتتبعن سنن من كان قبلكم. . .»، إلى قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ خرب، لاتبعتموهم»، فجعل الغاية ما ليس ببدعة.

وفي معجم البغوي عن جابر ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال لكعب بن عُجْرةَ ﷺ: «أعاذك الله يا كعب بن عجرة من إمارة السُّفهاء»، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراءُ يكونون بعدي، لا يهتدون بهديي، ولا يستنُّون بسنَّتي؛ فمَن صَدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم؛ فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون عليَّ الحوض. ومَن لم يصدقهم على كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم؛ فأولئك مني، وأنا منهم، وسيردون عليَّ الحوض. . .». الحديث.

وكل من لا يهتدي بهديه ولا يستنُّ بسنته، فإمَّا إلى بدعة أو معصية، فلا اختصاص بأحدهما.

غير أنَّ الأكثر في نقل أرباب الكلام وغيرهم أن الفرقة المذكورة إنَّما هي بسبب الابتداع في الشرع على الخصوص، وعلى ذلك حمل الحديث من تكلَّم عليه من العلماء، ولم يعدوا منها المفترقين بسبب المعاصي التي ليست ببدع، وعلى ذلك يقع التفريع إن شاء الله[1]

ثم ذكر الشاطبي في المسألة الخامسة ضابط الفرقة فقال: المسألة الخامسة: وذلك أن هذه الفرق إنما تصير فرقًا بخلافها للفرقةِ الناجيةِ في معنى كليٍّ في الدينِ وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئيٍّ من الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببه التفرُّق شيعًا.

وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكليَّة؛ لأنَّ الكليات تضمُّ من الجزئيات غير قليل، وشأنها في الغالب ألا تختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

واعتبر ذلك بمسألة التحسين العقلي؛ فإن المخالفة فيها أنشأت بين المخالفين خلافًا في فروع لا تنحصر، ما بين فروع عقائد وفروع أعمال.

ويجري مجرى القاعدةِ الكليَّةِ كثرة الجزئيات، فإنَّ المبتدعَ إذا كثَّر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضًا.

وأما الجزئي؛ فبخلاف ذلك، بل يعدُّ وقوعَ ذلك من المبتدع له كالزلَّة والفلتة، وإن كانت زلة العالم مما يهدم الدين، حيث قال عمر بن الخطاب ﷺ: ثلاث يهدمن الدين: زلة العالم، وجدال

---

(١) الاعتصام (٢/ ١٩١ -١٩٤).

منافق بالقرآن، وأئمة مضلون، ولكن إذا قرب موقع الزلة لم يحصل بسببها تفرُّق في الغالب، ولا هدم للدين بخلاف الكلِّيَّات.

فأنت ترى موقع اتباع المتشابهات كيف هو في الدين إذا كان اتباعًا مخلًّا بالواضحات، وهي أم الكتاب، وكذلك عدم تفهم القرآن موقع في الإخلال بكليَّاته وجزئياته معًا.

وقد ثبت أيضًا للكفار بدع فرعيَّة، ولكنَّها في الضروريات وما دار بها كجعلهم لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ولشركائهم نصيبًا، ثم فرَّعوا عليه أن ما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله وصل إلى شركائهم، وتحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وقتلهم أولادهم سفهًا بغير علم، وترك العدل في القصاص والميراث، والحيف في النكاح والطلاق، وأكل مال اليتيم على نوع من الحيل... إلى ما أشبه ذلك مما نبَّه عليه الشرع وذكره العلماء حتى صار التشريع ديدنًا لهم، وتغيير ملة إبراهيم عليه السلام سَهْلًا عليهم، فأنشأ ذلك أصلًا مضافًا إليهم، وقاعدة رضوا بها، وهي التشريع المطلق لا بالهوى.

ولذلك لما نبَّههم الله تعالى على إقامة الحُجَّة عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]، قال فيها: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]، فطالبهم بالعلم الذي شأنه ألا يشرع إلا حقًّا وهو علم الشريعة لا غيره، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٤]، تنبيهًا لهم على أن هذا ليس مما شرعه في ملة إبراهيم، ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٤]

فثبت أن هذه الفرق إنما افترقت بحسب أمور كلِّيَّة اختلفوا فيها، والله أعلم(١)

فمن هذا الكلام يمكننا وضع ضابط يُضبط به حدُّ الفرقة، وهو كل من خالف الفرقة الناجية -وهم أهل السنة والجماعة- في أحد أمرين:

الأول: في أصلٍ كليٍّ أو قاعدةٍ كليةٍ من قواعد الشريعة.

الثاني: في جزئياتٍ وفروعٍ كثيرةٍ تعود على الشريعة بالمعارضة.

فمن خالف في هذين الأمرين أو أحدهما فيعد خلافه حينئذٍ افتراقًا عن جماعة المسلمين، وتعد جماعتُه ومتبوعوه على إحداثه ذلك فرقةً، ولذلك تجدهم حينئذٍ يوالون ويعادون على ما ابتدعوه من أمورٍ فارقوا بها الأمة وجماعة المسلمين.

قال شيخ الإسلام: ومما ينبغي أيضًا أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات، منهم من يكون قد خالف السنة في أصولٍ عظيمةٍ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمورٍ دقيقةٍ.

---

(١) الاعتصام (٢/ ٢٠٠- ٢٠٢).

ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه؛ فيكون محمودًا فيما رده من الباطل وقاله من الحقِّ؛ لكن يكون قد جاوز العدلَ في ردِّه بحيث جحدَ بعضَ الحقِّ وقال بعضَ الباطلِ، فيكون قد ردَّ بدعةً كبيرةً ببدعةٍ أخفَّ منها، ورد -بالباطلِ- باطلًا بباطلٍ أخفَّ منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة.

ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولًا يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون؛ كان من نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك.

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها لهم مقالات قالوها باجتهاد، وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات؛ واستحل قتال مخالفه دون موافقه فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات[1]

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٨، ٣٤٩).

المُقدِّمَةُ السَّادِسَةُ

التَّسَلْسُلُ الزَّمَنِيُّ لِظُهُورِ الفِرَقِ

لا بدَّ من التفريقِ بين ظهورِ الفرقةِ كفكرةٍ، وبين ظهورِها كتكتلٍ جماعيٍّ له أفكاره ومبادئُه التي يتبناها ويعتنقها ويدافع عنها، بل ويقاتل من أجلِها أحيانًا.

فإن ظهور الأفكار في تاريخ المسلمين لا يمكن تعيين وقته على وجهِ الدقةِ والضبطِ تمامًا؛ لأنه في الحقيقة ما هو إلا ظاهرةٌ فكريةٌ لدى شخصٍ واحدٍ أو أكثر، إلا في القليلِ من الأفكارِ التي اقترنت بوقائعَ سُجِّلت، فسُجِّل معها هذا الفكر الناشئ الصغير، فحفظُ هذا الظهورِ كان نتيجةَ حفظِ الواقعةِ الحادثةِ من المعتنيين بهذا الأمرِ، مثل واقعة ذي الخويصرة مع النبي ﷺ، فقد حفظتها لنا كتب السنة لتضمنها واقعة مع النبي ﷺ.

أما ظهورُ الفرقةِ ذاتِ التكتلِ الجماعيِّ والاعتناقِ العقديِّ والفكريِّ لمبادئها وأصولها؛ فهذا قد تمكَّن العلماءُ ومنهم علماءُ الفرقِ والمقالات من تسجيلِه ورصدِه؛ لأن هذا في الحقيقة هو الظهور الحقيقي للفرقة، وهو ما يمكننا الإحاطة به والتعرف من خلاله على تدرج ظهور الفرق.

ويعدد الشهرستاني بعض بذورِ الأفكارِ التي كانت في أول هذه الأمةِ والتي خرجت منها فرق، ويرجع كلَّ ذلك إلى الاعتراضِ والخروجِ على حكم رسول الله ﷺ وعن شريعته، فيقول: الشبهات التي وقعت في آخرِ الزمانِ هي بعينها تلك الشبهات التي وقعت في أول الزمان، كذلك يمكن أن نقرر في زمان كل نبي ودور صاحب كل ملة وشريعة: أن شبهاتِ أمتِه في آخرِ زمانِه ناشئةٌ من شبهات خصماءِ أول زمانِه من الكفار والملحدين، وأكثرها من المنافقين، وإن خفي علينا ذلك في الأمم السالفة لتمادي الزمان فلم يخف في هذه الأمة أن شبهاتِها نشأت كلها من شبهات منافقي زمن النبي عليه الصلاة والسلام، إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى، وسألوا عما منعوا من الخوض فيه والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل فيما لا يجوز الجدال فيه.

اعتبر حديث ذي الخويصرة التميمي إذ قال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدلْ. حتى قال عليه الصلاة والسلام: **«إن لم أعدل فمن يعدل؟!»**، فعاد اللعين وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى.

وذلك خروج صريح على النبي عليه الصلاةُ والسلامُ، ولو صار من اعترض على الإمامِ الحقِّ خارجيًّا فمن اعترض على الرسولِ أحقُّ بأن يكون خارجيًّا، أوليس ذلك قولًا بتحسينِ العقلِ وتقبيحِهِ، وحكمًا بالهوى في مقابلةِ النصِّ، واستكبارًا على الأمرِ بقياسِ العقلِ؟ حتى قال عليه الصلاة والسلام: **«سَيَخْرُجُ من ضِئضئِ هذا الرجل قومٌ يمرقون من الدينِ كما يمرقُ السَّهْمُ من الرميةِ...»** الخبر بتمامه.

واعتبر حال طائفة أخرى من المنافقين يوم أحد إذ قالوا: هل لنا من الأمر من شيء، وقولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، وقولهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فهل ذلك إلا تصريح بالقدر؟

وقول طائفة من المشركين: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وقول طائفة: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، فهل هذا إلا تصريح بالجبر؟

واعتبر حال طائفة أخرى حيث جادلوا في ذات الله تفكرًا في جلاله، وتصرفًا في أفعاله، حتى منعهم وخوفهم بقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرّعد: الآية ١٣] ، فهذا ما كان في زمانه عليه الصلاة والسلام وهو على شوكتِهِ وقوتِهِ وصحةِ بدنِهِ، والمنافقون يخادعون فيظهرون الإسلامَ ويبطنون الكفرَ، وإنما يظهر نفاقهم بالاعتراض في كل وقتٍ على حركاتِه وسكناتِه، فصارت الاعتراضات كالبذورِ، وظهرت منها الشبهاتُ كالزروعِ[١]

وقال شيخ الإسلام: فكان مبدأُ البدعِ هو الطعن في السنةِ بالظنِّ والهوى، كما طعن إبليس في أمرِ ربِّه برأيه وهواه[٢]

واعلم أن المصنِّفين في مقالات وتاريخ فرق المسلمين لم يتفقوا على ترتيبٍ معينٍ لهذه الفرقِ، فكان كلٌّ منهم يرتبه بحسب ما تراءى وبدا له.

قال شيخ الإسلام: الناس في ترتيبِ أهلِ الأهواءِ على أقسامٍ:

منهم من يرتبهم على زمانِ حدوثهم، فيبدأ بالخوارج.

ومنهم من يرتبهم بحسبِ خفَّةِ أمرِهم وغلظِهِ، فيبدأ بالمرجئةِ، ويختم بالجهميةِ، كما فعله كثير من أصحاب أحمدَ ﷺ؛ كعبد الله ابنه، ونحوه، وكالخلالِ، وأبي عبدِ الله بن بطَّةَ، وأمثالهما، وكأبي الفرجِ المقدسيِّ.

وكلا الطائفتين تختم بالجهميةِ؛ لأنهم أغلظ البدعِ، وكالبخاري في صحيحه، فإنه بدأ بـ«كتاب الإيمان والرد على المرجئةِ»، وختمه بـ«كتاب التوحيدِ والرد على الزنادقةِ والجهميةِ».

ولما صنف الكُتَّابُ في الكلامِ صاروا يقدمون التوحيدَ والصفاتِ، فيكون الكلامُ أولًا مع الجهميةِ، وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنَّة، والبيهقي أفرد لكلٍّ صنف مصنفًا؛ فله مصنفٌ في الصفاتِ، ومصنفٌ في القدرِ، ومصنفٌ في شعب الإيمان، ومصنفٌ في دلائل النبوة، ومصنفٌ في البعث والنشور، وبسط هذه الأمور له موضع آخر[٣]

---

(١) الملل والنحل (١/ ٢١، ٢٢)، فرق معاصرة (١/ ٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٩).

ونحن قد اخترنا الترتيبَ الزمنيَّ لظهورِهم، فاعلم أن أول الفرقِ التي ظهرت وافترقت عن جماعةِ المسلمين هم الخوارِج، وبإزائِهم الشيعة، ثم القدرية، والمرجئة، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وفيهم كان الجبرُ والتعطيلُ، وبإزائِهم الممثلة والمجسمة، ثم الصوفية، ثم تفرعت إلى فرقٍ وأسماء كثيرةٍ.

فظهور الخوارج، والشيعة، كان في آخرِ عصرِ الخلفاءِ الراشدين، في زمن أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبِ ٣٥- ٤٠ هـ.

وظهور القدريةِ، والمرجئةِ، كان في آخرِ عصرِ الصحابةِ، في زمن إمارةِ عبدِ الله بن الزبيرِ ٦٤- ٧٣ هـ.

وفي أوائل المائة الثانية كان ظهور: المعتزلة، والجهمية، والمجسمة والممثلة، والصوفية، وكان هذا في آواخرِ عصرِ التابعين، في الربعِ الأولِ من المائة الثانية.

ولندع المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية ليجلِّي لنا التدرجَ الزمنيَّ لظهورِ الفرقِ في تاريخِ المسلمين.

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان أول من فارق جماعةَ المسلمين من أهلِ البدعِ «الخوارج» المارقون، وقد صح الحديث في الخوارجِ عن النبي ﷺ من عشرة أوجه، خرَّجَها مسلمٌ في صحيحِه، وخرَّج البخاري منها غير وجه[(١)]

وقال: أول البدع ظهورًا في الإسلام، وأظهرها ذمًّا في السنَّة والآثار بدعة الحروريَّة المارقة[(٢)]

وقال: وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارجِ والشيعةِ، حدثتا في أثناء خلافةِ أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبِ، فعاقب الطائفتين، أما الخوارج فقاتلوه فقتلهم، وأما الشيعة فحرَّق غاليتَهم بالنار، وطلب قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه، وأمر بجلد من يفضِّله على أبي بكر وعمر[(٣)]

وقال: أول التفرُّق والابتداع في الإسلام بعد مقتل عثمان وافتراق المسلمين؛ فلما اتَّفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج. . . ، وبإزائهم الشيعة. . .

إلى أن قال: ثم حدث في آخر عصر الصحابة القدرية[(٤)]

وقال: فإن البدعَ إنما يظهر منها أولًا فأولًا الأخف فلأخف، كما حدث في آخرِ عصرِ الخلفاءِ الراشدين بدعة الخوارِج والشيعةِ، ثم في آخرِ عصرِ الصحابةِ بدعة المرجئةِ والقدريةِ، ثم في آخرِ عصرِ التابعين بدعة الجهميةِ معطلةِ الصفاتِ، وأما هؤلاءِ المباحيةُ المسقطون للأمرِ والنهي محتجين

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٧١، ٧٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٨- ٢١١).

على ذلك بالقدرِ فهم شرٌّ من جميعِ هذه الطوائفِ، وإنما حدثوا بعد هؤلاءِ كلِّهم[١]

وقال: ولهذا لم تحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلما قُتِلَ وتفرّق الناسُ حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارجِ المكفرين لعليٍّ، وبدعةُ الرافضةِ المدَّعين لإمامتِه وعصمتِه، أو نبوته، أو إلهيته.

ثم لما كان في آخر عصر الصحابة، في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، حدثت بدعة المرجئة والقدرية.

ثم لما كان في أول عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجهمية المعطِّلة، والمشبِّهة الممثلة. ولم يكن على عهدِ الصحابةِ شيءٌ من ذلك[٢]

وقال: وكان ظهورُ البدعِ بحسب البعدِ عن الدارِ النبويَّةِ، فلما حدثت الفرقةُ بعد مقتل عثمانَ ظهرت بدعة الحروريَّةِ، وتقدم بعقوبتها الشيعة من الأصناف الثلاثة...

ثم في أواخر عصرِ الصحابةِ حديث القدرية في آخر عصرِ ابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأمثالهم من الصحابة.

وحدثت المرجئة قريبًا من ذلك.

وأما الجهمية فإنما حدثوا في أواخرِ عصرِ التابعين، بعد موت عمر بن عبد العزيز، وقد روي أنه أنذر بهم، وكان ظهور جهم بخرسان في خلافةِ هشام بن عبد الملك، وقد قتل المسلمون شيخَهم الجعدَ بن درهم قبل ذلك، ضَحَّى به خالدُ بنِ عبدِ الله القسري، ...، وقد روي أن ذلك بلغ الحسنَ البصريَّ وأمثاله من التابعين فشكروا ذلك.

وأما المدينةُ النبويَّةُ فكانت سليمة من ظهور هذه البدعِ، وإن كان بها من هو مضمرٌ لذلك، فكان عندهم مهانًا مذمومًا، إذ كان بها قوم من القدرية وغيرِهم، ولكن كانوا مذمومين مقهورين، بخلاف التشيع والإرجاء بالكوفة، والاعتزال وبدع النُّسَّاك بالبصرة، والنصب بالشام، فإنه كان ظاهرًا[٣]

وقال: كان الناسُ في قديمِ الزمانِ قد اختلفوا في الفاسقِ المليِّ، وهو أول اختلافٍ حدث في الملةِ، هل هو كافرٌ أو مؤمنٌ؟ فقالت الخوارج: إنه كافرٌ، وقالت الجماعة: إنه مؤمنٌ، وقالت طائفة: نقول هو فاسقٌ، لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، ننزله منزلةً بين المنزلتين، وخلدوه في النار، واعتزلوا حلقةَ الحسنِ البصريِّ وأصحابه -رحمه الله تعالى- فسموا معتزلة[٤]

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٨).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠١، ٣٠٢)، درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٢، ١٨٣)، (٢٢/ ١٣٠)، (٧/ ٤٧٩).

وقال: وهاتان الطائفتان الخوارجُ والشيعةُ حدثوا بعد مقتلِ عثمانَ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكرٍ وعمرَ وصدرًا من خلافة عثمانَ في السَّنَةِ الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم، ثم حدث في أواخرِ خلافةِ عثمانَ أمورٌ أوجبت نوعًا من التفرقِ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمانَ، فتفرق المسلمون بعد مقتلِ عثمانَ، ولما اقتتل المسلمون بـ«صِفِّين» واتفقوا على تحكيم حكمَين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وفارقوه، وفارقوا جماعةَ المسلمين...

إلى أن قال: وحدث في أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولِهم، لا يظهرونه لعليٍّ وشيعته؛

إلى أن قال: ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية...

إلى أن قال: وقابلهم الخائضون في القدر من المجبرةِ، مثل الجهمِ بن صفوان وأمثاله... وكان جهم مع ذلك ينفي الأسماءَ والصفاتِ...

إلى أن ذكر عمرو بن عبيد وأصحابه، فقال: واعتزلوا حلقة أصحابِ الحسنِ البصري، مثل قتادة وأيوب السختياني وأمثالهما.

فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن، وقيل: إن قتادة كان يقول: أولئك المعتزلة..

إلى أن قال: وحدثت المرجئة وكان أكثرهم من أهل الكوفة...[1]

وقال: الخوارجُ الحروريةُ كانوا أول أهل الأهواء خروجًا عن السنة والجماعة؛ مع وجود بقية الخلفاء الراشدين، وبقايا المهاجرين والأنصار، ...، ولكن لم يجتمعوا وتصير لهم قوة إلا في خلافة أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه.

ثم ظهر في زمن عليٍّ التكلم بالرفض؛ لكن لم يجتمعوا ويصير لهم قوة إلا بعد مقتل الحسين رضي الله عنه، بل لم يظهر اسم الرفضِ إلا حين خروج زيدِ بن علي بن الحسين بعد المائة الأولى، لَمَّا أظهر الترحم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما رفضته الرافضة، فسموا رافضة، واعتقدوا أن أبا جعفر هو الإمام المعصوم، واتبعه آخرون فسموا «زيدية» نسبة إليه.

ثم في أواخر عصر الصحابة نبغ التكلم ببدعة القدرية والمرجئة، فردها بقايا الصحابة كابنِ عمرَ، وابنِ عباسٍ، وجابرِ بنِ عبدِ الله، وأبي سعيدٍ، وواثلةَ بن الأسقع، وغيرهم، ولم يصر لهم سلطان واجتماع حتى كثرت المعتزلةُ والمرجئةُ بعد ذلك.

ثم في أواخر عصر التابعين ظهر التكلم ببدعة الجهمية نفاة الصفاتِ، ولم يكن لهم اجتماع وسلطان إلا بعد المائةِ الثانيةِ في إمارة أبي العباسِ الملقبِ بالمأمونِ؛ فإنه أظهر التجهمَ، وامتحن الناسَ عليه، وعرَّب كتبَ الأعاجمِ: من الرومِ، واليونانيين، وغيرهم. وفي زمنه ظهرت

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢- ٣٨).

«الخرمية» وهم زنادقة منافقون يظهرون الإسلامَ، وتفرعوا بعد ذلك إلى القرامطةِ، والباطنيةِ، والإسماعيليةِ، وأكثرُ هؤلاء يتحلون الرفضَ في الظاهرِ.

وصارت الرافضةُ الإماميةُ في زمن بني بويه بعد المائةِ الثالثةِ فيهم عامة هذه الأهواء المضلة: فيهم الخروج، والرفض، والقدر، والتجهم[١]

وقال: وكان المسلمون على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول، فلما قتل عثمان بن عفان ﷺ ووقعت الفتنة فاقتتل المسلمون بصفين، مرقت المارقة التي قال فيها النبي ﷺ: «تمرقُ مارقةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ من المسلمين، يقتلهم أولي الطائفتين بالحقِّ»، وكان مروقها لما حُكِّم الحكمان، وافترق الناس على غير اتفاق.

وحدثت أيضًا بدعة التشيع

فهاتان البدعتان بدعة الخوارج والشيعة حدثتا في ذلك الوقت لما وقعت الفتنة، ثم إنه في أواخر عصر الصحابة حدثت بدعة القدريةِ والمرجئةِ، فأنكر ذلك الصحابة والتابعون؛ كعبدِ الله بن عمرَ، وعبدِ الله بن عباسٍ، وجابرِ بن عبدِ الله، وواثلةَ بن الأسقع.

ثم إنه في أواخر عصر التابعين -من أوائل المائة الثانية- حدثت بدعة الجهمية منكرة الصفات، وكان أول من أظهر ذلك الجعد بن درهم، فطلبه خالدُ بن عبدِ الله القسري، فَضَحَّى به بواسط،

ثم ظهر بهذا المذهب الجهم بن صفوان، ودخلت فيه بعد ذلك المعتزلة. . .

ثم حدث بعد هذا في الإسلام الملاحدة من المتفلسفة وغيرهم، حدثوا وانتشروا بعد انقراض العصور المفضلة وصار كل زمان ومكان يضعف فيه نور الإسلام يظهرون فيه، وكان من أسباب ظهورهم أنهم ظنوا أن دين الإسلام ليس إلا ما يقوله أولئك المبتدعون، ورأوا ذلك فسادًا في العقل، فرأوا دين الإسلام المعروف فاسدًا في العقل، فكان غلاتهم طاعنين في دين الإسلام بالكلية -باليد واللسان- كالخُرَّمِيَّة أتباع بابك الخُرَّمِي، وقرامطة البحرين أتباع أبي سعيد الجَنَّابِي، وغيرهم[٢]

وقال: حدث في آخرِ خلافةِ عليٍّ بدعتا الخوارجِ والرافضةِ؛ إذ هي متعلقة بالإمامةِ والخلافةِ، وتوابع ذلك من الأعمالِ والأحكامِ الشرعيةِ.

وكان ملك معاوية ملكًا ورحمةً، فلما ذهب معاوية -رحمة الله عليه- وجاءت إمارة يزيد وجرت فيها فتنة قتل «الحسين» بالعراق، وفتنة أهل «الحرة» بالمدنية، وحصروا مكة لما قام عبد الله بن الزبير.

١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٨٩- ٤٩١).

٢) منهاج السنة النبوية (١/٣٠٦- ٣١٦).

ثم مات يزيد وتفرقت الأمة: ابن الزبير بالحجاز، وبنو الحكم بالشام، ووثب المختار بن أبي عبيد وغيره بالعراق، وذلك في أواخر عصر الصحابة، وقد بقي فيهم مثل: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم -حدثت «بدعة القدريةِ والمرجئةِ»، فردها بقايا الصحابة كابن عباس، وابن عمر، وجابر، وواثلة بن الأسقع، وغيرهم -رضي الله عنهم- مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارجِ والراوفضِ.

وعامة ما كانت القدرية إذ ذاك يتكلمون فيه: أعمال العباد، كما يتكلم فيها المرجئة، فصار كلامهم في الطاعة والمعصية، والمؤمن والفاسق ونحو ذلك من مسائل «الأسماء والأحكام»، و«الوعد» و«الوعيد»، ولم يتكلموا بعد في ربهم ولا في صفاته إلا [في] أواخر عصر صغار التابعين، من حين أواخر «الدولة الأموية» حين شرع «القرن الثالث» -تابعو التابعين- ينقرض أكثرهم، فإن الاعتبار في القرون الثلاثة بجمهور أهل القرن، وهم وسطه، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في أواخر الدولة الأموية؛ وأوائل الدولة العباسية، وصار في ولاة الأمور كثيرٌ من الأعاجم، وخرج كثير من الأمر عن ولاية العرب، وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم، وظهر ما قاله النبي ﷺ: «ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يستشهد، ويحلف ولا يستحلف» -حدث ثلاثة أشياء.

«الرأي»، و«الكلام» و«التصوف».

وحدث «التجهم» وهو: نفي الصفات، وبإزائه «التمثيل».

فكان جمهور الرأي من الكوفة؛ إذ هو غالب على أهلها، مع ما كان فيهم من التشيع الفاحش، وكثرة الكذب في الرواية، مع أن في خيار أهلها من العلم والصدق والسنة والفقه والعبادة أمرٌ عظيمٌ، لكن الغرض أن فيها نشأ: كثرةُ الكذب في الرواية، وكثرة الآراء في الفقه والتشيع في الأصول، وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة.

فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، ومن اتبعهما من أهل الكلام والاعتزال.

وظهر أحمد بن عطاء الهجيمي الذي صحب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد صحب الحسن البصري ومن اتبعه من المتصوفة وبنى دويرة للصوفية؛ هي أول ما بني في الإسلام، وكان عبد الرحمن بن مهدي وغيره يسمونهم «الفقرية»، وكانوا يجتمعون في دويرة لهم.

وصار لهؤلاء من الكلام المحدث طريق يتدينون به، مع تمسكهم بغالب الدين.

ولهؤلاء من التعبد المحدَث طريق يتمسكون به، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع، وصار لهؤلاء حال من السماع والصوت حتى إن أحدهم يموت أو يغشى عليه.

ولهؤلاء حال في الكلام والحروف حتى خرجوا به إلى تفكير أوقعهم في تحير.

وهؤلاء أصل أمرهم «الكلام».

وهؤلاء أصل أمرهم «الإرادة».

وهؤلاء يقصدون «بالكلام» التوحيد، ويسمون نفوسهم: الموحدين.

وهؤلاء يقصدون «بالإرادة» التوحيد، ويسمون نفوسهم: أهل التوحيد والتجريد[1].

(1) مجموع الفتاوى (١٠/٣٥٦- ٣٦٠).

المُقدِّمةُ السَّابِعَةُ

دِرَاسَةُ الفِرَقِ

الدارسون والمصنِّفون في موضوعِ فرقِ المسلمين إمَّا أن يغلب عليهم الدراسة من الناحيةِ التاريخيةِ باعتبار أن هذه الفرقَ تمثل من تاريخِ المسلمين شيئًا ما، وهذا مثل صنيع أصحاب كتب التاريخ؛ كالطبري، وابن كثير، والذهبي، وغيرهم من القدماء في تواريخهم وكثير من المعاصرين.

وإما أن يغلب عليهم الدراسة من الناحيةِ الفكريةِ لهذه الفرقِ على سبيلِ النقلِ والحكايةِ كغالب كتبِ المقالاتِ، أو مع النقدِ والتقويمِ كبعض كتبِ المقالاتِ وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية.

ونحن في دراستنا هذه سوف نعتمد الطريقةَ الأخيرةَ، فجُلُّ اهتمامِنَا في هذه الدراسةِ هو رصدُ أفكارِ ومقالاتِ الفرقِ التي افترقت بها عن المسلمين، ثم نقدها وبيان بطلانِها بما أُتيح من كلامِ العلماءِ، مع إعطاءِ نبذةٍ موجزةٍ عن تاريخِ الفرقِ وتفرقِها.

واتِّبَاعُ هذه الطريقةِ هي ما نرمي إليه كبدايةٍ لمشروعِ التواصلِ الفكريِّ في أجيالِ المسلمين، فَمَا بدأه الأولُ يكمله الآخرُ، فأصحاب الأفكارِ المعاصرةِ يستمدون أفكارَهم وأصولَهم من أصولِ هذه الفرقِ تمامًا، أو مع تطويرٍ وتمديدٍ لها بطريقةٍ ما، فهم وارثوهم، فلكلٍّ قومٍ وارثٌ، ونحن كي نصلَ للتصورِ الصحيحِ والتقييمِ المرتضى لهذه الأفكارِ نعود إلى أصولِها.

وما أحدثه أصحابُ الفرقِ لن نجدَ لبيانِ بطلانِه ونقدِهِ خيرًا من بيانِ ونقدِ سلفِنا الصالحِ له، ولما كان كلامُ السلفِ عزيزَ المنالِ، بليغَ المقالِ، فاخترنا ذكرَ كلامِ من خبر علمَهم ووقف على أغوارِه وأحاط به، وأحاط معرفةً باختلافِ الناسِ، وبالفرقِ وببدعِهم، وأصلِ هذه البدعِ، وأولِ من قال بها، وسببِ ابتداعِها، وهو شَيْخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وذلك أيضًا كي تتضحَ الحجةُ ولا يطول الكلامُ والبحثُ العلميُّ على القارئِ لهذه الدراسةِ.

وهذا كلُّه كي يكونَ حِصْنًا للمسلمِ المعاصرِ من الأفكارِ والمقالاتِ الحديثةِ.

وَتَنَاوُلُنَا لدراسةِ الفرقِ بأن نبدأ بدراسةِ التعريفاتِ التي ذكرها العلماءُ للفرقةِ، وبيان الراجحِ منها والحجج على ذلك.

ثم نُتْبِعها بذكرِ أسماءِ الفرقةِ وأسباب هذه التسميات؛ لأنَّه غالبًا يكون للفرقةِ أكثر من اسمٍ تُعْرَفُ به.

ثم نتكلم عن نشأةِ الفرقةِ، مع محاولةِ الوصولِ إلى معرفةِ النشأةِ الصحيحةِ لها، وتطوُّرِها الفكريِّ على أيدي زعمائِها.

ثم نذكر الفرقَ التي افترقتْ عن هذه الفرقةِ، فإن سِمَةَ الفرقِ هي التفرقُ المتكررُ والاختلافُ الكثيرُ.

وهذا كلُّه يكون بصورةٍ موجزةٍ غيرِ مطولةٍ.

ثم نذكر بعد ذلك مقالاتِ هذه الفرقةِ التي تميَّزوا وافترقوا بها عن الأمةِ، وفي هذا الفصلِ نبسط الكلامَ شيئًا ما.

فنذكر مقالةَ الفرقةِ التي كانت سببًا في افتراقها عن جماعة المسلمين.

ثم نُتْبِعها بذكرِ أقوالِ العلماءِ التي تثبت أن هذه المقالةَ مقالتُهم.

ثم نذكر نقضَ هذه المقالةِ وبيانَ بطلانِها من كلامِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ بما يؤدي الغرض والمطلوب.

ثم نأتي على باقي مقالاتِها الأخرى بنفسِ الطريقةِ السابقةِ.

ثم نذكر بعد ذلك مقالاتِ الفرقِ الفرعية التي افترقت عن هذه الفرقةِ، وكانت سببًا في افتراقِها عنها، ثم باقي مقالاتِها، بنفسِ الطريقةِ السابقةِ إن وُجِدَ داعٍ لذلك، ولنْ نبسطَ القولَ في هذا الفصلِ حتى لا يطولَ الكلامُ على القارئِ، ولعل لها ولغيرها من الأفكارِ والمقالاتِ الحديثةِ المتطوِّرةِ عنها حتى العصور المتأخرة مجالًا آخر إن شاء الله ربُّ العالمين.

تنبيهات:

التنبيهُ الأولُ: إن الذي اتضح لي أن أصول فرق المسلمين التي ظهرت في القرنين الأولين ثمانيةٌ، كما اتضح ذلك من المقدمة السابقة، ثم تطورت بعد ذلك على مرِّ الزمانِ، وهذه الفرق هي: الخوارج، والشيعة، والمرجئة، والقدرية، والجبرية، والمعطلة، والمجسمة، والصوفية، وتحت كل نوع من هذه الأنواع ظهرت فرق كثيرة جدًّا أغلبها منسوب إلى رجالها.

قال شيخ الإسلام: إن الطائفة إنما تتميز باسم رجالها أو بنعت أحوالها:

فالأول: كما يقال: النجدات، والأزارقة، والجهمية، والنجارية، والضرارية، ونحو ذلك.

والثاني: كما يقال: الرافضة، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والخوارج، ونحو ذلك[1]

وقال: والطائفة تضاف تارة إلى الرجل الذي هو رأس مقالتها، كما يقال: الجهمية، والإباضية، والأزارقة، والكلابية، والأشعرية، والكرامية، ويقال في أئمة المذاهب: مالكية، وحنفية، وشافعية، وحنبلية، وتارة تضاف إلى قولها وعملها، كما يقال: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمعتزلة، ونحو ذلك[2]

التنبيه الثاني: لا بد من التفريق بين الأصول الأم للفرقة التي ابتدعتها وفارقت بها أهل الإسلام، أو أهل السنة، والتي ينبني عليها مسائل فرعية كثيرة مبتدعة أيضًا، وبين أصولها

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٥١٨- ٥٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/١٧٦، ١٧٧).

الأخرى التي انبنت على الأصول الأم أو استحدثوها من عندهم أو استقوها من فرق أخرى لتداخل أفكار الفرق.

فالتركيز يكون على النوع الأول ببيانه وبيان شبهته، وبيان بطلانه وأوجه نقضه، ودمغه بالحجة والبرهان، أما النوع الثاني فيكون ذكره ونقضه بنوع من الإيجاز، أو الإحالة في نقضه إلى مكانه الأصلي الذي خرج منه.

ولم يكن اعتمادنا في نقض مقالات الفرق على كتب المقالات المعروفة فإنها كما قال عنها شيخ الإسلام: الكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دلَّ عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة، فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه[١].

وقال: ثم إن غالب كتب أهل الكلام والناقلين للمقالات، ينقلون في أصول الملل والنحل من المقالات ما يطول وصفه، ونفس ما بعث الله به رسوله، وما يقوله أصحابه والتابعون لهم في ذلك الأصل، الذي حكوا فيه أقوال الناس، لا ينقلونه، لا تعمدًا منهم لتركه، بل لأنهم لم يعرفوه، بل ولا سمعوه؛ لقلة خبرتهم بنصوص الرسول وأصحابه والتابعين[٢].

التَّنبيه الثالث: لا بدَّ من التفريقِ بين أقوالِ الفرقةِ الأم، وبين أقوالِ الفرقِ المتفرِّعة عنْها، وبين أقوالِ أفرادِ الأشخاصِ البارزين فيها، والذين قد انفردوا بأقوال واشتهرت عنهم، وذلك لعدم الخطأ في نسبة الأقوال إلى أصحابها، والأولوية في الذكر والتركيز سوف تكون بحسب هذا الترتيب.

التنبيه الرابع: الغرض هو رصد واستقصاء أقوال هذه الفرق بقدر المستطاع، مع بيان أوجه بطلانها، وذلك من خلال كتب المقالات والفرق، والعهدة في النقل على هذه المصادر، والظن فيهم خيرًا، أنهم قد صدقوا في النقل بدون افتراء أو تهوين، واعتمادي على هذه المصادر لغياب المصادر العلمية التي كتبها أصحاب هذه الفرق بأنفسهم في الغالب، أو لعدم وجود مصادر لهم أصلًا، أو لتعثر وقُوفِي عليها.

قال شيخ الإسلام: ومن أرادَ أن ينقلَ مقالةً عن طائفةٍ فليسمِّ القائلَ والناقلَ[٣].

وقال: المصنفون في المقالات ينقلون كثيرًا من المقالات من كتب المعتزلة كما نقل الأشعري وغيره ما نقله في المقالات من كتب المعتزلة، فإنهم من أكثر الطوائف وأولها تصنيفًا في هذا الباب، ولهذا توجد المقالات منقولة بعباراتهم[٤].

---

(١) النبوات ص(١٥٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٠٣).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ١١٥)، (١٣/ ٩٩).

وقال: وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم، لم نقف لهم على كتابٍ مصنفٍ، كما وقفنا على كتب: المعتزلة، والرافضة، والزيدية، والكرامية، والأشعرية، والسالمية، وأهل المذاهب الأربعة، والظاهرية، ومذاهب أهل الحديث، والفلاسفة، والصوفية، ونحو هؤلاء[(١)]

وقال الشهرستاني: وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبِهم، من غيرِ تعصبٍ لهم، ولا كسرٍ عليهم[(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٤٩).

(٢) الملل والنحل (١/١٦).

البَابُ الأَوَّلُ

الخَوَارِجُ

وهو يحتوي على ستة فصول:

الفصل الأول: تَعْرِيفُ الخَوَارِجِ.

الفصل الثاني: أَسْمَاءُ الخَوَارِجِ، وَسَبَبُ هذه التسميةِ.

الفصل الثالث: نَشْأَةُ الخَوَارِجِ.

الفصل الرابع: فِرَقُ الخَوَارِجِ.

الفصل الخامس: مَقَالَاتُ الخَوَارِجِ.

الفصل السادس: مَقَالَاتُ فِرَقِ الخَوَارِجِ.

الفصل الأول

تَعْرِيفُ الخَوَارِجِ

ذكر العلماء عدةَ تعريفاتٍ للخوارجِ، من هذه التعريفاتِ:

١- الخوارج: هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب.

وهذا تعريف أبي الحسن الأشعري[١]، والسكسكي[٢].

٢- الخوارج: هم كل مَن خَرَجَ عن الإمامِ الحقِّ الذي اتَّفَقَتِ الجماعةُ عليه يسمى خارجيًّا، سواء كان الخروجُ في أيام الصحابةِ على الأئمةِ الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان. وهذا تعريف الشهرستاني[٣].

٣- الخوارج: هم الذين يأخذون العُشْرَ من غير إذن سلطان. وهذا تعريف الجرجاني[٤].

مناقشة التعريفات:

لا بد من معرفة أن خروج الخوارج على عليٍّ بن أبي طالب ﷺ لم يكن في حقيقته خروج عن طاعة إمام من أئمة المسلمين الذين انعقدت له الإمامة، إنما هو خروج على الشريعة والأمة بتكفيرها واستحلال دماء المسلمين وأموالهم. وهذا مما يترجَّح به التعريف الأول.

فلا بد من التفريق بين: من خرج عن طاعةِ إمامٍ معينٍ، وهؤلاء هم البغاة، وقتالهم قتال أهل البغي يراعى فيه شروطه وضوابطه، وهؤلاء خروجهم وقتالهم على الدنيا.

وبين من خرج على الشريعة والسنة والأمة وتكفير المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم، وهؤلاء هم الخوارج، وقتالهم قتال الخارجين عن الشريعة يراعى فيه شروطه وضوابطه، وهؤلاء خروجهم وقتالهم على الدين.

وقد جاء هذا التفريق في حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ: «من خَرَجَ من الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثم مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ للعصبية، وَيُقَاتِلُ للعصبية فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ خَرَجَ من أُمَّتِي على أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لَا يَتَحَاشَ من مُؤْمِنِهَا ولا يَفِي لِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي»[٥].

---

(١) مقالات الإسلاميين (١٢٧، ١٢٨).

(٢) البرهان ص(١٧).

(٣) الملل والنحل (١/ ١١٥).

(٤) التعريفات ص(١٣٧).

(٥) صحيح مسلم (١٨٤٨).

قال شيخ الإسلام: فقد ذكر ﷺ البغاة الخارجين عن طاعة السلطان، وعن جماعة المسلمين، وذكر أن أحدهم إذا مات مات ميتةً جاهليةً؛ فإن أهل الجاهليةِ لم يكونوا يجعلون عليهم أئمة؛ بل كلٌّ طائفة تغالب الأخرى، ثم ذكر قتال أهل العصبية، كالَّذين يقاتلون على الأنساب مثل قيس ويمن، وذكر أن من قتل تحت هذه الرايات فليس من أمته، ثم ذكر قتال العداة الصائلين والخوارج ونحوهم، وذكر أن من فعل هذا فليس منه(١).

وقال: وبالجملة العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة، وهذا قتال على الدنيا.

ولهذا قال أبو برزة الأسلمي عن فتنة ابن الزبير، وفتنة القراء مع الحجاج، وفتنة مروان بالشام: هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء إنما يقاتلون على الدنيا.

وأما أهل البدع كالخوارج فهم يريدون إفساد دين الناس، فَقِتَالُهم قِتَالٌ على الدين.

والمقصود بقتالهم أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، فلهذا أمر النبي ﷺ بهذا، ونهى عن ذلك.

ولهذا كان قتال عليٍّ رضي الله عنه للخوارج ثابتًا بالنصوص الصريحة، وبإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين، وأما قتال الجمل وصفين فكان قتال فتنة، كرهه فضلاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر العلماء، كما دلت عليه النصوص حتى الذين حضروه كانوا كارهين له، فكان كارهه في الأمة أكثر وأفضل من حامده(٢)

وقال: وهذا هو الأصل الثابت بكتاب الله وسنة رسوله، وهو الفرق بين القتال لمن خرج عن الشريعة والسنة، فهذا الذي أمر به النبي ﷺ.

وأما القتال لمن لم يخرج إلا عن طاعة إمام معين فليس في النصوص أمر بذلك(٣)

وقال في الاختيارات: وجمهور العلماءِ يفرِّقون بين الخوارجِ والبغاةِ المتأولين وهو المعروفُ عن الصحابةِ(٤)

من هذا يتضح أن التعريفَ الراجحَ للخوارجِ هو ما ذكره الأشعريُّ والسكسكيُّ، أنهم الذين خرجوا على عليِّ بن أبي طالبٍ ومِن ثَمَّ كان خروجًا على الشريعةِ والأمةِ بتكفيرِها واستحلالِ دماءِ المسلمين وأموالِهم بنصِّ حديثِ رسولِ الله ﷺ فيهم، أما ما ذكره الشهرستانيُّ والجرجانيُّ فهو في حقِّ البغاةِ الذين يخرجون عن طاعةِ إمامٍ انعقدت له الإمامةُ، والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٨٧).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٢، ١٥٣)، مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١٥، ٥١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥١).

(٤) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٣٧).

الفصل الثاني

أَسْمَاءُ الخَوَارِجِ وَسَبَبُ هذه التَّسْمِيَةِ

للخوارج أسماءٌ متعددةٌ، ومن هذه الأسماءِ:

١- الخوارج: وهو أشهرُ أسمائِهم، وسببُ تسميتِهم بذلك أنهم خارجون عن الدين، أو عن الجماعة، أو على عليٍّ رضي الله عنه.

والخوارجُ لا يقبلون هذه التسميةَ بهذا الاعتبارِ، ويقبلونها على أساس أنها مأخوذة من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠] [(١)]

٢- الحَرُورِيَّةُ: نسبة إلى المكانِ الذي نَزَلُوا فيه في أولِ أمرِهم، وهي قريةُ حروراءَ، بالقربِ من الكوفةِ.

قال الأشعريُّ: والَّذِي له سُمّوا حَرورية نزولهم بحروراءَ في أولِ أمرِهم[(٢)]

وقال السكسكيُّ: ونزلوا بأرضٍ يقال لها: حروراء فسموا بذلك حرورية[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: وكانوا قد اجتمعوا في مكانٍ يقال له: «حروراء»، ولهذا يقال لهم: الحرورية[(٤)]

٣- أهلُ النَّهْرَوَانِ: وهي نسبة إلى المكانِ الذي قاتلهم فيه عليُّ بنُ أبي طالبٍ.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء الخوارج لهم أسماء، يقال لهم: «الحرورية»؛ لأنهم خرجوا بمكان يقال له: حروراء، ويقال لهم أهل النهروان؛ لأن عليًّا قاتلهم هناك[(٥)]

٤- الشُّرَاةُ: وذلك لقولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله؛ أي: بعناها بالجنة، فهي نسبة إلى الشراءِ الذي ذكره الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ١١١] وهم يفتخرون بهذه التسمية ويسمون من عداهم بذوي الجعائل: أي يقاتلون من أجل الجُعْل الذي بُذل لهم.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٢٧، ١٢٨)، نيل الأوطار (٧/ ٣٣٩)، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص(٣٨٤)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (١/ ٢٢٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٨)

(٣) البرهان ص(١٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٠٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨١).

قال الأشعري: والذي له سُمّوا شُرَاة قولهم: شَرَيْنَا أنفسنا في طاعة الله، أي: بعناها بالجنة[(١)]

وقال السكسكيُّ: وقالوا: اشترينا أنفسنا من الله تعالى، فسموا لذلك شراة[(٢)]

٥- المَارِقَةُ: وذلك للأحاديث الواردة في الصحيحين وغيرهما، والتي تصفهم بمروقِهم من الدينِ كمروقِ السهمِ من الرميةِ.

ومن تلك الأحاديثِ: عن عليٍّ، عن رسول الله ﷺ قال: «يأتي -سيخرج- في آخر الزمان قومٌ حدثاءُ الأسنانِ، سفهاءُ الأحلامِ، يقولون من خيرِ قولِ البريةِ، يمرقون من الإسلامِ كما يمرقُ السهمُ من الرميةِ، لا يجاوزُ إيمانُهم حناجرَهم، فأينما لقيتوهم فاقتلوهم فإن في قتلِهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامةِ»[(٣)]

وعن عبدِ الله بنِ عمرَ، عن رسولِ الله ﷺ: «يمرقون من الإسلامِ مروقَ السهمِ من الرميةِ»[(٤)]

وعن سهلِ بن حنيفٍ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «يخرج منه قومٌ يقرءون القرآنَ لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلامِ مروقَ السهمِ من الرميةِ»[(٥)] وكذلك عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، وعن جابرٍ وغيرِهم[(٦)]

وهذا الاسم من الأسماء التي لا يقبلها الخوارج تمامًا.

٦- المحكِّمة -أو المحكمية-: وهذا الاسم من أول أسمائهم التي أطلقت عليهم، والسبب في إطلاقه عليهم رفضهم وإنكارهم تحكيم الحكمين، ولتردادهم كلمة: لا حكم إلا لله[(٧)]

قال الأشعريُّ: والذي له سُمّوا محكمة إنكارهم الحكمين، وقولهم: لا حُكْمَ إلا لله[(٨)]

وقال شيخ الإسلام: وسموا محكِّمة لخوضهم في التحكيم بالباطل، وكان الرجل إذا قال: لا حكم إلا لله، قالوا: هو محكِّم؛ أي: خائض في حكم الله، فخاض أولئك في شرع الله بالباطل[(٩)]

٧- النواصب: وذلك لمبالغتهم في نصب العداء لعليِّ بن أبي طالب ﷺ.

قال شيخ الإسلام: الخوارج الحرورية الذين كانوا من شيعة علي، ثم خرجوا عليه، وكفروه،

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٢٨)

(٢) البرهان ص(١٧، ١٨).

(٣) البخاري (٣٦١١)، مسلم (١٠٦٦).

(٤) البخاري (٦٩٣٢)، مسلم (١٠٦٤).

(٥) البخاري (٦٩٣٤)، مسلم (١٠٨٦).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨١).

(٧) انظر: التنبيه والرد ص(٤٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٦)، البداية والنهاية (٧/ ٢٧٩).

(٨) مقالات الإسلاميين ص(١٢٨)

(٩) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١١).

وكفروا من والاه، ونصبوا له العداوة، وقاتلوه، ومن معه، وهم الذين أخبر عنهم النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة المستفيضة، بل المتواترة، . . . ، وهؤلاء هم الذين نصبوا العداوة لعلي ومن والاه، وهم الذين استحلوا قتله، وجعلوه كافرًا، وقتله أحدُ رءوسهم؛ عبد الرحمن بن ملجم المرادي، فهؤلاء النواصب الخوارج المارقون، إذ قالوا: إن عثمان وعلي بن أبي طالب ومن معهما كانوا كفارًا مرتدين[1].

٨- الشَّكَّاكِيَّةُ: لاتهامهم عليٌّ بن أبي طالبٍ بعدَ التحكيمِ أنه شَكَّ في إمارتِه.

قال السكسكيُّ: وخرجوا من قبضته وقالوا: شككت في أمرِك وحكَّمْتَ عدوَّك من نفسِك، فسموا بذلك الشَّكَّاكِيَّة[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٧، ٤٦٨)، (٣/ ٧٢، ٧٣).
(٢) البرهان ص(١٧).

الفصل الثالث

نَشْأَةُ الخَوَارِجِ

كما سبق وتكلمنا عن ظهور الفرق؛ فإن كلَّ فرقةٍ ظهرت كانت في بداية أمرها عبارة عن ظاهرة فكرية عند شخص أو أكثر، ثم حدث حول هذه الأفكار تكتلٌ جماعيٌ، واعتناق وتأييد لها ولمعتقداتِها ومبادئِها، ودفاعًا عنها بكلِّ ما أوتوا من قوةٍ وسبلٍ.

وكانت بداية الخوارجِ في عهدِ النبي ﷺ حينما اعترض عليه وخرج عن حكمه رجلٌ سمته لنا روايات الحديث النبوي بذي الخويصرة، وأخبر النبي ﷺ حينئذٍ أنه سيخرج أناسٌ من هذا الرجل وعلى شاكلتِه، وأعطى أوصافهم التي تحققت في فرقة الخوارجِ التي ظهرت بعد ذلك في عهد أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالب، وقاتلهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ مع علي بن أبي طالب تحقيقًا لقول رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وقد كان أولُهم خرج على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فلما رأى قسمةَ النبي ﷺ قال: يا محمد اعدل فإنك لم تعدلْ. فقال له النبي ﷺ: **«لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»**. فقال له بعض أصحابه: دعني يا رسول الله أضرب عنقَ هذا المنافقِ. فقال: **«إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوامٌ يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ..»** الحديث[1]

وقال: أول البدع ظهورًا في الإسلام، وأظهرها ذمًّا في السنة والآثار: بدعة الحرورية المارقة، فإن أولَهم قال للنبيِّ ﷺ في وجهه: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل. وأمر النبيّ ﷺ بقتلهم وقتالهم، وقاتلهم أصحاب النبيِّ ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

والأحاديث عن النبيِّ ﷺ مستفيضة بوصفهم وذمهم والأمر بقتالهم، قال أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه، قال النبيُّ ﷺ: **«يحقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»**[2]

ويذكر لنا شيخ الإسلام أسباب ظهورهم وخروجهم، فيقول: الخوارج الحروريَّة كانوا أول أهل الأهواء خروجًا عن السُّنَّة والجماعة، مع وجود بقية الخلفاء الراشدين، وبقايا المهاجرين والأنصار، وظهور العلم والإيمان، والعدل في الأمَّة، وإشراق نور النُّبوَّة، وسلطان الحجَّة، وسلطان القدرة، حيث أظهر الله دينه على الدِّين كله بالحجَّة والقدرة.

وكان سبب خروجهم ما فعله أمير المؤمنين عثمان وعلي ومن معهما من الأنواع التي فيها

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٧١، ٧٢).

تأويل، فلم يحتملوا ذلك، وجعلوا موارد الاجتهاد، بل الحسنات ذنوبًا، وجعلوا الذنوب كفرًا، ولهذا لم يخرجوا في زمنِ أبي بكرٍ وعمرَ؛ لانتفاء تلك التأويلات وضعفهم.

ومعلوم أنه كلَّما ظهر نورُ النُّبوَّةِ كانت البدعةُ المخالفةُ أضعفَ، فلهذا كانت البدعةُ الأولى أخفَّ من الثانية، والمستأخرة تتضمن من جنس ما تضمنته الأولى وزيادة عليها، كما أن السنة كلما كان أهلها أقرب إلى النبيِّ ﷺ كانت أفضل، فالسنن ضد البدع، فكل ما قرب منه ﷺ مثل سيرة أبي بكر وعمر كان أفضل مما تأخر كسيرة عثمانَ وعليٍّ، والبدعُ بالضد، كل ما بعد عنه كان شرًّا مما قرب منه، وأقربها من زمنه الخوارج، فإن التكلمَ ببدعتهم ظهر في زمانه، ولكن لم يجتمعوا وتصير لهم قوةٌ إلا في خلافةِ أميرِ المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه[(١)]

وقال: وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة حدثوا بعد مقتل عثمان، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدرًا من خلافة عثمان في السُّنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمورٌ أوجبت نوعًا من التفرق، وقام قومٌ من أهلِ الفتنةِ والظلمِ، فقتلوا عثمانَ فتفرق المسلمون بعد مقتلِ عثمانَ، ولما اقتتل المسلمون بصفِّين واتفقوا على تحكيمِ حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ، وفارقوه وفارقوا جماعةَ المسلمين إلى مكانٍ يقال له حروراء، فكفَّ عنهم أمير المؤمنين، وقال: لكم علينا ألا نمنعكم حقَّكم من الفيء، ولا نمنعكم المساجد. إلى أن استحلوا دماءَ المسلمين وأموالَهم، فقتلوا عبدَ الله بن خباب، وأغاروا على سرح المسلمين، فعلم عليٌّ أنهم الطائفة التي ذكرها رسول الله ﷺ، حيث قال: «**يَحْقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، وقراءتَه مع قراءتِهم، يقرءون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم، يمرقون من الدِّينِ كما يمرق السهمُ من الرميةِ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات**». وفي رواية: «**يقتلون أهلَ الإسلامِ، ويدعون أهلَ الأوثانِ**». فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ، وقال: هم هؤلاء القوم، قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم، ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد فسجد لله شكرًا[(٢)]

وقال: أولُ التفرقِ والابتداعِ في الإسلامِ بعد مقتلِ عثمانَ وافتراقِ المسلمين؛ فلما اتفق عليٌّ ومعاويةُ على التحكيمِ أنكرت الخوارجُ، وقالوا: لا حكمَ إلا لله، وفارقوا جماعةَ المسلمين، فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم، فرجع نصفهم، والآخرون أغاروا على ماشية الناس، واستحلوا دماءهم، فقتلوا ابن خباب وقالوا: كلنا قتله، فقاتلهم عليٌّ[(٣)]

وقال: لما قُتِلَ أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفان وسار عليُّ بن أبي طالب إلى العراق، وحصل بين الأمةِ من الفتنةِ والفرقةِ يوم الجملِ ثم يوم صفين ما هو مشهور -خرجت الخوارجُ المارقون على

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٨٩- ٤٩٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢، ٣٣).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٨)، (٢٨/ ٥٨٠).

الطائفتين جميعًا وكان النبي ﷺ قد أخبرَ بهم، وذكر حكمهم، قال الإمام أحمد: صحَّ الحديثُ في الخوارجِ من عشرةِ أوجهٍ.

وهذه العشرة أخرجها مسلم في صحيحِه موافقة لأحمد، وروى البخاري منها عدة أوجهٍ، وروى أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه أخر.

ومن أصح حديثهم حديث عليٍّ بن أبي طالب، وأبي سعيدٍ الخدريِّ، ففي الصحيحين عن عليٍّ بن أبي طالب أنه قال: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثًا فوالله لأن أَخرَّ من السماءِ إلى الأرض أحبُّ إلي من أن أكذب عليه، وإن حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرجُ قومٌ في آخرِ الزمانِ أحداثُ الأسنانِ، سفهاءُ الأحلامِ، يقولون من خيرِ قولِ البريةِ، لا يجاوز إيمانهم حناجرَهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيمتوهم فاقتلوهم، فإن في قتلِهم أجرًا عندَ الله لمن قتلَهم يوم القيامة».

وفي الصحيحين عن أبي سعيدٍ قال: بعث عليٌّ بن أبي طالب إلى النبي ﷺ من اليمن بذهيبة في أدم مقروض لم تحصل من ترابها، فقال: فقسمها بين أربعة نفر، فقال رجل من أصحابه: كنا أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمينُ من في السماءِ، يأتيني خبرُ السماءِ صباحًا ومساءً»، قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال يا رسول الله: اتق الله، فقال: «ويلك، أوَلستُ أحقَّ أهلِ الأرضِ أن يتقي الله»، قال: ثم ولَّى الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه، فقال: «لا، لعله أن يكون يصلي»، قال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله: «إني لم أومر أن أنقبَ عن قلوبِ الناسِ، ولَا أشق بطونَهم»، قال: ثم نظر إليه وهو مقف، فقال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قومٌ يتلون كتابَ الله رطبًا لا يجاوز حناجرَهم، يمرقون من الدينِ كما يمرقُ السهمُ من الرميةِ، -قال: أظنه قال: - لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ». اللفظ لمسلم.

ولمسلم في بعض الطرق عن أبي سعيدٍ أن النبي ﷺ ذكر قومًا يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق، ثم قال: «شرُّ الخلقِ، أو من شرِّ الخلقِ، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق»، قال أبو سعيدٍ: أنتم قتلتموهم يأهل العراق وفي لفظ له: «تقتلهم أقربُ الطائفتين إلى الحقِّ».

وهذا الحديث مع ما ثبت في الصحيح عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيدٌ وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين». فبيَّن أن كلا الطائفتين كانت مؤمنة، وأن اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن كان أحب إلى الله سبحانه ورسوله من اقتتالهما، وأن اقتتالهما وإن لم يكن مأمورًا به فعلي بن أبي طالب وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه، وأن قتال الخوارج مما أمر به ﷺ، ولذلك اتفق على قتالهم الصحابة والأئمة[1]

(١) مجموع الفتاوى (٧/٤٧٩- ٤٨١).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

فِرَقُ الخَوَارِجِ

قال الأشعريُّ: وأصلُ قولِ الخوارجِ إنما هو قولُ الأزارقةِ، والإباضيةِ، والصُّفْرِيةِ، والنجديةِ، وكل الأصناف سوى الأزارقة والإباضية والنجدية فإنما تفرعوا من الصفرية[1].

وقال الشهرستاني: وكبار الفرق منهم: المحكِّمة، والأزارقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة، والإباضية، والصفرية، والباقون فروعهم[2].

وقال شيخ الإسلام: وهؤلاء الخوارج كانوا ثمان عشرة فرقة؛ كالأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، والنجدات أتباع نجدة الحروري، والإباضية أتباع عبد الله بن إباض[3].

وقال: ومن أصنافهم: الإباضية أتباع عبد الله بن إباض، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، والنجدات أصحاب نجدة الحروري[4].

وقال الإسفراييني: اعلم أن الخوارجَ عشرون فرقةً[5].

وقال البغداديُّ: وأما الخوارجُ فإنها لما اختلفت صارت عشرين فرقةً[6].

وقال السكسكيُّ: وفرقُهم ثمانيَ عشرةً[7].

وقال الخوارزميُّ: وهم أربعَ عشرةَ فرقةً[8].

وقال المقريزيُّ: وهم عشرون فرقةً[9].

وقال الملطيُّ: وهم خمس وعشرون فرقةً[10].

وسنذكر بإيجازٍ هذه الفرقَ، وكيف افترقتْ عن الخوارجِ.

---

(1) مقالات الإسلاميين ص(١٠١).

(2) الملل والنحل (١/ ١١٤).

(3) منهاج السنة النبوية (٥/ ١١).

(4) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨١).

(5) التبصير في الدين ص(٤٥).

(6) الفرق بين الفرق ص(٤٤).

(7) البرهان ص(٢٠).

(8) مفاتيح العلوم (١٩).

(9) المواعظ والاعتبار.

(10) التنبيه والرد ص(١٧٨).

المحكِّمَةُ الأُولَى

هم الذين خرجوا على أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ حين جرى أمرُ المحكِّمين، بعد صفين، واجتمعوا بحروراءَ من ناحيةِ الكوفةِ، وهم يومئذٍ اثنا عشرَ ألفًا أهل صلاةٍ وصيامٍ وقراءةٍ، ورئيسهم عبدُ الله بن الكَوَّاء، وشَبَث بن رِبْعي، وعتاب بن الأعور، وعروة بن حُدَيْر، ويزيد بن عاصمٍ المحاربيُّ.

وخرج إليهم عليٌّ يناظرهم، فظهر بالحجةِ عليهم، فاستأمن إليه ابن الكواء في ألفِ مقاتلٍ، وانحاز الباقون إلى النهروانِ، وأمَّروا عليهم رجلين منهم: عبد الله بن وهب الراسبي، حُرْقوص بن زهير البَجَلي، المعروف بذي الثُّدَيَّة، ورأوا في طريقِهم إلى النهروان عبدَ الله بن خباب بن الأرت، فقالوا له حدثنا حديثًا سمعته عن أبيك عن رسول الله، فقال سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستكونُ فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائمِ، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي، فمن استطاعَ أن يكونَ مقتولًا فلا يكون قاتلًا**»، فشد عليه رجلٌ منهم يقال له: مسمع بسيفه فقتله، فجرى دمه فوق ماء النهر كالشراك إلى الجانب الآخر، ثم أغاروا على سرح الناس وهي الماشية التي أرسلوها تسرح مع الرعاء.

فلما انتهى خبرهم إلى عليٍّ أرسل إليهم يطلب منهم قاتلَ عبدِ الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتله ولو ظفرنا بك لقتلناك أيضًا، فسار إليهم في أربعة آلافٍ من أصحابِهِ، وناظرهم فيما نقموا منه، فحاجهم، واستأمن منهم ثمانية آلافٍ، وقاتل الباقين، فهزمهم عليٌّ، وطلب ذا الثدية فوجدوه، فكان هذا مصداق قولِ النبيِّ ﷺ[(١)]

الأَزَارِقَةُ

وهم أتباع نافعِ بنِ الأزرقِ الحنفيِّ، خرجوا في أيام عبدِ الله بن الزبير، وأرسل ابن الزبير لقتالهم مرات عديدة، فكانوا يهزمونهم في كل مرةٍ، حتى أرسل إلى المهلبِ بن أبي صفرة فهزمهم، وقتل نافع في تلك الهزيمةِ، فبايعوا بعده عبيدَ الله بن مأمون التميميَّ، فقاتله المهلب، فقتل عبيدُ الله وأخوه، فبايعوا بعده قطريَّ بن الفُجَاءة التميميَّ، وقاتلهم المهلب وبنوه وأتباعُه بعد ذلك تسع عشرة سنة حروبًا سجالًا، بعضُها في زمانِ عبدِ الله بن الزبيرِ وباقيها في زمان عبدِ الملك بن مروانَ، إلى أن وقع الخلاف بين الأزارقةِ، ففارق كلٌّ من: عبد ربه الكبير، وعبد ربه الصغير، وعبيدة بن هلال اليشكري، قطريًا إلى ناحيةٍ أخرى، فهزمهم المهلبُ وأتباعُه وقتلهم وأتباعَهم

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(٤٥- ٤٩)، الفرق بين الفرق ص(٩٣- ٩٩)، الملل والنحل (١/ ١١٥- ١١٨)، المواقف (٣/ ٦٩٢)، مجموع الفتاوى (٤/ ٥٠٠، ٢٨/ ٤٠٤، ٤٧٣)، منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٨، ٥/ ٢٤٣، ٦/ ٣٣٢)، تلبيس إبليس ص(٢٩).

ـى عليهم تمامًا، وهم قد فارقوا الخوارجَ بمقالاتٍ عديدةٍ سيأتي ذكرها[١]

النَّجدَاتُ او النَّجدِيَّةُ

وهم أتباعُ نجدة بن عامر الحنفيّ، وكان من شأنِه أنه خرج من اليمامة مع عسكرِه يريد ـلُّحُوقَ بالأزارقةِ، فاستقبله أبو فديك، وعطيةُ بن الأسود الحنفيُّ، في الطائفةِ الذين خالفوا نافعَ ـبْنَ الأزرقِ في أمورٍ، فأخبروه بما أحدثه نافعٌ من الخلافِ والبدعِ، وبايعوا نجدةَ، وسموه أميرَ ـمؤمنين.

ثم اختلفوا على نجدة في أمورٍ نقموها منه، فخرجوا عليه وصاروا ثلاث فرق:

- فرقة عذرته في أحداثه وأقاموا على إمامته.
- وفرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفي وهم العطوية.
- وفرقة مع أبي فديك وهم الذين قاتلوا نجدة حتى قتلوه، وهم الفديكية، إلى أن بعث عبد الملك بن مروان جندًا إلى أبي فديك فقتلوه.

فلما قتل نجدة صارت النجدات بعده ثلاث فرق:

- فرقةٌ أكفرته وصارتْ إلى أبي فديك؛ كراشد الطويل، وأبي بيهس -وفرقته البيهسية- وعبد الله بن شمراخ -وفرقته الشمراخية.
- وفرقةٌ عذرته فيما فعل وهم النجدات اليوم.
- وفرقةٌ شكُّوا فيما حكي من أحداثِ نجدةَ وتوقفوا في أمره[٢]

العجاردة او العجردية

أتباع عبدِ الكريمِ بنِ عجرد، وهو من العطويةِ أتباعِ عطيةِ بن الأسود الحنفيِّ، وهم قد افترقوا على فرقٍ انفردتْ كلُّ فرقةٍ منهم بقول، وهي:

١- الخَازِمِيَّةِ: أتباع رجل يسمى خَازِم بن عليٍّ -أو: ابن عاصمٍ-، وقيل: حازم بالحاء المهملة.

وممن افترق عنهم فرقتان هما: المعلومية، والمجهولية.

٢- الشُّعَيْبِيَّة: أتباعُ رجلٍ يسمى شعيب بن محمد.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٨٦- ٨٩)، التبصير في الدين ص(٤٩- ٥١)، الفرق بين الفرق ص(١٠١- ١٠٥)، الملل والنحل (١/١١٨- ١٢٠)، المواقف (٣/ ٦٩٢)، تلبيس إبليس ص(٢٨).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٨٩- ٩٣)، التبصير في الدين ص(٥٢، ٥٣)، الفرق بين الفرق ص(١٠٥- ١٠٨)، الملل والنحل (١/ ١٢٢- ١٢٥)، المواقف (٣/ ٦٩٣)، البرهان ص(٣٠، ٣١).

٣- المَيْمُونِيَّةُ: أتباعُ رجلٍ يسمى ميمون بن خالد -أو: ابن عمران- وقد ذكرهم بعض العلماءِ في الغلاةِ الخارجين عن الملةِ.

٤- الحَمْزِيَّةُ: أتباعُ حمزةَ بن أكرك -أو: أدرك- وكان في الأصلِ من الخازميةِ ثم خالفهم بعد ذلك، وخاض حروبًا كثيرةً ضد فرقِ الخوارجِ الأخرى، وضد جيوشِ هارونَ الرشيدِ، وهزم منهم الكثيرَ إلى أن انهزم وقتل في أيامِ المأمونِ.

٥- الخَلَفِيَّةُ: أتباعُ خَلَفٍ وكان من أتباعُ ميمون ثم افترق عنه وقاتله.

٦- الصَّلْتِيَّةُ: أتباعُ عثمانَ بنِ أبي الصلتِ، أو صَلت بن عثمان، أو صلت بن أبي الصلتِ.

٧- الأطرَافِيَّةِ: أتباعُ غالبِ بن شاذل.

٨- الثعالبة: أتباع ثعلبة بن مشكان -أو: ابن عامر- وقد اختلف مع عبد الكريم بن عجرد فجعلته الثعالبة إمامًا بعد عبد الكريم، وقد افترقت الثعالبة بعد ذلك ست فرق:

فرقة أقامت على إمامة ثعلب.

والمعبدية: أتباع معبد بن عبد الرحمن.

والأخنسية: أتباع أخنس بن قيس.

والشيبانية: أتباع شيبان بن سلمة الذي خرج في أيام أبي مسلم.

والرشيدية: أتباع رشيد الطوسي ويسمون العشرية.

والمكرمية: أتباع أبي مكرم، أو مكرم بن عبد الله العجلي.

وذكر الشهرستاني منهم أيضًا: البدعية: أتباع يحيى بن أصدم[(١)]

الصُّفْرية

أتباعُ زيادِ بن الأصفر، والبعضُ يسمونهم: الأصفرية، وهم قد افترقوا عن الأزارقةِ، وقيل: إنهم نسبة إلى عبيدةَ، وكان ممن خالف نجدة، فلما كتب نجدةُ إلى أهلِ البصرةِ اجتمع عبيدةُ وعبدُ الله بن إباض فقرآا كتابه، ثم افترقا بعد ذلك.

وافترقت الصفرية بعد ذلك إلى ثلاثِ فرقٍ كل واحدة منهم انفردت بقولٍ، وهم يقولون بإمامةِ أبي بلال مرداس الخارجي، ومن بعده عمران بن حِطَّان السدوسي[(٢)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٣- ١٠٠)، التبصير في الدين ص(٥٤- ٥٨)، الفرق بين الفرق ص(١١١- ١٢٠)، الملل والنحل (١/ ١٢٨- ١٣٤)، المواقف (٣/ ٦٩٤- ٦٩٦).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠١)، التبصير في الدين ص(٥٣، ٥٤)، الفرق بين الفرق ص(١٠٨- ١١١)، الملل والنحل (١/ ١٣٧، ١٣٨)، المواقف (٣/ ٦٩٣)،

ومنهم فرقةُ الفضلية أو المفضلة: أتباعُ الفضلِ بن عبدِ الله[١]

الإباضية

أتباعُ عبدِ الله بن إباض، الذي خرج في أيام مروان بن محمدٍ، فوجَّه إليه عبدَ الله بن محمد بن عطية فقاتله، ثم افترقت بعد ذلك إلى فرق:

الحفصية: أتباعُ حفصِ بن أبي المقدام.

والحارثية: أتباعُ حارثِ بن يزيد الإباضي.

واليزيدية: أتباعُ يزيدَ بن أبي أنيسة، وقد ذكرهم بعضُ العلماءِ في الغلاةِ الخارجين عن الملةِ.

وأصحاب طاعة لا يراد الله بها، على مذهب أبي الهذيل المعتزلي.

والإبراهيمية، والميمونية، والواقفة، والضحاكية: أتباع الضحاك بن قيس الشاري[٢]

البيهسية

أتباع أبي بيهس هَيْصم بن عامرٍ -أو: جابر- وقد كان الحجاجُ طلبه أيام الوليد فهرب إلى المدينة، فطلبه بها عثمان بن حيان المزني فظفر به وحبسه ثم قتله. وهو قد افترق عن الإبراهيمية، والميمونية، والواقفة.

ثم افترقت البيهسية إلى: العوفية: التي افترقت إلى فرقتين.

وأصحاب التفسير: أتباع الحكم بن مروان.

والشبيبية: أتباع شبيب بن يزيد الشيباني، ويسمون: أصحاب السؤال، وقد تسمى: الصالحية: انتسابًا إلى صالح بن مسرح التميمي[٣].

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٨، ١١٩)، التنبيه والرد ص(١٧٩)، الفصل (٤/ ١٤٥)، البرهان ص(٢٤)، مفاتيح العلوم ص(١٩).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠٢- ١١١)، التبصير في الدين ص(٥٨- ٦٠)، الفرق بين الفرق ص(١٢٠- ١٢٤)، الملل والنحل (١/ ١٣٤- ١٣٧)، المواقف (٣/ ٦٩٣، ٦٩٤).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٣- ١١٨)، التبصير في الدين ص(٦٠ -٦٢)، الفرق بين الفرق ص(١٢٤-١٢٩)، الملل والنحل (١/ ١٢٥- ١٢٨)، المواقف (٣/ ٦٩٢).

الفصل الخامس
مَقَالَاتُ الخَوَارِجِ

مُجْمَلُ مَقَالَاتِهِم

قال ابن حزم: وأما الخوارجُ فعمدةُ مذهبِهم الكلام في الإيمان والكفر، ما هما؟ والتَّسمية بهما، والوعيد، والإمامة، واختلفوا فيما عدا ذلك كما اختلف غيرهم(١).

وقال: ومن وافق الخوارج في: إنكار التحكيم، وتكفير أصحابِ الكبائرِ، والقول بالخروجِ على أئمة الجورِ، وأنَّ أصحابَ الكبائرِ مخلَّدون في النارِ، وأنَّ الإمامةَ جائزةٌ في غير قريشٍ -فهو خارجي(٢).

وقال شيخ الإسلام: الخوارجُ تتكلم في حكمِ الله الشرعيِّ؛ أمره ونهيه، وما يتبع ذلك من: وعده، ووعيده، وحكم من وافق ذلك، ومن خالفه، ومن يكون مؤمنًا وكافرًا، وهي مسائل الأسماءِ والأحكامِ(٣).

وقال: أصلُ قولِ الخوارجِ أنهم يكفِّرون بالذنبِ، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنبٍ، ويرون اتِّباع الكتابِ دون السنة التي تخالفُ ظاهرَ الكتابِ -وإن كانت متواترة- ويكفِّرون من خالفهم ويستحلون منه -لارتداده عندهم- ما لا يستحلونه من الكافرِ الأصليِّ، كما قال النبي ﷺ فيهم: «**يقتلون أهلَ الإسلامِ ويدعون أهلَ الأوثانِ**»، ولهذا كفَّروا عثمانَ وعليًّا وشيعتَهما، وكفَّروا أهلَ صفين -الطائفتين- في نحو ذلك من المقالاتِ الخبيثةِ(٤).

وقال: الخوارج أيضًا باينوا جميع المذاهب فيما اختصوا به من: التكفير بالذنوب، ومن تكفير علي رضي الله عنه، ومن إسقاط طاعة الرسول فيما لم يخبر به عن الله، وتجويز الظلم عليه في قسمه، والجور في حكمه، وإسقاط اتِّباع السنة المتواترة التي تخالف ما يُظن أنه ظاهر القرآن؛ كقطع السارق من المنكب، وأمثال ذلك(٥).

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الأسماءِ والأحكام

(قولهم في الكفرِ)

يقولون بتكفيرِ أصحابِ الكبائرِ، وبعضُهم يطرد ذلك في كل ذنبٍ، ويكفِّرون من خالفهم في

---

(١) الفصل (٢/ ٨٩).
(٢) الفصل (٢/ ٩٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١١).
(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٥).
(٥) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٠).

بدعِهم، ويستحِلُّون دماءَهم وأموالَهم، ويفارقون المسلمين.

أقوال العلماء

قال الأشعري (٣٢٤ هـ): أجمعوا على أن كلَّ كبيرةٍ كفرٌ، إلا النجدات منهم[١]

ووافقه عليه البغدادي (٤٧٩ هـ) فقال: والصوابُ ما حكاه شيخُنَا أبو الحسنِ عنهم[٢]

وذكر الإسفراييني (٤٧١ هـ) أن كلَّهم متفقون على: أن كلَّ من أذنب ذنبًا من أمةِ محمدٍ فهو كافرٌ، ويكون في النَّار خالدًا مخلَّدًا، إلا النَّجدات منهم؛ فإنهم قالوا: إن الفاسقَ كافرٌ على معنى أنه كافر نعمة ربِّه، فيكون إطلاق هذه التَّسميةِ عند هؤلاءِ منهم على معنى الكفرانِ لا على معنى الكفرِ[٣]

وذكر ابنُ حزمٍ (٤٥٦ هـ) أن من قولِهم: تكفير أصحابِ الكبائرِ[٤]

وقال الملطيُّ (٣٧٧ هـ): والشراة كلهم يكفرون أصحابَ المعاصي ومن خالفهم في مذهبِهم[٥]

وقال الشهرستانيُّ (٥٤٨ هـ): ويكفرون أصحاب الكبائر[٦]

وقال الرازيُّ (٦٠٦ هـ): سائر فرقهم متفقون على أن العبد يصير كافرًا بالذنب[٧]

وقال السكسكي (٦٨٣ هـ): قالوا: من أذنب كبيرة منهم فهو كافر، إلا النجدات فرقة منهم فإنها لا تكفر من أذنب منهم، وتكفر من أذنب من غيرهم...

وقالوا: من زنى أو سرق فأقيم عليه الحد استتيب فإن تاب وإلا قتل...

وقالوا: إن الإصرارَ على أي ذنبٍ كان، كفرٌ[٨]

وقال شيخ الإسلام (٧٢٨ هـ): الخوارج هم أول من كفر المسلمين، يكفِّرون بالذنوبِ، ويكفِّرون من خالفهم في بدعتِهم، ويستحلون دمَه ومالَه[٩]

وقال: الخوارج يكفِّرون بالذنبِ الكبيرِ، أو الصغيرِ عند بعضِهم[١٠]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٨٦).
(٢) الفرق بين الفرق ص(٩٢).
(٣) التبصير في الدين ص(٤٥).
(٤) الفصل (٢/ ٩٠).
(٥) التنبيه والرد ص(٤٧).
(٦) الملل والنحل (١/ ١١٤).
(٧) اعتقادات المسلمين والمشركين ص(٤٦).
(٨) البرهان ص(١٩).
(٩) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٩).
(١٠) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٥١)، (١٢/ ٤٧٠).

وقال عند كلامه عن أصول أهل السنةِ: وهم مع ذلك لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج[١].

وقال: قالت الوعيدية: كل فاسق خالدٌ في النارِ، لا يخرج منها أبدًا. وقالت الخوارج: هو كافر[٢].

وقال: وأهلُ البدعِ مثل الخوارجِ يبتدعون بدعةً، ويكفِّرون من خالفهم، ويستحلون دمَه[٣].

وقال: الخوارج قد كفَّروا عثمان وعليًّا، وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين[٤].

وقال: الخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين واستحلوا دماء من خالفهم[٥].

وقال: الخوارج دينهم المعظَّم مفارقة جماعة المسلمين، واستحلال دمائِهم وأموالِهم[٦].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعدُ والوعيدُ في الدارِ الآخرةِ، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا، فإن الله سبحانه أوجب الجنة للمؤمنين، وحرَّم الجنة على الكافرين، وهذا من الأحكام الكلية في كل وقت ومكان[٧].

وقال: والكفر هو من الأحكام الشرعية، وليس كل من خالف شيئًا علم بنظر العقل يكون كافرًا، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفرًا في الشريعة[٨].

وقال: فهذان القولان: قول الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب، ويخلدون في النارِ، وقول من يخلدهم في النارِ ويجزم بأن الله لا يغفر لهم إلا بالتوبة، ويقول: ليس معهم من الإيمان شيء -لم يذهبْ إليهما أحدٌ من أئمةِ الدينِ أهل الفقهِ والحديثِ، بل هما من الأقوالِ المشهورةِ عن أهلِ البدعِ[٩].

وقال: ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحدٌ من أهل السنة هو

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥١)، (٣٤/ ١٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٤٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٦، ٤٣٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٣).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢٠).
(٦) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٩)، (٢٨/ ٣٥٧).
(٧) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٨).
(٨) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٥).
(٩) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠١)، التنبيه والرد ص(٤٩، ٥٠).

القول بتخليد أهل الكبائر في النار؛ فإن هذا القول من البدع المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحدٌ ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان[(١)].

وقال: وهم أولُ من كفَّر أهلَ القبلةِ بالذنوبِ، بل بما يرونه هم من الذنوبِ، واستحلوا دماءَ أهلِ القبلةِ بذلك، فكانوا كما نعتهم النبي ﷺ: «يقتلون أهلَ الإسلامِ، ويدعون أهلَ الأوثانِ».

وكفروا عليَّ بن أبي طالبٍ وعثمانَ بن عفان ومن والاهما، وقتلوا عليَّ بن أبي طالب مستحلين قتله، قتله عبدُ الرحمن بن ملجم المرادي منهم، وكان هو وغيره من الخوارجِ مجتهدين في العبادةِ، لكن كانوا جهالًا، فارقوا السنةَ والجماعةَ، فقال هؤلاء: ما الناس إلا مؤمنٌ أو كافرٌ، والمؤمنُ من فعل جميعَ الواجباتِ وتركَ جميعَ المحرماتِ؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافرٌ مخلدٌ في النارِ. ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك، فقالوا: إن عثمان وعليًّا ونحوهما حكموا بغير ما أنزلَ الله، وظلموا فصاروا كفارًا.

ومذهبُ هؤلاءِ باطلٌ بدلائل كثيرةٍ من الكتابِ والسنةِ، فإن الله سبحانه أمر بقطعِ يد السارقِ دون قتلِه، ولو كان كافرًا مرتدًّا لوجب قتله؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «مَن بَدَّلَ دِينَه فاقْتلوه». وقال: «لا يَحِلُّ دمَ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ؛ كفر بعد إسلامٍ، وزنى بعد إحصانٍ، أو قتل نفسٍ يقتل بها».

وأمر سبحانه أن يجلدَ الزاني والزانية مائةَ جلدةٍ، ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما.

وأمر سبحانه بأن يجلد قاذف المحصنةِ ثمانين جلدةً، ولو كان كافرًا لأمر بقتله، وكان النبيُّ ﷺ يجلد شاربَ الخمرِ ولم يقتله، بل قد ثبت عنه ﷺ في صحيح البخاري وغيره: أن رجلًا كان يشربُ الخمرِ وكان اسمه عبد الله حمارًا، وكان يضحك النبي وكان كلما أتي به إليه جلده، فأُتي به إليه مرة فلعنه رجل، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحبُّ الله ورسوله».

فنهى عن لعنه بعينه، وشهد له بحبِّ الله ورسولِهِ، مع أنه قد لعن شارب الخمر عمومًا.

وهذا من أجود ما يحتج به على أن الأمرَ بقتلِ الشاربِ في الثالثة والرابعة منسوخ؛ لأن هذا أتي به ثلاث مرات، وقد أعيا الأئمة الكبار جواب هذا الحديث؛ ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز، فيجوز أن يقال: يجوز قتله إذا رأى الإمام المصلحة في ذلك، فإن ما بين الأربعين إلى الثمانين ليس حدًّا مقدرًا في أصح قولي العلماء، كما هو مذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين، بل الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ترجع إلى اجتهاد الإمام فيفعلها عند المصلحة، كغيرها من أنواع التعزير، وكذلك صفة الضرب فإنه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب، بخلاف الزاني والقاذف، فيجوز أن يقال: قتله في الرابعة من هذا الباب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٢).

وأيضًا فإن الله سبحانه قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. فقد وصفهم بالإيمان والأخوة وأمرنا بالإصلاح بينهم[1]

وقال: الأخوة الإيمانية ثابتةٌ مع المعاصي، كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٨] ، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2]

وقال: وقد احتجت الخوارجُ والمعتزلةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] قالوا: فصاحب الكبيرة ليس من المتقين؛ فلا يتقبل الله منه عملًا، فلا يكون له حسنة، وأعظم الحسنات الإيمان، فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار. وقد أجابتهم المرجئة بأن المراد بالمتقين من يتقي الكفر.

فقالوا لهم: اسم المتقين في القرآنِ يتناول المستحقين للثوابِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾. وأيضًا: فابنا آدم حين قربا قربانًا لم يكن المقرب المردود قربانه حينئذ كافرًا، وإنما كفر بعد ذلك، إذ لو كان كافرًا لم يتقرب.

وأيضًا: فما زال السلف يخافون من هذه الآية، ولو أريد بها من يتقي الكفر لم يخافوا. وأيضًا: فإطلاق لفظ المتقين والمراد به من ليس بكافر لا أصل له في خطابِ الشارعِ، فلا يجوز حمله عليه.

والجواب الصحيح: أن المراد من اتقى الله في ذلك العمل، كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: الآية ٧] قال: أخلصه، وأصوبه. قيل: يا أبا عليٍّ، ما أخلصه، وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. فمن عمل لغير الله -كأهل الرياء- لم يقبل منه ذلك.

كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل: «أنا أغنى الشركاء عن الشركِ، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه، وهو كله للذي أشركه». وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول» وقال: «لا يقبل الله صلاة، حائض إلا بخمار». وقال في الحديث الصحيح: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد». أي: فهو مردود غير مقبول.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨١- ٤٨٣)، (٢٠/ ٩٣، ٩٤)، (٣٥/ ٧٢)، الفصل (٣/ ١٣١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥١)، (٤/ ٣٠٧).

فمن اتقى الكفر وعمل عملًا ليس عليه أمر النبي ﷺ لم يقبل منه، وإن صلى بغير وضوء لم يقبل منه؛ لأنه ليس متقيًا في ذلك العمل، وإن كان متقيًا للشرك.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠].

وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ أنها قالت: يا رسول الله، أهو الرجل يزني، ويسرق، ويشرب الخمر، ويخاف أن يعذب؟ قال: «لا، يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه».

وخوف من خاف من السلف ألا يتقبل منه، لخوفه ألا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور، وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منهم في الإيمان، وفي أعمال الإيمان، كقول أحدهم: أنا مؤمن -إن شاء الله- وصليت -إن شاء الله- لخوف ألا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق.

لا يجوز أن يراد بالآية: إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها؛ لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيًا، فإن كان قبول العمل مشروطًا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له، امتنع قبول التوبة، بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل، فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة، وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير، لم يخلص من الذنب، بل هو متق في حال تخلصه منه.

وأيضًا فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مُصِرٌّ على كبيرة، ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة، وتقبل منه تلك الحسنات، وهو حين أتى بها كان فاسقًا.

وأيضًا فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل، وغصب، وقذف -وكذلك الذمي إذا أسلم- قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه، فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم؛ بل يكون مع إسلامه مخلدًا، وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله، ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات، فيقبل إسلامهم، ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات.

كما ثبت في الصحيح أن المغيرة بن شعبة لما أسلم وكان قد رافق قومًا في الجاهلية فغدر بهم، وأخذ أموالهم وجاء فأسلم، فلما جاء عروة بن مسعود عام الحديبية والمغيرة قائم على رأس النبي ﷺ بالسيف، دفعه المغيرة بالسيف، فقال: من هذا؟ فقالوا: ابن أختك؛ المغيرة، فقال: يا غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما الإسلام فأقبله، وأما المال فلست منه في شيء».

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام: الآية ٥٢] وقالوا لنوح: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ

﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾. ولا نعرف من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له: لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب. وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة[١]

وقال: والخوارج والمعتزلة يقولون: إن صاحب الكبيرة يخلد في النار، ثم إنهم قد يتوهمون في بعض الأخيار أنه من أهل الكبائر، كما تتوهم الخوارج في عثمان وعلي وأتباعهما أنهم مخلدون في النار، كما يتوهم بعض ذلك في مثل: معاوية وعمرو بن العاص، وأمثالهما، ويبنون مذاهبهم على مقدمتين باطلتين:

إحداهما: أن فلانًا من أهل الكبائر.

والثانية: أن كل صاحب كبيرة يخلد في النار.

وكلا القولين باطل. وأما الثاني: فباطل على الإطلاق. وأما الأول: فقد يعلم بطلانه وقد يتوقف فيه[٢]

- **قولهم في الأسماءِ والأحكامِ**

(قولهم في الإيمان)

يقولون: إن الإيمانَ هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، فمن ترك مأمورًا أو ارتكب محظورًا يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموعُ ما أمر الله به ورسوله، وهو الإيمانُ المطلقُ، كما قاله أهل الحديثِ، قالوا: فإذا ذهب شيءٌ منه لم يبقَ مع صاحبِهِ من الإيمان شيءٌ فيخلد في النارِ[٣]

وقال: والمقصودُ هنا أن منشأَ النِّزاعِ في الأسماءِ والأحكامِ في الإيمانِ والإسلامِ أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعَّض، قال أولئك: فإذا فعل ذنبًا زال بعضُه فيزول كلُّه فيخلَّد في النارِ[٤]

وقال: وأما الذين أنكروا تبعضه وتفاضله كأنهم قالوا: متى ذهبَ بعضُه ذهبَ سائرُه، ثم انقسموا قسمين: فقالت الخوارجُ والمعتزلةُ: فعلُ الواجباتِ وتركُ المحرماتِ من الإيمانِ، فإذا ذهبَ بعضُ ذلك ذهبَ الإيمانُ كلُّه، فلا يكون مع الفاسقِ إيمانٌ أصلًا بحالٍ.

ثم قالت الخوارجُ: هو كافر[٥]

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٩٤- ٤٩٨)، (١٠/ ٣٢٢)، (١١/ ٦٦١، ٦٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦)، (١٣/ ٣٠، ٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٣)، الفصل (٣/ ١٠٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧٠).

وقال: فكان من أولِ البدعِ والتفرقِ الذي وقع في هذه الأمة بدعة الخوارج المكفرة بالذنبِ، فإنهم تكلموا في الفاسقِ الملِّي، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوبَ الكبيرةَ، ومنهم من قال: والصغيرة، لا تجامع الإيمان أبدًا، بل تنافيه وتفسده، كما يفسد الأكلُ والشربُ الصيامَ، قالوا: لأن الإيمان هو: فعل المأمور، وترك المحظور، فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركبات.

ثم قالت الخوارج: فيكون العاصي كافرًا؛ لأنه ليس إلا مؤمن وكافر، ثم اعتقدوا أن عثمان وعليًا وغيرهما عصوا، ومن عصى فقد كفر، فكفروا هذين الخليفتين وجمهور الأمة[1].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأصلُ قولِ أهلِ السنةِ الذي فارقوا به الخوارجَ والجهميةَ والمعتزلةَ والمرجئةَ أن الإيمانَ يتفاضل ويتبعض، كما قال النبي ﷺ: «**يَخْرُجِ من النارِ من كان في قلبِهِ مثقال ذرةٍ من إيمان**». وحينئذ فتتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك[2].

وقال: وأصلُ نزاعِ هذه الفرقِ في الإيمانِ من الخوارجِ والمرجئةِ والمعتزلةِ والجهميةِ وغيرهم، أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه، كما قال النبي ﷺ: «**يَخْرُجِ من النارِ من كان في قلبه مثقال حبةٍ من الإيمان**».

ثم قالت الخوارجُ والمعتزلةُ: الطاعات كلُّها من الإيمانِ فإذا ذهب بعضُها ذهب بعض الإيمان، فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان.

وقالت المرجئة والجهمية: ليس الإيمان إلا شيئًا واحدًا لا يتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة، قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءًا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان، وهو قول المعتزلة والخوارج، لكن قد يكون له لوازم ودلائل فيستدل بعدمه على عدمه.

وكان كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين، حيث قالوا: الإيمان قول وعمل، وقالوا مع ذلك: لا يزول بزوال بعض الأعمال...

وجماعُ شبهتهم في ذلك أن الحقيقةَ المركبةَ تزول بزوالِ بعضِ أجزائِها؛ كالعشرة فإنه إذا زال بعضُها لم تبقَ عشرةً؛ وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين إذا زال أحد جزأيه خرج عن كونه سكنجبينًا، قالوا: فإذا كان الإيمان مركبًا من أقوال وأعمال، ظاهرة وباطنة، لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة، قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمنًا بما فيه من الإيمان، كافرًا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، وادعوا أن هذا خلاف الإجماع، ولهذه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٥).

الشبهة -والله أعلم- امتنع من امتنع من أئمة الفقهاء أن يقول بنقصه، كأنه ظن إذا قال ذلك يلزم ذهابه كله؛ بخلاف ما إذا زاد.

ثم إن هذه الشبهة هي شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية؛ لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر، فلا يجتمع فيه كفر وإيمان، وقالوا: ما ثم إلا مؤمن محض أو كافر محض، ثم نقلوا حكم الواحد من الأشخاص إلى الواحد من الأعمال، فقالوا: لا يكون العمل الواحد محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه...

ونحن نذكرُ ما يتعلق بهذا الموضعِ، فنقول -ولا حول ولا قوة إلا بالله-: الكلام في طرفين:

أحدهما: أن شعبَ الإيمانِ هل هي متلازمةٌ في الانتفاءِ؟

والثاني: هل هي متلازمةٌ في الثبوتِ؟

أما الأول: فإنَّ الحقيقة الجامعة لأمورٍ -سواء كانت في الأعيانِ أو الأعراضِ- إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها.

وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقي التسعة، فإذا زال أحد جزأي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون: زالت الصورة المجتمعة، وزالت الهيئة الاجتماعية، وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب، كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

فيقال: أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه فهذا لا ينازع فيه عاقل، ولا يدعي عاقل أن الإيمان، أو الصلاة، أو الحج، أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور، إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد: إن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت، ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعًا.

كما قال النبي ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولد على الفطرةِ فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»، فالمجتمعة الخلق بعد الجدع لا تبقى مجتمعة، ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء.

وأما زوال الاسم، فيقال لهم: هذا أولًا بحث لفظي، إذا قدر أن الإيمان له أبعاض وشعب؛ كما قال رسول الله في الحديث المتفق عليه: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، كما أن الصلاة والحج له أجزاء وشعب، ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب، كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحجِ والصلاةِ زوال سائر الأجزاءِ، فدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال

لبعض الآخر ليس بصوابٍ، ونحن نسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله، وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت.

يبقى النزاع هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الأجزاء؟

فيقال لهم: المركبات في ذلك على وجهين، منها: ما يكون التركيب شرطًا في إطلاق الاسم، ومنها: ما لا يكون كذلك.

فالأول: كاسم العشرة، وكذلك السكنجبين.

ومنها: ما يبقى الاسم بعد زوال بعض الأجزاء، وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب، وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء، فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة، وهي بعد النقص حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك، وكذلك لفظ: العبادة، والطاعة، والخير، والحسنة، والإحسان، والصدقة، والعلم، ونحو ذلك مما يدخل فيه أمور كثيرة، يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض، وكذلك لفظ القرآن فيقال على جميعه وعلى بعضه، ولو نزل قرآن أكثر من هذا لسمي قرآنًا، وقد تسمى الكتب القديمة قرآنًا، كما قال النبي ﷺ: «خفف على داود القرآن»، وكذلك لفظ القول والكلام والمنطق ونحو ذلك، يقع على القليل من ذلك وعلى الكثير.

وكذلك لفظ الذكرِ والدعاءِ، يقال للقليلِ والكثيرِ، وكذلك لفظ الجبل يقال على الجبل وإن ذهب منه أجزاء كثيرة.

ولفظ البحر والنهر يقال عليه وإن نقصت أجزاؤه، وكذلك المدينة والدار والقرية والمسجد ونحو ذلك، يقال على الجملة المجتمعة، ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم باق، وكذلك أسماء الحيوان والنبات؛ كلفظ الشجرة يقال على جملتها؛ فيدخل فيها الأغصان وغيرها، ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق، وكذلك لفظ الإنسان والفرس والحمار يقال على الحيوان المجتمع الخلق، ثم يذهب كثير من أعضائه والاسم باق، وكذلك أسماء بعض الأعلام؛ كزيد وعمرو يتناول الجملة المجتمعة، ثم يزول أجزائها والاسم باق. وإذا كانت المركبات على نوعين، بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم: إنه إذا زال جزؤه لزم أن يزول الاسم، إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقي.

ومعلوم أن اسم الإيمان من هذا الباب، فإن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبةً، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»، ثم من المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان.

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال: «يخرجُ من النارِ من كان في قلبِه مثقالُ حبَّةٍ من إيمان»، فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة، ويبين أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن، والصلاة، والحج، ونحو ذلك.

أما الحج ونحوه ففيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل؛ كرمي الجمار، والمبيت بمنى، ونحو ذلك، وفيه أجزاء ينقص بزوالها من كماله المستحب؛ كرفع الصوت بالإهلال، والرمل والاضطباع في الطواف الأول.

وكذلك الصلاة فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب، وفيها أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة، في مذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك، وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو، وأمور ليست كذلك.

فقد رأيت أجزاء الشيء تختلف أحكامها شرعًا وطبعًا، فإذا قال المعترض: هذا الجزء داخل في الحقيقة وهذا خارج من الحقيقة، قيل له: ماذا تريد بالحقيقة؟

فإن قال: أريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافرًا.

قيل له: ليس للإيمان حقيقة واحدة، مثل حقيقة مسمى «مسلم» في حق جميع المكلفين في جميع الأزمان بهذا الاعتبار، مثل حقيقة السواد والبياض، بل الإيمان والكفر يختلف باختلاف المكلف وبلوغ التكليف له، وبزوال الخطاب الذي به التكليف ونحو ذلك.

وكذلك الإيمان والواجب على غيره مطلق؛ لا مثل الإيمان الواجب عليه في كل وقت، فإن الله لما بعث محمدًا رسولًا إلى الخلق، كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس، ولا صيام شهر رمضان، ولا حج البيت، ولا حرم عليهم الخمر والربا، ونحو ذلك، ولا كان أكثر القرآن قد نزل، فمن صدقه حينئذ فيما نزل من القرآن وأقر بما أمر به من الشهادتين وتوابع ذلك، كان ذلك الشخص حينئذ مؤمنًا تام الإيمان الذي وجب عليه، وإن كان مثل ذلك الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه، ولو اقتصر عليه كان كافرًا.

قال الإمام أحمد: كان بدء الإيمان ناقصًا، فجعل يزيد حتى كمل، ولهذا قال تعالى عام حجة الوداع: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: الآية ٣]

وأيضًا، فبعد نزول القرآن وإكمال الدين إذا بلغ الرجل بعض الدين دون بعض، كان عليه أن يصدق ما جاء به الرسولُ جملةً، وما بلغه عنه مفصلًا، وأما ما لم يبلغه ولم يمكنه معرفته، فذاك إنما عليه أن يعرفه مفصلًا إذا بلغه.

وأيضًا، فالرجل إذا آمن بالرسول إيمانًا جازمًا، ومات قبل دخول وقت الصلاة أو وجوب شيء من الأعمال، مات كامل الإيمان الذي وجب عليه، فإذا دخل وقت الصلاة فعليه أن يصلي، وصار يجب عليه ما لم يجب عليه قبل ذلك، وكذلك القادر على الحج والجهاد يجب عليه ما لم يجب على غيره من التصديق المفصل، والعمل بذلك.

فصار ما يجب من الإيمان يختلف باختلاف حال نزول الوحي من السماء، وبحال المكلف في البلاغ وعدمه، وهذا مما يتنوع به نفس التصديق، ويختلف حاله باختلاف القدرة والعجز وغير

علك من أسباب الوجوب، وهذه يختلف بها العمل أيضًا، ومعلوم أن الواجب على كل من هؤلاء لا يماثل الواجب على الآخر، فإذا كان نفس ما وجب من الإيمان في الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل -وإن كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود في الجميع؛ كالإقرار بالخالق، وإخلاص الدين له، والإقرار برسله، واليوم الآخر، على وجه الإجمال- فمن المعلوم أن بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض كان قد تبعض ما أتى فيه من الإيمان، كتبعض سائر الواجبات.

يبقى أن يقال: فالبعض الآخر قد يكون شرطًا في ذلك البعض، وقد لا يكون شرطًا فيه، فالشرط كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه، أو آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾، وقد يكون البعض المتروك ليس شرطًا في وجود الآخر ولا قبوله.

وحينئذٍ فقد يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق، وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر، كما في الصحيحين عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: «أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاقِ حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة نفاق».

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر: «إنك امرؤٌ فيك جاهلية».

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «أربعٌ في أمتي من أمرِ الجاهليةِ، لن يدعوهن: الفخرُ بالأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم».

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «سبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقتاله كفرٌ».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسبِ، والنياحة على الميت».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «لا ترغبوا عن آبائِكم فإن كفرًا بكم أن ترغبوا عن آبائِكم»، وهذا من القرآن الذي نسخت تلاوته: (لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرًا بكم أن ترغبوا عن آبائكم)، وفي الصحيحين عن أبي ذر سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليس من رجلٍ ادعى إلى غير أبيه -وهو يعلمه- إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن رمى رجلًا بالكفر، أو قال: يا عدو الله، وليس كذلك إلا رجع عليه».

وفي لفظ البخاري: «ليس من رجلٍ ادعى لغير أبيه وهو يعلمه، إلا كفر بالله، ومن ادعى قومًا

ليس منهم فليتبوأ مقعده من النار».

وفي الصحيحين من حديث جرير وابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»**، ورواه البخاري من حديث ابن عباس.

وفي البخاري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»**.

وفي الصحيحين عن زيد بن خالدٍ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: **«أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب»**.

وفي صحيح مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة، إلا أصبح فريق منهم بها كافرين، يقولون: بالكواكب، وبالكواكب»**. ونظائر هذا موجودة في الأحاديث.

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: كفر دون كفر؛ وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم، وقد ذكر ذلك أحمد والبخاري وغيرهما.

الأصل الثاني: أن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف، فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله، أوجب بغض أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: الآية ٨١] ، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] ، وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [المُمتحَنة: الآية ١]

وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أُبي في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية.

ولهذه الشبهة سمى عمرُ حاطبًا منافقًا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: **«إنه شهد بدرًا»**، فكان عمر متأولًا في تسميته منافقًا للشبهة التي فعلها.

وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله! لنقتلنه، إنما أنت منافق، تجادل

عن المنافقين، هو من هذا الباب.

وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق، وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق؛ وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق، وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك، صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.

ومن هذا الباب، ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف: أنهم سموا الفساق منافقين، فجعل أهل المقالات هذا قولًا مخالفًا للجمهور؛ إذا حكوا تنازع الناس في الفاسقِ المليِّ، هل هو كافر؟ أو فاسق ليس معه إيمان؟ أو مؤمن كامل الإيمان؟ أو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق؟ أو منافق، والحسن -رحمه الله تعالى- لم يقل ما خرج به عن الجماعة، لكن سماه منافقًا على الوجه الذي ذكرناه.

والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرًا ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: أصغر، وأكبر.

وفي صحيح أبي حاتم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشركُ في هذه الأمَّةِ أخفى من دبيبِ النملِ**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه، وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال: «**ألا أعلمكَ كلمةً إذا قلتها نجوتَ من دقِّه وجلِّه؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله، فقد أشرك**»، قال الترمذي: حديث حسن.

وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص؛ لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال: «**لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمنٌ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق، وهو مؤمنٌ، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمنٌ**»، ومنه قوله: «**من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاحَ فليس منا**»، فإن صيغة: «أنا» و«نحن» ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك، يتناول النبي ﷺ، والمؤمنين معه -الإيمان المطلق- الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب، ومن هنا قيل: إن الفاسقَ المليَّ يجوز أن يقال: هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال: ليس مؤمنًا باعتبار.

وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلمًا لا مؤمنًا، ولا منافقًا مطلقًا، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة، ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله ﷺ: «**ليس منا**»: ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال: هذا تفسير «المرجئة»، وقالوا: لو لم يفعل هذه الكبيرة، كان يكون مثل النبي ﷺ، وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة، بأنه يخرج من الإيمان بالكلية، ويستحق

الخلود في النار؛ تأويل منكر كما تقدم، فلا هذا ولا هذا[(1)].

وقال: وبهذا تزول الشبهة في «مسائل الأسماء والأحكام»، وهي مسألة الإيمان، وخلاف المرجئة والخوارج، فإن الإيمان وإن كان اسمًا لدين الله الذي أكمله بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٣] ، وهو اسم لطاعة الله وللبر وللعمل الصالح، وهو: جميع ما أمر الله به، فهذا هو الإيمان الكامل التامّ، وكماله نوعان: كمال المقربين وهو الكمال بالمستحب، وكمال المقتصدين وهو الكمال بالواجب فقط.

وإذا قلنا في مثل قول النبيِّ ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمنٌ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن»، «ولا إيمانَ لمن لا أمانةَ له»، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٢] . . . الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥] ، وقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] الآية إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] ، إذا قال القائل في مثل هذا: ليس بمؤمن كامل الإيمان، أو نفى عنه كمال الإيمان لا أصله؛ فالمراد به كمال الإيمان الواجب ليس بكمال الإيمان المستحب، كمن ترك رمي الجمار، أو ارتكب محظورات الإحرام غير الوطء، ليس هذا مثل قولنا: غسل كامل، ووضوء كامل، وأن المجزئ منه ليس بكامل ذاك نفي الكمال المستحب.

وكذا المؤمن المطلق هو المؤدي للإيمان الواجب، ولا يلزم من كون إيمانه ناقصًا عن الواجب أن يكون باطلًا حابطًا، كما في الحج، ولا أن يكون معه الإيمان الكامل كما تقوله المرجئة، ولا أن يقال: ولو أدى الواجب لم يكن إيمانه كاملًا، فإن الكمال المنفي هنا الكمال المستحب.

فهذا فرقان يزيلان الشبهة في هذا المقام، ويقرران النصوص كما جاءت، وكذلك قوله: «من غَشَّنَا فليس منَّا»، ونحو ذلك، لا يجوز أن يقال فيه: ليس من خيارنا، كما تقوله المرجئة، ولا أن يقال: صار من غير المسلمين فيكون كافرًا، كما تقوله الخوارج، بل الصواب أن هذا الاسم المضمر ينصرف إطلاقه إلى المؤمنين الإيمان الواجب الذي به يستحقون الثواب بلا عقاب، ولهم الموالاة المطلقة والمحبَّة المطلقة، وإن كان لبعضهم درجات في ذلك بما فعله من المستحب، فإذا غشهم لم يكن منهم حقيقة؛ لنقص إيمانه الواجب الذي به يستحقون الثواب المطلق بلا عقاب، ولا يجب أن يكون من غيرهم مطلقًا، بل معه من الإيمان ما يستحق به مشاركتهم في بعض الثواب، ومعه من الكبيرة ما يستحق به العقاب، كما يقول من استأجر قومًا ليعملوا عملًا، فعمل بعضهم بعض الوقت فعند التوفية يصلح أن يقال: هذا ليس منا، فلا يستحق الأجر الكامل، وإن استحق بعضه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠- ٥٢٥).

وقد بسطت القول في هذه المسألة في غير هذا الموضع، وبيَّنت ارتباطها بقاعدة كبيرة في أن الشخص الواحد، أو العمل الواحد، يكون مأمورًا به من وجه منهيًا عنه من وجه، وأن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ خلافًا للخوارج والمعتزلة[(١)]

وقال: من أصول أهل السنة، التي فارقوا بها الخوارج: أن الشخص الواحد تجتمع فيه حسنات وسيئات، فيثاب على حسناته، ويعاقب على سيئاته، ويحمد على حسناته، ويذم على سيئاته، وأنه من وجه مرضي محبوب، ومن وجه بغيض مسخوط[(٢)]

وقال: وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشرٌّ، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشَّرّ، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا؛ كاللصِّ الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته.

هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السُّنَّة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه، فلم يجعلوا الناس لا مستحقًّا للثواب فقط، ولا مستحقًّا للعقاب فقط، وأهل السُّنَّة يقولون: إن الله يعذب بالنار من أهل الكبائر من يعذبه، ثم يخرجهم منها بشفاعة من يأذن له في الشفاعة بفضل رحمته، كما استفاضت بذلك السنة عن النبي ﷺ، والله سبحانه وتعالى أعلم[(٣)]

- قولهم في الوعيد

يقولون بأن أصحاب الكبائر يعذَّبون في النار عذاب الكافرين، وأنهم خالدون فيها، إذا ماتوا على ذلك دون أن يتوبوا، إلا النجدات منهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأجمعوا على أن الله سبحانه يعذِّب أصحاب الكبائر عذابًا دائمًا، إلا النَّجدات أصحاب نجدة[(٤)]

وقال: وأما الوعيد فقول المعتزلة فيه وقول الخوارج قول واحد؛ لأنهم يقولون: إن أهل الكبائر الذين يموتون على كبائرهم في النار خالدون فيها مخلدون، غير أن الخوارج يقولون: إن مرتكبي الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذَّبون عذاب الكافرين، والمعتزلة يقولون: إن عذابهم ليس كعذاب الكافرين[(٥)]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/٢٩٣- ٢٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٧٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٠٩، ٢١٠)، (٢٢/١٢٩)، (٣٥/٩٤، ٩٥)، (٢٨/٢٨٨، ٢٢٩)، (١٥/٢٩٤، ٢٩٥).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٨٦).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٢٤).

وذكر ابن حزم أن من قولهم: إن أصحاب الكبائر مخلدون في النار[١].

وقال السكسكيُّ: إن مرتكبي الكبائر مخلدون في النار معذبون بعذاب أهل النار... الخوارج تقول: إن صاحب الكبيرة يعذب في النار عذاب الكفار[٢].

وقال شيخ الإسلام: قالت الوعيدية: كلُّ فاسقٍ خالدٌ في النار، لا يخرج منها أبدًا [٣].

وقال: ومن أصول المعتزلة مع الخوارج إنفاذ الوعيد في الآخرة، وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولا يخرج منهم أحدًا من النار[٤].

وقال: إذا تَرك واجبًا أو فعل محرمًا، قالوا -أي الغالية المتشددين- بنفوذِ الوعيدِ فيه، فيوجبون تخليد فساقِ أهلِ الملةِ في النارِ، وهذا قول جمهورِ المعتزلةِ والخوارجِ، ولكن الخوارجَ يكفرون بالذنبِ الكبيرِ، أو الصغيرِ عند بعضِهم[٥].

وقال: وأما «الخوارج» ومن وافقهم من المعتزلة فيوجبون خلود من دخل النار، وعندهم من دخلها خلد فيها، ولا يجتمع في حق الشخص الواحد العذاب والثواب...، والوعيدية من الخوارج والمعتزلة: يوجبون العذاب في حق أهل الكبائر؛ لشمول نصوص الوعيد لهم[٦].

وقال: وأهل البدع ذنوبهم ترك ما أمروا به من اتباع السنة وجماعة المؤمنين، .، وكذلك الوعيدية لا يرون اعتقاد خروج أهل الكبائر من النار، ولا قبول الشفاعة فيهم، وهذا ترك واجب[٧].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ومما يبيِّن أن المغفرة العامة في الزمر -هي قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣]، هي للتائبين أنه قال في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]، فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلَّقها على المشيئة، وهناك أطلق وعمم، فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا في حقِّ غيرِ التائب، ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة، خلافًا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج

(١) الفصل (٢/ ٩٠).
(٢) البرهان ص(١٩، ٢٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٤٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥٨).
(٥) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٥١).
(٦) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٠)، (٤/ ٤٨٦).
(٧) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٤، ١٠٥).

والمعتزلة. . . ، ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يعذب، وأنه لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان[1].

وقال: فدلَّ ذلك على أن الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة، والمؤمنون يؤمنون بالوعد والوعيد؛ لقوله ﷺ: «من كان آخر كلامِه لا إله إلا الله دخلَ الجنةَ»، وأمثال ذلك مع قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: الآية ١٠] ، ولهذا لا يشهد لمعين بالجنة إلا بدليلٍ خاصٍّ، ولا يشهد على معين بالنار إلا بدليلٍ خاصٍّ، ولا يشهد لهم بمجردِ الظنِّ من اندراجهم في العموم؛ لأنه قد يندرج في العمومين فيستحق الثواب والعقاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾، والعبد إذا اجتمع له سيئات وحسنات فإنه وإن استحق العقاب على سيئاته فإن الله يثيبه على حسناته، ولا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه، وإنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر، وأنهم لا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها، وأن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الإيمان شيء، وهذه أقوالٌ فاسدةٌ مخالفةٌ للكتابِ والسنةِ المتواترةِ وإجماع الصحابةِ، وسائر أهل السنة والجماعة، وأئمة الدين لا يعتقدون عصمة أحدٍ من الصحابةِ ولا القرابةِ ولا السابقين ولا غيرهم، بل يجوز عندهم وقوع الذنوب منهم، والله تعالى يغفر لهم بالتوبةِ، ويرفع بها درجاتهم، ويغفر لهم بحسنات ماحية، أو بغير ذلك من الأسباب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾، ولكن الأنبياء صلوات الله عليهم هم الذين قال العلماء: إنهم معصومون من الإصرار على الذنوب، فأما الصديقون والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين، وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون، وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا فأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤهم مغفور لهم. وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمين، فتارة يغلون فيهم ويقولون: إنهم معصومون، وتارة يجفون عنهم ويقولون: إنهم باغون بالخطأ، وأهل العلم والإيمان يعصمون ولا يؤثمون.

ومن هذا الباب تولَّد كثيرٌ من فرق أهل البدع والضلال، فطائفة سبت السلف ولعنتهم؛ لاعتقادهم أنهم فعلوا ذنوبًا، وأن من فعلها يستحق اللعنة، بل قد يفسقونهم، أو يكفرونهم، كما

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٢)، (١٦/ ١٨، ١٩).

فعلت الخوارج الذين كفروا عليَّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، ومن تولاهما، ولعنوهم، وسبوهم، واستحلوا قتالهم، وهؤلاء هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «يحقرُ أحدكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، وقراءتَه مع قراءتِهم؛ يقرءون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم، يمرقون من الإسلامِ كما يمرقُ السهمُ من الرميةِ»، وقال ﷺ: «تمرقُ مارقةٌ على فرقةٍ من المسلمين فتقاتلها أولى الطائفتين لأجلِ الحقِّ»[1]

وقال: والنزاع في ذلك مع الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: ما ثَمَّ إلا مُثَاب في الآخرة أو معاقب، ومَن دخل النار لم يخرج منها: لا بشفاعة ولا غيرها، ويقولون: إن الكبيرة تُحبط جميع الحسنات، ولا يبقى مع صاحبها من الإيمان شيء.

وقد ثبت بالنصوص المستفيضة عن النبي ﷺ إخراج قوم من النار بعد ما امتُحشوا، وثبت أيضًا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، والآثار بذلك متواترة عند أهل العلم بالحديث، أعظم من تواتر الآثار بنصاب السرقة، ورجم الزاني المحصن، ونصب الزكاة، ووجوب الشفعة، وميراث الجدة، وأمثال ذلك[2]

وقال: وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾، وقد ذكر في سورة الليل قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾، وهذا الصلي قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النارِ الذين هم أهلُها؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبِهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعةِ، فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهارِ الجنةِ، ثم قيل: يا أهلَ الجنةِ أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية، وفي رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال: ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبي، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: الآية ٧٤]، فقال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهل النارِ فإن النارَ تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون، فيؤتى بهم إلى نهر يقال له: الحياة، أو: الحيوان، فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل»، فقد بيَّن النبي ﷺ أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها، وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم، وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحمًا، ثم يشفع فيهم فيخرجون، ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، وهذا المعني مستفيض عن النبي ﷺ، بل متواتر في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٦٨، ٦٩).
(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٠٤).

وغيرهما، وفيها الرد على طائفتين؛ على الخوارج والمعتزلة، الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها، وهذه الآية حجة عليهم(١).

- قولهم في الشفاعة

ينكرون الشفاعة لأهل الكبائر.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر(٢).

وقال: منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لنبينا ﷺ شفاعة في أهل الكبائر في إخراج أهل الكبائر من النار(٣).

وقال: ينكرها الخوارج والمعتزلة(٤).

وقال: وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع بعض الدرجات، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقًا(٥).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: أما الخوارج والمعتزلة فإنهم أنكروا شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر من أمته، وهؤلاء مبتدعة ضلال، مخالفون للسنة المستفيضة عن النبي ﷺ ولإجماع خير القرون(٦).

وقال: ولكن كثيرًا من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر، فقالوا: لا يشفع لأهل الكبائر، بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم، ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها، ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد؛ بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان(٧).

وقال: وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة -وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم- أن له شفاعاتٍ يوم القيامة خاصة وعامة، وأنه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر، ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٨، ١١٦، ١٤٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٤١).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٤١)، (٤/ ٣٠٩).
(٧) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٨).

المؤمنون؛ دون أهل الشرك، ولو كان المشرك محبًا له معظمًا له لم تنقذه شفاعته من النار، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يقروا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة فقال: **«أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبِه»**، وعنه في صحيح مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة فهي نائلة -إن شاء الله تعالى- من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»**.

وفي السنن عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله: **«أتاني آتٍ من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»** وفي لفظ قال: **«ومن لقي الله لا يشرك به شيئًا فهو في شفاعتي»**[1].

وقال: واتفقوا -أي: الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين- أيضًا على أن نبيّنا يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته، ففي الصحيحين عنه أنه قال: **«لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»**، وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها[2].

وقال: إن أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة متواترة عن النبي ﷺ؛ وقد اتفق عليها السلف من الصحابة، وتابعيهم بإحسان، وأئمة المسلمين وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج، والمعتزلة، ونحوهم.

ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة، ويبقى في الجنة فضل فينشئ الله لها خلقًا آخر يدخلهم الجنة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ[3].

وقال: قد ثبت بالسنة المستفيضة، بل المتواترة، واتفاق الأمة أن نبينا ﷺ الشافع المشفع، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وأن الناس يستشفعون به يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم وأنه يشفع لهم.

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٨).

وقال: ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأيضًا: فالأحاديث المستفيضة عن النبي ﷺ في الشفاعة فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم، وفيهم المؤمن والكافر، وهذا فيه نوع شفاعة للكفار.

وأيضًا: ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه يحوطك ويغضب لك قال: «نعم، هو في ضحضاحٍ من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، وعن عبدِ الله بن الحارث قال: سمعت العبَّاس يقول: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاحٍ».

وعن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاحٍ من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه».

فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب، بل في أن يجعل أهون أهل النار عذابًا، كما في الصحيح أيضًا عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أهونُ أهلِ النارِ عذابًا أبو طالبٍ وهو متنعل بنعلين يغلي منهما دماغه».

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابًا منتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه».

وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهونَ أهلِ النارِ عذابًا يوم القيامة لرجلٌ يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه»، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منها دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا»[1].

وقال: فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة.

ولهذا نُهِيَ عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار، ونُهِيَ عن الاستغفار للمنافقين وقيل له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: الآية ٦]، ولكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ٣٧]

فإذا كان في الكفار من خف كفره بسبب نصرته ومعونته فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في إسقاط العذاب بالكلية، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت: يا رسول الله، فهل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو

(١) مجموع الفتاوى (١/١١٦، ١١٧).

في ضحضاحٍ من نارٍ، ولولا أنا لكان في الدركِ الأسفلِ من النارِ»، وفي لفظ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمراتٍ من نارٍ فأخرجته إلى ضحضاح»، وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ذُكِرَ عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاحٍ من النارِ يبلغ كعبيه يغلي منهما دماغه»، وقال: «إن أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو متنعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه»...

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب، ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين، وقد قيل: إن بعض أهل البدعة ينكرها.

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها، وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب.

وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الله يخرج من النار قومًا بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره، ويخرج قومًا بلا شفاعة.

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٨] وبقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٣] وبقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٤] وبقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: الآية ١٨] وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثر: الآية ٤٨]

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان.

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى في نعتهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين؛ لأنهم كانوا كفارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع: من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة.

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة.

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: الآية ٢٦]، وقال عن الملائكة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: الآية ١٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: الآية ٤]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٤] وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ وقال صاحب يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم

المشركين عليها وكفرهم بها. قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾. قال ابن عباس وغيره: هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلي فيها وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل عليَّ بن أبي طالب فأمره ألا يدع قبرًا مشرفًا إلا سَوَّاه، ولا تمثالًا إلا طمسه ومحاه، ولعن المصورين. وعن أبي الهياج الأسدي: قال لي علي بن أبي طالب: لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته. وفي لفظ: ولا صورة إلا طمستها. أخرجه مسلم(١).

- قولهم في السنة

يرون عدم اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف ظاهر القرآن.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه، لكن خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن، كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك، فضلوا، فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة، وجوزوا على النبي أن يكون ظالمًا فلم ينفذوا لحكم النبي ﷺ، ولا لحكم الأئمة بعده(٢).

وقال: إن الخوارج الحروريَّة كانوا ينتحلون اتِّباع القرآن بآرائهم، ويدعون اتِّباع السنن التي يزعمون أنها تخالف القرآن(٣).

وقال: ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب، وإن كانت متواترة(٤).

وقال: والخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم، فلا يرجمون الزاني، ولا يرون للسرقة نصابًا، وحينئذ فقد يقولون: ليس في القرآن قتل المرتد، فقد يكون المرتد عندهم نوعين(٥).

وقال: وأهل البدع ذنوبهم ترك ما أمروا به من اتباع السنة وجماعة المؤمنين، فإن الخوارج أصل بدعتهم أنهم لا يرون طاعة الرسول واتباعه فيما خالف ظاهر القرآن عندهم، وهذا ترك واجب(٦).

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٤٣- ١٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٨، ٤٩)، (٢٠/ ١٦٦).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٤).

وقال: وأما الخوارج فإنَّهم ادعوا اتِّباع القرآن، وإن ما خالفه من السنة لا يجوز العمل به[(١)] نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: انتحلت الخوارج كتاب الله، وانتحلت الشيعة أهل البيت، وكلاهما غير متبع لما انتحله، فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها، وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم، ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن، فيتأولونه على غير تأويله، من غير معرفة منهم بمعناه، ولا رسوخ في العلم، ولا اتباع للسنة، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن[(٢)]

وقال: وأما السنةُ المتواترةُ التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال: تخالف ظاهره، كالسنة في تقدير نصاب السرقة، ورجم الزاني، وغير ذلك، فمذهب جميع السلف العمل بها أيضًا إلا الخوارج؛ فإن من قولهم -أو قول بعضهم- مخالفة السنة؛ حيث قال أولهم للنبي ﷺ في وجهه: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله.

ويُحكى عنهم أنهم لا يتبعونه ﷺ إلا فيما بلَّغه عن الله من القرآن والسنة المفسرة له، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وقال النبي ﷺ لأولهم: «لقد خبت وخسرت إن لم أعدل». فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه، فقد اتبع ظالمًا كاذبًا، وجوَّز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه من المال مَن هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني؟» أو كما قال.

يقول ﷺ إن أداء الأمانة في الوحي أعظم، والوحي الذي أوجب الله طاعته هو الوحي بحكمه وقسمه.

وقد ينكر هؤلاء كثيرًا من السنن طعنًا في النقل لا ردًّا للمنقول، كما ينكر كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم؛ كالشفاعة والحوض والصراط والقدر وغير ذلك[(٣)]

وقال: وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها، وقد يكون من سنته ما يُظن أنه مخالف لظاهر القرآن وزيادة عليه، كالسنة المفسرة لنصاب السرقة والموجبة لرجم الزاني المحصن، فهذه السنة أيضًا مما يجب اتِّباعه عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٣٩).

طوائف المسلمين، إلا من نازع في ذلك من الخوارج المارقين الَّذين قال فيهم النبيُّ ﷺ: **«يحقِّرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، وقراءتَه مع قراءتِهم، يقرءون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم، يمرقون من الإسلامِ كما يمرقُ السهمُ من الرميةِ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلِهم أجرًا عندَ الله لمن قاتلهم يومَ القيامةِ»**، وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة في وصفهم وذمهم والأمر بقتالهم عن النبي ﷺ. قال أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه، وقد روى مسلم في صحيحه حديثهم من عشرة أوجه، كأنها هي التي أشار إليها أحمد بن حنبل، فإن مسلمًا أخذ عن أحمد.

وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه، وهؤلاء أولهم قال للنبي ﷺ: يا محمد اعدل؛ فإنَّك لم تعدل، فمن جوَّز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه، لكنَّهم يوجبون اتِّباع ما بلَّغه عن الله، وهذا من جهلهم وتناقضهم، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل»**، وقال: **«لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»**؛ أي: إن اتبعت من هو غير عادلٍ فأنت خائب خاسر، وقال: **«أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني؟!»**، يقول: إذا كان الله قد ائتمنني على تبليغ كلامه، أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦١] (١).

وقال: فالطاعن في شيء من حكمه أو قسمه -كالخوارج- طاعن في كتاب الله، مخالف لسنَّة رسول الله ﷺ، مفارق لجماعة المسلمين، وكان شيطان الخوارج مقموعًا لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، فلما افترقت الأمة في خلافة علي ﷺ وجد شيطان الخوارج موضع الخروج، فخرجوا وكفروا عليًّا ومعاوية ومن والاهما، فقاتلهم أولى الطائفتين بالحقِّ علي بن أبي طالب، كما ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«تمرقُ مارقةٌ على حين فرقةٍ من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحقِّ»**.

ولهذا لما ناظرهم من ناظرهم كابن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما بيَّنوا لهم بطلان قولهم بالكتاب والميزان، كما بيَّن لهم ابن عباس، حيث أنكروا على عليٍّ بن أبي طالب قتاله لأهل الجمل، ونهيه عن اتباع مدبرهم والإجهاز على جريحهم وغنيمة أموالهم وذراريهم، وكانت حجة الخوارج أنه ليس في كتاب الله إلا مؤمن أو كافر، فإن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم، وإن كانوا كفارًا أبيحت دماؤهم وأموالهم وذراريهم، فأجابهم ابن عباس بأن القرآن يدل على أن عائشة أم المؤمنين، وبيَّن أن أمهات المؤمنين حرام، فمن أنكر أمومتها فقد خالف كتاب الله، ومن استحل فرج أمه فقد خالف كتاب الله.

وموضع غلطهم ظنُّهم أن من كان مؤمنًا لم يبح قتاله بحال، وهذا مما ضلَّ به من ضلَّ من

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٨٦، ٨٧).

الشيعة، حيث ظنوا أن من قاتل عليًا كافر. فإن هذا خلاف القرآن قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فأخبر سبحانه أنهم مؤمنون مقتتلون، وأمر إن بغت إحداهما على الأخرى أن تقاتل التي تبغي، فإنه لم يكن أمر بقتال أحدهما ابتداء، ثم أمر إذا فاءت إحداهما بالإصلاح بينهما بالعدل، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجرات: الآية ١٠]، فدلَّ القرآن على إيمانهم وإخوتهم مع وجود الاقتتال والبغي، وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به.

وكذلك عمر بن عبد العزيز لما ناظرهم وأقروا بوجوب الرجوع إلى ما نقله الصحابة عن الرسول من فرائض الصلاة، بيَّن لهم عمر أنه كذلك يجب الرجوع إلى ما نقلوه عنه ﷺ من فريضة الرجم، ونصاب الزكاة، وأن الفرق بينهما فرق بين المتماثلين، فرجعوا إلى ذلك.

وكذلك ابن عباس ناظرهم لما أنكروا تحكيم الرجال بأن الله قال في الزوجين: إذا خيف شقاق بينهما أن يبعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، وقال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: الآية ٣٥]، وأمر أيضًا أن يحكم في الصيد بجزاء ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٩٥]، فمن أنكر التحكيم مطلقًا فقد خالف كتاب الله تعالى، وذكر ابن عباس أن التحكيم في أمر أميرين لأجل دماء الأمة أولى من التحكيم في أمر الزوجين؛ والتحكيم لأجل دم الصيد، وهذا استدلال من ابن عباس بالاعتبار وقياس الأولى، وهو من الميزان، فاستدل عليهم بالكتاب والميزان، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: الآية ٥٩].

أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منا، وأمر إن تنازعنا في شيء أن نرده إلى الله والرسول، فدلَّ هذا على أن كل ما تنازع المؤمنون فيه من شيء فعليهم أن يردوه إلى الله والرسول، والمعلَّق بالشرط يعدم عند عدم الشرط، فدلَّ ذلك على أنهم إذا لم يتنازعوا لم يكن هذا الأمر ثابتًا، وكذلك إنما يكون؛ لأنهم إذا لم يتنازعوا كانوا على هدى وطاعة لله ورسوله فلا يحتاجون حينئذ أن يؤمروا بما هم فاعلون من طاعة الله والرسول.

ودل ذلك على أنهم إذا لم يتنازعوا بل اجتمعوا فإنهم لا يجتمعون على ضلالة، ولو كانوا قد يجتمعون على ضلالة لكانوا حينئذ أولى بوجوب الرد إلى الله والرسول منهم إذا تنازعوا، فقد يكون أحد الفريقين مطيعًا لله والرسول، فإذا كانوا مأمورين في هذا الحال بالرد إلى الله والرسول ليرجع إلى ذلك فريق منهم -خرج عن ذلك- فلأن يؤمروا بذلك إذا قدر خروجهم كلهم عنه بطريق الأولى والأحرى أيضًا، فقد قال لهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٣].

فلما نهاهم عن التفرق مطلقًا دل ذلك على أنهم لا يجتمعون على باطل؛ إذ لو اجتمعوا على باطل لوجب اتباع الحقِّ المتضمن لتفرقهم، وبيَّن أنه ألَّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانًا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾، فإذا كانت قلوبهم متآلفة غير مختلفة على أمر من الأمور كان ذلك من تمام نعمة الله عليهم، ومما منَّ به عليهم، فلم يكن ذلك اجتماعًا على باطل؛ لأن الله تعالى أعلم بجميع الأمور[1]

- قولهم في عذاب القبر

ينكرون عذاب القبر.

أقوال العلماء

قال الأشعري: والخوارج لا يقولون بعذاب القبر، ولا ترى أن أحدًا يعذب في قبره[2]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: مذهب سائر المسلمين بل وسائر أهل الملل إثبات القيامة الكبرى، وقيام الناس من قبورهم، والثواب والعقاب هناك، وإثبات الثواب والعقاب في البرزخ -ما بين الموت إلى يوم القيامة- هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة؛ وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع.

لكن من أهل الكلام من يقول: هذا إنما يكون على البدن فقط، كأنه ليس عنده نفس تفارق البدن، كقول من يقول ذلك من المعتزلة والأشعرية.

ومنهم من يقول: بل هو على النفس فقط. بناء على أنه ليس في البرزخ عذاب على البدن ولا نعيم، كما يقول ذلك ابن ميسرة، وابن حزم.

ومنهم من يقول: بل البدن ينعم ويعذب بلا حياة فيه، كما قاله طائفة من أهل الحديث، وابن الزاغوني يميل إلى هذا في مصنفه في حياة الأنبياء في قبورهم، وقد بسط الكلام على هذا في مواضع.

والمقصود هنا أن كثيرًا من أهل الكلام ينكر أن يكون للنفس وجود بعد الموت ولا ثواب ولا عقاب، ويزعمون أنه لم يدل على ذلك القرآن والحديث، كما أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقًا زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن، وهو غلط، بل القرآن قد بيَّن في غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن، وبيَّن النعيم والعذاب في البرزخ.

وهو سبحانه وتعالى في السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى والصغرى كما في سورة الواقعة، فإنه ذكر في أولها القيامة الكبرى، وأن الناس يكونون أزواجًا ثلاثة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٨٨- ٩٢).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٧).

ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾.

ثم إنه في آخرها القيامة الصغرى بالموت، وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم وأنهم لا يمكنهم رجعها، وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ.

وفي سورة القيامة ذكر أيضا القيامتين فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ١] ثم قال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢] وهي نفس الإنسان.

وقد قيل: إن النفس تكون لوامة وغير لوامة، وليس كذلك بل نفس كل إنسان لوامة؛ فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وأما في الآخرة، فهذا إثبات النفس، ثم ذكر معاد البدن فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾. ووصف حال القيامة إلى قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٥]

ثم ذكر الموت فقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٦] وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك: ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقِعَة: الآية ٨٣] والتراقي متصلة بالحلقوم.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٧] يرقيها، وقيل: من صاعد يصعد بها إلى الله؟ والأول أظهر؛ لأن هذا قبل الموت، فإنه قال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٨] فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقيًا يرقيه، وأيضًا فصعودها لا يفتقر إلى طلب من يرق بها، فإن لله ملائكة يفعلون ما يؤمرون، والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني؛ ولهذا قال النبي ﷺ في صفة المتوكلين: لا يسترقون والمراد أنه يخاف الموت، ويرجو الحياة بالراقي؛ ولهذا قال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٢٨]

ثم قال: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها، والعرض القائم بغيره لا يساق، ولا بدن الميت، فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها، كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر.

ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ٣١] وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك.

وكذلك سورة ق هي في ذكر وعيد القيامة، ومع هذا قال فيها: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ

مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾[ق: الآية ١٩] ، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾[ق: الآية ٢٠] فذكر القيامتين: الصغرى والكبرى، وقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[ق: الآية ١٩] ؛ أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت؛ فإن هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد: إن الموت باطل حتى يقال: جاءت بالحق.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[ق: الآية ١٩] فالإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقيه ملائكته، وهذا كقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾[الحجر: الآية ٩٩] واليقين ما بعد الموت، كما قال النبي ﷺ: «**أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه**»؛ وإلا فنفس الموت -مجرد عما بعده- أمر مشهور لم ينازع فيه أحد حتى يسمى يقينًا.

وذكر عذاب القيامة والبرزخ معًا في غير موضع: ذكره في قصة آل فرعون فقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وقال في قصة قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾﴾[نوح: الآية ٢٥] مع إخبار نوح لهم بالقيامة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾﴾.

وقد ذكرنا في غير موضع أن الرسل قبل محمد أنذروا بالقيامة الكبرى تكذيبًا لمن نفى ذلك من المتفلسفة، وقال عن المنافقين: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾[التوبة: الآية ١٠١] قال غير واحد من العلماء: المرة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾[التوبة: الآية ١٠١] في الآخرة.

وقال تعالى في الأنعام: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ * وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ وهذه صفة حال الموت وقوله: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] دل على وجود النفس التي تخرج من البدن، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] دل على وقوع الجزاء عقب الموت.

وقال تعالى في الأنفال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ وهذا ذوق له بعد الموت.

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي ﷺ لما أتى المشركين يوم بدر في القليب ناداهم: «**يا فلان، يا فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا**». وهذا دليل على وجودهم وسماعهم، وإنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب، وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم.

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] وهذا خطاب لهم إذا توفتهم الملائكة، وهم لا يعاينون الملائكة إلا وقد يئسوا من الدنيا، ومعلوم أن البدن لم يتكلم لسانه، بل هو شاهد يعلم أن الذي يخاطب الملائكة هو النفس، والمخاطب لا يكون عرضًا.

وقال تعالى في النحل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذا إلقاء للسلم إلى حين الموت وقول للملائكة ما كنا نعمل من سوء وهذا إنما يكون من النفس.

وقد قال في النحل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: الآية ٣٢]، وقال في السجدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقد ذكروا أن هذا التنزل عند الموت.

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾، وقال قبل تلك في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٤]

وأيضًا فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٢] وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت؛ ثم منها ما يمسك فلا يرسل إلى بدنه: وهو الذي قضى عليه الموت، ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى، وهذا إنما يكون في شيء يقوم بنفسه، لا في عرض قائم بغيره، فهو بيان لوجود النفس مفارقة بالموت.

والأحاديث الصحيحة توافق هذا، كقول النبي ﷺ: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وقال -لما ناموا عن صلاة الصبح-: «إن الله قبض أرواحنا حيث شاء».

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ فهذا توفٍ لها بالنوم إلى أجل الموت الذي ترجع فيه إلى الله، وأخبار أن الملائكة تتوفاها بالموت ثم يردون إلى الله، والبدن وما يقوم به من الأعراض لا يرد، إنما يرد الروح.

وهو مثل قوله في يونس: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: الآية ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق: الآية ٨] ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١١] وتوفي الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه، وإلا فالعرض القائم بغيره لا يتوفى، فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى، بل تزول وتعدم كما تعدم حركته وإدراكه.

وقال تعالى في المؤمنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٩] طلب لرجع النفس إلى البدن، كما قال في الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وهو يبين أن النفس موجودة تفارق البدن بالموت، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٠] آخره[(١)]

وقال: ليعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، فيحصل له معها النعيم والعذاب.

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها، وقاموا من قبورهم لرب العالمين.

ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين، واليهود، والنصارى. وهذا كله متفق عليه عند علماء الحديث والسنة.

وهل يكون للبدن دون الروح نعيم أو عذاب؟ أثبت ذلك طائفة منهم، وأنكره أكثرهم.

ونحن نذكر ما يبين ما ذكرناه، فأما أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ، مثل ما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما: فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة. فقالوا: يا رسول الله، لِمَ فعلت هذا؟ قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

وفي صحيح مسلم، عن زيد بن ثابت، قال: بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٢- ٢٧٠).

-ونحن معه- إذ جالت به، فكادت تلقيه، فإذا أقبر ستة أو خمسة، أو أربعة. فقال: «من يعرف هذه القبور؟» فقال رجل: أنا، قال: «فمتى هؤلاء؟»، قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها؛ فلولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوذوا بالله من عذاب النار» قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن» قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «تعوذوا بالله من فتنة الدجال»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

وفي صحيح مسلم وسائر السنن عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليقل: أعوذ بالله من أربع؛ من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات».

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصار قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس فقال: «يهود يعذبون في قبورهم».

وفي الصحيحين عن عائشة ﷺ قالت: دخلت عليَّ عجوزٌ من عجائز يهود المدينة، فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها، قالت: فخرجت فدخل عليَّ رسول الله فقلت: يا رسول الله، عجوز من عجائز أهل المدينة دخلت عليَّ فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم. فقال: «صدقت، إنهم يعذبون عذابًا يسمعه البهائم كلها» فما رأيته بعد صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر.

وفي صحيح أبي حاتم البستي عن أم مبشر ﷺ قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا في حائط وهو يقول: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» فقلت: يا رسول الله، للقبر عذاب؟ فقال: «إنهم ليعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم».

قال بعضهم: ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود، والنصارى والمنافقين؛ كالإسماعيلية والنصيرية، وسائر القرامطة: من بني عبيد وغيرهم، الذين بأرض مصر والشام وغيرهما؛ فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم لذلك، كما يقصدون قبور اليهود والنصارى والجهال تظن أنهم من ذرية فاطمة، وأنهم من أولياء الله، وإنما هو من هذا القبيل. فقد قيل: إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصلت لها من الحرارة ما يذهب بالمغل. والحديث في هذا كثير لا يتسع له هذا السؤال.

وأحاديث المسألة كثيرة أيضًا، كما في الصحيحين والسنن عن البراء بن عازب ﷺ، أن رسول

الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في قبره شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»؛ فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[إبراهيم: الآية ٢٧] وفي لفظ: «نزلت في عذاب القبر؛ يقال له مَن ربك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، وذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[إبراهيم: الآية ٢٧] ».

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولًا، كما في سنن أبي داود.

وغيره عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار. فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس النبي ﷺ وجلسنا حوله، كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثًا.

وذكر صفة قبض الروح وعروجها إلى السماء، ثم عودها إليه. إلى أن قال: «وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين، يقال له يا هذا، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟».

وفي لفظ: «فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي أرسل فيكم؟» قال: «فيقول: هو رسول الله، فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به، وصدقت به، فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[إبراهيم: الآية ٢٧] » قال: «فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فافرشوا له في الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة» قال: «فيأتيه من روحها وطيبها» قال: «ويفسح له مد بصره» قال: «وإن الكافر» فذكر موته. وقال: «وتعاد روحه إلى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري؛ فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار» قال: «ويأتيه من حرِّها وسمومها» قال: «ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه» قال: «ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابًا» قال: «فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابًا. ثم تعاد فيه الروح».

فقد صرح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد، وباختلاف أضلاعه، وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

وقد روى مثل حديث البراء في قبض الروح والمسألة، والنعيم والعذاب، رواه أبو هريرة، وحديثه في المسند وغيره، ورواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وضع في قبره يسمع خفق نعالهم إذا ولوا عنه مدبرين، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الصدقة عن شماله، وكان فعل الخير من

الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيأتيه الملكان من قبل رأسه؛ فتقول الصلاة ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه ويقول الصيام: ما قبلي مدخل. ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل. ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلي مدخل! فيقول له: اجلس. فيجلس قد مثلت له الشمس، وقد أصغت للغروب. فيقول: دعوني حتى أصلي. فيقولون: إنك ستصلي. أخبرنا عما نسألك عنه، أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقولون فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: محمد نشهد أنه رسول الله، جاء بالحق من عند الله. فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة. فيقال: هذا مقعدك، وما أعد الله لك فيها؛ فيزداد غبطة وسرورًا؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بُدِئَ منه، وتجعل روحه نسم طير يعلق في شجر الجنة» قال: «فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧]».

وذكر في الكافر ضد ذلك أنه قال: «يضيق عليه قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنك، التي قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢٤]»، هذا الحديث أخصر.

وحديث البراء المتقدم أطول ما في السنن، فإنهم اختصروه لذكر ما فيه من عذاب القبر، وهو في المسند وغيره بطوله. وهو حديث حسن ثابت يقول النبي ﷺ فيه: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة، وانقطاع من الدنيا: نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه. فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة ورضوان» قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض» قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، فينتهون به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له -قال-: فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة. فيقول: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى» قال: «فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه» وذكر المسألة كما تقدم قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسرك فهذا يومك الذي قد كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: ربِّ، أقم الساعة، ربِّ، أقم الساعة، ربِّ، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا: نزل إليه من السماء

ملائكة سودُ الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط الله وغضبه، فتفرق في أعضائه كلها، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول؛ فتتقطع معها العروق والعصب» قال: «فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلونها في تلك المسوح» قال: «فيخرج منها كأنتن ما يكون من جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان؛ بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا، فيستفتحون لها فلا يفتح لها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٠] ثم يقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سجين -في الأرض السفلى- قال: «فتطرح روحه طرحًا» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحَج: الآية ٣١] قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه؛ فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه؛ هاه؛ لا أدري» وساق الحديث كما تقدم إلى أن قال: «ويأتيه رجل قبيح الوجه منتن الريح؛ فيقول: أبشر بالذي يسوؤك؛ هذا عملك الذي قد كنت توعد؛ فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي لا يأتي بالخير؟ قال: أنا عملك السوء. فيقول: رب لا تقم الساعة ثلاث مرات».

ففي هذا الحديث أنواع من العلم:

منها: أن الروح تبقى بعد مفارقة البدن؛ خلافًا لضلال المتكلمين، وأنها تصعد وتنزل خلافًا لضلال الفلاسفة، وأنها تعاد إلى البدن، وأن الميت يسأل، فينعم أو يعذب، كما سأل عنه أهل السؤال، وفيه أن عمله الصالح أو السيئ يأتيه في صورة حسنة أو قبيحة.

وفي الصحيحين، عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق نعالهم، أتاه ملكان فيقررانه. فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه محمد عبد الله ورسوله» قال: «فيقول: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة» قال رسول الله ﷺ: «فيراهما كليهما» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون. ثم نرجع إلى حديث أنس: «ويأتيان الكافر والمنافق فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول: كما يقول الناس، فيقول: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين».

وروى الترمذي وأبو حاتم في صحيحه -وأكثر اللفظ له- عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر أحدكم الإنسان: أتاه ملكان أسوادن أزرقان، يقال لهما: منكر، والآخر نكير؛ فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فهو قائل: ما كان يقول، فإن كان مؤمنًا قال: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ فيقولان: إنا كنا

لنعلمَ أنك تقول ذلك.

ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا وينور له فيه. ويقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان له: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا قال: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون شيئًا فقلته. فيقولان: إنا كنا نعلم أنك تقول ذلك. ثم يقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» وهذا الحديث فيه اختلاف أضلاعه وغير ذلك مما يبين أن البدن نفسه يعذب.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا احتضر الميت أتته الملائكة بحريرة بيضاء. فيقولون: اخرجي كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا، حتى يأتوا به باب السماء. فيقولون: ما أطيب هذا الريح! متى جاءتكم من الأرض؟! فيأتون به أرواح المؤمنين، فَلَهُمْ أشدُّ فرحًا به من أحدِكم بغائِبِهِ يقدم عليه، يسألونه: ماذا فعل فلان؟ فيقولون دعوه فإنه في غم الدنيا، فإذا قال: إنه أتاكم قالوا: ذهب إلى أمه الهاوية. وأن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح. فيقولون: اخرجي مسخوطًا عليك إلى عذاب الله، فتخرج كأنتن جيفة، حتى يأتوا به أرواح الكفار». رواه النسائي والبزار، ورواه مسلم مختصرًا عن أبي هريرة ﷺ، وعند الكافر ونتن رائحة روحه، فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا. والريطة: ثوب رقيق لين مثل الملاءة.

وأخرجه أبو حاتم في صحيحه وقال: «إن المؤمن إذا حضره الموت حضرت ملائكة الرحمة، فإذا قبضت نفسه جعلت في حريرة بيضاء، فتنطلق بها إلى باب السماء، فيقولون ما وجدنا ريحًا أطيب من هذه الرائحة، فيقال: دعوه يستريح؛ فإنه كان في غم الدنيا. فيقال: ما فعل فلان، ما فعلت فلانة؟ وأما الكافر إذا قبضت روحه ذهب بها إلى الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحًا أنتن من هذه، فيبلغ بها في الأرض السفلى» ففي هذه الأحاديث ونحوها اجتماع الروح والبدن في نعيم القبر وعذابه، وأما انفراد الروح وحدها فقد تقدم بعض ذلك.

وعن كعب بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه إلى جسده يوم يبعثه» رواه النسائي ورواه مالك والشافعي كلاهما. وقوله: «يعلق» بالضم؛ أي: يأكل وقد نقل هذا في غير هذا الحديث.

فقد أخبرت هذه النصوص أن الروح تنعم مع البدن الذي في القبر -إذا شاء الله- وأنها تنعم في الجنة وحدها، وكلاهما حق.

وقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت عن مالك بن أنس قال: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت، وهذا يوافق ما روي أن الروح قد تكون على أفنية القبور كما قال مجاهد: إن الأرواح تدوم على القبور سبعة أيام يوم يدفن الميت لا تفارق ذلك، وقد تعاد الروح إلى البدن في غير وقت المسألة، كما في الحديث الذي صححه ابن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل

يمر بقبر الرجل الذي كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليها إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام».

وفي سنن أبي داود وغيره عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن خير أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا عليَّ من الصلاة -يوم الجمعة وليلة الجمعة- فإن صلاتكم معروضة عليَّ» قالوا: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ما يضيق هذا الوقت عن استقصائه مما يبين أن الأبدان التي في القبور تنعم وتعذب -إذا شاء الله ذلك- كما يشاء، وأن الأرواح باقية بعد مفارقة البدن، ومنعمة ومعذبة.

ولهذا أمر النبي ﷺ بالسلام على الموتى، كما ثبت في الصحيح والسنن: أنه كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم».

وقد انكشف لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا صوت المعذبين في قبورهم، ورأوهم بعيونهم يعذبون في قبورهم في آثار كثيرة معروفة، ولكن لا يجب ذلك أن يكون دائمًا على البدن في كل وقت، بل يجوز أن يكون في حال دون حال.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ: أن النبي ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا» فسمع عمر ﷺ قول النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون وقد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر.

وقد أخرجاه في الصحيحين عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ وقف على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا» وقال: «إنهم ليسمعون الآن ما أقول» فذكر ذلك لعائشة فقالت: وهم ابن عمر. إنما قال رسول الله ﷺ: «إنهم ليعلمون الآن أن الذي قلت لهم هو الحق» ثم قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: الآية ٨٠] حتى قرأت الآية.

وأهل العلم بالحديث والسنة: اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر وإن كانا لم يشهدا بدرًا، فإن أنسًا روى ذلك عن أبي طلحة، وأبو طلحة شهد بدرًا. كما روى أبو حاتم في صحيحه عن أنس، عن أبي طلحة ﷺ. أن النبي ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر، وكان إذا ظهر على قوم أحب أن يقيم في عرصتهم ثلاث ليال:

فلما كان اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها فحركها، ثم مشى وتبعه أصحابه. وقالوا: ما نراه ينطق إلا لبعض حاجته؛ حتى قام على شفاء الركي؛ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا» قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد ولا أرواح فيها، فقال النبي صلى الله عليه سلم: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

قال قتادة: أحياهم الله حتى سمعهم توبيخًا وتصغيرًا، ونقمة وحسرة وتنديمًا، وعائشة تأولت فيما ذكرته كما تأولت أمثال ذلك.

والنص الصحيح عن النبي ﷺ مقدم على تأويل من تأول من أصحابه وغيره، وليس في القرآن ما ينفي ذلك فإن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: الآية ٨٠] إنما أراد به السماع المعتاد، الذي ينفع صاحبه، فإن هذا مثل ضرب للكفار، والكفار تسمع الصوت، لكن لا تسمع سماع قبول بفقه واتباع، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: الآية ١٧١]

فهكذا الموتى الذين ضرب لهم المثل، لا يجب أن ينفي عنهم جميعُ السماع المعتاد أنواعَ السماع، كما لم ينف عن الكفار؛ بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به، وأما سماع آخر فلا يُنفى عنهم.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن الميت يسمع خفق نعالهم، إذا ولوا مدبرين، فهذا موافق لهذا، فكيف يدفع ذلك؟ ومن العلماء من قال: إن الميت في قبره لا يسمع ما دام ميتًا، كما قالت عائشة واستدلت به من القرآن، وأما إذا أحياه الله فإنه يسمع كما قال قتادة: أحياهم الله له. وإن كانت تلك الحياة لا يسمعون بها، كما نحن لا نرى الملائكة والجن، ولا نعلم ما يحس به الميت في منامه، وكما لا يعلم الإنسان ما في قلب الآخر، وإن كان قد يعلم ذلك من أطلعه الله عليه.

وهذه جملة يحصل بها مقصود السائل، وإن كان لها من الشرح والتفصيل ما ليس هذا موضعه، فإن ما ذكرناه من الأدلة البينة على ما سأل عنه ما لا يكاد مجموعًا، والله أعلم[١]

- قولهم في الإمامة

يقولون بإمامة: أبي بكر، وعمرَ، وعثمانَ قبل الأحداث التي ادعوها عليه، وعليٍّ قبل التحكيم.

ويكفِّرون: عثمانَ، وعليًا، وأصحابَ الجمل، والحكمين، ومن صوَّبهما، أو صوب أحدهما، أو رضي بالتحكيم.

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤- ٢٩٩).

ويوجبون نصب الإمام، والقتال معه ما دام على الطريق السوي، إلا ما حكي عن النجدات منهم فإنهم يرون أن لا حاجة للناس إلى إمام، وإنما عليهم أن يتناصفوا ويعملوا بكتاب فيما بينهم، فإن هم رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه، جاز.

ويرون الإمامة في قريش وغيرهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: الخوارج بأسرها يثبتون إمامة أبي بكر وعمر، وينكرون إمامة عثمانَ -رضوان الله عليهم- في وقت الأحداث التي نُقِمَ عليه من أجلها، ويقولون بإمامة عليٍّ قبل أن يحكِّم، وينكرون إمامته لما أجاب إلى التحكيم، ويكفرون معاويةَ وعمرَو بن العاص وأبا موسى الأشعري، ويرون أن الإمامة في قريشٍ وغيرهم إذا كان القائم بها مستحقًّا لذلك، ولا يرون إمامة الجائر.

وحكى زُرقان عن «النجدات» أنهم يقولون: إنهم لا يحتاجون إلى إمام، وإنما عليهم أن يعملوا كتاب الله سبحانه فيما بينهم[(١)]

وقال: أجمعت الخوارج على إكفار عليٍّ بن أبي طالب رضوان الله عليه أن حكم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا[(٢)]؟

وقال: قالت الخوارج بتصويب عليٍّ في قتال طلحة والزبير ومعاوية[(٣)]

وقال البغدادي: وإنما الصواب فيما يجمع الخوارج كلها ما حكاه شيخنا أبو الحسن رحمه الله من تكفيرهم: عليًّا، وعثمانَ، وأصحابَ الجمل، والحكمين، ومن صوَّبهما، أو صوَّب أحدهما، أو رضي بالتحكيم[(٤)]

وذكر ابن حزم أن من قولهم: إنكار التحكيم، . . . ، وأن الإمامة جائزة في غير قريش[(٥)]

وذكر الإسفراييني أن كلَّهم متفقون على: أن عليًّا، وعثمانَ، وأصحابَ الجمل، والحكمين، وكلَّ من رضي بالحكمين، كفروا كلُّهم[(٦)]

وقال الشهرستاني: يجمعهم القول بالتبري من عثمان وعليٍّ ﵄، ويقدِّمون ذلك على كلِّ طاعةٍ، ولا يصحِّحون المناكحات إلا على ذلك[(٧)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٢٥).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٨٦).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٤٥٧).
(٤) الفرق بين الفرق ص(٩٢).
(٥) الفصل (٢/ ٩٠).
(٦) التبصير في الدين ص(٤٥).
(٧) الملل والنحل (١/ ١١٤).

وقال: وإنما خروجهم في الزمن الأول على أمرين: أحدهما: بدعتهم في الإمامة؛ إذ جوَّزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إمامًا، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه، وإن غيَّر السيرة وعدلَ عن الحق وجبَ عزله أو قتله، وهم أشدُّ الناس قولًا بالقياس، وجوَّزوا ألا يكون في العالم إمام أصلًا، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبدًا أو حرًّا أو نبطيًّا أو قرشيًّا(١).

وقال: وتخطوا عن هذه التخطئة إلى التكفير، ولعنوا عليًّا رضي الله عنه فيما قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، فقاتل الناكثين وما اغتنم أموالهم وما سبى ذراريهم ونساءهم، وقتل مقاتِلة القاسطين وما اغتنم ولا سبى ثم رضي بالتحكيم، وقاتل مقاتِلة المارقين واغتنم أموالهم وسبى ذراريهم، وطعنوا في عثمان رضي الله عنه للأحداث التي عدوها عليه، وطعنوا في أصحاب الجمل، وأصحاب صفين(٢).

وقال الرازي: وهم يكفِّرون عثمانَ وعليًّا وطلحةَ والزبيرَ وعائشةَ، ويعظِّمون أبا بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما(٣).

وقال السكسكي: وقد اجتمعوا على صحة إمامةِ أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، وعلى تكفير عليٍّ وعثمانَ رضي الله عنهما، وتكفير كلِّ فرقةٍ سواهم، وموالاة عبد الرحمن بن ملجم قاتل عليٍّ(٤).

وقال: وتنكر الخوارج إمامة عثمانَ رضي الله عنه من وقت الذي يزعمون أنه أحدث فيه، وإمامة عليٍّ رضي الله عنه من وقت التحكيم، ويبرءون منهما(٥).

وقال شيخ الإسلام: الخوارج تكفِّر عثمانَ وعليًّا وسائرَ أهل الجماعة(٦).

وقال: وإنما كان هذا للخوارج تميَّزوا بالإمام والجماعة والدار، وسموا دارهم دار الهجرة، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب.

وكلا الطائفتين -أي الشيعة والخوارج- تطعن بل تكفر ولاة المسلمين، وجمهور الخوارج يكفِّرون عثمانَ وعليًّا ومن تولاهما(٧).

وقال: أما الخوارج فتكفِّر الطائفتان المقتتلان جميعًا(٨).

---

(١) الملل والنحل (١/ ١١٦).
(٢) الملل والنحل (١/ ١١٦، ١١٧).
(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٦).
(٤) البرهان ص(١٩).
(٥) البرهان ص(٢٠).
(٦) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٦)، منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٤٣).
(٧) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥).
(٨) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٥٠).

وقال: الخوارج الَّذين كفَّروا عليَّ بن أبي طالب، وعثمانَ بن عفان، ومن تولاهما، ولعنوهم، وسبوهم، واستحلوا قتالهم[١].

وقال: قالوا: إن عثمانَ وعليًا ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]، فكفروا المسلمين بهذا وبغيره[٢].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: هؤلاء النواصب الخوارج المارقون إذ قالوا: إن عثمانَ وعليَّ بن أبي طالب ومن معهما كانوا كفارًا مرتدين، فإنَّ من حجة المسلمين عليهم ما تواتر من إيمان الصحابة، وما ثبت بالكتاب والسنة الصحيحة من مدح الله تعالى لهم، وثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، وإخباره بأنهم من أهل الجنة، ونحو ذلك من النصوص، ومن لم يقبل هذه الحجج لم يمكنه أن يثبت إيمان علي بن أبي طالب وأمثاله.

فإنه لو قال هذا الناصبي للرافضي: إن عليًا كان كافرًا، أو فاسقًا ظالمًا، وأنه قاتل على المُلك لطلب الرياسة؛ لا للدين، وأنه قتل من أهل الملة من أمة محمدٍ ﷺ بالجمل، وصفين، وحروراء، ألوفًا مؤلفة، ولم يقاتل بعد وفاة النبي ﷺ كافرًا، ولا فتح مدينة، بل قاتل أهل القبلة، ونحو هذا الكلام -الذي تقوله النواصب المبغِضون لعليٍّ ﷺ- لم يمكن أن يجيب هؤلاء النواصب إلا أهل السنة والجماعة، الذين يحبون السابقين الأولين كلهم ويوالونهم.

فيقولون لهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، ونحوهم، ثبت بالتواتر إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، وثبت في القرآن ثناء الله عليهم والرِّضا عنهم، وثبت بالأحاديث الصحيحة ثناء النبي ﷺ عليهم خصوصًا وعمومًا، كقوله في الحديث المستفيض عنه: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا»، وقوله: «إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»، وقوله عن عثمان: «ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة؟!»، وقوله لعلي: «لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، وقوله: «لكل نبيٍّ حواريون، وحواريي الزبير»، وأمثال ذلك[٣]

وقال: قاعدة: قال النبيُّ ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه -أو الملك- من يشاء»، لفظ أبي داود من رواية عبدالوارث والعوام: «تكون الخلافة ثلاثون عامًا، ثم يكون الملك»، «تكون الخلافة ثلاثين سنة، ثم تصير ملكًا»، وهو حديث مشهور من رواية: حماد بن سلمة، وعبدالوارث بن سعيد، والعوَّام بن حوشب، وغيره، عن سعيد بن جمهان،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٨، ٤٦٩)، التنبيه والرد ص(٤٨، ٥٠).

عن سفينة مولى رسول الله ﷺ، ورواه أهل السنن: كأبي داود وغيره، واعتمد عليه الإمام أحمد وغيره في تقرير خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة، وثبته أحمد، واستدل به على من توقف في خلافة عليٍّ مِن أجل افتراق الناس عليه، حتى قال أحمد: من لم يُرَبِّع بعليٍّ في الخلافة فهو أضل من حمار أهله، ونهى عن مناكحته، وهو متفق عليه بين الفقهاء، وعلماء السنة وأهل المعرفة، والتصوف، وهو مذهب العامة.

وإنما يخالفهم في ذلك بعض أهل الأهواء، من أهل الكلام، ونحوهم: كالرافضة الطاعنين في خلافة الثلاثة، أو الخوارج الطاعنين في خلافة الصهرين المنافيين: عثمان وعلي، أو بعض الناصبة النافين لخلافة عليٍّ، أو بعض الجهال من المتسننة الواقفين في خلافته، ووفاة النبيِّ ﷺ كانت في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من هجرته، وإلى عام ثلاثين سنة كان إصلاح ابن رسول الله ﷺ، الحسن بن علي السيد، بين فئتين من المؤمنين، بنزوله عن الأمر عام إحدى وأربعين في شهر جمادى الأولى، وسمي «عام الجماعة» لاجتماع الناس على معاوية، وهو أول الملوك، وفي الحديث الذي رواه مسلم: «**ستكون خلافة نبوة ورحمة، ثم يكون ملك ورحمة، ثم يكون ملك وجبرية، ثم يكون ملك عضوض**»، وقال ﷺ في الحديث المشهور في السنن وهو صحيح: «**إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**»(١).

وقال: أما كون الخلافة في قريش، فلما كان هذا من شرعه ودينه، كانت النصوص بذلك معروفة منقولة مأثورة يذكرها الصحابة(٢).

وقال: إن عمر وغيره من الصحابة كانوا يعلمون أن الإمامة في قريش، كما استفاضت بذلك السنن عن النبي ﷺ؛ ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان**»، وفي لفظ: «**ما بقي منهم اثنان**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن: مؤمنهم تبع لمؤمنهم، وكافرهم تبع لكافرهم**». رواه مسلم.

وفي حديث جابر قال: «**الناس تبع لقريش في الخير والشر**».

وخرَّج البخاري عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين**».

وهذا مما احتجوا به على الأنصار يوم السقيفة(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨، ١٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ٥٢١).

(٣) منهاج السنة النبوية (٦/ ١٥١)، (٣/ ٣٨٢- ٣٨٥).

وقال: إن من نازع أولًا من الأنصار لم تكن منازعته للصديق، بل طلبوا أن يكون منهم أمير ومن قريش أمير.

وهذه منازعة عامة لقريش، فلما تبين لهم أن هذا الأمر في قريش قطعوا المنازعة(١)

- قولهم في الخروج على الأئمة

يقولون بالخروج على الحاكم بالسيف إذا جارَ، أو كفرَ، أو فسقَ.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأما السيفُ فإن الخوارج تقول به وتراه، إلا أن «الإباضية» لا ترى اعتراض الناس بالسيف، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور، ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيء قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف(٢)

وقال عنهم: ولا يرون إمامة الجائر(٣)

وقال: قالت المعتزلة والزيدية والخوارج وكثير من المرجئة: ذلك واجب إذا أمكننا أن نزيل بالسيف أهل البغي ونقيم الحق، واعتلوا بقول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائدة: الآية ٢] ، وبقوله: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجرَات: الآية ٩] ، واعتلوا بقول الله عز وجل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] (٤)

وقال ابن حزم عنهم: والقول بالخروج على أئمة الجور(٥)

وقال الإسفراييني: ومما يجمع جميعُهم أيضًا تجويزهم الخروج على الإمام الجائر(٦)

وقال الشهرستاني: يرون الخروجَ على الإمام إذا خالف السنة حقًّا واجبًا(٧)

وقال شيخ الإسلام: الخوارج الذين يرون السيف(٨)

وقال: ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارجِ: من سفكِ الدماءِ، وأخذِ الأموالِ، والخروجِ بالسيفِ(٩)

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٥٥)، الفصل (٤/ ٧٤، ٧٥).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٤٥١).
(٥) الفصل (٢/ ٩٠).
(٦) التبصير في الدين ص(٤٥).
(٧) الملل والنحل (١/ ١١٦).
(٨) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٣)، الفصل (٤/ ١٣٢).
(٩) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥).

وقال: إن الخوارجَ ترى السيفَ، وحروبهم مع الجماعة مشهورة، وعندهم كل دار غير دارهم فهي دار كفر[(١)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: من يريد أن يأمرَ وينهى، إما بلسانِه، وإما بيدِه مطلقًا، من غير فقهٍ، وحلمٍ، وصبرٍ، ونظرٍ فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، ورأيت أمرًا لا يدان لك به، فعليك بنفسِك، ودع عنك أمرَ العوام، فإن من ورائِك أيام الصبرُ فيهن على مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجرِ خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**»، فيأتي بالأمر والنهي معتقدًا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله، وهو معتدٍ في حدوده، كما انتصب كثير من أهلِ البدعِ والأهواءِ؛ كالخوارجِ، والمعتزلةِ، والرافضةِ، وغيرِهم، ممن غلط فيما أتاه من الأمرِ والنهيِ والجهادِ على ذلك، وكان فساده أعظم من صلاحِه، ولهذا أمر النبيُّ ﷺ بالصبرِ على جورِ الأئمةِ، ونهى عن قتالِهم ما أقاموا الصلاةَ، وقال: «**أدوا إليهم حقوقَهم، وسلوا الله حقوقكم**»[(٢)]

وقال: ولهذا أمر النبيُّ ﷺ بقتال من يقاتل على الدينِ الفاسدِ من أهلِ البدعِ؛ كالخوارجِ، وأمر بالصبرِ على جورِ الأئمةِ، ونهى عن قتالِهم، والخروجِ عليهم[(٣)]

وقال: وقد ذكرت في غير هذا الموضوع، إن مصير الأمرِ إلى الملوك ونوابهم من الولاةِ؛ والقضاةِ والأمراءِ، ليس لنقصٍ فيهم فقط، بل لنقصٍ في الراعي والرعيةِ جميعًا؛ فإنه «كما تكونون: يول عليكم»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩]

وقد استفاض وتقرَّر في غير هذا الموضعِ ما قد أمر به ﷺ، من طاعةِ الأمراءِ في غيرِ معصيةِ الله، ومناصحتهم، والصبر عليهم في حكمهم، وقسمهم، والغزو معهم، والصلاة خلفهم، ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم، فإنه من «باب التعاون على البر والتقوى». وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم، وطاعتهم في معصية الله، ونحو ذلك؛ ومما هو من «باب التعاون على الإثم، والعدوان».

وما أمر به أيضًا من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: لهم ولغيرهم على الوجه المشروع؛ وما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم؛ بحيث لا يترك ذلك جبنًا، ولا بخلًا، ولا خشية لهم، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله؛ ولا يُفعل أيضًا للرئاسة عليهم، ولا على العامة، ولا

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٩)، (٢٨/ ٤٧١).

للحسد، ولا للكبر، ولا للرياء لهم، ولا للعامة، ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه، بحيث يخرج عليهم بالسلاح، وتقام الفتن، كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة، كما دلت عليه النصوص النبوية؛ لما في ذلك من الفساد الذي يربو على فساد ما يكون من ظلمهم؛ بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم، ويفعل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه [(١)]

- قولهم في الأسماء والصفات

هم معطلة؛ ينفون جميع صفات الله عز وجل، وطريقتهم النفي المفصَّل، وأن أسماءَه وصفاتِه غيره.

أقوال العلماء

قال الأشعري: فأما التوحيد فإن قول الخوارج فيه كقول المعتزلة... والإباضية تخالف المعتزلة في التوحيد في الإرادة فقط؛ لأنهم يزعمون أن الله سبحانه لم يزل مريدًا لمعلوماته التي تكون أن تكون، ولمعلوماته التي لا تكون ألّا تكون[(٢)]

وقال بعد أن ذكر مقالة المعتزلة في تعطيل أسماء وصفات المولى عز وجل: فهذه جملة قولهم في التوحيد، وقد شاركهم في هذه الجملة الخوارج[(٣)]

وقال: وقال قائلون أسماء البارئ هي غيره وكذلك صفاته، وهذا قول المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وكثير من الزيدية[(٤)]

وقال: قالت المعتزلةُ والخوارجُ: الأسماءُ والصفاتُ هي الأقوالُ وهي قولنا: الله عالمٌ الله قادرٌ، وما أشبه ذلك[(٥)]

وقال: وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان[(٦)]

وقال: وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى قول الله تعالى: الرحمن على العرش استوى، أنه استولى وملك وقهر، وأن الله تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله عز وجل مستوٍ على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة[(٧)]

وقال السكسكيُّ: ومذهبُ الخوارجِ كمذهبِ المعتزلةِ إلا في الإرادة، فإنهم يقولون: إن الله تعالى لم يزل مريدًا لإرادات، ويكون على الوجه الذي أراده وعلمه، والمعتزلة تخالف ذلك[(٨)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠، ٢١).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٤).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٥٦)، (١٦٤).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).
(٦) الإبانة ص(١١٠).
(٧) الإبانة ص(١٠٩).
(٨) البرهان ص(١٩).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: قال أبو عمر -ابن عبد البر- أيضًا: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة؛ لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة.

وأما أهلُ البدعِ: الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج: فكلهم ينكرونها، ولا يحملون شيئًا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقرَّ بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبودِ، والحق فيما قاله القائلون: بما نطق به كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهم أئمة الجماعة.

هذا كلام ابن عبد البر إمام أهل المغرب.

وفي عصره الحافظ أبو بكر البيهقي مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعري، وذبه عنهم، قال في كتابه «الأسماء والصفات»:

(باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين -لا من حيث الجارحة- لورود خبر الصادق به، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: الآية ٧٥]، وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]).

وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب...

ثم قال البيهقي: أما المتقدمون من هذه الأمة فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب، وكذلك قال في الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية مع أنه يحكى قول بعض المتأخرين.

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويل: لا يجوز رد هذه الأخبار، ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله، لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها، لكن على ما روي عن الإمام أحمد وسائر الأئمة.

وذكر بعض كلام الزهري، ومكحول، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والليث، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ووكيع، وعبد الرحمن بن مهدي، والأسود بن سالم، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم في هذا الباب. وفي حكاية ألفاظهم طول.

إلى أن قال:

ويدل على إبطال التأويل: أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها؛ ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفوها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغًا لكانوا أسبق إليه؛ لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة.

وقال أبو الحسن (علي بن إسماعيل الأشعري)، المتكلم، صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام في كتابه الذي صنفه في «اختلاف المصلين، ومقالات الإسلاميين»، وذكر فرق الروافض

والخوارج، والمرجئة والمعتزلة وغيرهم.

ثم قال: (مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث) جملة. قول أصحاب الحديث وأهل السنة: الإقرار بالله وملائكته، وكتبه ورسله، وبما جاء عن الله تعالى، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردون شيئًا من ذلك، وأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله على عرشه، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] ، وأن له يدين بلا كيف، كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: الآية ٧٥] ، وكما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤] ، وأن له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القَمَر: الآية ١٤] ، وأن له وجهًا، كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٧]

وأن أسماء الله تعالى لا يقال: إنها غير الله، كما قالت المعتزلة والخوارج، وأقروا أن لله علمًا، كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النّساء: الآية ١٦٦] ، وكما قال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١١] ، وأثبتوا له السمع والبصر، ولم ينفوا ذلك عن الله، كما نفته المعتزلة، وأثبتوا لله القوة، كما قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فُصّلَت: الآية ١٥] وذكر مذهبهم في القدر، إلى أن قال:

ويقولون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في اللفظ والوقف، من قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق، ويقرون أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة، كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون، قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطفّفين: الآية ١٥] وذكر قولهم في الإسلام والإيمان والحوض والشفاعة وأشياء[1]

وقال: وقال السجزي في «الإبانة»: وأئمتنا كالثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك، والفضيل، وأحمد وإسحاق: متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يرى يوم القيامة بالأبصار فوق العرش، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا، وأنه يغضب، ويرضى ويتكلم بما شاء؛ فمن خالف شيئًا من ذلك فهو منهم بريء، وهم منه برآء[2]

وسيأتي مزيد بيان عند قول المعتزلة في الأسماء والصفات، وفي علو البارئ عز وجل، وفي الاستواء، وفي مقالة التعطيل.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٨٧- ٩١)، (٥/ ١٩٨)، (٣/ ٢٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٢، ٢٦٢).

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

ينفون رؤية المولى عز وجل بالأبصار في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقالت المعتزلة والخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الزيدية: إن الله لا يُرى بالأبصار في الدنيا والآخرة، ولا يجوز ذلك عليه[١].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في كلام الله عز وجل

يقولون بخلق القرآن

أقوال العلماء

قال الأشعري: والخوارج جميعًا يقولون بخلق القرآن[٢].

وقال: قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزيدية والمرجئة وكثير من الرافضة: إن القرآن كلام الله سبحانه، وإنه مخلوق لله لم يكن ثم كان[٣].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في كلام الله عز وجل.

- قولهم في القدر

منهم من ينفي القدر، ومنهم من يثبته، ومنهم من يفصِّل.

أقوال العلماء

١- مَن ينفي القدر منهم هم الميمونية، والحمزية، والأطرافية من العجاردة، والحارثية من الإباضية، والشبيبية -أو أصحاب السؤال- من البيهسية.

قال الأشعري عن الميمونية: الذي تفردوا به القول بالقدر على مذهب المعتزلة؛ وذلك أنهم يزعمون أن الله سبحانه فوض الأعمال إلى العبادِ، وجعل لهم الاستطاعةَ إلى كل ما كلفوا، فهم يستطيعون الكفر والإيمان جميعًا، وليس لله سبحانه في أعمال العباد مشيئة، وليست أعمال العباد مخلوقة لله[٤].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٤).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٩٣).

وقال عن الحمزية: ثبتوا على قول الميمونية بالقدر[١].

وقال عن الحارثية: قالوا في القدر بقول المعتزلة وخالفوا فيه سائر الإباضية، وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل[٢].

وقال عن الشبيبية أو أصحاب السؤال: قالوا بقول المعتزلة في القدر فبرئت منهم البيهسية[٣].

٢- من يثبت القدر منهم هم: الخازمية، والشعيبية، والخلفية، والمجهولية من العجاردة، وجمهور الإباضية.

قال الأشعري عن الخلفية: فارقوا الميمونية في القول بالقدر وقالوا بالإثبات[٤].

وقال عن الشعيبية: إنه لا يستطيع أحد أن يعمل إلا ما شاء الله، وإن أعمال العباد مخلوقة لله[٥].

وقال عن الخازمية: الذي تفردوا به إنهم قالوا في القدر بالإثبات[٦].

وقال عن المجهولية: وقالوا بإثبات القدر[٧].

٣- من يفصّل منهم هم: المعلومية من الخازمية.

قال الأشعري عن المعلومية: إن أفعال العباد ليست مخلوقة، وإن الاستطاعة مع الفعل، ولا يكون إلا ما شاء الله[٨].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند الكلام عن مقالة القدرية.

- قولهم في قدرة الله على الظلم

ينفون قدرة الله على الظلم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: أما الوصف لله سبحانه بالقدرة على أن يظلم؛ فإن الخوارج جميعًا تنكر ذلك[٩].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٩٣، ٩٤).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٠٤).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١١٦).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٩٣).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(٩٤).
(٦) مقالات الإسلاميين ص(٩٦).
(٧) مقالات الإسلاميين ص(٩٧).
(٨) مقالات الإسلاميين ص(٩٦)، ص(١٢٤).
(٩) مقالات الإسلاميين ص(١٢٥).

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة في قدرة الله على الظلم.

- قولهم في الأرزاق

منهم من ينفي رزق الله الحرام لمن اغتصبه، ومنهم من يثبته.

أقوال العلماء

قال الأشعري: أما القول في البارئ هل يرزق عباده الحرام إذا غلبوا عليه وأكلوه؟

فإن مَن مال منهم إلى قول المعتزلة في القدر ينكر ذلك، ومن قال منهم بالإثبات قال: إن الله يرزق عباده الحرام إذا غلبوا عليه وأكلوه[١].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة في الأرزاق.

- قولهم في حكم الأطفال في الآخرة.

منهم من يرى أن حكمهم حكم آبائهم، ومنهم من يرى جواز إيلام أطفال المشركين وعدمه وأطفال المؤمنين يلحقوا بآبائهم، ومنهم من يرى أنهم كلهم في الجنة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: للخوارج في الأطفال ثلاثة أقاويل:

صنف منهم: يزعمون أن أطفال المشركين حكمهم حكم آبائهم، يعذَّبون في النار، وأن أطفال المؤمنين حكمهم حكم آبائهم، واختلف هذا الصنف في الآباء إذا انتقلوا بعد موت أطفالهم عن أديانهم، فقال قائلون: ينتقلون إلى حكم آبائهم، وقال قائلون: هم على الحال التي كان آباؤهم عليها في حال موتهم لا ينتقلون بانتقالهم.

وقال الصنف الثاني منهم: جائز أن يؤلم الله سبحانه في النار أطفال المشركين على غير المجازاة لهم، وجائز ألا يؤلمهم، وأطفال المؤمنين يلحقون بآبائهم لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطُّور: الآية ٢١].

وقال الصنف الثالث وهم القدرية: أطفال المشركين والمؤمنين في الجنة[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأطفال الكفار أصح الأقوال فيهم: الله أعلم بما كانوا عاملين، كما أجاب بذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح، وطائفة من أهل الحديث وغيرهم قالوا: إنهم كلهم في

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٢٧).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٥، ١٢٦).

النار، وذكر أنه من نصوص أحمد وهو غلط على أحمد.

وطائفة جزموا بأنهم كلهم في الجنة، واختار ذلك أبو الفرج ابن الجوزي وغيره، واحتجوا بحديث فيه رؤيا النبي ﷺ لما رأى إبراهيم الخليل وعنده أطفال المؤمنين، قيل: يا رسول الله، وأطفال المشركين؟ قال: وأطفال المشركين.

والصواب أن يقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ولا نحكم لمعين منهم بجنة ولا نار، وقد جاء في عدة أحاديث: **«أنهم يوم القيامة في عرصات القيامة يؤمرون وينهون، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار»**. وهذا هو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة. والتكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء، وهي الجنة والنار.

وأما عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ. فيقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤٢] الآية.

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه حديث تجلي الله لعباده في الموقف، إذا قيل: **«ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع المشركون آلهتهم، ويبقى المؤمنون فيتجلى لهم الرب في غير الصورة التي يعرفون فينكرونه ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفونها، فيسجد له المؤمنون، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر، يريدون السجود فلا يستطيعون»**. وذكر قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤٢] الآية (١)

وقال: إذا مات الطفل فهل يمتحن في قبره ويسأله منكر ونكير؟ فيه قولان في مذهب أحمد وغيره:

أحدهما: أنه لا يمتحن، وأن المحنة إنما تكون على من كلف في الدنيا، قاله طائفة منهم القاضي أبو يعلى وابن عقيل.

والثاني: إنهم يمتحنون ذكره أبو حكيم الهمداني، وأبو الحسن بن عبدوس، ونقله عن أصحاب الشافعي. وعلى هذا التفصيل «تلقين الصغير والمجنون» من قال: إنه يمتحن في القبر لقنه، ومن قال: لا يمتحن لم يلقنه.

وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه ﷺ صلى على طفل. فقال: **«اللهم قه عذاب القبر، وفتنة القبر»**، وهذا القول موافق لقول من قال: إنهم يمتحنون في الآخرة، وإنهم مكلفون يوم القيامة، كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد، والله أعلم.

(١) مجموع الفتاوى (٤/٣٠٣، ٣٠٤)، (٤/٢٤٦، ٣١٢).

وإذا دخل أطفال المؤمنين الجنة فأرواحهم وأرواح غيرهم من المؤمنين في الجنة. وإن كانت درجاتهم متفاضلة، والصغار يتفاضلون بتفاضل آبائهم، وتفاضل أعمالهم -إذا كانت لهم أعمال- فإن إبراهيم ابن النبي ﷺ ليس هو كغيره، والأطفال الصغار يثابون على ما يفعلونه من الحسنات، وإن كان القلم مرفوعًا عنهم في السيئات؛ كما ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ رفعت إليه امرأة صبيًا من محفة فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر» رواه مسلم في صحيحه.

وفي السنن أنه قال: «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» وكانوا يصومون الصغار يوم عاشوراء وغيره؛ فالصبي يثاب على صلاته وصومه، وحجه وغير ذلك من أعماله، ويفضل بذلك على من لم يعمل كعمله، وهذا غير ما يفعل به إكرامًا لأبويه، كما أنه في النعم الدنيوية قد ينتفع بما يكسبه وبما يعطيه أبواه، ويتميز بذلك على من ليس كذلك.

وأرواح المؤمنين في الجنة، كما جاءت بذلك الآثار، وهو كما قال النبي ﷺ: «نسمة المؤمن تعلق من الجنة»؛ أي: تأكل ولم يوقت في ذلك وقت قبل يوم القيامة[١]

- قولهم في الاجتهاد

منهم من يجيز الاجتهاد في الأحكام، ومنهم من لا يجيزه.

أقوال العلماء

قال الأشعري: اختلفت الخوارج في اجتهاد الرأي، وهم صنفان:

فمنهم من يجيز الاجتهاد في الأحكام كنحو «النجدات» وغيرهم.

ومنهم من ينكر ذلك، ولا يقول إلا بظاهر القرآن، وهم الأزارقة[٢]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الشيعة في الاجتهاد.

- قولهم في القياس

أقوال العلماء

قال الشهرستانيُّ عنهم: وهم أشد الناس قولًا بالقياس[٣]

وقال الجوينيُّ: وذهب ذاهبون إلى القول بالقياس العقلي وجحد القياس الشرعي، وهذا مذهب: النظام، وطوائف من الرافضة، والإباضية، والأزارقة، ومعظم فرق الخوارج إلا

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٧، ٢٧٨)، (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٧).

(٣) الملل والنحل (١/ ١١٦).

النجدات منهم فإنهم اعترفوا بأطراف من القياس[١].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الشيعة في المعارف والنظر والقياس.

- قولهم في التكليف

أقوال العلماء

قال الأشعري: حكى حاكٍ عن الخوارج أنهم لا يرون على الناس فرضًا ما لم يأتهم الرسل، وأن الفرائض تلزم بالرسُلِ، واعتلوا بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] [٢].

وقال السكسكيُّ: وإن العالم يفنى إذا أفنى الله أهل التكليف؛ لأنه خلق لهم فإذا أفناهم لم يكن لنفسه معنى[٣].

---

(١) البرهان في أصول الفقه (٢/ ٤٩٠)، وعنه درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٧٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٢٧).

(٣) البرهان ص(١٩).

الفصل السادس

مَقَالَاتُ فِرَقِ الخَوَارِجِ

وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: مقالات الأزارقة.

المبحث الثاني: مقالات النجدات.

المبحث الثالث: مقالات العجاردة وفرقها.

المبحث الرابع: مقالات الصفرية وفرقها.

المبحث الخامس: مقالات الإباضية وفرقها.

المبحث السادس: مقالات البيهسية وفرقها.

المبحث السابع: مقالات الشمراخية.

المبحث الثامن: مقالات فرق من الخوارج.

المبحث الأول

مَقَالَاتُ الْأَزَارِقَةِ

١- اجتمعت على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفرَ ملةٍ خرج به عن الإسلام جملةً، ويكون مخلدًا في النار مع سائر الكفار، واستدلوا بكفر إبليس، وقالوا ما ارتكب إلا كبيرةً؛ حيث أُمِرَ بالسجود لآدم عليه السلام فامتنع، وإلا فهو عارف بوحدانية الله تعالى.

٢- قولهم بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون.

٣- قولهم إن القَعَدة عن الهجرةِ إليهم مشركون، وإن كانوا على رأيهم، واحتج بقوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: الآية ٥٤]

٤- قولهم بالمحنة لمن قصد عسكرهم، وذلك بأن أوجبوا امتحان من قصد عسكرهم إذا ادَّعى أنه منهم؛ بأن يدفعَ إليه أسير من مخالفيهم، ويأمروه بقتله، فإن قتله صدقوه في دعواه أنه منهم، وإن لم يقتله قالوا: هذا منافق ومشرك، وقتلوه.

٥- قولهم باستباحة قتل نساء مخالفيهم، وقتل أطفالهم، وقتل العميان، والعجائز، والعرجان.

٦- زعموا أن الأطفال مشركون، وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار، وأن حكمهم حكم آبائهم، وكذلك أطفال المؤمنين حكمهم حكم آبائهم.

٧- أن دارَ مخالفيهم دارُ كفرٍ، يجوز فيها قتل الأطفال والنساء.

٨- لا تحل لهم ذبائحُ مَن خالفهم من المسلمين، ولا مناكحتهم، ولا ميراثهم.

٩- إباحة قتل من واجهوه إلا أهل عسكرهم.

١٠- حرموا قتل اليهود والمجوس والنصارى، إن لم يكونوا أهل ذمة.

١١- أن من أقام في دارِ الكفرِ فكافرٌ لا يسعه إلا الخروج، وهذا قول النجدات.

١٢- إسقاط الرجم عن الزاني المحصن، إذ ليس في القرآن ذكره.

١٣- استحلوا خَفْرَ الأمانة التي أمر الله تعالى بأدائها، وقالوا: إن مخالفينا مشركون فلا يلزمنا أداء أمانتنا إليهم.

١٤- لم يقيموا الحد على قاذف الرجل المحصن، وأقاموه على قاذف المحصنات من النساء.

١٥- قطعوا يد السارق في القليل والكثير، من العضد، ولم يعتبروا في السرقة نصابًا.

١٦- جوزوا للحائض الصلاةَ والصيامَ.

١٧- قالوا: نشهد بالله أنه لا يكون في دارِ الهجرة ممن يظهر الإسلام إلا من ﷺ.

١٨- قالوا: ما كفَّ أحد يده عن القتال منذ أنزل الله عز وجل البسط إلا وهو كافر

١٩- أن التقية غير جائزة في قول ولا عمل، واحتج بقول الله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ٧٧]

٢٠- تجويزه -أي نافع الأزرق- أن يبعث الله تعالى نبيًّا يعلم أنه يكفر بعد نبوته، أو كان كافرًا قبل البعثة، والكبائر والصغائر إذا كانت بمثابة عنده وهي كفر، وفي الأمة من جوز الكبائر والصغائر على الأنبياء عليهم السلام فهي كفر(١)

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٨٧- ٨٩)، التنبيه والرد ص(٥١)، التبصير في الدين ص(٥٠)، الفرق بين الفرق ص(١٠١، ١٠٢)، الملل والنحل (١/ ١١٩- ١٢١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٦)، البرهان ص(٢١)، المواقف (٣/ ٦٩٣).

المبحث الثاني
مَقَالَاتُ النَّجدَاتِ

١- عذروا بالجهالات إذا أخطأ الرجل في حكم من الأحكام -الاجتهادية- من جهة الجهل، وقالوا: الدين أمران: أحدهما: معرفة الله، ومعرفة رسله عليهم السلام، وتحريم دماء المسلمين -قال الشهرستاني: يعنون موافقيهم-، وأموالهم، وتحريم الغصب، والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب معرفته على كل مكلف والجهل به لا يعذر فيه، وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهالته حتى تقوم عليهم الحجة في جميع الحلال والحرام، فمن استحل شيئًا محرمًا من طريق الاجتهاد فهو معذور على حسب ما يقول الفقهاء من أهل الاجتهاد فيه. ولذا قيل لهم: العاذرية؛ لأنهم عذروا بالجهالات في أحكام الفروع.

٢- قالوا: ومن خاف -أو جوَّز- العذاب على المجتهد -في الأحكام- المخطئ قبل أن تقوم عليه الحجة فهو كافر.

٣- قالوا: من ثقل عن هجرتهم فهو منافق.

٤- استحلوا دماء أهل المقام -أهل العهد والذمة- وأموالَهم في دار التقية، وبرئوا ممن حرمها.

٥- تولوا أصحاب الحدود والجنايات من موافقيهم، لعلَّ اللهَ تعالى يعفو عنهم، وقالوا: لا ندري لعل الله يعذب المؤمنين بذنوبهم، فإن فعل فإنما يعذبهم في غير النار بقدر ذنوبهم ولا يخلدهم في العذاب، ثم يدخلهم الجنة، فلا تجوز البراءة منهم.

٦- زعموا أن من نظر نظرةً صغيرةً، أو كذب كذبةً صغيرةً، ثم أصر عليها فهو مشرك، وأن من زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر فهو مسلم، إذا كان من موافقيه على دينه.

٧- عطل نجدة حد الخمر، وقسم الفيء.

٨- القعود جائز، والجهاد إذا أمكنه أفضل قال الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٩٥] وجعل نافع الأزرق هذا في أصحاب النبي ﷺ حين كانوا مقهورين، وأما في غيرهم مع الإمكان فالقعود كفر لقول الله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: الآية ٩٠]

٩- أن التقية جائزة في القول والعمل كله، وإن كان في قتل النفوس. حكاه عنهم الكعبي. واحتج نجدة بقول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غَافر: الآية ٢٨]

١٠- أجمعت النجدات على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما

بينهم، فإن هم رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه، جاز[(١)]

نقض قولهم

قال ابن حزم: اتفق جميع أهل السنة، وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأنَّ الأمَّة فرض واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ، حاشا النجدات من الخوارج، فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة وإنما عليهم أن يتعاطوا الحقّ بينهم، وهذه فرقة ما نرى بقي منهم أحد، وهم المنسوبون إلى نجدة بن الحنفيّ، القائم باليمامة.

قال أبو محمد: وقول هذه الفرقة ساقط، يكفي من الرد عليه وإبطاله إجماع كل من ذكرنا على بطلانه، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام، من ذلك قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٥٩] ، مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة، وإيجاب الإمامة، وأيضًا فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦] ، فوجب اليقين بأنَّ الله تعالى لا يكلف الناس ما ليس في بنيتهم، واحتمالهم، وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أنَّ قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال، والجنايات، والدماء، والنكاح، والطلاق وسائر الأحكام كلها ومنع الظالم وإنصاف المظلوم، وأخذ القصاص على تباعد أقطارهم، وشواغلهم، واختلاف آرائهم، وامتناع من تحرى في كلِّ ذلك -ممتنع غير ممكن، إذ قد يريد واحد أو جماعة أن يحكم عليهم إنسان، ويريد آخر أو جماعة أخرى ألَّا يحكم عليهم، إمَّا لأنَّها ترى في اجتهادها خلاف ما رأى هؤلاء، وإمَّا خلافًا مجردًا عليهم، وهذا الذي لا بدَّ منه ضرورة، وهذا مشاهد في البلاد التي لا رئيس لها، فإنَّه لا يقام هناك حكم حق ولا حدّ، حتى قد ذهب الدين في أكثرها، فلا تصح إقامة الدين إلا بالإسناد إلى واحد، أو إلى أكثر من واحد، فإذ لا بد من أحد هذين الوجهين فإنَّ الاثنين فصاعدًا بينهما أو بينهم ما ذكرنا فلا يتم أمر ألبتة.

فلم يبق وجه تتم به الأمور إلا الإسناد إلى واحد فاضل، عالم، حسن السياسة، قوي على الإنفاذ، إلا أنَّه وإن كان بخلاف ما ذكرنا فالظلم والإهمال معه أقل منه مع الاثنين فصاعدًا، وإذ ذلك كذلك ففرض لازم لكل الناس أن يكفوا من الظلم ما أمكنهم إن قدروا على كف كله لزمهم ذلك، وإلا فكف ما قدروا على كفه منه ولو قضية واحدة لا يجوز غير ذلك[(٢)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٠، ٩١)، التنبيه والرد ص(٥٢)، التبصير في الدين ص(٥٢)، الفرق بين الفرق ص(١٠٥، ١٠٧)، الملل والنحل (١/ ١٢٢- ١٢٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٧)، البرهان ص(٢٥)، المواقف (٣/ ٦٩٣).

(٢) الفصل (٤/ ٧٢، ٧٣).

المبحث الثالث

مَقَالَاتُ العجَارِدَةِ

١- يجب أن يدعى الطفل إذا بلغ، وتجب البراءة منه قبل ذلك حتى يدعى إلى الإسلام ويصفه هو.

٢- أطفال المشركين في النار مع آبائهم.

٣- لا يرون المال فيئًا حتى يقتل صاحبه.

٤- يتولون القعدة إذا عرفوهم بالديانة، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة، ويكفرون بالكبائر.

٥- يحكى عنهم أنهم ينكرون كون سورة يوسف من القرآن، ويزعمون أنها قصة من القصص، قالوا: ولا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن.

قلت: الظاهر والله أعلم أن هذا القول لبعض فرق العجاردة وهم الميمونية كما سيأتي ذكره.

٦- ذكر السكسكي عنهم قولهم: إن الله تعالى إذا بعث نبيًّا فقد لزم أهل المشرق وأهل المغرب وغيرهما تلك الساعة طاعته والإيمان به ومعرفة جميع شريعته وإن لم تبلغهم دعوته، فمن مات منهم على غير ذلك مات كافرًا[(١)]

مَقَالَاتُ الخَازِمِيَّةِ من العجَارِدَةِ

١- قالوا بالموافاة؛ وأن الله تعالى إنما يتولى العباد على ما علم أنهم صائرون إليه في آخر أمرهم من الإيمان، ويتبرأ منهم على ما علم أنهم صائرون إليه في آخر أمرهم من الكفر، وأنه سبحانه لم يزل محبًّا لأوليائه مبغضًا لأعدائه.

٢- يحكى عنهم أنهم يتوقفون في أمر علي ﷺ، ولا يصرحون بالبراءة عنه، ويصرحون بالبراءة في حقِّ غيره[(٢)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٣)، التبصير في الدين ص(٥٤، ٥٥)، الفرق بين الفرق ص(١١١)، الملل والنحل (١/ ١٢٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٧)، البرهان ص(٢٤)، المواقف (٣/ ٦٩٤).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٦)، التبصير في الدين ص(٥٥)، الفرق بين الفرق ص(١١١)، الملل والنحل (١/ ١٣٠)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٩).

مَقَالَةُ المَعْلُومِيَّةِ مِن خَازِمِيَّة العجَارِدَةِ

من لم يعلم الله بجميع أسمائه -زاد الشهرستاني: وصفاته- فهو جاهل به، والجاهل به كافر، حتى يصير عالمًا بجميع ذلك فيكون مؤمنًا[١]

مَقَالَةُ المَجْهُولِيَّةِ مِن خَازِمِيَّة العجَارِدَةِ

أن من علم الله ببعض أسمائه -زاد الشهرستاني: وصفاته، وجهل بعضها- فقد علمه ولم يجهله[٢]

مَقَالَاتُ الحَمْزِيَّةِ مِن العجَارِدَةِ

١- يرون قتال السلطان خاصةً ومن رضي بحكمه، فأما من أنكره فلا يرون قتله، إلا إذا أعان عليهم أو طعن في دينهم -أي دين الخوارج- أو صار عونًا للسلطان أو دليلًا له. وقد حكى الشهرستاني هذه المقالة عن الميمونية.

٢- حكى زرقان أن العجاردة أصحاب حمزة لا يرون قتل أهل القبلة، ولا أخذ المال في السر حتى يبعث الحرب.

٣- قالوا: أطفال مخالفيهم والمشركين كلهم في النار.

٤- جوَّز حمزة إمامين في عصر واحد، ما لم تجتمع الكلمة ولم تقهر الأعداء[٣]

مَقَالَاتُ المَيْمُونِيَّةِ مِن العجَارِدَةِ

١- ذكر الكرابيسيُّ في بعض كتبه: أن الميمونيةَ يجيزون نكاح بنات البنين، وبنات البنات، وبنات بنات الإخوة، وبنات بني الإخوة، ويقولون: إن الله حرم البنات وبنات الإخوة وبنات الأخوات، ولم يذكر: بنات البنات، ولا بنات البنين، ولا بنات أولاد الإخوة، ولا بنات أولاد الأخوات.

قال البغداديُّ: فإن طرد قياسه في أمهات الأمهات، وأمهات الآباء والأجداد، انمحض في

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٦)، التبصير في الدين ص(٥٦)، الفرق بين الفرق ص(١١٤)، الملل والنحل (١/ ١٣٢)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥١)، البرهان ص(٢٧)، المواقف (٣/ ٦٩٥).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٦، ٩٧)، التبصير في الدين ص(٥٦)، الفرق بين الفرق ص(١١٤)، الملل والنحل (١/ ١٣٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥١)، المواقف (٣/ ٦٩٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٣، ٩٤)، التنبيه والرد ص(٥٣)، التبصير في الدين ص(٥٥)، الفرق بين الفرق ص(١١٥)، الملل والنحل (١/ ١٢٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٨)، المواقف (٣/ ٦٩٥).

المجوسية، وإن لم يُجز نكاح الجدات وقاس الجدات على الأمهات لزمه قياس بنات الأولاد على بنات الصلب، وإن لم يطرد قياسه في هذا الباب نقض اعتلاله.

٢- وحُكِي أنهم يزعمون أن سورة يوسف ليست من القرآن. قال البغداديُّ: ومُنْكِرُ بعض القرآن كمنكر كله، ومن استحل بعض ذوات المحارم في حكم المجوس، ولا يكون المجوسي معدودًا في فرق الإسلام.

٣- قالوا: أطفال المشركين عندهم في الجنة[(١)]

مَقَالَاتُ الصَّلتِيَّةِ مِن العجَارِدَةِ

١- إذا استجاب لنا الرجل وأسلم توليناه، وبرئنا من أطفاله؛ لأنه ليس لهم إسلام، حتى يدركوا فيدعون إلى الإسلام فيقبلونه.

٢- يحكى عن جماعة منهم أنهم قالوا: ليس لأطفال المشركين والمسلمين ولاية ولا عداوة حتى يبلغوا فيدعوا إلى الإسلام فيقروا أو ينكروا[(٢)]

مَقَالَةُ الأطرافِيَّةِ مِن العجَارِدَةِ

عذروا أصحابَ الأطراف في ترك ما لم يعرفوه من الشريعة إذا أتوا بما يعرف لزومه من طريق العقل، وأثبتوا واجبات عقلية، كما قالت القدرية[(٣)]

مَقَالَاتُ الثَّعَالِبَةِ مِن العجَارِدَةِ

١- ولاية الأطفال صغارًا وكبارًا حتى يروا منهم إنكارًا للحق ورضًا بالجور. ونقل الأشعريُّ والشهرستانيُّ عنهم قولًا آخر، وهو: ليس لأطفال الكافرين ولا لأطفال المؤمنين ولاية ولا عداوة ولا براءة، حتى يبلغوا فيدعوا إلى الإسلام فيقروا به أو ينكروه.

٢- أن الأطفال يشتركون في عذاب آبائهم وأنهم ركن من أركانهم، يريدون بذلك أنهم بعض من أبعاضهم.

٣- يرون أخذ زكاة أموال عبيدهم إذا استغنوا وإعطاءهم من زكاتهم إذا افتقروا[(٤)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٣)، التبصير في الدين ص(٥٥)، الفرق بين الفرق ص(٣٠٣)، الملل والنحل (١/ ١٢٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٨)، البرهان ص(٢٨)، المواقف (٣/ ٦٩٤).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٧)، التبصير في الدين ص(٥٦)، الفرق بين الفرق ص(١١٤)، الملل والنحل (١/ ١٢٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٨)، البرهان ص(٢٩)، المواقف (٣/ ٦٩٥)، .

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ١٢٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٨)، المواقف (٣/ ٦٩٥).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٧)، التبصير في الدين ص(٥٧)، الفرق بين الفرق ص(١١٧)، الملل والنحل (١/ ١٣٠، ١٣١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٩)، البرهان ص(٢٦)، المواقف (٣/ ٦٩٥).

مَقَالَاتُ المعبدِيَّةِ مِن ثَعَالِبَةِ العجَارِدَةِ

١- تبرأ من ثعلبة في قوله بأخذ زكاة أموال العبيد إذا استغنوا وإعطائهم منها إذا افتقروا، وقال: إني لا أدع اجتهادي في خلافه.

٢- جوزوا أن تصير سهام الصدقة سهمًا واحدًا في حال التقية[١]

مَقَالَاتُ الأَخْنَسِيَّةِ مِن ثَعَالِبَةِ العجَارِدَةِ

١- يتوقفون عن جميع من في دار التقيَّة من منتحلي الإسلام وأهل القبلة، إلا من قد عرفوا منه إيمانًا فيتولونه عليه، أو كفرًا فيتبرءون منه لأجله.

٢- ويحرمون الاغتيال والقتل -قال الشهرستاني: والسرقة- في السر، وأن يبدأ أحد -من أهل البغي- من أهل القبلة بقتال حتى يدعى إلى الدين فإن امتنع قوتل، إلا من عرفوه بعينه على خلاف قولهم.

٣- وحكي عن الأخنسية أنهم جوزوا تزويج المسلمات من مشركي قومهم أصحاب الكبائر[٢]

مَقَالَاتُ الشَّيْبَانِيَّةِ مِن ثَعَالِبَةِ العجَارِدَةِ

١- أحدثوا تشبيه الله بخلقه.

٢- القول بالجبر، ووافقوا جهم بن صفوان في مذهبِهِ إلى الجبر، ونفى القدرة الحادثة[٣]

مَقَالَةُ الرُّشيدِيَّةِ او العَشْرِيَّةِ مِن ثَعَالِبَةِ العجَارِدَةِ

يرون أنه فيما سقي بالعيون والأنهار الجارية نصف العشر، ويجب العشر الكامل فيما سقته السماء فحسب[٤]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٨)، التبصير في الدين ص(٥٧)، الفرق بين الفرق ص(١١٨)، الملل والنحل (١/ ١٣١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٠)، المواقف (٣/ ٦٩٦).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٧، ٩٨)، التبصير في الدين ص(٥٧)، الفرق بين الفرق ص(١١٨)، الملل والنحل (١/ ١٣١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٩)، المواقف (٣/ ٦٩٦).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٩)، التبصير في الدين ص(٥٨)، الفرق بين الفرق ص(١١٩)، الملل والنحل (١/ ١٣٢)، المواقف (٣/ ٦٩٦).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩٩، ١٠٠)، التبصير في الدين ص(٥٨)، الفرق بين الفرق ص(١١٩)، الملل والنحل (١/ ١٣٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٠)، البرهان ص(٢٦).

مقالات المُكْرَمِيَّةِ من ثَعَالِبَةِ العجَارِدَةِ

١- زعموا أن تارك الصلاة كافرٌ، لا لأجل ترك الصلاة، ولكن لجهله بالله عز وجل، وطردوا هذا في كل كبيرة يرتكبها الإنسان، فزعموا أن من أتى كبيرة فقد جهل الله سبحانه، وبتلك الجهالة كفر لا بركوبه المعصية؛ وذلك أن العارف بوحدانية الله تعالى، وأنه المطلع على سره وعلانيته المجازي على طاعته ومعصيته، أن يُتصور منه الإقدام على المعصية، والاجتراء على المخالفة ما لم يغفل عن هذه المعرفة، ولا يبالي بالتكليف منه، وعن هذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمنٌ ...» الخبر.

٢- وقالوا بالموافاة في الولاية والعداء؛ وهي الحكم بأن الله سبحانه إنما يتولى عباده ويعاديهم على ما هم صائرون إليه من موافاة الموت لا على أعمالهم التي هم فيها، فإن ذلك ليس بموثوق به إصرارًا عليه ما لم يصل المرء إلى آخر عمره ونهاية أجله، فحينئذ إن بقي على ما يعتقده فذلك هو الإيمان فنواليه، وإن لم يبق فنعاديه، وكذلك في حق الله تعالى حكمُ الموالاة والمعاداة على ما علم منه حال الموافاة[1].

مَقَالَاتُ البِدْعِيَّةِ مِن ثَعَالِبَةِ العجَارِدَةِ

١- أبدعوا القول بأنا نقطع على أنفسنا بأن من اعتقد اعتقادنا فهو من أهل الجنة ولا نقول: إن شاء الله، فإن ذلك شك في الاعتقاد، ومن قال: أنا مؤمن إن شاء الله، فهو شاك، فنحن من أهل الجنة قطعًا من غير شك ولا استثناء.

٢- تزعم أن الصلاة ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي، لا غير[2].

المبحث الرابع
مَقَالَاتُ الصُّفْرِيَّةِ

١- لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد.

٢- لم يسقطوا الرجم ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار.

٣- قالوا: التقية جائزة في القول دون العمل.

٤- قالوا: ما كان من الأعمال عليه حدٌّ واقع لا يسمى صاحبه إلا بالاسم الموضوع له، كزانٍ وسارق وقاذف وقاتل عمد، وليس صاحبه كافرًا ولا مشركًا، وكل ذنب ليس فيه حدٌّ، لعظم

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠٠)، التبصير في الدين ص(٥٨)، الفرق بين الفرق ص(١١٩)، الملل والنحل (١/ ١٣٢)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٠)، المواقف (٣/ ٦٩٦).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٢٦)، الملل والنحل (١/ ١٣٣).

قدره، كترك الصلاة والصوم والفرار من الزحف، فهو كفر، وصاحبه كافر، وإن المؤمن المذنب يفقد اسم الإيمان في الوجهين جميعًا.

نسب إليهم هذه المقالة الشهرستانيُّ، ونسبها البغداديُّ إلى فرقةٍ منهم.

٥- من قول بعضِهم: صاحب كل ذنب مشرك.

٦- من قول بعضِهم: صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي فيحده، فإذا حدث عليه فهو كافر. وهذا قول لبعض البيهسية، إلا أنهم لا يسمونهم مؤمنين ولا كافرين حتى يحكم عليهم، وهذه الطائفة من الصفرية يثبتون لهم اسم الإيمان حتى تقام عليهم الحدود.

٧- جميع الصدقات سهمًا واحدًا في حال التقية.

٨- يحكى عن زياد الأصفر أنه قال: نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندري لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله.

٩- قال: الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان.

والكفر كفران: كفر بإنكار النعمة، وكفر بإنكار الربوبية.

والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سنة، وبراءة من أهل الجحود فريضة.

١٠- كل ذنب مغلظ كفر، وكل كفر شرك، وكل شرك عبادة للشيطان. وهو قول أكثر الخوارج.

١١- يجيزون مناكحة المشركين والمشركات، وأكل ذبائحهم وقبول شهادتهم ومواريثهم، ويحتجون بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم زوج بناته من المشركين في دار التقية.

١٢- حكى حاكٍ عن الصفرية أنها تصلي خلف من لا تعرف[(١)]

مَقَالَاتُ الفضلِيَّةِ مِن الصُّفْرِيَّةِ

١- كل معصية صغرت أو كبرت، فهي شرك، وإن صغائر المعاصي مثل كبائرها.

٢- لا يكفر من قال بضرب من الحقِّ وهو يضمر غيرَه، نحو أن يقول: لا إله إلا الله، وهو يريد قول النصارى، أي الذي له الولد والزوجة، أو يريد صنمًا، أو غير ذلك، فهو مسلم، أو يقول: محمد رسول الله، وهو يعني غيره، ممن هو حي أو ميت، وأشباه ذلك، فإنه مسلم لا يضره ذلك[(٢)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠١)، الفصل (١٢٨/٣)، التبصير في الدين ص(٥٣)، الفرق بين الفرق ص(١٠٨، ١٠٩)، الملل والنحل (١٣٦/١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥١)، البرهان ص(٢٥)، المواقف (٦٩٣/٣).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٨، ١١٩)، التنبيه والرد ص(١٧٩)، الفصل (١٤٥/٤)، البرهان ص(٢٤).

قال شيخ الإسلام: وما يُحكى عن الفضلية من الخوارج أنهم جوزوا الكفر على النبي، فهذا بطريق اللازم لهم؛ لأن كل معصية عندهم كفر، وقد جوزوا المعاصي على النبي، وهذا يقتضي فساد قولهم بأن كل معصية كفر، وقولهم بجواز المعاصي عليهم، وإلا فلم يلتزموا أن يكون النبي كافرًا، ولازم المذهب لا يجب أن يكون مذهبًا[1]

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٤١٨، ٤١٩).

المبحث الخامس

مَقَالَاتُ الإِبَاضِيَّةِ

١- القول بأنَّ كفارَ هذه الأمة -يعنون بذلك مخالفيهم من هذه الأمة- برآء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين، ولكنهم كفار، وأجازوا شهادتهم، وحرموا دماءهم وسبيهم في السر واستحلوها في العلانية، بعد نصب القتال وإقامة الحجة، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم، قال البغداديُّ: وزعموا أنهم في ذلك محاربون لله ولرسوله لا يدينون دين الحق. وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض، والذي استحلوه الخيل والسلاح عند الحرب، وما سواه حرام، فأما الذهب والفضة فإنهم يردونهما على أصحابهما عند الغنيمة.

٢- إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي.

٣- أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم.

٤- وجوب استتابة مخالفيهم في تنزيل أو تأويل، فإن تابوا وإلا قتلوا، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهْله، أو فيما لا يسع جهله.

٥- قالوا: من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب فإن تاب وإلا قتل. وحكاه السكسكي عن الخوارج.

٦- قالوا: العالم يفنى كله إذا أفنى الله أهل التكليف، ولا يجوز إلا ذلك؛ لأنه إنما خلقه لهم فإذا أفناهم لم يكن لبقائه لهم معنى. وحكاه السكسكي عن الخوارج.

٧- قد يجوز أن يقع حكمان مختلفان في الشيء الواحد من وجهين، فمن ذلك: أن رجلًا لو دخل زرعًا بغير إذن صاحبه لكان الله سبحانه قد نهاه عن الخروج منه؛ لأن فيه فساد الزرع وقد أمره به لأنه ليس له. ونسب الأشعري هذا القول إلى جلهم.

٨- قالوا: من سرق خمسة دراهم فصاعدًا قُطِع.

٩- قالوا: كل شيء أمر الله به عباده فهو عام ليس بخاص، وقد أمر الله به الكافر والمؤمن، وليس في القرآن خصوص.

١٠- وقالوا: إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان.

١١- وقالوا في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون. كذا قال عنهم الشهرستاني.

١٢- قالوا: إنَّ كلَّ كبيرةٍ فهي كفرُ نعمةٍ لا كفرُ شركٍ، وإن مرتكبي الكبائر في النار خالدون فيها.

١٣- اختلفوا في النفاق فصاروا ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن النفاق براءة من الشرك والإيمان جميعًا، واحتجوا في ذلك بقول الله عز وجل في المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: الآية ١٤٣] ، وأن المنافقين على عهد رسول الله كانوا موحدين، وكانوا أصحاب كبائر فكفروا بها، وإن لم يدخلوا في حد الشرك.

والفرقة الثانية منهم يقولون: إن كل نفاق شرك؛ لأنه يضاد التوحيد.

والفرقة الثالثة منهم يقولون: لسنا نزيل اسم النفاق عن موضعه، وهو دين القوم الذين عناهم الله بهذا الاسم في ذلك الزمان، ولا نسمي غيرهم بالنفاق، أي لا نسمي بالنفاق غير القوم الذين سماهم الله منافقين.

١٤- لا يسمون إمامهم أمير المؤمنين ولا أنفسهم مهاجرين.

١٥- توقف كثير من الإباضية في إيلام أطفال المشركين في الآخرة، فجوزوا أن يؤلمهم الله سبحانه في الآخرة على غير طريق الانتقام، وجوزوا أن يدخلهم الجنة تفضلًا، ومنهم من قال: إن الله سبحانه يؤلمهم على طريق الإيجاب لا على طريق التجويز.

١٦- قال قوم منهم: لا حجة لله تعالى على الخلق في التوحيد وغيره إلا بالخبر، أو ما يقوم مقام الخبر من إشارة وإيماء.

١٧- قال بعضهم فيمَن دخل في دين المسلمين: وجبت عليه الشرائع والأحكام، وقف على ذلك أو لم يقف، سمعه أولم يسمعه.

١٨- قال بعضهم: لا يرسل الله نبيًا إلا نصب دليلًا عليه، ولا بد من أن يدلّ به واحدًا. وقال بعضهم: قد يجوز أن يبعث الله نبيًا بلا دليلٍ يدل على صدقه، ويكلف العباد بما أوحي إليه، ولا يجب عليه إظهار المعجزة، ولا يجب على الله تعالى ذلك، إلى أن يخلق دليلًا ويظهر معجزة.

١٩- قال بعضهم: من ورد عليه الخبر بأن الخمر قد حرمت، وأن القبلة قد حولت، فعليه أن يعلم أن الذي أخبره به مؤمن أو كافر، وعليه أن يعلم ذلك بالخبر، وليس عليه أن يعلم أن ذلك عليه بالخبر.

٢٠- وقال بعضهم: ليس على الناس المشي إلى الصلاة، والركوب والمسير إلى الحج، ولا شيء من الأسباب التي يتوصل بها إلى أداء الواجب، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الواجبة بأعيانها، دون أسبابها الموصلة إليها.

٢١- ولا يتبعون المولّي في الحرب إذا كان من أهلِ القبلةِ وكان موحِّدًا، ولا يقتلون امرأةً ولا ذريةً، ويرون قتل المُشبِّهةِ، وسبي نسائِهم وذراريهم، وغنيمة أموالهم، ويتبعون موليهم، وقالوا: إن هذا كما فعل أبو بكر بأهل الردة.

وذكر الأشعريُّ عنهم الأمورَ الآتيةَ:

٢٢- وقال بعضهم: لا يجوز على الله أن يخلي عباده من التكليف لوحدانيته ومعرفته، وأجاز بعضهم أن يخليهم من ذلك.

٢٣- وقال بعضهم: من قال بلسانه: إن الله واحد، وعنى به المسيح فهو صادق في قوله، مشرك بقلبه.

٢٤- وقال بعضهم: ليس من جحد الله وأنكره مشركًا حتى يجعل معه إلهًا غيره.

وقال بعضهم: ذلك شرك، وكل جحد بأي جهة كان فهو شرك وكفر، وقالوا: الإصرار على أي ذنب كان كفر.

٢٥- وقال بعضهم بل جلهم: الاستطاعة والتكليف مع الفعل، وأن الاستطاعة هي التخلية، وقال كثير منهم: ليست الاستطاعة هي التخلية، بل هي معنى في كونه كون الفعل وبه يكون الفعل، وأن الاستطاعة لا تبقى وقتين، وأن استطاعة كل شيء غير استطاعة ضده، وأن الله كلف العباد ما لا يقدرون عليه لتركهم له لا لعجزهم عنه، وأن قوة الطاعة توفيق وتسديد وفضل ونعمة وإحسان ولطف، وأن استطاعة الكفر ضلالة وخذلان وطبع وبلاء وشر، وأن الله لو لطف للكافرين لآمنوا، وأن عنده لطفًا لو فعله بهم لآمنوا طوعًا، وأن الله لم ينظر لهم في حال خلقه إياهم، ولا فعل بهم أصلح الأشياء لهم، ولا فعل بهم صلاحًا في الدين، وأنه أضلهم وطبع على قلوبهم، وهذا قول: يحيى بن كامل، ومحمد بن حرب، وإدريس الإباضي، وكانوا يقولون في كثير من الإباضية: إن إعمال العباد مخلوقة، وإن الله سبحانه لم يزل مريدًا لما علم أنه يكون أن يكون، ولما علم أنه لا يكون ألا يكون، وأنه مريد لما علم من طاعات العباد ومعاصيهم لا بأن أحب ذلك، ولكن بمعنى أنه ليس بآبٍ عنه ولا بمُكْرَه عليه.

٢٦- وقال جلهم بالخاطر، ولا يجوز أن يخلي الله عز وجل العباد البالغين منه.

٢٧- وقالوا: ليس يجوز على شيء من الأعراض البقاءُ، إلا إذا كان بعضًا للجسم عند من يقول: إن الجسم أعراض مجتمعة، وأكثرهم يقول: إنه أبعاض للجسم.

٢٨- وقالوا: إن الجزء الذي لا يتجزأ جسمٌ، على مذهب الحسين.

٢٩- وقالوا: جزاء الله في العباد أكثر من تفضله وعافيته، أكثر من ابتلائه، والثواب واجب بالاستحقاق والتفضيل، والابتلاء ابتداء.

٣٠- وقال بعضهم بتحليل الأشربة التي يسكر كثيرها إذا لم تكن الخمر بعينها، وحرموا السكر.

٣١- ويدعون من السلف جابر بن زيد وعكرمة ومجاهد وعمرو بن دينار.

وذكر السكسكيُّ عنهم الأمورَ الآتيةَ:

٣٢- أحلو الربا إلا النسيئة، فيحلون بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والمطعوم بالمطعوم، من جنسٍ واحدٍ تفاضلًا.

٣٣- قالوا: إذا وطئ الرجلُ زوجته وهي حائض حرمت عليه على التأبيدِ.

٣٤- لا يجوزون الصومَ إلا في السفرِ.

٣٥- من نظر على فرجِ امرأةٍ حرمت عليه ابنتها.

٣٦- يستأذنون نساءهم في الوطء فإن أذنَّ لهم وإلا تأخروا عنهن.

٣٧- من زنى أو سرق أو قذف يقيمون عليه الحد ويستتيبونه فإن تاب وإلا كفروه وقتلوه[1]

مَقَالَاتُ الحَفْصِيَّةِ مِن الإِبَاضِيَّةِ

١- زعموا أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده، فمن عرف الله سبحانه ثم كفر بما سواه: من رسول، أو جنة، أو نار، أو عمل بجميع الخبائث: من قتل النفس، واستحلال الزنى، وسائر ما حرم الله سبحانه من فروج النساء، فهو كافر بريء من الشرك، وكذلك من اشتغل بسائر ما حرم الله سبحانه: مما يؤكل، ويشرب، فهو كافر بريء من الشرك، ومن جهل الله سبحانه وأنكره فهو مشرك.

٢- تأولوا في عثمان نحو ما تأولت الشيعة في أبي بكر وعمر.

٣- زعموا أن عليًّا هو الحيران الذي ذكره الله في القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٧١]، وأن أصحابه الذين يدعونه إلي الهدى أهل النهروان، وزعموا أن عليًّا هو الذي أنزل الله سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٤]، وأن عبد الله بن ملجم هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٧]

٤- ثم قالوا بعد ذلك: الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله عز وجل، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله. قال البغدادي: وهذا نقيض قولهم: إن الفصل بين الشرك والإيمان معرفة الله تعالى وحده، وأن من عرفه فقد برئ من الشرك وإن كفر بما سواه: من رسول، أو جنة، أو نار. فصار قولهم في هذا الباب متناقضًا[2]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠٤- ١١١، ١٠٦- ١٠٩)، الفصل (٣/ ١٢٨)، التبصير في الدين ص(٥٨)، الفرق بين الفرق ص(١٢٠، ١٢٢- ١٢٤)، الملل والنحل (١/ ١٣٣، ١٣٤)، البرهان ص(٢٢، ٢٣)، المواقف (٣/ ٦٩٣).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠٢)، التبصير في الدين ص(٥٩)، الفرق بين الفرق ص(١٢١)، الملل والنحل (١/ ١٣٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥١)، المواقف (٣/ ٦٩٤).

مَقَالَاتُ اليَزِيدِيَّةِ مِن الإِبَاضِيَّةِ

١- زعموا أن الله سبحانه سيبعث رسولًا من العجم، وينزل عليه كتابًا من السماء، يكتب في السماء، وينزل عليه جملة واحدة، وينسخ بشرعه شريعة محمد ﷺ.

قال الأشعري: فترك شريعةَ محمدٍ ودان بشريعةِ غيرِها.

٢- زعموا أن ملة ذلك النبي الصابئة، وأن أتباع ذلك النبي المنتظر هم الصابئون المذكورون في القرآن، فأما المسمون بالصابئة من أهل واسط وحران فما هم الصابئون المذكورون في القرآن.

٣- تولوا من شهد لمحمدٍ بالنبوة من أهل الكتاب وإن لم يدخلوا في دينه، ولم يعملوا بشريعته، وزعموا أنهم بذلك مؤمنون.

قال البغداديُّ: وعلى هذا القول يجب أن يكون العيسوية والموشكانية من اليهود مؤمنين؛ لأنهم أقروا بنبوة محمد عليه السلام ولم يدخلوا في دينه، وليس بجائز أن يُعَدَّ في فرق الإسلام من يَعُدُّ اليهودَ من المسلمين، وكيف يُعَدُّ مِن فرق الإسلام مَن يقول بنسخ شريعة الإسلام.

٤- إن أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كفار مشركون.

٥- كل ذنب صغير أو كبير فهو شرك[(١)]

مَقَالَةُ اصْحَابِ طَاعِةٍ لا يُرَادُ الله بِهَا مِن الإِبَاضِيَّةِ

زعموا أن الإنسان قد يكون مطيعًا لله إذا فعل شيئًا أمره الله به وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ولا أراده به، وهذا على مذهب أبي الهذيل المعتزلي[(٢)]

مَقَالَاتُ الضَّحَّاكِيَّةِ من الإِبَاضِيَّةِ

وقد جعلهم الشهرستانيُّ من الصفرية.

١- أجازوا أن يزوجوا المرأة المسلمة عندهم من كفار قومهم في دار التقية، كما يسع الرجل منهم أن يتزوج المرأة الكافرة من قومهم في دار التقية، فأما في دار العلانية وقد جاز حكمهم فيها فإنهم لا يستحلون ذلك فيها.

٢- ومن الضحاكية فرقة توقفت، وقالوا: لا نعطي هذه المرأة المتزوجة من كفار قومنا شيئًا من حقوق المسلمين -أي الميراث-، ولا نصلي عليها إن ماتت، ونقف فيها؛ لأنا لا ندري ما حالها.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠٣، ١٠٤)، التبصير في الدين ص(٥٩)، الفرق بين الفرق ص(٣٠١)، الملل والنحل (١/ ١٣٥، ١٣٦)، البرهان ص(٢٩)، المواقف (٣/ ٦٩٤).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠٥)، التبصير في الدين ص(٥٩)، الفرق بين الفرق ص(١٢٢).

ومنهم من برئ منها.

وذكر الأشعري عنهم الأمورَ الآتيةَ:

٣- اختلفوا في أصحاب الحدود فمنهم من برئ منهم، ومنهم من تولاهم، ومنهم من وقف.

٤- واختلف هؤلاء في أهل دار الكفر عندهم؛ فمنهم من قال: هم عندنا كفار إلا من عرفنا إيمانه بعينه، ومنهم من قال: هم أهل دار خلط فلا تتولى إلا من عرفنا فيه إسلامًا ونقف فيمن لم نعرف إسلامه.

٥- وتولى بعض هؤلاء بعضًا على اختلافهم وقالوا: الولاية تجمعنا فسموا أصحاب النساء وسموا من خالفهم من الواقفة أصحاب المرأة وصارت الواقفة فرقتين: فرقة تولوا الناكحة، وفرقة ينسبون إلى عبد الجبار بن سليمان وهم الذين يتبرءون من المرأة الناكحة من كفار قومهم[(١)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١١)، الفرق بين الفرق ص(١٢٤)، الملل والنحل (١/ ١٣٦).

المبحث السادس

مَقَالَاتُ البَيهسِيَّةِ

١- الوقوف ليس فيما يسع على الأبدان، وإنما الوقوف على الحكم بعينه ما لم يوافقه أحد، فإذا وافقه أحد من المسلمين لم يسع من حَظَر ذلك إلا أن يعرف من عرف الحق ودان به، ومن أظهر الباطل ودان به.

٢- أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله، ومعرفة رسوله، ومعرفة ما جاء به محمدٌ جملة، والولاية لأولياء الله سبحانه، والبراءة من أعداء الله، فمن جملة ما ورد به الشرع وحكم به ما حرم الله جاء فيه الوعيد فلا يسع الإنسان إلا علمه، ومعرفته بعينه، وتفسيره، ومنه ما ينبغي أن يعرفه باسمه، ولا يبالي ألا يعرف تفسيره، وعينه، حتى يبتلي به، وعليه أن يقف عند ما لا يعلم، ولا يأتي شيئًا إلا بعلم.

٣- الإيمان هو أن يعلم كل حق وباطل.

٤- أن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل.

٥- من واقع ذنبًا -كبيرةً- لم نشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي ويحد، ولا نسميه قبل الرفع إلى الوالي مؤمنًا ولا كافرًا، ثم يحكم حينئذ بكفره. وذكر السكسكيُّ عنهم قولهم: وإن تاب. وذكره الأشعري والشهرستانيُّ عن بعضهم، وأضاف الشهرستاني عنهم قولهم: وكل ما ليس فيه حد فهو مغفور.

٦- يحكى عن أبي بيهس أنه قال: الإيمان هو الإقرار والعلم وليس هو أحد الأمرين دون الآخر، وعامة البيهسية على أن العلم والإقرار والعمل كله إيمان.

وذكر الأشعري عنهم الآتي:

٧- الناس مشركون بجهل الدين، مشركون بمواقعة الذنوب، إن كان ذنب لم يحكم الله فيه حكمًا مغلظًا ولم يوقفنا على تغليظه فهو مغفور، ولا يجوز أن يكون أخفى أحكامه عنا في ذنوبنا، ولو جاز ذلك جاز في الشرك، وقالوا: التائب في موضع الحدود وفي موضع القصاص والمقر على نفسه يلزمه الشرك إذا أقر من ذلك بشيء، وهو كافر؛ لأنه لا يحكم بشيء من الحدود والقصاص إلا على كل كافر يشهد عليه بالكفر عند الله[1]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٤، ١٢٦)، التنبيه والرد ص(١٨٠)، التبصير في الدين ص(٦٠)، الفرق بين الفرق ص(١٢٥)، الملل والنحل (١/ ١٢٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٧)، البرهان ص(٢٣)، المواقف (٣/ ٦٩٢).

مَقَالَاتُ العَوْفِيَّةِ من البيهسِيَّةِ

١- إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعية الغائب منهم والشاهد.

٢- السكر كفر إذا كان معه غيره من ترك الصلاة أو قذف المحصن وما أشبه ذلك؛ لأنهم إنما يعلمون أن الشارب سكر إذا ضم إلى سكره غيره مما يدل على أنه سكران.

والعوفية فرقتان:

فرقة تقول: من رجع من دار هجرتهم ومن الجهاد إلى حال القعود نبرأ منهم.

وفرقة تقول: لا نبرأ منهم؛ لأنهم رجعوا إلى أمر كان حلالًا لهم(١).

مَقَالَةُ أَصْحَابِ التَّفْسِيْرِ من البيهسِيَّةِ

من شهد من المسلمين لم تجز شهادتهم إلا بتفسير الشهادة كيف هي؟ قالوا: ولو أن أربعة شهدوا على رجل منهم بالزنى لم تجز شهادتهم حتى يشهدوا كيف هو؟ وهكذا قالوا في سائر الحدود(٢).

مَقَالَاتُ الشَّبِيْبِيَّةِ او الصَّالِحِيَّةِ او أَصْحَابِ السُّؤَالِ من البيهسِيَّةِ

١- زعموا أن الرجل يكون مسلمًا إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتولَّى أولياء الله، وتبرأ من أعدائه، وأقر بما جاء من عند الله جملة، وإن لم يعلم سائر ما افترض الله سبحانه عليه مما سوى ذلك، أفرض هو أم لا؟ فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل به، فيُسئل. وإن واقع حرامًا لم يعلم تحريمه فقد كفر.

٢- قالوا: إن أطفال المؤمنين مؤمنون أطفالًا وبالغين حتى يكفروا، وإن أطفال الكفار كفارٌ أطفالًا وبالغين حتى يؤمنوا.

٣- ذكر اليمان أن الشبيبية يسمون مرجئة الخوارج لما ذهبوا إليه من الوقف في أمر صالح بن مسرح(٣).

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٥، ١١٨)، التنبيه والرد ص(١٨٠)، الفرق بين الفرق ص(١٢٥)، الملل والنحل (١/ ١٢٥)، البرهان ص(٢٦).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٧، ١١٨)، الملل والنحل (١/ ١٢٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٥، ١١٦)، التنبيه والرد ص(٥٢)، التبصير في الدين ص(٦٠)، الفرق بين الفرق ص(١٢٦)، الملل والنحل (١/ ١٢٦، ١٢٧).

مَقَالَاتُ طَوَائِفَ من البيهسِيَّةِ

١- قالت طائفة من البيهسية: إذا كفر الإمام كفرت الرعية، وقالت: الدار دار شرك وأهلها جميعًا مشركون، وتركت الصلاة إلا خلف من تعرف، وذهبت إلى قتل أهل القبلة، وأخذ الأموال، واستحلت القتل والسبي على كل حال.

٢- وقال بعض البيهسية: السكر من كل شراب حلال موضوع عمن سكر منه، وكل ما كان في السكر من ترك الصلاة أو شتم الله سبحانه فهو موضوع لا حدث فيه ولا حكم ولا يكفر أهله بشيء من ذلك ما داموا في سكرهم، وقالوا: إن الشراب حلال الأصل ولم يأتِ فيه شيء من التحريم لا في قليله ولا في إكثار أو في سكر.

٣- ذهب قوم منهم إلى أنه لا يحرم سوى ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٥] الآية، وما سوى ذلك فكله حلال[١]

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٦، ١١٧)، الفرق بين الفرق ص(١٢٥).

المبحث السابع

مَقَالَاتُ الشمرَاخِيَّةِ

١- دماء قومه حرام في السرِّ حلال في العلانية.

٢- قتل الأبوين حرام في دار التقية ودار الهجرة وإن كانا مخالفين.

وحكى السكسكيُّ عنهم: جواز قتل الأبوين في دار الفتنة وإن كانا مسلمين لغير ضرورة.

٣- وحكي عنهم أنها تصلي خلف من لا تعرف؛ أي أنهم يصلون خلف من صلى إلى القبلة، ولو كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ينافق بصلاته.

٤- وقالوا: لا بأس بمس النساء الأجانب؛ لأنهن رياحين[١].

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٢٠، ١٢٦)، البرهان ص(٣١)، تلبيس إبليس ص(٢٩).

المبحث الثامن

مَقَالَاتُ فِرَقٍ من الخَوَارِجِ

١- صنف من الخوارج تفردوا بقول أحدثوه، وهو: قطعهم الشهادة على أنفسهم ومن وافقهم أنهم من أهل الجنة من غير شرط ولا استثناء.

٢- الحسينية: يرون الدار دار حرب، وأنه لا يجوز الإقدام على من فيها إلا بعد المحنة، ويقولون بالإرجاء في موافقيهم خاصة، كما حكي عن نجدة، ويقولون فيمن خالفهم: إنهم بارتكاب الكبائر كفار مشركون.

٣- هارون الضعيف حكي عنه إجازة تزويج نساء مخالفيه في هذا الباب محل أهل الكتاب.

٤- ينقل عن زياد بن عبد الرحمن الشيباني أبي خالد أنه قال: إن الله تعالى لم يعلم حتى خلق لنفسه علمًا، وإن الأشياء إنما تصير معلومة له عند حدوثها ووجودها.

٥- الكنزية قالوا: لا ينبغي لأحد أن يعطي ماله أحدًا؛ لأنه ربما لم يكن مستحقًّا بل يكنزه في الأرض حتى يظهر أهل الحق[١].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١١٩، ١٢١)، الملل والنحل (١/ ١٣٢)، تلبيس إبليس ص(٢٩).

الباب الثاني
الشِّيعة

وهو يحتوي على ستة فصول:

الفصل الأول: تعريف الشِّيعة.

الفصل الثاني: أسماء الشِّيعةِ، وسبب هذه التسمية.

الفصل الثالث: نشأة الشِّيعةِ.

الفصل الرابع: فِرَق الشِّيعةِ.

الفصل الخامس: مقالات الشِّيعةِ.

الفصل السادس: مقالات فِرَق الشِّيعَةِ.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مقالات الغالية.

المبحث الثاني: مقالات الرافضة الإماميَّة.

المبحث الثالث: مقالات الزَّيديَّة.

الفصل الأول
تعريف الشِّيعَةِ

ذكر العلماء عدة تعريفاتٍ للشيعة، ومن هذه التعريفاتِ:

١- هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ، ويقدِّمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ.

وهذا تعريف أبي الحسن الأشعري(١).

٢- هم الذين يقولون بأن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأحقُّهم بالإمامة وولده من بعده.

وهذا تعريف أبي محمد ابن حزم(٢).

٣- هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ووصية، إمَّا جليًّا وإمَّا خفيًّا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده.

وهذا تعريف الشهرستاني(٣)، والسكسكي(٤)، والجرجاني(٥).

٤- هم كل من يتولَّى عليًّا وأهلَ بيته.

وهذا تعريف الفيروزآبادي، وتبعه عليه الزبيدي، وأبو البقاء(٦)

مناقشة التعريفات

أما التعريف الأخير فهو غير سديدٍ؛ لأنه غيرُ مانع، فإن أهل السُّنة يتولون عليًّا وأهل البيت، ومع ذلك فهم ليسوا من الشيعة، بل هم يخالفونهم تمامًا في أصول عديدة كما سيأتي بيانه.

وأما التعريف الثالث فرغم أن أكثر أصحاب المقالات عليه إلا أنه غير سديدٍ أيضًا؛ لأنه غيرُ جامعٍ لكلِّ فرق الشِّيعة؛ فإن هناك بعض الزَّيديَّة من فرق الشِّيعة وهم الصَّالحية، لا يقولون بالنصِّ، ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ويصححونها، كما سيأتي ذكره.

وأما التعريفان الأولان فالفرق بينهما في قيد اعتبار أحقِّيَّة وأولويَّة الإمامة لعليٍّ بن أبي طالب

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٠).
(٢) الفصل (٢/ ٩٠).
(٣) الملل والنحل (١/ ١٤٦).
(٤) البرهان ص(٦٥).
(٥) التعريفات ص(١٧١).
(٦) انظر: القاموس المحيط، تاج العروس، الكليات، مادة (ش ي ع).

ولولده من بعده.

فمَن نظر إلى فرق الشِّيعة التي ظهرت في تاريخ المسلمين وجد أن جميعهم يهتمون بقضية الإمامة، وأن عليًّا هو الأولى بها بعد النبيِّ ﷺ من غيرِه، ثم من تولاها غيره إما يكون قد ضلَّ وظلم على قول لبعضهم، وإما يكون قد أخطأ على قول لآخرين، وإما يكون لا ظلم ولا أخطأ إنما يكون لمصلحة اقتضت توليته، إلا أن الأولويَّة والأفضليَّة في غيرِه، كما سيأتي بيان جميعِ هذه المذاهبِ، إلا أنهم على جميعِ الأحوالِ يرون أن عليًّا هو الأولى بها.

فمن نظر هذه النَّظرةَ الَّتي هي باعتبار حال فرق الشِّيعة قال بالتَّعْريفِ الثاني.

ومن نظر إلى بعض المتقدِّمين المبرَزين في الشِّيعة وجد أن بعضَهم لم يتكلم في هذه المسألة، أعني مسألة أولويَّة إمامة عليٍّ بن أبي طالب وولده بعد النبيِّ ﷺ، إلا أنه يفضِّل ويقدِّم عليًّا على سائر أصحاب رسول الله ﷺ.

وذلك كما نُقل عن الحسن بن صالح، حيث قال ابن حزم: وأقرب مذاهب الشِّيعة إلى أهلِ السُّنَّة المنتمون إلى أصحاب الحسنِ بن صالح بن حي الهمذانيِّ الفقيه القائلون بأنَّ الإمامة في ولد عليٍّ رضي الله عنه، والثابت عن الحسنِ بن صالح رحمه الله هو قولنا: إن الإمامةَ في جميعِ قريش، وتولَّى جميع الصحابة رضي الله عنهم، إلَّا أنهَّ كان يفضِّل عليًّا على جميعهم[1]. وكما نُقل ذلك أيضاً عن زيدِ بن عليٍّ[2].

فمن نظر هذه النظرة -التي هي باعتبار حال بعض الأفراد القليلين المبرَزين الأوائل في الشِّيعة- قال بالتَّعريف الأوَّلِ.

فيكون التَّعريف الأول هو الراجح باعتبار أفراد الشِّيعةِ، والتَّعْرِيف الثاني هو الرَّاجِحُ باعتبار فِرَقِ الشِّيعة، والله أعلم.

(١) الفصل (٢/ ٨٩)، (٤/ ٧٧).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٦٥)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧١)، الملل والنحل (١/ ١٥٥).

الفصل الثاني

أَسْمَاءُ الشِّيْعَةِ وَسَبَبُ هذه التَّسْمِيَةِ

للشِّيعةِ أسماءٌ تطلق عليهم بين أهل العلم وبين غيرهم، ومن هذه الأسماء:

١- الشِّيْعَةُ: وهو أشهر اسم لهم، وهم يقبلونه ويطلقونه على أنفسِهم.

قال السكسكيُّ: وسُمّوا شِيعةً حين قالوا: نحن من شِيعةِ عليٍّ ﷺ[١]

٢- الخَشَبِيَّة: وهو من الأسماء القديمة، والغير مشهورةٍ لهم.

قال شيخ الإسلام: كانوا يسمون: الخشبيَّة؛ لقولهم: إنا لا نقاتل بالسَّيْفِ إلا مع إمامٍ معصوم، فقاتلوا بالخشب، ولهذا جاء في بعض الروايات عن الشعبي قال: ما رأيت أحمق منَ الخشبيَّة[٢]

وقال الملطي: يقال لهم الخشبيَّة[٣]

٣- الرَّافِضَةُ: وقد ظهر هذا الاسم متأخِّرًا عن نشأة التشيُّع، عند حدوث قصة زيد بن عليٍّ معهم، وبالتحديد بعد عام مائة وعشرين، وكان هذا سببًا في افتراق الشِّيعة إلى فرقتين: الرَّافِضَة والزيديَّة، وغلب عليهم جميعًا اسم الرَّافضة عند كثير من العلماء، أو صار من باب إطلاق الخاص المراد به العام.

قال الرازيُّ: إنما سمّوا بالروافض؛ لأن زيدَ بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره في أبي بكرٍ، فمنعهم من ذلك، فرفضوه، ولم يبق معه إلا مائتا فارس، فقال لهم -أي زيد بن عليٍّ-: رفضتموني؟ قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم[٤]

وقال شيخ الإسلام: وأما لفظ «الرافضة» فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام، لما خرج زيدُ بن عليٍّ بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك، واتَّبعه الشِّيعة، فسُئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما، فرفضه قوم، فقال: رفضتموني، رفضتموني، فسموا الرافضة، فالرافضة تتولَّى أخاه أبا جعفر محمد بن عليٍّ، والزَّيديَّة يتولَّون زيدًا، ويُنسبون إليه، ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى زيديَّة ورافضة إماميَّة[٥]

---

(١) البرهان ص(٦٥).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٦).

(٣) التنبيه والرد ص(١٦٤)، الفصل (٤/ ١٤٢).

(٤) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٢)، التبصير في الدين ص(٣٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥، ٣٦)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٩٦)، (١/ ٣٤، ٣٥)، (٣/ ٤٧١).

وقال الشهرستاني: ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه، فسميت رافضة[١].

وقال: ومن رفض زيد بن علي لأنه خالف مذهب آبائه في الأصول وفي التبرّي والتولّي وهم أهل الكوفة وكانوا جماعة سمّوا رافضة[٢].

وهناك قولٌ آخر في سبب هذه التّسميةِ وهو رفض الشّيعةِ لإمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال الأشعري: وإنما سمّوا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكرٍ وعمرَ[٣].

وتعقّبه شيخ الإسلام قائلًا: قلت: الصحيح أنهم سمّوا رافضة لما رفضوا زيدَ بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب لما خرج بالكوفة، أيام هشام بن عبد الملك، وقد ذكر هذا أيضًا الأشعريُّ وغيره[٤].

وقال السكسكيُّ: وسميت الرافضة لرفضهم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقيل لرفضهم زيد بن عليٍّ رضي الله عنه لما تولّى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال بإمامتهما، فقال زيد رضي الله عنه: رفضتموني، فسموا رافضة[٥]

وقال شيخ الإسلام: قيل للإمام أحمد: من الرافضيُّ؟ قال: الذي يسبُّ أبا بكر وعمر، وبهذا سميت الرافضة؛ فإنهم رفضوا زيدَ بن عليٍّ لمّا تولّى الخليفتين أبا بكر وعمر، لبغضهم لهما، فالمبغض لهما هو الرافضيُّ، وقيل: إنما سمّوا رافضة لرفضهم أبا بكر وعمر[٦]

وهناك قول ثالث في سبب هذه التّسمية وهو رفضهم للدِّين وذلك لخبر يروى عن النبيِّ ﷺ فيهم، وقد ذكر هذا السبب الملطيُّ عند كلامِه عن فرقةِ الهشاميَّة فقال: وهم الرافضة الذين روي فيهم الخبر عن رسول الله ﷺ أنهم يرفضون الدين[٧]

وعلى كلِّ الأحوال فلا بدَّ من التفريق بين إطلاق لفظ الرَّافضة المراد به الشِّيعة عمومًا، وإطلاق لفظ الرَّافضة المراد به تلك الطّائفة التي هي قسيم للزَّيديَّة، وهو ما سنطلق عليه الرَّافضة الإماميَّة.

قال الأشعري عنهم: وهم يدَّعون الإماميَّة؛ لقولهم بالنصِّ على إمامة عليٍّ بن أبي طالب[٨]

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٥٥).
(٢) الملل والنحل (١/ ٣٠).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٦).
(٤) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧١).
(٥) البرهان ص(٦٥).
(٦) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٥).
(٧) التنبيه والرد ص(٢٤).
(٨) مقالات الإسلاميين ص(١٧).

الفصل الثالث

نَشْأَةُ الشِّيعَةِ

فكرة التَّشيُّع منبثقة ومستمدة أساسًا من الملل القديمة التي ترتكز على فكرة الغلوّ في البشر الموصل إلى تأليههم، فلو تتبعنا تاريخ الملل على مرِّ الزمان لوجدنا ظهور هذا المعتقد فيها هو الذي قد أدَّى إلى بطلانها وفسادها، والمقام لا يسنح لذلك، إلا أننا نذكر مثالًا واحدًا قريبًا من أمة المسلمين، وهو ملَّة النَّصَارى، فإن الَّذي أفسد هذه الديانة هو بولص العالم اليهوديّ الَّذي اعتنق الديانة النصرانية، وأصبح من دعاتها وروادها، وصار يدعو إلى تأليه المسيح عيسى ابن مريم، وغير ذلك من العقائد الفاسدة التي أفسد بها دين النصارى.

فهذا هو الذي قد حدث، فإنه بموت النبي ﷺ كانت الجزيرة العربية قد انتشر الإسلام في أرجائها، وبعد تولية أبي بكر الصديق (١٣ هـ) بدأت الفتوحات الإسلامية خارج حدود الجزيرة، وفي عهد عمر بن الخطاب (٢٣ هـ) استمرت الفتوحات، ودخلت معظم المناطق التي تحت سيطرة الرومان والفرس تحت حكم المسلمين، وظل الحال هكذا حتى عهد عثمان بن عفان (٣٥ هـ).

واعتنق الناس الإسلام وقبلوه بقلوبهم، إلا أنه وجد عدد كبير منهم اعتنقوه نفاقًا مع إضمارهم البغض والعداوة الشديدة للإسلام والمسلمين، وخططوا لإثارة الفتنة وإفساد المسلمين، وكان من هؤلاء الناس يهودي يدعى عبد الله بن سبأ، أحد يهود اليمن، أعلن إسلامه في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وطاف المدينة والبصرة والشام حتى وصل إلى مصر، وهناك بثَّ أفكاره ومنها القول بمجيء النبي ﷺ إلى هذه الدنيا، وادعاء محبة أهل البيت، والغلوّ في شأن عليِّ بن أبي طالب (٤٠ هـ) على أساس قرابته من النبيِّ ﷺ ونسب إليه المعجزات الغريبة، وأن الإمامة بعد النبيّ ﷺ كانت من حقِّه؛ لأنه لكلِّ نبيٍّ وصي والوصيُّ يحل محل النبيِّ فيكون هو الإمام بعده، لكن الناس تآمروا بعد وفاة النبيِّ ﷺ وغصبوا عليًّا حقَّه فعينوا أبا بكر ومن بعده عمر ومن بعده عثمان وهم جميعًا غير أهلٍ لهذا المنصب.

واستغل ابن سبأ الشكاوى من بعض عمال عثمان بن عفان فحرَّض أتباعه في مصر وغيرها من البلاد على الخليفة في سرية تامَّة، وساروا إلى المدينة وقاموا بقتل الخليفة عثمان ﷺ.

ثم بُويعَ بالخلافة لعليِّ بن أبي طالب، ولكن نتيجة لمقتل عثمان انقسمت الأمَّة إلى جماعتين، ووصل الأمر إلى التَّقاتُل في وقعة الجمل وصفين، ووجد ابن سبأ الفرصة لبث أفكاره في أتباعه وفي صفوف جنود علي من المقاتلين البسطاء، فدعاهم إلى حبِّ عليٍّ، والاعتقاد فيه، والغلوّ في قدره غلوًّا كبيرًا، فادعى له الألوهية، وغير ذلك من المقالات التي سيأتي ذكرها في فِرَقِ الشِّيعَةِ.

وبهذا صارت الشِّيعةُ فرقةً لها أفكارها ومبادؤها التي تبنتها وتكتلت عليها، وصار تمركزها في

الكوفة حيث لاقت قبولًا من كثير من الفرس الذين اعتنقوا الإسلام وأرادوا الكيد له، لموافقتها لكثير من معتقدات الديانة الفارسية.

قال شيخ الإسلام: فأول من ابتدع الرفض كان منافقًا زنديقًا، يقال له: عبد الله بن سبأ، فأراد بذلك إفساد دين المسلمين، كما فعل بولص صاحب الرسائل التي بأيدي النصارى، حيث ابتدع لهم بدعًا أفسد بها دينهم، وكان يهوديًا، فأظهر النصرانية نفاقًا فقصد إفسادها، وكذلك كان ابن سبأ يهوديًا فقصد ذلك، وسعى في الفتنة لقصد إفساد الملة، فلم يتمكن من ذلك؛ لكن حصل بين المؤمنين تحريش وفتنة قتل فيها عثمان ﷺ، وجرى ما جرى من الفتنة[١]

وقال: وأصل الرفض من المنافقين الزنادقة، فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق، وأظهر الغلوّ في عليٍّ بِدَعوَى الإمامة، والنصِّ عليه، وادَّعى العصمة له، ولهذا لما كان مبدأه من النفاق قال بعض السلف: حب أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهما نفاق، وحب بني هاشم إيمان وبغضهم نفاق[٢]

وقال: ولهذا ذكر العلماء: أن الرفض أساس الزندقة، وأن أول من ابتدع الرفض إنما كان منافقًا زنديقًا، وهو عبد الله بن سبأ، فإنه إذا قدح في السابقين الأولين فقد قدح في نقل الرسالة، أو في فهمها، أو في اتباعها، فالرافضة تقدح تارة في علمهم بها، وتارة في اتباعهم لها -وتحيل ذلك على أهل البيت، وعلى المعصوم الذي ليس له وجود في الوجود[٣]

وقال: وهؤلاء خرج أولهم في زمن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ﷺ، وصاروا يدَّعون أنه خُصَّ بأسرار من العلوم والوصية، حتى كان يسأله عن ذلك خواص أصحابه، فيخبرهم بانتفاء ذلك، ولما بلغه أن ذلك قد قيل كان يخطب الناس وينفي ذلك عن نفسه.

وقد خرَّج أصحاب الصحيح كلام عليٍّ هذا من غير وجه، مثل ما في الصحيح عن أبي جحيفة قال: سألت عليًا: هل عندكم شيء ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهمًا يعطيه الله الرجل في كتابه، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر، ولفظ البخاري: «هل عندكم شيء من الوحي غير ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن».

وفي الصحيحين عن إبراهيم التيمي، عن أبيه -وهذا من أصحِّ إسناد على وجه الأرض- عن علي، قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: «المدينة حرام ما بين عَير إلى ثور»، وفي رواية لمسلم: خطبنا عليُّ بن أبي طالب فقال: من زعم أن عندنا كتابًا نقرؤه إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة -قال: وصحيفته معلقة في قراب سيفه- فقد كذب، فيها أسنان

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨٤)، (٤/ ٥١٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٢)، (١٣/ ٣٢).

الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: «المدينة حرام ....» الحديث[١].

وقال: إذ كان أصل المذهب من إحداث الزنادقة المنافقين، الذين عاقبهم في حياته عليٌّ أمير المؤمنين ﷺ، فحرَّق منهم طائفة بالنار، وطلب قتل بعضهم ففروا من سيفه البتَّار، وتوعَّد بالجلد طائفة مفترية، فيما عرف عنه من الأخبار، إذ قد تواتر عنه من الوجوه الكثيرة أنه قال على منبر الكوفة وقد أسمع من حضر: خير هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكرٍ ثم عمر، وبذلك أجاب ابنه محمد بن الحنفية فيما رواه البخاري في صحيحه، وغيره من علماء الملة الحنيفية[٢].

- ولم يكن التشيُّع المُغرِض المثير للفتنة بدرجةٍ واحدةٍ، بل كان بدرجاتٍ متفاوتةٍ في الاعتقاداتِ والمقالاتِ الفاسدةِ.

قال شيخ الإسلام: وحدثت أيضًا بدعة التشيع؛ كالغلاة المدعين لإلهية عليٍّ، والمدَّعين النصَّ على عليٍّ ﷺ السابِّين لأبي بكرٍ وعمر ﷺ، فعاقب أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ الطائفتين.

قَاتَلَ المارقين، وأمر بإحراق أولئك الذين ادعوا فيه الإلهية، فإنه خرج ذات يوم فسجدوا له، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت الله الذي لا إله إلا هو، فقال: ويحكم هذا كفر ارجعوا عنه وإلا ضربت أعناقكم، فصنعوا به في اليوم الثاني والثالث كذلك، فأخَّرهم ثلاثة أيام -لأن المرتد يستتاب ثلاثة أيام- فلما لم يرجعوا أمر بأخاديد من نار فخدت عند باب كِندة، وقذفهم في تلك النار، وروى عنه أنه قال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبرا

وقتل هؤلاء واجب باتفاق المسلمين، لكن في جواز تحريقهم نزاع، فعليٌّ ﷺ رأى تحريقهم، وخالفه ابن عباس وغيره من الفقهاء، قال ابن عباس: أما أنا فلو كنت لم أحرقهم، لنهي النبيِّ ﷺ أن يعذب بعذاب الله، ولضربت أعناقهم لقول النبيِّ ﷺ: «من بدَّل دينَه فاقتلوه»، وهذا الحديث في صحيح البخاري.

وأما السبَّابة الذين يسبون أبا بكر وعمر، فإن عليًّا لما بلغه ذلك طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك، وقيل: إنه أراد قتله فهرب منه إلى أرض قرقيسيا.

وأما المفضِّلة الذين يفضلونه على أبي بكرٍ وعمرَ، فروى عنه أنه قال: لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري، وقد تواتر عنه أنه كان يقول على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر ثم عمر، رُوي ذلك عنه من أكثر من ثمانين وجهًا، ورواه البخاري وغيره، ولهذا كانت الشيعة المتقدمون كلهم متفقين على تفضيل أبي بكر وعمر، كما ذكر ذلك غير واحد[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٧- ٧٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ١١).

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٠٦، ٢٠٧)، مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣، ٣٤)، (٣٥/ ١٨٤- ١٨٦)، (٤/ ٤٠٧، ٥١٨، ٥١٩).

- مع العلم أنه كان لعلي بن أبي طالب أنصار يوالونه قبل ظهور هؤلاء، وهم الذين وقفوا بجانبه بعد التَّحكيم، الذي أسفر عن أنصار لعليٍّ وأنصار لمعاويةَ، وهؤلاء لم يُعْرَف عنهم هذه الأقوال.

قال شيخ الإسلام: وأما شيعة عليٍّ الذين شايعوه بعد التحكيم، وشيعة معاوية التي شايعته بعد التحكيم، فكان بينهما من التقابل، وتلاعن بعضهم، وتكافر بعضهم ما كان، ولم تكن الشيعة التي كانت مع عليٍّ يظهر منها تنقُّص لأبي بكرٍ وعمرَ، ولا فيها من يقدِّم عليًّا على أبي بكرٍ وعمرَ، ولا كان سبُّ عثمان شائعًا فيها، وإنما كان يتكلم به بعضهم فيرد عليه آخر.

وكذلك تفضيل عليٍّ عليه لم يكن مشهورًا فيها، بخلاف سبّ علي فإنه كان شائعًا في أتباع معاوية(١).

وقال: واتُّهم طائفة من الشيعة الأولى بتفضيل عليٍّ على عثمانَ، ولم يُتَّهم أحد من الشيعة الأولى بتفضيل عليٍّ على أبي بكرٍ وعمرَ، بل كانت عامة الشيعة الأولى الذين يحبون عليًّا يفضِّلون عليه أبا بكرٍ وعمرَ، لكن كان فيهم طائفة ترجِّحه عَلَى عثمانَ، وكان الناس في الفتنة صاروا شيعتين: شيعة عثمانية، وشيعة علوية، وليس كل من قاتل مع عليٍّ كان يفضله على عثمان، بل كان كثير منهم يفضِّل عثمان عليه، كما هو قول سائر أهل السنة(٢).

وقال: وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون في تفضيل أبي بكرٍ وعمرَ، وإنما كان النِّزَاع في عليٍّ وعثمانَ، ولهذا قال شريك بن عبد الله: إن أفضل الناس بعد رسول الله أبو بكرٍ وعمر، فقيل له: تقول هذا وأنت من الشيعة؟ فقال: كلُّ الشيعة كانوا على هذا، وهو الَّذي قال هذا على أعواد منبره، أفنكذبه فيما قال؟ ولهذا قال سفيان الثوريّ: من فضل عليًّا على أبي بكرٍ وعمرَ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل، وهو كذلك. رواه أبو داود في سننه، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي، فإن الزيدية الصَّالِحِيَّةَ وهم أصلح طوائف الزَّيديَّة ينسبون إليه(٣)

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٦)، (٤/ ٤٠٦)، (٤/ ٤٧٩)، (٣/ ٤٠٨).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ١٣٢)، (١/ ٣٠٨).

(٣) منهاج السنة النبوية (١٣/ ٣٤)، (١/ ١٣)، (٦/ ٥١)، (٧/ ٣٩١).

الفصل الرابع
فِرَقُ الشِّيعَةِ

ذكر علماء الفرق والمقالات فرقًا كثيرة للشيعة، ولم يتفقوا على الفرق الأصول لهم، فنجد منهم من يعدهم ثلاثًا، ومنهم من يعدهم أربعًا، ومنهم من يعدهم خمسًا، وإليك بعض أقوال لهؤلاء العلماء.

قال الأشعري: فالشِّيَع ثلاثة أصناف:

فمنهم الغالية: وهم خَمْسَ عَشْرَةَ فرقةً،

والصنف الثاني: الرافضة وهم سوى «الكاملية» أربَعٌ وعشرون فرقةً، وهم يُدْعَوْنَ الإماميَّة،

والصنف الثالث: الزيديَّة، وهم ستُّ فرقٍ[(١)]

وقال الإسفراييني: اعلم أن الروافضَ يجمعهم ثلاث فرق: الزَّيديَّة، والإماميَّة، والكيسانيَّة[(٢)]

وقال البغدادي: افترقت الرافضة بعد زمان عليٍّ ﷺ أربعة أصناف: زيديّة، وإماميَّة، وكيسانيَّة، وغلاة، وافترقت الزيدية فرقًا، والإماميَّة فرقًا، والغلاة فرقًا، كلُّ فرقةٍ منها تكفِّر سائرها[(٣)] ثم ذكر عدد فرقهم سوى الغلاة عشرين فرقةً.

وقال الشهرستاني: وهم خمس فرقٍ: كيسانيَّة، وزيديَّة، وإماميَّة، وغلاة، وإسماعيليَّة[(٤)]

وقال الرازيُّ: وهم أربع طوائف: الزيديَّة، الإماميَّة، الغلاة، الكيسانيَّة[(٥)]

وقال الملطيُّ والسكسكيُّ: وهم ثماني عشرة فرقةً[(٦)]

وقال الإيجي: وهم اثنتان وعشرون فرقة يكفِّر بعضُهم بعضًا، أصولهم ثلاث فرق: غلاة، وزيديَّة، وإماميَّة، أما الغلاة فثمانية عشر، وأما الزيديَّة فثلاث فرقٍ[(٧)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥- ٨٥).

(٢) التبصير في الدين ص(٢٧).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٤١).

(٤) الملل والنحل (١/ ١٤٧).

(٥) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٢).

(٦) التنبيه والرد ص(١٨)، البرهان ص(٦٦).

(٧) المواقف (٣/ ٦٧١، ٦٧٧).

وقال شيخ الإسلام: والشِّيعة هم ثلاث درجاتٍ:

شرُّها الغالية . . .

والدَّرجة الثانية: وهم الرافضة المعروفون؛ كالإماميَّة وغيرهم. . .

والدَّرجة الثالثة: المفضّلة من الزيديَّة وغيرهم[١]

قلت: الذي يظهر أن الجميعَ متَّفقٌ على أن أصولَهم ثلاث فرقٍ: الغالية، والرَّافضة الإماميَّة، والزيديَّة، وإنما الخلاف وقع في زيادة فرقتين هما: الإسماعيليَّة والكيسانيَّة.

فأما الأولى: وهي فرقةُ الإسماعيليَّة فبعض العلماءِ أفردهم كفرقةٍ أصلٍ كالشهرستانيِّ، وهنا إنما صنعه لِمَا كان عنده من معرفة بمقالاتهم، ولِمَا كان بينه وبينهم من مناظراتٍ كثيرةٍ، وإلا فهو قد ذكرهم ضمن فرقِ الإماميَّةِ قبل أن يفردهم بقسم مستقل[٢]، والظاهر أنهم في الأصل من الإماميَّةِ ثم قالوا بمقالات أهل الغلوِّ فصاروا من الغاليةِ.

وأمَّا الثانية: وهي فرقة الكيسانيَّة فأفردها بعض العلماءِ كفرقةٍ أصلٍ كالإسفراييني وتَبِعَهُ عليه البغداديُّ، وكذلك أفردها الشهرستانيُّ، والرازيُّ، وهذا بسبب الاضطراب في حقيقة وطبيعةِ هذه الفرقةِ، فهي قد بدأت كدعوةٍ لإمامة أحدِ أهلِ البيتِ، ثم تحولت إلى فرقةٍ هدَّامةٍ للدين بمقالاتها الغالية والخارجة عن شريعة الإسلام، ولهذا فقد قال الإسفراييني بعد ذلك: والكيسانيَّةُ يُعَدّون في الإماميَّة[٣]، وقد جعلها ابن حزمٍ من الزيديَّةِ[٤]

فالحاصل أن الفرقَ الأصليَّةَ للشيعةِ ثلاث فرقٍ: الغالية، والرافضة الإماميَّة، والزيديَّة، وتحت كلِّ قسمٍ منهم عدَّ أصحاب المقالات فرقًا كثيرةً، والسببُ الرئيسيُّ لكثرةِ افتراقِهم هو تعين الإمام، وانتقال الإمامة من شخصٍ إلى آخرَ.

يقول الشهرستانيُّ: ولهم في تعدِّيَة الإمام كلام وخلاف كثير، وعند كلِّ تعدية وتوقف: مقالة، ومذهب، وخبط[٥]

وسنتكلم عن فرق الشيعة بإيجاز على النحو التالي:

السَّبَئِيَّةُ

أتباع عبد الله بن سبأ (نحو ٤٠ هـ)، الذي غلا في عليٍّ ﷺ، وزعم أنه كان نبيًّا، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إلهٌ، ودعا إلى ذلك قومًا من غواة الكوفةِ، ورُفع خبرهم إلى عليٍّ ﷺ فأمر بإحراق

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦)، مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣)، (٢٨/ ٤٧٤).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ١٦٧، ١٦٨، ١٩١).

(٣) التبصير في الدين ص(٤١).

(٤) الفصل (٤/ ١٣٧).

(٥) الملل والنحل (١/ ١٤٧).

قوم منهم في حفرتين، ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن، فلما قُتل عليٌّ ﷺ زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليًا، وإنما كان شيطانًا تصور للناس في صورة علىٍّ، وأن عليًا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال: كما كذبت اليهود النصارى في دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل عليٍّ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصًا مصلوبًا شبهوه بعيسى كذلك القائلون بقتل عليٍّ رأوا قتيلًا يشبه عليًا فظنوا أنه عليٌّ، وعليٌّ قد صعد إلى السماء، وأنه سينزل إلى الدنيا، وينتقم من أعدائِه، وزعم بعض السبئيَّةِ أن عليًا في السحاب، وأن الرعدَ صوته، والبرقَ سوطه أو تبسمه، ومن سمع من هؤلاء صوتَ الرعدِ قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك، فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا[1]

الغُرَابِيَّة، والمُفوضة

أما الغُرَابية: زعموا أن الله عز وجل أرسل جبريل عليه السلام إلى علي، فغلط في طريقه فذهب إلى محمدٍ؛ لأنه كان يشبهه، وقالوا: كان أشبه به من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب، وزعموا أن عليًا كان الرسول، وأولاده بعده هم الرسل.

وأما المُفوضة: زعموا أن الله تعالى خلق محمدًا، ثم فوَّض إليه خلق العالم وتدبيره، فهو الذي خلق العالم دون الله تعالى، ثم فوَّض محمدٌ تدبير العالم إلى عليٍّ بن أبي طالب فهو المدبر الثاني[2]

الشريعِيَّة، والنميريَّة

الشريعيَّة: أتباع رجل يعرف بالشريعيِّ، وهو زعم أن الله تعالى حلَّ في خمسة أشخاص، وهم: النبي، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وزعموا أن هؤلاء الخمسة آلهة، ولها أضداد خمسة، واختلفوا في أضدادها؛ فمنهم من زعم أنها محمودة؛ لأنه لا يُعرف فضل الأشخاص التي فيها الإله إلا بأضدادها، ومنهم من زعم أن الأضداد مذمومة، وحُكي عن الشريعي أنه ادَّعى يومًا أن الإله حلَّ فيه.

وكان بعده من أتباعه رجل يعرف بالنميري، حكي عنه أنه ادعى في نفسه أن الله تعالى حلَّ فيه، وهؤلاء هم النميريَّة[3].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٥)، التنبيه والرد ص(١٨، ١٩، ١٥٨)، الفصل (٢/ ٩١)، (٤/ ١٣٨، ١٤٢)، التبصير في الدين (١٢٣)، الفرق بين الفرق ص(٢٤٧)، الملل والنحل (١/ ١٧٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٣، ٥٧)، البرهان ص(٨٥)، المواقف (٣/ ٦٧١)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٠).

(٢) انظر: التبصير في الدين ص(١٢٨)، التنبيه والرد ص(٢٢)، الفصل (٤/ ١٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٢٦٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٩)، البرهان ص(٧٣)، المواقف (٣/ ٦٧٣).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٤، ١٥)، التبصير في الدين ص(١٢٩)، الفرق بين الفرق ص(٢٧١).

الكامليَّة

أتباع رجل يعرف بأبي الكامل، زعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي، وكفر علي بتركه قتالهم، وكان يلزمه قتالهم كما لزمه قتال أصحاب صفين[١]

العليائيَّة

أتباع العلياء بن ذراع الدوسي أو الأسدي، وكان يفضل عليًا على النبيِّ ﷺ، وزعم أن عليًا إله وقد بعث محمدًا ليدعو إليه، فدعا إلى نفسه، ويقول بذمِّ محمدٍ ﷺ، ويسمونهم الذميمة، أو الذِّمية.

ومنهم من قال بإلهيتهما جميعًا، ويقدِّمون عليًا في أحكام الإلهية، ويسمونهم العينية.

ومنهم من قال بإلهيتهما جميعًا، ويفضلون محمدًا في الإلهية، ويسمونهم الميمية.

ومنهم من قال بإلهية لجملة أشخاص أصحاب الكساء: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين[٢]

الكيسانيَّة، والكربيَّة، والهاشميَّة، والراونديَّة، والرزاميَّة، وابو مُسلِمِيَّة، والبيانيَّة، والحربيَّة، والخرميَّة، والمزدكيَّة، والبابكيَّة، والحارثيَّة

الكيسانيَّة أو المختاريَّة: أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي (٦٧ هـ) الذي قام بثأر الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب، وقتل أكثر الذين قتلوا حسينًا بكربلاء، وكان المختار يقال له: كيسان، وقيل: إنه أخذ مقالته عن مولى لعلي كان اسمه كيسان، وقيل: تلميذ لمحمد ابن الحنفية، وكان يدعو إلى إمامة محمد ابن الحنفية.

ثم افترقت الكيسانية فرقًا منهم الكربيَّة: أتباع أبي كرب الضرير، زعموا أن محمد ابن الحنفية حيٌّ لم يمت، وأنه في جبل رَضْوَى وعنده عين من الماء، وعين من العسل يأخذ منهما رزقه، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر يحفظانه من أعدائه إلى وقت خروجه، وهو المهديُّ المنتظر.

وذهب الباقون من الكيسانيَّة إلى الإقرار بموت محمد ابن الحنفية، واختلفوا في الإمام بعده، فمنهم من زعم أن الإمامة بعده رجعت إلى ابن أخيه عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب زين العابدين.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٧)، الفصل (٤/ ١٤٠)، التبصير في الدين ص(٣٥)، الفرق بين الفرق ص(٧٣)، الملل والنحل (١/ ١٧٤، ١٧٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٠)، البرهان ص(٧٤)، المواقف (٣/ ٦٧١).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٤)، الفصل (٤/ ١٤٢)، التبصير في الدين ص(١٢٩)، الفرق بين الفرق ص(٢٧٠)، الملل والنحل (١/ ١٧٥)، المواقف (٣/ ٦٧٣).

ومنهم من قال برجوعها بعده إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفيَّة، وهؤلاء هم الهاشميَّة، واختلف هؤلاء في الإمام بعد أبي هاشم إلى فرق:

فمنهم من قال: إن أبا هاشم أوصى بها إلى ابن أخيه الحسن بن عليٍّ بن محمد ابن الحنفية، ثم أوصى الحسن إلى ابنه عليّ بن الحسن، وهلك عليٌّ ولم يعقب.

ومنهم من قال: إن أبا هاشم أوصى بها إلى محمد بن عليٍّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وانجرت في أولادِه الوصيَّة حتى صارت الخلافة إلى بني العباس، وهؤلاء هم الراونديَّة.

ومنهم من قال: إن أبا هاشم أوصى بها إلى عليٍّ بن عبد الله بن عباسٍ، ثم ساقوها إلى محمد بن عليٍّ، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم، ثم من إبراهيم إلى عبد الله الذي كان يدعى أبا العباسِ السفاح، ومنه إلى أبي مسلم، وهؤلاء هم الرزاميَّة: اتباع رزام بن رزم، وهم يعترفون بموت أبي مسلم إلا فريقًا منهم اسمهم «أبو مُسلِمِيَّة» زعموا أن أبا مسلم حيٌّ لم يمت، وهم على انتظاره، ويقولون: إن الذي قتله أبو جعفر المنصور كان شيطانًا تصور بصورة أبي مسلم.

ومنهم من زعم أن الإمامة بعد أبي هاشم انتقلت إلى بيان بن سمعان التميمي بوصيته إليه، وهذا قول البيانيَّة، واختلف هؤلاء في بيان زعيمهم، فمنهم من زعم أنه كان نبيًّا وأنه نسخ بعض شريعة محمدٍ، ومنهم من زعم أنه كان إلهًا.

ومنهم من زعم أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم إلى عبد الله بن عمرو بن حرب، وهذا قول الحربيَّة، وادعت هذه الفرقة إلهية عبد الله بن عمرو بن حرب، وقيل: إنه اطلع بعض القوم على خيانته وكذبه فأعرضوا عنه، وقيل: إنه تاب من هذه الدعوى وانتحل مذهب الصفرية فتبرءوا منه، وقالوا بإمامة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعنه نشأت الخرميَّة والمزدكيَّة بالعراق، وهم أهل الإباحة الذين أباحوا النساء من المحارم وغير المحارم وأحلوا المحرمات كلها، ولقبوا أيضًا بالبابكيَّة، نسبةً لبابك الخرميّ، والمُحَمِّرة لصبغهم ثيابهم بالحمرة، أو لاعتبارهم من يخالفهم بأنهم حمير.

وهلك عبد الله بن معاوية بخراسان وافترقت أصحابه: فمنهم من قال: إنه حيٌّ لم يمت ويرجع، ومنهم من قال: بل مات وتحولت روحه إلى إسحاق بن زيد الحارث الأنصاري، وهم الحارثيَّة[1].

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٥، ٦، ١٨- ٢٣)، التنبيه والرد ص(٢٣، ١٥٦، ١٦٠)، الفصل (٤/ ٧٨، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣)، التبصير في الدين ص(٣٠- ٣٤، ١٢٤، ١٢٥)، الفرق بين الفرق ص(٥٨- ٧٢، ٢٥١، ٢٥٩)، الملل والنحل (١/ ١٤٧- ١٥٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٢، ٦٣)، البرهان ص(٧٠، ٧٥)، المواقف (٣/ ٦٧١)، منهاج السنة النبوية(٢/ ٥٠٢، ٥٠٣)، (٣/ ٤٧٤- ٤٧٩).

المغيريَّة، والجنَاحيَّة، والمحمديَّة

المغيريَّة: أتباع المغيرة بن سعيد العجليِّ (١١٩ هـ)، وكان يظهر في بدء أمره موالاة الإماميَّة، ويزعم أن الإمامة بعد عليٍّ والحسن والحسين إلى سِبطه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليٍّ، وزعم أنه هو المهديُّ المنتظر، وتبعته الرافضة على دعوته إياهم إلى انتظار محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليٍّ، إلى أن سمع خالدٌ القسريُّ بخبره وضلالته فطلبه وقتله، وبقي أتباعه على انتظار محمد بن عبد الله بن الحسن، فلما أظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليٍّ دعوته بالمدينة، استولى على مكة والمدينة، واستولى أخوه إبراهيم بن عبد الله على البصرة، واستولى أخوهما الثالث وهو إدريس بن عبد الله على بعض بلاد المغرب، وكان ذلك في زمان أبي جعفر المنصور، فبعث المنصور إلى حرب محمد بن عبد الله بن الحسن بعيسى بن موسى في جيشٍ كثيفٍ، وقاتلوا محمدًا بالمدينة، وقتلوه في المعركة، ثم أنفذ بعيسى بن موسى أيضًا إلى حرب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن مع جنده، فقتلوا إبراهيم، ومات في تلك الفتنة إدريس بن عبد الله بن الحسن بأرض المغرب، وقيل: إنه سُمَّ بها، ومات عبد الله بن الحسن بن الحسن والد أولئك الإخوة الثلاث في سجن المنصور. فلما قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن اختلفت المغيرية فيه فرقتان:

فرقة أقرُّوا بقتله وتبرءوا من المغيرة، وخرجوا من الكوفة إلى المدينة يطلبون إمامًا، فلقيهم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذو الجناحين فدعاهم إلى نفسه، وزعم أنه هو الإمام بعد علي وأولاده من صلبه، فبايعوه على إمامته، ورجعوا إلى الكوفة، وهؤلاء هم الجنَاحيَّة.

وفرقة ثبتت على موالاة المغيرة وقالت: إنه صدقَ في قوله: إن المهديَّ محمد بن عبد الله، وإنه لم يقتل، وإنما غاب عن عيون الناس، وهو في جبل حاجر من ناحية نجد مقيم هناك إلى أن يؤمر بالخروج فيخرج ويملك الأرض، وتُعقد البيعة بمكة بين الركن والمقام، ويحيا له من الأموات سبعة عشر رجلًا يعطي كلَّ واحدٍ منهم حرفًا من حروف الاسم الأعظم فيهزمون الجيوش، وزعم هؤلاء أن الذي قتله جند عيسى بن موسى بالمدينة لم يكن محمد بن عبد الله بن الحسن، وهؤلاء هم المحمديَّة لانتظارهم محمد بن عبد الله بن الحسن[1].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٦- ٩، ٢٣)، التنبيه والرد ص(١٦١)، الفصل (٤/ ١٤١)، التبصير في الدين ص(١٢٥، ١٢٦)، الفرق بين الفرق ص(٢٥٣، ٢٦٣)، الملل والنحل (١/ ١٧٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٨، ٥٩)، البرهان ص(٧٧)، المواقف (٣/ ٦٧٢)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٠٣، ٥٠٤)، (٣/ ٤٧٩).

الباقريَّة

هم الذين ساقوا الإمامة من عليٍّ بن أبي طالب ﷺ في أولادِه إلى محمد بن عليٍّ المعروف بالباقر، وقالوا: إن عليًّا نصَّ على إمامة ابنه الحسن، ونصَّ الحسن على إمامة أخيه الحسين، ونصَّ الحسين على إمامة ابنه عليٍّ بن الحسين زين العابدين، ونصَّ زين العابدين على إمامة محمد بن عليٍّ المعروف بالباقرِ، وزعموا أنه هو المهديُّ المنتظر[(١)]

المنصوريَّة، والحسينيَّة

المنصوريَّة: أتباع أبي منصور العجليِّ، الذي زعم أن الإمامة دارت في أولادِ عليٍّ حتى انتهت إلى محمدِ بن عليٍّ بن الحسين بن علي، المعروف بالباقر، وادَّعى أنه خليفة الباقر، إلى أن قتله يوسف بن عمر والي العراق في أيام بني أميَّة، وهم أيضًا الكِسْفِيَّة؛ فإن أبا منصورٍ هذا كان يلقب بالكِسْف، وكان يقول: إنه المراد بقول الله عز وجل: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ [الطُّور: الآية ٤٤]

ثم ظهرت الحسينيَّة وهم الذين يزعمون أن أبا منصور أوصى إلى ابنه الحسين بن أبي منصور، وهو الإمام بعده، إلى أن قتل في عهد المهديّ[(٢)]

الخطَّابيَّة، والمعمريَّة، والبزيغيَّة، والعميريَّة، والمفضَّليَّة

الخطابيَّة: أتباع أبي الخطَّاب محمد بن أبي زينب الأسديِّ، وهم يقولون: إن الإمامة كانت في أولادِ عليٍّ، إلى أن انتهت إلى جعفر الصادق، وزعم أبو الخطَّاب أن الأئمة أنبياء، ثم زعم أنهم آلهة، ثم ادَّعى بعد ذلك الإلهية لنفسه، وزعم أتباعه أن جعفرًا إله، غير أن أبا الخطَّاب أفضل منه وأفضل من عليٍّ، ودعا أبو الخطاب أتباعه إلى عبادة جعفرٍ، ثم خرج على والي الكوفة في أيام المنصور، فبعث إليه المنصور بعيسى بن موسى في جيش فأسروه وصلب. ثم افترقت الخطابيَّة بعد ذلك خمسُ فرقٍ:

الخطابيَّة المطلقة: الذين ثبتوا على موالاة أبي الخطَّابِ.

والمعمريَّة أو العموميَّة: زعموا أن الإمام بعد أبي الخطَّاب رجل اسمه معمر.

---

(١) انظر: الفصل (٤/ ٧٧)، التبصير في الدين ص(٣٦، ٣٧)، الفرق بين الفرق ص(٧٨)، الملل والنحل (١/ ١٦٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٣).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٩، ٢٤)، التنبيه والرد ص(١٥٩)، الفصل (٤/ ١٤١، ١٤٢)، التبصير في الدين ص(١٢٥)، الفرق بين الفرق ص(٢٦١)، الملل والنحل (١/ ١٧٨، ١٧٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٨)، البرهان ص(٧٦)، المواقف (٣/ ٦٧٣)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٠٤- ٥٠٦)، (٣/ ٤٨٠).

والبزيغيَّة: زعموا أن الإمام بعد أبي الخطَّاب هو بزيغ بن موسى.

والعميريَّة أو العجليَّة: زعموا أن الإمام بعد أبي الخطَّاب هو عمير بن بيان العجليُّ.

والمفضَّليَّة: زعموا أن الإمام بعد أبي الخطَّاب هو مفضَّل الصيرفي[(١)]

الجعفريَّة، والناووسيَّة

الجعفريَّة: هم الذين ساقوا الإمامة إلى جعفرٍ الصادقِ بنصِّ الباقر عليه.

ومنهم فرقة الناووسيَّة: أتباع عجلان بن ناووس، وقيل: نسبة إلى قرية ناووسا، قالت: إن الصادقَ حيٌّ بعدُ، ولن يموتَ حتى يظهر، فيظهر أمره، وهو القائم المهديّ المنتظر[(٢)]

الشميطيَّة

أتباع يحيى بن أبي شميط، وقد ساقوا الإمامة بطريق النصِّ من جعفر إلى ابنه محمد بن جعفر، وأقروا بموت جعفر، ثم أداروا الإمامة في أولاد محمد بن جعفر، وزعموا أن المنتظر من ولده[(٣)]

العمَّاريَّة، والزُّرَارِيَّة

العمَّاريَّة: أتباع رجل منهم اسمه عمَّار، وهم يسوقون الإمامة إلى جعفرٍ الصادق، ومن بعده إلى ولدِه عبدِ الله، وكان أكبر أولادِه، وهي في ولده، وكان عبد الله أفطح الرجلين، ولهذا قيل لأتباعه: الأَفْطَحِيَّة، ومع ذلك ما عاش عبد الله بعد أبيه إلا سبعين يومًا، ومات ولم يعقب ولدًا ذكرًا.

وخرج منهم زُرارة بن أَعْيَن، فإن جماعة من العمَّارية تدعى أنه كان على مقالتها وأنه لم يرجع عنها، وزعم بعضهم أنه رجع عن ذلك وصار إلى الائتمام بموسى بن جعفر بن محمد، وهؤلاء هم الزُّرَاريَّة، ويُدْعَوْن التميميَّة[(٤)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٠- ١٣)، التنبيه والرد ص(١٦٢)، الفصل (٤/ ١٤٢، ١٤٣)، التبصير في الدين ص(١٢٦- ١٢٨)، الفرق بين الفرق ص(٢٦٥- ٢٦٨)، الملل والنحل (١٧٩- ١٨١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٨)، البرهان ص(٦٩)، المواقف (٣/ ٦٧٣)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٠٦- ٥٠٨).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٥)، الفصل (٤/ ٧٧، ١٣٨)، التبصير في الدين ص(٣٧)، الفرق بين الفرق ص(٧٩)، الملل والنحل (١/ ١٦٦، ١٦٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٣)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٨٠).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٧)، الفصل (٤/ ٧٧)، التبصير في الدين ص(٣٨)، الفرق بين الفرق ص(٨٠)، الملل والنحل (١/ ١٦٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٤).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٧، ٢٨)، التبصير في الدين ص(٣٨، ٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨١، ٨٨)، الملل والنحل (١/ ١٦٧، ١٨٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٤)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٨٢).

الإسماعيليَّة، والمباركيَّة، والقرامطة، والباطنيَّة

الإسماعيليَّة: هم يسوقون الإمامة إلى جعفرٍ، ومن بعده إلى ولده إسماعيل، وافترقوا فرقًا:

فرقة منتظرة لإسماعيل بن جعفر، وقالوا: إنه لم يمتْ ولكنه أظهر موته تقيةً من خلفاء بني العباس، وقد اتفق أصحاب التواريخ على موت إسماعيل في حياة أبيه.

وفرقة قالت: إن جعفرَ بن محمد جعلها لإسماعيل ابنه دون سائر ولده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه صارت في ابنه محمد بن إسماعيل، ثم صارت في ولده من بعده، وهؤلاء هم المباركيَّة، أتباع رجل يقال له المبارك، وقد ذكر أصحاب الأنساب في كتبهم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب.

وفرقة قالت: إن جعفر بن محمد نصَّ على إمامة ابن ابنه محمد بن إسماعيل، وزعموا أن محمد بن إسماعيل حيٌّ إلى اليوم لم يمت، لا يموت حتى يملك الأرض، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به، وهؤلاء هم القرامطة أتباع حمدان قرمط، ويقال لهم السبعيَّة؛ لأن عدد أئمتهم سبعة، ولأن تدابير العالم السفلي منوطة عندهم بالكواكب السبعة، وقد انتشر أمرهم في المغرب والقاهرة في المائة الرابعة، وظهر فيهم من الزندقة والإلحاد ما لم يعهد مثله لا في الغلاة ولا غيرهم.

ومنهم من قال: إن الإمامة بعد محمد بن إسماعيل في المستورين من ولده الذين كانوا يسيرون في البلاد سرًّا ويظهرون الدعاة جهرًا، ثم في الظاهرين القائمين من بعدهم؛ كالمهديّ بالله، والقائم بأمر الله، وأولادهم، نصًّا بعد نصٍّ على إمام بعد إمام، وهؤلاء هم الباطنيّة، الذين ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، ومن هؤلاء بنو عبيد بن ميمون القدَّاح الذين أقاموا الدولة الفاطمية بمصر وادعوا أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر ولم يكونوا من أولاده بل كان جدهم يهوديًا ربيبًا لمجوسي وأظهروا التشيّع[1]

الكيَّاليَّة

أتباع أحمد بن الكيَّال، وهو من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر بن محمد الصادق، ولعله من الأئمة المستورين، ثم صرف الدعوة إلى نفسه، وادَّعى الإمامة أولًا، ثم ادَّعى أنه القائم ثانيًا، ثم قتله من انتمى إليه أولًا على بدعته تلك[2]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٦، ٢٧)، التنبيه والرد ص(٢٠- ٢٢)، الفصل (٤/ ٧٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣)، التبصير في الدين ص(٣٨، ٣٩، ١٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨١، ٨٣، ٣٠٥)، الملل والنحل (١/ ١٦٧- ١٦٨، ١٩١- ١٩٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٤)، البرهان ص(٨٠- ٨٥)، مجموع الفتاوى (٤/ ١٦٢، ٣٢٠)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٢- ٤٥٤)، (٣/ ٤٨١، ٤٨٢)، (٤/ ٥٥).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ١٨١- ١٨٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦١).

الموسويَّة

هم يسوقون الإمامة إلى جعفر، ومن بعده إلى ولده موسى الملقب بالكاظم، وزعموا أن موسى بن جعفر حيٌّ لم يمت، وأنه هو المهدي المنتظر، وقالوا: إنه دخل دار الرشيد ولم يخرج منها، وقد علمنا إمامته وشككنا في موته، فلا نحكم في موته إلا بيقين، وهذا الصنف يُدْعَوْن: الواقفة؛ لأنهم وقفوا على موسى بن جعفر ولم يجاوزوه إلى غيره، ويدعون أيضًا: المفضَّليَّة نسبة إلى المفضَّل بن عمر وكان ذا قدر فيهم، وبعض مخالفيهم يدعوهم: الممطورة؛ لأن يونس بن عبد الرحمن القُمّي كان من القَطْعيَّة ناظر بعضهم فقال في بعض كلامه: أنتم أهون على عيني من الكلاب الممطورة.

وفرقة منهم وقفوا في أمر موسى بن جعفر فقالوا: لا ندري أمات أم لم يمت؟ إلا أنا مقيمون على إمامته حتى يتضح لنا أمر غيره، وإن وضحت لنا إمامة غيره كما وضحت لنا إمامته قلنا بذلك وانقدنا له.

وهناك من يقول: إن موسى بن جعفر نص على إمامة ابنه أحمد بن موسى بن جعفر [١]

القَطْعِيَّة أو الاثنا عشريَّة

وهم جمهور الشِّيعةِ، وهم يسوقون الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، وقطعوا بموت موسى.

ويقال لهم: الاثنا عشريَّة؛ لدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثاني عشر من نسبه إلى عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، فيزعمون أن النبيَّ نصَّ على إمامة عليٍّ بن أبي طالب (المرتضى)، واستخلفه بعده بعينه واسمه، وأن عليًّا نصَّ على إمامة ابنه الحسن بن عليٍّ (المجتبى)، وأن الحسنَ بن عليٍّ نصَّ على إمامة أخيه الحسين بن عليٍّ (الشهيد)، وأن الحسينَ بن عليٍّ نصَّ على إمامة ابنه عليٍّ بن الحسين (السجاد)، وأن عليَّ بن الحسين نصَّ على إمامة ابنه محمد بن عليٍّ (الباقر)، وأن محمدَ بن عليٍّ نصَّ على إمامة ابنه جعفر بن محمدٍ (الصادق)، وأن جعفرَ بن محمدٍ نصَّ على إمامة ابنه موسى بن جعفرٍ (الكاظم)، وأن موسى بن جعفرٍ نصَّ على إمامة ابنه عليٍّ بن موسى (الرضا)، وأن عليَّ بن موسى نصَّ على إمامة ابنه محمدِ بن عليٍّ بن موسى (التقي الجواد)، وأن محمدَ بن عليٍّ بن موسى نصَّ على إمامة ابنه عليٍّ بن محمد بن عليٍّ بن موسى (النقي)، وأن عليَّ بن محمد بن عليٍّ بن موسى نصَّ على إمامة الحسن بن عليٍّ بن محمد بن عليٍّ بن موسى (العسكريّ الزكيّ) وهو الذي كان بسامرا، وأن

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٨، ٢٩)، الفصل (٤/ ٧٧، ١٣٨)، التبصير في الدين ص(٣٨)، الفرق بين الفرق ص(٨٢)، الملل والنحل (١/ ١٦٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٤)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٨٣).

الحسنَ بن عليٍّ نصَّ على إمامة ابنه محمدِ بن الحسن بن عليٍّ (الحجة القائم) وهو الغائب المهديّ المنتظر عندهم، الذي يدَّعون أنه يظهر فيملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا.

واختلفوا في سِنِّ هذا الثاني عشر عند موته، فمنهم من قال: كان ابن أربع سنين، ومنهم من قال: كان ابن ثماني سنين. واختلفوا في حكمه في ذلك الوقت، فمنهم من زعم أنه في ذلك الوقت كان إمامًا عالمًا بجميع ما يجب أن يعلمه الإمام، وكان مفروض الطاعة على الناس، ومنهم من قال: كان في ذلك الوقت إمامًا على معنى أن الإمام لا يكون غيره، وكانت الأحكام يومئذ إلى العلماء من أهل مذهبه إلى أوان بلوغه، فلما بلغ تحققت إمامته، ووجبت طاعته، وهو الآن الإمام الواجب طاعته وإن كان غائبًا.

وهناك من زعم أن محمدَ بن الحسن بعده إمام هو القائم الذي يظهر فيملأ الدنيا عدلًا، ويقمع الظلم.

وقد وقعت اختلافات في حال كلٍّ واحدٍ من هؤلاء الاثني عشر، ومنازعات جرت بينهم وبين إخوتهم وبني أعمامهم، فصاروا فرقًا كثيرة[(١)]

الهشاميَّة واليونسيَّة

هما فرقتان، فرقة تنسب إلى هشام بن الحكم الرافضيِّ، والفرقة الثانية تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقيِّ، وهما على مذهب الإماميَّة في الإمامة، وضموا إلى ذلك بدعتهم في التَّجسيم والتَّشبيه.

واليونسيَّة أتباع يونس بن عبد الرحمن القمِّي مولى آل يقطين، وهم من القطعيَّة، وضموا إلى ذلك بدعتهم في التَّشبيه[(٢)]

الشَّيْطَانِيَّة او النُّعْمَانِيَّة

أتباع محمد بن النعمان أبي جعفرٍ، الملقب بشيطان الطَّاق، كان في زمان جعفرٍ الصادقِ، وعاش بعده مدةً، وساق الإمامة إلى ابنه موسى، وقطع بموتِه، وانتظر بعض أسباطه، وشارك هشام بن الحكم وهشام بن سالم في بعض بدعِهم[(٣)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٧، ٣٠)، التنبيه والرد ص(٣٣)، الفصل (٤/ ٧٧، ١٣٨)، التبصير في الدين ص(٣٩)، الفرق بين الفرق ص(٨٣)، الملل والنحل (١/ ١٦٩- ١٧٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٤- ٥٦، ٦٥)، البرهان ص(٦٨)، المواقف (٣/ ٦٧٤)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٣)، (٤/ ٨٧- ٩٤).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٣١، ٣٤، ٤٤، ٦٠)، التنبيه والرد ص(٢٤)، الفصل (٤/ ٧٧)، التبصير في الدين ص(٣٩، ٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨٤- ٨٨)، الملل والنحل (١/ ١٨٤- ١٨٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٤)، البرهان ص(٧١)، المواقف (٣/ ٦٧٤).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٣٧، ٤٣، ٥١)، الفصل (٤/ ٧٧، ١٣٩)، التبصير في الدين ص(٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨٩)، الملل والنحل (١/ ١٨٦، ١٨٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٥)، المواقف (٣/ ٦٧٤).

الزَّيْدِيَّة

هم الذين يقولون بإمامة زيد بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالبٍ، ومن بعده إمامة ابنه يحيى بن زيدٍ، وكان زيدُ بن عليٍّ قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، وخرج بهم على والي العراقِ يوسف بن عمر الثقفيّ عامل هشامٍ بن عبد الملك على العراقيين، فلما استمر القتال بينه وبين يوسف بن عمر قالوا له: إنا ننصرك على أعدائِك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكرٍ وعمرَ اللَّذين ظَلَمَا جدَّك عليَّ بن أبي طالب، فقال زيد: إني لا أقول فيهما إلا خيرًا، وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيرًا، وإنما خرجت على بني أمية الذين قاتلوا جدِّي الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرَّة، ثم رموا بيت الله بحجرِ المنجنيق والنار، ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم: رفضتموني، ومن يومئذ سُمّوا رافضةً، وثبت معه شِرْذِمَةٌ حتى قتلوا عن آخرهم وقتل معهم زيد، وهرب ابنه يحيى إلى خراسان، وخرج بناحية الجوزجان على نصر بن سيار والى خراسان، فبعث إليه سلم بن أحوز المازني في ثلاثة آلاف رجل فقتلوا يحيى بن زيد. ثم افترقوا بعد ذلك فرقًا:

الجاروديَّة: أتباع أبي الجارود زياد بن أبي زياد، أو زياد بن المنذر العبدي، أو الهمذاني، الخراساني، وهم يزعمون أن النبي ﷺ نصَّ على إمامة علي بن أبي طالب بالوصف.

ثم افترقوا فرقتين: فرقة زعمت أن عليًّا نصَّ على إمامة الحسن، وأن الحسن نصَّ على إمامة الحسين، ثم هي شورى في ولد الحسن وولد الحسين، فمن خرج منهم يدعو إلى سبيل ربِّه وكان عالمًا فاضلًا فهو الإمام.

وفرقة زعمت أن النبيَّ ﷺ نصَّ على الحسن بعد عليٍّ، وعلى الحسين بعد الحسنِ، ليقوم واحد بعد واحد.

وافترقوا في الإمام المنتظر فرقًا: فرقة زعمت أن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب لم يمت، وأنه يخرج ويغلب، ويملأ الأرض عدلًا

وفرقة زعمت أن محمدَ بن القاسم بن عليٍّ بن عمر بن علي بن الحسين بن عليٍّ، صاحب الطالقان، أنه الإمام، وأنه حيٌّ لم يمت، وسيخرج ويغلب، وقد أُسر في أيام المعتصم، وحمل إليه، فحبسه في داره حتى مات.

وفرقة زعمت أن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، صاحب الكوفة، أنه الإمام، وأنه حيٌّ لم يمت، وسيخرج ويغلب، وقد قُتل في أيام المستعين، وحمل رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر.

ومنهم من لم يعين واحدًا منهم بالانتظار، وقال: كل من شهر سيفه ودعا إلى دينه من ولدي الحسن والحسين فهو الإمام.

والسليمانيَّة أو الجريريَّة: أتباع سليمان بن جرير، أو جرير بن سليمان الرّقيّ.

والبُتْريَّة أو الصَّالِحِيَّة: أتباع الحسن بن صالح بن حي، وكثير بن النواء، قيل: سموا بترية؛ لأن كثيرًا كان يلقب بالأبتر، وقيل: إنها أمثل طوائف الشيعة.

والنُّعَيمِيَّة: أتباع نعيم بن اليمان.

واليعقوبيَّة: أصحاب رجل يسمى يعقوب[1].

النُّصَيريَّة

أتباع أبي شعيب محمد بن نصير البصريّ النُّميريّ، وقيل: نسبة إلى جبالٍ نصيرٍ بالشام، ولعلَّهم نفس فرقةِ النميريَّة السابقةِ؛ لاشتراكهما في نفس المقالات، ويكون قد عُرِفت باسم النميريَّة ثم بعد ذلك أطلق عليها اسم النُّصيريَّة.

وابن نصير هذا قيل: إنه كان مولى لعليٍّ بن أبي طالب، وقيل: إنه كان مولى الحسن العسكريّ الإمام الحادي عشر للشيعة الإماميَّة، فلما مات الحسن ادَّعى أنه الوكيل لابن الحسنِ أو الباب له، ثم ادَّعى أنه نبيٌّ وأنه رسولٌ، ثم ادَّعى بعد ذلك الربوبيَّة، وقال بإباحة المحارم وغير ذلك من العقائدِ والمقالاتِ القبيحةِ، وقد هلك سنة ٢٧٠هـ.

ثم خلفه محمد بن جندب، ومن بعده عبد الله بن محمد الجنبلانيّ، ومن بعده حسين بن عليٍّ بن حمدان الخصيبيّ الَّذي أنشأ للنصيريَّةِ مركزين أولهما في حلبٍ والثاني في بغداد، وقد انقرض مركز بغداد بعد حملة «هولاكو» عليها، وانتقل مركز حلب إلى اللاذقيَّة، وهاجمته الأكراد والأتراك فاستنجدوا بالأمير حسن السنجاريّ الَّذي أرسى لهم قواعدَ المذهبِ النصيريِّ في جبال اللاذقيَّة.

وعندما شُكِّل حزبٌ سياسيٌّ في سوريا باسم الكتلة الوطنية، أراد الحزبُ أن يكتسب النصيريَّة فأطلق عليهم اسم العلويين، فصادف هوًى في نفوسِهم وهم يحرصون عليه الآن، وقد أقامت فرنسا لهم دولةً باسم دولة العلويين في جبال نصيرٍ استمرت من سنة ١٩٢٠- ١٩٣٦م.

واستطاع العلويون النصيريون أن يتسللوا إلى التجمعات الوطنية في سوريا، واشتد نفوذهم في الحكم السوريّ منذ سنة ١٩٦٣م بواجهة محسوبة على أهل السُّنَّة، وقاموا بانقلاب ١٦/ ١١/ ١٩٧٠م واستلموا بعده السلطة وتولَّوا رئاسةَ الجمهوريةِ سنة ١٩٧١م.

والنصيريَّة يؤلِّهون عليًّ بن أبي طالب وقالوا بظهوره الروحانيّ بالجسد الجسمانيّ الفاني كظهور جبريل في صورة بعض الأشخاص، وظهور عليٍّ في صورة الناسوت إيناسًا لخلقه وعبيده.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٦٥- ٦٩)، التنبيه والرد ص(٢٣، ٣٣- ٣٥)، الفصل (٤/ ٧٦، ٧٧)، التبصير في الدين ص(٢٧- ٣٠)، الفرق بين الفرق ص(٥١- ٥٨)، الملل والنحل (١/ ١٥٤- ١٦٢)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٢)، البرهان ص(٦٦، ٧٤)، المواقف (٣/ ٦٧٧، ٦٧٨)، منهاج السنة النبوية (٣/ ١٠- ١٢، ٤٧١).

ويحبون عبد الرحمن بن ملجم قاتل عليٍّ بن أبي طالب ويترضون عنه لزعمهم أنه قد خلص اللاهوت من الناسوت ويخطّئون من يلعنه.

ويعتقدون أن عليًا خلق محمدًا وأن محمدًا خلق سلمان الفارسي وأن سلمان خلق الأيتام الخمسة: المقداد بن الأسود: ويعدونه رب الناس وخالقهم والموكَّل بالرعود، وأبا ذر الغفاريَّ: الموكَّل بدوران الكواكب والنجوم، وعبدَ الله بن رواحةَ: الموكَّل بالرياح وقبض أرواح البشر، وعثمانَ بن مظعونٍ: الموكل بالمعدة وحرارة الجسد وأمراض الإنسان، وقنبرَ بن كادان: الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام.

ويعظمون الخمرة ويسمونها النورَ، وزعموا أن الله يتجلى فيها، ويعظمون شجرةَ العنب لذلك.

ويبغضون الصحابةَ بغضًا شديدًا، ويلعنون أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ.

ويزعمون بأن للعقيدةِ باطنًا وظاهرًا، وأنهم وحدَهم الذين يعلمون باطنَ الأسرارِ ويعلمون إشاراته.

ويصلون في اليوم خمس مراتٍ لكنها صلاة تختلف في عدد ركعاتها ولا تشتمل على سجودٍ.

وليس لهم مساجدُ عامة، بل يصلون في بيوتهم، وصلاتهم تكون مصحوبة بتلاوة الخرافات، ولا يصلون الجمعة، ولا يتمسكون بالطَّهَارةِ من وضوء ورفع جنابة قبل أداء الصلاة.

والصيام عندهم هو الامتناع عن معاشرةِ النساء طيلة شهر رمضان.

ولا يعترفون بالزَّكَاة التي عند المسلمين، وإنما يدفعون ضريبة إلى مشايخهم زاعمين بأن مقدارها خمس ما يملكون.

ولا يعترفون بالحجِّ، ويقولون بأن الحجَّ إلى مكة إنما هو كفر وعبادة أصنامٍ.

ولهم قداسات شبيهة بقداساتِ النصارى، مثل: قداس الطيب لك أخ حبيب، وقداس البخور في روح ما يدور في محل السرور، وقداس الأذان وبالله المستعان.

ولهم أعيادٌ كثيرة تدل على مجمل عقيدتهم، مثل: عيد النيروز وهو أول أيام سنة الفرس، وعيد الغدير، وعيد الفراش، ويوم عاشوراء، ويوم المباهلة، وعيد الأضحى، ويحتفلون بأعياد النصارى كعيد الغطاس وعيد الميلاد . . . ، ويحتفلون بيوم دلام وهو اليوم التاسع من ربيع الأول ويقصدون به مقتل عمر بن الخطاب، فرحًا بمقتله وشماتة به.

وقد تفرق النصيريون إلى فرق كثيرة، منها:

الجرانة: نسبة إلى قريتهم جرانة، ثم سميت بعد ظهور محمد يونس كلازو وهو من زعمائهم: **الكلازيَّة**، ويقال لهم: **القمريَّة**؛ لأنهم يعتقدون أن عليًا حلَّ في القمرِ، ويرون أن الإنسانَ إذا شرب الخمر الصافية يقترب من القمرِ.

والغيبيَّة: أي الذين رضوا بما قدر لهم في الغيب فتركوا التوسُّلَ، أو هم الذين قالوا: إن الله تجلَّ في عليٍّ ثم غاب عن البشرِ واختفى، والزمان الحالي هو زمان الغيبة، ويقررون أن الغائب هو الله الذي هو عليٌّ، ثم سميت بعد ظهور عَلِيِّ حيدر: الحيدريَّة.

والماخوسيَّة: نسبة إلى زعيمهم عليٍّ الماخوس المنشق عن الكلازيَّة.

والنياصفة: نسبة إلى زعيمهم ناصر الحاصوري من بلدة نيصاف بلبنان.

ومركز النصيريَّة هو جبال النصيريين في اللاذقيَّة، ولهم انتشار في المدن السوريَّة المجاورة لهم، وهم منتشرون أيضًا في لبنان، ولهم تعاون كبير مع الصليبيين والتتار والفرنسيين في حروبهم ضد المسلمين.

ويوجد عدد كبير منهم في غربي الأناضول ويعرفون باسم: التختجيَّة و«الحطابون»، وفي شرق الأناضول يعرفون باسم: القزل باشيه، ويعرفون في أجزاء أخرى من تركيا وألبانيا باسم: البكتاشية.

ويوجد عدد منهم في فارس وتركيستان ويعرفون باسم العلي إلهية.

وهناك طائفة تسمى الإسحاقيَّة لهم نفس المنهج والقرب من عقائدهم ومقالاتهم، وهم باقون في حلب ونواحي الشام[١]

الدُّروز

أتباع محمد بن إسماعيل الدُّرزيّ، المعروف بهشتكين، أو نَشْتِكِين، وكان من موالي الحاكم، أعلن سنة ٤٠٧ هـ ألوهية الحاكم بأمر الله؛ سادس الملوك العبيدين بمصر، وأرسله الحاكم إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة في الشام فدعاهم إلى ذلك إلى أن قتل سنة ٤١١ هـ.

والمؤسس الفعلي للدروز هو حمزة بن عليٍّ بن محمد الزوزنيّ الهالك سنة ٤٣٠ هـ، الذي أعلن سنة ٤٠٨هـ ألوهية الحاكم، وصنف كتبًا ذكر فيها أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام، ثم انتقلت إلى عليٍّ بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز، ثم إلى ابنه الحاكم، الذي أصبح في نظرهم إلهًا عن طريق الحلول.

وكان الحاكم يشجع هذه الدعوة في مصر والشَّام؛ لأن ذلك كان يتفق مع ميوله، وقد ادعى

(١) انظر: الفصل (٤/ ١٤٣)، الملل والنحل (١/ ١٨٨، ١٨٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦١)، البرهان ص(٦٧)، المواقف (٣/ ٤٤، ٦٧٥)، مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٥- ١٦٢)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٢، ٥١٣)، (٣/ ٤٥٢)، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين للجلي ص(٢٤٣- ٢٦٠)، الموسوعة الميسرة (١/ ٣٩٠- ٣٩٦)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٢/ ٥٣٣- ٥٨٧)، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٣٥- ١٤١).

تجسيم الإله في شخصه، وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمي هذا الاعتقاد، ولم يترددوا في أن ينسبوا إليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى، وهم يقرءون القرآن بحضرته، حتى لقد أرغم كل من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية.

وذكر كثير من الباحثين أن الحاكم بأمر الله كان شاذًّا في فكره وسلوكه وتصرفاته شديد القسوة والتَّناقض والحقد على الناس، أكثر من القتل والتَّعذيب دون أسباب تدعو إلى ذلك، قتل سنة ٤١١ هـ.

والدُّروز يسمون الحاكم الباري العلَّام، ويحلفون به، ويزعمون أنه لم يقتل ولم يمت، ولكنه ارتفع إلى السماء وسيعود عندما تحلُّ الساعة فيملأ الأرض عدلًا، وينكرون الأنبياء والرُّسل جميعًا، ويلقبونهم بالأبالِسَة.

ويعتقدون بأن المسيح هو داعيتهم حمزة، ويعتقدون بأن ديانتهم نسخت كل ما قبلها، وينكرون جميع أحكام وعبادات الإسلام وأصوله كلِّها، ويبغضون جميع أهل الدياناتِ الأخرى والمسلمين منهم بخاصة ويستبيحون دماءهم وأموالهم وغشهم عند المقدرة.

يقولون بتناسخ الأرواحِ وأن الثوابَ والعقابَ يكون بانتقال الروح من جسدِ صاحبها إلى جسدٍ أسعد أو أشقى، وينكرونَ الجنةَ والنارَ والثوابَ والعقابَ الأخرويين، ويعتقدون أن القيامة هي رجوع الحاكم الذي سيقودهم إلى هدم الكعبة وسحق المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض وأنهم سيحكمون العالم إلى الأبدِّ ويفرضون الجزيةَ والذلَّ على المسلمين.

وينكرون القرآن الكريم ويقولون: إنه من وضعِ سلمانَ الفارسيِّ، ولهم مصحف خاصٌّ به يسمى المنفرد بذاته، أو مصحف الدروز.

ويقدحون في الصحابة ويقولون فيهم أقوالًا منكرةً، منها قولهم: الفحشاء والمنكر، هما أبو بكرٍ وعمرُ.

ويفتخرون بالانتساب إلى الفرعونيَّة القديمة وحكماء الهند القدامى.

ويبدأ التاريخ عندهم من سنة ٤٠٨ هـ، وهي السَّنَة التي أعلن فيها حمزة ألوهية الحاكم.

ويعتقدون أن الحاكم أرسل خمسة أنبياء هم: حمزة وإسماعيل ومحمد الكلمة وأبو الخير وبهاء.

ويحرمون التزاوج مع غيرهم والصدقة عليهم ومساعدتهم كما يمنعون التعدد وإرجاع المطلقة، ويَحْرِمُون البناتِ من الميراثِ، ولا يعترفون بِحُرْمَة الأختِ والأخِ من الرَّضَاعَةِ.

ويعتقدون ما يعتقده الفلاسفة من أن إلهَهم خلق العقلَ الكليَّ وبواسطته وجدت النفس الكلِّيَّة وعنها تفرعت المخلوقات.

ولا يقبل الدُّروز أحدًا في دينهم ولا يسمحون لأحدٍ بالخروج منه.

ويقولون بإسقاط الفرائضِ الدينيَّةِ التكليفيَّةِ، وعدم إقامة الفرائض الدينيَّة الإسلاميَّة، والاعتراف بالخصالِ التوحيديَّة، فمن اعترف بها فهو من الموحدين، وهذا من الأسماء التي يحبُّون

أن تطلق عليهم.

ومناطقهم خالية من المساجد ويستعيضون عنها بخلوات يجتمعون فيها ولا يسمحون لأحدٍ بدخولها، ويحُجُّون إلى إحدى هذه الخلواتِ وهي خلة البياضة في لبنان.

ولا يزورون مسجدَ الرسولِ ﷺ إنما يزورون الكنيسةَ المريمية في دمشق، ولا يصومون في رمضان، إنما يصومون في التسعة أيام الأولى من شهر ذي الحجة.

وللأعداد خمسة وسبعة مكانةٌ خاصَّة في العقيدة الدُّرزيَّة.

والتستر والكِتْمَان من أصولِ معتقداتهم فهي ليست من باب التَّقِيَّة إنما هي مشروعة في أصول دينهم.

ولا يتلقى الدُّرزي عقيدته ولا يبوحون بها إليه ولا يكون مكلفًا بتعاليمها إلا إذا بلغ سن الأربعين، وهي سن العقل لديهم، وللدُّروز الآن تواجدٌ سياسيٌّ كبيرٌ في لبنان يمثله الحزبُ التقدميُّ الاشتراكيُّ الذي أسسه كمال جنبلاط، وخلفه ابنه وليد جنبلاط.

وهم منتشرون الآن في جبل الدُّروز بلبنان، ومرتفعات الجولان بجنوب سوريا، وفي فلسطين المحتلة حيث قد أخذوا الجنسيَّة الإسرائيليَّة، ويشتركون في حياة اليهود السياسيَّة، وفي الجيش اليهوديِّ في حروبه ضد المسلمين، وتوجد لهم رابطة في البرازيل وأستراليا وغيرهما[١].

الحشَّاشُون

يذهبون إلى إمامة المستنصر بالله الفاطميِّ ومن بعده إلى ولده الأكبر نزار، الذي قتله الوزير بدر الدين الجماليُّ، لينقل الإمامة إلى الابن الأصغر المستعلي.

ومؤسسهم هو الحسن بن الصَّباح الهالك سنة ٥١٨ هـ، الذي دعا إلى إمامة نزار، واتخذ قلعة آلموت بفارس مركزًا لنشر دعوته وترسيخ أركان دولته، مدَّعيًا أن الإمامة انتقلت من بعد نزار إلى حفيد له صغيرٍ أحضر سرًّا إلى آلموت، أو أن محظية لنزار كانت حاملًا منه أخذت إلى آلموت إذ وضعت حملها، وبقي أمر هذا الإمام طي الكتمان.

بعد موت الحسن بن الصباح حكمهم كيابزرك آميد الذي خاض عدة معارك ضد السلاجقةِ، ومن بعده ابنه محمد الذي اهتمَّ بالدعوة إلى الإمام.

ومن بعده ابنه الحسن الثاني الذي أعلن قيام القيامة، وأنهى الشريعة، وأسقط التكاليف، وأباح الفطر، وادَّعى أنه إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار، ومن بعده ابنه محمد الثاني الذي طور نظرية القيامة ورسخها.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ١٦٢، ١٦٣)، (٣٥/ ١٦١، ١٦٢)، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ص(٢٦١- ٢٨٣)، الموسوعة الميسرة (١/ ٣٩٧- ٤٠٢)، فرق معاصرة (٢/ ٥٩١- ٦٣٧)، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٣٠).

ومن بعده ابنه جلال الدين الحسن الثالث الذي رفض عقائد آبائه في القيامة ولعنهم وكفرهم وأحرق كتبَهم وجاهر بإسلامه وتواصل مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، ومن بعده ابنه محمد الثالث -الذي كان عمره تسع سنوات وظلَّ وزيرَ أبيه- هو الحاكم لألموت، وحكم هذا الصبيُّ خمسَ سنواتٍ ثم أصيب بلوثة عقليَّة، وانتشرت السرقة واللصوصيَّة وقطع الطرق الاعتداءات.

ثم حكم ركن الدين خورشاه الذي سلم آلموت وأربعين قلعة وحصنًا إلى هولاكو الذي زوجه فتاة مغوليَّة ثم قتله غيلةً سنة ١٢٥٨ م، وانتهت بذلك دولة الحشَّاشِين سياسيًّا في فارس.

وتذكر روايات الإسماعيليِّين أن ركن الدين قد أخفى ابنه شمس الدين محمد وهربه من بطش هولاكو، وأنه استقر في قرية أنجودا بين أصفهان وهمدان وبقي فيها إلى أن مات في أول القرن الثامن الهجريِّ، وكان من عقبه سلسلة من الأئمة في القرن التاسع عشر الميلاديِّ، ومنهم ظهرت أسرة أغاخان.

انقسم الحشَّاشون بعد موت شمس الدين إلى قسمين:

الفرع الأول: نادى بإمامة محمد شاه وبالأئمة من نسله حتى انقطعت في منتصف القرن العاشر الهجريِّ، وكان آخرهم الإمام ظاهر شاه الثالث المعروف بالدكني والذي هاجر إلى الهند ومات بها سنة ٩٥٠ هـ، وانقطع هذا الفرع، على الرغم من وجود أتباع له إلى الآن في مصايف والقدموس بسوريا.

الفرع الثاني: نادى بإمامة قاسم شاه، وهؤلاء يشكلون العدد الأكبر من هذه الطائفة، وقد هاجروا إلى أعالي نهر جيحون.

والحشاشون ظهر لهم قادة في بلاد الشام مثل بهرام الإستراباذي، والداعي إسماعيل الفارسي، وشيخ الجبل سنان بن سليمان بن محمود الذي نشأ بالبصرة وتلقى العلوم في قلعة آلموت، ثم انتقل إلى الشام وجمع الإسماعيليَّة حوله وصار له نفوذ وسلطان واعترف الناس بإمامته، ثم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة بآلموت، وخلفه أمراء ضعاف قضى عليهم الظاهر بيبرس.

وقد امتلكوا عددًا من القلاع في الشام مثل قلعة بانياس، وحصن قدموس، ومصياف، والكهف، والخوابي، والمنيقة، والقليعة، وقاوموا الزنكيين وحاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي عدة مرات، وكانوا متعاونين مع الصليبيين.

ومن شعارهم في بعض المراحل: لا حقيقة في الوجود وكل أمر مباح.

وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال لأهداف سياسيَّة ودينيَّة متعصبة، وذلك عن طريق تدريب الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بكل ما يلقى إليهم، وعندما يشتد ساعدهم يدربونهم على الأسلحة المعروفة ولا سيّما الخناجر ويعلمونهم الاختفاء والسريَّة وأن يقتل الفدائي نفسه قبل أن يبوح بكلمة واحدةٍ من أسرارهم، وبذلك أعدوا طائفة الفدائيين التي أفزعوا بها العالم

الإسلامي آنذاك باغتيالات واسعة شملت كبار الشخصيات المناوئة للإسماعيليين من ملوك وقادة جيوش وعلماء ودعاة.

ودخلت كلمة الحشاشين بأشكال مختلفة في الاستخدام الأوروبي بمعنى القتل خِلسةً أو غدرًا أو بمعنى القاتل المحترف الأجور.

وللحشاشين أتباع إلى الآن في إيران وسوريا ولبنان اليمن ونجران والهند وفي أوساط الاتحاد السوفيتي السابق (١).

الأغاخانيَّة

ترجع الأغاخانية إلى الإسماعيلية النزاريّة، وهم الحشاشون، وقد ظهرت هذه الفرقة بنشاط في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي بإيران، حينما ظهر شخص اسمه حسن على شاه جمع حوله عددًا من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية، وهدد الأمن وقطع الطريق، وَسَطَا على القوافل حتى ذاع صيته في أنحاء إيران، وأصبح أسطورةً على ألسنةِ الناس، وأعجب الإيرانيُّون ببطولاته، فانضموا إليها إعجابًا وطمعًا في المكاسب الماديَّة التي يحصلون عليها من طريقه.

وكان للإنجليز مطمعٌ في إيران في ذلك الوقت، فاستعملوا حسن شاه في قيادة ثورة يهدد بها الأمن حتى يجدوا منفذًا يدخلون منه إلى فرض سلطانهم، ولكن حسن شاه فشل في ثورته وقبض عليه، فسارع الإنجليز إلى التَّوسطِ له بالإفراج عنه، على أن يُنْفَى من إيران كلِّها.

وذهب حسن عليّ إلى أفغانستان، ولكنه لم يستطعْ أن يقدم هناك شيئًا لحلفائِه ليقظة الأفغانيين، فاتجه إلى الهند وسكن مدينة بومباي، وهناك اعترف به الإنجليز إمامًا على الطائفة الإسماعيليَّة وخلعوا عليه لقب أغاخان، فانتسب إلى الإمام نزار بن المستنصر الفاطميّ، وأصبح إمامَ الإسماعيليَّة النزاريّة، وهلك سنة ١٨٨١م.

ثم خلفه ابنه في إمامة الطائفة وعرف باسم أغاخان الثاني، وكان أبوه قد أعده للإمامة إعدادًا كاملًا، وهيَّأ له الثقافة الكاملة، وكان يجيد عدةَ لغاتٍ منها العربية، وعمل على خدمة أبناء المسلمين جميعًا دون تمييز بين طوائفهم، فسمت مكانته بين الناس جميعًا، وتزوج أميرة إيرانية وأنجب منها ولده محمدًا الحسيني في نوفمبر سنة ١٨٧٧م، وهو أغاخان الثالث، المعروف باسم أغاخان، المتوفى سنة ١٩٥٧م، وقد سكن أوربا وتزوج أربع مرات، المرة الأولى من أميرة إيرانية، والثانية من فتاة إيطالية أنجب منها ابنه عليّ خان، والمرة الثالثة من بائعة حلوى وسجائر في باريس، وأنجب منها ولده صدر الدين خان، والمرة الرابعة من إحدى ملكات الجمال.

وحين مات أغاخان أوصى لحفيده كريم بالإمامة، ولا زال شابًّا يطلب العلم في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/٤٠٣- ٤٠٨)، الحشاشون: فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، برنارد لويس.

والأغاخانيَّة الإسماعيليَّة تقدس أغاخان، وتلقبه بالإمام وتقول بعصمته، ويضفون عليه صفات الألوهية، ويدفعون له خُمس ما يكسبون، ويعتقدون أن الخمرَ حين تدخل في جوفه تتحول إلى ماء زمزم.

وحين سئل أغاخان مرة من قبل صديق له: كيف يسمح وهو المثقف لأتباعه أن يؤلهوه؟! قهقه طويلًا حتى دمعت عيناه وقال: إن القوم في الهند يعبدون البقرة، ألست خيرًا من البقرة.

ومركز الأغاخانية هو مدينة كراتشي بباكستان، وهم يتواجدون الآن في نيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنجو البلجيكي والهند وباكستان، وبعضهم في سوريا[١]

البهرة

وهم يذهبون إلى إمامة المستعليِّ من بعد أبيه المستنصر بالله الفاطميِّ، وكان يتبعها اليمنيون في عهد الصليحيين، ويسمون الطيبة نسبة إلى الطيب بن الخليفة المستعلي.

والبهرة هم إسماعيليَّة الهندِ واليمن، وذلك أن بعض أتباع الإسماعيليّين من تجَّار اليمن كانوا يذهبون إلى الهند بقصد التِّجارة مع أهلها، فقام بعض هؤلاء الإسماعيليُّون بالدَّعْوة إلى دينهم فأجابهم بعض أهل الهند إلى ذلك وكان معظمهم من التِّجَّار فعرفوا بالبهرة، ولذلك فإن لفظ البهرة هندي قديم يعني التاجر.

وانقسمت البهرة إلى فرقتين:

الأولى: البهرة الداوديَّة: نسبة إلى الداعي قطب شاه داود، وهم في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري وداعيتهم يقيم في بومباي.

والثانية: البهرة السليمانيَّة: نسبة إلى الداعي سليمان بن حسن، وهؤلاء مركزهم في اليمن حتى اليوم.

وللبهرة كتاب يحظى بتقديسهم جميعًا هو كتاب النصيحة، يعتبرونه قرآنهم، ومؤلفه الداعي الحادي والخمسون طاهر سيف الدين، الذي يتوجهون في صلاتهم إلى قبره، في مدينة بومباي في الهند، ويطلقون عليه اسم روضة الطاهرة، وباقي كتبهم موضع السريَّة والكتمان.

وتجب عليهم الصلاة في العشرة أيام الأولى من شهر محرم وفي غيرها لا تجب عليهم الصلاة، ولا يصلون إلا في مكانٍ خاصٍّ بهم يسمى الجامع خانة، وإذا لم يذهب الشخص منهم إلى الجامع خانة في العشرة أيام الأولى من شهر محرم يطرد من الطائفة ويفرض عليه الحرمان، ولهم في الكويت جامع خانة في شارع الاستقلال.

---

(١) انظر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٣٢، ١٣٣)، إسلام بلا مذاهب د. مصطفى الشكعة ص(٢٤٠- ٢٤١)، أصول وتاريخ الفرق لمصطفى محمد.

ويقولون: إن صلاتهم للإمام الإسماعيليِّ المستور من نسل الطيب بن الآمر الذي يعبدونه من دون الله تعالى.

ويذهبون إلى مكة للحجِّ كبقية المسلمين لكنهم يقولون: إن الكعبة هي رمز على الإمام، ويعتقدون أن الله لم يخلق العالم بل العقل والنفس انبثق عنها العالم عن طريق نظرية الفيض الإلهي.

ولهم نفس شعار الحَشَّاشين: لا حقيقة في الوجود وكل أمر مباح.

ورئيس طائفة البهرة يلقب بداعي الدُّعاة وبالسلطان، لما له من سلطة روحية لها أثرها العميق في نفوس أتباعه، حيث إنهم يستجيبون لكل ما يدعوهم إليه بمحبة واقتناع.

ويبلغ دخل هذا الدَّاعي ١٢٠ مليون روبية هندية سنويًا، ويتقاضى كل فرد من أفراد عائلته ثمانية آلاف روبية شهريًا، بالإضافة إلى السيارات والمساكن الحديثة المكيفة، ويتم جمع هذه المبالغ الضخمة بالوسائل التالية: تسن الحكومة البهريَّة ضرائب إجباريَّة على أفراد الطائفة البالغ تعدادها مليونًا ونصفَ نسمة معظمهم في الهند.

ومن جهة ثانية فإن الداعيَّ يتاجر مع أفراد عائلته بالذَّهب، الَّذي يهربونه من أفريقيا وسيلان حيث استطاعوا تهريب ملايين المجوهرات والأحجار الكريمة.

وعندما تحمل الأم بابنها عليها أن تدفع، وكذلك إذا مات فعليها أن تدفع الضريبة المقررة، والذي يريد أن يحوز رضا الداعي عليه أن يدفع الكثير حتى كلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم» من الداعي تكلفهم ما بين ٥٠٠٠ - ٥٠٠٠٠ روبية، كل حسب طاقته، كل ألف روبية تساوي ٣٥ دينارًا كويتيًّا.

ويجب على كلِّ فردٍ من أفراد الطائفة أن يشتري تذكرةً خاصةً بصلاة العيد، يصدرها مكتب الداعي، وتختلف قيمتها في الصفِّ الأوَّلِ عن الصفِّ الآخر.

وكذلك جثَّة الميت منهم فإنَّها لا تدفن إلا بعد أن يدفعِ أقارب الميت ضريبةً مقابل ذلك لمكتب الدَّاعي، الذي يراقب كلَّ شيء ليأخذ الضرائب عن كلِّ شيء.

وبعد الدفع يصدر الداعي صك غفران -روكوشيتي- لذلك الميت، ويدفن معه في القبر، والصكوك عندهم عدة أنواع، فأقارب المتوفى الذين يدفعون أكثر من خمسين ألف روبيةٍ، يحصلون على صك غفران -أو شقة من الدَّرجة الأولى في الجنَّة.

وكلُّ شخصٍ يريد السفر إلى أي مكان عليه أن يأخذ تصريحًا خاصًّا من مكتب الداعي، وقبل سفره لا بد أنْ يطوف بالروضة الطاهرة -قبر الحادي والخمسين طاهر سيف الدين والد الداعي الحالي.

ويوجد في الكويت حوالي ثمانية آلاف فرد من طائفة البهرة، وكل شخص من هؤلاء عليه أن يدفع مبلغ خمسة دنانير شهريًّا لنائب الداعي، سواء كان يعمل أم لا، ولو تأخر شهرًا واحدًا عن

الدفع، فإنه يطرد من الطائفة ويفرض عليه الحرمان، وعلى كلٍّ فرد عند رجوعه إلى بلده أن يذهب ليطوف بالروضة الطاهرة عدة مرات.

والوالد لا يملك أن يسمى ابنه بما شاء من الأسماء، بل الداعي هو الذي يختار للمولود الاسم ليأخذ الضريبة مقابل ذلك[١]

فِرَقٌ مُتَأَخِّرَةٌ

الشيخيَّة، والرشتيَّة

الشيخيَّة: أتباع الشيخ أحمد بن زين الدين بن إبراهيم الأحسائيّ، الهالك سنة ١٢٤١هـ، ويعتبر من كبار علماء الإماميَّة وهو من غلاة الباطنيَّة، الذين يعتقدون بالحلول والتَّناسخ، والذين يعبدون عليًّا، وأدلته الفلسفية مستقاة من مذهب الفيلسوف المشهور الملا صدرا.

ويزعم أن المهديَّ يعيش بين الناس في حالة روحيَّة لطيفة، وأنه يحلُّ في أي رجلٍ فيكون له صفة الباب، وأن روح المهديِّ حلَّت فيه هو فصار هو الباب إلى المهديِّ.

والشيخيَّة يقولون: إن الحقيقة المحمديَّة تجلَّت في الأنبياء قبل محمد ﷺ تجلّيًا ضعيفًا، ثم تجلَّت تجلّيًا أقوى في محمدٍ ﷺ والأئمة الاثني عشر، ثم اختفت زهاء ألف سنة، وتجلت في الشيخ أحمد الأحسائي والسيد كاظم الرشتي، ثم تجلت في كريم خان الكرماني وأولاده إلى أبي قاسم خان، وهذا التجلِّي هو أعظم التجلِّيات لله والأنبياء والأئمة.

والركن الرابع من: الشيخ أحمد الأحسائي إلى ما بعده هم شيء واحد، يختلفون في الصورة ويتحدون في الحقيقة التي هي الله مظهر فيهم.

ويعتقدون أن محمدًا رسول الله، وأن الأئمة الاثني عشر هم أئمة الهدى، ومعنى الرسالة والأمانة عندهم أن الله تجلَّى في هذه الصورة، فمنهم رسول ومنهم إمام.

ويعتقدون أن اللاحقين هم أفضل من السَّابقين وعلى ذلك فالشيخ أحمد في رأي أصحابه أعظم من جميع الأنبياء والمرسلين.

ويعتقد هؤلاء بالرَّجعة، ويفسرونها بأن الله بعد أن غاب عن صور الأئمة رجع وتجلَّى تجلِّيًا أقوى في الركن الرابع، الذي هو الشيخ أحمد ومن يأتي بعده.

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن حركة الشيخيَّة ومن جاء بعدهم كان بتخطيط ومساندة من الاستعمار والتبشير الغربي واليهودية العالمية.

ثم خلف الأحسائيَّ من بعده تلميذه كاظم الرشتيّ، نسبة إلى بلدة رشت في إيران، قيل: إنه قس

---

(١) انظر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٣١)، إسلام بلا مذاهب ص(٢٣٩، ٢٤٠)، أصول وتاريخ الفرق، نبذة مختصرة عن فرقة البهرة، إعداد د. سلمان العنزي.

نصراني ادَّعى الإسلام، وقد سار على نفس طريقة شيخه، وزاد عليه التبشير بظهور المهديِّ نفسه، وقام بتعيين صفاته وشمائله وأخلاقه وإيهام القوم أنه جالس بينهم، ولا يرسل إلى بعد موته، مع دعواه أنه الباب، إلى أن هلك سنة ١٢٥٩هـ، وإليه تنسب الرشتيَّة.

البابيَّة

أتباع الميرزا عليِّ بن محمد رضا الشيرازي، نسبة إلى بلدة شيراز في إيران، وكان يعمل في التِّجارة مع خاله، ثم هجرها وانصرف إلى دراسة الروحانيات والتبيينات وتسخير الجان والكواكب، ثم أصبح من تلاميذ الرشتيِّ المتقدم ذكره.

وزعم أنه الباب للمهديِّ، وكان ذلك ليلة الخميس الخامس من جُمَادَى الأول عام ١٢٦٠هـ، ويعتبر هذا اليوم لدى البابيَّة عيد البعث، وتُحَرَّمُ فيه الأعمال.

ثم زعم أنه المهديُّ، وأن جسم المهديِّ اللطيف قد حل في جسمه الماديِّ، وأنه ظهر الآن في هذا العالم ليمحوَ الظلمَ ويبددَ الجورَ وينشرَ العدلَ.

ثم ادَّعى أنه رسول وله كتاب أفضل من القرآن اسمه: البيان، نسخ به القرآن، وأنه يتحدى الجميع بالإتيان بباب من أبواب بيانه، ثم ادَّعى أن الإله حلَّ فيه، وكان أتباعه ينادونه بالرب وبالإله، وكان في أتباعه يهود، وكان مؤيَّدًا من قبل الروس.

وكان يلقب نفسه بعدة ألقاب، وكان أتباعه يطلقونها عليه، فكان يطلق على نفسه سيد الذكر، وحضرة الأعلى، ومظهر الربِّ، وباب الله، ونقطة الأولى، وطلعة الأعلى، ونقطة البيان،

وكان له كاتم لأسراره وهو الملا حسين البشروئي الشيرازي، وكان يسمى وسط البابيَّة باب الباب، وتبع الباب ثمانية عشر شخصًا كانوا دعاته، وكان يطلق عليهم حروف: حي، وكان هؤلاء وظيفتهم السير في المدن الإيرانية للتبشير بدعوة الباب.

ويعتقد البابيُّون أن البابَ له الخيار المطلق في تغيير الأحكام وتبديلها؛ لأنه مروج للشريعة الإسلامية ومصلح لأحكامها.

والكعبة عن الباب ليست بيت الله الحرام ولكنها في بلدة تبريز بإيران، حيث يتجه إليها المصلون في صلاتهم الصباحية، وطالب بهدم قبر الرسول ﷺ، وهدم الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وهدم قبور الأولياء، ولا تدفع الزكاة والصدقة إلا لبابي، وجعل عدد أيام السنة ٣٦١ يومًا، وخالفوا المسلمين في أركان الإسلام وفي الأعيادِ والمواريثِ وغيرها من أحكامِ الشريعة، ويعتقدون أن من سواهم كفرة يسحق القتل.

وقد استدعى حاكم شيراز دعاة الباب وحقَّق معهم ثم نفاهم من شيراز، وعقد مجلسًا من العلماء والفقهاء وأحضر الباب ليناظرهم، فانقسم العلماء في أمره، فمنهم من أفتى بقتله، ومنهم من قال باختلال عقله، أما الوالي فقد أمر به فجرده من الملبس وأوسعوه ضربًا مبرحًا، وأنكر

الباب كل ما كان يدعيه من قبل عند الوالي ويوم الجمعة على رءوس الأشهاد.

ثم عاد إلى دعوته مرة أخرى سنة ١٨٤٥ م، وطلب إلى أعوانه في إيران أن يرحلوا إلى أصفهان لمواصلة الدعوة، ثم فرَّ إليهم بعدها بعام.

وفي سنة ١٨٤٧م أمر الشاه باعتقال الباب في قلعة ماه كو في ولاية أذربيجان، ثم نقل إلى قلعة جهريق.

ثم عقد أقطاب البابيَّة مؤتمرًا في صحراء بدشت سنة ١٢٦٤هـ، وأعلنوا فيه نسخ الشريعة الإسلامية بدين البابيَّة.

ثم دُعي الباب لمناظرة علماء إيران، وانتهت المناظرة بغير نتيجة، وازدادت الاضطرابات في جميع أنحاء إيران، وانتشرت الفتن وساعدت الدسائس الأجنبيَّة على امتدادها، فأصدر الشاه ناصر الدين أمره بإعدام الباب رميًا بالرصاص وتمَّ ذلك في مدينة تبريز سنة ١٢٦٥هـ.

وأوصى بالأمر من بعده ليحيى عليٍّ نوري المازندراني المشهور باسم يحيى صبح الأزل، وقد نازع الأزلَ أخوه حسين علي نوري المازندراني على الزعامة، وتدافعا بقوة فافترقت البابيَّة إلى ثلاث فرق:

البابيَّة الخُلَّص: وهم الذين اقتدوا بالباب عليِّ الشيرازيِّ، ورفضوا كلا الرجلين.

الأزليَّة: وهم الذين تبعوا يحيى صبح الأزل.

البهائيَّة: وهم الذين تبعوا حسين المازندراني.

ثم هلك الأزل سنة ١٩١٢م، وأوصى من بعده لابنه الميرزا محمد الهادي الذي تنصَّر وانفض عنه أتباعه، وقضى المازندراني على البابيَّة تمامًا بحد السلاح في كل مكان بتأييد من اليهودية العالمية.

البهائيَّة

أتباع حسين علي بن عباس بزرك النوري المازندراني، نسبة إلى قرية من قرى المازندران بإيران، وهو يلقب ببهاء الله، وثقافته خليط من البرهميَّة، والبوذيَّة، والزرادشتيَّة، والمانويَّة، والمزدكيَّة، والمسيحيَّة، واليهوديَّة، والإسلام، والفرق الباطنيَّة وغيرها، وقد خالط الصوفيَّة منذ صغره، وتتلمذ على أيديهم واستوعب رموزهم ومصطلحاتهم، ولم يفارقه التَّصوُّف حتى بعد دخوله البابيَّة ونفيه إلى العراق.

وقد زعم أنه خليفة الباب الشيرازي، ثم ادَّعى أنه هو الباب، ثم ادَّعى أنه هو المهديُّ، ثم ادَّعى أنه المسيح المبشَّر به، ثم ادعى النبوة والرسالة وأنه أوحي إليه كتاب: الأقدس، الذي نسخ به كتاب الباب، وأن دينه ناسخ لشريعة محمدٍ ﷺ، ثم ادعى أن الله قد حلَّ في الباب والبهاء.

وهم يعتقدون بتناسخ الكائنات، وأن الثواب والعقاب يقع على الأرواح فقط.

ويعتقدون بأن جميع الأديان صحيحة، وأن التوراة والإنجيل غير محرَّفين، وضرورة توحيد جميع

الأديان في دين واحد هو البهائية، ويقولون بنبوة بوذا وكنفوشيوس وبراهما وزرادشت وأمثالهم من حكماء الهند والصين والفرس.

ويجحدون كل أسماء الله الحسنى وصفاته، ويعتبرون كل ما يضاف إلى الله عز وجل إنما هم رموز لأشخاص امتازوا من بين البشر، فهم مظاهر أمر الله ومهابط وحيه.

ويعتقدون أن القيامة مجيء البهاء في مظهر الله تعالى.

وينكرون معجزات الأنبياء، وختم النبوة، ولا يؤمنون بالجنة أو النار أو الحياة البرزخية ولا بالملائكة والجن.

ويحرمون الجهاد والحرب والخوض بالسياسة، ويحرمون حجاب المرأة، ويحللون المتعة، ويدعون إلى شيوعية النساء والأموال.

يحرمون ذكر الله في الأماكن العامة ولو بصوت خافت.

يعتقدون بقدسية العدد ١٩، فالسنة ١٩شهرًا، والشهر ١٩ يومًا. وذلك لأنهم يؤمنون بالقيمة العددية للحروف، واختيار العدد ١٩؛ لأنه عدد حروف البسملة، والقيمة العددية لكلمة واحد.

ولا يعتقدون بالانتماء للوطن تحت دعوى وحدة الأوطان وكذلك يَدْعُون إلى إلغاء اللغات والاجتماع على اللغة التي يقررها زعيمهم.

ويتّبعون التَّقِيَّة في عقيدتهم فيظهرون خلاف ما يبطنون.

ويحرفون أركان الإسلام، فالصلاة عندهم ثلاث مرات هي الصبح والظهر والمساء في كل مرة ثلاث ركعات دون تحديد لكيفية معينة، ولا يبيحون الصلاة في جماعة إلا على الميت، وقبلتهم نحو قصر البهجة في عكا، والوضوء فقط للوجه واليدين بماء الورد، وإن لم يوجد فيقولون باسم الله الأطهر الأطهر خمس مرات، ولا يعتقدون بالنَّجاسة من الجنابة أو سواها لأن من اعتقد بالبهائيَّة فقد طهر.

والصوم عندهم تسعة عشر يومًا في السنة وهي من ٢-٢١ مارس الذي يعرف عندهم باسم شهر العلاء وهو عندهم الشهر التاسع عشر، وهو آخر الشهور البهائية، وهو من سن ١١-٤٢، ويعفى منه الكسالى ومن يعملون أعمالًا مرهقة وغيرهم، وفيه يجب الامتناع عن تناول الطعام من الشروق إلى الغروب، ويعقب شهر صومهم عيد النيروز.

والزَّكاة عندهم ١٩% من رأس المال تدفع مرة واحدة.

والحجُّ عندهم لقبر البهاء بقصر البهجة في عكا، وهو للرجال دون النساء.

والزَّواج عندهم لواحدة أو اثنتين على الأكثر، مع إباحة زواج الشاذين، كما يحرم زواج الأرامل إلا بعد دفع دية معينة، والأرمل يتزوج بعد ٩٠ يومًا والأرملة بعد ٩٥ يومًا. وجعلوا المهر تسعة عشر مثقالًا

ويتساوى عندهم الولد مع البنت في الميراث وفي كافة الحقوق، وسن الرشد لهما واحد وهو الخامسة عشرة، وغير البهائي لا يرث البهائي.

وألغوا جميع العقوبات عدا الدية.

ويرجح الباحثون وجود مساندة قوية من الإنجليز والروس والصهيونيَّة العالميَّة للبهائيَّة في العالم كلِّه، فقد لجأ الإنجليز إلى كلِّ وسيلة لإنقاذ حسين البهاء من الإعدام، متعاونين بذلك مع الروس واليهودية العالمية، الذين ساعدوه في نشر دعوته مساعدة كبيرة جدًّا؛ لأنهم كانوا يرون فيه الشخص الذي بوسعه أن يقدم إليهم أجل الخدمات.

وقد قام اليهود بتثبيت مركز الميرزا حسين البهاء، وبلغ الأمر بهم أن استخلصوا من دفائن العهد القديم وتنبؤات أسفاره ما ينبئ بظهور بهاء الله عباس، وزعموا أن كلَّ آية تشيد بمجد يهودا إنما تعني ظهور مخلص العالم في شخص بهاء الله، كما نسبوا جزءًا كبيرًا من الإشارات والتلميحات التي في الأسفار إلى جبل الكرمل، الذي تجلَّى فيه نور الله وأضاء الكون، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر، واستخرجوا من سفر دانيال من الرؤى ما ينبئ بقيام حركة الباب، والتمسوا تأويل ما يدل على حدوثها، كما أن كتب البهاء تدعو للتجمع الصهيونيِّ في فلسطين.

وقد هلك حسين البهاء سنة ١٣٠٩هـ بعدما جنَّ، كما قيل، وأوصى بالخلافة من بعده لابنه الأكبر عباس، ومن بعده للأصغر ميرزا محمد علي، ووقع بينهما منازعات شديدة أدت إلى افتراق البهائية فرقتين:

الأولى: الناقضين، أو الموحدين: أتباع محمد علي المازندراني.

والثانية: المارقين، أو العباسية: أتباع عباس أفندي الملقب بعبد البهاء، وكان له دور كبير في نشر وتطوير البهائية، وتحويرها للتلائم مع الثقافة الغربيَّة، وقد خطب عباس مرة في لندن فقال: الناس قد نسوا تعاليم بني إسرائيل وتعاليم المسيح وغيره من معلمي الأديان فجددها البهاء، وقال مخاطبًا الإنجليز في إحدى خطبه: إن مغناطيس حبكم هو الذي جذبني إلى هذه المملكة وقال: أصبحت المدنية الغربية متقدمة عن الشرقية، وأصبحت الآراء الغربيَّة أقرب إلى الله من آراء الشرقيين، وقد هلك سنة ١٣٤٠ هـ.

وأوصى بالأمر من بعده لابن بنته شوقي أفندي، الذي سار على نهج جدِّه في تكوين الجماعات البهائيَّة، وأوصى من بعده لأولاد شوقي الذكور دون الإناث، لكن شوقي مات بسكتة قلبية في لندن، ولم يخلف لا ذكورًا ولا إناثًا.

وفي سنة ١٩٦٣ م تولى تسعة من البهائيين شئون البهائيَّة، وأسسوا بيت العدل من تسعة أعضاء؛ أربعة أمريكان وإنجليزيان وثلاثة إيرانيين، وذلك برئاسة فرناندو سانت، ثم تولى رئاستها من بعده اليهوديّ الصهيونيّ ميسون الأمريكيّ الجنسية.

ومركز البهائيين الرئيسي اليوم هو فلسطين المحتلة، ويوجد لهم خلايا كثيرة في إيران والعراق

ومصر وإمارات الخليج والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ومحافلهم في شيكاغو وإسرائيل وكندا وبنما ولندن وألمانيا وسويسرا والهند وباكستان وشمال أفريقيا وأوغندا واستراليا، ولهم ممثل في مقر الأمم المتَّحدة وغيرها من المنظمات.

وقد صدرت فتاوى من كافة المجامع العلمية في الدّول الإسلامية بخروج البابيَّة والبهائيَّة عن الإسلام ويكفر أتباعهما[1]

القاديانيَّة

أتباع ميرزا غلام أحمد بن مرتضى بن عطا محمد القادياني، نسبة إلى قرية قاديان بالهند التي ولد فيها، ويزعم الغلام أن أسرته مغولية، ومرة زعم أنها فارسية، ومرة زعم أنها صينيَّة الأصل، ومرة أنه من بني فاطمة بنت الرسول ﷺ، ومرة زعم أنه يرجع إلى بني إسحاق، وكلما يسأل عن هذه التناقضات يقول: هكذا أخبر عن الله.

وأسرته معروفة بخدمة الاستعمار الإنجليزي، ومشهورة بالتعاون والولاء لطائفة السيخ في الهند.

ويسمون أنفسهم في أفريقيا وغيرها بالأحمديَّة نسبة إليه، وتضليلًا للناس أنهم ينتسبون إلى الرسول ﷺ.

وقد ادَّعى غلام أحمد سنة ١٨٧٦م أنه ينزل عليه الوحي عن طريق الإلهام، ثم ادَّعى أنه مجدد العصر، ثم زعم أنه المهدي المنتظر وأنه مسيح آخر الزمان بنبوة جزئية.

ثم ادَّعى في سنة ١٩٠١م أنه نبيّ نبوة كاملة، وأن نبوته أعلى وأفضل من نبوة النبيِّ محمد ﷺ، ثم ادَّعى في سنة ١٩٠٤م أنه كرشنا وهو من معبودات الهنود.

وقد احتضن هذه الدعوة الإنجليز حين احتلالهم للهند، وهم الذين نشروها بتأييد من اليهودية العالمية، وقد أعطتهم إسرائيل أمكنة لفتح المراكز والمدارس وإصدار مجلة تنطق باسمهم وطبع الكتب والنشرات لتوزيعها في العالم.

وفي سنة ١٩٠٧ م قام هذا المتنبي الكذاب بتحدِّي أحد علماء الهند وهو ثناء الله الأمر تسري الذي كان يكشف حقيقته وحقيقة دعوته، ودعا غلام أحمد أن يقبض الله الكاذب منهما في حياة صاحبه، وأن يسلط عليه داء الطاعون يكون فيه حتفه، وفي سنة ١٩٠٨ م هلك غلام أحمد بالطاعون، وعاش ثناء الله تسري بعده أربعين سنة في نضال القاديانيّين والردِّ عليهم.

---

(1) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٠٩- ٤١٥) ، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٢/ ٦٤٣- ٧٣٦)، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٥٥- ١٦٤)، البصرة تستأصل الشيخية، الحراب في صدر البهاء والباب لمحمد فاضل، البهائية لمحب الدين الخطيب، البهائية نقد وتحليل لإحسان إلهي، خفايا البهائية لأحمد محمد عوف.

ثم خلفه صديقه حكيم نور الدين البهيروي، وبعد هلاكه سنة ١٩١٤ م افترقت القاديانيَّة إلى فرقتين:

القاديانيَّة أو الأحمديَّة: يتزعمها الميرزا بشير الدين محمود بن المتنبي الكذاب، وهو خليفته الثاني، وهم يأخذون بكل أقوال وكتب غلام أحمد وتقول بنبوته، وهلك سنة ١٩٦٥ م.

اللاهوريَّة أو الأحمديَّة أيضًا: يتزعمها محمد علي اللاهوري، وهم يأخذون أيضًا بكل أقواله ولكن يقولون بأنه المسيح الموعود ولا يصرحون بنبوته تمويهًا على الناس.

وبعد قيام باكستان فرض الإنجليز تعيين ظفر الله خان أحد أتباع القادياني في منصب وزير الخارجيَّة الذي عمل كل ما في وسعه لتمكين القاديانيَّة والقاديانيّين من الانتشار والظهور في عواصم العالم وفي الجيش، وخصص لهم بقعة كبيرة في إقليم بنجاب لتكون مركزًا عالميًّا لهم وسموها الربوة.

وفي سنة ١٩٥٣م قامت ثورة شعبيَّة في باكستان تطالب بإقالة الوزير ظفر الله خان، واعتبار الطائفة القاديانيَّة أقلية غير مسلمة، ومات فيها حوالي عشرة آلاف من المسلمين ونجحوا في إقالة الوزير القادياني.

وقام مجلس الأمة في باكستان بمناقشة زعيم الطائفة مرزا ناصر أحمد والردِّ عليه من قبل الشيخ مفتي محمود، واستمرت المناقشة ثلاثين ساعةً عجز فيها ناصر أحمد عن الأجوبة، وأصدر المجلس قرارًا باعتبار القاديانيَّة أقلية غير مسلمة.

ويرى القاديانيون أن طاعة الحكومة البريطانية واجبة ومن أركان دينهم، ويحرمون الجهاد تحريمًا قطعيًّا.

ويعتقدون بالتناسخ والحلول، وأن إلههم له صفات البشر فهو يصلي ويصوم ويصحو وينام ويخطئ ويصيب ويجامع ويلد، ويخاطب بالإنجليزية.

وأن النبوة لم تختم بالنبيِّ ﷺ، بل هي جارية، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعًا.

ويعتقدون أن جبريل كان ينزل على غلام أحمد وأنه كان يوحى إليه، ولهم كتاب يضاهون به القرآن اسمه الكتاب المبين.

وأن قبلتهم وحجهم يكون إلى قاديان وقبر القادياني، وهي أفضل من مكة والمدينة، والسلام على القادياني.

ويعتقدون أنهم أصحاب دين جديد، وأنهم مستقلون عن المسلمين ودينهم، بل يحكمون عليهم بالكفر، ويمنعون الصلاة خلفهم وعليهم، وحضور اجتماعاتهم من أفراح وغيره، ولا يجوز عندهم نكاح المسلم بالقاديانيَّة، ويجوز ذلك للقادياني، ويبيحون الخمر والأفيون والمخدرات والمسكرات.

وللقاديانيَّة رئيس ديني يلقبونه أمير المؤمنين، وخليفة المسيح الموعود، والمهديّ المعضود.

ومن أنشطتهم بناء المعابد التي يسمونها مساجد تمويهًا، حيث يجتمع القاديانيُّون ليمكروا بالإسلام والمسلمين، والتي لا يدخلها إلا القاديانيُّون، ويمنع غيرهم من دخولها.

ومن أنشطتهم أيضًا بناء المدارس ودور الأيتام ومستشفيات وغيرها.

ومن أنواع الوسائل التي يتوصلون بها لنشر سمومهم، المجلات والدوريَّات التي يبلغ عددها ١٦ مجلة تنشر بانتظام في كلٍّ من أمريكا وألمانيا وإندونيسيا ونيجيريا وسيلان وأفريقيا الشرقية ولندن وهولندا وجنوب أفريقيا وسيراليون وغيرها.

ولهم مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية وهي لسان حال الحركة.

ويديرون قناة فضائية في بريطانيا لها اسم التلفزيون الإسلامي.

كما أن من أبرز نشاطاتهم ترجمة القرآن الكريم ترجمة محرفة مع التفسير المحرف المزيف الذي يخدم أغراضهم، ويتضمن تأويلاتهم الباطلة، وذلك إلى اللغة الإنجليزية والألمانية واللغة السواحلية.

ومن أخطر أعمالهم أنهم يأخذون الشباب الغر من البلاد الإسلامية إلى مقرهم في باكستان الغربية التي تسمى الربوة، لتدريبهم كيما يصبحوا دعاة للأحمدية بعد عودتهم، ولهم تنظيمات سياسيَّة وإداريَّة في منطقة الربوة بباكستان، ولهم انتشار في أمريكا وأوربا وأفريقيا والشرق الأقصى.

وقد صدرت الفتاوى من كافة المجامع العلمية التي تعلن كفر القاديانيَّة وخروجها من الإسلام[(١)]

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٤١٦- ٤٢٠)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٢/ ٧٣٩- ٨٥٣)، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٤٣- ١٥٣)، أصول وتاريخ الفرق، القادياني والقاديانية للندوي، القاديانية دراسة وتحليل لإحسان إلهي.

الفصل الخامس
مَقَالَاتُ الشِّيعَةِ

مُجْمَلُ مَقَالَاتِهِم

قال ابن حزم: أما الشِّيعة فعمدة كلامهم في الإمامة والمفاضلة بين أصحاب النبيِّ ﷺ، واختلفوا فيما عدا ذلك، كما اختلف غيرهم(١).

وقال الشهرستانيُّ: وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السُّنَّة، وبعضهم إلى التَّشبيه(٢).

وقال شيخ الإسلام: وعمدتهم في الشَّرْعِيَّات ما نُقل لهم عن بعض أهل البيت، وذلك النقل منه ما هو صدق ومنه ما هو كذب، عمدًا أو خطأً، وليسوا أهل معرفة بصحيح المنقول وضعيفه، كأهل المعرفة بالحديث، ثم إذا صح النقل عن بعض هؤلاء، فإنهم بنوا وجوب قبول قول الواحد من هؤلاء على ثلاثة أصول:

على أن الواحد من هؤلاء معصوم مثل عصمة الرسول.

وعلى أن ما يقوله أحدهم فإنما يقول نقلًا عن الرسول ﷺ، وأنهم قد علم منهم أنهم قالوا: مهما قلنا فإنما نقوله نقلًا عن الرسول، ويدَّعون العصمة في أهل النقل.

والثالث: أن إجماع العترة حجة، ثم يدَّعون أن العترة هم الاثنا عشر، ويدَّعون أن ما نقل عن أحدهم فقد أجمعوا كلُّهم عليه.

فهذه أصول الشرعيات عندهم وهي أصول فاسدة، كما سنبين ذلك في موضعه، لا يعتمدون على القرآن، ولا على الحديث، ولا على إجماع إلا لكون المعصوم منهم، ولا على القياس وإن كان واضحًا جليًّا.

وأما عمدتهم في النظر والعقليات، فقد اعتمد متأخِّروهم على كتب المعتزلة، ووافقوهم في مسائل الصفات والقدر، والمعتزلة في الجملة أعقل وأصدق، وليس في المعتزلة من يطعن في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، بل هم متفقون على تثبيت خلافة الثلاثة.

وأما التفضيل فأئمتهم وجمهورهم كانوا يفضِّلون أبا بكر وعمر ﵄، وفي متأخِّريهم من توقف في التفضيل، وبعضهم فضَّل عليًّا، فصار بينهم وبين الزَّيديَّة نسب واشج من جهة المشاركة في التوحيد والعدل والإمامة والتفضيل،

---

(١) الفصل (٢/ ٨٩).

وكان متكلِّمو الشيعة؛ كهشام بن الحكم، وهشام بن الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمِّي، وأمثالهم يزيدون في إثبات الصفات على مذهب أهل السنة، فلا يقنعون بما يقوله أهل السنة والجماعة من أن القرآن غير مخلوق، وأن الله يُرى في الآخرة، وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث، حتى يبتدعون في الغلوّ في الإثبات، والتجسيم، والتبعيض، والتمثيل، ما هو معروف من مقالاتهم التي ذكرها الناس.

ولكن في أواخر المائة الثالثة دخل من دخل من الشيعة في أقوال المعتزلة؛ كابن النوبختي صاحب كتاب «الآراء والديانات»، وأمثاله، وجاء بعد هؤلاء: المفيد بن النعمان وأتباعه.

ولهذا تجد المصنفين في المقالات كالأشعريِّ لا يذكرون عن أحد من الشيعة أنه وافق المعتزلة في توحيدهم وعدلهم إلا عن بعض متأخِّريهم، وإنما يذكرون عن بعض قدمائهم التجسيم وإثبات القدر وغيره، وأول من عُرف عنه في الإسلام أنه قال: إن الله جسم، هو هشام بن الحكم، بل قال الجاحظ في كتابه «الحجج في النبوة»: ليس على ظهرها رافضي إلا وهو يزعم أن ربَّه مثله، وأن البدوات تعرض له، وأنه لا يعلم الشيء قبل كونه إلا بعلم يخلقه لنفسه، وقد كان ابن الراوندي وأمثاله من المعروفين بالزندقة والإلحاد صنفوا لهم كتبًا أيضًا على أصولهم[1]

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الإمامة

الإمامة عندهم ركن الدين، وهي قضية أصوليَّة، لا بد فيها من التعين بالاسم أو بالوصف.

والأحق بالإمامة بعد النبيِّ ﷺ هو عليٌّ بن أبي طالب، وولده من بعده.

أقوال العلماء

قال ابن حزم: ومن وافق الشِّيعة في أنَّ عليًّا ﷺ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأحقُّهم بالإمامة، وولده من بعده -فهو شيعيٌّ[2]

وقال الشهرستانيُّ: الشيعة هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ووصيةً، إما جليًّا وإما خفيًّا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحيَّة تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصوليَّة، وهي ركن الدين، لا يجوز للرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله.

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٤٧).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ٦٩- ٧٣)، (٥/ ١٦٢- ١٦٥)، (٦/ ٣٧٩- ٣٨١)، مجموع الفتاوى (٦/ ٥٥).

(٣) الفصل (٢/ ٩٠).

يجمعُهم القول بوجوب التَّعين والتَّنصيص(١).

وقال ابن خلدون: ومذهبهم جميعًا متَّفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله، ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم(٢).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام في نقضه:

الوجه الأول: قول القائل: «إن مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين» كذِبٌ بإجماع المسلمين، سنيِّهم وشيعيِّهم، بل هذا كفر.

فإن الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فالكافر لا يصير مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهذا هو الذي قاتل عليه الرسول ﷺ الكفار أولًا، كما استفاض عنه في الصحاح وغيرها أنه قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»، وفي رواية: «**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**». وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: الآية ٥]، فأمر بتخلية سبيلهم إذا تابوا من الشرك، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وكذلك قال لعلي لما بعثه إلى خيبر.

وكذلك كان النبيُّ ﷺ يسير في الكفار فيحقن دماءهم بالتوبة من الكفر، لا يذكر لهم الإمامة بحال، وقد قال تعالى بعد هذا: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ [التوبة: الآية ١١]، فجعلهم إخوانًا في الدين بالتوبة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولم يذكر الإمامة بحال.

ومن المتواتر أن الكفار على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا أسلموا أجرى عليهم أحكام الإسلام، ولم يذكر لهم الإمامة بحال، ولا نقل هذا عن رسول الله ﷺ أحدٌ من أهل العلم: لا نقلًا خاصًا ولا عامًّا، بل نحن نعلم بالاضطرار عن رسول الله ﷺ أنه لم يكن يذكر للناس إذا أرادوا الدخول في دينه الإمامة لا مطلقًا ولا معينًا، فكيف تكون أهم المطالب في أحكام الدين.

ومما يبين ذلك أن الإمامة -بتقدير الاحتياج إلى معرفتها- لا يحتاج إليها من مات على عهد النبيِّ ﷺ من الصحابة، ولا يحتاج إلى التزام حكمها من عاش منهم إلى بعد موت النبيِّ ﷺ، فكيف يكون أشرف مسائل المسلمين وأهم المطالب في الدين لا يحتاج إليه أحد على عهد النبيِّ ﷺ؟

---

(١) الملل والنحل (١/١٤٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص(١٣٨).

أو ليس الذين آمنوا بالنبي ﷺ في حياته واتبعوه باطنًا وظاهرًا، ولم يرتدوا ولم يبدِّلوا، هم أفضل الخلق باتفاق المسلمين أهل السنة والشيعة! فكيف يكون أفضل المسلمين لا يحتاج إلى أهم المطالب في الدين وأشرف مسائل المسلمين[(١)]؟!

الوجه الثاني: أن يقال: أصول الدين عن الإماميَّة أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، فالإمامة هي آخر المراتب، والتوحيد والعدل والنبوة قبل ذلك. وهم يدخلون في التوحيد: نفي الصفات، والقول بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يُرى في الآخرة.

ويدخلون في العدل: التكذيب بالقدر، وأن الله لا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا يقدر أن يضل من يشاء، وأنه قد يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، وغير ذلك، فلا يقولون: إنه خالق كل شيء، ولا إنه على كل شيءٍ قدير، ولا إنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. لكن التوحيد والعدل والنبوة مقدَّم على الإمامة، فكيف تكون الإمامة أشرف وأهم؟!

وأيضًا فإن الإمامة إنما أوجبوها لكونها لطفًا في الواجبات، فهي واجبة الوسائل، فكيف تكون الوسيلة أهم وأشرف من المقصود؟!

الوجه الثالث:

أن يقال: إن كانت الإمامة أهم مطالب الدين، وأشرف مسائل المسلمين، فأبعد الناس عن هذا الأهم الأشرف هم الرافضة، فإنهم قد قالوا في الإمامة أسخف قول وأفسده في العقل والدين، كما سنبينه إن شاء الله تعالى إذا تكلمنا عن حججهم، ويكفيك أن مطلوبهم بالإمامة أن يكون لهم رئيس معصوم يكون لطفًا في مصالح دينهم ودنياهم، وليس في الطوائف أبعد عن مصلحة اللطف والإمامة منهم، فإنهم يحتالون على مجهول ومعدوم لا يُرى له عين ولا أثر، ولا يُسمع له حس ولا خبر، فلم يحصل لهم من الأمر المقصود بإمامته شيء.

وأي من فرض إمامًا نافعًا في بعض مصالح الدين والدنيا، كان خيرًا ممن لا ينتفع به في شيء من مصالح الإمامة، ولهذا تجدهم لما فاتهم مصلحة الإمامة، يدخلون في طاعة كافر أو ظالم لينالوا به بعض مقاصدهم، فبينما هم يدعون الناس إلى طاعة إمام معصوم، أصبحوا يرجعون إلى طاعة ظلوم كفور، فهل يكون أبعد عن مقصود الإمامة وعن الخير والكرامة، ممن سلك منهاج الندامة؟!

الوجه الرابع:

أن يقال: قوله: «الَّتي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة» كلام باطل، فإن مجرد معرفة الإنسان إمام وقته وإدراكه بعينه، لا يستحق به الكرامة إن لم يوافق أمره ونهيه، وإلا فليست معرفة

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٧٥- ٧٧).

إمام الوقت بأعظم من معرفة الرسول ﷺ، ومن عرف أن محمدًا رسول الله فلم يؤمن به ولم يطع أمره لم يحصل له شيء من الكرامة، ولو آمن بالنبي وعصاه فضيع الفرائض وتعدى الحدود كان مستحقًا للوعيد عند الإماميَّة وسائر طوائف المسلمين، فكيف بمن عرف الإمام وهو مضيع للفرائض متعد للحدود؟!

وكثير من هؤلاء يقول: حب عليٍّ حسنة لا يضر معها سيئة، وإن كانت السيِّئات لا تضر مع حب علي فلا حاجة إلى الإمام المعصوم الذي هو لطف في التكليف، فإنه إذا لم يوجد إنما توجد سيئات ومعاص، فإن كان حب علي كافيًا فسواء وجد الإمام أو لم يوجد.

الوجه الخامس:

قوله: «وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان».

فيقال له: من جعل هذا من الإيمان، إلا أهل الجهل والبهتان؟ ستتكلم إن شاء الله على ما ذكره من ذلك.

والله تعالى وصف المؤمنين وأحوالهم، والنبي ﷺ قد فسَّر الإيمان، وذكر شعبه، ولم يذكر الله ولا رسوله الإمامة في أركان الإيمان، ففي الحديث الصحيح، حديث جبريل لما أتى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، قال: «والإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، ولم يذكر الإمامة، قال: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا الحديث متفق على صحته، متلقًّى بالقبول، أجمع أهل العلم بالنقل على صحته، وقد أخرجه أصحاب الصحيح من غير وجه، فهو متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي أفراد مسلم من حديث عمر.

وهؤلاء وإن كانوا لا يقرون بصحة هذه الأحاديث، فالمصنف قد احتج بأحاديث موضوعة كذب باتفاق أهل المعرفة، فإما أن نحتج بما يقوم الدليل على صحته نحن وهم، أو لا نحتج بشيء من ذلك لا نحن ولا هم، فإن تركوا الرواية رأسًا أمكن أن نترك الرواية، وأما إذا رووا هم، فلا بد من معارضة الرواية بالرواية، والاعتماد على ما تقوم به الحجة، ونحن نبين الدلائل الدالة على كذب ما يعارضون به أهل السنة من الروايات الباطلة، والدلائل الدالة على صحة ما نقله أهل العلم بالحديث وصححوه.

وهب أنَّا لا نحتج بالحديث، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾، فشهد لهؤلاء بالإيمان من غير ذكر للإمامة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: الآية ١٥]، فجعلهم صادقين في الإيمان من غير ذكر للإمامة.

وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: الآية ١٧٧]، ولم يذكر الإمامة.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾، فجعلهم مهتدين مفلحين ولم يذكر الإمامة.

وأيضًا: فنحن نعلم بالاضطرار من دين محمد بن عبد الله ﷺ أن الناس كانوا إذا أسلموا لم يجعل إيمانهم موقوفًا على معرفة الإمامة، ولم يذكر لهم شيئًا من ذلك وما كان أحد أركان الإيمان لا بد أن يبينه الرسول لأهل الإيمان ليحصل لهم به الإيمان، فإذا عُلم بالاضطرار أن هذا مما لم يكن الرسول يشترطه في الإيمان عُلم أن اشتراطه في الإيمان من أقوال أهل البهتان.

فإن قيل: قد دخلت في عموم النصوص، أو هي من باب ما لا يتم الواجب إلا به، أو دلَّ عليها نص آخر.

قيل: هذا كله لو صح لكان غايته أن تكون من بعض فروع الدين، لا تكون من أركان الإيمان، فإن ركن الإيمان ما لا يحصل الإيمان إلا به؛ كالشهادتين، فلا يكون الرجل مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فلو كانت الإمامة ركنًا في الإيمان لا يتم إيمان أحد إلا به، لوجب أن يبين ذلك الرسول بيانًا عامًّا قاطعًا للعذر، كما بين الشهادتين والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، فكيف ونحن نعلم بالاضطرار من دينه أن الناس الذين دخلوا في دينه أفواجًا لم يشترط على أحد منهم في الإيمان الإيمان بالإمامة لا مطلقًا ولا معينًا[1]؟!

وسيأتي مزيد بيان عند قول الرافضة والزَّيديَّة في الإمامة.

- قولهم في أهل البيت

يزعمون أنهم يتولون أهل البيت.

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/٩٩- ١١٠)، (٦/٣٤٢- ٣٤٣).

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: إنما قيل لهم الشِّيعة لأنهم شايعوا عليًّا ﷺ[(١)]

وقال الشهرستانيُّ: الشِّيعة هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ على الخصوص[(٢)]

وقال عمَّا يجمعهم: والقول بالتولِّي والتبرِّي قولًا، وفعلًا، وعقدًا، إلا في حال التَّقِيَّة[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: وانتحلت الشيعة أهل البيت[(٤)]

وقال عن الرافضة: ينتحلون مذهب أهل البيت كذبًا وافتراء[(٥)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: أصل كلِّ فتنة وبَلِيَّة هم الشِّيعة ومن انضوى إليهم، وكثير من السّيوف التي سُلَّت في الإسلام إنما كانت من جهتهم، وعَلِم أن أصلَهم ومادتهم منافقون، اختلقوا أكاذيب، وابتدعوا آراء فاسدة، ليفسدوا بها دين الإسلام، ويستزلُّوا بها مَن ليس مِن أُولي الأحلام، فسعوا في قتل عثمان، وهو أول الفتن، ثم انزووا إلى عليٍّ، لا حبًّا فيه ولا في أهل البيت، لكن ليقيموا سوق الفتنة بين المسلمين.

ثم هؤلاء الذين سعوا معه منهم من كفَّره بعد ذلك وقاتله، كما فعلت الخوارج، وسيفهم أول سيف سُلَّ على الجماعة، ومنهم من أظهر الطعن على الخلفاء الثلاثة، كما فعلت الرافضة، وبهم تستَّرت الزنادقة؛ كالغالية من النُّصيريَّة وغيرهم، ومن القرامطة الباطنيَّة، والإسماعيليَّة، وغيرهم، فهم منشأ كل فتنة، والصحابة ﷺ منشأ كلِّ علمٍ وصلاحٍ وهدى ورحمة في الإسلام.

ولهذا تجد الشيعة ينتصرون لأعداء الإسلام المرتدين؛ كبني حنيفة أتباع مُسَيْلمة الكذَّاب، ويقولون: إنهم كانوا مظلومين، كما ذكر صاحب هذا الكتاب، وينتصرون لأبي لؤلؤة الكافر المجوسيِّ، ومنهم من يقول: اللهم ارض عن أبي لؤلؤة واحشرني معه، . . .[(٦)]

وقال: وهذه كانت سيرة أئمة أهل البيت مع غيرهم، فمن اتَّبعهم في ذلك فهو المقتدي بهم، دون من تبرَّأ من السابقين الأولين، وجمهور أهل العلم والدين، وظاهر على عدواتهم الكفَّار والمنافقين، كما يفعله من الرَّافضة الضَّالِّين[(٧)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥).

(٢) الملل والنحل (١/١٤٦).

(٣) الملل والنحل (١/١٤٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٣).

(٦) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٧٠- ٣٧٦).

(٧) منهاج السنة النبوية (٤/ ١١٤).

وقال: وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة؛ فإنهم يعادون العباس وذريته، بل يعادون جمهور أهل البيت، ويعينون الكفار عليهم[١].

وقال: وأما مخالفة الشِّيعة لأهل البيت فكثيرة جدًّا[٢].

وقال: فتبين أن هؤلاء الرافضة مخالفون لأئمة أهل البيت وسائر السلف في مسألة القرآن، كما خالفوهم في غيرها[٣].

وقال: ولكن الإماميَّة تخالف أهل البيت في عامة أصولهم، فليس في أئمة أهل البيت -مثل: علي بن الحسين، وأبي جعفر الباقر، وابنه جعفر بن محمد الصادق- من كان ينكر الرؤية، أو يقول بخلق القرآن، أو ينكر القدر، أو يقول بالنصِّ على عليٍّ، أو بعصمة الأئمة الاثني عشر، أو يسب أبا بكر وعمر.

والمنقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة، وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة[٤].

وقال: لا نسلم أن الإماميَّة أخذوا مذهبهم عن أهل البيت لا الاثنا عشرية ولا غيرهم، بل هم مخالفون لعليٍّ ﷺ وأئمة أهل البيت في جميع أصولهم التي فارقوا فيها أهل السنة والجماعة: توحيدهم، وعدلهم، وإمامتهم، فإن الثابت عن عليٍّ ﷺ وأئمة أهل البيت من إثبات الصفات لله، وإثبات القدر، وإثبات خلافة الخلفاء الثلاثة، وإثبات فضيلة أبي بكر وعمر ﷺ، وغير ذلك من المسائل كله يناقض مذهب الرافضة، والنقل بذلك ثابت مستفيض في كتب أهل العلم، بحيث إن معرفة المنقول في هذا الباب عن أئمة أهل البيت يوجب علمًا ضروريًّا بأن الرافضة مخالفون لهم لا موافقون لهم[٥].

وقال: وأئمة المسلمين من أهل بيت رسول الله ﷺ وغيرهم متفقون على القول الوسط المغاير لقول أهل التمثيل وقول أهل التعطيل، وهذا مما يبين مخالفة الرافضة لأئمة أهل بيت رسول الله ﷺ في أصول دينهم، كما هم مخالفون لأصحابه، بل ولكتاب الله وسنة رسوله ﷺ[٦].

وقال: فتبين أن الرافضة من أعظم الناس قدحًا وطعنًا في أهل البيت، وأنهم هم الذين عادوا أهل البيت في نفس الأمر، ونسبوهم إلى أعظم المنكرات، التي من فعلها كان من الكفَّار، وليس هذا ببدع من جهل الرافضة وحماقاتهم[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١٠).
(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٥٦).
(٤) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩).
(٥) منهاج السنة النبوية (٤/ ١٦، ١٧).
(٦) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٤٣).
(٧) منهاج السنة النبوية (٧/ ٤٠٨).

وقال: فقاتل الله الرافضة، وانتصف لأهل البيت منهم، فإنهم ألصقوا بهم من العيوب والشين ما لا يخفى على ذي عين(١)

وقال: ولكن أهل البيت لم يتفقوا -ولله الحمد- على شيء من خصائص مذهب الرافضة، بل هم المبرءون المتزّهون عن التّدنس بشيء منه(٢)

- قولهم في الصَّحابة

يفضّلون ويقدّمون عليَّ بن أبي طالب على سائر الصحابة، وأغلبهم يقدحون ويطعنون في الصحابة.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: شايعوا عليًّا رضي الله عنه ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ(٣)

وقال ابن حزم: ومن وافق الشيعة في أن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأحقُّهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعيٌّ(٤).

وقال: إن الشّيعة يفضلون أنفسهم وهم شرُّ خلق الله عز وجل على أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وجميع الصحابة رضي الله عنهم حاشا عليًّا والحسن والحسين وعمار بن ياسر(٥)

وقال الشهرستانيُّ عما يجمعهم: والقول بالتولّي والتبرّي قولًا، وفعلًا، وعقدًا، إلا في حال التَّقِيَّة(٦).

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الرافضة والزَّيديَّة في الصحابة.

- قولهم في التَّقِيَّة

يقولون بالتَّقِيَّة، وهي أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما في قلبه، وأن يظهر خلاف ما يبطن.

أقوال العلماء

قال الشهرستانيُّ عما يجمعهم: والقول بالتولّي والتبرّي قولًا، وفعلًا، وعقدًا، إلا في حال التَّقِيَّة(٧).

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٢٤٦).
(٢) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٩٥).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٧١).
(٤) الفصل (٢/ ٩٠).
(٥) الفصل (٤/ ٩٢).
(٦) الملل والنحل (١/ ١٤٦).
(٧) الملل والنحل (١/ ١٤٦).

وقال الأشعري عمّا أجمع عليه الرافضة: وأنه جائز للإمام في حال التَّقِيَّة أن يقول: إنه ليس بإمام(١)

وقال: وأجمعوا على أنه لا يجوز الصلاة خلف الفاسقين، وإنما يصلون خلف الفاسقين تقيه ثم يعيدون صلاتهم(٢)

وقال: واختلفت الروافض في التحكيم، وهم فرقتان:

الفرقة الأولى منهم: يزعمون أن عليًا إنما حكم للتقية، وأنه مصيب في تحكيمه للتَّقيَّة، وأن التَّقِيَّة تسعه إذا خاف على نفسه، واعتلوا في ذلك بأن رسول الله كان في تقية في أول الإسلام يكتم الدين.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن التحكيم صواب على أي وجه فعله، على التَّقِيَّة، أو على غير التَّقِيَّة(٣)

وقال الملطيُّ عن الرافضة: وأنه ليس لله حجة على خلقه في الدين والشريعة في كتاب ولا سنة ولا إجماع إلا من قبل الإمام، الذي اختصه الله لدينه على كتمان وتقية وإخفاء، لا يتكلم لله بحق، ولا يقوم لله بحجة، مخافة على نفسه أن تقتل وخشية على الإسلام أن يهتك(٤)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأما الرافضة فأصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد، وتعمد الكذب كثير فيهم، وهم يقرُّون بذلك حيث يقولون: ديننا التَّقِيَّة، وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما في قلبه، وهذا هو الكذب والنفاق، ويدَّعون مع هذا أنهم هم المؤمنون دون غيرهم من أهل الملة، ويصفون السابقين الأولين بالرِّدَّة والنِّفاق، فهم في ذلك كما قيل/ رمتني بدائها وانسلَّت(٥)

وقال: والنفاق والزندقة في الرافضة أكثر منه في سائر الطوائف، بل لا بد لكل منهم من شعبة نفاق، فإن أساسَ النِّفاق الذي بُني عليه الكذبُ، وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه، كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

والرافضة تجعل هذا من أصول دينها، وتسميه التَّقِيَّة، وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت الذين برَّأهم الله عن ذلك، حتى يحكوا عن جعفر الصادق أنه قال: التَّقِيَّة ديني ودين آبائي.

وقد نزَّه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك، بل كانوا من أعظم الناس صدقًا

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٧)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٢).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٨).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٧، ٥٨).

(٤) التنبيه والرد ص(٢٦).

(٥) منهاج السنة النبوية (١/ ٦٨).

وتحقيقًا للإيمان، وكان دينهم التقوى لا التَّقِيَّة.

وقول الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨]، إنما هو الأمر بالاتقاء من الكفار، لا الأمر بالنفاق والكذب.

والله تعالى قد أباح لمن أكره على كلمة الكفر أن يتكلم بها إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، لكن لم يُكرَه أحد من أهل البيت على شيء من ذلك، حتى إن أبا بكر ﷺ لم يُكْرِهِ أحدًا لا منهم ولا من غيرهم على مبايعته، فضلًا أن يكرههم على مدحه والثناء عليه، بل كان عليٌّ وغيرُه من أهل البيت يظهرون ذكر فضائل الصحابة، والثناء عليهم، والترحم عليهم، والدعاء لهم، ولم يكن أحد يكرههم على شيء منه باتفاق الناس.

وقد كان في زمن بني أمية وبني العباس خلق عظيم دون عليّ وغيره في الإيمان والتقوى يَكرهون منهم أشياء، ولا يمدحونهم، ولا يثنون عليهم، ولا يقرِّبونهم، ومع هذا لم يكن هؤلاء يخافونهم، ولم يكن أولئك يكرهونهم، مع أن الخلفاء الراشدين كانوا باتفاق الخلق أبعد عن قهر الناس وعقوبتهم على طاعتهم من هؤلاء، فإذا لم يكن الناس مع هؤلاء مكرهين على أن يقولوا بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، فكيف يكونون مكرَهين مع الخلفاء على ذلك، بل على الكذب، وشهادة الزور، وإظهار الكفر -كما تقوله الرافضة- من غير أن يكرِههم أحد على ذلك؟!

فعُلِم أن ما تتظاهر به الرافضة هو من باب الكذب والنفاق، وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، لا من باب ما يُكرَه المؤمن عليه من التكلم بالكفر.

وهؤلاء أسرى المسلمين في بلاد الكفار غالبهم يظهرون دينهم، والخوارج مع تظاهرهم بتكفير الجمهور، وتكفير عثمانَ وعليٍّ ومن والاهما، يتظاهرون بدينهم، وإذا سكنوا بين الجماعة سكنوا على الموافقة والمخالفة، والذي يسكن في مدائن الرافضة فلا يظهر الرفض، وغايته إذا ضعف أن يسكت عن ذكر مذهبه، لا يحتاج أن يتظاهر بسب الخلفاء والصحابة إلا أن يكونوا قليلًا.

فكيف يُظَن بعليّ ﷺ وغيره من أهل البيت أنهم كانوا أضعف دينًا وقلوبًا من الأسرى في بلاد الكفر، ومن عوام أهل السنة، ومن النواصب؟! مع أنا قد علمنا بالتواتر أن أحدًا لم يُكرِه عليًا ولا أولاده على ذكر فضائل الخلفاء والترحم عليهم، بل كانوا يقولون ذلك من غير إكراه، ويقوله أحدهم لخاصته، كما ثبت ذلك بالنقل المتواتر[١]

وقال: فإن الرافضة لما كانوا من جنس المنافقين يخفون أمرهم احتاجوا أن يتظاهروا بغير ذلك، كما احتاج المنافقون أن يتظاهروا بغير الكفر[٢]

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٤٦- ٤٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/١٣٣).

وقال: ولهذا رأس مال الرافضة التَّقِيَّة، وهي أن يظهر خلاف ما يبطن كما يفعل المنافق، وقد كان المسلمون في أول الإسلام في غاية الضعف والقلَّة، وهم يظهرون دينهم لا يكتمونه.

والرافضة يزعمون أنهم يعملون بهذه الآية: قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨] ، ويزعمون أنهم هم المؤمنون، وسائر أهل القبلة كفَّار، مع أن لهم في تكفير الجمهور قولين، لكن قد رأيت غيرَ واحدٍ من أئمتهم يصرِّح في كتبه وفتاويه بكفر الجمهور، وأنهم مرتدُّون، ودارهم دار ردَّة، يحكم بنجاسة مائعها، وأن من انتقل إلى قول الجمهور منهم ثم تاب لم تقبل توبته؛ لأن المرتدَّ الذي يولد على الفطرة لا يقبل منه الرجوع إلى الإسلام.

وهذا في المرتد عن الإسلام قول لبعض السلف، وهو رواية عن الإمام أحمد. قالوا: لأن المرتد من كان كافرًا فأسلم، ثم رجع إلى الكفر، بخلاف من يولد مسلمًا.

فجعل هؤلاء هذا في سائر الأمة، فهم عندهم كفَّار، فمن صار منهم إلى مذهبهم كان مرتدًّا.

وهذه الآية حجة عليهم، فإن هذه الآية خوطب بها أولًا من كان مع النبي ﷺ من المؤمنين فقيل لهم: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨] ، وهذه الآية مدنية باتفاق العلماء؛ فإن سورة آل عمران كلها مدنية، وكذلك البقرة والنساء والمائدة.

ومعلوم أن المؤمنين بالمدينة على عهد النبيِّ ﷺ لم يكن أحد منهم يكتم إيمانَه، ولا يظهر للكفَّار أنه منهم، كما يفعله الرافضة مع الجمهور.

وقد اتفق المفسرون على أنها نزلت بسبب أن بعض المسلمين أراد إظهار مودَّة الكفار فنُهوا عن ذلك، وهم لا يظهرون المودَّة للجمهور، وفي رواية الضَّحَّاك عن ابن عباس: أن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود، فقال: يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود، وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدوِّ، فنزلت هذه الآية.

وفي رواية أبي صالح: أن عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه من المنافقين كانوا يتولَّون اليهود ويأتونهم بالأخبار، يرجون لهم الظفر على النبيِّ ﷺ، فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم.

ورُوى عن ابن عباس: أن قومًا من اليهود كانوا يباطنون قومًا من الأنصار، ليفتنوهم عن دينهم، فنهاهم قومٌ من المسلمين عن ذلك، وقالوا: اجتنبوا هؤلاء، فأبَوا، فنزلت هذه الآية.

وعن مقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفَّار مكة، فنهاهم الله عن ذلك.

والرافضة من أعظم الناس إظهارًا لمودة أهل السنة، ولا يُظهر أحدهم دينه، حتى إنهم يحفظون من فضائل الصحابة، والقصائد التي في مدحهم، وهجاء الرافضة ما يتوددون به إلى أهل السنة، ولا يُظهر أحدهما دينه، كما كان المؤمنون يظهرون دينهم للمشركين وأهل الكتاب، فعُلم أنهم من أبعد الناس عن العمل بهذه الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨]، قال مجاهد: إلا مصانعة.

والتُّقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه.

كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

فالمؤمن إذا كان بين الكفَّار والفجَّار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه، وإلا فبقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه، وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون -وامرأة فرعون- وهو لم يكن موافقًا لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه.

وكتمان الدين شيءٌ، وإظهار الدين الباطل شيءٌ آخر، فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أكره، بحيث أبيح له النُّطق بكلمة الكفر، والله تعالى قد فرَّق بين المنافق والمُكْرَه.

والرافضة حالهم من جنس حال المنافقين، لا من جنس حال المكره الذي أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن هذا الإكراه لا يكون عامًّا من جمهور بني آدم، بل المسلم يكون أسيرًا أو منفردًا في بلاد الكفر، ولا أحد يُكرهه على كلمه الكفر، ولا يقولها، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد يحتاج إلى أن يلين لناس من الكفَّار ليظنوه منهم، وهو مع هذا لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل يكتم ما في قلبه.

وفرق بين الكذب وبين الكتمان، فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره الله في الإظهار؛ كمؤمن آل فرعون، وأما الذي يتكلم بالكفر، فلا يعذره إلا إذا أُكره، والمنافق الكذَّاب لا يُعذر بحال، ولكن في المعاريض مندوحة عن الكذب، ثم ذلك المؤمن الذي يكتم إيمانه يكون بين الكفَّار الذين لا يعلمون دينه، وهو مع هذا مؤمن عندهم يحبّونه ويكرمونه؛ لأن الإيمان الذي في قلبه يُوجب أن يعاملهم بالصدق والأمانة والنصح، وإرادة الخير بهم، وإن لم يكن موافقًا لهم على دينهم، كما كان يوسف الصدِّيق يسير في أهل مصر وكانوا كفَّارًا، وكما كان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، ومع هذا كان يعظِّم موسى ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: الآية ٢٨].

وأما الرافضي فلا يعاشر أحدًا إلا استعمل معه النفاق، فإن دينه الذي في قلبه دين فاسد، يحمله على الكذب والخيانة، وغش الناس، وإرادة السوء بهم، فهو لا يألوهم خَبَالًا، ولا يترك شرًّا يقدر عليه إلا فعله بهم، وهو ممقوت عند من لا يعرفه، وإن لم يعرف أنه رافضي تظهر على وجهه سيما النفاق، وفي لحن القول، ولهذا تجده ينافق ضعفاء الناس ومن لا حاجة به إليه، لما في قلبه من النفاق الذي يضعف قلبه.

والمؤمن معه عزّة الإيمان، فإن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، ثم هم يدّعون الإيمان دون الناس، والذلة فيهم أكثر منها في سائر الطوائف من المسلمين.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: الآية ٥١]، وهم أبعد طوائف أهل الإسلام عن النُّصرة، وأولاهم بالخذلان، فعُلم أنهم أقرب طوائف أهل الإسلام إلى النفاق، وأبعدهم عن الإيمان.

وآية ذلك أن المنافقين حقيقة، الذين ليس فيهم إيمان من الملاحدة، يميلون إلى الرافضة، والرافضة تميل إليهم أكثر من سائر الطوائف.

وقد قال ﷺ: «الأرواح جنود مجنَّدة؛ ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اعتبروا الناس بأخدانهم».

فعُلم أن بين أرواح الرافضة وأرواح المنافقين اتفاقًا محضًا: قدرًا مشتركًا وتشابهًا، وهذا لما في الرافضة فإن النفاق شُعب.

كما في الصحيحين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**، وفي رواية لمسلم: **«وإن صام وصلَّى وزعم أنه مسلم»**.

والقرآن يشهد لهذا، فإن الله وصف المنافقين في غير موضع بالكذب والغدر والخيانة، وهذه الخصال لا توجد في طائفةٍ أكثر منها في الرافضة، ولا أبعد منها عن أهل السنة المحضة المتّبعين للصحابة، فهؤلاء أوْلى الناس بشعب الإيمان وأبعدهم عن شعب النفاق، والرافضة أولى الناس بشعب النِّفاق وأبعدهم عن شعب الإيمان، وسائر الطوائف قربهم إلى الإيمان وبغدهم عن النفاق بحسب سنتهم وبدعتهم (١)

- قولهم في الصفات

يدور مذهبهم بين التّجسيم والحلول، وبين النّفي والتّعطيلِ.

أقوال العلماء

قال الشهرستانيُّ: وكان التّشبيه بالأصل والوضع في الشّيعة، . . .، وتمكّن الاعتزال فيهم لما رأوا أن ذلك أقرب إلى المعقول، وأبعد من التّشبيه والحلول (٢)

نقض قولهم

سيأتي الكلام عن مذهبهم في التّشبيه والتّجسيم والحلول، وفي النفي والتّعطيل.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٢١- ٤٢٧).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٧٣).

الفصل السادس
مَقَالَات فِرَق الشِّيعَة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مَقَالَاتُ الغَالية.

المبحث الثاني: مَقَالَاتُ الرَّافضة الإماميَّة.

المبحث الثالث: مَقَالَاتُ الزَّيديَّة.

المبحث الأول

مَقَالَاتُ الغَالية

مقالات فرق الشِّيعة الغالية كثيرة، وينبو اللسان عن ذكرها؛ لما فيها من الكفر الصراح بالله العظيم، ومن التنقُّص له، والخروج عن شريعته، وعن رسالة النبيِّ محمد ﷺ، ولذلك لن نذكر مقالاتهم؛ لأن الفطر السليمة لا تقرها ولا تطمئن لها، وإنما سنذكر مُجمل مقالاتهم وما استمدوا منه هذه المقالات.

أقوال العلماء

قال الشهرستانيُّ عنهم: هؤلاء هم الذين غلوا في حقِّ أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقيَّة، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبَّهوا واحدًا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير.

وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب: الحلوليَّة، ومذاهب التناسخيَّة، ومذاهب اليهود والنصارى، إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسَرَت هذه الشُّبهات في أذهان الشيعة الغلاة، حتى حكمت بأحكام الإلهية في حقِّ بعض الأئمة، وكان التَّشبيه بالأصل والوضع في الشيعة، وإنما عادت إلى بعض أهل السُّنَّة بعد ذلك، وتمكَّن الاعتزال فيهم لما رأوا أن ذلك أقرب إلى المعقول، وأبعد من التَّشبيه والحلول.

وبدع الغلاة محصورة في أربع: التَّشبيه، والبَّدَاء، والرَّجعة، والتَّناسخ [(١)].

وقال ابن حزم: وطوائف كانوا من الشِّيعة ثم غلوا، فقال بعضهم بإلهية عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام والأئمة بعده، ومنهم من قال بنبوته وبنبوتهم، وبتناسخ الأرواح كالسيِّد الحميري الشاعر وغيره.

وقالتْ طائفة منهم بإلهية أبي الخطَّاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد.

وقالت طائفة بنبوة المغيرة بن أبي سعيد مولي بني بجيلة، وبنبوة أبي منصور العجلي، وبُزيع الحائك، وبيان بن سمعان التميمي وغيرهم.

وقال آخرون منهم برجعة علي إلى الدنيا [(٢)].

وقال شيخ الإسلام: وأما من دخل في غلو الشيعة؛ كالإسماعيليَّة الذين يقولون بإلهية الحاكم، ونحوه من أئمتهم، ويقولون: إن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله، وغير ذلك من

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٧٣).

(٢) الفصل (٢/ ٩٠).

المقالات التي هي من مقالات الغالية من الرافضة، فهؤلاء شر من أكثر الكفار من اليهود والنصارى والمشركين، وهم ينتسبون إلى الشيعة يتظاهرون بمذاهبهم(١)

وقال: جُهَّال الشِّيعة وملاحدتهم الذين يعتقدون إلهية عليّ، أو نبوته، أو يعتقدون أن باطن الشريعة يناقض ظاهرها، كما تقوله الإسماعيليَّة والنُّصيريَّة وغيرهم من أنه يسقط عن خواصِّهم الصوم والصلاة والحج والزكاة، وينكرون المعاد، بل غلاتهم يجحدون الصانع، وهم يعتقدون في محمد بن إسماعيل أنه أفضل من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنه نسخ شريعته، ويعتقدون في أئمتهم كالذي يسمونه المهدي وأولاده، مثل: المعز والحاكم وأمثالهم: أنهم أئمة معصومون

وهؤلاء الباطنية هم في الباطن أكفر من اليهود والنصارى

وأما أئمة الملاحدة فيعلمون في الباطن أن ما يقولونه مناقض لما جاء به محمد ﷺ، وهم يخالفونه لاعتقادهم أنه وضع ناموسًا بعقله وفضيلته، فيجوز لنا أن نضع ناموسًا كما وضع ناموسًا، إذ كانت النبوة عندهم مكتسبة، وهي عندهم من جنس فضيلة العلماء العباد، والشرائع من جنس سياسة الملوك العادية، فيجوزون أن تنسخ شريعته بشريعة يضعها الواحد من أئمتهم، ويقولون: إن الشريعة إنما هي للعامة، فأما الخاصة إذا علموا باطنها فإنه تسقط عنهم الواجبات، وتباح لهم المحظورات.

وهؤلاء ونحوهم أكفر من اليهود والنصارى (٢)

وقال: وأما ما تقوله غلاتهم من إلهية عليٍّ، أو نبوته، وغلط جبريل بالرسالة، فهو أعظم من أن يذكر هنا، ولا ريب أن الشرك والغلو يخرج أصحابه إلى أن يجعلوا البشر مثل الإله، بل أفضل من الإله في بعض الأمور، كما ذكر الله عن المشركين حيث قال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨]

فهؤلاء لما سُبَّت آلهتهم سَبُّوا الله مقابلة، فجعلوهم مماثلين لله وأعظم في قلوبهم كما تجد كثيرًا من المشركين يحب ما اتخذه من دون الله أندادًا أكثر مما يحب الله تعالى؛ وتجد أحدهم يحلف بالله ويكذب، ويحلف بما اتخذه نِدًّا من إمامه أو شيخه أو غير ذلك ولا يستجيز أن يكذب، وتسأله بالله والله فلا يعطي، وتسأله بما يعظمه من إمامه أو شيخه أو غير ذلك فيعطي، ويصلي لله في بيته ويدعوه فلا يكون عنده كبير خشوع، فإذا أتى إلى قبر من يعظمه ورجا أن يدعوه أو يدعو به

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٨٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥١٩، ٥٢٠)، مجموع الفتاوى (٤/ ١٦٣).

أو يدعو عنده فيحصل له من الخشوع والدموع ما لا يحصل في عبادة الله ودعائه في بيت الله، أو في بيت الداعي العابد، وتجد أحدهم يغضب إذا ذُكر ما اتخذه نِدًّا بعيب أو نقص، ويُذكر الله بالعيوب والنقوص فلا يغضب له.

ومثل هذا كثير في المشركين شركًا محضًا، وفي من فيه شعبة من الشرك في هذه الأمة، والنصارى ينزِّهون البشر عن كثير مما يصفون به الرب فيقولون: لله ولد، وينزِّهون كثيرًا من عظمائهم أن يكون له ولد، ويقول كثير منهم: إن الله ينام، والباب عندهم لا ينام، ومثل هذا كثير[١].

وقال: وأما من جوَّز أن يكون غير النبي أفضل منه، فهو من أقوال بعض ملاحدة المتأخرين من: غلاة الشيعة، والصوفية، والمتفلسفة، ونحوهم[٢].

وقال: وهذا أمر معلوم، فإن أهل العلم متفقون على أن هذه المقالات الغالية في وصف الرب بالعيوب والنقائص، المتضمنة تشبيه الخالق بالمخلوق في صفات النقص، وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية -هي أكثر ما يكون في الشيعة باتفاق الناس، فلا يوجد في طوائف الأمة أشنع في الحلول والتَّمثيل والتَّعطيل مما يوجد فيهم.

ولهذا صارت الملاحدة والغالية عَلَمَين على بعض من ينتسب إليهم، فالملاحدة علم على الإسماعيلية، والغالية علم على القائلين بالإلهية في البشر؛ كالنُّصيريَّة، والمشهور بالغلو وادِّعاء الإلهية في البشر هم النصارى والغالية من الشيعة، وقد يوجد بعض الإلحاد والغلو في غيرهم من النُّساك وغيرهم، لكن الذي فيهم أكثر وأقبح[٣].

وقال: فمنهم الغالية سُمُّوا بذاك لأنهم غَلَوْا في عليٍّ، وقالوا فيه قولًا عظيمًا؛ مثل: اعتقادهم إلهيته، أو نبوته، وهؤلاء أصناف متعددة، والنُّصيريَّة منهم[٤].

وقال: ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات الكفريَّة التي يزعم أنها علم الأسرار والحقائق ويريدون بذلك إما الاتحاد وإما تعطيل الشرائع ونحو ذلك، مثل ما تدعي النصيريَّة والإسماعيلية؛ والقرامطة والباطنيَّة الثنويَّة، والحاكميَّة وغيرهم من الضلالات المخالفة لدين الإسلام، وما ينسبونه إلى علي بن أبي طالب؛ أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت؛ كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن عنضب، وغير ذلك من الأكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة، وكل هذا باطل.

فإنه لما كان لآل رسول الله ﷺ به اتصال النسب والقرابة، وللأولياء الصالحين منهم ومن

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٩٥، ٣٩٦).
(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤١٨)، مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣٧، ٣٣٨).
(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٣، ٥١٤).
(٤) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٠).

غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة، وصار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يموه باطله ويزخرفه بما يفتريه على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته، وصار كثير من الناس يغلو إما في قوم من هؤلاء، أو من هؤلاء، حتى يتخذهم آلهة، أو يقدم ما يضاف إليهم على شريعة النبيِّ ﷺ وسنته، وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله، وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة، وهذا كثير في أهل الضلال[1]

وقال: القرامطة، والباطنية، والفلاسفة أتباع المشَّائين، ونحوهم من الملاحدة الذين ينكرون حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر.

ثم إن كثيرًا منهم يجعلون الأمر والنهي من هذا الباب؛ فيجعلون الشرائع المأمور بها، والمحظورات المنهي عنها لها تأويلات باطنة تخالف ما يعرفه المسلمون منها، كما يتأولون من الصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت. فيقولون: إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، وإن صيام رمضان كتمان أسرارهم، وإن حجَّ البيت السفر إلى شيوخهم، ونحو ذلك من التأويلات التي يعلم بالاضطرار أنها كذب وافتراء على الرسل صلوات الله عليهم، وتحريف لكلام الله ورسوله عن مواضعه، وإلحاد في آيات الله.

وقد يقولون الشرائع تلزم العامة دون الخاصَّة، فإذا صار الرجل من عارفيهم ومحققيهم وموحديهم: رفعوا عنه الواجبات، وأباحوا له المحظورات، وقد يدخل في المنتسبين إلى التصوف والسلوك من يدخل في بعض هذه المذاهب.

وهؤلاء الباطنية: هم الملاحدة الذين أجمع المسلمون على أنهم أكفر من اليهود والنصارى[2]

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٤، ٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩، ٣٠).

المبحث الثاني

مَقَالَاتُ الرَّافضة الإماميَّة

مُجْمَل مَقَالَاتِهِم

قال الشهرستانيُّ: وكانوا في الأول على مذهب أئمتهم في الأصول، ثم لما اختلفت الروايات عن أئمتهم، وتمادى الزمان، اختارت كل فرقة منهم طريقة، فصارت الإماميَّة بعضها معتزلة، إما وعيديَّة، وإما تفضيليَّة، وبعضها إخباريَّة، إما مشبِّهة وإما سلفيَّة، ومن ضلَّ الطريق وتاه لم يبال الله به في أي وادٍ هلك[1].

وقال: فلهذا صارت الإماميَّة متمسكين بالعدليَّة في الأصول، وبالمشبِّهة في الصِّفات، متحيرين تائهين، وبين الإخباريَّة منهم والكلاميَّة سيف وتكفير، وكذلك بين التفضيليَّة والوعيديَّة قتال وتضليل، أعاذنا الله من الحيرة[2].

وقال الإيجي: وتشعب متأخِّروهم إلى معتزلة، وإلى إخباريَّة، وإلى مشبِّهة وسلفيَّة، وملتحقة بالفرق الضَّالَّة[3].

وقال شيخ الإسلام: وأصل قول الرافضة: أن النبيَّ ﷺ نصَّ على عليٍّ نصًا قاطعًا للعذر، وأنه إمام معصوم، ومن خالفه كفر، وأن المهاجرين والأنصار كتموا النصَّ، وكفروا بالإمام المعصوم، واتبعوا أهواءهم، وبدَّلوا الدين، وغيَّروا الشريعة، وظلموا، واعتدوا، بل كفروا، إلا نفرًا قليلًا: بضعة عشر أو أكثر، ثم يقولون: إنَّ أبا بكرٍ وعمرَ ونحوَهما ما زالا منافقين، وقد يقولون: بل آمنوا ثم كفروا.

وأكثرهم يكفِّر من خالف قولَهم، ويسمُّون أنفسهم المؤمنين، ومن خالفهم كفارًا، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردة، أسوأ حالًا من مدائن المشركين والنصارى، ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين. ومعاداتهم ومحاربتهم، كما عرف من موالاتهم الكفار المشركين على جمهور المسلمين، ومن موالاتهم الإفرنج النصارى على جمهور المسلمين، ومن موالاتهم اليهود على جمهور المسلمين.

ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنِّفاق؛ كزندقة القرامطة الباطنيَّة وأمثالهم، ولا ريب أنهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسُّنَّة، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة،

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٦٥).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٧٢).

(٣) المواقف (٣/ ٦٧٨).

فجمهور العامة لا تعرف ضدَّ السُّنِّيِّ إلا الرَّافضيَّ، فإذا قال أحدهم: أنا سنِّيٌّ، فإنما معناه: لست رافضيًّا[١]

وقال عنهم: هم الذين يكفِّرون جماهير المسلمين؛ مثل الخلفاء الثلاثة وغيرهم، ويزعمون أنهم هم المؤمنون ومن سواهم كافر، ويكفِّرون من يقول: إن الله يرى في الآخرة، أو يؤمن بصفات الله، وقدرته الكاملة، ومشيئته الشاملة، ويكفِّرون مَن خالفهم في بدعهم التي هم عليها.

فإنهم يمسحون القدمين، ولا يمسحون على الخف، ويؤخرون الفطور، والصلاة إلى طلوع النجم، ويجمعون بين الصلاتين من غير عذر، ويقنتون في الصلوات الخمس، ويحرمون الفقاع، وذبائح أهل الكتاب، وذبائح من خالفهم من المسلمين؛ لأنهم عندهم كفار، ويقولون على الصحابة ﭬ أقوالًا عظيمةً، لا حاجة إلى ذكرها هنا، إلى أشياء أخر، فقاتلهم المسلمون بأمر الله ورسوله[٢]

وقال: فهؤلاء الرافضة طافوا على أبواب المذاهب، وفازوا بأخسِّ المطالب، فعمدتهم في العقليات على عقليات باطلة، وفي السمعيات على سمعيات باطلة، ولهذا كانوا من أضعف الناس حجة، وأضيقهم محجَّة، وكان الأكابر من أئمتهم متهمين بالزندقة والانحلال، كما يتهم غير واحد من أكابرهم[٣]

وقال: وشيوخ الرافضة معترفون بأن هذا الاعتقاد في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب، ولا سنة، ولا عن أئمة أهل البيت، وإنما يزعمون أن العقل دلهم عليه، كما يقول ذلك المعتزلة، وهم في الحقيقة إنما تلقوه عن المعتزلة، وهم شيوخهم في التوحيد والعدل، وإنما يزعمون أنهم تلقوا عن الأئمة الشرائع، وقولهم في الشرائع غالبه موافق لمذهب أهل السنة -أو بعض أهل السنة- ولهم مفردات شنيعة لم يوافقهم عليها أحد، ولهم مفردات عن المذاهب الأربعة قد قال بها غير الأربعة من السلف وأهل الظاهر وفقهاء المعتزلة وغير هؤلاء، فهذه ونحوها من مسائل الاجتهاد التي يهون الأمر فيها، بخلاف الشاذ الذي يُعرف أنه لا أصل له في كتاب الله، ولا سنة رسوله ﷺ، ولا سبقهم إليه أحد[٤]

وقال: إن جميع ما يذكره هؤلاء الإماميَّة المتأخِّرون في مسائل التوحيد والعدل؛ كابن النعمان، والموسوي الملقب بالمرتضى، وأبي جعفرٍ الطوسيِّ، وغيرهم، هو مأخوذ من كتب المعتزلة، بل كثير منه منقول نقل المسطرة، وبعضه قد تصرفوا فيه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٦)، (٤/ ١٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٢، ٣٨٣)، منهاج السنة النبوية (٥/ ١٧٣- ١٧٧).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٦٥).

(٤) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٦٩).

وكذلك ما يذكرونه من تفسير القرآن في آيات الصفات والقدر ونحو ذلك، هو منقول من تفاسير المعتزلة؛ كالأصم، والجُبَّائي، وعبد الجبار بن أحمد الهمذاني، والرّمَّانيِّ، وأبي مسلم الأصبهانيِّ، وغيرهم، لا يُنقل عن قدماء الإماميَّة من هذا حرف واحد، لا في الأصول العقليَّة، ولا في تفسير القرآن[1].

تَفْصِيلُ مَقَالَاتِهِم

- قولهم في الإمامة

يزعمون أن النبيَّ ﷺ قد نصَّ على إمامة عليٍّ بن أبي طالبٍ من بعده بالعين والاسم، وأن الصَّحَابة قد ضلُّوا وظلموا بعدم تمكينه منها، وأن الإمامة تكون في ولده من بعده.

ولا تجوز إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: مُجمِعون على أن النبيَّ ﷺ نصَّ على استخلافِ عليٍّ بن أبي طالبٍ باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وأن أكثرَ الصَّحَابة ضلُّوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبيِّ ﷺ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنصٍّ وتوفيقٍ، وأنها قرابة[2].

وقال ابن حزم: طائفة قالت: إن رسول الله ﷺ نصَّ على عليٍّ بن أبي طالب أنَّه الخليفة، وأن الصَّحابة بعده عليه السلام اتفقوا على ظُلْمِه، وعلى كتمان نصِّ النبيِّ ﷺ، وهؤلاء المسلمون الرَّوافض[3].

وقال: وقالت الرَّوافض: الإمامة في عليٍّ وحدَه بالنصِّ عليه، ثم في الحسن، ثم في الحسين، وادعوا نصًّا آخر من النبيِّ ﷺ عليهما بعد أبيهما، ثم علي بن الحسين[4].

وقال الشهرستانيُّ: هم القائلون بإمامة علي ﷺ بعد النبي عليه الصلاة والسلام نصًّا ظاهرًا، وتعيينًا صادقًا، من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين.

قالوا: وما كان في الدين والإسلام أمر أهمُّ من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمَّة، فإنه إنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق، فلا يجوز أن يفارق الأمَّة ويتركهم هملًا يرى كلُّ واحدٍ منهم رأيًا، ويسلك كلُّ واحدٍ منهم طريقًا لا يوافقه في ذلك غيره، بل يجب أن يعين شخصًا هو المرجوع إليه، وينصَّ على واحدٍ هو الموثوق به والمعول عليه، وقد عيَّن عليًّا ﷺ في مواضعَ تعريضًا، وفي مواضعَ تصريحًا[5].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٥، ٦)، التبصير في الدين ص(٤٣، ٤٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٦، ١٧)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٧٢).

(٣) الفصل (٤/ ٧٦).

(٤) الفصل (٤/ ٧٧).

(٥) الملل والنحل (١/ ١٦٢).

وقال: ثم إن الإماميَّةَ لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين ﷺ على رأيٍ واحدٍ، بل اختلافاتهم أكثر من اختلافاتِ الفرق كلِّها، حتى قال بعضهم: إن نيِّفًا وسبعين فرقةً من الفرق المذكورة في الخبر هو في الشِّيعة خاصَّة، ومن عداهم فهم خارجون عن الأمة.

وهم متفقون في الإمامةِ وسوقها إلى جعفر بن محمد الصادق ﷺ، ومختلفون في المنصوص عليه بعده من أولاده، إذ كانت له خمسة أولاد، وقيل: ستة، محمد وإسحاق وعبد الله وموسى وإسماعيل وعلي.

ومن ادعى منهم النصَّ والتعيين: محمد وعبد الله وموسى وإسماعيل.

ثم منهم من مات ولم يعقب ومنهم من مات وأعقب.

ومنهم من قال بالتوقف والانتظار والرجعة، ومنهم من قال بالسوق والتعدية[(١)]

وقال السكسكيُّ: وأجمعت الرافضة على إثبات الإمامة عقلًا، وأن إمامة عليٍّ وتقديمه ثابتة نصًّا

وقالوا بتفضيل عليٍّ على سائر الصحابة، وأنه الإمام بعد رسول الله ﷺ

وقالوا: إن الأمة ارتدَّت بتركها إمامة علي.

وقال أيضًا: وأنكروا إمامة المفضول والاختيار[(٢)]

وقال الإيجي: وأما الإماميَّة فقالوا بالنصِّ الجليِّ على إمامة عليٍّ، وكفَّروا الصحابة، ووقعوا فيهم، وساقوا الإمامة إلى جعفر الصادق، واختلفوا في المنصوص عليه بعده[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: وأول من ابتدع القول بالعصمة لعليٍّ وبالنصِّ عليه في الخلافة هو رأس هؤلاء المنافقين عبد الله بن سبأ الَّذي كان يهوديًّا، فأظهر الإسلام وأراد فساد دين الإسلام، كما أفسد بولص دين النصارى[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: لكن أهل العلم يعلمون بالاضطرار أن النبيَّ صلى الله عليه و سلم لم يبلِّغ شيئًا من إمامة عليٍّ، ولهم على هذا طرق كثيرة يثبتون بها هذا العلم.

منها: أن هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، فلو كان له أصل لنُقل كما نُقل أمثاله من حديثه، لا سيَّما مع كثرة ما يُنقل من فضائل عليٍّ من الكذب الذي لا أصل له، فكيف لا يُنقل

(١) الملل والنحل (١/ ١٦٥).
(٢) البرهان ص(٦٥)، انظر: الفصل (٤/ ١٢٦).
(٣) المواقف (٣/ ٦٧٨).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٥١٨).

الحقُّ الصدق الذي قد بُلِّغ للناس؟!

ولأن النبي ﷺ أمر أمته بتبليغ ما سمعوا منه، فلا يجوز عليهم كتمان ما أمرهم الله بتبليغه.

ومنها: أن النبي ﷺ لما مات، وطلب بعض الأنصار أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير، فأنكِر ذلك عليه، وقالوا: الإمارة لا تكون إلا في قريش، وروى الصحابة في مواطن متفرقة الأحاديث عن النبي ﷺ في أن: «**الإمامة في قريش**»، ولم يرو واحد منهم: لا في ذلك المجلس ولا غيره، ما يدل على إمامة عليٍّ.

وبايع المسلمون أبا بكر، وكان أكثر بني عبد مناف -من بني أمية وبني هاشم وغيرهم- لهم ميل قوي إلى عليٍّ بن أبي طالب يختارون ولايته، ولم يذكر أحد منهم هذا النص، وهكذا أجرى الأمر في عهد عمر وعثمان، وفي عهده أيضًا لما صارت له ولاية -ولم يذكر هو ولا أحدٌ من أهل بيته ولا من الصحابة المعروفين هذا النصَّ، وإنما ظهر هذا النص بعد ذلك.

وأهل العلم بالحديث والسُّنَّة الذين يتولَّون عليًا ويحبونه ويقولون: إنه كان الخليفة بعد عثمان؛ كأحمد بن حنبل وغيره من الأئمة، قد نازعهم في ذلك طوائف من أهل العلم وغيرهم، وقالوا: كان زمانه زمان فتنة واختلاف بين الأمة، لم تتفق الأمة فيه لا عليه ولا على غيره.

وقال طوائف من الناس؛ كالكرَّاميَّة: بل هو كان إمامًا ومعاوية إمامًا، وجوَّزوا أن يكون للناس إمامان للحاجة، وهكذا قالوا في زمن ابن الزبير ويزيد، حيث لم يجدوا الناس اتفقوا على إمام.

وأحمد بن حنبل، مع أنه أعلم أهل زمانه بالحديث، احتج عَلَى إمامة عليٍّ بالحديث الذي في السنن: «**تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة، ثم تصير مُلكًا**». وبعض الناس ضعَّف هذا الحديث، لكن أحمد وغيره يثبتونه.

فهذا عمدتهم من النصوص على خلافة عليٍّ، فلو ظفروا بحديث مسندٍ أو مرسل موافق لهذا لفرحوا به.

فعُلِم أن ما تدَّعيه الرافضة من النصِّ، هو مما لم يسمعه أحدٌ من أهل العلم بأقوال رسول ﷺ لا قديمًا ولا حديثًا.

ولهذا كان أهل العلم بالحديث يعلمون بالضرورة كذب هذا النقل، كما يعلمون كذب غيره من المنقولات المكذوبة.

وقد جرى تحكيم الحكمين، ومعه أكثر الناس، فلم يكن في المسلمين من أصحابه ولا غيرهم من ذكر هذا النصَّ، مع كثرة شيعته، ولا فيهم من احتج به في مثل هذا المقام الذي تتوفر فيه الهمم والدواعي على إظهار مثل هذا النصِّ.

ومعلوم أنه لو كان النصُّ معروفًا عند شيعة عليٍّ -فضلًا عن غيرهم- لكانت العادة المعروفة

تقتضي أن يقول أحدهم: هذا نص رسول الله ﷺ على خلافته، فيجب تقديمه عَلَى معاوية.

وأبو موسى نفسه كان من خيار المسلمين، لو علم أن النبيَّ ﷺ نصَّ عليه لم يستحل عزله، ولو عزله لكان من أنكر عزله عليه يقول: كيف تعزل من نصَّ النبيِّ ﷺ على خلافته؟!

وقد احتجُّوا بقوله ﷺ: «تقتل عمَّارًا الفئة الباغية»، وهذا الحديث خبر واحد أو اثنين أو ثلاثة ونحوهم، وليس هذا متواترًا، والنصُّ عند القائلين به متواتر، فيا لله العجب كيف ساغ عند الناس احتجاج شيعة عليٍّ بذلك الحديث، ولم يحتج أحد منهم بالنصِّ[1].

وقال: وجواب خامس: وهو أن يقال: ما تعني بقولك: «يجب أن يكون منصوصًا عليه»؟. أنه لا بد من أن يقول: هذا هو الخليفة من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، فيكون الخليفة بمجرد هذا النص؟ أم لا يصير هذا إمامًا حتى تُعقد له الإمامة مع ذلك؟

فإن قلت بالأول، قيل: لا نسلِّم وجوب النص بهذا الاعتبار، والزَّيديَّة مع الجماعة تنكر هذا النصَّ، وهم من الشيعة الذين لا يُتَّهَمون عَلَى عليٍّ.

وأما قوله: «إنه إذا لم يكن كذلك أدَّى إلى التنازع والتشاجر».

فيقال: النصوص التي تدل على استحقاقه الإمامة وتُعلم دلالتها بالنظر والاستدلال، يحصل بها المقصود في الأحكام، فليست كل الأحكام منصوصة نصًّا جليًّا يستوي في فهمه العام والخاص، فإذا كانت الأمور الكلِّيَّة التي تجب معرفتها في كل زمان يُكتفي فيها بهذا النص فَلَأن يُكتفي بذلك في القضية الجزئية، وهو تولية إمام معيَّن، بطريق الأوْلى والأحرى، فإنَّا قد بيَّنَّا أن الكلِّيَّات يمكن نصُّ الأنبياء عليها، بخلاف الجزئيات.

وأيضًا فيه إذا كانت الأدلة ظاهرة في أن بعض الجماعة أحقُّ بها من غيره استغنى بذلك عن استخلافه.

والدلائل الدالَّة على أن أبا بكر كان أحقُّهم بالإمامة ظاهرة بيِّنة، لم ينازع فيها أحد من الصحابة، ومن نازع من الأنصار لم ينازع في أن أبا بكر أفضل المهاجرين، وإنما طلب أن يُوَلَّى واحدٌ من الأنصار مع واحدٍ من المهاجرين.

فإن قيل: إن كان لهم هوًى مُنِعوا ذلك بدلالة النصوص.

قيل: وإذا كان لهم هوًى عصوا تلك النصوص، وأعرضوا عنها، كما ادعيتم أنتم عليهم، فمع قصدهم القصد الحقَّ يحصل المقصود بهذا وبهذا، ومع العناد لا ينفع هذا ولا هذا.

وجواب سادس: أن يقال: النص على الأحكام على وجهين: نص كلي عام يتناول أعيانها، ونص على الجزئيات.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٧/٤٨- ٥١)، الفصل (٤/٧٩- ٨٦)، التنبيه والرد ص(٢٥- ٣١، ١٦٤).

فإذا قلتم: لا بد من النصّ على الإمام، إن أردتم النصّ على العام الكلي عَلَى ما يُشترط للإمام، وما يجب عليه، وما يجب له؛ كالنص على الحكّام، والمفتين، والشهود، وأئمة الصلاة، والمؤذنين، وأمراء الجهاد، وغير هؤلاء ممن يتقلّد شيئًا من أمور المسلمين -فهذه النصوص ثابتة -ولله الحمد- كثيرة، كما هي ثابتة على سائر الأحكام.

وإن قلتم: لا بد من نصّ على أعيان من يتولّى.

قيل: قد تقدّم أن النصّ على جزئيات الأحكام لا يجب، بل ولا يمكن، والإمامة حكم من الأحكام، فإنّ النصّ على كل من يتولّى على المسلمين ولاية ما إلى قيام الساعة غير ممكن ولا واقع، والنَّصُّ على معيَّن دون معيَّن لا يحصل به النصُّ على كل معيَّن، بل يكون نصًّا على بعض المعينين.

وحينئذ، فإذا قيل: يمكن النصُّ على إمام، ويفوِّض إليه النصُّ على من يستخلفه.

قيل: ويمكن أن يُنصَّ على من يستخلفه الإمام، وعلى من يتخذه وزيرًا، والنص على ذلك أبلغ في المقصود.

وأيضًا، فالإمام المنصوص على عينه أهو معصوم فيمن يولِّيه أو ليس بمعصوم؟ فإن كان معصومًا لزم أن يكون نوّابه كلهم معصومين، وهذا كله باطل بالضرورة، وإن لم يكن كذلك أمكن أن يستخلف غير معصوم، فلا يحصل المقصود في سائر الأزمنة بوجود المعصوم.

فإن قيل: هو معصوم فيمن يستخلفه بعده، دون من يستخلفه في حياته.

قيل: الحاجة داعية إلى العصمة في كليهما، وعلمه بالحاضر أعظم من علمه بالمستقبل، فكيف يكون معصومًا فيما يأتي، وليس معصومًا في الحاضر؟!

فإن قيل: فالنص ممكن، فلو نصَّ النبي ﷺ على خليفة، قيل: فنصُّه على خليفة بعده كتولية واحدٍ في حياته، ونحن لا نشترط العصمة لا في هذا ولا في هذا.

وجواب سابع: وهو أن يقال: أنتم أوجبتم النصَّ؛ لئلا يفضي إلى التشاجر، المفضي إلى أعظم أنواع الفساد التي لأجل إعدام الأقل منها أوجبتم نصبه.

فيقال: الأمر بالعكس، فإن أبا بكر ﷺ تولّى بدون هذا الفساد، وعمر وعثمان توليا بدون هذا الفساد، فإنما عَظُم هذا الفساد في الإمام الذي ادَّعيتم أنه منصوص عليه دون غيره، فوقع في ولايته من أنواع التشاجر والفساد التي لأجل إعدام الأقل منها أوجبتم نصبه، فكان ما جعلتموه وسيلة إنما حصل معه نقيض المقصود، وحصل المقصود بدون وسيلتكم، فبطل كون ما ذكرتموه وسيلة إلى المقصود.

وهذا لأنهم أوجبوا على الله ما لا يجب عليه، وأخبروا بما لم يكن، فلزم من كذبهم وجهلهم هذا التناقض.

وجواب ثامن: وهو أن يقال: النصّ الذي يزيل هذا الفساد يكون على وجوه:

أحدها: أن يخبر النبي ﷺ بولاية الشخص، ويثني عليه في ولايته، فحينئذ تعلم الأمة أن هذا إن تولّى كان محمودًا مرضيا فيرتفع النزاع، وإن لم يقل: وَلُّوه.

وهذا النصُّ وقع لأبي بكر وعمر.

الثاني: أن يخبر بأمور تستلزم صلاح الولاة، وهذه النصوص وقعت في خلافة أبي بكر وعمر.

الثالث: أن يأمر من يأتيه أن يأتيَ بعد موته شخصًا يقوم مقامه، فيدل على أنه خليفة من بعده، وهذا وقع لأبي بكر.

الرابع: أن يريد كتابة كتاب، ثم يقول: إن الله والمؤمنين لا يولُّون إلا فلانًا، وهذا وقع لأبي بكر.

الخامس: أن يأمر بالاقتداء بعده بشخص، فيكون هو الخليفة بعده.

السادس: أن يأمر باتِّباع سنة خلفائه الراشدين المهديين، ويجعل خلافتهم إلى مدة معينة، فيدل على أن المتولين في تلك المدة هم الخلفاء الراشدون.

السابع: أن يخصَّ بعض الأشخاص بأمر يقتضي أنه هو المقدَّم عنده في الاستخلاف، وهذا موجود لأبي بكر.

وهنا جواب تاسع: وهو أن يقال: ترك النص على معين أولى بالرسول، فإنه إن كان النصُّ ليكون معصومًا فلا معصوم بعد الرسول، وإن كان بدون العصمة فقد يُحتج بالنص على وجوب اتِّباعه في كل ما يقول، ولا يمكن أحد بعد موت الرسول أن يراجع الرسول في أمره ليرده أو يعزله، فكان ألا ينصَّ على معيَّن أولى من النص. وهذا بخلاف من يولِّيه في حياته، فإنه إذا أخطأ أو أذنب أمكن الرسول بيان خطئه ورد ذنبه، وبعد موته لا يمكنه ذلك، ولا يمكن الأمة عزله لتولية الرسول إياه، فكان عدم النص على معيَّن -مع علم المسلمين بدينهم- أصلح للأمة، وكذلك وقع.

وأيضًا، لو نصَّ على معيَّن ليؤخذ الدين منه، كما تقوله الرافضة، بطلت حجة الله، فإن ذلك لا يقوم به شخص واحد غير الرسول، إذ لا معصوم إلا هو.

ومن تدَبَّر هذه الأمور وغيرها علم أن ما اختاره الله لمحمد ﷺ وأمته أكمل الأمور.

وجواب عاشر: وهو أن النصَّ على الجزئيات لا يمكن، والكليات قد نُصَّ عليها، فلو نصَّ على معين وأَمَرَ بطاعته في تعيين الكليات كان هذا باطلًا، وإن أمر بطاعته في الجزئيات، سواء وافقت الكليات أو خالفتها، كان هذا باطلًا، وإن أمر بطاعته في الجزئيات إذا طابقت الكليات، فهذا حكم كل متولٍّ.

وأيضًا، فلو نصَّ على معيَّن لكان مَن يتولَّ بعده؟ إذا لم يكن منصوصًا عليه، يظن الظانُّ أنه لا

تجوز طاعته، إذ طاعة الأول إنما وجبت بالنص ولا نصَّ معه.

وإن قيل: كل واحد ينصُّ على الآخر، فهذا إنما يكون إذا كان الثاني معصومًا.

والعصمة منتفية عن غير الرسول، وهذا مما يبين أن القول بالنصِّ فرع على القول بالعصمة، وذلك من أفسد الأقوال.

فكذلك هذا، أعني النصَّ الَّذي تدَّعيه الرافضة، وهو الأمر بطاعة المتولِّي في كل ما يقوله، من غير رد ما يقوله الكتاب إلى الكتاب والسنة إذا نُوزع.

وأما إذا كان يرد ما تُنوزع فيه إلى الكتاب والسنة لم يحتج حينئذ إلى نصٍّ عليه لحفظ الدين، فإن الدين محفوظ بدونه.

وبالجملة فالنص على معيَّن: إن أريد به أنه يُطاع كما يطاع الرسول في كل ما يأمر به وينهى عنه ويبيحه، وليس لأحد أن ينازعه في شيء، كما ليس له أن ينازع الرسول، وأنه يستبد بالأحكام، والأمة معه كما كانت مع النبي ﷺ -فهذا لا يكون لأحد بعد الرسول، ولا يمكن هذا لغيره، فإن أحدًا بعده لا يأتيه الوحي كما كان يأتيه، ولم يعرف أحد كل ما عرفه الرسول، فلم يبق سبيل إلى مماثلته: لا من جهته، ولا من جهة الرب تعالى.

وإن أريد بالنصِّ أنه يبيّن للأمَّة أن هذا أحقُّ بأن يتولَّى عليكم من غيره، وولاية هذا أحبُّ إلى الله ورسوله، وأصلح لكم في دينكم ودنياكم، ونحو هذا مما يبيِّن أنه أحق بالتقدُّم في خلافة النبوة -فلا ريب أن النصوصَ الكثيرة بهذه المعاني دلَّت على خلافة أبي بكر.

وإن أريد أنه أمرهم أن يتابعوه، كما أمرهم أبو بكر أن يتابعوا عمر، ويعهد إليهم في ذلك - فهذا إذا علم أن الأمة تفعله، كان تركه خيرًا من فعله. وإن خاف ألا تفعله إلا بأمره، كان الأمر أولى به.

ولهذا لما خشي عليهم أبو بكر ﷺ أن يختلفوا بعده، عهد إلى عمر، ولما علم النبيُّ ﷺ أنهم يبايعون أبا بكرٍ لم يأمرهم بذلك.

كما في الصحيحين أنه قال لعائشة: «ادعي لي أباك وأخاك؛ حتى أكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف عليه الناس من بعدي»، ثم قال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

فعلم أن الله لا يولِّي إلا أبا بكر، والمؤمنون لا يبايعون إلا أبا بكر، وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة تدلُّ على أنه علم ذلك، وإنما كان ترك الأمر مع علمه أفضل، كما فعل النبي ﷺ؛ لأن الأمة إذا ولَّته طوعًا منها بغير التزام -وكان هو الذي يرضاه الله ورسوله- كان أفضل للأمة، ودل على علمها ودينها.

فإنها لو أُلزمت بذلك، لربما قيل: إنها أكرهت على الحقِّ وهي لا تختاره، كما كان يجري مثل تلك لبني إسرائيل، ويظن الظانُّ أنه كان في الأمة بقايا جاهلية من التقدم بالأنساب، فإنهم كانوا

يريدون ألا يتولى إلا من هو من بني عبد مناف، كما كان أبو سفيان وغيره يختارون ذلك، فلو أُلْزِم المهاجرين والأنصار بهذا، لظن الظَّان أنهم كانوا من جنس أبي سفيان وأمثاله، وكانوا يعرفون اختصاص الصدِّيق بالنبيِّ ﷺ أولًا وآخرًا، وموافقته له باطنًا وظاهرًا.

فقد يقول القائل: إنهم كانوا في الباطن كارهين لمن يأمرهم بمثل ما أمرهم به الرسول، لكن لما ألزمهم بذلك احتاجوا إلى التزامه، لو لم يقدح فيهم بذلك لم يُمدحوا إلا بمجرد الطاعة للأمر، فإذا كانوا برضاهم واختيارهم اختاروا ما يرضاه الله ورسوله من غير إلزام، كان ذلك أعظم لقدرهم، وأعلى لدرجتهم، وأعظم في مثوبتهم، وكان ما اختاره الله ورسوله للمؤمنين به هو أفضل الأمور له ولهم.

ألا ترى أنه ﷺ أمَّر زيد بن حارثة، وبعده أسامة بن زيد، وطعن بعض الناس في إمارتهما، واحتاجوا مع ذلك إلى لزوم طاعتهما، فلو ألزمهم بواحد لكان يُظَنُّ بهم أن مثل هذا كان في نفوسهم، وأنه ليس الصدِّيق عندهم بالمنزلة التي لا يتكلم فيها أحد.

فلما اتفقوا على بيعته، ولم يقل قط أحد: إنِّي أحقُّ بهذا الأمر منه، لا قرشي ولا أنصاري، فإن من نازع أولًا من الأنصار لم تكن منازعته للصدِّيق، بل طلبوا أن يكون منهم أمير ومن قريش أمير.

وهذه منازعة عامة لقريش، فلما تبين لهم أن هذا الأمر في قريش قطعوا المنازعة، وقال لهم الصدِّيق: «رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبا عبيدة بن الجراح»، قال عمر: «فكنت -والله- أن أقدَّم فتُضرب عنقي، لا يقربني ذلك إلى إثم، أحب إليَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر»، وقال له بمحضر الباقين: «أنت خيرنا وأفضلنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ»، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة.

ثم بايعوا أبا بكر من غير طلب منه، ولا رغبة بُذلت لهم، ولا رهبة، فبايعه الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة، والذين بايعوه ليلة العقبة، والذين بايعوه لما كانوا يهاجرون إليه، والذين بايعوه لما كانوا يُسلمون من غير هجرة؛ كالطلقاء وغيرهم.

ولم يقل أحد قط: إنِّي أحقُّ بهذا من أبي بكر، ولا قاله أحد في أحدٍ بعينه: إن فلانًا أحقُّ بهذا الأمر من أبي بكر.

وإنما قال من فيه أثر جاهلية عربية أو فارسية: إن بيت الرسول أحقُّ بالولاية؛ لكون العرب كانت في جاهليتها تقدِّم أهل بيت الرؤساء، وكذلك الفرس يقدِّمون أهل بيت الملك.

فنُقل عمَّن نُقل عنه كلام يشير به إلى هذا، كما نقل عن أبي سفيان.

وصاحب هذا الرأي لم يكن له غرض في عليٍّ، بل كان العبَّاس عنده بحكم رأيه أَوْلى من عليٍّ، وإن قُدِّر أنه رجَّح عليًّا فلعلمه بأن الإسلام يقدِّم الإيمان والتقوى على النسب، فأراد أن يجمع بين حكم الجاهلية والإسلام.

فأما الذين كانوا لا يحكمون إلا بحكم الإسلام المحض، وهو التقديم بالإيمان والتقوى، فلم يختلف منهم اثنان في أبي بكر، ولا خالف أحد من هؤلاء ولا من هؤلاء في أنه ليس في القوم أعظم إيمانًا وتقوى من أبي بكر، فقدَّموه مختارين له مطيعين، فدلَّ ذلك على كمال إيمانهم وتقواهم، واتِّباعهم لما بعث الله به نبيهم من تقديم الأتقى فالأتقى، وكان ما اختاره الله لنبيِّهم ﷺ ولهم أفضل لهم، والحمد لله على أن هدى هذه الأمة وعلى أن جعلنا من أتباعهم[1].

وقال: والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: أولًا: هذا كذب على الشيعة؛ فإن هذا لا ينقله إلا طائفة من طوائف الشيعة، وسائر طوائف الشيعة تكذِّب هذا، والزَّيديَّة بأسرها تكذِّب هذا وهم أعقل الشيعة وأعلمهم وخيارهم، والإسماعيليَّة كلهم يكذِّبون بهذا، وسائر فرق الشيعة تكذِّب بهذا، إلا الاثني عشرية، وهم فرقة من نحو سبعين فرقة من طوائف الشيعة.

وبالجملة فالشيعة فرق متعددة جدًّا، وفرقهم الكبار أكثر من عشرين فرقة، كلهم تكذِّب هذا إلا فرقة واحدة، فأين تواتر الشيعة؟!

الثاني: أن يقال: هذا معارض بما نقله غير الاثني عشريَّة من الشيعة من نصٍّ آخر يناقض هذا، كالقائلين بإمامة غير الاثني عشر، وبما نقله الراونديَّة أيضًا، فإن كلًّا من هؤلاء يدَّعي من النصِّ غير ما تدعيه الاثنا عشرية.

الثالث: أن يقال: علماء الشيعة المتقدمون ليس فيهم من نقل هذا النصَّ، ولا ذكره في كتاب، ولا احتج به في خطاب، وأخبارهم مشهورة متواترة، فعلم أن هذا من اختلاق المتأخرين، وإنما اختُلق هذا لما مات الحسن بن عليّ العسكريّ وقيل: إن ابنه محمدًا غائب، فحينئذ ظهر هذا النصُّ، بعد موت النبي ﷺ بأكثر من مائتين وخمسين سنة.

الرابع: أن يقال: أهل السنة وعلماؤهم أضعاف أضعاف الشيعة، كلهم يعلمون أن هذا كذب على رسول الله ﷺ علمًا يقينًا لا يخالطه الريب، ويباهلون الشيعة على ذلك، كعوام الشيعة مع عليٍّ، فإن ادَّعى علماء الشيعة أنهم يعلمون تواتر هذا، لم يكن هذا أقرب من دعوى علماء السنة بكذب هذا.

الخامس: أن يقال: إن من شرط التواتر حصول من يقع به العلم من الطرفين والوسط. وقبل موت الحسن بن عليٍّ العسكري لم يكن أحد يقول بإمامة هذا المنتظر، ولا عُرف من زمن عليٍّ ودولة بني أميَّة أحدٌ ادّعى إمامة الاثني عشر وهذا القائم، وإنما كان المدَّعون يدَّعون النصَّ عَلَى عليٍّ، أو على ناس بعده، وأما دعوى النص على الاثني عشر وهذا القائم فلا يُعرف أحد قاله متقدمًا، فضلًا عن أن يكون نقله متقدمًا.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٤٤- ٤٥٦).

السادس: أن الصحابة لم يكن فيهم أحد رافضيٌّ أصلًا، وإن ادعى مدعٍ على عدد قليل منهم أنهم كانوا رافضة فقد كذب عليهم، ومع هذا فأولئك لا يثبت بهم التواتر؛ لأن العدد القليل المتفقين على مذهب يمكن عليهم التواطؤ على الكذب، والرافضة تجوِّز الكذب على جمهور الصحابة، فكيف لا يجوز عَلَى من نقل هذا النص -مع قلتهم- إن كان نقله أحد منهم؟ وإذا لم يكن في الصحابة من تواتر به هذا النقل انقطع التواتر من أوله.

السابع: أن الرافضة يقولون: إن الصحابة ارتدُّوا عن الإسلام بجحد النصِّ إلا عددًا قليلًا نحو العشرة، أو أقل أو أكثر، مثل عمَّار وسلمان، وأبي ذرٍّ، والمقداد. ومعلوم أن أولئك الجمهور لم ينقلوا هذا النصَّ، فإنهم قد كتموه -عندهم- فلا يمكنهم أن يضيفوا نقله إلى هذه الطائفة، وهؤلاء كانوا -عندهم- مجتمعين على موالاة عليٍّ، متواطئين على ذلك.

وحينئذ فالطائفة القليلة التي يمكن تواطؤها على النقل لا يحصل بنقلها تواتر، لجواز اجتماعهم على الكذب، فإذا كانت الرافضة تجوّز على جماهير الصحابة -مع كثرتهم- الارتداد عن الإسلام، وكتمان ما يتعذَّر في العادة التواطؤ على كتمانه؛ فلأن يجوز على قليل منهم تعمُّد الكذب بطريق الأَوْلى والأحرى.

وهم يصرِّحون بكذب الصحابة إذا نقلوا ما يخالف هواهم، فكيف يمكنهم مع ذلك تصديقهم في مثل هذا، إذا كان الناقلون له ممن له هوى؟

ومعلوم أن شيعة عليٍّ لهم في نَصْرِه، فكيف يَصْدُقُون في نقل النص عليه، هذا مع أن العقلاء وأهل العلم بالنقل يعلمون أنه ليس في فرق المسلمين أكثر تعمدًا للكذب وتكذيبًا للحق من الشيعة؟ بخلاف غيرهم؛ فإن الخوارج -وإن كانوا مارقين- فهم يصدقون، لا يتعمَّدون الكذب، وكذلك المعتزلة يتديَّنون بالصدق، وأما الشيعة فالكذب عليهم غالب من حين ظهروا.

الوجه الثامن: أن يقال: قد علم أهل العلم أن أول ما ظهرت الشيعة الإماميَّة المدَّعية للنصِّ في أواخر أيام الخلفاء الراشدين، وافترى ذلك عبد الله بن سبأ وطائفة الكذَّابون، فلم يكونوا موجودين قبل ذلك. فأي تواتر لهم؟!

التاسع: أن الأحاديث التي نقلها الصحابة في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان أعظم تواترًا عند العامة والخاصة من نقل هذا النص، فإن جاز أن يُقدح في نقل جماهير الصحابة لتلك الفضائل، فالقدح في هذا أَوْلى، وإن كان القدح في هذا متعذرًا ففي تلك أَوْلى. وإذا ثبتت فضائل الصحابة التي دلَّت عليها تلك النصوص الكثيرة المتواترة، امتنع اتفاقهم على مخالفة هذا النصِّ، فإن مخالفته -لو كان حقًّا- من أعظم الإثم والعدوان.

العاشر: أنه ليس أحد من الإماميَّة ينقل هذا النص بإسناد متصل فضلًا عن أن يكون متواترًا، وهذه الألفاظ تحتاج إلى تكرير فإن لم يدرس ناقلوها عليها لم يحفظوها، وأين العدد الكبير الذين حفظوا هذه الألفاظ كحفظ ألفاظ القرآن، وحفظ التشهد والأذان، جيلًا بعد جيل إلى الرسول.

ونحن إذا ادَّعينا التواتر في فضائل الصحابة: ندّعي تارة التواتر من جهة المعنى، كتواتر خلافة الأربعة، ووقعة الجمل وصفّين، وتزوّج النبي ﷺ بعائشة وعليّ بفاطمة، ونحو ذلك مما لا يحتاج فيه إلى نقل لفظ معين يحتاج إلى درس، وكتواتر ما للصحابة من السابقة والأعمال وغير ذلك. وتارة التواتر في نقل ألفاظ حفظها من يحصل العلم بنقله.

الوجه الحادي عشر: أن المنقول بالنقل المتواتر عن أهل البيت يكذّب مثل هذا النقل، وأنهم لم يكونوا يدّعون أنهم منصوص عليهم، بل يكذّبون من يقول ذلك، فضلًا عن أن يثبتوا النصَّ على اثني عشر[1]

وانظر نقض جميع ما استدلوا به على مقالتهم هذه في الفصل لابن جزم (٤/٧٨، ١٠٧-١١٥)، وفي مجموع الفتاوى (٤/٣٩٨- ٤٢٠، ٤٧٠)، ونقضه بالتمام في منهاج السنة النبوية شيخ الإسلام ابن تيمية.

- قولهم في عصمة الأئمَّة والأنبياء

يزعمون أن جميع أئمتهم معصومون من المعاصي والخطأ والسهو، مع تجويز بعضهم المعاصي على الأنبياء.

أقوال العلماء

قال الأشعري: اختلفت الرَّوافض في الرسول عليه السلام: هل يجوز عليه أن يعصي أم لا؟ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الرسول ﷺ جائز عليه أن يعصي الله، وأن النبيَّ قد عصى في أخذ الفِداء يوم بَدْرٍ، فأما الأئمة فلا يجوز ذلك عليهم؛ لأن الرسول إذا عصى فالوحيُ يأتيه من قِبَل الله، والأئمة لا يُوحَى إليهم، ولا تهبط الملائكة عليهم، وهم معصومون، فلا يجوز عليهم أن يسهوا، ولا يغلطوا، وإنْ جاز على الرسول العصيان، والقائل بهذا القول هشام بن الحكم.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنه لا يجوز على الرسول عليه السلام أن يعصي الله عز وجل، ولا يجوز ذلك على الأئمة؛ لأنهم جميعًا حُجَجُ الله، وهم معصومون من الزلَل، ولو جاز عليهم السَّهو، واعتماد المعاصي وركوبها لكانوا قد ساووا المأمومين في جواز ذلك عليهم، كما جاز على المأمومين، ولم يكن المأمومون أحْوَجَ إلى الأئمة من الأئمة لو كان ذلك جائزًا عليهم جميعًا[2]

وقال ابن حزم: وعمدة ما احتجت به الإماميَّة أن قالوا: لا بدَّ من أن يكون إمام معصوم، عنده جميع علم الشريعة، يرجع الناس إليه في أحكام الدين، ليكونوا مما تعبدوا به على يقين[3]

---

(١) منهاج السنة النبوية (٨/٢٤٧- ٢٥٢)، (٦/١٩٢).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٤٨، ٤٩).
(٣) الفصل (٤/٧٨).

وقال الشهرستانيُّ عن هشام بن سالم: وقد نقل عنه أنه أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة، ويفرِّق بينهما بأن النبيَّ ﷺ يوحى إليه فينبَّه على وجه الخطأ فيتوب عنه، والإمام لا يوحى إليه فتجب عصمته[(١)].

وقال عمَّا يجمع الشيعة: وثبوت عصمة الأنبياء والأئمَّة وجوبًا عن الكبائر والصغائر[(٢)]

وقال الرازي: والإماميَّة يزعمون أن المعصومين منهم أربعة عشر، وأن الأئمة اثنا عشر[(٣)]

وقال السكسكيُّ عما أجمعت الرافضة عليه: وأن الأئمة معصومون لا يجوز عليهم الغلط والسهو والخطأ[(٤)].

وقال ابن خلدون عن قول الشيعة في الإمام: ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر[(٥)]

وقال شيخ الإسلام: وليس للرافضة مسألة واحدة لا يوافقهم فيها أحد انفردوا بها عن جميع أهل السنة والجماعة إلا وهم مخطئون فيها؛ كإمامة الاثني عشر وعصمتهم[(٦)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إن الرسول هو المعصوم وطاعته واجبة في كل زمان على كل أحد، وعِلم الأمة بأمره ونهيه أتمُّ من عِلم آحاد الرعية بأمر الإمام الغائب -كالمنتظر، ونحوه- بأمره ونهيه، فهذا رسول الله ﷺ إمام معصوم، والأمة تعرف أمره ونهيه، ومعصومهم ينتهي إلى الغائب المنتظر الذي لو كان معصومًا لم يعرف أحد لا أمره ولا نهيه، بل ولا كانت رعية علي تعرف أمره ونهيه كما تعرف الأمة نبيها ونهيه، بل عند أمة محمد ﷺ من علم أمره ونهيه ما أغناهم عن كل إمام سواه، بحيث أنهم لا يحتاجون قط إلى المتولِّي عليهم في شيء من معرفة دينهم، ولا يحتاجون في العمل إلى ما يحتاجون فيه إلى التعاون، وهم يعلمون أمره ونهيه أعظم من معرفة آحاد رعية المعصوم، ولو قُدِّر وجوده بأمره، فإنه لم يتولَّ على الناس ظاهر من ادُّعيت له العصمة إلا عليٌّ.

ونحن نعلم قطعًا أنه كان في رعيته باليمن وخراسان وغيرهما من لا يدري بماذا أمر، ولا عمَّاذا نهي، بل نوَّابه كانوا يتصرفون بما لا يعرفه هو.

وأما الورثة الذين ورثوا علم محمد ﷺ فهم يعرفون أمره ونهيه، ويَصْدُقون في الإخبار عنه، أعظم من علم نواب عليٍّ بأمره ونهيه، ومن صِدْقِهم في الإخبار عنه، وهم إنما يريدون أنه لا بد من إمام معصوم حيٍّ.

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٨٥).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٤٦)، مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨٨).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٦).

(٤) البرهان ص(٦٥).

(٥) مقدمة ابن خلدون ص(١٣٨).

(٦) منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٤٢)، مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٠).

فنقول: هذا الكلام باطل من وجوه:

أحدها: أن هذا الإمام الموصوف لم يوجد بهذه الصفة، أما في زماننا فلا يُعرف إمام معروف يُدّعى فيه هذا، ولا يدعي لنفسه، بل مفقود غائب عند متّبعيه، ومعدوم لا حقيقة له عند العقلاء، ومثل هذا لا يحصل به شيء من مقاصد الإمامة أصلًا، بل من وَلِيَ على الناس، ولو كان فيه بعض الجهل وبعض الظلم كان أنفع لهم ممن لا ينفعهم بوجه من الوجوه.

وهؤلاء المنتسبون إلى الإمام المعصوم لا يوجدون مستعينين في أمورهم إلا بغيره، بل هم ينتسبون إلى المعصوم، وإنما يستعينون بكفور أو ظلوم، فإذا كان المصدِّقون لهذا المعصوم المنتظر لم ينتفع به أحد منهم، لا في دينه ولا في دنياه، لم يحصل لأحد به شيء من مقاصد الإمامة.

وإذا كان المقصود لا يحصل منه شيء لم يكن بنا حاجة إلى إثبات الوسيلة؛ لأن الوسائل لا تُراد إلا لمقاصدها، فإذا جزمنا بانتفاء المقاصد كان الكلام في الوسيلة من السعي الفاسد، وكان هذا بمنزلة من يقول: الناس يحتاجون إلى من يطعمهم ويسقيهم، وينبغي أن يكون الطعام صفته كذا، والشراب صفته كذا، وهذا عند الطائفة الفلانية، وتلك الطائفة قد عُلم أنها من أفقر الناس، وأنهم معروفون بالإفلاس.

وأيُّ فائدة في طلب ما يُعلم عدمه، واتِّباع ما لا ينتفع به أصلًا، والإمام يُحتاج إليه في شيئين: إما في العلم لتبليغه وتعليمه، وإما في العمل به ليعين الناس على ذلك بقوته وسلطانه.

وهذا المنتظر لا ينفع لا بهذا ولا بهذا، بل ما عندهم من العلم فهو من كلام مَن قَبْله، ومن العمل، إن كان ممّا يوافقهم عليه المسلمون استعانوا بهم، وإلا استعانوا بالكفّار والملاحدة ونحوهم، فهم أعجز الناس في العمل، وأجهل الناس في العلم، مع دعواهم ائتمامهم بالمعصوم الذي مقصوده العلم والقدرة ولم يحصل لهم لا علم ولا قدرة، فعلم انتفاء هذا مما يدّعونه.

وأيضًا فالأئمة الاثنا عشر لم يحصل لأحدٍ من الأمة بأحد منهم جميع مقاصد الإمامة...

الوجه الثاني: أن يقال: قولكم لا بد من نصب إمام معصوم يفعل هذه الأمور.

أتريدون أنه لا بد أن يخلق الله ويقيم من يكون متصفًا بهذه الصفات؟ أم يجب على الناس أن يبايعوا من يكون كذلك؟

فإن أردتم الأول، فالله لم يخلق أحدًا متّصفًا بهذه الصفات؛ فإن غاية ما عندكم أن تقولوا: إن عليًّا كان معصومًا لكن الله لم يمكّنه ولم يؤيّده، لا بنفسه، ولا بجند خلقهم له حتى يفعل ما ذكرتموه.

بل أنتم تقولون: إنه كان عاجزًا مقهورًا مظلومًا في زمن الثلاثة، ولما صار له جند قام له جند آخرون قاتلوه، حتى لم يتمكن أن يفعل ما فعل الذين كانوا قبله، الذين هم عندكم ظلمة.

فيكون الله قد أيّد أولئك الذين كانوا قبله، حتى تمكّنوا من فعل ما فعلوه من المصالح، ولم يؤيّده حتى يفعل ذلك.

وحينئذ فما خلق الله هذا المعصوم المؤيَّد الذي اقترحتموه على الله.

وإن قلتم: إن الناس يجب عليهم أن يبايعوه ويعاونوه.

قلنا أيضًا: فالناس لم يفعلوا ذلك، سواء كانوا مطيعين أو عصاة.

وعلى كل تقدير فما حصل لأحد من المعصومين عندكم تأييد، لا من الله ولا من الناس، وهذه المصالح التي ذكرتموها لا تحصل إلا بتأييد، فإذا لم يحصل ذلك لم يحصل ما به تحصل المصالح، بل حصل أسباب ذلك، وذلك لا يفيد المقصود.

الوجه الثالث: أن يقال: إذا كان لم يحصل مجموع ما به تحصل هذه المطالب، بل فات كثير من شروطها، فلم لا يجوز أن يكون الفائت هو العصمة؟ وإذا كان المقصود فائتًا: إما بعدم العصمة، وإما بعجز المعصوم، فلا فرق بين عدمها بهذا أو بهذا، فمن أين يُعلم بدليل العقل أنه يجب على الله أن يخلق إمامًا معصومًا؟!

وهو إنما يخلقه ليحصل به مصالح عباده، وقد خلقه عاجزًا لا يقدر على تلك المصالح، بل حصل به من الفساد ما لم يحصل إلا بوجوده.

وهذا يتبين: **بالوجه الرابع**: وهو أنه لو لم يخلق هذا المعصوم، لم يكن يجري في الدنيا من الشرِ أكثر مما جرى، إذ كان وجوده لم يدفع شيئًا من الشرِّ حتى يُقال: وجوده دفع كذا، بل وجوده أوجب أن كذَّب به الجمهور، وعادوا شيعته، وظلموه وظلموا أصحابه، وحصل من الشرور التي لا يعلمها إلا الله، بتقدير أن يكون معصومًا.

فإنه بتقدير ألا يكون عليّ ﷺ معصومًا ولا بقية الاثني عشر ونحوهم لا يكون ما وقع من تولية الثلاثة وبني أمية، وبني العباس، فيه من الظلم والشر ما فيه بتقدير كونهم أئمة معصومين وبتقدير كونهم معصومين فما أزالوا من الشرِّ إلا ما يزيله من ليس بمعصوم، فصار كونهم معصومين إنما حصل به الشر لا الخير.

فكيف يجوز على الحكيم أن يخلق شيئًا ليحصل به الخير، وهو لم يحصل به إلا الشر لا الخير؟!

وإذا قيل: هذا الشر حصل من ظلم الناس له.

قيل: فالحكيم الذي خلقه إذا كان خلقه لدفع ظلمهم، وهو يعلم أنه إذا خلقه زاد ظلمهم، لم يكن خلقه حكمة بل سفهًا، وصار هذا كتسليم إنسانٍ ولدَه إلى من يأمره بإصلاحه، وهو يعلم أنه لا يطيعه بل يفسده، فهل يفعل هذا حكيم.

ومثل أن يبنى إنسان خانًا في الطريق لتأوي إليه القوافل، ويعتصموا به من الكفَّار وقطَّاع الطريق، وهو يعلم أنه إذا بناه اتخذه الكفَّار حصنًا والقطَّاع مأوى لهم.

ومثل من يعطي رجلًا مالًا ينفقه في الغزاة والمجاهدين، وهو يعلم أنه إنما ينفقه في الكفَّار والمحاربين أعداء الرسول.

ولا ريب أن هؤلاء الرافضة القدرية أخذوا هذه الحجج من أصول المعتزلة القدرية، فلما كان أولئك يوجبون على الله الصلاح والأصلح أخذ هؤلاء ذلك منهم، وأصل أولئك في أنه يجب على الله أن يفعل بكل مكلّف ما هو الأصلح له في دينه ودنياه، وهو أصل فاسد، وإن كان الرب تعالى بحكمته ورحمته يفعل بحكمة لخلقه ما يصلحهم في دينهم ودنياهم...

وقول الرافضة من جنس قول النصارى: إن الإله تجسّد ونزل، وإنه أنزل ابنه ليُصلب، ويكون الصلب مغفرة لذنب آدم، ليدفع الشيطان بذلك لهم.

فقيل لهم: إذا كان قتله وصلبه وتكذيبه من أعظم الشر والمعصية، فيكون قد أراد أن يزيل ذنبًا صغيرًا بذنب هو أكبر منه، وهو مع ذلك لم يغير الشر، بل زاد عَلَى ما كان، فكيف يفعل شيئًا لمقصود والحاصل إنما هو ضد المقصود؟!

الوجه الخامس: إذا كان الإنسان مَدَنيًّا بالطبع، وإنما وجب نصب المعصوم ليزيل الظلم والشر عن أهل المدينة، فهل تقولون: إنه لم يزل في كل مدينة خلقها الله تعالى معصوم يدفع ظلم الناس أم لا؟

فإن قلتم بالأول، كان هذا مكابرة ظاهرة، فهل في بلاد الكفّار من المشركين وأهل الكتاب معصوم؟! وهل كان في الشام عند معاوية معصوم؟!

وإن قلتم: بل نقول: هو في كل مدينة واحد، وله نوّاب في سائر المدائن.

قيل: فكل معصوم له نوّاب في جميع مدائن الأرض أم في بعضها؟

فإن قلتم: في الجميع، كان هذا مكابرة، وإن قلتم: في البعض دون البعض، قيل: فما الفرق لما كان ما ذكرتموه واجبًا على الله، وجميع المدائن حاجتهم إلى المعصوم واحدة.

الوجه السادس: أن يُقال: هذا المعصوم يكون وحده معصومًا، أو كلٌّ من نوابه معصومًا؟ وهم لا يقولون بالثاني، والقول به مكابرة، فإن نوّاب النبي ﷺ لم يكونوا معصومين، ولا نوّاب عليّ، بل كان في بعضهم من الشر والمعصية ما لم يكن مثله في نوّاب معاوية لأميرهم، فأين العصمة؟!

وأن قلت: يشترط فيه وحده.

قيل: فالبلاد الغائبة عن الإمام، لا سيَّما إذا لم يكن المعصوم قادرًا على قهر نوَّابه بل هو عاجز، ماذا ينتفعون بعصمة الإمام، وهم يصلّون خلف غير معصوم، ويحكم بينهم غير معصوم، ويطيعون غير معصوم، ويأخذ أموالهم غير معصوم؟!

فإن قيل: الأمور ترجع إلى المعصومين.

قيل: لو كان المعصوم قادرًا ذا سلطان، كما كان عمر وعثمان ومعاوية وغيرهم، لم يتمكن أن يوصّل إلى كل من رعيته العدل الواجب الذي يعلمه هو، وغاية ما يقدر عليه أن يولِّي أفضل من

يقدر عليه، لكن إذا لم يجد إلا عاجزًا أو ظالمًا، كيف يمكنه تولية قادر عادل؟!

فإن قالوا: إذا لم يخلق الله إلا هذا سقط عنه التكليف.

قيل: فإذًا لم يجب على الله أن يخلق قادرًا عادلًا مطلقًا، بل أوجب على الإمام أن يفعل ما يقدر عليه، فكذلك الناس عليهم أن يولّوا أصلح من خلقه الله تعالى، وإن كان فيه نقص: إما من قدرته، وإما من عدله.

وقد كان عمر ﷺ يقول: اللهم إليك أشكو جَلَد الفاجر، وعجز الثقة، وما ساس العالم أحدٌ مثل عمر، فكيف الظن بغيره؟!

هذا إذا كان المتولّي نفسه قادرًا عادلًا، فكيف إذا كان المعصوم عاجزًا؟! بل كيف إذا كان مفقودًا؟! مَن الذي يوصِّل الرعية إليه حتى يخبروه بأحوالهم؟! ومَن الذي يُلْزمها بطاعته حتى تطيعه؟! وإذا أظهر بعض نوَّابه طاعته حتى يولّيه ثم أخذ ما شاء من الأموال، وسكن في مدائن الملوك، فأيُّ حيلة للمعصوم فيه؟!

فعُلم أن المعصوم الواحد لا يحصل به المقصود، إذا كان ذا سلطان، فكيف إذا كان عاجزًا مقهورًا؟! فكيف إذا كان مفقودًا غائبًا لا يمكنه مخاطبة أحد؟! فكيف إذا كان معدومًا لا حقيقة له؟!

الوجه السابع: أن يُقال: صَدُّ غيره عن الظلم، وإنصاف المظلوم منه، وإيصال حق غيره إليه فرع على منع ظلمه، واستيفاء حقّه، فإذا كان عاجزًا مقهورًا لا يمكنه دفع الظلم عن نفسه، ولا استيفاء حقّه من ولايةٍ ومال، لا حق امرأته من ميراثها، فأي ظلم يَدْفع؟! وأي حقٍّ يُوصِّل؟! فكيف إذا كان معدومًا أو خائفًا لا يمكنه أن يظهر في قرية أو مدينة خوفًا من الظالمين أن يقتلوه، وهو دائمًا على هذه الحال أكثر من أربعمائة وستين سنة، والأرض مملوءة من الظلم والفساد، وهو لا يقدر أن يعرّف بنفسه، فكيف يدفع الظلم عن الخلق، أو يُوصِّل الحق إلى المستحق؟! وما أخلق هؤلاء بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤].

الوجه الثامن: أن يقال: الناس في باب ما يقبح من الله على قولين:

منهم من يقول: الظلم ممتنع منه، وفعل القبيح مستحيل، ومهما فعله كان حسنًا، فهؤلاء يمتنع عندهم أن يُقال: يَحْسُن منه كذا، فضلًا عن القول بالوجوب.

والقول الثاني: قول من يقول: إنه يجب عليه العدل والرحمة بإيجابه على نفسه كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤].

ويحرم الظلم بتحريمه على نفسه، كما قال في الصحيح: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا»، ويقول: إن ذلك واجب بالعقل، وعلى كل قول فهو سبحانه لم يقع منه ظلم، ولم يخلّ بواجب، فقد فعل ما يجب عليه، وهو مع هذا لم يخلق ما تحصل به هذه المصالح المقصودة من المعصوم.

فإن كانت هذه المصالح تحصل بمجرد خلقه، وهي لم تحصل، لزم ألا يكون خلقه واجبًا، وهو المطلوب، وإن كانت لا تحصل إلا بخلقه وخَلْق أمور أخرى، حتى يحصل بالمجموع المطلوب، فهو لم يخلق ذلك المجموع، سواء كان لم يخلق شيئًا منه، أو لم يخلق بعضه.

والإخلال بالواجب ممتنع عليه في القليل والكثير، فلزم علي التقديرين أنه لا يجب عليه خلق الموجب لهذه المطالب، وإذا لم يجب عليه ذلك، فلا فرق بين أن يخلق معصومًا لا يحصل به ذلك، وبين ألا يخلقه، فلا يكون ذلك واجبًا عليه، وحينئذ فلا يلزم أن يكون موجودًا، فالقول بوجوب وجوده باطل على كل تقدير.

وإن قيل: إن المطلوب يحصل بخلقه وبطاعة المكلَّفين له.

قيل: إن كانت طاعة المكلّفين مقدورة لله، ولم يخلقها، فلم يخلق المصلحة المطلوبة بالمعصوم، فلا تكون واجبه عليه؟ وإن لم تكن مقدورة امتنع الوجوب بدونها في حق المكلَّف، فكيف في حق الله؟!

وما لا يتم الوجوب إلا به وهو غير موجود فليس الأمر حينئذ بواجب.

ألا ترى أن الإنسان لا يجب عليه تحصيل مصلحة لا تحصل بدون فعل غيره إلا إذا أعانه ذلك الغير؟ كالجمعة التي لا تجب إلا خلف إمام، أو مع عددٍ، فلا يجب على الإنسان أن يصلّيها إلا إذا حصل الإمام وسائر العدد. والحج الذي لا يجب عليه السفر إليه إلا مع رفقة يأمن معهم، أو مع من يُكْريه دابته، فلا يجب عليه إذا لم يحصل من يفعل معه ذلك.

ودفع الظلم عن المظلوم، إذا لم يمكن إلا بأعوان لم يجب على من لا أعوان له.

فإذا قالوا: إن الربَّ يجب عليه تحصيل هذه المصالح لعباده، الحاصلة بخلق المعصوم، وهي لا تحصل إلا بوجود من يطيعه، والله تعالى على هذا التقدير لا يمكنه أن يجعل الناس يطيعونه، لم يكن خلق المعصوم واجبًا عليه، لعدم وجوب ما لا يحصل الواجب إلا به، وعدم حصول المطلوب بالمعصوم وحده.

وإن قيل: يخلقه لعل بعض الناس يطيعه.

قيل: أولًا: هذا ممتنع ممن يعلم عواقب الأمور.

وقيل: ثانيًا: إذا كان شرط المطلوب قد يحصل وقد لا يحصل، وهو في كثير من الأوقات أو غالبها أو جميعها لا يحصل -أمكن أن يخلق غير المعصوم، يكون عادلًا في كثير من الأوقات أو بعضها، فإن حصول المقصود ممن يعدل في كثير من الأمور، ويظلم في بعضها، إذا كانت مصلحة وجوده أكثر من مفسدته، خير ممن لا يقدر على أن يعدل بحالٍ، ولا يدفع شيئًا من الظلم، فإن هذا لا مصلحة فيه بحال.

وإن قالوا: الربُّ فعل ما يجب عليه من خلق المعصوم، ولكن الناس فوتّوا المصلحة بمعصيتهم له.

قيل: أولًا: إذا كان يعلم أن الناس لا يعاونونه حتى تحصل المصلحة، بل يعصونه فيعذَّبون، لم يكن خلقه واجبًا، بل ولا حكمة على قولهم.

ويقال: ثانيًا: ليس كل الناس عصاه، بل بعض الناس عصوه ومنعوه، وكثير من الناس تؤثر طاعته ومعرفة ما يقوله، فكيف لا يمكّن هؤلاء من طاعته؟!

فإذا قيل: أولئك الظلمة منعوا هؤلاء.

قيل: فإن كان الربُّ قادرًا على منع الظلمة، فهلّا منعهم على قولهم؟

وإن لم يكن ذلك مقدورًا، فهو يعلم أن حصول المصلحة غير مقدورة فلا يفعله، فلم قلتم على هذا التقدير: إنه يمكن خلق معصومٍ غير نبيٍّ.

وهذا لازم لهم؛ فإنهم إن قالوا: إن الله خالق أفعال العباد، أمكنه صرف دواعي الظلمة حتى يتمكن الناس من طاعته.

وإن قالوا: ليس خالق أفعال العباد.

قيل: فالعصمة إنما تكون بأن يريد الفاعل الحسنات ولا يريد السيئات، وهو عندكم لا يقدر أن يغيِّر إرادة أحدٍ، فلا يقدر على جعله معصومًا.

وهذا أيضًا دليل مستقل على إبطال خلق أحد معصومًا، على قول القدرية؛ فإن العصمة إنما تكون بأن يكون العبد مريدًا للحسنات، غير مرِيدٍ للسيئات. فإذا كان هو المحدث للإرادة، والله تعالى عند القدرية لا يقدر على إحداث إرادة أحدٍ، امتنع منه أن يجعل أحدًا معصومًا.

وإذا قالوا: يخلق ما تميل به إرادته إلى الخير.

قيل: إن كان ذلك ملجئًا، زال التكليف. وإن لم يكن ملجئًا لم ينفع، وإن كان ذلك مقدورًا عندكم، فهلّا فعله بجميع العباد؟ فإنه أصلح لهم، إذا أوجبتم على الله أن يفعل الأصلح بكل عبد، وذلك لا يمنع الثواب عندكم، كما لا يمنعه في حقِّ المعصوم.

الوجه التاسع: أن يُقال: حاجة الإنسان إلى تدبير بدنه بنفسه، أعظم من حاجة المدينة إلى رئيسها. وإذا كان الله تعالى لم يخلق نفس الإنسان معصومةً فكيف يجب عليه أن يخلق رئيسًا معصومًا؟!

مع أن الإنسان يمكنه أن يكفر بباطنه، ويعصي بباطنه، وينفرد بأمور كثيرة من الظلم والفساد، والمعصوم لا يعلمها، وإن علمها لا يقدر على إزالتها، فإذا لم يجب هذا فكيف يجب ذاك؟!

الوجه العاشر: أن يُقال: المطلوب من الأئمة أن يكون الصلاح بهم أكثر من الفساد، وأن يكون الإنسان معهم أقرب إلى المصلحة وأبعد عن المفسدة مما لو عدموا ولم يقم مقامهم؟ أم المقصود بهم وجود صلاحٍ لا فساد معه؟ أم مقدار معين من الصلاح؟

فإن كان الأول، فهذا المقصود حاصل لغالب ولاة الأمور، وقد حصل هذا المقصود على عهد

أبي بكر وعمر وعثمان، أعظم مما حصل على عهد عليٍّ، وهو حاصل بخلفاء بني أمية وبني العباس، أعظم مما هو حاصل بالاثني عشر، وهذا حاصل بملوك الروم والترك والهند، أكثر مما هو حاصل بالمنتظر الملقّب صاحب الزمان، فإنه ما من أمير يتولى ثم يُقدّر عدمه بلا نظير، إلا كان الفساد في عدمه أعظم من الفساد في وجوده، لكن قد يكون الصلاح في غيره أكثر منه، كما قد قيل: «ستون سنة مع إمام جائر خير من ليلة واحدة بلا إمام».

وإن قيل: بل المطلوب وجود صلاحٍ لا فساد معه.

قيل: فهذا لم يقع، ولم يخلق الله ذلك، ولا خلق أسبابًا توجب ذلك لا محالة، فمن أوجب ذلك، وأوجب ملزوماته على الله، كان إمّا مكابرًا لعقله، وإمّا ذامًّا لربّه، وخَلْقُ ما يمكن معه وجود ذلك، لا يحصل به ذلك، إن لم يخلق ما يكون به ذلك.

ومثل هذا يقال في أفعال العباد، لكن القول في المعصوم أشد؛ لأن مصلحته تتوقف على أسباب خارجة عن قدرته، بل عن قدرة الله عند هؤلاء. الذين هم معتزلة رافضة، فإيجاب ذلك على الله أفسد من إيجاب خلق مصلحة كل عبد له.

الوجه الحادي عشر: أن يقال: قوله: «لو لم يكن الإمام معصومًا لافتقر إلى إمام آخر؛ لأن العلة المحوجة إلى الإمام هي جواز الخطأ على الأمة، فلو جاز الخطأ عليه لاحتاج إلى إمام آخر».

فيقال له: لِمَ لا يجوز أن يكون إذا أخطأ الإمام كان في الأمة من ينبهه على الخطأ، بحيث لا يحصل اتفاق المجموع على الخطأ، لكن إذا أخطأ بعض الأمة، نبهه الإمام أو نائبه أو غيره، وإن أخطأ الإمام أو نائبه نبهه آخر كذلك، وتكون العصمة ثابتة للمجموع، لا لكلٍّ واحد من الأفراد، كما يقوله أهل الجماعة؟!

وهذا كما أن كل واحد من أهل خبر التواتر يجوز عليه الخطأ، وربما جاز عليه تعمد الكذب، لكن المجموع لا يجوز عليهم ذلك في العادة. وكذلك الناظرون إلى الهلال أو غيره من الأشياء الدقيقة، قد يجوز الغلط على الواحد منهم، ولا يجوز على العدد الكثير. وكذلك الناظرون في الحساب والهندسة، ويجوز على الواحد منهم الغلط في مسألة أو مسألتين، فأما إذا كثر أهل المعرفة بذلك، امتنع في العادة غلطهم.

ومن المعلوم أن ثبوت العصمة لقوم اتفقت كلمتهم، أقرب إلى العقل والوجود من ثبوتها لواحدٍ، فإن كانت العصمة لا تمكن للعدد الكثير، في حال اجتماعهم على الشيء المعيّن، فألا تمكن للواحد أولى، وإن أمكنت للواحد مفردًا، فلأن تمكن له ولأمثاله مجتمعين بطريق الأَوْلَى والأحرى.

فعُلم أن إثبات العصمة للمجموع أَوْلى من إثباتها للواحد، وبهذه العصمة يَحْصُل المقصود المطلوب من عصمة الإمام، فلا تتعين عصمة الإمام.

ومن جهل الرافضة إنهم يوجبون عصمة واحد من المسلمين، ويجوّزون على مجموع المسلمين

الخطأ إذا لم يكن فيهم واحد معصوم، والمعقول الصريح يشهد أن العلماء الكثيرين، مع اختلاف اجتهاداتهم، إذا اتفقوا على قول كان أولى بالصواب من واحد، وأنه إذا أمكن حصول العلم بخبر واحدٍ، فحصوله بالأخبار المتواترة أوْلى.

ومما يبيّن ذلك أن الإمام شريك الناس في المصالح العامة، إذ كان هو وحده لا يقدر أن يفعلها، إلا أن يشترك هو وهم فيها، فلا يمكنه أن يقيم الحدود، ويستوفي الحقوق، ولا يوفّيها، ولا يجاهد عدوًّا إلا أن يعينوه، بل لا يمكنه أن يصلّي بهم جمعة ولا جماعة إن لم يصلّوا معه، ولا يمكن أن يفعلوا ما يأمرهم به إلا بقواهم وإرادتهم، فإذا كانوا مشاركين له في الفعل والقدرة لا ينفرد عنهم بذلك، فكذلك العلم والرأي لا يجب أن ينفرد به بل يشاركهم فيه، فيعاونهم ويعاونونه، وكما أن قدرته تعجز إلا بمعاونتهم، فكذلك علمه يعجز إلا بمعاونتهم.

الوجه الثاني عشر: أن يُقال: العلم الديني الذي يحتاج إليه الأئمة والأمة نوعان: علم كليٌّ؛ كإيجاب الصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، والزكاة، والحج، وتحريم الزِّنى، والسرقة، والخمر، ونحو ذلك، وعلم جزئيٌّ؛ كوجوب الزكاة على هذا، ووجوب إقامة الحد على هذا، ونحو ذلك.

فأما الأول: فالشريعة مستقلة به، لا تحتاج فيه إلى الإمام، فإن النبي إما أن يكون قد نصَّ على كليات الشريعة التي لا بد منها، أو ترك منها ما يحتاج إلى القياس، فإن كان الأول ثبت المقصود، وإن كان الثاني، فذلك القدر يحصل بالقياس.

وإن قيل: بل ترك فيها ما لا يُعلم بنصّه ولا بالقياس، بل بمجرد قول المعصوم، كان هذا المعصوم شريكًا في النبوَّة لم يكن نائبًا، فإنه إذا كان يُوجب ويحرّم من غير إسناد إلى نصوص النبيّ، كان مستقلًّا، لم يكن متّبعًا له، وهذا لا يكون إلا نبيًّا، فأما من لا يكون إلا خليفة لنبي فلا يستقل دونه.

وأيضًا، فالقياس إن كان حجةً جاز إحالة الناس عليه، وإن لم يكن حجة وجب أن ينصَّ النبيُّ على الكليّات.

وأيضًا، فقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣]

وهذا نصٌّ في أن الدين كامل لا يحتاج معه إلى غيره...

وأما الجزئيات فهذه لا يمكن النصُّ على أعيانها، بل لا بدَّ فيها من الاجتهاد المسمَّى بتحقيق المناط، كما أن الشارع لا يمكن أن ينصَّ لكل مصلٍّ على جهة القبلة في حقِّه، ولكل حاكم على عدالة كل شاهد، وأمثال ذلك.

وإذا كان كذلك، فإن ادَّعوا عصمة الإمام في الجزئيات، فهذه مكابرة، ولا يدَّعيها أحدٌ، فإن عليًّا رضي الله عنه كان يولِّي من تبين له خيانته وعجزه وغير ذلك، وقد قطع رجلًا بشهادة شاهدين، ثم قالا: أخطأنا، فقال: لو أعلم أنكما تعمدتما لقطعت أيديكما.

وكذلك كان النبيُّ ﷺ، ففي الصحيحين عنه أنه قال: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار».

وقد ادَّعى قوم من أهل الخير على ناسٍ من أهل الشر، يقال لهم: بنو أُبَيْرق، أنهم سرقوا لهم طعامًا ودروعًا، فجاء قوم فبرَّءوا أولئك المتهمين، فظن النبيُّ ﷺ صدق أولئك المبرِّئين لهم، حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾... الآيات.

وبالجملة الأمور نوعان: كليَّة عامة، وجزئية خاصة، فأما الجزئيات الخاصة، كالجزئي الذي يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، مثل ميراث هذا الميت، وعدل هذا الشاهد، ونفقة هذه الزوجة، ووقوع الطلاق بهذا الزوج، وإقامة الحدِّ على هذا المفسد، وأمثال ذلك.

فهذا مما لا يمكن لا نبيًّا ولا إمامًا ولا أحدًا من الخلق أن ينصَّ على كل فردٍ فردٍ منه؛ لأن أفعال بني آدم وأعيانهم يعجز عن معرفة أعيانها الجزئية علم واحد من البشر وعبارته، لا يمكن بشرٌ أن يعلم ذلك كله بخطاب الله له، وإنما الغاية الممكنة ذكر الأمور الكليّة العامة.

كما قال ﷺ: «بُعثت بجوامع الكَلِم». فالإمام لا يمكنه الأمر والنهي لجميع رعيته إلا بالقضايا الكليَّة العامة، وكذلك إذا ولّى نائبًا لا يمكنه أن يعهد إليه إلا بقواعد كليَّة عامَّة، ثم النظر في دخول الأعيان تحت تلك الكليَّات، أو دخول نوعٍ خاص تحت أعم منه -لا بد فيه من نظر المتولّي واجتهاده، وقد يصيب تارة، ويخطئ أخرى.

فإن اشترط عصمة كلّ واحدٍ اشترط عصمة النوّاب في تلك الأعيان، وهذا منتفٍ بالضرورة واتفاق العقلاء، وإن اكتفى بالكليّات، فالنبيُّ يمكنه أن ينصَّ على الكليات، كما جاء به نبيُّنا ﷺ؛ إذ ذكر ما يَحْرُم من النساء وما يحلّ، فجميع أقارب الرجل من النساء حرامٌ عليه، إلا بنات عمِّه، وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، كما ذُكر هؤلاء الأربع في سورة الأحزاب.

وكذلك في الأشربة حَرَّم كل مُسكرٍ دون ما لا يُسكر، وأمثال ذلك.

بل قد حصر المحرمات في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٣] [الأعراف: ٣٣]، فكل ما حُرِّم تحريمًا مطلقًا عامًّا لا يباح في حالٍ فيباح في أخرى، كالدم والمَيْتة ولحم الخنزير.

وجميع الواجبات في قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩] الآية، [الأعراف: ٢٩]، فالواجب كلُّه محصور في حقِّ الله وحقِّ عباده.

وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقوق عباده العدل. كما في الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، يا معاذ، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّهم على الله ألا يعذِّبهم».

ثم إنه سبحانه فصَّل أنواع الفواحش والبغي، وأنواع حقوق العباد، في مواضعَ أخر، ففصَّل المواريث، وبيَّن من يستحقُّ الإرث ممن لا يستحقُّه، وما يستحقُّ الوارث بالفرض والتعصيب، وبيَّن ما يحلُّ من المناكح وما يحرم، وغير ذلك.

فإن كان يقدر على نصوص كليَّة تتناول الأنواع، فالرسول أحقُّ بهذا من الإمام، وإن قيل: لا يمكن، فالإمام أعجز عن هذا من الرسول.

والمحرَّمات المعينة لا سبيل إلى النصِّ عليها، لا لرسول الله ولا إمام، بل لا بد فيها من الاجتهاد، والمجتهد فيها يصيب تارة، ويخطئ أخرى. كما قال النبيُّ ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر».

وكما قال لسعد بن معاذ -وكان حكمًا في قضية معيَّنة يؤمر فيها الحاكم أن يختار الأصلح- فلما حكم بقتل المقاتلة وسبي الذرية من بني قريظة، قال النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

وكما كان يقول لمن يرسله أميرًا على سريَّة أو جيش: «إذا حاصرتَ أهل الحصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك». والأحاديث الثلاثة ثابتة في الصحيح.

فتبيَّن بذلك أنه لا مصلحة في عصمة الإمام إلا وهي حاصلة بعصمة الرسول، ولله الحمد والمنة، والواقع يوافق هذا، وإنَّا رأينا كل من كان إلى اتّباع السنة والحديث واتّباع الصحابة أقرب، كانت مصلحتهم في الدنيا والدين أكمل، وكلّ من كان أبعد من ذلك كان بالعكس.

ولما كانت الشيعة أبعد الناس عن اتِّباع المعصوم، الَّذي لا ريب في عصمته، وهو رسول الله ﷺ، الذي أرسله بالهدى ودين الحقِّ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد، الذي فرَّق بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والغيِّ والرَّشاد، والنور والظلمة، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، وجعله القاسم الذي قسم به عباده إلى شقي وسعيد، فأهل السعادة من آمن به، وأهل الشقاوة من كذَّب به وتولَّى عن طاعته.

فالشيعة القائلون بالإمام المعصوم ونحوهم، من أبعد الطوائف عن اتِّباع هذا المعصوم، فلا جرم تجدهم من أبعد الناس عن مصلحة دينهم ودنياهم، حتى يوجد ممن هو تحت سياسة أظلم

الملوك وأضلهم من هو أحسن حالًا منهم، ولا يكونون في خير إلا تحت سياسة من ليس منهم.

ولهذا كانوا يُشْبِهون اليهود في أحوال كثيرة منها هذا: أنه ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وضربت عليهم المسكنة، فلا يعيشون في الأرض إلا بأن يتمسكوا بحبل بعض ولاة الأمور، الذي ليس بمعصوم.

ولا بد لهم من نسبة إلى الإسلام يظهرون بها خلاف ما في قلوبهم، فما جاء به الكتاب والسنة يشهد له ما يرينا الله من الآيات في الآفاقِ وفي أنفسنا، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣] [فصلت: ٥٣].

ومما أرانا أنَّا رأينا آثار سبيل المتَّبِعين لرسول الله ﷺ المعصوم، أصلح في دينهم ودنياهم من سبيل الإمام المعصوم بزعمهم. وإن زعموا أنهم متَّبِعون للرسول، فهم من أجهل الناس بأقواله وأفعاله وأحواله.

وهذا الذي ذكرته كل من استقرأه في العالم وجده، وقد حدَّثني الثقات، الذين لهم خبرة بالبلاد، الذين خبروا حال أهلها، بما يبين ذلك

وهذا كله مما يبين أن القوم أبعد الطوائف عن اتِّباع المعصوم الذي لا شك في عصمته، وهو خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وما يذكرونه من خلاف السنَّة في دعوى الإمام المعصوم وغير ذلك، فإنما هو في الأصل من ابتداع منافقٍ زنديق، كما قد ذكر ذلك أهل العلم.

ذكر غير واحدٍ منهم أن أول من ابتدع الرفض والقول بالنصِّ على عليٍّ وعصمته كان منافقًا زنديقًا، أراد فساد دين الإسلام، وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع بولص بالنصارى، لكن لم يتأت له ما تأتى لبولص؛ لضعف دين النصارى وعقلهم، فإن المسيح ﷺ رُفِع ولم يتَّبعه خلق كثير يعلمون دينه، ويقومون به علمًا وعملًا، فلما ابتدع بولص ما ابتدعه من الغلو في المسيح، اتَّبعه على ذلك طوائف، وأحبُّوا الغلو في المسيح، ودخلت معهم ملوك، فقام أهل الحقِّ خالفوهم وأنكروا عليهم، فقتلت الملوك بعضهم، وداهن الملوك بعضهم، وبعضهم اعتزلوا في الصوامع والديَّارات.

وهذه الأمة -ولله الحمد- لا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحقِّ، فلا يتمكن ملحدٌ ولا مبتدع من إفساده بغلوٍ، أو انتصار على أهل الحق، ولكن يضلّ من يتبعه على ضلاله.

وأيضًا فنوَّاب المعصوم الذي يدعونه غير معصومين في الجزئيات، وإذا كان كذلك فيقال: إذا كانت العصمة في الجزئيات غير واقعة، وإنما الممكن العصمة في الكليَّات، فالله تعالى قادر أن ينصَّ على الكليَّات، بحيث لا يحتاج في معرفتها إلى الإمام ولا غيره، وقادر أيضًا أن يجعل نصَّ النبيِّ أكمل من نصِّ الإمام، وحينئذ فلا يحتاج إلى عصمة الإمام، لا في الكليَّات ولا في الجزئيَّات.

الوجه الثالث عشر: أن يُقال: العصمة الثابتة للإمام: أهي فعله للطاعات باختياره وتركه للمعاصي باختياره -مع أن الله تعالى عندكم لا يخلق اختياره-، أم هي خلق الإرادة له، أم سلبة القدرة على المعصية؟

فإن قلتم بالأول، وعندكم أن الله لا يخلق اختيار الفاعلين، لزمكم أن الله لا يقدر على خلق معصوم.

وإن قلتم بالثاني بطل أصلكم الذي ذهبتم إليه في القدرة.

وإن قلتم: سُلِب القدرة على المعصية، كان المعصوم عندكم هو العاجز عن الذنب، كما يعجز الأعمى عن نقط المصاحف، والمُقعد عن المشي.

والعاجز عن الشيء لا يُنهى عنه ولا يؤمر به، وإذا لم يُؤمر ويُنه لم يستحق ثوابًا على الطاعة، فيكون المعصوم عندكم لا ثواب له على ترك معصية، بل ولا على فعل طاعة، وهذا غاية النقص.

وحينئذ فأيُّ مسلم فُرض كان خيرًا من هذا المعصوم، إذا أذنب ثم تاب؛ لأنه بالتوبة محيت سيئاته، بل بُدِّل بكل سيئة حسنة مع حسناته المتقدمة، فكان ثواب المكلَّفين خيرًا من المعصوم عند هؤلاء، وهذا يناقض قولهم غاية المناقضة.

وأما المقدمة الثانية: فلو قدر أنه لا بد من معصوم، فقولهم: ليس بمعصوم غير عليٍّ اتفاقًا ممنوع، بل كثير من الناس من عبَّادهم وصوفيتهم وجندهم وعامتهم يعتقدون في كثير من شيوخهم من العصمة، من جنس ما تعتقده الرافضة في الاثني عشر، وربما عبَّروا عن ذلك بقولهم: «الشيخ محفوظ».

وإذا كانوا يعتقدون هذا في شيوخهم، مع اعتقادهم أن الصحابة أفضل منهم، فاعتقادهم ذلك في الخلفاء من الصحابة أوْلى.

وكثير من الناس فيهم من الغلوّ في شيوخهم من جنس ما في الشيعة من الغلو في الأئمة.

وأيضًا، فالإسماعيليَّة يعتقدون عصمة أئمتهم، وهم غير الاثني عشر.

وأيضًا، فكثير من أتباع بني أمية -أو أكثرهم- كانوا يعتقدون أن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب، وأن الله لا يؤاخذهم على ما يطيعون فيه الإمام، بل تجب عليهم طاعة الإمام في كل شيء، والله أمرهم بذلك، وكلامهم في ذلك معروف كثير.

وقد أراد يزيد بن عبد الملك أن يسير بسيرة عمر بن العزيز، فجاء إليه جماعة من شيوخهم، فحلفوا له بالله الذي لا إله إلا هو، أنه إذا ولَّى الله على الناس إمامًا تقبل اللهُ منه الحسنات وتجاوز عنه السيئات.

ولهذا تجد في كلام كثير من كبارهم الأمر بطاعة وليِّ الأمر مطلقًا، وأن من أطاعه فقد أطاع الله، ولهذا كان يُضرب بهم المثل، يقال: «طاعة شاميّة».

وحينئذٍ، فهؤلاء يقولون: إن إمامهم لا يأمرهم إلا بما أمرهم الله به، وليس فيهم شيعة، بل كثير منهم يبغض عليًّا ويسبُّه.

ومن كان اعتقاده أن كل ما يأمر الإمام به فإنه مما أمر الله به، وأنه تجب طاعته، وأن الله يثيبه

على ذلك، ويعاقبه على تركه -لم يحتج مع ذلك إلى معصوم غير إمامه.

وحينئذ، فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يُقال: كلٌّ من هذه الطوائف إذا قيل لها: إنه لا بد لها من إمام معصوم، تقول: يكفيني عصمة الإمام الذي ائتممت به، لا احتاج إلى عصمة الاثني عشر، لا عليّ ولا غيره، ويقول: هذا شيخي وقدوتي، وهذا يقول: إمامي الأموي والإسماعيلي، بل كثير من الناس يعتقدون أن من يطيع الملوك لا ذنب له في ذلك، كائنًا من كان، ويتأوّلون قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: الآية ٥٩] [النساء: ٥٩].

فإن قيل: هؤلاء لا يعتدّ بخلافهم.

قيل: هؤلاء خيرٌ من الرافضة الإسماعيلية.

وأيضًا، فإن أئمة هؤلاء وشيوخهم خير من معدوم لا يُنتفع به بحال، فهم بكلِّ حال خير من الرافضة.

وأيضًا، فبطلت حجة الرافضة بقولهم: لم تُدَّع العصمة إلا في عليٍّ وأهل بيته.

فإن قيل: لم يكن في الصحابة من يدّعي العصمة لأبي بكر وعمر وعثمان.

قيل: إن لم يكن فيهم من يدَّعي العصمة لعليٍّ بطل قولكم، وإن كان فيهم من يدَّعي العصمة لعليّ، لم يمتنع أن يكون فيهم من يدعي العصمة للثلاثة، بل دعوى العصمة لهؤلاء أَوْلى، فإنَّا نعلم يقينًا أن جمهور الصحابة كانوا يفضِّلون أبا بكر وعمر، بل عليّ نفسه كان يفضلهما عليه، كما تواتر عنه، وحينئذٍ فدعواهم عصمة هذين أولى من دعوى عصمة عليّ.

فإن قيل: فهذا لم يُنقل عنهم.

قيل لهم: ولا نُقل عن واحدٍ منهم القول بعصمة عليّ، ونحن لا نثبت عصمة لا هذا ولا هذا، لكن نقول: ما يمكن أحدًا أن ينفي نقل أحدٍ منهم بعصمة أحد الثلاثة، مع دعواهم أنهم كانوا يقولون بعصمة عليّ، فهذا الفرق لا يمكن أحدًا أن يدَّعيه ولا ينقله عن واحد منهم، وحينئذ فلا يُعلم زمان ادّعى فيه العصمة لعليٍّ أو لأحدٍ من الاثني عشر، ولم يكن من ذلك الزمان من يدَّعي عصمة غيرهم، فبطل أن يحتج بانتفاء عصمة الثلاثة، ووقوع النزاع في عصمة علي.

الوجه الرابع عشر: أن يقال: إما أن يجب وجود المعصوم في كل زمان وإما ألا يجب، فإن لم يجب بطل قولهم، وإن وجب لم نسلّم على هذا التقدير أن عليًا كان هو المعصوم دون الثلاثة، بل إذا كان هذا القول حقًّا، لزم أن يكون أبو بكر وعمر وعثمان معصومين، فإن أهل السنة متفقون على تفضيل أبي بكر وعمر، وأنهما أحق بالعصمة من عليّ، فإن كانت العصمة ممكنة، فهي إليهما أقرب، وإن كانت ممتنعة، فهي عنه أبعد.

وليس أحد من أهل السنة يقول بجواز عصمة عليّ دون أبي بكر وعمر، وهم لا يسلّمون انتفاء

العصمة عن الثلاثة، إلا مع انتفائها عن عليّ، فأما انتفاؤها عن الثلاثة دون عليّ، فهذا ليس قول أحدٍ من أهل السنة.

وهذا كنبوة موسى وعيسى، فإن المسلمين لا يسلمون نبوة أحد من هذين إلا مع نبوة محمد، وليس في المسلمين من يقرّ بنبوتهما منفردة عن نبوة محمد، بل المسلمون متفقون على كفر من أقرّ بنبوة بعضهم دون بعض، وأن من كفر بنبوة محمد وأقرّ بأحد هذين، فهو أعظم كفرًا ممن أقرّ بمحمد وكفر بأحد هذين.

وإذا قيل: إن الإيمان بمحمد مستلزم للإيمان بهما، وكذلك الإيمان بهما مستلزم للإيمان بمحمد، وهكذا نفي العصمة، وثبوت الإيمان والتقوى، وولاية الله، فأهل السنة لا يقولون بإيمان عليّ وتقواه وولايته لله، إلا مقرونًا بإيمان الثلاثة وتقواهم وولايتهم لله، ولا ينفون العصمة عنهم إلا مقرونًا بنفيها عن عليّ، ومعنى ذلك أن الفرق باطل عندهم.

وإذا قال الرافضي لهم: الإيمان ثابت لعليّ بالإجماع، والعصمة منتفية عن الثلاثة بالإجماع، كان كقول اليهودي: نبوة موسى ثابتة بالإجماع، أو قول النصراني: الإلهية منتفية عن محمد بالإجماع، والمسلم يقول: نفي الإلهية عن محمد وموسى كنفيها عن المسيح، فلا يمكن أن أنفيها عن موسى ومحمد وأسلّم ثبوتها للمسيح، وإذا قال النصراني: اتفقنا على أن هؤلاء ليسوا آلهة، وتنازعنا في النصراني أن الله لا بد أن يظهر له في صورة البشر، ولم يدع ذلك إلا في المسيح، كان كتقرير الرافضي أنه لا بد من إمام معصوم، ولم يدع ذلك إلا لعليّ.

ونحن نعلم بالاضطرار أنه ليس لعيسى مزية يستحق أن يكون بها إلهًا دون موسى ومحمد، كما يُعلم بالاضطرار أن عليًا لم يكن له مزية يستحق أن يكون بها معصومًا دون أبي بكر وعمر، ومن أراد التفريق منعناه ذلك، وقلنا: لا نسلّم إلا التسوية في الثبوت أو الانتفاء.

وإذا قال: أنتم تعتقدون انتفاء العصمة عن الثلاثة.

قلنا: نعتقد انتفاء العصمة عن عليّ، ونعتقد أن انتفاءها عنه أولى من انتفائها عن غيره، وأنهم أحقّ بها منه إن كانت ممكنة، فلا يمكن مع هذا أن يحتج علينا بقولنا.

وأيضًا، فنحن إنما نسلّم انتفاء العصمة عن الثلاثة، لاعتقادنا أن الله لم يخلق إمامًا معصومًا، فإن قُدِّر أن الله خلق إمامًا معصومًا فلا يُشك أنهم أحقُّ بالعصمة من كل من جاء بعدهم، ونفينا لعصمتهم لاعتقادنا هذا التقدير.

وهنا جواب ثالث عن أصل الحجة، وهو أن يُقال: من أين علمتم أن عليًا معصوم، ومن سواه ليس بمعصوم؟ فإن قالوا: بالإجماع على ثبوت عصمة عليٍّ وانتفاء عصمة غيره، كما ذكروه من حجتهم.

قيل لهم: إن لم يكن الإجماع حجة بطلت هذه الحجة، وإن كان حجة في إثبات عصمة عليّ -التي هي الأصل- أمكن أن يكون حجة في المقصود بعصمة من حفظ الشرع ونقله، ولكن هؤلاء

يحتجُّون بالإجماع، ويردّون كون الإجماع حجة، فمن أين علموا أن عليًا هو المعصوم دون من سواه؟

فإن ادّعوا التواتر عندهم عن النبي في عصمته، كان القول في ذلك كالقول في تواتر النص على إمامته، وحينئذ فلا يكون لهم مستند آخر.

الجواب الرابع: أن يُقال: الإجماع عندهم ليس بحجة، إلا أن يكون قول المعصوم فيه، فإن لم يعرفوا ثبوت المعصوم إلا به لزم الدور، فإنه لا يُعرف أنه معصوم إلا بقوله، ولا يُعرف أن قوله حجة إلا إذا عُرف أنه معصوم، فلا يثبت واحد منهما.

فعُلم بطلان حجتهم على إثبات المعصوم، وهذا يبين أن القوم ليس لهم مستند علمي أصلًا فيما يقولون، فإن الإجماع عندهم ليس بحجة، بل لا يجوز عندهم أن تجتمع الأمة إلا إذا كان المعصوم فيهم، فإن قول المعصوم وحده هو الحجة، فيحتاجون حينئذ إلى العلم بالشخص المستقل، حتى يُعلم أن قوله حجة، فإذا احتجوا بالإجماع لم تكن الحجة عندهم في الإجماع إلا قول المعصوم، فيصير هذا مصادرة على المطلوب، ويكون حقيقة قولهم: فلان معصوم؛ لأنه قال: إني معصوم.

فإذا قيل لهم: بم عرفتم أنه معصوم، وأن من سواه ليسوا معصومين؟

قالوا: بأنه قال: أنا معصوم ومن سواي ليس بمعصوم، وهذا مما يمكن كل أحد أن يقوله، فلا يكون حجة.

وصار هذا كقول القائل: أنا صادق في كل ما أقوله، فإن لم يُعلم صدقه بغير قوله، لم يُعلم صدقه فيما يقوله.

وحجتهم هذه من جنس حجة إخوانهم الملاحدة والإسماعيلية؛ فإنهم يدعون إلى الإمام المعلم المعصوم، ويقولون: إن طرق العلم من الأدلة السمعية والعقلية لا يُعرف صحتها إلا بتعليم المعلّم المعصوم.

وكأنهم أخذوا هذا الأصل الفاسد عن إخوانهم الرافضة، فلما ادّعت الرافضة أنه لا بد من إمام معصوم في حفظ الشريعة وأقرّت بالنبوة، ادّعت الإسماعيلية ما هو أبلغ: فقالوا: لا بد في جميع العلوم السمعية والعقلية من المعصوم.

وإذا كان هؤلاء ملاحدة في الباطن، يقرُّون بالنبوات في الظاهر والشرائع، ويدَّعون أن لها تأويلات باطنة تخالف ما يَعْرِفه الناس منها، ويقولون بسقوط العبادات، وحلّ المحرمات للخواص الواصلين، فإن لهم طبقات في الدعوة، ليس هذا موضعها.

وإنما المقصود أن كلتا الطائفتين تدّعي الحاجة إلى معصوم غير الرسول، لكن الاثني عشرية يجعلون المعصوم أحد الاثني عشر، وتجعل الحاجة إليه في حفظ الشريعة وتبليغها، وهؤلاء ملاحدة كفّار. والإماميَّة في الجملة يعتقدون صحة الإسلام في الباطن، إلا من كان منهم ملحدًا، فإن كثير من شيوخ الشيعة هو في الباطن على غير اعتقادهم: إما متفلسف ملحد، وإما غير ذلك

فإذا قدِّر أن الحاجة إلى المعصوم ثابتة، فالكلام في تعيُّنه، فإذا طُولب الإسماعيلي بتعيين معصومه، وما الدليل على أن هذا هو المعصوم دون غيره، لم يأت بحجة أصلًا، وتناقضت أقواله.

وكذلك الرافضي أخذ من القدرية كلامهم في وجوب رعاية الأصلح، وبنى عليه أنه لا بد من معصوم، وهي أقوال فاسدة، ولكن إذا طولب بتعيينه، لم يكن له حجة أصلًا، إلا مجرد قول من لم تثبت بعد عصمته: إني معصوم.

فإن قيل: إذا ثبت بالعقل أنه لا بد من معصوم، فإذا قال عليٌّ: إني معصوم، لزم أن يكون هو المعصوم؛ لأنه لم يدَّع هذا غيره.

قيل لهم: لو قُدِّر ثبوت معصوم في الوجود، لم يكن مجرد قول شخص: أنا معصوم، مقبولًا؛ لإمكان كون غيره هو المعصوم، وإن لم نعلم نحن دعواه، وإن لم يُظهر دعواه، بل يجوز أن يسكت عن دعوى العصمة وإظهارها على أصلهم، كما جاز للمنتظر أن يخفي نفسه خوفًا من الظَّلَمَة.

وعلى هذا التقدير فلا يمتنع أن يكون في الأرض معصوم غير الاثني عشر، وإن لم يظهر ذلك ولم نعلمه، كما ادعوا مثل ذلك في المنتظر، فلم يبق معهم دليل على التعيين: لا إجماع ولا دعوى.

ومع هذا كله بتقدير دعوى عليّ العصمة، فإنما يُقبل هذا لو كان عليّ قال ذلك، وحاشاه من ذلك.

وهذا جواب خامس: وهو أنه إذا لم تكن الحجة على العصمة إلا قول المعصوم: إني معصوم، فنحن راضون بقول عليٍّ في هذه المسألة، فلا يمكن أحد أن يَنْقِلَ عنه بإسناد ثابت أنه قال ذلك، بل النقول المتواترة عنه تنفي اعتقاده في نفسه العصمة.

وهذا جواب سادس: فإن إقراره لقضاته على أن يحكموا بخلاف رأيه، دليل على أنه لم يعدّ نفسه معصومًا.

وقد ثبت بالإسناد الصحيح أن عليًّا قال: «اجتمع رأيي ورأي عمر في أمهات الأولاد ألا يُبعن. وقد رأيت الآن أن يبعن»، فقال له عبيدة السلماني قاضيه: «رأيك مع عمر في الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك في الفرقة».

وكان شريح يحكم باجتهاده ولا يراجعه ولا يشاوره، وعليٌّ يقره على ذلك، وكان يقول: «اقضوا كما كنتم تقضون»، وكان يفتي ويحكم باجتهاده، ثم يرجع عن ذلك باجتهاده، كأمثاله من الصحابة، وهذه أقواله المنقولة عنه بالأسانيد الصحاح موجودة.

ثم قد وجد من أقواله التي تخالف النصوص أكثر مما وجد من أقوال عمر وعثمان، وقد جمع الشافعي من ذلك كتابًا فيه خلاف علي وابن مسعود، لما كان أهل العراق يناظرونه في المسألة، فيقولون: قال عليّ وابن مسعود، ويحتجون بقولهما، فجمع الشافعي كتابًا ذكر فيه ما تركوه من قول عليّ وابن مسعود، وجمع بعده محمد بن نصر المروزي كتابًا أكبر من ذلك بكثير، ذكره في مسألة رفع اليدين في الصلاة، لمَّا احتُجّ عليه فيها بقول ابن مسعود.

وهذا كلام مع علماء يحتجون بالأدلة الشرعية من أهل الكوفة؛ كأصحاب أبي حنيفة: محمد بن الحسن وأمثاله، فإن أكثر مناظرة الشافعي كانت مع محمد بن الحسن وأصحابه، لم يدرك أبا يوسف، ولا ناظره، ولا سمع منه، بل توفي أبو يوسف قبل أن يدخل الشافعي العراق، توفي سنة ثلاث وثمانين، وقدم الشافعي العراق سنة خمس وثمانين، ولهذا إنما يذكر في كتبه أقوال أبي يوسف عن محمد بن الحسن عنه.

وهؤلاء الرافضة في احتجاجهم على أن عليًا معصوم بكون غيرهم ينفي العصمة عن غيره احتجاجًا لقولهم بقولهم، وإثبات الجهل بالجهل.

ومن توابع ذلك ما رأيته في كتب شيوخهم: أنهم إذا اختلفوا في مسألة على قولين، وكان أحد القولين يُعرف قائله، والآخر لا يُعرف قائله، فالصواب عندهم القول الذي لا يُعرف قائله، قالوا: لأن قائله إذا لم يُعرف، كان من أقوال المعصوم، فهل هذا إلا من أعظم الجهل؟! ومن أين يُعرف أن القول الآخر -وإن لم يعرف قائله- إنما قاله المعصوم؟!

ولو قدر وجوده أيضًا لم يعرف أنه قاله، كما لم يُعرف أنه قاله الآخر، ولم لا يجوز أن يكون المعصوم قد قال القول الذي يُعرف وأن غيره قاله، كما أنه يقول أقوالًا كثيرة يوافق فيها غيره، وأن القول الآخر قد قاله من لا يدري ما يقول، بل قاله شيطان من شياطين الجن والإنس؟

فهم يجعلون عدم العلم بالقول وصحته دليلًا على صحته، كما قالوا هنا: عدم القول بعصمة غيره دليل على عصمته، وكما جعلوا عدم العلم بالقائل دليلًا على أنه قول المعصوم، وهذا حال من أعرض عن نور السنة التي بعث الله بها رسوله، فإنه يقع في ظلمات البدع، ظلمات بعضها فوق بعض[(١)].

وقال: وأما ما تقوله الرافضة من أن النبي قبل النبوة وبعدها لا يقع منه خطأ ولا ذنب صغير، وكذلك الأئمة، فهذا مما انفردوا به عن فرق الأمة كلِّها، وهو مخالف للكتاب والسنَّة وإجماع السلف.

ومن مقصودهم بذلك القدح في إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لكونهما أسلما بعد الكفر، ويدَّعون أن عليًا رضي الله عنه لم يزل مؤمنًا، وأنه لم يُخطِئ قط، ولم يذنب قط، وكذلك تمام الاثني عشر.

وهذا مما يظهر كذبهم وضلالهم فيه لكل ذي عقل يعرف أحوالهم، ولهذا كانوا هم أغلى الطوائف في ذلك وأبعدهم عن العقل والسمع.

ونكتة أمرهم أنهم ظنوا وقوع ذلك من الأنبياء والأئمة نقصًا، وأن ذلك يجب تنزيههم عنه، وهم

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٨٤- ٤٤٢)، (٢/ ٣٩٤، ٣٩٥)، (٦/ ١٨٧- ١٩١)، (٢/ ٤٥٢، ٤٥٤)، (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧)، (٣/ ٣٩٩)، (٤/ ١٠٤)، (٤/ ٥٢١)، (٥/ ٤٦٧)، (٣/ ٣٧٤- ٣٨١)، (٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٩- ٣٢١)، الفصل (٤/ ٧٩).

مخطئون: إما في هذه المقدمة، وإما في هذه المقدمة.

أما المقدمة الأولى: فليس من تاب إلى الله تعالى وأناب إليه بحيث صار بعد التوبة أعلى درجة مما كان قبلها منقوصًا ولا مغضوضًا منه، بل هذا مفضَّل عظيم مكرَّم، وبهذا ينحل جميع ما يوردونه من الشبه.

وإذا عُرف أن أولياء الله يكون الرجل منهم قد أسلم بعد كفره وآمن بعد نفاقه، وأطاع بعد معصيته، كما كان أفضل أولياء الله من هذه الأمة -وهم السابقون الأولون- يبين صحة هذا الأصل.

والإنسان ينتقل من نقص إلى كمال، فلا يُنظر إلى نقص البداية، ولكن ينظر إلى كمال النهاية، فلا يُعاب الإنسان بكونه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة، إذا كان الله بعد ذلك خلقه في أحسن تقويم.

ومن نظر إلى ما كان فهو من جنس إبليس الذي قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] [ص: ٧٦]، وقد قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، فأمرهم بالسجود له إكرامًا لما شرَّفه الله بنفخ الروح فيه، وإن كان مخلوقًا من طين، والملائكة مخلوقون من نور، وإبليس مخلوق من نار، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«خلق الله الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم»**.

وكذلك التوبة بعد السيئات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض دُوِّيَّة مهلكة عليها طعامه وشرابه، فقال تحت شجرة ينتظر الموت، فلما استيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه، فكيف تجدون فرحه بها؟»** قالوا: عظيمًا يا رسول الله، قال: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا براحلته»**.

ولهذا قال بعض السلف: إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة.

وإذا ابتلى العبد بالذنب، وقد علم أنه سيتوب منه ويتجنبه، ففي ذلك من حكمة الله ورحمته بعبده أن ذلك يزيده عبودية، وتواضعًا وخشوعًا، وذلًا ورغبةً في كثرة الأعمال الصالحة، ونفرة قوية عن السيئات، فإن النبي ﷺ قال: **«لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين»**.

وذلك أيضًا يدفع عنه العُجب والخيلاء، ونحو ذلك مما يعرض للإنسان، وهو أيضًا يوجب الرحمة لخلق الله، ورجاء التوبة والرحمة لهم إذا أذنبوا، وترغيبهم في التوبة.

وهو أيضًا يبين من فضل الله وإحسانه وكرمه ما لا يحصل بدون ذلك، كما في الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»**.

وهو أيضًا يبين قوة حاجة العبد إلى الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، في أن يستعمله في طاعته، ويجنبه معصيته، وأنه لا يملك ذلك إلا بفضل الله عليه وإعانته له، فإن من ذاق مرارة الابتلاء وعجزه عن دفعه إلا بفضل الله ورحمته، كان شهودُ قلبه وفقره إلى ربِّه واحتياجه إليه في أن يعينه على طاعته، ويجنبه معصيته -أعظمَ ممن لم يكن كذلك. ولهذا قال بعضهم: كان داود ﷺ بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، وقال بعضهم: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

ولهذا تجد التائب الصادق أثبت على الطاعة، وأرغب فيها، وأشد حذرًا من الذنب من كثير من الذين لم يُبتلوا بذنب، كما في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد، فإنه لما قتل رجلًا بعد أن قال: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله»، أثَّر هذا فيه حتى كان يمتنع أن يقتل أحدًا يقول: لا إله إلا الله، وكان هذا مما أوجب امتناعه من القتال في الفتنة.

وقد تكون التوبة موجبة له من الحسنات ما لا يحصل لمن يكن مثله تائبًا من الذنب، كما في الصحيحين من حديث كعب بن مالك ﷺ، وهو أحد الثلاثة الذين أنزل الله فيهم: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٧]، ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٨].

وإذا ذكر حديث كعب في قضية تبين أن الله رفع درجته بالتوبة، ولهذا قال: فوالله ما أعلم أحدًا ابتلاه الله بصدق الحديث أعظم مما ابتلاني.

وكذلك قال بعض من كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ؛ كسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، الذي كان من أشد الكفار هجاءً وإيذاءً للنبي ﷺ، فلما تاب وأسلم كان من أحسن الناس إسلامًا، وأشدهم حياءً وتعظيمًا للنبي ﷺ، وكذلك الحارث بن هشام، قال الحارث: ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت؛ ومثل هذا كثير في أخبار التوَّابين.

فمن يجعل التائب الذي اجتباه الله وهداه منقوصًا بما كان من الذنب الذي تاب منه، وقد صار بعد التوبة خيرًا مما كان قبل التوبة، فهو جاهل بدين الله تعالى، وما بعث الله به رسوله، وإذا لم يكن في ذلك نقص مع وجود ما ذكر فجميع ما يذكرونه هو مبني على أن ذلك نقص، وهو نقص إذا لم يتب منه، أو هو نقص عمَّن ساواه إذا لم يصر بعد التوبة مثله، فأما إذا تاب توبة محت أثره بالكلية وبدِّلت سيئاته حسنات فلا نقص فيه بالنسبة إلى حاله، وإذا صار بعد التوبة أفضل ممن يساويه أو مثله لم يكن ناقصًا عنه.

ولسنا نقول: إن كل من أذنب وتاب فهو أفضل ممن لم يذنب ذلك الذنب، بل هذا يختلف

باختلاف أحوال الناس، فمن الناس من يكون بعد التوبة أفضل، ومنهم من يعود إلى ما كان، ومنهم من لا يعود إلى مثل حاله، والأصناف الثلاثة فيهم من هو أفضل ممن لم يذنب ويتب، وفيهم من هو مثله، وفيهم من هو دونه.

وهذا الباب فيه مسائل كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها، ولبسطها موضع آخر، والمقصود التنبيه.

ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم من أئمة المسلمين متفقين على ما دل عليه الكتاب والسنة من أحوال الأنبياء، لا يُعرف عن أحد منهم القول بما أحدثته المعتزلة والرافضة ومن تبعهم في هذا الباب، بل كتب التفسير والحديث والآثار والزهد وأخبار السلف مشحونة عن الصحابة والتابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرَّف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كذَّب بما في الأحاديث كتكذيب هؤلاء، ولا من قال: هذا يمنع الوثوق، أو يوجب التنفير، ونحو ذلك، كما قال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهل من الأقوال المبتدعة في الإسلام.

وهم قصدوا تعظيم الأنبياء بجهل، كما قصدت النصارى تعظيم المسيح وأحبارهم ورهبانهم بجهل، فأشركوا بهم، واتخذوهم أربابًا من دون الله، وأعرضوا عن اتِّباعهم فيما أمروهم به، ونهوهم عنه.

وكذلك الغلاة في العصمة يعرضون عمَّا أمروا به من طاعة أمرهم، والاقتداء بأفعالهم، إلى ما نهوا عنه من الغلو، والإشراك بهم، فيتخذونهم أربابًا من دون الله، يستغيثون بهم في مغيبهم، وبعد مماتهم، وعند قبورهم، ويدخلون فيما حرَّمه الله تعالى ورسوله من العبادات الشركية التي ضاهوا بها النصارى[١]

- قولهم في المفاضلة بين الأئمَّة والأنبياء والملائكة

زعم بعضهم أن أئمتهم أفضل من الأنبياء والملائكة، وزعم بعضهم أنهم أفضل من الملائكة دون الأنبياء، وزعم بعضهم أن الأنبياء والملائكة أفضل منهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في الأئمة، هل يجوز أن يكونوا أفضل من الأنبياء، أم لا يجوز ذلك؟ وهم ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الأئمة لا يكونون أفضَلَ من الأنبياء، بل الأنبياء أفضل منهم، غير أنَّ بعضَ هؤلاء جَوَّزوا أن يكون الأئمة أفضل من الملائكة.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٢٩- ٤٣٥)، (٢/ ٤٠٩).

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الأئمة أفضل من الأنبياء والملائكة، وأنه لا يكون أحد أفضل من الأئمة، وهذا قول طوائف منهم.

والفرقة الثالثة منهم: وهم القائلون بالاعتزال والإمامة: يزعمون أن الملائكة والأنبياء أفضل من الأئمة، ولا يجوز أن يكون الأئمة أفضل من الأنبياء والملائكة[١]

وقال: وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إن النصارى يزعمون أن الحواريين الذين اتبعوا المسيح أفضل من إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء والمرسلين، ويزعمون أن الحواريين رسل شافههم الله بالخطاب؛ لأنهم يقولون: إن الله هو المسيح، ويقولون أيضًا: إن المسيح ابن الله.

والرافضة تجعل الأئمة الاثني عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وغاليتهم يقولون: إنهم أفضل من الأنبياء؛ لأنهم يعتقدون فيهم الإلهية، كما اعتقدته النصارى في المسيح.

والنصارى يقولون: إن الدين مسلَّم للأحبار والرهبان، فالحلال ما حللوه والحرام ما حرَّموه، والدين ما شرعوه.

والرافضة تزعم أن الدين مسلَّم إلى الأئمة، فالحلال ما حلَّلوه والحرام ما حرّموه، والدين ما شرعوه[٣]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الصوفية في المفاضلة بين الأولياء والنبيين والملائكة.

- قولهم في معرفة الأئمَّة

زعم أكثرهم أن معرفة أئمتهم واجبة على كل إنسان، ومن لم يعرفهم حتى يموت مات ميتة جاهلية، وذهب بعضهم إلى عدم وجوب ذلك.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في الأئمة: هل يسع جهلهم؟ وهل الواجب عرفانهم فقط، أما الواجب عرفانهم والقيام بالشرائع التي جاء بها الرسول ﷺ؟ وهم أربع فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أنَّ معرفة الأئمة واجبة، وأن القيام بالشرائع التي جاء بها الرسولُ واجب، وأن من جَهِلَ الإمام فمات مات مِيتَةً جاهليَّةً.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٧، ٤٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٧)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٨١، ٤٨٢).

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن معرفة الإمام إذا أدركها الإنسان لم تلزمه شريعةٌ، ولم تجب عليه فريضة، وإنما على الناس أن يعرفوا الأئمة فقط فإذا عرفوهم فلا شيء عليهم.

والفرقة الثالثة منهم: وهم «اليعفوريَّة» يزعمون أنه قد يَسَع جهل الأئمة، وهم بذلك لا مؤمنون ولا كافرون.

والفرقة الرابعة منهم: يقولون في القدر بقول المعتزلة: إن المعارف ضرورة، ويفارقون اليعفوريَّة في جهل الأئمة، ولا يستحلون الخصومة في الدين، واليعفوريَّة أيضًا لا تستحلها[1]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: الوجه السادس: قوله: فقال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

يقال له: أولًا: مَن روى هذا الحديث بهذا اللفظ، وأين إسناده؟ وكيف يجوز أن يُحتج بنقل عن النبي ﷺ من غير بيان الطريق الذي به يثبت أن النبي ﷺ قاله؟!

وهذا لو كان مجهول الحال عند أهل العلم بالحديث، فكيف وهذا الحديث بهذا اللفظ لا يُعرف؟!

إنما الحديث المعروف مثل ما روى مسلم في صحيحه عن نافع، قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع -حين كان من أمر الحَرَّة ما كان زمن يزيد ابن معاوية- فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله، سمعته يقول: «من خلع يدًا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية».

وهذا حدَّث به عبد الله بن عمر لعبد الله بن مطيع بن الأسود لما خلعوا طاعة أمير وقتهم يزيد، مع أنه كان فيه من الظلم ما كان، ثم إنه اقتتل هو وهم، وفعل بأهل الحَرَّة أمورًا منكرة.

فعُلم أن هذا الحديث دلَّ على ما دل عليه سائر الأحاديث الآتية من أنه لا يُخرَج على ولاة أمور المسلمين بالسيف، وأن من لم يكن مطيعًا لولاة الأمور مات ميتة جاهلية، وهذا ضد قول الرافضة، فإنهم أعظم الناس مخالفة لولاة الأمور، وأبعد الناس عن طاعتهم إلا كرهًا.

ونحن نطالبهم أولًا بصحة النقل، ثم بتقدير أن يكون ناقله واحدًا، فكيف يجوز أن يثبت أصل الإيمان بخبر مثل هذا الذي لا يُعرف له ناقل؟! وإن عُرف له ناقل أمكن خطؤه وكذبه، وهل يثبت أصل الإيمان إلا بطريق علمي؟!

الوجه السابع: أن يقال: إن كان هذا الحديث من كلام النبي ﷺ، فليس فيه حجة لهذا القائل،

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٩، ٥٠).

أن النبي ﷺ قد قال: «من مات مِيتة جاهلية»، في أمور ليست من أركان الإيمان التي من تركها كان كافرًا.

كما في صحيح مسلم عن جُندب بن عبد الله البجلي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قُتل تحت راية عُمِّيَّة يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقِتْلَته جاهلية»، وهذا الحديث يتناول من قاتل في العصبية، والرافضة رءوس هؤلاء، ولكن لا يكفر المسلم بالاقتتال في العصبية، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، فكيف يكفر بما هو دون ذلك؟!

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، ثم مات، مات مِيتة جاهلية»، وهذا حال الرافضة فإنهم يخرجون عن الطاعة ويفارقون الجماعة.

وفي الصحيحين عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإن من فارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»، وفي لفظ: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإن من خرج من السلطان شبرًا، مات ميتة جاهلية».

وهذه النصوص مع كونها صريحة في حال الرافضة، فهي وأمثالها المعروفة عند أهل العلم، لا تلك اللفظ الذي نقله.

الوجه الثامن: أن هذا الحديث الذي ذكره حجة على الرافضة؛ لأنهم لا يعرفون إمام زمانهم، فإنهم يدَّعون أنه الغائب المنتظر محمد بن الحسن الذي دخل سرداب سامرًا سنة ستين ومائتين أو نحوها، ولم يميز بعد، بل كان عمره إما سنتين أو ثلاثًا أو خمسًا أو نحو ذلك، وله الآن -على قولهم- أكثر من أربعمائة وخمسين سنة ولم يُر له عين ولا أثر، ولا سُمع له حس ولا خبر.

فليس فيهم أحد يعرفه لا بعينه ولا صفته، لكن يقولون إن هذا الشخص الذي لم يره أحد ولم يسمع له خبر هو إمام زمانهم، ومعلوم أن هذا ليس هو معرفة بالإمام.

ونظير هذا أن يكون لرجل قريب من بني عمه في الدنيا ولا يعرف شيئًا من أحواله، فهذا لا يعرف ابن عمه، وكذلك المال المُلْتَقَط إذا عَرف أن له مالكًا ولم يعرف عينه، لم يكن عارفًا لصاحب اللقطة، بل هذا أعرف؛ لأن هذا يمكن ترتيب بعض أحكام الملك والنسب عليه، وأما المنتظر فلا يعرف له حال ينتفع به في الإمامة.

فإن معرفة الإمام يُخرِج الإنسان من الجاهلية، هي المعرفة التي يحصل بها طاعة وجماعة، خلاف ما كان عليه أهل الجاهلية، فإنهم لم يكن لهم إمام يجمعهم ولا جماعة تعصمهم، والله تعالى بعث محمدًا ﷺ وهداهم به إلى الطاعة والجماعة، وهذا المنتظر لا يحصل بمعرفته طاعة ولا جماعة، فلم يُعرف معرفة تخرج الإنسان من حال الجاهلية، بل المنتسبون إليه أعظم الطوائف جاهلية، وأشبههم بالجاهلية، وإن لم يدخلوا في طاعة غيرهم إما طاعة كافر وإما طاعة مسلم هو عندهم من الكفار أو النَّواصب لم ينتظم لهم مصلحة؛ لكثرة اختلافهم وافتراقهم وخروجهم عن الطاعة والجماعة.

وهذا يتبين بالوجه التاسع: وهو أن النبي ﷺ أمر بطاعة الأئمة الموجودين المعلومين، الذين لهم سلطان يقدرون به على سياسة الناس، لا بطاعة معدوم ولا مجهول، ولا من ليس له سلطان، ولا قدرة على شيء أصلًا، كما أمر النبي ﷺ بالاجتماع والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، ولم يأمر بطاعة الأئمة مطلقًا، بل أمر بطاعتهم في طاعة الله دون معصيته، وهذا يبين أن الأئمة الذين أمر بطاعتهم في طاعة الله ليسوا معصومين.

ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلُّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من وَلِيَ عليه والٍ، فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعنَّ يدًا من طاعة».

وفي صحيح مسلم عن أم سَلَمة، أن النبي ﷺ قال: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلُّوا».

وهذا يبين أن الأئمة هم الأمراء ولاة الأمور، وأنه يُكره ويُنكر ما يأتونه من معصية الله، ولا تنزع اليد من طاعتهم، بل يطاعون في طاعة الله، وأن منهم خيارًا وشرارًا، من يُحَب ويُدعى له ويُحب الناس ويدعو لهم، ومن يبغض ويدعو على الناس ويبغضونه ويدعون عليه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر»، قالوا: فما تأمر؟ قال: «فُوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، فقد أخبر أن بعده خلفاء كثيرين، وأمر أن يوفى ببيعة الأول فالأول، وأن يعطوهم حقَّهم.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إنكم سترون بعدي أَثَرة وأمورًا تنكرونها»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «أدوا إليهم حقَّهم، وسلوا الله حقكم»، وفي لفظ: «ستكون أثرة وأمور تنكرونها»، قالوا: يا رسول، فما تأمرنا؟ قال: «تؤدون الحقَّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم».

وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت، قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وعلى أثره علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحقِّ حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم.

وفي الصحيحين عن ابن عمر: عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ١١٠- ١١٩).

- قولهم في علم الأئمة

يزعمون أن أئمتهم يعلمون جميع أمور الدين وأحكام الشريعة، وذهب أكثرهم إلى أنهم يعلمون أيضًا جميع أمور الدنيا ما كان وما يكون.

أقوال العلماء

قال الأشعري: اختلفت الرَّوافض في الإمام: هل يعلم كل شيء أم لا؟ وهم فرقتان:

الفرقة الأولى منهم: يزعمون أنَّ الإمام يعلم كل ما كان وكلّ ما يكون، ولا يخرج شيء عن علمه من أمر الدين ولا من أمر الدنيا.

وزعم هؤلاء أن الرسول كان كاتبًا، ويعرف الكتابة وسائر اللغات.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الإمام يعلم كلّ أمور الأحكام والشريعة، وإن لم يُحط بكل شيء علمًا؛ لأنَّه القيِّمُ بالشرائع والحافظ لها، ولما يحتاج الناسُ إليه، فأمَّا ما لا يحتاجون إليه فقد يجوز ألَّا يعلمَه الإمام[1]

وقال السكسكيُّ: وأكثرهم يقول: إن الإمام يعلم كل شيء مما كان وما يكون في أمر الدين والدنيا، حتى عدد الحصى وقطر الأمطار وورق الشجر[2].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: تجد عند الرافضة والمتشيعة ومن أخذ عنهم مِن دعوى علوم الأسرار والحقائق التي يدعون أخذها عن أهل البيت، إما من العلوم الدينية، وإما مِن علم الحوادث الكائنة ما هو عندهم من أجل الأمور التي يجب التواصي بكتمانها، والإيمان بما لا يعلم حقيقته من ذلك، وجميعها كذب مختلق وإفك مفترى.

فإن هذه الطائفة الرافضة من أكثر الطوائف كذبًا وادعاء للعلم المكتوم، ولهذا انتسبت إليهم الباطنية والقرامطة.

وهؤلاء خرج أولهم في زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وصاروا يدعون أنه خص بأسرار من العلوم والوصية، حتى كان يسأله عن ذلك خواص أصحابه، فيخبرهم بانتفاء ذلك. ولما بلغه أن ذلك قد قيل كان يخطب الناس وينفي ذلك عن نفسه.

وقد خرَّج أصحاب الصحيح كلام عليٍّ هذا من غير وجه، مثل ما في الصحيح عن أبي جحيفة قال: سألت عليًّا هل عندكم شيء ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهما يعطيه الله الرجل في كتابه وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٠).

(٢) البرهان ص(٦٥، ٦٦).

الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر.

ولفظ البخاري: هل عندكم شيء من الوحي غير ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن.

وفي الصحيحين عن إبراهيم التيميّ، عن أبيه -وهذا من أصح إسناد على وجه الأرض- عن علي قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: «المدينة حرام ما بين عَير إلى ثور»، وفي رواية لمسلم خطبنا علي بن أبي طالب فقال: من زعم أن عندنا كتابًا نقرؤه إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة، قال -وصحيفته معلقة في قراب سيفه-: فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: «المدينة حرام...» الحديث.

وأما الكذب والأسرار التي يدعونها عن جعفر الصادق: فمن أكبر الأشياء كذبًا حتى يقال: ما كذب على أحد ما كذب على جعفر رضي الله عنه.

ومن هذه الأمور المضافة كتاب «الجفر» الذي يدعون أنه كتب فيه الحوادث، والجفر ولد الماعز. يزعمون أنه كتب ذلك في جلده، وكذلك كتاب البطاقة الذي يدعيه ابن الحلي ونحوه من المغاربة، ومثل كتاب: الجدول في الهلال، والهفت عن جعفر وكثير من تفسير القرآن وغيره.

ومثل كتاب رسائل إخوان الصفا الذي صنفه جماعة في دولة بني بويه ببغداد، وكانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنفة، جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدلين، وبين الحنيفيّة، وأتوا بكلام المتفلسفة وبأشياء من الشريعة، وفيه من الكفر والجهل شيء كثير، ومع هذا فإن طائفة من الناس - من بعض أكابر قضاة النواحي- يزعم أنه من كلام جعفر الصادق. وهذا قول زنديق وتشنيع جاهل.

ومثل ما يذكره بعض العامة من ملاحم «ابن غنضب»؛ ويزعمون أنه كان معلمًا للحسن والحسين، وهذا شيء لم يكن في الوجود باتفاق أهل العلم، وملاحم «ابن غنضب» إنما صنفها بعض الجهّال في دولة نور الدين ونحوها، وهو شعر فاسد يدل على أن ناظمه جاهل[(١)].

وقال: في الصحيح أنه قيل لعلي رضي الله عنه: هل ترك عندكم رسول الله شيئًا؟ وفي لفظ: هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة: وفيها العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر.

وبهذا الحديث ونحوه من الأحاديث الصحيحة: استدل العلماء على أن كل ما يذكر عن علي وأهل البيت؛ من أنهم اختصوا بعلم خصهم به النبي ﷺ دون غيرهم كذب عليهم، مثل ما يذكر منه الجفر، والبطاقة والجدول، وغير ذلك وما يأثره القرامطة الباطنية عنهم، فإنه قد كذب على

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٧- ٧٩)، (٤/ ٧٨، ٧٩).

جعفر الصادق ﵁، ما لم يكذب على غيره. وكذلك كذب على عليٍّ ﵁، وغيره من أئمة أهل البيت ﵃[١].

وقال: أما من دون عليٍّ فإنما كان يحصل للناس من علمه ودينه مثل ما يحصل من نظرائه، وكان عليٌّ بن الحسين، وابنه أبو جعفر، وابنه جعفر ابن محمد يعلِّمون الناس ما علَّمهم الله، كما علمه علماء زمانهم، وكان في زمنهم من هو أعلم منهم وأنفع للأمة.

وهذا معروف عند أهل العلم، ولو قُدِّر أنهم كانوا أعلم وأدْيَن، فلم يحصل من أهل العلم والدين ما يحصل من ذوي الولاية من: القوة، والسلطان، وإلزام الناس بالحق، ومنعهم باليد عن الباطل.

وأما من بعد الثلاثة كالعسكريين فهؤلاء لم يظهر عليهم علم تستفيده الأمة، ولا كان لهم يد تستعين به الأمة، بل كانوا كأمثالهم من الهاشميين لهم حرمة ومكانة، وفيهم من معرفة ما يحتاجون إليه في الإسلام والدين ما في أمثالهم، وهو ما يعرفه كثير من عوام المسلمين.

وأما ما يختص به أهل العلم، فهذا لم يُعرف عنهم، ولهذا لم يأخذ عنهم أهل العلم، كما أخذوا عن أولئك الثلاثة، ولو وجدوا ما يُستفاد لأخذوا، ولكن طالب العلم يعرف مقصوده.

وإذا كان للإنسان نسب شريف، كان ذلك مما يعينه على قبول الناس منه، ألا ترى أن ابن عبَّاس لما كان كثير العلم عَرَفت الأمة له ذلك، واستفادت منه، وشاع ذكره بذلك في الخاصة والعامة.

وكذلك الشافعيّ لما كان عنده من العلم والفقه ما يُستفاد منه، عرف المسلمون له ذلك، واستفادوا ذلك منه، وظهر ذكره بالعلم والفقه.

ولكن إذا لم يجد الإنسان مقصوده في محل لم يطلبه منه، ألا ترى أنه لو قيل عن أحد: إنه طبيب، أو نحوي، وعُظِّم حتى جاء إليه الأطباء أو النحاة، فوجدوه لا يعرف من الطب والنحو ما يطلبون، أعرضوا عنه، ولم ينفعه مجرد دعوى الجُهَّال وتعظيمهم[٢].

- قولهم في أعلام ومعجزات الأئمة

يزعمون أن أئمتهم تظهر عليهم الأعلام والمعجزات كالرسل، وبعضهم يزعم أيضًا أنه يهبط عليهم الملائكة بالوحي، وبعضهم يزعم أيضًا أنه يجوز لهم أن ينسخوا الشرائع ويغيروها، وينفي بعضهم كل ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢١٧)، (٦/ ٥٧٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٨٧، ٣٨٨).

أقوال العلماء

قال الأشعري: اختلفت الروافض في الأئمة: هل يجوز أن تظهر عليهم الأعلام أم لا؟ وهم أربع فرق:

الفرقة الأولى منهم: يزعمون أنَّ الأئمة تظهر عليهم الأعلام والمعجزات، كما تظهر على الرُّسُلِ؛ لأنَّهم حُجَجُ الله سبحانه وتعالى، كما أنَّ الرسل حُجَجُ الله، ولم يجيزوا هُبَوط الملائكة بالوحي عليهم.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الأعلام تظهر عليهم، وتهبط الملائكة بالوحي عليهم، ولا يجوز أن ينسخوا الشرائع، ولا يبدلوها، ولا يغيروها.

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أنَّ الأعلام تظهر عليهم، وتهبط الملائكة بالوحي عليهم، ويجوز أن ينسخوا الشرائع، ويبدلوها، ويغيروها.

والفرقة الرابعة منهم: يزعمون أنَّ الأعلام لا تظهر إلا على الرسُل، وكذلك الملائكة لا تهبط إلَّا عليهم بالوحي، ولا يجوز أن ينسخ الله سبحانه شريعتَنَا على ألسنتهم، بل إنَّما يحفظون شرائع الرسل، ويقومون بها [١].

وقال السكسكيُّ: ويقولون: إن الأئمة تظهر علي يدهم المعجزات كالرسل[٢]

- قولهم في الرجعة

يزعمون رجعة أئمتهم وغيرهم من الأموات قبل يوم القيامة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب، وهذا قول الأكثر منهم، وزعموا أنه لم يكن في بني إسرائيل شيء إلا ويكون في هذه الأمة مثله، وأن الله سبحانه قد أحيا قومًا من بني إسرائيل بعد الموت فكذلك يحيي الأموات في هذه الأمة ويردهم إلى الدنيا قبل يوم القيامة.

والفرقة الثانية منهم: وهم أهل الغلو: ينكرون القيامة والآخرة، ويقولون: ليس قيامة، ولا آخرة، وإنما هي أرواح تتناسخ في الصور، فمن كان محسنًا جُوزِيَ بأن يُنْقَلَ روحُه إلى جسد لا يلحقه فيه ضرر ولا ألم، ومن كان مسيئًا جُوزِيَ بأن يُنْقَلَ روحه إلى أجساد يلحق الروحَ في كونه

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٠، ٥١).

(٢) البرهان ص(٦٦).

فيها الضررُ والألم، وليس شيء غير ذلك، وأنَّ الدنيا لا تزال أبدًا هكذا[1].

وقال ابن حزم: وقال آخرون منهم برجعة علي إلى الدنيا[2].

وقال السكسكيُّ عن أكثرهم: يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم الحساب[3].

نقض قولهم

قال الملطيُّ: قولهم في الرجعة أكذبهم فيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٠]، يخبر أن أهل القبور لا يبعثون إلى يوم النشور، فمن خالف لحكم القرآن فقد كفر[4].

- قولهم في الخروج على الأئمة

لا يرون الخروج على أي إمام كان إلا في وجود إمامهم المعصوم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأجمعت الرَّوافض على إبطال الخروج، وإنكار السيف ولو قتلت، حتى يظهر لها الإمام، وحتى يأمرها بذلك.

واعتلَّتْ في ذلك بأن النبيَّ ﷺ قبل أن يأمره الله عز وجل بالقتال كان محرَّمًا على أصحابه أن يقاتلوا[5].

وقال: وأنكروا الخروج على أئمة الجور، وقالوا: ليس يجوز ذلك دون الإمام المنصوص على إمامته[6].

وقال: وقالت الرَّوافض بإبطال السيف ولو قتلت حتى يظهر الإمام فيأمر بذلك[7]

وقال شيخ الإسلام: وأما السيف. . .، والإماميَّة لا تراه. . .، ولهذا لا يغزون الكفار، ولا يقاتلون مع أئمة الجماعة، إلا من يلتزم مذهبه منهم[8].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الخروج على الأئمة، وسيأتي مزيد بيان عند قول الزَّيديَّة فيه.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٦).

(٢) الفصل (٢/ ٩٠).

(٣) البرهان ص(٦٥).

(٤) التنبيه والرد ص(١٩).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(٥٨).

(٦) مقالات الإسلاميين ص(١٧)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(٧) مقالات الإسلاميين ص(٤٥١)، الفصل (٤/ ١٣٢).

(٨) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٦).

- قولهم في تصويب عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه

يقولون بتصويب علي بن أبي طالب في جميع أموره الدينية والدنيوية.

أقوال العلماء

قال الأشعريّ: وزعموا أن عليًّا رضوان الله عليه كان مصيبًا في جميع أحواله، وأنه لم يخطئ في شيء من أمور الدين، إلا الكامليَّة أصحاب أبي كامل فإنهم أكفروا الناس بترك الاقتداء به، وأكفروا عليًّا بترك الطلب[(١)]

وقال: وأجمعت الرَّوافض على تصويب علي رضوان الله عليه في حربه من حارب وتخطئة من حارب عليًّا[(٢)]

وقال: وقالت الرَّوافض: الحكمان مخطئان وعلي مصيب؛ لأنه حكَّم للتقية لما خاف على نفسه، وقال قائلون من الرَّوافض: تحكيم علي لا على طريق التَّقِيَّة وهو صواب[(٣)]

وقال: قالت الروافض والزَّيديَّة وبعض المعتزلة إبراهيم النظام وبشر بن المعتمر وبعض المرجئة: إن عليًّا كان مصيبًا في حروبه وإن من قاتله كان على الخطأ فخطئوا طلحة والزبير وعائشة ومعاوية[(٤)]

وقال ابن حزم: قال جميع الشيعة، وبعض المرجئة، وجمهور المعتزلة، وبعض أهل السنة: إن عليًّا كان المصيب في حربه، وكل من خالفه على خطأ[(٥)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: اضطرب الناس في خلافة عليٍّ على أقوال:

فقالت طائفة: إنه إمام، وإن معاوية إمام، وإنه يجوز نصب إمامين في وقت إذا لم يمكن الاجتماع على إمام واحد، وهذا يحكى عن الكرَّاميَّة وغيرهم.

وقالت طائفة: لم يكن في ذلك الزمان أمام عام، بل كان زمان فتنة، وهذا قول طائفة من أهل الحديث البصريين وغيرهم، ولهذا لما أظهر الإمام أحمد التربيع بعلي في الخلافة، وقال: من لم يربّع بعليٍّ في الخلافة فهو أضل من حمار أهله، أنكر ذلك طائفة من هؤلاء، وقالوا: قد أنكر خلافته من لا يقال: هو أضل من حمار أهله، يريدون من تخلَّف عنها من الصحابة، واحتج أحمد وغيره على

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٧)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧٢).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٦)، وانظر: الفصل (٤/ ١١٩- ١٢٦).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٤٥٣).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٤٥٦).
(٥) الفصل (٤/ ١١٩).

خلافة عليٍّ بحديث سفينة عن النبي ﷺ: «تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ثم تصير ملكًا»، وهذا الحديث قد رواه أهل السنن كأبي داود وغيره.

وقالت طائفة ثالثة: بل عليٌّ هو الإمام، وهو مصيب في قتاله لمن قاتله، وكذلك من قاتله من الصحابة كطلحة والزبير كلهم مجتهدون مصيبون، وهذا قول من يقول: كل مجتهد مصيب، كقول البصريين من المعتزلة: أبي الهذيل، وأبي علي، وأبي هاشم، ومن وافقهم من الأشعريَّة: كالقاضي أبي بكر، وأبي حامد، وهو المشهور عن أبي الحسن الأشعري، وهؤلاء أيضًا يجعلون معاوية مجتهدًا مصيبًا في قتاله، كما أن عليًّا مصيب.

وهذا قول طائفة من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، ذكره أبو عبد الله بن حامد، ذكر لأصحاب أحمد في المقتتلين يوم الجمل وصفِّين ثلاثة أوجه:

أحدها: كلاهما مصيب.

والثاني: المصيب واحد لا بعينه.

والثالث: أن عليًّا هو المصيب ومن خالفه مخطئ.

والمنصوص عن أحمد وأئمة السلف أنه لا يُذم أحد منهم، وأن عليًّا أولى بالحق من غيره، أما تصويب القتال فليس هو قول أئمة السنة، بل هم يقولون إن تركه كان أولى.

وطائفة رابعة: تجعل عليًّا هو الإمام، وكان مجتهدًا مصيبًا في القتال، ومن قاتله كانوا مجتهدين مخطئين، وهذا قول كثير من أهل الرأي والكلام، من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم.

وطائفة خامسة تقول: إن عليًّا مع كونه كان خليفة، وهو أقرب إلى الحق من معاوية، فكان ترك القتال أولى، وينبغي الإمساك عن القتال لهؤلاء وهؤلاء، فإن النبي ﷺ قال: «ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي»، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال عن الحسن: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فتتين عظيمتين من المسلمين»، فأثنى على الحسن بالإصلاح، ولو كان القتال واجبًا أو مستحبًا لما مدح تاركه.

قالوا: وقتال البغاة لم يأمر الله به ابتداء، ولم يأمر بقتال كل باغ، بل قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجرَات: الآية ٩] ، فأمر إذا اقتتل المؤمنون بالإصلاح بينهم، فإن بغت إحداهما على الأخرى قوتلت.

قالوا: ولهذا لم يحصل بالقتال مصلحة، والأمر الذي يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته، وفي سنن أبي داود: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا يزيد، أنبأنا هشام، عن محمد -يعني ابن سيرين- قال: قال حذيفة: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تضرك الفتنة».

قال أبو داود: حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأشعث بن سليم، عن أبي بردة عن ثعلبة بن ضبيعة، قال: دخلنا على حذيفة، فقال: إني لأعرف رجلًا لا تضره الفتن شيئًا. قال: فخرجنا فإذا فسطاط مضروب، فدخلنا فإذا فيه محمد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك، فقال: ما أريد أن يشتمل علي شيء من أمصاركم حتى تنجلي عما انجلت.

فهذا الحديث يبين أن النبي ﷺ أخبر أن محمد بن مسلمة لا تضره الفتنة، وهو ممن اعتزل في القتال، فلم يقاتل لا مع علي ولا مع معاوية، كما اعتزل سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وعبد الله ابن عمر، وأبو بكرة، وعمران بن حصين، وأكثر السابقين الأولين.

وهذا يدل على أنه ليس هناك قتال واجب ولا مستحب، إذ لو كان كذلك لم يكن ترك ذلك مما يُمدح به الرجل، بل كان مَنْ فعل الواجب أو المستجب أفضل ممن تركه، ودل ذلك على أن القتال قتال فتنة.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، والساعي خير من الموضع»**، وأمثال ذلك من الأحاديث الصحيحة التي تبين أن ترك القتال كان خيرًا من فعله من الجانبين، وعلى هذا جمهور أئمة أهل الحديث والسنة؛ وهذا مذهب مالك، والثوري وأحمد وغيرهم.

وهذه أقوال من يُحسِن القول في عليٍّ وطلحة والزبير ومعاوية، ومن سوى هؤلاء من الخوارج والروافض والمعتزلة فمقالاتهم في الصحابة لون آخر، فالخوارج تكفِّر عليًّا وعثمان ومن والاهما، والروافض تكفر جمهور الصحابة كالثلاثة ومن والاهم، وتفسِّقهم، ويكفِّرون من قاتل عليًّا، ويقولون: هو إمام معصوم، وطائفة من المروانية تفسقه، وتقول: إنه ظالم معتد، وطائفة من المعتزلة تقول: قد فسق، إما هو، وإما مَنْ قاتله، لكن لا يعلم عينه، وطائفة أخرى منهم تفسق معاوية وعمرًا دون طلحة والزبير وعائشة[1]

- قولهم فيمَّن حارب عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه

يقولون بتضليل وتكفير أو تفسيق من حارب عليَّ بن أبي طالب.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في مُحَارب عليٍّ، وهم فرقتان:

الفرقة الأولى منهم: يقولون بإكفار مَن حارب عليًّا وتضليله، ويشهدون بذلك على طَلْحة والزبير ومُعَاوية بن أبي سفيان، وكذلك يقولون فيمن ترك الائتمام به بعد الرسول عليه السلام.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنَّ مَن حارب عليًّا فاسق، ليس بكافر؛ إلا أن يكون حارب

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/٥٣٧- ٥٤٤)، (٤/٣٨٨- ٣٩٣)، (٤/٤٠١- ٤٢٦)، (٤/٤٤٧- ٤٥٢).

عليًا عنادًا للرسول ﷺ، وردًا عليه، فهم كفار، وكذلك يقولون في ترك أصحاب رسول الله ﷺ الائتمامَ بعلي بن أبي طالب بعده: إنهم إن كانوا تركوا الائتمام به عنادًا للرسول وردًا عليه فهم كفار، وإن كانوا تركوا ذلك لا على طريق العناد والتكذيب للرسول ﷺ والرد عليه فَسَقُوا ولم يكفروا[1].

وقال السكسكيُّ: وأكثرهم شهد على من حارب عليًا بالكفر[2].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وهذا مما ضلَّ به من ضل من الشيعة، حيث ظنوا أن من قاتل عليًا كفر؛ فإن هذا خلاف القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فأخبر سبحانه أنهم مؤمنون مقتتلون، وأمر إن بغت إحداهما على الأخرى أن تقاتل التي تبغي، فإنه لم يكن أمر بقتال إحدهما ابتداء، ثم أمر إذا فاءت إحداهما بالإصلاح بينهما بالعدل، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] ، فدلَّ القرآن على إيمانهم وإخوتهم مع وجود الاقتتال والبغي، وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به[3].

وقال: والصحابة الذين لم يقاتلوا معه كانوا يعتقدون أن ترك القتال خيرٌ من القتال، أو أنه معصية، فلم يجب عليهم موافقته في ذلك.

والذين قاتلوه لا يخلو: إما أن يكونوا عصاة، أو مجتهدين مخطئين، أو مصيبين، وعلى كل تقدير فهذا لا يقدح في إيمانهم ولا يمنعهم الجنة.

فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾، فسمَّاهم: إخوة ووصفهم بأنهم مؤمنون، مع وجود الاقتتال بينهم، والبغي من بعضهم على بعض.

فمن قاتل عليًا فإن كان باغيًا فليس ذلك بمخرجه من الإيمان، ولا بموجب له النيران، ولا مانع له من الجنان، فإن البغي إذا كان بتأويل كان صاحبه مجتهدًا.

ولهذا اتَّفق أهل السنة على أنه لا تفسق واحدة من الطائفتين، وإن قالوا في إحداهما: إنهم كانوا بغاة؛ لأنهم كانوا متأولين مجتهدين، والمجتهد المخطئ لا يَكْفُر ولا يفسق، وإن تعمد البغي فهو ذنب

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٧).
(٢) البرهان ص(٦٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٨٩، ٩٠).

من الذنوب، والذنوب يرفع عقابها بأسباب متعددة؛ كالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة، وشفاعة النبي ﷺ، ودعاء المؤمنين، وغير ذلك[١].

وقال: وعليٌّ ﷺ لم يكن قتاله يوم الجمل وصفِّين بأمر من النبي ﷺ وإنما كان رأيًا رآه.

وقال أبو داود في سننه: حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم الهذلي، حدَّثنا ابن عليَّة، عن يونس، عن الحسن، عن قيس بن عبَّاد، قال: قلت لعليٍّ ﷺ: أخبرنا عن مسيرك هذا: أعهد عهده إليك رسول الله ﷺ، أم رأى رأيتَه؟ قال: ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ شيئًا، ولكنه رأي رأيته.

ولو كان محاربُ عليٍّ محاربًا لرسول الله ﷺ مرتدًا، لكان عليٌّ يسير فيهم السيرة في المرتدين، وقد تواتر عن عليّ يوم الجمل لما قاتلهم أنه لم يتَّبع مدبرهم، ولم يُجهز على جريحهم، ولم يغنم لهم مالًا، ولا سبى لهم ذرية، وأمر مناديه ينادي في عسكره: ألا يُتبع لهم مدبر، ولا يُجهز على جريحهم، ولا تُغنم أموالهم، ولو كانوا عنده مرتدِّين لأجهز على جريحهم، واتَّبع مدبرهم.

وهذا مما أنكره الخوارج عليه، وقالوا له: إن كانوا مؤمنين فلا يحلُّ قتالهم، وإن كانوا كفَّارًا فلم حَرَّمت أموالهم ونساءهم؟ فأرسل إليهم ابن عباس ﷺ فناظرهم، وقال لهم: كانت عائشة فيهم، فإن قلتم: إنها ليست أمَّنا كفرتم بكتاب الله، وإن قلتم: هي أمَّنا، واستحللتم وطأها كفرتم بكتاب الله.

وكذلك أصحاب الجمل كان يقول فيهم: إخواننا بغوا علينا طهَّرهم السيف.

وقد نُقل عنه ﷺ أنه صلَّى على قتلى الطائفتين، وسيجيء إن شاء الله بعض الآثار بذلك.

وإن كان أولئك مرتدين، وقد نزل الحسن عن أمر المسلمين، وسلَّمه إلى كافر مرتد -كان المعصوم عندهم قد سلَّم أمر المسلمين إلى المرتدين، وليس هذا من فعل المؤمنين، فضلًا عن المعصومين.

وأيضًا فإن كان أولئك مرتدين، والمؤمنون أصحاب عليٍّ، لكان الكفَّار المرتدُّون منتصرين على المؤمنين دائمًا.

والله تعالى يقول في كتابه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: الآية ٥١]، ويقول في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، ويقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

وهؤلاء الرافضة، الذين يدَّعون أنهم المؤمنون، إنما لهم الذل والصغار، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٢].

وأيضًا، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٩٣، ٣٩٤).

[الحُجرَات: الآية ٩] ، فقد جعلهم مؤمنين إخوة مع الاقتتال والبغي.

وأيضًا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «تمرق مارقة على حين فُرقة من المسلمين تقتلهم أَوْلى الطائفتين بالحق»، وقال: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، وقال لعمَّار: «تقتلك الفئة الباغية» لم يقل الكافرة.

وهذه الأحاديث صحيحة عند أهل العلم بالحديث، وهي مروية بأسانيد متنوعة، لم يأخذ بعضهم عن بعض، وهذا مما يوجب العلم بمضمونها، وقد أخبر النبي ﷺ أن الطائفتين المفترقتين مسلمتان، ومدح من أصلح الله به بينهما، وقد أخبر أنه تمرق مارقة وأنه تقتلها أدنى الطائفتين إلى الحقّ.

ثم يقال لهؤلاء الرافضة: لو قالت لكم النَّواصب: عليٌّ قد استحل دماء المسلمين، وقاتلهم بغير أمر الله ورسوله على رياسته، وقد قال النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وقال: «لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، فيكون عليٌّ كافرًا لذلك -لم تكن حجتكم أقوى من حجتهم؛ لأن الأحاديث التي احتجُّوا بها صحيحة[١].

وقال: وبالجملة نحن نعلم بالاضطرار من سيرة عليٍّ ﷺ أنه لم يكن يكفِّر الذين قاتلوه، بل ولا جمهور المسلمين، ولا الخلفاء الثلاثة، ولا الحسن ولا الحسين كفَّروا أحدًا من هؤلاء، ولا عليٌّ بن الحسين، ولا أبو جعفر، فإن كان هؤلاء كفَّارًا فأول من خالف النصوص عليّ وأهل بيته[٢].

- قولهم في الصحابة

يبغضون ويلعنون ويتبرءون ويطعنون في الصحابة ﷺ بالسب والتضليل والتكفير، خصوصًا كبار الصحابة، كأبي بكر وعمر وغيرهما.

أقوال العلماء

قال الملطي عنهم: وأن أبا بكر الصديق ﷺ وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة ﷺ أجمعين عندهم من شرّ الأمة وأكفرها، يلعنوهم ويتبرءون منهم، وأنه ما بقي مع علي على الإسلام إلا أربعة سلمان وعمَّار وأبو ذر والمقداد بن الأسود[٣].

وقال الإسفراييني: اعلم أن جميع من ذكرناهم من فِرَق الإماميَّة متَّفقون على تكفير الصَّحابة[٤].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٩٦- ٥٠٠).

(٢) منهاج السنة النبوية (٧/ ٤٠٦- ٤٠٨).

(٣) التنبيه والرد ص(٢٥).

(٤) التبصير في الدين ص(٤١).

وقال الشهرستانيُّ: ثم إن الإماميَّة تخطَّت عن هذه الدرجة إلى الوقيعة في كبار الصحابة طعنًا وتكفيرًا، وأقله ظلمًا وعدوانًا[(١)]

وقال الرازي: وهم يكفِّرون الصحابة ﷺ، ويقولون: إن الخلق قد كفروا بعد النبي ﷺ، إلا عليًا وفاطمة والحسن والحسين والزبير وعمارًا وسلمان وأبا ذر ومقدادًا وبلالًا وصهيبًا[(٢)]

وقال السكسكيُّ: وتبرءوا من أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة ﷺ . . .، وقالوا: إن الأمة ارتدَّت بتركها إمامة علي[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: أهل البدع ذنوبهم ترك ما أمروا به من اتِّباع السنَّة وجماعة المؤمنين. . .، وكذلك الرافضة لا يرون عدالة الصحابة ومحبتهم، والاستغفار لهم، وهذا ترك واجب[(٤)]

وقال: فالرافضة لما كانت تسب «الصحابة» صار العلماء يأمرون بعقوبة من يسب الصحابة، ثم كفرت الصحابة وقالت عنهم أشياء قد ذكرنا حكمهم فيها في غير هذا الموضع[(٥)]

وقال: الرافضة تطعن في أبي بكرٍ، وعمر، وعامة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وسائر أئمة الإسلام [(٦)]

وقال: أبو بكر وعمر أبغضتهما الرافضة ولعنتهما دون غيرهم من الطوائف، ولهذا قيل للإمام أحمد: من الرافضي؟ قال: الذي يسب أبا بكر وعمر[(٧)]

وقال: يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ -يبغضون هؤلاء إلا عليَّ بن أبي طالب ﷺ، ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة -وكانوا ألفًا وأربعمائة- وقد أخبر الله أنه قد رضي عنهم.

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن جابر أيضًا أن غلام حاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسول الله، والله ليدخلن حاطب النار، فقال النبي ﷺ: **«كذبت إنه شهد بدرًا والحديبية»**.

وهم يتبرءون من جمهور هؤلاء، بل يتبرءون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلًا

(١) الملل والنحل (١/ ١٦٤، ١٦٥).
(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٥٦).
(٣) البرهان ص(٦٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٠٩).
(٦) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٣).
(٧) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٥).

نحو بضعة عشر[1].

وقال: إنهم خارجون عن جماعة المسلمين، يكفِّرون أو يفسِّقون أئمة الجماعة؛ كأبي بكر وعمر وعثمان، دع معاوية وملوك بني أمية وبني العباس، وكذلك يكفِّرون أو يفسِّقون علماء الجماعة وعبَّادهم؛ كمالك والثوريّ والأوزاعيّ والليث بن سعد وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي، وأمثال هؤلاء[2].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: هذه الأمة خير الأمم، وخيرها القرن الأول، كان القرن الأول أكمل الناس في العلم النافع، والعمل الصالح.

وهؤلاء المفترون وصفوهم بنقيض ذلك، بأنهم لم يكونوا يعلمون الحق ويتبعونه، بل كان أكثرهم عندهم يعلمون الحق ويخالفونه، كما يزعمونه في الخلفاء الثلاثة، وجمهور الصحابة والأمة، وكثير منهم عندهم لا يعلم الحق، بل اتبع الظالمين تقليدًا لعدم نظرهم المفضي إلى العلم، والذي لم ينظر قد يكون تركه النظر لأجل الهوى وطلب الدنيا، وقد يكون لقصوره ونقص إدراكه[3].

وقال: ذكر العلماء أن الرفض أساس الزندقة، وأن أول من ابتدع الرفض إنما كان منافقًا زنديقًا، وهو عبد الله بن سبأ، فإنه إذا قدح في السابقين الأولين فقد قدح في نقل الرسالة، أو في فهمها أو في اتِّباعها، فالرافضة تقدح تارة في علمهم بها، وتارة في اتِّباعهم لها وتحيل ذلك على أهل البيت وعلى المعصوم الذي ليس له وجود في الوجود[4].

وقال: وهذا هو أصل مذهب الرافضة، فإن الذي ابتدع الرفض كان يهوديًا أظهر الإسلام نفاقًا، ودسَّ إلى الجُهَّال دسائس يقدح بها في أصل الإيمان، ولهذا كان الرفض أعظم أبواب النفاق والزندقة، فإنه يكون الرجل واقفًا، ثم يصير مفضلًا، ثم يصير سبابًا، ثم يصير غاليًا، ثم يصير جاحدًا معطِّلًا، ولهذا انضمت إلى الرافضة أئمة الزنادقة من الإسماعيليَّة والنصيريَّة، وأنواعهم من القرامطة، والباطنية، والدرزية، وأمثالهم من طوائف الزندقة، والنفاق.

فإن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول قدح في الرسول عليه السلام، كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله وإنما طعنوا في أصحابه ليقول القائل:

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٩).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٧)، مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧).
(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٢).

رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين.

وأيضًا فهؤلاء الذين نقلوا القرآن، والإسلام، وشرائع النبي ﷺ، وهم الذين نقلوا فضائل علي غيره، فالقدح فيهم يوجب ألا يوثق بما نقلوه من الدين، وحينئذ فلا تثبت فضيلة لا لعلي ولا لغيره.

والرافضة جهال ليس لهم عقل، ولا نقل، ولا دين، ولا دنيا منصورة، فإنه لو طلب منهم الناصبي الذي يبغض عليًا، ويعتقد فسقه أو كفره -كالخوارج وغيرهم- أن يثبتوا إيمان علي وفضله لم يقدروا على ذلك، بل تغلبهم الخوارج، فإن فضائل علي إنما نقلها الصحابة الذين تقدح فيهم الرافضة، فلا يتيقن له فضيلة معلومة على أصلهم، فإذا طعنوا في بعض الخلفاء -بما يفترونه عليهم من أنهم طلبوا الرياسة وقاتلوا على ذلك- كان طعن الخوارج في علي بمثل ذلك وأضعافه أقرب من دعوى ذلك على من أطيع بلا قتال، ولكن الرافضة جهّال، متبعون الزنادقة.

والقرآن قد أثنى على الصحابة في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: الآية ١٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: الآية ٢٩]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح: الآية ١٨].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»، وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»، وقد ثبت عنه في الصحيح من غير وجه أنه قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وهذه الأحاديث مستفيضة، بل متواترة، في فضائل الصحابة، والثناء عليهم، وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون، فالقدح فيهم قدح في القرآن، والسنة، ولهذا تكلم الناس في تكفير الرافضة بما قد بسطناه في غير هذا الموضع (١).

وقال: وهذا حال أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة، فإنهم إن يتّبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ففيهم جهل وظلم، لا سيما الرافضة، فإنهم أعظم ذوي الأهواء جهلًا وظلمًا، يعادون

(١) مجموع الفتاوى (٤/٤٢٨- ٤٣٠)، (٣/٤٠٥- ٤١٤).

خيار أولياء الله تعالى من بعد النبيين، من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين تبعوهم بإحسان ﷺ ورضوا عنه، ويوالون الكفار والمنافقين من اليهود والنصارى والمشركين وأصناف الملحدين؛ كالنصيريَّة والإسماعيليَّة، وغيرهم من الضالين، فتجدهم أو كثيرًا منهم، إذا اختصم خصمان في ربهم من المؤمنين والكفار، واختلف الناس فيما جاءت به الأنبياء، فمنهم من آمن ومنهم من كفر -سواء كان الاختلاف بقول أو عمل؛ كالحروب التي بين المسلمين وأهل الكتاب والمشركين- تجدهم يعاونون المشركين وأهل الكتاب على المسلمين أهل القرآن.

كما قد جرَّبه الناس منهم غير مرة، في مثل إعانتهم للمشركين من الترك وغيرهم على أهل الإسلام بخراسان والعراق والجزيرة والشام وغير ذلك، وإعانتهم للنصارى على المسلمين بالشام ومصر وغير ذلك، في وقائع متعددة من أعظمها الحوادث التي كانت في الإسلام في المائة الرابعة والسابعة، فإنه لما قدم كفَّار الترك إلى بلاد الإسلام، وقُتل من المسلمين ما لا يحصى عدده إلا ربُّ الأنام، كانوا من أعظم الناس عداوة للمسلمين، ومعاونة للكافرين، وهكذا معاونتهم لليهود أمر شهير، حتى جعلهم الناس لهم كالحمير[1].

وقال: وأما أهل السنة فيتولون جميع المؤمنين، ويتكلمون بعلم وعدل، ليسوا من أهل الجهل، ولا من أهل الأهواء، ويتبرءون من طريقة الروافض والنواصب جميعًا، ويتولون السابقين والأولين كلهم، ويعرفون قدر الصحابة، وفضلهم، ومناقبهم، ويرعون حقوق أهل البيت التي شرعها الله لهم، ولا يرضون بما فعله المختار ونحوه من الكذَّابين، ولا ما فعله الحجاج ونحوه من الظالمين، ويعلمون مع هذا مراتب السابقين الأولين، فيعلمون أن لأبي بكر وعمر من التقدم والفضائل ما لم يشاركهما فيها أحد من الصحابة، لا عثمان، ولا علي، ولا غيرهما.

وهذا كان متفقًا عليه في الصدر الأوَّل، إلا أن يكون خلاف شاذٌ لا يعبأ به، حتى إن الشيعة الأولى أصحاب عليٍّ لم يكونوا يرتابون في تقديم أبي بكر وعمر عليه.

كيف وقد ثبت عن عليٍّ من وجوه متواترة أنه كان يقول: خير هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر وعمر؟! ولكن كان طائفة من شيعة عليٍّ تقدِّمه على عثمان، وهذه المسألة أخفى من تلك.

ولهذا كان أئمة أهل السنة كلهم متفقين على تقديم أبي بكر وعمر من وجوه متواترة، كما هو مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل والثوريّ والأوزاعيّ والليث بن سعد، وسائر أئمة المسلمين من أهل الفقه والحديث والزهد والتفسير من المتقدمين والمتأخرين.

وأما عثمان وعليّ فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما، وهي إحدى الروايتين عن مالك، وكان طائفة من الكوفيين يقدمون عليًّا وهي إحدى الروايتين عن سُفيان الثوري، ثم قيل: إنه رجع عن ذلك لما اجتمع به أيوب السَّخْتِيَاني، وقال: من قدَّم عليًّا على عثمان فقد أزرى

---

[1] منهاج السنة النبوية (١/ ٢٠).

بالمهاجرين والأنصار، وسائر أئمة السنة على تقديم عثمان، وهو مذهب جماهير أهل الحديث، وعليه يدل النصُّ والإجماع والاعتبار[١]

وقال: وأما الرافضة فيطعنون في الصحابة ونقلهم، وباطن أمرهم الطعن في الرسالة[٢]

وقال: وهم أبعد النَّاس عن معرفة سير الصحابة والاقتداء بهم، لا في حياة النبيِّ ﷺ، ولا بعده، فإن هذا إنما يعرفه أهلِ العلم بالحديث والمنقولات، والمعرفة بالرجال الضعفاء والثقات، وهم من أعظم الناس جهلًا بالحديث، وبغضًا له، ومعاداةً لأهله[٣]

وقال: وهؤلاء الرافضة يقدحون فيهم -أي: الصحابة- بالصغائر، وهم يغضُّون عن الكفر والكبائر فيمن يعاونهم من الكفَّار والمنافقين؛ كاليهود والنصارى والمشركين والإسماعيليَّة والنّصيريَّة وغيرهم، فمن ناقش المؤمنين على الذنوب، وهو لا يناقش الكفَّار والمنافقين على كفرهم ونفاقهم، بل وربما يمدحهم ويعظِّمهم -دلَّ على أنه من أعظم الناس جهلًا وظلمًا، إن لم ينته به جهله وظلمه إلى الكفر والنفاق[٤]

وقال: ثم من العجب أن الرافضة تنكر سب عليٍّ، وهم يسبُّون أبا بكر وعمر وعثمان ويكفِّرونهم ومن والاهم، ومعاوية ﷺ وأصحابه ما كانوا يكفِّرون عليًّا، وإنما يكفِّره الخوارج المارقون، والرافضة شرٌّ منهم، فلو أنكرت الخوارج السب لكان تناقضًا منهم، فكيف إذا أنكرته الرافضة؟!

ولا ريب أنه لا يجوز سب أحد من الصحابة: لا عليّ ولا عثمان ولا غيرهما، ومن سب أبا بكر وعمر وعثمان فهو أعظم إثمًا ممن سب عليًّا، وإن كان متأولًا فتأويله أفسد من تأويل من سب عليًّا، وإن كان المتأوِّل في سبهم ليس بمذموم لم يكن أصحاب معاوية مذمومين، وإن كان مذمومًا كان ذم الشيعة الذين سبُّوا الثلاثة أعظم من سب الناصبة الذين سبُّوا عليًّا وحده، فعلى كل تقدير هؤلاء أبعد عن الحقِّ.

وفي الصحيحين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[٥]

- قولهم في الإجماع

لا يرون حجية إجماع الصحابة، ولا أي إجماع إلا بوجود إمامهم المعصوم فيه.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٧١- ٧٤).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٣).
(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٧).
(٤) منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٧٣، ٣٧٤).
(٥) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٦٨، ٤٦٩).

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: الإجماع عندهم ليس بحجة، إلا أن يكون قول المعصوم فيه[١]

وقال: إن الإجماع عندهم ليس بحجة، بل لا يجوز عندهم أن تجتمع الأمة إلا إذا كان المعصوم فيهم، فإن قول المعصوم وحده هو الحجة[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: متى كان مخالفة الصحابة والعدول عن أقاويلهم منكرًا عند الإماميَّة؟! وهؤلاء -أي: أهل السنة- متفقون على محبة الصحابة وموالاتهم وتفضيلهم على سائر القرون، وعلى أن إجماعهم حجة، وعلى أنه ليس لهم الخروج عن إجماعهم، بل عامة الأئمة المجتهدين يصرِّحون بأنه ليس لنا أن نخرج عن أقاويل الصحابة، فكيف يطعن عليهم بمخالفة الصحابة مَن يقول: إن إجماع الصحابة ليس بحجة، وينسبهم إلى الكفر والظلم؟!

فإن كان إجماع الصحابة حجة فهو حجة على الطائفتين، وإن لم يكن حجة فلا يحتج به عليهم.

وإن قال: أهل السنة يجعلونه حجة، وقد خالفوه.

قيل: أما أهل السنة فلا يتصور أن يتفقوا على مخالفة إجماع الصحابة، وأما الإماميَّة فلا ريب أنهم متفقون على مخالفة إجماع العترة النبوية، مع مخالفة إجماع الصحابة، فإنه لم يكن في العترة النبوية -بنو هاشم- على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ -مَن يقول بإمامة الاثني عشر، ولا بعصمة أحد بعد النبي ﷺ، ولا بكفر الخلفاء الثلاثة، بل ولا من يطعن في إمامتهم، بل ولا من ينكر الصفات، ولا من يكذِّب بالقدر.

فالإماميَّة بلا ريب متفقون على مخالفة إجماع العترة النبويَّة، مع مخالفتهم لإجماع الصحابة، فكيف ينكرون على من لم يخالف لا إجماع الصحابة، ولا إجماع العترة[٣]

- قولهم في الأسماء والصفات

متقدِّموهم مشبِّهة ومجسِّمة بمقالات شنيعة، وأما متأخِّروهم فهم معطِّلة كالمعتزلة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: اختلفت الرَّوافض أصحاب الإمامة في التجسيم، وهم ست فرق:

فالفرقة الأولى: الهشاميَّة، أصحاب هشام بن الحكم الرافضي.

يزعمون أن معبودهم جسمٌ، وله نهايةٌ وحدٌّ، طويلٌ عريضٌ عميقٌ، طولُه مثل عرضه، وعرضه

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٣٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٣٦).

(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٠٥- ٤٠٧).

مثل عمقه، لا يوفى بعضُه على بعض، . . . ، وزعموا أنه نورٌ ساطع، له قَدْرٌ من الأقدار في مكان دون مكان، كالسبيكة الصافية، يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها، ذو لون وطعم ورائحة ومجسَّة، لونه هو طعمه، وطعمه هو رائحته، ورائحته هي مجسَّته، وهو نفسه لون، ولم يعينوا لونًا ولا طعمًا هو غيره، وزعموا أنه هو اللون، وهو الطعم، وأنه قد كان لا في مكان، ثم حدث المكان بأن تحرك البارئ فحدث المكان بحركته فكان فيه، وزعم أن المكان هو العرش إلى آخره.

والفرقة الثانية من الرافضة: يزعمون أن ربَّهم ليس بصورة، ولا كالأجسام، وإنما يذهبون في قولهم: إنه جسم، إلى أنه هو موجود، ولا يثبتون البارئ ذا أجزاء مؤتلفة، وأبعاض متلاصقة، ويزعمون أن الله عز وجل على العرش مستوٍ بلا مُمَاسَّة ولا كَيْف.

والفرقة الثالثة من الرافضة: يزعمون أن ربهم على صورة الإنسان، ويمنعون أن يكون جسمًا.

والفرقة الرابعة من الرافضة: «الهشامية»، أصحاب هشام بن سالم الجواليقيّ.

يزعمون أنَّ ربهم على صورة الإنسان، وينكرون أن يكون لحمًا ودمًا، ويقولون: هو نور ساطع يتلألأ بياضًا، وأنه ذو حواسٍّ خمسٍ كحواسِّ الإنسان، له يد ورجل وأنف وأذن وعين وفم، وأنه يسمع بغير ما يبصر به، وكذلك سائر حواسِّه متغايرة عندهم.

وحكى أبو عيسى الوراق أن هشام بن سالم كان يزعم أن لربه وَفْرَةً سوداء، وأن ذلك نور أسود.

والفرقة الخامسة من الرافضة: يزعمون أن رب العالمين ضياء خالص، ونور بحتٌ، وهو كالمصباح الذي من حيث ما جئته يلقاك بأمر واحد، وليس بذي صورة ولا أعضاء، ولا اختلاف في الأجزاء، وأنكروا أن يكون على صورة الإنسان، أو على صورة شيء من الحيوان.

والفرقة السادسة من الرافضة: يزعمون أن ربهم ليس بجسم، ولا بصورة، ولا يشبه الأشياء، ولا يتحرك، ولا يسكن، ولا يماس.

وقالوا في التوحيد بقول المعتزلة والخوارج.

وهؤلاء قوم من متأخّريهم، فأما أوائلهم فإنهم كانوا يقولون ما حكينا عنهم من التشبيه[(١)]

وقال: واختلفت الروافض في الجسم ما هو؟ وهم ثلاث فرق:

الفرقة الأولى منهم: يزعمون أنَّ الجسم هو الطويل العريض العميق، ولا يكون شيء موجود إلا ما كان جسمًا طويلًا عريضًا عميقًا، وأنكروا الأعراض، وزعموا أن معنى الجسم الطويل العريض العميق أنه شيء موجود، وأنَّ البارئ لما كان شيئًا موجودًا كان جسمًا.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٣١- ٣٥)، (٢٠٧- ٢١٠).

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن حقيقة الجسم أنه مؤلفٌ مركبٌ مجتمعٌ، وأن الباريء عز وجل لما لم يكن مؤتلفًا مجتمعًا لم يكن جسمًا.

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أن حقيقة الجسم أنه يحتمل الأعراض، وأن أقل قليل الأجسام جزء لا يتجزأ، وأن الباريء لما لم يحتمل الأعراض لم يكن جسمًا[(١)]

وقال: واختلفت الروافض في القول بأنَّ الله سبحانه عالم حيٌّ قادر سميع بصير إله، وهم تسع فرق:

فالفرقة الأولى منهم: الزُّرَارية، أصحاب زُرَارة بن أعين الرافضيِّ، يزعمون أن الله لم يزل غير سميع، ولا عليم، ولا بصير، حتى خلق ذلك لنفسه، وهم يُسمُّون التَّيْمِيَّة، ورئيسهم زُرَارة بن أعين.

والفرقة الثانية منهم: السَّبَابِيَّة، أصحاب عبد الرحمن بن سبابة، يقفون في هذه المعاني، ويزعمون أن القول فيها ما يقول جعفر، كائنًا قوله ما كان، ولا يُصوِّبون في هذه الأشياء قولًا

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أن الله عز وجل لا يوصف بأنه لم يزل إلهًا قادرًا، ولا سميعًا بصيرًا، حتى يحدث الأشياء؛ لأن الأشياء التي كانت قبل أن تكون ليست بشيء، ولن يجوز أن يُوصَفَ بالقدرة لا على شيء، وبالعلم لا بشيء.

وكُلُّ الروافض، إلا شرذمة قليلة، يزعمون أنه يريد الشيء ثم يبدو له فيه.

والفرقة الرابعة من الروافض: يزعمون أن الله لم يزل لا حيًّا ثم صار حيًّا.

والفرقة الخامس من الروافض: وهم أصحاب شيطان الطَّاق.

يزعمون أنَّ الله عالم في نفسه ليس بجاهل، ولكنه إنما يعلم الأشياء إذا قدَّرها وأرادها، فأما قَبل أن يُقَدِّرها ويريدها فمحال أن يعلمها، لا لأنه ليس بعالم، ولكن الشيء لا يكون شيئًا حتى يقدره وينشئه بالتقدير، والتقديرُ عندهم الإرادةُ.

والفرقة السادسة من الرافضة: أصحاب هشام بن الحكم.

يزعمون أنه محال أن يكون الله لم يزل عالمًا بالأشياء بنفسه، وأنه إنما يعلم الأشياء بعد أن لم يكن بها عالمًا، وأنه يعلمها بعلم، وأنَّ العلم صفة له، ليست هي هو ولا غيره ولا بعضه، فيجوزُ أن يقال: العلم مُحْدَث، أو قديم؛ لأنه صفة، والصفة لا توصف.

قال: ولو كان لم يزل عالمًا لكانت المعلومات لم تزل؛ لأنه لا يصح عالم إلا بمعلوم موجود، قال: ولو كان عالمًا بما يفعله عباده لم يصحَّ المحنة والاختبار.

وقال هشام في سائر صفات الله عز وجل؛ كقدرته وحياته وسمعه وبصره وإرادته: إنها صفات لله، لا هي الله ولا غير الله.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٩، ٦٠).

وقد اختُلف عنه في القدرة والحياة: فمن الناس من يحكي عنه أنه كان يزعم أن البارئ لم يزل حيًا قادرًا، ومنهم من ينكر أن يكون قال ذلك.

والفرقة السابعة من الرافضة: لا يزعمون أن البارئ عالم في نفسه، كما قال شيطان الطّاق، ولكنهم يزعمون أن الله عز وجل لا يعلم الشيءَ حتى يؤثّر أثره، والتأثير عندهم الإرادةُ، فإذا أراد الشيءَ عَلِمَه، وإذا لم يرده لم يعلمه، ومعنى أراد عندهم أنه تحرك حركة هي إرادة، فإذا تحرك عَلِمَ الشيء، وإلّا لم يَجُزِ الوصف له بأنه عالم به، وزعموا أنه لا يوصف بالعلم بما لا يكون.

والفرقة الثامنة من الرافضة: يقولون: إن معنى أن الله يعلم أنه يفعل، فإن قيل لهم: أتقولون: إنَّ الله لم يزل عالمًا بنفسه؟ اختلفوا، فمنهم من يقول: لم يزل لا يعلم بنفسه حتى فعل العلم؛ لأنه قد كان ولمَّا يفعل، ومنهم من يقول: لم يزل يعلم بنفسه، فان قيل لهم: فلم يزل يفعل؟ قالوا: نعم، ولا نقول بقدم الفعل.

ومن الرافضة من يزعم أن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون، إلا أعمال العباد فإنه لا يعلمها إلا في حال كونها.

والفرقة التاسعة من الرافضة: يزعمون أن الله لم يزل عالمًا حيًا قادرًا، ويميلون إلى نفى التشبيه، ولا يقولون بحديث العلم، ولا بما حكيناه من التجسيم، وسائر ما أخبرنا به من التشبيه عنهم[1]

وقال الأشعري: بعد أن ذكر مقالة المعتزلة في تعطيل أسماء وصفات المولى عز وجل: فهذه جملة قولهم في التوحيد، وقد شاركهم في هذه الجملة. . .، وطوائف من الشّيع[2]

وقال: القول في أن الله عز وجل عالم قادر: اختلفت الناس في ذلك فأنكر كثير من الروافض وغيرهم أن يكون البارئ لم يزل عالمًا قادرًا[3]

وقال الملطيُّ عن هشام بن الحكم: وانتحل في التوحيد التشبيه، فهدم ركن التوحيد، وساوى بين الخالق والمخلوق[4]

وقال ابن حزم: وجمهور متكلّميهم؛ كهشام بن الحكم الكوفي، وتلميذه أبي علي الصَّكاك، وغيرهما، يقول بأن علم الله تعالى محدَث، وأنَّه لم يكن يعلم شيئًا حتى أحدث لنفسه علمًا، وهذا كفر صريح، وقد قال هشام هذا في حين مناظرته لأبي الهُذَيْلِ العَلّاف: إنَّ ربَّه سبعة أشبار بشبر نفسه، وهذا كفر صحيح[5]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٣٦- ٣٩).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٥٦)، (٢١٩، ٢٢٠).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٥٧).
(٤) التنبيه والرد ص(٢٥).
(٥) الفصل (٤/ ١٣٩).

وقال الرازي: اعلم أن اليهود أكثرهم مشبِّهة، وكان بدو ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض، . . . ، ثم تهافت في ذلك المحدِّثون ممن لم يكن لهم نصيب من علم المعقولات[(١)]

وقال السكسكيُّ: وأكثرهم يزعم أن الله تعالى لا يعلم ما يكون قبل أن يكون[(٢)]

وقال: وقالوا كلُّهم بأن الله تعالى جسم، إلا فرقة علي بن الحسين[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: فإنهم في توحيدهم موافقون للمعتزلة، وقدماؤهم كانوا مجسِّمَة[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام بعد نقله الكلام الأول للأشعريِّ: وهذا الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن قدماء الشيعة من القول بالتجسيم قد اتفق على نقله عنهم أرباب المقالات، حتى نفس الشيعة كابن النوبختي وغيره ذكر ذلك عن هؤلاء الشيعة.

وقال أبو محمد بن حزم وغيره: أول من قال في الإسلام إن الله جسم هشام بن الحكم، وكان الذين يناقضونه في ذلك المتكلمين من المعتزل كأبي الهُذَيْلِ العَلَّاف.

فالجهميَّة والمعتزلة أول من قال: إن الله ليس بجسم.

فكل من القولين قاله قوم من الإماميَّة ومن أهل السنة الذين ليسوا بإماميَّة.

وإثبات الجسم قول محمد بن كرَّام وأمثاله ممن يقول بخلافة الخلفاء الثلاثة، والنفي قول أبي الحسن الأشعري وغيره ممن يقول بخلافة الخلفاء الثلاثة، وقول كثير من أتباع الأئمة الأربعة: أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم.

فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يُراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة

وأما القول الثالث -وهو القول الثابت عن أئمة السنة المحضة كالإمام أحمد وذويه- فلا يطلقون لفظ الجسم لا نفيًا، ولا إثباتًا؛ لوجهين:

أحدهما: أنه ليس مأثورًا لا في كتاب، ولا سنة، ولا أثر عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا غيرهم من أئمة المسلمين، فصار من البدع المذمومة.

---

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٣، ٦٤).

(٢) البرهان ص(٦٥).

(٣) البرهان ص(٦٨).

(٤) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢)، (٢/ ٥٠١، ٥٠٢).

الثاني: أن معناه يدخل فيه حق وباطل، فالذين أثبتوه أدخلوا فيه من النقص والتمثيل ما هو باطل، والذين نفوه أدخلوا فيه من التعطيل والتحريف ما هو باطل[١].

وقال: فهذه المقالات التي نقلت في التشبيه والتجسيم لم نر الناس نقلوها عن طائفة من المسلمين أعظم مما نقلوها عن قدماء الرافضة، ثم الرافضة حُرِموا الصواب في هذا الباب كما حُرِموه في غيره، فقدماؤهم يقولون بالتجسيم الذي هو قول غلاة المجسمة، ومتأخِّروهم يقولون بتعطيل الصفات موافقة لغلاة المعطِّلة من المعتزلة ونحوهم، فأقوال أئمتهم دائرة بين التعطيل والتمثيل، لم تعرف لهم مقالة متوسطة بين هذا وهذا.

وأئمة المسلمين من أهل بيت رسول الله ﷺ وغيرهم متفقون على القول الوسط المغاير لقول أهل التمثيل وقول أهل التعطيل، وهذا مما يبين مخالفة الرافضة لأئمة أهل بيت رسول الله ﷺ في أصول دينهم، كما هم مخالفون لأصحابه، بل ولكتاب الله وسنة رسوله.

وهذا لأن مبنى مذهب القوم على الجهل والكذب والهوى[٢].

وقال: الوجه الثاني: أن يقال: هذا قول المعتزلة في التوحيد والقدر، والشيعة المنتسبون إلى أهل البيت، الموافقون لهؤلاء المعتزلة، أبعدُ الناس عن مذاهب أهل البيت في التوحيد والقدر، فإن أئمة أهل البيت كعليٍّ وابن عباس ومن بعدهم، كلُّهم متفقون على ما اتفق عليه سائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان من إثبات الصفات والقدر.

والكتب المشتملة على المنقولات الصحيحة مملوءة بذلك، ونحن نذكر بعض ما في ذلك عن عليٍّ ﷺ وأهل بيته؛ ليتبين أن هؤلاء الشيعة مخالفون لهم في أصول دينهم.

الوجه الثالث: أن ما ذكره من الصفات والقدر ليس من خصائص الشيعة، ولا هم أئمة القول به، ولا هو شامل لجميعهم، بل أئمة ذلك هم المعتزلة، وعنهم أخذ ذلك متأخِّرو الشيعة، وكتب الشيعة مملوءة بالاعتماد في ذلك على طرق المعتزلة، وهذا كان من أواخر المائة الثالثة، وكثر في المائة الرابعة لما صنَّف لهم المفيد وأتباعه كالموسوي والطوسي.

وأما قدماء الشيعة فالغالب عليهم ضد هذا القول، كما هو قول الهشامين وأمثالهما، فإن كان هذا القول حقًّا أمكن القول به وموافقة المعتزلة مع إثبات خلافة الثلاثة، وإن كان باطلًا فلا حاجة إليه[٣].

وقال: أهل السنَّة أحقُّ بتنزيه عن مشابهة المخلوقات من الشيعة، فإن التشبيه والتجسيم المخالف للعقل والنقل لا يُعرف في أحد من طوائف الأمة أكثر منه في طوائف الشيعة، وهذه كتب المقالات

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢٠- ٢٢٥).
(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣).
(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٠٠، ١٠١).

كلُّها تخبر عن أئمة الشيعة المتقدمين من المقالات المخالفة للعقل والنقل في التشبيه والتجسيم بما لا يُعرف نظيره عن أحد من سائر الطوائف، ثم قدماء الإماميَّة ومتأخِّروهم متناقضون في هذا الباب، فقدماؤهم غلوا في التشبيه والتجسيم، ومتأخِّروهم غلوا في النفي والتعطيل، فشاركوا في ذلك الجهميَّة والمعتزلة دون سائر طوائف الأمَّة[1]

وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة التعطيل ومقالة التمثيل والتجسيم.

- قولهم فيما يحمله حملة العرش

منهم من يزعم أن حملة العرش يحملون البارئ عز وجل، ومنهم من يزعم أنهم يحملون العرش.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرافضة في حَمَلَة العرش: هل يحملون العرش أم يحملون البارئ عزَّ وجلَّ؟ وهم فرقتان:

فرقة يقال لها اليونسيَّة، أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمِّي مولى آل يقطين.

يزعمون أنَّ الحملة يَحْملون البارئ، واحتج يونس في أن الحَمَلَة تطيق حمله، وشبههم بالكُرْكي، وأن رجليه تحملانه وهما دقيقتان.

وقالت فرقة أخرى: إنَّ الحَمَلَة تحمل العرش، والبارئ يستحيل أن يكون محمولًا[2]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وهو سبحانه غنيٌّ عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر إلى شيء من مخلوقاته، بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش.

وقد جعل تعالى العالم طبقات، ولم يجعل أعلاه مفتقرًا إلى أسفله، فالسماء لا تفتقر إلى الهواء والهواء لا يفتقر إلى الأرض، فالعلي الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما الذي وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧]، أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل أو غير حمل، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، الذي كل ما سواه مفتقر إليه، وهو مستغن عن كل ما سواه[3]

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٠٣).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٣٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣٦٧).

وقال: ولله تعالى استواء على عرشه حقيقة وللعبد استواء على الفلك حقيقة؛ وليس استواء الخالق كاستواء المخلوقين؛ فإن الله لا يفتقر إلى شيء ولا يحتاج إلى شيء بل هو الغني عن كل شيء.

والله تعالى يحمل العرش وحملته بقدرته، ويمسك السموات والأرض أن تزولا[(١)]

وقال: وأن الله غنيٌّ عن العرش وعن كل ما سواه، لا يفتقر إلى شيء من المخلوقات؛ بل هو مع استوائه على عرشه يحمل العرش وحملة العرش بقدرته[(٢)]

- قولهم في البَدَاء والنسخ

البَدَاء هو أن يريد الله فعل شيءٍ ثم يبدو له فيه فلا يفعله، وأكثرهم يقولون به.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكلُّ الروافض إلا شرذمة قليلة يزعمون أنه -أي الله عز وجل- يريد الشيء ثم يبدو له فيه[(٣)]

وقال: وافترقت الرافضة هل الباريء يجوز أن يَبْدُوَ له إذا أراد شيئًا أم لا؟ على ثلاث مقالات:

فالفرقة الأولى منهم: يقولون: إنَّ الله تبدو له البَدَاوات، وإنه يريد أن يفعل الشيء في وقت من الأوقات لا يُحْدِثه لما يحدث له من البَدَاء، وإنه إذا أمر بشريعة ثم نسخها فإنما ذلك؛ لأنه بَدَا له فيها، وأن ما علم أنه يكون ولم يُطْلع عليه أحدًا من خلقه فجائز عليه البَدَاء فيه، وما أَطْلَعَ عليه عبادَه فلا يجوز عليه البَدَاء فيه.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنه جائز على الله البَدَاء فيما علم أنه يكون حتى لا يكون، وجوزوا ذلك فيما اطْلَعَ عليه عبادَه، وأنه لا يكون، كما جوزوه فيما لم يُطْلع عليه عباده.

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أنه لا يجوز على الله عز وجل البَدَاء، وينفون ذلك عنه تعالى[(٤)]

وقال: ومن الروافض من يقول: إن الله تبدو له البَدَاوَات، وإنه يريد أن يفعل ثم لا يفعل؛ لما يحدث له من البَدَاء.

وقال بعض الروافض: ما علمه الله سبحانه أنه يكون وأطلع عليه أحدًا من خلقه فلا يجوز أن يَبْدُوَ له فيه، وما علمه ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه فجائز أن يَبْدُوَ له فيه.

وقال بعضهم: جائز عليه البَدَاء فيما علم أنه يكون وأخبر أنه يكون حتى لا يكون ما أخبر أنه يكون[(٥)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦٢، ٢٦٣)، تلبيس الجهمية (١/ ٥٦٥).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٣٦).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٣٩).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(٢٢١).

وقال: وعامة الروافض يصفون معبودهم بالبَدَاء ويزعمون أنه تَبْدُو له البداوات.

ويقول بعضهم: قد يأمر ثم يبدو له وقد يريد أن يفعل الشيء في وقت من الأوقات ثم لا يفعله لما يحدث له من البَدَاء وليس على معنى النسخ ولكن على معنى أنه لم يكن في الوقت الأول عالمًا بما يحدث له من البَدَاء.

وسمعت شيخًا من مشايخ الرَّافضة وهو الحسن بن محمد بن جمهور يقول ما علمه الله سبحانه أن يكون ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه فجائز أن يبدو له فيه وما اطلع عليه عباده فلا يجوز أن يبدو له فيه[1]

وقال: ووصف أكثر الرَّوافض ربَّهم بالبداء وأنه يريد الشيء ثم يبدو له فيريد خلافه وذلك أنه يتحرك حركة لخلق شيء ثم يتحرك خلاف تلك الحركة فيكون ضدّ ذلك الشيء ولا يكون الذي أراده قبل[2]

وقال: واختلفت الروافض في النَّاسخ والمنسُوخ، هل يقع ذلك في الأخبار أم لا؟ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أنَّ النسخ قد يجوز أن يقع في الأخبار، فيخبر الله سبحانه أن شيئًا يكون، ثم لا يكون، وهذا قول أكثر أوائلهم وأسلافهم.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنه لا يجوز وقوع النسخ في الأخبار، وأن يخبر الله سبحانه أن شيئًا يكون ثم لا يكون؛ لأن ذلك يوجب التكذيب في أحد الخبرين[3]

وقال: وقد شذَّ شاذُّون من الروافض عن جملة المسلمين فزعموا أن نسخ القرآن إلى الأئمة، وأن الله جعل لهم نسخ القرآن وتبديله، وأوجب على الناس القبول منهم، وهؤلاء الذين ذكرنا قولهم طبقتان:

منهم من يزعم أن ذلك ليس على معنى أن الله يبدو له البداوات.

وقالت الفرقة الأخرى منهم: إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون فينسخ عند علمه بما يحدث من خلقه وفيهم مما لم يكن يعلمه ما يشاء من حكمه قبل ذلك فتحول حكمه في الناسخ والمنسوخ على قدر علمه بما يحدث في عباده فكلما علم شيئًا كان لا يعلمه قبل ذلك بدا له فيه حكم لم يكن له ولا علمه قبل ذلك تعالى الله عما قالوه علوًّا كبيرًا[4].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٩١، ٤٩٢).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥١٥).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٣).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٦١١).

وقال الملطي: وهؤلاء الفرق كلهم يقولون بالبَدَاءِ إن الله تبدو له البداوات[(١)]

وقال ابن حزم: وطائفة منهم تقول: إنَّ الله تعالى يريد الشيءَ ويعزم عليه، ثم يبدو له فلا يفعله، وهذا مشهور للكيسانيَّة[(٢)]

وقال الإسفراييني عما يجمع الكيسانيَّة: تجويز البَدَاء على الله تعالى، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا[(٣)]

وقال الشهرستاني: من مذهب المختار أنه يجوز البَدَاء على الله تعالى[(٤)]

وقال شيخ الإسلام: فزُرارة بن أعْيَن وأمثاله يقولون: يجوز البَدَاء عليه، وأنه يحكم بالشيء ثم يتبين له ما لم يكن علمه فينتقض حكمه لما ظهره له من خطئه[(٥)]

نقض قولهم

قال الشهرستانيُّ: والبَدَاء له معانٍ

البَدَاء في العلم: وهو أنه يظهر له خلاف ما علم، ولا أظن عاقلًا يعتقد هذا الاعتقاد.

والبَدَاء في الإرادة: وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم.

والبَدَاء في الأمر: وهو أن يأمر بشيء، ثم يأمر بشيء آخر بعده بخلاف ذلك، ومن لم يجوِّز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة في الأوقات المختلفة متناسخة[(٦)]

وقال: وإنما سار المختار إلى اختيار القول بالبَدَاء؛ لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال إما بوحي يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام

فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليل على صدق دعواه وإن لم يوافق قال: قد بدا لربكم

وكان لا يفرق بين النسخ والبَدَاء، قال: إذا جاز النسخ في الأحكام جاز البَدَاء في الأخبار[(٧)]

وقال الإسفراييني: واعلم أن السبب الذي جوزت الكيسانيَّة البَدَاء على الله تعالى. أن مصعب ابن الزبير بعث إليه عسكرًا قويًّا، فبعث المختار إلى قتالهم أحمد بن شميط مع ثلاثة آلاف من المقاتلة وقال لهم: أوحى إلي أن الظفر يكون لكم فهزم ابن شميط فيمن كان معه فعاد إليه فقال: أين الظفر

(١) التنبيه والرد ص(١٩).
(٢) الفصل (٤/ ١٣٩).
(٣) التبصير في الدين ص(٣٠).
(٤) الملل والنحل (١/ ١٤٧).
(٥) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٩٥).
(٦) الملل والنحل (١/ ١٤٨، ١٤٩).
(٧) الملل والنحل (١/ ١٤٨).

الذي قد وعدتنا؟ فقال له المختار: هكذا كان قد وعدني ثم بدا فإنه سبحانه وتعالى قد قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ [الرّعد: الآية ٣٩] ثم خرج المختار إلى قتال مصعب ورجع مهزومًا إلى الكوفة فقتلوه بها(١).

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

متقدِّموهم يثبتون رؤية الله في الآخرة، ومتأخِّروهم ينفونها.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: والإماميَّة لهم فيها قولان: فجمهور قدمائهم يثبت الرؤية، وجمهور متأخِّريهم ينفونها، وقد تقدم أن أكثر قدمائهم يقولون بالتجسيم.

قال الأشعري: وكلُّ المجسمة إلا نفرًا قليلًا يقول بإثبات الرؤية، وقد يثبت الرؤية من لا يقول بالتجسيم(٢).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: أما الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، كمالك والثَّوريِّ والأوْزاعيِّ والليث بن سعد والشافعيِّ وأحمد وإسحاق وأبي حنيفة وأبي يوسف وأمثال هؤلاء، وسائر أهل السنة والحديث والطوائف المنتسبين إلى السنة والجماعة كالكُلَّابيَّة والأشعريَّة والسالميَّة وغيرهم، فهؤلاء كلهم متفقون على إثبات الرؤية لله تعالى، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ عند أهل العلم بحديثه.

وكذلك الآثار بها متواترة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وقد ذكر الإمام أحمد وغيره من الأئمة العالمين بأقوال السلف أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان متفقون على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار، ومتفقون على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبيِّنا ﷺ خاصة، منهم من نفى رؤيته بالعين في الدنيا ومنهم من أثبتها، وقد بسطت هذه الأقوال والأدلة من الجانبين في غير هذا الموضع، والمقصود هنا نقل إجماع السلف على إثبات الرؤية بالعين في الآخرة، ونفيها في الدنيا إلا الخلاف في النبي ﷺ خاصة(٣).

وسيأتي مزيد بيان عند قول المعتزلة والجهميَّة في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في كلام الله عز وجل

متقدِّموهم يقولون بأن القرآن لا خالق ولا مخلوق، وعنهم أيضًا أنه لا يقال: غير مخلوق، ومتأخِّروهم يقولون بأنه مخلوق.

---

(١) التبصير في الدين ص(٣٤).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣١٥، ٣١٦)، مقالات الإسلاميين ص(٢١٧).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣١٦- ٣١٧)، (٣/ ٣٤١).

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في القرآن، وهم فرقتان:

الفرقة الأولى منهم: هشام بن الحكم وأصحابه.

يزعمون أن القرآن لا خالق ولا مخلوق، وزاد بعضُ مَن يُخبر عن المقالات في الحكاية عن هشام، فزعم أنه كان يقول: لا خالق ولا مخلوق، ولا يقال أيضًا: غير مخلوق؛ لأنه صفة، والصفة لا توصف.

وحكى زُرقان عن هشام بن الحكم أنه قال: القرآن على ضربين؛ إن كنت تريد المَسْمُوع فقد خلق الله عز وجل الصَّوْتَ المقَطَّع وهو رسم القرآن، فأما القرآن فهو فعل الله، مثل العلم والحركة، لا هو هو، ولا غيره.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنه مخلوق محدث، لم يكن ثم كان، كما تزعم المعتزلة والخوارج، وهؤلاء قوم من المتأخرين منهم[(١)]

وقال: قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزَّيديَّة والمرجئة وكثير من الرافضة: إن القرآن كلام الله سبحانه، وإنه مخلوق لله، لم يكن ثم كان.

وقال هشام بن الحكم ومَن ذهب مذهبَه: إن القرآن صفة لله، لا يجوز أن يقال: إنه مخلوق ولا إنه خالق، هكذا الحكاية عنه.

وزاد البلخي في الحكاية أنه قال: لا يقال غير مخلوق أيضًا كما لا يقال مخلوقٌ؛ لأن الصفات لا توصف.

وحكى زُرْقَان عنه: أن القرآن على ضربين: إن كنت تريد المسموع فقد خلق الله سبحانه الصَّوْت المُقَطَّع، وهو رسم القرآن، وأما القرآن ففعل الله مثل العلم والحركة منه، لا هو هو، ولا هو غيره[(٢)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: أكثر أئمة الشيعة يقولون: القرآن غير مخلوق وهو الثابت عن أئمة أهل البيت[(٣)]

وقال: وقد استفاض عن جعفر الصادق أنه سئل عن القرآن، أخالق هو أم مخلوق؟ فقال: ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله، وهذا مما اقتدى به الإمام أحمد في المحنة، فإن جعفر بن

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٠).

مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢، ٥٨٣).

(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٥٣).

محمد من أئمة الدين باتفاق أهل السنة، وهذا قول السلف قاطبة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين: أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، ولكنهم لم يقولوا ما قاله ابن كُلَّاب ومن اتبعه من أنه قديم لازم لذات الله، وأن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل هذا قول محدَث أحدثه ابن كُلَّاب واتبعه عليه طوائف.

وأما السلف فقولهم: إنه لم يزل متكلمًا، وإنه يتكلم بمشيئته وقدرته.

وكذلك قالوا بلزوم الفاعلية، ونقلوا عن جعفر الصادق بن محمد أنه قال بدوام الفاعلية المتعدية، وأنه لم يزل محسنًا بما لم يزل فيما لم يزل إلى ما لم يزل، كما نقل ذلك الثعلبي عنه بإسناده في تفسير قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]، مع قول جعفر وسائر المسلمين وأهل الملل وجماهير العقلاء من غير أهل الملل أن الله تعالى خالق كل شيء، وأن ما سواه محدَث كائن بعد أن لم يكن، ليس مع الله شيء من العالم قديم بقدم الله.

وأما هشام بن الحكم وهشام بن سالم وغيرهما من شيوخ الإماميّة فكانوا يقولون: إن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله، كما قاله جعفر بن محمد وسائر أئمة السنة، ولكن لا أعرف هل يقولون بدوام كونه متكلمًا بمشيئته، كما يقوله أئمة أهل السنة؟ أم يقولون: تكلم بعد أن لم يكن متكلمًا، كما تقوله الكرّاميّة وغيرهم؟...

ولكن الجهميّة والمعتزلة لمَّا كان أصلهم أن الربَّ لا تقوم به الصفات والأفعال والكلام، لزمهم أن يقولوا: كلامه بائن عنه مخلوق من مخلوقاته، وكان أول من ظهر عنه هذا الجعد بن درهم، ثم الجهم بن صفوان، ثم صار هذا في المعتزلة.

ولما ظهر هذا سألوا أئمة الإسلام مثل جعفر الصادق وأمثاله، فقالوا لجعفر الصادق: القرآن خالق أم مخلوق؟ فقال: ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله، ومعلوم أن قوله: ليس بخالق ولا مخلوق، لم يرد به أنه ليس بكاذب ولا مكذوب، لكن أراد أنه ليس هو الخالق للمخلوقات، ولا هو من المخلوقات، ولكنه كلام الخالق.

وكذلك ما نُقل عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ لما قيل له: حكمْت مخلوقًا؟! قال: لم أحكِّم مخلوقًا، وإنما حكمت القرآن

فهذا هو مراد عليٍّ بن أبي طالب، وجعفر بن محمد، وغيرهما من أهل البيت -رضوان الله عليهم- وسائر سلف الأمة بلا ريب، فتبين أن هؤلاء الرافضة مخالفون لأئمة أهل البيت، وسائر السلف في مسألة القرآن، كما خالفوهم في غيرها[1].

وقال: وأما الشيعة فمتنازعون في هذه المسألة، وقد حكينا النزاع عنهم فيما تقدم، وقدماؤهم كانوا يقولون: القرآن غير مخلوق، كما يقوله أهل السنة والحديث، وهذا القول هو المعروف عن

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٤٥- ٢٥٦).

أهل البيت كعلي بن أبي طالب ﷺ، وغيره، مثل أبي جعفر الباقر، وجعفر ابن محمد الصادق، وغيرهم.

ولهذا كانت الإماميَّة لا تقول: إنه مخلوق لما بلغهم نفي ذلك عن أئمة أهل البيت، وقالوا: إنه محدَث مجعول، ومرادهم بذلك أنه مخلوق، وظنوا أن أهل البيت نفوا أنه غير مخلوق؛ أي: مكذوب مفترى.

ولا ريب أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين؛ مَن قال: إنه مخلوق، ومَن قال: إنه غير مخلوق، والنزاع بين أهل القبلة إنما كان في كونه مخلوقًا خلقه الله، أو هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته، وأهل البيت إنما سئلوا عن هذا، وإلا فكونه مكذوبًا مفترى مما لا ينازع مسلم في بطلانه[(١)]

وقال: أتريد به أنه حادث في ذاته؟ أم حادث منفصل عنه؟

والأول قول أئمة الشيعة المتقدمين، والجهميَّة، والمرجئة، والكرَّاميَّة، مع كثير من أهل الحديث، وغيرهم.

ثم إذا قيل: «حادث»، أهو حادث النوع، فيكون الربُّ قد صار متكلمًا بعد أن لم يكن متكلمًا؟ أم حادث الأفراد وأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء؟ والكلام الذي كلم به موسى مثلًا هو حادث، وإن كان نوع كلامه قديمًا لم يزل؟

فهذه ثلاثة أنواع تحت قولك، وقد علم أنك إنما أردت النوع الأول، وهو قول متأخِّري الشيعة الذين جمعوا بين التشيع والاعتزال، فقالوا: إنه مخلوق خلقه الله منفصلًا عنه.

والإماميَّة وإن قالوا: هو محدث، وامتنعوا أن يقولوا: هو مخلوق، فمرادهم بالمحدث هو مراد هؤلاء بالمخلوق، وإنما النزاع بينهم لفظي[(٢)]

وسيأتي مزيد بيان عند قول المعتزلة والجهمية في كلام الله عز وجل.

- قولهم في الزيادة والنقصان في القرآن

يزعمون أن القرآن قد زِيد فيه ونقص منه، وقد غُيِّر وبُدِّل عما كان عليه، وبعضهم يزعم النقص فقط، وبعضهم ينكر ذلك.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في القرآن: هل زِيدَ فيه أو نُقِص منه؟ وهم ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى: يزعمون أن القرآن قد نقص منه، وأما الزيادة فذلك غير جائز أن يكون قد

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٧٠، ٣٧١).

كان، وكذلك لا يجوز أن يكون قد غُيِّر منه شيء عما كان عليه، فأما ذهاب كثير منه فقد ذهب كثير منه، والإمام يحيط علمًا به.

والفرقة الثالثة منهم، وهم القائلون بالاعتزال والإمامة، يزعمون أن القرآن ما نُقِصَ منه، ولا زِيد فيه، وأنه على ما أنزل الله تعالى على نبيِّه عليه السلام، لم يُغَيَّر ولم يُبَدَّل، ولا زال عما كان عليه[١].

وقال الملطي عنهم: وإن القرآن الذي في أيدي الناس قد انتقل، ووضع أيام عثمان، وأحرق المصاحف التي كانت قبل[٢].

وقال ابن حزم: ومن قول الإماميَّة كلها قديمًا وحديثًا: إن القرآن مبدَّل، زِيد فيه ما ليس منه، ونقص منه كثير، وبدِّل منه كثير حاشا علي بن الحسن بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان إماميًّا فيهم يظاهر بالاعتزال، ومع ذلك كان ينكر هذا القول، ويكفر من قاله، وكذلك صاحباه أبو يعلى ميلاد الطوسي، وأبو القاسم الرازي[٣].

وقال الإسفراييني عن جميع فرق الإماميَّة: ويدَّعون أن القرآن قد غُيِّر عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النصُّ على إمامة عَلِيٍّ فأسقطه الصحابة عنه، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن، ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين، وينتظرون إمامًا يسمونه المهدي يخرج، ويعلمهم الشريعة[٤]

وقال السكسكيُّ: وقالوا: إن القرآن نقص منه[٥]

نقض قولهم

قال ابن حزم: القول بأنَّ بين اللوحين تبديلًا كفر صحيح، وتكذيب لرسول الله ﷺ[٦].

وقال: إلا أن ترجع الروافض إلى إنكار القرآن والنقص منه والزيادة فيه فهذا أمر يظهر فيه قحتهم وجهلهم وسخفهم إلى كل عالم وجاهل، فإنه لا يمتري كافر ولا مؤمن في أن هذا الذي بين اللوحين من الكتاب هو الذي أتي به محمد ﷺ وأخبرنا بأنه أوحاه الله تعالى إليه فمن تعرض هذا فقد أقر بعين عدوه[٧].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٧).

(٢) التنبيه والرد ص(٢٥).

(٣) الفصل (٤/ ١٣٩).

(٤) التبصير في الدين ص(٤١).

(٥) البرهان ص(٦٨).

(٦) الفصل (٤/ ١٣٩).

(٧) الفصل (٤/ ١١٥).

وقال الإسفراييني: وليسوا في الحال على شيء من الدين، وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام في الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم، حتى يتوسعوا في استحلال المحرمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة، وتغيير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين(١)

وقال شيخ الإسلام: وكذلك القائلون بأن القرآن العزيز زيد فيه زيادات ونقص منه أشياء مما يعلم بالضرورة امتناعه في العادة(٢)

- قولهم في تفسير القرآن

يزعمون أن القرآن له ظاهر وباطن، وأن الناس لا يعلمون إلا الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الأئمة ومَن يستقي منهم.

أقوال العلماء

قال ابن حزم: وامتنعوا من القول بظاهر القرآن وقالوا: إن لظاهره تأويلاتٍ، فمنها أن قالوا: السماء محمَّد، والأرض أصحابه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧] قالوا: هي فلانة يعني أم المؤمنين ﵂، وقالوا: العدل والإحسان: محمد وعلي. والجبت والطاغوت فلان وفلان يعنون أبا بكر وعمر ﵄، وقالوا: الصلاة هي دعاء الإمام، والزكاة هي ما يعطي الإمام، والحج: القصد إلى الإمام(٣)

قال شيخ الإسلام عن الباطنية: وفتح لهم هذا الباب «الجهمية، والرافضة» حيث صار بعضهم يقول: الإمام المبين: على بن أبي طالب، والشجرة الملعونة في القرآن: بنو أمية، والبقرة المأمور بذبحها: عائشة، واللؤلؤ والمرجان: الحسن والحسين(٤).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: الثالث: أن يقال: الذين أدخلوا في دين الله ما ليس منه وحرَّفوا أحكام الشريعة، ليسوا في طائفة أكثر منهم في الرافضة؛ فإنهم أدخلوا في دين الله من الكذب على رسول الله ﷺ ما لم يكذبه غيرهم، وردُّوا من الصدق ما لم يرده غيرهم، وحرَّفوا القرآن تحريفًا لم يحرفه غيرهم، مثل قولهم: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [المَائدة: الآية ٥٥] ، نزلت في عليٍّ لما تصدق بخاتمه في الصلاة.

---

(١) التبصير في الدين ص(٤١).
(٢) درء التعارض (٦/ ٢٧٠)، الصارم المسلول (١/ ٥٩٠).
(٣) الفصل (٢/ ٩٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥١).

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: الآية ٥٣] علي وفاطمة، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: الآية ٢٢] الحسن والحسين، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية ١٢] علي بن أبي طالب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٣] هم آل أبي طالب، واسم أبي طالب عمران، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبَة: الآية ١٢] طلحة والزبير، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٠] هم بنو أمية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧] عائشة، و﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] لئن أشركت بين أبي بكر وعليٍّ في الولاية.

وكل هذا وأمثاله وجدته في كتبهم، ثم من هذا دخلت الإسماعيليَّة والنُّصيريَّة في تأويل الواجبات والمحرَّمات، فهم أئمة التأويل، الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه، ومن تدبر ما عندهم وجد فيه من الكذب في المنقولات، والتكذيب بالحق منها، والتحريف لمعانيها، ما لا يوجد في صنف من المسلمين، فهم قطعًا أدخلوا في دين الله ما ليس منه أكثر من كل أحد، وحرَّفوا كتابه تحريفًا لم يصل غيرهم إلى قريب منه[1]

وقال: فتفسير الرافضة؛ كقولهم: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١] : هما أبو بكر وعمر، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] : أي بين أبي بكر وعلي في الخلافة، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧] هي عائشة، و﴿قاتلوا أئمة الكفر﴾: طلحة والزبير، و﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: الآية ٥٣] علي وفاطمة، و﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: الآية ٢٢] الحسن والحسين: و﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية ١٢] في علي بن أبي طالب، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾: علي بن أبي طالب، و﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المَائدة: الآية ٥٥] : هو علي، ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم وهو تصدقه بخاتمه في الصلاة، وكذلك قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٧] نزلت في علي لما أصيب بحمزة[2]

- قولهم في خلق الشيء أهو الشيء

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في خلق الشيء: أهو الشيء أم غيره؟ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: أصحاب هشام بن الحكم: يزعمون أن خلق الشيء صفة للشيء، لا هو الشيء، ولا هو غيره؛ لأنه صفة للشيء، والصِّفة لا توصف، وكذلك زعموا أن البقاء صفة للباقي، لا هي هو ولا غيره، وكذلك الفناء صفة للفاني، لا هي هو، ولا هي غيره.

(١) منهاج السنة النبوية (٣/٤٠٣- ٤٠٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٥٩).

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الخلق هو المخلوق، وأن الباقي يبقى لا ببقاء، وأن الفاني يفنى لا بفناء[١].

- قولهم في أفعال الناس والحيوان

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في أفعال الناس والحيوان: هل هي أشياء أم ليست بأشياء؟ وهل هي أجسام أم لا؟ وهم ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم: الهشاميَّة؛ أصحاب هشام بن الحكم، يزعمون أن الأفعال صفاتٌ للفاعلين، ليست هي هم ولا غيرهم، وأنها ليست بأجسام ولا أشياء.

وحُكي عنه أنه قال: هي معانٍ، وليست بأشياء ولا أجسام، وكذلك قوله في صفات الأجسام؛ كالحركات والسكنات والإرادات والكراهات والكلام والطاعة والمعصية والكفر والإيمان، فأما الألوان والطعوم والأراييح فكان يزعم أنها أجسام، وأن لون الشيء هو طعمه، وهو رائحته.

وحكى زرقان عنه أنه قال: الحركة فعل، والسكون ليس بفعل.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن حركات العباد وأفعالهم وسكناتهم أشياء، وهي أجسام، وأنه لا شيء إلا الأجسام، وأن العباد يفعلون الأجسام. وهذا قول الجواليقيَّة وشيطان الطَّاق.

والفرقة الثالثة منهم: وهم القائلون بالاعتزال والإمامة، يقولون في ذلك كأقاويل المعتزلة، ويختلفون فيه كاختلافهم.

فمنهم قوم يزعمون أن أفعال الإنسان وسائر الحيوان أعراض، وكذلك قولهم في الألوان والطعوم والأراييح والأصوات وسائر صفات الأجسام[٢]

- قولهم في القدر

متقدِّموهم يثبتون القدر، ومتأخِّروهم ينفونه، ومنهم من توقف.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرافضة في أعمال العباد: هل هي مخلوقة؟ وهم ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم: وهو هشام بن الحكم، يزعمون أن أعمال العباد مخلوقة لله، وحكى جعفر بن حرب عن هشام بن الحكم أنه كان يقول: إن أفعال الإنسان اختيار له من وجهٍ، اضطرار من وجهٍ؛ اختيار من جهة أنه أرادها واكتَسَبَهَا، واضطرار من جهة أنها لا تكون منه إلا عند حدوث السبب المهيِّج عليها.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٥).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٤٤، ٤٥).

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنه لا جَبْرَ كما قال الجهميُّ، ولا تفويض كما قالت المعتزلة؛ لأن الرواية عن الأئمة -زعموا- جاءت بذلك، ولم يتكلفوا أن يقولوا في أعمال العباد هل هي مخلوقة أم لا شيئًا؟

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أن أعمال العباد غير مخلوقة لله، وهذا قول قوم يقولون بالاعتزال والإمامة[١].

وقال شيخ الإسلام: وكذلك في القدر هم موافقون للمعتزلة، فقدماؤهم كان كثير منهم يثبت القدر، وإنكار القدر في قدمائهم أشهر من إنكار الصفات[٢].

وقال: أما نفاة القدر -كالمعتزلة ونحوهم- فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخِّرو الإماميَّة[٣].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عقب نقله لكلام الأشعري: فإذًا كانت الإماميَّة على ثلاثة أقوال: منهم من يوافق المثبتة، ومنهم من يوافق المعتزلة، ومنهم من يقف.

والواقفة معنى قولهم هو معنى قول أهل السنة، ولكن توقَّفوا في إطلاق اللفظ، فإن أهل السنة لا يقولون بالتفويض -كما تقول القدرية-، ولا بالجبر -كما تقول الجهمية- بل أئمة السنة كالأوزاعيّ والثوريّ وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وغيرهم متفقون على إنكار قول الجبرية المأثور عن جهم بن صفوان وأتباعه، وإن كان الأشعري يقول بأكثره وينفي الأسباب والحِكَم، فالسلف مثبتون للأسباب والحكمة.

والمقصود أن الإماميَّة إذا كان لهم قولان كانوا متنازعين في ذلك كتنازع سائر الناس، لكنهم فرع على غيرهم في هذا وغيره، فإن مثبتيهم تبع للمثبتة، ونفاتهم تبع للنُّفاة، إلا ما اختصوا به من افتراء الرافضة، فإن الكذب والجهل والتكذيب بالحق الذي اختصوا به لم يشركهم فيه أحد من طوائف الأمة، وأما ما يتكلمون به في سائر مسائل العلم: أصوله وفروعه، فهم فيه تبعٌ لغيرهم من الطوائف، يستعيرون كلام الناس فيتكلمون به، وما فيه من حقٍّ فهو من أهل السنة، لا يتفردون عنهم بمسألة واحدة صحيحة، لا في الأصول، ولا في الفروع، إذ كان مبدأ بدعة القوم من قوم منافقين لا مؤمنين[٤].

وقال: قول من وافق المعتزلة في توحيدهم وعدلهم من متأخِّري الشيعة -أن الله لم يخلق شيئًا من أفعال الحيوان: ولا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم، بل هذه الحوادث التي تحدث، تحدث بغير قدرته ولا خلقه.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٠، ٤١)، مجموع الفتاوى (٢/ ٤٥٧)، (١٣/ ٣٥٧، ٣٥٨).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢).
(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ١٣٤).
(٤) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

ومن قولهم أيضًا: إن الله تعالى لا يقدر أن يهدي ضالًا، ولا يقدر أن يضل مهتديًا، ولا يحتاج أحد من الخلق إلى أن يهديه الله، بل الله قد هداهم هدى البيان، وأما الاهتداء فهذا يهتدي بنفسه لا بمعونة الله له، وهذا يهتدي بنفسه لا بمعونة الله له.

ومن قولهم: إن هدى الله للمؤمنين والكفار سواء، ليس له على المؤمنين نعمة في الدين أعظم من نعمته على الكافرين، بل قد هدى عليٍّ بن أبي طالب كما هدى أبا جهل، بمنزلة الأب الذي يعطي أحد بنيه دراهم ويعطي الآخر مثلها، لكن هذا أنفقها في طاعة الله، وهذا في معصيته، فليس للأب من الإنعام على هذا في دينه، أكثر مما له من الإنعام على الآخر.

ومن أقوالهم: إنه يشاء الله ما لا يكون ويكون ما لا يشاء...

وفي الجملة فالقوم لا يثبتون لله مشيئة عامة، ولا قدرة تامة، ولا خلقًا متناولًا لكل حادث، وهذا القول أخذوه عن المعتزلة، هم أئمتهم فيه، ولهذا كانت الشيعة فيه على قولين[1]

وقال: وأيضًا فموسى بن جعفر وسائر علماء أهل البيت متفقون على إثبات القدر، والنقل بذلك عنهم ظاهر معروف، وقدماء الشيعة كانوا متفقين على إثبات القدر والصفات، وإنما شاع فيهم رد القدر من حين اتصلوا بالمعتزلة في دولة بني بويه[2]

وقال: ليس في طوائف المسلمين من يقول: إن الله تعالى يفعل قبيحًا، أو يخل بواجب، ولكن المعتزلة ونحوهم ومن وافقهم من الشيعة النافين للقدر، يوجبون على الله من جنس ما يوجبون على العباد، ويحرِّمون عليه ما يحرِّمونه على العباد، ويضعون له شريعة بقياسه على خلقه، فهم مشبهة الأفعال.

وأما المثبتون للقدر من أهل السنَّة والشيعة، فمتفقون على أن الله تعالى لا يقاس بخلقه في أفعاله، كما لا يقاس بهم في ذاته وصفاته، فليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وليس ما وجب على أحدنا وجب مثله على الله تعالى، ولا ما حَرُمَ على أحدنا حَرُمَ مثله على الله تعالى، ولا ما قَبُحَ منا قبح من الله، ولا ما حَسُنَ من الله تعالى حسن من أحدنا، وليس لأحدٍ منا أن يوجب على الله تعالى شيئًا، ولا يحرم عليه شيئًا.

فهذا أصل قولهم الذي اتفقوا عليه، واتفقوا على أن الله تعالى إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه واجبًا بحكم وعده، فإنه الصادق في خبره الذي لا يخلف الميعاد، واتفقوا على أنه لا يعذِّب أنبياءه ولا عباده الصالحين، بل يدخلهم الجنة، كما أخبر[3]

وقال: وحقيقة الأمر ما أخبر الله به في غير موضع من كتابه: أنه على كل شيء قدير، كما تقدم بيانه، وهذا مذهب أهل السنة المثبتين للقدر.

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ١٢٩- ١٣١)، (٤/ ٢١).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ١٣٩).
(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٤٧، ٤٤٨).

وأما القدرية من الإماميَّة والمعتزلة وغيرهم، فإذا قالوا: إنه قادر على كل المقدورات، لم يريدوا بذلك ما يريده أهل الإثبات، وإنما يريدون بذلك أنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد -من: الملائكة والجن والإنس- فإن الله لا يقدر عليها عند القدرية، وإنما تنازعوا: هل يقدر على مثلها؟

وإذا كان كذلك كان قولهم: إنه قادر على كل مقدور؟ إنما يتضمن أنه قادر على كل ما هو مقدور له، وغيره أيضًا هو قادر على كل مقدور له، لكن غاية ما يقولون: إنه قادر على مثل مقدور العباد، والعبد لا يقدر على مثل مقدور قادر آخر.

وبكل حال، فإذا كان المراد أنه قادر على ما هو مقدور له، كان هذا بمنزلة أن يُقال: هو عالم بكل ما يعلمه، وخالق لكل ما يخلقه، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها، مثل أن يقول القائل: إنه فاعل لجميع المفعولات، ومثل أن يقال: زيد عالم بكل ما يعلمه، وقادر على كل ما يقدر عليه، وفاعل لكل ما يفعله.

فإن الشأن في بيان المقدورات: هل هو على كل شيء قدير؟

فمذهب هؤلاء الإماميَّة وشيوخهم القدرية أنه ليس على كل شيء قديرًا، وأن العباد يقدرون على ما لا يقدر عليه، ولا يقدر أن يهدي ضالًا، ولا يضل مهتديًا، ولا يقيم قاعدًا باختياره، ولا يقعد قائمًا باختياره، ولا يجعل أحدًا مسلمًا مصليًا، ولا صائمًا، ولا حاجًا، ولا معتمرًا، ولا يجعل الإنسان لا مؤمنًا، ولا كافرًا، ولا برًا، ولا فاجرًا، ولا يخلقه هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا، فهذه الأمور كلها ممكنة ليس فيها ما هو ممتنع لذاته، وعندهم أن الله لا يقدر على شيء منها، فظهر تمويههم بقولهم: إن الله قادر على جميع المقدورات.

وأما أهل السنة فعندهم أن الله تعالى على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا[1]

وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة القدرية.

- قولهم في إرادة الله

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في إرادة الله سبحانه، وهم أربع فرق:

فالفرقة الأولى منهم: أصحاب هشام بن الحكم وهشام الجواليقيّ، يزعمون أن إرادة الله عز وجل حركة، وهي معنًى، لا هي الله، ولا هي غيره، وأنها صفة الله ليست غيره، وذلك أنهم يزعمون أن الله إذا أراد الشيء تحرك، فكان ما أراد، تعالى عن ذلك.

والفرقة الثانية منهم: أبو مالك الحضرمي وعلى بن مِيثَم ومَنْ تابعهما.

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩١- ٢٩٣).

يزعمون أن إرادة الله غيره، وهي حركة لله كما قال هشام، إلا أن هؤلاء خالفوه، فزعموا أن الإرادة حركة، وأنها غير الله، بها يتحرك.

والفرقة الثالثة منهم: وهم القائلون بالاعتزال والإمامة.

يزعمون أن إرادة الله ليست بحركة، فمنهم من أثبتها غير المراد فيقول: إنها مخلوقة لله لا بإرادة، ومنهم من يقول: إرادة الله سبحانه لتكوين الشيء هو الشيء، وإرادته لأفعال العباد هي أمره إياهم بالفعل، وهي غير فعلهم، وهم يأبَون أن يكون الله سبحانه أراد المعاصي فكانت.

والفرقة الرابعة منهم يقولون: لا نقول قبل الفعل: إن الله أراده، فإذا فعلت الطاعة قلنا: أرادها، وإذا فعلت المعصية فهو كارهٌ لها غير محبٌّ لها(١).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام بعد نقله لهذا الكلام: قلت: القول الثالث: هو قول متأخِّري الشيعة؛ كالمفيد وأتباعه الذين اتَّبعوا المعتزلة، وهم طائفة صاحب هذا الكتاب، والقول الأول: قول البصريين من المعتزلة، والثاني: قول البغداديين، فصار هؤلاء الشيعة على قول المعتزلة(٢).

وسيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والأشعريَّة في الإرادة.

- قولهم في الاستطاعة

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في الاستطاعة، وهم أربع فرق:

الفرقة الأولى منهم: أصحاب هشام بن الحكم.

يزعمون أن الاستطاعة خمسة أشياء: الصحة، وتخلية الشئون، والمدة في الوقت، والآلة التي بها يكون الفعل؛ كاليد التي يكون بها اللَّطم، والفأس التي تكون بها النِّجارة، والإبرة التي تكون بها الخياطة، وما أشبه ذلك من الآلات، والسبب الوارد المهيِّج الذي من أجله يكون الفعل، فإذا اجتمعت هذه الأشياء كان الفعل واقعًا، فمن الاستطاعة ما هو قبل الفعل موجود، ومنها ما لا يوجد إلا في حال الفعل، وهو السبب، وزعم أنَّ الفعل لا يكون إلا بالسبب الحادث، فإذا وُجد ذلك السبب وأحدثه الله كان الفعل لا مَحَالَة، وأنَّ الموجِبَ للفعل هو السبب، وما سوى ذلك من الاستطاعة لا يوجبه.

والفرقة الثانية منهم: زرارة بن أعين، وعبيد بن زرارة، ومحمد بن حكيم، وعبد الله بن بُكير، وهشام بن سالم الجواليقيّ، وحميد بن رياح، وشيطان الطاق.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤١، ٤٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٤٢).

يزعمون أن الاستطاعة قبل الفعل، وهي الصحة، وبها يستطيع المستطيع، فكلٌّ صحيح مستطيعٌ.

وكان شيطان الطَّاق يقول: لا يكون الفعل إلا أنْ يشاء الله.

وحكي عن هشام بن سالم أن الاستطاعة جسم، وهي بعض المستطيع.

ومن الرافضة من يقول: الاستطاعة كلُّ ما لا يُنال الفعل إلا به، وذلك كله قبل الفعل، والقائل بهذا هشام بن حرول.

والفرقة الثالثة منهم: أصحاب أبي مالك الحضرمي.

يزعمون أن الإنسان مستطيعٌ للفعل في حال الفعل، وأنه يستطيعه لا باستطاعة في غيره.

وحكى زُرقان عنه أنه كان يزعم أن الاستطاعة قبل الفعل للفعل ولتركه.

والفرقة الرابعة منهم: يزعمون أن الإنسان إن كان قادرًا بآلات وجِدٌّ فهو قادر من وجه، وغير قادرٍ من وجه[1]

قال شيخ الإسلام: وقوم جعلوا الاستطاعة قبل الفعل، وهو الغالب على النُّفاة من المعتزلة والشيعة[2]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والنَّجاريَّة والأشعريَّة في الاستطاعة.

- قولهم في قدرة الله على الظُّلم

أقوال العلماء

قال أشعري: اختلفت الرَّوافض هل يوصف الباريء بالقدرة على أن يظلم أم لا؟

فأبى ذلك قوم، وأجازه آخرون[3]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة في قدرة الله على الظلم.

- قولهم في الحكمة والتعليل

حكمة الله في خلقه وأمره عند أكثرهم هي منفعتهم، من غير أن يعود إليه من ذلك حكم.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٢- ٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧١).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٣٥).

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: من قال إن الحكمة المطلوبة مخلوقة منفصلة عنه أيضًا؛ كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم، وقالوا: الحكمة في ذلك إحسانه إلى الخلق؛ والحكمة في الأمر تعويض المكلفين بالثواب، وقالوا: إن فعل الإحسان إلى الغير حسن محمود في العقل؛ فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود إليه من ذلك حكم؛ ولا قام به فعل ولا نعت[1].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة في الحكمة والتعليل.

- قولهم في الصلاح والأصلح

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه أن يفعل بكل عبد ما هو الأصلح له في دينه، وتنازعوا في وجوب الأصلح في دنياه، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل، ولا يقدر أن يهدي ضالًا ولا يضلُّ مهتديًا[2].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة في الصلاح والأصلح.

- قولهم في حكم الأطفال في الآخرة

منهم من يجوز عذابهم والعفو عنهم، ومنهم من يقول بأنهم في الجنة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في عذاب الأطفال في الآخرة، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الأطفال جائز أن يعذبهم الله، وجائز أن يعفو عنهم، كلُّ ذلك له أن يفعله.

والفريق الثاني منهم: وهم أصحاب هشام بن الحكم فيما حكى زُرقان عنه، فإن لم يكن هشام بن الحكم قاله فِمَّن يقوله اليوم كثير، يزعمون أنه لا يجوز أن يعذب الله سبحانه الأطفال، بل هم في الجنة[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٩٢).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٥، ٥٦).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في حكم الأطفال في الآخرة.

- قولهم في ألم الأطفال في الدنيا

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في ألم الأطفال في الدنيا، وهم ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الأطفال يألمون في الدنيا، وأن إيلامهم فعلُ الله بإيجاب الخِلقة؛ لأن الله خلقهم خِلقة يألمون إذا قطعوا أو ضربوا.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الأطفال يألمون في الدنيا، وأن الألم الذي يحل فيهم فعل الله لا بإيجاب الخلقة، ولكن باختراع ذلك فيهم، وكذلك قولهم في سائر المتولدات؛ كالصَّوت الحادث عند الاصطكاك، وذهاب الحجر الحادث عند دفعتنا للحجر، وما أشبه ذلك.

والفرقة الثالثة منهم: وهم القائلون بالإمامة والاعتزال: يزعمون أنَّ الآلام التي تحلُّ في الأطفال منها ما هو فعل الله، ومنها ما هو فعل لغيره، وأن ما يفعله من الألم فإنما يفعلُه اختراعًا لا لسبب يوجبه[(١)]

- قولهم في فعل الإنسان في نفسه وفي غيره (التولد)

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض فيما يتولد عن فعل الإنسان: هل هو فعله؟ وهل يُحْدِث الفاعل فعلًا في غيره أو لا يحدث الفعلَ إلا في نفسه؟ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أنَّ الفاعل لا يفعل في غيره فعلًا ولا يفعل إلا في نفسه، ولا يثبتون الإنسان فاعلًا لما يتولد عن فعله؛ كالألم المتولِّد عن الضربة، اللذة التي تحدث عنه الأكل وسائر المتولدات.

والفرقة الثانية منهم: وهم القائلون بالاعتزال والنصِّ على عليٍّ بن أبي طالبٍ: يزعمون أن الفاعل منا ما يحدث الفعل في غيره، وأن ما يتولد عن فعله كالألم المتولد عن الضربة، والصوت المتولد عن اصطكاك الحجرين، وذهاب السهم المتولد عن الرمية، فعلٌ لمن تولد ذلك عن فعله[(٢)]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول النَّجَّاريَّة في فعل الإنسان في نفسه وفي غيره (التولد).

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٦).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٤٥، ٤٦).

- قولهم في الأسماء والأحكام

الإيمان عند أكثرهم هو المعرفة والإقرار بالله وبالرسول وبالإمام، ومتأخِّروهم على أن الإيمان جميع الطاعات والكفر جميع المعاصي كالوعيديَّة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في الإيمان ما هو، وفي الأسماء؟ وهم ثلاث فرقٍ:

فالفرقة الأولى منهم، وهم جمهور الرافضة: يزعمون أن الإيمان هو الإقرار بالله وبرسوله، وبالإمام، وبجميع ما جاء من عندهم، فأمَّا المعرفة بذلك فضرورة عندهم، فإذا أقرَّ وعَرَف فهو مؤمن مسلم، وإذا أقر ولم يعرف فهو مسلم وليس بمؤمن.

والفرقة الثانية منهم، وهم قوم من متأخِّريهم من أهل زماننا هذا، يزعمون أن الإيمان جميعُ الطاعات، وأن الكفر جميعُ المعاصي، ويُثْبِتون الوعيد، ويزعمون أن المتأوِّلين الذين خالفوا الحقَّ بتأويلهم كفار، وهذا قول ابن جبرويه.

والفرقة الثالثة منهم: أصحاب علي بن مِيثم: يزعمون أنَّ الإيمان اسم للمعرفة والإقرار ولسائر الطاعات، فمن جاء بذلك كله كان مستكمل الإيمان، ومن ترك شيئًا مما افترض الله عليه غيرَ جاحدٍ له فليس بمؤمن، ولكن يسمى فاسقًا، وهو من أهل المِلَّة: تحل مناكحته، وموارثته، ولا يكفرون المتأوِّلين[1].

وقال شيخ الإسلام: وكثير من هؤلاء يقول: حب عليّ حسنة لا يضر معها سيئة[2].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الأسماء والأحكام، وسيأتي مزيد بيان عند قول المرجئة فيها.

- قولهم في الوعيد

منهم من يثبت الوعيد وهو تخليد أهل الكبائر في النار على مخالفيهم دون أهل مقالتهم، ومنهم من يثبت الوعيد على الجميع، ومنهم من يتوقف.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في الوعيد، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يثبتون الوعيد على مخالفيهم، ويقولون: إنهم يعذَّبون، ولا يقولون بإثبات الوعيد فيمن قال بقولهم، ويزعمون أن الله سبحانه يُدْخِلهم الجنة، وإنْ أدخلهم النارَ أخرجهم

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٣، ٥٤).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ١٠٦).

منها، ورَوَوا في ذلك عن أئمتهم أن ما كان بين الله وبين الشيعة من المعاصي سألوا الله فيهم، فصفَحَ عنهم، وما كان بين الشيعة وبين الأئمة تجاوزوا عنه، وما كان بين الشيعة وبين الناس من المظالم شَفَعُوا لهم إليهم حتى يصفحوا عنهم.

والفرقة الثانية منهم: يذهبون إلى إثبات الوعيد، وأن الله عز وجل يعذِّب كل مرتكب الكبائر، من أهل مقالتهم كان أو من غير أهل مقالتهم، ويخلدهم في النار[١]

وقال شيخ الإسلام: وخروج أهل الذنوب من النار، وعفو الله عز وجل عن أهل الكبائر لهم فيه قولان، ومتأخِّروهم موافقون فيه الواقفية، الذين يقولون: لا ندري هل يدخل النار أحد من أهل القبلة أم لا؟[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الوعيد، وسيأتي مزيد بيان عند قول المرجئة فيه.

- قولهم في نساء وأموال مخالفيهم

منهم من يستحل ويستحِب سبي نساء مخالفيهم وأخذ أموالهم وسائر المحظورات، ومنهم من لا يستحل ذلك.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في سِباء نساء مخالفيهم، وأخذ أموالهم إذا أمكنهم ذلك، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يستحلون ذلك، ويستحبونه، ويستحلون سائر المحظورات، ويتأولون قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: الآية ٩٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢]

والفرقة الثانية منهم: يحرمون سِباء نساء مخالفيهم، وأخذ أموالهم بغير حقٍّ، ولا يبيحون المحظورات، ولا يستحلونها[٣]

- قولهم في المعارف والنظر والقياس

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في النظر والقياس، وهم ثماني فرق:

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٤، ٥٥).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢، ٤٦٣)، (٣/ ٣٩٦).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٨، ٥٩).

فالفرقة الأولى منهم، وهم جمهورهم، يزعمون أنَّ المعارف كلَّها اضطرار، وأنَّ الخلق جميعًا مضطرون، وأنَّ النظر والقياس لا يؤدِّيان إلى علم، وما تَعبَّد اللهُ العبادَ بهما.

والفرقة الثانية منهم، وهم أصحاب شيطان الطَّاق، يزعمون أنَّ المعارف كلها اضطرار، وقد يجوز أن يمنعها الله سبحانه بعض الخلق، فإذا منعها بعض الخلق وأعطاها بعضَهم كلفهم الإقرار مع منعه إياهم المعرفة.

والفرقة الثالثة منهم: وهم أصحاب أبي مالك الحضرمي، يزعمون أن المعارف كلها اضطرار، وقد يجوز أنْ يمنعها الله بعضَ الخلق، فإذا منعها الله بعضَ الخلق وأعطاها بعضَهم كلفهم الإقرار مع منعه إياهم المعرفة.

والفرقة الرابعة منهم أصحاب هشام بن الحكم: يزعمون أنَّ المعرفة كلَّها اضطرار بإيجاب الخِلقة، وأنها لا تقع إلا بعد النظر والاستدلال، يعنون بما لا يقع منها إلا بعد النظر والاستدلال العلمَ بالله عز وجل.

والفرقة الخامسة منهم: يزعمون أنَّ المعارف ليس كلها اضطرارًا، والمعرفة بالله يجوز أن تكون كسبًا، ويجوز أن تكون اضطرارًا، وإن كانت كسبًا أو كانت اضطرارًا فليس يجوز الأمر بها على وَجْه من الوجوه. وهذا قول الحسن بن موسى.

والفرقة السادسة منهم: يزعمون أنَّ النظرَ والقياسَ يؤدِّيانِ إلى العلم بالله، وأنَّ العقل حجة إذا جاءت الرسل، فأما قبل مجيئهم فليست للعقول دلالة ما لم يكن سنَّة بيِّنة، واعتلُّوا بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥]

والفرقة السابعة منهم: يقولون بتصحيح النظر والقياس، وإنهما يؤديان إلى العلم، وإن العقول حجة في التوحيد: قبل مجيء الرسل، وبعد مجيئهم.

والفرقة الثامنة منهم: يزعمون أنَّ العقول لا تدل على شيء قبل مجيء الرسل، ولا بعد مجيئهم، وأنه لا يُعْلَم شيء من الدين، ولا يلزم فرض، إلا بقول الرسل والأئمة، وأن الإمام هو الحجة بعد الرسول عليه السلام، لا حجة على الخلق غيره[١]

وقال شيخ الإسلام عنهم: أنتم لا تقولون بالقياس[٢].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: الجمهور الذين يثبتون القياس قالوا: قد ثبت عن الصحابة أنهم قالوا بالرأي واجتهاد الرأي وقاسوا، كما ثبت عنهم ذم ما ذموه من القياس. قالوا: وكلا القولين

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥١- ٥٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٤٢).

صحيح، فالمذموم القياس المعارض للنص؛ كقياس الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا، وقياس إبليس الذي عارض به أمر الله له بالسجود لآدم، وقياس المشركين الذين قالوا: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢١]

وكذلك القياس الذي لا يكون الفرع فيه مشاركًا للأصل في مناط الحكم، فالقياس يُذم إمَّا لفوات شرطه، وهو عدم المساواة في مناط الحكم، وإمَّا لوجود مانعه، وهو النص الذي يجب تقديمه عليه، وإن كانا متلازمَيْن في نفس الأمر، فلا يفوت الشرط إلا والمانع موجود، ولا يوجد المانع إلا والشرط مفقود.

فأما القياس الذي يستوي فيه الأصل والفرع في مناط الحكم ولم يعارضه ما هو أرجح منه، فهذا هو القياس الذي يُتبع.

ولا ريب أن القياس فيه فاسد، وكثير من الفقهاء قاسوا أقيسة فاسدة، بعضها باطل بالنص، وبعضها مما اتفق السلف على بطلانه، لكن بطلان كثير من القياس لا يقتضي بطلان جميعه، كما أن وجود الكذب في كثير من الحديث لا يوجب كذب جميعه[(١)]

- **قولهم في الاجتهاد**

يبطلون وينفون الاجتهاد في الأحكام.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأبطلوا جميعًا الاجتهاد في الأحكام[(٢)]

وقال: قالت الروافض بأجمعها بنفي اجتهاد الرأي في الأحكام وإنكاره[(٣)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: **الثاني**: أن يقال: القياس ولو قيل: إنه ضعيف، هو خير من تقليد من لم يبلغ في العلم مبلغ المجتهدين، فإن كل من له علم وإنصاف يعلم أن مثلَ: مالك والليث بن سعد والأوزاعيّ وأبي حنيفة والثَّوريّ وابن أبي ليلى، ومثل الشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثَوْر أعلَمُ وأفقهُ من العسكريين وأمثالهما.

وأيضًا، فهؤلاء خير من المنتظَر الذي لا يعلم ما يقول، فإن الواحد من هؤلاء إن كان عنده نص منقول عن النبي ﷺ فلا ريب أن النص الثابت عن النبي ﷺ مقدَّم على القياس بلا ريب، وإن لم يكن عنده نص ولم يقل بالقياس كان جاهلًا؛ فالقياس الذي يفيد الظن خير من الجهل الذي لا

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤١٢- ٤١٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٧).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٣).

علم معه ولا ظن، فإن قال هؤلاء: كل ما يقولونه هو ثابت عن النبي ﷺ، كان هذا أضعف مِن قول مَن قال: كل ما يقوله المجتهد فإنه قول النبي ﷺ، فإن هذا يقوله طائفة من أهل الرأي، وقولهم أقرب من قول الرافضة، فإن قول أولئك كذب صريح.

وأيضًا، فهذا كقول من يقول: عمل أهل المدينة متلقًّى عن الصحابة، وقول الصحابة متلقًّى عن النبي ﷺ، وقول من يقول: ما قاله الصحابة في غير مجاري القياس فإنه لا يقوله إلا توقيفًا عن النبي ﷺ، وقول من يقول: قول المجتهد أو الشيخ العارف هو إلهام من الله ووحي يجب اتِّباعه[١]

وقال: الثالث: أن يُقال: القول بالرأي والاجتهاد والقياس والاستحسان خيرٌ من الأخذ بما ينقله من يُعرف بكثرة الكذب، عمَّن يصيب ويخطئ نقل غير مصدِّقٍ عن قائل غير معصوم، ولا يشك عاقل أن رجوع مثل مالك، وابن أبي ذئب، وابن الماجشون، والليث بن سعد، والأوزاعيّ، والثَّوْريّ، وابن أبي ليلى، وشريك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وزُفَر، والحسن بن زياد اللؤلؤي، والشافعي، والبُوَيْطي، والمزنيّ، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبي داود السجستانيّ، والأثرم، وإبراهيم الحربيّ، والبخاريّ، وعثمان بن سعيد الدارميّ، وأبي بكر بن خزيمة، ومحمد بن جرير الطبريّ، ومحمد بن نصر المروزيّ، وغير هؤلاء إلى اجتهادهم واعتبارهم مثل أن يعلموا سنة النبي ﷺ الثابتة عنه، ويجتهدوا في تحقيق مناط الأحكام وتنقيحها وتخريجها -خيرٌ لهم من أن يتمسكوا بنقل الرَّوافض عن العسكريَيْن وأمثالهما، فإن الواحد من هؤلاء لأعلم بدين الله ورسوله من العسكريين أنفسهما، فلو أفتاه أحدهما بفتيا كان رجوعه إلى اجتهاده أولى من رجوعه إلى فتيا أحدهما، بل ذلك هو الواجب عليه، فكيف إذا كان ذلك نقلًا عنهما من مثل الرافضة؟! والواجب على مثل العسكريين وأمثالهما أن يتعلموا من الواحد من هؤلاء.

ومن المعلوم أن علي بن الحسين، وأبا جعفر محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، كانوا هم العلماء الفضلاء، وأن من بعدهم من الاثني عشر لم يعرف عنه من العلم ما عرف من هؤلاء، ومع هذا فكانوا يتعلمون من علماء زمانهم، ويرجعون إليهم حتى قال أبو عمران بن الأسيب القاضي البغدادي: أخبرنا أصحابنا أنه ذكر ربيعةُ بن أبي عبد الرحمن جعفرَ بن محمد، وأنه تعلم العلوم، فقال ربيعة: إنه اشترى حائطًا من حيطان المدينة فبعث إليَّ حتى أكتب له شرطًا في ابتياعه. نقله عنه محمد بن حاتم بن ريحويه البخاري في كتاب «إثبات إمامة الصديق».

فأما تحقيق المناط فهو متفق عليه بين المسلمين، وهو أن ينصَّ الله على تعليق الحكم بمعنى عامٍّ كليٍّ، فينظر في ثبوته في آحاد الصور، أو أنواع ذلك العام، كما نصَّ على: اعتبار العدالة، وعلى استقبال الكعبة، وعلى تحريم الخمر والميسر، وعلى حكم اليمين، وعلى تحريم الميْتَة والدم ولحم

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٠١- ٤٠٣).

الخنزير، ونحو ذلك، فينظر في الشراب المتنازع فيه: هل هو من الخمر أم لا؛ كالنبيذ المسكر؟ وفي اللعب المتنازع فيه كالنرد والشطرنج هل هو من الميسر أم لا؟ وفي اليمين المتنازع فيها؛ كالحلف بالحج، وصدقة المال، والعتق، والطلاق، والحرام، والظِّهار: هل هي داخلة في الأيمان فتُكَفَّر، أم في العقود المحلوف بها فيلزم ما حلف به، أم لا يدخل لا في هذا ولا في هذا فلا يلزمه شيء بحال؟ كما ينظر فيما وقعت فيه دم، أو ميتة، أو لحم خنزير من الماء والمائعات، ولم يتغير لونه ولا طعمه، بل استهلت النجاسات فيه واستحالت، أو رفعت منه واستحال فيه ما خالطه من أجزائها، فينظر في ذلك: هل يدخل في مسمًّى الماء المذكور في القرآن والسنة، أو في مسمى الميتة والدم ولحم الخنزير؟

وأما تنقيح المناط وتخريجه ففيهما نزاع، وهذا الإماميّ لم يذكر أصلًا حجة على بطلان الاجتهاد والرأي والقياس ليرد ذلك، بل ذكر أن طائفته لا تقول بذلك، وهذا يدل على جهلهم بالاستنباط، والاستخراج، وعدم معرفتهم بما في الشريعة من الحكم والمعاني، وعدم معرفتهم بالجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، وهم بمعاني القرآن وأحاديث الرسول ﷺ جُهَّال أيضًا، فهم جهال بأصول الشرع: الكتاب والسنة والإجماع، بمنصوص ذلك ومستنبطه.

وإنما عمدتهم على نقلٍ عمَّن يقلدونه، وهذا حال الجُهَّال المقلدين لآحاد العلماء المستدلين، ثم من سواهم ممن يقلد العلماء -كمالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم- له معرفة بأقوال هؤلاء، وبطرق يميزون بها بين صحيح أقوالهم وضعيفها، ومعرفة بأدلتهم ومآخذهم.

وأما الرافضة فلا يميزون بين ما يصح نقله عن أئمتهم وما لا يصح، ولا يعرفون أدلتهم ومآخذهم، بل هم من أهل التقليد بما يقلدون فيه، وهم يعيبون هؤلاء الجمهور بالاختلاف، وفيما ينقلونه عمن يقلدونه من الاختلاف، وفيما لا ينقلونه عمن يقلدونه من الاختلاف ما لا يكاد يحصى.

الرابع: أن يقال: لا ريب أن ما ينقله الفقهاء عن مثل: أبي حنيفة ومالك والشافعيّ وأحمد وغيرهم هو أصح مما ينقله الرَّوافض عن مثل العسكريين ومحمد بن علي الجواد وأمثالهم، ولا ريب أن هؤلاء أعلم بدين النبي ﷺ من أولئك، فمن عدل عن نقل الأصدق عن الأعلم إلى نقل الأكذب عن المرجوح كان مصابًا في دينه أو عقله أو كليهما[1]

- قولهم في الجزء الذي لا يتجزأ

منهم من يثبت أن الجزء يظل يتجزأ أبدًا، ومنهم يثبت أن الجزء يتناهى ولا يتجزأ.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفوا في الجزء الذي لا يتجزأ، وهم فرقتان:

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٧٠- ٤٧٦).

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الجزء يتجزأ أبدًا، ولا جزء إلا وله جزء، وليس لذلك آخر، إلا من جهة المساحة، وأن لمساحة الجسم آخِرًا، وليس لأجزائه آخر من باب التجزؤ، والقائل بهذا القول هشام بن الحكم، وغيره من الرَّوافض.

والفرقة الثانية منهم يقولون: إن لأجزاء الجسم غاية من باب التجزؤ، وله أجزاء معدودة، لها كلٌّ وجميعٌ، ولو رفع البارئ كل اجتماع في الجسم لبقيت أجزاؤه لا اجتماع فيها، ولا يحتمل كل جزء منها التجزؤ[(١)]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والنَّجَّارية والضَّرارية والأشعريَّة في الجسم والجوهر الفرد.

- قولهم في ماهية الإنسان

منهم من يزعم أن الإنسان هو البدن والروح، ومنهم من يزعم أنه الروح فقط، ومنهم من يزعم أنه جزء لا يتجزأ، ومنهم من يزعم أنه الجسم المرئي.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرَّوافض في الإنسان ما هو؟ وهم أربع فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الإنسان اسم لِمَعْنَيَيْن: لبدن، وروح، فالبدن مَوَاتٌ، والروح هي الفاعلة الدَّرَّاكةُ الحسَّاسة، وهي نورٌ من الأنوار، هكذا حكى زُرقَان عن هشام بن الحكم.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنَّ الإنسان جزء لا يتجزأ، ويُحيلون أن يكون الإنسانُ أكثر من جزء؛ لأنه لو كان أكثر من جزء لجاز أن يَحُلَّ في أحد الجزأين إيمانٌ وفي الآخر كفر، فيكون مؤمنًا وكافرًا في حال واحد، وذلك محال.

وقد ذهب من أهل زماننا قوم من النَّظَّاميَّة الذين يزعمون أن الإنسان هو الروح إلى قول الروافض.

وذهب أيضًا قوم ممن يميل إلى قول أبي الهُذَيْلِ: إن الإنسان هو هذا الجسم المرئيُّ إلى القول بالإمامة والرفض[(٢)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: تنازع الناس في مسمى «الإنسان» هل هو الروح فقط أو الجسد فقط؟ والصحيح أنه اسم للروح والجسد جميعًا، وإن كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة[(٣)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٦٠، ٦١)، ص(٣٢٩- ٣٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٦٧، ٦٨).

وقال: لفظ الإنسان يتناول الجسد والروح، ثم الأحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما[١].

قال: إن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد؛ بل مجموعهما[٢].

- قولهم في الطفرة

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الرّوافض في الطفرة، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: أصحاب هشام بن الحكم فيما حكاه زُرقان يقولون: إنَّ الجسمَ يكون في مكان، ثم يصير إلى المكان الثالث من غير أن يمرَّ بالثاني.

والفرقة الثانية منهم: ينكرون ذلك، ويحيلون أن يكون الجسم في مكان، ثم يصير إلى مكان ثالث من غير أن يمر بالمكان الثاني[٣].

- قولهم في المداخلة

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الروافض في المداخلة، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: الهشاميَّة، وهم -فيما حكى زُرقان عن هشام- يقولون بالمداخلة، ويثبتون كون الجسمين اللطيفين في مكان واحد؛ كالحرارة واللون، ولست أُحقِّق ما حكى زُرقان من ذلك كما حكاه.

والفرقة الثانية منهم: ينكرون المداخلة، ويحيلون كَوْنَ جسمين في مكان واحد، ويزعمون أن الجسمين يتجاوران ويتماسّان، فأما أن يتداخلا حتى يكون حَيِّزهما واحدًا فذلك محال[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤٤، ٣١٧، ٣٨٠).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٦١)، ص(٣٢١- ٣٢٣).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٦٠)، ص(٣٢٧- ٣٢٩).

المبحث الثالث
مَقَالَاتُ الزَّيدِيَّةِ

مُجْمَل مَقَالَاتِهِم

قال الشهرستانيُّ عن زيد بن علي: أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم، فتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزَّال الألثغ رأس المعتزلة ورئيسهم، ...، فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلهم معتزلة[(١)]

وقال: وقد تلمذ له زيد بن علي وأخذ الأصول فلذلك صارت الزَّيديَّة كلُّهم معتزلة[(٢)]

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الإمامة

يزعمون أن عليَّ بن أبي طالب هو الأحقُّ بالإمامة بعد رسول الله ﷺ، وهي من بعده فيمن خرج مِن ولده مِن فاطمة.

وجوَّزوا إمامة المفضولِ مع وجود الفاضل، ثم مالوا عن ذلك.

أقوال العلماء

قال ابن حزم: وطائفة قالت: لم ينصَّ النبيُّ ﷺ على عليٍّ، لكنه كان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقُّهم بالأمر، وهؤلاء هم الزَّيديَّة[(٣)]

وقال: وجميع الزَّيديَّة لا يختلفون في أنَّ الإمامة في جميع ولد عليِّ بن أبي طالب من خرج منهم يدعو إلى الكتاب والسنة وَجَبَ سلُّ السيف معه[(٤)]

وقال الشهرستانيُّ: ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوِّزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوَّزوا أن يكون كلُّ فاطميٍّ عالمٌ زاهدٌ شجاعٌ سخيٌّ خرج بالإمامة، أن يكون إمامًا واجب الطاعة: سواء كان من أولاد الحسن، أو من أولاد الحسين رضي الله عنه، وعن هذا جوَّز قوم منهم إمامة محمَّد وإبراهيم الإمامين ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن، اللَّذين خرجا في أيام المنصور وقُتِلا على ذلك. وجوَّزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة...

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٥٥).
(٢) الملل والنحل (١/ ٣٠).
(٣) الفصل (٤/ ٧٦).
(٤) الفصل (٤/ ٧٧).

وقال: وكان من مذهبه -أي: زيد بن علي- جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل. فقال: كان عليٌّ بن أبي طالب ﷺ أفضل الصحابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة، وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيّام النبوة كان قريبًا، وسيف أمير المؤمنين عليٍّ عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجفّ بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد.

فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن مَنْ عرفوه باللين، والتؤدة، والتقدم بالسِّنّ، والسبْقِ في الإسلام، والقرب من رسول الله ﷺ، ألا ترى أنه لما أراد في مرضه الَّذي مات فيه تقليد الأمر عمر بن الخطاب زعق الناس وقالوا لقد وليت علينا فظًّا غليظًا، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لشدته، وصلابته، وغلظة في الدين، وفظاظته على الأعداء، حتى سكنهم أبو بكر بقوله: لو سألني ربي لقلت: وليت عليهم خيرهم لهم. وكذلك يجوز أن يكون المفضول إمامًا والأفضل قائم، فيرجع إليه في الأحكام، ويحكم بحكمه في القضايا[1]

ومالت أكثر الزَّيديَّة بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول[2]

وقال شيخ الإسلام: كثير من الشيعة الزَّيديَّة، ومتأخري المعتزلة، وغيرهم، يعتقدون أفضليته -أي علي بن أبي طالب- وأن الإمام هو أبو بكر، وتجوز عندهم ولاية المفضول[3]

وذكر الأشعري مذاهب فِرَقِ الزَّيديَّةِ في الإمامة فقال:

١- أما الجاروديَّة فهم: يزعمون أن النبيَّ ﷺ نصَّ على علي بن أبي طالب بالوصف لا بالتسمية، فكان هو الإمامَ مِن بعده، وأن الناس ضَلُّوا وكفروا بتركهم الاقتداءَ به بعد الرسول ﷺ، ثم الحسن من بعد عليٍّ هو الإمام، ثم الحسين هو الإمام من بعد الحسن.

٢- وأما السُّلَيمَانيَّة فهم: يزعمون أن الإمامة شُورَى، وأنها تَصْلُحُ بعَقْد رجلين من خيار المسلمين، وأنها قد تصلح في المفضول وإن كان الفاضل أفضل في كل حال، ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر.

وحكى زُرْقَان عن سليمان بن جرير أنه كان يزعم أن بيعة أبي بكر وعمر خطأ لا يستحقان عليها اسم الفسق من قبل التأويل، وأنَّ الأمة قد تركت الأصلح في بيعتهم إياهما.

٣- وأما البُتْرِيَّة فهم: يزعمون أن عليًّا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأولاهم بالإمامة، وأنَّ بيعةَ أبي بكرٍ وعمرَ ليست بخطإٍ؛ لأن عليًّا ترك ذلك لهما، ... ولا يَرَوْنَ لعليٍّ إمامةً إلا حين بويع.

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٥٥، ١٥٧)، انظر: الفصل (٤/ ١٢٦).

(٣) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٦٨).

٤- وأما النّعيميّة فهم: يزعمون أن عليًا كان مستحقًّا للإمامة، وأنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأن الأمة ليست بمخطئة خطأ إثم في أن وَلَّتْ أبا بكر وعمر -رضوان الله عليهما- ولكنها مخطئة خطأ بيّنا في ترك الأفضل[1].

نقض قولهم

قال ابن حزم: واحتجَّ بعضُ الإماميَّة وجميع الزَّيديَّة بأنَّ عليًا كان أحقَّ الناس بالإمامة لبينونة فضله على جميعهم، ولكثرة فضائله دونهم.

قال أبو محمد: وهذا يقع الكلام فيه إن شاء الله تعالى في الكلام في المفاضلة بين أصحاب رسول الله ﷺ، وإنَّما الكلام هاهنا في الإمامة فقط.

فنقول وبالله تعالى التوفيق: هبكم أنَّكم وجدتم لعلي رضي الله عنه فضائل معلومة؛ كالسبق إلى الإسلام، والجهاد مع رسول الله ﷺ، وسعة العلم، والزهد، فهل وجدتم مثل ذلك للحسن والحسين رضي الله عنهما حتى أوجبتم لهما بذلك فضلًا في شيء مما ذكرنا على سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن العباس؟! هذا ما لا يقدر أحد على أن يدَّعي لهما فيه كلمة فما فوقها، يعني مما يكونان به فوق من قد ذكرنا في شيء من هذه الفضائل، فلم يبق إلا دعوى النَّصِّ عليهما، وهذا ما لا يعجز عن مثله أحد، لو استجازت الخوارج التّوقح بالكذب في دعوى النصِّ على عبد الله بن وهب الراسبي، لما كانوا الأمثل الرافضة في ذلك سواء بسواء، ولو استحلت الأمويَّة أن تجاهر بالكذب في دعوى النصِّ على معاوية، لكان أمرهم في ذلك أقوى من أمر الرافضة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٣] ، ولكن كل أمة ما عدا الرافضة والنصارى فإنَّها تستحي وتصون أنفسها عما لا تصون النصارى والرَّوَافض أنفسهم عنه من الكذب الفاضح البارد، وقلة الحياء، فيما يأتون به، ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو محمد: وكذلك لا يجدون لعلي بن الحسين بسوقًا في علم، ولا في عمل على سعيد بن المسيّب، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ولا على أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ولا على ابن عمه الحسن بن الحسن، وكذلك لا يجدون لمحمد بن علي بن الحسين بسوقًا في علم ولا في عمل ولا ورع على عبد الرحمن بن القاسم بن محمد، ولا على محمد بن عمرو، وابن أبي بكر بن المنكدر، ولا على أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، ولا على أخيه زيد بن علي، ولا على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، ولا على عمر بن عبد العزيز، وكذلك لا يجدون لجعفر بن محمد بسوقًا في علم ولا في دين ولا في عمل على محمد بن مسلم الزُّهْرِيِّ، ولا على ابن أبي ذؤيب، ولا على عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن

(١) مقالات الإسلاميين ص(٦٧- ٦٩).

عمر، ولا على عبيد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر، ولا على ابني عمه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وعلي بن الحسن بن الحسن، بل كل ما ذكرنا فوقه في العلم والزهد، وكلُّهم أرفع محلًا في الفُتْيَا والحديث، لا يمنع أحد منهم من شيء من ذلك. وهذا ابن عباس ﷺ قد جمع فقهه في عشرين كتابًا، ويبلغ حديثه نحو ذلك إذا تُقُصِّيَ، ولا تبلغ فتيا الحسن والحسين ورقتين، ويبلغ حديثهما ورقة أو ورقتين، وكذلك علي بن الحسين، إلَّا أنَّ محمد بن علي يبلغ حديثه وفتياه جزءًا صغيرًا، وكذلك جعفر بن محمد، وهم يقولون: إن الإمام عنده جميع علم الشريعة، فما بال من ذكرنا أظهروا بعض ذلك وهو الأقل الأنقص، وكتموا سائره وهو الأكثر الأعظم، فإن كان فرضهم الكتمان فقد خالفوا الحقَّ إذ أعلنوا ما أعلنوا، وإن كان فرضهم البيان فقد خالفوا الحقَّ إذ كتموا ما كتموا، وأما من بعد جعفر بن محمد فما عرفنا لهم علمًا أصلًا، لا من رواية، ولا من فُتْيَا، على قرب عهدهم منَّا، ولو كان عندهم من ذلك شيء لعرف كما عرف عن محمد بن علي وابنه جعفر، وعن غيره منهم ممن حدث الناس عنه، فبطلت دعواهم الظَّاهرة الكاذبة اللائحة السخيفة، التي هي من خرافات السمر، ومضاحك السخفاء [1].

وقال: فإن قال قائل: إنَّ عليَّ بن أبي طالب ﷺ كان قد قتل الأقارب من بين يدي رسول الله ﷺ فتولد له بذلك حقد في قلوب جماعة من الصحابة، ولذلك انحرفوا عنه.

قيل له: هذا تمويه ضعيف كاذب؛ لأنَّه إن ساغ لكم ذلك في بني عبد شمس، وبني مخزوم، وبني عبد الدار، وبني عامر؛ لأنَّه قتل من كلِّ قبيلة من هذه القبائل رجلًا أو رجالًا، فقتل من بني عامر بن لؤي رجلًا واحدًا وهو عمرو بن ودٍّ، وقتل من بني مخزوم وبني عبد الدار رجالًا، وقتل من بني عبد شمس الوليد بن عقبة والعاص بن سهل بن العاص بلا شكٍّ، وشارك في قتل عتبة بن ربيعة، وقيل: قتل عقبة بن أبي معيط، وقيل: قتله غيره، وهو عاصم بن ثابت الأنصاري، ولا مزيد، فقد علم كل من له أقل من علم بالأخبار أنه لم يكن لهذه القبائل ولا لأحد منها يوم السقيفة حل ولا عقد، ولا رأي ولا أمر، اللهم إلا أن أبا سفيان بن حرب بن أمية كان مائلًا إلى علي في ذلك الوقت، عصبية للقرابة، لا تدينًا، وكان ابنه يزيد وخالد بن سعيد بن العاص والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي مائلين إلى الأنصار تدينًا، والأنصار قتلوا أبا جهلِ بن هشام أخاه، وقد كان محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة شديد الميل إلى عليٍّ حين قصة عثمان وبعدها حتى قتله معاوية على ذلك، فعرِّفونا من قتل علي من بني تيم بن مرة، أو من عديِّ بن كعب حتى يظن أهل القحَّة أنهما حقدا عليه؟!

ثم أخبرونا من قتل من الأنصار؟ أو من جرح منهم؟ أو من أذى منهم؟!

ألم يكونوا معه في تلك المشاهد كلِّها بعضهم متقدم، وبعضهم مساوٍ له، وبعضهم متأخر عنه؟

فأيُّ حقدٍ كان له في قلوب الأنصار حتى يتفقوا كلُّهم على جحد النصِّ عليه؟ وعلى إبطال حقِّه؟ وعلى ترك ذكر اسمه جملة، وإيثار سعد بن عبادة عليه، ثم على إيثار أبي بكرٍ وعمر عليه، والمسارعة إلى بيعتهم بالخلافة دونه، وهو معهم وبين أظهرهم يرونه غدوًا وعشيًّا، لا يحول بينهم وبينه أحد؟

ثم أخبرونا من قتل عليٌّ من أقارب أولاد المهاجرين من العرب من مضر، وربيعة، واليمين، وقُضَاعة، حتى يتفقوا كلُّهم على كراهية ولايته، ويتفقوا كلُّهم على جحد النصِّ عليه؟!

إنَّ هذه عجائب لا يمكن اتفاق مثلها في العالم أصلًا.

ولقد كان لطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص من القتل في المشركين كالذي كان لعلي، فما الذي خصه باعتقاد الأحقاد له دونهم؟! لو كان للروافض حياء أو عقل.

ولقد كان لأبي بكرٍ رحمه الله ورضي عنه في مضادَّة قريشٍ في الدعاء إلى الإسلام ما لم يكن لعليٍّ، فما منعهم ذلك من بيعته، وهو أسوأ الناس أثرًا عند كفَّارهم؟!

ولقد كان لعمر بن الخطاب ﷺ في مغالبة كفَّار قريشٍ وإعلانه الإسلام على زعمهم ما لم يكن لعليٍّ ﷺ، فليت شعري ما الذي أوجب أن ينسى آثارها هؤلاء كلُّهم، ويعادوا عليًّا من بينهم كلِّهم؟! لولا قلة حياء الروافض وصفاقه وجهوههم، حتى بلغ الأمر بهم إلى أن عَدَوا على سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ، ورافع بن خديج الأنصاريِّ، ومحمد بن مسلمة الأنصاريِّ، وزيد بن ثابت الأنصاريِّ، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجماعة غير هؤلاء من المهاجرين أنهم لم يبايعوا عليًّا إذ ولي الخلافة، ثم بايعوا معاوية، ويزيدَ ابنَه من أدركه منهم، وادعوا أنَّ تلك الأحقاد حملتهم على ذلك.

قال أبو محمد: حمق الرافضة، وشدة ظلمة جهلهم، وقلَّة حيائهم، هورهم في الدمار، والبوار، والعار، والنار، وقلة المبالاة بالفضائح، وليت شعري أي حماسة، وأي كلمة حسنة كانت بين علي وبين هؤلاء أو أحد منهم؟! وإنما كان هؤلاء ومن جرى مجراهم لا يرون بيعة في فُرقة. فلما اتفق المسلمون على ما اتفقوا عليه كائنًا من كان دخلوا في الجماعة، وهكذا فعل من أدرك من هؤلاء ابن الزبير ﷺ ومروان، فإنَّهم قعدوا عنهما فلمَّا انفرد عبد الملك بن مروان بايعه من أدركه منهم لا رضا عنه، ولا عداوة لابن الزبير، ولا تفضيلًا لعبد الملك على ابن الزبير، لكن لِما ذكرنا.

وهكذا كان أمرهم في عليٍّ ومعاويةَ ولا مزيد، فلاحت نوكة هؤلاء المجانين، والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: وهذا زيد بن حارثة قتل يوم بدر حنظلة بن أبي سفيان، وهذا الزبير ابن العوام قتل يوم بدر أيضًا عبيدة بن سعيد بن العاص، وهذا عمر بن الخطاب قتل يومئذ العاص بن هشام بن المغيرة، فهلا عاداهم أهل هؤلاء المقتولين؟ وما الذي خص عليًّا بعداوة أولياء من قتل دون سائر من ذكرنا لولا جنون الرافضة، وعدم الحياء من وجوههم؟

ثم لو كان على ما ذكروه حقًّا فما الذي كان دعا عمر إلى إدخاله في الشورى مع من أدخله فيها؟

ولو أخرجه منها كما أخرج سعيد بن زيد، أو قصد إلى رجل غيره فولَّاه ما اعترض عليه أحد في ذلك بكلمة.

فصح ضرورة بكل ما ذكرنا أن القوم أنزلوه منزلته غير عالين ولا مقصرين ﷺ أجمعين، وأنَّهم قدَّموا الأحقَّ فالأحقّ، والأفضل فالأفضل، وساووه بنظرائه منهم[(١)]

وقال شيخ الإسلام: كما يقول كثير من خيار الشِّيعة الزَّيديَّة: إنَّ عليًّا كان أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان، ولكنِ كانت المصلحة الدينيَّة تقتضي خلافة هؤلاء؛ لأنه كان في نفوس كثير من المسلمين نفور عن عليٍّ بسبب من قتله من أقاربهم، فما كانت الكلمة تتفق على طاعته، فجاز تولية المفضول لأجل ذلك.

فهذا القول يقوله كثير من خيار الشيعة، وهم الذين ظنُّوا أن عليًّا كان أفضل، وعلموا أن خلافة أبي بكر وعمر حق لا يمكن الطعن فيها، فجمعوا بين هذا وهذا بهذا الوجه.

وهؤلاء عُذرهم آثار سمعوها، وأمور ظنُّوها، تقتضي فضل عليٍّ عليهم، كما يقع مثل ذلك في عامة المسائل المتنازع فيها بين الأمة، يكون الصواب مع أحد القولين، ولكن الآخرون معهم منقولات ظنوها صدقًا، ولم يكن لهم خبرة بأنها كذب، ومعهم من الآيات والأحاديث الصحيحة تأويلات ظنوها مرادة ومن النصِّ، ولم تكن كذلك، ومعهم نوع من القياس والرأي ظنوه حقًّا وهو باطل.

فهذا مجموع ما يورث الشبه في ذلك، إذا خلت النفوس عن الهوى، وقلَّ أن يخلو أكثر الناس عن الهوى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النّجم: الآية ٢٣] [(٢)]

وقال: وأما أئمة المسلمين المشهورون فكلهم متَّفقون على أن أبا بكر وعمر أفضل من عثمان وعليٍّ، ونقل هذا الإجماع غيرُ واحدٍ، كما روى البيهقي في كتاب «مناقب الشافعيِّ»، مسنده عن الشافعي، قال: ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر، وتقديمهما على جميع الصحابة.

وروى مالك عن نافع عن ابن عمر قال: كنا نفاضل على عهد رسول الله ﷺ، فنقول: خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر.

وقد تقدم نقل البخاريِّ عن عليٍّ هذا الكلام.

والشيعة الذين صحبوا عليًّا كانوا يقولون ذلك، وتواتر ذلك عن عليٍّ من نحو ثمانين وجهًا، وهذا مما يقطع به أهل العلم، ليس هذا مما يخفى على من كان عارفًا بأحوال الرسول والخلفاء[(٣)]

---

(١) الفصل (٤/ ٨١- ٨٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٦٨، ٣٦٩).

وقال: إن العترة لم تجتمع على إمامته ولا أفضليته -أي علي-، بل أئمة العترة كابن عباس وغيره يقدِّمون أبا بكر وعمر في الإمامة والأفضلية، وكذلك سائر بني هاشم من العباسيين والجعفريين وأكثر العلويين، وهم مقرُّون بإمامة أبي بكر وعمر، وفيهم من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم أضعاف من فيهم من الإماميَّة.

والنقل الثابت عن جميع علماء أهل البيت، من بني هاشم، من التابعين وتابعيهم، من ولد الحسين بن عليٍّ، وولد الحسن، وغيرهما، أنهم كانوا يتولَّون أبا بكر وعمر، وكانوا يفضلونهما عَلَىَ عليٍّ، والنقول عنهم ثابتة متواترة.

وقد صنَّف الحافظ أبو الحسن الدارقطنيّ كتاب: ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة، وذكر فيه من ذلك قطعة، وكذلك كل من صنَّف من أهل الحديث في السنة، مثل كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد، و«السنة» للخلال، و«السنة» لابن بطَّة، و«السنة» للآجري واللالكائي، والبيهقيّ، وابن ذرٍّ الهرويّ، والطلمنكي، وأبي حفص بن شاهين، وأضعاف هؤلاء الكتب التي يحتج هذا بالعزو إليها، مثل كتاب: «فضائل الصحابة» للإمام أحمد ولأبي نُعيم، وتفسير الثعلبي، وفيها من ذكر فضائل الثلاثة ما هو من أعظم الحجج عليه[(١)]

وقال: وكان السلف متفقين على تقديمهما حتى شيعة عليٍّ ﷺ.

وروى ابن بطَّة عن شيخه المعروف بأبي العباس بن مسروق، حدَّثنا محمد بن حميد، حدَّثنا جرير، عن سفيان، عن عبد الله بن زياد، عن حُدَير قال: قدم أبو إسحاق السبيعيُّ الكوفةَ، قال لنا شمر بن عطية: قوموا إليه، فجلسنا إليه، فتحدَّثوا، فقال أبو إسحاق: خرجت من الكوفة وليس أحد يشك في فضل أبي بكر وعمر وتقديمهما، وقدمت الآن وهم يقولون ويقولون، ولا والله ما أدري ما يقولون.

وقال: حدثنا النيسابوريُّ، حدثنا أبو أسامة الحلبي، حدثنا أبي، حدثنا ضمرة، عن سعيد بن حسن، قال: سمعت ليث بن أبي سليم يقول: أدركت الشيعة الأولى وما يفضِّلون عَلَىَ أبي بكر وعمر أحدًا.

وقال أحمد بن حنبل: حدَّثنا ابن عيينة، عن خالد بن سلمة، عن الشعبي، عن مسروق قال: حبُّ أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنُّة. ومسروق من أجلِّ تابعي الكوفة، وكذلك قال طاوس: حبُّ أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة، وقد رُوى ذلك عن ابن مسعود.

وكيف لا تقدِّم الشيعة الأولى أبا بكر وعمر، وقد تواتر عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وقد روى هذا عنه من طرق كثيرة، قيل: إنها تبلغ ثمانين طريقًا.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٩٦، ٣٩٧).

وقد رواه البخاريُّ عنه في صحيحه من حديث الهمدانيين الذين هم أخصُّ الناس بعليٍّ حتى كان يقول:

ولو كنت بوَّابًا على باب جنةٍ لقلتُ لهمدان ادخلي بسلام.

وقد رواه البخاري من حديث سفيان الثوري -وهو همداني-، عن منذر -وهو همداني-، عن محمد ابن الحنفية قال: قلت لأبي: يا أبت، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بُنَيَّ، أَوَمَا تعرف؟! فقلت: لا، قال: أبو بكر، فقلت: ثم من؟ قال: عمر، وهذا يقوله لابنه بينه وبينه، ليس هو مما يجوز أن يقوله تقيَّة، ويرويه عن أبيه خاصة، وقاله على المنبر.

وعنه أنه كان يقول: لا أُوتى بأحد يفضِّلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري.

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «اقتدوا باللَّذين من بعدي أبي بكر وعمر»[(١)]

وقال: بل الشيعة الأولى الذين كانوا على عهد عليٍّ كانوا يفضلون أبا بكر وعمر، وقال ابن القاسم: سألت مالكًا عن أبي بكر وعمر، فقال: ما رأيت أحدًا ممن اقتدي به يشك في تقديمهما، يعني: على عليٍّ وعثمان، فحكى إجماع أهل المدينة على تقديمهما.

وأهل المدينة لم يكونوا مائلين إلى بني أمية كما كان أهل الشام، بل قد خلعوا بيعة يزيد، وحاربهم عام الحَرَّة، وجرى بالمدينة ما جرى، ولم يكن أيضًا قتل عليٌّ منهم أحدًا كما قتل من أهل البصرة ومن أهل الشام، بل كانوا يعدُّونه من علماء المدينة إلى أن خرج منها، وهم متفقون على تقديم أبي بكر وعمر، فهؤلاء الذين هم أعلم الناس وأدْيَن الناس يرون تفضيله فضلًا عن خلافته.

وروى البيهقي بإسناده عن الشافعي قال: لم يختلف الصحابة والتابعون في تقديم أبي بكر وعمر[(٢)]

- قولهم في تصويب عليٍّ بن أبي طالب

يقولون بتصويب عليٍّ بن أبي طالب في حربه، وفي التَّحْكِيم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأجمعوا جميعًا على تصويب عليٍّ بن أبي طالب في حربه، وعلى تخطئة من خالفه...

وأجمعت الزَّيديَّةُ أنَّ عليًا كان مصيبًا في تحكيمه الحكَمَيْن، وأنه إنما حكَّم لما خاف على عسكره الفسادَ، وكان الأمر عنده بيِّنًا واضحًا، فنظر للمسلمين ليتألَّفهم، وإنَّما أمرهم أن يحكما بكتاب الله عز وجل فخالفا، فهما اللذان أخطأا، وأصاب هو[(٣)]

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ١٣٥- ١٣٨).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٨٤- ٨٦)، مجموع الفتاوى (٤/٣٩٨- ٤١٣).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٧٤).

وقال: وقالت الزَّيديَّة وكثير من المرجئة وإبراهيم النَّظَّام وبشر بن المعتمر: إن عليًّا رضوان الله عليه كان مصيبًا في تحكيمه الحكمين، وأنه إنما حكَّم لما خاف على عسكره الفساد، وكان الأمر عنده واضحًا، فنظر للمسلمين ليتألَّفهم، وإنما أمرهم أن يحكما بكتاب الله عز وجل فخالفا فهما المخطئان وعلي مصيب[(١)]

وقال عن سليمان بن جرير من الزَّيديَّة: ويزعم أنه قد ثبت عنده أن عليًّ بن أبي طالب لا يضلُّ، ولا تقوم عليه شهادة عادلة بضلالة، ولا يوجب علم هذه النكتة على العامة، إذ كان إنما تجب هذه النكتة من طريق الروايات الصحيحة عنده[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في تصويب عليٍّ بن أبي طالب.

- قولهم في الخروج على الأئمة

يرون الخروج على الأئمَّة إذا جاروا أو ظلموا أو كفروا.

أقوال العلماء

قال الأشعري: الزَّيديَّة بأجمعها، ترى السيف، والخروج على أئمَّة الجور، وإزالة الظلم، وإقامة الحقِّ[(٣)]

وقال عن زيدِ بن عليٍّ: ويرى الخروج على أئمَّة الجور[(٤)]

وقال شيخ الإسلام: وأما السَّيف فإن الزَّيديَّة ترى السيفَ[(٥)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمَّة وقتالهم بالسَّيفِ وإن كان فيهم ظلم، كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادَيْنِ بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد يُعرف طائفة خرجت على ذي سلطانٍ، إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته.

والله تعالى لم يأمر بقتال كلِّ ظالم وكلِّ باغٍ كيفما كان، ولا أمر بقتال الباغين ابتداءً، بل قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٥٣).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٦٨).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٧٤).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٦٥)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٧١).
(٥) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٦)، الفصل (٤/ ١٣٢).

﴿أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ [الحُجرَات: الآية ٩]، فلم يأمر بقتال الباغية ابتداءً، فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداءً؟!

وفي صحيح مسلم عن أمّ سلمةَ ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف بَرِئَ، ومن أنكر سلم، ولكن رضي وتابع»، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلوا»، فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتالهم مع إخباره أنهم يأتون أمورًا منكرة، فدلَّ على أنه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف، كما يراه من يقاتل ولاة الأمر من: الخوارج، والزَّيديَّة، والمعتزلة، وطائفة من الفقهاء وغيرهم.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ﵁ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إنكم سترون بعدي أثرةً وأمورًا تنكرونها»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «تؤدون الحقَّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم».

فقد أخبر النبيَّ ﷺ أن الأمراء يظلمون ويفعلون أمورًا منكرةً، ومع هذا فأمرنا أن نؤتيهم الحقَّ الذي لهم، ونسأل الله الحقَّ الذي لنا، ولم يأذن في أخذ الحقِّ بالقتال، ولم يرخص في ترك الحقِّ الذي لهم.

وفي الصحيحين عن ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية»، وفي لفظ: «فإنه من خرج من السلطان شبرًا فمات مات ميتة جاهلية»، واللفظ للبخاري.

وقد تقدم قوله ﷺ لما ذكر أنهم لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته قال حذيفة: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع»، فهذا أمر بالطاعة مع ظلم الأمير.

وتقدم قوله ﷺ: «من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدًا عن طاعة»، وهذا نهي عن الخروج عن السلطان وإن عصى.

وتقدم حديث عبادة: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا إن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»، وفي رواية: وأن نقول -أو نقوم- بالحقِّ حيث ما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم، فهذا أمر بالطاعة مع استئثار ولي الأمر، وذلك ظلم منه، ونهي عن منازعة الأمر أهله، وذلك نهي عن الخروج عليه؛ لأن أهله هم أولو الأمر الذين أمر بطاعتهم، وهم الذين لهم سلطان يأمرون به، وليس المراد من يستحق أن يُولَّى ولا سلطان له، ولا المتولي العادل؛ لأنه قد ذكر أنهم يستأثرون، فدل على أنه نهى عن منازعة ولي الأمر وإن كان مستأثرًا، وهذا باب واسع(١).

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٩١- ٣٩٥)، (٤/ ٥٢٩- ٥٣١)، (٤/ ٥٣٦- ٥٤٣)، (٥/ ١٥٠- ١٥٣).

وتقدم مزيد بيان عند قول الخوارج في الخروج على الأئمة.

- قولهم في الصحابة

متقدِّموهم يقدِّمون عليَّ بن أبي طالب على سائر الصحابة ﷺ، ولا يطعنون في أبي بكر وعمر، ويطعنون ويتبرءون من عثمان، وأما متأخِّروهم فيطعنون في الصحابة كما طعنت الرافضة فيهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: أجمعت الروافض والزَّيديَّة على تفضيل عليٍّ على سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى أنَّه ليس بعد النبيِّ ﷺ أفضل منه[1]

وقال: وكان زيد بن عليٍّ يفضِّل عليَّ بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله، ويتولى أبا بكر وعمر[2]

وقال الملطي: ومنهم صنف زعموا أن عليًّا أفضل الناس كلِّهم، ويقولون: لا نطعن على أبي بكر وعمر، ويطعنون على عثمان، ويزعمون أنه نكث وغيَّر، فصاروا بطعنهم على عثمان وتقديمهم عليًّا رافضة، يقال لهم: الزَّيديَّة[3]

وقال الشهرستانيُّ عن أكثر الزَّيديَّة المتأخِّرين: طعنت في الصحابة طعن الإماميَّة[4]

وقال شيخ الإسلام: وأما عثمان فأبغضه أو سبَّه أو كفَّره أيضًا -مع الرافضة- طائفة من الشِّيعة الزَّيديَّة والخوارج[5]

وقال: والزَّيديَّة الَّذين يتولون أبا بكر وعمر مضطربون فيه -أي في عثمان ﷺ-[6]

وقال الأشعريُّ: وكان سليمانُ بن جرير يُقْدِم على عثمانَ، ويكفره عند الأحداث التي نُقِمَتْ عليه[7]

وقال عن البُتْريَّة الزَّيديَّة: ويَقِفون في عثمان وفي قَتَلته ولا يُقْدِمون عليه بالإكفار

وقد حُكي أن الحسن بن صالح بن حي كان يتبرأ من عثمان -رضوان الله عليه- بعد الأحداث التي نُقِمت عليه[8]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٧٤، ٧٥).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٦٥).

(٣) التنبيه والرد ص(١٦٤).

(٤) الملل والنحل (١/ ١٥٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٦).

(٦) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٣٩).

(٧) مقالات الإسلاميين ص(٦٨).

(٨) مقالات الإسلاميين ص(٦٩).

وقال عن النعيمية الزَّيديَّة: وتبرءوا من عثمانَ، ومن مُحَارِب عليٍّ، وشهدوا عليه بالكفر[(١)]

وقال عن اليعقوبيَّة الزَّيديَّة: يتولَّوْن أبا بكرٍ وعمرَ، ولا يتبرءون ممن برئ منهما[(٢)]

نقض قولهم

قال الملطيُّ: والذي أجمع عليه كل مؤمن أن الصحابة أصحاب رسول الله اجتمعوا على بيعة عثمان ﷺ وقدَّموه، وعلي معهم، فلو علم علي أن له حقًّا لم يبايعه، وبيعة عثمان أوكد من بيعة أبي بكر.

فإن زعموا أنهم اختلفوا، فقد كانوا يوم اجتمعوا أصوب رأيًا منهم يوم اختلفوا، لا شك في ذلك، وقد بان حظ من اختلف عليه لهذه الأمة إلى يوم الناس هذا، ولا سيَّما لأهل المعرفة منهم.

قال سعد بن أبي وقاص: لما ولي عثمان لبث زمانًا لا ينكرون عليه شيئًا، ثم أنكروا عليه شيئًا، وركبوا منه ما هو أعظم منه، والذي قال أهل العلم: إنه لا بيعة أجمع ولا أوفق ولا أوكد من بيعة عثمان ﷺ، وأن عبد الرحمن بن عوف بالغ في النَّصيحة لأهل الإسلام، ووفق، وإذا قال لكم قائل من أهل الشيعة: إن أبا بكر الصديق أفضل الناس بعد رسول الله وعليٌّ أحب إلي منه، فألحقوه بأهل البدع فإنه قد خالف ببدعته من مضى[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: وإن قيل: إن عثمان فعل أشياء أنكروها.

قيل: تلك الأشياء لم تبح خلعه ولا قتله، وإن أباحت خلعه وقتله كان ما نقموه على عليٍّ أَوْلَى أن يبيح ترك مبايعته، فإنهم إن ادَّعوا على عثمان نوعًا من المحاباة لبني أمية فقد ادعوا على عليٍّ تحاملًا عليهم، وتركًا لإنصافهم، وأنه بادر بعزل معاوية، ولم يكن ليستحق العزل، فإن النبي ﷺ ولَّى أباه أبا سفيان على نجران، ومات رسول الله ﷺ وهو أمير عليها، وكان كثير من أمراء النبي ﷺ على الأعمال من بني أمية؛ فإنه استعمل على مكة عتَّاب بن أسيد بن أبي العاص بن أميَّة، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص بن أمية على صدقات مَذْحج وصنعاء اليمن، ولم يزل عليها حتى مات النبي ﷺ، واستعمل عمرو على تيماء وخيبر وقرى عرينة، وأبان بن سعيد بن العاص استعمله أيضًا على البحرين برها وبحرها حين عزل العلاء بن الحضرمي، فلم يزل عليها حتى مات النبي ﷺ، وأرسله قبل ذلك أميرًا على سرايا منها سرية إلى نجد، وولَّاه عمر ﷺ، ولا يُتهم لا في دينه ولا في سياسته. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبّونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم».

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٦٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٦٩).

(٣) التنبيه والرد ص(١٦٤، ١٦٥).

قالوا: ومعاوية كانت رعيّته تحبه وهو يحبهم، ويصلّون عليه وهو يصلّي عليهم، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم»، قال مالك بن يخامر: سمعت معاذًا يقول: وهم بالشام، قالوا: «وهؤلاء كانوا عسكر معاوية».

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزل أهل الغرب ظاهرين حتى تقوم الساعة»، قال أحمد بن حنبل: أهل الغرب هم أهل الشام، وقد بسطنا هذا في موضع آخر، وهذا النص يتناول عسكر معاوية.

قالوا: ومعاوية أيضًا كان خيرًا من كثير ممن استنابه عليٌّ، فلم يكن يستحق أن يعزل ويولى من هو دونه في السياسة، فإن عليًّا استناب زياد بن أبيه، وقد أشاروا على عليٍّ بتولية معاوية. قالوا: يا أمير المؤمنين تولّيه شهرًا واعزله دهرًا، ولا ريب أن هذا كان هو المصلحة، إما لاستحقاقه، وإما لتأليفه واستعطافه، فقد كان رسول الله ﷺ أفضل من عليٍّ، وولّى أبا سفيان، ومعاوية خير منه، فولّى من هو خير من عليٍّ من هو دون معاوية.

فإذا قيل: إن عليًّا كان مجتهدًا في ذلك.

قيل: وعثمان كان مجتهدًا فيما فعل، وأين الاجتهاد في تخصيص بعض الناس بولاية أو إمارة أو مال، من الاجتهاد في سفك المسلمين بعضهم دماء بعض، حتى ذلّ المؤمنين وعجزوا عن مقاومة الكفّار، حتى طمعوا فيهم وفي الاستيلاء عليهم؟ ولا ريب أنه لو لم يكن قتال، بل كان معاوية مقيمًا على سياسة رعيته، وعليٌّ مقيمًا على سياسة رعيته، لم يكن في ذلك من الشر أعظم مما حصل بالاقتتال، فإنه بالاقتتال لم تزل هذه الفرقة ولم يجتمعوا على إمام، بل سُفكت الدماء، وقويت العداوة والبغضاء، وضعُفت الطائفة التي كانت أقرب إلى الحقّ، وهي طائفة عليٍّ، وصاروا يطلبون من الطائفة الأخرى من المسالمة ما كانت تلك تطلبه ابتداء.

ومعلوم أن الفعل الذي تكون مصلحته راجحة على مفسدته، يحصل به من الخير أعظم مما يحصل بعدمه، وهنا لم يحصل بالاقتتال مصلحة، بل كان الأمر مع عدم القتال خيرًا وأصلح منه بعد القتال، وكان عليٌّ وعسكره أكثر وأقوى، ومعاوية وأصحابه أقرب إلى موافقته ومسالمته ومصالحته، فإذا كان مثل هذا الاجتهاد مغفورًا لصاحبه، فاجتهاد عثمان أن يكون مغفورًا أَوْلَى وَأَحْرَى(١).

وتقدم مزيد بيان عند قول الرافضة في الصحابة.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٥٩- ٤٦٣)، (٦/ ١٩٢- ٢٩٨).

- قولهم في الأسماء والصفات

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الزَّيديَّة في الأسماء والصفات، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: أصحاب سليمان بن جرير.

يزعمون أن البارئ عالم بعلم، لا هو هو ولا غيره، وأن علمه شيء، قادِرٌ بقدرة، لا هي هو ولا غيره، وأن قدرته شيءٌ، وكذلك قولهم في سائر صفات النفس: كالحياة والسمع والبصر، وسائر صفات الذات، ولا يقولون: إن الصفات أشياء، ويقولون: وجه الله هو الله، ويزعمون أن الله -سبحانه- لم يزل مريدًا، وأنه لم يزل كارهًا للمعاصي ولأنْ يُعْصَى، وأنَّ الإرادة للشيء هي الكراهة لضده، ولذلك لم يزل راضيًا، ولم يزل ساخطًا، وسخطه على الكافرين هو رضاه بتعذيبهم، ورضاه بتعذيبهم هو سَخَطُه عليه، ورِضَا الله عن المؤمنين هو سخطه أن يعذبهم، وسخطه أن يعذبهم هو رضاه أن يغفر لهم، وقالوا: ولا نقولِ سخطه على الكافرين هو رضاه عن المؤمنين.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن البارئ عز وجل عالمٌ قادرٌ سميعٌ بصيرٌ، بغير علم وحياة وقدرة وسمع وبصر، وكذلك قولهم في سائر صفات الذات، ويمنعون أن يقولوا: لم يزل البارئ مريدًا، ولم يزل كارهًا، ولم يزل راضيًا، ولم يزل ساخطًا[(١)].

وقال: واختلفت الزَّيديَّة في البارئ عز وجل، أيقال: إنه شيء أم لا؟ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم -وهم جمهور الزَّيديَّة- يزعمون أن البارئ عز وجل شيء لا كالأشياء، ولا تشبهه الأشياء.

والفرقة الثانية منهم: لا يقولون: إن البارئ شيءٌ، فإن قيل لهم: أفتقولون: إنَّه ليس بشيء؟ قالوا: لا نقول: إنه ليس بشيء[(٢)].

وقال: وقال قائلون: أسماء البارئ هي غيره وكذلك صفاته، وهذا قول المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وكثير من الزَّيديَّة[(٣)].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهميَّة في الأسماء والصفات، وعند الكلام عن مقالة التعطيل.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٧٠، ٧١)، (١٦٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٧٠).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

منهم من ينفي رؤية الله بالأبصار في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقالت المعتزلة والخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الزَّيديَّة: إنَّ الله لا يُرى بالأبصار في الدنيا والآخرة، ولا يجوز ذلك عليه[١]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في كلام الله عز وجل

أكثرهم يقول بأن القرآن كلام الله مخلوق.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزَّيديَّةِ والمرجئة وكثير من الرَّافضة: إن القرآن كلام الله سبحانه، وإنه مخلوق لله، لم يكن ثم كَانَ[٢]

وقال شيخ الإسلام عن كلام الله: قول من يقول: إنه مخلوق خلقه الله منفصلًا عنه، وهذا قول هذا الإماميِّ، وأمثاله من الرافضة المتأخِّرين، والزَّيديَّةِ، والمعتزلة، والجهميَّة[٣]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهميَّة في كلام الله عز وجل.

- قولهم في القدر

منهم من يثبت القدر، ومنهم من ينفيه.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت الزَّيديَّة في خلق الأعمال، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن أعمالَ العباد مخلوقة لله، خَلَقَها وأبدعها واخترعها بعد أن لم تكن، فهي محدثة له مخترعة.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنها غير مخلوقة لله، ولا محدثة له مخترعة، وإنما هي كَسْبٌ للعباد أحْدَثوها واخترعوها وأبْدَعُوها وَفَعَلُوها[٤]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/٣٥٩، ٣٦٠).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٧٢).

وقال الإسفراييني: ووافقوا القدريَّة في هذا المعنى(١).

وقال شيخ الإسلام: وهؤلاء الزَّيديَّةُ فيهم من هو في القَدَر على قول أهل السنة والجماعة، وفيهم من هو على قول القدريَّةِ(٢).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عقب نقله لكلام الأشعري: قلت: بل غالب الشيعة الأولى كانوا مثبتين للقدر، وإنما ظهر إنكاره في متأخِّريهم؛ كإنكار الصفات، فإن غالب متقدميهم كانوا يقرُّون بإثبات الصفات، والمنقول عن أهل البيت في إثبات الصفات والقدر لا يكاد يحصى، وأما المقرُّون بإمامة الخلفاء الثلاثة مع كونهم قدرية فكثيرون في المعتزلة وغير المعتزلة، فعامة القدرية تقر بإمامة الخلفاء، ولا يُعرف أحد من متقدمي القدرية كان ينكر خلافة الخلفاء، وإنما ظهر هذا لما صار بعض الناس رافضيًّا قدريًّا جهميًّا فجمع أصول البدع؛ كصاحب هذا الكتاب وأمثاله.

والزَّيديَّة المقرُّون بخلافة الخلفاء الثلاثة هم من الشيعة، وفيهم قدرية وغير قدرية، والزَّيديَّة خير من الإماميَّة، وأشبههم بالإماميَّة هم الجاروديَّة(٣).

وتقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في القدر، وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة القدريَّةِ.

- قولهم في الاستطاعة

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الزَّيديَّة في الاستطاعة، وهم ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الاستطاعة مع الفعل، والأمر قبل الفعل، والشيء يفعل به الإيمان هو الذي يفعل به الكفر، وهذا قول بعض الزَّيديَّةِ.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الاستطاعة قبل الفعل، وهي مع الفعل مشغولة بالفعل في حال الفعل، وإنما يستطيع الفعل إذا فعله، هكذا حكى بعضُ المتكلمين عن سليمان بن جرير.

وقرأت في كتاب لسليمان بن جرير أن الاستطاعة بعضُ المستطيع، وأن الاستطاعة مجاورة له ممازجة كممازجة الدُّهنين.

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أن الاستطاعة قبل الفعل، وأن الأمر قبل الفعل، وأنه لا يوصف الإنسان بأنه مستطيع للشيء قادر عليه في حال كونه(٤).

---

(١) التبصير في الدين ص(٢٩).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ١٢).
(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٩).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٧٢، ٧٣).

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والنَّجَّاريَّةِ والأشعريَّةِ في الاستطاعة.

- قولهم في قدرة الله على الظلم وعلى ما علم أنه لا يكون

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الزَّيديَّة في البارئ عز وجل: هل يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: أصحاب سليمان بن جرير الزَّيديِّ.

يزعمون أن البارئ لا يوصف بالقدرة على أن يظلم ويجور، ولا يقال: لا يقدر؛ لأنه يستحيل أن يظلم ويكذب، وأحالوا قول القائل بقدر الله على أن يظلم ويكذب، وأحالوا سؤاله.

وكان سليمان بن جرير يجيب عن قول القائل: «يقدر الله على ما علم أنه لا يفعله»؟ أن هذا الكلام له وجهان: إنْ كان السائل يعني ما علمه أنه لا يفعله مما جاء الخبر بأنه لا يفعله فلا يجوز القول «يقدر عليه» ولا «لا يقدر عليه»؛ لأن القول بذلك محال، وأما ما لم يأت به خبر فإن كان مما في العقول دَفْعُه فإن الله عز وجل لا يوصف به، وإن مَنْ وَصَفه به مُحِيل، فالجواب في ذلك مثل الجواب فيما جاء الخبر بأنه لا يكون، وأمَّا ما لم يأتِ به خبرٌ وليس في العقول ما يدفعه؛ فإن القول إنه يقدر على ذلك جائز، وإنما جاز القولُ في ذلك لجهلنا بالمغيب فيه؛ ولأنه ليس في عقولنا ما يدفعه، وأنا قد رأينا مثله مخلوقًا.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أنَّ البارئ عز وجل يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب ولا يظلم ولا يكذب، وأنه قادر على ما علم وأخبر أنه لا يفعله أن يفعله[١]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة في قدرة الله على الظلم، وفي قدرة الله على ما علم أنه لا يكون.

- قولهم في الإيمان والأسماء

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت الزَّيديَّة في الإيمان والكفر، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الإيمان المعرفةُ والإقرارُ واجتناب ما جاء فيه الوعيد، وجعلوا مواقعة ما فيه الوعيد كفرًا، ليس بشرك، ولا جُحُود، بل هو كفرُ نعمةٍ، وكذلك قولهم في المتأوِّلين إذا قالوا قولًا هو عصيان وفسق.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٧١، ٧٢).

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الإيمان جميعُ الطاعات، وليس ارتكاب كل ما جاء فيه الوعيد كفرًا، وهذا قول قوم من متأخِّريهم، فأما جمهورهم وأوائلهم فقولهم القول الأول[١].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الأسماء والأحكام، وسيأتي مزيد بيان عند قول المرجئة فيها.

- قولهم في الوعيد

يقولون بخلود أصحاب الكبائر في النار أبدًا.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأجمعت الزَّيديَّةُ أن أصحاب الكبائر كلهم مُعَذَّبون في النار، خالدون فيها، مخلدون أبدًا، لا يُخْرَجون منها، ولا يُغيَّبون عنها[٢].

وقال الإسفراييني: وجميع فرق الزَّيديَّةِ يجمعهم القول بتخليد أهل الكبائر في النار

ووافقوا الخوارج أيضًا في أن فساق الملَّة كفار يخلَّدون في النار مع الكفَّار، ويقنطون من رحمة الله ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧] [٣].

وقال البغدادي: اجتمعت الفرق الثلاث الذين ذكرناهم من الزَّيديَّةِ على القول بأن أصحاب الكبائر من الأمة يكونون مخلدين في النار، فهم من هذا الوجه كالخوارج الذين أيأسوا أشراء المذنبين من رحمة الله تعالى، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون[٤].

وقال شيخ الإسلام: وأما الشيعة فالزَّيديَّةُ منهم -أو أكثر الزَّيديَّةِ- تقول بقول المعتزلة في ذلك[٥].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وهذا مما يوافق عليه الإماميَّة؛ فإنهم لا يقولون بتخليد أهل الكبائر في النار، فالفسق عندهم لا يحبط الحسنات كلَّها، بخلاف من خالف في ذلك من: الزَّيديَّة، والمعتزلة، والخوارج، الذين يقولون: إن الفسق يحبط الحسنات كلَّها، ولو حبطت حسناته كلُّها لحبط إيمانه، ولو حبط إيمانه لكان كافرًا مرتدًّا، فوجب قتله.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٧٣، ٧٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٧٤).

(٣) التبصير في الدين ص(٢٩).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٥٥).

(٥) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٠٢).

ونصوص الكتاب والسنَّة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: الآية ٩] . . . الآية، يدل على وجود الإيمان والأخوَّة مع الاقتتال والبغي.

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من كانت عنده لأخيه مظلمة من عِرْضٍ أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه، ثم ألقي في النار»، أخرجاه في الصحيحين، فثبت أن الظالم يكون له حسنات فيستوفي المظلوم منها حقَّه.

وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تعدُّون المفلس فيكم؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار، قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال، وقد شتم هذا، وأخذ مال هذا، وسفك دم هذا، وقذف هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»، رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هُود: الآية ١١٤] ، فدلَّ ذلك على أنه في حال إساءته يفعل حسنات تمحو إساءته، وإلا لو كانت السيئات قد زالت قبل ذلك بتوبة ونحوها، لم تكن الحسنات قد أذهبتها[١].

وتقدم بيان عند قول الخوارج في الوعيد، وسيأتي مزيد بيان عند قول المرجئة والمعتزلة فيه.

- قولهم في الشفاعة

ينكرون الشفاعة لأهل الكبائر

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزَّيديَّة[٢].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الشفاعة.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/٣٩٦، ٣٩٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١/١٤٨).

- قولهم في الاجتهاد

منهم من يجوز الاجتهاد، ومنهم من ينكره.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت الزَّيديَّةُ في اجتهاد الرأي، وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن اجتهاد الرأي جائز في الأحكام.

والفرقة الثانية منهم: ينكرون ذلك، وينكرون الاجتهاد في الأحكام.

وقال شيخ الإسلام: فالزَّيديَّةُ تقول بذلك -أي: الرأي والاجتهاد والقياس والاستحسان- وتروي فيه الروايات عن الأئمة[١].

وقال: في الشيعة من يقول بالقياس؛ كالزَّيديَّةِ[٢].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في الاجتهاد.

- قولهم في الصلاة خلف الفاسق

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وهي بأجمعها لا ترى الصلاة خلف الفاجر، ولا تراها إلا خلف من ليس بفاسق[٣].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٠١).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٧٤).

الباب الثالث
القَدَرِيَّةُ

وهو يحتوي على خمسة فصول:

الفصل الأول: تعريف القَدَرِيَّةِ.

الفصل الثاني: أسماء القَدَرِيَّةِ، وسبب هذه التسمية.

الفصل الثالث: نشأة القَدَرِيَّةِ.

الفصل الرابع: مقالة القَدَرِيَّةِ.

الفصل الخامس: المعتزلة.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسماء المعتزلة، وسبب هذه التسمية.

المبحث الثاني: نشأة المعتزلة.

المبحث الثالث: فِرَق المعتزلة.

المبحث الرابع: مقالات المعتزلة.

الفصل الأول

تعريف القَدَرِيَّةِ

القَدَرِيَّة: هم الذين ينفون قدر المولى عز وجل؛ وهو علم الله الأزلي الأبدي بكل شيء وما العباد عاملون وإليه صائرون، وكتابة الله في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، ومشيئة الله الشاملة وقدرته التامة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وخلق الله لكل المخلوقات ولأعمال العباد.

قال النووي: وسميت هذه الفرقة قدريَّة لإنكارهم القدر[١].

- وأوائل القَدَرِيَّة الذين نبغوا في أواخر عهد الصحابة كانوا ينكرون علم الله الأزلي بكل شيء، وكتابة المقادير في اللوح المحفوظ.

فعن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ وَذَكَرَ من شَأْنِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قال: فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بريئ منهم وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عبد اللَّهِ بن عُمَرَ لو أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ ما قَبِلَ الله منه حتى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. . .[٢].

قال النووي في قوله: يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف: أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه، كما قدمنا حكايته عن مذهبهم الباطل، وهذا القول قول غلاتهم وليس قول جميع القدر[٣].

وقال شيخ الإسلام: وهذا العلم والكتاب هو القدر الذي ينكره غالية القَدَرِيَّة، ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار، كفرهم الأئمة كالشافعي وأحمد وغيرهما[٤].

وقال: وأنكروا أن يتقدم بذلك قضاء وقدر وكتاب، وهؤلاء نبغوا في أواخر عصر الصحابة فلما سمع الصحابة بدعهم تبرءوا منهم كما تبرءوا منهم، ورد عليهم عبد الله بن عمر،

---

(١) شرح مسلم (١/ ١٥٤).

(٢) صحيح مسلم (١).

(٣) شرح النووي (١/ ١٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ١٥٢).

وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع وغيرهم، وقد نص الأئمة كمالك والشافعي وأحمد على كفر هؤلاء الذين ينكرون علم الله القديم[١].

وقال: أما الإقرار بتقدم علم الله وكتابه لأفعال العباد، فهذا لم ينكره إلا الغلاة من القَدَرِيَّة وغيرهم؛ وإلا فجمهور القَدَرِيَّة من المعتزلة وغيرهم يقرون بأن الله علم ما العباد فاعلون قبل أن يفعلوه[٢].

- وهؤلاء القَدَرِيَّة المنكرون لعلم الله الأزلي لكل شيء وما العباد إليه صائرون، ولكتابة مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ، قد انقرضوا ولم يبق منهم أحد.

قال النووي: قال أصحاب المقالات من المتكلمين: قد انقرضت القَدَرِيَّةُ القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه[٣].

وقال شيخ الإسلام: فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القَدَرِيَّة قديمًا ومنكره اليوم قليل[٤].

- أما عامة القَدَرِيَّة فهم ينكرون مشيئةَ الله النافذة وقدرته الشاملة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وخلقَ الله لكل شيء وللعباد وأعمالهم.

قال شيخ الإسلام: وأما جمهور القَدَرِيَّة فهم يقرون بالعلم والكتاب المتقدم، لكن ينكرون أن الله خلق أفعال العباد، وإرادة الكائنات[٥]

وقال: ثم كثر الخوض في القدر وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام، وبعضه في المدينة، فصار مقتصدوهم، وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم، وصار نزاع الناس في الإرادة وخلق أفعال العباد[٦]

وقال: وهذه الدرجة من القدر: يكذب بها عامة القَدَرِيَّة، الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة[٧]

وقال الجرجاني: القَدَرِيَّة هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى[٨]

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٢٩، ٤٥٠).

(٣) شرح النووي (١/ ١٥٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٦) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦، ٣٧).

(٧) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).

(٨) التعريفات ص(٢٢٢).

الفصل الثاني
أسماء القَدَرِيَّة

١- القَدَرِيَّة:

وذلك لأنهم ينسبون القدر إلى العبد، وينفونه عن الله تعالى.

وهم لا يقبلون هذه التسمية ولا يرضون بها، ويعتبرون أن الأحق بهذه التسمية هم الذين يقولون بالقدر خيره وشره من الله تعالى، لا الذين يقولون بأن الناس يقدرون أعمالهم.

وهم مخطئون في ذلك؛ لأن مدعي الشيء لنفسه أحق بأن ينسب إليه ممن جعله لغيره.

قال ابن قتيبة: إنهم أضافوا القدر إلى أنفسهم، وغيرهم يجعله لله تعالى دون نفسه، ومدعي الشيء لنفسه أولى بأن ينسب إليه ممن جعله لغيره[١].

وقال: وقد كان فريق منهم يزعمون أنَّ هذا الاسم لا يلزمهم باللغة، وإنَّما يلزم غيرهم، واحتجوا في ذلك أنّه يُدَّعى عليهم أنَّهم يقولون: لا قَدَر، فكيف يُنْسَبُون إلى ما يجحدون؟!

وهذا تمويهٌ من المحْتج، وإنَّما لزمهم لأنَّهم يُضِيفون إلى أنفُسِهم القَدَر، وغيرهم يجعله لله عزَّ وجلَّ دون نفسه، ومُدّعي الشيء لنفسه أحْرَى بأنْ يُنْسَب إلى ذلك الشيء من جعلَه لغيره[٢].

وقال الأشعريُّ: وزعمت القَدَرِيَّة أنا نستحق اسم القدر؛ لأنا نقول: إن الله تعالى قدر الشر والكفر فمن يثبت القدر كان قدريًّا دون من لم يثبته.

يقال لهم: القدري هو من يثبت القدر لنفسه دون ربِّه عز وجل، وأنه يقدر أفعاله دون خالقه، وكذلك هو في اللغة؛ لأن الصائغ هو من زعم أنه يصوغ دون من يزعم أنه يصاغ له، والنجار هو من يضيف النجارة إلى نفسه دون أنه ينجر له.

فلما كنتم تزعمون أنكم تقدرون أعمالكم وتفعلونها دون ربكم وجب أن تكونوا قدرية، ولم نكن نحن قدرية؛ لأنا لم نضف الأعمال إلى أنفسنا دون ربِّنا عز وجل، ولم نقل: إنا نقدرها دونه، وقلنا: إنها تقدر لنا.

ويقال لهم: إذا كان من أثبت التقدير لله عز وجل قدريًّا، فيلزمكم إذا زعمتم أن الله تعالى قدر السموات والأرض، وقدر الطاعات أن تكونوا قدرية، فإذا لم يلزم هذا فقد بطل قولكم وانتقر كلامكم[٣].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص(٥٦).

(٢) غريب الحديث (١/ ٢٥٥).

(٣) الإبانة ص(١٩٧، ١٩٨)، مقالات الإسلاميين ص(٤٣٠).

وقال الشهرستاني: وهم قد جعلوا لفظ القَدَرِيَّة مشتركًا، وقالوا: لفظ القَدَرِيَّة يطلق على من يقول بالقدر خيره وشرِّه من الله تعالى، احترازًا من وصمة اللَّقب؛ إذ كان الذَّمُّ به متَّفقًا عليه لقول النبيِّ عليه الصلاة والسلام: «القَدَرِيَّة مَجُوسُ هذه الأُمَّة»(١)

وقال المناوي: وهؤلاء الضلال يزعمون أن القَدَرِيَّة هم الذين يثبتون القدر، والجواب: أنا لم نثبت هذا من طريق القياس حتى تقابلونا بدعواكم هذه، بل أخذناه من نصوص صحيحة كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: الآية ٤٩] (٢)

٢- المجوسية:

وذلك لأنهم يشبهون المجوس في قولهم؛ فإن المجوس يقولون بإلهين، إله للخير وإله للشر، وهؤلاء يقولون: إن الخير من الله والشر من العبد.

قال ابن قتيبة: لأن الحديث جاءنا بأنهم مجوس هذه الأمة، وهم أشبه قوم بالمجوس؛ لأن المجوس تقول بإلهين، وإياهم أراد الله بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: الآية ٥١] ، وقالت القَدَرِيَّة: نحن نفعل ما لا يريد الله تعالى ونقدر على ما لا يقدر(٣)

وقال الخطابي: إنما جعلهم ﷺ مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية، وكذلك القَدَرِيَّة يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعًا لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقًا وإيجادًا وإلى الفاعلين لهما من عبادة فعلًا واكتسابًا(٤).

وقال الأشعريُّ: ويقال لهم: أليس المجوس أثبتوا الشيطان يقدر على الشر الذي لا يقدر الله عز وجل عليه فكانوا بقولهم هذا كافر، فلا بد من نعم.

يقال لهم: فإذا زعمتم أن الكافرين يقدرون على الكفر، والله تعالى لا يقدر عليه، فقد زدتم على المجوس في قولكم، لأنكم تقولون معهم: إن الشيطان يقدر على الشر والله لا يقدر عليه، وهذا ما بينه الخبر عن الرسول ﷺ: «أن القَدَرِيَّة مجوس هذه الأمة»، وإنما صاروا مجوس هذه الأمة لأنهم قالوا بقول المجوس(٥).

وقال الإسفراييني: وإنما شبههم بالمجوس؛ لأن المجوس ينسبون بعض التقدير إلى «يزدان»،

---

(١) الملل والنحل (١/ ٤٣)، شرح المواقف (٣/ ٦٥٨، ٦٥٩).
(٢) فيض القدير (٤/ ٢٠٨).
(٣) تأويل مختلف الحديث ص(٥٦).
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ١٥٤).
(٥) الإبانة ص(١٩٦).

وبعضه إلى «أهرمن» وهو اسم الشيطان، فأثبتوا تقديرًا في مقابلة تقدير الباري جل جلاله، وقالوا بجواز حصول أحد التقديرين دون الآخر. فكذلك القَدَرِيَّة أثبتوا تقديرين. أحدهما للرب تبارك وتعالى، والآخر للعبد، وجعلوا أحد التقديرين في مقابلة الآخر، وجوزوا حصول أحد التقديرين دون الآخر، وزعموا أن تقدير الربِّ يصير ممنوعًا منه تقدير العبد. ثم زادوا على المجوس، وذلك أن المجوس جعلوا في مقابلة تقديره تقديرًا واحدًا، وهم جعلوا في مقابلة تقديره تقدير جميع الحيوانات من الآدمي، وغير الآدمي حتى البقة، والبعوضة، والنملة، والنحلة، والسمكة، والدودة، وقالوا: تقدير الدودة يحصل، وتقدير القديم سبحانه لا يحصل، فإن الدودة تمنعه بتقديرها عن تقديره، وقد ورد الرد عليهم في كتاب الله سبحانه بأصرح ما يكون حيث قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: الآية ٤٩] (١)

وقال شيخ الإسلام: أولئك القَدَرِيَّة وإن كانوا يشبهون المجوس من حيث إنهم أثبتوا فاعلًا لما اعتقدوه شرًا غير الله سبحانه(٢)

وقال: القَدَرِيَّة من الأمة الذين هم مجوس الأمة يوافقون المجوس المحضة في بعض قولهم لا في كله(٣)

(١) التبصير في الدين ص(٩١، ٩٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٤).

الفصل الثالث

نشاة القَدَرِيَّة

أول ظهور الكلام في القدر كان في أواخر عصر الصحابة في إمارة عبد الله بن الزبير (٦٤- ٧٣ هـ) وعبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦ هـ).

قال شيخ الإسلام: في آخر عصر الصحابة حدثت القَدَرِيَّة[(١)]

وقال: حدثوا في أثناء المائة الأولى من زمن الزبير وعبد الملك[(٢)]

- وأول من تكلم في القدر رجل اسمه: سوسن، أو سوسر، والأكثرون على أن اسمه: سيسويه، أو سنسويه، والظاهر والله أعلم أن الكل واحد.

وكان هذا الرجل بالبصرة، وكان نصرانيًا ثم أسلم ثم تنصَّر، وهناك قول آخر أنه كان مجوسيًا.

وهذا الرجل من الأساورة، وكانت كنيته أبا يونس الإِسْوَاري.

وقيل: إن اسمه يونس الإِسْوَاري، وقيل: إنه زوج أم موسى بن سيار، أو يسار، الإِسْوَاريّ.

قال ابن أبي حاتم: سيسويه زوج أم موسى الإِسْوَاري، سمعت أبي يقول: هو مجهول[(٣)]

قال الذهبي: سيسويه زوج والدة موسى الإِسْوَاري، مجهول[(٤)]

وقال ابن حجر: وقد قيل: إنه يونس الإِسْوَاري[(٥)]

وقال: يونس الإِسْوَاري أول من تكلم بالقدر وكان بالبصرة فأخذ عنه معبد الجهني ذكره الكعبي في طبقات المعتزلة وذكر أنه كان يلقب سيسويه[(٦)]

وقال البخاري عن سيسويه أنه كان: مجوسيًا فادعى الإسلام، فقال الحسن: أهلكتهم العجمة[(٧)]

- وأخذ عن سيسويه مقالةَ القدر معبدٌ الجهني البصري (٨٠ هـ).

قال ابن أبي حاتم: معبد الجهني البصري، ويقال: معبد بن عبد الله بن عويم، ويقال: معبد بن خالد، والصحيح ألا ينسب، وكان أول من تكلم في القدر بالبصرة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ١٤٠)، (٦/ ٢٣١).
(٣) الجرح والتعديل (٤/ ٣٢٥)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٢/ ٣٤).
(٤) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥٢).
(٥) لسان الميزان (٣/ ١٣١).
(٦) لسان الميزان (٦/ ٣٣٥).
(٧) خلق أفعال العباد ص(٧٥).

وقال أبو حاتم: كان رأسًا في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسًا[(١)]

وقال السمعاني: معبد بن خالد الجهني كان يجالس الحسن البصري وهو أول من تكلم بالبصرة في القدر فسلك أهل البصرة بعده مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله...، قتله الحجاج بن يوسف صبرًا[(٢)]

- وأخذها عن معبدٍ غيلانُ بن مسلم الدمشقيُّ أبو مروان (بعد ١٠٥ هـ).

قال ابن قتيبة: غيلان الدمشقي كان قبطيًا قدريًا، لم يتكلم أحد في القدر قبله ودعا إليه إلا معبد الجهني، وكان غيلان يكنى أبا مروان، وأخذه هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق، وكانوا يرون أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز عليه[(٣)]

- ثم أخذها عنهم المعتزلة، وعلى رأسهم واصل بن عطاء الغزَّال (١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (١٤٤ هـ).

ذكر أقوال أهل العلم:

قال الأوزاعي: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن، كان نصرانيًا فأسلم ثم تنصَّر، وأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد[(٤)]

وقال ابن عون: أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان، حتى نشأ هنا هني حقير يقال له: سيسويه البقال، وكان أول من قال بالقدر[(٥)]

وعن معاذ بن معاذ قال: سمعت ابن عون يقول: أول ما تكلم من الناس في القدر بالبصرة معبد الجهني وأبو يونس الإسْوَاري.

قال معاذ: قال ابن عون هذا القول يومًا، وصعد إلينا أبو نعامة العدوي، وكان أكبر من ابن عون، فلما رآه ابن عون أجلسه إلى جنبه، فقال: يا أبا نعامة متى تكلم الناس في القدر؟ قال: إنما تكلموا فيه حيث تكلم سنسويه، وتابعه معبد الجهني.

قال معاذ: قال ابن عون: يا هؤلاء أرضوا الله واشهدوا على شهادتنا[(٦)]

---

(١) الجرح والتعديل (٨/ ٢٨٠)، تهذيب الكمال (٢٨/ ٢٤٤- ٢٤٩).

(٢) الأنساب (٢/ ١٣٥).

(٣) المعارف ص(٤٨٤)، لسان الميزان (٤/ ٤٢٤)، مجموع الفتاوى (٣/ ٢٤٠).

(٤) القدر للفريابي ص(٢٠٦)، وعنه الآجري في الشريعة (٢/ ٩٥٩)، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٩٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٥٠)، تهذيب الكمال (٢٨/ ٢٤٥)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٠١)، تاريخ دمشق (٤٨/ ١٩٢)، (٥٩/ ٣١٩).

(٥) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٩٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٣٦).

(٦) القدر للفريابي ص(٢٠٥)، وأوله عنه الآجري في الشريعة (٢/ ٩٦٠).

وعن حميد بن الأسود عن عبد الله بن عون قال: أمران أدركتهما وليس بهذا المصر منهما شيء، الكلام في القدر، إن أول من تكلم فيه رجل من الأساورة يقال له: سيسويه، وكان دحيقًا، وما سمعته قال لأحد دحيقًا غيره، قال: فإذا ليس له عليه تبع إلا الملاحون، ثم تكلم فيه بعده رجل كانت له مجالسة يقال له: معبد الجهني، فإذا له عليه تبع، ثم قال: وهؤلاء الذين يدعون المعتزلة[(١)]

وقال عبد الله بن مسلم: زعم ابن عون أنه عاش، وكان رجلًا، وما سمع بهذه المعتزلة، وما تعرف وما تذكر وهذا القدر، ثم استثنى إلا معبدًا ورجلًا من الأساورة يقال له: سيسويه، ويكنى أبا يونس، وكان حقيرًا في الناس[(٢)]

وقال ابن علية: كان ابن عون يقول: أمران أدركت الناس وليس فيهم منها شيء كلام هذه المعتزلة والقَدَرِيَّة، وكان أول من تكلم في القدر سنسويه بن يونس الإِسْوَاري، وكان حقيرًا صغير الشأن، ثم تكلم معبد، وتكلم رجل من أهل كذا في المسجد، وكان القائل يقول: إن معبدًا ليتكلم بشيء ما ندري ما هو ثم رفض[(٣)]

وقال يونس بن عبيد: أدركت البصرة وما بها قدري إلا سيسويه ومعبد الجهني وآخر ملعون في بني عوانة[(٤)]

وقال أنس بن عياض: أرسل إلي عبد الله بن يزيد بن هرمز فقال: لقد أدركت وما بالمدينة أحد يتهم بالقدر إلا رجل من جهينة يقال له: معبد، فعليكم بدين العواتق اللاتي لا يعرفن إلا الله[(٥)]

وقال الزهري: دخلت على عمر بن عبد العزيز وغيلان قاعد بين يديه، فقال: يا غيلان ويلك ما هذا الذي أحدثت في الإسلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما أحدثت في الإسلام شيئًا، قال: بلى قولك في القدر[(٦)]

وعن المنذر بن رافع أن خالد ابن اللجلاج دعا غيلان، قال: فجاء، فقال: اجلس، فجلس، فقال: ألم تك قبطيًّا فدخلت في الإسلام؟ قال: بلى، قال: ثم أخذتك ترمي بالتفاح في المسجد قد أدخلت رأسك في كم قميصك؟ قال: بلى، قال أبو مسهر: أشك في هذه الكلمة، ثم كنت جهميًّا

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٩٧)

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٩٩)، تهذيب الكمال (١٦/ ١٣٥). وعبد الله بن مسلم البصري عن ابن عون مجهول. انظر: التقريب (٣٦١٩).

(٣) القدر للفريابي ص(٢٢٦).

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٩٩)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٣٦).

(٥) القدر للفريابي ص(٢٠٥)، وعنه الآجري في الشريعة (٢/ ٩٥٩)، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٣٠٠)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٣٦).

(٦) تاريخ دمشق (٤٨/ ١٩٣).

تسمى امرأتك أم المؤمنين؟ قال: بلى، ثم صرت قدريًا شقيًا، قم فعل الله بك وفعل[(١)]

وقال الآجري: فإن قال قائل من أئمة القَدَرِيَّة في مذاهبهم؟

قيل له: قد أجل الله تعالى المسلمين عن مذاهبهم، وأئمتهم في مذاهبهم القذرة معبد الجهني بالبصرة وقد رد عليه الصحابة والتابعون ما قد تقدم ذكرنا له، وقبله رجل من أهل العراق كان نصرانيًا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني القدر، كذا قال الأوزاعي رحمه الله.

وأخذ غيلان عن معبد، وقد تقدم ذكرنا لقصة غيلان وما عجل الله له من الخزي في الدنيا وما له في الآخرة أعظم، وعمرو بن عبيد وما ذمه العلماء وهجروه وكفروه. هؤلاء أئمتهم الأنجاس الأرجاس[(٢)].

قال شيخ الإسلام: القَدَرِيَّة الذين كانوا في أواخر زمن الصحابة، وقد روي أن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له: سيسويه من أبناء المجوس، وتلقاه عنه معبد الجهني.

ويقال: أول ما حدث في الحجاز لما احترقت الكعبة، فقال رجل: احترقت بقدر الله تعالى، فقال آخر: لم يقدر الله هذا، ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر؛ فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقي من الصحابة، كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وواثلة بن الأسقع، وكان أكثره بالبصرة والشام، وقليل منه بالحجاز، فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القَدَرِيَّة[(٣)]

وعن عمرو بن دينار، عن الحسن بن محمد قال: إن أول ما تكلم في القدر أن طارت شرارة فأحرقت البيت، فقال رجل: كان هذا من قدر الله، وقال آخر: لم يكن من قدر الله، قال عمرو: فذكر ذلك عند ابن عباس، فقال ابن عباس: هاهنا منهم فأخذ بناصيته[(٤)].

قال البغدادي: ثم حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القَدَرِيَّة في القدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعبد الله ابن أبي أوفى، وعقبة بن عامر الجهني، وأقرانهم، وأوصوا أخلافهم بألا يسلموا على القَدَرِيَّة ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم[(٥)]

وقال الشهرستاني: حدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني، وغيلان الدِّمشقي،

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) الشريعة (٢/ ٩٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٤) القدر للفريابي (١/ ٢٠٧).

(٥) الفرق بين الفرق ص(٣٩، ٤٠).

ويونس الأسْوَاري في القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشرِّ إلى القدر، وَنَسج على منوالهم واصل بن عطاء الغَزَّال، وكان تلميذ الحسن البصري، وتلمذ له عمرو بن عبيد، وزاد عليه في مسائل القدر. وكان عمرو من دعاة يزيد الناقص أيَّام بني أميَّة، ثم والي المنصور وقال بإمامته، ومدحه المنصور يومًا فقال: نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو بن عبيد[(١)]

وقال شيخ الإسلام: وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبين بني أمية في أواخر عصر عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهما من الصحابة، وكان أول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني، فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرءوا منهم، وأنكروا مقالتهم، كما قال عبد الله بن عمر -لما أخبر عنهم-: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم بُرَآء مني، وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين، فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون.

ثم كثر خوض الناس في القدر فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق، لكن ينكرون عموم مشيئة الله، وعموم خلقه وقدرته، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمره، فما شاءه فقد أمر به، وما لم يشأه لم يأمر به، فلزمهم أن يقولوا: إنه قد يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، وأنكروا أن يكون الله تعالى خالقًا لأفعال العباد، أو قادرًا عليها، أو أن يخص بعض عباده من النعم بما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له[(٢)]

وقال: وبدعة القَدَرِيَّة حدثت قبل ذلك بعد موت معاوية؛ ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس وغيرهما، وابن عباس مات قبل ابن الزبير، وابن عمر مات عقب موته، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين؛ فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق، وأكثره كان بالشام والعراق والبصرة، وأقله كان بالحجاز؛ فلما حدثت المعتزلة وتكلموا بالمنزلة بين المنزلتين، وقالوا بإنفاذ الوعيد وخلود أهل التوحيد، وأن النار لا يخرج منها من دخلها ضموا إلى ذلك القدر، فإنه به يتم[(٣)]

- وقسَّم شيخ الإسلام الخائضين في القدر إلى ثلاثة أقسام فقال:

وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسية ومشركية وإبليسية.

فالمجوسية: الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه؛ فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم.

(١) الملل والنحل (١/ ٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٠، ٤٥١).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٨).

والفرقة الثانية: المشركية: الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي؛ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] فمن حتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء، وهذا قد كثر فيمن يدعي الحقيقة من المتصوفة.

والفرقة الثالثة: وهم الإبليسية: الذين أقروا بالأمرين، لكن جعلوا هذا متناقضًا من الرب -سبحانه وتعالى- وطعنوا في حكمته وعدله، كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم؛ كما نقله أهل المقالات، ونقل عن أهل الكتاب[١]

وقال: والناس -الذين ضلوا في القدر- على ثلاثة أصناف:

قوم آمنوا بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وكذبوا بالقدر، وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه الله، كالمعتزلة ونحوهم.

وقوم آمنوا بالقضاء والقدر، ووافقوا أهل السنة والجماعة، على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء، وربه ومليكه، لكن عارضوا هذا بالأمر والنهي، وسموا هذا حقيقة، وجعلوا ذلك معارضًا للشريعة.

وفيهم من يقول: إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب، وإن العارف يستوي عنده هذا وهذا...

والصنف الثالث من الضالين في القدر: من خاصم الرب في جمعه بين القضاء والقدر، والأمر والنهي -كما يذكرون ذلك على لسان إبليس- وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه[٢]

وقال: فالقدر يؤمن به ولا يحتج به، فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس، ومن احتج به ضارع المشركين، ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته كان شبيهًا بإبليس[٣]

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١١١)، (٨/ ٢٥٦- ٢٦١، ٤٥٢، ٤٥٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٠٠- ٣٠٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١١٤).

الفصل الرابع

مقالة القَدَرِيَّة

متقدِّموهم ينكرون علمَ الله الأزلي بكل شيء، وكتابةَ مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ، ومتأخِّروهم ينكرون مشيئةَ الله النافذة والشاملة لكل شيء، وخلقَه لأفعال العباد.

أقوال العلماء

قال يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن الحميري: يزعمون ألا قدر وأن الأمر أنف[(١)]

وقال وكيع بن الجراح: القَدَرِيَّة يقولون: الأمر مستقبل وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال[(٢)]

وقال يحيى بن أبي كثير: القَدَرِيَّة هم الذين يقولون: إن الله لم يقدر الشر[(٣)]

وقال الشافعي: القدري الذي يقول: إن الله لم يخلق الشر حتى عمل به[(٤)]

وقال النووي: وصارت القَدَرِيَّة في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن يقولون الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم[(٥)]

وقال شيخ الإسلام: القَدَرِيَّة لا يؤمنون بعلم الله تعالى القديم ومشيئته الشاملة وقدرته الكاملة[(٦)]

وقال: لما اشتهر الكلام في القدر، ودخل فيه كثير من أهل النظر والعباد، صار جمهور القَدَرِيَّة يقرون بتقدم العلم، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق[(٧)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: يجب الإيمان أن الله علم ما سيكون كله قبل أن يكون، ويجب الإيمان بما أخبر به من أنه كتب ذلك، وأخبر به قبل أن يكون، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**» وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه

---

(١) صحيح مسلم (١).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨٥).
(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٣٩٢).
(٤) حلية الأولياء (٩/ ١١٣).
(٥) شرح مسلم (١/ ١٥٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٤).
(٧) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨٥).

قال: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» وفي لفظ: «ثم خلق السموات والأرض».

وفي المسند عن العرباض بن سارية عن النبي ﷺ أنه قال: «إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت حين ولدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»، وفي حديث ميسرة الحر قلت: يا رسول الله، متى كتبت نبيًّا؟ وفي لفظ: متى كنت نبيًّا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ -وهو الصادق المصدوق- إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح -قال: فوالذي نفس بيده، أو قال: فوالذي لا إله غيره- إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار.

وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد في جنازة. فقال: «ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

وفي الصحيح أيضًا أنه قيل له: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «نعم»، قيل له: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

فبين النبي ﷺ أن الله علم أهل الجنة من أهل النار، وأنه كتب ذلك ونهاهم أن يتكلوا على هذا الكتاب، ويدعوا العمل كما يفعله الملحدون.

وقال: «كل ميسر لما خلق له، وأن أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ميسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا من أحسن ما يكون من البيان». وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسبابًا تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ إمرأة فيحبلها، فلو قال هذا: إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق؛ لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء و يبذره من الحب، فلو قال: إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر، كان جاهلًا ضالًا؛ لأن الله علم أن سيكون بذلك وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل، وهذا يروي بالشرب، وهذا يموت بالقتل، فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها.

وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيدًا في الآخرة، وهذا شقيًا في الآخرة قلنا: ذلك لأنه يعمل بعمل الأشقياء، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل، فلو قيل: هو شقي، وإن لم يعمل كان باطلًا؛ لأن الله لا يدخل النار أحدًا إلا بذنبه كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: الآية ٨٥] . فأقسم أنه يملؤها من إبليس وأتباعه، ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى، ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمله حتى يعمله.

ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن أطفال المشركين. قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» يعني أن الله يعلم ما يعملون لو بلغوا. وقد روى أنهم في القيامة يبعث إليهم رسول فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فيظهر ما علمه فيهم من الطاعة والمعصية.

وكذلك الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به وطاعته، فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان والطاعة. فمن قال: أنا أدخل الجنة سواء كنت مؤمنًا أو كافرًا إذا علم أني من أهلها، كان مفتريًا على الله في ذلك، فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان، فإذا لم يكن معه إيمان، لم يكن هذا هو الذي علم الله أنه يدخل الجنة بل من لم يكن مؤمنًا بل كافرًا، فإن الله يعلم أنه من أهل النار، لا من أهل الجنة(١)

وقال: إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له، خلقه بمشيئته وقدرته، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويضل ويهدي، ويسعد ويشقي، ويولي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويشرح صدر من يشاء للإسلام، ويجعل صدر من يشاء ضيقًا كأنما يصعد في السماء، وهو يقلب القلوب؛ ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وهو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون.

وهو الذي جعل المسلم مسلمًا والمصلي مصليًا. قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٨] ، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤] ، وقال عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القَصَص: الآية ٤١] ، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، وقال: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: الآية ٣٧] ، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هُود: الآية ٣٨]

والفلك مصنوعة لبني آدم، وقد أخبر الله تبارك وتعالى أنه خلقها بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: الآية ٤٢] ، وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا﴾ [النحل: الآية ٨٠] الآيات. وهذه كلها مصنوعة لبني آدم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٦- ٦٩)، التنبيه والرد ص(١٦٦- ١٧٧)، التبصير في الدين ص(٩٢- ٩٥).

وقال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فما بمعنى الذي، ومن جعلها مصدرية فقد غلط، لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس، والمبني دل على أنه خالق كل صانع وصنعته، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: الآية ١٧] ، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]

وهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، وله فيما خلقه حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ورحمة عامة وخاصة، وهو لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لا لمجرد قدرته وقهره، بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته.

فإنه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وقد أحسن كل شيء خلقه. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٨٨] وقد خلق الأشياء بأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: الآية ١٦٤] ، وقال: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٧] وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: الآية ١٦] (١)

وقال: الإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم وغيرها كالأمر والبعث والإرسال ينقسم في كتاب الله إلى نوعين:

أحدهما: ما يتعلق بالأمور الدينية التي يحبها الله تعالى ويرضاها. ويثيب أصحابها ويدخلهم الجنة وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين وعباده الصالحين.

والثاني: ما يتعلق بالحوادث الكونية التي قدرها الله وقضاها مما يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر. وأهل الجنة وأهل النار وأولياء الله وأعداؤه. وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه، ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

فمن نظر إليها من هذا الوجه شهد الحقيقة الكونية الوجودية، فرأى الأشياء كلها مخلوقة لله، مدبرة بمشيئته، مقهورة بحكمته، فما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، ورأى أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه، له الخلق والأمر: وكل ما سواه مربوب له مدبر مقهور لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل هو عبد فقير إلى الله تعالى من جميع الجهات، والله غني عنه، كما أنه الغني عن جميع المخلوقات.

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٨- ٩٠).

وهذا الشهود في نفسه حق، لكن طائفة قصرت عنه: وهم القَدَرِيَّة المجوسية، وطائفة وقفت عنده وهم القَدَرِيَّة المشركية.

أما الأولون: فهم الذين زعموا أن في المخلوقات ما لا تتعلق به قدرة الله ومشيئته وخلقه، كأفعال العباد، وغلاتهم أنكروا علمه القديم وكتابه السابق، وهؤلاء هم أول من حدث من القَدَرِيَّة في هذه الأمة فرد عليهم الصحابة وسلف الأمة وتبرءوا منهم...

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[الأعراف: الآية ١٣٧] ، ومنه قول النبي ﷺ: **«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يتجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ، وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»**.

فالكلمات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ليست هي أمره ونهيه الشرعيين؛ فإن الفجار عصوا أمره ونهيه، بل هي التي بها يكون الكائنات.

وأما الكلمات الدينية المتضمنة لأمره ونهيه الشرعيين فمثل الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] ، وقال ﷺ: **«واستحللتم فروجهن بكلمة الله»**.

وأما قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٥] فإنه يعم النوعين.

وأما البعث بالمعنى الأول: ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: الآية ٥]

والثاني: في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجُمعَة: الآية ٢] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النّحل: الآية ٣٦]

وأما الإرسال بالمعنى الأول: ففي مثل قوله تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريَم: الآية ٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحِجر: الآية ٢٢]

وبالمعنى الثاني: في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نُوح: الآية ١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٩] وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الزخرُف: الآية ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾[1]

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/٥٨- ٦١)، (٨/ ١٤٠، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٨، ١٨٩).

الفصل الخامس

المعتزلة

وهو يحتوي على أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسماء المعتزلة، وسبب هذه التسمية.

المبحث الثاني: نشأة المعتزلة.

المبحث الثالث: فِرَق المعتزلة.

المبحث الرابع: مقالات المعتزلة.

المبحث الأول

أسماء المعتزلة وسبب هذه التسمية

للمعتزلة أسماء متعددة، ومن هذه الأسماء:

١- المعتزلة

وفي سبب هذه التسمية أقوال، منها:

أ- قيل: سموا بذلك؛ لأنهم اعتزلوا دين المسلمين.

وهو قول الإسفراييني، فقد قال عن واصل بن عطاء رأس المعتزلة: فخالف في هذا القول جميع المسلمين، واعتزل به دين المسلمين[١]

ب- وقيل: سموا بذلك؛ لأنهم اعتزلوا قول المسلمين.

وهو قول الإسفراييني أيضًا، والبغدادي.

قال الإسفراييني: واعتزالهم قول المسلمين[٢]

وقال البغدادي: فقيل لهما وأتباعهما: معتزلة؛ لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر[٣]

وقال: ولأجل هذا سماهم المسلمون معتزلة؛ لاعتزالهم قول الأمة بأسرها[٤]

وقال: فقال الناس يومئذ فيهما -أي: واصل وعمرو-: إنهما قد اعتزلا قول الأمة، وسمي أتباعهما من يومئذ معتزلة[٥]

ج- وقيل: سموا بذلك؛ لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري.

وهو قول الإسفراييني أيضًا، والرازي، والإيجي، وشيخ الإسلام، وأكثر العلماء.

قال الإسفراييني: فطردهم الحسن البصري من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانبًا من المسجد، فسموا معتزلة لاعتزالهم مجالس المسلمين[٦]

---

(١) التبصير في الدين ص(٦٨).
(٢) التبصير في الدين ص(٦٨).
(٣) الفرق بين الفرق ص(٤١).
(٤) الفرق بين الفرق ص(١٣٢).
(٥) الفرق بين الفرق ص(١٣٥).
(٦) التبصير في الدين ص(٢١، ٢٢).

وقال: فسموا معتزلة لاعتزالهم مجلسه[١].

وقال الرازي: الفصل الثاني: في أنهم لِمَ سموا معتزلة؟

كان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد من تلامذة الحسن البصري، ولما أحدثا مذهبًا وهو أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، اعتزلا حلقة الحسن البصري، وجلسا ناحية في المسجد، فقال الناس: إنهما اعتزلا حلقة الحسن البصري، فسموا معتزلة لذلك[٢].

وقال الإيجي: أصحاب واصل بن عطاء الغزال، اعتزل عن مجلس الحسن البصري، . . . ، قال الحسن: قد اعتزل عنا واصل[٣].

وقال شيخ الإسلام: واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه -رحمه الله تعالى- فسموا معتزلة[٤].

وقال: واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري، مثل: قتادة وأيوب السختياني وأمثالهما، فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن، وقيل: إن قتادة كان يقول: أولئك المعتزلة[٥].

وحكى السكسكي هذه الأقوال الثلاثة المتقدمة فقال: وفي تسميتهم معتزلة أقوال:

- قيل: سموا معتزلة لاعتزالهم عن الحق.

-وقيل: لاعتزالهم عن أقوال المسلمين.

-وقيل: سموا معتزلة لاعتزالهم عن مجلس الحسن البصري[٦].

د- وقيل: سموا بذلك؛ لأنهم اعتزلوا الجماعة.

قال شيخ الإسلام: وأما المعتزلة فامتازوا بالمنزلة بين المنزلتين لما أحدثه عمرو بن عبيد، وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة. فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة، وكان ذلك بعد موت الحسن[٧].

هـ- وقيل: سموا بذلك؛ لأنهم اعتزلوا الحسن ومعاوية والناس حين بايع الحسن معاوية.

وهو قول الملطيّ فقد قال: وهم سموا أنفسهم معتزلة، وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي،

---

(١) التبصير في الدين ص(٦٨).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٣٩).

(٣) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨).

(٦) البرهان ص(٤٩).

(٧) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٨).

ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة، فسموا بذلك معتزلة[(١)]

و- وقيل: سموا بذلك لاعتزالهم الباطل.

وهو قول أبي الحسين البصري منهم.

قال الرازي: قال القاضي عبد الجبار وهو رئيس المعتزلة: كلما ورد في القرآن من لفظ الاعتزال فإن المراد منه الاعتزال عن الباطل، فعلم أن اسم الاعتزال مدح. وهذا فاسد لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: الآية ٢١]، فإن المراد من هذا الاعتزال هو الكفر[(٢)]

قلت: لا منافاة بين الأقوال الأربعة الأولى؛ فإنه لما قال واصل بن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين كان هذا القول منه مخالفًا لدين المسلمين، ولجماعتهم، ولم يقل به أحد قبله منهم، واعتزل بسببه مجلس الحسن البصري وأصحابه رحمهم الله، فاعتزل بهذا القول دين المسلمين وجماعتهم وقولهم ومجلس الحسن.

أما القول بأنهم سموا بذلك لاعتزالهم الحسن بن علي ومعاوية والناس لما تنازل الحسن لمعاوية فقول ضعيف؛ لأن رءوس المعتزلة ظهرت بعد ذلك الزمن بفترة.

وأما القول بأنهم سموا بذلك لاعتزالهم الباطل والشرور فقول باطل، كما ذكره الرازي، وأيضًا فإن المعتزلة قد حدث بسببهم شرورًا وفتنًا كثيرة بين المسلمين.

٢- القَدَرِيَّة:

وذلك؛ لأنهم ينفون القدر ويسندون أفعال العباد إلى قدرتهم.

قال البغدادي: وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون على أكسابهم، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير، ولأجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية[(٣)]

وقال السكسكي: سموا بذلك قدرية لنفيهم قضاء الله وقدره في معاصي العباد وإضافة خلقها إلى فاعلها[(٤)]

وقال الإيجي: ويلقَّبون بالقَدَرِيَّة لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وأنهم قالوا: إن من يقول بالقدر خيره وشره من الله أولى باسم القَدَرِيَّة، ويرده قوله: القَدَرِيَّة مجوس هذه الأمة، وقوله: هم خصماء الله في القدر[(٥)]

---

(١) التنبيه والرد ص(٣٦).
(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٣٩).
(٣) الفرق بين الفرق ص(١٣١، ١٣٢).
(٤) البرهان ص(٥٠).
(٥) المواقف (٣/ ٦٥٢).

وتقدم أنهم لا يقبلون هذه التسمية ولا يرضون بها، ويعتبرون أن الأحق بها هم المثبتة لا النفاة، وتقدم الجواب عن ذلك؛ لأن مدعي الشيء لنفسه أحق بأن ينسب إليه ممن جعله لغيره.

قال المناوي: القَدَرِيَّة: أي النافون للقدر، الزاعمون أن كل عبد خالق فعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله ومشيئته، وهم المعتزلة، فنسبوا إلى القدر؛ لأن بدعتهم وضلالتهم من قِبَل ما قالوه في القدر من نفيه لا لإثباته[١].

٣- المجوسية:

وذلك لأن مذهبهم يقرر أن الخير من الله والشر من العبد، وهو يشبه دين المجوس الذين يقولون بإلهين، إله للخير وإله للشر.

قال الأشعريُّ عنهم: وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر، نظيرًا لقول المجوس الذين أثبتوا خالقين، أحدهما الخير، والآخر يخلق الشر، وزعمت القَدَرِيَّة أن الله تعالى يخلق الخير، والشيطان يخلق الشر...

ولهذا سماهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة؛ لأنهم دانوا بديانة المجوس وضاهوا أقاويلهم.

وزعموا أن للخير والشر خالقين كما زعمت المجوس ذلك، وأنه يكون من الشرور ما لا يشاء الله كما قالت المجوس...

ووصفوا أنفسهم بالقدرة على ما لم يصفوا الله عز وجل بالقدرة عليه، كما أثبت المجوس لعنهم الله للشيطان من القدرة على الشر ما لم يثبتوا لله عز وجل، فكانوا مجوس هذه الأمة، إذ دانوا بديانة المجوس وتمسكوا بأقاويلهم ومالوا إلى أضاليلهم[٢].

وقال شيخ الإسلام: فالمجوسية الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم[٣].

٤- الجَهْمِيَّة:

وذلك لأنهم قد أخذوا من الجَهْمِيَّة مقالتهم في تعطيل صفات المولى عز وجل.

قال شيخ الإسلام: كل معتزلي جهمي، وليس كل جهمي معتزليًا، لكن جهم أشد تعطيلًا؛ لأنه ينفي الأسماء والصفات، والمعتزلة تنفي الصفات دون الأسماء[٤].

---

(١) فيض القدير (١/ ٤٢١).
(٢) الإبانة ص(١٥- ١٧)، التبصير في الدين ص(٩٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١١١).
(٤) منهاج السنة النبوية (٢/ ٦٠٤).

٥- المعطلة:

وذلك لمقالتهم في التعطيل كما تقدم بيانه.

٦- الوعيدية:

وهذا من أصولهم، وهو قولهم بإنفاذ الوعيد، وخلود أهل الكبائر في النار.

قال شيخ الإسلام: المعتزلة الوعيدية القَدَرِيَّة[(١)]

٧- مخانيث الخوارج:

لعدم جسارتهم على القول بتكفير مرتكب الكبيرة كالخوارج، مع أنهم يوافقون الخوارج في حكمهم الأخروي.

قال الإسفراييني: ولهذا قيل في المعتزلة: إنهم مخانيث الخوارج[(٢)]

قال البغدادي: قيل للمعتزلة: إنهم مخانيث الخوارج؛ لأن الخوارج لما رأوا لأهل الذنوب الخلود في النار سموهم كفرة وحاربوهم، والمعتزلة رأت لهم الخلود في النار ولم تجسر على تسميتهم كفرة، ولا جسرت على قتال أهل فرقة منهم فضلًا عن قتال جمهور مخالفيهم[(٣)]

٨- مخانيث الفلاسفة والجَهْمِيَّة:

وذلك لعدم جسارتهم على القول بقول الفلاسفة والجَهْمِيَّة بسلب أسماء وصفات المولى.

قال شيخ الإسلام: ويقولون: إن المعتزلة مخانيث الفلاسفة[(٤)]

قال شيخ الإسلام: المعتزلة في الصفات مخانيث الجَهْمِيَّة، . . . ، ومن الناس من يقول: المعتزلة مخانيث الفلاسفة، لأنه لم يعلم أن جهمًا سبقهم إلى هذا الأصل، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه[(٥)]

- وهناك من الأسماء التي يقبلونها ويرضون بها، منها:

١- المعتزلة: باعتبار الاعتزال عن الباطل كما تقدم بيان ذلك.

٢- أهل العدل والتوحيد أو العدلية: والعدل عندهم هو نفي القدر، والتوحيد هو نفي صفات المولى عز وجل؟!

وهذا قلب لحقائق الأشياء.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٤٢)، (١/ ٣١٤)، (٣/ ١٤١، ٣٧٤)، (١٢/ ٤٨٠)، (١٦/ ١٩).

(٢) التبصير في الدين ص(٦٨).

(٣) الفرق بين الفرق ص(١٣٥، ١٣٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٩)، (١٢/ ٣١).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٧)، (١٤/ ٣٤٨).

قال الشهرستاني: ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقَّبون بالقَدَرِيَّةِ والعدليَّة[1]

وقال الإيجي: ولقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد؛ لقولهم بوجوب الأصلح ونفي الصفات القديمة[2]

وقال شيخ الإسلام: وجمهور هؤلاء الذين يسمون أنفسهم عدلية[3].

ومن الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم أيضًا: أهل الحق، والفرقة الناجية، والمنزِّهون الله.

---

(١) الملل والنحل (١/ ٤٢).

(٢) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٩٢).

المبحث الثاني

نشأة المعتزلة

قال الإسفراييني: وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القَدَرِيَّة، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم، وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن أبي أوفى، وجابر، وأنس، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر الجهني، وأقرانهم. وكانوا يوصون إلى أخلافهم بألا يسلموا عليهم ولا يعودوهم إن مرضوا، ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا.

ثم ظهر بعدهم في زمان الحسن البصري بالبصرة خلاف واصل بن عطاء الغزال (١٣١ هـ) في القدر، وفي القول بمنزلة بين المنزلتين، ووافقه عمرو بن عبيد (١٤٤ هـ) فيما أحدثه من البدعة فطردهم الحسن البصري من مجلسه فاعتزلوه باتباعهم جانبًا من المسجد فسموا معتزلة لاعتزالهم مجالس المسلمين، وقولهم بمنزلة بين المنزلتين، وزعمهم أن الفاسق الملي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفساق من أهل الملة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر، وأنهم مع الكفار في النار خالدين مخلدين لا يجوز لله تعالى أن يغفر لهم، وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة، ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون وخذلوهم، كما كان قد أوصى إليهم أسلافهم من الصحابة[١].

وقال البغدادي: ثم حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر، وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد بن باب في بدعته، فطردهما الحسن عن مجلسه فاعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة فقيل لهما ولأتباعهما معتزلة لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر[٢].

وقال الشهرستاني: والقَدَرِيَّة ابتدءوا بدعتهم في زمان الحسن، واعتزل واصل عنهم وعن أستاذه بالقول منه بالمنزلة بين المنزلتين، فسُمِّي هو وأصحابه معتزلة...

ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فنًّا من فنون العلم، وسمَّتها باسم الكلام، إمَّا لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها، هي مسألة الكلام، فسُمِّي النوع باسمها، وإمَّا لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنًّا من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان[٣].

قال الملطي: وبالبصرة أول ظهور الاعتزال؛ لأن أبا حذيفة واصل بن عطاء جاء به من المدينة.

---

(١) التبصير في الدين ص(٢١، ٢٢).

(٢) الفرق بين الفرق ص(٤٠، ٤١).

(٣) الملل والنحل (١/ ٣٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٤).

ويقال: معتزلة بغداد أخذوا الاعتزال من معتزلة البصرة، أولهم بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) خرج إلى البصرة فلقي بشر بن سعيد وأبا عثمان الزعفراني فأخذ عنهما الاعتزال، وهما صاحبا واصل بن عطاء، فحمل الاعتزال والأصول الخمسة إلى بغداد، ودعا إليه الناس ففشا قوله، فأخذه الرشيد وحبسه في السجن، فجعل يقول في السجن رَجَزًا مزاوجًا في العدل والتوحيد والوعيد، حتى قال أربعين ألف بيت لم يسمع الناس بشعر مثل ذلك، فألهج الناس بنشدها في كل مجلس ومحفل، فقال الرشيد: ما يقوله في السجن من الشعر أضر على الناس من الكلام الذي بينه.

ثم أخذ الكلام من بشر ببغداد أبو موسى بن صبيح الملقب بمردار، فكان المجلس له والكلام.

وخرج بعده الجعفران؛ جعفر بن حرب (٢٣٦ هـ) وجعفر بن مبشر (٢٣٤ هـ).

وخرج بعد الجعفرين محمد بن عبد الله الإسكافي (٢٤٠ هـ)، فوضعوا من الكتب، وصنفوا في الفقه والكلام والجدال أكثر من أن يحد، وردوا على جميع المخالفين من أهل الصلاة وغيرها.

وأما معتزلة البصرة فكان أبو الهُذَيْل العلاف (٢٣٥ هـ) أخذ الكلام من بشر بن سعيد وأبي عثمان الزعفراني صاحبي واصل بن عطاء، فوضع من الكتب ألفًا ومائتي صنف يرد فيها على المخالفين وينقض كتبهم، إلا كتاب الحجة فإنه وضعه في الأصول.

وكان المجلس قبل أبي الهُذَيْل بالبصرة والكلام لضرار بن عمرو (١٩٠ هـ) وأظهر الخلاف، والتبس عليه العدل والتوحيد والوعيد، ونص رسالة إلى العامة ما سبقه إليها أحد في حسن الكلام ونظامه، يذكر فيها العدل والتوحيد والوعيد.

ثم كان في آخر أيامه أبو بكر الأصم عبد الرحمن بن كيسان (نحو ٢٢٥ هـ) فالتبس عليه أيضًا العدل والتوحيد، وله كتب كثيرة ما سبقه بها أحد، وكان أبو الهُذَيْل يلقبه بخربان؛ لأن الخر بالفارسية هو: الحمار، والخربان: المكاري، فجرى عليه هذا اللقب.

ثم أخرج أبو الهُذَيْل إبراهيمَ النَّظَّام (٢٣١ هـ) وهشامًا الفُوَطِي فعابا عليه وخالفاه في الفرع؛ لأن الأصل الذي خالفه عليه هشام الفُوَطِي يكون في مائة وعشرين مسألة، فوضع عليه فيها كتابًا، وكان آخر أيام أبي الهذيل، وكان كف بصره، فتقدم إلى بعض تلامذته فنقضها عليه، ثم خالفه إبراهيم النَّظَّام أيضًا في مائة وعشرين مسألة فوضع فيها نقضًا، ونقضها عليه أبو الهذيل، وكانت المناظرات بينهم في المجالس لا تنقطع، وأبو الهُذَيْل هذا لم يدرك في أهل الجدل مثله، وهو أبوهم وأستاذهم، وكان الخلفاء الثلاثة المأمون والمعتصم والواثق يقدِّمونه ويعظِّمونه، وكان الوزير ابن أبي دؤاد من تلامذته، وكان لا يقوم له في الكلام خصم يصوغ الكلام صياغة.

ثم خرج من تحت يد النَّظَّام -بعد أن صنف كتبًا كثيرة- الجاحظُ (٢٥٥ هـ) وصنف كتبًا، وكان صاحب تصنيف، ولم يكن صاحب جدل.

وأخرج هشامٌ عبادَ بن سليمان وكان أحد المتكلمين، فملأ الأرض كتبًا وخلافًا، وخرج عن حد الاعتزال إلى الكفر والزندقة لحدة نظره، وكثرة تفتيشه.

ثم لم يقم للمعتزلة إمام مذكور بالبصرة ولا بغداد إلى أن خرج أبو علي محمد بن عبد الوهاب (٣٠٣ هـ) بكور جُبّى بين البصرة والأهواز، وكان لقي الشحام بالبصرة قبل خروج علي بن محمد الشحام صاحب أبي الهذيل، فتعلم منه، فخرج لا شبه له، ووضع أربعين ألف ورقة في الكلام، ووضع تفسير القرآن في مائة جزءٍ، وشيئًا لم يسبقه أحد بمثله، وسهَّل الجدال على الناس.

ثم خرج ابنه أبو هاشم (٣٢١ هـ) فوضع مائة وستين كتابًا في الجدل في أيام قلائل، شيء ما وصل إلى مثله أحد قبله ولا أبوه، وخالف أباه في تسعة وعشرين مسألة، وكان أبوه يخالف أبا الهُذَيْل في تسع عشرة مسألة.

وبين معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة اختلاف كثير فاحش، يكفر بعضهم بعضًا في بعض ذلك الاختلاف، أكثر من ألف مسألة، نعوذ بالله من الريب كله، ونسأله السلامة، ومن لزم السواد الأعظم وترك الشك نجا إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله[١]

(١) التنبيه والرد ص(٣٨- ٤٠).

المبحث الثالث

فِرَق المعتزلة

قال الإسفراييني والبغدادي والإيجي: وأما القَدَرِيَّة المعتزلة عن الحق فقد افترقت عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرها، . . .، فهي ثنتان وعشرون فرقة، ثنتان منها ليستا من فرق الإسلام[(١)]

وقال الرازي: اعلم أنهم سبع عشرة فرقة[(٢)].

وقال السكسكي: وهي ثماني عشرة فرقة[(٣)].

وسنتكلم عن فرقهم بشيء من الإيجاز.

الوَاصِلِيَّة

أتباع واصل بن عطاء الغزَّال (١٣١ هـ)، رأس المعتزلة وداعيهم إلى بدعتهم بعد معبد الجهني وغيلان الدمشقي اللذين كانا يضمران بدعة القَدَرِيَّة ويخفيانها عن الناس، ولما أظهرا ذلك في أيام الصحابة لم يتابعهما على ذلك أحد، وصارا مهجورين بين الناس بذلك السبب إلى أيام الحسن البصري في أيام عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، وكان واصل من متابي مجلس الحسن البصري، وكان يضمر في السر اعتقاد معبد وغيلان.

وكان الناس في الفاسق على قولين: إما مؤمن ناقص الإيمان وهو قول الصحابة والتابعين، وإما كافر وهو قول الخوارج، فأحدث واصل القول بأنه لا مؤمن ولا كافر، وأنه في منزلة بين المنزلتين، فلما سمع الحسن البصري منه هذه المقالة طرده من مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة، وانضم إليه عمرو بن عبيد، وصارا يدعوان الناس إلى بدعة القَدَرِيَّة وبدعة المنزلة بين المنزلتين.

ثم إنهما وافقا الخوارج في حكم الفاسق في الآخرة بالخلود في النار.

ثم أحدث واصل بدعة ثالثة وهي قوله في علي وأصحابه وأصحاب الجمل بأن أحد الفريقين فسقة لا بأعيانهم، وأنه لا يعرف الفسقة منهما، ولم يحكم بشهادة رجلين أحدهما من أصحاب الجمل والآخر من أصحاب علي، وقبل شهادة رجلين كلاهما من أحد الفريقين[(٤)]

---

(١) التبصير في الدين ص(٢٤)، الفرق بين الفرق ص(٤٤)، المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٠).

(٣) البرهان ص(٥٠).

(٤) انظر: التبصير في الدين ص(٩٦- ١٠٠)، الفرق بين الفرق ص(١٣٣- ١٣٧)، الملل والنحل (١/ ٤٦- ٤٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٠)، المواقف (٣/ ٦٥٢، ٦٥٣).

العَمْرَوِيَّة

أتباع عمرو بن عبيد بن باب مولى بني تميم (١٤٤ هـ)، وكان جده من سبي كابل، وقد وافق واصلًا في بِدَعِه إلا أنه قال بفسق كلتا الفرقتين المتقاتلتين يوم الجمل، ورد شهادتهم وإن كانا من فريق واحد(١).

الهُذَيْلِيَّة

أتباع أبي الهُذَيْل محمد بن الهُذَيْل (٢٣٥ هـ)، المعروف بالعلَّاف، شيخ المعتزلة، ومقدم الطائفة، ومقرر الطريقة، والمناظر عليها، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء، وله فضائح كثيرة فيما أحدثه من البدع حتى كفره بتلك البدع جميع الأمة وكفره أيضًا سائر المعتزلة، وصحب أبا الهُذَيْل أبو يعقوب الشحام والآدمي وهما على مقالته(٢).

النَّظَّامِيَّة

أتباع أبي إسحاق إبراهيم بن سيار (٢٣١ هـ)، المعروف بالنَّظَّام، والمعتزلة يقولون: إنما سمي نظَّامًا لأنه كان حسن الكلام في النظم والنثر والشعر الموزون، وليس كذلك وإنما سمي به؛ لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة ويبيعها، وكان في حداثة سنه يصحب الثنوية والسمنية القائلين بتكافؤ الأدلة، وفي كهولته كان يصحب ملحدة الفلاسفة، وهشام بن الحكم الرافضي وأخذ عنهم، ودوَّن مذاهب الثنوية وبدع الفلاسفة وشبه الملحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفًا من السيف فأنكر إعجاز القرآن في نظمه، وأنكر معجزات نبينا ليتوصل إلى إنكار نبوته، وأنكر حجة الإجماع وحجة القياس في الفروع الشرعية، وطعن في فتاوى أعلام الصحابة ﷺ، وجميع فرق الأمة وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النَّظَّام، وتبعه في ضلالته شرذمة من القَدَرِيَّة؛ كالإسْوَاري وابن خابط وفضل الحدثي والجاحظ، مع مخالفة كل واحد منهم له في بعض ضلالاته وزيادة بعضهم عليه فيها(٣).

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(١٠٠، ١٠١)، الفرق بين الفرق ص(١٣٧، ١٣٨)، الملل والنحل (١/ ٤٦-٤٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٠)، المواقف (٣/ ٦٥٣).

(٢) انظر: التبصير في الدين ص(٦٩- ٧١)، الفرق بين الفرق ص(١٣٨- ١٤٦)، الملل والنحل (١/ ٥٠- ٥٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤١)، البرهان ص(٥٤)، المواقف (٣/ ٦٥٣).

(٣) انظر: التبصير في الدين ص(٧١- ٧٣)، الفرق بين الفرق ص(١٤٧- ١٦٥)، الملل والنحل (١/ ٥٣- ٥٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤١)، البرهان ص(٥٥)، المواقف (٣/ ٦٥٣).

الخَابِطِيَّة والحدثِيَّة

أتباع أحمد بن خابط، والفضل الحدثي، كانا من أصحاب النَّظَّام، وطالعا كتب الفلاسفة، وضمَّا إلى مذهب النَّظَّام ثلاث بدع: إثبات حكم من أحكام الإلهية في المسيح، والقول بالتناسخ، والقول بأن رؤية الله هي رؤية العقل الفعال(١).

الإسْوَارِيَّة

أتباع علي الإسْوَاري، وكان من أتباع أبي الهُذَيْل وأعلمهم، ثم انتقل إلى مذهب النَّظَّام، وزاد عليه في الضلالة(٢)

المَعْمَرِيَّة

أتباع معمر بن عباد السلمي (٢١٥ هـ)، وكان رأسًا للملحدة والضلال، وذنبًا للقدرية، وله من الفضائح المشينة الشيء الكثير، وكان بشر بن المعتمر وهشام بن عمرو وأبو الحسن المدائني من تلامذته(٣)

البِشْرِيَّة

أتباع أبي سهل بشر بن المعتمر الهلالي (٢١٠ هـ)، رئيس معتزلة بغداد، وله من البدع الزائدة على بدع المعتزلة(٤)

الهِشَامِيَّة

أتباع هشام بن عمرو الفُوَطِي، أحد شيوخ المعتزلة، ومبالغته في القدر أشد وأكثر من مبالغة أصحابه، وزاد عليهم في بدع كثيرة(٥)

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(١٣٨، ١٣٩)، الفرق بين الفرق ص(٢٩٧، ٢٩٨)، الملل والنحل (١/ ٦٠-٦٣)، البرهان ص(٥٩- ٦١)، المواقف (٣/ ٦٥٥).

(٢) انظر: التبصير في الدين ص(٧٣)، الفرق بين الفرق ص(١٦٥، ١٦٦)، المواقف (٣/ ٦٥٤).

(٣) انظر: التبصير في الدين ص(٧٣، ٧٤)، الفرق بين الفرق ص(١٦٦- ١٦٩)، الملل والنحل (١/ ٦٥- ٦٨)، المواقف (٣/ ٦٥٦).

(٤) انظر: التبصير في الدين ص(٧٤، ٧٥)، الفرق بين الفرق ص(١٧٠- ١٧٢)، الملل والنحل (١/ ٦٤، ٦٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٢)، البرهان ص(٥٣)، المواقف (٣/ ٦٥٤).

(٥) انظر: التبصير في الدين ص(٧٥- ٧٧)، الفرق بين الفرق ص(١٧٣- ١٧٨)، الملل والنحل (١/ ٧٢- ٧٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٣)، البرهان ص(٥٧، ٥٨)، المواقف (٣/ ٦٥٥).

العَبَّادِيَّة

أتباع عباد بن سليمان الضَّمْري، أحد شيوخ المعتزلة، من أصحاب هشام الفُوَطِي، وزاد عليه بدعة[(١)].

المردَارِيَّة

أتباع أبي موسى عيسى بن صبيح، الملقب بالمردار، وهو تلميذ بشر بن المعتمر، وأخذ العلم منه، وتزهد، وكان يقال له: راهب المعتزلة، يشتغل بالترهب كما كان يشتغل به رهبان النصارى[(٢)].

الجَعْفَرِيَّة

أتباع جعفرين؛ أحدهما: جعفر بن حرب (٢٣٦ هـ)، والآخر: جعفر بن مبشر (٢٣٤ هـ)، وهما من تلاميذ المردار، وكانا أصلين في الجهالة والضلال[(٣)].

الإِسْكَافِيَّة

أتباع أبي جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي (٢٤٠ هـ)، وكان قد أخذ ضلالته عن جعفر بن حرب، ثم خالفه في بعض فروعه[(٤)].

الثُّمَامِيَّة

أتباع أبي معن ثمامة بن أشرس النميري (٢١٣ هـ)، وكان زعيم القَدَرِيَّة في أيام المأمون والمعتصم والواثق، وقيل: إنه هو الذي أغوى المأمون بأن دعاه إلى الاعتزال، وزاد بدعتين على أسلافه المعتزلة[(٥)].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٨٩)، التبصير في الدين ص(٧٦)، الفرق بين الفرق ص(١٧٤، ١٧٥)، البرهان ص(٦٣).

(٢) انظر: التبصير في الدين ص(٧٧، ٧٨)، الفرق بين الفرق ص(١٧٨- ١٨٠)، الملل والنحل (١/ ٦٨- ٧٠)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٢)، المواقف (٣/ ٦٥٤).

(٣) انظر: التبصير في الدين ص(٧٨)، الفرق بين الفرق ص(١٨٠- ١٨٢)، الملل والنحل (١/ ٧٠)، المواقف (٣/ ٦٥٤).

(٤) انظر: التبصير في الدين ص(٧٩)، الفرق بين الفرق ص(١٨٢- ١٨٤)، الملل والنحل (١/ ٧٠)، البرهان ص(٦٢)، المواقف (٣/ ٦٥٤).

(٥) انظر: التبصير في الدين ص(٧٩، ٨٠)، الفرق بين الفرق ص(١٨٤- ١٨٧)، الملل والنحل (١/ ٧٠، ٧١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٢)، المواقف (٣/ ٦٥٦).

الجَاحِظِيَّة

أتباع أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ)، كان من كبار المعتزلة، والمصنفين لهم، وقد طالع الكثير من كتب الفلاسفة وخلط وروَّج كثيرًا من مقالاتهم بعباراته، وكان في أيام المعتصم والمتوكل[(١)].

الشَّحَّامِيَّة

أتباع أبي يعقوب يوسف بن عبد الله الشَّحَّام (نحو ٢٨٠ هـ)، وكان من أصحاب أبي الهذيل، وهو أستاذ الجُبَّائِيّ، وانتهت إليه رئاسة المعتزلة في البصرة في وقته[(٢)].

الخَيَّاطِيَّة

أتباع أبي الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، الخياط (نحو ٣٠٠ هـ)، أستاذ الكعبي، وهما من معتزلة بغداد، ولهم قول لم يسبق إليه في المعدوم، ولذلك سموا المعدومية[(٣)]

الكَعْبِيَّة

أتباع أبي القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي (٣١٩ هـ)، المعروف بالكعبي، وله آراء ومقالات في الكلام انفرد بها[(٤)]

الجُبَّائِيَّة

أتباع أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائِيّ (٣٠٣ هـ)، وهو الذي أغوى أهل خوزستان، وله من البدع الفاحشة ما لا يحصى[(٥)]

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(٨٠- ٨٢)، الفرق بين الفرق ص(١٨٧- ١٩٠)، الملل والنحل (١/ ٧٥، ٧٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٣)، البرهان ص(٥٦، ٥٧)، المواقف (٣/ ٦٥٦).

(٢) انظر: التبصير في الدين ص(٨٣)، الفرق بين الفرق ص(١٩٠).

(٣) انظر: التبصير في الدين ص(٨٤)، الفرق بين الفرق ص(١٩٠- ١٩٢)، الملل والنحل (١/ ٧٦- ٧٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٤)، المواقف (٣/ ٦٥٦).

(٤) انظر: التبصير في الدين ص(٨٥)، الفرق بين الفرق ص(١٩٢- ١٩٤)، الملل والنحل (١/ ٧٨)، المواقف (٣/ ٦٥٧).

(٥) انظر: التبصير في الدين ص(٨٥، ٨٦)، الفرق بين الفرق ص(١٩٤، ١٩٥)، الملل والنحل (١/ ٧٨- ٨٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٣)، البرهان ص(٥١، ٥٢)، المواقف (٣/ ٦٥٧).

البَهْشَمِيَّة

أتباع أبي هاشم عبد السلام بن أبي علي الجُبَّائيّ (٣٢١ هـ)، وكان ابن عباد وزير آل بويه يدعو إلى مذهبه، ولذلك انتشر انتشارًا واسعًا، ويقال لَهم: الذمية؛ لقولهم باستحقاق الذم لا على فعل، وهو وأبوه من معتزلة البصرة، وانفردا عن أصحابهما بمسائل، وانفرد أحدهما عن صاحبه بمسائل[(١)]

الأَحْشَدِيَّة

أتباع أحشد بن أبي بكر، تلميذ محمد بن عمر الصيمري[(٢)].

الحُسَيْنِيَّة

أتباع أبي الحسين علي بن محمد البصري، وهو تلميذ القاضي عبد الجبار بن أحمد، ثم خالفه[(٣)].

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(٨٦- ٨٨)، الفرق بين الفرق ص(١٩٦- ٢١٠)، الملل والنحل (١/ ٧٨- ٨٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٤)، المواقف (٣/ ٦٥٧).

(٢) انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٤).

(٣) انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٤٥).

المبحث الرابع
مقالات المعتزلة

مجمل وأصول مقالاتهم

قال الأشعريُّ: أصول المعتزلة الخمسة التي يبنون عليها أمرهم -فقد أخبرنا عن اختلافهم فيها- وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإثبات الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(١)]

وقال الملطي: والأصول التي هم عليها خمسة وهي: العدل، والتوحيد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٢)]

وقال: اعلم أنها بنيت على الأصول الخمسة التي ذكرتها لك، فالمعتزلة كلها متمسكون بالقول بذلك، ويجادلون عليه، وقد وضعوا في ذلك الكتب الكثيرة على من خالفهم، ويتبرءون ممن خالفهم فيها ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم[(٣)]

وقال: وهذه الأصول الخمسة ملجأهم وأصل مذهبهم، مع اختلافهم في الفروع، وهم يتوالون عليها ويعادون عليها، ويردون الفروع بها[(٤)]

وقال الشهرستاني: وأما كلام جميع المعتزلة البغداديين في النبوّة والإمامة فيخالف كلام البصريين، فإنَّ من شيوخهم من يميل إلى الروافض، ومنهم من يميل إلى الخوارج[(٥)]

وقال السكسكي: ومذهب المعتزلة مركَّب من مذهب جهم في نفي الصفات، والقدر، والاعتزال، فمن اجتمع فيه هذه الثلاث خصال فهو معتزلي، وإن كان الأصل فيه ما ذكرته[(٦)]

وقال شيخ الإسلام: والمعتزلة وعيدية في باب الأسماء والأحكام، قدرية في باب القدر، جهمية محضة[(٧)]

وقال: وإنما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد[(٨)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٨).
(٢) التنبيه والرد ص(٣٦).
(٣) التنبيه والرد ص(٣٧).
(٤) التنبيه والرد ص(٣٨).
(٥) الملل والنحل (١/ ٨٤).
(٦) البرهان ص(٥٠).
(٧) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٥).
(٨) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٣).

وقال: وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا بها، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم(١).

وقال: المعتزلة باينوا جميع الطوائف فيما اختصوا به من المنزلة بين المنزلتين، وقولهم: إن أهل الكبائر يخلَّدون في النار، وليسوا بمؤمنين ولا كفار، فإن هذا قولهم الذي سموا به معتزلة(٢).

وقال عن طريقة المتكلمين في أصول الدين: وهو مبني على مقدمتين:

إحداهما: إن الجسم لا يخلو عن الأعراض التي هي الصفات.

والثانية: إن ما لا يخلو عن الصفات التي هي الأعراض فهو محدث؛ لأن الصفات التي هي الأعراض لا تكون إلا محدثة، وقد يفرضون ذلك في بعض الصفات التي هي الأعراض كالأكوان، وما لا يخلو عن جنس الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا تتناهى...

والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم لأجلها نفي صفات الرب مطلقًا، أو نفي بعضها؛ لأن الدالَّ عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيام الصفات بها، والدليل يجب طرده، والتزموا حدوث كل موصوف بصفة قائمة به، وهو أيضًا في غاية الفساد والضلال، ولهذا التزموا القول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة، وعلوه على عرشه، إلى أمثال ذلك من اللوازم التي التزمها من طرد مقدمات هذه الحجة التي جعلها المعتزلة، ومن اتبعهم أصل دينهم.

فهذه داخلة فيما سماه هؤلاء أصول الدين، ولكن ليست في الحقيقة من أصول الدين الذي شرعه الله لعباده(٣).

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الأسماء والأحكام

الإيمان عندهم هو جميع الطاعات، ومرتكب الكبيرة فاسق ليس بمؤمن ولا كافر إنما هو في منزلة بين المنزلتين.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في الإيمان، ما هو؟ على ستة أقاويل:

١- فقال قائلون: الإيمان هو جميعُ الطاعات فرضُها ونَفْلُهَا، وإن المعاصي على ضربين: منها صغائر، ومنها كبائر، وأن الكبائر على ضربين: منها ما هو كفر، ومنها ما ليس بكفر، وإن الناس يكفرون من ثلاثة أوجه: رجل شبَّه الله سبحانه بخلقه، ورجل جَوَّره في حكمه أو كذَّبه في خبره،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٤، ٣٠٥).

ورجل ردَّ ما أجمع المسلمون عليه عن نبيهم نصًا وتوقيفًا؛ فأكفرُ هؤلاء مَن زعم أن البارئ جسم مؤلف محدود، ولم يُكفِّروا من سماه جسمًا ولم يُعْطِه معاني الأجسام، وأكفروا من زعم أن الله سبحانه يُرَى كما ترى المرئياتُ بالمقابلة أو المحاذاة أو في مكان حالا فيه دون مكانٍ، ولم يزعموا أنه يُرَى لا كالمرئيات، وأكفروا من زعم أن الله خلق الجورَ، وأراد السفه، وكلف الزمنى والعَجَزَةَ الذين فيهم العجز ثابت؛ لأن هؤلاء -بزعمهم- سفهوا الله وَجوَّروه، ولم يكفروا من قصد إلى قادر على الفعل فقال: قد كلفه الله سبحانه وليس بقادر؛ لأنه قد كذب على القادر عندهم فأخبر أنه ليس بقادر، ولم يكذب على الله في تكليفه إياه ولا وصفه بالعبث عندهم.

والقائل بهذا القول هم أصحاب أبي الهذيل، وإلى هذا القول كان يذهب أبو الهذيل.

وحُكِيَ عنه أن الصغائر تُغْفَر لمن اجتنب الكبائر، على طريق التَّفضُّل، لا على طريق الاستحقاق.

وزعم أن الإيمان كله إيمان بالله، منه ما تَرْكُهُ كفر، ومنه ما تَرْكُهُ فِسْق ليس بكفر: كالصلاة وصيام شهر رمضان، ومنه ما تركه صغير ليس بفسق ولا كفر، ومنه ما تركه ليس بكفر ولا بعصيان: كالنوافل.

٢- وقال هشام الفُوَطِي: الإيمان جميعُ الطاعات فرضها ونفلها، والإيمان على ضربين: إيمان بالله، وإيمان لله، ولا يقال: إنه إيمان بالله، فالإيمان بالله ما كان تركه كفرًا بالله، والإيمان لله يكون تركه كفرًا، ويكون تركه فسقًا ليس بكفر، نحو الصلاة والزكاة؛ فذلك إيمان لله، فمن تركه على الاستحلال كفر، ومن تركه على التحريم كان تركه فسقًا ليس بكفر، ومما هو إيمان لله عند هشام ما يكون تركه صغيرًا ليس بفسق.

٣- وقال عباد بن سليمان: الإيمان هو جميع ما أمر الله سبحانه به من الفرض، وما رغَّب فيه من النفل، والإيمان على وجهين:

إيمان بالله وهو ما كان تاركه أو تارك شيء منه كافرًا كالملة والتوحيد، والإيمان لله إذا تركه تاركٌ لم يكفر، ومن ذلك ما يكون تركه ضلالًا وفسقًا، ومنه ما يكون تركه صغيرًا، وكل أفعال الجاهل بالله عنده كفر بالله.

٤- وقال إبراهيم النَّظَّام: الإيمان اجتناب الكبائر، والكبائر: ما جاء فيه الوعيد، وقد يجوز إن يكون فيما لم يجئ فيه الوعيد كبيرة عند الله، ويجوز ألا يكون فيه كبيرة، وإن لم يكن فيه كبيرة فالإيمان اجتناب ما فيه الوعيد عندنا وعند الله سبحانه، وإن كان فيما لم يجئ فيه الوعيد كبيرة فالتسمية له بالإيمان وبأنه مؤمن يلزم باجتناب ما فيه الوعيد عندنا، فأما عند الله سبحانه فاجتناب كل كبير.

٥- وقال آخرون: الإيمان اجتناب ما فيه الوعيد عندنا وعند الله، وهو ما يلزم به الاسم، وما سوى ذلك فصغير، مغفور باجتناب الكبير.

٦- وكان محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائِيّ يزعم أن الإيمان لله هو جميع ما افترضه الله سبحانه على عباده، وأن النوافل ليس بإيمان، وأن كل خصلة من الخصال التي افترضها الله سبحانه فهي بعض إيمان لله، وهي أيضا إيمان بالله، وأن الفاسق الملي مؤمن من أسماء اللغة بما فعله من الإيمان.

وكان يزعم أن الأسماء على ضربين: منها أسماء اللغة، ومنها أسماء الدين، فأسماء اللغة المشتقة من الأفعال تتقضي مع تَقَضِّي الأفعال، وأسماء الدين يسمى بها الإنسان بعد تقضِّي فعله وفي حالة فعله، فالفاسق الملي مؤمن من أسماء اللغة يتقضي الاسمُ عنه مع تقضي فعلِهِ للإيمان، وليس يسمى بالإيمان من أسماء الدين.

وكان يزعم أن في اليهودي إيمانًا نسميه به مؤمنًا مسلمًا من أسماء اللغة.

وكانت المعتزلة بأسرها قبله إلا الأصم تنكر أن يكون الفاسق مؤمنًا، وتقول: إن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وتسميه منزلة بين المنزلتين، وتقول: في الفاسق إيمان لا نسميه به مؤمنًا، وفي اليهودي إيمان لا نسميه به مؤمنًا.

وكان الجُبَّائِيّ يزعم أن من الذنوب صغائر وكبائر، وأن الصغائر يستحق غفرانها باجتناب الكبائر، وأن الكبائر تحبط الثواب على الإيمان، واجتناب الكبائر يحبط عقاب الصغائر.

- وكان يزعم أن العزم على الكبيرة كبيرة، والعزم على الصغيرة صغيرة، والعزم على الكفر كفر.

وكذلك قول أبي الهُذَيْل كان يقول في العازم: إنه كالمقدم عليه.

وقال أبو بكر الأصم: الإيمان جميع الطاعات، ومن عمل كبيرًا ليس بكفر من أهل الملة فهو فاسق بفعله للكبير، لا كافر ولا منافق مؤمن بتوحيده وما فعل من طاعته.

وزعمت المعتزلة أن الله سمى إيمانًا ما لم يكن في اللغة إيمانًا[١]

وقال: واختلفت المعتزلة هل يقال للفاسق مؤمن أم لا؟ على ثلاث مقالات

١- فزعم بعضهم أنه يقال له: آمن، ولا يقال له: مؤمن، وهذا قول عباد.

٢- وقال قائلون: لا يقال: آمن، ولا يقال: مؤمن.

٣- وقال الجُبَّائِيّ: يقال: آمن من أوصاف اللغة، ويقال: مؤمن من أسماء اللغة[٢]

وقال الملطي: وقالوا: إن فاعل الكبائر بعد إيمانه المقيم على إيمانه فاسق لا مؤمن، ولا كافر ولا مؤمن، ولا مسلم ولا منافق، كما سماه الله فقط وسموه المنزلة بين المنزلتين أي منزلة بين الكفر والإيمان[٣]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٦٦- ٢٧٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٤).

(٣) التنبيه والرد ص(٣٧)، (٣٦).

وقال الإسفراييني عن واصل بن عطاء: وكان قوله موافقًا لقول الخوارج في تخليد العصاة في النار مخالفًا لهم في القول بمنزلة بين المنزلتين والمعتزلة بعده تمسكوا بهذا القول[١]

وقال البغدادي: اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمة الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين، وهى أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر، ولأجل هذا سماهم المسلمون معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عن أصول أهل السنة: ولا يسلبون الفاسق المليّ اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقوله المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: الآية ٩٢]

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: الآية ٢] ، وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن».

ويقولون: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يُعطى الاسم المطلق، ولا يُسلب مطلق الاسم[٣]

وتقدم مزيد بيان عند قول الخوارج في الأسماء والأحكام.

- قولهم في الوعيد

أهل الكبائر عندهم إن ماتوا قبل التوبة فهم عندهم مخلَّدون في النار مع الكفار.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمع أصحاب الوعيد من المعتزلة أن مَنْ أدخله الله النار خَلَّده فيها[٤]

وقال الإسفراييني: ومما اتفقوا عليه من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق الملي منزلة بين منزلتين، لا هو مؤمن، ولا هو كافر، وإنه إن خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون خالدًا مخلدًا في النار مع جملة الكفار، ولا يجوز لله تعالى أن يغفر له أو يرحمه، ولو أنه رحمه وغفر له يخرج من الحكمة وسقط من منزلة الآلهية بغفران الشرك به. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا

(١) التبصير في الدين ص(٦٨)، ص(٦٦).
(٢) الفرق بين الفرق ص(١٣٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥١، ١٥٢).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٤).

دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: الآية ٤٨] (١)

وقال السكسكي عما أجمعت عليه المعتزلة: وأن من ارتكب كبيرة من الموحدين فإن لم تكن كفرًا يخرجه عن الإيمان استحق الخلود في النار أبد الآبدين، وتبطل جميع حسناته(٢)

وقال شيخ الإسلام: والخوارج والمعتزلة يقولون: إن صاحب الكبيرة يخلد في النار(٣)

وقال: وتجعل المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد «الأصول الخمسة» التي يكفرون من خالفها، ويخالفون أهل السنة والجماعة في وجوب نفوذ الوعيد فيهم وفي تخليدهم(٤)

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[الرّعد: الآية ٢٣] ، مما يستدل به أهل السنة على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد.

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ، كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا ﷺ وشفاعة غيره.

فمن قال: إن أهل الكبائر مخلدون في النار وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها، وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها، كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي ولإجماع سلف الأمة وأئمتها.

وقد دل على فساد قول «الطائفتين» قول الله تعالى في آيتين من كتابه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النّساء: الآية ٤٨] ، فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة؛ لأن الشرك يغفره الله لمن تاب، وما دون الشرك يغفره الله أيضًا للتائب، فلا تعلق بالمشيئة، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزُمَر: الآية ٥٣] ، فهنا عمم المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له. ففي آية التوبة عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا

(١) التبصير في الدين ص(٦٥).
(٢) البرهان ص(٥٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٧٥).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٠).

يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق، أو يجوز ألا يعذب بذنب؛ فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورًا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] دليل على أنه يغفر البعض دون البعض، فبطل النفي والوقف العام[١]

وتقدم مزيد بيان عند قول الخوارج في الوعيد.

- قولهم في معرفة وعيد الكفار

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل يعلم وعيد الكفار بالعقل، أو الخبر دون العقل؟ على ستة أقاويل:

١- فقال بعضهم: العذاب على الكبائر كلها الكفر منها وغير الكفر واجبٌ في العقول، وإن جاءت السمع بذلك.

٢- وقال بعضهم: ليس يجب هذا في كل الذنوب، ولكن في الكفر خاصة.

٣- وقال بعضهم: ليس يجب في العقول إلا التفريق بين المحسن والمسيء والولي والعدو، والتفرقة تكون بضروب شتى: منها تعذيب المذنب بعذاب لا ينقطع وسلامة المطيع من ذلك، ومنها إفناؤه وإبقاء المطيع، ومنها تفضيل المطيع في النعيم، ولله عندهم أن يعفو عن جميع المذنبين ويديم نعيمهم تفضلًا.

٤- وقال بعض من يميل إلى هذا القول: مظالم العباد لا يجوز العفو عنها إلا بعد عفو أهلها، وإن لم يقع العفو منها فالقصاص واجب فيها.

٥- وقال عباد بن سليمان: إن أهل العفو يعلمون أن الله سبحانه يجازي على كل ذنب، كائنًا ما كان، حتى يفرق بين الفاعل وغيره، ولا يعلمون ما ذلك الجزاء، والله يعلم ما هو؟ وإن يكون العلم به إلا من قبل السمع.

٦- وقال قائلون: ليس يعلم عقاب الكفار إلا من جهة الخبر.

واختلفوا هل كان في العقل يجوز أن يغفر الله لعبده ذنبًا ويعذب غيره على مثله، أم لا؟ على مقالتين:

١- فأجاز ذلك بعضهم وهو الجُبَّائِيّ.

٢- وأنكره أكثرهم[٢]

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٨٤، ١٨٥)، (٤/ ٤٨٦).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٥، ٢٧٦).

- قولهم في معرفة وعيد أهل الكبائر

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا بأي شيء يعلم وعيد أهل الكبائر؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فزعم زاعمون أن ذلك يعلم من جهة التنزيل، هذا قول أبي الهُذَيْلِ.

٢- وقال بعضهم: ليس يعلم ذلك من قبل التنزيل، ولكن من قبل التأويل، وهذا قول الفُوَطِي.

٣- وقال الأصم: إنه ليس من قبل التنزيل علم ذلك، ولا من قبل التأويل، ولكن من قبل أن أهل الفسق مشتومون عند أهل الصلاة، ولا يكون أحد مشتومًا إلا وهو عدو لله، ومن كان عدوًّا لله كان من أهل النار[1]

- قولهم في الشفاعة

ينكرون شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر.

أقوال العلماء

قال السكسكي عما أجمعت عليه المعتزلة: ونفوا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر[2]

وقال شيخ الإسلام: وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين[3]

وقال: وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع بعض الدرجات، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقًا[4]

وقال: ولكن كثيرًا من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر[5]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الشفاعة.

- قولهم في الصغائر والكبائر

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة -مع إقرارها بالصغائر والكبائر- في الصغائر والكبائر، على

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٧، ٢٧٨).
(٢) البرهان ص(٥٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٤).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٨).

ثلاثة أقاويل:

١- فقال قائلون منهم: كل ما أتى فيه الوعيد فهو كبير، وكل ما لم يأت فيه الوعيد فهو صغير.

٢- وقال قائلون: كل ما أتى فيه الوعيد فكبير، وكل ما كان مثله في العظم فهو كبير، وكل ما لم يأت فيه الوعيد أو في مثله فقد يجوز أن يكون كله صغيرًا، ويجوز أن يكون بعضه كبيرًا وبعضه صغيرًا، وليس يجوز ألا يكون صغيرًا ولا شيئًا منه.

٣- وقال جعفر بن مبشر: كل عمد كبير، وكل مرتكب لمعصية متعمدًا لها فهو مرتكب لكبيرة[١].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس، وذكره أبو عبيد، وأحمد بن حنبل، وغيرهما وهو: أن الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا، وحد الآخرة.

وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا، وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة، أو غضب، أو نار، فهو من الكبائر.

ومعنى قول القائل: ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة؛ أي: وعيد خاص كالوعيد بالنار، والغضب، واللعنة.

وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة. كالعقوبة الخاصة في الدنيا. فكما أنه يفرق في العقوبات المشروعة للناس بين العقوبات المقدرة بالقطع، والقتل، وجلد مائة، أو ثمانين، وبين العقوبات، التي ليست بمقدرة: وهي التعزير، فكذلك يفرق في العقوبات التي يعزر الله بها العباد -في غير أمر العباد بها- بين العقوبات المقدرة: كالغضب، واللعنة، والنار، وبين العقوبات المطلقة.

وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره؛ فإنه يدخل كل ما ثبت في النص أنه كبيرة: كالشرك، والقتل، والزنى، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وغير ذلك من الكبائر التي فيها عقوبات مقدرة مشروعة، وكالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور؛ فإن هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص...

وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه:

أحدها: أنه المأثور عن السلف، بخلاف تلك الضوابط؛ فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة، وإنما قالها بعض من تكلم في شيء من الكلام، أو التصوف بغير دليل شرعي، وأما من قال من السلف: إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، فهذا لا يخالف ما ذكرناه. وسنتكلم عليها أن شاء الله واحدًا واحدًا.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٠، ٢٧١).

الثاني: أن الله قال: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النِّساء: الآية ٣١] فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات، واستحقاق الوعد الكريم. وكل من وعد بغضب الله أو لعنته، أو نار أو حرمان جنة، أو ما يقتضي ذلك؛ فإنه خارج عن هذا الوعد، فلا يكون من مجتنبي الكبائر. وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد، لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر؛ إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب؛ فهو حد يتلقى من خطاب الشارع، وما سوى ذلك ليس متلقى من كلام الله ورسوله؛ بل هو قول رأي القائل وذوقه من غير دليل شرعي، والرأي والذوق بدون دليل شرعي لا يجوز.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر؛ لأن تلك الصفات لا دليل عليها؛ لأن الفرق بين ما اتفقت فيه الشرائع واختلفت لا يعلم إن لم يمكن وجود عالم بتلك الشرائع على وجهها، وهذا غير معلوم لنا.

وكذلك ما يسد باب المعرفة هو من الأمور النسبية والإضافية، فقد يسد باب المعرفة عن زيد ما لا يسد عن عمرو، وليس لذلك حد محدود.

الخامس: أن تلك الأقوال فاسدة

ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، وأن ما عصى الله به فهو كبيرة؛ فإنه يوجب ألا تكون الذنوب في نفسها تنقسم إلى كبائر وصغائر. وهذا خلاف القرآن، فإن الله قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النَّجم: الآية ٣٢] ، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى: الآية ٣٧] وقال: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النِّساء: الآية ٣١] ، وقال: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: الآية ٤٩] وقال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣﴾ [القَمَر: الآية ٥٣] والأحاديث كثيرة في الذنوب الكبائر...

وأما من قال: إنها كل ذنب فيه وعيد، فهذا يندرج فيما ذكره السلف، فإن كل ذنب فيه حد في الدنيا ففيه وعيد من غير عكس، فإن الزنى، والسرقة، وشرب الخمر، وقذف المحصنات، ونحو ذلك فيها وعيد. كمن قال: إن الكبيرة ما فيها وعيد، والله أعلم[1]

- قولهم في غفران الصغائر

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في غفران الصغائر على ثلاثة أقاويل:

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠- ٦٥٧).

١- فقال قائلون: إن الله سبحانه يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر تفضلًا.

٢- وقال قائلون: يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، باستحقاق.

٣- وقال قائلون: لا يغفر الصغائر إلا بالتوبة[١]

- قولهم في اجتماع المعاصي

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل يجوز أن يجتمع ما ليس بكبير وما ليس بكبير فيكون كبيرًا؟ على مقالتين:

١- فقال كثير من المعتزلة: لا يجوز أن يجتمع ما ليس بكبير وما ليس بكبير فيكون كبيرًا، وليس يجوز أن يجتمع ما ليس بكفر وما ليس بكفر فيكون كفرًا.

٢- وقال الجُبَّائِيُّ: الصغائر تقع من مجتنبي الكبائر مغفورة ويجوز أن يجتمع ما ليس بكبير وما ليس بكبير من مجتنبي الكبائر فيكون ذلك كبيرًا، كالرجل يسرق درهمًا ثم درهمًا حتى يكون سارقًا خمسة دراهم يسرقها درهمًا درهمًا، قد يجوز أن يكون سَرَقه كل درهم على انفراده صغيرًا، فإذا جتمع ذلك كان كبيرًا.

وقال غيره من المعتزلة: إن لم يكن سَرَقه كلِ درهم على انفرادِهِ كبيرًا، فليس ذلك إذا اجتمع كبيرًا، ولكن الذنب الكبير منعه خمسة دراهم[٢]

- قولهم في التوبة

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في التائب يتوب من الذنب ثم يعود إليه: هل يؤخذ به؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: بالذنب الذي تاب منه إذا عاد إليه.

٢- وقال قائلون: لا يؤخذ بما سلف؛ لأنه قد تاب منه.

- واختلفوا في آخذ الدرهم وسارقه من حرز: هل يفسق أم لا؟ على مقالتين:

١- فزعم أبو الهُذَيْل أنه فاسق؛ لأنه قد أباح يده فقهاء من فقهاء المسلمين.

٢- ولم يفسقه غيره من المعتزلة إلا «جعفر بن مبشر» إذا اعتمد ذلك.

- واختلفوا في خائن درهم فصاعدًا، على خمسة أقاويل:

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٧١، ٢٧٢).

١- فزعم جعفر بن مبشر أن مرتكب معصية متعمدًا لها فاسق، وإن كانت سرقة درهم أو أقل أو أكثر، وأي معصية كانت.

٢- وقال الجُبَّائِيّ: من عزم أن يخون في درهم وثلثين في الوقت الثاني من حال عزمه ثم جاء الوقت الثاني فأراد ذلك وفعله فسق؛ لأن العزم على ذلك كفعل المعزوم عليه، والإرادة لأخذ الدرهم وثلثين كأخذ الدرهم وثلثين، فإذا اجتمع ذلك فهو كخائن خمسة دراهم.

٣- وقال أبو الهُذَيْلِ: لا يفسق إلا بأخذ خمسة دراهم من غير حِلِّهَا، أو بمنعها، ولا يفسق في أقل من ذلك إلا سارق الدرهم بإباحة يده فقهاء من فقهاء الأمة.

٤- وقال قائلون: لا يفسق السارق لأقل من عشرة دراهم والخائن لأقل منها، وإنما يفسق من سرق عشرة دراهم فصاعدًا أو خانها.

٥- وقال قائلون: لا يفسق الخائن إلا في مائتي درهم، وهذا قول النَّظَّام.

- واختلفت المعتزلة فيمن لم يُؤَدِّ زكاته، على مقالتين:

١- فزعم هشام الفُوَطِي أنه لا يكون مانعًا للزكاة إلا إذا عزم ألا يؤديها أبدًا، فمن عزم ألا يؤديها وقتًا ما فليس بضال.

٢- وقال غيره من المعتزلة: من منعها أهل الحاجة وقد وجبت لزمه الفسق إذا منع خمسة دراهم على قول أصحاب الخمسة، أو عشرة على قول أصحاب العشرة، أو مائتين على قول أصحاب المائتين[1].

- قولهم في نصوص العموم

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلة القائلون بالوعيد أن الأخبار إذا جاءت من عند الله وتَخْرَجها عام كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[الانفطار: الآية ١٤] ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾؛ فليس بجائز إلا أن تكون عامة في جميع أهل الصنف الذي جاء فيهم الخبر من مُسْتَحِلّيهم ومحرميهم.

وزعموا جميعًا أنه لا يجوز أن يكون الخبر خاصًا أو مستثنى منه والخبر ظاهر الأخبار والاستثناء والخصوصية ليسا بظاهرين.

وليس يجوز عندهم أن يكون الخبر خاصًا وقد جاء مجيئًا عامًّا إلا ومع الخبر ما يخصصه أو تكون خصوصيته في العقل، ولا يجوز أن يكون خاصًا ثم يجيء الخصوصية بعد الخبر.

واختلفوا إذا سمع السامع الخبر الذي ظاهره العموم، ولم يكن في العقل ما يخصصه، ما الذي

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٢- ٢٧٤)، التبصير في الدين ص(٧٥).

عليه في ذلك؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: عليه أن يقف في عمومه حتى يتصفح القرآن والإجماع والأخبار فإذا لم يجد للخبر تخصيصًا في القرآن ولا في الإجماع ولا في الأخبار ولا في السنن قضى على عمومه، وهذا قول الشحام.

٢- وقال قائلون: إذا جاء الخبر ومخرجه العموم فعلى السامع لذلك أن يجعله في جميع من لزمه الاسم الذي سمي به أهل تلك الصفة الذين جاء فيهم الخبر، ولا يعرف من يلزمه ذلك الاسم حتى يلقى أهل اللغة فيعرفونه من الذي يلزمه ذلك الاسم، فإذا علم ذلك من قبل أهل اللغة سمى به أهلها، وقضى بعموم الخبر لمن لزمه الاسم.

وزعم قائل هذا أنه لو كان في معلوم الله سبحانه أنه يسمع الآية التي ظاهرها العموم من لا يسمع ما يخصصها لم يجز أن ينزلها إلا ومعها تخصيصها، فلما كان في معلومه أنه لا يسمع الآية التي ظاهرها العموم والمراد بها الخصوص إلا من يسمع تخصيصها إذا نزلها أوجب على كل من سمع آية ظاهرها العموم ولم يسمع لها تخصيصًا أن يقضي على عمومها، وهذا قول أبي الهُذَيْل والشحام[1].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المرجئة في نصوص العموم.

- قولهم في القدر

ينفون القدر، وهو إنكار خلق الله لأفعال العباد، وعموم مشيئته وقدرته.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وهذا شرح قول المعتزلة في القدر. أجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لم يخلق الكفر والمعاصي، ولا شيئًا من أفعال غيره، إلا رجلًا منهم، فإنه زعم أن الله خلقها، بأن خلق أسماءها وأحكامها، حكى ذلك عن صلح قبة.

وأجمعت المعتزلة إلا عبادًا أن الله جعل الإيمان حسنًا، والكفر قبيحًا، ومعنى ذلك أنه جعل التسمية للإيمان والحكم بأنه حسن، والتسمية للكفر والحكم بأنه قبيح، وأن الله خلق الكافر لا كافرًا، ثم إنه كفر، وكذلك المؤمن.

وأنكر عباد أن يكون الله جعل الكفر على وجه من الوجوه، أو خلق الكافر والمؤمن.

- واختلفت المعتزلة: هل يقال: إن الإنسان يخلق فعله أم لا؟ على ثلاث مقالات:

١- فزعم بعضهم: أن معنى فاعل وخالق واحد، وأنا لا نطلق ذلك في الإنسان لأنا منعنا منه.

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٦، ٢٧٧).

٢- وقال بعضهم: هو الفعل لا بآلة ولا بجارحة، وهذا يستحيل منه.

٣- وقال بعضهم: معنى خالق أنه وقع منه الفعل مُقَدَّرًا، فكل من وقع فعله مقدرًا فهو خالق له، قديمًا كان أو محدثًا.

- وأجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لم يرد المعاصي إلا المردار فإنه حُكِيَ عنه أنه قال: إن الله أرادها، بأن خَلَّى بين العباد وبينها[1].

وقال: واختلفت المعتزلة هل يقال: إن الله خلق الشر والسيئات أم لا؟ على مقالتين:

١- فقالت المعتزلة كلها إلا عبادًا: إن الله يخلق الشر الذي هو مرض، والسيئات التي هي عقوبات، وهو شر في المجاز، وسيئات في المجاز.

٢- وأنكر عباد أن يخلق الله سبحانه شيئًا نسميه شرًّا أو سيئة، في الحقيقة[2]

وقال الإسفراييني: ومما اتفقوا عليه قولهم: إن أفعال العباد مخلوقة لهم، كل واحد منهم ومن جملة الحيوانات كالبقة، والبعوض، والنملة، والنحلة، والدودة، والسمكة، خالق خلق أفعاله، وليس خالقًا لأفعالهم ولا قادرًا على شيء من أعمالهم، وأنه قط لا يقدر على شيء مما يفعله الحيوانات كلها، ففعل الذباب، والبقة، والجرادة، أفعال هي خالقة لها، وليس البارئ سبحانه قادرًا عليها، فأثبتوا خالقين لا يحصون ولا يحصرون، حتى إن مذبة لو تحركت على دن من الخل تطاير عنها أكثر من ألف خالق أو قريب منها[3]

وقال: ومما قالوا: إن أفعال الحيوانات خارجة من قدرة الله تعالى، ولم يوجبوا تخصيصًا في وصف كونه قادرًا، فقد مهدوا بذلك طريق القول بالتثنية[4]

وقال: من أفظع ما ينتحلونه نسبتهم التقدير إلى أنفسهم لا إلى صانعهم[5]

وقال البغدادي عما يجمعهم: ومنها قولهم جميعًا بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ولا لشيء من أعمال الحيوانات، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير، ولأجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية[6].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٧، ٢٢٨).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٥، ٢٤٦).
(٣) التبصير في الدين ص(٦٤).
(٤) التبصير في الدين ص(٦٥).
(٥) التبصير في الدين ص(٩١).
(٦) الفرق بين الفرق ص(١٣١، ١٣٢).

وقال عما يجمعهم: ومنها قولهم: إن كل ما لم يأمر الله تعالى به أو نهى عنه من أعمال العباد لم يشأ الله شيئًا منها [(١)].

وقال الرازي: اعلم أن المعتزلة كلهم متفقون، . . .، وأن الله تعالى ليس خالقًا لأفعال العبد [(٢)].

وقال السكسكي عما أجمعت عليه المعتزلة: والله تعالى لا يقدر على مقدورات غيره، وإنه لم يخلق أفعال عباده بل هم الخالقون لها [(٣)].

وقال شيخ الإسلام: ثم القَدَرِيَّة من المعتزلة وغيرهم يعتقدون أن إثبات الصانع، والنبوة: لا يمكن إلا بعد اعتقاد أن العبد هو المحدِث لأفعاله، وإلا انتقض الدليل [(٤)].

وقال: المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء [(٥)].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند الكلام عن مقالة القَدَرِيَّة.

- قولهم في الإرادة

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في أن الله مريد اختلفت المعتزلة في ذلك على خمسة أقاويل:

فالفرقة الأولى منهم: أصحاب أبي الهُذيل، يزعمون أن إرادة الله غير مراده وغير أمره، وأن إرادته لمفعولاته ليست بمخلوقة على الحقيقة، بل هي مع قوله لها: كوني خلق لها، وإرادته للإيمان ليست بخلق له، وهي غير الأمر به، وإرادة الله قائمة به لا في مكان.

وقال بعض أصحاب أبي الهذيل: بل إرادة الله موجودة لا في مكان، ولم يقل: هي قائمة بالله تعالى.

والفرقة الثانية منهم أصحاب بشر بن المعتمر.

يزعمون أن إرادة الله على ضربين: إرادة وصف بها الله في ذاته، وإرادة وُصِفَ بها وهي فعل من أفعاله، وأن إرادته التي وصف بها في ذاته غير لاحقة بمعاصي العباد.

والفرقة الثالثة منهم: أصحاب أبي موسى المردار، فيما حكى أبو الهُذَيْل عن أبي موسى أنه كان

---

(١) الفرق بين الفرق ص(١٣٢).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٣٨).

(٣) البرهان ص(٥٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢، ٢٣)، (٢/ ٤٥٧).

(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٥٢).

يزعم أن الله أراد معاصي العباد بمعنى أنه خلى بينهم وبينها، وكان أبو موسى يقول: خلق الشيء غيره والخلق مخلوق لا يخلق.

٤- والفرقة الرابعة منهم أصحاب النَّظَّام

يزعمون أن الوصف لله بأنه مريد لتكوين الأشياء معناه أنه كونها، وإرادته للتكوين هي التكوين، والوصف له بأنه مريد لأفعال عباده معناه أنه آمر بها، والأمر بها غيرها، قال: وقد نقول: إنه مريد الساعة أن يقيم القيامة، ومعنى ذلك أنه حاكم بذلك مخبر به، وإلى هذا القول يميل البغداديون من المعتزلة.

٥- والفرقة الخامسة منهم أصحاب جعفر بن حرب

يزعمون أن الله أراد أن يكون الكفر مخالفًا للإيمان، وأرد أن يكون قبيحًا غير حسن، والمعنى أنه حكم أن ذلك كذلك[1]

وقال: وأنكرت المعتزلة بأسرها أن يكون الله سبحانه لم يزل مريدًا للمعاصي، وأنكروا جميعًا أن يكون الله لم يزل مريدًا لطاعته[2]

وقال الإسفراييني: ومما اتفقوا عليه من مساوئ مقالاتهم قولهم: إن الله تعالى لم يرد أن يكون الزنى، واللواط، والقتل، ومعصية العصاة، وكفر الكافرين، وجميع الفواحش قبيحة مذمومة، وهذا يوجب أن تكون جميعها مرضية حسنة، أو يكون عن جميعها غافلًا ساهيًا، وهذا خلاف قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[الإنسان: الآية ٣٠] ، وخلاف قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾[البَقَرَة: الآية ٢٥٥] ، وخلاف ما اتفق عليه العقلاء من أن من لم يرد أن يكون القبيح قبيحًا والمذموم مذمومًا، ولم يرد أن يكون كفر الكافرين، ومعصية العصاة، وظلم الظالمين، وزنى الزناة، مذمومة غير مرضية كان في السفه والجًا، وعن حكم الحكمة خارجًا[3]

وقال السكسكي عما أجمعت عليه المعتزلة: وإرادته محدثة، . . . ، ويريد إرادة يحدثها، ويريد خلاف معلومه، ويريد من عباده ما لا يكون ويكون ما لا يريد، وإنه لو لم يعص خلقه لكان قبيحًا به الإتيان بعوضه[4]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ومن هذا الباب تنازع الناس في الأمر، والإرادة هل يأمر بما لا يريد أو لا

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٨٩- ١٩١).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٨٥).
(٣) التبصير في الدين ص(٦٥).
(٤) البرهان ص(٥٠).

يأمر إلا بما يريد؟

فإن الإرادة لفظ فيه إجمال، يراد بالإرادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥] وقول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود: الآية ٣٤] ولا ريب أن الله يأمر العباد بما لا يريده بهذا التفسير والمعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه قد أمر كل نفس بهداها، وكما اتفق العلماء على أن من حلف بالله ليقضين دين غريمه غدًا إن شاء الله، أو ليردن وديعته، أو غصبه، أو ليصلين الظهر، أو العصر إن شاء الله، أو ليصومن رمضان إن شاء الله، ونحو ذلك مما أمره الله به، فإنه إذا لم يفعل المحلوف عليه لا يحنث مع أن الله أمره به لقوله: إن شاء الله، فعلم أن الله لم يشأه مع أمره به.

وأما الإرادة الدينية فهي بمعنى المحبة والرضا، وهي ملازمة للأمر كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ﴾ [النساء: الآية ٢٦] ، ومنه قول المسلمين: هذا يفعل شيئًا لا يريده الله، إذا كان يفعل بعض الفواحش؛ أي أنه لا يحبه ولا يرضاه، بل ينهى عنه ويكرهه(١)

وقال: ويقولون: إرادة الله في كتابه نوعان:

نوع بمعنى المشيئة لما خلق كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]

ونوع بمعنى محبته ورضاه لما أمر به وإن لم يخلقه، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥] ، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦] ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

وبهذا يفصل النزاع في مسألة «الأمر» هل هو مستلزم للإرادة أم لا؟ فإن القَدَرِيَّة تزعم أنه مستلزم للمشيئة، فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن، والجَهْمِيَّة قالوا: إنه غير مستلزم لشيء من الإرادة، لا لحبه له، ولا رضاه به، إلا إذا وقع، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكذلك عندهم ما أحبه ورضيه كان، وما لم يحبه ولم يرضه لم يكن، وتأولوا قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: الآية ٧] على أن المراد ممن لم يقع منه الكفر، أو لا يرضاه دينًا، كما يقولون: لم

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٣١).

يشأه ممن لم يقع منه، أو لا يشاءه دينًا؛ إذا كانوا موافقين للجهمية والقَدَرِيَّة في أنه لا فرق بين المحبة والمشيئة. وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزُمَر: الآية ٧] فأخبر أنه إذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده، كما قال: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾[النِّساء: الآية ١٠٨] وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[البَقَرَة: الآية ٢٠٥] مع قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعَام: الآية ١٢٥]

وفصل الخطاب: إن الأمر ليس مستلزمًا لمشيئة أن يخلق الرب الآمر الفعل المأمور به. ولا إرادة أن يفعله، بل قد يأمر بما لا يخلقه، وذلك متسلزم لمحبة الرب ورضاه من العبد أن يفعله، بمعنى أنه إذا فعل ذلك أحبه ورضيه؛ وهو يريد منه إرادة الآمر من المأمور بما أمره به لمصلحته، وإن لم يريد أن يخلقه وأن يعينه عليه؛ لما له في ترك ذلك من الحكمة؛ فإن له حكمه بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه.

وفرق بين أن يريد أن يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلًا يحسن إليه ويتفضل عليه بالإعانة له على مصلحته، وبين أن يأمر غيره بما يصلحه ويبين له ما ينفعه إذا فعله، وإن كان لا يريد هو -نفسه- أن يعينه لما في ترك إعانته من الحكمة؛ لكون الإعانة قد تستلزم ما يناقض حكمته، والمنهي عنه الذي خلقه هو يبغضه ويمقته، كما يمقت ما خلقه من الأعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث، ولكنه خلقها لحكمه يحبها ويرضاها.

ونحن نعلم أن العبد يريد أن يفعل ما لا يحبه لإفضائه إلى ما يحبه، كما يشرب المريض الدواء الكريه لإفضائه إلى ما يحبه من العافية، ويفعل ما يكرهه من الأعمال لإفضائه إلى مطلوبه المحبوب له، ولا منافاة بين كون الشيء بغيضًا إليه مع كونه مخلوقًا له لحكمة يحبها، وكذلك لا منافاة بين أن يحبه إذا كان ولا يفعله؛ لأن فعله قد يستلزم تفويت ما هو أحب إليه منه، أو وجود ما هو أبغض إليه من عدمه[1]

- قولهم في الاستطاعة والقدرة والعجز ونحوه

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: اختلفوا هل الإنسان حيٌّ مستطيعٌ بنفسه أم لا؟ على مقالتين:

١- فزعم النَّظَّام وعلي الإسْوَاري أن الإنسان حيٌّ مستطيعٌ بنفسه، لا بحياة واستطاعة هما غيره، والإنسان عند النَّظَّام هو الروح، وهو جسم لطيف مُداخل لهذا الجسم الكثيف.

وزعم أن الإنسان لا يجوز أن يكون مستطيعًا لنفسه، لما من شأنه أن يفعله حتى تحدث به آفة، والآفة: هي العجز، وهي غير الإنسان.

كان النَّظَّام يزعم أن الإنسان قادرٌ على الشيء قبل كونه، وأنه لا يوصف بأنه قادر عليه في حال وجوده.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٧٦- ٤٧٨).

٢- وقال قائلون: إن الإنسان حيٌّ مستطيعٌ، والحياة والاستطاعة هما غيره، وهذا قول أبي الهُذَيْل ومعمر وهشام الفُوَطِي وأكثر المعتزلة.

- واختلفت المعتزلة: هل الاستطاعة هي الصحة والسلامة، أم غير الصحة والسلامة؟ على مقالتين:

١- فقال أبو الهُذَيْل ومعمر والمردار: هي عرض، وهي غير الصحة والسلامة.

٢- وقال بشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس وغيلان: إن الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وتخليها من الآفات.

- واختلفت المعتزلة في الاستطاعة: هل تبقى أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال أكثر المعتزلة: إنها تبقى، وهذا قول أبي الهُذَيْل وهشام وعباد وجعفر بن حرب وجعفر بن مبشر والإسكافي وأكثر المعتزلة.

٣- وقال قائلون: لا تبقى وقتين، وإنه يستحيل بقاؤها، وإن الفعل يوجد في الوقت الثاني بالقدرة المتقدمة، المعدومة ولكن لا يجوز حدوثه مع العجز، بل يخلق الله في الوقت الثاني قدرة، فيكون الفعل واقعًا بالقدرة المتقدمة، وهذا قول أبي القاسم البَلْخيِّ وغيره من المعتزلة.

وهذا قولهم في الفعل المباشر؛ فأما المتولد فقد يجوز عندهم أن يحدث بقدرة معدومة وأسباب معدومة، ويكون الإنسان في حال حدوثه ميتًا أو عاجزًا.

- وأجمعت المعتزلة على أن الاستطاعة قبل الفعل، وهي قدرة عليه وعلى ضده، وهي غير موجبة للفعل، وأنكروا بأجمعهم أن يكلف الله عبدًا ما لا يقدر عليه.

وقال بعض المتأخرين ممن كان ينتحل المعتزلة: القدرة مع الفعل، وهي تصلح للشيء وتركه في حال حدوثه، وجائز كون الشيء في حال وجود تركه بألا يكون كان، فتركه، وهذا قول ابن الراوندي.

- واختلفوا: هل هي قدرة عليه في حاله؟

فزعم بعضهم أنها قدرة عليه في حالة لا على تركه، وأنها قبله قدرة عليه وعلى تركه، وهذا قول أبي الحسين الصَّالِحِيِّ.

وأحال أكثر المعتزلة أن تكون قدرة عليه في حاله على وَجْهٍ من الوجوه.

- واختلفوا إذا فعل الإنسان أحد الضدين اللذين كان يقدر عليهما قبل كون أحدهما، هل يوصف بالقدرة على الضد الذي لم يفعله أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال أكثر المعتزلة: إذا وجد أحد الضدين استحال أن يوصف الإنسان بالقدرة عليه أو على الضد الآخر.

٢- وقال رجل منهم وهو الإسكَافِيُّ: إذا وجد أحد الضدين لم يوصف الإنسان بالقدرة عليه،

ولكن يوصف بالقدرة على ضده الآخر.

- واختلفوا في الاستطاعة: هل يجوز فناؤها في الوقت الثاني؛ فيكون الفعل المباشر الذي يفعله الإنسان في نفسه وأنه بقدرة معدومة؟ على أربعة أقاويل:

١- فقال أبو الهُذَيْلِ: الاستطاعة يحتاج إليها قبل الفعل، فإذا وجد الفعل لم يكن الإنسان إليها حاجة بوجه من الوجوه، وقد يجوز وقوع العجز في الوقت الثاني فيكون مجامعًا للفعل، ويكون عجزًا عن فعل؛ لأن العجزَ عنك لا يكون عجزًا عن موجودٍ، فيكون الفعل واقعًا بقدرة معدومة، وجوز وجود أقل قليل الكلام مع الخرس، وجوَّز الفعل مع الموت بالاستطاعة المتقدمة، ولم يجوز وجود العلم مع الموتِ، ولا وجود الإرادة مع الموت.

٢- وقال أكثر المعتزلة: ليس يحتاج إلى الاستطاعة للفعل في حال وجوده ليفعل بها ما قد فعل، ولكن يحتاج إليها؛ لأنه محال وجود الفعل في جارحة ميتة عاجزة.

وقال هؤلاء: محال وقوع الفعل المباشر بقوة معدومة، وأجازوا وقوع الأفعال المتولدة كنحو ذهاب الحجر بعد الدفعة وانحدار الحجر بعد الزجة بقدرة معدومة، وهذا قول جعفر بن حرب والإسكافي.

٣- وقال قائلون: جائز وقوع الفعل المباشر بقوة معدومة؛ لأن القدرة لا تبقى ولكن لا توجد في جارحة ميتة ولا عاجزة، وهذا قول أبي القاسم البَلْخِيِّ وغيره.

٤- وقال قائلون: لا يجوز وقوع الفعل بقوة معدومة، وأن القوة يحتاج إليها في حال الفعل للفعل، وأنها إن كانت قوة عليه قبله وعلى تركه فهي قوة عليه في حال كون تركه، وأنكر قائل هذا أن يكون الإنسان يفعل فعلًا على طريق التولد، وهذا قول أبي الحسين الصَّالِحِيِّ.

وقال بعض من مال إلى هذا القول: إن الإنسان قادر عليه في حاله، وعلى تركه بدلًا منه.

- واختلفت المعتزلة هل يقال الإنسان قادر في الأول أن يفعل فيه أو أن يفعل في الثاني على سبعة أقاويل:

١- فقال أبو الهُذَيْلِ: الإنسان قادر أن يفعل في الأول، وهو يفعل في الأول والفعل واقع في الثاني؛ لأن الوقت الأول وقت يفعل والوقت الثاني وقت فعل.

٢- وحُكِيَ عن بشر بن المعتمر أنه كان يقول: لا أقول يفعل في الأول، ولا أقول يفعل في الثاني، ولا أقول قادر أن يفعل في الأول، ولا أقول قادر أن يفعل في الثاني، وذكرُ القدرة مضمر مقدور عليه يستحيل كونه مع القدرة عليه، وذكر العجز مضمر معجوز عنه يستحيل كونه مع العجز عنه، ولسنا نقول أيضًا: عاجز في الأول أن يفعل في الأول، أو أن يفعل في الثاني.

٣- وقال النَّظَّام وأكثر المعتزلة: إن الإنسان قادر في الوقت الأول أن يفعل في الوقت الثاني، وإنه يقال قبل كون الوقت الثاني: إن الفعل يفعل في الوقت الثاني؛ فإذا كان الوقت الثاني قد فعل

الذي قيل يفعل في الثاني قبل كون الثاني هو الذي قيل فُعل في الثاني إذا حدث الوقت الثاني.

٤- واختلف هؤلاء؛ فقال قائلون منهم: إن الإنسان يقدر في الحال الأولى أن يفعل في الحال الثانية، فإذا حل العجز في الحال الثانية علمنا أنه لم يكن قادرًا في الحال الأولى أن يفعل في الحال الثانية.

٥- وقال أكثرهم: إن الإنسان قادر أن يفعل في الحال الثانية حل فيها العجز أو لم يحل، وخلق العجز في الوقت الثاني لا يخرج القدرة أن تكون قدرة عليه إن لم يعجز فهو قادر أن يفعل في الحال الثانية، وإن حل العجز فيها على شرط، والشرط هو أنه قادر عليه إن لم يعجز.

٦- وقال قائلون: هو قادر في الحال الأولى أن يفعل في الحال الثانية، وإن عجز في الحال الثانية فالفعل واقع مع العجز، وليس بعجز عنه، ولم يقل هؤلاء على الشرط الذي قاله الذين حكينا قولهم قبل.

٧- وحكى برغوث أن قومًا منهم يقولون: إن الآفة أن كانت تحل في الحال الثانية كان الإنسان في الأولى عاجزًا عن الفعل في الثانية بسببه، وإن كانت فيه استطاعة.

٨- وقال عَبَّادٌ أقول: إن الإنسان قادر أن يفعل في الثاني.

- واختلفت المعتزلة هل الفعل واقع بالاستطاعة أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال عباد: القدرة لا أقول إني أفعل بها أو أستعملها.

٢- وقال أكثر المعتزلة الذين ثبتوا قدرة الإنسان غيره: بل الفعل وقع بها.

- واختلفت المعتزلة: هل تستعمل القوة في الفعل، أم لا؟ على مقالتين:

١- فأنكر الجُبَّائِيُّ أن تكون تُستعمل في الفعل؛ لأن الاستعمال زَعَمَ يحل في الشيء المستعمل، وكان مع هذا يزعم أن الفعل واقع بها.

وأنكر عباد الاستعمال.

٢- وقال كثير من المعتزلة: إنها تستعمل في الفعل، بمعنى أنه يُعمل بها الفعل.

- واختلفوا هل يوصف الإنسان بالقدرة على ما يكون في الوقت الثالث، أو إنما يوصف بالقدرة على ما يكون في الثاني؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: الإنسان قادر بقدرته على أن يفعل في الثاني، ولا يوصف بالقدرة في حال حدوثها إنه قادر بها على ما يكون في الثالث.

٢- وقال قائلون: هو قادر بقدرته على الفعل في الثاني والثالث، وعلى ما لا يتناهى من الأفعال أن يأتي به في أوقات لا تتناهى إن بقيت قدرته.

وأحال هؤلاء أن يكون ما يقدر عليه في الثالث يفعله في الثاني، وما يقدر عليه في الرابع يفعله في الثالث.

- واختلفوا: هل يقدر الإنسان في الوقت الأول أن يفعل في الثاني أشياء متضادة أو شيئين؟

فقال بعضهم: إنما يقدر أن يفعل في الثاني شيئًا، إن يُرِدْ ذلك الشيء فهو قادر على شيئين في الثاني متضادين على البدل فقط.

وقال بعضهم: هو قادر في حال حدوث القدرة أن يفعل أشياء متضادة في الوقت الثاني على البدل.

- واختلفت المعتزلة: هل يقدر الإنسان على حركة في الثاني أو على حركات؟

فزعم أبو الهُذَيْل أنه يقدر على حركة في الثاني وسكون، على للبدل، فإن فعل الحركة في الثاني وفعل معها كونًا يمنة كانت حركة يمنة، وكذلك إن فعل وفعل معها كونًا يسرة كانت حركة يسرة، وكذلك القول في سائر الأكوان.

وقال غيره: الإنسان يقدر على حركات في الثاني متضادات وسكون، على البدل، وزعم صاحب هذا القول أن الحركة ضرب من الأكوان، وهي يمنة ضد الحركة يسرة.

- واختلفت المعتزلة هل القدرة التي يكون به الكلام باللسان هي التي يكون به المشي بالرجل، أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال قوم: القدرة التي يكون بها الكلام باللسان هي التي بها يكون المشي بالرجل ومحلهما واحد، وإنما امتنع الكلام بالرجل لاختلاف الموانع.

٢- وقال قوم: القدرة على الكلام غير القدرة على المشي، ومحل كل قدرة غير محل القدرة الأخرى؛ فقدرة المشي في الرجل، وقدرة الإرادة في القلب، وقدرة النظر في العين.

- واختلف الذين قالوا بتغاير القدرة على الإرادة والمشي والكلام: هلْ القدرة على ذلك جنس واحد، أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: كلها من جنس واحد، وقد يجوز أن تكون قدرة الكلام من جنس قدرة المشي، وإن لم يتجانس المقدور عليه.

٢- وقال قائلون: لا يجوز أن تكون قدرة الكلام من جنس قدرة المشي وحكى برغوث أن قومًا ممن زعم أن الاستطاعة قبل الفعل وأنها تُنفي وتحدث لكل فعل قبله قالوا: إنه تحدث في الإنسان قبل كل فعل استطاعات بعدد هذا الفعل وعدد كل ترك له، فإذا فعل الفعل الواحد بطلت كلها، وحدثت استطاعات لفعل آخر ولتركه أو عجز ينفيها.

- واختلفوا في فعل الجوارح: في أي وقت يحدث بعد حدوث الاستطاعة؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فقال قوم: الإنسان يقدر على الحركة في حال حدوث القدرة، والحركة تقع في الحال الثانية.

٢- وقال بعضهم: هو يقدر عليها في حال حدوث الاستطاعة، وهي لا تقع إلا في الحال

الحالة؛ لأنه لا بد من توسط الإرادة.

٣- وقال قوم: هو يقدر عليها في حال حدوث الاستطاعة ولم تقع إلا في الحال الرابعة؛ لأنه لا بد بعد حال الاستطاعة من حال الإرادة وحال التمثيل ثم توجد الحركة.

- واختلفت المعتزلة: هل الإنسان قادر على ما لا يخطر بباله، أم لا؟ على مقالتين:

١- فزعم إبراهيم النَّظَّام أن الإنسان لا يقدر على ما لا يخطر بباله.

٢- وقال سائر المعتزلة: الإنسان قادر على ما تصلح قدرته له، خطر بباله شيء من ذلك أم لم يخطر.

- واختلفت المعتزلة: هل يقال: إن الله سبحانه قوَّى الكافر على الكفر أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال أكثر المعتزلة: لا يجوز أن يقال: إن الله قوى أحدًا على الكفر وأقدره عليه.

٢- وقال عباد: إن الله قد قوى الكافر على الكفر وأقدره عليه.

- واختلفوا هل يجوز أن يألم ويحس ما لا قدرة فيه؟

فأنكر ذلك قوم، وأجازه آخرون.

- واختلفوا في الحيِّ: هل يجوز أن يكون حيًّا مع عدم قدرته؟

فأجاز ذلك بعضهم، وأنكره بعضهم.

- واختلفوا هل يجوز أن يكون القادر يعجز؟ على مقالتين:

١- فأنكر ذلك عَبَّاد، وقال: العاجز ميت.

٢- وقال أكثر المعتزلة: قد يكون الإنسان قادرًا على أشياء عاجزًا عن أشياء.

- واختلفت المعتزلة: هل تكون القدرة في الإنسان ولا يقال إنه قادر؟

فزعم عباد أنه حال المعاينة فيه قدرة، ولا يقال: إنه قادر.

وأنكر أكثر المعتزلة أن توجد قدرة لا بقادر.

- واختلفت المعتزلة في الممنوع: هل هو قادر أم لا؟ على أربعة أقاويل:

١- فقال قائلون: إذا مُنِعَ الإنسان من المشي بالقيد، ومن الخروج من البيت بغلق الباب؛ فهو قادر على ذلك مع المنع بالقيد وغلق الباب، فالمنع لا يضادُّ القدرة.

٢- وقال آخرون: القدرة فيه، ولكن لا نُسَمّيه قادرًا على ما مُنع منه.

٣- وقال قائلون: بل نقول: إنه قادر إذا حُلَّ وأُطْلِقَ.

٤- وقال جعفر بن حرب: الممنوع قادر، وليس يقدر على شيء، كما أن المُنْطَبِق جفنه بصير ولا يبصر.

- واختلفوا في الذي يقدر على حمل خمسين رطلًا، ولا يقدر على حمل مائة رطل، على مقالتين:

١- فقال قائلون: لا بد من أن يكون فيه عجز عن حمل الخمسين الفاضلة على ما يقدر على حمله.

٢- وقال قائلون: لا عجز فيه، وإنما عدم القوة على ذلك فقط.

- واختلفوا هل يجوز أن يقوى الإنسان على حمل جزأين بجزء من القوة أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: قد يقدر بجزء من القدرة أن يحمل جزأين وأكثر من جزأين.

٢- وقال قائلون: لا يقدر على حمل جزء إلا بجزء واحد من القوة، ولو جاز أن يقوى على جزأين بجزء من القوة لجاز أن يقوى على حمل السموات والأرضين بجزء من القوة، والقائل بهذا القول الجُبَّائِيُّ.

وزعم أن الإنسان يحمل جزأين من الأجزاء بجزأين من القوة، وأنه إذا حمل جزأين من الأجزاء بجزأين من القوة ففيه أربعة أجزاء من الحمل.

- واختلفت المعتزلة في العجز على ثلاث مقالات:

١- فقال الأصم: إنما هو العاجز، وليس له عجز غيره يعجز به.

٢- وقال أكثر المعتزلة: العجز غير العاجز.

٣- وقال عَبَّادٌ: العجز غير الإنسان، ولا أقول غير العاجز؛ لأن قولي عاجز خبر عن إنسان وعجز.

- واختلفوا هل العجز عجز عن شيء أم لا؟ على مقالتين:

١- فزعم عباد أن العجز لا يقال: إنه عجز عن شيء، وإن القوة لا تكون قوة لا على شيء.

٢- وقال أكثر المعتزلة: العجز عجز عن الفعل.

- واختلف الذين أثبتوا العجز عجزًا عن الفعل، هل هو عجز عنه في حاله، أو في حال ثانية؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فقال قائلون: إن الإنسان يعجز عن الفعل في الثاني، والعجز لا ينفي الفعل في حال حدوثه، بل قد يكون مجامعًا له وهو عجز عن غيره.

٢- وقال آخرون: العجز -وإن كان عجزًا عن الفعل في الثانية- فإن الفعل ينتفي في حال العجز، لا للعجز، ولكن للضرورة المجامعة له.

٣- وقال آخرون: العجز ينفي الفعل في حاله، ومحال وجود الفعل مع العجز.

وأجمع القائلون إن العجز عجز عن شيء من المعتزلة إن العجز يكون عجزًا عن أفعال كثيرة[1]

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٩، ٢٤٢).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: القَدَرِيَّة والمعتزلة والشيعة وغيرهم قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل، تكون صالحة للضدين: الفعل والترك، وأما حين الفعل فلا يكون إلا الفعل، فزعموا -و من زعم منهم- أنه حينئذ لا يكون قادرًا؛ لأن القادر لا بد أن يقدر على الفعل والترك، وحين الفعل لا يكون قادرًا على الترك فلا يكون قادرًا...

والصواب الذي عليه أئمة الفقه والسنة أن القدرة نوعان:

نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، فهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل: إما ببقائها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى، وهذه قد تصلح للضدين.

وأمر الله لعباده مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليست معه هذه الطاقة، وضد هذه العجز، وهذه المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: الآية ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: الآية ٤٢]، وقوله في الكفارة: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: الآية ٤] فإن هذا نفي لاستطاعة من لم يفعل، فلا يكون مع الفعل.

ومنه قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنبٍ» فإنما نفي استطاعة لا فعل معها.

وأيضًا فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون مما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يُعجز عنه، فالشارع ييسر على عباده، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليهم في الدين من حرج.

والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة مرضه وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان يسميه بعض الناس مستطيعًا.

فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإذا كان الفعل ممكنًا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر أن يحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائمًا مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك فإذا كان الشارع قد اعتبر في المُكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟!

ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن هذه، مثل جعل الفاعل مريدًا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة.

والاستطاعة المقارنة للفعل تدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليف، فإنه لا يشترط فيها الإرادة، والله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه...[١].

وقال: وقد بيَّنَّا أن القدرة التي هي شرط في الأمر تكون موجودة قبل الفعل في المطيع والعاصي، وتكون موجودة مع الأمر في المطيع، بخلاف المختصَّة بالمطيع؛ فإنها لا توجد إلا مع الفعل.

وقد بيَّنَّا أن من جعل القدرة نوعًا واحدًا؛ إما مقارنًا للفعل، وإما سابقًا عليه، فقد أخطأ. هذا إذا عُنِيَ بأحد النوعين مجموع ما يستلزم الفعل، كما هو اصطلاح كثير من النظار، وأما إذا لم يُرد بالقدرَة إلا المصحح فهي نوع واحد.

فإن للناس في القدرة -هل هي مع الفعل أو قبله؟- عدة أقوال:

أحدها: أنها لا تكون إلا مع الفعل، وهذا بناء على أنها المستلزمة للفعل، وتلك لا تكون إلا معه، وقد يَبْنُونَه على أن القدرة عَرَضٌ، والعَرَض لا يبقى زمانين.

والثاني: أنها لا تكون إلا قبله، بناءً على أنها المصحِّحة فقط، وأنها لا تكون مقارنة.

الثالث: أنها تكون قبله ومعه، وهذا أصح الأقوال.

ثم من هؤلاء من يقول: القدرة نوعان: مصحِّحة، ومستلزمة، فالمصحِّحة قبله، والمستلزمة معه.

ومنهم من يقول: بل القدرة هي المصحِّحة فقط، وهي تكون معه وقبله، وأما الاستلزام فإنما يحصل بوجود الإرادة مع القدرة لا بنفس ما يسمى قدرة، والإرادة ليست جزءًا من مسمَّى القدرة، وهذا القول هو الموافق للغة القرآنِ، بل ولغات سائر الأمم، هو أصحُّ الأقوال[٢].

وقال: الصواب الذي عليه محقِّقو المتكلمين، وأهل الفقه، والحديث، والتصوف، وغيرهم ما دل عليه القرآن، وهو أن «الاستطاعة» التي هي مناط الأمر والنهي وهي المصحِّحة للفعل لا يجب أن تقارن الفعل، وأما «الاستطاعة» التي يجب معها وجود الفعل فهي مقارنة له.

فالأولى: كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنبٍ»، ومعلوم أن الحجَّ والصلاة تجب على المستطيع سواء فعل، أو لم يفعل فعلم أن هذه الاستطاعةَ لا تجب أن تكون مع الفعل.

والثانية: كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هُود: الآية ٢٠]، وقوله

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٢- ٥٠).
(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٧٠- ٧٢).

تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝﴾، على قول من يفسر الاستطاعة بهذه، وأما على تفسير السلف والجمهور، فالمراد بعدم الاستطاعة مشقَّة ذلك عليهم وصعوبته على نفوسهم، فنفوسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه وهذه حال من صده هواه ورأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة، واتِّباعها: فقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك وهذه «الاستطاعة» هي المقارنة للفعل الموجبة له.

وأما الأولى فلولا وجودها لم يثبت التكليف بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف: الآية ٤٢] وأمثال ذلك؛ فهؤلاء المفرطون والمعتدون في أصول الدين إذا لم يستطيعوا سمع ما أُنْزِلَ إلى الرسول فهم من هذا القسم[(١)]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الأَشْعَرِيَّةِ في الاستطاعة.

- قولهم في الأمر بالفعل

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمع أكثر المعتزلة على أن الأمر بالفعل قبله، وأنه لا معنى للأمر به في حاله؛ لأنه موجود.

- واختلفوا هل يبقى الأمر إلى حال الفعل؟ على مقالتين:

١- فقال بعضهم: إنه يبقى إلى أجل الفعل، وإنه يكون في حال الفعل ولا يكون أمرًا به.

٢- وأحال بعضهم أن يبقى الأمر.

- واختلفوا هل يجوز أن يؤمر بالصلاة قبل دخول وقتها، أم لا؟ على مقالتين:

١- فأجاز ذلك بعضهم.

٢- وأنكره بعضهم.

- واختلفوا: هل يجوز أن يأمر الله سبحانه بالفعل في الوقت الثاني، وهو يعلم أنه يحول بين الإنسان وبين الفعل؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فقال بعضهم: يجوز أن يأمر الله بذلك، وإن كان يعلم أنه يحول بين العباد وبينه في الثاني؛ لأنه إنما يقول له: افعل إن لم نحل بينك وبين الفعل، ويجوز أن يقدر على الفعل في الثاني وأن كان يحال بينه وبينه في الثاني.

٢- وقال بعضهم: لن يجوز ذلك في الأمر ولا في القدرة.

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣١٩، ٣٢٠)، (٨/١٢٩، ١٣٠، ٤٧٩، ٤٨٠).

واختلفوا فيمن علم الله أنه لا يؤمن:

فقالت المعتزلة إلا عليًّا الإسْوَاريَّ: إنه مأمور بالإيمان قادر عليه.

وقال عليٌّ الإسْوَاريُّ: إذا قُرِن الإيمان إلى العلم بأنه لا يكون أحلْتُ القول بأن الإنسان مأمور به أو قادر عليه، وإذا أُفْرِدَ كل قول من صاحبه فقلت: هل أمر الله سبحانه الكافر بالإيمان وأقدره عليه ونهى المؤمن عن الكفر؟ قلت: نعم[١].

- قولهم في قدرة الله على ما علم أنه لا يكون

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في إن الله قادرٌ على ما علم أنه لا يكون، اختلفت المعتزلة في ذلك على أربعةِ أقاويلَ:

١- فقال أبو الهُذَيْل ومن اتَّبعه، وجعفر بن حرب ومن وافقه: الباريءُ قادرٌ على ما علم أنه لا يكون، وأخبر أنه لا يكون، ولو كان ما علم أنه لا يكون مما يكون كان عالمًا أنه يفعله لكان الخبر بأنه يكون سابقًا.

٢- وكان عليٌّ الإسْوَاريُّ يحيل أن يُقْرِن القول «إن الله يقدر على الشيء أن يفعله» بالقول «إنه عالم أنه لا يكون، وإنه قد أخبر أنه لا يكون» وإذا أفرد أحد القولين من الآخر كان الكلام صحيحًا، وقيل: إن الله سبحانه قادر على ذلك الشيء أن يفعله.

٣- وقال عَبَّادُ بن سليمانَ: ما علم أنه لا يكون لا أقول: إنه قادر على أن يكون، ولكن أقول: قادر عليه، كما أقول: الله عالم به، ولا أقول: إنه عالم بأنه يكون؛ لأن إخباري بأن الله قادر على أن يكون ما علم أنه لا يكون إخبار أنه يقدر، وأنه يكون، وكان إذا قيل له: فهل يفعل الله ما علم أنه لا يفعله؟ أحال القول.

٤- وكان الجُبَّائِيُّ إذا قيل له: لو فعل القديم ما علم أنه لا يكون وأخبر أنه لا يكون، كيف كان يكون العلم والخبرَ؟ أحال ذلك، وكان يقول مع هذا: إنه لو آمن من علم الله أنه لا يؤمن لأدخله الجنة، وكان يزعم أنه إذا وُصِل مقدور بمقدور صح الكلام، كقوله: لو آمن الإنسان لأدخله الله الجنة، وإنما الإيمان خير له: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعَام: الآية ٢٨] فالرد مقدور عليه فقال: لو كان الرد مقدورًا منهم، لكان عود مقدور.

وكان يزعم أنه إذا وُصِلَ محال بمحال صح الكلام، كقول القائل: لو كان الجسم متحركًا ساكنًا في حال لجاز أن يكون حيًّا ميتًا في حال، وما أشبه ذلك.

وكان يزعم أنه إذا وصل مقدور بما هو مستحيل استحال الكلام، كقول القائل: لو آمن من

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٣، ٢٤٤).

علم الله وأخبر أنه لا يؤمن كيف كان يكون العلم والخبر؟ وذلك أنه إن قال: كان لا يكون الخبر عن أنه يؤمن سابقًا بألا يكون. كان الخبر الذي قد كان بأنه لا يؤمن، وبألا يكون لم يزل عالمًا، استحال الكلام؛ لأنه يستحيل ألا يكون ما قد كان بألا يكون كان. ويستحيل ألا يكون البارئ عالمًا بما لم يزل عالمًا به، بألا يكون لم يزل عالمًا، وإن قال: كان يكون الخبر عن أنه لا يكون، والعلم بأنه لا يكون ثابتًا صحيحًا، وإن كان الشيء الذي علم وأخبر أنه لا يكون، استحال الكلام. وإن قال: كان الصدق ينقلب كذبًا، والعلم ينقلب جهلًا، استحال الكلام.

فلما كان المجيب على هذه الوجوه على أي وجه أجاب عن السؤال استحال كلامه؛ لم يكن الوجه في الجواب إلا نفس إحالة سؤال السائل[1]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور طوائف أهل الكلام على أن الله قادر على ما علم وأخبر أنه لا يكون، وعلى ما يمتنع صدوره عنه لعدم إرادته، لا لعدم قدرته عليه، وإنما خالف في ذلك طوائف من أهل الضلال من الجَهْمِيَّة والقَدَرِيَّة والمتفلسفة الصابئة الذين يزعمون انحصار المقدور في الموجود، ويحصرون قدرته فيما شاءه وعلم وجوده، دون ما أخبر أنه لا يكون كما رجحه النَّظَّام والإِسْوَارِيُّ وكما يقوله من يزعم: أنه ليس من المقدور غير هذا العالم، ولا في المقدور ما يمكن أن يهدى به الضال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ مع أنه سبحانه لا يسوي بنانه وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥]

وقد ثبت في الصحيح عن جابر أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] قال النبي ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] قال: «أعوذ بوجهك» ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] قال: «هاتان أهون». وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٣] [2]

وقال عن ابن تومرت: وقال أيضًا في قدرة الله تعالى: إنه قادر على ما يشاء، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعليٍّ الإِسْوَارِيِّ وغيره من المتكلمين الذين يقولون: إنه لا يقدر على غير ما فعل.

ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير، سواء شاءه أو لم يشأه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: الآية ٦٥]

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] ،

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٣- ٢٠٥)، (٥٥٨- ٥٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٢، ٢٩٣)، (٨/ ٤٩٩، ٥٠٠).

قال: «أعوذ بوجهك».

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥] قال: «هاتان أهون». قالوا: فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها ألا يسلط عليهم عدوًّا من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسنة عامة.

وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝﴾، فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هُود: الآية ١١٨] فالله تعالى قادر على ذلك، فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه[1].

- **قولهم في قدرة الله على ما أقدر عليه عباده**

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في البارئ، هل يوصف بالقدرة على ما أقدر عليه عباده أم لا؟ وهم فرقتان:

١- فزعم أكثرهم أن البارئ لا يوصف بالقدرة على ما أقدر عليه عباده، على وجه من الوجوه.

٢- وزعم بعضهم -وهو الشَّحَّام- أن الله يقدر على ما أقدر عليه عباده، وأن حركة واحدة تكون مقدورة لله وللإنسان، فإن فعلها الله كانت ضرورة، وإن فعلها الإنسان كانت كسبًا[2].

وقال: واختلف الناس أيضًا في القول: هل يقدر القديم على ما أَقْدَرَ عليه عباده أو لا يجوز ذلك؟

١- فقال إبراهيم وأبو الهُذَيْل وسائر المعتزلة والقَدَرِيَّة إلا الشَّحَّام: لا يُوصَفُ البارئ بالقدرة على شيء يُقْدِرُ عليه عبادَه، ومحال أن يكون مقدورٌ واحدٌ لقادرين.

٢- وقال الشَّحَّام: إن الله يَقْدر على ما أقدر عليه عبادَه، وأن حركةً واحدةً مقدورةً تكون مقدورة لقادرَيْنِ لله وللإنسان، فإن فَعَلَها القديمُ كانت اضطرارًا، وإن فعلها المحدَثُ كانت اكتسابًا، وإن كل واحد منهما يوصَفُ بالقدرة على أن يفعل وحده، لا على أن القديم يوصف بالقدرة على أن تكون الحركة فعلًا له وللإنسان، ولا يوصف الإنسان بالقدرة على أن تكون الحركة فعلًا له والقديم ولكن يوصف البارئ بأنه قادر أن يخلقها، ويوصَفُ الإنسان بأنه قادر أن يكتسبها.

٣- وقال أهل الحق والإثبات: لا مقدور إلا واللهُ سبحانه عليه قادر، كما أنه لا معلوم إلا والله به عالم، وما بين أن يكون مقدورٌ لا يوصفُ الله سبحانه بالقدرة عليه، وبين أن يكون

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٤٨٨، ٤٨٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٩).

معلومًا لا يعلمه فُرْقَان[١]

وقال: واختلفت المعتزلة: هل يوصف الله بالقدرة على جنس ما أقدر عليه عباده أم لا؟ وهم فرقتان.

١- فزعمت فرقة منهم أنه إذا أقدر عباده على حركة أو سكون أو فعل من الأفعال لم يوصف بالقدرة على ذلك، ولا على ما كان من جنس ذلك، وأن الحركات التي يقدر الباري عليها ليست من جنس الحركات التي أقدر عليها غيره من العباد.

٢- وزعمت فرقة أخرى منهم أن الله إذا أقدر عباده على حركة أو سكون أو فعل من الأفعال فهو قادر على ما هو من جنس ما أقدر عليه عباده، وهذا قول الجُبَّائِيِّ وطوائف من المعتزلة[٢]

وقال: واختلفت المعتزلة: هل يجوز أن يقدر الله سبحانه على جنس ما أقدر عليه عبادَه أو لا يوصف بالقدرة على ذلك؟

١- فقال البغداديون من المعتزلة: لا يوصف الباري بالقدرة على فعل عباده، ولا على شيء هو من جنس ما أقدرهم عليه، ولا يوصف بالقدرة على أن يخلق إيمانًا لعباده يكونون به مؤمنين، وكفرًا لهم يكونون به كافرين، وعصيانًا لهم يكونون به عاصين، وكسبًا يكونون به مكتسبين.

وجوَّزوا الوصف له بالقدرة على أن يخلق حركةً يكونون بها متحرِّكين، وإرادةً يكونون بها مريدين، وشهوةً يكونون بها مشتهين.

وزعموا أن الحركة التي يفعلها الله عز وجل مخالفة للحركة التي يفعلها الإنسان، وأن الإنسان لو أشبه فعلُه فعلَ الله لكان مشبهًا لله عز وجل.

ولم يصف كثير منهم الباري بالقدرة على أن يخلق معرفةً بنفسه يضطرّ عباده إليها.

٢- وقال محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائِيُّ وكثير من المعتزلة: إن الباري سبحانه قادر على ما هو من جنس ما أقدر عليه عبادَه من الحركاتِ والسكون وسائر ما أقدر عليه العبادَ، وإنه قادر على أن يضطرهم إلى ما هو من جنس ما أقدرهم عليه، وإلى المعرفة به سبحانه.

وكان لا يصف ربه بالقدرة على أن يخلق إيمانًا يكونون به مؤمنين، وكفرًا يكونون به كافرين، وعَدْلًا يكونون به عادلين، وكلامًا يكونون به متكلمين؛ لأن معنى متكلم أنه فَعَلَ الكلام عنده، وكذلك القول في سائر ما ذكرناه من العدل والجور عنده، وكذلك يُحِيلُ ذلك في كل شيء يوصَف به الإنسان، ومعنى ذلك أنه فاعل مما اشتقَّ له الاسم منه.

٣- وقال أبو الهُذَيْل: لا تشبِه أفعال الإنسان فعلَ الباري على وجهٍ من الوجوه، وكان لا يصف الأعراض بأنها تشتبه[٣]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٩، ٥٥٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٩، ٢٠٠).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٥٠، ٥٥١).

- قولهم في قدرة الله على الظلم

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في البارئ سبحانه: هل يوصف بالقدرة على الجور والظلم أم لا يوصف بالقدرة على ذلك؟ وهم فرقتان:

١- فزعم أكثر الزاعمين أن البارئ قادر على الظلم والجور أنه قادر على أن يظلم ويجور.

٢- وزعمت فرقة منهم -وهم أصحاب عباد بن سليمان- أن البارئ قادر على الظلم، والجور، ولا نقول: على أن يظلم، وهو قادر على الجور، ولا نقول: على أن يجور[1]

وقال: واختلفت المعتزلة في الجواب عمن سأل عن البارئ سبحانه لو فعل ما يقدر عليه من الظلم والجور، على سبعة أقاويل:

١- فقال أبو الهُذَيْل في جواب من سأله: إن فعل البارئ ما يقدر عليه من الجور والظلم كيف كان يكون الأمر؟ فقال: محال أن يفعل البارئ ذلك؛ لأن ذلك لا يكون إلا عن نقص، ولا يجوز النقص على البارئ.

٢- وقال أبو موسى المردار في الجواب عن ذلك: إطلاق هذا الكلام على البارئ عز وجل قبيح، لا يستحسن إطلاقه في رجل من المسلمين، فكيف يطلق في الله؟ فمنع أن يقال: لو فعل البارئ الظلم، لقُبْح ذلك لا لاستحالته.

وكان أبو موسى إذا جدد الكلام عليه قال: لو فعل الله الظلم لكان ظالمًا إلهًا ربًّا قادرًا، ولو ظلم مع وجود الدلائل على أنه لا يظلم لكان يدل بدلائل على أنه يظلم

٣- وكان بشر بن المعتمر يقول: إن الله يقدر أن يعذب الأطفال، فإذا قيل له: فلو عذب الطفل؟ قال: لو عذبه لكان يكون بالغًا كافرًا مستحقًّا للعذاب.

٤- وكان محمد بن شبيب يزعم أن الله يقدر أن يظلم، ولكن الظلم لا يكون إلا ممن به آفة، فعلمت أنه لا يكون من الله سبحانه، فلا معنى لقول من قال: لو فعله.

٥- وكان بعضهم يزعم أن الله يقدر أن يفعل العدل وخلافه، والصدق وخلافه، ولا يقول: يقدر أن يظلم ويكذب، قال صاحب هذا الجواب: إن قال قائل: هل معكم أمان من أن يفعله؟ قال: نعم هو ما أظهر من أدلته على أنه لا يفعله، فإذا قيل له: أفيقدر أن يفعله مع الدليل على أن لا يفعله؟ أجاب بأنه قادر على أن يفعله مع الدليل مفردًا من الدليل؛ لئلا يتوهم الدليل والظلم واقعا، وكذلك إذا قيل له: لو فعله مع الدليل على أنه لا يفعله وفعل الظلم، وزعم أن الظلم لو وقع لكانت العقول بحالها، وكانت الأشياء التي يستدل بها أهل العقول غير هذه الأشياء الدالة في

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٠).

يومنا هذا، وكانت تكون هي هي، ولكن على خلاف هيئاتها ونُظُمِها واتساقها التي هي اليوم عليه، وهذا قول جعفر بن حرب.

٦- وكان الإسكافي يقول: يقدر الله على الظلم، إلا أن الأجسام تدل بما فيها من العقول والنِّعَمِ التي أنعم بها على خلقه على أن الله لا يظلم، والعقول تدل بأنفسها على أن الله ليس بظالم، وليس يجوز أن يجامع الظلم ما دل لنفسه على أن الظلم لا يقع من الله.

وكان إذا قيل له: فلو وقع الظلم منه كيف كانت تكون القصة؟ قال: يقع والأجسام مُعَرَّاة من العقول التي دلت بأنفسها وأعينها على أن الله لا يظلم.

٧- وكان هشام الفُوَطِي وعباد بن سليمان إذا قيل لهما: لو فعل الله سبحانه الظلم، كيف كانت تكون القصة؟ أحالا هذا القول، وقالا: إن أراد القائل بقوله: «لو» الشك، فليس عندنا شك في أن الله لا يظلم، وأن أراد بقوله: «لو» النفي، فقد قال: إن الله لا يجوز ولا يظلم، فليس يسوغ أن يقال: لو ظلم البارئ جل جلاله[1].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأما المثبتون للقدر -وهم جمهور الأمة وأئمتها كالصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وأهل البيت، وغيرهم- فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته، والظلم الذي يجب تنزيهه عنه، وفي تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك.

فقالت طائفة: إن الظلم ممتنع منه غير مقدور، وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين، وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلمًا، وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون: إنه لو عذب المطيعين ونَعَّم العصاة لم يكن ظالمًا، وقالوا: الظلم التصرف فيما ليس له، والله تعالى له كل شيء، أو هو مخالفة الأمر، والله لا آمر له، وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر، ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة.

وقال طائفة: بل الظلم مقدور ممكن، والله تعالى منزَّه لا يفعله لعدله، ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئًا، والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع.

قالوا وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: الآية ١١٢] قالوا: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن يهضم حسناته.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم، بل أهلكهم بذنوبهم.

وقال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٩] فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزَّه عنه.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٠- ٢٠٣)، (٥٥٤- ٥٥٨).

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧]؛ أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها، فدل على أن ذلك ظلم يُنزَّه الله عنه.

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝﴾ وإنما نزَّه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه.

ومثل هذا في القرآن في غير موضع، مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل، وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم يُنزَّه اللهَ عنه، وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤] فإن ذلك ينزَّه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى يقول: «يا عبادي إني حرمت الظُّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» فقد حرم على نفسه الظلم، كما كتب على نفسه الرحمة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤].

وفي الحديث الصحيح: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرَّمه على نفسه لا يكون إلا مقدورًا له سبحانه، فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه، ولا يحرمه على نفسه.

وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر، من أهل الحديث والتفسير والفقه والكلام والتصوف، من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم[(١)].

- قولهم في قدرة الله وقدرة العبد

يزعمون أن الله يقدر على ما هو منفصل عنه فقط، والعبد يقدر على ما هو منفصل عنه وعلى ما يقوم بذاته.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وقيل: إن العبد يقدر على هذا وهذا -ما يقوم بذاته وما هو منفصل عنه-، والرب لا يقدر إلا على المنفصل وهو قول المعتزلة[(٢)].

وقال: فقيل: لا يكون مقدوره إلا بائنًا عنه؛ كما يقوله الجَهْمِيَّة والكلابية والمعتزلة[(٣)].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام:

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ١٣٤- ١٣٧)، (٢/ ٣٠٤- ٣١١)، (٥/ ٩٦، ٩٧)، مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠٥- ٥١١).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٣٧).

المسألة الثالثة: أنه على كل شيء قدير، فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأكثر المعتزلة يقولون: إن أفعال العبد غير مقدورة.

المسألة الرابعة: أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه، وقد نطقت النصوص بهذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس: الآية ٨١] ، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝﴾[القِيَامَة: الآية ٤٠] ، ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝﴾[القِيَامَة: الآية ٤] ونظائره كثيرة.

والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾[الحِجر: الآية ٢٦] ، ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝﴾[البَلَد: الآية ٥] ، وجاءت منصوصًا عليها في الكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝﴾[الزّخرُف: الآية ٤١] فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم، وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[ق: الآية ٤٥] ، و﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝﴾[الغَاشِيَة: الآية ٢٢] ونحو ذلك. وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر، وذلك يستلزم قدرته عليهم، وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبيَاء: الآية ٨٧] على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة -دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله، وكذلك قول الموصي لأهله: «لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين» فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال له: «ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب، فغفر له» وهو كان مخطئًا في قوله: لئن قدر الله علي ليعذبني، كما يدل عليه الحديث، وإن الله قدر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه.

وقد يستدل بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝﴾ [المُرسَلات: الآية ٢٠] إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[المُرسَلات: الآية ٢٣] على قول من جعله من القدرة، فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرًا أيضًا على خلقه، فالقدرة على خلقه قدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على خلقه، وجاء أيضًا الحديث منصوصًا في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده: «الله أقدر عليك منك على هذا». فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد، وأنه أقدر عليه منه على عبده، وفيه إثبات قدرة العبد.

قد تنازع الناس في «قدرة الرب والعبد» فقالت طائفة: كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل، ويتناول مقدوره وهذا أصح الأقوال، وبه نطق الكتاب والسنة، وهو أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر ومقدوره المباين له[(١)]

وقال: المسألة الخامسة: أن القدرة هي قدرته على الفعل، والفعل نوعان: لازم، ومتعد، والنوعان في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الحَديد: الآية

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١١، ١٢).

٤] فالاستواء والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعال لازمة، لا تتعدى إلى مفعول؛ بل هي قائمة بالفاعل، والخلق والرزق والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع، والهدى والنصر، والتنزيل ونحو ذلك، تتعدى إلى مفعول.

والناس في هذين النوعين على ثلاثة أقوال:

منهم من لا يثبت فعلًا قائمًا بالفاعل، لا لازمًا ولا متعديًا أما اللازم فهو عنده منتف، وأما المتعدي: كالخلق، فيقول: الخلق هو المخلوق، أو معنى غير المخلوق، وهذا قول الجَهْمِيَّة والمعتزلة، ومن اتبعهم كالأشعري ومتبعيه، وهذا أول قولي القاضي أبي يعلى، وقول ابن عقيل.

وكثير من المعتزلة يقولون: الخلق هو المخلوق، وآخرون يقولون: هو غيره، لكن يقولون: بأن الخلق له خلق آخر، كما يقوله معمر بن عباد؛ ويسمون أصحاب المعاني المتسلسلة.

ومنهم من يقول: الخلق هو نفس الإرادة، كما يقوله من يقوله من بعض المعتزلة من أهل البصرة.

والقول الثاني: أن الفعل المتعدي قائم بنفسه دون اللازم فيقولون: الخلق قائم بنفسه ليس هو المخلوق. وهم على قولين:

منهم من جعل ذلك الفعل حادثًا، ومنهم من يجعله قديمًا فيقول التخليق والتكوين قديم أزلي.

وهؤلاء منهم من يجعل عين التخليق شيئًا واحدًا هو قديم، والمخلوقين مادته؛ ولكنه قديم أزلي، ولا يثبتون نزولًا قائمًا بنفسه، ولا استواء؛ لأن هذه حوادث وهذا قول الكلابية الذين يقولون: فعله قديم مثل كلامه، كما قال أصحاب ابن خزيمة، وهو قول كثير من الحنفية والحنبلية والمالكية والشافعية، ومنهم من يجعل القديم هو النوع وأفراده حادثة، فعلى هذا القول يكون الفعل نفسه مقدورًا، وأما على قول من يجعله شيئًا معينًا فهؤلاء إن قالوا قديم تناقضوا ولزمهم أن يكون القديم المعين مقدورًا، وإن قالوا هو غير مقدور، تناقضوا؛ لأن الفعل يجب أن يكون مقدورًا والله أعلم.

والقول الثالث: إثبات الفعلين: اللازم والمعتدي كما دل عليه القرآن، فنقول: إنه كما أخبر عن نفسه: أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وهو قول السلف وأئمة السنة، وهو قول من يقول: إنه تقوم به الصفات الاختيارية -كأصحاب أبي معاذ وزهير البابي وداود بن علي؛ والكَرَّامِيَّة وغيرهم من الطوائف، وإن كانت الكَرَّامِيَّة يقولون بأن النزول والإتيان أفعال تقوم به- وهؤلاء يقولون: يقدر على أن يأتي ويجيء وينزل ويستوي، ونحو ذلك من الأفعال، كما أخبر عن نفسه، وهذا هو الكمال.

وقد صرح أئمة هذا القول بأنه يتحرك كما ذكر ذلك حرب الكرماني عن أهل السنة والجماعة، وسمى منهم: أحمد بن حنبل، وسعيد بن منصور، وإسحاق بن إبراهيم، وغيرهم. وكذلك ذكره عثمان بن سعيد الدارمي عن أهل السنة، وجعل نفي الحركة عن الله عز وجل من أقوال الجَهْمِيَّة

التي أنكرها السلف، وقال: كل حي متحرك وما لا يتحرك فليس بحي، وقال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: أنا كافر برب يتحرك. فقل: أنا مؤمن برب يفعل ما يشاء.

وهؤلاء يقولون: من جعل هذه الأفعال غير ممكنة ولا مقدورة له فقد جعله دون الجماد، فإن الجماد وإن كان لا يتحرك بنفسه فهو يقبل الحركة في الجملة. وهؤلاء يقولون: إنه تعالى لا يقبل ذلك بوجه ولا تمكنه الحركة، والحركة والفعل صفة كمال، كالعلم والقدرة والإرادة، فالذين ينفون تلك الصفات سلبوه صفات الكمال؛ فكذلك هؤلاء الكلابية.

وأولئك نفاة الصفات إذا قيل لهم: لو لم يكن حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا للزم أن يكون ميتًا، جاهلًا، أصمَّ، أعمى، أخرسَ، وهذه نقائص يجب تنزيه عنها؛ فإنه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم، قادر متحرك؛ فهو أولى بأن يكون كذلك؛ فإنَّ كلَّ كمالٍ في المخلوق المعلول فهو من كمال الخالق الذي يسمونه علة فاعلية.

وأيضًا فالقديم الواجب بنفسه أكمل من المحدث فيمتنع أن يختص الناقص بالكمال[1]

- قولهم في الحكمة والتعليل

حكمة الله في خلقه وأمره عند أكثرهم هي منفعتهم، من غير أن يعود إليه من ذلك حكم.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل خلق الله سبحانه الخَلْقَ لعلة، أم لا؟ على أربعة أقاويل:

١- فقال أبو الهُذَيْل: خلق الله عز وجل خلقه لعلة، والعلة هي الخلق، والخلق هو الإرادة والقول، وإنه إنما خلق الخلق لمنفعتهم، ولولا ذلك كان لا وجه لخلقهم؛ لأن من خلق ما لا ينتفع به ولا يزيل بخلقه عنه ضررًا، ولا ينتفع به غيره، ولا يضر به غيره، فهو عابث.

٢- وقال النَّظَّام: خلق الله الخلق لعلة تكون، وهي المنفعة، والعلة هي الغرض في خلقه لهم وما أراد من منفعتهم، ولم يثبت علة معه لها كان مخلوقًا كما قال أبو الهُذَيْل، بل قال: هي علة تكون وهي الغرض.

٣- وقال معمر: خلق الله الخلق لعلة، والعلة لعلة، وليس للعلل غاية ولا كلٌّ.

٤- وقال عباد: خلق الله سبحانه الخلق لا لعلة[2]

وقال: وأجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه خلق عباده لينفعهم، لا ليضرهم، وأن ما كان من الخلق غير مكلف فإنما خلقه لينتفع به المكلف ممن خلق، وليكون عبرة لمن يخلقه ودليلًا.

واختلفوا في خلق الشيء لا ليعتبر به، على مقالتين:

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٨- ٢٢)، (٦/٢٣٧، ٢٣٨).

(٢) مقالات الإسلامين ص(٢٥٢، ٢٥٣).

١- فقال أكثرهم: لن يجوز أن يخلق الله سبحانه الأشياء إلا ليعتبر بها العباد وينتفعوا بها، ولا يجوز أن يخلق شيئًا لا يراه أحد ولا يحس به أحد من المكلفين.

٢- وقال بعضهم ممن ذهب إلى أن الله عز وجل لم يأمر بالمعرفة: إن جميع ما خلقه الله فلم يخلقه ليعتبر به أحد ويستدل به أحد، وهذا قول ثمامة بن أشرس فيما أظن(١)

وقال الإيجي عما يجمعهم: ويجب عليه رعاية الحكمة في أفعاله، وثواب المطيع والتائب، وعقاب صاحب الكبيرة(٢)

وقال شيخ الإسلام: إنه يخلق ويأمر لحكمة تعود إلى العباد، وهو نفعهم والإحسان إليهم؛ فلم يخلق، ولم يأمر إلا لذلك، وهذا قول المعتزلة وغيرهم(٣)

وقال: من قال: إن الحكمة المطلوبة مخلوقة منفصلة عنه أيضًا؛ كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم، وقالوا: الحكمة في ذلك إحسانه إلى الخلق، والحكمة في الأمر تعويض المكلفين بالثواب، وقالوا: إن فعل الإحسان إلى الغير حسن محمود في العقل؛ فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود إليه من ذلك حكم؛ ولا قام به فعل ولا نعت(٤)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: فقال لهم الناس: أنتم متناقضون في هذا القول؛ لأن الإحسان إلى الغير محمود لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله، إما لتكميل نفسه بذلك، وإما لقصده الحمد والثواب بذلك، وإما لرقة وألم يجده في نفسه يدفع بالإحسان ذلك الألم، وإما للتذاذه وسروره وفرحه بالإحسان؛ فإن النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها إلى غيرها، فالإحسان إلى الغير محمود، لكون المحسن يعود إليه من فعله هذه الأمور حكم يحمد لأجله، أما إذا قدر أن وجود الإحسان وعدمه بالنسبة إلى الفاعل سواء لم يعلم أن مثل هذا الفعل يحسن منه بل مثل هذا يعد عبثًا في عقول العقلاء، وكل من فعل فعلًا ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عابثًا ولم يكن محمودًا على هذا، وأنتم عللتم أفعاله فرارًا من العبث فوقعتم؛ في العبث فإن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل، ولهذا لم يأمر الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أحد من العقلاء أحدًا بالإحسان إلى غيره ونفعه ونحو ذلك إلا لما له في ذلك من المنفعة والمصلحة، وإلا فأمر الفاعل بفعل لا يعود إليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لا في العاجل ولا في الآجل لا يستحسن من الآمر...

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥١).

(٢) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٨٩، ٣٧٧).

وأما سائر الطوائف الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء وأهل الحديث والصُّوفِيَّة وأهل الكلام كالكَرَّامِيَّة وغيرهم والمتفلسفة أيضًا فلا يوافقونهم على هذا؛ بل يقولون: إنه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وقد يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك، الأمور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة، كإرسال محمد ﷺ؛ فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] فإن إرساله كان من أعظم النعمة على الخلق وفيه أعظم حكمة للخالق ورحمة منه لعباده كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٤] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعَام: الآية ٥٣] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: الآية ٢٨] قالوا هو محمد ﷺ[1].

وقال: كل ما خلقه الله فله فيه حكمة كما قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النَّمل: الآية ٨٨] وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السَّجدَة: الآية ٧] وهو سبحانه غني عن العالمين، فالحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها.

والثاني: إلى عباده هي نعمة عليهم يفرحون بها ويلتذون بها، وهذا في المأمورات وفي المخلوقات.

أما في المأمورات فإن الطاعة هو يحبها ويرضاها، ويفرح بتوبة التائب أعظم فرح يعرفه الناس؛ فهو يفرح أعظم مما يفرح الفاقد لزاده وراحلته في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد اليأس؛ كما أنه يغار أعظم من غيرة العباد وغيرته أن يأتي العبد ما حرم عليه، فهو يغار إذا فعل العبد ما نهاه ويفرح إذا تاب ورجع إلى ما أمره به، والطاعة عاقبتها سعادة الدنيا والآخرة، وذلك مما يفرح به العبد المطيع؛ فكان فيما أمر به من الطاعات عاقبته حميدة تعود إليه وإلى عباده ففيها حكمة له ورحمة لعباده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

ففي الجهاد عاقبة محمودة للناس في الدنيا يحبونها: وهي النصر والفتح، وفي الآخرة الجنة، وفيه

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٨٩- ٩٣).

النجاة من النار، وقد قال في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝﴾ [الصَّف: الآية ٤] فهو يحب ذلك؛ ففيه حكمة عائدة إلى الله تعالى وفيه رحمة للعباد؛ وهي ما يصل إليهم من النعمة في الدنيا والآخرة، هكذا سائر ما أمر به، وكذلك ما خلقه خلقه لحكمة تعود إليه يحبها، وخلقه لرحمة بالعباد ينتفعون بها.

والناس لما تكلموا في «علة الخلق وحكمته» تكلم كل قوم بحسب علمهم فأصابوا وجهًا من الحق، وخفي عليهم وجوه أخرى[(١)].

وقال: قول الأئمة وهو أن له حكمة في كل ما خلق؛ بل له في ذلك حكمة ورحمة[(٢)].

وسيأتي مزيد بيان عند قول الجَهْمِيَّة والأشْعَرِيَّةِ في الحكمة والتعليل.

- قولهم في اللطف

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في اللطف على أربعة أقاويل:

١- فقال بشر بن المعتمر ومن قال بقوله: عند الله سبحانه لُطْفٌ لو فعله بمن يعلم أنه لا يؤمن لآمن، وليس يجب على الله سبحانه فعل ذلك، ولو فعل الله سبحانه ذلك اللطف فآمنوا عنده لكانوا يستحقون من الثواب على الإيمان الذي يفعلونه عند وجوده ما يستحقونه لو فعلوه مع عدمه، وليس على الله سبحانه أن يفعل بعباده أصلح الأشياء؛ بل ذلك محال؛ لأنه لا غاية ولا نهاية لما يقدر عليه من الصلاح، وإنما عليه أن يفعل بهم ما هو أصلح لهم في دينهم، وأن يزيح عللهم فيما يحتاجون إليه لأداء ما كلفهم، وما تيسر عليهم مع وجوده العمل بما أمرهم به، وقد فعل ذلك بهم، وقطع منهم.

٢- وكان جعفر بن حرب يقول: إن عند الله لطفًا لو آتى به الكافرين لآمنوا اختيارًا إيمانًا لا يستحقون عليه من الثواب ما يستحقونه مع عدم اللطف إذا آمنوا، والأصلح لهم ما فعل الله بهم؛ لأن الله لا يعرض عباده إلا لأعلى المنازل وأشرفها، وأفضل الثواب وأكثره.

وذُكِرَ عنه أنه رجع عن هذا القول إلى قول أكثر أصحابه.

٣- وقال جمهور المعتزلة: ليس في مقدور الله سبحانه لطف لو فعله بمن علم أنه لا يؤمن آمن عنده، وأنه لا لطف عنده لو فعله بهم لآمنوا، فيقال: يقدر على ذلك ولا يقدر عليه، وأنه لا يفعل بالعباد كلهم إلا ما هو أصلح لهم في دينهم، وأدعى لهم إلى العمل بما أمرهم به، وأنه لا يدخر عنهم شيئًا يعلم أنهم يحتاجون إليه في أداء ما كلفهم أداءه إذا فُعِلَ بهم أتوا بالطاعة التي يستحقون عليها ثوابه الذي وعدهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥- ٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٨، ٣٧٧- ٣٨١).

وقالوا في الجواب عن مسألة من سألهم «هل يقدر الله سبحانه أن يفعل بعباده أصلح مما فعله بهم؟»: إن أردت أنه يقدر على أمثال الذي هو أصلح، فالله يقدر على أمثاله، على ما لا غاية له ولا نهاية، وإن أردت يقدر على شيء أصلح من هذا: أي يفوقه في الصلاح قد ادخره عن عباده، فلم يفعله بهم، مع علمه بحاجتهم إليه في أداء ما كلفهم، فإن أصلح الأشياء هو الغاية، ولا شيء يتوهم وراء الغاية فيقدر عليه أو يعجز عنه.

٤- وقال محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائِيُّ: لا لطف عند الله سبحانه يوصف بالقدرة على أن يفعله بمن علم أنه لا يؤمن فيؤمن عنده، وقد فعل الله بعباده ما هو أصلح لهم في دينهم، ولو كان في معلومه شيء يؤمنون عنده أو يصلحون به ثم لم يفعله بهم لكان مريدًا لفسادهم، غير أنه يقدر أن يفعل بالعباد ما لو فعله بهم ازدادوا طاعة فيزيدهم ثوابًا، وليس فعل ذلك واجبًا عليه، ولا إذا تركه كان عابثًا في الاستدعاء لهم إلى الإيمان[١]

- قولهم في الصلاح والأصلح

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في الصلاح الذي يقدر الله عليه، هل له كلٌّ أم لا كلَّ له؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فقال أبو الهُذَيْلِ: لما يقدر الله عليه من الصلاح والخير كل وجميع، وكذلك سائر مقدوراته لها كلٌّ، ولا صلاح أصلح مما فعل.

٢- وقال غيره: لا غاية لما يقدر الله عليه من الصلاح، ولا كل لذلك، وقالوا: إن الله يقدر على صلاح لم يفعله، إلا أنه مثلُ ما فعله.

٣- وقال قائلون: كل ما يفعله يجوز، ولا يجوز أن يكون صلاح لا يفعله، وهذا قول عباد.

وقال قائلون: فيما يقدر الله أن يفعله بعباده شيء أصلح من شيء، وقد يجوز أن يترك فعلًا هو صلاح إلى فعلٍ آخر وهو صلاح يقوم مقامه[٢]

وقال شيخ الإسلام: وهؤلاء المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه أن يفعل بكل عبد ما هو الأصلح له في دينه، وتنازعوا في وجوب الأصلح في دنياه، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل، ولا يقدر أن يهدي ضالًا ولا يضل مهتديًا[٣]

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٦- ٢٤٨)، (٥٧٣، ٥٧٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٩، ٢٥٠)، (٥٧٤- ٥٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٩٢).

- قولهم في إماتة مَن علم الله أنه يؤمن أو يزداد إيمانًا

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة فيمن علم الله أنه يؤمن من الأطفال والكفار، أو يتوب من الفساق، هل يجوز أن يميته قبل ذلك؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: لا يجوز ذلك، بل واجب في حكمة الله ألا يميتهم حتى يؤمنوا أو يتوبوا.

٢- وأجاز بشر بن المعتمر وغيره أن يميتهم قبل أن يؤمنوا أو يتوبوا.

- واختلفوا فيمن علم الله سبحانه أنه يزداد إيمانًا، هل يجوز أن يخترمه؟ على مقالتين:

١- فقال قوم من أصحاب الأصلح: لا يجوز ذلك، وقالوا في النبي ﷺ: إن الله امتحنه قبل موته بما بلغ ثوابه على طاعته إياه قبلُ مبلغ ثوابه على طاعاته إياه لو أبقاه إلى يوم القيامة، وجعل في هذه المحنة إعلامه أنه يموت في الوقت الذي مات فيه.

٢- وقال قوم منهم: إن ذلك جائز[(١)]

- قولهم في لعن الله الكفار في الدنيا

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في لعن الله الكفار في الدنيا، على مقالتين:

١- فقال أكثرهم: ذلك عدل وحكمة وصلاح للكفار؛ لأن فيه زجرًا لهم عن المعصية، وغلوًّا في ذلك، حتى زعموا أن عذاب جهنم في الآخرة نظر للكافرين في الدنيا ورحمة لهم، بمعنى أن ذلك نظر لهم إذ كان قد زجرهم بكون ذلك في الآخرة عن معاصيه في الدنيا، واستدعاء لهم إلى طاعته، وهذا قول الإسكافي.

٢- وقال قائلون منهم: ذلك عدل وحكمة، ولا نقول: هو خير وصلاح ونعمة ورحمة[(٢)]

- قولهم في التحسين والتقبيح

يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وقال أهل العدل: المعارف كلها معقولة بالعقل، واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع، والحسن والقبح صفتان ذاتيّتان للحَسَن والقبيح[(٣)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٠، ٢٥١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٩).

(٣) الملل والنحل (١/ ٤١).

وقال: واتفقوا عَلَىٰ أن أصول المعرفة، وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك[١]

قال الإيجي عما يجمعهم: والحسن والقبح عقليان[٢]

وقال شيخ الإسلام: وقسم بنوا عليها -أي العقليات القياسية- الأصول العلمية، والعملية، كالمعتزلة، حتى إن هؤلاء يأخذون القدر المشترك في الأفعال بين الله وبين عباده، فما حسن من الله حسن من العبد، وما قبح من العبد قبح من الله؛ ولهذا سماهم الناس مشبهة الأفعال[٣]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: الناس في «مسألة التحسين والتقبيح» على ثلاثة أقوال، طرفان، ووسط:

الطرف الواحد: قول من يقول بالحسن والقبح، ويجعل ذلك صفات ذاتية للفعل لازمة له، ولا يجعل الشرع إلا كاشفًا عن تلك الصفات، لا سببًا لشيء من الصفات، فهذا قول المعتزلة - وهو ضعيف- وإذا ضم إلى ذلك قياس الرب على خلقه، فقيل: ما حسن من المخلوق حسن من الخالق، وما قبح من المخلوق قبح من الخالق، ترتب على ذلك أقوال القَدَرِيَّة الباطلة، وما ذكروه في التجويز والتعديل، وهم مشبهة الأفعال، يشبهون الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الأفعال، وهذا قول باطل، كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الصفات باطل.

فاليهود وصفوا الله بالنقائص التي يتنزه عنها، فشبهوه بالمخلوق: كما وصفوه بالفقر والبخل، واللغوب، وهذا باطل؛ فإن الرب تعالى منزه عن كل نقص، وموصوف بالكمال الذي لا نقص فيه، وهو منزه في صفات الكمال أن يماثل شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين، فليس له كفؤًا أحد في شيء من صفاته، لا في علمه ولا قدرته ولا إرادته ولا رضاه ولا غضبه، ولا خلقه ولا استوائه، ولا إتيانه ولا نزوله، ولا غير ذلك مما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، بل مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما أثبته لنفسه من الصفات، ولا يمثلون صفاته بصفات المخلوقين؛ فالنافي معطل، والمعطل يعبد عدمًا، والمشبه ممثل، والممثل يعبد صنمًا.

ومذهب السلف إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] وهذا رد على الممثلة. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] رد على المعطلة. وأفعال الله لا تمثل بأفعال المخلوقين؛ فإن المخلوقين عبيده، يظلمون ويأتون الفواحش، وهو قادر على منعهم ولو لم يمنعهم؛ لكان ذلك قبيحًا منه وكان مذمومًا على ذلك.

---

(١) الملل والنحل (١/ ٤٤).

(٢) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٨).

والرب تعالى لا يقبح ذلك منه، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وهذا على قول السلف والفقهاء والجمهور الذين يثبتون الحكمة في خلق الله وأمره.

ومن قال: إنه لا يخلق شيئًا بحكمة، ولا يأمر بشيء بحكمة، فإنه لا يثبت إلا محض الإرادة التي ترجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح، كما هو أصل ابن كلاب، ومن تابعه، وهو أصل قولي القَدَرِيَّة والجَهْمِيَّة.

وأما الطرف الآخر في «مسألة التحسين والتقبيح»: فهو قول من يقول: إن الأفعال لم تشتمل على صفات هي أحكام، ولا على صفات هي علل للأحكام بل القادر أمر بأحد المتماثلين دون الآخر، لمحض الإرادة، لا لحكمة ولا لرعاية مصلحة في الخلق والأمر.

ويقولون: إنه يجوز أن يأمر الله بالشرك بالله، وينهى عن عبادته وحده، ويجوز أن يأمر بالظلم والفواحش، وينهى عن البر والتقوى، والأحكام التي توصف بها الأحكام مجرد نسبة وإضافة فقط، وليس المعروف في نفسه معروفًا عندهم، ولا المنكر في نفسه منكرًا عندهم، بل إذا قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] فحقيقة ذلك عندهم أنه يأمرهم بما يأمرهم، وينهاهم عما ينهاهم، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، بل الأمر والنهي والتحليل والتحريم ليس في نفس الأمر عندهم لا معروف ولا منكر ولا طيب ولا خبيث، إلا أن يعبر عن ذلك بما يلائم الطباع، وذلك لا يقتضي عندهم كون الرب يحب المعروف ويبغض المنكر.

فهذا القول ولوازمه هو أيضًا قول ضعيف مخالف للكتاب والسنة، ولإجماع السلف والفقهاء، مع مخالفته أيضًا للمعقول الصريح؛ فإن الله نزه نفسه عن الفحشاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] كما نزه نفسه عن التسوية بين الخير والشر فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: الآية ٢١]، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨]

وعلى قول النفاة: لا فرق في التسوية بين هؤلاء وهؤلاء، وبين تفضيل بعضهم على بعض، ليس تنزيهه عن أحدهما بأولى من تنزيهه عن الآخر، وهذا خلاف المنصوص والمعقول. وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤] وعندهم تعلق الإرسال بالرسول كتعليق الخطاب بالأفعال لا يستلزم ثبوت صفة لا قبل التعلق ولا بعده. والفقهاء وجمهور المسلمين يقولون: الله حرم المحرمات فحرمت، وأوجب الواجبات فوجبت، فمعنا شيئان: إيجاب وتحريم، وذلك كلام الله وخطابه، والثاني: وجوب وحرمة وذلك صفة للفعل، والله تعالى عليم حكيم، علم بما تتضمنه الأحكام من المصالح، فأمر ونهى، لعلمه بما في الأمر والنهي والمأمور والمحظور من مصالح العباد ومفاسدهم، وهو أثبت حكم الفعل، وأما صفته فقد

تكون ثابتة بدون الخطاب.

وقد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يكون الفعل مشتملًا على مصلحة أو مفسدة، ولو لم يرد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل على فسادهم، فهذا النوع هو حسن وقبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن، لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقبًا في الآخرة، إذا لم يرد شرع بذلك، وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح؛ فإنهم قالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة، ولو لم يبعث إليهم رسولًا، وهذا خلاف النص قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: الآية ٥٩]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين» والنصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة، ترد على من قال من أهل التحسين والتقبيح: إن الخلق يعذبون في الأرض بدون رسول أرسل إليهم.

النوع الثاني: أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسنًا، وإذا نهى عن شيء صار قبيحًا، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

والنوع الثالث: أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد، هل يطيعه أم يعصيه؟ ولا يكون المراد فعل المأمور به، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه، فلما أسلما وتله للجبين حصل المقصود ففداه بالذبح، وكذلك حديث أبرص وأقرع وأعمى، لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة، فلما أجاب الأعمى قال الملك: أمسك عليك مالك، فإنما ابتليتم، فرضي عنك، وسخط على صاحبيك.

فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به، وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه المعتزلة؛ وزعمت أن الحسن والقبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك، بدون أمر الشارع، والأشعَرِيَّة ادعوا: أن جميع الشريعة من قسم الامتحان، وأن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع؛ وأما الحكماء والجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة، وهو الصواب[١]

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣١- ٤٣٦)، (٣/ ١١٥، ١١٦)، (٨/ ٩٠- ٩٢).

وسيأتي مزيد بيان عند قول الأَشْعَرِيَّة في التحسين والتقبيح.

- قولهم في حقِّ المخلوقِ على الخالقِ والثَّواب والتفضل

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في نعيم الجنة: هل هو تفضل أو ثواب؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: كل ما في الجنة ثواب ليس بتفضل.

٢- وقال بعضهم: بل ما فيها تفضل ليس بثواب[(١)]

وقال الإسفراييني: ومما اتفقوا عليه من فضائحهم قولهم: إن كثيرًا من الأشياء تجب على العبد من غير أن يكون من أمر الله تعالى فيه أمر؛ مثل: النظر، والاستدلال، وشكر المنعم، وترك الكفر والكفران، ثم يقولون: إن هذا العبد إذا أتى بهذه الأشياء على قضية عقله دون أمر ربه سبحانه وجب على الله تعالى أن يثيبه من غير أن يكون من قبله فيه: أمر، أو خبر، أو وعد، أو وعيد، أو تكليف، ثم إذا أتى به وجب على العبد شكره، فإذا شكره وجب على الله ثوابه، وهكذا يدور الأمر بين العبد والرب، وهذا يوجب ألا يتمكن الرب -على قولهم- من أن يخرج الرب من واجبات العبد. تعالى الله عن قولهم. من غير أن يكون عليه تكليف، أو شريعة مرتبة عليه، وعلى قياس هذا يكون كل واحد منهما مؤديًا للواجب، ولا يكون لأحدهما فضل على الآخر، وزادوا على هذا فقالوا: إذا خلق الله شيئًا من الجماد وجب عليه أن يخلق حيًا، وأن يتم عقله حتى يستدل ويعتبر ويستحق الثواب بأداء المستحق، ومن قضى واجبًا لم يستحق عليه شيئًا كمن يقضي دينًا لم يستحق على صاحبه فضلًا على هذا، فقالوا: إن كل ما يناله العبد من ربه من النعم فإنما يناله باستحقاق منه، لا بفضل من الله تعالى، فاستنكفوا من أن يروا لله تعالى فضلًا على أنفسهم، وقالوا: إن أسنى المنازل منزلة الاستحقاق[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: من الناس من يقول: للمخلوق على الخالق حقٌّ يعلم بالعقل، وقاس المخلوق على الخالق، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم[(٣)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: بل كتب الله على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه حقًّا لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرَّم على نفسه الظلم كما قال في الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي، إني حرَّمت الظُّلْمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا»، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٦).

(٢) التبصير في الدين ص(٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢١٣).

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤] ، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧]

وفي الصحيحين عن معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على عبادِه؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّهم عليه ألا يعذبهم...».

وذلك أن النفوسَ الجاهليةَ تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه: ألم أفعل كذا؟ يمن عليه بما يفعله معه، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه.

وتخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه، ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غني عن الخلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: الآية ٧] ، وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٦] ، وقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُمَر: الآية ٧] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٤٠] ، وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٦] ، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧]

وقد بين سبحانه أنه المانُّ بالعمل فقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[الحُجرَات: الآية ١٧] ، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني؛ يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذّنوب جميعًا ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي

إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر».

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة.

منها أن الرب تعالى غني بنفسه عما سواه، ويمتنع أن يكون مفتقرًا إلى غيره بوجه من الوجوه. والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية.

ومنها أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذي يخلق ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته. وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن الله هو المنعم على عباده بالإيمان، بخلاف القَدَرِيَّة. والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره.

ومنها أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال قتادة: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلًا عليهم؛ بل أمرهم بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم. بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلًا عليه. وهذا أيضًا ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون: إنه لم يأمر العباد إلا بخير ينفعهم، ولم ينههم إلا عن شر يضرهم؛ بخلاف المجبرة الذين يقولون: إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم.

ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده، فلا حول ولا قوة إلا به. ولهذا قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٣] وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك.

ومنها أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى. فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها. فكيف والعبادة من نعمته أيضًا.

ومنها أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته، فلن يدخل أحد الجنة بعمله، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله لها: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٥] وقوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» لا يناقض قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧]

فإن المنفي نفى بباء المقابلة والمعاوضة كما يقال بعت هذا بهذا، وما أثبت أثبت بباء السبب، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سببًا للجزاء، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه، وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وروي: «بمغفرته». ومن هذا أيضا الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا

عن أعمالهم». الحديث.

ومن قال: بل للمخلوق على الله حق؛ فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته[(١)]

- قولهم في حكم الأطفال في الآخرة

يرون عدم جواز تعذيب الأطفال وإيلامهم في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلة على أنه لا يجوز أن يؤلم الله سبحانه الأطفال في الآخرة ولا يجوز أن يعذبهم[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في حكم الأطفال في الآخرة.

- قولهم في ألم الأطفال في الدنيا وعوضهم

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في إيلام الأطفال، على ثلاثة أقاويل:

١- فقال قائلون: الله يؤلمهم لا لعلة، ولم يقولوا: إنه يعوضهم من إيلامه إياهم، وأنكروا ذلك، وأنكروا أن يعذبهم في الآخرة.

٢- وقال أكثر المعتزلة: إن الله سبحانه يؤلمهم عبرة للبالغين، ثم يعوضهم، ولولا أن يعوضهم كان إيلامه إياهم ظلمًا.

٣- وقال أصحاب اللطف: إنه آلمهم ليعوضهم، وقد يجوز أن يكون إعطاؤه إياهم ذلك العوض من غير ألم أصلح، وليس عليه أن يفعل الأصلح.

- واختلفوا: هل يجوز أن يبتدئ الله سبحانه الأطفال بمثل العوض من غير ألم، أم لا؟ على مقالتين:

١- فأجاز ذلك بعض المعتزلة.

٢- وأنكره بعضهم.

- واختلفوا في العوض الذي يستحقه الأطفال: هل هو عوض دائم، أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: الذي يستحقونه من العوض دائم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢١٣- ٢١٨)، (٨/ ٧١- ٧٣).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٤).

٢- وقال قائلون: إدامة العوض تَفَضُّل وليس باستحقاق[١]

وقال شيخ الإسلام عنهم: وإن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق أو تعوَّض بنفع لاحق[٢]

- قولهم في اللذة والألم

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في الألم واللذة، على مقالتين:

١- فقال قوم: لن يجوز أن يؤلم الله سبحانه أحدًا بألم تقوم اللذة في الصلاح مقامه.

٢- وقال قوم: يجوز ذلك.

- واختلفوا: هل كان يجوز أن يبتدئ الله الخلق في الجنة، ويتفضل عليهم باللذات دون الأذوات، ولا يكلفهم شيئًا؟ على مقالتين.

١- فقال أكثر المعتزلة: لن يجوز ذلك؛ لأن الله سبحانه لا يجوز عليه في حكمته أن يُعَرض عباده إلا لأعلى المنازل، وأعلى المنازل منزلة الثواب.

وقالوا: لا يجوز ألا يكلفهم الله المعرفة، ويستحيل أن يكونوا إليها مضطرين، فلو لم يكونوا بها مأمورين لكان الله قد أباح لهم الجهل به، وذلك خروج من الحكمة.

٢- وقال قائلون: كان جائزًا أن يبتدئ الله سبحانه الخلق في الجنة، ويبتدئهم بالتفضل، ولا يعرضهم لمنزلة الثواب، ولا يكلفهم شيئًا من المعرفة، ويضطرهم إلى معرفته، وهذا قول الجُبَّائِيِّ وغيره

- قولهم فيمن قطعت يده وهو مؤمن ثم كفر، والعكس

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا فيمن قطعت يده وهو مؤمن ثم كفر، ومن قطعت يده وهو كافر ثم آمن، على ثلاثة أقاويل:

١- فقال قوم: إنه يُبَدَّل يدا أخرى، لا يجوز غير ذلك.

٢- وقال قائلون: لو أن مؤمنًا قطعت يده فأدخل النار لبُدِّلت يده المقطوعة في حال إيمانه، وكذلك الكافر إذا قطعت يده ثم آمن؛ لأن الكافر والمؤمن ليس هما اليد والرجل.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٥٢).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٨، ٢٤٩).

٣- وقال قائلون: توصل يد المؤمن الذي كفر ومات على الكفر بكافر قطعت يده وهو كافر ثم آمن ثم مات على إيمانه، وتوصل يد الكافر الذي قطعت يده وهو كافر ثم آمن ثم مات على إيمانه بمؤمن الذي قطعت يده وهو مؤمن ثم مات على الكفر[1].

- قولهم في عوض البهائم

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في عوض البهائم، على خمسة أقاويل:

١- فقال قوم: إن الله سبحانه يعوضها في المعاد، وإنها تُنَعَّمُ في الجنة، وتصور في أحسن الصور فيكون نعيمها لا انقطاع له.

٢- وقال قوم: يجوز أن يعوضها الله سبحانه في دار الدنيا، ويجوز أن يعوضها في الموقف، ويجوز أن يكون في الجنة على ما حكينا عن المتقدمين.

٣- وقال جعفر بن حرب والإسكافي: قد يجوز أن تكون الحيات والعقارب وما أشبهها من الهوام والسباع تعوض في الدنيا أو في الموقف ثم تدخل جهنم فتكون عذابًا على الكافرين والفجار، ولا ينالهم من ألم جهنم شيء، كما لا ينال خزنة جهنم.

٤- وقال قوم: قد نعلم أن لهم عوضًا، ولا ندري كيف هو.

٥- وقال عباد: إنها تحشر وتبطل.

- واختلف الذين قالوا بإدامة عوضها، على مقالتين:

١- فقال قوم: إن الله يكمل عقولهم حتى يُعْطَوا دوامَ عوضهم، لا يؤلم بعضهم بعضًا.

٢- وقال قوم: بل تكون على حالها في الدنيا.

- واختلفوا في الاقتصاص لبعضها من بعض، على ثلاثة أقاويل:

١- فقال قائلون: يُقْتَصُّ لبعضها من بعض في الموقف، وإنه لا يجوز إلا ذلك، وليس يجوز الاقتصاص والعقوبة بالنار ولا بالتخليد في العذاب؛ لأنهم ليسوا بمكلفين.

٢- وقال قوم: لا قصاص بينهم.

٣- وقال قوم: إن الله سبحانه يعوض البهيمة، لتمكينه البهيمة التي جنت عليها، ليكون ذلك العوض عوضًا لتمكينه إياها منها، هذا قول الجُبَّائِيّ[2].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٢).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٤، ٢٥٥).

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: وهم يقولون: لا يحسن منه أن يضر الحيوان إلا بجرم سابق، أو عوض لاحق.

وأما أهل الإثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق، وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون: لله تعالى فيما يخلقه من أذى الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا، ونحن لا نحصر حكمته في الثواب والعوض فإن هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله(١)

- قولهم فيمن دخل زرعًا لغيره

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا فيمن دخل زرعًا لغيره، على مقالتين:

١- فقال أبو شمر وهو يوافقهم في التوحيد والقدر: إذا دخل الرجل زرعًا لغيره فحرام عليه أن يقف فيه أو يتقدم أو يتأخر، فإن تاب وندم فليس يمكنه إلا أن يكون عاصيًا لله تعالى، وإنه مَلُومٌ على ذلك.

٢- وقال غيره: الواجب عليه إذا ندم أن يخرج منه، ويُضَمَّنُ جميع ما استهلك(٢)

- قولهم في الآجال

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الآجال، اختلفت المعتزلة في ذلك على قولين:

١- فقال أكثر المعتزلة: الأجل هو الوقت الذي في معلوم الله سبحانه أن الإنسان يموت فيه أو يقتل؛ فإذا قُتِلَ قُتِلَ بأجله، وإذا مات مات بأجله.

٢- وشذ قوم من جهالهم؛ فزعموا أن الوقت الذي في معلوم الله سبحانه أن الإنسان لو لم يقتل لبقي إليه هو أجله، دون الوقت الذي قتل فيه.

- واختلف الذين زعموا أن الأجل هو الوقت الذي في معلوم الله سبحانه أن الإنسان يموت فيه أو يقتل، في المقتول: لو لم يقتل هل كان يموت أم لا؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فقال بعضهم: إن الرجل لو لم يقتل مات في ذلك الوقت، وهذا قول أبي الهُذَيْلِ.

٢- وقال بعضهم: يجوز لو لم يقتله القاتل أن يموت، ويجوز أن يعيش.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٥).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٥).

٣- وأحال منهم محيلون هذا القول[1].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: المقتول كغيره من الموتى، لا يموت أحد قبل أجله، ولا يتأخر أحد عن أجله. بل سائر الحيوان والأشجار لها آجال لا تتقدم ولا تتأخر. فإن أجل الشيء هو نهاية عمره، وعمره مدة بقائه، فالعمر مدة البقاء، والأجل نهاية العمر بالانقضاء.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض»، وفي لفظ: «ثم خلق السموات والأرض» وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤]

والله يعلم ما كان قبل أن يكون، وقد كتب ذلك، فهو يعلم أن هذا يموت بالبطن، أو ذات الجنب، أو الهدم أو الغرق أو غير ذلك من الأسباب، وهذا يموت مقتولًا: إما بالسم، وإما بالسيف وإما بالحجر وإما بغير ذلك، من أسباب القتل.

وعلم الله بذلك وكتابته له بل مشيئته لكل شيء وخلقه لكل شيء لا يمنع المدح والذم والثواب والعقاب؛ بل القاتل: إن قتل قتيلًا أمر الله به ورسوله، كالمجاهد في سبيل الله أثابه الله على ذلك، وإن قتل قتيلًا حرمه الله ورسوله كقتل القطاع والمعتدين، عاقبه الله على ذلك، وإن قتل قتيلًا مباحًا -كقتيل المقتص- لم يثب ولم يعاقب إلا أن يكون له نية حسنة، أو سيئة في أحدهما.

والأجل أجلان «أجل مطلق» يعلمه الله، و«أجل مقيد» وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»؛ فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلًا وقال: «إن وصل رحمه زدته كذا وكذا» والملك لا يعلم أيزداد أم لا؛ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر.

ولو لم يقتل المقتول، فقد قال بعض القَدَرِيَّة: إنه كان يعيش، وقال بعض نفاة الأسباب: إنه يموت، وكلاهما خطأ؛ فإن الله علم أنه يموت بالقتل، فإذا قدر خلاف معلومه كان تقديرًا لما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وهذا قد يعلمه بعض الناس، وقد لا يعلمه، فلو فرضنا أن الله علم أنه لا يقتل أمكن أن يكون قدر موته في هذا الوقت، وأمكن أن يكون قدر حياته إلى وقت آخر فالجزم بأحد هذين على التقدير الذي لا يكون جهل.

وهذا كمن قال: لو لم يأكل هذا ما قدر له من الرزق كان يموت أو يرزق شيئًا آخر، وبمنزلة من

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٦، ٢٥٧).

قال: لو لم يحبل هذا الرجل لهذه المرأة هل تكون عقيمًا أو يحبلها رجل آخر، ولو لم تزدرع هذه الأرض هل كان يزدرعها غيره، أم كانت تكون مواتًا لا يزرع فيها، وهذا الذي تعلم القرآن من هذا، لو لم يعلمه: هل كان يتعلم من غيره؟ أم لم يكن يتعلم القرآن ألبتة ومثل هذا كثير(١)

- **قولهم في الأرزاق**

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الأرزاق، قالت المعتزلة: إن الأجسام الله خالقها، وكذلك الأرزاق، وهي أرزاق الله سبحانه فمن غصب إنسانًا مالًا أو طعامًا فأكله أكل ما رزق الله غيره ولم يرزقه إياه.

وزعموا بأجمعهم أن الله سبحانه لا يرزق الحرام، كما لا يُمَلِّكُ الله الحرام، وأن الله سبحانه إنما رزق الذي مَلَّكه إياهم، دون الذي غَصَبه.

وقال أهل الإثبات: الأرزاق على ضربين: منها ما ملكه الله الإنسان، ومنها ما جعله غذاء له وقوامًا لجسمه، وإن كان حرامًا عليه فهو رزقه، إذ جعله الله سبحانه غذاء له؛ لأنه قوام لجسمه(٢)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إن لفظ الرزق يراد به ما أباحه الله تعالى للعبد وملكه إياه، ويراد به ما يتغذى به العبد.

فالأول: كقوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾[البَقَرَة: الآية ٢٥٤] ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] ؛ فهذا الرزق هو الحلال والمملوك لا يدخل فيه الخمر والحرام.

والثاني: كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هُود: الآية ٦] ، والله تعالى يرزق البهائم ولا توصف بأنها تملك ولا بأنه أباح الله ذلك لها إباحة شرعية فإنه لا تكليف على البهائم وكذلك الأطفال والمجانين لكن ليس بمملوك لها وليس بمحرم عليها وإنما المحرم بعض الذي يتغذى به العبد وهو من الرزق الذي علم الله أنه يغتذى به وقدر ذلك بخلاف ما أباحه وملكه كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: **«يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح -قال- فوالذي نفس بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل**

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٦- ٥١٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٧).

أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينهما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

والرزق الحرام مما قدره الله وكتبته الملائكة وهو مما دخل تحت مشيئة الله وخلقه وهو مع ذلك قد حرمه ونهي عنه فلفاعله من غضبه وذمه وعقوبته ما هو أهله، والله أعلم[١]

وقال: لفظ الرزق فيه إجمال فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه أو ملكه فلا يدخل الحرام في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] وقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٤] ، وقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النّحل: الآية ٧٥] وأمثال ذلك.

وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك فيدخل فيه الحرام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية ٦] وقوله عليه السلام في الصحيح فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد[٢]

- قولهم في الشهادة

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الشهادة، اختلفت المعتزلة في ذلك على أربعة أقاويل:

١- فقال قائلون: هو الصبر على ما ينال الإنسان من ألم الجراح المؤدي إلى القتل والعزم على ذلك وعلى التقدم إلى الحرب وعلى الصبر على ما يصيبه، وكذلك قالوا في المَبْطُون والغريق ومن مات تحت الهدم.

قالوا: وإن غوفِص إنسانٌ من المسلمين بشيء مما ذكرنا فكان عزمه على التسليم والصبر قد كان تقدم ودخل في جملة اعتقاده.

٢- وقال قائلون: الشهادة هي الحكم من الله سبحانه لمن قتل من المؤمنين في المعركة بأنه شهيد، وتسميته بذلك.

٣- وقال قائلون: الشهادة هي الحضور لقتال العدو، إذا قتل سمي شهادة.

٤- وقال قائلون: الشهداء هم العدول، قتلوا أو لم يقتلوا.

وزعموا أن الله سبحانه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] فالشهداء هم المشاهدون لهم ولأعمالهم، وهم العدول المرضيون[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٣٢).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٨).

- قولهم في الختم والطبع

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الختم والطبع، اختلفت المعتزلة في ذلك على مقالتين:

١- فزعم بعضهم أن الختم من الله سبحانه والطبع على قلوب الكفار هو الشهادة والحكم أنهم لا يؤمنون، وليس ذلك بمانع لهم من الإيمان.

٢- وقال قائلون: الختم والطبع هو السواد في القلب، كما يقال طبع السيف إذا صدئ، من غير أن يكون ذلك مانعًا لهم عما أمرهم به.

وقالوا: جعل الله ذلك سمة لهم تعرف الملائكة بتلك السمة في القلب أهل ولاية الله سبحانه من أهل عداوته[1]

- قولهم في الهدى

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الهدى، اختلفت المعتزلة: هل يقال: إن الله سبحانه هدى الكافرين أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال أكثر المعتزلة: إن الله هدى الكافرين فلم يهتدوا، ونفعهم بأن قوّاهم على الطاعة فلم ينتفعوا، وأصلحهم فلم يصلحوا.

٢- وقال قائلون: لا نقول: إن الله هدى الكافرين على وجه من الوجوه، بأن بين لهم ودلهم؛ لأن بيان الله ودعاءه هدى لمن قبل، دون من لم يقبل، كما أن دعاء إبليس إضلال لمن قبل دون من لم يقبل.

٣- وقال أهل الإثبات: لو هدى الله الكافرين لاهتدوا، فلما لم يهدهم لم يهتدوا، وقد يهديهم بأن يقويهم على الهدى، فتسمى القدرة على الهدى هدى، وقد يهديهم بأن يخلق هذا هم.

- واختلف الذين قالوا: إن الله هدى الكافرين بأن بين لهم ودلهم، وإن هذا هو الهدى العام في الهدى الذي يفعله بالمؤمنين دون الكافرين، على مقالتين:

١- فقال قائلون: قد نقول: إن الله هدى المؤمنين بأن سماهم مهتدين، وحكم لهم بذلك.

وقالوا: ما يزيد الله المؤمنين بإيمانهم من الفوائد والألطاف هو هدى، كما قال: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ﴾ [محمد: الآية ١٧]

٢- وقال قائلون: لا نقول: إن الله هدى بأن سمى وحكم، ولكن نقول: هدى الخلق أجمعين

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٩).

بين دلهم وبين لهم، وأنه هدى المؤمنين بما يزيدهم من ألطافه، وذلك ثواب يفعله بهم في الدنيا، وأنه يهديهم في الآخرة إلى الجنة، وذلك ثواب من الله سبحانه لهم، كما قال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يُونس: الآية ٩] هذا قول الجُبَّائِيّ.

وزعم إبراهيم النَّظَّام أنه قد يجوز أن يسمى طاعة المؤمنين وإيمانهم بالهدى وبأنه هدى الله، فيقال هذا هو هدى الله أي دينه(١)

- قولهم في الإضلال

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الإضلال، اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقاويل:

١- فقال أكثر المعتزلة: معنى الإضلال من الله يحتمل أن يكون التسمية لهم والحكم بأنهم ضالون، ويحتمل أن يكون لما ضلوا عن أمر الله سبحانه أخبر أنه أضلهم: أي أنهم ضلوا عن دينه، ويحتمل أن يكون الإضلال هو تَرْك أحداث اللطف والتسديد والتأييد الذي يفعله الله بالمؤمنين؛ فيكون ترك ذلك إضلالًا، ويكون الإضلال فعلًا حادثًا، ويحتمل أن يكون لما وجدهم ضلالًا أخبر أنه أضلهم، كما يقال: أجبن فلان فلانًا إذا وجده جبانًا.

٢- وقال بعضهم: إضلال الله الكافرين هو إهلاكه إياهم، وهو عقوبة منه لهم، واعتل بقول الله عز وجل: ﴿فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القَمَر: الآية ٤٧] والسعر: سعر النار، وبقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٠] أي هلكنا وتفرقت أجزاؤنا.

٣- وقال أهل الإثبات أقاويل؛ قال بعضهم: الإضلال عن الدين قوة على الكفر، وقال بعضهم: الإضلال عن الدين هو الترك، هذا قول الكوساني، وقال بعضهم: معنى أضلهم؛ أي: خلق ضلالهم.

وامتنعت المعتزلة أن تقول: إن الله سبحانه أضل عن الدين أحدًا من خلقه(٢)

- قولهم في التوفيق والسداد

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في التوفيق والتسديد، اختلفوا في التوفيق والتسديد، على أربعة أقاويل:

١- فقال قائلون: التوفيق من الله سبحانه ثواب يفعله مع إيمان العبد، ولا يقال للكافر: موفق، وكذلك التسديد.

٢- وقال قائلون: التوفيق هو الحكم من الله أن الإنسان موفق، وكذلك التسديد.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٥٩- ٢٦١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٦١، ٢٦٢).

٣- وقال جعفر بن حرب: التوفيق والتسديد لطفان من ألطاف الله سبحانه لا يوجبان الطاعة في العبد، ولا يضطرانه إليها، فإذا أتى الإنسان بالطاعة كان موفقًا مسددًا.

٤- وقال الجُبَّائيُّ: التوفيق هو اللطف الذي في معلوم الله سبحانه أنه إذا فعله وفق الإنسان للإيمان في الوقت؛ فيكون ذلك اللطف توفيقًا لأن يؤمن، وإن الكافر إذا فعل به اللطف الذي يوفق للإيمان في الوقت الثاني فهو موفق لأن يؤمن في الثاني، ولو كان في هذا الوقت كافرًا، وكذلك العصمة عنده لطف من ألطاف الله.

وقال أهل الإثبات: التوفيق هو قوة الإيمان وكذلك العصمة[1]

- قولهم في العصمة

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في العصمة، اختلفوا في العصمة:

فقال بعضهم: العصمة من الله سبحانه ثواب للمعتصمين.

وقال بعضهم: العصمة لطف من الله يفعله بالعبد، فيكون به معتصمًا.

وقال بعضهم: العصمة على وجهين: أحدهما هو الدعاء والبيان والزجر والوعيد، وقد فعله بالكافرين، ولكن لا يطلق أنه معصوم، ويقال: إن الله عصمه فلم يعتصم، والوجه الآخر ما يزيد الله المؤمنين بإيمانهم من الألطاف والأحكام والتأييد، وقد يتفاضل الناس في العصمة، ويكون ضرب من العصمة إذا أتاه بعض عبيده آمن طوعًا، وإذا أعطاه غيره ازداد كفرًا، وإذا منعه إياه أتى بكفر دون ذلك، فيتفضل به على من يعلم أنه ينتفع، ويمنعه من يعلم أنه يزداد كفرًا.

قالوا: وقد يجوز أن يكون شيء صلاحًا لواحد ضررًا على غيره.

قالوا: وقد يعصم الله سبحانه من الشيء باضطرار، كالعصمة من قتل نبيه ﷺ[2]

- قولهم في النصرة والخذلان

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في النصرة والخذلان، قالت المعتزلة: إن نصر الله المؤمنين قد يكون على معنى نصرهم بالحجة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: الآية ٥١] ، وقد تكون النصرة بمعنى أن يزلزل أقدام الكافرين ويُرْعِب قلوبهم فيهزموا، فيكون ناصرًا للمؤمنين عليهم وخاذلًا لهم بما طرحه من الرعب في قلوبهم، فإن انهزم المؤمنون لم يكن ذلك بخذلان من الله سبحانه لهم بل هم منصورون بالحجة على الكافرين وإن كانوا منهزمين.

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٦٣، ٢٦٤).

وقال أهل الإثبات: النصر من الله ما يفعله ويقذفه في قلوب المؤمنين من الجرءة على الكافرين، وقد تسمى القوة على الإيمان نصرًا.

فأما الخذلان؛ فإنهم اختلفوا فيه على ثلاثة أقاويل:

١- فقال بعضهم: الخذلان هو ترك الله سبحانه أن يحدث من الألطاف والزيادات ما يفعله بالمؤمنين، كنحو قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: الآية ١٧] فترك الله سبحانه أن يفعل هو الخذلان من الله للكافرين.

٢- وقال بعضهم: الخذلان من الله سبحانه هو تسميته إياهم والحكم بأنهم مخذولون.

٣- وقال بعضهم: الخذلان عقوبة من الله سبحانه وهو ما يفعله بهم من العقوبات.

وقال أهل الإثبات قولين؛ قال بعضهم: الخذلان قوة الكفر، وقال بعضهم: خذلهم أي خلق كفرهم[(١)]

- قولهم في الولاية والعداوة

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الولاية والعداوة، اختلفت المعتزلة في ذلك على مقالتين:

١- فقالت المعتزلة إلا بشر بن المعتمر وطوائف منهم: إن الولاية من الله سبحانه للمؤمنين مع إيمانهم، وكذلك عداوته للكافرين مع كفرهم، والولاية -عندهم- الأحكام الشرعية، والمدح، وأحداث الألطاف، والعداوة ضد ذلك، وكذلك قالوا في الرضا والسخط.

٢- وقال بشر بن المعتمر: الولاية والعداوة تكونان بعد حال الإيمان والكفر.

وقال قائلون منهم: الولاية مع الإيمان، والعداوة مع الكفر، وهما غير الأحكام والأسماء، وكذلك الرضا والسخط غير الأحكام والأسماء[(٢)]

- قولهم في الأسماء والصفات

يثبتون الأسماء لله عز وجل وينفون جميع الصفات، وطريقتهم هي النفي المفصَّل.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وليس بجسم، ولا شَبَح، ولا جثة، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسَّة، ولا بذي حرارة، ولا برودة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا اجتماع، ولا افتراق، ولا يتحرك،

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٦٥، ٢٦٦).

ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض وأجزاء، وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا تجوز عليه المماسة، ولا العزلة، ولا الحلول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة، ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدود، ولا والد، ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولا تجري عليه الآفات، ولا تحل به العاهات، وكل ما خطر بالبال وتُصُوِّر بالوهم فغير مشبه له، لم يزل أولًا سابقًا متقدمًا للمحدَثات، موجودًا قبل المخلوقات، ولم يزل عالمًا قادرًا حيًّا، ولا يزال كذلك، لا تراه العيون، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأوهام، ولا يُسمع بالأسماع، شيء لا كالأشياء، عالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الأحياء، وأنه القديم وحده لا قديم غيره، ولا إله سواه، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له في سلطانه، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق، لم يخلق الخلق على مثال سبق، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه، لا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذي غاية فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء، ولا يلحقه العجز والنقص، تقدس عن ملامسة النساء، وعن اتِّخاذ الصَّاحبة والأبناء.

فهذه جملة قولهم في التوحيد، وقد شاركهم في هذه الجملة الخوارج، وطوائف من المرجئة، وطوائف من الشيع، وإن كانوا للجملة التي يظهرونها، ناقضين ولها تاركين[(١)].

وقال: وأجمعت المعتزلة على أن صفات الله سبحانه وأسماءه هي أقوال وكلام، فقول الله: إنه عالم قادر حي، أسماء لله وصفات له، كذلك أقوال الخلق، ولم يثبتوا له صفة علمًا، ولا صفة قدرة، وكذلك قولهم في سائر صفات النفس[(٢)].

وقال: وأنكرت المعتزلة بأسرها أن يكون الله لم يزل متكلمًا راضيًا ساخطًا محبًّا مبغضًا منعمًا رحيمًا مواليًا معاديًا جوادًا حليمًا عادلًا محسنًا صادقًا خالقًا رازقًا بارئًا مصورًا محييًا مميتًا آمرًا ناهيًا مادحًا ذامًّا.

وزعموا بأجمعهم أن ذلك أجمع من صفات الله التي يوصف بها لفعله وزعموا أن ما يوصف به البارئ لنفسه كالقول قادر حي وما أشبه ذلك لم يجز أن يوصف بضده ولا بالقدرة على ضده؛ لأنه لما وصف بأنه عالم لم يجز أن يوصف بأنه جاهل ولا بالقدرة على أن يجهل، وما وصف البارئ بضده أو بالقدرة على ضده فهو من صفات الأفعال وذلك أنه لما وصف بالإرادة وصف بضدها من

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٥٥، ١٥٦).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٨).

لكراهة وزعموا أنه لما وصف بالبغض وصف بضده من الحب ولما وصف بالعدل وصف بالقدرة على ضده من الجور[(١)]

وقال البغدادي: يجمعها كلها في بدعتها أمور منها: نفيها كلها عن الله عز وجل صفاته الأزلية، وقولها بأنه ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية، وزادوا على هذا بقولهم: إن الله تعالى لم يكن له في الأزل اسم ولا صفة[(٢)].

وقال الرازي: اعلم أن المعتزلة كلهم متفقون على نفي صفات الله تعالى من العلم والقدرة[(٣)].

وقال السكسكي: وقد اجتمعت المعتزلة على نفي الصفات عن الله عز وجل وتعالى عن قولهم؛ كالعلم والقدرة والسمع والبصر[(٤)]

وقال الإيجي: وقالوا جميعًا بأن القدم أخص وصف الله وبنفي الصفات[(٥)]

وقال شيخ الإسلام: ثم إن الجَهْمِيَّة من المعتزلة وغيرهم أدرجوا نفي الصفات في مسمى التوحيد، فصار من قال: إن لله علمًا أو قدرة، أو إنه يرى في الآخرة، أو إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، يقولون: إنه مشبه ليس بموحد[(٦)]

وقال: الجَهْمِيَّة من المعتزلة وغيرهم يريدون «بالتوحيد والتنزيه»: نفي جميع الصفات، «وبالتجسيم والتشبيه»: إثبات شيء منها، حتى إن من قال: «إن الله يرى»، أو «إن له علمًا»، فهو عندهم مشبه مجسم[(٧)]

وقال: والفلاسفة والمعتزلة ومن اتبعهم يسمون مذهب النفاة التوحيد[(٨)].

وقال: يحسب المتكلم الزائغ أن توحيده -الذي هو نفي الصفات- هو توحيد الأنبياء؛ والصديقين؛ الذين عرفوا الله[(٩)].

وقال: وأما المعتزلة فهم ينفون الصفات، ويقاربون قول جهم[(١٠)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).

(٢) الفرق بين الفرق ص(١٣١).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٣٨).

(٤) البرهان ص(٥٠).

(٥) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٦) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٩)، (٥/ ١١٠).

(٧) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٠).

(٨) مجموع الفتاوى (٥/ ١٧٦).

(٩) مجموع الفتاوى (٢/ ٦٦).

(١٠) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٣).

وقال: وأما المعتزلة فإنهم ينفون الصفات مطلقًا ويثبتون أحكامها، وهي ترجع عند أكثرهم إلى أنه عليم قدير، وأما كونه مريدًا متكلمًا فعندهم أنها صفات حادثة، أو إضافية أو عدمية[(١)]

وقال: وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام، من المعتزلة ومن اتبعهم؛ فأثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات، فمنهم من جعل العليم، والقدير، والسميع، والبصير، كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بصير بلا سمع ولا بصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات[(٢)]

وقال: لم يكن مقصود المعتزلة بقولهم هو منزه عن الأعراض والحوادث إلا نفي صفاته وأفعاله، فعندهم لا يقوم به علم، ولا قدرة، ولا مشيئة، ولا رحمة، ولا حب، ولا رضا، ولا فرح، ولا خلق، ولا إحسان، ولا عدل، ولا إتيان، ولا مجيء، ولا نزول، ولا استواء، ولا غير ذلك من صفاته وأفعاله[(٣)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والتوحيد هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ وهذه السورة تعدل ثلث القرآن. وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[محمد: الآية ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝﴾[الأنبياء: الآية ٢٥]

فنفاة الجَهْمِيَّة من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيدًا، فمن قال إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، أو قال: إن الله يرى في الآخرة، أو قال: «أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك»، لم يكن موحدًا عندهم؛ بل يسمونه مشبهًا مجسمًا[(٤)]

وقال: ونفي الفلاسفة والمعتزلة للصفات التي يثبتها متكلِّمو أهل الإثبات، ويسمونها الصفات العقلية، لإثباتهم إياها بالقياس العقلي.

ومعلوم أن العقل لا ينفى بالقياس إلا القدر المشترك؛ الذي هو مدلول القضية الكلية التي لا بد منها في القياس؛ مثل أن ينفي الإرادة أو الرحمة أو العلم المشترك بين مسميات هذا الاسم، والقدر المشترك في المخلوقين تلحقه صفات لا تثبت لله تعالى، فينفون المعنى المشترك المطلق، على

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٥١).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٨).

صفات الحق وصفات الخلق -تبعًا لانتفاء ما يختص به الخلق- فيعطلون، كما أن أهل التمثيل يثبتون ما يختص به الخلق -تبعًا للقدر المشترك- وكلاهما قياس خطأ.

ففي هذه الصفات، بل وفي الذوات ثلاث اعتبارات:

أحدها: ما تختص به ذات الرب وصفاته.

والثاني: ما يختص به المخلوق وصفاته.

والثالث: المعنى المطلق الجامع.

فاستعمال القياس الجامع في نفي الأول خطأ، وكذلك استعماله في إثبات الثاني، وأما استعماله في إثبات الثالث، فيحتاج إلى إدراك العقل لثبوت المعنى الجامع الكلي، وهذا أصل القياس والدليل، فإن لم يعرف العقل بنفسه -أو بواسطة قياس آخر- ثبوت هذا، وإلا لم يستقم القياس[(١)]

وقال: وإن كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بالأسماء كالمعتزلي الذي يقول: إنه حي عليم قدير، وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة.

قيل له: لا فرق بين إثبات الأسماء، وإثبات الصفات، فإنك إن قلت: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهًا أو تجسيمًا؛ لأنا لا نجد في الشاهد متصفًا بالصفات إلا ما هو جسم؛ قيل لك: ولا نجد في الشاهد ما هو مسمى حي عليم قدير إلا ما هو جسم، فإن نفيت ما نفيت لكونك لم تجده في الشاهد إلا للجسم فانفِ الأسماء، بل وكل شيء؛ لأنك لا تجده في الشاهد إلا للجسم.

فكل ما يحتج به من نفى الصفات يحتج به نافي الأسماء الحسنى، فما كان جوابًا لذلك كان جوابًا لمثبتي الصفات[(٢)]

وقال: القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟ قيل له: كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضي الله عنهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته؛ قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٦٢، ٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٠)، (٦/ ٧٤).

وهو فرع له وتابع له؛ فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه، واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته.

وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه، ونزوله واستواؤه: ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم، ونزولهم واستواؤهم[1].

وقال: إن المعطلة والملحدة في أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير جاءت به الرسل بناء على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض ونفي حلول الحوادث ونفي الحاجة.

وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار، ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر، فوقعوا في نفي الحق الذي لا ريب فيه، الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وفطرت عليه الخلائق، ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية، والله أعلم[2].

وقال: إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي.

فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك.

والنفي كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] .

وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء؛ فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا.

ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال.

فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدح، كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] فنفي السنة والنوم: يتضمن كمال الحياة والقيام؛ فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] أي: لا يكرثه ولا يثقله وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته.

وكذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سَبَإ: الآية ٣] فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض.

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٥، ٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٦٢).

الآية ٣٨] فإن نفي مس اللغوب، الذي هو التعب والإعياء دل على كمال القدرة ونهاية القوة، بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه.

وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣] إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء، ولم ينفِ مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رئي؛ كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علمًا: فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية.

فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحًا وصفة كمال، وكان ذلك دليلًا على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

وإذا تأملت ذلك: وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتًا هو مما لم يصف الله به نفسه، فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب: لم يثبتوا في الحقيقة إلهًا محمودًا، بل ولا موجودًا[(١)].

وقال: ما ذكره أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في «الغنية عن الكلام وأهله» قال: فأما ما سألت عنه من الصفات، وما جاء منها في الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه.

والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله؛ فإذا كان معلومًا أن إثبات البارئ سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا يد وسمع، وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار، التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها؛ ووجب نفي التشبيه عنها؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات هذا كله كلام الخطابي.

وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك.

وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قد نقل نحوًا منه من العلماء من لا يحصى عددهم، مثل أبي بكر الإسماعيلي، والإمام يحيى بن عمار السجزي، وشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي صاحب «منازل

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥- ٣٧).

السائرين» و«ذم الكلام» وهو أشهر من أن يوصف، وشيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني، وأبي عمر بن عبد البر النمري إمام المغرب، وغيرهم(١).

وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة التعطيل.

- قولهم في تغاير الأسماء والصفات عن المسمى والموصوف.

يزعمون أن أسماء الله وصفاته غيره.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وقال قائلون: أسماء البارئ هي غيره، وكذلك صفاته، وهذا قول المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وكثير من الزيدية(٢).

وقال الإسفراييني: مما اتفق عليه جميعهم من مساوئ فضائحهم نفيهم صفات البارئ جل جلاله، حتى قالوا: إنه ليس له سبحانه علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر، ولا بقاء، وإنه لم يكن له في الأزل كلام، ولا إرادة، ولم يكن له في الأزل اسم، ولا صفة؛ لأن الصفة عندهم هو وصف الواصف، ولم يكن في الأزل واصف، والاسم عندهم التسمية، ولم يكن في الأزل مسم، إذ لم يكن له كلام في الأزل عندهم، وهذا يوجب ألا يكون لمعبودهم اسم ولا صفة، هذا قولهم في صانع العالم، وبديهة العقل تقتضي فساده لإحاطة العلم باستحالة كون من لا علم له، ولا قدرة له، ولا سمع له، ولا بصر له، صانعًا للعالم، ومدبرًا للخليقة(٣).

وقال شيخ الإسلام: هؤلاء الذين أطلقوا من الجَهْمِيَّة والمعتزلة أن الاسم غير المسمى مقصودهم أن أسماء الله غيره؛ وما كان غيره فهو مخلوق(٤).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إذا قلتم إن أسماءه، أو كلامه غيره فلفظ «الغير» مجمل؛ إن أردتم أن ذلك شيء بائن عنه فهذا باطل؛ وإن أردتم أنه يمكن الشعور بأحدهما دون الآخر فقد يذكر الإنسان الله ويخطر بقلبه ولا يشعر حينئذ بكل معاني أسمائه؛ بل ولا يخطر له حينئذ أنه عزيز وأنه حكيم، فقد أمكن العلم بهذا دون هذا، وإذا أريد بالغير هذا فإنما يفيد المباينة في ذهن الإنسان؛ لكونه قد يعلم هذا دون هذا، وذلك لا ينفي التلازم في نفس الأمر، فهي معان متلازمة لا يمكن وجود الذات دون هذه المعاني، ولا وجود هذه المعاني دون وجود الذات.

واسم الله إذا قيل الحمد لله أو قيل باسم الله يتناول ذاته وصفاته، لا يتناول ذاتًا مجردة عن

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٨، ٥٩)، (٦/ ٣٥٥).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).
(٣) التبصير في الدين ص(٦٣، ٦٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٠٤).

الصفات، ولا صفات مجردة عن الذات، وقد نص أئمة السنة -كأحمد وغيره- على أن صفاته داخلة في مسمى أسمائه، فلا يقال: إن علم الله وقدرته زائدة عليه؛ لكن من أهل الإثبات من قال: إنها زائدة على الذات. وهذا إذا أريد به أنها زائدة على ما أثبته أهل النفي من الذات المجردة فهو صحيح؛ فإن أولئك قصروا في الإثبات، فزاد هذا عليهم، وقال الرب له صفات زائدة على ما علمتموه.

وإن أراد أنها زائدة على الذات الموجودة في نفس الأمر فهو كلام متناقض؛ لأنه ليس في نفس الأمر ذات مجردة حتى يقال إن الصفات زائدة عليها؛ بل لا يمكن وجود الذات إلا بما به تصير ذاتًا من الصفات، ولا يمكن وجود الصفات إلا بما به تصير صفات من الذات، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر، ثم زيادة الآخر عليه تخيل باطل[1]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الكلابية والأشعَرِيَّة في تغاير الأسماء والصفات عن المسمى والموصوف.

- قولهم في الصفات الذاتية

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل يقال: لله علم وقدرة أم لا؟ وهم أربع فرق:

١- فالفرقة الأولى منهم يزعمون أنَّا نقول: للبارئ علم ونرجع إلى أنه عالم، ونقول: له قدرة، ونرجع إلى أنه قادر؛ لأن الله سبحانه أطلق العلم فقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٦] وأطلق القدرة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: الآية ١٥] ولم يطلقوا هذا في شيء من صفات الذات، ولم يقولوا حياةٌ بمعنى حيٌّ ولا سمعٌ بمعنى سميع، وإنما أطلقوا ذلك في العلم والقدرة من صفات الذات فقط، والقائل بهذا النَّظَّام وأكثر معتزلة البصريين، وأكثر معتزلة البغداديين.

٢- والفرقة الثانية: منهم يقولون لله علم بمعنى معلوم، وله قدرة بمعنى مقدور، وذلك أن الله قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] أراد: من معلومه، والمسلمون إذا رأوا المطر قالوا «هذه قدرة الله» أي مقدوره، ولم يقولوا ذلك في شيء من صفات الذات إلا في العلم والقدرة.

٣- والفرقة الثالثة: منهم يزعمون أن لله علمًا هو هو، وقدرةً هي هو، وحياةً هي هو، وسمعًا هو هو، وكذلك قالوا في سائر صفات الذات، والقائل بهذا القول أبو الهُذَيْل وأصحابه.

٤- والفرقة الرابعة: منهم يزعمون أنه لا يقال لله علم، ولا يقال قدرة، ولا يقال سمع ولا

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٠٥، ٢٠٦).

بصر، ولا يقال لا علم له ولا لا قدرة له، وكذلك قالوا في سائر صفات الذات، والقائل بهذه المقالة العَبَّادية أصحاب عَبَّاد بن سليمان[1]

وقال: القول في أن الله عز وجل عالم قادر. . . وأجمعت المعتزلة على أن الله لم يزل عالمًا قادرًا حيًا[2]

وقال: واختلف الذين قالوا: لم يزل الله عالمًا قادرًا حيًا، من المعتزلة فيه، أهو عالم قادر حيٌّ بنفسه أم بعلم وقدرة وحياة؟ وما معنى القول: عالم قادر حيٌّ؟

فقال أكثر المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وبعض الزيدية: إن الله عالم قادر حيٌّ بنفسه، لا بعلم وقدرة وحياة، وأطلقوا أن لله علمًا بمعنى أنه عالم، وله قدرة بمعنى أنه قادر، ولم يطلقوا ذلك على الحياة، ولم يقولوا: له حياة، ولا قالوا: سمعٌ ولا بصرٌ، وإنما قالوا: قوة وعلم؛ لأن الله سبحانه أطلق ذلك.

ومنهم من قال: له علم بمعنى معلوم، وله قدرة بمعنى مقدور، ولم يطلقوا غير ذلك.

وقال أبو الهُذَيْل: هو عالم بعلم هو هو، وهو قادر بقدرة هي هو، وهو حي بحياة هي هو، وكذلك قال في سمعه وبصره وقدمه وعزته وعظمته وجلاله وكبريائه، وفي سائر صفاته لذاته، وكان يقول: إذا قلت: إن الله عالم ثبت له علمًا هو الله ونفيت عن الله جهلًا، ودللت على معلوم كان أو يكون، وإذا قلت: قادرٌ نفيت عن الله عجزًا وأثبتُّ له قدرة هي الله سبحانه، ودللت على مقدور، وإذا قلت: لله حياةٌ أثبت له حياةً وهي الله ونفيت عن الله موتًا، وكان يقول: لله وجه هو هو، فوجهه هو هو، ونفسه هي هو، ويتأول ما ذكره الله سبحانه من اليد أنها نعمة، ويتأول قول الله عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: الآية ٣٩]، أي: بعلمي.

وقال عباد: هو عالم قادرٌ حيٌّ، ولا أثبت له علمًا ولا قدرة ولا حياةً، ولا أثبت سمعًا ولا أثبت بصرًا، وأقول: هو عالم لا بعلم، وقادر لا بقدرة، وحيٌّ لا بحياة، وسميع لا بسمع، وكذلك سائر ما يسمى به من الأسماء التي يسمى بها لا لفعله ولا لفعل غيره.

وكان ينكر قول من قال: إنه عالم قادر حيٌّ لنفسه أو لذاته، وينكر ذكر النفس، وذكر الذات، وينكر أن يقال: إن لله علمًا أو قدرةً أو سمعًا أو بصرًا أو حياةً أو قدمًا، وكان يقول: قولي عالمٌ، إثباتُ اسمٍ لله، ومعه علم بمعلوم، وقولي: قادر إثباتُ اسم لله ومعه علم بمقدور، وقولي: حيٌّ، إثباتُ اسمٍ لله، وكان ينكر أن يقال: إن للبارئ وجهًا ويدين وعينين وجنبًا.

وكان يقول: أقرأ القرآن وما قال الله من ذلك فيه، ولا أُطلق ذلك بغير قراءة، وينكر أن يكون معنى القول في البارئ «إنه عالم» معنى القول فيه إنه قادر، وأن يكون معنى القول فيه «إنه

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٨٧، ١٨٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٥٧).

بصير» معنى القول فيه إنه حيٌّ، وكذلك صفات الله التي يوصف بها لا لفعله كالقول «سميع» ليس معناه أنه بصير ولا معناه عالمٌ.

وقال ضِرَار: معنى أن الله عالم أنه ليس بجاهل، ومعنى أنه قادرٌ أنه ليس بعاجز، ومعنى أنه حي أنه ليس بميت.

وقال النَّظَّام: معنى قولي: عالمٌ، إثبات ذاته ونفي الجهل عنه، ومعنى قولي: قادرٌ، إثبات ذاته ونفي العجز عنه، ومعنى قولي: حيٌّ، إثبات ذاته ونفي الموت عنه، وكذلك قوله في سائر صفات الذات على هذا الترتيب.

وكان يقول: إن الصفات للذات إنما اختلفت لاختلاف ما يُنْفَي عنه من العجز والموت، وسائر المضادَّات من العمى والصمم، وغير ذلك، لا لاختلاف ذلك في نفسه.

وقال غيره من المعتزلة: إنما اختلفت الأسماء والصفات لاختلاف المعلوم والمقدور، لا لاختلاف فيه.

وكان يقول: ذكر الله سبحانه الوجه على التوسع، لا لأن له وجهًا في الحقيقة، وإنما معنى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٧] ويبقى ربك، ومعنى اليد: النعمة.

وقال آخرون من المعتزلة: إنما اختلفت الأسماء والصفات لاختلاف الفوائد التي تقع عندها، وذلك أنا إذا قلنا: «إن الله عالم»، أفدناك علمًا به، وبأنه خلاف ما لا يجوز أن يعلم، وأفدناك إكذابَ مَن زعم أنه جاهل، ودللناك على أن له معلوماتٍ، هذا معنى قولنا: «إن الله عالم»، فإذا قلنا: «إن الله قادر»، أفدناك علمًا بأنه خلاف ما لا يجوز أن يقدر، وإكذاب من زعم أنه عاجز، ودللناك على أن له مقدوراتٍ، وإذا قلنا: «إنه حيٌّ»، أفدناك علمًا بأنه بخلاف ما لا يجوز أن يكون حيًّا، وأكذبنا من زعم أنه ميت، وهذا معنى القول: إنه حيٌّ، وهذا قول الجُبَّائِيّ، قاله لي.

وقال أبو الحسين الصالحي: معنى قولي: «إن الله عالم لا كالعلماء، قادر لا كالقادرين، حيٌّ لا كالأحياء»، أنه شيء لا كالأشياء، وكذلك كان قوله في سائر صفات النفس.

وكان إذا قيل له: أفتقول: إن معنى أنه عالم لا كالعلماء معنى أنه قادر لا كالقادرين؟ قال: نعم، ومعنى ذلك أنه شيء لا كالأشياء، وكذلك قوله في سائر صفات النفس.

وكان يقول: إن معنى شيء لا كالأشياء معنى عالم لا كالعلماء.

وحكي عن معمَّر أنه كان يقول: إن البارئ عالم بعلم، وإن علمه كان علمًا له لمعنى، والمعنى كان لمعنى، لا إلى غاية، وكذلك كان قوله في سائر الصفات، أخبرني بذلك أبو عمر الفراتي عن محمد بن عيسى السيرافي أن معمرًا كان يقوله.

وقال قائلون من البغداديين: ليس معنى أن البارئ عالم معنى قادر، ولا معنى حيٌّ، ولكن معنى أن البارئ حيٌّ معنى أنه قادر، ومعنى أنه سميع معنى أنه عالم بالمسموعات، ومعنى أنه بصير معنى

أنه عالم بالمبصرات، وليس معنى قديم عند هؤلاء معنى حي، ولا معنى عالم قادر، وكذلك ليس معنى القول في البارئ إنه قديم معنى أنه عالم، ولا معنى أنه حي قادر[١].

وقال: واختلف الناس في معنى القول في الله سبحانه إنه حيٌّ، هل هو معنى أنه قادر أم لا؟ على مقالتين:

فقالت المعتزلة من البصريين وأكثر الناس: ليس معنى القول أن الله حيٌّ معنى القول أنه قادر.

وقالت طوائف من معتزلة البغداديين منهم الإسكافي وغيره: معنى القول فيه أنه حي أنه قادر[٢].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وجمهور هؤلاء المتكلمين المستدلين على حدوث الأجسام بحدوث الحركات: يجعلون هذا هو الدليل على نفي ما دل عليه ظاهر السمعيات، من أن الله يجيء؛ وينزل ونحو ذلك.

والمعتزلة وغيرهم يجعلون هذا هو الدليل على أن الله ليس له صفة، لا علم، ولا قدرة، ولا عزة، ولا رحمة، ولا غير ذلك؛ لأن ذلك بزعمهم أعراض تدل على حدوث الموصوف[٣].

وسيأتي بيان ذلك عند الكلام عن مقالة التعطيل.

- قولهم في الصفات الخبرية

ينكرون الصفات الخبرية عن المولى عز وجل، كاليد والوجه والعين ونحوه.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلة بأسرها على إنكار العين واليد، وافترقوا في ذلك على مقالتين:

١- فمنهم من أنكر أن يقال: لله يَدَانِ، وأنكر أن يقال: إنه ذو عين، وإن له عينين.

٢- ومنهم من زعم أن لله يدًا، وأن له يدين، وذهب في معنى ذلك إلى أن اليد نعمة، وذهب في معنى العين إلى أنه أراد العلم، وأنه عالم، وتأول قول الله عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: الآية ٣٩] ؛ أي بعلمي[٤]

وقال: وتأولت اليد بمعنى النعمة، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القَمَر: الآية ١٤] ، أي: بعلمنا[٥].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٦٤- ١٦٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٧٦، ١٧٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٣).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٩٥).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(٢١٨).

وقال: واختلفوا، هل يقال: لله وجه أم لا؟ وهم ثلاث فرق:

١- فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن لله وجهًا هو هو، والقائل بهذا القول أبو الهذَيل.

٢- والفرقة الثانية منهم يزعمون أنا نقول: وجه، توسعًا، ونرجع إلى إثبات الله؛ لأنا نثبت وجها هو هو، وذلك أن العرب تقيم الوجه مقام الشيء، فيقول القائل: لولا وجهك لم أفعل، أي لولا أنت لم أفعل، وهذا قول النَّظَّام وأكثر معتزلة البصريين، وقول معتزلة البغداديين.

٣- والفرقة الثالثة منهم ينكرون ذكر الوجه أن يقولوا: لله وجه، فإذا قيل لهم: أليس قد قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨]؟ قالوا: نحن نقرأ القرآن، فإما أن نقول من غير أن نقرأ القرآن: إن لله وجهًا، فلا نقول ذلك، والقائلون بهذه المقالة العَبَّادية أصحاب عَباد[1].

وقال: واختلفوا في العين واليد الوجه على أربع مقالات:

وقالت المعتزلة بإنكار ذلك، إلا الوجه، وتأولت اليد بمعنى النعمة، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القَمَر: الآية ١٤] أي بعلمنا، والجنب بمعنى الأمر، وقالوا في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٦]، أي في أمر الله، وقالوا: نفس البارئ هي هو، وكذلك ذاته هي هو، وتأولوا قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: الآية ٢]، على وجهين: أحدهما: أنه السيد، والآخر: أنه المقصود إليه في الحوائج.

وأما الوجه فإن المعتزلة قالت فيه قولين:

قال بعضهم -وهو أبو الهذيل-: وجه الله هو الله.

وقال غيره: معنى قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحْمٰن: الآية ٢٧]: ويبقى ربك، من غير أن يكون يثبت وجهًا، يقال: إنه هو الله، أو لا يقال ذلك فيه[2].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: المقام الأول: أن لفظ «اليدين» بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة؛ لأن من لغة القوم استعمال الواحد في الجمع كقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العَصر: الآية ٢] ولفظ الجمع في الواحد كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣]، ولفظ الجمع في الاثنين كقوله: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: الآية ٤]؛ أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين، أو الاثنين في الواحد فلا أصل له؛ لأن هذه الألفاظ عدد وهي نصوص في معناها لا يتجوز بها، ولا يجوز أن يقال: عندي رجل ويعني رجلين، ولا عندي رجلان ويعني به الجنس؛

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٨٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢١٧، ٢١٨).

لأن اسم الواحد يدل على الجنس والجنس فيه شياع، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد.

فقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد.

ولا يجوز أن يراد به النعمة؛ لأن نعم الله لا تحصى؛ فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية.

ولا يجوز أن يكون لما خلقت أنا؛ لأنهم إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفعل، كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: الآية ١٠]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٢]، ومنه قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: الآية ٧١]

أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] فإنه نص في أنه فعل الفعل بيديه ولهذا لا يجوز لمن تكلم أو مشى: أن يقال فعلت هذا بيديك ويقال: هذا فعلته يداك؛ لأن مجرد قوله: فعلت كافٍ في الإضافة إلى الفاعل، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة، ولست تجد في كلام العرب ولا العجم -إن شاء الله تعالى- أن فصيحًا يقول: فعلت هذا بيدي، أو فلان فعل هذا بيديه. إلا ويكون فعله بيديه حقيقة. ولا يجوز أن يكون لا يد له، أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها.

وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ومواضع الحقيقة، ويتبين أن الآيات لا تقبل المجاز ألبتة من جهة نفس اللغة.

قال لي: فقد أوقعوا الاثنين موقع الواحد في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: الآية ٢٤] وإنما هو خطاب للواحد.

قلت له: هذا ممنوع؛ بل قوله: ﴿ألقيا﴾ قد قيل تثنية الفاعل لتثنية الفعل، والمعنى ألق ألق. وقد قيل: إنه خطاب للسائق والشهيد، ومن قال: إنه خطاب للواحد قال: إن الإنسان يكون معه اثنان: أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، فيقول: خليلي، خليلي، ثم أنه يوقع هذا الخطاب وإن لم يكونا موجودين كأنه يخاطب موجودين فقوله: ﴿ألقيا﴾ عند هذا القائل إنما هو خطاب لاثنين يقدر وجودهما فلا حجة فيه ألبتة.

قلت له: المقام الثاني: أن يقال: هب أنه يجوز أن يعني باليد حقيقة اليد، وأن يعني بها القدرة أو النعمة، أو يجعل ذكرها كناية عن الفعل، لكن ما الموجب لصرفها عن الحقيقة؟

فإن قلت: لأن اليد هي الجارحة وذلك ممتنع على الله سبحانه.

قلت لك: هذا ونحوه يوجب امتناع وصفه بأن له يدًا من جنس أيدي المخلوقين وهذا لا ريب فيه؛ لكن لِمَ لا يجوز أن يكون له يد تناسب ذاته تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات؟ قال: ليس في العقل والسمع ما يحيل هذا، قلت: فإذا كان هذا ممكنًا وهو حقيقة اللفظ فلم

يصرف عنه اللفظ إلى مجازه؟ وكل ما يذكره الخصم من دليل يدل على امتناع وصفه بما يسمى به - وصحت الدلالة- سلم له أن المعنى الذي يستحقه المخلوق منتف عنه، وإنما حقيقة اللفظ وظاهره يد يستحقها الخالق كالعلم والقدرة بل كالذات والوجود.

المقام الثالث: قلت له: بلغك أن في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ أو عن أحد من أئمة المسلمين: أنهم قالوا: المراد باليد خلاف ظاهره، أو الظاهر غير مراد، أو هل في كتاب الله آية تدل على انتفاء وصفه.

باليد دلالة ظاهرة؛ بل أو دلالة خفية؟ فإن أقصى ما يذكره المتكلف قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] ، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] ، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥] ، وهؤلاء الآيات إنما يدللن على انتفاء التجسيم والتشبيه. وأما انتفاء يد تليق بجلاله فليس في الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه.

وكذلك هل في العقل ما يدل دلالة ظاهرة على أن البارئ لا يد له ألبتة؟ لا يدًا تليق بجلاله ولا يدًا تناسب المحدثات، وهل فيه ما يدل على ذلك أصلًا؛ ولو بوجه خفي؟ فإذا لم يكن في السمع ولا في العقل ما ينفي حقيقة اليد ألبتة؛ وإن فرض ما ينافيها فإنما هو من الوجوه الخفية -عند من يدعيه- وإلا ففي الحقيقة إنما هو شبهة فاسدة.

فهل يجوز أن يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد، وأن الله تعالى خلق بيده، وأن يداه مبسوطتان، وأن الملك بيده، وفي الحديث ما لا يحصى، ثم إن رسول الله ﷺ، وأولي الأمر: لا يبينون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره، حتى ينشأ «جهم بن صفوان» بعد انقراض عصر الصحابة فيبين للناس ما نزل إليهم على نبيهم، ويتبعه عليه «بشر بن غياث» ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق.

وكيف يجوز أن يعلمنا نبينا ﷺ كل شيء حتى الخراءة ويقول: «ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به»، «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»، ثم يترك الكتاب المنزل عليه وسنته الغراء مملوءة مما يزعم الخصم أن ظاهره تشبيه وتجسيم، وأنه اعتقاد ظاهره ضلال، وهو لا يبين ذلك ولا يوضحه؟!

وكيف يجوز للسلف أن يقولوا: أمروها كما جاءت مع أن معناها المجازي هو المراد وهو شيء لا يفهمه العرب، حتى يكون أبناء الفرس والروم أعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين والأنصار؟

المقام الرابع: قلت له: أنا أذكر لك من الأدلة الجلية القاطعة والظاهرة ما يبين لك أن لله يدين حقيقة.

فمن ذلك تفضيله لآدم: يستوجب سجود الملائكة، وامتناعهم عن التكبر عليه؛ فلو كان المراد أنه خلقه بقدرته، أو بنعمته، أو مجرد إضافة خلقه إليه، لشاركه في ذلك إبليس وجميع المخلوقات.

قال لي: فقد يضاف الشيء إلى الله على سبيل التشريف. كقوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣]، وبيت الله.

قلت له: لا تكون الإضافة تشريفًا حتى يكون في المضاف معنى أفرده به عن غيره، فلو لم يكن في الناقة والبيت من الآيات البينات ما تمتاز به على جميع النوق والبيوت لما استحقا هذه الإضافة، والأمر هنا كذلك، فإضافة خلق آدم إليه أنه خلقه بيديه يوجب أن يكون خلقه بيديه أنه قد فعله بيديه، وخلق هؤلاء بقوله: كن فيكون، كما جاءت به الآثار.

ومن ذلك أنهم إذا قالوا: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: الآية ١]، أو عملته يداك، فهما شيئان أحدهما إثبات اليد، والثاني إضافة الملك والعمل إليها، والثاني يقع فيه التجوز كثيرًا، أما الأول فإنهم لا يطلقون هذا الكلام إلا لجنس له يد حقيقة، ولا يقولون: يد الهوى ولا يد الماء، فهب أن قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: الآية ١] قد علم منه أن المراد بقدرته، لكن لا يتجوز بذلك إلا لمن له يد حقيقة.

والفرق بين قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] وقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: الآية ٧١] من وجهين:

أحدهما: أنه هنا أضاف الفعل إليه وبين أنه خلقه بيديه، وهناك أضاف الفعل إلى الأيدي.

الثاني: أن من لغة العرب أنهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية إذا أمن اللبس كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: الآية ٣٨]؛ أي: يديهما، وقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: الآية ٤]؛ أي: قلباكما، فكذلك قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: الآية ٧١]

وأما السنة فكثيرة جدًّا، مثل قوله ﷺ: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون حكمهم وأهليهم وما ولوا» رواه مسلم.

وقوله ﷺ: «يمين الله ملأى لا يغيظها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض إلى يوم القيامة» رواه مسلم في صحيحه، والبخاري فيما أظن.

وفي الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم بيده خبزته في السفر».

وفي الصحيح أيضًا عن ابن عمر يحكي رسول الله ﷺ قال: «يأخذ الرب عز وجل سمواته وأرضه بيديه -وجعل يقبض يديه ويبسطهما ويقول:- أنا الرحمن» حتى نظرت إلى المنبر يتحرك أسفل منه، حتى إني أقول: أساقط هو برسول الله؟ وفي رواية: أنه قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧] قال: يقول: «أنا الله، أنا الجبار» وذكره. وفي الصحيح أيضًا عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» وما يوافق هذا من حديث الحَبْر.

وفي حديث صحيح: «إن الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت! قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته»، وفي الصحيح: «أن الله كتب بيده على نفسه لما خلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي».

وفي الصحيح: «أنه لما تحاج آدم وموسى قال آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، وقد قال له موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه»، وفي حديث آخر أنه قال سبحانه: «وعزتي وجلالي، لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان»، وفي حديث آخر في السنن: «لما خلق آدم ومسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيده الأخرى فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فذكرت له هذه الأحاديث وغيرها؛ ثم قلت له: هل تقبل هذه الأحاديث تأويلًا؛ أم هي نصوص قاطعة؟ وهذه أحاديث تلقتها الأمة بالقبول والتصديق ونقلتها من بحر غزير. فأظهر الرجل التوبة وتبين له الحق(١)

وقال: إذا قدر اثنان: أحدهما يقدر أن يفعل بيديه، ويقبل بوجهه، والآخر لا يمكنه ذلك: إما لامتناع أن يكون له وجه ويدان، وإما لامتناع الفعل والإقبال عليه باليدين والوجه: كان الأول أكمل.

فالوجه واليدان لا يعدان من صفات النقص في شيء مما يوصف بذلك، ووجه كل شيء بحسب ما يضاف إليه، وهو ممدوح به لا مذموم، كوجه النهار ووجه الثوب، ووجه القوم، ووجه الخيل، ووجه الرأي، وغير ذلك؛ وليس الوجه المضاف إلى غيره هو نفس المضاف إليه في شيء من موارد الاستعمال، سواء قدر الاستعمال حقيقة أو مجازًا.

فإن قيل: من يمكنه الفعل بكلامه أو بقدرته بدون يديه أكمل ممن يفعل بيديه، قيل: من يمكنه الفعل بقدرته أو تكليمه إذا شاء، وبيديه إذا شاء: هو أكمل ممن لا يمكنه الفعل إلا بقدرته أو تكليمه، ولا يمكنه أن يفعل باليد.

ولهذا كان الإنسان أكمل من الجمادات التي تفعل بقوى فيها، كالنار والماء، فإذا قدر اثنان أحدهما لا يمكنه الفعل إلا بقوة فيه، والآخر يمكنه الفعل بقوة فيه وبكلامه فهذا أكمل. فإذا قدر آخر يفعل بقوة فيه وبكلامه وبيديه إذا شاء فهو أكمل وأكمل(٢)

- قولهم في الصفات الفعلية

ينفون الصفات الفعلية عن المولى عز وجل.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦٥- ٣٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٩٢، ٩٣).

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في صفات الأفعال كالقول خالق رازق محسن جواد وما أشبه ذلك، هل يقال: إن البارئ لم يزل غير خالق ولا رازق ولا جواد أم لا؟ على ثلاث فرق:

فالفرقة الأولى منهم يزعمون أنه لا يقال: إن البارئ لم يزل خالقًا، ولا يقال: لم يزل غير خالق، ولا يقال: لم يزل رازقًا، ولا يقال: لم يزل غير رازق، وكذلك قولهم في سائر صفات الأفعال، والقائل بهذا عباد بن سليمان.

والفرقة الثانية منهم يزعمون أن البارئ لم يزل غير خالق ولا رازق، فإذا قيل لهم: فلم يزل غير عادل؟ قالوا: لم يزل غير عادل ولا جائر، ولم يزل غير محسن ولا مسيء، ولم يزل غير صادق ولا كاذب، قالوا: لأنا إذا قلنا: لم يزل غير صادق، وسكتنا، أوهمنا أنه كاذب، وكذلك إذا قلنا: لم يزل غير حليم، وسكتنا أوهم أنه سفيه، ولكن نقيد فيما يقع عنده الإيهام، فنقول: لم يزل لا حليمًا ولا سفيهًا، فأما ما لا يقع عنده الإيهام كالقول خالق رازق، فإنَّا نقول: لم يزل غير خالق ولا رازق، والقائل بهذا الجُبَّائِيّ.

والفرقة الثالثة منهم يزعمون أن البارئ عز وجل لم يزل غير خالق ولا رازق، ولا يقولون: لم يزل غير عادل ولا محسن ولا جواد ولا صادق ولا حليم، لا على تقييد ولا على إطلاق، لما في ذلك -زعموا- من الإيهام، وهذا قول معتزلة البغداديين وطوائف من معتزلة البصريين[(١)].

وقال: وجميع المعتزلة لا ينكر أن يكون الله لم يزل غير خالق، ولا رازق، ولا فاعل، وكذلك كل ما ليس في نعته إيهام من صفات الفعل لا يمتنعون منه كالقول: محيي، مميت، باعث، وارث، وما أشبه ذلك[(٢)].

وقال: واختلفت المعتزلة في معنى القول أن الله خالق، وهم فرقتان:

١- فزعمت فرقة منهم أن معنى القول في الله إنه خالق، أنه فعل الأشياء مقدرة، وأن الإنسان إذا فعل أفعالًا مقدرة فهو خالق، وهذا قول الجُبَّائِيّ وأصحابه.

٢- وزعمت الفرقة الثانية منهم أن معنى القول في الله سبحانه أنه خالق أنه فعل، لا بآلة ولا بقوة مخترعة، فمن فعل لا بآلة ولا بقوة مخترعة فهو خالق لفعله، ومن فعل بقوة مخترعة فليس بخالق لفعله[(٣)].

وقال: قالت المعتزلة وكثير من أهل الكلام: الوصف لله بالصدق من صفات الفعل وأنه لا يجوز أن يقال: إن الله سبحانه لم يزل صادقًا.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٨٦، ١٨٧).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٧٩، ١٨٠).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٩٥).

واختلف الذين قالوا: الصدق فعل، هل يقال: لم يزل البارئ غير صادق؟

فقال قائلون منهم: لا يقال ذلك.

وقال قائلون منهم: لم يزل غير صادق ولا كاذب[١].

وقال: قالت المعتزلة إن ولاية الله وعداوته ورضاه وسخطه من صفات فعله[٢].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند الكلام عن مقالة التعطيل، وعند قول الكلابية في الأسماء والصفات.

- قولهم في الوكيل واللطيف

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في البارئ، هل يقال: إنه وكيل، وإنه لطيف؟ على مقالتين:

١- فمنهم من زعم أن البارئ لا يقال: إنه وكيل، وأنكر قائل هذا القول أن يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، من غير أن يقرأ القرآن وأنكر أيضًا أن يقال: لطيف، دون أن يُوصَلَ ذلك، فيقال لطيف بالعباد، والقائل بهذا القول عَبَّاد بن سليمان.

٢- ومنهم من أطلق وكيل وأطلق لطيف وإن لم يقيد[٣].

- قولهم في علو البارئ عز وجل

ينفون علو البارئ عز وجل، ومنهم من يقول: إنه في كل مكان، ومنهم من يقول: إنه لا في مكان.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في المكان، اختلفت المعتزلة في ذلك؛ فقال قائلون: البارئ بكل مكان، بمعنى أنه مدبر لكل مكان، وأن تدبيره في كل مكان، والقائلون بهذا القول جمهور المعتزلة؛ أبو الهُذَيْلِ، والجعفران، والإسكافي، ومحمد بن عبد الوهاب الجُبَّائِيُّ.

وقال قائلون: البارئ لا في مكان بل هو على ما لم يزل عليه، وهو قول هشام الفُوَطِي، وعباد بن سليمان، وأبي زُفَر، وغيرهم من المعتزلة[٤].

وقال: القول في المكان: اختلفت المعتزلة في ذلك

فقال قائلون: إن الله بكل مكان، بمعنى أنه مُدَبِّر لكل مكان.

وقال قائلون: البارئ لا في مكان، بل هو على ما لم يزل عليه.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٠، ٥٨١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٩٦).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٥٧).

وقال قائلون: الباريء في كل مكان، بمعنى أنه حافظ للأماكن، وذاته مع ذلك موجودة بكل مكان[١]

وقال: وزعمت المعتزلة والحرورية والجَهْمِيَّة أن الله تعالى في كل مكان[٢]

وقال شيخ الإسلام: وقال طوائف منهم: ليس فوق العالم ولا فوق العالم شيء أصلًا، ولا فوق العرش شيء. وهذا قول الجَهْمِيَّة والمعتزلة، وطوائف من متأخري الأشْعَرِيَّة، والفلاسفة النفاة؛ والقرامطة الباطنية[٣]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ولما ظهرت الجَهْمِيَّة -المنكرة لمباينة الله وعلوه على خلقه- افترق الناس في هذا الباب على أربعة أقوال:

والقول الثاني: قول معطلة الجَهْمِيَّة ونفاتهم، وهم الذين يقولون. لا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا مباين له، ولا محايث له، فينفون الوصفين المتقابلين، اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما، كما يقول ذلك أكثر المعتزلة ومن وافقهم من غيرهم[٤]

وقال: وإذا كان كذلك: فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة: مملوء بما هو إما نص وأما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى، وهو فوق كل شيء، وهو على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء: مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠] ، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨] ، ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المَعَارج: الآية ٤] ، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدَة: الآية ٥] ، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: الآية ٥٠] ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٤] في ستة مواضع ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: الآية ٥] ، ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢] ، ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٤] إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة.

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى إلا بالكلفة، مثل قصة معراج الرسول ﷺ إلى

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢١٢).

(٢) الإبانة ص(١١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٨).

به، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه؛ وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار: فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم، وهو أعلم بهم.

وفي الصحيح في حديث الخوارج: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً»، وفي حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره: «ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع» قال رسول الله ﷺ: «إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء» وذكره.

وقوله في حديث الأوعال: «والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وقوله في الحديث الصحيح للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

وقوله في الحديث الصحيح: «إن الله لما خلق الخلق كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي»، وقوله في حديث قبض الروح: «حتى يعرج بها إلى السماء التي فيها الله تعالى».

وقول عبد الله بن رواحة الذي أنشده للنبي ﷺ وأقره عليه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وقول أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي أنشد للنبي ﷺ هو وغيره من شعره فاستحسنه، وقال: «آمن شعره وكفر قلبه» حيث قال:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرًا
بالبناء الأعلى الذي سبق النا ... س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ما يناله بصر العيـ ... ـن ترى دونه الملائك صورا

وقوله في الحديث الذي في المسند: «إن الله حيي كريم؛ يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا». وقوله في الحديث: «يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب». إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله، مما هو أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية، التي تورث علمًا يقينًا من أبلغ العلوم الضرورية أن الرسول ﷺ المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين -أن الله سبحانه على العرش، وأنه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم، عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام؛ إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته.

ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفًا.

ثم ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة -لا من الصحابة

ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف- حرف واحد يخالف ذلك، لا نصًا ولا ظاهرًا.

ولم يقل أحد منهم قط إن الله ليس في السماء، ولا إنه ليس على العرش، ولا إنه بذاته في كل مكان، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا إنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا إنه لا متصل ولا منفصل، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها؛ بل قد ثبت في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات، في أعظم مجمع حضره الرسول ﷺ جعل يقول: «ألا هل بلغت؟» فيقولون: نعم. فيرفع إصبعه إلى السماء ثم ينكبها إليهم ويقول: «اللهم اشهد» غير مرة وأمثال ذلك كثيرة[(١)]

وقال: وقال الطلمنكي أحد أئمة المالكية -قبل ابن عبد البر، والباجي، وطبقتهما- في كتاب الوصول إلى معرفة الأصول: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] ، ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ على العرش كيف شاء.

وقال أيضا: قال أهل السنة: في قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] إن الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة، لا على المجاز.

وقال ابن عبد البر في التمهيد -شرح الموطأ، وهو أشرف كتاب صنف في فنه- لما تكلم على حديث النزول، قال: هذا حديث ثابت لا يختلف أهل الحديث في صحته، وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة في قولهم: إنه في كل مكان، وليس على العرش.

قال: والدليل على صحة ما قاله أهل الحق قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] ، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: الآية ١٠] ، وقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: الآية ٤] ، وقال: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] ، وذكر آيات.

إلى أن قال: وهذا أشهر عند العامة والخاصة من أن يحتاج إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ولا خالفهم فيه مسلم.

وهذا مثل ما ذكر محمد بن طاهر عن أبي جعفر الهمداني أنه حضر مجلس بعض المتكلمين، فقال: كان الله ولا عرش، فقال: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورات التي نجدها في قلوبنا؟ ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو، لا تلتفت يمنة ولا يسرة، فضرب بيده على رأسه وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني: أراد الشيخ أن

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢- ١٥).

إقرار الفطر بأن معبودها، ومدعوها فوق: هو أمر ضروري، عقلي، فطري، لم تستفده من مجرد السمع، بخلاف الاستواء على العرش -بعد خلق السموات والأرض في ستة أيام- فإن هذا علم من جهة السمع...

إلى أن قال: وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٧] فلا حجة فيه لهم؛ لأن علماء الصحابة والتابعين قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله(١)

وسيأتي مزيد بيان عند قول الجَهْمِيَّة في علو البارئ عز وجل.

- قولهم في الاستواء

ينفون صفة الاستواء عن الله عز وجل، ويحرفونها إلى معنى الاستيلاء.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وقالت المعتزلة في قول الله عز وجل: الرحمن على العرش استوى، يعني: استولى(٢).

وقال: وقالت المعتزلة: إن الله استوى على عرشه، بمعنى: استولى(٣).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والمبطل لتأويل من تأوَّل استوى بمعنى استولى وجوه:

أحدها: أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين؛ فإنه لم يفسره لأحد في الكتب الصحيحة عنهم، بل أول من قال ذلك بعض الجَهْمِيَّة والمعتزلة؛ كما ذكره أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات وكتاب الإبانة.

الثاني: أن معنى هذه الكلمة مشهور؛ ولهذا لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس عن قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] قالا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا يريد أن الاستواء معلوم في اللغة دون الآية؛ لأن السؤال عن الاستواء في الآية كما يستوي الناس.

الثالث: أنه إذا كان معلومًا في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلومًا في القرآن.

الرابع: أنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلومًا لم يحتج أن يقول: الكيف مجهول؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله، كما نقول: إنا نقر بالله، ونؤمن به، ولا نعلم كيف هو.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٢١٩، ٢٢١)، (٣/٢٦٣)، (٥/٨٦، ٨٧)، (٥/١٨٩- ١٩٣)، (٥/٤٩٥).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٥٧).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢١١).

الخامس: الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك هو عام في المخلوقات كالربوبية، والعرش وإن كان أعظم المخلوقات ونسبة الربوبية إليه لا تنفي نسبتها إلى غيره، كما في قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون: الآية ٨٦] وكما في دعاء الكرب؛ فلو كان استوى بمعنى استولى -كما هو عام في الموجودات كلها- لجاز مع إضافته إلى العرش أن يقال: استوى على السماء، وعلى الهوى، والبحار والأرض، وعليها ودونها ونحوها؛ إذ هو مستوٍ على العرش. فلما اتفق المسلمون على أنه يقال: استوى على العرش ولا يقال: استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال: استولى على العرش والأشياء، علم أن معنى استوى خاص بالعرش ليس عامًّا كعموم الأشياء.

السادس: أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأخبر أن عرشه كان على الماء قبل خلقها، وثبت ذلك في صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: **«كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»** مع أن العرش كان مخلوقًا قبل ذلك، فمعلوم أنه ما زال مستوليًا عليه قبل وبعد، فامتنع أن يكون الاستيلاء العام هذا الاستيلاء الخاص بزمان كما كان مختصًّا بالعرش.

السابع: أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور.

ثم استوى بشر على العراق … من غير سيف ولا دم مهراق

ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده؟! وقد طعن فيه أئمة اللغة، وذكر عن الخليل كما ذكره أبو المظفر في كتابه الإفصاح قال: سئل الخليل هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب؛ ولا هو جائز في لغتها، وهو إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا يعرف حمل باطل.

الثامن: أنه روي عن جماعة من أهل اللغة أنهم قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزًا ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء، والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى، فإذا تبين هذا فقول الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق

لفظ مجازي لا يجوز حمل الكلام عليه إلا مع قرينة تدل على إرادته واللفظ المشترك بطريق الأولى، ومعلوم أنه ليس في الخطاب قرينة أنه أراد بالآية الاستيلاء.

وأيضًا فأهل اللغة قالوا: لا يكون استوى بمعنى استولى إلا فيما كان منازعًا، مغالبًا فإذا غلب أحدهما صاحبه قيل: استولى، والله لم ينازعه أحد في العرش، فلو ثبت استعماله في هذا المعنى

لأخص مع النزاع في إرادة المعنى الأعم لم يجب حمله عليه بمجرد قول بعض أهل اللغة مع تنازعهم فيه، وهؤلاء ادعوا أنه بمعنى استولى في اللغة مطلقًا، والاستواء في القرآن في غير موضع، مثل قوله: ﴿ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٨]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هُود: الآية ٤٤]، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرُف: الآية ١٣]، وفي حديث عدي: أن رسول الله ﷺ أتى بدابته فلما وضع رجله في الغرز قال: «باسم الله» فلما استوى على ظهرها قال: «الحمد لله».

التاسع: أنه لو ثبت أنه من اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العرباء، ولو كان من لغة بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله ﷺ، وقوله: ولو كان من لغته لكان بالمعنى المعروف في الكتاب والسنة وهو الذي يراد به ولا يجوز أن يراد معنى آخر.

العاشر: أنه لو حمل على هذا المعنى لأدى إلى محذور يجب تنزيه بعض الأئمة عنه؛ فضلًا عن الصحابة؛ فضلًا عن الله ورسوله؛ فلو كان الكلام في الكتاب والسنة كلامًا نفهم منه معنى، ويريدون به آخر، لكان في ذلك تدليس وتلبيس، ومعاذ الله أن يكون ذلك، فيجب أن يكون استعمال هذا الشاعر في هذا اللفظ في هذا المعنى ليس حقيقة بالاتفاق؛ بل حقيقة في غيره، ولو كان حقيقة فيه للزم الاشتراك المجازي فيه، وإذا كان مجازًا عن بعض العرب أو مجازًا اخترعه من بعده، أفتترك اللغة التي يخاطب بها رسول الله ﷺ أمته؟!

الحادي عشر: أن هذا اللفظ -الذي تكرر في الكتاب والسنة والدواعي متوفرة على فهم معناه من الخاصة والعامة عادة ودينًا- إن جعل الطريق إلى فهمه ببيت شعر أحدث فيؤدي إلى محذور؛ فلو حمل على معنى هذا البيت للزم تخطئة الأئمة الذين لهم مصنفات في الرد على من تأول ذلك، ولكان يؤدي إلى الكذب على الله ورسوله ﷺ والصحابة والأئمة، وللزم أن الله امتحن عباده بفهم هذا دون هذا، مع ما تقرر في نفوسهم وما ورد به نص الكتاب والسنة، والله سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهذا مستحيل على الله ورسوله ﷺ والصحابة والأئمة.

الثاني عشر: أن معنى الاستواء معلوم علمًا ظاهرًا بين الصحابة والتابعين وتابعيهم فيكون التفسير المحدث بعده باطلًا قطعًا، وهذا قول يزيد بن هارون الواسطي؛ فإنه قال: إن من قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] خلاف ما تقرر في نفوس العامة فهو جهمي، ومنه قول مالك: الاستواء معلوم، وليس المراد أن هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قال بعض الناس: استوى أم لا؟ أو أنه سئل عن الكيفية ومالك جعلها معلومة. والسؤال عن النزول ولفظ الاستواء ليس بدعة ولا الكلام فيه؛ فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون، وإنما البدعة السؤال عن الكيفية[1]

وقال: والجاهل يضل بقول المتكلمين: إن العرب وضعوا لفظ الاستواء لاستواء الإنسان على المنزل أو الفلك، أو استواء السفينة على الجودي، ونحو ذلك من استواء بعض المخلوقات، فهذا

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٤- ١٤٩)، (٥/ ٣١٤).

كما يقول القائل: إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفانًا وأصمخة وأذنًا وشفتين، وهذا ضلال في الشرع وكذب، وإنما وضعوا لفظ الرحمة والعلم والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاد، وهذا كله جهل منه.

فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافته إليه، فإذا قالت: سمع العبد، وبصره، وكلامه، وعلمه، وإرادته، ورحمته، فما يخص به يتناول ذلك خصائص العبد. وإذا قيل: سمع الله وبصره، وكلامه وعمله، وإرادته ورحمته، كان هذا متناولًا لما يخص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين، فمن ظن أن هذا الاستواء إذا كان حقيقة يتناول شيئًا من صفات المخلوقين مع كون النص قد خصه بالله، كان جاهلًا جدًّا بدلالات اللغات، ومعرفة الحقيقة والمجاز.

وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق، ثم ينفون ذلك ويعطلونه، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق، وينفون مضمون ذلك، ويكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته، وألحدوا في أسماء الله وآياته، وخرجوا عن القياس العقلي والنص الشرعي، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح، ثم لا بد لهم من إثبات بعض ما يثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات، فإذا أثبتوا البعض ونفوا البعض قيل لهم: ما الفرق بين ما أثبتموه ونفيتموه؟ ولِمَ كان هذا حقيقة ولم يكن وهذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلًا، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعًا وقدرًا[(١)]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الجَهْمِيَّة في الاستواء.

- قولهم في كلام الله عز وجل

كلام الله عندهم مخلوق.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في الباريء أنه متكلم، اختلفت المعتزلة في ذلك؛ فمنهم من أثبت الباريء متكلمًا، ومنهم من امتنع أن يُثْبِتَ الباريء متكلمًا، وقال: لو ثبته متكلمًا لثبته متفعِّلًا، والقائل بهذا الإسكافي، وعَبَّاد بن سليمان[(٢)]

وقال: اختلفت المعتزلة في كلام الله سبحانه، هل هو جسم أم ليس بجسم؟ وفي خلقه، على ستة أقاويل:

فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن كلام الله جسم، وأنه مخلوق، وأنه لا شيء إلا جسم.

والفرقة الثانية منهم يزعمون أن كلام الخلق عَرَض، وهو حركة؛ لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة، وأن كلام الخالق جسم، وأن ذلك الجسم صوت مُقَطَّع مؤلف مسموع، وهو فعل الله

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٢٠٨، ٢٠٩)، (٣/٢٢٣، ٢٢٤)، (٣/٢٦١)، (٥/٥١٨- ٥٢١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٨٥).

وخلقه، وإنما يفعل الإنسان القراءةَ، والقراءة الحركة، وهي غير القرآن، وهذا قول النَّظَّام وأصحابه.

وأحال النَّظَّام أن يكون كلام الله في أماكن كثيرة أو في مكانين في وقت واحد، وزعم أنه في المكان الذي خَلَقه الله فيه.

والفرقة الثالثة من المعتزلة: يزعمون أن القرآن مخلوق لله، وهو عرض، وأبوا أن يكون جسمًا، وزعموا أنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، إذا تلاه تالٍ فهو يوجد مع تلاوته، وكذلك إذا كتبه كاتب وُجد مع كتابته، وكذلك إذا حفظه حافظ وجد مع حفظه؛ فهو يوجد في الأماكن بالتلاوة والحفظ والكتابة، ولا يجوز عليه الانتقال والزوال، وهذا قول أبي الهُذَيْل وأصحابه، وكذلك قوله في كلام الخَلْقِ أنه جائز وجوده في أماكِنَ كثيرة في وقت واحد.

والفرقة الرابعة منهم يزعمون أن كلام الله عَرَض، وأنه مخلوق، وأحالوا أن يوجد في مكانين في وقت واحد، وزعموا أن المكان الذي خلقه الله فيه محالٌ انتقالُه وزواله منه ووجودُه في غيره، وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين.

والفرقة الخامسة منهم أصحاب معمر.

يزعمون أن القرآن عَرَض، والأعراض عندهم قسمان: قسم منها يفعله الأحياء، وقسم منها يفعله الأموات، محال أن يكون ما يفعله الأموات فعلًا للأحياء، والقرآن مفعول، وهو عَرَض، ومحال أن يكون الله فَعَلَه في الحقيقة؛ لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلًا لله، وزعموا أن القرآن فعل للمكان الذي يُسْمع منه، إن سُمع من شجرة فهو فعل لها، وحيثما سُمع فهو فعل للمحل الذي حَلَّ فيه.

والفرقة السادسة: يزعمون أن كلام الله عَرَض مخلوق، وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، وهذا قول الإسكافي[1]

وقال: واختلفت المعتزلة في كلام الله هل يبقى أم لا يبقى؟

١- فمنهم من قال: هو جسم باقٍ، والأجسام يجوز عليها البقاء، وكلام المخلوقين لا يبقى.

٢- وقالت طائفة أخرى: كلام الله تعالى عَرَض، وهو باقٍ، وكلام غيره يبقى.

٣- وقالت طائفة أخرى: كلام الله عَرَض غير باقٍ، وكلام غيره لا يبقى، وقالت في كلامه تعالى: إنه لا يبقى، وإنه إنما يوجد في وقت ما خلقه الله، ثم عُدِم بعد ذلك[2]

وقال: واختلف القائلون إن القرآن مخلوق في القرآن ما هو؟ وكيف يوجد في الأماكن؟

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٩١- ١٩٣).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٣)، (٦٠٠، ٦٠١).

فقال قائلون: هو جسم من الأجسام، ومحال أن يكون عرضًا؛ لأنهم ينكرون أن يكون الله سبحانه أو أحَدُ عباده يفعل عرضًا، ولا يفعل عنده شيئًا إلا ما كان جسمًا إلا الله وحده فإنَّه عندهم شيء ليس بجسم ولا عرض، هذه حكاية قول جعفر بن مبشر وأظنُّ أنا أن هذا قول الأصم.

وقال قائلون: إن كلام الخلق عرضٌ، وهو حركة، وإن كلام الخالق جسم، وإن ذلك الجسم صوتٌ مقطع مؤلف مسموع، وهو فعل الله، وإنما أفعل قراءتي، وهي حركتي، وهي غير القرآن.

وحكى ابن الراوندي أنَّه سمع بعض أهل هذه المقالة يزعم أنه كلام في الجو، وأن القارئ يزيل مانعه بقراءته فيسمع عند ذلك، وهذا قول إبراهيم النَّظَّام في غالب ظنِّي.

وزعم زاعم أنَّ كلام الله سبحانه باقٍ، والأجسام يجوز عليها البقاء، وأما كلام المخلوقين فلا يجوز عليه البقاء[1]

وقال: واختلفت المعتزلة هل مع قراءة القارئ لكلام غيره وكلام نفسه كلام غيرهما؟ على مقالتين:

فزعمت فرقة منهم أن مع قراءة القارئ لكلام غيره وكلام نفسه كلامًا غيرهما.

وزعمت فرقة أخرى منهم أن القراءة هي الكلام[2]

وقال: واختلف الذين زعموا أن مع القراءة كلامًا على مقالتين:

فزعمت الفرقة الأولى منهم أن القراءة كلام؛ لأن القارئ يلحن في قراءته وليس يجوز اللحن إلا في كلام وهو أيضًا متكلم وإن قرأ كلام غيره ومحال أن يكون متكلمًا بكلام غيره فلا بد من أن تكون قراءته هي كلامه.

وقالت الفرقة الثانية القراءة صوت والكلام حروف والصوت غير الحروف[3]

وقال: واختلفت المعتزلة في الكلام هل هو حروف أم لا على مقالتين:

فزعمت فرقة منهم أن كلام الله سبحانه حروف، وزعم آخرون منهم أن كلام الله سبحانه ليس بحروف[4]

وقال: واختلفت المعتزلة في الكلام هل هو موجود مع كتابته أم لا؟ على مقالتين:

فزعمت فرقة منهم أن الكلام يوجد مع كتابته في مكانها كما يجامع القراءة في موضعها.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٨، ٥٨٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٣)، (٦٠١).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٩٣، ١٩٤)، (٦٠١).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٩٤).

وزعمت فرقة أخرى منهم أن الكتابة رسوم تدل عليه وليس بموجود معها(١)

وقال: وقالت المعتزلة: القراءة غير المقروء وهي فعلنا والمقروء فعل الله سبحانه(٢)

وقال: وأجمعت المعتزلة على أن قراءة القرآن غير المقروء، واختلفوا هل القراءة حكاية للقرآن أم لا؟

فمنهم من قال: هي حكاية. ومنهم من قال: لا

واختلفت المعتزلة هل يجوز أن يلفظ بالقرآن أم لا؟ فقال قائلون: يلفظ به كما يقرأ.

وقال الإسكافي: لا يجوز ذلك بل يقرأ القرآن ولا يلفظ به(٣)

وقال: قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزيدية والمرجئة وكثير من الرافضة: إن القرآن كلام الله سبحانه وأنه مخلوق لله لم يكن ثم كان(٤)

قال الإسفراييني: ومما اتفقوا عليه من فضائحهم قولهم: إن كلام الله تعالى مخلوق له، يخلق لنفسه كلامًا في جسم من الأجسام، فيكون فيه متكلمًا، وإنه لم يكن متكلمًا قبل أن خلق لنفسه كلامًا، ليت شعري كيف يكون كلام المتكلِّم مسموعًا من غيره، ولو كان الأمر على ما قالوه لكان الأمر والنهي والشرع لذلك الجسم الذي خلق فيه الكلام، وذلك خلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: الآية ٤٠]، وزعموا أن الكلام هو المكتوب في الصحف والمقروء بالألسنة غير الكلام الذي نزل به جبريل على المصطفى عليهما الصلاة والسلام، بل كان ذلك عرضًا معلومًا، وهذا الذي يتلى ويكتب عرض آخر وجد متجددًا، وهذا خلاف قول الأمة قبلهم(٥)

وقال البغدادي عما يجمعهم: ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوث أمره ونهيه وخبره، وكلهم يزعمون أن كلام الله عز وجل حادث، وأكثرهم اليوم يسمون كلامه مخلوقًا(٦)

وقال الرازي: أعلم أن المعتزلة كلهم متفقون، . . . ، وعلى أن القرآن محدث ومخلوق(٧)

وقال السكسكي: واجتمعت أن كلام الله محدث، وإرادته محدثة، وأنه يتكلم بكلام يخلقه في غيره(٨)

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٩٤).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٦٠٢).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٥).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢).
(٥) التبصير في الدين ص(٦٤).
(٦) الفرق بين الفرق ص(١٣١). وجه الورقة ١ من المخطوط.
(٧) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٣٨).
(٨) البرهان ص(٥٠).

وقال الإيجي عما يجمعهم: وبأن كلامه مخلوق محدث[١].

وقال شيخ الإسلام: والقول الثاني: قول الجَهْمِيَّة من المعتزلة وغيرهم، الذين يقولون: كلام الله مخلوق، يخلقه في بعض الأجسام، فمن ذلك الجسم ابتدأ، لا من الله، ولا يقوم -عندهم- بالله كلام ولا إرادة[٢].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والقول الثاني للناس في كلام الله تعالى قول من يقول: إن الله لم يقم به صفة من الصفات، لا حياة ولا علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا إرادة ولا رحمة، ولا غضب ولا غير ذلك، بل خلق كلامًا في غيره فذلك المخلوق هو كلامه، وهذا قول الجَهْمِيَّة والمعتزلة. وهذا القول أيضًا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف، وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم؛ وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم؛ بل لهم شبه عقلية فاسدة، قد بينا فسادها في غير هذا الموضع. وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج، وهم لا للإسلام نصروا، ولا لأعدائه كسروا[٣].

وقال: يقولون إذا خلق كلامًا في غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة:

أحدها: إن الله سبحانه أنطق الأشياء كلها نطقًا معتادًا ونطقًا خارجًا عن المعتاد. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآية ٦٥] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: الآية ٢٤] وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: الآية ١٨]

وقد ثبت أن الحصى كان يسبح في يد النبي ﷺ، وأن الحجر كان يسلم عليه، وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات؛ فلو كان إذا خلق كلامًا في غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى، ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران، بل قد ثبت أن الله خالق أفعال العباد. فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلمًا بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم، وهذا تقوله غلاة الجَهْمِيَّة كابن عربي وأمثاله يقولون:

---

(١) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨، ٤٩).

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون: إن كلام الآدميين غير مخلوق؛ فإن كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فأولئك يجعلون الجميع مخلوقًا وأن الجميع كلام الله، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجَهْمِيَّة الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية.

وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلامي سلط الله أعداء الدين فإن الله يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته؟ وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسماء الله وآياته؟

الوجه الثاني: أن يقال لهؤلاء الضالين: ما خلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره، فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعمًا أو لونًا أو ريحًا كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم، وإذا خلق بمحل حياة أو علمًا أو قدرة أو إرادة أو كلامًا كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم. فإذا خلق كلامًا في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علمًا، ولا يكون الله هو المتكلم به، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعًا أو بصرًا كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفًا بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات، ولا المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات، ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة، فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه في غيره من الكلام ولا يكون متكلمًا بذلك الكلام.

الوجه الثالث: أن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه، والناس متفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام، فلا يكون مريد إلا بإرادة، وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك.

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر، فإنما يسمى بالحي من قامت به الحياة، وبالمتحرك من قامت به الحركة، وبالعالم من قام به العلم، وبالقادر من قامت به القدرة فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات. وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر.

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة. والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته. وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة، فكذلك في الأفعال: مثل

تكلم وكلم ويتكلم ويكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك، سواء قيل: إن الفعل المشتق من المصدر، أو المصدر مشتق من الفعل، لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر، فإذا قيل: كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم، وكذلك التعلم والتكلم، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم، فإذا قيل: تكلم فلان أو كلم فلان فلانًا ففلان هو المتكلم والمكلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤]، وقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] يقتضي أن الله هو المكلم، فكما يمتنع أن يقال: هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره.

فهذه خمسة أوجه:

أحدها: أنه يلزم الجَهْمِيَّة على قولهم أن يكون كل كلام خلقه الله كلامًا له؛ إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه، وكل من فعل كلامًا ولو في غيره كان متكلمًا به عندهم، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول قائمًا يدل لكونه خلق صوتًا في محل والدليل يجب طرده فيجب أن يكون كل صوت يخلقه له كذلك، وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت الذي هو ليس بكلام.

الثاني: أن الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمها إلى ذلك المحل ولا يعود حكمها إلى غيره.

الثالث: أن يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به

ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره، وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة أن من قال: إن الله خلق كلامًا في غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائدًا إلى ذلك المحل لا إلى الله.

الرابع: أن الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] قال غير واحد من العلماء: التوكيد بالمصدر ينفي المجاز، لئلا يظن أنه أرسل إليه رسولًا أو كتب إليه كتابًا بل كلمه منه إليه.

والخامس: أن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ [الشورى: الآية ٥١] الآية. فكان تكليم موسى من وراء الحجاب، وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٤]، وقال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه؛ لأن

ومكث عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة. وموسى إنما عرفه بواسطة، ولهذا كان غلاة الجَهْمِيَّة من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى ابن عمران، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين[١]

وقال: فصل في بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم، ليس شيء منه كلامًا لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

فأمره أن يقول: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]؛ فإن الضمير في قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ [النحل: الآية ١٠٢] عائد على ما في قوله: ﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: الآية ١٠١] والمراد به القرآن، كما يدل عليه سياق الكلام وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: الآية ١٠١] فيه إخبار له بأنه أنزله؛ لكن ليس في هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به، ولا أنه منزل منه.

ولفظ «الإنزال» في القرآن قد يرد مقيدًا بالإنزال منه: كنزول القرآن، وقد يرد مقيدًا بالإنزال من السماء ويراد به العلو؛ فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك، وقد يرد مطلقًا فلا يختص بنوع من الإنزال؛ بل ربما يتناول الإنزال من رءوس الجبال، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل الماء وغير ذلك. فقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢] بيان نزول جبريل به من الله، فإن روح القدس هنا هو جبريل؛ بدليل قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٩٧] وهو الروح الأمين كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وفي قوله: ﴿ الأمين ﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص منه، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة، كما قال في صفته في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

وفي قوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٤] دلالة على أمور:

منها بطلان قول من يقول: إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجَهْمِيَّة الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم[٢]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١٠- ٥١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٧، ١١٨).

وسيأتي مزيد بيان عند قول الجَهْمِيَّة في كلام الله عز وجل.

- قولهم في ماهية الكلام

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلف الناس في كلام الإنسان هل هو حروف أم لا؟

وقال كثير من المعتزلة: إن كلام الإنسان حروف، وكذلك كلام الله.

فأما النَّظَّامية فيقولون: كلام الله سبحانه صوت مقطع وهو حروف، وكلام الإنسان ليس بحروف(١)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وقد تنازع الناس في مسمى الكلام في الأصل، فقيل: هو اسم اللفظ الدال على المعنى، وقيل: المعنى المدلول عليه باللفظ، وقيل: لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي، وقيل: بل هو اسم عام لهما جميعًا يتناولهما عند الإطلاق، وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة. هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وإن كان هذا القول لا يعرف في كثير من الكتب(٢)

وسيأتي مزيد بيان عند قول الكلابية والأشْعَرِيَّة في ماهية الكلام.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

ينفون رؤية المولى عز وجل بالأبصار في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القول في رؤية الله عز وجل: أجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لا يرى بالأبصار، واختلفت هل يرى بالقلوب؟ فقال أبو الهُذَيْل وأكثر المعتزلة: نرى الله بقلوبنا، بمعنى: أنَّا نعلمه بقلوبنا، وأنكر هشام الفُوَطِي وعباد بن سليمان ذلك(٣)

وقال: وأجمعت المعتزلة على أن الله لا يرى بالأبصار، واختلفت هل يرى بالقلوب؟

فقال أبو الهُذَيْل وأكثر المعتزلة: إن الله يرى بقلوبنا، بمعنى: أنا نعلمه بها، وأنكر ذلك الفُوَطِي وعباد.

وقالت المعتزلة والخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الزيدية: إن الله لا يرى بالأبصار في الدنيا والآخرة، ولا يجوز ذلك عليه(٤)

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٦٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٦٧).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٥٧).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).

وقال البغدادي عما يجمعهم: ومنها قولهم باستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار، وزعموا أنه لا يرى نفسه، ولا يراه غيره، واختلفوا فيه: هل هو راءٍ لغيره أم لا؟ فأجازه قوم منهم، وأباه قوم آخرون منهم[1]

وقال الإيجي عما يجمعهم: وبأنه غير مرئي في الآخرة[2]

وقال شيخ الإسلام: قول من ينكر الرؤية كالمعتزلة وأمثالهم من الجَهْمِيَّة المحضة من المتفلسفة والقرامطة وغيرهم، وكذلك ينفون الصفات ويقولون بإثبات ذات بلا صفات[3]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة، وبعد ما يدخلون الجنة، على ما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ عند العلماء بالحديث؛ فإنه أخبر ﷺ أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر والشمس عند الظهيرة لا يضام في رؤيته.

ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة، وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين؛ وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به.

والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر؛ فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عرف ذلك، كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر.

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة قد دون العلماء فيها كتبًا مثل كتاب الرؤية للدارقطني، ولأبي نعيم وللآجري؛ وذكرها المصنفون في السنة كابن بطة، واللالكائي، وابن شاهين، وقبلهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، وحنبل بن إسحاق، والخلال، والطبراني، وغيرهم. وخرجها أصحاب الصحيح والمساند والسنن وغيرهم[4]

وقال: حديث رؤية المؤمنين ربهم في الجنة في مثل يوم الجمعة من أيام الدنيا رواه أبو الحسن الدارقطني في كتابه في الرؤية -وما علمنا أحدًا جمع في هذا الباب أكثر من كتاب أبي بكر الآجري وأبي نعيم الحافظ الأصبهاني- رواه من حديث أنس مرفوعًا، ومن حديث ابن مسعود موقوفًا، ورواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود مرفوعًا.

فأما حديث أنس فرواه الدارقطني من خمس طرق أو ست طرق، في غالبها أن الرؤية تكون

---

(١) الفرق بين الفرق ص(١٣١).

(٢) المواقف (٣/ ٦٥٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٨٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٥، ٤٨٦).

بمقدار صلاة الجمعة في الدنيا وصرح في بعضها بأن النساء يرينه في الأعياد.

وأما حديث ابن مسعود ففي جميع طرقه -مرفوعها وموقوفها- التصريح بذلك؛ وإسناد حديث ابن مسعود أجود من جميع أسانيد هذا الباب. ورواه أبو عبد الله بن بطة في الإبانة بإسناد آخر من حديث أنس أجود من غيره، وذكر فيه: وذلك مقدار انصرافكم من الجمعة.

ورواه أبو أحمد بن عدي من حديث صالح بن حيان عن ابن بريدة عن أنس وما أعلم لفظه.

ورواه أبو عمرو الزاهد بإسناد آخر لم يحضرني لفظه. ورواه أبو العباس السراج: حدثنا علي بن أشيب، حدثنا أبو بدر، حدثنا زياد بن خيثمة، عن عثمان بن مسلم، عن أنس بن مالك وليس فيه الزيادة.

ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن شيبان بن فروخ، عن الصعق بن حزن، عن على بن الحكم البناني، عن أنس نحوه، ولا أعلم لفظه.

ورواه أبو بكر البزار وأبو بكر الخلال وابن بطة من حديث حذيفة ابن اليمان مرفوعًا، ولم يذكر فيه هذه الزيادة، لكن قال في آخره: «فلهم في كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه»، قال: «وذلك قول الله في كتابه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] ورواه الآجري وابن بطة أيضًا مرفوعًا من حديث ابن عباس وفيه: «وأقربهم منه مجلسًا أسرعهم إليه يوم الجمعة وأبكرهم غدوًا».

وله طريق آخر من حديث أبي هريرة، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن أبي العشرين، عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي هريمان، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعي شيئًا من هذا ،وقالوا: ورواه سويد بن عبد العزيز عن الأوزاعي قال: قال: حديث عن سعيد، وروي أيضًا معناه عن كعب الأحبار موقوفًا وفيه معنى الزيادة.

وأصل حديث «سوق الجنة» قد رواه مسلم في صحيحه ولم يذكر فيه الرؤية، وهذه الأحاديث عامتها إذا جرد إسناد الواحد منها لم يخل عن مقال قريب أو شديد، لكن تعددها وكثرة طرقها يغلب على الظن ثبوتها في نفس الأمر؛ بل قد يقتضي القطع بها.

وأيضًا فقد روي عن «الصحابة» و«التابعين» ما يوافق ذلك، ومثل هذا لا يقال بالرأي، وإنما يقال بالتوقيف.

فروى الدارقطني بإسناد صحيح عن ابن المبارك، أخبرنا المسعودي، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: «سارعوا إلى الجمعة فإن الله يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كثيب من كافور، فيكونون في قرب منه على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا».

وأيضًا بإسناد صحيح إلى شبابة بن سوار، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود، قال: «سارعوا

إلى الجمعة فإن الله عز وجل يبرز لأهل الجنة في كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون في الدنو منه على مقدار مسارعتهم في الدنيا إلى الجمعة، فيحدث لهم من الكرامة شيئًا لم يكونوا رأوه فيما خلا»، قال: وكان عبد الله بن مسعود لا يسبقه أحد إلى الجمعة، قال: فجاء يومًا وقد سبقه رجلان فقال: رجلان وأنا الثالث إن الله يبارك في الثالث.

ورواه ابن بطة بإسناد صحيح من هذا الطريق، وزاد فيه: «**ثم يرجعون إلى أهليهم فيحدوثونهم بما قد أحدث لهم من الكرامة شيئًا لم يكونوا رأوه فيما خلا**». هذا إسناد حسن حسنه الترمذي وغيره.

ويقال: إن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه؛ لكن هو عالم بحال أبيه متلقٍ لآثاره من أكابر أصحاب أبيه، وهذه حال متكررة من عبد الله -رضي الله عنه- فتكون مشهورة عند أصحابه فيكثر المتحدث بها، ولم يكن في أصحاب عبد الله من يتهم عليه حتى يخاف أن يكون هو الواسطة، فلهذا صار الناس يحتجون برواية ابنه عنه وإن قيل: إنه لم يسمع من أبيه.

وقد روي هذا عن ابن مسعود من وجه آخر، رواه ابن بطة في الإبانة بإسناد صحيح عن الوليد بن مسلك، عن ثور بن يزيد، عن عمرو بن قيس إلى عبد الله بن مسعود قال: إن الله يبرز لأهل جنته في كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض، فيكونون في الدنو منه كتسارعهم إلى الجمعة، فيحدث لهم من الحياة والكرامة ما لم يروا قبله.

وروي عن ابن مسعود من وجه ثالث رواه سعيد في سننه: حدثنا فرج بن فضالة، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن مسعود أنه كان يقول: بكروا في الغدو في الدنيا إلى الجمعات؛ فإن الله يبرز لأهل الجنة في كل يوم جمعة على كثيب من كافور أبيض، فيكون الناس منه في الدنو كغدوهم في الدنيا إلى الجمعة.

وهذا الذي أخبر به ابن مسعود أمر لا يعرفه إلا نبي أو من أخذه عن نبي فيعلم بذلك أن ابن مسعود أخذه عن النبي ﷺ ولا يجوز أن يكون أخذه عن أهل الكتاب لوجوه:

أحدها: أن الصحابة قد نهوا عن تصديق أهل الكتاب فيما يخبرونهم به؛ فمن المحال أن يحدث ابن مسعود رضي الله عنه بما أخبر به اليهود على سبيل التعليم ويبني عليه حكمًا.

الثاني: أن ابن مسعود -رضي الله عنه- خصوصًا كان من أشد الصحابة -رضي الله عنهم- إنكارًا لمن يأخذ من أحاديث أهل الكتاب.

الثالث: إن الجمعة لم تشرع إلا لنا، والتبكير فيها ليس إلا في شريعتنا، فيبعد مثل أخذ عن الأنبياء المتقدمين، ويبعد أن اليهودي يحدث بمثل هذه الفضيلة لهذه الأمة، وهم الموصوفون بكتمان العلم والبخل به وحسد هذه الأمة.

ورواه ابن ماجه في سننه من وجه آخر مرفوعًا إلى النبي ﷺ عن علقمة قال: خرجت مع عبد الله بن مسعود إلى الجمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد،

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس يجلسون من الله يوم الجمعة على قدر رواحهم إلى الجمعة الأول والثاني والثالث، ثم قال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد**».

وهذا الحديث مما استدل به العلماء على استحباب التبكير إلى الجمعة، وقد ذكروا هذا المعنى من جملة معاني قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: الآية ١٠] قال بعضهم: السابقون في الدنيا إلى الجمعات هم السابقون في يوم المزيد في الآخرة أو كما قال: فإنه لم يحضرني لفظه، وتأييد ذلك بقول النبي ﷺ المخرج في الصحيحين: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد**» فإنه جعل سبقنا لهم في الآخرة لأجل أنا أوتينا الكتاب من بعدهم فهدينا لما اختلفوا فيه من الحق حتى صرنا سابقين لهم إلى التعبيد، فكما سبقناهم إلى التعبيد في الدنيا نسبقهم إلى كرامته في الآخرة.

وأما حديث أنس -وهو أشهر الأحاديث- فيما يكون يوم الجمعة في الآخرة من زيارة الله ورؤيته وإتيان سوق الجنة، فأصح حديث عنه ما رواه مسلم في صحيحه عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، ﷺ أن رسول الله قال: «**إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا ...**».

وما في هذا الحديث من ازدياد وجوههم حسنًا وجمالًا لا يقتضي انحصار ذلك في الريح، فإن أزواجهم قد ازدادوا حسنًا وجمالًا ولم يشركوهم في الريح؛ بل يجوز أن يكون حصل في الريح زيادة على ما حصل لهم قبل ذلك، ويجوز أن يكون هذا الحديث مختصرًا من بقية الأحاديث بأن سبب الازدياد رؤية الله تعالى مع ما اقترن بها.

وعلى هذا فيمكن أن يكون نساؤهم المؤمنات رأين الله في منازلهن في الجنة رؤية اقتضت زيادة الحسن والجمال إذا كان السبب هو الرؤية كما جاء مفسرًا في أحاديث أخر كما أنهم في الدنيا كان الرجال يروحون إلى المساجد فيتوجهون إلى الله هنا لك، والنساء في بيوتهن يتوجهن إلى الله بصلاة الظهر؛ والرجال يزدادون نورًا في الدنيا بهذه الصلاة، وكذلك النساء يزددن نورًا بصلاتهن، كل بحسبه؛ والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، بل كل عبد يراه مخليًا به في وقت واحد كما جاء في غير حديث، بل قد بين النبي ﷺ أن بعض مخلوقاته -وهو القمر- يراه كل واحد مخليا به إذا شاء.

إذا تلخص ذلك فنقول: الأحاديث الزائدة على هذا الحديث في بعضها ذكر الرؤية في الجمعة وليس فيه ذكر تقدير ذلك بصلاة الجمعة في الدنيا كما في حديث أبي هريرة حديث سوق الجنة، وفي بعضها أنهم يجلسون من الله يوم الجمعة في الآخرة على قدر رواحهم إلى الجمعة في الدنيا، وليس فيه ذكر الرؤية -كما تقدم في حديث ابن مسعود المرفوع- وفي بعضها ذكر الأمرين جميعًا وهي أكثر الأحاديث... [1]

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٠١- ٤٦٠).

وقال: وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح؛ وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول، واتفق عليها أهل السنة والجماعة، وإنما يكذب بها أو يحرفها الجَهْمِيَّة، ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم، الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة[(١)]

وقال: روى ابن بطة بإسناده عن أشهب قال: قال رجل لمالك: يا أبا عبد الله، هل يرى المؤمنون ربَّهم يوم القيامة؟ فقال مالك: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعيِّر الله الكفار بالحجاب. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥]

وعن المزني قال: سمعت ابن أبي هرم يقول: قال الشافعي في كتاب الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥] دلالة على أن أولياءه يرونه على صفته.

وعن حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- يقول: أدركت الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث شيئًا -أحاديث الرؤية- وكانوا يحدثون بها على الجملة، يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين، قال أبو عبد الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥] فلا يكون حجاب إلا لرؤية، فأخبر الله أن من شاء الله ومن أراد؛ فإنه يراه؛ والكفار لا يرونه وقال: قال الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

والأحاديث التي تروى في النظر إلى الله حديث جرير بن عبد الله وغيره «تنظرون إلى ربكم» أحاديث صحاح، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦] النظر إلى الله. قال أبو عبد الله: أحاديث الرؤية. نؤمن بها ونعلم أنها حق ونؤمن بأننا نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب.

قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر وكذب بالقرآن ورد على الله تعالى أمره، يستتاب فإن تاب وإلا قتل. قال حنبل: قلت لأبي عبد الله في أحاديث الرؤية فقال: صحاح، هذه نؤمن بها ونقر بها، وكل ما روي عن النبي ﷺ بإسناد جيد أقررنا به.

قال أبو عبد الله: إذا لم نقر بما جاء عن النبي ﷺ ودفعناه رددنا على الله أمره، قال الله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: الآية ٧]

وكذلك قال أبو عبد الله الماجشون -وهو من أقران مالك- في كلام له: فورب السماء والأرض ليجعل الله رؤيته يوم القيامة للمخلصين ثوابًا، فتنضر بها وجوههم دون المجرمين، وتفلج بها حجتهم على الجاحدين: جهم وشيعته، وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى، ولا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، كيف لم يعتبروا؟! يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥] ؛ أفيظن أن الله يقصيهم ويعنتهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩١).

ويعذبهم بأمر يزعم الفاسق أنه وأولياءه فيه سواء.

ومثل هذا الكلام كثير في كلام غير واحد من السلف، مثل وكيع ابن الجراح وغيره[(١)].

وسيأتي مزيد بيان عند قول الجَهْمِيَّة في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في نصوص الصفات

يرون تأويل النصوص الواردة في الصفات.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما أهل التأويل فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل، ولكن قصد بها معاني، ولم يبين لهم تلك المعاني، ولا دلهم عليها؛ ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها، ومقصوده امتحانهم وتكليفهم، وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه، ويعرف الحق من غير جهته، وهذا قول المتكلمة، والجَهْمِيَّة والمعتزلة، ومن دخل معهم في شيء من ذلك[(٢)].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وجماع الأمر: أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة.

قسمان يقولان: تجري على ظواهرها.

وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها.

وقسمان يسكتون.

أما الأولون فقسمان:

أحدهما: من يجريها على ظاهرها ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين؛ فهؤلاء المشبهة، ومذهبهم باطل، أنكره السلف، وإليهم يتوجه الرد بالحق.

الثاني: من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله، كما يجري ظاهر اسم العليم والقدير، والرب والإله، والموجود والذات ونحو ذلك؛ على ظاهرها اللائق بجلال الله؛ فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق إما جوهر محدَث وإما عرض قائم به.

فالعلم والقدرة، والكلام والمشيئة، والرحمة والرضا، والغضب ونحو ذلك: في حق العبد أعراض، والوجه واليد والعين في حقه أجسام، فإذا كان الله موصوفًا عند عامة أهل الإثبات بأن

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٤٩٩، ٥٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٣٢، ٣٣).

له علمًا وقدرة، وكلامًا ومشيئة -وإن لم يكن ذلك عرضًا يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين- جاز أن يكون وجه الله ويداه صفات ليس أجسامًا، يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين.

وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم، وكلام الباقين لا يخالفه؛ وهو أمر واضح؛ فإن الصفات كالذات. فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات. فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات.

فمن قال: لا أعقل علمًا ويدًا إلا من جنس العلم واليد المعهودين. قيل له: فكيف تعقل ذاتًا من غير جنس ذوات المخلوقين؛ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته؛ فمن لم يفهم من صفات الرب -الذي ليس كمثله شيء- إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه.

وما أحسن ما قال بعضهم: إذ قال لك الجهمي كيف استوى أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا أو كيف يداه ونحو ذلك فقل له: كيف هو في ذاته؟ فإذا قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو، وكنه البارئ تعالى غير معلوم للبشر. فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف؛ فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك.

بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس أنه قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، وقد أخبر الله تعالى: أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، وأخبر النبي ﷺ: أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فإذا كان نعيم الجنة وهو خلق من خلق الله كذلك فما ظنك بالخالق سبحانه وتعالى.

وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها؛ أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى؟ مع أنا نقطع بأن الروح في البدن، وأنها تخرج منه وتعرج إلى السماء؛ وأنها تسل منه وقت النزع كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة، لا نغالي في تجريدها غلو المتفلسفة ومن وافقهم حيث نفوا عنها الصعود والنزول، والاتصال بالبدن والانفصال عنه، وتخبطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص؛ فيكونون قد أخطئوا في اللفظ وأنى لهم بذلك؟!

ولا نقول: إنها مجرد جزء من أجزاء البدن كالدم والبخار مثلًا؛ أو صفة من صفات البدن والحياة، وأنها مختلفة الأجساد، ومساوية لسائر الأجساد في الحد والحقيقة، كما يقول طوائف من أهل الكلام؛ بل نتيقن أن الروح عين موجودة غير البدن؛ وأنها ليست مماثلة له؛ وهي موصوفة بما نطقت به النصوص حقيقة لا مجازًا؛ فإذا كان مذهبنا في حقيقة الروح وصفاتها بين المعطلة والممثلة: فكيف الظن بصفات رب العالمين.

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها أعني الذين يقولون: ليس لها في الباطن مدلول هو صفة الله تعالى قط، وأن الله لا صفة له ثبوتية؛ بل صفاته إما سلبية وإما إضافية وإما مركبة منهما، أو يثبتون بعض الصفات -وهي الصفات السبعة أو الثمانية أو الخمسة عشر- أو يثبتون الأحوال دون الصفات، ويقرون من الصفات الخبرية بما في القرآن دون الحديث، على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين فهؤلاء قسمان:

قسم يتأولونها ويعينون المراد مثل قولهم: استوى بمعنى استولى، أو بمعنى علو المكانة والقدر، أو بمعنى ظهور نوره للعرش، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه؛ إلى غير ذلك من معاني المتكلمين.

وقسم يقولون: الله أعلم بما أراد بها؛ لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمناه.

وأما القسمان الواقفان.

فقوم يقولون: يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز ألا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقوم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات. فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها.

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها؛ القطع بالطريقة الثابتة كالآيات والأحاديث الدالة على أن الله -سبحانه وتعالى- فوق عرشه، ويعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله، بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك، دلالة لا تحتمل النقيض؛ وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلي من الليل قال: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي رواية لأبي داود أنه كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك.

فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين: انفتح له طريق الهدى[1].

وقال: قال أبو عمر بن عبد البر: روينا عن مالك بن أنس، وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة، والأوزاعي ومعمر بن راشد في أحاديث الصفات أنهم كلهم قالوا: أمروها كما جاءت؛ قال

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/١١٣- ١١٨).

أبو عمر: ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات أو جاء عن أصحابه ﷺ فهو علم يدان به، وما أحدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فهو بدعة وضلالة[١]

وقال: وقال القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويل لا يجوز رد هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله، لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد التشبيه فيها؛ لكن على ما روي عن الإمام أحمد وسائر الأئمة.

وذكر بعض كلام الزهري، ومكحول، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والليث، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ووكيع، وعبد الرحمن بن مهدي، والأسود بن سالم، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم في هذا الباب. وفي حكاية ألفاظهم طول. إلى أن قال:

ويدل على إبطال التأويل: أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفوها عن ظاهرها؛ فلو كان التأويل سائغًا لكانوا أسبق إليه، لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة[٢]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشْعَرِيَّة في نصوص الصفات.

- قولهم في أن البارئ قبل الأشياء

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل يقال إن البارئ قبل الأشياء، أو يقال قبل ويُسْكت على ذلك؟ على ثلاث مقالات:

فزعمت الفرقة الأولى منهم وهم العبَّادية أصحاب عبَّاد بن سليمان أن البارئ يقال: إنه قبل، ولا يقال: إنه قبل الأشياء، ولا يقا:ل بعد الأشياء، كما لا يقال: إنه أول الأشياء.

٢- وزعمت الفرقة الثانية منهم -وهم أصحاب أبي الحسين الصالحي- أن البارئ لم يزل قبلُ الأشياء، برفع اللام، قالوا: ولا نقول: لم يزل قبلَ الأشياء، بنصب اللام.

٣- وزعمت الفرقة الثالثة منهم -وهم الأكثرون عددًا- أن البارئ لم يزل قبلَ الأشياء، وإن ذلك يطلق بنصب اللام من قبل[٣]

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٨٩، ٩٠).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٩٦، ١٩٧).

- قولهم في أن الله غير الأشياء

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في القول إن الله غير الأشياء على أربع مقالات:

فقال قائلون: إن البارئ غير الأشياء، وزعموا أن معنى القول في الله إنه شيء أنه غير الأشياء بنفسه، ولا يقال: إنه غيرها لغيريَّة، والقائل بهذا القول عبَّاد بن سلمان.

وقال قائلون: البارئ غير الأشياء، والأشياء غيره، فهو غير الأشياء لنفسه وأنفسها، والقائل بهذا القول الجُبَّائِيّ.

وقال قائلون: إن البارئ غير الأشياء لغيريَّة لا لنفسه، وزعم صاحب هذا القول أن الغيريَّة صفة للبارئ، لا هي البارئ ولا هي غيره، والقائل بهذا القول هو الحلقاني، وكان يزعم أن الجواهر تتغاير بغيريَّة يجوز ارتفاعها فلا تتغاير، وأن الأعراض لا تتغاير، وكان يقول في صفات الإنسان: إنها ليست هي الإنسان ولا هي غيره، كما يقول ذلك في صفات البارئ.

وقال قائلون: قولنا البارئ غير الأشياء إنما معناه أنه ليس هو الأشياء[1]

- قولهم في تسمية البارئ عالمًا، بالاستدلال

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل يجوز أن يسمى البارئ عالمًا مَن استدل على أنه عالم بظهور أفعاله عليه وإن لم يأته السمع من قبل الله سبحانه وتعالى بأن يُسَمِّيه بهذا الاسم أم لا؟ على مقالتين:

فزعمت الفرقة الأولى منهم أنه جائز أن يُسمَّى الله سبحانه عالمًا قادرًا حيًّا سميعًا بصيرًا مَن استدلَّ على معنى ذلك أنه يليق بالله، وإن لم يأت به رسول.

وزعمت الفرقة الثانية منهم أنه لا يجوز أن يسمى الله سبحانه بهذه الأسماء مَن دلَّه العقلُ على معناها، إلا أن يأتيه بذلك رسولٌ من قبل الله سبحانه يأمره بتسميته بهذه الأسماء[2]

- قولهم في قلب الأسماء

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة، هل كان يجوز أن يقلب الله الأسماء فيسمى العالم جاهلًا والجاهل عالمًا أم لم يكن ذلك جائزًا؟ على مقالتين:

فزعمت الفرقة الأولى منهم أن ذلك لم يكن جائزًا، ولا يجوز على وجه من الوجوه، وهذا قول عبَّاد.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٨١، ١٨٢).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٧).

وزعم آخرون أن ذلك جائز، ولو قلب الله سبحانه الأسماء لم يكن ذلك مُسْتَنْكرًا[١]

وقال: واختلفت المعتزلة، هل يجوز اليومَ قلبُ الأسماء واللغة على ما هي عليه أم لا؟ على مقالتين:

فمنهم من أجاز ذلك، ومنهم من أنكره[٢]

وقال: واختلفت المعتزلة هل كان يجوز أن يسمى الله سبحانه نفسه جاهلًا ميتًا عاجزًا على طريق التقليب واللغة على ما هي عليه؟ وهم فرقتان:

فزعمت الفرقة الأولى منهم أن ذلك لا يجوز، وأنه لا يجوز أن يسمى الله نفسه على طريق القلب.

وزعمت الفرقة الثانية منهم أن ذلك جائز، ولو فعل ذلك لم يكن مستنكرًا، وهو قول الصالحي[٣]

- قولهم في خلق الأعراض

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل البارئ قادر على خلق الأعراض؟ وهم فرقتان:

١- فزعم فريق منهم أن الله يقدر على خلق الأعراض وإنشائها.

٢- وزعمت فرقة أخرى منهم وهم أصحاب معمر أنه لا يجوز أن يخلق الله عرضًا ولا يوصف بالقدرة على خلق الأعراض[٤]

- قولهم في جواز كون ما علم أنه لا يكون

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في جواز كون ما علم الله أنه لا يكون، على أربعة أقاويل:

١- فقال أكثر المعتزلة: ما علم الله سبحانه أنه لا يكون لاستحالته أو العجز عنه فلا يجوز كونه مع استحالته ولا مع العجز عنه، ومن قال: يجوز أن يكون المعجوز عنه، بأن يرتفع العجز عنه وتحدث القدرة عليه، فيكون الله عالمًا بأنه يكون، يذهب هذا القائل بقوله: يجوز إلى أن الله قادر على ذلك، فقد صدق، وما علم الله سبحانه أنه لا يكون لترك فاعله له، فمن قال: يجوز أن يكون بألا يتركه فاعله ويفعل أخذه بدلًا من تركه، ويكن الله عالمًا بأنه يفعله، يريد بقوله يجوز يقدر

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٩٧).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٩٨).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٩٨).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٩٨، ١٩٩)، (٥٤٨، ٥٤٩).

فذلك صحيح.

٢- وقال علي الإسْوَاري: ما علم الله سبحانه أنه لا يكون لم نقل: إنه يجوز أن يكون، إذا قرنًا ذلك بالعلم بألا يكون.

٣- وقال عبَّاد: قول من قال: يجوز أن يكون ما علم الله سبحانه أنه لا يكون، فهو كقوله: يكونُ ما علم الله أنه لا يكون، أو من قال: يجوز أن يكون ما علم الله أنه لا يكون؛ لأن معنى يجوز عنده معنى الجواز.

٤- وقال الجُبَّائيُّ: ما علم الله سبحانه أنه لا يكون وأخبر أنه لا يكون فلا يجوز أن يكون عند من صدَّق بأخبار الله، وما علم أنه لا يكون ولم يخبر بأنه لا يكون فجائز عندنا أن يكون، وتجويزنا لذلك هو الشك في أن يكون أو لا يكون؛ لأن يجوز عنده في اللغة على وجهين: بمعنى الشك، وبمعنى يحل(١).

- قولهم في علم الله على شرط

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلف المتكلمون أن يكون علم الله على شرطٍ، على مقالتين:

فقال كثير من المتكلمين من معتزلة البصريين والبغداذيين إلا هشامًا وعبَّادًا: إن الله يعلم أنه يعذب الكافر إن لم يتُب من كفره وأنه لا يعذبه إن تاب من كفره ومات تائبًا غير مُتَجَانِفٍ لإثم.

وقال هشام الفُوَطِيُّ وعباد: لا يجوز ذلك؛ لما فيه من الشرط، والله عز وجل لا يجوز أن يوصف بأنه يعلم على شرط ويخبر على شرط،

وجوَّز مخالفوهم [أن يوصف الله بأنه يخبر] على شرط، والشرط في المُخْبَر عنه، ويعلم على شرط والشرط في المعلوم(٢).

- قولهم في المعلومات والمعدوم، وقدم العالم

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة في البارئ عز وجل، هل يقال: إنه لم يزل عالمًا بالأجسام؟ وهل المعلومات معلومات قبل كونها؟ وهل الأشياء أشياء لم تزل أن تكون؟ على سبع مقالات:

١- فقال هشام بن عمرو الفُوَطِي: لم يزل الله عالمًا قادرًا، وكان إذا قيل له: لم يزل الله عالمًا بالأشياء؟ قال: لا أقول: لم يزل عالمًا بالأشياء، وأقول: لم يزل عالمًا أنه واحد لا ثاني له، فإذا قلت: لم يزال عالمًا بالأشياء ثبتها لم تزل مع الله عز وجل، وإذا قيل له: أفتقول: إن الله لم يزل

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٥، ٢٠٦)، (٥٦٢، ٥٦٣).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٨٢، ١٨٣).

عالمًا بأن ستكون الأشياء؟ قال: إذا قلت: بأن ستكون، فهذه إشارة إليها، ولا يجوز أن أشير إلا إلى موجود، وكان لا يسمي ما لم يخلقه الله ولم يكن شيئًا، ويسمي ما خلقه الله وأعدمه شيئًا، وهو معدوم.

٢- وكان أبو الحسين الصالحي يقول: إن الله لم يزل عالمًا بالأشياء في أوقاتها، ولم يزل عالمًا أنها ستكون في أوقاتها، ولم يزل عالمًا بالأجسام في أوقاتها، وبالمخلوقات في أوقاتها، ويقول: لا معلوم إلا موجود، ولا يسمي المعدومات معلومات، ولا يسمي ما لم يكن مقدورًا، ولا يسمي الأشياء أشياء إلا إذا وجدت، ولا يسميها أشياء إذا عدمت.

٣- وقال عباد بن سليمان: لم يزل الله عالمًا بالمعلومات، ولم يزل عالمًا بالأشياء، ولم يزل عالمًا بالجواهر والأعراض، ولم يزل عالمًا بالأفعال، ولم يزل عالمًا بالخلق، ولم يقل: إنه لم يزل عالمًا بالأجسام، ولم يقل: إنه لم يزل عالمًا بالمفعولات، ولم يقل: إنه لم يزل عالمًا بالمخلوقات، وقال في أجناس الأعراض كالألوان والحركات والطعوم: إنه لم يزل عالمًا بألوان وحركات وطعوم، وأجرى هذا القول في سائر أجناس الأعراض، وكان يقول: المعلومات معلومات لله قبل كونها، وإن المقدورات مقدورات قبل كونها، وإن الأشياء أشياء قبل أن تكون، وكذلك الجواهر جواهر قبل أن تكون، وكذلك الأعراض أعراض قبل أن تكون، والأفعال أفعال قبل أن تكون، ويُحيل أن تكون الأجسام أجسامًا قبل كونها، والمخلوقات مخلوقات قبل أن تكون، والمفعولات مفعولاتٍ قبل أن تكون، وفعل الشيء عنده وغيره، وكذلك خلقه غيره، وكان إذا قيل له: أتقول: هذا الشيء الموجود هو الذي لم يكن موجودًا؟ قال: لا أقول ذلك، وإذا قيل له: أتقول: إنه غيره؟ قال: لا أقول ذلك.

٤- وقال قائلون منهم ابن الراوندي: إن الله سبحانه لم يزل عالمًا بالأشياء، على معنى أنه لم يزل عالمًا أن ستكون أشياء، وكذلك القول عنده في الأجسام والجواهر المخلوقات: إن الله لم يزل عالمًا بأن ستكون الأجسام والجواهر المخلوقات، وكان يقول: إن المعلومات معلوماتٌ لله قبل كونها وإن إثباتها معلوماتٍ لله قبل كونها رجوعٌ إلى أن الله يعلمها قبل كونها، وإثباتُ المعلومِ معلومًا لزيد قبل كونه رجوعٌ إلى علم زيد به قبل كونه، وأن المقدورات مقدوراتٌ لله قبل كونها علىَ سبيل ما حكينا عنه أنه قاله في المعلومات، وكذلك كل ما تعلق بغيره كالمأمور به إنما هو مأمور به لوجود الأمر، والمنهي عنه لوجود النهي كان منهيًا عنه، وكذلك المراد لوجود إرادته كان مرادًا، فهو مراد قبل كونه، ويرجع في ذلك إلى إثبات الإرادة قبل كونه، وكذلك القول في المأمور والمنهي وسائر ما يتعلق بغيره، وكان يزعم أن الأشياء إنما هي أشياء إذا وجدت، ومعنى أنها أشياء أنها موجودات، وكذلك كل اسم لأشياء لا تتعلق بغيرها، وهو رجوع إليها وخبر عنها، فلا يجوز أن تسمى به قبل وجودها ولا في حال عدمها.

٥- وقال قائلون من البغداديين: نقول: إن المعلومات معلوماتٌ قبل كونها، وكذلك

المقدورات مقدورات قبل كونها، وكذلك الأشياء أشياء قبل كونها، ومنعوا أن يقال: أعراض.

٦- وقال محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائيُّ: أقول: إن الله سبحانه لم يزل عالمًا بالأشياء والجواهر والأعراض، وكان يقول: إن الأشياء تعلم أشياء قبل كونها، وتسمى أشياء قبل كونها، وأن الجواهر تسمى جواهر قبل كونها، وكذلك الحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والإرادات، وكان يقول: إن الطاعة تسمى طاعة قبل كونها، وكذلك المعصية تسمى معصية قبل كونها، وكان يقسم الأسماء على وجوه، فما سمي به الشيء لنفسه فواجب أن يسمى به قبل كونه؛ كالقول سوادٌ إنما سمي سوادًا لنفسه، وكذلك البياض، وكذلك الجوهر إنما سمي جوهرًا لنفسه، وما سمي به الشيء؛ لأنه يمكن أن يذكر ويخبر عنه، فهو مسمى بذلك قبل كونه كالقول شيء، فإن أهل اللغة سموا بالقول شيء كل ما أمكنهم أن يذكروه ويخبروا عنه، وما سمي به الشيء للتفرقة بينه وبين أجناس أخر، كالقول لونٌ وما أشبه ذلك، فهو مسمى بذلك قبل كونه، وما سمي به الشيء لعلة فوجدت العلة قبل وجوده فواجب أن يسمى بذلك قبل وجوده، كالقول مأمور به، إنما قيل: مأمور به لوجود الأمر به، فواجب أن يسمى مأمورًا به في حال وجود الأمر، وإن كان غير موجود في حال وجود الأمر، وكذلك ما سمي به الشيء لوجود علة يجوز وجودها قبله، وما سمي به الشيء لحدوثه؛ ولأنه فعل، فلا يجوز أن يسمى بذلك قبل أن يحدث، كالقول مفعولٌ ومحدثٌ، وما سمي به الشيء لوجود علة فيه فلا يجوز أن يسمى به قبل وجود العلة فيه، كالقول جسمٌ وكالقول متحرك، وما أشبه ذلك، وكان ينكر قول من قال: الأشياء أشياء قبل كونها، ويقول: هذه عبارة فاسدة؛ لأن كونها هو وجودها، ليس غيرها، فإذا قال القائل: الأشياء أشياء قبل كونها، فكأنه قال: أشياء قبل أنفسها.

٧- وقال قائلون: لم يزل الله يعلم عوالم وأجسامًا لم يخلقها، وكذلك لم يزل يعلم أشياء وجواهر وأعراضًا لم تكن ولا تكون، ولا نقول: لم يزل يعلم مؤمنين وكافرين وفاعلين، ولكن نقول: إن كل شيء يقدر الله أن يبتدئه بصفة من الصفات فهو يعلمه بتلك الصفة إذا كانت تلك الصفة مقدورة له إذ كان لم يزل مقدورًا له، قالوا: ويستحيل أن يقال للإنسان: مؤمن في حال كونه أو كافر، فلما استحال أن يوصف به في حال كونه، فمستحيل أن يوصف به قبل كونه، ولما كان الله سبحانه قد يبتدئه جسمًا طويلًا قيل: جسم طويل مقدور، وهذا قول الشحَّام، وقد ناقض هؤلاء؛ لأن الجسم في حال كونه موجودٌ مخلوق، وهم لا يقولون: إنه موجود مخلوق قبل كونه.

وقال قائلون: لم يزل الله يعلم أجسامًا لم تكن ولا تكون، ويعلم مؤمنين لم يكونوا وكافرين لم يخلقوا، ومتحركين وساكنين مؤمنين وكافرين، ومتحركين وساكنين في الصفات قبل أن يخلقوا، وقاسوا قولهم حتى قالوا: معلومون معذبون بين أطباق النيران في الصفات، وأن المؤمنين مثابون ممدوحون منعَّمون في الجنان في الصفات، لا في الوجود، إذ كان الله قادرًا، أن يخلق من يطيعه فيثيبه ومن يعصيه فيعاقبه مقدور معلوم.

وبلغني عن أنيب بن سهل الخراز أنه كان يقول: مخلوق في الصفات قبل الوجود، ويقول: موجود في الصفات [١].

وقال الإسفراييني: ومما اتفق جميعهم غير الصالحي من فضائحهم قولهم: إن المعدوم شيء، حتى قالوا: إن الجوهر قبل وجوده جوهر، والعرض عرض، والسواد سواد، والبياض بياض، ويقولون: إن هذه الصفات كلها متحققة قبل الوجود، وإذا وجد لم يزدد في صفاته شيء، بل هو الجوهر والعرض، والسواد في حال الوجود على حقائقها المتحققة في حال العدم، وهذا منهم تصريح بقدم العالم، ومن كان قوله في الصانع على ما وصفناه، وفي الصفة على ما ذكرناه، لم يبق له اعتقاد صحيح، ولم يكن دعواه في التلبس بالديانة إلا تلبيسًا منه على أهل الديانة ليسلم من سيوف المسلمين المسلطة عليهم إلى يوم القيامة [٢].

وقال البغدادي: سائر المعتزلة سوى الصالحي يزعمون أن الحوادث كلها كانت قبل حدوثها أشياء، والبصريون منهم يزعمون أن الجواهر والأعراض كانت في حال عدمها جواهر وأعراضًا وأشياء [٣].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إن المعدوم شيء ثابت في العدم، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة.

وأول من ابتدع هذه المقالة في الإسلام: أبو عثمان الشَّحَّام شيخ أبي علي الجُبَّائِيِّ، وتبعه عليها طوائف من القَدَرِيَّة المبتدعة من المعتزلة والرافضة، وهؤلاء يقولون: إن كل معدوم يمكن وجوده، فإن حقيقته وماهيته وعينه ثابتة في العدم؛ لأنه لولا ثبوتها لما تميز عن المعلوم المخبر عنه من غير المعلوم المخبر عنه، ولما صح قصد ما يراد إيجاده؛ لأن القصد يستدعي التميز، والتميز لا يكون إلا في شيء ثابت...

وهؤلاء القائلون بأن المعدوم شيء ثابت في العدم -سواء قالوا بأن وجودها خلق لله أو هو الله- يقولون: إن الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة، وإن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته، وقد يقولون: الوجود صفة للموجود.

وهذا القول وإن كان فيه شبه بقول القائلين بقدم العالم، أو القائلين بقدم مادة العالم وهيولاه المتميزة عن صورته، فليس هو إياه، وإن كان بينهما قدر مشترك، فإن هذه الصورة المحدثة من الحيوانات والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء، بل هي كائنة بعد أن لم تكن.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٥٨- ١٦٣).

(٢) التبصير في الدين ص(٦٣).

(٣) الفرق بين الفرق ص(١٣٣).

وكذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السماوات، والاستحالات القائمة بالعناصر، من حركات الكواكب، والشمس والقمر والسحاب والمطر، والرعد والبرق وغير ذلك، كل هذا حادث غير قديم، عند كل ذي حس سليم؛ فإنه يرى ذلك بعينه.

والذين يقولون بأن عين المعدوم ثابتة في القدم أو بأن مادته قديمة يقولون بأن أعيان جميع هذه الأشياء ثابتة في القدم، ويقولون: إن مواد جميع العالم قديمة دون صوره.

واعلم أن المذهب إذا كان باطلًا في نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصورًا حقيقيًا؛ فإن هذا لا يكون إلا للحق، فأما القول الباطل فإذا بين فبيانه يظهر فساده، حتى يقال: كيف اشتبه هذا على أحد؟! ويتعجب من اعتقادهم إياه، ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس، ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨]، وأنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٩]، وأنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٠]، وأنهم ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾، وأنهم ﴿فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٤٥]، وأنهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٤].

وإنما نشأ -والله أعلم- الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أن الله -سبحانه- يعلم ما لم يكن قبل كونه -أو- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: الآية ٨٢]، فرأوا أن المعدوم الذي يخلقه يتميز في علمه وإرادته وقدرته؛ فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة، وليس الأمر كذلك.

وإنما هو متميز في علم الله وكتابه، والواحد منا يعلم الموجود، والمعدوم الممكن، والمعدوم المستحيل، ويعلم ما كان كآدم والأنبياء، ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ كما يعلم ما أخبر به عن أهل النار ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعَام: الآية ٢٨]، وأنهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٢٣]، وأنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٢]، وأنه ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٢]، وأنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبَة: الآية ٤٧]، وأنه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النُّور: الآية ٢١]، ونحو ذلك من الجمل الشرطية التي يعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته.

فهذه الأمور التي نعلمها نحن ونتصورها: إما نافين لها، أو مثبتين لها في الخارج، أو مترددين، ليس بمجرد تصورنا لها يكون لأعيانها ثبوت في الخارج عن علمنا وأذهاننا، كما نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق، وإنسانًا من ذهب وفرسًا من حجر، فثبوت الشيء في العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه في الخارج، بل العالم يعلم الشيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته في الخارج ثبوت ولا وجود أصلًا.

وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ

قال: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**».

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: رب وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»، وقال ابن عباس: إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتابًا، فكان كتابًا، ثم أنزل تصديق ذلك في كتابه فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: الآية ٧٠]

وهذا هو معنى الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبيًّا؟ وفي رواية: متى كتبت نبيًّا؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**»، هكذا لفظ الحديث الصحيح.

وأما ما يرويه هؤلاء الجهال: كابن عربي في الفصوص وغيره من جهال العامة: كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين، كنت نبيًّا وآدم لا ماء ولا طين، فهذا لا أصل له، ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين، ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ، بل هو باطل، فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط، فإن الله خلقه من تراب، وخلط التراب بالماء حتى صار طينًا، وأيبس الطين حتى صار صلصالًا كالفخار، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والطين، ولو قيل: بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال، مع أن هذه الحال لا اختصاص لها، وإنما قال: بين الروح والجسد، وقال: وإن آدم لمنجدل في طينته؛ لأن جسد آدم بقي أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: الآية ١] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ [الحجر: الآية ٢٨] الآيتين، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السّجدة: الآية ٧] الآيتين، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: الآية ٧١] الآية، الأحاديث في خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة في كتب الحديث والتفسير وغيرهما.

فأخبر ﷺ أنه كان نبيًّا -أي كتب نبيًّا- وآدم بين الروح والجسد، وهذا -والله أعلم- لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذي يكون بأيدي ملائكة الخلق، فيقدر لهم، ويظهر لهم، ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه، كما أخرج الشيخان في الصحيحين وفي سائر الكتب الأمهات: حديث الصادق المصدوق، وهو من الأحاديث المستفيضة، التي تلقاها أهل العلم بالقبول، وأجمعوا على تصديقها، وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح**»، وقال: «**فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون

بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة».

فلما أخبر الصادق المصدوق: أن الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح، وآدم هو أبو البشر، كان أيضًا من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم، فهو أعظم الذرية قدرًا، وأرفعهم ذكرًا.

فأخبر ﷺ أنه كتب نبيًا حينئذ، وكتابة نبوته هو معنى كون نبوته، فإنه كون في التقدير الكتابي، ليس كونًا في الوجود العيني، إذ نبوته لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى على رأس أربعين سنة من عمره ﷺ، كما قال تعالى له: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: الآية ٥٢] الآية، وقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝﴾ [الضحى: الآية ٦] الآية، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: الآية ٣] الآية.

ولذلك جاء هذا المعنى مفسرًا في حديث العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إني عبد الله، مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام»**، هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب.

حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرباض، رواه البغوي في شرح السنة هكذا، ورواه الليث بن سعد عنه نحوه، ورواه الإمام أحمد في المسند عن ابن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، بالإسناد، عن العرباض قال: قال رسول الله: **«إني عبد الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت»**، وكذلك أمهات النبيين يرين، وقوله: **«لمنجدل في طينته»**، أي ملتف ومطروح على وجه الأرض، صورة من طين، لم تجر فيه الروح بعد.

وقد روي أن الله كتب اسمه على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق، وروي في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التي تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ.

وقد تقدم لفظ الحديث الذي في المسند عن ميسرة الفجر لما قيل له: متى كنت نبيًّا؟ قال: **«وآدم بين الروح والجسد»**، وقد رواه أبو الحسين بن بشران من طريق الشيخ أبي الفرج بن الجوزي في (الوفا بفضائل المصطفى)، حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، ثنا محمد بن صالح، ثنا محمد بن سنان العوفي، ثنا إبراهيم بن طهمان، عن يزيد بن ميسرة، عن عبد الله بن سفيان، عن ميسرة قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبيًّا؟ قال: **«لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، وخلق العرش: كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى: نظر إلى العرش فرأى**

اسمي، فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعنا باسمي إليه».

وروى أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة، ومن طريق الشيخ أبي الفرج، حدثنا سليمان بن أحمد، ثنا أحمد بن رشدين، ثنا أحمد بن سعيد الفهري، ثنا عبد الله بن إسماعيل المدني، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال: يا رب بحقِّ محمدٍ إلا غفرت لي، فأوحى إليه وما محمد؟ ومن محمد؟ فقال: يا رب إنك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك، فقال: نعَم، قد غفرت لك، وهو آخر الأنبياء من ذريتك، ولولاه ما خلقتك»، فهذا الحديث يؤيد الذي قبله، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة.

وفى الصحيحين عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق، وهو بحراء، فأتاه الملك فقال له: اقرأ، قال: لست بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: لست بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: لست بقارئ، ثم أخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره... الحديث بطوله.

فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئًا، وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبيًّا، ثم أنزل عليه سورة المدثر وبها صار رسولًا لقوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾[المدَّثر: الآية ٢]، ولهذا ذكر سبحانه في هذه السورة الوجود العيني والوجود العلمي، وهذا أمر بين يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه إلى سمع، فإن الشيء لا يكون قبل كونه.

وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها: فهذا حق لا ريب فيه، وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وجاءت به الآثار.

.وهذا العلم والكتاب: هو القدر الذي ينكره غالية القَدَرِيَّة، ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها، وهم كفار كفرهم الأئمة؛ كالشافعي وأحمد وغيرهما.

وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر، وأجاب النبي عن السؤال الوارد عليه، وهو ترك العمل لأجله، فأجاب ﷺ عن ذلك ففي الصحيحين عن على بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد -أو قال: ما من نفس منفوسة- إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة» قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع

العمل، فمن كان من أهلَ السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر؛ أما أهل السعادة فيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيسرون لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾[الليل: الآية ٥] إلى آخر الآيات.

وفى رواية كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسًا وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» قالوا: يا رسول الله، ففيمَ العمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾[الليل: الآية ٥] الآية.

وفى الصحيحين أيضًا عن عمران بن حصين قال: قيل يا رسول الله، أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «نعم» قال: فقيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «كل ميسر لما خلق له»، وفي رواية: أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟ فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾»

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم قال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: «وعرشه على الماء».

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: رب ما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني» ورواه الترمذي من وجه آخر عن الوليد بن عبادة أنه قال: دعاني -يعني: أباه- عند الموت فقال: يا بني، اتق الله، واعلم أنك إن تتق الله تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله، خيره وشره، وإن مت على غير هذا دخلت النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد».

وفي الترمذي أيضًا عن أبي حرانة عن أبيه أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله تعالى شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله».

لكن إنما ثبتت في التقدير المعدوم الممكن الذي سيكون، فأما المعدوم الممكن الذي لا يكون

فمثل إدخال المؤمنين النار وإقامة القيامة قبل وقتها، وقلب الجبال يواقيت، ونحو ذلك، فهذا المعدوم ممكن وهو شيء ثابت في العدم عند من يقول المعدوم شيء، ومع هذا فليس بمقدر كونه، والله يعلمه على ما هو عليه، يعلم أنه ممكن وأنه لا يكون.

وكذلك الممتنعات مثل شريك الباريء وولده، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ويعلم أنه ليس له شريك في الملك ولا وليٌّ من الذل، ويعلم أنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

وهذه المعدومات الممتنعة: ليست شيئًا باتفاق العقلاء مع ثبوتها في العلم، فظهر أنه قد ثبت في العلم ما لا يوجد وما يمتنع أن يوجد إذ العلم واسع؛ فإذا توسع المتوسع وقال المعدوم شيء في العلم أو موجود في العلم أو ثابت في العلم فهذا صحيح، أما أنه في نفسه شيء فهذا باطل؛ وبهذا تزول الشبهة الحاصلة في هذه المسألة.

والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف: أن المعدوم ليس في نفسه شيئًا وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم، قال الله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[مريم: الآية ٩] فأخبر أنه لم يك شيئًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾[مريم: الآية ٦٧] وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الطور: الآية ٣٥]

فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم أم خلقوا هم أنفسهم؛ ولهذا قال جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة أحسست بفؤادي قد انصدع. ولو كان المعدوم شيئًا لم يتم الإنكار إذا جاز أن يقال ما خلقوا إلا من شيء، لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئًا معدومًا. وقال تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[مريم: الآية ٦٠] ولو كان المعدوم شيئًا لكان التقدير: لا يظلمون موجودًا ولا معدومًا، والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم.

وأما قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: الآية ١] فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ليس إخبارًا عن الزلزلة في هذه الحال؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[الحج: الآية ٢] ولو أريد به الساعة لكان المراد به أنها شيء عظيم في العلم والتقدير.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[النحل: الآية ٤٠] قد استدل به من قال المعدوم شيء وهو حجة عليه؛ لأنه أخبر أنه يريد الشيء وأنه يكونه، وعندهم أنه ثابت في العدم وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه، والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكون، وهذا من فروع هذه المسألة.

فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة، وأن ماهية كل شيء

عين وجوده، وأنه ليس وجود الشيء قدرًا زائدًا على ماهيته، بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائدًا على ذلك.

وأولئك يقولون: الوجود قدر زائد على الماهية، ويقولون: الماهيات غير مجعولة، ويقولون: وجود كل شيء زائد على ماهيته، ومن المتفلسفة من يفرق بين الوجود والواجب والممكن فيقول: الوجود الواجب عين الماهية. وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية. وشبهة هؤلاء ما تقدم من أن الإنسان قد يعلم ماهية الشيء ولا يعلم وجوده، وأن الوجود مشترك بين الموجودات، وماهية كل شيء مختصة به.

ومن تدبر تبين له حقيقة الأمر، فإنا قد بينا الفرق بين الوجود العلمي والعيني؛ وهذا الفرق ثابت في الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك، فثبوت هذه الأمور في العلم والكتاب والكلام: ليس هو ثبوتها في الخارج عن ذلك، وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التي هي هي، فالإنسان إذا تصور ماهية فقد علم وجودها الذهني، ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقي الخارجي. فقول القائل: قد تصورت حقيقة الشيء وعينه، ونفسه وماهيته، وما علمت وجوده، أو حصل وجوده العلمي، وما حصل وجوده العيني الحقيقي، ولم يعلم ماهيته الحقيقية، ولا عينه الحقيقية، ولا نفسه الحقيقية الخارجية، فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته إلا أن أحد اللفظين قد يعبر به عن الذهني، والآخر عن الخارجي، فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود.

وأما قولهم: إن الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها فالقول فيه كذلك فإن الوجود المعين الموجود في الخارج لا اشتراك فيه، كما أن الحقيقة المعينة الموجودة في الخارج لا اشتراك فيها، وإنما العلم يدرك الموجود المشترك.

كما يدرك الماهية المشتركة، فالمشترك ثبوته في الذهن لا في الخارج، وما في الخارج ليس فيه اشتراك ألبتة، والذهن إن أدرك الماهية المعينة الموجودة في الخارج لم يكن فيها اشتراك، وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة، وليس في الخارج شيء مطلق عام بوصف الإطلاق والعموم، وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق وذلك لا يوجد في الخارج إلا معينًا.

فينبغي للعاقل أن يفرق بين ثبوت الشيء ووجوده في نفسه، وبين ثبوته ووجوده في العلم، فإن ذاك هو الوجود العيني الخارجي الحقيقي، وأما هذا فيقال له الوجود الذهني والعلمي، وما من شيء إلا له هذان الثبوتان فالعلم يعبر عنه باللفظ ويكتب اللفظ بالخط فيصير لكل شيء أربع مراتب: وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في البنان، وجود عيني، وعلمي، ولفظي، ورسمي.

ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ [العَلق: الآية ١] ذكر فيها النوعين فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾ فذكر جميع المخلوقات بوجودها العيني عمومًا ثم خصوصًا، فخص الإنسان بالخلق بعد ما عم غيره، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

ﭐلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم، وذكر القلم؛ لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ فإن الخط يطابقه، وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم؛ لأن العبارة تطابق المعنى

فصار تعليمه بالقلم مستلزمًا للمراتب الثلاث: اللفظي، والعلمي، والرسمي؛ بخلاف ما لو أطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعبًا للمراتب.

فذكر في هذه السورة الوجود العيني والعلمي وأن الله سبحانه هو معطيهما فهو خالق الخلق وخالق الإنسان، وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان.

فأما إثبات وجود الشيء في الخارج قبل وجوده فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع وهو مخالف للكتاب والسنة والإجماع[1]

- قولهم في كل معلومات ومقدورات الله، وحركات أهل الجنة، وفناء نعيم وعذاب الجنة والنار.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في معلومات الله عز وجل ومقدوراته، هل لها كل أو لا كل لها؟ على مقالتين:

١- فقال أبو الهذيل: إن لمعلومات الله كلًّا وجميعًا، ولما يقدر الله عليه كل وجميع، وإن أهل الجنة تتقطع حركاتهم يسكنون سكونًا دائمًا.

٢- وقال أكثر أهل الإسلام: ليس لمعلومات الله ولا لما يقدر عليه كل ولا غاية[2]

- قولهم في وجود ضد الشيء عند وجود الشيء

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلة على أن الشيء إذا وُجد فوجود ضده في تلك الحال محال.

وقال أكثرهم: إن الكافر تارك للإيمان في حال ما هو كافر.

وأحالوا جميعًا البدل في الموجود.

- واختلفوا هل يقال: لو كان الشيء في حالِ كَوْنِ ضدِّه، أم لا يقال؟

فقال جعفر بن حرب والإسكافي: قد يقال: لو كان الكفار آمنوا في حال كفرهم بدلًا من كفرهم الواقع لكان خيرًا لهم ولا نقول: إنه يجوز أن يؤمنوا في حال كفرهم على وَجْهٍ من الوجوه، كما نقول في الكفر الماضي: لو كان هذا الكافر آمَنَ أمس بدلًا من كفره لكان خيرًا له، ولا يجوز الإيمان بدلًا من الكفر الماضي.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/١٤٣- ١٥٩)، (٢/ ٣٧٢)، (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، (٨/ ١٨٢، ١٨٣، ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٦٣).

وأحال غيرهم من المعتزلة أن يقال: (لو كان الشيء) على معنى لو كان وقد كان ضِدُّه.

فقالوا جميعًا إلا الجُبَّائِيّ: إنه قد يجوز أن يكون الشيء في الوقت الثاني بدلًا من ضده، وإن كان ضده مما يكون في الثاني، وإذا أجزنا ذلك فإنما نجيز البدل مما لم يكن.

وقالوا: جائز أن يترك في الوقت الثاني قبل مجيء الوقت ما علم الله سبحانه أنه يكون في الوقت، ولو كان ذلك مما يترك لم يكن كان سابقًا في العلم أنه يكون، ولم يكن تاركًا لما يكون، وهذا قول الجُبَّائِيّ عبَّادٍ.

وقال الجُبَّائِيُّ: ما علم الله أنه يكون في الوقت الثاني، أو في وقتٍ من الأوقات، وجاءنا الخبر بأنه يكون؛ فلسنا نجيز تركه على وجه من الوجوه؛ لأن التجوز لذلك هو الشكُّ والشك في إخبار الله كفر.

قال: ما علم الله سبحانه أنه يكون فمستحيل قول القائل: لو كان مما يترك لم يكن العلم سابقًا بأنه يكون...

وأجاز أكثر المعتزلة ألا يكون ما أخبر الله أنه يكون وعلم أنه يكون بألا يكون كان علم وأخبر أنه يكون(١).

- قولهم في البَدَاء والنسخ

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واتفقت المعتزلة على أن الباريءَ سبحانه ليس بذي علم مُحْدَثٍ يعلم به، ولا يجوز أن تبدوَ له البَدَوات، ولا يجوز على أخباره النسخ؛ لأن النسخ لو جاز على الأخبار لكان إذا أَخْبَرَنَا أن شيئًا يكون، ثم نَسَخَ ذلك بأن أخبر أنه لا يكون؛ لكان لا بدَّ من أن يكون أحد الخبرين كذبًا، قالوا: وإنما الناسخ والمنسوخ في الأمر والنهي(٢).

- قولهم في ماهية الله

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلة على إنكار القول بالماهية، وأن لله ماهية لا يعلمها العباد، وقالوا: اعتقاد ذلك في الله سبحانه خطأ وباطل(٣).

وقال شيخ الإسلام: قول المعتزلة أن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته(٤).

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٤٤، ٢٤٥)، (٥٦٣).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٦).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٩١).

- قولهم في هل يقال: إن الله محبل؟

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفت المعتزلة هل يقال: إن البارئ مُحْبِل أم لا؟ وهم فرقتان:

١- فزعمت فرقة منهم أن البارئ بخلق الحبل محبل، والقائل بهذا القول الجُبَّائِيّ ومن قال بقوله.

٢- وزعمت فرقة أخرى منهم أن البارئ لا يجوز أن يكون محبلًا بخلق الحبل، كما لا يكون والدًا بخلق الولد[١].

- قولهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلةُ إلا «الأصم» على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة: باللسان، واليد، والسيف، كيف قدروا على ذلك[٢].

وقال الملطي عنهم: وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على جميعِ الناسِ وهكذا جميع الأممِ فرض[٣]

وقال: وقالوا في إنكار المنكر الذي يجب على الرجل إذا رأى المنكر الذي يجب فرض رده عليه أن ينكره بما قدر عليه، فإن لم يقدر على إنكاره بأشد الأمور وإلا أنكره فبقلبه ولا شيء عليه إذا لم يقدر على تغييره[٤].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: معلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به؛ ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر.

وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع؛ فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرِك واجب وفُعِل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٩٤، ١٩٥).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٨).
(٣) التنبيه والرد ص(٣٦).
(٤) التنبيه والرد ص(٣٧).

هداهم. وهذا معنى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: الآية ١٠٥] والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال.

وذلك يكون تارة بالقلب؛ وتارة باللسان، وتارة باليد. فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: **«وذلك أدنى -أو أضعف- الإيمان»**. وقال: **«ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**. وقيل لابن مسعود: من ميت الإحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان.

وهنا يغلط فريقان من الناس:

فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلًا لهذه الآية؛ كما قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- في خطبته: إنكم تقرءون هذه الآية ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: الآية ١٠٥] وأنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**.

والفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقًا، من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها رسول الله ﷺ قال: **«بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرًا لا يدان لك به، فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائك أيام الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله»**. فيأتي بالأمر والنهي معتقدًا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتد في حدوده، كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء؛ كالخوارج والمعتزلة والرافضة، وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك، وكان فساده أعظم من صلاحه؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة؛ ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال: **«أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم»** وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة، وأما أهل الأهواء -كالمعتزلة- فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم، ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة «التوحيد» الذي هو سلب الصفات؛ و«العدل» الذي هو التكذيب بالقدر؛ و«المنزلة بين المنزلتين» و«إنفاذ الوعيد» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذي منه قتال الأئمة.

وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع، وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت والمصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنًا

تحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له؛ فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورًا به؛ بل يكون محرمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته؛ لكن اعتبار مقادير والمصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما؛ بل إما أن يفعلوهما جميعًا أو يتركوهما جميعًا لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر؛ بل ينظر: فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر. ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات، وإن كان المنكر أغلب نهى عنه؛ وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف؛ ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرًا بمنكر وسعيًا في معصية الله ورسوله، وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي؛ حيث كان المعروف والمنكر متلازمين؛ وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقًا، وينهى عن المنكر مطلقًا، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها ويحمد محمودها ويذم مذمومها؛ بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية؛ وإذا تركها كان عاصيًا، فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية. وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله [(١)].

- قولهم في الخروج على الأئمة

أقوال العلماء

قال السكسكي عما أجمعت عليه المعتزلة: ورأوا الخروج على السلطان وترك طاعتهم له [(٢)].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الخروج على الأئمة.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٦- ١٣٠).
(٢) البرهان ص(٥٠).

- قولهم فيمن جالس السلطان

أقوال العلماء

قال الإسفراييني عن المردار منهم: وكان يقول: إن كل من جالس السلاطين فهو كافر لا يرث المسلمين ولا يرثه المسلمون.

والباقون من المعتزلة كانوا يقولون: إن من جالس السلطان فهو فاسق، لا مؤمن ولا كافر، خالد مخلد في النار، وهذا خلاف قول المسلمين قبلهم وخلاف أصول أهل السنة[1]

وقال البغدادي: وكان المردار مع ضلالته يقول بتكفير من لابس السلطان، ويزعم أنه لا يرث ولا يورث، وكان أسلافه من المعتزلة يقولون -فيمن لابس السلطان من موافقيهم في القدر والاعتزال-: إنه فاسق لا مؤمن ولا كافر وأفتى المردار بأنه كافر[2]

- قولهم في الجسم والجوهر الفرد

أكثرهم على أن الجسم مركب من الجواهر الفردة، وأن الجوهر الفرد هو الجزء الذي لا يتجزأ الذي يتناهى، إلا النَّظَّام منهم فأثبت أنه يتجزأ ولا يتناهى.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: اختلف المتكلمون في الجسم ما هو، على اثنتي عشرة مقالة

واختلف الناس في الجوهر، وفي معناه، على أربعة أقاويلَ...

واختلفوا في الجوهر: هل هي كلها أجسام، أو قد يجوز وجود جواهر ليست بأجسام على ثلاثة أقاويل:...

واختلفوا في الجواهر: هل يجوز على جميعها ما يجوز على بعضها؟

وهل يجوز أن يحل الجوهر الواحد ما يجوز أن يحل الجواهر جميعها؟

وهل يجوز وجودها ولا إعراض فيها أم يستحيل ذلك؟...

واختلف الناس في الجسم: هل يجوز أن يتفرق أو يبطل ما فيه من الاجتماع حتى يصير جزءًا، أم لا يتجزأ ذلك؟ وفيما يحل في الجسم؟ على أربع عشرة مقالة...[3]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وحقيقة الأمر أن لفظ «الجسم» فيه منازعات لفظية ومعنوية. والمنازعات اللفظية غير معتبرة في المعاني العقلية.

---

(١) التبصير في الدين ص(٧٧، ٧٨).

(٢) الفرق بين الفرق ص(١٧٨، ١٧٩).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٣٠١- ٣١٨).

وأما المنازعات المعنوية فمثل تنازع الناس فيما يُشار إليه إشارة حسية: هل يجب أن يكون مركبًا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو لا يجب واحد منهما.

فذهب كثير من النظار من المعتزلة والأشْعَرِيَّة ومن وافقهم إلى أنه لا بد أن يكون مركبًا من الجواهر الفردة، ثم جمهور هؤلاء قالوا: إنه مركب من جواهر متناهية، وقال بعض النظار: بل من جواهر غير متناهية.

وذهب كثير من النظار من المتفلسفة إلى أنه يجب أن يكون مركبًا من المادة والصورة. ثم من الفلاسفة من طرد هذا في جميع الأجسام كابن سينا، ومنهم من قال: بل هذا في الأجسام العنصرية دون الفلكية، وزعم أن هذا قول أرسطو والقدماء.

وكثير من المصنفين لا يذكر إلا هذين القولين، ولهذا كان من لم يعرف إلا هذه المصنفات لا يعرف إلا هذين القولين.

والقول الثالث: قول جماهير العقلاء وأكثر طوائف النظار: أنه ليس مركبًا لا من هذا ولا من هذا، وهذا قول ابن كُلَّاب إمام الأشعري وغيره، وهو قول كثير من الكَرَّامِيَّة، وهو قول الهشامية والنجارية والضرارية.

ثم هؤلاء منهم من قال: ينتهي بالتقسيم إلى جزء لا يتجزأ، كقول الشهرستاني وغيره. ومنهم من قال: بل لا يزال قابلًا للانقسام إلى أن يصغر فيستحيل معه تميز بعضه عن بعض، كما قال ذلك من قال من الكَرَّامِيَّة وغيرهم من نظَّار المسلمين، وهو قول من قاله من أساطين الفلاسفة، مع قول بعضهم: إنه مركب من المادة والصورة.

وبعض المصنفين في الكلام يجعل إثبات الجوهر الفرد هو قول المسلمين، وأن نفيه هو قول الملحدين.

وهذا لأن هؤلاء لم يعرفوا من الأقوال المنسوبة إلى المسلمين إلا ما وجدوه في كتب شيوخهم أهل الكلام المحدَث في الدين الذي ذمه السلف والأئمة، كقول أبي يوسف: من طلب العلم بالكلام تزندق، وقول الشافعي: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام، وكقول أحمد بن حنبل: علماء الكلام زنادقة، وقوله: ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح، وأمثال ذلك.

وإلا فالقول بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة قول لا يُعرف عن أحد من أئمة المسلمين، لا من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين. بل القائلون بذلك يقولون: إن الله تعالى لم يخلق منذ خلق الجواهر المنفردة شيئًا قائمًا بنفسه. لا سماء ولا أرضًا، ولا حيوانًا ولا نباتًا، ولا معادن، ولا إنسانًا ولا غير إنسان، بل إنما يحدث تركيب تلك الجواهر القديمة فيجمعها ويفرقها، فإنما يحدث أعراضًا قائمة بتلك الجواهر، لا أعيانا قائمة بأنفسها. فيقولون: إنه إذا خلق السحاب والمطر والإنسان، وغيره من الحيوان والأشجار والنبات

والثمار، لم يخلق عينًا قائمة بنفسها، وإنما خلق أعراضًا قائمة بغيرها.

وهذا خلاف ما دل عليه السمع والعقل والعيان، ووجود جواهر لا تقبل القسمة منفردة عن الأجسام مما يُعلم بطلانه بالعقل والحس، فضلًا عن أن يكون الله تعالى لم يخلق عينًا قائمة بنفسها إلا ذلك. وهؤلاء يقولون: إن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض، بل الجواهر التي كانت مثلًا في الأول هي بعينها باقية في الثاني، وإنما تغيرت أعراضها.

وهذا خلاف ما أجمع عليه العلماء -أئمة الدين وغيرهم من العقلاء- من استحالة بعض الأجسام إلى بعض، كاستحالة الإنسان وغيره من الحيوان بالموت ترابًا، واستحالة الدم والميتة والخنزير وغيرها من الأجسام النجسة ملحًا أو رمادًا، واستحالة العَذِرات ترابًا، واستحالة العصير خمرًا، ثم استحالة الخمر خلًّا، واستحالة ما يأكله الإنسان ويشربه بولًا ودمًا وغائطًا ونحو ذلك.

وقد تكلم علماء المسلمين في النجاسة: هل تطهر بالاستحالة أم لا؟ ولم ينكر أحد منهم الاستحالة.

ومثبتة الجوهر الفرد قد فرَّعوا عليه من المقالات التي يعلم العقلاء فسادها ببديهة العقل ما ليس هذا موضع بسطه، مثل تفليك الرحى والدولاب والفلك وسائر الأجسام المستديرة المتحركة، وقول من قال منهم: إن الفاعل المختار يفعل كلما تحرَّكت، ومثل قول كثير منهم: إن الإنسان إذا مات فجميع جواهره باقية قد تفرقت، ثم عند الإعادة يجمعها الله تعالى.

ولهذا صار كثير من حُذَّاقهم إلى التوقف في آخر أمرهم، كأبي الحسين البصري وأبي المعالي الجويني وأبي عبد الله الرازي، وكذلك ابن عقيل والغزالي وأمثالهما من النظار الذين تبين لهم فساد أقوال هؤلاء، يذمون أقوال هؤلاء يقولون: إن أحسن أمرهم الشك، وإن كانوا قد وافقوهم في كثير من مصنفاتهم على كثير مما قالوه من الباطل، وبسط الكلام على فساد قول القائلين بتركيب الجواهر الفردة المحسوسة أو الجواهر المعقولة له موضع آخر[(١)]

وقال: إن للناس في هذا المقام أقوالًا:

أحدها: قول من يقول: إنها مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة كما هو قول أكثر المعتزلة ومن وافقهم من الأشْعَرِيَّة وموافقيهم.

والثاني: قول من يقول: إنها مركبة من جواهر لا نهاية لها كما هو قول النَّظَّام ومتبعيه.

والثالث: قول من يقول إنها مركبة من المادة والصورة وإنها تقبل الانقسام إلى غير نهاية، كما هو قول ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة.

والرابع: قول من يقول: إنها ليست مركبة من هذا ولا هذا لكن تقبل الانقسام إلى جوهر لا

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٣٦- ١٤١)، مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٢٠- ٣٢٤).

يتجزأ كما هو قول الشهرستاني وغيره.

والخامس: قول من يقول: إنها ليست مركبة لا من هذا ولا هذا ولا تقبل الانقسام إلى جزء لا يتجزأ ولا إلى غير غاية لكن كل جزء موجود فإنه يقبل الانقسام العقلي ولا يقبل الانقسام الفعلي، ولكنه يستحيل إذا تصغر كما تفسد وتستحيل أجزاء المادة إذا صغرت فتصير هواء فلا يكون في الأجزاء ما لا يتميز يمينه عن شماله ولا يكون فيها ما يقبل الانقسام إلى غير غاية.

وهؤلاء تخلصوا من هذا المحذور وهذا المحذور فإن مثبتة الجزء الذي لا ينقسم ألزمهم الناس بأنه لا بد أن يتميز أحد جانبيه عن الآخر وما كان كذلك فهو يقبل الانقسام المتنازع فيه.

وألزموهم أنه إذا وضع بين جوهرين فإن لاق هذا بعين ما لاق به هذا امتنع كونه بينهما وإن لاق هذا بغير ما لاق به هذا لزم انقسامه.

وألزموهم من هذا الجنس إلزامات لا محيد لهم عنها.

ومن نفاه وقال بأنه يمكن انقسام الأجسام إلى غير نهاية ألزمهم الناس أن يكون الجسم الصغير كالكبير وأن يكون ما لا يتناهى محصورًا بين حاصرين، ثم إما أن يقول هي غير متناهية مع وجودها كما يقوله النَّظَّام والتزم على ذلك أن الظافر لا يحاذي ما تحته من الأجزاء لئلا يقع ما لا يتناهى تحت ما يتناهى وصار الناس يقولون عجائب الكلام طفرة النَّظَّام وأحوال أبي هاشم وكسب الأشعري ولهم في ذلك من الكلام ما يطول وصفه، أو يقول: إن الانقسام إلى غير غاية ممكن فيها كما يقوله المتفلسفة كابن سينا وأمثاله.

ولما كان كل من القولين معلوم الفساد بالضرورة قول من أثبت ما لا يتميز بعضه عن بعض ومن أثبت ما ينقسم إلى غير نهاية توقف من توقف من أفاضل النظار فيه فتوقف فيه أبو الحسين البصري وأبو المعالي الجويني في بعض كتبه وأبو عبد الله الرازي في نهايته

فهؤلاء الذين لم يثبتوا إمكان الانقسام إلى غير غاية ولا أثبتوا ما لا يقبل امتياز بعضه عن بعض خلصوا من هذا وهذا وقالوا: إنه إذا صغر استحال إلى غيره مع امتياز بعضه عن بعض لو بقي موجودًا

وبالجملة نفي هذا وهذا قول طوائف كثيرة من أهل النظر من الكلابية والكَرَّامِيَّة بل والهاشمية والنجارية والضرارية وغيرهم.

وما زال السلف والأئمة وغيره من عقلاء الناس ينكرون على هؤلاء ما تكلموا به في الجوهر والجسم ويعدون هذا من الكلام الباطل(١)

وسيأتي مزيد بيان عند قول النجارية والضرارية والأشْعَرِيَّة في الجسم والجوهر الفرد.

(١) درء التعارض (٣/ ٤٤٢، ٤٤٤)، (١/ ٣٠٣)، (٤/ ١٨٣- ١٨٦).

- قولهم في الاستدلال على وجود الله عز وجل

يستدلون على وجود الله عز وجل بحدوث العالم، والاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام.

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في دلالة الأعراض وأفعال العباد على مقالتين:

فمنهم من زعم أنها تدل على حدوث الجسم.

وأبَى هشامٌ وعَبَّادٌ أن يكون ذلك على الله عز وجل[١].

وقال شيخ الإسلام: سبب الافتقار إلى الصانع، هل هو الحدوث فقط كما تقوله المعتزلة[٢].

وقال: غالب المتكلمين يعتقدون أن الله لا يعرف إلا بإثبات حدوث العالم، ثم الاستدلال بذلك على محدثه، ثم لهم في إثبات حدوثه طرق: فأكثرهم يستدلون بحدوث الأعراض؛ وهي صفات الأجسام، ثم القَدَرِيَّة من المعتزلة وغيرهم يعتقدون أن إثبات الصانع، والنبوة: لا يمكن إلا بعد اعتقاد أن العبد هو المحدث لأفعاله، وإلا انتقض الدليل، ونحو ذلك من الأصول التي يخالفهم فيها جمهور المسلمين.

وجمهور هؤلاء المتكلمين المستدلين على حدوث الأجسام بحدوث الحركات: يجعلون هذا هو الدليل على نفي ما دل عليه ظاهر السمعيات، من أن الله يجيء وينزل ونحو ذلك.

والمعتزلة وغيرهم يجعلون هذا هو الدليل على أن الله ليس له صفة؛ لا علم، ولا قدرة، ولا عزة، ولا رحمة، ولا غير ذلك؛ لأن ذلك بزعمهم أعراض تدل على حدوث الموصوف[٣].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: الاستدلال على حدوث العالم بحدوث «الإعراض» التي هي صفات الأجسام القائمة بها: إما الأكوان، وإما غيرها، وتقرير المقدمات التي يحتاج إليها هذا الدليل: من إثبات «الأعراض» التي هي الصفات أولًا، أو إثبات بعضها كالأكوان التي هي الحركة، والسكون، والاجتماع، والافتراق، وإثبات حدوثها ثانيًا بإبطال ظهورها بعد الكمون وإبطال انتقالها من محل إلى محل -ثم إثبات امتناع خلو الجسم ثالثًا؛ إما عن كل جنس من أجناس الأعراض: بإثبات أن الجسم قابل لها، وأن القابل للشيء لا يخلو عنه، وعن ضده؛ وإما عن الأكوان -وإثبات امتناع حوادث لا أول لها رابعًا، وهو مبني على مقدمتين:

إحداهما: إن الجسم لا يخلو عن الأعراض التي هي الصفات.

والثانية: أن ما لا يخلو عن الصفات التي هي الأعراض فهو محدث؛ لأن الصفات التي هي الأعراض لا تكون إلا محدثة، وقد يفرضون ذلك في بعض الصفات التي هي الأعراض

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٩)، (٢/ ٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢، ٢٣).

كالأكوان، وما لا يخلو عن جنس الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا تتناهى.

فهذه الطريقة مما يعلم بالاضطرار أن محمدًا ﷺ لم يدع الناس بها إلى الإقرار بالخالق ونبوة أنبيائه ولهذا قد اعترف حذاق أهل الكلام كالأشعري وغيره بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرمة عندهم. بل المحققون على أنها طريقة باطلة، وأن مقدماتها فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدعي بها مطلقًا. ولهذا تجد من اعتمد عليها في أصول دينه فأحد الأمرين له لازم؛ إما أن يطلع على ضعفها ويقابل بينها وبين أدلة القائلين بقدم العالم فتكافأ عنده الأدلة، أو يرجح هذا تارة وهذا تارة كما هو حال طوائف منهم.

وإما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل. كما التزم جهم لأجلها فناء الجنة والنار، والتزم أبو الهُذَيْل لأجلها انقطاع حركات أهل الجنة، والتزم قوم لأجلها -كالأشعري وغيره- أن الماء والهواء والنار له طعم ولون وريح ونحو ذلك، والتزم قوم لأجلها، وأجل غيرها: أن جميع «الأعراض» كالطعم واللون وغيرهما لا يجوز بقاؤها بحال؛ لأنهم احتاجوا إلى جواب النقض الوارد عليهم لما أثبتوا الصفات لله مع الاستدلال على حدوث الأجسام بصفاتها فقالوا: صفات «الأجسام» أعراض أي أنها تعرض وتزول فلا تبقى بحال بخلاف صفات الله فإنها باقية، وأما جمهور عقلاء بني آدم فقالوا: هذه مخالفة للمعلوم بالحس.

والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم لأجلها نفي صفات الرب مطلقًا، أو نفي بعضها؛ لأن الدال عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيام الصفات بها والدليل يجب طرده، والتزموا حدوث كل موصوف بصفة قائمة به وهو أيضًا في غاية الفساد والضلال؛ ولهذا التزموا القول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة، وعلوه على عرشه. إلى أمثال ذلك من اللوازم التي التزمها من طرد مقدمات هذه الحجة التي جعلها المعتزلة، ومن اتبعهم أصل دينهم.

فهذه داخلة فيما سماه هؤلاء أصول الدين؛ ولكن ليست في الحقيقة من أصول الدين الذي شرعه الله لعباده.

وأما الدين الذي قال الله فيه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: الآية ٢١] فذاك له أصول وفروع بحسبه[(١)]

وقال: إثبات الصانع في القرآن بنفس آياته، التي يستلزم العلم بها العلم به، كاستلزام العلم بالشعاع العلم بالشمس، من غير احتياج إلى قياس كلي يقال فيه: وكل محدَث فلا بد له من محدِث، أو كل ممكن فلا بد له من مرجح، أو كل حركة فلا بد لها من علة غائية أو فاعلية، ومن غير احتياج إلى أن يقال: سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث فقط -كما تقوله المعتزلة؟ أو الإمكان- كما يقوله الجمهور؟ حتى يرتبون عليه أن الثاني حال باقية مفتقر إلى الصانع، على

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٣- ٣٠٥)، (٥/ ٥٤٠- ٥٥٠)، درء التعارض (١/ ٣٨- ٤١).

القول الثاني الصحيح دون الأول، فإني قد بسطت هذا الموضع في غير هذا المكان، وبينت ما هو الحق، من أن نفس الذوات المخلوقة مفتقرة إلى الصانع، وأن فقرها وحاجتها إليه وصف ذاتي لهذه الموجودات المخلوقة، كما أن الغنى وصف ذاتي للرب الخالق، وأنه لا علة لهذا الافتقار غير نفس الماهية، وعين الإِنِّيِةِ. كما أنه لا علة لغناه غير نفس ذاته.

فلك أن تقول: لا علة لفقرها، وغناه؛ إذ ليس لكل أمر علة، فكما لا علة لوجوده، وغناه: لا علة لعدمها إذا لم يشأ كونها، ولا لفقرها إليه إذا شاء كونها، وإن شئت أن تقول: علة هذا الفقر، وهذا الغنى: نفس الذات، وعين الحقيقة.

ويدل على ذلك أن الإنسان يعلم فقر نفسه، وحاجتها إلى خالقه، من غير أن يخطر بباله أنها ممكنة، والممكن الذي يقبل الوجود، والعدم، أو أنها محدثة والمحدث المسبوق بالعدم، بل قد يشك في قدمها، أو يعتقده، وهو يعلم فقرها، وحاجتها إلى بارئها، فلو لم يكن للفقر إلى الصانع علة إلا الإمكان أو الحدوث، لما جاز العلم بالفقر إليه؛ حتى تعلم هذه العلة؛ إذ لا دليل عندهم على الحاجة إلى المؤثر إلا هذا.

وحينئذ: فالعلم بنفس الذوات المفتقرة، والإنيات المضطرة توجب العلم بحاجتها إلى بارئها، وفقرها إليه؛ ولهذا سماها الله آيات. فهذان مقامان:

أحدهما: أنها مفتقرة إلى المؤثر الموجب أو المحدث لهاتين العلتين.

الثاني: أن كل مفتقر إلى المؤثر: الموجب، أو المُحدِث؛ فلا بد له منه. وهو كلام صحيح في نفسه؛ لكن ليس الطريق مفتقرًا إليه، وفيه طول وعقبات، تبعد المقصود.

أما المقام الأول: فالعلم بفقرها غير مفتقر إلى دليل على ذلك من إمكان أو حدوث.

وأما الثاني: فإن كونها مفتقرة إليه غير مفتقر إلى أن يستدل عليه بقياس كلي: من أن كل ممكن فلا بد له من موجب، وكل محدَث فلا بد له من محدِث؛ لأنها آية له يمتنع أن تكون دونه أو أن تكون غير آية له.

والقلب بفطرته يعلم ذلك؛ وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث.

والنكتة أن وصف الإمكان، والحدوث، لا يجب أن يعتبره القلب لا في فقر ذواتها، ولا في أنها آية لباريها؛ وإن كانا وصفين ثابتين. وهما أيضًا دليل صحيح؛ لكن أعيان الممكنات آية لعين خالقها الذي ليس كمثله شيء، بحيث لا يمكن أن يقع شركة فيه.

وأما قولنا كل ممكن فله مرجح، وكل محدَث فله محدِث: فإنما يدل على محدِث، ومرجح، وهو وصف كلي يقبل الشركة؛ ولهذا القياس العقلي لا يدل على تعين وإنما يدل على الكلي المطلق فلا بد إذًا من التعيين، فالقياس دليل على وصفية مطلقة كلية.

وأيضًا فإذا استدل على الصانع بوصف إمكانها، أو حدوثها، أو هما جميعًا لم يفتقر ذلك إلى

قياس كلي؛ بأن يقال: وكل محدَث فلا بد له من محدِث، أو كل ممكن فلا بد له من مرجح، فضلًا عن تقرير هاتين المقدمتين، بل علم القلب بافتقار هذا الممكن، وهذا المحدث كعلمه بافتقار هذا الممكن، وهذا المحدث. فليس العلم بحكم المعينات مستفادًا من العلم الكلي الشامل لها؛ بل قد يكون العلم بحكم المعين في العقل قبل العلم بالحكم الكلي العام. كما أن العلم بأن العشرة ضعف الخمسة: ليس موقوفًا على العلم بأن كل عدد له نصفية، فهو ضعف نصفيه.

وعلى هذا جاء قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطُّور: الآية ٣٥]؟ قال جبير بن مطعم: لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع. وهو استفهام إنكار، يقول: أوُجِدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن، ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه، لا يحتاج أن يستدل عليه: بأن كل كائن محدث، أو كل ممكن لا يوجد بنفسه، ولا يوجد من غير موجِد، وإن كانت هذه القضية العامة، النوعية، صادقة؛ لكن العلم بتلك المعينة الخاصة إن لم يكن سابقًا لها فليس متأخرًا عنها؛ ولا دونها في الجلاء.

وقد بسطت هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ وذكرت دعوة الأنبياء عليهم السلام، أنه جاء بالطريق الفطرية كقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]، وقول موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرّعد: الآية ١٦]، وقوله في القرآن: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ بين أن نفس هذه الذوات آية لله؛ كما أشرنا إليه أولًا من غير حاجة إلى ذينك المقامين، ولما بخهم بين حاجتهم إلى الخالق بنفوسهم؛ من غير أن تحتاج إلى مقدمة كلية هم فيها وسائر أفرادها سواء؛ بل هم أوضح[(١)]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشْعَريَّة في الاستدلال على وجود الله عز وجل.

- قولهم في عذاب القبر

ينكرون عذاب القبر

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: وأنكروا عذاب القبر أيضًا، وأنكروا قول عمر: إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر، مع اتفاق أهل النقل على روايته هذا الخبر على الاستفاضة، وقول جميع المسلمين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠١]، وفي عذاب القبر قد بلغت الأخبار حد التواتر في المعنى، وإن كان كل واحد منها لم يبلغ حد التواتر في اللفظ، فأنكروا ما في ذلك من نصوص القرآن كقوله تعالى في صفة آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: الآية ٤٦][(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٩- ١٢).

(٢) التبصير في الدين ص(٦٧).

وقال الإيجي: وأنكره أكثر المتأخرين من المعتزلة[١].

وقال شيخ الإسلام عن الثواب والعقاب في البرزخ: لكن من أهل الكلام من يقول: هذا إنما يكون على البدن فقط، كأنه ليس عنده نفس تفارق البدن، كقول من يقول ذلك من المعتزلة والأشْعَرِيَّة[٢]

وقال: والقول الثالث الشاذ. قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم القيامة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة، ونحوهم، الذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه، بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأنَّ البدن لا ينعم ولا يعذب[٣].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في عذاب القبر.

- قولهم في وجود الجنة والنار

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: المعتزلة لا يكفِّرون من قال بوجودهما، وإن كانوا ينكرون وجودهما الآن[٤]

قال البغدادي عن فضائح الفُوَطِي: قوله بتكفير من قال: إن الجنة والنار مخلوقتان، وأخلافه من المعتزلة شكوا في وجودهما اليوم، ولم يقولوا بتكفير من قال: إنهما مخلوقتان[٥]

وقال الشهرستاني عن هشام بن عمر الفُوَطِي: ومن بدعه أنَّ الجنَّة والنار ليستا مخلوقتين الآن، إذ لا فائدة في وجودهما، وهما جميعًا خاليتان ممن ينتفع ويتضرر بهما، وبقيت هذه المسألة منه اعتقادًا للمعتزلة[٦]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الجَهْمِيَّة في خلق الجنة والنار.

---

(١) المواقف (٣/ ٥١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤).

(٤) التبصير في الدين ص(٧٦، ٧٧).

(٥) الفرق بين الفرق ص(١٧٧).

(٦) الملل والنحل (١/ ٧٣).

- قولهم في الثواب في الدنيا

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: القولُ في الثوابِ في الدنيا، اختلفت المعتزلة في ذلك على مقالتين:

١- فقال إبراهيم النَّظَّام: لا يكون الثواب إلا في الآخرة، وإن ما يفعله الله سبحانه بالمؤمنين في الدنيا من المحبة والولاية ليس بثواب؛ لأنه إنما يفعله بهم ليزدادوا إيمانا وليمتحنهم بالشكر عليه.

٢- وقال سائر المعتزلة: إن الثواب قد يكون في الدنيا، وإن ما يفعله الله سبحانه من الولاية والرضا على المؤمنين فهو ثواب(١).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم: إن عبادته تكليف ومشقة، وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم؛ فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠] الآية، وقال ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك» فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي، وإنما وقع ضمنًا وتبعًا لأسباب ليس هذا موضعها وهذا يفسر في موضعه.

وهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح: أنه تكليف كما يُطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقه؛ وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي؛ كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦] ، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: الآية ٨٤] ، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: الآية ٧] أي وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفًا، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبدًا. قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥] فهذا أصل(٢).

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥، ٢٦).

- قولهم في المفاضلة بين الملائكة والناس

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت أن الملائكة أفضل من الأنبياء(١)

قال شيخ الإسلام: وذهبت المعتزلة إلى تفضيل الملائكة على البشر(٢)

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الصُوفيَّة في المفاضلة بين الأولياء والنبيين والملائكة.

- قولهم في النبوات

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: وأجمعت المعتزلة بأجمعها أنه لا يجوز قول النبي إلا بحجة وبرهان، وأنه لا تلزم شرائعه إلا من شاهد أعلامه، وانقطع عذره ممن بلغه شرائع الرسول ﷺ، وأجمعوا جميعًا أن الناس محجوجون بعقولهم: من بلغه خبر الرسول، ومن لم يبلغه.

وأجمعت المعتزلة على أنه لا يجوز أن يبعث الله نبيًّا يكفر ويرتكب كبيرة، ولا يجوز أن يبعث نبيًّا كان كافرًا أو فاسقًا.

وأجمعت المعتزلة على أنه جائز أن يبعث نبيًّا إلى قوم دون قوم...

وأجمعت أن معاصي الأنبياء لا تكون إلا صغارًا.

- واختلفوا هل يجوز أن يأتي النبي المعاصي؟ وهل يعلم أنها معاص في حال ارتكابها؟ أم لا على مقالتين:

١- فقال قائلون: لا يجوز أن يعلم في حال ارتكابه المعاصي أن ما يأتيه معصية ويعتمد ذلك.

٢- وقال قائلون: جائز أن يعتمد ويركبها، وهو يعلم أنها معاص، إلا أنها لا تكون إلا صغائر...

- واختلفت المعتزلة هل النبوة جزاء أم لا؟

فقال قائلون: هي ثواب وجزاء.

وقال قائلون: ليست بجزاء ولا ثواب(٣)

وقال الإسفراييني عنهم: ثم زادوا على هذا ما هو أفضح منه فأنكروا من مفاخر رسول الله ﷺ ما كان مختصًا به زائدًا على الأنبياء، كوجود المعراج، وثبوت الشفاعة له يوم القيامة، ووجود

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٣٥٦).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٦، ٢٢٧).

حوض الكوثر، وأنكروا ما ورد في هذه الأبواب من الآثار والأخبار(١).

نقض قولهم

تقدم بعض بيان ذلك عند قول الرافضة في عصمة الأنبياء، وسيأتي بعض بيانه عند قول الأشْعَرِيَّة في النبوات.

- قولهم في الصحابة

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: والمعتزلة أيضًا تفسق من الصحابة والتابعين طوائف، وتطعن في كثير منهم وفيما رووه من الأحاديث التي تخالف آراءهم وأهواءهم، بل تكفر أيضًا من يخالف أصولهم التي انتحلوها من السلف والخلف، فلهم من الطعن في علماء السلف وفي علمهم ما ليس لأهل السنة والجماعة.

وليس انتحال مذهب السلف من شعائرهم وإن كانوا يقررون خلافة الخلفاء الأربعة، ويعظمون من أئمة الإسلام وجمهورهم ما لا يعظمه أولئك، فلهم من القدح في كثير منهم ما ليس هذا موضعه، وللنَّظَّام من القدح في الصحابة ما ليس هذا موضعه(٢).

وقال: وإن لم يكن تكفيرًا للسلف -كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج- ولا تفسيقًا لهم، كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم(٣).

نقض قولهم

تقدم بيانِ ذلك عند قول الرافضة في الصحابة.

- قولهم في خلافة وتصويب عليٍّ بن أبي طالب

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: اضطرب الناس في خلافة عليٍّ على أقوال:

وقالت طائفة ثالثة: بل عليٌّ هو الإمام، وهو مصيب في قتاله لمن قاتله، وكذلك من قاتله من الصحابة كطلحة والزبير كلهم مجتهدون مصيبون، وهذا قول من يقول: كل مجتهد مصيب، كقول البصريين من المعتزلة: أبي الهُذَيْل، وأبي عليٍّ، وأبي هاشم، ومن وافقهم من الأشْعَرِيَّة: كالقاضي أبي بكر، وأبي حامد، وهو المشهور عن أبي الحسن الأشعري، وهؤلاء أيضًا يجعلون معاوية مجتهدًا مصيبًا في قتاله، كما أن عليًّا مصيب...

(١) التبصير في الدين ص(٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٤، ١٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧).

وطائفة من المعتزلة تقول: قد فسق، إما هو، وإما مَن قاتله، لكن لا يعلم عينه.

وطائفة أخرى منهم تفسق معاوية وعمرًا دون طلحة والزبير وعائشة[(١)]

وقال: والقول الثاني: إن كلًّا منهما مصيب، وهذا بناء على قول من يقول: كل مجتهد مصيب، وهو قول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشْعَرِيَّة[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في تصويب عليٍّ بن أبي طالب.

- قولهم في الإجماع

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن الإجماع: وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة[(٣)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في الإجماع.

- قولهم في المجتهدين

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما من قال من الجَهْمِيَّة ونحوهم: إنه قد يعذب العاجزين، ومن قال من المعتزلة ونحوهم من القَدَرِيَّة: إن كل مجتهد فإنه لا بد أن يعرف الحق، وأن من لم يعرفه فلتفريطه، لا لعجزه، فهما قولان ضعيفان، وبسببهما صارت الطوائف المختلفة من أهل القبلة يكفر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا[(٤)]

- قولهم في محكم القرآن ومتشابهه

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: اختلفت المعتزلة في محكم القرآن ومتشابهه:

فقال واصل بن عطاء وعمر بن عبيد: المحكمات ما أعلم الله سبحانه من عقابه للفساق؛ كقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: الآية ٩٣] ، وما أشبه ذلك من آي الوعيد، وقوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: الآية ٧] ، نقول: أخفى الله عن العباد عقابه عليها، ولم يبين أنه يعذب عليها كما بين في المحكم منه.

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٥٣٧- ٥٤٤)، (٤/٣٨٨- ٣٩٣)، (٤/ ٤٠١- ٤٢٦)، (٤/٤٤٧- ٤٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٤١).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٦٣).

وقال أبو بكر الأصم: محكمات، يعني حججًا واضحة لا حاجة لمن يتعمد إلى طلب معانيها كنحو ما أخبر الله سبحانه عن الأمم التي مضت ممن عاقبها، وما يثبت عقابها، وكنحو ما أخبر عن مشركي العرب أنه خالقهم من النطفة، وأنه أخرج لهم من الماء فاكهة وأبًا، وما أشبه ذلك؛ فهذا محكم كله، فقال قال الله سبحانه: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[آل عِمرَان: الآية ٧] ؛ أي الأصل الذي لو فكرتم فيه عرفتم أن كل شيء جاءكم به محمد ﷺ حق من عند الله سبحانه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾[آل عِمرَان: الآية ٧] وهو كنحو ما أنزل الله من أنه يبعث الأموات، ويأتي بالساعة، وينتقم ممن عصاه، أو ترك آية أو نسخها مما لا يدركونه إلا بالنظر، فيتركون هذا ويقولون: ائتنا بعذاب الله، في كل هذا عليهم شبهة حتى يكون منهم النظر فيعلمون أن لله أن يعذبهم متى شاء، وينقلهم إلى ما شاء.

وقال الإسكافي في قول الله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾[آل عِمرَان: الآية ٧] ، قال: هي التي لا تأويل لها غير تنزيلها، ولا يحتمل ظاهرها الوجوه المختلفة ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾[آل عِمرَان: الآية ٧] وهي الآيات التي يحتمل ظاهرها في السمع المعاني المختلفة.

وذهب بعض الناس في قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾[آل عِمرَان: الآية ٧] إلى ما اشتبه على اليهود من قول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١﴾[البَقَرَة: الآية ١] ، و﴿الٓمٓرۚ﴾[الرّعد: الآية ١] ، و﴿الٓرۚ﴾[الحِجر: الآية ١] ، و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾[الأعرَاف: الآية ١]

وذهب بعضهم إلى اشتباه القصص التي في القرآن.

- واختلفوا في تأويل قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[آل عِمرَان: الآية ٧]

فقال قائلون: ليس يعلم تأويل المتشابه إلا الله، ولم يطلع عليه أحدًا.

وقال قائلون: قد يعلمه الراسخون في العلم، وإن هذا القول عطف، واحتجوا بقول الشاعر:

لريح يبكى شجوه والبرق يلمع في غمامه

قالوا: فالبرق معطوف على الريح[(١)]

- قولهم في إعجاز القرآن

أقوال العلماء

قال الأشعريُّ: واختلفوا في نظم القرآن: هل هو معجز أم لا؟ على ثلاثة أقاويل:

١- فقالت المعتزلة إلا النَّظَّام وهشامًا الفُوَطِي وعباد بن سليمان: تأليف القرآن ونظمه معجز، محال وقوعه منهم؛ كاستحالة إحياء الموتى منهم، وأنه علم لرسول الله ﷺ.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٢- ٢٢٤).

٢- وقال النَّظَّام: الآية الأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم.

٣- وقال هشام وعباد: لا نقول: إن شيئًا من الأعراض يدل على الله سبحانه، ولا نقول: أيضا أن عرضًا يدل على نبوة النبي ﷺ، ولم يجعلا القرآن علمًا للنبي ﷺ، وزَعَمَا أن القرآن أعراض[1]

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٥، ٢٢٦).

الباب الرابع
المرجئة

وهو يحتوي على أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريفُ المرجئةِ.

الفصل الثاني: نشأةُ المرجئةِ.

الفصل الثالث: فِرَقَ المرجئةِ.

الفصل الرابع: مَقَالَاتُ المرجئةِ.

الفصل الأول
التعريف بالمرجئة

ذكر العلماء لهم تعريفات عديدة، منها:

١- هم الذين يؤخرون العمل عن الإيمان.

وهذا تعريف ابن حزم، والإسفراييني، والبغدادي، والسكسكي وقد جعلهم الذين يؤخرون القول والعمل جميعًا. وهو تعريف أكثر العلماء.

٢- هم الذين يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وهذا تعريف الإسفراييني، وكثير من العلماء.

٣- هم الذين يؤخِّرون حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار.

وهذا تعريف المعتزلة، على ما ذكره الماتريدي عنهم[1]

٤- هم الذين يؤخِّرون عليًّا رضي الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة.

وقد ذكر الشهرستانيُّ هذه الأقوال الأربعة فقال: الإرجاء على معنيين:

أحدهما: بمعنى التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١]، أي: أمهله وأخِّره.

والثاني: إعطاء الرجاء.

أما إطلاق اسم المرجئة عَلَى الجماعة بالمعنى الأول فصحيح؛ لأنَّهم كانوا يؤخِّرون العمل عن النيَّة والعقد.

وأما بالمعنى الثاني فظاهر؛ فإنهم كانوا يقولون: لا تضرُّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وقيل: الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضي عليه بحكم ما في الدنيا، من كونه من أهل الجنَّة، أو من أهل النار. فعلى هذا: المرجئة، والوعيديَّة فرقتان متقابلتان.

وقيل: الإرجاء تأخير عليٍّ رضي الله عنه عن الدَّرجة الأولى إلى الرابعة. فعلى هذا المرجئة والشِّيعة فرقتان متقابلتان[2]

---

(١) انظر: التوحيد للماتريدي ص(٣٨٢).

(٢) الملل والنحل (١/١٣٩).

٥- هم الذين أرجوا أمر عليٍّ وعثمانَ إلى ربهما وتركوا ولايتهما والبراءة منهما.

وهذا أحد الوجهين اللذين ذكرهما سفيان بن عيينة، والطبري[١].

٦- هم الذين يؤخِّرون الأفعال إلى الله، ويؤخِّرون أمر الله ونهيه عن الاعتداد بهما.

وهذا تعريف الماتريدي، وهو المنقول عن الطيبي.

فعلى هذا المرجئة والقدرية متقابلتان[٢].

قال الماتريدي: إن المرجئة أرجأت الأفعال إلى الله ولم تجعلها للعبد[٣].

وقال الطيبي: الجبرية القائلون بأن إضافة الفعل إلى العبد كإضافته إلى الجمادات، سموا بذلك؛ لأنهم يؤخِّرون أمر الله ونهيه عن الاعتداد بهما، ويرتكبون الكبائر[٤].

مناقشة التعريفات:

الراجح من هذه الأقوال هو ما عليه أكثر العلماء أن المرجئة هم الذين يؤخِّرون العمل عن الإيمان، وبالتالي يقولون بأنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

أما التعريفات الأخرى فلا تخلو من انتقادات.

- فأما تعريفهم بأنهم الذين يؤخِّرون حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضى عليه بحكم، فهذا خطأ فإن الأسماء الشرعية ثابتة لجميع المكلفين من: مسلمين وكافرين وفاسقين ونحوهم، وعلى هذه الأسماء تجرى الأحكام الدنيوية لعباد الله في الأرض. وأما أحكام الآخرة من جنة أو نار فهي ثابتة على وجه العموم دون التعيين لشخص أو لآخر إلا ما جاء الدليل من الوحي الشريف بتعيينه، فيقال مثلًا: نشهد أن جميع المؤمنين الموحِّدين يدخلون الجنة دون تعين لأحد إلا ما جاء الدليل في حقه كالخلفاء الأربعة والعشرة المبشرين ونحوهم، ونشهد أن جميع الكافرين في النار دون تعيين لأحد إلا ما جاء الدليل في حقِّه كفرعون وأبي لهب ونحوهما، ونشهد أن الفاسقين المرتكبين للكبائر أنهم داخلون تحت قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨]؛ أي: أن بعضهم يغفر الله لمن شاء منهم فيدخلون الجنة، وبعضهم لا يغفر لهم فيدخلون النار ثم يخرجون منها بشفاعة الشفعاء ولا يخلدون فيها تخليد الكفار والمنافقين.

أما القول بأنا لا ندري هل يدخل أحد من أهل التوحيد النار أم لا؟ فهو قول طائفة من المرجئة لا كلهم، وهم المرجئة الواقفة كما سيأتي بيانه.

(١) تهذيب الآثار (٢/٦٥٩، ٦٦١).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/١٤١).

(٣) التوحيد له ص(٢٢٩، ٣٨٤).

(٤) انظر: تحفة الأحوذي (٦/٣٠٢)، فيض القدير (٤/٢٠٨)، مرقاة المفاتيح (١/٢٨٤).

- وأما تعريفهم بأنهم الذين يؤخِّرون عليًا ﷺ عن الدرجة الأولى إلى الرابعة، فلا يصح إطلاق الإرجاء بالمعنى الاصطلاحي على مثل هذا، فإن هذا هو الصواب أن يكون ترتيب الخلفاء الأربعة: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب ﷺ أجمعين، وعلى هذا أدلة كثيرة كما ذكرنا ذلك فيما تقدم في نقض مقالات الشيعة.

وقد يكون هذا القول لطوائف مرجئة الشيعة، فإنه غير معروف عن أكثر طوائف المرجئة هذا القول، بل كثير منهم موافق لما عليه أهل السنة في هذا المعتقد.

- وأما تعريفهم بأنهم الذين أرجوا أمر عثمان وعلي وطلحة والزبير إلى ربهم فلا يتولونهم ولا يتبرءون منهم، فيُذكر أن هذا هو معنى الإرجاء في أول الأمر، ولذلك قال سفيان بن عيينة: الإرجاء على وجهين: قوم أرجوا أمر علي وعثمان فقد مضى أولئك، فأما المرجئة اليوم فهم قوم يقولون: الإيمان قول بلا عمل.

وهذا قول خطأ باطل، فإن الصحابة جميعًا رضوان الله عليهم يتولون ولا يتبرأ منهم، ولا سيما الخلفاء الراشدين ﷺ أجمعين، وسيأتي قريبًا أول من يُذكر أنه قد قال هذا الكلام.

وإن كان هذا هو أول الوجهين للإرجاء كما قال سفيان، فإن الذي استقر عليه الاستعمال هو الوجه الآخر، كما قال الطبري: والصواب من القول في المعنى الذي من أجله سميت المرجئة مرجئة أن يقال: إن الإرجاء معناه ما بيَّنَّا قبلُ من تأخير الشيء، فمؤخر أمر عليٍّ وعثمانَ ﷺ إلى ربهما، وتارك ولايتهما، والبراءة منهما مرجئًا أمرهما -فهو مرجئٌ، ومؤخر العمل والطاعة عن الإيمان مرجئهما عنه فهو مرجئ، غير أن الأغلب من استعمال أهل المعرفة بمذاهب المختلفين في الديانات في دهرنا هذا، هذا الاسم؛ فيمن كان من قوله: الإيمان قول بلا عمل، وفيمن كان من مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان، وأن الإيمان إنما هو التصديق بالقول دون العمل المصدق بوجوبه[(١)].

- وأما تعريفهم بأنهم الذين يقولون بتأخير الأفعال إلى الله، وأن العبد مجبور على أفعاله، فلا شك أن بعض المرجئة كان يقولون بذلك، بل نشأة القول به كان من جهتهم، وهو نتيجة عملية مباشرة لإخراجهم الأعمال من الإيمان، ولذلك علل صاحب هذا التعريف قوله ذلك بأنهم يؤخِّرون الاعتداد بالأمر والنهي الشرعي.

ولكن ليس كل المرجئة يقولون بالجبر ولا يلتزمونه، وإن كان هو لازم لهم.

قال شيخ الإسلام: ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة في كلام غير واحد من السلف، وروي في ذلك حديث مرفوع؛ لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الأمر والنهي والوعد والوعيد؛ فالإرجاء

---

(١) تهذيب الآثار (٢/ ٦٦١).

يضعف الإيمان بالوعيد، ويهون أمر الفرائض والمحارم، والقدري إن احتج به كان عونًا للمرجئ، وإن كذب به كان هو والمرجئ قد تقابلا، هذا يبالغ في التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين بالله على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وهذا يبالغ في الناحية الأخرى[1]

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٥، ١٠٦).

الفصل الثاني
نَشْأَةُ المُرْجِئَةِ

كما هو معروف وسبق أن قدمنا فإن ظهور أي فرقة إنما يبدأ بفكرة وتصور عن شيء ما يحيط بالإنسان في أمور حياته، والمرجئة في ظهورهم في أواخر عهد الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك كانوا هكذا، إلا أن الذي يظهر من تتبع كلام أهل العلم أن الإرجاء في ظهوره كان في مرحلتين أو درجتين، والرابط بينهما يكاد يكون غير موجود.

فيذكر العلماء أن الإرجاء في أول أمره كان القول فيما جرى بين الصحابة من أمر عثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين، وأنهم لا يتولون ولا يتبرأ منهم بل يرجأ أمرهم إلى الله، ويذكرون أن أول من قال بذلك هو الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب (١٠٠ هـ) وأنه كتب به إلى أمصار المسلمين، وأنه قد ندم بعد ذلك على هذا الكلام، وقد زجره أبوه محمد ابن الحنفية (٨١ هـ) عندما بلغه عنه هذا الكلام.

ثم المرحلة الثانية التي ظهر فيها قوم يتكلمون في الإيمان ومنزلة العمل منه، ويقولون: إنه قول بلا عمل، وأن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، وأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وفي هذا جاءت أقوال العلماء الآتية:

قال سفيان بن عيينة: الإرجاء على وجهين: قوم أرجوا أمرَ عليٍّ وعثمانَ فقد مضى أولئك، فأما المرجئةُ اليوم فهم قومٌ يقولون: الإيمانَ قولٌ بلا عمل[(١)]

وعن أيوب السختياني قال: أنا أكبر من الإرجاء، إن أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل المدينة يقال له الحسن[(٢)]

وعن مغيرة بن مقسم الضبي قال: أول من تكلم في الإرجاء الحسن بن محمد ابن الحنفية[(٣)]

وعن مصعب بن عبد الله قال: الحسن أول من تكلم في الإرجاء[(٤)]

وعن زاذان وميسرة قالا: أتينا الحسن بن محمد قلنا: ما هذا الكتاب الذي وضعت، وكان هو الذي أخرج كتاب المرجئة، قال زاذان: فقال لي: يا أبا عمر، لوددت أني كنت مت قبل أن أخرج

---

(١) تهذيب الآثار (٢/ ٦٥٩).
(٢) الأوائل (١٦٣)، اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ١٠٠٣).
(٣) الأوائل (١٦٤).
(٤) اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ١٠٠٣).

هذا الكتاب، أو قال قبل أن أضع هذا الكتاب[(١)]

وقال عثمان بن إبراهيم بن حاطب: أول من تكلم في الإرجاء الحسن بن محمد، كنت حاضرٌ يوم تكلم، وكنت في حلقته مع عمي، وكان في الحلقة جندب وقوم معه فتكلموا في عثمانَ وعليٍّ وطلحةَ وآلِ الزبيرِ فأكثروا فقال الحسن: سمعت مقالتكم هذه ولم أر مثل أن يرجأ عثمان وعليٌّ وطلحة والزبير فلا يتولوا ولا يتبرأ منهم ثم قام فقمنا، وبلغ أباه محمد بن الحسن ما قال فضربه بعصًا فشجه وقال: لا تولي أباك عليًّا! قال: وكتب الرسالة التي ثبت فيها الإرجاء بعد ذلك[(٢)]

وقال ابن سعد: هو أول من تكلم في الإرجاء[(٣)]

وقال الذهبي: الإرجاء الذي تكلم به معناه أنه يرجئ أمرَ عثمانَ وعليٍّ إلى الله فيفعل فيهم ما يشاء[(٤)]

وقال شيخ الإسلام: فيقال: إن الحسن بن محمد ابن الحنفية قد وضع كتابًا في الإرجاء، نقيض قول المعتزلة، ذكر هذا غير واحد من أهل العلم[(٥)]

وقال الشهرستانيُّ: وقيل: إنَّ أوَّل من قال بالإرجاء: الحسن بن محمد بن عليِّ بن أبي طالب، وكان يكتب فيه الكتب إلى الأمصار، إلا أنَّه ما أخَّر العمل عن الإيمان كما قالت المرجئة اليونسيَّة، والعبيديَّة، لكنَّه حكم بأن صاحب الكبيرة لا يكفر إذ الطاعات وترك المعاصي ليست من أصل الإيمان حتى يزول الإيمان بزوالها[(٦)]

وقد اختلف العلماء في أول من قال بالإرجاء بالمعنى الثاني

فقيل: إن أول من قال بالإرجاء رجل يسمى ذر بن عبد الله الهمداني.

فقد سئل أحمد بن حنبل عن أول من تكلم في الإيمان من هو؟ فقال: يقولون: أول من تكلم فيه ذر[(٧)]

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٢٤)

وهو من طريق حماد بن سلمة عن عطاء عنهما، وعطاء بن السائب صَدُوقٌ، ولكنه اخْتَلَط، وسماع حماد منه مختلف فيه، وقال شعبة: ما حدثك عطاء بن السائب عن رجال: زاذان وميسرة وأبي البختري فلا تكتبه. انظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٦)، وتهذيب التهذيب (٤/ ١٣٠)، التقريب (٤٥٩٢).

(٢) تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣٢).

(٣) تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣٣).

(٤) تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣٣).

(٥) منهاج السنة النبوية (٨/ ٧).

(٦) الملل والنحل (١/ ١٤٤).

(٧) السنة للخلال (٣/ ٥٦٣).

وقال ابن عون: كان إبراهيم يعيب على ذر قوله في الإرجاء[١]

وقال الحسن بن عبيد الله: سمعت إبراهيم يقول لذر: ويحك يا ذر ما هذا الدين الذي جئت به؟! قال ذر: ما هو إلا رأي رأيته، قال: ثم سمعت ذرًّا يقول: إنه لدين الله عز وجل الذي بعث الله به نوحًا عليه السلام[٢]

وقال العلاء بن عبد الله بن رافع: أن ذرًّا أبا عمر أتى سعيد بن جبير يومًا في حاجة، فقال: لا حتى تخبرني على أي دين أنت اليوم، أو رأي أنت اليوم، فإنك لا تزال تلتمس دينًا قد أضللته، ألا تستحي من رأي أنت اليوم أكبر منه[٣]

وقال سلمة بن كهيل: وصف ذر الإرجاء، وهو أول من تكلم فيه، ثم قال: إني أخاف أن يتخذ هذا دينًا، فلما أتته الكتب من الآفاق قال: فسمعته يقول بعد: وهل أمر غير هذا[٤]

وقال الأعمش: سمعت ذرًّا الهمداني يقول: لقد شرعت رأيًا خفت أن يتخذَ دينًا، وفي لفظ: سنة[٥]

وقيل: إن أول من أحدثه حماد بن أبي سليمان وهو شيخ أبي حنيفة وتلميذ إبراهيم النخعي.

قال ميمون أبي حمزة: قال لي إبراهيم النخعي: لا تدعوا هذا الملعون يدخل علي بعد ما تكلم في الإرجاء، يعني حمادًا[٦]

وقيل: إن أول من قال به سالم الأفطس.

قال معقل بن عبيد الله العبسي: قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء، فعرضه، قال: فنفر منه أصحابنا نفارًا شديدًا[٧]

وقيل: إن أول من قال به هو قيس الماصر.

قال الأوزاعي: أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل الكوفة يقال له قيس الماصر[٨]

---

(١) السنة لعبد الله (١/ ٣١٣).
(٢) السنة لعبد الله (١/ ٣٣٥).
(٣) السنة لعبد الله (١/ ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٤).
(٤) السنة لعبد الله (١/ ٣٢٩).
(٥) السنة لعبد الله (١/ ٣٣٣)، التنبيه والرد ص(١٤٥).
(٦) السنة لعبد الله (١/ ٣٦٥).
وفي إسناد شريك بن عبد الله القاضي وهو يخطئ كثيرًا. انظر: تهذيب الكمال (١٢/ ٤٦٢)، التقريب (٢٧٨٧)، وميمون أبو حمزة الأعور ضعيف. انظر: تهذيب الكمال (٢٩/ ٢٣٧)، التقريب (٧٠٥٧).
(٧) السنة لعبد الله (١/ ٣٨٢).
(٨) تهذيب الكمال (٢١/ ٤٨٦).

وهؤلاء جميعًا كانوا في عصر واحدٍ تقريبًا، وقولهم قريب من بعض.

قال شيخ الإسلام: وحدثت المرجئة وكان أكثرهم من أهل الكوفة، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة، فقالوا: إن الأعمال ليست من الإيمان.

وكانت هذه البدعة أخف البدع، فإن كثيرًا من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم، إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك، وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة، وتاركها مستحق للذم والعقاب، فكان في الأعمال هل هي من الإيمان، وفي الاستثناء ونحو ذلك عامته نزاع لفظي(١).

- ثم في أول المائة الثانية انتقلت المرجئة إلى مرحلة ثالثة وهي مرحلة الغلو في مسألة الإيمان، وكان هذا على يد الجهمية والكَرَّاميَّة.

فلما ظهرت الجهمية زعم جهم بن صفوان (١٢٨ هـ) أن الإيمان هو معرفة الله بالقلب فقط.

ولما ظهرت الكَرَّاميَّة زعم محمد بن كرام (٢٥٥ هـ) أن الإيمان هو قول اللسان فقط.

ثم جاءت بعد ذلك الأشعرية ومن معهم من المتكلمين فقالوا بقول الجهمية في الإيمان، وأصبح هو المعروف عند كثير من المتأخرين من أصحاب المذاهب وغيرهم.

ومع هؤلاء جاء الماتريدية فزعموا أن الإيمان هو ما في القلب فقط وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا.

قال شيخ الإسلام عن القول بالمرحلة الثانية هو: قول طائفة من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبي سليمان، وصاحبه أبي حنيفة وأصحاب أبي حنيفة.

وأما قول الجهمية وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب دون اللسان فهذا لم يقله أحد من المشهورين بالإمامة ولا كان قديمًا فيضاف هذا إلى المرجئة.

وإنما وافق الجهمية عليه طائفة من المتأخرين من أصحاب الأشعري.

وأما ابن كلاب فكلامه يوافق كلام المرجئة لا الجهمية.

وآخر الأقوال حدوثًا في ذلك قول الكَرَّاميَّة إن الإيمان اسم للقول باللسان، وإن لم يكن معه اعتقاد القلب وهذا القول أفسد الأقوال(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٨، ٣٩).

(٢) الأصفهانية ص(١٨٢).

وقال: وأنكر حماد بن أبي سليمان ومن اتبعه تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه والاستثناء فيه؛ وهؤلاء من مرجئة الفقهاء، وأما إبراهيم النخعي -إمام أهل الكوفة شيخ حماد بن أبي سليمان- وأمثاله؛ ومن قبله من أصحاب ابن مسعود؛ كعلقمة والأسود؛ فكانوا من أشد الناس مخالفة للمرجئة، وكانوا يستثنون في الإيمان؛ لكن حماد بن أبي سليمان خالف سلفه، واتبعه من اتبعه ودخل في هذا طوائف من أهل الكوفة، ومن بعدهم.

ثم إن السلف والأئمة اشتد إنكارهم على هؤلاء وتبديعهم وتغليظ القول فيهم

وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما من فقهاء الكوفة كانوا يجعلون قول اللسان، واعتقاد القلب من الإيمان، وهو قول أبي محمد بن كلاب وأمثاله، لم يختلف قولهم في ذلك، ولا نقل عنهم أنهم قالوا: الإيمان مجرد تصديق القلب، لكن هذا القول حكوه عن الجهم بن صفوان، ذكروا أنه قال: الإيمان مجرد معرفة القلب، وإن لم يقر بلسانه، واشتد نكيرهم لذلك حتى أطلق وكيع بن الجراح، وأحمد بن حنبل وغيرهما كفر من قال ذلك؛ فإنه من أقوال الجهمية،

وحدث بعد هؤلاء قول الكَرَّاميَّة؛ أن الإيمان قول اللسان دون تصديق القلب، مع قولهم أن مثل هذا يعذب في الآخرة ويخلد في النار.

وقال أبو عبد الله الصالحي: إن الإيمان مجرد تصديق القلب ومعرفته، لكن له لوازم فإذا ذهبت دلَّ ذلك على عدم تصديق القلب، وإن كل قول أو عمل ظاهر دلَّ الشرع على أنه كفر كان ذلك؛ لأنه دليل على عدم تصديق القلب ومعرفته، وليس الكفر إلا تلك الخصلة الواحدة، وليس الإيمان إلا مجرد التصديق الذي في القلب والمعرفة.

وهذا أشهر قولي أبي الحسن الأشعري، وعليه أصحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وأمثالهما، ولهذا عدهم أهل المقالات من المرجئة، والقول الآخر عنه كقول السلف وأهل الحديث: إن الإيمان قول وعمل، وهو اختيار طائفة من أصحابه، ومع هذا فهو وجمهور أصحابه على قول أهل الحديث في الاستثناء في الإيمان.

والإيمان المطلق عنده ما يحصل به الموافاة، والاستثناء عنده يعود إلى ذلك؛ لا إلى الكمال والنقصان والحال، وقد منع أن يطلق القول بأن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، وصنف في ذلك مصنفًا معروفًا عند أهل السنة، في كتاب المقالات، وقال إنه يقول بقولهم.

وقد ذهب طائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة -كأبي منصور الماتريدي وأمثاله- إلى نظير هذا القول في الأصل، وقالوا: إن الإيمان هو ما في القلب، وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا؛ لكن هؤلاء يقولون بالاستثناء ونحو ذلك، كما عرف من أصلهم[1].

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٠٧- ٥١٠).

الفصل الثالث
فِرَقُ المُرْجِئَةِ

قال الأشعري والملطي: وهم اثنتا عشرة فرقة[١]

وقال السكسكي: وقد افترقت هذه الفرقة على ثماني عشرة فرقة[٢]

وقال الإسفراييني والبغدادي: والمرجئة ثلاثة أصناف:

صنف منهم: قالوا بالإرجاء في الإيمان، وبالقدر على مذاهب القدرية المعتزلة...

وصنف منهم: قالوا بالإرجاء في الإيمان، وبالجبر في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان...

والصنف الثالث منهم: خارجون عن الجبرية والقدرية [٣]

وقال الشهرستانيُّ: والمرجئة أربعة أصنافٍ: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدريَّة، ومرجئة الجبريَّة، والمرجئة الخالصة[٤]

وقال شيخ الإسلام: والمرجئة ثلاثة أصناف:

الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة، كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقًا كثيرة يطول ذكرهم، لكن ذكرنا جمل أقوالهم، ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي، وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه.

والقول الثاني: من يقول: هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكَرَّاميَّة.

والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم[٥]

قلت: يمكن تقسيم فرق المرجئة باعتبارين:

- **الأول:** باعتبار قول فرقهم بأقوال الفرق الأخرى، وهم بهذا الاعتبار يكونون على النحو التالي:

المرجئة الخالصة: وهم اليونسية، والغسانية، والثوبانية، والتومنية، والحنفية.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٣٢)، التنبيه والرد ص(١٤٦).

(٢) البرهان ص(٣٣).

(٣) التبصير في الدين ص(٢٤، ٩٧)، الفرق بين الفرق ص(٤٤، ٢١١).

(٤) الملل والنحل (١/ ١٣٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٥).

مرجئة الخوارج: وهم الشبيبية، والغيلانية.

مرجئة القدرية: وهم الشمرية، والشبيبية، والغيلانية، والصالحية.

مرجئة الجبرية: وهم الجهمية، والمريسية، والنجارية، والأشعرية، والماتريدية.

مرجئة المجسمة: وهم الكَرَّاميَّة، والعبيدية.

- الثاني: باعتبار قولهم في الإيمان، وهم بهذا الاعتبار يكونون ثلاثة أصناف على النحو التالي:

الصنف الأول: أنه ما في القلب فقط: وهؤلاء غالب فرق المرجئة، وهم نوعان:

١- نوع لا يُدخل فيه أعمال القلب وهؤلاء هم الجهمية، والصالحية، والأشعرية، والماتريدية.

٢- نوع يُدخل فيه أعمال القلب، وهؤلاء هم سائر فرق المرجئة.

الصنف الثاني: أنه باللسان فقط: وهؤلاء هم الكَرَّاميَّة.

الصنف الثالث: أنه بالقلب واللسان فقط: وهؤلاء هم الحنفية والكلابية.

وسنتكلم عن فرق المرجئة باعتبار أقوالهم في الإيمان.

الجهمية

أتباع جهم بن صفوان، هم الذين يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط.

وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان، والخضوع بالقلب، والمحبة لله ولرسوله، والتعظيم لهما، والخوف منهما، والعمل بالجوارح -فليس بإيمان.

وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به.

وزعمت الجهمية أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده.

وأن الإيمان لا يتبعض، ولا يتفاضل أهله فيه.

وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون غيره من الجوارح[(١)]

الصالحية

أتباع أبي الحسين صالح بن عمر الصالحي، هم الذين يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط.

وأن قول القائل: إن الله ثالث ثلاثة، ليس بكفر، ولكنه لا يظهر إلا من كافر؛ وذلك أن الله سبحانه أكفر من قال ذلك، وأجمع المسلمون أنه لا يقوله إلا كافر.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٢)، الفصل (٢/ ٨٨)، (٣/ ١٠٥)، البرهان ص(٣٤، ٣٥)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٣).

وزعموا أن معرفة الله هي المحبة له، وهي الخضوع لله.

وأصحاب هذا القول لا يزعمون أن الإيمان بالله إيمان بالرسول، وأنه لا يؤمن بالله إذا جاء الرسول إلا من آمن بالرسول، ليس لأن ذلك يستحيل ولكن لأن الرسول قال: ومن لا يؤمن بي فليس بمؤمن بالله.

وزعموا أيضًا أن الصلاة والزكاة والصيام والحج ليست بعبادة لله، وأنه لا عبادة إلا الإيمان به، وهو معرفته.

والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، وهو خصلة واحدة، وكذلك الكفر[١]

الأشعرية

أتباع أبي الحسن الأشعري، وقد ذكر في كتابه «الموجز» قول الصالحي هذا وغيره، ثم قال: والذي أختاره في الأسماء قول الصالحي، وفى الخصوص والعموم إني لا أقطع بظاهر الخبر على العموم ولا على الخصوص، إذ كان يحتمل في اللغة أن يكون خاصًا، ويحتمل أن يكون عامًّا، واقف في ذلك، ولا أقطع على عموم ولا على خصوص إلا بتوقيف أو إجماع.

ولكنه قال في كتابه مقالات الإسلاميين عن مقالة أصحاب الحديث وأهل السنة: ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا يقولون: مخلوق، ولا غير مخلوق، وذكر كلامًا طويلًا، ثم قال في آخره: وبكل ما ذكرناه من قولهم نقول، وإليه نذهب[٢]

فهذا قوله في هذا الكتاب وافق فيه أهل السنة وأصحاب الحديث، بخلاف القول الذي نصره في الموجز وهو المشهور عنه والذي عليه أكثر أصحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وأمثالهما[٣]

الماتريدية

أتباع أبي منصور الماتريدي، وهو من متأخري الحنفية، قالوا: إن الإيمان هو مجرد تصديق في القلب، وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا، وأن العباد يتساوون في الإيمان[٤]

اليونسية والشمرية

اليونسية: أتباع يونس بن عون النميري، والشمرية: أتباع أبي شمر، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والخضوع له والمحبة له بالقلب، والإقرار به أنه واحد ليس كمثله شيء، ما لم تقم عليه حجة الأنبياء.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (١٣٢، ١٣٣)، الفرق بين الفرق ص(٢١٦)، الملل والنحل (١/ ١٤٥).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٩٣، ٢٩٧).

(٣) انظر: الفصل (٢/ ٨٨)، (٣/ ١٠٥، ١٠٦)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٤، ٥٥٠).

(٤) انظر: التوحيد للماتريدي ص(٣٣٢، ٣٧٣، ٣٨٠، ٣٨٨)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠، ٥٨٢).

وإن كانت قامت عليه حجة الأنبياء فالإيمان الإقرار بهم والتصديق لهم، والمعرفة بما جاء من عند الله غير داخل في الإيمان.

ولا يسمون كل خصلة من هذه الخصال إيمانًا لاجتماعها، وشبَّهوا ذلك بالبياض إذا كان في دابة لم يسموها بلقاء ولا بعض أبلق حتى يجتمع السواد والبياض، فإذا اجتمعا في الدابة سمي ذلك بلقًا إذا كان بفرس، فإن كان في جمل أو كلب سمي بقعًا، وجعلوا ترك الخصال كلها وترك كل خصلة منها كفرًا.

ولم يجعلوا الإيمان متبعضًا، ولا محتملًا للزيادة والنقصان(١)

وذكر عن أبي شمر أنه يضيف إلى ذلك القول بالقدر ونفي التشبيه والتوحيد الذي هو نفي الصفات، وأن كل ذلك إيمان، والعلم به إيمان، والشاك فيه كافر، والشاك في الشاك كافر أبدًا.

والمعرفة لا يقولون: إنها إيمان، ما لم تضم الإقرار، وإذا وقعا كانا جميعًا إيمانًا(٢)

وذهب قوم من أصحاب يونس إلى أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة له، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن.

وزعموا أن إبليس كان عارفًا بالله غير أنه كفر باستكباره على الله.

وزعموا أن الإنسان وإن كان لا يكون مؤمنًا إلا بجميع الخلال التي ذكرناها، وقد يكون كافرًا بترك خلة منها(٣)

الثوبانية

أتباع أبي ثوبان المرجئ، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار بالله وبرسله وما كان لا يجوز في العقل إلا أن يفعله، وما كان جائزًا في العقل ألا يفعله فليس ذلك من الإيمان(٤)

النجارية

أتباع الحسين بن محمد النجار، يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وفرائضه المجتمع عليها والخضوع له بجميع ذلك والإقرار باللسان، فمن جهل شيئًا من ذلك فقامت به عليه حجة أو عرفه ولم يقر به كفر.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٤)، التبصير في الدين ص(٩٧)، الفرق بين الفرق ص(٢١٢)، الملل والنحل (١/ ١٤٠)، المواقف (٣/ ٧٠٥)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٥).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٥)، الفرق بين الفرق ص(٢١٤، ٢١٥)، الملل والنحل (١/ ١٤٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٣)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٥).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٥)، التبصير في الدين ص(٩٨)، الفرق بين الفرق ص(٢١٣)، الملل والنحل (١/ ١٤٢)، البرهان ص(٤٤)، المواقف (٣/ ٧٠٦)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٥).

ولم تسم كل خصلة من ذلك إيمانًا، مثل قول الشمرية.

وزعموا أن الخصال التي هي إيمان إذا وقعت فكل خصلة منها طاعة، فإن فعلت خصلة منها ولم تفعل الأخرى لم تكن طاعة؛ كالمعرفة بالله إذا انفردت من الإقرار لم تكن طاعة؛ لأن الله عز وجل أمرنا بالإيمان جملة أمرًا واحدًا، ومن لم يفعل ما أمر به لم يطع.

وزعموا أن ترك كل خصلة من ذلك معصية، وأن الإنسان لا يكفر بترك خصلة واحدة.

وأن الناس يتفاضلون في إيمانهم، ويكون بعضهم أعلم بالله وأكثر تصديقًا له من بعض.

وأن الإيمان يزيد ولا ينقص.

وأن من كان مؤمنًا لا يزول عنه اسم الإيمان إلا بالكفر[(١)]

الغيلانية

أتباع غيلان بن مروان، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله الثانية، والمحبة والخضوع والإقرار بما جاء به الرسول، وبما جاء من عند الله سبحانه.

وذلك أن المعرفة الأولى عنده اضطرار فلذلك لم يجعلها من الإيمان.

وذكر عنهم أن الخصلة من الإيمان لا يقال لها: إيمان، إذا انفردت، ولا يقال لها: بعض إيمان إذا انفردت، مثل قول الشمرية.

وأن الإيمان لا يحتمل الزيادة والنقصان، ولا يتفاضل الناس فيه.

وزعموا أن العلم بأن الأشياء محدثة مدبرة ضرورة، والعلم بأن محدثها ومدبرها ليس باثنين ولا أكثر من ذلك اكتساب.

وجعلوا العلم بالنبي وبما جاء من عند الله اكتسابًا، وزعموا أنه من الإيمان إذا كان الذي جاء من عند الله منصوصًا بإجماع المسلمين، ولم يجعلوا شيئًا من الدين مستخرجًا إيمانًا.

وذكر زرقان عن غيلان أن الإيمان هو الإقرار باللسان، وهو التصديق، وأن المعرفة بالله فعل الله وليست من الإيمان في قليل ولا كثير، واعتل بأن الإيمان في اللغة هو التصديق.

وكان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة أنها تصلح في غير قريش وكل من كان قائمًا بالكتاب والسنة كان مستحقًّا لها، وأنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة.

فقد جمع غيلان خصالًا ثلاثًا: القدر والإرجاء والخروج[(٢)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٥، ١٣٦)، التبصير في الدين ص(١٠١)، الفرق بين الفرق ص(٢١٧، ٢١٨)، البرهان ص(٣٩)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٦، ١٣٧)، الفرق بين الفرق ص(٢١٥)، الملل والنحل (١/ ١٤٣، ١٤٦)، البرهان ص(٤٥، ٤٦)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٦).

الشبيبية

أتباع محمد بن شبيب، يزعمون أن الإيمان الإقرار بالله، والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء، والإقرار والمعرفة بأنبياء الله وبرسله، وبجميع ما جاءت به من عند الله مما نص عليه المسلمون ونقلوه عن رسول الله من: الصلاة والصيام وأشباه ذلك، مما لا اختلاف فيه بينهم ولا تنازع.

وأما ما كان من الدين نحو اختلاف الناس في الأشياء فإن الراد للحق لا يكفر، وذلك أنه إيمان واستخراج، ليس يرد على رسول الله ما جاء به من عند الله سبحانه ولا على المسلمين ما نقلوه عن نبيهم ﷺ، ونصوا عليه.

والخضوع لله هو ترك الاستكبار، وزعموا أن إبليس قد عرف الله سبحانه وأقر به وإنما كان كافرًا؛ لأنه استكبر، ولولا استكباره ما كان كافرًا.

وأن الإيمان يتبعض، ويتفاضل أهله.

وأن الخصلة من الإيمان قد تكون طاعة وبعض إيمان، ويكون صاحبها كافرًا بترك بعض الإيمان، ولا يكون مؤمنًا إلا بإصابة الكل.

وكل رجلٍ يعلم أن الله واحد ليس كمثله شيء ويجحد الأنبياء فهو كافر بجحده الأنبياء، وفيه خصلة من الإيمان وهو معرفته بالله؛ وذلك أن الله أمره أن يعرفه وأن يقر بما كان عرف، وإن عرف ولم يقر، أو عرف الله سبحانه وجحد أنبياءه، فإذا فعل ذلك فقد جاء ببعض ما أمر به، وإذا كان الذي أمر به كله إيمانًا فالواحد منه بعض إيمان[1]

الحنفية

أتباع أبي حنيفة النعمان بن ثابت، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والإقرار بالله، والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير.

وأن الإيمان لا يتبعض، ولا يزيد ولا ينقص، ولا يتفاضل الناس فيه[2]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٧، ١٣٨)، الفرق بين الفرق ص(٢١٥، ٢١٦)، البرهان ص(٤٣)، مجموع الفتاوى (٧/٥٤٦، ٥٤٧).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٨، ١٣٩)، الفصل (٢/٨٨)، (٣/١٠٦)، (٤/١٥٥)، مجموع الفتاوى (٧/٥٤٧).

الكُلَّابِيَّة

أتباع أبي محمد عبد الله بن كلاب، يزعمون أن الإيمان هو التصديق بالقلب والقول باللسان فقط، مثل قول الحنفية[١]

الغسانية

أتباع غسان الكوفي وأكثر أصحاب أبي حنيفة، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله وتعظيمه، وترك الاستكبار والاستخفاف بحقه.

وأنه يزيد ولا ينقص[٢]

التومنية

أتباع أبي معاذ التومني، يزعمون أن الإيمان ما عصم من الكفر، وهو اسم لخصال إذا تركها التارك أو ترك خصلة منها كان كافرًا، فتلك الخصال التي يكفر بتركها وبترك خصلة منها إيمان، ولا يقال للخصلة منها: إيمان، ولا بعض إيمان.

وكل طاعة إذا تركها التارك لم يجمع المسلمون على كفره فتلك الطاعة شريعة من شرائع الإيمان، تاركها إن كانت فريضة يوصف بالفسق، فيقال له: إنه فسق، ولا يسمى بالفسق، ولا يقال: فاسق. وليس تخرج الكبائر من الإيمان إذا لم يكن كفر.

وتارك الفرائض مثل: الصلاة، والصيام، والحج، على الجحود بها والرد لها والاستخفاف بها كافر بالله، وإنما كفر للاستخفاف والرد والجحود، وإن تركها غير مستحل لتركها متشاغلًا مسوفًا يقول: الساعة أصلي وإذا فرغت من لهوي ومن عملي، فليس بكافر، إذا كان عزمه أن يصلي يومًا ووقتًا من الأوقات، ولكن نُفَسِّقُه.

وكان أبو معاذ يزعم أن من قتل نبيًّا أو لطمه كفر، وليس من أجل اللطمة والقتل كفر؛ ولكن من أجل الاستخفاف والعداوة والبغض له.

وكان يزعم أن الموصوف بالفسق من أصحاب الكبائر ليس بعدو لله ولا ولي له[٣]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ١١٩، ٥٠٨).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٩)، التبصير في الدين ص(٩٨)، الفرق بين الفرق ص(٢١٢)، الملل والنحل (١/ ١٤١، ١٤٢)، المواقف (٣/ ٧٠٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٣٩، ١٤٠)، التبصير في الدين ص(٩٨)، الفرق بين الفرق ص(٢١٢)، البرهان ص(٤٤)، الملل والنحل (١/ ١٤٤)، المواقف (٣/ ٧٠٦)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٧).

المرِّيسية والراوندية

المريسية: أتباع بشر المرِّيسي، يقولون: إن الإيمان هو التصديق؛ لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وما ليس بتصديق فليس بإيمان.

ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعًا.

وإلى هذا القول كان يذهب ابن الراوندي.

وكان ابن الراوندي يزعم أن الكفر هو الجحد والإنكار والستر والتغطية، وليس يجوز أن يكون الكفر إلا ما كان في اللغة كفرًا، ولا يجوز أن يكون إيمانًا إلا ما كان في اللغة إيمانًا.

وكان يزعم أن السجود للشمس ليس بكفر، ولكنه علم على الكفر؛ لأن الله عز وجل يبين لنا أنه لا يسجد للشمس إلا كافر[1]

الكَرَّاميَّة

أتباع محمد بن كرَّام، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن يكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيمانًا.

وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله كانوا مؤمنين على الحقيقة.

وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان[2]

العبيدية

أتباع عبيد المكتئب، حُكي عنه أنه قال: ما دون الشرك مغفور لا محالة، وإن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات[3]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٤٠، ١٤١)، التبصير في الدين ص(٩٩)، الفرق بين الفرق ص(٢١٣)، الملل والنحل (١/ ١٤٤)، البرهان ص(٣٦)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٨).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ص(١٤١)، الفصل (٢/ ٨٩)، (٣/ ١٠٦)، (٤/ ١٥٤)، التبصير في الدين ص(١١٥، ١١٦)، الفرق بين الفرق ص(٢٣٤)، البرهان ص (٣٥)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٨).

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ١٤٠).

الفصل الرابع

مَقَالَاتُ المُرْجِئَةِ

مجمل مقالاتهم

قال ابن حزم: أما المرجئة فعمدتهم التي يتمسَّكون بها فالكلام في الإيمان والكفر ما هما؟ والتسمية بهما، والوعيد، واختلفوا فيما عدا ذلك كما اختلفت غيرهم[(١)].

وقال شيخ الإسلام: وقابلتهم المرجئة، والجهمية، ومن اتبعهم من الأشعرية والكَرَّاميَّة؛ فقالوا: ليس من الإيمان فعل الأعمال الواجبة، ولا ترك المحظورات البدنية، والإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، بل هو شيء واحد، يستوي فيه جميع المؤمنين: من الملائكة، والنبيين، والمقربين، والمقتصدين، والظالمين.

ثم قال فقهاء المرجئة: هو التصديق بالقلب واللسان، وقال أكثر متكلميهم: هو التصديق بالقلب، وقال بعضهم: التصديق باللسان.

قالوا: لأنه لو دخلت فيه الواجبات العملية لخرج منه من لم يأت بها، كما قالت الخوارج. ونكتة هؤلاء جميعهم توهمهم أن من ترك بعض الإيمان فقد تركه كله[(٢)]

وقال: المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان، ويكذِّبون بالوعيد والعقاب بالكلية[(٣)]

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الأسماء والأحكام

(قولهم في الإيمان)

يقولون: إن الإيمان شيء واحد، لا يذهب بعضه ويبقى بعضه، فأخرجوا جميعًا العمل منه، ثم اختلفوا فيه كما تقدم ذكره في فرقهم.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: والمقصود هنا أن منشأ النزاع في الأسماء والأحكام في الإيمان والإسلام أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض، قال أولئك: فإذا فعل ذنبًا زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار،

(١) الفصل (٢/ ٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٧١).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٤).

فقالت الجهمية والمرجئة: قد علمنا أنه ليس يخلد في النار وأنه ليس كافرًا مرتدًّا، بل هو من المسلمين، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمنًا تامَّ الإيمان، ليس معه بعض الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم لا يتبعض، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئًا واحدًا يشترك فيه جميع أهل القبلة.

فقال فقهاء المرجئة: هو التصديق بالقلب والقول باللسان.

فقالت الجهمية: بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهًا، فالذي لا بد منه تصديق القلب.

وقالت المرجئة: الرجل إذا أسلم كان مؤمنًا قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال[1]

وقال: وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء... وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئًا من الإيمان، إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء، فيكون شيئًا واحدًا يستوي فيه البر والفاجر[2]

وقال: وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال:

فعلماؤهم وأئمتهم أحسنهم قولًا وهو أن قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان.

وقالت الجهمية: هو تصديق القلب فقط.

وقالت الكَرَّاميَّة: هو القول فقط[3]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: فصل: ومما يدل من القرآن على أن الإيمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٥]، فنفى الإيمان عن غير هؤلاء، فمن كان إذا ذُكِّر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين، وأما سجود التلاوة ففيه نزاع، وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه، لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة؛ فهذه الآية مثل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النُّور: الآية ٦٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥٥، ٥٦).

بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وهذه الآية مثل قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] ، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: الآية ٨١] بيَّن سبحانه أن الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله، ومن أضداده استئذانه في ترك الجهاد، ثم صرح بأن استئذانه إنما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ودلَّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٥] ، على أن المتقين هم المؤمنون.

ومن هذا الباب قوله ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**، وقوله: **«لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»**، وقوله: **«لا تؤمنوا حتى تحابوا»**، وقوله: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**، وقوله: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»**، وقوله: **«من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا»**.

فصل: وأما إذا قيد الإيمان فقُرِن بالإسلام أو بالعمل الصالح؛ فإنه قد يراد به ما في القلب من الإيمان باتفاق الناس، وهل يراد به أيضًا المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام، أو لا يكون حين الاقتران داخلًا في مسماه؟ بل يكون لازمًا له، على مذهب أهل السنة، أو لا يكون بعضًا ولا لازمًا؟ هذا فيه ثلاثة أقوال للناس، كما سيأتي إن شاء الله[١]

وقال: فصل: فإذا تبين هذا، فلفظ «الإيمان» إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ «البر»، وبلفظ «التقوى»، وبلفظ «الدين»، كما تقدم؛ فإن النبي ﷺ بيَّن أن **«الإيمان بضع وسبعون شعبةً، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»**، فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وكذلك لفظ «البر» يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ «التقوى»، وكذلك «الدين، أو دين الإسلام»، وكذلك روي أنهم سألوا عن الإيمان؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] الآية، وقد فسر البر بالإيمان، وفسر بالتقوى، وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله، والجميع حق[٢]

وقال: وهكذا أسماء دينه الذي أمر الله به ورسوله يُسمى إيمانًا، وبرًّا، وتقوَى، وخيرًا، ودينًا، وعملًا صالحًا، وصراطًا مستقيمًا، ونحو ذلك، وهو في نفسه واحد، لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر، وتكون تلك الصفة هي الأصل في اللفظ، والباقي كان تابعًا لها لازمًا لها، ثم صارت دالة عليه بالتضمن، فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٦٠- ١٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٩)، (٧/ ٥٥١- ٥٥٣).

القلب، ولا بد فيه من «شيئين»: تصديق بالقلب، وإقراره ومعرفته. ويقال لهذا: قول القلب، قال الجنيد بن محمد: التوحيد: قول القلب. والتوكل: عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب، وعمله؛ ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب، مثل: حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان.

ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سَرَى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب»**، وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانًا، فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم، وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط، كما قال النبي ﷺ: **«إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد»**.

فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد؛ ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه، فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] ، فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبًا لله من المشركين لأندادهم.

وفي الآية قولان: قيل: يحبونهم كحب المؤمنين الله، والذين آمنوا أشد حبًا لله منهم لأوثانهم.

وقيل: يحبونهم كما يحبون الله، والذين آمنوا أشد حبًا لله منهم، وهذا هو الصواب.

والأول قول متناقض وهو باطل؛ فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله.

وتستلزم الإرادة، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محبًا لله ورسوله؛ مريدًا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دلَّ على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه[1]

وقال: والمرجئة الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان، والأعمال ليست منه،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٨٦- ١٨٨)، (٧/ ٥٢٥- ٥٢٩).

كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها، ولم يكن قولهم مثل قول جهم، فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمنًا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم، لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضًا، فإنها لازمة له، ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم، فإنهم رأوا أن الله قد فرّق في كتابه بين الإيمان والعمل، فقال في غير موضع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٧]، ورأوا أن الله خاطب الإنسان بالإيمان قبل وجود الأعمال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المَائدة: الآية ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٩]

وقالوا: لو أن رجلًا آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمنًا، وكان من أهل الجنة، فدلَّ على أن الأعمال ليست من الإيمان.

وقالوا: نحن نسلم أن الإيمان يزيد، بمعنى أنه كان كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله، لكن بعد كمال ما أنزل الله ما بقي الإيمان يتفاضل عندهم، بل إيمان الناس كلهم سواء؛ إيمان السابقين الأولين كأبي بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجاج وأبي مسلم الخراساني وغيرهما.

والمرجئة المتكلِّمون منهم والفقهاء منهم يقولون: إن الأعمال قد تسمى إيمانًا مجازًا؛ لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه، ولأنها دليل عليه، ويقولون: قوله ﷺ: **«الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبةً أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»**: مجاز.

والمرجئة ثلاثة أصناف:

الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة، كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقًا كثيرة يطول ذكرهم، لكن ذكرنا جمل أقوالهم.

ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي، وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه.

والقول الثاني: من يقول: هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكَرَّاميَّة.

والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم. وهؤلاء غلطوا من وجوه:

- **أحدها:** ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد، وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص، وليس الأمر كذلك فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد ﷺ، وأوجب على أمة محمد ﷺ من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم، والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن، ليس هو مثل الإيمان

الذي يجب بعد نزول القرآن، والإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول ﷺ مفصلًا ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملًا، فإنه لا بد في الإيمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر، لكن من صدق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر، وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر.

وأيضًا، لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة، ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة، فصار يجب من الإيمان تصديقًا وعملًا على أشخاص ما لا يجب على آخرين.

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم: خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال، فنقول: إن قلتم: إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال، فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] ، ولهذا لم يجئ ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان، كحديث وفد عبد القيس، وحديث الرجل النجدي الذي يقال له: ضمام بن ثعلبة وغيرهما، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل؛ وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الخمس، فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام، فلما فرض أدخله النبي ﷺ في الإيمان إذا أفرد، وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد -وسنذكر إن شاء الله متى فرض الحج- وكذلك قولهم: من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنًا، فصحيح؛ لأنه أتى بالإيمان الواجب عليه، والعمل لم يكن وجب عليه بعد، فهذا مما يجب أن يُعرف؛ فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين.

فإذا قيل: الأعمال الواجبة من الإيمان، فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئًا واحدًا في حق جميع الناس، وأهل السنة والحديث يقولون: جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان، أي من الإيمان الكامل بالمستحبات، ليست من الإيمان الواجب، ويفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل بالمستحبات، كما يقول الفقهاء: الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل، فالمجزئ: ما أتى فيه بالواجبات فقط، والكامل: ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب.

وأما قولهم: إن الله فرَّق بين الإيمان والعمل في مواضع، فهذا صحيح، وقد بيَّنَّا أن الإيمان إذا

أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها. وقد يقرن به الأعمال، وذكرنا نظائر لذلك كثيرة؛ وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم، وإن كان أصله ما في القلب، وحيث عطفت عليه الأعمال؛ فإنه أريد أنه لا يكتفي بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة.

ثم للناس في مثل هذا قولان: منهم من يقول: المعطوف دخل في المعطوف عليه أولًا، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصًا له؛ لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول، وقالوا: هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام؛ كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: الآية ٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: الآية ٢]، فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٩]، وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين، وقوله: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨].

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البيّنة: الآية ٥]، والصلاة والزكاة من العبادة، فقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥]، كقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البيّنة: الآية ٥]

فإنه قصد أولًا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان، فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونهما.

وكذلك يذكر الإيمان أولًا؛ لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح، فإنه أيضًا من تمام الدين لا بد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح.

وكذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞﴾.

وقد قيل: إن هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل على من قبله؛ كابن سلام ونحوه، وإن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب.

وقد قيل: هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد، وإنما عطفوا لتغاير الصفتين، كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۞ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۞﴾، فهو سبحانه واحد، وعطف بعض صفاته على بعض، وكذلك قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨]، وهي صلاة العصر...

فعلى قول هؤلاء يقال: الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان، وعطف عليه عطف الخاص على العام؛ إما لذكره خصوصًا بعد عموم، وإما لكونه إذا عطف كان دليلًا على أنه لم يدخل في العام.

وقيل: بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان، فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له، فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيًا؛ لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق، كما تقدم في كلام النبي ﷺ، فإذا عطفت عليه ذكرت؛ لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد، فكان ذكرها تخصيصًا وتنصيصًا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحًا، لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل، وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله: آمنت، لا بد أن يقوم بالواجب، وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم.

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب الموجز، وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء كقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢]، ولم يقل: إن هذه الأعمال من الإيمان، قالوا: فنحن نقول: من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمنًا؛ لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه.

والجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب، فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان، وهذا هو المطلوب، وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءًا نزاع لفظي.

الثاني: أن نصوصًا صرحت بأنها جزء كقوله: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة».

الثالث: أنكم إن قلتم: بأن من انتفى عنه هذه الأمور فهو كافر خال من كل إيمان، كان قولكم قول الخوارج، وأنتم في طرف، والخوارج في طرف، فكيف توافقونهم ومن هذه الأمور إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، والجهاد، والإجابة إلى حكم الله ورسوله، وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه، وإن كفرتموه كان قولكم قول الخوارج.

الرابع: أن قول القائل: إن انتفاء بعض هذه الأعمال يستلزم ألا يكون في قلب الإنسان شيء من التصديق بأن الرب حق، قولٌ يعلم فساده بالاضطرار.

الخامس: أن هذا إذا ثبت في هذه ثبت في سائر الواجبات، فيرتفع النزاع المعنوي.

- الوجه الثاني: من غلط المرجئة: ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط، دون أعمال القلوب، كما تقدم عن جهمية المرجئة.

- الثالث: ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تامًّا بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه، بمنزلة السبب مع المسبب، ولا يجعلونها لازمة له.

والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب، مثل أن يقولوا: رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر، وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزني بأمه وأخته، ويشرب الخمر نهار رمضان، يقولون: هذا مؤمن تام الإيمان، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار. . .

وإنما قال الأئمة بكفر هذا؛ لأن هذا فرض ما لا يقع، فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئًا مما أمر به من: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات، مثل: الصلاة بلا وضوء، وإلى غير القبلة، ونكاح الأمهات، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن، بل لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان الذي في قلبه

والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النُّور: الآية ٥١] ، فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان[١]

وقال: وقول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن، يراد به شيئان:

يراد به أنها لوازم له، فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت، وهذا مذهب السلف وأهل السنة.

ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سببًا، وقد يكون الإيمان الباطن تامًّا كاملًا وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم، وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم غلطوا في ثلاثة أوجه:

أحدها: ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تامًّا بدون العمل الذي في القلب، تصديق بلا عمل للقلب، كمحبة الله وخشيته وخوفه والتوكل عليه والشوق إلى لقائه.

والثاني: ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تامًّا بدون العمل الظاهر، وهذا يقول به جميع المرجئة.

والثالث: قولهم: كل من كفره الشارع فإنما كفره لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى.

وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية؛ لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهم ممن هو في باطنه يرى رأي الجهمية والمرجئة في الإيمان، وهو معظِّم للسلف وأهل الحديث، فيظن أنه يجمع بينهما، أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف[٢]

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٤- ٢٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٦٣، ٣٦٤).

وقال: ومنشأ الغلط في هذه المواضع من وجوه:

أحدها: أن العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات الإيمان.

الثاني: ظن الظانِّ أن ما في القلوب لا يتفاضل الناس فيه.

الثالث: ظن الظان أن ما في القلب من الإيمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه.

الرابع: ظن الظان أن ليس في القلب إلا التصديق، وأن ليس الظاهر إلا عمل الجوارح، والصواب أن القلب له عمل مع التصديق، والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر، وكلاهما مستلزم للباطن.

والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان؛ فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضًا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين، ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم: العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن، فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن، أو لازم لمسمى الإيمان؟

والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم، وتارة يكون لازمًا للمسمى -بحسب إفراد الاسم واقترانه- فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجًا عنه، كما في حديث جبريل، وإن كان لازمًا له، وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآيةَ ٢٧٧] ، فقد يقال: اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازمًا له، وقد يقال: بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام.

وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له، ولهذا قال طائفة من العلماء -كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري، وغيره- الإيمان كله تصديق، فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل، واللسان يصدق ما في القلب، والعمل يصدق القول، كما يقال: صدق عمله قوله، ومنه قول النبي ﷺ: «العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»، والتصديق يستعمل في الخبر وفي الإرادة، يقال: فلان صادق العزم وصادق المحبة، وحملوا حملة صادقة.

والسلف اشتد نكيرهم على المرجئة لما أُخرجوا العمل من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان يتماثل الناس فيه، ولا ريب أن قولهم بتساوي إيمان الناس من أفحش الخطأ، بل لا يتساوي الناس في التصديق، ولا في الحب، ولا في الخشية، ولا في العلم؛ بل يتفاضلون من وجوه كثيرة.

وأيضًا، فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضًا، وهذا باطل قطعًا، فإن من صدق الرسول وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعًا بالضرورة، وإن أدخلوا أعمال القلوب في الإيمان أخطئوا أيضًا لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن.

وليس المقصود هنا ذكر عمل معين؛ بل من كان مؤمنًا بالله ورسوله بقلبه هل يتصور إذا رأى الرسول وأعداءه يقاتلونه، وهو قادر على أن ينظر إليهم ويحض على نصر الرسول بما لا يضره، هل يمكن مثل هذا في العادة إلا أن يكون منه حركة ما إلى نصر الرسول؟ فمن المعلوم أن هذا ممتنع، فلهذا كان الجهاد المتعين بحسب الإمكان من الإيمان، وكان عدمه دليلًا على انتفاء حقيقة الإيمان، بل قد ثبت في الصحيح عنه: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق»، وفي الحديث دلالة على أنه يكون فيه بعض شعب النفاق، مع ما معه من الإيمان.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥]

وأيضًا، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل»، فهذا يبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادمًا للإيمان، والبغض والحب من أعمال القلوب، ومن المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون أن الله عز وجل حرم هذه الأمور ولا يبغضونها، بل يدعون إلى ما حرم الله ورسوله[1]

وقال شيخ الإسلام عن شبهتهم: دلالة لفظ الإيمان على الأعمال مجاز، فقوله ﷺ: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبةً؛ أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»، مجاز، وقوله: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»... إلى آخره، حقيقة، وهذا عمدة المرجئة، والجهمية، والكَرَّاميَّة، وكل من لم يدخل الأعمال في اسم الإيمان.

ونحن نجيب بجوابين:

أحدهما: كلام عام في لفظ الحقيقة، والمجاز.

والثاني: ما يختص بهذا الموضع.

فبتقدير أن يكون أحدُهما مجازًا؛ ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز؟ هل الحقيقة هو المطلق، أو المقيد، أو كلاهما حقيقة؟ حتى يعرف أن لفظ الإيمان إذا أطلق على ماذا يحمل؟

فيقال: أولًا: تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز، وتقسيم دلالتها أو المعاني المدلول عليها، إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول أو في الدلالة؛ فإن هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين، ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ، وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة، لم يتكلم به أحد من: الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم؛ كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو؛ كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٤- ٥٥٧).

وأول من عرف أنه تكلم بلفظ «المجاز» أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية.

ولهذا قال من قال من الأصوليين -كأبي الحسين البصري وأمثاله-: إنها تعرف الحقيقة من المجاز بطرق، منها: نص أهل اللغة على ذلك بأن يقولوا: هذا حقيقة، وهذا مجاز، فقد تكلم بلا علم؛ فإنه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا، ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة، ولا من سلف الأمة وعلمائها، وإنما هذا اصطلاح حادث، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة، ونحوهم من المتكلمين، فإنه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، ونحوهم من السلف.

وهذا الشافعي هو أول من جرد الكلام في أصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم، ولا تكلم بلفظ «الحقيقة والمجاز»، وكذلك محمد بن الحسن له في المسائل المبنية على العربية كلام معروف في «الجامع الكبير» وغيره؛ ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز.

وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز في كلام أحد منهم إلا في كلام أحمد بن حنبل، فإنه قال في كتاب الرد على الجهمية في قوله: (إنا، ونحن)، ونحو ذلك في القرآن: هذا من مجاز اللغة، يقول الرجل: إنا سنعطيك، إنا سنفعل، فذكر أن هذا مجاز اللغة.

وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال: إن في القرآن مجازًا، كالقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وأبي الخطاب، وغيرهم.

وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون في القرآن مجاز، كأبي الحسن الخرزي، وأبي عبد الله بن حامد، وأبي الفضل التميمي بن أبي الحسن التميمي.

وكذلك منع أن يكون في القرآن مجاز، محمد بن خويز منداد، وغيره من المالكية، ومنع منه داود بن علي، وابنه أبو بكر، ومنذر بن سعيد البلوطي، وصنَّف فيه مصنفًا.

وحكى بعض الناس عن أحمد في ذلك روايتين.

وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم، ولا من قدماء أصحاب أحمد: إن في القرآن مجازًا، لا مالك، ولا الشافعي، ولا أبو حنيفة، فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز، إنما اشتهر في المائة الرابعة، وظهرت أوائله في المائة الثالثة، وما علمته موجودًا في المائة الثانية، اللهم إلا أن يكون في أواخرها.

والذين أنكروا أن يكون أحمد وغيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا: إن معنى قول أحمد: من مجاز اللغة، أي مما يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذي له أعوان: نحن فعلنا كذا، ونفعل كذا، ونحو ذلك، قالوا: ولم يرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل في غير ما وضع له.

وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز، لا في القرآن ولا غيره، كأبي إسحاق الإسفراييني

فتبين أنه ليس لمن فرَّق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكِن به التمييز بين نوعين، فعُلِم أن هذا التقسيم باطل، وحينئذ فكل لفظ موجود في كتاب الله ورسوله فإنه مقيَّد بما يبين معناه، فليس في شيء من ذلك مجاز بل كله حقيقة. . .

ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؟ فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن تفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني.

فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة، وهذه مجازًا، كما أخطأ المرجئة في اسم الإيمان، جعلوا لفظ الإيمان حقيقة في مجرد التصديق، وتناوله للأعمال مجازًا.

فيقال: إن لم يصح التقسيم إلى حقيقة ومجاز، فلا حاجة إلى هذا، وإن صح، فهذا لا ينفعكم، بل هو عليكم لا لكم؛ لأن الحقيقة هي اللفظ الذي يدل بإطلاقه بلا قرينة، والمجاز إنما يدل بقرينة، وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة، دخلت فيه الأعمال، وإنما يدعي خروجها منه عند التقييد؛ وهذا يدل على أن الحقيقة قوله: «الإيمان بضع وسبعون شعبة».

وأما حديث جبريل، فإن كان أراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام، فهو كذلك، وهذا هو المعنى الذي أراد النبي ﷺ قطعًا، كما أنه لما ذكر الإحسان أراد الإحسان مع الإيمان والإسلام، لم يرد أن الإحسان مجرد عن إيمان وإسلام.

ولو قدر أنه أريد بلفظ الإيمان مجرد التصديق؛ فلم يقع ذلك إلا مع قرينة فيلزم أن يكون مجازًا، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث، بخلاف كون لفظ الإيمان في اللغة مرادفًا للتصديق، ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله، بل أراد به ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص ولا تقييد، فإن هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما، فلا يعارض اليقين، كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين، وإنها من أفسد الكلام.

وأيضًا، فليس لفظ الإيمان في دلالته على الأعمال المأمور بها بدون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج في دلالته على الصلاة الشرعية، والصيام الشرعي، والحج الشرعي، سواء قيل: إن الشارع نقله، أو أراد الحكم دون الاسم، أو أراد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل العرف، أو خاطب بالاسم مقيدًا لا مطلقًا.

فإن قيل: الصلاة والحج ونحوهما لو ترك بعضها بطلت، بخلاف الإيمان فإنه لا يبطل عند الصحابة وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب.

قيل: إن أريد بالبطلان أنه لا تبرأ الذمة منها كلها؛ فكذلك الإيمان الواجب إذا ترك منه شيئًا لم تبرأ الذمة منه كله.

وإن أريد به وجوب الإعادة فهذا ليس على الإطلاق، فإن في الحج واجبات إذا تركها لم يُعد، بل تجبر بدم، وكذلك في الصلاة عند أكثر العلماء إذا تركها سهوًا أو مطلقًا وجبت الإعادة، فإنما تجب إذا أمكنت الإعادة، وإلا فما تعذرت إعادته يبقى مطالبًا به كالجمعة ونحوها.

وإن أريد بذلك أنه لا يثاب على ما فعله؛ فليس كذلك، بل قد بين النبي ﷺ في حديث المسيء في صلاته أنه إذا لم يتمها يثاب على ما فعل، ولا يكون بمنزلة من لم يصلِ، وفي عدة أحاديث أن الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل، فإذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دلَّ على أنه يعتد له بما فعل منها، فكذلك الإيمان إذا ترك منه شيئًا كان عليه فعله، إن كان محرمًا تاب منه، وإن كان واجبًا فعله، فإذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه، وأثيب على ما فعله كسائر العبادات، وقد دلت النصوص على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا على رأيهم وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة، وهذه طريقة أهل البدع، ولهذا كان الإمام أحمد يقول: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس...

والقاضي أبو بكر الباقلاني نصر قول جهم في «مسألة الإيمان» متابعة لأبي الحسن الأشعري، وكذلك أكثر أصحابه.

فأما أبو العباس القلانسي، وأبو علي الثقفي، وأبو عبد الله بن مجاهد -شيخ القاضي أبي بكر وصاحب أبي الحسن- فإنهم نصروا مذهب السلف.

وابن كلاب -نفسه- والحسين بن الفضل البجلي ونحوهما كانوا يقولون: هو التصديق والقول جميعًا، موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين، كحماد بن أبي سليمان، ومن اتبعه مثل أبي حنيفة وغيره[1]

وقال: فإن قال قائل: اسم الإيمان إنما يتناول الأعمال مجازًا.

قيل: أولا: ليس هذا بأولى ممن قال: إنما تخرج عنه الأعمال مجازًا، بل هذا أقوى؛ لأن خروج العمل عنه إنما هو إذا كان مقرونًا باسم الإسلام والعمل، وأما دخول العمل فيه فإذا أفرد كما في قوله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**، فإن ما يدل مع الاقتران أولى باسم المجاز مما يدل عند التجريد والإطلاق.

وقيل له -ثانيًا-: لا نزاع في أن العمل الظاهر هو فرع عن الباطن وموجب له ومقتضاه؛ لكن هل هو داخل في مسمى الاسم وجزء منه، أو هو لازم للمسمى كالشرط المفارق، والموجب التابع؟ ومن المعلوم أن الأسماء الشرعية والدينية كاسم «الصلاة» و«الزكاة» و«الحج» ونحو ذلك هي

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٧- ١١٩).

باتفاق الفقهاء اسم لمجموع الصلاة الشرعية والحج الشرعي.

ومن قال: إن الاسم إنما يتناول ما يتناوله عنه الإطلاق في اللغة، وإن ما زاده الشارع إنما هو زيادة في الحكم وشرط فيه لا داخل في الاسم، كما قال ذلك القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى، ومن وافقهما على أن الشرع زاد أحكامًا شرعية جعلها شروطًا في القصد، والأعمال والدعاء؛ ليست داخلة في مسمى الحج والصيام والصلاة، فقولهم مرجوح عند الفقهاء وجماهير المنسوبين إلى العلم، ولهذا كان الجمهور من أصحاب الأئمة الأربعة على خلاف هذا القول.

فإذا قال قائل: إن اسم «الإيمان» إنما يتناول مجرد ما هو تصديق، وأما كونه تصديقًا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكون ذلك مستلزمًا لحب الله ورسوله ونحو ذلك هو شرط في الحكم لا داخل في الاسم إن لم يكن أضعف من ذلك القول فليس دونه في الضعف، فكذلك من قال: الأعمال الظاهرة لوازم للباطن، لا تدخل في الاسم عند الإطلاق يشبه قوله قول هؤلاء، والشارع إذا قرن بالإيمان العمل فكما يقرن بالحج ما هو من تمامه، كما إذا قال من حج البيت وطاف وسعى ووقف بعرفة ورمى الجمار؛ ومن صلى فقرأ وركع وسجد كما قال من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ومعلوم أنه لم يكن صومًا شرعيًا إن لم يكن إيمانًا واحتسابًا.

وقال: «من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق؛ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» ومعلوم أن الرفث الذي هو الجماع يفسد الحج، والفسوق ينقص ثوابه، وكما قال ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا» فلا يكون مصليًا إن لم يستقبل قبلتنا في الصلاة، وكما قال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العبد في اليوم والليلة، من حافظ عليهن كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له» فذكر المحافظ عليها ومعلوم أنه لا يكون مصليًا لها على الوجه المأمور إلا بالمحافظة عليها، ولكن بين أن الوعيد مشروط بذلك، ولهذا لا يلزم من عدم المحافظة ألا يصليها بعد الوقت فلا يكون محافظًا عليها؛ إذ المحافظة تستلزم فعلها كما قال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨] نزلت لما أخرت العصر عام الخندق، قال النبي ﷺ: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس».

وبهذا يظهر أن الاحتجاج بذلك على أن تارك الصلاة لا يكفر حجة ضعيفة؛ لكنه يدل على أن تارك المحافظة لا يكفر، فإذا صلاها بعد الوقت لم يكفر؛ ولهذا جاءت في الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها قيل: يا رسول الله، ألا نقاتلهم قال: «لا، ما صلوا» وكذلك لما سئل ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريَم: الآية ٥٩] قال هو تأخيرها عن وقتها فقيل له: كنا نظن ذلك تركها، فقال: لو تركوها كانوا كفارًا.

والمقصود أنه قد يدخل في الاسم المطلق أمور كثيرة، وإن كانت قد تخص بالذكر.

وقيل لمن قال: دخول الأعمال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز: نزاعك لفظي، فإنك إذا سلمت

أن هذه لوازم الإيمان الواجب الذي في القلب وموجباته كان عدم اللازم موجبًا لعدم الملزوم فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن، فإذا اعترفت بهذا كان النزاع لفظيًا.

وإن قلت ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه من أنه يستقر الإيمان التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر، وترك جميع الواجبات الظاهرة.

قيل لك: فهذا يناقض قولك إن الظاهر لازم له وموجب له، بل قيل حقيقة قولك أن الظاهر يقارن الباطن تارة ويفارقه أخرى فليس بلازم له ولا موجب ومعلول له، ولكنه دليل إذا وجد دل على وجود الباطن، وإذ عدم لم يدل عدمه على العدم، وهذا حقيقة قولك.

وهو أيضًا خطأ عقلًا كما هو خطأ شرعًا؛ وذلك أن هذا ليس بدليل قاطع إذ هذا يظهر من المنافق فإنما يبقي دليلًا في بعض الأمور المتعلقة بدار الدنيا كدلالة اللفظ على المعنى، وهذا حقيقة قولك، فيقال لك: فلا يكون ما يظهر من الأعمال ثمرة للإيمان الباطن ولا موجبًا له ومن مقتضاه، وذلك أن المقتضي لهذا الظاهر إن كان هو نفس الإيمان الباطن لم يتوقف وجوده على غيره؛ فإن ما كان معلولًا للشيء وموجبًا له لا يتوقف على غيره، بل يلزم من وجوده وجوده، فلو كان الظاهر موجب الإيمان الباطن لوجب ألا يتوقف على غيره، بل إذا وجد الموجب وجد الموجب.

وأما إذا وجد معه تارة وعدم أخرى أمكن أن يكون من موجب ذلك الغير، وأمكن أن يكون موقوفًا عليهما جميعًا، فإن ذلك الغير إما مستقل بالإيمان أو مشارك للإيمان، وأحسن أحواله أن يكون الظاهر موقوفًا عليهما معًا: على ذلك الغير، وعلى الإيمان؛ بل قد علم أنه يوجد بدون الإيمان؛ كما في أعمال المنافق فحينئذ لا يكون العمل الظاهر مستلزمًا للإيمان، ولا لازمًا له، بل يوجد معه تارة ومع نقيضه تارة، ولا يكون الإيمان علة له ولا موجبًا ولا مقتضيًا، فيبطل حينئذ أن يكون دليلًا عليه؛ لأن الدليل لا بد أن يستلزم المدلول، وهذا هو الحق فإن مجرد التكلم بالشهادتين ليس مستلزمًا للإيمان النافع عند الله.

ولهذا قال النبي ﷺ: لسعد لما قال: هو مؤمن. قال: «أو مسلم؟»، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١٠] فدل ذلك على أن مجرد إظهار الإسلام لا يكون دليلًا على الإيمان في الباطن؛ إذ لو كان كذلك لم تحتج المهاجرات اللاتي جئن مسلمات إلى الامتحان، ودل ذلك على أنه بالامتحان والاختبار يتبين باطن الإنسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن؛ كما في الحديث المرفوع: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان؛ فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبَة: الآية ١٨] الآية».

فإذا قيل: الأعمال الظاهرة تكون من موجب الإيمان تارة، وموجب غيره أخرى؛ كالتكلم

بالشهادتين: تارة يكون من موجب إيمان القلب، وتارة يكون تقية كإيمان المنافقين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البَقَرَة: الآية ٨]، ونحن إذا قلنا: هي من ثمرة الإيمان إذا كانت صادرة عن إيمان القلب لا عن نفاق قيل: فإذا كانت صادرة عن إيمان إما أن يكون نفس الإيمان موجبًا لها، وإما أن تقف على أمر آخر فإذا كان نفس الإيمان موجبًا لها ثبت أنها لازمة لإيمان القلب معلولة لا تنفك عنه، وهذا هو المطلوب؛ وإن توقفت على أمر آخر كان الإيمان جزء السبب جعلها ثمرة للجزء الآخر ومعلولة له إذ حقيقة الأمر أنها معلولة لهما وثمرة لهما.

فتبين أن الأعمال الظاهرة الصالحة لا تكون ثمرة للإيمان الباطن ومعلولة له، إلا إذا كان موجبًا لها ومقتضيًا لها، وحينئذ فالموجب لازم لموجبه والمعلول لازم لعلته، وإذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة؛ بل يلزم من وجود هذا كاملًا وجود هذا كاملًا كما يلزم من نقص هذا نقص هذا؛ إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه، وعلة تامة بلا معلولها، وهذا ممتنع.

وبهذا وغيره يتبين فساد قول جهم والصالحي ومن اتبعهما في الإيمان كالأشعري في أشهر قوليه، وأكثر أصحابه، وطائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة كالماتريدي ونحوه حيث جعلوه مجرد تصديق في القلب يتساوى فيه العباد وأنه إما أن يعدم وإما أن يوجد لا يتبعض، وأنه يمكن وجود الإيمان تامًّا في القلب مع وجود التكلم بالكفر والسب لله ورسوله طوعًا من غير إكراه، وأن ما علم من الأقوال الظاهرة أن صاحبه كافر؛ فلأن ذلك مستلزم عدم ذلك التصديق الذي في القلب، في الأفعال وأن الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للإيمان الباطن الذي في القلب، بل يوجد إيمان القلب تامًّا بدونها فإن هذا القول فيه خطأ من وجوه:

أحدها: أنهم أخرجوا ما في القلوب من حب الله وخشيته ونحو ذلك أن يكون من نفس الإيمان.

وثانيها: جعلوا ما علم أن صاحبه كافر -مثل إبليس وفرعون واليهود وأبي طالب وغيرهم- أنه إنما كان كافرًا؛ لأن ذلك مستلزم لعدم تصديقه في الباطن، وهذا مكابرة للعقل والحس، وكذلك جعلوا من يبغض الرسول ويحسده كراهة دينه مستلزمًا لعدم العلم بأنه صادق ونحو ذلك.

وثالثها: أنهم جعلوا ما يوجد من التكلم بالكفر من سب الله ورسوله والتثليث وغير ذلك قد يكون مجامعًا لحقيقة الإيمان الذي في القلب، ويكون صاحب ذلك مؤمنًا عند الله حقيقة، سعيدًا في الدار الآخرة، وهذا يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام.

ورابعها: أنهم جعلوا من لا يتكلم بالإيمان قط مع قدرته على ذلك، ولا أطاع الله طاعة ظاهرة مع وجوب ذلك عليه وقدرته، يكون مؤمنًا بالله تام الإيمان سعيدًا في الدار الآخرة، وهذه

فضائح تختص بها الجهمية دون المرجئة من الفقهاء وغيرهم.

وخامسها: وهو يلزمهم ويلزم المرجئة، أنهم قالوا: إن العبد قد يكون مؤمنًا، تام الإيمان، إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصديقين، ولو لم يعمل خيرًا لا صلاة ولا صلة ولا صدق حديث، ولم يدع كبيرة إلا ركبها؛ فيكون الرجل عندهم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وهو مصر على دوام الكذب والخيانة ونقض العهود لا يسجد لله سجدة، ولا يحسن إلى أحد حسنة، ولا يؤدي أمانة، ولا يدع ما يقدر عليه من كذب وظلم وفاحشة إلا فعلها، وهو مع ذلك مؤمن تام الإيمان، إيمانه مثل إيمان الأنبياء، وهذا يلزم كل من لم يقل: إن الأعمال الظاهرة من لوازم الإيمان الباطن، فإذا قال: إنها من لوازمه، وإن الإيمان الباطن يستلزم عملًا صالحًا ظاهرًا كان بعد ذلك قوله: إن تلك الأعمال لازمة لمسمى الإيمان، أو جزءًا منه (نزاعًا لفظيًّا) كما تقدم.

وسادسها: أنه يلزمهم أن من سجد للصليب والأوثان طوعًا، وألقى المصحف في الحش عمدًا، وقتل النفس بغير حق، وقتل كل من رآه يصلي، وسفك دم كل من يراه يحج البيت، وفعل ما فعلته القرامطة بالمسلمين -يجوز أن يكون مع ذلك مؤمنًا وليًّا لله إيمانه مثل إيمان النبيين والصديقين؛ لأن الإيمان الباطن إما أن يكون منافيًا لهذه الأمور، وإما ألا يكون منافيًا، فإن لم يكن منافيًا أمكن وجودها معه فلا يكون وجودها إلا مع عدم الإيمان الباطن.

وإن كان منافيًا للإيمان الباطن كان ترك هذه من موجب الإيمان ومقتضاه ولازمه، فلا يكون مؤمنًا في الباطن الإيمان الواجب إلا من ترك هذه الأمور فمن لم يتركها دل ذلك على فساد إيمانه الباطن، وإذا كانت الأعمال والتروك الظاهرة لازمة للإيمان الباطن؛ كانت من موجبه ومقتضاه، وكان من المعلوم أنها تقوى بقوته، وتزيد بزيادته، وتنقص بنقصانه؛ فإن الشيء المعلول لا يزيد إلا بزيادة موجبه ومقتضيه، ولا ينقص إلا بنقصان ذلك؛ فإذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم أن تكون زيادته لزيادة الباطن فيكون دليلًا على زيادة الإيمان الباطن ونقصه لنقص الباطن، فيكون نقصه دليلًا على نقص الباطن. وهو المطلوب.

وهذه الأمور كلها إذا تدبرها المؤمن بعقله تبين له أن مذهب السلف هو المذهب الحق؛ الذي لا عدول عنه، وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول، وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة، والله أعلم [(١)].

وقال: وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان، وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة:

أحدها: قول من ينازعه في أن الإيمان في اللغة مرادف للتصديق، ويقول: هو بمعنى الإقرار وغيره.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٧٦- ٥٨٥).

والثاني: قول من يقول: وإن كان في اللغة هو التصديق، فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

والثالث: أن يقال: ليس هو مطلق التصديق، بل هو تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها، وليس هذا نقلًا للفظ ولا تغييرًا له، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق، بل بإيمان خاص وصفه وبينه.

والرابع: أن يقال: وإن كان هو التصديق، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى.

الخامس: قول من يقول: إن اللفظ باق على معناه في اللغة، ولكن الشارع زاد فيه أحكامًا.

السادس: قول من يقول: إن الشارع استعمله في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي.

السابع: قول من يقول: إنه منقول[1]

وقال: وقد احتج الناس على فساد قول الكَرَّاميَّة بحجج صحيحة، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٨] ، قالوا: فقد نفى الله الإيمان عن المنافقين.

فنقول: هذا حق، فإن المنافق ليس بمؤمن، وقد ضل من سماه مؤمنًا، وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه، كاليهود وغيرهم، سماهم الله كفارًا، لم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا في شيء من أحكام الإيمان، بخلاف المنافق فإنه يدخل في أحكام الإيمان الظاهرة في الدنيا؛ بل قد نفى الله الإيمان عمَّن قال بلسانه وقلبه إذا لم يعمل، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحُجرَات: الآية ١٤] . . . إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١٥] ، فنفى الإيمان عمَّن سوى هؤلاء.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النُّور: الآية ٤٧] ، والتولي هو: التولي عن الطاعة، كما قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفَتْح: الآية ١٦] وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾، وكذلك قال موسى وهارون: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: الآية ٤٨]

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٢، ١٢٣)، (٧/ ٥٢٩- ٥٤٠).

فعلم أن التولي ليس هو التكذيب، بل هو التولي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يصدِّقوا الرسول فيما أخبر، ويطيعوه فيما أمر، وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي، فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾[النُّور: الآية ٤٧] ، فنفى الإيمان عمَّن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[النُّور: الآية ٦٢] ، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفَال: الآية ٢]

ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة، كما نفى فيها الإيمان عن المنافق، وأما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة؛ فهذا لم يسم قط مؤمنًا، وعند الجهمية إذا كان العلم في قلبه فهو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان النبيين ولو قال وعمل ماذا عسى أن يقول ويعمل؟ ولا يتصور عندهم أن ينتفي عنه الإيمان إلا إذا زال ذلك العلم من قلبه[(١)]

وقال: والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل، لا على إيمان خال عن عمل، فإذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه، بل يكون نزاعًا لفظيًّا، مع أنهم مخطئون في اللفظ، مخالفون للكتاب والسنة، وإن قالوا: إنه لا يضره ترك العمل، فهذا كفر صريح، وبعض الناس يحكي هذا عنهم، وأنهم يقولون: إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون: لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معينًا أحكي عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله، وقد يكون قول من لا خلاق له، فإن كثيرًا من الفساق والمنافقين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب أو مع التوحيد، وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البَقَرَة: الآية ١٧٧] ، فقوله: ﴿صَدَقُوا۟﴾[البَقَرَة: الآية ١٧٧] ، أي: في قولهم: آمنوا، كقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحُجرَات: الآية ١٤] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝﴾[الحُجرَات: الآية ١٥] ، أي: هم الصادقون في قولهم: آمنا بالله، بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝﴾[المنَافِقون: الآية ١]

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٤١- ١٤٣).

بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾، وفي يكذبون قراءتان مشهورتان، فإنهم كذَبوا في قولهم: آمنا بالله واليوم الآخر، وكذَّبوا الرسول في الباطن وإن صدقوه في الظاهر.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾، فبيَّن أنه لا بد أن يفتن الناس، أي: يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم، يقال: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتميزه مما اختلط به، ومنه قول موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[الأعراف: الآية ١٥٥] ؛ أي: محنتك واختبارك وابتلاؤك، كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره، وابتليتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليتبين المؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب، والمنافق من المخلص، فتجعل ذلك سببًا لضلالة قوم وهدي آخرين.

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق، والمنافقين بالكذب؛ لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما: آمنا، فمن حقَّق قوله بعمله فهو مؤمن صادق، ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝١٦٧﴾.

فلما قال في آية البر: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: الآية ١٧٧] ، دلَّ على أن المراد صدقوا في قولهم: آمنا، فإن هذا هو القول الذي أمروا به، وكانوا يقولونه.

ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا: نحن أبرار أو بررة، بل إذا قال الرجل: أنا بر، فهذا مزكٍّ لنفسه، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة، فقيل: تزكي نفسها، فسماها النبي ﷺ زينب، بخلاف إنشاء الإيمان بقولهم: آمنا، فإن هذا قد فرض عليهم أن يقولوه، قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة: الآية ١٣٦] ، وكذلك في أول آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾[آل عمران: الآية ٨٤]

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة: الآية ٢٨٥] ، فقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾[البقرة: الآية ١٣٦] دليل على أنهم قالوا: آمنا ولا نفرق، ولهذا قال: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة: الآية ٢٨٥] ، فجمعوا بين قولهم: آمنا، وبين قولهم: سمعنا وأطعنا.

وقد قال في آية البر: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: الآية ١٧٧] ، فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: الآية ٢] ، ودلَّت هذه الآية على أن مسمى الإيمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند

الإطلاق واحد، فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار.

ولهذا جاء في أحاديث الشفاعة الصحيحة: «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، وفي بعضها: «مثقال ذرة من خير»، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾، وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من إيمان، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم أهل السعادة المطلقة، وهم أهل الجنة الذين وعدوا يدخولها بلا عذاب، وهؤلاء الذين قال النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا»، فإنه ليس من هؤلاء؛ بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد أسوة أمثالهم[1].

وقال: وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: لا يقبل قول وعمل إلا بنيَّةٍ، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السُّنَّة، ورويا عن الحسن البصري مثله، ولفظه: لا يصلح، مكان: يقبل، وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيًا، فأخبر أنَّه لا بدَّ من قول وعمل، إذ الإيمان قول وعمل، لا بد من هذين، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع.

وبيَّنَّا أنَّ مجرد تصديق القلب واللسان مع البغض والاستكبار لا يكون إيمانًا -باتفاق المؤمنين- حتى يقترن بالتصديق عمل.

وأصل العمل عمل القلب، وهو الحب والتعظيم المنفي للبغض والاستكبار.

ثم قالوا: ولا يقبل قول وعمل إلا بنيَّة، وهذا ظاهر، فإن القول أو العمل إذا لم يكن خالصًا لله تعالى لم يقبله الله تعالى.

ثم قالوا: ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة، وهي الشريعة، وهي ما أمر الله به ورسوله؛ لأن القول أو العمل أو النية الذي لا يكون مسنونًا مشروعًا قد أمر الله به يكون بدعة ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله؛ ولا يصلح: مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب[2].

وقال: كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان، علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول، ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان، وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنبًا كافرًا، ويعلم أنه لو قدر أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك، ونقرّ بألسنتنا بالشهادتين، إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه، فلا نصلي، ولا نصوم، ولا نحج، ولا نصدق الحديث، ولا نؤدي الأمانة، ولا نَفِي بالعهد؛ ولا نصل الرحم، ولا نفعل شيئًا من الخير الذي أمرت به، ونشرب الخمر؛ وننكح ذوات المحارم بالزنى الظاهر، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك، ونأخذ أموالهم، بل نقتلك أيضًا، ونقاتلك مع أعدائك، هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم: أنتم مؤمنون كاملو الإيمان، وأنتم من أهل

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨١- ١٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

شفاعتي يوم القيامة، ويرجى لكم ألا يدخل أحد منكم النار؟! بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم: أنتم أكفر الناس بما جئت به، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك.

وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق، لم يكن النبي ﷺ يجعلهم مرتدين يجب قتلهم، بل القرآن والنقل المتواتر عنه، يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام، كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني، وقطع السارق، وهذا متواتر عن النبي ﷺ، ولو كانوا مرتدين لقتلهم.

فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول ﷺ(١)

وقال: فإن الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه، وقوله، والعمل تابع لهذا العلم، والتصديق ملازم له، ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بهما(٢)

وقال: ثم احتج الإمام أحمد على أن الأعمال من الإيمان بحجج كثيرة، فقال: وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا خمسًا من المغنم»، فجعل ذلك كله من الإيمان.

قال: وقال النبي ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان»، وقال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقال: «إن البذاذة من الإيمان»، وقال: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله»، مع أشياء كثيرة، منها: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، وما روي عن النبي ﷺ في صفة المنافق: «ثلاث من كن فيه فهو منافق»، مع حجج كثيرة، وما روي عن النبي ﷺ في تارك الصلاة، وعن أصحابه من بعده.

ثم ما وصف الله تعالى في كتابه من زيادة الإيمان في غير موضع، مثل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[الفتح: الآية ٤]، وقال: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾[المدثر: الآية ٣١]، وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[الأنفال: الآية ٢]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: الآية ١٢٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجرات: الآية ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[التوبة: الآية ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة: الآية ١١]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة: الآية ٥]

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٧٧).

قال أحمد: ويلزمه أن يقول: هو مؤمن بإقراره، وإن أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة، أنه مؤمن، فيلزمه أن يقول: إذا أقر ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا أنه في ذلك مقر بالله؛ فيلزمه أن يكون عنده مؤمنًا، وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم.

قلت: هذا الذي ذكره الإمام أحمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم، جمع في ذلك جملًا، يقول غيره بعضها، وهذا الإلزام لا محيد لهم عنه، ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه أنه لازم التزموه، وقالوا: لو فعل ما فعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافرًا في الباطن لكن يكون دليلًا على الكفر في أحكام الدنيا، فإذا احتج عليهم بنصوص تقتضي أنه يكون كافرًا في الآخرة. قالوا: فهذه النصوص تدل على أنه في الباطن ليس معه من معرفة الله شيء، فإنها عندهم شيء واحد، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع[(١)]

وقال: أصل قول المرجئة، وهو أن الإيمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه، فلا يكون إلا شيئًا واحدًا، فلا يكون ذا عدد: اثنين أو ثلاثة، فإنه إذا كان له عدد، أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه، بل لا يكون إلا شيئًا واحدًا، ولهذا قالت الجهمية: إنه شيء واحد في القلب.

وقالت الكَرَّاميَّة: إنه شيء واحد على اللسان، كل ذلك فرارًا من تبعض الإيمان وتعدده.

فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على أنه ليس شيئًا واحدًا كما قلتم، فأبو ثور احتج بما اجتمع عليه الفقهاء المرجئة من أنه تصديق وعمل، ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم، أو لم يعد خلافهم خلافًا، وأحمد ذكر أنه لا بد من المعرفة والتصديق مع الإقرار، وقال: إن من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولًا عظيمًا، فإن فساد هذا القول معلوم من دين الإسلام، ولهذا لم يذهب إليه أحد قبل الكَرَّاميَّة، مع أن الكَرَّاميَّة لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق، ولكن تقول: لا يدخل في اسم الإيمان حذرًا من تبعضه وتعدده؛ لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه، بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكبر، واعتقدوا الإجماع على نفي ذلك، كما ذكر هذا الإجماع الأشعري وغيره[(٢)]

وقال: شبهةُ أهل البدع في الإيمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكَرَّاميَّة وسائر المرجئة، وهو أن الشيء المركب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله؛ لكن هو لم يذكر إلا ظاهر شبهتهم.

والجواب عما ذكروه هو سهل؛ فإنه يسلَّم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت؛ لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء.

والشافعي مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون: إن الذنب يقدح في كمال الإيمان،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٠- ٤٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩٣، ٣٩٤).

ولهذا نفى الشارع الإيمان عن هؤلاء، فذلك المجموع الذي هو الإيمان لم يبق مجموعًا مع الذنوب، لكن يقولون: بقي بعضه إما أصله وإما أكثره وإما غير ذلك، فيعود الكلام إلى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه.

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة؛ لأنه إذا نقص لزم ذهابه كله عندهم، إن كان متبعضًا متعددًا عند من يقول بذلك، وهم الخوارج والمعتزلة.

وأما الجهمية فهو واحد عندهم، لا يقبل التعدد؛ فيثبتون واحدًا لا حقيقة له، كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب، ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم.

ومن العجب أن الأصل الذي أوقعهم في هذا اعتقادهم أنه لا يجتمع في الإنسان بعض الإيمان وبعض الكفر، أو ما هو إيمان وما هو كفر، واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك أبو الحسن وغيره، فلأجل اعتقادهم هذا الإجماع وقعوا فيما هو مخالف للإجماع الحقيقي؛ إجماع السلف الذي ذكره غير واحد من الأئمة، بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم في الإيمان[1]

وقال: والمأثور عن الصحابة، وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة، أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه، كما قال عمير بن حبيب الخطمي وغيره من الصحابة: الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ فقال: إذا ذكرنا الله، وحمدناه، وسبحناه، فتلك زيادته. وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه، فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم.

وربما قال بعضهم وكثير من المتأخرين: قول وعمل ونية، وربما قال آخر: قول وعمل ونية واتباع السنة، وربما قال: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان؛ أي بالجوارح، وروى بعضهم هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ في النسخة المنسوبة إلى أبي الصلت الهروي عن علي بن أبي موسى الرضا، وذلك من الموضوعات على النبي ﷺ، باتفاق أهل العلم بحديثه.

وليس بين هذه العبارات اختلاف معنوي، ولكن القول المطلق والعمل المطلق في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وهذا لا يسمى قولًا إلا بالتقييد، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١١] ، وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب، هو من أعمال المنافقين؛ التي لا يتقبلها الله.

فقول السلف: يتضمن القول والعمل، الباطن والظاهر، لكن لما كان بعض الناس قد لا يفهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٤٠٣- ٤٠٥).

دخول النية في ذلك؛ قال بعضهم: ونية. ثم بين آخرون: أن مطلق القول والعمل والنية لا يكون مقبولًا إلا بموافقة السنة، وهذا حق أيضًا، فإن أولئك قالوا: قول وعمل؛ ليبينوا اشتماله على الجنس، ولم يكن مقصودهم ذكر صفات الأقوال والأعمال، وكذلك قول من قال: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، جعل القول والعمل اسمًا لما يظهر؛ فاحتاج أن يضم إلى ذلك اعتقاد القلب، ولا بد أن يدخل في قوله اعتقاد القلب أعمال القلب المقارنة لتصديقه، مثل حب الله، وخشية الله، والتوكل على الله، ونحو ذلك، فإن دخول أعمال القلب في الإيمان أولى، من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها[(١)]

وقال: فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين: التصديق بالحق والمحبة له، فهذا أصل القول، وهذا أصل العمل.

ثم الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر، والعمل الظاهر ضرورة، كما تقدم.

فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجبًا لجميع ما يدخل في مسمى الإيمان وكل ما سمي إيمانًا فقد غلط، بل لا بد من العلم والحب، والعلم شرط في محبة المحبوب، كما أن الحياة شرط في العلم، لكن لا يلزم من العلم بالشيء والتصديق بثبوته محبته إن لم يكن بين العالم والمعلوم معنى في المحب أحب لأجله، ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها، كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته، لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد، وأن يحب لأجله رسوله، والقلوب فيها معنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معنى يقتضي العلم والتصديق به، فمن صدق به وبرسوله ولم يكن محبًا له ولرسوله لم يكن مؤمنًا حتى يكون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله.

وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه؛ ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها، وفروعها أيضًا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها.

وكذلك الإيمان في القلب والإسلام علانية، ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٠٥، ٥٠٦).

ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]، فأخبر أن من كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان. وكذلك قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: الآية ١٥]، فأخبر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم: آمنا، ودل ذلك على أن الناس في قولهم: آمنا، صادق وكاذب، والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه، قال تعالى في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٨]، إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠]، وفي يكذبون قرءاتان مشهوراتان.

وفي الحديث: «أساس النفاق الذي يبني عليه الكذب»، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: الآية ١]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: الآية ٥٨]، ومثل هذا كثير.

وبالجملة، فلا يستريب من تدبر ما يقول في أن الرجل لا يكون مؤمنًا بمجرد تصديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله، واستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسوله[1]

وقال: فصل: إذا تبين هذا وعلم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد، وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه -زالت الشبه العلمية في هذه المسألة، ولم يبق إلا نزاع لفظي في أن موجب الإيمان الباطن هل هو جزء منه داخل في مسماه فيكون لفظ الإيمان دالًا عليه بالتضمن والعموم، أو هو لازم للإيمان، ومعلول له وثمرة له، فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللزوم؟

وحقيقة الأمر أن اسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا، كما قد تقدم؛ فإذا قرن اسم

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٠- ٥٤٣).

لإيمان بالإسلام أو العمل كان دالًا على الباطن فقط، وإن أفراد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر، وبهذا تأتلف النصوص.

فقوله: «**الإيمان بضع وسبعون شعبةً، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**»، أفرد لفظ الإيمان، فدخل فيه الباطن والظاهر.

وقوله ﷺ في حديث جبريل: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**»، ذكره مع قوله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**».

فلما أفرده عن اسم الإسلام ذكر ما يخصه الاسم في ذاك الحديث مجردًا عن الاقتران، وفي هذا الحديث مقرون باسم الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥]، دخل فيه الباطن، فلو أتى بالعمل الظاهر دون الباطن لم يكن ممن أتى بالدين الذي هو عند الله الإسلام.

وأما إذا قرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحُجرَات: الآية ١٤]، وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٥]، فقد يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة كما في حديث أنس الذي في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإسلام علانية والإيمان في القلب**».

ومن علم أن دلالة اللفظ تختلف بالإفراد والاقتران، كما في اسم الفقير والمسكين والمعروف والمنكر والبغي وغير ذلك من الأسماء، وكما في لغات سائر الأمم؟ عربها وعجمها -زاحت عنه الشبهة في هذا الباب، والله أعلم(١).

وقال: من الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتًا في قلبه، بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم من رمضان، ولا يؤدي لله زكاة، ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة، لا مع إيمان صحيح؛ ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما، في الحديث الطويل، حديث التجلي: «**أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة، سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود**» فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط؟!

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٧٥، ٥٧٦).

وثبت أيضًا في الصحيح: «أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء إلا موضع السجود؛ فإن الله حرم على النار أن تأكله»، فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله.

وكذلك ثبت في الصحيح أن النبي يعرف أمته يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء، فدل على أن من لم يكن غرًّا محجلًا لم يعرفه النبي ﷺ، فلا يكون من أمته.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

فوصفه بترك الصلاة، كما وصفه بترك التصديق، ووصفه بالتكذيب والتولي، والمتولي هو العاصي الممتنع من الطاعة، كما قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: الآية ١٦]

وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين، وكذلك قرن التكذيب بالتولي في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾(١)

وقال: وقد تبين أن الدين لا بد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤدِ واجبًا ظاهرًا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صيامًا ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله أوجبها، مثل أن يؤدي الأمانة أو يصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه، من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج بذلك من الكفر، فإن المشركين، وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور، فلا يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ.

ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات، سواء جعل فعل تلك الواجبات لازمًا له؛ أو جزءًا منه، فهذا نزاع لفظي -كان مخطئًا خطأً بينًا، وهذه بدعة الإرجاء، التي أعظم السلف والأئمة الكلام في أهلها، وقالوا فيها من المقالات الغليظة ما هو معروف، والصلاة هي أعظمها وأعمها وأولها وأجلها(٢)

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١١- ٦١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢١).

- قولهم في الأسماء والأحكام

(قولهم في الكفر)

اختلفوا في الكفر، وتقدم ذكر ذلك عند ذكر فرقهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في الكفر، ما هو؟ وهم سبع فرق:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الكفر خصلة واحدة، وبالقلب يكون، هو الجهل بالله، وهؤلاء هم الجهمية.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الكفر خصال كثيرة، ويكون بالقلب وبغير القلب، والجهل بالله كفر، وبالقلب يكون، وكذلك البغض لله والاستكبار عليه كفر، وكذلك التكذيب بالله وبرسله بالقلب واللسان، وكذلك الجحود لهم، والإنكار لهم، ونفيهم، وكذلك الاستخفاف بالله وبرسله كفر، وكذلك ترك التوحيد إلى اعتقاد التثنية والتثليث أو ما هو أكثر من ذلك كفر.

وزعم قائل هذا القول أن الكفر يكون بالقلب واللسان دون غيرهما من الجوارح، وكذلك الإيمان، وزعم قائل هذا القول أن قاتل النبي ولاطمه لم يكفر من أجل القتل واللطمة، ولكن من أجل الاستخفاف، وكذلك تارك الصلاة مستخفًّا لتركها إنما يكفر بالاستحلال لتركها، لا بتركها.

وزعم صاحب هذا القول أن من استحل ما حرَّم الله سبحانه مما نصَّ الرسول ﷺ على تحريمه وأجمع المسلمون على تحريمه فهو كافر بالله، وأن استحلال ذلك كفر، وكذلك من قال قولًا، أو اعتقد اعتقادًا، قد أجمع المسلمون على إكفار فاعله، وكل فعل أجمعوا على إكفار فاعله كفر بأي جارحة كان ذلك الفعل.

والفرقة الرابعة منهم: يزعمون أن الكفر بالله هو التكذيب والجحد له والإنكار له باللسان، وأن الكفر لا يكون إلا باللسان دون غيره من الجوارح، وهذا قول محمد بن كرَّام وأصحابه.

والفرقة الخامسة منهم: يزعمون أن الكفر هو الجحود والإنكار والستر والتغطية، وأن الكفر يكون بالقلب واللسان.

والفرقة السادسة منهم: أصحاب أبي شمر، وقد تقدمت حكاية قولهم في إكفار من ردَّ قولهم في التوحيد والقدر.

والفرقة السابعة: أصحاب محمد بن شبيب، وقد ذكرنا قولهم في الإكفار عند ذكرنا قولهم في الإيمان[1]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٤٣).

وقال: وكل هؤلاء الذين حكينا قولهم من: الشمرية، والجهمية، والغيلانية، والنجارية ينكرون أن يكون من الكفار إيمان، وأن يقال: إن فيهم بعض إيمان، إذ كان الإيمان لا يتبعض عندهم[(١)]

وقال: وكل المرجئة يقولون: إنه ليس في أحد من الكفار إيمان بالله عز وجل[(٢)]

وقال ابن حزم: اختلف الناس في تسمية المذنب من أهل ملتنا فقالت المرجئة هو مؤمن كامل الإيمان وإن لم يعمل خيرًا قط ولا كف عن شر قط[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: والأصل الذي منه نشأ النزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمنًا لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق، وظن بعضهم أن هذا إجماع، كما ذكر الأشعري أن هذا إجماع، فهنا كان أصل الإرجاء[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والكفر عدم الإيمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أو لم يعتقد شيئًا ولم يتكلم[(٥)]

وقال: ومن جعل الإيمان هو تصديق القلب يقول: كل كافر في النار ليس معهم من التصديق بالله شيء، لا مع إبليس ولا مع غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزُمَر: الآية ٧١] ، فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا؛ فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم في الآخرة كفار.

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾، فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله، وأما في الآخرة فعرفوا الجميع.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٠]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٣٦، ١٣٧).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٤٠).

(٣) الفصل (٣/ ١٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨٦)، (٧/ ٦٣٩)، (١٢/ ٣٣٥).

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: الآية ١٩] . . . إلى قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: الآية ٢٢]

إلى آيات أخر كثيرة تدل على أن الكفار في الآخرة يعرفون ربهم، فإن كان مجرد المعرفة إيمانًا كانوا مؤمنين في الآخرة.

فإن قالوا: الإيمان في الآخرة لا ينفع، وإنما الثواب على الإيمان في الدنيا.

قيل: هذا صحيح، لكن إذا لم يكن الإيمان إلا مجرد العلم؛ فهذه الحقيقة لا تختلف، فإن لم يكن العمل من الإيمان، فالعارف في الآخرة لم يفته شيء من الإيمان، لكن أكثر ما يدعونه أنه حين مات لم يكن في قلبه من التصديق بالرب شيء، ونصوص القرآن في غير موضع تدل على أن الكفار كانوا في الدنيا مصدِّقين بالرب، حتى فرعون الذي أظهر التكذيب كان في باطنه مصدقًا، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: الآية ١٤]، وكما قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٢]، ومع هذا لم يكن مؤمنًا؛ بل قال موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: الآية ٨٨]، قال الله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩]، ولما قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: الآية ٩٠]، قال الله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: الآية ٩١]، فوصفه بالمعصية، ولم يصفه بعدم العلم في الباطن، كما قال: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمّل: الآية ١٦]، وكما قال عن إبليس: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾، فلم يصفه إلا بالإباء والاستكبار ومعارضته الأمر، لم يصفه بعدم العلم، وقد أخبر الله عن الكفار في غير موضع أنهم كانوا معترفين بالصانع في مثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرُف: الآية ٨٧].

ثم يقال لهم: إذا قلتم هو التصديق بالقلب، أو باللسان، أو بهما؛ فهل هو التصديق المجمل؟ أو لا بد فيه من التفصيل؟ فلو صدَّق أن محمدًا رسول الله ولم يعرف صفات الحق، هل يكون مؤمنًا أم لا؟

فإن جعلوه مؤمنًا، قيل: فإذا بلغه ذلك فكذب به، لم يكن مؤمنًا باتفاق المسلمين، فصار بعض الإيمان أكمل من بعض.

وإن قالوا: لا يكون مؤمنًا، لزمهم ألا يكون أحد مؤمنًا حتى يعرف تفصيل كل ما أخبر به الرسول، ومعلوم أن أكثر الأمة لا يعرفون ذلك وعندهم الإيمان لا يتفاضل إلا بالدوام فقط[1]

وقال: ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه، حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنًا كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يَسبُّ الله ورسوله، ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٥٠- ١٥٢).

ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة، قالوا: وهذه كلها معاصٍ لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن، قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار؛ لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر، كما يحكم بالإقرار والشهود، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود.

فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة، قالوا: فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه، فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم، أو تكذيب القلب وتصديقه، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو؟.

وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في «الإيمان» فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة، وقد كفر السلف -كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم- من يقول بهذا القول، وقالوا: إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم، لا لكونه كذب خبرًا، وكذلك فرعون وقومه، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: الآية ١٤] ، وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء: الآية ١٠٢] ، بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء: الآية ١٠٢] ، فدل على أن فرعون كان عالمًا بأن الله أنزل الآيات وهو من أكبر خلق الله عنادًا وبغيًا لفساد إرادته وقصده، لا لعدم علمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: الآية ٤] ، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل، الآية ١٤] ، وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣]

فهؤلاء غلطوا في أصلين:

أحدهما: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل، وحال، وحركة، وإرادة، ومحبة، وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقًا، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالًا ومقامات، أو منازل السائرين إلى الله، أو مقامات العارفين، أو غير ذلك، كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب، وفيها ما أحبه ولم يفرضه، فهو

من الإيمان المستحب، فالأول لا بد لكل مؤمن منه، ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين، وذلك مثل حب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾، ومثل الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة لله، والمعاداة لله.

والثاني: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك؛ لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق، وهذا أمر خالفوا به الحس، والعقل، والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة، وجماهير النظار، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض؛ كأموال، ورياسة، وصداقة أقوام، وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم، فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق.

ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح في صدق الرسل، إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم، كقولهم لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١١١]، ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح في صدقه، لكن كرهوا مشاركة أولئك، كما طلب المشركون من النبي ﷺ، إبعاد الضعفاء، كسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وبلال ونحوهم، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل الصفة، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

ومثل قول فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧]، وقول فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾، ومثل قول مشركي العرب: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: الآية ٥٧]، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: الآية ٥٧]، ومثل قول قوم شعيب له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هُود: الآية ٨٧]، ومثل قول عامة المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ... تَأْمُرُكَ﴾ [الزخرُف: الآية ٢٣]

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججًا تقدح في صدق الرسل، بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهوائهم وعاداتهم، فلذلك لم يتبعوهم، وهؤلاء كلهم كفار، بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته، وليس عندهم حسد له، وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون أن في متابعته فراقَ دين آبائهم، وذم قريش لهم، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به، بل لهوى النفس، فكيف يقال: إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله؟!

ولم يكفِ الجهمية أن جعلوا كل كافر جاهلًا بالحق حتى قالوا: هو لا يعرف أن الله موجود حق، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأي حق كان، بل الجهل بهذا الحق المعين، ونحن والناس كلهم يرون خلقًا من الكفار يعرفون في الباطن أن دين الإسلام حق، ويذكرون ما يمنعهم من الإيمان: إما معاداة أهلهم وإما مال يحصل لهم من جهتهم يقطعونه عنهم، وإما خوفهم إذا آمنوا ألا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم في دينهم، وأمثال ذلك من أغراضهم التي يبينون أنها المانعة لهم من الإيمان، مع علمهم بأن دين الإسلام حق، ودينهم باطل.

وهذا موجود في جميع الأمور التي هي حق، يوجد من يعرف بقلبه أنها حق، وهو في الظاهر يجحد ذلك، ويعادي أهله لظنه أن ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الإسلام وفي قلبه مرض، خاف أن يغلب أهل الإسلام فيوالي الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذي في قلوبهم؛ لا لاعتقادهم أن محمدًا كاذب.

واليهود والنصارى صادقون، وأشهر النقول في ذلك أن عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله، إن لي موالى من اليهود وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أُبَي: لكني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية يهود، فنزلت هذه الآية(١).

وقال: فإن قالوا: من علم أن الرسول كفره؛ علم انتفاء التصديق من قلبه.

قيل لهم: هذه مكابرة، إن أرادوا أنهم كانوا شاكين مرتابين، وأما إن عني التصديق الذي لم يحصل معه عمل؛ فهو ناقص كالمعدوم؛ فهذا صحيح، ثم إنما يثبت إذا ثبت أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، وذاك إنما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التي منها هذا، فلا تثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٨٨- ١٩٤).

ثم يقال: قد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله؛ وكان يحكم بكفرهم، فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته في القلب، إذا لم يعمل بهذا التصديق بحيث يحبه ويعظمه، ويسلم لما جاء به(١)

وقال: ولكن على قولهم: المعاند كافر شرعًا، فيجعل الكفر تارة بانتفاء الإيمان الذي في القلب، وتارة بالعناد، ويجعل هذا كافرًا في الشرع، وإن كان معه حقيقة الإيمان الذي هو التصديق، ويلزمه أن يكون كافرًا في الشرع، مع أن معه الإيمان الذي هو مثل إيمان الأنبياء والملائكة. والحذاق في هذا المذهب؛ كأبي الحسن والقاضي ومن قبلهم من أتباع جهم، عرفوا أن هذا تناقض يفسد الأصل فقالوا: لا يكون أحد كافرًا إلا إذا ذهب ما في قلبه من التصديق، والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره فإنه ليس في قلبه شيء من معرفة الله ولا معرفة رسوله، ولهذا أنكر هذا عليهم جماهير العقلاء، وقالوا: هذا مكابرة وسفسطة.

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] الآية، قالوا: ومفهوم هذا، أن من لم يعمل بمقتضاه لم يكتب في قلوبهم الإيمان.

قالوا: فإن قيل: معناه: لا يؤمنون إيمانًا مجزئًا معتدًّا به، أو يكون المعنى: لا يؤدون حقوق الإيمان ولا يعملون بمقتضاه، قلنا: هذا عام لا يخصص إلا بدليل.

فيقال لهم: هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله، وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله، ومن بغض من يحاد الله ورسوله، ثم لم تدل الآية على أن العلم الذي في قلوبهم بأن محمدًا رسول الله يرتفع لا يبقى منه شيء، والإيمان الذي كتب في القلب ليس هو مجرد العلم والتصديق، بل هو تصديق القلب وعمل القلب، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]، فقد وعدهم بالجنة، وقد اتفق الجميع على أن الوعد بالجنة لا يكون إلا مع الإتيان بالمأمور به وترك المحظور، فعُلِم أن هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، قد أدُّوا الواجبات التي بها يستحقون ما وعد الله به الأبرار المتقين، ودل هذا على أن الفساق لم يدخلوا في هذا الوعد، ودلَّت هذه الآية على أنه لا يوجد مؤمن يواد الكفار، ومعلوم أن خلقًا كثيرًا من الناس يعرف من نفسه أن التصديق في قلبه لم يكذب الرسول، وهو مع هذا يواد بعض الكفار؛ فالسلف يقولون: ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب -الذي

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٣١).

هو حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك، لا يستلزم- ألا يكون في القلب من التصديق شيء، وعند هؤلاء **كل من نفى الشرع** إيمانه دلَّ على أنه ليس في قلبه **شيء من التصديق أصلًا، وهذا** سفسطة عند جماهير العقلاء(١).

وقال في نقض قول الكَرَّامِيَّة: وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال:

فعلماؤهم وأئمتهم أحسنهم قولًا وهو أن قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان.

وقالت الجهمية: هو تصديق القلب فقط.

وقالت الكَرَّامِيَّة: هو القول فقط، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقرًّا بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذبًا بقلبه كان منافقًا مؤمنًا من أهل النار، وهذا القول هو الذي اختصت به الكَرَّامِيَّة وابتدعته ولم يسبقها أحد إلى هذا القول، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان، وبعض الناس يحكي عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، بل يقولون: إنه مؤمن كامل الإيمان، وإنه من أهل النار، فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الإيمان معذبًا في النار، بل يكون مخلدًا فيها، وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وإن قالوا: لا يخلد وهو منافق، لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار، والمنافقون قد قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: الآية ١٤٥]، وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم، وقال له: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٨٠]، وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٨٤]، وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله.

فإن قالوا: هؤلاء قد كانوا يتكلمون بألسنتهم سرًّا فكفروا بذلك، وإنما يكون مؤمنًا إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه، فإن ذلك ردة عن الإيمان.

قيل لهم: ولو أضمروا النِّفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٦٤].

وأيضًا، قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم كاذبون، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: الآية ١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/١٤٦- ١٤٨).

وقد قال النبي ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»، وقد قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٤]

وفي الصحيحين عن سعد: أن النبيَّ ﷺ أعطى رجالًا ولم يعطِ رجلًا، فقلت: يا رسول الله، أعطيت فلانًا وفلانًا وتركت فلانًا وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم؟»، مرتين أو ثلاثًا(١)

وقال: والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به، وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به، وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به، والأصل في ذلك هو الإخبار بالله وبأسمائه، ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب أعظم من جحد غيره، وإن كان الرسول أخبر بكليهما، ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما أخبر به، إذا لم يكن معه طاعة لأمره -لا باطنًا ولا ظاهرًا- ولا محبةٌ لله ولا تعظيمٌ له لم يكن ذلك إيمانًا.

وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق والعلم؛ فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر، بل أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر، وكان من الكافرين، فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك؛ لا لأجل تكذيب، وكذلك فرعون وقومه جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا، وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٢]، فالذي يقال هنا أحد أمرين:

إما أن يقال: الاستكبار والإباء والحسد ونحو ذلك مما الكفر به مستلزم لعدم العلم، والتصديق الذي هو الإيمان، وإلا فمن كان علمه وتصديقه تامًّا أوجب استسلامه وطاعته مع القدرة، كما أن الإرادة الجازمة تستلزم وجود المراد مع القدرة، فعلم أن المراد إذا لم يوجد مع القدرة، دلَّ على أنه ما في القلب همة ولا إرادة، فكذلك إذا لم يوجد موجب التصديق والعلم من حب القلب وانقياده، دلَّ على أن الحاصل في القلب ليس بتصديق ولا علم، بل هنا شبهة وريب، كما يقول ذلك طوائف من الناس، وهو أصل قول جهم والصالحي والأشعري في المشهور عنه وأكثر أصحابه؛ كالقاضي أبي بكر ومن اتبعه، ممن يجعل الأعمال الباطنة والظاهرة من موجبات الإيمان لا من نفسه، ويجعل ما ينتفي الإيمان بانتفائه من لوازم التصديق، لا يتصور عنده تصديق باطن مع كفر قط.

أو أن يقال: قد يحصل في القلب علم بالحق وتصديق به، ولكن ما في القلب من الحسد والكبر ونحو ذلك مانع من استسلام القلب وانقياده ومحبته، وليس هذا كالإرادة مع العمل؛ لأن الإرادة مع القدرة مستلزمة للمراد، وليس العلم بالحق والتصديق به مع القدرة على العمل بموجب ذلك العمل، بل لا بد مع ذلك من إرادة الحق والحب له(٢)

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥٥- ٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٤، ٥٣٥).

وقال: **وأيضًا** فهؤلاء القائلون بقول جهم والصالحي قد صرحوا بأن سب الله ورسوله، والتكلم بالتثليث وكل كلمة من كلام الكفر ليس هو كفرًا في الباطن، ولكنه دليل في الظاهر على الكفر، ويجوز مع هذا أن يكون هذا السابُّ الشاتم في الباطن عارفًا بالله موحدًا له مؤمنًا به، فإذا أقيمت عليهم حجة بنص أو إجماع أن هذا كافر باطنًا وظاهرًا. قالوا: هذا يقتضي أن ذلك مستلزم للتكذيب الباطن وأن الإيمان يستلزم عدم ذلك، فيقال لهم: معنا أمران معلومان.

أحدهما: معلوم بالاضطرار من الدين، **والثاني**: معلوم بالاضطرار من أنفسنا عند التأمل.

أما الأول: فإنا نعلم أن من سب الله ورسوله طوعًا بغير كره، بل من تكلم بكلمات الكفر طائعًا غير مكره، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر باطنًا وظاهرًا، وأن من قال: إن مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمنًا بالله، وإنما هو كافر في الظاهر، فإنه قال قولًا معلومَ الفساد بالضرورة من الدين، وقد ذكر الله كلمات الكفار في القرآن وحكم بكفرهم واستحقاقهم الوعيد بها، ولو كانت أقوالهم الكفرية بمنزلة شهادة الشهود عليهم، أو بمنزلة الإقرار الذي يغلط فيه المقر لم يجعلهم الله من أهل الوعيد بالشهادة التي قد تكون صدقًا وقد تكون كذبًا، بل كان ينبغي ألا يعذبهم إلا بشرط صدق الشهادة وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المَائدة: الآية ٧٣]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المَائدة: الآية ١٧]، وأمثال ذلك.

وأما الثاني: فالقلب إذا كان معتقدًا صدق الرسول، وأنه رسول الله، وكان محبًّا لرسول الله معظمًا له، امتنع مع هذا أن يلعنه ويسبه، فلا يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الاستخفاف به وبحرمته، فعلم بذلك أن مجرد اعتقاد أنه صادق لا يكون إيمانًا إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب.

وأيضًا، فإن الله سبحانه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النِّساء: الآية ٥١]، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٦]، فتبين أن الطاغوت يؤمن به ويكفر به، ومعلوم أن مجرد التصديق بوجوده وما هو عليه من الصفات يشترك فيه المؤمن والكافر، فإن الأصنام والشيطان والسحر يشترك في العلم بحاله المؤمن والكافر، وقد قال الله تعالى في السحر: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢]، فهؤلاء الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة، ومع هذا فيكفرون.

وكذلك المؤمن بالجبت والطاغوت إذا كان عالمًا بما يحصل بالسحر من التفريق بين المرء وزوجه ونحو ذلك من الجبت، وكان عالمًا بأحوال الشيطان والأصنام وما يحصل بها من الفتنة، لم يكن مؤمنًا بها مع العلم بأحوالها، ومعلوم أنه لم يعتقد أحد فيها أنها تخلق الأعيان، وأنها تفعل ما

تشاء، ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولكن كانوا يعتقدون أنه يحصل بعبادتها لهم نوع من المطالب، كما كانت الشياطين تخاطبهم من الأصنام وتخبرهم بأمور، وكما يوجد مثل ذلك في هذه الأزمان في الأصنام التي يعبدها أهل الهند والصين والترك وغيرهم، وكان كفرهم بها الخضوع لها والدعاء والعبادة واتخاذها وسيلة ونحو ذلك، لا مجرد التصديق بما يكون عند ذلك من الآثار، فإن هذا يعلمه العالم من المؤمنين ويصدق بوجوده، لكنه يعلم ما يترتب على ذلك من الضرر في الدنيا والآخرة فيبغضه، والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر.

يبين ذلك قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾، فقد ذكر تعالى من كفر بالله من بعد إيمانه، وذكر وعيده في الآخرة، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: الآية ١٠٧]، وبين تعالى أن الوعيد استحقوه بهذا، ومعلوم أن باب التصديق والتكذيب والعلم والجهل ليس هو من باب الحب والبغض، وهؤلاء يقولون: إنما استحقوا الوعيد لزوال التصديق والإيمان من قلوبهم، وإن كان ذلك قد يكون سببه حب الدنيا على الآخرة، والله سبحانه وتعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران، واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة، وبأنه ما له في الآخرة من خلاق.

وأيضًا، فإنه سبحانه استثني المكره من الكفار، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره؛ لأن الإكراه على ذلك ممتنع، فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حال الإكراه، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ [النحل: الآية ١٠٦]؛ أي: لاستحبابه الدنيا على الآخرة، ومنه قول النبي ﷺ: **«يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**، والآية نزلت في عمار بن ياسر، وبلال بن رباح، وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي ﷺ، ونحو ذلك من كلمات الكفر، فمنهم من أجاب بلسانه كعمار، ومنهم من صبر على المحنة كبلال، ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه، بل أكرهوا على التكلم، فمن تكلم بدون الإكراه، لم يتكلم إلا وصدره منشرح به.

وأيضًا، فقد جاء نفر من اليهود إلى النبي، فقالوا: نشهد إنك لرسول، ولم يكونوا مسلمين بذلك؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم، أي نعلم ونجزم أنك رسول الله، قال: **«فَلِمَ لا تتبعوني؟»** قالوا: نخاف من يهود، فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم.

فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين، فكانوا كفارًا في الباطن، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين، فكانوا كفارًا في الظاهر والباطن.

وكذلك أبو طالب قد استفاض عنه أنه كان يعلم بنبوة محمد، وأنشد عنه:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

لكن امتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة حبًّا لدين سلفه، وكراهة أن يعيره قومه، فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والانقياد الذي يمنع ما يضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمنًا.

وأما إبليس وفرعون واليهود ونحوهم فما قام بأنفسهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منع من حب الله، وعبادة القلب له الذي لا يتم الإيمان إلا به، وصار في القلب من كراهية رضوان الله واتباع ما أسخطه ما كان كفرًا لا ينفع معه العلم[1]

- قولهم في زيادة الإيمان ونقصانه

يقولون بعدم زيادة الإيمان ونقصانه.

أقوال العلماء

قال الملطي عنهم: وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإيمان الملائكة والأنبياء والأمم وعلماء الناس وجهالهم واحد لا يزيد منه شيء على شيء أصلًا[2]

وقال شيخ الإسلام عنهم: والإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، بل هو شيء واحد، يستوي فيه جميع المؤمنين: من الملائكة، والنبيين، والمقربين، والمقتصدين، والظالمين[3]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص، ومنهم من يقول: يزيد، ولا يقول: ينقص، كما روي عن مالك في إحدى الروايتين، ومنهم من يقول: يتفاضل، كعبد الله بن المبارك.

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة، ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة؛ فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة، عن حماد بن سلمة، عن أبي جعفر، عن جده عمير بن حبيب الخطمي -وهو من أصحاب رسول الله ﷺ- قال: الإيمان يزيد وينقص؛ قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته؛ وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه؛

وروى إسماعيل بن عياش، عن جرير بن عثمان، عن الحارث بن محمد، عن أبي الدرداء قال: الإيمان يزيد وينقص.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٧- ٥٦٢).

(٢) التنبيه والرد ص(٤٣)، ص(٤٥- ٤٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٧١).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد، حدثنا جرير بن عثمان، قال: سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال: إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان أم ينقص، وإن من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتيه.

وروى إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي، عن أبي هريرة قال: الإيمان يزيد وينقص.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن طلحة، عن زبيد، عن ذر قال: كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيمانًا فيذكرون الله عز وجل.

وقال أبو عبيد في الغريب في حديث علي: إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة: يروي ذلك عن عثمان بن عبد الله، عن عمرو بن هند الجملي، عن علي، قال الأصمعي: اللمظة: مثل النكتة أو نحوها.

وقال أحمد بن حنبلَ: حدثنا وكيع، عن شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عكيم قال: سمعت ابن مسعود يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا.

وروى سفيان الثوري، عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال قال: كان معاذ بن جبل يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى.

وروى أبو اليمان، حدثنا صفوان، عن شريح بن عبيد، أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول: قم بنا نؤمن ساعة، فنحن في مجلس ذكر.

وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي ﷺ ونزول القرآن كله.

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: الإنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم، ذكره البخاري في صحيحه.

وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا.

والآثار في هذا كثيرة، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة.

قال مالك بن دينار: الإيمان يبدو في القلب ضعيفًا ضِئيلًا كالبقلة، فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها، كذلك الإيمان.

وقال خيثمة بن عبد الرحمن: الإيمان يسمن في الخصب، ويهزل في الجدب، فخصبه العمل الصالح، وجدبه الذنوب والمعاصي.

وقيل لبعض السلف: يزداد الإيمان وينقص؟ قال: نعم، يزداد حتى يصير أمثال الجبال، وينقص حتى يصير أمثال الهباء.

وفي حديث حذيفة الصحيح: «حتى يقال للرجل: ما أجلده؟ ما أظرفه؟ ما أعقله؟ وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

وفي حديثه الآخر الصحيح: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود: مربادًا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب هواه.

وفي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية، فإنه من أعظم الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة إيمانهم؛ وتوكلهم على الله في أمورهم كلها.

وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد، عن يزيد بن عبد الله اليزني، عن أبي رافع، أنه سمع رجلًا حدثه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «أتحب أن أخبرك بصريح الإيمان؟» قال: نعم، قال: «إذا أسأت أو ظلمت أحدًا، عبدك أو أمتك أو أحدًا من الناس، حزنت وساءك ذلك، وإذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك»، ورواه بعضهم عن يزيد، عمَّن سمع النبي ﷺ أنه سأله عن زيادة الإيمان في القلب ونقصانه؟ فذكر نحوه.

وقال البزار: حدثنا محمد بن أبي الحسن البصري، ثنا هانئ بن المتوكل، ثنا عبد الله بن سليمان، عن إسحاق، عن أنس مرفوعًا: «ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان: خُلُقٌ يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معصية الله، وحلم يرد به جهل الجاهل».

و«أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»، فالخصال الأولى تدل على زيادة الإيمان وقوته، والأربعة الأخر تدل على ضعفه ونقصانه.

وقال أبو يعلى الموصلي: ثنا عبد الله القواريري ويحيى بن سعيد، قالا: ثنا يزيد بن زريع ويحيى بن سعيد، قالا: حدثنا عوف، حدثني عقبة بن عبد الله المزني، قال يزيد في حديثه في مسجد البصرة: حدثني رجل -قد سماه ونسي عوف اسمه- قال: كنت بالمدينة في مسجد فيه عمر بن الخطاب، فقال لبعض جلسائه: كيف سمعتم رسول الله ﷺ يقول في الإسلام؟ فقال: سمعته يقول: «الإسلام بدأ جذعًا، ثم ثنيًا، ثم رباعيًا، ثم سداسيًا، ثم بازلًا»، فقال عمر: فما بعد البزول إلا النقصان، كذا ذكره أبو يعلى في مسند عمر وفي مسند هذا الصحابي المبهم ذكره أولى.

قال أبو سليمان: من أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله.

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: الآية ٢] ، وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات،

أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣]، فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينًا، وتوكلًا على الله، وثباتًا على الجهاد وتوحيدًا، بألا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها، بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها؛ فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٤]، والاستبشار غير مجرد التصديق.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرّعد: الآية ٣٦]، والفرح بذلك من زيادة الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: الآية ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ﴾ [المدّثر: الآية ٣١]

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: الآية ٤]، وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان.

والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم، مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، دلَّ على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة، كما يكون بالعلم، والريب المنافي لليقين يكون ريبًا في العلم، وريبًا في طمأنينة القلب، ولهذا جاء في الدعاء المأثور: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا**».

وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**سلوا الله العافية واليقين، فما أعطي أحد بعد اليقين شيئًا خيرًا من العافية، فسلوهما الله تعالى**»، فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: الآية ١١] ، قال علقمة -ويروى عن ابن مسعود-: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: الآية ١١] ، هداه لقلبه هو زيادة في إيمانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: الآية ١٧] ، وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣]

ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيدًا؛ فلا يكون ذلك اللفظ متناولًا لجميع ما أمر الله به، بل يجعل موجبًا للوازمه وتمام ما أمر به، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق، قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ㉘﴾ [الحديد: الآية ٢٨]

وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى: إنها خطاب لقريش، وفي الثانية: إنها خطاب لليهود والنصارى، وليس كذلك، فإن الله لم يقل قط للكفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: الآية ١٠٤] ، ثم قال بعد ذلك: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾ [الحديد: الآية ٢٩] ، وهذه السورة مدنية باتفاق، لم يخاطب بها المشركين بمكة، وقد قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑧﴾ [الحديد: الآية ٨] ، وهذا لا يخاطب به كافر، وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له، فإن كل من كان مسلمًا مهاجرًا، كان يبايع النبي ﷺ، كما بايعه الأنصار ليلة العقبة، وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله، بأداء ما يجب من تمامه باطنًا وظاهرًا، كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة، وإن كان قد هدى المؤمنين للإقرار بما جاء به الرسول جملة، لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل، وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الإيمان المأمور به، وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور.

فصل: وزيادة الإيمان الذي أمر الله به، والذي يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه:

أحدها: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملًا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصَّل مما أخبر به الرسول، ما

يجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها، لزمه من الإيمان المفصَّل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنًا وظاهرًا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين، مات مؤمنًا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه، مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبًا ووقوعًا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل.

وقوله تعالى: ﴿ اَللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ [المائدة: الآية ٣]، أي في التشريع بالأمر والنهي، ليس المراد كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة، وأنه فعل ذلك؛ بل في الصحيحين عن النبي ﷺ، أنه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، وجعل نقصان عقلها أن شهادة امرأتين شهادة رجل واحد، ونقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي، وهذا النقصان ليس هو نقص مما أمرت به، فلا تعاقب على هذا النقصان، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملًا بالنسبة إلى هذه الناقصة الدين.

الوجه الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقًا فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره، ونهيه، وخبره، وطلب العلم الواجب عليه؛ فلم يعلم الواجب عليه، ولم يعمله؛ بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به، وإن اشتركوا في الوجوب لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل به، فهؤلاء ممن عرف ما يجب عليه والتزمه، وأقر به، لكنه لم يعمل بذلك كله، وهذا المقر بما جاء به الرسول، المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل إيمانًا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك؛ ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ مع أنه مقر بنبوته باطنًا وظاهرًا.

فكلما علم القلب، ما أخبر به الرسول فصدَّقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام.

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيمانًا مجملًا، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه به أكمل.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه، يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال، وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها، أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه، أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله، وخشيته، والرغبة في الجنة، والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب، دل على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه؛ والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم، دل على ضعف الملزوم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ليس المخبر كالمعاين**»، فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل، لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبَر وإن جزم بصدق المخبِر، فقد لا يتصور المخبَر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه؛ بل يكون قلبه مشغولًا عن تصور المخبَر به، وإن كان مصدقًا به، ومعلوم أنه عند المعاينة، يحصل له من تصور المخبَر به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق.

الخامس: أن أعمال القلوب مثل: محبة الله ورسوله، وخشية الله تعالى ورجائه، ونحو ذلك، هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلًا عظيمًا.

السادس: أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضًا من الإيمان، والناس يتفاضلون فيها.

السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك، بحيث لا يكون غافلًا عنه؛ أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر، والاستحضار يكمل العلم واليقين؛ ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه، وهو كذلك.

وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه: اجلسوا بنا ساعة نؤمن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: الآية ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٥] ، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾، ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك؛ وعمل به، حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك، كما في الأثر: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»، وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**». قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: الآية ٢] ، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم عملًا بذلك العلم، وتزيدهم تذكرًا لما كانوا نسوه، وعملًا بتلك التذكرة.

وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق، وفي أنفسهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى

﴿الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣] ، أي أن القرآن حق، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣] ، فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به، فآمن به المؤمن، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات، ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات، أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾، فالآيات المخلوقة والمتلوة، فيها تبصرة، وفيها تذكرة، تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي، والإنسان يقرأ السورة مرات، حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئًا مما أمر به، استحضر أنه أمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلًا عنه وإن لم يكن مكذبًا منكرًا.

الوجه الثامن: أن الإنسان قد يكون مكذبًا ومنكرًا لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها، وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث، أو يتدبر ذلك، أو يفسر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذبًا به، ويعرف ما كان منكرًا، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافرًا، بل جاهلًا، وهذا وإن أشبه المجمل والمفصل لكون قلبه سليمًا عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل، وعن معرفة وإنكار لشيء من ذلك، فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج، وأما كثير من الناس، بل من أهل العلوم والعبادات، فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول، وهم لا يعرفون أنها تخالف، فإذا عرفوا رجعوا، وكل من ابتدع في الدين قولًا أخطأ فيه، أو عمل عملًا أخطأ فيه، وهو مؤمن بالرسول، أو عرف ما قاله وآمن به لم يعدل عنه، هو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب، فمن علم ما جاء به الرسول، وعمل به، أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ، وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك[(١)]

- **قولهم في تفاضل الإيمان**

يقولون بعدم تفاضل الإيمان وأهله.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: ويقولون: إيمان الناس متساوٍ فإيمان الصحابة وأفجر الناس سواء،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٣- ٢٣٧)، (٧/ ٤٠٩)، (١٣/ ٥٠- ٥٥).

ويقولون: لا يكون مع أحد بعض الإيمان دون بعض، وهذا مخالف للكتاب والسنة[(١)]

وقال: وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعَّض، كما قال النبي ﷺ: **«يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»**، وحينئذ فتتفاضل ولاية الله وتتبعَّض بحسب ذلك[(٢)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه؛ لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك، والرواية الأخرى عنه؛ وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم: إنه يزيد وينقص، وبعضهم عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل، فقال: أقول الإيمان يتفاضل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته[(٣)]

وقال: فصل: والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة:

أحدها: الأعمال الظاهرة؛ فإن الناس يتفاضلون فيها، وتزيد وتنقص، وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان، لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان فالنفاة يقولون هو من ثمرات الإيمان، ومقتضاه فأدخل فيه مجازًا بهذا الاعتبار وهذا معنى زيادة الإيمان عندهم ونقصه؛ أي زيادة ثمراته ونقصانها، فيقال قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمان وموجباته؛ فإنه يمتنع أن يكون إيمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر، وأما كونه لازمًا أو جزءًا منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الإيمان مفردًا أو مقرونًا بلفظ الإسلام، والعمل كما تقدم.

وأما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجبه ومقتضيه فهذا غلط؛ فإن تفاضل معلول الأشياء ومقتضاها يقتضي تفاضلها في أنفسها، وإلا فإذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجبها ومقتضاها، فتفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضي تفاضلهم في موجب ذلك ومقتضيه ومن هذا يتبين.

الوجه الثاني: في زيادة الإيمان ونقصه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن، أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء، والكبر والعجب، ونحو ذلك، والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان**

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٦)، (٧/ ٤٠٨، ٤٠٩).

يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ [التوبة: الآية ٢٤] إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: الآية ٢٤] .

وقال رسول الله ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده**».

وقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»، وقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال: «**لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، قال: فلأنت أحب إلي من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**».

وهذه الأحاديث ونحوها في الصحاح، وفيها بيان تفاضل الحب والخشية، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥]

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة، ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة، ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولًا بدخول الزيادة والنقصان فيه، لما يجدون من ذلك في أنفسهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣] ، وإنما زادهم طمأنينة وسكونًا.

وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**».

الوجه الثالث: أن نفس التصديق والعلم في القلب يتفاضل باعتبار الإجمال والتفصيل، فليس تصديق من صدق الرسول مجملًا من غير معرفة منه بتفاصيل إخباره، كمن عرف ما أخبر به عن الله وأسمائه وصفاته، والجنة والنار والأمم وصدقه في ذلك كله، وليس من التزم طاعته مجملًا، ومات قبل أن يعرف تفصيل ما أمره به كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلًا وأطاعه فيه.

الوجه الرابع: أن نفس العلم والتصديق يتفاضل ويتفاوت كما يتفاضل سائر صفات الحي من القدرة، والإرادة، والسمع والبصر، والكلام، بل سائر الأعراض من الحركة والسواد والبياض ونحو ذلك، فإذا كانت القدرة على الشيء تتفاوت فكذلك الإخبار عنه يتفاوت. وإذا قال القائل العلم بالشيء الواحد لا يتفاضل، كان بمنزلة قوله: القدرة على المقدور الواحد لا تتفاضل، وقوله: ورؤية الشيء الواحد لا تتفاضل، ومن المعلوم أن الهلال المرئي يتفاضل الناس في رؤيته، وكذلك سمع الصوت الواحد يتفاضلون في إدراكه، وكذلك الكلمة الواحدة يتكلم بها الشخصان ويتفاضلون في النطق بها، وكذلك شم الشيء الواحد وذوقه يتفاضل الشخصان فيه.

فما من صفة من صفات الحي وأنواع إدراكاته وحركاته بل وغير صفات الحي؛ إلا وهي تقبل التفاضل والتفاوت إلى ما لا يحصره البشر، حتى يقال: ليس أحد من المخلوقين يعلم شيئًا من الأشياء مثل ما يعلمه الله من كل وجه، بل علم الله بالشيء أكمل من علم غيره به كيف ما قدر

الأمر، وليس تفاضل العلمين من جهة الحدوث والقدم فقط؛ بل من وجوه أخرى. والإنسان يجد في نفسه أن علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه كما يتفاضل حاله في سمعه لمسموعه؛ ورؤيته لمرئيه، وقدرته على مقدوره، وحبه لمحبوبه، وبغضه لبغيضه، ورضاه بمرضيه، وسخطه لمسخوطه وإرادته لمراده وكراهيته لمكروهه ومن أنكر التفاضل في هذه الحقائق كان مسفسطًا.

الوجه الخامس: أن التفاضل يحصل من هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها، فمن كان مستند تصديقه ومحبته أدلة توجب اليقين وتبين فساد الشبهة العارضة لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه الشبه ويريد إزالتها بالنظر والبحث، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبه المعارضة لذلك، وبيان بطلان حجة المحتج عليها ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له؛ فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله، وقوته وتمامه.

الوجه السادس: أن التفاضل يحصل في هذه الأمور من جهة دوام ذلك وثباته وذكره واستحضاره، كما يحصل البغض من جهة الغفلة عنه والإعراض والعلم والتصديق والحب والتعظيم وغير ذلك فما في القلب هي صفات وأعراض وأحوال تدوم وتحصل بدوام أسبابها وحصول أسبابها. والعلم وإن كان في القلب فالغفلة تنافي تحققه، والعالم بالشيء في حال غفلته عنه دون العالم بالشيء في ذكره له.

قال عمير بن حبيب الخطمي من أصحاب النبي ﷺ: الإيمان يزيد وينقص، قالوا: وما زيادته ونقصه؟ قال: إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادته، فإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه.

الوجه السابع: أن يقال: ليس فيما يقوم بالإنسان من جميع الأمور أعظم تفاضلًا وتفاوتًا من الإيمان، فكلما تقرر إثباته من الصفات والأفعال مع تفاضله؛ فالإيمان أعظم تفاضلًا من ذلك. مثال ذلك أن الإنسان يعلم من نفسه تفاضل الحب الذي يقوم بقلبه، سواء كان حبًّا لولده أو لامرأته، أو لرياسته أو وطنه أو صديقه أو صورة من الصور، أو خيله أو بستانه، أو ذهبه أو فضته، وغير ذلك من أمواله؛ فكما أن الحب أوله علاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم صبابة لأنصاب القلب نحوه، ثم غرام للزومه القلب كما يلزم الغريم غريمه، ثم يصير عشقًا إلى أن يصير تتيمًا -والتتيم التعبد وتيم الله عبد الله- فيصير القلب عبدًا للمحبوب مطيعًا له لا يستطيع الخروج عن أمره، وقد آل الأمر بكثير من عشاق الصور إلى ما هو معروف عند الناس، مثل من حمله ذلك على قتل نفسه وقتل معشوقه أو الكفر والردة عن الإسلام أو أفضى به إلى الجنون وزوال العقل، أو أوجب خروجه عن المحبوبات العظيمة من الأهل والمال والرياسة أو أمراض جسمه وأسنانه.

فمن قال: الحب لا يزيد ولا ينقص كان قوله من أظهر الأقوال فسادًا، ومعلوم أن الناس يتفاضلون في حب الله أعظم من تفاضلهم في حب كل محبوب، فهو سبحانه اتخذ إبراهيم خليلًا،

واتخذ محمدًا أيضًا خليلًا، كما استفاض عنه أنه قال: «**لو كنت متخذًا خليلًا من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلًا؛ ولكن صاحبكم خليل الله**»؛ يعني نفسه ﷺ. وقال: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**» والخلة أخص من مطلق المحبة؛ فإن الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين يحبون الله ويحبهم الله، كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤] الآية. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] وقد أخبر الله أنه يحب المتقين، ويحب المقسطين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، وكان النبي ﷺ يخبر بحبه لغير واحد كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال للحسن وأسامة: «**اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما**» وقال له عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**» قال فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»، وقال: «**والله إني لأحبكم**».

والناس في حب الله يتفاوتون ما بين أفضل الخلق محمد وإبراهيم إلى أدنى الناس درجة، مثل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وما بين هذين الحدين من الدرجات لا يحصيه إلا رب الأرض والسموات؛ فإنه ليس في أجناس المخلوقات ما يتفاضل بعضه على بعض كبني آدم فإن الفرس الواحدة ما تبلغ أن تساوي ألف ألف، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر أنه كان جالسًا عند النبي ﷺ إذ مر به رجل من أشراف الناس فقال: «**يا أبا ذر أتعرف هذا؟**» قلت: نعم يا رسول الله، هذا حري إن خطب أن ينكح، وإن قال أن يسمع لقوله، وإن غاب أن يسأل عنه، ثم مر برجل من ضعفاء المسلمين، فقال: «**يا أبا ذر، أتعرف هذا؟**» قلت: نعم يا رسول الله، هذا رجل من ضعفاء الناس، هذا حري إن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يسمع لقوله، وإن غاب ألا يسأل عنه، فقال: «**يا أبا ذر، لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا**».

فقد أخبر الصادق الذي لا يجاوز فيما يقول: إن الواحد من بني آدم يكون خيرًا من ملء الأرض من الآدميين، وإذا كان الواحد منهم أفضل من الملائكة، والواحدُ منهم شرًّا من البهائم كان التفاضل الذي فيهم أعظم من تفاضل الملائكة. وأصل تفاضلهم إنما هو بمعرفة الله ومحبته، فعلم أن تفاضلهم في هذا لا يضبطه إلا الله، وكل ما يعلم من تفاضلهم في حب الشيء من محبوباتهم فتفاضلهم في حب الله أعظم.

وهكذا تفاضلهم في خوف ما يخافونه، وتفاضلهم في الذل والخضوع لما يذلون له ويخضعون، وكذلك تفاضلهم فيما يعرفونه من المعروفات، ويصدقون به ويقرون به، فإن كانوا يتفاضلون في معرفة الملائكة وصفاتهم، والتصديق بهم فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته، والتصديق به أعظم.

وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الإنسان وصفاتها والتصديق بها، أو في معرفة الجن وصفاتهم وفي التصديق بهم، أو في معرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب -كما أخبروا به من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمسكونات- فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم من تفاضلهم في معرفة الروح التي هي النفس الناطقة، ومعرفة ما في الآخرة

من النعيم والعذاب؛ بل إن كانوا متفاضلين في معرفة أبدانهم وصفاتها وصحتها ومرضها وما يتبع ذلك فتفاضلهم في معرفة الله أعظم وأعظم؛ فإن كل ما يعلم ويقال يدخل في معرفة الله، إذ لا موجود إلا وهو خلقه وكل ما في المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعال؛ فإنه شواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ إذ كل كمال في المخلوقات فمن أثر كماله، وكل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق بتنزيهه عنه، وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها، فهذا يقول كمال المعلول من كمال علته، وهذا يقول كمال المصنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه.

وفي الحديث الذي رواه أحمد في المسند ورواه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما أصاب عبدًا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، وغمي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا». قالوا: يا رسول الله، ألا نتعلمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».**

فقد أخبر في هذا الحديث أن لله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده، وأسماء الله متضمنة لصفاته ليست أسماء أعلام محضة، بل أسماؤه تعالى كالعليم والقدير والسميع والبصير والرحيم والحكيم ونحو ذلك كل اسم يدل على ما لم يدل عليه الاسم الآخر من معاني صفاته مع اشتراكها كلها في الدلالة على ذاته، وإذا كان من أسمائه ما اختص هو بمعرفته، ومن أسمائه ما خص به من شاء من عباده، علم أن تفاضل الناس في معرفته أعظم من تفاضلهم في معرفة كل ما يعرفونه.

فهذه الوجوه ونحوها مما تبين تفاضل الإيمان الذي في القلب، وأما تفاضلهم في الأقوال والأعمال الظاهرة فلا تشتبه على أحد، والله أعلم[1]

- قولهم في الاستثناء في الإيمان

يمنعون الاستثناء في الإيمان، وهو قول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، ونحوه.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن المرجئة: يقولون: الإيمان شيء متماثل في جميع أهله، مثل كون كل إنسان له رأس، فيقول أحدهم: أنا مؤمن حقًّا، وأنا مؤمن عند الله، ونحو ذلك، كما يقول الإنسان: لي رأس حقًّا، وأنا لي رأس في علم الله حقًّا، فمن جزم به على هذا الوجه فقد أخرج الأعمال الباطنة والظاهرة عنه، وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين، ومن اتبعهم من سائر المسلمين[2]

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦٢- ٥٧٤)، (٦/ ٤٨٠، ٤٨١).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٧٥).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأما الاستثناء في الإيمان بقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس فيه على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين، وهذا أصح الأقوال.

فالذين يحرِّمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم، ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا يعلمه الإنسان من نفسه، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه، فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، وكما أعلم أني قرأت الفاتحة، وكما أعلم أني أحب رسول الله؛ وأني أبغض اليهود والنصارى، فقولي: أنا مؤمن كقولي: أنا مسلم، وكقولي: تكلمت بالشهادتين، وقرأت الفاتحة، وكقولي: أنا أبغض اليهود والنصارى، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها، وكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله، وكذلك لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لكن إذا كان يشك في ذلك فيقول: فعلته إن شاء الله، قالوا: فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة.

والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان:

أحدهما: أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا وكافرًا، باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به، قالوا: والإيمان الذي يتعقبه الكفر، فيموت صاحبه كافرًا، ليس بإيمان، كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال، وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه، وكذلك قالوا في الكفر.

وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كلاب، ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الأئمة، لكن ليس هذا قول أحد من السلف، لا الأئمة الأربعة، ولا غيرهم، ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون في الإيمان يعللون بهذا، لا أحمد، ولا من قبله...

والمقصود هنا أن «الاستثناء في الإيمان» لما علل بمثل تلك العلة، طرد أقوام تلك العلة في الأشياء التي لا يجوز الاستثناء فيها بإجماع المسلمين، بناء على أن الأشياء الموجودة الآن إذا كانت في علم الله تتبدل أحوالها؛ فيستثنى في صفاتها الموجودة في الحال، ويقال: هذا صغير إن شاء الله؛ لأن الله قد يجعله كبيرًا، ويقال: هذا مجنون إن شاء الله؛ لأن الله قد يجعله عاقلًا، ويقال للمرتد: هذا كافر إن شاء الله؛ لإمكان أن يتوب، وهؤلاء الذين استثنوا في الإيمان بناء على هذا المأخذ ظنوا هذا قول السلف...

فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن أهل السنة أنهم يستثنون في الإيمان، ورأوا أن هذا لا يمكن إلا إذا جعل الإيمان هو ما يموت العبد عليه، وهو ما يوافي بـ العبد ربه، ظنوا أن الإيمان عند السلف هو هذا، فصاروا يحكون هذا عن السلف، وهذا القول لم يقل به أحد من السلف...

والمأخذ الثاني في الاستثناء: أن الإيمان المطلق، يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه، بأنه من الأبرار المتقين، القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة، لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة، فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف، الذين كانوا يستثنون، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال الخلال في كتاب السنة: حدثنا سليمان بن الأشعث -يعني: أبا داود السجستاني- قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال له رجل: قيل لي: أمؤمن أنت؟ قلت: نعم، هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء، قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ١٠٦] ، من هؤلاء، ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولًا وعملًا؟ قال له الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول، قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل، قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثني.

قال أبو داود: أخبرني أحمد بن أبي شريح، أن أحمد بن حنبل كتب إليه في هذه المسألة: أن الإيمان قول وعمل، فجئنا بالقول ولم نجئ بالعمل، فنحن نستثني في العمل، وذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد، وقال: زاد الفضل: سمعت أبا عبد الله يقول: كان سليمان بن حرب، يحمل هذا على التقبل، يقول: نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا؟

قلت: والقبول متعلق بفعله كما أمر. فكل من اتقى الله في عمله، ففعله كما أمر، فقد تقبل منه، لكن هو لا يجزم بالقبول؛ لعدم جزمه بكمال الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠] ، قالت عائشة: يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: **«لا، يا بنت الصديق، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يتقبل منه»**.

وروى الخلال عن أبي طالب قال: سمعت أبا عبد الله يقول: لا نجد بدًّا من الاستثناء؛ لأنهم إذا قالوا: مؤمن، فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول.

وعن إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت أبا عبد الله يقول: أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل، والعمل الفعل، فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون فرطنا في العمل، فيعجبني أن يستثني في الإيمان بقول: أنا مؤمن إن شاء الله، قال: وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبي ﷺ: **«وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»**، الاستثناء هاهنا على أي شيء يقع؟ قال: على البقاع، لا يدري أيدفن في الموضع الذي سلم عليه أم في غيره؟

وعن الميموني أنه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه في مؤمن إن شاء الله، قال: أقول: مؤمن إن

شاء الله، ومؤمن أرجو؛ لأنه لا يدري كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا، ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات، المستحق للجنة إذا مات على ذلك، وأن المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن، وأن المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله، فإذا قال: أنا مؤمن قطعًا كان كقوله: أنا بر تقي ولي الله قطعًا.

وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم، فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر، بل يجد قلبه مصدقًا بما جاء به الرسول، فيقول: أنا مؤمن، فيثبت أن الإيمان هو التصديق، لأنك تجزم بأنك مؤمن، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به، فلما علم السلف مقصدهم، صاروا يكرهون الجواب، أو يفصلون في الجواب، وهذا لأن لفظ «الإيمان» فيه إطلاق وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن، بلا استثناء إذا أراد ذلك، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه.

وقال المروذي: قيل لأبي عبد الله: نقول: نحن المؤمنون؟ فقال: نقول: نحن المسلمون، وقال أيضًا: قلت لأبي عبد الله: نقول: إنا مؤمنون، قال: ولكن نقول: إنا مسلمون، ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول، بل يكره تركه لما يعلم أن في قلبه إيمانًا، وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه.

قال الخلال: أخبرني أحمد بن أصرم المزني، أن أبا عبد الله قيل له: إذا سألني الرجل فقال: أمؤمن أنت؟ قال: سؤالك إياي بدعة، لا يشك في إيمانه، أو قال: لا نشك في إيماننا.

قال المزني: وحفظي أن أبا عبد الله قال: أقول كما قال طاوس: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل، وأبو داود، قال أبو داود: سمعت أحمد: قال: سمعت سفيان -يعني ابن عيينة- يقول: إذا سئل أمؤمن أنت؟ لم يجبه، ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال: إن قال: إن شاء الله فليس يكره، ولا يداخل الشك، فقد أخبر عن أحمد أنه قال: لا نشك في إيماننا، وإن السائل لا يشك في إيمان المسئول، وهذا أبلغ، وهو إنما يجزم، بأنه مقر مصدق، بما جاء به الرسول، لا يجزم بأنه قائم بالواجبات.

فعلم أن أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائدًا إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور، ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه، وهذا مأخذ ثان وإن كنا لا نشك فيما في قلوبنا من الإيمان، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة، لما فيه من الحكمة.

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال: سألت أبا عبد الله عن الاستثناء في الإيمان فقال: نعم الاستثناء على غير معنى شك، مخافة واحتياطًا للعمل، وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثوري. قال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الفتح: الآية ٢٧] وقال النبي ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله». وقال في الميت: «وعليه تبعث إن شاء الله» فقد بين أحمد أنه يستثني مخافةً واحتياطًا للعمل؛ فإنه يخاف ألا يكون قد كمل المأمور به، فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك، يعني من غير شك مما يعلمه الإنسان من نفسه، وإلا فهو يشك في تكميل العمل الذي خاف ألا يكون كمله، فيخاف من نقصه ولا يشك في أصله.

قال الخلال: وأخبرني محمد بن أبي هارون، أن حبيش بن سندي، حدثهم في هذه المسألة. قال أبو عبد الله قول النبي ﷺ حين وقف على المقابر فقال: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» وقد نعيت إليه نفسه، وعلم أنه صائر إلى الموت، وفي قصة صاحب القبر: «وعليه حييت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله»، وفي قول النبي ﷺ: «إني اختبأت دعوتي، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئًا»، وفي مسألة الرجل النبي ﷺ: أحدنا يصبح جنبًا، يصوم؟ فقال: «إني أفعل ذلك ثم أصوم» فقال: إنك لست مثلنا أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله» وهذا كثير، وأشباهه على اليقين.

قال: ودخل عليه شيخ فسأله عن الإيمان، فقال له: قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له: أقول مؤمن إن شاء الله؟ قال: نعم، فقال له: إنهم يقولون لي إنك شاك، قال: بئس ما قالوا، ثم خرج فقال: ردوه، فقال: أليس يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؟ قال: نعم، قال: هؤلاء يستثنون، قال له: كيف يا أبا عبد الله؟ قال: قل لهم: زعمتم أن الإيمان قول وعمل؛ فالقول قد أتيتم به، والعمل لم تأتوا به، فهذا الاستثناء لهذا العمل، قيل له: يستثني في الإيمان؟ قال: نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، استثني على اليقين لا على الشك، ثم قال: قال الله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: الآية ٢٧] فقد أخبر الله تعالى أنهم داخلون المسجد الحرام.

فقد بيَّن أحمد في كلامه أنه يستثني مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه، يقوله بلسانه وقلبه، لا يشك في ذلك، ويستثني لكون العمل من الإيمان؛ وهو لا يتيقن أنه أكمله بل يشك في ذلك؛ فنفى الشك وأثبت اليقين، فيما يتيقنه من نفسه، وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده، وبين أن الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل أتى به أم لا، وهو جائز أيضًا لما يتيقنه، فلو استثنى لنفس الموجود في قلبه جاز، كقول النبي ﷺ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله» وهذا أمر موجود في الحال ليس بمستقبل، وهو كونه أخشانا؛ فإنه لا يرجو أن يصير أخشانا لله، بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله، كما يرجو المؤمن إذا عمل عملًا أن يكون الله تقبله منه ويخاف ألا يكون تقبله منه. كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠] وقال النبي ﷺ: «هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه»

والقبول هو أمر حاضر أو ماض وهو يرجوه ويخافه، وذلك أن ما له عاقبة مستقبلة محمودة أو مذمومة، والإنسان يجوز وجوده وعدمه، يقال: إنه يرجوه وإنه يخافه. فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضي؛ لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة. فهو يرجو أن يكون الله تقبل عمله فيثيبه عليه فيرحمه في المستقبل. ويخاف ألا يكون تقبله فيحرم ثوابه. كما يخاف أن يكون الله قد سخط عليه في معصيته فيعاقبه عليها.

وإذا كان الإنسان يسعى فيما يطلبه كتاجر أو بريد أرسله في حاجته يقضيها في بعض الأوقات فإذا مضى ذلك الوقت يقول: أرجو أن يكون فلان قد قضى ذلك الأمر، وقضاؤه ماضٍ، لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل، ويقول الإنسان في الوقت الذي جرت عادة الحاج بدخولهم إلى مكة: أرجو أن يكونوا دخلوا، ويقول في سرية بعثت إلى الكفار: نرجو أن يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم، ويقال في نيل مصر عند وقت ارتفاعه: نرجو أن يكون قد صعد النيل، كما يقول الحاضر في مصر مثل هذا الوقت: نرجو أن يكون النيل في هذا العام نيلًا مرتفعًا، ويقال لمن له أرض يجب أن تمطر إذا مطرت بعض النواحي: أرجو أن يكون المطر عامًّا وأرجو أن تكون قد مطرت الأرض الفلانية؛ وذلك لأن المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسره فالمكروه ما يتألم بوجوده.

وهذا يتعلق بالعلم، والعلم بذلك مستقبل، فإذا علم أن المسلمين انتصروا، والحجاج قد دخلوا، أو المطر قد نزل، فرح بذلك وحصل به مقاصد أُخر له.

وإذا كان الأمر بخلاف ذلك، لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب فيقول: أرجو وأخاف؛ لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل، وكذلك المطلوب بالإيمان من السعادة والنجاة، هو أمر مستقبل فيستثنى في الحاضر بذلك؛ لأن المطلوب به مستقبل، ثم كل مطلوب مستقبل، تعلق بمشيئة الله وإن جزم بوجوده؛ لأنه لا يكون مستقبل إلا بمشيئة الله.

فقولنا: يكون هذا إن شاء الله، حق؛ فإنه لا يكون إلا إن شاء الله، والشك واللفظ ليس فيه إلا التعليق، وليس من ضرورة التعليق الشك، بل هذا بحسب علم المتكلم، فتارة يكون شاكًّا، وتارة لا يكون شاكًّا؛ فلما كان الشك يصحبها كثيرًا لعدم علم الإنسان بالعواقب، ظن الظان أن الشك داخل في معناها، وليس كذلك.

فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: الآية ٢٧] لا يتصور فيه شك من الله؛ بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين، ولهذا قال ثعلب: هذا استثناء من الله وقد علمه، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون، وقال أبو عبيدة وابن قتيبة: إن «إن» بمعنى «إذ» أي: إذ شاء الله ومقصوده بهذا تحقيق الفعل بـ«إن» كما يتحقق مع «إذ». وإلا فـ«إذ» ظرف توقيت، و«إن» حرف تعليق.

فإن قيل: فالعرب تقول: إذا احمر البسر فأتني، ولا تقول: إن احمر البسر.

قيل: لأن المقصود هنا توقيت الإتيان بحين احمراره. فأتوا بالظرف المحقق، ولفظ «إن» لا يدل على توقيت، بل هي تعليق محض تقتضي ارتباط الفعل الثاني بالأول، ونظير ما نحن فيه أن يقولوا: البسر يحمر ويطيب إن شاء الله، وهذا حق، فهذا نظير ذلك.

فإن قيل: فطائفة من الناس فروا من هذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه، فقال الزجاج: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: الآية ٢٧] ؛ أي: أمركم الله به، وقيل: الاستثناء يعود إلى الأمن والخوف؛ أي: لتدخلنه آمنين، فأما الدخول فلا شك فيه. وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم؛ لأنه علم أن بعضهم يموت، فالاستثناء؛ لأنهم لم يدخلوا جميعهم. قيل: كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منه؛ مع خروجهم عن مدلول القرآن، فحرفوه تحريفًا لم ينتفعوا به؛ فإن قول من قال: أي أمركم الله به، هو سبحانه قد علم، هل يأمرهم أو لا يأمرهم، فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلون، فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعًا وكذلك أمنهم وخوفهم، هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين، وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله؛ بل ولا عند رسوله، وقول من قال: جميعهم أو بعضهم، يقال: المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ، فإن كان أراد الجميع، فالجميع لا بد أن يدخلوه، وإن أريد الأكثر، كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة، وما لم يرد لا يجوز أن يعلق بـ«إن» وإنما علق بـ«إن» ما سيكون، وكان هذا وعدًا مجزومًا به. ولهذا لما قال عمر للنبي ﷺ عام الحديبية: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، قلت لك: إنك تأتيه هذا العام» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

فإن قيل: لِمَ لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن؟

قيل: لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، وكانوا قد اعتمروا ذلك العام، واجتهدوا في الدخول، فصدهم المشركون، فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه إلا الله، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام، إذ كان النبي ﷺ وعدهم وعدًا مطلقًا، وقد روي أنه رأى في المنام قائلًا يقول: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: الآية ٢٧] فأصبح فحدث الناس برؤياه، وأمرهم بالخروج إلى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام، فنزلت هذه الآية، واعدة لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذي كانوا يظنون حصوله ذلك العام.

وكان قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٠] هنا تحقيقًا لدخوله، وأن الله يحقق ذلك لكم؛ كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه، بل تحقيقًا لعزمه وإرادته؛ فإنه يخاف إذا لم يقل: إن شاء الله، أن ينقض الله عزمه، ولا يحصل ما طلبه، كما في «الصحيحين» أن سليمان عليه السلام قال: **«والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل منهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل، فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق رجل»**. قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده،**

لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون» فهو إذا قال: إن شاء الله لم يكن لشك في طلبه وإرادته بل لتحقيق الله ذلك له، إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله، فإذا تألى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته، لم يحصل مراده؛ فإنه من يتألى على الله يكذبه، ولهذا يروى: «لا أتممت تقدر أمرًا».

وقيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإن قوله: لأفعلن، فيه معني الطلب والخبر، وطلبه جازم، وأما كون مطلوبه يقع، فهذا يكون إن شاء الله، وطلبه للفعل يجب أن يكون من الله بحوله وقوته، ففي الطلب عليه أن يطلب من الله، وفي الخبر لا يخبر إلا بما علمه الله؛ فإذا جزم بلا تعليق، كان كالتألي على الله، فيكذبه الله، فالمسلم في الأمر الذي هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلبًا لا تردد فيه يقول: إن شاء الله، لتحقيق مطلوبه، وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون إلا بمشيئة الله، لا لتردد في إرادته، والرب تعالى مريد لانجاز ما وعدهم به إرادة جازمة لا مثنوية فيها، وما شاء فعل، فإنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ليس كالعبد الذي يريد ما لا يكون، ويكون ما لا يريد.

فقوله سبحانه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٠] تحقيق إن ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وإرادتي، فإن ما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن؛ فكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق، لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام، وأما سائر ما وعدوا به فلم يكن كذلك.

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه في اليمين هذا المعنى وهو التحقيق في استثنائه لا التعليق: هل يكون مستثنيًا به، أم تلزمه الكفارة إذا حنث؟ بخلاف من ترددت إرادته فإنه يكون مستثنيًا بلا نزاع، والصحيح أنه يكون في الجميع مستثنيًا، لعموم المشيئة، ولأن الرجل وإن كانت إرادته للمحلوف به جازمة، فقد علقه بمشيئة الله، فهو يجزم بإرادته له، لا يجزم بحصول مراده، ولا هو أيضًا مريد له بتقدير ألا يكون؛ فإن هذا تمييز لا إرادة، فهو إنما التزمه إذا شاء الله، فإذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه، ولا حلف أنه يكون: وإن كانت إرادته له جازمة، فليس كل ما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه.

وقد تبين بما ذكرناه أن قول القائل: إن شاء الله يكون مع كمال إرادته في حصول المطلوب وهو يقولها لتحقيق المطلوب؛ لاستعانته بالله في ذلك، لا لشك في الإرادة، هذا فيما يحلف عليه ويريده، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفَتْح: الآية ٢٧] فإنه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون، وقد علقه بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٠] ؛ فكذلك ما يخبر به الإنسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بإرادته وجازم بوقوعه فيقول فيه: إن شاء الله، لتحقيق وقوعه، لا للشك لا في إرادته ولا في العلم بوقوعه.

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة في المعلق، وقوة إرادة الإنسان له فتبقى خواطر الخوف

تعارض الرجاء، فيقول إن شاء الله، لتحقيق رجائه مع علمه بأن سيكون، كما يسأل الله ويدعوه في الأمر الذي قد علم أنه يكون، كما كان النبي ﷺ يوم بدر قد أخبرهم بمصارع المشركين، ثم هو بعد هذا يدخل إلى العريش يستغيث ربه ويقول اللهم: «أنجز لي ما وعدتني»؛ لأن العلم بما يقدره لا ينافي أن يكون قدره بأسباب، والدعاء من أعظم أسبابه، كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب في النجاة من عذابه وحصول رحمته.

والاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض، وفي الخبر الذي معه طلب، فالأول: إذا حلف على جملة خبرية لا يقصد به حضًا ولا منعًا، بل تصديقًا أو تكذيبًا، كقوله: والله ليكونن كذا إن شاء الله، أو لا يكون كذا، والمستثني قد يكون عالمًا بأن هذا يكون أو لا يكون كما في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ [الفتح: الآية ٢٧] فإن هذا جواب غير محذوف.

والثاني: ما فيه معنى الطلب، كقوله: والله لأفعلن كذا، أو لا أفعله إن شاء الله؛ فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب، ولم يقل: والله إني لمريد هذا ولا عازم عليه، بل قال: والله ليكونن، فإذا لم يكن فقد حنث لوقوع الأمر، بخلاف ما حلف عليه فحنث، فإذا قال: إن شاء الله فإنما حلف عليه بتقدير: إن يشاء الله، لا مطلقًا.

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء إلى أنه متى لم يوجد المحلوف عليه حنث، أو متى وجد المحلوف عليه أنه لا يفعله، حنث؛ سواء كان ناسيًا أو مخطئًا أو جاهلًا؛ فإنهم لحظوا أن هذا في معنى الخبر، فإذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث، وقال الآخرون: بل هذا مقصوده الحض والمنع، كالأمر والنهي، ومتى نهي الإنسان عن شيء ففعله ناسيًا أو مخطئًا لم يكن مخالفًا، فكذلك هذا.

قال الأولون: فقد يكون في معنى التصديق والتكذيب، كقوله: والله ليقعن المطر، أولا يقع، وهذا خبر محض، ليس فيه حض ولا منع ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه، حنث، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضي والحلف على المستقبل؛ فإن اليمين على الماضي غير منعقدة، فإذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة، كالغموس، بخلاف المستقبل. وليس عليه أن يستثني في المستقبل إذا كان فعله. قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: الآية ٧] فأمره أن يقسم على ما سيكون، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبإ: الآية ٣] كما أمره أن يقسم على الحاضر في قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس: الآية ٥٣]

وقد قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليتزلن فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا»، وقال: «والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قتل، ولا المقتول فيما قتل»، وقال: «إذا هلك كسرى -أو ليهلك كسرى- ثم لا يكون كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» وكلاهما في الصحيح.

فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل في مواضع كثيرة بلا استثناء والله سبحانه وتعالى أعلم (١).

- قولهم في اسم الفاسق

أقوال العلماء

قال الأشعري: ومن المرجئة من يقول: الفاسق من أهل القبلة لا يسمى بعد تَقَضِّي فعله فاسقًا، ومنهم من يسميه بعد تقضِّي فعله فاسقًا.

ومنهم من يقول: لا أقول لمرتكب الكبائر: فاسق على الإطلاق، دون أن يقال: فاسق في كذا، ومنهم من أطلق اسم الفاسق (٢).

وقال عن الشبيبية، والشمرية، والجهمية، والغيلانية، والنجارية: يزعمون أن مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة العارفين بالله وبرسله المقرين به وبرسله مؤمنون بما معهم من الإيمان، فاسقون بما معهم من الفسق (٣).

- قولهم في حكم المتأول

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في إكفار المتأولين، على ثلاثة أقاويل:

فقالت الفرقة الأولى منهم: لا نكفر أحدًا من المتأولين، إلا من أجمعت الأمة على إكفاره.

وقالت الفرقة الثانية منهم -أصحاب أبي شمر-: إنهم يكفرون من ردَّ قولهم في القدر والتوحيد، ويكفرون الشاك في الشاك.

وقالت الفرقة الثالثة منهم: الكفر هو الجهل بالله فقط، ولا يكفر بالله إلا الجاهل به، وهذا قول جهم بن صفوان (٤).

وقال: وأكثر المرجئة لا يكفِّرون أحدًا من المتأوِّلين، ولا يكفِّرون إلا من أجمعت الأمة على إكفاره (٥).

- قولهم في الوعيد

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في فجار أهل القبلة، هل يجوز أن يخلدهم الله في النار إن

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٢٩- ٤٦٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٤١).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٣٨).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٥١، ١٥٢).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٤٣).

أدخلهم النار؟ على خمسة أقاويل:

فزعمت الفرقة الأولى: أصحاب بشر المريسي، أنه محال أن يخلد الله الفجار من أهل القبلة في النار، لقول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾، وأنهم يصيرون إلى الجنة إن أدخلهم الله النار لا محالة، وهو قول ابن الراوندي.

وزعمت الفرقة الثانية منهم -أصحاب أبي شمر، ومحمد بن شبيب-: أنه جائز أن يدخلهم الله النار، وجائز أن يخلدهم فيها إن أدخلهم، وجائز ألا يخلدهم.

وقالت الفرقة الثالثة: إن الله عز وجل يدخل النار قومًا من المسلمين، إلا أنهم يخرجون بشفاعة رسول الله، ويصيرون إلى الجنة لا محالة.

وقالت الفرقة الرابعة: وهم أصحاب غيلان، جائز أن يعذبهم الله، وجائز أن يعفو عنهم، وجائز ألا يخلدهم، فإن عذب أحدًا عذب من ارتكب مثل ما ارتكبه، وكذلك إن خلده، وإن عفا عن أحد عفا عن كل من كان مثله.

وقالت الفرقة الخامسة منهم: جائز أن يعذبهم الله، وجائز ألا يعذبهم، وجائز أن يخلدهم ولا يخلدهم، وأن يعذب واحدًا ويعفو عمن كان مثله، كل ذلك لله عز وجل أن يفعله[1]

وقال الشهرستانيُّ: والجماعةُ التي عددناهم -وهم أبو مروان غيلان بن مروان الدمشقي، وأبو شمر، وموسى بن عمران، والفضل الرقاشي، ومحمد بن شبيب، والعتابيّ، وصالح قبة- اتفقوا على أنَّ الله تعالى لو عفا عن عاصٍ في القيامة، عفا عن كلِّ مؤمنٍ عاصٍ هو في مثل حاله، وإن أخرج من النار واحدًا، أخرج من هو في مثل حاله، ومن العجب أنهم لم يجزموا القول بأن المؤمنين من أهل التوحيد يخرجون من النار لا محالة.

ويحكى عن مقاتل بن سليمان: أنَّ المعصية لا تضرُّ صاحب التوحيد والإيمان، وأنه لا يدخل النار مؤمن. والصحيح من النقل عنه: أنَّ المؤمنَ العاصي ربَّه يعذب يوم القيامة على الصراط وهو على متن جهنَّم، يصيبه لفح النَّار وحرُّها ولهيبها، فيتألم بذلك عَلَىَ قدر معصيته، ثم يدخل الجنة، ومَثَّل ذلك بالحبَّة على المقلاة المؤججة بالنار.

ونقل عن بشر بن غياث المريسي أنه قال: إذا دخل أصحاب الكبائر النار؛ فإنهم سيخرجون عنها بعد أن يعذَّبوا بذنوبهم، وأما التَّخليد فيها فمحال وليس بعدل[2]

قال السكسكي: وقد أجمعوا على أنه لا يدخل النار إلا الكفار فحسب، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥﴾ [الليل: الآية ١٥]، وهذا يبطل بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: الآية ٩٣]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٤٩، ١٥٠).
(٢) الملل والنحل (١/١٤٢- ١٤٤).

﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝﴾ [النساء: الآية ١٠] (١)

وقال شيخ الإسلام: وكثير من المرجئة والجهمية من يقف في الوعيد فلا يجزم بنفوذ الوعيد في حق أحد من أرباب الكبائر، كما قال ذلك من قاله من مرجئة الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره، ويذكر عن غلاتهم أنهم نفوا الوعيد بالكلية لكن لا أعلم معينًا معروفًا أذكر عنه هذا القول ولكن حكي هذا عن مقاتل بن سليمان والأشبه أنه كذب عليه (٢)

وقال: المرجئة الواقفة الذين يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحدٌ، أم لا؟ كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية، كالقاضي أبي بكر وغيره.

وأما ما يذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا: لن يدخل النار من أهل التوحيد أحد، فلا نعرف قائلًا مشهورًا من المنسوبين إلى العلم يذكر عنه هذا القول (٣)

وقال: وقول غلاة المرجئة الذين يقولون: ما نعلم أن أحدًا منهم يدخل النار؛ بل نقف في هذا كله، وحكي عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفي العام (٤)

وقال: وأما غالية المرجئة الذين يكفرون بالعقاب، ويزعمون أن النصوصَ خوفت بما لا حقيقة له، فهذا القول عظيم (٥)

وقال: وقد يقول حذاق هؤلاء من الإسماعيليَّة والقرامطة وقوم يتصوفون أو يتكلمون وهم غالية المرجئة: إن الوعيد الذي جاءت به الكتب الإلهية إنَّما هو تخويف للناس لتنزجر عما نهيت عنه، من غير أن يكون له حقيقة، بمنزلة ما يخوف العقلاء الصبيان والبله بما لا حقيقة له لتأديبهم، وبمنزلة مخادعة المحارب لعدوه إذا أوهمه أمرًا يخافه لينزجر عنه، أو ليتمكن هو من عدوِّه، وغير ذلك (٦)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾، . . .

هي ترد أيضًا على المرجئة الواقفية الذين يقولون: يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد، ويجوز أن يغفر للجميع، فإنه قد قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨]، فأثبت أن

---

(١) البرهان ص(٣٣).
(٢) الأصفهانية ص(١٨٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٦)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢، ٤٦٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٤).
(٦) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٥٠).

ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: الآية ٤٨] ، ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله: لمن يشاء، فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك، وأن المغفرة هي لمن يشاء، دلَّ ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك لكنها لبعض الناس.

وحينئذٍ، فمن غفر له لم يعذب، ومن لم يغفر له عذب، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار، وبعضهم يغفر له(١)

وقال: وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝﴾، وقد ذكر في سورة الليل قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝﴾.

وهذا الصلي قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمَّا أهل النَّار الذين هم أهلها فإنَّهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»**، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية.

وهذا المعني مستفيض عن النبي ﷺ، بل متواتر في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة. وغيرهما.

وفيها الرد على طائفتين. على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها، وهذه الآية حجة عليهم، وعلى من حكي عنه من غلاة المرجئة أنَّه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد.

فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك.

وفيه رد على من يقول: يجوز ألَّا يدخل الله من أهل التوحيد أحدًا النار، كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة، وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن، وغيرهم؛ كالقاضي أبي بكر، وغيره، فإنَّ النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم.

والقول بأن أحدًا لا يدخلها من أهل التوحيد ما أعلمه ثابتًا عن شخص معين فأحكيه عنه، لكن حكي عن مقاتل بن سليمان.

وقال: احتج من قال ذلك بهذه الآية، وقد أجيبوا بجوابين:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٨، ١٩)، (١٨/ ١٩١).

أحدهما: جواب طائفة، منهم الزجاج، قالوا: هذه نار مخصوصة، لكن قوله بعدها: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾ [الليل: الآية ١٧] ، لا يبقى فيه كبير وعد، فإنَّه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها.

وجواب آخرين قالوا: لا يصلونها صلي خلود، وهذا أقرب.

وتحقيقه أنَّ الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث فيها، والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائمًا.

فأما من دخل وخرج فإنَّه نوع من الصلي، ليس هو الصلي المطلق، لا سيما إذا كان قد مات فيها، والنار لم تأكله كله، فإنَّه قد ثبت أنَّها لا تأكل مواضع السجود، والله أعلم(١)

وقال: وهكذا سائر أهل الكبائر إيمانهم ناقص، وإذا كان في قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها إذا لم يعف الله عنه، ولم يخلد في النار، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين، ومعهم إيمان، لكن معهم أيضًا ما يخالف الإيمان من النفاق، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين، لا سيما إن كانوا للكفر أقرب منهم للإيمان، .

فإذا عمل العبد صالحًا لله: فهذا هو الإسلام الذي هو دين الله، ويكون معه من الإيمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة، ثم إن كان معه من الذنوب ما يعذب به عذب وأخرج من النار؛ إذا كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، وإن كان معه نفاق، ولهذا قال تعالى في هؤلاء: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٤٦] ، فلم يقل: إنهم مؤمنون بمجرد هذا؛ إذ لم يذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، بل هم معهم، وإنما ذكر العمل الصالح وإخلاصه لله، وقال: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ [النساء: الآية ١٤٦] ، فيكون لهم حكمهم.

وقد بين تفاضل المؤمنين في مواضع أخر، وأنه من أتى بالإيمان الواجب استحق الثواب، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر، فذاك من أهل الوعيد، وإيمانه ينفعه الله به، ويخرجه به من النار ولو أنه مثقال حبة خردل، لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب(٢)

وقال: وطوائف أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة، والجهمية والمرجئة، كراميهم وغير كراميهم يقولون: إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق، ومنهم من يدعي الإجماع على ذلك، وقد ذكر أبو الحسن في بعض كتبه الإجماع على ذلك، ومن هنا غلطوا فيه، وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان، مع مخالفة صريح المعقول، بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد، وقالوا: لا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب، ومعصية يستحق

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٤- ١٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٤٩- ٣٥١)، (٧/ ٢٤٠، ٢٤١)، (٧/ ٣٤٩).

بها العقاب، ولا يكون الشخص الواحد محمودًا من وجه مذمومًا من وجه، ولا محبوبًا مدعوًّا له من وجه مسخوطًا ملعونًا من وجه، ولا يتصور أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعًا عندهم بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم؛ ولهذا أنكروا خروج أحد من النار أو الشفاعة في أحد من أهل النار، وحكي عن غالية المرجئة أنهم وافقوهم على هذا الأصل، لكن هؤلاء قالوا: إن أهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار، مقابلة لأولئك.

وأما أهل السنة والجماعة والصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء والكَرَّاميَّة، والكلابية، والأشعرية، والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم، فيقولون: إن الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة، وهذا الشخص الذي له سيئات عُذب بها، وله حسنات دخل بها الجنة، وله معصية وطاعة باتفاق، فإن هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا في حكمه؛ لكن تنازعوا في اسمه، فقالت المرجئة: جهميتهم وغير جهميتهم: هو مؤمن كامل الإيمان، وأهل السنة والجماعة على أنه مؤمن ناقص الإيمان، ولولا ذلك لما عُذب، كما أنه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين، وهل يطلق عليه اسم مؤمن، هذا فيه القولان، والصحيح التفصيل، فإذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه في الكفارة. قيل: هو مؤمن، وكذلك إذا سئل عن دخوله في خطاب المؤمنين.

وأما إذا سئل عن حكمه في الآخرة. قيل: ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة، بل معه إيمان يمنعه الخلود في النار ويدخل به الجنة بعد أن يعذب في النار إن لم يغفر الله له ذنوبه، ولهذا قال من قال: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته أو مؤمن ناقص الإيمان، والذين لا يسمونه مؤمنًا من أهل السنة ومن المعتزلة يقولون: اسم الفسوق ينافي اسم الإيمان؛ لقوله: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨]، وقد قال النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1]

وقال: وكذلك قول من وقف في أهل الكبائر من غلاة المرجئة وقال: لا أعلم أن أحدًا منهم يدخل النار، هو أيضًا من الأقوال المبتدعة، بل السلف والأئمة متفقون على ما تواترت به النصوص من أنه لا بد أن يدخل النار قوم من أهل القبلة، ثم يخرجون منها، وأما من جزم بأنه لا يدخل النار أحد من أهل القبلة فهذا لا نعرفه قولًا لأحد.

وبعده قول من يقول: ما ثم عذاب أصلًا وإنما هو تخويف لا حقيقة له، وهذا من أقوال الملاحدة والكفار.

وربما احتج بعضهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٦] فيقال لهذا:

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٣٥٣- ٣٥٦)، (٧/٢٥٧، ٢٥٨).

التخويف إنما يكون تخويفًا إذا كان هناك مخوف يمكن وقوعه بالمخوف، فإن لم يكن هناك ما يمكن وقوعه امتنع التخويف، لكن يكون حاصله إيهام الخائفين بما لا حقيقة له، كما توهم الصبي الصغير، ومعلوم أن مثل هذا لا يحصل به تخويف للعقلاء المميزين؛ لأنهم إذا علموا أنه ليس هناك شيء مخوف زال الخوف، وهذا شبيه بما تقول الملاحدة المتفلسفة والقرامطة ونحوهم: من أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: خاطبوا الناس بإظهار أمور من الوعد والوعيد لا حقيقة لها في الباطن، وإنما هي أمثال مضروبة لتفهم حال النفس بعد المفارقة، وما أظهروه لهم من الوعد والوعيد وإن كان لا حقيقة له فإنما يعلق لمصلحتهم في الدنيا، إذ كان لا يمكن تقويمهم إلا بهذه الطريقة.

وهذا القول مع أنه معلوم الفساد بالضرورة من دين الرسل؛ فلو كان الأمر كذلك لكان خواص الرسل الأذكياء يعلمون ذلك، وإذا علموه زالت محافظتهم على الأمر والنهي، كما يصيب خواص ملاحدة المتفلسفة والقرامطة من الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم، فإن البارع منهم في العلم والمعرفة يزول عنه عندهم الأمر والنهي، وتباح له المحظورات، وتسقط عنه الواجبات، فتظهر أضغانهم، وتنكشف أسرارهم، ويعرف عموم الناس حقيقة دينهم الباطن، حتى سموهم باطنية؛ لإبطانهم خلاف ما يظهرون، فلو كان -والعياذ بالله- دين الرسل كذلك لكان خواصه قد عرفوه، وأظهروا باطنه، وكان عند أهل المعرفة والتحقيق من جنس دين الباطنية، ومن المعلوم بالاضطرار أن الصحابة الذين كانوا أعلم الناس بباطن الرسول وظاهره، وأخبر الناس بمقاصده ومراداته، كانوا أعظم الأمة لزومًا لطاعة أمره -سرًا وعلانيةً- ومحافظة على ذلك إلى الموت، وكل من كان منهم إليه وبه أخص وبباطنه أعلم -كأبي بكر وعمر- كانوا أعظمهم لزومًا للطاعة سرًا وعلانية، ومحافظة على أداء الواجب واجتناب المحرم، باطنًا وظاهرًا.

وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدة المتصوفة الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجبًا على السالك حتى يصير عارفًا محققًا في زعمهم، وحينئذ يسقط عنه التكليف، ويتأولون على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: الآية ٩٩]، زاعمين أن اليقين هو ما يدعونه من المعرفة، واليقين هنا الموت وما بعده، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾[1]

- **قولهم في الموازنة بين الحسنات والسيئات**

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في الموازنة، على مقالتين:

١- فقال قائلون منهم: الإيمان يحبط عقاب الفسق؛ لأنه أوزن منه، وإن الله لا يعذب موحدًا، وهذا قول مقاتل بن سليمان.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠١- ٥٠٣).

٢- وقال قائلون منهم: بتجويز عذاب الموحدين، وإن الله يوازن حسناتهم بسيئاتهم فإن رجحت حسناتهم أدخلهم الجنة، وإن رجحت سيئاتهم كان له أن يعذبهم وله أن يتفضل عليهم، وإن لم ترجح حسناتهم على سيئاتهم ولا رجحت سيئاتهم على حسناتهم تفضل عليهم بالجنة، وهذا قول أبي معاذ[1]

- قولهم في الصغائر والكبائر

منهم من يقسم المعاصي إلى صغائر وكبائر، ومنهم من يجعل كل معصية كبيرة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في المعاصي هل هي كبائر أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون منهم «بشر المريسي» وغيره، كل ما عصى الله سبحانه به كبيرة.

٢- وقال قائلون منهم: المعاصي على ضربين، منها كبائر ومنها صغائر[2]

وقال: واختلفت المرجئة في الصغائر والكبائر، على مقالتين:

١- فقالت الفرقة الأولى: كل معصية فهي كبيرة.

٢- وقالت الفرقة الثانية: المعاصي منها كبائر ومنها صغائر[3]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، وأن ما عصى الله به فهو كبيرة، فإنه يوجب ألا تكون الذنوب في نفسها تنقسم إلى كبائر وصغائر.

وهذا خلاف القرآن، فإن الله قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: الآية ٣٢]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى: الآية ٣٧]، وقال: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: الآية ٣١]، وقال: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣﴾ [القمر: الآية ٥٣]، والأحاديث كثيرة في الذنوب الكبائر[4]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في الصغائر والكبائر.

- قولهم في غفران الكبائر بالتوبة

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في غفران الله الكبائر بالتوبة، وهل هو تفضل أم لا؟ على مقالتين:

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٥١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٤٣).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٥٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٦، ٦٥٧).

١- فقالت الفرقة الأولى منهم: غفران الله سبحانه الكبائر بالتوبة تفضل، وليس باستحقاق.

٢- وقالت الفرقة الثانية منهم: غفران الله الكبائر بالتوبة استحقاق[١].

- قولهم في معاصي الأنبياء

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في معاصي الأنبياء، هل هي كبائر أم لا؟ على مقالتين:

١- فقالت الفرقة الأولى منهم: معاصيهم كبائر، وجوزوا على الأنبياء فعل الكبائر من القتل والزنى وغير ذلك.

٢- وقالت الفرقة الثانية: معاصيهم صغائر، ليست بكبائر[٢].

وقال ابن حزم: اختلف الناس في هل تعصي الأنبياء عليهم السلام أم لا؟ فذهبت طائفة إلى أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم يعصون الله في جميع الكبائر والصغائر عمدًا، حاشا الكذب في التبليغ فقط، وهذا قول الكَرَّاميَّةِ من المرجئة...

وسمعت من يحكي عن بعض الكَرَّاميَّةِ أنهم يجوزون على الرسل عليهم السلام الكذب في التبليغ أيضًا[٣]

وقال السكسكي: وأمَّا السمريَّة فهم أصحاب أبي سمرة ذهب هو وفرقته إلى جواز الكبائر على الأنبياء صلوات الله وسلامه وعليهم، حتى الكذب في إبلاغ الرسالة، وكذبوا لعنهم الله[٤]

- قولهم في عفو الله

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في عفو الله عن عبد الله ما بينه وبين العباد من المظالم، على مقالتين:

١- فقالت الفرقة الأولى منهم: ما كان من مظالم العباد؛ فإنما العفو من الله عنهم في القيامة، إذا جمع الله بينه وبين خصمه، أن يعوض المظلوم بعوض فيهب لظالمه الجرم فيغفر له.

٢- وقالت الفرقة الثانية منهم: إن العفو عن جميع المذنبين في الدنيا جائز في العقول ما كان بينهم وبين الله وما كان بينهم وبين العباد[٥]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٥٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٥١).

(٣) الفصل (٤/ ٢).

(٤) البرهان ص(٤٥).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٥٢).

- قولهم في نصوص العموم

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في الأخبار إذا وردت من قبل الله سبحانه وظاهرها ظاهر العموم، على سبع فرق:

فقالت الفرقة الأولى منهم: إذا جاء الخبر من الله سبحانه أنه يعذب القاتلين والآكلين أموال اليتامى ظلمًا وأشباههم من أهل الكبائر وقفنا في عذابهم، لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: الآية ٤٨]

وقالت هذه الفرقة: جائز أن يخبر الحكيم الصادق بالخبر ثم يستثني منه فيكون له أن يفعل، وله ألا يفعل للاستثناء، ويكون صادقًا وإن هو لم يفعل، ولا يكون ذلك مستنكرًا في اللغة ولا كذابًا، وهؤلاء هم الذين يزعمون أن الاستثناء ظاهره.

وزعمت الفرقة الثانية: أن الوعد ليس فيه استثناء، وأن الوعيد فيه استثناء مضمر، وذلك جائز في اللغة عند أهلها؛ لأن الرجل قد يوعد عبده أن يضربه ثم يعفو عنه، ولا يرون ذلك كذابًا للضمير الذي قال في الوعيد.

وزعمت الفرقة الثالثة من أهل الوقف: أن الأخبار إذا جاءت ومخرجها عام فسمعها السامع، وكان الخبر وعدًا أو وعيدًا، ولم يسمع القرآن كله، والأخبار المجتمع عليها كلها، فعليه أن يعلم أن الخبر في جميع أهل تلك الصفة الذين جاء فيهم الوعيد عام لا شك فيه، وقد يجوز أن يكون على خلاف ذلك العلم الذي لا شك فيه عندهم، على الحكم، وهو نحو علم الرجل أنه ليس مع الرجل من المسلمين الموثوق بدينه حديدة يريد أن يعترض بها الناس ليقتلهم، ونحو علم الأنساب التي يعرف الناس بعضهم بعضًا بها فيعلم أن فلانًا ابنٌ لفلان إذا كان قد ولد على فراش أبيه علمًا لا شك فيه، ولا يخطر الشك فيه على البال إذا لم يكن ثَم سبب يدعوهم إلى الشك من أسباب التهم، فعليهم أن يثبتوا ذلك على ظاهره، وإن كان خلاف ذلك جائزًا فيما غاب عنهم، فعليهم ألا يشكوا وإن جوزوا في المغيب خلاف ما لم يشكوا فيه في الظاهر.

فزعموا في الوعد إذا انفرد، والوعيد إذا انفرد فعليهم أن يثبتوا كل واحد منهما منفردًا، ويعلموا أنه عام علمًا لا شك فيه كما وصفنا، ويجوز أن يكون على خلاف ذلك، فإذا جاء مع الوعيد الوعد عندهم في قوم فعليهم أن يعلموا أن أحدهما مستثنى من الآخر: إما أن يكون الوعد مستثنى من الوعيد، وإما أن يكون الوعيد مستثنى من الوعد، وعلى السامع لذلك أن يقف فلا يدري لعل الخبر في أهل التوحيد كلهم، أو في بعضهم، غير أنه يعلم أنه لا يجتمع الوعد والوعيد في رجل واحد؛ لأن ذلك يتناقض.

وقالت الفرقة الرابعة: وهم أصحاب محمد بن شبيب، وجدنا اللغة أجازت: جاء بنو تميم، وجاءت الأزد، وإنما يعني: بعض بني تميم، وبعض الأزد، وصرمت أرضي، إنما صرم بعضها،

وضرب الأميرُ أهلَ السجن، وإنما ضرب بعضهم.

قالوا: فلما وجدنا اللغة أجازت ذلك، وسمعنا الأخبار في القرآن مما مخرجه عام؛ أجزنا أن يكون معناها في الخاص من أهل كل طبقة ذكرهم الله سبحانه بوعيد، وأجزنا أن يكون ذلك عامًا، وذلك مثل قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: الآية ٩٣] الآية، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: الآية ١٠] الآية، وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٤] الآية، وأشباه ذلك من آي الوعيد التي جاءت مجيئا عامًّ، فأجزنا ذلك لما ذكرنا من إجازة اللغة فيما بينها أن يكون الخبر مخرجه مخرجًا عامًا وهو خاص، وأن تكون الآي التي جاءت في الوعيد خاصة في بعض أهل الطباق التي جاءت فيهم من القاتلين والقاذفين وأكلة أموال الأيتام، وأشباه ذلك، وأجزنا أن تكون عامة في جميعهم، وإن كانت في بعضهم كانت في أعظمهم جرمًا، وليس يجوز عندهم أن يعذب الله سبحانه على جرم، ويعفو عما هو أعظم جرمًا منه.

وزعمت **الفرقة الخامسة من المرجئة**: أنه ليس في أهل الصلاة وعيد، إنما الوعيد في المشركين، قالوا: وقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: الآية ٩٣]، وما أشبه ذلك من آي الوعيد في المستحلين دون المحرمين، قالوا: فأما الوعد من الله فهو واجب للمؤمنين، والله جل وعز لا يخلف وعده، والعفو أولى بالله، والوعد لهم، قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٩]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: الآية ٥٣] الآية، وما أشبه ذلك من آي القرآن.

وزعم هؤلاء أنه كما لا ينفع مع الشرك عمل، كذلك لا يضر مع الإيمان عمل، ولا يدخل النار أحد من أهل القبلة.

الفرقة السادسة: وحكي عن بعض العلماء باللغة أنه قال: من أخبر الله أنه يثيبه أثابه، ومن أخبر أنه يعاقبه من أهل القبلة لم يعاقبه ولم يعذبه، وذلك يدل على كرمه، وزعم أن العرب كانت تمتدح إنجاز الوعد، والعفو عما توعدت عليه.

وزعمت **الفرقة السابعة**: أن القرآن على الخصوص، إلا ما أجمعوا على عمومه، وكذلك الأمر والنهي[1]

وقال: واختلفت المرجئة في الأمر والنهي، هل هما على العموم؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون بما حكيناه آنفا من أن ذلك على الخصوص حتى تأتي دلالة على العموم.

٢- وقالت الفرقة الثانية: الأمر والنهي هما على العموم، إلا ما خصته دلالة[2]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٤٤- ١٤٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٤٨).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عن الوعيدية: وكان ما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا نصوص الوعيد فرأوها عامة، فقالوا: يجب أن يدخل فيها كل من شملته، وهو خبر، وخبر الله صدق، فلو أخلف وعيده كان كإخلاف وعده، والكذب على الله محال، فعارضهم غالية المرجئة بنصوص الوعد، فإنها قد تتناول كثيرًا من أهل الكبائر، فعاد كل فريق إلى أصله الفاسد.

فقال الأولون: نصوص الوعد لا تتناول إلا مؤمنًا، وهؤلاء ليسوا مؤمنين. وقال الآخرون: نصوص الوعيد لا تتناول إلا كافرًا، وكل من القولين خطأ فإن النصوص -مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: الآية ١٠] - لم يشترط فيها الكفر؛ بل هي في حق المتدين بالإسلام، وقوله: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» لم يشترط فيه فعل الواجبات؛ بل قد ثبت في الصحاح: «وإن زنى، وإن سرق، وإن شرب الخمر».

فهنا اضطرب الناس، فأنكر قوم من المرجئة العموم، وقالوا: ليس في اللغة عموم، وهم الواقفية في العموم من المرجئة، وبعض الأشعرية والشيعية، وإنما التزموا ذلك لئلا يدخل جميع المؤمنين في نصوص الوعيد.

وقالت المقتصدة: بل العموم صحيح، والصيغ صيغ عموم، لكن العام يقبل التخصيص، وهذا مذهب جميع الخلائق، من الأولين والآخرين، إلا هذه الشرذمة، قالوا: فمن عفي عنه كان مستثنى من العموم.

وقال قوم آخرون: بل إخلاف الوعيد ليس بكذب، وإن العرب لا تعد عارًا أو شنارًا أن يوعد الرجل شرًّا ثم لا ينجزه، كما تعد عارًا أو شنارًا أن يعد خيرًا ثم لا ينجزه، وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين، وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي ﷺ:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

قالوا: فهذا وعيد خاص، وقد رجا فيه العفو، مخاطبًا للنبي ﷺ، فعلم أن العفو عن المتوعد جائز، وإن لم يكن من باب تخصيص العام.

والتحقيق أن يقال: الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد والوعيد، كما ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله، فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة؛ لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب، وهذا متفق عليه بين المسلمين، فكذلك في موارد النزاع.

فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره، وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأن مصائب الدنيا تكفر الذنوب، وأنه يقبل شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر، وأنه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون

ذلك لمن يشاء، كما بين أن الصدقة يبطلها المن والأذى، وأن الربا يبطل العمل، وأنه إنما يتقبل الله من المتقين؛ أي في ذلك العمل، ونحو ذلك.

فجعل السيئات ما يوجب رفع عقابها، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة.

وبهذا تبين أنا نشهد بأن ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: الآية ١٠] على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه في النار؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه، فائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه، وانتفاء مانعه.

يبين هذا: أنه قد ثبت: أن النبي ﷺ لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها. وثبت عنه في صحيح البخاري عن عمر أن رجلًا كان يكثر شرب الخمر، فلعنه رجل، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله»، فنهى عن لعن هذا المعين، وهو مدمن خمر؛ لأنه يحب الله ورسوله، وقد لعن شارب الخمر على العموم[(١)]

وقال: ومن أهل المرجئة من ضاق عطنه لما ناظره الوعيدية بعموم آيات الوعيد وأحاديثه، فاضطره ذلك إلى أن جحد العموم في اللغة والشرع، فكانوا فيما فروا إليه من هذا الجحد كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ولو اهتدوا للجواب الشديد للوعيدية: من أن الوعيد في آية وإن كان عامًا مطلقًا؛ فقد خُصص وقُيد في آية أخرى -جريًا على السنن المستقيمة- أولى بجواز العفو عن المتوعَّد وإن كان معينًا. تقييدًا للوعيد المطلق، وغير ذلك من الأجوبة، وليس هذا موضع تقرير ذلك، فإن الناس قد قرروا العموم بما يضيق هذا الموضع عن ذكره.

وإن كان قد يقال: بل العلم بحصول العموم من صيغه ضروري من اللغة والشرع والعرف، والمنكرون له فرقة قليلة يجوز عليهم جحد الضروريات، أو سلب معرفتها، كما جاز على من جحد العلم بموجب الأخبار المتواترة، وغير ذلك من المعالم الضرورية.

وأما من سلَّم أن العموم ثابت، وأنه حجة، وقال: هو ضعيف، أو أكثر العمومات مخصوصة، وأنه ما من عموم محفوظ إلا كلمة أو كلمات.

فيقال له: **أولًا**: هذا سؤال لا توجيه له، فإن هذا القدر الذي ذكرته لا يخلو: إما أن يكون مانعًا من الاستدلال بالعموم، أو لا يكون. فإن كان مانعًا فهو مذهب منكري العموم من الواقفة

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨١- ٤٨٤).

والمخصصة، وهو مذهب سخيف، لم ينتسب إليه، وإن لم يكن مانعًا من الاستدلال فهذا كلام ضائع، غايته أن يقال: دلالة العموم أضعف من غيره من الظواهر، وهذا لا يقر، فإنه ما لم يقم الدليل المخصص وجب العمل بالعام.

ثم يقال له: ثانيًا: من الذي سلم لكم أن العموم المجرد الذي لم يظهر له مخصص دليل ضعيف؟ أم من الذي سلم أن أكثر العمومات مخصوصة؟ أم من الذي يقول: ما من عموم إلا قد خص إلا قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: الآية ١٧٦]؟ فإن هذا الكلام وإن كان قد يطلقه بعض السادات من المتفقهة، وقد يوجد في كلام بعض المتكلمين في أصول الفقه -فإنه من أكذب الكلام وأفسده.

والظن بمن قاله أولًا: أنه إنما عنى أن العموم من لفظ كل شيء مخصوص إلا في مواضع قليلة، كما قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٥]، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٢٣]، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٤٤]، وإلا فأي عاقل يدعي هذا في جميع صيغ العموم في الكتاب والسنة، وفي سائر كتب الله وكلام أنبيائه، وسائر كلام الأمم عربهم وعجمهم.

وأنت إذا قرأت القرآن من أوله إلى آخره وجدت غالب عموماته محفوظة؛ لا مخصوصة، سواء عنيت عموم الجمع لأفراده، أو عموم الكل لأجزائه، أو عموم الكل لجزئياته، فإذا اعتبرت قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة: الآية ٢]، فهل تجد أحدًا من العالمين ليس الله ربه؟! ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: الآية ٤]، فهل في يوم الدين شيء لا يملكه الله؟! ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: الآية ٧]، فهل في المغضوب عليهم ولا الضالين أحد لا يجتنب حاله التي كان بها مغضوبًا عليه أو ضالًّا؟! ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾... الآية، فهل في هؤلاء المتقين أحد لم يهتد بهذا الكتاب؟! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: الآية ٤]، هل فيما أنزل الله ما لم يؤمن به المؤمنون لا عمومًا ولا خصوصًا؟! ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [البقرة: الآية ٥] هل خرج أحد من هؤلاء المتقين عن الهدى في الدنيا، وعن الفلاح في الآخرة؟!

ثم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: الآية ٦]، قيل: هو عام مخصوص، وقيل: هو لتعريف العهد فلا تخصيص فيه، فإن التخصيص فرع على ثبوت عموم اللفظ، ومن هنا يغلط كثير من الغالطين، يعتقدون أن اللفظ عام، ثم يعتقدون أنه قد خص منه، ولو أمعنوا النظر لعلموا من أول الأمر أن الذي أخرجوه لم يكن اللفظ شاملًا له، ففرق بين شروط العموم وموانعه، وبين شروط دخول المعنى في إرادة المتكلم وموانعه.

ثم قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: الآية ٦٥]، أليس هو عامًّا لمن عاد الضمير إليه عمومًا محفوظًا؟! ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧]، أليس هو عامًّا في القلوب وفي السمع وفي الأبصار، وفي المضاف إليه هذه الصفة عمومًا، لم يدخله تخصيص؟!

وكذلك: ﴿وَلَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧] ، وكذلك في سائر الآيات إذا تأملته إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١] ، فمن الذين خرجوا من هذا العموم الثاني فلم يخلقهم الله له؟! وهذا باب واسع.

وإن مشيت على آيات القرآن كما تلقن الصبيان وجدت الأمر كذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾، فأي ناس ليس الله ربهم؟! أم ليس ملكهم؟! أم ليس إلههم؟! ثم قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝﴾ [النَّاس: الآية ٤] ، إن كان المسمى واحدًا فلا عموم فيه، وإن كان جنسًا فهو عام، فأي وسواس خناس لا يستعاذ بالله منه؟!

وكذلك قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفَلَق: الآية ١] ، أي جزء من الفلق أم أي فلق ليس الله ربه؟! ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ [الفَلَق: الآية ٢] ، أي شر من المخلوق لا يستعاذ منه؟! ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ [الفَلَق: الآية ٤] ، أي نفاثة في العقد لا يستعاذ منها؟! وكذلك قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ [الفَلَق: الآية ٥] ، مع أن عموم هذا فيه بحث دقيق ليس هذا موضعه.

ثم سورة الإخلاص فيها أربع عمومات: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: الآية ٣] ، فإنه يعم جميع أنواع الولادة، وكذلك ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية ٣] ، وكذلك ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ [الإخلاص: الآية ٤] ، فإنها تعم كل أحد، وكل ما يدخل في مسمى الكفؤ، فهل في شيء من هذا خصوص؟

ومن هذا الباب كلمة الإخلاص التي هي أشهر عند أهل الإسلام من كل كلام، وهي كلمة لا إله إلا الله، فهل دخل هذا العموم خصوص قط؟!

فالذي يقول بعد هذا: ما من عام إلا وقد خص إلا كذا وكذا، إما في غاية الجهل، وإما في غاية التقصير في العبارة، فإن الذي أظنه أنه إنما عنى من الكلمات التي تعم كل شيء، مع أن هذا الكلام ليس بمستقيم وإن فسر بهذا، لكنه أساء في التعبير أيضًا، فإن الكلمة العامة ليس معناها أنها تعم كل شيء، وإنما المقصود أن تعم ما دلت عليه، أي ما وضع اللفظ له، وما من لفظ في الغالب إلا وهو أخص مما هو فوقه في العموم، وأعم مما هو دونه في العموم، والجميع يكون عامًا.

ثم عامة العرب وسائر الأمم إنما هو أسماء عامة، والعموم اللفظي على وزان العموم العقلي وهو خاصية العقل الذي هو أول درجات التميز بين الإنسان وبين البهائم[1]

وقال: إن التكفير العام -كالوعيد العام- يجب القول بإطلاقه وعمومه.

وأما الحكم على المعين بأنه كافر، أو مشهود له بالنار: فهذا يقف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه، وانتفاء موانعه[2]

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٤١- ٤٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩٨).

وقال: التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع[١]

- قولهم في تخليد أهل الجنة وأهل النار

الجهمية من غلاة المرجئة ذهبوا إلى فناء الجنة والنار وفناء أهليهما.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في تخليد الله الكفار، على مقالتين:

فقالت الفرقة الأولى منهم: وهم أصحاب جهم بن صفوان، الجنة والنار تفنيان وتبيدان، ويفنى أهلهما حتى يكون الله موجودًا لا شيء معه كما كان موجودًا لا شيء معه، وأنه لا يجوز أن يخلد الله أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وهذا ردٌّ ما اتفق المسلمون عليه ونقلوه نصًا.

وقال المسلمون كلهم إلا جهمًا: إن الله يخلد أهل الجنة في الجنة، ويخلد الكفار في النار[٢]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الجهمية في فناء الجنة والنار.

- قولهم في الأسماء والصفات

منهم من قال بالتعطيل، ومنهم من قال بالتجسيم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في التوحيد: فقال قائلون منهم في التوحيد بقول المعتزلة، وسنشرح قول المعتزلة إذا انتهينا إلى شرح أقاويلهم.

وقال قائلون منهم بالتشبيه، فهم ثلاث فرق:

فقالت الفرقة الأولى منهم: وهم أصحاب مقاتل بن سليمان، إن الله جسم، وإن له جُمّة، وإنه على صورة الإنسان؛ لحم ودم شعر وعظم، له جوارح وأعضاء من: يد ورجل ورأس وعينين، مُصْمَتٌ، وهو مع هذا لا يشبه غيرَه ولا يشبهه غيرُه.

وقالت الفرقة الثانية منهم: أصحاب الجواربي، مثل ذلك غير أنه قال: أجوف من فِيهِ إلى صدره، ومُصْمَتٌ ما سوى ذلك.

وقالت الفرقة الثالثة منهم: هو جسم لا كالأجسام[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٤٨، ١٤٩).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٥٢، ١٥٣).

وقال: واختلفت المرجئة في أسماء الله وصفاته:

فمنهم من مال إلى قول المعتزلة في ذلك، ومنهم من قال بقول عبد الله بن كلاب[(١)]

وقال الأشعري بعد أن ذكر مقالة المعتزلة في تعطيل أسماء وصفات المولى عز وجل: فهذه جملة قولهم في التوحيد، وقد شاركهم في هذه الجملة، . . ، وطوائفُ من المرجئة[(٢)]

وقال: وقال قائلون: أسماء البارئ هي غيره وكذلك صفاته، وهذا قول المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وكثير من الزيدية[(٣)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الشيعة والمعتزلة في الأسماء والصفات، وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة التعطيل والتجسيم.

- قولهم في ماهية المولى عز وجل

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة هل للبارئ ماهية أم لا؟ على مقالتين:

١- فقال قائلون: لله ماهية لا ندركها في الدنيا، وإنه يخلق لنا في الآخرة حاسة سادسة فندركه بها ماهيته.

٢- وقال قائلون منهم بإنكار ذلك ونفيه[(٤)]

- قولهم في كلام الله عز وجل

منهم من يقول: إنه مخلوق، ومنهم من يقول: إنه غير مخلوق، ومنهم من يتوقف.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في القرآن، هل هو مخلوق أم لا؟ على ثلاث مقالات

فقال قائلون منهم: إنه مخلوق.

وقال قائلون منهم: إنه غير مخلوق.

وقال قائلون منهم: بالوقف، وإنا نقول: كلام الله سبحانه، لا نقول: إنه مخلوق ولا غير مخلوق[(٥)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٥٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٥٦)، (١٦٤).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٥٤).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٥٣).

وقال: قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزيدية والمرجئة وكثير من الرافضة: إن القرآن كلام الله سبحانه، وأنه مخلوق لله لم يكن ثم كان[(١)]

قال شيخ الإسلام: وقالت الكَرَّاميَّة وطائفة كثيرة من المرجئة والشيعة وغيرهم: إن الله يتكلم بأصوات تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، وأنه تقوم به الحوادث المتعلقة بمشيئته وقدرته، لكن ذلك حادث بعد أن لم يكن، وأن الله في الأزل لم يكن متكلمًا إلا بمعنى القدرة على الكلام، وأنه يصير موصوفًا بما يحدث بقدرته وبمشيئته بعد أن لم يكن[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الشيعة والمعتزلة في كلام الله عز وجل، وسيأتي مزيد بيان عند قول الجهمية والمعطلة فيه.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

منهم من يثبت رؤية المولى عز وجل في الآخرة، ومنهم من ينفيها.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في الرؤية، على مقالتين:

١- فمنهم من مال في ذلك إلى قول المعتزلة، ونفى أن يرى البارئ بالأبصار.

٢- وقالت الفرقة الثانية منهم: إن الله يرى بالأبصار في الآخرة[(٣)]

وقال: وقالت المعتزلة والخوارج وطوائف من المرجئة وطوائف من الزيدية: إن الله لا يرى بالأبصار في الدنيا والآخرة، ولا يجوز ذلك عليه[(٤)]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في القدر

منهم من يثبت القدر، ومنهم من ينفيه.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في القدر؛ فمنهم من مال إلى قول المعتزلة في القدر، وسنشرح أقاويلهم في ذلك.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٤، ٥٢٨).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٥٣).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).

وقال قائلون بالإثبات للقدر[١]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند الكلام عن مقالة القدرية.

- قولهم في النظر والاستدلال

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفت المرجئة في الاعتقاد للتوحيد بغير نظر: هل يكون علمًا وإيمانًا أم لا؟ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم: يزعمون أن الاعتقاد للتوحيد بغير نظر لا يكون إيمانًا.

والفرقة الثانية منهم: يزعمون أن الاعتقاد للتوحيد بغير نظر إيمان[٢]

- قولهم في الديار

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأجمعت المرجئة أسرها أن الدار دار إيمان، وحكم أهلها الإيمان، إلا من ظهر منه خلاف الإيمان[٣]

- قولهم في طاعة الأمراء

يذهبون إلى طاعة الأمراء مطلقًا.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن الخلافة والملك: فهذان القولان متوسطان: أن يقال: الخلافة واجبة، وإنما يجوز الخروج عنها بقدر الحاجة، أو أن يقال: يجوز قبولها من المُلك بما ييسر فعل المقصود بالولاية ولا يعسره؛ إذ ما يبعد المقصود بدونه لا بد من إجازته وأما ملك فإيجابه أو استحبابه محل اجتهاد.

وهنا طرفان، أحدهما: مَن يوجب ذلك في كل حال وزمان، وعلى كل أحد، ويذم من خرج عن ذلك مطلقًا أو لحاجة، كما هو حال أهل البدع من: الخوارج، والمعتزلة، وطوائف من المتسننة والمتزهدة.

والثاني: مَن يُبح المُلك مطلقًا؛ من غير تقيد بسنة الخلفاء، كما هو فعل الظُّلمة، والإباحيَّة، وأفراد المرجئة، وهذا تفصيل جيد، وسيأتي تمامه[٤]

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٥٤).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٤٤).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٤٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٤، ٢٥).

وقال: وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديمًا وحديثًا، وهي واجبة على كل مكلف، وهي متوسطة بين طريق الحروريَّة وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقًا وإن لم يكونوا أبرارًا، ونسأل الله أن يوفقنا وإخواننا المسلمين لما يحبه ويرضاه من القول والعمل، والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم[1]

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠٨).

الباب الخامس
الجَبْرِيَّةُ

وهو يحتوي على ستة فصول:

الفصل الأول: تعريفُ الجَبْرِيَّةِ.

الفصل الثاني: نشأةُ الجَبْرِيَّةِ.

الفصل الثالث: مقالةُ الجَبْرِيَّةِ.

الفصل الرابع: فرقُ الجَبْرِيَّةِ.

الفصل الخامس: الجَبْرِيَّة المحضة: الجهميَّة ومقالاتها.

الفصل السادس: الجَبْرِيَّة الكسبيةِ.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مقالةُ الجَبْرِيَّةِ الكسبيةِ.

المبحث الثاني: النَّجَارِيَّة ومقالاتها.

المبحث الثالث: الضِّرَارِيَّة ومقالاتها.

المبحث الرابع: البَكْرِيَّة ومقالاتها.

الفصل الأول
تعريفُ الجَبْرِيَّةِ

يعرِّف العلماء الجَبْرِيَّة بأنهم الذين ينفون الفعل عن العبد، ويضيفونه إلى الرب تعالى، ويزعمون أن العبد ليس قادرًا على فعله[(١)]

هذا هو الذي استقر عليه تعريف العلماء للجَبْرِيَّةِ.

ولما كان لفظ الجبر قد وقع فيه إجمال، فهو يراد به الإكراه على الفعل، ويراد به خلق ما في النفوس، فامتنع السلف عن إطلاقه نفيًا وإثباتًا.

قال شيخ الإسلام: لفظ «الجبر» فيه إجمال يراد به إكراه الفاعل على الفعل بدون رضاه كما يقال: إن الأب يجبر المرأة على النكاح، والله تعالى أجل وأعظم من أن يكون مجبرًا بهذا التفسير؛ فإنه يخلق للعبد الرضا، والاختيار بما يفعله، وليس ذلك جبرًا بهذا الاعتبار.

ويراد بالجبر خلق ما في النفوس من الاعتقادات والإرادات كقول محمد بن كعب القرظي: الجبار الذي جبر العباد على ما أراد وكما في الدعاء المأثور عن علي ﷺ: «جبار القلوب على فطراتها شقيها وسعيدها»، والجبر ثابت بهذا التفسير.

فلما كان لفظ الجبر مجملًا نهى الأئمة الإعلام عن إطلاق إثباته أو نفيه[(٢)]

وقال: لفظ «الجبر» أنكروا على من قال: جبر، وعلى من قال لم يجبر.

والآثار بذلك معروفة عن الأوزاعي، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل، وغيرهم من سلف الأمة وأئمتها، كما ذكر طرفًا من ذلك أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» هو وغيره ممن يجمع أقوال السلف، وقال الأوزاعي والزبيدي وغيرهما: ليس في الكتاب والسنة لفظ جبر، وإنما في السنة لفظ جبل كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: لأشج عبد القيس: «... إن فيك لَخُلُقَين يحبهما الله: الحلم والأناة»، فقال: أخُلُقين تخلقت بهما؟ أم خُلُقين جبلت عليهما؟ فقال: «بل خُلُقين جبلت عليهما»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب.

فقال الأوزاعي والزبيدي وغيرهما من السلف: لفظ «الجبل» جاءت به السنة، فيقال: جبل الله فلانًا على كذا، وأما لفظ «الجبر» فلم يرد.

وأنكر الأوزاعي والزبيدي والثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم لفظ «الجبر» في النفي والإثبات.

وذلك لأن لفظ «الجبر» مجمل؛ فإنه يقال: جبر الأب ابنته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٨٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨)، المواقف (٣/ ٧١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٣١، ١٣٢)، (٨/ ٤٧٩، ٤٨٠).

على بيع ماله لوفاء دينه، ومعنى ذلك أكرهه، ليس معناه أنه جعله مريدًا لذلك مختارًا محبًّا له راضيًا به[(١)].

- والجَبْرِيَّة خاضوا في القدر بالباطل من غير بينة من الكتاب والسنة؛ فلذلك أدخلهم السلف في مسمى القدرية.

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان يدخل عندهم المجبرة في مسمى القدرية المذمومين لخوضهم في القدر بالباطل؛ إذ هذا جماع المعنى الذي ذمت به القدرية، ولهذا ترجم الإمام أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» فقال: الرد على القدرية، وقولهم إن الله أجبر العباد على المعاصي[(٢)].

وقال: وهؤلاء يدخلون في مسمى «القدرية» الذين ذمهم السلف، بل هم أحق بالذم من المعتزلة ونحوهم، كما قال أبو بكر الخلال في كتاب السنة: الرد على القدرية، وقولهم إن الله أجبر العباد على المعاصي.

والمقصود هنا أن الخلال وغيره من أهل العلم أدخلوا القائلين بالجبر في مسمى «القدرية» وإن كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصي، فكيف بمن يحتج به على المعاصي؟ ومعلوم أنه يدخل في ذم من ذم الله من القدرية من يحتج به على إسقاط الأمر والنهي أعظم مما يدخل فيه المنكر له؛ فإن ضلال هذا أعظم[(٣)].

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦١- ٤٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٣- ١٠٥).

الفصل الثاني

نَشْأَةُ الجَبْرِيَّةِ

لم تظهر مقالة الجَبْرِيَّةِ في القرن الأول، وإنما ظهرت في أوائل القرن الثاني في أواخر دولة بني أمية على يد الجهم بن صفوان (١٢٨ هـ) مع قوله بمقالة التعطيل وغلوه في الإرجاء.

قال شيخ الإسلام: هو أول من عرف في الإسلام أنه قال: إن العبد ليس بفاعل[١]

وقال: المصرِّح بأنه غير فاعل حقيقة هم الجهميَّة، أتباع الجهم بن صفوان ومن وافقهم من المتأخرين، ولم يصرح بهذا أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا أئمة المسلمين: لا الأئمة الأربعة، ولا غيرهم[٢]

- وكانت هذه المقالة مقابِلة لمقالة القدرية التي حدثت في أواخر عهد الصحابة ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وقابلهم الخائضون في القدر من المجبرة مثل الجهم بن صفوان وأمثاله، فقالوا: ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة، وقالوا: العبد لا فعل له ألبتة ولا قدرة، بل الله هو الفاعل القادر فقط، وكان جهم مع ذلك ينفي الأسماء والصفات[٣]

- وكما أن مقالة القدرية قد أنكرها الصحابة ﷺ، فكذلك مقالة الجَبْرِيَّةِ أنكرها أئمة السلف من التابعين ومَن بعدهم، وتصدوا وبدَّعُوا هاتين المقالتين.

قال شيخ الإسلام: لم يكن من السلف والأئمة من يقول: إن العبد ليس بفاعل ولا مختار، ولا مريد ولا قادر، ولا قال أحد منهم: إنه فاعل مجازًا، بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز متفقون على أن العبد فاعل حقيقة والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله.

وأول من ظهر عنه إنكار ذلك هو الجهم بن صفوان وأتباعه، فحكي عنهم أنهم قالوا: إن العبد مجبور وأنه لا فعل له أصلًا وليس بقادر أصلًا، وكان الجهم غاليًا في تعطيل الصفات

وكان ظهور جهم ومقالته في تعطيل الصفات، وفي الجبر والإرجاء في أواخر دولة بني أمية بعد حدوث القدرية والمعتزلة وغيرهم؛ فإن القدرية حدثوا قبل ذلك في أواخر عصر الصحابة، فلما حدثت مقالته المقابِلة لمقالة القدرية أنكرها السلف والأئمة، كما أنكروا قول القدرية من المعتزلة وغيرهم، وبدعوا الطائفتين[٤]

(١) الرد على البكري ص(١٧٤، ١٧٥)
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٨٢، ٤٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٩- ٤٦١)، (٨/ ٤٨٢، ٤٨٣).

- وجهم هو أيضًا أول من أنكر الحكمة والتعليل في خلق الله عز وجل وفي أمره ونهيه، وأنكر الأسباب والطبائع، فعنده أن المسبَّبات لا تقع بالأسباب بل عندها.

قال شيخ الإسلام: من قال من أهل الكلام: إنه لا يفعل الأشياء بالأسباب؛ بل يفعل عندها لا بها، ولا يفعل لحكمة، ولا في الأفعال المأمور بها ما لأجله كانت حسنة، ولا المنهي عنها م لأجله كانت سيئة، فهذا مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة من السلف.

وأول من قاله في الإسلام جهم بن صفوان الذي أجمعت الأمة على ضلالته؛ فإنه أول من أنكر الأسباب والطبائع(١)

- وكان من نتيجة إنكاره للحكمة في أفعال المولى عز وجل وإنكاره للأسباب أن جعل الأمور لم تصدر إلا عن إرادة تخصيص وترجيح أحد المتماثلين على الآخر دون سبب لهذا التخصيص والترجيح.

وهذا الأصل مما اتفقت عليه القدرية والجَبْرِيَّةُ.

قال شيخ الإسلام: وأصل الطائفتين -القَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة- أن القادر المختار يرجِّح أحد المتماثلَيْن على الآخر بلا مرجِّح، لكن هؤلاء الجهمية يقولون: إنه في كل حادث يرجِّح بلا مرجِّح(٢)

- وإذا كان القادر المختار يرجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح فلا فرق حينئذ بين الإرادة والمحبة والرضا.

ثم افترقت القدرية والجَبْرِيَّة في تفصيل هذا الأصل

فقالت القدرية: وقوع المعاصي ونحوها مما لا يحبه الله ولا يرضاه؛ فهو إذًا واقع بدون إرادته ومشيئته، بل العباد هم المريدون والعاملون لها.

وقالت الجَبْرِيَّة: كل ما في الوجود واقع بمشيئة الله وإرادته، فكل ذلك مما يحبه الله ويرضاه، ومن ذلك المعاصي ونحوها من أفعال العباد.

قال شيخ الإسلام عن مسلك الجهم بن صفوان وأتباعه: زعموا أن الأمور كلها لم تصدر إلا عن إرادة تخصيص أحد المتماثلين بلا سبب، وقالوا: الإرادة والمحبة والرضا سواء؛ فوافقوا في ذلك القدرية؛ فإن الجهميَّةَ والمعتزلة كلاهما يقول: إن القادر المختار يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح؛ وكلاهما يقول: لا فرق بين الإرادة والمحبة والرضا.

ثم قالت «القدرية»: وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح؛ ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر؛ ويكره الكفر والفسوق والعصيان، قالوا: فيلزم من ذلك أن يكون كل ما في الوجود من المعاصي واقعًا بدون مشيئته وإرادته كما هو واقع على

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٩٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ٩٦).

خلاف أمره، وخلاف محبته ورضاه وقالوا: إن محبته ورضاه لأعمال عباده هو بمعنى أمره بها؛ فكذلك إرادته لها بمعنى أمره بها، فلا يكون قط عندهم مريدًا لغير ما أمر به، وأخذ هؤلاء يتأولون ما في القرآن من إرادته لكل ما يحدث ومن خلقه لأفعال العباد بتأويلات محرفة.

وقالت الجهمية ومن اتبعها من الأشعرية وأمثالهم: قد علم بالكتاب والسنة والإجماع أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه؛ ولا يكون خالقًا إلا بقدرته ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكل ما في الوجود فهو بمشيئته وقدرته، وهو خالقه؛ سواء في ذلك أفعال العباد وغيرها، ثم قالوا: وإذا كان مريدًا لكل حادث والإرادة هي المحبة والرضا؛ فهو محب راض لكل حادث؛ وقالوا كل ما في الوجود من كفر وفسوق وعصيان فإن الله راضٍ به محبٌّ له؛ كما هو مريد له.

فقيل لهم: فقد قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧] فقالوا: هذا بمنزلة أن يقال: لا يريد الفساد، ولا يريد لعباده الكفر، وهذا يصح على وجهين:

إما أن يكون خاصًا بمن لم يقع منه الكفر والفساد؛ ولا ريب أن الله لا يريد ولا يحب ما لم يقع عندهم؛ فقالوا: معناه لا يحب الفساد لعباده المؤمنين، ولا يرضاه لهم.

وحقيقة قولهم: إن الله أيضًا لا يحب الإيمان ولا يرضاه من الكفار؛ فالمحبة والرضا عندهم كالإرادة عندهم متعلقة بما وقع دون ما لم يقع، سواء كان مأمورًا به أو منهيًا عنه؛ وسواء كان من أسباب سعادة العباد أو شقاوتهم، وعندهم أن الله يحب ما وجد من الكفر والفسوق والعصيان؛ ولا يحب ما لم يوجد من الإيمان والطاعة، كما أراد هذا دون هذا.

والوجه الثاني: قالوا: لا يحب الفساد دينًا؛ ولا يرضاه دينا؛ وحقيقة هذا القول أنه لا يريده دينًا؛ فإنه إذا أراد وقوع الشيء على صفة لم يكن مريدًا له على خلاف تلك الصفة؛ وهو إذا أراد وقوع شيء مع شيء لم يرد وقوعه وحده؛ فإنه إذا أراد أن يخلق زيدًا من عمرو لم يرد أن يخلقه من غيره؛ وإذا أراد أن ينزل مطرًا فتنبت الأرض به؛ فإنه أراد إنزاله على تلك الصفة، وإذا أراد أن يركب البحر قوم فيغرق بعضهم، ويسلم بعضهم، ويربح بعضهم؛ فإنما أراده على تلك الصفة، فكذلك الإيمان والكفر، قرن بالإيمان نعيم أصحابه؛ وبالكفر عذاب أصحابه، وإن لم يكن عندهم جعل شيء لشيء سببًا، ولا خلق شيء لحكمة، لكن جعل هذا مع هذا.

وعندهم جعل السعادة مع الإيمان، لا به كما يقولون: إنه خلق الشبع عند الأكل، لا به؛ فالدين الذي أمر به هو ما قرن به سعادة صاحبه في الآخرة، والكفر والفسوق والعصيان عندهم أحبه ورضيه كما أراده، لكن لم يحبه مع سعادة صاحبه؛ فلم يحبه دينًا كما أنه لم يرده مع سعادة صاحبه دينًا[1].

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤٠- ٣٤٢).

- ثم لما كان من طريق الصوفية المشاهدة الكونية، فرأت كل ما في الوجود من فعل الرب هو واقع بإرادته، فكل ذلك مما يحبه ويرضاه أيضًا، فوافقوا الجَبْرِيَّة على أصلهم.

قال شيخ الإسلام: وهذا المشهد الذي شهده أهل الفناء في توحيد الربوبية، فإنهم رأوا الرب تعالى خلق كل شيء بإرادته، وعلم أن سيكون ما أراد، ولا سبب عندهم لشيء ولا حكمة؛ بل كل الحوادث تحدث بالإرادة[1].

- ثم لما كان من أصول الكُلَّابية والأشعرية وغيرهما إثبات إرادة واحدة تتعلق بكل حادث. فجعلوا جميع الحوادث تصدر عن هذه الإرادة الواحدة المفردة التي ترجح أحد المتماثلين على الآخر بدون مرجح، وهي أيضًا المحبة والرضا، فوافقوا الجَبْرِيَّة على أصلهم، فقالوا بقولهم.

قال شيخ الإسلام: ثم الجهم بن صفوان ونفاة الصفات من المعتزلة ونحوهم لا يثبتون إرادة قائمة بذاته، بل إما أن ينفوها، وإما أن يجعلوها بمعنى الخلق والأمر؛ وإما أن يقولوا أحدث إرادة لا في محل.

وإما مثبتة الصفات: كابن كلاب والأشعري وغيرهما -ممن يثبت الصفات؛ ولا يثبت إلا واحدًا معينًا- فلا يثبت إلا إرادة واحدة تتعلق بكل حادث، وسمعًا واحدًا معينًا متعلقًا بكل مسموع وبصرًا واحدًا معينًا متعلقًا بكل مرئي، وكلامًا واحدًا بالعين يجمع جميع أنواع الكلام، كما قد عرف من مذهب هؤلاء، فهؤلاء يقولون: جميع الحادثات صادرة عن تلك الإرادة الواحدة العين المفردة التي ترجح أحد المتماثلين لا بمرجح، وهي المحبة والرضا وغير ذلك[2].

- وترتب على قول الجَبْرِيَّةِ ذلك نَفْي الحُسْن والقُبْح الذاتي في الحوادث والأفعال، وإنما الحسن والقبح متعلق بالملائم والمنافي للطباع، فما قرن بلذة لصاحبه كان حسنًا، وما قرن بألم لصاحبه كان قبيحًا، والشرع هو الدال على ذلك.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح إلا من حيث موافقتها للإنسان، ومخالفة بعضها له، فما وافق مراده ومحبوبه كان حسنًا عنده، وما خالف ذلك كان قبيحًا عنده، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله ولا سيئة يكرهها إلا بمعنى أن الحسنة هي ما قرن بها لذة صاحبها، والسيئة ما قرن بها ألم صاحبها من غير فرق يعود إليه، ولا إلى الأفعال أصلًا؛ ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسنًا ولا قبيحًا، لا بمعنى الملائم للطبع والمنافي له، والحسن والقبح الشرعي هو ما دل صاحبه على أنه قد يحصل لمن فعله لذة، أو حصول ألم له.

ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان، وينهى عن كل شيء

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤٢، ٣٤٣).

حتى عن الإيمان والتوحيد، ويجوز نسخ كل ما أمر به بكل ما نهى عنه، ولم يبق عندهم في الوجود خير ولا شر، ولا حسن ولا قبيح، إلا بهذا الاعتبار، فما في الوجود ضر ولا نفع، والنفع والضر أمران إضافيان، فربما نفع هذا ما ضر هذا. كما يقال:

مصائب قوم عند قوم فوائد[1]

- فلما كانت هذه هي حقيقة قول الجَبْرِيَّةِ صارت بعد ذلك إلى فريقين:

الأول: الكلابية والأشعرية ومن اتبعهما من المتكلمين.

الثاني: الصوفية ومن اتبعها من أهل السلوك.

قال شيخ الإسلام: فلما كان هذا حقيقة قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه صاروا حزبين:

حزبًا من أهل الكلام والرأي: أقروا بالفرق الطبيعي، وقالوا: ما ثم فرق إلا الفرق الطبيعي، ليس هنا فرق يرجع إلى الله بأنه يحب هذا ويبغض هذا.

ثم منهم من يضعف عنده الوعد والوعيد، إما لقوله بالإرجاء، وإما لظنه أن ذلك لمصالح الناس في الدنيا إقامة للعدل، كما يقول: ذلك من يقوله من المتفلسفة، فلا يبقى عنده فرق بين فعل وفعل إلا ما يحبه هو ويبغضه، فما أحبه هو كان الحسن الذي ينبغي فعله، وما أبغضه كان القبيح الذي ينبغي تركه، وهذا حال كثير من أهل الكلام والرأي، الذين يرون رأي جهم والأشعري ونحوهما في القدر، تجدهم لا ينتهون في المحبة والبغضة والموالاة والمعاداة إلا إلى محض أهوائهم وإرادتهم، وهو الفرق الطبيعي.

ومن كان منهم مؤمنًا بالوعد فإنه قد يفعل الواجبات، ويترك المحرمات، لكن لأجل ما قرن بهما من الأمور الطبيعية في الآخرة من أكل وشرب ونكاح، وهؤلاء ينكرون محبة الله، والتلذذ بالنظر إليه، وعندهم إذا قيل: إن العباد يتلذذون بالنظر إليه فمعناه أنهم عند النظر يخلق لهم من اللذات بالمخلوقات ما يتلذذون به لا أن نفس النظر إلى الله يوجب لذة، وقد ذكر هذا غير واحد منهم أبو المعالي في «الرسالة النظامية» وجعل هذا من أسرار التوحيد وهو من إشراك التوحيد، الذي يسميه هؤلاء النفاة توحيدًا، لا من أسرار التوحيد الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب؛ فإن المحبة لا تكون إلا لمعنى في المحبوب يحبه المحب، وليس عندهم في الموجودات شيء يحبه الرب إلا بمعنى يريده، وهو مريد لكل الحوادث، ولا في الرب عندهم معنى يحبه العبد، وإنما يحب العبد ما يشتهيه، وإنما يشتهي الأمور الطبعية الموافقة لطبعه، ولا يوافق طبعه عندهم إلا اللذات البدنية كالأكل والشرب والنكاح.

والحزب الثاني من الصوفية: الذي كان هذا المشهد هو منتهى سلوكهم، عرفوا الفرق الطبيعي، وهم قد سلكوا على ترك هذا الفرق الطبيعي، وأنهم يزهدون في حظوظ النفس وأهوائها؛ لا

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤٣).

يريدون شيئًا لأنفسهم، وعندهم أن من طلب شيئًا للأكل والشرب في الجنة فإنما طلب هواه وحظه، وهذا كله نقص عندهم ينافي حقيقة الفناء في توحيد الربوبية، وهو بقاء مع النفس وحظوظها.

والمقامات كلها -عندهم التوكل والمحبة، وغير ذلك- إنما هي منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة؛ فإذا شهدوا توحيد الربوبية كان ذلك عندهم عللًا في الحقيقة؛ إما لنقص المعرفة والشهود، وإما لأنه ذَبٌّ عن النفس وطلب حظوظها؛ فإنه من شهد أن كل ما في الوجود فالرب يحبه ويرضاه ويريده، لا فرق عنده بين شيء وشيء، إلا أن من الأمور ما معه حظ لبعض الناس من لذة يصيبها، ومنها ما معه ألم لبعض الناس، فمن كان هذا مشهده فإنه قطعًا يرى أن كل من فرق بين شيء وشيء لم يفرق إلا لنقص معرفته، وشهوده أن الله رب كل شيء، ومريد لكل شيء ومحب -على قولهم- لكل شيء، وإنما لفرق يرجع إلى حظه وهواه، فيكون طالبًا لحظه ذابًّا عن نفسه، وهذا علة وعيب عندهم.

فصار عندهم كل من فرق إما ناقص المعرفة والشهادة، وإما ناقص القصد والإرادة، وكلاهما علة؛ بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية؛ فإنه يشهد كل ما في الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، كما قاله صاحب منازل السائرين.

ولهذا في الكلام المنقول عن الذبيلي وأبي يزيد أنه قال: إذا رأيت أهل الجنة يتنعمون في الجنة، وأهل النار يعذبون في النار، فوقع في قلبك فرق خرجت عن حقيقة التوكل، أو قال: عن التوحيد الذي هو أصل التوكل، ومعلوم أن هذا الفرق لا يعدم من الحيوان دائمًا، بل لا بد له منه يميل إلى ما لا بد له منه من أكل وشرب، لكنه في حال الفناء قد يكون مستغرقًا في ذلك المشهد، ولكن لا بد أن يميل إلى أمور يحتاج إليها فيريدها، وأمور تضره فيكرهها وهذا فرق طبيعي لا يخلو منه بشر.

لكن قد يقولون بالفرق في الأمور الضرورية التي لا يقوم الإنسان إلا بها من طعام ولباس ونحو ذلك، فيكتفون في الدنيا والآخرة بما لا بد منه من طعام ولباس ويرون هذا الزهد هو الغاية، فيزهدون في كل شيء، بمعنى أنهم لا يريدونه ولا يكرهونه، ولا يحبونه ولا يبغضونه، ويكون زهدهم في المساجد كزهدهم في الحانات، ولهذا إذا قدم الشيخ الكبير منهم بلدًا يبدأ بالبغايا في الحانات ويقول: كيف أنتم في قدر الله، فإنه لا فرق عنده في هذا المشهد بين المساجد والكنائس والحانات، وبين أهل الصلاة والإحرام وقراءة القرآن وأهل الكفر وقطاع الطريق والمشركين بالرحمن.

ولا ريب أن فناءهم وغيبتهم عن شهود «الإلهية والنبوة» شهادة أن لا إله إلا إله وأن محمدًا رسول الله، وما تضمنه من الفرق يرجع إلى نقص العلم والشهود والإيمان والتوحيد، فشهدوا نعتًا من نعوت الرب وغابوا عن آخر وهذا نقص.

وقد يرون أن شهود الذات مجردة عن الصفات أكمل، ويقولون: شهود الأفعال، ثم شهود الصفات، ثم شهود الذات المجردة، وربما جعلوا الأول للنفس، والثاني للقلب، والثالث للروح، ويجعلون هذا النقض من إيمانهم ومعرفتهم وشهودهم هو الغاية، فيكونون مضاهين للجهمية نفاة الصفات، حيث أثبتوا ذاتًا مجردة عن الصفات، وقالوا: هذا هو الكمال، لكن أولئك يقولون: بانتفائها في الخارج، فيقولون: إنهم يشهدون أنها منتفية وهؤلاء يثبتونها في الخارج علمًا واعتقادًا، ولكن يقولون: الكمال في أن يغيب عن شهودها ولا يشهدون نفيها؛ لكن لا يشهدون ثبوتها، وهذا نقص عظيم وجهل عظيم.

أما أولًا فلأنهم شهدوا الأمر على خلاف ما هو عليه، فذات مجردة عن الصفات لا حقيقة لها في الخارج.

وأما الثاني فهو مطلوب الشيطان من التجهم ونفي الصفات فإن عدم العلم والشهود لثبوتها يوافق فيه الجهمي المعتقد لانتفائها، ومن قال: أعتقد أن محمدًا ليس برسول، وقال الآخر: وإن كنت أعلم رسالته فأنا أفنى عنها فلا أذكرها ولا أشهدها؛ فهذا كافر كالأول فالكفر عدم تصديق الرسول، سواء كان معه اعتقاد تكذيب أم لا، بل وعدم الإقرار بما جاء به والمحبة له، فمن ألزم قلبه أن يغيب عن معرفة صفات الله كما يعرف ذاته، وألزم قلبه أن يشهد ذاتًا مجردة عن الصفات، فقد ألزم قلبه ألا يحصل له مقصود الإيمان بالصفات وهذا من أعظم الضلال.

وأهل الفناء في توحيد الربوبية قد يظن أحدهم أنه إذا لم يشهد إلا فعل الرب فيه فلا إثم عليه، وهم في ذلك بمنزلة من أكل السموم القاتلة وقال: أنا أشهد أن الله هو الذي أطعمني فلا يضرني، وهذا جهل عظيم؛ فإن الذنوب والسيئات تضر الإنسان أعظم مما تضره السموم، وشهوده أن الله فاعل ذلك لا يدفع ضررها، ولو كان هذا دافعًا لضررها لكان أنبياء الله وأولياؤه المتقون أقدر على هذا الشهود الذي يدفعون به عن أنفسهم ضرر الذنوب.

ومن هؤلاء من يظن أن الحق إذا وهبه حالًا يتصرف به وكشفًا لم يحاسبه على تصرفه به، وهذا بمنزلة من يظن أنه إذا أعطاه ملكًا لم يحاسبه على تصرفه فيه وقد قال النبي ﷺ: **«اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»** فبين أنه مع أنه المعطي المانع، فلا ينفع المجدود جده، إنما ينفعه الإيمان والعمل الصالح.

فهذا أصل عظيم ضلَّ بالخطأ فيه خلقٌ كثير، حتى آل الأمر بكثير من هؤلاء إلى أن جعلوا أولياء الله المتقين يقاتلون أنبياءه، ويعاونون أعداءه، وأنهم مأمورون بذلك، وهو أمر شيطاني قدري، ولهذا يقول من يقول منهم: إن الكفار لهم خفراء من أولياء الله كما للمسلمين خفراء من أولياء الله، ويظن كثير منهم أن أهل الصُّفَّةِ قاتلوا النبي ﷺ في بعض المغازي فقال: «يا أصحابي! تخلوني وتذهبون عني؟!» فقالوا: نحن مع الله من كان مع الله كنا معه.

ويجوزون قتال الأنبياء وقتلهم، كما قال شيخ مشهور منهم كان بالشام لو قتلت سبعين نبيًا ما

كنت مخطئًا؛ فإنه ليس في مشهدهم لله محبوب مرضي مراد إلا ما وقع، فما وقع فالله يحبه ويرضاه. وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه.

والواقع هو تبع القدر لمشيئة الله وقدرته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهم من غلب كانوا معه؛ لأن من غلب كان القدر معه، والمقدور عندهم هو محبوب الحق، فإذا غلب الكفار كانوا معهم، وإذا غلب المسلمون كانوا معهم، وإذا كان الرسول منصورًا كانوا معه، وإذا غلب أصحابه كانوا مع الكفار الذين غلبوهم.

وهؤلاء الذين يصلون إلى هذا الحد غالبهم لا يعرف وعيد الآخرة؛ فإن من أقر بوعيد الآخرة وأنه للكفار لم يمكنه أن يكون معاونًا للكفار مواليًا لهم على ما يوجب وعيد الآخرة؛ لكن قد يقولون بسقوطه مطلقًا، وقد يقولون بسقوطه عمن شهد توحيد الربوبية، وكان في هذه الحقيقة القدرية؛ وهذا يقوله طائفة من شيوخهم؛ كالشيخ المذكور وغيره.

فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض، وليس عندهم غيره إلا ما هو قدر أيضًا -من نعيم أهل الطاعة، وعقوبة أهل المعصية- لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار، بل إذا رأى أحدهم من يدعو قال الفقير أو المحقق أو العارف ما له؟! يفعل الله ما يشاء، وينصر من يريد؛ فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إليه أيضًا؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين لا من جهة ربه، فإنه لا فرق على رأيه عند الله تعالى بينهما، ولا من جهة نفسه فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار؛ بل كثير منهم تكون حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم، فيكون هواه أعظم.

وعامة من معهم من الخفراء هم من هذا الضرب؛ فإن لهم حظوظًا ينالونها باستيلائهم لا تحصل لهم باستيلاء المؤمنين، وشياطينهم تحب تلك الحظوظ المذمومة، وتغريهم بطلبهم، وتخاطبهم الشياطين بأمر ونهي وكشف يظنونه من جهة الله، وأن الله هو أمرهم ونهاهم، وأنه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء الله المتقين، ويكون ذلك كله من الشياطين، وهم لا يفرقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية؛ لأن الفرق مبني على شهود الفرق من جهة الرب تعالى، وعندهم لا فرق بين الأمور الحادثة كلها من جهة الله تعالى، إنما هو مشيئة محضة تناولت الأشياء تناولًا واحدًا فلا يحب شيئًا ولا يبغض شيئًا.

ولهذا يشترك هؤلاء في جنس السماع الذي يثير ما في النفوس من الحب والوجد والذوق؛ فيثير من قلب كل أحد حبه وهواه، وأهواؤهم متفرقة؛ فإنهم لم يجتمعوا على محبةٍ ما يحبه الله ورسوله؛ إذ كان محبوب الحقّ -على أصل قولهم- هو ما قدره فوقع، وإذا اختلفت أهواؤهم في الوجد اختلفت أهواء شياطينهم، فقد يقتل بعضهم بعضًا بشياطينه؛ لأنها أقوى من شياطين ذاك، وقد يسلبه ما معه من الحال الذي هو التصرف والمكاشفة الحاصلة له بسبب شياطينهم؛ فتكون شياطينه

هريت من شياطين ذلك فيضعف أمره، ويسلب حاله؛ كمن كان ملكًا له أعوان فأخذت أعوانه؛ ميقى ذليلًا لا ملك له.

فكثير من هؤلاء كالملوك الظلمة الذين يعادي بعضهم بعضًا: إما مقتول، وإما مأسور، وإما مهزوم؛ فإن منهم من يأسر غيره فيبقى تحت تصرفه، ومنهم من يسلبه غيره فيبقى لا حال له، كالملك المهزوم؛ فهذا كله من تفريع أصل الجهميَّةِ الغلاة في الجبر في القدر[1]

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤٤- ٣٥٢).

الفصل الثالث

مَقَالَةُ الجَبْرِيَّةِ

ينفون الفعل عن العبد، ويضيفونه إلى الرب تعالى، ويزعمون أن العبد ليس قادرًا على فعله.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الربِّ تعالى[(١)]

وقال الرازي: وهم يزعمون أن العبد ليس قادرًا على فعله[(٢)]

وقال الإيجي: الجبر إسناد فعل العبد إلى الله[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: القدرية المجبرة الذين يقولون ليس للعبد قدرة ولا إرادة حقيقية ولا هو فاعل حقيقة[(٤)]

وقال: الجهمية الجَبْرِيَّةُ الذين قالوا: إن أفعال العباد نفس فعله، وفعله هو مفعوله، كما يقوله الجهم بن صفوان وأتباعه كالأشعري ومن وافقه[(٥)]

وقال: قول الجهمية الجَبْرِيَّة الذين يقولون: لا قدرة للعبد على شيء أصلًا، بل الله يعذب بمحض المشيئة، فيعذِّب من لم يفعل ذنبًا قط، وينعِّم من كفر وفسق، وقد وافقهم على ذلك كثير من المتأخرين.

وهؤلاء يقولون: يجوز أن يعذِّب الأطفال والمجانين وإن لم يفعلوا ذنبًا قط، ثم منهم من يجزم بعذاب أطفال الكفار في الآخرة، ومنهم من يجوِّزه ويقول: لا أدري ما يقع.

وهؤلاء يجوِّزون أن يَغْفِرَ لأفسق أهل القبلة بلا سبب أصلًا، ويعذِّب الرجل الصالح على السيئة الصغيرة، وإن كانت له حسنات أمثال الجبال بلا سبب أصلًا بل بمحض المشيئة[(٦)]

وقال: الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم؛ فإنهم قالوا: بل يعذِّب من لا ذنب له، أو نحو ذلك[(٧)]

---

(١) الملل والنحل (١/ ٨٤).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).

(٣) المواقف (٣/ ٧١٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٨٩)، (٨/ ٥٢١).

(٥) الرد على البكري ص(٢١٠).

(٦) منهاج السنة النبوية (٥/ ٩٦)، مجموع الفتاوى (١٩/ ٢١٣).

(٧) منهاج السنة النبوية (٥/ ٩٩).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: لفظ الجبر مجمل؛ فإنه يقال جبر الأب ابنته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه، ومعنى ذلك أكرهه، ليس معناه أنه جعله مريدًا لذلك مختارًا محبًّا له راضيًا به، قالوا: ومن قال: إن الله تعالى جبر العباد بهذا المعنى فهو مبطل، فإن الله أعلى وأجل قدرًا من أن يجبر أحدًا، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريدًا للفعل مختارًا له محبًّا له راضيًا به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريدًا له محبًّا له راضيًا به فكيف يقال: أجبره وأكرهه كما يجبر المخلوقُ المخلوقَ، مثل ما يجبر السلطان والحاكم والأب وغيرهم من يجبرونه إما بحق وإما بباطل وإجبارهم هو إكراههم لغيرهم على الفعل، والإكراه قد يكون إكراهًا بحق وقد يكون إكراهًا بباطل.

فالأول: كإكراه من امتنع من الوجبات على فعلها، مثل إكراه الكافر الحربي على الإسلام، أو أداء الجزية عن يد وهم صاغرون، وإكراه المرتد على العود إلى الإسلام، وإكراه من أسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وعلى قضاء الديون التي يقدر على قضائها، وعلى أداء الأمانة التي يقدر على أدائها، وإعطاء النفقة الواجبة عليه التي يقدر على إعطائها.

وأما الإكراه بغيرِ حقٍّ: فمثل إكراه الإنسان على الكفر والمعاصي، وهذا الإجبار الذي هو الإكراه يفعله العباد بعضهم مع بعض؛ لأنهم لا يقدرون على إحداث الإرادة والاختيار في قلوبهم وعلى جعلهم فاعلين؛ لأفعالهم، والله تعالى قادر على إحداث إرادة للعبد ولاختياره، وجعله فاعلًا بقدرته ومشيئته، فهو أعلى وأقدر من أن يجبر غيره ويكرهه على أمر شاءه منه؛ بل إذا شاء جعله فاعلًا له بمشيئته، كما أنه قادر على أن يجعله فاعلًا للشيء مع كراهته له فيكون مريدًا له حتى يفعله مع بغضه له كما قد يشرب المريض الدواء مع كراهته له، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرّعد: الآية ١٥]، وقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٣]

فكل ما يقع من العباد بإرادتهم ومشيئتهم فهو الذي جعلهم فاعلين له بمشيئتهم، سواء كانوا مع ذلك فعلوه طوعًا، أو كانوا كارهين له فعلوه كرهًا وهو سبحانه لا يكرههم على ما لا يريدوه كما يكره المخلوقُ المخلوقَ حيث يكرهه على أمر وإن لم يرده وليس هو قادرًا أن يجعله مريدًا له فاعلًا له لا مع الكراهة، ولا مع عدمها؛ فلهذا يقال للعبد: إنه جبر غيره على الفعل، والله أعلى وأجل وأقدر من أن يقال بأنه جبر بهذا المعنى.

وقد يستعمل لفظ الجبر في أعم من ذلك بحيث يتناول كل من قهر غيره وقدر عليه فجعله فاعلًا لما يشاء منه، وإن كان هو المحدث لإرادته وقدرته عليه.

قال محمد بن كعب القرظي في اسم الله الجبار قال: هو الذي جبر العباد على ما أراد، وكذلك

ينقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال في الدعاء المأثور: اللهم داحي المدحوات، وباري المسموكات، جبار القلوب على فطرتها، شقيها وسعيدها. والجبر من الله بهذا الاعتبار معناه القهر والقدرة، وأنه يقدر أن يفعل ما يشاء، ويجبر على ذلك ويقهرهم عليه، فليس كالمخلوق العاجز الذي يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، ومن جبره وقهره وقدرته أن يجعل العباد مريدين لما يشاء منهم، إما مختارين له طوعًا وإما مريدين له مع كراهتهم له ويجعلهم فاعلين له، وهذا الجبر الذي هو قهره بقدرته لا يقدر عليه غيره، وليس هو كإجبار غيره وإكراهه من وجوه.

منها أن ما سواه عاجز لا يقدر أن يجعل العباد مريدين لما يشاؤه ولا فاعلين له.

ومنها أن غيره قد يجبر الغير ويكرهه إكراهًا يكون ظالمًا به، والله تعالى عادل، لا يظلم مثقال ذرة.

ومنها أن غيره قد يكون جاهلًا أو سفيهًا لا يعلم ما يفعله وما يجبر عليه، ولا يقصد حكمة تكون غير ذلك، والله عليم حكيم، ما خلقه وأمر به له فيه حكمة بالغة صادرة من علمه وحكمته وقدرته[(١)]

وقال: ترجم الإمام أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» فقال: الرد على القدرية، وقولهم إن الله أجبر العباد على المعاصي، ثم روي عن عمرو بن عثمان عن بقية بن الوليد قال: سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر؛ فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب. وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلًا في القرآن ولا في السنة؛ فأهاب أن أقول ذلك؛ ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ؛ وإنما وضعت هذا مخافة أن يرتاب رجل تابعي من أهل الجماعة والتصديق.

فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة.

أما «الزبيدي» فمحمد بن الوليد صاحب الزهري فإنه قال: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، فنفى الجبر، وذلك لأن الجبر المعروف في اللغة هو إلزام الإنسان بخلاف رضاه، كما تقول الفقهاء في باب النكاح هل تجبر المرأة على النكاح أو لا تجبر؟ وإذا عضلها الولي ماذا تصنع؟ فيعنون بجبرها إنكاحها بدون رضاها واختيارها، ويعنون بعضلها منعها مما ترضاه وتختاره، فقال: الله أعظم من أن يجبر أو يعضل؛ لأن الله سبحانه قادر على أن يجعل العبد محبًّا راضيًا لما يفعله، ومبغضًا وكارهًا لما يتركه، كما هو الواقع، فلا يكون العبد مجبورًا على ما يختاره ويرضاه ويريده وهي: أفعاله الاختيارية، ولا يكون معضولًا عما يتركه فيبغضه ويكرهه ولا يريده وهي تَرْكُهُ الِاخْتِيَارِيَّةَ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٢- ٤٦٥)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٦، ٢٤٦).

وأما الأوزاعي فإنه منع من إطلاق هذا اللفظ، وإن عنى به هذا المعنى حيث لم يكن له أصل في الكتاب والسنة: فيفضي إلى إطلاق لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل، وذلك لا يسوغ، وإن قيل: إنه أريد به معنى صحيح.

قال الخلال: أنبأنا المروذي، قال: سمعت بعض المشيخة، يقول: سمعت عبد الرحمن بن مهدي، يقول: أنكر سفيان الثوري الجبر، وقال: الله تعالى جبل العباد. قال المروذي: أظنه أراد قول النبي ﷺ لأشج عبد القيس -يعني قوله الذي في صحيح مسلم- «إن فيك لَخُلُقين يحبهما الله الحلم والأناة» فقال: أخلقين تخلقت بهما، أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: «بل خُلُقين جبلت عليهما»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله تعالى، ولهذا احتج البخاري وغيره على خلق الأفعال بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ فأخبر تعالى أنه خلق الإنسان على هذه الصفة.

وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي؛ لأن الزبيدي نفى الجبر والأوزاعي منع إطلاقه إذ هذا اللفظ يحتمل معنى صحيحًا فنفيه قد يقتضي نفي الحق والباطل، كما ذكر الخلال ما ذكره عبد الله بن أحمد في «كتاب السنة» فقال: ثنا محمد بن بكار، ثنا أبو معشر، حدثنا يعلى، عن محمد بن كعب أنه قال: إنما سمي الجبار؛ لأنه يجبر الخلق على ما أراد، فإذا امتنع من إطلاق اللفظ المجمل المحتمل المشتبه زال المحذور، وكان أحسن من نفيه وإن كان ظاهرًا في المحتمل المعنى الفاسد خشية أن يظن أنه ينفي المعنيين جميعًا.

وهكذا يقال في نفي الطاقة على المأمور: فإن إثبات الجبر في المحظور نظير سلب الطاقة في المأمور. وهكذا كان يقول الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة: قال الخلال: أنبأنا الميموني، قال: سمعت أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- يناظر خالد بن خداش -يعني في القدر- فذكروا رجلًا فقال أبو عبد الله: إنما أكره من هذا أن يقول أجبر الله. وقال: أنبأنا المروذي قلت لأبي عبد الله رجل يقول: إن الله أجبر العباد، فقال هكذا لا تقل، وأنكر هذا، وقال يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وقال: أنبأنا المروذي، قال: كتب إلى عبد الوهاب في أمر حسنِ بنِ خلفٍ العكبري، وقال: إنه تنزه عن ميراث أبيه؛ فقال رجل قدري: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي فرد عليه أحمد بن رجاء فقال: إن الله جبر العباد على ما أراد، أراد بذلك إثبات القدر، فوضع أحمد بن علي كتابًا يحتج فيه، فأدخلته على أبي عبد الله، فأخبرته بالقصة فقال: ويضع كتابًا وأنكر عليهما جميعًا؛ على ابنِ رجاء حين قال: جبر العباد، وعلي القدري الذي قال: لم يجبر، وأنكر على أحمد بن علي في وضعه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب، وقال لي: يجب عَلَى ابنِ رجاء أن يستغفر ربه لما قال جبر العباد؛ فقلت لأبي عبد الله: فما الجواب في هذه المسألة؟ قال: يضل الله من يشاء، ويهدي من يشاء.

قال المروذي في هذه المسألة: إنه سمع أبا عبد الله لما أنكر على الذي قال: لم يجبر، وعلى من رد عليه جبر، فقال أبو عبد الله: كلما ابتدع رجل بدعة اتسعوا في جوابها، وقال: يستغفر ربه الذي رد عليهم بمحدثة، وأنكر على من رد بشيء من جنس الكلام؛ إذا لم يكن له فيها إمام مقدم، قال المروذي: فما كان بأسرع من أن قدم أحمد بن علي من عكبر ومعه مشيخة وكتاب من أهل عكبر فأدخلت أحمد بن علي على أبي عبد الله فقال: يا أبا عبد الله هو ذا الكتاب ادفعه إلى أبي بكر حتى يقطعه، وأنا أقوم على منبر عكبر وأستغفر الله عز وجل فقال: أبو عبد الله لي: ينبغي أن تقبلوا منه فرجعوا إليه.

وقد بسطنا الكلام في هذا المقام في غير هذا الموضع وتكلمنا على الأصل الفاسد الذي ظنه المتفرقون من أن إثبات المعنى الحق الذي يسمونه جبرًا ينافي الأمر والنهي، حتى جعله القدرية منافيًا للأمر والنهي مطلقًا، وجعله طائفة من الجَبْرِيَّة منافيًا لحسن الفعل وقبحه، وجعلوا ذلك مما اعتمدوه في نفي حسن الفعل وقبحه القائم به المعلوم بالعقل؛ ومن المعلوم أنه لا ينافي ذلك إلا كما ينافيه بمعنى كون الفعل ملائمًا للفاعل ونافعًا له؛ وكونه منافيًا للفاعل وضارًا له[1]

وقال: قسم يسلبون العبد اختياره وقدرته؛ ويجعلونه مجبورًا على حركاته من جنس حركات الجمادات؛ ويجعلون أفعاله الاختيارية والاضطرارية من نمط واحد حتى يقول أحدهم: إن جميع ما أمر الله به ورسوله فإنما هو أمر بما لا يقدر عليه، ولا يطيقه؛ فيسلبونه القدرة مطلقًا؛ إذ لا يثبتون له إلا قدرة واحدة مقارنة للفعل، ولا يجعلون للعاصي قدرة أصلًا.

فهذه المقالات وأمثالها من مقالات الجَبْرِيَّةِ القدريةِ الذين أنكر قولهم -كما أنكروا قول الأولين- أئمة الهدى: مثل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وسفيان بن سعيد الثوري، ومحمد بن الوليد الزبيدي، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن محمد بن حنبل، وغيرهم.

فإن ضموا إلى ذلك إقامة العذر للعصاة بالقدر، وقالوا: إنهم معذورون لذلك لا يستحقون اللوم والعذاب، أو جعلوا عقوبتهم ظلمًا، فهؤلاء كفار، كما أن من أنكر علم الله القديم من غلاة القدرية فهو كافر.

وإن جعلوا ثبوت القدر موجبًا لسقوط الأمر والنهي والوعد والوعيد، كفعل المباحية؛ فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من جنس المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۞ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ فإن هذا القول يستلزم طي بساط كل أمر ونهي.

وهذا مما يعلم بالاضطرار من العقل والدين أنه يوجب الفساد في أمر الدنيا والمعاد[2]

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٢- ٣٢٦)، (٥/ ٤٣٠- ٤٣٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٤- ٤٤٦).

وقال: أصل هذا الكلام له مقدمتان:

إحداهما: أن يعلم العبد أن الله يأمر بالإيمان والعمل الصالح، ويحب الحسنات ويرضاها، ويكرم أهلها، ويثيبهم ويواليهم، ويرضى عنهم، ويحبهم ويحبونه، وهم جند الله المنصورون، وحزب الله الغالبون، وهم أولياؤه المتقون، وحزبه المفلحون، وعباده الصالحون أهل الجنة، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، وهم أهل الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وإن الله نهي عن السيئات من الكفر والفسوق والعصيان، وهو يبغض ذلك ويمقت أهله، ويلعنهم ويغضب عليهم، ويعاقبهم ويعاديهم، وهم أعداء الله ورسوله، وهم أولياء الشيطان، وهم أهل النار، وهم الأشقياء لكنهم يتقاربون في هذا ما بين كافر وفاسق، وعاصٍ ليس بكافر ولا فاسق.

والمقدمة الثانية: أن يعلم العبد أن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، لا رب غيره، و لا خالق سواه، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ منه إلا إليه، وأنه على كل شيء قدير، فجميع ما في السموات والأرض: من الأعيان وصفاتها، وحركاتها؛ فهي مخلوقة له، مقدورة له مصرفة بمشيئته، لا يخرج شيء منها عن قدرته وملكه، ولا يشركه في شيء من ذلك غيره، بل هو سبحانه لا إله إلا هو وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فالعبد فقير إلى الله في كل شيء، يحتاج إليه في كل شيء لا يستغني عن الله طرفة عين؛ فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

فإذا ثبتت هاتان المقدمتان فنقول: إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية ويستعينه على طاعته، أعانه وهداه، وكان ذلك سبب سعادته في الدنيا والآخرة، وإذا خذل العبد فلم يعبد الله؛ ولم يستعن به، ولم يتوكل عليه، وكل إلى حوله وقوته، فيوليه الشيطان، وصد عن السبيل، وشقي في الدنيا والآخرة وكل ما يكون في الوجود هو بقضاء الله وقدره؛ لا يخرج أحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ، ليس لأحد على الله حجة؛ بل ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل.

وعلى العبد أن يؤمن بالقدر، وليس له أن يحتج به على الله؛ فالإيمان به هدى، والاحتجاج به على الله ضلال وغي، بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صبارًا شكورًا، صبورًا على البلاء، شكورًا على الرخاء، إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره، سواء كانت النعمة حسنة فعلها، أو كانت خيرًا حصل بسبب سعيها؛ فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات، وهو الذي تفضل بالثواب عليها، فله الحمد في ذلك كله، وإذا أصابته مصيبة صبر عليها، وإن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره، فالله هو الذي سلط ذلك الشخص، وهو الذي خلق أفعاله، وكانت مكتوبة على العبد؛ كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا

بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: الآية ١١] . قالوا: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وعليه إذا أذنب أن يستغفر ويتوب؛ ولا يحتج على الله بالقدر، ولا يقول: أي ذنب لي وقد قدر علي هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته؛ إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، لكن العبد هو الذي أكل الحرام، وفعل الفاحشة، وهو الذي ظلم نفسه، كما أنه هو الذي صلى وصام وحج وجاهد، فهو الموصوف بهذه الأفعال وهو المتحرك بهذه الحركات، وهو الكاسب بهذه المحدثات، له ما كسب وعليه ما اكتسب، والله خالق ذلك وغيره من الأشياء لما له في ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة ومشيئته النافذة، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥] فعلى العبد أن يصبر على المصائب، وأن يستغفر من المعائب.

والله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر؛ ولا يحب الفساد، وهو سبحانه خالق كل شيء، وربه ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومشيئة العبد للخير والشر موجودة، فإن العبد له مشيئة للخير والشر، وله قدرة على هذا وهذا، وهو العامل لهذا وهذا والله خالق ذلك كله وربه ومليكه؛ لا خالق غيره، ولا رب سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب، ومشيئة العبد؛ وبين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾. وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وقد قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾.

وبعض الناس يظن أن المراد هنا بالحسنات والسيئات الطاعات والمعاصي؛ فيتنازعون هذا يقول: قل كل من عند الله، وهذا يقول الحسنة من الله، والسيئة من نفسك، وكلاهما أخطأ في فهم الآية؛ فإن المراد هنا بالحسنات والسيئات، النعم والمصائب، كما في قوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨] ؛ أي امتحناهم واختبرناهم بالسراء والضراء.

ومعنى الآية في المنافقين كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل النصر والرزق والعافية. قالوا: هذا من الله، وإذا أصابتهم سيئة -مثل ضرب ومرض وخوف من العدو- قالوا: هذا من عندك يا محمد، أنت الذي جئت بهذا الدِّين الذي عادانا لأجله الناس، وابتلينا لأجله بهذه المصائب، فقال الله

تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٧٨] أنت إنما أمرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، وما أصابك من نعمة: نصر وعافية ورزق فمن الله، نعمة أنعم الله بها عليك، وما أصابك من سيئة، فقر وذل وخوف ومرض وغير ذلك، فمن نفسك وذنوبك وخطاياك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: الآية ٣٠] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: الآية ٤٨]

فالإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنفسه؛ فإذا تاب واستغفر جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب، والذنوب مثل أكل السم، فهو إذا أكل السم مرض أو مات فهو الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت، والله خالق ذلك كله، وإنما مرض بسبب أكله، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم، فإن شرب الترياق النافع عافاه الله، فالذنوب كأكل السم، والترياق النافع كالتوبة النافعة، والعبد فقير إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضله ورحمته يلهمه التوبة، فإذا تاب تاب عليه، فإذا سأله العبد ودعاه استجاب دعاءه، كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]

ومن قال: لا مشيئة له في الخير ولا في الشر فقد كذب، ومن قال: إنه يشاء شيئًا من الخير أو الشر بدون مشيئة الله فقد كذب؛ بل له مشيئة لكل ما يفعله باختياره من خير وشر، وكل ذلك إنما يكون بمشيئة الله وقدرته فلا بد من الإيمان بهذا وهذا، ليحصل الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد، والإيمان بالقدر خيره وشره، وأنَّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ومن احتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول، بل هؤلاء الضالون، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به، فإن هؤلاء إذا ظلمهم ظالم، بل لو فعل الإنسان ما يكرهونه، وإن كان حقًا لم يعذروه بالقدر، بل يقابلوه بالحق والباطل، فإن كان القدر حجة لهم فهو حجة لهؤلاء، وإن لم يكن حجة لهؤلاء لم يكن حجة لهم، وإنما يحتج أحدهم بالقدر عند هواه ومعصية مولاه، لا عند ما يؤذيه الناس ويظلمونه.

وأما المؤمن فهو بالعكس في ذلك إذا آذاه الناس نظر إلى القدر، فصبر واحتسب، وإذا أساء هو تاب واستغفر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥] فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعايب، والمنافق بالعكس لا يستغفر من ذنبه بل يحتج بالقدر، ولا يصبر على ما أصابه، فلهذا يكون شقيًا في الدنيا والآخرة، والمؤمن سعيدًا في

الدنيا والآخرة، والله سبحانه أعلم(١)

وقال: فإذا قال العبد: قد تقدمت الإرادة بالذنب فلا أعاقب، كان بمنزلة قول المريض قد تقدمت الإرادة بالمرض فلا أتألم، وقد تقدمت الإرادة بأكل الحار فلا يحم مزاجي، أو قد تقدمت بالضرب فلا يتألم المضروب، وهذا مع أنه جهل فإنه لا ينفع صاحبه؛ بل اعتلاله بالقدر ذنب ثانٍ يعاقب عليه أيضًا، و إنما اعتل بالقدر إبليس حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحِجر: الآية ٣٩] وأما آدم فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣]

فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم -عليه السلام أو نحوه- ومن أراد شقاوته اعتل بعلة إبليس أو نحوها، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار. ومثله مثل رجل طار إلى داره شرارة نار، فقال له العقلاء: أطفئها لئلا تحرق المنزل، فأخذ يقول من أين كانت؟ هذه ريح ألقتها، وأنا لا ذنب لي في هذه النار، فما زال يتعلل بهذه العلل حتى استعرت وانتشرت وأحرقت الدار وما فيها، هذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير، ولا يردها بالاستغفار والمعاذير، بل حاله أسوأ من ذلك بالذنب الذي فعله، بخلاف الشرارة فإنه لا فعل له فيها(٢)

وقال: حديث علي رضي الله عنه المخَرَّجُ في الصحيح لما طرقه النبي ﷺ وفاطمة -وهما نائمان- فقال: «ألا تصليان» فقال علي: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يمسكها وإن شاء أن يرسلها؛ فولى النبي ﷺ وهو يضرب بيده على فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤] هذا الحديث نص في ذم من عارض الأمر بالقدر؛ فإن قوله: «إنما أنفسنا بيد الله» إلى آخره. استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر، وهي في نفسها كلمة حق، لكن لا تصلح لمعارضة الأمر بل معارضة الأمر فيها من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤] وهؤلاء أحد أقسام القدرية وقد وصفهم الله في غير هذا الموضع بالمجادلة الباطلة(٣)

وقال: ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب، ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالًا على القدر، كان مخطئا أيضًا؛ لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه، وإذا قدر للعبد خيرًا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٥- ٢٤١)، (٨/ ٢٦٢- ٢٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٤).

ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب؛ فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات بل لا بد من ريح مربية بإذن الله، ولا بد من صرف الانتفاء عنه، فلا بد من تمام الشروط، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج بل كم من أنزل ولم يولد له، بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع.

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، وقد قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٣٢] فهذه باء السبب؛ أي: بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال: اشتريت هذا بهذا؛ أي: ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات.

وفي هذا الموضع ضل طائفتان من الناس:

فريق آمنوا بالقدر، وظنوا أن ذلك كافٍ في حصول المقصود، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية، والأعمال الصالحة، وهؤلاء يئول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسله، ودينه(١)

وقال: وإذا قيل: هذا قاله مشاهدة للحقيقة، القدرية الكونية، أن الله خالق أفعال العباد كان العذر أقبح من الذنب؛ فإنه لو كان القدر حجة لم يكن على إبليس وفرعون وسائر الكفار ملام، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا المحتج بالقدر لو تعدى عليه أحد لقاتله، وغضب عليه. فإن كان القدر حجة فهو حجة يفعل به ما يريد، وإن لم يكن حجة لم يؤذِ آدميًّا فكيف يكون حجة لمن يكفر بالله ورسوله؟

وآدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه لما أصابه من المصيبة، لم يلمه لحق الله تعالى في الذنب، فإن آدم تاب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، بل قال له: بماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال: تلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق بأربعين سنة؟! فحج آدمُ موسى.

وكذا يؤمر كل من أصابه مصيبة من جهة أبيه وغيره، أن يسلم لقدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: الآية ١١] قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، وأما الذنوب: فعلى العبد ألا يفعلها؛ فإن فعلها فعليه أن يتوب منها،

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٩- ٧١).

فمن تاب وندم أشبه أباه آدم، ومن أصر واحتج أشبه عدوه إبليس، قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥] فالمؤمن مأمور أن يصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعائب[١].

وقال: فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره، وأن يوقن العبد بشرع الله وأمره.

فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهًا للمشركين، ومن نظر إلى الأمر والنهي، وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهًا للمجوسيين، ومن آمن بهذا وبهذا، فإذا أحسن حمد الله تعالى، وإذا أساء استغفر الله تعالى، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره، فهو من المؤمنين.

فإن آدم -عليه السلام- لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدميًا ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيًّا، فالسعداء يتبعون أباهم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. آمين يا رب العالمين[٢]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/١٠٨، ١٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٤، ٢٤٣)، (٨/ ٣٠)، (٨/ ٧٣- ٧٧).

الفصل الرابع
فِرَقُ الجَبْرِيَّةِ

قال الشهرستاني: والجَبْرِيَّةُ أصناف:

فالجَبْرِيَّة الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا.

والجَبْرِيَّة المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا.

فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرًا ما في الفعل، وسمي ذلك كسبًا فليس بجبريٍّ.

والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة أثرًا في الإبداع والإحداث استقلالًا جبريًّا، ويلزمهم أن يسموا من قال من أصحابهم بأن المتولدات أفعال لا فاعل لها جبريًّا، إذ لم يثبتوا للقدرة الحادثة فيها أثرًا. والمصنفون في المقالات عدوا النَّجَارِيَّةَ والضَّرَارِيَّةَ من الجَبْرِيَّةِ، وكذلك جماعة الكُلَّابيَّة من الصفاتيَّة، والأشعريَّة سموهم تارة حَشَوِيَّة، وتارة جبريَّة، ونحن سمعنا إقرارهم على أصحابهم من النَّجَّاريَّةِ والضَّرَارِيَّة فعددناهم من الجَبْرِيَّةِ، ولم نسمع إقرارهم على غيرهم فعددناهم من الصفاتيَّة[1].

وقال الإيجي: والجَبْرِيَّة: متوسطة: تثبت للعبد كسبًا كالأشعرية، وخالصة: لا تثبته كالجهمية، وهم أصحاب جهم بن صفوان[2].

قلت: الذي ظهر لي من مقالات الفرق أن الجَبْرِيَّةَ صنفان، وتحت كل صنف منهما توجد فرق: -

الصنف الأول: وهم الجَبْرِيَّة الخالصة: وهم الذين ينفون قدرة العبد تمامًا، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله عز وجل، وهؤلاء هم الجهمية.

الصنف الثاني: وهم الجَبْرِيَّة الكسبية: وهم الذين يثبتون للعبد قدرة حادثة غير مؤثرة في الفعل أو لها تأثير ما، فيصبح الله خالق الفعل وموجده، والعبد مكتسبه عند إرادته له.

وهؤلاء هم النجارية، والضرارية، والبكرية، والكلابية، والأشعرية، والماتريدية.

ولا نزاع في اعتداد الصنف الأول من الجَبْرِيَّة، ولذلك سنذكر مقالات الجهمية في هذا الباب؛ ولأنهم أصل هذا الباب فإن جهم هو أول من قال بالجبر، مع كونهم أصل لباب آخر وهو التعطيل في الأسماء والصفات.

---

(١) الملل والنحل (١/ ٨٥، ٨٦).

(٢) المواقف (٣/ ٧١٢).

والصنف الثاني: منهم من لا نزاع بين أصحاب المقالات في اعتدادهم من الجَبْرِيَّةِ وهم الضرارية والنجارية، ولذلك سنذكر مقالاتهم أيضًا في هذا الباب، مع كونهم معتزلة فهم معطلة أيضًا في الصفات بدرجة قريبة من الجهمية.

ومن هذا الصنف من نازع أصحاب المقالات في اعتدادهم من الجَبْرِيَّة وهم الكلابية، والأشعرية، والماتريدية؛ وذلك لأن غالب من صنف في المقالات هم من المتكلمين الأشعرية، وأيضًا لاختلافهم في مدى تأثير القدرة الحادثة في فعل العبد، ولذلك سوف نذكر مقالاتهم في باب تعطيل الصفات.

وهذه هي الطريقة التي اتبعها الشهرستاني، مع اختلافنا معه في عدم اعتداده مَن يقول بالكسب مِن الجَبْرِيَّةِ.

قال شيخ الإسلام: وكان جهم ينفي الصفات ويقول بالجبر، فهذا تحقيق قول جهم، لكنه إذا أثبت الأمر والنهي، والثواب والعقاب فارق المشركين من هذا الوجه، لكن جهمًا ومن اتبعه يقول بالإرجاء؛ فيضعف الأمر والنهي والثواب والعقاب عنده.

والنجارية والضرارية وغيرهم يقربون من جهم في مسائل القدر والإيمان، مع مقاربتهم له أيضًا في نفي الصفات.

والكلابية والأشعرية خير من هؤلاء في باب الصفات، فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة، كما فصلت أقوالهم في غير هذا الموضع.

وأما في باب القدر، ومسائل الأسماء والأحكام؛ فأقوالهم متقاربة[(١)].

وقال: والمقصود هنا أن جهمًا اشتهر عنه بدعتان:

إحداهما: نفي الصفات، والثانية: الغلو في القدر والإرجاء، فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة؛ وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما، وأما الأشعري فوافقه على أصل قوله، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية[(٢)].

وقال عن الأشعري: ومال في مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه، وكثير من الطوائف كالنجَّارية أتباع حسين النجَّار، والضراريَّة أتباع ضرار بن عمرو يخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/١٠٢، ١٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٩٩).

الفصل الخامس

الجَبْرِيَّةُ الغَالِيةُ

الجهمية

أتباع جهم بن صفوان أبي محرز السمرقندي، وكان في زمن صغار التابعين، مولى لقبيلة من أسد كان كاتبًا للحارث بن سريج بخرسان، وهو من ترمذ وظهرت بدعته هناك، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية سنة ١٢٨ هـ[(١)]

قال الملطي: ومنهم الجهمية وهم ثماني فرق[(٢)]

مَقَالَاتُ الجَهْمِيَّةِ

مجمل مقالاتهم

قال شيخ الإسلام: والجهمي الجبري لا يثبت عدلًا ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته[(٣)]

وقال: ومقالات الجهمية هي من هذا النوع، فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله.

وتغلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدًّا مشهورة، وإنما يردونها بالتحريف.

الثاني: أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله.

الثالث: أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها[(٤)]

وقال: والجهم هو أعظم الناس نفيًا للصفات، بل وللأسماء الحسنى، قوله من جنس قول

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٨٠)، التنبيه والرد ص(٩٦- ١٤٥)، التبصير في الدين ص(١٠٧، ١٠٨)، الفرق بين الفرق ص(٢٢١، ٢٢٢)، الملل والنحل (١/ ٨٦- ٨٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨)، البرهان ص(٣٤، ٣٥)، المواقف (٣/ ٧١٢)، مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٩).

(٢) التنبيه والرد ص(٩٦- ٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢١١).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

الباطنية القرامطة، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمى الله شيئًا، ولا غير ذلك من الأسماء التي يسمى بها المخلوق؛ لأن ذلك بزعمه من التشبيه الممتنع. وهذا قول القرامطة الباطنية.

وحكى عنه أنه لا يسميه إلا قادرًا فاعلًا؛ لأن العبد عنده ليس بقادر ولا فاعل، إذ كان هو رأس المجبرة، وقوله في الإيمان شر من قول المرجئة؛ فإنه لا يجعل الإيمان إلا مجرد تصديق القلب[(١)]

وقال: وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق[(٢)]

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في القدر

ينفون أن يكون للعبد قدرة، أو إرادة، أو اختيار، وأنه لا فعل له، وإنما هو مجبر عليه.

أقوال العلماء

قال الأشعري عن جهم: وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخَلَقَ له إرادة للفعل واختيارًا له منفردًا له بذلك، كما خلق له طولًا كان به طويلًا، ولونًا كان به متلونًا[(٣)]

وقال الإسفراييني: وكان من مذهبه أنْ لا اختيار لشيء من الحيوانات في شيء مما يجري عليهم فإنهم كلهم مضطرون لا استطاعة لهم بحال، وإن كل من نسب فعلًا إلى أحد غير الله فسبيله سبيل المجاز، وهو بمنزلة قول القائل سقط الجدار، ودارت الرحى، وجرى الماء، وانخسفت الشمس[(٤)]

وقال البغدادي: قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها،

وقال: لا فعل، ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، كما يقال: زالت الشمس ودارت الرحى، من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به[(٥)]

وقال الشهرستاني: قوله في القدرة الحادثة: إنَّ الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٢، ٢٠٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٣).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٩).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٧).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢١).

الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازًا كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس، وغربت، وتَغَيَّمَت السماء، وأمطرت، واهتزت الأرض، وأنبتت إلى غير ذلك، والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر. قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضًا كان جبرًا[(١)]

وقال الرازي: وكان من قوله إن العبد ليس قادرًا ألبتة[(٢)]

وقال الإيجي: قالوا: لا قدرة للعبد أصلًا، والله لا يعلم الشيء قبل وقوعه[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: وكان يقول: العباد مجبورون على أفعالهم ليس لهم فعل ولا اختيار[(٤)]

وقال: وكان جهم مجبرًا يقول: إن العبد لا يفعل شيئًا، فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادرًا؛ لأن العبد عنده ليس بقادر[(٥)]

نقض قولهم:

تقدم بيان ذلك في مقالة الجَبْرِيَّةِ.

- قولهم في قدرة الله على الظلم

قالوا: الظلم منه ممتنع لذاته، وهو ما يمتنع وجوده، فكل ما يمكن وجوده فليس بظلم.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وقالت الجهمية: الظلم في حقِّه هو ما يمتنع وجوده، فأما كل ما يمكن وجوده فليس بظلم؛ فإن الظلم إما مخالفة أمر من تجب طاعته، وإما التصرف في ملك الغير بغير إذنه؛ فالإنسان يُوصف بالظلم؛ لأنه مخالف لأمر ربه، ولأنه قد يتصرف في ملك غيره بغير إذنه، والرب تعالى ليس فوقه آمر، ولا لغيره ملك، بل إنما يتصرف في ملكه فكل ما يمكن فليس بظلم، بل إذا نعَّم فرعون وأبا جهل وأمثالهما ممن كفر به وعصاه، وعذَّب موسى ومحمدًا ممن آمن به وأطاعه فهو مثل العكس، الجميع بالنسبة إليه سواء، ولكن لما أخبر أنه ينعِّم المطيعين وأنه يعذِّب العصاة صار ذلك معلوم الوقوع لخبره الصادق، لا لسبب اقتضى ذلك. والأعمال علامات على الثواب والعقاب، ليست أسبابًا.

فهذا قول جهم وأصحابه، ومن وافقه كالأشعري، ومن وافقه من أتباع الفقهاء الأربعة والصوفية وغيرهم، ولهذا جوَّز هؤلاء أن يُعذِّب العاجز عن معرفة الحق ولو اجتهد، فليس عندهم

(١) الملل والنحل (١/ ٨٧).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).

(٣) المواقف (٣/ ٧١٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١١).

في نفس الأمر أسباب للحوادث ولا حكم، ولا في الأفعال صفات لأجلها كانت مأمورًا بها ومنهيًا عنها، بل عندهم يمتنع أن يكون في خلقه وأمره لام كي[(١)]

وقال: وقالت طائفة من مثبتة القدر -من المتقدمين والمتأخرين من الجهمية، وأهل الكلام، والفقهاء، وأهل الحديث- الظلم منه ممتنع لذاته، فكل ممكن يدخل تحت القدرة ليس فعله ظلمًا، وقالوا: الظلم التصرف في ملك الغير، أو الخروج عن طاعة من تجب طاعته، وكل من هذين ممتنع في حق الله[(٢)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: قال كثير من أهل السنة والحديث والنظار: بل الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومن ذلك أن يبخس المحسن شيئًا من حسناته، أو يحمل عليه من سيئات غيره، وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: الآية ١١٢] قال غير واحدٍ من السلف: الهضم أن يهضم من حسناته، والظلم أن يزاد في سيئاته وقد قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، وقال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

وفي حديث البطاقة الذي رواه الترمذي وغيره وحسنه. ورواه الحاكم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: **«يجاء يوم القيامة برجلٍ من أمتي على رءوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، ثم يقول الله تعالى له: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب! فيقول الله عز وجل: ألك عذرًا أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب! فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة»**.

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: الآية ١٧]، و قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٦]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: الآية ١٠١]، ومثل هذه النصوص كثيرة، ومعلوم أن الله تعالى لم ينفِ بها الممتنع الذي لا يقبل الوجود، كالجمع بين الضدين؛ فإن هذا لم يتوهم أحد وجوده، وليس في مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب، فإن المراد بيان عدل الله وأنه لا يظلم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٩٦، ٩٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠٦، ٥٠٧).

الآية ٤٩] ، بل يجازيهم بأعمالهم، ولا يعاقبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] . وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: الآية ٥٩]

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بَعَثَ الرسلَ وَأَنْزَلَ الكتبَ».

ومثل هذه النصوص كثيرة وهي تبين أن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه ليس هو ما تقوله القدرية ولا ما تقوله الجَبْرِيَّةُ، ومن وافقهم، وقد بسط الكلام على تحقيق هذا المقام في مواضع أُخر وبين فيها حكمة الله وعدله، فإن هذا المقام هو من أعظم المقامات التي اضطرب فيها كثير من الأولين والآخرين

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر عن النبي ﷺ: فيما يَرْوِي عن ربِّه تبارك و تعالى أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالَموا؛ يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم؛ يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم؛ يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم؛ يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم؛ يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر؛ يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه». قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

فذكر في أول هذا الحديث الإلهي الذي قال فيه الإمام أحمد هو أشرف حديث لأهل الشام، إنه حرم الظلم على نفسه، والتحريم ضد الإيجاب، وبين في القرآن أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا على قول الطائفة الثانية المراد به مجرد خبره بمجرد الوعد والوعيد، وعلى قول الآخرين، بل هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم كما أخبر عن نفسه فقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧] فهو حق أحقه سبحانه على نفسه لا أن أحدًا من الخلق يوجب عليه حقًّا، ولا يحرم عليه شيئًا.

وختم الحديث بقوله: «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[(١)]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في قدرة الله على الظلم.

- قولهم في الحكمة والتعليل

ينكرون حكمة الله في خلقه وأمره.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن جهم: وكان هو وأتباعه ينكرون أن يكون لله حكمة في خلقه وأمره، وأن يكون له رحمة، ويقولون: إنما فعل بمحض مشيئة، لا رحمة معها، وحكي عنه أنه كان ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين، وأنه كان يخرج إلى الجذمى فينظر إليهم ويقول: أرحم الراحمين يفعل مثل هذا بهؤلاء[(٢)]

وقال: والجهم بن صفوان ومن اتبعه ينكرون حكمته ورحمته، ويقولون: ليس في أفعاله وأوامره لام كي، لا يفعل شيئًا لشيء، ولا يأمر بشيء لشيء[(٣)]

وقال: قالت طائفة: الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده، ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة

وأصحاب القول الأول كجهم بن صفوان، وموافقيه: كالأشعري ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، يقولون: ليس في القرآن لام التعليل في أفعال الله، بل ليس فيه إلا لام العاقبة[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأما أهل السنة القائلون بالتعليل؛ فإنهم يقولون: إن الله يحب ويرضى كما دل على ذلك الكتاب والسنة، ويقولون: إن المحبة والرضا أخص من الإرادة -وأما المعتزلة وأكثر أصحاب الأشعري فيقولون: إن المحبة والرضا والإرادة- سواء فجمهور أهل السنة يقولون: إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه، وإن كان داخلًا في مراده كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة، وهو وإن كان شرًّا بالنسبة إلى الفاعل، فليس كل ما كان شرًّا بالنسبة إلى شخص يكون عديم الحكمة، بل لله في المخلوقات حكم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها[(٥)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠٧- ٥١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٦).

(٤) منهاج السنة النبوية (١/ ١٤١- ١٤٣).

(٥) منهاج السنة النبوية (١/ ١٤٥، ١٤٦).

وقال: وعَلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة، وهو سبحانه قد شهد أن لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط؛ وهم قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر والوعيد، فلهذا سلك مسلك جهم من ينتسب إلى السنة والحديث واتِّباع السلف، وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة؛ جهم وأتباعه[١]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في الحكمة والتعليل.

- **قولهم في حكم الأطفال في الآخرة**

منهم من يجزم بعذاب أطفال المشركين في الآخرة، ومنهم من يجوِّزه ويتوقف فيه.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن الجهمية الجَبْرِيَّة: وهؤلاء يقولون يجوز أن يعذِّب الأطفالَ والمجانين وإن لم يفعلوا ذنبًا قط، ثم منهم من يجزم بعذاب أطفال الكفار في الآخرة، ومنهم من يجوِّزه، ويقول: لا أدري ما يقع[٢]

وقال عن جهم والأشعري وموافقيهما: يجوزون تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم بلا ذنب، ثم من هؤلاء من يقطع بدخول أطفال الكفار النار، ومنهم من يجوزه ويتوقف فيه[٣]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في حكم الأطفال في الآخرة.

- **قولهم في الأسماء والصفات**

ينفون جميع أسماء الله وجميع صفاته.

أقوال العلماء

قال الأشعري عن جهم: ويحكى عنه أنه كان يقول: لا أقول: إن الله سبحانه شيء؛ لأن ذلك تشبيه له بالأشياء[٤]

وقال: واختلف المتكلمون هل يسمى البارئ شيئًا أم لا؟ على مقالتين:

فقال جهم وبعض الزيدية: إن البارئ لا يقال: إنه شيء؛ لأن الشيء هو المخلوق الذي له مثل، وقال المسلمون كلهم: إن البارئ شيء لا كالأشياء[٥]

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).
(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ٩٦).
(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٠٦).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٠).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٨١).

وقال الإسفراييني: وكان يقول: إن الله تعالى لا يوصف بشيء مما يوصف به العباد فلا يجوز أن يقال في حقِّه: إنه حي أو عالم أو مريد أو موجود؛ لأن هذه صفات تطلق على العبيد، وقال: إنما يقال في وصفه إنه قادر موجد فاعل خالق محيي ومميت؛ لأن هذه الصفات لا تطلق على العبيد(١)

وقال البغدادي: وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مريد، وقال: لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره: كشيء، وموجود، وحي، وعالم، ومريد، ونحو ذلك. ووصفه بأنه قادر، وموجود، وفاعل، وخالق، ومحيي، ومميت؛ لأن هذه الأوصاف مختصة به وحده(٢)

وقال الشهرستاني: وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزليَّة، وزاد عليهم بأشياء

منها: قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه؛ لأن ذلك يقضي تشبيهًا. فنفى كونه حيًّا عالمًا، وأثبت كونه قادرًا، فاعلًا، خالقًا؛ لأنه لا يوصف شيءٌ من خلقه بالقدرة، والفعل، والخلق(٣)

وقال الرازي: وكان يقول: إن الله تعالى محدث، ولم يطلق على الله تعالى اسم الموجود والشيء(٤)

وقال السكسكي: ويقولون: إن الله ليس هو شيئًا(٥)

وقال شيخ الإسلام: وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئًا، وربما قالت الجهمية: هو شيء لا كالأشياء(٦)

وقال: جهم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسميه شيئًا ولا حيًّا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز. قال: لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهًا(٧)

وقال: وكان الجهم غاليًا في تعطيل الصفات، فكان ينفي أن يسمى الله تعالى باسم يسمى به العبد، فلا يسمى شيئًا، ولا حيًّا، ولا عالمًا، ولا سميعًا، ولا بصيرًا، إلا على وجه المجاز، وحكي عنه أنه كان يسمى الله تعالى قادرًا؛ لأن العبد عنده ليس بقادر، فلا تشبيه بهذا الاسم على قوله(٨)

---

(١) التبصير في الدين ص(١٠٨).

(٢) الفرق بين الفرق ص(٢٢١).

(٣) الملل والنحل (١/ ٨٦).

(٤) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).

(٥) البرهان (٣٤).

(٦) مجموع الفتاوى (٣/ ٧٥)، (٦/ ٣٥).

(٧) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١١).

(٨) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٠).

وقال: إن جهمًا مع القرامطة وغلاة المتفلسفة يقولون: لا نقول: هو شيء ولا ليس بشيء، كما يقولون: لا نقول: هو موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، ولا قديم ولا محدث، وأمثال ذلك[١].

وقال: والجهمية يقولون: كلامه مخلوق، وأسماؤه مخلوقة، وهو نفسه لم يتكلم بكلام يقوم بذاته، ولا سمى نفسه باسم هو المتكلم به، بل قد يقولون: إنه تكلم به، وسمى نفسه بهذه الأسماء، بمعنى أنه خلقها في غيره؛ لا بمعنى أنه نفسه تكلم بها الكلام القائم به. فالقول في أسمائه هو نوع من القول في كلامه[٢].

وقال: الجهمية المحضة الذين ينكرون الصفات، وحقيقية قولهم أن الله لا يتكلم ولا يرى، ولا يباين الخلق؛ ولا له علم ولا قدرة، ولا سمع ولا بصر ولا حياة، بل القرآن مخلوق، وأهل الجنة لا يرونه كما لا يراه أهل النار، وأمثال هذه المقالات[٣].

وقال: الجهمية الذين ينفون صفات الله تعالى، ويقولون: إن الله لا يرى في الآخرة، وإن القرآن ليس هو كلام الله؛ بل هو مخلوق من المخلوقات، وإنه تعالى ليس فوق السموات، وإن محمدًا لم يعرج إلى الله[٤].

وقال: والجهمية تجعل هذا أصل الدين، وهو عندهم التوحيد الذي لا يخالفه إلا شقي[٥].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل، ونفي مجمل. وأعداء الرسل: الجهمية الفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل. فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير، وأنه حي قيوم، وأنه عزيز حكيم، وأنه غفور رحيم، وأنه سميع بصير. وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه رضي عن المؤمنين، ورضوا عنه، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وأنه كلم موسى تكليمًا، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧٤)، (٥/ ٣٤٢)، (٥/ ٥٧٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٦، ٢٠٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ١٧٦).

على نبيه محمد ﷺ. كما قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل الآية ١٠٢] وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٧]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: الآية ٢٦]

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه؛ فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟! قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة»**.

وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»**، وإن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **«هل تضامون في رؤية الشمس صحوًا ليس دونها سحاب؟»** قالوا: لا، قال: **«فهل تضارون في رؤية القمر صحوًا ليس دونه سحاب»** قالوا: لا، قال: فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر، فشبه ﷺ الرؤية بالرؤية، ولم يشبه المرئي بالمرئي فإن العباد لا يحيطون بالله علمًا، ولا تدركه أبصارهم. كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]

وقد قال غير واحد من السلف والعلماء: إن الإدراك هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عيانًا ولا يحيطون به؛ فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: الآية ٤]، فبين في هذه الآيات أن الله لا كفوَ له، ولا ند له، ولا مثل له، ولا سمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي، أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواءه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل، بل كافر.

ومن قال: إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضًا، ولا غضب، ولا استواء، ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر.

بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا.

ومما يبين ذلك أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماءً ولبنًا وخمرًا وعسلًا ولحمًا وفاكهةً وحريرًا وذهبًا وفضةً، وغير ذلك، وقد قال ابن عباس ﷺ: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟!

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير، وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه رءوف رحيم، وأخبر عن نبيه أنه رءوف رحيم، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه عليم حليم، وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم، وليس هذا مثل هذا، وسمى نفسه الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا، وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب: مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، على هذا إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات، فهذه طريقة الرسل، ومن آمن بهم.

وأما المخالفون للرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- من المتفلسفة وأشباههم، فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقًا للمعدوم، فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم، وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم فيتناقضون، يثبتونه من وجه، ويجحدونه من وجه آخر، ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجودًا؛ فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقر أمرًا مطلقًا، وإن كان لا حقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجودًا مباينًا لخلقه؛ بل إما أن يجعلوه مطلقًا في ذهن الناس، أو يجعلوه حالًا في المخلوقات، أو يقولون هو وجود المخلوقات.

ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، ولم يدخلها فيه، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها[١]

وقال: واعلم أن الجهمية المحضة كالقرامطة ومن ضاهاهم: ينفون عنه تعالى اتصافه بالنقيضين، حتى يقولون ليس بموجود ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي. ومعلوم أن الخلو عن النقيضين ممتنع في بدائه العقول كالجمع بين النقيضين.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٧٩- ٤٨٤).

وآخرون وصفوه بالنفي فقط، فقالوا ليس بحي ولا سميع ولا بصير؛ وهؤلاء أعظم كفرًا من أولئك من وجه وأولئك أعظم كفرًا من هؤلاء من وجه، فإذا قيل لهؤلاء هذا مستلزم وصفه بنقيض ذلك، كالموت والصمم والبكم، قالوا: إنما يلزم ذلك لو كان قابلًا لذلك، وهذا الاعتذار يزيد قولهم فسادًا.

وكذلك من ضاهى هؤلاء -وهم الذين يقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه، إذا قيل هذا ممتنع في ضرورة العقل، كما إذا قيل: ليس بقديم ولا محدث- ولا واجب ولا ممكن، ولا قائم بنفسه، ولا قائم بغيره، قالوا هذا إنما يكون إذا كان قابلًا لذلك، والقبول إنما يكون من المتحيز، فإذا انتفى التحيز انتفى قبول هذين المتناقضين.

فيقال لهم علم الخلق بامتناع الخلو من هذين النقيضين: هو علم مطلق لا يستثنى منه موجود، والتحيز المذكور: إن أريد به كون الأحياز الموجودة تحيط به فهذا هو الداخل في العالم؛ وإن أريد به أنه منحاز عن المخلوقات؛ أي: مباين لها متميز عنها فهذا هو الخروج، فالمتحيز يراد به تارة ما هو داخل العالم، وتارة ما هو خارج العالم، فإذا قيل ليس بمتحيز كان معناه ليس بداخل العالم ولا خارجه.

فهم غيروا العبارة ليوهموا من لا يفهم حقيقة قولهم أن هذا معنى آخر، وهو المعنى الذي علم فساده بضرورة العقل؛ كما فعل أولئك بقولهم: ليس بحي ولا ميت، ولا موجود ولا معدوم، ولا عالم ولا جاهل[1].

وقال: وإن كان المخاطب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات، وقال لا أقول: هو موجود، ولا حي ولا عليم، ولا قدير؛ بل هذه الأسماء لمخلوقاته؛ إذ هي مجاز؛ لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم.

قيل له: وكذلك إذا قلت ليس بموجود، ولا حي، ولا عليم، ولا قدير كان ذلك تشبيهًا بالمعدومات، وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات.

فإن قال: أنا أنفي النفي والإثبات. قيل له: فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من الممتنعات؛ فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجودًا معدومًا، أو لا موجودًا ولا معدومًا، ويمتنع أن يكون يوصف ذلك باجتماع الوجود والعدم، أو الحياة والموت، أو العلم والجهل، أو يوصف بنفي الوجود والعدم، ونفي الحياة والموت، ونفي العلم والجهل.

فإن قلت إنما يمتنع نفي النقيضين عما يكون قابلًا لهما، وهذان يتقابلان تقابل العدم والملكة؛ لا تقابل السلب والإيجاب، فإن الجدار لا يقال له أعمى ولا بصير، ولا حي ولا ميت، إذ ليس بقابل لهما.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٩، ٤٠).

قيل لك: أولًا هذا لا يصح في الوجود والعدم، فإنهما متقابلان تقابل السلب والإيجاب باتفاق العقلاء؛ فيلزم من رفع أحدهما ثبوت الآخر.

وأما ما ذكرته من الحياة والموت، والعلم والجهل: فهذا اصطلاح اصطلحت عليه المتفلسفة المشاءون والاصطلاحات اللفظية ليست دليلًا على نفي الحقائق العقلية، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ فسمى الجماد ميتًا وهذا مشهور في لغة العرب وغيرهم.

وقيل لك ثانيًا: فما لا يقبل الاتصاف بالحياة والموت والعمى والبصر ونحو ذلك من المتقابلات أنقص مما يقبل ذلك -فالأعمى الذي يقبل الاتصاف بالبصر أكمل من الجماد الذي لا يقبل واحدًا منهما، فأنت فررت من تشبيهه بالحيوانات القابلة لصفات الكمال، ووصفته بصفات الجامدات التي لا تقبل ذلك.

وأيضًا فما لا يقبل الوجود والعدم، أعظم امتناعًا من القابل للوجود والعدم؛ بل ومن اجتماع الوجود والعدم، ونفيهما جميعًا فما نفيت عنه قبول الوجود والعدم كان أعظم امتناعًا مما نفيت عنه الوجود والعدم، وإذا كان هذا ممتنعًا في صرائح العقول فذاك أعظم امتناعًا، فجعلت الوجود الواجب الذي لا يقبل العدم هو أعظم الممتنعات. وهذا غاية التناقض والفساد.

وقيل له أيضًا: اتفاق المسميين في بعض الأسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل، الذي نفته الأدلة السمعيات والعقليات، وإنما نفت ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق مما يختص بوجوبه أو جوازه أو امتناعه؛ فلا يجوز أن يشركه فيه مخلوق ولا يشركه مخلوق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى

وأما ما نفيته فهو ثابت بالشرع والعقل، وتسميتك ذلك تشبيهًا وتجسيمًا تمويه على الجهال، الذين يظنون أن كل معنى سماه مسم بهذا الاسم يجب نفيه؛ ولو ساغ هذا لكان كل مبطل يسمى الحق بأسماء ينفر عنها بعض الناس ليكذب الناس بالحق المعلوم بالسمع والعقل، وبهذه الطريقة أفسدت الملاحدة على طوائف الناس عقلهم، ودينهم حتى أخرجوهم إلى أعظم الكفر والجهالة، وأبلغ الغي والضلالة[١]

وقال: وإنما المقصود هنا أن مجرد الاعتماد في نفي ما ينفى على مجرد نفي التشبيه لا يفيد إذ ما شيئين إلا يشتبهان من وجه ويفترقان من وجه بخلاف الاعتماد على نفي النقص والعيب ونحو ذلك، مما هو سبحانه مقدس عنه، فإن هذه طريقة صحيحة.

وكذلك إذا أثبت له صفات الكمال ونفي مماثلة غيره له فيها، فإن هذا نفي المماثلة فيما هو مستحق له، وهذا حقيقة التوحيد: وهو ألا يشركه شيء من الأشياء فيما هو من خصائصه، وكل

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٠- ٢٣)، (٣/ ٦٩).

صفة من صفات الكمال فهو متصف بها على وجه لا يماثله فيه أحد، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها إثبات ما وصف به نفسه من الصفات، ونفي مماثلته بشيء من المخلوقات.

فإن قيل: إن الشيء إذا شابه غيره من وجه جاز عليه ما يجوز عليه من ذلك الوجه، ووجب له ما وجب له، وامتنع عليه ما امتنع عليه.

قيل: هب أن الأمر كذلك، ولكن إذا كان ذلك القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب سبحانه ولا نفي ما يستحقه لم يكن ممتنعًا، كما إذا قيل: إنه موجود حي عليم سميع بصير، وقد سمى بعض المخلوقات حيًّا سميعًا عليمًا بصيرًا فإذا قيل: يلزم أنه يجوز عليه ما يجوز على ذلك من جهة كونه موجودًا حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا. قيل: لازم هذا القدر المشترك ليس ممتنعًا على الرب تعالى، فإن ذلك لا يقتضي حدوثًا ولا إمكانًا، ولا نقصًا ولا شيئًا مما ينافي صفات الربوبية.

وذلك أن القدر المشترك هو مسمى الوجود أو الموجود، أو الحياة أو الحي، أو العلم أو العليم، أو السمع أو البصر، أو السميع أو البصير، أو القدرة أو القدير، والقدر المشترك مطلق كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر؛ فلم يقع بينهما اشتراك لا فيما يختص بالممكن المحدث، ولا فيما يختص بالواجب القديم؛ فإن ما يختص به أحدهما يمتنع اشتراكهما فيه.

فإذا كان القدر المشترك الذي اشتركا فيه صفة كمال، كالوجود والحياة، والعلم والقدرة، ولم يكن في ذلك شيء مما يدل على خصائص المخلوقين، كما لا يدل على شيء من خصائص الخالق، لم يكن في إثبات هذا محذور أصلًا؛ بل إثبات هذا من لوازم الوجود فكل موجودين لا بد بينهما من مثل هذا، ومن نفى هذا لزمه تعطيل وجود كل موجود.

ولهذا لما اطلع الأئمة على أن هذا حقيقة قول الجهمية سموهم معطلة، وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئًا، وربما قالت الجهمية هو شيء لا كالأشياء، فإذا نفى القدر المشترك مطلقًا لزم التعطيل العام.

والمعاني التي يوصف بها الرب تعالى كالحياة، والعلم، والقدرة، بل الوجود والثبوت، والحقيقة ونحو ذلك: تجب لوازمها، فإن ثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم، وخصائص المخلوق التي يجب تنزيه الرب عنها ليست من لوازم ذلك أصلًا، بل تلك من لوازم ما يختص بالمخلوق من وجود وحياة، وعلم ونحو ذلك.

والله سبحانه منزه عن خصائص المخلوقين وملزومات خصائصهم[1]

وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة التعطيل.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٧٤- ٧٦).

- **قولهم في الصفات الذاتية**

ينكرون صفات الله الذاتية؛ كالسمع والبصر ونحوهما.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم أن يكون لله سمعٌ وبصرٌ.

وقد أخبرنا الله عز وجل في كتابه ووصف نفسه في كتابه قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ثم أخبر عن خلقه قال عز وجل: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢] فهذه صفة من صفات الله أخبرنا أنها في خلقه غير أنا لا نقول: إن سمعه كسمع الآدميين، ولا بصره كأبصارهم.

وقال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٨١]. وقال: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: الآية ١٥]، وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: الآية ٨٠]، وقوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: الآية ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: الآية ٤٦]، وقال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: الآية ٣٩]، وقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾. وقال: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾، وقال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٥]، وقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: الآية ١٠]، وقال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: الآية ٢٧]، وقال: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: الآية ٥٨]،

وقال: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩]، ثم قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: الآية ٥٦] فقد وصف الله من نفسه أشياء جعلها في خلقه والذي يقول ليس كمثله شيء وإنما أوجب الله على المؤمنين اتِّباع كتابه وسنة رسوله.

وقال أبو موسى: كنا مع رسول الله في سفر أو غزاة فإذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا فارتفعت أصواتنا فقال: «**يأيها الناس اربعوا على أنفسكم؛ إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنه معكم سميع قريب**».

وقال وهب: قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: انطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي ومعك يدي ونصري.

وعن وهب قال: الرب تبارك وتعالى لآدم: اخترت مكانه يعني الكعبة يوم خلقت السموات والأرض، وقبل ذلك كان بعيني وهو صفوتي من البيوت.

وعن ابن عمر قال: قام رسول الله في الناس فأثنى على الله جل اسمه بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذر قومه، ولقد أنذر نوح قومه، ولكني سأقول

لكم قولًا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور[(١)]

- قولهم في الصفات الخبرية

ينكرون صفات الله الخبرية كالوجه واليدين ونحوهما.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم أن يكون لله عز وجل وجه، وهو يقول: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: الآية ٢٧]، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: الآية ٨٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: الآية ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: الآية ٩]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٥]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: الآية ٣٨]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: الآية ٣٩]

وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] قال هكذا بأصابعه فقال ثابت لحميد: لا تحدث بهذا يا أبا محمد فزبره حميد وانتهره، وقال: حدث به أنس وزعم أنس أن رسول الله حدث به، وأنا أكتمه.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، ونور السموات والأرض من نور وجهه.

وعن ابن عمر أن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه، ونعمه، وخدمه، وسرره مسيرة ألف عام؛ وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه بكرة وعشيا، ثم تلا هذه الآية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وكان علي يقول في دعائه: وجهك أكرم الوجوه وجاهك خير الجاه.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله: **«لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك؛ فإن الله خلق آدم على صورته»**.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: **«إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه؛ فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته»**.

وقال أبو رزين: سمعت رسول الله يقول: **«ضحك ربنا تبارك وتعالى من قنوط عباده وقرب غيره»**، قال أبو رزين فقلت: يا رسول الله، ويضحك الرب؟ فقال: **«نعم، يا أبا رزين، لن نعدم من رب يضحك خيرًا»**، وقال عليه الصلاة والسلام: **«يأتينا ربنا يوم القيامة ونحن على مكان رفيع فيتجلى لنا ضاحكًا»**.

وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله: **«يجمع الله عز وجل المؤمنين في صعيدٍ واحدٍ فإذا**

(١) التنبيه والرد ص(١٢١- ١٢٣).

أراد أن يصدع بين خلقه مَثَّلَ لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم، حتى يدخلوهم النارَ، ثم يأتينا ربنا ونحن على مكانٍ مرتفعٍ فيقول: مَن أنتم؟! فيقولون: نحن مسلمون، فيقول: من تنتظرون؟! فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: مِن أين تعرفون ربَّكم؟ وهل تعرفونه إذا رأيتموه؟! فيقولون: جاءتنا الرسل فصدقنا واتبعنا، فيقول لهم: وكيف تعرفونه ولم تروه؟! فيقولون: نعم، فيتجلى لهم ضاحكًا».

وعن عبد الله بن عمر قال: يضحك الله إلى صاحب البحر ثلاث مرات حين يركبه ويتخلى عن أهله، وحين يميد متشحطًا، وحين يرى البرَّ.

وعن ابن مسعود قال: رجلان يضحك الله إليهما رجل تحته فرس من أمثل خيل أصحابه فانهزموا وثبت إلى أن قتل شهيدًا وإن بقي فتح الله عليه؛ فذلك يضحك إليه. ورجل قام من الليل لا يعلم به أحد فأسبغ الوضوء وصلى على النبي واستفتح القراءة فيضحك الله سبحانه وتعالى إليه ويقول: انظروا إلى عبدي لا يراه غيري.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «يضحك الله لرجلين يقتتلان كلاهما يدخل الجنة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «يقتل هذا فيلج الجنةَ، ثم يتوب الله على الآخر فيهديه إلى الإسلام، ثم يجاهد في سبيل الله فيستشهد».

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: «يضحك الله إلى ثلاثة القوم إذا صفوا في الصلاة، والرجل يقاتل من وراء أصحابه، والرجل يقوم في سواد الليل»[1].

وقال أبو عاصم: وأنكر جهم أن يكون لله تعالى يد، وكذب على الله عز وجل، والله يقول: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: الآية ٦٤]

وقال: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: الآية ٧٥]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: الآية ١٠]

وعن ابن عباس قال: إنما سمي آدم؛ لأنه من أديم الأرض قبضه من تربة الأرض فخلقه منها، وفي الأرض البياض والحمرة والسواد وكذلك ألوان الناس مختلفة.

وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٥٢] قال: سمع صريف القلم حين

---

(١) التنبيه والرد ص(١١٨- ١٢١).

كتب في اللوح، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله: «أول من يُكْسَى يوم القيامة يقول الله عز وجل أكسوا خليلي إبراهيم، ثم أُكْسَى على أثره، ثم أقوم عن يمين الله مقامًا يغبطني به الأولون والآخرون».

وفي حديث آخر: «ساعد الله أشدُّ، وموسى الله أحدُّ»، وقال عليه السلام: «ما التقى فتتان إلا وكف الله بينهما، فإذا أراد الله أن يهزم إحدى الطائفتين أمال كفه بينهما».

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من خلق من بني آدم إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه».

قال جابر بن عبد الله كان النبي يكثر من القول: يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، قال له رجل من أصحابه: تخاف علينا، وقد آمنا بك وما جئت به؟! قال: «القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن» يقول بها هكذا وقلب بأصبعيه السبابة والوسطى.

وعن ابن مسعود في قوله: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القَلَم: الآية ٤٢] قال: عن ساق عرشه تبارك وتعالى، وقال أيضًا: يقومون يوم القيامة لرب العالمين فعند ذلك يكشف عن ساق فلا يبقى مؤمن إلا خرَّ ساجدًا، ويبقى المنافقون ظهورهم طبقًا واحدًا.

وقال عليه السلام: «أيفرح أحدكم براحلته إذا ضلت ثم وجدها؟» قالوا: نعم، قال: «والذي نفسي بيده الله أشد فرحًا بتوبة عبده إذا تاب من أحدكم براحلته»، رواه أبو هريرة.

وروى أيضًا عن رسول الله قال: «تحاجت الجنةُ والنارُ؛ فقال الله عز وجل للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها؛ فأما أهل النار فيلقون فيها، وتقول هل من مزيد ولا تمتلئ حتى يضع رجله، -أو قال: قدمه- فتقول: قط قط قط فهناك تمتلئ وتنزوي، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها ما شاء».

وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبَة: الآية ١٠٤]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إن العبد إذا تصدق من طيب يتقبلها الله منه، ويربيها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو في كف الله حتى تكون مثل جبلٍ فتصدقوا».

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله: «إن الله يوم خلق آدم قبض من صلبه قبضةً فوقع كل طيب في يمينه، وكل خبيث في يده الأخرى، فقال: هؤلاء أصحاب اليمين هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار ولا أبالي». وسئل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٢] فقال عمر ﷺ: سمعت رسول الله يقول: «لما خَلَقَ الله عزَّ وجلُّ آدمَ مَسَحَ ظَهْرَه بيمينِه فاسْتَخْرَجَ منه ذريةً؛ فقال: خَلَقْتُ هؤلاءِ للجنةِ، ثم مَسَحَ ظَهْرَه

فاسْتَخْرَجَ منه ذريةً؛ فقال: خَلَقْتُ هؤلاءِ للنارِ».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: **«لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ كَتَبَ بِيَدِه إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»**، وقال عليه السلام: **«يمين الله ملأى لا يقبضها سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ يوم خلق السموات والأرض؛ فإنه لم ينقص مما في يمينه، وكان عرشه على الماء، وبيده الأخرى ترفع وتخفض».**

وعن ابن عباس قال: «أخذ الله عز وجل ذرية آدم من صلبه كهيئة الذر، ثم قال: يا فلان، اعمل كذا وكذا، وقال: يا فلان، امسك كذا وكذا، ثم قبض يمينه، وقبض بيده الأخرى وقال: لمن في يمينه: ادخلوا الجنة بسلام، وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النار ولا أبالي».

وعن ابن عمر، عن النبي قال: **«إن أول شيء خلقه الله جل اسمه القلم، وأخذ بيمينه وكلتا يديه يمين فكتب الدنيا، وما يكون فيها».**

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: **«أتاني الليلة ربي في أحسن صورة** -قال: أحسبه قال: في المنام- **قال: يا محمد، تدري فيم الملأ الأعلى؟ قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو نحري فعلمت ما في السموات والأرض».**

وقال ابن عمر: قرأ رسول الله هذه الآية على منبره ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال عليه السلام: **«بيده»** يخبر عن ربه عز وجل، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧] قال: **«يقول أنا الجبار المتكبر»** ما زال عليه السلام يكررها حتى رجفت به المنبر، قال: قلت: لتقعن به.

وعن أبي موسى عن النبي قال: **«إن الله تبارك وتعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، وإبليس لا يقدر أن يتحول عن خلقه إلا بسحر فعرض نفسه على الدواب والبهائم والطير أيما يقبله فلم يقبله شيء إلا الحية فدخل في جوفها فأوحى الله إلى آدم وحواء ما أوحى»**(١)

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في الصفات الخبرية.

- قولهم في الصفات الفعلية.

ينكرون صفات الله الفعلية كالاستواء والنزول ونحوهما.

أقوال العلماء

قال الملطي: قال أبو عاصم خشيش بن أصرم: وقد أنكر جهم أن يكون الله على العرش.

---

(١) التنبيه والرد ص(١٣٥- ١٣٩).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩]. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السَّجدَة: الآية ٤]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: الآية ٧] وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: الآية ٥]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: الآية ٧]، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: الآية ١٧]، وقال: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٥]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٥٩]، وقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبَة: الآية ١٢٩]

وقال أبو عاصم: من كفر بآية من كتاب الله فقد كفر به أجمع، فمن أنكر العرش فقد كفر به أجمع، ومن أنكر العرش فقد كفر بالله.

وجاءت الآثار بأن لله عرشًا، وأنه على عرشه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «الحق كتب كتابًا فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي».

وفي حديث آخر أيضًا: «لما خلق الله الخلق كتب كتابًا على نفسه فهو مرفوع فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي».

وعن سعيد بن جُبَيْر قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: الآية ٧] قال: على متن الريح.

وعن وائل قال: رأيت النبي سمع رجلًا يقول: الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه، فلما سلم قال: من صاحب الكلمة آنفًا؟ قال الرجل: أنا، وما أردت بها بأسًا قال: «لقد رأيتها قد ابتدرها اثنا عشر ملكًا، ورأيتها فتحت لها أبواب السماء؛ فما نهنهها شيء دون العرش».

وعن العباس بن عبد المطلب قال: كنا مع رسول الله جلوسًا بالبطحاء إذ مرت سحابة فقال: «أتدرون ما هذه؟» قلنا: سحاب، قال: «والمزن؟»، قلنا: والمزن، قال: «والقتار؟» قال: فسكتنا قال: «أتدرون كم بين السماء والأرض» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة عام» إلى أن ذكر السموات السبع، ثم قال: «وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، وفوق ذلك ثمانية أوعال ما بين ركبهم وأظلافهم كما بين السماء والأرض، وفوق ذلك العرش، وما بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله عز وجل فوق ذلك ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم».

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ»، وعن أبي ذر

قال: قال رسول الله حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها».

وعن كعب الحبر قال: أقرب الخلق إلى الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وهم تحت زوايا العرش وبينهم وبين رب العالمين خمسون ألف سنة.

وعن وهب بن منبه قال: أربع أملاك يحملون العرش على أكتافهم لكل واحد منهم أربع وجوه: وجه ثور، ووجه أسد، ووجه نسر، ووجه إنسان؛ ولكل واحد منهم أربع: أجنحة أما جناحان فعلى وجهه ليحفظاه من أن ينظر إلى العرش فيصعق فيهفو بهما، ليس له كلام إلا أن يقول: قدوس الملك القوي ملأت عظمته السموات والأرض.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «ينزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى، والسموات إلى حجزهم، والعرش على مناكبهم؛ فيضع الله تبارك وتعالى كرسيه حيث شاء من أرضه».

وقال أبو هريرة: قال رسول الله: «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى السماء ينظر متى يؤمر»، وعن ابن عمر قال: خلق الله تبارك وتعالى أربعة أشياء بيده: العرش، وجنات عدن، وآدم، والقلم(١).

وقال: وأنكر جهم أن الله استوى إلى السماء، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩].

وعن عكرمة قال: إن الله تعالى خلق آدم بيده كرامة لابن آدم، وغرس الجنة بيده كرامة لابن آدم، وكتب التوراة بيده، وخلق السموات والأرضين وكل شيء خلقه في ستة أيام؛ فبدأ في خلقهم يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ثم استوى على العرش في ثلاث ساعات بقين من يوم الجمعة فخلق في ساعة فيها النتن الذي ألقاه على ابن آدم كي لا يعبدوه وفي ساعة منها السوس الذي يقع في الطعام لكي يرغب العباد إلى الله.

وقال مجاهد: قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩] يقول: خلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها تحت بعض(٢).

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في الاستواء.

---

(١) التنبيه والرد ص(٩٩- ١٠٣).

(٢) التنبيه والرد ص(١٣٣، ١٣٤)، ص(١١٢- ١١٦)، مجموع الفتاوى (٥/ ٤٠، ٤١)، (٥/ ٤٩، ٥٤)، (٥/ ١٨٣- ١٨٥)، (٥/ ٥١٨- ٥٢١).

- **قولهم في علم الله**

يزعم أن علم الله سبحانه محدَث، وأنه لا يعلم الأشياء قبل أن تكون.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يقول: إن علم الله سبحانه مُحْدَثٌ فيما يحكى عنه، . . . ، وأنه لا يقال: إن الله لم يزل عالمًا بالأشياء قبل أن تكون[١]

وقال: وقال الجهم إن علم الله محدث هو أحدثه فعلم به، وأنه غير الله، وقد يجوز عنده أن يكون الله عز وجل عالمًا بالأشياء كلها قبل وجودها بعلم محدث بها، وحكي عن الجهم خلاف هذا وأنه كان لا يقول: إن الله يعلم الأشياء قبل أن تكون؛ لأنها قبل أن تكون ليست بأشياء فتعلم أو تجهل وألزمه مخالفوه أن لله سبحانه علمًا محدثًا[٢]

وقال الإسفراييني: ومن ضلالاته قوله: إن علم الله تعالى حادث، وإنه لا يعلم ما يكون حتى يكون[٣]

وقال البغدادي: وزعم أيضًا أن علم الله تعالى حادث[٤]

وقال الشهرستاني: إثباته علومًا حادثة للباري تعالى لا في محل، قال: لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه؛ لأنه لو علم ثم خلق، أفبقي علمه على ما كان أم لم يبق؟ فإن بقي فهو جهل، فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد. وإن لم يبق فقد تغير والمتغير مخلوق ليس بقديم، ووافق في هذا المذهب هشام بن الحكم كما تقرر. قال: وإذا ثبت حدوث العلم فليس يخلو: إما أن يحدث في ذاته تعالى، وذلك يؤدي إلى التغيُّر في ذاته، وأن يكون محلًا للحوادث. وإما أن يحدث في محل فيكون المحل موصوفًا به لا الباري تعالى، فتعين أنه لا محل له. فأثبت علومًا حادثة بعدد الموجودات المعلومة[٥]

وقال السكسكي: ويقولون: وإن علم الله تعالى محدث أحدثه لنفسه بعد أن لم يكن علمًا، وكذلك قالوا في القدرة[٦]

وقال الإيجي: وعلمه حادث لا في محل، ولا يتصف بما يوصف به غيره كالعلم والقدرة[٧]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٢٢).

(٣) التبصير في الدين ص(١٠٨).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٢١).

(٥) الملل والنحل (١/ ٨٧).

(٦) البرهان ص(٣٥).

(٧) المواقف (٣/ ٧١٢).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وهذا القول مهجور باطل مما اتفق على بطلانه سلف الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين بل كفروا من قاله والكتاب والسنة مع الأدلة العقلية تبين فساده.

فإن الله قد أخبر عما يكون من أفعال العباد قبل أن تكون بل أعلم بذلك من شاء من ملائكته وغير ملائكته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠] فالملائكة حكموا بأن الآدميين يفسدون ويسفكون الدماء قبل أن يخلق الإنس ولا علم لهم إلا ما علمهم الله كما قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٢]، ثم قال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، وتضمن هذا ما يكون فيما بعد من آدم وإبليس وذريتهما وما يترتب على ذلك.

ودلت هذه الآية على أنه يعلم أن آدم يخرج من الجنة؛ فإنه لولا خروجه من الجنة لم يصر خليفة في الأرض، فإنه أمره أن يسكن الجنة ولا يأكل من الشجرة بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ نهاه أن يخرجها من الجنة وهي نهي عن طاعة إبليس التي هي سبب الخروج وقد علم قبل ذلك أنه يخرج من الجنة وأنه إنما يخرج منها بسبب طاعته إبليس، وأكله من الشجرة؛ لأنه قال قبل ذلك إني جاعل في الأرض خليفة،

ولهذا قال من قال من السلف: إنه قدر خروجه من الجنة قبل أن يأمره بدخولها بقوله: إني جاعل في الأرض خليفة، وقال بعد هذا: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٤]، قال: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٥]، وهذا خبر عما سيكون من عداوة بعضهم بعضًا وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٦]، وهذا خبر عن المستقبل وأنهم لا يؤمنون.

وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: الآية ٨٥]، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٣]، وهذا قسم منه على ذلك، وهو الصادق البارُّ في قسمه، وصدقه مستلزم لعلمه بما أقسم عليه، وهو دليل على أنه قادر على ذلك.

وقد يستدل به على أنه خالق أفعال العباد؛ إذ لو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم بل كان ذلك إليهم إن شاءوا عصوه فملأها، وإن شاءوا أطاعوه فلم يملأها،

لكن قد يقال: إنه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك، وقد يجاب عن ذلك بأن علمه بالمستقبل قبل أن يكون مستلزم لخلقه له؛ فإنه سبحانه لا يستفيد العلم من غيره.

كالملائكة والبشر ولكن علمه من لوازم نفسه فلو كانت أفعاله خارجة عن مقدوره ومراده لم يجب أن يعلمها كما يعلم مخلوقاته وبسط هذا له موضع آخر.

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: الآية ٤٧] وهذا خبر عما سيكون منهم من الذنوب قبل أن يفعلوها، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: الآية ١٦] وهذا خبر عن دعاء من يدعوهم إلى جهاد هؤلاء ودعاؤه لهم من جملة أفعال العباد، ومن هذا في القرآن كثير.

بل العلم بالمستقبل من أفعال العباد يحصل لآحاد المخلوقين من الملائكة والأنبياء وغيرهم فكيف لا يكون حاصلًا لرب العالمين وقد أخبر النبي ﷺ عما سيكون من الأفعال المستقبلة من أمته وغير أمته مما يطول ذكره؛ كإخباره بأن ابنه الحسن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وإخباره بأنه تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق، وإخباره بأن قومًا يرتدون بعده على أعقابهم، وإخباره بأن خلافة النبوة تكون ثلاثين سنة ثم تصير ملكا، وإخباره بأن الجبل ليس عليه إلا نبي وصديق وشهيد وكان أكثرهم شهداء، وإخباره يوم بدر بقتل صناديد قريش قبل أن يقتلوا، وإخباره بخروج الدجال ونزول عيس عليه السلام على المنارة البيضاء شرقي دمشق وقتل عيسى عليه السلام له على باب لد.

وإخباره بخروج يأجوج ومأجوج وإخباره بخروج الخوارج الذين قال فيهم: «**يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم أن فيهم رجلًا مخدج اليد على يده مثل البضعة من اللحم تدردر**» وكان الأمر كما أخبر به لما قاتلهم علي بن أبي طالب بالنهروان ووجد هذا الشخص كما وصفه النبي ﷺ، وإخباره بقتال الترك وصفتهم حيث قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الخدود، دلف الأنف، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة**». وقد قاتل المسلمون هؤلاء الترك وغيرهم لما ظهروا ومثل هذا من أخبار نبيه ﷺ أكثر من أن تذكر، وهو إنما يعلم ما علمه الله، وإذا كان هو يعلم كثيرًا مما يكون من أعمال العباد فكيف الذي خلقه وعلمه ما لم يكن يعلم.

وهو سبحانه لا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء، ولا يعلم أحد لا نبي ولا غيره إلا ما علمه الله.

وقال الخضر لموسى: إنني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، ولما نقر العصفور في البحر قال له: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر وهو سبحانه القائل في حق موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥]

والمقصود أن نفي علم الله بالحوادث أفعال العباد وغيرها قبل أن تكون باطل[١].

- قولهم في كلام الله عز وجل

كلام الله عندهم وهو القرآن مخلوق.

أقوال العلماء

قال الأشعري: ويقول بخلق القرآن[٢].

وقال: وحكى زرقان عن الجهم أنه كان يقول: إن القرآن جسم وهو فعل الله، وأنه كان يقول: إن الحركات أجسام أيضًا، وأنه لا فاعل إلا الله عز وجل[٣].

وقال الإسفراييني: وكان يقول: كلام الله حادث، ولكن لا يجوز أن يسمى متكلمًا بكلامه[٤].

وقال البغدادي: وقال بحدوث كلام الله تعالى كما قالته القدرية، ولم يسمِ الله تعالى متكلمًا به[٥].

وقال الشهرستاني: وهو أيضًا موافق للمعتزلة في: ...، وإثبات خلق الكلام[٦].

وقال الإيجي: ووافقوا المعتزلة في خلق الكلام[٧].

نقض قولهم

قال الملطي: وأنكر جهم أن الله يتكلم.

والله يقول: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٥]. وقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: الآية ٦٤]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبَة: الآية ٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٩١- ٤٩٥)، (٨/ ٤٤٩، ٤٥٠).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٠).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٩).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٨).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٢).
(٦) الملل والنحل (١/ ٨٨).
(٧) المواقف (٣/ ٧١٢).

وقال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٤]، وقال: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: الآية ٢٧]، وقال: ﴿لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ﴾ [لقمان: الآية ٢٧]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٤]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: الآية ١١٩]

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: الآية ٧١]، وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٨]

وقال: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: الآية ٥٩]، وقال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: الآية ١١٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢]، وقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٦]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: الآية ٤٠]، وقال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: الآية ١٠٩]

وقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: الآية ١١٠]

وقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥]

وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ [المائدة: الآية ١١٩]، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٨]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤]، وقال: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: الآية ١١]، وفي القرآن مثل هذا كثير.

فأما الآثار فإن ابن مسعود قال: إنما هي اثنتان الهدى والكلام، فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها.

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ما تقرب العباد إلى الله عز وجل بمثل ما خرج منه، يعني القرآن.

وعن ابن عباس قال: خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة، كلامه بر، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق بكل نظرة ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

وقال جابر بن عبد الله: كان رسول الله يعرض نفسه في الموسم على الناس في الموقف يقول: «**هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل**»، فأتاه رجل من بني همدان فقال: أنا، فقال: «**أو عند قومك لي منعة**»، وسأله من هو؟ قال: من همدان، ثم إن الهمداني خشي أن يجفوه قومه، فقال: يا رسول الله، آتيهم فأخبرهم ثم ألقاك من قابل، فانطلق وجاءت وفود الأنصار في رجب.

وينبغي أن يقال للجهمية: من يحاسب الناس يوم القيامة، إن كان لم يكلم ولا يتكلم؟! أليس هو المخبر: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: الآية ٦] ؟! وقوله لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: الآية ١١٦] ، فقال عيسى عليه السلام الحق ولم يدع كذبًا وما قلت لهم إلا ما أمرتني به.

ويقال للجهمية أيضًا: خلق السموات والأرض وخلق من الماء بشرًا وقال في كتابه: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: الآية ٢] ، وقال: ﴿خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: الآية ٢] فهل وجدتم في كتاب الله عز وجل أنه يخبر عن القرآن أنه خلقه كما خلق هذه الأشياء؟! أليس الله عز وجل يقول: ﴿رب المشارق والمغارب﴾، و﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: الآية ٩١] ، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٦] ، فهل قال في القرآن: رب القرآن كما قال لهذه الأشياء إنه ربها؟! أو هل تجد شيئًا في سنن رسول الله أن الله خلق القرآن، وهو ربه بل قال: دعوا كل شيء مبتدع إذا أتى آتٍ بشيء ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسوله فدعواه باطلة.

ألا ترى أن الجهمية ينبغي أن يقال لهم في دعواهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: الآية ٣] ، و﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] إن (جعل) في القرآن على معنيين: على خَلَقَ، وعلى غير خَلَقَ؛ فالذي على خلق لا يكون إلا على خلق، ولا يقوم إلا على مقام خلق، ولا يزول عنه المعنى؛ والذي على غير الخَلْقِ لا يكون على خلق، . .، وقد ذكر الله عز وجل جعل المخلوقين، ولكل جَعَلَ في القرآن طريق ومذهب؛ فالذي ذكر الله من جعل المخلوقين قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف: الآية ١٩] ، وذلك أنهم وصفوا الملائكة أنهم إناث، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٠] ؛ ووصفوا

أن لله شركاء، وقال: ﴿جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٩١] ؛ وذلك أنهم قالوا: إن القرآن شعر وأساطير الأولين، يقول: سَمَّوْه بأشياء، وقال: ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نُوح: الآية ٧] ؛ فهذا خبر عن فعل من أفعالهم، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: الآية ٩٦] ، فهذا أيضًا خبر عن فعل.

ثم ذكر جعل منه على معنى الخلق فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١] يقول: خلق الظلمات والنور، فأوقع اسم الخلق على الظلمات والنور، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ﴾ [النحل: الآية ٧٨] فأوقع اسم الخلق على الأسماع والأبصار، وقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ [المدّثر: الآية ١٢] ، ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسرَاء: الآية ١٢] ، ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نُوح: الآية ١٦] يقول: وخلق الشمس سراجا، ومثله في القرآن كثير..

واعلم أن كل ما وقع عليه اسم الخلق هو موجود في ذاته، ثم ذكر الجعل على غير معنى الخلق، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المَائدة: الآية ١٠٣] لا يعني ما خلق الله من بحيرة، وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] لا يعني بذلك خالقك؛ لأن خلق إبراهيم عليه السلام قد تقدم، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠] لا يعني اخلقني، وكذلك قال الله عز وجل لأم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٧] ، فمعناه التصيير وقوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ [يُونس: الآية ٨٥] لا يعنون لا تخلقنا فتنة، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٤] ، وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ [النُور: الآية ٦٣] ، وقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٤١] ومثله في القرآن كثير وما يكون على مثاله لا يكون الجعل على معنى الخلق.

وأما قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: الآية ٥٢] فمعناه أنزلناه نورًا ومصداق ذلك قوله عز وجل: ﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالنُّورِ الَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغَابُن: الآية ٨] ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٧٤] ، وقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٧] وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَٰبَ الَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعَام: الآية ٩١]

والجعل في القرآن على وجوه يعلم ذلك أهل العلم والمعرفة بالله وبكتابه ويجهله من جهل عن الله وكتابه، فأما قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] بعد ما خلقهم، وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: الآية ٨١] بعد ما خلق لهم جعل لهم ظلالًا، وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ ثم قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَٰنَ﴾ [النحل: الآية ٤]

ولو شاء لقال: «الرحمن خلق القرآن» غير أن الله عز وجل لا يسمي الأسماء إلا باسم الحق والصدق، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢] ألا ترى إلى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يخبر بخلق غير خلق القرآن فلا حجة لجهم المارق ولا لمن تبعه فافهم.

وأنكر جهم أن الله كلم موسى تكليمًا، والله يقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤]، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝﴾، وقال: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝﴾ [طه: الآية ٨٣] وقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: الآية ١٠].

وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [القصص: الآية ٣٠].

وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝﴾ [مريم: الآية ٥٢]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: الآية ٤٦].

فأما الأثر: فإن كعبًا قال: لما كلم الله موسى كلمه بالألسن كلها قبل أن يكلمه بكلامه قال له موسى أي رب أهذا كلامك، قال: لا، ولو كلمتك بكلامي لم تستقم، أو لم تك شيئًا، قال: ربِّ، فهل من خلقك من يشبه كلامه كلامك؟ قال: أشد خلقي شبهًا بكلامي ما تسمعون من هذه الصواعق.

وقال وهب: نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى فأجاب سريعًا وما يدري من دعاه وما سرعة إجابته إلا أنسًا بالأنس، فقال: لبيك إني لأسمع صوتك، ولا أرى مكانك، فأين أنت قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك، فلما سمع موسى عليه السلام علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه عز وجل فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي فكلامك أسمع أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أكلمك ثم قال الرب جل وعز: إني أقمتك اليوم مقامًا لا ينبغي لبشر بعدك أن يقومه أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامي، وكنت بأقرب الأمكنة مني فانطلق برسالتي؛ فإنك بعيني وسمعي ومعك أيدي ونصري وقد ألبستك جنة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري.

وقال مجاهد: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] قال: كلم موسى، وأرسل محمدًا عليهما السلام، وقال كعب: كلم الله عز وجل موسى مرتين.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: «**قال آدم لموسى: أنت الذي اصطفاك الله بكلامه**» وذكر الحديث[(١)].

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في كلام الله عز وجل.

- قولهم في علو البارئ عز وجل

ينفون علو البارئ عز وجل.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: الجهمية النفاة الذين يقولون: لا هو داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا فوق ولا تحت، لا يقولون بعلوه ولا بفوقيته بل الجميع عندهم متأوّل أو مفوض[(٢)].

وقال: وقال طوائف منهم: ليس فوق العالم، ولا فوق العالم شيء أصلًا، ولا فوق العرش شيء وهذا قول الجهمية والمعتزلة وطوائف من متأخري الأشعرية[(٣)].

نقض قولهم

قال الملطي: قال أبو عاصم: وأنكر جهم أن يكون الله في السماء دون الأرض.

وقد دل في كتابه أنه في السماء دون الأرض بقوله حين قال لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]. وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨].

وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السَّجدَة: الآية ٥]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠]، وقال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٩]، وقال جل اسمه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٨]. وقال: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يُونس: الآية ٣٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٤]،

وقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾. وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١٦٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٠٦]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحِجر: الآية ٢١]، وقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٧]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣١]، وقال: ﴿ثُمَّ

---

(١) التنبيه والرد ص(١٢٥-١٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧٢).

ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: الآية ١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾، وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: الآية ١٩]، وقال في التنزيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: الآية ٩١]

وقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٩٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ٩٩]، وقال: ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: الآية ٩٠]، وقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: الآية ١٠٥]

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٤]، وقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: الآية ٧]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ [الأنعام: الآية ٩١]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: الآية ٩٢]

وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١١]

وقال: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٦]، وقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: الآية ٢٦]، وقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، وقال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٦٤]، وقال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٨٦]، وقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ [التوبة: الآية ١٢٤]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: الآية ١١٣]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: الآية ١] و﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: الآية ٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: الآية ٦٧]، وقال: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٦٨]

وقال: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: الآية ١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ٧]

وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: الآية ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: الآية ١٠٥]

وقال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: الآية ١٣٦]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٧]

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: الآية ٢٤]، و﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: الآية ٣٠]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٤]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: الآية ١٠١]

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢]، وقال: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٥]، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٥]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: الآية ١]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٠]

وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: الآية ١]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾، وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٠] وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: الآية ٨٠]

وكان أبو عاصم يقول: لو كان في الأرض كما هو في السماء لم ينزل من السماء إلى الأرض شيئًا ولكان يصعد من الأرض إلى السماء كما ينزل من السماء إلى الأرض.

وقد جاءت الآثار عن النبي أن الله عز وجل في السماء دون الأرض.

وعن البراء بن عازب قال: إن رسول الله قال: «المؤمن إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكلُّ ملكٍ في السماء، وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يصعد بروحه قبلهم، فإذا عرج بروحه قالوا: ربنا عبدك فلان فيقول: أرجعوه فإني عهدت إليهم أن منها خلقناكم، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

وقال ابن مسعود: ما من عبد يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر - إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه فيعرج بهن إلى السموات فلا يمر بسماء إلا دعوا لصاحبهن

حتى يجيء بهن وجه الله تبارك وتعالى[(١)]

وقال شيخ الإسلام: قد وصف الله تعالى نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله «بالعلو، والاستواء على العرش، والفوقية» في كتابه، في آيات كثيرة، حتى قال بعض أكابر أصحاب الشافعي: في القرآن ألف دليل، أو أزيد تدل على أن الله تعالى عالٍ على الخلق، وأنه فوق عباده.

وقال غيره: فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٦] ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: الآية ١٩] [(٢)]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في علو البارئ عز وجل.

- قولهم في الحلول

قدماؤهم وكثير من متعبديهم، وبعض متكلميهم يقولون بالحلول المطلق العام، وهو أن الله بذاته في كل مكان.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما الحلول المطلق وهو أن الله تعالى بذاته حال في كل شيء فهذا تحكيه أهل السنة والسلف عن قدماء الجهمية وكانوا يكفرونهم بذلك[(٣)]

وقال: الحلول العام، وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث، عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية؛ الذين يقولون: «إن الله بذاته في كل مكان»، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [الأنعام: الآية ٣] ، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] ،والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة، وأهل المعرفة، وعلماء الحديث[(٤)]

وقال: قول حلولية الجهمية، الذين يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية - أتباع حسين النجار- وغيرهم من الجهمية[(٥)]

وقال: وقسم ثان يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية، وكثير من الجهمية عبادهم، وصوفيتهم، وعوامهم. ويقولون: إنه عين وجود المخلوقات، كما يقوله: «أهل الوحدة» القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركبًا من الحلول والاتحاد[(٦)]

---

(١) التنبيه والرد ص(١٠٤- ١٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٦٦)، (٤/ ٥٩، ٦٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ١٧٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٨).

(٦) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٣).

وقال: وهو قول كثير من الجهمية الذين كان السلف يردون قولهم، وهم الذين يزعمون أن الله بذاته في كل مكان. وقد ذكره جماعات من الأئمة والسلف عن الجهمية وكفروهم به، بل جعلهم خلق من الأئمة -كابن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره- خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة، وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم[(١)]

وقال: والسلف والأئمة كفروا الجهمية لما قالوا: إنه في كل مكان، وكان مما أنكروه عليهم: أنه كيف يكون في البطون، والحشوش، والأخلية؟! تعالى الله عن ذلك[(٢)]

وقال: والجهمية نفاة الصفات تارة يقولون بما يستلزم الحلول والاتحاد، أو يصرحون بذلك، وتارة بما يستلزم الجحود والتعطيل، فنفاتهم لا يعبدون شيئًا، ومثبتتهم يعبدون كل شيء[(٣)]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الصوفية في الحلول والاتحاد.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

ينفون رؤية المولى عز وجل بالأبصار في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن جهم: وهو أيضًا موافق للمعتزلة في نفي الرؤية[(٤)]

وقال الإيجي: ووافقوا المعتزلة في نفي الرؤية[(٥)]

وقال شيخ الإسلام: قول نفاة الجهمية إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة[(٦)]

نقض قولهم

قال الملطي: وأنكر جهم النظر إلى الله جل وعز وجل.

والله يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٤]، وقال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: الآية ٥٥]، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: الآية ١٥]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٦، ٤٩٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٨، ٣٩).
(٤) الملل والنحل (١/ ٨٨).
(٥) المواقف (٣/ ٧١٢).
(٦) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٧).

واعلموا رحمكم الله أن أعظم ما يرجو أهل الجنة من الثواب النظر إلى الله عز وجل، وقد روى أبو هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**»، قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «**فهل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟**»، قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «**فأنتم ترونه يوم القيامة كذلك**».

وقال جرير بن عبد الله البجلي: كنا جلوسًا عند رسول الله فرأى القمر ليلة البدر قال: «**فإنكم ترون ربكم كما ترون هذا لا تضارون في رؤيته**».

وعن صهيب عن النبي في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦] قال: النظر إلى وجه الله عز وجل.

وعن عكرمة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦] قالوا: لا إله إلا الله، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: الآية ٩٥] الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦] قال: النظر إلى وجه الله الكريم.

وسئل ابن عباس عن كل من دخل الجنة نظر إلى الله؟ قال: نعم، وكان عليه السلام يقول في دعائه: «**اللهم إني أسالك برد العيش، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقًا إلى لقاءك**».

وعن أنس بن مالك قال: ذكر المزيد، فقلت: وما المزيد؟ فقال رسول الله: «**إن أهل الجنة يغدون إلى ربهم كل جمعة؛ فتوضع لهم مجالس، فمنهم على منابر، ومنهم على كراسي، ونحو ذلك؛ فيقول: أطعموا عبادي فيطعمون، ثم يقول: اسقوا عبادي فيسقون، ثم يقول: أكسوا عبادي فيكسون**»، قال: وذكر النظر قال: «**فينظرون إلى الله تبارك وتعالى**».

وسئل ابن عباس: هل رأى محمد ربَّه؟ قال: نعم، رآه، قال عكرمة: فقيل لابن عباس: أليس الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]، قال ابن عباس: لا، أمّ لك ذلك، نوره الذي هو نوره إذا تجلى به لم يستقم له شيء.

وقال عكرمة: ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه، أن لو جعل نور أعين جميع خلقه من الجن والإنس والدواب وكل شيء خلق الله فجعل نور أعينهم في عين عبد من عباده ثم كشف عن الشمس سترًا واحدًا، ودونها سبعون سترًا إذا ما قدر أن ينظر إلى الشمس، والشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الستر قال عكرمة فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور أن ينظر إلى وجه ربه الكريم عيانًا في الجنة.

وعن عكرمة أن الله يرسل إلى أوليائه في الجنة براذين من ياقوت سرجها ولجمها من ذهب ألين من الحرير، يخرجون زائرين إلى رب العالمين، وقال: يظلهم الغمام، وتحفهم الملائكة، قال: ثم يقول الله عز وجل: يا ملائكتي، عبادي وزواري وجيراني أطعموهم من لحم طير خضر ليس في الجنة مثلها، ثم يكسون ويطيبون، ثم يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى.

وقد قال أبو عاصم: إذا كان المؤمن يحجب عن ربه، ولا يراه، والكافر محجوب عن ربه، فما

فضل المؤمن على الكافر، وقول الله عز وجل: ورسوله وأصحاب رسوله أحق أن يتبع من قول جهم في النظر إلى الله عز وجل[١]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في خلق الجنة والنار

ينفون خلق الجنة والنار الآن.

أقوال العلماء

قال السكسكي عنهم: وإن الجنة والنار لم يخلقا بعد، وأنهما يفنيان ويفنى من فيهما[٢]

نقض قولهم

قال الملطي: وأنكر جهم أن الله جل اسمه خلق الجنة والنار.

والله عز وجل يقول: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٥]

وقال ابن مسعود: خلق الله آدم مما وصفه في كتابه، ثم أسكنه الجنة، وإبليس إنما خلقه ريحًا يدخل في فم الشيء ويخرج من دبره.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله: **«فقمت على باب الجنة فرأيت أكثر ما يدخلها الفقراءُ، وإذا أصحاب الجد محبوسون، ثم قمت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: **«دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجري حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي إلى ما يجري فيه فإذا مسك أذفر قلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله، أو قال ربك»**.

وعن رافع بن خديج قال: قلت: يا رسول الله، قل لي: كيف الإيمان بالقدر؟ قال: **«تؤمن بالله وحده، وأنه لا شريك له، وأنه لا يملك معه أحدٌ ضرًّا ولا نفعًا، وتؤمن بالجنة والنار، وتعلم أن الله خلقهما قبل الخلق، ثم خلق الخلق فجعل من شاء منهم إلى الجنة، وجعل منهم من شاء إلى النار؛ عدلًا ذلك منه»**.

وعن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسول الله، أخبرنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: **«لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران؛ من يدخلها يخلد ولا يموت، وينعم لا يبؤس، ولا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»**.

وسئل مجاهد: أين الجنة؟ قال: في أعلى عليين، وعن النار؟ فقال: في أسفل السافلين.

---

(١) التنبيه والرد ص(١١٦- ١١٨).

(٢) البرهان ص(٣٥).

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي عليه السلام، قال: «إن النار قالت لربها: وعزتك وكرامتك لتنفسني أو لأخرجن على عبادك، فقال لها: تَنَفَّسِي في كل عام فَنَفَسُها في الشتاء الزمهرير، وَنَفَسُهَا في الصيفِ الحر الذي يقتل البهائم والماشية، وإنه ليغلي الماء».

وعن أبي هريرة قال: قال النبي: «إن ناركم التي توقدونها لتعوذ بالله من نار جهنم»، فقالوا: والله إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسع وستين جزأً كلهن مثل حرِّها».

وعن عبد الله بن سلام: أنه قال: الجنة في السماء، والنار في الأرض[(١)]

- قولهم في فناء الجنة والنار

يقولون بفناء الجنة والنار.

أقوال العلماء

قال الأشعري: الذي تفرد به جهم القول بأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان[(٢)]

وقال: واختلفوا أيضًا لأفعال الله سبحانه آَخِرٌ أم لا آَخِرَ لها؟ على مقالتين:

فقال جهم بن صفوان: لمقدورات الله تعالى ومعلوماته غاية ونهاية، ولأفعاله آخر، وإن الجنة والنار تفنيان، ويفني أهلهما حتى يكون الله سبحانه آخرًا لا شيء معه كما كان أولًا لا شيء معه.

وقال أهل الإسلام جميعًا: ليس للجنة والنار آَخِرٌ، وأنهما لا تزالان باقيتين، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في الجنة يتنعمون، وأهل النار لا يزالون في النار يعذبون، وليس لذلك آخر، ولا لمعلوماته ومقدوراته غاية ولا نهاية[(٣)]

وقال الإسفراييني: ومن ضلالات جهم قوله: إن الجنة والنار يفنيان كما يفنى سائر الأشياء[(٤)]

وقال البغدادي: وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان[(٥)]

وقال الشهرستاني: قوله: إن حركاتِ أهل الخُلْدين تنقطع، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما وتلذذ أهل الجنة بنعيمها، وتألم أهل النَّار بجحيمها؛ إذ لا تتصور حركات لا تتناهى آخرًا، كما لا تتصور حركات لا تتناهى أولًا وحمل قوله تعالى: ﴿خَلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٢]، على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة في التخليد، كما يقال: خلد الله ملك فلان.

---

(١) التنبيه والرد ص(١٣٧- ١٤٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٩).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٦٤).

(٤) التبصير في الدين ص(١٠٨).

(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢١).

واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] ؛ فالآية اشتملت على شريطة واستثناء، والخلود والتأبيد لا شرط فيه ولا استثناء[١]

وقال الإيجي: والجنة والنار تفنيان[٢]

وقال شيخ الإسلام: وعن هذا الأصل نفى وجود ما لا يتناهى في المستقبل وقال بفناء الجنة والنار[٣]

نقض قولهم

قال الملطي: وزعم جهم أن الجنة والنار تفنيان بعد خلقهما، فيخرج أهل الطاعة من الجنة بعد دخولهم، ويخرج أهل النار بعد دخولهم، وإن أهل الجنة إذ دخلوها لبثوا فيها دهرًا طويلًا فتبيد الجنة وأهلها ويبيد نعيمها، وتهلك النار ويبيد عذابها، وأخذ ذلك من قوله عز وجل: هو الأول والآخر، فشكك الناس ولبس على الجاهل تأويل القرآن من غير تأويله.

وقد أكذبه الله عز وجل بكتابه والمأثور عن النبي ﷺ.

قال الله عز وجل يخبر عن أهل الجنة: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النّحل: الآية ٩٦] ، وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾[الدّخَان: الآية ٥٦] ، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[غَافر: الآية ٣٩] ، وقال: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾[الكهف: الآية ٣] ، وقال: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزُّمَر: الآية ٧٣] ، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحِجر: الآية ٤٨]

وأخبر عن أهل النار فقال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾[فَاطِر: الآية ٣٦] ، وقال: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[طَه: الآية ٧٤] ، يقول: لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا حياة تنفعه الحياة، وقال: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحَاقّة: الآية ٢٧] ، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾[المَائدة: الآية ٣٧] ، وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النّسَاء: الآية ٥٦]

وقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[السَّجدَة: الآية ٢٠] ، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٩٧] ، وقال: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[النّبَإ: الآية ٣٠] ، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٣] ، وقال: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٩]

---

(١) الملل والنحل (١/ ٨٧، ٨٨).

(٢) المواقف (٣/ ٧١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٧، ٣٨٠).

فليردوا الأشياء إلى كتاب الله وسنة نبيه، كما أمروا ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: الآية ٥٩]

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: «**إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، وأهل النار النارَ؛ يجاء بالموت كأنه كبش أملح فينادي منادٍ: يأهل الجنة، فيشرفون وينظرون وكلهم قد رآه، فيقولون: هذا الموت، فينادي منادٍ يأهل النار، هل تعرفون هذا فيشرفون وينظرون وكلهم قد رآه، فيقولون: نعم هذا الموت، ثم يؤخذ فيذبح فيقال: يأهل الجنة، خلود بلا موت، ويأهل النار، خلود بلا موت، وذلك قوله:** ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾ [مريم: الآية ٣٩] ».

وعن ابن عباس في قوله تبارك وتعالى لأهل الجنة: كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون، فعندها قالوا: أفما نحن بميتين.

فالذي نقول: إن الجنة وأهلها لا فناء عليها، وكذلك النار وأهلها؛ فإنه إنما تعبدنا الله عز وجل أن نأخذ بالتقليد لا بالرأي والقياس، فنحن نتبع الأثر لا بالرأي والقياس.

وقال كعب: ما من يوم إلا ينظر الله تبارك وتعالى إلى جنات عدن فيقول: طيبي فتضعف طيبة على ما كانت حتى يدخلها أهلها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرءوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] **ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا جميعًا، اقرءوا إن شئتم:** ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥] **، وإن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام اقرءوا إن شئتم:** ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾ [الواقِعَة: الآية ٣٠] ».

وعن ابن عباس قال: كان عرش الله تعالى على الماء فاتخذ جنة لنفسه، ثم اتخذ أخرى فأطبقها بلؤلؤة واحدة، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٦٢] لا يعلم خلق ما فيهما إلا الله، ثم قرأ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] ما يأتيهم كل يوم من تحفة.

وعن عبد الله ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٩] قال: إن أرواح الشهداء في طيور خضر تسرح في الجنة، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، قال: فاطلع الله عز وجل إليهم اطلاعة فقال: هل تشتهون من شيء فأزيدكموه؟ قالوا: ألسنا في الجنة نسرح في أيها شئنا؟ قال: فسكت عنهم، ثم اطلع إليهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون من شيء فأزيدكموه؟ فقالوا كأول مرة، ثم اطلع إليهم الثالثة والرابعة، فقالوا كذلك، قالوا: تعد أرواحنا في أجسادنا فنقاتل في سبيلك مرة أخرى فسكت عنهم.

وعن سعيد بن جبير قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، فرأوا ما أصابوا من الخير والرزق تمنوا أن أصحابهم يعلمون ما أصابوا من الخير فيزدادوا رغبة في الجهاد قال الله تبارك وتعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾(١)

- **قولهم في الكرسي**

ينكرون كرسي المولى عز وجل.

أقوال العلماء

قال الملطي: قال أبو عاصم: وأنكر جهم أن يكون لله كرسي.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] قال: الكرسي موضع القدمين، ولا يقدر أحد قدره، غير أن أبا عاصم يعني النبيل قال: الكرسي موضع القدمين، ولا يقدر قدر عرشه.

وعن مجاهد قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] قال: ما السموات والأرض في الكرسي إلا مثل حلقة بأرض فلاة.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله: «**إني لقائم المقام المحمود**»، قيل: وما المقام المحمود؟ قال: «**ذاك يوم ينزل الله تبارك وتعالى على كرسيه يئط كما يئط الرحل الجديد من تضايقه، وهو كسعة ما بين السموات والأرض**».

وعن عبد الرحمن بن البيلماني قال: ما من ليلة إلا وينزل ربكم إلى السماء، وإذا نزل إلى السماء خر أهلها سجودًا حتى يرجع، وذكر وهب عن عظمة الله فقال: إن السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع لفي الهيكل، قيل: لفي الكرسي، وإن قدميه لعلى الكرسي، فهو يحمل الكرسي، وقد عاد الكرسي كالنعل في قدمها، فسئل وهب ما الهيكل؟ قال: شيء من أطراف السماء إلى الأرض محدق بالأرضين والبحار كالأطناب كالفسطاط.

وعن أنس بن مالك قال: يقول جبريل: إذا كان يوم القيامة نزل عن عرشه إلى كرسيه، وحف الكرسي بالمنابر، وحفت المنابر بالكراسي، فجاء النبيون فقعدوا عليها، ثم يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى.

---

(١) التنبيه والرد ص(١٤٠- ١٤٤)، مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٤).

وقال أنس بن مالك، عن النبي قال: **«يأتوني فأمشي بين أيديهم حتى آتي باب الجنة، وللباب مصراعان من ذهب مسيرة ما بينهما خمسمائة عام، وعلى الباب حلقة من ياقوتة حمراء فأستفتح فيؤذن لي، فأدخل على ربي تبارك وتعالى فأجده قاعدًا على كرسي العزّ فأخر له ساجدًا»**(١)

- قولهم في الصراط

ينكرون الصراط في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الملطي: والآثار جاءت بتكذيب جهم في إنكاره أن الله يجيز على الصَراط عباده.

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله: **«يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل: اللهم سلم، سلم»**، وعن أبي سعيد عنه مثله.

وعن ابن مسعود قال: يأمر الله عز وجل بالصراط فيضرب على جهنم فيمر الناس على قدر أعمالهم كلمح البرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، ثم كأسرع البهائم، كذلك حتى يمر الرجل سعيًا، ثم حفى الرجل مشيًا حتى يكون آخرهم رجلًا يتلبط على بطنه فيقول: يا رب أبطأت، فيقول: إنما أبطأك عملك.

وقال أبو هريرة: يضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد السيف عليه خطاطيف وكلاليب وحسك كحسك السعدان، دونه جسر دحض مزلة فيمرون كطرف العين، أو كملح البرق، أو كمر الريح، أو كجياد الخيل، أو كجياد الركبان، أو كجياد الرجال، فناج سالم، وناج مخدوش، أو مكدوس على وجهه في جهنم(٢).

- قولهم في الميزان

ينكرون الميزان في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم الميزان.

والله عز وجل يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ **[الأنبياء: الآية ٤٧]**

وقالت أم المؤمنين رحمة الله عليها ورضوانه كان رسول الله في حجري فرأيت قربه مني في الدنيا، وتباعدهم في الآخرة بأعمالهم، وذكرت النار فبكيت فقطر من دموعي على لحيته، فقال: **«ما لعائشة»** قالت: يا رسول الله صلى الله عليك ذكرت النار، فبكيت هل تذكرون أهليكم يوم

---

(١) التنبيه والرد ص(١٠٣، ١٠٤)، مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) التنبيه والرد ص(١١٠).

القيامة قال: «**أما في ثلاث مواطن فلا: حين يقال في الصحف: هاؤم فإن أحدًا لا يذكر أحدًا حتى ينظر بيمينه يعطى كتابه أم بشماله؟ وحين توضع الأعمال في الموازين؛ فإن أحدًا لا يذكر أحدًا حتى يثقل ميزانه أو يخف، وحين يؤخذ الناس على الصراط بين ظهراني جهنم جنبتاه كلاليب وحسك فإن أحدًا لا يذكر أحدًا عند ذلك حتى ينظر ينجو أم يقع**».

وقال النبي: «**إن الموازين بيد الله يرفع أقوامًا ويضع آخرين**».

وقال عكرمة: أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل أبصر ماله في ميزان غيره، إنه يأكل كفيه إلى إبطيه ثم ينبتان ثم يأكلهما حسرة وندامة حتى يقضي الله في أمره ما أراد[١]

- قولهم في الكرام الحفظة

ينكرون الملائكة الحفظة والكتبة.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝﴾.

وقد رأى النبي رجلًا يغتسل في صحن داره فقال: «**اتقوا الله، واستحيوا من الكرام الكاتبين إذا اغتسل أحدكم فليتوارَ**».

ودخل يعلى بن عبيد على محمد بن سوقة قال: أحدثكم بحديث لعل الله ينفعك؛ فإنه قد نفعنا قال لنا عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله يقرءونه، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو تنطق بحاجتك لمعيشتك التي لا بد لك منها أتنكرون إن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين، وإن عن اليمين وعن الشمال قعيد أما يستحيي أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التي أملى صدر نهاره أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه[٢]

- قولهم في الحجاب

ينكرون حجاب المولى عز وجل.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم أن يكون لله جل وعلا حجاب.

ومما يدل على أن الله تبارك وتعالى في السماء بائن من خلقه ودونه الحجب التي احتجب بها قال النبي: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار، حجابه النور ولو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره**».

---

(١) التنبيه والرد ص(١١٠، ١١١).

(٢) التنبيه والرد ص(١١١).

وقال كعب الحبر: أقرب الخلق إلى الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل، وهم تحت زوايا العرش وبينهم وبينه مسيرة خمسين ألف سنة.

وقال ابن عمر: احتجب الله من الخلق بأربعة: بنار وظلمة، ونور وظلمة.

وعن وهب بن منبه قال: إن إبليس على عرشه في لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ويحتجب بالحجب دون الرحمن تبارك تعالى[١]

وقال شيخ الإسلام: الجهمية لا تثبت له حجبًا أصلًا؛ لأنه عندهم ليس فوق العرش، ويروون الأثر المكذوب عن علي «أنه سمع قصابًا يحلف، لا والذي احتجب بسبع سموات فعلاه بالدرة، فقال: يا أمير المؤمنين، أكفر عن يميني؟ قال: لا؛ ولكنك حلفت بغير الله»؛ فهذا لا يعرف له إسناد، ولو ثبت كان علي قد فهم من المتكلم أنه عنى أنه محتجب عن إدراكه لخلقه فهذا باطل قطعًا؛ بخلاف احتجابه عن إدراك خلقه له.

ويدل على ذلك الحديث الصحيح: **«إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؛ ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه وهي الزيادة»**[٢]

- قولهم في ملك الموت

ينكرون قبض ملك الموت للأرواح.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم أن ملك الموت يقبض الأرواح، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السَّجدَة: الآية ١١]

ولقي سماك ابن عباس في المدينة فقال: ما تقول في أمر غمني واهتممت به قال: ما هو؟ قلت: نفسان اتفق موتهما في طرفة عين واحد في المشرق وآخر في المغرب كيف قدر عليهما ملك الموت قال: والذي نفسي بيده ما قدرة ملك الموت على أهل المشارق والمغارب والظلمات والنور والهواء إلا كقعدة الرجل على مائدة يتناول من أيها شاء.

وقد ذكر أيضًا أن الدنيا يدبرها أربعة أملاك فجبريل على الريح والجنود وميكائيل على القطر والنبات وملك الأنفس على الأنفس، وكل هؤلاء يرفع إلى إسرافيل.

وقال مجاهد ما على الأرض بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطوف فيه كل يوم مرتين

---

(١) التنبيه والرد ص(١١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ١٠، ١١).

وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[الأنعام: الآية ٦١] قال: تتوفاه الرسل وملك الموت يقبض منهم الأنفس.

قال الحسن بن عبيد الله: هم أعوان ملك الموت، وقال سليمان بن داود لملك الموت عليهما السلام: ألا تعدل بين هؤلاء الناس؟ قال: أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتاب أو صحيفة تلقى[(١)].

- قولهم في عذاب القبر

ينكرون عذاب القبر وفتنته.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم عذاب القبر ومنكرًا ونكيرًا، وقال: أليس يقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾[الدخان: الآية ٥٦]، وقد أخبرنا بأمر منكر ونكير فمن أولى أن يتبع النبي أم جهم.

ثم يقال لهم: أخبرونا عن عزير حين أماته الله عز وجل مائة عام ثم بعثه بعد موته كم موتة أماته، وكم حياة أحياه؟! ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٤٣]

والسبعون الذين قالوا لموسى: أرنا الله جهرة فأماتهم الله ثم أحياهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: الآية ٥٦] كم موتة أماتهم وكم حياة أحياهم؟!

وفيما يخبر عن منكر ونكير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧]، روي عن عمر ﷺ أن رسول الله قال: **«كيف بك يا عمر وبِفَتَّانَيِ القبر إذا أتياك يحفران الأرض بأنيابهما، ويطأان أشعارهما، أعينهما كالبرقِ الخاطفِ، وأصواتهما كالرعد القاصف، معهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يقلوها»** قال عمر: وأنا على مثل ما أنا عليه اليوم يا رسول الله، قال: **«وأنت على مثل ما أنت عليه اليوم»** قال: إذًا أكفيكهما إن شاء الله، قال وعبيد بن عمير يقول: ذلك منكر ونكير.

وعن ابن مسعود قال: يجلس العبد في قبره إجلاسًا فيقال له: ما أنت؟ فإن كان من أهل الجنة، قال: أنا عبد الله حيًا وميتًا، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فيفسح له في قبره ما شاء الله، وينزل عليه من كسوة الجنة، ويرى مكانه في الجنة، ويقال للآخر: ما أنت؟ فيقول: لا أدري ثلاث مرات، فيقال له: لا دريت ثلاثًا، فيضيق عليه قبره حتى

---

(١) التنبيه والرد ص(١٢٣، ١٢٤).

تختلف أضلاعه، ويرى مكانه من النار، فيرسل عليه حيات من جوانب قبره فتنهشه وتأكله فإن جزع وصاح ضرب بمقمعة من نار أو حديد.

وعن عائشة رحمة الله عليها أن النبي كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر».

وقالت: دخلت على امرأة من اليهود فقالت: إن عذاب القبر من البول، فقلت: كذبت قالت: بلى، إنا لنقرض منه الجلود والثوب، فدخل رسول الله وقد ارتفعت أصواتنا فقال: «ما هذا؟» فأخبرناه بما قالت، قال: «صدقت»، فما صلى رسول الله من يومئذ إلا قال في دبر كل صلاة: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حر النار وعذاب القبر»(١)

وتقدم مزيد بيان عند قول الخوارج في عذاب القبر.

- قولهم في الشفاعة

ينكرون الشفاعة.

أقوال العلماء

قال الملطي: وأنكر جهم الشفاعة، وأن قومًا يخرجون من النار.

وأبو هريرة يقول: قال رسول الله: «إن لكل نبيٍّ دعوةً مستجابة، وأني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة لكم إن شاء الله ولمن مات لا يشرك بالله شيئًا».

وعن أنس أن رسول الله قال: «إن قومًا يخرجون من النار قد أصابهم سفع من النار -عقوبة بذنوب عملوها- ثم يخرجهم الله من النار بفضل رحمته فيدخلهم الجنة».

وقال جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله يقول: يخرج قوم بالشفاعة. وعن عليٍّ عليه السلام قال: سمعت رسول الله يقول: «يدخل أناسٌ من أمتي النار فيحرقون حتى يعودوا فحمًا فأستشفع لهم فيدخلون الجنة».

وقال عمر ﷺ: سيخرج بعدكم قوم يكذبون بالرجم، ويكذبون بالدجال، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بقوم يخرجون من النار.

وعن أنس قال: قال رسول الله: «إن الرجل ليشفع في مثل ربيعة ومضر»، وقال عليه السلام: «ليدخلن بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قال أبو ذر: سواك يا رسول الله؟، قال: «سواي»، وعنه عليه السلام أنه قال: «إن من أمتي لمن يشفع في أكثر من ربيعة ومضر».

وعن الحسن بن علي قال: قال رسول الله: «إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم الذين ماتوا على كبائرهم غير نادمين تأخذهم النار على قدر أعمالهم، ثم يخرجهم الله من النار فيدخلهم الجنة»(٢)

---

(١) التنبيه والرد ص(١٢٤، ١٢٥).
(٢) التنبيه والرد ص(١٣٤).

وتقدم مزيد بيان عند قول الخوارج في الشفاعة.

- **قولهم في الإيمان**

الإيمان عندهم هو معرفة الله فقط، ولا يتفاضل.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وإن الإيمان هو المعرفة بالله فقط والكفر هو الجهل به فقط[(١)]

وقال البغدادي: وزعم أيضًا أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط[(٢)]

وقال الرازي: قوله: من أتى بالمعرفة، ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده؛ لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد فهو مؤمن، قال: والإيمان لا يتبعض؛ أي: لا ينقسم إلى: عقد وقول وعمل.

قال: ولا يتفاضل أهله فيه فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد إذ المعارف لا تتفاضل[(٣)]

وقال السكسكي: وكان يقول هو وفرقته: إن الإيمان هو المعرفة بالقلب، وبرسله، وبجميع ما جاء به من عنده فحسب، وإن لم يكن مع ذلك إقرار باللسان، ولا عمل بالجوارح في تأدية فريضة ولا طاعة، وإن إيمانهم بذلك كإيمان جبريل عليه السلام، وإن من تكلم بلسانه كلمة كفر مثل أن يقول: إن لله تعالى شريكًا، أو ولدًا، أو صاحبة وهو يعتقد خلافه فهو مؤمن ولا يضره ذلك[(٤)]

وقال شيخ الإسلام: اعتقد جهم والصالحي والأشعري في المشهور من قوليه وأكثر أتباعه أن الإيمان مجرد العلم[(٥)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الأسماء والأحكام.

- **قولهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٦)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٩).
(٢) الفرق بين الفرق ص(٢٢١).
(٣) الملل والنحل (١/ ٨٨).
(٤) البرهان ص(٣٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٩٤).
(٦) مقالات الإسلاميين ص(٢٧٩).

وقال الإسفراييني: ومع هذه البدع التي حكيناها عنه كان يعاني الخروج، وتعاطي السلاح، وكان يحمل السلاح، ويخرج على السلطان، وينصب القتال معه[(١)]

وقال البغدادي: وكان جهم مع ضلالاته التي ذكرناها يحمل السلاح، ويقاتل السلطان[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الخوارج في الخروج على الأئمة.

- قولهم في المعارف

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وهو أيضًا موافق للمعتزلة في إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع[(٣)]

وقال الإيجي: ووافقوا المعتزلة في إيجاب المعرفة بالعقل[(٤)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في التحسين والتقبيح.

---

(١) التبصير في الدين ص(١٠٨).

(٢) الفرق بين الفرق ص(٢٢٢).

(٣) الملل والنحل (١/ ٨٨).

(٤) المواقف (٣/ ٧١٢).

الفصل السادس
الجَبْرِيَّةُ الكَسْبِيَّةُ

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مقالة الجَبْرِيَّةِ الكسبية.

المبحث الثاني: النجارية ومقالاتها.

المبحث الثالث: الضرارية ومقالاتها.

المبحث الرابع: البكرية ومقالاتها.

المبحث الأول

مقالة الجَبْرِيَّة الكسبية

يثبتون للعبد قدرة غير مؤثرة في المقدور حقيقةً، ولكن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها عند إرادته من العبد، فيكون الفعل خلقًا من الله وكسبًا من العبد، مع قولهم بأن الخلق هو المخلوق، والفعل هو المفعول، فجعلوا أفعال العباد هي فعل لله.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: ولكن طائفة من أهل الكلام -المثبتين للقدر- ظنوا أن الفعل هو المفعول، والخلق هو المخلوق، فلما اعتقدوا أن أفعال العباد مخلوقة مفعولة لله قالوا: فهي فعله، فقيل لهم مع ذلك: أهي فعل العبد؟ فاضطربوا، فمنهم من قال: هي كسبه لا فعله، ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق، ومنهم من قال: بل هي فعل بين فاعلين، ومنهم من قال: بل الرب فعل ذات الفعل، والعبد فعل صفاته[1].

وقال: كثير من المتأخرين من المثبتين للقدر من أهل الكلام ومن وافقهم سلكوا مسلك جهم في كثير من مسائل هذا الباب، وإن خالفوه في بعض ذلك، إما نزاعًا لفظيًّا، وإما نزاعًا لا يعقل، وإما نزاعًا معنويًّا، وذلك كقول من زعم: أن العبد كاسب ليس بفاعل حقيقة، وجعل الكسب مقدورًا، للعبد، وأثبت له قدرة لا تأثير لها في المقدور[2].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: قال جمهور العقلاء: إن هذا كلام متناقض غير معقول، فإن القدرة إذا لم يكن لها تأثير أصلًا في الفعل كان وجودها كعدمها، ولم تكن قدرة؛ بل كان اقترانها بالفعل كاقتران سائر صفات الفاعل في طوله وعرضه ولونه.

ولما قيل لهؤلاء: ما الكسب؟ قالوا: ما وجد بالفاعل وله عليه قدرة محدثة، أو ما يوجد في محل القدرة المحدثة، فإذا قيل لهم: ما القدرة؟ قالوا: ما يحصل به الفرق بين حركة المرتعش وحركة المختار؛ فقال لهم جمهور العقلاء: حركة المختار حاصلة بإرادته دون حركة المرتعش، وهي حاصلة بقدرته أيضًا؛ فإن جعلتم الفرق مجرد الإرادة؛ فالإنسان قد يريد فعل غيره ولا يكون فاعلًا له، وإن أردتم أنه قادر عليه فقد عاد الأمر إلى معنى القدرة، والمعقول من القدرة معنى به يفعل الفاعل، ولا تثبت قدرة لغير فاعل، ولا قدرة يكون وجودها وعدمها بالنسبة إلى الفاعل سواء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٦، ٤٦٧).

وهؤلاء المتبعون لجهم يقولون: إن العبد ليس بفاعل حقيقة؛ وإنما هو كاسب حقيقة، ويثبتون مع الكسب قدرة لا تأثير لها في الكسب، بل وجودها وعدمها بالنسبة إليه سواء، ولكن قرنت به من غير تأثير فيه وزعموا أن كل ما في الوجود من القوى والطبائع والأسباب العلوية والسفلية كقدرة العبد لا تأثير لشيء منها فيما اقترنت به من الحوادث والأفعال والمسببات بل قرن الخالق هذا بهذا لا لسبب ولا لحكمة أصلًا.

وقالوا: إن الطاعات والمعاصي مع الثواب والعقاب كذلك، ليس في الطاعة معنى يناسب الثواب، ولا في المعصية معنى يناسب العقاب، ولا كان في الأمر والنهي حكمة لأجلها أمر ونهى، ولا أراد بإرسال الرسل رحمة العباد ومصلحتهم، بل أراد أن ينعم طائفة ويعذب طائفة لا لحكمة، والسبب هو جعل الأمر والنهي والطاعة والمعصية علامة على ذلك لا لسبب ولا لحكمة، وأنه يجوز أن يأمر بكل شيء حتى بالشرك وتكذيب الرسل والظلم والفواحش، وينهى عن كل شيء حتى التوحيد والإيمان بالرسل وطاعتهم.

وكثير من هؤلاء كأبي الحسن وأتباعه ومن وافقهم من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد مثل ابن عقيل وابن الجوزي وأمثالهما يقولون: إن الخلق هو المخلوق، والفعل هو المفعول، وقد جعلوا أفعال العباد فعلًا لله، والفعل عندهم هو المفعول، فامتنع مع هذا أن يكون فعلًا للعبد؛ لئلا يكون فعل واحد له فاعلان.

وأما الجمهور فيقولون: إنها مخلوقة لله مفعولة له، وهي فعل للعبد قائمة به، وليست فعلًا لله قائمًا به، بل مفعوله غير فعله، والرب تعالى لا يوصف بما هو مخلوق له، وإنما يوصف بما هو قائم به، فلم يلزم هؤلاء أن يكون الرب ظالمًا، وأما أولئك فإذا قالوا: إنه يوصف بالمخلوق المنفصل عنه، فيسمى عادلًا وخالقًا لوجود مخلوق منفصل عنه خلقه، فإنهم ألزموهم أن يكون ظالمًا لخلقه ظلمًا منفصلًا عنه إذ كانوا لا يفرقون فيما انفصل عنه بين ما يكون صفة لغيره وفعلًا له، وبين ما لا يكون؛ إذ الجميع عندهم نسبته واحدة إلى قدرته ومشيئته وخلقه(١)

وقال: والتحقيق ما عليه أئمة السنة، وجمهور الأمة؛ من الفرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق؛ فأفعال العباد هي كغيرها من المحدثات مخلوقة، مفعولة لله، كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة، مفعولة لله، وليس ذلك نفس خلقه وفعله، بل هي مخلوقة ومفعولة، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به، ليست قائمة بالله، ولا يتصف بها فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته، وإنما يتصف بخلقه وفعله، كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته، والعبد فاعل لهذه الأفعال، وهو المتصف بها، وله عليها قدرة، وهو فاعلها باختياره ومشيئته، وذلك كله مخلوق لله، فهي فعل العبد، وهي مفعولة للرب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٦٧- ٤٦٩)، (٨/ ٥٠١، ٥٠٢).

لكن هذه الصفات لم يخلقها الله بتوسط قدرة العبد، ومشيئته؛ بخلاف أفعاله الاختيارية فإنه خلقها بتوسط خلقه لمشيئة العبد وقدرته، كما خلق غير ذلك من المسببات بواسطة أسباب أخر[1]

وقال: ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة -مع قولهم: الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه هو الذي خلق العبد هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا ونحو ذلك- إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝﴾.

وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون في القدر، فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة: الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة، والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين فلا تكون فعلًا له.

وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر بل هي فعله وليست أفعالًا للعباد بل هي كسب للعبد: وقالوا: إن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاتها، وإن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها، فيكون الفعل خلقًا من الله إبداعًا وإحداثًا، وكسبًا من العبد لوقوعه مقارنًا لقدرته، وقالوا: إن العبد ليس محدثًا لأفعاله ولا موجدًا لها، ومع هذا فقد يقولون: إنا لا نقول بالجبر المحض، بل نثبت قدرة حادثة والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة.

وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه وبين الخلق، فقالوا: الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة، وقالوا أيضًا: الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه.

فقال لهم الناس: هذا لا يوجب فرقًا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك؛ فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضًا مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم في محل القدرة الحادثة.

وأيضًا فهذا فرق لا حقيقة له، فأن كون المقدور في محل القدرة أو خارجًا عن محلها لا يعوذ إلى نفس تأثير القدرة فيه، وهو مبني على «أصلين» إن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه، وإن خلقه للعالم هو نفس العالم، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك.

والثاني: أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها ولا يكون شيء من مقدورها خارجًا عن محلها، وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه.

وأيضا فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجًا عن المحل.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١١٩، ١٢٠).

وأيضا قال لهم المنازعون: من المستقر في فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل، ومن فعل الظلم فهو ظالم، ومن فعل الكذب فهو كاذب فإذا لم يكن العبد فاعلًا لكذبه وظلمه وعدله بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب و الظلم، قالوا: وهذا كما قلتم أنتم وسائر الصفاتية: من المستقر في فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم، ومن قامت به القدرة فهو قادر، و من قامت به الحركة فهو متحرك، ومن قام به التكلم فهو متكلم، ومن قامت به الإرادة فهو مريد، وقلتم إذا كان الكلام مخلوقًا كان كلامًا للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات، فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضًا من فعل الأفعال.

وقالوا أيضًا: القرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧]، وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٠]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٧]، وأمثال ذلك.

وقالوا أيضًا إن الشرع والعقل متفقان على أن العبد يحمد ويذم على فعله ويكون حسنة له أو سيئة، فلو لم يكن إلا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها.

وفي المسألة كلام ليس هذا موضع بسطه لكن ننبه على نكت نافعة في هذا الموضع المشكل، فنقول:

قول القائل: هذا فعل هذا، وفعل هذا: لفظ فيه إجمال؛ فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل، وتارة يراد به مسمى المصدر، فيقول فعلت هذا أفعله فعلًا، وعملت هذا أعمله عملًا، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الإنسان وصيامه ونحو ذلك فالعمل هنا هو المعمول، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل؛ وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب وبناء الدار ونحو ذلك، فالعمل هنا غير المعمول، قال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣] فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصَّافات: الآية ٩٦]، فإنه في أصح القولين (ما) بمعني الذي، والمراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾؛ أي: والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها، ومنه حديث حذيفة عن النبي ﷺ: «**إن الله خالق كل صانع وصنعته**»؛ لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من وجه آخر، فيقال: إذا كان خالقًا لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها؛ فإنها إنما صارت أوثانًا بذلك التأليف وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم، وإذا كان خالقًا للتأليف كان خالقًا لأفعالهم.

والمقصود أن لفظ «الفعل» و«العمل» و«الصنع» أنواع، وذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة تقع على نفس مسمى المصدر، وعلى المفعول، وكذلك لفظ «التلاوة» و«القراءة» و«الكلام»

و«القول» يقع على نفس مسمى المصدر، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول والكلام، فيراد بالتلاوة والقراءة نفس القرآن المقروء المتْلو؛ كما يراد بها مسمى المصدر.

والمقصود هنا أن القائل إذا قال: هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد؛ فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل، ولكن من قال هي فعل الله وأراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق.

ثم من هؤلاء من قال: إنه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله ومفعوله وخلقه ومخلوقه.

وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا وهذا فيقولون هذه مخلوقه لله مفعولة لله ليست هي نفس فعله، وأما العبد فهي فعله القائم به، وهي أيضًا مفعولة له إذا أريد بالفعل المفعول؛ فمن لم يفرق في حق الرب تعالى بين الفعل والمفعول إذًا قال: إنها فعل الله تعالى وليس لمسمى فعل الله عنده معنيان، وحينئذ فلا تكون فعلًا للعبد ولا مفعولة له بطريق الأولى، وبعض هؤلاء قال هي فعل للرب وللعبد فأثبت مفعولًا بين فاعلين.

وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على أن فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله، مع أنهم يفرقون في العبد بين الفعل والمفعول فلهذا عظم النزاع وأشكلت المسألة على الطائفتين وخاروا فيها.

وأما من قال: خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال: إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات، ومفعولة للرب كسائر المفعولات، ولم يقل: إنها نفس فعل الرب وخلقه، بل قال: إنها نفس فعل العبد، وعلى هذا تزول الشبهة؛ فأنه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلًا له، كما يفعلها العبد، وتقوم به، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره، كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك، فإذا كان قد خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به، وإذا خلق رائحة منتنة أو طعمًا مرًّا أو صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح لم يكن هو متصفًا بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة، ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها، وسببًا لذمه وعقابه، وجالبة لألمه وعذابه، وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به، لا على الخالق الذي خلقها فعلًا لغيره.

ثم على قول الجمهور الذين يقولون له حكمة فيما خلقه في العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ يقولون: له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة، كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم ومن يقول: لا تعلل أفعاله لا يعلل لا هذا ولا هذا.

يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمى ومرضًا وجوعًا وعطشًا ووصبًا ونصبًا ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم، فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى

والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي أمور ضارة مكروهة مؤذية، وهذا معنى كونها سيئات وقبائح؛ أي أنها تسوء صاحبا وتضره، وقد تسوء أيضًا غيره وتضره، كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره.

يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق في العبد كفرًا وفسوقًا على سبيل الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: الآية ١١٠]، وقوله ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: الآية ٥]

ثم أنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلًا للعبد وكسبًا له يجزي عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى، فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد ابتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه، وإن افترقا من وجه آخر، وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلًا لله دون هذا، وهذا فعلًا للعبد دون هذا، ولكن يقولون: إن هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد، وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء للعبد بما يضره وهم يقولون: لا يحسن منه أن يضر الحيوان إلا بجرم سابق، أو عوض لاحق.

وأما أهل الإثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق.

وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون: لله تعالى فيما يخلقه من أذى الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا، ونحن لا نحصر حكمته في الثواب والعوض فإن هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله[1]

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١١٧- ١٢٥).

المبحث الثاني

النَّجَّارِيَّة

أتباع الحسين بن محمد بن عبد الله النجار (نحو ٢٢٠ هـ)، وأكثر معتزلة الري وما حواليها على مذهبه، وقد سماهم الأشعري: الحسينية[(١)]

قال البغدادي -وهو أشعري-: وقد وافقوا أصحابنا في أصول، ووافقوا القدرية في أصول، وانفردوا بأصول لهم[(٢)]

فِرَقُ النَّجَّارِيَّة

١- البرغوثية: أتباع محمد بن عيسى الملقب ببرغوث، وكان على مذهب النجار في أكثر مذاهبه إلا أنه خالفه في الكسب والتولد[(٣)]

٢- الزعفرانية: أتباع الزعفراني الذي كان بالريِّ، وكان يعبر عن مذهبهم بعبارات متناقضة، فكان من قوله: إن كلام الله غيره، وكل ما هو غير الله فهو مخلوق، ثم يقول: كل من قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر[(٤)]

٣- المستدركة: وهم قوم من الزعفرانية، يزعمون أنهم استدركوا على أسلافهم ما خفي عليهم، فزعموا أن القرآن مخلوق، ثم افترقوا فيه فرقتين، وقولهم بأن أقوال مخالفينا كلها كذب حتى قولهم: لا إله إلا الله[(٥)]

مَقَالَاتُ النَّجَّارِيَّة

- قولهم في القدر

أعمال العباد عندهم مخلوقة لله، والعبد مكتسب لها.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٨٣- ٢٨٥)، التبصير في الدين ص(١٠١- ١٠٣)، الفرق بين الفرق ص(٢١٧- ٢٢٠)، الملل والنحل (١/ ٨٨- ٩٠)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨)، البرهان ص(٣٩)، المواقف (٣/ ٧١٠، ٧١١).

(٢) الفرق بين الفرق ص(٢١٧)، التبصير في الدين ص(١٠١).

(٣) انظر: التبصير في الدين ص(١٠٢)، الفرق بين الفرق ص(٢١٨)، الملل والنحل (١/ ٨٨) ، المواقف (٣/ ٧١٠).

(٤) انظر: التبصير في الدين ص(١٠٢) ، الفرق بين الفرق ص(٢١٩)، الملل والنحل (١/ ٨٨) ، المواقف (٣/ ٧١٠).

(٥) انظر: التبصير في الدين ص(١٠٢، ١٠٣)، الفرق بين الفرق ص(٢١٩، ٢٢٠)، الملل والنحل (١/ ٨٨) ، المواقف (٣/ ٧١٠).

أقوال العلماء

قال الأشعري عن النجار: زعم أن أعمال العباد مخلوقة لله، وهم فاعلون لها[١]

وقال: وكان يخالفهم -أي المعتزلة- في القدر[٢]

وقال: وقال النجار: إن الإنسان قادر على الكسب عاجز عن الخلق، وأن المقدور على كسبه هو المعجوز عن خلقه[٣]

وقال الإسفراييني -وهو أشعري-: يوافقون أهل السنة في بعض أصولهم مثل خلق الأفعال[٤]

وقال البغدادي -وهو أشعري-: الذي وافقوا فيه أصحابنا قولهم معنا: بأن الله تعالى خالق أكساب العباد[٥]

وقال الشهرستاني: ووافقوا الصفاتية في خلق الأعمال

وقال: هو خالق أعمال العباد، خيرها وشرها، حسنها وقبيحها، والعبد مكتسبًا لها، وأثبت تأثيرًا للقدرة الحادثة، وسمي ذلك كسبًا على حسب ما يثبته الأشعري[٦]

وقال الرازي: ويوافقون الجَبْرِيَّة في خلق الأعمال والاستطاعة[٧]

وقال السكسكي: ويثبتون للفعل فاعلين: الله تعالى والعبد[٨]

وقال الإيجي وهو أشعري: هم موافقون لأهل السنة في خلق الأفعال، وأن الاستطاعة مع الفعل، والعبد يكتسب فعله[٩]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند مقالة الجَبْرِيَّةِ الكسبيةِ.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٣).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٥).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٦٦).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠١).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٦) الملل والنحل (١/ ٨٩).
(٧) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).
(٨) البرهان ص(٣٩).
(٩) المواقف (٣/ ٧١٠).

- قولهم في الإرادة

أقوال العلماء

قال الأشعري عنه: إنه لا يكون في ملك الله سبحانه إلا ما يريده، وأن الله سبحانه لم يزل مريدًا أن يكون في وقته ما علم أنه يكون في وقته، مريدًا ألا يكون ما علم أنه لا يكون[(١)].

وقال: وقال حسين النجار: إن الله لم يزل مريدًا أن يكون ما علم أنه يكون، وألا يكون ما علم أنه لا يكون بنفسه لا بإرادة بل بمعنى أنه لم يزل غير آبٍ ولا مكره[(٢)].

وقال الإسفراييني وهو أشعري: يوافقون أهل السنة في بعض أصولهم مثل، ...، والإرادة[(٣)].

وقال البغدادي -وهو أشعري-: الذي وافقوا فيه أصحابنا قولهم معنا، ...، وأنه لا يحدث في العالم إلا ما يريده الله تعالى[(٤)].

وقال الشهرستاني: قال النجار: الباري تعالى مريد لنفسه كما هو عالم لنفسه، فألزم عموم التعلق، فالتزم وقال: هو مريد الخير والشر، والنفع والضر، وقال أيضًا: معنى كونه مريدًا أنه غير مستكره ولا مغلوب[(٥)].

وقال الشهرستاني: ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث، وبشر بن غياث المريسي، والحسن النجار متقاربون في المذهب، وكلُّهم أثبتوا كونه تعالى مريدًا لم يزل لكل ما علم أنه سيحدث من خير وشر، وإيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية، وعامة المعتزلة يأبون ذلك[(٦)].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الأشعرية في الإرادة.

- قولهم في الاستطاعة

الاستطاعة عندهم تكون مع الفعل.

أقوال العلماء

قال الأشعري عنه: وأن الاستطاعة لا يجوز أن تتقدم الفعل، وأن العون من الله سبحانه يحدث في حال الفعل مع الفعل، وهو الاستطاعة، وأن الاستطاعة الواحدة لا يفعل بها فعلان،

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٣).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥١٤).
(٣) التبصير في الدين ص(١٠١).
(٤) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٥) الملل والنحل (١/ ٨٩).
(٦) الملل والنحل (١/ ٩٠).

وأن لكل فعل استطاعة تحدث معه إذا حدث، وأن الاستطاعة لا تبقى، وأن في وجودها وجود الفعل، وفي عدمها عدم الفعل، وأن استطاعة الإيمان توفيق وتسديد وفضل ونعمة وإحسان وهدى، وأن استطاعة الكفر ضلال وخذلان وبلاء وشر، وأنه جائز كون الطاعة في حال المعصية التي هي تركها، بألا تكون كانت المعصية التي هي تركها في ذلك الوقت، وبألا يكون كان الوقت وقتًا للمعصية التي هي تركها.

وأن المؤمن مؤمن مهتدٍ، وفقه الله سبحانه وهداه، وأن الكافر مخذول، خذله الله سبحانه وأضله، وطبع على قلبه، ولم يهده، ولم ينظر له، وخلق كفره، ولم يصلحه، ولو نظر له وأصلحه لكان صالحًا[(١)]

وقال الإسفراييني وهو أشعري: يوافقون أهل السنة في بعض أصولهم مثل الاستطاعة والإرادة[(٢)]

وقال البغدادي -وهو أشعري-: الذي وافقوا فيه أصحابنا قولهم معنا: إن الاستطاعة مع الفعل، وإنه لا يحدث في العالم إلا ما يريده الله تعالى[(٣)]

وقال الشهرستاني: ووافقه -أي وافق النجارُ الأشعريَّ- أيضًا في أن الاستطاعة مع الفعل[(٤)]

وقال الرازي: ويوافقون الجَبْرِيَّة في خلق الأعمال والاستطاعة[(٥)]

وقال الإيجي عنهم: وأن الاستطاعة مع الفعل[(٦)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: فإن قيل هذا الذي ذكرتموه يبين أن تقدم علم الله وكتابه بالسعادة والشقاوة وغير ذلك من الأمور لا يمنع توقف ذلك على الأعمال والأسباب التي جعل الله بها تلك الأمور، وذلك يبين أن ذلك لا يمنع أن يكون العبد عاملًا للعمل الصالح الذي به يسعده الله، وأن يكون قادرًا على ذلك مريدًا له، وإن كان ذلك كله بتيسير الله للعبد -وإن تنازع الناس في تسمية ذلك جبرًا- لكن هل يكون العبد قادرًا على غير الفعل الذي فعله الذي سبق به العلم والكتاب، فهذا مما تنازع فيه الناس، كما تنازعوا في أن الاستطاعة هل يجب أن تكون مع الفعل أو يجب أن تتقدمه، فمن قال من أهل الإثبات: إن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، يقول: العبد لا

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٣، ٢٨٤).
(٢) التبصير في الدين ص(١٠١).
(٣) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٤) الملل والنحل (١/ ٨٩).
(٥) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).
(٦) المواقف (٣/ ٧١٠).

يستطيع غير ما يفعله، وهو ما تقدم به العلم والكتاب.

ومن قال: إن الاستطاعة قد تتقدم الفعل، وقد توجد دون الفعل فإنه يقول: إنه يكون مستطيعًا لما لم يفعله، ولما علم وكتب أنه لا يفعله.

وفصل الخطاب، أن الاستطاعة جاءت في كتاب الله على نوعين:

الاستطاعة المشترطة للفعل: وهي مناط الأمر والنهي كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: الآية ٢٥] الآية ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: الآية ٤] وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: الآية ١٨٤]، وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»، فإن الاستطاعة في هذه النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألا يجب الحج إلا على من حج، ولا يجب صيام شهرين إلا على من صام ولا القيام في الصلاة إلا على من قام، وكان المعنى: على الذين يصومون الشهر طعام مسكين، والآية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام والإطعام في شهر رمضان.

والاستطاعة التي يكون معها الفعل: قد يقال هي المقترنة بالفعل الموجبة له -وهي النوع الثاني- وقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: الآية ٢٠]، ونحو ذلك قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

فإن الاستطاعة المنفية هنا -سواء كان نفيها خبرًا أو ابتداء- ليست هي الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي فإن تلك إذا انتفت انتفى الأمر والنهي والوعد والوعيد والحمد والذم والثواب والعقاب، ومعلوم أن هؤلاء في هذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون؛ فعلم أن المنفية هنا ليست المشروطة في الأمر والنهي المذكورة في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦]

لكن قد يقال: الاستطاعة هنا كالاستطاعة المنفية في قول الخضر لموسى ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧] فإن هذه الاستطاعة المنفية، لو كان المراد بها مجرد المقارنة في الفاعل والتارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين وبين المؤمنين، ولا بين الخضر وموسى؛ فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله، والقرآن يدل على أن هذه الاستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل، فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التي تصد قلبه عن إرادة الفعل وعمله، وبكل حال فهذه الاستطاعة منتفية في حق من كتب عليه أنه لا يفعل، بل وقضى عليه بذلك.

وإذا عرف هذا التقسيم -أن إطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل، ولا يستطيع خلاف المعلوم المقدر، وإطلاق القول بأن استطاعة الفاعل والتارك سواء، وأن الفاعل لا يختص عن التارك باستطاعة خاصة، عرف أنَّ كلا الإطلاقين خطأ وبدعة[١]

وتقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الاستطاعة، وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية فيها.

- قولهم في فعل الإنسان في نفسه وفي غيره (التولد)

يزعم أن الإنسان يفعل في نفسه، ولا يفعل في غيره مما هو منفصل عنه، وإنما هو فعل الله عز وجل.

أقوال العلماء

قال الأشعري عنه: وأن الإنسان لا يفعل في غيره، وأنه لا يفعل الأفعال إلا في نفسه، كنحو: الحركات والسكون والإرادات والعلوم والكفر والإيمان، وأن الإنسان لا يفعل ألمًا، ولا إدراكًا، ولا رؤية، ولا يفعل شيئًا على طريق التولد.

وكان «برغوث» يميل إلى قوله، ويزعم أن الأشياء المتولدة فعل الله بإيجاب الطبع، وذلك أن الله سبحانه طبع الحجر طبعًا يذهب إذا دفع، وطبع الحيوان طبعًا يألم إذا ضرب وقطع[٢]

وقال الإسفراييني: قوله: إن الأفعال المتوالدة فعل الله تعالى لا بإيجاب الطبع والخلقة[٣]

وقال البغدادي -وهو أشعري-: وقال النجار في المتولدات بمثل قول أصحابنا فيها إنها من فعل الله تعالى باختيار لا طبْع من طبع الجسم الذي سموه مولِّدًا[٤].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: قد تنازع الناس في «قدرة الرب والعبد» فقالت طائفة: كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل، ويتناول مقدوره وهذا أصح الأقوال، وبه نطق الكتاب والسنة، وهو أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر ومقدوره المباين له، وقد تبين بعض ما دل على ذلك في قدرة الرب.

وأما قدرة العبد: فذكر قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة، وهذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة، مثل قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦]، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: الآية ٤]، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٤٢] الآية، وقول النبي ﷺ: «صلِّ قائمًا، فإن

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٨٩- ٢٩٢)، (٨/ ٤٤١، ٤٤٢).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٤).

(٣) التبصير في الدين ص(١٠٢).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٢١٩).

لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنبك».

وأما المباين لمحل القدرة، فمثل قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: الآية ٢٠] إلى قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] إلى: ﴿ قديرا ﴾، فدل على أنهم قدروا على الأول، وهذه يمكن أن يقدروا عليها وقتًا آخر. وهذه قدرة على الأعيان، وقوله: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: الآية ٢٥] إلى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ [القلم: الآية ٣٢] الآية، قال أبو الفرج: وفي قوله قادرين ثلاثة أقوال:

أحدها: قادرين على جنتهم عند أنفسهم، قاله قتادة. قلت: وهو قول مجاهد وقتادة. رواه ابن أبي حاتم عنهما، قال مجاهد: قادرين في أنفسهم، وهذا الذي ذكره البغوي: قادرين عند أنفسهم على جنتهم. وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد، وعن قتادة قال: غدا القوم وهم يحدون إلى جنتهم، قادرين على ذلك في أنفسهم.

قال أبو الفرج: **والثاني**: قادرين على المساكين، قاله الشعبي: أي على منعهم، وقيل: على إعطائهم لكن البخل منعهم من الإعطاء، والله أعلم.

والثالث: غدوا وهم قادرين؛ أي واجدون، قاله ابن قتيبة.

قلت: الآية وصفتهم بأنهم غدوا على حرد قادرين، فالحرد يرجع إلى القصد، فغدوا بإرادة جازمة وقدرة، ولكن الله أعجزهم، وقول من قال: قادرين عند أنفسهم؛ أي: ظنوا أن الأمر يبقى كما كان، ولو كان كذلك لتمت قدرتهم، لكن سلبوا القدرة بإهلاك جنتهم.

قال البغوي: الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب. قال الحسن وقتادة وأبو العالية على جد وجهد، وقال القرظي ومجاهد وعكرمة: على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم. قال: وهذا على معنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر، وقال أبو عبيدة والقتيبي: غدوا من أنفسهم على حرد: على منع المساكين؛ يقول: حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر، وحاردت الناقة عليَّ إذا لم يكن لها لبن، وقال الشعبي وسفيان: على حنق وغضب من المساكين، وفي تفسير الوالبي: عن ابن عباس على قدرة.

قلت: الحرد فيه معنى العزم الشديد؛ فإن هذا اللفظ يقتضي هذا، وحرد السنة والناقة لما فيه من معنى الشدة، وكذلك الحنق والغضب فيه شدة؛ فكان لهم عزم شديد على أخذها، وعلى حرمان المساكين، وغدوا بهذا العزم قادرين ليس هناك ما يعجزهم وما يمنعهم، لكن جاءها أمر من السماء فأبطل ذلك كله، وقيل الحرد هو الغيظ والغضب، والله أعلم.

ونظير هذا وهو صريح في المطلوب أن القدرة تكون على الأعيان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: الآية ٢٤] إلى قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: الآية ٢٤] الآية. وقوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس: الآية ٢٤] يبين أنه لولا الجائحة لكان ظنهم صادقًا، وكانوا قادرين عليها؛ لكن لما أتاها

أمر الله تبين خطأ الظن، ولو لم يكونوا قادرين عليها لا في سلامتها ولا في حال عطبها، لم يكن الله أبطل ظنهم بما أحدثه من الإهلاك، وهؤلاء لم يكونوا ذهبوا ليحصدوا، بل سلبوا القدرة عليها -وهي القدرة التامة- فانتفت لانتفاء المحل القابل، لا لضعف من الفاعل، وفي تلك قال: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القَلَم: الآية ٢٥] ولم يقل قادرين عند أنفسهم، فإن كان كما قاله من قال عند أنفسهم فالمعنى واحد، وإن أريد بكونهم قادرين أي ليس في أنفسهم ما ينافي القدرة: كالمرض والضعف ولكن بطل محل القدرة كالذي يقدر على النقد والرزق ولا شيء عنده.

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ١٨] فهم في هذه الحال لا يقدرون مما كسبوا على شيء؛ فدل على أنهم في غير هذا يقدرون على ما كسبوا، وكذلك غيرهم يقدر على ما كسب، فالمراد بالمكسوب المال المكسوب.

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ﴾ [النحل: الآية ٧٥] فلما ذكر في المملوك أنه لا يقدر على شيء، ومقصوده أن الآخر ليس كذلك، بل هو قادر على ما لا يقدر عليه هذا، وهو إثبات الرزق الحسن مقدورًا لصاحبه، وصاحبه قادر عليه، وبهذا ينطق عامة العقلاء يقولون: فلان يقدر على كذا وكذا، وفلان يقدر على كذا وكذا، ومقدرة هذا دون مقدرة هذا.

ومما يبين ذلك: أن الملك نائب للعباد على ما ملكهم الله إياه، والملك مستلزم للقدرة فلا يكون مالكًا إلا من هو قادر على التصرف بنفسه، أو بوليه أو وكيله، والعقد والمنقول مملوك لمالكه، فدل على أنه مقدور له، وقد قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ﴾ [المائدة: الآية ٢٥] لما كان قادرًا على التصرف في أخيه؛ لطاعته له جعل ذلك ملكًا له، وقال تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: الآية ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرُف: الآية ١٣] أي: مطيقين؛ فدل على أنهم صاروا مقرنين مطيقين لما سخرها لهم، فهو معنى قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: الآية ٧١] وقد قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٩٧] فدل على أنهم لو نقبوا ذلك لكانوا قد استطاعوا النقب، والنقب ليس هو حركة أيديهم، بل هو جعل الشيء منقوبًا؛ فدل على أن ذلك النقب مقدور للعباد.

وأيضًا فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم، وما كان مصنوعًا لهم فهو مقدرو بالضرورة والاتفاق، والمنازع يقول: ليس شيء خارجًا عن محل قدرتهم مصنوعًا لهم، وهذا خلاف القرآن قال تعالى لنوح: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: الآية ٣٧] وقال: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هُود: الآية ٣٨]، وقد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم، وجعلها من آياته، فقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: الآية ٤١]، ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحَجّ: الآية ٦٥]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾

[الزخرف: الآية ١٢]، وقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فجعل الأصنام منحوتة معمولة لهم، وأخبر أنه خالقهم، وخالق معموهم فإن «ما» هاهنا بمعنى الذي والمراد خلق ما تعملونه من الأصنام، وإذا كان خالقًا للمعمول وفيه أثر الفعل، دل على أنه خالق لأفعال العباد، وأما قول من قال: إن «ما» مصدرية فضعيف جدًّا.

وقال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧] وإنما دمر ما بنوه وعرشوه، فأما الأعراض التي قامت بهم فتلك فَنِيَتْ قبل أن يغرقوا، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧] دليل على أن العروش مفعول لهم، هم فعلوا العرش الذي فيه، وهو التأليف، ومثل قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٢٨] يدل على أن المبني هم بنوه حيث قال: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٢٨] وكذلك قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٤٩]، هو كقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٥] وقوله: ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفَجر: الآية ٩] دل على أنهم جابوا الصخر؛ أي: قطعوه.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبَة: الآية ٥] فأمر بقتلهم، والأمر إنما يكون بمقدور العبد، فدل على أن القتل مقدور له، وهو الفعل الذي يفعله في الشخص فيموت، وهو مثل الذبح ومنه قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٣] وقوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ [المَائدة: الآية ٩٥] وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المَائدة: الآية ٩٥] يدل على أن الصيد مقتول للآدمي الذي قتله، بخلاف قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ١٧] فإنه مثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفَال: الآية ١٧] فإن قتلهم حصل بأمور خارجة عن قدرتهم، مثل إنزال الملائكة، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وكذلك الرمي لم يكن في قدرته، أن التراب يصيب أعينهم كلهم، ويرعب قلوبهم، فالرمي الذي جعله الله خارجًا عن قدرة العبد المعتاد هو الرمي الذي نفاه الله عنه.

قال أبو عبيد: ما ظفرت أنت ولا أصبت، ولكن الله ظفرك وأيدك، وقال الزجاج: ما بلغ رميك كفًا من تراب، أو حصًى أن يملأ عيون ذلك الجيش الكثير، إنما الله تولى ذلك، وذكر ابن الأنباري: ما رميت قلوبهم بالرعب، إذ رميت وجوههم بالتراب، ولهذا كان هذا أمرًا خارجًا عن مقدوره، فكان من آياته نبوته[(١)]

- قولهم في اللطف

أقوال العلماء

قال الأشعري عنه: وإن الله سبحانه لو لطف بجميع الكافرين لآمنوا، وهو قادر أن يفعل بهم من الألطاف ما لو فعله بهم لآمنوا، وأن الله سبحانه كَلَّفَ الكفار ما لا يقدرون عليه، لتركهم

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٢- ١٨)، (٦/ ٢٣٧، ٢٣٨).

له، لا لعجز حل فيهم، ولا لآفة نزلت بهم[١]

- قولهم في حكم الأطفال في الآخرة

يقولون بجواز إيلامهم وبجواز التفضل عليهم فلا يؤلمهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري عنه: وأنه جائز أن يؤلم الله سبحانه الأطفال في الآخرة، وجائز أن يتفضل عليهم فلا يؤلمهم[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في حكم الأطفال في الآخرة.

- قولهم في الآجال

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يقول: إن الميت يموت بأجله، وكذلك المقتول يُقْتَلُ بأجله[٣]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الآجال.

- قولهم في الأرزاق

أقوال العلماء

قال الأشعري: وإن الله سبحانه يرزق الحلال، ويرزق الحرام، وإن الرزق على ضربين: رزق غذاء، ورزق مِلْكٍ[٤]

نقض قولهم

تقد بيان ذلك عند قول المعتزلة في الأرزاق.

- قولهم في المعارف

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وقال في المفكر قبل ورود السمع مثل ما قالت المعتزلة: إنه يجب عليه تحصيل المعرفة بالنظر والاستدلال[٥]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٤).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٥).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٥).

(٥) الملل والنحل (١/ ٩٠).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في التحسين والتقبيح.

- قولهم في الأسماء والصفات

ينفون صفات المولى عز وجل.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن الله سبحانه لم يزل جوادًا بنفي البخل عنه، وأنه لم يزل متكلمًا، بمعنى أنه لم يزل غير عاجز عن الكلام، وأن كلام الله سبحانه مُحْدَث مخلوق.

وكان يقول في التوحيد بقول المعتزلة، إلا في باب الإرادة والجود(١)

وقال: وقال الحسين بن محمد النجار: الله تعالى لم يزل جوادًا بنفي البخل عنه، ولم يثبت لله جودًا كان به جوادًا(٢)

وقال: وكان حسين النجار يزعم أن الله لم يزل جوادًا بنفي البخل عنه لا على أنه أثبت جوادًا(٣)

وقال: وكان الحسين النجار يزعم أنه نور السموات والأرض بمعنى أنه هادي أهل السموات والأرض(٤)

وقال: وكان النجار يقول: لم يزل البارئ صادقًا على معنى لم يزل قادرًا على الصدق(٥)

وقال الإسفراييني: ويوافقون القدرية في بعض الأصول مثل نفي الحياة والقدرة(٦)

وقال البغدادي: وأما الذي وافقوا فيه القدرية فنفي علم الله تعالى وقدرته وحياته وسائر صفاته الأزلية(٧)

وقال الشهرستاني: ووافقوا المعتزلة في نفي الصفات من العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر(٨)

وقال الرازي: وهم يوافقون المعتزلة في مسائل الصفات(٩)

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٤، ٢٨٥).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(١٨٢).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٠٧).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٥٣٤).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(٥٨١).
(٦) التبصير في الدين ص(١٠١).
(٧) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٨) الملل والنحل (١/ ٨٩).
(٩) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).

وقال السكسكي: وكان ينفي هو وأصحابه الصفات إلا الإرادة؛ فإنهم أثبتوا القديم مريدً بنفسه[١]

وقال الإيجي أنهم موافقون: للمعتزلة في نفي الصفات[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الأسماء والصفات، وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة التعطيل.

- قولهم في علو البارئ عز وجل

ينفون علو البارئ عز وجل، ويزعمون أنه بذاته في كل مكان.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وحكى الكعبي عن النجار أنه قال: الباري تعالى بكل مكان ذاتًا، ووجودًا لا على معنى العلم والقدرة، وألزمه محالات على ذلك[٣]

وقال شيخ الإسلام: وقسم ثانٍ يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية[٤]

وقال: قول حلولية الجهمية الذين يقولون: إنه بذاته في كل مكان كما يقول ذلك النَّجَّارِيَّة أتباع حسين النجار وغيرهم من الجهمية[٥]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الصوفية في الحلول والاتحاد.

- قولهم في كلام الله عز وجل

كلام الله عندهم محدث مخلوق.

أقوال العلماء

قال الأشعري عنه: وإن كلام الله سبحانه محدث مخلوق[٦]

وقال الإسفراييني: ويقولون بحدوث الكلام[٧]

---

(١) البرهان ص(٣٩).

(٢) المواقف (٣/ ٧١٠).

(٣) الملل والنحل (١/ ٩٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧- ٢٩٩).

(٦) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٤).

(٧) التبصير في الدين ص(١٠١).

وقال: واختلف أصحاب النجار في العبارة عن قولهم بخلق القرآن، بعد اتفاقهم على أنه مخلوق وفي غيره اختلافًا كثيرًا[(١)]

وقال البغدادي: وأما الذي وافقوا فيه القدرية، . . . ، والقول بحدوث كلام الله تعالى[(٢)]

وقال: وافترقوا بعد هذا فيما بينهم في العبارة عن خلق القرآن[(٣)]

وقال الشهرستاني: وقال بحدوث الكلام[(٤)]

وقال الرازي عن موافقتهم المعتزلة في مسائل: القرآن[(٥)]

وقال السكسكي: ويقولون: إن القرآن مخلوق[(٦)]

وقال الإيجي أنهم موفقون للمعتزلة في: حدوث الكلام[(٧)]

وقال شيخ الإسلام: من يقول: إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة النَّجَّارِيَّة والضرارية وغيرهم[(٨)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في كلام الله عز وجل.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

ينفون رؤية المولى عز وجل بالأبصار في الآخرة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أنه جائز أن يُحَوِّلَ الله سبحانه العين إلى القلب، ويجعل في العين قوة القلب، فيَرَى الله سبحانه الإنسانُ بعينه؛ أي: يعلمه بها، وكان ينكر الرؤية لله عز وجل بالأبصار على غير هذا الوجه[(٩)]

وقال: وقال الحسين النجار: إنه يجوز أن يحول الله العين إلى القلب ويجعل لها قوة العلم فيعلم

(١) التبصير في الدين ص(١٠٢).
(٢) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٣) الفرق بين الفرق ص(٢١٨)، مجموع الفتاوى (٦/ ١٦١).
(٤) الملل والنحل (١/ ٨٩).
(٥) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).
(٦) البرهان ص(٣٩).
(٧) المواقف (٣/ ٧١٠).
(٨) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٨، ١١٩).
(٩) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٥).

بها ويكون ذلك العلم رؤية له أي علمًا له[(١)]

وقال الإسفراييني: ويوافقون القدرية في بعض الأصول مثل نفي الرؤية[(٢)]

وقال البغدادي: وأما الذي وافقوا فيه القدرية، . . .، وإحالة رؤيته بالأبصار[(٣)]

وقال الشهرستاني: وأما في مسألة الرؤية فأنكر رؤية الله تعالى بالأبصار وأحالها؛ غير أنه قال: يجوز أن يحوّل الله تعالى القوة التي في القلب من المعرفة إلى العين، فيعرف الله تعالى بها فيكون ذلك رؤية[(٤)]

وقال الرازي عن موافقتهم المعتزلة في مسائل: الرؤية[(٥)]

وقال شيخ الإسلام: وقال القاضي أبو يعلى وغيره: كانت الأمة في رؤية الله بالأبصار على قولين: منهم المحيل للرؤية عليه، وهم المعتزلة، والنجارية، وغيرهم من الموافقين لهم على ذلك[(٦)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في الأسماء والأحكام

الإيمان عندهم هو معرفة القلب وإقرار اللسان فقط، والكفر هو الجهل أو عدم الإقرار بعد قيام الحجة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: ويقول بالإرجاء[(٧)]

وقال الإسفراييني: ومما أطبق عليه النَّجَّارِيَّة قولهم إن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبالفرائض التي أجمع عليها المسلمون، والخضوع لله والإقرار بجميع ذلك باللسان. وقالوا: إنَّ كل خصلة من خصال الإيمان تكون طاعة ولا تكون إيمانًا، وإنَّ الإيمان يزيد ولا ينقص[(٨)]

وقال البغدادي: والذي يجمع النجارية في الإيمان قولهم بأن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى وبرسله وفرائضه التي أجمع عليها المسلمون والخضوع له والإقرار باللسان فمن جهل شيئًا من ذلك

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).
(٢) التبصير في الدين ص(١٠١).
(٣) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٤) الملل والنحل (١/ ٨٩).
(٥) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٨).
(٦) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٠).
(٧) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٥).
(٨) التبصير في الدين ص(١٠١).

بعد قيام الحجة به عليه أو عرفه ولم يقر به فقد كفر.

وقالوا: كل خصلة من خصال الإيمان طاعة وليست بإيمان ومجموعها إيمان وليست خصلة منها عند الانفراد إيمانا ولا طاعة.

وقالوا: إن الإيمان يزيد ولا ينقص[(١)]

وقال الشهرستاني: وقال في الإيمان: إنه عبارة عن التصديق[(٢)]

وقال السكسكي: كان هو وفرقته يعتقدون الإيمان بالقول دون العمل مجرد[(٣)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الأسماء والأحكام

- قولهم في الوعيد

أقوال العلماء

قال الإسفراييني وهو أشعري: يوافقون أهل السنة في بعض أصولهم مثل أبواب الوعيد[(٤)]

وقال البغدادي وهو أشعري: ووافقونا أيضًا في أبواب الوعيد وجواز المغفرة لأهل الذنوب[(٥)]

وقال الشهرستاني عنه: ومن ارتكب كبيرة ومات عليها من غير توبة عوقب على ذلك، ويجب أن يخرج من النار، فليس من العدل التسوية بينه وبين الكفار في الخلود[(٦)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الوعيد.

- قولهم في الجسم

أقوال العلماء

قال الأشعري: وزعم ضرار وحفص الفرد والحسين النجار أن الأجزاء هي اللون والطعم والحر والبرد والخشونة واللين، وهذه الأشياء المجتمعة هي الجسم، وليس للأجزاء معنى غير هذه الأشياء، وأن أقل ما يوجد من الأجزاء عشرة أجزاء، وهو أقل قليل الجسم، وإن هذه الأشياء

---

(١) الفرق بين الفرق ص(٢١٧، ٢١٨).
(٢) الملل والنحل (١/ ٩٠).
(٣) البرهان ص(٣٩).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠١).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢١٧).
(٦) الملل والنحل (١/ ٩٠).

متجاورة ألطف مجاورة، وأنكروا المداخلة[١]

قال الإسفراييني: ويقولون: إن حقيقة الجسم أعراض مجتمعة كاللون والطعم والرائحة، وما لا يخلو عنه الجسم من جملة الأعراض. ويقولون: إن هذه الأعراض إذا اجتمعت كانت جسمًا، وربما قالوا: كانت جواهر، وهذا متناقض؛ لأن الجسم أو الجوهر لا يكون إلا قائمًا بنفسه، والعرض لا يكون قائمًا بنفسه.

ويقولون: إن كلام الله إذا قرئ فهو عرض، وإذا كتب فهو جسم. قالوا: ولو كتب بالدم على موضع صار ذلك الدم كلام الله تعالى[٢]

وقال البغدادي: وزعم النجار أن الجسم أعراض مجتمعة وهي الأعراض التي لا ينفك الجسم عنها كاللون والطعم والرائحة وسائر ما لا يخلو الجسم منه ومن ضده فأما الذي يخلو الجسم منه ومن ضده كالعلم والجهل ونحوهما فليس شيء منها بعضًا للجسم.

وزعم أيضًا أن كلام الله تعالى عرض إذا قرئ، وجسم إذا كتب وأنه لو كتب بالدم صار ذلك الدم المقطع تقطيع حروف الكلام كلامًا لله تعالى بعد إن لم يكن كلامًا حين كان دمًا مسفوحًا[٣]

وقال الشهرستاني: قوله: إن كلام الباري تعالى إذا قرئ فهو عرض، وإذا كتب فهو جسم[٤]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والعقلاء متنازعون في إثبات هذا، وهو أن الأجسام هل هي مركبة من الجواهر المفردة؟ أم من المادة والصورة؟ أم ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا على ثلاثة أقوال:

أصحها الثالث أنها مركبة لا من الجواهر المفردة، ولا من المادة والصورة، وهذا قول كثير من طوائف أهل الكلام كالهشامية، والضرارية، والنجارية، والكلابية، وكثير من الكرامية، وهو قول جمهور الفقهاء، وأهل الحديث، والصوفية وغيرهم، بل هو قول أكثر العقلاء كما قد بسط في موضعه[٥]

وتقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الجسم والجوهر الفرد، وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية فيه.

- قولهم في بقاء الأعراض

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار بن عمرو والحسين بن محمد النجار: إن الأعراض التي هي غير

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٣١٧، ٣١٨).

(٢) التبصير في الدين ص(١٠١).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٢١٨).

(٤) الملل والنحل (١/ ٨٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٩)، (١٧/ ٣٢٠- ٣٢٤).

لأجسام يستحيل أن تبقى زمانين، وكان ضرار والحسين النجار يقولان: البقاء للجسم الذي هو أبعاض منها كذا ومنها كذا.

وكان النجار ينكر بقاء الاستطاعة؛ لأنها ليست بداخله في جملة الجسم وهي غيره ويستحيل أن يكون في غيرها؛ لأنه يستحيل أن يبقى الشيء ببقاء في غيره[(١)]

- قولهم في تشابه المحدثات

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال حسين النجار ومن قال بقوله: إن الأشياء المحدثات كلها مشتبهة في باب الحدث متفقة فيه أجسامها وأعراضها وأنه لا يشبه المخلوق إلا مخلوق؛ لأنه لو جاز أن يشبه المخلوق ما ليس بمخلوق لجاز أن يشبه الخالق ما ليس بخالق[(٢)]

- قولهم في المعلوم والمجهول

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال النجار وأصحابه: أما المحدثات فقد يجوز أن تجهل وتعلم من وجهين في حال واحد، وأما القديم فلن يجوز أن يعرفه من يجهله على وجه من الوجوه، واعتلوا في ذلك بأن زعموا أن للمحدثات أمثالًا ونظائر، وأنها من جنس ونوع وجهات مختلفة كالبياض الذي هو نوع من أنواع الألوان وله أمثال ونظائر فقد يجوز أن يعرفه لونًا من لا يدري من أي أنواع الألوان هو. قالوا: وقد يجوز أن يعرفه بالخبر العام من لا يعرفه من جهة الحس والخبر الخاص، وقد يجوز أن يعرفه بالخبر من لا يعرفه من جهة الحس، والخبر العام هو قول النبي: «**اعلموا لونا قد حدث في يومنا هذا**».

والخبر الخاص هو قوله: «**اعلموا أن ذلك اللون بياض**»، وقد قال بهذا القول قوم غير النجار وأصحابه[(٣)]

- قولهم في ظهور الأعلام على غير الأنبياء

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال قائلون قد يجوز أن تظهر المعجزات على الكذابين الذين يدعون الإلهية، ولا يجوز أن تظهر على الكذابين الذين يدعون النبوة قال: لأن من يدعي الإلهية ففي بنيته ما يكذبه في دعواه وليس من ادعى النبوة في بنيته ما يكذبه أنه نبي فهذا قول حسين النجار[(٤)]

(١) مقالات الإسلاميين ص(٣٥٩، ٣٦٠).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٣٥٣).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٣٩٢).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٤٣٨).

المبحث الثالث

الضِّرَارِيَّة

أتباع ضرار بن عمرٍو الغطفانيّ الكوفيّ (نحو ١٩٠ هـ)، قاضٍ من كبار المعتزلة، وقد تابعه حفص الفرد وغيره[(١)]

مقالات الضرارية

- **قولهم في القدر**

الفعل عندهم لفاعلين حقيقة:

أحدهما: خَلَقَه وهو الله.

والآخر: اكْتَسَبَه وهو العبد.

أقوال العلماء

قال الأشعري: والذي فارق ضرار بن عمرو به المعتزلة قوله: إن أعمال العباد مخلوقة، وأن فعلًا واحدًا لفاعلين:

أحدهما: خَلَقَه وهو الله.

والآخر: اكْتَسَبَه وهو العبد.

وإن الله عز وجل فاعل لأفعال العباد في الحقيقة وهم فاعلون لها في الحقيقة[(٢)]

وقال الإسفراييني -وهو أشعري-: وهو موافق لأهل السنة في القول بخلق الأفعال[(٣)]

وقال البغدادي -وهو أشعري-: وافق أصحابنا في أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى أكساب للعباد[(٤)]

وقال الشهرستاني: وقالا -أي ضرار وحفص-: أفعال العباد مخلوقة للباري تعالى حقيقة والعبد مكتسبها حقيقة، وجوزوا حصول فعل بين فاعلين[(٥)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٨١، ٢٨٢)، التبصير في الدين ص(١٠٥، ١٠٦)، الفرق بين الفرق ص(٢٢٣- ٢٢٥)، الملل والنحل (١/ ٩٠، ٩١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٩)، البرهان ص(٥٢، ٥٣).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨١).

(٣) التبصير في الدين ص(١٠٥).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).

(٥) الملل والنحل (١/ ٩١).

وقال الرازي: كان في بدو أمره -أي ضرار- تلميذًا لواصل بن عطاء ثم خالفه في خلق الأعمال[(١)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند مقالة الجَبْرِيَّة الكسبية.

- قولهم في الإرادة

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار بن عمرو إرادة الله سبحانه على ضربين؛ إرادة هي المراد وإرادة هي الأمر بالفعل، وزعم أن إرادته لفعل الخلق هي فعل الخلق وإرادته لفعل العباد هي خلق فعل العباد وخلق فعل العباد هو فعل العباد؛ وذلك أنه كان يزعم أن خلق الشيء هو الشيء.

وقال بشر المريسي وحفص الفرد ومن قال بقولهما: إرادة الله على ضربين إرادة هي صفة له في ذاته، وإرادة هي صفة له في فعله، وهي غيره فالإرادة التي زعموا أنها صفة لله سبحانه في فعله، وأنها غيره هي أمره بالطاعة والإرادة التي ثبتوها صفة لله في ذاته واقعة على كل شيء سوى الله من فعله وفعل خلقه[(٢)]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الأشعرية في الإرادة.

- قولهم في الاستطاعة

الاستطاعة عندهم تكون قبل الفعل ومع الفعل، وهي بعض المستطيع.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن الاستطاعة قبل الفعل ومع الفعل، وأنها بعض المستطيع[(٣)]

وقال الإسفراييني: وهو موافق لأهل القدر في قولهم: إن الاستطاعة قبل الفعل، لكنه زاد عليهم بأن قال يجب أن يكون مع الفعل أيضًا وفارقهم أيضًا بقولهم إن الاستطاعة بعض من المستطيع[(٤)]

وقال البغدادي: وافق المعتزلة في أن الاستطاعة قبل الفعل، وزاد عليهم بقوله: إنها قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، وإنها بعض المستطيع[(٥)]

---

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٩).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥١٥).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٨١).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٥).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٤).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والنجارية في الاستطاعة، وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية فيها.

- قولهم في التولد

يزعم أن فعل الإنسان في غيره -ما تولد عن فعله- هو فعل لله عز وجل وفعل له.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن كل ما تولد عن فعله، كالألم الحادث عن الضربة، وذهاب الحجر الحادث عن الدفعة، فعل لله سبحانه وللإنسان[١]

وقال: وقال ضرار وحفص الفرد ما تولد من فعلهم مما يمكنهم الامتناع منه متى أرادوا فهو فعلهم، وما سوى ذلك مما لا يقدرون على الامتناع منه متى أرادوا فليس بفعلهم ولا وجب لسبب وهو فعلهم.

وكان ضرار بن عمرو يزعم أن الإنسان يفعل في غير حيزه، وأن ما تولد عن فعله في غيره من حركة أو سكون فهو كسب له خلق لله عز وجل، وكل أهل الإثبات غير ضرار يقولون: لا فعل للإنسان في غيره ويحيلون ذلك[٢]

وقال الإسفراييني وهو أشعري: وهو موافق لأهل السنة في القول بخلق الأفعال، وفي نفي التولد[٣]

وقال البغدادي وهو أشعري: وافق أصحابنا، .. ، وفي إبطال القول بالتولد[٤]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول النجارية في فعل الإنسان في نفسه وفي غيره (التولد).

- قولهم في المعارف

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وقال في المفكر قبل ورود السمع إنَّه لا يجب عليه بعقله شيء حتى يأتيه الرسول فيأمره وينهاه، ولا يجب على الله تعالى شيء بحكم العقل[٥]

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨١).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٤٠٧، ٤٠٨).
(٣) التبصير في الدين ص(١٠٥).
(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).
(٥) الملل والنحل (١/ ٩١).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في التحسين والتقبيح وحق المخلوق على الخالق، وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية فيهما.

- قولهم في الأسماء والصفات

ينفون صفات المولى عز وجل.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار: معنى أن الله عالم أنه ليس بجاهل، ومعنى أنه قادر أنه ليس بعاجز، ومعنى أنه حي أنه ليس بميت[١]

وقال: وكان يزعم أن معنى أن الله عالم قادر أنه ليس بجاهل ولا عاجز وكذلك كان يقول في سائر صفات البارئ لنفسه[٢]

وقال: وأما ضرار بن عمرو فكان يقول: أذهب من قولي: إن الله سبحانه عالم إلى نفي الجهل، ومن قولي: قادر إلى نفي العجز، وهو قول عامة المثبتة[٣]

وقال الإسفراييني: وكان يقول: إن لله تعالى ماهية يرى هو في تلك الماهية[٤]

وقال: وكان يقول: إن الله تعالى يسمى حيًّا عالمًا قادرًا على معنى أنه ليس بميت ولا جاهل ولا عاجز لا على معنى أن له صفة ترجع إلى ذاته وهذا الكلام منه يوجب أن يكون العرض حيًّا عالمًا قادرًا؛ لأنه ليس بميت ولا جاهل ولا عاجز[٥]

وقال البغدادي: ومنها قوله: إن معنى قولنا: إن الله تعالى عالم حي، هو أنه ليس بجاهل ولا ميت، وكذلك قياسه في سائر أوصاف الله تعالى من غير إثبات معنى أو فائدة سوى نفي الوصف بنقيض تلك الأوصاف عنه[٦]

وقال الشهرستاني: واتفقا -أي ضرار وحفص- في التعطيل وعلى أنهما قالا: الباري تعالى عالم قادر على معنى أنه ليس بجاهل ولا عاجز، وأثبتا لله سبحانه ماهية لا يعلمها إلا هو[٧]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٦٦)، مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨١).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٤٨٧).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٥).
(٥) التبصير في الدين ص(١٠٦).
(٦) الفرق بين الفرق ص(٢٢٥).
(٧) الملل والنحل (١/ ٩٠، ٩١).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الأسماء والصفات، وسيأتي مزيد بيان عند الكلام عن مقالة التعطيل.

- قولهم في كلام الله عز وجل

كلام الله عندهم مخلوق.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكذلك حكى زرقان عن ضرار أنه قال القرآن من الله خلقًا، ومني قراءة وفعلًا؛ لأني أقرأ القرآن والمسموع هو القرآن والله يأجرني عليه فأنا فاعل والله خالق[١]

وقال شيخ الإسلام: من يقول: إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في كلام الله عز وجل.

- قولهم في أحرف القرآن

ينكرون بعض الأحرف التي نزل بها القرآن.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وحكي عنه أنه كان ينكر حرفَ ابن مسعود، ويشهد أن الله -سبحانه- لم ينزله، وكذلك حرف أبي بن كعب[٣]

وقال الإسفراييني: وكان ينكر قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب وكان يقول: أشهد أن الله تعالى ما أنزل ذلك على الخلق وكان يضلل هذين الإمامين من أعلام الصحابة في مصحفيهما[٤]

وقال البغدادي: وإنه أنكر حرف ابن مسعود وحرف أبي بن كعب وشهد بأن الله تعالى لم ينزلهما، فنسب هذين الإمامين من الصحابة إلى الضلالة في مصحفيهما[٥]

وقال الشهرستاني: ويحكى عن ضرار أنه كان ينكر حرف عبد الله بن مسعود، وحرف أبي بن

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٩٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١١٨/١٢، ١١٩).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٢).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٥).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٤).

كعب، ويقطع بأن الله تعالى لم ينزله[١].

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

ينفون رؤية المولى عز وجل بالأبصار في الآخرة، وأثبتوا رؤيته بحاسة سادسة تكون يوم القيامة للمؤمنين.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال قائلون منهم ضرار وحفص الفرد: إن الله لا يرى بالأبصار ولكن يخلق لنا يوم القيامة حاسة سادسة غير حواسنا هذه فندركه بها وندرك ما هو بتلك الحاسة[٢].

وقال: وكان يزعم أن الله سبحانه يخلق حاسة سادسة يوم القيامة للمؤمنين يرون بها ماهية أي ما هو[٣]

وقال الإسفراييني: وزاد على الجميع بأن قال: إن الله يرى بحاسة سادسة خلاف الحواس الخمس التي هي مستعملة للخلق فيما بينهم[٤]

وقال البغدادي: وانفرد بأشياء منكرة: منها: قوله بأن الله تعالى يرى في القيامة بحاسة سادسة يرى بها المؤمنون ماهية الإله، وقال: لله تعالى ماهية لا يعرفها غيره يراها المؤمنون بحاسة سادسة[٥]

قال الشهرستاني: وأثبتا -أي ضرار وحفص- حاسه سادسة للإنسان يرى بها الباري تعالى يوم الثواب في الجنة[٦]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في الأسماء والأحكام

يشكون في عامة المسلمين، وقالوا: لا ندري لعل سرائرهم كلها شرك وكفر.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وأنه كان يزعم أنه لا يدري لعل سرائر العامة كلها كفر وتكذيب.

---

(١) الملل والنحل (١/ ٩١).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٢)، (٣٣٩).

(٤) التبصير في الدين ص(١٠٥).

(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٤).

(٦) الملل والنحل (١/ ٩١).

قال: ولو عرضوا عليَّ إنسانًا لوسعني أن أقول: لعله يضمر الكفر.

قال: وكذلك إذا سئلت عنهم جميعًا، قلت: لا أدري لعلهم يسرون الكفر[(١)]

وقال الإسفراييني: وكان يقول: لا أدري أن عوام المسلمين كفار أو مسلمون وكان لا يحكم بظاهر حالهم وكان يقول: لعل سرائرهم كلها شرك وكفر، وهذا خلاف إجماع أهل السنة حيث قالوا: إنَّا نقطع أن في عوام المسلمين مؤمنين عارفين براء من الكفر والشرك[(٢)]

وقال البغدادي: ومنها أنه شك في جميع عامة المسلمين، وقال: لا أدري لعل سرائر العامة كلها شرك وكفر[(٣)]

وقال السكسكي: كان هو وفرقته يقولون: إن من الممكن أن جميع أهل الأرض المظهرين للإسلام كفار في باطن أمرهم؛ لأن ذلك جائز على كل واحد منهم في ذاته، فيؤدي ذلك إلى استحلال دماء المسلمين وأموالهم[(٤)]

- قولهم في الإمامة

يُقَدَّم عندهم غير القرشي على القرشي في الإمامة إذا تساويا في الفضل.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفوا إذا اجتمع قرشي وأعجمي وتساويا في الفضل أيهما أولى على؟ مقالتين:

فقال ضرار بن عمرو: يولى الأعجمي؛ لأنه أقلهما عشيرة.

وقال سائر الناس: يولى القرشي فهو أولى بها[(٥)]

وقال الشهرستاني: وزعم ضرار أيضًا أن الإمامة تصلح في غير قريش، حتى إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي؛ إذ هو أقل عددًا، وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة.

والمعتزلة وإن جوَّزوا الإمامة في غير قريش، إلا أنهم لا يجوِّزون تقديم النبطي على القرشي[(٦)]

وقال الرازي: زعم أن الإمامة بغير القرشيين أولى منها بالقرشي[(٧)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٢).

(٢) التبصير في الدين ص(١٠٥، ١٠٦).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٢٢٥).

(٤) البرهان ص(٥٢، ٥٣).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(٤٦٢).

(٦) الملل والنحل (١/ ٩١).

(٧) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٩).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الإمامة.

- قولهم في قتال الصحابة

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار وأبو الهذيل ومعمر: نعلم أن أحدهما مصيب والآخر مخطئ فنحن نتولى كل واحد من الفريقين على الانفراد، وأنزلوا الفريقين منزلة المتلاعنين الذين يعلمون أن أحدهما مخطئ ولا يعلمون المخطئ منهما، هذا قولهم في علي وطلحة والزبير وعائشة، فأما معاوية فهم له مخطِّئون غير قائلين بإمامته[١]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في تصويب علي بن أبي طالب.

- قولهم في خبر الحاد

لا يقبلون خبر الآحاد.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وقالا -أي ضرار وحفص-: الحجة بعد رسول الله ﷺ في الإجماع فقط، فما ينقل عنه في أحكام الدين من طريق أخبار الآحاد فغير مقبول[٢]

- قولهم في عذاب القبر

ينكرون عذاب القبر

أقوال العلماء

قال الرازي: كان في بُدُوِّ أمره تلميذًا لواصل بن عطاء ثم خالفه في، . . .، وإنكار عذاب القبر[٣]

وقال الإيجي: وأنكره ضرار بن عمرو[٤]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في عذاب القبر.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٥٧).

(٢) الملل والنحل (١/ ٩١).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٩).

(٤) المواقف (٣/ ٥١٦).

- قولهم في الجسم

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار بن عمرو: الجسم أعراض أُلِّفَتْ وجمعت فقامت وثبتت فصارت جسمًا يحتمل الأعراض إذا حل والتغيير من حال إلى حال، وتلك الأعراض هي ما لا تخلو الأجسام منه أو من ضده نحو الحياة والموت اللذين لا يخلو الجسم من واحد منهما، والألوان والطعوم التي لا ينفك من واحد من جنسها، وكذلك الزنة كالثقل والخفة، وكذلك الخشونة واللين، والحرارة والبرودة، والرطوبة اليبوسة، وكذلك الصمد. فأما ما ينفك منه ومن ضده فليس ببعض له عنده، وذلك كالقدرة والألم والعلم والجهل.

وليس يجوز عنده أن تجتمع هذه الأعراض وتصير أجسادًا بعد وجودها، ومحال أن يفعل بها ذلك إلا في حال ابتدائها؛ لأنها لا تخرج إلى الوجود إلا مجتمعة، وقد يمكن أن يجتمع عنده كلها وهي موجودة، ومحال أن يفترق كلها وهي موجودة؛ لأنها لو افترقت مع الوجود لكان اللون موجودًا لا لملوَّن، والحياة موجودة لا لحي.

فإذا قلت له: فليس يجوز على هذا القياس عليها الافتراقُ؟ قال مرة: افتراقها فناؤها، وقال مرة: الافتراق يجوز على الجسمين، فأما أبعاض الجسم مع الوجود فلا.

وقد يجوز عنده أن يفنى بعض الجسم وهو موجود على أن يجعل مكانه ضده، فإن لم يختلف الضدان يفنى مع البعض، وليس يجوز عنده أن يفنى الأكثر ولا النصف على هذه الشريطة؛ لأن الحكم فيما زعم للأغلب، فإذا كان الأغلب باقيًا كانت سمة الجسم باقية، وإذا ارتفع الأغلب لم تبق السمة على الأقل، وقد يجوز عنده أن يفني الله بعضه ويحدث ضده وهو متحرك؛ فيكون الكل الذي منه البعض الحادث في حال وجود الحركة متحركًا بتلك الحركة، وكذلك لو كان ساكنًا، ومحال أن تقع الحركة عنده على شيء من الأعراض، وإنما تقع على الجسم الذي هو أعراض مجتمعة[1]

وقال عنه: وإن الإنسان أعراض مجتمعة، وكذلك الجسم أعراض مجتمعة من: لون وطعم ورائحة وحرارة وبرودة ومجسة وغير ذلك.

وأن الأعراض قد يجوز أن تنقلب أجسامًا، وأبى ذلك أكثر الناس.

وأن الإنسان قد يفعل الطول والعرض والعمق، وإن كان ذلك أبعاضًا للجسم[2]

وقال: وقال ضرار: إن الجسم من أشياء مجتمعة على المجاورة فتجاورت ألطف المجاورة وأنكر المداخلة، وأن يكون شيئان في مكان واحد عرضان أو جسمان[3]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٣٠٥، ٣٠٦)، (٣٤٥).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨١).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٣٢٨).

وقال الإسفراييني: ووافق النجار في قوله: إن الجسم أعراض مجتمعة[١]

وقال البغدادي: ووافق النجار في دعواه أن الجسم أعراض مجتمعة من لون وطعم ورائحة ونحوها من الأعراض التي لا يخلو الجسم منها[٢]

وقال الشهرستاني: وقالا -أي ضرار وحفص-: يجوز أن يقلب الله تعالى الأعراض أجسامًا، والاستطاعة والعجز بعض الجسم وهو جسم ولا محالة بنفي زمانين[٣].

وقال السكسكي: ويقولون: إن الأشياء أعراض مجتمعة، وإنه ليس في النار حر، ولا في الثلج برد، ولا في العسل حلاوة، ولا في الصبر مرارة، ولا في العنب عصير، ولا في الزيتون زيت، ولا في العروق دم، وإنما خلق الله تعالى ذلك عند القطع والذوق واللمس فقط[٤].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إنه لا يوجد في كلام النبي ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين، ولا أحد من الأئمة المتبوعين: أنه علق بمسمى لفظ «الجوهر»، و«الجسم»، و«التحيز»، و«العرض» ونحو ذلك شيئًا من أصول الدين: لا الدلائل ولا المسائل، والمتكلمون بهذه العبارات يختلف مرادهم بها. تارة لاختلاف الوضع، وتارة لاختلافهم في المعنى الذي هو مدلول اللفظ كمن يقول «الجسم» هو المؤلف، ثم يتنازعون هل هو الجوهر الواحد بشرط تأليفه؟ أو الجوهران فصاعدًا أو الستة؟ أو الثمانية؟ أو غير ذلك؟ ومن يقول هو الذي يمكن فرض الأبعاد الثلاثة فيه، وأنه مركب من المادة والصورة، ومن يقول هو الموجود، أو الموجود القائم بنفسه؛ وأن الموجود لا يكون إلا كذلك.

والسلف والأئمة الذين ذموا وبَدَّعُوا الكلام في الجوهر والجسم والعرض تضمن كلامهم ذم من يدخل المعاني التي يقصدها هؤلاء بهذه الألفاظ في أصول الدين في دلائله، وفي مسائله نفيًا وإثباتًا[٥]

وقال: وأما من جهة العقل فبينهم نزاع فيما اتفقوا على تسمية جسمًا كالسماء والأرض، والريح والماء، ونحو ذلك مما يشار إليه ويختص بجهة وهو متحيز. قد تنازعوا هل هو مركب من جواهر لا تقبل القسمة، أو من مادة وصورة، أو لا من هذا ولا من هذا؟ وأكثر العقلاء على القول الثالث، وكل من القولين الأولين قاله طائفة من النظار. والأول كثير في أهل الكلام

---

(١) التبصير في الدين ص(١٠٥).

(٢) الفرق بين الفرق ص(٢٢٤).

(٣) الملل والنحل (١/ ٩١).

(٤) البرهان ص(٥٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٧، ٣٠٨)، (٥/ ٤١٩، ٤٢٨).

والثاني كثير في الفلاسفة؛ لكن قول الطائفتين باطل معلوم بالعقل بطلانه عند أهل القول الثالث[(١)]

وتقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في الجسم والجوهر الفرد، وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية فيه.

- قولهم في الإدراك

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار: الإدراك كسب للعبد خلق لله[(٢)]

- قولهم في الثقل والخفة

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ضرار بن عمرو ثقل الشيء بعضه وخفته بعضه[(٣)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٣٤).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٣٨٣).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٤٢١).

المبحث الرابع
البَكْرِيَّة

أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد[(١)]

مَقَالَاتُ البَكْرِيَّة

- قولهم في التولد

ينفون فعل العبد في غيره -ما تولد عن فعله-، وإنما هو فعل لله.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن الله هو المخترع للألم عند الضربة، وقد يجوز عنده أن يحدث الضربة، ولا يحدث الله ألمًا، وكذلك قوله في باب التولد[(٢)]

وقال الإسفراييني -وهو أشعري-: وكان يقول في التولد بقول أهل السنة[(٣)]

وقال البغدادي -وهو أشعري-: ويوافق أصحابنا في إبطال القول بالتولد، وفي أن الله تعالى هو مخترع الألم عند الضرب، وأجاز وقوع الضرب من غير حدوث ألم، وكذا القطع، كما أجاز ذلك أصحابنا[(٤)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول النجارية في فعل الإنسان في نفسه وفي غيره (التولد).

- قولهم في الاستطاعة

الاستطاعة عندهم قبل الفعل.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يقول: إن الاستطاعة قبل الفعل، فيما حكى عنه زرقان[(٥)]

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٨٦، ٢٨٧)، التبصير في الدين ص(١٠٩، ١١٠)، الفرق بين الفرق ص(٢٢٢، ٢٢٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٩)، البرهان ص(٣٠)، لسان الميزان (٢/ ٦٠).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).

(٣) التبصير في الدين ص(١٠٩).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٢٢).

(٥) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والنجارية في الاستطاعة، وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية فيها.

- قولهم في الطبع

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن الإنسان إذا طبع الله سبحانه على قلبه، لم يكن مخلصًا أبدًا.

وحكى عنه زرقان أن الإنسان مأمور بالإخلاص مع الطبع، وأن الطبع الحائل بينه وبين الإخلاص عقوبة له، وأنه مأمور بالإيمان مع الطبع الحائل بينه وبين الإيمان.

وحكى زرقان عن عبد الواحد بن زيد أنه كان يقول: إنه غير مأمور بالإخلاص، وحكى بعض أصحابه عنه: أنه كان ينكر الأمر بما قد حيل بينه وبينه[١]

- قولهم في ألم الأطفال في الدنيا

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن الأطفال الذين في المهد لا يألمون، ولو قطعوا وفصلوا، ويجوز أن يكون الله سبحانه لَذَّذَهُم عندما يضربون ويقطعون[٢]

وقال ابن حزم: قال إن الأطفال لا يألمون ألبتة.

قال أبو محمد: ولا ندري لعله يقول مثل ذلك في الحيوان[٣]

وقال الإسفراييني: كان يقول: إن الصبيان في المهد لا يجدون ألمًا حتى لو حرقوا وقطعوا وقرضوا بالمقراض وهم يبكون ويضجون ويصيحون ولا ينالهم من ذلك ألم بحال[٤]

وقال البغدادي: زعم أن الأطفال في المهد لا يألمون وأن قطعوا أو حرقوا، وأجاز أن يكونوا في وقت الضرب والقطع والإحراق متلذذين مع ظهور البكاء والصياح منهم[٥]

وقال الرازي: يزعمون أن الأطفال والبهائم لا يحسون بالألم[٦]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٦).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٦، ٢٨٧).

(٣) الفصل (٣/٦٨).

(٤) التبصير في الدين ص(١١٠).

(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).

(٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٩).

- قولهم في علو الباري عز وجل

أقوال العلماء

قال الأشعري: وحكي عنه أن الله بكل مكان[١].

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الصوفية في الحلول والاتحاد.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

يزعمون أن الله يخلق يوم القيامة صورة يُرى فيها ويُكلِّم عباده منها.

أقوال العلماء

قال الأشعري: قالت البَكْرِيَّة: إن الله يخلق صورة يوم القيامة يرى فيها ويكلم خلقه منها[٢]

وقال: وكان يزعم أن الله يرى يوم القيامة في صورة يخلقها وأنه يكلم عباده منها[٣]

وقال الإسفراييني: قوله إن الله تعالى يرى يوم القيامة في صورة يخلقها يكون فيها ويكلم العباد من تلك الصورة[٤]

وقال البغدادي: قوله بأن الله تعالى يُرى في القيامة في صورة يخلقها، ويكلم عباده من تلك الصورة[٥].

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في الأسماء والأحكام

مرتكب الكبائر عندهم عابد للشيطان منافق في الدرك الأسفل من النار، وهو مع ذلك مؤمن مسلم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: والذي كان يذهب إليه في الكبائر التي تكون من أهل القبلة، أنها نفاق كلها، وأن مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة عابد للشيطان، مكذب لله سبحانه، جاحد له، منافق، في الدرك الأسفل من النار، مخلد فيها أبدًا، إن مات مُصِرًّا، وأنه ليس في قلبه لله عز وجل إجلال

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢١٦).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٩).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).

ولا تعظيم، وهو -مع ذلك- مؤمن مسلم، وأن في الذنوب ما هو صغير، وأن الإصرار على الصغائر كبائر[١]

وقال: وكان يزعم أن القاتل لا توبة له[٢]

وقال ابن حزم: اختلف الناس في تسمية المذنب من أهل ملتنا

وقال بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد: هو كافر مشرك كعابد الوثن بأي ذنب كان منه صغيرًا أو كبيرًا ولو فعله على سبيل المزاح[٣]

وقال الإسفراييني: ومنها أنه كان يقول من وجد منه كبيرة من أهل القبلة فهو منافق وعابد الشيطان وإن كان من أهل القبلة ويكون في الدرك الأسفل من النار مع المنافقين خالدًا مخلدًا ومع هذا كان يقول: إنه مؤمن مسلم[٤]

وقال البغدادي: قوله في الكبائر الواقعة من أهل القبلة إنها نفاق، وأن صاحب الكبيرة منافق وعابد للشيطان وإن كان من أهل الصلاة، وزعم أيضًا أنه مع كونه منافقًا مكذب لله تعالى جاحد له وأنه يكون في الدرك الأسفل من النار مخلدًا فيها وأنه مع ذلك مسلم مؤمن[٥]

وقال السكسكي: قالوا: من عصى الله ولو مرة واحدة أو سرق حبة من خردل أو غيرها فهو كافر[٦]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في الأسماء والأحكام.

- قولهم في الصحابة

يزعمون أن عليًا وطلحة والزبير أذنبوا ذنوبًا هي كفر وشرك، وهم مغفور لهم.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يقول في عليٍّ، وطلحة، والزبير: إنهم مغفور لهم قتالهم، وإنه كفر وشرك، وزعم أن الله سبحانه اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[٧]

وقال: وقال بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد أن عليًا وطلحة والزبير مشركون منافقون، وهم

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٦).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٦).
(٣) الفصل (٣/١٢٨)، (٤/١٤٦).
(٤) التبصير في الدين ص(١٠٩).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).
(٦) البرهان ص(٣٠).
(٧) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).

في الجنة لقول النبي: «**إن الله سبحانه اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(١)]

وقال الإسفراييني: وكان يقول في علي وطلحة والزبير: إنهم أذنبوا ذنوبًا كفروا بذلك وصاروا مشركين، ولكن الله يغفر لهم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى اطلع على أهل بدر، وقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(٢)]

وقال البغدادي: قال في علي وطلحة والزبير: إن ذنوبهم كانت كفرًا وشركًا غير أنهم كانوا مغفورًا لهم لما روي في الخبر: «**إن الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**[(٣)] وقال السكسكي: وقالوا: إن طلحة والزبير رضي الله عنهما كافران لكنهما من أهل الجنة؛ لأنهما من أهل بدر ومن شهد بدرًا مع النبي ﷺ فهو من أهل الجنة عندهم، وإن كان كافرًا[(٤)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في الصحابة.

- قولهم في ماهية الإنسان

الإنسان عندهم هو الروح دون الجسد.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يزعم أن الإنسان هو الروح، وكذلك جميع الحيوان، ولم يكن يُجَوِّزُ أن يحدث الله في جماد شيئًا من الحياة، والعلم، والقدرة[(٥)]

وقال الإسفراييني: وكان في أيام النظام وكان يوافقه في قوله: إن الإنسان هو الروح لا هذا القالب الذي تكون الروح فيه[(٦)]

وقال البغدادي: وكان يوافق النظام في دعواه أن الإنسان هو الروح دون الجسد الذي فيه الروح[(٧)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الشيعة في ماهية الإنسان.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٥٧).
(٢) التبصير في الدين ص(١٠٩).
(٣) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).
(٤) البرهان ص(٣٠).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).
(٦) التبصير في الدين ص(١٠٩).
(٧) الفرق بين الفرق ص(٢٢٢).

- **قولهم في بعض الأحكام الشرعية**

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يحرم أكل الثوم والبصل؛ لأنه حرام على الإنسان أن يقرب المسجد إذا أكلهما، وكان يرى الوضوء من قرقرة البطن[١].

وقال الإسفراييني: وكان مع هذه البدع يتكلم في الفقه، ويقول بتحريم الثوم والبصل، وكان يقول متى ما تحرك ريح في الجوف وجب به الطهارة[٢].

وقال البغدادي: أبدع في الفقه تحريم أكل الثوم والبصل، وأوجب الوضوء من قرقرة البطن[٣]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٧).

(٢) التبصير في الدين ص(١١٠).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٢٢٣).

الباب السادس

المُعَطِّلَة

وهو يحتوي على سبعة فصول:

الفصل الأول: تعريف المُعَطِّلَة.

الفصل الثاني: نشأة المُعَطِّلَة.

الفصل الثالث: مقالة المُعَطِّلَة.

الفصل الرابع: فرق المُعَطِّلَة.

الفصل الخامس: الكُلَّابِيَّة ومقالاتها.

الفصل السادس: الأشْعَرِيَّة ومقالاتها.

الفصل السابع: الماتُرِيدِيَّة ومقالاتها.

الفصل الأول
تعريف المُعَطِّلَة

المُعَطِّلَة: هم الذين ينفون وجود الله، أو ذاته، أو أسماءه وصفاته، أو صفاته كلية، أو بعض صفاته، مما ثبت له في القرآن والسنة الصحيحة.

أقوال العلماء

قال مطهر بن طاهر المقدسي (بعد ٣٥٥ هـ): المُعَطِّلَة الذين ينكرون إثبات البارئ سبحانه[(١)]

وقال الخوارزمي (٣٨٧ هـ): المُعَطِّلَة الذين لا يثبتون الباري عز وجل[(٢)]

وقال ابن خزيمة (٣١١ هـ): الجهمية المُعَطِّلَة الذين لا يؤمنون بكتاب الله، يحرفون الكلم عن مواضعه تشبهًا باليهود، ينكرون أن لله علمًا، يزعمون أنهم يقولون: إن الله هو العالم، وينكرون أن لله علمًا مضافًا إليه من صفات الذات[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: المُعَطِّلَة الذين ينفون صفات الله أو بعضها ويشبهونه بالجماد والمعدوم[(٤)]

وقال: أهل التعطيل نفاة الصفات[(٥)]

وقال: ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات: «معطلة»؛ لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى، وإن كانوا هم قد لا يعلمون أن قولهم مستلزم للتعطيل؛ بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون: هو موجود قديم واجب، ثم ينفون لوازم وجوده، فيكون حقيقة قولهم: موجود ليس بموجود، حق ليس بحق، خالق ليس بخالق؛ فينفون عنه النقيضين: إما تصريحًا بنفيها، وإما إمساكًا عن الأخبار بواحد منهما[(٦)]

وقال: المتفلسفة المُعَطِّلَة الذين يقولون: إن الله تعالى لم يتكلم، وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال[(٧)]

---

(١) البدء والتاريخ (١/ ١٠٩).
(٢) مفاتيح العلوم ص(٢٥)
(٣) التوحيد (١/ ٢٢).
(٤) الصفدية (٢/ ٣١٣)، (٢/ ٣- ٥).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٣).
(٦) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٢٦، ٣٢٧)، (١٢/ ٥١٦).
(٧) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٠).

وقال: وكذلك الجهمية فإن أصل ضلالهم إنما هو التعطيل وجحد ما جاءت به الرسل عن الله عز وجل من أسمائه وصفاته(١).

وقال: ولهذا لما اطلع الأئمة على أن هذا حقيقة قول الجهمية سموهم معطلة، وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئًا، وربما قالت الجهمية: هو شيء لا كالأشياء، فإذا نفى القدر المشترك مطلقًا لزم التعطيل العام(٢).

وقال عن الجهمية: هم المُعَطِّلَة لصفات الرحمن(٣).

وقال: إنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله تعالى وحقائق أسمائه وأن القرآن مخلوق حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى(٤).

وقال: الجهمية المُعَطِّلَة الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات(٥).

وقال: وكذلك سائر الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات لما أثبتوا واحدًا لا يتصف بشيء من الصفات، كانوا عند أئمة العلم الذين يعرفون حقيقة قولهم إنما توحيدهم تعطيل مستلزم لنفي الخالق؛ وإن كانوا قد أثبتوه فهم متناقضون جمعوا بين ما يستلزم نفيه وما يستلزم إثباته.

ولهذا وصفهم أئمة الإسلام بالتعطيل وأنهم دلّاسون ولا يثبتون شيئًا ولا يعبدون شيئًا ونحو ذلك، كما هو موجود في كلام غير واحد من أئمة الإسلام، مثل عبد العزيز بن الماجشون، وعبد الله بن المبارك، وحماد بن زيد، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل، وغير هؤلاء(٦).

وقال عن الجهمية: ولهذا كان الإمام أحمد وغيره من الأئمة يعلمون مقصودهم، وأن غرضهم التعطيل، وأنهم زنادقة والزنديق المنافق(٧).

وقال عن المعتزلة: واطلع الأئمة الحذاق من العلماء على أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة(٨).

وقال عن الكُلَّابِيَّة ومن تبعهم: ولما ظهر هؤلاء ظهر حينئذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١١١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٧٥)، (٦/ ٣٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٥).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٠٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠).
(٦) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٤٣، ١٤٤).
(٧) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٥٢).
(٨) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٥٥)، (١٢/ ٥٧٩، ٥٨٠).

يقول: إن الله لم يتكلم بصوت، فأنكر أحمد ذلك، وجَهَّم من يقوله، وقال: هؤلاء الزنادقة إنما يدورون على التعطيل[١].

وقال: وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفى عن الله ما أثبته لنفسه من المُعَطِّلَة والممثلة؛ فإنه قال على الله غير الحق[٢].

وقال: النافي معطل والمعطل يعبد عدمًا[٣].

وقال ابن القيم: المُعَطِّلَة هم الذين أنكروا صفات الرب، ونعوت كماله، وعلوه على خلقه، واستواءه على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لملائكته وعباده[٤].

وقال: المُعَطِّلَة الذين قالوا ما فوق العرش إلا العدم، وليس فوق العرش رب يعبد، ولا إله يصلى له ويسجد، ولا ترتفع الأيدي إليه، ولا رفع المسيح إليه، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا أسرى برسول الله إليه، ولا دنى منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ولا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا يراه أهل الجنة من فوقهم يوم القيامة، واستواؤه على عرشه لا حقيقة له، بل على المجاز الذي يصح نفيه، وعلوه فوق خلقه بالرتبة والشرف لا بالذات، وكذلك فوقيته فوقية قهر لا فوقية ذات، فنَزَّهوه عن كمال علوه وفوقيته، ووصفوه بما ساوَوا به بينه وبين العدم والمستحيل؛ فقالوا: لا هو داخل العلم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا منفصل عنه، ولا محايث له، ولا مباين له، ولا هو فينا، ولا خارج عنا[٥]

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٦٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٢).
(٤) شفاء العليل ص(١٨٩).
(٥) مدارج السالكين (١/ ١٦٤، ١٦٥).

الفصل الثاني

نشاة المُعَطِّلَة

مما يُقطع به أنه لم تظهر مقالة التعطيل في القرن الأول بين المسلمين، وإنما ظهرت أول ما ظهرت في أوائل القرن الثاني، على يد الجعد بن درهم (نحو ١١٨ هـ)، أصله من خراسان، ويقال: إنه من أهل حران، وعِداده في التابعين، وكان مؤدِّب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وكان يطلق على مروان لقب الجعدي نسبة إلى رأيه[١]

وفي المصدر الذي أخذ عنه الجعد هذه المقالة قولان:

القول الأول: إن الجعد لما كان من أهل حران، وأكثرهم كانوا صابئة، وعلماؤهم كانوا فلاسفة، وكان أكثرهم كفار ومشركين يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل، وهم الذين بُعث إليهم الخليل إبراهيم، وكان مذهبهم هو نفي الصفات والأفعال، فأخذ الجعد مقالة التعطيل عنهم.

قال شيخ الإسلام: وكان الجعد بن درهم هذا -فيما قيل- من أهل حران، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود والكنعانيين، الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانيين المشركين...

فكانت الصابئة -إلا قليلًا منهم- إذ ذاك على الشرك، وعلماؤهم هم الفلاسفة؛ وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركًا؛ بل مؤمنًا بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٢]

لكن كثيرًا منهم أو أكثرهم كانوا كفارًا أو مشركين، كما أن كثيرًا من اليهود والنصارى بدَّلوا وحرفوا وصاروا كفارًا أو مشركين، فأولئك الصابئون -الذين كانوا إذ ذاك- كانوا كفارًا أو مشركين، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل.

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منهما، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل ﷺ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة[٢]

---

(١) انظر: المؤتلف والمختلف ص(٤٧)، اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٢٨٣)، الكامل في التاريخ (٥/ ٧٧)، تاريخ دمشق (٥٧/ ٣٢٨)، البداية والنهاية (٦/ ٢٤٧)، (٩/ ٣٥٠)، (١٠/ ٤٦)، نزهة الألباب في الألقاب (٢/ ٢٨٧)، البلدانيات (١٢٢)، لسان الميزان (٢/ ١٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢١)، (١٢/ ٣٥٠- ٣٥٢).

وقال: وأول من أظهر هذا النفي في الإسلام الجعد بن درهم معلم مروان بن محمد، قال الإمام أحمد: وكان يقال: إنه من أهل حران، وعنه أخذ الجهم بن صفوان مذهب نفاة الصفات، وكان بحرّان أئمة هؤلاء الصابئة الفلاسفة بقايا أهل هذا الدين أهل الشرك ونفي الصفات والأفعال، ولهم مصنفات في دعوة الكواكب[(١)]

والقول الثاني: أنه أخذها عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الساحر، وأخذها طالوت عن لبيد، وأخذها لبيد عن يهودي باليمن.

قال ابن الأثير: وأخذه الجعد من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت بن أخت لبيد الأعصم وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي، وكان لبيد يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقًا فأفشى الزندقة[(٢)]

وقال ابن كثير: قال ابن عساكر وغيره: وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر الرسول ﷺ عن يهودي باليمن[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ[(٤)]

- وقد أظهر الجعد بدمشق مقالة التعطيل والقول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم، فسكن الكوفة، ثم قتله خالد بن عبد الله القسري والي بني أمية يوم الأضحى بواسط[(٥)]

قال الدارمي: حدثنا القاسم بن محمد، قال: حدثني عبد الرحمن بن محمد بن حبيب بن أبي حبيب، عن أبيه، عن جده، قال: شهدت خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم الأضحى قال: ضحوا تقبل الله منا ومنكم؛ فإني مضحٍّ بجعد بن درهم زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علوًّا كبيرًا ثم نزل فذبحه[(٦)]

---

(١) دقائق التفسير (٢/ ١١٣، ١١٤).

(٢) الكامل في التاريخ (٦/ ١٢١).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠)، (١٠/ ١٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠)، مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧)، (٨/ ١٤٢، ٢٢٨، ٣٥٧)، (١٢/ ٢٦، ٢٧، ٥٠٢، ٥٠٣) وغيرها.

(٦) نقض الدارمي (١/ ٥٨١)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٦٤)، وخلق أفعال العباد ص(٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٦٧٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ٢٥٥) جميعًا من طريق قتيبة بن سعيد عن القاسم به، وأخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١١٢٢)، (٥/ ٢٥٦١) من طريق الحسن بن الصباح عن القاسم به.

- ثم أخذ هذه المقالة عن الجعد بن درهم جهمُ بن صفوان (١٢٨ هـ)، فاشتهرت المقالة بالنسبة إليه لِما كان له من مبالغة وكلام ودعوة وخصومة.

قال قتيبة بن سعيد: بلغني أن جهمًا كان يأخذ هذا الكلام من جعد بن درهم[(١)]

وقال ابن الأثير عن جهم: إنه أخذ الكلام عن الجعد بن درهم، ولما ظهرت مقالة جهم قتله سلم بن أحوز المازني في آخر ملك بني أمية[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام -أعني أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى استولى، ونحو ذلك- هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم ابن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه[(٣)]

وقال عنه: إنه أول من ظهر عنه القول بنفي الصفات، وأول من قال بخلق كلام الله وإنكار رؤيته في الآخرة[(٤)]

وقال: إن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال: إن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة جهميًّا؛ فإن جهمًا أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات وبالغ في نفي ذلك؛ فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه، وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك، فإنَّ الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك... [(٥)]

- فكان هذا هو المصدر الأول الذي أخذ منه جهم هذه المقالة، وأما المصدر الثاني الذي تلقفها منه، وترسخت عنده بسببه، فهم بعض فلاسفة الهند؛ وذلك بعد مخالطته ببعضهم ومناظرتهم له.

قال الإمام أحمد: وكذلك الجهم وشيعته، دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث، وأضلوا بشرًا كثيرًا فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدوّ الله أنّه كان من أهل خراسان من أهل الترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام كان أكثر كلامه في الله، فلقي أناسًا من المشركين يقال لهم: السُّمَنِيَّة فعرفوا الجهم فقالوا له: نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا: دخلنا في دينك.

فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا: ألست تزعم أن لك إلهًا؟ قال الجهم: نعم، فقالوا له: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا، قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قالوا: فهل شممت له رائحة؟ قال: لا، قالوا له: فوجدت له مجسًّا؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم.

---

(١) التاريخ الكبير (١/ ٦٤)، خلق أفعال العباد ص(٣٠)، السنن الكبرى للبيهقي (٢٠٦٧٦).
(٢) اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٣١٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٩٢).
(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٩)، (٢/ ٩١)، (١٢/ ٦، ٣٥٨).

فلم يدرِ من يعبد أربعين يومًا، ثم إنَّه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى، وذلك أنَّ زنادقة النصارى يزعمون أنَّ الروح الذي في عيسى هو روح الله، من ذاته، فإذا أراد أن يحدث أمرًا دخل في بعض خلقه، فتكلم على لسان خلقه، فيأمر بما شاء، وينهى عما شاء، وهو روح غائب عن الأبصار.

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني: ألست تزعم أن فيك روحًا؟ قال: نعم، قال: فهل رأيت روحك؟ قال: لا، قال: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قال: فوجدت له حسًّا ومجسًّا؟ قال: لا، قال: كذلك الله، لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان[(١)]

وقال شيخ الإسلام: وأخذها الجهم أيضًا -فيما ذكره الإمام أحمد وغيره- لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهند -وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات- فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين، والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين، وإما من المشركين[(٢)]

- وقد أظهر الجهم مقالته بخراسان، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية[(٣)]

قال ابن كثير: وأخذ عن الجعد الجهمُ بن صفوان الخزري، وقيل: الترمذي، وقد أقام ببلخ وكان يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده، ويتناظران حتى نُفِيَ إلى ترمذ، ثم قتل الجهم بأصبهان، وقيل بمرو قتله نائبها سلم بن أحوز رحمه الله، وجزاه عن المسلمين خيرًا[(٤)]

وقال شيخ الإسلام: وأخذ هذه المقالة عنه جهم ابنُ صفوان، وقتله بخراسان سلمة بن أحوز، وإليه نسبت هذه المقالة التي تسمى «مقالة الجهمية» وهي نفي صفات الله تعالى، فإنهم يقولون: إن الله لا يرى في الآخرة، ولا يكلم عباده، وأنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات، ويقولون: القرآن مخلوق[(٥)]

- ثم أخذت المعتزلةُ مقالة التعطيل عن جهم وأتباعه، وانتشرت على أيديهم، ولكنهم أصَّلوا لها الأصول والقواعد، وذلك برجوعهم إلى أصل المقالة وهو دين الصابئة وفيه أن التوصل إلى معرفة الله وما فوق السموات والأمور الغيبية عن طريق المقدمات الطبيعية السفلية، وقوى الطبائع الموجودة في التراب والماء والهواء، ولذلك كانوا على مذاهب شتى منهم من يقول بخلق السموات،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٨، ٢١٩)، (٨/ ٤١٦)، تاريخ أصبهان (١/ ٦٧)، التنبيه والرد ص(٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢).

(٣) انظر: الإكمال (١/ ٣٢)، اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٣١٧)، توضيح المشتبه (١/ ١٦٣)، لسان الميزان (٢/ ١٤٢)، الوافي بالوفيات (١١/ ١٦٠)، إيضاح الدليل ص(٣٤).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٠٣).

ومنهم من يقول بقدمها، ومنهم من ينكر الصانع بالكلية.

فسلكت المعتزلة نحوًا من مسلك هؤلاء الصابئة، لإثبات حدوث العالم، وذلك بالكلام في الأجسام والأعراض، بأن تثبت الأعراض، ثم يثبت لزومها للأجسام، ثم حدوثها، ثم يقال: ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وبذلك يثبت حدوث العالم، ويثبت وجود الصانع.

ثم لما رأوا أن الأعراض التي هي الصفات تقتضي أن يكون جسمًا والجسم حادث، فتدل الصفات عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض، فالتزموا نفيها عن الله؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه.

قال شيخ الإسلام: ثم إن المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جَهْم؛ فأثبتوا أسماء الله تعالى ولم يثبتوا صفاته[1]

وقال: ووافق الجهم على ذلك «المعتزلة» أصحاب عمرو بن عبيد، وضموا إليها بدعًا أخرى في القدر وغيره[2]

وقال: ودخل بعض أهل الكلام والجدل من المنتسبين إلى الإسلام من المعتزلة ونحوهم إلى بعض مقالة الصابئة والمشركين، متابعة للجعد والجهم.

وكان مبدأ ذلك أن الصابئة في الخلق على قولين: منهم من يقول إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن، كما أخبرت بذلك الرسل، وكتب الله تعالى، ومنهم من ابتدع فقال: بل هي قديمة أزلية؛ لم تزل موجودة بوجود الأول، واجب الوجود بنفسه، ومنهم من قد ينكر الصانع بالكلية، ولهم مقالات كثيرة الاضطراب في الخلق والبعث، والمبدأ والمعاد؛ لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله تعالى فيجمعهم، والظنون لا تجمع الناس في مثل هذه الأمور التي تعجز الآراء عن إدراك حقائقها إلا بوحي من الله تعالى.

وهم إنما يناظر بعضهم بعضًا بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية، وقوى الطبائع الموجودة في التراب والماء، والهواء والحيوان، والمعدن والنبات، ويريدون بهذه المقدمات السفلية أن ينالوا معرفة الله وعلم ما فوق السموات، وأول الأمر وآخره؛ وهذا غلط بَيِّنٌ اعترف به أساطينهم بأن هذا غير ممكن، وأنهم لا سبيل لهم إلى إدراك اليقين، وأنهم إن يتبعون إلا الظن.

فلما كان هذا حال هذه الصابئة المبتدعة الضالة، ومن أضلوه من اليهود والنصارى، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهدِ بهدى الله، الذي بعث به رسله، من أهل الكلام والجدل، صاروا يريدون إن يأخذوا مأخذهم، كما أخبر النبي ﷺ بقوله: **«لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع»** قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: **«ومن الناس إلا فارس والروم؟!»**،

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٠٣).

فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصائبة، وهو الكلام في الأجسام، والأعراض، بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام ثم حدوثها، ثم يقال: مالا يسبق الحوادث فهو حادث، واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا في إثبات حدوث العالم؛ فلما رأوا أن الأعراض -التي هي الصفات- تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض التزموا نفيها عن الله؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه، وبطلان دليل حدوث العالم الذي اعتقدوا أن لا دليل سواه، بل ربما اعتقدوا أنه لا يصح إيمان أحد إلا به -معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[١]

- ومما ساعد على انتشار هذه المقالة في هذه الفترة هو نشاط حركة الترجمة التي قامت في ذلك الوقت.

قال شيخ الإسلام: ثم لما عرِّبت الكتب الرومية واليونانية، في حدود المائة الثانية: زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم[٢]

- وفي القرن الثالث اشتهرت المقالة وانتشرت، وكان من أشهر الذين أخذوها عن جهم بشرُ بن غياث المِرِّيسي (٢١٨ هـ) المعتزلي المرجئ وطبقتُه، وقد تصدى لهم علماء السلف رحمهم الله، وبينوا ضلال هذه المقالة، وتضليل وذم منتحليها.

قال ابن الأثير: وأخذ بشر من الجهم بن صفوان، وأخذه جهم من الجعد . . .[٣]

وقال ابن كثير: وأخذ بشر المريسي عن الجهم[٤]

ولكن قال الذهبي عن بشر: لم يدرك جهم بن صفوان بل تلقف مقالاته من أتباعه[٥]

وقال: ولم يدرك الجهم بن صفوان، وإنما أخذ مقالته واحتج لها ودعا إليها[٦]

وقال شيخ الإسلام: ولما كان في حدود المائة الثالثة: انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية؛ بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته، وكلام الأئمة مثل مالك، وسفيان بن عيينة، وابن المبارك، وأبي يوسف، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي، وغيرهم: كثير في ذمهم وتضليلهم[٧]

- ومن أشهر الذين أخذوا المقالة عن بشر أحمدُ بن أبي دُؤاد (٢٤٠ هـ)، أحد القضاة المشهورين

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧، ٢٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢).
(٣) الكامل في التاريخ (٦/ ١٢١).
(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).
(٥) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٠).
(٦) لسان الميزان (٢/ ٢٩).
(٧) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢)، (١٢/ ٤١٨- ٤٢٠).

من المعتزلة، والمقرَّب من المأمون، والذي جعله المعتصم، قاضي قضاته، واعتمد الواثق على رأيه.

قال ابن الأثير عن أحمد بن أبي دؤاد: وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره، من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريسي، وأخذ بشر من الجهم ...[١]

وقال ابن كثير: وأخذ أحمد بن أبي دؤاد عن بشر[٢]

- ودخلت مقالة التعطيل على السلاطين والملوك وامتحن الناس والعلماء فيها، ومنها القول بخلق القرآن، وكان منهم الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) الذي ثبته الله فيها على الحق.

قال شيخ الإسلام: وكان قد كثر ظهور هؤلاء الذين هم فروع المشركين ومن اتبعهم من مبدلة الصابئين، ثم مبدلة اليهود والنصارى في أوائل المائة الثانية، وأوائل الثالثة في إمارة أبي العباس الملقب بـ«المأمون»، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين؛ الذين كانوا قبل النصارى، ومن أشبههم من فارس والهند، وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم.

وقد تقدم أن أهل الكتاب المبتدع في الإسلام هم من فروع الصابئين، كما يقال: المعتزلة مخانيث الفلاسفة، فظهرت هذه المقالة في أهل العلم والكلام، وفي أهل السيف والإمارة، وصار في أهلها من الخلفاء والأمراء، والوزراء والقضاة، والفقهاء ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات؛ والمسلمين والمسلمات، الذين اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، ولم يبدلوا ولم يبتدعوا، وذلك لقصور وتفريط من أكثرهم في معرفة حقيقة ما جاء به الرسول وأتباعه، وإلا فلو كان ذلك كثيرًا فيهم لم يتمكن أولئك المبتدعة لما يخالف دين الإسلام من التمكن منهم[٣]

وقال: لما ظهرت الجهمية النفاة في أوائل المائة الثانية بين علماء المسلمين ضلالهم وخطأهم، ثم ظهر رعنة الجهمية في أوائل المائة الثالثة وامتُحِن العلماء؛ الإمام أحمد وغيره[٤]

وقال: لما امتحن الناس بمحنة الجهمية، وطلب منهم تعطيل الصفات، وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة ونحو ذلك، ثبت الله الإمام أحمد في تلك المحنة؛ فدفع حجج المعارضين النفاة، وأظهر دلالة الكتاب والسنة، وأن السلف كانوا على الإثبات[٥]

وقال: وكان المأمون لما صار إلى الثغر بطرسوس كتب بالمحنة كتابًا إلى نائبه بالعراق إسحاق بن إبراهيم فدعا العلماء والفقهاء والقضاة؛ فامتنعوا عن الإجابة والموافقة، فأعاد عليه الجواب، فكتب كتابًا ثانيًا يقول فيه عن القاضيين: بشر بن الوليد، وعبد الرحمن بن إسحاق إن لم يجيبا

(١) الكامل في التاريخ (٦/ ١٢١).
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١، ٣٥٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٢).
(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٨٠).

فاضرب أعناقهما، ويقول عن الباقين إن لم يجيبوا فقيدهم فأرسلهم إلي، فأجاب القاضيان وذكرا لأصحابهما أنهما مكرهان، وأجاب أكثر الناس قبل أن يقيدهم لما رأوا الوعيد، ولم يجب ستة أنفس فقيدهم، فلما قيدوا أجاب الباقون إلا اثنين: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح النيسابوري؛ فأرسلوهما مقيدين إليه؛ فمات محمد بن نوح في الطريق، ومات المأمون قبل أن يصل أحمد إليه وتولى أخوه أبو إسحاق، وتولى القضاء أحمد بن أبي دؤاد، وأقام أحمد بن حنبل في الحبس من سنة ثماني عشرة إلى سنة عشرين ثم أنهم طلبوه وناظروه أيامًا متعددة، فدفع حججهم وبين فسادها، وأنهم لم يأتوا على ما يقولونه بحجة لا من كتاب ولا من سنة ولا من أثر، وأنه ليس لهم أن يبتدعوا قولًا ويلزموا الناس بموافقتهم عليه، ويعاقبوا من خالفهم، وإنما يلزم الناس ما ألزمهم الله ورسوله؛ ويعاقب من عصى الله ورسوله؛ فإن الإيجاب والتحريم، والثواب والعقاب، والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله؛ ليس لأحد في هذا حكم، وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه الله ورسوله، وتحريم ما حرمه الله ورسوله، وتصديق ما أخبر الله به ورسوله، وجرت في ذلك أمور يطول شرحها[(١)]

وقال: وهؤلاء هم الذين دعوا من دعوه من الخلفاء إلى مقالتهم، حتى امتحن الناس في القرآن بالمحنة المشهورة في إمارة المأمون، والمعتصم والواثق، حتى رفع الله شأن من ثبت فيها من أئمة السنة: كالإمام أحمد -رحمه الله- وموافقيه، وكشفها الله عن الناس في إمارة المتوكل وظهر في الأمة مقالة السلف: إن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود[(٢)]

- وفي آخر القرن الثالث جاء قوم من المتكلمين تصدوا للمعتزلة ولشبهتهم، ففرقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها أعراضًا، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها أعراضًا؛ لأن العَرَض ما لا يدوم ولا يبقى، أو ما يقوم بمتحيز أو جسم، فصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام، ولكنهم قالوا: أنه لا يوصف بالأفعال القائمة به كالحركات؛ لأنها تعرض وتزول.

وهؤلاء هم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب (٢٤٥ هـ) ومن اتبعه كالحارث المحاسبي (٢٤٣ هـ)، وأبي العباس القلانسي، وقد أنكر عليهم السلف نفيهم للصفات الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، وذموهم لذلك.

قال شيخ الإسلام: ولما اشتهر هذا وتبين للناس باطن أمرهم، وأنهم معطلة للصفات يقولون: إن الله لا يرى، ولا له علم، ولا قدرة، وإنه ليس فوق العرش رب، ولا على السموات إله؛ وإن محمدًا لم يعرج به إلى ربه، إلى غير ذلك من أقوال الجهمية النفاة؛ كثر رد الطوائف عليهم بالقرآن والحديث والآثار تارة، وبالكلام الحق تارة؛ وبالباطل تارة.

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥٤، ٥٥٥)، (٨/ ٢٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٤، ٤٣٩).

وكان ممن انتدب للرد عليهم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، وكان له فضل وعلم ودين..[(١)]

وقال: فكانت المعتزلة تقول: لا تحله الأعراض والحوادث، وهم لا يريدون بالأعراض الأمراض والآفات فقط؛ بل يريدون بذلك الصفات، ولا يريدون بالحوادث المخلوقات، ولا الأحداث المحيلة للمحل، ونحو ذلك -مما يريده الناس بلفظ الحوادث- بل يريدون نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، فلا يجوزون أن يقوم به خلق، ولا استواء، ولا إتيان ولا مجيء، ولا تكليم، ولا مناداة، ولا مناجاة ولا غير ذلك مما وصف بأنه مريد له قادر عليه.

وابن كلاب خالفهم في قولهم: لا تقوم به الأعراض، وقال: تقوم به الصفات، ولكن لا تسمى أعراضًا، ووافقهم على ما أرادوه بقولهم: لا تقوم به الحوادث من أنه لا يقوم به أمر من الأمور المتعلقة بمشيئته...

وكان الحارث المحاسبي يوافقه ثم قيل: إنه رجع عن موافقته؛ فان أحمد بن حنبل أمر بهجر الحارث المحاسبي وغيره من أصحاب ابن كلاب لما أظهروا ذلك، كما أمر السري السقطي، الجنيد أن يتقي بعض كلام الحارث، فذكروا أن الحارث -رحمه الله- تاب من ذلك[(٢)]

وقال: ولما ظهرت مقالة الجهمية جاء بعد ذلك أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، يوافق السلف والأئمة على إثبات صفات الله تعالى، وعلوه على خلقه، وبين أن «العلو على خلقه» يعلم بالعقل و«استواؤه على العرش» يعلم بالسمع، وكذلك جاء بعده الحارث المحاسبي وأبو العباس القلانسي وغيرهما من المتكلمين المنتسبين إلى السنة والحديث

لكن ابن كلاب وأتباعه لم يثبتوا لله أفعالًا تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، بل ولا غير الأفعال مما يتعلق بمشيئته وقدرته[(٣)]

- وفي القرن الرابع سار أبو الحسن الأشعري (٣٢٤ هـ) وأبو الحسن بن مهدي الطبري، وأبو العباس الضبعي، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو منصور الماتريدي (٣٣٣ هـ) وغير هؤلاء على طريقة ابن كلاب في نفي الصفات الاختيارية، ويُذكر أن الأشعري رجع بعد ذلك إلى طريقة السلف بإثبات كل الصفات الثابتة لله عز وجل.

قال شيخ الإسلام عن ابن كلاب: فصار من حين فرق هذا التفريق المنتسبون إلى السنة والجماعة -القائلون بأن القرآن غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، وأن الله فوق سمواته على

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٠، ٥٢١)، (٨/ ٤٩٦، ٤٩٧)، (١٢/ ٣٦٦، ٣٦٨)، (١٢/ ٤٢١)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٠).

عرشه، بائن من خلقه- على قولين ذكرهما الحارث المحاسبي وغيره.

طائفة وافقت ابن كلاب كالقلانسي، والأشعري وأبي الحسن بن مهدي الطبري، ومن اتبعهم؛ فإنه وافق هؤلاء كثير من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم: من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي حنيفة وغيرهم[(١)]

وقال: وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع عن الاعتزال سلك طريقة أبي محمد بن كلاب[(٢)]

وقال: إن السلف والأئمة كانوا يثبتون لله تعالى ما يقوم به من الصفات، والأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته، والجهمية تنكر هذا وهذا، فوافق ابن كلاب السلف على القول بقيام الصفات القديمة، وأنكر أن يقوم به شيء يتعلق بمشيئته وقدرته.

وجاء أبو الحسن الأشعري بعده وكان تلميذًا لأبي علي الجبائي المعتزلي ثم إنه رجع عن مقالة المعتزلة، وبين تناقضهم في مواضع كثيرة، وبالغ في مخالفتهم في مسائل القدر والإيمان، والوعد والوعيد، حتى نسبوه بذلك إلى قول المرجئة، والجبرية والواقفة، وسلك في الصفات طريقة ابن كلاب[(٣)]

- ومن القرن الرابع وما بعده سارت الأشعرية والماتريدية وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد كالتميميين، وأيضًا أبو الحسن بن سالم وأتباعه السالميَّة، والقاضي أبو يعلى وأتباعه كابن عقيل وأبي الحسن بن الزاغوني، وأيضًا أبو المعالي الجويني وأبو الوليد الباجي والقاضي أبي بكر بن العربي وخلق كثيرون من المتكلمين وغيرهم -على طريقة ابن كلاب، فنفوا الصفات الاختيارية لله عز وجل.

قال شيخ الإسلام: وابن كلاب أحدث ما أحدثه لما اضطره إلى ذلك من دخول أصل كلام الجهمية في قلبه وقد بين فساد قولهم بنفي علو الله ونفي صفاته، وصنف كتبًا كثيرة في أصل التوحيد والصفات، وبين أدلة كثيرة عقلية على فساد قول الجهمية، وبين فيها أن علو الله على خلقه، ومباينته لهم من المعلوم بالفطرة والأدلة العقليَّة القياسية، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

وكذلك ذكرها الحارث المحاسبي في كتاب «فهم القرآن» وغيره بين فيه من علو الله واستوائه على عرشه ما بين به فساد قول النفاة وفرح الكثير من النظار الذين فهموا أصل قول المتكلمين وعلموا ثبوت الصفات لله، وأنكروا القول بأن كلامه مخلوق؛ فرحوا بهذه الطريقة التي سلكها ابن كلاب: كأبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري، والثقفي، ومن تبعهم: كأبي عبد الله بن مجاهد، وأصحابه، والقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفرائيني، وأبي بكر بن فورك، وغير هؤلاء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥٦)، (٦/ ٥٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٨).

وصار هؤلاء يردون على المعتزلة ما رده عليهم ابن كلاب والقلانسي والأشعري وغيرهم من مثبتة الصفات، فيبينون فساد قولهم: بأن القرآن مخلوق وغير ذلك، وكان في هذا من كسر سورة المعتزلة والجهمية ما فيه ظهور شعار السنة، وهو القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يُرى في الآخرة، وإثبات الصفات والقدر، وغير ذلك من أصول السنة.

لكن الأصل العقلي الذي بنى عليه ابن كلاب قوله في كلام الله وصفاته هو أصل الجهمية والمعتزلة بعينه، وصاروا إذا تكلموا في خلق الله السموات والأرض وغير ذلك من المخلوقات إنما يتكلمون بالأصل الذي ابتدعه الجهمية ومن اتبعهم؛ فيقولون قول أهل الملة، كما نقله أولئك ويقررونه بحجة أولئك[1].

- وأكثر من انتشر منهم الأشعرية، وهم لم يثبتوا من الصفات إلا سبع صفات بالقياس العقلي، وزاد بعضهم فنفى الصفات الخبرية، وبعضهم لا يثبت الصفات التي لم ترد إلا في الأحاديث، وذلك بإعمال التأويل الذي حقيقته تحريف، أو ادعاء التفويض.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء أهل الكلام القياسي من الصفاتية فارقوا أولئك المبتدعة المُعَطِّلَة الصابئة في كثير من أمورهم، وأثبتوا الصفات التي قد يستدل بالقياس العقلي عليها، كالصفات السبع وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ولهم نزاع في السمع والبصر والكلام، هل هو من الصفات العقليّة أو الصفات النبوية الخبرية السمعيَّة، ولهم اختلاف في البقاء والقدم، وفي الإدراك الذي هو إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات، ولهم أيضًا اختلاف في الصفات السمعيَّة القرآنية الخبرية كالوجه واليد، فأكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها وكثير من متأخريهم لا يثبتها، وأما ما لا يرد إلا في الحديث فأكثرهم لا يثبتها، ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ما عارضها من القياس العقلي عنده، ومنهم من يفوض معناها[2]

- وما احتج به الأشعرية المتأخِّرون وغيرهم من الطوائف الأخرى وتأولوه من الصفات إنما أخذوه في الحقيقة من كلام بشر المريسي المؤصِّل لمقالة التعطيل التي ذمها السلف الصالح ﵃ أجمعين.

قال شيخ الإسلام: وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس -مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب التأويلات، وذكرها أبو عبد الله محمد ابن عمر الرازي في كتابه الذي سماه «تأسيس التقديس» ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء، مثل أبي علي الجبائي، وعبد الجبار بن أحمد الهمداني، وأبي الحسين البصري، وأبي الوفاء بن عقيل، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم -هي بعينها تأويلات بشر المريسي التي ذكرها في كتابه، وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضًا، ولهم كلام حسن في أشياء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥٧، ٥٥٨)، (١٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٢).

فإنما بينت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات بشر المريسي، ويدل على ذلك كتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي، أحد الأئمة المشاهير في زمان البخاري، صنف كتابًا سماه: «رد عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله في التوحيد» حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها، وأعلم بالمنقول والمعقول من هؤلاء المتأخرين، الذين اتصلت إليهم من جهته وجهة غيره، ثم رد ذلك عثمان ابن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكي؛ علم حقيقة ما كان عليه السلف، وتبين له ظهور الحجة لطريقهم وضعف حجة من خالفهم.

ثم إذا رأى الأئمة -أئمة الهدى- قد أجمعوا على ذم المريسية وأكثرهم كفروهم أو ضللوهم، وعلم أن هذا القول الساري في هؤلاء المتأخرين هو مذهب المريسي؛ تبين الهدى لمن يريد الله هدايته، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1]

- فيتضح مما سبق أن المُعَطِّلَة مرت في تاريخ المسلمين بثلاث مراحل كبرى:

المرحلة الأولى: وفيها كان التعطيل المحض للمولى عز وجل، والممثل لهذه المرحلة هو الجعد بن درهم وجهم بن صفوان، وهم الجهمية.

المرحلة الثانية: وفيها كان تعطيل صفات المولى عز وجل، والممثل لهذه المرحلة هم المعتزلة.

المرحلة الثالثة: وفيها كان تعطيل بعض صفات المولى عز وجل، والممثل لهذه المرحلة الكُلَّابِيَّة والأشعرية والماتريدية ومن تبعهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣، ٢٤)، (٦/ ٥١).

الفصل الثالث
مقالة المُعَطِّلَة

يعطِّلون ذات وأسماء وصفات المولى عز وجل، أو بعض ذلك، مما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة، بحجة أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم، وأصل ذلك نابع من ابتداع طريقة في إثبات الصانع فالتزموا لأجلها القول بالتعطيل.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأصل هذا كله حجة الجهمية على حدوث الأجسام؛ بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، فما يقوم به الكلام باختياره أو بمشيئته، ولم يزل كذلك، يجب أن يكون حادثًا؛ فلزمهم نفي كلام الرب وفعله، بل وتعطيل ذاته، ثم آل الأمر إلى جعل المخلوق قديمًا، وتعطيل صفات الرب القديمة؛ بل وذاته(١)

وقال: وهذا الأصل الذي ابتدعه الجهمية ومن اتبعهم من أهل الكلام من امتناع دوام فعل الله، وهو الذي بنوا عليه أصول دينهم، وجعلوا ذلك أصل دين المسلمين، فقالوا: الأجسام لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث، فهو حادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث؛ لأن ما لا يخلو عنها ولا يسبقها يكون معها أو بعدها، وما كان مع الحوادث أو بعدها فهو حادث(٢)

وقال: ثم إن المعتزلة والجهمية نفت أن يقوم بالله تعالى صفات وأفعال بناء على هذه الحجة، قالوا: لأن الصفات والأفعال لا تقوم إلا بجسم وبذلك استدلوا على حدوث الجسم.

فجاء ابن كلاب ومن اتبعه فوافقوهم على انتفاء قيام الأفعال به وخالفوهمْ في قيام الصفات فأثبتوا قيام الصفات به وقالوا: لا نسميها أعراضًا؛ لأنها باقية والأعراض لا تبقى.

وأما ابن كرام وأتباعه فلم يمتنعوا من تسمية صفات الله أعراضًا كما لم يمتنعوا من تسميته جسمًا، وعن هذه الحجة ونحوها نشأ القول بأن القرآن مخلوق، وأن الله تعالى لا يرى في الآخرة، وأنه ليس فوق العرش ونحو ذلك من مقالات الجهمية النفاة؛ لأن القرآن كلام وهو صفة من الصفات والصفات عندهم لا تقوم به، وأيضًا فالكلام يستلزم فعل المتكلم وعندهم لا يجوز قيام فعل به، ولأن الرؤية تقتضي مقابلة ومعاينة، والعلو يقتضي مباينة مسامتة، وذلك من صفات الأجسام.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٣١٣)، (١٢/٢١٣، ٥٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٤٠، ٥٤١).

وبالجملة فقد صاروا ينفون ما ينفونه من صفات الله تعالى لأن إثبات ذلك يقتضي أن يكون الموصوف جسمًا وذلك ممتنع لأن الدليل على إثبات الصانع إنما هو حدوث الأجسام فلو كان جسمًا لبطل دليل إثبات الصانع.

ومن هنا قال هؤلاء: إن القول بما دل عليه السمع من إثبات الصفات والأفعال يقدح في أصل الدليل الذي به علمنا صدق الرسول، وقالوا: إنه لا يمكن تصديق الرسول لو قدر أنه يخبر بذلك؛ لأن صدقه لا يعلم إلا بعد أن يثبت العلم بالصانع ولا طريق إلى إثبات العلم بالصانع إلا القول بحدوث الأجسام.

قالوا: وإثبات الصفات له يقتضي أنه جسم قديم فلا يكون كل جسيم حادثًا فيبطل دليل إثبات العالم به[1].

وقال: وعمدة من نفى الأفعال والصفات من أهل الكلام الجهمية.والمعتزلة ومن اتبعهم على هذه الحجة التي زعموا أنهم يقررون بها حدوث العالم وإثبات الصانع فجعلوا ما قامت به الصفات أو الأفعال محدثًا حتى يستدلوا بذلك على أن العالم محدث، ويلزم من ذلك ألَّا يقوم بالصانع لا الصفات ولا الأفعال[2].

وقال: وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل، أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثلوا أولًا وعطلوا آخِرًا، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى[3].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: هذه مسألة كبيرة عظيمة القدر، اضطرب فيها خلائق من الأولين والآخرين من أوائل المائة الثانية من الهجرة النبوية، فأما المائة الأولى فلم يكن بين المسلمين اضطراب في هذا، وإنما نشأ ذلك في أوائل المائة الثانية لما ظهر الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان ومن اتبعهما من المعتزلة وغيرهم على إنكار الصفات.

فظهرت مقالة الجهمية النفاة -نفاة الصفات- قالوا لأن إثبات الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ لأن الصفات التي هي: العلم، والقدرة، والإرادة، ونحو ذلك، أعراض ومعان تقوم بغيرها، والعرض لا يقوم إلا بجسم، والله تعالى ليس

(١) درء التعارض (١/ ٣٠٥، ٣٠٦).
(٢) درء التعارض (١/ ٣٧٥)، (٥/ ٢٤٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧، ٢٨).

بجسم؛ لأن الأجسام لا تخلو من الأعراض الحادثة، وما لا يخلو من الحوادث فهو محدث.

قالوا: وبهذا استدللنا على حدوث الأجسام؛ فإن بطل هذا بطل الاستدلال على حدوث الأجسام، فيبطل الدليل على حدوث العالم فيبطل الدليل على إثبات الصانع.

قالوا: وإذا كانت الأعراض التي هي الصفات لا تقوم إلا بجسم، والجسم مركب من أجزائه، والمركب مفتقر إلى غيره، ولا يكون غنيًّا عن غيره واجب الوجود بنفسه، والله تعالى غني عن غيره واجب الوجود بنفسه.

قالوا: ولأن الجسم محدود متناهي؛ فلو كان له صفات لكان محدودًا متناهيًا؛ وذلك لا بد أن يكون له مخصص خصصه بقدر دون قدر، وما افتقر إلى مخصص لم يكن غنيًّا قديمًا واجب الوجود بنفسه.

قالوا: ولأنه لو قامت به الصفات لكان جسمًا، ولو كان جسمًا لكان مماثلًا لسائر الأجسام، فيجوز عليه ما يجوز عليها ويمتنع عليه ما يمتنع عليها، وذلك ممتنع على الله تعالى.

وزاد الجهم في ذلك هو والغلاة -من القرامطة والفلاسفة- نحو ذلك فقالوا: وليس له اسم كالشيء والحي والعليم ونحو ذلك؛ لأنه إذا كان له اسم من هذه الأسماء لزم أن يكون متصفًا بمعنى الاسم كالحياة والعلم؛ فإن صدق المشتق مستلزم لصدق المشتق منه؛ وذلك يقتضي قيام الصفات به، وذلك محال؛ ولأنه إذا سمي بهذه الأسماء فهي مما يسمى به غيره، والله منزه عن مشابهة الغير.

وزاد آخرون بالغلو فقالوا: لا يسمى بإثبات ولا نفي، ولا يقال: موجود ولا لا موجود، ولا حي ولا لا حي؛ لأن في الإثبات تشبيهًا له بالموجودات، وفي النفي تشبهًا له بالمعدومات، وكل ذلك تشبيه.

فلما ظهر هؤلاء الجهمية أنكر السلف والأئمة مقالتهم وردوها، وقابلوها بما تستحق من الإنكار الشرعي، وكانت خفية إلى أن ظهرت وقويت شوكة الجهمية في أواخر المائة الأولى وأوائل الثانية في دولة أولاد الرشيد، فامتحنوا الناس المحنة المشهورة التي دعوا الناس فيها القول بخلق القرآن ولوازم ذلك: مثل إنكار الرؤية والصفات؛ بناء على أن القرآن هو من جملة الأعراض؛ فلو قام بذات الله لقامت به الأعراض؛ فيلزم التشبيه والتجسيم.

وحدث مع الجهمية قوم شبهوا الله تعالى بخلقه؛ فجعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين، فأنكر السلف والأئمة على الجهمية المُعَطِّلَة، وعلى المشبهة الممثلة، وكان إمام المعتزلة أبو الهذيل العلاف ونحوه من نفاة الصفات قالوا: يقتضي أن يكون جسمًا والله تعالى منزه عن ذلك، قال هؤلاء: بل هو جسم، والجسم هو القائم بنفسه، أو الموجود، أو غير ذلك من المقالات، وطعنوا في أدلة نفاة الجسم بكلام طويل لا يتسع له الجواب هنا.

ثم من هؤلاء من قال: هو جسم كالأجسام، ومنهم من وصفه بخصائص المخلوقات، وحكي عن كل واحدة من الطائفتين مقالات شنيعة.

وجاء أبو محمد بن كلاب فقال هو وأتباعه: هو الموصوف بالصفات، ولكن ليست الصفات أعراضًا؛ إذ هي قديمة باقية لا تعرض ولا تزول، ولكن لا يوصف بالأفعال القائمة به كالحركات؛ لأنها تعرض وتزول.

فقال ابن كرام وأتباعه: لكنه موصوف بالصفات، وإن قيل إنها أعراض، وموصوف بالأفعال القائمة بنفسه وإن كانت حادثة، ولما قيل لهم: هذا يقتضي أن يكون جسمًا، قالوا: نعم هو جسم كالأجسام، وليس ذلك ممتنعًا دائمًا، وإنما الممتنع أن يشابه المخلوقات فيما يجب ويجوز ويمتنع، ومنهم من قال: أطلق لفظ الجسم لا معناه، وبين هؤلاء المتكلمين النظار بحوث طويلة مستوفاة في غير هذا الموضع.

وأما السلف والأئمة فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفي أو إثبات، بل اعتصموا بالكتاب والسنة، ورأوا ذلك هو الموافق لصريح العقل، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته حقًّا يجب الإيمان به وإن لم تعرف حقيقة معناه، وكل لفظ أحدثه الناس فأثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم؛ فإن كان مراده حقًّا موافقًا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة؛ من نفي أو إثبات قلنا به، وإن كان باطلًا مخالفًا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به ورأوا أن الطريقة التي جاء بها القرآن هي الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول وهي طريقة الأنبياء والمرسلين.

وأن الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بنفي مجمل وإثبات مفصل، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن، والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل وينفي عنه - على طريق الإجمال- التشبيه والتمثيل.

فهو في القرآن يخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه عزيز حكيم غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه غفور ودود، وأنه تعالى -على عظم ذاته- يحب المؤمنين ويرضى عنهم، ويغضب على الكفار ويسخط عليهم، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليمًا، وأنه تجلى للجبل فجعله دكًّا؛ وأمثال ذلك.

ويقول في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: الآية ٧٤]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾؛ فيثبت الصفات وينفي مماثلة المخلوقات.

ولما كانت طريقة السلف: أن يصفوا الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. ومخالفو الرسل يصفونه بالأمور السلبية: ليس

كذا، ليس كذا فإذا قيل لهم: فأثبتوه قالوا: هو وجود مطلق، أو ذات بلا صفات.

وقد علم بصريح المعقول أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الأذهان لا في الأعيان، وأن المطلق لا بشرط لا يوجد في الخارج مطلقًا، لا يوجد إلا معينًا، ولا يكون للرب عندهم حقيقة مغايرة للمخلوقات، بل إما أن يعطلوه أو يجعلوه وجود المخلوقات أو جزءها أو وصفها، والألفاظ المجملة يكفون عن معناها.

فإذا قال قوم: إن الله في جهة أو حيز، وقال قوم: إن الله ليس في جهة ولا حيز، استفهموا كل واحد من القائلين عن مراده؛ فإن لفظ الجهة والحيز فيه إجمال واشتراك. فيقولون: ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، والله تعالى منزه بائن عن مخلوقاته؛ فإنه سبحانه خلق المخلوقات بائنة عنه، متميزة عنه، خارجة عن ذاته، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، ولو لم يكن مباينًا لكان إما مداخلًا لها حالًّا فيها، أو محلًّا لها، والله تعالى منزه عن ذلك.

وإما ألا يكون مباينًا لها، ولا مداخلًا لها فيكون معدومًا والله تعالى منزه عن ذلك.

والجهمية نفاة الصفات تارة يقولون بما يستلزم الحلول والاتحاد، أو يصرحون بذلك، وتارة بما يستلزم الجحود والتعطيل، فنفاتهم لا يعبدون شيئًا، ومثبتتهم يعبدون كل شيء، ويقال أيضًا فإذا كان ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، فالخالق بائن عن المخلوق.

فإذا قال القائل: هو في جهة أو ليس في جهة. قيل له: الجهة أمر موجود أو معدوم؛ فإن كان أمرًا موجودًا، ولا موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق بائن عن المخلوق، لم يكن الرب في جهة موجودة مخلوقة، وإن كانت الجهة أمرًا معدومًا بأن يسمى ما وراء العالم جهة؛ فإذا كان الخالق مباينًا العالم، وكان ما وراء العالم جهة مسماة وليس هو شيئًا موجودًا كان الله في جهة معدومة بهذا الاعتبار. لكن لا فرق بين قول القائل: هو في معدوم؛ وقوله ليس في شيء غيره؛ فإن المعدوم ليس شيئًا باتفاق العقلاء.

ولا ريب أن لفظ الجهة يريدون به تارة معنى موجودًا وتارة معنى معدومًا، بل المتكلم الواحد يجمع في كلامه بين هذا وهذا، فإذا أزيل الاحتمال ظهر حقيقة الأمر، فإذا قال القائل، لو كان في جهة لكانت قديمة معه، قيل له: هذا إذا أريد بالجهة أمر موجود سواه، فالله ليس في جهة بهذا الاعتبار.

وإذا قال: لو رؤى لكان في جهة وذلك محال؛ قيل له: إن أردت بذلك: لكان في جهة موجودة فذلك؛ محال فإن الموجود يمكن رؤيته وإن لم يكن في موجود غيره، كالعالم فإنه يمكن رؤية سطحه وليس هو في عالم آخر. وإن قال: أردت أنه لا بد أن يكون فيما يسمى جهة ولو معدومًا؛ فإنه إذا كان مباينًا للعالم سمى ما وراء العالم جهة. قيل له: فلم قلت: إنه إذا كان في جهة بهذا الاعتبار كان ممتنعًا؟ فإذا قال: لأن ما باين العالم ورؤى لا يكون إلا جسمًا أو متحيزًا عاد القول إلى لفظ الجسم والمتحيز كما عاد إلى لفظ الجهة. فيقال له: المتحيز يراد به ما حازه غيره، ويراد به ما بان

عن غيره -فكان متحيزًا عنه- فإن أردت بالمتحيز الأول لم يكن سبحانه متحيزًا؛ لأنه بائن عن المخلوقات لا يحوزه غيره، وإن أردت الثاني فهو سبحانه بائن عن المخلوقات منفصل عنها، ليس هو حالا فيها ولا متحدًا بها.

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه والتضليل، وإلا فكل من نفى شيئًا من الأسماء والصفات سمى من أثبت ذلك مجسمًا قائلًا بالتحيز والجهة.

فالمعتزلة ونحوهم يسمون الصفاتية الذين يقولون: إن الله تعالى حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، يسمونهم مجسمة مشبهة حشوية، والصفاتية هم السلف والأئمة وجميع الطوائف المثبتة للصفات: كالكُلَّابِيَّة، والكَرَّامِيَّة، والأشعرية، والسالمية، وغيرهم من طوائف الأمة، قالت نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة وطائفة من الفلاسفة لهؤلاء: إذا أثبتم له حياة وقدرة وكلامًا فهذه أعراض والأعراض لا تقوم إلا بجسم، وإذا قلتم: يرى فالرؤية لا تكون إلا لمعاين في جهة، وهذا يستلزم التجسيم.

فإذا قالت الأشعرية ومن اتبعهم: نحن نثبت هذه الصفات ولا نسميها أعراضًا؛ لأن العرض ما يعرض لمحله، وهذه الصفات باقية لا تزول، قالت لهم النفاة: هذا نزاع لفظي؛ فإن العرض عندكم ينقسم إلى لازم لمحله لا يفارقه -ما دام المحل موجودًا- وإلى ما يجوز أن يفارق محله، فالأول كالتحيز للجسم، بل وكالحيوانية والناطقية للإنسان فإنه ما دام إنسانًا لا تفارقه هذه الصفة.

وأما قولكم: إن العرض لا يبقى زمانين فهذا شيء انفردتم به من بين سائر العقلاء: وكابرتم به الحس لتنجوا بالمغاليط عن هذه الإلزامات المفحمة، ثم إنكم تقولون بتجدد أمثاله فهذا هو معنى بقاء العرض، وهذا كما قلتم إنه يرى بلا مواجهة ولا مدابرة، ولا يتوجه إليه الرائي بجهة من جهاته، فهذا أيضًا مما انفردتم به عن العقلاء وكابرتم به الحس والعقل، قالت لهم النفاة: فأثبتم ما يستلزم التجسيم والتشبيه والحشو أو نفيتم التلازم فخالفتم صريح العقل والضرورة.

ولهذا صار حذاقكم إلى أنكم في الحقيقة موافقون لنا على نفي رؤية الله تعالى، ولكن أظهرتم إثباتها لكونه المشهور عند الحشوية المشهورين بالسنة والجماعة؛ ليقال: إنكم منهم، أو أثبتم ذلك تناقضًا منكم، فأنتم دائرون بين المناقضة والمداهنة.

فإن كان الرجل ممن يوافق نفاة الصفات ويثبت أسماء الله الحسنى -كما تفعل المعتزلة وهم أئمة الكلام- سماه نفاة أسماء الله الحسنى مشبهًا حشويًا مجسمًا، كما فعلت القرامطة الحاكمية الباطنية وغيرهم، وقالوا: إذا قلتم إنه موجود عليم حي قدير فهذا هو القول بالتشبيه والتجسيم والحشو، فإن ذلك مشابهة لغيره من المخلوقات، ولأنه لا يعقل موجود حي عليم قدير إلا جسمًا، ولأن هذه الأسماء تستلزم الصفات، والصفات تستلزم التجسيم.

فإن كان الرجل ممن ينفي الأسماء والصفات -كما تفعله غلاة الجهمية والقرامطة والفلاسفة- فلا بد له أن يثبت أنه موجود.

وحينئذ فتقول له النفاة: أنت مجسم مشبه حشوي؛ لأنه إذا كان موجودًا فقد شاركه غيره في معنى الوجود وهو التشبيه؛ لأنه لا يعقل موجود إلا جسم أو قائم بجسم؛ فحينئذ يحتاج أن يقول: لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، أو لا موجود ولا لا موجود، ولا حي ولا لا حي، فيلزم نفي النقيضين جميعًا وما هو في معنى النقيضين، وذلك من أعظم الأمور الباطلة في بديهة العقل، مع أنه يلزم على قياس قولهم تشبيهه بالممتنعات؛ لأن ما ليس بموجود ولا معدوم لا تكون له حقيقة أصلًا -لا موجودة ولا معدومة- بل هو أمر مقدر في الأذهان لا يتحقق في الأعيان، هذا مع ما التزمه من الكفر الصريح.

ولو قدر أنه نفى الوجود الواجب القديم بالكلية لكان مع الكفر الذي هو أصل كل كفر قد كابر القضايا الضرورية، فإنا نشهد الموجودات ونعلم أن كل موجود إما قديم، وإما محدث، وإما واجب موجود بنفسه، وإما ممكن بنفسه موجود بغيره، وكل محدث وممكن بنفسه موجود بغيره فلا بد له من قديم واجب بنفسه، فالوجود بالضرورة يستلزم إثبات موجود قديم، ومن الوجود ما هو ممكن محدث، كما نشهده في المحدثات من الحيوان والنبات.

فإذا علم بضرورة العقول أن الوجود فيه ما هو موجود قديم واجب بنفسه، وفيه ما هو محدث موجود ممكن بنفسه، فهذان الموجودان اتفقا في مسمى الوجود وامتاز واحد منهما عن الآخر بخصوص وجوده، فمن لم يثبت ما بين الموجودين من الاتفاق وما بينهما من الافتراق وإلا لزمه أن تكون الموجودات كلها قديمة واجبة بأنفسها، أو محدثة ممكنة مفتقرة إلى غيرها، وكلاهما معلوم الفساد بالاضطرار، فتعين إثبات الاتفاق من وجه والامتياز من وجه، ونحن نعلم أن ما امتاز به الخالق الموجود عن سائر الموجودات أعظم مما تمتاز به سائر الموجودات بعضها عن بعض؛ فإذا كان الملك والبعوض قد اشتركا في مسمى الوجود والحي مع تفاوت ما بينهما، فالخالق سبحانه أولى بمباينته للمخلوقات؛ وإن حصلت الموافقة في بعض الأسماء والصفات.

فصل: إذا ظهرت هذه المقدمة تبين لنا أن قول القائل: كلما قام دليل العقل على أنه يدل على التجسيم كان متشابهًا جواب لا ينقطع به النزاع، ولا يحصل به الانتفاع، ولا يحصل به الفرق بين الصحيح والسقيم والزائغ والقويم.

وذلك أنه ما من نافٍ ينفي شيئًا من الأسماء والصفات إلا وهو يزعم أنه قد قام عنده دليل العقل على أنه يدل على التجسيم، فيكون متشابهًا، فيلزم حينئذ أن تكون جميع الأسماء والصفات متشابهات، وحينئذ فيلزم التعطيل المحض وألا يفهم من أسماء الله تعالى وصفاته معنى، ولا يميز بين معنى الحي والعليم، والقدير والرحيم، والجبار والسلام، ولا بين معنى الخلق والاستواء، وبين الإماتة والإحياء، ولا بين المجيء والإتيان، وبين العفو والغفران.

بيان ذلك: أن من نفى الصفات من الجهمية والمعتزلة والقرامطة الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة يقولون: إذا قلتم: إن القرآن غير مخلوق، وأن لله تعالى علمًا وقدرة وإرادة فقد قلتم

بالتجسيم؛ فإنه قد قام دليل العقل على أن هذا يدل على التجسيم؛ لأن هذه معاني لا تقوم بنفسها؛ لا تقوم إلا بغيرها سواء سميت صفاتًا أو أعراضًا أو غير ذلك.

قالوا: ونحن لا نعقل قيام المعنى إلا بجسم؛ فإثبات معنى يقوم بغير جسم غير معقول، فإن قال المثبت: بل هذه المعاني يمكن قيامها بغير جسم، كما أمكن عندنا وعندكم إثبات عالم قادر ليس بجسم. قالت المثبتة: الرضا، والغضب، والوجه، واليد، والاستواء، والمجيء وغير ذلك: فأثبتوا هذه الصفات أيضًا وقولوا: إنها تقوم بغير جسم.

فإن قالوا: لا يعقل رضا، وغضب؛ إلا ما يقوم بقلب هو جسم ولا نعقل وجهًا ويدًا إلا ما هو بعض من جسم. قيل لهم: ولا نعقل علمًا إلا ما هو قائم بجسم، ولا قدرة إلا ما هو قائم بجسم، ولا نعقل سمعًا وبصرًا وكلامًا إلا ما هو قائم بجسم، فلِمَ فَرَّقْتُم بين المتماثلين؟ وقلتم: إن هذه يمكن قيامها بغير جسم وهذه لا يمكن قيامها إلا بجسم وهما في المعقول سواء.

فإن قالوا: الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام؛ والوجه هو ذو الأنف والشفتين واللسان والخد أو نحو ذلك.

قيل لهم: إن كنتم تريدون غضب العبد ووجه العبد فوزانه أن يقال لكم: ولا يعقل بصر إلا ما كان بشحمة، ولا سمع إلا ما كان بصماخ، ولا كلامًا إلا ما كان بشفتين ولسان؛ ولا إرادة إلا ما كان لاجتلاب منفعة أو استدفاع مضرة؛ وأنتم تثبتون للرب السمع والبصر والكلام والإرادة على خلاف صفات العبد؛ فإن كان ما تثبتونه مماثلًا لصفات العبد لزمكم التمثيل في الجميع ،وإن كنتم تثبتونه على الوجه اللائق بجلال الله تعالى من غير مماثلة بصفات المخلوقات فاثبتوا الجميع على هذا الوجه المحدود، ولا فرق بين صفة وصفة؛ فإن ما نفيتموه من الصفات يلزمكم فيه نظير ما أثبتموه، فإما أن تعطلوا الجميع وهو ممتنع؛ وأما أن تمثلوه بالمخلوقات وهو ممتنع، وإما أن تثبتوا الجميع على وجه يختص به لا يماثله فيه غيره. وحينئذ فلا فرق بين صفة وصفة، فالفرق بينهما بإثبات أحدهما ونفي الآخر فرارًا من التشبيه والتجسيم قول باطل يتضمن الفرق بين المتماثلين والتناقض في المقالتين.

فإن قال: دليل العقل دل على أحدهما دون الآخر كما يقال: إنه دل على الحياة والعلم والإرادة؛ دون الرضا والغضب، ونحو ذلك.

فالجواب من وجوه:

أحدها: إن عدم الدليل لا يستلزم عدم المدلول عليه؛ فهب أنه لم يعلم بالعقل ثبوت أحدها فإنه لا يعلم نفيه بالعقل أيضًا ولا بالسمع، فلا يجوز نفيه؛ بل الواجب إثباته إن قام دليل على إثباته وإلا توقف فيه.

الثاني: أن يقال إنه يمكن إقامة دليل العقل على حبه وبغضه، وحكمته ورحمته، وغير ذلك من صفاته؛ كما يقام على مشيئته كما قد بين في غير هذا الموضع.

الثالث: أن يقال: السمع دل على ذلك، والعقل لا ينفيه فيجب العمل بالدليل السالم عن المعارض، فإن عاد فقال: بل العقل ينفي ذلك؛ لأن هذه الصفات تستلزم التجسيم والعقل ينفي التجسيم قيل له: القول في هذه الصفات التي تنفيها كالقول في الصفات التي أثبتها؛ فإن كان هنا مستلزمًا للتجسيم فكذلك الآخر، وإن لم يكن مستلزمًا للتجسيم فكذلك الآخر، فدعوى المدعي الفرق بينهما بأن أحدهما يستلزم التشبيه، أو التجسيم دون الآخر تفريق بين المتماثلين، وجمع بين النقيضين؛ فإن ما نفاه في أحدهما أثبته في الآخر، وما أثبته في أحدهما نفاه في الآخر، فهو يجمع بين النقيضين.

ولهذا قال المحققون: كل من نفى شيئًا من الأسماء والصفات الثابتة بالكتاب والسنة؛ فإنه متناقض لا محالة، فإن دليل نفيه فيما نفاه هو بعينه يقال فيما أثبته، فإن كان دليل العقل صحيحًا بالنفي وجب نفي الجميع، وإن لم يكن لم يجب نفي شيء من ذلك، فإثبات شيء ونفي نظيره تناقض باطل.

فإن قال المعتزلي: إن الصفات تدل على التجسيم؛ لأن الصفات أعراض لا تقوم إلا بجسم؛ فلهذا تأولت نصوص الصفات دون الأسماء. قيل له: يلزمك ذلك في الأسماء؛ فإن ما به استدللت على أن من له حياة وعلم وقدرة لا يكون إلا جسمًا يستدل به خصمك على أن العليم القدير الحي لا يكون إلا جسمًا، فيقال لك: إثبات حي عليم قدير لا يخلو إما أن يستلزم التجسيم أو لا يستلزم، فإن استلزم لزمك إثبات الجسم فلا يكون لرؤيته محدودًا على التقديرين، وإن لم يستلزم أمكن أن يقال: إن إثبات العلم والقدرة والإرادة لا يستلزم التجسيم، فإن كان هذا لا يستلزم فهذا لا يستلزم، وإن كان هذا يستلزم فهذا يستلزم، فلا فرق بينهما وإن فرق فهو تناقض جلي.

فإن قال الجهمي، والقرمطي، والفلسفي الموافق لهما: أنا أنفي الأسماء والصفات معًا، قيل له: لا يمكنك أن تنفي جميع الأسماء؛ إذ لا بد من إشارة القلب وتعبير اللسان عما تثبته، فإن قلت: ثابت موجود، محقق، معلوم، قديم، واجب؛ أي شيء قلت: كنت قد سميته، وهب أنك لا تنطق بلسانك: إما أن تثبت بقلبك موجودًا واجبًا قديمًا، وإما ألَّا تثبته، فإن لم تثبته كان الوجود خاليًا عن موجد واجب قديم، وحينئذ فتكون الموجودات كلها محدثة ممكنة، وبالاضطرار يعلم أن المحدث الممكن لا يوجد إلا بقديم واجب، فصار نفيك له مستلزمًا لإثباته، ثم هذا هو الكفر والتعطيل الصريح الذي لا يقول به عاقل.

وإن قلت: أنا لا أخطر ببالي النظر في ذلك ولا أنطق فيه بلساني، قيل لك: إعراض قلبك عن العلم ولسانك عن النطق لا يقتضى قلب الحقائق ولا عدم الموجودات؛ فإن ما كان حقًّا موجودًا ثابتًا في نفسك فهو كذلك علمته أو جهلته، وذكرته أو نسيته، وذلك لا يقتضي إلا الجهل بالله تعالى والغفلة عن ذكر الله، والإعراض عنه والكفر به، وذلك لا يقتضي أنه في نفسه ليس حقًّا موجودًا له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

ولا ريب أن هذا هو غاية القرامطة الباطنية والمُعَطِّلَة الدهرية أنهم يبقون في ظلمة الجهل وضلال الكفر؛ لا يعرفون الله ولا يذكرونه، ليس لهم دليل على نفيه ونفي أسمائه وصفاته؛ فإن

هذا جزم بالنفي وهم لا يجزمون ولا دليل لهم على النفي؛ وقد أعرضوا عن أسمائه وآياته وصاروا جهالًا به؛ كافرين به غافلين عن ذكره موق؛ القلوب عن معرفته ومحبته وعبادته.

ثم إذا فعلوا ذلك بزعمهم لئلا يقعوا في التشبيه والتجسيم قيل لهم: ما فررتم إليه شر مما فررتم عنه! فإن الإقرار بالصانع على أي وجه كان خير من نفيه وأيضًا فإن هذا العالم المشهود، كالسماء والأرض إن كان قديمًا واجبًا بنفسه فقد جعلتم الجسم المشهود قديمًا واجبًا بنفسه، وهذا شر مما فررتم منه، وإن لم يكن قديمًا واجبًا بنفسه لزم أن يكون له صانع قديم واجب بنفسه، وحينئذ تتضح معرفته وذكره بأن إثبات الرب بالقلب واللسان حق لا ريب فيه سمعًا وعقلًا؛ فإن كان ذلك مستلزمًا لما سميتموه تشبيهًا وتجسيمًا فلازم الحق حق، وإن لم يكن مستلزمًا له أمكنكم إثباته بدون هذا الكلام، فظهر تناقض النفاة كيف صرفت عليهم الدلالات، وظهر تناقض من يثبت بعض الصفات دون بعض.

فإن قالت النفاة: إنما نفينا الصفات لأن دليلنا على حدوث العالم وإثبات الصانع دل على نفيها؛ فإن الصانع أثبتناه بحدوث العالم، وحدوث العالم إنما أثبتناه بحدوث الأجسام، والأجسام إنما أثبتنا حدوثها بحدوث الصفات التي هي الأعراض، أو قالوا: إنما أثبتنا حدوثها بحدوث الأفعال التي هي الحركات، وإن القابل لها لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو أن ما قبل المجيء والإتيان والنزول كان موصوفًا بالحركة، وما اتصف بالحركة لم يخل منها أو من السكون الذي هو ضدها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، فإذا ثبت حدوث الأجسام قلنا: إن المحدث لا بد له من محدث فأثبتنا الصانع بهذا؛ فلو وصفناه بالصفات أو بالأفعال القائمة به لجاز أن تقوم الأفعال والصفات بالقديم وحينئذ فلا يكون دليلًا على حدوث الأجسام، فيبطل دليل إثبات الصفات.

فيقال لهم: الجواب من وجوه:

أحدها: أن بطلان هذا الدليل المعين لا يستلزم بطلان جميع الأدلة، وإثبات الصانع له طرق كثيرة لا يمكن ضبط تفاصيلها وإن أمكن ضبط جملها.

الثاني: أن هذا الدليل لم يستدل به أحد من الصحابة والتابعين ولا من أئمة المسلمين، فلو كانت معرفة الرب عز وجل والإيمان به موقوفة عليه للزم أنهم كانوا غير عارفين بالله ولا مؤمنين به، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين.

الثالث: أن الأنبياء والمرسلين لم يأمروا أحدًا بسلوك هذا السبيل، فلو كانت المعرفة موقوفة عليه وهي واجبة لكان واجبًا، وإن كانت مستحبة كان مستحبًّا، ولو كان واجبًا أو مستحبًّا لشرعه رسول الله ﷺ، ولو كان مشروعًا لنقلته الصحابة[(١)]

وقال: قال أهل العلم والسنة فإذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات: إن الصفات لا

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٣- ٥٠)، (٦/ ٥١٩- ٥٢٤)، (٥/ ٥٣٨- ٥٦٥)، (١٢/ ٢٧- ٣٦، ١٤٠- ١٥٨، ٢١٣- ٢٢٩، ٥٩٢- ٥٩٨)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٦١٨، ٦١٩).

تقوم إلا بجسم، والله تعالى ليس بجسم، قيل لهم: إن أردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة أو ما هو مركب من المادة والصورة لم نسلم لكم المقدمة الأولى وهي قولكم: إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك، قيل لكم: إن الرب تعالى قائم بنفسه والعباد يرفعون أيديهم إليه في الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العلي الأعلى سبحانه، ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عيانًا كما يرون القمر ليلة البدر، فإن قلتم: إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث، كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل، وإن قلتم: نحن نسمي ما هو كذلك جسمًا ونقول: إنه مركب، قيل تسميتكم التي ابتدعتموها هي من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسماها بأسماء منكرة لينفر الناس عنها قيل له: النزاع في المعاني لا في الألفاظ ولو كانت الألفاظ موافقة للغة، فكيف إذا كانت من ابتداعهم؟ ومعلوم أن المعاني التي يعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل وأما قولهم إن كل ما كان تقوم به الصفات وترفع الأيدي إليه ويمكن أن يراه الناس بأبصارهم فإنه لا بد أن يكون مركبًا من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة فهذا ممنوع؛ بل هو باطل عند جمهور العقلاء: من النظار والفقهاء وغيرهم، كما قد بسط في موضعه[1].

وقال: إن القول في بعض صفات الله كالقول في سائرها، وأن القول في صفاته كالقول في ذاته، وأن من أثبت صفة دون صفة مما جاء به الرسول ﷺ مع مشاركة أحدهما الأخرى فيما به نفاها؛ كان متناقضًا.

فمن نفى النزول والاستواء، أو الرضا والغضب، أو العلم والقدرة، أو اسم العليم أو القدير، أو اسم الموجود، فرارًا بزعمه من تشبيه وتركيب وتجسيم؛ فإنه يلزمه فيما أثبته نظير ما ألزمه لغيره فيما نفاه هو وأثبت المثبت.

فكل ما يستدل به على نفي النزول والاستواء والرضا والغضب يمكن منازعة أن يستدل بنظيره على نفي الإرادة والسمع والبصر والقدرة والعلم، وكل ما يستدل به على نفي القدرة والعلم والسمع والبصر، يمكن منازعه أن يستدل بنظيره على نفي العليم والقدير، والسميع والبصير، وكل ما يستدل به على نفي هذه الأسماء، يمكن منازعه أن يستدل به على نفي الموجود والواجب.

ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم واجب بنفسه، يمتنع عليه العدم؛ فإن الموجود إما ممكن ومحدث، وإما واجب وقديم، والممكن المحدث لا يوجد إلا بواجب قديم، فإذا كان ما يستدل به على نفي الصفات الثابتة يستلزم نفي الموجود الواجب القديم، ونفي ذلك يستلزم نفي الموجود مطلقًا؛ علم أن من عطل شيئًا من الصفات الثابتة بمثل هذا الدليل كان قوله مستلزمًا تعطيل الموجود المشهود[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥١، ٣٥٢).

الفصل الرابع
فِرَق المُعَطِّلَة

يتضح مما تقدم أن المُعَطِّلَة من ناحية الجملة ثلاث درجات، وهم: الجهمية ومن تبعهم، والمعتزلة ومن تبعهم، والكُلَّابِيَّة ومن تبعهم.

قال شيخ الإسلام: الجهمية على ثلاث درجات:

فشرها الغالية: الذين ينفون أسماء الله وصفاته وإن سموه بشيء من أسمائه الحسنى قالوا: هو مجاز فهو في الحقيقة عندهم ليس بحي، ولا عالم، ولا قادر، ولا سميع، ولا بصير، ولا متكلم، ولا يتكلم..

والدرجة الثانية من التجهم: هو تجهم المعتزلة ونحوهم: الذين يقرون بأسماء الله الحسنى في الجملة لكن ينفون صفاته، وهم أيضًا لا يقرون بأسماء الله الحسنى كلها على الحقيقة بل يجعلون كثيرًا منها على المجاز، وهؤلاء هم الجهمية المشهورون.

وأما الدرجة الثالثة: فهم الصفاتية المثبتون المخالفون للجهمية لكن فيهم نوع من التجهم، كالذين يقرون بأسماء الله وصفاته في الجملة لكن يردون طائفة من أسمائه وصفاته الخبرية، أو غير الخبرية، ويتأولونها كما تأول الأولون صفاته كلها.

ومن هؤلاء من يقر بصفاته الخبرية الواردة في القرآن دون الحديث كما عليه كثير من أهل الكلام والفقه وطائفة من أهل الحديث، ومنهم من يقر بالصفات الواردة في الأخبار أيضًا في الجملة لكن مع نفي وتعطيل لبعض ما ثبت بالنصوص وبالمعقول، وذلك كأبي محمد بن كلاب ومن اتبعه.

وفي هذا القسم يدخل أبو الحسن الأشعري وطوائف من أهل الفقه والكلام والحديث والتصوف، وهؤلاء إلى أهل السنة المحضة أقرب منهم إلى الجهمية والرافضة والخوارج والقدرية، لكن انتسب إليهم طائفة هم إلى الجهمية أقرب منهم إلى أهل السنة المحضة؛ فإن هؤلاء ينازعون المعتزلة نزاعًا عظيمًا فيما يثبتونه من الصفات أعظم من منازعتهم لسائر أهل الإثبات فيما ينفونه.

وأما المتأخرون فإنهم وَالَوا المعتزلة وقاربوهم أكثر وقدموهم على أهل السنة والإثبات، وخالفوا أَوَّليهم، ومنهم من يتقارب نفيه وإثباته وأكثر الناس يقولون: إن هؤلاء يتناقضون فيما يجمعونه من النفي والإثبات[1].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦- ٣٨).

وإليك بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال أبو حنيفة: قاتل الله جهم بن صفوان ومقاتل بن سليمان؛ هذا أفرط في النفي، وهذا أفرط في التشبيه[١].

وقال: أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم معطل، ومقاتل مشبه[٢].

وقال شيخ الإسلام: وكان جهم ينفي الصفات والأسماء ثم انتقل بعض ذلك إلى المعتزلة وغيرهم، فنفوا الصفات دون الأسماء[٣].

وقال: والمعتزلة مشبهة في الأفعال، معطلة في الصفات[٤].

وقال: إن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يرى في الآخرة جهميًا، فإن جهمًا أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات، وبالغ في نفي ذلك فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه، وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك.

فإن الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك...

ولكن المعتزلة وإن وافقوا جهمًا في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك كمسائل القدر: والإيمان وبعض مسائل الصفات أيضًا، ولا يبالغون في النفي مبالغته.

وجهم يقول: إن الله تعالى لا يتكلم، أو يقول: إنه يتكلم بطريق المجاز، وأما المعتزلة فيقولون إنه يتكلم حقيقة، لكن قولهم في المعنى هو قول جهم، وجهم ينفي الأسماء أيضًا، كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء[٥].

وقال: وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة:

نوع في الأسماء والصفات فغلا في النفي، ووافقه على ذلك الباطنية والفلاسفة ونحوهم، والمعتزلة في الصفات دون الأسماء، والكُلَّابِيَّة ومن وافقهم من الفقهاء وأهل الحديث في نفي الصفات الاختيارية[٦].

وقال: وقول جهم وهو النفي المحض لصفات الله تعالى، وهو حقيقة قول القرامطة الباطنية، ومنحرفي المتفلسفة كالفارابي وابن سينا، وأما مقتصدة الفلاسفة كأبي البركات صاحب المعتبر،

---

(١) طبقات الحنفية (١/ ٣١).
(٢) تاريخ الإسلام (٩/ ٦٤٢).
(٣) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٩٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٥).
(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٩)، (١٢/ ٣٠٩- ٣١٢).
(٦) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٧).

وابن رشد الحفيد ففي قولهم من الإثبات ما هو خير من قول جهم؛ فإن المشهور عنهم إثبات الأسماء الحسنى، وإثبات أحكام الصفات، ففي الجملة قولهم خير من قول جهم، وقول ضرار بن عمرو الكوفي خير من قولهم.

وأما ابن كلاب والقلانسي والأشعري فليسوا من هذا الباب، بل هؤلاء معرفون بالصفاتية، مشهورون بمذهب الإثبات؛ لكن في أقوالهم شيء من أصول الجهمية، وما يقول الناس إنه يلزمهم بسببه التناقض، وأنهم جمعوا بين الضدين، وإنهم قالوا ما لا يعقل، ويجعلونهم مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا وجه من يجعل في قولهم شيئًا من أقوال الجهمية[1].

ونحن سوف يكون حديثنا في هذا الباب عن أصحاب الدرجة الثالثة؛ لأنه قد تمَّ الكلام عن أصحاب الدرجتين الأولين فيما سبق من أبواب.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).

الفصل الخامس
الكُلَّابِيَّة

أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصري، وكان يلقب كُلَّابًا؛ لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته، له مصنفات في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم.

وقد خالف أهل السنة في إنكاره قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل المتعلقة بمشيئته وقدرته، وهذا جعله في معارَضَة من يقول بخلق القرآن يقول بمقالة هو أول من أحدثها في الإسلام، وهي أن كلام الله عز وجل معنى واحد قائم بذاته لا بصوت ولا حرف، غير متعلق بمشيئته، فالقرآن عنده حكاية عن كلام الله، وهذا القول من بقايا بعض الاعتزال، وهذه الأفكار وجدتْ أتباعًا آمنوا بها ودعوا إليها من تلاميذه، منهم الحارث المحاسبي، وأبو العباس القلانسي، وكانت دعوتهم نَشِطَة ببلاد خراسان.

وقد أنكر علماء السلف على ابن كُلَّاب مقالته هذه وتصدوا لها، وكان الإمام أحمد بن حنبل من أشدهم إنكارًا على ابن كلاب وأتباعه وردًّا عليهم وذمًّا لهم، وأمر بهجر الحارث المحاسبي، ووصفه بأنه جهميٌّ.

وكذلك أنكر علماء السلف على أتباعه من بعده، مثل الإمام ابن خزيمة فإنه لما سمع بوجود طائفة من الكُلَّابِيَّة ومن المتأثرين بهم بين أصحابه، أنكر ذلك بشدة وتصدى لهم، ورد عليهم[(١)]

قال شيخ الإسلام: وكان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين؛ فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها، والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري وغيرهما، وأما الحارث المحاسبي فكان ينتسب إلى قول ابن كُلَّاب ولهذا أمر أحمد بهجره، وكان أحمد يحذر عن ابن كلاب وأتباعه، ثم قيل عن الحارث: إنه رجع عن قوله[(٢)]

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤- ١٧٦)، (١٤/٣٧٧- ٣٨١)، تذكرة الحفاظ (٢/٧٢٧)، مجموع الفتاوى (٣/١٠٣)، (٥/٣٧٩، ٥٥٣- ٥٥٨)، (٦/١٦٩- ١٧٨، ٢٩٦- ٢٩٨)، (١٢/٩٥، ١٧٨)، دقائق التفسير (٢/١٨٦)، درء تعارض العقل والنقل (٢/٦، ١٨، ٧٨- ٨٢)، النبوات ص(٤٦، ٤٧)، الاستقامة (١/١٠٦- ١١٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/٦).

مقالات الكُلَّابِيَّة

- قولهم في الأسماء والصفات.

يثبتون لله عز وجل الأسماء والصفات الذاتية، ولا يثبتون الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئة وقدرة المولى عز وجل؛ كالنزول، والاستواء، والإتيان، والمجيء، والكلام، والرضا، والغضب، والفرح، وغيره.

أقوال العلماء

قال الأشعري: قال عبد الله بن كلاب: لم يزل الله عالمًا، قادرًا، حيًّا، سميعًا، بصيرًا، عزيزًا، عظيمًا، جليلًا، متكبرًا، جبارًا، كريمًا، جوادًا، واحدًا، صمدًا، فردًا، باقيًا، أولًا، ربًّا، إلهًا، مريدًا، كارهًا، راضيًا عمن يعلم أنه يموت مؤمنًا، وإن كان أكثر عمره كافرًا ساخطًا على من يعلم أنه يموت كافرًا، وإن كان أكثر عمره مؤمنًا محبًّا مبغضًا مواليًا معاديًا قائلًا متكلمًا رحمانًا بعلم، وقدرة، وحياة، وسمع، وبصر، وعزة، وعظمة، وجلال، وكبرياء، وجود، وكرم، وبقاء، وإرادة، وكراهة، ورضا، وسخط، وحب، وبغض، وموالاة، ومعاداة، وقول، وكلام، ورحمة، وأنه قديم لم يزل بأسمائه وصفاته.

وكان يقول: معنى أن الله عالم أن له علمًا ومعنى أنه قادر أن له قدرة، ومعنى أنه حي أن له حياة، وكذلك القول في سائر أسمائه وصفاته[1].

وقال: وإن صفات الله سبحانه هي أسماؤه، وإنه لا يجوز أن توصف الصفات بصفة ولا تقوم بأنفسها، وأنها قائمة بالله[2]

وقال: وقال عبد الله بن كُلَّاب: أسماء الله هي صفاته، وهي: العلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، وسائر صفاته[3]

وقال: وقال عبد الله بن كُلَّاب وأصحابه: إن الله لم يزل سميعًا بصيرًا[4].

وقال: وقال ابن كلاب الوصف لله بأنه كريم ليس من صفات الفعل[5]

وقال: وزعم أنه لم يزل راضيًا عمن يعلم أنه يموت مؤمنًا، وإن كان أكثر عمره كافرًا، ساخطًا على من يعلم أنه يموت كافرًا، وإن كان أكثر عمره مؤمنًا.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٦٩).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٦).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٧٣).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٧٣).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٧٩).

وإرادة الله سبحانه لكون الشيء هي الكراهة ألا يكون[(١)]

وقال في القول في الولاية والعداوة والرضا والسخط: وقال سليمان بن جرير وعبد الله بن كلاب: من صفات الذات[(٢)]

وقال: قال عبد الله بن كُلَّاب: إن الله سبحانه لم يزل قديمًا بأسمائه وصفاته، وأنه لم يزل عالمًا قادرًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا جليلًا كبيرًا عظيمًا جوادًا متكبرًا واحدًا أحدًا صمدًا فردًا باقيًا أولًا سيدًا مالكًا ربًّا رحمانًا مريدًا كارهًا محبًّا مبغضًا راضيًا ساخطًا مواليًا معاديًا قائلًا متكلمًا بعلم، وقدرة، وحياة، وسمع، وبصر، وعزة، وجلال، وعظمة، وكبرياء، وكرم، وجود، وبقاء، وإلهية، ورحمة، وإرادة، وكراهة، وحب، وبغض، ورضى، وسخط، وولاية، وعداوة وكلام، وأن ذلك من صفات الذات[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: فرقة تقول إرادته وحبه ورضاه ونحو هذا قديم، ولم يزل راضيًا عمن علم أنه يموت مؤمنًا، ولم يزل ساخطًا على من علم أنه يموت كافرًا، كما يقول ذلك من يقوله من الكُلَّابِيَّة وأهل الحديث والفقهاء والصوفية[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إذا قال: النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام؛ فإنه لا يعقل النزول والاستواء إلا لجسم مركب، والله سبحانه منزه عن هذه اللوازم، فيلزم تنزيهه عن الملزوم. أو قال: هذه حادثة والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب، وكذلك إذا قال: الرضا والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الأجسام.

فإنه يقال له: وكذلك الإرادة، والسمع، والبصر، والعلم والقدرة: من صفات الأجسام، فإنا كما لا نعقل ما ينزل، ويستوي ويغضب ويرضى إلا جسمًا، لم نعقل ما يسمع ويبصر ويريد ويعلم ويقدر إلا جسمًا.

فإذا قيل: سمعه ليس كسمعنا، وبصره ليس كبصرنا، وإرادته ليست كإرادتنا وكذلك علمه وقدرته.

قيل له: وكذلك رضاه ليس كرضانا، وغضبه ليس كغضبنا، وفرحه ليس كفرحنا، ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا.

فإذا قال: لا يعقل في الشاهد غضب إلا غليان دم القلب لطلب الانتقام ولا يعقل نزول إلا

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٧).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٢).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/١٤٧، ١٤٨)، (٥/٤١١، ٤١٢)، (٥/٥٧٦)، (٥/٤٦٦، ٤٤٧).

الانتقال، والانتقال يقتضي تفريغ حيز وشغل آخر، فلو كان ينزل، لم يبق فوق العرش رب.

قيل: ولا يعقل في الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه وينفعه، ويفتقر فيه إلى ما سواه ودفع ما يضره، والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه المقدسة في حديثه الإلهي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني» فهو منزه عن الإرادة التي لا يعقل في الشاهد إلا هي.

وكذلك السمع لا يعقل في الشاهد إلا بدخول صوت في الصماخ، وذلك لا يكون إلا في أجوف؛ والله سبحانه أحد صمد منزه عن مثل ذلك، بل وكذلك البصر والكلام لا يعقل في الشاهد إلا في محل أجوف، والله سبحانه أحد صمد منزه عن ذلك.

قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وخلق من السلف: «الصمد» الذي لا جوف له، وقال آخرون: هو السيد الذي كمل في سؤدده، وكلا القولين حق؛ فإن لفظ الصمد في اللغة يتناول هذا وهذا، والصمد في اللغة السيد، والصمد أيضًا المصمد، والمصمد المصمت، وكلاهما معروف في اللغة..

ولهذا قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة صمد، والآدميون جوف، وهذا أيضًا دليل آخر؛ فإنه إذا كانت الملائكة وهم مخلوقون من النور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة ﵂، عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» فإذا كانوا مخلوقين من نور، وهم لا يأكلون ولا يشربون؛ بل هم صمد ليسوا جوفًا كالإنسان، وهم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ويصعدون وينزلون كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة، وهم مع ذلك لا تماثل صفاتهم وأفعالهم صفات الإنسان وفعله؛ فالخالق تعالى أعظم مباينة لمخلوقاته من مباينة الملائكة للآدميين؛ فإن كليهما مخلوق، والمخلوق أقرب إلى مشابهة المخلوق من المخلوق إلى الخالق سبحانه وتعالى.

وكذلك روح ابن آدم تسمع وتبصر وتتكلم وتنزل وتصعد كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة، والمعقولات الصريحة، ومع ذلك فليست صفاتها وأفعالها كصفات البدن وأفعاله.

فإذا لم يجز أن يقال: إن صفات الروح وأفعالها مثل صفات الجسم الذي هو الجسد، وهي مقرونة به وهما جميعًا الإنسان، فإذا لم يكن روح الإنسان مماثلًا للجسم الذي هو بدنه؛ فكيف يجوز أن يجعل الرب تبارك وتعالى وصفاته وأفعاله مثل الجسم وصفاته وأفعاله؟!!

فإن أراد النافي التزام أصله، وقال: أنا أقول ليس له كلام يقوم به، بل كلامه مخلوق؛ قيل له: فيلزمك في السمع والبصر، فإن البصريين من المعتزلة يثبتون الإدراك، فإن قال: أنا أقول بقول البغداديين منهم -فلا أثبت له سمعًا ولا بصرًا ولا كلامًا يقوم به؛ بل أقول كلامه مخلوق من مخلوقاته؛ لأن إثبات ذلك تجسيم وتشبيه، بل ولا أثبت له إرادة كما لا يثبتها البغداديون؛ بل اجعلها سلبًا أو إضافة فأقول: معنى كونه مريدًا أنه غير مغلوب ولا مكره، أو بمعنى كونه خالقًا

وآمرًا- قيل له: فيلزمك ذلك في كونه حيًا عالمًا قادرًا، فإن المعتزلة مطبقة على إثبات أنه حي عالم قادر، وقيل له: أنت لا تعرف حيًا عالمًا قادرًا إلا جسمًا فإذا جعلته حيًا عالمًا قادرًا؛ لزمك التجسيم والتشبيه.

فإن زاد في التعطيل وقال: أنا لا أقول بقول المعتزلة؛ بل بقول الجهمية المحضة، والباطنية من الفلاسفة، والقرامطة فأنفي الأسماء مع الصفات، ولا أسميه حيًا ولا عالمًا ولا قادرًا ولا متكلمًا إلا مجازًا بمعنى السلب والإضافة؛ أي هو ليس بجاهل ولا عاجز، وجعل غيره عالمًا قادرًا -قيل له: فيلزمك ذلك في كونه موجودًا واجبًا بنفسه قديمًا فاعلًا؛ فإن جهمًا قد قيل: إنه كان يثبت كونه فاعلًا قادرًا؛ لأن الإنسان عنده ليس بقادر ولا فاعل، فلا تشبيه عنده في ذلك.

وإذا وصل إلى هذا المقام؛ فلا بد له أن يقول بقول طائفة منهم، فيقول: أنا لا أصفه بصفة وجود ولا عدم، فلا أقول موجود ولا معدوم، أو لا موجود ولا غير موجود، بل أمسك عن النقيضين فلا أتكلم لا بنفي ولا إثبات.

وأما أن يقول: أنا لا أصفه قط بأمر ثبوتي بل بالسلبي؛ فلا أقول موجود بل أقول ليس بمعدوم.

وإما أن يقال: بل هو معدوم؛ فالقسمة حاصرة، فإنه؛ إما أن يصفه بأمر ثبوتي فيلزمه ما ألزمه لغيره من التشبيه والتجسيم، وإما أن يقول لا أصفه بالثبوت بل بسلب العدم فلا أقول موجود بل ليس بمعدوم.

وإما أن يلتزم التعطيل المحض فيقول: ما ثم وجود واجب؛ فإن قال بالأول وقال: لا أثبت واحدًا من النقيضين، لا الوجود ولا العدم.

قيل: هب أنك تتكلم بذلك بلسانك، ولا تعتقد بقلبك واحدًا من الأمرين، بل تلتزم الإعراض عن معرفة الله وعبادته وذكره، فلا تذكره قط ولا تعبده ولا تدعوه ولا ترجوه ولا تخافه، فيكون جحدك له أعظم من جحد إبليس الذي اعترف به، فامتناعك من إثبات أحد النقيضين لا يستلزم رفع النقيضين في نفس الأمر، فإن النقيضين لا يمكن رفعهما، بل في نفس الأمر لا بد أن يكون -الشيء أي شيء كان- إما موجودًا وإما معدومًا، إما أن يكون وإما ألا يكون، وليس بين النفي والإثبات واسطة أصلًا.

ونحن نذكر ما في نفس الأمر سواء جحدته أنت أو اعترفت به، وسواء ذكرته أو أعرضت عنه، فإعراض الإنسان عن رؤية الشمس والقمر والكواكب والسماء لا يدفع وجودها، ولا يدفع ثبوت أحد النقيضين؛ بل بالضرورة الشمس إما موجودة، وإما معدومة، فإعراض قلبك ولسانك عن ذكر الله كيف يدفع وجوده ويوجب رفع النقيضين؟ فلا بد أن يكون إما موجودًا وإما معدومًا في نفس الأمر.

وكذلك من قال: أنا لا أقول موجود، بل أقول ليس بمعدوم؛ فإنه يقال: سلب أحد النقيضين

إثبات للآخر، فأنت غيرت العبارة؛ إذ قول القائل: ليس بمعدوم، يستلزم أن يكون موجودًا فأما إذا لم يكن معدومًا، إما أن يكون موجودًا، وإما ألا يكون لا موجودًا ولا معدومًا.

وهذا القسم الثالث يوجب رفع النقيضين وهو ما يعلم فساده بالضرورة، فوجب أنه إذا لم يكن معدومًا أن يكون موجودًا.

وإن قال: بل ألتزم أنه معدوم، قيل له: فمن المعلوم بالمشاهدة والعقل وجود موجودات، ومن المعلوم أيضًا أن منها ما هو حادث بعد أن لم يكن -كما نعلم نحن أنا حادثون بعد عدمنا وأن السحاب حادث، والمطر والنبات حادث، والدواب حادثة، وأمثال ذلك من الآيات التي نبه الله تعالى عليها بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٤]

وهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة الوجود بذاتها؛ فإن ما وجب وجوده بنفسه امتنع عدمه ووجب قدمه، وهذه كانت معدومة ثم وجدت؛ فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها، فإن كليهما قد تحقق فيها؛ فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدث ممكن.

فنقول حينئذ: الموجود والمحدث الممكن لا بد له من موجد قديم واجب بنفسه؛ فإنه يمتنع وجود المحدث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الإنسان نفسه، وهذا من أظهر المعارف الضرورية؛ فإن الإنسان بعد قوته ووجوده لا يقدر أن يزيد في ذاته عضوًا، ولا قدرًا، فلا يقصر الطويل ولا يطول القصير، ولا يجعل رأسه أكبر مما هو ولا أصغر، وكذلك أبواه لا يقدران على شيء من ذلك.

ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لا بد له من محدث، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة؛ حتى للصبيان؛ فإن الصبي لو ضربه ضارب وهو غافل لا يبصره لقال: من ضربني؟ فلو قيل له: لم يضربك أحد؛ لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير محدث؛ بل يعلم أنه لا بد للحادث من محدث، فإذا قيل: فلان ضربك، بكى حتى يضرب ضاربه؛ فكان في فطرته الإقرار بالصانع وبالشرع الذي مبناه على العدل ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطُّور: الآية ٣٥].

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء أسارى بدر قال: «وجدت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور قال: فلما سمعت هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطُّور: الآية ٣٥]؟ أحسست بفؤادي قد انصدع».

وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها، يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطُّور: الآية ٣٥]؟! أي: من غير خالق خلقهم؛ أم هم خلقوا أنفسهم؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل؛ فتعين أن لهم خالقًا خلقهم سبحانه وتعالى.

وهنا طرق كثيرة مثل أن يقال: الوجود إما قديم وإما محدث والمحدث لا بد له من قديم، والموجود إما واجب وإما ممكن، والممكن لا بد له من واجب ونحو ذلك، وعلى كل تقدير، فقد لزم أن الوجود فيه موجود قديم واجب بنفسه، وموجود ممكن محدث كائن بعد إن لم يكن، وهذان قد اشتركا في مسمى الوجود، وهو لا يعقل موجودًا في الشاهد إلا جسمًا، فلزمه ما ألزمه لغيره من التشبيه والتجسيم الذي ادعاه.

فعلم أن من نفى شيئًا من صفات الله بمثل هذه الطريقة، فإن نفيه باطل، ولو لم يرد الشرع بإثبات ذلك، ولا دل أيضًا عليه العقل. فكيف ينفي بمثل ذلك ما دل الشرع والعقل على ثبوته؟! فيتبين أن كل من نفى شيئًا من الصفات -لأن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم- لزمه ما ألزم به غيره، وحينئذ فيكون الجواب مشاركًا(١).

وقال: وأما أكثر الناس فيقولون: بل هو إذا كان كافرًا، فهو عدو لله، ثم إذا آمن واتقى صار وليًا لله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١] إلى قوله: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٧]، وكذلك كان، فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح، آمن أكثرهم، وصاروا من أولياء الله ورسوله، وابن كلاب وأتباعه بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله، وهي الإرادة والمحبة والرضا ونحو ذلك، فمعناها إرادة إثابته بعد الموت، وهذا المعنى تابع لعلم الله، فمن علم أنه يموت مؤمنًا، لم يزل وليًا لله؛ لأنه لم يزل الله مريدًا لإدخاله الجنة، وكذلك العداوة.

وأما الجمهور فيقولون: الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه، فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه، بعد أن يؤمن ويعمل صالحًا، وإنما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [مُحَمَّد: الآية ٢٨]، فأخبر أن الأعمال أسخطته؛ وكذلك قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزُّخرُف: الآية ٥٥]، قال المفسرون: أغضبونا، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧]، وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**».

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٢- ٣٦٠).

فأخبر أنه: لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه، ثم قال: فإذا أحببته: كنت كذا وكذا، وهذا يبين أن حبه لعبده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه، والقرآن قد دل على مثل ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] ، فقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] ، جواب الأمر في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] ، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم وهو اتباع الرسول، فأثابهم على ذلك بأن أحبهم؛ وجزاء الشرط، وثواب العمل، ومسبب السبب لا يكون إلا بعده، لا قبله، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافر: الآية ٦٠] ، وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] ، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ومثل هذا كثير، وكذلك قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبَة: الآية ٤] ، وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾، وكانوا قد سألوه: لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه؟

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: الآية ١٠] ، فهذا يدل على أن حبه ومقته، جزاء لعملهم، وأنه يحبهم إذا اتقوا وقاتلوا، ولهذا رغبهم في العمل بذلك، كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به، وجزاء العمل بعد العمل، وكذلك قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية ١٠] ؛ فإنه سبحانه يمقتهم إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون؛ ومثل هذا قوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفَتْح: الآية ١٨] ، فقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفَتْح: الآية ١٨] ، بين أنه رضي عنهم هذا الوقت، فإن حرف (إذ) ظرف لما مضى من الزمان؛ فعلم أنه ذاك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل، وأثابهم عليه، والمسبب لا يكون قبل سببه، والموقت بوقت لا يكون قبل وقته، وإذا كان راضيًا عنهم من جهة؛ فهذا الرضا الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ، كما ثبت في الصحيح، أنه يقول لأهل الجنة: **«يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربنا ومالنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»**، وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان، الذي لا يتعقبه سخط أبدًا، ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط.

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة يقول كل من الرسل: **«إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»**، وفي الصحاح عن النبي ﷺ، من غير وجه أنه قال: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده، من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة، عليها طعامه وشرابه، فطلبها فلم يجدها، فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ، إذا دابته عليها طعامه وشرابه»**، وفي

رواية: «كيف تجدون فرحه بها؟» قالوا: عظيمًا يا رسول الله، قال: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا براحلته»، وكذلك ضحكه إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة؛ وضحكه إلى الذي يدخل الجنة آخر الناس، ويقول: أتسخر بي وأنت رب العالمين؟ فيقول: لا ولكني على ما أشاء قادر، وكل هذا في الصحيح.

وفي دعاء القنوت: «تولني فيمن توليت»، والقديم لا يتصور طلبه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: الآية ١٩٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: الآية ١٩]، فهذا التولي لهم، جزاء صلاحهم وتقواهم، ومسبب عنه، فلا يكون متقدمًا عليه، وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه، لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين، فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك، مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده؛ ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين، وهكذا الرحمة قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، قال الترمذي: حديث صحيح، وكذلك قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧]، علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب، والجزاء إنما يكون بعد الشرط، وكذلك قوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: الآية ٢٧]، يدل على أنه يشاء ذلك فيما بعد، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: الآية ٨٢]، فإذا ظرف لما يستقبل من الزمان، فدل على أنه إذا أراد كونه. قال له: كن، فيكون، وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٥]؛ فبين فيه أنه سيرى ذلك في المستقبل إذا عملوه[1]

- قولهم في تغاير الأسماء والصفات عن المسمى والموصوف

يقولون بأن أسماء الله وصفاته الذاتية قائمة به، لا هي هو، ولا هي غيره، وأن كل صفة من صفات الذات لا هي الأخرى ولا غيرها.

ومنهم من امتنع عن هذه الأقوال.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وكان يقول: إن أسماء الله وصفاته لذاته لا هي الله ولا هي غيره، وإنها قائمة بالله ولا يجوز أن تقوم بالصفات صفات.

وكان يقول: أن وجه الله لا هو الله، ولا هو غيره، وهو صفة له وكذلك يداه وعينه وبصره صفات له لا هي هو ولا غيره، وأن ذاته هي هو ونفسه هي هو وأنه موجود لا بوجود وشيء لا بمعنى له كان شيئًا.

وكان يزعم أن صفات الباريء لا تتغاير وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها، وكذلك كل صفة

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٢- ٤٤٦)، (٦/ ٢١٧- ٢٦٧)، (٥/ ٥٢٨- ٥٣٨)، (١٢/ ٢٧- ٣٦، ١٨٤- ١٨٨).

من صفات الذات لا هي الصفة الأخرى ولا غيرها[(١)]

وقال: وزعم أنه موجود لا بوجود، وأنه شيء لا بمعنى له كان شيئًا.

وأن صفاته لا هي هو ولا غيره، وكذلك القول في الصفات أنها لا تتغاير كما أنها ليست بغيره وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها وكذلك سائر الصفات.

وقال بعض أصحابه: الصفات لا يقال هي هو، ولا يقال غيره، وكذلك لا يقال كل صفة هي الأخرى، ولا يقال غيرها، ومنعوا العبارة الأولى.

وقال قائلون: إن البارئ سبحانه ليس بغير صفاته وصفاته متغايرة قول حادث[(٢)]

وقال: وقال قائلون من أصحاب ابن كُلَّاب أن أسماء البارئ لا هي البارئ ولا غيره.

وقال قائلون من أصحابه: أسماء البارئ، لا يقال: هي البارئ، ولا يقال: هي غيره وامتنعوا من أن يقولوا: لا هي البارئ ولا غيره[(٣)]

وقال: وقال عبد الله بن كُلَّاب: لم يزل الله جوادًا، وأثبت الجود صفة لله لا هي هو ولا هي غيره[(٤)]

وقال: وقال سليمان بن جرير وعبد الله بن كُلَّاب: إن الله سبحانه لم يزل مريدًا بإرادة يستحيل أن يقال: هي الله أو يقال هي غيره[(٥)]

وقال شيخ الإسلام: إنا لا نطلق على صفاته أنها غيره ولا أنها ليست غيره على ما عليه أئمة السلف كالإمام أحمد بن حنبل وغيره وهو اختيار حذاق المثبتة كابن كلاب وغيره[(٦)]

نقض قولهم

سيأتي بيان ذلك عند قول الأشعرية في تغاير الأسماء والصفات عن المسمى والموصوف.

- قولهم في الصفات الخبرية كالوجه والعين واليد

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال عبد الله بن كلاب: أطلق اليد والعين والوجه خبرًا؛ لأن الله أطلق ذلك، ولا أطلق غيره، فأقول: هي صفات لله عز وجل، كما قال في العلم والقدرة والحياة إنها صفات[(٧)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٦٩- ١٧١).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٦).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(١٧٢).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٨٢).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(٥١٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٦/ ٩٦).
(٧) مقالات الإسلاميين ص(٢١٨).

وقال: وقال عبد الله بن كُلَّاب: إن وجه الله لا هو الله ولا هو غيره، وهو صفة له، وكذلك يداه وعيناه[١].

وقال: وقال ابن كُلَّاب في الوجه والعين واليدين: إنها صفات لله لا هي الله، ولا هي غيره، كما قال في العلم والقدرة، غير أنه ثبت هذا خبرًا[٢]

- قولهم في القول والخلق

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال عبد الله بن كُلَّاب: لا يخلق الله شيئًا حتى يقول له: كن، وليس القول خلقًا[٣]

وقال شيخ الإسلام: وأكثر الناس خالفوهم في هذا الأصل، وأثبتوا له تعالى فعلًا قائمًا بذاته، وخلقًا غير المخلوق -ويسمى التكوين- وهو الذي يقول به قدماء الكُلَّابِيَّة[٤]

- قولهم في القديم والباقي:

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال عبد الله بن كلاب معنى قديم أن له قِدَمًا[٥]

وقال: واختلفت أصحاب عبد الله بن كلاب في القول بأن الله قديم بقدم أم لا بقدم؟ على مقالتين:

فمنهم من زعم أن الله قديم لا بقدم، ومنهم من زعم أنه قديم بقدم[٦]

وقال: واختلف أصحاب عبد الله بن كُلَّاب في القديم أنه قديم

فقال بعضهم: هو قديم بقدم.

وقال بعضهم هو قديم لا بقدم، كما أن المحدث محدث لا بإحداث[٧]

وقال: قال قائلون: معنى الباقي أن له بقاء، وكذلك قولهم في القديم والمحدث، وهو قول عبد الله بن كُلَّاب[٨].

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٢٢).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٨).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥١٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٩).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(١٨٠).
(٦) مقالات الإسلاميين ص(١٧٠).
(٧) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٧).
(٨) مقالات الإسلاميين ص(٣٦٨).

- قولهم في الإلهية:

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلف عنه -أي ابن كُلَّاب- في الإلهية فمن أصحابه من يثبت الإلهية معنى ومنهم من لا يثبتها معنى(١).

- قولهم في كلام الله عز وجل.

كلام الله عندهم صفة قائمة بالذات لا يتعلق بمشيئته وقدرته، فهو كلام نفسي لا بحرف ولا صوت، وهو معنى واحد، الأمر والنهي والخبر، أن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا وأن عبر عنه بالعبرية كان توراة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال ابن كلاب: إن الله لم يزل متكلمًا، والكلام من صفات النفس كالعلم والقدرة(٢)

وقال: قال عبد الله بن كلاب: إن الله سبحانه لم يزل متكلمًا، وإن كلام الله سبحانه صفة له قائمة به، وإنه قديم بكلامه، وإن كلامه قائم به كما أن العلم قائم به والقدرة قائمة به، وهو قديم بعلمه وقدرته، وإن الكلام ليس بحروف ولا صوت، ولا ينقسم، ولا يتجزأ، ولا يتبعض، ولا يتغاير، وأنه معنى واحد بالله عز وجل، وإن الرسم هو الحروف المتغايرة وهو قراءة القرآن، وأنه خطأ أن يقال كلام الله هو هو، أو بعضه أو غيره، وأن العبارات عن كلام الله سبحانه تختلف وتتغاير وكلام الله سبحانه ليس بمختلف ولا متغاير كما أن ذكرنا لله عز وجل يختلف، ويتغاير والمذكور لا يختلف ولا يتغاير، وإنما سمى كلام الله سبحانه عربيًّا؛ لأن الرسم الذي هو العبارة عنه وهو قراءته عربي فسمي عربيًّا، لعلة وكذلك سمي عبرانيًّا لعلة، وهي أن الرسم الذي هو عبارة عنه عبراني، وكذلك سمي أمرًا لعلة، وسمي نهيًا لعلة، وخبرًا لعلة، ولم يزل الله متكلمًا قبل أن يسمي كلامه أمرًا، وقبل وجود العلة التي لها سُمّى كلامه أمرًا، وكذلك القول في تسمية كلامه نهيًا وخبرًا، وأنكر أن يكون الباريء لم يزل مخبرًا، أو لم يزل ناهيًا، وقال: إن الله لا يخلق شيئًا إلا قال له: كن ويستحيل أن يكون قوله: كن مخلوقًا.

وزعم عبد الله بن كُلَّاب أن ما نسمع التالين يتلونه هو عبارة عن كلام الله عز وجل، وأن موسى عليه السلام سمع الله متكلمًا بكلامه، وأن معنى قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] معناه حتى يفهم كلام الله، ويحتمل على مذهبه أن يكون معناه: حتى يسمع التالين يتلونه(٣)

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(١٧٨).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٥١٧).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٤، ٥٨٥).

وقال: وكل القائلين إن القرآن ليس بمخلوق كنحو عبد الله بن كلاب، . . . ، يقولون: إن القرآن ليس بجسم ولا عرض[(١)]

وقال: فأما عبد الله بن كلاب فالقراءة عنده هي غير المقروء، والمقروء قائم بالله، كما أن ذكر الله سبحانه غير الله، فالمذكور قديم لم يزل موجودًا وذكره محدث، فكذلك المقروء لم يزل الله متكلمًا به، والقراءة محدثة مخلوقة، وهي كسب الإنسان[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: الكُلَّابِيَّة باينوا سائر الناس في قولهم: إن الكلام معنى واحد، أو معان متعددة أربعة أو خمسة تقوم بذات المتكلم هو الأمر والنهي والخبر إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراةً، فإن هذا لم يقله أحد من الطوائف غيرهم[(٣)]

وقال: وليس من طوائف المسلمين من أنكر أن الله يتكلم بصوت إلا ابن كُلَّاب ومن اتبعه، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من قال إن الكلام معنى واحد قائم بالمتكلم إلا هو ومن اتبعه[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وجمهور العقلاء يقولون قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة، وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس إلا خلق إدراك يفهم به موسى ذلك المعنى، فقيل لهم: أفهم كل الكلام أم بعضه؟ إن كان فهمه كله فقد علم عِلَم الله، وإن كان فهم بعضه فقد تبعض، وعندهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد.

وقيل لهم: قد فرق الله بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره، وعلى أصلكم لا فرق.

وقيل لهم: قد كفر الله من جعل القرآن العربي قول البشر، وقد جعله تارة قول رسول من البشر، وتارة قول رسول من الملائكة، فقال في موضع: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ فهذا الرسول محمد ﷺ وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ فهذا جبريل، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري، والله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس.

وكان بعض هؤلاء ادعى أن القرآن العربي أحدثه جبريل أو محمد فقيل لهم: لو أحدثه أحدهما لم يجز إضافته إلى الآخر. وهو سبحانه أضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك أو نبي أحدثه من تلقاء نفسه، بل قد كفر من قال: إنه قول البشر[(٥)]

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٨٧).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٦٠١، ٦٠٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦١، ٤٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٨)، (١٢/ ١٨٩- ١٩١)، (١٢/ ٤٩، ١٦٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩- ٥١).

وقال: ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال: إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف، كما لم يقل أحد منهم إن الصوت الذي سمعه موسى قديم، ولا إن ذلك النداء قديم، ولا قال أحد منهم: إن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله به، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به وبين أصوات العباد.

وكان أئمة السنة يعدون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية، كما قال الإمام أحمد لما سئل عمن قال: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: هؤلاء جهمية، إنما يدورون على التعطيل، وذكر بعض الآثار المروية في أنه سبحانه يتكلم بصوت، وقد ذكر من صنف في السنة، من ذلك قطعة، وعلى ذلك ترجم عليه البخاري في صحيحه بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سَبَإ: الآية ٢٣] وقد ذكر البخاري في «كتاب خلق الأفعال» مما يبين به الفرق بين الصوتين آثارًا متعددة[١]

وقال: قد عرف أن الأشياء لها وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البنان وهو العيني، والعلمي، واللفظي، والرسمي.

ثم قال: من قال: إن الوجود العيني والعلمي لا يختلف باختلاف الأعصار والأمصار، والأمم؛ بخلاف اللفظي والرسمي فإن اللغات تختلف باختلاف الأمم كالعربية، والفارسية، والرومية، والتركية.

وهذا قد يذكره بعضهم في كلام الله تعالى أنه هو المعنى الذي لا يختلف باختلاف الأمم، دون الحروف التي تختلف؛ كما هو قول الكُلَّابِيَّة والأشعرية، ويضمون إلى ذلك، أن كتبه إنما اختلفت لاختلاف لفظها فقط؛ فكلامه بالعبرية هو التوراة، وبالعربية هو القرآن، كما يقولون: إن المعنى القديم يكون أمرًا ونهيًا وخبرًا فهذه صفات عارضة له؛ لا أنواع له. . .

وأما قول من قال: إن معاني الكتب المنزلة سواء ففساده معلوم بالاضطرار، فإنا لو عبرنا عن معاني القرآن بالعبرية، وعن معاني التوراة بالعربية لكان أحد المعنيين ليس هو الآخر، بل يعلم بالاضطرار تنوع معاني الكتب واختلافها اختلاف تنوع أعظم من اختلاف حروفها؛ لما بين العربية والعبرية من التفاوت؛ وكذلك معاني البقرة ليست هي معاني آل عمران.

وأبعد من ذلك جعل الأمر هو الخبر، ولا ينكر أن هذه المختلفات قد تشترك في حقيقة ما، كما أن اللغات تشترك في حقيقة ما، فإن جاز أن يقال: إنها واحدة مع تنوعها: فكذلك اللغات سواء، بل اختلاف المعاني أشد[٢]

وقال: مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٦٢- ٦٤)، (٨/ ٤٢٣، ٤٢٤).

كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقليَّة الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك مخلوقًا منفصلًا عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقًا بائنًا عنه، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه، ولا قال أحد منهم إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلًا وأبدًا، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل قالوا لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء.

وكلمات الله لا نهاية لها كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] ، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية.

فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل: الآية ٩٨] إلى قوله: ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النّحل: الآية ١٠٣] فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل -وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر- من الله بالحق، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النّحل: الآية ١٠٣] كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾[النّحل: الآية ١٠٣] أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النّحل: الآية ١٠٣]

ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين، نزلها روح القدس من الله بالحق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٤] والكتاب الذي أنزل مفصلًا هو القرآن العربي باتفاق الناس، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق، والعلم لا يكون إلا حقًّا فقال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٧] ولم يقل يقولون، فإن العلم لا يكون إلا حقًّا بخلاف القول. وذكر علمهم ذكر مستشهد به.

وقد فرق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٣] إلى قوله: ﴿حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥] فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره، ووكد تكليمه لموسى بالمصدر، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣] إلى قوله: ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النّحل: الآية ١٠٢] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشّورى: الآية ٥١] إلى آخر السورة، فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة: إما وحيًا وإما من وراء حجاب، وإما أن يرسل رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء، فجعل الوحي غير التكليم، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى.

وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [مريم: الآية ٥٢] الآية. وقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القَصَص: الآية ٣٠] الآية، والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتًا مسموعًا؛ فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم، وأهل الكتاب يقولون: إن موسى ناداه ربه نداء سمعه بإذنه، وناداه بصوته سمعه موسى، والصوت لا يكون إلا كلامًا، والكلام لا يكون إلا حروفًا منظومة، وقد قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [الزُّمَر: الآية ١] وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾، وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾، فقد بين في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزل من الله.

وهذا معنى قول السلف: منه بدأ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله: منه بدأ أي هو المتكلم به، فإن الذين قالوا: إنه مخلوق قالوا خلقه في غيره فبدا من ذلك المخلوق، فقال السلف: منه بدأ؛ أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلامًا لذلك المحل الذي خلقه فيه، فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين، فإذا خلق طعمًا أو لونًا في محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علمًا أو كلامًا في محل كان ذلك المحل هو المريد، القادر، العالم، المتكلم بذلك الكلام، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات، فهو الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحيم، المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني.

ومن جعل كلامه مخلوقًا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾ [طه: الآية ١٤] وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلامًا إلا لرب العالمين، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقًا؛ بل كان ذلك كلامًا لرب العالمين[(١)]

وقال: والصواب الذي عليه سلف الأمة -كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب «خلق أفعال العباد» وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم- اتّباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله، وحروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلامًا لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسمًا لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف؛ بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط؛ ولا المعاني فقط، كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد؛ بل مجموعهما، وأن الله تعالى يتكلم بصوت، كما جاءت به الأحاديث

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٣٧- ٤١)، (١٢/١٢٨- ١٣٢، ١٧٥).

الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارئ ولا غيره، وأن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته، فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق، ولا معانيه تشبه معانيه، ولا حروفه يشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته[(١)]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية في كلام الله عز وجل.

- قولهم في ماهية الكلام

الكلام عندهم هو معنى قائم بالنفس يعبَّر عنه بالحروف.

أقوال العلماء

قال الأشعري: واختلفوا في الكلام ما هو؟

وقال قائلون: الكلام هو القول، وقد يخرج من هذه الأقسام كلها؛ لأنه أمر لعلة المأمور، نهي لعلة المنهي، خبر لعلة المخبر، تمنٍ لعلة المتمني، وهو كلام وقول لا لعلة، وهذا قول ابن كلاب[(٢)]

وقال: واختلف الناس في كلام الإنسان هل هو حروف أم لا؟

وحكي عن عبد الله بن كلاب أنه كان يقول: معنى قائم بالنفس يعبر عنه بالحروف.

وحكي عنه: أنه حروف[(٣)]

وقال: وكذلك يقول عبد الله بن كلاب: إن الكلام يكون اضطرارًا ويكون اكتسابًا[(٤)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إن الناس لهم في مسمى الكلام أربعة أقوال:

قيل: إنه اسم للفظ الدال على المعنى.

وقيل: للمعنى المدلول عليه باللفظ.

وقيل: اسم لكل منهما بطريق الاشتراك.

وقيل: اسم لهما بطريق العموم. وهذا مذهب السلف والفقهاء والجمهور، فإذا قيل: تكلم فلان كان المفهوم منه عند الإطلاق اللفظ والمعنى جميعًا، كما قال النبي ﷺ: **«إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»** وقال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في**

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٤٤٤).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٦٠٤).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٦٠٥).

الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» وقال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ونظائر هذا كثيرة.

فالكلام إذا أطلق يتناول اللفظ والمعنى جميعًا، وإذا سمي المعنى وحده كلامًا، أو اللفظ وحده كلامًا؛ فإنما ذاك مع قيد يدل على ذلك، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وأن الكلام عند الإطلاق هو اللفظ والمعنى جميعًا[(١)]

وقال: لم يكن قدماء الكُلَّابِيَّة يقولون: إن لفظ الكلام مشترك بين اللفظ والمعنى؛ لأن ذلك يبطل حجتهم على المعتزلة، ويوجب عليهم القول بأن كلام الله مخلوق، لكن كانوا يقولون: إن إطلاق الكلام على اللفظ بطريق المجاز، وعلى المعنى بطريق الحقيقة؛ فعلم متأخروهم أن هذا فاسد بالضرورة، وأن اسم الكلام يتناول اللفظ حقيقة فجعلوه مشتركًا، فلزمهم أن يكون كلام الله مخلوقًا فهم بين محذورَين، إما القول بأن كلام الله مخلوق، وإما القول بأن القرآن العربي ليس كلام الله، وكلا الأمرين معلوم الفساد[(٢)]

وسيأتي مزيد بيان عند قول الأشعرية في ماهية الكلام.

- قولهم في ماهية الصفات

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقال قائلون: كل ما وصف به الشيء فإنما وصف به لمعنى هو صفة له، وهو قول ابن كلاب، وكان يقول: كل معنى وصف به الشيء فهو صفة له[(٣)]

وقال: وكان عبد الله بن كُلَّاب يسمي المعاني القائمة بالأجسام أعراضًا، ويسميها أشياء، ويسميها صفاتٍ[(٤)]

وقال: واختلفوا في الصفات هل هي أشياء أم لا؟

فأثبت بعضهم الصفات أشياء، ومنع ذلك بعضهم، وقال: إذا قلت: شيء بصفاته، استغنيت عن ذلك.

وكذلك قال بعض أصحابه: إن الصفات قديمة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٣٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٣٥).
(٣) مقالات الإسلاميين ص(٣٥٧).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(٣٧٠).

ومنع بعضهم أن يقال: قديمة أو حديثة؛ لأنا إذا قلنا: قديم، استغنينا عن ذلك[١]

- قولهم في الأسماء والأحكام

الإيمان عندهم هو التصديق بالقلب والقول باللسان فقط.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وابن كلاب نفسه، والحسين بن الفضل البجلي ونحوهما كانوا يقولون: هو التصديق والقول جميعًا، موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبي سليمان ومن اتبعه مثل أبي حنيفة وغيره[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الأسماء والأحكام.

(١) مقالات الإسلاميين ص(٥٤٧)، مجموع الفتاوى (٦/ ١٠٢، ١٠٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٩، ٥٠٨).

الفصل السادس

الأشعرية

أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلِّم البصري ثم البغدادي، تلقى العلم عن كبار المعتزلة، ومنهم أبو علي الجبائي، وأمضى فترة طويلة من حياته نحو أربعين سنة معتزليًّا، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه، وأعلن توبته أمام الملأ بالبصرة نحو سنة ٣٠٠ هـ، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم بالبراهين والدلائل العقليَّة والكلامية في مناظرات ومصنفات عديدة، وهذه هي المرحلة الأولى من حياته.

والمرحلة الثانية: مال فيها إلى طريقة ابن كُلَّاب في الصفات، ومنها إنكاره قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل المتعلقة بمشيئته وقدرته، وإثباته سبع صفات فقط عن طريق العقل، وتأويله للصفات الخبرية، وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة، وصنف في هذه المرحلة عدة كتب مثل كتاب اللمع ونحوه.

ثم دخل بغداد وأعلن انتسابه إلى الإمام أحمد، وأخذ عن حنبلية بغداد أمورًا أخرى، وذلك آخر أمره على العقيدة السلفية من إثبات جميع الصفات لله عز وجل من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تعطيل ولا تحريف، وهي المرحلة الثالثة من حياته، والتي صنف فيها ما يوافق مذهب السلف مثل كتاب الإبانة عن أصول الديانة.

ثم بعد موته سنة ٣٢٤ هـ، وقيل: سنة ٣٣٠ هـ، انتشر مذهبه وفكره على أيدي أصحابه كأبي عبد الله بن مجاهد (٣٧٠ هـ)، وأبي الحسن الباهلي، وبندار بن الحسين الشيرازي (٣٥٣ هـ)، وأبي الحسن على بن محمد بن مهدي الطبري.

ثم بعد ذلك انتشر على أيدي تلامذتهم كالقاضي أبي بكر الباقلاني (٤٠٣ هـ)، وأبي بكر بن فورك (٤٠٦ هـ)، وأبي إسحاق الإسفراييني (٤١٨ هـ)، وغيرهم.

ومن بعدهم جاء أبو ذر الهروي (٤٣٥ هـ)، والجويني الأب (٤٣٨ هـ)، والابن (٤٧٨ هـ)، وأبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦ هـ)، والقشيري (٤٦٥ هـ)، والغزالي (٥٠٥ هـ)، والشهرستاني (٥٤٨ هـ)، والرازي (٦٠٦ هـ)، والآمدي (٦٣١ هـ)، والتفتازاني (٧٩٣)، والجرجاني (٨١٦ هـ)، وغيرهم.

وقد أنكر علماء السلف عليهم مقالتهم التي وافقوا فيها ابن كلاب، وقولهم أن كلام الله معنى واحد أزلي قائم بذاته تعالى لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وأن القرآن عبارة عن كلام الله، وهو نفسه معنى التوراة والإنجيل والقرآن، فتصدى علماء السلف لهم وبينوا أن هذا القول من بقايا بعض الاعتزال، ولكن مذهب الأشعرية تمكن من الصمود بفضل انتسابهم إلى مذهب الإمام أحمد،

واحتمائهم بالتميميين من الحنابلة.

وقد ساد وانتشر المنهج الأشعري في دولة السلاجقة في عهد وزارة نظام الملك الذي كان أشعري العقيدة، والذي بنى المدرسة النظامية ببغداد وبنيسابور، وقام عليهما رواد المذهب الأشعري، وكذلك في المغرب في دولة الموحدين في عهد ابن تومرت، وفي مصر والشام في عهد نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي.

وما زال كثير من المراكز التعليمية اليوم في البلاد الإسلامية على طريقة الأشعرية، ولكن على مذهب الأشعري في مرحلته الثانية التي وافق فيها قول ابن كلاب، ولذلك كان لا بد من التفريق بين ما استقر عليه الأشعري نفسه، والذي كان عليها قدماء أصحابه، ورجع إليه كثير من أتباعه فيما بعد، وبين ما عليه الأشعرية المتأخرون بأصولهم ومقالاتهم المخالفة لما عليه سلف الأمة.

ولقد أصبحت الأشعرية اليوم مزيجًا من المشارب والمعتقدات بين: أهل السنة والفلسفة والتصوف وعلم الكلام والتجهم والاعتزال، لذلك نجدهم أكثر وقوعًا في المخالفات العقدية والتعبدية؛ أي بدع العقائد والعبادات، كما نجد أن كثيرًا من الأشعرية حاليًا، ومنذ زمن القشيري، منضوون تحت الطرق الصوفية البدعية، وتكثر فيهم بدع القبور والتبرك البدعي بالأشخاص والأشياء، وبدع العبادات والأذكار والموالد ونحوها، والتي تميّزهم حاليًا عن أهل السنة بوضوح[(١)]

قال الشهرستاني: وجرت مناظرة بين أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وبين أستاذه أبي علي الجبائي في بعض مسائل التحسين والتقبيح فألزم الأشعري أستاذه أمورًا لم يخرج عنها بجواب فأعرض عنه وانحاز إلى طائفة السلف، ونصر مذهبهم على قاعدة كلامية فصار ذلك مذهبًا منفردًا.

وقرر طريقته جماعة من المحققين مثل القاضي أبي بكر الباقلاني، والأستاذ أبي إسحاق الإسفرائيني، والأستاذ أبي بكر بن فورك، وليس بينهم كثير اختلاف[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: ولهذا كانوا يقولون: إن البدع مشتقة من الكفر وآيلة إليه، ويقولون: إن المعتزلة مخانيث الفلاسفة؛ والأشعرية مخانيث المعتزلة.

وكان يحيى بن عمار يقول: المعتزلة الجهمية الذكور، والأشعرية الجهمية الإناث، ومرادهم

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٩٤- ١٠٣)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥- ٩٠)، طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٣٤٧- ٤٤٤)، مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩)، (٤/ ١٣- ١٨، ١٦٧)، (٦/ ٥٢- ٥٤)، (١٢/ ١٧٨، ٢٠٣- ٢٠٥)، دقائق التفسير (٢/ ١٨٧)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٦- ١٨)، الموسوعة الميسرة (١/ ٨٣- ٩٤)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٣/ ٢٥٩- ٢٧٤)، بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية منها.

(٢) الملل والنحل (١/ ٣٢).

الأشعرية الذين ينفون الصفات الخبرية، وأما من قال منهم بكتاب الإبانة الذي صنفه الأشعري في آخر عمره ولم يظهر مقالة تناقض ذلك، فهذا يعد من أهل السنة؛ لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة، لا سيما وأنه بذلك يوهم حسنًا بكل من انتسب هذه النسبة وينفتح بذلك أبواب شر[(١)]

مقالات الأشعرية

مجمل مقالاتهم

قال شيخ الإسلام: والأشعرية الأغلب عليهم أنهم مرجئة في باب الأسماء والأحكام، جبرية في باب القدر، وأما في الصفات فليسوا جهمية محضة بل فيهم نوع من التجهم...

وأما الأشعرية فلا يرون السيف موافقة لأهل الحديث، وهم في الجملة أقرب المتكلمين إلى مذهب أهل السنة والحديث[(٢)]

وقال: وبين نفى الجهمية، وإثبات المشبهة مراتب، فالأشعرية وافق بعضهم في الصفات الخبرية، وجمهورهم وافقهم في الصفات الحديثية، وأما في الصفات القرآنية فلهم قولان: فالأشعري والباقلاني وقدماؤهم يثبتونها، وبعضهم يقر ببعضها، وفيهم تجهم من جهة أخرى، فإن الأشعري شرب كلام الجبائي شيخ المعتزلة، ونسبته في الكلام إليه متفق عليها عند أصحابه وغيرهم.

وابن الباقلاني أكثر إثباتًا بعد الأشعري في الإبانة، وبعد ابن الباقلاني ابن فورك، فإنه أثبت بعض ما في القرآن.

وأما الجويني ومن سلك طريقته: فمالوا إلى مذهب المعتزلة؛ فإن أبا المعالي كان كثير المطالعة لكتب أبي هاشم، قليل المعرفة بالآثار، فأثر فيه مجموع الأمرين.

والقشيري تلميذ ابن فورك فلهذا تغلظ مذهب الأشعري من حينئذ ووقع بينه وبين الحنبلية تنافر بعد أن كانوا متوالفين أو متسالمين[(٣)]

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الأسماء والصفات

يثبتون أسماء الله تعالى، ويثبتون سبع صفات: القدرة، والعلم، والإرادة، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر، ويختلفون في صفة البقاء، وإثبات هذه الصفات بطريقة عقلية.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٩، ٣٦٠)، (٨/ ٢٢٧)، (١٤/ ٣٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥١، ٥٢).

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: قال الأشعري: الإنسان إذا فكر في خلقته، من أي شيء ابتدأ؟ وكيف دار في أطوار الخلقة طورًا بعد طورٍ، حتى وصل إلى كمال الخلقة؟ وعرف يقينًا أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته، وينقله من درجة إلى درجة، ويرقيه من نقص إلى كمال -علم بالضرورة أن له صانعًا، قادرًا، عالمًا، مريدًا؛ إذ لا يتصور حدوث هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار في الفطرة، وتبين آثار الإحكام والإتقان في الخلقة.

فله صفات دلت أفعاله عليها لا يمكن جحدها، وكما دلت الأفعال على كونه عالمًا، قادرًا، مريدًا، دلت على العلم والقدرة والإرادة؛ لأن وجه الدلالة لا يختلف شاهدًا وغائبًا.

وأيضًا لا معنى للعالم حقيقة إلا أنه ذو علم، ولا للقادر إلا أنه ذو قدرة، ولا للمريد إلا أنه ذو إرادة، فيحصل بالعلم الإحكام والإتقان، ويحصل بالقدرة الوقوع والحدوث، ويحصل بالإرادة التخصيص بوقت دون وقت، وقدر دون قدر وشكل دون شكل. وهذه الصفات لن يتصور أن يوصف بها الذات إلا وأن يكون الذات حيًّا بحياة للدليل الذي ذكرناه.

وألزم منكري الصفات إلزامًا لا محيص لهم عنه، وهو أنكم وافقتمونا بقيام الدليل على كونه عالمًا قادرًا فلا يخلو إما أن يكون المفهومان من الصفتين واحدًا، أو زائدًا، فإن كان واحدًا فيجب أن يعلم بقادريته، ويقدر بعالميته، ويكون من علم الذات مطلقًا علم كونه عالمًا قادرًا، وليس الأمر كذلك، فعلم أن الاعتبارين مختلفان. فلا يخلو إما أن يرجع الاختلاف إلى مجرد اللفظ، أو إلى الحال، أو إلى الصفة.

وبطل رجوعه إلى اللفظ المجرد، فإن العقل يقضي باختلاف مفهومين معقولين، ولو قدر عدم الألفاظ رأسًا ما ارتاب العقل فيما تصوره وبطل رجوعه إلى الحال، فإن إثبات صفة لا توصف بالوجود ولا بالعدم إثبات واسطة بين الوجود والعدم والإثبات والنفي، وذلك محال فتعين الرجوع إلى صفة قائمة بالذات وذلك مذهبه.

على أن القاضي الباقلاني من أصحاب الأشعري قد ردد قوله في إثبات الحال ونفيها، وتقرر رأيه على الإثبات، ومع ذلك أثبت الصفات معاني قائمة به لا أحوالًا، وقال: الحال الذي أثبته أبو هاشم هو الذي نسميه صفة خصوصًا إذا أثبت حالة أوجبت تلك الصفات.

قال أبو الحسن: الباري تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، وله في البقاء اختلاف رأي.

قال: وهذه الصفات أزليَّة قائمة بذاته تعالى، لا يقال: هي هو، ولا: هي غيره، ولا: لا هو، ولا: لا غيره. والدليل على أنه متكلم بكلام قديم، ومريد بإرادة قديمة -أنه قد قام الدليل على أنه تعالى ملِك، والملِك من له الأمر والنهي، فهو آمر ناهٍ، فلا يخلو: إمَّا أن يكون آمرًا بأمر قديم، أو بأمر محدث.

وإن كان محدثًا فلا يخلو: إمّا أن يحدثه في ذاته، أو في محل، أو لا في محل. ويستحيل أن يحدثه في ذاته؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون محلًا للحوادث وذلك محال. ويستحيل أن يحدثه في محل؛ لأنه يوجب أن يكون المحل به موصوفًا. ويستحيل أن يحدثه لا في محل؛ لأن ذلك غير معقول. فتعين أنه قديم، قائم به صفة له، وكذلك التقسيم في الإرادة والسمع والبصر.

قال: وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات: المستحيل، والجائز، والواجب، والموجود، والمعدوم.

وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصلح وجوده من الجائزات.

وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص(١).

وقال: وأثبتَ أن السمع والبصر للبارئ تعالى صفتان أزليتان هما إدراكان وراء العلم يتعلقان بالمدركات الخاصة بكل واحد بشرط الوجود(٢).

وقال شيخ الإسلام: أقرب هؤلاء الجهمية الأشعريةُ يقولون: إن له صفاتٍ سبعًا: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، وينفون ما عداها، وفيهم من يضم إلى ذلك اليد فقط، ومنهم من يتوقف في نفي ما سواها، وغلاتهم يقطعون بنفي ما سواها(٣)

نقض قولهم.

قال شيخ الإسلام: يقال: القول في بعض الصفات كالقول في بعض؛ فإن كان المخاطب ممن يقول: بأن الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه، وغضبه وكراهته، فيجعل ذلك مجازًا ويفسره إما بالإرادة، وإما ببعض المخلوقات، من النعم والعقوبات.

فيقال له: لا فرق بين ما نفيته، وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر؛ فإن قلت: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل.

وإن قلت: إن له إرادة تليق به، كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به.

---

(١) الملل والنحل (١/ ٩٤، ٩٦)، تمهيد الأوائل ص(٢٩٨، ٢٩٩)، مجموع الفتاوى (٦/ ٧٣)، أساس التقديس، للفخر الرازي، ص ١١١- ١٩١ والإرشاد للجويني ص ١٤٦- ١٥٤، الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص١٢-١٣٥ والأربعين في أصول الدين، للغزالي أيضًا، ص١٣- ١٦، وأصول الدين للفخر الرازي ص١٩- ٥٥ أساس التقديس، للرازي أيضًا، ص١٥- ٩٩ والتمهيد، للباقلاني، ص٤٠ -٥٠ وشرح المقاصد للتفتازاني ٢/ ٥٧- ٦٨

(٢) الملل والنحل (١/ ١٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٩).

وإن قلت: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، فيقال له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة، أو دفع مضرة، فإن قلت: هذه إرادة المخلوق، قيل لك: وهذا غضب المخلوق.

وكذلك يلزم القول في كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته؛ إن نُفِي عنه الغضب، والمحبة، والرضا، ونحو ذلك مما هو من خصائص المخلوقين؛ فهذا منتف عن السمع والبصر، والكلام وجميع الصفات.

وإن قال: إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين؛ فيجب نفيه عنه، قيل له: وهكذا السمع، والبصر، والكلام، والعلم والقدرة.

فهذا المفرق بين بعض الصفات وبعض يقال له: فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته.

فإذا قال المعتزلي: ليس له إرادة، ولا كلام قائم به؛ لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوقات؛ فإنه يبين للمعتزلي أن هذه الصفات يتصف بها القديم، ولا تكون كصفات المحدثات، فهكذا يقول له المثبتون لسائر الصفات من المحبة والرضا ونحو ذلك.

فإن قال: تلك الصفات أثبتها بالعقل؛ لأن الفعل الحادث دل على القدرة والتخصيص دل على الإرادة، والإحكام دل على العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة والحي لا يخلو عن السمع، والبصر، والكلام، أو ضد ذلك.

قال له سائر أهل الإثبات: لك جوابان:

أحدهما: أن يقال: عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين، فهب أن ما سلكت من الدليل العقلي لا يثبت ذلك، فإنه لا ينفيه.

وليس لك أن تنفيه بغير دليل؛ لأن النافي عليه الدليل كما على المثبت، والسمع قد دل عليه، ولم يعارض ذلك معارض عقلي ولا سمعي؛ فيجب إثبات ما أثبته الدليل، السالم عن المعارض المقاوم.

الثاني: أن يقال يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات.

فيقال نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة، كدلالة التخصيص على المشيئة، وإكرام الطائعين يدل على محبتهم، وعقاب الكافرين يدل على بغضهم، كما قد ثبت بالشهادة والخبر: من إكرام أوليائه وعقاب أعدائه، والغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته -وهي ما تنتهي إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة- تدل على حكمته البالغة؛ كما يدل التخصيص على المشيئة، وأولى: لقوة العلة الغائية؛ ولهذا كان ما في القرآن من بيان ما في مخلوقاته من النعم والحكم؛ أعظم مما في القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على محض المشيئة[(١)]

وقال: وهذا باب مطرد، فإن كل واحد من النفاة لما أخبر به الرسول من الصفات: لا ينفي

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٧- ١٩)، (٦/ ٧٥).

شيئًا فرارًا مما هو محذور إلا وقد أثبت ما يلزمه فيه نظير ما فر منه، فلا بد في آخر الأمر من أن يثبت موجودًا واجبًا قديمًا، متصفًا بصفات تميزه عن غيره، ولا يكون فيها مماثلًا لخلقه.

فيقال له: هكذا القول في جميع الصفات، وكل ما تثبته من الأسماء والصفات: فلا بد أن يدل على قدر تتواطأ فيه المسميات، ولولا ذلك لما فهم الخطاب؛ ولكن نعلم أن ما اختص الله به، وامتاز عن خلقه أعظم مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال(١)

وقال: إن من أثبت شيئًا ونفى شيئًا بالعقل -إذًا- ألزم فيما نفاه من الصفات التي جاء بها الكتاب والسنة نظير ما يلزمه فيما أثبته، ولو طولب بالفرق بين المحذور في هذا وهذا: لم يجد بينهما فرقًا.

ولهذا لا يوجد لنفاة بعض الصفات دون -بعض الذين يوجبون فيما نفوه إما التفويض؛ وإما التأويل المخالف لمقتضى اللفظ- قانون مستقيم، فإذا قيل لهم: لم تأولتم هذا وأقررتم هذا والسؤال فيهما واحد؟ لم يكن لهم جواب صحيح، فهذا تناقضهم في النفي.

وكذا تناقضهم في الإثبات؛ فإن من تأول النصوص على معنى من المعاني التي يثبتها؛ فإنهم إذا صرفوا النص عن المعنى الذي هو مقتضاه إلى معنى آخر؛ لزمهم في المعنى المصروف إليه ما كان يلزمهم في المعنى المصروف عنه.

فإذا قال قائل: تأويل محبته ورضاه، وغضبه وسخطه، هو إرادته للثواب والعقاب؛ كان ما يلزمه في الإرادة نظير ما يلزمه في الحب والمقت، والرضا والسخط.

ولو فسر ذلك بمفعولاته، وهو ما يخلقه من الثواب والعقاب؛ فإنه يلزمه في ذلك نظير ما فر منه، فإن الفعل لا بد أن يقوم أولًا بالفاعل، والثواب والعقاب المفعول إنما يكون على فعل ما يحبه ويرضاه، ويسخطه ويبغضه المثيب المعاقب، فهم إن أثبتوا الفعل على مثل الوجه المعقول في الشاهد للعبد مثلوا، وإن أثبتوه على خلاف ذلك فكذلك الصفات(٢)

وقال: وقد تدبرت كلام عامة من ينفي شيئًا مما أثبته الرسل من الأسماء والصفات فوجدتهم كلهم متناقضين؛ فإنهم يحتجون لما نفوه بنظير ما يحتج به النافي لما أثبتوه؛ فيلزمهم إما إثبات الأمرين وإما نفيهما، فإذا نفوهما فلا بد لهم أن يقولوا بالواجب الوجود وعدمه جميعًا، وهذا نهاية هؤلاء النفاة الملاحدة الغلاة من القرامطة وغلاة المتفلسفة؛ فإنهم إذا أخذوا ينفون النقيضين جميعًا؛ فالنقيضان كما أنهما لا يجتمعان، فلا يرتفعان(٣)

وقال: فمن ظن أن أسماء الله تعالى وصفاته إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلًا للمخلوقين،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦، ٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠٩).

وأن صفاته مماثلة لصفاتهم كان من أجهل الناس، وكان أول كلامه سفسطة، وآخره زندقة؛ لأنه يقتضي نفي جميع أسماء الله تعالى وصفاته، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد.

ومن فرق بين صفة وصفة مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز؛ كان متناقضًا في، قوله متهافتًا في مذهبه، مشابهًا لمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض.

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور تبين له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك خارجًا عن موجب العقل والسمع، مخالفًا للفطرة والسمع، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة[1].

- **قولهم في تغاير الأسماء والصفات عن المسمى والموصوف**

الصفات الذاتية لا يقال: هي هو، ولا هي غيره، ولا يقال: لا هو ولا لا غيره.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: قال: وهذه الصفات أزليَّة قائمة بذاته تعالى، لا يقال: هي هو، ولا: هي غيره، ولا: لا هو، ولا: لا غيره[2].

وقال شيخ الإسلام: ومنهم من يقول: أنا لا أطلق عليها أنها ليست هي هو، ولا أطلق عليها أنها ليست غيره، ولا أجمع بين السلبين فأقول لا هي هو ولا هي غيره. وهو اختيار طائفة من المثبتة كالأشعري[3].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والصفة والوصف تارة يراد به الكلام الذي يوصف به الموصوف، كقول الصحابي في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] أحبها لأنها صفة الرحمن، وتارة يراد به المعاني التي دل عليها الكلام كالعلم والقدرة والجهمية والمعتزلة وغيرهم تنكر هذه، وتقول: إنما الصفات مجرد العبارة التي يعبر بها عن الموصوف.

والكُلَّابِيَّة ومن اتبعهم من الصفاتية قد يفرقون بين الصفة والوصف، فيجعلون الوصف هو القول؛ والصفة المعنى القائم بالموصوف.

وأما جماهير الناس فيعلمون أن كل واحد من لفظ الصفة والوصف مصدر في الأصل، كالوعد والعدة، والوزن والزنة، وأنه يراد به تارة هذا، وتارة هذا.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) الملل والنحل (١/ ٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٩٦).

ولما كان أولئك الجهمية ينفون أن يكون لله وصف قائم به: علم أو قدرة، أو إرادة أو كلام -وقد أثبتها المسلمون- صاروا يقولون: هؤلاء أثبتوا صفات زائدة على الذات، وقد صار طائفة من مناظريهم الصفاتية يوافقونهم على هذا الإطلاق، ويقولون: الصفات زائدة على الذات التي وصفوا -لها صفات ووصف- فيشعرون الناس أن هناك ذاتًا متميزة عن الصفات، وأن لها صفات متميزة عن الذات، ويشنع نفاة الصفات بشناعات ليس هذا موضعها، وقد بينا فسادها في غير هذا الموضع.

والتحقيق أن الذات الموصوفة لا تنفك عن الصفات أصلًا، ولا يمكن وجود ذات خالية عن الصفات، فدعوى المدعي وجود حي عليم قدير بصير بلا حياة ولا علم ولا قدرة، كدعوى قدرة وعلم وحياة لا يكون الموصوف بها حيًّا عليمًا قديرًا، بل دعوى شيء موجود قائم بنفسه قديم أو محدث، عري عن جميع الصفات ممتنع في صريح العقل.

ولكن الجهمية المعتزلة وغيرهم، لما أثبتوا ذاتًا مجردة عن الصفات صار مناظرهم يقول: أنا أثبت الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات؛ أي لا أقتصر على مجرد إثبات ذات بلا صفات، ولم يعن بذلك أنه في الخارج ذات ثابتة بنفسها، ولا مع ذلك صفات هي زائدة على هذه الذات متميزة عن الذات؛ ولهذا كان من الناس من يقول: الصفات غير الذات، كما يقوله المعتزلة، والكَرَّامِيَّة، ثم المعتزلة تنفيها، والكَرَّامِيَّة تثبتها.

ومنهم من يقول: الصفة لا هي الموصوف ولا هي غيره، كما يقوله طوائف من الصفاتية، كأبي الحسن الأشعري وغيره.

ومنهم من يقول كما قالت الأئمة: لا نقول الصفة هي الموصوف، ولا نقول: هي غيره؛ لأنا لا نقول: لا هي هو، ولا هي غيره؛ فإن لفظ الغير فيه إجمال، قد يراد به المباين للشيء أو ما قارن أحدهما الآخر، وما قاربه بوجود أو زمان أو مكان، ويراد بالغير: أن ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر.

وعلى الأول فليست الصفة غير الموصوف، ولا بعض الجملة غيرها.

وعلى الثاني فالصفة غير الموصوف، وبعض الجملة غيرها.

فامتنع السلف والأئمة من إطلاق لفظ الغير على الصفة نفيًا أو إثباتًا، لما في ذلك من الإجمال والتلبيس؛ حيث صار الجهمي يقول: القرآن هو الله أو غير الله. فتارة يعارضونه بعلمه فيقولون: علم الله هو الله أو غيره، إن كان ممن يثبت العلم، أو لا يمكنه نفيه.

وتارة يحلون الشبهة ويثبتون خطأ الإطلاقين: النفي والإثبات، لما فيه من التلبيس، بل يستفصل السائل فيقال له: إن أردت بالغير ما يباين الموصوف فالصفة لا تباينه، فليست غيره، وإن أردت بالغير ما يمكن فهم الموصوف على سبيل الإجمال، وإن لم يكن هو فهو غير بهذا الاعتبار[(١)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٥- ٣٣٧)، (٦/ ٩٧)، (١٢/ ١٧٠).

- قولهم في الصفات الفعلية

ينفون الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئة وقدرة المولى عز وجل، كالاستواء، والنزول، والمجيء، والإتيان.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: قول ابن كلاب والأشعري والقلانسي ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم من أصحاب أحمد وغيرهم، إن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش. وكذلك يقولون في النزول: ومعنى ذلك أنه يحدث في العرش قربًا فيصير مستويًا عليه من غير أن يقوم به -نفسه- فعل اختياري، سواء قالوا: إن الفعل هو المفعول، أو لم يقولوا بذلك، وكذلك النزول عندهم؛ فهم يجعلون الأفعال اللازمة بمنزلة الأفعال المتعدية، وذلك لأنهم اعتقدوا أنه لا يقوم به فعل اختياري؛ لأن ذلك حادث؛ فقيامه به يستلزم أن تقوم به الحوادث، فنفوا ذلك لهذا الأصل الذي اعتقدوه[(١)]

وقال: زكريا بن يحيى الساجي أخذ عنه أبو الحسن الأشعري ما أخذه من أصول أهل السنة والحديث وكثير مما نقل في كتاب «مقالات الإسلاميين» من مذهب أهل السنة والحديث، وذكر عنهم ما ذكره حماد بن زيد من أنه فوق العرش، وأنه يقرب من خلقه كيف شاء.

ومعنى ذلك عنده وعند من ينفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته أنه يخلق أعراضًا في بعض المخلوقات يسميها نزولًا كما قال: إنه يخلق في العرش معنى يسميه استواء، وهو عند الأشعري تقريب العرش إلى ذاته من غير أن يقوم به فعل، بل يجعل أفعاله اللازمة كالنزول والاستواء كأفعاله المتعدية كالخلق والإحسان، وكل ذلك عنده هو المفعول المنفصل عنه.

والأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر وغيره يقولون: إن الله فوق العرش بذاته، ولكن يقولون في النزول ونحوه من الأفعال هذا القول بناء على أصلهم في نفي قيام الحوادث به[(٢)]

وقال: وطائفة من أصحاب أحمد وغيرهم -كالقاضي أبي يعلى وغيره ممن يوافق أبا الحسن الأشعري- على أن الفعل هو المفعول، وأنه لا يقوم بذاته فعل اختياري، يقولون: معنى النزول والاستواء وغير ذلك: أفعال يفعلها الرب في المخلوقات، وهذا هو المنصوص عن أبي الحسن الأشعري وغيره، قالوا: الاستواء فعل فعله في العرش كان به مستويًا، وهذا قول أبي الحسن بن الزاغوني[(٣)]

وقال: وطائفة من أهل الكلام -منهم أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد- جعلوا النزول والإتيان والمجيء حدثًا يحدثه منفصلًا عنه، فذاك هو إتيانه

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٨٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٠١، ٤٦٦).

واستواؤه على العرش، فقالوا استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به، مستويًا عليه من غير فعل يقوم بالرب(١)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: أكثر الناس خالفوهم، وقالوا: المعروف أنه لا يجيء شيء من الصفات والأعراض إلا بمجيء شيء، فإذا قالوا: جاء البرد أو جاء الحر فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد، وهو عين قائمة بنفسها، وإذا قالوا: جاءت الحمى فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال إلى حال، فيحدث الحر والبرد بذلك، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل، مثل لون الفاكهة، فإنه لا يقال في هذا: جاءت الحمرة والصفرة والخضرة، بل يقال: أحمر وأصفر وأخضر(٢)

وقال: قال الشيخ أبو عثمان: ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف؛ بل يثبتون ما أثبته رسول الله وينتهون فيه إليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله سبحانه وتعالى، وكذلك يثبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٠] وقوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفَجر: الآية ٢٢] (٣)

وتقدم مزيد بيان عند قول الكُلَّابِيَّة في الصفات الاختيارية.

- قولهم في الصفات الخبرية

متأخِّروهم ينفون الصفات الخبرية، كاليدين والوجه.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: وأثبتَ اليدين والوجه صفات خبرية، فيقول: ورد بذلك السمع فيجب الإقرار به كما ورد، وصغُوهُ إلى طريقة السلف من ترك التعرض للتأويل، وله قول أيضًا في جواز التأويل(٤)

قال شيخ الإسلام: إن القول المحكي عنه في تأويل الصفات الخبرية قول لا أصل له في كلامه، وإنما هو قول طائفة من أصحابه، فللأشعرية قولان ليس للأشعري قولان(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٥٠، ٣١٢، ٣١٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٥١)، (١٢/ ١٣٢- ١٣٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩١).
(٤) الملل والنحل (١/ ١٠١).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ١٩٠)، (٦/ ١٥).

وقال: أئمة المتكلمين يثبتون الصفات الخبرية في الجملة، وإن كان لهم فيها طرق كأبي سعيد ابن كلاب، وأبي الحسن الأشعري، وأئمة أصحابه: كأبي عبد الله بن مجاهد، وأبي الحسن الباهلي، والقاضي أبي بكر بن الباقلاني، وأبي إسحاق الإسفرائيني، وأبي بكر بن فورك، وأبي محمد بن اللبان، وأبي علي بن شاذان، وأبي القاسم القشيري، وأبي بكر البيهقي وغير هؤلاء، فما من هؤلاء إلا من يثبت من الصفات الخبرية ما شاء الله تعالى، وعماد المذهب عنهم: إثبات كل صفة في القرآن.

وأما الصفات التي في الحديث: فمنهم من يثبتها ومنهم من لا يثبتها..

ومن وافقهم على نفي الصفات الخبرية: من متأخري الأشعرية ونحوهم[1]

وقال: وابن كلاب إمام الإشعرية أكثر مخالفة لجهم، وأقرب إلى السلف من الأشعري نفسه، والأشعري أقرب إلى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني، والقاضي أبو بكر وأمثاله أقرب إلى السلف من أبي المعالي وأتباعه، فإن هؤلاء نفوا الصفات كالاستواء، والوجه، واليدين.

ثم اختلفوا هل تتأول أو تفوض؟ على قولين أو طريقين، فأول قولي أبي المعالي هو تأويلها، كما ذكر ذلك في الإرشاد وآخر قوليه تحريم التأويل ذكر ذلك في الرسالة النظامية واستدل بإجماع السلف على أن التأويل ليس بسائغ ولا واجب.

وأما الأشعري نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم في إثبات الصفات الخبرية، وفي الرد على من يتأولها، كمن يقول: استوى بمعنى استولى، وهذا مذكور في كتبه كلها، كـ«الموجز الكبير»، و«المقالات الصغيرة، والكبيرة»، و«الإبانة»، وغير ذلك، وهكذا نقل سائر الناس عنه، حتى المتأخرون، كالرازي والآمدي ينقلون عنه إثبات الصفات الخبرية، ولا يحكون عنه في ذلك قولين.

فمن قال: إن الأشعري كان ينفيها، وأن له في تأويلها قولين: فقد افترى عليه؛ ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه، كأبي المعالي ونحوه؛ فإن هؤلاء أدخلوا في مذهبه أشياء من أصول المعتزلة[2]

وقال: وكثير من المتكلمة الصفاتية يريدون بالتوحيد والتنزيه، نفي الصفات الخبرية أو بعضها، وبالتجسيم والتشبيه إثباتها أو بعضها[3]

نقض قولهم

قال الباقلاني: فإن قال قائل: فما الحجة في أن لله عز وجل وجهًا ويدين؟

قيل له: قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: الآية ٢٧]، وقوله: ﴿مَا

(١) مجموع الفتاوى (١٤٧/٤، ١٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٢، ٢٠٣)، درء التعارض (١٧/٢، ١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥٠/٤).

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]

فأثبت لنفسه وجهًا ويدين.

فإن قالوا: فما أنكرتم أن يكون المعنى في قوله خلقت بيدي أنه خلقه بقدرته أو بنعمته؛ لأن اليد في اللغة قد تكون بمعنى النعمة وبمعنى القدرة كما يقال: لي عند فلان يد بيضاء يراد به نعمة وكما يقال: هذا الشيء في يد فلان، وتحت يد فلان يراد به أنه تحت قدرته وفي ملكه، ويقال: رجل أيد إذا كان قادرًا.

وكما قال الله تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: الآية ٧١] يريد عملنا بقدرتنا.

وقال الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

فكذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] يعني بقدرتي أو نعمتي.

يقال لهم: هذا باطل؛ لأن قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] يقتضي إثبات يدين هما صفة له، فلو كان المراد بهما القدرة لوجب أن يكون له قدرتان.

وأنتم لا تزعمون أن للبارئ سبحانه قدرة واحدة فكيف يجوز أن تثبتوا له قدرتين، وقد أجمع المسلمون من مثبتي الصفات والنافين لها على أنه لا يجوز أن يكون له تعالى قدرتان فبطل ما قلتم.

وكذلك لا يجوز أن يكون الله تعالى خلق آدم بنعمتين؛ لأن نعم الله تعالى على آدم وعلى غيره لا تحصى؛ ولأن القائل لا يجوز أن يقول: رفعت الشيء بيدي، أو وضعته بيدي، أو توليته بيدي، وهو يعني نعمته.

وكذلك لا يجوز أن يقال: لي عند فلان يدان؛ يعني نعمتين، وإنما يقال: لي عنده يدان بيضاوان.

لأن القول يد لا يستعمل إلا في اليد التي هي صفة للذات،

ويدل على فساد تأويلهم أيضًا أنه لو كان الأمر على ما قالوه لم يغفل عن ذلك إبليس، وعن أن يقول وأي فضل لآدم علي يقتضي أن أسجد له، وأنا أيضا بيدك خلقتني التي هي قدرتك، وبنعمتك خلقتني، وفي العلم بأنه الله تعالى فضل آدم عليه بخلقه بيديه دليل على فساد ما قالوه.

فإن قال قائل: فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لم تعقلوا يد صفة، ووجه صفة لا جارحة.

يقال له: لا يجب ذلك كما لا يجب إذا لم نعقل حيًا عالمًا قادرًا إلا جسمًا، أن نقضي نحن وأنتم على الله تعالى بذلك،

وكما لا يجب متى كان قائمًا بذاته أن يكون جوهرًا أو جسمًا؛ لأنا وإياكم لم نجد قائمًا بنفسه في شاهدنا إلا كذلك، وكذلك الجواب لهم إن قالوا فيجب أن يكون علمه وحياته وكلامه وسائر

صفاته لذاته أعراضًا، أو أجناسًا، أو حوادث، أو أغيارًا له، أو حالة فيه، أو محتاجة له إلى قلب واعتلوا بالوجود[١]

قال شيخ الإسلام: وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم -وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري؛ ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده- قال في كتاب «الإبانة» تصنيفه: فإن قال قائل: فما الدليل على أن لله وجهًا ويدًا؟ قيل له قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: الآية ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] فأثبت لنفسه وجهًا ويدًا.

فإن قال: فلم أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إن كنتم لا تعقلون وجهًا ويدًا إلا جارحة؟

قلنا: لا يجب هذا، كما لا يجب إذا لم نعقل حيًّا عالمًا قادرًا إلا جسمًا أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه وتعالى، وكما لا يجب في كل شيء كان قائمًا بذاته أن يكون جوهرًا؛ لأنا وإياكم لم نجد قائمًا بنفسه في شاهدنا إلا كذلك.

وكذلك الجواب لهم إن قالوا: يجب أن يكون علمه وحياته، وكلامه وسمعه، وبصره وسائر صفات ذاته عرضًا واعتلوا بالوجود[٢]

وقال: الحافظ أبو بكر البيهقي مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعري، وذبه عنهم، قال: في كتابه «الأسماء والصفات».

باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين -لا من حيث الجارحة- لورود خبر الصادق به، قال الله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]

وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب، مثل قوله في غير حديث، في حديث الشفاعة: «**يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده**» ومثل قوله في الحديث المتفق عليه: «**أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك الألواح بيده**»، وفي لفظ: «**وكتب لك التوراة بيده**»، ومثل ما في صحيح مسلم: «**أنه سبحانه غرس كرامة أوليائه في جنة عدن بيده**»، ومثل قوله ﷺ: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها بيده كما يكتفأ أحدكم خبزته في السفر؛ نزلًا لأهل الجنة**».

وذكر أحاديث مثل قوله: «**بيدي الأمر**» «**والخير في يديك**» «**والذي نفس محمد بيده**» و«**أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»، وقوله: «**المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين**» وقوله: «**يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى**

---

(١) تمهيد الأوائل ص(٢٩٥- ٢٩٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٩٨).

الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وقوله: «يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة؛ سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؛ فإنه لم يغض ما في يمينه وعرشه على الماء، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع» وكل هذه الأحاديث في الصحاح.

وذكر أيضًا قوله: «إن الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة». وحديث: «إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره بيده» إلى أحاديث أخر ذكرها من هذا النوع.

ثم قال البيهقي: أما المتقدمون من هذه الأمة فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب، وكذلك قال في الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية، مع أنه يحكي قول بعض المتأخرين[١]

وقال: ومذهب الأشعري نفسه وطبقته كأبي العباس القلانسي ونحوه ومن قبله من أئمته كأبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، ومن بعده من أئمة أصحابه الذين أخذوا عنه كأبي عبد الله بن مجاهد شيخ القاضي أبي بكر الباقلاني، وأبي الحسن الباهلي شيخ ابن الباقلاني، وأبي إسحاق الإسفرائيني، وأبي بكر بن فورك، وكأبي الحسن علي بن مهدي الطبري صاحب التآليف في تأويل الأحاديث المشكلات الواردة في الصفات ونحوهم.

والطبقة الثانية التي أخذت عن أصحابه كالقاضي أبي بكر إمام الطائفة، وأبي بكر بن فورك، وأبي إسحاق الإسفرائيني، وأبي علي بن شاذان وغير هؤلاء، إثبات الصفات الخبرية التي جاء بها القرآن أو السنن المتواترة كاستوائه على العرش والوجه واليد ومجيئه يوم القيامة وغير ذلك، وقد رأيت كلام كل من ذكرته من هؤلاء يثبت هذه الصفات، ومن لم أذكره أيضًا، وكتبهم وكتب من نقل عنهم مملوءة بذلك وبالرد على من يتأول هذه الصفات والأخبار بأن تأويلهما طريق الجهمية والمعتزلة ونحو ذلك[٢]

وتقدم مزيد بيان عند قول الجهمية في الصفات الخبرية، والكلام عن مقالة التعطيل.

- قولهم في كلام الله عز وجل

كلام الله عندهم معنى قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر، أن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا، فالقرآن عندهم عبارة عن كلام الله.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٨٧- ٨٩)

(٢) الفتاوى الكبرى (٥/٢٥٦).

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: وكلامه واحد، هو: أمر ونهي، وخبر واستخبار، ووعد ووعيد. وهذه الوجوه ترجع إلى اعتبارات في كلامه، لا إلى عدد في نفس الكلام. والعبارات والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي. والفرق بين القراءة والمقروء، والتلاوة والمتلو كالفرق بين الذِّكر والمذكور، فالذِّكر محدث والمذكور قديم(١)

وقال شيخ الإسلام: قول أبي محمد عبدالله بن سعيد بن كُلَّاب البصري ومن اتبعه: كالقلانسي، وأبي الحسن الأشعري، وغيرهم، إن كلام الله معنى قائم بذات الله، هو الأمر بكل مأمور أمر الله به، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا،

والأمر والنهي والخبر ليست أنواعًا له ينقسم الكلام إليها، وإنما كلها صفات له إضافية، كما يوصف الشخص الواحد بأنه ابن لزيد، وعم لعمرو، وخال لبكر، والقائلون بهذا القول منهم من يقول: إنه معنى واحد في الأزل وأنه في الأزل أمر ونهي وخبر، كما يقوله الأشعري.

ومنهم من قال: بل يصير أمرًا ونهيًا عند وجود المأمور والمنهي.

ومنهم من يقول: هو عدة معان، الأمر والنهي، والخبر، والاستخبار.

وقد ألزم الناس أصحاب هذا القول أن يجعلوا العلم والقدرة والإرادة والحياة شيئًا واحدًا، فاعترف محققوهم بصحة الإلزام(٢)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] فيه دلالة على أنه يسمع كلام الله من التالي المبلغ، وأن ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله، كما في حديث جابر في السنن: «أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟ فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي» وفي حديث أبي بكر الصديق ﷺ أنه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ قالوا له هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي، ولكنه كلام الله.

وقد قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ

---

(١) الملل والنحل (١/ ٩٦). الإنصاف للباقلاني ص ٦٢- ١٢٦ وأصول الدين للرازي ص ٦٣ -٦٧ وكتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي ص ٢٧- ٢٨

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٥)، (١٢/ ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠١، ٥٥٧).

تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ فمن قال: إن هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهيًا لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر. ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا: هذا حديث رسول الله ﷺ، وهذا كلام رسول الله، ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئًا منشئًا؛ لا لمن أداه راويا مبلغًا، فإذا كان مثل هذا معلومًا في تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل في تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى ألا يجعل كلامًا لغير الخالق جل وعلا؟!

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: الآية ١١٤] وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله ﷺ من البشر، والله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، وكلاهما مبلغ له، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: الآية ٦٧] وقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء، كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئًا من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: الآية ٩٨] إلى قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

كان بعض المشركين يزعم أن النبي ﷺ تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة إما عبد ابن الحضرمي وإما غيره، كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل: الآية ١٠٣]؛ أي: يضيفون إليه التعليم لسان ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٣] فكيف يتصور أن يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي؟ وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق، فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه؛ إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على أن القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه.

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي ﷺ أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال:

شهدت بأن وعد الله حق وإن النار مثوى الكافرينا
وإن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه، ثم إذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم أنه شعر ذلك المنشئ وكلامه ونظمه وقوله، مع أن هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه، وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشئ والشعر شعر المنشئ لا شعر المنشد، والمحدِّث عن النبي ﷺ إذا روى قوله: «إنما الأعمال بالنيات» بلغه بحركته وصوته، مع أن النبي ﷺ تكلم به بحركته وصوته، وليس صوت المبلغ صوت النبي ﷺ، ولا حركته كحركته، والكلام كلام رسول الله ﷺ لا كلام المبلغ له عنه.

فإذا كان هذا معلومًا معقولًا فكيف لا يعقل أن يكون ما يقرأ القارئ إذا قرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ أن يقال هذا الكلام كلام البارئ وان كان الصوت صوت القارئ[١].

وقال: وفي إضافته إلى هذا الرسول تارة، وإلى هذا تارة؛ دليل على أنه إضافة بلاغ وأداء، لا إضافة إحداث لشيء منه أو إنشاء، كما يقوله بعض المبتدعة الأشعرية، من أن حروفه ابتداء جبرائيل، أو محمد، مضاهاة منهم في نصف قولهم لمن قال: إنه قول البشر، من مشركي العرب، ممن يزعم أنه أنشأه بفضله، وقوة نفسه، ومن المتفلسفة الذين يزعمون أن المعاني والحروف تأليفه؛ لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم على غيره من العلماء[٢].

وقال: فإن قال قائل: فالوحيد جعل الجميع قول البشر، ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر، وأما معناه فهو كلام الله.

فيقال لهم: هذا نصف قول الوحيد، ثم هذا باطل من وجوه أخرى.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٥٩- ٢٦٣)، (١٢/ ٢٩٦، ٣٠١)، (١٢/ ٥٣٥- ٥٤٣، ٥٤٥، ٥٥٢- ٥٦٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٥٠، ٥١)، (١٢/ ١٣٥- ١٣٧، ٥٥٥).

وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة، وأنتم تجعلون ذلك المعنى معنى واحدًا هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين، فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة.

وأيضا فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين، وإنما يشتركان في مسمى الكلام، ومسمى كلام الله، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك في أنه كلام الله اشتراك الأشخاص في أنواعها، كما أن الإنسان وهذا الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي.

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال: إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية. فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما، والزمْ الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[1]

وقال: واعلم أن أصل القول بالعبارة «أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب» هو أول من قال في الإسلام: إن معنى القرآن كلام الله، وحروفه ليست كلام الله، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة، وكان قد ذهب إلى إثبات الصفات لله تعالى، وخالف المعتزلة في ذلك، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات، وقرر ذلك تقريرًا هو أكمل من تقرير أتباعه بعده، وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقال له حكاية عنه أم لا؟ وأكثر المعتزلة قالوا: هو حكاية عنه، فقال ابن كلاب: القرآن العربي حكاية عن كلام الله؛ ليس بكلام الله.

فجاء بعده «أبو الحسن الأشعري» فسلك مسلكه في إثبات أكثر الصفات، وفي مسألة القرآن أيضًا، واستدرك عليه قوله: إن هذا حكاية، وقال: الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزلة، وإنما يناسب قولنا أن نقول هو عبارة عن كلام الله؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة؛ فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور.

أحدها: قولهم: إن المعنى كلام الله، وإن القرآن العربي ليس كلام الله، وكانت المعتزلة تقول: هو كلام الله وهو مخلوق، فقال: هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك «الحركة». وهذا مما احتجوا به

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٦٦، ٢٦٧).

على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم: إن كلام الله مخلوق خلقه في بعض الأجسام؛ قالوا لهم: لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: الآية ٣٠] فقال أئمة الكُلَّابيَّة: إذا كان القرآن العربي مخلوقًا لم يكن كلام الله، فقال طائفة من متأخريهم: بل نقول الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة، فقال لهم المحققون: فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة؛ فإنكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة أن يقولوا: ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره.

الثاني: قولهم: إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر، وهو معنى التوراة، والإنجيل والقرآن، وقال أكثر العقلاء: هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل.

الثالث: أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله.

و«مسألة القرآن» لها طرفان:

أحدهما: تكلم الله به وهو أعظم الطرفين.

والثاني: تنزيله إلى خلقه والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول[1].

وقال عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ [النحل: الآية ١٠١] ومنها أن هذه الآية - أيضًا- تبطل قول من يقول: إن القرآن العربي ليس منزلًا من الله بل مخلوق، إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما، كما يقول ذلك الكُلَّابيَّة والأشعرية الذين يقولون: إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى، ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام: الهواء أو غيره، أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي، أو ألهمه محمدًا فعبر عنه بالقرآن العربي، أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره؛ فهذه الأقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول، فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولًا قبل أن يصل إلينا.

وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي، وكذلك التوراة العبرية، ويفارقه من وجهين.

أحدهما: أن أولئك يقولون: إن المخلوق كلام الله، وهؤلاء يقولون: إنه ليس كلام الله؛ لكن يسمى كلام الله مجازًا وهذا قول أئمتهم وجمهورهم، وقالت طائفة من متأخريهم: بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي، لكن هذا ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به، وهم مع هذا لا يقولون: إن المخلوق كلام الله حقيقة، كما تقوله المعتزلة مع قولهم إنه كلامه

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧٢- ٢٧٤)، (١٢/ ٣٧٦- ٣٨٠، ٥٥٢).

حقيقة، بل يجعلون القرآن العربي كلامًا لغير الله وهو كلام حقيقة، وهذا شر من قول المعتزلة، وهذا حقيقة قول الجهمية، ومن هذا الوجه؛ فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء، وإنما ينازعونهم في اللفظ.

الثاني: أن هؤلاء يقولون: لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته، والخلقية يقولون: لا يقوم بذاته كلام، ومن هذا الوجه فالكُلَّابِيَّة خير من الخلقية في الظاهر؛ لكن جمهور الناس يقولون: إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلامًا حقيقة غير المخلوق؛ فإنهم يقولون: إنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر؛ فإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا، ومنهم من قال: هو خمس معان.

وجمهور العقلاء يقولون: إن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد بالضرورات من غير تواطؤ واتفاق؛ كما في الأخبار المتواترة، وأما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمدًا، وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة، ولو لم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ولمحبته لنصر ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة.

وقال جمهور العقلاء: نحن إذا عربنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن، بل معاني هذا ليست معاني هذا، ومعاني هذا ليست معاني هذا. وكذلك معنى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: الآية ١] ليس هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾ [المَسَد: الآية ١]، ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين. وقالوا: إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئًا واحدًا فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة، فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي.

ثم منهم من قال: الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد، وإما نافٍ لها؛ وأما إثباتها واتحادها فخلاف الإجماع. وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما. ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب، كأبي الحسن الآمدي وغيره.

والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول، كما تبين بطلان غيره فإن قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النّحل: الآية ١٠٢] يقتضي نزول القرآن من ربه، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النّحل: الآية ٩٨] وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة. وأيضًا فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النّحل: الآية ١٠١] فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس؛ فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من الله، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة، ولا نزله من نفسه.

وأيضًا فإنه قال عقيب هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النّحل: الآية ١٠٣] وهم كانوا يقولون: إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر، لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه؛ فقط بدليل قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النّحل: الآية ١٠٣] فإنه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألحدوا إليه؛ بأن أضافوا إليه هذا القرآن، فجعلوه هو الذي يعلم محمدًا القرآن لسان أعجمي، والقرآن لسان عربي مبين، وعبر عن هذا المعنى بلفظ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٠] لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم إلى هذا الذي أضافوا إليه هذا القرآن؛ فإن لفظ «الإلحاد» يقتضي ميلًا عن شيء إلى شيء بباطل، فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا ردًّا لقولهم؛ فان الإنسان قد يتعلم من الأعجمي شيئًا بلغة ذلك الأعجمي، ويعبر عنه هو بعبارته.

وقد اشتهر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون: هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي. قيل: إنه كان مولى لابن الحضرمي، وإذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشرًا، والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين؛ علم أن روح القدس نزل باللسان العربي المبين، وأن محمدًا لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس، وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم أنه سمعه منه ولم يؤلفه هو، وهذا بيان من الله أن القرآن الذي هو اللسان العربي المبين سمعه روح القدس من الله ونزل به منه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٢] إلى قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٢] وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٤]

والكتاب اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق، فإن الكُلَّابيَّة أو بعضهم يفرق بين الكلام وكتاب الله، فيقول: كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي، وهو مخلوق.

والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا؛ فقال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الحِجر: الآية ١]، وقال: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [النّمل: الآية ١] وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٠] فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾، وقال: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾، وقال: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ

مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٧] ، ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام، وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ وقال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: الآية ١٣]

و المقصود هنا أن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٤] يتناول نزول القرآن العربي على كل قول. وقد أخبر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: الآية ١١٤] إخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم، وقال: إنهم يعلمون ذلك ولم يقل: إنهم يظنونه أو يقولونه والعلم لا يكون إلا حقًّا مطابقًا للمعلوم، بخلاف القول والظن الذي ينقسم إلى حق وباطل، فعلم أن القرآن العربي منزل من الله لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد ولا غيرهما، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيرًا منه من هذا الوجه[(١)]

- **قولهم في ماهية الكلام**

الكلام عندهم معنى قائم بالنفس دون الألفاظ والعبارات.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: والكلام عند الأشعري معنى قائم بالنفس سوى العبارة، والعبارة دلالة عليه من الإنسان، فالمتكلم عنده من قام به الكلام، وعند المعتزلة من فعل الكلام، غير أن العبارة تسمى كلامًا إما بالمجاز، وإما باشتراك اللفظ[(٢)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه، كما قدمناه، ليس الكلام اسمًا لمجرد الألفاظ، ولا لمجرد المعاني.

وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة، وكلام السلف والأئمة، بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ الكلام، والقول، وهذا كلام فلان، أو كلام فلان؛ فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعًا لشموله لهما؛ ليس حقيقة في اللفظ فقط، كما يقوله قوم، ولا في المعنى فقط، كما يقوله قوم، ولا مشترك بينهما، كما يقوله قوم، ولا مشترك في كلام الآدميين وحقيقة في المعنى في كلام الله كما يقوله قوم.

ومنه قول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به**»، وقول معاذ له: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار**

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٢٠- ١٢٦)، (١٢/ ٥٤٤، ٥٤٥).
(٢) الملل والنحل (١/ ٩٦).

على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!»، وقوله: «كلمتان ثقيلتان في الميزان، خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، وقوله: «إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

وقوله: «إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند الموت إلا وجد روحه لها روحًا»، «فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، وما في القرآن: مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: الآية ١٠] ، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] ، ونحو ذلك من أسماء القول والكلام جميعًا ونحوهما فإنه يدخل فيه اللفظ والمعنى جميعًا عند الإطلاق(١)

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة والكُلَّابِيَّة في ماهية الكلام.

- قولهم في علو الباري عز وجل.

أكثر متأخريهم ينفون علو الباري عز وجل.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: وقال طوائف منهم: ليس فوق العالم ولا فوق العالم شيء أصلًا، ولا فوق العرش شيء، وهذا قول الجهمية والمعتزلة، وطوائف من متأخري الأشعرية(٢)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عن الباقلاني في كتابه الإبانة: وقال: فإن قال فهل تقولون إنه في كل مكان؟

قيل له: معاذ الله، بل مستو على عرشه كما أخبر في كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] وقال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: الآية ١٠] ، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: الآية ١٦] قال: ولو كان في كل مكان لكان في بطن الإنسان وفمه، والحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها؛ ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان؛ ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا وإلى يميننا وإلى شمالنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله(٣)

وقال: روى أبو بكر البيهقي في «الأسماء والصفات» بإسناد صحيح عن الأوزاعي قال: كنا - والتابعون متوافرون- نقول إن الله -تعالى ذكره- فوق عرشه ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته.

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧٢)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٩٩).

وقد حكى الأوزاعي وهو أحد الأئمة الأربعة في عصر تابع التابعين: الذين هم «مالك» إمام أهل الحجاز، و«الأوزاعي» إمام أهل الشام، و«الليث» إمام أهل مصر، و«الثوري» إمام أهل العراق- حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله تعالى فوق العرش، وبصفاته السمعيَّة.

وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم المنكر لكون الله فوق عرشه، والنافي لصفاته؛ ليعرف الناس أن مذهب السلف خلاف ذلك[(١)]

وقال: قال أبو حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء، أم في الأرض: فقد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] وعرشه فوق سبع سموات.

قلت: فإن قال أنه على العرش استوى، ولكنه يقول لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أن يكون في السماء؛ لأنه تعالى في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل -وفي لفظ- سألت أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض. قال قد كفر. قال لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] وعرشه فوق سبع سموات، قال فإنه يقول على العرش استوى، ولكن لا يدرى العرش في الأرض أو في السماء قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر.

ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة عند أصحابه: أنه كفر الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؛ فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول ليس في السماء، أو ليس في السماء ولا في الأرض؟! واحتج على كفره بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] قال: وعرشه فوق سبع سموات.

وبين بهذا أن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] يبين أن الله فوق السموات فوق العرش، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله بنفسه فوق العرش.

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال إنه على العرش استوى، ولكن توقف في كون العرش في السماء أم في الأرض، قال: لأنه أنكر أنه في السماء؛ لأن الله في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل.

وهذا تصريح من أبي حنيفة بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء؛ واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية؛ فان القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل، وقد جاء اللفظ الآخر صريحًا عنه بذلك، فقال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر[(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩)، (٥/ ١٨٣)، (٥/ ١٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٧- ٤٩)، (٥/ ١٨٣).

وقال: وجوب إثبات العلو لله تعالى ونحوه يتبين من وجوه:

أحدها: أن يقال: إن القرآن، والسنن المستفيضة المتواترة، وغير المتواترة، وكلام السابقين والتابعين، وسائر القرون الثلاثة -مملوء بما فيه إثبات العلو لله تعالى على عرشه بأنواع من الدلالات، ووجوه من الصفات، وأصناف من العبارات؛

تارة يخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وقد ذكر الاستواء على العرش في سبعة مواضع.

وتارة يخبر بعروج الأشياء وصعودها، وارتفاعها إليه كقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: الآية ١٥٨]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥]، ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: الآية ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: الآية ١٠].

وتارة يخبر بنزولها منه أو من عنده، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأنعام: الآية ١١٤]، ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]، ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞﴾، ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۞﴾.

وتارة يخبر بأنه العلي الأعلى كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۞﴾ [الأعلى: الآية ١]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]

وتارة يخبر بأنه في السماء كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۞ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾.

فذكر السماء دون الأرض، ولم يعلق بذلك ألوهية أو غيرها، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف: الآية ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: الآية ٣].

وكذلك قال النبي ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟!»، وقال للجارية: «أين الله» قالت في السماء. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

وتارة يجعل بعض الخلق «عنده» دون بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنبياء: الآية ١٩]، ويخبر عمن عنده بالطاعة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ ۩ ۞﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٦] فلو كان موجب العندية معنى عامًا، كدخولهم تحت قدرته ومشيئته وأمثال ذلك: لكان كل مخلوق عنده؛ ولم يكن أحد مستكبرًا عن عبادته، بل مسبحًا له ساجدًا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٠] وهو سبحانه وصف الملائكة بذلك ردًا على الكفار المستكبرين عن عبادته، وأمثال هذا في القرآن لا يحصى إلا بكلفة.

وأما الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين فلا يحصيها إلا الله تعالى.

فلا يخلو إما أن يكون ما اشتركت فيه هذه النصوص من إثبات علو الله نفسه على خلقه هو الحق، أو الحق نقيضه؛ إذ الحق لا يخرج عن النقيضين، وإما أن يكون نفسه فوق الخلق؛ أو لا يكون فوق الخلق كما تقول الجهمية.

ثم تارة يقولون: لا فوقهم ولا فيهم، ولا داخل العالم، ولا خارجه، ولا مباين، ولا محايث، وتارة يقولون: هو بذاته في كل مكان، وفي المقالتين كلتيهما يدفعون أن يكون هو نفسه فوق خلقه.

فإما أن يكون الحق إثبات ذلك، أو نفيه، فإن كان نفي ذلك هو الحق، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا قط -لا نصًا ولا ظاهرًا- ولا الرسول، ولا أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين؛ لا أئمة المذاهب الأربعة، ولا غيرهم، ولا يمكن أحد أن ينقل عن واحد من هؤلاء أنه نفى ذلك أو أخبر به.

وأما ما نقل من الإثبات عن هؤلاء فأكثر من أن يحصى أو يحصر، فإن كان الحق هو النفي -دون الإثبات- والكتاب والسنة والإجماع إنما دل على الإثبات ولم يذكر النفي أصلًا لزم أن يكون الرسول والمؤمنون لم ينطقوا بالحق في هذا الباب، بل نطقوا بما يدل -إما نصًا وإما ظاهرًا- على الضلال والخطأ المناقض للهدى والصواب.

ومعلوم أن من اعتقد هذا في الرسول والمؤمنين فله أوفر حظ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: الآية ١١٥]

فإن القائل إذا قال: هذه النصوص أريد بها خلاف ما يفهم منها، أو خلاف ما دلت عليه، أو أنه لم يرد إثبات علو الله نفسه على خلقه؛ وإنما أريد بها علو المكانة ونحو ذلك كما قد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

فيقال له: فكان يجب أن يبين للناس الحق الذي يجب التصديق به باطنًا وظاهرًا؛ بل ويبين لهم ما يدلهم على أن هذا الكلام لم يرد به مفهومه ومقتضاه؛ فإن غاية ما يقدر أنه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة، والباطن المخالف للظاهر.

ومعلوم باتفاق العقلاء: أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز فلا بد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازي؛ فإذا كان الرسول المبلغ المبين الذي بين للناس ما نزل إليهم يعلم أن المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه، كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذي لم يرد لا سيما إذا كان باطلًا لا يجوز اعتقاده في الله، فإن عليه أن ينهاهم عن أن يعتقدوا في الله ما لا يجوز اعتقاده إذا كان ذلك مخوفًا عليهم، ولو لم يخاطبهم بما يدل على ذلك، فكيف إذا كان خطابه هو الذي يدلهم على ذلك الاعتقاد الذي تقول النفاة: هو اعتقاد باطل؟

فإذا لم يكن في الكتاب، ولا السنة، ولا كلام أحد من السلف والأئمة ما يوافق قول النفاة أصلًا؛ بل هم دائمًا لا يتكلمون إلا بالإثبات، امتنع حينئذ أن لا يكون مرادهم الإثبات، وأن

يكون النفي هو الذي يعتقدونه، ويعتمدونه وهم لم يتكلموا به قط ولم يظهروه؛ وإنما أظهروا ما يخالفه وينافيه، وهذا كلام مبين، لا مخلص لأحد عنه[١]

وتقدم مزيد بيان عند قول الجهمية والمعتزلة في علو البارئ عز وجل.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل.

يثبتون رؤية المولى عز وجل في الآخرة، والمصحِّح للرؤية عندهم هو الوجود.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: ومن مذهب الأشعري أن كل موجود يصح أن يُرى، فإن المصحح للرؤية إنما هو الوجود، والباري تعالى موجود، فيصح أن يُرى، وقد ورد السمع بأن المؤمنين يرونه في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار. قال: ولا يجوز أن تتعلق به الرؤية على جهة، ومكان، وصورة ومقابلة، واتصال شعاع، أو على سبيل انطباع؛ فإن كل ذلك مستحيل.

وله قولان في ماهية الرؤية:

أحدهما: أنه علم مخصوص، ويعني بالخصوص أنه يتعلق بالوجود دون العدم.

والثاني: أنه إدراك وراء العلم لا يقتضي تأثيرًا في المدرك ولا تأثرًا عنه[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وأكثر مثبتي الرؤية لم يجعلوا مجرد الوجود هو المصحح للرؤية؛ بل قالوا: إن المقتضى أمور وجودية، لا أن كل موجود يصح رؤيته، وبين الأمرين فرق، فإن الثاني يستلزم رؤية كل موجود؛ بخلاف الأول؛ وإذا كان المصحح للرؤية هي أمور وجودية لا يشترط فيها أمور عدمية، فما كان أحق بالوجود وأبعد عن العدم كان أحق بأن تجوز رؤيته[٣]

وقال: وفى الجملة فإنكار الرؤية والمحبة والكلام -أيضًا- معروف من كلام الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم.

والأشعرية ومن تابعهم يوافقونهم على نفي المحبة، ويخالفونهم في إثبات الرؤية، ولكن الرؤية التي يثبتونها لا حقيقة لها[٤]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٦٤- ١٦٨).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ١٣٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٦، ٣٥٧).

- قولهم في نصوص الصفات.

كثير منهم يرى تأويل النصوص الواردة في الصفات.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن الجهمية والمعتزلة: ويتأولون آيات الصفات وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء به في بعض الصفات[١]

وقال: يوضح ذلك أن كثيرًا من أصحاب أبي محمد من أتباع أبي الحسن الأشعري يصرحون بمخالفة السلف -في مثل مسألة الإيمان، ومسألة تأويل الآيات والأحاديث- يقولون: «مذهب السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وأما المتكلمون من أصحابنا؛ فمذهبهم كيت وكيت»، وكذلك يقولون: «مذهب السلف: أن هذه الآيات والأحاديث الواردة في الصفات لا تتأول، والمتكلمون يريدون تأويلها إما وجوبًا وإما جوازًا»، ويذكرون الخلاف بين السلف وبين أصحابهم المتكلمين، هذا منطوق ألسنتهم ومسطور كتبهم[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: واعلم أنه ليس في العقل الصريح ولا في شيء من النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريق السلفية أصلًا

ويكفيك دليلًا على فساد قول هؤلاء؛ أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوز وأوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله.

فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة؟! فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد لجدل هؤلاء.

وكل من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر وهو من وجوه:

أحدها: بيان أن العقل لا يحيل ذلك.

والثاني: أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل.

والثالث: أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار، كما أنه جاء بالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان؛ فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويل القرامطة والباطنية، في الحج والصلاة والصوم وسائر ما جاءت به النبوات.

الرابع: أن يبين أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص؛ وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك التفصيل، وإنما يعلمه مجملًا إلى غير ذلك من الوجوه، على أن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٦).

الوجوه الأساطين من هؤلاء الفحول: معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية.

وإذا كان هكذا فالواجب تلقي علم ذلك من النبوات، على ما هو عليه، ومن المعلوم للمؤمنين أن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا، وأنه بين للناس ما أخبرهم به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر.

والإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بالمبدأ والمعاد، وهو الإيمان بالخلق والبعث، كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٨] وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمَان: الآية ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٧] وقد بين الله على لسان رسوله ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ما هدى الله به عباده، وكشف به مراده.

ومعلوم للمؤمنين أن رسول الله ﷺ أعلم من غيره بذلك، وأنصح من غيره للأمة، وأفصح من غيره عبارة وبيانًا بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للأمة، وأفصحهم، فقد اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والإرادة[١].

وقال: والعجب أن من هؤلاء من يصرح بأن عقله إذا عارضه الحديث -لا سيما في أخبار الصفات- حمل الحديث على عقله وصرح بتقديمه على الحديث، وجعل عقله ميزانًا للحديث، فليت شعري هل عقله هذا كان مصرحًا بتقديمه في الشريعة المحمدية، فيكون من السبيل المأمور باتباعه، أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله[٢].

وقال: روى أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» عن الأوزاعي، قال: سُئِلَ مكحولٌ والزُّهْرِيُّ عن تفسير الأحاديث فقالا: أمِرُّوها كما جاءت.

وروى أيضًا عن الوليد بن مسلم، قال: سألت مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي: عن الأخبار التي جاءت في الصفات فقالوا: أمِرُّوها كما جاءت. وفي رواية: فقالوا: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

فقولهم -رضي الله عنهم-: «أمِرُّوها كما جاءت» رد على المُعَطِّلَة، وقولهم: «بلا كيف» رد على الممثلة. والزهري، ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين، ومن طبقتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما.

وروى أبو القاسم الأزجي بإسناده عن مطرف بن عبد الله، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ، وولاة

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٢٨- ٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٥٧، ٥٨).

الأمر بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد من خلق الله تعالى تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا[(١)]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في نصوص الصفات.

- قولهم في الإرادة

الإرادة عندهم واحدة لجميع المرادات من خير وشر، ولم يفرقوا بين المشيئة والمحبة.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: قال: وإرادته واحدة قديمة، أزليَّة، متعلقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصة وأفعال عباده، من حيث إنها مخلوقة له، لا من حيث إنها مكتسبة لهم. فعن هذا قال: أراد الجميع: خيرها، وشرها، ونفعها، وضرها. وكما أراد وعلم، أراد من العباد ما علم. وأمر القلم حتى كتب في اللوح المحفوظ، فذلك حكمه وقضاؤه وقدره الذي لا يتغير ولا يتبدل. وخلاف المعلوم: مقدور الجنس، محال الوقوع[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: وجهم لا يثبت شيئًا من الصفات؛ لا الإرادة و لا غيرها، فإذا قال: إن الله يحب الطاعات ويبغض المعاصي؛ فمعناه الثواب و العقاب. والأشعري يثبت الصفات كالإرادة فاحتاج إلى الكلام فيها هل هي المحبة أم لا؟ فقال: المعاصي يحبها الله ويرضاها كما يريدها، وذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك، وأهل السنة قبله على أن الله لا يحب المعاصي[(٣)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وجهم ومن وافقه من المعتزلة اشتركوا في أن مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد، ثم قالت المعتزلة: وهو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان، فلا يشاؤه فقالوا: إنه يكون بلا مشيئة، وقالت الجهمية بل هو يشاء ذلك؛ فهو يحبه ويرضاه، وأبو الحسن وأكثر أصحابه وافقوا هؤلاء، فذكر أبو المعالي الجويني: أن أبا الحسن أول من خالف السلف في هذه المسألة ولم يفرق بين المشيئة والمحبة والرضا.

وأما سلف الأمة وأئمتها، وأكابر أهل الفقه والحديث والتصوف، وكثير من طوائف النظار: كالكُلَّابِيَّة، والكَرَّامِيَّة، وغيرهم فيفرقون بين هذا وهذا؛ ويقولون: إن الله يحب الإيمان والعمل الصالح، ويرضى به، كما لا يأمر ولا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان ولا يحبه، كما لا يأمر به

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩، ٤٠).

(٢) الملل والنحل (١/ ٩٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٠).

وإن كان قد شاءه، ولهذا كان حملة الشريعة من الخلف والسلف متفقين على أنه لو حلف ليفعلن واجبًا أو مستحبًّا؛ كقضاء دين يضيق وقته، أو عبادة يضيق وقتها، وقال: إن شاء الله، ثم لم يفعله، لم يحنث وهذا يبطل قول القدرية، ولو قال: إن كان الله يحب ذلك ويرضاه فإنه يحنث، كما لو قال: إن كان يندب إلى ذلك ويرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو استحباب، وهذا يرد على الجهمية ومن اتبعهم كأبي الحسن الأشعري ومن وافقه من المتأخرين، وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا جواب هذه المسألة؛ فإن هذه الإشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم ومن وافقه من المتأخرين، من أصحاب أبي الحسن الأشعري وغيرهم وطائفة من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

وأما أئمة أصحاب مالك والشافعي وأحمد وعامة أصحاب أبي حنيفة فإنهم لا يقولون بقول هؤلاء، بل يقولون بما اتفق عليه السلف من أنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاه؛ فيقولون: إن الكفر والفسوق والعصيان -وإن وقع بمشيئته- فهو لا يحبه ولا يرضاه، بل يسخطه ويبغضه.

ويقولون: إرادة الله في كتابه نوعان:

نوع بمعنى المشيئة لما خلق، كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]

ونوع بمعنى محبته ورضاه لما أمر به وإن لم يخلقه، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥] ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾[1]

وقال: وأصل هذه المسألة الفرق بين محبة الله ورضاه، وغضبه وسخطه، وبين إرادته، كما هو مذهب السلف والفقهاء، وأكثر المثبتين للقدر من أهل السنة وغيرهم، وصار طائفة من القدرية والمثبتين للقدر إلى أنه لا فرق بينهما.

ثم قالت «القدرية»: هو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان، ولا يريد ذلك، فيكون ما لم يشأ، ويشاء ما لم يكن.

وقالت المثبتة: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذًا قد أراد الكفر والفسوق والعصيان، ولم يرده دينًا، أو أراده من الكافر ولم يرده من المؤمن.

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٧٤- ٤٧٦).

فهو لذلك يحب الكفر والفسوق والعصيان، ولا يحبه دينًا، ويحبه من الكافر ولا يحبه من المؤمن.

وكلا القولين خطأ مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم متفقون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، ومجمعون على أنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأن الكفار يبيتون ما لا يرضى من القول، والذين نفوا محبته بنوها على هذا الأصل الفاسد[(١)]

وقال: المحبة والرضا والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة، هذا قول جمهور أهل السنة، ومن قال إن هذه الأمور بمعنى الإرادة كما يقوله كثير من القدرية وكثير من أهل الإثبات فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما أن الكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها دينًا فقد كره كونها وإنها واقعة بدون مشيئته وإرادته، وهذا قول القدرية، أو يقول: إنه لما كان مريدًا لها شاءها فهو محب لها راضٍ بها كما تقوله طائفة من أهل الإثبات، وكلا القولين فيه ما فيه؛ فإن الله تعالى يحب المتقين، ويحب المقسطين، وقد رضي عن المؤمنين، ويحب ما أمر به أمرَ إيجابٍ أو استحباب، وليس هذا المعنى ثابتًا في الكفار والفجار والظالمين، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب كل مختال فخور، ومع هذا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن[(٢)]

- **قولهم في القدر**

يثبتون للعبد قُدرة غير مؤثرة في المقدور، وإنما يقع المقدور من الله خلقًا ومن العبد كسبًا، عند إرادته من العبد.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: قال: والعبد قادر على أفعاله؛ إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية بين حركات الرعدة والرعشة، وبين حركات الاختيار والإرادة. والتفرقة راجعة إلى أن الحركات الاختيارية حاصلة تحت القدرة، متوقفة على اختيار القادر، فعن هذا قال: المكتسب هو المقدور بالقدرة الحاصلة، والحاصل تحت القدرة الحادثة.

ثم على أصل أبي الحسين: لا تأثير للقدرة الحادثة في الأحداث؛ لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر والعرض، فلو أثرت في قضية الحدوث لأثرت في حدوث كل محدث حتى تصلح لإحداث الألوان، والطعوم والروائح، وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام، فيؤدي إلى تجويز وقوع السماء على الأرض بالقدرة الحادثة، غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يحقق عقيب القدرة الحادثة أو تحتها، أو معها الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له، ويسمى هذا الفعل

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١١٥، ١١٦)، (٨/ ١٤٢- ١٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٥٥).

كسبًا، فيكون خلقًا من الله تعالى إبداعًا وإحداثًا وكسبًا من العبد: حصولًا تحت قدرته.

والقاضي أبو بكر الباقلاني: تخطى عن هذا القدر قليلًا، فقال: الدليل قد قام على أن القدرة الحادثة لا تصلح للإيجاد، لكن ليست تقتصر صفات الفعل أو وجوهه واعتباراته على جهة الحدوث فقط، بل هاهنا وجوه أخر، هن وراء الحدوث من كون الجوهر جوهرًا متحيزًا، قابلًا للعرض، ومن كون العرض عرضًا، ولونًا وسوادًا وغير ذلك، وهذه أحوال عند مثبتي الأحوال. قال: فجهة كون الفعل حاصلًا بالقدرة الحادثة أو تحتها نسبة خاصة، ويسمى ذلك كسبًا، وذلك هو أثر القدرة الحادثة.

قال: وإذا جاز على أصل المعتزلة أن يكون تأثير القدرة أو القادرية القديمة في حال هو الحدوث والوجود، أو في وجه من وجوه الفعل، فلم لا يجوز أن يكون تأثير القدرة الحادثة في حال: هو صفة للحادث، أو في وجه من وجوه الفعل؛ وهو كون الحركة مثلًا على هيئة مخصوصة؟ وذلك أن المفهوم من الحركة مطلقًا ومن العرض مطلقًا غير المفهوم من القيام والقعود، وهما حالتان متمايزتان، فإن كل قيام حركة، وليس كل حركة قيامًا.

ومن المعلوم أن الإنسان يفرق فرقًا ضروريًا بين قولنا: أوجد، وبين قولنا: صلى، وصام، وقعد، وقام، وكما لا يجوز أن يضاف إلى البارئ تعالى جهة ما يضاف إلى العبد، فكذلك لا يجوز أن يضاف إلى العبد جهة ما يضاف إلى الباري تعالى.

فأثبت القاضي تأثيرًا للقدرة الحادثة وأثرها: هي الحالة الخاصة، وهي جهة من جهات الفعل، حصلت من تعلق القدرة الحادثة بالفعل، وتلك الجهة هي المتعينة لأن تكون مقابلة بالثواب والعقاب.

فإن الوجود من حيث هو وجود لا يستحق عليه ثواب وعقاب، خصوصًا على أصل المعتزلة، فإن جهة الحسن والقبح هي التي تقابل بالجزاء، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان وراء الوجود، فالموجود من حيث هو موجود ليس بحسن ولا قبيح.

قال: فإذا جاز لكم إثبات صفتين هما حالتان، جاز لي إثبات حالة هي متعلق القدرة الحادثة، ومن قال: هي حالة مجهولة فبينا بقدر الإمكان جهتها، وعرفناها إيش هي؟ ومثلناها كيف هي؟

ثم إن إمام الحرمين أبا المعالي الجويني تخطّى عن هذا البيان قليلًا قال: أما نفي هذه القدرة والاستطاعة فمما يأباه العقل والحس. وأما إثبات قدرة لا أثر لها بوجه فهو كنفي القدرة أصلًا. وأما إثبات تأثير في حالة لا يفعل فهو كنفي التأثير خصوصًا والأحوال على أصلهم لا توصف بالوجود والعدم، فلا بد إذًا من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة، لا على وجه الإحداث والخلق، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار، يحس من نفسه أيضًا عدم الاستقلال، فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة. وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى

ينتهي إلى مسبب الأسباب. فهو الخالق للأسباب ومسبباتها، المستغني على الإطلاق، فإن كل سبب مهما استغنى من وجه محتاج من وجه، والبارئ تعالى هو الغني المطلق، الذي لا حاجة له ولا فقر.

وهذا الرأي إنما أخذه من الحكماء الإلهيين وأبرزه في معرض الكلام، وليس يختص نسبة السبب إلى المسبب على أصله بالفعل والقدرة، بل كل ما يوجد من الحوادث فذلك حكمه، وحينئذ يلزم القول بالطبع، وتأثير الأجسام في الأجسام إيجادًا وتأثير الطبائع في الطبائع إحداثًا، وليس ذلك مذهب الإسلاميين. كيف ورأي المحققين من الحكماء أن الجسم لا يؤثر في إيجاد الجسم؟ قالوا: الجسم لا يجوز أن يصدر عن جسم، ولا عن قوة ما في جسم، فإن الجسم مركب من مادة وصورة، فلو أثر لأثر بجهتيه -أعني: بمادته وصورته-، والمادة لها طبيعة عدمية، فلو أثرت لأثرت بمشاركة العدم، والتالي محال، فالمقدم إذن محال، فنقيضه حقٌّ؛ وهو أن الجسم وقوة ما في الجسم لا يجوز أن يؤثر في جسم.

وتخطّى من هو أشد تحققًا وأغوص تفكرًا عن الجسم وقوة ما في الجسم، إلى كل ما هو جائز بذاته، فقال: كلُّ ما هو جائز بذاته لا يجوز أن يحدث شيئًا ما؛ فإنه لو أحدث لأحدث بمشاركة الجواز، والجواز له طبيعة عدمية. فلو خلى الجائز وذاته كان عدمًا، فلو أثر الجواز بمشاركة العدم، لأدى إلى أن يؤثر العدم في الوجود، وذلك محال؛ فإذًا لا موجد على الحقيقة إلا واجب الوجود لذاته، وما سواه من الأسباب معدات لقبول الوجود، لا محدثات لحقيقة الوجود، ولهذا شرح سنذكره.

ومن العجب أن مأخذ كلام الإمام أبي المعالي إذا كان بهذه المثابة، فكيف يمكن إضافة الفعل إلى الأسباب حقيقة[(١)]؟

وقال شيخ الإسلام: أما الجبرية -كجهم وأصحابه- فعندهم أنه ليس للعبد قدرة ألبتة، والأشعري يوافقهم في المعنى فيقول ليس للعبد قدرة مؤثرة، ويثبت شيئا يسميه قدرة يجعل وجوده كعدمه، وكذلك الكسب الذي يثبته[(٢)]

وقال: إن الأشعرية وبعض المثبتين للقدر وافقوا الجهم بن صفوان في أصل قوله في الجبر، وإن نازعوه في بعض ذلك نزاعًا لفظيًّا أتوا بما لا يعقل[(٣)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: والذين قالوا إن الفاعل لا يقوم به الفعل، وقالوا مع ذلك إن الله فاعل

---

(١) الملل والنحل (١/٩٦- ٩٩). الإنصاف للباقلاني ص ٣٩- ٤٤ وكتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي ص١٦- ٢٧

(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٩٧، ٣٩٨).

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٦٣)، (٢/ ٣٠١).

أفعال العباد كأبي الحسن وغيره، وان العبد لم يفعل شيئا، وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه، ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات أفعال، مع أن الأفعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه، فلزمهم أن يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم أنه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره، فكان هذا تناقضا منهم تسلطت به عليهم المعتزلة، ولما قرروا ما هو من أصول أهل السنة وهو أن المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعادل فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد

وكان حقيقة قول أولئك نفي فعل الرب ونفى فعل العبد فتسلطت عليهم المعتزلة في مسألة الكلام والقدر تسلطا بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة[1]

وقال: والمعتزلة استطالوا على الأشعرية ونحوهم من المثبتين للصفات والقدر بما وافقوهم عليه من نفي الأفعال القائمة بالله تعالى فنقضوا بذلك أصلهم الذي استدلوا به عليهم في أن كلام الله غير مخلوق، وأن الكلام وغيره من الأمور إذا خلق بمحل عاد حكمه على ذلك المحل.

واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلًا لله رب العالمين دون العبد، ثم أثبتوا كسبًا لا حقيقة له؛ فأنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ويقولون: ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري.

واضطروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرد الاقتران العادي، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم ولازمه، ويقع بين المقدر والقدرة، فليس جعل هذا مؤثرًا في هذا بأولى من العكس، ويقع بين المعلول وعلته المنفصلة عنه مع أن قدرة العباد عنده لا تتجاوز محلها.

ولهذا فر القاضي أبو بكر إلى قول، وأبو إسحاق الإسفراييني إلى قول، وأبو المعالي الجويني إلى قول؛ لما رأوا ما في هذا القول من التناقض، والكلام على هذا مبسوط في موضعه والمقصود هنا التنبيه[2]

وتقدم مزيد بيان عند الكلام عن مقالة الجبرية الكسبية.

- قولهم في الاستطاعة

الاستطاعة عندهم تكون مع الفعل.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: الاستطاعة عنده عرض، والعرض لا يبقى زمانين، ففي حال التكليف لا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٨، ١٢٩)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩٦- ٢٩٨).

يكون المكلف قط قادرًا؛ لأن المكلف من يقدر على إحداث ما أمر به، فأما أن يجوز ذلك في حق من لا قدرة له أصلًا على الفعل فمحال، وإن وجد ذلك منصوصًا عليه في كتابه[١].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: قد تكلم الناس من أصحابنا وغيرهم في استطاعة العبد هل هي مع فعله أم قبله؟ وجعلوها قولين متناقضين؛ فقوم جعلوا الاستطاعة مع الفعل فقط، وهذا هو الغالب على مثبتة القدر المتكلمين من أصحاب الأشعري ومن وافقهم من أصحابنا وغيرهم.

وقوم جعلوا الاستطاعة قبل الفعل، وهو الغالب على النفاة من المعتزلة والشيعة، وجعل الأولون القدرة لا تصلح إلا لفعل واحد؛ إذ هي مقارنة له لا تنفك عنه، وجعل الآخرون الاستطاعة لا تكون إلا صالحة للضدين، ولا تقارن الفعل أبدًا، والقدرية أكثر انحرافًا؛ فإنهم يمنعون أن يكون مع الفعل قدرة بحال، فإن عندهم أن المؤثر لا بد أن يتقدم على الأثر لا يقارنه بحال، سواء في ذلك القدرة والإرادة والأمر.

والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة: أن الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له أيضًا، وتقارنه أيضًا استطاعة أخرى لا تصلح لغيره.

فالاستطاعة نوعان: متقدمة صالحة للضدين، ومقارنة لا تكون إلا مع الفعل، فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له، وهذه هي الموجبة للفعل المحققة له.

قال الله تعالى في الأولى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج، ولما عصى أحد بترك الحج، ولا كان الحج واجبًا على أحد قبل الإحرام به، بل قبل فراغه، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغَابُن: الآية ١٦] فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط، إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦] و«الوسع» الموسوع، وهو الذي تسعه وتطيقه، فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات. وقال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ [المجَادلة: الآية ٤] والمراد به الاستطاعة المتقدمة؛ وإلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين، فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم، ولا يكون الصوم واجبًا على أحد حتى يفعله، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» ولو أريد به المقارنة فقط لكان المعنى: فأتوا منه ما فعلتم، فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه، وكذلك قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب» ولو أريد المقارن لكان المعنى

---

(١) الملل والنحل (١/٩٦).

فإن لم تفعل فتكون مخيرًا، ونظائر هذا متعددة، فإن كل أمر علق في الكتاب والسنة وجوبه بالاستطاعة وعدمه بعدمها لم يرد به المقارنة، وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها وقد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور.

وأما الاستطاعة المقارنة الموجبة فمثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: الآية ٢٠]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾ [الكهف: الآية ١٠١] فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة، إذ الأخرى لا بد منها في التكليف.

فالأولى هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس.

والثانية: هي الكونية التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل، فالأولى للكلمات الأمريات الشرعيات، والثانية للكلمات الخلقيات الكونيات، كما قال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: الآية ١٢]

وقد اختلف الناس في قدره العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده، والتحقيق أنه قد يكون قادرًا بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل، فإن الله قادر أيضًا على خلاف المعلوم والمراد، وإلا لم يكن قادرًا إلا على ما فعله وليس العبد قادرًا على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل، فإنه لا يكون إلا ما علم الله كونه وأراد كونه؛ فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكذلك قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: الآية ١١٢] إنما استفهموا عن هذه القدرة، وكذلك ظن يونس أن لن نقدر عليه أي فسر بالقدرة، كما يقال للرجل، هل تقدر أن تفعل كذا؟ أي هل تفعله؟ و هو مشهور في كلام الناس.

ولما اعتقدت القدرية أن الأولى كافية في حصول الفعل، وأن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنيًا عن الله حين الفعل، كما أن الجبرية لما اعتقدت أن الثانية موجبة للفعل وهي من غيره رأوه مجبورًا على الفعل وكلاهما خطأ قبيح؛ فإن العبد له مشيئة وهي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

فإذا كان الله قد جعل العبد مريدًا مختارًا شائيًا امتنع أن يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريدًا، وامتنع أن يكون هو الذي ابتدع لنفسه المشيئة؛ فإذا قيل هو مجبور على أن يختار مضطر إلى أن يشاء فهذا لا نظير له وليس هو المفهوم من الجبر بالاضطرار ولا يقدر على ذلك إلا الله.

ولهذا افترق القدرية والجبرية على طرفي نقيض، وكلاهما مصيب فيما أثبته دون ما نفاه، فأبو الحسين البصري ومن وافقه من القدرية يزعمون: أن العلم بأن العبد يحدث أفعاله وتصرفاته: علم ضروري وأن جحد ذلك سفسطة.

وابن الخطيب ونحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بافتقار رجحان فعل العبد على تركه إلى مرجح من غير العبد ضروري؛ لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح وكلا القولين صحيح؛ لكن دعوى استلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح؛ فإن العبد محدث لأفعاله كاسب لها، وهذا الإحداث مفتقر إلى محدث فالعبد فاعل صانع محدث، وكونه فاعلًا صانعًا محدثًا بعد أن لم يكن، لا بد له من فاعل كما قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: الآية ٢٨] فإذا شاء الاستقامة صار مستقيمًا ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: الآية ٢٩].

فما علم بالاضطرار وما دلت عليه الأدلة السمعيَّة والعقليَّة كله حق، ولهذا كان لا حول ولا قوة إلا بالله، والعبد فقير إلى الله فقرًا ذاتيًا له في ذاته وصفاته وأفعاله مع أن له ذاتًا وصفات وأفعالًا؛ فنفي أفعاله كنفي صفاته وذاته وهو جحد للحق شبيه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق أو جعل شيء منه مستغنيًا عن الله أو كائنًا بدونه جحد للحق شبيه بغلو الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٢٤] وقال إنه خلق نفسه، وإنما الحق ما عليه أهل السنة والجماعة.

وإنما الغلط في اعتقاد تناقضه بطريق التلازم، وأن ثبوت أحدهما مستلزم لنفي الآخر فهذا ليس بحق، وسببه كون العقل يزيد على المعلوم المدلول عليه ما ليس كذلك، وتلك الزيادة تناقض ما علم ودل عليه[(١)].

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في الاستطاعة.

- قولهم في تكليف ما لا يطاق

يجوزون التكليف بما لا يطاق.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: وتكليف ما لا يطاق جائز على مذهبه[(٢)].

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ومن حكى من أهل الكلام عن أهل السنة و الجماعة أنهم يقولون: إن العبد ليس قادرًا على غير ما فعل. الذي هو خلاف المعلوم فإنه مخطئ فيما نقله عنهم من نفى القدرة مطلقًا، وهو مصيب فيما نقله عنهم من نفي القدرة التي اختص بها الفاعل دون التارك، وهذا من أصول نزاعهم في جواز تكليف ما لا يطاق.

فإن من يقول الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، فالتارك لا استطاعة له بحال، يقول: إن كل من عصى الله فقد كلفه الله ما لا يطيقه، كما قد يقولون: إن جميع العباد كلفوا ما لا يطيقون،

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧١- ٣٧٦).

(٢) الملل والنحل (١/ ٩٦).

ومن يقول: إن استطاعة الفعل هي استطاعة الترك، يقول: إن العباد لم يكلفوا إلا بما هم مستوون في طاقته وقدرته واستطاعته، لا يختص الفاعل دون التارك باستطاعة خاصة، فإطلاق القول بأن العبد كلف بما لا يطيقه كإطلاق القول بأن مجبور على أفعاله -إذ سلب القدرة في المأمور نظير إثبات الجبر في المحظور- وإطلاق القول بأن العبد قادر مستطيع على خلاف معلوم الله ومقدوره.

وسلف الأمة وأئمتها ينكرون هذه الإطلاقات كلها لا سيما كل واحد من طرفي النفي والإثبات على باطل، وإن كان فيه حق أيضًا؛ بل الواجب إطلاق العبارات الحسنة وهي المأثورة التي جاءت بها النصوص والتفصيل في العبارات المجملة المشتبهة، وكذلك الواجب نظير ذلك في سائر أبواب أصول الدين أن يجعل ما يثبت بكلام الله عز وجل ورسوله وإجماع سلف الأمة هي النص المحكم، وتجعل العبارات المحدثة المتقابلة بالنفي والإثبات المشتملة في كل من الطرفين في حق وباطل من باب المجمل المشتبه المحتاج إلى تفصيل الممنوع من إطلاق طرفيه.

وقد كتبنا في غير هذا الموضع ما قاله الأوزاعي، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من الأئمة من كراهة إطلاق الجبر ومن منع إطلاق نفيه أيضًا.

وكذلك أيضًا القول بتكليف ما لا يطاق لم تطلق الأئمة فيه واحدًا من الطرفين. قال أبو بكر عبد العزيز: صاحب الخلال في «كتاب القدر» الذي في مقدمة «كتاب المقنع» له لم يبلغنا عن أبي عبد الله في هذه المسألة قول فنتبعه؛ والناس فيه قد اختلفوا فقال قائلون: بتكليف ما لا يطاق ونفاه آخرون ومنعوا منه، قال والذي عندنا فيه أن القرآن شهد بصحة ما إليه قصدناه وهو أن الله عز وجل يتعبد خلقه بما يطيقون وما لا يطيقون، ثم قال في آخر الفصل: ولعل قائلًا أن يعارض قولنا فيقول: لو جاز أن يكلف الله العبد ما لا يطيق جاز أن يكلف الأعمى صنعة الألوان، والمقعد المشي؛ ومن لا يد له البطش وما أشبه ذلك فيقال له: قد قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] هو مشيهم على وجوههم وسقط السؤال في كل ما سألوا عنه على جواب ابن عباس في المشي على الوجوه.

ثم قال: وقد أبان أبو الحسن -يعني الأشعري- فيما قدمنا ذكره عنه في هذه المعاني بما فيه كفاية، قال القاضي أبو يعلي: لما حكى كلام أبي الحسن -يعني أبا الحسن الأشعري- قد فصل بين ما يقدر على فعله لا لاستحالته فيجوز تكليفه، وما يستحيل لا يجوز، قال: وظاهر كلام أبي الحسن الأشعري الاحتمال فيما يستحيل وجوده هل يصح تكليفه أم لا؟ قال: والصحيح ما ذكرناه من التفصيل، وهو أن ما لا يقدر على فعله لاستحالته كالأمر بالمحال، وكالجمع بين الضدين وجعل المحدث قديمًا والقديم محدثًا، أو كان مما لا يقدر عليه للعجز عنه كالمقعد الذي لا يقدر على القيام والأخرس الذي لا يقدر على الكلام، فهذا الوجه لا يجوز تكليفه.

والوجه الثاني: ما لا يقدر على فعله لا لاستحالته ولا للعجز عنه لكن لتركه والاشتغال بضده؛ كالكافر كلفه الإيمان في حال كفره؛ لأنه غير عاجز عنه ولا مستحيل منه، فهو كالذي لا يقدر على

العلم لاشتغاله بالمعيشة، فهذا الذي ذكره القاضي أبو يعلي هو قول جمهور الناس من الفقهاء والمتكلمين وهو قول جمهور أصحاب الإمام أحمد، وذكر القاضي المنصوص عن الأشعري -فيما ذكره القاضي عنه- و قد ذكر أن أبا بكر عبدالعزيز، ذكر كلام أبي الحسن في ذلك كما يذكر المصنف كلام أبي الحسن في ذلك، وكما يذكر المصنف كلام موافقيه وأصحابه؛ لأنه كان من جملة المتكلمين المتسبين إلى الإمام أحمد وسائر أئمة السنة كما ذكر ذلك في كتبه.

وأما أتباع أبي الحسن فمنهم من وافق نفس الذي ذكره القاضي كأبي علي بن شاذان وأتباعه، ومنهم من خالفه كأبي محمد اللبان والرازي وطوائف، قالوا: إنه يجوز تكليف الممتنع كالجمع بين الضدين والمعجوز عنه.

والقول الثالث: الذي ذكره أبو بكر عبدالعزيز وهو أنه يجوز تكليف كل من يمكن وإن كان ممتنعًا في العادة كالمشي على الوجوه، ونقط الأعمى المصحف.

وذكر أبو عبد الله بن حامد شيخ القاضي أبي يعلى في أصوله قولي التفريق والإطلاق عن أصحاب أحمد فقال:

فصل: لأنه ما وجد في الأمر ولو وجد بالفكر وهذا مثل ما لم ترد الشريعة به كأمر الأطفال ومن لا عقل له والأعمى البصر، والفقير النفقة، والزمن أن يسير إلى مكة فكل ذلك ما جاءت به الشريعة، ولو جاءت به لزم الإيمان به والتصديق فلا يقيد الكلام فيه، قال: وذهبت طائفة من أصحابنا إلى إطلاق الاسم من جواز تكليف ما لا يطاق من زمن وأعمى وغيرهم، وهو مذهب جهم وبرغوث.

والوجه الثاني سلامة الآلة، لكن عدم الطاقة لعدم التوفيق والقبول وذلك يجوز وجهًا واحدًا في معنى هذا أنه يجوز التكليف لمن قدر علم الله فيه أنه لا يفعله، وأبى ذلك المعتزلة والدليل عليه قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥] وقوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] الآيات. فأمر قد سبق من علمه أنه لا يقع منه فعله، فكان الأمر متوجهًا إلى ما قد سبق من علم الله أنه لا يطيقه.

القول الثاني منقول عن أبي الحسن أيضًا وزعم أبو المعالي الجويني أنه الذي مال إليه أكثر أجوبة أبي الحسن وأنه الذي ارتضاه كثير من أصحابه.

وقد توقف أبو الحسن عن الجواب في هذه المسألة في الموجز، وكان أبو المعالي يختاره أولًا، ثم رجع عنه وقطع أن تكليف ما لا يطاق محال، وهذا القول الأول قول ابن عقيل، وأبي الفرج بن الجوزي، وأبي عبد الله الرازي وغيره، وهذا الثاني هو مذهب أبي إسحاق الإسفراييني، وأبي بكر بن فورك، وأبي القاسم الأشعري، والغزالي، وادعى أبو إسحاق الإسفراييني أنه مذهب شيخه أبي الحسن، وأنه مذهب أهل الحق، فأما القاضي أبو بكر فقد قال بجوازه في بعض كتبه، وأكثر كلامه على التفريق بين تكليف العاجز، وبين تكليف القادر على الترك، كما هو قول الجمهور.

وفي المسألة قول ثالث: وهو الذي ذكره أبو بكر عبد العزيز أنه يجوز تكليف كل ما يمكن وإن كان ممتنعًا في العادة كالمشي على الوجه ونقط الأعمى المصحف دون الممتنع كالجمع بين الضدين.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن النزاع فيها في أصلين:

أحدهما: التكليف الواقع الذي اتفق المسلمون على وقوعه في الشريعة وهو أمر العباد كلهم بما أمرهم الله به ورسوله من الإيمان به وتقواه هل يسمى هذا أو شيء منه تكليف ما لا يطاق؟ فمن قال: بأن القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول: إن العاصي كلف ما لا يطيقه، ويقول: إن كل أحد كلف حين كان غير مطيق؛ وكذلك من زعم أن تقدم العلم والكتاب بالشيء يمنع أن يقدر على خلافه، قال: إن كلف خلاف المعلوم فقد كلف ما لا يطيقه، وكذلك من يقول: إن العرض لا يبقى زمانين، يقول: إن الاستطاعة المتقدمة لا تبقى إلى حين الفعل.

وهذا في الحقيقة ليس نزاعًا في الأفعال التي أمر الله بها ونهى عنها، هل يتناولها التكليف؟ وإنما هو نزاع في كونها غير مقدورة للعبد التارك لها وغير مقدورة قبل فعلها، وقد قدمنا أن القدرة نوعان وأن من أطلق القول بأن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فإطلاقه مخالف لما ورد في الكتاب والسنة، وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها -كإطلاق القول بالجبر- وإن كان قد أطلق ذلك طوائف من المنتسبين إلى السنة في ردهم على القدرية من المنتسبين إلى الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة كأبي الحسن، وأبي بكر عبد العزيز، وأبي عبد الله بن حامد، والقاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي، وأبي الحسن بن الزاغوني، وغيرهم؛ فقد منع من هذا الإطلاق جمهور أهل العلم كأبي العباس بن سريج، وأبي العباس القلانسي، وغيرهما، ونقل ذلك عن أبي حنيفة نفسه، وهو مقتضى قول جميع الأمة.

و لهذا امتنع أبو إسحاق بن شاقلا من إطلاق ذلك، وحكى فيه القولين: فقال -فيما ذكره عنه القاضي أبو يعلى- الاستطاعة مع الفعل أو قبله؟ حجة من قال: إن الصلاة والحج والجهاد لا يجوز أن يأمر به غير مستطيع وحجة من قال: إن الفعل خلق من خلق الله عز وجل، فإذا خلق فيه فعلا فعله.

وهذا كما إن من قال: إنه ليس للعبد إلا قدرة واحدة يقدر بها على الفعل والترك، وأنه مستغنٍ في حال الفعل عن معونة من الله تعالى يفعل بها، وسوى بين نعمته على المؤمن والكافر والبر والفاجر، فهو مبطل وهم من القدرية الذين حاد منهم في الأيام المشهورة حيث كان قولهم: إن العبد لا يفتقر إلى الله تعالى حال الفعل بالبر عما وجد قبل الفعل، وأنه ليس لله تعالى نعمة أنعم بها على من آمن به وأطاعه أكبر من نعمته على من كفر به وعصاه، فهذا القول خطأ قطعًا، ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على تضليل صاحب هذا القول.

ثم النزاع بينهم بعد ذلك في هذه الأمور كثير منه لفظي ومنه ما هو اعتباري، كتنازعهم في أن العرض هل يبقى أم لا يبقى، وبَنَوا على ذلك بقاء الاستطاعة، ولكن أحسن الألفاظ والاعتبارات ما يطابق الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة و أئمتها والواجب أن يجعل نصوص الكتاب والسنة

هي الأصل المعتمد الذي يجب اتباعه ويسوغ إطلاقه، ويجعل الألفاظ حتى تنازع فيها الناس نفيًا أو إثباتًا موقوفة على الاستفسار والتفصيل، ويمنع من إطلاق نفي ما أثبته الله ورسوله، وإطلاق إثبات ما نفى الله ورسوله.

والأصل الثاني فيما اتفق الناس على أنه غير مقدور للعبد، وتنازعوا في جواز تكليفه، وهو نوعان: ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران ونحو ذلك، و ما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، فهذا في جوازه عقلًا ثلاثة أقوال كما تقدم، وأما وقوعه في الشريعة وجوازه شرعًا فقد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع في الشريعة وقد حكى انعقاد الإجماع على ذلك غير واحد منهم أبو الحسن بن الزاغوني فقال:

فصل: تكليف ما لا يطاق وهو على ضربين:

أحدهما: تكليف ما لا يطاق لوجود ضده من العجز، وذلك مثل أن يكلف المقعد القيام، والأعمى الخط ونقط الكتاب، وأمثال ذلك؛ فهذا مما لا يجوز تكليفه وهو مما انعقد الإجماع عليه وذلك لأن عدم الطاقة فيه ملحقة بالممتنع والمستحيل، وذلك يوجب خروجه عن المقدور فامتنع تكليف مثله.

والثاني: تكليف ما لا يطاق لا لوجود ضده من العجز مثل أن يكلف الكافر الذي سبق في علمه أنه لا يستحب التكليف كفرعون وأبي جهل وأمثالهم، فهذا جائز وذهبت المعتزلة إلى أن تكليف ما لا يطاق غير جائز. قال وهذه المسألة كالأصل لهذه.

قلت: وهذا الإجماع هو إجماع الفقهاء وأهل العلم؛ فإنه قد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن تكليف الممتنع لذاته واقع في الشريعة وهذا قول الرازي وطائفة قبله وزعموا أن تكليف أبي لهب وغيره من هذا الباب حيث كلف أن يصدق بالأخبار التي من جملتها الإخبار بأنه لا يؤمن، وهذا غلط، فأنه من أخبر الله أنه لا يؤمن وأنه يصلى النار بعد دعاء النبي ﷺ له إلى الإيمان فقد حقت عليه كلمة العذاب: كالذي يعاين الملائكة وقت الموت لم يبق بعد هذا مخاطبًا من جهة الرسول بهذين الأمرين المتناقضين.

و كذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتم بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ [القَلَم: الآية ٤٢] فإنه يناقض هذا الإجماع ومضمون الإجماع نفي وقوع ذلك في الشريعة وأيضًا فإن مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون يعاقبون على ترك العبادة في حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين لا يشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والإبهام[١]

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٣- ٣٠٢)، (٨/ ٤٦٩- ٤٧٤)، (٣/ ٣١٨- ٣٢٢)، (٨/ ١٣٠).

قولهم في قدرة الله على الظلم

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: إن الظلم هو الممتنع لذاته وهو المحال لذاته.

وإن كان ما يمكن أن يكون فالرب قادر عليه، وكل ما كان قادرًا عليه لا يكون ظالمًا، وهذا قول الجهم والأشعري وموافقيهما، وقول كثير من السلف والخلف، أهل السنة والحديث[١]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية في قدرة الله على الظلم.

- قولهم في قدرة الله وقدرة العبد

يقولون: يقدر الله على ما هو منفصل عنه فقط، والعبد يقدر على ما يقوم بذاته فقط.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وقيل: بل الرب تعالى لا يقدر إلا على المخلوق المنفصل، لا يقوم به فعل يقدر عليه، والعبد لا يقدر إلا على ما يقوم بذاته، لا يقدر على شيء منفصل عنه، وهذا قول الأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني، وغيرهم[٢]

وقال: ومنهم من يقول قدرة الرب تتعلق بالمنفصل، وأما قدرة العبد فلا تتعلق إلا بفعل في محلها كالأشعرية[٣]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في قدرة الله وقدرة العبد، وعند قول النَّجَّارِيَّة في فعل الإنسان في نفسه وفي غيره (التولد).

- قولهم في الحكمة والتعليل

ينفون حكمة الله تعالى في خلقه وفعله.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: قول من نفى الحكمة، وقالوا هذا يفضي إلى الحاجة؛ فقالوا: يفعل ما يشاء لا لحكمة، فأثبتوا له القدرة والمشيئة، وأنه يفعل ما يشاء، وهذا تعظيم، ونفوا الحكمة لظنهم أنها تستلزم الحاجة، وهذا قول الأشعري وأصحابه، ومن وافقهم: كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني والجويني والباجي ونحوهم، وهذا القول في الأصل قول جهم بن صفوان ومن اتبعه من المجبرة[٤]

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٣٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧، ٣٨).

وقال: ومن قال إنه لا يخلق شيئًا بحكمة، ولا يأمر بشيء بحكمة؛ فإنه لا يثبت إلا محض الإرادة التي ترجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح، كما هو أصل ابن كلاب، ومن تابعه، وهو أصل قولي القدرية والجهمية[(١)]

وقال: قول من يقول خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لداعٍ ولا باعث، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة، وهذا قول كثير ممن يثبت القدر، وينتسب إلى السنة من أهل الكلام والفقه وغيرهم. وقد قال بهذا طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وهو قول الأشعري وأصحابه، وقول كثير من نفاة القياس في الفقه الظاهرية كابن حزم وأمثاله[(٢)]

وقال: وأما نفاة الحكمة كالأشعري وأتباعه كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهم، فهؤلاء أصلهم أن الله لا يخلق شيئًا لشيء، فلم يخلق أحدًا لا لعبادة ولا لغيرها، وعندهم ليس في القرآن لام كي لكن قد يقولون في القرآن لام العاقبة، كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: الآية ٨] وكذلك يقولون: في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] يعنون كان عاقبة هؤلاء جهنم، وعاقبة المؤمنين العبادة من غير أن يكون الخالق قصد أن يخلقهم لا لهذا ولا لهذا، ولكن أراد خلق ما خلقه، لا لشيء آخر فهذا قولهم[(٣)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وهو ضعيف لوجوه:

أحدها: أن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز؛ فالجاهل كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: الآية ٨] لم يعلم فرعون بهذه العاقبة، و العاجز كقولهم: لدوا للموت، وابنوا للخراب، فإنهم يعلمون هذه العاقبة، لكنهم عاجزون عن دفعها، والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل العاجز.

الثاني: أن الله أراد هذه الغاية بالاتفاق، فالعبادة التي خلق الخلق لأجلها هي مرادة له بالاتفاق[(٤)]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة والجهمية في الحكمة والتعليل.

- قولهم في التحسين والتقبيح

يقولون بالتحسين والتقبيح الوارد بالشرع فقط.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤، ٣٧٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤، ٤٥)، (٨/ ٨٦- ٨٨)، (٨/ ٣٧٧- ٣٨١).

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: قال: والواجبات كلُّها سمعية، والعقل لا يوجب شيئًا، ولا يقتضي تحسينًا ولا تقبيحًا، فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل، وبالسمع تجب قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وكذلك شكر المنعم، وإثابة المطيع، وعقاب العاصي، يجب بالسمع دون العقل، لا يجب على الله تعالى شيء ما بالعقل، لا الصلاح، ولا الأصلح، ولا اللطف، وكل ما يقتضيه العقل من جهة الحكمة الموجبة فيقتضي نقيضه من وجه آخر[(١)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وفيها دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب، خلافًا لما يقوله المجبرة أتباع جهم: أنه تعالى يعذب بلا ذنب، وقد تبعه طائفة تنسب إلى السنة كالأشعري وغيره، وهو قول القاضي أبي يعلى وغيره، وقالوا: إن الله يجوز أن يعذب الأطفال في الآخرة عذابًا لا نهاية له من غير ذنب فعلوه، وهؤلاء يحتجون بالآية على إبطال قول من يقول: إن العقل يوجب عذاب من لم يفعل، والآية حجة عليهم أيضًا حيث يجوزون العذاب بلا ذنب؛ فهي حجة على الطائفتين.

ولها نظائر في القرآن كقوله: وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولًا يتلو عليم آياتنا، وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾.

وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئًا وقبيحًا وشرًا؛ لكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول. وهذا قول الجمهور.

وقيل: إنه لا يكون قبيحًا إلا بالنهي، وهو قول من لا يثبت حسنًا ولا قبيحًا إلا الأمر والنهي، كقوله جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة، وأصحاب مالك والشافعي وأحمد: كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم، والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئًا قبيحًا، وكان شرًا لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول؛

ولهذا كان للناس في الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك «ثلاثة أقوال».

قيل: إن قبحهما معلوم بالعقل، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك في الآخرة، وإن لم يأتهم الرسول، كما يقوله المعتزلة، وكثير من أصحاب أبي حنيفة، وحكوه عن أبي حنيفة نفسه، وهو قول أبي الخطاب، وغيره.

---

(١) الملل والنحل (١/١٠١، ١٠٢).

وقيل: لا قبح، ولا حسن، ولا شر فيهما قبل الخطاب، وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل؛ والحسن ما قيل فيه افعل، أو ما أذن في فعله كما تقوله الأشعرية، ومن وافقهم من الطوائف الثلاثة.

وقيل: إن ذلك سيء، وشر، وقبيح، قبل مجيء الرسول؛ لكن العقوبة إنما تستحق بمجيء الرسول، وعلى هذا عامة السلف، وأكثر المسلمين، وعليه يدل الكتاب والسنة، فإن فيهما بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح، وسيء قبل الرسل، وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول، وفي الصحيح أن حذيفة قال: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر. قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها.

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول. كقوله لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٥﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى، وحين كان صغيرًا قبل أن يأتيه برسالة، أنه كان طاغيًا مفسدًا.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾. وهو فرعون، فهو إذ ذاك عدو لله، ولم يكن جاءته الرسالة بعد.

وأيضًا أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه، فلو كان كالمباح المستوي الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين، ما أمر بالاستغفار والتوبة، فعلم أنه كان من السيئات القبيحة، لكن الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

فدل على أنها كانت ذنوبًا قبل إنذاره إياهم.

وقال عن هود: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ

ﭐسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فأخبر في أول خطابه أنهم مفترون بأكثر الذي كانوا عليه، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧١]

وكذلك قال صالح: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٦١]

وكذلك قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٠]، فدل على أنها كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم بخلاف قول من يقول: ما كانت فاحشة، ولا قبيحة، ولا سيئة، حتى نهاهم عنها؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٩] وهذا خطاب لمن يعرفون قبح ما يفعلون، ولكن أنذرهم بالعذاب.

وكذلك قول شعيب: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هُود: الآية ٨٥]. بين أن ما فعلوه كان بخسًا لهم أشياءهم، وأنهم كانوا عاثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم؛ بخلاف قول المجبرة أن ظلمهم ما كان سيئة، إلا لما نهاهم، وأنه قبل النهي كان بمنزلة سائر الأفعال من الأكل والشرب، وغير ذلك، كما يقولون في سائر ما نهت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش.

وهكذا إبراهيم الخليل قال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

فهذا توبيخ على فعله قبل النهي، وقال أيضًا: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾. فأخبر أنهم يخلقون إفكًا قبل النهي.

وكذلك قول الخليل لقومه أيضًا: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي، وقبل إنكاره عليهم، ولهذا استفهم استفهام منكر، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: وخلق ما تنحتون. فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم؟ وتَدعون رب العالمين.

فلولا أن حسن التوحيد، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر، معلوم بالعقل، لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئًا يذمون عليه، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم، وإنما كان قبيحًا بالنهي، ومعنى قبحه كونه منهيًّا عنه، ولا لمعنى فيه، كما تقوله المجبرة.

وأيضًا ففي القرآن في مواضع كثيرة يبين لهم قبح ما هم عليه من الشرك وغيره بالأدلة العقليّة، ويضرب لهم الأمثال، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

﴿لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾. وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية ٣١] وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٨٩] فهذا يقتضي أن اعترافهم بأن الله هو الخالق يوجب انتهاءهم عن عبادتها، وأن عبادتها من القبائح المذمومة؛ لكن هؤلاء يظنون أن الشرك هو اعتقاد أن ثم خالق آخر، وهذا باطل؛ بل الشرك عبادة غير الله، وإن اعترف المشرك بأنه مخلوق.

وقوله: إنه كله لله، كذب مفترى وإن قال: إنه مخلوق،

ومثل هذا كثير في القرآن. كقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وهذا في جملة بعد جملة يقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: الآية ٦٠] إنكارًا عليهم أن يعبدوا غير الله، ويتخذوه إلهًا مع اعترافهم بأن هذا لم يفعله إله غير الله، وإنما فعله هو وحده.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: الآية ٦٠] جواب الاستفهام؛ أي إله مع الله موجود وهذا غلط، فإنهم يجعلون مع الله آلهة ويشهدون بذلك، لكن ما كانوا يقولون: إنهم فعلوا ذلك، والتقرير إنما يكون لما يقرون به، وهم مقرون بأنهم لم يفعلوا، لا يقرون بأنه لم يكن معه إله قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩]

وقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٤] وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ [النساء: الآية ١٧] . وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: الآية ١١٩]

فهذا وإن كان قال الصحابة والتابعون إن كل عاصٍ فهو جاهل كما قد بسط في موضع آخر، فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضًا، فدل على أنه يكون عاملًا سوءًا وإن كان لم يسمع الخطاب المبين المنهي عنه، وأنه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه، وإن كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب، وقيام الحجة[1]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في التحسين والتقبيح.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦٧٦- ٦٨٤)، (٨/٤٢٨- ٤٣٦).

- قولهم في حق المخلوق على الخالق، والثواب والتفضل

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: وأصل التكليف لم يكن واجبًا على الله، إذ لم يرجع إليه نفع، ولا اندفع به عنه ضر، وهو قادر على مجازاة العبيد ثوابًا وعقابًا، وقادر على الإفضال عليهم ابتداءً تكرمًا وتفضلًا. والثواب، والنعيم، واللطف كلُّه منه فضل، والعقاب والعذاب كله عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون(١).

قال شيخ الإسلام: ومن الناس من يقول: لا حق للمخلوق على الخالق بحال، لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعري وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة(٢).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك في قول المعتزلة في حق المخلوق على الخالق والثواب والتفضل.

- قولهم في التوفيق والخذلان

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: والإيمان والطاعة بتوفيق الله، والكفر والمعصية بخذلانه. والتوفيق عنده: خلق القدرة على الطاعة، والخذلان عنده: خلق القدرة على المعصية. وعند بعض أصحابه: تيسير أسباب الخير هو التوفيق، وبضده الخذلان(٣).

- قولهم في الإيمان

الإيمان عندهم هو التصديق بالقلب فقط.

أقوال العلماء

قال ابن حزم: إن جهمًا والأشعري يقولون: إنَّ الإيمان عقد بالقلب فقط، وإن أظهر الكفر والتثليث بلسانه، وعبد الصليب في دار الإسلام بلا تقية(٤).

وقال: الطائفة القائلة: إن الإيمان عقد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان، أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، وولي لله عز وجل، من أهل الجنة، وهذا قول أبي محرز جهم بن صفوان السمرقندي مولى بني راسب كاتب الحارث بن سريج

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢١٣).

(٣) الملل والنحل (١/ ١٠٢).

(٤) الفصل (٢/ ٨٧، ٨٨).

التميمي أيام قيامه على نصرين سيار بخراسان، وقول أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي اليسر الأشعري البصري وأصحابهما فأما الجهمية فبخراسان، وأما الأشعرية فكانوا ببغداد والبصرة، ثم قامت له سوق بصقلية والقيروان وبالأندلس، ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين[١]

وقال الشهرستاني: قال: الإيمان هو التصديق بالجنان، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه. فمن صدق بالقلب، أي: أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقًا لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب -صح إيمانه، حتى لو مات عليه في الحال كان مؤمنًا ناجيًا، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك[٢]

وقال شيخ الإسلام: اعتقد جهم والصالحي والأشعري -في المشهور من قوليه- وأكثر أتباعه أن الإيمان مجرد العلم[٣]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الإيمان.

- قولهم في الوعيد

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه إلى الله تعالى، إما أن يغفر له برحمته، وإما أن يشفع فيه النبي ﷺ إذ قال: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه، ثم يدخله الجنة برحمته. ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار، لما ورد به السمع بالإخراج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

قال: ولو تاب فلا أقول بأنه يجب على الله تعالى قبول توبته بحكم العقل؛ إذ هو الموجب، فلا يجب عليه شيء، بل ورد السمع بقبول توبة التائبين، وإجابة دعوة المضطرين، وهو المالك في خلقه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفًا، ولو أدخلهم النار لم يكن جورًا، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف، أو وضع الشيء في غير موضعه، وهو المالك المطلق فلا يتصور منه ظلم، ولا ينسب إليه جور[٤]

وقال شيخ الإسلام: وكثير من المرجئة والجهمية من يقف في الوعيد فلا يجزم بنفوذ الوعيد في حق أحد من أرباب الكبائر كما قال ذلك من قاله من مرجئة الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره[٥]

---

(١) الفصل (٤/ ١٥٥)، طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٩٠).
(٢) الملل والنحل (١/ ١٠١).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٩٤).
(٤) الملل والنحل (١/ ١٠١).
(٥) الأصفهانية ص(١٨٢).

وقال: المرجئة الواقفة الذين يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحدٌ، أم لا؟ كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره[١]

وقال: الواقفية الذين يقولون: لا ندري هل يدخل النار أحد من أهل القبلة أم لا؟ وهم طائفة من الأشعرية[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الوعيد.

- قولهم في الجسم والجوهر الفرد

أكثرهم على أن الجسم مركب من الجواهر الفردة، وأن الجوهر الفرد هو الجزء الذي لا يتجزء الذي يتناهى، ويجعلون إثبات الصانع والمعاد مبنيًّا عليه.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: قال -أي الرازي- في أكبر كتبه الكلامية الذي سماه نهاية العقول في الأصل السابع عشر: اعلم أن معظم الكلام في المعاد إنما يكون مع الفلاسفة، ولهم أصول يفرعون شبههم عليها؛ فيجب علينا إيراد تلك الأصول أولًا ثم الخوض بعدها في المقصود فلا جرم رتبنا الكلام في هذا الأصل على أقسام ثلاثة القسم الأول في المقدمات وفيه ثمان مسائل.

المسألة الأولى: في الجزء الذي لا يتجزأ: لا شك في أن الأجسام التي شاهدناها قابلة للانقسامات والانقسامات التي يمكن حصولها فيها إما أن تكون متناهية، أو لا تكون، فيخرج من هذا القسم أقسام أربعة:

أولها: أن تكون الانقسامات حاصلة، وتكون متناهية.

وثانيها: أن تكون حاصلة، وتكون غير متناهية.

وثالثها: ألا تكون حاصلة ولكن ما يمكن حصوله منها تكون متناهية.

ورابعها: أن تكون حاصلة، ولكن ما يمكن حصوله منها تكون غير متناهية.

والأول مذهب جمهور المتكلمين، والثاني هو مذهب النظام، والثالث هو مذهب بعض المتأخرين، والرابع هو مذهب الفلاسفة؛ فتخلص من هذا أن الخلاف بيننا وبين الفلاسفة في هذه المسألة يقع في مقامين:

أحدهما: أن الجسم مع كونه قابلًا للانقسام هل يعقل أن يكون واحدًا.

ثانيهما: أنه بتقدير أن يكون واحدًا هل يعقل أن يكون قابلًا للانقسامات غير المتناهية.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢، ٤٦٣)

وأعجب من هذا أنهم يجعلون إثبات الجوهر الفرد دين المسلمين حتى يعد منكره خارجًا عن الدين كما قال أبو المعالي وذووه: اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهى في تجَزِّيها وانقسامها حتى تصير أفرادًا وكل جزء لا يتجزأ، ولا ينقسم، وليس له طرف واحد وجزء شائع، ولا يتميز، وإلى هذا صار المتعمقون في الهندسة وعبروا عن الجزء النقطة فقالوا: النقطة شيء لا ينقسم، وصار الأكثرون من الفلاسفة إلى أن الأجسام لا تتناهى في تجزيها وانقسامها، وإلى هذا صار النظام من أهل الملة، ثم اعترفوا بأنه تنتهي قسمتها بالفعل ولا تنتهي قسمتها بالقوة، ويعنون بالقوة صلاحية الجزء للانقسام.

والعجب أنهم اتفقوا على أن الأجرام متناهية الحدود والأقطار، منقطعة الأطراف والأكتاف، وكذلك على كل جملة ذات مساحة؛ فإن لها غايات ومنقطعات بالجهات، ثم قضوا بأنها تنقسم أجزاء بلا نهاية، والجملة المحدودة كيف تنقسم أجزاء لا تتناهى ولا يحاط بها[(١)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: الكلام في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنا نعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين لم يبنوا شيئًا من أمر الدين على ثبوت الجوهر الفرد ولا انتفائه، وليس المراد بذلك أنهم لم ينطقوا بهذا اللفظ فإنه قد تجدد بعدهم ألفاظ اصطلاحية يعبر بها عما دل عليه كلامهم في الجملة، وذلك بمنزلة تنوع اللغات وتركيب الألفاظ المفردات، وإنما المقصود أن المعنى الذي يقصده المثبتة والنفاة بلفظ الجوهر الفرد لم يبن عليها أحد من سلف الأمة وأئمتها مسألة واحدة من مسائل الدين، ولا ربطوا بذلك حكمًا علميًا ولا عمليًا؛ فدعوى المدعى انبناء أصل الإيمان بالله واليوم الآخر على ذلك يضاهي دعوى المدعي أن ما بينوه من الإيمان بالله واليوم الآخر ليس هو على ما بينوه بل إما أنهم ما كانوا يعلمون الحق أو يجوزوا الكذب في هذا الباب لمصلحة الجمهور كما يقول نحو ذلك من يقوله من المنافقين من المتفلسفة والقرامطة ونحوهم من الباطنية؛ فإنهم إذا أثبتوا من أصول الدين ما يعلم بالاضطرار أنه ليس من أصول الدين لزم قطعًا تغيير الدين وتبديله، وبهذا زاد أهل هذا الفن في الدين ونقصوا منه علمًا وعملًا، وإذا كان كذلك لم يكن الخوض في هذه المسألة مما ينى الدين عليه بل مسألة من مسائل الأمور الطبيعية كالقول في غيرها من أحكام الأجسام الكلية

وأيضًا؛ فإنه أطبق أئمة الإسلام على ذم من بنى دينه على الكلام في الجواهر والأعراض، ثم هؤلاء الذين ادعوا توقف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر على ثبوته قد شكوا فيه وقد نفوه في آخر عمرهم كإمام المتأخرين من المعتزلة أبي الحسين البصري، وإمام المتأخرين من الأشعرية أبي المعالي الجويني، وإمام المتأخرين من الفلاسفة والمتكلمين أبي عبد الله الرازي؛ فإنه في كتابه بعد أن بين

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٨١، ٢٨٢)، در التعارض (٧/ ٢٢١، ٢٣٢- ٢٣٤).

توقف المعاد على ثبوته وذكر ذلك غير مرة في أثناء مناظرته للفلاسفة قال في المسألة لما أورد حجج نفاة الجوهر الفرد فقال: وأما المعارضات التي ذكروها واعلم أنا نميل إلى التوقف في هذه المسألة بسبب تعارض الأدلة؛ فإن إمام الحرمين صرح في كتاب التلخيص في أصول الفقه أن هذه المسألة من محارات العقول، وأبو الحسين البصري هو أحذق المعتزلة توقف فيها فنحن أيضًا نختار التوقف فأي ضلال في الدين وخذلان له أعظم من مثل هذا.

الوجه الثاني: دعواهم أن هذا قول المسلمين أو قول جمهور متكلمي المسلمين، ومن المعلوم أن هذا إنما قاله أبو الهذيل العلاف ومن اتبعه من متكلمي المعتزلة والذين أخذوا ذلك عنهم، وقد نفى الجوهر الفرد من أئمة المتكلمين من ليسوا دون من أثبته بل الأئمة فيهم أكثر من الأئمة في أولئك؛ فنفاه حسين النجار وأصحابه كأبي عيسى برغوث ونحوه، وضرار بن عمرو وأصحابه كحفص الفرد ونحوه، ونفاه أيضًا هشام بن الحكم وأتباعه وهو المقابل لأبي الهذيل؛ فإنهما متقابلان في النفي والإثبات ونفته الكُلَّابِيَّة أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وذووه، ونفاه أيضًا طائفة من الكَرَّامِيَّة كمحمد بن صابر، ونفاه ابن الراوندي وليس نفي هؤلاء موافقة منهم لا للفلاسفة ولا للنظام بل قول النظام ظاهر الفساد وكذلك قول الفلاسفة أيضًا وأكثر هؤلاء الذين ذكرناهم من النَّجَّارِيَّة والضَرَارِيَّة والكُلَّابِيَّة والكَرَّامِيَّة وغيرهم لا يقولون في ذلك بقول النظام والفلاسفة، ولا يقولون بإثباته؛ وذلك أن دعوى الفلاسفة قبول الأجسام والحركات والأزمنة للانقسام إلى غير نهاية باطل كما ذكره المثبتون، وكذلك قول مثبتيه باطل بما ذكره نفاته من أنه لا بد من انقسامه حتى إن أبا المعالي وغيره اعترفوا بأنه غير محسوس ومن تدبر أدلة الفلاسفة القائلين بما لا يتناهى من الانقسام القائلين بوجود الجزء الذي لا يقبل الانقسام وجد أدلة كل واحدة من الطائفتين تبطل الأخرى.

والتحقيق أن كلا المذهبين باطل والصواب ما قاله من قاله من الطائفة الثالثة المخالفة للطائفتين أن الأجسام إذا تصغرت أجزاؤها؛ فإنها تستحيل كما هو موجود في أجزاء الماء إذا تصغر؛ فإنه يستحيل هواء أو ترابًا فلا يبقى موجود ممتنع عن القسمة كما يقوله المثبتون له، فإن هذا باطل بما ذكره النفاة من أنه لا بد أن يتميز جانب له عن جانب، ولا يكون قابلًا للقسمة إلى غير نهاية؛ فإن هذا أبطل من الأول بل يقبل القسمة إلى حد ثم يستحيل إذا كان صغيرًا، وليس استحالة الأجسام في صغرها محدودًا بحد واحد بل قد يستحيل الصغير وله قدر يقبل نوعًا من القسمة وغيره لا يستحيل حتى يكون أصغر منه وبالجملة فليس في شيء منها قبول القسمة إلى غير نهاية، بل هذا إنما يكون في المقدرات الذهنية فأما وجود ما لا يتناهى بين حدين متناهيين فمكابرة وسواء كان بالفعل أو بالقوة ووجود موجود لا يتميز جانب له عن جانب مكابرة بل الأجسام تستحيل مع قبول الانقسام فلا يقبل شيء منها انقسامًا لا يتناهى كما أنها إذا كثرت وعظمت تنتهي إلى حد تقف عنده ولا تذهب إلى أبعاد لا تتناهى[1]

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٨٣- ٢٨٥).

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة والنَّجَّارِيَّة والضِرَارِيَّة في الجسم والجوهر الفرد.

- **قولهم في الاستدلال على وجود الله عز وجل**

يستدلون على ذلك بحدوث العالم، والاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام.

أقوال العلماء

قال الباقلاني بعد كلامه عن إثبات حدوث العالم عن طريق إثبات الأعراض وإثبات حدوثها، وحدوث الأجسام، قال: الكلام في إثبات الصانع: ولا بد لهذا العالم المحدَث المصوَّر من محدِث مصوِّر[(١)]

وقال الإسفراييني: وإذا تقرر هذه الجملة أن صفات الأجسام مخلوقة، ثبت أن الأجسام مخلوقة؛ لأن ما لا يخلو من الحوادث لا يستحق أن يكون محدِثًا، وما لا يستحق أن يكون محدِثًا كان محدَثًا مثلها

وأن تعلم أن المخلوق لا بد له من خالق[(٢)]

وقال البغدادي بعد كلامه عن حدوث العالم: إن الحوادث كلها لا بد لها من محدِث صانع[(٣)]

وقال الجويني: فإن قيل: ما الدليل على حدوث العالم؟ قلنا: الدليل عليه أن أجرام العالم وأجسامها لا تخلو عن الأعراض الحادثة وما لا يخلو عن الحادث حادث.. والدليل على أن العالم له صانع أنه قد صح حدوث العالم بالدلالة التي ذكرناها[(٤)]

وقال الإيجي: المقصد الأول في إثبات الصانع، وفيه مسالك، المسلك الأول للمتكلمين: قد علمت أن العالم إما جوهر أو عرض، وقد يستدل بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه، فهذه وجوه أربعة:

الأول: الاستدلال بحدوث الجواهر: وهو أن العالم حادث، وكل حادث فله محدث.

الثاني: بإمكانها: وهو أن العالم ممكن؛ لأنه مركب وكثير، وكل ممكن فله علة مؤثرة.

الثالث: بحدوث الأعراض: مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ودمًا، إذ لا بد من مؤثر صانع حكيم.

الرابع: بإمكان الأعراض: وهو أن الأجسام متماثلة، فاختصاص كل بما له من الصفات جائز.

---

(١) تمهيد الأوائل ص(٤٣).

(٢) التبصير في الدين ص(١٥٤).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٣٥٥).

(٤) لمع الاعتقاد ص(٨٦- ٩١).

فلا بد في التخصيص من مخصص له، ثم بعد هذه الوجوه نقول: مدبر العالم إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإلا كان ممكنًا فله مؤثر، ويعود الكلام فيه، ويلزم إما الدور أو التسلسل، وإما الانتهاء إلى مؤثر واجب الوجود لذاته. والأول بقسميه باطل لما مر، فتعين الثاني، وهو المطلوب[١]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: فقال لهم الناس أما قولكم إن هذه الطريق هي الأصل في معرفة دين الإسلام ونبوة الرسول ﷺ؛ فهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام؛ فإنه من المعلوم لكل من علم حال الرسول ﷺ وأصحابه، وما جاء به من الإيمان والقرآن، أنه لم يدع الناس بهذه الطريق أبدًا، ولا تكلم بها أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، فكيف تكون هي أصل الإيمان؟! والذي جاء بالإيمان وأفضل الناس إيمانًا لم يتكلموا بها ألبتة، ولا سلكها منهم أحد.

والذين علموا أن هذه طريق مبتدعة حزبان.

حزب ظنوا أنها صحيحة في نفسها، لكن أعرض السلف عنها لطول مقدماتها وغموضها وما يخاف على سالكها من الشك والتطويل، وهذا قول جماعة كالأشعري في رسالته إلى الثغر، والخطابي، والحليمي، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وأبي بكر البيهقي، وغير هؤلاء.

والثاني: قول من يقول: بل هذه الطريقة باطلة في نفسها، ولهذا ذمها السلف، وعدلوا عنها، وهذا قول أئمة السلف كابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبي يوسف، ومالك بن أنس، وابن الماجشون عبد العزيز، وغير هؤلاء من السلف.

وحفص الفرد لما ناظر الشافعي في مسألة القرآن -وقال: القرآن مخلوق وكفره الشافعي- كان قد ناظره بهذه الطريقة.

وكذلك أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث كان من المناظرين للإمام أحمد بن حنبل في مسألة القرآن بهذه الطريقة.

وقد ذكر الإمام أحمد في رده على الجهمية مما عابه عليهم أنهم يقولون: إن الله لا يتكلم ولا يتحرك.

وأما عبد الله بن المبارك فكان مبتلى بهؤلاء في بلاده، ومذهبه في مخالفتهم كثير، وكذلك الماجشون في الرد عليهم، وكلام السلف في الرد على هؤلاء كثير، وقال لهم الناس: إن هذا الأصل الذي ادعيتم إثبات الصانع به، وأنه لا يعرف أنه خالق للمخلوقات إلا به، هو بعكس ما قلتم؛ بل هذا الأصل يناقض كون الرب خالقًا للعالم، ولا يمكن مع القول به القول بحدوث العالم، ولا الرد على الفلاسفة.

---

(١) المواقف (٣/ ٧، ٨).

فالمتكلمون الذين ابتدعوه وزعموا أنهم به نصروا الإسلام وردوا به على أعدائه كالفلاسفة؛ لا للإسلام نصروا، ولا لعدوه كسروا؛ بل كان ما ابتدعوه مما أفسدوا به حقيقة الإسلام على من اتبعهم، فأفسدوا عقله ودينه، واعتدوا به على من نازعهم من المسلمين، وفتحوا لعدو الإسلام بابًا إلى مقصوده[(١)]

وقال: بل الأشعري نفسه ذكر في رسالته إلى أهل الثغر: أن هذا الدليل الذي استدلوا به على حدوث العالم -وهو الاستدلال على حدوث الأجسام بحدوث أعراضها- هو دليل محرم في شرائع الأنبياء، لم يستدل به أحد من الرسل وأتباعهم[(٢)]

وقال: والتحقيق: أن العلم بأن المحدَث لا بد له من محدِث هو علم فطري؛ ضروري في المعينات الجزئية، وأبلغ مما هو في القضية الكلية؛ فإن الكليات: إنما تصير كليات في العقل بعد استقرار جزئياتها في الوجود، وكذلك عامة القضايا الكلية؛ التي يجعلها كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم كقولهم: الكل أعظم من الجزء أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونحو ذلك، فإنه أي كلي تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزئيه، وإن لم تخطر له القضية الكلية، كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض وأن الدرهم أكبر من بعضه، وأن المدينة أكثر من بعضها، وأن الجبل أكبر من بعضه، وكذلك النقيضان وهما: الوجود والعدم؛ فإن العبد إذا تصور وجود أي شيء كان وعدمه: علم أن ذلك الشيء لا يكون موجودًا معدومًا في حالة واحدة وأنه لا يخلو من الوجود والعدم، وهو يقضي بالجزئيات المعينة، وإن لم يستحضر القضية الكلية، وهكذا أمثال ذلك.

ولما كان القياس الكلي فائدته أمر مطلق لا معين: كان إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب. كما نزل به القرآن، وفطر الله عليه عباده، وإن كانت الطريقة القياسية صحيحة، لكن فائدتها ناقصة، والقرآن إذا استعمل في الآيات الإلهيات: استعمل قياس الأولى لا القياس الذي يدل على المشترك؛ فإنه ما وجب تنزيه مخلوق عنه من النقائص والعيوب التي لا كمال فيها، فالباري تعالى أولى بتنزيهه عن ذلك، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه كالحياة، والعلم، والقدرة: فالخالق أولى بذلك منه، فالمخلوقات كلها آيات للخالق، والفرق بين الآية وبين القياس: أن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه، فكل مخلوق فهو دليل. وآية على الخالق نفسه، كما قد بسطناه في مواضع.

ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات؛ فإنها قد فطرت على ذلك، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات: لم تعلم أن هذه الآية له، فإن كونها آية له ودلالة عليه: مثل كون الاسم يدل على

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٤٣، ٥٤٥)، الغنية عن الكلام وأهله للخطابي ص(٣١- ٣٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩٠)، رسالة إلى أهل الثغر للأشعري ص(١٨٥- ١٩٢).

المسمى فلا بد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك، وعرف أن هذا اسم له، فكذلك كون هذا دليلًا على هذا يقتضي تصور المدلول عليه وتصور أن ذلك الدليل مستلزم له، فلا بد في ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول، فلو لم يكن المدلول متصورًا لم يعلم أنه دليل عليه، فمعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف إليه؛ لكن قد لا يكون الإنسان عالمًا بالإضافة، ولا كونه دليلًا؛ فإذا تصوره عرف المدلول إذا عرف أنه مستلزم له، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق، فلا بد أن يكونوا يعرفونه؛ حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له.

والمقصود أن هذه الطرق العقليَّة الفطرية: هي التي جاء بها القرآن، واتفق العقل والشرع، وتلازم الرأي والسمع[(١)]

وقال: ولما كان الإقرار بالصانع فطريًا -كما قال ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة»** الحديث- فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله، والإنابة إليه، وهو معنى لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد[(٢)]

وقال: وأما المعتزلة والجهمية ومن تبعهم فطريقتهم المشهورة في إثبات حدوث العالم وإثبات الصانع هي الاستدلال بإثبات الأعراض أولًا، وإثبات حدوثها ثانيًا، وبيان استحالة خلو الجواهر عنها ثالثًا، وبيان استحالة حوادث لا أول لها رابعًا، وقد وافقهم عليها أكثر الأشعرية وغيرهم، وهذه هي التي ذمها الأشعري وبين أنها ليست طريقة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ولا من اتبعهم وإنما سلكها من يخالفهم من الفلاسفة وأتباعهم المبتدعة كما تقدم، وقد تقدم نقل كلامه في ذلك، وهو المقصود وكلامه يقتضي أنها محرمة في الدين مبتدعة لا حاجة إليها لطول مقدماتها، وغموضها وما فيها من النزاع، وهذا هو الذي قصدناه، وهو أنه نقل اتفاق السلف على الاستغناء عن هذه الطريقة[(٣)]

وتقدم مزيد بيان عند قول المعتزلة في الاستدلال على وجود الله عز وجل.

- قولهم في التوحيد

التوحيد عندهم هو إثبات الربوبية وهو القدرة على الاختراع.

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: قال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: إذا كان الخالق على الحقيقة هو الباري تعالى لا يشاركه في الخلق غيره، فأخص وصفه تعالى هو: القدرة على الاختراع. قال: وهذا هو تفسير اسمه تعالى الله.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٤٧- ٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٦).

(٣) درء التعارض (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، مجموع الفتاوى (١٢/ ١٤٠- ١٥٨) (١٢/ ٢١٣- ٢٢٩).

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: أخص وصفه هو: كون يوجب تميزه عن الأكوان كلِّها.

وقال بعضهم: نعلم يقينًا أن ما من موجود إلا ويتميز عن غيره بأمر ما، وإلا فيقتضي أن تكون الموجودات كلها مشتركة متساوية، والباري تعالى موجود، فيجب أن يتميز عن سائر الموجودات بأخصِّ وصفٍ، إلا أن العقل لا ينتهي إلى معرفة والباري تعالى موجود، فيجب أن يتميز عن سائر الموجودات بأخصِّ وصف، إلا أن العقل لا ينتهي إلى معرفة ذلك الأخصِّ، ولم يرد به سمع، فنتوقف.

ثم هل يجوز أن يدركه العقل؟ ففيه خلاف أيضًا، وهذا قريب من مذهب ضرار، غير أن ضرارًا أطلق لفظ الماهية عليه تعالى، وهو من حيث العبارة منكر[(١)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته والإخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه؛ ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه تألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم؛ وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم ولا لذة؛ بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا إله إلا الله؛ رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق، وقرره أهل الكلام؛ فلا يكفى وحده، بل هو من الحجة عليهم، وهذا معنى ما يروى: «يا ابن آدم، خلقت كل شيء لك، وخلقتك لي، فبحقي عليك أن لا تشتغل بما خلقته لك، عما خلقتك له.

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما في الحديث الصحيح، الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: **«أتدري ما حق الله على عباده؟»** قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟»** قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حقهم ألَّا يعذبهم»**[(٢)]

وقال: وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٣)، (٨/ ١٠١- ١٠٣).

دينًا غيره، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: الآية ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥]، وقال تعالى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾.

وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ٥٩]

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**».

والمشركون من قريش وغيرهم -الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم وسبي حريمهم وأوجب لهم النار- كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: الآية ٢٥] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦١]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: الآية ١٨]

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾. وكانوا يقولون في تلبيتهم:

لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ

ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٨] يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضًا، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكة شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم؟

وهذا كما كانوا يقولون: له بنات، فقال تعالى: ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[(١)]

وقال: الإله الذي هو المراد لنفسه -إن لم يكن ربًا- امتنع أن يكون معبودًا لنفسه، ومن لا يكون ربًا خالقًا لا يكون مدعوًا مطلوبًا منه، مراد لغيره؛ فلأن لا يكون معبودًا مرادًا لنفسه من باب الأولى؛ فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية، ونفي الربوبية يوجب نفي الإلهية، إذ الإلهية هي الغاية وهي مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية.

وكل واحد من وحدانية الربوبية، والإلهية -وإن كان معلومًا بالفطرة الضرورية البديهية، وبالشريعة النبوية الإلهية- فهو أيضًا معلوم بالأمثال الضرورية، التي هي المقاييس العقليَّة.

لكن المتكلمون إنما انتصبوا لإقامة المقاييس العقليَّة على توحيد الربوبية، وهذا مما لم ينازع في أصله أحد من بني آدم، وإنما نازعوا في بعض تفاصيله، كنزاع المجوس والثنوية والطبيعية والقدرية، وأمثالهم من ضلال المتفلسفة، والمعتزلة، ومن يدخل فيهم، وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب الذي دخل من أقر أنه لا خالق إلا الله، ولا رب غيره من أصناف المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٦] كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع[(٢)]

وقال: وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد؛ فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر: غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع.

فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٥٤- ١٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧، ٣٨).

وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث، وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا لا إله إلا الله، حتى قد يجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع.

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولًا لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا يقرون بالقدر أيضًا، وهم مع هذا مشركون

فإن هذا التوحيد الذي قرروه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون، بل يقرون به مع أنهم مشركون، كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع، وكما علم بالاضطرار من دين الإسلام.

وكذلك النوع الثاني -وهو قولهم لا شبيه له في صفاته- فإنه ليس في الأمم من أثبت قديمًا مماثلًا له في ذاته سواء قال إنه يشاركه، أو قال: إنه لا فعل له؛ بل شبه به شيئًا من مخلوقاته فإنما يشبهه به في بعض الأمور.

وقد علم بالعقل امتناع أن يكون له مثل في المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع عليه؛ فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين كما تقدم.

وعلم أيضًا بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلا بد بينهما من قدر مشترك كاتفاقهما في مسمى الوجود، والقيام بالنفس، والذات ونحو ذلك؛ فإن نفي ذلك يقتضي التعطيل المحض، وإنه لا بد من إثبات خصائص الربوبية، وقد تقدم الكلام على ذلك

وكذلك النوع الثالث وهو قولهم: هو واحد لا قسيم له في ذاته، أو لا جزء له، أو لا بعض له، لفظ مجمل؛ فإن الله سبحانه أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فيمتنع عليه أن يتفرق، أو يتجزأ، أو يكون قد ركب من أجزاء؛ لكنهم يدرجون في هذا اللفظ نفي علوِّهِ على عرشه، ومباينته لخلقه، وامتيازه عنهم، ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله، ويجعلون ذلك من التوحيد.

فقد تبين أن ما يسمونه توحيدًا فيه ما هو حق، وفيه ما هو باطل، ولو كان جميعه حقًّا؛ فإن المشركين إذا أقروا بذلك كله لم يخرجوا من الشرك، الذي وصفهم به في القرآن، وقاتلهم عليه الرسول ﷺ؛ بل لا بد أن يعترفوا أنه لا إله إلا الله.

وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع، كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع دون غيره، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا هو.

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون كما تقدم بيانه، بل الإله الحق هو الذي يستحق بأن يعبد، فهو إله بمعنى مألوه؛ لا إله بمعنى آله، والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلهًا آخر.

وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار، أهل الإثبات للقدر، المنتسبون إلى السنة إنما هو توحيد الربوبية، وأن الله رب كل شيء، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع أنهم مشركون[١]

وقال: فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء، ومليكه وخالقه -لا ينجيه من عذاب الله، إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأن محمدًا رسول الله، فيجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فلا بد من الكلام في هذين الأصلين:-

الأصل الأول «توحيد الإلهية» فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله، يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: الآية ١٨]، فأخبر أن هؤلاء الذين اتخذوا هؤلاء شفعاء مشركون...

ومن تحقيق التوحيد أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقًّا لا يشركه فيه مخلوق؛ كالعبادة والتوكل، والخوف والخشية، والتقوى...

الأصل الثاني: حق الرسول ﷺ فعلينا أن نؤمن به ونطيعه ونتبعه، ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه، وأمثال ذلك...[٢]

- قولهم في النبوات

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وانبعاث الرسل من القضايا الجائزة لا الواجبة ولا المستحيلة، ولكن بعد الانبعاث تأييدهم بالمعجزات، وعصمتهم من الموبقات، من جملة الواجبات، إذ لا بد من طريق للمستمع يسلكه ليعرف به صدق المدعي، ولا بد من إزاحة العلل، فلا يقع في التكليف تناقض.

والمعجزة: فعل خارق للعادة، مقترن بالتَّحدي، سليم عن المعارضة، يتنزل منزلة التصديق بالقول من حيث القرينة. وهو منقسم إلى خرق المعتاد، وإلى إثبات غير المعتاد. والكرامات للأولياء حقٌّ، وهي من وجه تصديق للأنبياء، وتأكيد للمعجزات[٣]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: كثير من المتكلمين يقولون: لا بد أن تتقدم المعرفة أولًا بثبوت الرب وصفاته التي يعلم بها أنه هو، ويظهر المعجزة، وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول، فضلًا عن وجود الرب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٩٧- ١٠١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/١٠٥- ١١٠).
(٣) الملل والنحل (١/١٠٢).

وأما الطريقة التي ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حررت، وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون فإنه كان منكرًا للرب. قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

فهنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلًا على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهًا غير فرعون يتخذه، وكذلك قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هُود: الآية ١٤] فبين أن المعجزة تدل على الواحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة -التي هي فعل خارق للعادة- تدل بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة ولهذا يسبح الرب عندها، ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد؛ إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله، فتقرر بها الربوبية والرسالة، لا سيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية، كما هو قول طائفة من متكلمي المعتزلة كالجاحظ، وطوائف من غيرهم، كالأشعرية والحنبلية الذين يقولون: يحصل الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة بالضرورة.

ومن يقول: إن شهادة المعجزة على صدق النبي معلوم بالضرورة وهم كثير من الأشعرية والحنبلية، وكثير من هؤلاء يقول: لأن عدم دلالتها على الصدق مستلزم عجز البارئ، إذ لا طريق سواها[١]

- قولهم في الغيبيات

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: وما ورد به السمع من الأخبار عن الأمور الغائبة مثل: القلم، واللوح، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار؛ فيجب إجراؤها على ظاهرها، والإيمان بها كما جاءت، إذ لا استحالة في إثباتها. وما ورد من الأخبار عن الأمور المستقبلة في الآخرة مثل: سؤال القبر، والثواب والعقاب فيه، ومثل: الميزان، والحساب، والصراط، وانقسام الفريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، حق يجب الاعتراف بها، وإجراؤها على ظاهرها إذ لا استحالة في وجودها[٢]

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٧٨- ٣٨٠)، الأصفهانية ص(١٥٥- ١٨١).
(٢) الملل والنحل (١/ ١٠٢، ١٠٣).

- قولهم في عذاب القبر

منهم من يقول: بأن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، فيقع النعيم والعذاب على البدن فقط.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام عن الثواب والعقاب في البرزخ: لكن من أهل الكلام من يقول: هذا إنما يكون على البدن فقط، كأنه ليس عنده نفس تفارق البدن؛ كقول من يقول ذلك من المعتزلة والأشعرية[١]

وقال: وقول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب، وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام المعتزلة، وأصحاب أبي الحسن الأشعري، كالقاضي أبي بكر، وغيرهم، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل، خالفه الأستاذ أبو المعالي الجويني وغيره؛ بل قد ثبت في الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة أن الروح تبق بعد فراق البدن، وأنها منعمة أو معذبة[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الخوارج في عذاب القبر.

- قولهم في إعجاز القرآن

أقوال العلماء

قال الشهرستاني عن الأشعري: والقرآن عنده معجزة من حيث: البلاغة والنظم، والفصاحة، إذ خيَّر العرب بين السيف وبين المعارضة، فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة. ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع من المعارضة، ومن جهة الإخبار عن الغيب[٣].

- قولهم في الإمامة والصحابة

أقوال العلماء

قال الشهرستاني: وقال: الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعين، إذ لو كان ثَمَّ نص لما خفي، والدواعي تتوفر على نقله. واتفقوا في سقيفة بني ساعدة على أبي بكر رضي الله عنه، ثم اتفقوا بعد تعيين أبي بكر على عمر رضي الله عنه، واتفقوا بعد الشورى على عثمان رضي الله عنه، واتفقوا بعده على علي رضي الله عنه، وهم مُتَرَتِّبون في الفضل ترتبهم في الإمامة.

وقال: لا نقول في عائشة وطلحة والزبير إلا أنهم رجعوا عن الخطأ، وطلحة والزبير من

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٣).

(٣) الملل والنحل (١/ ١٠٣).

العشرة المبشرين بالجنة. ولا نقول في حق معاوية وعمرو بن العاص إلا: إنهما بغيا على الإمام الحق فقاتلهم على مقاتلة أهل البغي. وأما أهل النهروان فهم الشراة المارقون عن الدين بخبر النبي ﷺ. ولقد كان عليٌّ ﷺ على الحقِّ في جميع أحواله، يدور الحقُّ معه حيث دار[١]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الرافضة في الصحابة وتصويب علي بن أبي طالب.

- قولهم في المفاضلة بين الملائكة والناس

بعضهم يقول بتفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة، ومنهم من يفضل الملائكة على البشر، ومنهم من يتوقف.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وقد ذكر جماعة من المنتسبين إلى السنة: أن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة، وذهبت المعتزلة إلى تفضيل الملائكة على البشر، وأتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع فيهما بشيء.

وحُكِي عن بعض متأخريهم أنه مال إلى قول المعتزلة، وربما حُكِيَ ذلك عن بعض من يدعي السنة ويواليها[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في المفاضلة بين الملائكة والناس، وسيأتي مزيد بيان عند قول الصوفية في المفاضلة بين الأولياء والنبيين والملائكة.

- قولهم في العقل والنقل

جمهورهم المتأخرون على أن الدلائل العقليَّة هي الأصل وهي قطعية، فإذا تعارضت مع الدلائل النقليَّة أو السمعيَّة وهي ظنيَّة، فتقدم الدلائل العقليَّة، وتأول أو تفوض الدلائل النقليَّة.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: طريق كثير من المتكلمة، يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له.

والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأوليَّة، المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن[٣]

---

(١) الملل والنحل (١/١٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٣٥٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٨).

وقال: قسم بنوا على هذه العقليات القياسيَّة: الأصول العلميَّة، دون العملية كالأشعريَّة[١]

وقال: قول القائل إذا تعارضت الأدلة السمعيَّة والعقليَّة، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقليَّة والقواطع العقليَّة، أو نحو ذلك من العبارات؛ فإما أن يجمع بينهما وهو محال؛ لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعًا.

وإما أن يقدم السمع وهو محال؛ لأن العقل أصل النقل فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحًا في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه فكان تقديم النقل قدحًا في النقل والعقل جميعًا.

فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول وإما أن يفوض

وأما إذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجمع بينهما ولم يمتنع ارتفاعهما.

وهذا الكلام قد جعله الرازي وأتباعه قانونًا كليًّا فيما يستدل به من كتب الله تعالى وكلام أنبيائه عليهم السلام وما لا يستدل به ولهذا ردوا الاستدلال بما جاءت به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعالى وغير ذلك من الأمور التي أنبئوا بها، وظن هؤلاء أن العقل يعارضها.

وقد يضم بعضهم إلى ذلك أن الأدلة السمعيَّة لا تفيد اليقين[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ما ثبت بالأدلة القطعيَّة لا يتعارض ولا يتناقض أصلًا، فلا يتعارض دليلان يقينيان أصلًا، سواء كانا عقليّين أو سمعيّين، أو كان أحدهما عقليًّا والآخر سمعيًّا، ومن ظنَّ أنَّهما يتعارضان كان ذلك خطأ منه؛ لاعتقاده في أحدهما أنَّه يقينيّ، ولا يكون كذلك، ولا سيَّما إذا كانا جميعًا غير يقينيين[٣]

وقال: ثم هؤلاء لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسُّنَّة على نقيض قولهم لظنهم أن العقل عارض السمع وهو أصله فيجب تقديمه عليه والسمع إمَّا أن يؤول وإمَّا أن يفوض وهم أيضًا عند التحقيق لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسُّنَّة على وفق قولهم لما تقدم.

وهؤلاء يضلون من وجوه:

منها ظنهم أنَّ السمع بطريق الخبر تارة وليس الأمر كذلك بل القرآن بين من الدلائل العقليَّة التي تعلم بها المطالب الدينية ما لا يوجد مثله في كلام أئمة النظر فتكون هذه المطالب شرعيَّة عقليَّة

ومنها ظنهم أنَّ الرسول لا يعلم صدقه إلا بالطريق المعينة التي سلكوها وهم مخطئون قطعًا في

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٧).

(٢) درء التعارض (١/ ٤، ٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢١٢، ٢١٣).

انحصار طريق تصديقه فيما ذكروه فإنَّ طرق العلم بصدق الرسول كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع، ومنها ظنهم أنَّ تلك الطريق التي سلكوها صحيحة وقد تكون باطلة.

ومنها ظنهم إنما عارضوا به السمع معلوم بالعقل ويكونون غالطين في ذلك فإنه إذا وزن بالميزان الصحيح وجد ما يعارض الكتاب والسُّنَّة من المجهولات لا من المعقولات (١)

وقال: يأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات، وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفًا للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكنَّ فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلًا، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: الآية ٨٩] (٢)

وقال: بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلًا بذلك، له هو غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية، قد يكون فيها محبة، ووجد، وذوق، كما قد يحصل للبهيمة.

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة.

والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأتِ بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها، وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقًّا، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال، وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التميز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم (٣)

وقال: كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيرًا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفًا بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول، ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل، قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه أي معرفته بالتميز بين صحيحه وسقيمه، والفقه فيه معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الأصولية والفروعيَّة أحب إلي من أن يحفظ من غير معرفة وفقه، وهكذا قال علي بن المديني وغيره من العلماء؛ فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول أو بلفظ ثابت عن الرسول وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أتى من نفسه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٨٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٩٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وكذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحًا لم تكن إلا حقًّا، لا تناقض شيئًا مما قاله الرسول، والقرآن قد دل على الأدلة العقليَّة التي بها يعرف الصانع وتوحيده، وصفاته وصدق رسله، وبها يعرف إمكان المعاد؛ ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحد من الناس، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقليَّة يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: الآية ٣٣] وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: الآية ٥٨] وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: الآية ٢١].

وأما الحجج الداحضة التي يحتج بها الملاحدة، وحجج الجهمية معطلة الصفات، وحجج الدهرية وأمثالها، كما يوجد مثل ذلك في كلام المتأخرين الذين يصنفون في الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون أنها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد، ما لا يحصيه إلا رب العباد، وقد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع أخر.

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول، وما كان عليه السلف، ومعرفة المعقول الصريح؛ فإن هذا هو الكتاب، وهذا هو الميزان، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: الآية ٢٥] (١)

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٨٠- ٨٢).

الفصل السابع

الماتُرِيدية

أتباع أبي منصور محمد بن محمد بن محمود المعروف بالماتريدي، نسبة إلى مَاتُرِيد، أو مَاتُرِيت، من بلدان سمرقند فيما وراء النهر، من كبار علماء الحنفية والمتكلمين، ويلقبونه بإمام الهدى.

تلقى من كبار عصره كنصر بن يحيى البلخي، وأبي نصر العياضي، وأبي بكر أحمد الجوزجاني عن أبي سليمان الجوزجاني عن محمد عن أبي حنيفة، ومات سنة ٣٣٣ هـ ودفن بسمرقند، وله مؤلفات كثيرة في علم الكلام وأصول الفقه والتفسير.

وله مناظرات ومجادلات مع المعتزلة في أمور كثيرة، وصنف في الرد عليهم ونقدهم كتبًا عديدة، واستخدم في ذلك البراهين والدلائل العقليَّة والكلامية في محاجتهم، وله ردود أيضًا على بعض الفرق مثل الروافض والقرامطة وغيرهم.

وقد تابع ابنَ كلاب في مسائل الصفات وما يتعلق بها كمسألة القرآن هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته أم القرآن لازم لذاته؟

وهو معاصر لأبي الحسن الأشعري، فقد مات بعد الأشعري بقليل، وقد اتحد هدفهما في محاربة المعتزلة، ولهما الكثير من المقالات التي اتفقا عليها.

وبعد وفاة الماتريدي كونت آراؤه فرقة كلامية انتشرت في سمرقند، وعمل تلامذته على نشر أفكاره والدفاع عنها، وتصنيف المصنفات في نصرتها، ومن أشهر تلامذته أبو القاسم الحكيم السمرقندي (٣٤٢ هـ)، وأبو محمد البزدوي (٣٩٠ هـ)، وأبو اليسر البزدوي (٤٩٣ هـ).

ثم جاء بعدهم من قام بالتأصيل والتأليف لعقيدة الماتريدية، أمثال أبي المعين النسفي (٥٠٨ هـ)، ونجم الدين النسفي (٥٣٧ هـ) صاحب الكتاب المشهور المسمى بالعقائد النسفية، وهو من أهم متون العقيدة الماتريدية، وحافظ الدين عبد الله النسفي (٧١٠ هـ).

وتوسعت الماتريدية بعد ذلك بنصرة سلاطين الدولة العثمانية لها وانتشرت في شرق الأرض وغربها، وكثر تأليف الكتب الكلامية.

وتبنت كثير من المدارس الدعوة إلى عقيدة الماتريدية، ومن ذلك في شبه القارة الهندية:

مدرسة ديوبند: نسبة إلى جامعة ديوبند التي أسسها محمد قاسم النانوتوي (١٢٨٣ هـ)، وهم متصوفة، وعندهم من البدع القبورية الشيء الكثير.

ومدرسة البريلوي: نسبة إلى أحمد رضا خان الأفغاني (١٣٤٠ هـ)، وهم يدعون إلى عبادة القبور، وكثير من الشركيات.

ومدرسة الكوثري: نسبة إلى الشيخ محمد زاهد الكوثري (١٣٧١ هـ)، وهو شديد الطعن في أئمة

الإسلام وفي كتب السلف رحمهم الله، ووصمها بالوثنية والتجسيم والتشبيه، واتهام العلماء بأنهم مجسمة.

وأتباع عقيدة الماتريدية من الأحناف وغيرهم كثيرون إلى الآن في مناطق متعددة من العالم، مثل الهند والباكستان والصين وبنجلاديش وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر وتركيا والمغرب، وغيرهم.

ويَعُد كثيرٌ من المتكلمين إلى الآن الأشعريةَ والماتريديةَ أنهم هم أهل السنة، وهذا غير صحيح، فإن مخالفة الماتريدية لعقيدة أهل السنة ولما كان عليه السف كثيرة وفي أمور جليلة، كما سيتضح ذلك من مقالاتهم[١]

مقالات الماتريدية

- قولهم في الأسماء والصفات

يثبتون الأسماء الحسنى لله عز وجل، وكثير من معانيها، وهي توقيفية، ولكنها ليست عندهم أسماء حقيقية لله، وهي غير مشتملة على صفات مستقلة بل هي مندرجة في صفة التكوين، وهي مخلوقة، ولهم طرق في إثباتها، وأدخلوا في أسمائه ما ليس منها، مع تعطيلهم لبعضها الثابت.

ولم يثبتوا من الصفات إلا سبعة فقط وهي: القدرة، العلم، الحياة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، وذلك لدلالة العقل عليها عندهم، ويرون أن جميع الصفات الفعلية داخلة تحت صفة التكوين.

وينفون الصفات الفعلية والخبرية.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: إن الجسم ليس من أسمائه، ولم يرد عنه ولا عن أحد ممن أذن لأحد تقليده فالقول به لا يسع ولو وسع بالنحت من غير دليل حسي أو سمعي أو عقلي لوسع القول بالجسد والشخص وكل ذلك مستنكر بالسمع، وليسع القول بكل ما يسمى به الخلق وذلك فاسد[٢]

وقال: ودليل إثبات القول بالشيء وجهان: أحدهما السمع، . . . ، وأما العقل [٣]

وقال: إن القول بهذا كله واجب بما ثبت في السمع التسمية به، وبالله التوفيق[٤]

---

(١) انظر: الأنساب (٥/ ١٥٥)، طبقات الحنفية (٢/ ١٣٠)، طبقات المفسرين للداودي ص(٦٩)، الموسوعة الميسرة (١/ ٩٥- ١٠٦)، فرق معاصرة (٣/ ٢٧٦- ٢٨٥)، الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات (١/ ٢٣١- ٢٩٣)، مجموع الفتاوى (٦/ ٢٩٠)، (٧/ ٤٣٣)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٦٢).

(٢) التوحيد ص(٣٨).

(٣) التوحيد ص(٤١).

(٤) التوحيد ص(٤٢).

وقال: والأصل في حرف التوحيد أن ابتداءه تشبيه وانتهاءه توحيد دفعت إلى ذلك الضرورة، إذ بالمدرك المفهوم يستدل على ما قصرت الأفهام من إدراك ما عن الأوهام، نحو ما يدرك ثواب الآخرة وعقابها بلذات الدنيا والأذيات التي فيها، وكذا وصف الله تعالى بالمدرك من خلقه للدلالة والعبارة، فقيل عالم وقادر ونحو ذلك، إذ في الإمساك عن ذلك تعطيل، وفي تحقيق المعنى الموجود في خلقه تشبيه، فوصل به لا كالعلماء ونحوه؛ ليجعل نفي التشبيه ضمن الإثبات، فهذا فيما ألزمت ضرورة العقل القول به والسمع جميعًا، فأما ما لا سمع فيه ولا في العقل احتماله فالتسمية به جرأة عظيمة ولا قوة إلا بالله[١]

وقال: الوصف لله بأنه قادر عالم حي كريم جواد والتسمية بها حق من السمع والعقل جميعًا[٢]

وقال: القول في أسماء الله عز وجل عندنا على أقسام:

في مفهوم اللغة قسم منها يرجع إلى تسميتنا له بها وهن أغيار؛ لأن قولنا عليم غير قولنا قدير،

والثاني: يرجع معناه إلى ذاته مما عجز الخلق عن الوقوف على مراد ذاته إلا به، . ، وذلك نحو الواحد الله الرحمن الموجود والقديم والمعبود ونحو ذلك.

والثالث: يرجع إلى الاشتقاق عن الصفات من نحو العالم القادر مما لو كانت في التحقيق غيره لاحتمل التبديل، ولصارت التسمية على غير تحقيق المعنى المفهوم، ولجازت تسميته بكل ما يسمى غيره إذا لم يرد تحقيق المفهوم من معناه[٣]

وقال: فيدلك أن الأسماء التي نسميه بها عبارات عما يقرب إلى الأفهام لا أنها في الحقيقة أسماؤه[٤]

وقال أنور شاه الكشميري الديوبندي: والأسماء الحسنى عند الأشاعرة عبارة عن الإضافات، وأما عند الماتريدية فكلها مندرجة في صفة التكوين[٥]

وقال كمال الدين البياضي الحنفي الماتريدي: وعند جلة الخلف لا يزيد على الصفات الثمانية، والصفات الأخرى راجعة إليها[٦]

---

(١) التوحيد ص(٤٢).
(٢) التوحيد ص(٤٤).
(٣) التوحيد ص(٦٥).
(٤) التوحيد ص(٩٣، ٩٤).
(٥) فيض الباري (٤/ ٥١٧).
(٦) إشارات المرام ص(١٨٨).

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند الكلام عن مقالة التعطيل، وقول الكُلَّابِيَّة والأشعرية في الأسماء والصفات.

- قولهم في علو الباري عز وجل

ينفون علو الباري عز وجل، ووصفوه بالممتنعات، ويحرفون معناه إلى القهر والغلبة والعظمة.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: الأصل فيه أن الله سبحانه كان ولا مكان، وجائز ارتفاع الأمكنة وبقاؤه على ما كان، فهو على ما كان، وكان على ما عليه الآن، جل عن التغير والزوال والاستحالة والبطلان[(١)]

وقال: ثم القول بالكون على العرش وهو موضع بمعنى كونه بذاته أو في كل الأمكنة لا يعدو من إحاطة ذلك به، أو الاستواء به، أو مجاوزته عنه، وإحاطته به؛ فإن كان الأول فهو إذا محدود به محاط منقوص عن الخلق إذ هو دونه، ولو جاز الوصف له بذاته بما يحيط به من الأمكنة لجاز بما يحيط به من الأوقات فيصير متناهيًا بذاته مقصرًا عن خلقه، وإن كان على الوجه الثاني فلو زيد على الخلق لا ينقص أيضًا وفيه ما في الأول، وإن كان على الوجه الثالث فهو الأمر المكروه الدال على الحاجة وعلى التقصير من أن ينشئ ما لا يفضل عنه مع ما يذم ذا من فعل الملوك ألا يفضل عنهم من المعامد شيئًا.

وبعد فإن في ذلك تجزئة بما كان بعضه في ذي أبعاض وبعضه يفضل عن ذلك، وذلك كله وصف الخلائق، والله يتعالى عن ذلك.

وبعد فإنه ليس في الارتفاع إلى ما يعلو من المكان للجلوس أو القيام شرف ولا علو ولا وصف بالعظمة والكبرياء كمن يعلو السطوح أو الجبال إنه لا يستحق الرفعة على من دونه عند استواء الجوهر[(٢)]

وقال: وقول القائل أين هو سؤال عن مكان وقد بينا أنه يتعالى عن ذلك ولا يوصف الله سبحانه بالاتصال بالأشياء، ولا الانفصال ولا بالحلول فيها، ولا بالخروج منها من جهة المسافة على ما هو؛ لأن الله تعالى كان، ولا غيره فمحال انتقاله مما كان عليه[(٣)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والجهمية والأشعرية في علو الباري عز وجل.

---

(١) التوحيد ص(٦٩).

(٢) التوحيد ص(٧٠).

(٣) التوحيد ص(١٠٧).

- قولهم في الاستواء

ينفون صفة الاستواء عن الله عز وجل، ويحرفون معناها إلى الاستيلاء أو التمام أو القصد.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: والاستواء قيل فيه بأوجه ثلاثة:

أحدها الاستيلاء كما يقال: استوى فلان على كَوْرة كذا بمعنى استولى عليها.

والثاني: العلو والارتفاع كقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٨]

والثالث: التمام كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القَصَص: الآية ١٤] وقد قيل بالقصد إلى ذلك(١)

وقال: وأما الأصل عندنا في ذلك أن الله تعالى قال: ليس كمثله شيء، فنفى عن نفسه شبه خلقه، وقد بينا أنه في فعله وصفته متعالٍ عن الأشباه فيجب القول بالرحمن على العرش استوى على ما جاء به التنزيل، وثبت ذلك في العقل ثم لا نقطع تأويله على شيء لاحتماله غيره مما ذكرنا، واحتماله أيضًا ما لم يبلغنا مما يعلم أنه غير محتمل شبه الخلق، ونؤمن بما أراد الله به(٢)

وقال الجرجاني: يؤول الاستواء بالاستيلاء (٣)

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الأشعرية في الصفات الفعلية، وقول المعتزلة في الاستواء.

- قولهم في كلام الله عز وجل

كلام الله عندهم معنى واحد قائم بالذات، وأن الحرف والصوت مخلوقين.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: الأصل أن الله عز وجل قد ثبت وصفه بالكلام بحجة السمع والعقل(٤)

وقال: فإن قال قائل: هل أسمع الله كلامَه موسى حيث قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] ؟

قيل: أسمعه بلسان موسى، وبحروف خلقها، وصوت أنشأه، فهو أسمعه ما ليس بمخلوق(٥)

---

(١) التوحيد ص(٧٢).
(٢) التوحيد ص(٧٤).
(٣) المواقف (١/ ٢٠٧).
(٤) التوحيد ص(٥٧).
(٥) التوحيد ص(٥٩).

وقال النسفي: إن الله أسمع القرآن جبريل بالصوت والحرف المخلوقين فحفظه جبريل ونقله إلى النبي ﷺ[(١)]

وقال السمرقندي: إن الله ألقى في مسامعه صوتًا مخلوقًا على ما يشاء[(٢)]

وقال شيخ الإسلام عن أقوال الناس في كلام الله: وثامنها: قول من يقولِ: كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته وهو ما خلقه في غيره، ثم من هؤلاء من يقول في ذلك المعنى بقول ابن كلاب وهذا قول أبي منصور الماتريدي[(٣)]

وقال: وذلك أن الطريقة المعروفة التي سلكها الأشعري وأصحابه في مسألة القرآن هم ومن وافقهم على هذا الأصل، ...، وكأبي منصور الماتريدي[(٤)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الكُلَّابِيَّة والأشعرية في كلام الله تعالى.

- قولهم في رؤية المولى عز وجل

يثبتون الرؤية بشروط وقيود سلبية.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: القول في رؤية الرب عز وجل عندنا لازم وحق من غير إدراك ولا تفسير[(٥)]

وقال: فإن قيل كيف يرى؟ قيل بلا كيف إذ الكيفية تكون لذي صورة بل يرى بلا وصف قيام، وقعود، واتكاء، وتعلق، واتصال، وانفصال، ومقابلة، ومدابرة، وقصير، وطويل، ونور، وظلمة، وساكن، ومتحرك، ومماس، ومباين، وخارج، وداخل، ولا معنى يأخذه الوهم أو يقدره العقل لتعاليه عن ذلك[(٦)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الأشعرية في رؤية المولى عز وجل.

- قولهم في القدر

يقولون: بأن الله خلق أفعال العباد، وهم مكتسبون لها.

---

(١) بحر الكلام ص(٢٩).

(٢) شرح تأويلات أهل السنة، الشورى: ٥١

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٦٢).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٥) التوحيد ص(٧٧).

(٦) التوحيد ص(٨٥).

أقوال العلماء

قال الماتريدي في أفعال العباد: هي لله بأن خلقها على ما هي عليه، وأوجدها بعد أن لم تكن، وللخلق على ما كسبوها وفعلوها...

وأيضًا أن كل أحد يعلم من نفسه أنه مختار لما يفعله وأنه فاعل كاسب(١)

وقال التفتازاني: صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل كسب وإيجاد الله تعالى الفعل عقب ذلك خلق، والمقدور الواحد داخل تحت مقدورين لكن بجهتين مختلفتين فالفعل مقدور الله تعالى بجهة الإيجاد ومقدور العبد بجهة الكسب(٢)

وقال النسفي عن الكسب: هو صرف القدرة إلى أحد المقدورين(٣)

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند الكلام عن مقالة الجبرية الكسبية، وقول الأشعرية في القدر.

- قولهم في الاستطاعة

أقوال العلماء

قال الماتريدي: الأصل عندنا في المسمى باسم القدرة أنها على قسمين:

أحدهما: سلامة الأسباب وصحة الآلات، وهي تتقدم الأفعال، وحقيقتها ليست بمجعولة للأفعال وإن كانت الأفعال لا تقوم إلا بها.

والثاني: معنى لا يقدر على تبين حده بشيء يصار إليه سوى أنه ليس إلا للفعل لا يجوز وجوده بحال إلا ويقع به الفعل عندما يقع معه، وعند قوم قبله، أعني فعل الاختيار الذي بمثله يكون الثواب والعقاب، وبه يسهل الفعل ويخف(٤)

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة، والنَّجَّارِيَّة، والأشعرية، في الاستطاعة.

- قولهم في تكليف بما لا يطاق

لا يجوزون التكليف بما لا يطاق.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: الأصل أن تكليف من منع عنه الطاقة فاسد في العقل، وأما من ضيع القوة فهو

---

(١) التوحيد ص(٢٢٦)، ص(٢٢٥- ٢٥٦).

(٢) شرح العقائد النسفية ص(٨٣).

(٣) الروضة البهية ص(٢٦).

(٤) التوحيد ص(٢٥٦).

حق أن يكلف مثله، ولو كان لا يكلف مثله لكان لا يكلف إلا من يطيع وليس ذلك شرط المحنة[١]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عن قول الأشعرية في تكليف ما لا يطاق.

- قولهم في التحسين والتقبيح

يرون أن التحسين والتقبيح عقليين.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: على أن محاسن الأشياء ومساويها وما قبح من الأفعال وما حسن منها؛ فإنما نهاية العلم بعد وقوع الحواس عليها وورود الأخبار فيها إذا أريد تقرير كل جهة من ذلك في العقول والكشف عن وجوه ما لا سبيل إلى ذلك إلا بالتأمل والنظر فيها[٢]

وقال: فإن الله تعالى لما خلق البشر للمحنة بما جعلهم أهل تميز وعلم بالمحمود من الأمور والمذموم وجعل ما يذم منها قبيحًا في عقولهم، وما يحمد حسنًا، وعظم في أذهانهم إيثار القبيح على الحسن، والرغبة فيما يذم على ما يحمد دعاهم على ما عليه ركبوا، وما به أكرموا إلى إيثار أمر على أمر وقبح في عقولهم احتمال أمثالهم[٣]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والأشعرية في التحسين والتقبيح.

- قولهم في المعارف

يرون وجوب معرفة الله بالعقل، والعقاب مترتب على ذلك ولو قبل ورود السمع وبعثة الأنبياء.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: قال أبو منصور الماتريدي في صبي عاقل: إنه يجب عليه معرفة الله، وإن لم يبلغ الحنث[٤]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة في التحسين والتقبيح.

---

(١) التوحيد ص(٢٦٦).

(٢) التوحيد ص(١٠).

(٣) التوحيد ص(٢٢١).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٦٢).

- قولهم في الأسماء والأحكام

أقوال العلماء

الإيمان عندهم هو تصديق القلب فقط، وبعضهم أضاف إقرار اللسان.

والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، ولا يجوز الاستثناء فيه.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: قد ثبت بأدلة القرآن وما عليه أهل الإيمان والذي جرى به من اللسان أن الإيمان هو التصديق[١]

وقال: أحق ما يكون به الإيمان القلوب بالسمع والعقل جميعًا[٢]

وقال: فثبت أن القلب هو موضع الإيمان[٣]

وقال: ثبت أن للإيمان بالقلب في التحقيق غير المعرفة، على أن المعرفة هي سبب يبعث على التصديق

وعلى هذا قول من يقول: الإيمان معرفة إنما هو التصديق عند المعرفة؛ هي التي تبعث عليه فسمى بها[٤]

وقال: الأصل عندنا قطع القول بالإيمان وبالتسمي به بالإطلاق وترك الاستثناء فيه[٥]

وقال: فلا يخلو من يستثنى من أن يكون عرف صدق نفسه وعظيم نعم الله وأفضاله، أو لم يعلم ذلك، أو علم أنه على غير ذلك.

فإن علم أنه على غير ذلك فبعدًا له، فإن الثنيا لا تنفعه سوى الارتياب فيما زعم أنه لم يعلمه.

وإن لم يعلم صدقه فيما قال ولا امتنان الله وأنعامه فويل له إذ جهل أعظم نعم الله وكفر به.

وإن علم ذلك؛ فإن في حرف الشك عند السامعين ستر نعم الله وكفران مننه فذلك آية الزوال وسبب المحق[٦]

وقال: ولو كان في شيء تسمية بالكفر فهو مجاز اللغة من حيث ذلك صنيعهم ونحو ذلك على ما يقال للمرء أصم وأعمى بما لا يقف على حقيقة ما بذلك يوصل إليه[٧]

---

(١) التوحيد ص(٣٣٢).

(٢) التوحيد ص(٣٧٣).

(٣) التوحيد ص(٣٧٥).

(٤) التوحيد ص(٣٨٠).

(٥) التوحيد ص(٣٨٨).

(٦) التوحيد ص(٣٩٠).

(٧) التوحيد ص(٣٢٧).

وقال في الكبائر: فثبت أن القول هو قول من لم يزل عنهم اسم الإيمان... ثبت أن اسم الإيمان غير زائل عنهم[١]

وقال شيخ الإسلام: وقد ذهب طائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة -كأبي منصور الماتريدي وأمثاله- إلى نظير هذا القول في الأصل، وقالوا: إن الإيمان هو ما في القلب، وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا[٢]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الأسماء والأحكام.

- قولهم في الوعيد

أقوال العلماء

قال الماتريدي: ومنهم من قسم الذنوب قسمين؛ فجعل منها صغائر تغفر باجتناب الكبائر وبالعفو وبالجزاء ونحو ذلك على اختلاف أقاويلهم [٣]

وقال: القول في جعل الصغائر كفرًا أو شركًا أو التخليد في النار جزاء لها قول مهجور[٤]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المرجئة في الوعيد.

- قولهم في النظر والاستدلال والتقليد

يرون وجوب النظر والاستدلال وعدم التقليد.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: إنا وجدنا الناس مختلفي المذاهب في النحل في الدين متفقين على اختلافهم في الدين على كلمة واحدة أن الذي هو عليه حق والذي عليه غيره باطل على اتفاق جملتهم من أن كلًّا منهم له سلف، فثبت أن التقليد ليس مما يعذر صاحبه لإصابة مثله ضده[٥]

وقال: السبيل التي يوصل بها إلى العلم بحقائق الأشياء العيان والأخبار والنظر[٦]

---

(١) التوحيد ص(٣٣٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠).
(٣) التوحيد ص(٣٢٥).
(٤) التوحيد ص(٣٢٨).
(٥) التوحيد ص(٣).
(٦) التوحيد ص(٧).

- قولهم في مصادر التلقي

يكون بالعقل في الإلهيات، وبعضهم يجعل فيها النبوات، وبالشرع أو السمع في أمور الآخرة.

وعند تعارض العقل مع النقل يقدم العقل، ويرد أو يؤول أو يفوض النقل.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: أصل ما يعرف به الدين، إذ لا بد أن يكون لهذا الخلق دين يلزمهم الاجتماع عليه وأصل يلزمهم الفزع إليه وجهان: أحدهما السمع، والآخر العقل[١]

وقال التفتازاني بعد ذكر عدة آيات الصفات: والجواب أنها ظنيات سمعية في معارضة قطعيات عقلية، فيقطع بأنها ليست على ظاهرها، ويفوض العلم بمعانيها إلى إله مع اعتقاد حقيتها جريا على الطريق الأسلم، . . ، أو تؤول تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدلة العقليَّة على ما ذكر في كتب التفسير وشروح الحديث سلوكًا للطريق الأحكم [٢]

وقال الجرجاني: الدلائل النقليَّة قد تفيد اليقين؛ أي في الشرعيات، . . ، نعم في إفادتها اليقين في العقليات نظر[٣]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الأشعرية في العقل والنقل.

- قولهم في الاستدلال على وجود الله

يستدلون على وجود الله بدليل الأعراض وحدوث الأجسام.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: الدليل على حدث الأعيان هو شهادة الوجوه الثلاثة التي ذكرنا من سبل العلم بالأشياء،

الدليل على أن للعالم محدثًا أنه ثبت حدثه بما بينا، وبما لا يوجد شيء منه في الشاهد يجتمع بنفسه ويفرق ثبت أن ذلك كان بغيره[٤]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والأشعرية في الاستدلال على وجود الله عز وجل.

---

(١) التوحيد ص(٤).

(٢) شرح المقاصد (٢/ ٥٠)، شرح العقائد النسفية ص(٤٢).

(٣) شرح المواقف (١/ ٢٠٩).

(٤) التوحيد ص(١١- ١٩).

- قولهم في التوحيد

التوحيد عندهم إثبات أن الله واحد في ذاته لا قسيم له، ولا جزء له، واحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا يشركه أحد في إيجاد المصنوعات.

والإله عندهم هو القادر على الاختراع.

أقوال العلماء

قال الجرجاني عن التوحيد: تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان، وهو ثلاثة أشياء معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة(١)

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول الأشعرية في التوحيد.

- قولهم في الاستدلال على وحدانية الله

يستدلون على وحدانية الله تعالى بدليل التمانع.

أقوال العلماء

قال الماتريدي: ثم دلالة العقل أنه لو كان أكثر من واحد ما احتمل وجود العالم إلا بالاصطلاح، وفي ذلك فساد الربوبية، ومعنى آخر أن كل شيء يريد أحد ممن ينسب إليه إثباته يريد الآخر نفيه، وما يريد أحدهما إيجاده يريد الآخر إعدامه، وكذلك في الإبقاء والإفناء، وفي ذلك تناقض وتناف، فدل الوجود على محدث العالم واحد تدبيره (٢)

قال التفتازاني: المحدث للعالم هو الله تعالى، أي الذات الواجب الوجوب، . . ، الواحد، يعني أن صانع العالم واحد، . . ، والمشهور في ذلك بين المتكلمين برهان التمانع المشار إليه بقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢]، وتقريره أنه لو أمكن إلهان لأمكن بينهما تمانع، بأن يريد أحدهما حركة زيد، والآخر سكونه، . . ، وحينئذ إما أن يحصل الأمران فيجتمع الضدان، أو لا فيلزم عجز أحدهما(٣)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: فهذه الطرق وأمثالها مما يبين به بها أئمة النظار توحيد الربوبية، وهي طرق صحيحة عقلية لم يهتدِ هؤلاء المتأخرون إلى معرفة توجيهها وتقريرها، ثم إن أولئك المتقدمين من

---

(١) التعريفات ص(٩٦).

(٢) التوحيد ص(٢٠).

(٣) شرح العقائد النسفية (٣١- ٣٣).

المتكلمين ظنوا أنها هي طرق القرآن، وليس الأمر كذلك.

بل القرآن قرر فيه توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وقرره أكمل من ذلك [١]

وقال: والمقصود هنا أن في هذه الآية بيان امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشئ عن عبادة ما سوى الله تعالى؛ لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته، من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم، وما سوى الله لا يصلح، فلو كان فيهما معبود غيره لفسدتا من هذه الجهة، فإنه سبحانه هو المعبود المحبوب لذاته، كما أنه هو الرب خالق بمشيئته[٢]

وتقدم مزيد بيان عند قول الأشعرية في التوحيد.

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٣١٢، ٣١٣).

(٢) منهاج السنة (٣/ ٣٣٤، ٣٣٥).

الباب السابع

المُمثِّلة والمُجَسِّمة

وهو يحتوي على سبعة فصول:

الفصل الأول: تعريف المُمثِّلة والمُجَسِّمَة.

الفصل الثاني: نشأة المُمثِّلة والمُجَسِّمَة.

الفصل الثالث: مقالة التَّمثيل والتَّجسيم.

الفصل الرابع: قدماء الرَّافضة.

الفصل الخامس: غلاة الصُّوفيَّة.

الفصل السادس: الكرَّاميَّة ومقالاتها.

الفصل السابع: طوائف أخرى من المُمثِّلة والمُجَسِّمَة.

الفصل الأول
تعريف المُمثِّلة والمُجَسِّمَة

التَّمثيل: هو اعتقاد المثبِت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين.

والتَّشبيه كالتَّمثيل، وقد يفرِّق بينهما بأن التَّمثيل التَّسوية في كل الصِّفَات أو في صفة كاملة، والتَّشبيه التَّسوية في أكثر الصفات أو في بعض الصفة، والَّذي نفاه الله عن نفسِه في القرآن هو المماثلة.

قال شيخ الإسلام: أهلُ التَّمثيلِ المشبِّهة للخالق بالمخلوقات(١)

قال: أهل التَّمثيل الَّذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات(٢)

قال: والفريقان الآخران -أهل التَّشبيه والتَّمثيل- منهم من يقول: يد كيدي، تعالى الله عن ذلك(٣)

وقال: ذكرت في النَّفي التَّمثيل، ولم أذكر التَّشبيه؛ لأن التَّمثيلَ نفاه الله بنص كتابِهِ حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: الآية ١١] ، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريَم: الآية ٦٥] ، وكان أحب إلي من لفظٍ ليس في كتاب الله، ولا في سنةِ رسوله ﷺ، وإن كان قد يعني بنفيه معنى صحيح، كما قد يعني به معنى فاسد(٤)

وقال: وأما التَّشبيه فهو في اصطلاحُ المتكلمين وغيرهم هو التَّمثيل، والمتشابهان هما المتماثلان، وهما ما سدَّ أحدهما مسدَّ صاحبه، وقام مقامَه وناب منابَه، وبينهم نزاعٌ في إمكان التَّشابه الذي هو التَّماثل من وجه، وهل التَّشابه الَّذي هو التَّماثل بنفس الذَّوَاتِ أو بالصِّفَاتِ القائمة بالذَّوَاتِ، وهذا التَّشبيه أيضًا منتفٍ عن الله وإنما خَالَف فيه المثبتة المُمثِّلة الَّذين وصَفَهم الأئمةُ وذمُّوهم كما قال الإمام أحمد: المشبِّه الَّذي يقول بصرٌ كبصري ويد كيدي، وقدمٌ كقدمي، ومن قال هذا فقد شبَّه الله بخلقه.

وكما قال إسحاق وأبو نعيم ومحقِّقو المتكلمين على أن هذا التَّشابهَ الذي هو التَّماثلُ لا يكون بالموافقةِ في بعض الصِّفَاتِ، بل الموافقة في جميع الصِّفَاتِ الذَّاتيَّةِ الَّتي بها يقوم بها أحدهما مقام الآخر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٦٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٦٦).

وأما التَّشْبيه في اللُّغة فإنه قد يقال بدون التَّماثلِ في شيءٍ من الحقيقة كما يقال للصورةِ المرسومةِ في الحائطِ: إنها تشبه الحيوانَ ويقال: هذا يشبه هذا في كذا وكذا، وإن كانت الحقيقتان مختلفتين.

ولهذا كان أئمة أهل السُّنَّةِ ومحقِّقو أهل الكلام يمنعون من أن يقال: لا يشبه الأشياءَ بوجه من الوجوهِ؛ فإن مقتضى هذا كونه معدومًا ومنهم طوائف يطلقون هذا.

لكن من هؤلاء من يريد بنفي التَّشابهِ نفيَ التَّماثلِ فلا يكون بينهما خلافٌ معنويٌّ؛ إذ هم متَّفقون على نفيِ التَّماثلِ بوجه من الوجوه كما دل على ذلك القرآنُ كما قد بيناه في غير هذا الموضعِ كما يعلم أيضاً بالعقل[(١)]

وقريب من معنى التَّمثيل معنى التَّكييفِ وهو أن يعتقد المثبِتُ أن كيفيةَ صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيدها بمماثل.

أما التَّجسيم فقد تنازع النَّاسُ في معناه، فمنهم من يعني به التَّرْكِيب من الجواهر المنفردة، ومنهم من يعني به التَّرْكِيب من المادةِ والصُّورةِ، ومنهم من يعني به الموجود القائم بنفسِهِ.

ولهذا لم يطلق السَّلَف هذا اللَّفظ لا نفيًا ولا إثباتًا إلا بعد الاستفسار والتَّفصيل؛ فيثبت ما أثبته الكِتابُ والسُّنَّة من المعاني، وينفي ما نفاه الكتاب والسنَّة من المعاني.

قال شيخ الإسلام: إن النَّاسَ متنازعون في الجسم: هل هو مركَّب من المادةِ والصورةِ؟ أو من الجواهرِ المنفردةِ؟ أو لا من هذا ولا من هذا؟ على ثلاثة أقوالٍ، وأكثر العقلاءِ على القولِ الثالثِ؛ كالهشَامِيَّة، والنَّجَّاريَّة، والضِّرَاريَّة، والكُلَّابيَّة، والأشْعَرِيَّة، وكثير من الكرَّاميَّة، وكثير من أهلِ الفقهِ والحديثِ والتَّصوفِ والمتفلسفةِ، وغيرهم[(٢)]

وقال: وكذلك إذا قيل: هو جسم، بمعنى أنه مركب من الجواهر المنفردة، أو المادة والصورة؛ فهذا باطل، بل هو أيضًا باطل في المخلوقات فكيف في الخالق سبحانه وتعالى؟! وهذا مما يمكن أن يكون قد قاله بعض المُجَسِّمَة الهشَامِيَّة، والكرَّاميَّة وغيرهم ممن يُحكى عنهم التَّجسيم؛ إذ من هؤلاء من يقول: إن كل جسم فإنه مركب من الجواهر المنفردة، ويقولون مع ذلك: إن الرب جسم، وأظن هذا قول بعض الكرَّاميَّة؛ فإنهم يختلفون في إثبات الجوهر الفرد، وهم متفقون على أنه سبحانه جسم.

لكن يحكى عنهم نزاع في المراد بالجسم: هل المراد به أنه موجود قائم بنفسه، أو المراد به أنه مركب؟ فالمشهور عن أبي الهيصم وغيره من نظارهم أنه يفسر مراده؛ بأنه موجود قائم بنفسه مشار إليه، لا بمعنى أنه مؤلَّف مركَّب. وهؤلاء ممن اعترف نُفَاة الجسم بأنهم لا يكفرون؛ فإنهم لم يثبتوا معنى فاسدًا في حقِّ الله تعالى، لكنْ قالوا: إنهم أخطئوا في تسمية كل ما هو قائم بنفسه، أو ما هو

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٦٥).

موجود جسمًا، من جهة اللغة؛ قالوا: فإن أهل اللغة لا يطلقون لفظ الجسم إلا على المركَّب[(١)]

وقال: لفظ التَّجسيمِ هو كلفظِ التَّأليفِ والتَّركيبِ والتَّبعيضِ والتَّجزئةِ، من معناه ما هو متفقٌ على نفيِهِ بين المسلمين ومنه ما هو متفقٌ على نفيِه بين علماءِ المسلمين من جميع الطوائفِ إلا ما يحكى عن غلاةِ المُجَسِّمَة من أنهم يمثلونه بالأجسامِ المخلوقةِ.

وأما المعنى الخاص الذي يعنيه النُّفَاة والمثبِتة الَّذين يقولون هو جسم لا كالأجسام فهذا مورد النِّزَاعِ بين أئمة أهل الكلامِ وغيرهم وهو الذي يتناقض سائر الطَّوائف من نفاتِه لإثبات ما يستلزمه، كما يتناقض مثبتوه مع نفي لوازمه.

ولهذا كان الذي عليه أئمة الإسلام إنهم لا يطلقون الألفاظ المبتدعة المتنازع فيها لا نفيًا ولا إثباتًا إلا بعد الاستفسار والتَّفصيل فيثبت ما أثبته الكتاب والسُّنَّة من المعاني وينفي ما نفاه الكتاب والسُّنَّة من المعاني[(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٤٢٨، ٤٣٥)، (٥/٥٧٦).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٧٧، ٤٧٨).

الفصل الثاني
نشأةُ المُمثِّلة والمُجَسِّمَة

ظهرت مقالة التَّمثيلِ والتَّجسيم في القرن الثاني بإزاء مقالة التَّعطيلِ.

قال شيخ الإسلام: وحدث التَّجهم وهو نفي الصفات، وبإزائه التَّمثيلِ[١]

- وأول من عُرِفَ عنه القولُ بالتَّجسيمِ وهو أن الله جسم هو هشام بن الحكم الكوفي الرَّافِضي (نحو ١٩٠ هـ)، رأس فرقةِ الهشَامِيَّة، وهو من متكلِّمي الشيعةِ، وذكر النديم أنه كان من أصحابَ جعفر الصادق[٢]

قال شيخ إسلام: وأول من عُرِفَ عنه في الإسلام أنه قال: إن الله جسمٌ، هو هشام بن الحكم[٣]

وقال: وأول ما ظهر إطلاق لفظ الجسم من متكلمة الشيعة كهشام بن الحكم، كذا نقل ابن حزم وغيره[٤]

وقال: وقال أبو محمد بن حزم وغيره: أول من قال في الإسلام إن الله جسم هشام بن الحكم، وكان الذين يناقضونه في ذلك المتكلمين من المعتزلة كأبي الهذيل العلاف.

فالجَهْمِيَّة والمعتزلة أول من قال: إن الله ليس بجسم[٥]

- وقد اشتهر آخرون كانوا يقولون مع هشام بن الحكم هذه المقالة عامتهم من الرافضة.

منهم هشام بن سالم الجواليقي رأس فرقة الهشَامِيَّة من فرق الرافضة أيضًا وتسمى الجواليقية[٦]

ومحمد بن النُّعمان الكوفي الملقب بشيطان الطَّاق وكان رافضيًّا معتزليًّا وتنسب إليه فرقة الشيطانية أو النعمانية[٧]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٨).

(٢) انظر: الفهرست ص(٢٤٩)، مقالات الإسلاميين ص(٣١- ٣٣)، التنبيه والرد ص(٢٤)، التبصير في الدين ص(٣٩، ٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨٤)، الملل والنحل (١/ ١٨٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٤)، تاريخ الإسلام (١٦/ ٤٣٦)، الوافي بالوافيات (٢٦/ ٥٧)، لسان الميزان (٦/ ١٩٤).

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٧٢، ٧٣).

(٤) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢١٧).

(٥) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٦) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٣٤)، التبصير في الدين ص(٣٩، ٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨٧)، الملل والنحل (١/ ١٨٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٤)، الوافي بالوافيات (٢٦/ ٦٤).

(٧) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٣٧)، التبصير في الدين ص(٤٠)، الفرق بين الفرق ص(٨٩)، الملل والنحل (١/ ١٨٦، ١٨٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٥)، تاريخ الإسلام (١١/ ١٨٢)، الوافي بالوافيات (٤/ ٧٨).

وداود الجواربي البصري وهو رأس في الرافضة أيضًا، وتنسب إليه فرقة الجواربية، وذكر السمعاني أنه قد أخذ مقالة التجسيم عن هشام بن سالم[(١)]

ويونس بن عبد الرحمن القمِّي من الرافضة أيضًا، وإليه تنسب فرقة اليونسية[(٢)]

قال الرازي: اعلم أن اليهود أكثرهم مشبهة وكان بدو ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض مثل بيان بن سمعان الذي كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح، وهشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمِّي، وأبو جعفر الأحول الذي كان يدعى شيطان الطَّاق، وهؤلاء رؤساء علماء الروافض ثم تهافت في ذلك المحدثون ممن لم يكن لهم نصيب من علم المعقولات[(٣)]

وقال شيخ الإسلام: هذا اللفظ بعينه أن: الله جسم له طول وعرض وعمق، أول من عُرف أنه قاله في الإسلام شيوخ الإماميَّة كهشام بن الحكم، وهشام بن سالم كما تقدم ذكره، وهذا مما اتفق عليه نقل الناقلين للمقالات في الملل والنحل من جميع الطوائف مثل أبي عيسى الوراق وزرقان، وابن النوبختي وأبي الحسن الأشعري وابن حزم والشهرستاني وغير هؤلاء، ونقل ذلك عنهم موجود في كتب المعتزلة والشيعة والكرَّاميَّة والأشعرية وأهل الحديث وسائر الطوائف، وقالوا: أول من قال: إن الله جسم هشام بن الحكم[(٤)]

وقال: وكان متكلمو الشيعة كهشام بن الحكم وهشام بن الجواليقي ويونس بن عبد الرحمن القمِّي وأمثالهم يزيدون في إثبات الصفات على مذهب أهل السنة؛ فلا يقنعون بما يقوله أهل السنة والجماعة من أن القرآن غير مخلوق وأن الله يُرى في الآخرة وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث، حتى يبتدعون في الغلو في الإثبات والتجسيم والتبعيض والتمثيل ما هو معروف من مقالاتهم التي ذكرها الناس[(٥)]

- ثم جاء بعد ذلك محمد بن كرَّام السجستاني (٢٥٥ هـ) وقال بمقالة التجسيم، وتبعه على ذلك خلق كثير.

قال الشهرستاني: ونبغ رجل متنمس بالزهد من سجستان يقال له: أبو عبد الله محمد بن كرام، قليل العلم قد قمش من كل مذهب ضغثًا وأثبته في كتابه وروجه على أغتام غرجة وغور وسواد بلاد

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص(٢٠٩، ١٥٣)، التبصير في الدين ص(١٢٠)، الملل والنحل (١/ ١٠٥)، الأنساب (٥/ ٦٤٣)، لسان الميزان (٢/ ٤٢٧)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤١٢).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٣٥)، التبصير في الدين ص(١٢٠)، الفرق بين الفرق ص(٨٨)، الملل والنحل (١/ ١٨٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٥)، الأنساب (٥/ ٧١١)، الوافي بالوافيات (٢٩/ ١٨٣).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٣، ٦٤).

(٤) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٠١، ٥٠٢).

(٥) منهاج السنة النبوية (١/ ٧١، ٧٢).

خراسان فانتظم ناموسه وصار ذلك مذهبًا...

وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج وهم مجسمة وحاشا غير محمد بن الهيصم فإنه مقارب[(١)]

وقال شيخ الإسلام: وإثبات الجسم قول محمد بن كرام وأمثاله[(٢)]

---

(١) الملل والنحل (١/ ٣٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢٠).

الفصل الثالث
مقالة التَّمثيلِ والتَّجسيمِ

زعموا أن الله عز وجل لا يخاطبنا إلا بما نعقل، فإذا أخبرنا عن اليد فنحن لا نعقل إلا هذه اليد الجارحة، وهكذا في سائر الصفات، وأن الله جسم، مقابلة منهم لنفاة الجسم من المُعَطِّلَة.

أقوال العلماء

قال الأشعري: قالت المُجَسِّمَة: له يدان ورجلان ووجه وعينان وجنب يذهبون إلى الجوارح والأعضاء(١).

وقال شيخ الإسلام: وحدث مع الجَهْمِيَّة قوم شبهوا الله تعالى بخلقه؛ فجعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين، فأنكر السلف والأئمة على الجَهْمِيَّة المُعَطِّلَة، وعلى المشبهة المُمَثِّلَة، وكان إمام المعتزلة أبو الهذيل العَلَّاف ونحوه من نُفَاة الصفات قالوا: يقتضي أن يكون جسمًا والله تعالى منزه عن ذلك. قال هؤلاء: بل هو جسم، والجسم هو القائم بنفسه، أو الموجود، أو غير ذلك من المقالات، وطعنوا في أدلة نفاة الجسم بكلام طويل لا يتسع له الجواب هنا.

ثم من هؤلاء من قال: هو جسم كالأجسام، ومنهم من وصفه بخصائص المخلوقات، وحُكِيَ عن كل واحدة من الطائفتين مقالات شنيعة.

وجاء أبو محمد بن كلاب فقال هو وأتباعه: هو الموصوف بالصفات، ولكن ليست الصفات أعراضًا؛ إذ هي قديمة باقية لا تعرض ولا تزول، ولكن لا يوصف بالأفعال القائمة به كالحركات؛ لأنها تعرض وتزول.

فقال ابن كرَّام وأتباعه: لكنه موصوف بالصفات وإن قيل: إنها أعراض، وموصوف بالأفعال القائمة بنفسه وإن كانت حادثة، ولما قيل لهم: هذا يقتضي أن يكون جسمًا، قالوا: نعم هو جسم كالأجسام! وليس ذلك ممتنعًا دائمًا، وإنما الممتنع أن يشابه المخلوقات فيما يجب ويجوز ويمتنع، ومنهم من قال: أطلق لفظ الجسم لا معناه، وبين هؤلاء المتكلمين النُّظار بحوث طويلة مستوفاة في غير هذا الموضع(٢).

وقال عن المُعَطِّلَة من الجَهْمِيَّة والمعتزلة: وهؤلاء أول من عُرف عنهم في الإسلام أنهم أثبتوا حدوث العالم بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بحدوث ما يستلزمها من الأعراض، وقالوا: الأجسام لا تنفك عن أعراض محدثة، وما لا ينفك عن الحوادث أو ما لا يسبق الحوادث

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥، ٣٦).

فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها.

ثم إنهم تفرقوا عن هذا الأصل

وهذا هو الأصل الذي أصَّله هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وغيرهما من المُجَسِّمَة الرافضة وغير الرافضة كالكرَّاميَّة؛ فقالوا: بل يجوز ثبوت جسم قديم أزلي لا أول لوجوده وهو خال عن جميع الحوادث، وهؤلاء عندهم الجسم القديم الأزلي يخلو عن الحوادث، وأما الأجسام المخلوقة فلا تخلو عن الحوادث، ويقولون: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، لكن لا يقولون: إن كل جسم فإنه لا يخلو عن الحوادث(١)

وقال: مع أن مقالة المشبهة الذين يقولون: يد كيدي، وقدم كقدمي، وبصر كبصري، مقالة معروفة وقد ذكرها الأئمة كيزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم وأنكروها وذموها، ونسبوها إلى مثل داود الجواربي البصري وأمثاله. ولكن مع هذا صاحب هذه المقالة لا يمثله بكل شيء من الأجسام، بل ببعضها ولا بد مع ذلك أن يثبتوا التماثل من وجه، لكن إذا أثبتوا من التماثل ما يختص بالمخلوقات كانوا مبطلين على كل حال(٢)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وفي الجملة الكلام في التَّمثيلِ والتَّشبيهِ ونفيه عن الله مقام، والكلام في التجسيم ونفيه مقام آخر، فإن الأول دل على نفيه الكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة واستفاض عنهم الإنكار على المشبهة الذين يقولون: يد كيدي، وبصر كبصري، وقدم كقدمي.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: الآية ٤] وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢]، وأيضًا فنفي ذلك معروف بالدلائل العقلية التي لا تقبل النقيض كما قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع وأفردنا الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] في مصنف مفرد.

وأما الكلام في الجسم والجوهر ونفيهما أو إثباتهما فبدعة ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا تكلم أحد من السلف والأئمة بذلك لا نفيًا ولا إثباتًا، والنزاع بين المتنازعين في ذلك بعضه لفظي وبعضه معنوي أخطأ هؤلاء من وجه وهؤلاء من وجه.

فإن كان النزاع مع من يقول: هو جسم أو جوهر إذا قال: لا كالأجسام ولا كالجواهر إنما هو اللفظ، فمن قال هو كالأجسام والجواهر يكون الكلام معه بحسب ما يفسره من المعنى.

فإن فسر ذلك بالتشبيه الممتنع على الله تعالى كان قوله مردودًا وذلك بأن يتضمن قوله إثبات

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٠٩- ٣١١).

(٢) درء التعارض (٤/ ١٤٥).

شيء من خصائص المخلوقين لله فكل قول تضمن هذا فهو باطل.

وإن فسر قوله جسم لا كالأجسام بإثبات معنى آخر مع تنزيه الرب عن خصائص المخلوقين كان الكلام معه في ثبوت ذلك المعنى وانتفائه، فلا بد أن يلحظ في هذا المقام إثبات شيء من خصائص المخلوقين للرب أولا، وذلك مثل أن يقول: أصفه بالقدر المشترك بين سائر الأجسام والجواهر، كما أصفه بالقدر المشترك بينه وبين سائر الموجودات وبين كل حي عليم سميع بصير، وإن كنت لا أصفه بما تختص به المخلوقات وإلا فلو قال الرجل: هو حي لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين، وعليم لا كالعلماء، وسميع لا كالسمعاء، وبصير لا كالبصراء ونحو ذلك وأراد بذلك نفي خصائص المخلوقين -فقد أصاب.

وإن أراد نفي الحقيقة التي للحياة والعلم والقدرة ونحو ذلك مثل أن يثبت الألفاظ وينفي المعنى الذي أثبته الله لنفسه وهو من صفات كماله فقد أخطأ.

إذا تبين هذا فالنزاع بين مثبتة الجوهر والجسم ونفاته يقع من جهة المعنى في شيئين أحدهما أنهم متنازعون في تماثل الأجسام والجواهر على قولين معروفين؛ فمن قال بتماثلها قال كل من قال: إنه جسم لزمه التمثيل، ومن قال: إنها لا تتماثل قال: إنه لا يلزمه التمثيل.

ولهذا كان أولئك يسمون المثبتين للجسم مشبهة بحسب ما ظنوه لازمًا لهم كما يسمى نفاة الصفات لمثبتيها ومجسمة حتى سموا جميع المثبتة للصفات مشبهة ومجسمة وحشوية وغثاء وغثراء ونحو ذلك بحسب ما ظنوه لازمًا لهم.

لكن إذا عرف أن صاحب القول لا يلتزم هذه اللوازم لم يجز نسبتها إليه على أنها قول له سواء كانت لازمة في نفس الأمر أو غير لازمة بل إن كانت لازمة مع فسادها دل على فساد قوله[١]

وقال: وأصل هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك، مثل الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر والكلام؛ فإن الله له حياة وعلم وقدرة، وسمع وبصر وكلام. فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه، والعبد له حياة وعلم وقدرة، وسمع وبصر وكلام، وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه.

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات: تارة تعتبر مضافة إلى الرب، وتارة تعتبر مضافة إلى العبد، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد، فإذا قال العبد: حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك؛ فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين، وإذا قال: علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد؛ فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب، وإذا قال: العلم والقدرة

---

(١) درء التعارض (٤/ ١٤٥- ١٤٨).

والكلام، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق؛ فالصفة تتبع الموصوف. فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة[١]

وقال: مذهب السلف والأئمة إثبات الصفات، ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات، فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه، منزه عن صفات النقص مطلقًا، ومنزه عن أن يماثله غيره في صفات كماله، فهذان المعنيان جمعا التنزيه، وقد دل عليهما قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ فالاسم الصمد يتضمن صفات الكمال، والاسم الأحد يتضمن نفي المثل، كما قد بسط الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة.

فالقول في صفاته كالقول في ذاته، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ لكن يفهم من ذلك أن نسبة هذه الصفة إلى موصوفها كنسبة هذه الصفة إلى موصوفها؛ فعلم الله وكلامه ونزوله واستواؤه هو كما يناسب ذاته ويليق بها، كما أن صفة العبد هي كما تناسب ذاته وتليق بها، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفات العبد إلى ذاته.

ولهذا قال بعضهم: إذا قال لك السائل: كيف ينزل، أو كيف استوى، أو كيف يعلم، أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق؟ فقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: أنا لا أعلم كيفية ذاته؛ فقل له: وأنا لا أعلم كيفية صفاته، فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف[٢]

وقال: اتفاق المسميين في بعض الأسماء والصفات: ليس هو التشبيه والتمثيل، الذي نفته الأدلة السمعيات والعقليات، وإنما نفت ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص يه الخالق مما يختص بوجوبه أو جوازه أو امتناعه، فلا يجوز أن يشركه فيه مخلوق، ولا يشركه مخلوق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى[٣]

وقال: وكذلك التمثيل: منفي بالنص، والإجماع القديم، مع دلالة العقل على نفيه، ونفي التكييف؛ إذ كنه البارئ غير معلوم للبشر؛ وذكرت في ضمن ذلك كلام الخطابي الذي نقل أنه مذهب السلف، وهو إجراء آيات الصفات، وأحاديث الصفات على ظاهرها، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها؛ إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات؛ يُحْتَذَى فيه حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات: إثبات وجود لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات: إثبات وجود لا إثبات تكييف[٤]

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٦٥، ٦٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٢٩، ٣٣٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢، ٢٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٦٧).

وقال: ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله[(١)]

وقال: والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال، وينزهونه عن الأكفاء والأمثال، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات؛ فإن المعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] [(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٣).

الفصل الرابع

قدماء الرافضة

كما سبق بيانه فإن أئمة الرافضة القدماء هم أول من قالوا بالتجسيم، وقد انتشرت هذه المقالة في سائر طوائفهم المتقدمة.

قال شيخ الإسلام: وهذا أمر معلوم، فإن أهل العلم متفقون على أن هذه المقالات الغالية في وصف الرب بالعيوب والنقائص المتضمنة تشبيه الخالق بالمخلوق في صفات النقص وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية هي أكثر ما يكون في الشيعة باتفاق الناس، فلا يوجد في طوائف الأمة أشنع في الحلول والتمثيل والتعطيل مما يوجد فيهم(١).

وقال: هذه المقالات التي نقلت في التشبيه والتجسيم لم نرَ الناس نقلوها عن طائفة من المسلمين أعظم مما نقلوها عن قدماء الرافضة، ثم الرافضة حُرموا الصواب في هذا الباب كما حرموه في غيره، فقدماؤهم يقولون بالتجسيم الذي هو قول غلاة المُجَسِّمَة، ومتأخِّروهم يقولون بتعطيل الصفات موافقة لغلاة المُعَطِّلَة من المعتزلة ونحوهم، فأقوال أئمَّتِهم دائرة بين التَّعطيلِ والتَّمْثيلِ، لم تعرف لهم مقالة متوسطة بين هذا وهذا(٢).

وقال: إن التَّشبيهَ والتَّجسيمَ المخالفَ للعقل والنقل لا يُعرف في أحدٍ من طوائف الأمة أكثر منه في طوائف الشِّيعة، وهذه كتب المقالات كلها تخبر عن أئمَّة الشِّيعةِ المتقدمين من المقالات المخالفةِ للعقل والنقل في التَّشبيه والتَّجسيم بما لا يُعرف نظيره عن أحدٍ من سائر الطوائفِ، ثم قدماء الإماميَّة ومتأخِّروهم متناقضون في هذا الباب، فقدماؤهم غلوا في التَّشبيهِ والتَّجسيمِ، ومتأخِّروهم غلوا في النفي والتَّعطيلِ(٣).

وسنذكر فرقَ الشِّيعةِ التي قالت بالتَّمثيل والتَّجسيم بإيجازٍ، ولمزيدٍ من التفصيلِ عنها يُراجع الباب المخصص للكلامِ عن الشِّيعةِ.

البَيَّانِيَّة

أتباع بيَّان بن سمعان، زعم أن معبودَه إنسانٌ من نور على صورةِ الإنسانِ في أعضائِهِ، وأنه يفنى كلُّه إلا وجهه.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٠٣).

المُغِيرِيَّةِ

أتباع المُغيرة بن سعيد العجلي، زعم أن معبودَه على صورةِ رجلٍ، على رأسِهِ تاجٌ، وأن أعضاءَه على صورِ حروفِ الهجاءِ.

الهِشَامِيَّة او الحَكَمِيَّة

أتباع هشام بن الحكم، كان يقيس معبودَه على الناس، وكان يزعم أن معبودَه سبعةُ أشبارٍ بشبرِ نفسِهِ، وأنه يتلألأ كما تتلألأ النقرة البيضاء من كل جانب.

الهِشَامِيَّة او الجواليقية

أتباع هشام بن سالم الجواليقي، زعم أن معبودَه على صورةِ إنسانٍ ولكنَّ نصفه الأسفل مصمت، ونصفه الأعلى مجوف، وله شعر أسود على رأسِهِ، وأن قلبَه مُنْبِعٌ بالحكمةِ نبعَ الماءِ من العيون.

اليُونُسِيَّة

أتباع يونس بن عبد الرحمن القمِّي، زعم أن حملةَ عرشِ الرحمنِ يحملونه وإن كان هو أقوى منهم كما أن رجل الكركي تحمل بدنه وإن كان بدنه أقوى من رجله.

الزُّرَارِيَّةُ

أتباع زرارة بن أعين، زعموا أن حياته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره كحياة الخلقِ وعلمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم، وزعموا أنها كلّها حادثة مثل صفات الأجسام.

الشَّيْطَانِيَّة

أتباع شيطان الطَّاقِ، زعموا أن الله تعالى لا يعلم الشيءَ قبل أن يكون حتى يكونَ، وأن علمه محدث كعلوم العباد.

الجواربِيَّة

أتباع داود الجواربي، أثبت لمعبودِه جميعَ أعضاءِ الإنسانِ، وكان يقول: أعفوني عن الفرج واللحية، وكان يقول: إنه أجوف من فيه إلى صدره، ومصمت ما سوى ذلك[1].

---

(١) انظر: الفصل (٤/ ١٤٢، ١٤٣)، التبصير في الدين ص(١١٩- ١٣٥)، الفرق بين الفرق ص(٢٣٧- ٢٤١)، الملل والنحل (١/ ١٠٣- ١٠٨، ١٤٠)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٣- ٦٦)، المواقف (٣/ ٤٤، ٤٥).

ومن الرافضة من قال بالحلول في الأشخاص والمخلوقات وبتأليه بعض البشر، وهذا يستلزم أن يكون إلههم جسم.

قال الشهرستاني: ومن المشبهة من مال إلى مذهب الحلوليَّة وقال: يجوز أن يظهر الباريء تعالى بصورة شخص والغلاة من الشِّيعة مذهبهم الحلول[١]

ومن هؤلاء الحلولية:

السبئية

الذين سموا عليًّا إلهًا وشبهوه بذات الإله، ولما أحرق قومًا منهم قالوا له: الآن علمنا أنك إله؛ لأن النار لا يعذب بها إلا الله.

الجناحيَّة

أتباع عبدِ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، زعموا أن روح الإله تحل في الأنبياء والأئمة، وتنتقل من بعضهم إلى بعض.

المنصوريَّة

أتباع أبي منصور العجليّ الذي شبه نفسه بربِّه، وزعم أنه صعد إلى السماء، وزعم أيضًا أن الله مسح يده على رأسه وقال له: يا نبي بلِّغ عني.

الخطابيَّة

الذين قالوا بإلهية الأئمة وبإلهية أبي الخطاب الأسديّ.

المعمريَّة

أتباع رجل اسمه معمر، وكانوا يعبدونه.

البزيغيَّة

أتباع بزيغ، وكان يزعم أن جعفرًا كان إلهًا، ولم يكن جعفر ذلك الذي يراه الناس، بل كان ما يراه الناس في صورة مثاله.

العميريَّة

أتباع عمير بن بيان العجليّ، وكانوا يعبدون جعفرًا وسموه ربًّا.

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٠٧، ١٠٨).

المفضليَّة

أتباع مفضل الصيرفيّ، وقالوا بإلهية جعفر دون نبوته.

الحربيَّة

الذين قالوا بإلهية عبد الله بن عمرو بن حرب، ثم قالوا بإلهية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

الشريعِيَّة والنميرِيَّة

الَّذين قالوا بحلول الله في خمسة أشخاص: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وزعموا أن هؤلاء الخمسة آلهة.

العليائِيَّة

أتباع العلياء بن ذراع الدوسيّ أو الأسديّ، وكانوا يقولون بإلهية علي بن أبي طالب، ومنهم من قال بإلهية محمد وعلي، ومنهم من قال بإلهية أصحاب الكساء الخمسة.

النصيرِيَّة

أتباع ابن نصير، الذي ادعى الربوبية، وأتباعه يؤلهون علي بن أبي طالب.

الدروز

أتباع نشتكين، وهم يؤلهون الحاكم بأمر الله سادس الملوك العبيدين بمصر.

المُسْلِمِيَّة

الذين قالوا: إن أبا مسلم حيٌّ، وإن روح الإله انتقلت إليه وهم على انتظاره.

المُقَنَّعِيَّة

هم المبيِّضة بما وراء نهر جيحون، ادعوا أن المقنَّع كان إلهًا وأنه مصور في كل زمان بصورة مخصوصة.

العذافرة

أتباع المعروف بابن أبي العذافر، واسمه محمد بن علي الشَّلْمَغاني، وادعى حلول روح الإله فيه، وسمى نفسه روح القدس.

الحلْمَانِيَّة

أتباع رجل يقال له أبو حلمان الدِّمشقي، زعم أن الإله يحل في كل صورة حسنة، فكانوا يسجدون لكل صورة حسنة.

الحَلَّاجِيَّة

أتباع الحسين بن منصور الحلاج، وكان من الحلولية الذين يزعمون أن روح الإله تحل في بعض البشر، وزعموا أنها قد حلت فيه(١)

(١) انظر: المصادر السابقة.

الفصل الخامس
غُلَاة الصَّوفِيَّةِ

قال الأشعري: وفي الأمة قوم ينتحلون النسك، يزعمون أنه جائز على الله سبحانه الحلولُ في الأجسام، وإذا رأوا شيئًا يستحسنونه قالوا: لا ندرى لعله ربنا.

ومنهم من يقول: إنه يُرَى الله سبحانه في الدنيا على قدر الأعمال، فمن كان عمله أحسن رأى معبوده أحسن.

ومنهم من يجوز على الله سبحانه المعانقة والملامسة المجالسة في الدنيا، وجوزوا مع ذلك على الله -تعالى عن قولهم- أن نلمسه.

ومنهم من يزعم أن الله سبحانه ذو أعضاء وجوارح وأبعاض؛ لحم ودم على صورة الإنسان، له ما للإنسان من الجوارح، تعالى ربنا عن ذلك علوًا كبيرًا.

وكان في الصوفية رجل يعرف بأبي شعيب، يزعم أن الله يُسَرُّ ويفرح بطاعة أوليائه، ويغتمُّ ويحزن إذا عَصَوْهُ.

وفى النساك قوم يزعمون العبادة تبلغ بهم إلى منزلة تزول عنهم العبادات وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم من الزنى وغيره مباحاتٍ لهم.

وفيهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم أن يروا الله سبحانه ويأكلوا من ثمار الجنة، ويعانقوا الحورَ العِينَ في الدنيا، ويحاربوا الشياطين.

ومنهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين، والملائكة المقرَّبين[١].

قال شيخ الإسلام: قلت: هذه المقالات التي حكاها الأشعري -وذكروا أعظم منها- موجودة في الناس قبل هذا الزمان، وفي هذا الزمان منهم من يقول بحلوله في الصور الجميلة، ويقول: إنه بمشاهدة الأمرد يشاهد معبوده أو صفات معبوده أو مظاهر جماله، ومن هؤلاء من يسجد للأمرد، ثم من هؤلاء من يقول بالحلول والاتحاد العام، لكنه يتعبد بمظاهر الجمال، لما في ذلك من اللذة له، فيتخذ إلهه هواه، وهذا موجود في كثير من المتنسبين إلى الفقر والتصوف، ومنهم من يقول: إنه يرى الله مطلقًا ولا يعيِّن الصورة الجميلة، بل يقولون: إنهم يرونه في صور مختلفة. ومنهم من يقول: إن المواضع المخضَرَّة خَطا عليها، وإنما اخضرَّت من وطئه عليها، وفي ذلك حكايات متعددة يطول وصفها.

وأما القول بالإباحة وحل المحرمات -أو بعضها- للكاملين في العلم والعبادة؛ فهذا أكثر من

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٨، ٢٨٩).

الأول، فإن هذا قول أئمة الباطنية القرامطة الإسماعيلية وغير الإسماعيلية وكثير من الفلاسفة، ولهذا يُضرب بهم المثل فيقال: فلان يستحل دمي كاستحلال الفلاسفة محظورات الشرائع، وقول كثير ممن ينتسب إلى التصوف والكلام، وكذلك من يفضِّل نفسه أو متبوعه على الأنبياء، موجود كثير في الباطنية والفلاسفة وغلاة المتصوفة وغيرهم، وبسط الكلام على هذا له موضع آخر.

ففي الجملة هذه مقالات منكرة باتفاق علماء السنة والجماعة، وهي -وأشنع منها- موجودة في الشيعة.

وكثير من النُّسَّاك يظنون أنهم يرون الله في الدنيا بأعينهم، وسبب ذلك أنه يحصل لأحدهم في قلبه بسبب ذكر الله تعالى وعبادته من الأنوار ما يغيب به عن حسِّه الظاهر، حتى يظن أن ذلك هو شيء يراه بعينه الظاهرة، وإنما هو موجود في قلبه.

ومن هؤلاء من تخاطبه تلك الصورة التي يراها خطاب الربوبية، ويخاطبها أيضًا بذلك، ويظن أن ذلك كله موجود في الخارج عنه، وإنما هو موجود في نفسه، كما يحصل للنائم إذا رأى ربه في صورة بحسب حاله. فهذه الأمور تقع كثيرًا في زماننا وقبله، ويقع الغلط منهم حيث يظنون أن ذلك موجود في الخارج.

وكثير من هؤلاء يتمثل له الشيطان، ويرى نورًا أو عرشًا أو نورًا على العرش، ويقول: أنا ربك، ومنهم من يقولك أنا نبيك، وهذا قد وقع لغير واحد. ومن هؤلاء من تخاطبه الهواتف بخطاب على لسان الإلهية أو غير ذلك، ويكون المخاطب له جنيًّا، كما قد وقع لغير واحد. لكن بسط الكلام على ما يُرى ويُسمع وما هو في النفس والخارج، وتمييز حقه من باطله ليس هذا موضعه، وقد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع.

وكثير من الجهَّال أهل الحال وغيرهم يقولون: إنهم يرون الله عيانًا في الدنيا، وأنه يخطوا خطوات[(١)]

وقال: ومنهم من يصف ربَّه في قصائدِهِ بما نقل في الموضوعات من أصناف التمثيل والتكييف والتجسيم، التي هي كذب مفترى وكفر صريح: مثل مواكلته ومشاربته، ومماشاته ومعانقته، ونزوله إلى الأرض وقعوده في بعض رياض الأرض، ونحو ذلك. ويجعل كل منهم ذلك من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة التي تكون لخواص أولياء الله المتقين[(٢)]

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٦٢٣- ٦٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٧).

الفصل السادس

الكرَّاميَّة

أتباع أبي عبد الله محمد بن كرَّام بن عراق السجستاني، جالس أحمد الجوباري ومحمد بن تميم السعدي وكانا يضعان الحديث على رسول الله ﷺ، ثم جالس أحمد بن حرب الأصبهاني فأخذ التقشف.

نُفِي من سجستان فوقع في غرجستان، فاغتر بظاهر عبادته أهل شورمين وأفشين فبايعوه، وخرج معه قوم إلى نيسابور في أيام محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، فاغتر بما كان يريه من زهده جماعة من أهل السواد فدعاهم إلى مقالاته، وأفشاها فيهم، واتبع بها قوم من أتباعه، وتمردوا على نصرته، وصار لهم انتشار في خراسان وغيرها.

ولما جاء إلى نيسابور حبسه محمد بن عبد الله بن طاهر ثمان سنين، ولما توفي كان أصحابه في القدس أكثر من عشرين ألفًا على التقشف والتعبد[١].

فِرَق الكرَّاميَّة

قال الإسفراييني والبغدادي: والكرَّاميَّة ثلاث أصناف: حقائقية، وطرائقية، وإسحاقية[٢]

وزاد الرازي عليهم: العابدية، واليونانية، والسورمية، والهيصمية[٣]

وقال الشهرستاني: وهم طوائف بلغ عددهم إلى اثنتي عشر فرقة، وأصولها ستة: العابدية، والتونية، والزرينية، والإسحاقية، والواحدية، وأقربهم الهيصمية[٤]

مقالات الكرَّاميَّة

مجمل مقالاتهم

قال شيخ الإسلام: والكرَّاميَّة قولهم في الإيمان قول منكر، لم يسبقهم إليه أحد، حيث جعلوا الإيمان قول اللسان، وإن كان مع عدم تصديق القلب، فيجعلون المنافق مؤمنًا؛ لكنه يخلد في النار

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(١١١)، الفرق بين الفرق ص(٢٢٧)، الملل والنحل (١/ ٣٢، ١٠٨- ١١٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٧)، البرهان ص(٣٥، ٣٦)، المواقف (٣/ ٧١٤)، تاريخ الإسلام (١٩/ ٣١٠)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٣/ ٩٥)، المغني (٢/ ٦٢٧)، لسان الميزان (٥/ ٣٥٣).

(٢) التبصير في الدين ص(١١١)، الفرق بين الفرق ص(٢٢٧).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٧).

(٤) الملل والنحل (١/ ١٠٨).

فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحكم، وأما في الصفات والقدر والوعيد فهم أشبه من أكثر طوائف الكلام التي في أقوالها مخالفة للسنة[(١)]

وقال: الكرَّاميَّة باينوا سائر الطوائف في قولهم: إن الإيمان هو القول باللسان، فمن أقرَّ بلسانه كان مؤمنًا، وإن جحد بقلبه، قالوا: وهو مؤمن مخلَّد في النار، فإن هذا لم يقله غيرهم[(٢)]

تفصيل مقالاتهم

- قولهم في الأسماء والأحكام

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومن بدعهم في باب الإيمان قولهم: إن الإيمان قول مجرد، لا هذا القول الذي يقوله القائل الآن: إنه لا إله إلا الله، ولكن هذا القول الذي صدر عن ذرية آدم في بعث الميثاق حين قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]

ويقولون: إن ذلك القولَ قولٌ باقٍ أبدًا، لا يزول حكمه إلا أن يرتد عنه فحينئذ يزول حكمه.

وقالوا: إن الزنديقَ أو المنافقَ إذا قال بلسانه: لا إله إلا الله، وفي قلبه النفاق والزندقة فهو مؤمن حقًّا، وإيمانه كإيمان الأنبياء والمرسلين، وقالوا: إن المنافقين الذين كانوا في عهد رسول الله كان إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل وجميع الأنبياء والأولياء[(٣)]

وقال البغدادي: ثم إن الكرَّاميَّة خاضوا في باب الإيمان، فزعموا أنه إقرار فرد على الابتداء وأن تكريره لا يكون إيمانًا إلا من المرتد إذا أقر به بعد ردته.

وزعموا أيضًا أنه هو الإقرار السابق في الذَّرِّ الأول في طلب النبي عليه السلام وهو قولهم: بلى.

وزعموا أن ذلك القولُ باقٍ أبدًا لا يزول إلا بالرِّدَّة.

وزعموا أيضًا أن المقرَّ بالشهادتين مؤمن حقًّا وإن اعتقد الكفر بالرسالة.

وزعموا أيضًا أن المنافقين الذين أنزل الله تعالى في تكفيرهم آياتٍ كثيرةً كانوا مؤمنين حقًّا، وأن إيمانهم كان كإيمان الأنبياء والملائكة.

وقالوا في أهل الأهواء من مخالفيهم ومخالفي أهل السنة: أن عذابهم في الآخرة غير مؤبد، وأهل الأهواء يرون خلود الكرَّاميَّة في النار[(٤)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/١٠٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢).

(٣) التبصير في الدين ص(١١٥، ١١٦).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٣٤).

وقال الشهرستاني: وقالوا: الإيمان هو الإقرار باللسان فقط دون التصديق بالقلب، ودون سائر الأعمال، وفرَّقوا بين تسمية المؤمن مؤمنًا، فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والجزاء، فالمنافق عندهم مؤمن في الدنيا على الحقيقة مستحقٌّ للعقاب الأبديِّ في الآخرة[١].

وقال السكسكيُّ: وكان يقول: إن الإيمان قولٌ باللسانِ، دون اعتقاد القلبِ وعمل الجوارح، فمن أقر بلسانِهِ فهو مؤمن حقًّا، وإن اعتقد بقلبه ما شاء من الكفرِ والشركِ، وجحدوا العباداتِ، وزعموا أن المنافقين كانوا مؤمنين في الحقيقة، وهو ضد اعتقاد الجَهْمِيَّة[٢].

وقال الإيجي عنهم: والإيمان قول الذر في الأزل: بلى، وهو باقٍ في الكلِّ إلا المرتدين، وإيمان المنافق كإيمان الأنبياء، والكلمتان ليستا بإيمان إلا بعد الردة[٣].

وقال شيخ الإسلام: والكرَّاميَّة توافق المرجئة والجَهْمِيَّة في أن إيمان الناس كلهم سواء، ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون: هو مؤمن حقًّا لمن أظهر الإيمان، وإذا كان منافقًا فهو مخلد في النار عندهم، فإنه إنما يدخل الجنة من آمن باطنًا وظاهرًا؛ ومن حكى عنهم أنهم يقولون: المنافق يدخل الجنة، فقد كذب عليهم، بل يقولون: المنافق مؤمن لأن الإيمان هو القول الظاهر، كما يسميه غيرهم مسلمًا إذ الإسلام: هو الاستسلام الظاهر، ولا ريب أن قول الجَهْمِيَّة أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعًا ولغةً وعقلًا[٤].

وقال: وقول ابن كرام فيه مخالفة في الاسم دون الحكم فإنه -وإن سمى المنافقين مؤمنين- يقول: إنهم مخلدون في النار، فيخالف الجماعة في الاسم دون الحكم، وأتباع جهم يخالفون في الاسم والحكم جميعًا[٥].

وقال: وأما الكافر المنافق في الباطن فإنه خارج عن المؤمنين المستحقين للثواب باتفاق المسلمين.

ولا يسمون بمؤمنين عند أحد من سلف الأمة وأئمتها، ولا عند أحد من طوائف المسلمين، إلا عند طائفة من المرجئة، وهم الكرَّاميَّة الذين قالوا: إن الإيمان هو مجرد التصديق في الظاهر، فإذا فعل ذلك: كان مؤمنًا وإن كان مكذبًا في الباطن، وسلَّموا أنه معذب مخلَّد في الآخرة، فنازعوا في اسمه لا في حكمه، ومن الناس من يحكي عنهم أنهم جعلوهم من أهل الجنة، وهو غلط عليهم،

---

(١) الملل والنحل (١/ ١١٣).

(٢) البرهان ص(٣٥).

(٣) المواقف (٣/ ٧١٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤١)، (٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٠).

ومع هذا فتسميتهم له مؤمنًا: بدعة ابتدعوها مخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وهذه البدعة الشنعاء هي التي انفرد بها الكرَّاميَّة، دون سائر مقالاتهم[(١)]

وقال: وكذلك الكرَّاميَّة باينوا سائر الطوائف في قولهم: إن الإيمان هو القول باللسان، فمن أقرَّ بلسانه كان مؤمنًا، وإن جحد بقلبه قالوا: وهو مؤمن مخلَّد في النار؛ فإن هذا لم يقله غيرهم[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قولِ المرجئةِ في الأسماء والأحكام.

- قولهم في التجسيم

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: كان يسمي معبودَه جسمًا، وكان يقول: له حد واحد من الجانب الذي ينتهي إلى العرش ولا نهاية له من الجوانب الأخر. كما قالت الثنوية في معبودهم: إنه نور متناه من الجانب الذي يلي الظلام، فأما من الجوانب الخمس الأخر فلا يتناهى. وقد ذكر في كتاب عذاب القبر أن معبودَه أَحَدِيُّ الذات، أَحَدِيُّ الجوهر، وأطلق عليه اسم الجوهر كما أطلقه النصارى، وأتباعه يتبرءون من إطلاق اسم الجوهر، ويطلقون عليه اسم الجسم، كامتناع المعروف بشيطان الطَّاق من الروافض من إطلاق اسم الجسم عليه، ثم قوله على أنه صورة إنسان. فكان ما فروا إليه شرًّا مما فروا عنه[(٣)]

وقال البغدادي: إن ابن كرَّام دعا أتباعه إلى تجسيم معبودِه، وزعم أنه جسم له حد ونهاية من تحته والجهة التي منها يلاقي عرشه، وهذا شبيه بقول الثنوية: إن معبودَهم الذي سموه نورًا يتناهى من الجهة التي تلاقي الظَّلَام وإن لم يتناه من خمس جهات.

وقد وصف ابن كرَّام معبودَه في بعض كتبه بأنه جوهر كما زعمت النصارى أن الله تعالى جوهر، وذلك أنه قال في خطبة كتابه المعروف بكتاب عذاب القبر: إن الله تعالى أَحَدِيُّ الذات أَحَدِيُّ الجوهر. وأتباعه اليوم لا يبوحون بإطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى عند العامة خوفًا من الشناعة عند الإشاعة، وإطلاقهم عليه اسم الجسم أشنع من اسم الجوهر، وامتناعهم من تسميته جوهرًا مع قولهم بأنه جسم كامتناع تسمية شيطان الطَّاق الرافض من تسمية الإله جسمًا مع قوله بأنه على صورة الإنسان، وليس على الخذلان في سواء الاختيار قياس[(٤)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٦٢).

(٣) التبصير في الدين ص(١١١، ١١٢).

(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٢٧، ٢٢٨).

وقال الشهرستاني: نص أبو عبد الله على أن معبودَه على العرش استقرارًا، وعلى أنه بجهة فوق ذاتًا، وأطلق عليه اسم الجوهر، فقال في كتابه المسمى عذاب القبر: إنه أحَدِيُّ الذات أحَدِيُّ الجوهر، وإنه مماس للعرش من الصفحة العليا، وجوز الانتقال، والتحول، والنزول. ومنهم من قال: إنه على بعض أجزاء العرش، وقال بعضهم: امتلأ العرش به، وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق، وأنه محاذٍ للعرش.

ثم اختلفوا: فقالت العابدية: إن بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قدر مشغولًا بالجواهر لاتصلت به. وقال محمد بن الهيصم: إن بينه وبين العرش بعدًا لا يتناهى، وإنه مباين للعالم بينونة أزليَّة، ونفى التحيز والمحاذاة، وأثبت الفوقية والمباينة.

وأطلق أكثرهم لفظ الجسم عليه، والمقاربون منهم قالوا: نعني بكونه جسمًا أنه قائم بذاته، وهذا هو حد الجسم عندهم، وبنوا على هذا أن من حكم القائمين بأنفسهما أن يكونا متجاورين أو متباينين، فقضى بعضهم بالتجاور مع العرش، وحكم بعضهم بالتباين، وربما قالوا: كل موجودين، فإما أن يكون أحدهما بحيث الآخر كالعَرَض مع الجوهر، وإما أن يكون بجهة منه، والباري تعالى ليس بعرض إذ هو قائم بنفسه، فيجب أن يكون بجهة من العالم، ثم أعلى الجهات وأشرفها جهة فوق، فقلنا: هو بجهة فوق بالذات حتى إذا رئي رئي من تلك الجهة.

ثم لهم اختلافات في النهاية: فمن المُجَسِّمَة من أثبت النهاية له من ست جهات، ومنهم من أثبت النهاية له من جهة تحت، ومنهم من أنكر النهاية له، فقال: هو عظيم.

ولهم في معنى العظمة خلاف: فقال بعضهم: معنى عظمته أنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش، والعرش تحته، وهو فوق كله على الوجه الذي هو فوق جزء منه. وقال بعضهم: معنى عظمته أنه يلاقي مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد، وهو يلاقي جميع أجزاء العرش، وهو العلي العظيم[(١)]

وقال الرازي: كلهم يعتقدون أن الله تعالى جسم وجوهر، ومحل للحوادث، ويثبتون له جهة ومكانًا؛ إلا أن العابدية يزعمون أن البعد بينه وبين العرش متناه، والهيصمية يقولون: إن ذلك البعد غير متناه[(٢)]

وقال الإيجي عنهم: إن الله على العرش من جهة العلو، ويجوز عليه الحركة والنزول، واختلفوا أيملأ العرش أم لا؟ وقال بعضهم: بل هو محاذٍ للعرش.

واختلفا أيبعد متناه أو غيره؟

ومنهم من أطلق عليه لفظ الجسم.

---

(١) الملل والنحل (١/١٠٨، ١٠٩).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٧).

ثم هل هو متناه من الجهات أو من جهة تحت أو لا[(١)]؟

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند الكلام عن مقالة التمثيل والتجسيم.

- قولهم في الاستواء

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومما ذكر في ذلك الكتاب قوله: إنه تعالى مماس للعرش والعرش مكان له، ولما نظر أتباعه إليه فروا مما فيه من الشَّنْعَة، فقالوا: لا نقول: إنه مماس للعرش، ولكنا نقول: إنه ملاقٍ للعرش[(٢)]

قال البغدادي: وقد ذكر ابن كرَّام في كتابه إن الله تعالى مماسٌّ لعرشه، وإن العرش مكان له، وأبدل أصحابه لفظ المماسة بلفظ الملاقاة منه للعرش، وقالوا: لا يصح وجود جسم بينه وبين العرش إلا بأن يحيط العرش إلى أسفل، وهذا معنى المماسة التي امتنعوا من لفظها.

واختلف أصحابه في معنى الاستواء المذكور في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥]

فمنهم من زعم أن كل العرش مكان له، وأنه لو خلق بإزاء العرش عروشًا موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكانًا له؛ لأنه أكبر منها كلها، وهذا القول يوجب عليهم أن يكون عرشه اليوم كبعضه في عرضه.

ومنهم من قال: إنه لا يزيد على عرشه في جهة المماسَّة، ولا يفضل منه شيء على العرش، وهذا يقتضي أن يكون عرضه كعرض العرش.

وكان من الكرَّاميَّة بنيسابور رجل يعرف بإبراهيم بن مهاجر ينصر هذا القول ويناظر عليه[(٣)]

- قولهم في الأسماء والصفات

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومما أحدثوه من البدع قولهم: إن كل اسم يشتق له من أفعاله كان ذلك الاسم ثابتًا له في الأزل، مثل: الخالق، والرازق، والمنعم.

وقالوا: إنه كان خالقًا قبل أن خلق، ورازقًا قبل أن رزق، ومنْعِمًا قبل أن أنعم، فقيل لهم: إذا لم يكن خلق فبماذا يكون خالقًا؟ فقالوا: خالق بخالقية، ورازق برازقية، ثم طردوا -سخنت

(١) المواقف (٣/ ٧١٤).

(٢) التبصير في الدين ص(١١٢).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٢٢٨).

عيونهم- فقالوا: عليم بعالمية، قادر بقادرية، لا بعلم، ولا بقدرة، وإن كان له علم وقدرة. فلحقوا بالمعتزلة في قولهم: إنه عليم قادر لا بقدرة، وزادوا عليهم قولهم: إن له علمًا، ثم امتنعوا أن يقولوا: إنه في الأزل خالق بخلقه أو لخلقه، قالوا: إذا لم يكن خلق لا يمكن أن يقال: إنه خالق بخلقه، وهذا يوجب عليهم ألا يمكنهم القول بأنه خالق في الأزل، إذ لا خالق بلا خلق. كما لا يمكنه القول بأنه خالق لخلقه، إذ لا خالق بلا خلق، كما لا خالق للخلق إلا بخلق.

وقولهم بالخالقية والعالمية إحداث لفظ لم يتكلم به عربيٌّ، ولا عجميٌّ[1]

قال البغدادي: ثم إن ابن كرَّام وأكثر أتباعه زعموا أن الله تعالى لم يزل موصوفًا بأسمائه المشتقة من أفعاله عند أهل اللغة، مع استحالة وجود الأفعال في الأزل، فزعموا أنه لم يزل خالقًا رازقًا مُنْعِمًا من غير وجود خَلْق ورزق ونعمة منه.

وزعموا أنه لم يزل خالقًا بخالقية فيه، ورازقًا برازقية فيه، وقالوا: إن خالقيته قدرته على الخلق، ورازقيته قدرته على الرزق، والقدرة قديمة، والخلق والرزق حادثان فيه بقدرته، وقالوا بالخلق يصير المخلوق من العالم مخلوقًا، وبذلك الرزق الحادث فيه يصير المرزوق مرزوقًا[2]

وقال: ومن تدقيق الكرَّاميَّة في هذا الباب قولهم: إنا نقول: إن الله تعالى لم يزل خالقًا رازقًا على الإطلاق، ولا نقول بالإضافة: إنه لم يزل خالقًا للمخلوقين ورازقًا للمرزوقين، وإنما نذكر هذه الإضافة عند وجود المخلوقين والمرزوقين.

وقالوا على هذا القياس: إن الله تعالى لم يزل معبودًا، ولم يكن في الأزل معبود العابدين، وإنما صار معبود العابدين عند وجود العابدين ووجود عبادتهم له[3]

وقال الشهرستاني: ومما أجمعوا عليه من إثبات الصفات قولهم: الباري تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، شاء بمشيئته، وجميع هذه الصفات صفات قديمة أزليَّة قائمة بذاته، وربما زادوا السمع والبصر كما أثبته الأشعري، وربما زادوا اليدين، والوجه: صفات، قديمة، قائمة بذاته، وقالوا: له يد لا كالأيدي، ووجه لا كالوجوه، وأثبتوا جواز رؤيته من جهة فوق دون سائر الجهات[4]

وقال شيخ الإسلام: والكرَّاميَّة ونحوهم وافقوه -أي جهم- على أصل ذلك؛ وهو امتناع دوام ما لا يتناهى، وأنه يمتنع أن يكون لم يزل متكلمًا إذا شاء؛ وفعالًا إذا يشاء؛ لامتناع حوادث لا أول لها[5]

(١) التبصير في الدين ص(١١٣، ١١٤).
(٢) الفرق بين الفرق ص(٢٣٠).
(٣) الفرق بين الفرق ص(٢٣١).
(٤) الملل والنحل (١/ ١١٢).
(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٧).

- **قولهم في حلول الحوادث**

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومما ابتدعوه من الضلالات مما لم يتجاسر على إطلاقه قبلهم واحد من الأمم لعلمهم بافتضاحه هو قولهم: بأن معبودَهم محلُّ الحوادث تحدث في ذاته أقواله، وإرادته، وإدراكه للمسموعات والمبصرات، وسموا ذلك سمعًا وتبصرًا.

وكذلك قالوا: تحدث في ذاته ملاقاته للصفحة العليا من العرش، زعموا أن هذه أعراض تحدث في ذاته، تعالى الله عن قولهم.

قالوا: إن هذه الحوادث هي الخلق، والقدرة، تتعلق بهذه الحوادث، والمخلوق يقع تحت الخلق لا تتعلق به القدرة، فالخلق عندهم هو القدرة على التخليق، وهو قوله لما يريد أن يخلقه: كن جوهرًا، وهذا يوجب أن يحدث في ذاته: كاف، ونون، وجيم، وواو، وهاء، وراء، وألف، وسمع، وإرادة، قالوا: وإذا أراد إعدام شيء يقول له: افنِ، فيصير الشيء فانيًا، والإفناء والإعدام يكونان في ذاته لا يفنيان، وهذا يوجب أن يكون الشيء موجودًا معنى لوجود الإعدام، والإيجاد في ذاته على زعمهم، وإن قالوا: إنهما يغنيان عن ذاته، حكموا بتعاقب الحوادث وهو أول ما يستدل به على حدوث الأجسام، كيف وقولهم يوجب أن الحوادث في ذاته سبحانه أضعاف الحوادث في العالم، فإذا دلت حوادث العالم على حدوثه فما هو أضعاف تلك الحوادث أولى أن يدل على حدوث محلها.

ولم يجد هؤلاء في الأمم من يُكَونُ لهم القول بحدوث الحوادث في ذات الصانع غير المجوس فرتَّبوا مذهبهم على قولهم، وذلك أن المجوس قالوا: تفكَّر «يزدان» في نفسه أنه يجوز أن يظهر له منازع ينازعه في مملكته، فاهتم لذلك فحدثت في ذاته عفونة بسبب هذه الفكرة فخلق منها الشيطان، فلما سمعت الكرَّاميَّة هذه المقالة بنوا عليها قولهم بحدوث الحوادث في ذاته سبحانه - تعالى الله عن قولهم- فلزمهم أن يجوزوا حلول الألم واللذة، والشهوة، والموت، والعجز، والمرض عليه، فإن من كان محلًا للحوادث لم يستحل عليه هذه الحوادث كالأجسام[(١)]

قال البغدادي: وزعم ابن كرَّام وأتباعه أن معبودَهم محل للحوادثِ، وزعموا أن أقواله وإرادته وإدراكاته للمرئيات، وإدراكاته للمسموعات، وملاقاته للصحفة العليا من العالم، أعراض حادثة فيه، وهو محل لتلك الحوادث الحادثة فيه، وسموا قوله للشيء: كن، خلقًا للمخلوق، وإحداثًا للمحدَث، وإعلامًا للذي يعدم بعد وجوده، ومنعوا من وصف الأعراض الحادثة فيه بأنها مخلوقة، أو مفعولة، أو محدثة.

---

(١) التبصير في الدين ص(١١٢، ١١٣).

وزعموا أيضًا أنه لا يحدث في العالم جسمٌ ولا عرضٌ إلا بعد حدوث أعراض كثيرة في ذات معبودِهم:

منها إرادته لحدوث ذلك الحادث.

ومنها قوله لذلك الحادث: كن، على الوجه الذي علم حدوثه عليه، وذلك القول في نفسه حروف كثيرة كل حرف منها عَرَض حادث فيه.

ومنها رؤية تحدث فيه يرى بها ذلك الحادث، ولو لم يحدث فيه الرؤية لم يَرَ ذلك الحادث.

ومنها استماعه لذلك الحادث إن كان مسموعًا.

وزعموا أيضًا أنه لا يعدم من العالم شيء من الأعراض إلا بعد حدوث أعراض كثيرة في معبودِهم:

منها إرادته لعدمه.

ومنها قوله لما يريد عدمه: كن معدومًا، أو: افن، وهذا القول في نفسه حروف كل حرف منها عرض حادث فيه، فصارت الحوادث الحادثة في ذات الإله عندهم أضعاف أضعاف الحوادث من أجسام العالم وأعراضها.

واختلفت الكرَّاميَّة في جواز العدم على تلك الحوادث الحادثة في ذات الإله بزعمهم؛ فأجاز بعضهم عدمها، وأجاز عدمها أكثرُهم، وأجمع الفريقان منهم على أن ذات الإله لا يخلو في المستقبل عن حلول الحوادث فيه وإن كان قد خلا منها في الأزل، وهذا نظير قول أصحاب الهيولى: إن الهيولى كانت في الأزل جوهرًا خاليًا من الأعراض، ثم حدثت الأعراض فيها، وهي لا تخلو منها في المستقبل.

واختلفت الكرَّاميَّة في جوازِ العدمِ على أجسامِ العالم؛ فأحال ذلك أكثرهم، وضاهوا بذلك من زعم من الدهريةِ والفلاسفةِ أن الفَلَكَ والكواكبَ طبيعة خامسة لا تقبل الفساد والفناء.

وكان الناس يتعجبون من قول المعتزلة البصرية: إن الله تعالى يقدر على إفناء الأجسام كلِّها دفعة واحدة، ولا يقدر على إفناء بعضها مع بقاء بعض منها، وزال هذا التعجب بقول من زعم من الكرَّاميَّة: أنه لا يقدر على إعدام جسم بحال[(١)]

وقال: ثم إنه مع أصحابه تكلموا في مقدورات الله تعالى، فزعموا أنه لا يقدر إلا على الحوادث التي تحدث في ذاته من إرادته، وأقواله، وإدراكاته، وملاقاته لما يلاقيه، فأما المخلوقات من أجسام العالم وأعراضها فليس شيء منها مقدورًا لله تعالى، ولم يكن الله تعالى قادرًا على شيء منها مع كونها مخلوقة، وإنما خلق كل مخلوق من العالم بقوله: كن، لا بقدرته[(٢)]

---

(١) الفرق بين الفرق ص(٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) الفرق بين الفرق ص(٢٣١، ٢٣٢).

وقال الشهرستاني: ومن مذهبهم جميعًا: جواز قيام كثير من الحوادث بذات الباري تعالى، ومن أصلهم أن ما يحدث في ذاته فإنما يحدث بقدرته، وما يحدث مباينًا لذاته فإنما يحدث بواسطة الأحداث. ويعنون بالأحداث: الإيجاد والإعدام الواقِعَينِ في ذاته بقدرته من الأقوال والإرادات. ويعنون بالمحدث ما بين ذاته من الجواهر والأعراض.

ويفرقون بين الخلق والمخلوق، والإيجاد والموجود والموجد، وكذلك بين الإعدام والمعدوم، فالمخلوق إنما يقع بالخلق، والخلق إنما يقع في ذاته بالقدرة، والمعدوم إنما يصير معدومًا بالإعدام الواقع في ذاته بالقدرة.

وزعموا أن في ذاته سبحانه حوادثَ كثيرةً مثل الإخبار عن الأمور الماضية والآتية والكتب المنزلة على الرسل عليهم السلام، والقصص والوعد والوعيد والأحكام، ومن ذلك المسمعات والمبصرات فيما يجوز أن يسمع ويبصر.

والإيجاد والإعدام هو القول والإرادة وذلك قوله: ﴿كُن﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٧] للشيء الذي يريد كونه، وإرادته لوجود ذلك الشيء، وقوله للشيء كن: صورتان.

وفسر محمد بن الهيصم الإيجاد والإعدام: بالإرادة والإيثار، قال: وذلك مشروط بالقول شرعًا؛ إذ ورد في التنزيل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النّحل: الآية ٤٠] ، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: الآية ٨٢]

وعلى قول الأكثرين منهم: الخلق عبارة عن القول والإرادة، ثم اختلفوا في التفصيل، فقال بعضهم: لكل موجود إيجاد، ولكل معدوم إعدام، وقال بعضهم: إيجاد واحد يصلح لموجودين إذا كانا من جنس واحد. وإذا اختلف الجنس تعدد الإيجاد، وألزم بعضهم: لو افتقر كل موجود أو كل جنس إلى إيجاد، فليفتقر كل إيجاد إلى قدرة، فالتزم تعدد القدرة بتعدد الإيجاد.

وقال بعضهم أيضًا: تتعدد القدرة بعدد أجناس المحدثات، وأكثرهم على أنها تتعدد بعدد أجناس الحوادث التي تحدث في ذاته من الكاف والنون، والإرادة، والسمع، والبصر، وهي خمسة أجناس.

ومنهم من فسر السمع والبصر بالقدرة على التسمع والتبصر، ومنهم من أثبت لله تعالى السمع والبصر أزلًا، والتسمعات والتبصرات هي إضافة المدركات إليهما.

وقد أثبتوا لله تعالى مشيئة قديمة متعلقة بأصول المحدثات وبالحوادث التي تحدث في ذاته، وأثبتوا إرادات حادثة تتعلق بتفاصيل المحدثات.

وأجمعوا على أن الحوادث لا توجب لله تعالى وصفًا، ولا هي صفات له فتحدث في ذاته هذه الحوادث من الأقوال، والإرادات، والتسمعات، والتبصرات، ولا يصير بها قائلًا، ولا مريدًا، ولا سميعًا، ولا بصيرًا، ولا يصير بخلق هذه الحوادث محدثًا ولا خالقًا، وإنما هو قائل بقائليته، وخالق بخالقيته، ومريد بمريديته، وذلك قدرته على هذه الأشياء.

ومن أصلهم أن الحوادث التي يحدثها في ذاته واجبة البقاء حتى يستحيل عدمها؛ إذ لو جاز عليها العدم لتعاقبت على ذاته الحوادث، ولشارك الجوهر في هذه القضية. وأيضًا فلو قدر عدمها فلا يخلو: إما أن يقدر عدمها بالقدرة، أو بإعدام يخلقه في ذاته، ولا يجوز أن يكون عدمها بالقدرة؛ لأنه يؤدي إلى ثبوت المعدوم في ذاته، وشرط الموجود والمعدوم أن يكونا مباينين لذاته، ولو جاز وقوع معدوم في ذاته بالقدرة من غير واسطة إعدام لجاز حصول سائر المعدومات بالقدرة، ثم يجب طرد ذلك في الموجد، حتى تقدير عدم ذلك الإعدام، فيسلسل، فارتكبوا لهذا التحكم استحالة عدم ما يحدث في ذاته.

ومن أصلهم أن المحدث إنما يحدث في ثاني حال ثبوت الإحداث بلا فصل، ولا أثر للإحداث في حال بقائه.

ومن أصلهم أن ما يحدث في ذاته من الأمر فمنقسم إلى:

١- أمر التكوين: وهو فعل يقع تحته المفعول.

٢- وإلى ما ليس أمر التكوين: وذلك إما خبر، وإما أمر التكليف، ونهي التكليف. وهي أفعال من حيث دلت على القدرة، ولا تقع تحتها مفعولات، هذا هو تفصيل مذاهبهم محل الحوادث[1]

وقال الإيجي عنهم: وتحل الحوادث في ذاته، وزعموا أنه إنما يقدر عليها دون الخارجة عن ذاته[2]

قال شيخ الإسلام: وأما الهشَامِيَّة والكرَّاميَّة وغيرهم من الطوائف الذين يقولون بحدوث كل جسم، ويقولون: إن القديم تقوم به الحوادث، فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، كما هو قول الكرَّاميَّة وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الأصل، فإنهم يقولون: إن الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة، فإنها لا تخلو عن الحوادث.

والناس متنازعون في «السكون» هل هو أمر وجودي أو عدمي؟ فمن قال: إنه وجودي قال: إن الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي، وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك.

ومن قال: إنه عدمي لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي، فمن قال: إنه تقوم به الحركة أو الحوادث بعد إن لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث، كما هو قول الكرَّاميَّة وغيرهم -يقولون: إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي، بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم أنه يفعل بعد إن لم يكن فاعلًا، ولا يقولون: إن عدم الفعل

(١) الملل والنحل (١/١٠٩- ١١١).
(٢) المواقف (٣/ ٧١٤).

أمر وجودي- كذلك الحركة عند هؤلاء، كان كثير من أهل الكلام يقولون: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة؛ فإن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده، وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث[(١)]

وقال: وقالت الكرَّاميَّة وطائفة كثيرة: من المرجئة والشيعة وغيرهم: إن الله يتكلم بأصوات تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، وأنه تقوم به الحوادث المتعلقة بمشيئته وقدرته؛ لكن ذلك حادث بعد أن لم يكن، وأن الله في الأزل لم يكن متكلمًا إلا بمعنى القدرة على الكلام، وأنه يصير موصوفًا بما يحدث بقدرته وبمشيئته بعد إن لم يكن كذلك، وهؤلاء رأوا أنهم يوافقون الجماعة في أن لله أفعالًا تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، ويقوم به غير ذلك من الإرادات والكلام الذي يتعلق بمشيئته وقدرته.

لكن قالوا: لا يجوز أن تتعاقب عليه الحوادث؛ فإن ما تعاقبت عليه الحوادث فهو محدث، ووافقوا المعتزلة في الاستدلال بذلك على حدوث العالم. فكما أن ابن كلَّاب فرق بين الأعراض والحوادث: فرق هؤلاء في الحوادث بين تجددها، وبين لزومها، فقالوا بنفي لزومها له دون نفي حدوثها، كما قالوا في المخلوقات المنفصلة: إنها تحدث بعد أن لم تكن بمشيئته وقدرته[(٢)]

- قولهم في كلام الله عز وجل

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما الكرَّاميَّة فتقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو متكلم به بحرف وصوت، ويقولون مع ذلك: إنه حادث قائم به[(٣)]

وقال: منهم من يقول: صار قادرًا على الكلام بمشيئته بعد أن لم يكن كالكرَّاميَّة[(٤)]

وقال: وقالت الكرَّاميَّة وطائفة كثيرة من المرجئة والشيعة وغيرهم: أن الله يتكلم بأصوات تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، وأنه تقوم به الحوادث المتعلقة بمشيئته وقدرته، لكن ذلك حادث بعد أن لم يكن، وأن الله في الأزل لم يكن متكلمًا إلا بمعنى القدرة على الكلام، وأنه يصير موصوفًا بما يحدث بقدرته وبمشيئته بعد أن لم يكن[(٥)]

وقال: وقالت طائفة: بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، ويمتنع أن يكون كلامه مخلوقًا في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٤١، ١٤٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٤، ٥٢٥)، (٦/ ٢٢٢، ٢٣٧، ٣٢٤)، (١٢/ ١٤٠- ١٥٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٠١).
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٤، ٥٢٨).

غيره، وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثًا بعد أن لم يكن؛ لامتناع حوادث لا أول لها. وهذا قول الكرَّاميَّة وغيرهم. ثم من هؤلاء من يقول: كلامه كلُّه حادث لا محدث. ومنهم من يقول هو حادث ومحدث(١)

وقال: القول الخامس قول الهشَامِيَّة والكرَّاميَّة ومن وافقهم أن كلام الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلمًا بكلام؛ بل ما زال عندهم قادرًا على الكلام، وهو عندهم لم يزل متكلمًا بمعنى أنه لم يزل قادرًا على الكلام، وإلا فوجود الكلام عندهم في الأزل ممتنع؛ كوجود الأفعال عندهم، وعند من وافقهم من أهل الكلام، كالمعتزلة وأتباعهم.

وهم يقولون: إنه حروف وأصوات حادثة بذات الرب، بقدرته ومشيئته، ولا يقولون: إن الأصوات المسموعة، والمداد الذي في المصحف قديم؛ بل يقولون: إن ذلك محدث(٢)

وقال: وأما الكرَّاميَّة فتقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو متكلم به بحرف وصوت. ويقولون مع ذلك: إنه حادث قائم به وهم ليسوا من الجَهْمِيَّة؛ بل يردون عليهم أعظم الرد، وهم أعظم مباينة لهم من الأشعرية. ويقولون مع ذلك: إن القرآن حادث في ذات الله (٣)

وقال: وحدث مع الكلَّابيَّة ونحوهم طوائف أخرى من الكرَّاميَّة وغير الكرَّاميَّة من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا: إنه سبحانه متكلم بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته، ليتخلصوا بذلك من بدعتي المعتزلة والكلَّابيَّة، لكن قالوا: أنه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم بل صار الكلام ممكنا له بعد أن كان ممتنعًا عليه، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه.

وهذا القول مما وافق الكرَّاميَّة عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث؛ لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم، وهذا مما شاركوا فيه الجَهْمِيَّة والمعتزلة؛ فإن هؤلاء كلهم يقولون: إنه لم يكن الكلام ممكنًا له في الأزل ثم صار ممكنًا له بعد أن كان ممتنعًا عليه من غير حدوث سبب أوجب إمكانه(٤)

وقال: وأما الكرَّاميَّة فيقولون: صار متكلمًا بعد إن لم يكن؛ فيلزم انتفاء صفة الكمالِ عنه، ويلزم حدوث الحادث بلا سبب، ويلزم أن ذاته صارت محلًا لنوع الحوادث بعد إن لم تكن كذلك، كما تقوله الكرَّاميَّة وهذا باطل، وهو الذي أبطله السلف بأن ما يقوم به من نوع الكلام والإرادة والفعل إما أن يكون صفة كمال أو صفة نقص؛ فإن كان كمالًا فلم يزل ناقصًا حتى تجدد له ذلك

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٥٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٢، ١٧٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٥).

الكمال، وإن كان نقصًا فقد نقص بعد الكمال.

وهذه الحجة لا تبطل قيام نوع الإرادة والكلام شيئًا بعد شيء؛ فإن ذلك إنما يتضمن حدوث إفراد الإرادة والكلام لا حدوث النوع، والنوع ما زال قديمًا، وما زال متَّصفًا بالكلام والإرادة وذلك صفة كمال، فلم يزل متَّصفًا بالكمال ولا يزال، بخلاف ما إذا قيل: صار مريدًا ومتكلمًا بعد أن لم يكن.

وإذا قيل في ذلك: الفرد من أفراد الإرادة، والكلام، والفعل: هل هو كمال أو نقص؟ قيل: هو كمال وقت وجوده، ونقص قبل وجوده، مثل مناداته لموسى كانت كمالًا لما جاء موسى، ولو ناداه قبل ذلك لكان نقصًا والله منزه عنه؛ ولأن أفراد الحوادث يمتنع قدمها، وما امتنع قدمه لم يكن عدمه في القدم نقصًا.

بل النقص المنفي لا بد أن يكون عدم ما يمكن وجوده، بل عدم ما يمكن وجوده ويكون وجوده خيرًا من عدمه، فلا يكون عدم الشيء نقصًا إلا بهذين الشرطين: بأن يكون عدمه ممكنًا، ويكون وجوده خيرًا من عدمه، فإذا كان عدمه ممتنعًا: كعدم الشريك والولد، فهذا مدح وصفة كمال، وإذا كان عدمه ممكنًا فالأولى عدمه: كالأشياء التي لم يخلقها، فإنه كان ألا يخلقها أكمل من أن يخلقها، كما أن ما خلقه كان أن يخلقه أكمل من ألا يخلقه.

وحينئذ، فما وجد من الحوادث في ذاته أو بائنًا عنه، كان وجوده وقت وجوده هو الكمال، وعدمه وقت عدمه هو الكمال، وكان عدمه وقت وجوده أو وجوده وقت عدمه نقصًا ينزه الله عنه سبحانه وتعالى.

فقد تبين الفرق بين نوع الحوادث وأعيانها، وأن النوع لو كان حادثًا بذاته بعد إن لم يكن لزم كماله بعد نقصه، أو نقصه بعد كماله[1].

- قولهم في الفرق بين الكلام والقول، والمتكلم والقائل

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: واعلم أن من نوادر جهالاتهم فَرْقَهم بين القول والكلام، وقولهم: إن كلام الله قديم، وقوله حادث، وليس بمحدث، وله حروف وأصوات، وإنما هو قدرته على التكليم والتكلم، وأي عاقل يسوغ تفسير الكلام بالقدرة، وقالوا: كلامه ليس بمسموع وقوله مسموع[2].

وقال البغدادي: وأعجب من هذا فرقهم بين المتكلم والقائل، وبين الكلام والقول، وذلك أنهم قالوا: إن الله تعالى لم يزل متكلمًا قائلًا، ثم فرقوا بين الاسمين في المعنى فقالوا: إنه لم يزل

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) التبصير في الدين ص(١١٤).

متكلمًا بكلام هو قدرته على القول، ولم يزل قائلًا بقائلية لا بقول، والقائلية قدرته على القول، وقوله حروف حادثة فيه، فقول الله تعالى عندهم حادث فيه، وكلامه قديم[(١)]

- قولهم في استحداث عبارات

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ولا تعجب منهم أن يحدثوا مثل هذه العبارة، وقد تكلم زعيمهم في كتاب القبر مما هو أعجب منه فقال باب: كيفوفية الله، فلا يدري العاقل مم يتعجب من لفظه الذي أطلقه؟! أو من حسن معرفته بمواضع العربية؟! وليت شعري كيف أطلق الكيفية عليه؟! ولعله أراد أن يخترع من نفسه عبارة لم يسبق إليها تليق بعقله، فإنه قد قال في هذا الكتاب لما أراد أن يعبر عن مكان معبوده فقال له: حيثوثية يختص بها، وأراد أن يتكلم على مخالفيه فقال: إذا قال لك الشكاك بأحموقيتهم، وهذا الكتاب الملقب بعذاب القبر أصل مذهبهم، وحكمه في الوصف والمعنى، كما ذكرت لك.

ولما اغتر بهم بعض أغمار الولاة نفق لهم سوق تطاولوا به على الرعايا، فلحق بهم أقوام مسهم شيء من الفضل في باب الأدب فاستحيوا من إظهار كتاب الملقب بعذاب القبر، فوضعوا كتابًا آخر سموه بهذا الاسم ونسبوه إليه وهم يظهرونه وأخفوا أصله الذي صنفه[(٢)]

وقال البغدادي: ثم إن ابن كرَّام ذكر في كتابه المعروف بعذاب القبر بابًا له ترجمة عجيبة فقال: باب في كيفوفية الله عز وجل، ولا يدري العاقل مماذا يتعجب، أمن جسارته على إطلاق لفظ الكيفية في صفات الله تعالى؟ أم من قبح عبارته عن الكيفية بالكيفوفية؟ وله من جنس هذه العبارة أشكال. منها قوله في باب الرد على أصحاب الحديث في الإيمان: فإن قالوا بأحْمُوقيتهم الإيمان قول وعمل، قيل لهم: كذا.

وكذا قد عبر عن مكان معبودِه في بعض كتبه بالحيثوثية، وهذه العبارات السخيفة لائقة بمذهبه السخيف[(٣)]

- قولهم في التعديل والتجوير

أقوال العلماء

قال البغدادي: ثم إنهم تكلموا في باب التعديل والتجوير بعجائب.

منها قولهم: يجب أن يكون أول شيء خلقه الله تعالى جسمًا حيًا يصح منه الاعتبار، وزعموا أنه لو بدأ بخلق الجمادات لم يكن حكيمًا، وزادوا في هذه البدعة على القدرية في قولها: لا بد من أن

(١) الفرق بين الفرق ص(٢٣٠).

(٢) التبصير في الدين ص(١١٤).

(٣) الفرق بين الفرق ص(٢٣١).

يكون في الخلق من يصح منه الاعتبار، وليس بواجب أن يكون أول الخلق حيًّا يصح منه الاعتبار.

وقد ردوا ببدعتهم هذه الأخبار الصحيحة في أن أول شيء خلقه الله اللوح والقلم، ثم أجرى القلم على اللوح بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقالوا: لو خلق الله تعالى الخلق وكان في معلومه أنه لا يؤمن به أحد منهم لكان خلقه إياهم عبثًا، وإنما حسن منه خلق جميعهم لعلمه بأيمان بعضهم.

وزعمت الكرَّاميَّة أنه لا يجوز في حكمة الله تعالى اخترام الطفل الذي يعلم أنه إن أبقاه إلى زمان بلوغه آمن، ولا اخترام الكافر الذي لو أبقاه إلى مدة آمن، إلا أن يكون في اخترامه إياه قبل وقت إيمانه صلاح لغيره.

ويلزمهم على هذا القول أن يكون الله تعالى إنما اخترم إبراهيم ابن النبي ﷺ قبل بلوغه؛ لأنه علم أنه لو أبقاه لم يؤمن، وفي هذا قدح منهم في كل من مات من ذراري الأنبياء طفلًا(١).

وقال الإيجي عنهم: ويجب أن يكون أول خلقه حيًّا يصح منه الاستدلال(٢).

- قولهم في التحسين والتقبيح

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومن سوء اختيارهم لحقوهم بالمعتزلة في القول بالواجبات العقلية قبل ورود الشرع، وفي القول بإيجاب أشياء وحظر أشياء على الله تعالى، وترتيبهم عليه شريعة كما رتبها عليهم، ومن كانت هذه مقالته لم يكن في نفسه الانقياد للعبودية، وإنما يطلب درجة المساواة معه، ونعوذ بالله من قول يؤدي إلى ذلك(٣).

وقال الشهرستاني: واتفقوا على أن العقل يحسن ويقبح قبل الشرع، وتجب معرفة الله تعالى بالعقل كما قالت المعتزلة، إلا أنهم لم يثبتوا رعاية الصلاح والأصلح واللُّطف عقلًا كما قالت المعتزلة(٤).

- قولهم في النبوات

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومن بدعهم في باب النبوة والرسالة قولهم: إن النبوة والرسالة عرضان حالان في الرسول والنبي، والنبوة ليست هي المعجزة، ولا الوحي، ولا العصمة، ويزعمون أن من حصل فيه ذلك المعنى وجب على الله تعالى أن يرسله إلى الخلق رسولًا بذلك المعنى، فإذا أرسله

(١) الفرق بين الفرق ص(٢٣٢).
(٢) المواقف (٣/ ٧١٤).
(٣) التبصير في الدين ص(١١٤، ١١٥).
(٤) الملل والنحل (١/ ١١٣).

يكون مرسلًا ولم يكن قبله مرسلًا، ولهذا المعنى يقولون: إن النبي ﷺ في القبر رسول وليس بمرسل. والذي عليه أهل السنة أنه في القبر رسول ومرسل على معنى أن الله تعالى أرسله وأنه أدى رسالته، وهذا الاسم مستحق له وإن كان قد فرغ من ذلك الفعل، كما أن المؤمن في قبره مؤمن على معنى أن هذا الاسم مستحق له فيما تقدم من فعله، وكذلك في العرف والعادة يطلق اسم ما فعله الإنسان من قبيح وإن كان قد فرغ من فعله، كما يسمى حاجًّا، وغازيًا، أو سارقًا، أو زانيًا، وإن كان قد فرغ من فعله، وكذلك اسم الحرف كالخياط، والنجار، والصفار، وإن كان فارغًا من فعله، ولا عاقل يستجيز أن يقول: إن المسمى بالرسول مشتغل بأداء رسالته في قبره، كما أن المسمى لهذه الأسماء التي عددناها لا يكون مشتغلًا بفعله الذي سمي به، ولكنه يكون مستحقًا لوصفه بما سبق منه من فعله.

واعلم بأن هذا الذي قالوه في وصف الرسول من أن هذا المعنى فيه عندهم عرض خلق فيه قبل أن أوحي إليه ليس بكسب ولا له فيه كسب، وما لا يتعلق بكسبه لا يكون له عليه أجر بحال كخلْقه وخلقه ولونه وكونه[1]

وقال البغدادي: ومن جهالاتهم في باب النبوة والرسالة قولهم بأن النبوة والرسالة صفتان حالتان في النبي والرسول، سوى الوحي إليه، وسوى معجزاته، وسوى عصمته عن المعصية، وزعموا أن من فعل فيه تلك الصفة وجب على الله تعالى إرساله، وفرقوا بين الرسول والمرسَل، بأن الرسول من قامت به تلك الصفة، والمرسل هو المأمور بأداء الرسالة.

ثم إنهم خاضوا في باب عصمة الأنبياء عليهم السلام فقالوا: كل ذنب أسقط العدالة أو أوجب حدًّا فهم معصومون منه، غير معصومين مما دون ذلك.

وقال بعضهم: لا يجوز الخطأ عليهم في التبليغ، وأجاز ذلك بعضهم، وزعم أن النبي عليه السلام أخطأ في تبليغ قوله: ومناة الثالثة الأخرى، حتى قال بعده: تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتها ترتجى

وزعمت الكرَّاميَّة أيضًا أن النبيَّ إذا ظهرت دعوته فمن سمعها منه أو بلغه خبره لزمه تصديقه والإقرار به من غير توقف على معرفة دليله، وقد سرقوا هذه البدعة من إباضية الخوارج الذين قالوا: إن قول النبي عليه السلام: أنا نبي، فنفسه حجة لا يحتاج معها إلى برهان.

وزعمت الكرَّاميَّة أيضًا أن من لم تبلغه دعوة الرسل لزمه أن يعتقد موجبات العقول، وأن يعتقد أن الله تعالى أرسل رسلًا إلى خلقه.

وقد سبقهم أكثر القدرية إلى القول بوجوب اعتقاد موجبات العقول، ولم يقل أحد قبلهم بوجوب اعتقاد وجود الرسل قبل ورود الخبر عنهم بوجودهم.

---

(١) التبصير في الدين ص(١١٥).

وزعمت الكرَّاميَّة أيضًا أن الله تعالى لو اقتصر على رسول واحد من أول زمان التَّكليف إلى القيامة وأدام شريعة الرسول الأول لم يكن حكيمًا[(١)]

وقال الإيجي عنهم: والنبوة والرسالة صفتان سوى الوحي والمعجزة والعصمة، وصاحبها رسول، ويجب على الله إرساله لا غير، وهو حينئذ مرسل، وكل مرسل رسول بلا عكس، ويجوز عزله دون الرسول، وليس من الحكمة رسول واحد[(٢)]

- قولهم في الإمامة

أقوال العلماء

قال الإسفراييني: ومن بدعهم في باب الإمامة أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين محقين في وقت واحد، وكان واجبًا على أتباع كل واحد منهما طاعة أميره، ولو كان كما قالوا لوجب أن يكون كل واحد منهما ظالمًا في مقاتلة صاحبه؛ لأن من زاحم إمامًا عادلًا محقًّا كان مبطلًا ظالمًا[(٣)]

وقال البغدادي: ثم إن ابن كرَّام خاض في باب الإمامة، فأجاز كون إمامين في وقت واحد، مع وقوع الجدال وتعاطي القتال، ومع الاختلاف في الأحكام، وأشار في بعض كتبه إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين في وقتٍ واحدٍ، ووجب على أتباعِ كلٍّ واحدٍ منهما طاعة صاحبه وإن كان أحدهما عادلًا والآخر باغيًا.

وقال أتباعه: إن عليًّا كان إمامًا على وفق السنة، وكان معاوية إمامًا على خلاف السنة، وكانت طاعة كل واحد منهما واجبة على أتباعه، فيا عجبًا من طاعة واجبة على خلاف السنة[(٤)]

وقال الشهرستاني: وقالوا في الإمامة: إنها تثبت بإجماع الأمة دون النص والتعيين، كما قال أهل السنة، إلا أنهم جوَّزوا عقد البيعة لإمامين في قطرين، وغرضهم إثبات إمامة معاوية في الشام باتفاق جماعة من أصحابه. وإثبات أمير المؤمنين عليٍّ بالمدينة والعراقين باتفاق جماعة من الصحابة[(٥)]

وقال الإيجي عنهم: وجوزوا إمامين كعلي ومعاوية، إلا أن إمامة علي على وفق السنة بخلاف معاوية، لكن يجب طاعة رعيته له[(٦)]

---

(١) الفرق بين الفرق ص(٢٣٢- ٢٣٤).
(٢) المواقف (٣/ ٧١٤).
(٣) التبصير في الدين ص(١١٥).
(٤) الفرق بين الفرق ص(٢٣٤).
(٥) الملل والنحل (١/ ١١٣).
(٦) المواقف (٣/ ٧١٤).

- قولهم في وضع الأحاديث

أقوال العلماء

قال القنوجي: وقد ذهبت الكرَّاميَّة والطائفة المبتدعة إلى جواز وضع الحديث في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[١]

وقال النكري: إن بعض الكرَّاميَّة وبعض المتصوفة نقل عنهم إباحة الوضع في التَّرغيب والتَّرهيب؛ أي فيما يتعلق به حكم من الثواب والعقاب ترغيبًا للناس في الطاعة وزجرًا لهم عن المعصية[٢]

وقال ابن كثير: وقد نسب إليه جواز وضع الأحاديث على الرسول وأصحابه وغيرهم[٣]

- قولهم في الولاية

أقوال العلماء

قال النكري: وفي شرح المقاصد حكي عن بعض الكرَّاميَّة أن الولي قد يبلغ درجة النبي بل أعلى[٤]

- قولهم في الفروع

أقوال العلماء

قال البغدادي: ثم إن ابن كرَّام أبدع في الفقه حماقاتٍ لم يسبق إليها[٥]

وقال الرازي: ولهم في الفروع أقوال عجيبة ومدار أمرهم على المخرقة والتزوير وإظهار التزهد[٦]

---

(١) الحطة في ذكر الصحاح الستة ص(١٠٦).
(٢) دستور العلماء (٣/ ٢٥٨)، الكليات ص(٣٧٢).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٢٠).
(٤) دستور العلماء (٣/ ٣٢٣).
(٥) الفرق بين الفرق ص(٢٣٤).
(٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٦٧).

الفصل السابع
طوائف أخرى من المُمثِّلة والمُجَسِّمَة

هناك طوائف أخرى من المُمثِّلة والمُجَسِّمَة غير ما سبق، منها:

الخابطية من المعتزلة

أتباع أحمد بن خابط الذي كان يقول: للخلق إلهان: أحدهما قديم، والآخر محدث، وهو عيسى ابن مريم، وأنه هو الذي يحاسب الخلق في القيامة، وزعم أن المسيح تدرع بالجسد الجسماني وهو الكلمة القديمة المتجسدة كما قالت النصارى(١)

العبيدية من المرجئة

زعموا أن الله -تعالى عن قولهم- على صورة إنسان، وحكى اليمان عنهم أنهم قالوا: إن علم الله تعالى لم يزل شيئًا غيره، وإن كلامه لم يزل شيئًا غيره، وكذلك دين الله لم يزل شيئًا غيره(٢)

الإبراهيمية

أتباع إبراهيم بن أبي يحيى الأسلميّ وكان من جملة رواة الأخبار غير أنه ضلَّ في التشبيه، ونسب إلى الكذب في كثير من رواياته(٣)

المقاتلية

أتباع مقاتل بن سليمان البلخيّ المفسر.

قال الأشعري: وقال داود الجواربيّ ومُقَاتل بن سليمان: إن الله جسم، وإنه جُثَّة على صورة الإنسان لحم ودم وشعر وعظم، له جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين، وهو - مع هذا- لا يشبه غيره ولا يشبهه(٤)

وقال شيخ الإسلام: أما داود الجواربيّ فقد عُرف عنه القول المنكر الذي أنكره عليه أهل السنة، وأما مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله، والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة، وفيهم انحراف على مقاتل بن سليمان، فلعلهم زادوا في النقل عنه، أو نقلوا عنه، أو نقلوا عن غير

---

(١) انظر: التبصير في الدين ص(١٣٨، ١٣٩)، الفرق بين الفرق ص(٢٤٠، ٢٩٧)، الملل والنحل (١/ ٦٠)، المواقف (٣/ ٦٥٥).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ١٤٠)، المواقف (٣/ ٧٠٥).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق ص(٢٤٠)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (١/ ٥١).

(٤) مقالات الإسلاميين ص(٢٠٩).

ثقة، وإلا فما أظنه يصل إلى هذا الحد، وقد قال الشافعي: من أراد التفسير فهو عيال على مقاتل، ومن أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة.

ومقاتل بن سليمان، وإن لم يكن ممن يحتج به في الحديث -بخلاف مقاتل بن حيان فإنه ثقة- لكن لا ريب في علمه بالتفسير وغيره واطلاعه[1]

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٦١٨، ٦١٩).

الباب الثامن
الصوفيَّة

وهو يحتوي على خمسة فصول.

الفصل الأول: تعريف الصوفيَّة.

الفصل الثاني: أسماء الصوفيَّة، وسبب هذه التسمية.

الفصل الثالث: نشأة الصوفيَّة.

الفصل الرابع: الطرق الصوفيَّة.

الفصل الخامس: مقالات الصوفيَّة.

الفصل الأول

تعريف الصوفيَّة

الباحث في الصوفيَّة والتصوف يجد أمامه تعريفات كثيرة لهم، فبعضهم ذكرها أكثر من عشرين تعريفًا، وبعضهم ذكرها أكثر من خمسين تعريفًا، وبعضهم قال: إنها تتجاوز مائة تعريف، وبعضهم قال: تزيد على ألف قول، وبعضهم قال: إنها زهاء ألفين[١]

وحقيقة الأمر أن هذه التعريفات كلها تكون عن أفراد مبرِّزين في التصوف وعن أقطاب الصوفيَّة، وكل واحد منهم يعبر عن حاله التي يجد نفسه عليها، دون نظر إلى غيره، أو إلى حقيقة هذا الأمر، حتى الشخص الواحد منهم يكون له أقوال عديدة متباعدة، فاختلفت لذلك العبارات وتضاربت، ولا تجد ضبط علمي لتعريفاتهم.

قال أبو نعيم عن اختلاف عباراتهم: كلٌّ قد أجاب عن حاله[٢]

وقال أبو حامد الغزالي: وكلام المتصوفة أبدًا يكون قاصرًا، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط، ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال[٣]

وقال: وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم، فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين؛ لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم[٤]

وقال القشيري: وتكلم الناس في التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ فكل عبر بما وقع له[٥]

ولذلك لن نذكر هذه التعريفات؛ لأنه أمر يطول دون فائدة علمية منه؛ لأن كل هذه التعريفات غير ضابطة للحد.

وسيكون البحث عن أصل نسبتهم، وأصل الكلمة، واشتقاقها ومادتها، ومن خلال هذا قد يمكننا وضع تعريف لهم.

---

(١) انظر: اللُّمع في التصوف ص(٢٨، ٤٧)، التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٨)، عوارف المعارف ص(٥٣، ٥٧)، إيقاظ الهمم ص(٤)، الرسالة القشيرية ص(٢/ ٥٥١)، مناقب الصوفية ص(٣١).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٨٥).

(٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٥٥- ٥٧).

فمن الأقوال في أصل نسبتهم:

١- إنها نسبة إلى لبسهم الصوف، الذي عبَّر عن الزهد والتقشف وترك التنعم والملذات المباحة. وهذا ذكره كثير من العلماء.

٢- إنها نسبة إلى الصُّفة التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضوان الله عليهم في المسجد.

قال الكلاباذي: وأما من نسبهم إلى الصُّفة والصوف فإنه عبَّر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسد جوعة(١)

٣- إنها مأخوذة عن الصفاء؛ أي صفاء أسرارهم، أو صفاء قلوبهم، أو صفاء معاملتهم لله تعالى، وهو ما يحب الصوفيون التسمي به.

٤- إنها نسبة إلى الصف الأول بين يدي الله عز وجل.

قال الكلاباذي: ومن نسبهم إلى الصَّفة والصف الأول؛ فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم، وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها صفى الله سره ونور قلبه(٢)

٥- إنها نسبة إلى الصَّفْوة من خلق الله تعالى، أي أن الله قد اصطفاهم واختارهم لنفسه من جميع الخلق.

٦- إنها مأخوذة من الصوفانة وهي بقلة زغباء قصيرة، بمعنى أنهم اكتفوا بما أعطاهم الله دون نظر إلى ما بأيدي المخلوقين.

٧- إنها مأخوذة من صوفة القفا وهي الشعرات النابتة في متأخر القفا، بمعنى أنهم قد ألحقوا واتصلوا بالحق، وانقطعوا عن الخلق.

٨- أنها نسبة إلى قبيلة بني صوفة، وهي قبيلة بدوية كانت حول البيت في الجاهلية، وهي تنتسب إلى رجل يقال له: صوفة، كان قد انقطع للعبادة في المسجد الحرام، فأطلق على كل من ولي شيئًا من عمل البيت اسم صوفة وصوفان، وقيل في سبب تسميته بذلك: إنه ما كان يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت فقيل له: صوفة، ولولده من بعده، وقيل: إن أمه نذرت أن تعبده للبيت فلما ربطته عند البيت أصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى فقالت: ما صار ابني إلا صوفة، فسمي صوفة.

٩- إنها مأخوذة من كلمة سوفيا اليونانية التي تعني الحكمة، أي أن التصوف نسبة إلى الحكمة اليونانية.

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢١).
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٣).

وفي بعض هذه الاشتقاقات يقول أبو نعيم: فأما التصوف فاشتقاقه عند أهل الإشارات والمنبئين عنه بالعبارات من الصفاء والوفاء.

واشتقاقه من حيث الحقائق التي أوجبت اللغة، فانه تَفَعّل من أحد أربعة أشياء:

من الصوفانة: وهي بقلة زغباء قصيرة.

أو من صوفة: وهي قبيلة كانت في الدهر الأول تجيز الحاج وتخدم الكعبة.

أو من صوفة القفا: وهي الشعرات النابتة في متأخِّرِهِ.

أو من الصوف المعروف على ظهور الضأن.

وإن أخذ التصوف من الصوفانة التي هي البقلة فلاجتزاء القوم بما توحد الله عز وجل بصنعه، ومنَّ به عليهم من غير تكلف بخلقه، فاكتفوا به عما فيه للآدميين صنع كاكتفاء البررة الطاهرين من جلة المهاجرين[(١)]

وقال ابن الجوزي: وقد ذهب قوم إلى أنَّ التصوف منسوبٌ إلى أهل الصُّفَّة. وقد ذهب قوم إلى أنَّها من الصُّوفانة، وهي بَقْلَةٌ زغباءُ قصيرةٌ، فنسبوا إليها لاجترائهم بنبات الصحراء.
وقال آخرون: هو منسوب إلى صُوفة القَفَا، وهي الشَّعرات النَّابتة في مآخيره، كأنَّ الصُّوفيَّ عطفَ به إلى الحقِّ وصُرف عن الخلق، وقال آخرون: بل هو منسوبٌ إلى الصُّوف[(٢)]

مناقشة الأقوال

أقرب هذه الأقوال هو الأول، وذلك لصحة الاشتقاق والنسبة في اللغة، ولورود الآثار عن العلماء في وصف القوم عند ظهورهم، كما سيأتي بيانه.

- وأما الأقوال الخمسة التي بعد ذلك فهي ضعيفة كلها، لأنه لا تصح النسبة اللغوية لها، وإن كانوا قد جعلوا التصوف يشمل كل المعاني التي تدل عليها.

قال القشيري: ومن قال: إنهم منسوبون إلى صُفَّةِ مسجدِ رسول الله ﷺ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي، ومن قال: إنه مشتق من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، ومن قال: إنه مشتق من الصَّفّ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف[(٣)]

وقال ابن الجوزي: ونسبَة الصوفي إلى أهل الصُّفَّةِ غلط؛ لأنَّه لو كان كذلك لقيل: صُفِّيٌّ. وقد ذهب قوم إلى أنَّها من الصُّوفانة، . . . ، وهذا غلط أيضًا؛ لأنَّهم لو نُسِبَ إليها لقيل: صُوفاني[(٤)]

(١) حلية الأولياء (١/ ١٧)
(٢) تلبيس إبليس ص(٢٠١).
(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٥٥).
(٤) تلبيس إبليس ص(٢٠١).

وقد حاول البعض تصحيح كل هذه الاشتقاقات، والتوفيق بين معانيها، وجعل الاختلاف في النسبة ناشئ من تغيُّر حدث من تداول الألسن لها، بتقديم وتأخير في أحرف، أو زيادة أحرف فيها.

فقد قال الكلاباذي: وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر فإن المعاني متفقة؛ لأنها إن أخذت من الصَّفاء والصَّفْوة كانت صَفَوية.

وإن أضيفت إلى الصَّف أو الصُّفة كانت صَفِّية أو صُفِّية.

ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ: الصفوية، وزيادتها في لفظ: الصفية والصفية، إنما كانت من تداول الألسن.

وإن جعل مأخذه من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة[(١)]

ونقل أبو نصر السراج الطوسي عن صوفي أنه قال: كان في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك، فقيل: صوفي، وبمثل ذلك نقل عن أبي الحسن الكناد: هو مأخوذ من الصفاء[(٢)]

قال شيخ الإسلام: وقد قيل: إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء، وقيل: إلى صوفة بن أد بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنّسك، وقيل: إلى أهل الصُّفَّة، وقيل: إلى الصفا، وقيل: إلى الصفوة، وقيل: إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى، وهذه أقوال ضعيفة؛ فإنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّي، أو صَفَائي، أو صَفَوي، أو صَفِّي، ولم يقل: صوفي[(٣)]

- وأما نسبتها إلى القبيلة التي كانت تخدم الكعبة في الزمن البعيد، وصارت تطلق على كل من يقوم بخدمتها، فهي نسبة صحيحة في اللغة، وقد ذهب ابن الجوزي إلى تصحيح هذا القول، فقال: نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقًا تخلقوا بها ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له: صوفة، واسمه الغوث بن مر، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفيَّة، أنبأنا محمد بن ناصر، عن أبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال، قال: قال أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ: سألت وليد بن القاسم إلى أي شيء ينسب الصوفي؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم: صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفيَّة[(٤)]

ولكن مما ينقد هذا القول أن هؤلاء القوم الذين كانوا ملازمين للبيت غير معروفين عند معظم

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٤، ٢٥).

(٢) اللُّمع في التصوف ص(٤٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٥).

(٤) تلبيس إبليس ص(١٩٩، ٢٠٠).

الصوفيَّة وغالبيتهم فكيف ينتسبون إليهم؟ وهم أيضًا لا يرضون أن ينسبوا إلى قبيلة كانت في الجاهلية، وأيضًا من هم أقرب إليهم زمنًا كالصحابة والتابعين لا يعرف عنهم الانتساب إليهم.

- وأما جعل الصوفيَّة مأخوذة من الكلمة اليونانية سوفيا التي تعني الحكمة، وهو ما ذهب إليه البيروني قديمًا وبعض المستشرقين وغيرهم حديثًا، بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة صوفي والكلمة اليونانية صوفيا، وكذلك لوجه الشبه الموجود بين كلمة تصوف، تيوصوفيا، وأن كلمتي صوفي وتصوف أخذتا من الكلمتين اليونانيتين سوفيا وتيوسوفيا، ولكن مما ينقد هذا أن (س) اليونانية نقلت إلى العربية كما هي سينا، لا صادًا، كما أنه لا يوجد في اللغة الآرامية كلمة تعد واسطة لانتقال سوفيا إلى الصوف.

ويؤيد أصحاب هذا القول رأيهم بانتشار هذا مصطلح الصوفيَّة في بغداد بعد حركة الترجمة في القرن الثاني، بينما لم تعرف في جنوب وغرب العالم الإسلامي آنذاك، وأيضًا تشابه بعض الأفكار عند الصوفيَّة واليونان مثل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وأيضًا ظهور كلمات عن كبار المتصوفة مثل السهروردي تنبئ بهذا الأمر.

ولكن مما ينقد هذا أن التصوف إنما ظهر بعد الإسلام، والتسمية بالصوفي كانت موجودة في العربية قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى العربية، وإن كان لا يمنع هذا أن تتأثر الصوفيَّة بعد ذلك بشتى التأثيرات من الفكر اليوناني وغيره، بل هذا هو الواقع، ولكن ليس بالمفهوم اليوناني الكامل.

- فالحاصل أن جميع الأقوال السابقة لا تخلو من انتقاد، إلا القول الأول الذي عليه أكثر أهل العلم؛ فهو سليم من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى، ومن جهة الواقع.

١- أما من جهة اللفظ فإن نسبة الصوفيَّة إلى الصوف صحيحة في اللغة.

وقال السهروردي: وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق؛ لأنه يقال: (تَصَوَّفَ) إذا لبس الصوف، كما يقال: (تَقَمَّصَ) إذا لبس القميص[1]

٢- وأما من جهة المعنى فإن لباس الصوف يدل على التقشف والتزهد الذي كان حال من لبسه منهم في أول الأمر، وهم قد نسبوا إلى ظاهر حالهم، وهو اللبسة الظاهرة، وهو الصوف، وإن كان طريقهم غير مقيد به، ولا هم أوجبوا ذلك.

وهم أنفسهم يقرون بذلك فيقول أبو نصر السراج الطوسي شيخ الصوفيَّة وصاحب كتاب اللمع في التصوف، الذي يعد من أقدم الكتاب المعروفة في التصوف: نسبوا إلى ظاهر اللباس؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار المتنسكين[2]

---

(١) عوارف المعارف ص(٦٠).

(٢) اللُّمع في التصوف ص(٤١)، مقدمة في الفلسفة الإسلامية لزقزوق ص(١٤٨).

ويقول المنوفي الصوفي: ومستمد الصوفيَّة هم أهل الصفة، وإن كان تعريف الاسم يناسب لبس الصوف من حيث الاشتقاق. وهذا صحيح؛ لأن أهل الصفة وغيرهم من الروحيين في الإسلام وقبل الإسلام، ومن قديم الزمان كانوا يلبسون الصوف لخشونة فيه وهم متخوشنون، أو قل لسبب لونه الأبيض الذي يرمز إلى الطهارة والصفاء، وكان أيضًا لباس الحواريين[(١)]

وقال السهروردي: فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة؛ لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام[(٢)]

مع اعتراضنا على تعليلهم، ولكن الغرض هو بيان مفهومه ومعناه عندهم.

٣- وأما من جهة الواقع؛ فإنه قد وردت الآثار عن التابعين ومن بعدهم في وصف القوم في مبدأ أمرهم أنهم كانوا يلبسون الصوف.

فمن ذلك ما جاء عن محمد بن سيرين أنه دخل عليه الصلت بن راشد وعليه ثياب من صوف؛ فنظر إليه محمد نظرًا تكرهه، ثم قال: إن ناسًا يلبسون الصوف يقولون: إن عيسى كان يلبس الصوف، وقد حدثني من لا أتهم أن رسول الله ﷺ كان يلبس القطن والكتان واليمنة فسنة نبينا، أو قال: نبي الله أحق أن يتبع[(٣)]

وعن الحسن البصري أنه ذكر عنده الذين يلبسون الصوف، فقال: ما لهم تفاقدوا ثلاثًا، أكنوا الكبر في قلوبهم، وأظهروا التواضع في لباسهم، والله لأحدهم أشد عجبًا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه[(٤)]

وعنه أيضًا أنه جاءه رجل ممن يلبس الصوف وعليه جبة صوف وعمامة صوف ورداء صوف، فجلس، فوضع بصره في الأرض، فجعل لا يرفع رأسه، وكأن الحسن خال فيه العجب، فقال الحسن: ها إن قومًا جعلوا كبرهم في صدورهم، شنعوا والله دينهم بهذا الصوف، ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من زِيِّ المنافقين، قالوا: يا أبا سعيد، وما زِيُّ المنافقين؟ قال: خشوع اللباس بغير خشوع القلب[(٥)]

وعن ضمرة قال: سمعت رجلًا يقول: قدم حماد بن أبي سليمان البصرة فجاءه فرقد السنجي وعليه ثوب صوف، فقال له حماد: ضع عنك نصرانيتك هذه فلقد رأيتنا ننتظر إبراهيم -يعني النخعي- فيخرج علينا وعليه معصفرة[(٦)]

---

(١) جمهرة الأولياء (١/ ١٥٤).

(٢) عوارف المعارف ص(٥٩)، آداب الصوفية لنجم الدين كبرى ص(٢٨).

(٣) الزهد لابن المبارك (٢/ ٦٤)، أخلاق النبي وآدابه للأصبهاني (٢/ ٢٣٤)،

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ١٦٩)، الكُنَى والأسماء للدولابي (٢/ ٦٥٣)، تلبيس إبليس ص(٢٤١).

(٥) تلبيس إبليس ص(٢٤١).

(٦) تلبيس إبليس ص(٢٤١)، وفي إسناده مجهول.

وعن أبي العالية أنه جاء عبد الكريم أبو أمية إليه وعليه ثياب صوف، فقال له أبو العالية: إنما هذه ثياب الرهابن إن كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا(١)

وعن الفضيل قال: تزينت لهم بالصوف فلم ترهم يرفعوك بك رأسا، تزينت لهم بالقرآن فلم ترهم يرفعون بك رأسا، تزينت لهم بشيء بعد شيء كل ذلك إنما هو لحب الدنيا(٢)

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: قال أبو سليمان: يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم ونصف، وشهوته في قلبه بخمسة دراهم، أما يستحي أن يجاوز شهوته لباسه، ولو ستر زهده بثوبين أبيضين من أبصار الناس كان أسلم له.

قال أحمد بن أبي الحواري: قال لي سليمان بن أبي سليمان، وكان يعدل بأبيه: أي شيء أرادوا بلباس الصوف؟ قلت: التواضع، قال: لا يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصوف(٣)

وعن أحمد بن عمر بن يونس قال: أبصر الثوري رجلًا صوفيًا، فقال له الثوري: هذا بدعة(٤)

وعن أبي داود قال: قال سفيان الثوري لرجل عليه صوف: لباسك هذا بدعة(٥)

وعن الحسن بن الربيع قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول لرجل رأى عليه صوفًا مشهورًا: أكره هذا أكره هذا(٦).

وعن بشر بن الحارث قال: دخل عليٌّ الموصلي على المعافيٌ وعليه جبة صوف، فقال له: ما هذه الشهرة يا أبا الحسن، فقال: يا أبا مسعود أخرج أنا وأنت فانظر أينا أشهر، فقال له المعافي: ليس شهرة البدن كشهرة اللباس(٧).

وعن بشر بن الحارث قال: دخل بديل على أيوب السختياني وقد مد على فراشه سبنية حمراء تدفع التراب، فقال بديل: ما هذا؟ فقال أيوب: هذا خير من الصوف الذي عليك(٨)

وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف؟ فشق عليه وتبين الكراهة في وجهه، ثم قال: لبس الخز والمعصفر أحب إلي من لبس الصوف في الأمصار(٩)

وقال هشام بن خالد: سمعت أبا سليمان الداراني يقول لرجل لبس الصوف: إنك قد أظهرت

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢٤٢)، وإسناده صحيح.
(٢) تلبيس إبليس ص(٢٤٢)
(٣) تلبيس إبليس ص(٢٤٢).
(٤) تلبيس إبليس ص(٢٤٣).
(٥) تلبيس إبليس ص(٢٤٣).
(٦) تلبيس إبليس ص(٢٤٣).
(٧) تلبيس إبليس ص(٢٤٣).
(٨) تلبيس إبليس ص(٢٤٣).
(٩) تلبيس إبليس ص(٢٤٣).

آلة الزاهدين، فماذا أورثك هذا الصوف؟ فسكت الرجل، فقال له: يكون ظاهرك قطنيا وباطنك صوفيًا[(١)]

ودخل أبو محمد بن أخي معروف الكرخي على أبي الحسن بن بشار وعليه جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك، صَوِّفْ قلبك والبسْ القوهي على القوهي[(٢)]

وقال أحمد بن سعيد: سمعت النضر بن شميل يقول: قلت لبعض الصوفيَّة: تبيع جبتك الصوف؟ فقال: إذا باع الصياد شبكته بأي شيء يصطاد[(٣)]؟!

وقال السهروردي: نسبوا إلى ظاهر اللبسة، وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم، وأدْعَى إلى حصر وصفهم؛ لأن لبس الصوف كان غالبًا على المتقدمين من سلفهم[(٤)]

فالحاصل الآتي:

قال شيخ الإسلام: وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي، فإنه من أسماء النسب كالقرشي والمدني وأمثال ذلك.

فقيل: إنه نسبة إلى أهل الصُّفة، وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّي.

وقيل: نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله، وهو أيضًا غلط؛ فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّي.

وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله، وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صَفَوي.

وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أُدّ بن طابخة؛ قبيلة من العرب، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضًا؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

وقيل وهو المعروف: إنه نسبة إلى لبس الصوف، فإنه أول ما ظهرت الصوفيَّة من البصرة، وأول من بَنَى دويرة الصوفيَّة بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو وذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية.

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قومًا يتخيرون الصوف يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهَدْيُ نبينا

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢٤٤).

(٢) تلبيس إبليس ص(٢٤٤).

(٣) تلبيس إبليس ص(٢٤٥).

(٤) عوارف المعارف ص(٦٠).

أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلامًا نحوًا من هذا[١].

وقال: واسم الصوفيَّة هو نسبة إلى لباس الصوف، هذا هو الصحيح[٢].

وقال: وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ الصوفي لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد[٣].

وقال: وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم: صوفي، وليس طريقهم مقيدًا بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال[٤].

وقال ابن خلدون: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه لِمَا كانوا عليه من مخالفه الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥- ٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ١٦).
(٥) المقدمة ص(٣٢٨).

الفصل الثاني

أسماء الصوفيَّة وسبب هذه التسمية

أطلق الصوفيَّة أسماء كثيرة على أنفسهم، ومن هذه الأسماء الآتي:

١- الغرباء:

قال الكلاباذي: لخروجهم عن الأوطان سموا غرباء(١)

٢- السياحون:

قال الكلاباذي: ولكثرة أسفارهم سموا سياحين(٢)

٣- الشكفتية:

قال الكلاباذي: ومن سياحتهم في البراري وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار: شكفتية، والشكفت بلغتهم الغار والكهف(٣)

وقال السهروردي: كان منهم طائفة بخرسان يأوون إلي الكهوف والمغارات، ولا يسكنون القرى والمدن يسمونهم في خرسان شكفتية؛ لأن شكفت اسم الغار؛ ينسبونهم إلي المأوى والمستقر(٤)

٤- الجوعية:

قال الكلاباذي: وأهل الشام سموهم جوعية؛ لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة كما قال النبي ﷺ: «**بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه**»(٥)

وقال السهروردي: وأهل الشام يسمونهم جوعية(٦)

٥- الفقراء:

قال الكلاباذي: ومن تخليهم عن الأملاك سموا فقراء(٧)

وقال السهروردي: وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر، يقولون: قال الله تعالى:

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢١).

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢١).

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢١).

(٤) عوارف المعارف ص(٤٢).

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٢).

(٦) عوارف المعارف ص(٤٢).

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٢).

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣] ، هذا وصف الصوفيَّة، والله تعالي سماهم فقراء[١].

وقال شيخ الإسلام: وأما اسم الفقير؛ فإنه موجود في كتاب الله وسنة رسوله، لكن المراد به في الكتاب والسنة الفقير المضاد للغني. . .

لكن لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد، وهو من جنس التصوف، فإذا قيل: هذا فيه فقر أو ما فيه فقر، لم يرد به عدم المال، ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق والأدب ونحو ذلك[٢]

وقال: ولا ريب أن لفظ الفقر في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله، وفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والأخلاق المحمودة ولا نحو ذلك؛ بل الفقر عندهم ضد الغنى، والفقراء هم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبَة: الآية ٦٠] ، وفى قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣] ، وفى قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحَشر: الآية ٨] ، والغني هو الذي لا يحل له أخذ الزكاة، أو الذي تجب عليه الزكاة أو ما يشبه ذلك.

لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعًا أو كرهًا، إذ من العصمة ألَّا تقدر، وصار المتأخرون كثيرًا ما يقرنون بالفقر معنى الزهد، والزهد قد يكون مع الغنى، وقد يكون مع الفقر، ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير.

والزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع.

وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ «الصوفي»؛ لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد[٣]

وقال: وأما المستأخرون فـ«الفقير» في عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى، كما هو «الصوفي» في عرفهم أيضًا، ثم منهم من يرجح مسمى الصوفي على مسمى الفقير؛ لأنه عنده الذي قام بالباطن والظاهر، ومنهم من يرجح مسمى الفقير؛ لأنه عنده الذي قطع العلائق ولم يشتغل في الظاهر بغير الأمور الواجبة[٤].

وقال: وصار أيضا اسم الفقراء يُعْنَى به أهل السلوك وهذا عرف حادث[٥]

---

(١) عوارف المعارف ص(٤٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٠- ٢٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٨، ٢٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٧٠).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٥).

٦- النورية:

قال الكلاباذي: وسميت هذه الطائفة نورية لهذه الأوصاف[1]، أي أن الله قد نور قلوبهم.

٧- الملامية أو الملامتية:

وهي أن يأتي الصوفي بما يلام عليه من قبائح وفضائح لأجل أغراض سامية فيما يزعمون، وقد يسمونه النفاق المحمود.

قال السهروردي: الملامتي هو الذي لا يظهر خيرًا ولا يضمر شرًّا، . . .، وشرح هذا هو أن الملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص وحقق بالصدق، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله، ولا يتم هذا الإخلاص إلا إذا أصبح يستوي عنده المدح والذم له من الناس، وألا يفكر في اقتضاء ثواب العمل في الآخرة[2].

وقال ابن الجوزي: وقد تسمى قوم من الصوفيَّة بالملامتية فاقتحموا الذنوب، فقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من آفات الجاه والمرائين، وهؤلاء مثلهم كمثل رجل زنى بامرأة فأحبلها فقيل له: لم تعزل؟ فقال: بلغني أن العزل مكروه، فقيل له: وما بلغك أن الزنى حرام؟

وهؤلاء الجهلة قد أسقطوا جاههم عند الله سبحانه ونسوا أن المسلمين شهداء الله في الأرض[3].

وقال: وفي الصوفيَّة قوم يسمون الملامتية اقتحموا الذنوب، وقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من الجاه، وهؤلاء قد أسقطوا جاههم عند الله لمخالفة الشرع.

قال: وفي القوم طائفة يظهرون من أنفسهم أقبح ما هم فيه، ويكتمون أحسن ما هم عليه، وفعلهم هذا من أقبح الأشياء، ولقد قال رسول الله ﷺ: **«من أتى شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»**، وقال في حق ماعز: **«هلَّا سترته بثوبك يا هذا»**، واجتاز على رسول الله ﷺ بعض الصحابة وهو يتكلم مع صفية زوجته فقال لهم إنها صفية، وقد علم الناس التجافي عن ما يوجب سوء الظن؛ فإن المؤمنين شهداء الله في الأرض، وخرج حذيفة إلى الجمعة ففاتته فرأى الناس وهم راجعون فاستتر لئلا يسوء ظن الناس به وقد قدمنا هذه، وقال أبو بكر الصديق لرجل قال له: إني لمست امرأة وقبلتها فقال: تب إلى الله ولا تحدث أحدًا بذلك، وجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: إني أتيت من أجنبية ما دون الزنى يا رسول الله قال: **«ألم تصلِ معنا؟»** قال: بلى يا رسول الله، قال: **«ألم تعلم أن الصلاتين تكفر ما بينهما»**، وقال رجل لبعض الصحابة: إني فعلت كذا وكذا من الذنوب، فقال: لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك؛ فهؤلاء قد خالفوا

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٣).

(٢) عوارف المعارف ص(٥٤).

(٣) تلبيس إبليس ص(٤٣٠).

الشريعة وأرادوا قطع ما جبلت عليه النفوس[١]

وقال شيخ الإسلام: وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك[٢]

٨- الصوفيَّة:

قال الكلاباذي: ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية؛ لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه، وحسن منظره، وإنما لبسوا لستر العورة فتجزوا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف[٣]

وبهذا الاسم عُرِفوا عند علماء الفرق والمقالات:

قال ابن حزم -بعد ذكر مقالات لفرق الغالية من الحلولية وغيرها-: واعلموا أن كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ممن ينتمي إلى الإسلام فإنَّما عنصرهم الشيعة والصوفيَّة[٤]

وقال الرازي: اعلم أنَّ أكثر من قص فرق الأمَّة لم يذكر الصوفيَّة وذلك خطأ[٥]

وقال السكسكي: لم يشذ أحد منهم -أي من أهل السُّنَّة والجماعة- عن ذلك سوى فرقة واحدة تسمى بالصوفيَّة، يعتزون إلى أهل السُّنَّة، وليسوا منهم، قد خالفوهم في الاعتقاد والأفعال والأقوال[٦]

وقال الأشعري: حكاية قول قوم من النُّسَّاك: وفى الأمَّة قوم ينتحلون النّسك، يزعمون.. وكان في الصوفيَّة...، وفي النُّسَّاك قومٌ [٧]

وقال ابن الجوزي: الصوفيَّة من جملة الزهاد، وقد ذكرنا تلبيس إبليس على الزهاد، إلا أن الصوفيَّة انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسموا بسمات فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر[٨]

---

(١) تلبيس إبليس ص(٤٣٨، ٤٣٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١).
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٢٢).
(٤) الفصل (٤/ ١٤٣).
(٥) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٧٢).
(٦) البرهان ص(١٠١).
(٧) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٨، ٢٨٩).
(٨) تلبيس إبليس ص(١٩٩).

الفصل الثالث

نشاة الصوفيَّة

لم يتفق العلماء على تحديد الزمن الذي بدأ فيه اسم الصوفيَّة، ولكن من المسلَّم به أن هذه الكلمة لم تكن في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد الصحابة ﷺ، ولا في عهد كبار التابعين رحمهم الله تعالى.

قال السهروردي: وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، . . . ؛ لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون الرجل صحابيًّا لشرف صحبة رسول الله ﷺ[1]

وقال السراج الطوسي: الصحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته. . . فلما نسبوا إلى الصحبة والتي هي أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال[2]

ولم يخالف في ذلك إلا الهجويري فقد ذكر أن التصوف كان موجودًا في زمن رسول الله ﷺ، وباسمه، واستدل بحديث موضوع مكذوب على رسول الله ﷺ أنه قال: «من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين».

مع أنه نفسه كتب في نفس الباب في آخره شارحًا كلام أبي الحسن البوشنجي: التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم، فكتب تحته موضحًا: يعني أن هذا الاسم لم يكن موجودًا وقت الصحابة والسلف، وكان المعنى موجودًا في كل منهم، والآن يوجد الاسم، ولا يوجد المعنى[3]

- وفي القرن الثاني في آخر عصر التابعين ولأسباب متعددة ظهرت طائفة من الناس على صورة أفراد يغلب عليهم المبالغة في جانب التعبد والتزهد والعزلة والتشديد على النفس، وقد أنكر بقايا الصحابة والتابعون عليهم هذه الأمور التي لم تكن معروفة من قبل.

وفي البصرة انفرد بعض هؤلاء المتعبدة والمتزهدة بصفات وأحوال وسمات وتآليف خاصة جعلتهم يتميزون عن غيرهم في تعبدهم وسلوكهم ومظهرهم، وأطلق على هؤلاء حينئذ اسم الصوفيَّة.

---

(١) عوارف المعارف ص(٤٨).

(٢) اللُّمع ص(٤٢، ٤٣).

(٣) كشف المحجوب ص(٢٢٧، ٢٣٩).

قال ابن الجوزي: الصوفيَّة من جملة الزهاد، . . . ، إلا أن الصوفيَّة انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسموا بسمات[١]

وقال السهروردي: وقيل: كان في زمن التابعين، . . . ، وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية[٢]

وقال المنوفي: ولم تطلق كلمة صوفية علي جماعة بعينها إلا في القرن الثاني للهجرة[٣]

وقال القشيري: اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[٤]

وقال ابن خلدون: فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفيَّة والمتصوفة[٥]

وقال شيخ الإسلام: وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء فيدخل فيهم العلماء والنساك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفيَّة والفقراء[٦]

وقال: أما لفظ الصوفيَّة؛ فإنه لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري[٧]

وقال: فإنه أول ما ظهرت الصوفيَّة من البصرة، وأول من بَنَى دويرةَ الصوفيَّة بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية.

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قومًا يتخيرون الصوف يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهَدْي نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلامًا نحوًا من هذا.

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عباد أهل البصرة مثل حكاية من

---

(١) تلبيس إبليس ص(١٩٩).
(٢) عوارف المعارف ص(٤٨).
(٣) جمهرة الأولياء (١/ ٢٦٩).
(٤) الرسالة القشيرية (١/ ٥٣).
(٥) المقدمة ص(٣٢٨).
(٦) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٥).
(٧) مجموع الفتاوى (١١/ ٥).

مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه، كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر فإذا نقر في الناقور فخر ميتًا، وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله، فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين؛ كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن سيرين ونحوهم[(١)]

- وصار لهم من التعبد المحدَث ما ساروا عليه وتمسكوا به.

قال ابن الجوزي: والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المتسببون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب[(٢)]

وذكر شيخ الإسلام أنه في أواخر عصر صغار التابعين لما صار في ولاة الأمور كثيرٌ من الأعاجم، وخرج كثير من الأمر عن ولاية العرب، وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم: حدث ثلاثة أشياء: الرأي والكلام والتصوف، فكان جمهور الرأي من الكوفة. . ., وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة؛ فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن اتبعهما من أهل الكلام والاعتزال، وظهر أحمد بن عطاء الهجيمي الذي صحب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد صحب الحسن البصري ومن اتبعه من المتصوفة وبَنَى دويرةً للصوفية؛ هي أول ما بني في الإسلام، وكان عبد الرحمن بن مهدي وغيره يسمونهم الفقرية، وكانوا يجتمعون في دويرة لهم، وصار لهؤلاء من الكلام المحدث طريق يتدينون به، مع تمسكهم بغالب الدين، ولهؤلاء من التعبد المحدَث طريق يتمسكون به، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع، وصار لهؤلاء حال من السماع والصوت حتى إن أحدهم يموت أو يغشى عليه، ولهؤلاء حال في الكلام والحروف حتى خرجوا به إلى تفكير أوقعهم في تحير[(٣)]

- وفي القرن الثالث صار للصوفية تكتل جماعي له أفكاره ومبادؤه التي يعتنقونها ويدافعون عنها، وعبروا عن ذلك بقولهم: مذهبنا، وطريقتنا، وعلمنا. . .، كما نجده في عبارات الجنيد والداراني والسري السقطي وغيرهم.

وكثر منهم الاهتمام بالوعظ والقصص مع قلة العلم والفقه، بل والتحذير من تحصيلهما، والاقتداء بسلوكيات رهبان ونساك أهل الكتاب، إذ حدث الالتقاء ببعضهم، وظهور السماع الذي تطور إلى الغناء والرقص في دور عبادتهم، وادعاءات الكشف والخوارق، واتخاذهم الذوق في العبادة دون الكتاب والسنة حتى إنهم يقولون: علم الأذواق لا علم الأوراق، ويتفرع عنه علوم

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦، ٧).

(٢) تلبيس إبليس ص(١٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٣٥٦- ٣٦٠).

الوجد والعشق والشوق.

وظهرت لهم الكتب المؤلفة في الطريقة وفي آدابها وسننها مثل كتب: الحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي نعيم، والقشيري.

وظهرت فيهم عبارات الباطنية، فصارت لهم مصطلحاتهم الخاصة المستحدثة مثل: الفناء، والسكر، والصحو، والعشق، والجمع، والتفرقة، والكشف، والمشاهدة، والوحدة، والبقاء.
إلى غير ذلك من المصطلحات الغامضة التي إذا أرادوا أن يفسروها زادوها غموضًا، واختلفوا فيها اختلافًا بينًا.

وشاع بينهم التفرقة بين الشريعة والحقيقة، وتسمية أنفسهم أرباب الحقائق وأهل الباطن، وغيرهم من الفقهاء أهل الظاهر والرسوم.

ونجد هذا التأثر بالباطنية في كلامهم من أمثال ذي النون المصري، والبسطامي، والشبلي والحكيم الترمذي، وغيرهم.

- ثم في القرن الرابع وما بعده نجد أن الصوفيَّة تطورت تطورًا من أخطر ما يكون، فانطلاقًا من هذه المصطلحات الغامضة، ودخول الفلسفات الوثنية كالهندية والفارسية وبالأخص الفلسفة اليونانية إلى ثقافة المسلمين، وتأثرهم بالديانات الأخرى وبخاصة النصرانية -نجدهم في القرن الرابع ينتحلون القول بالحلول والاتحاد على يد الحلاج ومن تبعه.

- وفي القرن الخامس والسادس نجدهم ينتحلون القول بإثبات تشبه العبد بالرب في الذات والصفات والأفعال على يد الغزالي ومن مشى خلفه، أخذًا من أن الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة.

وأيضًا انتحال القول بالفيض والإشراق على يد السهروردي.

- وفي القرن السابع نجدهم ينتحلون القول بوحدة الوجود على يد ابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، وغيرهم ممن تبعهم، فكان القول بأن كل كائن هو الله، والله هو كل كائن، فاتحد بذلك الوجود مع الخالق المعبود.

وكان تبعًا لذلك القول بوحدة الأديان، والغلو في شخص الرسول ﷺ والأولياء.

- وفي القرن الثامن والذي بعده كان الاهتمام بتفريع وشرح كتب ابن عربي وابن الفارض وغيرهما، والدفاع عنها، دون ظهور نظريات جديدة في التصوف[1]

- وفي القرن العاشر زاد الاهتمام بتراجم أعلام الصوفيَّة، والتي اتسمت بالمبالغة شديدة، من أمثال الشعراني صاحب الطبقات الكبرى والصغرى.

---

(١) انظر مثال ذلك مجموع الفتاوى (٢/ ١١١، ١٣٣).

ويذكر لنا ابن الجوزي نشأة وتطور الصوفيَّة حتى زمانه فيقول: كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلمٌ ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلَّقوا بالزُّهد والتَّعبُّد فتخلوا عن الدُّنيا وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقًا تخلَّقوا بها، ورأوا أن أوَّل من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجلٌ يقال له: صوفة، واسمه الغوث بن مُرّ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه، فتسموا بالصوفيَّة. . .

وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى.

وعلى هذا كان أوائلُ القوم فَلَبَّسَ إبليس عليهم في أشياء، ثم لَبَّسَ على مَن بَعْدَهُم من تابعيهم، وكلَّما مضى قرنٌ زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم، إلى أن تَمَكَّنَ من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صَدَّهُم عن العلم وأراهم أنَّ المقصود العمل، فلما أطفأ مصباحَ العلم عندهم تخبَّطُوا في الظلمات.

فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنَّه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتَّى إنَّه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنَّهم على غير الجادة، وفيهم مَنْ كان لقلَّة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنَّفوا في ذلك، مثل: الحارث المحاسبي. وجاء آخرون فَهَذَّبُوا مذهبَ التصوف، وأفردوه بصفات مَيَّزُوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، وتميَّزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعًا ويتكلمون بواقعاتهم، ويتفق بُعدُهُم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علمَ الشريعةِ العلم الظاهر.

ومنهم مَنْ خرج به الجُوعُ إلى الخيالات الفاسدة فادَّعى عِشْقَ الحقِّ والهَيَمَانَ فيه، فكأنَّهم تخايلوا شخصًا مُسْتَحسَنَ الصُّورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبِدعة.

ثم تشعَّبت بأقوامٍ منهم الطرق، ففسدت عقائدهم.

فمنهم مَن قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتِّحاد.

وما زال إبليسُ يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننًا، وجاء أبو عبد الرحمن السُّلمي فصنَّف لهم «كتاب السنن»، وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن

بما يقعُ لهم من غير إسنادٍ ذلك إلى أصلٍ من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم، فالعجب من ورعهم في الطعام وانبساطِهم في القرآن.

وقد أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمَّد القزَّازُ، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب، قال: قال لي محمَّد بن يوسف القَطَّان النَّيْسَابوري: كان أبو عبد الرحمن السُّلمي غيرَ ثقةٍ، ولم يكن سمع من الأصَمِّ إلا شيئًا يسيرًا، فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البَيِّع حدَّثَ عن الأصمِّ بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرةٍ سواه، وكان يضع للصُّوفية الأحاديثَ.

وصنَّف لهم أبو نصر السَّرَّاج كتابًا سماه «لمع الصوفيَّة»، ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكرُ منه جملة إن شاء الله تعالى.

وصنَّف لهم أبو طالب المَكِّي «قوت القلوب» فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند فيه إلى أصلٍ من صلوات الأيام والليالي، وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد.

وردد فيه قوله -قال بعضُ المُكَاشَفِينَ- وهذا كلام فارغٌ، وذكر فيه عن بعض الصوفيَّة أنَّ الله تعالى يتجلَّى في الدنيا لأوليائه.

أخبرنا أبو منصور القزَّاز، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب، قال: قال أبو طاهر محمد بن العلَّاف: دخل أبو طالب المكِّيّ البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم فانتمى إلى مقالته وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوَعْظ، فَخَلَطَ في كلامه فَحُفِظَ عنه أنه قال: ليس على الخلق أضرُّ من الخالق، فَبَدَّعَه الناس وهَجَرُوه، وامتنعَ من الكلام على الناس بعد ذلك.

قال الخطيب: وصنَّف أبو طالب المكي كتابًا سماه «قوت القلوب» على لسان الصوفيَّة، وذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات.

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنَّف لهم كتاب «الحلية»، وذكر في حدود التصوُّف أشياء قبيحة، ولم يستحي أن يذكر في الصوفيَّة أبا بكر وعمرَ وعثمان وعَليًّا وسادات الصَّحابة، وشُرَيحًا القاضي، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وكذلك ذكر السُّلميُّ في «طبقات الصوفيَّة» الفُضَيلَ وإبراهيمَ بن أدهم ومعروفًا الكَرْخِيَّ وجعلهم من الصوفيَّة بأن أشار إلى أنَّهم من الزُّهَّاد.

والتَّصَوُّفُ مذهب معروفٌ يزيد على الزُّهد، ويَدُلُّ على الفرق بينهما أنَّ الزُّهْدَ لم يذمه أحدٌ وقد ذمُّوا التصوُّفَ، على ما سيأتي ذِكْرُه. وصنَّف لهم عبد الكريم بن هوزان القُشيري كتاب «الرسالة»، فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض، والبسط، والوقت والحال، والوجد، والوجود، والجمع، والتفرقة، والصّحو والسُّكرِ، والذَّوق، والشرب، والمحو، والإثبات، والتَّجلِّي، والمحاضرة، والمكاشفة واللوائح، والطوالع، واللوامع، والتلوين، والتمكين، والشريعة، والحقيقة، إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه.

وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنَّف لهم «صفوة التصوف»، فذكر فيه أشياءَ يستحي العاقلُ من ذكرها، سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة قال: وصنف كتابًا في جواز النظر إلى المُرْد، وأورد فيه حكاية عن يحيى بن معين: رأيت جارية بمصر مليحة صلَّى الله عليها، فقيل له: تصلِّي عليها؟ فقال: صلَّى الله عليها وعلى كل مليح.

قال شيخنا ابن ناصر: وليس ابن طاهر ممَّن يُحْتَجُّ به.

وجاء أبو حامد الغزالي فصنَّف لهم كتاب «الأحياء» على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلمُ بطلانها وتكلَّم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المرادَ بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيمُ أنوارٌ هي حُجُب لله عزَّ وجلَّ، ولم يُرِدْ هذه المعروفات.

وهذا من جنس كلام الباطنيَّة، وقال في كتابه «المفصح بالأحوال»: إنَّ الصوفيَّة في يقظتهم يشاهدون الملائكةَ وأرواحَ الأنبياء، ويسمعونَ منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد، ثم تَرَقَّى الحالُ من مشاهدة الصُّورة إلى درجاتٍ يضيق عنها نطاقُ النُّطق.

وكان السَّبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلَّة علمهم بالسنن والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم، وإنَّما استحسنوها؛ لأنَّه قد ثبت في النفوس مدح الزهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة ولا كلامًا أرق من كلامهم.

وفي سير السلف نوع خشونة، ثم إنَّ ميلَ الناس إلى هؤلاء القوم شديد؛ لما ذكرنا من أنَّها طريقة ظاهرها النظافةُ والتَّعبُّد وفي ضمنها الراحة والسماع والطباع تميلُ إليها، وقد كان أوائل الصوفيَّة ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء.

وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنَّما هي واقعات تَلَقَّفَها بعضهم عن بعض، ودوَّنوها وقد سموها بالعلم الباطن[1]

وقال ابن خلدون: ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، وملئوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره، وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف، وابن الفارض، والنجم الإسرائيلي في قصائدهم، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول، وإلهية الأئمة مذهبًا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم.

وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان، وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها، فقال: «جل جناب الحق أن يكون

(١) تلبيس إبليس ص(١٩٩- ٢٠٦).

شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد»، وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي، وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قاله الشيعة في النقباء، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلًا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه إلى علي ﷺ، وهو من هذا المعنى أيضًا، وإلا فعلي ﷺ لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال، بل كان أبو بكر وعمر ﷺ أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة، يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك، مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم، والله يهدي إلى الحق[(١)]

وأما المتأخِّرون من الصوفيَّة فمنهم من أخذ التصوف بمعنى الزهد في الدنيا مع ممارسة بعض البدع، ومنهم من أخذ طرقًا ذات حركات ومظاهر فمارس كثيرًا من الشركيات والعقائد الباطنية، ومنهم من آمن بعقيدة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود فكفر بدين الإسلام.

ونود أن ننبه إلى أنه لا اعتدال في التصوف ولدى المتصوفة، اللهم إلا الزهاد الأوائل؛ فإنهم ليسوا منهم، ولا هؤلاء من أولئك.

فإن التصوف أمر زائد وطارئ على الزهد، وله كيانه وهيئته، ونظامه وأصوله، وقواعده وأسسه، وكتبه ومؤلفاته، ورسائله ومصنفاته، كما أن له رجالًا وسدنة وزعماء وأعيانًا.

فإن الزهد عبارة عن ترجيح الآخرة على الدنيا، والتصوف اسم لترك الدنيا تمامًا.

والزهد هو تجنب الحرام، والاقتصاد في الحلال، والتمتع بنعم الله بالكفاف، وإشراك الآخرين في آلاء الله ونعمه وخدمة الأهل والإخوان والخلان.

والتصوف تحريم الحلال، وترك الطيبات، والتهرب من الزواج ومعاشرة الأهل والإخوان، وتعذيب النفس بالتجوع والتعري والسهر.

فالزهد منهج وسلوك مبني على الكتاب والسنة، وليس التصوف كذلك.

---

(١) المقدمة ص(٣٣١، ٣٣٢).

الفصل الرابع

الطرق الصوفيَّة

في القرن الخامس بدأ تأصيل الطرق الصوفيَّة؛ فقد وضع أبو سعيد محمد أحمد الميهمي الصوفي الإيراني تلميذ أبي عبد الرحمن السلمي أول هيكل تنظيمي للطرق الصوفيَّة بجعله متسلسلًا عن طريق الوراثة، وأقام بناءً للصوفية بجوار منزله، وبيَّن كثيرًا من أمور التربية الصوفيَّة، ويعد من أوائل من كتب في طريقة التربية الصوفيَّة.

وفي القرن السادس كانت البداية الفعلية لظهور وانتشار الطرق الصوفيَّة، إذ انتقلت من إيران إلى المشرق الإسلامي فظهرت فيه الطريقة القادرية والرفاعية.

وفي القرن السابع ظهرت الطريقة الشاذلية، والأحمدية، والدسوقية، والأكبرية، والمولوية.

وفي القرن الثامن ظهرت الطريقة النقشبندية وغيرها.

وفي القرن الثاني عشر ظهرت الطريقة التيجانية وغيرها.

وفي القرن الثالث عشر ظهرت الطريقة الختمية والسنوسية وغيرهما.

وفي القرن الرابع عشر ظهرت البريلوية والأحباش وغيرهما.

وفي القرون المتأخرة اختلط الأمر على الصوفيَّة، وانتشرت الفوضى بينهم، واختلطت فيهم أفكار كلتا المدرستين؛ مدرسة ابن عربي والشاذلي، وبدأت مرحلة الدراويش.

وظهرت فيها ألقاب شيخ السجادة، وشيخ مشايخ الطرق الصوفيَّة، والخليفة، والبيوت الصوفيَّة التي هي أقسام فرعية من الطرق نفسها مع وجود شيء من الاستقلال الذاتي يمارس بواسطة الخلفاء.

وظهرت فيها التنظيمات والتشريعات المنظمة للطرق تحت مجلس وإدارة واحدة، وقد بدأ المجلس بفرمان أصدره محمد علي باشا والي مصر يقضي بتعيين محمد البكري خلفًا لوالده شيخًا للسجادة البكرية، وتفويضه في الإشراف على جميع الطرق والتكايا والزوايا والمساجد التي بها أضرحة، كما له الحق في وضع مناهج التعليم التي تعطى فيها.

وقد تطورت نظم هذا المجلس وتشريعاته ليعرف فيما بعد بالمجلس الأعلى للطرق الصوفيَّة في مصر.

وفي وقتنا الحالي أصبح من العسير حصر الطرق الصوفيَّة وأسمائها فضلًا عن عقائدها وشاراتها وسلوكها، فقد أصبحت الآن تعد بالآلاف في الدول الإسلامية وفي غيرها من الدول الأجنبية.

قال شيخ الإسلام: وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالى على متابعته ويعادى على ذلك، بل

عليه أن يوالى كل من كان من أهل الإيمان، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحدًا بمزيد موالات إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضل من فضله الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]، وقال النبي: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**»[(١)]

وقال: ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك ولا يستحب له ذلك بل يكره له، وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والذين يعلمونه ويؤدبونه لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه؛ فإنه يفعل الأصلح لدينه وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده.

فأما الانتساب الذي يفرق بين المسلمين وفيه خروج عن الجماعة، والائتلاف إلى الفرقة، وسلوك طريق الابتداع، ومفارقة السنة والأتباع؛ فهذا مما ينهى عنه، ويأثم فاعله، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله[(٢)].

وستتكلم عن بعض الطرق الصوفيَّة ذات الانتشار الكبير، والتي قد تقدم ذكر أسمائها وظهورها.

الطريقة القادرية

ظهرت الطريقة القادرية أو الجيلانية في القرن السادس، وهي منسوبة إلى عبد القادر الجيلاني، وقد رزق بتسعة وأربعين ولدًا حمل أحد عشر منهم تعاليمه ونشروها في العالم الإسلامي.

ويزعم أتباعه أنه أخذ التصوف عن الحسن البصري، عن الحسن بن علي بن أبي طالب، مع وجود الفترة الزمنية الكبيرة بينه وبين الحسن البصري.

وينسبون إليه من الأمور العظيمة التي لا يقدر عليه إلا الله من معرفة علم الغيب، وإحياء الموتى، وتصرفه في الكون حيًّا أو ميتًا، ومجموعة من الأذكار والأوراد والأقوال الشنيعة.

ومن هذه الأقوال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، قوله: من استغاث بي في كربة كشفت عنه، ومن ناداني في شدة فرجت عنه، ومن توسل بي في حاجة قضيت له.

قال محمد رشيد رضا: ينقل عن الشيخ الجيلاني من الكرامات وخوارق العادات ما لم ينقل عن

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٤).

غيره، والنقاد من أهل الرواية لا يحفلون بهذه النقول إذ لا أسانيد لها يحتج بها[١]

وتتفرع عن الطريقة القادرية كثير من الطرق الأخرى كالكسنزانية والفربكانية.

ومن شيوخ هذه الطريقة المشهورين المدعو محمد بن عبد الكريم المسمى بالوارث، تورث المشيخة عن أبيه، مع العلم بأن الأب والابن لا يقيمان لأركان الإسلام كالصلاة والصيام وزنًا، ولا يؤديان الفرائض ولا النوافل، ويعتقد فيهما العوام الولاية.

الطريقة الرفاعية

ظهرت الطريقة الرفاعية في القرن السادس، وهي منسوبة إلى أبي العباس أحمد بن الرفاعي الذي نسج كُتَّاب الصوفيَّة حوله الأساطير والخرافات بل ويرفعونه إلى مقام الربوبية، ولأنه لم يعقب فقد خلفه على المشيخة من بعده علي بن عثمان، ثم خلفه عبد الرحيم بن عثمان.

والرفاعية يستخدمون السيوف ودخول النيران وحمل الحيات في إثبات الكرامات، قال عنهم الآلوسي: وأعظم الناس بلاء في هذا العصر على الدين والدولة مبتدعة الرفاعية؛ فلا تجد بدعة إلا ومنهم مصدرها، وعنهم موردها ومأخذها، فَذِكْرهم عبارة عن رقص وغناء والتجاء إلى غير الله وعبادة مشايخهم وأعمالهم عبارة عن مسك الحيات[٢]

وقال شيخ الإسلام: وأما كشف الرءوس، وتفتيل الشعر، وحمل الحيات فليس هذا من شعار أحد من الصالحين لا من الصحابة ولا التابعين ولا شيوخ المسلمين لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره، وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة ابتدعه طائفة انتسبت إليه فخالفوا طريق المسلمين، وخرجوا عن حقائق الدين، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين.

وهم نوعان: أهل حال إبليسي، وأهل محال تلبيسي، فأما أهل الأحوال منهم: فهم قوم اقترنت بهم الشياطين، كما يقترنون بإخوانهم؛ فإذا حضروا سماع المكاء والتصدية أخذهم الحال، فيزيدون ويرغون، كما يفعله المصروع، ويتكلمون بكلام لا يفهمونه هم ولا الحاضرون، وهي شياطينهم تتكلم على ألسنتهم عند غيبة عقولهم ،كما يتكلم الجني على لسان المصروع، ولهم مشابهون في الهند من عباد الأصنام، ومشابهون بالمغرب يسمى أحدهم المصلي؛ وهؤلا الذين في المغرب من جنس الزط الذين لا خلاق لهم؛ فإذا كان لبعض الناس مصروع أو نحوه أعطاهم شيئًا فيجيئون ويضربون لهم بالدف والملاهي ويحرقون، ويوقدون نارًا عظيمة مؤججة، ويضعون فيها الحديد العظيم حتى يبقى أعظم من الجمر، وينصبون رماحًا فيها أسنة ثم يصعد أحدهم يقعد فوق

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (١١/ ١٧١).

(٢) غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٣٧٠).

أسنة الرماح قدام الناس، ويأخذ ذلك الحديد المحمى ويمره على يديه، وأنواع ذلك.

ويرى الناس حجارة يرمى بها ولا يرون من رمى بها، وذلك من شياطينهم الذين يصعدون بهم فوق الرمح وهم الذين يباشرون النار، وأولئك قد لا يشعرون بذلك كالمصروع الذي يضرب ضربًا وجيعًا وهو لا يحس بذلك؛ لأن الضرب يقع على الجني، فكذا حال أهل الأحوال الشيطانية، ولهذا كلما كان الرجل أشبه بالجن والشياطين كان حاله أقوى، ولا يأتيهم الحال إلا عند مؤذن الشيطان وقرآنه، فمؤذنه المزمار وقرآنه الغناء.

ولا يأتيهم الحال عند الصلاة والذكر والدعاء والقراءة، فلا لهذه الأحوال فائدة في الدين ولا في الدنيا، ولو كانت أحوالهم من جنس عباد الله الصالحين وأولياء الله المتقين، لكانت تحصل عندما أمر الله به من العبادات الدينية، ولكان فيها فائدة في الدين والدنيا لتكثير الطعام والشراب عند الفاقات، واستنزال المطر عند الحاجات، والنصر على الأعداء عند المخافات، وهؤلاء أهل الأحوال الشيطانية في التلبيس يمحقون البركات، ويقوون المخافات، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله بل هم مع من أعطاهم وأطعمهم وعظمهم، وإن كان تتريًا بل يرجحون التتر على المسلمين، ويكونون من أعوانهم ونصرائهم الملاعين وفيهم من يستعين على الحال بأنواع من السحر والشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله.

وأما أهل المحال منهم: فهم يصنعون أدوية كحجر الطلق ودهن الضفادع وقشور النارنج ونحو ذلك، ويمشون بها على النار، ويمسكون نوعًا من الحيات يؤخذونها بضعة، ويقدمون على أكلها بفجور وما يصنعونه من السكر واللاذن، وماء الورد، وماء الزعفران، والدم؛ فكل ذلك حيل وشعوذة يعرفها الخبير بهذه الأمور، ومنهم من تأتيه الشياطين وذلك هم أهل المحال الشيطاني[(١)]

وتتفق الرفاعية مع الشيعة في أمور عدة منها: إيمانهم بكتاب الجفر، واعتقادهم في الأئمة الاثني عشر، وأن أحمد الرفاعي هو الإمام الثالث عشر؟ ومشاركتهم الحزن يوم عاشوراء، وغير ذلك.

وقال شيخ الإسلام وكانوا في زمانه معروفين باسم البطائحية: إنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك، ويوجد في بعضهم التعبد، والتأله، والوجد، والمحبة، والزهد، والفقر، والتواضع، ولين الجانب، والملاطفة، في المخاطبة، والمعاشرة، والكشف، والتصرف، ونحو ذلك ما يوجد فيوجد أيضًا في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلو، والبدع في الإسلام، والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول، والاستخفاف بشريعة الإسلام، والكذب، والتلبيس، وإظهار المخارق الباطلة، وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله ما يوجد.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٩٤- ٤٩٦).

وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشارات، وتاب منهم جماعة، وأدب منهم جماعة من شيوخهم، وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق مثل: ملابسة النار والحيات، وإظهار الدم، واللاذن، والزعفران، وماء الورد، والعسل، والسكر، وغير ذلك. وأن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة.

وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك، فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترهم، فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة، ومن احترق كان مغلوبًا، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك(١)

وقال: وقلت لهم يا شبه الرافضة يا بيت الكذب؛ فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك أو يساوونهم أو يزيدون عليهم؛ فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم(٢)

الطريقة الشاذلية

ظهرت الطريقة الشاذلية في القرن السابع، وهي نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي صاحب ابن عربي، إلا أن الشاذلي فضل مدرسة الغزالي في الكشف، وفضل ابن عربي مدرسة الحلاج في الحلول والاتحاد، وقيل عن الشاذلي أنه سهّل الطريقة على الخليقة؛ لأن طريقته من أسهل الطرق وأقربها فليس فيها كثير مجاهدة.

وتروي كتب الصوفيَّة كثيرًا من كراماته وأقواله البعيدة عن التصديق المخالفة لعقيدة الإسلام وللكتاب والسنة، مع أنه كان يذكر عنه أن أساس دعوته هو الكتاب والسنة.

وللشاذلي أوراد تسمى الحزب الشاذلي، ورسالة الأمين في آداب التصوف، والسر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال شيخ الإسلام: ومن سلك مسلكهم إذا عظم الأمر والنهي غايته أن يقول كما نقل عن الشاذلي: يكون الجمع في قلبك مشهودًا والفرق على لسانك موجودًا، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي، مثل دعوى أن الله يعطيه على المعصية أعظم مما يعطيه على الطاعة، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده أن يجعل الذين اجترحوا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٧٥).

السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات أو أفضل، ويدعون بأدعية فيها اعتداء كما يوجد في حزب الشاذلي(١)

ثم خلف الشاذلي بعد موته أبو العباس المرسي، وله مقام كبير ومسجد باسمه في الإسكندرية، وله من الأقوال والادعاءات المخالفة للكتاب والسنة، وله تأويل باطني للقرآن كما كان لشيخه الشاذلي.

ثم خلف أبا العباس المرسي على مشيخة الشاذلية ياقوتُ العرش الحبشي، وتزعم الصوفيَّة أنه سمي العرش؛ لأن قلبه لم يزل تحت العرش وما في الأرض إلا جسده، وقيل: لأنه كان يسمع أذان حملة العرش.

ومركز الشاذلية هو مصر وبخاصة في الإسكندرية وطنطا ودسوق، ولها انتشار في سوريا والمغرب وغرب الجزائر ومراكش وليبيا والسودان.

الطريقة الأحمدية

ظهرت الطريقة الأحمدية أو البدوية في القرن السابع-وهي نسبة إلى أحمد البدوي، وضريحه بطنطا يقام عنده كغيره من أولياء الصوفيَّة احتفال بمولده سنويًا يمارس فيه الكثير من البدع والانحرافات العقدية من دعاء واستغاثة وتبرك وتوسل. . .، ولطريقته فروع كثيرة في مصر مثل: البيومية، والشناوية، وأولاد نوح، والشعبية، وشارتهم العمامة الحمراء.

الطريقة الدسوقية

ظهرت الطريقة الدسوقية في القرن السابع، وهي نسبة إلى إبراهيم الدسوقي المدفون بدسوق في مصر، ويدعي المتصوفة أنه أحد الأقطاب الأربعة الذين يرجع إليهم تدبير الأمور في هذا الكون.

الطريقة الأكبرية

ظهرت الطريقة الأكبرية في القرن السابع، وهي نسبة إلى محي الدين بن عربي الذي لقبوه بالشيخ الأكبر، وتقوم طريقته على عقيدة وحدة الوجود والصمت والعزلة والجوع السهر.

الطريقة المولوية

ظهرت الطريقة المولوية بتركيا في القرن السابع، والذي أنشأها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي، وأصحابها يتميزون بإدخال الرقص والإيقاعات في حلقات الذكر، وقد انتشروا في تركيا وآسيا الغربية، ولم يبق لهم الآن إلا بعض التكايا في تركيا وحلب وبعض أقطار المشرق.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٢).

الطريقة النقشبندية

ظهرت الطريقة النقشبندية في القرن الثامن، وهي نسبة لمؤسسها بهاء الدين محمد بن محمد البخاري الملقب بشاه نقشبند، الذي نشأ وعاش في الهند، ومن هناك انتشرت في البلاد الإسلامية، وفي فارس وبلاد الهند وآسيا الغربية.

ثم ظهر الشيخ خالد النقشبندي في بلاد الشام ومنه انتشرت في العراق.

وظهر من شيوخها في الشام: أبو النصر محمد خلف الجندي الحمصي.

ومن شيوخها في العراق: مصطفى كمال الدين النقشبندي، وتولى المشيخة بعده إرثًا عنه الدكتور عبد الله ولا زال يتولاها.

وهذه الطريقة تشبه الطريقة الشاذلية.

الطريقة التيجانية

ظهرت الطريقة التيجانية في آخر القرن الثاني عشر، وهي نسبة إلى مؤسسها أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني، نسبة إلى بلد بني تيجن من قرى البربر.

وقد ادعى أنه قد التقى بالنبي ﷺ لقاءً حسيًّا ماديًّا، وأنه قد كلمه مشافهة، وأن النبي قد علمه صلاة الفَاتِحِ لِمَا أُغْلِقَ، ويعتقدون أن هذه الصلاة لها من الفضل الكبير ما ليس لغيرها، مثل كونها تفضل كل ذكر قرئ في الأرض ستين ألف مرة بما في ذلك القرآن الكريم، وأنها لا تؤخذ إلا بالتلقي من شيوخهم حتى تصل إلى أحمد التيجاني، وأنها من كلام الله تعالى بمنزلة الأحاديث القدسية، وأن النبي نهى التيجاني عن التوجه بالأسماء الحسنى وأمره بالتوجه بها، وأن النبي لم يأمر أحدًا قبل التيجاني بالتوجه بها.

وصلاة الفاتح هذه ذكر مبتدع سيء التركيب ركيك العبارة، وهو لا يعدو ثلاثة أسطر وهو: اللهم صلِّ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله، حق قدره ومقداره العظيم.

ويزعم التيجانيون أن أحمد التيجاني هو خاتم الأولياء كما أن النبي هو خاتم الأنبياء، وغير ذلك من الأقوال والأحوال التي ينسبها لنفسه وينقلونها عنه مثل: أنه الغوث الأكبر في حياته وبعد مماته، وأن أرواح الأولياء منذ آدم إلى وقت ظهوره لا يأتيها الفتح والعلم الرباني إلا بواسطته هو، وأن قدمه على رقبة كل ولي لله تعالى منذ أن خلق آدم إلى النفخ في الصور، وأن الله شفعه في جميع الناس الذين يعيشون في قرنه الذي عاش فيه.

ويدعي التجانيون أن من رأى التيجاني يومي الاثنين والجمعة، فإنه يكون من أهل الجنة إكرامًا للتيجاني، حتى وإن كان الرائي كافرًا؛ لأنه لا يتمكن من رؤية التجاني في هذين اليومين إلا من

سبقت له السعادة في علم الله تعالى، وأنه يعطي ويمنع، ويشفي ويمرض، ويجيب دعاء المضطر، وغير ذلك.

ويؤمن التيجانيون بعقيدة وحدة الوجود، وبأن مشايخهم يعلمون الغيب، وبأن النبي ﷺ لم يبلغ جميع ما أنزل إليه من ربه، وأنه كتم شيئًا مما أوحي إليه.

ولهم الكثير من الأوراد والوظائف والأذكار المخصوصة بعبارات متكلفة غامضة، وأساليب ركيكة مرذولة في أوقات معينة، مع التزامهم بباقي بدع الصوفيَّة القولية، والعملية، والعقدية.

ويزعم التيجانيون أن الرسول ﷺ يجالسهم ويحضر سمرهم ولهوهم، ويلقي عليهم أذكارهم وأدعيتهم.

ومما يزعمه التيجانيون أن لهم خصوصيات ترفعهم عن مقام الناس يوم القيامة، ومنها: أنه تخفف عنهم سكرات الموت، وأنهم يظلهم الله في ظل عرشه، وأن لهم برزخًا يستظلون به وحدهم، وأنهم يدخلون الجنة في الزمرة الأولى مع النبي وأصحابه، وأن النبي قد ضمن لهم دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم جاء من زعم أنه صاحب الفيض التيجاني الذي بشر به التيجاني، وأن أتباعه هو الآخر يدخلون الجنة جميعًا بغير حساب ولا عقاب، ولو كانوا على أي ملة قبل ذلك، ومن هؤلاء الذين ادعوا هذا الفيض المزعوم الحاج إبراهيم السنغالي، وقد بسط دعوته تلك في أصقاع واسعة من القارة الأفريقية.

وللتيجانية مجلة خاصة بهم اسمها طريق الحق تصدر بالقاهرة.

ومركز التيجانية هو فاس بالمغرب، ولها انتشار في السنغال، ونيجيريا، وموريتانيا، ومصر، والسودان، وغيرها من أفريقيا.

الطريقة الختمية

ظهرت الطريقة الختمية في القرن الثالث عشر، وهي نسبة إلى مؤسسها محمد عثمان بن محمد أبي بكر بن عبد الله الميرغني المحجوب، والملقب بالختم؛ لأنه ادعى أنه خاتم الأولياء، وأنه أعظم من كل الأولياء السابقين وأن مكانته تأتي بعد مكانة الرسول ﷺ، ومنه اشتق اسم الطريقة الختمية، وتسمى أيضًا الميرغنية نسبة إلى جد المؤسس.

وقد استمد محمد عثمان طريقته من عدة طرق كان قد انخرط فيها في مكة، وهي: النقشبندية، والقادرية، والشاذلية، والجنيدية، والميرغنية.

خلف الميرغنيُّ أحمدَ بن إدريس صاحب الطريقة الإدريسية الذي كان قد بعثه إلى السودان ليدعوا إليها، ثم كون طريقته الختمية وأنشأ لها الزوايا في مكة والمدينة وجدة والطائف، ثم أرسل أولاده لنشرها والدعوة إليها في جنوب الجزيرة ومصر والسودان، ورحل إلى الطائف وظل بها حتى مات سنة ١٢٦٨ هـ.

ومن أبنائه الذين أرسلهم إلى السودان الحسن بن محمد عثمان الذي أصبح شيخ الطريقة هناك، وأسس قرية الختمية في شرق السودان، وأصبح له مكانة كبيرة في تلك الأنحاء فاقت مكانة والده المؤسس إلى أن مات سنة ١٢٨٦ هـ.

وخلفه على الطريقة بعد موته ابنه محمد عثمان تاج السر، وعندما ظهرت الحركة المهدية في السودان عارضها محمد عثمان وخاض ضدها عدة معارك، انتهت بهزيمته وفراره إلى مصر حتى مات بها سنة ١٣٠٣ هـ.

وجاء بعده ابنه علي الميرغني الذي ظل بمصر حتى مجيء الإنجليز للسودان، إذ اختاره الإنجليز لمرافقتهم في غزوهم السودان للقضاء على دولة المهدية، وحينما تم لهم ذلك اتخذوه صنيعة لهم ومنحوه الأوسمة والمكافآت، واعترفوا به زعيمًا لطائفة الختمية في السودان، ثم تحول ولاءه إلى مصر حينما شعر بظهور المهدية من جديد على أيدي الإنجليز أنفسهم، وأصبح راعيًا للحركة السياسية التي تدعوا إلى الوحدة بين مصر والسودان، وظل يحرك الأحداث السياسية من وراء الستار حتى موته سنة ١٩٦٨ م.

وتولى من بعده ابنه محمد بن عثمان زعامة الختمية الذي انخرط في العمل السياسي، وأصبح زعيمًا للطائفة وللحزب الاتحادي الديمقراطي الذي يضم كثيرًا من العلمانيين واليساريين والنصارى، والذي تحالف مع الشيوعيين وعقد اتفاقية من طرف واحد مع المتمردين، وأخيرًا قام بقيادة التجمع الديمقراطي الذي يضم خليطًا من العلمانيين واليساريين المناهضين لشرع الله والموالين لحركة التمرد التي تحارب الإسلام.

والختمية تتمسك بمعتقدات الصوفيَّة وأفكارهم وفلسفاتهم، فقد تبنوا فكرة وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي وتلامذته من قبل، وفكرة الحلول والاتحاد التي قال بها الحلاج وأتباعه، واستخدموا مصطلحات الوحدة والتجلي والانبجاس والظهور والفيض وغيرها من المصطلحات الفلسفية الصوفيَّة.

وهم شديدو الغلو في شخص الرسول فقد أسبغوا عليه من الأوصاف ما لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى، وجعلوه غاية فنائهم ومنتهى سيرهم، وتوجهوا بدعائهم واستغاثتهم ورفع شكواهم إليه.

وادعوا لقي الرسول ﷺ ورؤيته عيانًا، وأنه يحضر احتفالاتهم بمولده، وأنهم يأخذون أساس طريقتهم وتعاليمهم وأورادهم وأذكارهم منه مباشرة، كما أنهم قالوا بفكرة النور المحمدي والحقيقة المحمدية وعبروا عن ذلك نظمًا ونثرًا في أورادهم وأذكارهم.

ويدعي مشايخ الختمية أنهم المدخل للحضرات الإلهية، وأن مقامهم برزخ بين النبوة والولاية، ويدعون أن لهم التصرف في الكون، وأنهم يغيثون من يلتجئ إليهم ويحتمي بحماهم فيزيلون كربات المكروبين وهم المهمومين، وأنهم الوسيلة للسعادة في الدنيا والآخرة.

ويهتمون بإقامة احتفالات معينة ومناسبات خاصة كإحياء ذكرى مولد النبي ﷺ، ومولد ووفاة مشايخ الطريقة، وإقامة ما يعرف لديهم بليالي الذكر أو الحولية، ويمارسون في كل ذلك طقوسًا خاصة في الزِّيِّ والذكر والإنشاد.

ولهم أذكار وأوراد بعيدة تمامًا عما جاء في القرآن والسنة، ويخصصون أذكارًا وأورادًا معينة بأيام وأوقات خاصة من غير دليل شرعي، ويغلب عليها السجع المتكلف، واشتمالها على ألفاظ أعجمية وأسماء غريبة لروحانيات يخاطبونها كما يزعمون.

وللختمية بيعة خاصة للمريد، ومن ضمن ما يقوله فيها: اللهم إني تبت إليك ورضيت بسيدي السيد محمد عثمان الميرغني شيخًا لي في الدنيا والآخرة فثبتني اللهم على محبته وطريقته في الدنيا والآخرة.

وللختمية خلوة للعبادة يطلبون فيها من المريد أن يطلب المدد من الرسول وجبريل ومشايخ الطريقة، كما يطلبون منه استحضار صورة السيد محمد عثمان الختم حتى تظهر منه روحانيته ثم يظهر نور من جهة القلب ويظل هكذا -كما يزعمون- حتى تظهر للمريد روحانية النبي ﷺ.

هناك ارتباط وثيق بين فكر الختمية وفكر الشيعة، فمشايخ الختمية يربطون نسبهم بأئمة الشيعة الاثني عشرية، كما تبنوا فكر الشيعة حول آل البيت وارتباطهم بقضية الإمامة، واستحقاقهم لها، واستخدموا حججهم وبراهينهم في ذلك، ووقعوا في تجريح الصحابة، وفسروا أحاديث التاريخ بمثل ما فسره به الشيعة.

والختمية المعاصرون يربطون تاريخ طائفتهم ومستقبلها بتاريخ ومستقبل الحركة الشيعية عن طريق الربط بين أصول التصوف والتشيع من ناحية، وعن طريق ربط حركة البعث الإسلامي وقصرها على الطائفتين المؤمنتين بولاية أهل البيت -وهما الشيعة والختمية كما يزعمون- من ناحية أخرى.

السنوسية

ظهرت السنوسية في القرن الثالث عشر، وهي نسبة إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسي الذي تأثر بالإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ودعوته السلفية في مجال العقيدة، وقد اكتسب هذا التأثر أثناء زيارته للحجاز لأداء فريضة الحج، وتأثر أيضًا بأبي حامد الغزالي.

وأخذ السنوسي من الصوفيَّة أساليب البيعة ودرجات التزكية الروحية مثل درجة المنتسب، ثم درجة الإخوان، ثم درجة الخواص، وهو بعيد عن بدع وخرافات الصوفيَّة مثل التوسل بالأموات والصالحين.

وتتشدد السنوسية في أمور العبادة، وتتحلى بالزهد في المأكل والملبس، وقد أوجب السنوسيون على أنفسهم الامتناع عن شرب الشاي والقهوة والتدخين.

وعلى الرغم من أن السنوسي مالكي المذهب إلا أنه كان يخالفه إذا كان الحق مع غيره، ولذلك تدعو السنوسية إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد.

ومن تعاليم السنوسية الاهتمام بالعمل اليدوي الجاد، ولذلك ازدهرت الزراعة والتجارة في أماكن دعوتهم مثل الواحات الليبية.

ومن شعار السنوسية الجهاد الدائم في سبيل الله ضد المستعمرين الصليبيين وغيرهم، ومن أجل ذلك قاموا بالجهاد ضد الاستعمار الإيطالي في ليبيا بقيادة عمر المختار، وقتل منهم الآلاف حينذاك.

وهم يستخدمون أسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والابتعاد عن أسلوب العنف واستعمال القوة.

ومركز السنوسية واحة جغبوب في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس، ولها انتشار في أفريقيا الشمالية كلها فامتدت زواياها من مصر إلى مراكش، ووصلت جنوبًا إلى الصحراء في السودان والصومال، وفي خارج أفريقيا وصلت إلى أرخبيل الملايو.

البريلوية

ظهرت في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وهي نسبة إلى مدينة بريلي في ولاية أترابرديش بالهند أيام الاستعمار البريطاني.

ومؤسس هذه الفرقة أحمد رضا خان بن تقي علي خان المسمي نفسه عبد المصطفى، والمولود ببلدة بريلي، والميت سنة ١٣٤٠ هـ.

وهذه الفرقة تشتهر بالغلو في تقديس الأنبياء والأولياء عامة، وبخاصة النبي ﷺ، فهم يعتقدون أن النبي ﷺ والأولياء من بعده لديهم قدرة يتحكمون بها في الكون.

وقد غالوا في نظرتهم إلى النبي ﷺ حتى أوصلوه إلى قريب من مرتبة الألوهية، وبالغوا في إضفاء الصفات عليه حتى جعلوه عالمًا للغيب.

ولديهم عقيدة اسمها عقيدة الشهود، وهي أن النبي صلى اله عليه وسلم في نظرهم حاضر وناظر لأفعال الخلق الآن في كل زمان ومكان.

وهم ينكرون بشرية النبي ﷺ ويجعلونه نورًا من نور الله.

ويحثون أتباعهم على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء ومن يستنكر عليهم ذلك يرمونه بالإلحاد.

وأعظم أعيادهم هو ذكرى المولد النبوي؛ إذ ينفقون فيه الأموال الطائلة، وينشدون فيه الأناشيد التي تمجد الرسول ﷺ من خلال القصص الخرافية ويقرءون فيه كتاب سرور القلوب في ذكر المولد المحبوب الذي ألفه أحمد رضا خان وملأه بالأساطير والخيالات.

وهم يشيدون القبور، ويعمرونها، ويجصصونها، وينيرون فيها الشموع والقناديل، وينذرون لها

النذور، ويتبركون بها، ويقيمون الاحتفالات لأجلها، ويضعون عليها الزهور والورود والأردية والستائر، ويدعون أتباعهم للطواف حول الضريح تبركًا به.

وعندهم ما يسمى الأعراس ويعني زيارة القبور والاجتماع عليها مثل عرس الشيخ الشاه وارث في بلدة ديوه، وعرس الخواجة معين الدين جشتي، إذ يجتمع له الملايين ويختلط فيه الرجال بالنساء، وتحصل فيه بعض المفاسد المحرمة شرعًا.

ولديهم غلو شديد في تقديس شخصية عبد القادر الجيلاني، ويعظمون باقي الأولياء من أئمة المتصوفة، وينسبون إليهم أفعالًا خيالية خارقة للعادات متسمة بالنسيج الخرافي الأسطوري.

ويقولون بالإسقاط وهي صدقة تدفع عن الميت بمقدار ما ترك من الصلاة والصيام وغيرها، ومقدار الصدقة عن كل صلاة أو صيام تركه الميت هو مقدار صدقة الفطر المعروفة، وقد يعمدون إلى الحيلة في ذلك؛ إذ يوزعون مقدارًا يغطي سنة واحدة ثم يستردون ذلك هبة، ومن ثم يعيدون توزيعه ويكررون ذلك بعدد السنين التي تركت فيها تلك الفريضة.

وهم يكفرون المسلمين من غير البريلويين لأدنى سبب، ولم يتركوا تجمعًا، ولا شخصية إسلامية من وصف الكفر وبخاصة أهل السنة، فهم يكفرون شيخ الإسلام ابن تيمية وينعتونه بأنه مختل وفاسد، ويكفرون ابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ويرمونه بأشنع التهم وأسوأ الألفاظ، ويكفرون الشيخ إسماعيل الدهلوي من علماء الهند، ومحمد إقبال، والرئيس الباكستاني الراحل ضياء الحق، وعددًا من وزرائه، وزعماء التعليم والإصلاح، ومحرري الهند من الاستعمار.

وتنتشر هذه البريلوية في القارة الهندية: الهند، وباكستان، وبنجلاديش، وبورما، وسريلانكا، ولهم تواجد في إنجلترا، وجنوب أفريقيا، وكينيا، ومورشيوس، وعدد من البلدان الإفريقية.

الأحباش

ظهرت في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري؛ نسبة إلى عبد الله بن محمد الهرري الحبشي، المولود في مدينة هرر بالحبشة أو أثيوبيا حاليًا، والذي كان قد بايع على الطريقة القادرية وأخذ الخلافة فيها، ثم انتقل إلى الطريقة التيجانية، ثم تركها وهاجمها ورجع إلى القادرية، وبايع أيضًا على الطريقة الرفاعية، وهي الطريقة التي يلتزمها ويعطي الإجازات والمبايعة عليها.

وقد أثار الفتن هناك ضد المسلمين بتعاونه مع الأحباش النصارى ضد الجمعية الوطنية الإسلامية بهرر ودعاة الإصلاح هناك.

ثم ارتحل إلى مكة والمدينة وسوريا، ثم إلى لبنان فاستقر بها منذ سنة ١٩٦٠ م، وهو يعمل فيها على بث الأحقاد والضغائن ونشر الفتن، مستغلًا سوء الأوضاع الاقتصادية وما خلفته الحروب الأهلية هناك في نشر مذاهب الجهمية والجبرية والصوفيَّة والباطنية وسب الصحابة وأمهات المؤمنين.

وتعد جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية المدعومة ماديًا ومعنويًا من جهات داخل لبنان وخارجه، هي النشاط الأساسي والرسمي للأحباش، والتي من وقت أن ترأسوها سنة ١٩٨٢ م ظهروا كقوة فاعلة في لبنان على الصعيد الاجتماعي من أندية رياضية وكشافة والنشاطات النسائية، والصعيد التعليمي من بناء المدارس التعليمية لكافة المراحل الدراسية، وطبع الكتب الكثيرة لشيخهم وأصحابه عن طريق إنشاء دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، وأنشطة أخرى مكثفة.

ونزار الحلبي أول رئيس لهم للجمعية، وكان المحرك الفعلي لنشاط الجمعية، وعنصرًا فَعَّالًا في تنظيمها، وقد لقبوه بسماحة الشيخ، إذ كانوا يعدونه لمنصب دار الفتوى، وقد قتل سنة ١٩٩٥ م.

وخلفه على رئاسة الجمعية حسام قراقيره، ومنهم أيضًا كمال الحوت، وعماد الدين حيدر، وعبد الله البارودي، وهم مشرفون على أكبر أجهزة الأبحاث والمخطوطات في لبنان.

ومن أنصارهم النائب البرلماني عدنان الطرابلسي، والمرشح طه ناجي، ومن خلالهما صار للأحباش دور سياسي في الحياة اللبنانية، وحليفًا استراتيجيًا للقوى الحاكمة، دون أي دور سياسي إيجابي تجاه المسلمين.

ويزعم الأحباش أنهم على مذهب الشافعي في الفقه والعقيدة، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك، فهم معطلة محرفة في الصفات، وهم فيه على مذهب الأشعرية والماتريدية.

ويعتقد الأحباش أن القرآن ليس كلام الله حقيقة، إنما هو عبارة عن كلام جبريل، إذ إن جبريل هو الذي أنشأ ألفاظه.

وعقيدتهم في الإيمان عقيدة المرجئة الذين يؤخرون العمل عن الإيمان، وتبعًا لذلك يقللون من شأن التحاكم إلى القوانين الوضعية الناقضة لشرع الله.

وهم في القدر جبرية يزعمون أن الله هو الذي أعان الكافر على كفره، وأنه لولا الله ما استطاع الكافر أن يكفر.

وأول واجب على الإنسان عند الأحباش هو النظر في الخلق لمعرفة الخالق عز وجل، وهذه المعرفة عندهم نظرية، وهي العلم بوجوده، ويذهبون إلى القول بوجوب الاستدلال العقلي على وجوده، وهذا قول المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية.

والتوحيد عند الأحباش هو توحيد الذات والصفات والأفعال المتعلقة بالله عز وجل، دون توحيد الألوهية.

ويحث الأحباش الناس على التوجه إلى قبور الأموات والاستغاثة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم، ويزعمون أن الأولياء يخرجون من قبورهم ليقضوا حوائج المستغيثين بهم ثم يعودون إلى قبورهم، وهم يجيزون الاستغاثة والاستعاذة والاستعانة بغير الله، والتوسل بالأنبياء والأولياء.

ويدعون إلى التبرك بشعرات مزعومة للنبي ﷺ، والتبرك بالقبور وبأسماء أصحاب الكهف وبذات الحبشي وآثاره، ويعظمون الاحتفال بالمولد النبوي.

ويرى الأحباش أن دليل إثبات النبوة محصور في المعجزة، وأنه لولا المعجزة ما بان صدق النبي، وهذا مذهب المتكلمين.

ويرجح الأحباش الأحاديث الضعيفة والموضوعة بما يؤيد مذهبهم، بينما يضعفون الأحاديث الصحيحية التي لا تؤيد مذهبهم.

ويعتقد الحبشي أن الله خلق الكون لا لحكمة وأرسل الرسل لا لحكمة وأن من ربط فعلًا من أفعال الله بالحكمة فهو مشرك.

وينكر تأثير الأسباب في مسبباتها، وينفي التلازم بينهما، وينكر أن تكون للأشياء خواص ذاتية تقتضي تأثير بعضها في بعض، وهو مذهب بعض الأشاعرة.

ويكثر الحبشي من سب الصحابة وخاصة معاوية بن أبي سفيان وأم المؤمنين عائشة وخالد بن الوليد وغيرهم.

ويكفر الحبشي العديد من العلماء، فكفر شيخ الإسلام ابن تيمية، وجعل من أول الواجبات على المكلف اعتقاد كفره، ويحذر أشد التحذير من كتبه، ويصف الإمام عثمان بن سعيد الدارمي بأنه من رءوس المشبهة، وكذلك يكفر الإمام ابن خزيمة، والذهبي عندهم خبيث، ويطعنون في ابن القيم وابن أبي العز الحنفي، ويزعم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجرم قاتل كافر، ويكفر الشيخ الألباني، ووصف الشيخ سيد سابق بأنه مجوسي، ويطعنون في كثير من العلماء والدعاة مثل الشيخ ابن باز، والشيخ العثيمين، والشيخ أبي بكر الجزائري، ومفتي لبنان السابق الشيخ حسن خالد، وغيرهم.

بينما يرى أن ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود هو شيخ الإسلام.

وله العديد من الفتاوى الشاذة القائلة بجواز التحايل على الدين، وتحليل النظر والاختلاط والمصافحة للمرأة الأجنبية، وجواز خروج المرأة متعطرة متبرجة، ويبيح بيع الصبي الحر، ويبيح ترك زكاة العملة الورقية، ويجيز تعاطي الربا مع الكفار، ومقامرتهم لسلب أموالهم، وجواز سرقتهم شريطة ألا تؤدي إلى فتنة، ويجيز الصلاة متلبسًا بالنجاسة، وغير ذلك من الفتاوى المستنكرة.

ومركز الأحباش هو لبنان حيث تنتشر مدارسهم الضخمة، وصارت حافلاتهم تملأ المدن، وأبنية مدارسهم تفوق سعة المدارس الحكومية، علاوة على الرواتب المغرية لمن ينضم إليهم ويعمل معهم، ولهم مجلة منار الهدى ومنبر الشباب، وإذاعة اسمها نداء الإيمان تبث في لبنان وخارجه، وموقع على شبكة الإنترنت.

وهم ينتشرون أيضًا في الأردن، وفي أوربا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي، وفي استراليا، ولهم

فيها جريدة البيرق، وقد أثاروا القلاقل في أمريكا وكندا عندما حاولوا تغيير القبلة فيهما من الجهة الشمالية الشرقية إلى الجهة الجنوبية الشرقية؛ إنكارًا منهم لكروية الأرض وقالوا بأنها مسطحة[١]

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٢٤٧- ٣٠٣، ٤٢٧- ٤٣٢)، فرق معاصر تنتسب إلى الإسلام (٣/ ٢٥- ٨٢)، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص(١٦٥- ١٧٢)، الصوفية نشأتها وتطورها ص(٩٦- ١٠٠)، صور من الصوفية، حوار مع الصوفية، فرقة الأحباش: نشأتها عقائدها آثارها، ضلالات جماعة الأحباش.

الفصل الخامس
مقالات الصوفيَّة

مجمل مقالاتهم:

قال شيخ الإسلام: ومنهم من لا يعرف ابتداء: إلا طريقة الرياضة، والتجرد والتصوف، ككثير من الصوفيَّة والفقراء الذين وقعوا في الاتحاد، والتأله المطلق. مثل: عبدالله الفارسي، والعفيف التلمساني ونحوهما، ومنهم من قد يجمع كالصدر القونَوِي ونحوه.

والغالب عليهم عالم التوهم، فتارة يتوهمون ماله حقيقة، وتارة يتوهمون ما لا حقيقة له، كتوهم إلهية البشر، وتوهم النصارى، وتوهم المنتظر، وتوهم الغوث المقيم بمكة: أنه بواسطته يدبر أمر السماء والأرض، ولهذا يقول التلمساني: ثبت عندنا بطريق الكشف ما يناقض صريح العقل.

ولهذا أصيب صاحب الخلوة بثلاث توهمات:

أحدها: أن يعتقد في نفسه أنه أكمل الناس استعدادًا.

والثاني: أن يتوهم في شيخه أنه أكمل من على وجه الأرض.

والثالث: أنه يتوهم أنه يصل إلى مطلوبه بدون سبب، وأكثر اعتماده على القوة الوهمية فقد تعمل الأوهام أعمالًا لكنها باطلة كالمشيخة الذين لم يسلكوا الطرق الشرعية النبوية؛ نظرًا أو عملًا بل سلكوا الصابئية.

ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه أكثر الأحمدية، واليونسية، والحريرية، وكثير من العدوية، وأصحاب الأوحد الكرماني، وخلق كثير من المتصوفة والمتفقرة بأرض المشرق ولهذا تغلب عليهم الإباحة فلا يؤمنون بواجبات الشريعة ومحرماتها، وهم إذا تألهوا في تأله مطلق: لا يعرفون من هو إلههم بالمعرفة القلبية، وإن حققه عارفوهم الزنادقة، جعلوه الوجود المطلق.

ومنهم من يتأله الصالحين من البشر، وقبورهم ونحو ذلك.

فتارة يضاهئون المشركين، وتارة يضاهئون النصارى، وتارة يضاهئون الصابئين، وتارة يضاهئون المعطلة الفرعونية، ونحوهم من الدهرية، وهم من الصابئين؛ لكن كفار في الأصل.

والخالص منهم: يعبد الله وحده لكن أكثر ما يعبده بغير الشريعة القرآنية المحمدية؛ فهم منحرفون إما عن شهادة أن لا إله إلا الله، وإما عن شهادة أن محمدًا رسول الله وقد كتبته في غير هذا[1]

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٥٧- ٥٩).

تفصيل مقالاتهم، وهي على النحو الآتي

- قولهم في مصادر التلقي

مصادر التلقي عندهم هي: الكشف والمشاهدات والذوق والوجد.

أقوال العلماء

قال الغزالي: ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات؛ حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد، ثم تترق الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها النطاق، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظة خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه إلا لمن رسخ فيه ونهل منه منهله(١)

وقال الشعراني: اعلم يا أخي -رحمك الله- أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء... فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلًا صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق... ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات، وآدابًا ومحرمات، ومكروهات وخلاف الأولى، نظير ما فعله المجتهدون(٢)

وقال عن ابن عربي: إن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن كان علمه مستفادًا من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلوم عند أهل الله عز وجل..

فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين(٣)

وقال عن البسطامي: وكان الشيخ كامل أبو اليزيد البسطامي ﷺ يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت(٤)

وقال شيخ الإسلام عن الاتحادية: وأئمتهم إذا رأوا من لم يفهم حقيقة قولهم طمعوا فيه، وقالوا: هذا من علماء الرسوم، وأهل الظاهر، وأهل القشر، وقالوا: علمنا هذا لا يعرف إلا بالكشف والمشاهدة، وهذا يحتاج إلى شروط، وقالوا: ليس هذا عشك فادرج عنه، ونحو ذلك مما فيه تعظيم له وتشويق إليه، وتجهيل لمن لم يصل إليه(٥)

---

(١) جمهرة الأولياء (١/ ١٥٥).

(٢) طبقات الشعراني (١/ ٤).

(٣) طبقات الشعراني (١/ ٥).

(٤) طبقات الشعراني (١/ ٥).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧٩).

وقال: ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم أعظم من طلبه لما فرض الله عليه[١]

وقال: وكل من هؤلاء قد يسوغ الخروج عما جاء به الكتاب والسنة لما يظنه معارضًا لهما إما لما يسميه هذا ذوقًا ووجدًا ومكاشفات ومخاطبات[٢]

نقض قولهم

قال ابن الجوزي: اعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس صدهم عن العلم؛ لأن العلم نور فإذا أطفا مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء، وقد دخل على الصوفيَّة في هذا الفن من أبواب:

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلًا وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكلف فحسن عندهم الراحة فلبسوا المراقع وجلسوا على بساط البطالة.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي، نا حمد بن أحمد الحداد، نا أبو نعيم الأصفهاني، ثنا أبو حامد بن حيان، ثنا أبو الحسن البغدادي، ثنا ابن صاعد، قال: سمعت الشافعي ﷺ يقول: أسس التصوف على الكسل.

وبيان ما قاله الشافعي أن مقصود النفس إما الولايات، وأما استجلاب الدنيا بالعلوم يطول ويتعب البدن، وهل يحصل المقصود أو لا يحصل، والصوفيَّة قد تعجلوا الولايات؛ فإنهم يرون بعين الزهد واستجلاب الدنيا؛ فإنها إليهم سريعة

أخبرنا عبد الحق، نا المبارك بن عبد الجبار، نا أبو الفرج الطناجيري، ثنا أبو حفص بن شاهين، قال: ومن الصوفيَّة من ذم العلماء ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومنا بلا واسطة، وإنما رأوا بعد الطريق في طلب العلم فقصروا الثياب، ورقعوا الجباب، وحملوا الركاء، وأظهروا الزهد.

والثاني: أنه قنع قوم منهم باليسير منه ففاتهم الفضل الكثير في كثرته فاقتنعوا بأطراف الأحاديث وأوهمهم أن علو الإسناد والجلوس للحديث كله رياسة ودنيا وأن للنفس في ذلك لذة.

وكشف هذا التلبيس أنه ما من مقام عال إلا وله فضيلة، وفيه مخاطرة فإن الإمارة والقضاء والفتوى كله مخاطرة، وللنفس فيه لذة، ولكن فضيلة عظيمة كالشوك في جوار الورد فينبغي أن تطلب الفضائل، ويتقي ما في ضمنها من الآفات.

فأما ما في الطبع من حب الرياسة؛ فإنه إنما وضع لتجتلب هذه الفضيلة كما وضع حب النكاح ليحصل الولد وبالعلم يتقوم قصد العلم، كما قال يزيد بن هارون: طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله، ومعناه أنه دلنا على الإخلاص ومن طالب نفسه بقطع ما في طبعه لم يمكنه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٩٥، ٩٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣١).

والثالث: أنه أوهم قومًا منهم أن المقصود العمل.

وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال، ثم إن العالم وإن قصر سير عمله؛ فإنه على الجادة والعابد بغير علم على غير الطريق.

والرابع: أنه أرى خلقًا كثيرًا منهم أن العلم ما اكتسب من البواطن؛ حتى إن أحدهم يتخايل له وسوسة فيقول: حدثني قلبي عن ربي، وكان الشبلي يقول: إذا طالبوني بعلم الورق... برزت عليهم بعلم الخِرَقِ.

وقد سموا علم الشريعة علم الظاهر، وسموا هواجس النفوس العلم الباطن، واحتجوا له بما أخبرنا به عبد الحق بن عبد الخالق، نا الحسين بن علي الطناجيري، نا أبو حفص بن شاهين، ثنا علي بن محمد بن جعفر بن أحمد بن عنبسة العسكري، ثني دارم بن قبيصة بن بهشل الصنعاني، قال: سمعت يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، قال: سمعت يحيى بن عبد الله بن حسين، عن يحيى بن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن الحسن بن علي، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ أنه قال: علم الباطن سر من سر الله عز وجل، وحكم من أحكام الله تعالى؛ يقذفه الله عز وجل في قلوب من يشاء من أوليائه.

قال ابن الجوزي: قلت: وهذا حديث لا أصل له عن النبي ﷺ، وفي إسناده مجاهيل لا يعرفون.

أنبأنا محمد بن ناصر، نا أبو الفضل محمد بن علي السهلكي، نا أبو علي عبد الله بن إبراهيم النيسابوري، ثنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن جهضم، ثنا أبو الفتح أحمد بن الحسن، ثنا علي بن جعفر، عن أبي موسى، قال: كان في ناحية أبي يزيد رجل فقيه عالم تلك الناحية فقصد أبا يزيد وقال له: قد حكى لي عنك عجايب، فقال أبو يزيد: وما لم تسمع من عجايبي أكثر، فقال له: علمك هذا يا أبا يزيد عمَّن ومن، ومِمَّن؟

فقال أبو يزيد: علمي من عطاء الله تعالى، ومن حيث قال ﷺ: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم»، ومن حيث قال ﷺ: «العلم علمان: علم ظاهر وهو حجة الله تعالى على خلقه، وعلم باطن وهو العلم النافع»، وعلمك يا شيخ نقل من لسان عن لسان التعليم، وعلمي من الله إلهام من عنده.

فقال له الشيخ: علمي عن الثقات، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن ربه عز وجل.

فقال له أبو يزيد: يا شيخ كان للنبي ﷺ علم عن الله لم يطلع عليه جبريل ولا ميكائيل.

قال: نعم، ولكن أريد أن يصح لي علمك الذي تقول هو من عند الله.

قال: نعم، أبينه لك قدر ما يستقر في قلبك معرفته، ثم قال: يا شيخ، علمت أن الله تعالى كلم موسى تكليمًا، وكلم محمدًا ﷺ ورآه كفاحًا، وأن حلم الأنبياء وحي؟

قال: نعم، قال: أما علمت أن كلام الصديقين والأولياء بإلهام منه وفوائده من قلوبهم حتى أنطقهم بالحكمة ونفع بهم الأمة، ومما يؤكد ما قلت ما ألهم الله تعالى أم موسى أن تلقي موسى في التابوت فألقته، وألهم الخضر في السفينة والغلام والحائط قوله موسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: الآية ٨٢]، وكما قال أبو بكر لعائشة رضي الله عنها إن ابنة خارجة حاملة ببنت، وألهم عمر رضي الله عنه فنادى يا سارية الجبل.

أنبأنا ابن ناصر، أنبأنا أبو الفضل السهلكي، قال: سمعت أبا عبد الله الشيرازي، يقول: سمعت يوسف بن الحسين، يقول: سمعت إبراهيم سبتية، يقول: حضرت مجلس أبي يزيد والناس يقولون فلان لقي فلانًا، وأخذ من علمه، وكتب منه الكثير، وفلان لقي فلانًا؛ فقال أبو يزيد: مساكين أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

قال ابن الجوزي: هذا الفقه في الحكاية الأولى من قلة العلم؛ إذ لو كان عالمًا لعلم أن الإلهام للشيء لا ينافي العلم، ولا يتسع به عنه ولا ينكر أن الله عز وجل يلهم الإنسان الشيء كما قال النبي ﷺ: «إن في الأمم محدثين وإن يكن في أمتي فعمر» ، والمراد بالتحديث إلهام الخير إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه، وأما الخضر فقد قيل: إنه نبي ولا ينكر للأنبياء الإطلاع بالوحي على العواقب، وليس الإلهام من العلم في شيء، إنما هو ثمرة العلم والتقوى فيوفق صاحبهما للخير ويلهم الرشد، فأما أن يترك العلم ويقول: إنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشيء؛ إذ لولا العلم النقلي ما عرفنا ما يقع في النفس أمن الإلهام للخير أو الوسوسة من الشيطان.

واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية؛ فإن العقلية كالأغذية والشرعية كالأدوية ولا ينوب هذا عن هذا.

وأما قوله أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، أصلح ما ينسب إليه هذا القائل أنه ما يدري ما في ضمن هذا القول وإلا فهذا طعن على الشريعة أنبأنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أبو حفص بن شاهين، قال: من الصوفيَّة من رأى الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: نحن علومنا بلا واسطة، قال: وما كان المتقدمون في التصوف إلا رؤسا في القرآن والفقه والحديث والتفسير ولكن هؤلاء أحبوا البطالة.

وقال أبو حامد الطوسي: اعلم أن ميل أهل التصوف إلى الإلهية دون التعليمية ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون؛ بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، وذلك بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم، ويخلو نفسه في زاوية ويقتصر على الفرائض والرواتب ولا يقرن همه بقراءة قرآن ولا بالتأمل في نفسه، ولا يكتب حديثًا ولا غيره ولا يزال يقول: الله الله الله إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك اللسان ثم يمحي عن القلب صورة اللفظ.

قال ابن الجوزي: قلت: عزيز علي أن يصدر هذا الكلام من فقيه؛ فإنه لا يخفى قبحه إنه على الحقيقة طي لبساط الشريعة التي حثت على تلاوة القرآن، وطلب العلم وعلى هذا المذهب؛ فقد رأيت الفضلاء من علماء الأمصار؛ فإنهم ما سلكوا هذه الطريق، وإنما تشاغلوا بالعلم أولًا، وعلى ما قد رتب أبو حامد تخلو النفس بوساوسها وخيالاتها، ولا يكون عندها من العلم ما يطرد ذلك، فيلعب بها إبليس أي ملعب؛ فيريها الوسوسة محادثة ومناجاة، ولا ننكر أنه إذا طهر القلب انصبت عليه أنوار الهدى، فينظر بنور الله إلا أنه ينبغي أن يكون تطهيره بمقتضى العلم لا بما ينافيه؛ فإن الجوع الشديد والسهر وتضييع الزمان في التخيلات أمور ينهي الشرع عنها فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نهى عنه، كما لا تستباح الرخص في سفر قد نهى عنه، ثم لا تنافي بين العلم والرياضة؛ بل العلم يعلم كيفية الرياضة ويعين على تصحيحها، وإنما تلاعب الشيطان بأقوام أبعدوا العلم وأقبلوا على الرياضة بما ينهي عنه العلم والعلم بعيد عنهم؛ فتارة يفعلون الفعل المنهي عنه وتارة يؤثرون ما غيره أولى منه وإنما كان يفتي في هذه الحوادث العلم وقد عزلوه فنعوذ بالله من الخذلان.

أنبأنا ابن ناصر عن أبي علي بن البنا قال كان عندنا بسوق السلاح رجل كان يقول: القرآن حجاب، والرسول حجاب، ليس إلا عبد رب فافتتن جماعة به فأهملوا العبادات واختفى مخافة القتل.

أنبأنا محمد بن عبد الملك، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا أبو الحسن محمد بن عبيد الله بن محمد الجبائي، ثنا أحمد بن سليمان النجاد، ثنا محمد بن عبد الله بن سليمان، ثنا هشام بن يونس، ثنا المحاربي، عن بكر بن حنش عن ضرار بن عمرو، قال: إن قومًا تركوا العلم ومجالسة أهل العلم واتخذوا محاريب فصلوا وصاموا حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، وخالفوا السنة، فهلكوا فوالله الذي لا إله غيره ما عمل عامل قط على جهل إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح[1]

وقال شيخ الإسلام عن النبي محمد ﷺ: ومن الإيمان به الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقًا إلى الله من غير متابعة محمد فهو كافر من أولياء الشيطان[2]

وقال: ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله؛ لئلا يكون نبيًا، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقًا للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهامًا ومحادثة وخطابًا من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٨٩- ٣٩٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٧٠).

جميعه على ما جاء به محمد؛ فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه[١]

وقال: وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل إما أن يكون كافرًا وإما أن يكون مفرطًا في الجهل[٢]

وقال: ولهذا كانت المحبة الإيمانية هي الموجبة للذوق الإيماني والوجد الديني، كما في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»** فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم وجود حلاوة الإيمان معلقًا بمحبة الله ورسوله الفاضلة، وبالمحبة فيه في الله، وبكراهة ضد الإيمان.

وفي صحيح مسلم عن العباس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولًا»**.

فجعل ذوق طعم الإيمان معلقًا بالرضا بهذه الأصول، كما جعل الوجد معلقًا بالمحبة ليفرق صلى الله تعالى عليه وسلم بين الذوق والوجد الذي هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة، وبين ما أمر الله به ورسوله وبين غيره كما قال سهل بن عبد الله التستري كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل؛ إذ كان كل من أحب شيئًا فله ذوق بحسب محبته[٣]

وقال: وهؤلاء قد يقولون كما يقول صاحب الفصوص ابن عربي إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة المتفلسفة، ثم أخرجوها في قالب المكاشفة...

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبريل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ، والخيال تابع للعقل، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة، وزعموا أنهم أولياء الله، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة، كابن عربي صاحب الفتوحات والفصوص فقال: إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، والمعدن عنده هو العقل، والملك هو الخيال، والخيال تابع للعقل، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال، والرسول يأخذ عن الخيال، فلهذا صار عند نفسه فوق النبي، ولو كان خاصة النبي

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٠١- ٢٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٠٩)، (٤/ ٧٦، ٧٧)، (١١/ ٥٦٤، ٥٦٥)، (٤/ ٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٥٣، ٤٥٤).

ما ذكروه لم يكن هو من جنسه فضلًا عن أن يكون فوقه، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين، والنبوة أمر وراء ذلك(١).

- قولهم في علم الشريعة والحقيقة أو الظاهر والباطن

يرون أن علم الشريعة وهو العلم بالأحكام العملية الظاهرة للفقهاء وعوام المسلمين، أما علم الحقيقة وهو العلم بما وراء ذلك من إشارات وحقائق باطنية وأسرار فهو لهم؛ لأنهم هم الخواص.

أقوال العلماء

قال السكسكي: فرقة الصوفيَّة قالت: إن للقرآن والسنة حقائق خفية باطنية غير ما عليه علماء الشريعة من الأحكام الظاهرة التي نقلوها خلفًا عن سلف متصلًا بالنبي ﷺ بالأسانيد الصحيحة والنقلة الثقات وتلقته الأمة بالقبول وأجمع عليه السواد الأعظم(٢).

وقال: قالوا: ونحن قد وصلنا واتصلنا واطلعنا على الحقائق الذي جهلته العامة وحملة الشرع، وطعنوا حينئذ في الفقهاء والأئمة والعلماء وأبطلوا ما هم عليه من أحكام الشريعة المطهرة وحقروهم وصغروهم عند العوام والجهال، وقالوا نحن العلماء بعلم الحقيقة الخواص الذين على الحق، والفقهاء هم العامة؛ لأنهم لم يطلعوا على علم الحقيقة، وأعوذ بالله من الضلالة(٣).

وقال شيخ الإسلام: وهكذا يكذب قوم من النساك ومدَّعي الحقائق على أبي بكر وغيره، وأن النبي ﷺ كان يخاطبه بحقائق لا يفهمها عمر مع حضوره، ثم قد يدعون أنهم عرفوها وتكون حقيقتها زندقة وإلحادًا(٤).

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: وقد فرق كثير من الصوفيَّة بين الشريعة والحقيقة، وهذا جهل من قائله؛ لأن الشريعة كلها حقائق فإن كانوا يريدون بذلك الرخصة والعزيمة؛ فكلاهما شريعة وقد أنكر عليهم جماعة من قدمائهم في إعراضهم عن ظواهر الشرع، وعن أبي الحسن غلام شعوانه بالبصرة يقول: سمعت أبا الحسن بن سالم، يقول: جاء رجل إلى سهل بن عبد الله وبيده محبرة وكتاب فقال لسهل: جئت أن أكتب شيئًا ينفعني الله به فقال: اكتب إن استطعت أن تلقى الله وبيدك المحبرة والكتاب فأفعل، قال: يا أبا محمد أفدني فائدة فقال: الدنيا كلها جهل إلا ما كان علمًا، والعلم كله حجة إلا ما كان عملًا، والعمل كله موقوف إلا ما كان منه على الكتب والسنة، وتقوم السنة على التقوى.

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٧- ٢٣٣)، (٤/ ١٧٢).
(٢) البرهان ص(١٠١).
(٣) البرهان ص(١٠٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢١٧).

وعن سهل بن عبد الله أنه قال: احفظوا السواد على البياض؛ فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق.

وعن سهل بن عبد الله أنه قال: ما من طريق إلى الله أفضل من العلم؛ فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في الظلام أربعين صباحًا.

وعن أبي بكر الدقاق قال: سمعت أبا سعيد الخراز، يقول: كل باطن يخالف ظاهرًا فهو باطل.

وعن أبي بكر الدقاق أنه قال كنت مارًا في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين للشريعة؛ فهتف بي هاتف من تحت شجرة: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر.

قال ابن الجوزي: وقد نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء فقال: من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يخالف الظاهر؛ فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

وقال ابن عقيل: جعلت الصوفيَّة الشريعة اسمًا، وقالوا المراد منها الحقيقة، قال: وهذا قبيح لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق، وتعبداتهم فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع[١]

وقال شيخ الإسلام: إن كل من بلغه رسالة محمد لا يكون وليًا لله إلا باتباع محمد ﷺ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد ﷺ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون وليًا لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه.

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد؛ فهذا كافر ملحد، وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة؛ فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمدًا رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب؛ فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض؛ فكانوا كفارًا بذلك وكذلك هذا الذي يقول: إن محمدًا بعث بعلم الظاهر دون علي الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر، وهو أكفر من أولئك؛ لأن علم الباطن الذي هو على إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة.

فإذا ادعى المدعي أن محمدًا إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان، وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر، وهذا شر ممن يقول أومن ببعض وأكفر ببعض، ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين[٢]

وقال: ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمدًا ظانًا أنه متبع للحقيقة؛ فإنه مضاهٍ

(١) تلبيس إبليس ص(٣٩٤- ٣٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٥، ٢٢٦)، (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

للمشركين المكذبين للرسل، ولفظ الحقيقة يقال على حقيقة كونية، وحقيقة بدعية، وحقيقة شرعية.

فالحقيقة الكونية: مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وهذا مما يجب أن يؤمن به، ولا يجوز أن يحتج به؛ بل لله علينا الحجة البالغة فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر عن المعاصي؛ فعذره غير مقبول.

وأما الحقيقة البدعية: فهي سلوك طريق الله سبحانه وتعالى مما يقع في قلب العبد من الذوق، والوجد، والمحبة، والهوى، من غير اتباع الكتاب والسنة كطريق النصارى فهم تارة يعبدون غير الله، وتارة يعبدون بغير أمر الله كالنصارى المشركين الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وابتدعوا الرهبانية؛ فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، وأما دين المسلمين فكما قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: الآية ٧] قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل؛ حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وأما الحقيقة الدينية: وهي تحقيق ما شرعه الله ورسوله مثل الإخلاص لله، والتوكل على الله، والخوف من الله، والشكر لله، والصبر لحكم الله، والحب لله ورسوله، والبغض في الله ورسوله، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله؛ فهذا حقائق أهل الإيمان وطريق أهل العرفان[(١)]

- قولهم في التشاغل بالعلم

هم ينهون عن التشاغل بعلم الشريعة من حديث وفقه وأصول ونحوه، ويهتمون بعلم الباطن وما يسمونه «العلم اللَّدُنِّي».

ومن تعلم منهم علم الشريعة قبل ذلك دفن كتبه التي فيها علمه.

أقوال العلماء:

قال ابن الجوزي: لما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم، وبين ظانٍّ أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبد، وسموا ذلك العلم العلم الباطن -نهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، نا أبو بكر أحمد بن علي، نا علي بن أبي علي البصري، ثنا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٠٨، ٥٠٩)، (٤/ ٨٢- ٨٤).

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبري، قال: سمعت جعفر الخلدي يقول: لو تركني الصوفيَّة لجئتكم بإسناد الدنيا لقد مضيت إلى عباس الدوري وأنا حدث فكتبت عنه مجلسًا واحدًا، وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفيَّة، فقال: إيش هذا معك فأريته إياه، فقال: ويحك تدع علم الخرق، وتأخذ علم الورق، ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى عباس.

قال ابن الجوزي: وبلغني عن أبي سعيد الكندي، قال: كنت أنزل رباط الصوفيَّة، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يومًا من كمي فقال لي بعض الصوفيَّة: استر عورتك.

أخبرنا محمد بن ناصر، نا أبو القاسم هبة الله بن عبد الله الواسطي، نا أبو بكر الخطيب، نا أبو الفتح بن أبي الفوارس، نا الحسين بن أحمد الصفار، قال كان بيدي محبرة فقال لي الشبلي: غيب سوادك عني يكفيني سواد قلبي.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبي صادق، نا ابن باكويه، قال: سمعت عبد الله العزال المذكر، قال: سمعت علي بن مهدي، يقول: وقفت ببغداد على حلقة الشبلي فنظر إلي ومعي محبرة فأنشأ يقول:

تسربلت للحرب ثوب الغرق ... وجبت البلاد لوجد القلق
ففيك هتكت قناع الغويِّ ... وعنك نطقت لدى من نطق
إذا خاطبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخرق[1]

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: قلت: من أكبر المعاندة لله عز وجل الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله العلم؛ لأنه دليل على الله وبيان لأحكام الله وشرعه وإيضاح لما يحبه ويكرهه فالمنع منه معاداة لله ولشرعه ولكن الناهين عن ذلك ما تفطنوا لما فعلوا.

أخبرنا ابن حبيب، قال: نا ابن أبي صادق، نا ابن باكويه، قال: سمعت أبا عبد الله بن خفيف، يقول: اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفيَّة؛ فإني كنت أخبِّئ محبرتي في جيب مرقعتي، والكاغد في حزة سراويلي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم؛ فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح، ثم احتاجوا إلي بعد ذلك، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: هذه سُرُج الإسلام، وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه؛ فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله؟ فقال: المحبرة إلى المقبرة، وقال في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**»، فقال: أحمد إن لم يكونوا أصحاب

(١) تلبيس إبليس ص(٣٩٩، ٤٠٠).

الحديث؛ فلا أدري من هم، وقال أيضًا: إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال؛ فمن يكون؟! وقيل له: إن رجلًا قال في أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء؛ فقال أحمد: هو زنديق، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: إذا رأيت رجلًا من أصحاب الحديث؛ فكأني رأيت رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال يوسف بن أسباط: بطلبة الحديث يدفع الله البلاء عن أهل الأرض.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، ثنا عبد العزيز بن علي، ثنا ابن جهضم، ثنا محمد بن جعفر، ثنا أحمد بن محمد بن مسروق، قال: رأيت كأن القيامة قد قامت، والخلق مجتمعون إذا نادى منادٍ: الصلاة جامعة فاصطف الناس صفوفا، فأتاني ملك فتأملته؛ فإذا بين عينيه مكتوب جبريل أمين الله، فقلت: أين النبي ﷺ؟ فقال: مشغول بنصب الموائد لإخوانه الصوفيَّة، فقلت: وأنا من الصوفيَّة، فقيل: نعم، ولكن شغلك كثرة الحديث.

قال ابن الجوزي: معاذ الله أن ينكر جبريل التشاغل بالعلم، وفي إسناد هذه الحكاية ابن جهضم، وكان كذَّابًا ولعلها عمله، وأما ابن مسروق فأخبرني القزاز، نا أبو بكر الخطيب، حدثني علي بن محمد بن نصر، قال: سمعت حمزة بن يوسف، قال: سمعت الدارقطني يقول: أبو العباس بن مسروق ليس بالقوي؛ يأتي بالمعضلات[(١)]

وقال: قد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم، ثم لبس عليهم إبليس، وقال ما المقصود إلا العمل، ودفنوا كتبهم؛

فقد رُوِيَ أن أحمد بن أبي الحواري رمى كتبه في البحر، وقال: نعم الدليل كُنْتِ، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال. ولقد طلب أحمد بن أبي الحواري الحديث ثلاثين سنة فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه إلى البحر فغرقها وقال: يا علم لم أفعل بك هذا تهاونًا، ولا استخفافًا بحقك؛ ولكني كنت أطلبك لأهتديَ بك إلى ربي؛ فلما اهتديتُ بكِ أستغنيتُ عنك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيبٍ، نا أبو سعد بن أبي صادقٍ، نا ابن باكويه، قال: سمعتُ أبا الحسن غلام شعوانة بالبصرة يقول: سمعت أبا الحسنِ بن سالم، عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، قال أحمد بن محمد بن إسماعيل أبو الحسين بن الخلال: كان حسن الفهم له صبر على الحديث، وأنه كان يتصوف ويرمي بالحديث مدة ثم يرجع ويكتب، ولقد أخبرت أنه رمى بجملة من سماعاته القديمة في دجلة، فأول ما سمع على أبي العباس الأصم وطبقته وكتب الكثير.

أنبأنا زاهر بن طاهرٍ، نا أحمد بن الحسين البيهقي، قال: سمعت أبا عمرٍو بن أبي جعفر، يقول: سمعت أبا طاهرٍ الجنايدي، يقول: لقد كان موسى بن هرون يقرأ علينا؛ فإذا فرغ من الجزء رمى بأصله في دجلة ويقول: لقد أديته.

---

(١) تلبيس إبليس ص(٤٠٠، ٤٠١).

أخبرنا محمد بن ناصرٍ، نا أحمد بن علي بن خلفٍ، نا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت أبا نصرٍ الطوسي، يقول: سمعت جماعة من مشايخ الري يقولون: ورث أبو عبد الله المقري عن أبيه خمسين ألف دينار سوى الضياع والعقار؛ فخرج عن جميع ذلك وأنفقها على الفقراء، قال: فسألت أبا عبد الله عن ذلك، فقال: أحرمت وأنا غلام حدث، وخرجت إلى مكة على الوحدة حين لم يبق لي شيء أرجع إليه، وكان اجتهادي أن أزهد في الكتب، وما جمعت من العلم والحديث أشد علي من الخروج إلى مكة، والتقطع في الأسفار، والخروج عن ملكي.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا إسماعيل الحيري، ثنا محمد بن الحسين السلمي، قال: سمعت أبا العباس بن الحسين البغدادي يقول: سمعت الشبلي، يقول: أعرف من لم يدخل في هذا الشأن حتى أنفق جميع ملكه وغرق في هذه الدجلة سبعين قمطرًا مكتوبًا بخطه، وحفظ وقرأ بكذا وكذا رواية يعني بذلك نفسه.

قال ابن الجوزي: قد سبق القول بأن العلم نور، وأن إبليس يحسن للإنسان إطفاء النور ليتمكن منه في الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل، ولما خاف إبليس أن يعاود هؤلاء مطالعة الكتب فربما استدلوا بذلك على مكايده، حسن له دفن الكتب وإتلافها، وهذا فعل قبيح محظور، وجهل بالمقصود بالكتب، وبيان هذا أن أصل العلوم القرآن والسنة فلما علم الشرع أن حفظهما يصعب أمر بكتابة المصحف وكتابة الحديث؛ فأما القرآن فإن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية دعا بالكاتب فأثبتها، وكانوا يكتبونها في العسب والحجارة وعظام الكتف، ثم جمع القرآن بعده في المصحف أبو بكر صوتًا عليه ثم نسخ من ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقية الصحابة، وكل ذلك لحفظ القرآن لئلا يشذ منه شيء؛ وأما السنة فإن النبي ﷺ قصر الناس في بداية الإسلام على القرآن وقال: «**لا تكتبوا عني سوى القرآن**» فلما كثرت الأحاديث ورأى قلة ضبطهم أذن لهم في الكتابة فروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه شكى إلى رسول الله ﷺ قلة الحفظ فقال: «**ابسط رداءك**» فبسط رداءه وحدثه النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: «**ضمه إليك**» فقال أبو هريرة: فلم أنسَ بعد ذلك شيئًا بما حدثنيه رسول الله ﷺ، وفي رواية أنه قال: «**استعن على حفظك بيمينك**» يعني بالكتابة، وروى عنه ﷺ عبدُ الله بن عمرو أنه قال: «**قيدوا العلم**» فقلت: يا رسول الله، وما تقييده؟ قال: «**الكتابة**». وروى عنه أيضا رافعُ بن خديج قال: قلنا يا رسول الله، إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: «**اكتبوا ولا حرج**».

قال ابن الجوزي: واعلم أن الصحابة ضبطت ألفاظ رسول الله ﷺ، وحركاته، وأفعاله، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**بلغوا عني**» ، وقال: «**نضر الله أمرًا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**» وتأدية الحديث كما يسمع لا يكاد يحصل إلا من الكتابة؛ لأن الحفظ خوان، وقد كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه يحدث بالحديث فيقال له: أمله علينا، فيقول: لا بل من الكتاب.

وقد قال علي بن المديني: أمرني سيدي أحمد بن حنبل ألا أحدث إلَّا من الكتاب.

فإذا كانت الصحابة قد روت السنة وتلقتها التابعون وسافر المحدثون وقطعوا شرق الأرض وغربها لتحصيل كلمة من هاهنا، وكلمة من هنا، وصححوا ما صح، وزيفوا ما لم يصح، وجرحوا الرواة، وعدلوا، وهذبوا السنن، وصنفوا ثم من يغسل ذلك فيضيع التعب، ولا يعرف حكم الله في حادثة، فما عوندت الشريعة بمثل هذا.

فهل لشريعة من الشرائع قبلنا إسناد إلى نبيهم، وإنما هذه خصيصة لهذه الأمة، وقد روينا عن الإمام أحمد بن حنبل مع كونه طاف الشرق والغرب في طلب الحديث أنه قال: لابنه ما كتبت عن فلان فذكر له أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخرج يوم العيد من طريق، ويرجع من أخرى؛ فقال الإمام أحمد بن حنبل: إنا لله سنة من سنن رسول الله ﷺ لم تبلغني، وهذا قوله مع إكثاره وجمعه فكيف بمن لم يكتب، وإذا كتب غسل، أفترى إذا غُسلت الكتب ودُفنت على ما يعتمد في الفتاوى والحوادث على فلان الزاهد، أو فلان الصوفي، أو على الخواطر فيما يقع لها نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى[١]

- قولهم في العلوم الشرعية

تكلم كثير منهم في علوم الشريعة من: تفسير، وحديث، وفقه، ونحوه بما سنُّوه لأنفسهم من طريقة.

أقوال العلماء:

قال السكسكي: وأما ما هجس في نفوسهم وتكلموا به في تفسير قرآن أو حديث نبوي أو غير ذلك مما شرعوه لأنفسهم واصطلحوا عليه أنه منسوب إلى الله تعالى، وأنه الحق، وإن خالف ما عليه جمهور العلماء وأئمة الشريعة وفسرته علماء الصحابة وثقاتهم، بناء على الأصل الذي أصلوه من الحلول والممازجة[٢]

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: اعلم أن هؤلاء القوم لما تركوا العلم، وانفردوا بالرياضيات على مقتضى آرائهم؛ لم يصبروا عن الكلام في العلوم، فتكلموا بواقعاتهم فوقعت الأغاليط القبيحة منهم، فتارة يتكلمون في تفسير القرآن، وتارة في الحديث، وتارة في الفقه، وغير ذلك، ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به، والله سبحانه لا يخلي الزمان من أقوام قوَّامٍ بشرعه، يردون على المتخرصين، ويبينون غلط الغالطين[٣]

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٩٥- ٣٩٩).
(٢) البرهان ص(١٠٢).
(٣) تلبيس إبليس ص(٤٠١).

قال ابن الجوزي: وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل نحو مجلدين سماها حقائق التفسير.

وجميع الكتاب من هذا الجنس، ولقد هممت أن أثبت منه هاهنا كثيرًا؛ فرأيت أن الزمان يضيع في كتابة شيء بين الكفر والخطأ والهذيان، وهو من جنس ما حكينا عن الباطنية؛ فمن أراد أن يعرف جنس ما في الكتاب فهذا أنموذجه، ومن أراد الزيادة فلينظر في ذلك الكتاب[١]

وقال: أخبرنا عبد الحق بن عبد الخالق، نا المبارك بن عبد الجبار، نا الحسين بن علي الطناجيري، نا أبو حفص بن شاهين، قال: وقد تكلمت طائفة من الصوفيَّة في نفس القرآن بما لا يجوز[٢]

وقال: وإني لأتعجب من هؤلاء، وقد كانوا يتورعون من اللقمة والكلمة كيف انبسطوا في تفسير القرآن إلى ما هذا حده[٣]

- قولهم في التكاليف الشرعية:

يرى بعضهم أن التكاليف تسقط عنهم عند الوصول إلى منزلة العارفين ودرجة اليقين.

أقوال العلماء:

قال الأشعري: ومالوا إلى اطِّراح الشَّرَائع، وزعموا أن الإنسان ليس عليه فرض ولا يلزمه عبادة إذا وصل إلى معبوده[٤]

وقال: وفي النُّسَّاك قومٌ يزعمون أنَّ العبادةَ تبلغ بهم إلى منزلةٍ تزول عنهم العباداتُ، وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم من الزنى وغيره مباحاتٍ لهم[٥]

وقال ابن حزم: إنَّ من الصوفيَّة من يقول: إنَّ من عرف الله تعالى سقطت عنه الأعمال الشرعية. وزاد بعضهم: واتصل بالله تعالى.

وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلًا يكنى أبا سعيد أبي الخير -هكذا معًا- من الصوفيَّة مرَّة يلبس الصوف، ومرَّة يلبس الحرير المحرَّم على الرجال، ومرَّة يصلي في اليوم ألف ركعة، ومرَّة لا يصلي لا فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من الضلالِ[٦]

وقال: وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلّها، من الصلاة

(١) تلبيس إبليس ص(٤٠٣، ٤٠٤).
(٢) تلبيس إبليس ص(٤٠٥).
(٣) تلبيس إبليس ص(٤٠٦).
(٤) مقالات الإسلاميين ص(١٤).
(٥) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٩).
(٦) الفصل (٤/١٤٣، ١٤٤).

والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلَّت له المحرمات كلها من الزنى والخمر، وغير ذلك واستباحوا بهذا نساء غيرهم[(١)].

وقال السكسكي: ويدعون أنهم قد ارتفعت درجتهم عن التعبدات اللازمة للعامة، وانكشفت لهم حجب الملكوت، واطلعوا على أسرارهم وصارت عبادتهم بالقلب لا بالجوارح، قالوا: لأن عمل العامة بالجوارح سلم ومرقاة إلى علم الحقائق؛ إذ هو المقصود على الحقيقة، وهي البواطن الخفية عندهم لا عمل بالجوارح، . . .، فلما أبطلوا علم الشريعة، وأبطلوا أحكامها أباحوا المحظورات، وخرجوا عن إلزام الواجبات[(٢)].

وقال: وقوم منهم يدعون أنهم قد اطلعوا على أسرار التكليف، وأحاطوا علمًا بموجبه، وأنه إنما شرع ذلك للعامة ليرتدعوا عن الأهواء المؤدية إلى سفك الدماء ويتحفظ بذلك نظام الدنيا، وذلك من المصالح العظيمة التي لم يطلع عليها إلا الأنبياء ومن قام مقامهم في السياسة، قالوا: ولهذا اختلفت الشرائع لاختلاف مصالح الناس واختلاف الأزمنة؛ فشرع في كل وقت ما فيه المصلحة لأهله، قالوا: وفي كمال حكمتنا وبقوة رأينا ووافر أحلامنا ما سيغني عن التزام سياسة غيرنا، والانتظام في سلك المبايعة لغيرنا ولا حظر علينا ولا واجب، وإذا سئلوا: لأي شيء تصومون وتصلون وتأتون بما تأتي به المسلمون من الواجبات؟ قالوا: لرياضة الجسد، وعادة البلد، وصيانة المال والولد[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: ملاحدة المتصوفة: الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجبًا على السالك حتى يصير عارفًا محققًا في زعمهم، وحينئذ يسقط عنه التكليف، ويتأولون على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: الآية ٩٩]، زاعمين أن اليقين هو ما يدعونه من المعرفة، واليقين هنا الموت وما بعده، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾[(٤)].

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: فمن كان من قوله هو أنه أو طائفة غيره قد خرجت عن كل أمر ونهي؛ بحيث لا يجب عليها شيء ولا يحرم عليها شيء؛ فهؤلاء أكفر أهل الأرض، وهم من جنس فرعون وذويه، وهم مع هذا لا بد أن يلتزموا بشيء يعيشون به؛ إذ لا يمكن النوع الإنساني أن يعيش إلا بنوع أمرٍ ونهيٍ؛ فيخرجون عن طاعة الرحمن وعبادته إلى طاعة الشيطان وعبادته، ففرعون هو الذي

---

(١) الفصل (٤/ ١٧٠)، (٢/ ٩٠).

(٢) البرهان ص(١٠٢).

(٣) البرهان ص(١٠٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٣)، (٢/ ٩٥، ٩٦).

قال لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٣] ثم كانت له آلهة يعبدها كما قال له قومه: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٢٧]

ولكن كثير من هؤلاء لا يطلقون السلب العام ويخرجون عن ربقة العبودية مطلقًا، بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم، أو حل بعض المحرمات لهم؛ فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصوله إلى المقصود، وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان في حال مشاهدة وحضور، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها بما هو فيه من التوجه والحضور، ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه؛ لأن الكعبة تطوف به أو لغير هذا من الحالات الشيطانية، ومنهم من يستحل الفطر في رمضان لغير عذر شرعي زعمًا منه استغناؤه عن الصيام، ومنهم من يستحل الخمر زعمًا منه أنها إنما تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة العقلاء، ويزعمون أنها تحرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة: فتباح لهم دون العامة...

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام لا يتنازعون في ذلك، ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة كالصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة كالفواحش، والظلم، والخمر، والميسر، والزنى، وغير ذلك، أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة كالخبز، واللحم، والنكاح؛ فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وإن أضمر ذلك كان زنديقًا منافقًا لا يستتاب عند أكثر العلماء بل يقتل بلا استتابة إذا ظهر ذلك منه.

ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب، والخلو بهن زعمًا منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن، وإن كان محرمًا في الشريعة، وكذلك من يستحل ذلك من المردان، ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين حتى يترقى من محبة المخلوق إلى محبة الخالق، ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى وقد يستحلون الفاحشة الكبرى كما يستحلها من يقول إن التلوط مباح بملك اليمين؛ فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين، وهم بمنزلة من يستحل قتل المسلمين بغير حق، ويسبي حريمهم، ويغنم أموالهم، وغير ذلك من المحرمات التي يعلم أنها من المحرمات تحريمًا ظاهرًا متواترًا.

لكن من الناس من يكون جاهلًا ببعض هذه الأحكام جهلًا يعذر به؛ فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّسَاء: الآية ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١٥]

ودلائل فساد هذا القول كثيرة في الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشائخها لا يحتاج إلى بسطها، بل قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأمر والنهي ثابت في حق العباد إلى الموت...

ومن هؤلاء من يحتج بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: الآية ٩٩]، ويقول: معناها اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة؛ فإذا حصل ذلك سقطت العبادة.

وربما قال بعضهم: اعملْ حتى يحصل لك حال؛ فإذا حصل لك حال تَصَوُّفٍ سقطت عنك العبادة، وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبة من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض، وارتكاب المحارم، وهذا كفر كما تقدم.

ومنهم من يظن استغناءه عن النوافل حينئذ، وهذا مغبون منقوص جاهل ضال خاسر باعتقاد الاستغناء عن النوافل واستخفافه بها حينئذ، بخلاف من تركها معتقدًا كمال من فعلها حينئذ معظمًا لحاله؛ فإن هذا ليس مذمومًا، وإن كان الفاعل لها مع ذلك أفضل منه، أو يكون هذا من المقربين السابقين، وهذا من المقتصدين أصحاب اليمين.

ومن هؤلاء من يظن أن الاستمساك بالشريعة -أمرًا ونهيًا- إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة أو الحال؛ فإذا حصل له لم يجب عليه حينئذ الاستمساك بالشريعة النبوية، بل له حينئذ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدرية، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجده وكشفه ورأيه من غير اعتصام بالكتاب والسنة، وهؤلاء منهم من يعاقب بسلب حاله حتى يصير منقوصًا عاجزًا محرومًا، ومنهم من يعاقب بسلب الطاعة حتى يصير فاسقًا، ومنهم من يعاقب بسلب الإيمانِ حتَّى يصير مرتدًّا منافقًا أو كافرًا ملعنًا وهؤلاء كثيرون جدًّا، وكثير من هؤلاء يحتج بقصة موسى والخضر.

فأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: الآية ٩٩] فهي عليهم لا لهم قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعمل المؤمنين أجلًا دون الموت، وقرأ قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: الآية ٩٩] وذلك أن اليقين هنا الموت، وما بعده باتفاق علماء المسلمين، وهؤلاء من المستيقنين وذلك مثل قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾ فهذا قالوه وهم في جهنم، وأخبروا أنهم كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة، والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقينُ، ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا، ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤]، وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين، ومنه قول النبي في الحديث الصحيح لما توفي عثمان بن مظعون، وشهدت له بعض النسوة بالجنة، فقال لهم النبي: **«وما يدريك؟! إني -والله، وأنا رسول الله- ما أدري ما يفعل بي»**، وقال: **«أما عثمان فقد جاءه اليقينُ من ربِّه»**؛ أي: أتاه ما وعده وهو اليقين.

و يقين على وزن «فعيل» سواء كان «فعيل» بمعنى «مفعول»؛ أي: الموت كالحبيب والنصيح والذبيح، أو كان مصدرًا وضع موضع المفعول كقوله: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ١١]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ١]، وقوله: ضرب الأمير، وغفر الله لك، قيل: وقولهم: قدرة عظيمة، وأمثال ذلك؛ فإنه كثير فعلى التقديرين المعنى لا يختلف بل اليقين هو ما وعد به العباد

من أمر الآخرة، وقوله حتى يأتيك اليقين كقولك يأتيك ما توعد.

فأما أن يظن أن المراد: اعبده حتى يحصل لك إيقان، ثم لا عبادة عليك؛ فهذا كفر باتفاق أئمة المسلمين، ولهذا لما ذكر للجنيد بن محمد أن قومًا يزعمون أنهم يصلون من طريق البر إلى ترك العبادات فقال: الزنى والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء، وما زال أئمة الدين ومشايخه يعظمون النكير على هؤلاء المنافقين، وإن كانوا من الزهاد العابدين، وأهل الكشف والتصرف في الكون وأرباب الكلام والنظر في العلوم؛ فإن هذه الأمور قد يكون بعضها في أهل الكفر والنفاق، ومن المشركين وأهل الكتاب، وإنما الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار الإيمان والتقوى الذي هو نعت أولياء الله كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر؛ فيحتجون بها على وجهين:

أحدهما: أن يقولوا: إن الخضر كان مشاهدًا الإرادة الربانية الشاملة، والمشيئة الإلهية العامة، وهي «الحقيقة الكونية»؛ فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي، وهو من عظيم الجهل والضلال بل من عظيم النفاق والكفر؛ فإن مضمون هذا الكلام أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شيء لم يكن عليه أمر ولا نهي، وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله، وما جاءوا به من الأمر والنهي، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] ونظير هذا في سورة النحل وفي سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: الآية ٤٧] وكذلك في سورة الزخرف ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: الآية ٢٠]

وهؤلاء هم القدرية المشركية الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والنهي، هم شر من القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة، الذين رُوِيَ فيهم: «إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»؛ لأن هؤلاء يقرون بالأمر والنهي، والثواب والعقاب، لكن أنكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، وربما أنكروا سابق العلم.

وأما «القدرية المشركية»؛ فإنهم ينكرون الأمر والنهي والثواب والعقاب لكن وإن لم ينكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق؛ فإنهم ينكرون الأمر والنهي والوعد والوعيد، ويكفرون بجميع الرسل والكتب؛ فإن الله إنما أرسل الرسل مبشرين من أطاعهم بالثواب، ومنذرين من عصاهم بالعقاب، وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا،

وأيضا فإن موسى عليه السلام كان مؤمنًا بالقدر وعالمًا به؛ بل أتباعه من بني إسرائيل كانوا

أيضًا مؤمنين بالقدر؛ فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر وأن ذلك يدفع الملام مع أن موسى أعلم بالقدر من الخضر، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك،

وأيضا فلو كان هذا هو السر في قصة الخضر بين ذلك لموسى وقال: إني كنت شاهدًا للإرادة والقدر، وليس الأمر كذلك بل بين له أسبابًا شرعيةً تبيح له ما فعل كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما الوجه الثاني: فإن من هؤلاء من يظن أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله، أو بعضها، وكثير منهم يفضل الولي في زعمه؛ إما مطلقًا، وإما من بعض الوجوه على النبي زاعمين أن في قصة الخضر حجة لهم.

وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات؛ بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسالة محمد بن عبد الله لجميع الناس عربهم وعجمهم وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة؛ بل عامة الثقلين الجن والإنس، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته، وطاعته، وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين، وما سنه لهم من فعل المأمورات، وترك المحظورات؛ بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياءً لوجب عليهم متابعته ومطاوعته.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١]، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بُعِثَ مُحَمَّدٌ وهو حي ليؤمنن به ولَيَنْصُرنَّه، وأمره بأخذ الميثاق على أمته لئن بُعِثَ محمدٌ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه.

وفي سنن النسائي عن جابر أن النبي رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: **«أمتهوكون يابن الخطاب، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»** هذا أو نحوه، ورواه أحمد في المسند ولفظه: **«ولو كان موسى حيًا، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»**، وفي مراسيل أبي داود قال: **«كفى بقوم ضلالة أن يبتغوا كتابًا غير كتابكم أنزل على نبي غير نبيهم»**، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العَنكبوت: الآية ٥١] الآية.

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء؛ فإنه يكون متبعًا لشريعة محمد بن عبد الله ﷺ؛ فإذا كان يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الأنبياء فكيف بمن دونهم؟

بل مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتبع شريعة رسول غيره كموسى وعيسى فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول فكيف بالخروج عنه والرسل

كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥]

ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل: كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمنا به وما علمنا أنه كذب رددناه، وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي قال: **«إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم فإما أن يحدثونكم بباطل فتصدقوهم، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»**.

ومما يبين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثًا إلى الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته بل قد ثبت في الصحيحين أن الخضر قال له: يا موسى، إني على علم من علم الله عَلَّمْنِيهِ الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة. وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي أنه قال: فيما فضله الله به على الأنبياء قال: **«كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**؛ فدعوة محمد شاملة لجميع العباد ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته ولا استغناء عن رسالته كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته؛ مستغنيًا عنه بما علمه الله وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: إني على علم من علم الله عَلَّمْنِيهِ الله لا تعلمه، ومن سوغ هذا أو اعتقد أن أحدًا من الخلق الزهاد والعباد أو غيرهم له الخروج عن دعوة محمد ومتابعته؛ فهو كافر باتفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا.

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذ ولو كان ما فعله الخضر مخالفًا لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإن كان قد يكون أفضل من الأول مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله إما بإذن لفظي أو غيره فيتصرف وذلك مباح في الشريعة، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف.

وخرق السفينة كان من هذا الباب؛ فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك لئلا يأخذها خير من انتزاعها منهم.

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها فسألوا النبي عنها فأذن لهم في أكلها ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح؛ لأنه كان مأذونًا فيه عرفًا، والإذن العرفي كالإذن اللفظي؛ ولهذا بايع النبي عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظًا، ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرا قليلًا إلى بيته قام بجميع أهل المسجد لما علم من طيب نفس أبي طلحة؛ وذلك لما يجعله الله من البركة وكذلك حديث جابر.

وقد ثبت أن لحامًا دعاه فأستأذنه في شخص يستتبعه؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحم ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما.

وكذلك قتل الغلام كانّ من باب دفع الصائل على أبوابه؛ لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال؛ فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال: إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم.

وكذلك في الصحيحين أن عمر لما استأذن النبي في قتل ابن صياد وكان مراهقًا لما ظنه الدجال فقال: **«إن يكنه فلن تسلط عليه وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»** فلم يقل: **«إن يكنه فلا خير لك في قتله»**، بل قال: **«فلن تسلط عليه»**.

وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فساده لم يكن ذلك محذورًا، وإلا كان التعليل بالصغر كافيًا؛ فإن الأعم إذا كان مستقلًا بالحكم كان الأخصُّ عديمَ التأثيرِ، كما قال في الهرة: **«إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطَوافات»**.

وأما بناء الجدار فإنما فيه ترك أخذ الجعل مع جوعهم وقد بين الخضر أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع وإن كان جائعًا.

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهرًا فيشترك فيها الناس ومنه ما يكون خفيًّا عن بعضهم ظاهرًا لبعضهم على الوجه المعتاد، ومنه ما يكون خفيًّا يعرف بطريق الكشف وقصة الخضر من هذا الباب؛ وذلك يقع كثيرًا في أمتنا مثل أن يقدم لبعضهم طعام فيكشف له أنه مغصوب، فيحرم عليه أكله، وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك أو يظفر بمال يعلم أن صاحبه أذن له فيه، فيحل له أكله؛ فإنه لا يحل ذلك لمن لم يعلم الإذن وأمثال ذلك.

فمثل هذا إذا كان الشيخ من المعروفين بالصدق والإخلاص كان مثل هذا من مواقع الاجتهاد الذي يصيب فيه تارة، ويخطئ أخرى.

فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظير ما يقع في الرؤيا وتأويلها والرأي والرواية وليس شيء معصومًا على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به، ولهذا كان الصديق المتلقي عن الرسول كل شيء مثل أبي بكر أفضل من المحدث مثل عمر، وكان الصديق يبين للمحدث المواضع التي اشتبهت عليه حتى يرده إلى الصواب كما فعل أبو بكر

بعمر يوم الحديبية ويوم موت النبي، وفي قتال مانعي الزكاة وغير ذلك، وهذا الباب قد بسطناه في غير هذا الموضع والمقصود أنه ليس في قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة رسول الله لأحد من الخلق[١]

- قولهم في عبادة الله بالحب.

يرى بعضهم أن عبادة الله تعالى تكون بالحب فقط، لا بخوف ورجاء.

أقوال العلماء

قال السكسكي: قالوا: فأما الخوف والرجاء؛ فإنا لا نخاف النار، ولا نرجو دخول الجنة؛ لأنهما ليستا شيئًا عندنا؛ فلا نعبده خوفًا من النار ولا طمعًا في الجنة، وهذا يخالف الكتاب والسنة والإجماع ومجوزات العقول[٢]

وقال شيخ الإسلام: وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقًا إلى جنتك، أو خوفًا من نارك؛ ولكن لأنظر إليك، وإجلالًا لك، وأمثال هذه الكلمات[٣]

وقال: ومن قال من هؤلاء: لم أعبدك شوقًا إلى جنتك، ولا خوفًا من نارك[٤]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف؛ فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يُونس: الآية ٦٢] والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده؛ فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره[٥]

وقال: فلما صار كثير من الصوفيّة النساك المتأخرين يدعون المحبة ولم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسنة دخل فيها نوع من الشرك وإتباع الأهواء والله تعالى قد جعل محبته موجبة لإتباع رسوله فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] ، وهذا لأن

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠١- ٤٣٢)، (١١/ ٥٣٩، ٥٤٠)، (٥/ ٨٠، ٨٢)، (١١/ ٢٦٢- ٢٦٤)، (١١/ ٦٠٧)، (٢/ ٢٣٣- ٢٣٥)، (٣/ ٤٢٢)، (٤/ ٣١٨)، التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٥٨، ٥٩).

(٢) البرهان ص(١٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٩٩، ٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).

الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه؛ فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين، بل هذا هو هذا في ذاته، وإن تنوعت الصفات.

فكل من ادَّعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول؛ فقد كذب ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك؛ فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله؛ فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبَّه، كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع فمن قال إنه من المريدين لله المحبين له وهو لا يقصد اتباع الرسول، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه؛ فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى، بحسب ما فيه من البدعة، فإن البِدَعَ التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر.

وأيضًا فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حادَّ الله ورسوله، والجهاد في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]، وقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتحنة: الآية ٤]

فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ومن معه؛ حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده، فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة[(١)]

وقال: وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد.

وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه.

ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشية بها في قوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٠، ٣٦١).

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة[(١)]

- قولهم في الخروج عن الأموال.

يرى بعضهم أن الخروج عن المال وفقده أفضل من وجوده، وتركه أفضل من جمعه.

أقوال العلماء.

قال القشيري: وإذا أراد الخروج عن العلائق فأولها: الخروج عن المال؛ فإن ذلك الذي يميل به عن الحق، ولم يوجد مريدٌ دخل في هذا الأمر، ومعه علاقة من الدنيا إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى ما منه خرج[(٢)]

وقال الغزالي: الأصلح لكافة الخلق فقد المال، وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات[(٣)]

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: كان إبليس يلبس على أوائل الصوفيَّة لصدقهم في الزهد فيريهم عيبَ المال ويُخَوِّفهم من شره؛ فيتجرَّدون من الأموال، ويجلسون على بساط الفقر، فكانت مقاصدهم صالحة، وأفعالهم في ذلك خطأ لقلَّة العلم.

فأما الآن فقد كُفِيَ إبليسُ هذه المؤنة فإنَّ أكف كسبهم للأموال ضياع.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أنبأنا أبو بكر بن خلف، قال: نا محمد بن الحسين السُّلمي، قال: سمعت أبا نصر الطوسي، يقول: سمعت جماعة من مشايخ الرَّيِّ يقولون: ورث أبو عبد الله المقري من أبيه خمسين ألف دينار سوى الضِّياعِ والعَقَارِ، فخرج عن ذلك كلِّه وأنفقه على الفقراء.

وقد روي مثلُ هذا عن جماعة كثيرة، وهذا الفعل لا ألوم صاحبه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادَّخرها لنفسه، أو كانت له صناعة يستغني بها عن الناس، أو كان المال من شُبْهَةٍ فتصدَّقَ به، أمَّا إذا أخرج المال الحلال كله ثم احتاج إلى الناس أو افتقر عياله؛ فهو إمَّا أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم، أو يأخذ من أرباب الظلم والشبهات؛ فهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه.

ولست أتعجب من المتزهدين الذين فعلوا هذا مع قلَّة علمهم، وإنَّما العجب من أقوام لهم علم وعقل كيف حَثُّوا على هذا وأمروا به مع مضادته للشرع والعقل.

فذكر الحارث المحاسبي في هذا كلامًا طويلًا، وشيده أبو حامد الغزالي ونصره، والحارثُ عندي أعذر عندي من أبي حامد؛ لأنَّ أبا حامد كان أفقه غير أن دخوله في التصوف أوجب عليه نُصْرَةَ ما دخل فيه...

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٨١، ٨٢)، (١١/ ٣٩٠)، (١٥/ ٢١)، (١٠/ ٢٠٧- ٢١٠).

(٢) الرسالة ص(١٨١).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٠٣).

قال أبو حامد: فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صُرِفَ إلى الخيرات، إذْ أقل ما فيه اشتغال الهمّ بإصلاحه عن ذكر الله. فينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته، فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى.

وهذا كلُّه بخلاف الشرع والعقل وسوء فهم للمراد بالمال...

أمَّا شرف المال؛ فإنَّ الله تعالى عَظَّم قَدْرَه وأمر بحفظه؛ إذْ جعله قوامًا للآدمي، وما جُعل قوامًا للآدمي الشريف فهو شريف. فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّساء: الآية ٥]، ونهى عزَّ وجلَّ أن يُسَلَّمَ المالُ إلى غير رشيد. فقال: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه نهى عن إضاعةِ المال، وقال لسعد: «لأنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتركَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاس».

وقال: «مَا نفعني مالٌ كمال أبي بكرٍ».

والحديث بإسناد مرفوع عن عمرو بن العاص قال: بعث إليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني» فأتيته فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» فقلت: يا رسول الله، ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، فقال: «يا عمرو، نِعِمَّا المال الصالح للمرء الصالح».

والحديث بإسناد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دعا له بكل خير، وكان في آخر دعائه أن قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له».

وبإسناد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، أن عبيد الله بن كعب بن مالك، قال: سمعت كعب بن مالك، يحدث حديث توبته قال: فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله تعالى وإلى رسوله، فقال: «أَمسِكْ بعضَ مالك فهو خيرٌ لك».

قال ابن الجوزي: هذه الأحاديث مخرجة في الصحاح، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوفة من أنَّ إكثار المال حجاب وعقوبة، وأنَّ حبسه ينافي التوكل. ولا ينكر أنَّه يخاف من فتنته، وأنَّ خَلْقًا كثيرًا اجتنبوه لخوف ذلك، وأنَّ جمعه من وجهه يعز، وسلامة القلب من الافتتان به يبعد، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يندر، ولهذا خيفت فتنته.

فأمَّا كسب المال فإنَّ مَنِ اقتصر على كسب البلغة من حِلِّهَا؛ فذلك أمرٌ لا بدَّ منه، وأمَّا من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال نظر في مقصوده؛ فإن قصد نَفْسَ المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإنْ قصد إعفافَ نفسه وعائلته، وادَّخَرَ لحوادثِ زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح؛ أُثِيبَ على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات.

وقد كانت نِيَّاتُ خَلْقٍ كثيرٍ من الصحابة في جَمْعِ المال سليمة لحسن مقاصدهم بجمعه؛ فحرصوا عليه وسألوا زيادته.

وبإسناد عن ابن عمر أن النبيَّ ﷺ أقطع الزبير حُضْرَ فرسه[١] بأرض يقال لها ثرير، وأجرى فرسه حتى قام. ثم رمى سوطه فقال: «أعطوه حيث بلغ السَّوْطُ».

وكان سعد بن عبادة يدعو فيقول: اللهمَّ وسِّعْ عليَّ.

وأبلغ من هذا أنَّ يعقوبَ عليه السلام لما قال له بنوه: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٥]، مال إلى هذا وأرسل بنيامين معهم، وأن شعيبًا طمع في زيادة ما يناله فقال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٧]، وأن أيوبَ لما عُوفِيَ، نثر عليه جراد من ذَهَبٍ فأخذ يثني ثوبه يستكثر منه، وقيل له: أما شبعت؟ فقال: يا ربِّ، من يشبع من فضلك؟! وهذا أمر مركوز في الطباع؛ فإذا قُصِدَ به الخير كان خيرًا محضًا...

وأما الأنبياء فقد كان لإبراهيم زَرْعٌ ومالٌ، ولشعيب وغيره، وكان سعيد بن المسيّب يقول: لا خيرَ فيمن لا يطلب المال يقضي به دينه، ويصون به عِرضَه، ويصل به رحمه؛ فإن مات تركه ميراثًا لمن بعده، وخَلَّف ابنُ المُسَيَّب أربعمَائة دينار، وقد ذكرنا ما خلفت الصَّحابة، وقد خَلَّفَ سفيانُ الثَّوريُّ مائتين، وكان يقول: المالُ في هذا الزمان سلاحٌ، وما زال السَّلَفُ يمدحون المال ويجمعونه للنَّوائب، وإعانة الفقراء، وإنَّما تَجَافَاه قومٌ منهم إيثارًا للتَّشاغل بالعبادات، وجمع الهم فقنعوا باليسير، فلو قال هذا القائلُ: إنَّ التَّقَلُّلَ منه أولى، قرب الأمر؛ ولكنَّه زاحم به مرتبة الإثم.

واعلم أن الفقر مرض فمن ابْتُلِيَ به وصبر أُثِيبَ على صبره؛ ولهذا يدخلُ الفقراء الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام لمكان صبرهم على البلاء، والمال نعمة والنعمة تحتاج إلى شكر، والغني وإن تعب وخاطر كالمفتي والمجاهد، والفقير كالمعتزل في زاوية.

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلمي في كتاب «سنن الصوفيَّة» باب كراهية أن يخلف الفقير شيئًا، فذكر حديثَ الذي مات من أهل الصُّفَّة وخَلَّفَ دينارين فقال رسول الله ﷺ: «كيتان».

قال ابن الجوزي: وهذا احتجاج مَنْ لا يفهم الحال؛ فإنَّ ذلك الفقير كان يزاحمُ الفقراء في أخذ الصدقة وحبس ما معه، فلذلك قال: «كيَّتان»، ولو كان المكروه نفسَ ترك المال لما قال النبيُّ ﷺ لسعد: «لئن تترك وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تتركهم عالةً يتكفَّفُون الناس»، ولما كان أحدٌ من الصحابة يخلف شيئًا.

وقد قال عمر بن الخطاب: حَثَّ رسول الله ﷺ على الصَّدَقة فجئت بنصفُ مالي، فقال رسول الله: «وما أبقيتَ لأهلك؟»، فقلت: «مِثْلَه» فلم يُنْكِرْ عليه رسول الله

قال ابن جرير الطبري: وفي هذا الحديث دليل على بطلان ما يقوله جَهلَة المتصوِّفة أنَّه ليس للإنسان ادخارُ شيءٍ في يومه لغده، وأن فاعل ذلك قد أساء الظَّنَّ بربِّه، ولم يتوكَّل عليه حقَّ توكُّله، قال ابن جرير: وكذلك قوله عليه الصلاة السلام: «اتَّخِذُوا الغنم؛ فإنَّها بركة»، فيه دلالة

(١) حضر فرسه: بضم الحاء وسكون الضاد المعجمة؛ أي: قدر ما تعدو عدوة واحدة.

على فساد قول مَنْ زعم من الصوفيَّة أنَّه لا يصحُّ لعبدٍ التوكل على ربِّه إلا بأن يصبح ولا شيءَ عنده من عين، ولا عرض، ويمسي كذلك، أترى كيف ادَّخَرَ رسولُ الله ﷺ لأزواجه قُوتَ سنة.

قال ابن الجوزي: وقد بيَّنَّا أنَّه كان أوائل الصوفيَّة يخرجون من أموالهم زهدًا فيها، وذكرنا أنَّهم قصدوا بذلك الخير إلَّا أنَّهم غلطوا في هذا الفعل، كما ذكرناه من مخالفتهم بذلك الشَّرع والعقلَ؛ فأما متأخروهم فقد مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان؛ إيثارًا للرَّاحة وحُبًّا للشهوات؛ فمنهم من يقدر على الكسب ولا يعمل، ويجلس في الرِّباط أو المسجد، ويعتمد على صدقات الناس، وقلبه مُعَلَّقٌ بطرق الباب.

ومعلومٌ أن الصدقة لا تحلُّ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِي، ولا يبالون مَنْ بعث إليهم، فربَّما بعث الظالم والمكاس فلم يردوه، وقد وضعوا بينهم في ذلك كلماتٍ منها تسميةُ ذلك بالفتوح، ومنها: إن رزقنا لا بد أن يصل إلينا، ومنها إنَّه من الله ولا يرد عليه ولا يُشكر سواه.

وهذا كلُّه خلافُ الشريعة، وجَهْلٌ بها، وعكس ما كان السلف الصالح عليه؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بين، وبينهما أمور متشابهات فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه**»، وقد قَاء أبو بكرٍ الصديق مَنْ أكل الشبهة.

وكان الصالحون لا يقبلون عطاء ظالم، ولا ممن في ماله شبهة، وكثير من السلف لم يقبل صلة الإخوان عفافًا وتنزهًا، وعن أبي بكر المروزي قال: ذكرت لأبي عبد الله رجلًا من المحدثين، فقال رحمه الله: أي رجل كان لولا خلة واحدة، ثم سكت، ثم قال: ليس كل الخِلَالِ يكملها الرجل، فقلت له: أليس كان صاحب سنة؟ فقال: لَعَمْرِي، لقد كتبت عنه، وله خلة واحدة؛ كان لا يبالي ممن أخذ.

قال ابن الجوزي: ولقد بلغنا أن بعض الصوفيَّة دخل على بعض الأمراء الظلمة فوعظه فأعطاه شيئًا فقبله فقال الأمير كلنا صيادون، وإنما الشباك تختلف.

ثم أين هؤلاء من الأنفة من الميل للدنيا؛ فإن النبي ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»، واليد العليا هي المُعْطِيَةُ هكذا فسره العلماء، وهو الحقيقة، وقد تأوله بعض القوم فقال: العليا هي الآخذة، قال ابن قتيبة: ولا أرى هذا إلا تأويل قوم استطابوا السؤال.

قال ابن الجوزي: ولقد كان أوائل الصوفيَّة ينظرون في حصول الأموال من أي وجه، ويفتشون عن مطاعمهم، وسئل أحمد بن حنبل عن السري السقطي فقال: الشيخ المعروف بطيب المطعم، وقال السري: صحبت جماعة إلى الغزو فاكترينا دارًا فنصبت فيها تنورًا فتورعوا أن يأكلوا من خبز ذلك التنور.

فأما من يرى ما قد تجدد من صوفية زماننا من كونهم لا يبالون من أين أخذوا؛ فإنه يعجب، ولقد دخلت بعض الأربطة فسألت عن شيخ، فقيل لي: قد مضى إلى الأمير فلان يهنئه بخلعه قد خلعت عليه، وكان ذلك الأمير من كبار الظلَمة، فقلت: ويحكم، ما كفاكم أن فتحتم الدكن حتى

تطوفوا على رءوسكم بالسلع؛ يقعد أحدكم عن الكسب مع قدرته عليه مُعَوِّلًا على الصدقات والصلات، ثم لا يكفيه حتى يأخذ فمن كان ثم لا يكفيه حتى يدور على الظلمة فيستعطي منهم، ويهنئهم بملبوس لا يحل، وولاية لا عدل فيها، والله إنكم أضر على الإسلام من كل مضر.

قال ابن الجوزي: وقد صار جماعة من أشياخهم يجمعون المال من الشبهات، ثم ينقسمون فمنهم من يدعي الزهد مع كثرة المال وحرصه على الجمع، وهذه الدعوى مضادة للحال، ومنهم من يظهر الفقر مع جمعه المال وأكثر هؤلاء يضيقون على الفقراء بأخذهم الزكاة ولا يجوز لهم ذلك، وقد كان أبو الحسن البسطامي شيخ رباط بن المجيان يلبس الصوف صيفًا وشتاء وتقصده الناس يتبركون به فمات فخلف أربعة آلاف دينار.

قال ابن الجوزي: وهذا فوق القبيح، وقد صح عن النبي ﷺ أن رجلًا من أهل الصفة مات فخلف دينارين فقال ﷺ «كيتان»[(١)]

- **قولهم في التوكل والأسباب.**

كثير منهم يترك التكسب والأسباب؛ طلبًا للتوكل.

أقوال العلماء:

قال ابن الجوزي: وفي معنى ما ذكرنا من تلبيسه عليهم في ترك الأسباب، أنه قد لبس على خلق كثير منهم بأن التوكل ينافي الكسب[(٢)]

وقال: قد لبس على خلق كثير منهم فأوهمهم أن التوكل ترك الزاد[(٣)]

وقال: وقد كان لبعضهم بضاعة فأنفقها، وقال: ما أريد أن تكون ثقتي إلا بالله[(٤)]

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي؟ لقالوا: قد أشركت، ولو سئلوا عمن يخرج إلى التجارة؟ لقالوا: ليس بمتوكل ولا موقن.

وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين، ولو كان أحد يغلق عليه الباب، ويتوكل لقرب أمر دعواهم، لكنهم بين أمرين؛ أما الغالب من الناس فمنهم من يسعى إلى الدنيا مستجديًا، ومنهم من يبعث غلامه فيدور بالزنبيل فيجمع له، وإما الجلوس في الرباط في هيئة المساكين، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح كما لا تخلو الدكان من أن يقصد للبيع والشراء...

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢١٨- ٢٣٠).
(٢) تلبيس إبليس ص(٣٤٤).
(٣) تلبيس إبليس ص(٣٦٥).
(٤) تلبيس إبليس ص(٢٢٧).

وقد كان السلف ينهون عن التعرض لهذه الأشياء ويأمرون بالكسب[١].

قال ابن الجوزي: وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعللات قبيحة، منها أنهم قالوا: لا بد من أن يصل إلينا رزقنا.

وهذا في غاية القبح؛ فإن الإنسان لو ترك الطاعة وقال: لا أقدر بطاعتي أن أغير ما قضى الله علي؛ فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة، أو من أهل النار فأنا من أهل النار، قلنا له: هذا يرد الأوامر كلها، ولو صح لأحد ذلك لم يخرج آدم من الجنة؛ لأنه كان يقول: ما فعلت إلا ما قضي علي، ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر.

ومنها أنهم يقولون: أين الحلال حتى نطلب؟ وهذا قول جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطع أبدًا؛ لقوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين»، ومعلوم أن الحلال ما أذن الشرع في تناوله، وإنما قولهم هذا احتجاج للكسل.

ومنها أنهم قالوا: إذا كسبنا أعنا الظلمة والعصاة.

فإذا قال قائل ربما خبزت خبزًا فأكله عاصٍ كان حديثًا فارغًا؛ لأنه لا يجوز لنا إذًا أن نبيع الخبز لليهود والنصارى[٢].

وقال شيخ الإسلام: وأما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله.

وهذه المسألة مما سئل عنها رسول الله ﷺ كما في الصحيحين عنه ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار» فقيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وكذلك في الصحيحين عنه أنه قيل له: أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون؟ أفيما جفت الأقلام وطويت الصحف؟ ولما قيل له: أفلا نتكل على الكتاب؟ قال: «لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وبين ﷺ أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر، فقيل له: أرأيت رقًى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، وأدوية نتداوى بها -هل ترد من قدر الله شيئًا فقال: «هي من قدر الله».

فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل والأعراض عن الأسباب المأمور بها، قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدًا على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة؛ فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها، فعلها مع التوكل على الله، كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٤٦).

(٢) تلبيس إبليس ص(٣٤٩، ٣٥١)، ص(٣٧٧).

يفعل ما أُمِرَ به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ، احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ باللهِ وَلا تعجزْ، وإن أصابَكَ شيءٌ فلا تقلْ: لَو أني فَعَلْتُ لكانَ كذا وكذا، ولكنْ قلْ: قدَّر اللهُ وَما شَاءَ فَعلَ؛ فإن لو تفتحُ عملَ الشيطانِ»، وفي سنن أبي داود أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس؛ فإن غلبك أمر فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل»[(١)]

- قولهم في التداوي

يترك بعضهم التداوي ظنًّا منهم أنه ينافي التوكل.

أقوال العلماء

قال ابن الجوزي: ذكر تلبيس إبليس على الصوفيَّة في ترك التداوي.

لا يختلف العلماء أن التداوي مباح، وإنما رأى بعضهم أن العزيمة تركه، وقد ذكرنا كلام الناس في هذا وبينا بما اخترناه في كتابنا «لقط المنافع في الطب»، والمقصود هاهنا أنا نقول: إذا ثبت أن التداوي مباح بالإجماع، مندوب إليه عند بعض العلماء؛ فلا يلتفت إلى قول قوم قد رأوا أن التداوي خارج من التوكل؛ لأن الإجماع على أنه لا يخرج من التوكل، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه تداوى وأمر بالتداوي، ولم يخرج بذلك من التوكل ولا أخرج من أمره أن يتداوى من التوكل.

وفي الصحيح من حديث عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ رخص إذا اشتكى المحرم عينه أن يضمدها بالصبر.

قال ابن جرير الطبري: وفي هذا الحديث دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوة من أهل التصوف والعباد من أن التوكل لا يصح لأحد عالج علة به في جسده بدواء؛ إذ ذاك عندهم طلب العافية من غير منْ بيده العافية والضر والنفع، وفي إطلاق النبي ﷺ للمحرم علاج عينه بالصبر لدفع المكروه أدل دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله الذين ذكرنا قولهم، وإن ذلك غير مخرج فاعله من الرضا بقضاء الله، كما أن من عرض له كلب الجوع لا يخرجه فزعه إلى الغذاء من التوكل والرضا بالقضاء؛ لأن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء إلا الموت، وجعل أسبابًا لدفع الأدواء، كما جعل الأكل سببًا لدفع الجوع، وقد كان قادرًا أن يحيي خلقه بغير هذا، ولكنه خلقهم ذوي حاجة فلا يندفع عنهم أذى الجوع إلا بما جعل سببًا لدفعه عنهم، فكذا الداء العارض، والله الهادي[(٢)]

(١) مجموع الفتاوى (٨/٥٢٨، ٥٢٩)، (٨/ ٥٢٤- ٥٣٩).

(٢) تلبيس إبليس ص(٣٥١، ٣٥٢).

- قولهم في النكاح

كثير منهم يرى ترك النكاح؛ للتشاغل بالتعبد، أو لصعوبة النفقة، أو لترك الميل إلى الدنيا، أو لغيره.

أقوال العلماء

قال الغزالي: وقال الجُنَيْد رحمه الله: أحِبُّ للمريد المبتدئ ألا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج[1]

نقض قولهم

قال ابن الجوزي: وقد لبس إبليس على كثير من الصوفيَّة فمنعهم من النكاح، فقدماؤهم تركوا ذلك تشاغلًا بالتعبد، ورأوا النكاح شاغلًا عن طاعة الله عز وجل، وهؤلاء وإن كانت بهم حاجة إلى النكاح أو بهم نوع تشوق إليه فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم. وإن لم يكن بهم حاجة إليه فَاتَتْهُم الفضيلة.

ومنهم من قال: النكاح يوجب النفقة، والكسب صعب، وهذه حجة للترفه عن تعب الكسب.

ومنهم من قال: النكاح يوجب الميل إلى الدنيا، فروينا عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش، أو تزوج، فقد ركن إلى الدنيا.

قال ابن الجوزي: قلت: وهذا كله مخالف للشرع، وكيف لا يطلب الحديث والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، وكيف لا يطلب المعاش، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: لأن أموت من سعي على رجلي أطلب كفاف وجهي أحب إلي من أن أموت غازيًا في سبيل الله، وكيف لا يتزوج وصاحب الشرع يقول: تناكحوا تناسلوا، فما أرى هذه الأوضاع إلا على خلاف الشرع.

فأما جماعة من متأخري الصوفيَّة؛ فإنهم تركوا النكاح ليقال: زاهد، والعوام تعظم الصوفي إذا لم تكن له زوجة فيقولون: ما عرف امرأة قط، فهذه رهبانية تخالف شرعنا.

قال أبو حامد: ينبغي ألا يشغل المريد نفسه بالتزويج؛ فإنه يشغله عن السلوك ويأنس بالزوجة، ومن أنس بغير الله شغل عن الله تعالى.

قال ابن الجوزي: وإني لأعجب من كلامه أتراه ما علم أن من قصد عفاف نفسه، ووجود ولد، أو عفاف زوجته؛ فإنه لم يخرج عن جادة السلوك، أو يرى الأنس الطبيعي بالزوجة ينافي أنس القلوب بطاعة الله تعالى، والله تعالى قد مَنَّ على الخلق بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: الآية ٢١]، وفي الحديث الصحيح عن جابر

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٣٩).

ﷺ عن النبي ﷺ قال له: «**هلا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك**»، وما كان بالذي ليدله على ما يقطع أنسه بالله تعالى أترى رسول الله ﷺ لما كان ينبسط إلى نسائه ويسابق عائشة رضي اله عنها أكان خارجًا عن الأنس بالله، هذه كلها جهالات بالعلم.

فصل: وقد لبس على قوم منهم تزوجوا وقالوا: إنا لا ننكح شهوة، فإن أرادوا أن الأغلب في طلب النكاح إرادة السنة جاز، وإن زعموا أنه لا شهوة لهم في نفس النكاح فمحال ظاهر.

فصل: وقد حمل الجهل أقوامًا فَجَبُّوا أنفسهم، وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالى، وهذه غاية الحماقة؛ لأن الله تعالى شرف الذكر على الأنثى بهذه الآلة، وخلقها لتكون سببا للتناسل، والذي يَجُبُّ نفسه يقول بلسان الحال: الصواب ضد هذا، ثم قطعهم الآلة لا تزيل شهوة النكاح من النفس، فما حصل لهم مقصودهم[(١)]

- قولهم في إنجاب الأولاد

يرى بعضهم ترك طلب الأولاد.

أقوال العلماء

قال ابن الجوزي: ذكر تلبيس إبليس على الصوفيَّة في ترك طلب الأولاد، أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قالا: نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم أحمد بن عبد الله، ثنا إسحاق بن أحمد ثنا إبراهيم بن يوسف، ثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: الذي يريد الولد أحمق؛ لا للدنيا ولا للآخرة، إن أراد أن يأكل أو ينام أو يجامع نغص عليه، وإن أراد أن يتعبد شغله.

قال ابن الجوزي: قلت: وهذا غلط عظيم وبيانه أنه لما كان مراد الله تعالى من إيجاد الدنيا اتصال دوامها إلى أن ينقضي أجلها، وكان الآدمي غير ممتد البقاء فيها إلا إلى أمد يسير أخلف الله تعالى منه مثله فحثه على سببه في ذلك تارة من حيث الطبع بإيقاد نار الشهوة، وتارة من باب الشرع بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٢]، وقول الرسول ﷺ: «**تناكحوا تناسلوا فاني أباهي بكم الأمم يوم القيامة، ولو بالسقط**»، وقد طلب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأولاد، فقال تعالى -حكاية عنهم-: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٨]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠] إلى غير ذلك من الآيات، وتسبب الصالحون إلى وجودهم، ورب جماع حدث منه ولد مثل الشافعي وأحمد بن حنبل؛ فكان خيرًا من عبادة ألف سنة، وقد جاءت الأخبار بإثابة المباضعة، والإنفاق على الأولاد والعيال، ومن يموت له ولد، ومن يخلف ولدًا بعده؛ فمن أعرض عن طلب الأولاد

(١) تلبيس إبليس ص(٣٥٩- ٣٦١).

والتزوج فقد خالف المسنون والأفضل، وحُرِمَ أجرًا جسيمًا، ومن فعل ذلك فإنما يطلب الراحة.

أخبرنا عمر بن ظفر، نا جعفر بن أحمد بن السراج، نا أبو القاسم الأزجي، ثنا ابن جهضم، ثنا الخلدي، قال: سمعت الجنيد يقول: الأولاد عقوبة شهوة الحلال فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام.

قال ابن الجوزي: وهذا غلط فإن تسمية المباح عقوبة لا يحسن؛ لأنه لا يباح شيء ثم يكون ما تجدد منه عقوبة، ولا يندب إلى شيء إلا وحاصله مثوبة[١]

- قولهم في العزلة

يرون العزلة عن الناس مطلقًا؛ فيفوتهم بذلك واجبات وحسنات.

أقوال العلماء

قال القشيري: ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بِأُنسِه[٢]

قال الغزالي: وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة[٣]

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالًا بالعلم والتعبد، إلا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة، ولا عيادة مريض، ولا شهود جنازة، ولا قيام بحق، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة البطالين.

وقد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة، فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان، يبيت وحده، ويصبح وحده، ففاتته الجمعة، وصلاة الجماعة، ومخالطة أهل العلم.

وعمومهم اعتزل في الأربطة ففاتهم السعي إلى المساجد، وتوطنوا على فراش الراحة، وتركوا الكسب.

وقد قال أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء: مقصود الرياضة تفريغ القلب، وليس ذلك إلا بخلوة في مكان مظلم، وقال: فإن لم يكن مكان مظلم فيَلُفّ رأسه في جبته، أو يتدثر بكساء أو إزار؛ ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال حضرة الربوبية.

قال ابن الجوزي: قت: انظر إلى هذه الترتيبات والعجب كيف تصدر من فقيه عالم، ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق؟! وأن الذي يشاهده جلال الربوبية؟! وما يؤمنه أن يكون ما يجده

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٦٢).

(٢) الرسالة ص(٤٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٢١).

من الوساوس والخيالات الفاسدة وهذا الظاهر ممن يستعمل التقلل في المطعم؛ فإنه يغلب عليه الماليخوليا، وقد يسلم الإنسان في مثل هذه الحالة من الوساوس، إلا أنه إذا تغشى بثوبه وغمض عينيه تخايل هذه الأشياء؛ لأن في الدماغ ثلاث قوى: قوة يكون بها التخيل، وقوة يكون بها الفكرة، وقوة يكون بها الذكر، وموضع التخيل البطنان المقدمان من بطون الدماغ، وموضع التفكر البطن الأوسط من بطون الدماغ، وموضع الحفظ الموضع المؤخر؛ فإن أطرق الإنسان وغمض عينيه جال الفكر والتخيل، فيرى خيالات فيظنها ما ذكر من حضرة جلال الربوبية إلى غير ذلك، نعوذ بالله من هذه الوساوس والخيالات الفاسدة[1]

- قولهم في الأسفار والسياحة:

يرى كثير منهم الخروج للسياحة لا إلى مكان معروف، ولا طلبًا لعلم، منفردًا وبدون زاد.

أقوال العلماء:

قال ابن الجوزي: قد لبس إبليس على خلق كثير منهم فأخرجهم إلى السياحة لا إلى مكان معروف، ولا إلى طلب علم، وأكثرهم يخرج على الوحدة، ولا يستصحب زادًا، ويدعي بذلك الفعل التوكل فكم تفوته من فضيلة وفريضة، وهو يرى أنه في ذلك على طاعة، وأنه يقرب بذلك من الولاية، وهو من العصاة المخالفين لسنة رسول الله ﷺ.

وأما السياحة والخروج لا إلى مكان مقصود؛ فقد نهى رسول الله ﷺ عن السعي في الأرض في غير أرب حاجة، أخبرنا محمد بن ناصر، نا المبارك بن عبد الجبار، نا إبراهيم بن عمر البرمكي، نا ابن حياة، نا عبيد الله بن عبد الرحمن السكري، قال: سمعت أبا محمد بن قتيبة يقول: ثني محمد بن عبيد، عن معاوية، عن عمرو، عن أبي إسحاق، عن سفيان، عن ابن جريج، عن مسلم، عن طاوس: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا زمام ولا خزام ولا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة في الإسلام»**. قال ابن قتيبة: الزمام في الأنف، والخزام حلقة من شعر يجعل في أحد جانبي المنخرين، وأراد ﷺ ما كان عباد بني إسرائيل يفعلونه من خزم التراقي، وزم الأنوف، والتبتل، وترك النكاح، والسياحة: مفارقة الأمصار والذهاب في الأرض، وروى أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلًا قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال النبي ﷺ: **«إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»**.

قال ابن الجوزي: وقد ذكرنا فيما تقدم من حديث ابن مظعون أنه قال يا رسول الله: إن نفسي تحدثني بأن أسيح في الأرض فقال النبي ﷺ له: **«مهلًا يا عثمان، فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله والحج والعمرة»**.

وقد روى إسحاق بن إبراهيم بن هانئ، عن أحمد بن حنبل أنه سئل عن الرجل يسيح يتعبد

(١) تلبيس إبليس ص(٣٥٢، ٣٥٣).

أحب إليك، أو المقيم في الأمصار؟ قال: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين، ولا الصالحين

نقد مالك الصوفيَّة في السياحة:

وأما الخروج على الوحدة فقد نهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده، فأخبرنا عبد الرحمن بن محمد، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا محمد بن الطيب الصباغ، نا أحمد بن سليمان النجاد، ثنا يحيى بن جعفر بن أبي طالب، ثنا علي بن عاصم، ثنا عبد الرحمن بن يزيد، ثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: «**الراكب شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة رَكْبٌ**».

أخبرنا هبة الله بن محمد، نا الحسن بن علي، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبي، ثنا أيوب بن النجار، عن طيب بن محمد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة، قال: لعن رسول الله ﷺ راكب الفلاة وحده.

وقد يمشون بالليل أيضًا على الوحدة وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وأخبرنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبي، ثنا محمد بن عبيد، ثنا عاصم، عن أبيه، عن ابن عمر ﷺ قال قال النبي ﷺ: «**لَو يَعْلَمُ النَّاسُ ما في الوحدةِ مَا سَارَ أَحَدٌ وَحْدَه بِلَيْلٍ أبدًا**»، قال عبد الله: وحدثني أبي، ثنا محمد بن أبي عدي، ثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن عطاء بن يسار، عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقلوا الخروج إذا هدأت الرجل فإن الله تعالى يبث في خلقه ما شاء**».

قال ابن الجوزي: وفيهم من جعل دأبه السفر، والسفر لا يراد لنفسه، قال النبي ﷺ: «**السفر قطعة من العذاب، فإذا قضى أحدكم نهمته -من سفره- فليعجل إلى أهله**»، فمن جعل دأبه السفر فقد جمع بين تضييع العمر وتعذيب النفس، وكلاهما مقصود فاسد.

أنبأنا عبد المنعم بن عبد الكريم، ثنا أبي، قال: سمعت محمد بن أبي الطيب العِكي، يقول: سمعت أبا الحسن المصري، يقول: سمعت أبا حمزة الخراساني، يقول: كنت قد بقيت محرمًا في عباء أسافر كل سنة ألف فرسخ تطلع الشمس علي وتغرب كلما أحللت أحرمت[1]

- قولهم في طريقة قدوم المسافر:

أقوال العلماء

قال ابن الجوزي: من مذهب القوم أن المسافر إذا قدم فدخل الرباط، وفيه جماعة لم يسلم عليهم حتى يدخل الميضة؛ فإذا توضأ جاء وصلى ركعتين، ثم سلم على الشيخ، ثم سلم على

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٦٣- ٣٦٥)، اقتضاء الصراط المستقيم ص(١٠٥)، مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٩، ٥٣٠).

الجماعة.

وهذا ما ابتدعه متأخرهم على خلاف الشريعة؛ لأن فقهاء الإسلام أجمعوا على أن من دخل على قوم سن له أن يسلم عليهم سواء كان على طهارة أو لم يكن، إلا أن يكونوا أخذوا هذا من مذهب الأطفال؛ فإنه إذا قيل للطفل: لِمَ لا تسلم علينا؟ قال: ما غسلت وجهي بعد، أو لعل الأطفال علموه من هؤلاء المبتدعين.

أخبرنا ابن الحصين، نا أبو علي بن المذهب، نا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبي، ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن همام بن منبه، ثنا أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير»** أخرجاه في الصحيحين...[1]

- قولهم فيما إذا مات لهم ميت.

لا يبكون عليه، ويعملون دعوة، يسمونها عرسًا، يُغَنُّون فيها ويرقصون ويلعبون.

أقوال العلماء:

قال ابن الجوزي: له في ذلك تلبيسان.

الأول: أنهم يقولون: لا يبكي على هالك، ومن بكى على هالك خرج عن طريق أهل المعارف.

قال ابن عقيل: وهذه دعوى تزيد على الشرع؛ فهي حديث خرافة، وتخرج عن العادات والطباع؛ فهي انحراف عن المزاج المعتدل؛ فينبغي أن يطالب لها بالعلاج بالأدوية المعدلة للمزاج، فإن الله تعالى أخبر عن نبي كريم فقال: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٨٤] ، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآية ٨٤] ، وبكى رسول الله ﷺ عند موت ولده، وقال: **«إن العين لتدمع»**، وقال: **«واكرباه»**، وقالت فاطمة ﷺ وَاكَرْب أبتاه فلم ينكر، وسمع عمر بن الخطاب ﷺ متمما يندب أخاه ويقول:

وكنا كندماني جزيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فقال عمر ﷺ: ليتني كنت أقول الشعر فأندب أخي زيدًا، فقال متمم: لو مات أخي كما مات أخوك ما رثيته، وكان مالك مات على الكفر وزيد قتل شهيدًا، فقال عمر: ما عزاني أحد في أخي كمثل تعزيتك ثم لا تزال الإبل الغليظة الأكباد تحن إلى مآلفها من الأعطان والأشخاص، وترغو للفصلان وحمام الطير ترجع، وكل مأخوذ من البلاء فلا بد أن يتضرع، ومن لم تحركه المسار والمطربات وتزعجه المخزيات فهو إلى الجماد به أقرب، وقد أبان النبي عليه الصلاة السلام عن

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٨٦، ٣٨٧).

العيب في الخروج عن سمت الطبع فقال للذي قال لم أقبل أحدًا من ولدي، وكان له عشرة من الولد فقال: أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك، وجعل يلتفت إلى مكة لما خرج فالمطالب لما يخرج عن الشرائع، وينبو عن الطباع جاهل يطالب بجهل، وقد قنع الشرع منا أن لا نلطم خدًّا، ولا نشق جيبًا؛ فأما دمعة سائلة وقلب حزين فلا عيب في ذلك.

التلبيس الثاني: أنهم يعملون عند موت الميت دعوة ويسمونها عرسًا، ويغنون فيها، ويرقصون، ويلعبون، ويقولون: نفرح للميت إذ وصل إلى ربه، والتلبيس في هذا عليهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المسنون أن يتخذ لأهل الميت طعامًا لاشتغالهم بالمصيبة عن إعداد الطعام لأنفسهم، وليس من السنة أن يتخذه أهل الميت ويطعمونه إلى غيرهم...

والثاني: أنهم يفرحون للميت، ويقولون: وصل إلى ربه، ولا وجه للفرح؛ لأنا لا نتيقن أنه غفر له، وما يؤمنا أن نفرح له وهو في المعذبين...

والثالث: أنهم يرقصون ويلعبون في تلك الدعوة؛ فيخرجون بهذا عن الطباع السليمة التي يؤثر عندها الفراق، ثم إن كان ميتهم قد غفر له فما الرقص واللعب بشكرهم، وإن كان معذبًا فأين أثر الحزن(١)

- قولهم في سماع الغناء ونحوه:

منهم من يرى جواز سماع القصائد الملحنة، وأبيات الشعر الغزلية، والغناء، والاجتماع لها، مع التصفيق والدفوف والمزامير وغيره، ومع الرقص والتمايل، حتى يصلوا إلى الغشيان والوقوع على الأرض، وهو ما يسمونه الوجدان، ومنهم من يرى أنه تقرب وطاعة وعبادة لله.

أقوال العلماء:

قال السكسكي عما أباحوه: والتلذذ بسماع أصوات النساء والصبيان، وسماع المزامير والدفوف والرقص والتصفيق في الشوارع والأسواق بقوة العزمة، وترك الحشمة، وجعلوا ذلك عبادة يتدينون بها، ويجتمعون لها، ويؤثرونها على الصلاة، ويعتقدونها أفضل العبادات، ويحضون لذلك المغاني من النساء والصبيان وغيرهم من أهل الأصوات الحسنة للغناء بالشبابات والطاب والصغة والدفوف المجلجلة، وسائر آلات اللهو المطربة، وأبيات الشعر الغزلية التي يوصف بها محاسن النساء، ويذكر فيها من تقدم من النساء التي كانت الشعراء تهواها، وتتشبب بها في أشعارها، وتصف محاسنها كليلى ولبنى وهند وسعاد وزينب وغيرهن، ويقولون: نحن نكني بذلك عن الله عز وجل ونصرف المعنى إليه.

وقد ذكر الفقيه موسى بن أحمد ذلك في الرسالة التي رد بها عليهم، وبين فساد مذهبهم؛ فقال في بيت شعر أنشده فيهم:

---

(١) تلبيس إبليس ص(٣٨٧- ٣٨٩).

يكنون عن رب السماء بزينب وليلى ولبني والخيال الذي يسري.

ويختلط الرجال والنساء ويتصافحون، وإذا حصل فيهم الطرب وقت السماع من الأصوات الشجية والآلات المطربة اضطربوا وصرخوا وقاموا وقفزوا وداروا في الحلقة فإذا دارت رءوسهم واختلط عقولهم من شدة الضرب وكثرة القفز والدوران وقعوا على الأرض غشيًا عليهم فيسمون ذلك الوجدان؛ أي أن ذلك من شدة ما يجدون من المحبة والشوق(١).

وقال ابن الجوزي: وقد اعتقد قوم من الصوفيَّة أن هذا الغناء الذي ذكرنا عن قوم تحريمه وعن آخر كراهته، مستحب في حق قوم(٢).

وقال شيخ الإسلام: سماع الغناء، فإن طائفة من المتصوفة والمتفقرة تتخذه دينًا، وإن لم تقل بألسنتها، أو تعتقد بقلوبها أنه قربة، فإن دينهم حال، لا اعتقاد: فحالهم، وعملهم، هو استحسانها في قلوبهم، ومحبتهم لها، ديانة وتقربًا إلى الله، وإن كان بعضهم قد يعتقد ذلك، ويقوله بلسانه.

وفيهم من يعتقد ويقول ليس قربة لكن حالهم هو كونه قربة ونافعًا في الدين ومصلحًا للقلوب(٣).

نقض قولهم:

قال ابن الجوزي: وقد احتج لهم أبو طالب المكي على جواز السماع بمنامات، وقسم السماع إلى أنواع، وهو تقسيم صوفي لا أصل له.

وقد ذكرنا أن من ادعى أنه يسمع الغناء ولا يؤثر عنده تحريك النفس إلى الهوى فهو كاذب.

وقد أخبرنا أبو القاسم الحريري عن أبي طالب الطبري قال: قال بعضهم: إنا لا نسمع الغناء بالطبع الذي يشترك فيه الخاص والعام، قال: وهذا تجاهل منه عظيم لأمرين:

أحدهما: أنه يلزمه على هذا أن يستبيح العود والطنبور، وسائر الملاهي؛ لأنه يسمعه بالطبع الذي لا يشاركه فيه أحد من الناس فإن لم يستبح ذلك فقد نقض قوله، وإن استباح فقد فسق.

والثاني: أن هذا المدعي لا يخلو من أن يدعي أنه فارق طبع البشر وصار بمنزلة الملائكة؛ فإن قال هذا فقد تخرَّص على طبعه، وعلم كل عاقل كذبه إذا رجع إلى نفسه، ووجب ألّا يكون مجاهدًا لنفسه ولا مخالفًا لهواه، ولا يكون له ثواب على ترك اللذات والشهوات، وهذا لا يقوله عاقل، وإن قال أنا على طبع البشر المجبول على الهوى والشهوة، قلنا له: فكيف تسمع الغناء المطرب بغير طبعك، أو تطرب لسماعه لغير ما غرس في نفسك.

---

(١) البرهان ص(١٠٢، ١٠٣).

(٢) تلبيس إبليس ص(٣٠٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٣٥٩)، (٥/٨٣- ٨٥).

أخبرنا ابن ناصر، نا أحمد بن علي بن خلف، ثنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت أبا القاسم الدمشقي، يقول: سُئِلَ أبو علي الروذباري عمن سمع الملاهي، ويقول: هي لي حلال؛ لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال، فقال: نعم، قد وصل -لعمري- ولكن إلى سقر[(١)]

وقال ابن الجوزي: وقد نشب السماع بقلوب خلق منهم فآثروه على قراءة القرآن، ورقت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلا لتمكن هوى باطن تمكن منه، وغلبة طبع، وهم يظنون غير هذا[(٢)]

وقال: وقد ادعى قوم منهم أن هذا السماع قربة إلى الله عز وجل...

وقال ابن عقيل: قد سمعنا منهم أن الدعاء عند حَذْوِ الحادي، وعند حضور المخدة مجاب؛ وذلك أنهم يعتقدون أنه قربة يتقرب بها إلى الله تعالى، قال: وهذا كفر لأن من اعتقد الحرام أو المكروه قربة كان بهذا الاعتقاد كافرًا، قال: والناس بين تحريمه وكراهيته[(٣)]

قال ابن الجوزي: فإذا طرب أهل التصوف لسماع الغناء صفقوا.

وقال: والتصفيق منكر، يطرب ويخرج عن الاعتدال، وتتنزه عن مثله العقلاء، ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت من التصدية، وهي التي ذمهم الله عز وجل بها؛ فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] ، فالمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

وقال: وفيه أيضًا تشبه بالنساء، والعاقل يأنف من أن يخرج عن الوقار إلى أفعال الكفار والنسوة، فإذا قوي طربهم رقصوا[(٤)]

وقال: فإذا تمكن الطرب من الصوفيَّة في حال رقصهم جذب أحدهم بعض الجلوس ليقوم معه، ولا يجوز على مذهبهم للمجذوب أن يقعد، فإذا قام قام الباقون تبعًا له، فإذا كشف أحدهم رأسه كشف الباقون رءوسهم موافقة له.

ولا يخفى على عاقل أن كشف الرأس مستقبح، وفيه إسقاط مروءة، وترك أدب، وإنما يقع في المناسك تعبدًا لله وذلًّا له.

فإذا اشتد طربهم رموا ثيابهم على المغني، فمنهم من يرمي بها صحاحًا، ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها[(٥)]

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢٩٩، ٣٠٠).
(٢) تلبيس إبليس ص(٣٠٣).
(٣) تلبيس إبليس ص(٣٠٥، ٣٠٦).
(٤) تلبيس إبليس ص(٣١٦).
(٥) تلبيس إبليس ص(٣١٩).

وقال شيخ الإسلام: إن النبي ﷺ لم يجتمع هو وأصحابه على سماع كف، ولا سماع دفوف وشبابات، ولا رقص، ولا سقط عنه ثوب من ثيابه في ذلك، ولا قسمه على أصحابه، وكل ما يروى من ذلك فهو كذب مُخْتَلَقٌ باتفاق أهل المعرفة بسنته[١]

وقال: ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي، وهو سماع المشركين قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] ؛ قال ابن عباس وابن عمر ﷺ وغيرهما من السلف: التصدية التصفيق باليد، والمكاء مثل الصفير؛ فكان المشركون يتخذون هذا عبادةً. وأما النبي وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبي وأصحابه على استماع غناء قط؛ لا بكف، ولا بدف، ولا تواجد، ولا سقطت بردته؛ بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه.

وكان أصحاب النبي إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى الأشعري: ذَكِّرْنَا ربنا فيقرأ وهم يستمعون، ومر النبي بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك» فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرًا ؛ أي: لحسنته لك تحسينًا، كما قال النبي: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وقال ﷺ: «لله أشهد أُذُنًا -أي: استماعًا- إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته» ، وقال لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن»، فقال: أقرأ عليك وعليك أُنزِلَ، فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت عليه سورة النساء حتى انتهيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: الآية ٤١] قال: «حسبك» فإذا عيناه تذرفان من البكاء.

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكره الله في القرآن فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: الآية ٥٨] ، وقال في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: الآية ٨٣] ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: الآية ٢٣] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

وأما السماع المُحْدَث سماع الكف والدف والقصب؛ فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقًا إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدونه من القرب

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٨٨).

والطاعات؛ بل يعدونه من البدع المذمومة حتى قال الشافعي: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه «التغبير» يصدون به الناس عن القرآن.

وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك ويعلمون أن للشيطان فيه نصيبًا وافرًا ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم[(١)]

وقال: مسألة السماع تكلم كثير من المتأخرين في السماع هل هو محظور؟ أو مكروه؟ أو مباح؟، وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقًا إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب، والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب، والتحزين على فوات المطلوب، فتستنزل به الرحمة، وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه؛ حتى يجعلونه قوتًا للقلوب، وغذاءً للأرواح، وحاديًا للنفوس يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه.

ولهذا يوجد من اعتاده، واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات؛ بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب...

فإذا عُرِفَ هذا فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز، ولا بالشام، ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان من أهل الدين والصلاح والزهدة والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية؛ لا بدف، ولا بكف، ولا بقضيب، إنما أحداث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية فلما رآه الأئمة أنكروه.

فقال الشافعي ﷺ: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه «التغبير» يصدون به الناس عن القرآن، وقال يزيد بن هارون: ما يغبر إلا الفاسق، ومتى كان التغبير؟

وسئل عنه الإمام أحمد، فقال: أكرهه هو محدث، قيل: أنجلس معهم؟ قال: لا ؛ وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري، والسري السقطي، وأمثالهم. والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم، وأعيان المشايخ عابوا أهله كما فعل ذلك عبد القادر، والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشايخ.

وما ذكره الشافعي ﷺ من أنه من إحداث الزنادقة كلام إمام خبير بأصول الإسلام؛ فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزنادقة كابن الراوندي والفارابي وابن

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩٥- ٢٩٨)، (١١/ ٥٣١- ٥٣٥).

سينا وأمثالهم، . . . ، ففي هؤلاء الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو به النفوس، وترتاض به، وتهذب به الأخلاق.

وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل الذي جعله الله إمامًا، وأهل دين الإسلام والذي لا يقبل الله من أحد دينًا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد؛ فهؤلاء ليس فيهم من يرغب في ذلك ولا يدعو إليه، وهؤلاء هم أهل القرآن والإيمان والهدى والسعد والرشاد والنور والفلاح وأهل المعرفة والعلم واليقين والإخلاص والمحبة له والتوكل عليه والخشية له والإنابة إليه.

ومن كان له خبرة بحقائق الدين وأحوال القلوب ومعارفها وأذواقها ومواجيدها عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه، فهو للروح كالخمر للجسد، يفعل في النفوس فعل حميا الكئوس.

ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر فيجدون لذة بلا تمييز، كما يجد شارب الخمر؛ بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر، ويصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، أعظم مما يصدهم الخمر، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر حتى يقتل بعضهم بعضًا من غير مس بيد؛ بل بما يقترن بهم من الشياطين؛ فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية بحيث تتنزل عليهم الشياطين في تلك الحال، ويتكلمون على ألسنتهم كما يتكلم الجني على لسان المصروع، إما بكلام من جنس كلام الأعاجم الذين لا يفقه كلامهم كلسان الترك أو الفرس أو غيرهم، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربيًّا لا يحسن أن يتكلم بذلك، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم، وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى وهذا يعرفه أهل المكاشفة شهودًا وعيانًا.

والمنتسبون إلى بعض المشايخ إذا حصل له وجد سماعي، وعند سماع المكاء والتصدية؛ منهم من يصعد في الهواء، ويقف على زج الرمح، ويدخل النار، ويأخذ الحديد المحمي بالنار ثم يضعه على بدنه، وأنواع من هذا الجنس، ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة، ولا عند الذكر، ولا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية، تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

قال النبي في الحديث الصحيح: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»**، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف تنزلت الملائكة لسماعها كالظلة فيها السرج.

ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر، والسلف يسمونه تغبيرًا؛ لأن التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الإنسان على التلحين؛ فقد يضم إلى صوت الإنسان، إما التصفيق بأحد اليدين

على الأخرى، وإما الضرب بقضيب على فخذ وجلد، وإما الضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف أو طبل، كناقوس النصارى، والنفخ في صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهي على وجه الديانة والتقرب فلا ريب في ضلالته وجهالته.

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتَّلَعُّب فمذهب الأئمة الأربعة: أن آلات اللهو كلها حرام؛ فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير، والخمر والمعازف، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير.

والمعازف: هي الملاهي كما ذكر ذلك أهل اللغة، جمع معزفة، وهي الآلة التي يعزف بها أي يصوت بها.

وكثير من الناس يفعل في السماع وغيره ما هو من جنس الفواحش المحرمة، وما يدعو إليها وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب فهو مما أمر الله به؛ فهؤلاء لهم نصيب من معنى هذه الآية قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد كان المشركون يحرمون من الطعام واللباس أشياء ويتخذون ذلك دينًا وكان بعض الصحابة قد عزموا على الترهب فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

وجماع الدين ألا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع ولا نعبده بالبدع كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: الآية ٧] قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا ولم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشايخ كما قال أبو سليمان الداراني: إنه لتمر بقلبي النُّكْتَةُ من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين الكتاب والسنة.

وقال الشيخ أبو سليمان أيضًا: ليس لمن ألهم شيئًا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر، فإذا سمع بأثر كان نورًا على نور.

وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث، لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا.

وقال سهل ابن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة؛ فهو باطل، وقال: كل عمل على ابتدع فإنه عذاب على النفس، وكل عمل بلا اقتداء هو غش النفس.

وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى

على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النُّور: الآية ٥٤]، مثل هذا كثير في كلامهم.

وإذا كان كذلك؛ فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه الرسول لأمته فهو الداعي إلى الله بإذنه الهادي إلى صراطه الذي من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار؛ فهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي[(١)]

- قولهم في صحبة المردان ومؤاخاة النسوان.

منهم من يبيح صحبة المردان والنساء والنظر والخلوة بهم، واتخاذ ذلك دينًا، بحجة حصول البركة، والتأمل في خلق الله، والترقي في المحبة.

أقوال العلماء:

قال السكسكي: وأباحوا النظرة إلى المردان، والخلوة بأجانب النسوان[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب والخلو بهن زعمًا منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن، وإن كان محرمًا في الشريعة، وكذلك من يستحل ذلك من المردان، ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم، ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين، حتى يترق من محبة المخلوق إلى محبة الخالق، ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى، وقد يستحلون الفاحشة الكبرى كما يستحلها من يقول: إن التلوط مباح بملك اليمين؛ فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين[(٣)]

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: أما مؤاخاة الرجالِ النساءَ الأجانب، وخلوهم بهن، ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن؛ فهذا حرام باتفاق المسلمين، ومن جعل ذلك من الدين؛ فهو من إخوان الشياطين قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٨]

وقال النبي: «لا يخلون رجل بامرأة»؛ فإن ثالثهما الشيطان، وقال: «إياكم والدخول على النساء» قالوا: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»، ومن لم ينتهِ عن ذلك عوقب عقوبة بليغة تزجره وأمثاله من أهل الفساد والعناد[(٤)]

وقال: أما صحبة المردان على وجه الاختصاص بأحدهم -كما يفعلونه- مع ما ينضم إلى ذلك

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٥٧- ٥٨٦)، (١١/ ٥٨٧- ٦٠٧)، (١١/ ٦٣٠- ٦٣٥)، (١١/ ٦٤١- ٦٤٤).

(٢) البرهان ص(١٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٠٥).

من الخلوة بالأمرد الحسن، ومبيته مع الرجل، ونحو ذلك؛ فهذا من أفحش المنكرات عند المسلمين، وعند اليهود والنصارى وغيرهم؛ فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ودين سائر الأمم بعد قوم لوط: تحريم الفاحشة اللوطية، ولهذا بين الله في كتابه أنه لم يفعلها قبل قوم لوط أحد من العالمين، وقد عذب الله المستحلين لها بعذاب ما عذبه أحدًا من الأمم حيث طمس أبصارهم، وقلب مدائنهم؛ فجعل عاليها سافلها، واتبعهم بالحجارة من السماء.

ولهذا جاءت الشريعة بأن الفاحشة التي فيها القتل يقتل صاحبها بالرجم بالحجارة. كما رجم النبي ﷺ اليهوديين وماعز بن مالك والأسلمي والغامدية وغيرهم، ورجم بعده خلفاؤه الراشدون.

والرجم شرعه الله لأهل التوراة والقرآن، وفي السنن عن النبي: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»** ولهذا اتفق الصحابة على قتلهما جميعًا لكن تنوعوا في صفة القتل: فبعضهم قال: يرجم، وبعضهم قال: يرمى من أعلى جدار في القرية ويتبع بالحجارة، وبعضهم قال: يحرق بالنار، ولهذا كان مذهب جمهور السلف والفقهاء أنهما يرجمان بكرين كانا أو ثيبين، حرين كانا، أو مملوكين، أو كان أحدهما مملوكًا للآخر، وقد اتفق المسلمون على أن من استحلها بمملوك أو غير مملوك فهو كافر مرتد.

وكذلك مقدمات الفاحشة عند التلذذ بقبلة الأمرد، ولمسه، والنظر إليه هو حرام باتفاق المسلمين، كما هو كذلك في المرأة الأجنبية، كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: **«العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»**.

فإذا كان المستحل لما حرم الله كافرًا، فكيف بمن يجعله قربة وطريقًا إلى الله تعالى؟! قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] وسبب نزول الآية أن غير الحمس من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة فجعل الله كشف عوراتهم فاحشة، وبين أن الله لا يأمر بالفحشاء، ولهذا لما حج أبو بكر الصديق قبل حجة الوداع نادى بأمر النبي -وكان يحج المسلم والمشرك-: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فكيف بمن يستحل إتيان الفاحشة الكبرى؟ أو ما دونها؟ ويجعل ذلك عبادة وطريقًا.

وإن كان طائفة من المتفلسفة ومن وافقهم من ضلال المتنكسة جعلوا عشق الصور الجميلة من جملة الطريق التي تزكى بها النفوس، فليس هذا من دين المسلمين ولا اليهود ولا النصارى، وإنما هو دين أهل الشرك الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

وإن كان أتباع هؤلاء زادوا على ما شرعه ساداتهم وكبراؤهم زياداتٍ من الفواحش التي لا ترضاها القرود؛ فإنه قد ثبت في صحيح البخاري أن أبا عمران رأى في الجاهلية قردًا زنى بقردة

فاجتمعت عليه القرود فرجمته، ومثل ذلك قد شاهده الناس في زماننا في غير القرود حتى الطيور.

فلو كانت صحبة المردان المذكورة خالية عن الفعل المحرم فهي مظنة لذلك، وسبب له، ولهذا كان المشايخ العارفون بطريق الله يحذرون من ذلك، كما قال فتح الموصلي: أدركت ثلاثين من الأبدال كل ينهاني عند مفارقتي إياه عن صحبة الأحداث، وقال معروف الكرخي: كانوا ينهون عن ذلك، وقال بعض التابعين: ما أنا على الشاب الناسك من سبع يجلس إليه بأخوف مني عليه من حدث يجلس إليه، وقال سفيان الثوري وبشر الحافي: إن مع المرأة شيطانًا، ومع الحدث شيطانَيْن، وقال بعضهم ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه الله بصحبة هؤلاء الأحداث، وقد دخل من فتنة الصور والأصوات على النساك ما لا يعلمه إلا الله، حتى اعترف أكابر الشيوخ بذلك، وتاب منهم من تداركه الله برحمته.

ومعلوم أن هذا من باب اتباع الهوى بغير هدى من الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القَصَص: الآية ٥٠] ، ومن استحل ذلك، أو اتخذه دينًا كان ضالًّا مضاهيًا للمشركين والنصارى، ومن فعله مع اعترافه بأنه ذنب أو معصية كان عاصيًا أو فاسقًا.

وكذلك مؤاخاة المرأة الأجنبية بحيث يخلو بها، وينظر منها ما ليس للأجنبي أن ينظره -حرام باتفاق المسلمين، واتخاذ ذلك دينًا وطريقًا كفر وضلال. والمال الذي يؤخذ لأجل إقرارهم ومعونة على محادثة الرجل الأمرد هي من جنس جعل القوادة، ومطالبتهم له بالصحبة من جنس العرس على البغي.

والله سبحانه أباح النكاح غير مسافحين ولا متخذي أخدان؛ فالمرأة المسافحة تزني بمن اتفق لها، وكذلك الرجل المسافح الذي يزني مع من اتفق له، وأما المتخذ الخدن فهو الرجل يكون له صديقة والمرأة يكون لها صديق، فالأمرد المخادن للواحد من هؤلاء من جنس المرأة المتخذة خدنًا، وكذلك الجعل والمال الذي يؤخذ على هذا من جنس مهر البغي، وجعل القوادة ونحو ذلك[1]

- **قولهم في العقل والأحوال:**

كثير منهم يذم العقل، ويرى الأحوال لا تحصل إلا بدونه.

أقوال العلماء:

قال الكلاباذي: اعلم أن علوم الصوفيَّة علوم الأحوال[2]

وقال القشيري: والناس إمَّا أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفِكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة؛ فالذي للناس غيب، فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود؛ فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال[3]

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٤٢- ٥٤٦).

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٨٦).

(٣) الرسالة ص(١٨٠).

قال شيخ الإسلام: إن دينهم حال لا اعتقاد(١)

وقال: وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل.

ويمدحون السكر والجنون والوله أمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتميز كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها ممن لم يعلم صدقه(٢)

- قولهم في الذكر:

أجمعوا على ضرورة الذكر، مع اختلافهم في طريقته، فعند بعضهم يكون بلفظ: لا إله إلا الله، وعند بعضهم يكون بلفظ: الله المفرد، وعند بعضهم يكون بلفظ: هو هو الضمير، وعند بعضهم بلفظ: لا هو إلا هو، وغير ذلك.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد؛ فإن صفوتهم الذين يشتغلون بذكر بسيط مثل لا إله إلا الله، إن لم يغلوا فيقتصروا على مجرد الله الله، ويعتقدون أن ذلك أفضل وأكمل كما فعله كثير منهم، وربما اقتصر بعضهم على هو هو، أو على قوله: لا هو إلا هو؛ لأن هذا الذكر المبتدع الذي هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقًا، ليس فيه بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم.

فقد ينضم إلى ذلك اعتقاد صاحبه أنه لا وجود إلا هو، كما يصرح به بعضهم ويقول: لا هو إلا هو، أو لا موجود إلا هو، وهذا عند الاتحادية أجود من قول: لا إله إلا الله؛ لأنه مصرح بحقيقة مذهبهم الفرعوني القرمطي حتى يقول بعضهم: «لا إله إلا الله» ذكر العابدين، و«الله! الله» ذكر العارفين، و«هو» ذكر المحققين، ويجعل ذكره يا من لا هو إلا هو، وإذا قال: الله الله، إنما يفيد مجرد ثبوته فقد ينضم إلى ذلك نفي غيره لا نفي إلهية غيره فيقع صاحبه في وحدة الوجود، وربما انتفى شهود القلب للسوي إذا كان في مقام الفناء فهذا قريب أما اعتقاد أن وجود الكائنات هي هو فهذا هو الضلال(٣)

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: قد دل الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة على جنس المشروع المستحب في ذكر الله ودعائه كسائر العبادات وبين النبي مراتب الأذكار كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب: **«أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ لا يضرك بأيهن بدأت»**.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٦٣، ٦٤).

وفي صحيحه عن أبي ذر قال: سئل رسول الله، أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده**».

وفي كتاب الذكر لابن أبي الدنيا وغيره مرفوعًا إلى النبي: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**».

وفي الموطأ وغيره حديث طلحة بن عبد الله بن كريز عن النبي: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**».

وفي السنن حديث الذي قال: يا رسول الله، إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا فعلمني ما يجزئني في صلاتي، فقال: «**قلْ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**».

ولهذا قال الفقهاء إن من عجز عن القراءة في الصلاة انتقل إلى هذه الكلمات الباقيات الصالحات وفضائل هذه الكلمات ونحوها كثير ليس هذا موضعه.

وإنما الغرض من الذكر والدعاء ما ليس بمشروع الجنس أو هو منهي عنه أو عن صفته كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٥] ، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٠] فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى.

ومن المنهي عنه ما كانوا يقولونه في الجاهلية في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، ومثل قول بعض الأعراب للنبي: إنا نستشفع بالله عليك، فقال النبي ﷺ: «**شأن الله أعظم من ذلك، إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه**».

ومثل ما كانوا يقولون في أول الإسلام: السلام على الله قبل عباده؛ فقال النبي: «**إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات**».

أشار بذلك إلى أن السلام إنما يطلب لمن يحتاج إليه، والله هو السلام؛ فالسلام يطلب منه لا يطلب له؛ بل يُثنَى عليه فإنه له فيقال: التحيات لله، والصلوات والطيبات؛ فالحق سبحانه يُثنَى عليه، ويطلب منه، وأما المخلوق فيطلب له فيقال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ والرزق يعم كلما ينتفع به المرتزق، فالإنسان يرزق الطعام والشراب واللباس، وما ينتفع بسمعه وبصره وشمه، ويرزق ما ينتفع به باطنه من علم وإيمان وفرح وسرور وقوة ونور وتأييد وغير ذلك، والله سبحانه ما يريد من الخلق من رزق فإنهم لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هو الغني وهم الفقراء، و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨١] ، وهو الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وكذلك الدعاء المكروه مثل الدعاء ببغي، أو قطيعة رحم، أو دعاء منازل الأنبياء أو دعاء الأعرابي الذي قال: اللهم ما كنت معذبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا.

ومثل قوله ﷺ للمصابين بميت لما صاحوا: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: الآية ١١] ، وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: الآية ١١] ، وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استيعابه، وإنما نبهنا على جنس المكروه.

وإنما الغرض هنا أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلامًا تامًّا مفيدًا مثل: لا إله إلا الله، ومثل: الله أكبر، ومثل: سبحان الله والحمد لله، ومثل: لا حول ولا قوة إلا بالله، ومثل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: الآية ٧٨] ، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: الآية ١] ، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: الآية ١] ، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: الآية ١]

فأما الاسم المفرد مُظْهَرًا مثل: الله الله، أو مضمَرًا مثل: هو هو؛ فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضًا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين.

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه مثلما يروى عن الشبلي أنه كان يقول: الله الله؛ فقيل له: لِمَ لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، وهذه من زلات الشبليِّ التي تغفر له لصدق؛ إيمانه وقوة وجده وغلبة الحال عليه؛ فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها، وإن كان معذورًا أو مأجورًا؛ فإن العبد لو أراد أن يقول: لا إله إلا الله ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئًا؛ إذ الأعمال بالنيات بل يكتب له ما نواه.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة، وربما قال: بعضهم لا إله إلا الله للمؤمنين، والله للعارفين، وهو للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته أو في جماعته على «الله، الله، الله»، أو على «هو»، أو «ياهو»، أو «لا هو إلا هو».

وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك واستدل عليه تارة بوجد، وتارة برأي، وتارة بنقل مكذوب. كما يروي بعضهم أن النبي ﷺ لقن علي بن أبي طالب أن يقول: «الله، الله، الله»، فقالها النبي ثلاثًا ثم أمر عليًّا فقالها ثلاثًا، وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

وإنما كان تلقين النبي للذكر المأثور عنه، ورأس الذكر: «لا إله إلا الله»، وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت، وقال: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**»، وقال: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحًا**»، وقال: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وقال: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وقال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**

فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، والأحاديث كثيرة في هذا المعنى. . .

فأما ذكر الاسم المفرد فلم يشرع بحال، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه.

وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩١] ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم فخطأ واضح، ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: الآية ٩١]، إذ قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ٩١]؛ أي: قل الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلام تام وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب.

وهذا قياس مطرد في مثل هذا في كلام العرب، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] الآية، وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النَّمل: الآية ٦٠] وكذلك ما بعدها، وقوله: (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله) على قراءة أبي عمرو، وتقول في الكلام: من جاء؟ فتقول: زيدٌ، ومن أكرمت؟ فتقول: زيدًا، وبمن مررت؟ فتقول: بزيدٍ؛ فيذكرون الاسم الذي هو جواب من، ويحذفون المتصل به؛ لأنه قد ذكر في السؤال مرة فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان لما في ذلك من التطويل والتكرير.

وأغرب من هذا ما قاله لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧] قال: المعنى وما يعلم تأويل (هو) أي: اسم هو الذي يقال فيه: «هو، هو»، وصنف ابن عربي كتابًا في «الهو» فقلت له -وأنا إذ ذاك صغير جدًّا-: لو كان كما تقول لكتبت في المصحف مفصولة «تأويل هو» ولم تكتب موصولة، وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار، وإنما كثير من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة في الكتاب والسنة. . .

وإنما الغرض بيان حكم ذكر الاسم وحده من غير كلام تام، وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنه غير مستحب، وكذلك بالأدلة العقلية الذوقية؛ فإن الاسم وحده لا يعطي إيمانًا ولا كفرًا، ولا هدًى ولا ضلالًا، ولا علمًا ولا جهلًا، وقد يذكر الذاكر اسم نبي من الأنبياء أو فرعون من الفراعنة، أو صنم من الأصنام، ولا يتعلق بمجرد اسمه حكم إلا أن يقرن به ما يدل على نفي أو إثبات، أو حب أو بغض، وقد يذكر الموجود والمعدوم.

ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملة تامة، ولا كلامًا مفيدًا؛ ولهذا سمع بعض العرب مؤذنًا يقول: (أشهد أن محمدًا رسولَ الله) قال: فعل ماذا؟ فإنه لما نصب الاسم صار صفة والصفة من تمام الاسم الموصوف،

فطلب بصحة طبعه الخبر المفيد، ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن.

ولو كرر الإنسان اسم الله ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمنًا، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته؛ فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الاسم مفردًا سواء أقروا به وبوحدانيته، أم لا، حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢١]، وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝﴾ [الأعلى: الآية ١]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝﴾ [الواقعة: الآية ٧٤] ونحو ذلك -كان ذكر اسمه بكلام تام مثل أن يقول: باسم الله، أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط، ولا يحصل بذلك امتثال أمر، ولا حل صيد ولا ذبيحة، ولا غير ذلك.

فإن قيل: فالذاكر أو السامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد محبة، وتعظيم لله، ونحو ذلك.

قلت: نعم، ويثاب على ذلك الوجد المشروع، والحال الإيماني لا لأن مجرد الاسم مستحب، وإذا سمع ذلك حرك ساكن القلب، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم أو مكروه، حتى قد يسمع المسلم من يشرك بالله، أو يسبه فيثور في قلبه حال وجد ومحبة لله بقوة نفرته وبغضه لما سمعه، وقد قال الصحابة للنبي: إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: «أو قد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»، وفي رواية قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

فالشيطان لما قذف في قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الإيمان الذي في قلوبهم بالكراهة لذلك والاستعظام له، فكان ذلك صريح الإيمان، ولا يقتضي ذلك أن يكون السبب الذي هو الوسوسة مأمورًا به.

والعبد أيضًا قد يدعوه داع إلى الكفر أو المعصية فيستعصم ويمتنع ويورثه ذلك إيمانًا وتقوى، وليس السبب مأمورًا به، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الآية. فهذا الإيمان الزائد والتوكل كان سبب تخويفهم بالعدو وليس ذلك مشروعًا؛ بل العبد يفعل ذنبًا فيورثه ذلك توبة يحبه الله بها ولا يكون الذنب مأمورًا به، وهذا باب واسع جدًا.

ففرق بين أن يكون نفس السبب موجبًا للخير ومقتضيًا، وبين ألا يكون، وإنما نشأ الخير من المحل. فالمأمور به من الكلمات الطيبات والأعمال الصالحات، هي موجبة للخير والرحمة والثواب، وإذا اقترن بها قوة إيمان العبد وما يجده من حلاوة الإيمان وتذوقه من طعمه تضاعف الخير والرحمة والبركة، وما ليس مأمورًا به: إما من فعل العبد محرمه ومكروهه ومباحه، وإما من فعل غيره معه: من الإنس والجن وإما من الحوادث السمائية التي يصيبه بها الرب، إذا صادفت منه إيمانًا ويقينًا فحركت ذلك الإيمان واليقين، وازداد العبد بذلك إيمانًا لم يكن ذلك مما يوجب أن

تحب تلك الأسباب، أو تحمد أو يؤمر بها، إذا لم يكن كذلك؛ فإنها ليست مقتضية لذلك الخير، وإنما مقتضاها تحريك الساكن وطال ما جرت إلى شر وضرر.

ويشبه هذا الباب ذكر الحب المطلق والشوق المطلق، والوجل المطلق، وما يتضمن ذلك من نظم ونثر؛ فإن هذا من المجمل أيضًا: يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر؛ فلذلك لم يشرعها الله ورسوله، ولم يأمر بها فإن الله إنما يأمر بالخير والعمل الصالح والبر، وذلك ليس من هذا الباب؛ فإن شعر المحبين مشترك بين محب الإيمان ومحب الأوثان، ومحب النسوان، ومحب المردان، ومحب الأوطان، ومحب الأخذان.

فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحبًا فضلًا عن أن يكون هو ذكر الخاصة.

وأبعد من ذلك ذكر الاسم المضمر وهو: هو، فإن هذا بنفسه لا يدل على معين، وإنما هو بحسب ما يفسر من مذكور؛ أو معلوم فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته، ولهذا قد يذكر به من يعتقد أن الحق الوجود المطلق وقد يقول: «لا هو إلا هو» ويسرى قلبه في «وحدة الوجود» ومذهب فرعون والإسماعيلية وزنادقة هؤلاء المتصوفة المتأخرين بحيث يكون قوله: «هو» كقوله: «وجوده». وقد يعني بقوله: «لا هو إلا هو»؛ أي: أنه هو الوجود، وأنه ما ثم خلق أصلًا، وأن الرب والعبد والحق والخلق شيء واحد كما بينته من مذهب الاتحادية في غير هذا الموضع.

ومن أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول إلينا ﷺ فإن البدع هي مبادئ الكفر ومظان الكفر، كما أن السنن المشروعة هي مظاهر الإيمان، ومقوية للإيمان؛ فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما أخبر الله عن زيادته في مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣]، وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: الآية ١٢٤]،

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٤]، وغير ذلك[١].

- قولهم في التوحيد:

أكثرهم يقصر مفهوم التوحيد على توحيد الربوبية فقط.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: وكذلك طوائف من أهل التصوف والمنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد، غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد، وأن يشهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا سيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفه

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٥٣- ٥٦٧).

عن معرفته، ودخل في فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل؛ فهذا عندهم هو الغاية التي لا غاية وراءها.

ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا فضلًا عن أن يكون وليًا لله أو من سادات الأولياء.

وطائفة من أهل التصوف والمعرفة يقررون هذا التوحيد مع إثبات الصفات فيفنون في توحيد الربوبية مع إثبات الخالق للعالم المباين لمخلوقاته.

وآخرون يضمون هذا إلى نفي الصفات فيدخلون في التعطيل مع هذا وهذا شر من حال كثير من المشركين[١]

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: إن الربوبية العامة قد أقر بها المشركون الذين قال فيهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٦]

وإنما يصير الرجل مسلمًا حنيفًا موحدًا إذا شهد أن لا إله إلا الله، فعبد الله وحده بحيث لا يشرك معه أحدًا في تألهه ومحبته له، وعبوديته وإنابته إليه، وإسلامه له، ودعائه له، والتوكل عليه وموالاته فيه، ومعاداته فيه، ومحبته ما يحب، وبغضه ما يبغض، ويفنى بحق التوحيد عن باطل الشرك وهذا فناء يقارنه البقاء، فيفنى عن تأله ما سوى الله بتأله الله تحقيقًا لقوله: لا إله إلا الله فينفي ويفنى من قلبه تأله ما سواه، ويثبت ويبقي في قلبه تأله الله وحده، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وفي الحديث الآخر: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وقال في الصحيح: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»؛ فإنها حقيقة دين الإسلام فمن مات عليها مات مسلمًا

والله تعالى قد أمرنا ألا نمو ت إلا على الإسلام في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢] وقال الصديق: «توفني مسلمًا، وألحقني بالصالحين». والصحيح من القولين أنه لم يسأل الموت ولم يتمنه، وإنما سأل أنه إذا مات يموت على الإسلام فسأل الصفة لا الموصوف كما أمر الله بذلك وأمر به خليله إبراهيم وإسرائيل وهكذا قال غير واحد من العلماء منهم ابن عقيل وغيره، والله تعالى أعلم[٢]

وتقدم مزيد بيان عند قول الأشعرية في التوحيد.

- قولهم في توحيد الألوهية:

كثير منهم من يشرك في توحيد الألوهية بصرف نوع من أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠١، ١٠٢)، (٨/ ١٠١- ١٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧٠).

والاستعانة والنذر والذبح والتوكل والمحبة والخوف والرجاء... وما شابه، إلى غير الله من نبي أو ولي أو مقبور...، أو ما شابه.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: والغلو في الأمة وقع في طائفتين طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئًا من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى[1]

وقال: الغالية من النصارى والرافضة وضلال الصوفيَّة والفقراء والعامة يشركون بدعاء غير الله تارة، وبنوع من عبادته أخرى، وبهما جميعًا تارة، ومن أشرك هذا الشرك أشرك في الطاعة[2]

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: المشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان: قوم نوح وقوم إبراهيم.

فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم، وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر، وكل من هؤلاء يعبدون الجن، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة، وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن؛ فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝﴾.

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحيا ولا في الممات، ولا يرضون بذلك، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم في صور الآدميين؛ فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم: أنا إبراهيم، أنا المسيح، أنا محمد، أنا الخضر، أنا أبو بكر، أنا عمر، أنا عثمان، أنا علي، أنا الشيخ فلان، وقد يقول بعضهم عن بعض: هذا هو النبي فلان، أو هذا هو الخضر، ويكون أولئك كلهم جنًّا يشهد بعضهم لبعض، والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصي وفيهم العابد الجاهل، فمنهم من يحب شيخًا فيتزيا في صورته ويقول: أنا فلان. ويكون ذلك في برية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعامًا ويسقيه شرابًا، أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة، فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحي فعل ذلك، وقد يقول: هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته، وإنما يكون ذلك جنيًّا؛ فإن الملائكة لا تعين على

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٦٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٧).

الشرك والإفك والإثم والعدوان.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله كما أن الذين يعبدونهم عباد الله، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين

والمشركون من هؤلاء قد يقولون: إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا، فإذا صورنا تمثاله -والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم- قالوا: فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله فيقول أحدهم: يا سيدي فلان، أو يا سيدي جرجس أو بطرس، أو ياستي الحنونة مريم، أو يا سيدي الخليل، أو موسى بن عمران أو غير ذلك، اشفع لي إلى ربك.

وقد يخاطبون الميت عند قبره سل لي ربك أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرًا حيًا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها يا سيدي فلان! أنا في حسبك، أنا في جوارك، اشفع لي إلى الله، سل الله لنا أن ينصرنا

على عدونا، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة، أشكو إليك كذا وكذا، فسل الله أن يكشف هذه الكربة، أو يقول أحدهم سل الله أن يغفر لي.

ومنهم من يتأول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: الآية ٦٤] ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين؛ فإن أحدًا منهم لم يطلب من النبي بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئًا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضي الله عنه سيأتي ذكرها وبسط الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفى مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: الآية ٢١]

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال ونصب تماثيلهم -بمعنى طلب الشفاعة منهم- هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولًا ولا أنزل به كتابًا، وليس هو واجبًا ولا مستحبًا باتفاق المسلمين، ولا فعله أحد

من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد، ويذكرون فيه حكايات ومنامات، فهذا كله من الشيطان.

وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت، والاستشفاع به، والاستغاثة، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين، فهذا كله ليس بمشروع، ولا واجب، ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين؛ فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب.

وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك.

وجواب هؤلاء من طريقين:

أحدهما: الاحتجاج بالنص والإجماع.

والثاني: القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد؛ فإن فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة.

أما الأول: فيقال قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام، وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب.

وعلم أنه لم يكن النبي ﷺ، بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ولا يستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم، فلا يقول أحد: يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا.

وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين: يا نبي الله، يا رسول الله! ادع الله لي، سل الله لي، استغفر الله لي، سل الله لي أن يغفر لي، أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني، ولا يقول: أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي، أو أشكو إليك فلانًا الذي ظلمني، ولا يقول: أنا نزيلك، أنا ضيفك، أنا جارك أو أنت تجير من يستجير، أو أنت خير معاذ يستعاذ به.

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور، ولا يكتب أحد محضرًا أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين، كما يفعله النصارى في كنائسهم، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين، أو في مغيبهم، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأمته.

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئًا من ذلك بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ولا

ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين.

وكان أصحابه يبتلون بأنواع من البلاء بعد موته؛ فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي.

ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول نشكو إليك جدب الزمان، أو قوة العدو، أو كثرة الذنوب، ولا يقول: سل الله لنا، أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم، أو يغفر لهم بل هذا، وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين.

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وهي ضلالة باتفاق المسلمين، ومن قال في بعض البدع إنها بدعة حسنة، فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة فأما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين: إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله.

ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان وسبيله من سبيل الشيطان كما قال عبد الله ابن مسعود: خط لنا رسول الله خطًّا، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله ثم قال: «**هذا سبيل الله، وهذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣]

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه ولا يخالف السنة المعلومة وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان باتباع من خالف السنة والإجماع القديم لا سيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ولا يتوقف الإجماع على موافقته.

ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصومًا بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين؟! ولا معه دليل شرعي؟! وإنما اتبع من تكلم في الدين بلا علم ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

بل إن النبي مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجبًا ولا مستحبًّا؛ فإنه قد حرم ذلك وحرم ما يفضي إليه كما حرَّم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد:

ففي صحيح مسلم، عن جندب بن عبد الله أن النبي قال قبل أن يموت بخمس: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**»، وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي قال قبل موته: «**لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما فعلوا قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجدًا.

واتخاذ المكان مسجدًا هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجدًا إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين.

فحرم أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده؛ لأن ذلك ذريعة إلا أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده فنهى رسول الله عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله.

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه؛ كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة: وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك، وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات.

ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات وهو أظهر قولي العلماء؛ لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة بخلاف ما لا سبب له، فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهي عنه.

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها -كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها- كان معلومًا أن دعوة الشمس، والسجود لها هو محرم في نفسه، أعظم تحريمًا من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي إلى دعاء الكواكب.

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد -فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم- كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريمًا من اتخاذ قبورهم مساجد.

ولهذا كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين:

زيارة شرعية، وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت، كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له؛ فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: الآية ٨٤] فنهى نبيه عن الصلاة عليهم، والقيام على قبورهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون؛ فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة، وهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة.

ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلى عليه، ويقام على قبره إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم. ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين

والقيام على قبورهم من السنة المتواترة.

فكان النبي ﷺ يصلى على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول: **«سلوا له التثبيت فإنه الآن يُسْأل»** رواه أبو داود وغيره.

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم: **«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم»**، وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله خرج إلى المقبرة فقال: **«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»** والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة، فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم.

وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال: أتى رسول الله قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: **«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي؛ فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»**؛ فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافرًا بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين.

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك.

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد؛ لكان ذلك محرمًا منهيًا عنه، ولكان صاحبه متعرضًا لغضب الله ولعنته كما قال النبي: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وقال: **«قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** يحذر ما صنعوا وقال: **«إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»**.

فإذا كان هذا محرمًا، وهو سبب لسخط الرب ولعنته، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه، واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات، ونيل الطلبات، وقضاء الحاجات؟! وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم.

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[نُوح: الآية ٢٣] إن هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم

فعبدوهم، قال ابن عباس: ثم صارت هذه الأوثان في قبائل العرب[1]

وقال: فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: الآية ٣٦]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيّنة: الآية ٥]، وقد جمع بينهما في مواضع كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: الآية ١٢٣]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: الآية ٥٨]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: الآية ٨٨]

وكذلك التوكل كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ١٢] وقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُمَر: الآية ٣٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣]

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسألة والاستعانة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝﴾ [غافر: الآية ١٤]، وقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝﴾ [الشُعَرَاء: الآية ٢١٣]، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٢]

وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝﴾ روى عن ابن مسعود أن قومًا كانوا يدعون الملائكة

والمسيح وعزيرًا فقال الله: هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله ويرجونه، ويتقربون إليه كما تخافونه أنتم، وترجونه وتتقربون إليه، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٧]، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النَّمل: الآية ٦٢] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨]

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن: كثير جدًّا؛ بل هو قلب الإيمان، وأول الإسلام وآخره. كما قال النبي ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»**، وقال: **«إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه**

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٥٧، ١٦٧)، (٣/ ٢٧٢- ٢٧٧)، (١١/ ٤٩٩- ٥٠٢)، (١١/ ٦٦٣، ٦٦٤).

لها روحا)، وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة، وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**. فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري ما يقوله في قصائده في مدح الرسول من الاستغاثة به مثل قوله: بك أستغيث، وأستعين، وأستنجد، ونحو ذلك.

وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم، والاستعانة بهم، أحياء وأمواتًا؛ فإني أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة.

وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: الآية ٤٥] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ: **«أتدري ما حق الله على عباده؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم»**. وقال لابن عباس: **«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»**.

ويدخل في العبادة الخشية والإنابة والإسلام والتوبة كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٩]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: الآية ١٨]، وقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وقال: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٣] إلى قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾

[التوبة: الآية ١٣]، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤١]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: الآية ٥٢]، وقال نوح: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: الآية ٣] فجعل العبادة والتقوى لله، وجعل له أن يطاع كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٦٤] وكذلك قالت الرسل مثل نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: الآية ٥٠] فجعلوا التقوى لله، وجعلوا لهم أن يطاعوا، وكذلك في مواضع كثيرة جدًا من القرآن: (اتقوا الله) (اتقوا الله) ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية ١٣١]، وكذلك.

وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: الآية ٨٨]، وقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: الآية ٥٤]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: الآية ١٣١] وقالت بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: الآية ٤٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥]، وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: الآية ١١٢] وقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: الآية ٣١]، ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الفرقان: الآية ٧١]، وقال: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤]، ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: الآية ٨]، والاستغفار: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: الآية ١٠]، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: الآية ٣]. والاسترزاق والاستنصار كما في صلاة الاستسقاء والقنوت على الأعداء قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: الآية ١٧]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠﴾ [آل عمران: الآية ١٦٠]، والاستغاثة كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٩] والاستجارة كما قال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ والاستعاذة كما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: الآية ١]، وقل: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: الآية ١]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾.

وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: الآية ٩٨] الآية. وتفويض الأمر كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٤٤].

وفي الحديث المتفق عليه في الدعاء الذي علمه النبي أن يقال عند المنام: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك**».

وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: الآية ٥١]. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ﴾ [يونس: الآية ٣] فالولي الذي يتولى أمرك كله، والشفيع الذي يكون شافعًا فيه؛ أي: عونًا، فليس للعبد دون الله من ولي يستقل ولا ظهير معين وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ

إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: الآية ١٠٧] ، وقال: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٢] ، وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] ، وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: الآية ٢٦]

فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار -كل هذا لله وحده لا شريك له، فالعبادة متعلقة بألوهيته والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبي ولا غيره، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندًّا وهو خلقك؛ والشرك أن تجعل لغيره شركًا أو نصيبًا في عبادتك وتوكلك واستعانتك؛ كما قال من قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام: الآية ٩٤] ، وكما قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٣] ، وكما قال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السَّجدَة: الآية ٤]

وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة؛ وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها؛ من السجود، والركوع والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا لله وحده.

ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده لا لشمس؛ ولا لقمر، ولا لملك، ولا لنبي، ولا صالح، ولا لقبر نبيٍّ، ولا صالح؛ هذا في جميع ملل الأنبياء، وقد ذكر ذلك في شريعتنا حتى نهى أن يتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات ولهذا نهى النبي ﷺ معاذًا أن يسجد له. وقال: «**ولو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ؛ لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**» ونهى عن الانحناء في التحية، ونهاهم أن يقوموا خلفه في الصلاة وهو قاعد.

وكذلك الزكاة العامة من الصدقات كلها والخاصة لا يتصدق إلا لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسَان: الآية ٩] ، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٥] ، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٩] فلا يجوز فعل ذلك على طريق الدين لا لملك ولا لشمس ولا لقمر ولا لنبي ولا لصالح كما يفعل بعض السُّؤَّال والمعظمين كرامة لفلان وفلان، يقسمون بأشياء: إما من الأنبياء وإما من الصحابة وإما من الصالحين، كما يقال: بكر وعلي ونور الدين أرسلان والشيخ عدي والشيخ جاليد.

وكذلك الحج لا يحج إلا إلى بيت الله فلا يطاف إلا به، ولا يحلق الرأس إلا به؛ ولا يوقف إلا

بفنائه، لا يفعل ذلك بنبي، ولا صالح، ولا بقبر نبي، ولا صالح، ولا بوثن؛ وكذلك الصيام لا يصام عبادة إلا لله؛ فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر، ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك.

وهذا كله تفصيل الشهادتين اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا اله إلا الله وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله، والإله من يستحق أن يألهه العباد، ويدخل فيه حبه وخوفه، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول[1]

وقال عن الواسطة بين الخالق والمخلوق: إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله؛ فهذا حق، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه، وما أمر به وما نهى عنه، وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل؛ الذين أرسلهم الله إلى عباده.

وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك، ويرجون إليه فيه؛ فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر اللهُ به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع، ويجتنبون المضار.

ومن سوى الأنبياء -من مشايخ العلم والدين- فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم، ويعلمونهم، ويؤدبونهم، ويقتدون بهم؛ فقد أصاب في ذلك.

وإن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه -كالحجاب الذين بين الملك ورعيته- بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه؛ فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم، وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبًا منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج؛ فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أندادًا وفي القرآن من الرد على هؤلاء ما لم تتسع له هذه الفتوى..

والمقصود هنا: أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية؛ فهو مشرك بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٦٩- ٧٦)، (٣/ ٣٩٥- ٤٠٠)، (٤/ ٥١٩- ٥٢٦)، (١/ ١٠٣، ١٠٤)، (١١/ ٤٩٩- ٥٠٢)، (١١/ ٦٦٣، ٦٦٤).

لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[التوبة: الآية ٣١] ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة: الآية ١٨٦] ؛ أي: فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنهي وليؤمنوا بي أن أجيب دعائهم لي بالمسألة والتضرع.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ ﴾[الإسراء: الآية ٦٧] ، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾[النمل: الآية ٦٢] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الرحمن: الآية ٢٩]

وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾[المائدة: الآية ٤٤] ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾[آل عمران: الآية ١٧٥] ؛ أي: يخوفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: الآية ١٧٥] ، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ ﴾[النساء: الآية ٧٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ ﴾[التوبة: الآية ١٨] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[النور: الآية ٥٢]

فبين أن الطاعة لله ورسوله، وأما الخشية فلله وحده.

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾[التوبة: الآية ٥٩] ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[آل عمران: الآية ١٧٣]

وقد كان النبي ﷺ. يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك؛ إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو الذي تأله القلوب لكمال المحبة والتعظيم، والإجلال والإكرام، والرجاء والخوف؛ حتى قال لهم «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد**» وقال له رجل ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»، وقال «**من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**»، وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وقال لابن عباس «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما أنت لاق، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو جهدت أن تضرك لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك**». وقال أيضًا «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**» وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعْبَدُ**»، وقال:

«لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم»، وقال في مرضه: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** يحذر ما صنعوا قالت عائشة: ولو ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يُتَّخَذَ مسجدًا، وهذا باب واسع[(١)].

وقال: لفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور، يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين.

أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته.

والثاني: دعاؤه وشفاعته وهذا أيضًا نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين.

ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتدًّا، ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة.

وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضًا كافر لكن هذا أخفى من الأول فمن أنكره عن جهل عرف ذلك؛ فإن أصر على إنكاره فهو مرتد.

أما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة، وأما الشفاعة يوم القيامة، فمذهب أهل السنة والجماعة، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة وأنه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك...

والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله

وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته، وهذا التوسل به فرض على كل أحد.

وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم، وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسقاء وغيره، مثل توسل الأعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه، وشفاعته؛ فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه فمن شفع له الرسول ﷺ ودعا له فهو بخلاف من لم يدع له ولم يشفع له.

ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به فظن هذا مشروعًا مطلقًا لكل أحد في حياته ومماته وظنوا أن هذا مشروع في حق الأنبياء والملائكة بل وفي الصالحين، وفيمن يظن فيهم الصلاح وإن لم يكن صالحًا في نفس الأمر.

وليس في الأحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين التي يعتمد عليها في

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٢١- ١٣٨)، (٦/ ١٣٣)، (١/ ٣٠٧- ٣١٢)، (٣/ ١٠٥- ١٠٩).

الأحاديث لا في الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره، وإنما يوجد في الكتب التي عرف أن فيها كثيرًا من الأحاديث الموضوعة المكذوبة التي يختلقها الكذابون.

والمقصود هنا: أنه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبي ﷺ يعتمد عليه في مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه؛ بل المروي في ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات، إما تعمدًا من واضعه، وإما غلطًا منه، وفي الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة.

وفي الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى منامًا قيل له فيه: ادع بكذا وكذا، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلًا باتفاق العلماء.

وأما القسم الثالث: مما يسمى تَوَسُّلًا فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي شيئًا يحتج به أهل العلم كما تقدم بسط الكلام على ذلك، وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين، أو السؤال بأنفسهم؛ فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئًا ثابتًا لا في الإقسام، أو السؤال به، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين.

وإن كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه، فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه؛ فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، ويبدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم؛ فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء، والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله؛ لا بالأنبياء ولا بغيرهم، كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك.

وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي، وأن هذا النذر شرك لا يوفى به.

وكذلك الحلف بالمخلوقات لا تنعقد به اليمين ولا كفارة فيه حتى لو حلف بالنبي لم تنعقد يمينه كما تقدم ذكره ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين بل نهى عن الحلف بهذه اليمين؛ فإذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله.

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضًا مما منع منه غير واحد من العلماء والسنن الصحيحة عن النبي وخلفائه الراشدين تدل على ذلك؛ فإن هذا إنما يفعله على أنه قربة وطاعة وأنه مما يستجاب به الدعاء.

وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجبًا، وإما أن يكون مستحبًا.

وكل ما كان واجبًا أو مستحبًا في العبادات والأدعية فلا بد أن يشرعه النبي ﷺ لأمته فإذا لم

يشرع هذا لأمته لم يكن واجبًا ولا مستحبًّا، ولا يكون قربة وطاعة ولا سببًا لإجابة الدعاء، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله.

فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال، وكانت بدعته من البدع السيئة، وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما اسْتُقْرِئَ من أحوال النبي ﷺ وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعًا عندهم.

وأيضًا فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب إجابة الدعاء، وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسي والمساجد وغير ذلك من المخلوقات، ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعًا كما أن الإقسام بها ليس مشروعًا بل هو منهي عنه.

فكما أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق، وإنما يسأل بالأسباب التي تناسب إجابة الدعاء كما تقدم تفصيله.

لكن قد روي في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم، ولكن ليس في المنقول عن النبي شيء ثابت بل كلها موضوعة.

وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت، وبعضه ليس بثابت[(١)]

وقال: وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم، أو لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم؛ فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى سواء كان النذر نفقة، أو ذهبًا أو غير ذلك، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء، وهذا إذا كان النذر لله، وأما إذا كان النذر لغير الله، فهو كمن يحلف بغير الله، وهذا شرك. فيستغفر الله منه، وليس في هذا وفاء ولا كفارة. ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين فأجره على رب العالمين.

وأصل عقد النذر منهي عنه. كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل**» وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج؛ دون ما لم يكن طاعة لله تعالى[(٢)]

- قولهم في الأسماء والصفات

بعضهم يثبت الصفات لله عز وجل، وبعضهم ينفيها.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: وطائفة من أهل التصوف والمعرفة يقررون هذا التوحيد مع إثبات

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٥٣- ٢٦١)، (٣/ ٢٧٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٠٤، ٥٠٥).

الصفات؛ فيفنون في توحيد الربوبية مع إثبات الخالق للعالم المباين لمخلوقاته.

وآخرون يضمون هذا إلى نفي الصفات فيدخلون في التعطيل مع هذا وهذا شر من حال كثير من المشركين(١).

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» في عقيدة له قال في أولها: طريقتنا طريقة المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال: فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمائه، دون أرضه وخلقه».

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه «محجة الواثقين ومدرجة الوامقين» تأليفه: «وأجمعوا أن الله فوق سمواته، عالٍ على عرشه، مستو عليه، لا مُسْتَولٍ عليه كما تقول الجهمية: إنه بكل مكان؛ خلافًا لما نزل في كتابه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[المُلك: الآية ١٦]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فَاطِر: الآية ١٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[طه: الآية ٥] له العرش المستوي عليه، والكرسي الذي وسع السموات والأرض، وهو قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[البَقَرَة: الآية ٢٥٥]

وكرسيه جسم، والأرضون السبع والسموات السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة، وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية؛ بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه، كما قاله النبي ﷺ، وأنه -تعالى وتقدس- يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفًّا صفًّا كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾[الفَجر: الآية ٢٢] وزاد النبي ﷺ وأنه -تعالى وتقدس- يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده؛ فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين، ويعذب من يشاء كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[آل عِمرَان: الآية ١٢٩]

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني -شيخ الصوفيَّة في حدود المائة الرابعة في بلاده- قال: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين قال فيها: «وإن الله استوى على عرشه بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول، وأنه عز وجل مستو على عرشه بائن من خلقه، والخلق منه بائنون، بلا حلول ولا ممازجة، ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه الفرد البائن من الخلق الواحد الغني عن الخلق.

وإن الله عز وجل سميع، بصير، عليم، خبير، يتكلم، ويرضى، ويسخط، ويضحك، ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكًا، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء: «فيقول:

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٢).

هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفر فاغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تأويل؛ فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة من العارفين على هذا.

ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني قال في كتاب «الغنية»: أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات -على وجه الاختصار- فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد. إلى أن قال: «وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدَة: الآية ٥] ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥]

وذكر آياتٍ وأحاديثَ إلى أن قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش (قال): وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف، وذكر كلامًا طويلًا لا يحتمله هذا الموضع، وذكر في سائر الصفات نحو هذا[1].

- **قولهم في التجسيم:**

منهم من يمثل ويجسم المولى عز وجل، ويجعله من أسرار الأولياء.

أقوال العلماء

قال الأشعري: ومنهم من يزعم أنَّ الله سبحانه ذو أعضاءٍ وجوارحٍ وأبعاضٍ لحم ودم على صورة الإنسان، له ما للإنسان من الجوارح، تعالى ربُّنا عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وكان في الصوفيَّة رجلٌ يُعرف بأبي شعيب، يزعم أن الله يُسَرُّ ويفرح بطاعة أوليائه، ويغتمُّ ويحزن إذا عَصَوْه[2].

وقال ابن حزم: وقال أبو شعيب القلال: إنَّ ربَّه جسم في صورة إنسان لحم ودم، ويفرح ويحزن ويمرض ويفيق.

وقال بعض الصوفيَّة: إنَّ ربَّه يمشي في الأزقَّة حتى إنَّه يمشي في صورة مجنون يتبعه الصبيان بالحجارة حتى يدموا عقبيه[3].

وقال شيخ الإسلام: ومنهم من يصف ربه في قصائده بما نقل في الموضوعات من أصناف التمثيل والتكييف والتجسيم، التي هي كذب مفترى وكفر صريح: مثل مواكلته ومشاربته،

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٦٠، ٨٦)، (٥/ ١٩٠، ١٩١)، (٨/ ٣٤٧، ٣٤٨).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٨).
(٣) الفصل (٤/ ١٧٠).

ومماشاته ومعانقته، ونزوله إلى الأرض وقعوده في بعض رياض الأرض، ونحو ذلك، ويجعل كل منهم ذلك من الأسرار المخزونة، والعلوم المصونة التي تكون لخواص أولياء الله المتقين[١].

نقض قولهم:

تقدم بيان ذلك عند الكلام عن مقالة التمثيل والتجسيم.

- قولهم في علو البارئ عز وجل

صنف منهم يقول: إن الله بذاته في كل مكان، وصنف يقول: هو فوق العرش وفي كل مكان.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وقسم ثان يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية، وكثير من الجهمية عبادهم، وصوفيتهم، وعوامهم، ويقولون: إنه عين وجود المخلوقات، كما يقوله «أهل الوحدة» القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركبًا من الحلول والاتحاد.

الثالث: قول من يقول: هو فوق العرش، وهو في كل مكان، ويقول: أنا أقر بهذه النصوص، وهذه لا أصرف واحدًا منها عن ظاهر،، وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في «المقالات الإسلامية» وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفيَّة، ويشبه هذا ما في كلام أبي طالب المكي وابن برجان وغيرهما، مع ما في كلام أكثرهم من التناقض.[٢]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام عن صنفهم الأول: وهم يحتجون بنصوص «المعية» و«القرب» ويتأولون نصوص العلو والاستواء وكل نص يحتجون به حجة عليهم؛ فإن (المعية) أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان، وفي نصوصهم ما يبين نقيض قولهم، فإنه قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد: الآية ١] فكل من في السموات والأرض يسبح، والمسبح غير المسبح. وقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [البقرة: الآية ١٠٧] فبين أن الملك له، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: الآية ٣] وفي الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء إلخ.

فإذا كان هو الأول: كان هناك ما يكون بعده، وإذا كان آخِرًا كان هناك ما الرب بعده، وإذا كان ظاهرًا ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه، وإذا كان باطنًا ليس دونه شيء كان هناك أشياء نفى عنها أن تكون دونه.

ولهذا قال ابن عربي: من أسمائه الحسنى «العلي» على من يكون عليًا، وما ثم إلا هو؟! وعن ماذا يكون عليًا وما هو إلا هو؟! فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات؛ فالمسمى محدثات هي العلية هي لذاتها وليست إلا هو.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٣، ١٢٤)، (٥/ ٢٧٢).

قال الخراز: وهو وجه من وجوه الحق، ولسان من ألسنته، ينطق عن نفسه بأن الله يعرف بجمعه بين الأضداد، فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من تراه غيره، وما ثم من يبطن عنه سواه؛ فهو ظاهر لنفسه، وهو باطن عن نفسه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز. اهـ.

و«المعية» لا تدل على الممازجة والمخالطة، وكذلك لفظ «القرب» فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد، كما هو عندهم في سائر الأعيان، وكل هذا كفر وجهل بالقرآن(١)

وقال عن صنفهم الثاني: وأما هذا الصنف فيقول: أنا اتبعت النصوص كلها، لكنه غالط أيضًا؛ فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة.

وهؤلاء يقولون أقوالًا متناقضة. يقولون: إنه فوق العرش. ويقولون: نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف؛ كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان، وما يتبع ذلك فإن قالوا: إن العرش كذلك نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش، وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولًا بالحلول الخاص.

وقد وقع طائفة من الصوفيَّة حتى صاحب «منازل السائرين» في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذا الحلول؛ ولهذا كان أئمة القوم يحذرونَ عن مثل هذا.

سئل الجنيد عن التوحيد فقال: هو إفراد الحدوث عن القدم؛ فبين أنه لا بد للموحد من التميز بين القديم الخالق والمحدث المخلوق؛ فلا يخلط أحدهما بالآخر. وهؤلاء يقولون في أهل المعرفة ما قالته النصارى في المسيح والشيعة في أئمتها؛

وكثير من الحلولية والإباحية ينكر على الجنيد وأمثاله من شيوخ أهل المعرفة المتبعين للكتاب والسنة ما قالوه من نفي الحلول، وما قالوه في إثبات الأمر والنهي، ويرى أنهم لم يكملوا معرفة الحقيقة كما كملها هو وأمثاله من الحلولية والإباحية(٢)

وتقدم مزيد بيان عند قول الجهمية والمعتزلة والأشعرية في علو الباري عز وجل.

- **قولهم في رؤية الله بالأبصار في الدنيا:**

منهم من يزعم أنه يرى الله عز وجل ببصره في الدنيا.

أقوال العلماء:

قال الأشعري: واختلفوا في رؤية الباري بالأبصار، على تسع عشرة مقالة:

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٣، ١٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٥، ١٢٦).

فقال قائلون: يجوز أن نَرَى الله بالأبصار في الدنيا، ولسنا ننكر أن يكون بعضَ مَن نلقاه في الطُّرُقَاتِ.

وأجاز عليه بعضهم الحُلولَ في الأجسام، وأصحابُ الحلول إذا رأوا إنسانًا يستحسنونه لم يدروا لعلَّ إلههم فيه.

وأجاز كثير ممن أجاز رؤيته في الدنيا مُصَافحته ومُلَامسته ومُزَاورته إياهم، وقالوا: إن المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا أرادوا ذلك، حكي ذلك عن بعض أصحاب «مُضَر» و«كَهْمس».

وحُكِيَ عن أصحاب «عبد الواحد بن زيد» أنَّهم كانوا يقولون: إنَّ الله سبحانه يُرَى على قدر الأعمال فمن كان عملُه أفضلَ رآه أحسن[١].

وقال: وفي الأمَّة قومٌ ينتحلون النّسك، يزعمون أنه جائز على الله سبحانه الحلولُ في الأجسام، وإذا رأوا شيئًا يستحسنونه قالوا: لا ندري لعلَّه ربُّنا.

ومنْهم من يقول: إنَّه يرَى الله سبحانه في الدُّنْيَا على قدر الأعمال، فمن كان عملُه أحسن رأى معبودَه أحسن.

ومنْهم من يجوِّز على الله سبحانه المعانقة والمُلامَسَة المُجَالَسَةِ في الدنيا، وجوَّزُوا مع ذلك على الله -تعالى عن قولهم- أنْ نلمَسَه[٢].

وقال ابن حزم عنهم: وقالوا: إننا نرى الله ونكلِّمه، وكل ما قذف في نفوسنا فهو حق. ورأيت لرجل منهم يعرف بـ«ابن شمعون» كلامًا نصّه: إنَّ لله تعالى مائة اسم، وإنَّ الموفي مائة هو ستة وثلاثون حرفًا ليس منها في حروف الهجاء شيء إلا واحد فقط، وبذلك الواحد يصل أهل المقامات إلى الحق.

وقال أيضًا: أخبرني بعض من رسم لمجالسة الحقِّ أنَّه مدَّ رجله يومًا فنودي ما هكذا مجالس الملوك، فلم يمدَّ رجله بعدها، يعني أنَّه كان مديمًا لمجالسة الله تعالى.

وقال أبو حاضر النُّصيبي من أهل نصيبين، وأبو الصبّاح السمرقندي وأصحابهما: إنَّ الخلق لم يزالوا مع الله[٣].

وقال ابن الجوزي: وقد حكى أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي في كتاب المقالات قال: قد حكى قوم من المشبهة أنهم يجيزون رؤية الله تعالى بالأبصار في الدنيا، وأنهم لا ينكرون أن يكون بعض من تلقاهم في السكك، وإن قومًا يجيزون مع ذلك مصافحته وملازمته وملامسته، ويدعون

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٢١٣، ٢١٤).
(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٨).
(٣) الفصل (٤/ ١٧٠).

أنهم يزورونه ويزورهم، وهم يسمون بالعراق: أصحاب الباطن، وأصحاب الوساوس، وأصحاب الخطرات.

قال ابن الجوزي: وهذا فوق القبيح، نعوذ بالله من الخذلان[(١)]

وقال: وذكر أبو عبد الله بن حامد من أصحابنا أن طائفة من الصوفيَّة قالوا: إنهم يرون الله عز وجل في الدنيا[(٢)]

وقال شيخ الإسلام عنهم: وأن العبد قد يرى الله في الدنيا إذا زال عن عينه المانع؛ إذ لا حجاب عندهم للرؤية منفصل عن العبد، وإنما الحجاب متصل به فإذا ارتفع شاهد الحق[(٣)]

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**».

وقد اتفق أئمة المسلمين على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي خاصة مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، والصحابة وأئمة المسلمين.

ولم يثبت عن ابن عباس، ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما: أنهم قالوا: إن محمدًا رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية وإما تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه وقوله: «**أتاني البارحة ربي في أحسن صورة**» الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام، هكذا جاء مفسرًا.

وكذلك حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس وغيرهما -مما فيه رؤية ربه- إنما كان بالمدينة كما جاء مفسرًا في الأحاديث، والمعراج كان بمكة كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: الآية ١]. وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: الآية ١٥٣]؛ فمن قال: إن أحدًا من الناس يراه؛ فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران، ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتابًا من السماء[(٤)].

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢١٥).

(٢) تلبيس إبليس ص(٣٢٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٩)، وانظر: (٥/ ٧٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦)، (٢/ ٣٩٧)، (٦/ ٥١٢)، التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٤٣، ٤٤).

وقال: وبالجملة أن كل حديث فيه أن النبي ﷺ رأى ربه بعينيه في الأرض، وفيه: «أنه نزل له إلى الأرض»، وفيه: «أن رياض الجنة من خطوات الحق»، وفيه: «أنه وطئ على صخرة بيت المقدس» كل هذا كذب باطل باتفاق علماء المسلمين من أهل الحديث وغيرهم.

وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت فدعواه باطل باتفاق أهل السنة والجماعة؛ لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى ربه بعيني رأسه حتى يموت، وثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان، عن النبي ﷺ أنه لما ذكر الدجال قال: **«واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت»**.

وكذلك روى هذا عن النبي ﷺ من وجوه أخر: يحذر أمته فتنة الدجال، ويبين لهم **«أن أحدًا منهم لن يرى ربه حتى يموت»** فلا يظنن أحد أن هذا الدجال الذي رآه هو ربه.

ولكن الذي يقع لأهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهدتها وتجلياتها هو على مراتب كثيرة؛ قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان قال: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة على قدر إيمانه ويقينه؛ فإذا كان إيمانه صحيحًا لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق.

وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة أيضًا من الرؤيا نظير ما يحل للنائم في المنام: فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم، وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه، فهذا كله يقع في الدنيا.

وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه فيظن أنه رأى ذلك بعيني رأسه، حتى يستيقظ فيعلم أنه منام، وربما علم في المنام أنه منام.

فهكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه، فيظنها رؤية بعينه وهو غالط في ذلك، وكل من قال من العباد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان.

وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه بعيني رأسه في الدنيا هم ضلال كما تقدم، فإن ضموا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص: أما بعض الصالحين، أو بعض المردان، أو بعض الملوك، أو غيرهم، عظم ضلالهم وكفرهم، وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه في صورة عيسى ابن مريم.

بل هم أضل من أتباع الدجال الذي يكون في آخر الزمان، ويقول للناس أنا ربكم! ويأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت! ويقول للخربة: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها! وهذا هو الذي حذر منه النبي ﷺ أمته. وقال: **«ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال»** وقال: **«إذا جلس أحدكم في الصلاة فليستعذ بالله من أربع؛ ليقل: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم،**

وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال».

فهذا ادعى الربوبية وأتى بشبهات فتن بها الخلق، حتى قال فيه النبي ﷺ: «**إنه أعور؛ وإن ربكم ليس بأعور، واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**»؛ فذكر لهم علامتين ظاهرتين يعرفهما جميع الناس؛ لعلمه ﷺ بأن من الناس من يضل فيجوز أن يرى ربه في الدنيا في صورة البشر، كهؤلاء الضلال الذين يعتقدون ذلك؛ وهؤلاء قد يسمون «**الحلولية**»، و«**الاتحادية**».

وهم صنفان:-

قوم يخصونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء، كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي ﷺ ونحوه؛ وقوم في أنواع من المشايخ، وقوم في بعض الملوك، وقوم في بعض الصور الجميلة؛ إلى غير ذلك من الأقوال التي هي شر من مقالة النصارى.

و«**صنف**» يعمون فيقولون بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات -حتى الكلاب والخنازير والنجاسات وغيرها- كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية: كأصحاب ابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمساني، والبلياني، وغيرهم.

ومذهب جميع المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين وأهل الكتب أن الله سبحانه خالق العالمين، ورب السموات والأرض وما بينهما؛ ورب العرش العظيم، والخلق جميعهم عباده وهم فقراء إليه.

وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه؛ ومع هذا فهو معهم أينما كانوا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: الآية ٤]

فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينيه، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه! وربما يعين أحدهم آدميًا إما شخصًا؛ أو صبيًا؛ أو غير ذلك، ويزعم أنه كلمهم يستتابون، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم وكانوا كفارًا؛ إذ هم أكفر من اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: الآية ١٧] فإن المسيح رسول كريم وجيه عند الله في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فإذا كان الذين قالوا: إنه هو الله وإنه اتحد به أو حل فيه قد كفرهم وعظم كفرهم؛ بل الذين قالوا إنه اتخذ ولدًا حتى قال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾، فكيف بمن يزعم في شخص من الأشخاص أنه هو؟ هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن عليًا ﷺ، أو غيره من أهل البيت هو الله[1]

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٩، ٣٩٤)، (٢/ ٢٣٠)، (٥/ ٢٥٣)، (٥/ ٤٨٩، ٤٩٠)، (١/ ١٧١- ١٧٣).

- قولهم في الحلول والاتحاد:

منهم من يزعم أن الله عز وجل يحل في الأجسام كأوليائهم، ومنهم من يزعم أنه يحل في المستحسنات كالنسوان والمردان والملوك ونحوه.

أقوال العلماء:

قال الأشعري: وفي النُّسَّاك من الصوفيَّة من يقول بالحلول، وأن الباريَ يحلُّ في الأشخاص، وأنَّه جائز أن يحلَّ في إنسانٍ، وسبعٍ، وغير ذلك من الأشخاص، وأصحاب هذه المقالة إذا رأوا شيئًا يستحسنونه قالوا: لا ندري لَعلَّ الله حالٌّ فيه[(١)]

وقال: وأجاز عليه بعضُهم الحُلولَ في الأجسام، وأصحابُ الحلول إذا رأَوْا إنسانًا يستحسنونه لم يدروا لعلَّ إلههم فيه[(٢)]

وقال: وفي الأمَّة قومٌ ينتحلون النّسك، يزعمون أنه جائز على الله سبحانه الحلولُ في الأجسام، وإذا رأوا شيئًا يستحسنونه قالوا: لا ندرى لعلَّه ربُّنَا[(٣)]

وقال ابن حزم: وقال بعضهم بحلول الباري تعالى في أجسام خلقه كالحَّلاج وغيره[(٤)]

وقال السكسكي: ويعتقدون أن الله عز وجل حال فيهم وممازج لهم[(٥)]

وقال الإيجي: بعض المتصوفة: وكلامهم مخبط بين الحلول والاتحاد[(٦)]

وقال ابن الجوزي: أبو نصر عبد الله بن علي السراج قال: بلغني أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى اصطفى أجسامًا حل فيها بمعاني الربوبية.

ومنهم من قال هو حال في المستحسنات.

وذكر أبو عبد الله بن حامد من أصحابنا أن طائفة من الصوفيَّة قالوا: إنهم يرون الله عز وجل في الدنيا، وأجازوا أن يكون في صفة الآدمي، ولم يأبوا كونه حالًا في الصورة الحسنة حتى استشهدوه في رؤيتهم الغلام الأسود[(٧)]

وقال شيخ الإسلام: القول بالحلول أو ما يناسبه وقع فيه كثير من متأخري الصوفيَّة[(٨)]

---

(١) مقالات الإسلامين ص(١٣).

(٢) مقالات الإسلامين ص(٢١٣، ٢١٤).

(٣) مقالات الإسلامين ص(٢٨٨).

(٤) الفصل (٢/ ٩٠).

(٥) البرهان ص(١٠١).

(٦) المواقف (٣/ ٤٥).

(٧) تلبيس إبليس ص(٣٢٥).

(٨) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٩)، (٦/ ٣١٠).

نقض قولهم:

قال شيخ الإسلام: اتفق أئمة المسلمين على أن الخالق بائن عن مخلوقاته، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته؛ بل الرب رب، والعبد عبد: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[1]

وقال: وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا إله إلا الله، وأن الله خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق و﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم: الآية ٩٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[النساء: الآية ١٧١] الآيات وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: الآية ١٧] الآيتين.

فالنصارى الذين كفرهم الله ورسوله، واتفق المسلمون على كفرهم بالله ورسوله: كان من أعظم دعواهم الحلول والاتحاد بالمسيح ابن مريم، فمن قال بالحلول والاتحاد في غير المسيح -كما تقوله الغالية في علي، وكما تقوله الحلاجية في الحلاج، والحاكمية في الحاكم، وأمثال هؤلاء- فقولهم شر من قول النصارى؛ لأن المسيح ابن مريم أفضل من هؤلاء كلهم.

وهؤلاء من جنس أتباع الدجال، الذي يدعي الإلهية ليتبع، مع أن الدجال يقول للسماء أمطري فتمطر، وللأرض أنبتي فتنبت، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة، ويقتل رجلًا مؤمنًا ثم يأمر به فيقوم، ومع هذا فهو الأعور الكذاب الدجال، فمن ادعى الإلهية بدون هذه الخوارق: كان دون هذا الدجال.

والحلاج: كانت له مخاريق وأنواع من السحر، وله كتب منسوبة إليه في السحر.

وبالجملة فلا خلاف بين الأمة أن من قال بحلول الله في البشر، واتحاده به، وإن البشر يكون إلهًا، وهذا من الآلهة: فهو كافر مباح الدم، وعلى هذا قُتِلَ الحلاج.

ومن قال: إن الله نطق على لسان الحلاج، وإن الكلام المسموع من الحلاج كان كلام الله، وكان الله هو القائل على لسانه: أنا الله فهو كافر باتفاق المسلمين؛ فإن الله لا يحل في البشر، ولا تكلم على لسان بشر، ولكن يرسل الرسل بكلامه؛ فيقولون عليه ما أمرهم ببلاغه، فيقول على ألسنة الرسل ما أمرهم بقوله، كما قال النبي ﷺ **«أما إن الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده»**[2]

وقال: قول من يقول بالحلول والاتحاد في معين، كالنصارى الذين قالوا بذلك في المسيح عيسى، والغالية الذين يقولون بذلك في على بن أبي طالب وطائفة من أهل بيته، والحاكمية الذين

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٨٠- ٤٨٢)، (٨/ ٣١٣- ٣١٩).

يقولون بذلك في الحاكم، والحلاجية الذين يقولون بذلك في الحلاج، واليونسية الذين يقولون بذلك في يونس، وأمثال هؤلاء ممن يقول بإلهية بعض البشر، وبالحلول والاتحاد فيه، ولا يجعل ذلك مطلقًا في كل شيء.

ومن هؤلاء من يقول بذلك في بعض النسوان والمردان، أو بعض الملوك أو غيرهم؛ فهؤلاء كفرهم شر من كفر النصارى الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم[١]

وقال: فإن الحلول أغلب على عباد الجهمية، وصوفيتهم وعامتهم، والنفي والتعطيل أغلب على نظارهم ومتكلميهم كما قيل: متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئًا، ومتصوفة الجهمية يعبدون كل شيء؛ وذلك لأن العبادة تتضمن الطلب والقصد، والإرادة والمحبة، وهذا لا يتعلق بمعدوم فإن القلب يطلب موجودًا؛ فإذا لم يطلب ما فوق العالم طلب ما هو فيه.

وأما الكلام والعلم والنظر: فيتعلق بموجود ومعدوم، فإذا كان أهل الكلام والنظر يصفون الرب بصفات السلب والنفي -التي لا يوصف بها إلا المعدوم- لم يكن مجرد العلم والكلام ينافي عدم المعبود المذكور، بخلاف القصد والإرادة والعبادة فإنه ينافي عدم المعبود.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء -عند نظره وبحثه- يميل إلى النفي، وعند عبادته وتصوفه يميل إلى الحلول، وإذا قيل له هذا ينافي ذلك قال: هذا مقتضى عقلي ونظري، وذاك مقتضى ذوقي ومعرفتي، ومعلوم أن الذوق والوجد إن لم يكن موافقًا للعقل والنظر، وإلا لزم فسادهما أو فساد أحدهما[٢]

- قولهم في وحدة الوجود:

منهم من يزعم أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: حقيقة قول هؤلاء أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه ألبتة[٣]

وقال: **وأما وجه تسميتهم اتحادية ففيه طريقان:**

أحدهما: لا يرضونه لأن الاتحاد على وزن الاقتران، والاقتران يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر وهم لا يقرون بوجودين أبدًا.

والطريق الثاني صحة ذلك بناء على أن الكثرة صارت وحدة[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨)، (٢/ ١٧١، ١٧٢)، (٥/ ٨٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ١٤٠)، (٤/ ٥٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ١٤١).

وقال: نوع يقول: إن الوجود واحد، ويقولون: إن وجود المخلوق هو وجود الخالق، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر، بل يقولون: الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق.

ويقولون: إن وجود الأصنام هو وجود الله، وإن عبّاد الأصنام ما عبدوا شيئًا إلا الله.

ويقولون: إن الحق يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذم(١)

وقال: أصل ابن عربي فهو أن الوجود واحد، وأن الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن، والقول بأن المعدوم شيء، وأعيان المعدومات ثابتة في العدم، ووجود الحق فاض عليها، فوجود كل شيء عين وجود الحق عنده، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

ولهذا قال: ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسيف، وإن جار في العرف الناموسي لذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٢٤] ؛ أي: وإن كان الكل أربابًا بنسبة ما؛ فأنا الأعلى منهم، بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال: لم ينكروه، وأقروا له بذلك، فقالوا له: اقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، والدولة لك، فصح قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٢٤] وإن كان عين الحق.

قال: ومن أسمائه الحسنى العلي؛ على من! وما ثم إلا هو؛ وعن ماذا، وما هو إلا هو، إلى قوله: ومن عرف ما قررناه في الأعداد، وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه، فالآمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق هو الخالق، كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة.

وقال: ألا ترى أن الحق يظهر بصفات الخلق؟ فكل صفات الحق حق له، كما أن صفات المحدثات حق للخالق ونحو ذلك، مما يكثر في كلامه.

وهذا الأصل -وهو القول بوحدة الوجود- قوله وقول ابن سبعين، وصاحبه الششتري، والتلمساني، والصدر القونوي، وسعيد الفرغاني، وعبد الله البلياني، وابن الفارض صاحب نظم السلوك، وغير هؤلاء من أهل الإلحاد، القائلين بالوحدة والحلول والاتحاد(٢)

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: اعلم -هداك الله وأرشدك- أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده لا يحتاج مع حسن التصور الى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم؛ لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة، بل وهم أيضًا لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيرًا في قولهم، وإنما يتنحلون شيئًا ويقولونه أو يتبعونه.

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)، (٢/ ٦٥، ٦٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١١٢- ١١٥)، (٢/ ٤٩٠).

ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق، ولا يهتدون إلى التميز بين فرقهم، مع استشعارهم أنهم مفترقون[(١)]

وقال: مذهب هؤلاء الاتحادية، كابن عربي، وابن سبعين، والقونوي، والتلمساني، مركب من ثلاثة موادٍ:

سلب الجهمية وتعطيلهم.

ومجملات الصوفيّة: وهو ما يوجد في كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة، كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح؛ فيتبعون المتشابه، ويتركون المحكم، وأيضًا كلمات المغلوبين على عقلهم الذين تكلموا في حال سكر.

ومن الزندقة الفلسفية التي هي أصل التجهم، وكلامهم في الوجود المطلق، والعقول، والنفوس والوحي، والنبوة والوجوب، والإمكان، وما في ذلك من حق وباطل[(٢)]

وقال: إن كثيرًا من النظار أثبت واجب الوجود، أو صانع العالم، وذهبوا في تعيينه وصفاته مذاهب يضيق هذا الموضع عن تفصيلها -معروفة في كتب المقالات من أهل ملتنا، وغير أهل ملتنا- مقالات الإسلاميين المصلين، ومقالات غيرهم، وكثير من العباد المتأخرين أثبت أيضًا ذلك إثباتًا مجملًا، وتوهموا فيه أنواعًا من التوهمات الكفرية، الذي يصفها عارفوهم.

فمنهم من توهمه الوجود المطلق، المشترك بين الموجودات، كالإنسان المطلق مع أعيانه وأفراده، فإذا تعين الوجود لم يكن إياه؛ إذ المطلق ليس هو المعين، كما يقوله الصدر القونوي.

ومنهم من توهم أن وجود الممكنات هو عين وجوده الفائض عليها، كما يذكره صاحب الفصوص.

ومنهم من يتوهمه جملة الوجود، وكل معين هو جزء منه، كالبحر مع أمواجه وأعضاء الإنسان مع الإنسان، فليس هو ما يختص بكل معين؛ لكنه مجموع الكائنات؛ كالعفيف التلمساني، وعبد الله الفارسي البلياني، ويقولون: إن كل موجود فهو مرتبة من مراتب الوجود، أو مظهر من مظاهره، بمنزلة أمواج البحر معه، وأعضاء الإنسان معه، وأجزاء الهوى مع الهواء أو بمنزلة هذا الإنسان وهذا الحيوان مع الحيوان المطلق والإنسان المطلق.

ويقول شاعرهم ابن إسرائيل:

وما أنت غير الكون بل أنت عينه ... ويفهم هذا السر من هو ذائق

وقال:-

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٧٥).

وتلتذ إن مرت على جسدي يدي   لأني في التحقيق لست سواكم

ولهذا ليس عندهم للإنسان غاية وراء نفسه، وإنما غايته أن ينكشف الغطاء عن نفسه، فيرى أن نفسه هي الحق، وكان قبل ذلك محجوبًا عنها، فلما شاهد الحقيقة رأى أنه هو كما قال ابن إسرائيل: -

ما بال عيسك لا يقر قرارها؟   إلامَ ضلالك لا تني منتقلا

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن   إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وكما يقول بعضهم:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه عينه

والله يقول: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العَلق: الآية ٨] ، ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: الآية ٦] ويقول: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يُونس: الآية ٣٠] ويقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٦] ونحو ذلك.

وقال التلمساني -وكان راسخ القدم في هذه الزندقة التي أسموا بها التوحيد والحقيقة-:

توهمت قدما أن ليلى تبرقعت   وأن حجابا دونها يمنع اللثما

فلاحت، فلا والله ما كان حجبها   سوى أن طرفي كان عن حبها أعمى

وله شعر كثير في هذا الفن:

هي الجوهر الصرف القديم وإن بدا   لها خبث أتيت به فهو حادث

حلفت لهم ما كان منها غير ذاتها   فقالوا اتئد فيها فإنك حانث

وله:

وقل لحبيبك مت وجدًا وذب طربًا   فيها وقل لزوال العقل لا تزل

واصمت إلى أن تراها فيك ناطقة   فإن وجدت لسانًا قائلًا فقل

ولهذا يصلون إلى مقام لا يعتقدون فيه إيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات وإنما يرون الإيجاب والتحريم للمحجوبين عندهم، الذين لم يشهدوا أنه هو حقيقة الكون؛ فمن العابد؟ ومن المعبود؟ ومن الآمر؟ ومن المأمور؟ كما قال صاحب الفتوحات في أولها:

الرب حق والعبد حق   يا ليت شعري من المكلف؟

إن قلت عبد فذاك ميت   أو قلت رب أنى يكلف؟

وعندهم أن التكليف هو في مرتبة من مراتب الأسماء والصفات وهو مرتبة المتمحن.

قال بعضهم:

ما الأمر إلا نسق واحد   ما فيه من مدح ولا ذم

وإنما العادة قد خصصت   والطبع والشارع بالحكم

ومنشأ هذين عن الصابئة -كما يبين ذلك عند التأمل- فإن الصابئة الخارجين عن التوحيد لله وحده لا شريك له -كالمشركين، والمجوس- مثل فرعون موسى، ونمرود إبراهيم؛ وغيرهم من البشر: معترفون بالوجود المطلق(١)

وقال: فلما كان منتهى الفلاسفة الصابئية، وأعلى علمهم: هو الوجود المطلق، وكان أصل التجهم، وتعطيل صفات الرب إنما هو مأخوذ عن الصابئة، وكان هؤلاء الاتحادية في الأصل جهمية، وأنه بما فيهم من النصرانية -المشاركة للصابئة صار بينهم وبين الصابئة نسب- صار معبودهم وإلههم هو الوجود المطلق، وزعموا أن ذلك هو الله، مضاهاة لما عليه خلق من قدماء الفلاسفة، من تعطيل الصانع وإثبات الوجود المطلق، حتى يصح قول فرعون: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٣](٢)

وقال عن ابن عربي: قوله هو: إن وجود المحدث هو عين وجود القديم، كما قال في فصوصه: ومن أسمائه الحسنى «العلي» على من؟ وما ثم إلا هو، وعن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلوه لنفسه، وهو عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست إلا هو»، إلى أن قال:

هو عين ما بطن وهو عين ما ظهر، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من ينطق عنه سواه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز وغير ذلك من الأسماء المحدثات..

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر فإن الوجود إذا كان واحدًا فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب، فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب؟ وقالوا لآخر: هذه مظاهر، فقال لهم: المظاهر غير الظاهر أم هي؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة وإن كانت إياها فلا فرق.

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر، وبينا حقيقة قول كل واحد منهم، وأن صاحب «الفصوص» يقول المعدوم شيء؛ ووجود الحق فاض عليه، فيفرق بين الوجود والثبوت، والمعتزلة الذين قالوا: المعدوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه؛ فإن أولئك قالوا: إن الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة في العدم وجودًا ليس هو وجود الرب. وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليه فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق، وصاحبه الصدر القونوي يفرق بين المطلق والمعين؛ لأنه كان أقرب إلى الفلسفة، فلم يقر بأن المعدوم شيء؛ لكن جعل الحق هو الوجود المطلق، وصنف «مفتاح غيب الجمع والوجود».

وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه؛ فإن المطلق بشرط الإطلاق -وهو الكلى العقلي لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان والمطلق لا بشرط وهو الكلي الطبيعي- وإن قيل إنه موجود في

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٧٩- ٨٣)، (٢/ ٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٩١، ٩٢).

الخارج فلا يوجد في الخارج إلا معينًا، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج، فيلزم أن يكون وجود الرب إما منتفيا في الخارج وإما أن يكون جزءًا من وجود المخلوقات، وإما أن يكون عين وجود المخلوقات. وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفس؟ أم العدم يخلق الوجود؟ أو يكون بعض الشيء خالقًا لجميعه؟!

وهؤلاء يفرون من لفظ «الحلول» لأنه يقتضي حالًا ومحلًا، ومن لفظ «الاتحاد»؛ لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر، وعندهم الوجود واحد، ويقولون: النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ولو عمموا لما كفروا.

وكذلك يقولون في عباد الأصنام إنما أخطئوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطئوا عندهم. والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام.

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائمًا من التناقض؛ لأنه يقال لهم فمن المخطئ؟ لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائض التي يوصف بها المخلوق. ويقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق، ويقولون ما قاله صاحب «الفصوص»: فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية، والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفًا؛ أو عقلًا أو شرعًا، أو مذمومة عرفًا وعقلًا وشرعًا، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة».

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض؛ فإنه معلوم بالحسن والعقل أن هذا ليس هو ذاك، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمساني: إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل. ويقولون من أراد التحقيق -يعني تحقيقهم- فليترك العقل والشرع.

وقد قلت لمن خاطبته منهم: ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته؛ لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول، ويمتنع أن يكون في إخبار الرسول ما يناقض صريح العقول، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان: سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو كان أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا؛ فكيف بمن ادعى كشفًا يناقض صريح الشرع والعقل؟

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب، لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين، وتكون من تلبيسات الشياطين.

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة قد يقدمون الأولياء على الأنبياء، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع، كما يذكر عن ابن سبعين وغيره، ويجعلون المراتب ثلاثة، يقولون: العبد يشهد أولًا طاعة معصية، ثم طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية، و«الشهود الأول» هو الشهود الصحيح وهو الفرق

بين الطاعات والمعاصي، وأما «الشهود الثاني» فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يعصي، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الإرادة التي هي المشيئة، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة، ويقول شاعرهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه؛ فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية، والأمر الكوني والديني[(١)].

وقال: وأما مدلول هذا الشعر: فإن قوله:

يا ليت شعري من المكلف؟ ... استفهام إنكار للمكلف

ثم قال:

إن قلت عبد فذاك ميت

وفي موضع آخر قال فذاك نفي، وكلاهما باطل؛ فإن العبد موجود وثابت ليس بمعدوم منتف، ولكن الله هو الذي جعله موجودًا ثابتًا، وهذا هو دين المسلمين، أن كل ما سوى الله مخلوق لله موجود، بجعل الله له وجودًا؛ فليس لشيء من الأشياء وجود إلا بإيجاد الله له، وهو باعتبار نفسه لا يستحق إلا العدم موجودًا حيًّا ناطقًا فاعلًا مريدًا قادرًا؛ بل هذا كله لا يمنع ثبوت ذواتها، وصفاتها، وأفعالها.

فهو سبحانه هو الذي جعل الحي حيًّا؛ بل هو الذي جعل المسلم مسلمًا والمصلي مصليًّا كما قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠] وهذه مسألة خلق أفعال العبيد، وهي مذهب أهل السنة والجماعة، مع اتفاقهم على أن العبد مأمور منهي، مثاب معاقب، موعود متوعد، وهو سبحانه الذي جعل الأبيض أبيض، والأسود أسود، والطويل طويلًا، والقصير قصيرًا، والمتحرك متحركًا، والساكن ساكنًا، والرطب رطبًا، واليابس يابسًا، والذكر ذكرًا، والأنثى أنثى، والحلو حلوًا، والمر مرًّا.

ومع هذا فالأعيان تتصف بهذه الصفات، والله تعالى خالق الذوات وصفاتها، فأي عجب من اتصاف الذات المخلوقة بصفاتها؟ ومن أين يكون الله خالق ذلك كله بالحق؟ فإذا قال القائل: الرب حق والعبد حق؛ فإن أراد به أن هذا الحق هو عين هذا: فهذا هو الإتحاد والإلحاد، وهذا هو الذي ينافي التكليف؛ وإن أراد أن العبد حق مخلوق، خلقه الخالق؛ فهذا مذهب المسلمين،

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٤٠- ٢٤٥).

وذلك لا ينافي أن يكون الخالق ممكنًا للمخلوق، كما أنه خالق له.

وقوله: إن قلت عبد فذاك ميت، كذب؛ فإن العبد ليس بميت، بل هو حي أحياه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨]، والله لا يكلف الميت، وإنما يكلف الحي، وإذا قيل: إنه أراد بقوله ميت أنه باعتبار نفسه لا حياة له. قيل: تفسير مراده بهذا فاسد لفظًا ومعنًى، أما اللفظ فلأن كلامه لا يقتضي ذلك؛ وأما المعنى فلأنه إذا فسر ذلك لم ينافِ التكليف.

فإذا كان ميتًا -لولا إحياء الله- وقد أحياه الله، فقد صار حيًّا بإحياء الله له؛ وحينئذ فالله إنما كلف حيًّا لم يكلف ميتًا.

وأما أقوال إخوان الملاحدة والمحامين عنهم أنه قال: ليت شعري من المكلف؟ مع علمه بأن التكليف حق فحار لمن ينسبه في القيام به. فقال: إن قلت عبد فذاك ميت. والميت: ليس له من نفسه حركة بل من غيره يقلبه كما يشاء.

وكذلك العبد -وإن كان حيًّا- فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل، ليس له من نفسه فعل بغير الله؛ فيقال لهم: هذا العذر باطل من وجوه:

أحدها: لأنه لا حيرة هنا؛ بل المكلف هو العبد بلا امتراء ولا حيرة، فإن الله يمتنع أن يكون هو المكلف بالصيام، والطواف، ورمي الجمار؛ بل هو الآمر بذلك، والعبد هو المأمور بذلك، ومن حار هل المأمور بذلك الله أو العبد؟ فهو إما يكون فاسد العقل مجنونًا؛ وإما فاسد الدين ملحدًا زنديقًا.

وكون الله خالقًا للعبد ولفعله: لا يمنع أن يكون العبد هو المأمور المنهي؛ فإنه لم يقل أحد قط إن الله هو الذي يركع، ويسجد، ويطوف، ويرمي الجمار، ويصوم شهر رمضان؛ بل جميع الأمة متفقون على أن العبد هو الراكع، الساجد، الصائم، العابد، لا نزاع في ذلك بين أهل السنة والقدرية.

الثاني: أن قوله إن العبد -وإن كان حيًّا- فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل: ليس بصحيح؛ فإن الميت ليس له إحساس، ولا إرادة، لما يقوم به من الحركة، ولا قدرة على ذلك، ولا يوصف بأنه يحب الفعل، أو يبغضه أو يريده، أو يكرهه، ولا أنه يركع ويسجد، ويصوم ويحج، ويجاهد العدو.

وقول من قال بهذا: لا يحمد الميت على فعل الغاسل، ولا يذم ولا يثاب ولا يعاقب، وأما العبد فإن الله جعله حيًّا مريدًا، قادرًا فاعلًا، وهو يصوم ويصلي، ويحج ويقتل، ويزني باختياره ومشيئته، والله خالق ذاته وصفاته وأفعاله؛ فله مشيئة والله خالق مشيئته، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وله قدرة، والله خالق قدرته، وهو مصل صائم، حاج معتمر، والله خالقه وخالق أفعاله، فتمثيله بالميت تمثيل باطل.

الثالث: أن يقال: إن كان كالميت مع الغاسل، فيكون الغاسل هو المكلف فيكون الله هو المكلف، فيلزم أن يكون الرب هو المكلف.

الرابع: أن عقلاء بني آدم متفقون على ما فطرهم الله عليه، من أن العبد الحي يؤمر وينهى، ويحمد ويذم على أفعاله الاختيارية، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه؛ لم يقبل ذلك منه، فلو ظلم ظالم لغيره؛ لم يقبل أحد منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر. وأما الميت فليس في العقلاء من يذمه، ولا يأمره ولا ينهاه، فكيف يقاس هذا بهذا؟[١]

وقال: فإن صاحب هذا الكتاب المذكور الذي هو (فصوص الحكم) وأمثاله مثل صاحبه القونوي، والتلمساني، وابن سبعين، والششتري، وابن الفارض، وأتباعهم؛ مذهبهم الذي هم عليه أن الوجود واحد؛ ويسمون أهل وحدة الوجود، ويدعون التحقيق والعرفان، وهم يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات؛ فكلما يتصف به المخلوقات من حسن، وقبيح، ومدح، وذم إنما المتصف به عندهم: عين الخالق، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات منفصل عنها أصلًا، بل عندهم ما ثم غير أصلًا للخالق، ولا سواه.

ومن كلماتهم ليس إلا الله؛ فعباد الأصنام لم يعبدوا غيره عندهم؛ لأنه ما عندهم له غير، ولهذا جعلوا قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] بمعنى قدر ربك ألَّا تعبدوا إلا إياه؛ إذ ليس عندهم غير له تتصور عبادته؛ فكل عابد صنم إنما عبد الله.

ولهذا جعل صاحب هذا الكتاب: عباد العجل مصيبين، وذكر أن موسى أنكر على هارون إنكاره عليهم عبادة العجل، وقال: كان موسى أعلم بالأمر من هارون؛ لأنه علم ما عبده أصحاب العجل؛ لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبدوا إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع؛ فكان عتب موسى أخاه هارون، لما وقع الأمر في إنكاره، وعدم اتباعه؛ فإن العارف من يرى الحق في كل شيء؛ بل يراه عين كل شيء.

ولهذا يجعلون فرعون من كبار العارفين، المحققين، وأنه كان مصيبًا في دعواه الربوبية. كما قال في هذا الكتاب: ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه جار في العرف الناموسي لذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٢٤] ؛ أي: وإن كان الكل أربابًا بنسبة ما؛ فأنا الأعلى منهم؛ بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيهم.

ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه: بل أقروا له بذلك وقالوا له: ﴿اقض ما أنت قاض﴾ فالدولة لك، فصح قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٢٤] ، وأنه كان عين الحق.

ويكفيك معرفة بكفرهم: أن من أخف أقوالهم أن فرعون مات مؤمنًا؛ بريا من الذنوب كما

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١١٥- ١١٨)، (٢/ ٢٤١- ٢٤٣).

قال: وكان موسى قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق؛ فقبضه طاهرًا مطهرًا ليس فيه شيء من الخبث؛ لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئًا من الآثام، والإسلام يجب ما قبله.

وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين، واليهود، والنصارى: أن فرعون من أكفر الخلق بالله؛ بل لم يقص الله في القرآن قصة كافر باسمه الخاص؛ أعظم من قصة فرعون، ولا ذكر عن أحد من الكفار من كفره وطغيانه وعلوه: أعظم مما ذكر عن فرعون.

وأخبر عنه وعن قومه أنهم يدخلون أشد العذاب؛ فإن لفظ آل فرعون: كلفظ آل إبراهيم، وآل لوط، وآل داود، وآل أبي أوفى؛ يدخل فيها المضاف باتفاق الناس، فإذا جاءوا إلى أعظم عدو لله من الإنس، أو من هو من أعظم أعدائه؛ فجعلوه مصيبًا، محقًّا فيما كفره به الله؛ علم أن ما قالوه أعظم من كفر اليهود والنصارى، فكيف بسائر مقالاتهم؟

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الخالق تعالى بائن من مخلوقاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

والسلف والأئمة كفروا الجهمية لما قالوا: إنه في كل مكان، وكان مما أنكروه عليهم: أنه كيف يكون في البطون، والحشوش، والأخلية؟ تعالى الله عن ذلك. فكيف بمن يجعله نفس وجود البطون، والحشوش، والأخلية، والنجاسات، والأقذار؟

واتفق سلف الأمة وأئمتها: أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقال: من قال من الأئمة من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا.

وأين المشبهة المجسمة من هؤلاء؟ فإن هؤلاء غاية كفرهم: أن يجعلوه مثل المخلوقات.

لكن يقولون: هو قديم، وهي محدثة، وهؤلاء جعلوه عين المخلوقات، وجعلوه نفس الأجسام المصنوعات، ووصفوه بجميع النقائص والآفات، التي يوصف بهما كل كافر، وكل فاجر، وكل شيطان، وكل سبع، وكل حية من الحيات، فتعالى الله عن إفكهم وضلالهم، وسبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

والله تعالى ينتقم لنفسه، ولدينه، ولكتابه ولرسوله، ولعباده المؤمنين منهم.

وهؤلاء يقولون: إن النصارى إنما كفروا لتخصيصهم؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة: الآية ١٧] كل ما قالته النصارى في المسيح: يقولونه في الله، وكفر النصارى جزء من كفر هؤلاء.

ولما قرءوا هذا الكتاب المذكور على أفضل متأخريهم؛ قال له قائل: هذا الكتاب يخالف القرآن. فقال: القرآن كله شرك. وإنما التوحيد في كلامنا هذا: يعني أن القرآن يفرق بين الرب والعبد، وحقيقة التوحيد عندهم أن الرب هو العبد؛ فقال له القائل: فأي فرق بين زوجتي وبنتي إذًا؟ قال: لا فرق، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم.

وهؤلاء إذا قيل في مقالتهم أنها كفر لم يفهم هذا اللفظ حالها؛ فإن الكفر جنس تحته أنواع متفاوتة، بل كفر كل كافر جزء من كفرهم؛ ولهذا قيل لرئيسهم أنت نصيرى. فقال: نصير جزء مني، وكان عبد الله بن المبارك يقول إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وهؤلاء شر من أولئك الجهمية؛ فإن أولئك كان غايتهم القول بأن الله في كل مكان، وهؤلاء قولهم إنه وجود كل مكان؛ ما عندهم موجودان، أحدهما حال والآخر محل

ولهذا قالوا إن آدم من الله بمنزلة إنسان العين من العين، وقد علم المسلمون، واليهود، والنصارى؛ بالاضطرار من دين المرسلين: أن من قال عن أحد من البشر إنه جزء من الله؛ فإنه كافر في جميع الملل إذ النصارى لم تقل هذا -وإن كان قولها من أعظم الكفر- لم يقل أحد أن عين المخلوقات هي جزء الخالق، ولا أن الخالق هو المخلوق، ولا الحق المنزه هو الخلق المشبه

وكذلك قوله إن المشركين لو تركوا عبادة الأصنام لجهلوا من الحق: بقدر ما تركوا منها هو من الكفر المعلوم بالاضطرار من جميع الملل؛ فإن أهل الملل متفقون على أن الرسل جميعهم نهوا عن عبادة الأصنام، وكفروا من يفعل ذلك، وأن المؤمن لا يكون مؤمنًا حتى يتبرأ من عبادة الأصنام، وكل معبود سوى الله كما قال الله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[المُمتحنَة الآية ٤]

وقال الخليل ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وقال الخليل ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وقال الخليل -وهو إمام الحنفاء الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب واتفق أهل الملل على تعظيمه لقوله- ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

وهذا أكثر وأظهر، عند أهل الملل من اليهود، والنصارى -فضلًا عن المسلمين- من أن يحتاج أن يستشهد عليه بنص خاص، فمن قال: إن عباد الأصنام لو تركوهم لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء، فهو أكفر من اليهود والنصارى، ومن لم يكفرهم فهو أكفر من اليهود والنصارى؛ فإن اليهود والنصارى يكفرون عباد الأصنام، فكيف من يجعل تارك عبادة الأصنام جاهلًا من الحق بقدر ما ترك منها؟ مع قوله: فإن العالم يعلم من عبد، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود، بل هو أعظم من كفر عباد الأصنام؛ فإن أولئك اتخذوهم شفعاء، ووسائط، كما قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر الآية ٣] وقال الله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الزمر الآية ٤٣]

وكانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض، وخالق الأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن

سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٦]

قال ابن عباس: تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله، ثم يعبدون غيره، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٨]

وهؤلاء أعظم كفرًا من جهة أن هؤلاء جعلوا عابد الأصنام عابدًا لله لا عابدًا لغيره، وأن الأصنام من الله؛ بمنزلة أعضاء الإنسان من الإنسان، وبمنزلة قوى النفس من النفس، وعباد الأصنام اعترفوا بأنها غيره، وأنها مخلوقة، ومن جهة أن عباد الأصنام من العرب كانوا مقرين بأن للسموات والأرض ربًّا غيرهما خلقهما، وهؤلاء ليس عندهم للسموات والأرض وسائر المخلوقات رب مغاير للسموات والأرض، وسائر المخلوقات، بل المخلوق هو الخالق.

ولهذا جعل قوم عاد، وغيرهم من الكفار على صراط مستقيم، وجعلهم في عين القرب، وجعل أهل النار يتمتعون في النار، كما يتمتع أهل الجنة في الجنة.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن قوم عاد وثمود، وفرعون وقومه، وسائر من قص الله قصته من الكفار أعداء الله، وأنهم معذبون في الآخرة، وأن الله لعنهم وغضب عليهم؛ فمن أثنى عليهم وجعلهم من المقربين ومن أهل النعيم: فهو أكفر من اليهود والنصارى، من هذا الوجه[1].

- قولهم في الروح:

منهم من يزعم أنها من ذات الله، وأنها غير مخلوقة.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام: اعلم أن القائلين بقدم الروح صنفان:

صنف من الصائبة الفلاسفة، يقولون: هي قديمة أزلية لكن ليست من ذات الرب، كما يقولون ذلك في العقول، والنفوس الفلكية، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة.

وصنف من زنادقة هذه الأمة وضلالها من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها من ذات الله، وهؤلاء أشر قولًا من أولئك، وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين: نصف لاهوت، وهو روحه ونصف ناسوت، وهو جسده: نصفه رب ونصفه عبد[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٣- ١٣٠)، (٢/ ١٧٢- ١٧٤)، (٢/ ٢٤٨- ٢٧١)، (٢/ ٤٦٦- ٤٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٢١، ٢٢٢)، (٥/ ٨٣).

وقال الكلاباذي: وقال بعضهم: هو روح نسيم طيب يكون به الحياة، والنفس ريح حارة تكون بها الحركات والسكنات والشهوات.

وسئل القحطبي عن الروح؟ فقال: لم يدخل تحت ذل كن، ومعناه عنده أنه ليس إلا الإحياء والحي والإحياء صفة المحيي، كالتخليق والخلق صفة الخالق.

واستدل من قال ذلك بظاهر قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥]

قالوا: أمره كلامه وكلامه ليس بمخلوق، كأنهم قالوا: إنما صار الحي حيًا بقوله: كن حيًا، وليس الروح معنى في الجسد حالًا مخلوق كالجسد [١]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وقد كفر الله النصارى بنحو من هذا القول في المسيح، فكيف بمن يعم ذلك في كل أحد؟ حتى في فرعون، وهامان، وقارون؟! وكلما دل على أن الإنسان عبد مخلوق مربوب، وأن الله ربه وخالقه ومالكه وإلهه؛ فهو يدل على أن روحه مخلوقة.

فإن الإنسان عبارة عن البدن والروح معًا، بل هو بالروح أخص منه بالبدن، وإنما البدن مطية للروح، كما قال أبو الدرداء، إنما بدني مطيتي، فإن رفقت بها بلغتني، وإن لم أرفق بها لم تبلغني. وقد رواه ابن منده وغيره عن ابن عباس قال: لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن، فتقول الروح للبدن: أنت عملت السيئات، فيقول البدن للروح: أنت أمرتني؛ فيبعث الله ملكًا يقضي بينهما؛ فيقول: إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانًا؛ فرأى المقعد فيه ثمرًا معلقًا فقال للأعمى: إني أرى ثمرًا ولكن لا أستطيع النهوض إليه، وقال الأعمى: لكني أستطيع النهوض إليه ولكني لا أراه، فقال له المقعد: تعال فاحملني حتى أقطفه؛ فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة؛ قال «الملك»: فعلى أيهما العقوبة؟ فقالا عليهما جميعًا قال فكذلك أنتما.

وأيضًا فقد استفاضت الأحاديث عن النبي بأن الأرواح تقبض، وتنعم وتعذب، ويقال لها: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي أيتها الروح الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ويقال للأولى: أبشري بروح وريحان، ويقال للثانية: أبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج. وأن أرواح المؤمنين تعرج إلى السماء، وأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة ﷺ قال: إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان يصعدان بها، قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك؛ قال فيقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك، وعلى جسد كنت تعمرينه؛ فينطلق به إلى ربه، ثم

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٦٧، ٦٨).

يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد وذكر من نتنها وذكر لعنًا، فيقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، قال فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة ﷺ فلما ذكر رسول الله النتن رد على أنفه ريطة كانت عليه.

وفي حديث المعراج الصحيح أن النبي رأى آدم، وأرواح بنيه عن يمينه وشماله، قال رسول الله: فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه أسودة، وعن شماله أسودة، قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، قال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قال قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال هذا آدم ﷺ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بينه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى.

وقد ثبت أيضًا أن أرواح المؤمنين والشهداء وغيرهم في الجنة، قال الإمام أحمد في رواية حنبل أرواح الكفار في النار، وأرواح المؤمنين في الجنة، والأبدان في الدنيا، يعذب الله من يشاء، ويرحم بعفوه من يشاء، وقال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن أرواح الموتى: أتكون في أفنية قبورها؟ أم في حواصل طير؟ أم تموت كما تموت الأجساد؟ فقال قد روي عن النبي ﷺ: أنه قال نسمة المؤمن إذا مات طائر تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه.

وقد روى عن عبد الله بن عمر وأنه قال: أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر كالزرازير، يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها، قال: وقال بعض الناس: أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، تأوي إلى قناديل في الجنة معلقة بالعرش.

وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألنا عبد الله -يعني: ابن مسعود- عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٩]، فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«إن أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث تشاء، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعه فقال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء؟»** ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ فخاطبها بالرجوع إلى ربها، وبالدخول في عباده ودخول جنته، وهذا تصريح بأنها مربوبة. والنفس هنا هي الروح التي تقبض وإنما تتنوع صفاتها كما قال النبي في الحديث الصحيح لما ناموا عن صلاة الفجر في السفر قال: **«إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردها حيث شاء»**، وفي رواية: **«قبض أنفسنا حيث شاء»**، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٢] والمقبوض المتوفى هي الروح، كما في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره،

فأغمضه، ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره، ونور له فيه».

وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا أن الإنسان إذا مات شخص بصره»! قالوا: بلى، قال: «فكذلك حين يتبع بصره نفسه» فسماه تارة روحًا، وتارة نفسًا.

وروى أحمد بن حنبل، وابن ماجة عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر؛ فإن البصر يتبع الروح، وقولوا خيرًا؛ فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت».

ودلائل هذا الأصل وبيان مسمى الروح والنفس وما فيه من الاشتراك كثير لا يحتمله هذا الجواب، وقد بسطناه في غير هذا الموضع.

فقد بان بما ذكرناه أن من قال: إن أرواح بني آدم قديمة غير مخلوقة، فهو من أعظم أهل البدع الحلولية، الذين يجر قولهم إلى التعطيل، بجعل العبد هو الرب وغير ذلك من البدع الكاذبة المضلة.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] فقد قيل: إن الروح هنا ليس هو روح الآدمي، وإنما هو ملك في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النّبَإ: الآية ٣٨] ، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المَعارج: الآية ٤] وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القَدر: الآية ٤] ، وقيل: بل هو روح الآدمي، والقولان مشهوران، وسواء كانت الآية تعمهما، أن تتناول أحدهما، فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة لوجهين:

أحدهما: أن الأمر في القرآن يراد به المصدر تارة، ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به؛ كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: الآية ١] ، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٨] ، وهذا في لفظ غير الأمر؛ كلفظ الخلق والقدرة والرحمة والكلمة وغير ذلك. ولو قيل إن الروح بعض أمر الله أو جزء من أمر الله. ونحو ذلك مما هو صريح في أنها بعض أمر الله؛ لم يكن المراد بلفظ الأمر إلا المأمور به لا المصدر؛ لأن الروح عين قائمة بنفسها، تذهب وتجيء وتنعم وتعذب؛ وهذا لا يتصور أن يكون مسمى مصدر أمر يأمر أمرًا. وهذا قول سلف الأمة وأئمتها وجهورها.

ومن قال من المتكلمين إن الروح عرض قائم بالجسم؛ فليس عنده مصدر أمر يأمر أمرًا.

والقرآن إذا سمي أمر الله فالقرآن كلام الله والكلام اسم مصدر كلم يكلم تكليما وكلامًا، وتكلم تكلمًا وكلامًا. فإذا سمي أمرًا بمعنى المصدر كان ذلك مطابقًا، لا سيما والكلام نوعان: أمر وخبر.

أما الأعيان القائمة بأنفسها فلا تسمى أمرًا لا بمعنى المفعول به وهو المأمور به كما سمى المسيح

كلمة لأنه مفعول بالكلمة، وكما يسمى المقدور قدرة والجنة رحمة، والمطر رحمة، في مثل قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الرُّوم: الآية ٥٠]، وفي قول النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه أنه قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من شئت»، وقوله: إن الله خلق الرحمة -يوم خلقها- مائة رحمة، ونظائر ذلك كثيرة، وهذا جواب أبي سعيد الخراز قال: فإن قيل: قد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] وأمره منه قيل أمره تعالى هو المأمور به المكون بتكوين المكون له.

وكذلك قال ابن قتيبة في (كتاب المشكل): أقسام الروح، فقال: هي روح الأجسام التي يقبضها الله عند الممات، والروح جبريل. قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٩٣]، وقال: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٧]؛ أي جبريل. والروح فيما ذكره المفسرون وملك عظيم من ملائكة الله تعالى، يقوم وحده فيكون صفًا، وتقوم الملائكة صفًا، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥]، قال: ونسب الروح إلى الله لأنه بأمره، أو لأنه بكلمته.

والوجه الثاني: أن لفظة (من) في اللغة قد تكون لبيان الجنس، كقولهم: باب من حديد، وقد تكون لابتداء الغاية، كقولهم: خرجت من مكة فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] ليس نصًا في أن الروح بعض الأمر، ومن جنسه، بل قد تكون لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر، وصدرت عنه، هذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله. وروح منه حيث قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٧١] يقول: من أمره كان الروح منه كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجَاثِيَة: الآية ١٣]، ونظير هذا أيضًا قوله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ٥٣].

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله، ولم تكن بعض ذاته بل منه صدرت، لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح: «روح منه»، أنها بعض ذات الله، ومعلوم أن قوله: «روح منه» أبلغ من قوله: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] فإذا كان قوله وروح منه لا يمنع أن يكون مخلوقًا، ولا يوجب أن يكون بعضًا له، فقوله: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] أولى بأن لا يمنع أن يكون مخلوقًا ولا يوجب أن يكون ذلك بعضًا له بل ولا بعضًا من أمره.

وهذا الوجه يتوجه إذا كان الأمر هو الأمر الذي هو صفة من صفات الله، فهذان الجوابان كل منهما مستقل، ويمكن أن يجعل منهما جواب مركب، فيقال: قوله: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] إما أن يراد بالأمر المأمور به، أو صفة الله تعالى، وأن أريد به الأول أمكن أن تكون الروح بعض ذلك، فتكون مخلوقة. وإن أريد بالأمر صفة (الله) كان قوله الروح من أمر ربي كقوله وروح منه، وقوله جميعًا منه ونحو ذلك.

وإنما نشأت الشبهة حيث ظن الظان أن الأمر صفة لله قديمة، وأن روح بني آدم بعض تلك

الصفة، ولم تدل الآية على واحد من المقدمتين، والله سبحانه أعلم[١]

- قولهم في القدر:

يثبتون القدر، ويعارضون بينه وبين أمر الله ونهيه، وهي عندهم معارضة الحقيقة للشريعة، فيحتجون بالقدر على ترك المأمور وفعل المحظور.

أقوال العلماء:

قال شيخ الإسلام عن الخائضين في القدر: والفرقة الثانية: المشركية: الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي؛ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء، وهذا قد كثر فيمن يدعى الحقيقة من المتصوفة[٢]

وقال: وقوم آمنوا بالقضاء والقدر، ووافقوا أهل السنة والجماعة، على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء، وربه ومليكه، لكن عارضوا هذا بالأمر والنهى، وسموا هذا حقيقة، وجعلوا ذلك معارضًا للشريعة.

وفيهم من يقول: إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب، وإن العارف يستوي عنده هذا وهذا[٣]

وقال: يقول هؤلاء إن العارف الشاهد للقدر يسقط عنه الملام[٤]

وقال: وقد كثر في كثير من المنتسبين إلى المشيخة والتصوف شهود القدر فقط، من غير شهود الأمر والنهي، والاستناد إليه في ترك المأمور وفعل المحظور، وهذا أعظم الضلال[٥]

وقال: وشاع هذا القول في كثير من الصوفيَّة فوافقوا جهما في مسائل الأفعال والقدر؛ وخالفوه في الصفات[٦]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: وهم في ذلك متناقضون، مخالفون للشرع والعقل، والذوق والوجد؛ فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم، وبين من ظلمهم، ولا يسوون بين العالم والجاهل، والقادر والعاجز، ولا بين الطيب والخبيث، ولا بين العادل والظالم؛ بل يفرقون بينهما، ويفرقون أيضًا

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٢٢- ٢٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١١١)، (٨/ ٥٩، ٩٩، ١٠٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٠٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢١).
(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٨).
(٦) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٠).

بموجب أهوائهم وأغراضهم، لا بموجب الأمر والنهي، ولا يقفون لا مع القدر، ولا مع الأمر؛ بل كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب يوافق هواك تمذهبت به.

ولا يوجد أحد يحتج بالقدر في ترك الواجب وفعل المحرم إلا وهو متناقض، لا يجعله حجة في مخالفة هواه، بل يعادى من آذاه وإن كان محقًّا، ويحب من وافقه على غرضه وإن كان عدوًّا لله، فيكون حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته: بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجده لا بحسب أمر الله ونهيه، ومحبته وبغضه، وولايته وعداوته.

إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد؛ فإن هذا مستلزم للفساد، الذي لا صلاح معه، والشر الذي لا خير فيه؛ إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد، ولا اقتص من ظالم باغ، ولا أخذ لمظلوم حقه من ظالمه، ولفعل كل أحد ما يشتهيه، من غير معارض يعارضه فيه، وهذا فيه من الفساد: ما لا يعلمه إلا رب العباد.

فمن المعلوم بالضرورة: أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد، وإلى ما يضرهم، والله قد بعث رسوله ﷺ يأمر المؤمنين بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، فمن لم يتبع شرع الله ودينه؛ تبع ضده من الأهواء والبدع، وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل ليدحض به الحق، لا من باب الاعتماد عليه، ولزمه أن يجعل كل من جرت عليه المقادير، من أهل المعاذير.

وإن قال: أنا أعذر بالقدر من شهده، وعلم أن الله خالق فعله ومحركه، لا من غاب عن هذا الشهود، أو كان من أهل الجحود. قيل له: فيقال لك وشهود هذا، وجحود هذا من القدر؟ فالقدر متناول لشهود هذا، وجحود هذا؟ فإن كان هذا موجبًا للفرق مع شمول القدر لهما؛ فقد جعلت بعض الناس محمودًا؛ وبعضهم مذمومًا مع شمول القدر لهما؟ وهذا رجوع إلى الفرق واعتصام بالأمر والنهي، وحينئذ فقد نقضت أصلك، وتناقضت فيه، وهذا لازم لكل من دخل معك فيه.

ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه فهو قول باطل وبدعة مضلة.

فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذرًا في ترك الواجبات، وفعل المحظورات؟ بل الإيمان بالقدر حسنة من الحسنات، وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات، فلو أشرك مشرك بالله، وكذب رسوله ناظرًا إلى أن ذلك مقدر عليه: لم يكن ذلك غافرًا لتكذيبه ولا مانعًا، من تعذيبه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، سواء كان المشرك مقرًّا بالقدر وناظرًا إليه، أو مكذبًا به أو غافلًا عنه، فقد قال إبليس: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: الآية ٣٩] فأصر واحتج بالقدر، فكان ذلك زيادة في كفره، وسببًا لمزيد عذابه.

وأما آدم عليه السلام فإنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

[الأعراف: الآية ٢٣] قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٧] فمن استغفر وتاب كان آدميا سعيدا، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيا شقيا؛ وقد قال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: الآية ٨٥]

وهذا الموضع ضل فيه كثير من الخائضين في الحقائق، فإنهم يسلكون أنواعًا من الحقائق التي يجدونها ويذوقونها، ويحتجون بالقدر فيما خالفوا فيه الأمر، فيضاهئون المشركين الذين كانوا يبتدعون دينًا لم يشرعه الله، ويحتجون بالقدر على مخالفة أمر الله[(١)]

- قولهم في الاستطاعة

الاستطاعة عندهم تكون مع الفعل، وهي قوة من الله تعالى.

أقوال العلماء

قال الكلاباذي: أجمعوا أنهم لا يتنفسون نفسًا ولا يطرفون طرفة ولا يتحركون حركة إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيهم واستطاعة يخلقها الله لهم مع أفعالهم لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ولا يوجد الفعل إلا بها[(٢)]

نقض قولهم

تقدم بيان ذلك عند قول المعتزلة والنجارية والأشعرية في الاستطاعة.

- قولهم في المفاضلة بين الأولياء والنبيين والملائكة

منهم من يفضل النبيين على الأولياء، ومنهم من يفضل الأولياء على النبيين، ومنهم من يفضل الأولياء على النبيين والملائكة، ومنهم من يجعل الأولياء مساوون لله في كل صفاته والتصرف في الكون.

ومنهم من فضل الرسل على الملائكة، ومنهم من فضل الملائكة على الرسل، ومنهم من توقف.

أقوال العلماء

قال الأشعري: ومنهم -أي: النُّسَّاك- من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيِّين والملائكة المقرَّبين[(٣)]

وقال ابن حزم: وقد كنا نسمع عن قوم من الصوفيَّة أنَّهم يقولون: إنَّ الوليَّ أفضل من النبيِّ[(٤)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٠٠- ٣٠٣، ٣١٤)، (٨/ ١٠٣- ١٠٩، ٢٥٦- ٢٥٨، ٣٠٥- ٣١٩، ٣٦٥)، (٢/ ٣٢٣- ٣٢٨)، (٢/ ٤١٠، ٤١١)، (٢/ ٤٥٧، ٤٥٨)، (٣/ ١١٦- ١٢٥).

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٤٦- ٤٨).

(٣) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٩).

(٤) الفصل (٤/ ٢١).

وقال: ادعت طائفة من الصوفيَّة أنَّ أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل[(١)]

وقال النكري: وعن بعض الصوفيَّة أن الولاية أفضل من النبوة؛ لأنها تنبئ عن القرب والكرامة كما هو شأن خواص الملك المقربين منه، والنبوة عن الأنباء والتبليغ كما هو حال من أرسله الملك إلى الرعايا لتبليغ أحكامه إلا أن الولي لا يبلغ درجة النبي؛ لأن النبوة لا تكون بدون الولاية[(٢)]

وقال شيخ الإسلام: وكذلك جهال القادرية، والأحمدية، واليونسية، قد يفضلون شيخهم على النبي، أو غيره من الأنبياء، وربما ادعوا في شيخهم نوعًا من الإلهية.

وكذلك طائفة من السعدية يفضلون الولي على النبي[(٣)]

وقال: والغالية في المشايخ قد يقولون: إن الولي محفوظ والنبي معصوم، وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه؛ فحاله حال من يرى أن الشيخ والولي لا يخطئ ولا يذنب، وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وأفضل منه، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعًا من الإلهية[(٤)]

وقال: وهؤلاء الملاحدة يدعون أن الولاية أفضل من النبوة[(٥)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر، والكافر من مؤمن؛ كابن نوح منه وكإبراهيم من آزر، وآدم خلقه الله من طين؛ فلما سواه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء وبأن خلقه بيديه، وبغير ذلك. فهو وصالحوا ذريته أفضل من الملائكة، وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين، وهؤلاء من نور.

وهذه مسألة كبيرة مبسوطة في غير هذا الموضع؛ فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا، وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾، والآدمي خلق من نطفة، ثم من مضغة، ثم من علقة، ثم انتقل من صغر إلى كبر، ثم من دار إلى دار، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله؛ وإنما يظهر فضله عند

---

(١) الفصل (٤/ ١٧٠)، (٢/ ٩٠).
(٢) دستور العلماء (٣/ ٣٢٣)، التعرف لمذهب أهل التصوف ص(٦٨- ٧٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٦٣، ٣٦٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٧، ٦٨).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٦).

كمال أحواله؛ بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره. ومن هنا غلط من فضل الملائكة على الأنبياء حيث نظر إلى أحوال الأنبياء. وهم في أثناء الأحوال؛ قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال.

وقد ظهر فضل نبينا على الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام، وعلا على مقامات الملائكة، والله تعالى أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته من صالحي الآدميين من الأنبياء والأولياء ما لم يظهر مثله من الملائكة، حيث جمع فيهم ما تفرق في المخلوقات، فخلق بدنه من الأرض، وروحه من الملأ الأعلى، ولهذا يقال: هو العالم الصغير، وهو نسخة العالم الكبير[١]

وقال: وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء[٢]

وقال: وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ﷺ واتباعًا له، كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملًا به، فهو أفضل أولياء الله، إذ كانت أمة محمد أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ، وأفضلهم أبو بكر ﷺ.

وقد ظن طائفة غالطة أن «خاتم الأولياء» أفضل الأولياء، قياسًا على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم احد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن على الحكيم الترمذي؛ فإنه صنف مصنفًا غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما يزعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب الفتوحات المكية، وكتاب الفصوص، فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه، كما يقال لمن قال: فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن.

ذلك أن الأنبياء أفضل في الزمان من أولياء هذه الأمة، والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء، فكيف الأنبياء كلهم؟ والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعى أنه خاتم الأولياء؟! وليس آخر الأولياء أفضلهم، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم؛ فإن فضل محمد ثبت بالنصوص الدالة على ذلك، كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقوله: «آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت الا أفتح لأحد قبلك»[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢١).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

وقال: هذا ابن عربي يصرح في فصوصه: أن الولاية أعظم من النبوة؛ بل أكمل من الرسالة! ومن كلامه:

مقام النبوة في برزخ   فويق الرسول ودون الولي

وبعض أصحابه يتأول ذلك بأن ولاية النبي أفضل من نبوته، وكذلك ولاية الرسول أفضل من رسالته، أو يجعلون ولايته حاله مع الله، ورسالته حاله مع الخلق وهذا من بليغ الجهل.

فإن الرسول إذا خاطب الخلق ويلغهم الرسالة لم يفارق الولاية، بل هو ولي الله في تلك الحال، كما هو ولي الله في سائر أحواله؛ فإنه ولي الله ليس عدوًا له في شيء من أحواله، وليس حاله في تبليغ الرسالة دون حاله إذا صلى ودعا الله وناجاه.

وأيضًا فما يقول هذا المتكلف في قول هذا المعظم: إن النبي ﷺ لبنة من فضة، وهو لبنتان من ذهب وفضة، ويزعم أن لبنة محمد هي العلم الظاهر، ولبنتاه: الذهب علم الباطن، والفضة علم الظاهر، وأنه يتلقى ذلك بلا واسطة؛ ويصرح في فصوصه أن رتبة الولاية أعظم من رتبة النبوة؛ لأن الولي يأخذ بلا واسطة والنبي بواسطة فالفضيلة التي زعم أنه امتاز بها على النبي أعظم عنده مما شاركه فيه.

وبالجملة: فهو لم يتبع النبي في شيء؛ فإنه أخذ بزعمه عن الله ما هو متابعة فيه في الظاهر، كما يوافق المجتهد المجتهد والرسول الرسول فليس عنده من اتباع الرسول والتلقي عنه شيء أصلًا، لا في الحقائق الخبرية، ولا في الحقائق الشرعية.

وأيضًا فإنه لم يرض أن يكون معه كموسى مع عيسى، وكالعالم مع العالم في الشرع الذي وافقه فيه، بل ادعى أنه يأخذ ما أقره عليه من الشرع من الله في الباطن؛ فيكون أخذه للشرع عن الله أعظم من أخذ الرسول.

وأما ما ادعى امتيازه به عنه وافتقار الرسول إليه -وهو موضع اللبنة الذهبية- فزعم أنه يأخذه عن المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول.

فهذا كما ترى في حال هذا الرجل، وتعظيم بعض المتأخرين له.

وصرح الغزالي بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب إليه من قتل مائة كافر؛ لأن ضرر هذا في الدين أعظم[1]

- قولهم في النبي ﷺ

منهم من يزعم أن النبي لا يصل إلى حالهم ومرتبتهم، وأنه كان جاهلًا بعلوم رجال الصوفيَّة.

ومنهم من يزعم أن الرسول هو قبة الكون، وهو الله المستوي على العرش، وأن السموات

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٧١- ١٧٣).

والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره، وأنه أول موجود.

ومنهم من يعتقد بشريته ورسالته، ولكنهم يستشفعون ويتوسلون به إلى الله على وجه يخالف ما جاء به القرآن والسنة.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: وأما من جوَّز أن يكون غير النبي أفضل منه، فهو من أقوال بعض ملاحدة المتأخرين من: غلاة الشيعة، والصوفيَّة، والمتفلسفة، ونحوهم[(١)]

وقال: وأما الغالية من الصنفين، فعندهم أن معرفتهم وحالهم فوق معرفة الأنبياء وحالهم، كما يقول التلمساني: القرآن يوصل إلى الجنة، وكلامنا يوصل إلى الله[(٢)]

وقال: صنف يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خوطب به موسى بن عمران، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد، القائلين بأن الوجود واحد، كصاحب الفصوص وأمثاله.

فإن هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الأنبياء، وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة السلام[(٣)]

وقال: حتى يقول احدهم كالتلمساني: كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة، وقد يقول بعضهم -كابن عربي-: إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبي. ويقول كثير منهم: إن القرآن للعامة وكلامنا للخاصة[(٤)]

وقال عن الاتحادية: تارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الملك الذي يوحى به إلى النبي، فيكونون فوق النبي بدرجة.

وتارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الله، فيكون أحدهم في علمه بنفسه بمنزلة علم الله به؛ لأن الأخذ من معدن واحد.

وتارة يزعم أحدهم أن النبي أعطاه في منامه هذا النفاق العظيم، والإلحاد البليغ، وأمره أن يخرج به إلى أمته، وأنه أبرزه كما حده له رسول الله من غير زيادة ولا نقصان[(٥)]

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: ومنهم من يدعى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وان الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما يزعم ذلك ابن عربي ضاحب «كتاب

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٠٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤، ١٢٨، ٤٩٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٠٠، ٢٠١).

الفتوحات المكية»، و«كتاب الفصوص»، فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه، كما يقال لمن قال: فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن[١]

وقال: والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خُلِقَ مما يُخْلَقُ منه البشر، ولم يُخْلَقْ أحد من البشر من نور؛ بل قد ثبت في الصحيح عن النبي: صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: **«إن الله خلق الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»**.

ومحمد سيد ولد آدم، وأفضل الخلق، وأكرمهم عليه، ومن هنا قال من قال: إن الله خلق من أجله العالم، أو إنه لولا هو لما خلق عرشًا، ولا كرسيًا، ولا سماءً ولا أرضًا ولا شمسًا ولا قمرًا، لكن ليس هذا حديثًا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا صحيحًا ولا ضعيفًا، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، بل ولا يعرف عن الصحابة، بل هو كلام لا يدرى قائله[٢]

وقال: وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الأنبياء والصالحين، والابتداع في العبادات، من الرهبانية والصور والأصوات.

ولهذا قال النبي ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد فقولوا: عَبْدُ اللهِ ورسولُه»**، ولهذا حقق الله له نعت العبودية في أرفع مقاماته حيث قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء: الآية ١] وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⁽١٠⁾﴾[النجم: الآية ١٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ⁽١٩⁾﴾[الجن: الآية ١٩] ولهذا يشرع في التشهد وفي سائر الخطب المشروعة؛ كخطب الجمع والأعياد، وخطب الحاجات عند النكاح وغيره، أن نقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وكان رسول الله ﷺ يحقق عبوديته؛ لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح، من دعوى الألوهية، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت. فقال: **«أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده»**، وقال أيضًا لأصحابه: **«لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد؛ بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»**، وقال: **«لا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ حيث ما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني»**، وقال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**، وقال: **«إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»**[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٩٤- ٩٦)، (٢/ ٢٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٦٥، ٦٦).

- قولهم في الأولياء وكراماتهم

الولي عند كثير منهم من يصدر عنه مكاشفة، أو خوارق العادات؛ كأن يطير في الهواء، أو يمشي على الماء... وما شابه، دون نظر إلى متابعته وموافقته للرسول ﷺ، بل قد يكون حاله مخالف لهديه ﷺ.

ومنهم من يزعم أنهم يرون الله في الدنيا ويباشرونه ويجالسونه، ويعانون الحور العين، وتظهر لهم الملائكة والشياطين.

أقوال العلماء

قال الأشعري: وقد جوز قوم من الصوفيَّة ظهور المعجزات على الصالحين، وأن تأتيهم ثمار الجنَّة في الدُّنيا فيأكلونها، ويواقعون الحورَ العينَ في الدُّنيا، ويظهر لهم الملائكة، ويظهر لهم الشياطين فيحاربونهم، ولم يجوِّزوا رؤية الله في الدُّنيا، وزعموا أن هذه مورايث الأعمال.

وجوَّز آخرون كل ما حكيناه عن المتقدمين، منهم وجوَّزوا أن يروا الله سبحانه في الدُّنيا، وأنْ يباشروه ويجالسوه[(١)].

وقال: وفيهم -أي النُّسَّاك- من يزعم أنَّ العبادةَ تبلغ بهم أن يروا الله سبحانه، ويأكلوا من ثمار الجنَّة، ويعانقوا الحورَ العينَ في الدنيا ويحاربوا الشياطين[(٢)].

وقال السكسكي: ويدَّعون أنهم قد ارتفعت درجتهم عن التعبدات اللازمة للعامة، وانكشفت لهم حجب الملكوت، واطلعوا على أسرارهم[(٣)].

نقض قولهم

وقال شيخ الإسلام: وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليًّا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة؛ مثل أن يشير إلى شخص فيموت؛ أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا؛ أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته؛ أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله وموافقته لأمره ونهيه. وكرامات أولياء الله تعالى أعظم؛ من هذه الأمور؛ وهذه

---

(١) مقالات الإسلاميين ص(٤٣٨، ٤٣٩).

(٢) مقالات الإسلاميين ص(٢٨٩).

(٣) البرهان ص(١٠٢).

الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليًا لله فقد يكون عدوًا لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز إن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولى لله؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة.

مثال ذلك: أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا يتوضأ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة؛ بل يكون ملابسًا للنجاسات معاشرًا للكلاب؛ يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل؛ رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية؛ ولا يتنظف وقد قال النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه جنب ولا كلب**»، وقال عن هذه الأخلية: «**إن هذه الحشوش محتضرة**»؛ أي يحضرها الشيطان وقال: «**من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**».

وقال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»، وقال: «**إن الله نظيف يحب النظافة**»، وقال: «**خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور**»، وفي رواية: «**الحية والعقرب**»، وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال: «**من اقتنى كلبًا لا يغني عنه زرعًا ولا ضرعًا نقص من عمله كل يوم قيراط**»، وقال: «**لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب**»، وقال: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب**».

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾.

فإذا كان الشخص مباشرا للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير، وآذان[1] الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر؛ ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن.

---

(١) كذا بالمطبوع.

قال ابن مسعود ﷺ: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن؛ فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله، وقال عثمان بن عفان ﷺ: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل، وقال ابن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

وإن كان الرجل خبيرا بحقائق الإيمان الباطنة فارقا بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية؛ فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: الآية ٥٢]. فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله» قال الترمذي حديث حسن. وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها؛ فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي، في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبئ الكذاب، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي؛ وغيرهم من الكذابين، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين[(١)].

وقال: أولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم كذلك.

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ: مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصا في كفه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه...

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًا مثل...

(١) مجموع الفتاوى (١١/٢١٣- ٢١٨)، (١/ ٨٢- ٨٥)، (١/١٧٣، ١٧٤).

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيًا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة.

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال «عبد الله بن صياد» الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان قال له النبي ﷺ: **«قد خبأت لك خبأ»** قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبي ﷺ: **«اخسأ فلن تعدو قدرك»**؛ يعني: إنما أنت من إخوان الكهان؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسم قال: **«إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»**...

والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة؛ فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه؛ حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب وكان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يرى الناس رجالًا وركبانًا على خيل في الهواء ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جنًّا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي؛ فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: **«ما فعل أسيرك البارحة»** فيقول زعم أنه لا يعود، فيقول: **«كذبك وإنه سيعود»** فلما كان في المرة الثالثة. قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] إلى آخرها فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي قال: **«صدقك وهو كذوب»** وأخبره أنه شيطان.

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطاني أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلامًا لا يعلم وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدرى بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه، وتكلم على لسانه؛ فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء؛ لأن الضرب كان على الجني الذي لبسه.

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهم الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما ومنهم من يحمله عشية عرفة، ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجًا شرعيًا؛ بل يذهب بثيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبي، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت؛ ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمى الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج، [ولهذا رأى بعض هؤلاء الملائكة تكتب الحجاج] فقال ألا تكتبوني؟ فقالوا: لست من الحجاج. يعني: حجًا شرعيًا.

وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٣]

فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سببًا لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها؛ فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار؛ فإذا حصل رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء كان ذلك الحي مسلمًا أو نصرانيًا أو مشركًا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان، ويقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى، وكثير من

الكفار بأرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل على زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا مَيِّتَهم بالنار كما تصنع كفار الهند فيظنون أنه عاش بعد موته.

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحدًا يغسلني فأنا أجيء وأغسِّلُ نفسي فلما مات رآى خادمه شخصًا في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه فلما قضى ذلك الداخل غسله -أي غسل الميت- غاب وكان ذلك شيطانًا، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضًا في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشًا في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول. ومنهم من يرى أشخاصًا في اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين، وقد جرى هذا لغير واحد، ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر: أما الصديق ﷺ أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ؛ فإن كان الإنسي كافرًا أو فاسقًا أو جاهلًا دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الأقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي إما في الهواء وإما مدفوعًا ملجأ إليه.

إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها، والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت السحر، والطاغوت الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعًا لله ورسوله باطنًا وظاهرًا لم يمكنهم الدخول معه في ذلك أو مسالمته.

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية؛ فإنه ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال: «إن من أمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلًا،

ولكن صاحبكم خليل الله، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك».

وفي الصحيحين عنه أنه ذكر له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة، وذكروا من حسنها وتصاوير فيها فقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيها تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه قال: «إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة، وهم أحياء والذين اتخذوا القبور مساجد».

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» وفي الموطأ عنه أنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وفي السنن عنه أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني».

وقال ﷺ: «ما من رجل يسلم علي إلا ردَّ الله على روحي حتى أردَّ عليه السلام»، وقال ﷺ: «إن الله وكَّل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام»، وقال ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة؛ فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول الله! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت -أي بليت-؟ فقال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء».

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: الآية ٢٣] قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان، فنهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين، فسد هذا الباب.

والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها -كما يفعل أهل دعوة الكواكب- فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانية الكواكب، وهو شيطان، والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه، وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه، وكذلك عباد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد، ويروون حديثًا هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»، وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك.

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من

المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه، يفعل الشيطان هذا ليضلهم، وإذا قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا، فإن التوحيد يطرد الشيطان؛ ولهذا حمل بعضهم في الهواء فقال: لا إله إلا الله فسقط.

ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان.

وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع.

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله صارت الشياطين كثيرًا ما تأوي إلى المغارات والجبال مثل مغارة الدم التي بجبل قاسيون، وجبل لبنان الذي بساحل الشام، وجبل الفتح بأسوان بمصر، وجبال بالروم وخراسان وجبال بالجزيرة، وغير ذلك، وجبل اللكام، وجبل الأحيش، وجبل سولان قرب أردبيل، وجبل شهنك عند تبريز، وجبل ماشكو عند أقشوان، وجبل نهاوند، وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالًا من الصالحين من الإنس ويسمونهم رجال الغيب، وإنما هناك رجال من الجن، فالجن رجال كما أن الإنس رجال، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾ [الجن: الآية ٦]

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعراني جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لا يعرفه أنه إنسي وإنما هو جني، ويقال بكل جبل من هذه الجبال الأربعون الأبدال، وهؤلاء الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال، كما يعرف ذلك بطرق متعددة.

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر الذي كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك.

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام:

قسم يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق به مجملًا وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليًا لله

وكلا الأمرين خطأ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله، وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة.

والصواب القول الثالث وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٥١]، وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله؛ لكن خوارق هؤلاء

يعارض بعضها بعضًا، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلًا، أو عمدًا، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝﴾. والأفاك الكذاب والأثيم الفاجر.

ومن أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي وهو سماع المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من السلف «التصدية» التصفيق باليد، و«المكاء» مثل الصفير، فكان المشركون يتخذون هذا عبادة، وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك، والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبي وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف، ولا تواجد ولا سقطت بردته؛ بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه.

وكان أصحاب النبي إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ، والباقون يستمعون. . .

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر وهو بمنزلة الخمر، يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر؛ ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين، وتكلمت على ألسنة بعضهم، وحملت بعضهم في الهواء، وقد تحصل عداوة بينهم، كما تحصل بين شراب الخمر فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله وهو من أحوال الشياطين؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أولياءه؟! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع به درجته.

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات، ومنها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى.

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رفعة وقربًا إلى الله ورسوله، وعلت درجته وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين؛ ولهذا كثيرًا ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها، كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه، وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفساق، وتارة يرتد عن الإسلام، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية؛ فإن كثيرًا من هؤلاء يرتد عن الإسلام، وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية بل يظنها من كرامات أولياء الله، ويظن من يظن منهم أن الله عز

وجل إذا أعطى عبدًا خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبدًا ملكًا ومالًا وتصرفًا لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأمورًا بها ولا منهيًّا عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء، وهم الأبرار، المقتصدون، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء، كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملك.

ولما كانت الخوارق كثيرًا ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب كالزنى والسرقة، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها، وكلهم يأمر المريد السالك ألا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يتبجح بها، مع ظنهم أنها كرامات؛ فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها، فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول: هنيئًا لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك، وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنس ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له أنا من أمر الله، ويعده بأنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ويظهر له الخوارق، مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء؛ فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يمينًا أو شمالًا ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له علامة إنك أنت المهدي إنك تنبت في جسدك شامة فتنبت ويراها وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان.

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير، وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ﴾[الهُمَزة: الآية ٤] ولفظ «كلا» فيها زجر وتنبيه. زجر عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرمًا له بها، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهينًا له بذلك، بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطى النعم الدنيوية لمن لا يحبه، ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك، وقد يحمي منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه.

وأيضا كرامات الأولياء لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك: مثل دعاء الميت والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات: كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص؛ لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلًا طويلًا؛ فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدًا أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد، فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٣٦]

فالقرآن هو ذكر الرحمن قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ يعني: تركت العمل بها، قال ابن عباس ﷺ: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية[١]

- **قولهم في خاتم الأولياء**

بعضهم يرى ختم الولاية، وادعى جماعة منهم لنفسه أنه خاتم الأولياء، وهو عندهم أفضل الأولياء قياسًا على خاتم الأنبياء، ويرون أن خاتم الأولياء اختص بعلم لا يوجد عند غيره حتى الرسل.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: تكلم طائفة من الصوفيَّة في خاتم الأولياء وعظموا أمره كالحكيم الترمذي -وهو من غلطاته؛ فإن الغالب على كلامه الصحة بخلاف ابن عربي؛ فإنه كثير التخليط، لا سيما في الاتحاد، وابن عربي وغيرهم،

وادعى جماعة كل واحد أنه هو كابن عربي، وربما قيده بأنه ختم الولاية المحمدية، أو الكاملة، أو نحو ذلك؛ لئلا يلزمه ألَّا يخلق بعده لله ولي، وربما غلوا فيه، كما فعل ابن عربي في فصوصه فجعلوه مُمِدًّا في الباطن لخاتم الأنبياء، تبعًا لغلوهم الباطل، حيث قد يجعلون الولاية فوق النبوة[٢]

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٤- ٣٠٢)، (١١/ ٣٠٧- ٣١٠)، (١١/ ٥٣٧، ٥٣٨)، (١١/ ٦٠٨)، (١١/ ٦١٨، ٦١٩)، (١١/ ٦١٠، ٦١١)، (١١/ ٦٦٤- ٦٦٩)، (١/ ٢٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٦٣).

وقال: تكلم أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذي في كتاب ختم الولاية بكلام: مردود مخالف، للكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة، حيث غلا في ذكر الولاية، وما ذكره من خاتم الأولياء، وعصمة الأولياء، ونحو ذلك مما هو مقدمة لضلال ابن عربي، وأمثاله، الذين تكلموا في هذا الباب بالباطل، والعدوان(١).

وقال: وقد ظن طائفة غالطة أن «خاتم الأولياء أفضل الأولياء»، قياسًا على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن على الحكيم الترمذي؛ فإنه صنف مصنفًا غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء(٢)

وقال ابن عربي: وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ﷺ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى أن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة -أعني نبوة التشريع ورسالته- ينقطعان، والولاية لا تنقطع أبدًا...

كل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي، ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته، فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين» وغيره من الأنبياء، ما كان نبيًّا إلا حين بعث.

وكذلك خاتم الأولياء، كان وليًّا وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان وليًّا إلا بعد تحصيله شرائط الولاية، من الأخلاق الإلهية، والاتصاف بها من أجل كون الله يسمى بالولي الحميد(٣).

نقض قولهم

قال شيخ الإسلام: فنقول: هذه تسمية باطلة، ولا أصل لها في كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولًا عامًّا، لكن يعلم من حيث الجملة أن آخر من بقى من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر أولياء الله.

ونقول ثانيا: إن آخر الأولياء، أو خاتمهم، سواء كان المحقق، أو فرض مقدر، ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الأولياء، فضلًا عن أن يكون أفضلهم، وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء، لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم، وتوهموا من ذلك قياسًا بمجرد الاشتراك في لفظ خاتم، فقالوا: خاتم

الأولياء أفضلهم، وهذا خطأ في الاستدلال؛ فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتمًا، بل لأدلة أخرى دلت على ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٧٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٠٧- ٢٠٩).

ثم نقول: بل أول الأولياء في هذه الأمة، وسابقهم هو أفضلهم فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء، وأفضل الأولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء، وذلك لأن الولي مستفيد من النبي وتابع له، فكلما قرب من النبي كان أفضل وكلما بعد عنه كان بالعكس، بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هي من الله، فليس في تأخره زمانًا ما يوجب تأخر مرتبته، بل قد يجمع الله له ما فرقه في غيره من الأنبياء فهذا الأمر الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم، هو الذي دل عليه الكتاب والسنن المتواترة وإجماع السلف، ويتصل بهذا ظن طوائف أن من المتأخرين من قد يكون أفضل من أفاضل الصحابة، ويوجد هذا في المتنسبين إلى العلم، وإلى العبادة، وإلى الجهاد، والإمارة والملك، حتى في المتفقهة من قال: أبو حنيفة أفقه من علي، وقال بعضهم: يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر.

ويتمسكون تارة بشبه عقلية، أو ذوقية، من جهة أن متأخري كل فن يحكمونه أكثر من المتقدمين، فإنهم يستفيدون علوم الأولين مع العلوم التي اختصوا بها، كما هو موجود في أهل الحساب، والطبائعيين والمنجمين وغيرهم.

ومن جهة الذوق، وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين، من المشاهدات العرفانية، والكرامات الخارقة، ما لم ينقل مثله عن السلف، وتارة يستدلون بشبه نقلية مثل قوله: «للعامل منهم أجر خمسين منكم»، وقوله: «أمتي كالغيث لا يدري أوله خير أم آخره؟»، وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود، وعمران بن حصين و مما هو في الصحيحين، أو أحدهما، من قوله: «خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وقوله: «والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». وغير ذلك من الأحاديث.

وخلاف إجماع السلف: كقول ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد. وقول حذيفة: يا معشر القراء استقيموا، وخذوا سبيل من كان قبلكم، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا. ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا وقول ابن مسعود: من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» وقول جندب وغيره مما هو كثير مكتوب في غير هذا الموضع، بل خلاف نصوص القرآن في مثل قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: الآية ١٠] الآية. وغير ذلك؛ فإنه لم يكن الغرض بهذا الموضع هذه المسألة، وإنما الغرض: الكلام على خاتم الأولياء.

ومما يشبه هذا ظن طائفة كابن هود، وابن سبعين، والنفري، والتلمساني: أن الشيء المتأخر ينبغي أن يكون أفضل من المتقدم، لاعتقادهم أن العالم متنقل من الابتداء إلى الانتهاء كالصبي الذي يكبر بعد صغره، والنبات الذي ينمو بعد ضعفه، ويبنون على ذلك أن المسيح أفضل من موسى، ويبعدون ذلك إلى أن يجعلوا بعد محمد واحدًا من البشر أكمل منه، كما تقوله الإسماعيلية، والقرامطة، والباطنية، فليس على هذا دليل أصلًا: أن كل من تأخر زمانه من نوع، يكون أفضل ذلك النوع، فلا هو مطرد ولا منعكس، بل إبراهيم الخليل قد ثبت بقول النبي ﷺ: **«أنه خير البرية»**؛ أي بعد النبي وكذلك قال الربيع بن خيثم: **«لا أفضل على نبينا أحدًا، ولا أفضل على إبراهيم بعد نبينا أحدًا وبعده جميع الأنبياء المتبعين لملته مثل موسى وعيسى وغيرهما»** وكذلك أنبياء بني إسرائيل كلهم بعد موسى، وقد أجمع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى على أن موسى أفضل من غيره من أنبياء بني إسرائيل، إلا ما يتنازعون فيه من المسيح.

والقرآن قد شهد في آيتين لأولي العزم فقال في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: الآية ٧] ، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: الآية ١٣] فهؤلاء الخمسة أولوا العزم. وهم الذين قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحاح: أنهم يترادون الشفاعة في أهل الموقف بعد آدم، فيجب تفضيلهم على نبيهم، وفيه تفضيل لمتقدم على متأخر، ولمتأخر على متقدم.

وأصل الغلط في هذا الباب: أن تفضيل الأنبياء، أو الأولياء، أو العلماء، أو الأمراء بالتقدم في الزمان، أو التأخر أصل باطل، فتارة يكون الفضل في متقدم النوع، وتارة في متأخر النوع؛ ولهذا يوجد في أهل النحو، والطب والحساب ما يفضل فيه المتقدم كبطليموس، وسيبويه، وبقراط وتارة بالعكس.

وأما توهمهم أن متأخري كل فن أحذق من متقدميه؛ لأنهم كملوه، فهذا منتقض أولًا: ليس بمطرد، فإن كتاب سيبويه في العربية لم يصنف بعده مثله، بل وكتاب بطليموس، بل نصوص بقراط لم يصنف بعدها أكمل منها.

ثم نقول: هذا قد يسلم في الفنون التي تنال: بالقياس والرأي، والحيلة أما الفضائل المتعلقة باتباع الأنبياء فكل من كان إلى الأنبياء اقرب مع كمال فطرته: كان تلقيه عنهم أعظم، وما يحسن فيه هو من الفضائل الدينية، المأخوذة عن الأنبياء، ولهذا كان من يخالف ذلك هو من المبتدعة، الخارج عن سنن الأنبياء، المعتقد أن له نصيبًا من العلوم والأحوال خارجًا عن طور الأنبياء، فكل من كان بالنبوة وقدرها أعظم كان رسوخه في هذه المسألة أشد.

وأما الأذواق والكرامات فمنها ما هو باطل، والحق منه كان للسلف أكمل، وأفضل بلا شك، وخرق العادة: تارة يكون لحاجة العبد إلى ذلك، وقد يكون أفضل منه لا تخرق له تلك العادة، فإن خرقها له سبب، وله غاية، فالكامل قد يرتقى عن ذلك السبب، وقد لا يحتاج إلى

تلك الغاية المقصودة بها ومع هذا فما للمتأخرين كرامة إلا وللسلف من نوعها ما هو أكمل منها.

وأما قوله: لهم أجر خمسين منكم لأنكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدون على الخير أعوانًا. فهذا صحيح، إذا عمل الواحد من المتأخرين مثل عمل عمله بعض المتقدمين كان له أجر خمسين، لكن لا يتصور أن بعض المتأخرين يعمل مثل عمل بعض أكابر السابقين، كأبي بكر وعمر، فإنه ما بقي يبعث نبي مثل محمد، يعمل معه مثلما عملوا مع محمد ﷺ.

وأما قوله: **«أمتي كالغيث لا يدري أوله خير أم آخره»** مع أن لينا فمعناه: في المتأخرين من يشبه المتقدمين، ويقاربهم حتى يبقى لقوة المشابهة والمقارنة، لا يدرى الذي ينظر إليه، أهذا خير أم هذا؟ وإن كان أحدهما في نفس الأمر خيرًا. فهذا فيه بشرى للمتأخرين بأن فيهم من يقارب السابقين، كما جاء في الحديث الآخر: **«خير أمتي أولها وآخرها وبين ذلك ثبج أو عوج وددت أني رأيت إخواني»** قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: **«أنتم أصحابي»** هو تفضيل للصحابة، فإن لهم خصوصية الصحبة التي هي أكمل من مجرد الأخوة.

وكذلك قوله: **«أي الناس أعجب إيمانًا»** إلى قوله: **«قوم يأتون بعدي يؤمنون بالورق المعلق»** هو يدل على أن إيمانهم عجب، أعجب من إيمان غيرهم، ولا يدل على أنهم أفضل، فإن في الحديث أنهم ذكروا الملائكة والأنبياء، ومعلوم أن الأنبياء أفضل من هؤلاء الذين يؤمنون بالورق المعلق.

ونظيره كون الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فإنه لا يدل على أنهم بعد الدخول يكونون ارفع مرتبة من جميع الأغنياء، وإنما سبقوا لسلامتهم من الحساب.

وهذا باب التفضيل بين الأنواع في الأعيان، والأعمال والصفات أو بين أشخاص النوع باب عظيم، يغلط فيه خلق كثير، والله يهدينا سواء الصراط[(١)]

- قولهم في الغوث والأوتاد والأقطاب والأبدال والنجباء

كثير منهم يستعمل هذه الأسماء، وهي عندهم ذات أعداد وترتيب ومراتب وطبقات ومعان.

أقوال العلماء

قال شيخ الإسلام: الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل «الغوث» الذي بمكة، والأوتاد الأربعة، والأقطاب السبعة، و«الأبدال الأربعين»، و«النجباء الثلاثمائة»، فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى، ولا هي أيضًا مأثورة عن النبي بإسناد صحيح، ولا ضعيف يحمل عليه ألفاظ الأبدال.

فقد روى فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: **«إن فيهم -يعني: أهل الشام- الأبدال الأربعين رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلًا»**.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٦٥- ٣٧٢)، (٢/ ٢٢٢- ٢٤٠)، (١١/ ٤٤٤).

ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ، المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ؛ وقد قالها أما آثرًا لها عن غيره أو ذاكرًا.

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب رده وصار كثير من الناس على طرفي نقيض.

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل.

وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي عليه السلام عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة.

فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنسخ أخرى وهذا الدين لا ينسخ أبدًا لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفًا عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون.

فالكتب المنزلة من السماء، والأثارة من العلم المأثورة عن خاتم الأنبياء، يميز الله بها الحق من الباطل، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد، والترتيب والطبقات ليست حقًّا في كل زمان، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل؛ فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة، ويكثرون أخرى، وينتقلون في الأمكنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد.

وقد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقل من سبعة، ثم أقل من أربعين، ثم أقل من سبعين، ثم أقل من ثلاثمائة، فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الأعداد، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكفار ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة، ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وإن كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها، ومن الممتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون أفضل منهم.

ثم إن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المتقين؛ بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لا يحصى عدده إلا رب العالمين، لا يحصرون بثلاثمائة

ولا بثلاثة آلاف، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين؛ بل من السابقين المقربين من لا يعرف عدده، وليسوا بمحصورين بعدد ولا محدودين بأمد، وكل من جعل لهم عددًا محصورًا فهو من المبطلين عمدًا أو خطأ، فنسأله من كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة، في زمن آدم ونوح وإبراهيم، وقبل محمد عليهم الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامة الناس كفرة؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: الآية ١٢٠]؛ أي: كان مؤمنًا وحده وكان الناس كفارًا جميعًا. وفي صحيح البخاري أنه قال لسارة: «ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك»، وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢]

وإن زعموا أنهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم في أي زمان كانوا؟ ومن أول هؤلاء؟ وبأية آية؟ وبأي حديث مشهور في الكتب الستة وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده؟ لأن العقائد لا تعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة، ومن البرهان العقلي: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١١] فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون، بلا ريب فلا نعتقد أكاذيبهم.

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الواسطة، كروح الله، وناقة الله. تدبر ولا تتحير، واحفظ القاعدة حفظًا.

فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، ولا بملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٦٧] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل: الآية ٦٢]

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب؟ وهو القائل تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦] وقال إبراهيم عليه السلام داعيا لأهل مكة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾، وقال النبي عليه السلام لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر: «أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، وإنما

تدعون سميعا قريبا ؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وهذا باب واسع.

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم، ولا ظاهرا ولا باطنا بهذه الوسائط والحجاب، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علوا كبيرا، وهذا من جنس دعوى الرافضة انه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الإيمان إلا به ثم مع هذا يقولون: إنه كان صبيا دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة، ولا يعرف له عين ولا أثر، ولا يدرك له حس ولا خبر.

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه؛ بل هذا الترتيب والإعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية، والنصيرية، ونحوهم في السابق والتالي والناطق والأساس والجسد، وغير ذلك من الترتيب الذي ما نزل الله به من سلطان.

«وأما الأوتاد»؛ فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول: فلان من الأوتاد يعني بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان والدين في قلوب من يهديهم الله به، كما يثبت الأرض بأوتادها، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة، والجبال الكبيرة، ومن كان بدونه كان بحسبه، وليس ذلك محصورا في أربعة ولا أقل ولا أكثر، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض.

«وأما القطب» فيوجد أيضا في كلامهم فلان من الأقطاب، أو فلان قطب؛ فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا، باطنا أو ظاهرا، فهو قطب ذلك الأمر ومداره، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه، أو قريته أو مدينته، أمر دينها أو دنياها، باطنا أو ظاهرا، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر لكن الممدوح من ذلك من كان مدارا لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا؛ فهذا هو القطب في عرفهم، فقد يتفق في بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره، وقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء ولا يجب أن يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقا.

وكذلك لفظ «البدل» جاء في كلام كثير منهم، فأما الحديث المرفوع فالأشبه انه ليس من كلام النبي عليه السلام فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام، وكانت الشام والعراق دار كفر، ثم لما كان في خلافة علي ﷺ قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال: «تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام، ومعلوم أن الذين كانوا مع علي ﷺ من الصحابة مثل عمار بن ياسر، وسهل بن حنيف ونحوهما، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية وإن كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين أفضل ممن كان معهما، فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام؟!،

هذا باطل قطعا، وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدرا.

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط، فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] وفي قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٩] ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٣٥] وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥]

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان: منها أنهم أبدال الأنبياء، ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلًا، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات. وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر. ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض، وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم «النجباء».

فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مثل تفسير بعضهم «الغوث» هو الذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم، فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والأثر، شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة.

وكذلك من فسر «الأربعين الأبدال» بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين، وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر؛ كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال يا رسول الله! الرجل يكون حامية القوم، أيسهم له مثل ما يسهم لأضعفهم؟ فقال: **«يا سعد، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»**.

وقد يكون للرزق والنصر أسباب أخر؛ فإن الفجار والكفار أيضًا يرزقون وينصرون، وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم، فجميع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب، وقد يملي للكفار ويرسل السماء عليهم مدرارًا؛ ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر، وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة فليس كل إنعام كرامة، ولا كل امتحان عقوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾.

وليس في أولياء الله المتقين؛ ولا عباد الله المخلصين، الصالحين ولا أنبيائه المرسلين، من كان غائب الجسد دائمًا عن أبصار الناس بل هذا من جنس قول القائلين: إن عليًا في السحاب، وإن محمد بن الحنفية في الجبال رضوى، وإن محمد بن الحسن بسرداب سامرى، وإن الحاكم بجبل مصر،

وإن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان، فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان؛ نعم قد تخرق العادة في حق الشخص، فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه، وإما لغير ذلك، وإما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل، نعم! يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره، ومعرفته غيبا عن أعين الناس، ويكون صلاحه وولايته غيبًا عن أكثر الناس فهذا هو الواقع وأسرار الحق بينه وبين أوليائه وأكثر الناس لا يعلمون، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقًا، واندرج في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع[1].

(١) مجموع الفتاوى (١١/٤٣٣- ٤٤٤).

فهرس

الباب الثاني: الشِّيعة

الباب الخامس: الجَبْرِيَّةُ

الباب السادس: المُعَطِّلَة

الباب السابع: المُمثِّلة والمُجَسِّمَة

الباب الثامن: الصوفيَّة



دار ابن الجوزي
جمهورية مصر العربية - القاهرة
٥ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com



الموسوعة المفصلة

في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة

3



إعداد / مكتب التبيان

إشراف علمي

حسن عبد الحفيظ أبو الخير

دار ابن الجوزي القاهرة

الموسوعة المفصلة

في

الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات

القديمة والمعاصرة

إعداد

مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث

لصاحبه أبو عيسى محمد بن حسين المصري

إشراف علمي

حسن عبد الحفيظ عبد الرحمن أبو الخير

الجزء الثاني

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
٢٠١١

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٣٤٤٧

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة

٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠

E-mail: dar_ebnelgawzy@yahoo.com

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

الأديان والمناهب الفكرية
والأحزاب والحركات المعاصرة

القسم الأول: اليهود.
القسم الثاني: النصارى.
القسم الثالث: الملل.
القسم الرابع: المذاهب الفكرية المعاصرة.
القسم الخامس: الأحزاب والحركات المعاصرة.

القسم الأول

اليهود

الباب الأول: تاريخ وعقائد اليهود.

الباب الثاني: فرق اليهود.

الباب الثالث: كتاب اليهود المقدس.

الباب الرابع: التَّلمود.

الباب الخامس: الصهيونيَّة.

الباب السادس: الماسونيَّة.

الباب السابع: المخلِّص المنتظَر.

الباب الأول

تاريخ وعقائد اليهود

الفصل الأول: تاريخ اليهود.

الفصل الثاني: عقائد اليهود.

الفصل الثالث: أعياد اليهود.

الفصل الرابع: الجذور الفكريَّة والعقائدية لليهود.

الفصل الخامس: الصوفيَّة اليهوديَّة (القبَّالاه).

الفصل الأول

تاريخ اليهود

يذهب كثيرٌ من الناس إلى أن تاريخ اليهود متصل اتصالًا وثيقًا بتاريخ بني إسرائيل، ومن قبله إبراهيم، وهؤلاء هم اليهود والنصارى وباحثوهم، وطائفة من الباحثين المسلمين.

ويذهب آخرون إلى قطع الصلة بين تاريخ اليهود وتاريخ بني إسرائيل، ومن ثَمَّ تاريخ إبراهيم وبنيه، وهؤلاء طائفة من الباحثين النصارى والمسلمين.

وهذا الاضطراب له أسباب كثيرة:

منها: المصطلحات المستعملة (مثل: اليهود، العبرانيون، الإسرائيليون، . . .)، والاختلاف في تفسير هذه المصطلحات.

ومنها: التداخل المتعمد -من قِبَل اليهود وغيرهم- لدينهم مع تاريخهم، فيجعلون كتابهم المقدس سجلًا لتاريخهم.

والذي يظهر لي أن اليهود هم امتداد لبني إسرائيل -الذي هو يعقوب-، وظهر لهم هذا الاسم -يهود- في فترة لاحقة لفترة بني إسرائيل، وفي تحديد هذه الفترة احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يكون ظهور هذا الاسم لهم في عهد موسى عليه السلام، وهو من يهود الشعب، أو المختارين منهم، أي رجوعهم وتوبتهم.

الاحتمال الثاني: أن يكون ظهور هذا الاسم بعد عهد سليمان، في مملكة يهوذا الجنوبية وذلك لكثرة سبط يهوذا -أحد أولاد يعقوب- فيها فلقبت باسمه، وفي هذه الفترة كان يطلق الاسم على بعض بني إسرائيل، ثم بعد دمار المملكة الشماليَّة لم يبق إلا مُلك يهوذا فغلب على بني إسرائيل اسم يهود، إلى عهد الرومان الذين فرقوهم في الأقطار باسم اليهود ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط، ثم صار اسم اليهود مطلقًا على المتدينين بدين التوراة. وهذا الاحتمال الثاني أرجح.

وعلى كلٍّ فلا يوجد ثمة صلة دينية بين إبراهيم وبنيه إلى الأسباط، وبين اليهود.

وفي هذا كله أبحاث، والله أعلم.

وعلى ما تقدم نقول: يبدأ تاريخ بني إسرائيل بيعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد سُمي يعقوب فيما بعد: إسرائيل، وهو قد نشأ وعاش في أرض الكنعانيين (أرض فلسطين)، وولد له اثنا عشر من الولد، وكل واحد منهم ولَد أمة تسمى سِبطًا ينسب إليه، فأسباط إسرائيل هم ذرية يعقوب من أبنائه الاثني عشر.

ولما حدثت قصة يوسف بن يعقوب المشهورة مع إخوته وأبيهم يعقوب والتي تم على أثرها أن دخل يعقوب وأبناؤه مصر هربًا من المجاعة، فعاشوا فيها معززين مكرمين في ظل يوسف عليه

السلام، وكان ذلك إبان سيطرة الهكسوس عليها، ولما أُخرج الهكسوس من مصر، أذل المصريون بني إسرائيل -أحفاد يوسف وإخوته- وساموهم أصناف العذاب، واضطهدهم فرعون مصر الموجود آنذاك واستعبدهم.

ثم بعث الله إليهم موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل، ولد في مصر أيام فرعونها رمسيس الثاني على الأرجح ١٣٠١- ١٢٣٤ ق.م. وقد تربى في قصر هذا الفرعون بعد أن ألقته أمه في النهر داخل تابوت عندما خافت عليه من فرعون، الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، فألقى النهر التابوتَ إلى قصر فرعون فأخذته امرأة فرعون ولم تدع فرعون يقتله، وتربى بذلك في قصر فرعون.

ولما شبَّ موسى رأى مصريًا يضرب عبرانيًا من شيعة موسى، فوكز موسى المصريَّ فمات دون أن يقصد قتله، فخرج من مصر إلى مدين حيث عمل راعيًا لدى شيخ صالح هناك، قيل: إنه شعيب عليه السلام الذي زوجه إحدى ابنتيه.

وفي طريق عودته إلى مصر أوحى الله إليه في سيناء بالرسالة، وأمره أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون وقومه لدعوته إلى الإيمان بالله وحده ولخلاص بني إسرائيل، فلما دعوا فرعون إلى ذلك لم يستجب لهما، وأجرى الله على يد موسى من المعجزات والآيات الكثيرة ولكن فرعون أعرض عنهما، وناصبهما العداء.

فخرج موسى ببني إسرائيل من مصر وقد كان ذلك سنة ١٢١١ق.م في عهد فرعونها «منفتاح» الذي خلف أباه رمسيس الثاني (على أحد الأقوال)، ولحق بهم هذا الفرعون، لكن الله أغرقه في اليم، ونجَّى موسى وقومه إلى أرض سيناء.

وفي صحراء سيناء صعد موسى الجبلَ ليكلم ربه وليأخذ الألواح، لكنه لما عاد وجد غالب قومه قد عكفوا على عجل من ذهب صنعه لهم السامري فزجرهم موسى، ولما أمرهم بدخول فلسطين امتنعوا عليه وقالوا له: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

فلما حاورهم رجال من بني جلدتهم في ذلك قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

هنا دعا موسى على قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. فكان سببًا في غضب الله عليهم وتركهم يتيهون في الصحراء أربعين سنة، مات خلالها موسى ودفن في كثيب أحمر دون أن يدخل فلسطين.

ومات قبله أخوه هارون ودفن في جبل هور، ويذكر المؤرخون أن الذين كانوا مع موسى ماتوا كلهم في التيه، باستثناء اثنين كان يوشع (يشوع) بن نون أحدهما.

ثم تولى يوشع بن نون القيادة بعد موسى، ولما انقضت مدة التيه دخل ببني إسرائيل عن طريق شرقي نهر الأردن إلى أريحا، ومنها إلى عدة مدن داخلية، وتنسبُ نصوصُ العهد القديم إلى يوشع

مذابح الدموية في المدن التي دخلها، وقد مات يوشع سنة ١١٣٠ق.م.

وتم تقسيم الأرض المفتوحة بين الاثني عشر سبطاً، الأمر الذي أضعف قوتهم، وبذلك انحصرت دولتهم في عدد من القرى الصغيرة على رأس كل منها قاضٍ أصله كاهن، وكثرت النزعات والحروب الداخلية والخارجية بينهم وبين غيرهم من السكان الأصليين، وتكرر حوادث الارتداد والكفر؛ فيُذكر أنهم في هذه الفترة ارتدوا عن عبادة الله تعالى سبع مرات على الأقل إذ عبدوا عددًا من الأوثان مثل: بعليم (البعل)، وعيشتارون، وملكوم، . . . ، وقد استمرت هذه الفترة حوالي ١٤٠ عامًا حسب تقدير المؤرخين.

وآخر هؤلاء القضاة هو صموئيل الذي توّج شاءول ملكاً عليهم -وهو الذي يسميه القرآن طالوت- بطلب من بني إسرائيل ليقاتلوا به عدوهم، في حدود سنة ١٠٢٥ق.م، فانتقل بهم من حالة البداوة إلى حالة التمدن والاستقرار. ومع ذلك لم تتجاوز مملكته حدود قبيلته، وفي فترة حكمه ظلت الحروب بين بني إسرائيل وغيرهم من المجاورين.

وفي إحدى المعارك مع الفلسطنيين السكان الأصليين كان داود في جيش شاءول، واستطاع داود صرع العملاق جلياط (جَالُوت) بالمقلاع، الأمر الذي عزز مكانته بين بني إسرائيل لِيُتَوِّجَه صموئيل ملكًا عليهم (١٠٠٤- ٩٦٥ق.م) ليصبح الملك الثاني لهم، مع كونه نبيًّا، أعطاه الله الزبور، وألان له الحديد، واتخذ من القدس (أورشليم) عاصمة لمملكته وبنى فيها معبدًا وأودع فيه تابوت العهد، وقد دام حكمه أربعين سنة، وتنسب إليه نصوص العهد القديم ما لا يليق بالأنبياء.

ثم خلف سليمانُ بن داود عليهما السلام أباه، وبنى المعبد (الهيكل) الذي كان أمر وشرع أبوه في بنائه، وكان نبيًّا وحباه الله بالحكمة وفصل الخطاب، وأنعم عليه بتسخير الرياح والجن وعلمه منطق الطير، ودانت له مملكة سبأ.

وبعد موت سليمان جاء بعده رَحُبْعَام ابنه الذي صار ملكًا عليهم سنة ٩٣٥ ق.م إلا أنه لم يحظ بمبايعة الأسباط سوى قبيلتين وهما سبطا يهوذا وبنيامين، بينما مال باقي الأسباط الاثني عشر إلى يَرُبْعَام، مما أدى إلى انقسام المملكة إلى قسمين:

١- المملكة الشماليَّة، واسمها إسرائيل، وعاصمتها شكيم، ويحكمها يربعام.

٢- المملكة الجنوبية، واسمها يهوذا، وعاصمتها أورشليم، ويحكمها رحبعام.

وحكم في كل من المملكتين ١٩ ملكاً، واتصل المُلك في ذرية سليمان في مملكة يهوذا فيما تنقل في عدد من الأسر في مملكة إسرائيل، وطوال هذه الفترة وقع بنو إسرائيل في الردة والكفر والفجور مرات عديدة في أزمنة مختلفة، وجاء كثير من الأنبياء لتردهم عن ذلك فكذبوهم وأثخنوا فيهم بالقتل.

ثم وقع اليهود الإسرائيليون في سنة ٧٢١ ق.م تحت قبضة الآشوريين في عهد الملك سرجون الثاني ملك آشور فقضى عليها ودمرها نهائيًّا ونقل من بقي منهم أسرى إلى آشور (العراق)، فزالوا

من التاريخ تمامًا.

وبقيت مملكة يهوذا الجنوبية إلى أن جاء فرعون مصر فزحف عليها سنة ٦٠٨ق.م فاحتلها واستمر في زحفه حتى احتل مملكة إسرائيل التي كانت سقطت تحت سلطة الآشوريين، وقد ثار لذلك البابليون الذين خلفوا الآشوريين وورثوا ممتلكاتهم فجاءوا بقيادة نبوخذ نصر (بختنصر) فهزم فرعون مصر واستعاد مملكة إسرائيل، ثم احتل مملكة يهوذا ودمر أورشليم وأحرق المعبد (الهيكل) وسبى من بقي من بني إسرائيل إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م وهذا هو التدمير الأول للمدينة والمعبد، وبذلك سقطت مملكة يهوذا، أو ما تبقى من مملكة بني إسرائيل.

وعاش بني إسرائيل في المنفى أو السبي البابلي مدة طويلة انحرفوا خلالها عن الدين الحق وتأثروا بوثنية أسيادهم البابلين ومن جاء بعدهم.

وفي سنة ٥٣٨ ق.م احتل الفرسُ بلادَ بابل وورثوا ممتلاكاتهم، وقد سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة إلى فلسطين سنة ٥٣٦ق.م، ولكن لم يرجع منهم إلا القليل، وسمح لهم بإعادة بناء أورشليم والهيكل.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه منذ ذلك الزمان يختفي ذكر الأسباط العشرة الأخرى، فمن عاد منهم إلى فلسطين اختلط بسبطي يهوذا وبنيامين، وفي ذلك الحين سمي الإسرائيليون يهودًا.

وظل اليهود تحت حكم الفرس، واستمرّوا يدفعون الجزية لهم، وتمتَّع اليهود بقسط كبير من الحرية أيام حكمهم، ولكن لم يقم وقتئذ ملوك عليهم، بل ولّى عليهم الأنبياء والقادة والكهنة، من أمثال: زروبابل القائد الذي قام بإعادة بناء الهيكل، ويشوع الكاهن بن يهوصاداق الملقب أيضًا بهوشع، ثم بعدهما عزرا، ثم نحميا، وذلك بمعاونة مجلس أعلى سُمّيَ بمجلس السنهدرين، قوامه سبعون من الشيوخ يرأسهم رئيس الكهنة، كمحكمة عُليا للأمة اليهوديَّة.

وفي سنة ٣٣٤ ق. م خضع الفُرس للإسكندر الأكبر المقدوني اليوناني، وخضع اليهود له تبعًا لذلك حتى وفاته عام ٣٢٣ ق. م.

ثم خضع اليهود بعده للبطالسة المصريين تحت حكم بطليموس سوتر أحد قادة الإسكندر الأربعة الذين اقتسموا مملكته بعد وفاته.

واستمرّوا كذلك حتى عام ٢٠٣ق.م فخضعوا للسلوقيين -نسبة إلى سلوقس الأول أحد قوّاد الإسكندر المقدوني الأربعة؛ الذي أسَّس مملكة السلوقيّين في بابل سنة ٣١٢ق.م- الذين انتزعوا هذا القسم من البطالسة بقيادة أنطيوخس الكبير سليل سلوقس الأول.

واستمر اليهود خاضعين للملوك السلوقيين حتى عام ١٦٧ق.م، وعندئذ نعموا بالاستقلال على عهد دولة المكابيين التي استمرَّت حتى عام ٦٣ق.م.

ثم اكتسح الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق.م. واستولوا على القدس بقيادة بامبيوس، ثم حكَّموا عليهم أسرة هيرود التي حلت محل المكابيين بعد القضاء عليهم، وهدم هيرود الهيكل وأعاد بناءه

سنة ٢٠ق.م، وبنى في الوقت نفسه معبدًا لآلهة مدينة روما.

وفي فترة حكم الرومان ولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وبظهوره ظهرت فئة اليهوديَّة المسيحيَّة التي آمنت بالمسيح وبقيت على شريعة التوراة والتزامها بالدين اليهودي وأحكامه، ثم لما تطورت على يد بولس انتهت هذه الجماعة إلى تشيكل دين جديد له ملامحه المميزة.

وعلى إثر الثورات التي كان يقوم بها اليهود على السلطات الرومانية سنة ٧٠ م دمر الإمبراطور تيطس الروماني مدينة أورشليم وأحرق الهيكل، وهذا هو التدمير الثاني، وقتل وسبى عددًا كبيرًا من اليهود، وتفرَق عدد منهم في البلاد.

وجاء أدريانوس سنة ١٣٥م على إثر ثورة أخرى لليهود فدمر مدينة أورشليم وأزال معالمها تمامًا، وقد بنى هيكلًا وثنيًا اسمه جوبيتار -كبير آلهة الرومان- مكان الهيكل المقدس، وقد استمر هذا الهيكل الوثني حتى دمره النصارى في عهد الإمبراطور قسطنطين.

وتخلص أدريانوس من اليهود تمامًا بقتلهم وتشريدهم ونفيهم، ولم يبق بأورشليم يهودي واحد، ومنعهم من دخولها، فازداد تشتت اليهود وتفرقهم في أنحاء العالم في دول آسيا وأوربا وإفريقيا.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه بذلك ينتهي تاريخ اليهود كأمة، وتاريخهم فيما بقي من العصور ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوا أو نزلوا فيها.

وفي سنة ٦٣٦م فتح المسلمون فلسطين وأجلوا عنها الرومان، وقد اشترط عليهم صفرونيوس بطريرك النصارى ألا يسكن المدينة أحد من اليهود.

وفي سنة ١٨٩٧م بدأت الحركة الجديدة لليهود تحت اسم الصهيونيَّة، لبناء دولة إسرائيل على أرض فلسطين حتى وقتنا الحالي(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٤٩٥- ٤٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، موجز تاريخ اليهود، د. محمود عبد الرحمن قدح ص(٨- ٣٣)، هل العهد القديم كلمة الله، د. منقذ السقار، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٢١- ٦٩)، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (١/ ٥٣٢).

الفصل الثاني

عقائد اليهود

مجمل عقائدهم

قال الشهرستاني: ومسائلهم تدور على: جواز النسخ ومنعه، وعلى التشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرجعة واستحالتها.

أما النسخ: لم يجيزوا النسخ أصلًا، قالوا: فلا يكون بعده شريعة أصلًا؛ لأن النسخ في الأوامر بَدَاء ولا يجوز البَدَاء على الله تعالى.

وأما التشبيه: فلأنهم وجدوا التوراة ملئت من المتشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكليم جهرًا، والنزول على طور سينا انتقالًا، والاستواء على العرش استقرارًا، وجواز الرؤية فوقًا وغير ذلك.

وأما القول بالقدر: فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام؛ فالربانيون كالمعتزلة فينا، والقراءون كالمجبرة والمشبهة.

وأما جواز الرجعة: فإنما وقع لهم من أمرين:

أحدهما: حديث عزير عليه السلام إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه.

والثاني: حديث هارون عليه السلام إذ مات في التيه، وقد نسبوا موسى إلى قتله بالواحة. قالوا: حسده؛ لأن اليهود كانوا أميل إليه منهم إلى موسى، واختلفوا في حال موته: فمنهم من قال: إنه مات وسيرجع، ومنهم من قال: غاب وسيرجع[١].

وقال الرازي: وهم متفقون على أن النسخ غير جائز، وكلهم يؤمنون بموسى عليه السلام وهارون ويوشع، وأكثرهم يؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا بتقرير شرع موسى عليه السلام، وبعضهم ينكر ذلك، والأغلب عليهم التشبيه[٢].

تفصيل عقائدهم

- عقيدتهم في الإله

اليهود كتابيون موحِّدون وهذا الأصل[٣].

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي ص(٨٢).

(٣) سفر التثنية ٦/ ٤-٩، سفر إشعيا ٤٥/ ٥ .

ولكنهم كانوا يتجهون إلى تعدد الآلهة والتجسيم والنفعية مما أدى إلى كثرة الأنبياء فيهم؛ لردهم إلى جادة التوحيد كلما أصابهم انحراف في مفهوم الألوهية[١].

فقد اتخذوا العجل معبودًا لهم بُعَيْد خروجهم من مصر[٢].

ويروي العهد القديم أن موسى قد عمل لهم حية من نحاس وأن بني إسرائيل قد عبدوها بعد ذلك[٣].

وأنهم عبدوا آلهة أخرى مثل عشتار (العشتاروث)[٤]، وبعل (البعليم)[٥]، وتموز[٦]، والغيرة[٧]، وملكوم ولكموش[٨]، والترافيم والأفود والتماثيل[٩]، والأصنام[١٠]، والشمس والقمر والمنازل وأجناد السماء[١١].

وعبدوا آلهة آرام، وآلهة صيدون، وآلهة موآب، وآلهة بني عمون، وآلهة الفلسطينيين[١٢].

وصنع لهم يربعام عجلين من ذهب فذبحوا وعيدوا عندهما[١٣].

والإله عندهم سموه يهوه[١٤]، وخلعوا عليه صورة بشرية محضة، فهو ليس إلهًا معصومًا بل يخطئ ويندم[١٥]. ويبكي وعيناه تذرفان الدموع ليلًا ونهارًا[١٦]. ويدعو على نفسه بالويل والهلاك[١٧].

---

(١) سفر أرميا ٢/ ٤- ٥، ٥/ ١٩- ٢٠، ٧/ ٩- ١٠، ١٦/ ١١- ١٣، انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٢)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(١٧- ٢٠).

(٢) سفر الخروج ٣٢/ ١- ٦، التثنية ٩/ ١٢ .

(٣) سفر العدد ٢١/ ٩ .

(٤) سفر القضاة ٢/ ١٣، ١٠/ ٦، صموئيل الأول ٧/ ٣- ٤، ١٢/ ١٠ .

(٥) سفر العدد ٢٥/ ١- ٣، القضاة ٢/ ١٣، ١٠/ ٦، صموئيل الأول ٧/ ٣- ٤، ١٢/ ١٠ .

(٦) سفر حزقيال ٨/ ١٤ .

(٧) سفر حزقيال ٨/ ٣- ٦ .

(٨) سفر الملوك الأول ١١/ ٧، ٣٣، الملوك الثاني ٢٣/ ١٣ .

(٩) سفر القضاة ١٨/ ١٤- ٣١، صموئيل الأول ١٩/ ١٣ .

(١٠) سفر حزقيال ٨/ ١٠- ١٢ .

(١١) سفر الملوك الثاني ٢٣/ ٤، ٥، ١١، ١٣، ١٤، ٢٤، حزقيال ٨/ ١٦ .

(١٢) سفر القضاة ١٠/ ٦ .

(١٣) سفر الملوك الأول ١٢/ ٢٨- ٢٩ .

(١٤) سفر الخروج ٣/ ١٥، ٦/ ٣، المزامير ٨٣/ ١٨، أشعياء ١٢/ ٢، أرميا ١٦/ ٢١، ٣٣/ ٢، هوشع ١٢/ ٥، عاموس ٤/ ١٣، ٩/ ٦ .

(١٥) سفر التكوين ٦/ ٦، الخروج ٣٢/ ١٤، صموئيل الأول ١٥/ ١١، أخبار الأيام الأول ٢١/ ١٥، أرميا ١٥/ ٦، ٢٦/ ٣، ١٩، ٤٢/ ١١، يوئيل ٢/ ١٤، عاموس ٧/ ٣، ٦ .

(١٦) سفر أشعيا ١٦/ ٩، أرميا ١٤/ ١٧ .

(١٧) سفر أرميا ١٠/ ١٧ .

ويتعب ويستريح[١]. ويستيقظ[٢]. ويتذكر[٣]. وينوح ويولول ويمشي عريانًا[٤]. ويصفق بيديه[٥]. ويصارع البشر[٦]. ويخدعهم[٧]. وينقض العهد[٨]. وقلبه يتلوى ألمًا[٩].

ويقع منه الحزن والأسف[١٠]. والجهل[١١]. وعدم العلم بالأشياء مسبقًا[١٢].

وهو ساكن في الضباب[١٣]. ويركب ملاكًا ويطير فوقه[١٤]. وينفخ بالبوق ويسير في الزوابع[١٥].

وله أنف يخرج منه دخان وله فم يخرج منه نار[١٦]. والريح وسيلة لنقله تحمله فيها حيث يريد[١٧]. والغمام هو غبار رجله[١٨]. والسحاب تستره فلا يُرى[١٩].

وهو يأمر بالسرقة [٢٠]. وبالإبادة[٢١]. وبالسكر[٢٢]. وبالرذيلة والفواحش[٢٣].

---

(١) سفر الخروج ١٧/٣١ .
(٢) سفر زكريا ٢/ ١٣، المزامير ٦٥/٧٨ .
(٣) سفر التكوين ٩/١٣- ١٦، الخروج ٢/ ٢٤ .
(٤) سفر ميخا ٨/١ .
(٥) سفر حزقيال ١٧/٢١ .
(٦) سفر التكوين ٢٢/٣٢ .
(٧) سفر أرميا ٧/٢٠ .
(٨) سفر المزامير ٣٩/٨٩ .
(٩) سفر أرميا ١٩/٤ .
(١٠) سفر التكوين ٦/٥- ٧ .
(١١) سفر التكوين ٣/٩، ١٢/٢٣، ١٨/٢٠، الخروج ٧/١٢، العدد ٩/٢٢ .
(١٢) سفر التكوين ١/٢٤، ٣١ .
(١٣) سفر أخبار الأيام الثاني ١/٦ .
(١٤) سفر صموئيل الثاني ٢٢/٧- ١١ .
(١٥) سفر زكريا ٩/ ١٤ .
(١٦) سفر صموئيل الثاني ٩/٢٢ .
(١٧) سفر صموئيل الثاني ٢٢/ ١٠، المزامير ١٨/ ١٠، ٣/١٠٤ .
(١٨) سفر ناحوم ٣/١ .
(١٩) سفر أيوب ١٤/٢٢ .
(٢٠) سفر الخروج ٣/ ٢١، ٢٢ .
(٢١) سفر التثنية ٢٠/١٣- ١٦، ٢/٧، ١٦ .
(٢٢) سفر نشيد الإنشاد ١/٥ .
(٢٣) سفر عاموس ١٦/٧، صموئيل الثاني ١١/١٢، هوشع ٢/١ .

إنه إله بني إسرائيل فقط[١]. فهو يحب بني إسرائيل ويغفر لهم خطاياهم مهما فعلوا، وهو بهذا عدو للآخرين[٢].

ويزعمون أنه يسير أمام جماعة من بني إسرائيل في عمود من سحاب[٣].

ويشبهونه بأشياء لا تنبغي في حقه عز وجل[٤].

- عقيدة الشعب المختار

يعتقد اليهود أنهم شعب مقدَّس اختاره الرب[٥]، وهو الشعب الأزلي الأبدي، وأن له رسالة متميِّزة وسمات خاصة تميِّزه وتفصله عن الشعوب الأخرى.

ويشكر اليهودي إلهه في كل الصلوات لاختياره الشعب اليهودي. ويعتقدون أن أرواح اليهود جزء من الله، وإذا ضرب أمميٌّ (جوييم) إسرائيليًّا فكأنما ضرب العزة الإلهية، وأن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودي وغير اليهودي[٦].

وترتب على ذلك تشريعات، منها: يجوز غش غير اليهودي، وسرقته، وإقراضه بالربا الفاحش، وشهادة الزور ضده، وعدم البر بالقسم أمامه، ذلك أن غير اليهود في عقيدتهم كالكلاب والخنازير والبهائم، بل إن اليهود يتقربون إلى الله بفعل ذلك بغير اليهودي[٧].

- عقيدة الأرض المقدَّسة

يعتقد اليهود أن الأرض المقدَّسة -فلسطين- خاصة ببني إسرائيل، وهي ميراثهم، فهذا هو العطاء الذي أعطاه الإلهُ لإبراهيم، ومن بعده ليعقوب، ومن بعده لموسى وبني إسرائيل ونسلهم من بعد ذلك[٨].

وهي عندهم الأرض التي يحل فيها الرب ولذلك تُسمَّى أرض الرب[٩].

وهي الأرض التي يرعاها الإله[١٠]، ثم هي الأرض المختارة[١١]، وصهيون التي يسكنها الرب[١٢].

---

(١) سفر التثنية ٢٣/٣، الملوك الثاني ٥/ ١٥ .

(٢) سفر التثنية ٢٣/ ٢٠ ، الخروج ١٢/ ١٢ .

(٣) سفر الخروج ١٣/ ٢١، ٢٢ .

(٤) سفر العدد ٢٤/ ٩، هوشع ٥/ ١٢، ١٣/ ٤-٨، المزامير ٧٨/ ٦٥، العدد ٢٤/ ٨، مراثي إرميا ٣/ ١٠، ميخا ١/ ٨ .

(٥) سفر التثنية ١٤/ ٢، اللاويين ٢٠/ ٢٤- ٢٦ .

(٦) سفر التثنية ١٣/ ٢، ٧/ ٦- ٧، الخروج ١٩/ ٥ .

(٧) انظر: الكنز المرصود في أسرار التلمود، روهلنج وأشيل لوران، ترجمة: د. يوسف نصر الله.

(٨) سفر التكوين ١٢/ ٧، ١٣/ ١٥، ١٥/ ١٨، ٢٨/ ٤، ١٣، العدد ١٣/ ١، ٢ .

(٩) سفر أشعياء ١٤/ ٢، يوشع ٩/ ٣ .

(١٠) سفر التثنية ١١/ ١٢ .

(١١) تتمة سفر أستير ٤٩/ ٩ .

(١٢) المزامير ٩/ ١١، ٧٤/ ٢، ٧٦/ ٢، ١٣٢/ ١٣، أشعياء ٨/ ١٨ .

وهي الأرض المقدَّسة [(١)] التي تفوق في قدسيتها أيَّ أرضٍ أخرى؛ لارتباطها بالشعب المختار. وهي الأرض البَهِيَّة[(٢)].

ويعتقدون أن تعاليم التوراة والشعائر الدينيَّة لا يمكن أن تُنفَّذ كاملة إلا في الأرض المقدَّسة[(٣)].

وحتى الآن، يرسل بعض اليهود في العالم في طلب شيء من تراب الأرض ليُنثَر فوق قبورهم بعد موتهم.

- عقيدة المخلِّص المنتظر

يعتقد اليهود أنه سيأتي في آخر الزمان ملِك من نسل داود يخلِّصهم من الشتات، ويعيد مجد إسرائيل، ويعود بهم إلى القدس ويتخذها عاصمة له، ويعيد بناء الهيكل، ويحكم بالشريعتين المكتوبة والشفوية، ويقضي على أعداء بني إسرائيل وينتقم منهم، وسيحقق للشعب اليهودي السيادة والسؤدد، ويبدأ بعدها الفردوس الأرضي.

وهو عندهم إنسان سماوي، وكائن معجز، خلقه الله قبل الدهور، ويبقى في السماء حتى تحين ساعة إرساله، وهو يحمل لقب ابن الإنسان؛ أي: إنه سيظهر في صورة إنسان، وإن كانت طبيعته تجمع بين الله والإنسان.

والزمان المقدَّس عند اليهود يمتزج بالمكان المقدَّس، فالأرض المقدَّسة هي أرض الميعاد، وهي أيضًا أرض المعاد التي سيعود إليها اليهود تحت قيادة المخلص؛ أي الأرض التي ستشهد نهاية التاريخ.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة برزت عند اليهود في وقت متأخر بعد سقوط دولتهم، وأسْرِهم في بابل ثم خضوعهم للفُرس، ومما رجَّحوا به ذلك عدم بروزها في العهد القديم قبل سفر دانيال.

- عقيدتهم في الأنبياء

جميع الأنبياء لم يسلموا من قول اليهود الفاحش فيهم؛ فالأنبياء عندهم غير معصومين من المعاصي، ولا الكبائر، بل ولا أكبر الكبائر، ولا الشرك بالله العظيم؛ ففيه اتهامات لهم بالشرك وعبادة غير الله، وبالزنى عمومًا، وزنى المحارم خصوصًا، والكذب، والقتل، وعمل الشر والقبيح، وغير ذلك.

فيزعمون أن نوحًا عليه السلام شرب الخمر فسكر وتعرَّى[(٤)]، وأن يعقوب قد صارع

---

(١) سفر زكريا ٢/١٢ .

(٢) سفر دانيال ١١/١٦ .

(٣) سفر أشعياء ٣٣/٢٤ .

(٤) سفر التكوين ٩/٢١ .

الرب[١]، واحتال على أخيه وكذب على أبيه ليأخذ مكان أخيه[٢].

وأن يهوذا بن يعقوب زنى بامرأة ابنه وأنجب منها[٣].

وأن لوطًا قد شرب الخمر وزنى بابنتيه بعد نجاته إلى جبل صوغر[٤].

وأن هارون صنع لبني إسرائيل عجلًا مسبوكًا من حُليِّهم، وقال لهم: هذا آلهكم، وبنى له مذبحًا، وجعل له عيدًا[٥].

وأن داود قبيح في عين الرب، وأنه زنى بامرأة أحد مقاتليه، وأوصى بعمل مؤامرة لقتله في المعركة ليضم زوجته بعد ذلك إليه[٦]، وفي شيخوخته يضاجع فتاة صغيرة في فراشه[٧]، وغير ذلك من الأمور المستقبحة[٨].

وأن سليمان تزوج بأجنبيات كثيرة جدًا، أملن قلبه عن عبادة الله، وأوقعنه في الوثنية، وجعلنه يعبد آلهتهن الوثنية، مثل: عشتروث، وملكوم، ولكموش، وبنى لهذه الآلهة مذابح[٩]، وأنه قتل أخاه[١٠].

وأن أيوب يسب دهرَه، ويعترض على قدر الله[١١].

وأن عيسى موجود في لجات الجحيم بين القار والنار، وأن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا عن طريق الخطيئة[١٢].

وهذا الأمر حدا ببعض الباحثين إلى القول بأنه يجب على القارئ المسلم أن يميز بين أنبياء اليهود والأنبياء الذين يرد ذكرهم في القرآن، حتى لو حملوا نفس الاسم.

فموسى (موشيه) القائد الحربي «القومي» ليس هو سيدنا موسى عليه السلام.

وداود (ديفيد) قاطع الطريق، والملك، ليس هو سيدنا داود عليه السلام.

---

(١) سفر التكوين ٣٢/٢٤ .
(٢) سفر التكوين ٢٧/١٩ .
(٣) سفر التكوين ٣٨/١٣- ١٨ .
(٤) سفر التكوين ١٩/٣٠، ٣١ .
(٥) سفر الخروج ٣٢/١- ٦ .
(٦) صموئيل الثاني ١١/١- ٢٧ .
(٧) سفر الملوك الأول ١/١- ٣ .
(٨) سفر صموئيل الثاني ١٢/١١، ١٣/٣١، أخبار الأيام الأول ٢١/١ .
(٩) سفر الملوك الأول ١١/١- ٨ .
(١٠) سفر الملوك الأول ٢/٢٥ .
(١١) سفر أيوب ٣/١- ٣، ١١ .
(١٢) الكنز المرصود في أسرار التلمود.

وسليمان (شلومو) قاتل منافسيه، ليس هو سيدنا سليمان عليه السلام.

فرغم الاتفاق في الأسماء وفي بعض تفاصيل القصص؛ فإن السياق والبناء العقائدي والديني والقصصي الذي ترد فيه هذه الأسماء يختلف اختلافًا جوهريًا، والسياق والبناء وحده هو الذي يحدد المعنى العام والشامل.

- عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب

لم يرد في دين اليهود شيء ذو بال عن البعث والخلود، والثواب والعقاب، والجنة والنار، إلا إشارات ضئيلة، وذلك أن هذه الأمور بعيدة عن تركيبة الفكر اليهودي المادي.

والثواب والعقاب عندهم إنما يتم في الدنيا، فالثواب هو النصر والتأييد، والعقاب هو الخسران والذل والاستعباد؛ فالجزاء والعقاب مادي دنيوي[١].

- الهيكل

هو البناء الذي أمر به داود، وأقامه سليمان فوق جبل موريا، وهو جبل بيت المقدس، أو هضبة الحرم التي يُوجَد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

وقد بني بداخله المحراب -قدس الأقداس- وهيِّأ كذلك بداخله مكانًا يوضع فيه تابوت عهد الرب.

ويعتبر الهيكل عند اليهود مركزًا روحيًا لهم، وعاصمة لملكهم، ووسيلة لنقل تراثهم، وذكرى لهم، كأنه علم من نار يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض[٢].

وهو أهم مبنى للعبادة الإسرائيلية، ومركز العبادة القربانية المركزية، وبعد هدمه عام ٧٠م، لم يحل محله مبنى مركزي مماثل.

ومن أهم أسماء الهيكل عندهم: بيت يهوه؛ لأنه يحل فيه، ويُسمَّى أيضًا «البنان»؛ لأنه يُطهِّر بني إسرائيل من خطاياها ويجعلهم بيضاء كاللبن، وكان التصور أنه يقع في مركز العالم فقد بُنِيَ في وسط القدس التي تقع في وسط الدنيا، فقدس الأقداس الذي يقع في وسط الهيكل هو بمنزلة سُرَّة العالم، ويُوجَد أمامه حجر الأساس: النقطة التي عندها خلق الإله العالم.

والهيكل عندهم كنز الإله مثل جماعة إسرائيل، وهو عنده أثمن من السماوات بل من الأرض التي خلقها بيد واحدة، بينما خلق الهيكل بيديه كلتيهما. بل إن الإله قرَّر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه.

وكان يحج إليه اليهود في أعياد الحج الثلاثة: عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٢)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٧).

(٢) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت (٢/ ٣٣٨).

ووصف الهيكل بحسب ما جاء في العهد القديم في سفر الملوك الأول في الإصحاحان ٦، ٧، وأخبار الأيام الأول في الإصحاحات ٢- ٤، مع وجود اختلاف فيما بين السفرين: يبلغ طوله: ٩٠ قدمًا = ٣٠ مترًا، وعرضه: ٣٠ قدمًا = ١٠ أمتار، وارتفاعه: ٤٥ قدمًا = ١٥ مترًا، وهو ينقسم إلى مكانين: مكان يعرف باسم الدبير، وآخر باسم الهيكل، وفي الجهة الغربية يقوم قدس الأقداس وكان مكعبًا تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار، وبداخله يوجد تابوت العهد(١).

وقد حرق الهيكل على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق.م، ثم أعاد زروبابل بناءه سنة ٥٢٠ ق.م، ثم هدمه هيرود ليعيد بناءه سنة ٢٠ ق.م، ثم هدمه تيطس سنة ٧٠ م، ويحاول اليهود الآن أن يعيدوا بناءه الثالث لعودة المخلص المنتظر.

- التابوت

وهو صندوق كانوا يحفظون فيه أغلى ما يملكون من ثروات ومواثيق وكتب مقدسة.

ووصف التابوت بحسب ما جاء في العهد القديم: صندوق خشبي طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وكذا ارتفاعه، وتغطيه من الداخل والخارج صفائح من الذهب النقي، ويحيط به إكليل من الذهب، وبه أربع حلقات من الذهب في قوائمه الأربع، وعصوان من الخشب المغشى بالذهب تدخل في الحلقات الجانبية ليحمل التابوت بهما، وغطاء التابوت من ذهب طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وعلى طرفي الغطاء جسمين من ذهب على شكل طائرين، وجه كل واحد منهما إلى الآخر، وهما باسطان أجنحتهما مظللان بهما على الغطاء، وتوضع في التابوت الوصايا العشر المحفورة على لوحين حجريين يعرفان باسم لوحي الشهادة، اللوح الواحد يشمل خمس وصايا(٢).

- المذبح

مكان مخصص لإيقاد البخور يوضع قدام الحجاب الذي أمام التابوت.

ووصف المذبح بحسب ما جاء في العهد القديم: مصنوع من خشب السنط، طوله ذراع، وعرضه ذراع، وارتفاعه ذراعان، وله قرون، مغشى سطحه وحيطانه بذهب نقي، وحوله إكليل من ذهب، وتحت الإكليل على الجانبين حلقتان من ذهب يكونا بيتين لعصوين لحمله بهما، والعصوان مصنوعان من خشب السنط ومغشيان بالذهب.

ويوقد عليه هارون بخورًا عطرًا كل صباح، حين يصلح السرج، وحين يصعد هارون السرج في العشية يوقده، ويصنع هارون كفاة على قرونه مرة في السنة من ذبيحة الخطية التي للكفارة(٣).

---

(١) انظر: سفر الملوك الإصحاح السادس وما بعده.
(٢) سفر الخروج ٢٥/١٠- ٢١ .
(٣) سفر الخروج ٣٠/١- ١٠ .

- القرابين

كانت القرابين من الحيوان والثمار، وكانت تشمل الضحايا البشرية، فكان الإنسان يُقدَّم مع القرابين الأخرى(١).

ثم اكتفى الإله بعد ذلك بجزء من الإنسان، وهو ما يقتطع منه في عملية الختان التي يتمسك بها اليهود إلى يومنا هذا، فضلًا عن الثمار والحيوان إلى جانب ذلك، فأصبح يضحى بالبقر والخراف أو ببواكير الثمار، تحرق أمام المعبد مع الجزء الذي يقطع في الختان.

وكانت القرابين عبارة عن هدية يتقرب بها الشخص للإله رجاء قضاء حاجة، وكانت أحيانًا للشكر والاعتراف بعون حصل عليه الشخص قبل تقديمها، وتقدم أيضًا في الأعياد والاحتفالات الدينيَّة.

وكان يصحب القرابين احتفال طويل وشعائر يقوم بها الكهنة في الصباح والمساء (٢).

- الكهانة

وتختص بأبناء ليفي أحد أبناء يعقوب، فهم وحدهم لهم حق تفسير النصوص وتقديم القرابين، وهم معفون من الضرائب، وتقدم لهم العشور من نتاج الضأن، ويأخذون ما بقي في الهيكل من القرابين، وقد جمعوا بذلك أموالًا ضخمة وثراءً عظيمًا، وشخصياتهم وسيلة يتقرب بها إلى الله، فأصبحوا بذلك أقوى من الملوك.

وكان مقام الكهنة كبيرًا لدرجة اعتقادهم أنه لا تقبل توبة ولا قرابين إلا إذا باركها الكاهن، فقد كان مفتاح السماء في يده.

وللوصول إلى الكهنوتية كان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف خلالها الطقوس والأسرار الدينيَّة.

وبعد الرجوع من السبي البابلي تأسس من كبار الكهنة مجلس، يبحث الشئون الكبرى التي تهم اليهود، ويسمى هذا المجلس: المجمع الكهنوتي، أو السنهدرين(٣).

وكان هذا المجلس يبحث في كل الشئون التي لها علاقة بالدين، فهو يضع قوانين المعاملة، وقوانين الزواج والطلاق، ويحدد الأعياد ومواعيدها، ويحكم في القضايا الجنائية الكبرى، وهم رعاة المعبد وخدمه، وغير ذلك من الأمور، وأصبح بذلك للكهنة النفوذ الديني والمادي في الشعب اليهودي كله.

---

(١) سفر الملوك الثاني ١٦/٣ .

(٢) انظر: اليهودية ص(٢٠٥- ٢٠٧).

(٣) انظر: اليهودية ص(٢٠٢).

- ديانة عنصرية

إن ديانة اليهود خاصة بهم، مقفلة على الشعب اليهودي، فممنوع على غير اليهودي أن يُقْبلوا في الجماعة اليهوديَّة، وأن يدينوا بالولاء لرب بني إسرائيل[(١)]، فالإله خاص بهم، والديانة ديانتهم فقط، مرتبطة بشعب معين هو الشعب اليهودي، فهي ديانة مقفلة ليست من ديانات الدعوة، وعليهم أن ينفصلوا عن شعوب الأرض، وعن النساء الغريبة، فممنوع أن يتخذوا نساء غريبة أجنبية ليست يهودية[(٢)].

بل كثير من مفكريهم يميل إلى مزيد من تضييق الدائرة، فلا يعدون يهودًا إلا أولئك الذين يعيشون في فلسطين أو يعتبرونها وطنهم، وإن بعدوا عنها للضرورة[(٣)].

- بعض صور التشريع

١- الولد الأكبر الذي هو أول من يرث وله حظ اثنين من إخوته، ولا فرق بين المولود بنكاح شرعي، أو غير شرعي في الميراث.

٢- بعد الزواج تعد المرأة مملوكة لزوجها، وما لها ملك له، ولكن لكثرة الخلافات فقد أقر بعد ذلك أن تملك الزوجة رقبة المال والزوج يملك المنفعة.

٣- من بلغ العشرين ولم يتزوج فقد استحق اللعنة، وتعدد الزوجات جائز شرعًا بدون حد، فقد حدده الربانيون بأربع زوجات بينما أطلقه القراءون.

---

(١) سفر التثنية ٢٣/٣ .
(٢) سفر عزرا ١٠/١٠- ١٢ .
(٣) انظر: اليهودية، د. أحمد شلبي، ص(١٨٧).

الفصل الثالث

أعياد اليهود

تنقسم الأعياد اليهوديَّة إلى قسمين:

١- الأعياد التي جاء ذكرها في العهد القديم؛ أي التي نزلت قبل التهجير.

وهي: أعياد الحج الثلاثة: عيد الفُصْح، وعيد الحصاد (الأسابيع)، وعيد المظال، وهي أعياد زراعية، ثم صارت رموزًا لأحداث تاريخية لها أهميتها في الوعي الجمعي العام لليهود.

ويوم السبت، وعيد الثامن الختامي الذي يَعُده البعض عيدًا مستقلًا، ثم أيام التكفير وهي رأس السنة اليهوديَّة، ويوم الغفران، وأخيرًا عيد القمر الجديد وهو أقل أهمية من الأعياد الأخرى.

٢- الأعياد التي أضيفت بعد نزول التوراة، التي أُضيفت بعد العودة من بابل.

وهي: عيد النصيب، وعيد التدشين، وعيد لاج بعومير، والخامس عشر من آف، وعيد رأس السنة للأشجار. ومع أن التاسع من آف يوم صوم وحداد على سقوط القدس وهَدْم الهيكل، فإنه يُعتبَر أيضًا عيدًا.

ويضم الاحتفال بأي عيد يهودي ثلاثة عناصر:

١- المرح الذي يأخذ شكل المأدبات الاحتفالية (باستثناء يوم الغفران) والامتناع عن العمل في الأعياد المهمة.

٢- الأدعية والابتهالات التي تضاف إلى الصلاة (عاميدا).

٣- طقوس احتفالية خاصة مثل أكل خبز الفطير في عيد الفصح، وإيقاد الشموع في عيد التدشين، وزرع الأشجار في عيد رأس السنة للأشجار.

وهذه الأعياد على التفصيل الآتي:

١- **عيد الفصح (الفطير)**: وهو يبدأ من مساء ١٤ أبريل وينتهي مساء ٢١ منه، ويكون الطعام فيه خبزًا غير مختمر، ومناسبته في أصوله البعيدة هو موسم الربيع، ثم صار رمزًا إلى خلاص بني إسرائيل من العبودية في مصر وخروجهم، وطقوس الاحتفال بهذا العيد كثيرة ومعقدة، ولها تراتيب كثيرة، وهو من أهم أعيادهم.

٢- **عيد المظال**: يبدأ في الخامس عشر من شهر تشري، ومدته سبعة أيام، بعد عيد يوم الغفران. والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي إحياء ذكرى خيمة السعف التي آوت العبرانيين في العراء أثناء الخروج من مصر (لاويين ٢٣/ ٤٣)، ويأخذون فيه أربعة أغصان من نباتات معينة ويلوحون بها، ثم يقيمون في أكواخ أو مظال من الأغصان أو السعف يتناولون فيها الطعام.

٣- **عيد الأسابيع (الحصاد):** ويأتي بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح ومن هنا تسميته، ومدته يومان، هما ٩، ١٠ من شهر سيفان (= ٩، ١٠ يونيه)، وفيه يزينون المعابد بالزهور والنباتات، ويُقرَأ فيه سفر راعوث.

٤- **يوم التكفير أو الغفران:** في أول الشهر السابع من السنة اليهوديَّة (شهر تشري = سبتمبر- أكتوبر)، ويبدأ بعيد رأس السنة، فينقطع الشخص تسعة أيام يتعبد فيها ويصوم وتسمى أيام التوبة، وفي اليوم العاشر الذي هو يوم التكفير لا يأكل فيه اليهودي ولا يشرب، ويمضي وقته في العبادة حيث يعتقد أنه تغفر فيه جميع سيئاته ويستعد فيه لاستقبال عام جديد، ويعد يوم الغفران أقدس الأعياد الدينيَّة عندهم.

٥- **يوم السبت:** لا يجوز لديهم الاشتغال في هذا اليوم؛ لأنه اليوم الذي استراح فيه الرب كما يعتقدون. فقد اجتمعت اليهود على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيًا على قفاه واضعًا إحدى رجليه على الأخرى. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

٦- **عيد الثامن الختامي:** وهو مستقل عن عيد المظال، ولكنه ضُم إليه كيوم ثامن، ويتم فيه ترديد دعاء خاص بطلب نزول المطر.

٧- **الهلال الجديد:** كانوا يحتفلون لميلاد كل هلال جديد حيث كانت تنفخ الأبواق في البيت المقدس وتشعل النيران ابتهاجًا به.

٨- **زيارة بيت المقدس:** يتحتم على كل يهودي ذكر رشيد زيارة البيت المقدس مرتين كل عام.

٩- **عيد التدشين أو الحانوكة (الإهداء الشموع):** يستمر ثمانية أيام بدءًا من الخامس والعشرين من كسلو (= ديسمبر)، والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي دخول يهودا الحشموني (أو المكابي) القدس وإعادته للشعائر اليهوديَّة في الهيكل، وفيه تُوقَد شمعة في الليلة الأولى، ثم تُضاف ثانية في اليوم التالي، وهكذا حتى اليوم الثامن، ثم يليه دعاء وإنشاد أغنية.

١٠- **عيد النصيب (القرعة):** يُحتفَل به في الرابع عشر من آدار (= فبراير)، وهو عيد بابلي، كانت الآلهة البابلية تُقرِّر فيه مصير البشر، وهو اليوم الذي أنقذت فيه أستير يهود فارس من المؤامرة التي دبرها هامان لذبحهم، وفيه يقرأ أحدهم سفر إستير من إحدى اللفائف الخمس ليلة العيد وفي يوم العيد نفسه، ويصاحبه صخب عند ذكر اسم هامان.

١١- **عيد الاستقلال:** يحتفل فيه الإسرائيليون بإنشاء الدولة الصهيونيَّة في يوم ١٤ مايو حسب التقويم الميلادي= ٥ إيار حسب التقويم اليهودي، وتبدأ احتفالات العيد على جبل هرتزل في القدس بجوار مقبرته، ثم توقد اثنتي عشرة مشعلة، ثم يسير حملة المشاعل في استعراض، ويتم فيه استعراض عسكري، وينتهي الاحتفال بإطلاق المدافع، على أن يكون عدد الطلقات مساويًا لعدد سني الاستقلال.

١٢- **الميمونة:** احتفال يعقده يهود المغرب، وكثير من العرب اليهود، في آخر يوم من أيام عيد

الفصح. وهو اليوم الذي يوافق ذكرى وفاة ميمون بن يوسف (والد موسى بن ميمون) الذي عاش في فاس لبعض الوقت.

١٣- التاسع من آف (= يوليه- أغسطس): هو يوم صوم وحداد عند اليهود في ذكرى سقوط القدس وهدم الهيكلين الأول والثاني حسب التصور اليهودي.

١٤- بهجة التوراة: وهو عيد يلي اليوم الثامن الختامي، وهو اليوم الأخير من عيد المظال، ويُحتفَل به داخل المعبد.

١٥- عيد رأس السنة للأشجار (عيد الشجرة): ويُحتفَل به في ١ أو ١٦ من شفاط (= يناير- فبراير)، وهو اليوم الذي يجب بعده أن يحسب اليهودي عشور النباتات المقدمة للهيكل، والآن في إسرائيل أصبح هذا العيد هو العيد القومي للشجرة حيث يقوم أطفال المدارس بغرس الأشجار.

١٦ - لاج بعومير: كلمة «لاج» معناها «الثالث والثلاثون»، أما «عومير» فمعناها «حزمة من محصول الشعير»، وهو عيد يهودي غير مهم يُحتفَل به في يوم ١٨ إيار، يتم إنهاء فترة الحداد ويُسمح بالزواج وبقص الشعر.

١٧- السنة السبتية، وسنة اليوبيل: هي السنة التي يجب أن تُراح فيها الأرض بعد ستة سنوات فيريحها في السنة السابعة، وكل ما ينمو على الأرض في هذه السنة يُصبح ملكًا مشاعًا للجميع يُحرَّم الاتجار فيه.

وتتسع دائرة سنة الراحة حتى إنه بعد سبع دورات كل دورة فيها مكونة من سبعة أعوام، تحل السنة الخمسون التي يُطلَق عليها «سنة اليوبيل»، وفيها تُطبَّق كل شعائر السنة السبتية وتُضاف إليها شعيرة أخرى، وهي إعادة الأرض المرهونة إلى أصحابها، كما تُعاد الأرض المبيعة إلى ملاكها الأصليين.

وتأخذ دائرة السنة السبتية في الاتساع إلى أن تشمل الزمان كله ثم تنغلق حين تصل إلى «سبت التاريخ»، أي نهايته، حين تستريح الأرض كلها ويأتي الماشيَّح ليقود شعبه بأسره إلى أرض الميعاد[1] .

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠١)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١٣٨- ١٤٥).

الفصل الرابع

الجذور الفكريَّة والعقائديَّة لليهود

عاشت اليهوديَّة في كنف عدة حضارات تأثرت بها وشكَّل بعضها تحديًا لها ولقيمها.

فقد تحركت اليهوديَّة داخل التشكيلات الحضارية المختلفة في الشرق الأدنى القديم وتأثرت بها وتبنَّت رموزها وقيمها؛ فالعبرانيون عاشوا في وسط المصريين القدماء وترك هذا أثرًا في فكرهم وتصوراتهم كما سيأتي بيان ذلك، ثم حَدَث التغلغل العبراني في كنعان، وحدثت المواجهة الأولى مع الحضارة الكنعانية، ثم حدثت المواجهة الثانية مع الحضارة البابلية.

ومن الواضح أن العبرانيين قد استوعبوا الكثير من العناصر الدينيَّة والثقافية من هاتين الحضارتين، ثم من الحضارة الفارسية.

ثم حدثت المواجهات الثالثة والرابعة والخامسة، مع الحضارة الهيلينية والنصرانيَّة وحضارة المسلمين، وحدثت المواجهة السادسة مع الحضارة العلمانيَّة في الغرب.

١- قدماء المصريين

عبادة العجل مأخوذة عن قدماء المصريين حيث كانوا هناك قبل الخروج، والفكر المصري القديم يعد مصدرًا رئيسيًّا للأسفار في العهد القديم.

يقول ول ديورانت: لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والجمل؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبي، لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمنًا طويلًا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزًا لإلههم. وإنا لنقرأ في سفر الخروج ٣٢/ ٢٥- ٢٨ كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقابًا لهم على عبادة هذا الوثن[١].

وبقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين، فقد جاء في سفر الملوك الملوك الأول ١٢/ ٢٨ أن يربعام عمل عِجْلَيْ ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل، وعبد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد[٢].

كما أن أهم مصدر اعتمدت عليه أسفار العهد القديم هو تشريع حورابي الذي يرجع إلى نحو سنة ١٩٠٠ ق.م، وقد اكتشف هذا التشريع في سنة ١٩٠٢م محفورًا على عمود أسود من الصخر وهو أقدم تشريع سامي معروف حتى الآن.

---

(١) قصة الحضارة (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: اليهودية ص(١٧٥).

ويرى بعض الباحثين أن فكرة تابوت العهد اقتباس من الفكر المصري الذي كان به نظائر لهذا التابوت المقدس.

ويرى بعض الباحثين أيضًا أن مزامير داود منقولة حرفيًا ويدون تصرف من أناشيد إخناتون أول فرعون اعتمد ديانة التوحيد في مصر(١).

٢- الكنعانيون

عبادة بعل في عهد القضاة مأخوذة من معبودات الكنعانيين بعد دخول بني إسرائيل فلسطين، وبعل كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس؛ وذلك لأنه في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل، وزوج الأرض الذي يخصبها.

ويظهر هذا بجلاء بعد انقسام المملكة، فإسرائيل الشماليَّة كانت دولة غنية حظى سكانها بالاستقرار، وقبلوا عادات الكنعانيين، وعبدوا إلههم بعل.

كما أنهم في بعض مراحلهم عبدوا آلهة آرام، وآلهة صيدوم، وآلهة مؤاب، وآلهة الفلسطينيين(٢).

كما أن إطلاق اسم يهوه على إلههم من الجذور العقدية المأخوذة من الكنعانيين، وذلك لأنه من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١م) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق.م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو.

يقول ول ديورنت: ويبدو أن اليهود الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا(٣).

ويرى باتاي أن الشخيناه -التعبير الأنثوي عن الإله- إلهة كنعانية قديمة هي ملكة السماء، وأن اليهود قاموا بعبادتها في المملكة الجنوبية قبل سقوط أورشليم، ويُقال: إن بعض اليهود الذين فروا إلى مصر استمروا في عبادتها مدة طويلة بعد ذلك.

٣- الفينيقيون

يقول ول ديورنت عن الهيكل الذي بناه سليمان: وكان طرازه هو الطراز الذي أخذه الفينيقيون عن مصر، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين(٤).

٤- البابليون

يقول التلمود بالتناسخ، وهي فكرة تسربت لبابل من الهند فنقلها حاخامات بابل إلى الفكر

---

(١) انظر: اليهودية ص(١٩٨)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ص(١٥٤).

(٢) سفر القضاء ١٠/ ٦٠ .

(٣) قصة الحضارة (٢/ ٣٤٠).

(٤) قصة الحضارة (٢/ ٣٣٥).

اليهودي. وكذلك التنبؤ بالغيب على الطريقة البابلية.

ويرى بعض الباحثين أن القبالاه -الصوفيَّة اليهوديَّة- ترجع إلى بلاد بابل، إذ المعتمد عند مؤرخة الفكر الديني عند اليهود أن تعاليم القبالاه كانت نفذت أوربا من خلال صوفي عراقي الأصل والنشأة هو أبو هارون بن صموئيل من مدعي الخوارق والكرامات والنزعات الباطنية المنتشرة في الشرق، الذي هاجر إلى إيطاليا، ونشر تعاليمه بين أفراد من عائلة كالانيموس، الذين نقلوهم بدورهم إلى ألمانيا في القرن العاشر(١) .

٥- الفرس

يذهب بعض الباحثين إلى أنه نتيجة العلاقة بين الفرس واليهود، حيث سمح لهم ملك الفرس قورش بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل، درس اليهود الديانة الزرادشتية ديانة الفرس، ومن تعاليم هذه الديانة اقتبس اليهود الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت، ولأول مرة عرفوا أيضًا أن هناك جنة ونارًا فنقلوا ذلك الاعتقاد في دينهم. وفي هذا الجو بدأ أشعيا كلامه الذي يشير إلى يوم البعث والحساب والجزاء، كما أخذ دانيال يحذر الناس ويذكرهم بيوم الحساب(٢) .

يقول ول ديورانت: ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس، أو لعلهم أخذوا شيئًا منها عن المصريين(٣) .

ويرى بعض الباحثين أيضًا أن فكرة المخلِّص المنتظر مستعارة من الزرادشتية التي يدين بها الفرس في فترة السبي البابلي، وهي فكرة انتصار الخير على الشر في الصراع الطويل بينهما، فما سماه الفرس خيرًا هو عند اليهود المخلص(٤) .

ويذهب بعض الباحثين أن القبالاه الصوفيَّة اليهوديَّة قد أخذت -أو تأثرت- من دين زرادشت، ومن ذلك كتاب الزوهار بمعنى النور والضياء، والحياة في عرف الزوهار صراع بين الخير والشر(٥) .

كما أن الأفكار الثنوية الرؤياوية التي تساوي بين الجوهر الإلهي وجوهر آخر، وهي فكرة ذات أصول فارسية، وجدت طريقها إلى القبَّالاه أيضًا، في تفرقتها بين عالَم الدنس والرذيلة والموت الحالي من ناحية، وعالم الخير والطهارة والوجود الأبدي الآتي بعد ظهور الماشيَّح من ناحية أخرى(٦) .

---

(١) انظر: اليهودية عرض تاريخي ص(١١٥).
(٢) سفر دانيال ١٢/ ٢ .
(٣) انظر: قصة الحضارة ٢/ ٣٤٥، اليهودية ص(١٩٥).
(٤) انظر: اليهودية ص(٢١١).
(٥) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٢١).
(٦) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

٦- الهيلينية اليونانيَّة

دخل كثير من الأفكار اليونانيَّة على النسق الديني اليهودي. وتأغرقت النخبة اليهودية.

ويرى بعض العلماء أن ثمة علاقة بين فكرة الشخيناه في الفكر اليهودي، وفكرة اللوجوس في فلسفة فيلون.

٧- النصرانيَّة

تأثروا بالفكر النصراني فتراهم يقولون: تسبب يا أبانا في أن نعود إلى شريعتك، قربنا يا ملكنا إلى عبادتك، وعد بنا إلى التوبة النصوح في حضرتك.

٨- المسلمون

ويظهر ذلك من خلال فرقة القرَّائين، فكان الاحتجاج القرائي دليلًا على هذا، وقد تأثر القرّاءون بعلم الكلام عند المسلمين.

٩- الحضارة العلمانيَّة في الغرب

انتشر فكر حركة الاستنارة وأخذ اليهود يحاولون إعادة صياغة اليهوديَّة على نمط العالم الغربي المسيحي العلماني، فظهرت حركة التنوير التي وَجَّهت نقدًا قاسيًا للفقه اليهودي ولما يُسمَّى «الشخصية اليهوديَّة».

وظهرت حركة اليهوديَّة الإصلاحية والمحافظة والحركات الثورية المختلفة، وتصاعدت معدلات التنصر والاندماج والعلمنة والإلحاد بين اليهود [١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٣، ٥٠٤).

الفصل الخامس

الصوفيَّة اليهوديَّة (القبَّالاه)

القبَّالاه: هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفيَّة عند اليهود.

وكان القبَّاليون يرون أن المعرفة، كل المعرفة (الغنوص أو العرفان)، توجد في أسفار موسى الخمسة، وكانوا ينطلقون في تفسيرها من مفهوم غنوصي أفلاطوني مُحْدَث يُفضي إلى معرفة غنوصية، أي باطنية، بأسرار الكون وبنصوص العهد القديم وبالمعنى الباطني للتوراة الشفوية.

والتوراة حسب هذا التصور هي مخطَّط الإله للخلق كله، وينبغي دراستها، لكن كل كلمة فيها تمثل رمزًا، وكل علامة أو نقطة فيها تحوي سرًّا داخليًّا، ومن ثم تصبح النظرة الباطنية الوسيلة الوحيدة لفهم أسرارها.

وقد جاء أنه، قبل الخلق، كُتبت التوراة بنار سوداء على نار بيضاء، وأن النص الحقيقي هو المكتوب بالنار البيضاء، وهو ما يعني أن التوراة الحقيقية مختفية على الصفحات البيضاء لا تدركها عيون البشر.

ومن تفسير القبَّاليين: أخذوا ما جاء في سفر التكوين ١/٢٨ من أن الإله قد خلق الإنسان على صورته، وفسروه تفسيرًا حرفيًّا ثم فرضوا عليه كثيرًا من المعاني حتى توصلوا إلى فكرة آدم قدمون، أي الإنسان الأصلي، ومفادها أن جسم الإنسان يعكس في سماته بناء التجليات النورانية العشرة (سفيروت).

ويقول القبَّاليون: إن الأبجدية العبريَّة لها قداسة خاصة، ولها دور في عملية الخلق، وتنطوي على قوى غريبة قوية ومعان خفية، وبالذات الأحرف الأربعة التي تكوِّن اسم يهوه (تتراجرماتون)، فلكل حرف أو نقطة أو شرطة قيمة عددية.

وإذا كانت الديانات التوحيدية، وضمنها اليهوديَّة، التي تدور حول إله مفارق يتجاوز الطبيعة والتاريخ ترى أن ثمة مساحة تفصل بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والكون، فإن التراث القبَّالي ينزع نزوعًا حلوليًّا واضحًا نحو تضييق المسافة بينهما، حتى تتلاشى تمامًا في نهاية الأمر.

وقد أصبحت القبَّالاه في نهاية الأمر ضربًا من الصوفيَّة الحلوليَّة ترمي إلى محاولة معرفة الإله بهدف التأثير في الذات العلية حتى تنفَّذَ رغبات القبَّالي أو المتصوف حتى يتسنى لصاحب هذه المعرفة السيطرة على العالم والتحكم فيه.

وهي أقرب إلى السحر الذي يستخدم اسم الإله والمعادل الرقمي للحروف (جماتريا) والأرقام الأوليَّة والاختصارات (نوطيرقون) للسيطرة.

وترتبط القبَّالاه في وجهها العملي بعدد من العلوم السحرية، مثل: التنجيم، والسيمياء،

والفراسة، وقراءة الكف، وعمل الأحجبة، وتحضير الأرواح.

وكان القبَّاليون يقتربون من رؤية ثنوية للخير والشر، فالشر هو «السترا أحرا» (الجانب الآخر).

بل إن بعض القبَّاليين يتحدثون عن تجليات اليسار، وهي تجليات مضادة؛ قوى مظلمة دنسة تعادي قوى القداسة والخير، وتدخل في صراع شديد معها للسيطرة على العالم.

ومن هنا كان اهتمام القبَّاليين بالجن سمائيل (الشيطان) وزوجته ليليت في القبَّالاه.

ويظهر أثر القبَّالاه في الصلوات والأدعية والتسابيح والابتهالات وشعائر السبت والأعياد والعادات والأخلاق، وفي الأفكار الخاصة بالملائكة والشياطين والماشيَّح، والأفكار الأخروية بشكل عام ودور الشعب اليهودي في المنفى، أي أن تأثير القبَّالاه في الحياة اليومية يفوق في عمقه تأثيرها في الأمور ذات الطابع التشريعي والفقهي، وهي الرقعة التي تركوها لعلماء التلمود الذين كانوا يُصدرون فتاواهم الجافة المجردة التي لا حياة فيها لانفصالها عن الواقع[١].

تاريخ الصوفيَّة اليهوديَّة

جذور التصوف ترجع إلى التوراة نفسها فهناك مادة غزيرة جدًّا في أسفار العهد القديم، والتلمود لا يقصر عنها أبدًا في هذا المضمار، ومن الأمثلة البارزة على مادة القبالاه في التوراة: قصة الخليقة في سفر التكوين، رؤيا أشعيا في الهيكل، أوصاف المركبة السماوية في حزقيال، الرؤى الكشفية النبوية في دانيال.

كما أن التلمود ممتلئ بالتأملات الصوفيَّة حول مسألة عمل الخلق والمركبة الإلهية، وهناك شذرات من أدب صوفي يعرف باسم الهياكل والحجرات السماوية، ويرجع تاريخها إلى زمن الفاؤنيم، وهي تتحدث عن الذين ينزلون إلى المركبة ويرتدونها، ويتحدث التلمود عن المتصوفين الذين دخلوا جنات الفردوس، إلى جانب هذه الرواسب والشذرات يطالعنا كتاب شيعوركوماه (مقاييس القوام الإلهي) ويأتي سفر تيزيراه (كتاب الخلق) الذي يذكره التلمود مثال إلى أهم أثر صوفي يرجع عهده إلى تلك الفترة.

ويظهر ارتباط التلمود بالقبَّالاه من خلال دراسة تاريخ التصوف اليهودي، فقد تشكلت حلقات من أتباع يوحنان بن زكاي، وهو من معلمي المشناه (تنائيم) ومن مؤسسي حلقة يفنه التلمودية في القرنين الأول والثاني.

وحاولت هذه الحلقات أن تغوص في أسرار الخلق أو ما يُسمَّى عمل الخليقة، وفي طبيعة العرش الإلهي (أو المركبة).

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٥)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٢١).

وقد ساهمت كتاباتهم في وضع أسس أدب الهيخالوت الصوفي، أو الحجرات السماوية، الذى ازدهر في بابل بيزنطة في القرنين السابع والثامن، والذي يصوِّر سبعة قصور أو عوالم سماوية تسكنها الملائكة التي تسبِّح بحمد الإله.

ويوجد عرش الإله، حسبما جاء في قصص هذا الأدب، في العالم السابع، أي في السماء السابعة.

وقد اعتقد أتباع هذه المدرسة أنه من خلال التدريبات الروحية الصارمة، ومن خلال الصوم وإرهاق الجسد، يمكن الوصول إلى الشطحات الصوفيَّة التي تمكِّن الواصلين (أو مشاهدي المركبة) من أن يشعروا بروحهم وهي تصعد من خلال هذه السماوات حتى تصل إلى النقطة التي يطالعون فيها، وبشكل مباشر، التجلي أو الحضور الإلهي والعرش الإلهي.

وبإمكان الأرواح التي تصل إلى هذه المنزلة أن تكشف أسرار الخلق وطُرق الملائكة وموعد وصول المخلص (الماشيَّح).

وقد انتقلت تقاليد أدب الهيخالوت إلى جنوب إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا، حيث ظهر ضرب جديد من التقوى الصوفيَّة وصل إلى قمته في القرن الثاني عشر يُسمَّى «أتقياء ألمانيا».

وقد نادى هؤلاء بضرورة الاكتراث بالعواطف والرغبات الدنيويَّة.

وعلى أية حال، فإن القبَّالاه، بمعناها الحالي، ظهرت في فرنسا، وكان من أهم العارفين بالقبَّالاه أبراهام بن داود وابنه إسحاق الأعمى اللذان بدأا في القرن الثاني عشر يتداولان كتاب الباهير، الذي يُعَدُّ أقدم النصوص القبَّالية، ومؤلفه مجهول، وظهر أول ما ظهر في بروفانس؛ فرنسا، ويحتوي الكتاب على أول محاولة لشرح النظرية القبَّالية الحلوليَّة في الفيض الإلهي، وفكرة تناسخ الأرواح، كما يحاول الكتاب وضع أسس التفسير الصوفي لحروف الأبجدية العبريَّة.

وانتقل مركز القبَّالاه بعد ذلك إلى إسبانيا حيث نشأت حلقات متصوفة تحاول أن تتواصل مع الإله من خلال التأمل في التجليات النورانية العشرة، التي تسمى سفيروت أي تجلّيات الإشعاعات الصادرة من النور الذاتي للإله، وهي التي أوجدت العالم، وهي الواسطة وحلقة الوصل بين الإله والكون.

كما كان هؤلاء المتصوفون يهدفون إلى تجديد تقاليد النبوَّة، وإلى الكشف الإلهي من خلال الشطحات الصوفيَّة، ومن خلال التأمل في حروف الكتاب المقدَّس وقيمها العددية وأسماء الإله المقدَّسة.

ومن أهم القبَّاليين في أسبانيا أبراهام بن شموئيل أبو العافية (١٢٤٠ ـ ١٢٩١)، الذي كتب عدة مؤلفات عن القبَّالاه، وكذلك إسحاق بن لطيف بن نحمان (١١٩٥- ١٢٧٠). وكانت مدينة جيرونا في قطالونيا من أهم مراكز القبَّالاه في إسبانيا.

وقد وصلت الحركة القبَّالية إلى قمتها بظهور كتاب الزوهار، الذي تستند إليه الأنساق القبَّالية التي ظهرت بعد ذلك، فهو يعتبر أهم كتب التراث القبَّالي، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآراميَّة

على المعنى الباطني للعهد القديم، ويعود تاريخه الافتراضي، حسب بعض الروايات، إلى ما قبل الإسلام والمسيحيَّة، ولكن يقال: إن الذي وضعه هو موسى دي ليون القرطبي وأنه كتبه بين عامي ١٢٨٠- ١٢٨٥، ونسبه إلى الحاخام شمعون بن يوحاي أحد معلمي المشناه في القرن الثاني.

والموضوعات الأساسية التي يعالجها الزوهار هي: طبيعة الإله وكيف يكشف عن نفسه لمخلوقاته، وأسرار الأسماء الإلهية، وروح الإنسان وطبيعتها ومصيرها، والخير والشر، وأهمية التوراة، والماشيِّح والخلاص.

وقد قام القبَّاليون بإنشاء مركز لهم في مدينة صفد في فلسطين عام ١٤٢١ .

وبعد ذلك، انتشرت التقاليد القبَّالية بعد أن أخذت شكلها المحدد في الزوهار، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في إسبانيا ثم في كل إيطاليا وبولندا.

وتُسمَّى القبَّالاه النابعة من الزوهار قبَّالاة الزوهار (ويسميها جيرشوم شوليم «القبَّالاه النبوية»).

وازداد الاهتمام بالقبَّالاه بعد طرد يهود إسبانيا وتَصاعُد الحمَّى المشيحانية، وخصوصًا بما اشتملت عليه القبَّالاه من عقيدة خلاص جماعة بني إسرائيل.

وكان من أهم القباليين في ذلك الوقت إسحاق أبرابانيل (١٤٣٧-١٥٠٨) الذي وضع ثلاثة كتب عن عقيدة المخلص (الماشيَّح)، وهي: مصادر الخلاص، وخلاص الماشيَّح، وإعلان الخلاص.

وقد وُجد واحد من أهم مراكز القبَّالاه في صفد، وكان يضم مجموعة من اليهود السفارد الذين طُردوا من إسبانيا، ومن هنا كان عمق إحساسهم بالكارثة التي حاقت باليهود وبعجزهم الكامل وعزلتهم عن أية مشاركة حقيقية في العمليات التاريخية.

ومن أهم أعضاء هذه المجموعة إسحاق لوريا (١٥٣٤-١٥٧٢) الذي طوَّر المفاهيم القبَّالية فيما سُمِّي «القبَّالاه اللوريانية»، (ويسميها جيرشوم شوليم: القبَّالاه المشيحانية)، وهي تعني أساسًا بالخلاص وبالنهاية.

ولعل أهم إسهامات لوريا مفهومه الخاص عن الشرارات الإلهية المتناثرة والمتبعثرة (نيتسوتسوت) ومن ضمنها مشاركة الإنسان اليهودي الحَرْفية مع الإله (وليس المجازية) في عملية الخلاص الكونية، وعودة جماعة بني إسرائيل وانتصارها كخطوة أساسية في هذه العملية.

وقد خلف لوريا أتباع كثيرون نشروا فكره وشرحوه، ومن أتباعه حاييم فيتال، ويوسف بن طبول، وإسرائيل سروج.

ومن علماء القبالاه يعقوب أبو حصيرة (١٨٠٧-١٨٨٠) المدفون بقرية دِمتوه القريبة من دمنهور، وقد بنى اليهود له ضريحًا وكانوا يذهبون إليه للتبرك به، واتخذوا من مقبرته ما يشبه حائطًا جديدًا للمبكى حيث يُقام الاحتفال بمولده كل عام.

وقد سيطرت القبَّالاه، في نهاية الأمر، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من اليهوديَّة الكلاسيكية

أو اليهوديَّة المعيارية أو التلمودية، ويحدد جيرشوم شولم الفترة بين عامي ١٦٣٠ و١٦٤٠ على أنها الفترة التي أحكمت فيها القبَّالاه اللوريانية سيطرتها شبه الكاملة على الفكر الديني اليهودي.

حتى إن الحاخام جويل سيركيس (١٥٦١ . ١٦٤٠)، وهو من أهم علماء التلمود قال: إن من يعترض على العلم القبَّالي يُطرَد من حظيرة الدين.

كما أن الشولحان عاروخ نفسه، أهم كتب المؤسسة الحاخامية الأرثوذكسيَّة، يجعل الإيمان بالقبَّالاه فرضًا دينيًا.

وقد أصبحت القبَّالاه من اللاهوت اليهودي نفسه، ولم يَعُد بمقدور أي يهودي مهاجمتها.

وقد استمرت هذه النزعة داخل الحركة الشبتانية والحركة الفرانكية وبين الدونمه، وأخيرًا في الحركة الحسيديَّة في القرن التاسع عشر التي اكتسحت يهود شرق أوربا (وهي تَصدُر عن الإيمان بعقائد القبَّالاه على وجه العموم والقبَّالاه اللوريانية على وجه الخصوص)، وأكدت مفهوم التوحد مع الإله والالتصاق به (ديفيقوت).

ولكن حركة التنوير ناضلت ضد القبَّالاه وضد التصوف الحلولي في اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة، وخاصة بين الحاخامات.

والصهيونيَّة وريثة التراث القبَّالي في بنيتها، فهي التعبير عن الطبقة الحلوليَّة، وهي طبقة عبَّرت عن نفسها في بداية الأمر من خلال رؤية حلولية تبشر بالخلاص القومي وترابط الثالوث الحلولي (الإله والشعب والأرض)، فتأتي الصهيونيَّة وتؤكد ارتباط الشعب بالأرض نتيجة الحلول الإلهي أو سريان روحه المقدَّسة، ثم حوَّلت الدولة نفسها إلى مطلق واحد أحد يدين له الجميع بالولاء، فهي محط الحلول الإلهي أو هي التعبير عن الحلوليَّة بدون إله.

كما تأثر كثير من المفكرين الصهاينة بالفكر القبَّالي، ومن أهمهم الحاخام أبراهام كوك الذي توصَّل إلى صيغة صهيونية ليست قومية دينية وحسب، وإنما صيغة صهيونية قومية عضوية حلولية لا تقنع فقط بالرؤية التقليدية التي ترى أن الإله قد يجعل اليهود محط عنايته الخاصة بل تؤكد كذلك أن الإله يحل فيهم كجماعة حتى يشكِّل هو والشعب والأرض ثالوثًا حلوليًا صهيونيًا.

كما يُلاحَظ أثر القبَّالاه في فكر جماعة جوش إيمونيم. وفي مقابلة بين كاتب إسرائيلي من رافضي الاستيطان في الضفة الغربية وأحد أعضاء جوش إيمونيم، قال الأخير: انطلاقًا من تراث القبَّالاه، العالم مقسَّم إلى خمسة أقسام: الجماد، والنبات، والحيوان، والناطق، واليهودي. والتناقض الأساسي كامن بين الناطق واليهودي.

وآخر كُتب القبَّالاه في العالم الغربي وضعه بالألمانيَّة هيرتس أبراهام شير، ونُشر عام ١٨٧٥ .

ولكن، ظهرت كتب قبَّالية مختلفة في شرق أوربا والشرق الأوسط حتى الحرب العالمية الثانية.

ولا تزال كتب القبَّالاه تُكتَب وتُطبَع وتُنشَر في إسرائيل.

الحلول في الصوفيَّة اليهوديَّة

يصل الحلول إلى منتهاه وإلى درجة وحدة الوجود في تراث القبَّالاه، فهو تراث يكاد يكون خاليًا تمامًا من أي توحيد أو تجاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجوهر بقية البشر.

ويصبح الفرق بين اليهود والأغيار فرقًا ميتافيزيقيًّا، فاليهود قد خُلقوا من مادة مقدَّسة (حل فيها الإله بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منها بقية البشر.

ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون)، ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إيحاءات جنسية، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبَّالي.

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبَّالي، فالإله لا يخلق العالم من العدم وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون)؛ أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان، وتستقل التجليات العشرة تمامًا عن الخالق حتى إنه يتحدث مع الشخيناه (التجلي العاشر).

كما أن التجلي المذكر للإله يطارد التجلي المؤنث.

وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي، ويجتمعان معًا بالمعنى الجنسي.

وفي داخل التراث القبَّالي، يصبح التجلي العاشر (شخيناه) الذات الإلهية والتعبير الأنثوي عن الإله، وهو نفسه جماعة بني إسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحدًا كاملًا.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين.

ثم تصل الحلوليَّة إلى ذروتها والشرك إلى قمته، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكًا للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتمادًا على الإنسان.

وبعد عملية السقوط، وتَهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية، تتفتت الذات الإلهية نفسها، وتتوزع الشرارات الإلهية، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال شعبه اليهودي.

فاليهود بآثامهم يؤخِّرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم بأفعالهم الخيرة يعجلون بها؛ ولذا فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

وعند هذه النقطة، يصبح من الصعب الحديث عن اليهوديَّة باعتبارها ديانة توحيديَّة[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٦- ١١٩)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٢١- ١٣٠).

الباب الثاني

فرق اليهود

الفصل الأول: حقيقة التفرق اليهودي.

الفصل الثاني: التدرج الزمني لظهور فرق اليهود.

الفصل الثالث: فرق اليهود.

- السامريون (أو السامرة)
- الصدوقيون (أو الصدوقية)
- الفريسيون
- الغيورون (قنَّائيم)
- عصبة حملة الخناجر
- الأسينيون
- الفقراء (الإبيونيون)
- المَغارية
- المعالجون (ثيرابيوتاي)
- المستحمون في الصباح (هيميروبابتست)
- عبدة الإله الواحد (هبسستريون)
- البناءون (بنائيم)
- الكتبة
- الناموسيون
- القرّاءون أو العَنانية
- السفارد
- الإشكناز
- الحسيديون أو الحسيديَّة

الفصل الأول
حقيقة التفرق اليهودي

توجد في اليهوديَّة فرق كثيرة تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافات جوهرية وعميقة تمتد إلى العقائد والأصول، فهي في الواقع ليست كالاختلافات التي توجد بين الفرق المختلفة في الديانات التوحيدية الأخرى.

ومن ثم، فإن كلمة «فرقة» لا تحمل في اليهوديَّة الدلالة نفسها التي تحملها في سياق ديني آخر.

ففي داخل اليهوديَّة يمكن ألا يؤمن اليهودي بالإله ولا بالغيب ولا باليوم الآخر ويُعتبر مع هذا يهوديًا حتى من منظور اليهوديَّة نفسها.

فالصدوقيون مثلًا كانوا ينكرون البعث واليوم الآخر، ومع هذا كانوا يجلسون في السنهدرين - مجمع الكهنة-، جنبًا إلى جنب مع الفريسيين، ويشكلون قيادة اليهود الكهنوتية.

ولعل هذا يعود إلى طبيعة العقيدة اليهوديَّة التي تشبه التركيب الجيولوجي التراكمي أي الطبقات المستقلة المتراكمة الواحدة فوق الأخرى والغير متجانسة، وأهم هذه الطبقات هي الطبقة التوحيدية والطبقة الحلوليَّة.

ويعود أيضًا إلى أن الشريعة اليهوديَّة تُعرِّف اليهودي بأنه من يؤمن باليهوديَّة، أو من وُلد لأم يهودية حتى ولو لم يؤمن بالعقيدة.

فاليهوديَّة لم تتبنَ تعريفًا عقيديًا وحسب (اليهودي هو من يؤمن باليهوديَّة)، ولكنها تبنت أيضًا تعريفًا بيولوجيًا ماديًا (اليهودي هو من وُلد لأم يهودية)، وفي الآونة الأخيرة تبنت تعريفًا نفسيًا (اليهودي هو من يشعر بذلك في قرارة نفسه، ومن قَبل أن يربط مصيره بمصير الشعب اليهودي)، وهذه تعريفات تُسقط المعيارية وتفتح الباب على مصراعيه لكل من يريد أن يُسمِّي نفسه يهوديًا؛ فالتعريفان الثاني والثالث لا علاقة لهما بأية معيارية عقيدية[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري.

الفصل الثاني

التدرج الزمني لظهور فرق اليهود

يجرنا البحث عن الفرق اليهوديَّة وعن تاريخها وأفكارها إلى البحث عن نشأة اليهوديَّة نفسها ومعرفة بداية ظهورها، والذي ذهب إليه كثير من الباحثين هو أن اليهوديَّة قد نشأت على يد عزرا ونحميا، وعلى ذلك براهين، منها: أنه لا توجد كلمة اليهوديَّة أو ما يشير إلى الديانة اليهوديَّة في العهد القديم قبل سفر عزرا الذي كتب التوراة بعد فقدها حين غزو نبوخذنصر (أو بختنصر) لهم، أو إخفائها من قِبلهم في الأسر البابلي.

وعلى هذا فأي فرقة من فرق اليهود لن تتعدى في الزمن القرن الخامس قبل الميلاد[1].

ونلاحظ هنا أنه عند كل مواجهة لليهودية مع الكتل الدولية الفكريَّة الكبرى الموجودة في ذلك الوقت فإن اليهوديَّة تنقسم وتظهر الفرق اليهوديَّة.

١- ففي القرن الخامس قبل الميلاد كان ظهور أولى الفرق اليهوديَّة التي أدَّت إلى انقسام اليهوديَّة وهي فرقة السامريين التي ظلت أقلية معزولة بسبب قوة السلطة الدينيَّة المركزية المتمثلة في الهيكل ثم السنهدرين (طبقة الكهنة)، وكان هذا بعد مواجهة اليهوديَّة لأزمة كبرى أولى مع الآشوريين والبابليين.

٢- ومع القرن الثاني قبل الميلاد، خاضت اليهوديَّة أزمة حقيقية كبرى ثانية بسبب المواجهة مع الحضارة الهيلينية.

فظهرت فرقة الصدوقيين، وفرقة الفريسيين، وظهرت فرقتا الغيورين، وعصبة حملة الخناجر اللذين كانا يُعَدان جناحًا متطرفًا من الفريسيين، ثم ظهرت فرقة الأسينيين.

وقد حققت هذه الفرق ذيوعًا، وأدَّت إلى انقسام اليهوديَّة.

ولكنها اختفت لسببين: **أولهما**: انتهاء العبادة القربانية بعد هدم الهيكل، **وثانيهما**: ظهور المسيحيَّة التي حلت أزمة اليهوديَّة في مواجهتها مع الهيلينية إذ طرحت رؤية جديدة للعهد يضم اليهود وغير اليهود، ويحرر اليهود من نير التحريمات العديدة، ومن جفاف العبادة القربانية وشكليتها.

وظهرت فرقة الحسيديَّة وهي جماعات من مؤيدي التمرد الحشموني في القرن الثاني قبل الميلاد.

ثم استُخدمت للإشارة إلى الحركة الصوفيَّة التي نشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر، ثم أصبحت تشير إلى أتباع الحَركة الحسيديَّة التي نشأت في بولندا في القرن الثامن عشر، وهذا هو

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو، ص(٢٦).

الاستخدام الشائع في الوقت الحالي.

٣- وبعد ظهور المسيحيَّة واجهت اليهوديَّة أزمة كبرى ثالثة فظهر في القرن الأول الميلادي اليهوديَّة المسيحيَّة، وظهرت فرق صغيرة لكل منها تصوُّرها الخاص عن اليهوديَّة، مثل: فرقة الفقراء أو الإبيونيين، وفرقة المغارية، وفرقة المعالجين أو الثيرابيوتاي، وفرقة المستحمون في الصباح، وفرقة عبدة الإله الواحد.

ولكن هذه الفرق الصغيرة نظرًا لعزلتها، لم تؤثر كثيرًا في مسار اليهوديَّة وقد اختفى معظمها من الوجود.

كما ظهرت فرقة البنائيين السرية التي عُرِفت بالقوة الخفية، وكان هدفها هو تقويض المسيحيَّة والقضاء عليها، وظلت هذه الفرقة تعمل بخفاء حتى ظهورها في القرن الثامن عشر باسم الماسونية، وظهرت في العصر الحديث بأثواب وأشكال أخرى كالروتاري والليونز وغيره.

٤- وجابهت اليهوديَّة أزمة كبرى رابعة حين تمت المواجهة مع الفكر الإسلامي، فأدى هذا إلى ظهور القرائين كنوع من رد الفعل، فرفضت الشريعة الشفوية وطرحت منهجًا للتفسير يعتمد على القياس والعقل؛ أي أنها انشقت عن اليهوديَّة الحاخامية تمامًا.

والقرّاءون بعد عصرهم الذهبي في القرن العاشر، سقطوا في حرفية التفسير، الأمر الذي قلَّص نفوذهم حتى تحولوا إلى فرقة صغيرة آخذة في الاختفاء.

٥- ثم حدثت مواجهة لليهودية مرة أخرى مع المسيحيَّة في شبه جزيرة أيبريا -أسبانيا والبرتغال- في القرن الخامس والسادس عشر فأدى إلى ظهور اليهود السفارد وجماعات المارانوا، وفي المقابل ظهور اسم اليهود الإشكناز.

٦- وقد جابهت اليهوديَّة أزمتها الكبرى الخامسة في العصر الحديث (في الغرب) مع الانقلاب التجاري الرأسمالي الصناعي.

وقد ظهرت إرهاصات الأزمة في شكل ثورة شبتاي تسفي على المؤسسة الحاخامية، فهو لم يهاجم التلمود وحسب، وإنما أبطل الشريعة نفسها، وأباح كل شيء لأتباعه، الأمر الذي يدل على أن تراث القبَّالاه الحلولي، الذي يعادل بين الإله والإنسان، كان قد هيمن على الوجدان الديني اليهودي، وقد وصف الحاخامات تصوُّر القبَّالين للإله بأنه شرك.

وبعد أن أسلم شبتاي تسفي، هو وأتباعه الذين أصبحوا يُعرفون بالدونمه، ظهر جيكوب فرانك الذي اعتنق المسيحيَّة هو وأتباعه وحاول تطوير اليهوديَّة من خلال أطر مسيحية كاثوليكيَّة.

وقد تفاقمت الأزمة واحتدمت مع الثورة الفرنسيَّة، حيث إن الدولة القومية الحديثة في الغرب منحت اليهود حقوقهم السياسية، وطلبت إليهم الانتماء السياسي الكامل، الأمر الذي كان يعني ضرورة تحديث اليهود واليهوديَّة وما تسبب عن ذلك من أزمة أدَّت إلى تصدعات جعلت أتباع اليهوديَّة الحاخامية التقليدية (أي اليهود الأرثوذكس) أقلية صغيرة، إذ ظهرت اليهوديَّة الإصلاحية

ثم المحافظة ثم التجديدية، وهي فرق أعادت تفسير الشريعة أو أهملتها تمامًا، واعترفت بالتلمود أو وجدت أنه مجرد كتاب مهم دون أن يكون مُلزمًا.

كما أنها عَدَّلت معظم الشعائر، مثل شعائر السبت والطعام، وأسقطت بعضها، وعَدَّلت أيضًا كتب الصلوات وشكل الصلاة، أي أن فهمها لليهودية وممارستها لها يختلف بشكل جوهري عن اليهوديَّة الحاخامية الأرثوذكسيَّة.

ومنذ أيام الفيلسوف إسبينوزا، ظهر نوع جديد من اليهود لا يمكن أن نقول: إنه فرقة ولكن لا بد من تصنيفه حيث يشكل الأغلبية العظمى من يهود العالم (نحو ٥٠%).

وهذا النوع من اليهود هو الذي يترك عقيدته اليهوديَّة، ولكنه لا يتبنى عقيدة جديدة، وهو لا يؤمن عادةً بإله على الإطلاق، وإن آمن بعقيدة ما فهو يؤمن بشكل من أشكال الدين الطبيعي أو دين العقل أو دين القلب، ولا يمارس أية طقوس.

وهؤلاء يُطلَق عليهم الآن اسم «اليهود الإثنيون»؛ أي أنهم لا ينتمون إلى أية فرقة دينية تقليدية أو حديثة، ولكنهم مع هذا يسمون أنفسهم يهودًا؛ لأنهم ولدوا لأم يهودية.

ويمكن أن نضيف إلى الفرق اليهوديَّة يهود الفلاشاه ويهود الهند الذين لا يشكلون فرقًا بالمعنى الدقيق، فهم لم ينشقوا عن اليهوديَّة الحاخامية بقدر ما انعزلوا عنها عبر التاريخ وتطوَّروا بشكل مستقل ومختلف، فهم لا يعرفون التلمود أو العبريَّة، كما أن كتبهم المقدَّسة مكتوبة باللغات المحلية[1].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل الثالث
فرق اليهود

قال ابن حزم: افترقوا على خمس فرق.

ثم ذكرهم: السامريَّة، والصدوقية، والعنانية، والربانية، والعيسوية[1].

وقال الشهرستاني: اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة[2].

ثم ذكر أربعة فرق وهي: العنانية، والعيسوية، والمقاربة، والسامرة، ثم قال: فهذه أربع فرق هم الكبار وانشعبت منهم الفرق إلى إحدى وسبعين فرقة.

وهم بأسرهم أجمعوا على أن في التوراة بشارة بواحد بعد موسى، وإنما افتراقهم إما في تعين ذلك الواحد أو في الزيادة على ذلك الواحد.

وذكر المشيحا وآثاره ظاهر في الأسفار.

وخروج واحد في آخر الزمان هو الكوكب المضيء الذي تشرق الأرض بنوره أيضًا متفق عليه. واليهود على انتظاره، والسبت يوم ذلك الرجل، وهو يوم الاستواء بعد الخلق.

وقد اجتمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيًا على قفاه واضعًا إحدى رجليه على الأخرى.

وقالت فرقة منهم: إن ستة الأيام التي خلق الله تعالى فيها السموات والأرض هي ستة آلاف سنة فإن يومًا عند الله كألف سنة مما تعدون بالسير القمري، وذلك هو ما مضى من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وبه يتم الخلق، ثم إذا بلغ الخلق إلى النهاية ابتدأ الأمر ومن ابتداء الأمر يكون الاستواء على العرش والفراغ من الخلق وليس ذلك أمرًا كان ومضى بل هو في المستقبل إذا عددنا الأيام بالألوف[3].

أما المؤرخ اليهودي يوسيفوس الذي عاش في القرن الأول فقد تكلم عن نشأة مذاهب دينية- سياسية أربعة وسماها بالفلسفات الأربع، تعبيرًا عن غربة هذه المذاهب عن التيار الرباني الحاخامي الممثِّل لليهودية وتقاليدها المتوارثة، وذهب إلى أن هذه المذاهب كانت وليدة تأثيرات فلسفية أجنبية غريبة عن اليهوديَّة ولا تمت إليها بصلة، وهذه الفرق الأربعة عند يوسيفوس هي: الفريسيون، والصدوقيون، والأسينيون، والغيوريون[4].

---

(١) الفصل، ابن حزم (١/ ٨٢).

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ٢١٤).

(٣) الملل والنحل (١/ ٢١٩).

(٤) انظر: اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح، ص(٩٢، ٩٣).

وهناك من الباحثين من صنَّف فرق اليهود بعدة اعتبارات منها:

١- اعتبارات سياسية: مثل انقسام دولة إسرائيل بعد موت سليمان -حسب رواية التوراة- إلى إسرائيل ويهوذا، وكل منهما شكل مذهبًا خاصًا، فقد كانت دولة إسرائيل تعبد إله إيل، ومالت من عبادة إيل إلى عبادة البعل والعجول، بينما عبدت دولة يهوذا يهوه إلها آخر، وقد جمع بين هذين المذهبين في تقليدين توراتيين الإيلي واليهوي.

٢- اعتبارات فقهية: مثل انقسامهم إلى الصدوقية والفريسية.

٣- اعتبارات عقدية: مثل انقسامهم إلى من يؤمن بالتوراة فقط، ومن يؤمن بغيرها من الكتب كالتلمود[1].

وعلى كل الأحوال فسوف نتكلم عن كل فرق اليهود بحسب الترتيب الزمني التاريخي لها.

السامريون (أو السامرة) Samaritanss

التعريف:

السامريون: صيغة جمع عربية، وهي كلمة معربة من كلمة شوميرونيم العبريَّة، أي سكان السامرة. ويُشار إليهم في التلمود بلفظة «كوتيم»، وتعني «الغرباء». لكن هذه التسميات هي تسميات اليهود الحاخاميين لهم.

وكان يوسيفوس يسميهم الشكيميين نسبةً إلى شكيم (نابلس الحالية).

أما هم فيطلقون على أنفسهم «بنو إسرائيل»، أو «بنو يوسف»، باعتبار أنهم من نسل يوسف.

كما يطلقون على أنفسهم اسم «شومريم»؛ أي «حفظة الشريعة»، باعتبار أنهم انحدروا من صلب يهود السامرة الذين لم يرحلوا عن فلسطين عند تدمير المملكة الشماليَّة عام ٧٢٢ ق.م، فاحتفظوا بنقاء الشريعة.

وقال الشهرستاني عنهم: هؤلاء قوم يسكنون جبال بيت المقدس وقرايا من أعمال مصر، ويتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود.

وعرفهم البعض بأنهم: طائفة من المتهوّدين الذين دخلوا اليهوديَّة من غير بني إسرائيل، كانوا يسكنون جِبَالِ بيت المقدس[2].

التاريخ والأحداث

بعد تهجير قطاعات كبيرة من سكان المملكة الشماليَّة، قام الآشوريون بتوطين قبائل من بلاد

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(٢٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/٢١٨)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/٥٠٠).

عيلام وسوريا وبلاد العرب لتحل محل المهجرين من اليهود، وتسكينهم في السامرة وحولها.

وامتزج المستوطنون الجدد مع من تبقَّى من اليهود، واتحدت معتقداتهم الدينيَّة، وقد نتج عن ذلك اختلاف عن بقية اليهود.

ولكن الانشقاق النهائي حدث عام ٤٣٢ ق.م، بين اليهود والسامريين، بعد عودة عزرا ونحميا من بابل، حيث دافعا عن فكرة النقاء العرقي، ومنع الزواج من الأغيار[1].

وثمة قصتان لتاريخ الانشقاق:

أولاهما ترد في العهد القديم ففي سفر نحميا ١٣/ ٢٣- ٢٨: في تلك الأيام، كان واحد من بني يوياداع بن الياشيب الكاهن العظيم صهرًا لسنبلط الحوروني فطردته من عندي.

وقد وردت عن يوسيفوس رواية أخرى مفادها أن منَسَّى شقيق الكاهن الأعظم تزوج من ابنة حاكم السامرة سنبلط الثالث (الفارسي)، فخيَّره الكهنة بين أن يطلق زوجته أو أن يتخلى عن مكانته وسلطاته الكهنوتية، فلجأ منَسَّى لحميه الذي بَنَى لزوج ابنته هيكلًا على عادة العبرانيين القدامى على جبل جريزيم لينافس هيكل القدس، وأصبح الشاب المطرود كاهن السامريين، وبعد أن أسس الهيكل، انضم إليه عشرات الكهنة الآخرين المتزوجين من أجنبيات وعناصر يهودية أخرى غير راضية عن المؤسسة الدينيَّة في القدس.

ومن الواضح أن ثمة عناصر مشتركة بين القصتين تتمثل في بعض الأسماء والعلاقات الأساسية وفي عملية الطرد.

ومع أن هناك قرنًا من الزمان يفصل بين القصتين الأولى والثانية، فإن من الواضح أنهما تشيران إلى الواقعة نفسها.

ويحل المؤرخون هذه القضية بأن يأخذوا بقصة يوسيفوس ويرجعوا بتاريخها إلى زمن نحميا.

وقد نشبت صراعات بين السامريين وبقية اليهود، واشتدت الخصومة بينهما وانتهت بعداوة راسخة وانفصال تام، وأدى هذا إلى نفي بعض اليهود عن السامريين صفة الانتساب إلى اليهوديَّة، كما أنهم يعاملونهم معاملة الأغيار في أمور الزواج والموت.

وفي بعض طبعات التلمود، تحل كلمة «السامريين» محل كلمة «الأغيار» حتى تبدو عبارات السباب العنصري وكأنها موجهة إلى السامريين وحدهم وليس إلى كل الأغيار.

ويذهب السامريون إلى أن اليهوديَّة الحاخامية هرطقة وانحراف، وأن قيادة اليهود الدينيَّة أضافت إلى التوراة وأفسدت النص ليتفق مع وجهة نظرها.

ومع هذا فإن السامرة تعرضوا لكثير من التوترات التي تَعرَّض لها اليهود في علاقتهم بالإمبراطوريات التي حكمت المنطقة.

---

(١) انظر: عزرا ١٠/ ٩- ١٢، نحميا ١٣/ ٢٣- ٢٨.

فبعد أن فتح الإسكندر المنطقة عام ٣٢٣ ق.م، هاجر بعض السامريين إلى مصر وكونوا جماعات فيها. وهذه هي بداية الشتات السامري التي امتدت وشملت سالونيكا وروما وحلب ودمشق وغزة وعسقلان.

وحينما قرر أنطيوخوس الرابع (١٧٥ . ١٦٤ ق.م) دَمْج يهود فلسطين في إمبراطوريته لتأمين حدوده مع مصر، كان السامريون ضمن الجماعات التي استهدف دمجها وإذابتها رغم أنهم أعلنوا أنهم لا ينتمون إلى الأصل اليهودي.

وحينما استولى الحشمونيون على الحكم (١٦٤ ق.م)، واجه السامريون أصعب أزمة في تاريخهم إذ سيطر الحشمونيون على شكيم وجريزيم، واستولوا على مدينة السامرة وحطموها.

وقد حطم يوحنا هيركانوس معبدهم المقدس (هيكلهم) عام ١٢٨ ق.م. ومع هذا، فقد استمر السامريون في تقديم قرابينهم على جبل جريزيم.

كما أن هَدْم الهيكل لم ينتج عنه انتهاء طبقة الكهنة على عكس اليهود الذين انتهت عبادتهم القربانية المركزية وطبقة الكهنة التي تقوم بها بهدم هيكل القدس.

ويبدو أن السامريين لم يساعدوا اليهود أثناء التمرد اليهودي الأول، ومع هذا نشب تمرُّد مستقل في صفوفهم ضد فسبسيان عام ٦٧ ق.م، وتم قمعه.

كما ثار السامريون ضد الرومان عام ٧٩ . ٨١ م، فهُدمت شكيم وبُني مكانها نيابوليس (نابلس) أي «المدينة الجديدة».

وتمتع السامريون بمرحلة ازدهار فكري في القرن الرابع الميلادي تحت قيادة زعيمهم القومي بابا رابا.

ومن أهم مفكريهم الدينيين مرقه الذي عاش في القرن نفسه، وكاتب الأناشيد التي تُسمَّى «إمرالم دارا».

وقد عانى السامريون من الاضطهاد على يد الإمبراطورية البيزنطيَّة.

وفي عام ٥٢٩ الميلادي، قام جوستينيان بشن هجمة شرسة عليهم لم تقم لهم قائمة بعدها.

ويُقال: إن الرومان سمحوا للسامريين ببناء هيكلهم الذي دمره الحشمونيون حينما رفضوا الانضمام إلى ثورة بركوخبا، ولكن هذا الهيكل دُمِّر بدوره عام ٤٨٤م.

وقد ساعد السامريون المسلمين إبان الفتح الإسلامي، كما وقفوا مع المسلمين ضِد الغزو الصليبي.

وظهر في السامرة رجل يقال له: الألفان ادعى النبوة وزعم أنه هو الذي بشر به موسى عليه السلام، وأنه هو الكوكب الدري الذي ورد في التوراة أنه يضيء ضوء القمر، وكان ظهوره قبل المسيح عليه السلام بقريب من مائة سنة.

وافترقت السامرة إلى دوستانية وهم الألفانية، وإلى كوستانية،

والدوستانية معناها: الفرقة المتفرقة الكاذبة، والكوستانية معناها: الجماعة الصادقة وهم يقرون بالآخرة والثواب والعقاب فيها، والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا

وبين الفريقين اختلاف في الأحكام والشرائع.

المعتقدات والأفكار

١- أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام، وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبيًّا واحدًا، وقالوا: التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعد موسى يصدق ما بين يديه من التوراة ويحكم بحكمها ولا يخالفها ألبتة.

٢- الكتاب المقدَّس عند السامريين هو أسفار موسى الخمسة، ويُضاف إليها أحيانًا سفر يشوع بن نون. وهو في عقيدتهم منزل من عند الله، وهي تختلف عن الأسفار المدونة، وينكرون الشريعة الشفوية، ويأخذون بظاهر نصوص التوراة.

٣- لغتهم غير لغة اليهود، وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم وهي قريبة من العبرانيَّة فنقلت إلى السريانيَّة.

ولغة العبادة عندهم هي العبريَّة السامريَّة، ولكن لغة الحديث ولغة الأدبيات الدينيَّة كانت العربيَّة. وكان كتابهم المقدَّس يُكتَب بحروف عبرية قديمة، ويزعم السامريون أن اللغة والحروف جاءتهم صحيحة من عهد النبي موسى.

٤- يحتفل السامريون بالأعياد اليهوديَّة، مثل يوم الغفران وعيد الفصح، ولكنهم كانت لهم أعياد مقصورة عليهم وتقويم خاص بهم.

٥- يؤمنون بعودة الماشيَّح برغم أنه لا توجد في أسفار موسى الخمسة أية إشارة إليه.

٦- قبلة السامرة جبل يقال له: جريزيم بين بيت المقدس ونابلس، وهو المكان المقدس لديهم.

قالوا: إن الله تعالى أمر داود أن يبني بيت المقدس بجبل نابلس[١]، وهو الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام[٢]، وتحول داود إلى إيلياء وبنى البيت ثمة وخالف الأمر فظلم.

والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود.

٧- قال ابن حزم: وهم يقولون: إن مدينة القدس هي نابلس، وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلًا ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، ولهم توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد يوشع عليه السلام

---

(١) انظر: تكوين ١٨/١٠- ١٩ .

(٢) انظر: تثنية ٢٧/١١- ١٥ .

فيكذبون بنبوة شمعون، وداود، وسليمان، وأشعيا، واليسع، وإلياس، وعاموص، وحبقوق، وزكريا، وأرميا، وغيرهم، ولا يقرون بالبعث ألبتة وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها[1].

-الأعداد والتواجد الحالي

يُعَدُّ السامريون جماعة شبه منقرضة، فهم يعتبرون أصغر جماعة دينية في العالم، فعددهم لا يتجاوز خمسمائة، حوالي ٣٣٧ شخصًا بين ذكور وإناث، وقد مر عليهم وقت غير بعيد لم يزد عددهم فيه عن ١٠٠ نفس متفرقين في قرى مختلفة.

وقبل ٣٥٠ سنة لم يكن قد بقي منهم سوى خمسة ذكور وخمس إناث لا غير، فجمعهم الكاهن صدقة في نابلس بعد أن كانوا يعيشون متفرقين في دمشق وغزة ومصر، ويعيش بعضهم في نابلس ويعيش البعض الآخر في حولون (إحدى ضواحي تل أبيب)[2].

الصدوقيون (أو الصدوقية) Saducees

التعريف:

الصدوقيون: مأخوذة من الكلمة العبريَّة «صدوقيم»، ويُقال لهم أحيانًا: البوئيثيون Boethusian.

وأصل الكلمة غير محدَّد، وله احتمالان:

الأول: ما ذهب إليه بعض الباحثين ومنهم ابن حزم أنهم نسبوا إلى رجل يقال له: صدوق، ولكنهم اختلفوا في تعينه، فقيل: هو اسم الكاهن الأعظم في عهد سليمان، الذي توارث أحفاده مهمته حتى عام ١٦٢ ميلادية[3]، وقيل: هو اسم كاهن وجد في القرن الثالث قبل الميلاد.

الثاني: أن تكون التسمية من الأضداد؛ لأنهم مشهورون بالإنكار، فهم ينكرون البعث والحساب والجنة والنار، وينكرون التلمود كما ينكرون الملائكة والمسيح المنتظر.

والصدوقيون فرقة دينية وحزب سياسي، وهم أعضاء القيادة الكهنوتية المرتبطة بالهيكل وشعائره والمدافعون عن الحلوليَّة اليهوديَّة الوثنية.

التاريخ والأحداث

يرى بعض الباحثين أنهم نشئوا في عهد النبي سليمان، ويرى غالبية الباحثين أنهم نشئوا في القرن الثالث قبل الميلاد.

---

(١) الفصل (١/ ٨٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٢١٨، ٢١٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي، ص(٨٣)، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٠)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٣٤- ٤٧)، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٢- ١١٤).

(٣) انظر: سفر الملوك الأول ١/ ٨، ١/ ٣٨- ٣٩ .

وكان الصدوقيون، بوصفهم طبقة كهنوتية مرتبطة بالهيكل، يعيشون على النذور التي يقدمها اليهود، وعلى بواكير المحاصيل، وعلى نصف الشيقل الذي كان على كل يهودي أن يرسله إلى الهيكل، الأمر الذي كان يدعم الثيوقراطية الدينيَّة التي تتمثل في الطبقة الحاكمة والجيش والكهنة.

وكان الصدوقيون يحصلون على ضرائب الهيكل، كما كانوا يحصلون على ضرائب عينية وهدايا من الجماهير اليهوديَّة، وقد حوَّلهم ذلك إلى أرستقراطية وراثية تؤلِّف كتلة قوية داخل السنهدرين (مجمع الكهنة) الذي هو أعلى سلطة دينية سياسية عند اليهود وبلغ عددهم عشرين عضوًا من أصل سبعين عضوًا.

ويعود تزايد نفوذ الصدوقيين إلى أيام العودة من بابل بمرسوم قورش (٥٣٨ ق.م) إذ آثر الفرس التعاون مع العناصر الكهنوتية داخل الجماعة اليهوديَّة؛ لأن بقايا الأسرة المالكة اليهوديَّة من نسل داود قد تشكل خطرًا عليهم.

واستمر الصدوقيون في الصعود داخل الإمبراطوريات البطلمية والسلوقية والرومانية، واندمجوا مع أثرياء اليهود وتأغرقوا، حتى إنه يطلق المؤرخون اسم الصدوقيين على هذه الفئة التي رغبت أن تصبح إغريقية في جميع مظاهرها وفي ديانتها وعبادتها.

وقام الصدوقيون بدور الوسيط بين الطبقة الحاكمة والشعب، فكانوا يعملون لصالح الإمبراطورية الحاكمة في جمع الضرائب وفي عملية استغلال الجماهير اليهوديَّة؛ ولكن وبالتدريج ظهرت جماعات من علماء ورجال الدين، أهمهم جماعة الفريسيين، تلقوا العلم بطرق ذاتية، كما كانت شرعيتهم تستند إلى عملهم وتقواهم لا إلى مكانة يتوارثونها.

وكانوا يحصلون على دخلهم من عملهم، لا من ضرائب الهيكل، وقد أدَّى ظهور الفريسيين، بصورة أو بأخرى، إلى إضعاف مكانة الصدوقيين.

ومما ساعد على الإسراع بهذه العملية، ظهور الشريعة الشفوية؛ حيث كان ذلك يعني أن الكتاب المقدَّس بدأت تزاحمه مجموعة من الكتابات لا تقل عنه قداسة.

كما أن الكتب الخفية والمنسوبة وغيرها من الكتابات كانت قد بدأت في الظهور.

وقد ساهم الأثر الهيليني في اليهود في إضعاف مكانة الصدوقيين الكهنة، فقد كان اليونانيون القدامى يعتبرون الكهنة من الخدم لا من القادة، وكانت جماعات العلماء الدينين -الفريسيين- أكثر ارتباطًا بالحضارة السامية وبالجماهير ذات الثقافة الآراميَّة.

لكل هذا، زاد نفوذ الفريسيين داخل السنهدرين وخارجه، حتى إنهم أرغموا الكاهن الأعظم على أن يقوم بشعائر يوم الغفران حسب منهجهم هم.

وقد وقف الصدوقيون، على عكس الفريسيين، ضد التمرد الحشموني (١٦٨ ق.م)، ولكنهم عادوا وأيدوا الملوك الحشمونيين باعتبار أن الأسرة الحشمونية أسرة كهنوتية (ابتداءً من ١٤٠ ق.م).

ويرى البعض أنه لا يمكن فَهم الصراعات التي لا تنتهي بين ملوك الحشمونيين إلا في إطار الصراع بين الحزب الشعبي -الفريسي- وحزب الصدوقيين.

وقد أيَّد الصدوقيون بعد ذلك الرومان.

ولعبوا بعد ذلك دورًا كبيرًا في نقاش عيسى عليه السلام، فقد كانوا في طليعة المسئولين عن محاكمة المسيح في السنهدرين[1].

المعتقدات والأفكار

١- الصدوقيون لا يؤمنون بيوم القيامة، ولا بعالم الآخرة، فهم ينكرون البعث والحياة الآخرة والحساب والجنة والنار، وينكرون مقولات: الروح والآخرة والبعث والثواب العقاب، ويرون أنه لا توجد سوى الحياة الدنيا، وأن جزاء الإنسان يتم في الدنيا وبشكل مادي.

٢- الصدوقيون يرون أن الخالق لا يكترث بأعمال البشر، وأن الإنسان هو سبب ما يحل به من خير وشر، ولذا، فقد قالوا بحرية الإرادة الإنسانية الكاملة.

وهم ينكرون القضاء والقدر وما كتب للإنسان كما ينكرون اللوح المحفوظ ويرون في الإنسان خالقًا لأفعاله وهو مسئول؛ لأنه حر التصرف.

٣- الصدوقيون لا يؤمنون بالشريعة الشفوية كالتلمود (المشنا والجمارا)، ويقولون: علينا ألا نراعي إلا ما ورد في النص المدون، ولا نأخذ بما جاءت به التقاليد الشفوية الموروثة عن الآباء والأجداد.

٤- الصدوقيون يقدمون تفسيرًا حرفيًّا للعهد القديم، ويحرِّمون على الآخرين تفسيره.

٥- ينكرون وجود الملائكة والشياطين، فالملاك الذي يذكر في العهد القديم يفسرونه بالرب مباشرة.

٦- يدافعون عن الشعائر الخاصة بالهيكل والعبادة القربانية، ويرون أن فيها الكفاية، وأنه لا توجد حاجة إلى ديانة أو عقيدة دينية مجردة، ولا حاجة إلى إقامة الصلاة أو دراسة التوراة باعتبار أن ذلك شكل من أشكال العبادة.

٧- ينكرون المسيح المنتظر ولا يترقبونه.

٨- ذكر ابن حزم عنهم: أنهم يقولون بين سائر اليهود: إن العزير هو ابن الله -تعالى الله عن ذلك- وكانوا بجهة اليمين.

---

(١) انظر: متى ٣/٧، ١٦/١، ٢٢/٢٣، مرقس ١٢/١٨، لوقا ٢٠/٢٧، أعمال الرسل ٤/١، ٥/١٧ .

التواجد الحالي

قد اختفت هذه الفرقة تمامًا بهدم الهيكل سنة ٧٠ م؛ نظرًا لارتباطها العضوي به[١].

الفريسيون Pharisees

التعريف:

كلمة «فريسيون» مأخوذة من الكلمة العبريَّة «بيروشيم»؛ أي «المنعزلون».

وكانوا يلقبون أيضًا بلقب «حبيريم»؛ أي «الرفاق أو الزملاء».

وهم أيضًا «الكتبة»، أو على الأقل قسم منهم، من أتباع شماي الذين يشير إليهم المسيح عليه السلام.

والفريسيون: فرقة دينية وحزب سياسي -والبعض يجعلهم حركة دينية اجتماعيَّة متشددة رهبانية- ظهرت نتيجة الهبوط التدريجي لمكانة الكهنوت اليهودي بتأثير الحضارة الهيلينية التي تُعلي من شأن الحكيم على حساب الكاهن.

التاريخ والأحداث

يرجع التراث اليهودي جذورهم إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، بل يُقال: إنهم خلفاء الحسيديين (المتقين)، وهي فرقة اشتركت في التمرد الحشموني.

ولكن الفريسيين ظهروا باسمهم الذي يُعرَفون به في عهد يوحنا هيركانوس الأول (١٣٥ - ١٠٤ ق.م)، وانقسموا فيما بعد إلى قسمين: بيت شماي وبيت هليل.

وقد كان الفريسيون يشكلون أكبر حزب سياسي ديني في ذلك الوقت، ويُقال: إنهم كانوا يشكلون أغلبية داخل السنهدرين (مجمع الكهنة)، أو كانوا على الأقل أقلية كبيرة.

ومن المعروف أنه حينما عاد اليهود من بابل، هيمن الكهنة عليهم وعلى مؤسساتهم الدينيَّة والدنيويَّة، تلك المؤسسات التي عبَّر عن مصالحها فريق الصدوقيين.

ولكن اليهوديَّة كان قد دخلتها في بابل أفكار جديدة، كما أن وضع اليهود نفسه كان آخذًا في التغير، إذ إن حلم السيادة القومية لم يَعُد له أي أساس في الواقع، بعد التجارب القومية المتكررة الفاشلة، وبعد ظهور الإمبراطوريات الكبرى، الواحدة تلو الأخرى.

وقد زاد عدد اليهود المنتشرين خارج فلسطين، وخصوصًا في بابل، ولكل ذلك، نشأت الحاجة إلى صيغة جديدة تعبِّر عن الوضع الجديد.

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٨٢)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٤٩٩)، اليهودية، د. أحمد شلبي، ص(٢٢١- ٢٢٣)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٤٧- ٥٢)، اليهودية عرض تاريخي ص(١٠٢- ١٠٤).

ومن هنا، ظهر الفريسيون الذين لم يكونوا من عامة الشعب، بل كان بعضهم من الأثرياء، وإن كانوا على العموم يتسمون بأنهم يعيشون من عملهم، فكان منهم الحرفيون والتجار، على عكس الصدوقيين الذين كانوا يشكلون طبقة كهنوتية أرستقراطية مرتبطة بالهيكل وتعيش من ريعه، مما علهم يصفون الفريسيين بالضحالة والجهالة.

ورغم تميز الفريسيين طبقيًا، ورغم تعصبهم للشريعة، وربما بسببه، فإنهم كانوا يلقون تأييد الجماهير، وأغلب علماء التوراة برزوا بين ظهرانيهم.

وقد دخل الفريسيون في صراع دائم مع الصدوقيين على النفوذ والمكانة والامتيازات.

فكانوا يتصرفون مثل الكهنة كأن يأكلوا كجماعة، ويقيموا شعائر الختان، بل حاولوا فرض نفوذهم على الهيكل نفسه على حساب الصدوقيين، وذلك عن طريق ممارسة بعض الطقوس المقصورة على الهيكل خارجه.

وقد قوي نفوذ الفريسيين مع ثراء الدولة الحشمونية والرخاء الذي ساد عصرها بعض الوقت.

وبلغوا درجة من القوة حتى إنهم نجحوا في حَمْل الكاهن الأعظم على القَسَم بأنه سيقيم طقوس عيد يوم الغفران حسب تعاليمهم، وقد أيَّد الفريسيون التمرد الحشموني (١٦٨ ق.م) وساندوه، في بادئ الأمر، على مضض.

ولكن التناقض بينهم وبين الأسرة الحشمونية ظهر إبان حكم يوحنا هيركانوس الأول، فتحدوا سلطته الكهنوتية وذبح هو آلافًا منهم، وتَحقَّق للصدوقيين بذلك شيء من النصر.

ولكن زوجة هيركانوس (سالومي ألكسندرا) التي خلفته في الحكم، تصالحت معهم وأسلمتهم زمام الأمور في الداخل، فاضطهدوا الصدوقيين حتى إن الجو صار مهيئًا لحرب أهلية.

والواقع أن الصراع الذي دار بين يوحنا هيركانوس الثاني وأخيه أرسطوبولوس الثاني كان صراعًا بين الصدوقيين والفريسيين، ويبدو أن الفريسيين اصطبغوا بصبغة هيلينية في أواخر الأسرة الحشمونية، وعارضوا التمرد اليهودي الأول (٦٦ ـ ٧٠م). لكن خوفهم من الغيورين كان عميقًا، فأخذوا يسايرونهم، غير أنهم كانوا يستسلمون للقوات الرومانية كلما سنحت لهم الفرصة كما فعل يوسيفوس.

وقد كانوا يرون أن الدولة الرومانية أساس للبقاء اليهودي. ويقول أحد الفريسيين: صلوا من أجل سلام الحكومة الرومانية، فلولا الخوف الذي تبعثه في القلوب لابتلع الواحد منا الآخر. (فصول الآباء ٣/ ٢).

ولم يكن لديهم كبير اهتمام بالأمور السياسية وشئون الحكم ما داموا أحرارًا في الإيفاء بوجباتهم الدينيَّة، ولذلك كان لديهم استعداد للتصالح مع الدولة الحاكمة، أو القوة العظمى في المنطقة آنذاك (روما)، وعدم اكتراث بنوعيتها ورؤيتها ما دامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينيَّة، بل إنهم كانوا يفضلون حكومة غير يهودية لا تعطل شعائر اليهوديَّة على حكومة يهودية تعطلها، مثل الحكومة

الهيرودية أو حتى الحشمونية.

وقد قام أحد الفريسيين (يوحنان بن زكاي) بتأسيس حلقة يفنه التلمودية التي طورت اليهوديَّة الحاخامية.

وقد وقف الفريسيون من عيسى عليه السلام موقف العداء؛ فقاوموه أشد المقاومة، ورأوه خارجًا عن الديانة اليهوديَّة، وكانوا من أشد الناس خصومة له، وكانوا سببًا في القبض عليه وصلبه، وقد جاء في أناجيل النصارى تنديد عيسى بالكتبة والفريسيين في مواضع كثيرة[1].

وثمة نظرية جديدة تقول: إن المسيح عليه السلام كان (في الأصل) فريسيًّا من أتباع مدرسة هليل ذات الاتجاه العالمي التبشيري، والتي كانت ترى أن مهمة اليهود نشر وصايا نوح بين الأغيار، وأنه حينما كان يشير إلى «الكتبة والفريسيين» إشارات سلبية وقدحية فإنما كان يشير إلى أتباع شماي وحسب.

المعتقدات والأفكار

يُعَدُّ الفكر الفريسي أهم تطوُّر في اليهوديَّة بعد تبنِّي عبادة يهوه، وقد كان جوهر برنامجهم يتلخص في.

١- الفريسيون يؤمنون بأنه يمكن عبادة الخالق في أي مكان، وليس بالضرورة في الهيكل في القدس، أي أنهم حاولوا تحرير اليهوديَّة، كنسق أخلاقي ديني، من حلوليتها الوثنية المتمثلة في عبودية المكان والارتباط بالهيكل وعبادته القربانية.

ووسعوا نطاقها بحيث أصبحت تغطي كل جوانب الحياة إذ أن واجب اليهودي لا يتحدد في العودة إلى أرض الميعاد، وإنما في العيش حسب التوراة، وعلى اليهودي أن ينتظر إلى أن يقرر الخالق العودة.

وبهذا، يكون الفريسيون هم الذين توصلوا إلى صيغة اليهوديَّة الحاخامية أو اليهوديَّة المعيارية التي انتصرت على الاتجاهات والمدارس الدينيَّة الأخرى.

٢- طالبوا بتطبيق العقل وتفسير التوراة على أن يبتعد التفسير عن الحرفية، وأن يتم التركيز على روح النصوص في مواجهة تفسير الصدوقيين الحرفي.

وقد أقاموا تفسيرات كثيرة حسب اجتهادهم، وذلك لتطويع اليهوديَّة لمطالب التحديات الاجتماعيَّة التي كانوا يوجهونها، قد ضلوا وأضلوا في محاولتهم لتفسير بعض طلاسم التوراة مستشهدين في ذلك بطلاسم أخرى وصفها الكتبة الفريسيون في الأسفار الأخرى.

---

(١) انظر: متى ١٢/١- ٢، ١٢/٢٤- ٢٧، ١٥/١- ٦، ١٩/٢- ٩، ٢٢/١٥- ٢٢، ٢٣/١٣- ٣٩ . مرقس ٣/١- ٤، ١١/٢٧- ٣٣ . لوقا ٥/١٧- ٢٣، ١٧/٢٠- ٢١، ١٩/٣٧- ٤٠ . يوحنا ٣/١- ٢، ٧/٣٣- ٣٤، ٨/٢- ١١ .

ويذهب الباحثون إلى أن التوراة التي بين أيدينا ليست إلا من نسج الفريسيين وخيالهم، ولم يستبعد بعضهم أن يكون عزرا أحد العناصر الفريسية أو هو الذي أنشأها.

٣- الفريسيون من أنصار الشريعة الشفوية التي تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل.

ويرى الفريسيون أن الروايات الشفوية -التلمود- بحد ذاتها أقدم وأفضل من التوراة، وأن ما فيها كله من جانب الله أوحى به إلى موسى على جبل سيناء مثل القانون المكتوب.

ولضمان تقديس اليهود للتلمود أعلن الفريسيون أن للحاخامات سلطة عليا، وأنهم معصومون وأن أقوالهم صادرة عن الله وأن مخافتهم هي مخافة الله.

٤- الفريسيون لا يدَّعون النبوة، فقد كانوا ينادون بأن مرحلة النبوة وصلت إلى نهايتها وأنهم أقرب إلى حكماء الحضارة الهيلينية.

٥- يؤمن الفريسيون بوحدانية الخالق، والماشيح، وبخلود الروح في الحياة الآخرة، وبالبعث والثواب والعقاب والملائكة.

واستدلوا على البعث الجسماني بما جاء في سفر دانيال ٢/١٢ .

٦- يؤمنون بحرية الإرادة التي لا تتعارض مع معرفة الخالق المسبقة بأفعال الإنسان، وأن الأفعال يمكن أن تتأثر بالقضاء والقدر ولكنها غير واقعة بهما.

٧- الفريسيون يعتقدون بوجود الشيطان، وهي عقيدة لم يكن العبريون القدماء أدخلوها في نصوص التوراة، وتبعًا لذلك توسع الفريسيون في الكلام عن الملائكة على أنهم المؤتمرون بأمر الله، القائمون بخدمته، والكلام عن الأبالسة والجن والعفاريت على أنهم المؤتمرون بأمر الشيطان القائمون بخدمته[(١)].

٨- يعتقدون أن التوراة بأسفارها الخمسة خلقت منذ الأزل وكانت مدونة على ألواح مقدسة ثم أوحي بها إلى موسى فتدوينها بعده هو في الحقيقة إعادة تدوين[(٢)].

٩- الفريسيون لا يتزوجون، لكنهم يحافظون على مذهبهم عن طريق التبني.

التواجد الحالي

تمثل هذه الفرقة القاعدة الصلبة اليهوديَّة وعليها يعتمد جمهور اليهود وهم متعصبون، ولكن ظهر منهم فرق متعصبة أشد حدود التعصب.

ويذكر جنيبر هذه الفرق المتعصبة فيقول: كان في فلسطين بين الفرق الأخرى فريق وثيق الصلة بالفريسيين، يتفق معهم في أكثر عقائدهم، كالقول بالمسيح المنتظر، وكالحماسة الوطنية، والميل للعبادة، ولكن هذا الفريق امتاز بعدم التسامح بل بالعدوانية ضد المواطنين الذين اتهموا باللادينية

---

(١) انظر: سفر أيوب ١/٦- ٩ .

(٢) انظر: سفر التثنية ٩/٧- ١٢ .

أو بقبول الخضوع لغير الله، وكان من سياسة هذا الفريق ألا ينتظر أتباعه العون من إلههم بل يعملوا بأنفسهم ليساعدوا الإله على تحقيق ما يريده لشعبه، وكانوا بذلك يكونون الجناح اليساري في فريق الفريسيين.

بيد أنهم كانوا في غاية الحماسة تجاه شغفهم بالحرية، ولم يعترفوا بأي سلطان عليهم سوى سلطان الله، وكان الموت عندهم أسهل من طاعة اليهود، ومن ثم أعلنوا احتقارهم لجماعة الفريسيين الذين قبلوا الأمر الواقع وخضعوا للرومان.

وكانت الحركة الثورية التي قام بها المتعصبون في مطلع القرن الميلادي الأول سببًا في الحدة بين اليهود وبين الرومان، مما دفع الرومان إلى أن يضربوا الثائرين ضربات قاصمة وأن يذبحوا قادة الثورة، ولكن إخماد هذه الثورات لم يضع نهاية لحركات المتعصبين، فهبوا من جديد يدبرون ثورات أخرى ويجمعون لها الجموع.

ولما أحس الرومان بذلك قضوا على السلطة المحلية التي كانوا قد منحوها لليهود وحكموا مناطق اليهود بطريق مباشر وكان ذلك باعثًا لحماسة هذا الفريق ودافعًا إلى خلق جو من الاضطراب والقلق في المناطق اليهوديَّة، وفي هذا الجو بدأ المتعصبون حركات اغتيال وفوضى ضد الرومان وضد اليهود الذين كانوا يتعاونون مع الحكم الروماني، وبلغ من حماستهم أنهم كانوا يرتكبون جرائمهم علنًا في الطرقات، ويغتالون دون تردد كل من يرون أن القضاء عليه سيحقق لهم هدفهم، وبهذا أطلق عليهم: السفاكون.

كما لجئوا إلى النهب واللصوصية والفتك، وأوقعوا بالبوليس الروماني ألوانًا من العنت، ومن أجل هذا يعد الباحثون هذا الفريق ضمن الفرق السياسية، أو فرق العصابات، مع أنهم بدءوا حركتهم في إطار ديني ولهدف ديني ولكن جرائمهم الكبرى نقلتهم من ميدان إلى ميدان[1].

ويمكن أن يُعتبر «الغيورون» و«عصبة الخناجر» و«الأسينيون» هم هذه الأجنحة المتطرفة من الحزب الفريسي.

الغيورون (قنَّائيم) Zealots

التعريف:

كلمة «غيورون» ترجمة للفظة «قنَّائيم»، وهي من الكلمة العبريَّة «قانَّا» بمعنى «غيور» أو «صاحب الحمية».

والغيورون فرقة دينية يهودية، ويُقال: إنه جناح متطرف من الفريسيين وحزب سياسي وتنظيم عسكري.

---

(١) انظر: اليهودية ص(٢٢٤، ٢٢٥)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٤- ٨٨)، الموسوعة الميسرة (١/ ٤٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

التاريخ والأحداث

جاء أول ذكر لهم باعتبارهم أتباعًا ليهودا الجليلي في العام السادس قبل الميلاد، ويبدو أن واحدًا من العلماء الفريسيين، ويُدعَى صادوق، قد أيده.

ولكن يبدو أن أصولهم أقدم عهدًا، إذ إنها تعود إلى التمرد الحشموني (١٨٦ ق.م).

ويذكر يوسيفوس شخصًا يُدعَى حزقيا باعتباره رئيس عصابة أعدمه هيرود، وحزقيا هذا هو أبو يهودا الجليلي الذي ترك من بعده شمعون ويعقوب ومناحم (لعله أخوه).

وقد تولَّى مناحم الجليلي، وهو زعيم عصبة الخناجر، قيادة التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ ـ ٧٠م)، وذلك بعد أن استولى على ماسادا وذبح حاميتها واستولى على الأسلحة، ثم عاد إلى القدس حيث تولَّى قيادة التمرد هو وعصبته الصغيرة، فأحرقوا مبنى سجلات الديون، وأحرقوا أيضًا قصور الأثرياء وقصر الكاهن الأعظم آنانياس ثم قاموا بقتله، بل يبدو أنهم حاولوا إقامة نظام شيوعي.

ويبدو كذلك أن عصابة مناحم كانت متطرفة ومستبدة في تعاملها مع الجماهير اليهوديَّة.

وقد كانت لدى مناحم ادعاءات مشيحانية عن نفسه، كما أنه جمع في يديه السلطات الدينيَّة والدنيويَّة.

ولذلك قامت ثورة ضده انتهت بقتله، هو وأعوانه، وهروب البقية إلى ماسادا.

وقد استمر نشاط الغيورين حتى سقوط القدس وهدم الهيكل عام ٧٠ ميلادية، ويرى البعض أنهم كانوا السبب في هذه الكارثة التاريخية.

ولكن هناك من يرى أنهم اشتركوا أيضًا في التمرد اليهودي الثاني ضد هادريان (١٣٢ ـ ١٣٥م).

وكان الغيورون منقسمين فيما بينهم إلى فرق متطاحنة متصارعة.

ومن قياداتهم الأخرى، يوحنان بن لاوي وشمعون برجيورا.

ويُعَدُّ ظهور حزب الغيورين تعبيرًا عن الانهيار الكامل الذي أصاب الحكومة الدينيَّة وحكم الكهنة.

وقد قام الغيورون، تحت زعامة يهودا الجليلي، بحَثِّ اليهود على رفض الخضوع لسلطان روما، وخصوصًا أن السلطات الرومانية كانت قد قررت إجراء إحصاء في فلسطين لتقدير الملكية وتحديد الضرائب، وفرضها على اليهود الأمر الذي عده يهودا الجليلي بمثابة فرض العبودية على اليهود وخرقًا للوصية الأولي من الوصايا العشر.

وقد تبعت حزب الغيورين، في ثورته، الجماهير اليهوديَّة التي أفقرها حكم أثرياء اليهود بالتعاون مع اليونانيين والرومان.

ونظرًا لجهل الغيورين بحقائق القوى الدولية وموازينها، وبمدى سلطان روما في ذلك الوقت، قاموا بثورة ضارية ضد الرومان واستولوا على القدس.

وقد تعاونوا مع الفريسيين في هذه الثورة، ولكن الفريسيين كانوا مترددين بسبب انتماءاتهم.

وحينما بدأت المقاومة المسلحة، استخدم الغيورون أسلوب حرب العصابات ضد روما، كما قاموا بخطف وقتل كل من تعاون مع روما، حتى إن الجماهير اليهوديَّة ثارت ذات مرة ضدهم.

وقد قضى الرومان على ثورة الغيورين، واستسلمت القوات اليهوديَّة، وكان آخرها القوات اليهوديَّة في ماسادا بقيادة القائد الغيوري إليعازر بن جاير، وهي القوات التي آثرت الانتحار على الاستسلام؛ نظرًا لأنها كانت قد ذبحت الحامية الرومانية بعد استسلامها لهم وخشي قائد الغيورين أن يذبحهم القائد الروماني، على عكس القلاع الأخرى (مثل ماخايروس وهيروديام) التي استسلمت للرومان.

ويرى بعض الباحثين أن المسيح عيسى ابن مريم كان له صلة -أو من المتعاطفين معهم- بحركة الغيورين مستندين في ذلك بشواهد من الأناجيل وأن ذلك كان سبب صلبه من قبل السلطات الرومانية[١].

المعتقدات والأفكار

١- يتسم فكر الغيورين بأنه فكر شعبي مفعم بالأساطير الشعبية، ولذا نجد أن أسطورة الماشيَّح أساسية في فكرهم، بل إن كثيرًا من زعمائهم ادعوا أنهم الماشيَّح المخلص.

٢- قدموا رؤية للتاريخ قوامها أن هزيمة روما شرط أساسي للخلاص، وأن ثمة حربًا مستعرة بين جيوش بني إسرائيل وجيوش يأجوج ومأجوج (وهي عندهم روما)، وأن اليهود مكتوب لهم النصر في الجولة الأخيرة.

وعلى هذا، فإن فكرهم يتسم بالنزعة الأخروية التي انتشرت في فلسطين آنذاك، ويُقال إن معظم أدب الرؤى (أبوكاليبس) من أدب الغيورين[٢].

عصبة حملة الخناجر Sicarii

التعريف:

عصبة الخناجر: ترجمة لكلمة «سيكاري» المنسوبة إلى كلمة «سيكا» اللاتينيَّة، التي تعني الخنجر. و«سيكاريوس sicarius» كلمة مفردة تعني «حامل الخنجر» وجمعها «سيكاريي sicarii».

وعصبة الخناجر جماعة متطرفة من الغيورين الذين كانوا بدورهم جماعة متطرفة من الفريسيين،

---

(١) انظر: لوقا ١٥/٣، متى ٥/١٧، أعمال الرسل ٢٢/٥ .

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١٠٨- ١١٢).

وقد كانوا يخبئون خناجرهم تحت عباءاتهم ليباغتوا أعداءهم في الأماكن العامة ويقتلوهم.

التاريخ والأحداث

أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ . ٧٠م)، يُقال: إنهم كانوا تحت قيادة مناحم الجليلي، وإنهم هم الذين أحرقوا منزل الكاهن الأعظم أنانياس، وقصري أجريبا الثاني وأخته بيرنيكي عشيقة تيتوس.

كما أحرقوا سجلات الديون حتى ينضم الفقراء المدينون إليهم، وكانوا يخفون تحت ملابسهم الخناجر ويستعملونها في اغتيال خصومهم المتعاونين فعلًا أو المشكوك في تعاونهم مع السلطات الرومانية الوثنية، مستغلين المناسبات العامة الصاخبة لتنفيذ اغتيال أعدائهم، وكانت عقيدتهم الراسخة أن الرب لن يساعد من لا يهب لمساعدة نفسه ببذل الجهد الذاتي، وأطلقوا على الموالين للوثنية الرومانية: الأغراب وجامعي الضرائب تحقيرًا لهم ولخيانتهم، وقد أدَّى نشاطهم إلى فرار الأرستقراطيين اليهود.

ولكن الجماهير، بقيادة الغيوري المعتدل إليعازر بن حنانيا من حزب القدس، تمردت على المتطرفين وقتلت زعيمهم مناحم الجليلي، ففرت فلولهم.

ويُقال: إن الجماعة التي لجأت إلى ماسادا، وأبادت الجالية الرومانية بعد استسلامها، من أعضاء عصبة الخناجر.

وثمة رأي آخر يرى أن جماعة إليعازر بن جاير كانت معادية لهم، ولكنها اختلفت معهم بشكل مؤقت.

ويبدو أنه كان يوجد داخل حركة الغيورين جناحان: جناح متطرف هو عصبة الخناجر، وجناح القدس، ويشار إلى أعضاء هذا الجناح باسم «الغيورين» وحسب.

وكان الفارق بين الفريقين كما يلي:

١-لم يرتبط غيورو القدس بأية أسرة محددة، ولم يعلنوا قوادهم ملوكًا.

٢- كانت قاعدة الغيورين في القدس، بينما كانت قاعدة العصبة في الجليل.

٣- كانت الأبعاد الاجتماعيَّة لعصبة الخناجر أوضح منها في حالة الغيورين، رغم ثورة هؤلاء على الكاهن الأعظم والأقلية الثرية الحاكمة.

والواقع أن عصبة الخناجر هي الجماعة الوحيدة التي استمرت في نشاطها بعد إخماد التمرد، هذا التمرد الذي اتسع نطاقه إلى الإسكندرية وبرقة، حيث قام يهودي من عصبة الخناجر يدعى يوناثان بقيادة أعضاء الجماعة اليهوديَّة في ثورة تم قمعها.

وبعد اغتيال بعض القيادات اليهوديَّة هناك، قام أعضاء الجماعة اليهوديَّة بالقبض على أعضاء عصبة الخناجر وتسليمهم إلى القوات الرومانية.

وقد كانت عصبة الخناجر، رغم نشاطها وحركتها، تشكل أقلية لا يزيد عددها حسب بعض التقديرات على ألفين.

المعتقدات والأفكار

يبدو أن فكر عصبة الخناجر كان فكرًا شيوعيًا بدائيًا، ولذلك كان شعارهم: لا ملك إلا الرب، فهو وحده: مالك الأرض.

وقد يعود تأثرهم بهذا الفكر إلى بعض التيارات الكامنة في العهد القديم. فقد جاء في سفر اللاويين ٢٥/٢٣: والأرض لا تُباع بتة؛ لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي. بل في كل أرض ملككم تجعلون فكاكًا للأرض. وفي مواضع غيرها[١].

وكذلك في مفهوم السنة السبتية حيث تُلغى ديون الفقراء من اليهود[٢].

الأسينيون Essenes

التعريف:

أسينيون: من الكلمة الآراميَّة «آسيا»، ومعناها «الطبيب» أو «المداوي»، وهي من «يؤاسي المريض».

ويُقال: إنها من الكلمة السريانيَّة «هاسي».

كما يُقال: إنها تعود إلى كلمة «هوسيوس» اليونانيَّة؛ أي: «المقدَّس»، ولعلها النطق اليوناني «أسيديم» للكلمة العبريَّة «حسيديم»، أي «الأتقياء»، ولعلها تصحيف للكلمة العبريَّة «حَاشائيم»؛ أي «الساكتين».

التاريخ والأحداث

الأسينيون فرقة دينية يهودية -والبعض يرى أنها ظاهرة دينية اجتماعيَّة- لم يأت ذكرها في العهد الجديد، وما ذُكر عنها في كتابات فيلون ويوسيفوس متناقض.

ولعل هذا يدل على وجود خلافات في صفوف الأسينيين أنفسهم الذين لم يزد عددهم على أربعة آلاف.

وهذه الفرقة هجرت الثورة المكابية واعتزلت في الجبال، وكانوا يمارسون شعائرهم شمال غرب البحر الميت في الفترة ما بين القرنين الثاني قبل الميلاد والأول الميلادي.

والبعض يرى أنهم كانوا منتشرين في كل بقاع المنطقة ولم يكونوا منعزلين عن المجتمع.

---

(١) انظر: اللاويين ٢٥/٢٣، ٢٥/٥٥، تثنية ١٥/٤، ٥، ١٥/٦.

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١١١).

وقد عاشوا في جماعة مترابطة حياة النساك يلبسون الثياب البيض ويتطهرون حتى شهروا بالمتطهرين أو المغتسلين، ويطبقون شريعة موسى تطبيقًا حرفيًا.

وعاشوا على عملهم بالزراعة وتربية الماشية، وكانوا لا يتناولون من الطعام إلا ما أعدوه بأنفسهم، وهو ما زاد ترابط الجماعة، الأمر الذي جعل عقوبة الطرد منها بمنزلة حكم الإعدام.

وكانوا يهتمون بالطب الروحاني ويشتغلون بالأعشاب الطبيَّة وتصنيفها وبالأحجار والمعادن الكريمة ومن هنا تسميتهم بهذا الاسم المشتق من كلمة ISI التي تعني المعالجون الروحانيون.

وكان فكر الأسينيين متأثرًا بالفكر الهيليني وأفكار فيثاغورث، وبآراء البراهمة والبوذيين، وهو ما كان منتشرًا في فلسطين، ملتقى الطرق التجارية العالمية في القرن الأول قبل الميلاد.

ويزعم بعض الباحثين أن يوحنا المعمدان -يحيى عليه السلام- هو أحد تلامذتهم أو أحد أفرادهم، وذلك لأن التعميد بالماء هو من خاصية وتقاليد هذه الفرقة، ولهذا لم ينكر الفريسيون تعميد عيسى، بينما أنكروا عليه أمورًا أخرى، وهذا ما جعل بعض الباحثين أيضًا يزعم أن عيسى عليه السلام من أفراد هذه الفرقة أو أنه تأثر بفكرهم، ومن المعروف أن المسيح طرد التجار والمرابين من الهيكل وهو ما يتوافق مع فكرهم كما سيأتي(١).

ويُقال: إن الأسينيين آمنوا بيسوع الناصري كواحد من أنبياء بني إسرائيل المصلحين، ولكنهم رفضوا دعوة بولس إلى العقيدة المسيحيَّة وظلوا متمسكين بالنواميس اليهوديَّة.

ويُقال أيضًا: إنهم قد عرفوا في مرحلة تاريخية لاحقة بعد تدمير الهيكل باسم المسيحين اليهود أو الأبيونين.

المعتقدات والأفكار

الأسينيون فيما يبدو جناح متطرف من الفريسيين، وتقترب عقائدهم من عقائد ذلك الفريق، ويظهر هذا في ابتعادهم عن اليهوديَّة كدين قرباني مرتبط بهيكل القدس.

ومن عقائدهم أيضًا:

١- الإيمان بيوم القيامة وبخلود الروح والثواب والعقاب، ويؤمنون بالملائكة ويعطونها أسماء.

٢- وقوفهم ضد العبودية والملكية الخاصة، بل ضد التجارة، وانسحبوا تمامًا من الحياة العامة وانعزلوا عن الناس، وهذا على عكس الفريسيين.

٣- قسَّم الأسينيون الناس إلى فريقين: البقية الصالحة من جماعة بني إسرائيل، وأبناء الظلام.

وقد كشفت مخطوطات البحر الميت أو وادي قمران سنة ١٩٤٧م عن كثير من عقائد الأسنيين، ومن أهم كتبهم كتاب الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهو من كتب الرؤى (أبوكاليبس)،

---

(١) انظر: متى ٣/١- ٢، ٣/٤- ٥، ٣/١٣- ١٦ .

وهو ذو طابع أخروي حاد.

٤- ترقبوا نزول الماشيَّح لينشئ على الأرض ملكوت السماء ويحقق السلام والعدالة في الأرض.

٥- يبدو أنه كان لهم تقويمهم الخاص، وكانوا يراعون طقوس السبت، ويستغرقون في فترات صمت طويلة.

٦- يؤدون الصلاة ولكن عند شروق الشمس، وقد اختلفت عن صلاة اليهود، وقد تأثروا بهذه الصلاة بصلاة المجوس والمصريين ويسمونها صلاة الأسلاف.

٧- حرموا الذبائح، ويعدونها سفكًا للدماء، ولذلك فقد كانوا يقدمون للهيكل قرابين نباتية وحسب، ورأى بعض العلماء أنهم بذلك متأثرون بالفلسفة الهندية.

وقد ذهب جنبير إلى أنهم يحرمون أكل اللحم، ومن هنا جاء تحريم اللحوم وما يخرج من كل نفس حية أيامًا معدودة من كل سنة في الديانة المسيحيَّة.

٨- حرموا على أنفسهم -أو على الأقل على الأغلبية العظمى منهم- الزواج، وهذا بخلاف ما عليه اليهود حيث إنهم في ذلك الوقت كانوا يتزوجون أكثر من امرأة ويعدون المرأة مِلْكًا من ممتلكات الرجل يحق له التصرف فيها كما يشاء.

٩- يحرمون الرق والاستعباد باعتباره مدعاة للظلم وطريقًا إلى اقترافه، وهو مخالف لما في توراة اليهود، فقد أحلت لهم استعباد العالم كله(١).

١٠- أكثر الفرق إيمانًا بالقضاء والقدر.

التواجد الحالي

قد انقرض الأسينيون كلية في أواخر القرن الأول الميلادي(٢).

الفقراء (الإبيونيون) Ebionites

الكلمة العبريَّة «إبيون» تعني «فقير»، وهي كلمة ذات مدلول اقتصادي ومنها «الإبيونيون»، وقد أصبحت هذه الكلمة ذات تضمينات دينية واستخدمها بعض أعضاء الجماعات اليهوديَّة المسيحيَّة في بداية العصر المسيحي للإشارة إلى أنفسهم باعتبار أنهم ورثة مملكة الرب.

وقد تبع الإبيونيون الشريعة اليهوديَّة، وأصروا على أن المسيحيين ملزمون بها، كما أنهم راعوا شعائر السبت.

---

(١) انظر: سفر اللاويين ٢٥/ ٤٤- ٤٥ .

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٦٦- ٧٢)، اليهودية عرض تاريخي ص(١٠٤- ١٠٧).

وقد رفض معظمهم فكرة ألوهية المسيح وولادته العذرية، ولكنهم آمنوا بأنه الماشيَّح الذي اختاره الإله عند تعميده.

ومن هنا كان تعميد المسيح موضوعًا أساسيًّا في إنجيل الإبيونيين، وقد اعتبر الإبيونيون تعاليم بولس الرسول هرطقة محضة.

وذهب فريق من الإبيونيين مذهب الغنوصيين، فقالوا بأن المسيح هو آدم.

وقال فريق آخر: إنه الروح القدس حل بآدم، ثم بالآباء، وأخيرًا حل بعيسى، فلما صُلب عيسى صعد الروح القدس، الذي هو المسيح، إلى السماء.

ومع اتساع الهوة بين اليهوديَّة والمسيحيَّة، اختفت هذه الجماعات في نهاية القرن الرابع الميلادي[1].

المَغارية Maghariya

المغارية: فرقة يهودية ظهرت في القرن الأول الميلادي حسبما جاء في القرقشاني.

وهذا الاسم مشتق من كلمة «مغارة» العربيَّة، أي كهف، فالمغارية إذن هم سكان الكهوف أو المغارات، وهذه إشارة إلى أنهم كانوا يخزنون كتبهم في الكهوف للحفاظ عليها.

ويبدو أنها فرقة غنوصية، إذ يذهب المغارية إلى أن الإله متسام إلى درجة أنه لا تربطه أية علاقة بالمادة (فهو يشبه الإله الخفي في المنظومة الغنوصية)، ولهذا فإن الإله لم يخلق العالم، وإنما خلقه ملاك ينوب عن الإله في هذا العالم.

وقد كتب أتباع هذه الفرقة تفسيراتهم الخاصة للعهد القديم وذهبوا إلى أن الشريعة والإشارات الإنسانية إلى الإله إنما هي إشارات لهذا الملاك الصانع.

فزعموا أن الله تعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة ملك اختاره وقدمه على جميع الخلائق واستخلفه عليهم.

وقالوا: كل ما في التوراة وسائر الكتب من وصف الله تعالى فهو خبر عن ذلك الملك وإلا فلا يجوز أن يوصف الله تعالى بوصف.

قالوا: وإن الذي كلم موسى عليه السلام تكليمًا هو ذلك الملك والشجرة المذكورة في التوراة هو ذلك الملك ويتعالى الرب تعالى أن يكلم بشرًا تكليمًا.

وحمل جميع ما ورد في التوراة من طلب الرؤية، وشافهت الله، وجاء الله، وطلع الله في السحاب وكتب التوراة بيده واستوى على العرش استقرارًا، وله صورة آدم، وشعر قطط، ووفرة

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

سوداء، وأنه بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وأنه ضحك الجبار حتى بدت نواجذه إلى غير ذلك على ذلك الملك.

قال: ويجوز في العادة أن يبعث ملكًا روحانيًا من جملة خواصه ويلقي عليه اسمه ويقول: هذا هو رسولي ومكانه فيكم مكاني، وقوله قولي، وأمره أمري، وظهوره عليكم ظهوري، كذلك يكون حال ذلك الملك.

وقيل: إن آريوس حيث قال في المسيح: إنه هو الله، وإنه صفوة العالم أخذ قوله من هؤلاء وكانوا قبل آريوس بأربعمائة سنة وهم أصحاب زهد وتقشف.

وقيل: صاحب هذه المقالة هو بنيامين النهاوندي وقرر لهم هذا المذهب وأعلمهم أن الآيات المتشابهات في التوراة كلها مؤولة، وأنه تعالى لا يوصف بأوصاف البشر، ولا يشبه شيئًا من المخلوقات، ولا يشبهه شيءٌ منها، وأن المراد بهذه الكلمات الواردة في التوراة ذلك الملك العظيم.

وقد قرن بعض العلماء المغارية بالأسينيين والثيرابيوتاي[١].

المعالجون (ثيرابيوتاي) Therapeutae

المعالجون: ترجمة لكلمة «ثيرابيوتاي» المأخوذة من الكلمة اليونانيَّة «ثيرابي» أي «العلاج»، وتعني «المعالجون».

والمعالجون (ثيرابيوتاي) فرقة من الزهاد اليهود تشبه الأسينيين، استقرت على شواطئ بحيرة مريوط قرب الإسكندرية في القرن الأول الميلادي، ويشبه أسلوب حياتهم أسلوب الأسينيين وإن كانوا أكثر تشددًا منهم.

وقد كانت فرقة المعالجين تضم أشخاصًا من الجنسين، وأورد فيلون في كتابه كل ما يعرفه عنهم، فيذكر إفراطهم في الزهد وفي التأمل وبحثهم الدائب عن المعنى الباطني للنصوص اليهوديَّة المقدَّسة.

كما يذكر فيلون أنهم كانوا يهتمون بدراسة الأرقام ومضمونها الرمزي والروحي، كما كانوا يقضون يومهم كله في العبادة والدراسة والتدريب على الشعائر.

أما الوفاء بحاجة الجسد، فلم يكن يتم إلا في الظلام (وهو ما قد يوحي بأصول غنوصية)[٢].

المستحمون في الصباح (هيميروبابتست) Hemerobaptists

المستحمون في الصباح: ترجمة للكلمة اليونانيَّة «طوبلحاشحريت» أو «هيميروبابتست».

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢١٧)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

والمستحمون في الصباح فرقة يهودية أسينية كان طقس التعميد بالنسبة إليها أهم الشعائر؛ ولذا فقد كان هذا الطقس يُمارَس بينهم كل يوم بدلًا من مرة واحدة في حياة الإنسان.

كما أنهم كانوا يتطهرون قبل النطق باسم الإله. ويبدو أن يوحنا المعمدان كان واحدًا منهم. وقد ظلت بقايا من هذه الفرقة حتى القرن الثالث الميلادي[١].

عبدة الإله الواحد (هبسستريون) Hypsisterion

عبدة الإله الواحد: ترجمة للكلمة اليونانيَّة «هبسستريون»، وعبدة الإله الواحد هم فرقة شبه يهودية كانت تعبد الإله الواحد الأسمى (والاسم مشتق من كلمة يونانية لها هذا المعنى).

وقد كان أعضاء هذه الفرقة يعيشون على مضيق البسفور في القرن الأول الميلادي وظلت قائمة حتى القرن الرابع.

ومن الشعائر اليهوديَّة التي حافظوا عليها شعائر السبت والطعام، وكانت عندهم شعائر وثنية مثل تعظيم النور والأرض والشمس، وخصوصًا النار، ومع هذا يُقال: إن الأمر لم يصل بهم قط إلى درجة تقديس النار كما هو الحال مع المجوس[٢].

البناءون (بنائيم) Banaaim

البناءون: ترجمة لكلمة «بنائيم».

والبناءون فرقة يهودية صغيرة ظهرت في فلسطين في القرن الأول أو الثاني الميلادي.

ومعنى الكلمة غير معروف بصورة محددة، فيذهب بعض العلماء إلى أن الاسم مشتق من كلمة «بنا» بمعنى «يبني»، وأن أتباع هذه الفرقة علماء يكرسون جلّ وقتهم لدراسة تكوين العالم (كوزمولوجي).

ويذهب آخرون إلى أن (البنائيم) فرع من الأسينيين.

ويذهب فريق ثالث إلى أن الاسم مشتق من كلمة يونانية بمعنى «حمام» أو «المستحمون».

ويذهب فريق رابع إلى أنهم أتباع الراهب الأسيني بانوس.

ولعل ربط البنائيم بالأسينيين يرجع إلى اهتمامهم البالغ بشعائر الطهارة والحفاظ على نظافة ملابسهم.

والذي أرجحه أن هذه هي فرقة البنائين الأحرار الذين عرفوا باسم القوة الخفية، وظهروا في القرن الثامن عشر باسم الماسونية[٣].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

(٣) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الكتبة Sopherim

التعريف:

الكتبة: هي المقابل العربي لكلمة «سوفريم» وهي صيغة جمع عبرية بنفس المعنى.

وهي مصطلح يُطلَق على الكتبة والعلماء اليهود الذين قاموا بتدريس وتعليم وشرح الشريعة من حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى حوالي عام ١٠٠ ق.م، وقد جُمعت أقوالهم واجتهاداتهم في كتب المدراش.

وعرفهم آخرون بأنهم: مجموعة من اليهود عرفوا الشريعة من خلال عملهم في النسخ والكتابة، فاتخذوا الوعظ وظيفة لهم، ويسمون بالحكماء، وبالسادة، وواحدهم لقبه أب، وقد أثروا ثراءً فاحشًا على حساب مدارسهم ومريديهم[(١)].

التاريخ والأحداث

بعد عودة العبرانيين من بابل (٥٨٦ ق.م) اتخذوا الشريعة الأساس في تنظيم حياة العبرانيين، وبتبنّيها دستورًا للحياة، ظهرت الحاجة إلى نشر التوراة بينهم، وتطلبت هذه العملية فئة من المعلمين قادرة على قراءة التوراة باللغة العبريّة (لغة التوراة) وترجمتها وتفسيرها بالآراميّة (لغة جماهير العبرانيين آنذاك).

وكنتيجة لهذه الأوضاع، اكتسب لفظ «كاتب» دلالة خاصة واستُخدم للإشارة إلى مجموعة المعلمين الذين قاموا بقراءة وترجمة وتفسير الشريعة خلال فترة الهيكل الثاني (٥٣٩ ق.م ـ ٧٠م).

وبهذا المعنى، يكون عزرا أول الكتبة حين وضع أساس الدراسات الحاخامية، والكتبة هم أولئك الذين قاموا بوضع الشريعة الشفوية فعلًا.

وتعود أهمية الكتبة إلى أنهم أول من بدءوا الدراسات الحاخامية، وبالتالي، فإن ظهورهم يُعتبَر بداية المرحلة اليهوديّة، مقابل المرحلة الإسرائيلية أو العبرانيّة من تواريخ الجماعات اليهوديّة في العالم.

وقد قام الكتبة بتحقيق العهد القديم وتنقيحه وتدوينه.

وكوّنوا تنظيمًا خاصًا بهم، إلا أن تنظيمهم كان مفتوحًا للعامة كتنظيم الأنبياء. ومن هنا، فإن مهنة الكتبة لم تكن مقصورة على أحد، ووُجد بين صفوف الكتبة كهنة وأفراد من عامة الشعب.

وكان هؤلاء الكتبة أول فئة احترفت التعليم.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/٤٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية ص(٢٢٣، ٢٢٤).

ومنذ القرن الأول، أصبح اسم «حاخاميم» يُطلَق على معلمي الشريعة المشهورين وهي كلمة عبرية تعني «الفقهاء» أو «الحكماء»، بينما بقي استخدام لفظ «كاتب» للإشارة إلى أي معلم للشريعة.

نظر هؤلاء الكتبة إلى عملهم باعتباره مقدَّسًا، وقد أُوكلت مهمة نقل شريعة يهوه إليهم فقاموا بترجمة وتفسير التوراة للجماهير، كما قاموا بعمل نسخ منها لتُستخدَم ككتب دراسية.

وأسَّسوا مدارس عليا لتدريس التراث الديني لعدد منتقى من الطلاب، محاولين بذلك إيجاد أكبر عدد ممكن من دارسي ومفسري الشريعة، كما قاموا بتعليم الكبار والصغار.

وفي داخل مدارسهم، ظهر التراث الشفوي الذي كوَّن فيما بعد التلمود.

كان هؤلاء الكتبة، في بداية الأمر، منفتحين في تطبيقاتهم للشريعة فأدخلوا التفسيرات والتعليقات المختلفة الملائمة لظروف الحياة المتغيرة.

واعتمد المفسرون في شروحهم هذه على مفهوم الشريعة الشفهية، التي يُفترَض أنها أُعطيَت لموسى مع الشريعة المكتوبة، كما يُفترَض أن حَمَلَة هذه الشريعة الشفهية هم الحاخامات (بمعنى الفقهاء).

وبسقوط الهيكل عام ٧٠ ميلادية، أصبح يُطلَق على كلٍّ من هؤلاء الكتبة لقب «حاخام»، وأصبح هؤلاء الحاخامات هم المسئولين ليس فقط عن توجيه الحياة الدينيَّة لليهود بل أصبحوا أيضًا ممثلين للسلطة الحاكمة وقاموا بحكم الجماعة اليهوديَّة في فلسطين وفي غيرها من البلدان.

وبعد الكتبة (سوفريم)، جاء الفريسيون ومعلمو المشناه (تنائيم)، والشراح (أمورائيم)، والفقهاء (جاءونيم)، وهؤلاء جميعًا يُعدون استمرارًا طبيعيًّا للكتبة.

وحين يشير العهد الجديد إلى الفريسيين والكتبة، فإن الإشارة تنصرف إلى فقهاء الشريعة اليهوديَّة بشكل عام، وهم أولئك الذين أصبح يُطلَق عليهم لفظ «حاخام» فيما بعد.

وقد كان يوجد كتبة في صفوف الفريسيين والصدوقيين، كما أن بعضهم كانوا أعضاء في السنهدرين.

وقد لعب الكتبة والفريسيون دورًا كبيرًا في حياة عيسى عليه السلام، وجاء في أناجيل النصارى وصف عيسى لهم بعدم الأمانة والتنديد بهم(١).

وقد تطوَّر معنى الكلمة بحيث أصبحت كلمة «سوفير» تعني «معلم التوراة (للأطفال)»، كما أصبحت تعني «كاتب لفائف التوراة».

وفي العبريَّة الحديثة، تُستعمَل الكلمة بمعنى «كاتب» و«أديب» و«محرر صحفي».

(١) انظر: متى ٧/٢٨، ١٢/٢٨، ١٥/١- ٢، ٢٣/١٣- ٢٣ . مرقس ٧/١، ٩/١١- ١٨، ١٢/٢٢- ٢٨، ١٢/٣٨- ٤٠، ١٤/١- ٢، ١٤/٥٣- ٥٥، ١٥/١ .

الأعمال

تنسب إليهم المصادر اليهوديَّة تحقيق المآثر التالية:

١ . قراءة نصوص الشريعة في أيام معينة من الأسبوع.

٢ . تحديد الصلوات اليومية، وإدخال شعائر الشكر بعد تناول الطعام (صلاة المائدة).

٣ . إدخال الشعائر والطقوس الدينيَّة مثل عادة سكب الماء على الأرض في عيد المظال، والدوران بمركب حول المذبح حاملين أغصان الصفصاف.

٤ . وضع القواعد المتعلقة بإعداد تميمة الصلاة (تفيلين) أو شال الصلاة (طاليت) بجدائله الأربع (تسيت تسيت).

٥ . تعديل بعض الشرائع التوراتية وتكييفها وفقًا لمتطلبات الحياة، وتخفيف قسوة الشرع الموسوي فيما يختص بشريعة القصاص التوراتية في حالة الاعتداء، والتساهل في تطبيق قوانين السبت خلافًا لبعض الفرق المتشددة في تمسُّكها بحرفية القانون وفي امتناعها عن القيام بأية نشاطات جسدية في يوم الراحة.

وكذلك تخفيف صرامة القانون الخاص بإثبات وفاة الزوج بحيث أصبحت شهادة رجل واحد تكفي لكي يحق للزوجة أن تتزوج من جديد، حتى لو كانت هذه الشهادة تستند إلى مجرد الشائعات.

وقد وقعت مهمتان أساسيتان على عاتق هؤلاء الكتبة:

أولاهما: تفسير الشريعة المكتوبة واستخراج التفسيرات والتطبيقات الكامنة والظاهرة فيها.

وثانيتهما: تعليم الشباب الذين سيتولون هذه المهمة من بعدهم.

وقد جمع كل كاتب متميِّز حوله عددًا من التلاميذ الذين يودون دراسة الشريعة والتراث الشفهي في شكل حلقات دراسية، كما كوَّن كل حكيم مشهور مجموعة التلاميذ المريدين الخاصين به.

وترك بعض هؤلاء الحكماء بصمتهم الواضحة على طلابهم وكذلك تفسيرهم الخاص للشريعة، وكان أشهرهم هليل وشماي.

في البداية، استُخدمت أروقة الهيكل والمعابد للتدريس، وربما استخدم بعض الحكماء بيوتهم لتدريس الشريعة.

ومنذ القرن الأول قبل الميلاد، أُسِّس أول مبنى خُصِّص للتدريس أُطلق عليه «بيت الدراسة (بيت هامدراش)»، وتم بناؤه بجانب الهيكل.

كان موضوع الدراسة أساسًا هو الشريعة والتفسيرات المختلفة، وكانت الدراسة في معظمها شفهية. ومن أجل مساعدة الطالب على التذكر، كان المعلمون يلقون دروسهم في شكل أمثال وحكم ووصايا.

وقد افترضت الدراسة على هذا المستوى نوعًا من التعليم الأولي، إلا أن هذا النوع من التعليم ظل خاصًا حتى القرن الأول قبل الميلاد.

وكان المعلم يشرح الكتاب المقدَّس ويعرض التفسيرات والشروح المختلفة لكل جزء منه وتفسيره هو لها، وذلك من أجل إيضاح النقاط الصعبة أو الغامضة أو غير المتفق عليها بهدف الوصول إلى قرار فيها، فإذا اتفق الدارسون عليها تحولت إلى جزء من التراث الشفوي.

وقد اتُبعت قواعد معيَّنة في استخراج التفسيرات والقوانين المختلفة من الشريعة المكتوبة، ذكر هليل منها سبع قواعد، ثم أُضيفت قواعد أخرى فيما بعد.

ومع مرور الوقت، اكتسبت هذه الشريعة الشفهية المكوَّنة من قرارات وتفسيرات الكتبة الحكماء شكلًا ثابتًا وقداسة معينة.

وفي أحيان أخرى، كان المُعلم أو الدارس يُثير سؤالًا ذا طبيعة عملية حول مشكلة معينة تتطلب إجابة محدَّدة.

وللتوصل للإجابة، كانت هذه المشكلة تُحلَّل إلى عناصرها الأولية، ويعود الدارسون إلى التراث الشفوي، فإن وجدوا الإجابة المرجوة انتهت المشكلة. وإن لم يجدوا، رجع المعلم والدارسون إلى الكتاب المقدَّس متبعين القواعد الموضوعة في تفسيره، واستخرجوا الإجابة أو الحل أو التفسير، فإذا وافقت الأغلبية عليه تحول إلى جزء من التراث الشفوي واكتسب قدسية خاصة، شأنه في ذلك شأن كل أجزاء الشريعة الشفوية.

واعُتبرَت دراسة الشريعة وتدريسها واجبًا مقدَّسًا لا يجب أن يحصل منه الفرد على أيِّ عائد مادي، ومن ثم كان دارسو الشريعة ومدرسوها إما من المتيسرين ماليًا أو ممن احترفوا حرفة أخرى لكسب معاشهم[١].

الناموسيون

التعريف:

الناموسيون: هم مقررو الشريعة، والناموس -كما يُعَرِّفُونه- هو شريعة موسى (الأسفار الخمسة)، وهؤلاء هم المعلمون في المدارس والمجامع اليهوديَّة، ويخلطون في كثير من الأحيان بالكتبة.

التاريخ والأحداث

كان الناموسيون في بداية أمرهم كتبة ونقلة ودارسين ومفسرين للناموس المقدس عندهم، وهم أناس تضطرهم مهتهم إلى الانزواء والاختفاء في غرف الدرس بعيدًا عن عيون الناس، ولكنهم

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٧٣- ٨٠).

نظموا أنفسهم فيما بعد في هيئة ثابتة تتوارث هذه المهنة.

وكانوا يلقبونهم أحيانًا بالكتبة والفريسيين؛ لأنهم جميعًا يعملون في الشريعة وعلى وئام فيما بينهم، وإن كان يبدو أن الناموسيين أرفع هؤلاء الثلاثة.

وكان المعلم منهم يدعى حبرًا أو رابيًا، وكان هذا اللقب تكريمًا وتفخيمًا، ولم يصبح لقبًا رسميًّا إلا بعد المسيح بسنوات قلائل، وأصبح لهؤلاء الناموسيين المقام الكبير في عهد المسيح، فقد ورد اسمهم في أناجيل النصارى، ومن ذلك:

وسأله واحد منهم وهو ناموسي ليجربه قائلًا. متى ٢٢/ ٣٥

وإذا ناموسي قام يجربه قائلًا يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. لوقا ١٠/ ٢٥

وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه. لوقا ٧/ ٣٠

فقال ويل لكم أنتم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصبعكم. لوقا ١١/ ٤٦

ويل لكم أيها الناموسيون؛ لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم. لوقا ١١/ ٥٢

الأعمال

كانت هذه الفئة تعلم الدين، وتشرح التقاليد، وتجلس في كرسي القضاء في المجامع الدينيَّة.

وكان هؤلاء الناموسيون يحبون أن يستشيرهم الشعب اليهودي في كل أمورهم.

وكان الناموسيون أصحاب القول الفصل في المشكلات الحياتية كالزواج والطلاق وشئون العبادة كالصوم والصلاة وحفظ السبت[١].

القرّاءون أو العَنانية Karaites

التعريف:

قرّاءون: مصطلح يقابله في العبريَّة «قرّائيم»، أو «بني مقرّا»، أو «بعلي هامقرّا»؛ أي: «أهل الكتاب».

وقد سُمّيت القرّاءون بهذا الاسم؛ لأنهم لا يؤمنون بالشريعة الشفوية (السماعية)، وإنما يؤمنون بالتوراة (المقرّا) فقط.

فهم أتباع اليهوديَّة التوراتية، مقابل اليهوديَّة التلمودية أو الحاخامية.

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(٩٧، ٩٨).

وتسميتهم بالعنانية نسبة إلى رجل يقال له: عنان بن داود رأس الجالوت، أي رئيس الجماعة اليهوديَّة في المنفى. وتسميهم اليهود العراس والمسر.

التاريخ والأحداث

أسس هذه الفرقة عنان بن داود في العراق في القرن الثامن الميلادي وانتشرت أفكارها في كل أنحاء العالم.

ولم تُستخدَم كلمة «قرّائين» للإشارة إليهم إلا في القرن التاسع إذ ظل العرب يشيرون إليهم بالعنانية نسبةً إلى مؤسس الفرقة.

ومن أهم أسباب ظهور هذه الفرقة انتشار الإسلام في الشرق الأدنى وطرحه مفاهيم دينية وأطرًا فكرية جديدة كانت تشكل تحديًا حقيقيًّا للفكر الديني اليهودي وبخاصة بعد أن غلبت عليه النزعة الحلوليَّة الموجودة داخله.

ويبدو أيضًا أنه كانت هناك، منذ هدم الهيكل عام ٧٠م، عناصر دينية رافضة لليهودية الحاخامية من بين بقايا الصدوقيين والعيسويين أتباع أبي عيسى الأصفهاني (٦٩٠م)، وأتباع يودغان.

وقد أخذ القرّاءون عن الصدوقيين فكرة منع إشعال النار يوم السبت، وأخذوا عن العيسويين إيمانهم بأن عيسى (عليه السلام) ومحمدًا (صلى الله عليه وسلم) رسولان من عند الله، كما أخذوا الترهب عن أتباع يودغان.

وهناك نظرية تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربيَّة الذين وُطّنوا في عهد عمر في البصرة وغيرها من بقاع العالم الإسلامي، ولم يكونوا يعرفون التلمود، كانوا من أهم العناصر التي ساعدت على انتشار المذهب القرّائي.

ومن المعروف أن اليهوديَّة، حتى ذلك الوقت، لم تكن قد صاغت عقائدها الدينيَّة بشكل محدد وواضح، فقد كانت اليهوديَّة لا تزال مجموعة من الممارسات الدينيَّة تشرف الحلقات التلمودية على تنفيذها وعلى إصدار الفتاوى بشأنها حسبما تقتضيه الظروف، وهو ما يعني أن البناء العقائدي كان لا يزال غير متماسك ويسمح بتفسيرات كثيرة.

ويضاف إلى كل هذا، الوضع الاقتصادي المتردي لأعضاء الجماعات اليهوديَّة، وخصوصًا بين أولئك الذين استوطنوا المناطق الحدودية بعيدًا عن سلطة هذه الحلقات.

أما تاريخهم فإن القرّائين أنفسهم يُرجعونه إلى أيام يُربعام الأول، حينما انقسمت المملكة العبرانيَّة المتَّحدة إلى مملكتين: المملكة الشماليَّة والمملكة الجنوبية (٩٢٨ ق.م).

وأما المؤسسة الحاخامية فكانت تشيع أن عنان بن داود أسَّس الفرقة لأسباب شخصية، بسبب إخفاقه في الوصول إلى رئاسة الجالوت خلفًا لوالده نظرًا لما عرف عنه من غلو ونزعة متطرفة

وتأويلات عدها الحاخاميون تحريفًا وجدفًا فتجاوزوه إلى أخيه الأصغر سنًّا منه.

وبعد انشقاقهم عن اليهوديَّة الحاخامية، ظل القرّاءون حتى بداية القرن العاشر في حالة جمود يختلفون فيما بينهم وينقسمون.

وقد دافع القرقساني وهو أحد مفكريهم عن هذا الانقسام بقوله: إن القرّائين يصلون إلى آرائهم الدينيَّة عن طريق العقل، ولذا فإن الاختلاف بينهم أمر طبيعي، أما الحاخاميون، فإنهم يدَّعون أن آراءهم، أي الشريعة الشفوية، مصدرها الوحي الإلهي، فإن كان هذا هو الأمر حقًّا، فلا مجال للاختلاف في الرأي بينهم، ومن ثم فإن وجود مثل هذه الاختلافات يدحض ادعاءاتهم التي تنسب الشريعة الشفوية لأصل إلهي.

وقد اشتد الصراع بين القرّائين والحاخاميين إلى حد أن كل طائفة قامت بتكفير الأخرى وإعلان نجاستها وحرمانها من رحمة الإله.

ويُلاحَظ في هذه الفترة أثر التفكير الديني الإسلامي على فكر القرّائين، وخصوصًا في عصرهم الذهبي في منتصف القرن التاسع.

ويُعَدُّ بنيامين بن موسى النهاوندي، وهو أول من استخدم مصطلح «قرّائي»، أهم مفكري القرّائين، كما يُعتبَر ثاني مؤسسي الفرقة حيث عاش في بلاد فارس في أواخر القرن التاسع، ثم تبعه مفكرون آخرون من أهمهم أبو يوسف يعقوب القرقساني الذي عاش في القرن العاشر.

وفي هذه الفترة تصدى في الرد عليهم من الحاخامات سعيد بن يوسف الفيومي المعروف بسعديا الفيومي، ويقال: إنه كان سببًا في تقلص نشاطهم وتضاؤل حجمهم.

وفي الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، انتشر المذهب القرّائي بين مختلف أعضاء الجماعات اليهوديَّة، خصوصًا في مصر وفلسطين وإسبانيا الإسلاميَّة حيث عمل اليهود الحاخاميون على طَرْدهم منها، وفي الإمبراطورية البيزنطيَّة قبل الفتح العثماني.

ومع حلول القرن السابع عشر، انتقل مركز النشاط القرّائي إلى ليتوانيا وشبه جزيرة القرم التي يعود استيطان القرّائين إياها إلى القرن الثاني عشر.

وابتداءً من القرن التاسع عشر، يبدأ فصل جديد في تاريخ القرّائين بعد ضم كل من ليتوانيا (عام ١٧٩٣) وشبه جزيرة القرم (عام ١٧٨٣) إلى روسيا. فحتى ذلك الوقت، كانت المجتمعات التقليدية التي وُجد فيها اليهود تُصنِّف كلًا من اليهود الحاخاميين واليهود القرّائين باعتبارهم يهودًا وحسب دون تمييز أو تفرقة.

ولكن الدولة الروسية اتبعت سياسة مختلفة إذ بدأت تعامل القرّائين كفرقة تختلف تمامًا عن الحاخاميين، فأعفت أعضاء الجماعة القرّائية من كثير من القوانين التي تطبَّق على اليهود، مثل: تحديد الأماكن التي يمكنهم السكنى فيها (منطقة الاستيطان)، وتحديد عدد المسموح لهم بالزواج والخدمة العسكرية الإجبارية، وعدم امتلاك الأراضي الزراعية في مناطق معيَّنة.

وقد حاول القرّاءون قدر استطاعتهم أن يقيموا حاجزًا بينهم وبين الحاخامين، فقدموا مذكرات للحكومة القيصرية يبينون فيها أنهم ليسوا كسالى أو طفيليين مثل اليهود الحاخامين، وهي اتهامات كانت شائعة ضد اليهود في ذلك الوقت.

كما أن القرّائين كانوا يؤكدون أنهم لا يؤمنون بالتلمود الذي كانت الحكومة الروسية ترى أنه العقبة الكأداء في سبيل تحديث يهود روسيا.

وقد قام المؤرخ والعالم القرّائي أبراهام فيركوفيتش بإعداد مذكرة موثقة للحكومة القيصرية تبرهن على أن اليهود هاجروا من فلسطين قبل التهجير البابلي، وبالتالي فإن تطورهم الديني والتاريخي مختلف تمامًا عن اليهود الحاخامين.

وقد أُعيد تصنيف اليهود القرّائين بحيث اعتُبروا قرّائين روسيين من أتباع عقيدة العهد القديم.

وقد أثّر هذا في الهيكل الوظيفي للقرّائين، فبينما كان معظم اليهود الحاخامين (في القرم) من الباعة الجائلين والحرفيين وأعضاء في جماعات وظيفية وسيطة، كان القرّاءون يحصلون على امتيازات استغلال مناجم الفحم، وكانوا من كبار الملاك الزراعيين الذين تخصصوا في زراعة التبغ، وقد احتكروا تجارته في أوديسا، كما كانت تربطهم علاقة جيدة مع السلطات القيصرية.

وحينما ضمت القوات الألمانيَّة القرم وأجزاء أخرى من أوربا إبان الحرب العالمية الثانية، قرَّر النازيون أن القرّائين يتمتعون بسيكولوجية عرْقية غير يهودية؛ ولذلك فلم تُطبق عليهم القوانين التي طُبِّقت على الحاخامين.

وقد جاء في بعض المصادر أن موقف القرّائين من أحداث الحرب العالمية الثانية كان يتراوح بين عدم الاكتراث والتعاون مع النازيين.

وعند إنشاء الدولة الصهيونيَّة، كان القرّاءون معادين لها بطبيعة الحال، ولكن الدعاية الصهيونيَّة والسياسية التي انتهجتها بعض الحكومات العربيَّة والمبنية على عدم إدراك الاختلافات بين الحاخامين والقرّائين جعلت معظمهم يهاجر من البلاد العربيَّة إلى إسرائيل وغيرها من الدول.

المعتقدات والأفكار

١- لا يعترفون إلا بالعهد القديم كتابًا مقدسًا، ولا يخضعون للروايات الشفوية كالتلمود، فلا يعترفون به بدعوى حريتهم في شرح التوراة، ويتبرءون من قول الأحبار ويكذبونهم.

وقد هاجم القرّاءون التلمود، وهدموه، وفندوا تراثه الحاخامي باعتباره تفسيرًا من وضع البشر؛ أي أنهم وضعوا التوراة التي يُقال لها «المقرّا» مقابل المشناه بمعنى «التكرار الشفوي».

ورفضهم الشريعة الشفوية هو في جوهره رفض النزعة الحلوليَّة التي ترى أن الإله يحل بشكل دائم في الحاخامات، ومن ثم يتساوى الاجتهاد الإنساني والوحي الإلهي، والتمسك بالنص الإلهي المكتوب.

وكان من شعار عنان مؤسس الفرقة قوله: فتش بدقة في النصوص ولا تعتمد على رأيي.

وقد وضع القراءون أصولًا للتفسير على الترتيب الآتي: المعنى الحرف، الإجماع، القياس، العقل.

٢- تصوُّرهم للإله تم تطهيره تمامًا من أية بقايا وثنية أو طبائع بشرية، فالإله هو خالق السموات والأرض من العدم، وهو الخالق الذي لم يخلقه أحد، ولا شكل له ولا مثيل له، إله واحد أرسل نبيه موسى وأوحى إليه التوراة التي تنقل الحق الكامل الذي لا يمكن تغييره أو تعديله، وخصوصًا من خلال العقيدة الشفوية.

وعلى المؤمن أن يعرف المعنى الحق للتوراة.

وقد أرسل الإله الوحي إلى أنبياء آخرين، ولكن درجة النبوة لديهم أقل منها عند موسى، وسيبعث الإله الموتى، ويحاسبهم يوم القيامة، ويعاقب المذنب ويكافئ المثيب.

وكل هذا يعني أن الإله عادل وسيحاسب كل فرد على أفعاله، وأن الإنسان خير، وأن الروح لا تفنى.

٣- يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد والصلاة والصيام وشئون الطعام والشراب والزواج، وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد، ويذبحون الحيوان على القفا، ولهم تقويم خاص بهم.

٤- يصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته، ويقولون: إنه لم يخالف التوراة ألبتة بل قررها ودعا الناس إليها وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته.

ومن هؤلاء من يقول: إن عيسى عليه السلام لم يدَّع أنه نبي مرسل، وليس من بني إسرائيل، وليس هو صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام بل هو من أولياء الله المخلصين العارفين بأحكام التوراة، وليس الإنجيل كتابًا أنزل عليه وحيًا من الله تعالى بل هو جمع أحواله من مبدئه إلى كماله وإنما جمعه أربعة من أصحابه الحواريين فكيف يكون كتابًا منزلًا؟

قالوا: واليهود ظلموه حيث كذبوه أولًا ولم يعرفوا بعد دعواه وقتلوه آخرًا ولم يعلموا بعد محله ومغزاه.

وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا في مواضع كثيرة وذلك هو المسيح ولكن لم ترد له النبوة ولا الشريعة الناسخة وورد فارقليط وهو الرجل العالم.

وكذلك ورد ذكره في الإنجيل فوجب حمله على ما وجد وعلى من ادعى غير ذلك تحقيقه وحده.

٥- تأثر القرّاءون بعلم الكلام عند المسلمين، وتأثر مؤسس الفرقة، عنان بن داود، بأصول الفقه على مذهب أبي حنيفة.

الأعداد والتواجد الحالي

هذه الفرقة كانت بالعراق ومصر والشام، وكانوا في الأندلس بطليطلة وطليبرة.

ويبلغ عدد اليهود القرّائين في القرم حين ضمها الروس نحو ٢٤٠٠، ووصل العدد إلى ١٢ ٩٠٧, عام ١٩١٠، وإلى عشرة آلاف عام ١٩٣٢ . ويصل عددهم الآن حوالي ٤٥٧١ .

ويوجد تجمُّع قرّائي آخر في ولاية كاليفورنيا يضم حوالي ١٢٠٠ يهودي معظمهم من أصل مصري.

ويبلغ عدد القرّائين في إسرائيل نحو عشرين ألفًا، توجد أعداد كبيرة منهم في الرملة، وزعيمهم وحاخامهم الأكبر هو حاييم هاليفي، ويعيش بعضهم في أشدود.

وهناك اثنا عشر معبدًا قرّائيًا ومحكمة شرعية. ويمكن القول بأن معظم القرّائين في إسرائيل من أصل مصري (حيث هاجروا إليها عام ١٩٥٠). والواقع أن انتماءهم الديني القرّائي لا يزال قويًا، ولذا فإن ثمة خلافات دائمة بينهم وبين اليهود الحاخامين، الأمر الذي ينعكس على العلاقات فيما بينهم داخل المستوطنات المشتركة(١).

السفارد Sephardim

التعريف:

سفارد: مصطلح مأخوذ من الأصل العبري «سفارديم».

ويُشار إلى السفارد أيضًا بكلمة «إسبانيولي»، وباليديشية بكلمة «فرانك» التي تشبه قولنا بالعربيّة «الفرنجة».

و«سفارد» اسم مدينة في آسيا الصغرى تم ربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ فتُرجمت الكلمة في الترجوم (الترجمة الآراميَّة لأسفار موسى الخمسة) إلى «إسباميا»، و«سباميا»، أما في البشيطا (الترجمة السريانيَّة لأسفار موسى الخمسة) فهي «إسبانيا».

وابتداءً من القرن الثامن الميلادي، أصبحت كلمة «سفارد» هي الكلمة العبريَّة المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا.

وتُستخدَم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلًا في إسبانيا والبرتغال، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوربا.

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٨٢)، الملل والنحل (١/ ٢١٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٢)، روح المعاني، الآلوسي (٣/ ١٦٧)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٤٩٩)، اليهودية ص(٢٢٣)، اليهودية عرض تاريخي ص(٩٤- ٩٨).

التاريخ والأحدث

استقر أعضاء الجماعة اليهوديَّة في شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا والبرتغال) في أيام الإمبراطورية الرومانية.

ولكن أهم فترة في تاريخهم هي الفترة التي حكم فيها المسلمون شبه جزيرة أيبريا والتي يُشار إليها باسم «العصر الذهبي».

وكان أعضاء الجماعة اليهوديَّة يتحدثون العربيَّة في تلك الفترة، ويفكرون ويكتبون بها، ثم جاء الغزو المسيحي لشبه الجزيرة واستردادها، فاكتسب اليهود الصبغة الإسبانية وتحدثوا باللادينو، وهي لهجة إسبانية.

ثم تم طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، ومن البرتغال عام ١٤٩٧، فاتجهت أعداد منهم إلى الدولة العثمانية التي كانت تضم شبه جزيرة البلقان وشمال أفريقيا.

ويُعَدُّ ميناء سالونيكا (في شبه الجزيرة اليونانيَّة) عاصمة السفارد في العالم حتى الحرب العالمية الأولى، فقد كانت هذه المدينة تضم أغلبية سفاردية.

ومن أهم المدن الأخرى التي استقر فيها السفارد في الدولة العثمانية: أدرنة والأستانة وصفد والقدس والقاهرة، وعاشوا في بعضها فيما يسمى بالأحياء اليهوديَّة.

وبعد قرن من الزمان، لحقت بجماعة السفارد جماعات المارانو، وهم من يهود السفارد المُتخفِّين (البرتغاليين)، فاتجهت جماعات منهم إلى هولندا وفرنسا، كما اتجهت جماعات أخرى إلى أماكن أخرى في أوربا، مثل: إنجلترا وألمانيا وإيطاليا والدنمارك والنمسا والمجر، وإلى العالم الجديد (البرازيل والولايات المتَّحدة)، حيث أعلنت أعداد منهم عن هويتهم الدينيَّة ومارسوا العقيدة اليهوديَّة بشكل علني.

وكان المُبعَدون من السفارد إسبانيين أو برتغاليين في تراثهم وثقافتهم ولباسهم وطَهْوِهم وأسمائهم، ولذا كان يُطلَق عليهم اسم «الأسبان» أو «البرتغاليون».

وقد احتفظ هؤلاء المُبعَدون بعلاقاتهم الثقافية بوطنهم الأصلي، حيث كانوا معتزين بهذا التراث وبالمكانة العالية التي حققوها في هذه البلاد.

وقد ظهر في صفوف السفارد عدد كبير من المفكرين مثل أوريل داكوستا.

وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي يُعتَدُّ به في العصر الحديث كان سفاردي الأصل، وهو إسبينوزا.

كما أن قبَّالاة الزوهار، وكذلك القبَّالاه اللوريانية التي اكتسحت أوربا الإشكنازية، كانت من أصل سفاردي، وكذا الشولحان عاروخ، أهم المصنفات الفقهية اليهوديَّة، حيث وضعه يوسف كارو.

وكان شبتاي تسفي من أصل سفاردي أيضًا، أي أن كل التطورات التي حدثت بين الجماعات اليهوديَّة في هذه الفترة كانت ذات أصول سفاردية.

وقد كان السفارد يُصرّون على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الإشكناز، الذين كانوا يتسمون بقدر كبير من العزلة والتخلف الحضاريين. وأخذت هذه المسافة شكل مؤسسات دينية وتعليمية مستقلة، ورفض الزواج المُختلَط من الإشكناز، حتى إن السفاردي الذي يتزوج من إشكنازية كان يُطرَد من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنها.

وحينما كانت الجماعة السفاردية تضطر إلى السماح لبعض الإشكناز بحضور الصلوات في معبدها، فإن أعضاءها كانوا يصلون وراء حاجز خشبي يُقام بهدف الفصل بين أعضاء الجماعتين.

وحينما كانت أية جماعة سفاردية تهاجر إلى أية مدينة، فإنها كانت تحتفظ باستقلالها وبإحساسها بتفوُّقها وتَفوُّق قيمها، حتى إنها كانت تصبغ بقية الجماعة بصبغة سفاردية.

هذا ما حدث على سبيل المثال في الدولة العثمانية، حين امتزج اليهود الروم (الرومانيوت) واليهود المستعربة باليهود السفارد، فأصبحت اللادينو هي اللغة السائدة بينهم. وقد حدث الشيء نفسه في شمال أفريقيا.

وفي العصر الحديث، كانت الهجرة اليهوديَّة في الغرب تأخذ الشكل التالي: يستقر أعضاء جماعة سفاردية تمتلك من الخبرات ورءوس الأموال والاتصالات الدولية ما يجعل منها جماعة تجارية إدارية متقدمة، ثم تأتي الجماهير الإشكنازية وتلحق بهم، وكان السفارد يشغلون في معظم الأحيان قمة الهرم. ولذا، لعب السفارد دورًا مهمًّا في تَطوُّر الرأسمالية الغربية وبروز النظام الاقتصادي الجديد (في العالم) واتساع نطاق حركة الاكتشافات الجغرافية.

وقد بدأ السفارد يستثمرون في كثير من المشروعات الاستعمارية الهولندية، فامتلكوا عددًا كبيرًا من أسهم شركة الهند الغربية الهولندية. في حين ظل الإشكناز على هامش هذا التطور، فكان منهم صغار التجار وكان منهم المرابون المرتبطون بالنظام الاقتصادي القديم.

ولعل هذا يُفسِّر بقاء المسألة اليهوديَّة مسألة إشكنازية بالدرجة الأولى. ففي فرنسا مثلًا، اصطدم النظام الجديد بعد الثورة بيهود الألزاس واللورين، وهم من يهود اليديشية الإشكناز، بينما لم تَحدُث أية مواجهة بين هذا النظام وبين يهود بايون وبوردو من السفارد. وفي إنجلترا، لم تكن هناك مسألة يهودية إلا بعد هجرة يهود اليديشية بجحافلهم المتخلفة إليها.

وقد حقق السفارد بروزًا غير عادي في المجتمعات الغربية خصوصًا هولندا. وكان منهم أعداد كبيرة من يهود البلاط. كما اشتركوا في تمويل بعض الشركات الاستيطانية. وقد بلغ اليهود السفارد قمة نفوذهم المالي في نهاية القرن السابع عشر.

ولكن وَضْعَهم أخذ في التدهور بعد ذلك التاريخ، وذلك مع ظهور القوة البريطانية وانكماش القوة الهولندية، ومع تَزايُد حجم التجارة الدولية التي لم يتمكن رأس المال السفاردي من

ستيعابها، ومع ظهور بورجوازيات محلية حلت محل يهود البلاط.

وقد أدَّى وصول قوات الثورة الفرنسيَّة إلى هولندا إلى قطع علاقة أعضاء الجماعات اليهوديَّة فيها بالشبكة التجارية اليهوديَّة في ألمانيا وبولندا والدولة العثمانية، ومن ثم فَقَد السفارد ما تَبقَّى لهم من قوة وثروة، وحدث التراجع الذي رجَّح كفة الإشكناز.

كل هذا أدى إلى تَدهَور وضع اليهود السفارد، بعد أن كانوا الأكثر عددًا والأعلى مكانة والأكثر ثقافة.

ففي العصور الوسطى، كانوا يشكلون نصف يهود العالم، وكانوا على احتكاك بمؤسسات صنع القرار في بلادهم، كما كانوا يشتغلون بالشئون المالية المتقدمة.

ولكن، ابتداءً من القرن السابع عشر، بدأ صعود الإشكناز عدديًا ثم ثقافيًا. ورغم وجود أقليات سفاردية مهمة في لندن وأمستردام حتى القرن التاسع عشر، زاد المد الإشكنازي وغطى الانفجار السكاني في صفوفهم على السفارد تمامًا. ومع الحرب العالمية الثانية، كان يهود العالم يبلغون ١٦ ٥٠٠, ٠٠٠, منهم ١٥ مليون إشكنازي، والباقي سفارد بالمعنيين الديني والعرْقي.

وتُوجَد أغلبية السفارد في شمال أفريقيا (ما بين ٢٥٠ ألفًا إلى ٣٠٠ ألف) وأوربا (٢٥٠ ألفًا).

كما كان هناك عدد كبير في أمريكا اللاتينيَّة (١٢٠ ألفًا)، وتركيا (٧٣ ألفًا)، وفلسطين (٤٧ ألفًا)، وتَوزَّع الباقي على ثلاث دول أخرى. لكن هذه الأرقام غير دقيقة، كما أنها تضم اليهود المستعربة ضمن السفارد، وكذلك أعضاء الجماعات اليهوديَّة الأخرى (مثل الفلاشاه وبني إسرائيل والدونمه).

وقد أدَّت تَقلُّبات القرن العشرين، من تحديث في اليونان والدولة العثمانية، وحروب بين اليونان وتركيا، إلى تشتيتهم من مراكز تَجمُّعهم الأساسية، لا سيما وأن عاصمتهم سالونيكا كانت مدينة تركية في شبه الجزيرة اليونانيَّة. وقد تم إخلاء سكانها وتهجيرهم إلى تركيا، وضمن ذلك اليهود، باعتبارهم أتراكًا، خصوصًا وأن نسبة كبيرة من سفارد سالونيكا كانوا من الدونمه، أي من اليهود المتخفين الذين أظهروا الإسلام، ولذلك تم تصنيفهم باعتبارهم مسلمين.

وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أوربا والولايات المتَّحدة وأمريكا اللاتينيَّة حيث كان الجو الحضاري اللاتيني مواتيًا لهم.

وقد لعب اليهود السفارد دورًا مهمًّا في إسقاط الدولة العثمانية، وفي تسهيل مهمة تهجير الإشكناز إلى فلسطين ما قبل الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك لم تبذل الحركة الصهيونيَّة جهدًا لتهجير اليهود السفارد وتوطينهم؛ وذلك لأن اصطلاح يهودي لدى الصهاينة يعني الإشكنازي فحسب، ومسألة اليهود في الأصل مسألة إشكنازية، وكذلك لدى الصهيونيَّة.

ولذلك كانت هجرة السفارديين عند قيام الدولة الصهيونيَّة مفاجأة غير سارة من وجهة نظر بعض المفكرين الإشكناز.

ووصل الأمر لدرجة أن أحد علماء الاجتماع الصهاينة وهو آرثر روبين ذكر في أحدى دراساته أنه من الصعب اعتبار السفارديين يهوداً(١) .

الإشكناز Ashkenazim

التعريف:

الإشكناز: من «إشكنازيم» العبريَّة. و«الإشكناز» هم يهود فرنسا وألمانيا وبولندا. و«إشكناز»، حسب الرواية التوراتية، اسم أحد أحفاد نوح(٢) .

ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استُخدمت للإشارة إلى قبيلة ظهرت في زمن أسرحدون تحالَف أعضاؤها مع آشور.

وهم الذين تشير إليهم المدونات الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بلفظ «إشوكوزا»، وهم الذين أشار إليهم اليونانيون بكلمة «إسكيثيانز Scythians» وهم الإسكيثيون.

ويبدو أن هذه الأقوام كانت تشغل المنطقة الموجودة على حدود أرمينيا في أعالي الفرات، وجزءًا من مملكة الميديين. ويقرن يوسيفوس كلمة «إشكناز» بمدينة في مركز ميديا.

وفي بعض الكتابات الحاخامية، يُشار إلى آسيا بأسرها باعتبارها «إشكناز»، كما كان يُشار إلى الخَزَر باعتبارهم «إشكناز»، بل واستُخدمت الكلمة للإشارة إلى حملات الفرنجة.

أما الاشتقاق الحالي لكلمة «الإشكناز»، فهو من كلمة «إشكناز» بمعنى «ألمانيا». ومن الصعب معرفة متى حدث هذا التَّرادُف.

وثمة آراء احتمالية عدة، فهناك من يربط بين إشكناز وإسكندنافيا، وهناك من يربط بينها وبين الساكسون ومن ثم بينها وبين ألمانيا.

ومع زمن راشي، أصبح هذا الترادف أمرًا مقبولًا تمامًا، فهو يشير إلى «لشون إشكناز»، أي «اللسان الألماني» أو «اللغة الألمانيَّة»، وكان يشير إلى «إرتس إشكناز» أي «أرض ألمانيا».

التاريخ والأحداث

المصطلح يشير إلى يهود فرنسا وألمانيا ونسلهم من اليهود الذين هاجروا إلى إنجلترا وشرق أوربا (بولندا وليتوانيا) بعد حروب الفرنجة.

ويرى بعض المؤرخين، ومن بينهم العالم الإسرائيلى إ. ن. بولياك أستاذ التاريخ اليهودى الوسيط في جامعة تل أبيب، وكذلك علماء الأجناس، أن يهود شرق أوربا الإشكناز ليسوا من

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٣٧- ١٤٠).

(٢) انظر: سفر التكوين ١٠/١- ٥ .

نسل يهود فلسطين وإنما من نسل الخزر الذين استوطنوا هناك بعد تشرذمهم. وقد وصفهم الجغرافيون العرب بأنهم ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر غزير ضارب للحمرة.

ويطرح آرثر كوستلر هذه النظرية بكلامه عن أصل أكبر كتلة بشرية إشكنازية (أي يهود بولندا)، فيرى أن الجماعات اليهوديَّة في فرنسا وألمانيا قد أبيدت تمامًا أو اختفت، وأن يهود بولندا هم في الواقع بقايا يهود الخزر الذين نزحوا عن أراضيهم بعد سقوط دولتهم وأسسوا دولة المجر ثم هاجروا منها إلى بولندا. وبالتالي، فإن الإشكناز عنصر تركي غير سامي.

وقد انتشر الإشكناز من بولندا إلى أوربا، خصوصًا بعد هجمات شميلنكي في أوكرانيا (١٦٤٨)، فاستقرت أعداد منهم في بولندا وألمانيا وإنجلترا والعالم الجديد.

ثم هاجر الملايين منهم في نهاية القرن التاسع عشر إلى الولايات المتَّحدة وأمريكا اللاتينيَّة وأستراليا ونيوزيلندا، بعد الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفهم.

كما أنهم توجهوا إلى آسيا وأفريقيا مع حركة التوسع الإمبريالي.

ولما كان يهود شرق أوربا هم أهم كتلة بشرية يهودية، فقد ارتبط المصطلح بهم، ولكننا نُفضِّل أن نشير إلى هؤلاء باعتبارهم «يهود اليديشية».

وكان معظم الإشكناز يتحدثون اليديشية التي اختفت بالتدريج مع عشرينيات هذا القرن، وبالتالي فهم يتحدثون في الوقت الحاضر لغة البلد الذي يوجدون فيه. ولغتهم الأساسية الآن هي الإنجليزية باعتبار أن أغلبيتهم تُوجَد ضمن التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو. ساكسوني (الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة - كندا - أستراليا - جنوب أفريقيا).

والعبريَّة السائدة بين الإشكناز مختلفة عن عبرية السفارد حيث ينطقونها بطريقة مختلفة.

وكان أكثر من نصف يهود العالم، في العصور الوسطى وحتى بدايات القرن الثامن عشر، من السفارد ويهود العالم الإسلامي؛ ولكن بعد ذلك التاريخ أخذ الإشكناز في التَزايُد إلى أن حدث الانفجار السكاني في صفوفهم في القرن التاسع عشر وأصبحوا يشكلون نحو ٩٠٪ من يهود العالم. ولا تزال نسبتهم عالية. ومع أنها قد هبطت قليلًا في الآونة الأخيرة، بسبب تَناقُص معدلات الإنجاب بينهم، فإن الأغلبية الساحقة من يهود العالم تظل إشكنازية (بمعنى: غربية).

كما أنهم نظرًا لوجودهم في المجتمع الغربي، فإن لهم بروزًا عالميًا؛ ولذا فإن معظم مشاهير اليهود الآن من الإشكناز، ابتداءً بأينشتاين، ومرورًا بكيسنجر، وانتهاءً براكيل ويلش.

وتُذكَر كلمة «إشكناز» عادةً مقابل «سفارد»، وبالتالي أصبحت كلمة «إشكناز» مرادفة لمعنى «غربي» وأصبحت «سفاردي» بمعنى «شرقي»، وهو تَرادُف خاطئ؛ لأن كثيرًا من يهود الشرق (يهود الفلاشاه وبني إسرائيل) ليسوا من السفارد، ولا علاقة لهم بالتراث السفاردي الإثني أو الديني.

ولكن هذا الترادف التصنيفي الخاطئ ربما يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (مثل:

سالب وموجب - ذكر وأنثى)، وإلى جَعْل مرجعية اليهود الوحيدة والأساسية هي تراثهم، ومحاولة رؤيتهم داخل إطار يهودي مُوحَّد، وهو أمر يصبح صعبًا لو أخذنا بتصنيف تَعدُّدي ثلاثي يراعي وجود أقسام مختلفة من اليهود في العالم.

ومما يزيد الأمور اختلاطًا، أن الحسيديين، وهم من أشد اليهود إشكنازيةً إن صح التعبير، تَبنَّوا بعض الممارسات الدينيَّة السفاردية في محاولة لتأكيد استقلالهم عن المؤسسة الحاخامية الإشكنازية. ومع تَزايُد فقدان الجماعات اليهوديَّة سماتها الخاصة، وتَزايُد اندماجها وتَحوُّل أعضائها إلى أمريكيين يهود أو فرنسيين يهود... إلخ، يصبح من الأدق استخدام مصطلح «يهود غربيون» للإشارة لما يُسمَّى الآن «اليهود الإشكناز».

لكل ما تَقدَّم، نجد أن مصطلح «إشكناز» اكتسب دلالة حضارية وإثنية وعرْقية ودينية، وأصبح هذا المصطلح يشير إلى مركب إشكنازي من العناصر والعلاقات، وقد انعكس هذا على الوضع في فلسطين[١].

التأثير المتبادل بين الإشكناز والسفارد

يُلاحَظ أن تأثير السفارد الفكري الديني في الإشكناز كان عميقًا؛ فرغم أن بدايات القبَّالاه إشكنازية، فإن تَحوُّلها إلى نسق متكامل في قبَّالاة الزوهار ثم القبَّالاه اللوريانية تم على يد السفارد، بل إن الفكر القبَّالي ذاته يكاد يكون فكرًا سفارديًّا، وهو الذي اكتسح الفكر الحاخامي الإشكنازي.

كما أن أهم كتب الشريعة اليهوديَّة (الشولحان عاروخ) كتاب سفاردي كتب عليه أحد الإشكناز شروحًا وتعليقات.

وقد لاحَظ أحد المفكرين أثر الفكر المسيحي في الفكر الديني للإشكناز، فظاهرة الاستشهاد فيما يُعرَف بمصطلح «تقديس الاسم» (بالعبريَّة: «قيدوش هاشيم») هي ظاهرة إشكنازية لعلها جاءت نتيجة تأثير واقعة الصلب في المسيحيَّة على اليهود.

أما المارانية، وهي شكل من أشكال التَّقية، فهي ظاهرة سفاردية. ويمكن ملاحظة تأثير الفكر المسيحي في الحسيديَّة أيضًا، على عكس الفكر السفاردي الذي تأثر في بعض جوانبه بالفكر الديني الإسلامي.

ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن المشيحانية (وهي المعبِّرة عن إحباط الجماهير) حركة إشكنازية بالدرجة الأولى رغم أن الفكر القبَّالي فكر سفاردي، ورغم أن شبتاي تسفي (أول ماشيَّح دجال في العصر الحديث) سفاردي. كما أن قيادة هذه الحركات انتقلت إلى الغرب بعد حركة شبتاي تسفي. فجيكوب فرانك إشكنازي (رغم تَبنِّيه بعض الأساليب السفاردية، ورغم أن

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٣٥- ١٣٧).

أعداءه سموه «فرانك»، أي السفاردي باليديشية) والحركة الحسيديَّة أيضًا حركة إشكنازية.

ويُلاحَظ أيضًا أن الوضع تغيَّر بعد سنوات من التبعية للفكر السفاردي، وبدأ الإشكناز في الإبداع في مجال الفكر الديني والدنيوي، فظهرت حركة التنوير في صفوفهم، كما ظهر بينهم علم اليهوديَّة، وكذلك جميع الحركات الدينيَّة في اليهوديَّة الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسيَّة والتجديدية[1].

الفروق بين السفارد والإشكناز

١- أن عبرية السفارد مختلفة عن عبرية الإشكناز.

وهذا يعود إلى أن يهود العالم العربي كانوا منذ أيام الأندلس لا يتحدثون إلا العربيَّة، واقتصر استخدام العبريَّة على الكتابة الدينيَّة المتخصصة.

وقد كان لاحتكاك اليهود بالعرب أثر عميق في لغتهم، فقد ازدادت عبريتهم فصاحة بمجاورتها اللغة العربيَّة التي تُعدُّ أرق لغات المجموعة السامية كلها. وقد تَرتَّب على ذلك أن دولة إسرائيل، التي قامت على أكتاف الإشكناز، وجدت نفسها رغم كل شيء مُضطرَّة إلى اعتبار عبرية السفارد هي لغة المسرح الرسمية وكذلك لغة الإذاعة والتعليم في الجامعات والمدارس.

وقد اضطر المؤلفون في الأدب العبري الحديث، أو العاملون في مجال الدراسات اللغوية، حتى وإن كانوا من الإشكناز، إلى الخضوع المُطلَق للسان السفارد.

ولكن هذا لا ينفي أن هناك مزيجًا لغويًّا في جبهة السفارد ذاتها، فبعضهم (مثل المارانو) يتحدث اللادينو أو البرتغالية، أما البعض الآخر فيتحدث اليونانيَّة أو التركية وهم أقلية.

وقد انعكس هذا التباين اللغوي على طريقة نطقهم للعبرية. بل إن هذا التباين يمكن ملاحظته في نُطق العبريَّة بين اليهود الذين يتحدثون اللغة نفسها، فثمة سمات محلية في النطق أصبحت تُميِّز اليهودي العراقي عن اليهودي اليمني أو المغربي، ليست نتيجة احتكاكه باللغة العربيَّة الفصحى وحسب بل ونتيجة احتكاكه العميق باللهجة التي يتحدث بها مواطنو بلده.

وفي الوقت الحاضر، بدأ السفارد يتحدثون (أساسًا) لغة البلاد التي يتواجدون فيها.

٢- لا يوجد اختلاف جوهري بين السفارد والإشكناز في العقائد، فكلاهما يعتبر أن التلمود البابلي هو المرجع الوحيد والنهائي في الأمور الدينيَّة والفقهية.

٣- كان ليهود إسبانيا طريقتهم الخاصة في الصلاة وإقامة الشعائر الدينيَّة التي تُعَدُّ استمرارًا للتقاليد الدينيَّة اليهوديَّة التي نشأت وتطورت في بابل.

أما الإشكناز، فتعود عبادتهم أساسًا إلى أصول يهودية فلسطينية.

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

وقد تعمَّقت الفروق بين الفريقين نتيجة تأثر السفارد في عبادتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يماثلها عند المسلمين.

٤- إن السفارد بسبب مستواهم الثقافي العالي، كانوا أكثر تَسامُحًا وأوسع أفقًا. ومن هنا نجد أن الشولحان عاروخ (المُصنَّف التشريعي الذي وضعه كارو السفاردي) أكثر ليبرالية من تلك الرؤية التي سادت بين الإشكناز عند صدوره.

أما الإشكناز فلم ينفتحوا على الحضارات التي عاشوا بين ظهرانيها برغم تأثرهم بها، وانغلقوا على الكتاب المقدَّس والتلمود وعلى تفسير النصوص الجزئية. كذلك لم يحاول الإشكناز جَمْع الشريعة وتقنينها والتوصل إلى مبادئها العامة.

٥- اختلافات بين السفارد والإشكناز تعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي عاش في كنفها أعضاء الجماعات اليهوديَّة السفاردية والإشكنازية.

ففي عيد الفصح، يستخدم السفارد الخس باعتباره أحد الأعشاب المُرَّة التي تُؤكل في هذه المناسبة بدلًا من الفجل الحار.

٦- الصلوات في المعبد، فهي مختلفة في كثير من النواحي السطحية، وعلى سبيل المثال، يرفع السفارد مخطوطة التوراة قبل قراءتها على خلاف الإشكناز الذين يفعلون ذلك بعدها. كما أن الخط المستخدم في كتابة المخطوطة مختلف.

وكذلك، فإن معمار المعبد السفاردي يختلف، في بعض التفاصيل، عن معمار المعبد الإشكنازي.

٧- تختلف المصطلحات الدينيَّة بين الإشكناز والسفارد على النحو التالي:

صلاة العشاء: يقابلها عند السفاردي: عربت، ويقابلها عند الأشكنازي: معاريف.

تابوت العهد: يقابلها عند السفاردي: هيكل، ويقابلها عند الأشكنازي: آرون.

صلاة عيد الفصح: يقابلها عند السفاردي: هاجاداه، ويقابلها عند الأشكنازي: سيدر.

يوم الغفران: يقابلها عند السفاردي: كيبور، ويقابلها عند الأشكنازي: يوم كيبور.

حاخام: يقابلها عند السفاردي: ربي / راف، ويقابلها عند الأشكنازي: راباي.

كتاب صلاة: يقابلها عند السفاردي: تيفيلوت، ويقابلها عند الأشكنازي: سيدور.

وبسبب هذه الاختلافات وغيرها، اكتسب مصطلح «سفارد» دلالة دينية إلى جانب دلالته الإثنية الأصليَّة، وأصبح يُطلَق على كل اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة سواء أكان أصلهم يعود إلى شبه جزيرة أيبريا أم يعود إلى غير ذلك.

ويُطلَق المصطلح الآن على كل اليهود الذين لا ينتمون إلى أصل إشكنازي غربي في التجمع الإسرائيلي.

ولكن مما يثير بعض المشاكل في التصنيف أن الحسيديين، وهم من الإشكناز، اقتبسوا كثيرًا من التقاليد والطقوس السفاردية، كما أن بعض اليهود الهولنديين والإنجليز يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة.

ولذا فحينما نتحدث عن سكان التجمع الصهيوني من اليهود نقول: «اليهود الإشكناز» و«اليهود السفارد»، و«يهود البلاد الإسلاميَّة»، أو نقول: «يهود شرقيون Oriental Jews» و«يهود غربيون Western Jews» بدلًا من «سفارد» و«إشكناز» حتى لا نَسقُط في التصنيفات الثنائية البسيطة والسهلة التي تُشوِّه الواقع.

٨- أن البناء الوظيفي والمهني للإشكناز مختلف عن بناء السفارد؛ فالإشكناز كانوا يقفون دائمًا على هامش المجتمع الغربي، كشعب شاهد، ثم كأقنان بلاط ويهود بلاط ومرابين وتجار ووسطاء في النظام الإقطاعي، على عكس السفارد الذين كان بعضهم يضطلع بالوظائف الهامشية نفسها، ولكنهم كانوا أكثر اندماجًا في النظام الاقتصادي الجديد في الغرب باعتبارهم من كبار المموِّلين الذين ساهموا في أمستردام وغيرها في تأسيس بعض الشركات الرأسمالية الجديدة، كما استثمروا أموالهم في المشاريع الاستعمارية والاستيطانية.

٩- من الناحية الثقافية، فقد كان السفارد أقل انغلاقًا على المجتمع الغربي، وأكثر استيعابًا لثقافته وأسلوب حياته على عكس الإشكناز؛ ولذلك فإن المسألة اليهوديَّة مسألة إشكنازية، لم تُوجَد إلا في البلاد التي تُوجَد فيها أقلية إشكنازية، وحينما وُجدت أقلية سفاردية وأخرى إشكنازية في بلد واحد، كما كان الحال في فرنسا، فإن السفارد كانوا يندمجون في الاقتصاد الجديد دون أن يصادفوا عقبات كثيرة، ودون أن يواجهوا مشكلة ازدواج الولاء؛ ولهذا، فحينما تَوجَّه نابليون لحل مشكلة يهود فرنسا، انصبت جُلّ جهوده على حل مشكلة يهود الألزاس واللورين من الإشكناز، ولم يضم لهم يهود بوردو وبايون من السفارد[١].

الوضع في فلسطين المحتلة

انعكس الانقسام بين السفارد والإشكناز على الجماعة اليهوديَّة في فلسطين، إذ كانت هذه الجماعة تنقسم بدورها إلى إشكناز وسفارد، ولكل جماعة حاخام خاص بها.

وقد كان أعضاء اليشوف القديم (وهي مؤسسة دينية محضة) ينقسمون إلى إشكناز وسفارد، وهذا الانقسام لا يزال قائمًا في إسرائيل، فهناك حاخامان يشرف كل منهما على الشئون الدينيَّة لجماعته.

وبشكل عام، كان السفارد يُبقون مسافة اجتماعيَّة واسعة بينهم وبين الإشكناز، ويحاولون تأكيد نقط الاختلاف بين الفريقين.

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

وقد كتب المفكر اليهودي السفاردي إسحق دي بنتو رسالة إلى فولتير يبين له فيها أن السفارد لا يتزاوجون مع الإشكناز، وأن لهم معابدهم المستقلة، وأن أزياء السفارد لا تختلف عن أزياء الأغيار على عكس الإشكناز، وأن أثرياء السفارد يتسمون بالتحضُّر ولا يختلفون عن الأغيار إلا في الدين. وختم دي بنتو خطابه بقوله: «لو تزوج سفاردي من إشكنازية، فإنه يفقد كل حقوقه ويُطرَد من المعبد اليهودي السفاردي ويُستبعَد تمامًا من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنهم».

وفسَّر دي بنتو هذا الاختلاف على أساس عرْقي، فالإشكناز لا تجري في عروقهم دماء يهودية نقية، أما السفارد فهم من نسل كبار أسرة قبيلة يهودا الذين أرسلوا إلى إسبانيا أثناء التهجير البابلي.

وقد ارتبط اليهود غير الغربيين (المغاربة والمستعربة) بالحاخامية السفاردية، ومن هنا كان اختلاط المجال الدلالي للكلمة بحيث أصبحت تشير إلى كل من ليس بإشكناز.

وكانت السلطات الإنجليزية تُفضِّل السفارد واليهود المستعربة على الإشكناز؛ نظرًا لأن الفريق الأول كان يعرف تقاليد فلسطين أكثر من الوافدين الجدد.

وإذا كانت المسألة اليهوديَّة مسألة إشكنازية؛ فإن الحركة الصهيونيَّة هي الأخرى حركة إشكنازية. بل إن جميع الظواهر اليهوديَّة الحديثة تبلورت في صفوف الإشكناز، فالحسيديَّة نشأت في بولندا وانتشرت منها، والإصلاح الديني بدأ في ألمانيا وتبعه تزايد معدلات الاندماج والانصهار.

والواقع أن كل مفكري الصهيونيَّة، بدون استثناء، إشكناز. وربما كان الاستثناء الوحيد هو الحاخام القلعي الذي تنبع صهيونيته من رؤاه القبَّالية، وكان يعيش في أطراف الدولة العثمانية (في شبه جزيرة البلقان).

وقد كان المؤتمر الصهيوني الأول يضم وفودًا إشكنازية بالدرجة الأولى. بل إن السفارد الذين حضروا، كانوا من بلاد أوربية مثل بلغاريا أو فرنسا. وظل الاستيطان الصهيوني (أساسًا) استيطانًا إشكنازيًا.

ومن ناحية أخرى، فإن مصطلح «يهودي» كان يعني في الأدبيات الصهيونيَّة الأولى «الإشكنازي». ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل إشكنازية، كما أن المؤسسات الأساسية (مثل الكيبوتس) كلها إشكنازية.

والواقع أن هذه المؤسسات تحاول أن تحافظ على توجه الدولة الإشكنازي، لكن العنصر اليهودي الإشكنازي في الدولة الصهيونيَّة قد أصبح، مع ذلك، أقل من ٥٠٪ بسبب هجرة اليهود السفارد واليهود الشرقيين الذين يزيد عددهم عن ٥٥٪ بسبب تدفقهم على الدولة الصهيونيَّة وازدياد معدل الزيادة الطبيعة.

وقد كانت الصهيونيَّة إشكنازية لدرجة أن كلمة «يهودي» في الأدبيات الصهيونيَّة الأولى كانت مرادفة لكلمة «إشكنازي» بمعنى «يديشي»، كما أن المشروع الصهيوني كان مشروعًا غربيًا لحماية مصالح الغرب في الشرق.

ولكن بعد تأسيس الدولة، هاجر الألوف من يهود الشرق إليها، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة العنصر غير الإشكنازي في الدولة. وقد أعطاها هذا الطابع الذي يُقال له: «سفاردي أو شرقي».

وتتسم العلاقات في المُستوطَن الصهيوني بين الشرقيين والسفارد من جهة، والإشكناز من جهة أخرى، بالتوتر الشديد، فيشير الإشكناز للشرقيين بوصفهم «شفارتز» (أي «سود» أو «شحوريم»، مع تحميل الكلمة إيحاءات قدحية)، وهناك مَثَل يديشي يقول: «فرانك كرانك»؛ أي «السفارد مرض»، والرد الشرقي السفاردي هو الإشارة إلى «الإشكي نازي» بكل تداعيات الكلمة في الذهن الإسرائيلي.

وتُصِّر النخبة الحاكمة في الدولة الصهيونيَّة على الطبيعة الغربية (الإشكنازية) للدولة.

وقد صرح شاعر الصهيونيَّة الأكبر نحمان بياليك، وهو إشكنازي من يهود اليديشية، بأنه يكره العرب؛ لأنهم يُذكِّرونه باليهود الشرقيين.

ولعل خوف النخبة الإشكنازية من العزلة الحضارية هو ما يدفعها إلى إثارة الحروب من آونة إلى أخرى في المنطقة حتى لا يندمج الشرقيون في المحيط الحضاري العربي، فهم في حقيقة الأمر، ينتمون حضاريًا وعرْقيًا إلى هذه المنطقة.

ولو تَحقَّق مثل هذا الاندماج، لوجدت النخبة الحاكمة الإشكنازية نفسها في موضع الأقلية مرة أخرى، وهو الأمر الذي خططت هذه النخبة وأنفقت كل أيامها من أجل الهرب منه.

وعلى كلٍّ، فقد تحولت الأغلبية الإشكنازية إلى أقلية عددية، ولكنها لا تزال تملك ناصية الأمور وتحتكر صنع القرار.

ويُقال: إن الاهتمام المحموم، من جانب المؤسسة الحاكمة في إسرائيل، بالهجرة السوفيتية لا يعود إلى حاجة المُستوطَن الصهيوني إلى مادة بشرية قتالية وحسب وإنما إلى حاجته إلى مادة إشكنازية على وجه التحديد تُوازن العنصر الشرقي السفاردي، بعد أن انخفض عدد اليهود الغربيين في الدولة الصهيونيَّة إلى أقل من النصف.

ويبدو أن التميز العنصري مستمر بالنسبة لأبناء اليهود الشرقيين ممن وُلدوا ونشئوا في إسرائيل. وقد اتضح هذا في النظام الحزبي في إسرائيل، فقد ظهرت فيه الأحزاب الإثنية بعد إعلان الدولة الصهيونيَّة، وقد أعلن الصهاينة حينذاك أن هذا أمر مؤقت وأن الصهيونيَّة (أي القومية اليهوديَّة) ستصهر الجميع في بوتقة واحدة.

ولكن ظهر في التسعينيات أحزاب تعبِّر عن الانقسام الإثني فيضم حزب شاس (الديني) وحزب تامي اليهود السفارد، أما حزب إسرائيل بعالياه (العلماني) فيضم المهاجرين السوفييت[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الحسيديون أو الحسيديَّة Hassidism

التعريف:

الحسيديَّة: بالعبريَّة حسيدوت، وهو مصطلح مشتق من الكلمة العبريَّة «حسيد»، أي «تقي».

وقد وردت هذه الكلمة في العهد القديم وتشير إلى: الرجل التقي الثابت على إخلاصه للإله وإيمانه به.

وقد استُخدمت هذه الكلمة بعد ذلك للإشارة إلى جماعات من مؤيدي التمرد الحشموني (١٦٨ ق.م) كانت تتسم بالحماس الديني والتقوى (القرن الثاني قبل الميلاد).

ثم استُخدمت للإشارة إلى الحركة الصوفيَّة التي نشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر.

ثم أصبحت الكلمة تشير إلى أتباع الحركة الحسيديَّة التي نشأت في بولندا في القرن الثامن عشر، وهذا هو الاستخدام الشائع في الوقت الحالي.

التاريخ والأحداث

بدأت حركة الحسيدين الحديثة على يد بعل شيم طوف في جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر، وخصوصًا في مقاطعة بودوليا، وقد كانت هذه المقاطعة تابعةً لتركيا في نهاية القرن السابع عشر، وانتشرت الحسيديَّة منها إلى وسط بولندا وليتوانيا وروسيا البيضاء ثم المناطق الشرقيَّة من الإمبراطورية النمساوية المجرية: جاليشيا، وبوكوفينا، وترانسلفانيا، وسلوفاكيا، فالمجر ورومانيا، ولكن أقصى تركيز لها كان في الأراضي البولندية التي ضمتها روسيا إليها.

وبعد موت بعل شيم طوف عام ١٧٦٠ م خلفه دوف بير (هامجيد: الواعظ المتجول) عام ١٧٦٦ م الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للحركة الحسيديَّة وذلك لشخصيته وسلوكه الشخصي ونشاطه التبشيري بين طبقات جديدة وفي مناطق جديدة في بولندا بأسرها.

وقد انتشرت الحسيديَّة في بادئ الأمر في القرى بين أصحاب الحانات والتجار والريفيين والوكلاء الزراعيين، ثم انتشرت في المدن الكبيرة حتى أصبحت عقيدة أغلبية الجماهير اليهوديَّة في شرق أوربا بحلول عام ١٨١٥، بل يُقال: إنها صارت عقيدة نصف يهود العالم آنذاك، إلى جانب أنها عقيدة أغلبية يهود اليديشية.

ويُلاحَظ أن الحركة الحسيديَّة لم تضم في صفوفها كثيرًا من العمال والحرفيين اليهود؛ لأن الأساس الاقتصادي لوجودهم كان ثابتًا، كما أن أولادهم كانوا لا يدرسون إلا التوراة، بل كانوا يتركون المدارس بسبب فقرهم. ولهذا، فإنهم لم يكونوا يخوضون في دراسة الشريعة الشفوية. وبالتالي، وجدوا أفكار الحسيديَّة غريبة وغير مفهومة، كما أن الأحزاب الاشتراكية والثورية نجحت في ضمهم إلى صفوفها.

ويرجع نجاح الحسيديَّة إلى أسباب اجتماعيَّة وتاريخية عدة، فالجماهير اليهوديَّة كانت تعيش في بؤس نفسي وفقر اقتصادي شديد بسبب التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي، إذ طُرد كثير من يهود الأرندا، وأصحاب الحانات من القرى الصغيرة، الأمر الذي زاد من عدد المتسولين واللصوص والمتعطلين. ويُقال: إن عُشْر أرباب العائلات كانوا بلا عمل، وكانت قيادة الحركة الحسيديَّة -أساسًا- من يهود الأرندا السابقين ومستأجري الحانات وأصحاب المحال الصغيرة.

وكانت هذه الجماهير في خوف دائم بعد هجمات شميلنكي، وعصابات الهايدماك من الفلاحين القوزاق.

كما كانت تشعر بالإحباط العميق، بعد فشل دعوة شبتاي تسفي وتحوُّله إلى الإسلام. وهي مشاعر زادت من حدتها التحولات الاقتصادية والاجتماعيَّة التي كانت تخوضها مجتمعات شرق أوربا آنئذ، هذه التحولات التي جعلت من القهال (مجلس إدارة الجماعة اليهوديَّة) شكلًا إقطاعيًّا طفيليًّا لا مضمون له، يقوم باستغلال اليهود لحساب الحكومة البولندية والنبلاء البولنديين، ولحساب موظفي القهال من اليهود الذين كانوا يشترون المناصب.

وقد صاحب هذا الوضع تدنِّي الحياة الثقافية والدينيَّة داخل الجيتو والشتتل (الحي والمدينة للتجمع السكاني اليهودي) إلى درجة كبيرة، وصار اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم، بل في عزلة عن المراكز التلمودية في المدن الكبرى.

وعلى أية حال، كانت اليهوديَّة الحاخامية قد تحولت إلى عقيدة شكلية، تافهة وجافة، خالية من المضمون الروحي والعاطفي، تؤكد الأوامر والنواهي دون اهتمام بالمعنى الروحي لها.

ويُلاحَظ أن القبَّالاه (الصوفيَّة اليهوديَّة) كانت قد أحكمت هيمنتها على الفكر الديني اليهودي بين جماهير اليهود وحتى بين طلاب المدارس التلمودية العليا وأعضاء المؤسسة الحاخامية، والفكر القبَّالي الحلولي قادر على إشباع التطلعات العاطفية لدى الجماهير الساذجة اليائسة.

ومن المفارقات أن أعضاء الجماعات اليهوديَّة، بعد أن عاشوا بين فلاحي أوكرانيا وشرق أوربا لمئات السنين، بعيدًا عن المؤسسات الحاخامية في المدن الكبرى والمدن الملكية، تأثروا بفولكلور فلاحي شرق أوربا، وبمعتقداتهم الشعبية الدينيَّة، وبوضعهم الحضاري المتدني بشكل عام.

ويبدو أن الحسيديين تأثروا بالتراث الديني المسيحي، وخصوصًا تراث جماعات المنشقين الدينيَّة المتطرفة (بالروسية: راسكولنيكس Raskolniks من فعل «راسكول raskol» بمعنى «ينشق») في روسيا وأوكرانيا، وكان أتباع هذه الفرق يتبعون أشكالًا حلولية متطرفة.

وأقرب الجماعات المسيحيَّة المنشقة إلى الحسيديَّة هي جماعات الخليستي. وقد ذهب قادة هذه الجماعة إلى أنه حينما صُلب المسيح، ظل جسده في القبر. أما البعث، فهو هبوط الروح القدس بحيث تحل في مسيح آخر هو قائد الجماعة. ولذا، فإن قادتهم مسحاء قادرون على الإتيان

بالمعجزات، يحل فيهم الإله.

والواقع أن مفهوم التساديك (السيد: قائد الجماعة) في الحسيديَّة قريب جدًّا من هذا، فالتساديك هو القائد الذي يحل فيه الإله، وعادةً ما يتم توارث الحلول؛ ولذا فإننا نجد أن قيادات الخليستي يكونون أسرًا حاكمة يتبع كل واحدة منها مجموعة من الأتباع، وهذا ما حدث بين الحسيديين أيضًا.

بل إن التماثل في التفاصيل كان يصل إلى درجة مدهشة، فكان الخليستي يعيشون بعيدًا عن زوجاتهم باعتبار أن الإله إن شاء أن تحمل العذراء لحملت. وهذا هو موقف بعل شيم طوف، برغم أن فكرة «الحمل بلا دنس» أبعد ما تكون عن اليهوديَّة. فعندما ماتت زوجته وعُرض عليه أن يتزوج من امرأة أخرى، احتج ورفض وقال إنه لم يعاشر زوجته قط، وإن ابنه هرشل قد وُلد من خلال الكلمة (اللوجوس).

وكان دانيال الكوسترومي (١٦٠٠ ـ ١٧٠٠) من أهم زعماء الخليستي. وقد وُلد ابنه (الروحي) بعد أن بلغت أمه من العمر مائة عام. وكذلك بعل شيم طوف، فقد وُلد، حسب الأساطير التي نُسجت حوله، بعد أن بلغت أمه من العمر مائة عام.

وكان الخليستي يرتدون ثيابًا بيضاء في أعيادهم، وكذلك الحسيديون.

وقد كان الخليستي يُعدون أنفسهم، من خلال الغناء والرقص، لحلول روح المسيح فيهم، وهذا قريب من تمارين الحسيديين أيضًا.

والمضمون الفكري الاجتماعي لكلٍّ من الخليستي والحسيديين مضمون شعبي يقف ضد التميزات الطبقية بشكل عام.

وفي هذا المناخ، ظهر الدراويش الذين يحملون اسم «بعل شيم»، أي «سيد الاسم»، وهم أفراد كانت الجماهير البائسة تتصور أنهم قادرون على معرفة الأسرار الباطنية، وإرادة الإله، وطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى، كما أنهم كانوا يتسمون بالتدفق العاطفي الذي افتقدته الجماهير في الحاخامات.

وظهرت الحسيديَّة بحلوليتها المتطرفة، وبريقها الخاص، ورموزها الشعبية الثرية التي تروي عطش الجماهير اليهوديَّة الفقيرة التي كان يخيم عليها التخلف.

وقد تبدَّت هذه الأفكار الحلوليَّة المتطرفة في التصادم الحاد بين الحسديين والمؤسسة الحاخامية (متنجديم)، وهو تصادم كان حتميًّا، باعتبار أن الحسيديَّة تمثل رؤية بعض قطاعات الجماعة اليهوديَّة التي استُبعدت من جانب المؤسسة الحاخامية والقهال. وكانت الحسيديَّة تحاول أن تحقق لهم قسطًا -ولو ضئيلًا- من الحرية ومن المشاركة في السلطة.

والحسيديَّة، في جانب من أهم جوانبها، محاولة لكسر احتكار المؤسسة التلمودية للسلطة الدينيَّة، ومحاولة لحل مشكلة المعنى، وقد انعكس هذا التصادم، على المستوى الفكري، حين قام

الحسيديون بالتقليل من شأن الدراسة التلمودية أو دراسة التوراة.

فإذا كان الهدف من الحياة ليس الدراسة وإنما التأمل في الإله والالتصاق به والتوحد معه وعبادته بكل الطرق، فإن هذه العملية لا بد أن تستغرق وقتًا طويلًا، وهو ما لا يترك للإنسان أي وقت لدراسة التوراة على الطريقة الحاخامية القديمة.

كما أن التواصل المباشر مع الإله يطرح إمكانيةً أمام اليهود العاديين، ممن لا يتلقون تعليمًا تلموديًا؛ لأن يحققوا الوصول والالتصاق (ديفيقوت). بل إن الجهل، في إطار التجربة الوجودية المباشرة، يصبح ميزة كبرى.

وهدف التجربة الدينيَّة هو الفرح والنشوة، وهو إعادة تعريف للتجربة الدينيَّة تؤكد العاطفة (الجوانية) كوسيلة للوصول إلى الإله، بدلًا من الشعائر والدراسات التلمودية (البرانية)، فالإله (حسب تصوُّر بعل شيم طوف) لا يسمع الدعاء ولا يقبل الصلاة إلا إذا نبعت من قلب فَرِح. ومن ثَمَّ، يصبح الإخلاص العاطفي أهم من التعليم العقلي.

وقد قلَب الحسيديون الأمور رأسًا على عقب، إذ تبنوا الفكرة اللوريانية الخاصة بحاجة الإله إلى الشعب اليهودي ككل، وخصوصًا القادة التساديك. وقد ذهب الحسيديون إلى أنه لا يوجد ملك دون شعب. وبالتالي، فإن ملك اليهود في حاجة إليهم، ومن خلال حاجته إليهم تتضاءل أهمية الأوامر والنواهي.

وقد نجحت الحسيديَّة في تحقيق قدر من الاستقلال عن المؤسسة الحاخامية، فاتبعت بعض التقاليد السفاردية في الشعائر (ربما تحت تأثير القبَّالاه اللوريانية ذات الأصول السفاردية)، كما أدخلوا بعض التعديلات على طريقة الذبح الشرعي (وهو ما يعني في واقع الأمر السيطرة على تجارة اللحم). وأصبح للحسيديين معابدهم الخاصة وطريقة عبادتهم، ولذلك تحوَّلت الحركة من يهودية حسيدية إلى يهودية تساديكية (نسبة إلى التساديك الذي يقوم بالوساطة بين أتباعه والإله). وقد أصبح هذا مفهومًا محوريًا في الفكر الحسيدي.

وكان الحسيديون يعمدون إلى إحلال التساديك محل الحاخام (لتقليص سلطان المؤسسة الحاخامية) كلما كان ذلك بوسعهم.

وقد تحولت الحسيديَّة (التساديكية) إلى بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة، واستولت على القهال في كثير من الأحيان، ولكنها لم تدخل أية إصلاحات اجتماعيَّة. بل كان القهال أحيانًا يزيد الضرائب على اليهود بعد استيلاء الحسيديين عليه.

وقد ارتبطت كل جماعة حسيدية بالتساديك الخاص بها؛ ولذا فقد انقسمت الحركة إلى فرق متعددة. فبعض هذه الفرق اتجه اتجاهًا صوفيًا عاطفيًا محضًا، في حين اتجه بعضها الآخر، مثل حركة حبد، اتجاهًا صوفيًا ذهنيًا يعتمد على دراسة كل من القبَّالاه والتلمود. كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة، زاد من هذا الانقسام.

وأثناء الحرب النابليونية ضد روسيا، أيَّد بعض الحسيديين الروس روسيا ضد نابليون، ولكن بعض الجماعات أيدته ضد روسيا، بل تجسست لحسابه.

وقد حاولت المؤسسة الحاخامية القضاء على الحسيديَّة، فأصدر معارضو الحسيديَّة الذين كان يُقال لهم المتنجديم قرارًا بطرد اليهود من حظيرة الدين، وحرق كتاباتهم كلها، وعدم التزاوج بهم. وكان من أهم الشخصيات الحاخامية التي قادت الحرب ضدهم الحاخام إلياهو (فقيه فلنا).

ومع هذا، ورغم الانقسامات والخلافات بين الحسيديَّة واليهوديَّة الحاخامية، فقد وحدوا صفوفهم في النهاية بسبب انتشار العلمانيَّة ومُثُل الاستنارة والتنوير والنزعات الثورية بين اليهود.

ولما كان القهال قد تداعى كإطار تنظيمي، فإن الحسيديَّة استطاعت أن تحل محله كإطار تنظيمي جديد.

ولذا، فإن الحسيديَّة لم تنتشر جغرافيًّا وحسب، بل انتشرت عبر حدود الطبقات أيضًا.

ويتكون الأدب الحسيدي من الكتب التي تلخص تفاسير الزعماء التساديك للكتاب المقدَّس، وتعاليمهم وأقوالهم، وقصص الأفعال العجائبية التي أتوا بها.

ومن أشهر القادة التساديك شيناءور زلمان وليفي إسحق ونحمان البراتسلافي (حفيد بعل شيم طوف).

وكان لكل مجموعة من الحسيديين أغانيها وطرقها في الصلاة، وكذلك عقائدها وقصصها.

وكانت لهم شبكة من العلاقات الاجتماعيَّة والاقتصادية خارج القهال.

وقد أتت النازية على المراكز الحسيديَّة الأساسية في شرق أوربا، وقد انتقلت الحركة الحسيديَّة إلى الولايات المتَّحدة، مع انتقال يهود اليديشية إليها، منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، لكن جماعات الحسيديين تفرقت وتبعثرت نظرًا لابتعاد زعامتها المتمثلة في التساديك.

وقد هاجر بعض القادة التساديك بعد الحرب العالمية الأولى، لكن الحركة الحسيديَّة لم تبدأ نشاطها الحقيقي إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وقد استقر الحسيديون في بروكلين في منطقة وليامزبرج.

وأهم الجماعات الحسيديَّة هي: جماعة لوبافيتش (حبد)، وجماعة الساتمار، وبراتسلاف وتشرنوبيل، ولا تزال توجد بينهم جيوب قوية معارضة للصهيونية.

ويوجد مركزان أساسيان للحسيدية في الوقت الحاضر: أحدهما في الولايات المتَّحدة والآخر في إسرائيل.

المعتقدات والأفكار

١- وحدة الوجود: يرى الحسيديون أن العالم بمنزلة ثوب الإله، صَدَر عنه ولكنه جزء منه، تمامًا مثل محارة الحيوان البحري المعروف بالحلزون، قشرته الخارجية جزء لا يتجزأ منه.

والحسيديون يؤمنون بالتالي بأن الإله هو كل شيء وما عدا ذلك وهم وباطل، أي أن الحسيديَّة تعبير عن الحلوليَّة في مرحلة وحدة الوجود الروحية التي لا تختلف عن وحدة الوجود الماديَّة إلا في تسمية المبدأ الواحد أو القوة الكامنة في المادة الدافعة لها، إذ يسميها دعاة وحدة الوجود الروحية «الإله»، أما دعاة وحدة الوجود الماديَّة فيسمونها «قوانين المادة والحركة».

إن الحسيديَّة تطالب اليهودي بالغوص في أعماق ذاته، وفي هذه الأعماق يستطيع الإنسان أن يرتفع ويتسامى على حدود الكون والطبيعة حتى يصل إلى أن الإله هو الكل في الكل ولا يوجد سواه (الواحدية الكونية). ولم تَعُد وسيلة الوصول إلى الإله هي التفكير العقلاني الجاف، وإنما الفرح والرقص والنشوة وصفاء الروح والنية الصادقة.

٢- يرى الحسيديون أن الهدف من حياة الإنسان ليس فهم أو تغيير الكون وإنما الالتصاق بالإله والتوحد معه وبإرادته المستقلة (ديفيقوت). وبتأكيد أن الإله هو كل شيء، لا يصبح هناك مجال لممارسة الإرادة الإنسانية ولا مجال للحزن أو المأساة.

٣- نادى الحسيديون بأن عبادة الإله يجب أن تتم بكل الطرق، كما يجب أن نخدمه بكل شكل: بالجسد والروح معًا ما دام أنه إله غير مفارق، لا يتجاوز الطبيعة والتاريخ، كامن في كل شيء، حتى في مذاق الطعام وتدخين التبغ وفي العلاقات الجنسية والتجارية، وقد قال أحد زعماء الحسيديَّة: إن على المرء أن يشتهي كل الأشياء الماديَّة، ومنها المرأة، حتى يصل إلى ذروة الروحانية.

فالفرح الجسدي عند الحسيديين، يؤدي إلى الفرح الروحي، والحسيديَّة تؤمن بروحانية المادة؛ لأن الروح ليست إلا شكلًا من أشكال المادة؛ بل إن العبادة والخلاص بالجسد يصلان إلى حد عبادة الإله من خلال العلاقات الجنسية.

٤- غيَّروا بعض تفاصيل الذبح الشرعي، وإهمال دراسة التوراة والعبادة عندهم كانت تأخذ شكل رقص وشطحات.

٥- التساديك، حسب التصور الحسيدي: تعبير متطرف عن الرؤية الحلوليَّة اليهوديَّة. فهو أولًا شخص ذو قداسة خاصة يقف في منزلة لا تتلو إلا منزلة الإله، وهو أحد التجليات النورانية العشرة (سفيروت)، أي أنه جزء من الإله. بل هو أحد العُمُد التي تستند إليها الدنيا، وهو أساس العالم (يسود). وأكثر من ذلك، فإن العالم خُلق من أجله.

ويعتقدون أن التساديك يحتاج إليه الإله في الوصول إلى الناس، فالتساديك هو الوسيلة الوحيدة التي تربط الأرض بالسماء.

ومهمة التساديك هي أن يقوم بقيادة جماعته، وأن يربط بينها وبين السماء، فهو قادر على التأمل الصوفي الذي يقربه من الإله ويوحده معه، وبذا فإنه يصبح حلقة الوصل بين الخالق ومخلوقاته، وهو إن لم يقم بهذه المهمة فلا معنى لوجوده. ولكن إذا كان التساديك حلقة الوصل، فإن الجماهير تحتاج إليه احتياج الإله إليه، فهو الذي يأتي إليها بالشفاعة، ويحضر لها الحياة من

السماء، كما أنه يوصل روح الإله إليها، وهو قادر على الالتصاق بالإله (ديفيقوت)، ومن خلال التصاقه هو بالإله تتمكن الجماهير هي الأخرى من تحقيق الالتصاق بالخالق. وقد تَعمَّق هذا المفهوم حتى أصبح الإيمان بالإله هو الإيمان بقدرات التساديك العجائبية.

٥- يقول الحسيديون إن الشعب اليهودي يوجد الآن في المنفى. ولذلك، يحل الإله في أي إنسان متواضع شأنه في هذا شأن الملك المسافر الذي يمكنه أن يحط رحاله في أي منزل مهما بلغ تواضعه.

وعلى العكس من هذا، فلو أن الملك كان في عاصمته، فإنه لن ينزل إلا في قصره وحده. وفي الماضي، كان الزعماء والأنبياء اليهود هم وحدهم القادرون على الوصول إلى الروح الإلهية، ولكن الشخيناه الآن في المنفى، ولذلك يحل الإله في أية روح خالية من الذنوب؛ أي أن التساديك أصبح تجسيدَ الإله، ومن ثم وسيلة اليهودي المنفي للوصول إلى الإله.

٦- تنعكس الحلوليَّة في شكلين هما في الواقع شيء واحد: حب عارم لفلسطين أو إرتس إسرائيل، يقابله كره عميق للأغيار. ولذلك، لم يكن مفر من أن يخرج الحسيديون من بين الأغيار المدنَّسين، وبلاد الأغيار المدنسة، ليستقروا في الأرض الطاهرة المقدَّسة التي هي هدف القداسة ومصدرها في وقت واحد.

٧- إحدى نقط الاختلاف الأساسية أن الشبتانية جعلت الفكرة المشيحانية تدور حول شخص الماشيَّح الواحد: شبتاي تسفي أو فرانك.

أما الحسيديَّة، فقد أصبحت مشيحانية بلا ماشيَّح واحد، وأصبح هناك عدد من المشحاء الصغار، يظهرون في شخصية التساديك، وتتوزع عليهم القداسة أو الحلول الإلهي، وهو ما قلل من تركُّزه وقلل بالتالي من تَفجُّر الحسيديَّة. كما أن النزعة المشيحانية عبرت عن نفسها في النفس الإنسانية لا في الواقع الخارجي. وجعلت النفس البشرية مجال المشيحانية لا مسرح التاريخ؛ ولذا كان على الحسيدي أن يغوص في فردوس الذات بدلًا من أن يحاول تحقيق الفردوس الأرضي.

وإذا كانت الرؤية المشيحانية التقليدية رؤية أبوكاليبسية تَحدُث بغتة عن طريق تَدخُّل الإله في التاريخ، فالمشيحانية الحسيديَّة تدرجية، وقد حوَّلت المشيحانية إلى حركة بطيئة متصاعدة يشترك فيها كل جماعة بني إسرائيل، بقيادة عدد كبير من التساديك، ولا تتوقع أية تحولات فجائية (وقد تأثر الفكر الصهيوني بهذه الفكرة)[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٥٣، ٥٤).

الحسيديَّة والصهيونيَّة Hassidism and Zionism

من المعروف أن معظم المفكرين والزعماء الصهاينة إما نشئوا في بيئة حسيدية، أو تعرَّفوا إلى فكرها الحلولي بشكل واع أو غير واعٍ. بل إن الصهيونيَّة ضرب من «الحسيديَّة اللادينية» أو الحسيديَّة داخل إطار حلولية بدون إله ووحدة الوجود الماديَّة.

والدارس المدقق يكتشف أن ثمة تشابهًا بين الحسيديَّة والصهيونيَّة، فالجماهير التي اتبعت كلًّا من الصهيونيَّة والحسيديَّة كانت في وضع طبقي متشابه؛ أي جماهير توجد خارج التشكيلات الرأسمالية القومية بسبب الوظائف المالية والتجارية التي اضطلعت بها مثل نظام الأرندا.

لذلك نجد أن جماهير الحسيديَّة، شأنها شأن جماهير الصهيونيَّة، تتفق على حب صهيون؛ الأرض التي ستشكل الميراث الذي سيمارسون فيه شيئًا من السلطة.

كما قامت الحسيديَّة بإضعاف انتماء يهود اليديشية الحضاري والنفسي إلى بلادهم، وهذه نتيجة طبيعية لأية تطلعات مشيحانية الأمر الذي جعل اليهود مرتعًا خصبًا للعقيدة الصهيونيَّة.

كما أن الحسيديَّة والصهيونيَّة تؤمنان بحلولية متطرفة تضفي قداسة على كل الأشياء اليهوديَّة وتفصلها عن بقية العالم.

وفي الحقيقة، فقد كانت الهجرة الحسيديَّة التي تعبِّر عن النزعة القومية الدينيَّة فاتحةً وتمهيدًا للهجرة الصهيونيَّة.

والصهيونيَّة، مثل الحسيديَّة، حركة مشيحانية تهرب من حدود الواقع التاريخي المركب إلى حالة من النشوة الصوفيَّة، تأخذ شكل أوهام عقائدية عن أرض الميعاد التي تنتظر اليهود. ويعتقد المفكر النيتشوي الصهيوني بوبر أنه لا يمكن بعث اليهوديَّة دون الحماس الحسيدي، بل يرى أن الرواد الصهاينة قد بعثوا هذا الحماس.

ولكن الحسيديَّة تظل، في نهاية الأمر، حركة صوفية حلولية واعية بأنها حركة صوفية، ولذا فإن غيبيتها منطقية داخل إطارها، ولا تتجاوز أفعالها، النابعة من المشيحانية الباطنية، نطاق الفرد المؤمن بها وأفعاله الخاصة، أما سلوكه العام فقد ظل خاضعًا إلى حدٍّ كبير لمقاييس المجتمع؛ ولذا ظل حب صهيون بالنسبة إلى هذه الجماهير حبًّا لمكان مقدَّس لا يتطلب الهجرة الفعلية.

أما الصهيونيَّة، فهي حركة علمانيَّة، ذات طابع عملي حرفي. كما أن الفكرة الصهيونيَّة لا تنصرف إلى السلوك الشخصي لليهودي وإنما إلى سلوكه السياسي. ولكي تتحقق الصهيونيَّة، لا بد أن تتجاوز حدودها الذاتية لتبتلع فلسطين، وتطرد الفلسطينيين بحيث يتحول حب صهيون إلى استعمار استيطاني.

ومما لا شك فيه أن الحسيديَّة قد ساهمت في إعداد بعض قطاعات جماهير شرق أوربا لتتقبل

الأفكار الصهيونيَّة العلمانيَّة الغيبية، عن طريق عزلها عن الحضارات التي كانت تعيش فيها، وإشاعة الأفكار الصوفيَّة الحلوليَّة شبه الوثنية التي لا تتطلب أيَّ قدر من إعمال العقل أو الفهم أو الممارسة.

ولكن هذا لا يعني أن الحسيديَّة مسئولة عن ظهور الصهيونيَّة، فكل ما هناك أنها خلقت مناخًا فكريًّا ودينيًّا مواتيًا لظهورها.

ومما يجدر ذكره أن بعض الحسيديين عارضوا فكرة الدولة الصهيونيَّة وأسسوا حزب أجودات إسرائيل.

ولكن بعد إنشاء الدولة، بل قبل ذلك، أخذوا يساندون النشاط الصهيوني، وهم الآن من غلاة المتشددين في المطالبة بالحفاظ على الحدود الآمنة و«الحدود المقدَّسة» و«الحدود التاريخية لإرتس إسرائيل».

ولكن هناك فرقًا حسيدية قليلة لا تزال تعارض الصهيونيَّة ودولة إسرائيل بعداوة، من بينها جماعة ساتمار (ناطوري كارتا)[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الباب الثالث

كتاب اليهود المقدس

الفصل الأول: تعريف العهد القديم.

الفصل الثاني: مكونات العهد القديم.

الفصل الثالث: تاريخ كتابهم المقدس.

الفصل الرابع: لغة كتابهم المقدس وتشكيله وتقسيمه وترتيبه وترجماته.

الفصل الخامس: مكانة كتابهم المقدس.

الفصل السادس: علم نقد العهد القديم.

الفصل السابع: نظرية مصادر العهد القديم.

الفصل الثامن: تاريخ تدوين أسفار العهد القديم.

الفصل التاسع: أثر نقد العهد القديم في اليهوديَّة والنصرانيَّة المعاصرتين.

الفصل الأول

تعريف العهد القديم

العهد القديم: مصطلح يستخدمه النصارى للإشارة إلى كتاب اليهود المقدَّس.

وترجع هذه التسمية إلى بولس، حين سمى التوراة بالعهد القديم في قوله: عند قراءة العهد العتيق[١]. لتصبح الأناجيل والرسائل الملحقة هي العهد الجديد.

أما اليهود أنفسهم، فيستخدمون عبارة «سيفري هاقودش» أو «كتبي هاقودش»؛ أي «الكتب المقدَّسة»، ويستخدمون أحيانًا تعبير «كتوفيم»؛ أي «الكتب».

كما يُستخدَم لفظ «توراة» في بعض الأحيان.

ومن الألفاظ الأخرى المستخدمة لفظ: المقرا، وتعني: القراءة، أو المطالعة.

وأيضًا من الألفاظ المستخدمة لفظ: تناخ، وهو مختصر من الحروف الأولى لثلاث كلمات عبرية هي: التوراة (أسفار موسى الخمسة)، ونفيئيم (أسفار الأنبياء)، وكتوفيم (المزامير وسفر الأمثال ونشيد الإنشاد وبقية أسفار الحكمة وغيرها).

والعهد القديم مقدَّس لدى اليهود والنصارى؛ إذ إنه سِجِلٌّ فيه شعر، ونثر، وحكم، وأمثال، وقصص، وأساطير، وفلسفة، وتشريع، وغزل، ورثاء.

ويُعرِّفُ محققو العهد القديم -في ما سُمي بمدخل إلى الكتاب المقدس، والذي نقلته الرهبانيَّة اليسوعيَّة من الترجمة المسكونيَّة الفرنسيَّة للكتاب المقدس- بأنه: مجموعة كتب مختلفة جدًّا يمتد زمن وضعها على أكثر من عشرة قرون، وتنسب إلى عشرات المؤلفين المختلفين، وقد وضع بعضها بالعبريَّة، مع بعض المقاطع بالآراميَّة، وبعضها الآخر باليونانيَّة، وتشتمل على مختلف الفنون الأدبية؛ كالرواية التاريخية ومجموعة القوانين والوعظ والصلاة والقصيدة الشعرية والرسالة والقصة[٢].

---

(١) كورنثوس (٢) ٣/ ١٤ .

(٢) انظر: الكتاب المقدس، العهد القديم، ص(٢٩)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، د. محمد علي البار، ص(١٤٤)، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٥٠٠)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الثاني

مكونات العهد القديم

يُقسِّمُ بعضُ الباحثين العهد القديم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: التوراة: أسفار موسى الخمسة.

الثاني: أسفار الأنبياء: وينقسم إلى قسمين:

١- الأنبياء الأولون أو المتقدمون.

٢- الأنبياء الآخرون أو المتأخرون.

الثالث: كتب الحكمة والأناشيد[١].

ويذهب بعض الباحثين إلى تقسيمه إلى قسمين اثنين فقط، بجعل القسمين الثاني والثالث السابقين قسمًا واحدًا[٢].

ولمزيد من الإيضاح يمكننا أن نصنف أسفار العهد القديم ضمن خمس مجموعات:

المجموعة الأولى: التوراة: وهي تسمى أيضًا: أسفار موسى، أو: كتب موسى الخمس، أو: كتب الشريعة، وهذه الكتب هي:

١- التكوين: وهو يتحدث عن تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض، وقصص الإنسان الأول آدم وامرأته حواء، ونسلهما، ثم عن الطوفان، ونسل سام أحد أبناء نوح، ثم عن إبراهيم وأبنائه إلى استقرار أولاد يعقوب أو إسرائيل في أرض مصر.

٢- الخروج: وهو يحكي قصة حياة النبي موسى عليه السلام، وخروج الشعب اليهودي من مصر التي كان مُستعبدًا فيها من المصريين، ورحلة اليهود في صحراء سيناء بزعامة موسى وتسليم الله أحكام الشريعة له، وإقامة خيمة الاجتماع، وما صنعه الله لموسى من المعجزات ليؤمن اليهود ويخضعوا لشريعته.

٣- اللَّاوِيين: وهم السبط (الجماعة) المسئولة عن الكهنوت في المذبح اليهودي، وهو يحكي عن شروط الذبيحة وأوصافها والطقوس الخاصة بتقديم الذبيحة، وشريعة التطهير، ومراسيم متنوعة من المواسم والأعياد.

٤- العدد: وهو يعطي تقريرًا عن الأعداد من قبائل الشعب اليهودي الذين خرجوا من مصر وقبل دخولهم أرض الموعد، وعن أعداد جيوشهم وأموالهم، وفيه أيضًا أخبار تذمُّر الشعب،

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٧٣).

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٠)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(١١، ١٢).

والتجسس على أرض كنعان.

٥- التثنية: ويقال له: تثنية الاشتراع، ومعناه الإعادة والتكرار لتثبيت التشريعات والتعاليم، وهو تكرار لسرد الأحداث التي وقعت لليهود في صحراء سيناء، وهو يشمل الوصايا العشر والكثير من الوصايا للشعب اليهودي، وكلمة الوداع التي قالها موسى قبل رحيله، وتكليف يشوع (يوشع) بقيادة الشعب اليهودي بعد موت موسى، وتسليم التوراة لحاملي تابوت عهد الرب، ثم خبر وفاة موسى على جبل نبو.

ورموز هذه الأسفار هي: التكوين (تك)، الخروج (خر)، اللاويين (لا)، العدد (عد)، التثنية (تث).

المجموعة الثانية: كتب التاريخ: وهي تشمل ١٢ سفرًا:

١- يشوع: وهو يحكي عن دخول يشوع أرض كنعان مع شعبه، وتقسيم الأرض بين الأسباط أو القبائل العبرانيَّة.

٢- القضاة: وهو يحكي عن الشعوب التي كانت تستوطن أرض كنعان، ويحكي أيضًا عن الحروب والمنازعات بين هذه الشعوب والشعب اليهودي.

٣- راعوث: قصة لفتاة من شعب «موآب» وهي تعتبر جدة للملك داود.

٤، ٥- سفر صموئيل الأول والثاني: وفيهما أحداث عن النبي «صموئيل» الذي كان معلمًا وسياسيًا، ولعب دورًا مُهِمًّا في تكوين مملكة إسرائيل.

٦، ٧، ٨، ٩- سفر الملوك الأول والثاني، وسفر أخبار الأيام الأول والثاني: وفيها متابعة تاريخ الأمة اليهوديَّة التي انقسمت إلى مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا.

١٠، ١١- عزرا ونحميا: وهي قصة إعادة بناء مدينة أورشليم بعد أن كان قد خرّبها ملك بابل.

١٢- أستير: وهي حكاية فتاة يهودية تحت حاكم من غير بني إسرائيل، استخدمت جمالها وفتنتها في سبيل رفع الظلم عن اليهود، وتقديم خدمات لهم.

ورموز هذه الأسفار هي: يشوع (يش)، قضاة (قض)، راعوث (را)، سفر صموئيل الأول (١صم)، صموئيل الثاني (٢صم)، الملوك الأول (١مل)، الملوك الثاني (٢مل)، سفر أخبار الأيام الأول (١أي)، أخبار الأيام الثاني (٢أي)، عزرا (عز)، نحميا (نح)، أستير (اس).

المجموعة الثالثة: كتب الحكمة (الأسفار الشعرية): وهي كتبة مليئة بالحكم والأمثال ومكتوبة بطريقة شعرية.

١- أيوب: والكتاب يحكي قصة أيوب عليه السلام.

٢- المزامير: وهو كتاب صلوات وأغاني، وقد استخدمها الشعب اليهودي في الصلوات، وهو

منسوب إلى نبي الله داود.

٣- الأمثال: وهو منسوب إلى نبي الله سليمان، وكلها نصائح وأمثال.

٤- الجامعة: وهي ملخص تعاليم سليمان عن عدم وجود معنى للحياة بدون الله.

٥- نشيد الإنشاد: وهو عبارة عن أنشودة شعرية تصف الحب بين العريس والعروس.

ورموز هذه الأسفار هي: أيوب (اي)، المزامير (مز)، الأمثال (ام)، الجامعة (جا)، نشيد الإنشاد (نش).

المجموعة الرابعة: كتب الأنبياء:

وهذه تقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كتب الأنبياء الكبار: وهم الذين يعلنون للشعب بشارة الله وكلمته المقدَّسة، وتُسمى كتب الأنبياء الكبار بسبب طول مدة وعمق تأثير خدمتهم بين الشعب.

١- أشعياء: وقد عاش في وقت تثبتت فيه مملكة بابل، وقد تنبأ مُسبقًا بوقوع اليهود في الأسر ولكنه أعلن أنه سيأتي الخلاص. وقبل حوالي ٧٠٠ سنة من ميلاد المسيح تنبأ أشعياء بميلاده من عذراء وصلبه نيابة عن البشر ثم قيامته من الأموات.

٢- إرميا: وقد كتب عن الأسر في مملكة بابل وتنبأ مُسبقًا عن رجوع اليهود إلى وطنهم بعد ٧٠ سنة، والذي قد تحقق بالفعل.

٣- مراثي إرميا: وهو يتناول هدم يهودا وأورشليم والهيكل على يد البابليين.

٤- حزقيال: وهو عاش في زمن الأسر في مملكة بابل وقد تنبأ بالعديد من الأمور التي حدثت بالفعل.

٥- دانيال: وهو عاش أيضًا في زمن الأسر وترق مناصب هامة في مملكة بابل، وقد تنبأ بظهور ممالك وسقوطها، وقد تحققت هذه النبوءات.

ورموز هذه الأسفار هي: أشعياء (اش)، إرميا (ار)، مراثي إرميا (مرا)، حزقيال (حز)، دانيال (دا).

القسم الثاني: كتب الأنبياء الصغار: وهي أسفار قصيرة، وكاتبوها تنبئوا بكلمة الله في عصر كان فيه الناس لا يهتمون بالأمور الدينيَّة بل ويتذمرون على الله.

١- هوشع: وهو كان يعظ الشعب عن محبة الله للإنسان برغم معصيته وعدم أمانته.

٢- يوئيل: وهو قد سبق وتنبأ بحلول الروح القدس على المؤمنين.

٣- عاموس: وقد كان راعيًا للغنم وقد كان يبين للشعب مساوئ الظلم الاجتماعي في ذلك الوقت، وحذرهم من يوم عقاب الرب الذى سيحل عليهم بسبب خطاياهم وعدم توبتهم.

٤- عوبديا: وقد تنبأ عن حلول يوم غضب الرب على آدوم، وهو أصغر كتب العهد القديم.

٥- يونان: وهو يحكي عن رجل أرسله الله إلى مدينة نينوى ليبشر فيها، ولكنه لم يطع، وفي البداية حاول الهرب في سفينة، ولما قامت ريح شديدة رماه البحارة في البحر ولكن سمكة كبيرة ابتلعته، وفي النهاية أطاع يونان كلام الرب وذهب وبشر المدينة فتابت عن شرورها.

٦- ميخا: وقد عاش في زمن أشعياء وهوشع، وقد تنبأ أيضًا بخراب المملكة اليهوديَّة، ولكنه تنبأ أيضًا بمجيء المُخَلِّص.

٧- ناحوم: وقد تنبأ بسقوط مدينة نينوى التي بعد أن تاب أهلها عن الشر أيام يونان النبي عادت مرة أخرى للشر.

٨، ٩- حبقوق وصفنيا: حذروا الشعب من الاستمرار في الشر والبعد عن الله.

١٠، ١١- حجي وزكريا: وقد قاموا بتشجيع الشعب على إعادة بناء الهيكل عند عودتهم إلى وطنهم بعد الأسر.

١٢- ملاخي: وقد عاش قبل ميلاد المسيح بحوالي ٤٠٠ سنة.

ورموز هذه الأسفار هي: هوشع (هو)، يوئيل (يؤ)، عاموس (عا)، عوبديا (عو)، يونان (يون)، ميخا (مى) ناحوم (نا)، حبقوق (حب)، صفنيا (صف)، حجي (حج)، زكريا (زك)، ملاخي (مل).

المجموعة الخامسة: الأسفار القانونية الثانية:

هي الأسفار التي لم يعترف بها اليهود ضمن أسفار العهد القديم، وكذلك قام البروتستانت بحذف هذه الأسفار من طبعة الكتاب المقدس المنتشرة بين أيدينا، وهم يعتبرونها لا ترتقي إلى مستوى الوحي الإلهي، وهي من وجة نظرهم أسفارٌ مدسوسة، وتضم موضوعات غير ذات أهمية وخرافات لا يقبلونها.

وقد اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكيَّة كجزء معتمد من الكتاب المقدَّس، وإن كان أُطلق عليها مصطلح: كتب تثنوية؛ أي مجموعة ثانية من الكتب المعتمدة، وقد حذت حذوها الكنائس الأرثوذكسيَّة: اليونانيَّة، والأرمنية، والقبطية الإثيوبية.

أما الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسية، فقد اعتمدتها وإن كانت قد أعطتها مكانة أقل من كتب العهدين القديم والجديد. أما الكنيسة القبطية المصريَّة فقد استبعدت هذه الكتب ولم تعطها أية قيمة دينية.

وهذه الأسفار هي:

١- سفر طوبيا: وهو رجل من سبط نفتالي سباه «شلمنآسر» ملك آشور، وسكن أثناء السبي في مدينة نينوى مع حني امرأته وابنه الذي كان له نفس الاسم «طوبيا»، ويتكون سفر طوبيا من ١٤ إصحاحًا.

٢- سفر يهوديت: وهي امرأة يهودية أنقذت بجمالها وذكائها شعبها من بطش أعدائه، ويتكون السفر من ستة عشر إصحاحًا.

٣- تتمة سفر أستير: وهي فتاة يهودية لم يكن لها أب ولا أم، وفي وقت السبي أخذها ابن عمها مردخاي إلى مدينة (شوش) التي كانت عاصمة مملكة فارس، وهناك أحبها الملك أحشويرس، فوضع تاج الملك على رأسها.

وسفر أستير بحسب طبعة البروتستانت (=طبعة دار الكتاب المقدس) يتكون من عشرة إصحاحات آخرها وهو الإصحاح العاشر يضم ثلاثة أعداد فقط. غير أنه بإضافة الجزء الذي حذفه البروتستانت منة (=وهو من إستير ٤:١ - أستير١٦) يتضح لنا أن السفر مكون من ستة عشر إصحاحًا.

وهذه التتمة تعتقد الكنيستان الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة في صحتها وقانونيتها رغم رفض البروتستانت له.

٤- سفر الحكمة: وهو منسوب لسليمان الملك عليه السلام، ويضم ١٩ إصحاحًا.

٥- سفر يشوع بن سيراخ: وهو أحد حكماء اليهود وكان كاتبًا مشهورًا مات أثناء السبي في بابل ودُفِنَ هناك، ويتكون السفر من ٥١ إصحاحًا. وهو عبارة عن حكمة ومديح لأنبياء ملوك وكهنة وقادة بني إسرائيل وآبائهم الكبار.

٦- سفر نبوة باروخ: وهو باروخ بن نيريل بن معسيا بن صدقيا بن حسديا بن حلقيا. كان يعمل كاتبًا لإرميا النبي يكتب له ما يأمر بكتابته، وعرف عنه أيضًا أنه كان نبيًّا صدِّيقًا، وقد كتب سفر نبوته في بابل بعد السبي. وقد نسب السفر إلى باروخ؛ لأنه كتب الإصحاحات الخمسة الأولى منه. أما الإصحاح السادس والأخير فقد كتبه إرميا لليهود الذين كان ملك بابل مزمعًا أن يسوقهم في السبي إلى بابل.

٧- تتمة سفر دانيال: وهو مكمِّل لسفر دانيال، ويشمل بقية إصحاح ٣، كما يضم إصحاحين آخرين هما ١٣ و١٤ .

٨، ٩- سفر المكابيين الأول والثاني: هما آخر أسفار التوراة، وقد كان عدد أسفار المكابيين التي تحدَّثَت عن تاريخ انتصار اليهود على أعدائهم ومستعمريهم واستقلالهم كأمّة بقيادة الأسرة الماكبيّة، وهو خمسة أسفار، لم تقبل منها الكنيستان الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة إلا السفرين الأول والثاني فقط، وهما السِّفران القانونيَّان المشهود بصِحَّتهما.

ويُنسَب سفرا المكابيين إلى الأسرة المكابية التي أسسها متتيا أو متاثياس، وقد كان من نسل الكهنة اللاويين.

١٠- مزمور ١٥١ : هذا المزمور غير موجود في الطبعة المنتشرة بيننا للكتاب المقدس، ولكنه مُدرَج في كتب الكنيسة، وهو منسوب إلى داود النبي عن نفسه عندما كان يحارب جليات (جلياط) الفلسطيني.

ورموز هذه الأسفار هي: طوبيا (طو)، يهوديت (يهو)، الحكمة (حك)، يشوع بن سيراخ (سيراخ)، المكابين الأول (١مكا)، المكابين الثاني (٢مكا)، نبوة باروخ (با)[١].

(١) انظر: مقدمة موسوعة الكتاب المقدس، شحادة بشير، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٠، ٥٠١)، اليهودية عرض تاريخي ص(٧١- ٧٤)، العهد القديم ليس مقدسًا، مستشار حسن إمام إسماعيل ص(١٩)، الإسلام واليهودية دراسة مقارنة، د. عماد علي عبد السميع حسنين ص(٢٣، ٢٤).

الفصل الثالث

تاريخ كتابهم المقدس

تدوين العهد القديم بدأ في فترة زمنية تَبعُد عن موسى مئات السنين، وكذلك عن كثير من الأحداث التي تم التأريخ لها.

كما أن عملية التدوين لم تتم دفعة واحدة، وإنما تمت خلال مدة زمنية طويلة.

وتم اختيار بعض النصوص المقدَّسة عندهم من بين نصوص مقدَّسة أخرى.

وتم ذلك على النحو التالي:

١- يرى كثير من الباحثين أن أول جزء من العهد القديم تم تدوينه هو أسفار موسى الخمسة.

ويُقال: إن هذه العملية تمت في بابل أثناء فترة التهجير (٥٨٧ ق. م) أو ربما قبل ذلك بوقت قصير، ذلك أنه لم يأت ذكر لقراءة التوراة في الاحتفالات الخاصة بافتتاح الهيكل، وأول إشارة إلى قراءة التوراة هي قراءة عزرا عام ٤٤٤ ق.م.

٢- أما كُتُب الأنبياء، فمن الأرجح أنها دُوِّنت أثناء المرحلة الفارسية فيما قبل عام ٣٣٣ ق.م.

ومما يدعم هذا الرأي أن سفري الأخبار لم يحلا محل سفري صموئيل والملوك ولم يلحقا بهما، الأمر الذي يدل على أن كتب الأنبياء كان قد تم تدوينها والاعتراف بها ككتب قانونية.

ولا توجد في أسفار الأنبياء أية كلمة إغريقية، ولا أية إشارة إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية أو ظهور الإمبراطورية اليونانيَّة.

ولكن لا بد أن ثمة فترة زمنية قد مرَّت بين تدوين أسفار موسى الخمسة وتدوين أسفار الأنبياء؛ ذلك لأن هذه الأخيرة لم تكن تُقرأ في الاجتماعات العامة التي وُصفت في سفر نحميا الإصحاحان ٨، ١٠ .

كما أن السامريين الذين انفصلوا عن اليهود، وبنوا هيكلهم في جريزيم عام ٤٢٨ ق.م، اعترفوا بالتوراة ولم يعترفوا بكتب الأنبياء.

وقد جُمعت أسفار الأنبياء ونُظِّمت خلال الفترة الممتدة من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد، ويبدو أنها أُلِّفت في فترة كانت فيها أسفار موسى مجهولة منسية، إذ يَندُر أن تجد فيها ذكرًا لاسمه.

ويبدو أن بعض الأنبياء أيضًا (عاموس مثلًا) لم يكن لهم به علم.

٣- أما القسم الثالث، وهو كتب الحكمة والأناشيد، فقد أُلِّف بعضه أثناء عصر الأنبياء،

ولكنها لم تُضَم إلى كتب الأنبياء باعتبار أنها لم تكن ثمرة الوحي الإلهي.

أما الكتب ذات الطابع النبوي، مثل كتب دانيال وعزرا والأخبار، فلا بد أنها كُتبت في مرحلة متأخرة بحيث لم يمكن ضمها إلى كتب الأنبياء.

ولقد ضُمَّت أسفار الحكمة والأناشيد، لكنها لم تُعتبَر جزءًا من العهد القديم إلا في القرن الثاني قبل الميلاد، فقبل ذلك التاريخ كان الحديث يتواتر عن التوراة باعتبارها أسفار موسى الخمسة والأنبياء دون إشارة إلى كتب الحكمة والأناشيد.

ومن الأدلة الأخرى على أن هذه الأسفار كانت متأخرة، وجود كلمات يونانية في نشيد الإنشاد ودانيال، وكذلك الإشارة في سفر دانيال إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية.

ولا يشير بن سيرا إلى سفر دانيال أو إستير.

وقد استمر الجدل حول أسفار مثل: الأمثال، ونشيد الإنشاد، وإستير، وسفر الجامعة، هل تُضَم مع الأسفار القانونية أم لا؟

معنى الأسفار القانونية وغير القانونية

ويُطلَق مصطلح «كانون Canon» أي «الأسفار القانونية»، على تلك الأسفار أو النصوص التي تم اعتمادها.

أما الكتب غير القانونية، فتُسمَّى الكتب الخارجية أو الخفية أو الكتب المنسوبة (سيودإبيجرفا).

والقواعد التي استخدمها محررو العهد القديم لضم أو استبعاد هذا أو ذاك النص غير معروفة، ولكن يبدو أن هذه القواعد هي بشكل عام:

١- أن يكون النص مكتوبًا بالعبريَّة.

ويبدو أن بداية ونهاية سفر دانيال تُرجمتا من الآراميَّة إلى العبريَّة بسرعة حتى يمكن ضمهما إلى النص القانوني المُعتمَد.

٢- أن يكون النص قد كُتب في مرحلة ما قبل النبي مالاخي، أي في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي الفترة التي يرى الحاخامات أن النبوة توقفت عندها في جماعة بني إسرائيل.

٣- أن يتفق مضمون النص مع المعايير الدينيَّة التي تبناها الحاخامات.

ويبدو أن مشادات فقهية بين الفقهاء، كانت تحدث من وقت لآخر، في شأن بعض الأسفار نظرًا لما تحتويه من أفكار غنوصية مثل سفر حزقيال واتفقوا في نهاية الأمر على تركه داخل إطار الكتب القانونية مع عدم تدريسه للصغار[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٧١).

الفصل الرابع

لغة كتابهم المقدس وتشكيله وتقسيمه وترتيبه وترجماته

- لغة الكتاب المقدَّس اليهودي هي العبريَّة، وإن كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم عن الفترة التي وُضع فيها كل سفر.

ومع هذا، فإن هناك أجزاء وُضعت باللغة الآراميَّة.

- والعبريَّة، مثلها مثل العربيَّة، تتميَّز بالعلامات الصوتية المميِّزة للحرف، أي علامات التشكيل.

ولما كان النص العبري الأصلي مكتوبًا دون علامات التشكيل، فقد كان لا بد أن يتم الاتفاق على قراءة معيارية.

وبالفعل، ظهر النص المعتمد كتابةً وقراءة، وهو الذي يُطلَق عليه مصطلح النص «الماسوري» أو «ماسوراتي» نسبة إلى قرية سورة البابلية، وكان ذلك في حدود الفترة ٧٥٠- ١٠٠٠ق.م.

ويُطلَق على المحققين الذين وضعوا علامات الضبط بالحركات «الماسوريون».

- وقد تم تقسيم أسفار العهد القديم إلى إصحاحات في سنة ١٢٠٠م على يد أُسقف كانتربري الأسقف ستفنلان جتون (ت ١٢٢٨م).

ثم رقمت جمل الإصحاحات في الطبعة الباريسية الصادرة عام ١٥٥١م.

- وأما ترتيب الأسفار فقد أعيد غير مرة، وكان قد أقر له ترتيب في مجمع روما ٣٨٢م، ثم عدل في ترنت ١٥٤٦م، ولهذا التغيير علاقة قوية بقيمة الأسفار وأهميتها ودرجة ثبوتها.

- وقد تُرجم العهد القديم إلى مختلف لغات العالم تقريبًا.

ومن أهم الترجمات:

١- الترجمة اليونانيَّة، وهي ما يُعرَف باسم «الترجمة السبعينيَّة»، في الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد حتى السنوات الأخيرة قبل رسالة المسيح.

٢- الترجمة الآراميَّة وأهمها «الترجوم»، ومن أشهر الترجمات الآراميَّة للكتاب المقدَّس: ترجوم أونكيلوس لأسفار موسى الخمسة وحدها، وترجوم يوناثان لبقية أسفار العهد القديم.

٣- الترجمة اللاتينيَّة، وتُعرَف باسم «الفولجاتا أو الشعبية»، وهي عن الترجمة السبعينيَّة، في القرنين الرابع والخامس.

٤- الترجمة السريانيَّة، وتعرف باسم «البشيطاه»، في القرن الثاني بعد الميلاد.

٥- الترجمة العربيَّة، أقدم ترجمة هي ترجمة أحمد بن عبد الله بن سلام الذي ترجم العهد القديم

من العبرانيَّة إلى العربيَّة في عهد هارون الرشيد.

وترجمة حنين بن إسحاق النسطوري (٨٧٤م)، واعتمد فيها على الترجمة اليونانيَّة.

وترجمة أبي كثير (٩٣٢م)، وترجمة سعيد (سعدان) بن يوسف الفيومي (٩٤٣م).

ووجدت محاولات للترجمة قديمة عُثر عليها في الجنيزاه القاهرية باللهجة المصريَّة العامة.

ويرى بعض النقاد أن ترجمات العهد القديم: اليونانيَّة (السبعينيَّة) والسريانيَّة (البشيطَّاه) واللاتينيَّة (الفولجاتا)، هي في الواقع من قبيل التفسير؛ إذ إن المترجمين كانوا يضيفون أحيانًا كلمات هنا وهناك لتوضيح المعنى[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٤٩)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٠- ٨٣)، الفهرست، النديم ص(٣٢، ٣٣).

الفصل الخامس

مكانة كتابهم المقدس

١- يرى اليهود الأرثوذكس أن كلمات العهد القديم، وأسفار موسى الخمسة بصفة خاصة، هي كلام الإله الذي أوحي به إلى موسى حرفًا حرفًا، وأملاه عليه حينما صعد إلى جبل سيناء، وهو كلام أزلي لا يتغيَّر.

والكتب التاريخية وأسفار الأنبياء والأناشيد والحكم، هي الأخرى نتاج الروح المقدَّسة، وإن كانت بدرجة أقل، تلك الروح التي تغمر روح الإنسان فيتحدث باسم الإله.

وتُعتبَر كل كلمة، وكل جملة وردت في العهد القديم، ذات معنى داخلي ومغزى عميق.

لكل هذا، نجد أن العهد القديم، بالنسبة إلى اليهود الأرثوذكس، هو السلطة العليا التي لا يمكن التشكيك فيها، وهو المرجع الأخير في الحياة الدينيَّة.

ولكن أسفار موسى الخمسة، مع هذا تظل أهم الأجزاء التي تشكل جوهر اليهوديَّة وشريعتها.

٢- أما بالنسبة إلى اليهود الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين؛ فإن العهد القديم يُعَدُّ مجرد إلهام من الإله وليس وحيًا منه.

وقد وصل هذا الإلهام إلى واضعي الكتاب المقدَّس بدرجات مختلفة؛

ولذا فإن بعض أجزاء العهد القديم ذو قيمة روحية وأخلاقية أعلى من غيره.

كما لم يكن الوحي الإلهي -أي: الإلهام- خالصًا، فقد اصطبغ هذا الوحي بصبغة إنسانية، فلزم أن يقوم اليهودي بإعادة تفسيره ليستخلص الوحي الإلهي (المطلق) من النص الذي يضم عناصر إنسانية تاريخية (نسبية).

ويُعتبَر العهد القديم العبري من مصادر التشريع اليهودي الأساسية، وقد ظل قرونًا طويلة يشكل المنهج الدراسي الوحيد في المدارس الدينيَّة اليهوديَّة، وإلى جانبه التلمود الذي هو تفريع منه.

وفي إسرائيل، فإن منهج الدراسة يتضمن خمس ساعات أسبوعيًّا لدراسة العهد القديم.

٣- أما الصهاينة اللادينيين؛ فيعتبرون العهد القديم وكتب اليهود المقدَّسة كتبًا عظيمة تشكل جزءًا مهمًّا من تراث اليهود وفلكلورهم القومي، وهو تعبير عن انتشار الحلوليَّة بدون إله بين الصهاينة.

وقد نشر أحد التربويين الإسرائيليين في أحد الكيبوتسات كتابًا يروي قصص العهد القديم باعتبارها أدبًا من صنع البشر، ومن ثم فإنه قد استبعد أي إشارة إلى الإله.

٤- أما النصارى؛ فإنهم يعتقدون أن العهد القديم موحى به من الله، فقد جاء في وثائق المجمع

الفاتيكاني الثاني ما نصه: الكتاب المقدس كله بجميع أجزائه موحى به من الله، ثم ذكروا أن الروح القدس هو الذي كان يساند عمل الكُتَّاب وينير عقولهم حتى يكتبوا كل ما يريد الله إعلانه، ثم قالوا ما نصه: لذا يحق القول -بكل صدق- إن الله تعالى نفسه هو المؤلف الأصلي للكتب المقدَّسة وأنها كلمة الله[١].

كما يزعم طائفة من النصارى موافقين في ذلك دعوى اليهود في التلمود: أن موسى هو الكاتب للتوراة، وأن جُل أسفار العهد القديم كتبها الأشخاص الذين وضعت أسماؤهم عليها.

هذا اعتقاد المتدينين من اليهود، واعتقاد جُل طوائف النصارى الكبار مثل: الكاثوليك، والأرثوذكس اليونان، والأرثوذكس الأقباط، والبروتستانت، ونحوهم[٢].

(١) انظر: وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ص(٣٩٥).

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٧٨، ٧٩)، تحريف الكتاب المقدس، المدخل إلى العهد القديم، صموئيل يوسف، ص(٤١).

الفصل السادس

علم نقد العهد القديم

تعريفه:

هو العلم الذي يهدف إلى دراسة نصوص العهد القديم باعتبارها نصوصًا تاريخية، على الدارس أن يُطبِّق عليها كل المعايير التي يطبقها على أية نصوص تاريخية أخرى.

كما يهدف إلى اكتشاف أسباب التناقضات التي قد توجد بين نص وآخر، وعدم الاتساق فيما بينها، ثم محاولة تفسيرها في ضوء المعطيات التاريخية.

ويلجأ علم نقد العهد القديم إلى تحليل النصوص المختلفة؛ ليصل إلى عناصرها الأساسية، وإلى الربط بينها؛ لإيضاح تتابعها التاريخي بحيث تلقي الضوء على تطوُّر العبرانيين وعقائدهم منذ مراحلهم البدائية حتى اكتمال النسق الديني اليهودي.

أي أن نقد العهد القديم هو العلم الذي يهدف إلى إبراز وتوضيح سائر المشاكل الخاصة بنصوص العهد القديم، وبالتالي وضع أساس للدراسات الأخرى، الاجتماعيَّة والتاريخية والدينيَّة، التي تتناول العصور التي تم فيها وضع العهد القديم وتدوينه.

المبحث الأول

تاريخ علم نقد العهد القديم

بدأ نقد العهد القديم على يد المؤلف اليهودي القرّائي حيوي البلخي الذي عاش في القرن التاسع.

وقد ظهرت بعدها محاولات متفرقة هنا وهناك، أهمها دراسة إسحاق أبرابانيل (١٤٤٧ ـ ١٥٠٨) الذي قدَّم أول دراسة علمية لنصوص العهد القديم، وكذلك ما قدمه كرلستادت (١٤٨٠ـ١٥٤١م).

كما أن ابن حزم الأندلسي (٩٩٤- ١٠٦٣م)، والجويني (١٠٢٨- ١٠٨٥م)، والغزالي (١٠٥٨- ١١١١م)، وشهاب الدين القرافي (١١٨٥م) وغيرهم كثير من الدارسين المسلمين القدامى لاحظوا أن ما ينسبه العهد القديم إلى الأنبياء من جرائم، يُعدُّ دخيلًا على النص الأصلي، وما فيه من أغلاط وتناقضات يثبت تحريفها وعدم نسبتها إلى موسى عليه السلام، فقدموا دراسات في هذا الموضوع.

ولكن العلم نفسه، بالمعنى الحديث، بدأ مع الفيلسوف اليهودي إسبينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧م) الذي تكلم عن الظواهر المعجزات وعلاقتها بالطبيعة وقوانيينها، وعن طريقة الفحص التاريخي للكتب، وليصل إلى نتيجة أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة بل كتبها شخص آخر عاش بعد موسى بزمن وقرون طويلة، بل وباقي الأسفار لم يكتبها من سُميت بأسمائهم، إنما كاتبها مؤرخ واحد أراد أن يروي تاريخ اليهود القديم حتى هدم المدينة لأول مرة، وربما كان عزرا.

وبعد ذلك، تتالى العلماء الغربيون في دراسة العهد القديم من وجهة نظر نقدية، مثل ريشارد سيمون الذي أصدر كتاب التاريخ النقدي للعهد القديم سنة ١٦٧٨م.

وكان أول الكتب لجان استروك الأستاذ في جامعة باريس عام ١٧٥٣، وتبعه كتاب ج. آيتشورن عام ١٧٧٩ .

وهناك آخرون بينوا مصادر العهد القديم المختلفة، مثل إيلجن في عام ١٧٩٨م، وكار داود الجن ١٨٣٤م، وهرمن هوبفلد في عام ١٨٥٣، ولم يبق سوى تبيان تتاليها التاريخي، وهو ما أنجزه فون جراف عام ١٨٦٦، وفلهاوزن (١٨٧٦ـ ١٨٧٨)، وكونهيل.

ويُلاحَظ أن هؤلاء الثلاثة من أشهر علماء الإسلاميات في الغرب، ولا بد أن النقد القرآني للتحريفات التي وردت في التوراة، كان دافعًا لدراستهم النقدية.

وقد انضم إليهم آخرون، من بينهم لودز ١٩٤١، وجايجر، وجرايتس، وكاوفمان، وكوهلر[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، رسالة في اللاهوت والسياسة، سينوزا، ص (٢٢٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٧)، حقائق حول الكتاب المقدس.

المبحث الثاني

معايير النقد

استخدم نقاد العهد القديم في دراساتهم المعايير التالية:

١- التناقض بين الأجزاء التشريعية.

٢- التناقض في القصص.

٣- التناقض بين ما جاء في الشرائع وما ورد في القصص.

٤- تباين الأسلوب الأدبي.

٥- استخدام نسخ وترجمات العهد القديم المختلفة.

٦- الاكتشافات الأثرية.

وسوف نتحدث عن هذه المعايير ونذكر لها نماذج وأمثلة.

المعيار الأول: التناقض في الأجزاء التشريعية

يوجد في العهد القديم نصوص بتشريعات معينة، وتوجد نصوص أخرى تناقض هذه التشريعات.

من أمثلة ذلك:

١- شريعة السبت.

جاء في مواضع أن الحكمة من فرض شريعة السبت هو استراحة الرب فيه بعد خلق السموات والأرض.

ففي سفر الخروج ٢٠/٨- ١١: في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه.

ولكن جاء في مواضع أخرى أن الحكمة هي خروج بني إسرائيل من مصر.

ففي سفر التثنية ٥/ ١٢- ١٥: واذكر أنك كنت عبدًا في أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة، وذراع ممدودة؛ لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت.

٢- ذنب الأبناء لذنب الآباء.

جاء في مواضع من العهد القديم أن ذنب الآباء لا يصل إلى الأبناء، بل كُلٌّ عليه خطيئته.

ففي سفر الملوك الثاني ١٤/ ٦: حسب ما هو مكتوب في سفر شريعة موسى حيث أمر الرب قائلًا: لا يُقتل الآباء من أجل البنين، والبنون لا يُقتلون من أجل الآباء، إنما كل إنسان يُقتل بخطيته.

وفي سفر التثنية ٢٤/١٦: لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيته يقتل.

وفي سفر حزقيال ١٨/ ٢٠: النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون.

وفي سفر إرميا ٣١/٢٩، ٣٠: في تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرما وأسنان الأبناء ضرست، بل كل واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه.

ولكن جاء في مواضع أخرى ما يناقض ذلك.

ففي سفر الخروج ٢٠/ ٥، والتثنية ٥/ ٩: أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي (من الذين يبغضونني).

وفي سفر الخروج ٣٤/ ٦، ٧: غافر الإثم والمعصية والخطية ولكنه لن يبرئ إبراء مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع.

وفي سفر العدد ١٤/ ١٨: الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة، لكنه لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع.

وفي سفر صموئيل الثاني ٢١/ ١- ٩: وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين؛ سنة بعد سنة، فطلب داود وجه الرب فقال الرب: هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء؛ لأنه قتل الجبعونيين، فدعا الملك الجبعونيين، . . .، قال داود للجبعونيين: ماذا أفعل لكم وبماذا أكفر فتباركوا نصيب الرب، . . .، فقالوا للملك: الرجل الذي أفنانا والذي تآمر علينا ليبيدنا لكي لا نقيم في كل تخوم إسرائيل، فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم للرب في جبعة شاول مختار الرب، فقال الملك: أنا أعطي، . . .، فأخذ الملك ابني رصفة ابنة اية اللذين ولدتهما لشاول ارموني ومفيبوشث وبني ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل ابن برزلاي المحولي، وسلمهم إلى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معا وقتلوا في أيام الحصاد في أولها في ابتداء حصاد الشعير.

وفي سفر الملوك الأول ١١/ ١١، ١٢: فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها؛ فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها.

وفي سفر مراثي إرميا ٥/ ٧: آباؤنا أخطئوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الاختلافات في الكتاب المقدس، سمير سامي شحاتة.

المعيار الثاني: التناقض في القصص

العهد القديم مليء بالقصص، وكثير من هذا القصص نجده يتناقض مع بعضه البعض.
من أمثلة ذلك:

١- ترتيب خلق الحيوانات والطيور والنباتات وآدم.

جاء في الأسفار الخمسة خلق الحيوانات والطيور أولًا في اليوم الخامس وآدم في اليوم السادس، ففي سفر التكوين ١/ ٢٠-٢٣: وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطِرْ طير فوق الأرض على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلًا أثمري وأكثري واملئى المياه في البحار ... وكان مساء وكان صباح يومًا خامسًا.

وفي سفر التكوين ١/ ٢٧-٣١: فخلق الله الإنسان على صورته ... وكان مساء وكان صباح يومًا سادسًا.

ولكن جاء فيها خلق الله الإنسان أولًا ثم النباتات ثم الحيوانات والطيور، ففي سفر التكوين ٢/ ٧-١٩: وَجَبَلَ الربُّ الإلهُ آدمَ ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية، وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، ...، وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها.

٢- الموت عند الأكل من الشجرة.

جاء في الأسفار الخمسة أن الله قال لآدم: يوم تأكل من الشجرة تموت.

ففي سفر التكوين ٢/ ١٧: وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت.

ولكن آدم أكل من الشجرة ولم يمت، ففي التكوين ٥/ ٥: فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات.

وفي التكوين ٣/ ٣: فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتاه، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا.

٣- عمر إسماعيل.

في سفر التكوين ١٦/ ١٥، ١٦: فولدت هاجر لإبرام ابنًا ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام.

وفي سفر التكوين ١٧/ ٢٤، ٢٥: وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته.

وفي سفر التكوين ٢١/ ٥: وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه.

وفي سفر التكوين ٢١/ ٨- ١٠: فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمةً عظيمةً يوم فطام إسحاق، ورأت سارة ابنَ هاجر المصريَّة الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق.

فبناءً على ذلك يكون عُمر إسماعيل فوق الأربع عشرة سنة.

ولكن جاء بعد ذلك ما يبين أنه صبي صغير ففي سفر التكوين ٢١/ ١٤- ٢٠: فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: ما لك يا هاجر لا تخافي؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس.

٤- معرفة اسم الرب بيهوه.

في سفر التكوين ٢٢/ ١٤: فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه، حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يرى.

ولكن في سفر الخروج ٦/ ٢، ٣: ثم كلم الله موسى وقال له: أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أُعرف عندهم.

وأيضًا قوله: حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يرى. يدل على أن الكاتب كتب بعد زمان حادثة الذبح، وبعد ما سمي ذلك الموضع بجبل الرب، ومعلوم أن هذا الجبل لم يحمل هذا الاسم إلا بعد الشروع في بناء الهيكل في عهد داود عليه السلام وأكمل بناءه سليمان عليه السلام كما في سفر الأخبار الثاني ٣/ ١، ٢، فهذه التسمية متأخرة جدًّا عن زمان موسى، فيتضح أن كاتب هذا السفر جاء بعد موسى بزمن طويل.

٥- قطورة زوجة إبراهيم أم جاريته.

نجد في سفر التكوين ٢٥/ ١ أنها زوجة: وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة؛ فإنها ولدت زمران ويقشان ومدان. . .

بينما نجد في سفر الأيام الأول ١/ ٣٢ أنها سرية: وأما بنو قطورة سرية إبراهيم فإنها ولدت

زمران ويقشان ومدان . . .

٦- مدينة دان.

في سفر التكوين ١٤/ ١٤ : فلما سمع إبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان.

ولم تحمل دان هذا الاسم إلا بعد موت يشوع بمدة طويلة، كما ورد في سفر القضاة ١٨/ ٢٩: ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل ولكن اسم المدينة أولا لايش.

٧- المرور بأرض الأدوميين (بني عيسو).

جاء في سفر التثنية ٢/ ٤ : وأوص الشعب قائلًا : أنتم مارون بتخم أخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير فيخافون منكم فاحترزوا جدًا.

ولكن في سفر العدد ٢٠/ ٢١: وأبى آدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور في تخومه فتحول إسرائيل عنه.

٨- مكان موت هارون.

في سفر العدد ٣٣/ ٣٨: فصعد هارون الكاهن إلى جبل هور حسب قول الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر.

وفي سفر التثنية ٣٢/ ٥٠: كما مات هرون أخوك في جبل هور.

ولكن في سفر التثنية ١٠/ ٦: وبنو إسرائيل ارتحلوا من آبار بني يعقان إلى موسير، هناك مات هارون وهناك دُفن.

٩- عدد بني إسرائيل ورجال يهوذا.

في سفر صموئيل الثاني ٢٤/ ٩: فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى الملك فكان إسرائيل ثمانمائة ألف رجل ذي بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمسمائة ألف رجل.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأولى ٢١/ ٥ : فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى داود فكان كل إسرائيل ألف ألف ومائة ألف رجل مستلي السيف، ويهوذا أربعمائة وسبعين ألف رجل مستلي السيف.

١٠- صاحب فكرة إحصاء بني إسرائيل.

في سفر صموئيل الثاني ٢٤/ ١ : وعاد فحمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلًا : امضِ وأحصِ إسرائيل ويهوذا.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأولى ٢١/ ١ : ووقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصي إسرائيل.

١١- عدد سنين الجوع التي حكم الله بها على داود.

في سفر صموئيل الثاني ٢٤/١٣: فأتى جاد إلى داود وأخبره وقال له: أتأتي عليك سبع سني جوع في أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ٢١/ ١١: فجاء جاد إلى داود وقال له: هكذا قال الرب اقبل لنفسك إما ثلاث سنين جوع أو ثلاثة أشهر هلاك أمام مضايقتك.

١٢- عدد المراكب التي قضى عليها داود من أرام.

في سفر صموئيل الثاني ١٠/١٨: وهرب أرام من أمام إسرائيل وقتل داود من أرام سبعمائة مركبة وأربعين ألف فارس وضرب شوبك رئيس جيشه فمات هناك.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ١٩/١٨: وهرب أرام من أمام إسرائيل وقتل داود من أرام سبعة آلاف مركبة وأربعين ألف رجل وقتل شوبك رئيس الجيش.

١٣- عدد الأحواض لسليمان عليه السلام.

في سفر الملوك الأول ٧/ ٢٦: وغلظه شبر وشفته كعمل شفه كأس بزهر سوسن يسع ألفي بث.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٤/ ٥: وغلظه شبر وشفته كعمل شفة كأس بزهر سوسن يأخذ ويسع ثلاثة آلاف بث.

١٤- عدد مزاود الخيل لسليمان عليه السلام.

في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٥: وكان لسليمان أربعة آلاف مزود خيل ومركبات واثنا عشر ألف فارس فجعلها في مدن المركبات ومع الملك في أورشليم.

ولكن في سفر الملوك الأول ٤/ ٢٦: وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مركباته واثنا عشر ألف فارس.

١٥- عدد الإسرائيليين الذين أطلقوا من سبي بابل.

نجد في سفر عزرا الإصحاح ٢ اختلافًا مع ما في سفر نحميا الإصحاح ٧ عن عدد أفراد قبائل الإسرائيليين الذين أطلقوا من سبي بابل، فمن ذلك:

الاسم	عزرا	نحميا
بنو أرح	٧٧٥	٦٥٢
بنو فحث موآب	٢٨١٢	٢٨١٨
بنو زتو	٩٤٥	٨٤٥
بنو باني	٦٤٢	٦٤٨
بنو باباي	٦٢٣	٦٢٨

الاسم	عزرا	نحميا
بنو عرجد	١٢٢٢	٢٣٢٢
بنو أدونيقا	٦٦٦	٦٦٧
بنو بغواي	٢٠٥٦	٢٠٦٧
بنو حشوم	٢٢٣	٣٢٨
بنو بيصاي	٣٢٣	٣٢٤

وهكذا في الباقي.

وهذه يؤدي إلى الاختلاف في العدد الإجمالي للإسرائيليين.

١٦- عدد الذين قتلهم يوشيب بشبث التحكموني عندما هز رمحه.

في سفر صموئيل الثاني ٢٣/ ٨: هذه أسماء الأبطال الذين لداود يوشيب بشبث التحكموني رئيس الثلاثة، هو هز رمحه على ثمانمائة قتلهم دفعة واحدة.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ١١/١١: وهذا هو عدد الأبطال الذين لداود.

يشبعام بن حكموني رئيس الثوالث هو هز رمحه على ثلاثمائة قتلهم دفعة واحدة.

١٧- عمر أخزيا عندما أصبح ملكًا.

في سفر الملوك الثاني ٨/٢٦: كان أخزيا ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم واسم أمه عثليا بنت عمرى ملك إسرائيل.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٢٢/٢: كان أخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم واسم أمه عثليا بنت عمري.

١٨- عمر يهوياكين عندما نصب ملكًا، مدة حكمه.

في سفر الملوك الثاني ٢٤/٨: كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر في أورشليم.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦/٩: كان يهوياكين ابن ثماني سنين حين ملك وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام في أورشليم.

١٩- الذي خلف يهوياكين.

في سفر الملوك الثاني ٢٤/٨- ١٧: كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك . . . وملك بابل متنيا عمه عوضًا عنه وغيَّر اسمه إلى صدقيا.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦/٩-١٠: كان يهوياكين ابن ثماني سنين حين ملك . . .

أرسل الملك نبوخذ نصر فأتى به إلى بابل . . . وملك صدقيا أخاه على يهوذا أورشليم.

٢٠- ملك يهورام بن أخاب.

في سفر الملوك الثاني ٣/ ١: وملك يهورام بن آخاب على إسرائيل في السامرة في السنة الثامنة عشرة ليهوشافاط ملك يهوذا.

ولكن في سفر الملوك الثاني ١/ ٢- ١٧: وسقط أخزيا من الكوة التي في عليته التي في السامرة . . . فمات حسب كلام الرب الذي تكلم به إيليا، وملك يهورام عوضًا عنه في السنة الثانية ليهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا؛ لأنه لم يكن له ابن.

٢١- اسم زوجة داود أم سليمان عليهما السلام.

في سفر صموئيل الثاني ١١/ ٣- ١٢/ ٢٤: بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي . . . وعزى داود بثشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنًا فدعا اسمه سليمان.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ٣/ ١-٥: وهؤلاء ولدوا له في أورشليم شمعى وشوباب وناثان وسليمان أربعة من بثشوع بنت عميئيل.

٢٢- وقت إتيان داود بالتابوت.

نجد في سفر صموئيل الثاني ٥/ ٢٥- ٦/ ٢-١١، أنه بعد محاربة الفِلَسطينيين: ففعل داود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر . . . وقام داود وذهب هو وجميع الشعب الذي معه من بعلة يهوذا ليصعدوا من هناك تابوت الله . . . فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة . . . وبقي تابوت الرب في بيت عوبيد أدوم.

بينما نجد في سفر الأيام الأول ١٣/ ٥-١٤، ١٤/ ١٠ - ١٦ أنه قبل محاربة الفلسطينيين: وجمع داود كل إسرائيل من شيحور مصر إلى مدخل حماه ليأتوا بتابوت الله من قرية يعاريم، وأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة من بيت أبيناداب . . . وبقي تابوت الله عند بيت عوبيد أدوم.

فسأل داود من الله قائلًا: أأصعد على الفلسطينيين فتدفعهم ليدي. فقال الرب: اصعد فأدفعهم ليدك فصعدوا إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك . . . ثم عاد الفلسطينيون أيضًا وانتشروا في الوادي . . . ففعل داود كما أمره الله وضربوا محلة الفلسطينيين من جبعون إلى جازر.

٢٣- اسم أم أبيا.

في سفر أخبار الأيام الثاني ١١/ ١٨-٢٠: واتخذ رحبعام لنفسه امرأة محله بنت يريموث بن داود . . . ثم بعدها أخذ معكة بنت أبشالوم فولدت له أبيا.

ولكن في أخبار الأيام الثاني ١٣/ ١، ٢: ملك أبيا على يهوذا ملك ثلاث سنين في أورشليم واسم أمه ميخايا بنت أوريئيل من جبعة.

٢٤- اسم ابن صموئيل البكر.

في سفر صموئيل الأول ٨/ ٢: وكان اسم ابنه البكر يوئيل، واسم ثانيه أبيا.

بينما في سفر أخبار الأيام الأول ٦/ ٢٨: وابنا صموئيل البكر وشني ثم أبيا.

٢٥- سؤال شاول الرب.

في سفر صموئيل الأول ٢٨/ ٥- ٦: ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدًّا، فسأل شاول من الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ١٠/ ١٣-١٤: فمات شاول بخيانته التي بها خان الرب من أجل كلام الرب الذي لم يحفظه وأيضًا لأجل طلبه إلى الجان للسؤال، ولم يسأل من الرب فأماته وحوَّل المملكة إلى داود بن يسَّى.

٢٦- مَن التي تزوجها عدرئيل من بنات شاول.

في سفر صموئيل الأول ١٨/ ١٩- ٢٧: وكان في وقت إعطاء ميرب ابنة شاول لداود أنها أعطيت لعدريئيل المحولي امرأة، وميكال ابنة شاول أحبت داود، . . . ، فأعطاه شاولُ ميكالَ ابنتَه امرأة.

وفي سفر صموئيل الأول ٢٥/ ٤٤: فأعطى شاول ميكال ابنته -امراة داود- لفلطي بن لايش الذي من جليم.

ولكن في سفر صموئيل الثاني ٢١/ ٨: وبني ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدريئيل ابن برزلاي المحولي.

٢٧- شمشون مبارك ونذير أم زان.

في سفر القضاة ١٣/ ٢٤: فولدت المرأة ابنًا ودعت اسمه شمشون، فكبر الصبي وباركه الرب وابتدأ روح الرب يحركه في محله دان بين صرعة وأشتأول.

ولكن في سفر القضاة ١٦/ ١: ثم ذهب شمشون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها.

٢٨- عقاب ياهو.

في سفر الملوك الثاني ٩/ ١-١٠: ودعا اليشع النبي واحدًا من بني الأنبياء، . . . ، واذهب إلى راموت جلعاد وإذا وصلت إلى هناك فانظر هناك ياهو بن يهوشافاط . . . وقال له هكذا قال الرب إله إسرائيل قد مسحتك ملكًا على شعب الرب إسرائيل فتضرب بيت أخاب سيدك وانتقم لدماء عبيدي الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل، فيبيد كل بيت أخاب واستأصل لأخاب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق في إسرائيل واجعل بيت أخاب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا، وتأكل الكلاب إيزابل في حقل يزرعيل وليس من يدفنها.

ولكن في سفر هوشع ١/ ٤: فقال له الرب: ادع اسمه يزرعيل؛ لأنني بعد قليل أعاقب بيت

ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل.

٢٩- ارتفاع تاج عمود بيت الرب.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/١٧ : وعليه تاج من نحاس وارتفاع التاج ثلاث أذرع.

ولكن في سفر إرميا ٥٢/٢٢: وعليه تاج من نحاس ارتفاع التاج الواحد خمس أذرع.

٣٠- وقت مجيء نبوزرادان ليحرق الهيكل.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/٨: وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذناصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم، وأحرق ...

ولكن في سفر إرميا ٥٢/١٢: وفي الشهر الخامس في عاشر الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذراصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط الذي كان يقف أمام ملك بابل إلى أورشليم، وأحرق ...

٣١- عدد ندماء الملك الذين أخذهم نبوزرادان.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/١٨ : وأخذ رئيس الشرط ... وخمسة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا في المدينة...

ولكن في سفر إرميا ٥٢/٢٤: وأخذ رئيس الشرط ... وسبعة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا في المدينة ...

٣٢- يوم خروج يهوياكين من السجن.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/٢٧ : وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين ملك يهوذا في الشهر الثاني عشر في السابع والعشرين من الشهر رفع أويل مرودخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن.

ولكن في سفر إرميا ٥٢/ ٣١: وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين في الشهر الثاني عشر في الخامس والعشرين من الشهر رفع أويل مرودخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا وأخرجه من السجن.

٣٣- طول العمودين اللذين أقامهما سليمان أمام الهيكل.

في سفر الملوك الأول ٧/١٥ : وصوّر العمودين من نحاس طول العمود الواحد ثمانية عشر ذراعًا.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٣/١٥ : وعمل أمام البيت عمودين طولهما خمس وثلاثون ذراعًا.

٣٤- موت يهوياقيم والذي خلفه على كرسي داود.

في سفر الملوك الثاني ٢٤/٦: ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه وملك يهوياكين ابنه عوضًا عنه.

ولكن في سفر إرميا ٣٦/ ٣٠: لذلك هكذا قال الرب عن يهوياقيم ملك يهوذا. لا يكون له جالس على كرسي داود وتكون جثته مطروحة للحر نهارًا وللبرد ليلًا[(١)].

المعيار الثالث: التناقض بين ما جاء في الشرائع وما ورد في القصص

يوجد في العهد القديم تناقضًا بين ما ورد في بعض الشرائع وبين ما ورد في القصص.

من أمثلة ذلك:

١- تقديم القرابين في مذبح مركزي.

في سفر التثنية ١٢/ ٥، ٦ يصر على ضرورة تقديم القرابين في مذبح مركزي، فقد جاء فيه: بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم.

ومع هذا قدَّم إلياهو (إيليا) قرابين على جبل الكرمل ففي سفر ملوك أول ١٨/١٩ - ٣٨: فالآن أرسل وأجمع إلي كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين وأنبياء السواري أربع المائة الذين يأكلون على مائدة إيزابل، . . . ، وبنى الحجارة مذبحًا باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البزر، ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب، وقال: املئوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب، . . . ، فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة.

٢- تقديم القرابين في سنوات التيه.

تؤكد أسفار موسى الخمسة أهمية تقديم القرابين خلال سنوات التيه، كما في سفر اللاويين ١٤/ ١- ١٣، وغيرها.

بينما يؤكد النبي عاموس أن مثل هذه القرابين لم تُقدَّم، ففي سفر عاموس ٥/ ٢٥: هل قدمتم لي ذبائح وتقدمات في البرية أربعين سنة يا بيت إسرائيل؟!

وينكر إرميا أن الإله أمر بمثل هذه القرابين ففي سفر إرميا ٧/ ٢٢: لأني لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة.

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله، أحمد ديدات، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تحريف الكتاب المقدس.

٣- الزواج بالعمة.

في سفر اللاويين ١٨/ ١٢: عورة أخت أبيك لا تُكشف؛ إنها قريبة أبيك.

ولكن جاء في قصص العهد القديم ما يخالف ذلك.

ففي سفر الخروج ٦/ ٢٠: وأخذ عمران يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى.

٤- الزواج من الأجنبيات.

جاء في العهد القديم منع تزويج أحد من بني إسرائيل بأجنبية، ففي سفر التثنية ٧/ ٣ عند كلامه عن الحثيين والجرجاشين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين قال: ولا تصاهرهم، بنتك لا تعطِ لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك.

وفي سفر الخروج ٣٤/ ١٥، ١٦: احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم، ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن.

وفي سفر عزرا ١٠/ ١٠- ١٢: فقام عزرا الكاهن وقال لهم إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة.

ولكن جاء في قصص العهد القديم خلاف ذلك.

فجاء فيه أن يهوذا تزوج بأجنبية: بابنة رجل كنعاني، ففي سفر التكوين ٣٨/ ٢: ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه شوع فأخذها ودخل عليها. وكذا في سفر أخبار الأيام الأول ٢/ ٣ .

وفيه أن عيسو تزوج بأجنبية: بابنة رجل حثي، ففي سفر التكوين ٢٦/ ٣٤: و لما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة يهوديت ابنة بيري الحثي وبسمة ابنة إيلون الحثي.

وفيه أن يوسف تزوج بامرأة مصرية ففي سفر التكوين ٤١/ ٥٠: وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن آون.

وفيه أن موسى تزوج بامرأة من مدين، ففي سفر الخروج ٢/ ٢١: فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل فأعطى موسى صفورة ابنته.

وفيه أن سليمان تزوج من عدة نساء أجنبيات: صيدونيات، وكنعانيات، وحثيات، وابنة فرعون، فمثلًا في سفر الملوك الأول ٣/ ١: وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها.

وجاء تأكيد لهذا في سفر نحميا ١٣/ ٢٣- ٢٧: في تلك الأيام أيضًا رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموابيات، ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب، فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم

أناسًا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلًا لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم، أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل ولم يكن في الأمم الكثيرة ملك مثله وكان محبوبًا إلى إلهه فجعله الله ملكًا على كل إسرائيل هو أيضًا جعلته النساء الأجنبيات يخطئ، فهل نسكت لكم أن تعملوا كل هذا الشر العظيم بالخيانة ضد الهنا بمساكنة نساء أجنبيات.

٥- الدخول في جماعة الرب.

في سفر التثنية ٢/٢٣: لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب.

يلزم منه ألا يدخل داود وهو نبي في جماعة الرب؛ لأنه هو البطن التاسع لفارص، وفارص هو ولد زنى على حسب ما في سفر التكوين ٣٨/ ١٢- ٣٠ .

٦- استخدام العرافة في التنبؤ.

في سفر إرميا ١٤/ ١٤: فقال الرب لي: بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي، لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم، برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبئون لكم.

ولكن في سفر صموئيل الأول ٧/٢٨ - ١٥: فقال شاول لعبيده: فتّشوا لي على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها واسألها، فقال له عبيده هو ذا امرأة صاحبة جان في عين دور ... فقالت المرأة: من أصعد لك؟ فقال: أصعدي صموئيل، ...، فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة يصعدون من الأرض، فقال لها: ما هي صورته؟ فقالت: رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة، فعلم شاول أنه صموئيل فخرَّ على وجهه إلى الأرض وسجد، فقال صموئيل لشاول: لماذا أقلقتني بإصعادك إياي.

٧- تلف الأشجار المثمر في الحرب.

في سفر التثنية ١٨/٢٠: إذا حاصرت مدينة أيامًا كثيرةً محاربًا إياها لكي تأخذها فلا تتلف شجرها بوضع فاس عليه. إنك منه تأكل. فلا تقطعه؛ لأنه هل شجرة الحقل إنسان حتى يذهب قدامك في الحصار.

ولكن في سفر الملوك الثاني ٣/ ١٩: فتضربون كل مدينة محصّنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة (مثمرة حسب الترجمة التفسيرية والعربيَّة المشتركة) وتطمُّون جميع عيون الماء وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة.

٨- الزنى بالأخت من الأب.

في سفر اللاويين ٩/١٨: عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجًا لا تكشف عورتها.

وفي اللاويين ١٧/٢٠: وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي

عورته فذلك عار يقطعان أمام أعين بني شعبهما قد كشف عورة أخته يحمل ذنبه.

ولكن في سفر صموئيل الثاني ١٣/ ١- ٢١: وجرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار فأحبها أمنون بن داود، . . . . ، و قال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي، . . . ، بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها، . . .

٩- وصف النوم والنعاس.

جاء في المزامير وصف الرب أنه لا ينعس ولا ينام، ففي المزمور ١٢١/ ٣، ٤: لا يدع رجلك تزل لا ينعس حافظك، أنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل.

ولكن جاء في المزمور ٧٨/ ٦٥: فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر.

١٠- وصف التعب.

جاء وصف الرب بعدم التعب ففي سفر أشعياء ٤٠/ ٢٨: إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا.

ولكن جاء في سفر التكوين ٢/ ٢: وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع.

١١- وصف الندم.

جاء وصف الرب بعدم الندم، ففي سفر العدد ٢٣/ ١٩: ليس الله إنسانًا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم.

ولكن جاء في سفر الخروج ٣٢/ ١٤: فندم الرب على الشر الذي قال: إنه يفعله بشعبه.

وفي سفر صموئيل الأول ١٥/ ١٠، ١١: وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلًا: ندمت على أني جعلت شاول ملكًا.

وفي سفر صموئيل الأول ١٥/ ٣٥: والرب ندم؛ لأنه ملك شاول على إسرائيل.

١٢- وصف نقض العهد.

جاء في المزامير وصف الرب بعدم نقض العهد، ففي المزمور ٨٩/ ٣٤: لا أنقض عهدي ولا أغير ما خرج من شفتي.

ولكن في المزمور ٨٩/ ٣٩: نقضت عهد عبدك.

١٣- الكلام للبشر.

جاء في العهد القديم أن الرب لا يستعلن إلا في الحلم للأنبياء وأنه لن يكلم أحدًا فما لفم سوى موسى، ففي سفر العدد ١٢/ ٦- ٨: فقال اسمعا كلامي إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه، وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، فما إلى فم، وعيانًا أتكلم معه لا بالألغاز.

ولكن جاء في سفر صموئيل الأول ٣/ ١٠: فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأول صموئيل صموئيل فقال صموئيل: تكلم لأن عبدك سامع.

وفي سفر الملوك الأول ٨/ ١٥: وقال -أي سليمان-: مبارك الرب إله إسرائيل الذي تكلم بفمه إلى داود أبي.

١٤- قدرة البشر على رؤية الرب.

جاء في سفر الخروج ٣٣/ ٢٠: وقال: لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش.

ولكن جاء في الخروج ٣٣/ ١١: ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه.

وفي الخروج ٢٤/ ٩ - ١١: ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا.

وفي التكوين ٣٢/ ٣٠: فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل، قائلًا: لأني نظرت الله وجهًا لوجه[1].

المعيار الرابع: تباين الأسلوب الأدبي

توصَّل الباحثون في أمر التوراة، من خلال ملاحظة اللغات والأساليب وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، وبعد دراسة الاختلافات الواضحة في مفردات النصوص وأفكارها -إلى أن هذه النصوص تعود إلى فترات زمنية مختلفة وبأقلام مختلفة.

من أمثلة ذلك

١- في سفر الخروج يعلن أن الآباء يعرفون الإله باسم «شدَّاي»، وهو ما يساعد على تحديد هذه النصوص وتحديد تاريخها، وأنها تعود إلى المصدر نفسه.

٢- اختلاف الخلفيات التاريخية في سفر أشعياء والمزامير يُسهِّل عملية معرفة المؤلف وتاريخ التأليف.

٣- في سفر الخروج ٦/ ١: فقال الرب لموسى ...، وفي الخروج ٦/ ١٣: فتكلم موسى أمام الرب ...، وفي العدد ١١/ ١١: فقال موسى للرب ...، وفي التثنية ٣١/ ١٤: وقال الرب لموسى ....

فالضمير هنا هو ضمير الغائب لآخر غير الرب أو موسى، وهكذا في أكثر من سبعمائة جملة من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية.

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٢١)، تحريف الكتاب المقدس.

إنه أسلوب مؤرخ يتحدث عن الرب وموسى، وهذه يدل على أن موسى لم يكتب هذه الأسفار.

٤- جاء في سفر التثنية ٣٤/ ٥- ١٠: فمات هناك موسى ... ودفنه ... وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ... ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى ....

فكيف يكتب موسى تفاصيل موته؟

ولما عرف الحاخامات أن هذا الإصحاح من سفر التثنية لا يمكن أن يكون موسى قد كتبه، فقسروه بطريقة تعسفية وهي أنه كتبه وهو يموت، وأن الإله أملى عليه هذه الكلمات، وأنها كُتبت بروح النبوة.

٥- الأسلوب الذي كُتب به سفر التثنية متغير، فإننا نجد أن موسى يتحدث بنفسه، وبضمير المتكلم، وذلك بعد أن يقدمه الراوي قائلًا: هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في عبر الأردن.

ثم يستطرد: ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلًا: الرب إلهنا، وكلمتكم في ذلك الوقت قائلًا، فأجبتموني، وأمرت قضاتكم في ذلك الوقت قائلًا: ...، وأمرتكم في ذلك الوقت ...، ثم ارتحلنا ...، فقلت لكم: ...، فكلمتكم ...، ثم تحولنا وارتحلنا ...، فعبرنا ...، إلخ

وظل موسى يتكلم بنفسه، كما قدمه الراوي، طيلة الخطاب الأول من السفر المذكور حتى ٤/ ٤٠.

حيث عاد الراوي في ٤/ ٤١ إلى الكلام عن موسى بضمير الغائب: حينئذ أفرد موسى ثلاث مدن.

ويدأ الراوي خطاب موسى الثاني في ٤/ ٤٤ بقوله: وهذه هي الشريعة التي وضعها موسى أمام بني إسرائيل.

فكانت الوصايا العشر (من الإصحاح ٥ إلى الإصحاح ١١)، ثم مجموعة الفرائض والإحكام (من الإصحاح ١٢ إلى الإصحاح ٢٦)، وقد صيغت كلها بضمير المتكلم.

حتى إذا وصل الراوي إلى خطاب الخاتمة الذي هو نهاية الخطاب الثاني (من الإصحاح ٢٧ إلى الإصحاح ٢٨)، عاد ليتحدث عن موسى بضمير الغائب: ودعا موسى ...، وقال لهم ...

ثم يعود فيتكلم موسى بصيغة الخطاب وضمير المتكلم: فقد سرت ...، وأخذنا ...، أوصيل بها ... أنبئكم اليوم ...، أشهد عليكم، ...

وهكذا يستمر الكلام متغيرًا إلى أن يصل إلى أعمال موسى الأخيرة ووفاته، حتى آخر السفر.

فطريقة الكلام والشواهد، ومجموع نصوص القصة كلها، يعطي انطباعًا بأن موسى لم يكتب هذه الأسفار، بل كتبها شخص آخر.

٦- في سفر التثنية ٣٤/ ١٠: ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه.

وهذا مما يؤكد، أن صاحب الكلام هو غير موسى بالطبع.

٧- جاء في سفر التكوين ٣٦/ ٣١: وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما مَلَكَ ملكٌ لبني إسرائيل.

أي أن كاتب هذه الفقرة عاش بعد أن عرفت جماعة إسرائيل نظام الملكية، ولم يحدث ذلك إلا بعد عدة قرون من موت موسى.

٨- التوراة كُتبت بالعبريَّة، ويرى بعض الباحثين أن موسى الذي عاش في مصر لم يكن يتحدث العبريَّة، وإنما كان في الأغلب يتحدث لغة المصريين القدامى أو كان يتحدث لغة كنعانية متأثرة بالمصريَّة القديمة.

٩- استنتج ٣٢ عالمًا، و٥٠ طائفة متعاونة معهم في تنقيح نسخة الملك جيمس في نهاية النصوص المنقحة للكولينز عن أسفار الكتاب المقدس هذه الاستنتاجات: سفر التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية (أقروا بأن علمهم لا يمكن أن ينسب هذه الأسفار إلى موسى).

مؤلف يشوع: يُنسب معظمه إلى يوشع.

مؤلف خاتمة سفر يشوع: غير معروف.

مؤلف سفر القضاة: غير معروف، (ربما كتبه صموئيل).

مؤلف سفر راعوث: ليس معروفًا بالتحديد.

مؤلف سفر صموئيل الأول (R. S.V.): غير معروف، (ربما كتبه صموئيل).

مؤلف سفر صموئيل الثاني (R. S.V.): غير معروف.

مؤلف سفر الملوك الأول: غير معروف.

مؤلف سفر الملوك الثاني: غير معروف.

مؤلف سفر أخبار الأيام الأول: المؤلف مجهول، (ولكن ربما جمعه وحرره عزرا).

مؤلف سفر أخبار الأيام الثاني: المؤلف مجهول، (ولكن ربما جمعه وحرره عزرا).

مؤلف سفر عزرا: من المحتمل أن عزرا كتبه أو حرره.

مؤلف سفر أستير: غير معروف.

مؤلف سفر أيوب: يحتمل أن يكون أيوب، ويرى البعض أنه موسى أو سليمان أو أليهو.

مؤلف المزامير: كتب داود ٣٧ مزمورًا، وكتب آساف ١٢ مزمورًا، وأبناء قورح ٩ مزامير، وكتب سليمان مزمورين، وهناك ٥١ مزمورًا لا يعرف كاتبها.

مؤلف سفر الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد: المؤلف مجهول، ولكنها عادة تنسب إلى سليمان.

مؤلف سفر أشعياء: ينسب معظمه إلى أشعياء، (ولكن بعضه من المحتمل كتبه آخرون).

مؤلف سفر حبقوق: لا يعرف شيء عن مكان أو زمان ولادته.

وهكذا تستمر الاستنتاجات: إما أن المؤلفين (مجهولون غير معروفون) أو يكونون (احتمالًا) أو (ذوي أصل مشكوك فيه)[1].

١٠- في سفر إرميا ٣٨/١: وسمع شفطيا بن متان وجدليا بن فشحور ويوخل بن شلميا وفشحور بن ملكيا الكلام الذي كان إرميا يكلم به كل الشعب.

وهذا يبين أن إرميا النبي ليس هو الذي كتب سفر إرميا وإنما شخص آخر.

١١- في سفر التثنية ٣١/٩: وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل.

ويستحيل أن يكون موسى قد قال ذلك، بل لا بد من أن يكون قائلها كاتبًا آخر يروي أقوال موسى وأعماله.

١٢- في سفر التثنية ٣/١١: أن عوج ملك باشان وحده بقي من بقية الرفائيين، هوذا سريره سرير من حديد، أليس هو في ربة بني عمون؟ طوله تسع أذرع و عرضه أربع أذرع بذراع رجل.

وتدل هذه الإضافة على أن من كتب هذه الأسفار عاش بعد موسى بمدة طويلة، وفضلًا عن ذلك، فلا شك في أنه لم يعثر على هذا السرير الحديدي إلا في عصر داود الذي استولى على الرباط (ربة عمون) كما في سفر صموئيل الثاني ١٢/٢٩- ٣١[2].

المعيار الخامس: استخدام نسخ وترجمات العهد القديم المختلفة

يجد النقاد أن الترجمات القديمة للعهد القديم تظهر فيها نصوص أو مقطوعات ليست في النص العبري، كما وجدوا أيضًا ما هو مخالف.

من أمثلة ذلك

١- الترجمة الآراميَّة.

سعت التراجم الآراميَّة إلى إضفاء مسْحَة من ثقافة عصرها على النص فقام المترجمون بإدخال مصطلحات مثل «الجن والملائكة» بديلًا عن الإشارة إلى الرب مجسدًا.

٢- الترجمة السبعينيَّة.

توجد صياغات في الترجمة السبعينيَّة لم نجدها في النص العبري الحالي.

ومع هذا عُثر على نظيرها العبري في مخطوطات قُمران، وهو ما يؤكد اعتماد المترجين على

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله ص(٤٤، ٤٥، ٧٢، ٧٣، ٣٣، ٣٤).

(٢) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تحريف الكتاب المقدس.

نصوص عبرية متعددة.

وقد تجاهل العلماء الهيلينيون العهد القديم، ولم تصلنا أية تعليقات لهم عليه.

ولكن الفقهاء اليهود في فلسطين، قبلوا الترجمة واعتمدوها في بادئ الأمر، فأجَّلها اليهود المتحدثون باليونانيَّة، واستفادت اليهوديَّة منها في عملية التبشير.

ونظرًا للاختلافات بين الترجمة والنص العبري، وهي اختلافات استفاد منها المسيحيون الأولون، وبعد أن اعترفت الكنيسة المسيحيَّة بالترجمة السبعينيَّة باعتبارها الإنجيل الرسمي، أظهر الحاخامات العداء لها، وخصوصًا ابتداءً من عام ٧٠ الميلادي.

وأصبحت الترجمة السبعينيَّة تشبَّه بـ «العجل الذهبي».

ولم تكن الترجمة على مستوى رفيع، فلم يكن المترجمون ملمين بالعبريَّة بالقدر الكافي، ولم تكن النصوص التي ترجموا عنها نصوصًا جيدة، كما أن المترجمين أخذوا في الاعتبار حساسيات العالم الهيليني.

من أمثلة ذلك:

١- تُرجمت كلمة «الأرنب» (لاويين ١١/٦)، وهو حيوان مدنَّس حسب الشريعة اليهوديَّة، بعبارة «ذو الأقدام الخشنة»؛ لأن كلمة «الأرنب» باليونانيَّة هي «لاجوسlagos»، وهي أحد ألقاب أسلاف الأسرة البطلمية.

٢- تم تغيير عبارة «آراميًا تائهًا كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرَّب هناك» (تثنية ٢٦/ ٥) فصارت «أبي ترك سوريا وذهب إلى مصر»، وذلك لإرضاء البطالمة أيضًا حيث كانت سوريا تحت حكم السلوقيين أعدائهم، وكلمة «آرامي» تعني «سوري».

٣- وأسقط المترجمون أسماء الأعلام التي كان يتسمَّى بها الإله مثل «أدوناي، و«شدَّاي صباءوت»، واستخدموا بدلًا من ذلك أسماء مثل «الإله» أو «الخالق». وبدلًا من تأكيد خصوصية الإله وخصوصية علاقته بالشعب، يصبح هو الكائن الأعظم للجنس البشري.

وهذا يعود إلى وجود اتجاه عام في العالم الهيليني نحو تعظيم الخالق الواحد، وكانت الآلهة المحلية آخذة في الاختفاء.

٤- أسقط المترجمون العبارات التي تنسب إلى الخالق صفات جسدية، فبينما تتحدث النسخة العبريَّة عن أنهم «رأوا إله إسرائيل» (خروج ٢٤/ ١٠)، فإن الترجمة اليونانيَّة تتحدث عن أنهم «رأوا المكان الذي كان قد وقف فيه إله إسرائيل». والهدف من هذا كله هو: تقريب التوراة من العقل الهيليني.

٥- تم أغرقة المصطلح تمامًا في بعض الأحيان، فتُرجمت «توراة» بكلمة «نوموس» اليونانيَّة، والتي تعني «قانون».

أما كلمة «إمونا»، وهي بمعنى «إيمان»، فتُرجمت بالكلمة اليونانيَّة «بيستيس pistis» وتعني «الاعتقاد».

٦- تشتمل الترجمة السبعينيَّة على عدة أسفار لا توجد في الأصل العبري الذي وصل إلينا، وهي: سفر طوبيا، وسفر الحكمة لسليمان، وأسفار المكابيين وعددها أربعة أسفار، وسفر يهوديت، وسفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، ونشيد الأطفال الثلاثة، وسفر الحكماء الثلاثة، وسفر بعل والتنين، وثلاثة أسفار منسوبة إلى عزرا، وذلك زيادة على السفر المثبت في الأصل العبري، وبعض زيادات في سفر إستير ودانيال، وهي الأسفار التي أصبحت تشكل أبوكريفا العهد القديم (الكتب الخارجية أو الخفية).

٧- الترجمة السبعينيَّة لسفر أيوب (٣٨/ ٢) تضم فقرة لا توجد في النص العبري تُغيِّر تفسير السفر تمامًا.

٨- في سفر صموئيل الأول ١/ ٢٤ نجد النص العبري لهذه الفقرة هو: ثم حين فطمته أصعدته معها بثلاثة ثيران وإيفة دقيق وزق خمر وأتت به إلى الرب في شيلوه والصبي صغير.

بينما نجده في الترجمة السبعينيَّة كذا: وصعدت معه إلى سلوام مع عجل ذي ثلاث سنين وخبز وإيفة دقيق وزق خمر ودخلت بيت الرب في سيلوم ومعه الصبي.

ونجده في النسخة قمران هكذا: وأصعدته معها إلى شيلوه مع عجل ذي ثلاث سنين وخبز وإيفة دقيق وزق خمر ودخلت بيت الرب في شيلوه ومعهم الصبي.

٩- في سفر صموئيل الأول ١/ ٢٥ نجد النص العبري لهذه الفقرة هو: فذبحوا الثور وجاءوا بالصبي إلى عالي.

بينما نجده في الترجمة السبعينيَّة هكذا: وجاءوا أمام الرب وذبح أبوه التقدمة كما فعل سنة بعد سنة للرب، ثم قربوا الصبي فذبح العجل وأتت أم الصبي وقالت.

ونجده في النسخة قمران هكذا: وجاءوا أمام الرب، وذبح أمامهم التقدمة ما فعل سنة بعد سنة للرب، ثم قربوا الصبي فذبحوا العجل وأتت حنة أم الصبي إلى عالي وقالت.

١٠- في سفر التثنية ٣٢/ ٤٣ نجد النص العبري هكذا: تهللوا أيها الأمم شعبه.

بينما نجده في الترجمة السبعينيَّة هكذا: تهللوا أيتها الأمم مع شعبه، وأنتم يا ملائكة الله اعبدوه.

ونجده في النسخة قمران هكذا: تهللي أيتها السموات معه، وأنتم أيها الآلهة اعبدوه[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٢، ٨٣).

الترجمات الحديثة

من أمثلة ذلك:

١- أجمعت ترجمات الكتاب المقدس العربيَّة والإنجليزية والفرنسيَّة الحديثة على ما جاء في سفر الخروج ٦/ ٢٠: وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له، فولدت له هارون وموسى، انظر نسخة البروتستانت العربيَّة ١٩٨٣م.

ويختلف هذا مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس العربيَّة لرجارد واطس طبعة لندن ١٨٣١ م، ووليم واطس طبعة لندن ١٨٦٦ م: فتزوج عمرام يوخابد ابنة عمه فولدت له هارون وموسى. انظر نسخة (رجارد واطس) العربيَّة طبعة لندن.

٢- أجمعت ترجمات الكتاب المقدس العربيَّة والإنجليزية والفرنسيَّة الحديثة على ما جاء في سفر الخروج ٣٢/ ٢٨: ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى، ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل.

ويختلف هذا مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس لرجارد واطس سنة ١٨٣١، ووليم واطس طبعة لندن سنة ١٨٦٦ م: فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل.

٣- جاء في ترجمات الكتاب المقدس للبروتستانت ١٩٧٠ م، ١٩٨٣، ورجارد واطس ١٨٣١م، ووليم واطس ١٨٦٦م، والملك جيمس المعتمدة، ولوي سيجو في سفر صموئيل الأول ٦/ ١٩: وضرب أهل بيتشمس؛ لأنهم نظروا إلى تابوت الرب، وضرب من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلًا فناح الشعب؛ لأن الرب ضرب الشعب ضربة عظيمة.

ويختلف هذا مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس للآباء اليسوعيين سنة ١٩٨٦ م والرهبانيَّة اليسوعيَّة سنة ١٩٨٦م، وكتاب الحياة سنة ١٩٨٨ م، والقياسيَّة المراجعة، والفرنسيَّة المسكونيَّة فصار النص كالآتي: وضرب الرب أهل بيت شمس؛ لأنهم نظروا إلى تابوت الرب وقتل من الشعب سبعين رجلًا وكانوا خمسين ألف رجل فناح الشعب؛ لأن الرب ضرب الشعب هذه الضربة العظيمة.

٤- جاء في ترجمات الكتاب المقدس للبروتستانت ١٩٧٠م، ١٩٧٣م. والآباء اليسوعيين ١٩٨٦م والملك جيمس المعتمدة، والعربيَّة طبعة لندن ١٨٣١ م، ١٨٦٦، في سفر صموئيل الأول ١٣/ ١، والنص للأخيرة: فلما ملك شاول كان ابن سنة وملك سنتين على إسرائيل.

أما الترجمة القياسيَّة المراجعة، ولوي سيجو، والفرنسيَّة المسكونيَّة والرهبانيَّة اليسوعيَّة (كتب التاريخ ١٩٨٦) فقد تركوا مكان السن فارغًا، والنص للأخيرة: وكان شاول ابن... حين صار ملكًا وملك... سنة على إسرائيل.

ثم علقت في الهامش فقالت: في النص العبري: كان شاول ابن سنة حين صار ملكًا وملك

ستين على إسرائيل. وهذا أمر غير معقول، لربما لم يعرفوا عمر شاول عند ارتقائه العرش، أو لربما سقط العمر من النص، أو لربما قصرت مدة ملكه إلى سنتين لعبرة لاهوتية.

أما أصحاب الكتاب المقدس (كتاب الحياة ١٩٨٨م) القاهرة: وكان شاول ابن -ثلاثين- سنة حين ملك وفي السنة الثانية من ملكه.

٥- طبع كتاب الرومان الكاثوليك في ريمز عام ١٥٨٢ م من اللاتينيَّة وأعيد طبعه في دووي عام ١٦٠٩ م وبهذا فهو أقدم كتاب مطبوع.

وبالرغم من قدمها فالبروتستانت يرفضون هذه النصوص؛ لأنها تحتوي على كتب مشكوك في صحتها، وعددها سبعة وهي: سفر طوبيا - وسفر أستير - ونبوءة باروك - وسفرا المكابيين الأول والثاني - وسفر الحكمة وحكمة يشوع بن سيراخ.

٦- طبع كتاب البروتستانت عام ١٦١١م بأمر الملك جيمس الأول وترجم إلى ألف وخمسمائة لغة من لغات العالم النامي.

ثم عُدّلت النصوص عام ١٨٨١م، فسميت النصوص المنقحة.

ثم نقحت أكثر وسميت (R.S.V.) عام ١٩٥٢م.

ثم أعيد تنقيحها عام ١٩٧١م.

تقول دار النشر (كولنز) في ملاحظتها عن الكتاب المقدس ص(١٠): إن هذا الكتاب المقدس هو ثمرة جهد اثنين وثلاثين عالمًا في علم اللاهوت، ساعدهم فيها هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية متعاونة.

وفي ص(٣) من مقدمة النسخة المنقحة يقول العلماء المراجعون للنسخة المنقحة: إن نسخة الملك جيمس قد أطلق عليها أنبل إنجاز في النثر الإنجليزي، فمراجعوها عام ١٨٨١م أُعجبوا ببساطتها وسموّها وبقوتها ونغماتها المرحة وإيقاعها الموسيقي وتعبيراتها اللبقة فقد دخلت في تكوين خصائص المؤسسات الحكومية في الدول المتحدثة باللغة الإنجليزية ونحن مدينون لها كثيرًا، ولكن نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جدًّا وإن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة مما يستوجب التنقيح في الترجمة الإنجليزية.

وتعترف طائفة شهود يهوه في الصفحة الخامسة من مقدمة كتابهم: في أثناء نسخ المخطوطات الأصليَّة باليد تدخَّل عنصر الضعف الإنساني ولذلك فلا توجد من بين آلاف النسخ الموجودة اليوم باللغة الأصليَّة نسختان متطابقتان.

٧- جاء في سفر صموئيل الأول ١٥/ ٢ - ٣: هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر، فالآن أذهب وأضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعفُ عنهم بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا.

وقد غيَّر مترجم الكتاب المقدس من الإنجليزية إلى العربيَّة كلمة (تذكرت) إلى (افتقدت) حيث يدل السياق على ذلك، وكلمة (افتقدت) للأشياء لا للذكريات وقد تذكر الرب ما فعله العماليق منذ ٤٠٠ سنة فاتخذ القرارات بالغة القسوة.

وكذلك غيَّر المترجم كلمة (خربوا) إلى (حرموا) وهذا تحريف بيِّنٌ في الترجمة والسياق؛ ففي التثنية ٢٠/١٦: يقول الرب لإسرائيل: وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبقِ منها نسمة ما.

وفي سفر يشوع ٦/٢١: وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف.

وقد غيَّر المترجم في النص الأسبق كلمة (مالهم) إلى (ماله)، وكلمة (كل رجل وكل امرأة) إلى كلمة (رجلًا وامرأةً)؛ وذلك للتخفيف من وقع الكلمات على النفس.

أما مترجمو الكتاب المقدس في كتاب: الترجمة التفسيرية الحديثة لكتاب الحياة، المطبوع بالقاهرة، فلم يغيروا كلمة (حرقوا) إلى كلمة (حرموا)، بل أبقوها كما هي في الأصل الإنجليزي.

٨- في الترجمة العربيَّة لسفر إرميا ٢٠/٧: قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فغلبت. صرت للضحك كل النهار كل واحد استهزأ بي.

ولكن في الترجمة الإنجليزية: لقد خدعتني يا رب. You have deceived me.

والفرق شاسع وواضح بين الإقناع والخداع[1].

النسخ الثلاث العبرانيَّة والساميَّة واليونانيَّة

بعد رجوع اليهود من السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد ظهر للعهد القديم نسختان: نسخة يؤمن بها غالب اليهود وهي النسخة العبرانيَّة، ونسخة يؤمن بها السامريون وهي النسخة السامريَّة.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام سبعون من علماء اليهود بترجمة التوراة العبرانيَّة إلى اللغة اليونانيَّة، فأصبح للتوراة ثلاث نسخ: التوراة السامريَّة، والتوراة العبرانيَّة، والتوراة اليونانيَّة.

وبمضاهاة الثلاث نسخ بعضها مع بعض كُشف عن اختلافها في مواضع عديدة.

من أمثلة ذلك:

١- الاختلاف في عدد الأسفار: على النحو التالي:

- العهد القديم للسامريين: وهو يحتوي على أسفار موسى الخمسة، ويضاف إليها أحيانًا سفر

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله ص(١٥- ١٧)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد ص(١٢٠- ١٢٥)، الاختلافات في الكتاب المقدس.

يشوع، وهو المعتمد عند اليهود السامريين فقط، وهي غير التي بأيدي سائر اليهود.

- العهد القديم للعبرانيين: وهو يحتوي على تسعة وثلاثين سفرًا، وهو المعتمد عند اليهود وجمهور علماء البروتستانت، وكان إجماع النصارى إلى القرن الخامس عشر منعقد على أن النسخة العبريَّة محرفة حرفها اليهود سنة ١٣٠ م عمدًا لتشكيك النصارى في النسخة اليونانيَّة التي بأيديهم، حتى ظهرت فرقة البروتستانت في القرن السادس عشر الميلادي وعكست الأمر وقالت بصحة العبرانيَّة واعتمدتها.

- العهد القديم للنسخة اليونانيَّة: وهو يحتوي على تسعة وثلاثين سفرًا بالإضافة إلى الأسفار القانونية الثانية، وهو المعتمد عند نصارى الأرثوذكس والكاثوليك، وعند اليهود الهلينستين الذين كانوا يتكلمون اللغة اليونانيَّة، رغم أن مخطوطة الترجمة الأولى مفقودة.

- ثم إن اليهود أعدموا نسخًا كتبت في المائة السابعة والثامنة؛ لأنها كانت تخالف مخالفة كثيرة النسخ التي كانت معتمدة عندهم[١].

٢- الزمان من خلق آدم إلى طوفان نوح عليه السلام على وفق النسخة العبرانيَّة ١٦٥٦ عامًا، وعلى وفق النسخة اليونانيَّة ٢٢٦٢ عامًا، وعلى وفق النسخة السامريَّة ١٣٠٧ أعوام.

٣- جاء في سفر التثنية ٢٧/ ٤ في النسخة العبرانيَّة: حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة التي أنا أوصيكم بها اليوم في جبل عيبال، وفي النسخة السامريَّة: جبل جرزيم.

وعيبال وجرزيم جبلان متقابلان كما يفهم ذلك من سفر التثنية ١١/ ٢٩: وإذا جاء بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فاجعل البركة على جبل جرزيم واللعنة على جبل عيبال.

وفي النسخة اليونانيَّة: جبل عيبال هو جبل البركة، وبُنِيَ عليه مذبح للرب.

٤- جاء في سفر أخبار الأيام الثاني ١٣/ ٣- ١٧: وابتداء أبيا في الحرب بجيش من جبابرة القتال أربعمائة ألف رجل مختار ويربعام اصطف لمحاربته بثمانمائة ألف رجل . . . فسقط قتلى من إسرائيل خمسمائة ألف رجل مختار.

ولما كانت هذه الأرقام مبالغًا فيها جدًّا ومخالفة للقياس غُيرت في أكثر النسخ اللاتينيَّة:

إلى: أربعين ألفًا، بدلًا من: أربعمائة ألفٍ، في الموضع الأول.

وإلى: ثمانين ألفًا، بدلًا من: ثمانمائة ألفٍ، في الموضع الثاني.

وإلى: خمسين ألفًا، بدلًا من: خمسمائة ألف، في الموضع الأخير[٢].

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٦٠٩)، العهد القديم ليس مقدسًا ص(٢٠- ٣٠)، الإسلام واليهودية دراسة مقارنة ص(٢٥، ٢٦)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٢٠، ٢١، ٤٤- ٤٧).

(٢) انظر: الكتاب المقدس في الميزان ص(١٠٨- ١١١)، الاختلافات في الكتاب المقدس.

٥- ذكروا في العهد القديم تاريخ مواليد بني آدم إلى نوح عليه السلام، ونصوا على عمر كل واحد منهم، وكذلك عمره حين ولد له أول مولود، وبعقد مقارنة بين ما ورد في النسخ الثلاث في أعمار من ذكروا حين ولد لهم أول مولود تتبين الاختلافات الآتية:

أسماء	عبرية	سامرية	يونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
أنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
مهللئيل	٦٥	٦٥	٦٥
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
أخنوخ	٦٥	٦٥	٦٥
متوشالح	١٨٧	٨٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨
نوح	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠
المجموع	١٦٥٦	١٣٢٧	٢٢٦٢

٦- الخلاف بين النسختين العبريّة واليونانيّة في زمان الوفاة من آدم وحتى إبراهيم، ويتضح ذلك من خلال الجدول الآتي:

أسماء	عبرية/ سنة الوفاة	يونانية/ سنة الوفاة
آدم	٩٣٠	٩٦٠
شيث	٩١٢	٩١٢
أنوشر	٩٠٥	٧٠٥
قينان	٩١٠	٩١٠
مهللئيل	٨٩٥	٨٥٠
يارد	٩٦٢	٩٦٢
أخنوخ	٣٦٥	٣٦٥
متوشالح	٩٦٩	٩٢٧
لامك	٧٧٧	٧٨٢

أسماء	عبرية/ سنة الوفاة	يونانية/ سنة الوفاة
نوح	٩٥٠	١٦٥٠
سام	٦٠٠	٦٠٠
أرفكشاد	٤٣٨	٤٣٨
قينان	...	٤٣٣
شالح	٤٣٣	٤٣٣
عابر	٤٦٤	٤٤٠
فالج	٢٣٩	٢٣٩
راعد	٢٣٩	٢٣٩
سروج	٢٣٠	٢٣٠
ناحور	١٤٨	٢٤٨
تارح	٢٠٥	٢٠٥
إبراهيم	١٧٥	١٧٥

٧- اختلاف المدة من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه السلام.

ففي النسخة العبريَّة ٢٩٢ سنة، وفي السامريَّة ٩٤٢ سنة، وفي اليونانيَّة ١٠٧٢ سنة.

٨- اختلاف المدة من خلق آدم إلى ميلاد عيسى عليه السلام.

ففي النسخة العبريَّة ٤٠٠٤ سنة، وفي السامريَّة ٤٧٠٠ سنة، وفي اليونانيَّة ٥٨٧٢ سنة.

٩- الوصايا العشر.

في النسخة العبريَّة واليونانيَّة: عشر وصايا، وفي النسخة السامريَّة: أحد عشر.

١٠- أعداد بني إسرائيل وأولاده عند دخولهم مصر.

في النسخة السامريَّة: ٧٥، وفي النسخة اليونانيَّة: ٧٠ .

١١- في النسخة السامريَّة والترجمة اليونانيَّة في سفر الخروج ٦/ ٢٠: وأخذ عمرام يوكابد ابنة عمه زوجة له فولدت له هرون وموسى ومريم أختهما.

وفي النسخة العبريَّة: وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هرون وموسى.

وأسقط: ومريم أختهما. وجاء لفظ: عمته، بدلًا من: ابنة عمه. وانظر: سفر العدد ١٢/ ١-١٥ .

١٢- مما زادت به النسخة السامريَّة وهو غير موجود في النسخة العبريَّة في سفر التكوين ١١/ ١١: كانت كل أيام سام ستمائة سنة ومات.

١٣- جاء في النسخة العبرانيَّة في سفر التكوين ٤/٨: وقال قابيل لهابيل أخيه، ولما صارا في الحقل قام قابيل.

ولم يذكر فيه مقال قابيل، وقد جاء النقص تامًّا في النسخة السامريَّة، وفيه: قال نخرج إلى الحقل.

١٤- زادت النسخة العبرانيَّة عن النسخة السامريَّة الآيات العشر الأُوَل في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج، وقد بدأ الإصحاح الثلاثون في النسخة السامريَّة بالفقرة ١١ .

١٥- زادت النسخة السامريَّة على النسخة العبرانيَّة ما وقع بين الفقرتين ١٠- ١١ من سفر العدد في الإصحاح ١٠، وفيه: قال الرب مخاطبًا موسى: إنكم جلستم في هذا الجبل كثيرًا، فارجعوا، وهلموا إلى جبل الأمورانيين وما يليه إلى العرباء، وإلى أماكن الطور والأسفل قبالة التيمن وإلى شط البحر أرض الكنعانيين ولبنان وإلى النهر الأكبر نهر الفرات، هو ذا أعطيتكم فادخلوا، ورثوا الأرض التي حلف الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنه سيعطيكم إياها، ولخلفكم من بعدكم.

١٦- زادت النسخة السامريَّة على النسخة العبرانيَّة ما وقع بين الفقرتين ٣- ٤، من سفر الخروج الإصحاح ١١، وفيه : وقال موسى لفرعون: الرب يقول: إسرائيل ابني، بل بكري، فقلت لك: أطلق ابني ليعبدني، وأنت أبيت أن تطلقه، ها أنا سأقتل ابنك بكرك. وفي العبرانيَّة مثله في ٩/١- ٣ .

١٧- الفقرات التالية من سفر صموئيل الأول: ١٧/١٨- ٣١، ٤١، ٥١- ٥٨، ١٨/١- ٥، ٩، ١٠، ١١، ١٧، ١٨ غير موجودة في الترجمة اليونانيَّة.

١٨- طبقًا للموسوعة البريطانية فإن النص السامري يختلف عن النص اليوناني في الأسفار الخمسة بما يزيد على أربعة آلاف اختلاف، ويختلف عن النص العبري القياسي بما يربو على ستة آلاف اختلاف[1].

المعيار السادس: الاكتشافات الأثريَّة

يدرس ناقدو العهد القديم الآثار والمدونات الآشورية والبابلية والمصريَّة ليحصلوا على المعلومات التي تلقي ضوءًا جديدًا على التاريخ وعلى عقائد العبرانيين القدامى، وعلى تطوُّر العقيدة اليهوديَّة.

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(٤٦، ٤٧، ٥٠)، تحريف الكتاب المقدس، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٣، ١١٤).

وتتفق هذه المدونات مع الرواية التوراتية أحيانًا، وأحيانًا تتناقض معها.

من أمثلة ذلك:

١- وقائع هجرة العبرانيين من مصر، كما وردت في سفر الخروج، تختلف في كثير من النواحي عن الشذرات المتناثرة التي وصلتنا عن هذا الخروج، إن لم تكن متناقضة معها.

٢- إن هربهم من الجوع كما تذكر التوراة أمر يتناقض تمامًا مع الصور المنقوشة على جدران المعابد المصريَّة لمحاولات التسرب وطرد الحرس لهم وبناء المصريين لحائط على الحدود لسد الطريق في وجوههم.

بالإضافة إلى أن الرعي والرحيل يناقض الأصول التي أوردتها التوراة عن (أور) والحضارة المكتشفة فيها.

٣- يذهب بعض الباحثين إلى أن اسم الإله يهوه جاء من عَمْد اليهود إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وذلك لأنه من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١م) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق.م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو.

٤- يرى بعض الباحثين أن مزامير داوود منقولة حرفيا وبدون تصرف من أناشيد إخناتون أول فرعون اعتمد ديانة التوحيد في مصر.

٥- جاء في العهد القديم تحريم أخلاط النباتات، وأخلاط الحيوانات، والخلط بين الصوف والكتان.

ففي سفر اللاويين ١٩/١٩: فرائضي تحفظون لا تنز بهائمك جنسين، وحقلك لا تزرع صنفين، ولا يكن عليك ثوب مصنف من صنفين.

وفي سفر التثنية ٢٢/٩- ١١: لا تزرع حقلك صنفين؛ لئلا يتقدس الملأ الزرع الذي تزرع ومحصول الحقل، لا تحرث على ثور وحمار معًا، لا تلبس ثوبًا مختلطا صوفًا وكتانًا معًا.

وقد لاحظ العلماء أن ثمة تشابهًا بين هذا الحظر التوراتي، وبين بعض الشرائع المماثلة عند الحيثيين.

٦- جاء في سفر العدد ١٨/١٦: وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقويمك فضة خمسة شواقل على شاقل القدس. هو عشرون جيرة.

وفي سفر الخروج ٣٠/١٢، ١٣: إذا أخذت كمية بني إسرائيل بحسب المعدودين منهم يعطون كل واحد فدية نفسه للرب عندما تعدهم لئلا يصير فيهم وبا عندما تعدهم، هذا ما يعطيه كل من اجتاز إلى المعدودين نصف الشاقل بشاقل القدس؛ الشاقل هو عشرون جيرة نصف الشاقل تقدمة للرب.

وفي سفر التكوين ٢٤/٢٢: وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل -عبد لإبراهيم- أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب.

وشاقل القدس لم يكن مستخدمًا في مصر، أو في القفر، أو في أي مكان آخر في زمن إبراهيم وموسى؛ لأنه لم يكن قد قام ملك القدس بعد، ولم يكن قد جرى صك شاقل القدس.

٧- في سفر التكوين ١١/٩: لذلك دعي اسمها بابل؛ لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض.

إن بابل تسمت كذلك؛ لأن (باب) يعني باب كما في اللغة العربيَّة و(ال) في الآراميَّة: الله. و(إل) في الآشورية: الله. و(إله) في العربيَّة: الله و(الوهو) في السريانيَّة: الله، والمعنى على كل هذه اللغات (باب الله) فمن أجل ذلك سميت بابل لا بسبب بلبلة الألسن[1].

(١) انظر: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم ص(١٥٢- ١٥٤)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل السابع
نظريَّة مصادر العهد القديم

اتفق نقاد العهد القديم على أن أسفار موسى الخمسة وسفر يشوع بن نون ترتد إلى مصادر أربعة أساسية متباينة في تواريخها ومختلفة في مضامينها، وأن هذه المصادر أو الأصول قد جُمعت ودُوِّنت من قِبل عدد من المحققين أو الكتبة تتابعوا قرنًا بعد قرن، وهذه المصادر هي:

١ . المصدر اليهوي.

مصدر (J) وهذا هو الحرف الأول من كلمة «Jahwist» نسبة إلى «جهوفاه».

ومن الواضح أن هذا المصدر يحمل اسم الإله يهوه، ويرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ويُرجعه البعض الآخر إلى القرن العاشر.

وقد سُمِّي «مصدر يهوه»؛ لأنه يستخدم هذا الاسم للإشارة إلى الإله، وكان رواته من المملكة الجنوبية (مملكة يهوذا).

وتصوُّر الإله في هذا المصدر قَبَلي ضيق يتداخل فيه المقدَّس والزمني والمطلق والنسبي (فهو حلولي وثني)، والإله سلطته محدودة بمكان خاص باليهود، وهو يتعصب لليهود ويناصرهم على أعدائهم ويتجلى في تاريخهم، وهو ذو سمات بشرية عديدة.

فالإله لا يختلف كثيرًا عن مخلوقاته، فهو يغار منهم، ويخشى أن يصبح الإنسان عاقلًا أو قويًا، وهو يصارع يعقوب ولكن يعقوب يهزمه.

كما أن قيمه الأخلاقية ليست سامية ولا عالمية، فإبراهيم يكذب على فرعون ليضمن بقاءه، ويجعل زوجته تدَّعي أنها أخته ليكون له خير بسببها.

ويعقوب يخدع إسحاق وعيسو، ويهودا يضاجع زوجة ابنه، . . . وهكذا.

وقصص هذا المصدر متأثرة بالأدب الشعبي والقصص الديني للشعوب التي عاش العبرانيون بينها، سواء في الفكرة أو الحبكة القصصية.

ويؤكد هذا المصدر أهمية سبط يهودا، ويرى أن عصر داود هو العصر الذهبي الذي تحقَّق فيه الثالوث الحلولي، إذ ارتبط الإله بالشعب بالأرض في رباط حلولي عضوي.

وهذا المصدر هو الذي يشير إلى أرض كنعان باعتبارها أرض بني إسرائيل.

٢- المصدر الإلوهيمي.

مصدر (E) نسبة إلى «إلوهيم Elohim».

ويحمل هذا المصدر اسم «إلوهيم» باعتباره اسم الإله، ويتحاشى اسم «يهوه»، وقد أُلِّف في

القرن الثامن قبل الميلاد، حوالي سنة ٧٧٠ ق.م في المملكة الشماليَّة (مملكة إسرائيل).

وهذا المصدر يتسم بالرؤية التوحيدية أو شبه التوحيدية للإله، فهو يصوِّر الإله في صورة أسمى مما يفعل المصدر اليهوي، فهو الإله الذي يقول «كن فيكون» ويتسامى عن صفات وعواطف البشر.

وهو إله شامل قد تكون له علاقة خاصة بشعبه، ولكنها علاقة لا تنتقص من عالميته، كما أن ثمة شعورًا دينيًا عميقًا بطاعة الإله والولاء له.

ويُلاحَظ على هذا المصدر تأكيد البُعد الأخلاقي بكل وضوح على حساب الجانب الشعائري.

كما تسيطر عليه رؤية الأنبياء إذ هناك أحكام مشابهة لأحكام الأنبياء.

وهو ينفرد بنسبة النبوة إلى إبراهيم ويوسف وموسى، ولذلك فإن كثيرًا من النقاد يعتبرون المصدر الإلوهيمي الإطار النظري لحركة النبوة.

والواقع أن المصدر الإلوهيمي يفتح الباب واسعًا أمام بني إسرائيل لإعلان توبتهم وندمهم على ما اقترفوه من أخطاء، وعن طريق التوبة والندم يحدث العفو الإلهي.

والمصدر الإلوهيمي ينظر إلى المصريين نظرة أكثر تسامحًا.

ويُعنى هذا المصدر بسرد التاريخ الديني لبني إسرائيل، كما أنه يعكس بيئة المملكة الشماليَّة.

وقد استقى المصدر قصصه من قبيلة أفرايم.

٣- مصدر التثنية.

مصدر (D) نسبة إلى «ديتيرونومي Deuteronomy» أو تثنية الشريعة.

وقد أُدخل هذا المصدر في صميم العهد القديم في القرن السابع قبل الميلاد في عام ٦٢١ق.م.

ويحاول المصدر التوفيق بين المصدرين الإلوهيمي واليهوي، وبين تراث الشمال وتراث الجنوب.

وكذلك بين الفكر النبوي والفكر الكهنوتي المتعارضين، فالأول يركز على الجوانب الروحية، والثاني يركز على العبادة القربانية، ولذا فإن هذا المصدر يحتفظ بالاتجاه القومي العنصري (اليهوي) والاتجاه العالمي المثالي (الإلوهيمي).

كما أن هذا المصدر صادر عن وسط مثقف مرتبط بالإصلاح الديني (التثنوي) الذي حدث عام ٦٢٢ ق.م، حين أرسل الملك يوشيا (٦٤١ - ٦١١ ق.م)، أي بعد وفاة موسى بما يقرب من سبعمائة عام، أحد أتباعه إلى الكاهن الأعظم، ليحسب النقود التي دفعها زوار الهيكل، فوجد توراة موسى في بيت الإله وندموا على أنهم كانوا قد نسوها.

ويبدو أن كاتب هذا السفر هو أحد الكهنة.

والواقع أن النص كان يمثل رد فعل للغزو الثقافي الآشوري الذي اكتسح العبرانيين آنذاك فانصرفوا عن عبادة يهوه، ولذا كان لا بد للكهنة والأنبياء أن يوحدوا صفوفهم، وهو ما ينجزه هذا المصدر الذي يشبه أسلوبه أسلوب إرميا الذي عاش في ذلك الوقت.

كما أنه يصر على أن التضحية ليهوه لا بد أن تتم في مكان واحد يختاره هو، أي الهيكل، وهو الأمر الذي يتفق مع إصلاحات يوشيا ومع أهداف الكهنة، كما يتفق مع محاولة تقوية الدولة من خلال العبادة القربانية المركزية.

٤- المصدر الكهنوتي (حواشي الكهنة).

مصدر (P) من كلمة «بريستلي Priestly»، أي الكهنوتي ويعود تاريخه إلى ما بعد فترة التهجير البابلي، في القرن الخامس قبل الميلاد.

ويضم أساسًا قوانين اللاويين والإحصاءات والأرقام التي وردت في أسفار موسى الخمسة، كما يضم بعض الروايات التي وردت في سفر التكوين والخروج والعَدد.

ويستخدم هذا المصدر القصص إطارًا للشرائع، بهدف إعطاء القوانين والشرائع صفة القدسية.

والإله في هذا المصدر هو خالق كل شيء، كائن وحاضر في كل آن ومكان، وفي كل شيء.

ومؤلفو هذا المصدر يتمتعون بثقافة عالية، ولذا فهو يتسم بالصياغات المنطقية.

كما أن أسلوبهم دقيق ونمطي وجاف، ويظهر فيه التمييز بين الكهنة واللاويين، ويرد فيه أول ذكر للأعياد ووصف تفصيلي لخيمة الاجتماع.

٥- وقد امتزج المصدران، اليهوي والإلوهيمي، حوالي عام ٦٥٠ ق.م، ولذا يشار أحيانًا إلى المصدر (JE) الواحد، أي المصدر اليهوي الإلوهيمي.

٦- كما توجد مصادر سابقة أخرى، مثل مصدر (H) نسبة إلى «هولينيس Holiness» ويُطلَق عليه «مصدر القداسة».

ويُنسَب إلى مجموعة من الكتاب أثناء السبي البابلي، وقد حاولوا أن يعطوا طابعًا شخصيًا للإيمان الديني يَبعُد عن الشعائر البرانية الجافة، وقد تبنوا مجموعة من المبادئ الأخلاقية العالية.

٧- وأخيرًا، فإن هناك مصدر (K) من «كينايت Kenite»، أي «المصدر القيني»، ويُقال: إنه أقدم المصادر على الإطلاق، ولكن أجزاءً كثيرةً منه فُقدت.

وقد استفاد منه كتّاب المصدرين اليهوي والإلوهيمي وحذفا منه الكثير.

وثمة مصادر أخرى للتوراة غير هذه المصادر الأربعة الأساسية، ولكنها تقل عنها كثيرًا في الأهمية وفي وجودها داخل النص.

وقد اتجه بعض النقاد إلى ضم هذه المصادر.

بل مال بعضهم إلى تقسيم المصدر الواحد إلى عدة مصادر داخلية والتمييز بينها بإعطاء رقم

معيَّن كأن نقول مثلًا: يهوي١، يهوي٢، يهوي٣ أو إلوهيمي٢، إلوهيمي٣، وهكذا.

وذلك عندما اكتشف لودز ثلاثة مصادر لليهوي، وأربعة مصادر للإلوهيمي، وستة مصادر للتثنية، وتسعة مصادر للكهنوتي.

٨- وهناك مصدر مهم لم يتمكن النقاد من ضمه بسهولة إلى مادة المصادر الأربعة الرئيسية.

ولهذا، فقد اتجه بعض النقاد، مثل إيسفلت، إلى إعطائه علامة تميِّزه عن غيره.

ووقع اختيار إيسفلت على الرمز (L) للدلالة على مادة هذا المصدر.

وهذا الرمز اختصار لكلمة «لاي Lay» التي نترجمها هنا إلى كلمة «العامي» أو «غير الكهنوتي»، وقد اعتبر إيسفلت هذا المصدر أقدم المصادر على الإطلاق؛ لاحتوائه على عناصر تبدو أصلية وبدائية في آن واحد.

منها، مثلًا، نظرته إلى الإنسان القديم بوصفه بدويًّا، وإلى البشرية آنذاك باعتبارها جماعةً من البدو، وإلى جماعة إسرائيل باعتبارها جماعةً بدويةً، وهي صورة لا نجدها في بقية المصادر.

كما أن تصوير هذا المصدر للإلوهية تصوير تجسيدي تشبيهي.

ويجب ألا تُفسَّر كلمة «مصدر» بأنها نص كتبه مؤلف واحد، فقد يكون نصًّا كتبته مجموعة من المؤلفين في فترة زمنية واحدة.

وقد تداخلت المصادر كالطبقات الجيولوجية دون أي تمازج، وهو ما يفسر وجود التناقضات المختلفة، وخصوصًا في مفاهيم محورية مثل مفهوم الخالق، إذ تتفاوت بين الحلوليَّة ذات النزعة الأخلاقية القومية والتوحيدية ذات النزعة الأخلاقية العالمية.

ويتضح تعدُّد المصادر وعدم تمازجها بصورة كبيرة في أسفار موسى الخمسة، ثم يطَّرد التناقض في أسفار القضاة والملوك والأيام.

ونجد أن أسفار الأنبياء عادةً ما تضم خطبهم ونبوءاتهم وتتسم بكثير من الاتساق ما عدا سفري أشعياء وزكريا.

أما كتب الحكم والأمثال، فمصادرها متنوعة وكثيرة ومتناقضة.

وتعبير «تكستوال ويتنسيز textual witnesses» يشير إلى تلك البقايا (الترسبات) التي وردت من عصور مختلفة لتدلنا على فترة (أو فترات) زمنية لم يكن كل مصدر فيها قد تبلور بعده.

وتُعَدُّ لفيفة المعبد (مجيلات هامقدش) من تلك الشواهد.

كما أن مخطوطات قمران والترجمة السبعينيَّة تُعَدُّ هي الأخرى دليلًا على أن هناك حالة من الاضطراب في وضع المصادر سادت بين المحررين للتوصل إلى قدر من المواءمة بين النصوص (بالإنجليزية: هارمونيست تكست harmonist text، أي «نص متوائم»).

وهذه المصادر هي النص في حالة سديمية.

فمخطوطات قمران هي النص في الحالة الجنينية، ومرحلة النص الماسوري هي المرحلة الناضجة[١].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٧٨- ٨٢)، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الثامن

تاريخ تدوين أسفار العهد القديم

تتضارب الآراء المتصلة بتاريخ تدوين الأسفار.

وأولى المشاكل: هي الإشارات العابرة في العهد القديم إلى نصوص وأسفار ضائعة أو لم تُدوَّن، مثل:

سفر حروب الرب، والإشارة إليه في سفر العدد ٢١/ ١٤

وسفر ياشر، والإشارة إليه في سفر يشوع ١٠/ ١٣

وسفر رؤى يعدو الرائي، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٩ .

وسفر أخبار جاد الرائي، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الأول ٢٩/ ٣١ .

وسفر أمور سليمان، والإشارة إليه في سفر الملوك الأول ١١/ ٤١ .

وسفر كلام ناثان النبي، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٩

سفر أخيا النبي الشيلوني، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٩

كتاب العهد لموسى عليه السلام، والإشارة إليه في سفر الخروج ٢٤/ ٧

وسفر أخبار شمعيا، وسفر أخبار الأيام لملوك يهودا، وسفر ملوك جماعة إسرائيل، وغيرها.

وتدل أسماء الأسفار السابقة على أن ملوك العبرانيين كانوا يدونون أخبارهم على عادة ملوك الشرق الأدنى القديم، وأن كتب الأخبار وكتب الملوك الحالية هي كل ما تبقى.

والمشكلة الثانية: هي أن نصوص العهد القديم تم تَناقُلها شفاهةً.

ولذا، فإن معظم المؤرخين يرجحون تعرُّضها إلى ما تتعرض له عادةً كل الأقوال المنقولة مشافهة، وبالتالي دخلتها التناقضات وتداخلت النصوص والمصادر.

وجاء في دائرة المعارف الأمريكيَّة [ENCYLOPAEDIA AMERICANA] طبعة ١٩٥٩، الجزء الثالث: لم يصلنا أي نسخة بخط المؤلف الأصلي لكتب العهد القديم، أما النصوص التي بين أيدينا، فقد نقلتها إلينا أجيال عديدة من الكتبة والنساخ، ولدينا شواهد وفيرة تبين أن الكتبة قد غيروا بقصد أو دون قصد منهم في الوثائق والأسفار، التي كان عملهم الرئيسي هو كتابتها ونقلها، وقد حدث التغيير دون قصد حين أخطئوا في قراءة بعض الكلمات. . . كذلك حين كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين، وأحيانًا ينسون كتابة كلمات بل فقرات بأكملها، وأما تغييرهم في النص الأصلي عن قصد فقد مارسوه مع فقرات كاملة حين كانوا يتصورون أنها كتبت خطأً في الصورة التي بين أيديهم، كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات، أو يضيفون على النص الأصلي

فقرات توضيحية ...، ولا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن أسفار العهد القديم لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد في عملية النسخ، على الأقل في الفترة التي سبقت اعتبارها أسفارًا مقدسة.

ويقرر سبينوزا -بعد التحقيق في أسفار العهد القديم، والتحقق من قدسيتها- إننا: نجهل تمامًا مؤلفي كثير من هذه الأسفار، أو نجهل الأشخاص الذين كتبوها أو نشك فيهم.

كما إننا: لا ندري في أية مناسبة وفي أي زمان كتبت هذه الأسفار التي نجهل مؤلفيها الحقيقيين، ولا نعلم في أي أيدي وقعت، وممن جاءت المخطوطات الأصليَّة التي وجد لها عدد من النسخ المتباينة، ولا نعلم أخيرًا، إذا كانت هناك نسخ كثيرة أخرى في مخطوطات من مصدر آخر.

إضافة إلى ذلك، فنحن: لا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصليَّة؛ أي في لغة كتابها.

والمشكلة الثالثة:

إن كثيرًا ما تتناقض وقائع هذا التاريخ -التاريخ التوراتي- ووقائع التاريخ الدنيوي وإن كانت تتفق معها أحيانًا.

ولكن كثيرًا من القصص التي وردت في العهد القديم، والتي تدَّعي لنفسها صفة التاريخية، لا يمكن إثباتها بالعودة إلى التاريخ الدنيوي.

ومن هنا، فقد قام علم نقد العهد القديم بتطوير نظرية المصادر وتفسير التناقضات وعدم التجانس الأسلوبي، كما تقدم بيان ذلك.

وسوف نعرض لذلك أيضًا من خلال الحديث عن أسفار العهد القديم[١].

الأسفار الخمسة

١- جمهور النصارى وجُل الباحثين المعاصرين يرون أن التوراة فقدت من بني إسرائيل خاصةً عند مهاجمة الملك البابلي بختنصر بيت المقدس وتدميره له، وأن الموجود الآن بين أيديهم إنما كتبه عزرا الذي كان في زمن السبي البابلي.

ويقول النصارى ومن وافقهم من اليهود والباحثين: إن الله أو الروح القدس ألهمه التوراة، إلا أن هذه الدعوى لا يوجد ما يدل عليها في سفر عزرا ولا في سفر نحميا اللذين حكيا جمع عزرا للتوَراة، وإنما ورد في سفر عزرا ما يدل على أن عزرا قد اجتهد في جمع التوراة وتعليمها، فقد قالوا في سفر عزرا ٧/ ١٠: لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلِّم إسرائيل فريضة وقضاء.

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، رسالة في اللاهوت والسياسة ص(٢٥٥، ٢٥٦).

وليس في هذا دلالة على أن الله أوحى إليه التوراة كما يزعم اليهود والنصارى، ولو كان الله أوحى إليه التوراة لذكر ذلك؛ لأنه مفخرة عظيمة له، وفيه تأييد له وبرهان على صحة ما كتب، فلما لم يذكر ذلك دل على أن الله لم يوح إليه شيء.

وأظهر ما يكون في الأسفار الخمسة التي يزعمون أنها التوراة أنها بشكلها العام من وضع عزرا، وقد يكون عزرا استفاد من أصولٍ أقدم كانت بين يديه لا يعلم على التحقيق أصولها ولا كُتَّابها ولا تواريخها، مما يعطي عمل عزرا قيمةً أدبيةً ونوعًا ما تاريخية، لكنه لا يمكن بحالٍ أن يرتقي إلى درجة الكتب المقدَّسة الموحى بها من الله المعصومة عن الخطأ والزلل.

٢- ويرى التقدميون بأنه لا يمكن أن يكون موسى كاتب الأسفار الخمسة ومنها سفر التكوين، ومنهم جان ستروك إيكهورن والكاهن «الكسندر جديس»، و«فيلهوزن»، و«يوديه» و«أدتويشفيلد»، والعالم اللاهوتي «جيرهارد فون راد»، وغيرهم كثير، يعتقدون أن الأسفار الخمسة كتبت بواسطة كاتب غير معروف استعان على كتابته لها بمصادر العديدة.

ثم ذكروا أن أولئك العلماء وغيرهم اكتشفوا ما يسمى نظرية المصادر وهي أن جامع الأسفار الخمسة استعان على كتابته وجمعه لها بمصادر عديدة، وفَّق بينها، وأخرج من مجموعها النص الموجود، وتقدم الكلام عن نظرية المصادر.

والمقصود بذلك أن جامع الأسفار الخمسة الموجودة الآن جمعها من مصادر عدة كُتبت قبله، فأخذ من هذا المصدر شيئًا وأخذ ما بعده من مصدرٍ آخر، وكمَّل بعضها من بعض، وقد يكون قد تصرف في ألفاظها حتى يوجد بينها الترابط المناسب، وأخرج من مجموع ذلك ما يسمى بالأسفار الخمسة أو التوراة.

إلا إن هذا العمل بما فيه من أخطاء موجودة في المصادر، وأخطاء أخرى وقع فيها الجامع والناسخ، تبين أن تلك الكتب لا يمكن أن تكون وحيًا من الله تعالى، وأنها تضمنت وضع وتصرفات البشر[1].

فمجموعةً كبيرةً من اليهود والنصارى نقدوا العهد القديم بما يفيد أن كاتبه ليس هو موسى u، وليس واحدًا من الأنبياء الذين نُسبت إليهم تلك الكتب، بل هم مجهولون، بل إن كُتَّابها عاشوا في فترة زمنية متأخرة جدًّا عن زمن وتأريخ وقوع الأحداث التي تحكيها تلك الكتب بعضها يقارب الثلاثمائة سنة وأكثر.

وبها نعلم عدم دقة وانضباط القول الذي يشيعه المحافظون من اليهود والنصارى من أن كاتب التوراة هو موسى u وأن كُتَّاب الكتب الأخرى هم الأشخاص الذين نسبت إليهم.

٣- ومن الأمور المعترف بها عند اليهود و النصارى هي ضياع المخطوطات الأصليَّة التي

---

(١) انظر: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي، ص(٩).

صدرت عن يد المؤلف الأصلي فلا توجد نسخة واحدة الآن مكتوبة بالنص الأصلي، والنسخ الموجودة الآن رغم كثرتها ما هي إلا ترجمات أخذت عن ترجمات.

يقول الأستاذ: جاك كاترول في كتابه سلطان الكتاب المقدس ص(٣٩): يحسن بنا أن نقول: إن المخطوطات الأصليَّة غير متواجدة، وأن هذه الترجمات ليست واحدة وليست منضبطة تمامًا، بل فيها زيادة ونقصان.

سفر التكوين

يحكي تاريخ العالم من بدء تكوين السموات والأرض، وقصة آدم وحواء، ونوح والطوفان وأولاده سام وحام ويافث، ونسل سام إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والعهد بين الخالق وشعبه.

وينتهي هذا السفر بقصة يوسف ومجيئه إلى مصر ولحاق يعقوب وأبنائه الأحد عشر به واستقرارهم في أرض الفراعنة.

وتعكس الأجزاء الأولى التقاليد الحضارية لبلاد الرافدين بعد أن دخلت عليها العناصر التوحيدية.

ويرى علماء الكتاب المقدَّس أن سفر التكوين ليس متجانسًا وإنما قام بوضعه كُتَّاب مختلفون، في حين يرى البعض الآخر أنه عمل متكامل يستند إلى فلسفة متسقة مع نفسها، وأن تكرار بعض الأجزاء ليس إلا من قبيل الصيغة الأدبية، وأنه وُضع في القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موسى بنحو خمسة أو ستة قرون.

سفر الخروج

ويعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر. كما يأتي فيه ذكر قصة موسى وذهابه إلى سيناء، والوحي الإلهي الذي جاء فيه، والعهد بين الإله وبني إسرائيل، وعودة موسى إلى مصر ليساعد اليهود على الخروج من أرض العبودية، ثم تلقِّي موسى الوصايا العشر في سيناء، وقيادته بني إسرائيل حتى حدود أرض كنعان.

كما يشتمل السفر على طائفة من أحكام الشريعة اليهوديَّة في العبادات والمعاملات، وما إلى ذلك مما يشبه قوانين حمورابي، وترد فيه أيضًا قصة عبادة العجل الذهبي وما تبع ذلك من محاولات تطهير الدين.

ويرى علماء الكتاب المقدَّس أن ثمة مصادر عديدة لهذا السفر، وأنه وُضع نحو القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موسى بنحو خمسة أو ستة قرون.

سفر اللاويين

يتوقف السرد القصصي في هذا السفر ليحل محله تناول شئون العبادات، وخصوصًا ما يتعلق

بالأعياد والأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور وما يتعلق بالطهارة، وكذلك التعاليم الأخلاقية والنظم الاجتماعيَّة التي لم ترد في سفر الخروج، والتعليمات الخاصة بخيمة الاجتماع.

واللاويون هم سدنة الهيكل والمشرفون على شئون الذبح والأضحية والقرابين.

وثمة وحدة في الموضوع بين هذا السفر والجزء الأخير من سفر الخروج وجزء كبير من سفر العدد.

ويرى بعض علماء الكتاب المقدَّس أن هذا السفر تجميع لوصايا متفرقة كُتبت على حدة في بداية الأمر، كما أن بعضهم يرى أن السفر كله لم يُكتب إلا بعد التهجير البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

سفر العدد

يشتمل في معظمه على إحصاءات عن قبائل العبرانيين وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه من شئونهم كما يشتمل على أحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات.

ويأتي في هذا السفر ذكر تذمُّر بني إسرائيل من متابعة السير على خطوات موسى، وهو ما أثار غضبه عليهم.

وقد دُوِّن هذا السفر بعد التهجير البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

سفر التثنية

وهو يتكون من:

١- المقدمة، وتحوي مراجعة موسى لما حدث منذ عبور سيناء.

٢- نصائح موسى الأخلاقية (ومنها إعادة الوصايا العشر)، وتتضمن تلخيصًا للتشريع الذي قبلته جماعة إسرائيل.

٣- خطب موسى الأخيرة.

٤- أفعال موسى الأخيرة وأغنية الوداع، ومعها سرد لأحداث موته.

ومن النقد الموجه إلى هذا السفر:

١- يختلف هذا السفر من حيث الأسلوب واللغة عن الأسفار السابقة، بل يناقضها أحيانًا.

٢- يرى بعض العلماء أن بعض القوانين التي أتت في سفر التثنية، إنما هي من وضع مجموعة من المؤلفين قاموا بكتابة بعض الأجزاء الأخرى في أسفار موسى الخمسة.

٣- يختلف العلماء في تحديد تاريخ هذا السفر، فيرى بعضهم أنه وُضع أثناء عصر القضاة، ويرى البعض الآخر أنه وُضع في وقت لاحق في أواخر القرن السابع قبل الميلاد.

٤- برهن العالم الألماني (دي فيتيه) من بداية القرن التاسع عشر بالدليل القاطع أن كتاب التثنية ما كان بوسعه أن يظهر في زمن موسى، أي في القرن الخامس عشر ق. م؛ فالقوانين والأحكام المدونة في الكتاب تعني شعبًا يعيش حياة حضرية مرتبة ويشتغل بالزراعة، كما يملك مدنًا كبيرة ونظامًا سياسيًّا جيد التطور، وكل هذه الأشياء لم تكن موجودة زمن موسى إذ كان في الصحراء وجماعته جماعة منقطعة عن كل شكل زراعي أو حضري.

سفر يشوع

القراءة المتأنية لهذا السفر تكشف عن تأخر تاريخ كتابته عن يشوع بسنين طويلة.

١- فقد جاء فيه خبر موت يشوع؛ ففي ٢٩/ ٢٤- ٣٠: مات يشوع بن نون عبد الرب ابن مائة وعشر سنين فدفنوه في تخم ملكه.

٢- ويذكر السفر أحداثًا بعد موته كتعظيم بني إسرائيل له بعد موته. انظر: يشوع ٣١:٢٤ .

٣- والسفر برمته يتحدث عن يشوع بضمير الغائب. انظر: ٨:٣٥، ٢٧:٦ .

سفر القضاة

يتحدث السفر عن الفترة التي تلت يشوع والتي سبقت الملكية، وهي فترة مبكرة من تاريخ بني إسرائيل.

١- ولكن السفر يحوي ما يدل على أنه كتب في عهد الملوك فقد جاء في ٢٥/ ٢١: في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، وفي ١٧/ ٦: وفي تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل.

٢- ويقول الأب لوفيفر: إن سفر القضاة أعيدت كتابته وعدلت مرات كثيرة قبل أن يصل إلى صيغته النهائية، وأن أحداثه التاريخية تعوزها الدقة.

٣- ويعترف النصارى بأنه لا يعلم كاتب السفر وعلى الأرجح أنه صموئيل.

سفرا صموئيل الأول والثاني

١- ينسب السفران للنبي صموئيل لكن السفر الأول يذكر وفاة صموئيل ودفنه ففي ٢٥/ ١: فمات صموئيل فاجتمع إسرائيل، وندبوه، ودفنوه.

فمن الذي أكمل السفر وكتب الثاني؟

٢- ويقول منقحو الكتاب المقدس الذي راجعه القسيس فانت السكرتير العام لجمعيَّة الكتاب المقدس بنيويورك: بأن مؤلف السفرين «مجهول، ويحتمل أن يكون عزرا هو الذي كتبه وراجعه».

سفر ايوب

١- أيوب: اسم سفر يعالج مسألة عذاب الأبرار، وتدور أحداثه حول رهان بين الإله وبين

الشيطان الذي سُمح له بأن يختبر إيمان أيوب.

٢- وابتلي أيوب، ففقد ممتلكاته وحُرم من أسرته وأصيب في جسده.

٣- وتلت المقدمة حوارات شعرية بين أيوب وثلاثة أصدقاء جاءوا لمواساته.

٤- ويضم السفر إشارات عديدة يُفهم منها إنكار البعث والحياة في الآخرة، وأن الثواب والعقاب يقتصران على الحياة الدنيا.

٥- ومع هذا، يظهر الإله لأيوب في العاصفة ويوجه إليه اللوم على الاعتراض على حكمه، فعقل الإنسان قاصر عن إدراك حكمة الإله؛ ولذا لا يحق له أن يعترض على حكمه، فيتوب أيوب وينيب ويعود إلى نجاح فاق نجاحه الأول.

٦- ولا توجد أية إشارة إلى يهوه في الحوار الشعري الذي يدور في السفر، ولا إلى تاريخ جماعة إسرائيل، ولا إلى أيٍّ من شرائعهم؛ إذ إن تناول القوانين الأخلاقية يتم بشكل إنساني عام.

٧- كما أن السفر خالٍ من الزخارف اللفظية، من الصور التي تسم الأسفار ذات الأصل العبراني.

٨- وقد جاء في وسط السفر ما يدل على أن ثمة كاتبًا آخر غير أيوب قد تدخل في السفر ففي نهاية الإصحاح ٣١: تمت أقوال أيوب.

لكن لم ينته السفر حينذاك بل استمر بعده أحد عشر إصحاحًا تحدثت عن أيوب.

وفي نهاية السفر في ٤٢/١٦ - ١٧: وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة ورأى بنيه، وبني بنيه إلى أربعة أجيال، ثم مات أيوب شيخًا وشبعان الأيام.

كل ما سبق حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن الكتاب من أصل أدومي أو تقليد لنص أدومي.

ولم يُحدَّد، على وجه الدقة تاريخ كتابة السفر؛ فالبيئة والظروف التي يتحدث عنها تشبه البيئة والظروف التي عاش فيها الآباء الأولون.

ولذلك يُحتمَل أنه يرجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وإن كانت هناك آراء تذهب إلى أنه وُضع في تاريخ متأخر من القرن الرابع قبل الميلاد، وربما بعد ذلك.

وكان الكاهن الأعظم يتلو سفر أيوب في يوم الغفران. ولا يزال السفارد يقرءونه في التاسع من آب.

سفر المزامير

سُمّي «سفر المزامير» بهذا الاسم؛ لأنه يحوي مجموعة من الأغاني تُنشَد بمصاحبة المزامير.

وتُقسَّم المزامير إلى خمس مجموعات (١)، (٤٢)، (٧٨)، (٩٠)، (١٠٧)، وتُختَم كل مجموعة بتسبيحة شكر.

وعدد المزامير مائة وخمسون مزمورًا تنسب إلى مؤلفين مختلفين؛ إذ ينسب لداود ثلاثة وسبعون مزمورًا، ولموسى مزمور واحد، ولأساف أحد عشر مزمورًا، ولبني قورح أحد عشر مزمورًا، ومزموران لسليمان، وآخر لايثان، وتسمى الباقية بالمزامير اليتيمة التي لا يعرف مَن قائلها.

ويتناول هذا السفر موضوعات كثيرة، كالترانيم والأدعية والتسابيح، والتعبير عن ثقة وإيمان المؤمنين بإله الكون، وأغانٍ تعبّر عن الحزن والفرح، وأناشيد تُغنّى في مناسبات مثل: يوم الزفاف الملكي، واعتلاء العرش، وفي الأعياد، وأغاني الأفراح والحروب.

وكان بعضُ المزامير يُغنّى بشكل جماعي، والبعض الآخر يُغنّى بشكل فردي.

١- ويشبه كثير من المزامير القصائد الأوجاريتية، كما يظهر في المزمور رقم ١٠٤ أثر قصيدة أخناتون التي يخاطب فيها معبوده الشمس، وتوجد أيضًا تأثيرات بابلية.

ولا يُعرَف على وجه الدقة متى أصبح إنشاد المزامير جزءًا من الصلوات في المعبد اليهودي، وإن كانت أغلبية الباحثين تميل إلى القول بأن ذلك تم بعد التهجير البابلي.

وقد أصبح كثير من المزامير جُزءًا من الصلوات اليهوديَّة والمسيحيَّة، نظرًا لجمال بعضها وبساطته.

ولكن البعض الآخر يتسم بالنزعة القومية العنصرية (بل العسكرية أيضًا).

وقد خُصِّصت بعض المزامير لمناسبات معيَّنة ولأيام محدَّدة.

وفي التراث القبَّالي، يُنظَر إلى المزامير باعتبارها «أسلحة» في يد المؤمن يبيد بها أعداءه.

٢- ومن ناحية أخرى، فإن إصحاحات السفر مرتبة في النص العبري بطريقة تختلف في هذا السفر عنها في الترجمة السبعينيَّة.

٣- والمتأمل في المزامير يدرك بوضوح كبير أن المزامير تعود للقرن السادس قبل الميلاد وتحديدًا إلى أيام السبي البابلي، وذلك يظهر من أمثلة متعددة منها في ٧٩/ ١- ٢: اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، ونجسوا هيكل قدسك، وجعلوا أورشليم أكوامًا، دفعوا جثث عبيدك طعامًا لطيور السماء.

ومثله في ١٤٧/ ٢ : الرب يبني أورشليم، يجمع منفى إسرائيل، يشفي المنكسري القلوب، ويجبر كسرهم.

ومثله في ١٣٧/ ١: على أنهار بابل جلسنا . . . بكينا أيضًا عندما تذكرنا صهيون، . . . لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحًا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون.

وهذه الأمثلة تثبت أن كتابة المزامير تأخرت عن داود ما لا يقل عن أربعة قرون؛ وعليه فلا تصح نسبتها إليه.

سفر الأمثال

وهو يضم مجموعة من الأمثال، ويتناول موضوعات مختلفة مثل: مخافة الإله، وطاعة الوالدين، واحترام المعلمين، والنهي عن المنكر، والأمر بالعدل، والصبر، وعدم الغش في الكيل، والتَّبصُّر في الأمور.

ويؤكد السفر أن الصالحين من العلماء سيُكافَئُون وأن الصالحين من الجهلاء سيُجازون.

١- والتوجه الأخلاقي للسفر فردي إنساني وليس قوميًّا.

٢- كما يخلو السفر من النهي عن عبادة الأوثان.

٣- وتُنسَب معظم أجزاء السفر إلى سليمان، كما تُنسَب أجزاء أخرى إلى مؤلفين آخرين حُدِّدت أسماء بعضهم، ولم تُحدَّد أسماء البعض الآخر.

٤- ويشبه السفر كتب الحكم والأمثال المصريَّة، كما يُلاحَظ تأثره بأدب الأمثال الكنعاني والآشوري.

٥- ويختلف ترتيب مجموعات الأمثال في النسخة العبريَّة عن ترتيبها في الترجمة السبعينيَّة، الأمر الذي يدل على تعدُّد المصادر.

وينسب الحاخامات نشيد الإنشاد وسفر الأمثال وسفر الجامعة إلى سليمان، فيقولون: إنه وضع الأول في شبابه، والثاني في تمام عقله وحكمته، والثالث في شيخوخته.

سفر الجامعة

يحاول واضعه أن يُعرِّف معنى الحياة وهدفها، ولكنه يرى أن كل شيء باطل وعبث، فيسقط في العدمية والحسية والقدرية، وشعاره هو «باطل الأباطيل، كل شيء باطل»، فكل شيء مقرَّر من قبل لا مجال للاختيار الإنساني.

ويرى صاحب السفر أن الحكمة والمعرفة لا جدوى من ورائهما، فلا فرق بين الحيوان والإنسان، ولا حساب بعد الموت، ولذا فيوم الوفاة خير من يوم الميلاد، وأن يذهب الإنسان للعزاء خير من أن يذهب ليبارك مقدم مولود.

١- وثمة تَماثُل في بعض الوجوه بين سفر الجامعة وبين الفلسفة اليونانيَّة؛ إذ يقول بركليس: «إن الخير كل الخير ألا يولد الإنسان أصلًا، ولكن ما يلي ذلك هو أن يموت الإنسان صغيرًا».

٢- وقد ضُمِّن السفر في العهد القديم برغم رؤيته اللادينية.

٣- ويبدو أنه قد وُضع في القرن الثالث قبل الميلاد، وكُتب في أسلوب دقيق سهل ناصع، ولغته قريبة من عبرية المشناه.

وينسب اليهود نشيد الإنشاد إلى سليمان، وكذلك سفر الأمثال وسفر الجامعة.

ويقولون: إنه كتب الأول في شبابه، والثاني في تمام عقله وحكمته، والثالث في شيخوخته. ويُقرأ سفر الجامعة في عيد المظال.

سفر نشيد الإنشاد

يضم نشيد الإنشاد قصائد حب كُتبت على هيئة حوار، وقد فسرها البعض على أنها مسرحية شعرية ذات فصول ومناظر، شخصياتها هي الراعية شولاميت وبنات أورشليم والراعي الشاب، وتدور أحداثها حول غرام سليمان بشولاميت التي كانت تحب الراعي بعد أن خطبت له، وبقيت وفية على حبها له إلى أن تزوجا في النهاية. ويرى البعض أنها مجرد أغاني حبٍّ وزفاف.

١- وتتسم قصائد السفر بالإسراف في التعبير عن عاطفة الحب والحسية في الوصف الأمر الذي أثار الجدل حوله، وقد تم تفسيره تفسيرًا رمزيًّا باعتباره نشيد زفاف جماعة إسرائيل إلى الإله، أو زفاف التوراة إلى جماعة إسرائيل.

ويُعَد نشيد الإنشاد من أهم أسفار العهد القديم من منظور التراث القبَّالي؛ لأنه يستخدم صورًا مجازية جنسية.

٢- ويُلاحَظ أن اسم الإله لم يُذكَر في هذا السفر إلا مرة واحدة (٨/ ٦): «اجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك؛ لأن المحبة قوية كالموت، الغيرة قاسية كالهاوية لهيبها لهيب نار لظى الرب».

ويُنسَب نشيد الإنشاد إلى سليمان، كما يُنسَب إليه الأمثال والجامعة. ويقولون: إنه وضع الأول في شبابه، والثاني في أيام العقل والحكمة، والثالث في شيخوخته.

سفر اشعياء

هو أول سفر في كتب الأنبياء.

وينسب السفر للنبي أشعياء في القرن الثامن قبل الميلاد، فقد عاصر الملك عزيا ثم يوثام ثم أحاز ثم حزقيا.

١- ولكن السفر يتحدث عن الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد مما يؤكد أن ثمة كاتب أو كاتبين أو أكثر قد كتبوا ذلك بعد أشعياء.

٢- ومن أمثلة ذلك حديثه عن بابل الدولة العظيمة وتنبؤه بانهيارها.

٣- وأيضًا حديثه عن كورش الفارسي الذي ردَّ اليهود من السبي. انظر ٤٤/ ٢٨، ٤٥/ ١ .

٤- كما يتحدث عن رجوع المسبيين والشروع في بناء الهيكل في الإصحاحات ٥٦- ٦٦ .

٥- وقال العالم الألماني أستاهلن: لا يمكن أن يكون الباب الأربعون وما بعده حتى الباب

السادس والستين من تصنيف أشعياء.

٦- ويذهب بعض الباحثين إلى أن هذا السفر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو أشعياء الأول يبدأ من الإصحاح ١ إلى الإصحاح ٣٩، ويرجع تاريخه إلى ٧٤٠ ق.م.

والقسم الثاني: هو أشعياء الثاني يبدأ من الإصحاح ٤٠ إلى الإصحاح ٥٦، ويرجع تاريخه إلى ٥٤٠ ق.م.

والقسم الثالث: هو أشعياء الثالث يبدأ من الإصحاح ٥٦ إلى الإصحاح ٦٦، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

سفر إرميا

أما سفر إرميا فلا تصح نسبته للنبي إرميا؛ إذ هو من عمل عدة مؤلفين.

١- بدليل تناقضه في ذكر الحادثة الواحدة.

ومن ذلك تناقضه في طريقة القبض على إرميا وسجنه. انظر: إرميا ٣٧/ ١١ - ١٥، ٣٨/ ١٣ .

٢- كما يحمل السفر اعترافًا بزيادة لغير إرميا، ففي ٣٣/ ٣٦: فأخذ إرميا درجًا آخر، ودفعه لباروخ بن نيريا الكاتب، فكتب فيه عن فم إرميا، كل كلام السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار، وزيد عليه أيضًا كلام كثير مثله.

وفي ٦٤/ ٥١: إلى هنا كلام إرميا. ومع ذلك يستمر السفر، فمن أكمله؟.

سفر مراثي ارميا

ويضم خمسة إصحاحات من المراثي تتناول هدم يهوذا وأورشليم والهيكل على يد البابليين.

وتقرر المراثي أن ما حدث من خراب ودمار لأورشليم، إنما هو نتيجة أعمال قاطنيها وشرورهم.

ويبكي الشاعر احتلال أورشليم ورحيل حكامها، ويدعو إلى التوبة ويأمل في رحمة الإله وفي انتقامه من الأعداء، وأخيرًا فإنه يستعطف الإله ويرجوه إرجاع المجد القديم.

ويُنشد السفر في التاسع من آب.

١- توجد كتب مراث للمدن المهدمة في الأدب السوري والأكادي، وكلها تتناول موضوعات مثل: المجاعة وتهديم المدينة والمعبد ونهب المدينة والأسر والنحيب، وهو ما يشير إلى احتمال تأثيرها في مراثي إرميا.

٢- من الواضح أن له أكثر من مؤلف.

سفر حزقيال

سفر حزقيال ثالث الأسفار في كتب الأنبياء الكبار، وحزقيال معاصر لإرميا، وقد كان على دراية تامة بتعاليمه وصوره المجازية الإيضاحية.

١- السفر مكتوب بضمير المتكلم، وأسلوبه شعري ويحوي صورًا مجازية ورموزًا عديدة.

٢- قد استخدم حزقيال الزنى كصورة مجازية، وهي الصورة التي استخدمها هوشع من قبل، ولكنه طورها.

كما أنه كان يرى أن تاريخ الشعب كله، منذ الخروج، تاريخ عصيان. انظر: ٢٠/ ١- ٣٨ .

٣- يرى الباحثون أن أعمال -أسلوب- حزقيال ليست مرتفعة القيمة.

سفر دانيال

هذا السفر ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المعروف باسم دانيال: يضم الإصحاحات من ١ إلى ٦، وتضم ست قصص عن محن دانيال وانتصاراته هو ورفاقه الثلاثة.

القسم الثاني: ويضم الإصحاحات من ٧ إلى ١٢، وهنا تتغيّر شخصية دانيال، ويتحول من حكيم يفسر الأحلام، والإشارات للملوك، ومن وزير يقع ضحية دس منافسيه إلى صاحب رؤى (أبوكاليبس). فدانيال هو نفسه الذي يرى الأحلام المفزعة هذه المرة، ويقوم ملاك بتفسيرها له.

ويثير سفر دانيال كثيرًا من الجدل.

فهو أولًا: لا يَرِدُ ضمن كتب الأنبياء في النسخة العبريَّة من العهد القديم، وإنما يَرِدُ ضمن كتب الحكمة. أما الترجمة السبعينيَّة، فتورده في القسم الخاص بالأنبياء، ولعل هذا يعود إلى أن نصَّ السفر كُتب متأخرًا كما أنه كُتب بالعبريَّة والآراميَّة.

وثانيًا: هذا السفر في عداد القسم المسمَّى بالكتب في العهد القديم، وقد كُتب بعضه بالعبريَّة وبعضه بالآراميَّة.

وثالثًا: إن الجزء الثاني من سفر دانيال يُعَد من كتب الرؤى (أبوكاليبس)، والتي تختلف اختلافًا جوهريًّا عن كتب الأنبياء.

فبينما تركز كتب الرؤى على تفسير التاريخ تفسيرًا عجائبيًّا غير أخلاقيًّا، حيث يأتي الخلاص ويصبح كل ما يحدث في التاريخ الإنساني مصيرًا محتومًا، تركز كتب الأنبياء على الخلاص التدريجي، ومن خلال الإرادة الإنسانية.

ورابعًا: إن بعض الباحثين يرى أن هذا السفر كتبه علماء المجمع الكبير.

وخامسًا: إن معظم العلماء يرون الآن أن الجزء الأكبر كُتب عام ٣٠٠ ق.م، أما الثاني، فكُتب في عهد أنطيوخوس الرابع في وقت كانت اليهوديَّة تتعرض فيه للاضطهاد الشديد على يد هذا الحاكم السلوقي، ولذا فإن رسالة الأمل التي يحملها السفر مناسبة للعصر.

وسادسًا: إنه لا يمكن أن يكون قد كتب في ذلك الزمن البعيد الذي روي أنه عاش دانيال فيه أي عندما سقطت بابل في يد الملك الفارسي كورش عام ٥٣٨ ق. م بل لا بد أن يكون هذا السفر قد كتب بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة للأسباب التالية:

١- يتضمن هذا السفر كلمات مقدونية مع أن اليهود في الأسر البابلي لم يكونوا قد خالطوا اليونان ولا حكت أسماعهم للغة اليونانيَّة.

٢- إن هذا السفر فيه وصف للكلدانيين لا يتسنى الإتيان به لكاتب سابق على عصر الإسكندر.

٣- اقتبس طرفًا من أقوال إرميا وحزقيال وزكريا مع أن هؤلاء الأنبياء متفرقون في الزمن، فإرميا بداية الأسر، وحزقيال في وسطه، وزكريا في أواخر الدولة الفارسية.

سفر هوشع

سفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار.

والصورة المجازية الأساسية في سفر هوشع هي صورة الزنى، فأول ما يبدأ السفر ١/ ٢: أول من كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى؛ لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الأرض.

وقد أنجب هوشع من زوجته الزانية ثلاثة أبناء لهم أسماء رمزية:

فالأول: سماه: يزرعئيل، باسم البقعة التي ذبح فيها ياهو أسرة آخاب، ففي ١/ ٤: لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل.

والثاني: طفلة سماها: لورحامة -من العبريَّة: لا رحمة- ففي ١/ ٦: لأنني لا أعود أرحم بيت إسرائيل بل أنزعهم نزعًا.

والثالث: سماه: لوعمي -من العبريَّة: «ليس شعبي»- ففي ١/ ٩: لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم.

فذنب جماعة إسرائيل هو سلوكها اللاأخلاقي واعتمادها على القرابين والقوة العسكرية.

ويهيب هوشع دائمًا بالماضي فيشير إلى يعقوب، وإلى الخروج والتيه، فالرب هو الذي أخرج الشعب من مصر، ولكن الشعب إثبت أنه غير وفيٍّ حتى قبل أن يصل إلى أرض الميعاد.

وحينما وصلوا إلى هناك، أخفقوا في معرفة مصدر نجاحهم الحقيقي ونسبوا إلى بعل الخيرات التي منحهم يهوه إياها؛ ولذا فإن الرب سيعاقب الأمة ويلحق بها الخراب وينقل سكانها.

ولكن، مع كل هذا، ورغم فساد الأمة، فإن يهوه في علاقته بجماعة إسرائيل يشبه هوشع في علاقته بزوجته الزانية.

فيهوه هو الزوج الذي تركته زوجته الزانية التي تسير مع الفساق الآخرين، ولكنه مع هذا يظل على حبه لها.

ولذا، وإلى جانب العقاب والوعيد، فإن هوشع يدعو الشعب للتوبة ويبشر بالعودة (١٤/ ١ . ٩).

ويمكن القول بأن العلاقة بين يهوه والشعب علاقة حب مشبوب لا يمكن أن تنال منه خطايا الشعب.

وتوجد في السفر صور مجازية أخرى مثل صورة الأب والابن ١١/ ١ . ٣، والطبيب والمريض ٧/ ١، والصائد والطير ٧/ ١٢ .

سفر يوئيل

يوئيل أحد الأنبياء الصغار.

ويمكن تقسيم سفر يوئيل إلى قسمين:

القسم الأول: ويضم الإصحاحين الأول والثاني اللذين ترد فيهما نكبة الجراد.

القسم الثاني: ويضم الإصحاحين الثالث والرابع اللذين يتناولان يوم الرب حينما يعيد الرب شعبه من السبي ويعاقب أعداءه.

والتاريخ الذي كُتب فيه السفر غير معروف، فمن العلماء من يظن أن كاتبه كان معاصرًا لأشعياء، ومنهم من يذهب إلى أنه عاش في ملك يوشيا، ولكن ثمة اتفاقًا عامًّا بين العلماء على أن يوئيل تنبأ بعد العودة من بابل.

سفر عوبديا

عوبديا رابع الأنبياء الصغار.

يوجه اللوم العنيف في سفره إلى أدوم؛ لأنها لم تهبَّ لمساعدة القدس ساعة محنتها، ويؤكد فيه أن يوم الرب قريب.

ومن غير المعروف متى كُتب السفر، ولكن من المتفق عليه أنه كُتب بعد هدم الهيكل.

سفر يونان

يونان -يونس- خامس الأنبياء الصغار.

وقد ورد في هذا السفر أن الإله طلب إلى يونان أن يذهب إلى نينوى، عاصمة الإمبراطورية

الآشورية، ليعلن خرابها.

ولكن القوم في نينوى أصغوا إلى نصيحة يونان وتابوا، فلم يُخرِّبها الإله وصفح عنهم، فاغتم يونان لذلك فقرَّعه الإله.

كما ورد في السفر حادثة ابتلاع الحوت ليونان، حيث مكث في بطنه ثلاثة أيام.

سفر حبقوق

حبقوق أحد الأنبياء الصغار.

والسفر في أساسه فيما يُرجح العلماء مكوَّن من إصحاحين الأول والثاني، أما الإصحاح الثالث فله جانب أسطوري واضح، ولذا افتُرض أنه منحول.

ومما يؤكد ذلك اكتشاف تفسير للسفر في قمران لا يحتوي إلا على الإصحاحين الأولين منه.

سفر زكريا

زكريا أحد الأنبياء الصغار.

وقد كتب زكريا سفره أثناء حكم دارا الأول وبعد العودة من بابل، وكان زكريا من الكهنة.

وتتعلق نبوءاته بتجميع المنفيين، والتحرر من النير الأجنبي، وتوسيع القدس.

وهو يصف رُؤَاهُ وتفسيرها من خلال ملاك.

وينسب بعض العلماء الإصحاحات من ٩ إلى ١٤ إلى مؤلف آخر عاصر فترة الهيكل الأول، وذلك على أساس لغتها ومضمونها.

الوصايا العشر

أي «الكلمات العشر» التي كُتبت على لَوْحَيْ حجر (تثنية ٤/ ١٣). ووردت العبارة نفسها تقريبًا في سفر الخروج (٣٤/ ٢٨): «فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر».

وثمة مشاكل عديدة تثيرها الوصايا العشر:

أولًا: أن من المتفق عليه في الموروث الديني اليهودي أن موسى ذهب إلى جبل سيناء، وصام أربعين يومًا، ونزلت عليه الوصايا هناك، لكنه حطمها عندما اكتشف أن أعضاء جماعة إسرائيل يعبدون العجل الذهبي، وعاد فصام أربعين يومًا أخرى، وأعطاها الإله له مرة أخرى.

ولكن ليس من المعروف على وجه الدقة هل أعطاها الإله له مباشرة، وقام هو بتوصيلها للشعب أم أنه أعطاها له على مسمع من الشعب، أم أن الإله أعطاها للشعب مباشرة.

وهناك إشارات عديدة إلى كل هذه الاحتمالات في سفر الخروج (١٩/ ٩ ـ ٢٥ و٢٠/ ١٨ ـ ٢)، وسفر التثنية (٤/ ١٠ و٥/ ٤ـ ٥ و٥/ ٢٢)، بل يُقال في الاجتهادات الحاخامية: إن الإله خطها

بإصبعه على جانبي اللوحين (لَوْحَيْ الشهادة)، أي أنها كانت صيغة مقروءة وليست مسموعة؛ استنادًا إلى النص الوارد في سفر الخروج (٣١/ ١٨، ٣٢/ ١٥ ـ ١٦).

ثانيًا: لكن المشكلة الأكثر حدة هي ما أثاره نقاد العهد القديم؛ فالإشارة الواردة في سفر الخروج إلى الكلمات العشر تتعلق بالصيغة المألوفة الواردة في سِفْرَي الخروج (٢٠/ ١ ـ ٧) والتثنية (٥/ ٦ ـ ٢١).

ولكن هناك صيغة ترد مباشرة قبل عبارة «الكلمات العشر» في سفر الخروج (٣٤/ ٢٨)، وهي في سفر الخروج أيضًا وفي الإصحاح نفسه (٣٤/ ١١ ـ ٢٦)، وهي تختلف تمامًا عن الصيغتين الأخريين المألوفتين شكلًا ومضمونًا.

ولنبدأ بنص الصيغة غير المألوفة: «احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها؛ لئلا يصيروا فخًّا في وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم:

١- فإنك لا تسجد لإله آخر؛ لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم، فتُدعَى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك، فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن.

٢- لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة (أي من معدن مصهور).

أما بقية الوصايا، فجاءت على النحو التالي:

٣- تحفظ عيد الفطير (الفصح). سبعة أيام تأكل فطيرًا كما أمرتك في وقت شهر أبيب؛ لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر.

٤- لي كل فاتح رحم. وكل ما يُولَد ذكرًا من مواشيك بكرًا من ثور وشاه. وأما بكر الحمار فتفديه بشاة، وإن لم تفده تكسر عنقه. كل بكر من بنيك تفديه ولا يظهروا أمامي فارغين.

٥- ستة أيام تعمل. وأما اليوم السابع فتستريح فيه، في الفلاحة وفي الحصاد تستريح.

٦- وتصنع لنفسك عيد الأسابيع.

٧- أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع في آخر السنة. ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل؛ فإني أطرد الأمم من قدامك وأوسع تخومك ولا يشتهي أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب إلهك ثلاث مرات في السنة.

٨- لا تذبح على خمير دم ذبيحتي.

٩- ولا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح. أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الإله إلهك.

١٠- لا تطبخ جديًا بلبن أمه.

الملاحظات النقديَّة على هذه الصيغة:

١- يرى نقاد العهد القديم أن هذه الصيغة تعود إلى المصدر القيني (K) أقدم مصادر العهد القديم، وهو مصدر يختلف اختلافًا تامًّا عن المصادر الأخرى نصًّا وروحًا.

٢- يشير نقاد العهد القديم إلى هذه الصيغة باعتبارها «الوصايا القربانية»؛ لأنها تحتوي على عدد كبير من الطقوس الخاصة بالأعياد والقرابين، كما أن الأخلاقيات الواردة فيها بدائية إلى أقصى حد تعكس بيئة رعوية.

٣- يرى أحد نقاد العهد القديم أنه توجد صيغ أخرى مثل تلك الواردة في خروج (١٣/ ٣ . ١٦، ٢٣/ ١٠ . ١٩)، وهي لا تختلف كثيرًا عن الصيغة السابقة في بدائيتها، وتعكس بيئة شمالية أكثر ثراءً.

كما يشيرون إلى صيغ أخرى موجودة بشكل متناثر في سفر التثنية.

٤- يُفسَّر تعدُّد الصيغ بالإشارة إلى الثورات المختلفة في المملكة الشماليَّة والمملكة الجنوبية ضد العبادات الأجنبية، وأن كل ثورة كانت تؤكد صيغة جديدة.

- وأهم الصيغ التي وردت هي، كما تَقدَّم، في سفري الخروج (٢٠/ ١ . ١٧) والتثنية (٥/ ٦ . ٢١)، والصيغتان متشابهتان تمامًا إلا في تفاصيل قليلة لا دلالة لها، باستثناء الوصية الثالثة حيث نجد أن ثمة اختلافًا جوهريًّا بين الصيغتين، والوصيتين التاسعة والعاشرة حيث هناك تباينات لفظية.

وقد أوردنا فيما يلي الصيغة الأولى بأكملها، بعد أن أثبتنا بين قوسين في السياق الوصايا الثالثة والرابعة والتاسعة والعاشرة في صياغتها الأخرى:

ثم تكلم الإله بجميع هذه الكلمات قائلًا: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبوديَّة:

١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي.

٢- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا؛ لأن الرب لا يُبرئ من نطق اسمه باطلًا.

٣- اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه [وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا

فيه عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذي في أبوابك لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك. واذكر أنك كنت عبدًا في أرض مصر. فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة. لأجل ذلك أوصاك الإله إلهك أن تحفظ يوم السبت].

٤- أكرم أباك وأمك لكي تطول على الأرض التي يعطيك الرب إلهك [أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك؛ لكي تطول أيامك ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك].

٥- لا تقتل.

٦- لا تزنِ.

٧- لا تسرق.

٨- لا تشهد على قريبك شهادة زور.

٩- لا تشتهِ بيت قريبك [لا تشته امرأة قريبك].

١٠- لا تشتهِ امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك [لا تشته بيت قريبك، ولا حقله، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا كل ما لقريبك]».

ويمكن تقسيم الوصايا على النحو التالي من (١) إلى (٣): وصايا تختص بعلاقة الإنسان بالإله، وبقية الوصايا تختص بعلاقة الإنسان بالإنسان.

الملاحظات النقديَّة على هذه الصيغة:

١- تبدأ الوصايا بالإله يُعرِّف نفسه، وأهم سماته هي مساهمته في التاريخ اليهودي، فهو يُعرِّف نفسه بأنه الإله الذي «أخرجك من أرض مصر وأرض العبودية»؛ أي أن ديباجة الوصايا العشر ذات طابع حلولي ترسِّخ الإحساس بالعلاقة الخاصة بالإله الذي يتدخل في التاريخ لصالح جماعة إسرائيل، وتعمِّق الإحساس بكره الأغيار (المصريين).

٢- كما يُلاحَظ أن فكرة التوحيد ليست كاملة؛ إذ إن هذه الوصية تعترف ضمنًا بوجود آلهة أخرى.

٣- أما الوصية الأولى، فهي تتحدث عن الإله الغيور الذي يتعقب ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائه، وهي بذلك تنسب صفات بشرية إلى الإله، وتتضمن أخلاقيات بدائية إذ يصبح الشر والخير بالضرورة مسألة موروثة وليست مسألة دينية مرتبطة بقيم أخلاقية وبالاختيار والمسئولية الفردية.

٤- أما الوصية الثالثة، فهي الوصية التي يرد فيها تفسيران مختلفان لتقديس يوم السبت، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى تعدُّد المصادر، ولكن الحاخامات فسروا الاختلاف باعتبار أنه يعود إلى أن

موسى حطم لَوْحَي العهد، فلما عاد أتى بنسخة أخرى من الوصايا، وكانت النسخة الأخرى غير مطابقة تمامًا للنسخة الأولى. وقد فسر آخرون هذا الاختلاف بأنه معجزة محضة، فقد أرسل الإله النسختين في آن واحد. وهو التفسير الذي ساد والذي يتسق إلى حدٍّ كبير مع تركيب اليهوديَّة الجيولوجي التراكمي الذي تتعايش داخله الطبقات المتراكمة المتناقضة.

ولهذا التفسير الحاخامي الأخير دلالة خاصة. فالصيغتان الأولى والثانية، كما بيَّنا، تتفقان في كل التفاصيل تقريبًا، إلا في الوصية الثالثة التي تختص بتقديس يوم السبت، حيث يختلف تفسير مصدر القداسة من صيغة إلى أخرى، فصيغة سفر الخروج (٢٠/ ١١) تورد أن الإله قد خلق الأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، أما سفر التثنية (٥/ ١٥) فيذكر أن ذلك اليوم مقدَّس؛ لأنه اليوم الذي أخرج الإله فيه جماعة إسرائيل من مصر؛ أي أنه من خلال ربط الصيغتين يتم مزج المقدَّس بالدنيوي والإلهي بالقومي؛ فقد ساوت الصيغتان الحادثة الكونية (خلق العالم أو الطبيعة) بحادثة قومية تاريخية (الخروج من مصر) في بداية التاريخ اليهودي.

وهكذا ترتبط الطبيعة والتاريخ، ويُمنَح اليهود عطلة يوم السبت لسببين: أحدهما كوني، والآخر تاريخي يختص بالشعب المقدَّس، ولكنهما يتساويان في الدرجة.

والسبت في هذا لا يختلف عن معظم الأعياد اليهوديَّة التي هي أعياد دينية تاريخية وهي في الوقت نفسه أعياد طبيعية لا علاقة لها بالدين أو التاريخ أو الأخلاق.

وفي هذا اتساق مع النمط الحلولي الذي لاحظناه، وهو تداخل النسبي والمطلق، والدنيوي والمقدَّس، وإضفاء مركزية كونية على التاريخ اليهودي.

٥- تعالج بقية الوصايا قضايا أخلاقية عامة ومهمة لتنظيم أي مجتمع، وإن كان هناك تخصيص في الوصية الأخيرة التي توصي اليهودي بعدم ارتكاب المعاصي ضد أقاربه من اليهود، وتلتزم الصمت تجاه الأغيار.

٦- ثمة تشابه واضح بين الوصايا العشر في موضوعاتها وعناصرها الأساسية وأقسامها وترتيب أجزائها من جهة والمعاهدات المعروفة في حدود النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م، مثل المعاهدات المبرمة بين الملوك الحيثيين والدويلات الخاضعة لهم من جهة أخرى.

فهذه المعاهدات تبدأ بديباجة أو مقدمة تاريخية، يليها شروط تتعلق بحفظ المعاهدة.

وقد أخذت الوصايا العشر شكل إحدى هذه المعاهدات؛ فالرب هو الحاكم الإلهي الذي يذكر لعبيده أفضاله عليهم، وما أسدي إليهم من جميل، ثم يملي عليهم شروطه، ويهدد بإنزال العقوبات على المخالفين منهم.

كما كانت مثل هذه المعاهدات تتطلب أن تُقرأ نصوص المعاهدة علنًا بشكل دوري، وأسلوب الوصايا العشر يدل على أنه يجب قراءتها بصوت عالٍ على الملأ.

وقد وُضعت الوصايا العشر في سفينة العهد التي كان يُنظَر إليها باعتبارها مسند قدم الإله.

والواقع أن هذه العادة سادت الشرق الأدنى القديم حيث كانت تُودَع نسخ من المعاهدات تحت أقدام الإله الذي شهد عليها.

٧- ثمة تشابه بين الجانب الأخلاقي في الوصايا وبين الدليل الذي كان يُوضَع بجوار الموتى في مصر الفرعونية، ليهديهم في اليوم الآخر، والمسمَّى «إعلان البراءة»، الذي ورد فيه: «لم أسرق؛ لم أطمع في شيء؛ لم أقتل إنسانًا؛ لم أكذب؛ لم أزنِ».

ثالثا: قد أصبحت الوصايا العشر جزءًا من الصلاة التي تتلى في عيد الأسابيع (عيد نزول التوراة) وهو ما يدل على أنه كان هناك عيد إسرائيلي قديم (لتجديد العهد)، وأنه كان يتضمن قراءة نصوص الوصايا العشر.

وكانت الوصايا العشر، في الأصل جزءًا من الصلاة في الهيكل، وكان اليهود يريدون أن تصبح هذه الوصايا جزءًا من الصلاة اليومية، ولكنهم مُنعوا من ذلك، حتى تُدحَض ادعاءات الفرق اليهوديَّة المهرطقة التي كانت تدَّعي أنها وحدها المنزلة من الإله وما عدا ذلك فهو اجتهاد بشري؛ ولذا فهو غير مُلزم لأحد.

وردًّا على ذلك، جاء في الأجاداه أن هذه الأوامر والنواهي كانت مكتوبة على لَوْحَي العهد في الفراغات بين الكلمات، وهذه محاولة لخلع القداسة على الشريعة الشفوية التي يحمل الحاخامات مشعلها.

ولكل هذا، لم تُضَم الوصايا العشر إلى الصلوات اليومية.

والواقع أن الأهمية الخاصة والوحيدة لهذه الوصايا هي أن المصلين يقفون عند تلاوتها في المعبد.

وفي احتفالات بلوغ اليهودي سن التكليف الديني (برمتسفا) في المعابد الإصلاحية، يقوم المُحتفَل به بتلاوتها أمام تابوت العهد.

وقد أضاف حاخامات اليهود ما يُسمَّى الأوامر والنواهي أو المتسفوت وعددها ٦١٣ .

ويوجد أيضًا ما يُسمَّى شريعة نوح، وهي تضم مجموعة من الأوامر والنواهي الملزمة لليهود وغير اليهود[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تحريف الكتاب المقدس، المدخل إلى العهد القديم ص(٨٤- ٨٨)، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص(٢٨- ٣٠).

الفصل التاسع

أثر نقد العهد القديم في اليهوديَّة والنصرانيَّة المعاصرة

إن نقد العهد القديم كان له أثر واضح بيِّن في اليهوديَّة المعاصرة، وذلك على النحو التالي:

١- **اليهوديَّة الإصلاحيَّة:** تنطلق اليهوديَّة الإصلاحية من تَقَبُّل نتائجه، فهي تنطلق من دنيويَّة أو نسبية أو تاريخية أو زمنية التراث الديني اليهودي بأسره، وهذا ما يعني أنه ليس مرسلًا من الإله وإنما نتيجة قريحة عقل الإنسان، وربما بإلهام وليس بوحي من الإله.

٢- **اليهوديَّة المحافظة:** لا تختلف اليهوديَّة المحافظة أو التجديدية عن اليهوديَّة الإصلاحية في هذه الناحية إلا من ناحية الدرجة.

٣- **اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة:** تبقى اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة وحدها هي التي ترفض نقد العهد القديم.

٤- **الصهيونيَّة:** إن الصهيونيَّة وسائر التيارات التي تعرِّف اليهوديَّة بأنها انتماء إثني أو عِرْقي، وليس دينيًا، تستند إلى معطيات نقد العهد القديم الذي يحوِّل كتب اليهود المقدَّسة إلى شكل من أشكال الفلكلور.

٥- **أما الفكر النصراني،** فقد استفاد بنقد العهد القديم في نقده اليهوديَّة؛ إذ يشير كثير من المفكرين النصارى الدينيين إلى أن اليهوديَّة تحوي عناصر وتراكمات وثنية عديدة حاول الأنبياء القضاء عليها وتطهير النسق الديني اليهودي منها، وقد نجحوا في ذلك بعض الوقت.

ولكن اليهوديَّة سقطت مرة أخرى في الوثنية والعبادة القربانية، والالتفاف حول الهيكل، والانغماس في النزعة العِرْقية.

ولذا، فلم يكن بالإمكان إنقاذ الجوهر الديني الحق لليهودية إلا عن طريق المسيحيَّة.

هذه هي وجهة وموقف المفكرين النصارى تجاه علم نقد العهد القديم، ولكن عند تطبيق هذا العلم على العهد الجديد فسنجد نفس النتائج التي وجدت هنا، فماذا سيكون موقف هؤلاء النصارى المفكرين حينئذ؟![1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الباب الرابع
التَّلمود

الفصل الأول: التعريف بالتلمود، وأهمية التلمود عند اليهود.
الفصل الثاني: مكونات التلمود.
الفصل الثالث: موضوعات التلمود.
الفصل الرابع: تاريخ التلمود.
الفصل الخامس: طبعات وترجمات التلمود وما طرأ عليه من حذف وتغيير.
الفصل السادس: صور مما ورد في التلمود.
الفصل السابع: مكانة التلمود في إسرائيل.

الفصل الأول

التعريف بالتلمود واهميته عند اليهود

التلمود: كلمة مشتقة من الجذر العبري «لامد»، الذي يعني الدراسة والتعلم، كما في عبارة «تلمود توراه»، أي «دراسة الشريعة».

ويعود كل من كلمة «تلمود» العبريَّة وكلمة «تلميذ» العربيَّة إلى أصل سامي واحد.

وتجري هذه الكلمة على عدة معان:

١- التلمود بمعنى التعليم والتعلم والدرس (المدراش).

٢- تدل على التدريس بواسطة نصوص الكتاب المقدس، والاستنتاجات التفسيرية المستخلصة من دراسة تلك النصوص حيث يتم شرح الأصول الشرعية والأحكام الفقهية بالاستناد إلى النصوص التوراتية.

٣- التلمود بمعناه اللاحق كمصنف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهوديَّة.

وحينئذ يمكننا أن نعرف التلمود كالآتي

التلمود مُصنَّف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهوديَّة، وسجل للمناقشات التي دارت في الحلقات التلمودية الفقهية اليهوديَّة حول المواضيع القانونية (هالاخاه) والوعظية (أجاداه).

وقد أصبح التلمود مرادفًا للتعليم القائم على أساس الشريعة الشفوية (السماعية).

أهمية التلمود عند اليهود

يعتقد اليهود أن موسى عليه السلام كان قد تلقى في سيناء شريعتين، أو توراتين في عرفهم، التوراة المدونة التي كتبها موسى بإملاء من الله مباشرة، والتوراة الشفوية التي نقلت عبر سلسلة معصومة من الرواة الثقات من موسى، إلى قادة اليهود وعنهم إلى الفريسيين.

ويقصدون بالتوراة -أو الشريعة- الشفوية: السنن والتقاليد المتواترة التي تنقل شفاهةً، وهي التي شكلت من بعد مادة التلمود ومفرداته.

وبذلك يصبح التلمود من أهم الكتب الدينيَّة عند اليهود، فهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية.

ويذهب البعض إلى أن التلمود هو تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة)، إلا أن هذا التفسير -كلمات علماء التلمود- كان يوحي بها الروح القدس نفسه (روح هقودش) باعتبار أن الشريعة الشفوية مساوية في المنزلة للشريعة المكتوبة.

ويخلع التلمود القداسة على نفسه بهذا الاعتبار فقد جاء فيه: أن الإله وافق على أنه يجب أن يُفسِّر الحاخامات ما قاله هو.

ومما ساعد التلمود على اكتساب مركزية في الفكر الديني اليهودي جهل أوربا المسيحيَّة بوجوده حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وهو ما يعني أنه أصبح الرقعة اليهوديَّة الخالصة، بعد أن اعتبرت الكنيسة العهد القديم (كتاب اليهود المقدَّس) أحد كتبها المقدَّسة.

وحل التلمود محل التوراة في العصور الوسطى باعتباره كتاب اليهود المقدَّس الأساسي، حتى إن كثيرًا من الحاخامات كانوا يعرفون التلمود أساسًا ويعرفون العهد القديم بدرجة أقل.

وقد تركزت في التلمود -بعد تدوينه- كل السلطة الدينيَّة والروحية في اليهوديَّة، حتى إن كل قرار في الحياة اليهوديَّة، مهما علا شأن هذا القرار أو صَغُر، قد جرى اتخاذه وفقًا للسلطة التلمودية.

فمنذ نهاية القرن السابع للميلاد، ومع مطلع القرن الثامن، صار التلمود العامل الجوهري في التجربة الدينيَّة للجماعات اليهوديَّة؛ إذ أصبح المعيار السائد المقبول في كل ما يتعلق بحياة اليهود وأعمالهم ونشاطهم الفكري.

حتى إننا حينما نتحدث عن «اليهوديَّة» بعد ذلك التاريخ، فإننا في واقع الأمر نتحدث عن «اليهوديَّة الحاخامية»؛ أي «التلمودية».

وقد استُخدم التلمود حتى نهاية القرن التاسع عشر أساسًا للتربية بين أعضاء الجماعات اليهوديَّة، فكان الدارسون في كثير من الجماعات اليهوديَّة في الغرب يستذكرونه سبع ساعات يوميًا طوال سبع سنوات.

وتظهر الحلوليَّة والانعزالية في تلك القداسة التي تحيط بالتلمود.

وهو في الواقع -كما أسلفنا- مجرد تفسير للعهد القديم وضعه الحاخامات، إلا أنه مثله مثل كل كتب التفسير اليهوديَّة، يكتسب قداسة خاصة.

وقد سيطرت أسطورة الشريعة الشفوية على الوجدان اليهودي سيطرة تامة بعد ظهور المسيحيَّة، فكان يُنظر إلى التلمود في بداية الأمر باعتبار أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد التوراة، ولكنه أصبح بعد حين يُلقَّب بالتوراة الشفوية، أي صار مساويًا لتوراة موسى في المرتبة، ولم يَعُد في وسع أي يهودي مخالفته.

وأخذت درجة قداسته في الازدياد والاتساع حتى أصبح أكثر قداسة من التوراة نفسها، ويعدون التوراة خبزًا ويرون الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، وأن الأدْمَ هو التلمود.

وقد جاء في التلمود: إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس (المشنا) فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس (الجمار) فعل أعظم فضيلة.

وقال أحد الحاخامات: يا بني كن حريصًا على مراعاة أقوال الكتبة [أي الحاخامات واضعي التلمود] أكثر من حرصك على أقوال التوراة؛ لأن أحكام التوراة تحوي الأوامر والنواهي. أما شرائع الكتبة؛ فإن من ينتهك واحدة منها يجلب على نفسه عقوبة الإله (أو عقوبة الموت لنفسه).

وجاء أيضًا: التفت يا بني إلى أقوال الحاخامات أكثر من التفاتك إلى شريعة موسى.

وجاء أيضًا أنه: من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت، دون من احتقر أقوال التوراة، ولا خلاص لمن ترك التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى، وهي أفضل من أقوال الأنبياء.

وجاء في أحد كتبهم المسمى (الهمار) وهو شرح على التوراة: إن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، والخبز هو التوراة بل يلزمه شيء آخر وهو أقوال الله كقواعد وحكايات التلمود.

وجاء في التلمود: إن القساوة أو التقليد الصارم بتعاليم الكتبة هو أشد منه بالنسبة إلى التوراة.

وجاء أيضًا: إن تدرس التوراة ولا تلتفت إلى المشنا فإنك تقترف إثما بحق من أعطى التوراة؛ إذ لا يمكن فهم التوراة فهمًا صحيحًا دون شروحات المشنا وتفسيراته[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٥٠١)، الكنز المرصود في قواعد التلمود، روهلنج، واشيل لوران، ترجمة: د. يوسف نصر الله، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٨٣)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(١١٨، ٥٥، ٥٦)، اليهودية، د. أحمد شلبي ص(٢٦٦).

الفصل الثاني
مكونات التلمود

التلمود كتاب ضخم متعدِّد الأجزاء، مجلداته كثيرة وضخمة تصل في بعض الطبعات إلى ما يزيد على عشرين مجلدًا.

وهناك طبعة إفري مانز تلمود المختصرة.

وهناك تلمودان:

١- التلمود الفلسطيني: وينسبه اليهود خطأً إلى أورشليم (القدس) فيقولون: «الأورشليمي»، ذلك مع أن القدس خلت من المدارس الدينيَّة بعد هدم الهيكل الثاني، وانتقل الحاخامات إلى إنشاء مدارسهم في يفنة وصفورية وطبرية.

كما أطلق يهود العراق على التلمود الفلسطيني اسم «تلمود أرض بني إسرائيل»، وأطلقوا عليه أحيانًا اسم «تلمود أهل الغرب»؛ نظرًا لوقوع فلسطين إلى الغرب من العراق.

٢- التلمود البابلي: وهو نتاج الحلقات التلمودية (أكاديمية - يشيفا) في العراق (بابل)، وأشهرها سورا ونهاردعه وبومبديثا.

ويُعرَف هذا التلمود في حالات نادرة جدًّا باسم «تلمود أهل الشرق».

وكلا التلمودين مُكوَّن من: المشناه والجماراه.

١- المشناه

مِشْنَاه: كلمة عبرية مشتقة من الفعل العبري «شنَّاه» ومعناه «يُثنِّي» أو «يكرر».

ولكن، تحت تأثير الفعل الآرامي «تانا»، صار معناها «يدرس».

ثم أصبحت الكلمة تشير بشكلٍ محدد إلى دراسة الشريعة الشفوية أو التثنية الشفوية، وخصوصًا حفظها وتكرارها وتلخيصها.

والمشناه مجموعة موسوعية من الشروح والتفاسير تتناول أسفار العهد القديم، وتتضمن مجموعة من الشرائع اليهوديَّة التي وضعها معلمو المشناه (تنائيم) على مدى ستة أجيال (١٠. ٢٢٠م).

وقد رتبت مادتها حسب المسائل وصنفت تبعًا لذلك إلى ثلاث وستين عنونًا.

٢- الجماراه

جِمَاراه: كلمة آرامية تعني «التتمة» أو «التكملة» أو «الدراسة».

وهي عبارة عن التعليقات والشروح والتفسيرات التي وضعها على المشناه الفقهاء اليهود الذين يسمَّون بالشراح (أمورائيم) في الفترة ٢٢٠ . ٥٠٠م. وهي تأخذ عادةً شكل أسئلة وأجوبة.

والمشناه يمثل النص والمتن ولذلك فهو في كل من التلمودين واحد لا اختلاف بينهما، أما الجماراه فيمثل الشرح أو التفسير، ولذلك فهو اثنتان: إحداهما وُضعت في فلسطين، والأخرى في العراق.

ولما كانت الجماراه البابلية أكمل وأشمل من الجماراه الفلسطينيَّة، فإن التلمود البابلي هو الأكثر تداولًا، وهو الكتاب القياسي عند اليهود.

ولذا، فحين يُستخدَم لفظ «التلمود» بمفرده، محلًّى بأداة التعريف، فإن المقصود به هو التلمود البابلي دون سواه، وذلك على أساس الميزة والأفضلية والتفوق.

وفي الكتابات العلميَّة، يشير اللفظ إلى الجماراه وحدها.

ويضاف عادةً تعليق راشي على التلمود عند طبعه، وإن كان هذا التعليق لا يُعَدُّ جزءًا منه.

ويبلغ عدد كلمات التلمود البابلي مليونين ونصف مليون كلمة في نسخته الأصليَّة (تشكل الأجاداه ٣٠% منها)، وعلى هذا فإن حجمه يبلغ ثلاثة أضعاف حجم التلمود الفلسطيني.

وقد كُتب التلمود بأكثر من لغة، فالمشناه كُتبت بعبرية خاصة تُسمَّى عبرية المشناه، أما الجماراه فكُتبت بالآراميَّة، فقد كُتبت الجماراه الفلسطينيَّة باللهجة الآراميَّة الغربية، أما الجماراه البابلية فكُتبت باللهجة الآراميَّة الشرقيَّة.

وتتسم الشروح الواردة في التلمود الفلسطيني بأنها أقصر وأكثر حرفية وقربًا من النص، ولكن يبدو ناقصًا ومشوهًا في ترتيبه ومظهره إذا ما قورن بالتلمود البابلي الذي يمتاز باشتماله على نص المشنا كاملًا وأفضليته في التنظيم والترتيب والمضمون.

ويتكون التلمود من عنصرين؛ فهناك العنصر الشرعي والقانوني (هالاخي) الذي يُذكِّرنا بأحكام الفرائض والتشريعات الواردة في أسفار الخروج واللاويين والتثنية، وهناك العنصر القصصي والروائي والأسطوري (أجادي) بما يشمله من الأقوال المأثورة (والأخبار والخرافات والشطحات والخيال) إلى جانب السحر والتراث الشعبي.

ومعظم المشناه تشريع (هالاخاه)، بينما معظم الجماراه قصص وأساطير (أجاداه).

ويُلاحَظ أن التفسير يستمد أهميته وثقله من مدى قدمه، فالأقدم أكثر ثقةً وأهمية من الأحدث[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠١)، اليهودية عرض تاريخي ص(٨٦)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١١٨)، اليهودية ص(٢٦٥).

الفصل الثالث
موضوعات التلمود

وينقسم التلمود إلى كتب وأقسام تُسمَّى «سداريم»، وعدد السداريم ستة يعالج كل واحد منها موضوعًا من مواضيع الشريعة.

وتنقسم السداريم بدورها إلى أسفار تُسمَّى «ماسيختوت» مجموعها ثلاثة وستون، وتنقسم الأسفار إلى فصول تسمَّى «براقيم».

وقد قام الدكتور أسعد رزوق بوضع وصف موجز لأقسام التلمود (البابلي) وأسفاره حتى يُعرِّف بالموضوعات والمسائل الواردة فيه، وهي:

السدر الأول: سدر زراعيم (البذور):

يتألف هذا السدر من أحد عشر سفرًا أو مقالة، ويتناول قوانين التوراة الزراعية من الناحيتين الدينيَّة والاجتماعيَّة، ويسهب في شرح الأحكام التوراتية المتصلة بحقوق الفقراء والكهنة واللاويين في غلال الأرض والحصاد.

كما يَبسُط القواعد والأنظمة المتعلقة بالفلاحة والحرث وزراعة الحقول والجناين وبساتين الأثمار، والسنة السبتية والعشار، بالإضافة إلى المواد المحظور خلطها في النبات والحيوان والكساء.

أما أسفار سدر زراعيم فهي:

١ . براخوت (البركات):

ويتناول هذا السفر صلوات اليهود وعباداتهم، والقواعد المتعلقة بالأجزاء الأساسية للصلوات اليومية.

٢ . فعاه (زوايا الحقل):

ويتناول القوانين المتعلقة بزوايا الحقل، واللقاط المنسي مما ينبغي تركه للفقراء، وغير ذلك من الفرائض والواجبات التي يرد ذكرها في سفر اللاويين (١٩/ ٩ . ١٠).

٣ . دماي (المشكوك بأمره من المحاصيل):

يتحدث هذا السفر عن المحاصيل الزراعية، كالذرة وغيرها من منتجات الأرض، وعن استخراج العشار اللازم منها أو عدمه.

٤ . كلاثايم (المخاليط أو الأخلاط):

ويعالج هذا السفر الأحكام التوراتية الواردة في اللاويين (١٩/ ١٩)، والتثنية (٢٢/ ٩ . ١١)، بالنسبة لخلط البذور المختلفة في الزراعة، أو الجمع بين جنسين من المواد في الثوب.

٥ . شفيعوت (السنة السابعة أو السبتية):

ويبحث في القوانين المتعلقة بإراحة الأرض والإبراء من الديون في السنة السبتية.

٦ . تروموت (التقدمات: الرفائع أو جراية الكهنة):

ويعالج القوانين والفرائض المتعلقة بذلك القسم من الغلال والمحاصيل المعين للكاهن.

٧ . معشروت (العشور):

وموضوعه العشار الأول المتوجب دفعه سنويًا إلى اللاوي من غلة الحصاد، واللاوي بدوره يعطي الكاهن منه نسبة العُشر.

٨ . معشر شيني (العشار الثاني):

يتناول هذا السفر موضوع العشار الثاني الذي يحمله المالك بنفسه إلى أورشليم (القدس) لكي يؤكل هناك.

٩ . حلّه (أول العجين):

ويتعلق هذا السفر بذلك القسم من العجين المفروض إعطاؤه للكاهن، وقد سمي هذا السفر كذلك؛ لأنه يتناول قانون العجين الأول وفرائضه.

١٠ . الغُرله (بلاختان . الغلفاء):

ويتناول هذا السفر الحظر على استعمال ثمار الأشجار الصغيرة خلال السنوات الثلاث الأولى، وقواعد الاعتناء بهذه الأشجار في السنة الرابعة طبقًا لما جاء في سفر اللاويين (١٩/ ٢٣ . ٢٥).

١١ . البكوريم (البواكير، الثمار الأولى):

وهنا أيضًا، فإن هذا السفر ينص على قوانين تقديم الثمار الأولى في الهيكل، ويتضمن وصفًا للشعائر التي ترافق التقدمة.

السدر الثاني: سدر موعيد (الأعياد والمواسم).

يؤلف سدر موعيد القسم الثاني من التلمود البابلي في طبعة سونسينو، وهو يتوزع على اثني عشر سفرًا تضمها أربعة مجلدات ضخمة.

أما تسمية «موعيد» بمعنى «الموعد» أو «الموسم المقدَّس»؛ فهي مأخوذة على الأرجح من سفر اللاويين (٢٣/ ٢).

والملاحَظ أن المسائل الأساسية التي تتناولها أسفار هذا القسم تتعلق بالسبت والأعياد وأيام الصوم وغير ذلك من المواسم والمناسبات الدينيَّة، بالإضافة إلى الطقوس والشعائر والفرائض والقرابين، وإلى قواعد تنظيم التقويم العبراني «حساب الميقات للأعياد اليهوديَّة. . وكيفية معرفة الأشهر العبريَّة القمرية من السنة الشمسية لتعين الأعياد اليهوديَّة».

وهنا أيضًا يطالعنا الكثير من شرائع التوراة والشرائع والقوانين المستمدة من خارج التوراة، جنبًا إلى جنب:

١ . شبات (السبت):

يتناول هذا السفر قوانين السبت والقواعد اللازمة لمراعاة عطلة يوم الراحة، كما يتحدث بالتفصيل عن الأعمال المحظورة في ذلك النهار.

وفي مواضع أخرى من التلمود، نجد الحاخامات يضعون السبت مقابل جميع الأحكام الأخرى الواردة في التوراة من حيث الأهمية وقد وضع الحاخامات قائمة مفصلة تتضمن تسعة وثلاثين عملًا من الأعمال الأساسية وأضافوا إليها سلسلة أخرى من الأعمال الفرعية وغيرها.

٢ . عيروبين (المقادير):

لفظة «عيروب» تكون بمعنى «الخليط» أو «المزيج»، ومن هنا فإن صيغة الجمع «عيروبين» تكون بمعنى كمية من الأطعمة المحددة التي تُودَع في مكان معيَّن لكي تكون بمنزلة الزاد للمسافرين أثناء عطلة السبت دون أن تبتعد تلك الأمكنة عن بعضها البعض الآخر فيصبح الانتقال خرقًا لقانون السبت. والعيروبين هي المقادير المثاليَّة التي يصح الجمع بينها فيما يتعلق بالأمكنة والأطعمة والمسافات بحيث يؤدي ذلك إلى توسيع حدود السبت.

لذا، نجد هذا السفر يتناول القوانين والأنظمة التي تتيح لليهودي حرية الحركة خارج نطاق الحدود الموصوفة وأثناء السبت والأعياد.

٣ . فصاحيم (خراف الفصح):

ويتناول هذا السفر قوانين إتلاف الخمائر أثناء عيد الفصح اليهودي، وتقديم الخراف والذبائح قربانًا، ومواسم الرب المقدَّسة.

وفي الفصل العاشر والأخير من هذا السفر، ترد التفاصيل المتعلقة بوليمة عشية الفصح والصلوات التي تصاحبها.

٤ . شقاليم (الشواقل):

من «شيقل»؛ أي «شيكل» وهو «المثقال من الفضة».

ويحوي هذا السفر أحكام الضرائب والرسوم التي تتم جبايتها لصيانة الهيكل وتأمين نفقاته وتقديم الذبائح بصورة منتظمة.

كما يتحدث بالتفصيل عن الأشياء التي تُنفَق من أجلها الشواقل، ويتضمن القوائم التي تسرد أسماء كبار العاملين الرسميين في الهيكل.

٥ . يوما (اليوم):

يُعرف هذا السفر أيضًا باسم سفر «يوم الغفران»؛ لأنه يتناول أنظمة هذا العيد وفرائضه داخل

الهيكل، كما يَبسُط قوانين الصوم وأحكامه ويصف الاحتفالات والطقوس التي كان يترأسها الكاهن الأعظم في ذلك اليوم.

٦ . سوكاه (المظلة):

يحوي هذا السفر قوانين عيد المظال، وكيفية إقامة المظلة أو الخيمة، والإقامة تحتها سبعة أيام.

كما يتحدث عن شعائر هذا العيد وصلواته، وعن النباتات الأربعة التي تؤخذ أغصانها لصنع المظلة.

٧ . بيصة (بيضة العيد):

ويُعرف أيضًا باسم «العيد» أو «يوم طوف»؛ إذ يرسم الحدود التي تتحكم في إعداد الأطعمة أثناء الأعياد. كما يسرد مختلف أنواع الأعمال التي يُحظَر إتيانها أو يُسمَح بها خلال أيام العيد.

٨ . روش هشاناه (رأس السنة):

يتناول المسائل المتعلقة بالتقويم العبري ورؤية الأهلة للسنة الجديدة، مثلما يحوي القوانين التي تجب مراعاتها في مطلع الشهر السابع (تشري)، أي رأس السنة المدنية عند اليهود.

٩ . تعنيت (الصوم):

ويتناول أحكام الصوم للأيام الرسمية أو المناسبات الطارئة على الصعيدين الشخصي والجماعي، وترتيب الصلوات التي تُتلى في ذلك اليوم.

١٠- مجيلاه (لفافة التوراة):

ويتناول هذا السفر كتاب إستير (بالدرجة الأولى)؛ لأنه يتناول أحكام قراءة قصة إستير في عيد النصيب.

كما ترد فيه أحكام أخرى تتعلق بقراءة التوراة أثناء العبادات العامة.

١١ . موعيد قاطان (العيد الصغير):

ويُعرف هذا السفر أيضًا باسم «مشكين»، نسبة إلى الكلمات الأولى في السفر.

ويتناول أحكام العمل أثناء الأيام الفاصلة بين أوائل عيد الفصح وأواخره وبين عيد المظال.

كما يتحدث عن الفرائض المتعلقة بالحزن والحداد.

١٢ . حجيجاه (قرابين الأعياد):

يتناول القوانين والأحكام المتصلة بالقرابين التي تُقدَّم في الأعياد، ويقارن بين شعائر الأعياد الثلاثة الكبرى، بالإضافة إلى الحديث عن فريضة الحج إلى القدس، وأنواع القرابين التي ينبغي تقديمها في مثل تلك المناسبات.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا السفر يتضمن ذلك الاستطراد الشهير عن التعليم الباطني

للتوراة، حيث تكثر التخريجات والشطحات الخيالية التي وجدت تربتها الخصبة في كتاب الزوهار، وكان لها أبعد الأثر في تعاليم القبَّالاه أو التصوف اليهودي.

السدر الثالث: سدر ناشيم (آلنساء).

تشتمل أسفار هذا القسم من التلمود على قوانين الزواج والطلاق، وغير ذلك من الأحكام التي تحدد العلاقات بين الزوجين، وبين الجنسين بصورة عامة.

وهي تبلغ السبعة عددًا، موزَّعة على أربعة مجلدات في طبعة سونسينو.

١ . يباموت:

وهذه الكلمة صيغة جمع مؤنث في اللغة العبريَّة مفردها «يَبَماه»، واليبماه هي امرأة الأخ المتوفى التي يجب على أخيه الباقي على قيد الحياة الزواج منها.

وهذا السفر يبدأ بالحديث عن الشرع التوراتي القائل بوجوب زواج الأخ من امرأة أخيه الذي تُوفي دون أن ينجب.

كما يتناول الزيجات المحظورة بشكل عام، وحق الفتاة القاصر في إبطال عقد زواجها، بالإضافة إلى التقليد اليهودي المعروف باسم «خلع النعل».

و«خلع النعل» يتم عند امتناع الرجل عن أخذ امرأة أخيه عملًا بقوانين زواج الأرملة.

٢ . كتوبوت (شئون الزواج والعقود):

يتناول هذا السفر أحكام الاتفاق حول العروس والغرامة المتوجبة عن الإغواء، بالإضافة إلى واجبات الزوجين وحقوق الأرملة والأولاد المنحدرين من زيجات سابقة.

٣ . نزاريم (النذور):

يصف هذا السفر مختلف أشكال النذور، والأنواع غير الصحيحة منها، وكيفية إلغائها والتراجع عنها. كما يتحدث عن قوة إلغاء النذور التي نذرتها المرأة أو الابنة وألزمت نفسها بها.

٤ . نازير (النذير أو الناذر):

ويتحدث هذا السفر عن النذر الذي يُلزم الناذر به نفسه وكيفية التخلي عنه، والأمور المحظورة على الناذر والقيمة التي تُعطَى لنذر النساء والعبيد.

٥ . سوطه (المرأة المشبوهة):

الموضوع الأساسي في هذا السفر هو المحنة التي تتعرض لها المرأة التي يشكك زوجها في إخلاصها، ويتهمها بارتكاب الزنى، والإجراءات التي ترافق ذلك.

وهناك موضوعات أخرى تتعلق بالمعادلات والصياغات الدينيَّة، ما يجوز منها بلغات أخرى، وما لا يصح إلا بالعبريَّة وحدها. كما يتحدث هذا السفر عن الأنواع السبعة من الفريسيين، وعن

الإصلاحات التي أوجدها هيركانوس إلى جانب الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين أريسطوبولس وهيركانوس حينذاك.

٦ . جيطين (كتب أو وثائق الطلاق):

ويعرض بالتفصيل للظروف المختلفة التي تؤدي بالرجل إلى مناولة المرأة وثيقة طلاقها عندما يفسخ الزواج.

وفي الشرع اليهودي، هناك أسباب معينة (كما هو الحال في الشرائع الدينيَّة الأخرى) تخوِّل الزوج حق إرغام زوجته على قبول الطلاق، والعكس بالعكس.

وصيغة المفرد من كلمة «جيطين» هي «جيط» ومعناها «كتاب الطلاق» أو «وثيقة الطلاق».

٧ . قدوشيم (التكريس):

يتناول هذا السفر الشعائر والفرائض المتصلة بالخطوبة والزواج، كما يتحدث عن كيفية اقتناء العبيد والأقنان بصورة شرعية، وتملُّك العقارات، إلى جانب مبادئ الأخلاق وغير ذلك من المسائل المتعلقة بعقود الزواج والقران. . . إلخ.

السدر الرابع: سدر نزيقين (الأضرار).

وتُقسَّم الأسفار العشرة في هذا الجزء من التلمود إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: يضم الأسفار، أو الأبواب الثلاثة الأولى (الباب الأول والأوسط والأخير) وموضوعها العام هو القانون المدني.

وفي التلمود الفلسطيني تندرج هذه الأسفار الثلاثة تحت موضوعٍ واحد وشامل: قضايا المال.

أما القسم الثاني، فيضم مقالتي «سنهدرين»، و«ماكوت» في القانون الجنائي، وتأتي الأسفار الخمسة الباقية كملاحق لهما.

١ . بابا قاما (الباب الأول):

التسمية آرامية الأصل، والمُسمَّى يتناول أحكام الأضرار اللاحقة بالأملاك، والأذى المرتكب ضد الأشخاص بدافع إجرامي، أو على صعيد الجنحة.

كما يعالج قضايا التعويض عن السرقة والسلب واقتراف العنف.

ومن أحكامه الشائعة في شتى المصنفات والمقتبسات عن التلمود، ما يلي: إذا نطح ثور الإسرائيلي ثورًا يملكه رجل كنعاني، فإن صاحب الثور اليهودي لا يلتزم بشيء. أما إذا كان الثور الكنعاني هو البادئ بالنطح، فعلى صاحبه أن يتكفل بالتعويض الكامل عن كل عطل وضرر.

٢ . بابا متسيعا (الباب الأوسط):

ويتناول الأحكام المتعلقة بالأشياء المفقودة التي يتم العثور عليها، والبيع والمبادلة والربا والغش

والاحتيال واستئجار العمال والبهائم، بالإضافة إلى الإيجار والتأجير والملكية المشتركة للبيوت والحقول.

٣ . بابا باترا (الباب الأخير):

يعالج هذا السفر القوانين المتعلقة بتقسيم أملاك الشراكة والعقارات، وقوانين التجارة، بالإضافة إلى القيود المفروضة على الأملاك الخاصة والعامة وحقوق الملكية والوراثة.

كما يتناول مسألة التملك والتمليك، وإعداد مسودات الوثائق.

٤ . سنهدرين (المحاكم القضائية):

ويتناول تأليف مختلف المحاكم القضائية، وإجراءات المحاكمة، وعقوبات الموت والإعدام عن الجرائم الكبرى.

فهو مليء بالقوانين المتعلقة بالمحاكمات والتحكيم والإجراءات القضائية في القضايا المالية وفي الجرائم الكبرى.

كما يتضمن مواصفات كيفية تنفيذ أحكام الإعدام وعقوبات الموت، إلى جانب العقائد المتصلة بالديانة اليهوديَّة.

ويحوي السفر الشيء الكثير مما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمحاكمة السيد المسيح والعقوبة التي يجب إنزالها بالخارج على دينه.

٥ . مكوت (الجلدات):

يتحدث هذا السفر عن اليمين الكاذبة، والحنث باليمين، وشهادة الزور، وعن «مدن اللجوء». بالإضافة إلى الآثام التي عقوبتها الجلد بالسياط، والأحكام المتعلقة بكيفية تنفيذ الجلد (٣٩ جلدة).

٦ . شبوعوت (القَسَم أو اليمين):

يتناول هذا السفر مختلف أنواع اليمين، أي ما يحلفه الشخص بمفرده أمام المحكمة.

ويمين المحكمة يصدق على الشهود والمتقاضين، مثلما يصدق على المراقبين والأوصياء.

٧ . عيديوت (الشهادات):

ويتضمن هذا السفر مجموعة من القوانين والأحكام المختلفة.

٨ . عفوده زاراه (عبادة الأصنام):

ويتحدث هذا السفر عن عبدة الأصنام والأوثان: شعائرهم وطقوسهم وأعيادهم. كما يتضمن مواصفات الأحكام التي ينبغي إنزالها بعبدة الأصنام، والذين يشاركونهم، أو يختلطون معهم عن طريق التعامل أو الاتصال الاجتماعي. ويتضمن السفر كثيرًا من الأحكام والأقوال

ذات الطابع الانتقامي التعويضي.

٩ . آفوت (سفر الآباء):

ويتضمن التعاليم والأقوال المأثورة عن آباء التراث اليهودي منذ السنهدرين الأكبر فصاعدًا. وهو مليء بالتعاليم الأخلاقية والأقوال الحكمية المنسوبة في معظمها إلى معلمي المشناه (تنائيم).

١٠ . هورايوت (الأحكام أو القرارات):

ويتناول هذا السفر الأحكام الخاطئة التي تَصدُر عن السلطات الدينيَّة في المسائل المتعلقة بالشعائر والطقوس.

كما يتحدث عما يجب تقديمه من تضحيات وذبائح، إذا تَصرَّف الجمهور وفقًا لهذه التعاليم والأحكام الخاطئة.

السدر الخامس: سدر قداشيم (المقدَّسات).

يدور الموضوع الأساسي في هذا القسم من التلمود حول الطقس القرباني والتضحيات المتعلقة بالهيكل.

وكانت معظم الفرائض والأحكام الواردة في أسفاره مرتبطة أشد الارتباط بوجود الهيكل.

لكن الحاخامات، في فلسطين وبابل، تابعوا اهتمامهم بالطقوس القربانية والعبادات رغم هدم الهيكل وانقطاع الصلة بين الممارسة الفعلية والغرض الأساسي من وراء تلك الشعائر.

ويحاول الحاخام الذي كتب مقدمة هذا الجزء في طبعة سونسينو إرجاع الاهتمام لدى المدارس الدينيَّة المتأخرة بموضوع الطقوس القربانية إلى اعتبارات تاريخية أكاديمية وأخرى عملية على حدٍّ سواء.

فمن جهة، كان هناك الأمل اليهودي في تطلُّعِه الدائم إلى إعادة بناء الهيكل عاجلًا أم آجلًا واستعادة العبادة القربانية.

لذا، فقد رأوا أن من واجبهم الإلمام بقوانين تلك الطقوس التي سوف تؤذن بالرجوع إلى سابق العهد.

ومن جهة ثانية، نما اعتقاد الحاخامات بأن دراسة الشرائع والفرائض القربانية يمكنها أن تحل محل طقس الهيكل، وهي بالتالي لا تقل قيمة عن تقديم القرابين والتضحيات في حد ذاتها.

ويقسَّم هذا السدر إلى أحد عشر سفرًا كما يلي:

١ . زباحيم (الذبائح):

يحتوي هذا السفر على الأحكام المتعلقة بتقديم الذبائح الحيوانية على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف المراحل التي تمر بها.

كما يضع الشروط التي تجعل القرابين مقبولة أو غير مقبولة.

ويسهب السفر في شرح الشعائر المتصلة برش الدماء، وإحراق القطع الدهنية أو الذبيحة الحيوانية كلها، إلى آخر تلك التفاصيل المتعلقة بهذه الممارسات.

٢ . مناحوت (قرابين اللحوم والشراب):

ويصف قواعد إعداد قرابين الطعام والشراب وكيفية القيام بها: من سكب الزيت على القرابين إلى الدقيق الملتوت، ومن حزمة أول الحصيد إلى الرغيفين المخبوزين «خميرًا باكورة للرب»، إلى الفطائر الاثني عشر التي تُخبَز من الدقيق أيضًا.

٣ . حولين (الدنيويات):

ويتضمن هذا السفر مواصفات ذبح الحيوانات والطيور للاستهلاك العادي، بالإضافة إلى تعداد مختلف الأمراض التي تجعل أكل تلك الذبائح محرَّمًا.

وهناك معالجة عامة لجميع قوانين الأطعمة والأحكام التي ينبغي التقيد بها في إعداد الطعام.

٤ . بكوروت (البواكير):

ويتناول القوانين المتعلقة بالمواليد البكر من الحيوان والإنسان.

٥ . عراخين (التقديرات):

ويتضمن هذا السفر قواعد تحديد الكمية التي ينبغي تقديمها وفاءً لنذر ما للهيكل، بحيث يجري تقييم الشخص أو الشيء المنذور، ويختلف التقييم باختلاف السن والجنس (الذكر والأنثى)، كما أن تجنيس البهيمة وتقييمها عائد إلى كاهن الهيكل.

وعلاوة على التقييمات المذكورة، يتناول السفر القوانين التابعة لسنة اليوبيل.

٦ . تموره (الإبدال أو البدل):

ويتناول قواعد إبدال القرابين وتغييرها: الجيد بالرديء والرديء بالجيد، أي أن الموضوع يتعلق بتبديل بهيمة نجسة بأخرى سَبَق تقديمها على مذبح الهيكل.

٧ . كريتوت (الرسوم الجزائية):

ويعالج الآثام والأخطاء التي تخضع لعقاب القطع (كريتاه) أو الفصل فيما لو جرى اقترافها بمحض الإرادة.

أما إذا جرى ارتكاب الخطيئة عن غير قصد، فلا بد أيضًا من تقديم القرابين تكفيرًا عنها.

ويبحث هذا السفر كذلك الحالات التي يتوجب فيها تقديم القرابين بصورة غير مشروطة أو يتوجب فيها تعليق القرابين.

٨ . معيله (الإثم والخطيئة):

ويتناول هذا السفر مسألة انتهاك الحرمات والمقدَّسات وتدنيس الأشياء التابعة للهيكل والمذبح.

٩ . تاميد (التضحية اليومية أو المستمرة):

ويصف خدمات الهيكل من حيث اتصالها بتقديم القرابين اليومية في الصباح والمساء، وخصوصًا الخراف التي ينبغي تقديمها على المذبح صباحًا وعشية.

١٠ . مِّدوت (المقاييس والأبعاد):

يحتوي هذا السفر على مقاييس الهيكل ومواصفاته، سواء فيما يتعلق بالساحات والأبواب والقاعات، أو فيما يتعلق بالمذبح.

كما يتضمن وصفًا للخدمات التي يؤديها الكهنة أثناء وجودهم في الهيكل، وأثناء قيامهم بحراسته وتدبير شئونه.

١١ . قنِّيم (الأعشاش):

ويسرد الأنظمة والأحكام المتعلقة بتقديم العصافير والطيور قربانًا للتكفير عن الخطايا والمعاصي التي يقترفها الفقراء.

كما يتناول بعض الأحوال والشروط المتصلة بالنجاسة والقذارة، ويبحث حالة الخلط بين الطيور التي تخص مختلف الأشخاص أو التي تنتمي إلى قرابين مختلفة.

السدر السادس: سدر طُهاروت (التطهيرات).

والواقع أن الموضوع المشترك بين أسفار هذا الجزء السادس والجزء الأخير من التلمود يتصل بأحكام الطهارة والنجاسة (أو الرجاسة) لدي الأشياء والأشخاص. وتؤلف هذه الأحكام جزءًا من مجموعة قوانين تتعلق بالطهارة اللاوية.

ومما يجدر التنبيه إليه أن قوانين النجاسة هذه لم تكن سارية المفعول خارج فلسطين، فقد بطل معظمها في فلسطين بعد هدم الهيكل وطويت في عالم النسيان، إلا ذلك القانون المتعلق بأحكام الحيض لدى النساء فما زال ساري المفعول حتى أيامنا هذه. وقد أصبح التشديد محصورًا بالدرجة الأولى في مسألة النجاسة اللاوية وتَعدَّى نطاق العلاقات الزوجية. والمعروف أن أحكام الطهارة هذه تستند إلى عدد من الأوامر والنواهي الواردة في أماكن مختلفة من الأسفار الخمسة للتوراة، وبشكل خاص في الإصحاحات (١١/ ١٥) من سفر اللاويين.

١ . كلائيم (الأواني والأوعية):

ويتحدث هذا السفر عن قواعد النجاسة في الأواني والأدوات التي تُستخدَم للمنفعة البشرية، فيحاول تبيان الظروف والشروط التي تتحكم في نجاستها أو تجعلها عرضة للتنجس.

والأواني تشمل الأثاث والملابس، وغير ذلك من أدوات الاستعمال.

٢ . أُهالوت (الخيام):

ويتناول الخيام والمساكن باعتبارها ناقلة للنجاسة والرجس، سواء عن طريق جثة الميت. أو بواسطة الأواني والأوعية التي توجد معها تحت سقف الخيمة أو المسكن، حيث تنتقل منها إلى الأشخاص والأدوات الأخرى.

٣ . نجاعيم (البَرَص والطواعين والأوبئة):

يبسط القوانين المتعلقة بمعالجة البَرَص في البشر والألبسة والمساكن.

كما يتضمن المواصفات الضرورية لتطهير الأبرص وطرد النجاسة من بدنه.

٤ . باراه (العجلة الحمراء . البقرة الصغيرة):

ويتحدث هذا السفر عن الخصائص الواجب توافرها في العجلة الحمراء (باراه أدوما) وصولًا إلى إعداد رمادها للاستخدام في التطهير من النجاسة والرجاسة.

٥ . طُهاروت (تطهيرات):

ويعالج أحكام النجاسة في الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها ودرجاتها.

كما يبين الشروط التي تتحكم في تنجيسها عن طريق الاحتكاك بمختلف مصادر النجاسة ودرجاتها.

٦ . مقواءوت (الآبار والخزانات):

ويتضمن هذا السفر مواصفات الآبار والصهاريج والخزانات فيما يتعلق بالمتطلبات التي تجعلها صالحة شعائريًّا للتطهير والتغطيس، كما يتناول القواعد الحاكمة في جميع أنواع التغطيس الشعائري والطقسي.

٧ . نيدّه (الحائض والحيض):

ويفصل القول في أحكام النجاسة الشرعية التي تنشأ لدى النساء بسبب الحيض والنفاس وبعد الولادة.

٨ . مقشيرين (الاستعدادات):

ويتناول الظروف التي تصبح الأطعمة بموجبها قابلة للنجاسة أو عرضة للتنجس بعد احتكاكها بالسوائل، كما يعدِّد السوائل التي تجعل الأطعمة في تلك الحالة.

٩ . زافيم (الزاب . السيلان):

ويتحدث هذا السفر عن نجاسة الرجال والنساء عند الإصابة بأمراض الزهري والسيلان المنوي وغير ذلك.

١٠ . طبول يوم (الغسل اليومي):

ويبحث في طبيعة النجاسة لدى الشخص الذي قام بالغسل الشعائري (المفروض أثناء النهار) لتطهير نفسه؛ فإن عليه الانتظار حتى غروب الشمس لكي يُعتبر طاهرًا ونظيفًا.

١١ . يادىم (اليدان وتطهيرهما):

ويتناول نجاسة اليدين قبل الغسل وكيفية تطهيرهما بطريقة شعائرية مستمدة من الشريعة الشفوية، والتطهير يتم بالماء.

ويتضمن إلى جانب ذلك بحثًا عن بعض أسفار التوراة، كما يسجل شيئًا من المناظرات والخلافات التي دارت بين الصدوقيين والفريسيين.

١٢ . عقصين (سويقات الثمار وقشورها):

ويعرض للظروف والشروط التي تصبح بموجبها سويقات النبات والثمر قابلة لنقل النجاسة إلى الثمار والنباتات المتصلة بها والعكس بالعكس؛ أي كيف تتنجس هذه الأشياء لدى ملامستها الأشياء النجسة.

نظرة عامة على موضوعات التلمود

التلمود يضم بداخله وجهات نظر شتى متناقضة تمامًا، فهو عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية.

كما يتضمن، علاوة على ذلك، فصولًا في الزراعة وفلاحة البساتين والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والرق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي، بل ويغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصة، أي أنه كتاب جامع مانع بشكل لا يكاد يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة أو الخاصة، إن هو أراد تطبيق ما جاء فيه.

ويشيرون إلى التلمود بعبارة «كلٌ بو» (أي: كلٌّ به)، فهو يشتمل على كل ما يَعنُّ لليهودي أن يسأل عنه من شريعة دينه.

وكل العقائد اليهوديَّة المعروفة قد دُوِّنت وصُنِّفت فيه، بشكل واضح أحيانًا، وبشكل غامض مشوش أحيانًا أخرى.

ويضم أيضًا موضوعات وطرائف لا تنضوي بالضرورة داخل إطار فلسفي واضح، أو رؤية دينية محددة، فهو يتحول أحيانًا إلى مجرد وثيقة اجتماعيَّة لا توجه الواقع وإنما تعكسه وحسب؛ فصفحات التلمود تعكس وضع اليهود الاقتصادي كجماعة وظيفية تعمل بالتجارة.

ولا يقتصر التلمود على حياة اليهود العامة، وإنما يمتد ليشمل أخص خصوصياتهم.

فهو يتناول، ضمن ما يتناول، كل دقائق إعداد الطعام وتناوله والعلاقات الخاصة بين الرجل

وزوجته والطمث.

والتلمود كتاب طبي أيضًا، فإننا نجد فيه وصفات طبية عديدة، فهو ينصح بضرورة التعرض للماء البارد بعد حمام ساخن.

كما نجد في التلمود شرحًا لأسباب الإمساك وطريقة معالجته. وينصح التلمود أيضًا بأن من: «يطيل البقاء في المرحاض، يطيل الرب أيامه وسنيه».

وهناك صلاة شكر تُتلى بعد تلبية نداء الطبيعة.

ويمكن اعتبار التلمود كتاب فولكلور يعكس شتى الممارسات والآراء الخرافية التي كانت سائدة في مكان نشأته، سواء في بابل أو في الأماكن الأخرى التي عاش فيها الشارحون.

ولأن كُتَّاب التلمود يدورون في نطاق حلولي، فإننا نجدهم يؤمنون بإمكانية التحكم الكامل والتوصل للحل السحري (الغنوصي) وبفاعلية العلاجات العجائبية والعقاقير الشيطانية والسحر والرق والتعاويذ.

والتلمود أيضا كتاب تنجيم وسحر وتفسير أحلام.

ومما يُذكَر فيه أن قارئه الراغب في رؤية العفاريت رؤية العين يمكنه ذلك باتباع خطوات تم تحديدها بدقة متناهية، وإن أراد طرد العفاريت فصفحاته تضم تعاويذ تفي بذلك الغرض.

ويُلاحظ بعض الباحثين أن بعض المفاهيم القانونية في التلمود البابلي تعكس أثر القانون الفارسي.

كما أن التلمودين مختلفان في بعض المواطن، فيُلاحظ مثلًا أن الموقف من الوثنيين في التلمود البابلي أكثر تسامحًا؛ لأن وضع اليهود في بابل كان جيدًا، فقد جاء في التلمود البابلي أن الأغيار خارج فلسطين لا يمكن اعتبارهم من الوثنيين.

وبينما يُحرِّم التلمود الفلسطيني بيع أية سلع للوثنيين في الأيام الثلاثة التي تسبق أي عيد وثني، فإن علماء بابل حرموا البيع في أيام العيد الوثني وحسب.

ومن أهم التطورات التي دخلت الشريعة اليهوديَّة ما جاء في التلمود البابلي من أن: «شريعة الدولة هي شريعتنا»، بل قد ورد في التلمود البابلي دعاء خاص يُتلى أمام ملوك الأغيار ويطلب لهم البركة، نصه: «مبارك هو الذي منح مخلوقاته شيئًا من جلاله»[(١)].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٨٦).

الفصل الرابع

تاريخ التلمود

تعود الآراء والفتاوى التي وردت في التلمود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

وقد بدأت عملية جمعها وتدوينها مع القرن الثاني الميلادي، واستمرت عملية التفسير والتدوين حتى القرن السادس.

وبعد اكتمال نص التلمود، استمرت الإضافات والتعليقات، حتى القرن التاسع عشر، حين أضاف إلياهو (فقيه فلنا) تعليقاته.

ويمكن تلخيص ظهور التلمود وتطوُّره على النحو التالي:

السنة

الإضافات والتعليقات

٤٠٠ - ١٠٠ ق.م

الكتبة (سوفريم): يكتبون كتب المدراش (التعليق والتفسير) بالعبريَّة.

١٥٠ ق.م - ٣٠ م

الأزواج (زوجوت)، وهم المعلمون الكبار.

١٠٠ ق.م - ٧٠ م

الفريسيون دعاة الشريعة الشفوية.

٧٠ - ٢٠٠

معلموا المشناه (التنائيم)، ومن أشهر التنائيم الأواخر يهودا الناسي وهو الذي جمع أقوال العلماء الدينيين السابقين في المشناه المكتوبة بالعبريَّة.

٢٠٠ - ٤٠٠

الشراح (أمورائيم)، الجماراه الفلسطينيَّة بالآراميَّة، وقليل من العبريَّة.

٢٠٠ - ٥٠٠

الشراح (أمورائيم)، الجماراه البابلية بالآراميَّة، وقليل من العبريَّة.

٥٠٠ - ٧٠٠

المفسرون (صبورائيم) تدوين المشناه والجماراه.

وبذلك يكون قد انتهى تدوين التلمود، وتبدأ مرحلة التعليقات.

٧٠٠م- ١٠٠٠م

الفقهاء (جاءونيم) في بابل ينشرون التعاليم التلمودية.

١٠٠٠

تعليقات راشي (١٠٤٠ - ١١٠٥)، وتعليقات الشراح الإضافيين (توسافوت)، أهم التعليقات بالعبريَّة.

١٢٠٠

موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) يؤلف مشنيه توراه (تثنية الشريعة).

١٣٠٠

يعقوب بن آشر يؤلف سفر هاطوريم (كتاب الصفوف).

١٦٠٠

جوزيف كارو (١٤٨٨ -١٥٧٥) يؤلف الشولحان عاروخ (المائدة المصفوفة أو العامرة) عام ١٥٦٤، ويشير إلى أن الإيمان بالقبالاه فرض ديني.

١٨٥٠

إلياهو (فقيه فلنا) يضيف تعليقاته.

المصنفات على التلمود:

ويشكل التلمود، بسبب ضخامته وطريقة تصنيفه، صعوبة غير عادية في محاولة استخدامه والاستفادة منه. ومن هنا، بدأت جهود تصنيفه بعد الانتهاء منه.

وقد كانت أولى هذه المحاولات هي هالاخوت بيسكوت (القوانين المقررة) التي تُنسَب إلى يهوداي جاءون، والقوانين العظمى التي كتبها سيمون كيارا، وكلا العملين يلخصان المادة التلمودية المتعلقة بالشرائع.

وظهرت عدة مصنفات أخرى في القرن الحادي عشر، وخصوصًا في العالم العربي، في شمال أفريقيا وأوربا وأهمها:

١- مشنيه توراه، أي «تثنية التوراة» أو «إعادة الشريعة» التي كتبها موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر.

وهي من أهم الأعمال التي صدرت في هذا الحقل.

ويختلف منهجه عن التلمود في أنه لا يكتفي بالعرض دون ترجيح.

وهو لا يجمع روايات ولا يخوض غمار المناقشات بل نجده يفصل في الأمور حكمًا فاصلًا.

وقد اتبع ابن ميمون مبدأ عقلانيًا، فأقصى عن مادته جميع القواعد الشعبية التي كانت في منزلة

الشريعة في زمن التلمود والتي ترجع جذورها إلى الخرافات الشائعة.

والموقف الأساسي لديه يتلخص في القول بأن الشريعة والشعائر وُجدت من أجل الإنسان وليس العكس.

وقد أعاد موسى بن ميمون توزيع السداريم الستة إلى أربعة عشر كتابًا يُسمَّى الواحد منها «السفر».

وقد اشتهر كتابه باسم «يد حزقاه» (أي «اليد القوية»)؛ لأن الياء تساوي عشرة والدال تساوي أربعة في حساب الجمل، وفي ذلك ما يرمز إلى الأربعة عشر جزءًا التي يتألف منها الكتاب.

٢- وقد أثّر مصنف ابن ميمون في المصنفات التي جاءت بعده، ويظهر هذا في كتاب سفر هاطوريم، أو كتاب الصفوف الذي وضعه يعقوب بن آشر في الأندلس في القرن الرابع عشر حيث عتمد على تثنية التوراة في تنسيق الأحكام الشرعية وثيقة الصلة بالحياة العملية، وحذف تلك الشرائع التي أصبحت بالية منذ هدم الهيكل.

٣- الشولحان عاروخ: وقد وضعه جوزيف كارو في القرن السادس عشر، وقد اتبع تقسيم سفر هاطوريم، وهو آخر التصنيفات وأصبح أهمها، وخصوصًا بعد أن قام موسى إيسيرلز (موشى يسرائيليتش) بإضافة شروحه.

ويُعَدُّ الشولحان عاروخ المستودع الأساسي للأفكار والقيم الحاكمة في اليهوديَّة الحاخامية والتلمودية[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠١)، اليهودية عرض تاريخي ص(٨٣-٨٥)، إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ٧١)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١١٩).

الفصل الخامس

طبعات وترجمات التلمود وما طرا عليه من حذف وتغيير

طُبع التلمود الفلسطيني في البندقية (١٥٢٣ . ١٥٢٤)، كما أن التلمود البابلي كان قد بدأت طباعته في إسبانيا عام ١٤٨٢ .

لكن أقدم طبعة كاملة ظهرت في البندقية أيضًا (١٥٢٠ . ١٥٢٣)، وأشرف على طبعها دانيال بومبرج.

وقد أصبحت هذه الطبعة النموذج الأصلي الذي حذت حذوه مختلف الطبعات التي تلتها.

فطبع في مدينة أمستردام في سنة ١٦٤٤م، وفي سلزباج سنة ١٧٦٩م، وفي فارسوفيا سنة ١٨٦٣م، وفي مدينة براغ سنة ١٨٣٩م.

وكل هذه الطبعات محذوف منها، ويضعوا مكان الحذف الأحرف (بند) المختصرة من لفظة بندقية، أي ما هو محذوف في هذه النسخة موجود في النسخ المطبوعة في مدينة البندقية، فعليك بمراجعتها.

وقد نُشرت الطبعة القياسيَّة في فلنا عام ١٨٨٦، وهي تحوي تعليقات، وتعليقات على تعليقات في أكثر من عشرين جزءًا.

فكان يتم طبع المشناه والجماراه في العمود الأوسط، وتُطبَع ببنط أسود، ثم تُطبَع في العمود المجاور لها تعليقات راشي وتعليقات وإضافات.

وقد تُرجم التلمود إلى معظم اللغات الأوربية الأساسية، وتُرجمت مختارات قصيرة منه إلى العربيَّة لا تمثل الطبيعة الجيولوجية المتناقضة للفكر التلمودي.

ولكنه تُرجم بأكمله إلى الإنجليزية (في لندن) وإلى كثير من اللغات الأوربية الأخرى.

ويُلاحَظ أن الرقابة الحكومية كانت تفرض على اليهود أحيانًا أن يحذفوا بعض الفقرات التي تُظهر عداءً متطرفًا للأغيار، أو أن يُضيِّقوا المجال الدلالي لبعض الكلمات والعبارات العنصرية المتطرفة.

ولذا، حلت كلمة «عكوم» بمعنى «عابد الكواكب وأبراج النجوم»، و«كوتي» بمعنى «سامري»، و«كوشي» بمعنى «زنجي»، أو «حبشي» محل «نكري»، أو «جوي» بمعنى «أجنبي» أو «غريب». وحلت كلمة «بابليم»، أي «البابليين»، و«كنعانيم»، أي «الكنعانيين»، محل «أوموت هاعولام»، التي تعني «أُمَمُ العالم».

والواقع أن جميع المحاولات تُضيِّق المجال الدلالي لكلمة «الأغيار» وتخصصها، وتجعلها مقصورة إما على الوثنيين وحسب، أو على جماعة محدَّدة من الناس مثل السامريين أو البابليين.

وكان يُسجَّل في مستهل كل صفحة من التلمود إعلان رسمي يقرِّر أن قوانين التلمود ضد الوثنية لا تنطبق على الأمم التي يعيش اليهود بين ظهرانيها، وأنها لا تنطبق إلا على الوثنيين وحسب (وحينما احتلت إنجلترا الهند، قيل: إن المقصود هو الهنود، كما ضُمَّ إلى قائمة المعنين بالهجوم سكان أستراليا الأصليون).

وبعض الطبعات تقرر أن المعني بالهجوم هو «اليشماعيلي» وتعني «المسلم العربي».

وكما يقول الحاخام آجوس، فإن هذه الصيغة التي كانت قوانين الرقابة تتطلبها كان يتم تجاهلها في النصوص المختلفة؛ لأن كتَّاب التلمود وشارحيه لا يعرفون سوى نوعين من البشر: اليهود، وغير اليهود.

وحتى حينما كان بعض الزعماء الدينيين اليهود يعترضون على النزعة الحلوليَّة العنصرية المتعالية، كان اعتراضهم ينطلق من أسباب عملية مثل: الخوف من اعتياد اليهود ممارسة الشر، والخوف من الإساءة إلى سمعة اليهود، أو إثارة حنق الأغيار وكرههم.

وكثيرًا ما كان يتبادل أعضاء الجماعات اليهوديَّة فيما بينهم، دون علم السلطات، مخطوطات خاصة تضم المحذوفات التلمودية؛ أي تلك النصوص التي حذفتها الرقابة الحكومية.

كما كان يُعاد شرح بعض المصطلحات الجديدة، مثل «بابلي» أو «كوتي»، حتى يُعرَف معناها الأصلي والحقيقي لتكون بمعنى «مسيحي».

ويُعاد في إسرائيل طبع النسخة الأصليَّة من التلمود دون تعديل.

ولما كانت عملية الطباعة مكلفة وتستغرق وقتًا طويلًا، فقد نشروا كتابًا في طبعة شعبية رخيصة بعنوان حسرونوت شاس (أي المحذوفات التلمودية).

وقد صدرت في إسرائيل موسوعة تلمودية ضخمة تُسهِّل عملية الوصول إلى الأحكام الفقهية.

ورغم ذلك، ففي إحصاء أُجري عام ١٩٨٧، قرر ٨٤٪ من الإسرائيليين أنهم لم يقرءوا التلمود قط ولم يطلعوا على أي جزء منه.

وفي الوقت الحالي، يقوم الحاخام آدين ستانيسلاتس بإعداد طبعة جديدة من التلمود (البابلي والفلسطيني) تكون في متناول القارئ العادي، وهي مزودة بترجمة عبرية حديثة للنصوص الآراميَّة فضلًا عن شروح الكلمات الصعبة.

وقد طُبعت المشناه والجماراه، وكذلك الشروح المتعلقة بهما ببنوط طباعية مختلفة.

وقد صدر حتى الآن عشرون جزءًا من التلمود البابلي.

ومن المتوقع أن يَصدُر التلمود في أربعين جزءًا خلال خمسة عشر عامًا.

وقد ظهرت ترجمة إنجليزية للأجزاء الأولى[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل السادس

صور مما ورد في التلمود

١- تصور التلمود للإله ولوحدانيته

الحلوليَّة تيار مهم في العهد القديم، ولكنها تضخمت واتسعت في التلمود بحيث يمكننا اعتبار التصور التلمودي للإله يشكل نكسة للفكر التوحيدي.

فالتلمود يخلع العديد من الصفات الإنسانية واليهوديَّة على الإله؛

فالعصمة ليست من صفات الإله، جاء في التلمود: إن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك.

وقال مناحم: إنه لا شغل لله في الليل غير تعلمه التلمود مع الملائكة ومع (اسموديه) ملك الشياطين في مدرسة في السماء ثم ينصرف (اسموديه) منها بعد صعوده إليها كل يوم.

والإله، في التلمود، متعصب بشكل كامل لشعبه المختار، ولذا فهو يعبِّر عن ندمه على تركه اليهود في حالة تعاسة وشقاء حتى إنه يلطم ويبكي.

ومنذ أن أمر بهدم الهيكل وهو في حالة حزن وندم، توقف عن اللعب مع التنين الذي كان يسليه، وأصبح يُمضي وقتًا طويلًا من الليل يزأر كالأسد قائلًا: تبًّا لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي.

وشغل الله مساحة أربع سنوات فقط بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان.

ولكنه في آخر الأيام، بعد إقامة المجتمع اليهودي الأمثل في العصر المشيحاني، في ظل الدولة المستعادة، يجلس على العرش يقهقه لانتصار شعبه، وعبثًا يتوافد الوثنيون طالبين قبولهم.

ويتبدَّى التعصب الإلهي في أنه حينما يأتي الماشيَّح سيصبح كل الناس عبيدًا لجماعة إسرائيل.

- وفي التلمود تخطئة القمر لله فإنه قال له: أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس. فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه، وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي؛ لأني خلقت القمر أصغر من الشمس، وليس الله على حسب ما جاء في التلمود معصومًا من الطيش؛ لأنَّه حالما يغضب يستولي عليه الطيش، كما حصل ذلك منه يوم غضب على بني إسرائيل وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية. ولكنه ندم على ذلك بعد ذهاب الطيش منه، ولم ينفذ ذلك اليمين؛ لأنه عرف أنه فعل فعلًا ضد العدالة.

وجاء في التلمود: إن الله إذا حلف يمينًا غير قانونية احتاج إلى من يحله من يمينه وقد سمع أحد العقلاء من الإسرائيليين الله تعالى يقول: من يحللني من اليمين التي أقسمت بها؟ ولما علم باقي

الحاخامات أنه لم يحلله منها اعتبروه حرامًا؛ لأنه لم يحلل الله من يمينه. ولذلك نصبوا ملكًا بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من أيمانه ونذوره عند اللزوم.

٢- تصور التلمود للحاخامات

في معرض تقديس التلمود والإيمان المطلق بكل ما دوَّنه الحاخامات فيه، جاء في التلمود: إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله، وقد وقع يومًا الاختلاف بين الباري تعالى وبين علماء اليهود في مسألة، فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين، واضطر الله أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور.

وفي هذا المقام أيضًا، ردد بعض الحاخامات أن الإله يستشير الحاخامات على الأرض إذا صادفته مسألة معضلة يتعذر عليه حلها في السماء.

- وتصل الحلوليَّة إلى ذروتها (أو هوتها) حين يؤكد التلمود أن الحاخامات كانوا قادرين على الخلق، فقد ذكر أن حاخامًا خلق مرة إنسانًا بأن نطق اسم الإله الأعظم وأرسله إلى الحاخام زعيرا الذي تحدَّث إليه، ولكنه لم يستطع أن يجيب، فتعجب الحاخام قائلًا: أنت مخلوق بفعل السحر، ارجع إلى التراب.

وجاء فيه: إن أحد مؤسسي ديانة التلمود كان في إمكانه أن يخلق رجلًا بعد أن يقتل آخر. وكان يخلق كل ليلة عجلًا عمره ثلاث سنوات بمساعدة حاخام آخر وكانا يأكلان منه معًا وكان أحد الحاخامات أيضًا يحيل القرع والشمام إلى غزلان ومعيز.

وجاء فيه: وكان الرابي (نياي) يحول الماء إلى عقارب وقد سحر يومًا ما امرأة وجعلها حمارة، وركبها ووصل عليها إلى السوق.

وجاء فيه: وكان إبراهيم الخليل (عليه السلام وحاشاه) يتعاطى السحر ويعلمه. وكان يعلق في عنقه حجرًا ثمينًا يشفي بواسطته جميع الأمراض، فوصل هذا الحجر لبعض الحاخامات التلموديين، وكان بقوته هو وباقي رفقائه يقيمون الموتى!! وحصل أن أحد الحاخامات قطع مرة رأس حية ثم لمسها بالحجر المذكور فإذا هي حية تسعى. وقد لمس أيضًا به جملة أسماك مملحة فدبت فيها الروح بقوة السحر.

- ولا يكون من المستغرب أن يرد في التلمود أن حكماء اليهود أعلى قدرًا من الأنبياء (بابا باترا).

٣- تصور التلمود للشعب اليهودي

جاء في التلمود أن الإله اختار اليهود؛ لأنهم اختاروه، وهي عبارة تفترض المساواة بين الإله والشعب.

وهذه العبارة كان يرددها بن جوريون برضا شديد.

وجاء في التلمود: لماذا اختار الواحدُ القدوسُ تباركَ اسْمُه جماعةَ إسرائيل؛ لأن. . . أعضاء جماعة إسرائيل اختاروا الواحد القدوس تبارك اسمه وتوراته.

وقد جاء في التلمود: كل اليهود مقدَّسون. . . كل اليهود أمراء. . . لم تُخلَق الدنيا إلا لجماعة إسرائيل. . . لا يُدْعى أحد أبناء الإله إلا جماعة إسرائيل. . . لا يحب الإله أحدًا إلا جماعة إسرائيل.

ويدَّعي التلمود أن روح الإله من روح الشعب كما أن الابن جزء من أمه، ولذا فمن يعتدي على يهودي فهو كمن يعتدي على العزة الإلهية.

جاء في التلمود: أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. فإذا ضرب أمميٌّ إسرائيليًا فكأنما ضرب العزة الإلهية.

وجاء فيه: إذا ضرب أممي إسرائيليًا فالأمي يستحق الموت.

وجاء فيه: من رفع يده ضد جاره (والاثنان يهوديان) حتى ولو لم يضربه فإنه شرير خاطئ أما الوثني فإنه يستحق الموت.

ومن يعادي جماعة إسرائيل أو يكرهها فإنه يعادي الإله ويكرهه، وخصوصًا إذا عرفنا أن الإله كان يقطن بينهم حينما كانوا في أرض الميعاد، وأن الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) بقيت معهم حينما نُفوا خارجها إذ إن موسى طلب ذلك من الإله.

- وكان الاختيار في بادئ الأمر تلقائيًا نابعًا من رحمة الإله وإرادته الإلهية، ولكن اليهود - حسب الرؤية التلمودية الحلوليَّة- بينوا أنهم جديرون بهذا الاختيار.

ولذا، تحوَّل الاختيار من مجرد منحة من الإله إلى حق من حقوقهم مُلزم له وإلى دين عليه أن يؤديه حتى لو ضلوا الطريق.

وقد جاء في التلمود على لسان الإله: «لن أعامل جماعة إسرائيل كالأمم الأخرى، حتى وإن لم تعمل حسنات إلا قليلًا تافهًا كروث الدجاج المتناثر في الحظيرة، فسأجمع هذه الحسنات ليكون لها حسنات كثيرة».

وجاء في التلمود: الحسنة والصدقة الصادرة من بني إسرائيل ترفع شأنهم وهي مقبولة لديه تعالى. وأما الصدقة الصادرة من بقية الأمم فهي خطاياهم؛ لأنهم لا يفعلونها إلا كبرياء.

وهكذا اختل التوازن الحلولي لصالح اليهود مرة أخرى، وإن كان هناك رأي تلمودي مغاير يرى أن الاختيار تكليف إلهي وعبء مُلقى على كاهل اليهود عليهم أن يضطلعوا به.

والتوراة هي ميراث الشعب المختار وحده، ومن يدرسها من الأغيار يستحق الموت (ولكن ثمة رأيًا تلموديًا مغايرًا يرى أن الوثني الذي يدرس التوراة هو في منزلة الكاهن الأعظم).

وقد جاء في التلمود أن بني إسرائيل يُشبَّهون بحبة الزيتون؛ لأن الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد

الأخرى، وكذلك أفراد بني إسرائيل يستحيل اختلاطهم مع الشعوب الأخرى.

٤- تصور التلمود لغير اليهود (الأغيار)

معظم صفحات التلمود مملوءة بالأحكام الموجهة ضد غير اليهود، وخصوصًا سفر عفوده زاره أو عبادة الأوثان، فلن يدخل الجنة سوى اليهود.

فقد جاء فيه: لا يدخل الجنة إلا اليهود. أما الجحيم فهو مأوى الكفار ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين. ويوجد في كل محل منه زيادة على ذلك: ستة آلاف صندوق، في كل صندوق منها ستة آلاف برميل ملأى من الصبر، والجحيم أوسع من النعيم ستين مرة؛ لأن الذين لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم كالمسلمين، والذين لا يختنون كالمسيحيين الذين يحركون أصابعهم (يفعلون إشارة الصليب) يبقون هناك خالدين.

وقد خلق الإله الأغيار على هيئة الإنسان لكي يكونوا لائقين بخدمة اليهود الذين خُلقت الدنيا من أجلهم، إذ ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير، وهو على صورته الحيوانية.

وذكر في التلمود: أن نطفة غير اليهودي هي كنطفة باقي الحيوانات، وبعد موت اليهودي تخرج روحه وتشغل جسمًا آخر، فإذا مات أحد الجدود مثلًا تخرج روحه وتشغل أجسام نسله الحديثي الولادة.

وجاء في تلمود فلسطين: أن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهوديَّة هي نطفة حصان.

ولا يُعتدُّ بشهادة غير اليهودي أمام المحاكم إلا في حالات قليلة.

وإذا وقع أذى بشخص، فمن المهم جدًّا تحديد هل هذا الشخص يهودي أم لا، بل إن هذا التمييز يسري أيضًا في المعاملات التجارية.

وفي مسائل الطهارة، يعتبر الأغيار أنجاسًا في حياتهم، ولكن مقابرهم، باعتبار أنها غير مقدَّسة، لا تنجس الكهنة. والعكس صحيح بالنسبة إلى اليهود، فهم طاهرون في حياتهم وقبورهم مصدر نجاسة أساسي للكهنة اليهود.

جاء في التلمود: أن اليهودي يتنجس إذا لمس القبور وفاقًا للتوراة ما خلا قبور من عداهم من الأمم، إذ كانوا يعدونهم بهائم لا أبناء آدم.

ويعتبر التلمود أيضًا: الأجانب بصفة كلاب؛ لأنه مذكور في سفر الخروج: أن الأعياد المقدَّسة لم تجعل للأجانب ولا للكلاب.

بل إن التلمود يطلب أحيانًا إلى اليهود أن يستخدموا مقياسين أخلاقيين: أحدهما للتعامل مع اليهود، والآخر للتعامل مع غير اليهود.

وقد جاء في التلمود: أنه لا يصح أن يباع لليهودي الشيء الذي يحتمل فساده إن تُرك، ولكنه

من الممكن أن يُباع لغير اليهودي، كما يُحرَّم على الطبيب اليهودي أن يعالج مريضًا غير يهودي (إلا لدرء أذى الأغيار).

وجاء فيه: إذا سرق أولاد نوح (أي غير اليهود) شيئًا، ولو كانت قيمته طفيفة جدًّا، يستحقون الموت؛ لأنهم قد خالفوا الوصايا التي أعطاها الله لهم، وأما اليهود فمصرح لهم أن يضروا الأميّ؛ لأنه جاء في الوصايا (لا تسرق مال القريب).

وقال علماء التلمود مفسرين هذه الوصية: إن الأمي ليس بقريب وإن موسى لم يكتب في الوصية (لا تسرق مال الأميّ) فسلب ماله لم يكن مخالفًا للوصايا.

وجاء زيادة على ذلك: لا تظلم الشخص الذي تستأجره لعمل ما إذا كان من إخوتك، أما الأجنبي فمستثنى من ذلك.

وجاء فيه: مسموح غش الأميّ، وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش، لكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودي شيئًا فلا تخدعه ولا تغشه.

إذا جاء أجنبي وإسرائيلي أمامك بدعوى فإذا أمكنك أن تجعل الإسرائيلي رابحًا فافعل وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتنا إذا حصل ذلك في مدينة يحكم فيها اليهود. وإذا أمكنك ذلك وفقًا لشريعة الأجنبي فاجعل الإسرائيلي رابحًا، وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتك. فإذا لم تتمكن من كلا الحالين، بأن كان اليهود لا يحكمون البلد، والشريعة الأجنبية لا تعطي الحق لليهودي فاستعمل الغش والخداع في حق هذا الأجنبي حتى تجعل الحق لليهودي.

وجاء فيه: إن الله لا يغفر ذنبًا ليهودي يرد للأميّ ماله المفقود، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب.

وجاء فيه: غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا.

وجاء فيه: إذا نطح ثور يهودي ثور أمميّ فلا يلتزم اليهودي بشيء من الأضرار، ولكن إذا كان الأمر بالعكس يلتزم الأمميّ بجميع قيمة الضرر الذي حصل لليهودي.

- وكان اليهودي يشكر إلهه على أن مكانه «بين أولئك الذين يجلسون في بيت الدراسة والمعبد [أي اليهود] ولم تجعل مكاني بين أولئك الذين يذهبون إلى المسارح والسيرك [أي غير اليهود]».

وحتى حينما كان بعض المفسرين ينصحون اليهود بعدم الكذب على الأغيار، فإنهم يصرون على ضرورة عدم الاحتكاك بهم، أو الدخول معهم في علاقة.

وقد قال أحد الشارحين في القرن السابع عشر في بولندا إن من الواضح أن التوراة تأمر اليهود بأن يحتفظوا بالكراهية بينهم وبين الأغيار حتى يبعدوا خطر الزواج المختلَط. ولذا، فلا يمكن السماح بتلك الأفعال التي قد تقلل الكره بين اليهود والأغيار.

- وقتل غير اليهودي مباح سواء الصالح منهم أو الطالح فلا فرق بينهما عند أصحاب التلمود،

ـ هذا عندهم من القُرَب إلى الله، وعلى اليهودي أن يسعى لقتله إذا وجد فرصة لذلك.

قال التلمود: إنه جائز قتل من ينكر وجود الله، وإذا نظر أحد اليهود كافرًا في حفرة فعليه ألا يخرجه منها، وحتى ولو وجد فيها سلمًا يمكن الكافر أن يخرج بواسطته منها وجب على اليهودي نزعه محتجًا بأنه أخرجه حتى لا ينزل عليه قطيعه. وإذا وجد حجرًا بجانب الحفرة وجب عليه وضعه عليها، ويقول: إني أضع هذا الحجر ليمر عليه قطيعي.

وقال التلمود: من العدل أن يقتل اليهودي بيده كافرًا؛ لأن من يسفك دم الكافر يقرب قربانًا إلى الله.

وجاء في التلمود أيضًا: إن الكافر كما قال الحاخام [اليعازر] هم يسوع المسيح ومن اتبعه.

وقال الرابي يهوذكيا: إن هذه اللفظة تشمل الوثنيين على العموم؛ بل إن اليهودي مأمور بقتل غير اليهودي، ومحرم عليه إنقاذه من هلاك يحيط به.

يقول التلمود: اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرَّم على اليهودي أن ينجِّي أحدًا من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين.

- وتصل النزعة المتعالية ذروتها في عبارة: اقتل أفضل الأغيار، أسحق رأس أنبل الأفاعي.

وقد اقتبس أحد كتيبات الحاخامية العسكرية الإسرائيلية هذه العبارة التلمودية التي أثارت ضجة داخل إسرائيل وتصدَّى لها بعض القادة الدينيين ووصفوها بأنها تشويه للعقيدة اليهوديَّة.

فالحلوليَّة إذًا هي الإطار الفلسفي، والانعزالية والتعالي الإثنين هما الترجمة العملية لها.

٥- تصور التلمود للمتهوِّدين

لأن التلمود يرى أن اليهود وحدهم يجسدون روح الإله، لذا نجده لا يرحب بالمتهوِّدين.

وقد ورد فيه «إن المتهوِّدين مثل القذى في عين جماعة إسرائيل» وهو موقف لا يزال يسيطر على المؤسسة الأرثوذكسيَّة وريثة التراث التلمودي في إسرائيل.

وقال ميما نود: يصفح عن الأمي إذا جدف على الله، أو قتل غير إسرائيلي، أو زنى بامرأة غير يهودية ثم تهود، لكنه لا يصفح عنه إذا قتل يهوديًا أو زنى بامرأة يهودية ثم صار يهوديًا.

٦- تصور التلمود للفلاحين

على اليهودي، حسب التقاليد التلمودية، أن يتلو ثلاث تسبيحات شكر كل يوم؛ لأن الإله خلقه يهوديًا، ولأنه لم يخلقه امرأة ولم يخلقه فلاحًا.

وقد جاء أنه «لا يوجد عمل أكثر امتهانًا من فلاحة الأرض»، ومع هذا، هناك أقسام طويلة في التلمود عن الزراعة وقوانينها وأفضالها.

٧- تصور التلمود للرقيق

من أهم أنواع التجارة التي مارسها أعضاء الجماعات اليهوديَّة تجارة الرقيق؛ ولذا فإننا نجد أن التلمود نظم عملية امتلاك عبد من الأغيار. فهو يُمتلَك بالشراء أو بالصك أو بالخدمة الفعلية.

ويوجد في التلمود صيغة لاستمارة يتم ملؤها للحصول على عبد تقول: «هذا العبد تم استعباده بصورة قانونية وليس له أي حق من حقوق الأجراء، وليست له مطالب يقدمها للملك أو الملكة. وليست به أية علامة إنسانية، وهو خال من أية عيوب جسدية، ومن أية علامة في الجلد تدل على إصابته بالبرص سواء حديثًا أم في الماضي».

وكانت طبقة العبيد مُحتَقرة كما كان يسود الاعتقاد بأنهم كسالى: «هناك عشرة مقاييس من النوم نزلت إلى العالم، فأخذ العبيد تسعة منها وأخذ بقية الناس الواحد المتبقي».

ولا يتمتع العبد بثقة كاتبي التلمود، فهو لا يُعَدُّ إنسانًا، ولذا فليس بإمكان اليهودي أن يصلي معه أو أن يصلي عليه أو يسير في جنازته.

٨- تصور التلمود للمرأة

ينبعث من صفحات التلمود احتقار عميق للمرأة، وقد كتب أحدهم يقول: هناك أربع خصائص للنساء: فهن شرهات، ومتصنتات، وكسولات، وغيورات، وهن أيضًا كثيرات الشكوى وثرثارات.

وقد أفاض التلمود بشأن الصفة الأخيرة: نزلت إلى العالم عشرة مقاييس للكلام، أخذت النساء تسعة منها وأخذ الرجال واحدًا.

وجاء في التلمود: إن المرأة الجميلة مهما كانت هي من حق اليهودي ومحرمة على الوثني.

ويعتبر التلمود أن إتيان زوجات الأجانب جائز، واستنتج من ذلك الحاخام راشي أن اليهودي لا يخطئ إذا تعدى على عرض الأجنبي؛ لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد؛ لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل هي كالبهيمة، والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها، وقد أجمع على هذا الرأي الحاخامات: بشاي وليفي وجرسون.

وقال ميمانود: إن لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات؛ أي الغير يهوديات.

وقال الحاخام تام: إن الزنى بغير اليهود ذكورًا كانوا أو إناثًا لا عقاب عليه؛ لأن الأجانب من نسل الحيوانات.

ولذلك صرح الحاخام المذكور ليهودية أن تتزوج بمسيحي تهوَّد مع أنها كانت رفيقة له غير شرعية قبل الزواج، فاعتبر العلاقات الأصليَّة كأنها لم تكن؛ لأنها أشبه شيء بنكاح الحيوانات.

وقال الرابي كرونر: إن التلمود يصرح للإنسان (يعني اليهودي) أن يسلم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه أن يقاومها، ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سرًا لعدم الضرر بالديانة!!

وذكر في التلمود عن كثير من الحاخامات كالرابي راب والرابي نحمان: أنهم كانوا ينادون في لمدن التي يدخلونها عما إذا كان يوجد فيها امرأة تريد أن تسلم نفسها لهم مدة أيام.

وجاء في التلمود أيضًا عن الرابي اليعازر: أنه فتك بكل نساء الدنيا، وأنه سمع مرة أن واحدة تطلب صندوقًا ملآنًا من الذهب حتى تسلم نفسها لمن يعطيها إياه، فحمل الصندوق وعدّى سبعة شلالات حتى وصل لها... (ولنضرب صفحًا عن باقي القصة؛ لأنها مخلة بالآداب).

ومن الأمور المذمومة أنه جاء في آخر القصة أنه: لما توفي هذا الحاخام صرخ الله من السماء قائلًا: تحصل الرابي [اليعازر] على الحياة الأبدية.

٩- تصور التلمود للملائكة والشياطين والسحر وخلق آدم وحواء

يشمل التلمود على أخبار عن الملائكة، وعن الشياطين والسحر، وعن خلق آدم وحواء في غاية العجب، لن نذكر منها شيئًا لفظاعتها وبشاعتها.

١٠- تصور التلمود للقسم

ينص التلمود على أن اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب ليست يمينًا؛ لأنه كأنه أقسم لحيوان، والقسم لحيوان لا يعد يمينًا؛ لأن اليمين إنما جعلت لحسم النزاع بين الناس ليس إلا.

فإذا اضطر يهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك الحلف كأنه لا شيء.

على أنه لا معنى للنزاع القائم بين يهودي ومسيحي بخصوص الملكية؛ لأنه من المقرر أن أموال المسيحي ودمه من تعلقات اليهودي، وله التصرف المطلق فيها، وله الحق، طبقًا لقواعد التلمود، في استرجاع تلك الأموال.

فإذا دعي يهودي لحلف يمين مختصة بشيء متنازع فيه فعليه أن يرفض ذلك؛ لأنه لا محل لليمين في هذه الحالة.

وإذا خاف سلطة شخص أو ضررًا يصل إليه من عدم تأدية اليمين فعليه أن يحلف بما يريدون، غير أنه يلزم أن يكون معتقدًا باطنًا أن الأموال التي حصل بخصوصها اليمين هي في الحقيقة تعلقه، وله الحق في استرجاعها في أول فرصة.

يجوز لليهودي الحلف زورًا، فلا يخطئ إذا حول اليمين لوجهة أخرى!!

وقد حلف الرابي (يوحنان) يومًا لامرأة على ألا يبوح بسرها قائلًا لها: إني لا أبوح بهذا السر أمام الله، ففهمت المرأة أن الحاخام يحلف لها بالله على كتمان السر مطلقًا مع أنه حوله بالكيفية الآتية: احلف ألا أبوح بهذا السر أمام الله، ولكني سأفشيه لبني إسرائيل.

ومن القواعد المقررة عند اليهود أن يستعملوا مثل هذا التأويل إذا كانت اليمين إجبارية، كما إذا كلفت الحكومة مثلًا أحد الأفراد بحلف يمين؛ ففي هذه الحالة يعتبر اليهودي نفسه أنه غير حرٌّ،

وله الحق في الكذب.

وفي كل مدة يوجد في مجمع اليهود يوم للغفران العام الذي يمنح لهم، فيمحو كل ذنب ارتكبوه، ومن ضمنها اليمينات الزور.

وليس على اليهودي أن يرد ما نهبه أو سرقه من الأجنبي لأجل التحصل على ذلك الغفران.

١١- تصور التلمود للأرض المقدَّسة

يعتبر التلمود أن الأرض المقدَّسة وهي فلسطين تفوق في قدسيتها أيَّ أرض أخرى.

فقد جاء في التلمود: الواحد القدوس تبارك اسمه قاس جميع البلدان بمقياسه ولم يستطع العثور على أية بلاد جديرة بأن تمنح لجماعة إسرائيل سوى أرض إسرائيل.

ويعتبر التلمود السكنى في الأرض بمنزلة الإيمان: لأن من يعيش داخل أرض إسرائيل يمكن اعتباره مؤمنًا، أما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له.

١٢- التلمود والعرب

تقصَّى الدكتور أسعد رزوق موقف التلمود من العرب، فوجد أنه (في بعض نواحيه) تعبير عن الانعزالية المتعالية نفسها.

جاء في سفر سوكاه (٥٢ ب) أن الإله ندم على خلقه أربعة أشياء: المنفى، والكلدانيين، والإسماعيليين (أي العرب)، ونزعة الشر.

وينسب التلمود إلى العرب أعمال السحر، فقد جاء في سفر سنهدرين (٦٧ب) أن عربيًّا امتشق السيف وقطع به الناقة، ثم قرع جرسًا فنهضت دون وجود آثار عليها.

والعرب، حسبما جاء في التلمود، خبراء في الطب، وخصوصًا الطب الشعبي. ويرد في التلمود العديد من القصص الطريفة والأعاجيب عن العرب.

وهناك قصص ليست في صالح راويها الحاخامي إذ إن بعضها يدل على خبرة العرب وبراعتهم واحترامهم موق اليهود أكثر من احترام الحاخام إياهم.

وأخيرًا، فقد جاء في سفر السبت (١١ أ) القول التالي: لا بأس من الخضوع لحكم واحد من أبناء إسماعيل بدلًا من حكم الغريب [أي الأدومي]. وبحسب ما جاء في حاشية الشارح، فإن المقصود بذلك هو تفضيل الحكم العربي على البيزنطي.

١٣- التلمود والنصارى

ظل التلمود مجهولًا تقريبًا في أوربا النصرانية، ولم يكتشفه النصارى إلا في أواسط القرن الثالث عشر، وذلك عن طريق اليهود المتنصرين.

ومنذ ذلك التاريخ، أصبح التلمود محط سخط السلطات الدينيَّة؛ لأنها كانت تراه كتاب خرافات مسئولًا عن عدم اعتناق اليهود المسيحيَّة، كما كانت ترى أنه يحتوي على ملاحظات مهينة

ضد المسيحيَّة كعقيدة، وضد شخص المسيح.

ومما يذكره التلمود عن المسيح أنه كان يهوديًا كافرًا، وأن تعاليمه كفرٌ بيِّن، وأن المسيحيين كَفَرة مثله، وأن أمه حملت به سفاحًا من جندي روماني يُدعى بندارا.

جاء في التلمود: أن المسيح كان ساحرًا، ووثنيًا.

ويقول التلمود: إن المسيح كان مجنونًا.

ووصف التلمود المسيح بأنه: كافر لا يعرف الله.

ويسمى التلمود المسيح: تمثالاً.

وجاء في التلمود: المسيحيون من عابدي الأصنام، غير أنه جائز أن يتعامل الإنسان معهم في أول يوم من الأسبوع الذي هو يوم عيد عندهم.

ومما جاء في ذلك أنه في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٢٤٠ صار عقد جلسة حافلة في سراي الملك لويس التاسع في باريس تحت رئاسة الملكة (بلانش).

وكان القصد من هذه الجلسة الفحص عما ادُّعي به على اليهود من الأمور المنكرة. ومن جملتها استنزاف الدم البشري حملًا على اعتقاداتهم الدينيَّة وما جاء في تلمودهم.

وهنالك أعطيت الحرية المطلقة لبني إسرائيل بالمدافعة عن أنفسهم وعن تلمودهم.

ولما لم يتمكنوا من إخفاء حقيقة ما نسب إليهم أقروا به، وقد تحصل وقتئذ من ترجمة نصوص تلمودهم ما يعتقدون به وهو: أن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والنار، وأن أمه أتت به من العسكري (باندارا) بمباشرة الزنى، وأن الكنائس النصرانيَّة بمقام قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع مسيحي لا يكون عهدًا صحيحًا يلتزم اليهودي القيام به، وأنه من الواجب دينًا أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل.

ورغمًا عن كل ذلك لم تحكم الحكومة وقتئذ بإضرار اليهود، بل اكتفت بإتلاف وإحراق ما وجد من نسخ التلمود.

ويضم التلمود، فضلًا عن ذلك، أجزاء عن محاكمة المسيح في السنهدرين، ويُقر بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح، وأنهم يتحملون المسئولية كاملة عن ذلك.

وقد كانت الكنيسة تنظم مناظرات (مجادلات خلافية) علنية يشترك فيها عادةً يهود متنصرون ملمون بالتلمود ويعرفون جوانبه السلبية.

ومن أهم المناظرات، وربما آخرها، تلك المناظرة التي تمت في بولندا في يونيو ١٧٥٧ ويوليو ١٧٥٩ بين أتباع يعقوب فرانك وممثلي المؤسسة الحاخامية.

وقد كانت الكنيسة تحرق نسخ التلمود التي تُضبَط من آونة إلى أخرى.

يقول روهلنج: يوجد في نسخ كثيرة من التلمود المطبوع في المائة سنة الأخيرة (أي في القرن التاسع عشر) بياض أو رسم دائرة بدلًا عن ألفاظ سب في حق المسيح والعذراء والرسل (عليهم الصلاة والسلام أجمعين) كانت مذكورة في النسخ الأصليَّة. ومع ذلك لم تخل من طعن في المسيحيين. فإنه يستفاد من الشروحات أن كل ما جاء في التلمود بخصوص باقي الأمم غير اليهوديَّة كلفظ (أميين، أو أجانب، أو وثنيين) المراد منها المسيحيون.

ولما اطلع المسيحيون على هذه الألفاظ هالهم الأمر، وتذمروا ضد اليهود فقرر المجمع الديني لليهود وقتئذ في مدينة بولونيا سنة ١٦٣١(م) أنه من الآن فصاعدًا تترك محلات هذه الألفاظ على بياض أو تعوض بدائرة على شرط أن هذه التعاليم لا تعلم إلا في مدارسهم فقط فيشرحون للتلميذ مثلًا أن المسيحيين مجبولون على الخطايا ولا يجب استعمال العدل معهم ولا محبتهم أصلًا.

ووصف المعلم جراز -وهو خوجة في مجمع الحاخامات في مدينة (برزلو)- المسيحي بالعداوة، وقال: إنه يجب إعدامه، ومدح الوسائط التي يمكن بها التوصل لهذا الغرض، ولو كانت صادرة عن نفاق أو خيانة.

في كتاب سدرحا دوروت، صحيفة ١٢٧ ما يلي: الحاخام الرباني يهوذا كان محبوبًا لدى الإمبراطور، وأطلعه على حيل الناصريين قائلًا له: إنهم سبب وجود الأمراض المعدية.

وبناء على ذلك تحصل على الأمر بقتل كل هؤلاء الناصريين الذين كانوا يسكنون رومة في سنة ٣٩١٥(عبرية) أي ١٥٥ بعد المسيح.

وجاء في الكتاب نفسه بعد هذه العبارة: إن الإمبراطور (مارك أوريل) قتل جميع الناصريين بناء على إيعاز اليهود.

وقال في صحيفة ١٢٥ : أنه في سنة ٣٩٧٤ أي ٢١٤ بعد المسيح قتل اليهود مائتي ألف مسيحي في رومة وكل نصارى قبرص.

وذكر في كتاب (سفر يوكاسين) المطبوع في مدينة أمستردام سنة ١٧١٧ في الملزمة ١٠٨ : أنه في زمن البابا كليمان قتل اليهود في رومة وخارجًا عنها جملة من النصارى (كرمال البحر، وأنه بناء على رغبة اليهود قتل الإمبراطور ديو كليسين جملة من المسيحيين ومن ضمنهم الباباوات كليس ومرسلينوس وأخا كليس المذكور، وأخته روزا[١] .

---

(١) انظر: الكنز المرصود في أسرار التلمود، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٥- ٨٨)، اليهودية ص(٢٦٧- ٢٧١).

الفصل السابع

مكانة التلمود في إسرائيل

أثر التلمود، بما احتوى من نظرة حلولية انعزالية، في كثير من أجزائه، في الفكر الصهيوني، حيث وجد المفكرون الصهاينة ما يدعم اتجاهاتهم.

فقد جاء في سفر «عفوده زاره» على سبيل المثال لا الحصر: ينبغي ألا تُؤَجَّر البيوت لغير اليهود في أرض إسرائيل، ناهيك عن الحقول.

وهذه إحدى القواعد الأساسية للصندوق القومي اليهودي.

كما أن الصهاينة يقتبسون من التلمود عبارات مثل: من يقيم خارج أرض إسرائيل هو مثل إنسان بدون إله. (كتوبوت ١١٠ب).

ونجد أنه يرد فيه عكس هذه الأفكار تمامًا، فقد قال الحاخام يهودا: من يصعد من بابل إلى أرض إسرائيل، فقد انتهك إحدى الوصايا الإلهية.

ويستشهد بسفر إرميا (٢٧/ ٢٢)، ثم يقول: مثلما أنه ممنوع مغادرة أرض إسرائيل إلى بابل، فمن الممنوع أيضًا مغادرة بابل إلى غيرها من البلدان، ثم يستطرد قائلًا: إن من يعيش في بابل كأنه مقيم في أرض إسرائيل. (كتوبوت ١١١أ).

كما توجد في التلمود أيضًا أفكار متناقضة عن العصر المشيحاني، بعضها ذو نكهة صهيونية انعزالية والبعض الآخر معاد لها وله نزعة اندماجية عالمية.

وتجد التوسعية الصهيونيَّة تبريرًا لها في الصورة التي يرسمها التلمود لحدود الأرض في المستقبل، فهي سوف تمتد وتصعد في جميع الجهات، ومن المقدر لأبواب القدس أن تصل إلى دمشق، وسوف يأتي المنفيون لينصبوا خيامهم في الوسط.

وقد جاء أيضًا: إن فلسطين تُدعى أرض الظبي، فكما أن جلد الظبي يعجز عن استيعاب لحمه وجسمه، كذلك هي أرض إسرائيل: عندما تكون مأهولة تجد لنفسها متسعًا، لكنها تتقلص متى كانت غير مأهولة. فحدود هذه الأرض متغيرة، وتزداد بازدياد المستوطنين اليهود فيها.

ولا يختلف هذا القول كثيرًا عن موقف تيودور هرتزل من الحدود حين بيَّن أن ما سيقرر حدود الدولة هو مدى حاجة الصهاينة: كلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتنا إلى الأرض.

وأثر تطبيق المفاهيم والتصورات التلمودية في إسرائيل كبير وواضح، ومن أوضحها هو ما يتعلق بالممارسات التي تتم ضد غير اليهود على أثر الخلفية التلمودية التي تقدم بيان صورها فيما سبق.

ومن هذه التطبيقات هو القرار الذي أصدره مؤتمر الدراسات التلمودية الثامن عشر الذي عُقد

في القدس عام ١٩٧٤م وحضره رئيس الوزراء إسحاق رابين، والذي جاء فيه ضرورة منع: قيام الطبيب اليهودي بمساعدة المرأة غير اليهوديَّة على الحمل، وقد أثبتت بعض استطلاعات الرأي في إسرائيل أن الخوف من الأغيار لا يزال واحدًا من أهم الدوافع وراء سلوك الإسرائيليين، وأثر التلمود والشرع التلمودي واضح في قوانين الأحوال الشخصية في إسرائيل، فالتشريعات التي تضبط قضايا الزواج والطلاق فيها لا تختلف عن الأحكام التلمودية الواردة في أسفار سدر ناشيم.

وفي شئون الطلاق، لا يزال سفر جيطين المصدر الأساسي للأحكام المتعلقة بوثيقة الطلاق (جيط) التي يكتبها الزوج.

وفي مسائل الزواج وتسجيل المواليد، لا تزال أحكام الشريعة التي حددها التلمود هي الشريعة السائدة؛ فاليهودي هو المولود لأم يهودية، أو من اعتنق اليهوديَّة على يد حاخام أرثوذكسي.

وعملية التهود ليست هينة، إذ يصر الحاخام على التقيد بالشعائر التلمودية، ومن بينها الحمام الطقوسي الذي يجب أن تخضع له الأنثى التي تريد التهود، فتدخل الحمام عارية تمامًا، بحضور ثلاثة من الحاخامات وتحت أنظارهم.

وكذلك تُطبَّق في إسرائيل الشرائع التلمودية الخاصة بقوانين الطعام والقوانين الزراعية التي وردت في سفر براخوت من سدر زراعيم.

ويُدرَّس التلمود في إسرائيل، وتقتصر الدراسة في المدارس والمعاهد الدينيَّة على دراسته، كما أن جامعة بار إيلان تشترط على طلابها تحصيل معرفة تمهيدية بالتلمود[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الباب الخامس

الصهيونيَّة

الفصل الأول: تعريف الصهيونيَّة.
الفصل الثاني: مفهوم مصطلح الصهيونيَّة.
الفصل الثالث: الحركات الصهيونيَّة عبر التاريخ.
الفصل الرابع: الحركة الصهيونيَّة الحديثة.
الفصل الخامس: جولات الحروب ومحطات السلام بين العرب والصهيونيَّة اليهوديَّة.
الفصل السادس: إسرائيل الكبرى.
الفصل السابع: بروتوكولات حكماء صهيون.

الفصل الأول

تعريف الصهيونيَّة

الصهيونيَّة نسبة إلى جبل صهيون الواقع في الجنوب الغربي من القدس القديمة، إذ ابتنى داود قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس في القرن العاشر قبل الميلاد.

وأصبح هذا الاسم يرمز إلى مملكة داود، وإعادة تشييد هيكل سليمان من جديد، بحيث تكون القدس عاصمة لها.

والصهيونيَّة حركة دينيَّة سياسيَّة عنصريَّة متطرفة، ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كلَّه. وتأييد ذلك بالقول أو بالمساعدة الماليَّة أو الأدبيَّة.

وذلك تحقيقًا لعقيدة المخلص المنتظر.

وتعتبر الصهيونيَّة جميع يهود العالم أعضاء في جنسيَّة واحدة هي الجنسيَّة الإسرائيليَّة.

- أهداف الصهيونيَّة:

أهدافها ذات جانبين: ديني وسياسي:

أولًا: الجانب الديني: ويتلخص فيما يلي:

١- إثارة الحماس الديني بين أفراد اليهود في جميع أنحاء العالم، لعودتهم إلى أرض الميعاد المزعومة (أرض فلسطين).

٢- حث سائر اليهود على التمسك بالتعاليم الدينيَّة والعبادات والشعائر اليهوديَّة والالتزام بأحكام الشريعة اليهوديَّة.

٣- إثارة الروح القتاليَّة بين اليهود، والعصبية الدينيَّة والقوميَّة لهم للتصدي للأديان والأمم والشعوب الأخرى.

ثانيًا: الجانب السياسي: ويتلخص فيما يلي:

١- محاولة تهويد فلسطين (أي جعلها يهوديَّة داخليًّا) وذلك بتشجيع اليهود في جميع أنحاء العالم على الهجرة إلى فلسطين وتنظيم هجرتهم وتمويلها، وتأمين وسائل الاستقرار النفسي والوظيفي والسكني وذلك بإقامة المستوطنات داخل أرض فلسطين «وهي عبارة عن مجمعات سكنية حديثة كاملة المرافق تمولها الصهيونيَّة من تبراعات اليهود والدول الموالية لهم في العالم»، وتوطيد الكيان اليهودي الناشئ في فلسطين سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا.

٢- تدويل الكيان الإسرائيلي في فلسطين عالميًّا، وذلك بانتزاع اعتراف أكثر دول العالم بوجود دولة إسرائيل في فلسطين وشرعيتها وضمان تحقيق الحماية الدوليَّة لها، وفرضها على العالم، وعلى

المسلمين على وجه الخصوص. لذلك نجد أنَّ الصهيونيَّة تقوم بدور رئيس في دفع أمريكا وروب وأكثر الدول في أوربًا لحماية إسرائيل سياسيًا وعسكريًا ودعمها اقتصاديًا وبشريًا، فبالرغم من تـ أمريكا ودول أوربًا -دول نصرانيَّة-، وبالرغم من أنَّ روسيا شيوعيَّة تحارب الأديان وبالرغم أيضـ من أنَّ شعوب هذه الدول تكره اليهود بحقٍّ إلَّا إنَّها لا تزال تحمي دولة إسرائيل وتدعمها. وما ذلك إلا بتأثير الصهيونيَّة الواضح.

٣- متابعة وتنفيذ المخططات اليهوديَّة العالميَّة السياسيَّة والاقتصاديَّة، خطوة بخطوة، ووضـ الوسائل الكفيلة بالتنفيذ السريع والدقيق لهذه المخططات، ثم التهيئة لها إعلاميًّا وتمويلها اقتصاديًّـ ودعمها سياسيًّا.

٤- توحيد وتنظيم جهود اليهود في جميع العالم أفراد وجماعات ومؤسسات ومنظمات، وتحريك العملاء والمأجورين عند الحاجة لخدمة اليهود وتحقيق مصالحهم ومخططاتهم[١].

---

(١) انظر: القاموس السياسي ص(١١٧)، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/٥١٨)، اليهودية، د. أحمد شلبي ص(١١٩).

الفصل الثاني

مفهوم مصطلح الصهيونيَّة

- وردت لفظة صهيون لأول مرة في العهد القديم عندما تعرض للملك داود الذي أسس مملكته ١٠٠٠. ٩٦٠ ق.م [١]. فتشير كلمة صهيون حينئذٍ إلى جبل صهيون.

ثم يتسع النطاق الدلالي للكلمة فيشير إلى القدس، ثم إلى الأرض المقدَّسة ككل[٢].

ويُشير اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم بنت صهيون[٣].

كما تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى اليهود كجماعة دينيَّة.

- وفي أواخر القرن السادس عشر أطلق مصطلح الصهيونيَّة في الأوساط البروتستانتيَّة في إنجلترا على اليهود باعتبارهم شعبًا عضويًّا مختارًا وطنه المقدَّس في فلسطين ولذا يجب أن يُهجَّر إليه.

وقد استمرَّ هذا التيار المنادي بتوطين اليهود في فلسطين حتى بعد أن خمد الحماس الديني الذي صاحب حركة الإصلاح الديني.

ويُطلَق على هذه النزعة اسم: الصهيونيَّة المسيحيَّة، وهي تمارس في الولايات المتَّحدة الآن بعثًا جديدًا وخصوصًا في بعض الأوساط البروتستانتيَّة (الأصوليَّة) المتطرفة.

- وظهرت في أوربَّا نزعات ومفاهيم صهيونيَّة في أوساط الفلاسفة -ولا سيَّما الرومانسيين- والمفكرين السياسيين والأدباء، تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين، استنادًا لأسباب تاريخيَّة وسياسيَّة وعلميَّة.

- ومع الحملات العسكريَّة والحربيَّة على الشرق الإسلامي نجد أنَّ مفهوم الصهيونيَّة انتقل إلى عالم السياسة والمنفعة الماديَّة ومصالح الدول، فنجد أن نابليون بونابرت أول غازٍ غربيٍّ للشرق الإسلاميِّ في العصر الحديث وواحد من أهم المعادين لليهود في العالم الغربي،-كما يدل على ذلك سجله في فرنسا- وواحد من أهم دعاة العلمانيَّة الشاملة، هو أيضًا صاحب أول مشروع صهيونيٍّ حقيقيٍّ، إذ دعا الصهاينة إلى الاستيطان في «بلاد أجدادهم»!.

- وأصبح مفهوم الصهيونيَّة مفهومًا أساسيًّا في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١ م مع نجاح

---

(١) انظر: سفر صموئيل الثاني ٥/ ٧، المزامير ٧٤/ ٢، ٧٨/ ٦٨، أشعياء ٤/ ٥، ٨/ ١٨، ١٠/ ١٢، ١٨/ ٧، ٢٤/ ٢٣، ٢٩/ ٨.

(٢) انظر: سفر الملوك الأول ٨/ ١، أخبار الأيام الأول ١١/ ٥، أخبار الأيام الثاني ٥/ ٢، المزامير ٢/ ٦، ٩/ ١١، ٤٨/ ٢، ٥٠/ ٢، ٥١/ ١٨، ٦٥/ ١.

(٣) انظر: المزامير ٩/ ١٤، نشيد الإنشاد ٣/ ١١، أشعياء ١/ ٨، ٥٢/ ٢، إرميا ٦/ ٢

أوربًا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي الذي حقق أول نجاح حقيقيٍّ له في القضاء على مشروع محمد علي في تحديث مصر والدولة العثمانيَّة، ومع تفاقم المسألة اليهوديَّة التقت المسألة الشرقيَّة بالمسألة اليهوديَّة وساد التصوُّر القائل بإمكان حل المسألتين من خلال دمجهما.

- وتمت بلورة المفاهيم الصهيونيَّة وملامح المشروع الصهيوني بشكلٍ كاملٍ في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام ١٨٨٠ على يد المفكرين الصهاينة غير اليهود لورد شافتسبري ولورانس أوليفانت.

وقد لخص شافتسبري التعريف الغربي لمفهوم الصهيونيَّة في عبارة: أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض.

وقد حاول أوليفانت أن يضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ.

- وفي أواخر القرن التاسع عشر عبَّرت النزعة الصهيونيَّة في شرق أوربًا عن نفسها من خلال جماعات أحباء صهيون التي حاولت التسلل إلى فلسطين للاستيطان فيها.

وبدأت المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيَّات التوطينيَّة المختلفة التي كانت تهدف إلى توطين يهود شرق أوربًا في أي بلد (ويشمل ذلك فلسطين).

- وقد نحت مصطلح الصهيونيَّة نفسه المفكر اليهودي النمساوي نيثان بيرنباوم في أبريل ١٨٩٠ في مجلة الانعتاق الذاتي وشرح معناه في خطاب بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٩١ قال فيه: إنَّ الصهيونيَّة هي إقامة منظَّمة تضمُّ الحزب القوميَّ السياسيَّ بالإضافة إلى الحزب ذي التوجه العملي -أحباء صهيون- الموجود حاليًا.

وفي مجال آخر في المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ صرَّح بيرنباوم بأنَّ الصهيونيَّة ترى أنَّ القوميَّة والعِرْق والشعب شيء واحد.

- وبعد المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ في بازل، تحدَّد مصطلح الصهيونيَّة وأصبح يشير إلى الدعوة التي تبشر بها المنظَّمة الصهيونيَّة وإلى الجهود التي تبذلها، وأصبح الصهيونيُّ هو من يؤمن ببرنامج بازل.

- بعد ذلك بدأت دلالات الكلمة تتفرع وتتشعب، فهناك «صهيونيَّة سياسيَّة» -يُشار إليها أحيانًا بعبارة «الصهيونيَّة الدبلوماسيَّة»-، وأخرى «عمليَّة»، وتبعتها «الصهيونيَّة التوفيقيَّة».

وكلُّ صهيونيَّة لها توجُّهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعًا لا تختلف في الهدف النهائيِّ.

وتذهب الصهيونيَّة التوفيقيَّة إلى أنَّ كلَّ الاتجاهات الصهيونيَّة غير متناقضة بل يكمل الواحد منها الآخر، ومن ثم يَسهُل التوفيق بينها.

- تَبلور المفهوم الغربي للصهيونيَّة تمامًا في وعد بلفور الذي مُنح للشعب اليهودي، والذي أشار

للعرب باعتبارهم الجماعات غير اليهوديَّة، أي أن اليهود أصبحوا شعبًا بلا أرض وفلسطين أصبحت أرضًا بلا شعب.

- ثم ظهرت بعد ذلك الصهيونيَّة الثقافيَّة، والدينيَّة، التي أضافت إلى الصهيونيَّة البعد الإثني (الديني والعلماني).

- ثم ظهرت الصهيونيَّة الديموقراطيَّة، والصهيونيَّة العماليَّة، والصهيونيَّة التصحيحيَّة، والصهيونيَّة الراديكاليَّة، وبعد عام ١٩٤٨، ظهرت: صهيونيَّة الدياسبورا.

- وهناك مصطلح: الصهيونيَّة الجغرافيَّة، الذي ورد في رسالة بعث بها يوسف ضياء الدين الخالدي رئيس بلديَّة القدس إلى حاخام فرنسا الأكبر صادوق كاهن -الصديق المقرب لكلٍّ من هرتزل ونوردو- يُذكِّره بأنَّ فلسطين جزءٌ لا يتجزأ من الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ويسكنها غير اليهود، ويتنبأ بقيام حركة شعبيَّة ضد الصهيونيَّة فيما لو استمرت الحال على ما هي عليه، ولذا فقد نصح الصهاينة بالتخلي عن «الصهيونيَّة الجغرافيَّة»، أي الربط بين صهيون وفلسطين وبضرورة البحث عن أرض أو بلاد أخرى.

- وفي الوقت الحاضر فإنَّ كلمة صهيونيَّة تعني في العالم العربي: الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي تَرسَّخ بدعم من الغرب.

- الصهيونيَّة حركة عنصريَّة حسب أحد قرارات هيئة الأمم، وأنَّها ليست كذلك حسب قرارات أخرى.

الفصل الثالث

الحركات الصهيونيَّة عبر التاريخ

العودة إلى صهيون فكرة محوريَّة في الدين اليهودي، إذ إنَّ أتباع هذه العقيدة يؤمنون بأنَّ الماشيح المخلِّص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض- العاصمة) ويحكم العالم فيسود العدل والرخاء[١].

وقامت نداءات وحركات لتحقيق هذا الهدف، وهو اتخاذ فلسطين وطنا قوميًّا لليهود وإقامة دولة لهم.

ومن هذه النداءات والدعوات والكتابات:

١- أول دعوة علنية لإنشاء وطن قومي لليهود كانت في كتاب: نداء اليهود الذي أصدره السير هنري فنش بإنجلترا عام ١٦١٦

٢- الحاخام زفي هيرش كاليشر ١٧٩٥- ١٨٧٤ في كتابه: البحث عن صهيون.

٣- الحاخام موسى هيس ١٨٢١- ١٨٧٥ في كتابه من روما إلى القدس.

٤- المفكر اليهودي بيريتز سمولنسكن ١٨٤٢- ١٨٨٥ في كتابه: فلنبحث عن الطريق[٢].

ومن أهم الحركات:

حركة المكابيين

عقب العودة من السبي البابلي قامت حركة المكابيين في الفترة ١٦٧- ٦٣ق.م، وكان أول أهدافها العودة إلى صهيون وبناء هيكل سليمان.

وهذه الحركة قام به ميتاثياس من أسرة حشمون، من سبط هارون، وأبناؤه الخمسة: يوهنان كاديس، وسيمون، وجوداس، والبزر، ويوناثان، وكانت الحركة لخلع طاعة السلوقيين، وضد حكم اليونانيين، وكان شعار ميتاثياس: من كان يغار على الشريعة، وأراد أن يؤيد العهد فليتبعني.

وبعد موت ميتاثياس قاد الحركة ابنه جوداس الذي كان رجل حرب، وكان معروفا باسم يهودا المكابي وعرفت الحركة باسمه، وألحق باليونانيِّين كثيرًا من الهزائم واستطاع تحرير الأرض من أيديهم وإنقاذ القدس واستعادة المعبد، ولكنَّه قتل عام ١٦١ق.م.

وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنَّه قُتل هو الآخر عند عكا.

---

(١) انظر: المزامير ١٤/٧، ٢٠/٢، أشعياء ٤٦/١٣ .

(٢) انظر: موجز تاريخ اليهود، د. محمود عبد الرحمن قدح ص(٣٤).

ولم يبقَ بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا سيمون، وقد استطاع بمعونة روما أنَّ ينال في عام ١٤٢ق.م اعترافًا باستقلال بلاد اليهود.

وعُين سيمون بمرسوم شعبي حاخامًا أكبر وقائدًا عسكريًا، وهذان المنصبان قد أصبحا وراثيين في هذه الأسرة فقد أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة الحشمونيَّة، وعدت أول سني حكمه بداية تاريخ الجديد، وصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهوديَّة الجديدة.

وقد سقط هذا الحكم اليهودي المستقل بقيام الرومان بغزو المنطقة عام ٦٣ ق.م، فاختفى وجود اليهود السياسي المستقل تقريبًا[١].

حركة باركوخيا

أثار اليهودي باركوخيا ١١٨. ١٣٨م الحماسة في نفوس اليهود وحثهم على التجمع في فلسطين وتأسيس دولة يهوديَّة فيها.

حركة موزس الكريتي

وكانت شبيهة بحركة باركوخيا.

حركة دافيد روبين وسولومون مولوخ

حثَّ دافيد روبين وتلميذه سولومون مولوخ ١٥٠١. ١٥٣٢م اليهود على ضرورة العودة لتأسيس ملك إسرائيل في فلسطين.

حركة منشه بن إسرائيل

تعتبر حركة منشه بن إسرائيل ١٦٠٤. ١٦٥٧م هي النواة الأولى التي وجَّهت خطط الصهيونيَّة وركزتها على أساس استخدام بريطانيا في تحقيق أهداف الصهيونيَّة.

حركة شبتاي تسفي

ادَّعى شبتاي تسفي ١٦٢٦. ١٦٧٦م أنَّه مسيح اليهود المخلص، فأخذ اليهود في ظله يستعدون للعودة إلى فلسطين ولكنَّ مخلِّصهم مات.

حركة رجال المال

كانت تهدف حركة رجال المال التي تزعمها روتشيلد وموسى مونتفيوري إلى إنشاء مستعمرات يهودية في فلسطين كخطوة لامتلاك الأرض ثم إقامة دولة اليهود.

الحركة الفكريَّة الاستعماريَّة

دعت الحركة الفكريَّة الاستعماريَّة إلى إقامة دولة يهوديَّة في فلسطين في بداية القرن التاسع عشر.

---

(١) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، التاريخ اليهودي العام (٢/ ١٩٣)، صابر طعيمة، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٥٠- ٥٢)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(٥٦، ٥٧).

فرنسا الاستعماريَّة

أطلق نابليون بونابرت دعوته لليهود بالهجرة إلى فلسطين في إبريل من عام ١٧٩٩م للميلاد. ووجه إلى اليهود بيانًا سماهم فيه ورثة فلسطين الشرعيين، وعرض تعاون الحركة الاستعماريَّة الفرنسيَّة معهم، لتمكينهم من السيطرة على أرض بيت المقدس.

ولهذا فإنَّه بعد أن غزا مصر عمد إلى غزو الشام، وخاض معارك كبيرة هناك، إلا أنَّها انتهت بهزيمته في عكا في معركة أبي قير، مما أجهض مشروعه الإجرامي لتمكين اليهود في فلسطين في ذلك الوقت المبكر الذي سبق ميلاد الحركة الصهيونيَّة المعاصرة بنحو مائة عام.

ولكن فرنسا ظلت محتفظة بالتزامها بالتعاون مع اليهود بصور تظهر تارة وتختفي تارة، وكان من أبرز صور التعاون معهم بعد إقامة دولتهم المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م. والأظهر من ذلك تمكين دولة اليهود من تصنيع القنبلة النوويَّة بتعاون فرنسيٍّ إسرائيلي وثيق منذ نهاية الخمسينات.

بريطانيا الاستعماريَّة

استفادت بريطانيا من إخفاقات نابليون في تحقيق هذا الغرض، وسارت في خطوات حثيثة لإنجاح المشروع الذي لم تفلح فيه فرنسا، وقد تكلل هذا المسعى المشئوم بالنجاح في نهاية المطاف.

فالمشروع الإنجليزيُّ لتمكين اليهود في فلسطين بدأ عام ١٨٤٠م، وأثمر قيام الدولة عام ١٩٤٨م.

بدأت بريطانيا مشروعها بتصدير رجال دين نصارى لهذه المهمة؛ حيث رأت أنَّ رجال السياسة لن يصلحوا لمرحلة البداية التي تحتاج إلى تحفيز روحيٍّ وعقديٍّ، ولهذا فإنَّ أول من أذنت له بريطانيا ببذل مساعيه لإحياء المشاعر الدينيَّة عند اليهود بخصوص العودة لفلسطين هو القس (وليام هشلر) الذي تحرك في دول أوربَّا من أجل الإقناع بهذا الهدف.

وبينما كان القس يهيئ الأجواء لقبول المشروع البريطاني، كان الساسة يرتبون للتحرك على محاور أخرى لاستثمار نتائج مساعيه أولًا بأول، وأصبحت بريطانيا تنادي علنًا بحماية حقوق الأقليات الدينيَّة في العالم، ولم يكن يهمها في الحقيقة من هذه الأقليات سوى الأقليات اليهوديَّة لجمع شتاتها المبعثر في العالم، وحشره في بيت المقدس.

وعندما آتت هذه المساعي شيئًا من أكلها بانتعاش الأقلية اليهوديَّة في فلسطين انتقلت بريطانيا في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر إلى جلب يهود آخرين إلى أرض فلسطين من خارجها، واستغلت خبرتها العريقة في اغتصاب الشعوب باسم (الاستعمار) لتضعها تحت تصرف اليهود باسم (الاستيطان)، أي تحويل أرض الغير إلى وطنٍ.

وقد أرادت بريطانيا بذلك المسعى أن تضرب عصفورين بحجر واحدٍ؛ فهي من ناحية تحقق ذلك الهدف المشبوه من مشروع تمكين اليهود في بيت المقدس بعد تيه قارب الألفي عام، ومن ناحية

أخرى، تضع خنجرًا في خاصرة العالم الإسلامي، لتكرس حالة الوهن التي وصل إليها بعد ضعف الدولة العثمانيَّة، وذلك حتى لا يقوم لهذا العالم كيان عالمي يحاول النهوض من جديد.

وقد جعل وزير خارجية بريطانيا (اللورد بالمرستون) مهمته الأولى هي السير قدمًا في وضع السياسات الكفيلة بتحقيق هذين الهدفين.

ولكن برامج (بالمرستون) ظلَّت مجمَّدة حتى انتهت الحرب العالميَّة الأولى التي نتج عنها هزيمة الدولة العثمانيَّة؛ حيث استغل الإنجليز نتائجها وسارعوا إلى اغتنام فرصة الفراغ والبلبلة الناشئة عنها، ونادوا بضرورة فرض الحماية البريطانيَّة على فلسطين، ولم تكن هذه الخطوة إلا تطبيقًا لأفكار بالمرستون للإمعان في تهيئة الأوضاع في فلسطين للتمكين لليهود فيها بالتنسيق مع فعاليات الحركة الصهيونيَّة العالميَّة التي كانت قد بلغت في ذلك الوقت مرحلة من النضج التنظيمي الذي يؤهلها للقيام بدور فاعل في هذه التطورات المصيريَّة في المنطقة.

لقد شهدت البدايات الأولى للقرن التاسع عشر تلاقيًا ظاهرًا بين أهداف الحركة اليهوديَّة العالميَّة وأهداف بريطانيا زعيمة العالم النصراني في ذلك الوقت.

لقد توَّجت بريطانيا هذا التلاقي بإصدار حكومتها وعدًا رسميًّا لليهود بإقامة (وطن) -لا مستوطنات- ولم يكن هذا الوعد الصادر في نوفمبر عام ١٩١٧م مجرد وعود تشجيعيَّة، وإنما كان بمثابة حكم قضائي، سخرت لتطبيقه القوى المتنفذة في ذلك الوقت، فوعد (بلفور) كان يعني بتعبير آخر، تعهد بريطانيا بتحويل فلسطين إلى وطن لليهود، ولم يكن هذا التعهد قابلًا للتنفيذ عن بُعد، ولهذا أقدمت بريطانيا على احتلال القدس بعد صدور الوعد بشهر واحد.

وهكذا، وبعد عشرين عامًا من اجتماع قادة الصهيونيَّة في (بال) بسويسرا فتحت لهم بريطانيا مصاريع أبواب فلسطين لكي يلج منها مشروعهم التآمري ضد المسلمين، بل ضد البشريَّة جمعاء[١].

حركة أحباء صهيون

على إثر مذابح اليهود في روسيا سنة ١٨٨٢م قامت حركة صهيونيَّة عنيفة، وفي هذه الفترة ألف هيكلر الجرماني كتاب بعنوان: إرجاع اليهود إلى فلسطين حسب أقوال الأنبياء.

وظهرت في روسيا لأول مرة حركة عرفت باسم: أحباء (عشاق) صهيون، وكان أنصارها يجمعون في حلقات اسمها (أحباء صهيون) وقد تم الاعتراف بهذه الجماعات في عام ١٨٩٠م تحت اسم: جمعيَّة مساعدة الصناع والمزارعين اليهود في سوريا وفلسطين، وترأسها ليون بنسكر واستهدفت الجماعة تشجيع الهجرة إلى فلسطين وإحياء اللغة العبريَّة.

---

(١) انظر: مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، العدد ١٤٥ ص(٦٠- ٦٤)، التاريخ اليهودي العام (٢/ ١٩٤، ١٩٥).

ويقول وايزمان في مذكراته: إنَّ الحركة الصهيونيَّة في حقيقتها وجوهرها نشأت في روسيا، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقري للكيان اليهودي في فلسطين منذ قيام الحركة[(١)].

وقدمت الحركة سنة ١٨٨٢ طلبًا إلى القنصل العثماني في روسيا يطلبون الإقامة في فلسطين فكان الرد بالرفض القاطع من السلطان عبد الحميد الثاني.

وأخذ اليهود يتسللون من روسيا واتجه أكثرهم إلى الولايات المتَّحدة وأراد بعضهم الاتجاه إلى فلسطين ولكنَّ الحكومة التركية أصدرت قانونًا يحرِّم على اليهود دخول فلسطين، وفي الوقت نفسه منعت حكومة القيصر بروسيا الدعوة للهجرة.

وعلى الرغم من كلٍّ ذلك استطاع نفر قليل من الشبان أن يصلوا إلى فلسطين سنة ١٨٨٣ حيث أنشئوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا، وأطلقوا عليها اسم: ريشون ليزيون، أي الأولون في صهيون، ويسميها بن جوريون: الهجرة الأولى، أما الهجرة الثانية فكانت نتيجة الثورة الروسيَّة التي قامت سنة ١٩٠٥ وقد تمكن القيصر من القضاء عليها، ويقول بن جوريون: إنَّ هذه الثورة لو نجحت لأدت إلى رفع الاضطهاد عن اليهود وبالتالي لاستقر يهود روسيا بها، ولكن فشلها دفع اليهود إلى ما يسميه بن جوريون بالهجرة الثانية، وكان بن جوريون من مهاجري هذه الموجة[(٢)]. وتلا ذلك هجرات من الدول المختلفة بأوربَّا وبخاصَّة رومانيا.

وتبعًا لهذه الهجرات أنشأت عدة مستعمرات في مناطق جودا والخليل والسامرة، وقد تعرضت المستعمرات الصهيونيَّة إلى كثير من الكساد وأوشكت على الانهيار لولا المساعدات الضخمة التي قدمها أثرياء اليهود وبخاصَّة البارون أدمون دي روتشيلد[(٣)].

وألفت في بعض بلاد أوربَّا جمعيَّات مماثلة لجمعيَّة عشاق صهيون التي ألفت في روسيا.

ثم جاء هرتزل الذي يعتبر أبا للصهيونيَّة الحديثة[(٤)].

---

(١) مذكرات وايزمان ص(١٤).

(٢) إسرائيل وسنوات التحدي، بن جوريون.

(٣) هذه هي الصهيونيَّة، إسرائيل كوهين ص(٣٣).

(٤) انظر: اليهودية ص(١٢٠، ١٢١)، موجز تاريخ اليهود ص(٣٤).

الفصل الرابع

الحركة الصهيونيَّة الحديثة

الصهيونيَّة الحديثة هدفها الأساسي الواضح هو قيادة اليهود إلى حكم العالم بدءًا بإقامة دولة لهم في فلسطين.

وهي الحركة المنسوبة إلى تيودور هرتزل الصحفي اليهودي المولود في بودابست في ٢/ ٥/ ١٨٦٠م، والذي حصل على شهادة الحقوق من جامعة فينا ١٨٧٨م.

وقد شهد بباريس -كمراسل صحفي- محاكمة الضابط الفرنسي اليهودي دريفوس، الذي اتُّهم بالخيانة عام ١٨٩٤م لنقله أسرارًا عسكريَّة من فرنسا إلى ألمانيا، لكن ثبتت براءته فيما بعد، ولكنَّه حس في المحاكمة -كما يقول- بروح العداء للسامية ولليهود فكتب كتابه الدولة اليهوديَّة سنة ١٨٩٥م يعلن فيها ضرورة قيام دولة لليهود يحتمون بها من هذا العنت.

وإصدار كتابه هذا الشهير أكسبه أنصارًا لا بأس بعددهم مما شجعه على إقامة أول مؤتمر صهيوني عالمي في بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧م، مستغلًا محاكمة الضابط اليهودي الفرنسي، ونجح هرتزل من تصوير المأساة اليهوديَّة -في زعمه- من خلال هذه الواقعة الفرديَّة.

ونجح في جمع كلمة اليهود وتوجيه نشاطهم، ووضع ما عرف فيما بعد اسم «برنامج بال» الصهيوني.

وقد حدد هرتزل أهدافه في هذا المؤتمر بقوله: إنَّنا اجتمعنا هنا لكي نضع حجر الأساس للمبادئ التي تجمع الشعب اليهودي.

وسرعان ما سيطر شعور اليهود الشرقيين -الروس بوجه خاصٍّ- على هذا المؤتمر، وكان هؤلاء يتمسكون بأن يكون مأوى اليهود في أرض فلسطين.

وقد علق هرتزل على هذا المؤتمر بقوله: لو طلب إليَّ تلخيص أعمال المؤتمر فإني أقول بل أنادي على مسمع من الجميع إنني قد أسست الدولة اليهوديَّة، إنَّ العالم سيرى بعد خمسين سنة على وجه تأكيد هذه الدولة[١].

واتخذ المؤتمر القرار التالي:

إنَّ أماني الصهيونيَّة هي إنشاء وطن للشعب اليهودي يُعْتَرَف به من الناحيتين الرسميَّة والقانونيَّة، ويصبح الشعب اليهودي بإنشائه في مأمن من الاضطهاد، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين.

---

١) يوميات هرتزل (٢/ ٥٨١).

وحدد المؤتمر الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية بما يلي:

أولًا: تنمية الاستيطان اليهودي في فلسطين، وذلك بتعمير كل ما يمكن من الأراضي الفلسطينيَّة بسكانٍ يهود مستقرين، من عمال وزراعيين وصناعيين، لإنشاء أجيال تتشبث بالأرض، ويستحيل اقتلاعها أو إجلاؤها.

ثانيًا: تشجيع وتنظيم هجرة اليهود في العالم إلى أرض فلسطين لتكثيف الوجود اليهودي فيها، وربط هذه الهجرة بمنظمات محليَّة ودوليَّة.

ثالثًا: تقوية الشعور اليهودي والوعي القومي اليهودي، وبعث الشخصية اليهوديَّة، بما ينبغي أن تحمله من مشاعر وعقائد وشعائر وتقاليد على المستوى الفردي والجماعي، وذلك بإحياء ما اندرس من تراث الديانة اليهوديَّة نظريًا وعمليًا.

رابعًا: إنشاء جهاز إداري دقيق لجمع المال، واشترك أثرياء اليهود بسخاء في التمويل وبخاصة المليونير روتشيلد وأسرته.

خامسًا: توحيد جميع اليهود في مؤسسات أقليميَّة وعامَّة وفقًا للقوانين المرعية في كلِّ بلدٍ.

سادسًا: إحياء اللغة العبريَّة وجعلها اللغة الرسميَّة للجماعة الصهيونيَّة فكل من اعتنق فكرة الصهيونيَّة كان عليه أن يبادر بتعلم اللغة العبريَّة دون إبطاء، ويقول شاختر في بيان ضرورة اللغة العبريَّة لليهود: اللغة العبريَّة هي الخزانة التي أودعنا فيها كل نفيس من حياة بني إسرائيل الروحيَّة، ولولاها لفصلنا من الشجرة الكبرى التي هي بمثابة الحياة للمتصلين بها، إنَّ اليهود الإغريقين هي الطائفة الوحيدة المعروفة في التاريخ بمحاولتها هذه التجربة للتخلص من اللغة العبريَّة وقد خاب فلها وانتهت إلى الهلاك، وسارت في طريق الاضمحلال، وأخيرًا ارتدت جملة عن الدين اليهودي، فلنتجنب مغالطة أنفسنا، ليس هناك أي مستقل لليهود الذين يقاومون اللغة العبريَّة [1].

سابعًا: اتخاذ الخطوات التحضيريَّة للحصول على الضمانات الحكوميَّة اللازمة لتحقيق أهداف الصهيونيَّة.

ومن الناحية التنفيذيَّة أسس المؤتمر المنظمة الصهيونيَّة العالميَّة، وأقر نظامها الداخلي وهيكلها التنظيمي وشروط العنصريَّة فيها، فمنح حقَّ العضويَّة لكلِّ يهودي في العالم يلتزم ببرنامج بال، ويدفع اشتراكًا سنويًا محددًا، كما أقرَّ المؤتمر شكل العلم الصهيوني، وجدير بالذكر أنَّ المؤتمر قد تعمد أن يستعمل في قراره الرئيسي تعبير «وطن» لأسباب دبلوماسيَّة بينما كان القصد الحقيقي للمؤتمر من البداية هو «دولة يهوديَّة» كما أكد هرتزل في مذكراته.

وهكذا اتجهت الحركة الصهيونيَّة بعد ذلك المؤتمر للعمل على جبهتين:

---

(١) في الفكر اليهودي ص(١٧).

١- الجبهة اليهوديَّة بهدف استكمال تنظيماتها وكسب ولاء اليهوديَّة العالميَّة.

٢- والجبهة الخارجيَّة بهدف كسب تأييد حركة الاستعمار الأوربيّ العالميّ.

العمل على الجبهة اليهوديَّة

عقدت المنظمة الصهيونيَّة العالميَّة بين مؤتمر بازل ١٨٩٧ وسنة ١٩١٣ عشرة مؤتمرات تم خلالها تشكيل عدد من الهيئات التنظيميَّة والماليَّة لتنفيذ برنامج الاستيطان اليهوديّ في فلسطين بجباية الأموال واستخدامها في تمويل الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين وشراء الأراضي الفلسطينيَّة، وقصر العمل فيها على اليهود دون غيرهم، ويلاحظ أن الاستيطان الزراعي القائم على الانغلاق الصهيوني كان هو الوسيلة الوحيدة أمام الصهيونيَّة لمحاولة إيجاد جذور للمهاجرين اليهود الغرباء في أرض فلسطين.

وإجمالًا يمكن اعتبار العمل الصهيوني في الفترة ما بين مؤتمر بازل في ١٨٩٧ واندلاع الحرب العالميَّة الأولى في ١٩١٤ محاولة لوضع الأسس الأولى للوجود الصهيونيّ في فلسطين من كافَّة النواحي مع الأخذ بعين الاعتبار تلك الخطوات المحدودة التي كانت قد بدأت في ميدان الهجرة والاستيطان منذ سنة ١٨٨٢، وقد شهدت فلسطين خلال الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٩١٤ موجتين للهجرة اليهوديَّة كانت الأولى بين ١٨٨٢ و١٩٠٣، وضمنت أفرادًا وجماعات صغيرة من أوربَّا الشرقيَّة استجابة إلى دعوات الجماعات الصهيونيَّة الأولى، والثانية بين ١٩٠٤ و١٩١٤ وقد تألفت جذورها من يهود أوربَّا الشرقيَّة الذي عملوا في المستعمرات اليهوديَّة التي أقيمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ووضعوا أسس الحركة العماليَّة الصهيونيَّة والمستعمرات الجماعيَّة الأولى.

العمل على الجبهة السياسيَّة الدوليَّة

كانت الحركة الصهيونيَّة تخطط لإيجاد دولة يهوديَّة في فلسطين في وقت كان الوجود اليهودي البشري والمادي في فلسطين أقل من أن يذكر، وأمام هذه المفارقة كان لا بدَّ لها من أن تبحث عن قوة استعماريَّة كبرى تتولى نقلها إلى فلسطين، وتحمي بالقوة حركة الهجرة والاستيطان، وهكذا بدأت الصهيونيَّة بقيادة هرتزل عملًا حسيسًا عرضت فيه خدماتها على عدد من الدول الأوربيَّة وعلى الدولة العثمانيَّة مؤكدة لكلٍّ منها أنَّ الدولة الصهيونيَّة في فلسطين ستكون حارسًا أمينًا على مصالحها مقابل أداء الدولة المعنية للخدمات المطلوبة منها، وقد شمل التحرك الصهيوني عددًا من الدول من أهمها:

أولًا: ألمانيا

وذلك نظرًا لوجود أعداد كبيرة من اليهود فيها، ولصداقتها بالدولة العثمانيَّة صاحبة السيادة على فلسطين آنذاك، وكان عرض هرتزل على قيصر ألمانيا أنَّ تتبنى مطالب الحركة الصهيونيَّة لدى السلطان العثماني مقابل إبعاد يهود ألمانيا عن الحركات المناوئة للقيصر ونشر الثقافة والنفوذ

الألمانيين في دول المشرق، ولكن هذا المسعى لم يوفق.

ثانيًا: الدولة العثمانيَّة

وذلك لإقناعها بالسماح بهجرة يهوديَّة واسعة النطاق إلى فلسطين في مقابل كفالة ديون الدولة العثمانيَّة ودفع مبالغ طائلة لإنقاذ ماليَّة السلطنة المنهارة، كما قدمت الحركة الصهيونيَّة رشاوى إلى عدد من المسئولين العثمانيِّين لضمان موافقة السلطان، لكنَّه لم يوافق، ورفض رفع القيود المفروضة على أعداد اليهود المسموح بوجودهم في فلسطين. وفيما بعد حصلت الحركة الصهيونيَّة على تسهيلات من الإدارة العثمانيَّة بعد انقلاب ١٩٠٨ وإبعاد السلطان عبد الحميد، فسمح بزيادة عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وإن كان عدد اليهود في فلسطين قد انخفض في نهاية الحرب عنه قبلها بسبب الأهوال التي عانت منها فلسطين في تلك الفترة.

ثالثًا: بريطانيا

فقد توجه هرتزل بعد فشل مساعيه في استنبول إلى بريطانيا حيث وجد المناخ مهيَّئًا، إذ كانت الحكومة هناك تسعى لإيجاد حلٍّ للتذمر في أوساط العمال البريطانيِّين بسبب تزايد أعداد المهاجرين اليهود من أوربَّا الشرقيَّة مما هدد بخلق أزمة بطالة حادة في بريطانيا، وقد وافق وزير المستعمرات البريطاني بعد أن عرض عليه هرتزل المخططات الصهيونيَّة شارحًا الفوائد التي ستجنيها بريطانيا ومصالحها الاستعماريَّة من تأييد اليهود لها- وافق على توطين اليهود في العريش وشمال سيناء ولكن الدراسات اللاحقة أظهرت أن المشروع يحتاج إلى كمِّيَّات هائلة من المياه لإنجاحه. وقد رفضت الحكومة المصريَّة الموافقة على تقديم المياه المطلوبة من نهر النيل لري أراضي الاستيطان اليهودي المرتقب في العريش. وهنا اقترح وزير المستعمرات كينيا أو موزمبيق كمكانين بديلين، وقد وافق هرتزل على هذا العرض تكنيكيًا خاصَّة وأنه رافق وقوع حملات اضطهاد واسعة النطاق ضد اليهود في روسيا، غير أن المؤتمر الصهيوني السادس ١٩٠٣ انقسم بشأن هذا العرض وأن وافق عليه بأغلبيَّة الأصوات مقابل تعهد هرتزل بعدم البدء في توطين اليهود في الوطن الأفريقي المقترح قبل الحصول على موافقة مؤتمر صهيوني جديد، غير أن هرتزل مات في السنة نفسها، ومات بعده هذا العرض بعد أن جاء تقرير البعثة التي أوفدتها المنظمة الصهيونيَّة لدراسة إمكانيَّة الاستيطان هناك غير مشجع، وهكذا أسقط المؤتمر الصهيوني السابع في ١٩٠٥ هذا المشروع نهائيًّا.

التآمر الدولي على فلسطين

أدى النشاط الصهيوني المكثف في الساحة الدوليَّة إلى نتائج محددة عكست مدى نجاح الحركة الصهيونيَّة في استقطاب التأييد من أهم القوى الفاعلة في هذه المساحة، ونجتزئ من هذه النتائج هنا نتيجتين بالغتي الأهمِّيَّة توضحان مدى التآمر الدولي على فلسطين، وبداية خطوات التنفيذ الفعلي لخطة إنشاء دولة صهيونيَّة على أرض فلسطين.

أولًا: معاهدة سايكس بيكو

بينما كان النشاط الصهيوني يتزايد في فلسطين بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني في ١٩٠٨، وبسبب الفساد والرشوة كانت الدوائر الاستعماريَّة الأوربيَّة ترسم الخطط السرِّيَّة فيما بينها لاقتسام الدولة العثمانيَّة التي كانت مظاهر تدهورها وانهيارها بادية للعيان، وهكذا توصلت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا في مايو ١٩١٦ إلى عقد معاهدة سرِّيَّة لاقتسام المشرق العربي فيما بينهما، وقد وافقت روسيا القيصريَّة على هذه المعاهدة مقابل اتفاق تعترف فيه بريطانيا وفرنسا بحقها في ضمِّ مناطق معينة من آسيا الصغرى بعد الحرب.

ويلاحظ أنَّ معاهدة سايكس- بيكو:

١- تقاسمت أقطار المشرق العربي في نفس الوقت الذي كانت بريطانيا تتبادل فيه الرسائل متضمنة اعترافًا باستقلال المشرق العربي مع الشريف حسين الذي كان يتحدث باسم العرب.

٢- سلخت فلسطين من المشرق العربي، وحددت لها بالتدويل مصيرًا مغايرًا لباقي أقطاره، وتلك كخطوة أولى تهيئها، لمخطط الوطن القومي اليهودي والانتداب البريطاني في المرحلة التالية.

٣- ظلَّت سرًّا لا يدري به العرب إلى أن نشرتها الحكومة السوفيتيَّة في روسيا بعد نجاح الثورة الاشتراكيَّة في ١٩١٧، وعندها سارعت بريطانيا إلى طمأنة العرب إلى أنَّ المعاهدة أصبحت ملغاة منذ انسحاب روسيا من الحرب وانضمام العرب إلى جانب الحلفاء.

أما الزعماء الصهاينة فقد احتجوا لدى الحكومة البريطانيَّة لتنافي تدويل فلسطين مع فكرة الوطن القومي اليهودي، فأكدت لهم أنَّ التدويل هو مجرد خطوة مرحليَّة تكتيكيَّة أملاها موقف فرنسا وروسيا اللتين كانت لهما مطامع عديدة أيضا في فلسطين، وأنَّها -أي بريطانيا- ستعمل على إلغائه، وهو ما تأكد فعلًا بصدور تصريح بلفور حتى قبل انتهاء الحرب.

ثانيًا: وعد بلفور

كثف زعماء الحركة الصهيونيَّة جهودهم من أجل الحصول على دعم قوة استعماريَّة لمشروعهم مع نشوب الحرب العالميَّة الأولى وجاءت تطورات الحرب لترجح كفَّة الفريق الذي يراهن على بريطانيا، وأظهرت السياسة البريطانيَّة بالمقابل وعيًا بالأغراض الاستراتيجيَّة التي يمكن أن يحققها قيام دولة صهيونيَّة مرتبطة بها في فلسطين، إذ إن هذه الدولة سوف تحقق لها ما يلي:

١- تشكل مركزًا استراتيجيًا لحماية طرق المواصلات الإمبراطوريَّة إلى الهند وأفريقيا وللسيطرة على سواحل البحرين الأبيض والأحمر.

٢- تؤمن الوجود البريطاني في مصر وفيها قناة السويس أهمّ ممرٌ مائيٌ في العالم اقتصاديًا وعسكريًا.

٣- تكون جدارًا عازلًا أمام الأطماع المتزايدة للدولة الأوربيَّة المتنافسة ونقطة وثوب إلى باقي

بلاد المشرق العربي.

٤- تشطر الوطن العربي برًّيا، ويمكن استخدامها لمجابهة حركة التحرر في الوطن العربي عامَّة حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

وبناء على ما سبق وجه بلفور وزير خارجيَّة بريطانيا في ٢ نوفمبر ١٩١٧ رسالة إلى روتشيلد أحد زعماء الحركة الصهيونيَّة وكبار رجال المال في بريطانيا تنصُّ على أنَّ الوزارة البريطانيَّةَ قد وافقت على «أنَّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهوديِّ في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًّا أنَّه لن يؤتي بعمل من شأنه أن يضير بالحقوق المدنيَّة والدينيَّة التي تتمتع بها الطوائف غير اليهوديَّة المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى».

ويلاحظ على هذا الوعد:

١- عدم مشروعيته: وذلك:

أ- لصدوره ممن لا يملك فلسطين إلى من لا حقَّ لهم فيها.

ب- لتناقضه مع التعهدات التي قطعتها بريطانيا للعرب بالاستقلال بعد الحرب.

٢- عدم شرعيته: وذلك:

أ- لتجاهله أنَّ شعب فلسطين كان يمثل وقت صدوره ٩٥% من سكان فلسطين، وقد أشار لهذا الشعب باعتباره «الطوائف غير اليهوديَّة» مع العلم بأنَّ اليهود الذين اعتبروا الأصل في هذا الوعد كانوا يمثلون ٤% من السكان ويملكون ٢% من الأرض.

ب- لتجاهله الحقوق السياسيَّة لشعب فلسطين، فقد أشار فقط إلى الحقوق المدنيَّة والدينيَّة للطوائف غير اليهوديَّة، بينما أكد الحقوق السياسيَّة لليهود في فلسطين بالتأكيد على فكرة تأسيس وطن قومي لهم فيها، وفي غير فلسطين بنصِّه على عدم المساس بوضعهم السياسي في البلاد الأخرى.

٣- غموضه: وذلك لاستعماله تعبير «الوطن القومي» للتهرب من النصِّ صراحة على إنشاء دولة اليهود تجنُّبًا لردود أفعال أوسع.

وفي سبتمبر ١٩١٨ تم احتلال فلسطين من قبل الجيوش البريطانيَّة لتكون هذه هي الخطوة الأولى في طريق وضع الوعد موضع التنفيذ.

فلسطين تحت الانتداب

عقد مؤتمر السلام في باريس في مطلع ١٩١٩ لتصفية تركة الحرب العالميَّة الأولى في ضوء خريطة سياسيَّة جديدة تطابق الأهداف الاستعماريَّة للدول الكبرى المسيطرة على المؤتمر والمنتصرة في الحرب. وجدير بالذكر أنَّه على الرغم من سماع المؤتمر لوجهة النظر العربيَّة وإطلاعه عليها، ومن

وجود تقرير لجنة كنج- كرين الأمريكيَّة الذي أوضح وجهة النظر العربيَّة، وبين التناقض الواضح في وعد بلفور بين المشروع الصهيوني ومبادئ حقِّ تقرير المصير- على الرغم من ذلك فإنَّ جو الأطماع الاستعماريَّة الذي ساد المؤتمر قد وضع المطالب العربيَّة والصهيونيَّة إلى المؤتمر في موقعين مختلفين: إذ كانت مطالب الحركة الصهيونيَّة قد أصبحت جزءًا من مخططات الاستعمار الأوربيِّ في المشرق العربي بينما كانت المطالب العربيَّة تتناقض تمامًا مع هذه المخططات.

وقد أقر المؤتمر ميثاق عصبة الأمم في أبريل ١٩١٩ الذي اختصت المادة ٢٢ منه بنظام الانتداب بإشراف عصبة الأمم، وهو كما نعلم ذلك الشكل الاستعماري الجديد الذي اقترح كمخرج للتناقض بين مبادئ حقِّ تقرير المصير التي أعلنتها دول الحلفاء أثناء الحرب وبين سعيها لضمان مصالحها الاستعماريَّة، وبموجب هذا النظام فرض الانتداب البريطاني على فلسطين.

وسوف نحاول تحديد أبعاد النموذج العام لتطور الصهيونيَّة مع القضية الفلسطينيَّة في ظل الانتداب، وهي أبعاد نرى أنَّها تقتضي دراسة العناصر الأربعة التالية: السياسة البريطانيَّة- المقاومة الفلسطينيَّة والعربيَّة- الإرهاب الصهيوني- محاولات التسوية السياسيَّة. فالعناصر الثلاثة الأولى تمثل القوى الفاعلة على الساحة الفلسطينيَّة أثناء الانتداب، وقد انعكس تفاعل هذه القوى، وموازين القوى بينها على المحاولات المختلفة لتسوية القضية الفلسطينيَّة على نحو ما سنرى.

١- السياسة البريطانيَّة

كانت هذه السياسة هي حجر الزاوية في خلق وجود صهيوني مؤثر على أرض فلسطين في فترة الانتداب على النحو الذي جعل هذا الوجود فيما بعد قوة فاعلة على الساحة الفلسطينيَّة، وقد ظهرت هذه السياسة البريطانيَّة المتحالفة مع الحركة الصهيونيَّة على كل المستويات، ونشير فيما يلي إلى مجرد أمثلة توضح مضمون وتوجهات هذه السياسة.

أولًا: على أساس المستوى السياسي:

١- تم تعيين غلاة الصهاينة في مناصب حساسة أصبحوا معها أداوت هامَّة لتنفيذ المخطط الصهيوني في فلسطين.

٢- سمح للمؤسسات الصهيونيَّة التي كانت المنظمة الصهيونيَّة العالميَّة قد شكلتها بالعمل بمنتهى الحريَّة في فلسطين فضلًا عن تشكيل مؤسسات جديدة.

٣- بدئ في إرساء أولى رموز الدولة الصهيونيَّة المزمع إنشاؤها على أرض فلسطين، فأعلنت العبريَّة لغة رسميَّة إلى جانب العربيَّة والإنجليزيَّة وكتب على النقود وطوابع البريد بالعبريَّة «أرض إسرائيل» بجانب كلمة فلسطين بالعربيَّة والإنجليزيَّة.

٤- فتحت أبواب الهجرة اليهوديَّة على مصراعيها إلى فلسطين لإيجاد الرصيد البشري اللازم للسير قدمًا في مشروع الدولة الصهيونيَّة.

ثانيًا: على المستوى الاقتصادي

١- بدأت عمليات انتقال الأراضي إلى أيدي الصهاينة وخصوصًا أراضي الدولة، وأخذت حكومة الانتداب ترهق الفلاحين الفلسطينيين بزيادة الضرائب حتى يضطروا لبيع أراضيهم كي يستطيعوا دفع هذه الضرائب.

٢- منحت امتيازات بعض مرافق البنية الأساسيَّة والأنشطة الاقتصاديَّة الهامَّة ليهود، فمنح امتياز توليد الكهرباء سنة ١٩٢١ لمدة سبعين عامًا ليهودي روسي، والأخطر من ذلك أن الامتياز قد شمل الاستفادة من أنهار الأردن واليرموك والعوجة ومياه بحيرة طبرية، وقد قضى الامتياز بألَّا يسمح لغير صاحبه بتنوير أي بلد في فلسطين أو استعمال محركات كهربيَّة إلا بإذنه وذلك فيما عدا مدينة القدس التي كان امتيازها ممنوحا من قبل الدولة العثمانيَّة لأحد اليونانيين وكذلك منح امتياز استخراج أملاح البحر الميت ومعادنه في ١٩٣٩ ليهوديين لمدة ٧٥ عامًا، وأجرت لهما آلاف الدونمات من أراضي الدولة لحساب المشروع.

٣- تم سن القوانين اللازمة لحماية الصناعات الصهيونيَّة وضرب الصناعات العربيَّة.

ثالثًا: على المستوى العسكري

سمح للصهاينة بالتسلح بعد ثورة البراق عام ١٩٢٩ بحجَّة الدفاع عن النفس حتى وصل الأمر إلى أن أصبح للوكالة اليهوديَّة في الثلاثينات ما يسمى بجيش الدفاع الذي تألَّف من وحدات نظاميَّة تولى تجهيزها وتدريبها ضباط بريطانيون.

وهكذا يتضح أنَّ السياسة البريطانيَّة بأبعادها السابقة قد مكنت الصهاينة من البدء في زرع عناصر الدولة الصهيونيَّة على أرض فلسطين وتوفير الغطاء العسكري اللازم لحماية هذه العمليَّة.

٢- المقاومة الفلسطينيَّة والعربيَّة

يشيع أحيانًا وهم لدى البعض من الذين يجهلون تفاصيل تطور القضية الفلسطينيَّة مؤداه أن العمليَّة السابقة قد تمت في غفلة من الشعب الفلسطيني والواقع أن هذا الشعب بصفة عامة قد بذل من صنوف المقاومة لعمليَّة الاغتصاب الاستعماري هذه ما يندر أن نجد له مثيلًا في حركات التحرر الوطني المعاصرة. وكما كانت المؤامرة البريطانيَّة الصهيونيَّة شاملة فقد كانت المقاومة الفلسطينيَّة شاملة أيضًا، وقد تصاعدت حدة هذه المقاومة كلما زاد معدل الهجرة والاستيطان الصهيونيين، وامتدت إلى كل المجالات.

ففي مجال مقاومة انتقال الأرض إلى الصهاينة أسس الفلسطينيون صندوقًا من التبرعات والاشتراكات لشراء الأراضي من المُعسِرين من الفلسطينيين، بل لقد وصل الأمر إلى إصدار فتاوى دينية تحرم بيع الأرض للصهاينة ودفنَ سماسرة الأرض من الفلسطينيين في المقابر الفلسطينيَّة.

وفي المجال السياسي عرفت الحركة الفلسطينيَّة أعمال العصيان المدني كما حدث في مقاطعة انتخابات المجلس التشريعي عام ١٩٢٣ الذي كان سيضم أغلبيَّة من البريطانيين واليهود وفقًا

دستور فلسطين الصادر في أغسطس سنة ١٩٢٢، وهو ما أدّى إلى إفشال عملية تكوين هذا المجلس.

وعندما وصلت علميات الهجرة والاستيطان إلى معدلات أكثر إنذارًا بالخطر في نهاية العشرينات وطيلة الثلاثينات اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينيَّة شكلًا عنيفًا، فحدثت على سبيل المثال في عام ١٩٢٩ ثورة البراق كرد فعل لإتيان الصهاينة بتصرفات اعتقد معه العرب أنَّها مقدمة لاحتلالهم للمسجد الأقصى، وقد انحازت بريطانيا للصهاينة أثناء أحداث الثورة وفي الأحكام القضائيَّة التي تلتها، ولهذا لم يكن غريبًا أن اتجهت المقاومة الفلسطينيَّة في الثلاثينات إلى بريطانيا مباشرة بعد أن أصبح انحياز السياسة البريطانيَّة إلى جانب الصهاينة في غير حاجة إلى إثبات.

وهكذا اتخذت المقاومة الفلسطينيَّة منذ أوائل الثلاثينات طابعًا مسلحًا، وكذلك طابعًا وطنيًّا بمشاركة المسلمين والمسيحيين فيها، بل وعربيًّا بقدوم متطوعين عرب كما حدث في أحداث ثورة ١٩٣٦ التي كانت نقطة الذروة في تصاعد المقاومة الفلسطينيَّة للكيان الصهيوني.

وقد بدأت هذه الثورة التي استمرت من أبريل- أكتوبر ١٩٣٦ بالإضراب وإعلان العصيان المدني بالامتناع عن دفع الضرائب، ثم امتدت إلى الهجوم على المستعمرات الصهيونيَّة وتدمير خطوط السكك الحديديَّة والجسور. وقد اتصلت بريطانيا في مواجهة عنف الثورة وتصاعدها بملوك العرب مبدية استعدادها للنظر في المطالب العربيَّة حالما يعود السكون، وأسفرت الاتصالات عن إصدار ملوك السعوديَّة والعراق واليمن، وأمير شرق الأردن لنداء موجه إلى عرب فلسطين يدعونهم فيه للسكينة حقنًا للدماء، واعتمادًا على رغبة الحكومة البريطانيَّة المعلنة لتحقيق العدل ويعدون بأنَّهم سيواصلون السعي في سبيل مساعدتهم، وتلا ذلك دعوة اللجنة العربيَّة العليا التي كانت بمثابة مجلس لقيادة ثورة الشعب الفلسطيني إلى إنهاء الإضراب، والاضطرابات اعتبارًا من ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ .

وفيما بعد تفجرت الثورة مرة أخرى في عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ بعد اقتراح اللجنة الملكيَّة للتحقيق التي شكلت في أعقاب ثورة ١٩٣٦ للتقسيم كأساس لحل القضية الفلسطينيَّة، وقد فرضت الحرب العالميَّة الثانية منذ بدايتها في ١٩٣٩ وحتى نهايتها في ١٩٤٥ قيودًا على حركة المقاومة الفلسطينيَّة بسبب ظروف الحرب ذاتها ونقص ورود السلاح إلى المقاومة وبوصولنا إلى النصف الثاني من الأربعينات كانت حلقات المؤامرة قد بدأت تكتمل.

٣- الإرهاب الصهيوني

أدّى تدفق الهجرة الصهيونيَّة إلى أرض فلسطين في عهد الانتداب، والسماح لهؤلاء الصهاينة بالتسلح في أعقاب ثورة البراق عام ١٩٢٩ إلى الحد الذي أصبح معه للوكالة اليهوديَّة في الثلاثينات وحدات نظاميَّة تسمَّى بجيش الدفاع- أدّى هذا كلُّه إلى أن أصبح الصهاينة يمثِّلون قوة فاعلة جديدة في الساحة الفلسطينيَّة مارست الإرهاب على نحو منتظم كجزء من مخطط تنفيذ مشروع الدولة

الصهيونيَّة على أرض فلسطين، وكان هذا الإرهاب يستخدم ويؤتي ثماره على نحو ما سنرى في الفترات التي يبدو فيها احتمال تقديم سلطة الانتداب لأي تنازل تكتيكي للفلسطينيين، بل إنَّ هذا الإرهاب امتدَّ فيما بعد إلى المنشآت والأفراد البريطانيين أنفسهم، كما قام بدوره فيما بعد في إجبار السكان الفلسطينيين على ترك ديارهم، وبالذات في اللحظات الحرجة التي واكبت إعلان إنشاء دولة إسرائيل.

٤- محاولات التسوية

نتيجة تفاعل العوامل الثلاثة السابقة: السياسة البريطانيَّة- المقاومة الفلسطينيَّة والعربيَّة- الإرهاب الصهيوني تتابعت المشروعات التي قدمت من الأطراف المعنية بالصراع لحل القضية الفلسطينيَّة، وقد أخفقت كلّ هذه المشروعات على نحو ما سنرى لأنَّها لم ترضَ مطالب أطراف الصراع المختلفة دون أن يكون لأيها القدرة على حسم الموقف لصالحه، وهكذا قررت بريطانيا في النهاية إحالة القضية برمتها إلى الأمم المتَّحدة.

وسوف نعرض فيما يلي موجزًا لأهم مشروعات التسوية وإن كان من الضروري أن نتعرض لبعض الوثائق الأساسيَّة التي تلقي الضوء على الموقف البريطاني الرسمي من القضية قبل أن نعرض لهذه المشروعات حتى نستطيع أن نحكم عليها وعلى ما تمثله من استمرار أو تغير في موقف الأطراف المتبنية لها.

أولًا: الكتاب الأبيض البريطاني لعام ١٩٢٢:

وكان من أهم بنوده:

١- التأكيد على أنَّ تصريح بلفور لا يعني تحويل فلسطين كلِّها إلى وطن قومي لليهود.

٢- التأكيد على أنَّ الوطن القومي لا يعني دولة يهوديَّة، ولا ينشأ فورًا وإنَّما بالتدريج.

٣- التأكيد على أنَّ وجود اليهود في فلسطين حقٌّ وليس منَّة.

٤- التأكيد على ضرورة استمرار الهجرة اليهوديَّة وإن حددها بالقدرة الاستيعابيَّة للبلاد.

ثانيًا: صك الانتداب ١٩٢٢:

وقد صادق عليه مجلس عصبة الأمم في يوليو ١٩٢٢، وتضمن في مقدمته نصّ وعد بلفور، وتأكيد الصلة التاريخيَّة التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين، وكان هو الدستور الاستعماري الصهيوني الذي حكمت بموجبه فلسطين طيلة فترة الانتداب، ومن أهم ما تضمنه:

١- إعطاء الدولة المنتدبة السلطة التشريعيَّة والإداريَّة التامَّة واعتبارها مسئولة عن وضع البلاد في أحوال تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي.

٢- إنشاء وكالة يهوديَّة معترف بها لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في كافَّة الأمور التي تؤثر في إنشاء الوطن القومي لليهود.

٣- تسهيل هجرة اليهود وتشجيع حشدهم في الأراضي الأميريَّة والأراضي الموات.

٤- تسهيل اكتساب اليهود للجنسيَّة الفلسطينيَّة.

٥- إمكان الاتفاق بين الإدارة البريطانيَّة والوكالة اليهوديَّة على قيام الوكالة بإنشاء أو تسيير الأشغال والمصالح والمنافع العموميَّة وتطوير مرافق البلاد الطبيعيَّة.

٦- اعتبار الإنجليزيَّة والعربيَّة والعبريَّة اللغات الرسميَّة في فلسطين.

ثالثًا: الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠:

وقد صدر في أعقاب ثورة البراق في ١٩٢٩، وعكس إلى حد ما نوعًا من التنازلات التكتيكيَّة البسيطة لصالح الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة، وكان من أهم ما ورد فيه:

١- تأكيد الحكومة البريطانيَّة أنَّها لن تتخلى عن التزامها بموجب صك الانتداب وإن كانت قد قالت: إن الالتزامين المفروضين نحو فريقي السكان متساويان من حيث الدرجة، ويمكن التوفيق بينهما (أي وضع فلسطين في أحوال تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي، وترقية وصيانة الحقوق المدنيَّة والدينيَّة لجميع سكَّان فلسطين).

٢- بالنسبة لموضوع الهجرة رأى الكتاب أنَّه لا بدَّ عند تحديد عدد العمال المسموح لهم بدخول البلاد من المهاجرين الصهاينة -من التأكد من عدد العمال العاطلين، والاهتمام بقدرة فلسطين الاقتصاديَّة على استيعاب مهاجرين جدد.

وقد عبأ اليهود كل قواهم لمقاومة الكتاب الأبيض لمجرد أنَّ فيه شبهة تقييد للهجرة اليهوديَّة، وسيروا المظاهرات في عديد من أنحاء العالم، واستقال رئيس الوكالة اليهوديَّة معلنًا عدم تعاونه مع الحكومة البريطانيَّة التي سرعان ما تراجعت، ووجه رئيس وزرائها إليه -أي إلى رئيس الوكالة اليهوديَّة- في فبراير ١٩٣١ رسالة نسخ فيها معظم ما جاء في الكتاب الأبيض (ولهذا أسماها العرب الكتاب الأسود)، وأكد التزام حكومته بتسهيل هجرة اليهود وامتلاكهم للأرض.

رابعًا: اللجنة الملكية للتحقيق (١٩٣٦):

شكلت هذه اللجنة في أعقاب ثورة ١٩٣٦، ومن أهم ما توصلت إليه استحالة تسوية النزاع بين العرب والصهاينة، وأنَّ الحل لن يكون إلا بعمليَّة جراحيَّة لأنَّ التزامات بريطانيا تجاه كل من العرب واليهود غير قابلة للتوفيق، وهذه العمليَّة الجراحيَّة كما رأتها اللجنة هي التقسيم، وقد طرحت بناء على ذلك خطة للتقسيم تفجرت بعدها الثورة في فلسطين من جديد كما سبق أن أشرنا إبَّان عامي ١٩٣٧، ١٩٣٨ .

ويلاحظ أنَّ الخطة المقترحة للتقسيم بموجب اللجنة الملكية كانت تشمل دولة يهوديَّة تضم ٣٢٥ ألف عربيٍّ مقابل ٣٠٠ ألف يهوديٍّ، بينما تضم الدولة العربيَّة ١٢٥٠ يهوديًا فقط، وقد أصدرت الحكومة البريطانيَّة في يوليو ١٩٣٧ بيانًا توافق فيه على مبدأ التقسيم، وتعلن أنَّها ستتخذ

الإجراءات اللازمة لتنفيذه، وتم تشكيل لجنة فنيَّة لذلك بدأت عملها في أبريل ١٩٣٨، وانتهت منه في نوفمبر ١٩٣٨ .

وقد أعلنت هذه اللجنة الفنيَّة في تقريرها أنَّ أيَّ مشروع للتقسيم تعترضه عقبات جسميَّة أهمُّها المقاومة العربيَّة للتقسيم، فضلًا عن عدم وجود حدود من شأنها أنّ تنطوي على أمل معقول في إنشاء دولة عربيَّة وأخرى يهوديَّة تكون كل منهما في النهاية قابلة للحياة ذاتيًا، ورافق صدور تقرير اللجنة إعلان رسمي من قبل الحكومة البريطانيَّة في ١ نوفمبر ١٩٣٨ يعترف بأنَّ اقتراح التقسيم غير عملي، ولذلك فإنَّ بريطانيا ستواصل الاضطلاع بمسئوليتها في حكم فلسطين بأجمعها وستحاول الوصول إلى تفاهم بين العرب واليهود باعتبار أنَّ ذلك من أثبت الأسس لإقامة دعائم السلام والتقدم في فلسطين. واعتبر ذلك انتصارًا لثورة الفلسطينيين ضد التقسيم.

خامسًا: مؤتمر لندن والكتاب الأبيض (١٩٣٩):

يلاحظ أنَّ الدول العربيَّة قد مثلت في المؤتمر نتيجة للدور العربي السابق الإشارة إليه في القضية الفلسطينيَّة، وقد مثل الطرف العربي في ذلك المؤتمر كل من العراق ومصر والسعوديَّة واليمن وشرق الأردن. ومن ناحية أخرى اختارت اللجنة العربيَّة العليا وفد فلسطين بعد أن أصر الفلسطينيُّون على ذلك ضد رغبة بريطانيا.

وقد اتفق ممثلو الطرف العربي إجرائيًّا على إلا يجلسوا مع الصهاينة وموضوعيًّا على أن يكون هدف المفاوضات وقف الهجرة وانتقال الأراضي إلى الصهاينة، وقيام دولة مستقلَّة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا، وتضمن الحقوق السياسيَّة والدينيَّة لليهود.

وفي أثناء فترة المؤتمر حرص كلّ من العرب والصهاينة على تقوية مواقعهم في فلسطين، فقام الصهاينة بحملة إرهابيَّة، وصعد العرب أعمال الثورة.

وفي سياق المؤتمر اقترحت الحكومة البريطانيَّة أسسا للتسوية تضمنها فيما بعد، الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، وعلى الرغم من رفض الطرفين لها أكَّدت الحكومة البريطانيَّة أنَّها ستنفذ ما تراه ملائمًا حتى دون موافقة الطرفين، وتقوم مقترحات الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ على أنَّ السياسة البريطانيَّة لا تقوم على جعل فلسطين دولة يهوديَّة أو دولة عربيَّة مستقلَّة، وعليه فهي ترغب في قيام دولة فلسطينيَّة مستقلَّة يشارك في حكمها العرب واليهود، ولكن لا بدَّ من نشوء علاقات طيبة بين العرب واليهود قبل ذلك، ولذلك لا بدَّ من فترة انتقال تتضمن ما يلي:

١- حكمًا ذاتيًّا:

يستمر لمدة عشر سنوات تستقل فلسطين بعدها ومع ذلك. فإنَّ لبريطانيا أن تؤجلَّ إقامة الدولة المستقلَّة إذا ظهر أنَّ الظروف تقتضي ذلك.

٢- تقييد الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين:

بحيث يسمح بها أولًا لمدة خمس سنوات حتى يصل السكان اليهود إلى ثلث السكان تقريبًا،

وكان هذا يعني السماح بدخول ٧٥ ألف يهوديٍّ خلال هذه الفترة وبعد ذلك لا يسمح أي هجرة أخرى إلا إذا كان عرب فلسطين قابلين لها.

٣- منح المندوب السامي سلطة تخوله منع انتقال الأراضي وتنظيمه:

ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة السابقة للحكم في الفترة الانتقاليَّة تعد مكسبًا للثورة الفلسطينيَّة على نحو محدود إلا أنَّ العرب رفضوها لأنَّ الاستقلال منوط بمساهمة الصهاينة وبالآراء النهائيَّة لبريطانيا، أي أنَّ الفترة الانتقاليَّة غير محددة المدة، كما أنَّ منع انتقال الأراضي للصهاينة منوط بإرادة المندوب السامي.

كذلك أعلن الصهاينة رفضهم للكتاب الأبيض بدورهم، وشرعوا في القيام بأعمال إرهابيَّة ضد المؤسسات البريطانيَّة في فلسطين، وكذلك ضد العرب.

وقد حاولت الحكومة البريطانيَّة بالفعل أن تنفذ ما جاء في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، فصعد الصهاينة أعمالهم الإرهابيَّة ضد المؤسسات والمنشآت والأفراد البريطانيين.

وإزاء هذه الضغوط دعت بريطانيا إلى تشكيل لجنة أنجلو -أمريكية- لتعيد النظر في البحث عن حلٍّ للقضية، وقد بدأت اللجنة أعمالها في يناير ١٩٤٦، وجاءت توصياتها ناسفة للمكاسب الجزئيَّة التي تحققت للعرب في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، واستمر تصعيد الصهاينة لأعمالهم الإرهابيَّة.

سادسًا: مؤتمر لندن (١٩٤٦-١٩٤٧):

وقد عرضت بريطانيا في هذا المؤتمر على العرب مشروعًا يقوم على فكرة التقسيم، وبذلك طويت صفحة الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، وكان من الطبيعي أن يرفض العرب هذا المشروع، فطالبتهم بريطانيا بمشروع بديل، فقدموا مشروعًا يتلخص في:

١- إعلان فلسطين دولة موحدة.

٢- تنشأ في هذه الدولة حكومة ديمقراطيَّة بموجب دستور تضعه جمعيَّة تأسيسيَّة منتخبة.

٣- تنشأ حكومة انتقاليَّة تتكون من ٧ عرب و٣ يهود (على أساس التمثيل النسبي) يرأسها المندوب السامي البريطاني، وتضمن تمتع اليهود بحقوقهم المشروعة، والمحافظة على حقوق الأقليَّات، وتوقف الهجرة على أن يترك أمرها للحكومة المستقلة الآتية، وتعقد معاهدة تحالف بين حكومتي فلسطين وبريطانيا، وتعطى الضمانات لاحترام الأماكن المقدَّسة وحريَّة زيارتها.

واستأنف المؤتمر أعماله بعد ذلك في يناير ١٩٤٧ حيث رفضت بريطانيا المشروع العربي وعرضت مشروعًا جديدًا لا يختلف كثيرًا عن مشروعها السابق وكان من الطبيعي أن يرفضه العرب، وعندئذ أعلنت الحكومة البريطانيَّة عزمها على رفع القضية إلى الأمم المتَّحدة، وكان هذا حلٌّ يخلص بريطانيا من تبعة هذه المشكلة الشائكة، كما أنَّه أرضى اليهود لأنَّه نقل المشكلة إلى

ساحة تتميز بنفوذ قوي للحليف العالمي الجديد للحركة الصهيونيَّة وهو الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ويضعف النفوذ العربي فيها.

المؤامرة في الأمم المتَّحدة

دعت بريطانيا إلى عقد دورة خاصة للجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة من أجل مناقشة الوضع في فلسطين، وقد انعقدت هذه الدورة بالفعل في ٢٨ إبريل ١٩٧٤ وانتهت إلى قرار باختيار لجنة تحقيق دولية للتثبت من الحقائق وقد قاطع الفلسطينيون هذه اللجنة إثناء تواجدها في فلسطين لأنَّ مهمتها لا تتضمن تحقيق استقلال فلسطين بينما رأت اللجنة السياسيَّة لجامعة الدول العربيَّة أنَّها لا تستطيع مقاطعتها لأنَّ حكومات أعضائها أعضاء في الأمم المتَّحدة وأنَّه من المصلحة أن تقدم للجنة مذكرة بالموقف العربي.

وهكذا استمعت اللجنة في فلسطين إلى الهيئات والشخصيات الصهيونيَّة بينما تلا عليها وزير خارجيَّة لبنان في يونيو ١٩٤٧ مذكرة جماعيَّة باسم ممثلي الحكومات العربيَّة.

وقد احتوى تقرير اللجنة على توصيات عامَّة وافق عليها جميع الأعضاء تتلخص في ضرورة إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ومنحها الاستقلال ثم انقسمت اللجنة بعد ذلك إلى أكثريَّة وأقليَّة قدمت كل منهما مشروعًا. **وكان مشروع الأكثريَّة يقوم على:**

أولًا: تقسيم فلسطين إلى دولتين عربيَّة ويهوديَّة.

ثانيًا: تستقل الدولتان بعد مرحلة انتقال مدتها عامان.

ثالثًا: تقيم الدولتان فيما بينهما اتحادًا اقتصاديًا.

رابعًا: اشتراط قبول ١٥٠ ألف مهاجر في الدولة اليهوديَّة المقترحة بمعدل خمسة آلاف في الشهر.

أما مشروع الأقليَّة (ممثلي الهند وإيران ويوغوسلافيا) فقد تلخص فيما يلي:

أولًا: قيام حكومتين في فلسطين مستقلتين استقلالًا ذاتيًا تتألف منهما دولة عاصمتها القدس.

ثانيًا: تتولى الحكومة الاتحاديَّة قضايا الدفاع والشئون الخارجيَّة والمصالح الاقتصاديَّة المشتركة.

ثالثًا: تنحصر الهجرة اليهوديَّة في المنطقة اليهوديَّة في نطاق استيعاب تقرره لجنة مكونة من تسعة أعضاء (٣ عرب + ٣ يهود + ٣ ممثلين للأمم المتَّحدة).

وفي نوفمبر ١٩٤٧ نظرت الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة في المشروعات المختلفة المقدمة لها، وأيدت الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة مشروع التقسيم ولكن المفاجأة كانت في تأييد الاتحاد السوفيتي له، وهو يخالف العداء المعروف من جانب الاتحاد السوفيتي للصهيونية على المستويين الأيديولوجي والسياسي، وكان المبرر السوفيتي الرسمي لهذا التحول في المواقف هو استحالة التعايش العربي- اليهودي في ذلك الوقت، بينما أغلب الظن أنَّ قادة الحركة الصهيونيَّة كانوا قد نجحوا في خداع

القيادة السوفيتيَّة بأنَّه سوف تكون لدولتهم المقبلة في فلسطين طبيعة معادية للإمبرياليَّة، وقد ادعت بريطانيا أن موقفها يتمثل في عزمها على الجلاء عن فلسطين والامتناع عن التصويت لأنَّها لا تريد حلًا لا يوافق عليه العرب واليهود معًا.

وانتهى الأمر بالجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة إلى أن وافقت في جلستها بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ على قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين عربيَّة ويهوديَّة تضم ٥٦% من أرض فلسطين، كما نص القرار على اتحاد اقتصادي بين الدولتين وعلى تدويل مدينة القدس وقد تمت الموافقة بأغلبيَّة ثلاثة وثلاثين صوتًا ضد ثلاثة عشر صوتًا مع امتناع عشر دول عن التصويت، وذلك بعد أن سقطت في اللجنة الخاصَّة كافة الاقتراحات العربيَّة سواء مشروع الدولة الواحدة أو نقل القضية إلى محكمة العدل الدوليَّة أو استشارة هذه المحكمة حول صلاحيَّة الأمم المتَّحدة لتنفيذ أي نوع من التقسيم دون موافقة السكان.

وهكذا أصبحت الحركة الصهيونيَّة تمسك في يدها بقرار دولي تعتبره أساسًا لشرعية وجودها الاستعماري على أرض فلسطين وبالفعل فإنَّ إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨ قد أشار بالإضافة إلى تصريح بلفور وصك الانتداب إلى قرار الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة بتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهوديَّة على جزء من أراضيها.

وبعد عام كامل في ١٢ مايو ١٩٤٩ قبلت عضويَّة إسرائيل في الأمم المتَّحدة في وقت كانت أزمة العضويَّة على أشدها في هذه المنظمة الدوليَّة وكان هذا يشير إلى أنَّ إسرائيل ما زالت ناجحة تمامًا في استقطاب كافة القوى الدوليَّة المؤثرة لصفها، وهكذا استكملت بمعايير المجتمع الدولي -وليس بمعايير الحقِّ والعدل- أركان وجودها كدولة[١].

(١) دروس في المشكلات الدولية المعاصرة، د. محمد فتح الله الخطيب، د. أحمد يوسف أحمد ص(٧٤- ٩١).

الفصل الخامس

جولات الحروب ومحطات السلام بين العرب وبين الصهيونيَّة اليهوديَّة

- وسيكون الكلام عن ذلك من خلال مرحلتين:

المرحلة الأولى: جولات الحروب في النصف الأول من عمر الصراع (١٩٤٨- ١٩٧٣م)

الجولة الأولى: حرب أيار (مايو) ١٩٤٨م

بعدما أصدرت الأمم المتَّحدة قرارها الظالم في نوفمبر ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، سارع القادة السياسيون العرب إلى اتخاذ قرار بدخول حرب شاملة لـ (تأديب) عصابات اليهود، وكان ذلك القرار حماسيًّا ارتجاليًّا، لم يسبقه إعداد أو تخطيط، وقد عارض القادة العسكريون قرار الحرب بشدة في هذا التوقيت، وحذروا منه أشد التحذير.

وفوجئ القادة العسكريون باتخاذ القرار السياسي الفعلي بالحرب، قبل بدء تلك الحرب بيومين أو ثلاثة، في وقت لم يكن لدى معظم الجيوش العربيَّة حتى ميزانية تسمح بدخول حرب، ولم يكن قد جرى تدريبها بعدُ على الدخول في حروب شاملة.

وقد اجتمع رؤساء أركان كل من (مصر والعراق والأردن وسوريا ولبنان) قبل الحرب وأعلنوا الاتفاق على إعداد ما لا يقل عن خمس فرق عسكريَّة كاملة الاستعداد والتسليح مع ستة أسراب من المقاتلات والقاذفات، بحيث تكون جميعًا خاضعة لقيادة عربيَّة موحدة، ولكن هذا الاتفاق لم ير النور، فلم يتم إعداد الفرق، ولم تدبر الأسراب ولم توحد القيادة!

ولم توضع خطة منسقة للجيوش العربيَّة لخوض الحرب، بل حُدد لكلِّ جيش هدف يصل إليه، وأُجِّل التنسيق إلى ما بعد وصول كل جيش إلى هدفه!

ولم يتجاوز عدد الجنود العرب الذين سيقوا إلى الحرب خمسة عشر ألف جندي، في حين حشد اليهود نحو ستين ألف مقاتل مجهزين تجهيزًا كاملًا للمعركة التي لم يقرروا هم البدء فيها.

وفي ١٥ مايو ١٩٤٨م أعلن بن جوريون قيام دولة يهوديَّة في فلسطين على إثر إعلان بريطانيا انتهاء الانتداب، وقد تسارعت الدول الغربيَّة الصليبيَّة التي تتلاقى مصالحها ومطامعها مع المخططات اليهوديَّة إلى الاعتراف بالدولة اليهوديَّة الغاصبة وفي مقدمة تلك الدول أمريكا وفرنسا وروسيا.

ودخلت الجيوش العربيَّة الحرب في ١٥ مايو ١٩٤٨م، دون أي معلومات عن العدو، بل كانت غالبية تلك الجيوش تقاتل في أرض تجهل طبيعتها وطريقة القتال فيها.

وكان الفيلق الأردني هو الأجود من حيث التدريب والتسليح، ولكنه مع الأسف كان تحت قيادة الجنرال البريطاني النصراني (جلوب).

وبالرغم من كل هذا، فقد دفعت العاطفة الإسلاميَّة الجنود العرب إلى إحراز عدة نجاحات في ساحة الحرب، كادت أن تحوِّل الدفة لصالحهم ضد اليهود المعروفين بالجبن الشديد في القتال، ولكن حكومتي بريطانيا وأمريكا أحستا بذلك الخطر، فسارعتا إلى دفع مجلس الأمن الدولي إلى إصدار قرار بفرض الهدنة اعتبارًا من يوم ٨ يوليو ١٩٤٨م ولمدة شهر كامل.

ومرة أخرى سقط السياسيون في العجلة، ووافقوا على الهدنة، فتنازلوا بذلك لليهود عن عنصر المبادأة أو المبادرة، وحرص العرب على أن يظهروا بمظهر الحريص على احترام (الشرعيَّة الدوليَّة)! التي لم تحترمهم، والتي زرعت اليهود في أرضهم.

وقد حرص اليهود على استغلال كل دقيقة من فترة الهدنة لتغيير موازين القوى لصالحهم، وسخروا أشد السخرية من القرار العربي بقبول الهدنة، حتى إنَّ مناحم بيجن كتب وقتها يقول: إننا لا نعرف حتى الآن كيف ولماذا قبلت الدول العربيَّة الهدنة، بعد أن كان الموقف العسكري في صالحها تمامًا!

وبعد انتهاء شهر الهدنة، كان اليهود قد نجحوا في تسلم زمام المبادرة سياسيًّا وعسكريًّا، ثم دخلوا في حرب استنزاف للجيوش العربيَّة كلًّا على حدة، فقد عادت الحرب ثانية، وكان اليهود هم البادئون هذه المرة، فنفذوا ضربة جوية مفاجئة لمطار العريش في مصر، وهو المطار الذي كان يعتمد عليه الجيش المصري؛ لأن بقية المطارات كانت خاضعة للمحتل الإنجليزي، ثم أعقب ذلك قصف جوي لتجمعات الجيش البريَّة في كل قطاعات القتال مما أدى إلى حالة من الفوضى والارتباك.

وبعد أن حقق اليهود قدرًا كبيرًا من النجاح وأصبحوا في حاجة إلى فرصة لالتقاط الأنفاس، أصدر مجلس الأمن قرارًا ثانيًا بالهدنة، واستجاب العرب مرة أخرى فأعطوا لليهود فرصة ثانية لمزيد من لمِّ الشمل واستعادة النشاط!

وعادت الحرب للمرة الثالثة بمعارك متفرقة هنا وهناك، إلى أن أصدر مجلس الأمن قراره الثالث بإيقاف الحرب نهائيًّا بعد أن فشلت كل الجهود العربيَّة في إجلاء اليهود عن الأراضي التي احتلوها في فلسطين، وهو ما يعني بعبارة أخرى: الهزيمة في تلك الحرب والفشل في تحقيق أي من أهدافها!

ومما يجدر ذكره هنا، أن عقد الأربعينات الذي جرت فيه تلك الحرب، قد شهد انتعاشًا في الشعور بالانتماء القومي العربي، حيث بدأ العرب وقتها في الفصل بين مفهومي (الأمة العربيَّة) و (الأمة الإسلاميَّة) وتُوِّج هذا الشعور القومي بإنشاء (الجامعة العربيَّة) ردًّا على من كانوا ينادون بالعودة إلى (الجامعة الإسلاميَّة).

الجولة الثانيَّة: حرب ١٩٥٦م:

جاءت الجولة الثانية بعد أن آلت السلطة في بعض الدول العربيَّة إلى أنظمة ثوريَّة، دعت نفسها بالتقدميَّة، وكان النظام الثوري العسكري في مصر هو المتزعم لها، وقد عدّ من أهدافه الرئيسة المعلنة: تحرير فلسطين والقضاء على دولة إسرائيل، وجعل من هذا الهدف إلى جانب توحيد العرب تحت راية القوميَّة العربيَّة قضية يبني بها المجد والزعامة، فماذا كان مسلك الثوريين العساكر بعد أن تسلموا دفة الصراع مع اليهود؟ هذا ما توضحه المشاهد التاريخيَّة التالية:

كان أول عمل قام به (قائد الثورة) (جمال عبد الناصر) بعد تسلمه منصب الرئاسة رسميًّا هو تأميم قناة السويس في ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦م، وكان ذلك قرارًا دعائيًّا اتخذ دون دراسة أو تحسب لما يمكن أن يترتب عليه من نتائج، وقد جاء رد فعل على تصريح لوزير الخارجيَّة الأمريكي وقتها فوستر دالاس قال فيه: إن الاقتصاد المصري منهار.

وقد ثار الغرب لهذا القرار، وخاصّة ما كان من إنجلترا وفرنسا حيث أخذتا في الإعداد لإجراء حاسم وتواترت الأنباء عن حشود إنجليزيَّة وفرنسيَّة في قبرص استعدادًا لعمل عسكري ضد مصر بالاشتراك مع دولة اليهود، ولكن عبد الناصر لم يكترث، ولم يأخذ هذه التهديدات مأخذ الجد، بل كان هناك استرخاء عسكري بالرغم مما يجري، حتى إنَّ القيادة المصريَّة خففت من أعداد القوات المعدة للقتال لأسباب غير مفهومة.

وعندما بدأت نذر الحرب كان اليهود يحتفظون بالتفوق العسكري مقارنة بالإمكانات المصريَّة التي يفترض أنَّها أكبر وأقوى الإمكانات العربيَّة، فقد كان التفوق ظاهرًا حتى في الجانب العددي البشري، فكان التفوق في المشاة بنسبة ١: ٣ لصالح اليهود، وفي القوات البرية (الدبابات) بنسبة ١: ١ ,٨ لصالح اليهود، وفي سلاح المدفعيَّة بنسبة ١: ٢ ,٥ لصالح اليهود أيضًا.

وقد نسق اليهود جهودهم مع حلفائهم استعدادًا للحرب، فاتفقوا مع فرنسا على تأمين الغطاء الجوي الكافي للمدن الإسرائيليَّة وعلى أن يتولى السلاح البحري تأمين حراسة السواحل الإسرائيليَّة، وأن تشارك القوات الفرنسيَّة بالقتال ضد أي دولة عربيَّة تدخل الحرب إلى جانب مصر، وأسند إلى السلاح الجوي البريطاني مهمَّة تدمير الطيران المصري على الأرض.

وأخيرًا اقتنعت القيادة الثوريَّة بأنَّ أمر الحرب جد لا هزل فيه، فبدأت في تركيز الجهود على حماية سيناء من الشرق، بينما أهملت الجبهة الجنوبيَّة إهمالًا مريبًا، حيث كان من الغريب أن يخصص لهذه المنطقة الحيويَّة نحو ١٢٠ جنديًّا من المشاة لحمايتها!!

وبدأت الحرب في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦م بمهاجمة الخط الأقل خطرًا في نظر القيادة المصريَّة، وهو المنطقة الجنوبيَّة من سيناء، وأعلن اليهود أنَّهم يقاتلون على بعد ٤٠ كيلو مترًا من قناة السويس، حتى يعطوا الذريعة لكل من إنجلترا وفرنسا للتدخل العسكري، بحجة حماية حرية الملاحة الدوليَّة في قناة السويس.

وبالفعل أقدم سلاح الجو البريطاني على ضرب الطيران المصري على الأرض، واضطر المصريون للقتال دون غطاء جوي على مختلف المحاور، وأبلى المقاتلون المصريون بلاءً حسنًا في القتال، لولا أن الأوامر صدرت من القاهرة، للقوات الرئيسة بالانسحاب بعد إنذار أرسلت به إنجلترا وفرنسا، وبدأ الانسحاب ليلة ٣١ أكتوبر ١٩٥٦م، من قطاع إثر قطاع مما سبب حالة من الارتباك والاضطراب.

وفي ظل غياب أي غطاء جوي أو طبيعي من جبال أو أشجار، كان الانسحاب شاقًّا ومكلفًا، فقد أصبحت القوات المنسحبة هدفًا مكشوفًا أمام الطائرات النفاثة المغيرة والمحملة بكل أنواع الأسلحة المدمرة والحارقة.

وهكذا انتهت الحرب بهزيمة الجيش المصري وإهانته في حرب بدأتها الدعاية وأوصلها الغرور في أسوأ نهاية، فقد احتُلت سيناء ولم تنسحب إسرائيل منها إلا بعد أن ضمنت السماح لها بالملاحة في خليج العقبة كيف تشاء.

وكان لبريطانيا (صديق العرب المفضل دائمًا) الدور الأكبر في تقديم الجيش المصري لقمة سائغة لإخوان القردة والخنازير.

الجولة الثالثة: حرب يونيو ١٩٦٧م

هي الحرب الثانية في العهد الثوري التقدمي الوحدوي الاشتراكي، العلماني! وقد كانت عارًا لم تُمسح آثاره إلى اليوم، حيث كان الهدف الرئيس لها احتلال القدس، فتحقق الاحتلال، ولم يتم التحرير إلى اليوم لا سلمًا ولا حربًا.

وهذه بعض المشاهد التاريخيَّة للكارثة التي سميت (نكسة)!:

تضخم الغرور في الذات اليهوديَّة بعدما تم إحرازه من انتصارات رخيصة على شعوب مغلوبة على أمرها، ولم تكد تنقضي عشر سنوات على حرب ١٩٥٦م حتى تفتحت شهية اليهود لحرب جديدة، ففي شهر ديسمبر ١٩٦٦م أعلن ليفي إشكول رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت، نية بلاده في دخول حرب جديدة ضد العرب وهدد بغزو سوريا، في لهجة جديدة وغير معهودة من اليهود المتظاهرين أبدًا بالمسكنة والاستضعاف.

وفي عام ١٩٦٧م لم ينقض شهر نيسان (إبريل) منه حتى كان اليهود قد نفذوا ما توعدوا به؛ فشن سلاحهم الجوي هجومًا ضخمًا ضد سوريا، وفي الشهر التالي هدد إسحاق رابين بدخول دمشق، بعد افتعال مشكلة وأزمة بسبب تحويل مجرى نهر الأردن، وقيام أعمال فدائيَّة ضد دولة اليهود من داخل سوريا.

وكان هذا الهجوم الإسرائيلي ضد سوريا رسالة موجهة أيضًا إلى مصر، التي كان قادتها منهمكين أو غارقين في المستنقع اليمني، حيث الحرب الظالمة التي أقحم فيها الجيش المصري للقتال هناك نصرة للقوى (التقدميَّة) ضد القوى (الرجعيَّة)! وبدلًا من أن تتنبه تلك القيادة للخطر،

وتسعى لحشد القوة ضد العدو الحقيقي المتربص من وراء الحدود، اكتفى الثوار بنشر قوات بغرض الردع والتخويف واستعراض القوة في سيناء.

اعتبر اليهود ذلك الاستعراض بمثابة إعلان حرب من مصر، وأعلن موشي دايان وقتها أن مصر هي العدو الحقيقي وليست سوريا، وأن على إسرائيل أن تتفرغ لحربها وأصبح قرار الحرب في إسرائيل في حكم المنتهى منه، ولم يبق إلا انتظار الذريعة المناسبة.

ومرة أخرى قدم النظام الثوري الذريعة لليهود المتربصين، فصدر قرار بمنع الملاحة في خليج العقبة الذي تنتقل منه البضائع من وإلى إسرائيل.

وانتشرت القوات المصريَّة على خليج العقبة بعد انسحاب قوات الطوارئ الدوليَّة منه، وزاد الطين بلة أن جرى الإعلان عن توقيع ميثاق دفاع مشترك بين مصر والأردن) بالرغم من الخلافات التي كانت قائمة بينهما.

لم يعد هناك وقت للتفكير لدى دولة اليهود، فشكّل رئيس وزرائها حكومة حرب وأدخل فيها موشي دايان وزيرًا للدفاع، لينفذ توعده بالانتقام من مصر، وكانت القوات الإسرائيليَّة قد أتمت استعداداتها التي بدأتها منذ زمن لخوض الحرب الشاملة في حين كانت القوات المصريَّة غير مستعدة حتى مساء الرابع من يونيو من العام نفسه.

وفي صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧م، قام اليهود بشن الحرب، معلنين أنَّهم في وضع دفاع عن النفس بعد أن حشدت مصر قواتها في سيناء، وأغلقت خليج العقبة؛ وأحلت قواتها محل قوات الأمم المتَّحدة، وبدأ اليهود في توجيه ضربة جوية مفاجئة ضد القواعد الجوية العربيَّة في كل من مصر وسوريا والأردن والعراق، وأطلق على هذه العملية (ضربة صهيون)!

انطلق الطيران اليهودي كله من مرابضه (١٥٠ طائرة) وتوجه نحو ١٩ قاعدة مصريَّة جويَّة موزعة في أنحاء مصر (الدلتا- سيناء- الصعيد) لتدكها وهي على الأرض وبعد خمس عشرة دقيقة من بدء الحرب كان الجنرال مردخاي هود قائد سلاح الجو الإسرائيلي في لقاء مع ممثلي الصحافة الإسرائيليَّة والعالميَّة، حيث زف إليهم البشرى بتلك المذبحة الجوية وقال: لقد دمرنا الحصيلة الكبرى من طائرات العدو، منها (٣٠٩) طائرة في مصر، و (٦٠) طائرة في سوريا، و(٢٩) طائرة في الأردن، و (١٢) طائرة في العراق، وطائرة واحدة في لبنان، في حين لم تخسر إسرائيل إلا (١٩) طائرة!!

يعود السبب في هذا الحدث المفجع في تاريخ الحروب الحديثة إلى عدد من الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها القيادات العربيَّة، ومنها: إساءة تقدير قوة العدو، وإهدار الاستفادة بالقدرات الذاتيَّة، ويعود أيضًا إلى سبب آخر مهم، وهو: أن القيادة المصريَّة كانت قد قررت القبول بتلقي الضربة الأولى نزولًا على نصائح (السوفييت)، حيث قدرت الخسائر المتوقعة في حال تلقي الضربة الأولى بما يتراوح بين ١٥ ٢٠٪ من مجموع القوة الجوية العربيَّة، واعتبرت القيادة السياسية هذه

نسبة ضئيلة، وتُعد تضحية مقبولة في مقابل إظهار إسرائيل بمظهر البادئ بالعدوان أمام الرأي العام العالمي!

أما الحرب البريَّة الرئيسية بعد ذلك، التي دارت رحاها في سيناء، فيكفي أن نتصور ساحة قتال مكشوفة أمام طيران معادٍ، يصول ويجول فيها وينتقي الأهداف التي يشتهيها دون أي عائق من جيش مأمور بالانسحاب لا بالمقاومة!

وبالرغم من كل عوامل الفشل التي بدأت بها المعركة، إلا أنَّ دفاعًا مستميتًا من الجنود، حاول في بعض الجهات مقاومة الهزيمة ببسالة نادرة، حتى إن القادة الإسرائيليين أنفسهم اعترفوا بحدوث موجة من الاضطراب سادت صفوفهم في المحور الشمالي بسبب المقاومة العنيفة.

وأجمع عسكريون كثيرون على أن القيادة العسكرية المصريَّة لو كانت قد دبرت هجمة مضادة لإجهاض الهجوم الإسرائيلي في ذلك الوقت لكان لذلك تأثير في تغيير مجرى المعركة غير أنَّها أصيبت بالشلل المعنوي بسبب الضربة الجوية المفاجئة فاكتفت بإصدار أوامر الانسحاب، مما تسبب في فقد الجيش المصري لـ ٨٠% من سلاحه، وفقد عشرة آلاف جندي، وألف وخمسمائة ضابط، ووقوع خمسة عشر ألف جندي، ونحو خمسمائة ضابط أسرى في يد العدو، ولم تتوقف الحرب على الجبهة المصريَّة إلا بعد أن طلبت مصر وقف إطلاق النار على جبهتها معلنة بذلك التسليم بالهزيمة.

التفت اليهود بعد ذلك إلى الجبهة الأردنيَّة، فاحتلوا الضفة الغربيَّة، فطلبت الأردن وقف إطلاق النار وسلمت بالهزيمة، ثم اتجه اليهود إلى سوريا واحتلوا مرتفعات الجولان مع قاعدتها مدينة القنيطرة، ثم أعلن عن وقف إطلاق النار؛ وبذلك انتهت الجولة العسكرية الثالثة، وأعلن الرئيس المصري أنه يتحمل مسئولية الهزيمة؛ وأنه لذلك سوف يتخلى عن السلطة، ولكن الجماهير التي خدرتها الشعارات الثوريَّة، تقبلت الهزيمة والتضحية بالأرض والدم والوطن، ولكنها لن تقبل التفريط في الزعيم ولو قادها إلى الجحيم!

الجولة الرابعة: حرب أكتوبر ١٩٧٣م

درجت أوساط كثيرة على وصف حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م بأنَّها حرب (التحريك) وليست حرب (التحرير) كما اشتهرت على الألسنة. ومن العجيب أن الرئيس المصري الحالي نفسه قد وصفها علنًا بذلك الوصف، فهل في الأمر من سر؟!

الظاهر أن ذلك الوصف فيه شيء من الصحة، إذ إن الأمور بعد هزيمة عام ١٩٦٧م، كانت تتجه نحو الحل السلمي، حتى إنَّ عبد الناصر نفسه قد قبل في آخر حياته بمبادرة أمريكية للسلام بين العرب وإسرائيل، وهي مبادرة (روجرز) وسميت بذلك الاسم نسبة إلى وزير الخارجيَّة الأمريكي آنذاك وليام روجرز.

ولكن جو الإحباط بعد أن تبينت الشعوب حجم الكارثة، ومشاعر السخط على القيادات

العربيَّة التي تسببت فيها، بالإضافة إلى استمرار احتلال اليهود لما احتلوه في تلك الحرب في (مصر وسورية والأردن وفلسطين)، كل ذلك حال دون إمكانية الإقدام على توقيع معاهدات صلح مع اليهود، تقرهم فيه الزعامات العربيَّة من موقف ضعف على البقاء والعيش في أرض فلسطين، كان لا بدَّ إذًا من عمل شيء كبير، يكون نقطة انطلاق نحو إنهاء حالة الحرب مع اليهود إلى الآن!

ولأن هذه الخطوة المطلوبة أعني إنهاء الصراع مع اليهود كانت كبيرة في حجمها، خطيرة في أبعادها، ومثيرة في تفاصيلها، فقد كان لا بدَّ من تخفيف وقعها على الشعوب قدر المستطاع وعلى مراحل؛ ولهذا كان الإعداد لحرب (التحريك) التي وُضِعَ لها سيناريو مسبق في ردهات وكواليس السياسة الدوليَّة.

وكان هذا السيناريو يقضي باستعادة الجيش المصري والنظام معه لهيبته باسترجاع جزء من شبه جزيرة سيناء التي أضاعها النظام الثوري نفسه في مرحلة سابقة، وفي الوقت نفسه يحفظ لقادة اليهود ماء وجوههم أمام شعبهم فيلتفون حول هذا النصر، ويفرغونه من محتواه من الناحية العسكرية ثم من الناحية السياسيَّة.

وقد تم الأمر على هذا النحو: في يوم السادس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣م الموافق للعاشر من رمضان ١٣٩٣هـ، اجتازت القوات المصريَّة قناة السويس، وانتقلت إلى الضفة الشرقيَّة، واقتحمت خط بارليف الحصين، لتأخذ مواقع دفاعيَّة بعد عشرة كيلو مترات من شاطئ القناة في داخل سيناء، ولم تعط للقوات المسلحة بعد ذلك أي صلاحيَّة لتتابع تقدمها في سيناء لإكمال تحريرها مع وجود الإمكانية لذلك، حتى إن رئيس الأركان نفسه في الجيش المصري سعد الدين الشاذلي قد اختلف مع القيادة السياسيَّة واتهمها بالتواطؤ، وعاش سنوات طويلة في منفاه الاختياري خارج البلاد.

وبعد عشرة أيام من بدء الحرب وإحراز تلك الانتصارات فيها لصالح العرب، عبرت عدة دبابات يهوديَّة قناة السويس من منطقة الدفرسوار وفتحت ثغرة في صفوف القوات المصريَّة، ثم تتابع تقدم الدبابات اليهوديَّة، وانتشرت على طول القناة من ضفتها الغربيَّة، وحاصرت مدن القناة، وحجزت القوات المصريَّة في سيناء، وبهذا انقطعت وسائل الاتصال بين قطاعات الجيش المصري، وبدت إسرائيل أمام مواطنيها ومؤيديها في الداخل والخارج منتصرة، حيث تمكنت من أسر القوات المصريَّة كلها في سيناء، والالتفاف عليها؛ بينما كانت الدعاية المصريَّة والعربيَّة تصور العبور على أنَّه من أعظم الانتصارات، وانتهت الحرب عند ذلك الحد بإعلان وقف إطلاق النار، في وضع لا يسمح للمصريين بادعاء النصر الشامل، ولا يمنع اليهود من ادعاء الثأر الكامل.

وبعد انتهاء الحرب مباشرة بدأ تدشين العمليَّة السلمية بين مصر وإسرائيل في مراحلها المبكرة، وذلك بزيارة قام بها وزير الخارجية الأمريكي (اليهودي) هنري كيسنجر لمصر، حيث اتفق مع القيادة على فض الاشتباك بين المصريين والإسرائيليين والاتجاه نحو حل النزاع في الشرق الأوسط

منطرق السلميَّة.

وهنا أمر ينبغي تنبيه القارئ إليه، وهو أننا لا نشكك في إمكانية تحقيق النصر على اليهود، ولا في بخلاص الجنود الذين قاتلوا وقتلوا، بل لا نقلل من أهمية دور التعبئة المادِّيَّة والمعنويَّة للمعركة هذه المرة، ولكننا نعبر فقط عن قناعة بأن هذا النصر الجزئي كان حجة أقامها الله على العرب والمسلمين في إمكان نصرهم على عدوهم ولو كانوا أذلة، وأنَّه كان يمكن أن يكون نقطة انطلاق نحو نهضة ووحدة عربيَّة وإسلاميَّة شاملة، ولكن أعداء الأمَّة أصروا أن يجعلوا منه نقطة انطلاق أيضًا، ولكن إلى نكبة وفُرقة عربيَّة وإسلاميَّة شاملة، وهذا ما كان في المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: مسارات ومراحل العمليَّة السلميَّة من (١٩٧٣-١٩٩٧م)

استعراض مسيرة الحلول السلميَّة التي حملها (قطار السلام) الذي انطلق بعد حرب ١٩٧٣م، وهذه أهم المحطات.

المحطة الأولى: مؤتمر جنيف ١٩٧٤م:

(الحرب من أجل السلام): بهذا العنوان، أو بهذه الروح دخل العرب الحرب الرابعة مع اليهود عام ١٩٧٣م، وأثناء تلك الحرب، وقبل أن تضع أوزارها، وجه الرئيس المصري السابق أنور السادات يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣م (أي بعد بدء الحرب بعشرة أيام) رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون اقترح فيها مشروعًا للسلام يتضمن الدعوة إلى إيقاف إطلاق النار على أن تنسحب إسرائيل فورًا من جميع الأراضي العربيَّة التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧م، وأبدى استعداده لحضور مؤتمر سلام دولي لإقرار السلم في منطقة الشرق الأوسط.

وسرعان ما تحركت الأطراف الدوليَّة وعلى رأسها واشنطن وموسكو لإنهاء القتال الذي بدا أنَّه يمكن أن يهدد الدولة اليهوديَّة، وأسفرت جهودهما عن صدور قرار من مجلس الأمن الدولي يدعو لوقف القتال والبدء فورًا في مفاوضات بهدف إقامة سلم (دائم) و(عادل)! في الشرق الأوسط، وسارعت مصر وسوريا والأردن وإسرائيل أيضًا إلى قبول قرار وقف إطلاق النار، بينما رفضته العراق ومنظمة التحرير الفلسطينيَّة التي كانت تتبنى مبدأ عبد الناصر وهو أن (ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد بغير القوة).

وهنا وبسبب عدم وجود أرضيَّة من الثوابت المشتركة، بدأ التصدع في الجدار العربي، الذي كان مائلًا أصلًا بسبب الأرض الهشة التي يقف عليها فمصر بدأت تسير في (عملية السلام) في اتجاه الحل المنفرد، بينما تباينت مواقف الدول العربيَّة الأخرى بما يدل على أن العرب بدءوا عمليه السلام في مراحلها المبكرة، دون أدنى اتفاق أو تنسيق أو تحديد للثوابت، كما كان شأنهم عبر عقود الحرب.

ثم جاء وقت انعقاد مؤتمر جنيف الذي دعا إليه مجلس الأمن بعد الحرب، إلَّا أنَّ كلًا من الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وإسرائيل لم يرق لهما أن تُبحث قضية السلام دوليًا، فربما تبرز أنواع من الضغوط عبر القنوات الدوليَّة لا تكون في صالح اليهود؛ ولهذا تقرر فجأة أن تدخل واشنطن بثقلها لتحويل مجريات الأمور، فكان أن جاء وزير خارجيَّة الولايات المتَّحدة في ذلك الوقت اليهودي هنري كيسنجر إلى مصر في بداية عام ١٩٧٤م ليجري مباحثات كانت بمثابة مرحلة التدشين لعملية السلام الأمريكيَّة الإسرائيليَّة في المنطقة.

وبدأ العمل على إدخال مصر في مسار الحل المنفرد لدورها الكبير في قضية الصراع.

المحطة الثانية: كامب ديفيد ١٩٧٨م:

توالت الأحداث لتوصل إلى الهدف المحدد بدقة من قبل، وهو إخراج مصر من ساحة المعركة مع اليهود، لينكسر بذلك أحد فكي الكماشة التي كان يمكن لها في وقت من الأوقات أن تكسر ظهر الكيان اليهودي في فلسطين، وكانت (كامب ديفيد) الاتفاقيَّة التي أوصلت إلى هذا المصير المنتظر، فقد أعلنت الولايات المتَّحدة في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨م عن توصل كل من مصر وإسرائيل إلى صيغة اتفاق بينهما لوضع حد نهائيٍّ للنزاع العربي الإسرائيلي، وكان هذا الإعلان بعد سلسلة من الاجتماعات استمرت (١٣) يومًا، ضمت كلًا من الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر والرئيس المصري السابق أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق مناحيم بيجين، وكان ذلك في المنتجع الذي أطلقوا عليه (مخيم داود) والذي اشتهر إعلاميًا باسم (كامب ديفيد).

وأثمرت هذه الاجتماعات إعلانًا عن توقيع اتفاقيتين منفصلتين:

الأولى: تتعلق بتحديد أسس علاقات السلام بين دولة اليهود والدول العربيَّة الأخرى، وتدعو بقية دول المواجهة أن تحذو حذو مصر في إنهاء الحروب مع اليهود، وتنص من جهة أخرى على إقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربيَّة وقطاع غزة، وذلك لمدة خمسة أعوام، دون تحديد موعد البدء بها، أو ما سيكون عليه الحال بعدها.

أما الوثيقة الثانية: فتحدد أسس معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل على أن تنجز وتبرم في فترة لا تتعدى ثلاثة أشهر من تاريخ اجتماعات (كامب ديفيد)، أما بنود هذه المعاهدة الثانية، فهي تأكيد لكل الإجراءات التي من شأنها إيقاف أي أعمال عسكريَّة بين الطرفين بشكل نهائي، واستعداد كل طرف لممارسة علاقات طبيعيَّة مع الطرف الآخر، ونصت إحدى بنود هذه الاتفاقيَّة على أنَّها معاهدة ملزمة، وليس لأحد الطرفين حق نقضها! ومن الجدير ذكره هنا، أن تلك الاتفاقيات المعلنة، صاحبتها أيضًا اتفاقات سريَّة؛ فكان هناك اتفاق سري حول لبنان يقضي بتجريد القوات الفلسطينيَّة والميلشيات اللبنانيَّة من السلاح تدريجًا بإشراف دولي وعربي! وقد ترجم هذا عمليًا بعد ذلك بإخراج المقاومة الفلسطينيَّة من لبنان عام ١٩٨٢م.

وتتضمن بنود كامب ديفيد اتفاقات سريَّة أخرى وتتلخص فيما يلي:

١- وعد أمريكي لمصر بزيادة المساعدات الماليَّة والاقتصاديَّة كلما تم تنفيذ بنود المعاهدة؛ ويتضمن ذلك وعدًا أمريكيًّا آخر بتعويض مصر عن المساعدات العربيَّة التي يمكن أن تفقدها بإيقافها من قِبَلِ الدول العربيَّة.

٢- اتفاق على تنسيق التعاون بين الاستخبارات المصريَّة ووكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة (السي أي إيه) ليس فقط يتعلق بالأوضاع في مصر، بل في إطار المنطقة العربيَّة كلِّها.

٣- تتعهد أمريكا بتحديث الجيش المصري (ضد من؟) وتزويده بالأسلحة الأمريكيَّة التي تعوضه عن الأسلحة السوفييتية عند الاستغناء عنها.

٤- موافقه الرئيس المصري على تسريح قطاع كبير من الجيش المصري، بحيث تخفض أعداده من ٦٥٠ ألف جندي إلى ٢٥٠ ألف جندي فقط!

٥- السماح باستخدام أمريكا لبعض القواعد العسكرية التي ستتخلى عنها إسرائيل في سيناء.

٦- إعطاء أمريكا صلاحيات موسعة لاستخدام منطقة شرم الشيخ فيما يخدم استراتيجتها في المنطقة.

ردود الفعل العربيَّة على اتفاقات كامب ديفيد:

بطبيعة الحال، كان لا بدَّ أن ترفض أكثر الدول العربيَّة اتفاقيات كامب ديفيد، لا لأنَّها تتضمن اعترافًا بدولة اليهود فتلك دعوى كانت تتردد بين آن وآخر ولكن لأنَّ هذا الاعتراف جاء بشكل منفرد ودون سابق مشورة، أما الأدبيات القوميَّة أو الليبرالية أو حتى الثوريَّة، فإنَّها لم تكن تتضمن مبادئ ثابتة فيما يتعلق بضوابط الصداقة والعداء، أو الولاء والبراء، فالدول التي ترتمي في أحضان القوى الشيوعيَّة الملحدة، أو النصرانيَّة الصليبيَّة، ما الذي يمنعها من إقامة علاقة ود وصداقة مع دولة يهودية؟

لقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن كل محرمات العلمانيَّة يمكن استحلالها، وكل ممنوعاتها يمكن السماح بها، فليس ثَمَّ حرام دائم أو حلال دائم عند من يستمدون تشريعهم من الأهواء.

ولكن الظروف وقتها كانت لا تسمح إلا بالرفض على مستوى الدول، وأيضًا على مستوى الشعوب التي صدمت فيما رأته تراجعًا عن ثوابت لا يمكن التراجع فيها.

لقد أخذ الرفض العربي صورة تشنجيَّة عالية الصوت، لامعة الضوء، ولكنها سراب يحسبه الظمآن ماءً، وقد أثمر هذا الرفض في النهاية ولادة ما أطلق عليه وقتها: (جبهة الصمود والتصدي)!! تلك الجبهة التي تعهدت بالمضي في المعركة مع الغاصبين إلى النهاية، وتم الإعلان عن هذه الجبهة في مؤتمر القمة العربي المنعقد في بغداد ١٩٧٩م، وقد عقدت دول تلك الجبهة بعد ذلك أكثر من مؤتمر لإحكام المقاطعة العربيَّة للدولة التي خرجت عن (الإرادة العربيَّة)، ولكن لم يكد ينقضي عقد من الزمان حتى آل أمر جبهة (الصمود والتصدي) إلى الخمود والتصدع! فقد بدأ بعض أعضائها في التسلل تحت جنح الظلام إلى معسكر السلام!

المحطة الثالثة: مؤتمر فاس:

شرع الرافضون لكامب ديفيد من (الصامدين) يتصدون لطرح مبادرة عربيَّة، تقول للسلام مع اليهود: نعم، ولكن بشكل جماعي، وكان ذلك في مؤتمر (فاس) الذي عقد في المغرب بين (٦- ٩/ ٩/ ١٩٨٢م) ومن العجيب أن ما علت الأصوات العربيَّة باستنكاره من اتفاقات كامب ديفيد (الخيانيَّة الانفراديَّة) قد سطّر بهدوء، ودون ضجيج في البند السابع من مشروع (فاس)، ولكن مع الفارق المذكور، وهو أنَّ الأول كان بمبادرة فرديَّة، والثاني كان بمبادرة شبه جماعيَّة.

وتعد نتائج مؤتمر (فاس) هي الأرضية التي انطلقت منها بعد ذلك كلّ مشروعات التسوية بدءًا من الاتفاق الأردني الفلسطيني (٢٢/ ١١/ ١٩٨٤م) الداعي إلى مبدأ (الأرض مقابل السلام) وحتى اتفاقات أوسلو.

المحطة الرابعة: مشروع إعلان الدولة الفلسطينيَّة:

في الفترة ما بين ١٩٨٦، ١٩٨٨م، بدأت منظمة التحرير الفلسطينيَّة تنشط بدورها في إجراء اتصالات مع عناصر إسرائيليَّة، تمهيدًا للدخول في حوار سلمي مع الدولة اليهوديَّة، وذلك بعد قرار صدر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته لعام ١٩٨٦م، يدعو اللجنة التنفيذيَّة لمنظمة التحرير لوضع خطط بفتح الاتصال المباشر مع دوائر يهوديَّة وإسرائيليَّة.

وكانت الإشارات قد بدأت تدل على نية رئيس المنظمة ياسر عرفات إلى الاعتراف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الذي يدعو إلى اعتراف العرب بدولة إسرائيل بحدود ما قبل حرب ١٩٦٧م، وكان العرب جميعًا قبل ذلك يطلقون على رفض هذا القرار باعتبار أنَّه يعني التنازل مقدمًا عن ثلثي أرض فلسطين، بل كان ياسر عرفات يقول ويكرر: إنَّه يقبل أن تقطع يده على أن يقبل بالقرار ٢٤٢! ولكن عرفات عاد وقبل بالقرار، ولكن قبوله وقتها كان له وقعه وصداه المؤقت وحتى يغطي على هذا التراجع المخيف، فقد أوعز إلى المجلس الوطني الفلسطيني بأن يعلن في دورته التاسعة عشرة عن قيام (دولة فلسطين المستقلة)! ثم خطت منظمة التحرير خطوة (سلمية) أخرى، حينما ذهب رئيسها إلى جنيف، وأعلن أمام الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة في ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ ما يلي:

١- أنه على استعداد للتفاوض مع إسرائيل.

٢- تتعهد المنظمة أن تتعايش بسلام مع إسرائيل، وأن تحترم حقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها.

٣- أن المنظمة تدين أعمال العنف الفردي والجماعي وإرهاب الدولة، ولن تلجأ إلى شيء من ذلك! ولقد كانت هذه (التوبة) المعلنة كافية لكي تكفر عن الفلسطينيين أمام الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وإسرائيل كل ما اقترفته أيدي الفدائيين الفلسطينيِّين والمجاهدين وأبطال الحجارة من (إساءات) في حق اليهود (المظلومين)! وقد قرت أعين هؤلاء اليهود وأعوانهم بما قال عرفات، حتى إنَّ جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت علق على خطاب عرفات قائلًا: إنه

نتصار باهر، يدل على أن اللاءات الثلاث العربيَّة الشهيرة في مؤتمر الخرطوم ١٩٦٧م، تحولت في جنيف لتصبح (نعم) ثلاث مرات أيضًا!

المحطة الخامسة: مؤتمر مدريد:

قبيل حرب الخليج الثانية، كان الفلسطينيون قد سد في وجوههم باب (السلام) بعد أن عادت الولايات المتَّحدة ساخطة عليهم بسبب عمليَّة فدائية قامت بها إحدى الفصائل الفلسطينيَّة التي كانت على علاقة بالمنظمة، وبعد أن توقفت الحرب وفي يوم ٦ مارس ١٩٩١م، وهو يوم الاحتفال بالنصر، ألقى الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش خطابًا أعلن فيه أنَّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عازمة وبجزم على تسوية الصراع العربي الإسرائيلي، وقد بدأ جيمس بيكر وزير الخارجيَّة الأمريكي وقتها جولات لتهيئة الأوضاع لعملية سلمية جديدة تتناسب مع ظروف جديدة، وكان المقرر أن يعقد مؤتمر دولي يكون مجرد واجهة علنية عامة لمحادثات ثنائيَّة منفصلة بين كل دولة عربية وبين إسرائيل، أما منظمة التحرير المعنية أصلًا بموضوع السلام، فقد تقرر استبعادها لموقفها في حرب الخليج، على أن يكون البديل عنها وفد فلسطيني من الداخل، وليس من المنظمة وعلى أن يكون ذلك الوفد أيضًا جزءًا من الوفد الأردني في المؤتمر.

وتقرر أن تكون العاصمة الأسبانية مدريد المقر الرسمي لانعقاد المؤتمر، ثم تجري بعد ذلك المفاوضات في مسارات ثنائية بين كل طرف عربي على حدة وبين الطرف اليهودي، واختيرت مدريد في ذلك الوقت لأسباب لا تخلو من إيحاءات ورموز زمانيَّة ومكانيَّة لم تكن خافية.

وقد تجسد الضعف بل الذل العربي في هذا المؤتمر، حيث صال إسحاق شامير رئيس وزراء إسرائيل الأسبق وجال، ولوّح بالتوراة وآياتها، وذكّر بالتاريخ ودروسه وشرّق وغرّب باسم اليهوديَّة وأمجادها وآمالها وآلامها في القديم والحديث، وكان هو الزعيم الوحيد من أطراف الصراع الذي حضر بنفسه ولم ينب أحدًا عنه، وكان قد أصر على شروط لا تقبل أنصاف الحلول قبل التفاوض في أي شيء وكأنَّما أراد أن يذكّر بها أن الجلوس على مائدة المفاوضات لا يعني النِّدِّيَّة أو التكافؤ بين الأطراف؛ وأراد شامير أن يذل العرب والمسلمين في شخص الفلسطينيين فاشترط هذه الشروط:

١- لا يسمح بمشاركة أي فلسطيني عضو في المجلس الوطني في المؤتمر.

٢- مجرد ذكر منظمة التحرير في المؤتمر يعني انسحاب اليهود.

٣- الإشارة لأي اعتزاز بالانتماء للكفاح الفلسطيني، يعني أن المؤتمر في حكم الملغي، وسينسحب هو ووفده منه! وكاد يحدث بالفعل ما حذر منه شامير، إذ أقدم أحد أعضاء الوفد الفلسطيني وهو صائب عريقات على وضع الكوفيَّة الفلسطينيَّة المشهورة على رأسه أثناء الاجتماع فاحتج شامير واحتد، وطلب إزالة هذه المخالفة فورًا.

فبأي روح يا ترى، وبأي نفسية كانت تجري المفاوضات (السلميَّة) ومع هذه الشخصيات

(العدوانيَّة) في تركيبها وتكوينها وتفكيرها واعتقادها وأحلامها؟!

المهم أن المؤتمر انعقد، وكأنَّه تظاهرة تحتفي بهوان أمة لم تجد من يتكلم باسمها أو يدافع عن كرامتها ومقدساتها، وكان من المفارقات العجيبة بعد انتهاء المؤتمر أن تختار النصرانيَّة حنان عشراوي لتتكلم باسم القضية الفلسطينيَّة العربيَّة الإسلاميَّة!!

المحطة السادسة: محادثات المسارات المتعددة في واشنطن:

بعد الانتهاء من مؤتمر مدريد، اختيرت واشنطن لتكون مقرًّا لاجتماعات مسارات التفاوض الثنائيَّة، ودارت المحادثات على مسارات منفصلة كما هو متفق عليه أو كما أرادت إسرائيل فقد كانت تخطط لإضاعة الوقت في هذه المفاوضات لتشتيت جهود العرب والاستفراد بكل طرف على حدة، لكي تستثمر هذا الوقت لصالحها بتنفيذ برامج ومخططات تحتاج إلى تغطية، وقد ظهرت هذه النية بعد ذلك على لسان شامير الذي قال: كنت أريد للمفاوضات في واشنطن أن تمتد عشر سنوات، حتى تستكمل خطط الاستيطان، وحتى لا تبقى أرض فلسطينية يتم التفاوض عليها.

لقد حرص هؤلاء الأعداء على إضاعة الوقت فعلًا، حتى إنَّ بعض القضايا التي جرت مناقشتها بين الوفد الإسرائيلي والأردني مثلًا، كان منها: التعاون من أجل مقاومة توالد البعوض في وادي الأردن! وكان منها: ضرورة التنسيق للتوصل إلى حل في مشكلة الحمام البري الطائر الذي يطير من الأراضي الأردنيَّة ليتغذى على الغلال في الصوامع الإسرائيليَّة!!

أما القضايا الجادة على كل المسارات فكانت تؤجل باستمرار، وكانت وفود اليهود تردد دائمًا قناعتها بأنَّ من أصول التفاوض الصحيح حل المشكلات الصغيرة أولًا ثم التفرغ للمشكلات الكبيرة. ومع كل هذا الهوان، فقد كان المفاوض العربي والفلسطيني يشعر في نفسه بذلك الهوان، بغض النظر عن القضايا التي تناقش، يعبر عن ذلك د. حيدر عبد الشافي بقوله: نحن وفد منقسم على نفسه، وفي الحقيقة فنحن أربعة عشر عضوًا فلسطينيًّا وكل عضو فينا وفد مستقل، وكل واحد منا يمثل نفسه، وله اتصالاته وله ميادينه!!

وكان من الطبيعي مع كل هذا أن تكون نتائج مسارات واشنطن.. الفشل!!

المحطة السابعة: اتفاقيات أوسلو:

بعد فشل محادثات المسارات المتعددة في واشنطن، اتجهت الأنظار إلى (أوسلو) عاصمة النرويج، وكان ذلك عقب ظهور عدد من المستجدات على الساحة العربيَّة والدوليَّة منها:

١- انتقال رئاسة الوزراء في إسرائيل إلى حزب العمل برئاسة إسحاق رابين بعد سقوط إسحاق شامير زعيم حزب الليكود.

٢- أن منظمة التحرير من خلال محادثات واشنطن ظهر أنَّها مستعدة نفسيًّا وعمليًّا لإعطاء كل شيء مقابل الاعتراف بها، وأنَّها سوف ترحب بأي تعاون من شأنه ألا ينقل الوصاية على القضية الفلسطينيَّة من يد المنظمة إلى أيدي حماس.

٣- حرص كل أجهزة المخابرات ومراكز الدراسات في إسرائيل وغيرها على إظهار وإبراز أن هناك قوة إسلاميَّة عارمة يمكن أن تكتسح أكثر من ساحة عربيَّة ومن ضمنها فلسطين في ظل التشرذم والفشل العربي، وأن تلك الموجه الإسلاميَّة يمكن لها أن تقفز إلى واجهة الأحداث ليرى اليهود أنفسهم وجهًا لوجه أمام مبارز جديد لم يتعودوا على منازلته، وقد عبر عن هذا التخوف أحد الوزراء في حكومة رابين عندما قال: إنَّ الحركة الإسلاميَّة ستتصاعد، وستؤدي إلى تقوية التيار الديني في إسرائيل نفسها، وأستطيع أن أقول: إن المتشددين الإسلاميِّين والمتشددين اليهود سيلتقون في ساحة المواجهة هنا على أرض فلسطين، وعندها سيخرج الأمر من أيدينا تمامًا!

وكان رابين يرى لأجل ذلك أنَّه لا مانع من الاعتراف بالمنظمة بعد اعترافها بإسرائيل، وبحقها في حياة آمنه ضمن حدود معترف بها، وكان في ذلك مخالفًا لسلفه شامير وقد سوّغ وجهة نظره بقوله: إنَّ المنظمة إذا وضعت بصمتها على ورقة الاستسلام، فلن يستطيع أحد أن يزايد على أصحاب الشأن!

وبدأ الفلسطينيون عبر قنوات اتصال سريَّة في التفاوض مع الإسرائيليين لإبرام اتفاق منفرد، وأثمرت هذه الاتصالات في الوصول إلى اتفاق مبدئي أطلق عليه: (غزة وأريحا أولًا) وكان المفاوضون قد اتفقوا في أوسلو على ألا يكرروا الخطأ الذي حدث في واشنطن من الوفد الفلسطيني وهو المطالبة بالبدء بالموضوعات الصعبة الرئيسية مثل: حق تقرير المصير، والمستوطنات، ومستقبل القدس.

واختاروا أن يكون البدء بأمور عمليَّة تقبل التنفيذ، ووقع الاختيار على (غزة وأريحا أولًا) بمعنى تمكين الفلسطينيين من حكم هاتين المنطقتين حكمًا ذاتيًا، وكانت هذه مبادرة إسرائيليَّة صرفة، صادفت هوًى لدى القيادة الفلسطينيَّة، وقد تم التوصل إليها بينهما دون شراكة من أي طرف ثالث.

وقد أراد الإسرائيليون بهذه الاتفاقيَّة أن يضربوا عددًا من العصافير بحجر واحد في هذه المرحلة وذلك بما يلي:

١- التخلص من قطاع غزة المزدحم والمزعج، والمليء بأسباب التوتر الأمني والعلل الاقتصاديَّة والكثافة السكانيَّة العربيَّة.

٢- إرضاء غرور القيادة الفلسطينيَّة المتطلعة إلى زعامة وهميَّة على دولة غير واقعيَّة لن تفيد الشعب الفلسطيني، ولن تضر الشعب الإسرائيليّ.

٣- إيهام العالم بعدالة الصفقة اليهوديَّة في آخر فصول القضية الفلسطينيَّة.

٤- عزل القوى العربيَّة غير الراغبة في السلام إن وجدت بإعطاء البرهان على أن أصحاب القضية قد ألقوا البندقيَّة.

٥- احتواء التيار الإسلامي المتصاعد في غزة على يد الشرطة الفلسطينيَّة بعد أن عجزت الشرطة

الإسرائيليَّة عن القضاء عليها.

وبعد خمس جولات من المباحثات في أوسلو، تم التوصل في (٨/ ٥/ ١٩٩٣م) إلى ما يسمى وقتها بـ (اتفاق إعلان المبادئ) المتعلق بمنح الفلسطينيين حكمًا ذاتيًّا في غزة وأريحا، وكان بيريز متحمسًا للإسراع في إبرام ذلك الاتفاق الذي تفتقت عنه قريحته، فقد كان يراه فرصة تاريخيَّة لا تعوض في مثل ذلك الظرف الذي كان يقتضي الاعتراف بالعدو الذي لم يعد عدوًّا (منظمة التحرير)؛ لأنَّ البديل هو كابوس لا يمكن تصوره، ولذلك قال: إنَّ البديل الوحيد لمنظمة التحرير إذا تجاوزناها هو (حماس) وحماس لن تعترف أبدًا بإمكانية السلام معنا!

وما كان لاتفاق أوسلو أن يخرج إلى الوجود، إلا بعد أن تم تأجيل كل القضايا الأساسية وهي: (القدس) (الحدود) (المستوطنات). وبالرغم من أن الاتفاق أسوأ مما كان يتنظره المتشائمون، حيث إنَّه لا يحقق الحد الأدنى من الثوابت الفلسطينيَّة، إلا أن ياسر عرفات كان يحب أن يطلق عليه: (سلام الشجعان).

وفي مقابل قبول الاتفاق على مضض من بعض من العرب بسبب إجحافه بالفلسطينيين في أرضهم، فإنَّ الإسرائيليين عمهم الفرح به، حتى إنَّ أحد الوزراء الإسرائيليين وهو يوسي ساريد علق عليه قائلًا: إن إسرائيل اليوم خلقت من جديد، فمنذ إنشائها لم تكن الدولة شرعيَّة في المنطقة التي قامت فيها، واليوم (١٣ سبتمبر ١٩٩٣م) اكتسبت إسرائيل شرعيَّة الاعتراف بها. هذا على مستوى العارفين بالأمور من الإسرائيليين، أما قطاعات الشعب التي ساءها أن ترى عرفات داخل أرض الميعاد مرة أخرى، فقد هالهم هذا التغيير، ولكن رابين طمأنهم وهدأ من روعهم، وخاطبهم ولما يجف مداد الاتفاق قائلًا: إنه لن يكون هناك انسحاب إسرائيلي، ولكن: إعادة انتشار، والسلطة للفلسطينيين سوف تكون تحت سيطرة الدولة الإسرائيليَّة، وحتى الأرض، فليس هناك اتفاق بشأنها، ولكن بشأن البشر الذين يسكنون عليها. أمَّا الأموال التي ستأتي لتلك السلطة الفلسطينيَّة، فلن تصل إلى أيديها مباشرة بل ستمر عبر قنوات دوليَّة تضمن سلامة مصارفها!

ثم بدأ تنفيذ بعض بنود الاتفاق، واستقدمت أعداد من المقاتلين الفلسطينيين السابقين الذين كانوا قد تفرقوا في عدد من البلدان العربيَّة، لتتشكل منهم كتائب شرطة لمكافحة الشغب أو بالأحرى مكافحة الشعب، إذا أراد أن ينتفض مرة أخرى، ومع كل هذا التنازل فإن الطرف اليهودي كان يتعامل مع الطرف الفلسطيني بالازدراء كلِّه، والمكر والخداع كلِّه، وكعادة اليهود في التملص من العهود، فإنَّهم لم يصبروا على اتفاق أوسلو رغم حيفه وجوره، وعادوا إلى التمثيليَّة المكرورة وهي (تعدد فهم النص) تلك التمثيليَّة التي درجوا على اللجوء إليها كلما أرادوا التحريف أو التزييف، فيقولون: النص هكذا، ولكننا نفهم منه كذا، وأنتم تفهمون منه كذا، وبهذا في كل مرة يتخلصون من أي التزام، ويتبرءون من كل مسئولية، لقد قال رابين قبل مصرعه: إنني اكتشفت أن هناك قراءتين لاتفاق أوسلو: قراءة فلسطينيَّة وقراءة إسرائيليَّة، ونحن أمام تفسيرات

مختلفة لقضية كنت أظنها واضحة في الاتفاق، وقال: إن فجوة الاتفاق بيننا وبين عرفات واسعة.

بمثل هذه التصريحات، وفي ظلِّ تلك المواقف التي توجهها الرغبة في التلاعب، تجري فصول عمليَّة السلميَّة، فما كان يفهم شامي) من قواعد اللعبة، يمكن أن يختلف غدًا عما فهمه بيريز، وما كان مسلّمًا به عند رابين، يمكن أن ينقلب على أعقابه في مفهوم نيتنياهو! وما تعاهدت عليه حكومة الليكود اليوم، ليس ملزمًا لحكومة العمل غدًا. وهكذا تتوالى الفصول في عمليَّة السلام نهزول نقضًا للوعود، ونكثًا للعهود.

إذًا، فقطار (السلام)، لا يركبه اليهود إلا للوصول عبر محطاته إلى ميدان الحرب؛ وهذا أمر واضح لمن راقب أحوال القوم في القديم والحديث[1].

---

(١) مجلة البيان العدد ١١٥ ص(٦٨- ٧٩)، العدد ١١٦ ص(٧٢- ٧٩)، العدد ١١٧ ص(٧٠- ٧٥).

الفصل السادس

إسرائيل الكبرى

هناك اتفاق بين الساسة المتنفذين في الدولة العبريَّة على أن العمل لاستكمال (مشروع إسرائيل الكبرى) هدف كبير واعد، ولكنه بعيد آجل، ولا بدَّ من الوصول إليه عبر مراحل في الزمان والمكان.

غير أن هناك مفهومين سائدين ومختلفين في الوسيلة التي يمكن من خلالها الوصول إلى تنفيذ هذا المشروع، وأحد هذين المفهومين يتبناه الصقور وتمثلهم كتلة الليكود التي تضم بعض الأحزاب اليمينية والدينيَّة، والآخر يتبناه الحمائم ويمثلهم حزب العمل الذي يضم يساريين وليبراليين.

وبأدنى قدر من الفهم يستطيع المراقب لسياسات الاتجاهين أن يدرك أنَّهما يتبادلان الأدوار على حسب ما تقتضيه المرحلة في كل ظرف، لكن الحزبين في النهاية يعملان لأهداف مشتركة وإن اختلفت الوسائل.

أما المفهوم الأول: وهو الذي تتبناه كتلة الليكود في عملها لصالح ذلك المشروع، فيعتمد على المفهوم (الهرتزلي) في ذلك؛ حيث قال هرتزل للمستشار الألماني هوهنكر حين سأله عن الأرض التي يريد: سنطلب ما نحتاجه، وتزداد المساحة المطلوبة مع ازدياد السكان[1]. وهذا يعني أن باب التوسع مفتوح دائمًا.

وقد سار بن جوريون أول رئيس لدولة اليهود على الخط نفسه، وعبر عن ذلك بقوله: حدودنا حيث يصل جنودنا[2]، فالقوة وسياسة الأمر الواقع هي السبيل الأوحد للوصول إلى الهدف في نظر بن جوريون! وقد كان هذا الرجل يشخص ببصره نحو (إسرائيل الكبرى). ففي مبدأ إنشاء الدولة على أرض محدودة عام ١٩٤٨م يقول: إن الصهيونيَّة حققت هدفها في الرابع عشر من مايو ١٩٤٨م ببناء دولة يهوديَّة أكبر مما كان متفقًا عليه في مشروعات التقسيم وبفضل قوات (الهاجاناه). وليست هذه نهاية كفاحنا، بل إننا اليوم قد بدأنا، وعلينا أن نمضي لتحقيق قيام الدولة التي جاهدنا في سبيلها من النيل إلى الفرات[3].

وسار على الدرب نفسه ليفي إشكول فخاض حرب عام ١٩٦٧م لقضم أكبر قطعة من أرض (إسرائيل الكبرى) وقد بدأ يكثف حديثه علنًا عن هذا المشروع منذ شهر أكتوبر عام ١٩٦٧م، ويشاركه فيه دايان وآلون وكبار الحاخامين وزعماء الأحزاب.

---

(١) مذكرات هرتزل (٢/ ٧٠٢).

(٢) حياة بن جوريون ص(٣٢٧).

(٣) حياة بن جوريون ص(٣٢٧).

والمرأة التي كانت تفخر بأن يقال لها: أنت أقوى رجل في إسرائيل، (جولدا مائير) كانت تؤمن بالأسلوب نفسه فيما يتعلق بالعمل لصالح (إسرائيل الكبرى) وقد قالت في خطاب لها: إن إسرائيل يجب أن تكون دولة وقوة عظمى في الشرق الأوسط، لها حق التصرف كما تريد[1].

وجاء بعدها مناحم بيجن فكان صريحًا فصيحًا في التعبير عن النوايا اليهوديَّة تجاه أرض إسرائيل (الكاملة)، يقول بيجن: منذ أيام التوراة، وأرض إسرائيل تعتبر أرض الأمم لأنبياء إسرائيل، وقد سُميت هذه الأرض فيما بعد فلسطين، وكانت تشمل دومًا ضفتي نهر الأردن ولبنان الجنوبي وجنوبي غرب سورية، إن تقسيم الوطن عمليَّة غير مشروعة، وإن تواقيع الأفراد والمؤسسات على اتفاقيَّة التقسيم باطلة من أساسها، وسوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بتمامها إلى الأبد[2]. وقد أشار محمد كامل وزير الخارجيَّة المصري الأسبق إلى أن برنامج حزب (حيروت) ضمن كتلة الليكود، بزعامة بيجن كان يقوم على أساس السعي لإقامة إسرائيل الكبرى[3].

أما شامير، زعيم الليكود بعد بيجن، فكان أصرح وأفصح الزعماء في الإعلان عن قيمة مشروع (إسرائيل الكبرى) في الفكر والوجدان اليهودي. قال ذات مرة وهو يخاطب أحد الصحفيين: إن (إسرائيل الكبرى) هي عقيدتي وحلمي شخصيًّا، وبدون هذا الكيان لن تكتمل الهجرة، ولا الصعود إلى أرض الميعاد[4]. وقد فاز في الانتخابات الإسرائيليَّة لمنصب رئاسة الوزراء بسبب برنامجه الهادف إلى السعي من أجل إسرائيل الكبرى.

وجاء اليهودي الليكودي الجَلْد نتنياهو ليمثل مرحلة ساخنة على طريق السعي اليهودي المسعور نحو (إسرائيل الكبرى). لقد ولد نتنياهو ونشأ في بيئة تغلب عليها أفكار حزب (حيروت) العقل الأيدولوجي لتكتل ليكود، ولذا فمن البدهي أن يكون تأييده لمبادئ الحزب جزءًا من طبيعته ونشأته وتفكيره، وتلك المبادئ يأتي على رأسها حقهم المزعوم في (إسرائيل الكبرى). وقد انتخب نتنياهو عام ١٩٩٦م تأييدًا لبرنامجه الانتخابي القائم على عدم التنازل عن شبر من أرض إسرائيل المستعادة.

المفهوم الثاني: ويرتكز على فهم خاصٍّ لدى بعض ساسة اليهود، مؤداه أن الشعب اليهودي لن يستطيع أن يسيطر على ما حوله من الشعوب إلا بالدهاء والحيلة والقوة بأشكالها المختلفة، بحيث تعوض هذه القوة الكيفية، الضعف الكمي عندهم، وفي هذا يقول بن جوريون مخاطبًا الشعب اليهودي: لقد ذكر أنبياؤنا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة أنكم أقل الشعوب جميعًا، ولذلك يجب على شعب إسرائيل أن يكون شعب قدرات وتفوق، بحيث يستطيع أن يقف أمام شعوب أكبر منه[5].

---

(١) صحيفة معارف الإسرائيلية (٢٩/ ١٠/ ١٩٧٢م).
(٢) الثورة، لمناحيم بيجن ص(٣٢٥).
(٣) السلام الضائع في كامب دفيد، لمحمد كامل ص(٢٧).
(٤) جريدة الحياة، عدد ١٠٤٧٥ .
(٥) أخطر من النكسة ص(١٠٢).

وحزب العمل كان ولا يزال يتبنى هذا المفهوم، ولعل من أبرز المتحمسين لهذا المسلك، حمامة السلام المفترسة شمعون بيريز تلك الشخصية الأفعى، التي تصدت دائمًا لمشروعات امتصاص دماء الشعوب المحيطة وابتزازها، إما بالترغيب، عن طريق مشروعات السلام الوهمي، أو بالترهيب عن طريق الترسانة النوويَّة التي يُعد مهندسها وأبوها الروحي.

لقد كان شمعون بيريز ينادي دائمًا بـ (إسرائيل العظمى) أولًا، قبل إسرائيل الكبرى، بمعنى أن تستكمل الدولة اليهوديَّة أسباب القوة لتصبح قوة عظمى، ثم تستكمل بعد ذلك المساحة لتكون أرضًا كبرى.

وهو يسير على محورين للتوصل إلى تلك الغاية:

أولهما: السعي لزيادة قوة الدولة اليهوديَّة دون أدنى خضوع لعقبات أو عراقيل تفرضها الأوضاع أو الأعراف الدوليَّة.

والثاني: العمل على توهين وإضعاف قوة البلاد العربيَّة المجاورة بكل وسيلة ممكنة، واستغلال أسباب قوتها ومصادر مواردها لغير صالح شعوبها.

وقد برهن عمليًا على هذين المسلكين، فهو في نظر اليهود (بطل) القوة النوويَّة الإسرائيليَّة وراعي مسيرتها منذ البداية حتى النهاية.

وهو من جهة أخرى عرّاب عمليات السلام مع العرب في مرحلة ما بعد كامب ديفيد، وهو واسطة الوصول للمأمول عبر (القنوات السريَّة) في أوسلو الأولى والثانية ووادي عربة.

وعندما أعلن عن خططه لعمليات السلام في عام ١٩٩١م برز حرصه كأي زعيم صهيوني على قضية أمن اليهود وتحصينهم ضد الأخطار العسكريَّة، وكذلك الأخطار الاقتصادية التي ليست بأقل في نظره من الأخطار العسكريَّة.

أما الأخطار العسكريَّة فقد كفاهم إياها بمنجزاته النوويَّة، وأما الأخطار الاقتصاديَّة، فقد اختار لمواجهتها طروحاته شرق الأوسطيَّة؛ حيث دعا إلى مشروع يهدف إلى جعل الدولة العبريَّة جزءًا من نسيج المنطقة المحيطة بها، بحيث تتمدد في جسدها سرطانيًا لتقتلها ببطء وترث تركتها بأمان!

اعتبر شمعون بيريز أن مشروع (الشرق أوسطية) يمكن أن يقوم على تكامل الطاقات: المياه التركية والسورية والعراقية، الأيدي العاملة المصريَّة والفلسطينيَّة، الأسواق والثروة النفطية الخليجية، مع الخبرة والذكاء الإسرائيلية، لإنشاء الشرق الأوسط الجديد! وما الشرق الأوسط إلا تسمية أخرى حداثية لـ(أرض الميعاد) وما حولها.

لقد اعتبر بيريز أن أنهار المنطقة الرئيسية: (النيل، والفرات، والأردن، ودجلة) بحاجة إلى مشروع (إقليمي) لتنظيمها وتحقيق الاستفادة منها، وكذلك الثروات الأخرى بما فيها (السياحة) سواء كانت سياحة دينيَّة أو مدنيَّة.

ولا شكَّ أنَّ إسرائيل الطامعة في الإشراف على تلك المشروعات الشمعونيَّة الإقليميَّة كانت تطلع إلى عقد معاهدات صلح مع كل جيرانها العرب تتمكن خلالها من تحقيق مآربها في أن تصبح جزءًا من نسيج المنطقة، أو بالأحرى تصبح المنطقة جزءًا من نسيجها وساحة لتحقيق أهدافها، وفي مقابل هذا، أو لتحقيق هذا؛ لا ضير على إسرائيل على حد تعبير بيريز أن تترك للعرب (بعض) لأراضي مقابل سلام قد يعده البعض تنازلًا عن الحقِّ التاريخيِّ والدينيِّ في أرض إسرائيل، وهو من وجهة نظره قيام بواجب تاريخي تجاه مصلحة إسرائيل! يقول: إنَّها بذلك تكون قد أدت واجبها تاريخيًا بحماية طابعها الخاص من الإفساد والتشويه. ويقصد طبعًا الوضع الناجم عن وجود لفلسطينيين بين الإسرائيليين ضمن كيان واحد، وبعد أن يتم (تطهير) الجسم الإسرائيلي من عناصر غير الإسرائيليَّة وتضع إسرائيل يدها على المواقع المهمة في الضفة الغربية المنزوعة السلاح، وتعقد الصلح مع الجيران، بعدها تدخل في علاقات أعمق مع الدول المحيطة، وعندما تحقق سرائيل هذا المشروع المتعدد والمتداخل الحلقات؛ فإنَّها تكون قد وضعت رجلها حقًّا في رأي شمعون بيريز على طريق (إسرائيل الكبرى).

ويتساءل بيريز: ماذا ينفع إسرائيل في هذه المرحلة لو ضمت الأراضي الواسعة وخسرت بالمقابل يهوديتها وخصائصها؟ وماذا يضيرها لو أنَّها تخلَّت عن مساحات صغيرة من الأرض (وهي تحت سلطانها الفعلي) لقاء تحولها من كيان محاصر ومعزول إلى قوة إقليمية عملاقة؟

ويخلص بيريز إلى تلخيص رؤية حزب العمل فيما يتعلق بالعمل لصالح إسرائيل الكبرى فيقول: إنَّ إسرائيل تواجه خيارًا حادًّا بين أن تكون (إسرائيل الكبرى) اعتمادًا على عدد العرب الذين تحكمهم، أو تكون (إسرائيل الكبرى) اعتمادًا على حجم واتساع السوق الواقعة تحت تصرفها.

ويهاجم بيريز مفهوم حزب الليكود القائم على اعتبار ضم الأراضي هدفًا في حد ذاته، فيقول: إسرائيل الكبرى بمفهوم ليكود ستضم الفلسطينيين والعرب، فيمثلون جسمها، وتظل حبلى بالمشاكل والاضطرابات، وتبقى عرضة للمجابهات المسلحة مع الجيران والتوتر في علاقاتها الاقتصاديَّة المتقلبة، والانخفاض في عدد المهاجرين إليها.

إنَّه بهذا الكلام لا يتخلى عن (إسرائيل الكبرى) كهدف، ولكنه ينتقد أسلوبًا ومفهومًا مغايرًا في تحقيق هذا الهدف، إنَّه لا يريد حكم الفلسطينيين والعرب، ولكنه يريد التحكم فيهم والسيطرة عليهم عبر (الشرق أوسطية) التي ستوضع كما قال تحت إمرة إسرائيل ورهن تصرفها باعتبارها الكيان الأكثر تطورًا.

فطريق حزب العمل إلى (إسرائيل الكبرى) يمر عبر الدبلوماسيَّة واللياقة التي تستند إلى التهديد الدائم بالرعب النووي الرابض في صحراء النقب!

وتأمل في تلك التوصية التي صدرت منذ أكثر من أربعة عقود عن أحد مؤتمرات اليهود تحت عنوان: (الحاخام جوهاشيم برنز يشرح وثائق المخطط الأخير) جاء فيها: التخطيط المتفق عليه

سهل في مظهره وفي تنفيذه، ولا يعرض من يعملون لتحقيقه إلى أي نوع من الخطر، وكل ما في الأمر يتلخص في كتمان القصد من الدعوة لهذا المخطط حتى لا يكتشفه أحد، ولقد أطلق على هذا المخطط اسم: (مخطط السلام). والعمل على تحقيقه لا يتطلب منا سوى الإلحاح والمثابرة على الدعوة للمحافظة على السلام، والقصد منه ذو شقين: أحدهما: الحصول على الوقت اللازم لنا ولحلفائنا لكي نتمكن من تسليح جيوشنا وتقوية أجهزتنا الحربيَّة؛ لأننا في هذا الوقت لم نستكمل العدة لخوض حرب عالمية ثالثة تكفل لنا النصر. وأما الشق الأخر: فهو سباق التسلح السائد الآن لدى الدول المعادية لنا ولحلفائنا، وإرغام الدول على تدمير أسلحتها الذرية وتخفيض جيوشها، وقتل الروح العسكريَّة في الأوساط الشعبيَّة، ودفع الجماهير إلى غير الجنديَّة وتنفيرهم منها، بينما سنثابر نحن وحلفاؤنا على التسلح إلى أبعد مدى مستطاع.

ولكي نتوصل إلى تحقيق هذه الأهداف، عليكم العمل دون هوادة على دعوة الناس إلى مناصرة السلام، وتسفيه كل منهاج أو رأي يدعو إلى التسلح، والهجوم على كل من يناصر الجندية، وإثارة الإنكار على كل مشروع دفاعي، وتحريض الناس على الامتناع عن الإسهام في الأغراض العسكريَّة، والتنديد بما ينفق في أمور الحرب.

أيها الإخوة.. ربما استغرب أحدكم انقلابنا المفاجئ وسأل عن الأسباب التي دفعتنا إلى أن نكون دعاة سلم بعد أن كنا دعاة حروب وثورات، واعلموا إذًا أن الأسباب التي حملتنا في الماضي على إشعال نار الثورة الفرنسيَّة ثم الثورة الروسية، ولافتعال الحربين العالميتين، هي نفسها تدفعنا اليوم إلى الدعوة إلى السلام لأول مرة في التاريخ، وما هذه الأسباب بخافية عليكم، فهي ما تعرفونه من أهدافنا الخاصة التي يتطلب تحقيقها تجريد خصومنا من أسلحتهم ريثما نتمكن من التسلح والتأهب لجولاتنا القادمة.

وعندما نتيقن من نجاح مخططاتنا هذه؛ ستكون ساعة الصفر قد أزفت، فتزحف جيوشنا إلى الميادين المعينة لها، وتقضي سريعًا على مقاومة أعدائنا التي ستكون حتمًا هزيلة، ونزيل الدول المنهارة عن طريقنا، ثم نعلن للعالم انتصارنا، ونفرض سيادتنا تحت ظل دولتنا الموحدة وعلمها ذي النجمة المقدَّسة[1]. [2].

---

(١) نشرة الصليب والعلم الدورية الصادرة عام ١٩٥٥م.

(٢) مجلة البيان العدد ١٢٨ ص(٨٨- ٩٣).

الفصل السابع

بروتوكولات حكماء صهيون

تستمد الصهيونيَّة فكرها ومعتقداتها من الكتب المقدَّسة التي حرفها اليهود، وقد صاغت الصهيونيَّة فكرها في بروتوكولات حكماء صهيون.

وهي عبارة عن خطط ومبادئ تم طرحها على طاولة البحث في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في سويسرا عام ١٨٩٧، وبعد مناقشتها تم اعتمادها كدستور للحركة الصهيونيَّة.

أما كيف تم اكتشاف هذه البروتوكولات؟ فقد استطاعت سيدة فرنسية (مدام ك) أثناء اجتماعها بزعيم من أكابر رؤساء الصهيونيَّة خلال المؤتمر الماسوني اليهودي في فرنسا أن تختلس بعض هذه الوثائق ثم تفر بها، وسلمتها إلى أليكس نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقيَّة أيام القيصرية، الذي سلمها سنة ١٩٠١ إلى يد العالم الرومي السيد سرجي نيلسون الذي أدرك خطورة ما تريده الصهيونيَّة بعد دراسة معمقة ومقارنة للأحداث الهامة التي جرت في العالم وبين ما في هذه البروتوكولات من خطط، فقام هذا العالم الرومي بنشرها سنة ١٩٠٥ ملحقًا لكتاب له.

وقد لاقت البروتوكولات رواجًا كبيرًا بعد نشوب الثورة البلشفيَّة التي أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهوديَّة»، إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعيَّة التي اجتاحت كثيرًا من البلدان الأوربيَّة إلى اليهود.

وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوربَّا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس. وبلغت البروتوكولات قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين، وقد أصبحت البروتوكولات من أكثر الكتب رواجًا في العالم الغربي بعد الإنجيل، وتُرجمت إلى معظم لغات العالم وضمن ذلك العربيَّة حيث ظهرت عدة طبعات منها، وحازت اهتمام كثير من المشتغلين بالتأليف وبالإعلام.

وهي تضم أربعة وعشرين بروتوكولًا، وأهم ما جاء في هذه البروتوكولات:

البروتوكول الأول:

أبرز ما جاء فيه: أن الجوييم أو الأمميون هم البشر من عدا اليهود وأن قانون الطبيعة هو الحق يكون في القوة والحريَّة السياسيَّة طعم لجذب العامة، واستخدام المال للسيطرة على الدول، وأنَّ الحاكم المقيد بالأخلاق ليس بالسياسي البارع، وأن الإخلاص والأمانة رذائل في السياسة، والغاية تبرر الوسيلة، وكل وسائل العنف والخديعة متاحة، والعنف الحقود هو العامل الرئيسي في قوة العدالة، والحرية والمساواة والإخاء كلمات رددتها ببغاوات جاهلة.

البروتوكول الثاني:

ويركز هذا البروتوكول على أسلوب الحكم، واعتماد اليهود في السيطرة على الأمم على العملاء

اعتمادًا على جهل غير اليهود، واستفادة اليهود من الأثر غير الأخلاقي لعلوم دارون وماركس ونيتشه.

البروتوكول الثالث:

إغراء مختلف القوى بسوء استعمال حقوقها لضمان إيجاد الفوضى، واستغلال حاجات الطبقة العاملة لتجنيدها في الجيوش اليهوديَّة، والتحكم بالطوائف عن طريق استغلال مشاعر الحسد والبغضاء بينها، واحتفاظ اليهود بأسرار العلوم وقيادة الأمم من خيبة لخيبة تمهيدًا لقيام الملك الطاغية من دم صهيون، وأخيرًا نص على أن كلمة الحريَّة لا بدَّ أن تمحق من معجم الإنسانيَّة عندما يستحوذ اليهود على السلطة.

البروتوكول الرابع:

يُظهر هنا دور الماسونيَّة في السيطرة على الشعوب، وانتزاع فكرة الله من عقول الأمميين، وإشغال الأمم بمصالحها، وجعل التجارة على أساس المضاربة لزلزلة الحياة الاجتماعيَّة للأمميين.

البروتوكول الخامس:

الحكومة الاستبداديَّة لليهود، وكيفية أن يكون استبداد اليهود مناسبًا للحضارة الحالية، وزرع الكراهية بين الأمميين لضمان أمان اليهود، وترِد هنا مقولة بحكمي فليحكم الملوك أي (قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج)، واليد الخفية.

وراء الاحتكارات المطلقة للصناعة والتجارة، وتجريد الشعوب من السلاح لإخماد الشجاعة والنخوة في قلوبها، وإفقاد الشعوب قوة الإدراك والكلام الجوف والخطب الرنانة والآراء المتناقضة حتى لا يكون لها رأي في المسائل السياسيَّة، ومضاعفة وتضخيم الأخطاء العرفيَّة حتى لا يستطيع إنسان أن يفكر في ظلامها المطبق.

البروتوكول السادس:

استخدام الاحتكارات في إحداث الانهيار السياسي، وإبقاء منافع الأرض في أحط مستوى ممكن وفرض السيطرة على الصناعة والتجارة والمضاربة، وإفشاء الترف الشديد والفقر الشديد في ذات المجتمع لإفشاء البغض والظلم.

البروتوكول السابع:

الجيش والبوليس ضروريان لإتمام الخطط واستخدام المنازعات بين الأقطار والدسائس لأحكام السيطرة، والمفاوضات والاتفاقات يجب أن تنطوي على كثير من الدهاء والخبث وإعلان الحرب على من يعارض، واعتبار جرائم العنف وحكم الإرهاب وسيلة من وسائل الرد، والمدافع الأمريكيَّة أو الصينيَّة أو اليابانية للدفاع عن اليهود!

البروتوكول الثامن:

استخدام التعبيرات القانونية المعقدة لإخفاء الأحكام الطائشة والظالمة، علم الاقتصاد وجيش كامل من الاقتصاديين في خدمة الحكومة اليهوديَّة.

البروتوكول التاسع:

تغيير أخلاق الأمم بالتدريج، وإعادة صياغة الشعار الماسوني الحرية والمساواة والإخاء، وإبداء حاجة اليهود إلى الانفجارات المعادية للسامية، وإقامة سد من الرعب بين القوى الحاكمة والشعوب ضمانًا لعدم وجود تحالف بينهما، خداع الأجيال الناشئة بعلوم ونظريات فاسدة واستخدام الاضطرابات والانقلابات في مواجهة من يكتشفون الخطط.

البروتوكول العاشر:

الحكومات تقنع في السياسة بالجانب المبهرج الزائف، ويجب كتمان الأمور عن الرعاع وعلى الأمَّة أن تحترم الأعمال القذرة والتدليس إذا اقترنت بالجسارة والمهارة وتسخير الأمم لخدمة أغراض اليهود، واستخدام لعبة الانقلابات، وتدمير الحياة الأسريَّة لدى الشعوب، وشراء الرعاع بالمال، ولعبة التغيير بين الملكيَّة والجمهوريَّة واستخدام رؤساء أصحاب سوابق.

البروتوكول الحادي عشر:

برنامج الدستور الحديث للعالم من خلال زرع الخوف في قلوب الناس بإغماض عيونهم واعتبار الأميون قطيع من الغنم واليهود هم الذئاب، والأصل في تنظيم الماسونيَّة أنَّ اليهود شعب مشتت لا يصلون إلى أغراضهم إلا بالمراوغة، التشتت هو سر القوة هنا.

البروتوكول الثاني عشر:

حدود الحرِّيَّة عند اليهود، ودور الصحافة والأدب والسيطرة عليهما وخضوعهما لليهود، وسبل التحكم في دور النشر وكل قنوات التفكير الإنساني.

البروتوكول الثالث عشر:

إشغال الناس بالمشكلات السياسيَّة لصرف انتباههم، إفقاد الشعوب نعمة التفكير بالفن والرياضة، واعتبار كلمة التقدم فكرة زائفة تعمل على تغطية الحقّ.

البروتوكول الرابع عشر:

تحطيم كل عقائد الإيمان غير اليهوديَّة وإن أثمر ملحدين، واستغلال الأخطاء التاريخيَّة لحكومات الأمميين والقيام بحملة على الديانات غير اليهوديَّة، وأسرار اليهود لن تفشى لغير اليهود، وتشجيع الأدب المريض وإظهار أنَّ اليهوديَّة ضد هذا الأدب.

البروتوكول الخامس عشر:

الانقلابات المتعددة تمهيدًا لاستلام اليهود السلطة، والإعدام بلا رحمة لمن يهدد استقرار سلطة

اليهود، حتى الماسونيين غير اليهود لا بدَّ من نفيهم، وتقوية هيبة السلطان لضمان استقرارها، وكل الوكلاء في البوليس الدولي سيكونون حلفاء لتحطيم صلابة العالم.

البروتوكول السادس عشر:

ويختص بشئون الجامعات ومناهجها الجديدة، والمعرفة الخاطئة للسياسة والنظام التربوي للأمميين، ومبادئ الأسلوب التربوي لجديد.

البروتوكول السابع عشر:

نظام الدفاع الجديد أمام القضاء والحط من كرامة رجال الدين من الأمميين للأضرار برسالتهم، القضاء على الديانات الأخرى، ملك الكيان الصهيوني سيصير البابا الحق لكل العالم، بوليس سري غير رسمي لتنفيذ مخططات اليهود، إفشاء أفكار لتلويث حياة الأمميين ثم القضاء عليها بعد ذلك.

البروتوكول الثامن عشر:

السياسة البوليسيَّة، وإثارة الشعوب لاكتشاف المتآمرين بينهم، واعتماد الاغتيالات الفرديَّة لتدمير هيبة الحكام الأمميين، الأسلوب الجديد لحماية ملك اليهود وفرض هيبته.

البروتوكول التاسع عشر:

تحريم العمل السياسي ومساواة الجريمة السياسيَّة بغيرها من الجرائم لوصمها بالعار وبرز هنا مفهوم أن الثورة لا تُجدي مع الحكومة المنظمة تنظيمًا اجتماعيًا حسنًا!

البروتوكول العشرون:

البرنامج المالي لحكومة اليهود، تجنب فرض ضرائب ثقيلة فيما بينهم، واعتبار الحاكم مالك لكل أملاك الدولة، وفرض ضرائب على الفقراء هو أصل كل الثورات، وتوجيه الفوائض إلى التداول، عدم السماح لعملة بأن تودع دون نشاط، إنشاء هيئة للمحاسبة، ويوضح ذلك أن الأزمات الاقتصاديَّة التي دبرها اليهود بنجاح تمت عن طريق سحب العملة من التداول، وإصدار العملة يجب أن يساير نمو السكان، إلغاء العملة الذهبية، خطط تدمير المؤسسات المالية للأمميين، القروض الخارجية ودورها في تحطم ميزانية الأمم.

البروتوكول الحادي والعشرون:

استبعاد مسالة القروض الخارجيَّة في دولة اليهود، أسلوب العمل في القروض الداخليَّة لإظهار أن مصالح الشعوب لا تتفق مع مصالح الحكومات الأمميَّة.

البروتوكول الثاني والعشرون:

الذهب والعنف لفرض النظام، ضوابط جديدة للحريَّة، السلطة الحقة لا تستسلم لأي حق حتى حق الله.

البروتوكول الثالث والعشرون:

في دولة اليهود المنتظرة يجب تدريب الناس على الحشمة والحياء، وتخريب المصانع الخاصة، لأنَّ البطالة هي الخطر الأكبر على الحكومة، تحريم الخمر، الأمم لا تخضع خضوعا أعمى إلا للسلطة الجبارة وتدمير كل الأفكار والهيئات التي أسلمت الأمم لحكم اليهود.

البروتوكول الرابع والعشرون:

يختص بالأسلوب الذي تقوى به دولة الملك داود، ويتعرض لتربية الملوك وخلفائهم تربية خاصة، وانتخاب الملوك بالمواهب الخاصة وليس بحق الوراثة، وهم الذين يفقهون أسرار الفن السياسي وحدهم ويتم استبدالهم وإذا حدث أي تقصير منهم، لن يعرف أحد خطط اليهود المستقبلية إلا الحاكم والثلاثة الذين دربوه، سيخاطب الملك رعاياه جهارًا مرات كثيرة لقيام انسجام بين قوة الملك وقوة الشعب، ويجب أن يكون الملك مثالًا للنزاهة والعزة والجبروت!

أفعى صهيون

الأفعى الرمزيَّة هي الشعار اليهودي- البلشفي في روسيا السوفيتية، ورأسها ترمز إلى المتفقهين في خطط الإدارة اليهوديَّة، وجسمها يرمز إلى الشعب اليهودي.

وقد وضح رسم طريق الأفعى الرمزيَّة كما يلي: كانت مرحلتها الأولى في أوربا سنة ٤٢٩ ق. م. في بلاد اليونان حيث شرعت الأفعى أولًا في عهد بركليس Percles تلتهم قوة تلك البلاد، وكانت المرحلة الثانية في روما في عهد أغسطس Augustus حوالي سنة ٦٩ ق. م.، والثالثة في مدريد في عهد تشارلس الخامس Charles سنة ١٥٥٢م، والرابعة في باريس حوالي ١٧٠٠ في عهد الملك لويس السادس عشر، والخامسة في لندن سنة ١٨١٤ وما تلاها (بعد سقوط نابليون)، والسابعة في سان بطرسبرج الذي رسم فوقها رأس الأفعى تحت تاريخ ١٨٨١، كل هذه الدول التي اخترقتها الأفعى قد زلزلت أسس بيانها، من بعد ذلك يتوجه رأس الأفعى نحو موسكو وكييف وأودسا، ونحن نعرف الآن جيدًا مقدار أهمية المدن الأخيرة من حيث هي مراكز للجنس اليهودي المحارب، وكانت القسطنطينيَّة المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى فلسطين.

وثيقة البروتوكولات

هناك من الباحثين من يشكك في صحة هذه الوثيقة ويعتبرها وثيقة روسية دعائية، ولكن الواقع يشهد بصدق ما جاء فيها من مخططات ومبادئ ووسائل يهودية، فإن البرنامج المفصل لإفساد العالم على يد اليهود، والذي اشتهر بهذا الاسم -بروتوكولات حكماء صهيون- كان قد بدأ في وضعه منذ المؤتمر الأول لفيف من عتاة زعماء اليهود، يمثلون خمسين جمعيَّة يهودية، ولم يكونوا يخططون فقط للسيطرة على فلسطين، بل كانوا يخططون للسيطرة على العالم منطلقين منها، ومن (أورشليم) تثبيت عرش الحكومة العالمية برئاسة ملك من نسل داود ومن هناك وعبر وسائل ووسائط سياسية واقتصادية وثقافية وإعلامية، يستغل اليهود فيها جهود غير اليهود ويوظفونها لمصلحتهم هم، جاء

في البروتوكول الثالث: وحينما يأتي أوان تتويج حاكمنا العالمي ستتمسك بهذه الوسائل نفسها، أي نستغل الغوغاء كيما نحطم كل شيء قد يثبت أنَّه عقبة في طريقنا.

وجاء فيه: إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا، ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا في مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرًا.

وجاء في البروتوكول الخامس: إننا نقرأ في شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض، وقد منحنا الله العبقرية كي نكون قادرين على القيام بهذا العمل. إن كان في معسكر أعدائنا عبقري فقد يحاربنا، ولكن القادم الجديد لن يكون كفؤًا إلا لأيد عريقة كأيدينا... إن القتال المتأخر بيننا سيكون ذا طبيعة مقهورة لم ير العالم مثيلًا لها من قبل، والوقت متأخر بالنسبة لعباقرتهم، وإن عجلات جهاز الدولة كلها تحركها قوة، وهذه القوة في أيدينا، هي التي تسمى.. الذهب!.

إذًا فالبروتوكولات تحدثنا عن صراع لم تنته أكثر فصوله[1].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلة البيان العدد ١١٨ ص(٦٦- ٧٣).

الباب السادس
الماسونيَّة

الفصل الأول: تعريف الماسونيَّة.
الفصل الثاني: تاريخ الماسونيَّة.
الفصل الثالث: معتقدات وأفكار الماسونيِّين.
الفصل الرابع: منهج العمل عند الماسونيَّة.
الفصل الخامس: شعارات ورموز الماسونيَّة.
الفصل السادس: الماسونيَّة واليهود.
الفصل السابع: الماسونيَّة والنصارى.
الفصل الثامن: الماسونيَّة والمسلمون.
الفصل التاسع: الماسونيَّة والصهيونيَّة.
الفصل العاشر: الماسونيَّة والأمم المتَّحدة.
الفصل الحادي عشر: أبناء العهد (بناي برث).
الفصل الثاني عشر: الروتاري.
الفصل الثالث عشر: الليونز.
الفصل الرابع عشر: الإنتراكت.
الفصل الخامس عشر: الروتراكت (شباب الروتاري).
الفصل السادس عشر: حكم الماسونيَّة والانتماء إليها.

الفصل الأول

تعريف الماسونيَّة

الماسونيَّة: مشتقَّةٌ من الكلمة الفرنسيَّة: فرماسون، وهي مركَّبة من مقطعين، وهما: فرانك، ومعناها بالفرنسيَّة الصادق أو الحرّ، وماسون: ومعناها الباني، والبعض يذهب إلى أنَّها مشتقَّةٌ من كلمة الإنجليزيَّة: فري ماسون، وهي بنفس المعنى.

إذًا فمعنى الكلمة: الباني الصادق أو الباني الحرّ، فالماسون طبقًا لذلك هم البناءون الأحرار.

وهو اسم مضلل لا يعبر عن حقيقة هذا التنظيم.

وقد يكون المعنى المراد منه: الذين يبنون أو يساهمون في بناء هيكل سليمان، وهو عند اليهود يعني الهيكل، رمز للسيطرة على العالم.

ويرى بعض الباحثين أنَّ معظمَ حروف كلمة ماسون، مشكَّلة من كلمة موسى -عليه السلام- المرسل إلى بني الكيان الصهيوني بالتوراة، قد صاغها اليهود تلك الصياغة لتكون جارية على الألسنة في كل لغة.

والماسونيَّة هي: منظمة يهوديَّة سريَّة هدامة، إرهابيَّة غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد، والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعه: حريَّة، إخاء، مساواة، إنسانيَّة.

جلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، من يوثقهم عهدًا بحفظ الأسرار، ويقيمون ما يسمَّى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيدًا لتأسيس جمهوريَّة ديمقراطيَّة عالميَّة -كما يدعون- وهي في الحقيقة إقامة دولة إسرائيل الكبرى ليحكموا العالم كلَّه ويتحكموا في كافَّة الشعوب ومقدراتها ومصائرها، وتتخذ الوصوليَّة والنفعيَّة أساسًا لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينيَّة عالميَّة [١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٥١٠)، الماسونية في أثوابها المعاصرة، د. سعد الدين صالح ص(١٧).

الفصل الثاني

تاريخ الماسونيَّة

لقد قامت الماسونيَّة منذ أيامها الأولى على المكر والتمويه والإرهاب، حيث اختاروا رموزًا وأسماء وإشارات للإيهام والتخويف، ولذلك فهناك عدَّة تفسيرات لنشأة الماسونيَّة منها:

١- أنَّها تعود إلى بناة هيكل سليمان قبل الميلاد.

٢- أنَّها تعود إلى اليهود المضطهدين للنصارى بعد الميلاد بقليل.

٣- أنَّها تعود إلى بناة الأحجار المتجولين في العصور الوسطى.

٤- أنَّها تعود إلى المفكرين الحاخامات في القرن السابع عشر.

٥- أنَّها تعود إلى منشئ الصهيونيَّة هرتزل في القرن التاسع عشر.

ويمكننا أن نرجع الماسونيَّة إلى مرحلتين رئيسيتين

المرحلة الأولى: تبدأ من سنة ٤٣م حتى القرن الثامن عشر:

في إطار حملتهم للقضاء على الديانة النصرانيَّة، ومنع دينهم من الانتشار، أنشأ اليهود جمعيَّة سريَّة أطلقوا عليها اسم «القوة الخفيَّة» واستعانوا بشخصية يهوديَّة تعرف باسم «احيرام أبيود» أحد مستشاري الملك هيرودس الثاني عدو النصرانيَّة الأكبر على تحقيق هذه الغاية، وأسندت رئاسة الجمعيَّة إلى الملك المذكور.

وهكذا تم عقد أول اجتماع سري عام ٤٣م حضره الملك المذكور ومستشاراه اليهوديان «احيرام أبيود وموآب لافي» وستة من الأنصار المختارين، وكان الغرض الرئيس من إنشاء هذه الجمعيَّة القضاء على النصرانيَّة.

ثم عقدوا الاجتماع الثاني واتخذوا بعض القرارات السريَّة وتعاهدوا على كتمانها وأفسحوا لمن يثقون بهم المجال للانضمام إلى هذه الجمعيَّة على أن تعصب عينيْ كل من يود الانتساب للجمعيَّة، واتفقوا على اتخاذ بعض الأدوات الهندسيَّة كالبيكار والميزان رمزًا لمنظمتهم السرِّيَّة.

وبعد هلاك الملك هيرودس انتقلت رئاسة هذه الجمعيَّة السرية إلى «احيرام» مستشاره ثم أعقبه ابن أخيه «طوبان لقيان».

ومن هنا يرى بعض المؤرخين أنَّ بولس اليهودي الذي اعتنق النصرانيَّة فجأة وأصبح من كبار دعاتها هو من أعضاء الماسونيَّة فقد استطاع أن يقضي على النصرانيَّة بتحويلها من عقيدة توحيد وتنزيه على يد عيسى إلى عقيدة شرك وتثليث وتأليه للبشر، وربما كانت الحملة الشرسة على عيسى وأمِّه في التلمود وما جاء فيه من وصفهما من وضع الماسون أيضًا.

واستمرت جمعيَّة القوة الخفية تعمل في السرّ، ولا يدري أحد عنها شيئًا حتى أميط اللثام عن هذه المنظمة عام ١٧١٧م، وذلك لدى ظهور ثلاثة من أقطاب اليهود «جوزيف لافي، وابنه يراهيم، وإبراهيم أبيود»، وكانوا يحتفظون بنسخة من مبادئ هذه الجمعيَّة وقراراتها وطقوسها وأخذوا يجوبون الأقطار للاتصال بالبقية الباقية من أتباع هذه المنظمة السرِّيَّة، وكانوا يهدفون إلى استعادة مجد إسرائيل، واسترداد هيكل سليمان في بيت المقدس، ثم قصدوا لندن التي كانت تضمُّ أعظم جماعة من اليهود المنتمين إلى تلك القوة الخفية.

وفي ٢٤ يونيو من العام المذكور، عقد هؤلاء الثلاثة الذين يعتبرون ورثة السرِّ أول اجتماع في العاصمة البريطانيَّة وضموا إليهم اثنين من غير اليهود البسطاء للتمويه والتضليل وقرروا تجديد جمعيَّة «القوة الخفيَّة» ووضعوا لها بعض المبادئ البرَّاقة «حريَّة، مساواة، إخاء، تعاون».

واستبدلوا الرموز القديمة باصطلاحات جديدة كما قرروا تبديل اسم «هيكل» الذي كانوا يستعملونه قديمًا باسم «محفل» وتبديل اسم القوَّة الخفيَّة باسم «البنائين الأحرار»، كلافتة تعمل من خلالها، ثم التصق بهم الاسم دون حقيقة.

ولأول مرَّة في التاريخ ظهر لعالم الوجود ما يسمُّونه بالبنائين الأحرار، وأخذت تنتشر الجمعيَّات التي تحمل هذا الاسم، وزعم أقطاب اليهود الذين يقفون وراء هذه الجمعيَّات أنَّ أهدافها نشر المبادئ الإصلاحيَّة والاجتماعيَّة وبناء مجتمع إنساني جديد.

وقد استطاعوا أن يتَّخذوا من أحد أنصارهم «ديزا كولييه» مطية لتحقيق أغراضهم وأطلقوا عليه وعلى من يسيرون على غراره من غير اليهود اسم «العميان» كما أطلقوا على اسم محفل لندن الماسوني المركزي اسم «محفل إنجلترا الأعظم» على أن يكون في مقدمة مهامِّه دعم اليهود ومحاربة الأديان وبث روح الإلحاد والإباحيَّة.

المرحلة الثانية: تبدأ من القرن الثامن عشر حتى عصرنا الحاضر:

تكونت مع بداية القرن الثامن عشر مجموعة من كبار المفكرين والعلماء الذين كفروا بتعاليم المسيحيَّة، فجاءت حركتهم كردَّة فعل على سلطان الكنيسة الواسع آنذاك.

فلقد كانوا يجاهرون بحريَّة الإنسان التامَّة واستقلاله من كل سلطة عليا (كسلطة الكنيسة).

وكانوا يبغضون الشرائع وكلَّ النظم للهيئة الاجتماعيَّة وعلى الأخصِّ القوانين الكنسيَّة.

لقد حافظت الحركة الماسونيَّة على سريتها منذ إنشائها؛ فكانت تحرص على ألا تكشف سرها إلا للذين اختبرتهم زمنًا طويلًا.

وكانت تعمل بالخفاء جاهدة، مستغلَّة بعض الفلاسفة الملحدين أمثال فلتير وروسو ودلمار وفريدريك ملك بروسيا، الذين وجدت فيهم أنصارًا تكاتفوا في هدم أركان الدين وتخريب الممالك والعروش.

وهكذا استمرت بعملها المنظم موجهة أغلب اهتمامها لإضعاف سلطه الكنيسة حتى تمكّنت من ضرب وحدتها سنة ١٧١٧ وظهور البروتستنتيين.

عندئذ أعاد الماسون تنظيم حركتهم وغيروا فيها لتناسب الجوّ البروتستانتيّ الذي قرروا أن يؤيدُّوه ضد الكاثوليكيَّة، تكملة لمخططهم الذي وضعوه لضرب المسيحيين.

فأسسوا في ذلك العام محفل بريطانيا الأعظم، وأطلقوا على أنفسهم البنائين الأحرار بعد أن كانوا فيما سبق يحملون اسم (القوة المستورة).

وجعلوا من أهداف الماسونيَّة الجديدة أو شعارها: الحرّيَّة، الإخاء، المساواة.

ومن بريطانيا، انتشرت الماسونيَّة، فتأسس بإشراف محفل بريطانيا الأعظم:

- أول محفل ماسوني في جبل طارق سنة ١٧٢٨ .
- أول محفل ماسوني في باريس سنة ١٧٣٢
- أول محفل ماسوني في ألمانيا سنة ١٧٣٣ .
- أول محفل ماسوني في أمريكا سنة ١٧٣٣ .
- أول محفل ماسوني في سويسرا سنة ١٧٤٠ .
- أول محفل ماسوني في الهند سنة ١٧٥٢ .
- أول محفل ماسوني في ايطاليا سنة ١٧٦٣ .
- أول محفل ماسوني في روسيا سنة ١٧٧١ .

ظهور النورانيَّة في منتصف القرن الثامن عشر:

كانت حالة اليهود في أوربا يرثى لها؛ ولقد لقي هؤلاء من المسيحيين ما لم يلقه أحد. فلقد كان الصراع بين اليهوديَّة والمسيحيَّة صراعًا عقائديًّا ودمويًّا. فكان المسيحيون في أوربا يضطهدون اليهود ويلاحقونهم ويطاردونهم في كل مكان وجدوا فيه؛ ولقد ذبحوهم عدة مرات ونشروا الرعب في صفوفهم وخاصَّة في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

عندئذ، أي مع مطلع العقد السابع من القرن الثامن عشر، اجتمع عدد من كبار الحاخامين والمديرين والحكماء، وقرروا أن يؤسسوا مجمعًا سريًّا يعمل على تخليصهم من هذا الوضع المزري ويعيد إليهم حقَّهم المسلوب وسلطانهم ومجدهم الموهوب من قبل الربِّ كما يزعمون ولقد سمّوا هذا المجمع بالمجمع النوراني، نسبة إلى الشيطان الذي يقدِّسونه.

وكان المجلس الأعلى للمجمع النوراني مؤلَّفًا من ثلاثة عشر عضوًا -بني إسرائيل يتألفون من ثلاث عشرة قبيلة- ويشكل هؤلاء اللجنة التنفيذية لمجلس الثلاثة والثلاثين -نسبة إلى الرتبة ٣٣، وهي من أعلى الرتب التي يمكن أن يصل إليها النوران.

وكان النورانيون يجبرون كلَّ عضو جديد ينضمُّ إلى صفوفهم على أن يحلف أيمانًا مغلظة بخضوع المطلق الشامل لرئيس مجلس الثلاثة والثلاثين والاعتراف بمشيئته مشيئة عليا لا تفوقها أية مشيئة أخرى على الأرض كائنة من كانت.

وفي عام ١٧٧٣ دعا ماير روتشيلد، اثني عشر رجلًا من كبار الأغنياء والمتنفذين لملاقاته في فرانكفورت، وكان الهدف من وراء هذا الاجتماع هو إقناع هؤلاء بضرورة تنسيق الأمور فيما بينهم وتجميع ثرواتهم وتأسيس مجموعة واحدة تمكنهم من تمويل الحركة الثوريَّة العالميَّة فيستخدمونها للوصول إلى الهدف الأسمى عندهم، ألَّا وهو السيطرة على الثورات والموارد الطبيعيَّة واليد العاملة في العالم بأجمعه: ولقد انتهى هذا الاجتماع بإقناع أغلبية المجتمعين بفكرة ماير بعد ذلك أمد ماير رجلًا يدعى آدم وايزهاويت النصراني الألماني بالمال ليضع مخططًا على أسس حديثة يستهدف تحقيق أهداف المجتمع النوراني وتطوير محافله.

فقام هذا بمهمته خير قيام إذ نظم سنة ١٧٧٦ جماعة يبلغ عددهم نحو ألفي شخص، في محافل سماها محافل النورانيين، واختار وايزهاويت أنصاره من علية القوم، زاعمًا أنَّ الهدف من ذلك هو إنشاء حكومة عالميَّة واحدة من ذوي القدرات والكفاءة والذكاء، لتحكم العالم حكمًا خيرًا رشيدًا، ووضع حد للحروب والعصبية والويلات.

ولكن الهدف من ذلك كان درس التسلل إلى قلب الماسونيَّة الأوربيَّة والإفادة من تغلغلها وسريتها في التمهيد لكنيس الشيطان للسيطرة على العالم.

استطاعوا خداع ألفي رجل من كبار الساسة والمفكرين وأسسوا بهم المحفل الرئيسي المسمَّى بمحفل الشرق الأوسط، وفيه تم إخضاع هؤلاء الساسة لخدمة الماسونيَّة.

لقد قرر النورانيون محفل الشرق الأكبر في مدينه انغولدشتان بألمانيا، مركزًا لانطلاق حملة تغلغل المنظمة في قلب الماسونيَّة الأوربيَّة في كل مكان.

في هذا الوقت، كان وايزهاويت قد وضع مخططه الذي كان يستدعي تدمير جميع الحكومات والأديان الموجودة، وذلك عن طريق خلق معسكرات متناحرة ومتصارعة في المجتمعات غير اليهوديَّة التي يسمّونها الجوييم (لفظة يطلقها اليهود على جميع البشر من الأديان الأخرى) وإبقائها في حالة حرب حتى تضعف جميعها وتكفر بكلِّ القوانين والأديان، فيصبح من السهل على هؤلاء الشياطين أن يسيطروا على تلك الشعوب المنهكة ويسيروها كيفما شاءوا.

وكانت خطة وايزهاويت تقتضي اتباع الخطوات الآتية:

١- استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة في جميع الحكومات وفي مختلف مجالات النشاط الإنسانيٌّ.

٢- حث النورانيين على العمل كأساتذة في الجامعات والمعاهد العلميَّة ليتسنى لهم اصطياد الطلاب النابغين والمتفوقين من الأسر العريقة فيغررونهم بأنفسهم بحكم تفوُّقهم ويعطونهم

الشهادات والرتب والألقاب والمنح، ثم يقنعونهم بفكرتهم ويضمونهم إلى المحافل النورانيَّة.

٣- تدريب الشخصيات ذات النفوذ والطلاب المتفوقين الذين تم اصطيادهم، ومساعدتهم بكلِّ الوسائل على تولي أخطر المراكز الحساسة لدى جميع الحكومات، بحيث يكون في إمكانهم توجيه سياسة تلك الحكومات بشكل يخدم على المدى البعيد؛ مخططات المجمع النوراني في القضاء على جميع الأديان والحكومات.

وهكذا، وعلى هذا الأساس، بدأت النورانيَّة بتطبيق مخططاتها وترجمتها عمليًا على الأرض، عاملة على جبهتين: الجبهة الأولى وهي جبهة الشعب، وتطبق فيها خطة وايزهاويت الآنفة الذكر، والجبهة الثانية وهي جبهة الحركة الماسونيَّة بالأجهزة النورانيَّة، وذلك سنه ١٧٨٢ وهكذا تمكنت النورانيَّة اليهوديَّة بإشراف موسى مندلسوهي، من النفاذ إلى قلب الماسونيَّة الأوربيَّة الحرّة على يد آدم وايزهاويت، تحت ستار محفل الشرق الأكبر.

أمَّا بالنسبة للجبهة الأولى، ولما كانت فرنسا وإنجلترا أعظم قوتين في العالم في تلك الفترة، أصدر وايزهاويت أوامره بإثارة الحروب الاستعماريَّة من أجل إنهاك بريطانيا وإمبراطوريتها، والعمل على تنظيم ثورة كبرى، يتم التخطيط لها، من أجل إنهاك فرنسا.

ولكن في سنة ١٧٨٤ ولسوء حظ وايزهاويت، وقعت مخططاتها التي وضعت على شكل وثيقة في أيدي رجال أمن تابعين لحكومة بافاريا، وذلك في منطقة راتسبون في طريقها من فرانكفورت إلى عملاء وايزهاويت في باريس، الذين أوفدهم إلى فرنسا لتدبير الثورة فيها.

وعلى أثر اكتشافها تلك الوثيقة، أمرت حكومة بافاريا بإغلاق محفل الشرق الأكبر عام ١٧٨٥ واعتبرت جماعة النورانيين خارجين عن القانون.

ومنذ ذلك الوقت، انتقل نشاط النورانيَّة إلى الخفاء؛ وأصدر وايزهاويت تعاليمه إلى أتباعه بالهجرة إلى سويسرا وفرنسا والعمل مع رفاقهم في الماسونيَّة الحرَّة من أجل نجاح مخططه من هناك.

وبالتقاء ماسونيَّة الشرق الأكبر النورانيَّة مع الماسونيَّة الغربيَّة الحرَّة، جرت منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا، الأحداث الكبرى في أوربا وأمريكا بصورة خاصَّة وفي العالم كلِّه بصورة عامَّة وبشكلها الذي جرت وتجري فيه.

فلم يأتِ عام ١٧٨٩ حتى اندلعت الثورة في فرنسا وسقط الملك، وسقطت الملكة ودفعا رأسيهما ثمن تجاهلهما لتحذيرات الحكومة البافارية.

وكما حذرت حكومة بافاريا حكومات فرنسا وإنجلترا وروسيا من خطر هؤلاء، فلقد حذَّر منهم حتى بعض الماسونيِّين الذين كانوا من رؤساء الماسونيَّة الحرّة والذين أحسوا بخطر هؤلاء على حركتهم بشكل خاصٍّ وعلى العالم بشكل عام، تجرءوا، وبدافع غيرتهم على بلادهم وشعبهم، على البوح بأسرار هؤلاء ومخططاتهم ولطالما حذروا منهم؛ ففي عام ١٧٨٩، عام انفجار الثورة في فرنسا، حذَّر جون روبسون الزعماء الماسونيِّين من تغلغل جماعة النورانيِّين في محافلهم ولكن تحذيره

هذا لم يسمع.

وفي عام ١٧٩٨ عمد روبسون إلى نشر كتاب أسماه (البرهان على وجود مؤامرة لتدمير كافَّة حكومات والأديان)

ولكن هذا التحذير تجوهل كما تجوهلت التحذيرات التي سبقته، وفي التاسع عشر من تموز ١٧٩٨، أدلى دافيد باين، رئيس جامعة هارفارد، بنفس التحذير إلى المتخرجين في أمريكا.

وفي عام ١٨٢٦ حذَّر الكابتن وليام مورغان (أحد رؤساء ومنظمي الماسونيَّة الحرة في أمريكا) بقية رفاقه الماسونيِّين والرأي العام وأعلمهم وشرح لهم الحقيقة فيما يتعلق بالنورانيِّين ومخططاتهم السرِّيَّة وهدفهم النهائي، ولكن النورانيِّين استطاعوا أن يتخلَّصوا منه عن طريق أحد عملائهم وهو الانجليزي ريتشارد هوارد، الذي تمكَّن من اغتيال مورغان على مقربة من وادي نياغارا على الحدود الكنديَّة وعلى الرغم من أنَّ هذا الحادث أدَّى آنذاك إلى استياء وغضب ما يقرب من ٤٠% من الماسونيِّين في شمالي أمريكا وهجرهم للماسونيَّة، فلقد تمكَّن هؤلاء القائمون على تلك المؤامرة وبحكم نفوذهم، من طمس تلك الأحداث، والتشويش على كلِّ التحذيرات التي كانت تصدر بين الحين والآخر وحذف حوادث بارزة كثيرة من مناهج التدريس التي تدرس في المدارس الأمريكيَّة وغيرها.

الماسونيَّة في الدولة العثمانيَّة

تأسس أول محفل ماسوني في الدولة العثمانيَّة عام ١٨٦١م تحت اسم «الشورى العثمانيَّة العالية» ولكنَّه لم يستمر طويلًا، فالظاهر أنَّه قوبل برد فعل غاضب مما أدَّى إلى إغلاقه بعد فترة قصيرة من تأسيسه.

ومن المعروف أنَّ أول سلطان عثماني ماسوني كان السلطان مراد الخامس الشقيق الأكبر للسلطان عبد الحميد الثاني والذي لم يدم حكمه سوى ثلاثة أشهر تقريبًا عندما أقصي عن العرش لإصابته بالجنون.

وقد انتسب إلى الماسونيَّة عندما كان وليًّا للعهد وارتبط بالمحفل الإسكتلنديِّ، كما كان صديقًا حميمًا لولي العهد الإنجليزي الأمير إدوارد «ملك إنجلترا فيما بعد» الذي كان ماسونيًّا مثله، حتى ظنَّ بعض المؤرِّخين أنَّ ولي عهد إنجلترا هو الذي أدخله في الماسونيَّة، ولكن هذا غير صحيح لأنَّه كان ماسونيًّا قبل تعرفه إلى الأمير «إدوارد».

وكان من النتائج الخطيرة لتواجد المحافل الماسونيَّة الأجنبيَّة داخل حدود الدولة العثمانيَّة احتضان هذه المحافل حركة «الاتحاد والترقي» وهي في مرحلة المعارضة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأصبحت المحافل الماسونيَّة محل عقد اجتماعات أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي بعيدًا عن أعين شرطة الدولة وعيونها لكونها تحت رعاية الدول الأجنبيَّة ولا يمكن تفتيشها.

ويعترف أحد المحافل الماسونيَّة التركية الحالية وهو محفل «الماسنيون الأحرار والمقبولون» في

صفحة «الإنترنت» التي فتحوها تحت رموز: بأنَّه: «من المعلوم وجود علاقات حميمة بين أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي وبين أعضاء المحافل الماسونيَّة في تراقيا الغربيَّة، بدليل أنَّ الذين أجبروا السلطان عبد الحميد الثاني على قبول إعلان المشروطيَّة كان معظمهم من الماسونيِّين».

يقول المؤرخ الأمريكي الدكتور «أرنست أ. رامزور» في كتابه «تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م» وهو يشرح سرعة انتشار حركة جمعيَّة الاتحاد والترقي في مدينة سلانيك: «لم يمضِ وقت طويل على المتآمرين في سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهي الماسونيَّة، ولما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل هنا بنفس الحريَّة التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الإمبراطوريَّة فإنَّ المحافل الماسونيَّة القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع -بطريقة سرية طبعًا- وضمت إلى عضويتها عددًا ممن كانوا يرحبون بخلع عبد الحميد.

ثم يقول «ويؤكد لنا دارسٌ آخر أنَّه في حوالي سنة ١٩٠٠ قرر «المشرق الأعظم» الفرنسي -أي المحفل الماسوني الفرنسي- إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها.

ثم إنَّ محلّلًا آخر يلاحظ: يمكن القول بكلِّ تأكيد إنَّ الثورة التركية (أي حركة جمعيَّة الاتحاد والترقي) كلُّها تقريبًا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية».

ويقول «سيتون واطسون» في كتابه «نشأة القوميَّة في بلاد البلقان»: إن أعضاء تركيا الفتاة -الذين كان غرب أوربا على اتصال دائم معهم- كانوا رجالًا منقطعين وبعيدين عن الحياة التركيَّة وطراز تفكيرها لكونهم قضوا ردحًا طويلًا من الزمن في المنفى، وكانوا متأثرين وبشكلٍ سطحيٍّ بالحضارة الغربيَّة وبالنظريات غير المتوازنة للثورة الفرنسيَّة. كان كثير منهم أشخاصًا مشبوهين، ولكنَّهم كانوا دون أي استثناء رجال مؤامرات لا رجال دولة، ومدفوعين بدافع الكراهيَّة والحقد الشخصي لا بدافع الوطنيَّة. والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة سلانيك إذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونيَّة «جمعيَّة الاتحاد والترقي» وهي المنظمة السريَّة التي بدلت نظام حكم عبد الحميد.

وكما كان عهد الاتحاديين هو العهد الذهبي بالنسبة لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين كذلك كان العهد الذهبي في فتح المحافل الماسونيَّة في طول البلاد وعرضها في الدولة العثمانيَّة.

يقول فخر البارودي في مذكراته واصفًا وضع دمشق بعد وصول الاتحاد والترقي إلى الحكم: وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج -أي المحفل- الماسوني الذي كان مغلقًا قبل الدستور. ثم يقول: وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه، وجمع الأعضاء شملهم وأسسوا محفلًا جديدًا أسموه محفل «نور دمشق» وربطوه بالمحفل الإسكتلندي.

ولكي نعرف مكانة المحافل الماسونيَّة لدى أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي نسوق هنا اعتراف أحد أعضائهم: كان هناك نوعان من الأعضاء في الجمعيَّة: أحدهما مرتبط بالمحفل الماسوني وهذا كنا

نطلق عليه اسم الأخ من الأب والأم، وآخر غير مرتبط بالمحفل الماسوني، فكنا نطلق عليه اسم الأخ من الأب فقط.

وفي كتاب نشره الماسونيون في تركيا تحت عنوان «الماسونيَّة في تركيا وفي العالم» يتحدث عن دور محافل الماسونيَّة في إنجاح حركة الاتحاديين: وقد انتشرت الماسونيَّة بشكل خاص في سلانيك وحواليها. ومع أن عبد الحميد حاول أن يحد ويشل الحركة الماسونيَّة هناك، إلا أنَّه لم يوفق في مسعاه، وقد قامت هذه المحافل، لا سيَّما محفل «ريزورتا» ومحفل «فاريتاس» بدور كبير في تأسيس وتوسيع حركة جمعيَّة الاتحاد والترقي، كما كان للماسونيين دورهم في «إعلان الحرية» سنة ١٩٠٨م.

فالماسونيَّة هي القوى الرئيسة التي أسقطت السلطان عبد الحميد الثاني من عرشه بعد أن رفض طلب اليهود بمنحهم أرض فلسطين.

والماسونيون الأتراك؛ هم جميعهم دون أي استثناء يدعون الكماليَّة الأتاتوركيَّة، علمًا أن مصطفى كمال أتاتورك قام بإغلاق كافة المحافل الماسونيَّة في تركيا عام ١٩٣٥، ولكن تم إعادة افتتاحها مجددًا في عهد الرئيس المشرف الذي تلاه وهو (عصمت أنيننو) بل وحدث أن شرعها قانونيًا في الدولة.

والماسونيُّون يسمون السنوات التي يكونون فيها منغلقين «بعهد النوم الماسوني»، وما نستغربه هو كيف يحب الماسونيون الأتراك أتاتورك مع أنَّه أغلق محافلهم؟ وفيما يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال ستبقى سرًّا من أسرارهم الدفينة أيضا!.

والماسونيون في تركيا يشهرون سيفهم علنًا ضد الدين والقرآن والأحكام الإسلاميَّة، ويحركون النفوذ السياسي لصالح هذا الهدف.

وكل ما واجه تركيا من كوارث في القرنين الأخيرين من احتلال وضربات عسكريَّة وتغيرات فيها كانت من صنع الماسونيين.

وفي هذا الإطار يبين البروفيسور أحمد يوكسال أوزميرا في مقالته بعنوان «فروس المعبد» أمرًا مهمًّا وهو: لقد اتَّضح أن الماسونيَّة هي وراء الحركات الهدامة للأديان والدول، وقد نجحت الماسونيَّة بواسطة جمعيَّة الاتحاد والترقي في تركيا في القضاء على الخلافة الإسلاميَّة.

الماسونيَّة في مصر

الماسونيَّة دخلت مصر مع الحملة الفرنسيَّة، ورفضت الخضوع لأجهزة الدولة، ولكنها اختفت كعادتها أو كادت بعد اغتيال الجنرال الفرنسي كليبر الذي كان من دعاتها ولكنها عادت إلى نشاطها في منتصف القرن التاسع عشر، واتسع نشاطها مع تدفق الأجانب إلى مصر والتمكين لهم من التدخل السياسي والاجتماعي.

وقد استطاعت المحافل الماسونيَّة في مصر أن تجذب إليها عددًا من العلماء والأدباء والسياسيين والفنانين الذين خدعتهم بشعاراتها.

وقد كان من العلماء الكبار أمثال الشيخين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني الذين خدعوا بمبادئها في البداية ثم حذروا منها، كما ذكر ذلك كثير من الباحثين.

ولأجل ذلك فقد طالبت الكاتبة الصحفية المصريَّة صافيناز كاظم في مقال منشور: كل المواطنين الشرفاء بالاستقالة من هذه النوادي المشبوهة مشيرة إلى أن الكثيرين من أعضائها لديهم حسن نية لكنهم اغتروا بالواجهات البراقة لهذه النوادي والشعارات الطنانة مثل الحرية والمساواة والإخاء، وكان من بين هؤلاء الرجال الأفاضل العالم الجليل جمال الدين الأفغاني الذي انضمَّ للماسونيَّة ثم خرج منها لاعنًا إياها حينما استشعر غموضها وسمومها ومراميها غير السامية ضد الإسلام ووطنه.

وقد رفضت المنظمات الماسونيَّة الخضوع لتفتيش وزارة الشئون الاجتماعيَّة وكان هذا سببًا في إغلاقها عام ١٩٦٤، ولكنها أعادت نشاطها مرة أخرى تحت مسميات جديدة وهي: الروتاري، الليونز، منظمة شهود يهوه، البابية، والبهائية.

ولم تقنع الماسونيَّة بذلك، بل اندست في بعض الأنشطة الرياضية كاليوجا، كما أن أنشطة هذه المؤسسات في مصر اتجهت إلى النساء، وخاصة إلى زوجات الأعضاء، فابتكرت لهن مؤسسة خاصة أسمتها (أنرويل)، وكان الهدف من ذلك توريط النساء وشغلهن بما انشغل به أزواجهن حتى لا يعترضن على هذا النشاط[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥١٠، ٥١١)، الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٤١)، الماسونيَّة، مازن عبد الله.

الفصل الثالث

معتقدات وافكار الماسونيِّين

١- يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكل الغيبيات ويعتبرون ذلك خزعبلات وخرافات.

في سنة ١٨٦٥ انعقد مؤتمر الطلاب للماسونيَّة في مدينة ليبزج الألمانيَّة التي تعتبر إحدى المراكز الماسونيَّة في العالم، وفي هذا المؤتمر ألقى الماسوني لاف ارج خطابًا موجهًا إلى الطلاب الوافدين من ألمانيا وأسبانيا وروسيا وانجلترا وفرنسا قائلًا: يجب على الإنسان أن يتغلب على الإله، وأن يعلن الحرب عليه، وأن يخرق السموات ويمزقها كالأوراق، إنَّ الإلحاد من عناوين المفاخر، فليعش أولئك الأبطال الذين يناضلون في الصفوف الأولى، وهم منهمكون في إصلاح الدنيا، نحن -الماسونيين- أعداء للأديان وعلينا ألا ندخر جهدًا في القضاء على مظاهرها، سنعلنها حربًا شعواء على العدوِّ الحقيقي للبشريَّة الذي هو الدين، وسننتصر على العقائد الباطلة وعلى أنصارها، ولكننا نتخذ الإنسانيَّة غاية لنا من دون الله.

وفي عام ١٨٦٦م جاء في جريدة الماسون: يجب على الماسون أن يقيموا أنفسهم فوق كلِّ اعتقاد بالله أيًا كان.

٢- يعملون على تقويض الأديان.

جاء في مضابط مؤتمر بلجراد الماسوني سنة ١٩١١م: يجب ألا ننسى بأننا -نحن الماسونيين- أعداء للأديان وعلينا ألَّا نألو جهدًا في القضاء على مظاهرها.

وهذا هو زعيم الماسونيَّة الفرنسيَّة، يقول في النشرة الرسميَّة: إنا نحن الماسون لا يمكننا أن نكف عن الحرب بيننا وبين الأديان؛ لأنَّه لا مناص من ظفرها أو ظفرنا، ولا بدَّ من موتها أو موتنا، ولن نرتاح إلا بعد إقفال جميع المعابد.

وقالت صحيفة آرجوه إسرائيليه بتاريخ (١٢ مارس ١٩٠٨م): عرف اليهود جيدًا بأنَّ الماسونيَّة أحسن وسيلة لإمحاء الدين، الماسونيَّة التي تحقِّر وتزيِّف الأديان وعقائد الشعوب الأخرى تفتح الطريق لنشر اليهوديَّة وتعاليمها.

وقد نصَّت مضابط المحفل الماسونيِّ الأكبر عام (١٨٩٧ م) (ص ٥٤): لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونيَّة لأنَّ الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حرًّا والماسوني الحقيقي لا يكون متدينًا وعلى الماسونيَّة أن تتفق مع كل أولئك الذين لا يدعون إلى الدين أمثال الاشتراكيِّين والديمقراطيِّين ودعاة حقوق الإنسان والجمعيَّات المتحررة وعليها أن تشترك في المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبيَّة والمدارس السياسية والمؤسسات الأخرى.

ونشرت المشرق الأعظم عام (١٩٠٣ م) (ص ٣٠٠) وجاء فيه أيضًا: على الأخوان أن ينفذوا

في صفوف الجمعيَّات الدينيَّة وغيرها، بل عليهم إن احتاج الأمر أن يقوموا بتأسيس تلك الجمعيَّات على ألَّا تشم منها أي رائحة حقيقيَّة للدين. عليكم أن تلموا شمل قطيعكم أينما كنتم حتى في المعابد الصغيرة وعليكم أن تولوا أمورها السذج من رجال الدين ولتطعموا -خفيَّة- ذوي القلوب الكبيرة من الرجال بقطرات من سمومكم. وبغية التفرقة بين الفرد وأسرته عليكم أن تنزعوا الأخلاق من أسسها لأنَّ النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة فعليكم أن تنتزعوا أمثال هؤلاء من بين أطفالهم وزوجاتهم وتقذفوا بهم إلى لذائذ الحياة البهيميَّة.

٣- العمل على إسقاط الحكومات الشرعيَّة وإلغاء أنظمة الحكم الوطنيَّة في البلاد المختلفة والسيطرة عليها، وعلى العالم.

جاء في قرار المؤتمر الماسوني المنعقد عام (١٩٠٠ م) في باريس: أن غاية المؤتمر الماسونيَّة تأسيس جمهوريات علمانيَّة (تتخذ الوصوليَّة والنفعيَّة) أساسًا للاتحاد الماسوني.

وجاء في مؤتمر المشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٩٢٣م: الماسونيَّة هي الجمعيَّة التي تعمل في الخفاء للاستيلاء على العالم عن طريق بث أفكارها وإن غايتنا هي تطعيم أكبر مجموعة من الكتل البشرية بأفكارنا وأن تقبل أفكارنا يكون مبعثًا لارتياحنا.

وفي البيان الماسوني المؤرخ سنة ١٧٤٤م: إن غاية الماسونيَّة -كما أوضحها قبل نصف قرن- هي تأسيس جمهوريَّة ديمقراطيَّة عالميَّة وهي بذلك تتخذ الوصوليَّة والنفعيَّة أساسًا للاتحاد الماسوني.

والماسونيَّة لها تدخل في سياسات الأمم، وذلك ما يظهر في تصريحات الماسونيين الكبار، حيث يقول بلات: نعم إنَّه لأمر ثابت ومقرر بأنَّ الماسونيَّة مشروع سياسي وإنما هذا فخرها.

وقال غونار: إننا في محافلنا نسعى بأعمال السياسة وسياستنا هي نعم السياسة فإن الأبحاث السياسيَّة والاجتماعيَّة غايتنا الخاصة التي نجاهر بها علنًا.

وقال محرر مجلة الماسون المعروفة بالجمهوريَّة الماسونيَّة: إنَّه من الواجب اللازم أن تكون الماسونيَّة زعيمة كلِّ الأحزاب السياسيَّة فتقودها ولا تنقاد لأوامرها.

وقد جاء في قرار المؤتمر الدولي المنعقد في (بروكسل) ص ١٢٤: يجب ألَّا يغرب عن الأذهان أنَّ الماسونيَّة هي التي دبَّرت الثورة الفرنسيَّة في محافلها لأجل تحقيق أغراضها.

وجاء في محفل الكرسي الأكبر سنة (١٩٢٢ م) (ص ٢٨١): أنَّ الماسونيَّة التي لعبت أهمَّ الأدوار في إشعال الثورة الفرنسيَّة يجب أن تكون على أهبَّة الاستعداد للقيام بأيَّة ثورة منتظرة في المستقبل.

وهي كما قال بعض المؤرخين: آلة صيد بيد اليهوديَّة يصرعون بها الساسة ويخدعون عن طريقها الأمم والشعوب الجاهلة.

نعم إنَّ الماسونيَّة تنظيمٌ سياسيٌّ ولو تتبعنا الأمور التي جرت في أوربَّا على مدى القرون الثلاثة

لأخيرة لوجدنا الماسونيَّة من وراء كلِّ ذلك بالتخطيط والتنفيذ.

والماسونيَّة وراء عدد من الويلات التي أصابت الأمَّة الإسلاميَّة، ووراء جل الثورات التي وقعت في العالم: فكانوا وراء إلغاء الخلافة الإسلاميَّة، وعزل السلطان عبد الحميد، كما كانوا وراء الثورة الفرنسيَّة والبلشفيَّة والبريطانيَّة.

فالماسونيَّة هي التي قوضت أركان الخلافة الإسلاميَّة وهي التي أوصلت كمال أتاتورك الماسوني الملحد إلى حكم تركيا والماسونيَّة هي التي أقامت العديد من الثورات الأوربيَّة البلشفيَّة في روسيا وغير ذلك من الأحداث السياسيَّة المؤثرة في تاريخ العالم كلِّه.

٤- إباحة الجنس واستعمال المرأة كوسيلة للسيطرة.

يقول الماسوني أرنولد ليس في نشرة ماسونيَّة صادرة في لندن سنة ١٩٣٥: إنَّ أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحرارًا جنسيًّا، نريد أن نخلق الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسليَّة!!

وقالت دائرة المعارف اليهوديَّة: إنَّ تعاليم الماسونيَّة محوطة بالسرِّيَّة الدائمة وهي تنصُّ في صلبها على تقديس الجنس والحرِّيَّة التامَّة لنشر الإباحيَّة، وآمال الماسونيين أمام هذا الجانب الأخلاقي من حياة الناس، وهو تنظيم جماعة من الناس يرونهم أحرارًا لا يخجلون من أعضائهم التناسليَّة حين يجتمعون في نوادي العراة ويلتقون على شواطئ المصايف[1].

٥- العمل على تقسيم غير اليهود إلى أمم متنابذة تتصارع بشكل دائم.

٦- تسليح هذه الأطراف وتدبير حوادث لتشابكها.

٧- بث سموم النزاع داخل البلد الواحد وإحياء روح الأقليات الطائفيَّة العنصريَّة.

٨- تهديم المبادئ الأخلاقيَّة والفكريَّة والدينيَّة، ونشر الفوضى والانحلال والإرهاب والإلحاد.

٩- استعمال الرشوة بالمال والجنس مع الجميع وخاصَّة مع ذوي المناصب الحساسة لضمهم لخدمة الماسونيَّة، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

١٠- إحاطة الشخص الذي يقع في حبائلهم بالشباك من كلِّ جانب، لإحكام السيطرة عليه وتسييره كما يريدون ولينفذ صاغرًا كلَّ أوامرهم.

١١- الشخص الذي يلبِّي رغبتهم في الانضمام إليهم يشترطون عليه التجرُّد من كلِّ رابطٍ دينيٍّ أو أخلاقيٍّ أو وطنيٍّ، وأن يجعل ولاءه خالصًا للماسونيَّة.

وقد جاء في بعض الإحصائيات أنَّ ٥٩ مليون ماسونيٍّ في العالم يرفضون العقائد والأديان ويرفضون الانتماء للأوطان.

---

(١) دائرة المعارف اليهودية (٥/ ٥٠٣).

ومن أقوالهم: إننا إذا سمحنا لمسلم أو نصرانيٍّ بالدخول في أحد هياكلنا فإنَّما ذلك قائم على شرط أنَّ الداخل يتجرَّد من أضاليله ويجحد خرافاته وأوهامه التي خدع بها في شبابه.

١٢- إذا تململ الشخص أو عارض في شيءٍ تُدبَّرُ له فضيحة كبرى وقد يكون مصيره القتل.

ويعلق «ج. رنييه» في كتاب «حياة روبسير» لما شنَّ «روبسير» هجومًا عنيفًا على الماسونيَّة قال: لقد تلفظ «روبسير» في الواقع بأكثر مما يجب، ولذا فقد تعرض لطلقة ناريَّة مزقت فكه، وأخرسته بصورة عمليَّة حتى اليوم التالي الذي سيق فيه إلى «المقصلة»، وهكذا تم القضاء على ماسونيٍّ منهم أتيح له أن يعرف أكثر مما يجب.

صاحب كتاب «فضائح الماسونيَّة» الأستاذ محمد علي الزغبي، كان قد تدرج في أسلاك الماسونيَّة في لبنان وسوريَّة على مدى أكثر من ١٥ سنة قبل أن يعرف أهدافها الخبيثة، وعندما اكتشف أهدافها الشيطانيَّة انسحب منها وألف كتابه هذا الموجود إلى اليوم في المكتبات العربيَّة، وقال أحد تلامذته: لقد مات شهيدًا في لبنان بسبب تأليفه لهذا الكتاب.

١٣- كل شخص استفادوا منه ولم تعد لهم به حاجة يعملون على التخلص منه بأيَّة وسيلة ممكنة.

١٤- العمل على السيطرة على رؤساء الدول لضمان تنفيذ أهدافهم التدميريَّة.

تختار الماسونيَّة أعضاءها من الشخصيَّات المرموقة في المجتمعات عن طريق محافلها المنتشرة في أنحاء العالم، فغالبيَّة رؤساء الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ومجلس الشيوخ بدءًا من جورج واشنطن هم من الماسونيِّين.

وقد استطاعت اختراق معظم النظم السياسيَّة في العالم، وضم عدد كبير من الملوك ورؤساء الجمهوريات إليها على امتداد القرون الثلاثة الماضية، وتنتشر بوجهٍ خاصٍّ في أمريكا وانجلترا.

وقد صرح السياسيُّ الإنجليزيُّ المشهور (بنيامين) سنة (١٨٤٤ م) قائلًا: إن الذين يديرون دفَّة السياسة في العالم ليسوا الذين هم في دست الحكم ظاهرًا وإنَّما هم الذين يكمنون وراء الكواليس.

وصرح نابليون الثالث ملك فرنسا عام (١٨٥٩ م) بقوله: يجب ألَّا نخدع أنفسنا، أن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرِّيَّة.

وجاء في قرار مؤتمر محافل الماسونيَّة عام (١٨٨٤ م) يجب على الماسونيِّين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيِّين إلى سدة الحكم وأن يقربوهم من كراسيه وأن يكثروا من عددهم فيه، وفي وسع الماسونيِّ أن يكون مواطنًا أو نائبًا أو رئيسًا بشرط أن يكون ماسونيًّا وعليه أن يستلهم الأفكار الماسونيَّة، ومهما علت مكانته الاجتماعيَّة فإنَّه يستوحي مذهبه من المحفل الماسونيِّ لا من مكانته.

١٥- السيطرة على الشخصيات البارزة في مختلف الاختصاصات لتكون أعمالهم متكاملة.

الماسونيَّة هي منظمة تحرص على اختيار المتسبين إليها من ذوي المكانة الماليَّة أو السياسيَّة و الاجتماعيَّة أو العلميَّة، أو أيَّة مكانة يمكن أن تستغل نفوذًا لأصحابها في مجتمعاتهم، فيما لا يهمُّها انتساب من ليس لهم مكانة يمكن استغلالها كالفقراء والمزارعين؛ ولذلك تحرص كلَّ الحرص على ضمِّ الملوك والرؤساء وكبار موظفي الدولة ونحوهم لمنحهم العضويَّة الماسونيَّة.

ففي أرشيف إحدى الصحف أنَّ رجلين تركيَّين أحدهما يعمل موظَّفًا في القطار تقدما رسميًا في عام ١٩٣٠ إلى القنوات التركيَّة الرسميَّة بطلب للانتساب إلى الماسونيَّة؛ فجاء الرد الرسمي على طلبهما بعد دراسته كما يلي: مهما كنتما من المواطنين الذين هم أهلًا للثقة والأمانة إلا أنَّكما لا تحملان المميزات الرفيعة التي تؤهلكما للحصول على العضويَّة الماسونيَّة.

١٦- السيطرة على أجهزة الدعاية والصحافة والنشر والإعلام واستخدامها كسلاح فتَّاك شديد لفاعليَّة.

١٧- بثّ الأخبار المختلفة والأباطيل والدسائس الكاذبة حتى تصبح كأنَّها حقائق لتحويل عقول الجماهير وطمس الحقائق أمامهم.

١٨- دعوة الشباب والشابات إلى الانغماس في الرذيلة، وتوفير أسبابها لهم، وإباحة الاتصال بالمحارم، وتوهين العلاقات الزوجيَّة، وتحطيم الرباط الأسري.

وقد جاء في تعاليم الماسونيَّة ما نصه: إنَّ السيطرة على الشبيبة من أولى الغايات دعوا الكهول والشيوخ وتفرغوا للشباب بل حتى للأطفال.

١٩- الدعوة إلى العقم الاختياريِّ وتحديد النسل لدى المسلمين.

٢٠- السيطرة على المنظمات الدوليَّة بترؤسها من قبل أحد الماسونيِّين كمنظمة الأمم المتَّحدة للتربية والعلوم والثقافة ومنظَّمات الأرصاد الدوليَّة، ومنظَّمات الطلبة والشباب والشابات في العالم.

إنَّ الجمعيَّات الرياضيَّة والفرق الموسيقيَّة وغيرها من المؤسسات التي تربِّي البيئة الناشئة عقليًا وجسميًّا هي المرتع الخصب لنمو الماسونيَّة فيها، ويمكن إضافة المكتبات والدورات وغيرها إلى ذلك، وقد أضافوها.

٢١- يحمل كلُّ ماسونيٍّ في العالم فرجارًا صغيرًا وزاوية لأنَّهما شعار الماسونيَّة منذ أن كانا الأداتين الأساسيتين اللتين بنى بهما سليمان الهيكل المقدس بالقدس.

٢٢- يردد الماسونيُّون كثيرًا كلمة «المهندس الأعظم للكون» ويفهمها البعض على أنَّهم يشيرون بها إلى الله سبحانه وتعالى، والحقيقة أنَّهم يعنون «حيراما» إذ هو مهندس الهيكل وهذا هو الكون في نظرهم.

٢٣- الماسونيَّة منظَّمة عالميَّة سرِّيَّة تُخْفِي تنظيمها تارةً وتعلنه تارة؛ بحسب ظروف الزمان

والمكان، ولكن مبادئها الحقيقيَّة التي تقوم عليها هي «السِّرِّيَّة» في جميع الأحوال.

فقد ورد في مواد الدستور الماسوني: يجب على الموقرين والخطباء ألَّا يدعوا فرصةً تمرُّ دون أن ينبهوا الماسوني إلى عدم إفشاء السِّرِّ مهما كان السبب أو أن يكتب شيئًا يتعلَّق بالمجلس دون أن يرخِّص له بذلك.

وفي الفترة الأخيرة أذاع الماسونيُّون في بريطانيا أنَّهم سيتخلون عن غموضهم، ولكن ليس كلّ الأسرار الماسونيَّة، فقد قالت صحيفة تايمز في اليوم الاثنين ٢٨/ ١/ ٢٠٠٢: إنَّه سينظم أسبوعًا في أواخر يونيو المقبل يشمل زيارات عامة للمحافل الماسونيَّة.

وسيبدأ الماسونيُّون المشهورون بتأثيرهم على المجتمع البريطاني من وراء الستار أعمالًا خيريَّة في شوارع لندن وهم يرتدون قمصانًا طبعت عليها عبارة «أنا ماسونيٌّ». كما سيمكنهم قراءة مجلتهم (الماسونيَّة الفصليَّة) التي ستصدر في إبريل المقبل.

ويأتي أسبوع الأحداث الماسونيَّة في إطار مراجعة جذريَّة أجرها زعماء الماسونيَّة، قرروا خلالها التخلِّي عن الغموض الذي يحيط بهم والتركيز على أنشطتهم الخيريَّة.

لكن لن تكشف كل الأسرار. ففي حين ستشجع الحركة نحو ٣٠٠ ألف ماسونيٍّ في بريطانيا على التحدث بصراحة عن دورهم في المجتمع، لن يسمح لهم بالحديث عن طريقة المصافحة أو كلمة السرِّ المطلوبة لدخولهم المراكز الماسونيَّة كما ستظل اجتماعاتهم قاصرة عليهم.

٢٤- الماسونيُّون يتكاتفون ويحمون بعضهم البعض بشكل كبير. وهم يوزعون كراسيهم بين بعضهم بكرم وأخوة. وهم لا يوكلون أي عضوٍ لا يحمل الهوية الماسونيَّة في أي عمل داخل المنظمة مهما علا قدره سياسيًّا واجتماعيًّا بمعنى أن الهويَّة الماسونيَّة تتقدم دوما على الهوية السياسيَّة والاجتماعيَّة.

٢٥- الماسونيُّون يتقاسمون الأموال بينهم، بيد أنَّه لا يمكن أن تجد ماسونيًّا واحدًا فقيرًا بل كلّهم في رخاء ورفاه[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥١١- ٥١٣)، الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٢٩)، هذه هي الماسونية فاقتلعوا جذورها، خضر محمد ص(١٢).

الفصل الرابع

منهج العمل عند الماسونيَّة

للماسونيَّة درجات ثلاث:

١- الماسونيَّة الرمزيَّة

أو العُمْي الصغار، والمقصود بهم المبتدئون من الماسونيِّين، ويدخل فيها أتباع الديانات مختلفة، ويباشرون طقوسًا وحركات لا يفهم مغزاها، ويظلُّ فيها الشخص قانعًا بألفاظ الحريَّة والمساواة والإخاء، سعيدًا بما يناله من عون من الأعضاء الآخرين، ذلك العون الذي كثيرًا ما يدفع العضو إلى مكان الصدارة في عمله، أو يكسب له وظيفة ممتازة أو ثراء عريضًا، مما يجعله يزداد ارتباطًا بالماسونيَّة وحبًّا لأنظمتها.

وفي داخل هذا القسم يوجد ثلاث وثلاثون درجة، يترقى فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه وكفاءته وإقباله على الماسونيَّة وتعاليمها والدعوة إليها، وينال العضو أسمى الدرجات إذا تم انحرافه التَّامّ عن دينه ووطنه وعقيدته وخلقه القويم وأصبحت الماسونيَّة كل عقيدته.

وهذه الدرجة من أخطر الدرجات وأكثرها انتشارًا فهي تندس في الأوطان على أنَّها جمعيَّات خيريَّة هدفها إسعاد الإنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو وطنه وترفع للناس شعارات الحرّيَّة والإخاء والمساواة، وحقيقة هدف هذا النوع.

أولًا: جمع المعلومات السياسيَّة والاقتصاديَّة عن الدول والتعرف على أحوالها وأفكارها وكل كبيرة وصغيرة حتى ولو كانت تافهة.

ثانيًا: ضمّ المخدوعين بشعارات الخدمة العامة من الوجهاء وأصحاب المراكز المرموقة ثم انتقاء من يصلح منهم لترقيته إلى الدرجات العليا وإعطائه قدرًا أكبر من المعلومات والمسئوليَّات.

ولهذه الدرجة الرمزيَّة محافل منتشرة في أنحاء دول العالم فضلًا عن محافظات الدول ومراكزها الداخليَّة.

وفي هذه الدرجة الرمزيَّة العامة تدعي الماسونيَّة أنَّها تؤمن بكائن أعلى تسميه بالمهندس الأعظم وأحيانًا تقول باحترام الأديان جميعًا واستبعادها من مجال الاعتبار في داخل المحافل بمعنى أن العضو ينسى دينه وعقيدته ويتذكر أنَّه ماسوني وحسب، وفي هذه الدرجة أيضًا قد تظهر موقفًا سلبيًّا فتقول نحن لا نثبت وجود الله ولا ننكره.

٢- الماسونيَّة الملوكيَّة

وأكثر أعضائها من اليهود، ويطلق عليهم الرفقاء ومن مشاهير الرفقاء: الرفيق لينين، والرفيق ستالين، والرفيق تروتسكي، والرفيق بريجنيف، ولا يسمح لغير اليهود بالدخول في تلك المرتبة إلا

لمن باع دينه بدنيا الماسونيَّة والانحراف والكفر والإلحاد.

وهذه لا ينالها إلا من تنكَّر كليًّا لدينه ووطنه وأمَّته وتجرد لليهوديَّة كتشرشل وبلفور.

ولهذه الدرجة هدفٌ محددٌ وهو العمل على إعادة بناء هيكل سليمان وإقامة دولة إسرائيل الكبرى، ولا يدخل إلى هذه الدرجة إلا اليهود أو الذين وصلوا إلى أرق درجات الماسونيَّة الرمزيَّة وهي درجة ٣٣ .

ويجب على الماسوني في هذه الدرجة أن يؤمن بإله جديدٍ يسمَّى (يه- بل- أُن) (Jah- Bui- On)

وقد فسَّر الكاتب الإسلامي/ مسبهول إسلام فاروقي هذه التركيبة من خلال المحاضر الرمزيَّة الماسونيَّة فقال: إنَّها مركَّبة من ثلاثة ألفاظ يحتفظ كل عنصر منها بخصائصه:

- يهوه (Jahweh) إله اليهود
- بعل (Baal) إله آشور
- أوزوريس (Osotis) إله قدماء المصريين

٣- الماسونيَّة الكونيَّة

وهي قمَّة الطبقات، وكل أفرادها يهود، وهم آحاد، وهم فوق الأباطرة والملوك والرؤساء؛ لأنَّهم يتحكَّمون فيهم، وكل زعماء الصهيونيَّة من الماسونيَّة الكونيَّة كهرتزل، وهم الذين يخططون للعالم لصالح اليهود.

وهذه أرق مراتب الماسونيَّة، ويطلق عليهم اسم (الحكماء) ورئيس هذه المرتبة يطلق عليه (الحكيم الأعظم) وهذا الحكيم هو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونيَّة ولا يعرف أحد أعضاء هذه المرتبة ولا مركز نشاطها ويذكر بعض الباحثين أنَّ لها مركزًا واحدًا وهو نيويورك.

وهدف هذه الدرجة هو تحقيق الحلم اليهودي الأخير وهو حكم العالم كلّه وإخضاع الأمم لملك من جنس بني صهيون.

ويقال إنَّ عدد أعضاء هذا التنظيم ثلاثمائة رجل يعرفون بعضهم حركيًّا وتنظيميًّا وهم يتحركون باستعدادت خاصَّة ومكونات عالية تؤهلهم للعمل في هذه الحكومة السرِّيَّة وعندما يموت واحد منهم أو يسقط يتم تعيين غيره على الفور من الصف الثاني.

وتربط بين هذه المرتبة وباقي المراتب اتصالات سرِّيَّة محدودة جدًّا وغامضة.

كيفيَّة قبول العضو الجديد في الماسونيَّة

تعمل الماسونيَّة على اختيار أعضائها، ولا تسمح للآخرين بالانضمام إليها تبعًا لإراداتهم الشخصيَّة، ويمرُّ العضو بهذه الجمعيَّات بعدة مراحل في جوٍّ مرعب مخيف وغريب، يلتزم فيها بممارسة عدة طقوس شديدة الغرابة.

حيث يقاد إلى الرئيس معصوب العينين، ثم يتعهد بعدم إفشاء أسرار الجماعة وإلَّا فإنَّه يستحقُّ عقوبة قطع رقبته وقطع لسانه من جذوره، وما أن يؤدي يمين حفظ السرِّ ويفتح عينيه حتى يفاجأ بسيوف مسلولة حول عنقه وبين يديه كتاب العهد القديم، ومن حوله غرفة شبه مظلمة فيها جماجم بشريَّة وأدوات هندسيَّة مصنوعة من خشب وكل ذلك لبث المهابة في نفس العضو الجديد.

وسرعان ما يعلم العضو الجديد أنَّ الماسونيَّة نظام أخلاقي غريب يعتمد على المجاز، وتوضحه الرموز، وتستمد هذه الرموز بصفة رئيسيَّة من حرفة بناء الحجارة الفعليَّة، وتلعب دورًا حيويًّا في الطقوس والتعاليم الماسونيَّة.

ويشرح زعيم المحفل حين يقدم للعضو الجدد بطريقة طقسيَّة معدات البناء، ويقول: نحن نستخدم هذه المعدات لتشكيل أخلاقنا، وحين ينتهي العضو من هذه المراسم يقال: إنَّ العضو الجديد قد اجتاز المرتبة الأولى ويمكن أن يصل إلى المرتبتين الأخريين خلال عدة أشهر، ويتوقف الكثيرون من الماسونيِّين عند هذه النقطة.

إلَّا أنَّه توجد مراسم أخرى تسمَّى القوس الملكي تسمح للمتحمِّسين بتنويعة كبيرة من المراتب العليا، ويرى الباحثون أنَّها مستمدَّة من مصادر عديدة فرعونيَّة ويهوديَّة وآشوريَّة.

وجاء في مضابط المشرق الأعظم عام (١٨٩٣ م) نصُّه هكذا: إنَّ المشرق الأعظم يرى حفظ الأسرار من أهمِّ واجبات الماسونيَّة ويمنع منعًا باتًّا كلَّ النشرات المتعلِّقة بالأفعال والحركات... إنَّ كلَّ شيءٍ عندنا قد يسدل عليه ستار من السرِّ وبقوة الوحدة والكتمان ننتصر في المعارك الفاصلة.

وحقائق الماسونيَّة لا تُكْشَفُ لأتباعها إلا بالتدريج حين يرتقون من مرتبة إلى مرتبة وعدد المراتب ثلاث وثلاثون.

فأفراد الدرجة الرمزيَّة لا يعرفون شيئًا عن أفراد الدرجة الملوكيَّة، وأفراد الملوكيَّة لا يعرفون شيئًا عن الدرجة العليا؛ لأنَّ معظم الاجتماعات التي على المستويات العليا يلبس فيها الأعضاء كمامات تغطِّي الوجه حتى لا يرى أحدهم الآخر.

المحافل والمجمع والمحفل الأعظم والشرق

الوحدة الأساسيَّة في التنظيمات الماسونيَّة هي المحفل أو الورشة، ويحقُّ لكلِّ سبعةِ ماسونيِّين أن يشكِّلوا محفلًا، والمحفل يمكن أن يضمَّ خمسين عضوًا.

وتعقد المحافل اجتماعًا دوريًّا كلّ خمسة عشر يومًا يحضره المتدربون والعرفاء والمعلمون، أما ذوو الرتب الأعلى فيجتمعون على حدة في ورش (التجويد).

ويفترض في المشاركين في الاجتماع أن يقبلوا بلباس معين فهم يضعون في أيديهم قفازات بيضاء ويزينون صدورهم بشريط عريض ويربطون على خصورهم مآزر صغيرة وقد يرتدون ثوبًا أسودَ طويلًا أو (سموكينج) أو بزة قاتمة اللون بحسب تقاليد محفلهم وهي تقاليد غاية في التعقيد والتنوع.

وتشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى، والأصل في الجمعيَّات الماسونيَّة أنَّها سرِّيَّة بمعنى أنَّ طقوسها وبعض الإشارات الأخرى فيها سرِّيَّة، ومن ينضمُّ إلى الحركة يقسم على ألا يكشفها، ولا تسمح الحركة الماسونيَّة لأي شخص بالانضمام إليها، وإنَّما يتم تجنيد الأعضاء عن طريق توصية أحد الأعضاء العاملين، كما أنَّ المحافل تخفي بعض الطقوس عن الأعضاء الجدد إلى حين التأكد من ولائهم.

أمَّا نصُّ القسم كما أورده الأستاذ محمد علي الزغبي في كتابه (الماسونيَّة منشئة ملك إسرائيل) فهو كالآتي: أقسم بمهندس الكون الأعظم ألَّا أفشي أسرار الماسونيَّة ولا علاماتها وأقوالها ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد . . أقسم بمهندس الكون الأعظم ألَّا أخون عهد الجمعيَّة وأسرارها، لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف، وألا أكتب شيئًا من ذلك ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى -إن حنثت في قسمي- أن تحرق شفتاي بحديد ملتهب، وأن تقطع يداي ويحز عنقي، وتعلق جثتي في محفل ماسونيٍّ ليراها طالب آخر ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء، لئلا يبقى أثر من جنايتي.

والمجمع: هو الوحدة أو الخليَّة التنظيميَّة الأعلى ويتألَّف من مجموعة محافل في منطقة معينة داخل البلد الواحد.

والمحفل الأعظم: هو الوحدة أو الخلية العليا التي تشرف على المجامع والمحافل الفرعيَّة.

والشرق: هو هيئة تشرف على مجموعة محافل ومجامع في عدة بلدان.

وعلى سبيل المثال فإنَّه في مصر كانت هناك عدة محافل منتشرة في المحافظات، ولكنَّ لهذه المحافل مركز قيادة وتوجيه تتبعه وهو المسمى بالمحفل الوطني، والمحفل الوطني مع عدة محافل أخرى من عدة بلدان لهم تبعية لمحفل من المحافل العظمى في بريطانيا وفي تبعية أخطبوطية رهيبة كان محفل الشرق الأعظم البريطاني تابعًا لمحفل أعظم منه في فرنسا ومحفل فرنسا يتبع مركز قيادة أعلى وهكذا دواليك(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/٥١٣)، الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٣٠- ٣٢، ٣٩)، الماسونية، محمود عوض.

الفصل الخامس

شعارات ورموز الماسونيَّة

للماسونيَّة عدة شعارات منها:

١- الحرية: وتحارب باسمها الأديان عدا اليهوديَّة.

٢- الإخاء: وتحاول به كسب الودِّ لليهود.

٣- المساواة: وتنشر بها الفوضى السياسيَّة والاقتصاديَّة وتروج للشيوعيَّة.

ويلتزم الماسون دائمًا بالدعوة إلى المساواة والحريَّة والتسامح دون أيَّة ضوابط، الأمر الذي يعني عمليًا تحطيم كلِّ الأديان والمذاهب لصالح الأهداف الماسونيَّة الغامضة.

والواقع أنَّ الماسونيَّة لم تكن تقصد من رفع هذه الشعارات تطبيق حقيقتها وإنَّما كانت تهدف إلى أهداف أخرى منها:

١- تذويب الفوارق والحواجز بين اليهود وغيرهم خصوصًا وأنَّ اليهود كانوا يعيشون معزولين عن الناس لا يسمح لهم بالاختلاط بالمجتمعات وذلك بسبب أخلاقهم الذميمة فرفعوا هذه الشعارات لكي يعطوا أنفسهم فرصة الدخول إلى المجتمعات والتحكم في مقدراتها.

وكان النصارى ينظرون إليهم نظرة الاحتقار بسبب معتقداتهم الفاسدة فحاولوا أن يرفعوا الرابطة الدينيَّة من مجال الشعور ويحلوا محلَّها الرابطة الإنسانيَّة أي أنَّ الإنسان بصرف النظر عن دينه وبذلك كسروا الحاجز النفسي الذي كان موضوعا بينهم وبين الناس.

٢- خداع الناس بإظهار الماسونيَّة على أنَّها مركز خدمة الإنسانيَّة.

٣- محاولة جمع الناس حول هذه الشعارات البراقة لأنَّ من الناس من تستهويه هذه الشعارات فينضمُّ إلى هذه الأوكار ثم يستخدم بعد ذلك في تحقيق الأغراض الحقيقيَّة التي من أجلها أنشئت الماسونيَّة.

ومن الشعارات الأخرى شعار النورانيِّين في فترة المرحلة الثانية للماسونيَّة:

١- الهرم: يرمز إلى المؤامرة الهادفة إلى تحطيم الكنيسة الكاثوليكيَّة (كممثلة للمسيحيَّة العالميَّة) وإقامة حكم ديكتاتوري تتولاه حكومة عالميَّة على نمط الأمم المتَّحدة.

٢- العين: التي في أعلى الهرم ترسل الإشعاعات في جميع الجهات: ترمز إلى وكالة تجسس وإرهاب أسسها وايزهاويت على نمط الغستابو تحت شعار الأخوة لحراسة أسرار المنظَّمة وإجبار الأعضاء على الخضوع لقوانينها.

٣- الكلمتان المحفورتان في أعلى الشعار (Annuit Coeptis) تعنيان: مهمتنا قد تكللت بالنجاح.

٤- الكلمات المحفورة في أعلى الشعار (Novus O r do Seclo r um) معناها: النظام الجديد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هذا الشعارَ لم يتبن من قبل الماسونيَّة إلا بعد دمج أنظمتها بالأنظمة النورانيَّة إبَّان مؤتمر فلمسباد سنة ١٧٨٢ م.

وهذا الشعار هو الذي تبنَّاه وايزهاوبت عندما أسس منظمة في أيار ١٧٧٦ وهو نفسه الذي يظهر على أحد وجهي الدولار الأمريكي.

والتاريخ الذي تعنيه الأرقام المحفورة على قاعدته بالحرف الروماني (MOCCLXXVI) تعني ١٧٧٦ تاريخ إعلان إنشاء المنظَّمة وليس تاريخ إعلان وثيقة الاستقلال الأمريكي.

ومن رموز الماسونيَّة:

المثلث، والفرجار، والمسطرة، والمقص، والرافعة، والنجمة السداسيَّة، والأرقام ٣، ٥، ٧ (وهى رموز وطقوس تساعد على اكتشاف النور).

الفصل السادس

الماسونيَّة واليهود

إنَّ الماسونيَّة منظَّمة يهوديَّة من رأسها إلى قدمها، يهوديَّة أمًّا وأبا وروحًا ونشاطًا.

لقد تيقن اليهود أنَّ خير وسيلة لهدم الأديان هي الماسونيَّة فإنَّها هي التي تزيف الأديان وتفتح الباب على مصراعيه لإعلاء اليهوديَّة وانتصارها.

فهي يهوديَّة النشأة، يهوديَّة الغاية والهدف، يهوديَّة الرموز والشعائر.

١- أمَّا النشأة: فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في التاريخ الذي ظهرت فيه، فلم يختلف أحد على أن الذين أنشئوها هم اليهود.

فالذين قالوا بأنَّها ظهرت قبل الميلاد قالوا بأنَّ الذين أنشئوها هم اليهود.

والذين قلوا بأنَّها قد نشأت بعد ميلاد المسيح بسنوات معدودة ردوا نشأتها إلى اليهود أيضًا.

والذين قالوا بأنَّها نشأت في القرن السبع عشر أيضًا لم يردوا نشأتها إلى غير اليهود.

والذين قالوا بأنَّها وليدة القرن التاسع عشر ردوا نشأتها إلى هرتزل زعيم اليهود.

وهكذا اختلف المؤرخون في تاريخ نشأتها، ولكنهم اتفقوا تمامًا على نسبتها إلى اليهود.

ولن ندلل على هذه الحقيقة إلَّا من كلام اليهود والماسون أنفسهم والذين كتبوه في مخططهم السري.

فقد ورد في البروتوكول الخامس عشر: وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيِّين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كلَّ من يصير أو من يكون معروفًا بأنَّه ذو روح عامة وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسيَّة التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنَّها ستكون أفضل مراكز للدعاية. إننا كنَّا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونيَّة، ونحن الشعب الوحيد الذي يعرف كيف يوجهها، ونحن نعرف الهدف الأخير لكلِّ عملٍ على حين أنَّ الأمميين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الأشياء الخاصة بالماسونيَّة، ولا يستطيعون ولو رؤية النتائج العاجلة لماهم فاعلون.

وجاء في البروتوكول الرابع: أن المحفل الماسونيَّ المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا، ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ما تزال علي الدوام غير معروفة للعالم كثيرًا.

والجدير بالذكر أنَّ الذين كتبوا هذه البروتوكولات هم من الصهاينة الماسون الذين وصلوا إلى أرق درجات الماسونيَّة فقد وردت عبارة في نهاية البروتوكولات نصها: وقعه ممثلو صهيون من

الدرجة الثالثة والثلاثين.

قال الحاخام آيزاك ويز: الماسونيَّة يهوديَّة في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السرّ فيها وفي إيضاحاتها، يهوديَّة من البداية إلى النهاية.

ومن النشرة اليهوديَّة Laverite Isvaelite: سنة ١٨٦١م: إنَّ روح الماسونيَّة الأوربيَّة هي روح اليهوديَّة في معتقداتها الأساسيَّة، لها نفس المثل واللغة، وهي الأغلب نفس التنظيم، والآمال التي تنير طريق الماسونيَّة وتدعمها، هي الآمال التي تنير طريق إسرائيل وتدعمه، ومكان تتويجها هو (بيت العبادة البديع) حيث تصبح القدس رمزًا وقلبًا منتصرًا.

وهذا رئيس (اليانس أونيفرسال اسرائيلت) وهو من مشاهير ساسة فرنسا والماسونيين ذوي النفوذ القوي (أدولف إسحاق بريمة) يقول في الخطبة التي ألقاها في عام (١٨٦٠ م) في افتتاح (اليانس): الاتحاد الذي نريد خلقه ليس بفرنسيٍّ أو إنجليزي كما أنَّه ليس بسويسريٍّ أو ألمانيٍّ بل إنَّه يهوديٌّ وعالميٌّ. واجبنا عظيم ومقدَّس إذ يجب استيلاء المبدأ اليهودي على العالم فاطمئنوا إنَّ النصر حليفنا مطلقًا، فإنَّ الشبكة التي بثت في العالم من قبل إسرائيل أخذت بالتوسع يومًا فيومًا. فستحقق وعود كتبنا المقدَّسة. فيقتضي أن نستفيد من كل الفرص التي تسنح لنا فلا نخاف من أي شيء حيث إنَّ اليوم التي ستكون فيه جميع ثروات العالم ملكًا لبني إسرائيل ليس ببعيد إذا تعمم تطبيق الاشتراكيَّة.

٢- وأما عن وحدة الهدف والغاية: فمن المعلوم بالبداهة أن هدف اليهود الأساسي هو بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، ومن هنا أرسلت إسرائيل يهوديًا يحاول حرق المسجد الأقصى، ولما استطاع المسلمون أن يقاوموا الحريق بجهودهم الذاتيَّة زعمت إسرائيل أنَّ الذي قام بالحريق رجل مختل عقليًا.

وها هي الآن تحاول أن تقول بأعمال تنقيب حول المسجد الأقصى في محاولة لزعزعة بنيانه، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد هو أيضًا هدف الماسونيَّة الرئيسي.

وذلك ما ينصُّ عليه أ.س• ماكبرايد، وهو أحد الماسون الكبار في كتابه: الماسونيَّة التأمليَّة، رسالتها وتطورها ومعالمها، حين يقول: لأن رسالة الماسون هي بناء المعبد، فالماسونيُّ الحقُّ هو الذي يعمل بصدق لإقامة هذا المعبد. إنَّ هذا هو المحفل الحقيقي للأخوَّة الأنسانيَّة، وهو موجود من أجل بناء المعبد (هيكل سليمان)، إنَّه المصنع الذي تساغ فيه أرواح الناس وتشكل لتلائم المعبد المثالي الأعظم، هذه هي الغاية الرئيسيَّة ... ألف ياء المحفل. إن معبد سليمان هو أنموذج المثل الأعلى والهدف المركزي في التراث الرمزيِّ للماسونيَّة[١].

وعرّف المستشرق الهولندي (دوزي) الماسونيَّة بأنَّها: جمهور كبير من مذاهب مختلفة، يعملون

(١) الماسونية، محمود ثابت الشاذلي ص(٤٥).

لغاية واحدة هي: إعادة بناء الهيكل الذي هو رمز إسرائيل[١].

وجاء في النشرة الماسونيَّة الصادرة في نيويورك عام ١٩٠١م : إنَّ الماسونيَّة الأوربيَّة ستشيد بناءً حيث يعبد إله إسرائيل إلى الأبد[٢].

ويقول إدريس راغب وهو من أبرز الماسونيين العرب: إنَّ الاعتقاد بوجوب إقامة الهيكل يقوِّي إيماننا بالوعود المذكورة في الكتاب.

ففي هذه النصوص تبرز الفكرة الإسرائيليَّة عقيدةً ومؤامرةً وغايةً وهدفًا، فبناء هيكل سليمان هو بؤرة النشاط الماسونيِّ وهو الجنس العبري المشتت.

٣- وأما عن وحدة الرموز والشعائر: في دائرة المعارف اليهوديَّة يعرف محرر مادة: ماسون، الماسونيَّة بأنَّها: أسست مبادئها وكلمات سرِّها، ورموزها وشعائرها التي يعتقد أنَّها مستمدَّة من شعائر بناء أول معبد في القدس.

إنَّ المثلث الذي هو رمز الماسونيَّة مأخوذ من هيكل سليمان حيث يقول ماكبرايد: إن كلَّ حجرٍ استخدم في بناء الهيكل كان عليه مثلث متساوي الأضلاع.

ومن هنا كان رمز الماسونيَّة والصهيونيَّة وإسرائيل هو النجمة السداسيَّة، وهي عبارة عن مثلثين متقاطعين، والماسونيَّة يسمّون هذه النجمة درع داود وقد ورثها سليمان عنه، وهي عندهم تشير إلى عينين عند تداخل المثلثين، وكل عين مثلث متساوي الأضلاع وكان سليمان قد قصد بالمثلث كما لو كان (عين الله)، وفيما بعد أصبحت العين أو المثلث رمزًا لله نفسه، ومن هنا كانت قداسة الرمز عند اليهود والماسون[٣].

وأما درجات الماسونيَّة وشعائرها فهي يهوديَّة إسرائيليَّة.

فالدرجة الأولى من درجات الماسونيَّة هي: درجة المبتدئ أو الصبي وهي تقابل صفة الصبية المبتدئين في الصنعة الذين كان يستخدمهم (سليمان) في بناء الهيكل؛ ويسمي المنتسب فيها بالأخ.

والدرجة الثانية هي درجة الصانع الحاذق أو المهني المحترف وهي تقابل أرباب الحرف الذين كان سليمان يستخدمهم كرؤساء مهن أو حرف عند بناء هيكل.

ودرجة الأستاذ ويتدرج صاحبها في ألقاب: الأستاذ المحترم، والمبجل الأعظم، وفائق الاحترام، وكلي الاحترم، وكامل الاحترم، وهذه الدرجة تقابل الصفة التي انطبقت على حيرام أبيف الذي جاء من صور ليشرف على بناء هيكل سليمان من جميع النواحي الفنيَّة، وكان يجيد كل المهن والصناعات.

---

(١) الماسونية في العراء، محمد علي الزغبي، ص(١٦٣).

(٢) جذور البلاء، عبدالله التل، ص(١٢٧).

(٣) الماسونية، محمود ثابت الشاذلي ص(٤٩).

وأمَّا الدرجة الرابعة فهي مرتبة العقد الملوكي التي يتدرج منها العضو إلى درجات أعلى حتى الدرجة الثالثة والثلاثين، ويسمى المنتسب فيها: الرفيق، وفي هذه الدرجة تُبثُّ الفكرة الإسرائيليَّة عقائديًا وسياسيًا.

ويقول شاهين مكاريس: في كتابة الأسرار الخفيَّة في الجمعيَّة الماسونيَّة: إنَّ الأستاذ الأعظم الأول هو سليمان بن داود النبي الملك ومن هنا يسمَّى زعيم المحفل الماسوني بالأستاذ الأعظم.

ويشير إلى الصلة الرمزيَّة أيضًا الحبر الماسونيُّ ارثر إدوارد وايت في كتابه موسوعة جديدة في الماسونيَّة بقوله: فالحجر الذي نام عليه يعقوب والمنطقة الروحيَّة التي تسمى فدان ارام والسلم الذي رآه في الرؤيا علامات رمزيَّة للماسونيَّة.

وهو يشير بذلك إلى هذا النصّ الذي ورد في التوراة في سفر التكوين ١٨/ ١٠- ١٢: فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران وصادف مكانًا وبات هناك وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان ورأى حلمًا وإذا سلم منصوب على الأرض ورأسه يمس السماء.

وأما الشعائر والطقوس فهي يهوديَّة أيضًا وعند تأسيس أي محفل ماسونيٍّ يتلو الجميع هذه الأدعية الصهيونيَّة: هو ذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معًا مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية، لحية هارون النازل إلى طرف ثيابه مثل ندى حرموى النازل على جبل صهيون لأنَّه هناك أمر الربّ بالبركة حياة إلى الآبد ندفع آيات الشكر وعبارات الثناء والحمد لمهندس الكون الأعظم الذي أكرم أرواح عباده وجعلها في عليين ببركة السرّ المنبعث من عنان السموات اشكروا يا أخواني بصوت عالٍ يهوه الذي شيدت القبلة والهيكل لعبادته وذكر اسمه الأعلى.

وبعد عدة أدعية تعبر عن العقيدة اليهوديَّة يقوم الرئيس ويتلو من سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح الثاني من عدد ١ إلى ١٦ وهي الأعداد التي تتحدث عن قصة بناء هيكل سليمان.

ومن الأدعية التي يقرأها جميع الحاضرين من الدرجة ٣٣ في المحافل الماسونيَّة: سنعود إلى عهد سليمان بن داود ونبني الهيكل الأقدس، ونقرأ فيه التلمود، وننفذ كل ما جاء في الوصايا والعهود، وفي سبيل مجد إسرائيل نبذل كلَّ مجهودٍ... والويل الويل للغاضبين المستعمرين، سنجعلهم قطعًا في أفواه الأسود، الانتقام، الانتقام، طال المكوث في الظلام، أنعم علينا يا رب، أنوار القدس التي تجلت على موآب.

وقالت دائرة المعارف الماسونيَّة الصادة في فيلادفيا سنة ١٩٠٦م: يجب أن يكون كل محفل ماسونيٍّ رمزًا لهيكل اليهود، وهو بالفعل كذلك، وأن يكون كلّ أستاذ على كرسيه ممثلًا لملك اليهود، وكلّ ماسوني تجسيدًا للعامل اليهوديّ.

فواقع النصوص والدلائل يلزم العاقل بضرورة الاعتراف بأنَّ الماسونيَّة يهوديَّة العقيدة والشعائر والهدف وأنَّها وإن كانت تنشر الإلحاد والفساد فلكي تقضي على الدين الإسلامي والنصراني حتى

تجمع الناس بعد ذلك على ديانة اليهود وهذا ما ورد في البروتوكولات: حينما نمكن أنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أي دين غير ديننا[١].

فإذا كانت الماسونيَّة يهوديَّة النشأة ويهوديَّة الأهداف ولغايات ويهوديَّة الرموز والشعائر، فهي إذًا منظمة يهوديَّة حتمًا.

اعتراض: ذهب الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه (اليد الخفية) إلى أنَّ «العلاقة التآمرية المباشرة بين اليهود والماسونيين لا وجود لها»، وبحسب ما توافر لديه من وثائق: ليست هناك هيئة مركزيَّة عالمية تضم كل المحافل الماسونيَّة، كما أن هناك يهودًا معادين للماسونيَّة، وماسونيين معادين لليهود واليهوديَّة، ولكن ثمة علاقة بنيويَّة وفعليَّة بين الماسونيين وأعضاء الجماعات اليهوديَّة تفسر انخراط اليهود بأعداد كبيرة في المحافل الماسونيَّة. وبعد تفسير الظاهرة يخلص المسيري إلى أن هذا الانخراط: لا يعدو أن يكون مجرد ظاهرة اجتماعيَّة [٢].

نقض الاعتراض: إذا كان الحديث عن علاقة اليهوديَّة بالماسونيَّة لناحية النشأة والتحكم السيروري والمصلحي، يشوبه الضعف عند البعض لجهة السند والمعطى اليقيني بحكم تاريخيَّة القضية وتعقيداتها المتداخلة والمركبة والمفتوحة على أكثر من احتمال وحساب واعتبار، فإنَّ ما يوفره العصر الحديث من دلائل ومعطيات يقتل الشك باليقين، ويؤكد على حقيقة لا تقبل الجدل، ومفادها أنَّ الماسونيَّة هي البنت الوفية لليهوديَّة بمعتقداتها ورموزها وأهدافها، وهذا ما أكَّدت عليه دائرة المعارف اليهوديَّة لمؤلفها الماسونيِّ اللبناني حنا أبو راشد في النصِّ التالي: أمَّا أنَّ الماسونيَّة يهوديَّة، فذلك مما لا شك فيه من ناحية واحدة لا تتعداها، ونحن الماسونيُّون العريقون أعلم بذلك من الخوارج المتطفلين، بل إنَّنا لنسمح بأنَّ ندل هؤلاء على الحجة الدامغة في هذا الشأن، وهي حجة التوراة في عدة صفحات ورد فيها ما لا يمكن المكابرة معه عند المقابلة بين نصها والنص المماثل في التعاليم الماسونيَّة.

وما صدر عن دائرة المعارف الماسونيَّة الصادرة في فيلادلفيا طبعة ١٩٠٣ تصب في هذا الاتجاه. ومما جاء فيها: إنَّ اللغة الفنيَّة والرموز والطقوس التي يمارسها الماسونيُّون الأوربيُّون ملأى بالمُثُل والاصطلاحات اليهوديَّة، ففي محفل «اسكوتلندا» نجد التواريخ الموضوعة على المراسلات والوثائق الرسميَّة كلّها بحسب تقويم العصر والأشهر اليهوديَّة، وتستعمل كذلك الأبجديَّة اليهوديَّة.

وفي الدائرة نفسها لسنة ١٩٠٦ نقرأ الفقرة التالية: يجب أن يكون كلُّ محفلٍ ماسوني تجسيدًا للعامل اليهوديِّ، وأن يكون كلُّ أستاذٍ على كرسي المحفل ممثلًا لملك اليهود.

---

(١) انظر: الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٢٠- ٣٠)، الماسونية في العراء ص(١٠٥)، مجلة البيان العدد ١٣٥ ص(٧٨- ٨٧).

(٢) اليد الخفية، دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، د. عبد الوهاب المسيري ص(١١٦- ١٤١).

إن الماسونيَّة كانت ولا تزال البنت الوفية لأمها اليهوديَّة والأداة المثلى لإقامة المشروع اليهودي على أنقاض المشاريع الرساليَّة السماويَّة الحقَّة، بدءًا من الشعارات المعلنة وانتهاءًا بجوهر العقيدة القائم على نفي كل ما هو إلهي وديني حقيقي، نقول هذا بالاستناد إلى ما ذُكر ودُوِّن في ندوات ونشرات الماسونيِّين أنفسهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر جاء في نشرة الماسون الألمانيَّة الصادرة بتاريخ ١٥ - ١٢ - ١٧٦٦ ما نصُّه: لا يجب على الفرمسون ألَّا يكترثوا للأديان المختلفة فحسب، لكن ينبغي عليهم أيضًا أن يقيموا أنفسهم فوق كل اعتقاد بالإله أيًّا كان.

وعن المحفل الفرنسي الأكبر لاجتماعات شهر أكتوبر العام ١٩٢٢ جاء في إعلانه ما حرفيته:

لنشتغل بأيدٍ خفيَّة نشيطة ولننسج الأكفان التي سوف تدفن كل الأديان!!.

بالإضافة إلى ما يؤكده الحاخام الدكتور إسحاق وايز الذي يوضح أن أهداف الماسونيَّة في الظاهر تختلف عنها في الباطن، فهي تبدو للسذج كأنَّها جمعيَّة أدبيَّة تخدم الإنسانيَّة وتنور الأذهان وتنشر الإخاء وتوطد الحبَّ بين الأعضاء وتحثهم على فعل الخير والإحسان لإخوتهم المحتاجين، أمَّا في حقيقتها فهي مؤسسة يهوديَّة، وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السرِّ فيها وشروحها إلا أفكارًا يهوديَّة من البداية إلى النهاية.

وهناك دلائل تشير إلى أنَّه كان يوجد أربعة يهود من بين مؤسسي أول محفل ماسوني في الولايات المتَّحدة عام ١٧٣٤، كما أسس أول محفل ماسونيٍّ يهوديٍّ في إنجلترا عام ١٧٩٣، أمَّا في فرنسا فقد أصبح السياسيُّ الفرنسيُّ اليهوديُّ أدولف كريميه (١٨٦٩) البنَّاء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الإسكتلنديَّة[1].

---

(١) انظر: الموقع الالكتروني: بلادي، الماسونية حركة التحرر من الأخلاق والدين، أحمد غانم.

الفصل السابع

الماسونيَّة والنصارى

منذ ظهرت النصرانيَّة والماسونيَّة في صراع معها حتى يرجع بعض المؤرخين نشأة الماسونيَّة إلى محاولة إيجاد طريق لمقاومة تعاليم المسيح.

وفي العصر الحديث حارب بابوات الفاتيكان الماسونيَّة منذ عام ١٧٣٨م على عهد البابا كليمنت الثاني عشر، الذي أصدر أول مرسوم يتعلق بالماسونيَّة، جاء فيه: أفادتنا الأنباء عن تأليف جمعيَّات سرية تحت اسم «فرماسون» وأسماء أخرى شبيهة بهذا الاسم، ومن خواصها أنَّها تضمُّ إليها رجالًا من كل الأديان والشيع، يرتبطون فيما بينهم بروابط سرِّيَّة غامضة، وحسبنا شاهدًا على أن اجتماعاتها الخفيَّة هي للشرِّ لا للخير، وأنَّها تبغض النور، وإذا كان هذا فكرنا في الأضرار الجسيمة التي تنجم عن هذه الجمعيَّات السرِّيَّة فقد رأينا منها ما يوجب القلق، سواء كان لسلامة الممالك أم لخلاص النفوس، ومن بعد أخذ رأي إخوتنا الكرادلة، ولعلمنا التامِّ، وقوة سلطتنا وحكمنا بأن هذه المنظمات، والجماعات المعروفة باسم «الفرماسون» يجب رذلها ونفيها. وبناءً عليه نرذلها ونشجبها بقوة هذا المنشور الذي نريد أن يكون مفعوله مخلدًا.

وقد ظلَّ موقف الفاتيكان ثابتًا إزاء الماسونيَّة حتى عام ١٩٦٥م، عندما أصدر البابا بولس السادس أمرًا يعطي للكهنة الحقَّ بإلغاء كلِّ قرارٍ كنسيٍّ سابق تضمن الفرمان المسيحي بتجريم الماسوني.

وقام بنفسه باستقبال مجموعة من أعضاء نادي «الروتاري» عام ١٩٦٥م ليباركهم ناقضًا بذلك التعاليم البابويَّة التي تنصُّ على أن: المسيحي الذي ينضمُّ لنادي الروتاري يتعرض إيمانه للشبهة. وبذلك يكون قد سمح للنصارى بالانضمام إلى الماسونيَّة وأنديتها كالروتاري بعد الحظر الذي كان قائمًا.

بيد أن موقف البابا بولس السادس من الماسونيَّة كان منسجمًا مع موقفه من اليهود عندما أصدر لهم «براءة» من دم المسيح.

وقد ارتبط ظهور الماسونيَّة الحديثة وانتشارها بالبروتستانتيَّة وليس هنالك أدنى شك في أنَّ «مارتن لوثر» كان ماسونيًّا، وهنالك انسجام تامٌّ بين الماسونيَّة والبروتستانتيَّة، مثلما هو الأمر بالنسبة للبروتستانتيَّة والصهيونيَّة.

وهكذا استطاع الماسون أن يكتسحوا النصرانيَّة وأن يتركوا كنائسها أماكن خربة شامخة البناء ولكنها عديمة التأثير بعد أن أفقدوا الناس الثقة فيها وشغلوهم عنها بالملاهي الجديدة[١].

---

(١) انظر: الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٤٠ - ٤٢)، موقف المسيحية والإسلام من الماسونية، إبراهيم فؤاد عباس.

الفصل الثامن

الماسونيَّة والمسلمون

من نتائج الماسونيَّة في أول الإسلام

١- عمل المؤامرة لقتل الخليفة الثاني.

٢- اختلاق الأكاذيب على الخليفة الثالث وعمَّاله.

٣- تزوير المكاتيب وقلب الحقائق.

٤- العبث بعقول الأحزاب حتى أنشئوا فيهم الخوارج والنواصب.

٥- نشر التجهم بفروعه المختلفة من جهميَّة ومعتزلة وقدريَّة وغيرهم هذا إلى جانب القرامطة والباطنيَّة في نواحٍ أخرى.

٦- دعم الفرقة التي قامت على يد ميمون بن ديصان وولده عبد الله وقد قام هذا الرجل بدور خطير في تزييف الأحاديث ونشر الإباحيَّة في الناس في الوقت الذي تمسح فيه بمحبَّة آل البيت والتشيع لهم، ونسب نفسه للإسماعيليَّة وكان من تعاليم هذا الماسونيِّ: إنَّ الأديان والأخلاق ليست ضلالا وسخرية وأنَّ ما بقي البشر -أو الحمر كما يسميهم- ليسوا أهلًا لفهم هذه التعاليم.

٧- أكاذيبهم على الأمويين والتعاون مع الأعاجم على الإطاحة بهم حتى تسنَّى لهم ترويج هذه المذاهب وما عملوه في زمنهم من إبراز المختار الكذاب ونحوه كما ضبطه صاحب كتاب (تاريخ الجمعيَّات السرِّيَّة والحركات الهدامة في الإسلام)

٨- العمل على إضرام نيران الحروب التتريَّة والصليبيَّة وإبراز من يخدمها ويمد للغزاة سبيل الفتك كالنصير الطوسي وابن العلقمي وغيرهم على نصارى الشرق وإثارة النعرة فيهم ليتعاونوا مع إخوانهم الغزاة ضد المسلمين ويتجسسوا لهم ويدلوهم على كل طريق كما قرره قادة الغزو في ثنائهم على نصارى العرب، عكس ما يزعمه أتباع (جورج حبش) ونحوه من القوميين عن جهل أو تضليل.

٩- جرّوا أوغاد المسلمين بالتقليد إلى محاربة دينهم، بسبب قيام الثورة الفرنسيَّة على حكم الكنيسة الذي هو من أوضاعها المقصودة لإشقاء الناس ومحاربة العلم والمخترعين ليتم لهم ما يريدونه من حرب الدين واقتلاعه من النفوس.

وحدث هذا دون النظر إلى الفوارق العظيمة بين الدين الإسلامي ودين الكنيسة وطالما يستغلون عبث السياسة وتلاعب الموظفين تحت الاستبداد لنيل أغراضهم من الإسلام وأهله كأنَّهم إذا حكموا حولوا الدنيا إلى جنات الفردوس.

١٠- لعبت الماسونيَّة دورًا خطيرًا في القضاء على الخلافة الإسلاميَّة حيث جنَّدت في صفوفها

حزب تركيا الفتاة واستخدمت يهود سالونيك في إثارة القلاقل للسلطان عبد الحميد الذي رفض رفضًا قاطعًا دخول اليهود إلى فلسطين على الرغم من ضخامة العرض الذي عرضه عليه الماسوني قره صوه.

وساعدت الماسونيَّة كمال أتاتورك على الوصول إلى الحكم وإلغاء الخلافة الإسلاميَّة بذلك فتح الطريق أمام اليهود للعودة إلى فلسطين.

وما زالت الماسونيَّة تقوم بدور الحرب الخفيَّة ضد الإسلام وتنشر أوكارها وروافدها الجديدة في كلِّ دول العالم الإسلاميّ خصوصًا بعد أن انكشف دورها وافتضح أمرها وأغلقت محافلها في معظم بلدان العالم الإسلامي فقد حاولت أن تظهر من جديد ولكن تحت أسماء جديدة ووجوه مختلفة وأثواب متباينة، مثل: الروتاري والليونز وبني برث والمائدة المستديرة والكيواني والاكتشانج والإخاء الديني والسوروبتمست وجمعيَّة أنصار السلام[١].

(١) انظر: الماسونية، لعبد الرحمن الدوسري ص(٢)، الماسونيَّة في أثوابها المعاصرة ص(٤٢- ٤٦).

الفصل التاسع

الماسونيَّة والصهيونيَّة

الذي يقرأ تاريخ الماسونيَّة والصهيونيَّة معًا يتولد لديه من البداية شعور بأنَّهما شيء واحد، وهذه هي الحقيقة فكلاهما يدعو للآخر.

إنَّ الدراسات والمعلومات التي وصل إليها علماء التاريخ والاجتماع والسياسة تؤكد أنَّ الحركات الماسونيَّة لها علاقة بإسرائيل وبالصهيونيَّة العالميَّة، وهناك عدة دلائل منها:

١- أنَّ كلًا منهما يرسم في الظلام ويخطط في السرِّ ويعمل من وراء الستار ويراقب في الخفاء، كما هي عادة المجرمين الذين يفكرون في الجريمة وينفذونها في السرِّ.

٢- أنَّ الماسونيَّة والصهيونيَّة وليدة شرعيَّة لليهوديَّة تستمد منها أصولها من التلمود وتنفذ تعليماته، وتعمل لها في السرِّ والخفاء.

٣- تتفق الماسونيَّة مع الصهيونيَّة في عداء كلٍّ منهما للأديان غير اليهوديَّة، ويجب التذكير هنا بأنَّ منظِّر الماسونيَّة الحديثة الأول -جيمس أندرسون- كان يهوديًّا .. وقد انضمَّ اليهود -كما هو معلوم- إلى الماسونيَّة في القرن التاسع عشر...، ويعترف محرر مادة الماسونيَّة في دائرة المعارف اليهوديَّة مفاخرًا بأنَّ اليهود هم أول من أدخلوا الماسونيَّة إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

٤- أن اسم هذه الحركة الماسونيَّة تعني (البناءون) إشارة إلى محاولة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى الشريف وهو هدف الصهيونيَّة العالميَّة.

٥- المطرقة والميزان وآلات النجارة التي تستعملها هذه المحافل هي رمز هدم هيكل سليمان وإعادة بنائه.

٦- ومن الأشياء التي تثبت العلاقة بين الماسونيَّة والصهيونيَّة أو اليهوديَّة بعض الرموز التي تتبع في الطقوس الماسونيَّة من كلمات مثل: بوغز: وهو رمز لأحد أجداد سليمان عليه السلام.

جيكين: وهو ابن شمعون بن يعقوب.

شبولت: معناها سنبلة.

ومن الأسماء مثل: فالج بن عابر: الذي يزعم اليهود أنَّهم من نسله.

نواح بسائيل: الذي صنع لموسى تابوت العهد.

أوبيل: الذي قاد الشعب مع زروبابل من السبي البابلي إلى أرض كنعان.

٧- والتقويم عند الماسون هو نفسه تقويم اليهود.

٨- أن المحافل الماسونيَّة في جميع أنحاء العالم تضع على واجهتها في غاليبَّة مراكزها نجمة داود

وهي شعار الكيان الصهيوني، كما أنَّ اللون الأزرق الذي تطلى به مباني المحافل هو لون علم الكيان الصهيونيِّ.

٩- الشمعدان السباعي -وهو أساس في معابد اليهود- يوجد في جميع المحافل الماسونيَّة، وهو يرمز -بصفة أساسيَّة- إلى السنين السبع التي أتَمَّ فيها سليمان بناء المعبد.

١٠- توجد في محافلهم أيضًا حيَّة مثلثة الرأس ينصبون لها تمثالًا وترمز إلى التنين الذي يجب على الماسوني قطع رءوسه الثلاثة «السلطة الدينيَّة - السلطة المدنيَّة - السلطة العسكريَّة» التي لا تؤيِّد اليهوديَّة العالميَّة، وهناك رموز أخرى كثيرة، وما ذكرناه هو أهمها.

١١- منظِّر الماسونيَّة الحديثة الأول هو جيمس أندرسون كان يهوديًا وقد نظم اليهود إلى المحافل الماسونيَّة في منتصف القرن الثامن عشر لا في إنجلترا وحدها وإنَّما في هولندا وفرنسا وألمانيا وفي سنة ١٧٩٣م أسس يهود لندن محفلًا ماسونيًا أطلقوا عليه اسم: محفل الكيان الصهيوني.

١٢- ويرى بعض الباحثين في مجال الماسونيَّة أنَّ المؤتمر الصهيونيَّ الأوَّل الذي عُقد في بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧، هو مؤتمر ماسوني، ويستندون في هذا الرأي إلى مقتطفات جاءت في خطاب تيودور هيرتزل عندما قال: عندما تخمد نيران الثورة التي نقوم بها جميعًا في سائر البلدان، وينتج عنها حتمًا سقوط الحكومات القائمة تحل سلطتنا محلَّها، عندئذ نأمر الجميع بحلِّ الجمعيَّات السريَّة القائمة، وهي كما تعلمون تضمُّ إلى جانب ما تضمُّه من جهابذة الماسونيَّة (اليهود) رجالًا من الخوارج (غير اليهود) وتصبح السلطة في أيدينا نكون قد بلغنا المرام فلا نعد بحاجة إلى شعارات الحريَّة والإخاء والمساواة؛ لأنَّها أدَّت الرسالة المطلوبة منها.

١٣- لعبت الماسونيَّة دورًا هامًا في إنشاء دولة الكيان الصهيوني منذ بداية ظهور المشروع الاستيطاني الاستعماري على أرض فلسطين وفي الكثير من الأحداث التي وقعت هنا وهناك نورد ما يلي:

- قامت الجمعيَّات الماسونيَّة بدور بارز في شراء الأراضي على أرض فلسطين حين قامت بإنشاء أكبر محافلها في مدينة القدس تحت مسمَّى جمعيَّات خيريَّة تهدف لمساعدة الضعفاء وذلك في عهد الدولة العثمانيَّة في أواخر القرن التاسع عشر.

- أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي التركيَّة التي عملت على خلع السلطان عبد الحميد الثاني العثماني كلّهم من الماسون وقد سعت تلك الجمعيَّة إلى إحداث مجازر في الوطن العربي بعد تسلمهم السلطة وإلغائهم للخلافة الإسلاميَّة ولا يزال دورهم بارز في محاربة الإسلام في تركيا وتحويلها إلى دولة علمانيَّة ومحاربة حجاب المرأة وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف تحت مسمَّى حفظ التراث.

١٤- ترتبط الماسونيَّة بعلاقات وثيقة ببعض المذاهب الخارجة عن الإسلام من أشهرها البهائيَّة اتَّضح ذلك من بعض الرموز التي تستند إليها البهائيَّة في تعاليمها وعلاقتها بالأبجديَّة العبريَّة ويتمتع أعضاء البهائيَّة بكل الحفاوة والاحترام من قبل يهود العالم خاصَّة في الكيان الصهيونيِّ حيث يوجد

في مدينة حيفا الفلسطينيَّة أكبر محفل بهائيٍّ ضخم (البيت العالمي للعدالة) وبالقرب منه في مدينة عكا يوجد مقرٌّ آخر.

١٥- للماسونيَّة محافل كثيرة في بعض الدول العربيَّة والكثيرون من أعضاء تلك المحافل مؤيدون بشكلٍ كبير لسياسة الصهيونيَّة ويدعمون مخططها.

١٦- إنَّ جميع البروتوكولات الأربعة والعشرين تؤكد نصًا أو ضمنًا أن الماسونيَّة واحدة من بنات أفكار اليهود، ومن النصوص التي تبيِّن دور المحافل الماسونيَّة في العمل لخدمة الصهيونيَّة العالمية: ما جاء في البروتوكول الثالث حيث يقول: إنّ المحافل الماسونيَّة تقوم في العالم أجمع دون أن تشعر بدور القناع الذي يحجب أهدافنا الحقيقيَّة، على أنَّ الطريقة التي ستستخدم بها هذه القوَّة في خطتنا، بل في مقرِّ قيادتنا لا زالت مجهولة من العالم بصفة عامَّة.

وفي البروتكول الرابع: إنَّ المحفل الماسوني المنتشر في كلِّ أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا.

وفصَّل البروتوكول الحادي عشر الأهداف التي ترمي إليها الصهيونيَّة من إفساح المجال لغير اليهود للانضمام إلى المحافل الماسونيَّة. فقد جاء فيه: ما هو السبب الذي دفعنا إلى أن نبتدع في سياستنا ونثبِّت أقدامنا عند غير اليهود، لقد رسَّخناها في أذهانهم دون أن ندعهم يفقهون ما تبطن من معنى، فما هو السرُّ الذي دفعنا إلى أن نسلك هذا المسلك، اللهمَّ إلَّا أننا جنس مشتَّتٌ وليس في وسعنا بلوغ غرضنا بوسائل مباشرة، بل بوسائل مباشرة فحسب. هذا هو السبب الحقيقيّ لتنظيمنا الماسونيَّة التي لم يتعمق هؤلاء الخنازير من غير اليهود في فهم معناها، أو الشك في أهدافنا، إنَّنا نسوقهم إلى محافلنا التي لأعداد لها ولا حصر، تلك المحافل التي تبدو ماسونيَّة فحسب، كي نذر الرماد في عيون رفاقهم.

وأهمُّ ما جاء في البروتوكولات بخصوص علاقة الماسونيَّة بالصهيونيَّة: ما جاء في البروتوكول الخامس عشر: وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أنَّ ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيِّين الأحرار في جميع أنحاء العالم. وسنجذب إليها كلَّ من يصير أو من يكون معروفًا بأنَّه ذو روح عامَّة، هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسيَّة التي سنحصل من خلالها على ما نريد من أخبار، كما أنَّها ستكون أفضل مراكز الدعاية وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا، هذه القيادة من علمائنا وسيكون لها أيضًا ممثلوها الخصوصيُّون كي تحجب المكان الذي تقيم فيه قيادتنا حقيقة.

ويضيف هذا البروتوكول يقول: ومن الطبيعي أننا كنَّا الشعب الوحيد الذي يعرف أن يوجهها، ونعرف الهدف الأخير لكلِّ عملٍ على حين أنَّ الأميين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الأشياء الخاصَّة بالماسونيَّة، ولا يستطيع رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون.

بهذا يتضح بأنَّ الماسونيَّة تتحرك بتعاليم الصهيونيَّة وتوجيهاتها وتخضع لها زعماء العالم

ومفكريه، فترتبط الماسونيَّة بعلاقة وثيقة بالصهيونيَّة في كونها الوجه الخفي للحركة الصهيونيَّة، كما وأنَّها أقدم منها في التخطيط وبناء الأهداف ليصل يهود العالم على حد اعتقادهم إلى حكم العالم بأسره.

ولكن ربما اختلفت الماسونيَّة عن الصهيونيَّة من بعض الوجوه:

١- الماسونيَّة منظَّمة أو جمعيَّة تضم في أعضائها غير اليهود بهدف الاستفادة من نشاطهم لصالح يهود العالم بينما لا يسمح بالانضمام إلى الصهيونيَّة إلا اليهود فقط.

٢- الصهيونيَّة يهوديَّة بحتة في شكلها وأسلوبها ومضمونها وأشخاصها، في حين أنَّ الماسونيَّة يهوديَّة مبطنة تظهر شعارات إنسانيَّة عامَّة، وقد ينطوي تحت لوائها غير اليهود من المخدوعين والنفعيين.

٣- الصهيونيَّة حركة دينيَّة سياسيَّة معلنة تخدم اليهود بطريق مباشر فهي الجهاز التنفيذيّ الشرعي والرسمي لليهوديَّة العالميَّة.

في حين أنَّ الماسونيَّة حركة علمانيَّة إلحاديَّة سريَّة تخدم اليهود بطريق غير مباشر، فهي القوّة الخفيَّة التي تهيئ الظروف والأوضاع لليهود[1].

(١) انظر: أضواء على الصهيونية لعلي السعدني، وغيره من الكتب والمقالات.

الفصل العاشر

الماسونيَّة والأمم المتَّحدة

لما كانت مهمَّة الماسونيَّة هدم الأديان سوى دين اليهود والقيام بتزييفها وطمسها من جهة ومن جهة أخرى العمل الدائب لإعلاء اليهود وانتصارهم ونفوذ كلمتهم، فقد عملت الماسونيَّة التي هي القوة الخفيَّة على تركيزهم في المناصب الممتازة لأنَّ غايتها القصوى تمكين اليهود من الاستيلاء على العالم فهي أساس أعمالهم.

وقد ركزت عددًا هائلًا من اليهود في عصبة الأمم سابقًا وهيئة الأمم المتَّحدة أو مجلس الأمن لاحقًّا كما دل على ذلك مضابط المحفل الأكبر للماسونيَّة.

وهذه أهم أسماء الأشخاص الذي ركزتهم الماسونيَّة في أهم المراكز العالميَّة الحساسة:

١- هيئة الأمم المتَّحدة: في مكتب السكرتارية أهمّ شعبة فيه قد تمركز فيه اليهود.

٢- الدكتور إج إس بلوك رئيس قسم التسلح، فلاحظوا مبلغ الخطر يا أحبابي.

٣- انتوني كولات. للأمور الاقتصاديَّة.

٤- أنس كارروز نبرغ: المستشار الخاص للشئون الاقتصاديَّة.

٥- دايف وانتراوب: رئيس قسم الميزانيَّة.

٦- رئيس قسم الخزائن والواردات (كارل لاجن).

٧- معاون سكرتير الشئون الاجتماعيَّة (هنري لانكير) كل هؤلاء يهود.

٨- رئيس قسم المواد المتبادلة (الدكتور ليون استبنك) يهودي.

٩- رئيس قسم حقوق الإنسان (الدكتور شيكويل يهودي) فما أبعد الإنسانيَّة عن نيل حقوقها من اليهود.

١٠- رئيس دائرة مراقبة البلاد غير المستقلة (إج أي ويكوف) يهودي ولهذا لا تحصل بلاد على استقلالها حتى يستكمل المسخ الفكريّ لأهلها من جهة وحتى يتسلم البلاد من المستعمر من يحكمها بأخبث من حكمه وأشنع ولو بتصارع جبهات لا يرتفع فيها إلا الذي يرضاه المستعمر خلفًا له كما جرى في كثير من البلدان آخرها (عدن).

١١- مساعد السكرتير العام لقسم الاستعلامات العامة (بنيامين كوهين) يهودي.

١٢- رئيس قسم الأفلام (جي بنيوت ليفي) يهودي فلا تستنكر ما تراه في عالم الأفلام من الخلاعة والمجون وإثارة الغرائز وغلبة الوقاحة ما دامت الرئاسة لليهود.

١٣- مساعد السكرتير العام لشعبة القوانين (الدكتور إيفان كرو) يهودي ولهذا ينشأ في كلِّ بلدة

من أبنائها من يحبذ القوانين الغربيَّة ويسخر من الشريعة السماويَّة.

١٤- رئيس الشعبة القانونيَّة (إبراهام إج فيلر) يهودي.

١٥- مشاور شعبة القانون الدولي (جي ساند برك) يهودي.

١٦- رئيس قسم المطبوعات (دافيد زايلود ويسكي) يهودي.

١٧- رئيس قسم المترجين (جرجو رابنو فيج) يهودي.

١٨- رئيس قسم التصاميم (مرسيدس بركمن) يهودي.

فانظر إلى مدى خطر هذا الموظَّف اليهودي الذي ركزته الماسونيَّة في هذا المنصب لأنَّ جميع طلبات الانتماء لوظائف هيئة الأمم المتَّحدة تُقبل أو تُرفض من قبل هذا المدير بهذه المديريَّة وبلا شكٍّ يُقبل كل متقدم للوظيفة هنا من اليهود الخبثاء ويُرفض ما سواهم وبهذا يزداد عددهم في أخطر مؤسسة عالميَّة.

١٩- رئيس قسم المراجعات (الدكتور أي سنجر) يهودي وله تأثير أيضًا.

٢٠- رئيس أطبَّاء قسم الصحَّة العالميَّة (باول رادزر بانكو) يهودي.

٢١- رئيس قسم الاستخبارات لمركز جنيف (جرزي شيزو) يهودي.

٢٢- رئيس قسم الاستخبارات لمركز الهند (بي ليكفر) يهودي.

٢٣- رئيس قسم الاستخبارات لمركز الصين (هنري فاست) يهودي.

٢٤- رئيس قسم الاستخبارات لمركز وارشو (الدكتور جولويس سناويسكي) يهودي.

٢٥- رئيس الأقسام الداخليَّة والدوليَّة لهيئة الأمم المتَّحدة (دافيد - أي موريس) واسمه الحقيقيّ (موسكو فيج) يهودي.

٢٦- مساعد لهذا هو (النمن) يهودي بولوني.

٢٧- مساعد آخر (دايفيد زلباخ) يهوديّ أميركي.

٢٨- مساعد ثالث للمذكور آنفًا (فينست) يهودي بلجيكي. هؤلاء يسيطرون على هذا القسم.

٢٩- رئيس الأقسام الداخليَّة لمنطقة خط الاستواء (في. كبريل كارسز) يهودي.

٣٠- مخابر بولونيا لشعبة الأقسام الداخليَّة (جان روزنر) يهودي.

الرؤساء المسيطرون على هذه الأقسام الهامَّة في هيئة الأمم المتَّحدة كلهم من اليهود.

٣١- رئيس شعبة التغذية والزراعة (اندري مايس) يهودي.

٣٢- الممثل الدانماركي في شعبة التغذية والزراعة (أي بي جاكوين) يهودي.

٣٣- الممثل الهولندي في شعبة التغذية والزراعة (إي فريس) يهودي.

٣٤- رئيس شعبة التعمير (إم. إم ليمين) يهودي.

٣٥- رئيس شعبة التعايش (كيروا كاردوس) يهودي.

٣٦- رئيس شعبة المتفرقات (بي كاردوس) يهودي.

٣٧- رئيس شعبة الاقتصاد التحليلي (إم. ازاكل حسقل) يهودي.

٣٨- المشاور الفني لشعبة الغابات (جي بي كاكان) يهودي.

٣٩- رئيس شعبة صيانة الغابات (إم أي هاريرن) يهودي.

٤٠- رئيس قسم التغذية (جي مار) يهودي.

٤١- رئيس قسم الإدارة (إف رسل).

فهؤلاء عشرة رؤساء في أقسام هامَّة من تغذية العالم التابعة لهيئة الأمم كلُّهم من اليهود فيا له من خطر.

٤٢- رئيس لجنة التبادل الخارجي لمنظمة اليونسكو للتعليم والثقافة (ألف سومر فيلد).

٤٣- رئيس لجنة تنظيم الثقافة العالميَّة (جي إترنهارد) يهودي. وهذان اليهوديان هما المحوران الأساسيَّان في شعبة التعليم والثقافة.

٤٤- رئيس شعبة الثقافة العالمية (إم. لافهن) يهودي.

٤٥- رئيس قسم الاستعلامات العام (إج كابلن) يهودي.

٤٦- رئيس قسم الميزانية والإدارة (سي إج ويتز) يهودي.

٤٧- رئيس شعبة الذاتية باليونسكو (إس سامول سيليكن) يهودي.

٤٨- رئيس شعبة الإيواء والسياحة (بي أبرايسكي) يهودي.

٤٩- رئيس مكتب الهيئة والتعيين (بي ويرمل) يهودي.

٥٠- رئيس المصلحة الفنية لشعبة صحاري آسيا (الدكتور أي ويلسكي) يهودي.

فهؤلاء تسعة ركائز كبار مترئسين في منظمة اليونسكو التي يعتمد عليها أدعياء العروبة تارة والإسلام تارة.

٥١- المدير الاقتصادي لبنك الإعمار الدولي (ليونارد بي رست) يهودي.

٥٢- الممثل الشيكوسلفاكي في مجلس شورة الإدارة (ليوبولد جيمله) يهودي.

٥٣- عضو الشورى لمجلس الإدارة (أي بولاك) يهودي.

٥٤- الممثل الهولندي في مجلس شورى الإدارة (أي إم جونك) يهودي.

٥٥- الممثل الفرنسي في هذا المجلس (بي. منديس) يهودي.

٥٦- ممثل بيرو في هذا المجلس (جي إم برنليس) يهودي.

٥٧- سكرتير بنك الإعمار الدولي (إم. إم منلس) يهودي.

٥٨- ممثل يوغسلافيا في مجلس شورى الإدارة (وي إبراموفيج) يهودي.

فهؤلاء ثمانية متمركزون في بنك الإعمار الدولي بأهمِّ المراكز.

٥٩- المدير العام لمؤسسة صندوق النقد الدولي (كميل كات).

٦٠- معاون المدير العام (لويس آلتمن) يهودي.

٦١- مدير قسم التدقيق (إي إم برنستن) يهودي.

٦٢- المشاور العام للمؤسسة (ليوليفا نفاك) يهودي.

٦٣- المشاور الأقدم للمؤسسة (جوزيف كولد) يهودي.

٦٤- العضو الشيكوسلوفاكي في هيئة الإدارة (جوزيف كولوهن) يهودي.

٦٥- الممثل الفرنسي في هيئة الإدارة (بي. منديس) يهودي.

فهؤلاء تسعة ركائز من اليهود في مؤسسة خطيرة تعتبر العمود الفقري لهيئة الأمم المتَّحدة.

٦٦- المدير العام لمؤسسة الصحة العالميَّة (أي زارب) يهودي.

٦٧- رئيس قسم الطب (جي. ماير) يهودي.

٦٨- المدير العام لقسم الجراحة (دكتور إم كودمز) يهودي.

٦٩- مدير قسم إدارة الطب والماليَّة (إم سنسكل) يهودي.

٧٠- رئيس الشعبة الفنيَّة (زت دوستجن) يهودي.

فهؤلاء خمسة في مؤسسة الصحَّة العالميَّة التي هي من أعظم المرافق متمركزون فيها.

٧١- رئيس اللجنة الداخليَّة في مؤسسة التجارة العالميَّة (ماكس لونتز) يهودي.

٧٢- رئيس قسم الاستعلامات الدوليَّة (إف سي وولف) يهودي.

فهؤلاء الذين ضُبطت أسماؤهم منذ عشرين سنة تقريبًا قد تمركزوا واحتلُّوا الصدارة في أعظم المؤسسات العاليَّة، وأخطرها وإذا كانوا قد بلغوا هذا العدد الهائل في أول وهلة فقد يتضخم عددهم ويتضاعف.

يقول «وليام غاي كار»: والدليل على سيطرة القوى الخفية الماسونيَّة على «الأمم المتَّحدة»، وتمكنهم من تنفيذ مخططاتهم عبرها؛ هو أنَّ الأمم المتَّحدة سلمت فلسطين إلى الصهيونيَّة السياسيَّة، بعدما كان الصهيونيُّون يسعون وراء ذلك لمدة نصف قرن من الزمان[1].

---

(١) الماسونية، عبد الرحمن الدوسري ص(٧- ١١).

الفصل الحادي عشر
ابناء العهد (بناي برث)

التعريف:

بناي برث: جمعيَّة من أقدم الجمعيَّات والمحافل الماسونيَّة المعاصرة وذراع من أذرعتها الهدَّامة، ولا تختلف عنها كثيرًا من حيث المبادئ والغايات، إلَّا أنَّ عضويتها مقصورة على أبناء اليهود، وخدمتها موجهة أساسًا لدعم الصهيونيَّة في العالم، والتقاط الأخبار واحتلال مراكز حساسة في الدول، ولهذه الجمعيَّة فروع منتشرة في جميع أنحاء العالم، وهي مكلفة بدراسة نفسيَّة كلِّ قائدٍ أو سياسيٍّ أو زعيمٍ أو أي شخصيَّةٍ عامَّةٍ للاستفادة من جوانب الضعف فيها.

التاريخ والأحداث

تأسست هذه الجمعيَّة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في مدينة نيويورك في ١٣/ ١٠/ ١٨٤٣م بصفة رسميَّة بعد أن حصل اثنا عشر يهوديًا هاجروا من ألمانيا برئاسة هنري جونيس (جونز) على رخصة رسميَّة بذلك.

وقد اتخذت الجمعيَّة من مدينة نيويورك مقرًّا لها ومنها انتشرت وتأسست فروع لها في جميع أنحاء الكرة الأرضيَّة.

وشعارها الشمعدان وهو شعار يهوديٌّ دينيٌّ قديم.

منذ سنة ١٨٦٥م والجمعيَّة تسعى لأن تكون لها وجود في فلسطين، وفي سنة ١٨٨٨م تأسس أول محفل لها، ولغة العمل الرسميَّة فيه هي اللغة العبريَّة، ومن أبرز شخصياته: ناحوم سوكولوف، دزنكوف، حاييم نحمان، دافيد يلين، مائير برلين، حاييم وايزمن، وجادفرامكين.

لقد عملوا على تأسيس مستعمرات يهوديَّة صغيرة في فلسطين، وكانت موتسا أول قرية يؤسسونها عام ١٨٩٤م بالقرب من القدس مشكلين بذلك نواة الكيان الإسرائيلي الحالي.

اليهودي سيجموند فرويد عالم النفس الشهير (١٨٥٦-١٩٣٩م): انضمَّ عام ١٨٩٥م إلى هذه الجمعيَّة وكان مواظبًا على حضور اجتماعاتها.

في عام ١٩١٣م أسَّسوا جمعيَّة لمكافحة التشهير والإهانة وتشويه السمعة التي يتعرض لها اليهود في العالم.

فيليب كلوزنيك كان رئيسًا لهذه الجمعيَّة عندما عُيِّن في عهد الرئيس أيزنهاور رئيسًا للوفد الأمريكيِّ لدى الجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة.

جون فوستر دالاس: وزير خارجيَّة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عام ١٩٥٨م وهو نصرانيٌّ بروتستانتيٌّ شارك في الحفل الذي أقامته الجمعيَّة في ٨/ ٥/ ١٩٥٦م حيث قال في هذه المناسبة: إنَّ

مدنية الغرب قامت في أساسها على العقيدة اليهوديَّة في الطبيعة الروحيَّة للإنسانيَّة، ولذلك يجب أن تدرك الدول الغربيَّة أنَّه يتحتم عليها أن تعمل بعزم أكيد من أجل الدفاع عن هذه المدنيَّة التي معقلها إسرائيل.

إنَّ رؤساء الولايات المتَّحدة يثنون دائمًا على الأعمال التي تقوم بها هذه الجمعيَّة.

قامت المنظَّمة بعد إعلان قيام إسرائيل بتقديم إمدادات طبيَّة وملابس ومعدات وساهمت في إنشاء المكتبات وتشجير الغابات وتقوم بتصريف سندات إسرائيل وتجنيد العمال الفنيين في الولايات المتَّحدة وكندا لإسرائيل.

يتقلد زمام المنظَّمة رئيس ينتخب كل ٣ سنوات من قبل المحفل الأعلى الذي يتألف من ممثلي المحافل المحليَّة. وهناك لجنة إداريَّة ومدراء يشاركون في إدارة المنظَّمة أيضًا.

معتقدات وأفكار أبناء العهد

- الشعارات الظاهريَّة المعلنة:

١- حب الخير للإنسانيَّة والعمل على تحقيق الرفاهيَّة لها.

٢- مساعدة الضعفاء والعجزة وذوي العاهات وتقديم الدعم للمستشفيات الخيريَّة.

٣- افتتاح بيوت الشباب في جميع أنحاء العالم.

٤- الدفاع عن حقوق الإنسان.

٥- منع إهانة الجنس اليهودي.

٦- العطف على المضطهدين من اليهود.

٧- تطوير التبادل الثقافي والاهتمام بالاحتياجات الثقافيَّة والدينيَّة للطلاب اليهود، وذلك عن طريق مؤسسة The Hillel Foundation.

٨- التوجيه في مجال التدريب المهني.

٩- مساعدة ضحايا الكوارث الطبيعيَّة.

١٠- فتح حوار مع مسئولي الحكومات حول موضوعات الحقوق المدنيَّة والهجرة والاضطهاد.

- الأهداف الحقيقيَّة:

١- ضم شباب الإسرائيليِّين بعضهم إلى بعض للنظر في مصالحهم العموميَّة والمحافظة عليها وإعدادهم لأخذ فلسطين وطنًا لهم وبثّ الحماسة في نفوسهم لتحقيق ذلك.

٢- التصدي لمن يتعرض لليهود أو يحاول عرقلة جهودهم الرامية إلى تحقيق أطماعهم واتخاذ كافَّة السُّبل لمواجهته.

٣- تمويل عمليات الهجرة إلى إسرائيل وبيع سنداتها وتجميع الأموال اللازمة والمساعدات التي

تساعد على إدخال المهاجرين وزيادة طاقة إسرائيل العدوانيَّة، وإنشاء الشركات -لا سيَّما الأمريكيَّة- في إسرائيل في شتَّى المجالات وتسويق منتجاتها في مختلف بلدان العالم.

٤- الدعم العسكري لإسرائيل بصفة مستمرَّة وبصورة تدعو للدهشة والاستغراب في معرفة ما يلزم اليهود من المعدات العسكريَّة كمًّا وكيفًا ولتلك الجمعيَّة دور بارز في إنشاء المستوطنات العسكريَّة قبل قيام إسرائيل.

٥- تبرئة اليهود من دم المسيح حتى يتيسر لليهود تحقيق أهدافهم بعيدًا عن مناوأة المسيحيَّة لهم.

٦- التغلل في الأجهزة الحكوميَّة والتحكم في سياسات الحكومات وخصوصًا في أمريكا وبريطانيا، إذ تغلغلت في صميم الحياة الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة... إلخ.

٧- أن يكون الولاء أولًا وأخيرًا لإسرائيل بحيث يتجاوز الوطن الذي يعيش فيه اليهودي.

أفكار ومعتقدات أخرى:

١- إنَّهم يهود ولا يهمهم إلا إعلاء هذا العنصر ليسود العالم.

٢- دعم الماسونيَّة العالميَّة في خططها وبرامجها الهدَّامة.

٣- دعم الوجود الإسرائيلي في فلسطين، وتشجيع اليهود ليهاجروا إليها.

٤- العمل على تدمير الأخلاق والحكومات الوطنيَّة والأديان عدا اليهوديَّة.

٥- التعاون مع الماسونيَّة والصهيونيَّة لإشعال الحروب والفتن وقد كان لهم دور بارز في الحرب العالميَّة الأولى.

٦- قاموا بشن هجوم على هتلر وحكمه حينما جاء إلى الحكم سنة ١٩٣٣م.

٧- كان لهم دور خطير في التمهيد للحرب العالميَّة الثانية.

٨- التقاط الأخبار واحتلال المراكز الحساسة في الدول المختلفة، كما أنَّ لهم أنظمةً داخليَّة سرِّيَّة وشبكة من العملاء السريين.

٩- تغلغلت هذه الجمعيَّة في صميم الحياة الأمريكيَّة والإنجليزيَّة وتحكَّمت في شئون الاجتماع والسياسة والاقتصاد لهذين البلدين بخاصَّة.

١٠- إنَّهم يستخدمون المال والجنس والدعاية المركزة من أجل تحقيق الأهداف اليهوديَّة المدمرة.

١١- لقد عملوا على خطف أدولف إيخمان النازي الشهير في عام ١٩٦٠م من الأرجنتين إلى إسرائيل حيث أعدم هناك في ٣١/ ٥/ ١٩٦٢م.

١٢- التصدي لكلِّ من يحاول النَّيل من اليهود، واغتيال الأقلام التي تتعرض لهم حتى يخضع الجميع لهيبتهم.

١٣- إنَّها جمعيَّة لا تقدم خدماتها إلا لأبناء الجالية اليهوديَّة ولا تعمل إلا من أجل دعم تفوُّقهم

وسيطرتهم.

١٤- في الاجتماع الذي عقد في مدينة بازل بسويسرا ١٨٩٧م قال رئيس الوفد الأمريكي لجمعيَّة بناي برث: ولسوف يأتي الوقت الذي يسارع فيه المسيحيُّون أنفسهم طالبين من اليهود أن يتسلموا زمام السلطة.

١٥- حظيت بناي برث بتمثيل في الأمم المتَّحدة، وذلك من خلال عضويتها في المجلس التنسيقيّ للمنظمات اليهوديَّة.

علاقة أبناء العهد بالماسونيَّة

بعد انكشاف أهداف الصهيونيَّة ونشر بروتوكولاتهم وإغلاق الكثير من محافل الماسونيَّة، لجأ اليهود إلى تغيير الأسماء ووضعوا لافتات جديدة لنشاطاتهم مثل الروتاري والليونز وبناي برث، وهي جميعها حرب على الأديان وتخريب للمبادئ الإنسانيَّة السامية.

- فأبناء العهد منظَّمة يهوديَّة وبالتالي فإنَّ التلمود هو محور عقيدتها وتفكيرها.

- وبروتوكولات حكماء صهيون ركن أساسي في خططها وأهدافها.

- وطموحات الماسونيَّة الهدَّامة أمر مهمٌّ تعمل على تحقيقه وإنجازه.

الانتشار ومواقع النفوذ

- تأسست بناي برث في نيويورك وانتشرت محافلها في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا، وصارت لها في هذه الدول مواقع نفوذ قويَّة.

- امتدت فروعها إلى استراليا وأفريقيا وبعض دول آسيا، كما أنَّ لها نوادي في بعض البلدان الإسلاميَّة: الأردن، سوريا، لبنان، البحرين، المغرب، تونس، العراق، مصر، السودان.

- في مصر تأسس لها محفلان؛ أحدهما: محفل ماغين دافيد رقم ٤٣٦ وقانونه مطبوع باللغة العربيَّة، والآخر: محفل ميمونت رقم ٣٦٥ وقانونه مطبوع بالألمانيَّة، وقد تم حظر نشاطهما في الستينات، ولكن حدث أن التقى الرئيس المصري أنور السادات بوفد من المنظمة يضمُّ ٢٤ عضوًا باستراحة الرئيس بالمعمورة، كما استقبل الوفد د. مصطفى خليل رئيس وزراء مصر آنذاك (مايو عام ١٩٧٩م) وهكذا تلقَّى وفودها ترحيبًا في بعض الدول الإسلاميَّة[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٢٧- ٥٣١).

الفصل الثاني عشر

الروتاري

التعريف:

الروتاري: جمعيَّة ماسونيَّة يهوديَّة تضمُّ رجال الأعمال والمهن الحرة، تتظاهر بالعمل الإنسانيِّ من أجل تحسين العلاقات بين البشر، وتشجيع المستويات الأخلاقيَّة السامية في الحياة المهنيَّة، وتعزيز النية الصادقة والسلام في العالم.

وكلمة روتاري كلمة إنجليزيَّة معناها دوران أو مناوبة.

وقد جاء هذا الاسم لأنَّ الاجتماعات كانت تعقد في منازل أو مكاتب الأعضاء بالتناوب، ولا زالت تدور الرئاسة بين الأعضاء بالتناوب.

وقد اختارت النوادي شارة مميزة لها هي «العجلة المسننة» على شكل ترس ذات أربعة وعشرين سنًا باللونين الذهبي والأزرق وداخل محيط العجلة المسننة تتحدد ست نقاط ذهبيَّة، كل نقطتين متقابلتين تشكلان قطرًا داخل دائرة الترس بما يساوي ثلاثة أقطار متقاطعة في المركز وبتوصيل نقطة البدء لكلِّ قطر من الأقطار الثلاثة بنهاية القطرين الآخرين تتشكل النجمة السداسيَّة تحتضنها كلمتي «روتاري» و«عالمي» باللغة الإنجليزيَّة.

أما اللونان الذهبي والأزرق فهما من ألوان اليهود المقدَّسة التي يزينون بها أسقف أديرتهم وهياكلهم ومحافلهم الماسونيَّة، وهما اليوم لونا علم «دول السوق الأوربيَّة المشتركة».

التاريخ والأحداث

في ٢٣ من فبراير عام ١٩٠٥م أسس المحامي بول هاريس أول ناد للروتاري في مدينة شيكاغو بولاية ألينوي، وذلك بعد ثلاث سنوات من نشر بول هاريس لفكرته التي اقتنع بها البعض.

ويعتبر سليفر شيلر (تاجر الفحم) وغوستاف ايه لوهر (مهندس المعادن) وسيرام إي شورى (التاجر الخياط) بالإضافة إلى بول هاريس (المحامي) مؤسسي الحركة الروتارية وواضعي أسسها الفكريَّة بعد اجتماعات متكررة دوريَّة.

وقد عقد اجتماعهم الأول في نفس المكان الذي بني عليه فيما بعد مقرّ النادي الروتاري الذي يحمل اسم شيكاغو ١٧٧ اليوم.

ولم يقبل بول هاريس أن يرأس النادي في أوَّل عهده بل ترك رئاسته لأحد زملائه وهو سليفر ولم يقبل بول رئاسة النادي إلَّا في عام ١٩٠٨م.

وبعد ثلاث سنوات انضمَّ إليه رجل يدعى شيرلي د. بري الذي وسع الحركة بسرعة هائلة، وظل سكرتيرًا للمنظَّمة إلى أن استقال منها في سنة ١٩٤٢م.

توفي بول هاريس (المؤسِّس) سنة ١٩٤٧م بعد أن امتدت الحركة إلى ٨٠ دولة، وأصبح لها ٦٨٠٠ نادٍ تضمُّ ٣٢٧٠٠٠ عضوٍ.

. ثم انتقلت الحركة إلى دبلن بأيرلندا سنة ١٩١١م ثم انتشرت في بريطانيا بفضل نشاط شخص اسمه مستر مورو الذي كان يتقاضى عمولة عن كلِّ عضوٍ جديدٍ.

ثم تأسس نادي الروتاري في مدريد سنة ١٩٢١م ثم أغلق ولم يسمح له بمعاودة النشاط في كل أسبانيا والسويد.

الروتاري في الوطن العربي

لا يُدَوِّن الروتاري الدولي اسم فلسطين في سجلاته بل يذكر صراحة اسم إسرائيل ومن المعلوم أنَّ مصر وفلسطين الدولتان الأوليان في العالم العربي والإسلامي اللتان تأسس فيهما أول نادي للروتاي وذلك في عام ١٩٢٩م (نادي روتاري القاهرة ٢/ ١/ ١٩٢٩م)، نادي أورشليم (القدس) ١٩٢٩م أيضًا، كما أنَّهما أكثر عددًا (مصر أكثر من عشرين ناديًا، فلسطين أكثر من أربعين ناديًا).

وقد ارتبط تاريخ الروتاري في الوطن العربي بثلاث ظواهر:

١- بالاستعمار الغربي في نشأته وغالبيَّة أعضائه.

٢- بالطبقات الارستقراطيَّة وذوي النفوذ والمال.

٣- بنشاط شامل عام لجميع العالم العربي بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

- في الثلاثينات تم تأسيس فروع للروتاري في الجزائر ومراكش برعاية الاستعمار الفرنسي.

- يوجد في طرابلس الغرب فرع للروتاري ومن أعضاء مجلس الإدارة فيه المستر جون روبنسون والمستر فونت كريج.

- يعقوب بارزيف رئيس نادي الروتاي في إسرائيل عام ١٩٧٤م غادر إسرائيل في ١٤/ ٣/ ١٩٧٤م إلى مدينة تاور مينا بصقلية لحضور المؤتمر الذي ينظمه النادي الروتاري الإيطالي، وادعى أنَّه سيكون مؤتمرًا عربيًّا إسرائيليًّا لاشتراك وفود عدد من الدول العربيَّة مع وفد إسرائيلي.

- كان أول المتحدثين مختار عزيز ممثل النادي الروتاري التونسي ثم تكلم بعده يعقوب بارزيف اليهودي.

الروتاري في مصر

وقد انتشرت في مصر أندية الروتاري وخاصَّة في عواصم المحافظات والمدن الكبرى، والغرض الظاهري منها هو النظر في الشئون الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، بإلقاء المحاضرات والخطب والعمل على التقارب بين أتباع الديانات المختلفة، أما الغرض الحقيقي فهو أن يمتزج اليهود بالمجتمع باسم الإخاء والود، ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جمع المعلومات التي تساعدهم في تحقيق أغراضهم اقتصاديَّة كانت أو صناعيَّة أو سياسيَّة.

معتقدات وأفكار الروتاري

١- عدم اعتبار الدين مسألة ذات قيمة لا في اختيار العضو، ولا في العلاقة بين الأعضاء، ولا يوجد أي اعتبار لمسألة الوطن: يزعم الروتاري أنَّه لا يشتغل بالمسائل الدينيَّة أو السياسيَّة وليس له أن يبدي رأيًا في أي مسألة عامَّة قائمة يدور حولها جدال.

٢- تلقِّن نوادي الروتاري أفرادها قائمة بالأديان المعترف بها لديها على قدم المساواة مرتبة حسب الترتيب الأبجدي: البوذيَّة، النصرانيَّة، الكونفشيوسيَّة، الهندوكيَّة، اليهوديَّة، المحمَّديَّة... وفي آخر القائمة التأويزم (الطاوية الصيني).

٣- إسقاط اعتبار الدين يوفر الحماية لليهود ويسهل تغلغلهم في الأنشطة الحياتيَّة كافَّة، وهذا يتضح من ضرورة وجود يهودي واحد أو اثنين على الأقل في كلِّ نادٍ.

ومن شعائرهم: الأديان تفرقنا، والروتاري يجمعنا.

٤- عمل الخير لديهم يجب أن يتمَّ دون انتظار أي جزاء ماديٍّ أو معنويٍّ، وهذا مصادم للتصوُّر الديني الذي يربط العمل التطوعي بالجزاء المضاعف عند الله.

٥- لهم اجتماع أسبوعيٌّ، وعلى العضو أن يحرز ٦٠% من نسبة الحضور سنويًّا على الأقل.

٦- باب العضويَّة غير مفتوح لكلِّ الناس، ولكن على الشخص أن ينتظر دعوة النادي للانضمام إليه على حسب مبدأ الاختيار.

٧- التصنيف يقوم على أساس المهنة الرئيسيَّة، وتصنيفهم يضم ٧٧ مهنةً.

٨- العمال محرومون من عضويَّة النادي، ولا يختار إلا من يكون ذا مكانة عالية.

٩- يحافظون على مستوى أعمار الأعضاء ويعملون على تغذية المنظمة بدم جديد وذلك باجتلاب رجال في مقتبل العمر.

١٠- يشترط أن يكون هناك ممثل واحد عن كلِّ مهنة وقد تخرق هذه القاعدة بغية ضمِّ عضوٍ مرغوب فيه، أو إقصاء عضو غير مرغوب فيه، وقد نصَّت الفقرة الثالثة من المادة الرابعة من القانون الأساسي للروتاري الدولي على ما يلي:

- لا يجوز قبول أكثر من عضوٍ عاملٍ واحدٍ في تصنيف من تصنيفات الأعمال والمهن باستثناء تصنيفات الأديان ووسائل الإعلام والسلك الدبلوماسي ومع مراعاة أحكام اللائحة الداخليَّة الخاصَّة بالأعضاء العاملين الإضافيين.

١١- يشترط أن يكون في المجلس الإداري لكلِّ نادٍ شخص أو شخصان من رؤساء النادي السابقين أي من ورثة السرِّ الروتاري المنحدر من (بول هاريس).

١٢- تشارلز ماردن الذي كان عضوًا لمدة ثلاث سنوات في أحد نوادي الروتاري قام بدراسة عن الروتاري وخرج بعدد من الحقائق.

١٣- بين كلِّ ٤٢١ عضوًا في نوادي الروتاري ينتمي ١٥٩ عضوًا منهم للماسونيَّة مع الاستنتاجات جعل الولاء للماسونيَّة قبل النادي.

١٤- في بعض الحالات اقتصرت عضويَّة الروتاري على الماسون فقط كما حدث في أدنبرة - بريطانيا سنة ١٩٢١م.

١٥- ورد في محافل نانس بفرنسا سنة ١٨٨١م ما يلي: إذا كون الماسونيَّة جمعيَّة بالاشتراك مع غيرهم فعليهم ألَّا يدعوا أمرها بيد غيرهم، ويجب أن يكون رجال الإدارة في مراكزها بأيد ماسونيَّة وأن تسير بوحي من مبادئها.

١٦- نوادي الروتاري تحصل على شعبيَّة كبيرة ويقوى نشاطها حينما تضعف الحركة الماسونيَّة أو تخمد، ذلك لأنَّ الماسون ينقلون نشاطهم إليها حتى تزول تلك الضغوط فتعود إلى حالتها الأولى.

١٧- تأسست الروتاري عام ١٩٠٥م وذلك إبَّان فترة نشاط الماسونيَّة في أمريكا.

١٨- هناك عدد من الأندية تماثل الروتاري فكرًا وطريقة وهي: الليونز، الكيواني، الاكستشانج، المائدة المستديرة، القلم، بناي برث (أبناء العهد) فهي تعمل بنفس الصورة ولنفس الغرض مع تعديل بسيط وذلك لإكثار الأساليب التي يتم بواسطتها بثُّ الأفكار واجتلاب المؤيدين والأنصار.

بين هذه النوادي زيارات متبادلة، وفي بعض المدن يوجد مجلس لرؤساء النوادي من أجل التنسيق فيما بينها.

١٩- تتظاهر بالعمل الإنساني من أجل تحسين الصلات بين مختلف الطوائف، وتتظاهر بأنَّها تحصر نشاطها في المسائل الاجتماعيَّة والثقافيَّة، وتحقق أهدافها عن طريق الحفلات الدوريَّة والمحاضرات والندوات التي تدعو إلى التقارب بين الأديان وإلغاء الخلافات الدينيَّة.

أما الغرض الحقيقيُّ فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الودِّ والإخاء وعن طريق ذلك يصلون إلى جمع معلومات تساعدهم في تحقيق أغراضهم الاقتصاديَّة والسياسيَّة وتساعدهم على نشر عادات معينة تعين على التفسخ الاجتماعي، ويتأكد هذا إذا علمنا بأنَّ العضويَّة لا تمنح إلا للشخصيات البارزة والمهمَّة في المجتمع.

٢٠- تتخذ الناقوس والمطرقة شعارًا لها وتتخذ هذه المنظمة أسماء أخرى تعمل في ظلها مثل: لجنة الإنرهويل التي تختص بالسيدات وتضم مصر والأردن منطقة إنرهويل واحدة تحمل رقم ٩٥، ولجنة الروتاراكت ولجنة الانتراكت.

الروتاري والماسونيَّة

١- يوجد توافق كامل كبير بين الماسونيَّة والروتاري في مسألة (الدين والوطن والسياسة)، وفي

اعتمادهم على مبدأ (الاختيار) فالعضو لا يمكنه أن يتقدم بنفسه للانتساب ولكن ينتظر حتى ترسل إليه بطاقة دعوة للعضويَّة.

٢- القيم والروح التي يُصْبغُ بها الفرد واحدةٌ في الماسونيَّة والروتاري مثل فكرة المساواة والإخاء والروح الإنسانيَّة والتعاون العالميّ.

وهذه روح خطيرة تهدف إلى إذابة الفوارق بين الأمم، وتفتيت جميع أنواع الولاءات، حتى يصبح الناس أفرادًا ضائعين تائهين، ولا تبقى قوة متماسكة إلا اليهود الذين يريدون السيطرة على العالم.

٣- الروتاري وما يماثله من النوادي تعمل في نطاق المخططات اليهوديَّة من خلال سيطرة الماسون عليها الذين هم بدورهم مرتبطون باليهوديَّة العالميَّة نظريًّا وعمليًّا، ورصيد هذه المنظمات ونشاطاتها يعود على اليهود أولًا وآخرًا.

٤- إنَّ الروتاريين يستهدفون القضاء على المعالم الثقافيَّة والدينيَّة المتميزة لإيجاد بيئة واحدة تعمُّها الأفكار والمبادئ الروتاريَّة التي تستمد مفاهيمها من الحركة الماسونيَّة العالميَّة.

٥- ليس أدل على صلة الروتاري بالماسونيَّة من أنَّ رمزَ الماسونيَّةِ هو نفس رمز الروتاري وهو المثلثان المتقاطعان اللذان يكونان النجمة السداسيَّة والتغيير الوحيد هو أن هذه النجمة كانت في الماسونيَّة موضوعة داخل إطار على شكل ترس.

٦- تختلف الماسونيَّة عن الروتاري في أن قيادة الماسونيَّة ورأسها مجهولان على عكس الروتاري الذي يمكن معرفة أصوله ومؤسسيه، ولكن لا يجوز تأسيس أي فروع للروتاري إلا بتوثيق من رئاسة المنظمة الدوليَّة وتحت إشراف مكتب سابق.

الانتشار ومواقع النفوذ

- بدأت أندية الروتاري في أمريكا سنة ١٩٠٥م وانتقلت بعدها إلى بريطانيا وإلى عدد من الدول الأوربيَّة، وفروعها الرئيسيَّة في لندن وزيورخ وباريس وترتبط رئاسة كل منطقة روتاريَّة على مستوى العالم ارتباطًا مباشرًا بالمركز العام في إيفانستون عن طريق ممثلها العالمي في الأفرع الرئيسيَّة وقد غطَّت أندية الروتاري ١٥٧ دولة في العالم.

- المنطقة ٢٤٥ تضمُّ مصر، السودان، لبنان، الأردن، البحرين، قبرص، كما أنَّ لهذه المنظمة أكثر من أربعين فرعًا في إسرائيل، ولها نوادٍ في عدد من الدول العربيَّة كمصر أكثر من ٢٣ ناديًا، والأردن ناديان، وتونس والجزائر وليبيا والمغرب ١٣ ناديًا، ولبنان ٥ أندية، وتعدُّ بيروت مركز جمعيَّات الشرق الأوسط[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٣٢- ٥٣٦).

الفصل الثالث عشر

الليونز

التعريف:

الليونز: مجموعة نوادٍ ذات طابع خيريٍّ اجتماعيٍّ في الظاهر، لكنَّها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالميَّة التابعة للماسونيَّة التي تديرها أصابع يهوديَّة بغية إفساد العالم وإحكام السيطرة عليه.

التاريخ والأحداث

في صيف ١٩١٥م دعا مؤسس هذه النوادي ملفن جونس إلى فكرة إنشاء نواد تضم رجال الأعمال من مختلف أنحاء الولايات المتَّحدة، وكان أول نادٍ تأسس من هذا النوع في مدينة سانت أنطونيو - تكساس.

في مايو ١٩١٧م ظهرت المنظمة العالمية لنوادي الليونز إلى الوجود وقد عقدت اجتماعها الأول في شيكاغو حيث أقدم نوادي الروتاري هناك.

يعتقد بعض الدارسين أن هذا النادي تابع لنوادي بناي برث أي (أبناء العهد) الذي تأسس في ١٣/ ١٠/ ١٨٣٤م في مدينة نيويورك.

بصورة عامَّة فإنَّ هذه النوادي جميعًا تتبع بشكل أو بآخر منظمة البنَّائين الأحرار (الماسون).

لقد أنشئ نادي الليونز ليكون بديلًا عن النوادي السابقة في حالات انكشافها أو اضطهادها لما يتمتع به من مظهر اجتماعي إصلاحي خيري.

والليونز هو من الهيئات المنتشرة في كثير من دول العالم ومنها مصر، حيث يتناول أعضاؤه بالقاهرة الغذاء مرتين في الأسبوع إحداهما في فندق شيراتون القاهرة والأخرى بمنطقة الهرم.

معتقدات وأفكار الليونز

١- إن اسمهم (الليونز) أي (الأُسُود) إنما يرمز إلى القوّة والجرأة وحروف الكلمة بالإنجليزيَّة (Lions) كل منها يرمز لمعنى عندهم.

٢- تنهى كسائر النوادي الماسونيَّة عن المجادلة في الأمور السياسيَّة والعقائديَّة الدينيَّة.

٣- تتظاهر بالعمل في الميادين التالية:

- الدعوة إلى الإخاء والحريَّة والمساواة.
- الخدمات العلميَّة والثقافيَّة.
- تشجيع تبادل الزيارات والرحلات واللقاءات.

- نشر معاني الخير والتعاون بين الشعوب.
- تنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيدًا عن الروابط العقديَّة.
- الاهتمام بالرفاهية الاجتماعيَّة.
- العمل على نشر المعرفة بكلِّ الوسائل الممكنة.
- مساعدة المكفوفين والخدمات الاجتماعيَّة الأخرى.
- تخفيف متاعب الحياة اليوميَّة عن المواطنين.
- تقديم الخدمات إلى البيئة المحليَّة.
- إقامة المسابقات الترفيهيَّة وتشجيع اللقاءات وتبادل الزيارات والرحلات.
- دعم المشروعات الخيريَّة.
- دعم مشروعات الأمم المتَّحدة.

العضويَّة

شروط العضويَّة في هذه النوادي لا تختلف كثيرًا عن شروط العضويَّة في نوادي الماسونيَّة والروتاري.

ولكنَّها تمتاز عن النوادي الماسونيَّة بأنَّه يجوز لديهم بأن يمثل المهنة الواحدة أكثر من عضوين.

ولا يستطيع أي شخص أن يقدم طلب انتساب إليها، إنَّما هم الذين يرشِّحونه ويعرضون عليه ذلك إذا رأوا مصلحة لهم فيه.

ومن شروط قبول العضويَّة في أندية الليونز

١- يشترط أن يكون العضو من رجال الأعمال الناجحين.

٢- يشترط أن يكون مكان عمل العضو في ذات المنطقة التي فيها النادي.

٣- يفرض على كلِّ عضوٍ أن يحقق نسبة حضور في الاجتماعات الأسبوعيَّة لا تقل عن ٦٠% سنويًا.

٤- يمنعون منعًا باتًّا دخول العقائديين وذوي الغيرة الوطنيَّة الشديدة.

٥- يجتذبون الشباب والشابات بغية المحافظة على أدنى مستوى ممكن من الأعمار الشابة للمحافظة على حيويَّة النادي الدائمة فضلًا عن سهولة التأثير.

٦- يجتذبون السيدات من زوجات كبار المسئولين كما يسند إليهن مهمَّة الاتصال بالشخصيَّات الكبيرة، ولهن نوادٍ بهنَّ تسمَّى نوادي سيدات الليونز.

الهيكل التنظيمي

تتشابه أندية الليونز مع أندية الروتاري في وضع نظام شبه جغرافي يقسم العالم إلى عدد من

التكتلات حسب كثافة انتشار الأندية ولكلٍّ تكتل رقم خاصٌّ، ويتكون التكتل الواحد من دولة أو عدد من الدول ويسمَّى بالمنطقة أو المحافظة رقم، وترتبط رئاسة كلِّ منطقة من المناطق على مستوى العالم مباشرة بالمركز العام وتقع مجموعة الدول العربيَّة في المنطقة ٣٥٢ .

ويتكون كلُّ نادٍ من:

١- رئيس.

٢- نائب رئيس أو أكثر.

٣- سكرتير -وأمين صندوق.

٤- مجلس إدارة مؤلف من (١٢) عضوًا على أن يكون بينهم شخص أو اثنان من رؤساء النادي السابقين بهدف إحكام القبضة على المجلس كي لا ينحرف في أي مسار لا يريدونه لناديهم.

٥- لجان متنوعة تشكَّل من قبل المجلس لتشمل الأنظمة المختلفة.

خطورة هذه النوادي

- نشاطاتها الخيريَّة الظاهريَّة مصيدة تخفي وراءها أهدافها الحقيقيَّة.

- يتسمون بالتخطيط الدقيق، ويعملون على أساس من السريَّة في جمع المعلومات.

- يتعرفون على أسرار المهن من خلال لقاءاتهم مما يعطيهم قدرة على التحكم في السوق المحليَّة كما يعينهم على التدخل في الشئون الاقتصاديَّة للبلد.

- يجمعون المعلومات المتعلقة بالشئون السياسيَّة والدينيَّة للبلد الذي يعملون فوق أرضه ويرسلونها إلى مركز المنظمة العالمي التي تقوم بتحليلها ووضع الخطط اللازمة والمناسبة حيالها.

- إنَّهم يُقَسِّمون المنطقة التي يعملون فيها، ومن ثم يجب أن يغطى كل قسم بنشاطه القطاع المتعلِّق به.

- هناك غموض شديد يكتنف أسرارهم ومواردهم ووسائلهم.

- تضرب مجالس إدارات مناطق الليونز إجراءات أمن مشددة حولها.

- يرددون دائمًا شعار (الدين لله والوطن للجميع).

- الإسلام لديهم يقف على قدم المساواة مع الديانات الأخرى سماويَّة كانت أم بشريَّة هذا من حيث الظاهر، أمَّا الحقيقة فإنَّهم يكيدون له أكثر مما يكيدون لسواه.

- يركزون في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل وشعبها، كما يقومون بزراعة أفكار صهيونيَّة في عقول أعضائها.

- لقد عقدوا دورة في نوادي ليونز مصر الجديدة بالقاهرة للحديث عن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل.

- إنَّهم يقيمون حفلات مختلطة ماجنة راقصة تحت شعار (الحفلات الخيريَّة).

- لقد أصدر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة في مكَّة المكرمة بتاريخ ١٠ رمضان ١٣٩٨هـ قرارًا بَيَّنَ فيه أنَّ مبادئ حركات الماسونيَّة والليونز والروتاري تتناقض كليًّا مع مبادئ وقواعد الإسلام.

اللیونز والماسونيَّة

- إنَّ نوادي الليونز لا تخرج عن الدائرة الماسونيَّة التي تتبع لها، فالجذور إذًا واحدة.

- إنَّها تدعو إلى فكرة الرابطة الإنسانيَّة وإزالة العوائق بين البشر، كما هو الحال في دعوة الماسونيَّة.

- إنَّها تستمد جوهرها الحقيقي من الفكر الصهيوني.

- إن الليونز لافتة جديدة للماسونيَّة لجأ اليهود إليها عندما أغلقت المحافل الماسونيَّة، والحقيقة أن ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

الانتشار ومواقع النفوذ

- لهذه المنظمة نوادٍ في أمريكا وأوربَّا وفي كثير من بلدان العالم.

- ادَّعت نوادي الليونز في أوائل عام ١٩٧٠م بأنَّ عدد أعضائها يزيد عن (٩٣٤ ٠٠٠,) عضوٍ موزعين في (١٤٦) بلدًا.

- مركزها الرئيسي الحالي هو في أوك بروك بولاية الينوي في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

- نوادي الليونز والروتاري نشطت في مصر بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل.

- إنَّها تتخذ من الفنادق الضخمة مراكز لها كفندق السلام بمصر الجديدة وفندق هيلتون وشبرد وشيراتون.

- إنَّها ترصد مبالغ ضخمة كجوائز تقدم خلال حفلات تنمية الصداقة وحفلات الاهتمام ببعض المشروعات مما يضع إشارة استفهام حول طبيعة الموارد الماليَّة.

- أنَّها تباشر نشاطها في كثير من البلاد الإسلاميَّة مثل: مصر والأردن وسوريا ولبنان والبحرين والمغرب وتونس والعراق، وهم يعرضون أحيانًا بعض ما يسمونه نشاطًا اجتماعيًّا ويدَّعون أنَّهم يريدون به للمجتمع أن ينمو وفق نظام هندسيٍّ دقيقٍ تذوب فيه النعرات القوميَّة والعصبيَّات الجنسيَّة والاختلافات الدينيَّة، والحقيقة التي يجب ألَّا تخفى على مسلم هي أنَّهم جماعة مشبوهة، ويكتنفها الريب والشكوك، ويكفي أنَّها مدعومة من جهات خارجيَّة غير معلومة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٣٩- ٥٤٣).

الفصل الرابع عشر

الأنتراكت

التعريف:

هي نوادي اجتماعيَّة وثقافيَّة مرتبطة بمنظمة الروتاري الدوليَّة، التي تسيطر عليها اليهوديَّة العالميَّة والمنظمات الماسونيَّة، وتضمُّ هذه النوادي طلبة المدارس الإعداديَّة والثانويَّة.

التاريخ والأحداث

بتوجيه من مؤتمر الروتاري الدولي عام ١٩٦١م/ ١٩٦٢م، أنشئت أندية الأنتراكت من طلبة المدارس الإعداديَّة والثانويَّة، وتسمى: بأندية الطلائع ... وتتراوح أعمار الأطفال بين ١٤ و ١٨ سنة.

وقد دلت إحصائيَّة خاصَّة عن أندية الأنتراكت عن العام ١٩٨٣م/ ١٩٨٤م بأنَّه تم إنشاء ١٢١ ناديًا للأنتراكت بلغ عدد أعضائها من تلاميذ المدارس ٩٥١٥٠ عضوًا.

ويشرف على هذا العدد من أندية الأنتراكت: ٣٤٥٩ ناديًا للروتاري في ٧٩ دولة من مجموع الدول الروتاريَّة.

وفي سنة ١٩٨٦م صدرت عن المركز الرئيسي للروتاري بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة نشرة خاصَّة بعنوان: هذا الروتاري، جاء فيها عن الأنتراكت والروتراكت أنَّه أصبح لها أكثر من عشرة آلاف ناديًا في مائة دولة.

وقد أنشئت نوادي الأنتراكت في بعض البلاد العربيَّة منها: مصر... ولقد نشرت مجلة: أكتوبر... في تاريخ ١٦/ ١١/ ١٩٨٠م الحفل السنويّ لنادي الأنتراكت، الذي أقيم في نادي سبورتنج بالإسكندريَّة، وأحيت الحفلة فرقة البتي شاه الغنائيَّة الراقصة.

ولا توجد تحت أيدينا إحصائيات عن نوادي الأنتراكت في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة الأخرى.

معتقدات وأفكار الأنتراكت

١- إنَّ تخصيص هذه النوادي لرعاية الأطفال من ١٤ - ١٨ سنة يكشف المخطط الخطير الذي تسعى إليه منظمة الروتاري العالميَّة، للتأثير على الأطفال وصياغة تفكيرهم وسلوكهم وفق أهدافها الخبيثة، بعد أنَّ تمت السيطرة على الكبار من الرجال والنساء.

٢- ترفع هذه النوادي شعارات خادعة تلبس ثوبًا براقًا مثل التربية الحديثة، والرياضة، والثقافة. وقضاء أوقات الفراغ... وإعداد الطفل للمجتمع... إلخ.

وتخفي الهدف الحقيقي وهو إخضاع وتلقين الصغار مفاهيم روتاريَّة لاستخدامهم في المستقبل في

تنفيذ المآرب الصهيونيَّة الخبيثة.

٣- تنشأ هذه النوادي في حدود منطقة الروتاري، حيث توجد نوادي الكبار، كي يسهل السيطرة عليها ضمن خطط الروتاري للرجال، والأنرهويل للنساء.

٤- تنشأ هذه النوادي -على الأرجح- في المعاهد الخاصَّة التي تديرها الأقليَّات النصرانيَّة واليهوديَّة في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

٥- تقيم هذه النوادي حفلات غنائيَّة ومسرحيَّة خاصَّة بالصغار لما لهذه الوسائل من تأثير قوي فعال في الصغار.

٦- من أنشطة هذه النوادي إقامة الرحلات والمخيمات الخلوية.

علاقة الأنتراكت بالروتاري والماسونيَّة العالميَّة

- باعتبار أنَّ الأنتراكت تأسست من قبل نادي الروتاري، فإنَّ غرضها هو غرض نادي الروتاري الدولي، ذي الخلفية اليهوديَّة العالميَّة والمنظمات الماسونيَّة.

- وإنَّ جميع الأنشطة التي تقوم بها هذه الأندية تخدم في النهاية اليهوديَّة العالميَّة، باسم الإنسانيَّة، والثقافة، والإخاء بين الشعوب.

الانتشار ومواقع النفوذ

تأسست هذه النوادي في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بتوجيه من مؤتمر الروتاري الدولي سنة ١٩٦١م وانتشرت في أوربَّا، وصار لها فروع في معظم أنحاء العالم، ولها فرع في إسرائيل وفي بعض الدول العربيَّة مثل مصر والأردن ولبنان ودول المغرب العربي.

وتعمد إلى تثبيت انتماءات الشباب الغض للأفكار الماسونيَّة عن طريق منح السلام الدراسيَّة وتبادل الشبيبة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٥٠، ٥٥١).

الفصل الخامس عشر

الروتراكت (شباب الروتاري)

التعريف:

هي أندية اجتماعيَّة ثقافيَّة ترويحيَّة، مرتبطة بمنظمة الروتاري الدوليَّة التي تسيطر عليه اليهوديَّة العالميَّة والمنظمات الماسونيَّة.

وتضمُّ هذه النوادي طلبة الجامعات وخريجيها ممن لا يقل عمرهم عن ١٨ سنة، ولا يزيد عن ٢٨ سنة من الذكور أو الإناث أو من الجنسين حسب ما يقرره النادي الراعي.

ونادي شباب الروتاري منظَّمة يرعاها نادي الروتاري وتهدف -كما يزعمون- إلى تشجيع التمسك بالمستويات الخلقيَّة العليا في جميع الأعمال وتنمية القيادة والشعور بالمسئوليَّة عن طريق خدمة المجتمع وتعزيز التفاهم الدولي والسلام.

التاريخ والأحداث

في عام ١٩١٧م بدأ الروتاري يعني بشئون الشباب فأنشأ صندوقًا خاصًا لذلك الغرض، وأصبح هذا الصندوق فيما بعد نواة لهذه المؤسسة.

أوصى مؤتمر الروتاري الدولي عام ١٩٦٧م/ ١٩٦٨م بإنشاء أندية للشباب من طلبة الجامعات وخريجيها، ويسمح لأندية الروتاري بإنشاء أندية الروتراكت في حدود منطقتها لإتاحة الفرصة أمام الشباب للدراسة في بلدٍ غير بلده.

وقد دلت إحصائيَّة خاصَّة عن أندية الروتراكت عن العام الروتاري ١٩٨٣م/ ١٩٨٤م على أنَّه تم إنشاء ١٣٤ ناديًا في شتى أنحاء العالم هذا العام وحده، وقد وصل عدد الأندية في العالم ٤٣٠٥ ناديًا تتبع ٤٠١١ ناديًا من أندية الروتاري المنتشرة في ٩٠ دولة من دول الروتاري، ووصل عدد أعضاء الروتراكت إلى ٨٦٠٠٠ ستة وثمانين ألف عضوٍ.

أنشئت نوادي الروتراكت في بعض البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

معتقدات وأفكار الروتراكت

١- من الأهداف المعلنة لنوادي الروتراكت إتاحة الفرصة للشباب للدراسة في بلد غير بلده، أي إعطاء منح دراسيَّة على هيئة بعثات من المنطقة الروتارية ٢٤٥ التي تضمُّ جمهوريَّة مصر العربيَّة والسودان ولبنان ودولة البحرين والأردن وقبرص. وهذه المنح خاصَّة بأبناء أعضاء الروتاري، وتخضع لتنظيم الروتاري العالمي... وللخداع... يشترط في الشباب المتقدم للحصول على المنحة أن يكون متمسِّكًا بدينه الإسلامي! وأن يكون متسامحًا!

٢- ومن نشاط هذه النوادي مشروع تبادل الشباب المريب، الذي يتمّ فيه اختلاط الشباب من

الجنسين. . . ومن شروط المشروع:

- تفضيل من كان عضوًا في أحد أندية شباب الروتاريين أو أن يكون والده روتاريًا.

- السفر في الإجازة الصيفيَّة، ومدة الإقامة ثلاثة أسابيع ويتكفل الطالب بمصاريف سفره في الذهاب والعودة، ومصاريف الإقامة يتحملها النادي المضيف.

- أن يتراوح سن الطالب أو الطالبة بين ١٨ سنة و٢٢ سنة.

- أن يكون حاصلًا على الشهادة الثانويَّة على الأقل وأن يكون ملمًّا بلغة البلد المسافر إليه.

- يشترط أن يكون ولي الأمر مستعدًّا لاستضافة طالب أو طالبة في منزله لمدة مماثلة للمدة التي يقضيها ابنه أو ابنته في الخارج.

- ومن تطبيقات هذا المشروع:

سفر وفد صهيوني من الكيان اليهودي في فلسطين المحتلَّة يوم ١٩٨١/١/٢٤م برئاسة دافيد روزلين مدير العلاقات التربويَّة والعلميَّة في وزارة خارجيَّة الكيان الصهيوني إلى مصر العربيَّة المسلمة لبلورة تفاصيل تبادل الشباب، وتألفت المجموعة الأولى من ٥٠ طالبًا إسرائيليًّا لقضاء العطلة الصيفيَّة بين الأسر العربيَّة المسلمة في مصر، واستضاف الكيان الصهيونيّ مجموعة مماثلة من الشباب المسلم لقضاء الإجازة الصيفيَّة بين الأسر اليهوديَّة، وقد تم الاتفاق على ذلك سابقًا أثناء محادثات إسحاق نافون في أواخر عام ١٩٨٠م بهدف تطبيع العلاقات!

٣- ومن الأهداف المعلنة أيضًا: خلق روح القيادة الاجتماعيَّة في الشباب والشعور بالمسئوليَّة لدى المواطنين، وغرس المثل العليا للأخلاقيَّات، وبحث مشاكل المجتمع الصحية والتعليمية. . . ويظهر أنَّ هذه الأهداف المخادعة تعلن للسذَّج من أفراد المجتمع. . . أو للحصول على الترخيص من الدولة.

٤- أمَّا الهدف الحقيقي لهذه النوادي فهو إفساد الجيل المسلم أخلاقيًّا، وإبعاده عن قيم دينه وتعاليمه. . . وتستخدم في ذلك الحفلات الموسيقيَّة الراقصة (التي تسميها الخيريَّة) والسهر إلى ما بعد منتصف الليل مع الاختلاط بكلِّ أشكاله، وشرب الخمر المسموح به في هذه الحفلات وقضاء الإجازات مع عائلات لا تتقيد بالأخلاق الإسلاميَّة. . . والاتصالات الفاجرة بين الجنسين أثناء الرحلات والأسفار الترويحيَّة أو الدراسيَّة.

ومن هذه الحفلات الفاسدة، ما أقامه شباب نادي روتراكت بالإسكندريَّة في نادي سبورتنج وحضره مجموعة من الضيوف البريطانيِّين من أصدقاء وشباب الروتراكت وعدد كبير من سيدات ورجال المجتمع المسلم! وأحيا الحفل الفنان عمر خورشيد وفرقة الجاز، ورقص على أنغامها الشباب والزهرات واستمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل. . . وقد نشرت إحدى المجلات صورًا خليعة لعضوات النادي بأوضاع غير أخلاقيَّة وشبه عارية. . .!

٥- إلهاء الشباب في أنشطة سياحيَّة وترفيهيَّة منحرفة تشغلهم عن القضايا المصيريَّة التي تهم أمتهم، وأهمها قضية فلسطين واحتلال اليهود لها. . .

٦- إنشاء جيل روتاري يصل إلى درجة المسئوليَّة في بلده، لتنفيذ المخططات الروتارية الصهيونيَّة الصليبيَّة الخطيرة.

الروتراكت وعلاقته بالروتاري والماسونيَّة العالميَّة

- نوادي الروتراكت تتبع نادي الروتاري الدولي. . . ذي الخلفيَّة الماسونيَّة اليهوديَّة.

- وبالتالي فإنَّ جميع أنشطة النادي مخططة من قبل الماسونيَّة العالميَّة وتخدم اليهوديَّة العالميَّة.

- وتعتبر أندية الانتراكت والروتراكت وجهين لعملة واحدة فعلى الشباب المسلم الحذر من ألاعيب التضليل الصهيونيُّ والانخداع بالشعارات البرَّاقة التي تضع السمَّ في الدسم وتنشر الفساد وخراب الذمم.

الانتشار وأماكن النفوذ

تأسست نوادي الروتراكت في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بتوجيه من الروتاري الدولي سنة ١٩٦١م. وانتشرت بعد ذلك في أوربَّا وصار لها فروع في نواحٍ كثيرة من العالم، ولها فرع في فلسطين المحتلة وبعض البلاد العربيَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٥٣- ٥٥٥).

الفصل السادس عشر

حكم الماسونيَّة والانتماء إليها

عقد في مكَّة المكرَّمة وتحت رعاية الملك فيصل مؤتمر عالمي للمنظمات الإسلاميَّة، في المدة من ١٤ إلى ١٨ ربيع الأوَّل سنة ١٣٩٤هـ، واشترك في هذا المؤتمر ١٤٠ وفدًا تمثل جميع الدول والأقلِّيَّات الإسلاميَّة في العالم، وأصدر المؤتمر قراره الحادي عشر، ونصُّه: الماسونيَّة جمعيَّة سرِّيَّة هدَّامة لها صلة وثيقة بالصهيونيَّة العالميَّة التي تحركها وتدفعها لخدمة أغراضها، وتتستر تحت شعارات خدَّاعة كالحريَّة والإخاء والمساواة وما إلى ذلك مما أوقع في شباكها كثيرًا من المسلمين وقادة البلاد وأهل الفكر، وعلى الهيئات الإسلاميَّة أن يكون موقفها من هذه الجمعيَّات على النحو التالي:

١ . على كلِّ مسلم أن يخرج منها فورًا.

٢ . تحريم انتخاب أي مسلم ينتسب لها لأي عمل إسلاميٍّ.

٣ . على الدّول الإسلاميَّة أن تمنع نشاطها داخل بلادها وأنَّ تغلق محافلها وأوكارها.

٤ . عدم توظيف أي شخصٍ ينتسب لها ومقاطعته مقاطعة كلِّيَّة.

٥ . فضحها بكتيبات ونشرات تباع بسعر التكلفة.

وعقد مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن رابطة العالم الإسلامي دورته الأولى المنعقدة في مكَّة المكرَّمة من ١٠ إلى ١٧ شعبان ١٣٩٨ وجاء في قرارته:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه. أما بعد:

فقد نظر المجمع الفقهيُّ الإسلاميُّ، في قضية الماسونيَّة والمنتسبين إليها وحكم الشريعة الإسلاميَّة في ذلك.

وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها من مؤلفات، ومن مقالات في المجلات التي تنطق باسمها.

وقد تبين للمجمع بصورة لا تقبل الريب، من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص ما يلي:

١- أنَّ الماسونيَّة منظَّمةٌ سرِّيَّةٌ، تُخْفِي تنظيمها تارةً وتعلنه تارةً، بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقيَّة التي تقوم عليها، هي سرِّيَّة في جميع الأحوال محجوب علمها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص، الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢- أنّها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهريٍّ، للتمويه على المغفلين، وهو الإخاء الإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها، دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

٣- أنّها تجتذب الأشخاص إليها، ممن يهمها ضمهم إلى تنظيمها بطريق الإغراء بالمنفعة الشخصيَّة، على أساس أن كلَّ أخٍ ماسونيٍّ مجنَّد في عون كلِّ أخٍ ماسونيٍّ آخر، في أي بقعة من بقاع الأرض: يعينه في حاجاته وأهدافه ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسيِّ، ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أيًا كان، على أساس معاونته في الحقِّ والباطل، ظالمًا أو مظلومًا، وإن كانت تستر ذلك ظاهريًا بأنّها تعينه على الحقِّ لا الباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعيَّة، وتأخذ منهم اشتراكات ماليَّة ذات بال.

٤- أنَّ الدخول فيها يقوم على أساس احتفال بانتساب عضوٍ جديدٍ، تحت مراسم وأشكال رمزيَّة إرهابيَّة، لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها والأوامر التي تصدر إليه بطريق التسلسل في الرتبة.

٥- أنَّ الأعضاء المغفلين يُتركون أحرارًا في ممارسة عباداتهم الدينيَّة، وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها، ويبقون في مراتب دنيا، أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد، فترتقي مراتبهم تدريجيًا، في ضوء التجارب والامتحانات المتكررة للعضو، على حسب استعدادهم لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦- أنّها ذات أهدافٍ سياسيَّةٍ، ولها في معظم الانقلابات السياسيَّة والعسكريَّة والتغييرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧- أنّها في أصلها وأساس تنظيمها يهوديَّة الجذور، ويهوديَّة الإدارة العليا العالميَّة السرِّيَّة، وصهيونيَّة النشاط.

٨- أنّها في أهدافها الحقيقيَّة السرِّيَّة ضد الأديان جميعًا، لتهديمها بصورة عامَّة، وتهديم الإسلام في نفوس أبنائه بصورة خاصَّةٍ.

٩- أنّها تحرص على اختيار المتسبين إليها من ذوي المكانة الماليَّة، أو السياسيَّة، أو الاجتماعيَّة، أو العلميَّة، أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذًا لأصحابها في مجتمعاتهم، ولا يهمها انتساب من ليس لهم مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء والوزراء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.

١٠- أنّها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى، تمويها وتحويلًا للأنظار، لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء، إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونيَّة في محيط ما، وتلك الفروع المستورة بأسماء مختلفة من أبرزها منظمة الأسود (الليونز) والروتاري إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة، التي تتنافى كليًّا مع قواعد الإسلام وتُناقضه مناقضة كلِّيَّة.

وقد تبين للمجمع بصورة واضحة، العلاقة الوثيقة للماسونيَّة باليهوديَّة الصهيونيَّة العالميَّة، وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثير من المسئولين في البلاد العربيَّة وغيرها، في موضوع قضية فلسطين، وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيريَّة العظمى، لمصلحة اليهود والصهيونيَّة العالميَّة.

لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيليَّة عن نشاط الماسونيَّة وخطورتها العظمى، وتلبيساتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونيَّة من أخطر المنظمات الهدَّامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله، لكن الأستاذ الزرقاء أصرَّ على إضافة جملة (معتقدًا جواز ذلك) فيما بين جملة (على علم بحقيقتها وأهدافها) وبين جملة (فهو كافر..) وذلك كيما ينسجم الكلام مع حكم الشرع في التميز بين من يرتكب الكبيرة من المعاصي مستبيحًا لها، وبين من يرتكبها غير مستبيحٍ: فالأول كافر، والثاني عاصٍ فاسقٍ. والله ولي التوفيق.

الرئيس: عبد الله بن حميد، رئيس مجلس القضاء الأعلى في المملكة العربيَّة السعوديَّة.

نائب الرئيس: محمد علي الحركان، الأمين العام لرابطة العالم الإسلاميّ.

الأعضاء: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الرئيس العام لإدارة البحوث العلميَّة والإفتاء، محمد محمود الصواف، صالح بن عثيمين، محمد بن عبد الله السبيل، محمد رشيد قباني، مصطفى الزرقاء، محمد رشيدي، عبد القدوس الهاشمي الندوي، أبو بكر جوسي.

وقد أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر بيانًا بشأن الماسونيَّة والأندية التابعة لها مثل الليونز والروتاري جاء فيه: ويحرم على المسلمين أن ينتسبوا لأندية هذا شأنها وواجب المسلم ألَّا يكون إمَّعة يسير وراء كلِّ داعٍ ونادٍ، بل واجبه أن يمتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «لا يكن أحدكم إمَّعةً» يقول: «إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».

وواجب المسلم أن يكون يقظًا لا يغرَّر به، وأن يكون للمسلمين أنديتهم الخاصة بهم، ولها مقاصدها وغاياتها العلنية، فليس في الإسلام ما نخشاه ولا ما نخفيه والله أعلم.

رئيس الفتوى بالأزهر: عبد الله المشد.

الباب السابع

المخلِّص المنتظر

الماشيَّح والمشيحانية Messiah and Messianism

الفصل الأول
معنى الكلمة وتطورها الدلالي

ماشيَّح: كلمة عبرية تعني «المسيح المخلِّص»، ومنها «مشيحيوت» أي «المشيحانية»، وهي الاعتقاد بمجيء الماشيَّح.

وهذه الكلمة تطور معناها ومرت بعدة أطوار:

المعنى الأصلي للكلمة: الكلمة مشتقة من الكلمة العبريَّة «مشح»؛ أي «مسح» بالزيت المقدَّس.

والزيت المقدس يسمى في العهد القديم دهن المسحة، وتذكر أن مَن يوضع عليه سواء كان: شخصًا وثيابًا، أو مسكنًا، أو أواني، أو المذبح، أو المرحضة، أو أي جماد -يصير مقدسًا مطهرًا، وهو مصنوع من أطياب تجمع من بني إسرائيل، وقد جعلت لهارون ولبنيه من بعده فريضة دهرية، وهي بذلك تكون للأنبياء وللكهنة فيكون الكاهن الممسوح هو الكاهن العظيم[(١)].

ثم جعلت بعد ذلك علامة على المِلك عندما طلب بني إسرائيل من صموئيل ملكا لهم فنصب لهم شاءول وصب على رأسه الدهن ومسحه، ومن بعده داود وسليمان، وكان يسمى مسيح الرب[(٢)].

ويرى بعض الباحثين أن هذه عادة الشعوب القديمة، يمسحون رأس الملك والكاهن بالزيت قبل تنصيبهما، علامة على المكانة الخاصة الجديدة، وعلامة على أن الروح الإلهية أصبحت تحل وتسري فيهما.

المعنى الثاني: ثم أصبحت كلمة «الماشيَّح» تشير إلى كل ملوك اليهود وأنبيائهم، بل كانت تشير أيضًا إلى قورش ملك الفرس، أو إلى أي فرد يقوم بتنفيذ مهمة خاصة يوكلها الإله إليه[(٣)].

كما أن هناك في المزامير إشارات متعددة إلى الشعب اليهودي على أنه شعب من المشحاء.

المعنى الثالث والنهائي: ثم في نهاية الأمر اكتسبت الكلمة معنى محددًا، إذ أصبحت تشير إلى شخص مُرسَل من الإله يتمتع بقداسة خاصة، إنسان سماوي وكائن معجز خلقه الإله قبل الدهور يبقى في السماء حتى تحين ساعة إرساله[(٤)].

---

(١) انظر: سفر الخروج ٢٥/٦، ٢٩/٧، ٢١، ٣١/١١، ٣٥/٨، ١٥، ٢٨، ٣٧/ ٢٩، ٣٨، ٤٠/٩، اللاويين ٨/٢، ١٠، ١١، ٣٠، ٢١/١٠، ٤/٣، ٥، ١٦، العدد ٤/١٦، ١٨/٨، ٣٥/٢٥ .

(٢) انظر: سفر صموئيل الأول ١٠/١، ١٦/١٣، ٢٤/٦، ٢٦/٩، ١١، ٢٣، صموئيل الثاني ١/١٤، ١٦، ٥/٣، ١٩/٢١، ٢٣/١، الملوك الأول ١/٣٩، الملوك الثاني ٢٣/ ٣٠ .

(٣) إشعياء ٤٥/١ .

(٤) انظر: المزامير ٢٠/٦، ٢٨/٨ .

وهو يُسمَّى عندهم «ابن الإنسان»؛ لأنه سيظهر في صورة الإنسان وإن كانت طبيعته تجمع بين الإله والإنسان، فهو تَجسُّد الإله في التاريخ[1].

---

(١) انظر: سفر دانيال ٧/١٣، ١٤ .

الفصل الثاني

عقيدة اليهود في المخلص المنتظر

هو ملك من نسل داود، سيأتي بعد ظهور النبي إليا ليعدل مسار التاريخ اليهودي، بل البشري، فينهي عذاب اليهود ويأتيهم بالخلاص ويجمع شتات المنفيين ويعود بهم إلى صهيون ويحطم أعداء بني إسرائيل، ويتخذ أورشليم (القدس) عاصمة له، ويعيد بناء الهيكل، ويحكم بالشريعتين المكتوبة والشفوية ويعيد كل مؤسسات اليهود القديمة مثل السنهدرين (مجمع الكهنوت)، ثم يبدأ الفردوس الأرضي الذي سيدوم ألف عام، ومن هنا كانت تسمية «الأحلام الألفية» و«العقيدة الاسترجاعية».

ومن هذه النصوص الواردة في الشريعة المكتوبة عند اليهود، في العهد القديم:

في سفر إشعياء ٩/٦، ٧: يولد لنا ولد ونعطي ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًا رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد غيرة رب الجنود تصنع هذا.

وفي سفر إشعياء ١١/١- ١٢: ويخرج قضيب من جذع يسى و ينبت غصن من أصوله، ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب، ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه، ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه، فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معًا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان تربض أولادهما معًا، والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان، لا يسوءون ولا يفسدون في كل جبل قدسي؛ لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر، ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم، ويكون محله مجدًا، ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم و يجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض . . .

وفي سفر دانيال ٧/١٣، ١٤: كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى، وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض.

وفي سفر زكريا ٩/٩، ١٠: ابتهجي جدًا يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هوذا

ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان، واقطع المركبة من أفرايم والفرس من أورشليم، وتقطع قوس الحرب ويتكلم بالسلام للأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.

وتتأكد هذه العقيدة في الشريعة الشفوية؛ ففي التلمود: حين يأتي المسيح تطرح الأرض فطيرًا وملابس من الصوف وقمحًا حبه بقدر كلاوي الثيران الكبيرة. وفي ذلك الزمن ترجع السلطة لليهود، كل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له. وفي ذلك الوقت يكون لكل يهودي ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه، وثلاثمائة وعشرة أعوان تحت سلطته، ولكن لا يأتي المسيح إلا بعد انقضاء حكم الأشرار (الخارجين عن دين بني إسرائيل)[١].

ويقول: أرض إسرائيل ستنبت الخبز والأقمشة من أجود أنواع الصوف، وستنبت القمح في لبنان عاليًا مثل أشجار النخيل وَسَيَهُبُّ هواء يجعله دقيقًا فاخرًا[٢].

وقد جاء في التلمود أنه بعد وصول الماشيَّح، سيجلس الإله على عرشه يقهقه فرحًا لعلو شأن شعبه، وهزيمة الشعوب الأخرى التي تحاول دون جدوى أن يكون لها نصيب في عملية الخلاص[٣].

وجاء فيه أيضًا: وتكون الأمة اليهوديَّة إذ ذاك في غاية الثروة؛ لأنها تكون قد تحصلت على جميع أموال العالم. وهذه الكنوز ستملأ (سرايات) واسعة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها على أقل من ثلاثمائة حمار، وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون في دين اليهود أفواجًا[٤].

وفيه: ويتحقق منتظر الأمة اليهوديَّة بمجيء إسرائيل، وتكون تلك الأمة هي المتسلطة على باقي الأمم عند مجيئه[٥].

وتجدد -بل ويستمر- ذكر هذه العقيدة في العصر الحديث؛ ففي بروتوكولات حكماء صهيون: إن حكومتنا ستحيل مظهر الثقة الأبوية في شخص مَلِكنا وستعتده أمتنا ورعايانا فوق الأب الذي يُعنى بسد كل حاجاتهم ويرعى أعمالهم ويرتب جميع معاملات رعاياه بعضهم مع بعض، وبهذا سينفذ الإحساس بتوقير الملك بعمق بالغ في الأمة، حتى لن تستطيع أن تقدم غير عنايته وتوجيهه؛ إنهم لا يستطيعون أن يعيشوا في سلام إلا به، وسيعرفون في النهاية أنه حاكمهم الأوتوقراطي المطلق[٦].

(١) الكنز المرصود في أسرار التلمود.
(٢) الكنز المرصود في أسرار التلمود، التلمود تاريخه وتعاليمه لظفر الدين خان ص(٦٠).
(٣) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.
(٤) الكنز المرصود في أسرار التلمود.
(٥) الكنز المرصود في أسرار التلمود.
(٦) البروتوكول الخامس عشر ص(١٦٣).

وفيه: ويوم يضع ملك إسرائيل على رأسه المقدس التاج الذي أهدته له كل أوربا سيصير البطيرك لكل العالم[(١)].

وفيه: إن ملك إسرائيل سيصير البابا الحق للعالم: بطريرك الكنيس الدولي[(٢)].

وفيه: إن ملكنا سيكون مختارًا من عند الله، ومُعَيَّنًا من أعلى كي يدمر كل الأفكار التي تغري بها الغريزة، لا العقل، إن هذه الأفكار قد دمرت كل النظم الاجتماعيَّة مؤدية بذلك إلى حكم ملك إسرائيل، ولكن عملها سيكون قد انتهى حين يبدأ ملكنا، وحينئذ يجب علينا أن نكنسها بعيدًا حتى لا يبقى أي قذر في طريق ملكنا، وحينئذ سنكون قادرين على أن نصرخ في الأمم: صلوا لله واركعوا أمام ذلك الملك الذي يحمل آية التقدير الأزلي للعالم، والذي يقود الله ذاته نجمه، فلن يكون أحد آخر إلا هو نفسه قادرًا على أن يجعل الإنسانية حرة من كل خطيئة[(٣)].

وفي البروتوكول الرابع والعشرين وهو الأخير من البروتوكولات المترجمة، يقول المتحدث فيه: والآن سأعالج الأسلوب الذي تُفدى به دولة الملك داود حتى تستمر إلى اليوم الآخر.

ثم تختم البروتوكولات حديثها بهذه العبارة: إن قطب العالم في شخص الحاكم العالمي الخارج من بذرة إسرائيل ليطرح كل الأهواء الشخصية من أجل مصلحة شعبه، إن ملكنا يجب أن يكون مثال الجبروت. توقيع ممثلي صهيون من الدرجة الثالثة والثلاثين[(٤)].

صور المخلِّص المنتظر

لما لم تتحقق الآمال المشيحانية، ظهرت عند اليهود صورة أخرى مكملة للأولى، وهي صورة الماشيَّح ابن يوسف الذي سيعاني كثيرًا، وسيخر صريعًا في المعركة، وستحل الظلمة والعذاب في الأرض، وهذه هي الفكرة التي أثرت في فكرة المسيح عند النصارى.

ولكن سيصل بعد ذلك الماشيَّح العجائبي الخارق من نسل داود، والذي سيأتي بالخلاص.

ويفسر الحاخامات تأخُّر وصول الماشيَّح بأنه ناتج عن الذنوب التي يرتكبها الشعب اليهودي؛ ولذا فإن عودته مرهونة بتوبتهم.

وقد تميَّزت المشيحانية بأنها صيغة هلامية لا يمكن أن تُهزَم:

فإذا ظهر ماشيَّح، فإن ظهوره علامة على صدق الرؤية المشيحانية، وإذا لم يظهر فإن الواجب هو الانتظار.

أما إذا ظهر الماشيَّح وانتصر في المراحل الأولى، فهذا علامة على صدقه.

---

(١) البروتوكول الخامس عشر ص(١٦٣).
(٢) البرتوكول الثالث والعشرون، ص(١٨٨).
(٣) البروتوكول الثالث والعشرون، ص(١٨٧).
(٤) البروتوكول الرابع والعشرون، ص(١٨٨).

وإذا انهزم فهزيمته نفسها تعد علامة صدقه، فهو يتعذب من أجل شعبه.

وإذا أخذت الهزيمة شكل ارتداد عن اليهوديَّة، فإن هذا (حسب التصورات المشيحانية) من باب التمويه والتقية.

كما أنه، باعتباره الماشيَّح، عليه أن ينزل إلى عالم الشر ذاته لمواجهته (ومن هنا ارتداده عن اليهوديَّة).

كما أنه إذا قُتل أو مات، فإن أتباعه عادةً ما يؤمنون بأنه لم يمت أو يُقتَل وإنما اختفى وسيعود.

وتكون جماعة التابعين المنتظرين، شيعة أو فريقًا دينيًا مستقلًا عن المؤسسة الحاخامية، تدور عقائدها حول أفكار الماشيَّح، وتدور ممارساتها حول انتظاره.

وهذا هو -في الواقع- النمط الكامن في معظم الحركات المشيحانية (اليهوديَّة وغير اليهوديَّة) التي عادةً ما تنتهي بالإخفاق، فيدفع المؤمنون بها الثمن غاليًا[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل الثالث

الحركات المشيحانية عبر التاريخ

١- الأصفهانية (العيسوية).

٢- اليودغانية.

٣- النحمانيون.

٤- الرءوبينية.

٥- الشبتانية.

٦- الدونمة.

٧- الفرنكية.

٨- الحسيديَّة: حبد.

الأصفهانية او العيسوية Asfahanism-Al

التعريف:

الأصفهانية أو العيسوية: نسبة إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، وقيل: إن اسمه عوفيد الوهيم أي عابد الله.

والأصفهانية: هي فرقة يهودية فارسية ظهرت في القرن الثامن تزعم بأن أبا عيسى الأصفهاني هو الماشيَّح، ورتبوا على ذلك أحكامًا وشرائعَ.

التاريخ والأحداث

تعتبر هذه الفرقة هي أولى الفرق بعد هدم الهيكل الثاني، أسس هذه الفرقة أبو عيسى الأصفهاني الذي كان خياطًا أميًّا، عاش في زمن المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م)، وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد الحمار (٧٤٤ - ٧٥٠ م).

أعلن أبو عيسى في سنة ٧٥٥ م أنه الماشيَّح الذي سيحرِّر اليهود من الأغيار، فاتبعه بشر كثير من اليهود على ذلك.

وقاد بهذه الصفة، ثورة ضد الحكم العباسي، وانضم له العديد من يهود فارس، لكن هذا التمرد تم إخماده بعد عدة سنوات وقُتل أبو عيسى.

لكن أتباعه أعلنوا أنه لم يقتل وإنما دخل كهفًا واختفى، كما تداولوا بعض القصص عن المعجزات والآيات التي أتى بها، منها أنه لما حورب خط على أصحابه خطًّا بعود آس وقال: أقيموا في هذا الخط فليس ينالكم عدو بسلاح فكان العدو يحملون عليهم حتى إذا بلغوا الخط رجعوا عنهم خوفًا من طلسم أو عزيمة ربما وضعها، ثم إنه خرج من الخط وحده على فرسه فقاتل وقتل من المسلمين كثيرًا وذهب إلى أصحاب موسى بن عمران الذين هم وراء النهر المرمل ليسمعهم كلام الله.

وقيل: إنه لما حارب أصحاب المنصور بالري قتل وقتل أصحابه.

ظلت فرقة العيسوية قائمة حتى حوالي عام ٩٣٠م.

ويُقال: إن يودغان وعنان بن داود -مؤسسي المذهب القرَّائي- تأثرا برؤية أبي عيسى وبأفكاره.

المعتقدات والأفكار

١- زعم أبو عيسى أنه نبي، وأنه رسول المسيح المنتظر، وزعم أن للمسيح خمسة من الرسل يأتون قبله واحدًا بعد واحد، من بينهم موسى وعيسى عليهما السلام، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه، وأنه هو خاتم المرسلين.

وقيل: إنه لم يعلن أنه الماشيَّح نفسه، وإنما المبشر به، أي الماشيَّح ابن يوسف الذي يُمهِّد لظهور الماشيَّح الحقيقي (الماشيَّح ابن داود).

٢- زعم أن الله تعالى كلمه وكلفه أن يخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصين والملوك الظالمين.

وزعم أن المسيح أفضل ولد آدم، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين؛ وإذ هو رسوله فهو أفضل الكل أيضًا.

وكان يوجب تصديق المسيح، ويعظم دعوة الداعي، ويزعم أيضًا أن الداعي هو المسيح.

٣- حرم في كتابه الذبائح كلها، ونهى عن أكل كل ذي روح على الإطلاق طيرًا كان أو بهيمة، فمنع بذلك أكل اللحم، ومنع شرب الخمر، والنواح بسبب هدم الهيكل.

٤- أوجب عشر صلوات، وذكر البعض أنه جعلها سبعًا، وأمر أصحابها بإقامتها، وذكرَ أوقاتها، وخالف اليهود في كثير من أحكام الشريعة الكثيرة المذكورة في التوراة.

٥- منع الطلاق متأثرًا في ذلك بالنصرانيَّة.

٦- يقولون بنبوة عيسى ابن مريم ومحمد صلى الله عليه وسلم، ويقولون: إن عيسى بعثه الله عز وجل إلى بني إسرائيل على ما جاء في الإنجيل وأنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ويقولون: إن محمدًا صلى الله عليه و سلم نبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام وإلى سائر العرب كما كان أيوب نبيًّا في بني عيص، وكما كان بلعام نبيًّا في بني موآب بإقرار من جميع فرق اليهود[١].

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٨٢)، الملل والنحل (١/ ٢١٥، ٢١٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٣)، روح المعاني (٣/ ١٦٧)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

اليودغانية أو اليوذعانية Yudghanism

التعريف:

يُقال: إن كلمة «يودغان» صيغة فارسية لكلمة «يهودا».

واليودغانية: نسبة إلى يودغان الأصفهاني أو الهمداني، وقيل: كان اسمه يهودا.

واليودغانية: هي فرقة يهودية ظهرت في القرن الثامن تزعم بأن يودغان هو الماشيَّح.

التاريخ والأحداث

عاش يوذعان في أصفهان -وربما في همذان- في النصف الأول من القرن الثامن.

وظهر يودغان بعد أبي عيسى الأصفهاني، ويُقال: إنه تلميذه، وقد ادعى يودغان النبوة، كما ادعى أنه الماشيَّح، وهو يشبه أبا عيسى في كثير من عقائده.

ومنهم الموشكانية: أصحاب موشكان، كان على مذهب يودغان غير أنه كان يوجب الخروج على مخالفيه ونصب القتال معهم؛ فخرج في تسعة عشر رجلًا فقتل بناحية قم.

وذكر عن جماعة من الموشكانية أنهم أثبتوا نبوة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام إلى العرب وسائر الناس سوى اليهود؛ لأنهم أهل ملة وكتاب.

ويُقال: إن عنان بن داود مؤسس المذهب القرّائي تأثر بأفكار يودغان.

العقائد والأفكار

١- ادعى يودغان النبوة، كما ادعى أنه الماشيَّح، واعترف برسالة كلٍّ من عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم.

٢- كان يزعم أن للتوراة ظاهرًا وباطنًا وتنزيلًا وتأويلًا، وخالف بتأويلاته عامة اليهود، وخالفهم في التشبيه، ومال إلى القدر وأثبت الفعل حقيقة للعبد، وقدر الثواب والعقاب عليه وشدد في ذلك.

٣- كان يحث على الزهد وتكثير الصلاة، وينهى عن أكل اللحوم وشرب الأنبذة، ويذهب إلى أن شعائر السبت والأعياد ليست ملزمة لليهود؛ فهي مجرد تذكرة لهم بالماضي، وفيما نقل عنه تعظيم أمر الداعي[(١)].

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢١٦- ٢١٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٣)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

النحمانيون Nahmanim

التعريف:

نسبة إلى داود بن سليمان، ويُدعى أيضًا داود الرائي أو الروحي، وقيل: إن كلمة «الروحي» أو «الرائي» تصحيف لكلمة «الدوحي»، وهو اسم أسرته بالعربيَّة.

سَمَّى هو نفسه مناحِّم؛ أي «المواسِّي»، وهو أحد الألقاب التي كانت تُطلَق على الماشيَّح.

والنحاميون: فرقة يهودية ظهرت في القرن الثاني عشر تزعم بأن داود بن سليمان هو الماشيَّح.

التاريخ والأحداث

بدأت الحركة على يد سليمان -أبي داود- الذي أعلن أنه إليا المبشِّر به، ثم جاء داود وأعلن أنه هو الماشيح.

وداود بن سليمان من مواليد مدينة آمد في إقليم كردستان سنة ١١٣٥م، درس التوراة والمدراش والمشناه، كما أتقن علوم العرب التي كانت مزدهرة آنذاك وتعلَّم فنون السحر والتصوف اليهوديَّة.

وفي شمال شرق القوقاز، بدأت دعوته المشيحانية بين يهود الجبال، وذلك بعد هجوم قبائل الكبشاك -من شعوب الإستبس المقيمين حول البحر الأسود- وهو الهجوم الذي ألحق البؤس الشديد بأعضاء الجماعة اليهوديَّة.

وأخذ داود الرائي في نشر دعوته بين يهود بغداد والموصل والمناطق المحيطة، وتَجمَّعت حوله أعداد كبيرة من يهود أذربيجان.

وبعد أن انكسرت قواته، حاول نقل مركز حركته إلى آمد -في جبال كردستان- على الطريق الإستراتيجي الموصل بين مملكة الخزر اليهوديَّة التركية والممالك الصليبية.

وقد انتشرت حوله الشائعات، فأشيع أنه أودع السجن ولكنه فرَّ منه بسحره.

وقد دعا الرائي يهود أذربيجان وفارس والموصل إلى أن يأتوا إلى آمد مخبئين أسلحتهم، ليشهدوا كيف سيستولي على المدينة.

ويبدو أن بعض المحتالين زيفوا خطابًا باسمه، وعد فيه يهود بغداد بأنه سينقلهم إلى القدس ليلًا على أجنحة الملائكة، وصدق كثيرون ما جاء في الخطاب، فانتظروا وصول الماشيَّح طوال الليلة الموعودة، وفي الصباح أصبحوا أضحوكة الجميع.

وفي نهاية الأمر، قتله والد زوجته بعد أن تقاضى مكافأة من حاكم المدينة.

وبعد مقتله، تحوَّل إلى أسطورة حافلة بالخوارق والمعجزات الخرافية، وقد بقى المؤمنون من يهود أذربيجان ينتظرون عودته، وقد كتب دزرائيلي رواية خيالية تدور أحداثها حوله[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الرءوبينية Reuvenism

التعريف:

نسبة إلى ديفيد رءوبيني وهو ذو تطلعات مشيحانية في القرن السادس عشر.

التاريخ والأحداث

كان ديفيد رءوبيني يدَّعي أنه ابن لملك يُدعى سليمان، وأخ لملك يُدعى يوسف يحكم قبائل رءوبين وجاد، وكذلك نصف قبائل منَسَّى في خيبر بالقرب من المدينة المنورة، ومن هنا كان اسمه «الرءوبيني».

وقد كانت رواياته عن أهله متضاربة، فقد ذكر في مناسبة أخرى أنه من نسل قبيلة يهودا، وأنه رسول من ملك يُدعى يوسف.

وانتقل من بلد إلى آخر، حتى وصل إلى روما راكبًا فرسه الأبيض، وهي إحدى علامات الماشيَّح.

وذهب إلى البابا كليمنت السابع عام ١٥٢٤، وأخبره بأن أخاه لديه ثلاثمائة ألف جندي مدربين على الحرب، ولكنهم لسوء الحظ ينقصهم السلاح، وطلب إلى البابا تزويدهم بما ينقصهم حتى يمكنهم طرد المسلمين من فلسطين.

وقد استقبله البابا استقبالًا حسنًا، فقد كان رءوبيني يخبره أن رؤيته بالنسبة له كانت مثل رؤية الإله.

وقد التف يهود روما من حوله، واكتتبوا ببعض الأموال له، حتى يعيش على مستوى يليق بمقام سفير ملك اليهود.

وقد نجح رءوبيني في مقابلة ملك البرتغال عام ١٥٢٥، وفي التأثير فيه، حتى إنه أوقف محاكمات يهود المارانو الذين أحرز رءوبيني شعبية واسعة بينهم، وكان من بينهم ديوجو بيريس الذي أخذه الحماس فتهود وتختن وغيَّر اسمه إلى سولومون ملكو وتبع رءوبيني وكانت له هو الآخر تطلعات مشيحانية.

وحتى يؤكد ملكو أنه الماشيَّح، وكي ينفذ إحدى النبوءات الخاصة بالماشيَّح، ارتدى ملكو ملابس الشحاذين وجلس لمدة ثلاثين يومًا مع المرضى والشحاذين والعجزة على كوبري على نهر التيبر في روما.

وقد طلب الاثنان -رءوبيني وملكو- من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة تشارلز الخامس تسليح المارانو ليحاربوا ضد المسلمين.

ولأسباب ما قبض عليهما الإمبراطور وسلمهما لمحاكم التفتيش التي حكمت بحرق ملكو

ونفذت فيه حكم الإعدام سنة ١٥٣٢م لخروجه على المسيحيَّة، حيث وشي به أنه كان مسيحيًا أبطن اليهوديَّة ثم أظهرها حينما سنحت الفرصة، وهو الأمر الذي كانت محاكم التفتيش لا تسمح به.

وأودع الآخر وهو رءوبيني السجن في إسبانيا حيث مات مسمومًا سنة ١٥٣٥م.

ولحياة رءوبيني دلالة عميقة، إذ يبدو أنه كان يرى أن مهمته تمهد للعصر المشيحاني، وربما إلى عودة الماشيَّح، وبالتالي يمكن أن نعده قائد أولى الحركات ذات الطابع المشيحاني، والتي ظهرت تعبيرًا عن ضائقة أعضاء الجماعات اليهوديَّة وبداية أزمة اليهوديَّة نفسها في الغرب.

كما يمكننا أن نرى في سيرة حياة رءوبيني ملامح من الحل الصهيوني للمسألة اليهوديَّة.

فرغم استفادته من التطلعات المشيحانية لدى اليهود، لم يَدَّع أنه نبي أو ماشيَّح، بل حاول أن يقدم برنامجًا سياسيًا واقعيًا عمليًا، وأن يقدم نفسه كقائد عسكري، ويُلاحَظ أيضًا أنه أكد الفائدة العسكرية لليهود.

وهذا ما حاولت الصهيونيَّة إنجازه، فقد قدمت نفسها هي الأخرى باعتبارها الحل السياسي العسكري الواقعي للمسألة اليهوديَّة.

وقد علمنت الصهيونيَّة التطلعات المشيحانية، وحولتها إلى حركة استيطانية.

وقد أدرك رءوبيني إمكانية الاستفادة من التطلعات العسكرية لأوربا نحو الشرق، ومن الصراعات الداخلية فيها.

فقد كان يعلم أن البابا يود تعزيز سلطته الدنيويَّة، وأن قيام حملة صليبية تحت رعايته لا بد أن تنجز مثل هذا الهدف.

وقد قدَّم هو حملته اليهوديَّة على أنها تفي بهذا الغرض.

والصهيونيَّة دائمة الاستفادة من الصراعات داخل العالم الغربي، ومن التطلعات الاستعمارية للغرب.

والواقع أن الحل الصهيوني ومخطط رءوبيني متماثلان، فكلاهما مبني على التحالف بين أعضاء الجماعات والغرب لتهجير اليهود وإعادة توطينهم في الشرق، وبذلك تتخلص أوربا منهم، وفي الوقت نفسه تفتح أجزاء من العالم المتخلف للنفوذ الغربي، أي أن حل رءوبيني شبه المشيحاني هو الحل الصهيوني الاستعماري.

ومن الأمور الأخرى التي تثيرها حياة رءوبيني أن الدعوة الاسترجاعية والألفية كانت أمرًا منتشرًا في أوربا بأسرها ليس بين أعضاء الجماعات اليهوديَّة وحسب، وإنما بين أعضاء النخبة الحاكمة الدينيَّة والسياسية.

فنجد أن شخصية أساسية مثل البابا يستقبل رءوبيني وتابعه ويبسط عليهما حمايته، رغم تحريم المسيحيَّة الكاثوليكيَّة للعقيدة الألفية وحربها ضدها آنذاك.

كما نجد أن ملك البرتغال هو الآخر يسلك السلوك نفسه، ولا شك في أن انتشار الأحلام الاسترجاعية نتيجة متوقعة لظهور الرؤية الإمبريالية الغربية[١].

الشبتانية Shabbateanism

التعريف:

الشبتانية: نسبة إلى شبتاي تسفي، الذي زعم بأنه هو الماشيح.

والحركة الشبتَّانية: مصطلح يُطلَق على الحركات المشيحانية الدينيَّة الباطنية -الغنوصية- اليهوديَّة التي ظهرت في الغرب وأطراف الدولة العثمانية بعد أن أسلم شبتاي تسفي، في القرن السابع عشر وما بعده.

التاريخ والأحداث

في أجواء تصاعُد الحمى المشيحانية، وقيام أعداد كبيرة من اليهود بالإعداد لوصول الماشيِّح ظهر شبتاي تسفين الذي وُلد في أزمير سنة ١٦٢٦م لأب إشكنازي يشتغل بالتجارة، فقد كان مندوبًا لشركتين تجاريتين: إحداهما بريطانية والأخرى هولندية، وكان إخوته أيضًا من التجار الناجحين.

وقد تلقَّى تسفي تعليمًا دينيًا تقليديًا، فدرس التوراة والتلمود، ولكنه استغرق في دراسة القبَّالاه وخصوصًا القبَّالاه اللوريانية بنزوعها الغنوصي.

ويبدو أن حياته النفسية لم تكن سوية، فقد كان محبًا للعزلة، كثير الاغتسال والتعطر؛ حتى إن أصدقاءه الشبان كانوا يعرفونه برائحته الزكية.

وكان يظهر عليه ما يُسمَّى في علم النفس بالسيكلوثاميا، وهي حالة نشاط وهيجان بالغين يعقبهما انقباض وقنوط، وقد صاحبته هذه الحالة حتى الأيام الأخيرة من حياته.

وكثيرًا ما كان شبتاي يتغنى بالأشعار وينشد المزامير في حالة نشاطه.

وحيث إنه تلقى تعليمًا دينيًا تلموديًا كاملًا، فلم يتهمه أحدًا قط بالجهل.

وتزوج شبتاي بفتاة بولندية يهودية حسناء تُدعى سارة تربت في أحد الأديرة الكاثوليكيَّة أو ربما في منزل أحد النبلاء البولنديين إذ يبدو أن أباها كان من يهود الأرندا؛ أي وكيلًا ماليًا للنبيل في منطقة أوكرانيا، ويبدو أنها كانت سيئة السمعة من الناحية الأخلاقية، وهناك من يقول: إنها كانت عاهرة، وكانت تدَّعي أنها لن تتزوج إلا الماشيِّح؛ ولذا فإن الإله قد أعطاها رخصة أن تعاشر من تشاء جنسيًا إلى أن يظهر الماشيِّح ويعقد قرّانه عليها.

وحينما نشبت انتفاضة شميلنكي التي اكتسحت الإقطاع البولندي في أوكرانيا، كما اكتسحت

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

وكلاء النبلاء الإقطاعيين، كان أبواها من ضحاياها.

وقد قابل تسفي سارة في القاهرة، أو ربما سمع عنها، فأرسل إليها وتزوجها.

وفي عام ١٦٤٨م أعلن أنه الماشيَّح، ومخلص بني إسرائيل الموعود، ونطق باسم يهوه، وأعلن بطلان سائر النواميس والشريعة المكتوبة والشفوية.

ولتأكيد مشيحانيته، طلب أن تُزَفَّ التوراة إليه، فهي عروس الإله.

وقد تنقَّل تسفي في الأعوام العشرة التالية في مدن اليونان، فذهب إلى سالونيكا وغيرها، وقضى بضعة أشهر في إستنبول.

ونَظَّم أدعية أو ابتهالات تتلى في الصلوات للإله ليحلل ما حرَّم، وحينما زار القاهرة، انضم إلى حلقة من دارسي القبَّالاه كان من أعضائها رئيس الجماعة اليهوديَّة، روفائيل يوسف جلبي مدير خزانة الدولة.

ثم رحل إلى فلسطين عام ١٦٦٢ .

وقد بشَّر به اليهودي الإشكنازي نيثان الغزاوي عام ١٦٦٤م، على أنه الماشيَّح الصادق الموعود، وأنه ليس مجرد المسيح ابن يوسف، وإنما هو المسيح بن داود نفسه، وصار هو الداعية الأول له.

وأعلن نيثان أنه هو نفسه النبي المرسل من هذا الماشيَّح، وكتب عدة رسائل لأعضاء الجماعات اليهوديَّة يخبرهم فيها بمقدم الماشيَّح الذي سيجمع الشرارات الإلهية التي تبعثرت أثناء عملية الخلق، والذي سيستولى على العرش العثماني ويخلع السلطان، وهذه من الأفكار الأساسية للقبَّالاه اللوريانية.

وقد دخل شبتاي القدس في مايو عام ١٦٦٥م، وأعلن أنه المتصرف الوحيد في مصير العالم كله، وركب فرسًا -كما هو متوقع من الماشيَّح- وطاف مدينة القدس سبع مرات هو وأتباعه، وقد عارضه الحاخامات وأخرجوه من المدينة.

ولكن تسفي أعلن عام ١٦٦٦م أنه سيذهب إلى تركيا ويخلع السلطان.

وجاء في أول رسالة وجهها إلى اليهود: من أول ابن لله شبتاي تسفي، المسيح، مخلص شعب إسرائيل، إلى جميع أبناء إسرائيل . . . السلام . . . لما كان قد قدر لكم أن تكونوا جديرين برؤية اليوم العظيم، وإنجاز وعد الله إلى أبنائه، فلا بد أن تغيروا أحزانكم فرحًا وصومكم مرحًا؛ لأنكم لم تبكوا بعد الآن، فاستمتعوا وغنوا واستبدلوا باليوم الذي كان من قبل يقضى في حزن وآلام، يوم عيد؛ لأني ظهرت، . . . وقد زاد ذلك حدة التوقعات المشيحانية بين يهود أوربا وزاد حماسهم.

وقد وصلت الأنباء إلى لندن وأمستردام وهامبورج، ووجد له فيها أتباع، بالإضافة إلى أتباعه بالمشرق.

وصارت الجماهير اليهوديَّة تحمل بيارق الماشيَّح في بولندا وروسيا،

ومما يجدر ذكره أن أهم مؤسسة يهودية في العالم آنذاك، وهي مجلس البلاد الأربعة، اكتسحتها الحمى المشيحانية فأرسلت مندوبين عنها للحديث معه والاعتراف به، ولم تُصدر هذه المؤسسة قرارًا بطرده إلا عام ١٦٧٠ بعد تردُّد طويل.

بل إن بعض الأوساط المسيحيَّة بدأت تؤمن بأن تسفي سيُتوَّج ملكًا على فلسطين.

وحينما حاول حاخامات أمستردام الاعتراض على رسائل تسفي وما جاء فيها، كادت الجماهير تفتك بهم.

ولقد باع بعض الأثرياء كل ما يملكونه استعدادًا للعودة، واستأجروا سفنًا لتنقل الفقراء إلى فلسطين، واعتقد البعض الآخر أنهم سيُحمَلون إلى القدس على السحاب.

وسيطرت الهستريا على الجماهير، فكان أتباعه يُغشَى عليهم ويرونه في رؤاهم ملكًا متوجًا.

وانقسم كثير من الجماعات اليهوديَّة بصورة حادة، وبدأ تسفي في توزيع الممالك على أتباعه، واحتفظ لنفسه بلقب ملك الملوك، وألغى الدعاء للخليفة العثماني الذي كان يُتلى في المعبد اليهودي، ووضع بدلًا من ذلك الدعاء له هو نفسه كملك على اليهود ومخلِّص لهم.

وأخذ تسفي يضفي على نفسه ألقابًا يوقع بها رسائله، ومن هذه الألقاب: «ابن الإله البكر»، و«أبوكم إسرائيل»، و«أنا الرب إلهكم شبتاي تسفي».

وتوجَّه تسفي إلى إستنبول في فبراير عام ١٦٦٦م حيث أُلقي القبض عليه، فتم سجنه في قلعة جاليبولي المخصصة للشخصيات المهمة.

وقد تحوَّل السجن بالتدريج إلى بلاط ملكي لشبتاي تسفي، فكان يحتفظ بعدد كبير من الحريم، ومع هذا كانت له تصرفات تنم عن ميول نحو الشذوذ الجنسي، أي أنه كان مخنثًا.

وكان الحجاج يأتونه من كل بقاع الأرض، وكُتبت الأناشيد الدينيَّة تسبيحًا بحمده، وأُعلنت أعياد جديدة وطقوس جديدة.

فألغى صيام اليوم السابع عشر من تموز من التقويم اليهودي، كما ألغي صيام التاسع من آب وجعله عيدًا لميلاده.

وقد أعلن نيثان -والذي يعد من أكبر أتباعه والداعين إليه- أن التغييرات الحادة التي تطرأ على مزاج الماشيَّح تعبير عن الصراع الدائر داخل نفسه بين قوى الخير والشر.

وفي سبتمبر من ذلك العام، جاء الحاخام القبَّالي نحميا من بولندا لزيارة شبتاي، وقضى ثلاثة أيام في الحديث معه رفض بعدها دعواه بأنه الماشيَّح، بل أخبر السلطات التركية بأنه يحرض على الفتنة، فقُدِّم للمحاكمة وخُيِّر بين الموت أو أن يعتنق الإسلام، فأشهر إسلامه، وتسمى باسم محمد أفندي، وتعلَّم العربيَّة والتركية ودرس القرآن.

وأسلمت زوجته من بعده، ثم حذا حذوه كثير من أتباعه الذين أصبح يُطلَق عليهم اسم «دونمه».

واستمر في قيادة حركته، وظل كثير من أتباعه على إيمانهم به؛ لأن الماشيَّح في التصور القبَّالي سيكون خَيِّرًا من داخله، شريرًا من خارجه، وهذه مواصفات تنطبق على تسفي تمام الانطباق.

ويتضح هنا تأثر تسفي بتفكير يهود المارانو بشأن ضرورة أن يُظهر المرء غير ما يُبطن.

وطلب من الدولة السماح له بالدعوة في صفوف اليهود فسمحت له بذلك فعمل بكل خبث واستفاد من هذه الفرصة للنيل من الإسلام.

واتضح للحكومة العثمانية بعد أكثر من عشر سنوات أن إسلام شبتاي كان خدعة فنفته إلى ألبانيا حيث مات هناك بوباء الكوليرا عام ١٦٧٦ .

وقد تأسست بعد موت تسفي مراكز شبتانية في أطراف الدولة العثمانية في البلقان، وفي كلٍّ من إيطاليا وبولندا وليتوانيا.

وأهم الحركات الشبتانية هي حركة جيكوب فرانك.

ولقد كانت الحركة الشبتانية منتشرة بشكل عميق في أوربا؛ إذ ظل الشبتانيون داخل اليهوديَّة الحاخامية، وأبطنوا آراءهم، وقاموا بالدعوة لها سرًّا، حتى إن أحد عُمُد اليهوديَّة الحاخامية وهو الحاخام جوناثان إيبيشويتس (١٦٩٠-١٧٦٤) كان من دعاتها.

وقد أصبح الشبتانيون من أهم العناصر الثورية والعدمية في أوربا واحتفظوا بآرائهم داخل أنفسهم، حتى ظهرت الثورة الفرنسيَّة، فصار كثير منهم من دعاتها ورسلها.

وكان موسى دوبروشكا، أحد المرشحين لرئاسة حركة فرانك، من زعماء الثورة الفرنسيَّة ممن أُعدموا مع دانتون عام ١٧٩٤م(١).

الدونمه Donmeh

التعريف:

الدونمه: كلمة تركية بمعنى المرتدين، وفي تفسيرها قولان:

١- أن كلمة «دونمه» مكوَّنة من كلمتين تركيتين مدغمتين «دو» بمعنى «اثنين»، و«نمه» بمعنى «عقيدة» فهم أصحاب عقيدتين واحدة ظاهرة وهي الإسلام، والثانية مبطنة وهي اليهوديَّة.

٢- أن الكلمة مشتقة من كلمة «دونماك» بمعنى «العائدين»؛ أي يهود المارانو الذين هاجروا من شبه جزيرة أيبريا إلى الدولة العثمانية.

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية ص(٢١٥- ٢١٧).

وقد أُطلق هذا الاسم على جماعة يهودية تركية شبتانية من اليهود المتخفين استقرت في سالونيكا -في اليونان حاليًا- وأشهرت إسلامها تشبُّهًا بشبتاي تسفي.

فقد اعتقد كثيرون من أتباعه المؤمنين به أن ارتداده عن دينه واعتناقه الإسلام تلبية لأمر خفي من الرب وتنفيذ للإرادة الإلهية، فحذوا حذوه، ولكنهم ظلوا متمسكين سرًّا بتقاليد اليهوديَّة.

وكان مركز الجماعة في بادئ الأمر في أدرنة ثم انتقل إلى سالونيكا.

وأسهموا في تقويض الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة عن طريق انقلاب حزب الاتحاد والترقي.

فرق الدونمه

تنقسم الدونمه إلى عدة فرق:

١- اليعاقبة أو اليعقوبلية.

بعد موت تسفي، أعلنت آخر زوجاته أن روح زوجها قد حلت في أخيها يعقوب فيلسوف -أو يعقوب قويريدو، أي المحبوب- وأن تسفي تجسَّد مرة أخرى من خلاله.

وقد اعتنق أتباع يعقوب الإسلام وتسمى باسم عبد الغفور أفندي، بل أدَّى هو فريضة الحج عام ١٦٩٠م ومات أثناء عودته.

وقد تبعه ما يقرب من ثلاثمائة أسرة انقسمت عن جماعة الدونمه ككل، ويرى البعض أنه هو مؤسس الدونمه.

وقد سُمِّي أتباع يعقوب «اليعقوبلية»؛ أي «اليعقوبيون»، وهم يسمون باللادينو «أرابادوس»، أي «الحليقون النظفاء»؛ لأنهم يحلقون شعور رءوسهم تمامًا، وإن كانوا يرسلون لحاهم.

وكان الأتراك يسمونهم «الطربوشلوه»؛ أي «لابسو الطرابيش»؛ لأنهم كانوا يرتدون الطرابيش.

ويضم هذا الفريق أساسًا أفرادًا من الطبقات الوسطى أو الدنيا من الموظفين الأتراك.

وهم مندمجون في المجتمع التركي تمامًا، على الأقل من الناحية الشكلية.

٢- الأزميرلية.

وقد أُطلق على بقية الدونمه اسم «الأزميرلية»، ولكنهم ما لبثوا أن انقسموا إلى قسمين:

الأول: القنهيلية («القونيوسوس» باللادينو، و«كاركاشلر» بالتركية).

وقد حدث انقسام آخر في صفوف هؤلاء عام ١٧٠٠م حين ظهر قائد جديد هو باروخيا روسو الذي أعلن أنه تجسُّد جديد لشبتاي تسفي وأعلن أتباعه أنه التجسد أو التجلي المقدَّس وأنه ربهم.

وكان باروخيا روسو -وكان اسمه التركي مصطفى شلبي، كما كان يُعرَف باسم الحاخام باروخ فونيو- أكثر الدونمه راديكالية؛ فقد قام بتعليم التوراة المشيحانية الخفية، أو توراة التجليات التي

تطالب بقلب القيم، فطالب على سبيل المثال بإيقاف العمل بالستة والثلاثين حظرًا التي وردت في التوراة والتي تُعرَف باسم «القاطعة» (بالعبريَّة: كيريتوت)، وقد كانت عقوبة من يخالفها هو اجتثاث الروح من جذورها وإبادتها تمامًا، بل وحوَّلها إلى أوامر واجبة الطاعة.

وقد كان ذلك يتضمن العلاقات الجنسية، ومن ذلك العلاقات بين المحارم.

وأعضاء هذه الفرقة من الدونمه هم أساسًا من الحرفيين، مثل الحمالين والإسكافيين والجزارين، ويُقال: إن جميع الحلاقين في سالونيكا كانوا من أتباع هذه الفرقة.

وكانوا يرسلون لحاهم ولا يحلقون شعر رأسهم.

وتُعَدُّ فرقتهم أكثر الفرق تطرفًا؛ نظرًا لعدميتهم الدينيَّة، وقد قام هذا الفريق من الدونمه بنشاط تبشيري كثيف بين أعضاء الجماعات اليهوديَّة، وأسَّست جماعات تابعة له في أماكن عدة.

وقد ظهرت الحركة الفرانكية من أحد هذه الأماكن.

الثاني: القبانجي.

بعد موت باروخيا، انفصلت مجموعة أخرى سُمِّيت «القبانجي»، وهي كلمة تركية تعني «القدماء»، أو «القائمون على حراسة الأبواب» (باللادينو: «كافاليروس»)، رفضوا الاعتراف بقويريدو، كما رفضوا الطبيعة المشيحانية لباروخيا، ولم يعترفوا إلا بشبتاي تسفي، وأصبح اسم «الأزميرلية» يُطلَق عليهم وحدهم، وأصبحوا أرستقراطية الحركة الشبتانية.

وتضم هذه الفرقة المهنيين من أطباء ومهندسين، وأصحاب المهن الحرة وأثرياء اليهود.

وهؤلاء كانوا يحلقون رءوسهم ولا يطلقون لحاهم.

وكان كل فريق من الدونمه يعيش بمعزل عن الآخر.

العقيدة والأفكار

١- يؤمنون بألوهية شبتاي تسفي، وأنه الماشيَّح المنتظر الذي أبطل الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهي.

٢- يقولون: إن الجسم القديم لشبتاي صعد إلى السماء فعاد بأمر الله في شكل ملاك يلبس الجلباب والعمامة ليكمل رسالته.

٢- يرون أن التوراة المُتداوَلة -توراة الخلق- فارغة من المعنى وأنه أحل محلها توراة التجليات، وهي التوراة بعد أن أعاد تسفي تفسيرها.

٣- يحمل كل عضو من أعضاء الدونمه اسمين: اسم تركي مسلم، وآخر عبري يُعرَف به بين أعضاء مجتمعه السري.

٤- يظهرون الإسلام ويبطنون اليهوديَّة، فكانوا يتدارسون التلمود مع بقية اليهود ويستفتون الحاخامات فيما يقابلهم من مشاكل، كما كانوا يحتفلون بجميع الأعياد اليهوديَّة ويقيمون شعائرهم

عدا شعيرة الكف عن العمل يوم السبت حتى لا يلفتوا النظر إلى حقيقتهم.

وقد أضافوا إلى الأعياد عيدًا آخر اعتبروه أقدس الأعياد على الإطلاق وهو عيد ميلاد شبتاي تسفي.

ولهم أعياد كثيرة تزيد على العشرين منها: الاحتفال بإطفاء الأنوار وارتكاب الفواحش، ويعتقدون أن مواليد تلك الليلة مباركون ويكتسبون نوعًا من القدسية بين أفراد الدونمه.

٥- لا يصومون ولا يصلون ولا يغتسلون من الجنابة، وقد يظهرون بعض الشعائر الإسلاميَّة في بعض المناسبات كالأعياد مثلًا إيهامًا وخداعًا ومراعاة لعادات الأتراك ذرًّا للرماد في عيونهم ومحافظة على مظاهرهم كمسلمين.

٦- يحرمون مناكحة المسلمين ولا يستطيع الفرد منهم التعرف على حياة الطائفة وأفكارها إلا بعد الزواج.

٧- لهم زي خاص بهم، فالنساء ينتعلن الأحذية الصفراء والرجال يضعون قبعات صوفية بيضاء مع لفها بعمامة خضراء.

٨- يحرمون المبادرة بالتحية لغيرهم.

٩- يهاجمون حجاب المرأة، ويدعون إلى السفور والتحلل من القيم، ويدعون إلى التعليم المختلط ليفسدوا على الأمة شبابها.

١٠- عقيدتهم يهودية صرفة وبالتالي فهم يتحلون بالخصال الأساسية لليهودية، كالخبث والمراوغة والدهاء والكذب والجبن والغدر.

١١- يدفنون موتاهم في مدافن خاصة بهم، وكل فريق منهم يتعبد في معبده الخاص الذي يُسمَّى: القهال -الجماعة أو جماعة المصلين-، والذي يوجد عادةً في مركز الحي الخاص بهم مخبأ يخفيهم عن عيون الغرباء.

١٢- كانت صلواتهم وشعائرهم تُكتَب في كتب صغيرة الحجم حتى يَسهُل عليهم إخفاؤها، ولهذا لم يطلع عليها أحد حتى عام ١٩٣٥م.

وكانت كتب الصلوات بالعبريَّة أصلًا، لكن اللادينو حلت محل العبريَّة سواء في الأدب الديني أم الدنيوي، ثم حلت التركية محل اللادينو في منتصف القرن التاسع عشر.

١٣- اتهمت الدونمه -أو على الأقل إحدى فرقها- بالاتجاهات الإباحية وبالانحلال الخلقي والانغماس في الجنس، وذلك بسبب تحليل الزيجات التي حرمتها الشريعة اليهوديَّة وبسبب الحفلات التي كانوا يقيمونها ويتبادلون خلالها الزوجات.

وللدونمه صيغة خاصة من الوصايا العشر لا تُحرِّم الزنى، بل إنها تُحوِّل عبارة «لا تزنِ» إلى ما يشبه التوصية بأن يتحفظ الإنسان فقط في ارتكاب الزنى وليس أن يمتنع عنه تمامًا.

والموعظة الطويلة التي تركها أحد زعمائهم تحتوي على دفاع قوي عن إسقاط التحريمات الخاصة بالجنس في توراة الخلق.

١٤- تؤكد الموسوعة اليهوديَّة أنهم يعقدون احتفالات ذات طابع عربيدي داعر في عيد من أعيادهم الذي يُسمَّى عيد الحمل في ٢٢ مارس/آدار، وهو عيد بداية الربيع.

وتم أخيرًا إزاحة النقاب عن سر الدونمه بعد أن نجحت طويلًا في إخفاء حقيقة أمرها عن المسلمين واليهود على السواء، فقد ظهرت وثائق ومخطوطات كشفت عن علميتهم المتأصلة وبعدهم التام عن الإسلام وعن اليهوديَّة.

الأعداد والتواجد الحالي

لا تُعرَف أعداد الدونمه إلا على وجه التقريب.

ويُقال: إن عددهم وصل إلى ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفًا قبل الحرب العالمية الأولى.

وقد تَفرَّق شملهم على أثر اتفاقية تبادل السكان التي وقعتها تركيا واليونان بعد الحرب عام ١٩٢٤م بسبب اضطرار أعضائها، باعتبارهم مسلمين اسمًا، إلى ترك مقرهم في سالونيكا والاستقرار في جهات متفرقة في تركيا، خصوصًا إستنبول.

وقد حاولوا أن ينضموا مرة أخرى إلى الجماعة اليهوديَّة، ولكن طلبهم رُفض؛ لأن أولادهم يُعتبَرون غير شرعيين.

والدونمه يعملون ضمن مخططات الصهيونيَّة العالمية.

ولم يكن بين المهاجرين اليهود الأتراك إلى إسرائيل غير أفراد قلائل من الدونمه.

وتتركز الغالبية العظمى للدونمه في تركيا، وقد لعب الكثير من أعضائها دورًا قياديًا في الثورة التركية سنة ١٩٠٩م، وخصوصًا داود بك الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للمالية، وكان من نسل باروخيا رئيس الجماعة القنهيلية المتطرفة.

وثمة دلائل تشير إلى أن القنهيلية استمرت موجودة حتى الستينيات، وأنها لا تزال تبقي على إطارها التنظيمي، وأن رئيس الجماعة أستاذ في جامعة إستنبول.

ويُشاع بين يهود سالونيكا أن كمال أتاتورك نفسه كان من الدونمه.

ولا يزالون إلى الآن يملكون في تركيا وسائل السيطرة على الإعلام والاقتصاد ولهم مناصب حساسة جدًّا في الحكومة، مع كونهم يشكلون نصف الجهاز الحكومي.

وهم وراء تكوين حزب الاتحاد والترقي المتشبع بالعصبية الطورانية المعادية للعروبة والإسلام حتى يومنا هذا.

وللدونمه علاقة وثيقة بالحركات الماسونية في تركيا ويلعبون دورًا نشيطًا في عملية علمنة تركيا، وهو ما يُعطي الحركة الماسونية طابعًا خاصًا، وكبار الدونمه من كبار الماسونيين.

ويمتلكون ويديرون أكثر الجرائد التركية انتشارًا مثل: جريدة حريت، ومجلة حياة، ومجلة التاريخ، وجريدة مليت، وجريدة جمهوريت وكلها تحمل اتجاهات يسارية ولها تأثر واضح على الرأي العام التركي[1].

الفرانكية Frankist

التعريف:

الحركة الفرانكية نسبة إلى جيكوب فرانك، الذي أعلن بأنه الماشيح.

والفرانكية مجموعة من اليهود الذين تنصروا في القرن الثامن عشر -عام ١٧٥٩م- وأبطنوا اليهوديَّة، ويعدون امتدادًا لأفكار الحركة الشبتانية، ويلتزمون الإباحية والانحلالية وإسقاط الشرائع والأوامر والنواهي.

التاريخ والأحداث

نشأت الحركة الفرانكية على يد جيكوب فرانك الذي وُلد في بودوليا، ودرس في مدرسة دينية أولية خاصة، وعمل في بوخارست كتاجر ملابس وأحجار نفيسة، كما عمل في وظائف أخرى عديدة أتاحت له أن يتنقل بين مدن البلقان التابعة للدولة العثمانية في الفترة من ١٧٤٥ إلى ١٧٥٥م.

اتصل فرانك بأتباع الحركة الشبتانية في مرحلة مبكرة من حياته، ودرس الزوهار، واتبع مذهب الدونمه (طائفة الباروخيا أو اليعقوبيَّة المتطرفة).

وسافر في عام ١٧٥٣م إلى سالونيكا لأول مرة، وتعرَّف على أتباع باروخيا، وسافر إلى بعض المدن العثمانية الأخرى، ثم عاد إلى سالونيكا عام ١٧٥٥م وبدأ يتلبس دور الماشيَّح.

وأعلن فرانك أن الروح التي كانت تسكن في شبتاي تسفي وباروخيا قد تقمصته، وأنه تجسيد جديد لها.

ضُبط فرانك عام ١٧٥٦ وهو يقود إحدى الجماعات الشبتانية في طقوس ذات طابع جنسي تشبه طقوس جماعة «اليعقوبيَّة».

سافر إلى تركيا ومكث فيها بعض الوقت، واعتنق الإسلام عام ١٧٥٧م، ولكنه كان يزور أتباعه في بودوليا سرًّا.

وأجريت مناظرة علنية سنة ١٧٥٩م بين الفرانكيين والحاخامات انتهت بتَقبُّل فرانك التعميد والتنصر ولكنه كان تنصرًا على الطريقة المارانية (الظاهرية).

وقد عَيَّن فرانك اثني عشر من الإخوة أو الحواريين أو الرسل، هم تلاميذه الأساسيون (مثل

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/٥٠٧- ٥٠٩).

حواريي المسيح)، ولكنه عَيَّن أيضًا اثنتي عشرة أختًا كنَّ في واقع الأمر خليلاته، فمن الواضح أن فرانك استمر في الممارسات الجنسية التي كان يمارسها باروخيا.

وقد اكتُشف أمر فرانك وجماعته، فقُبض عليه وأُودع السجن، واستمر أتباعه في تقديسه واعتبروه الماشيِّح المعذَّب.

ومات فرانك عام ١٧٩٩م ودُفن في مقابر المسيحيين، وخلفته ابنته الحسناء إيف في قيادة الجماعة، واستمرت هي الأخرى، مثلها مثل أبيها، في الممارسات الجنسية الشاذة.

أما أتباعه المتنصِّرون فأصبح بعضهم من كبار النبلاء البولنديين، كما انخرط كثير من أبنائهم في سلك حركة التنوير اليهوديَّة وفي الحركات الليبرالية والماسونية، وكان من بينهم بعض رجالات الثورة الفرنسيَّة، وهذا ترجمة لمفهوم عبء الصمت حيث ينخرط الفرانكي في عدة ديانات ومؤسسات بهدف تقويضها من الداخل ثم نبذها بعد ذلك.

وكان معظم أتباع فرانك من الفقراء أو من اليهود الذين يشغلون وظائف هامشية أو وظائف لم يَعُد لها نفع.

فكان منهم الذين يعملون في تقطير الكحول، وكان منهم أصحاب حانات وأعضاء في الطبقات من بقايا يهود الأرندا، وكان هؤلاء قد فقدوا علاقتهم بالمؤسسة الحاخامية وزادت علاقتهم بالفلاحين السلاف، حتى إنهم تأثروا بفكرهم ومعتقداتهم.

كما انضم إليه عدد كبير من صغار الحاخامات الذين لم يحققوا ما كانوا يطمحون إليه من نجاح.

ومع هذا، فقد كانت الحركة تضم غير قليل من كبار التجار الأثرياء.

العقائد والأفكار

تدور العقيدة الفرانكية حول ثالوث جديد يتكون مما يلي:

١- الإله الخيِّر، أو الأب الطيب.

وهو إله خفي يختبئ وراء ثاني أعضاء الثالوث، ولا علاقة له بعملية الخلق أو المخلوقات، فهو لم يخلق الكون، فلو أنه خلق الكون لأصبح هذا الكون خالدًا وخيِّرًا، ولكانت حياة الإنسان أبدية.

٢- الأخ الأعظم أو الأكبر، ويُسمَّى أيضًا «هذا الذي يقف أمام الإله».

وهو الإله الحقيقي للعقيدة الذي يحاول العبد التقرب منه، ومن خلال الاقتراب منه يستطيع العابد أن يحطم هيمنة حكام العالم الثلاثة (قيصر روسيا، والسلطان العثماني، وحاكم إحدى القوى العظمى الأخرى ولعلها النمسا أو ألمانيا) الذين يهيمنون على العالم ويفرضون عليه شريعة غير ملائمة.

٣- الأم «علماه»، أو العذراء «بتولاه»، أو «هي».

وهي خليط من الشخيناه والعذراء مريم.

وصورة الأنثى في الثالوث الفرانكي جعلت العنصر الجنسي الكامن في القبَّالاه اللوريانية أو في الحركة الشبتانية عنصرًا أكثر وضوحًا.

وقد استخلص الفرانكيون أن التجربة الدينيَّة الحقة لا بد أن تأخذ شكل ممارسة جنسية.

ولن يصل العالم إلى الخلاص إلا باكتمال الثالوث الجديد السابق. وشبتاي تسفي نفسه، حسب التصور الفرانكي، ليس إلا أحد تجليات الإله، فهو تجسيد جديد للأخ الأعظم، ولكنه تملَّكه الضعف وهو بعد في منتصف الطريق، فلم يستطع تحقيق أي شيء.

ووصولًا إلى الخلاص، لا بد أن يظهر ماشيَّح جديد يكمل الطريق، ولا بد أيضًا أن تظهر العذراء (تجسيد العنصر الأنثوي).

وحتى يتحقق الخلاص، ينبغي أن يسير المؤمن بالعقيدة الفرانكية في طريق جديد تمامًا، لم يطرقه أحد من قبل، وهو طريق عيسو (أدوم) الذي يُشار إليه في الأجاداه بلفظ «أدوم» ويُستخدَم اللفظ نفسه للإشارة إلى «روما»، أي القوى الكاثوليكيَّة.

فعيسو رمز تَدفُّق الحياة الذي سيحرر الإنسان والحياة فهو قوة لا تخضع لأي قانون.

وقد جاء في التوراة أن يعقوب قال: إنه سيزور أخاه (سفر التكوين ٣٣/ ١٤) ولكنه لم يفعل؛ لأن الطريق كان صعبًا عليه.

وقد حان الوقت لأن يسير الماشيَّح في ذلك الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الحقة التي تحمل كل معاني الحرية والإباحية.

فالطريق الجديد يؤدي إلى عالم لا توجد فيه قوانين ولا حدود، عالم تم فيه التجرد من كل الشرائع والقوانين والأديان، لكنه عالم ليس فيه حدود -والحد بمعنى «الحاجز الذي يفصل بين شيئين»، وبمعنى «عقوبة مُقدَّرة وجبت على الجاني»، وبمعنى «حدود الشخصية» أي هويتها-، وتصبح العدمية والتخريب هما طريق الخلاص.

إن هذا العالم الشرير لم يخلقه الإله الخفي، وهو مادة دنيئة تقف في وجه وصول الإنسان إلى الأخ الأعظم.

وحتى يتم إنجاز هذا الهدف، لا بد أن تُحطَّم كل القوانين والتعاليم والممارسات التي تعوق تدفُّق الحياة: «لقد أتيت لأحرر العالم من كل الشرائع والعادات الموجودة فيه. إن مهمتي هي إزالة كل شيء حتى يستطيع الإله أن يكشف عن نفسه».

ثم تظهر العدمية الدينيَّة بشكل أوضح في الحديث عن الطريق إلى الحياة الجديدة، فهو طريق جديد تمامًا، وكما يقول فرانك: «أينما كان يخطو آدم، كانت تنشأ مدينة. لكن أينما أضع أنا قدمي، يجب أن يُدمَّر كل شيء، فقد أتيت إلى هذا العالم لأدمِّر وأبيد».

والطريق الجديد طريق غير مرئي، لا يكون إلا في الخفاء.

ولذا، فإنه يتعين على المؤمنين أن يرتدوا رداء عيسو (أي المسيحيَّة)، فعليهم أن يتظاهروا بالتنصر.

وقد عبر المؤمنون إلى الأمة اليهوديَّة والإسلام (الإشارة إلى شبتاي تسفي) ولم يبق سوى المسيحيَّة.

والمؤمن الحق يختبئ تحت «عبء الصمت» يحمل الإله في قلبه الصامت فيعتنق الديانات الواحدة تلو الأخرى ويمارس شعائرها.

لكن التغلب على الأديان الأخرى وتدميرها يتطلب من الفرد أن يكون صامتًا تمامًا ومخادعًا: «فالإنسان الذي يرغب في غزو حصن لا يفعل ذلك بالكلام والإعلان، بل يتسلل إليه في صمت وسكون، لقد تحدَّث الأجداد كثيرًا، لكنهم لم يفعلوا شيئًا؛ لذلك يجب الآن تَحمُّل الصمت. وحينئذ، لن يكون الفرد في حاجة إلى الدين».

وحينما يمارس المؤمن طقوس الديانات الأخرى دون أن يتقبل أيًا منها، بل يحاول أن يحطمها من الداخل، فهو يؤسس الحرية الحقة؛

فالواقع أن الديانة المنظمة على أساس مؤسسي التي يعتنقها اليهودي المتخفي ليست سوى عباءة يرتديها المرء كرداء يلقي به -فيما بعد- في طريقه إلى المعرفة المقدَّسة، وهي المعرفة الغنوصية بالمكان الذي تُحطَّم فيه كل القيم التقليدية في تيار الحياة، طريق غير مرتبط بأي قانون وإنما مرتبط بإرادة فرانك وحده.

وإذا كان الإفصاح عن الإيمان بالمسيحيَّة ضروريًّا، فإن الاختلاط بالمسيحيين وكذلك الزواج منهم محظور.

وفرانك نفسه تجسيد آخر للأخ الأعظم تقمصته الروح القدس، وقد سمَّى نفسه «سانتو سنيورا»؛ أي «السيد المقدَّس»، وروج للمفهوم القبَّالي اللورياني للشر، وهو مفهوم يرى أن الشر ليس حقيقيًّا، وكل شيء، وضمن ذلك الشر نفسه، هو خير أو علقت به شرارات إلهية على الأقل.

ومن هنا، فقد أعلن فرانك أن ظهور الماشيَّح أضفى القداسة على كل شيء في الحياة حتى الشر.

وبهذا، برزت فكرة «الخطيئة المقدَّسة» التي ترى أنه ينبغي الوقوع في الخطيئة الكبرى حتى ينبثق عالم لا مكان فيه للخطيئة، عالم هو الخير كله.

ولكي يصعد الإنسان، يجب عليه أن يهبط أولًا: «إنني لم آتِ إلى هذا العالم لكي أصعد بكم، بل لأهبط بكم إلى قاع الهوة، حيث لا يستطيع الإنسان أن يصعد بقوته الذاتية».

أما النزول إلى تلك الهوة، فهو لا يقتضي فقط ترك كل الأديان والمعتقدات، بل يوجب أيضًا اقتراف أعمال آثمة غريبة.

وهذا يتطلب أن يتخلى الإنسان عن الإحساس بذاته إلى درجة تصبح معها الوقاحة والفجور هما

ما يقود إلى إصلاح الأرواح.

وأعلن فرانك أنه سيخلص العالم من كل النواميس الموجودة وسيتجاوز كل الحدود، فقضى ببطلان الشريعة اليهوديَّة.

ورغم أن الإله أرسل رسلًا إلى بني إسرائيل، فإن التوراة تتضمن شرائع يصعب مراعاتها وثبت عدم جدواها.

والشريعة الحقة هي إذن التوراة الروحية أو توراة الفيض التي أتى بها شبتاي تسفي.

وشن فرانك حربًا شعواء على التلمود، وأعلن أن الزوهار هو وحده الكتاب المقدَّس.

وكان الفرانكيون يُدعَون باسم «الزوهاريين» لهذا السبب؛ ومع هذا، وصلت العدمية بفرانك إلى منتهاها إذ طلب من أتباعه التخلي عن الزوهار نفسه، وعن كل تراث قبَّالي.

كانت كل هذه الأفكار تعمل على إعداد أتباعه للتَنَصُّر الماراني الظاهري، حيث كان لهم شرط أساسي هو الاحتفاظ بشيء من هويتهم اليهوديَّة العلنية كأن يمتنعوا عن حلاقة سوالفهم، وأن يرتدوا الثياب الخاصة بهم، ويُبقوا أسماءهم اليهوديَّة إلى جانب أسمائهم المسيحيَّة الجديدة، وألا يأكلوا لحم الخنزير، وأن يستريحوا يوم السبت، ولعل من المفارقات أن مثل هذه الشعائر السطحية كانت كل ما تبقى من اليهوديَّة بالنسبة للبعض.

كما طالبوا بإعطائهم رقعة أرض في شرق جاليشيا تستطيع جماعتهم أن تؤسس فيها حياتها الجديدة، وخصوصًا أن مسرح الخلاص في الرؤية الفرانكية هو بولندا وليس صهيون.

هذا مع وضع برنامج لتحويل اليهود إلى قطاع منتج، كأن يعملوا بالزراعة مثلًا.

وقد أكد فرانك أهمية الجوانب العسكرية في تنظيمه.

وكان ينادي بأن يترك اليهود الكتب والدراسات الدينيَّة، وأن يتحولوا إلى شعب محارب.

حبد Habad

التعريف:

حبد: اختصار للكلمات العبريَّة الثلاث: «حوخماه» و«بيناه» و«دعت»؛ أي «الحكمة» و«الفهم» و«المعرفة».

وهي أعلى درجات التجليات النورانية العشرة (سفيروت).

التاريخ والأحداث

حبد حركة حسيدية أسسها شنياءور زلمان في روسيا البيضاء في قرية لوبافيتش، ولذا يشار إليها أحيانًا على أنها حركة لوبافيتش، ويُشار إلى قائد الحركة على أنه «اللوبافيتشر ربي»؛ أي «حاخام لوبافيتش».

ويكمن الاختلاف بينها وبين الحركة الحسيديَّة الشعبية المعروفة في أنها أقل عاطفية، وأكثر فكرية رغم صوفيتها وحلوليتها؛ فالتجليات العاطفية جاءت بعد التجليات الفكريَّة.

كما أنها تبتعد عن بعض المفاهيم الحسيديَّة المتطرفة مثل: التسامي عن طريق الغوص في الرذيلة.

وقد أسقط أتباع مدرسة حبد استخدام كلمة «تساديك» وعادوا إلى استخدام كلمة «حاخام».

وقد بدأت الحركة تمارس نشاطها مؤخرًا في روسيا وأوكرانيا.

ولحبد فرع في إسرائيل، ويتبعها بعض المستوطنات الزراعية.

ويُلاحَظ انتشار أفكارها العنصرية في الآونة الأخيرة.

وقد قالت شالوميت ألوني عضو الكنيست: إن الجماعة صعَّدت دعايتها العنصرية قبل غزو لبنان، وطلبت إلى الأطباء والممرضات ألا يعالجوا جَرْحَى الأغيار؛ أي العرب.

ومن أهم أتباع حبد اثنان من رؤساء دولة إسرائيل السابقين هما زلمان شازار وأفرايم كاتزير.

كما أن عددًا كبيرًا من أعضاء جماعة جوش إيمونيم من أتباع حبد.

وقد دخلت حبد الانتخابات الإسرائيلية عام ١٩٨٨م، تأييدًا لحركة أجودات إسرائيل الدينيَّة، وقد ارتفع عدد نوابها في البرلمان مما مكنها من تأسيس حزب جديد هو: هيجيل هاتوراة.

ومع انخراطها في السياسة، أخذت حركة (حبد) أو اللوبافيتس اتجاهًا يبشر بعودة المسيح القريبة، وأعطى حاخام الحركة نفسه الحق في الاشتراك في كل الحملات الانتخابية الإسرائيلية للتركيز على القضية الأساسية وهي قرب مجيء المسيح وضرورة تجهيز الأرض اليهوديَّة لاستقباله.

وحيث أعلنت تلك الحركة عن قرب مجيء المسيح؛ فقد أصبح أتباعها ينظرون إلى أنفسهم أنهم جنود جيش المسيح المنتظر في جميع أنحاء العالم، وأعلنوا أنهم سيركزون جهودهم للإسراع بمجيء المسيح مخلِّص الإنسانية.

وانطلق شباب منهم لابسين السواد للانتشار بدعوتهم في نيويورك، ولندن، وباريس، وكذلك في مدريد وجنيف، ويركزون خلال ذلك على غزو أحياء اليهود لدفعهم بقوة للعودة للدين والتوبة التي ستسرِّع لحظة الرؤية السامية للجميع!

ووسط أجواء محمومة بالتبشير بالعودة إذا الحاخام مناحيم شنيرسون يظهر فيهم، ويطرح نفسه على أنه المسيح!

واستطاع شنيرسون أن يسترعي أنظارهم، ويستجلب رضا هؤلاء اليهود بثقافته التوراتية العميقة، وعبقريته العلميَّة المتنوعة، ومنطقه المقنع، وحماسه المبهر، ومهارته في فك الألغاز والأحاجي بين سطور الأساطير، إضافة إلى مركزه العلمي الأكاديمي المشيد فوق هرم من شهادات الدكتوراه، مما صنع منه في نظر آلاف الأتباع.

وبدأ رعاع اليهود ينسجون حول الرجل أقاصيص الكرامات وأساطير المعجزات مما جعل مقره في مدينة بروكلين قبلة يؤمها المريدون اليهود من كل أنحاء العالم!

ومع بداية التسعينات كثر أتباعه المصدقون بأنه هو المسيح، ولم يشأ أن ينفي عن نفسه هذه الصفة؛ بل شجع من ينظرون إليه هذه النظرة، بل حاول تأكيدها بنسبته إلى الجيل السابع (المقدس) من مؤسس حركة (حبد) والجيل السابع مفضل دائمًا عند اليهود، واستغل صفة أخرى وُجدت فيه ليزيد أتباعه فتنة، وهي دعواه أنه من نسل داود!

ولكن الرجل الذي دعا نفسه ودعاه أتباعه بالمخلِّص قد خلُص إليه الموت قبل أن يخلِّص أحدًا مما أذهل أتباعه المهووسين به، ودفع بعضهم إلى الاعتقاد أنه هو المسيح القادر على أن يعود مرة أخرى ليظهر أمام العالم بملابسه البيضاء؛ ليكون ذلك أدعى للتصديق به.

المعتقدات والأفكار

١- أن الإنسان له روحان:

إحداهما: الروح الإلهية (نيفيش إلوهيت).

والثانية: الروح الحيوانية أو البهيمية (نيفيش ها بيهيميت).

والإنسان هو ميكروكوزم؛ أي نموذج مصغر للعالم، وهو أيضًا حلبة صراع لقوى الخير والشر التي تتصارع في الكون، ولكن الشر هو السترا أحرا، أو الجانب الآخر للإله، حسبما جاء في القبَّالاه.

ويوجد طريق وسط يجمع بين الشيئين، وهو المحارة التي التصقت بها الشرارات الإلهية حسب العقيدة القبَّالية.

٢- تنقسم أرواح البشر، وفقًا لدرجة تجلِّي القوى الإلهية (سفيروت) فيها؛ فالأرواح العليا تجسِّد القيم الثلاث العليا؛ أي: الحكمة والفهم والمعرفة، كما أنها تتصف بشدة القوى العاطفية. أما الأرواح البهيمية، فتتبع الشهوات.

واليهودي العادي حلبة صراع بين العواطف والشهوات من جهة، والقوى العقلية من جهة أخرى. وبمقدوره أن يسيطر على رغباته الشريرة من خلال الحكمة والفهم والمعرفة، وبإمكان الإنسان أن يصل إلى خشية الإله من خلال التأمل في صفاته، الأمر الذي يقوده إلى حبه والالتصاق به والتوحد معه (ديفيقوت).

٣- ركزت حركة حبد على التوراة والتأمل العقلي؛ ولهذا فإن أول مدرسة تلمودية (يشيفا) حسيدية كانت تابعة لهذه الحركة.

وقد أكدت حبد أهمية الأوامر والنواهي، ولكنها عارضت التطرف في تطبيقها.

٤- يذهب شيناءور زلمان في كتاب هاتانيا -دستور حركة حبد- إلى أن الأغيار مخلوقات بهيمية

شيطانية تمامًا وخالية من الخير وأن ثمة اختلافًا جوهريًا بين اليهودي وغير اليهودي.

ولهذا يختلف الجنين اليهودي عن الجنين غير اليهودي.

ووجود الأغيار في العالم أمر عارض، فقد خُلقوا من أجل خدمة اليهود، وهذا متسق تمامًا مع القبَّالاه التي جعلت اليهودي ركيزة للكون.

الأعداد وأماكن التواجد

انتقلت قيادة حبد إلى الولايات المتَّحدة حيث يترأسها في الوقت الحالي الحاخام لوبافيتش في نيويورك (في كراون هايتس في بروكلين).

وحبد منظمة ثرية للغاية إذ تبلغ ميزانيتها نحو مائة مليون دولار (ويقدرها البعض بثمانمائة مليون دولار) ويبلغ أتباعها ١٣٠ ألف (٣٠ ألف في بروكلين و١٠٠ ألف في أنحاء العالم).

ويُقال: إن عدد مؤيديها وأتباعها يصل إلى ما يزيد عن مليونين، وهو رقم مُبالَغ فيه.

وتتبع حركة حبد دار للنشر طبعت ملايين الكتب بعدة لغات ولها مكتبة وأرشيف يضم مجموعة فريدة من الكتب والمنشورات والوثائق اليهوديَّة.

كما تمتلك الحركة صحيفة خاصة بها.

ويتبعها آلاف الذين يعملون في كثير من دول العالم التي توجد فيها جماعات يهودية.

وقد أصبحت حركة حبد من أكثر الحركات تطرفًا في التوسعية والعنصرية الصهيونيَّة(١).

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، فصل (دبابات الإيمان) من كتاب الأصولية اليهودية.

الفصل الرابع
عقيدة النصارى في المخلِّص المنتظر

إذا كان عهد اليهود بانتظار مسيحهم قد طال بطول زمن التوراة، فإن انتظار النصارى لمسيحهم ظل مستمرًا منذ زمن الإنجيل.

يقول ول ديورانت: كان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحيَّة المنتشرة في أنحاء العالم، وهي: أن المسيح ابن الله، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة[١].

والجماعات النصرانيَّة التي وحدت بينها تلك العقيدة كما قال ديورانت لم تكتف بالاعتقاد، بل لم تقف عند حد الانتظار، وإنما تفاعلت مع ذلك المعتقد مُحاوِلةً تحقيق علاماته واستدعاء مقدماته؛ فالطوائف الرئيسة من أصحاب تلك الديانة وهم الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت جميعهم يؤمنون بعودة المسيح ثانية.

يقول القس روبر كليمان: عند مجيء المسيح تتزعزع الخليقة كلها، وَسَيَدُلّ مجيئه على انتهاء الزمن القديم، وتظهر بداية الزمن الجديد؛ حيث يشمل الخليقة كلها ببركته، ولذلك سُمي هذا اليوم الأخير: يوم المسيح؛ أي يوم مجيء الرب وحضوره[٢]!

ولكن أين سينزل المسيح في اعتقاد النصارى؟ يقولون أيضًا: سينزل في القدس، وسيمارس دعوته من الهيكل.

إذن يبدأ الأمر عندهم من القدس، من الأرض المقدَّسة التي ولد فيها المسيح، والتي سيعود إليها مرة أخرى ليقيم مملكته على الأرض وينال كل من يؤمن به النعيم الأبدي.

التحول الفكري العقائدي

إن أتباع عيسى ظلوا ينظرون تاريخيًا إلى اليهود على أنهم أعداء المسيح، المنكرون لدعوته والساعون في أذاه، واعتبر النصارى أنفسهم أوْلى برسالة موسى التي جاء عيسى مصدقًا بها ومتممًا لها، وآلت إليهم بمقتضى ذلك المقدساتُ التي دعت التوراة والإنجيل إلى تقديسها، أما اليهود فلم يعترفوا لهم بذلك بل كفَّروهم كما كفَّر النصارى اليهود.

وما يعنينا هنا، أنه نشأ ارتباط وجداني وعقدي بالأرض المقدَّسة عند النصارى، جعلهم ينظرون إليها على أنها إرث المسيح لأتباعه، بعد أن دنسها اليهود وتسببوا في هدم هيكلها بإفسادهم

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت (٣/ ٢٩٠).
(٢) إيماننا الحي، ص(٥٢٧).

مرتين كما دلت على ذلك سورة الإسراء.

بل إن النصارى رفضوا أن يُطلق على القدس صهيونَ اليهوديَّة، بل أسموها مدينة العهد الجديد، واعتبروها الوطن المقدس الذي ورّثه المسيح لهم، واستودعهم إياه حتى يعود ثانية.

وقد برهنوا تاريخيًا على هذا الارتباط عبر عشرين قرنًا مضت، اختلفوا خلالها في كل شيء حتى في ذات الإله ولكنهم لم يختلفوا على تقديس بيت المقدس خاصة مدينة بيت لحم التي فيها ولد المسيح، والناصرة التي فيها ترعرع، ومكان قبره المزعوم في القدس.

وبعد ظهور الإسلام والفتوحات الإسلاميَّة فقد ناطح النصارى المسلمين في أرض بيت المقدس وما حوله منذ وقت مبكر من عمر الإسلام، بدءًا من غزوة مؤتة وتبوك في عصر الرسالة، ومرورًا بعصر الخلفاء الراشدين في أجنادين واليرموك، وصعودًا إلى عصور الخلافة المتوالية، وخاصة في زمان الحروب الصليبية التي أثبتت أحداثها العظام أن القدس كانت هدفها الأول والأخير، وانتهاء بما حدث في احتلال فرنسا لمدينة دمشق حيث وقف الجنرال اللّنبي على قبر صلاح الدين الأيوبي قائلًا: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين.

ولكن الحروب الصليبية كانت أبرز المعالم التاريخية الدالة على مركزية القدس في معتقد النصارى. نعم! فلأجل تلك المدينة خاضوا حروبًا متواصلة تحت راية الصليب؛ لاستعادة القدس من أيدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الصدام من أكبر الحروب في التاريخ كله؛ إذ استهدف توحيد أوربا دينيًّا تحت زعامة البابوات، وتشكيل تحالف من كل عروش أوربا للوقوف في وجه المسلمين في عُقر ديارهم.

وقد بدأت تلك الحروب في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واستمرت حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، أرسل الغرب خلالها أكثر من خمس عشرة حملة صليبية كبيرة إلى بلاد المسلمين، واشتركت فيها كل أوربا النصرانيَّة، ونجح الصليبيون خلالها في الاستيلاء على بيت المقدس، وأقاموا مملكة فيها، وسيطروا على المسجد الأقصى، ورفعوا الصلبان على مآذنه نحو ثمانين سنة، ولم تخمد تلك الحروب إلا بعد أن تأكد للغرب، أن استمرار السيطرة على الأرض المقدَّسة أمر مستحيل في أرض محفوفة بالمسلمين من كل جانب.

ثم طوى الزمان عبر قرون ممتدة أحلام أهل الصليب في التمكين للوثنية النصرانيَّة في الأرض المقدَّسة، وانكفأت أوربا في شواغلها وصراعاتها حتى جاء القرن السادس عشر الميلادي، وحدث الانقلاب الفكري العقائدي.

حدث هذا الانقلاب في القرن السادس عشر باسم الإصلاح والتجديد في الديانة النصرانيَّة، وعرف بالحركة البروتستانتيَّة، وغيَّر هذا الانقلاب معالم الديانة النصرانيَّة الدائمة التغيُّر ولكن التغيير جاء هذه المرة لصالح اليهود، وكانت إطاحة هذه الحركة البروتستانتيَّة بحق الكنيسة في احتكار تفسير الكتاب المقدس مفتاحًا للولوج إلى التفسيرات الحرفية للنصوص التوراتية فيما يتعلق

باليهود، بل بدأت النصرانيَّة تُخترق بالمفاهيم اليهوديَّة وتختلط بها بعد أن ضم البروتستانت التوراة إلى جانب الإنجيل مصدرًا أوليًا وحرفيًا للتلقي، خلافًا لما كان عليه الأمر خلال خمسة عشر قرنًا خلت من عمر الديانة.

ولم يأتِ القرن السابع عشر، حتى ظهرت نظرة غربية جديدة لليهود أعداء الأمس فقد دعا الحرفيون البروتستانت إلى ضرورة احتضان اليهود والتمكين لهم في العودة إلى الأرض المقدَّسة، على اعتبار أن مساعدتهم في ذلك سوف يعجل بمجيء المسيح عيسى ابن مريم إلى الأرض مرة أخرى؛ فالتفسيرات الحرفية للتوراة والإنجيل بعيدًا عن تأويلات الكنيسة أظهرت لهم أن خلاصة اليهود سوف يدخلون في ديانة المسيح عندما يعود، وبقيتهم من غير المؤمنين به سوف يقتلون مع باقي أعداء المسيح، أما أتباع المسيح من النصارى ومن يلحق بديانتهم؛ فسوف يعيشون مع المسيح في القدس مدة ألف عام قبل يوم القيامة.

جاء في سفر رؤيا يوحنا ٣/ ١١، ١٢: ها أنا آتي سريعًا، تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك، من يغلب فسأجعله عمودًا في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، واكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي: أورشليم الجديدة، النازلة من السماء من عند إلهي، واسمي الجديد.

وجاء في سفر رؤيا يوحنا ٢٠/ ٦، ٧: مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم، بل سيكونون كهنة لله والمسيح، وسيملكون معه ألف سنة، ثم متى تمت الألف سنة، يُحل الشيطان من سجنه.

يعني يرتفع السلام عن الأرض، ويعود الشيطان للإفساد بين البشر.

أما عن إيمان أعداد من اليهود بالمسيح عند مقدمه الثاني فيقول الإنجيل المتداول في سفر رؤيا يوحنا ٧/ ٢- ٤: ورأيت ملاكًا آخر طالعًا من مشرق الشمس معه ختم الله الحي فنادى بصوت عظيم إلى الملائكة الأربعة الذين أعطوا أن يضروا الأرض والبحر، قائلًا: لا تضروا الأرض ولا البحر ولا الأشجار حتى نختم عبيد إلهنا على جباههم، وسمعت عدد المختومين مائة وأربعة وأربعون ألفًا مختومين من كل سبط من بني إسرائيل.

إذن فالعودة حسب هذه العقيدة النصرانيَّة ستكون في أورشليم الجديدة، وسوف تكون على رأس ألفية جديدة، وسوف تكون في زمان لليهود فيه وجود في الأرض التي سيعود إليها المسيح؛ فلا بد أولًا من عودة اليهود، لكي يعود المسيح!

فتأييد نصارى الغرب لليهود في العصر الحديث، يرجع إذًا إلى جذور في بنية التكوين الثقافي بعد حركة التغيُّر البروتستانتي؛ بل لا يكون المرء مبالغًا إذا قال: إن الفكرة الصهيونيَّة الحديثة ذاتها، ولدت في أحضان النصرانيَّة البروتستانتيَّة قبل أن يرفع هرتزل لواءها بقرون.

قال كينين وهو أحد أبرز قيادات اليهود في أمريكا في كتابه خط الدفاع الإسرائيلي: إسرائيل كانت أنشودة مسيحية، قبل أن تصبح حركة سياسية يهودية.

فالبروتستانت النصارى هم الذين أقاموا الحركة الصهيونيَّة، وشجعوا اليهود للالتفاف حولها، وحتى عندما تردد هرتزل في اختيار فلسطين وطنًا تقام فيه الدولة اليهوديَّة، أرسل إليه المبشر النصراني البروتستانتي وليم بلاكستون نسخة من التوراة موضح عليها المواضع التي تشير إلى أن اليهود سيعودون في آخر الزمان إلى الأرض المقدَّسة، فاقتنع هرتزل.

وعندما عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧م كان من أبرز المشاركين فيه القس البروتستانتي وليام هشلر وقد دخل إلى قاعة المؤتمر بصحبة هرتزل وهتف بحياته قائلًا: يحيا الملك يحيا الملك!

وعندما جاء دوره في إلقاء كلمته خاطب الصهاينة المجتمعين قائلًا: استفيقوا يا أبناء إسرائيل، فالرب يدعوكم للعودة إلى وطنكم في الأرض المقدَّسة.

وبقية القصة معروفة بعد بازل؛ حيث استلمت بريطانيا البروتستانتيَّة فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ثم أعطى وزير خارجيتها بلفور البروتستانتي لليهود وعدًا بوطن قومي في فلسطين امتثالًا لنظرة العطف من حكومة صاحبة الجلالة البروتستانية، ثم تخلت بريطانيا عن فلسطين بعد أن هيأتها لليهود خلال فترة الانتداب، ثم ساندتها حتى تم إعلان الدولة!

فلماذا كل هذا الحماس الإنجليزي لإعادة اليهود إلى الأرض المقدَّسة؟ يجيب الزعيم اليهودي حاييم وايزمان عن هذا في مذكراته فيقول: إذا سأل سائل: ما أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أماني اليهود؟ فالجواب على ذلك: أن الإنجليز هم أشد الناس تأثرًا بالتوراة، وتدين الإنجليز هو الذي ساعدنا في تحقيق آمالنا؛ لأن الإنجليزي المتدين يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب إعادة اليهود إلى فلسطين، وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية في هذه الناحية أكبر المساعدات(١).

وتقول الكاتبة الأمريكيَّة لي أوبرين: إن المذاهب اللاهوتية لكثرة من البروتستانت تصف إنشاء دولة إسرائيل بأنه تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تذهب أيضًا إلى أن تجمع اليهود هو مجرد تمهيد لتنصيرهم قبل المجيء الثاني للمسيح(٢).

وعندما انعقد المجمع العالمي للكنائس النصرانيَّة في أفناتون عام ١٩٥٤م، قدمت له اللجنة المختصة ببحث علاقة اليهود بالكنيسة تقريرًا جاء فيه: إن الرجاء المسيحي بالمجيء الثاني للمسيح لا يمكن بحثه عبر فصله عن رجاء شعب إسرائيل الذي لا نراه بوضوح فقط في كتاب العهد القديم؛ بل فيما نراه من عون إلهي دائم لهذا الشعب، ولا نرتاح قبل أن يقبل شعب الله المختار المسيح بصفة ملك.

---

(١) انظر: اليهودية، أحمد شلبي، ص(١٠٦).

(٢) المنظمات اليهودية الأمريكية ونشاطاتها في دعم إسرائيل، تأليف لي أوبرين، ص(٢٨٦).

وأصدر الأساقفة المجتمعون في ذلك المؤتمر البيان الآتي: إننا نؤمن أن الله اختار إسرائيل الشعب المختار؛ لكي يتابع الخلاص للبشرية، ومهما كان موقفنا فلا نتمكن من نكران أننا أغصان قد تطعمت على الشجرة القديمة إسرائيل؛ ولذلك فإن شعب العهد الجديد لا يمكن أن ينفصل عن شعب العهد القديم، إن انتظارنا لمجيء المسيح الثاني يعني أملنا القريب في اعتناق الشعب اليهودي للمسيحية، وفي محبتنا الكاملة لهذا الشعب المختار[١].

أمريكا وعدوى البروتستانت

انتقلت تلك الحُمى إلى أمريكا مع الأنجلوساكسون المهاجرين إليها، وهم عنصر البيض البروتستانت، الذين يعتبرون أنفسهم صفوة المجتمع الأمريكي وأصحاب الفضل في تأسيس دولته العملاقة، فهم الذين شكلوا بذرة الهجرة الأولى لهذه الأرض الجديدة قبل ٣٠٠ عام، وهم يحملون في غالبيتهم معتقد البروتستانت، الذي يعني الاحتجاج، وبالرغم من وجود شرائح كبيرة من الأمريكيين ترجع إلى أصول إسبانية وآسيوية وإفريقية، إلا أن الأنجلوساكسون ذوي الأصول الأوروبية هم العنصر المسيطر والمتسيِّد في الولايات المتَّحدة.

ومع تصاعد القوة الأمريكيَّة في هذا القرن، تصاعد المد البروتستانتي، وتحول في العقود الأخيرة من عقيدة مذهبية إلى عُقد أصولية، وهو المصطلح الذي نشأ في الغرب لكي يطلق على المتشددين البروتستانت في مقابل التقليديين من أتباع المذاهب الأخرى.

وفي أواخر السبعينات الميلادية، شهدت الساحة الأمريكيَّة بروزًا لتيار أكثر تشوقًا داخل أتباع المذهب البروتستانتي الحرفي، وأطلق على هذا التيار: الحركة الصهيونيَّة المسيحيَّة.

ويُطلق عليهم أحيانًا: الإنجيليون اليمينيون، وانتساب هؤلاء إلى الصهيونيَّة رغم نصرانيتهم، ليس غريبًا على قوم يدينون بالتوراة التي تقدس جبل صهيون وما كان عليه من مقدسات، ولهذا فإنهم يتبنون الدعوة إلى الدعم المطلق لدولة اليهود من أجل تحقيق الطموحات الإسرائيلية أو التنبُّؤات التوراتية في الشرق الأوسط، ويأتي على رأسها السعي لتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى، والقدس الكبرى، وإعادة بناء الهيكل؛ لأنه بكل بساطة سوف يكون مكانًا لدعوة المسيح في القدس التي ستصبح عاصمة له في معتقدهم.

لقد بلغ التحول التاريخي في الغرب النصراني من اليهود ذروته في العقود الثلاثة الأخيرة ووقع هؤلاء في فتنة استدراج محكمة منذ أن احتل اليهود القدس في عام ١٩٦٧م، فقد صور لهم الشيطان هذا الحدث على أنه أعظم دليل على أن التوراة حق؛ لأنها أخبرت عن عودة اليهود إلى القدس، وأن الإنجيل حق؛ لأنه أخبر بعودة اليهود إلى القدس، وما داموا قد عادوا إليها كما أخبرت الكتب؛ فلا بد أنهم سيتنصرون في النهاية كما أخبرت أيضًا.

---

(١) مجلة الأمل، العدد ١٠٤، ١٩٨٢م.

يقول هول ليندسي في كتابه آخرة كرة أرضية: قبل أن تصبح إسرائيل دولة، لم يكشف عن شيء، أما الآن وقد حدث ذلك، فقد بدأ العد العكسي لحدوث المؤشرات التي تتعلق بجميع أنواع النبوءات، واستنادًا إلى النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز على الشرق الأوسط، وخاصة إسرائيل في الأيام الأخيرة.

أما الصراع الدموي التاريخي بين اليهود والمسيحيَّة، فقد مسحته تلك النبوءات والأحلام المتحققة، وتحول أعداء المسيح إلى حلفاء، بعد أن برئوا من دمه، وإلى أصدقاء بعد أن أصبحوا علامة على قرب مقدمه.

لقد تنامى هذا التيار الصهيوني المسيحي بشكل جارف في سنوات معدودة؛ فبعد نحو خمس سنوات من ظهوره في أواخر السبعينيات الميلادية، كانت الإحصاءات تشير إلى ظهور نحو ٢٥٠ منظمة إنجيلية موالية لإسرائيل من مختلف التخصصات والواجهات، تعكس آراء ورغبات نحو ٤٠ مليونَ أمريكيٍّ إنجيلي (إنجيلي: تعني: من يكتفي بنص الإنجيل ولا يعبأ بتأويلات الكنيسة، وهذا جوهر الحركة البروتستانية).

وقد نجحوا في توسيع رقعة التأييد الشعبي المطلق لليهود إضافة إلى التأييد الرسمي؛ وذلك عن طريق تنظيم المهرجانات للتضامن مع اليهود، وتجمعات ما يسمى بالوعي بإسرائيل، التي تقيمها الكنائس الإنجيلية، وبعض هذه المنظمات تنظم الجولات للأرض المقدَّسة، وبعضها يعد المطبوعات ويعقد المؤتمرات، وبعضها ينغمس في الدعم السياسي والمالي المباشر لدولة اليهود، ويقوم بمختلف عمليات الضغط سواء عن طريق استكتاب الرسائل، أو عن طريق وسائل الإعلام التي يعبرون فيها بقوة عن تأييدهم لإسرائيل.

لقد غدا تحقيق أهداف إسرائيل من علاقتها بالغرب، هدفًا لهذه المنظمات، ولم يقصر الأمريكيون من النصارى الصهاينة في دعم دولة اليهود بكل مستطاع، حتى إن بنيامين نتنياهو عندما كان سفيرًا لدولته في الأمم المتَّحدة خاطب جوعًا منهم في ٦ فبراير ١٩٨٥م، وقال لهم معترفًا بجميلهم وجميل كل النصارى تجاه اليهود: لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهوديَّة للعودة إلى أرض إسرائيل.

وهذا الحلم الذي ظل يراودنا منذ ٢٠٠٠ سنة، تفجر من خلال المسيحيين الصهيونيين.

وقال: المسيحيون ساعدونا في تحول الأسطورة الجميلة إلى دولة يهودية.

وأضاف: إن الذين يستغربون مما يظنون أنه صداقة حديثة بين إسرائيل ومؤيديها المسيحيين، يجهلون أمر اليهود أو المسيحيين، إن هناك روابط روحية تشدنا بإحكام وثبات، إنها شراكة تاريخية أدت وتؤدي دورها بشكل جيد لتحقيق الأحلام الصهيونيَّة[١].

---

(١) انظر: النبوة والسياسة، ص(١٤٠).

أما بعد أن أصبح نتنياهو رئيسًا لوزراء اليهود في دولتهم، فقد قوبل بحفاوة بالغة في الكونجرس الأمريكي، وواجهه أعضاء الكونجرس جميعًا بعاصفة من التصفيق بعد أن هبوا وقوفًا لتحيته عندما ردد أمامهم فيما يشبه القسم عبارة: القدس هي العاصمة الأبدية الموحدة لإسرائيل، ثلاث مرات.

لقد تبنى الكونجرس الأمريكي الذي يسيطر عليه اليمينيون بشكل كامل النهج الإسرائيلي فيما يتعلق بالقدس؛ فقد وافق في قراره رقم ٥٧٠ في ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٥م على مشروع القانون الذي تقدمت به وزارة الخارجية لتخصيص مبلغ مائة مليون دولار لنقل السفارة الأمريكيَّة من تل أبيب إلى القدس، وكانت الموافقة بأغلبية ٤٠٦ أصوات مقابل ١٧ صوتًا، واشترط الأعضاء أن يتم نقل السفارة في موعد أقصاه يوم ٣١/ ٥/ ١٩٩٩م، مع إعطاء الرئيس حق التأجيل لمدة لا تزيد على ستة أشهر، أي حتى بداية عام ٢٠٠٠م، بشرط أن يكون ذلك أمرًا تتطلبه دواعي الأمن القومي الأمريكي!

ولم ينتظر المحمومون بألفية القدس حتى يحل موعد نقل السفارة، بل ظلت أصواتهم تعلو بهذا المطلب حتى لا يبرد أثر القرار؛ فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز في منتصف إبريل من عام ١٩٩٧م إعلانًا عجيبًا موقعًا بأسماء عدد من كبار القساوسة الأمريكيين من أعضاء ما يسمى بالاتحاد المسيحي نحو القدس الموحدة، جاء فيه: إن الاتحاد يدعم سيطرة إسرائيل الكاملة على القدس، ويعتبرها العاصمة الروحية والسياسية لليهود وحدهم خلال ثلاثة آلاف عام خلت بحكم الإنجيل والتوراة.

وطالب الإعلان بالمشاركة في معركة القدس التي قد بدأت، والتي يجب الوقوف مع اليهود فيها، وطالب الإعلان الأمريكيين بإمطار البيت الأبيض والكونجرس برسائل تطالب بنقل السفارة الأمريكيَّة إلى القدس دون إبطاء.

موقف الفاتيكان

يعكس موقف الفاتيكان مواقف الكنائس الكاثوليكيَّة التي كانت تعتقد بأن المسيح مدفون في الأرض المقدَّسة بعد أن صلبه اليهود، ولهذا؛ فقد ظل الكاثوليك يرفضون تاريخيًا سيطرة اليهود على بيت المقدس ولا يشجعون عودتهم.

فلما عادوا، أعاد الكاثوليك النظر في نظرتهم العدائية لليهود، وصدر في عام ١٩٦١م بيان من المجلس العالمي للكنائس يدين العداء للسامية ويعفي اليهود من المسئولية التاريخية في صلب المسيح، ثم أتبع ذلك بتبرئة رسمية، ثم حذفت سائر الأدعية والصلوات التي كانت تتضمن إدانة لليهود في عبادات الكنيسة الكاثوليكيَّة.

ثم حصل لقاء تاريخي بين البابا وشمعون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وكان ذلك في بداية الثمانينات وقد بدا البابا في الصور منحنيًا أمامه ليصافحه.

وفي عام ١٩٩٣م، اعترف الفاتيكان رسميًا بدولة اليهود إلا أنه ظل إلى الآن متحفظًا على التنازل عن القدس عاصمة لهم، ولا ندري عن السر في الاستمرار في هذا الموقف: فهل هو بسبب الشك في أسطورة صلاح حال اليهود في آخر الزمان؟ أم بسبب استمرار العداوة التاريخية والعناد بين الكاثوليك والبروتستانت؟ أم بسبب عدم الموافقة على قرب موعد مجيء المسيح، أم لأسباب أخرى؟

المهم في ذلك أن الفاتيكان لن يقر بحيازة المسلمين للقدس في دولة فلسطين أو غيرها؛ فالقدس هي القدس عند الكاثوليك والأرثوذكس: عاصمة المسيح والمسيحيين، لا عرفات ولا بنيامين، أما قرار الاتحاد الأوربي بتأييد قيام دولة فلسطينية، فليس فيه إشارة إلى أن تكون القدس عاصمة لها.

نصارى فلسطين

يمكن معرفة موقفهم من المذكرة التي أعدها البطاركة وزعماء الطوائف النصرانيَّة في القدس، والتي نشرت في ١٤ نوفمبر ١٩٩٥م، فقد طالبوا فيها بتحويل القدس إلى عاصمة للجنس البشري!!

وأكد أصحاب المذكرة أن الرب اختار القدس مكانًا لسكنه -تعالى الله عن زعمهم- وأن القدس هي مكان الخلاص، وفيها ولدت الكنيسة.

ولفتت المذكرة النظر إلى أن سِفْر الرؤيا قد بشر بمجيء المسيح إلى القدس الجديدة، المدينة التي سيمسح فيها الرب كل الدموع!

وقالت المذكرة: إن القدس بالنسبة لكل مسيحي هي منبع الحياة؛ فكل مسيحي يُولد في القدس، والوجود في القدس يعني الوجود في بيت الرب!

وإجمالًا؛ فإن نصارى العالم يتخذون موقفًا موحدًا برفض سيطرة المسلمين على القدس، وينقسمون على أنفسهم في شأن السماح لليهود في اتخاذها عاصمة.

وقد عبَّرت السفارة المسيحيَّة الدولية عن موقفها الداعم لليهود والذي كُشف عن بعضه في كتاب صدر عام ١٩٩٣م بعنوان: بابل أو القدس، لمؤلفه يان فيلان دارهوفن، جاء فيه: تعارض السفارة مطالب المسلمين في البيت المقدس، وتطالب بالتسامح تجاه اليهود الذين يطالبون بالصلاة فيه، وتؤكد على حق إسرائيل في جعل القدس عاصمة موحدة لهم.

ثم قال مؤلف الكتاب: إن المسيحيين الدوليين واثقون أنه على الرغم من أن الرب ترك القدس زمنًا طويلًا، فإنه سيعود إليها في صورة ابن الملك داود، الملك المسيح الذي سيحكم من المدينة، وعندئذ ستجتذب القدس إليها جميع شعوب المنطقة وحكامها! وهذا الواقع الجديد سيكون تحقيقًا لرؤيا آخر الأيام التي سيتتج عنها سلام وعدل عالميين، والمسيحيون يؤمنون بهذه الرؤيا؛ لذلك فهم يعتقدون أن الصلاة من أجل مصير القدس معناها صلاة من أجل خلاص الكرة الأرضية جمعاء![1].

---

(١) مجلة البيان العدد ١٣٨ ص(٨٦- ٩٥).

الفصل الخامس

حقيقة العلاقة اليهوديَّة النصرانيَّة

يعجب الإنسان عندما يكتشف أن تلك المشاعر الدينيَّة الحميمة من النصارى تجاه اليهود، هي مشاعر في حقيقتها مزيفة، أو مصلحية على أقل تقدير، فيبدو أن نصارى الغرب قد درجوا على تقديم المصلحة في كل شيء حتى في الدين؛ فاليهود عندهم هم القنطرة التي سيعبرون فوقها نحو أمجاد الأيام الأخيرة، فلن يأتي المسيح ولن يقيم مملكة الرب النصرانيَّة إلا بعد أن يُعاد اليهود إلى فلسطين ويسكنوا القدس ويبنوا الهيكل.

ثم يخرج مسيحهم المنتظر -أي مسيح اليهود- ليعيث في الأرض فسادًا ويملأها كفرًا وإجرامًا، ثم يأتي عيسى عليه السلام ليذبحه ويقتل ثلثي اليهود ويبقى ثلث يتوجب تنصيرهم! !

فالنصارى يؤمنون بمسيح آخر سيأتي في وقت مجيء المسيح ابن مريم، ويسمون ذلك المسيح (chrest - Anti) أي ضد المسيح، أو (المسيح الدجال)! !

النصارى والمسيح الدجال

يعتقد النصارى خاصة البروتستانت أن هناك عدوًّا كافرًا طاغيًا قاسيًا سيخرج قبيل عودة عيسى عليه السلام، وأنه سوف يكون من اليهود؛ فأمه امرأة يهودية وَسَتَلْتَهِمُ جيوشه العالم بعد أن يخرج من شمال إسرائيل، أو بالتحديد من سوريا من قبيلة (دان).

ويؤمنون أيضًا أنه سيبدأ بدعوى الصلاح وينتحل شخصية المسيح المخلِّص، ثم لا يلبث أن يتحول إلى دعوى الربوبية التي سيتبعه عليها أكثر الناس نظرًا للخوارق التي ستُجرى على يديه، والتي سيقلد بها أفعال الإله في الإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات الزرع. . . إلخ.

ويؤمنون أيضًا، بأنه سيعتلي منبر الهيكل بعد إعادة بنائه، وسيهدم مقر البابوية في روما، وسيضطهد المؤمنين ويضيق عليهم حتى يبلغ البؤس مداه، وعند ذلك يتدخل الإله، وينزل المسيح ابن مريم لينقذ بقايا المؤمنين بعد أن يقتل المسيح الدجال، ويقاتل أتباعه من اليهود وقوم يأجوج ومأجوج، ويتفرغ بعد ذلك لإقامة مملكة الرب التي سيسودها السلام.

فاليهود على هذا شر لا بد منه، والدجال قدر لا بد من مواجهته، وهذا الدجال الذي تؤمن النصارى بحتمية خروجه، قد وردت بشأنه الأخبار في مصادرهم؛ ففي الإنجيل في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢/ ٣، ٤: لا يخدعنكم أحد على طريقة ما؛ لأنه لا يأتي إن لم يأت الارتداد أولًا، ويستعلن إنسان الخطيئة ابن الهلاك. . . ، حتى إنه يجلس في هيكل الله كإله مظهرًا نفسه أنه إله.

والنص هنا يذكر الارتداد، فلا بد إذًا أن تكون ردة، ولكن ردة مَنْ؟ وعن ماذا؟

إن النصارى أنفسهم يتقاذفون اليوم التهم بهذه الردة التي يقول الإنجيل: إنها لا بد أن تسبق أولًا، ولهذا فهم يتبادلون التكفير بين طوائفهم بحيث إن كل طائفة تتهم الأخرى بأنها ستكون من

أنصار الإنتي كريست، أو الدجال عدو المسيح؛ فالنصارى الشرقيون العرب مثلًا وأكثرهم من الأرثوذكس يعتقدون أن طوائف الكاثوليك الغربيين هم نصارى بالاسم فقط، وأنهم سيكونون مع الدجال ومع أعداء المسيح.

يقول القس هنري إيرنسايد في تفسيره لسفر دانيال: مما لا شك فيه أن المسيحيَّة المرتدة سيعاد توحيدها، ولكن هذا الاتحاد سيكون خاليًا من تعاليم المسيح، ستتحد جميع الأنظمة المرتدة، ستستعيد الكنيسة البابوية نفوذها وسلطانها، وستشكل جميع كنائسها هيئة عظيمة واحدة تضم جميع أجزاء النصرانيَّة... هذه الكنائس ستكون مستمدة قوتها من البابوية، وستكون خادمة للوحش أي المسيح الدجال[١].

والغريب أن البروتستانت ينظرون أيضًا إلى كاثوليك أوربا هذه النظرة؛ فهم يؤمنون أن الوحش الذي ورد ذكره في سفر الرؤيا يعني أنه سيكون هناك اتحاد قوي من عشر دول أوربية سوف تنهض في الأيام الأخيرة، وأن قيام المجموعة الأوربية المكونة من عشر دول هي تحقيق لهذه النبوءة، وهذا في نظرهم دليل على أننا نعيش فعلًا الأيام الأخيرة؛ لأن هذه القوى الأوروبية العشرة قائمة الآن وستكون معادية للمسيح؛ لأنها ستكون مرتدة عن المسيحيَّة التي بشر بها[٢].

ومع اتهام طوائف النصارى بعضهم بعضًا بأنهم أتباع الدجال عندما يخرج؛ فإنهم يُجمعون على أن اليهود هم طليعة أنصاره، ورأس حربته، وهم الذين سيقودون معسكر أعداء المسيح.

يقول مفسر سفر دانيال: سينصِّب المسيح الدجال نفسَه الإله الوحيد الجدير بالعبادة، وله سيبدي المسيحيون المرتدون ولاءًا مطلقًا، وسينتحل لنفسه أمام اليهود صفة مسيحهم الموعود به منذ عهد بعيد على ألسنة الأنبياء، ويقبل اليهود ادعاءاته ويقولون: هذا هو حقًّا المسيح الذي طالما انتظرناه، وهذا هو الذي يتكلم كتابنا المقدس عنه[٣].

إن من حقنا أن نعجب، ومن حقنا أن نتساءل: إذا كانت كل طائفة تدعي أن المخلِّص منها وأنهم أتباعه وأنصاره، وتدعي في مبغضيها أنهم أتباع الدجال وأنصاره، فمن إذن هم الأتباع الحقيقيون للدجال الذي يتبرأ منه الجميع الآن، فإذا جاء كانوا أول المسارعين لنصرته والإيمان به.

وإذا كان للنصارى مسيح ينتظرونه قريبًا، كما أن لليهود مسيحَهم المنتظر منذ أمد بعيد، وكل من هؤلاء وأولئك يهيئون العالم الآن -في زعمهم- لمخرج المسيح الذي يؤمنون به، فمن هو هذا المسيح المنتظر عند الأمتين الضالتين[٤]؟

---

(١) تفسير سفر دانيال، ص(٦١).
(٢) النبوءة والسياسة، ص(٤٣).
(٣) تفسير سفر دانيال، ص(١٣٤).
(٤) مجلة البيان العدد ١٤٠ ص(٧٦- ٨٥)، العدد ١٤١ ص(١٠٤- ١١٥).

الفصل السادس

المسيح الحق والمسيح الدجال

نحن لا نشك أن اليهود بمجموعهم سيكونون طليعة أنصار الدجال؛ فهو منهم وإليهم، وخاصة يهود الشرق الذين سيخرج فيهم.

أما النصارى، فعلى رغم أنهم يزعمون أنهم سيكونون في جيوش المسيح الحق ضد المسيح الدجال؛ فالله يعلم أنهم بجميع طوائفهم هم الذين هيَّئوا أنفسهم بأنفسهم لكي يكونوا أول المصدقين بِدَعِيٍّ من البشر يدَّعي الألوهية.

أليسوا هم الذين اعتنقوا عقيدة: المسيح الإله القادر على كل شيء؟!

والمسيح الدجال سيقول: أنا المسيح الإله القادر على كل شيء! فما الذي سيكون مستغربًا في دعوة الدجال على مسامع النصارى الذين لا يستهجنون ولا يستبعدون أن يتجسد الإله في صورة إنسان! وخاصة أنه يمنعهم ومعهم اليهود من مشاركته في فرض السيطرة النهائية على العالم باعتبارهم أتباعه.

إن النصارى اليوم على اختلاف طوائفهم يشكلون ما يقرب من ثلث سكان العالم، ويعلم الله كم سيبلغون إذا خرج فيهم من يهيئون الدنيا لمقدمه ظنًّا منهم أنهم يهيئونها للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، إن هؤلاء مع مسيحيتهم كفار بنبوءة عيسى وعبوديته؛ ولهذا سيسارعون بتصديق من يقول: إنه هو المسيح الإله!

ولهذا فإن الله تعالى سوف يزيل هذه الغمة بإنزال عيسى نفسه، لإقامة الحجة على الناس وعندها سيسقط في أيدي من ضلوا وأضلوا كثيرًا من البشر عبر القرون مدعين أنه إله أو ابن إله، وسيدفعون دفعًا إلى الإيمان بأن عيسى نبي الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ليس بإله ولا ابن إله، إنما هو عبد أنعم الله عليه وجعله رسولًا ومثلًا لبني إسرائيل، وعند نزوله سيرون ذلك رأي العين، ويسمعون منه كلامه الفصل.

أما بقية القطعان البشرية الوثنية من ملايين البوذيين والهندوس والملحدين واللادينيين ونحوهم؛ فإنه لا حجاب بينهم وبين الإيمان بالدجال إذا خرج وقال لهم: إني أنا الإله؛ فهؤلاء وهؤلاء لن تزيدهم عقائدهم الوثنية التي تؤله الأحجار والأشجار والأنهار والأبقار إلا فتنة بالبشر المخلوق للفتنة إذا جاء وقال لهم: إني أنا الإله، وشرع يجذب أبصارهم بالخوارق، وأسماعهم بالشبهات، وبطونهم وفروجهم بالشهوات!

نحن نؤمن أيضًا أن المسيح ابن مريم سيعود، ونؤمن معهم أن الدجال سيخرج -والأحاديث بذلك متواترة-، ولكن شتان بين إيمان وإيمان وبين عودة وعودة؛ فإيماننا: أن عودة عيسى عليه

السلام هي القدر الإلهي الحكيم الذي سيضع النهاية للاختلاف الذي عم الأمم حوله، ولا يمكن أن ينتهي ذلك الاختلاف في شأنه إلا بعودته.

يقول ابن كثير رحمه الله: إن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض، ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافًا بينًا، فمن مدعٍ إلهيته كالنصارى، ومن قال فيه قولًا عظيمًا أنه ولد ريبة وهم اليهود، فإذا أنزل قبل يوم القيامة تحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه من الافتراء(١).

أما الدجال، فلا نشك في خروجه، وإن كنا لا نعلم موعده، ولكن مقصودنا هنا التنبيه على أن اليهود والنصارى يستعدون لخروجه، ومع ذلك فهو مسيح الضلالة الذي تُعَاقَبُ به أمَّتا الضلالة الذين تكبروا عن الإيمان بمحمد سيد الرسل عليه صلوات الله وسلامه وفضلوا أن يبقوا على ديانات منسوخة لم تلبث أن تحولت إلى ديانات ممسوخة بالافتراء على الله والكذب على أنبياء الله.

يقول ابن تيمية رحمه الله: اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى ابن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال؛ فإنه الذي يتبعه اليهود ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان(٢).

ويقول ابن القيم رحمه الله: ومن تلاعبه بهم -يعني: اليهود- أنهم ينتظرون قائمًا من ولد داود النبي، إذا حرك شفتيه بالدعاء، مات جميع الأمم، وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وُعِدوا به، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال، فهم أكثر أتباعه(٣).

ويقول أيضًا رحمه الله: فالمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق، الذي هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما يؤمنون بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه الله أو ابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود [أي: لو كان لمسيح النصارى بهذا الوصف وجود]، فإن المسيح الكذاب -الذي ينتظره النصارى- يزعم أنه الله، والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح، كما أن اليهود إنما ينتظرون خروج مسيح، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بشروا به، فعوضهم الشيطان من الإيمان به بعد مجيئه انتظارًا للمسيح الدجال، وهكذا كل من أعرض عن الحق يعوض عنه بالباطل(٤) (٥).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم ص(٥٧).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٧٧).

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم، (٢/ ٣٣٨)

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، ص(٦٥).

(٥) مجلة البيان العدد ١٤١ ص(١٠٤- ١١٥).

القسم الثاني

النصارى

الباب الأول: تاريخ وفرق النصارى.
الباب الثاني: مذاهب النصارى.
الباب الثالث: كتاب النصارى المقدَّس.
الباب الرابع: عقائد النصارى.
الباب الخامس: التنصير.
الباب السادس: الاستشراق.

الباب الأول
تاريخ وفرق النصارى

الفصل الأول: تاريخ النصارى والنصرانيّة.
الفصل الثاني: المجامع النصرانيّة.
الفصل الثالث: فرق النصارى.

الفصل الأول

تاريخ النصارى والنصرانيَّة

النصارى: اسم جمع نَصْري، أو ناصري، نسبة إلى الناصرة، وهي قرية نشأت منها مريم أم المسيح عليهما السلام، وقد خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في بيت لحم، ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يشوع الناصري أو النَّصْري.

وقد مرت النصرانيَّة بعدة مراحل وأطوار تاريخية مختلفة، انتقلت فيها من رسالة منزلة من عند الله تعالى إلى ديانة مُحرَّفة ومبدلة، تضافر على صنعها بعض الكهان ورجال السياسة، ويمكن تقسيم هذه المراحل كالتالي:

المرحلة الأولى: النصرانيَّة المُنزَّلة من عند الله التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام

هي رسالة أنزلها الله تعالى على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل بعد أن انحرفوا وزاغوا عن شريعة موسى عليه السلام، وغلبت عليهم النزعات الماديَّة.

وافترقوا بسبب ذلك إلى فرق شتى، فمنهم من يؤمن بأن غاية الإنسان هي الحياة الدنيا، حيث لا يوم آخر، ولا جنة ولا نار، ومنهم من يعتقد أن الثواب والعقاب إنما يكونان في الدنيا فقط، وأن الصالحين منهم يوم القيامة سيشتركون في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس، ليصبحوا ملوك العالم وقضاته.

كما شاع فيهم تقديم القرابين والنذور للهيكل رجاء الحصول على المغفرة، وفشا الاعتقاد بأن رضا الرهبان ودعاءهم يضمن لهم الغفران.

لذا فسدت عقيدتهم وأخلاقهم؛ فكانت رسالة ودعوة عيسى عليه السلام داعية إلى توحيد الله تعالى حيث لا رب غيره ولا معبود سواه، وأنه لا واسطة بين المخلوق والخالق سوى عمل الإنسان نفسه، وهي رسالة قائمة على الدعوة للزهد في الدنيا، والإيمان باليوم الآخر وأحواله، ولذا فإن عيسى عليه السلام كان موحِّدًا على دين الإسلام ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

- المبلِّغ: عيسى ابن مريم عليه السلام، أمُّه البتول مريم ابنة عمران أحد عظماء بني إسرائيل، نذرتها أمها قبل أن تحمل بها لخدمة المسجد، وكفلها زكريا أحد أنبياء بني إسرائيل وزوج خالتها، فكانت عابدة قانتة لله تعالى، حملت به من غير زوج بقدرة الله تعالى، وولدته عليه السلام في مدينة بيت لحم بفلسطين، وأنطقه الله تعالى في المهد دليلًا على براءة أمه من بهتان بني إسرائيل لها بالزنى، فجاء ميلاده حدثًا عجيبًا على هذا النحو ليُلْقِي بذلك درسًا على بني إسرائيل الذين غرقوا في الماديات، وفي ربط الأسباب بالمسببات، ليعلموا بأن الله تعالى على كل شيء قدير.

وقد بُعث عيسى عليه السلام نبيًّا إلى بني إسرائيل، مؤيَّدًا من الله تعالى بعدد من المعجزات

الدالة على نبوته، فكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله. ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

كما كان يخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم بإذن الله.

وقد أيده الله هو وحوارييه بمائدة من السماء أنزلها عليهم لتكون عيدًا لأولهم وآخرهم.

وقد تآمر اليهود على قتله برئاسة الحبر الأكبر (كايافاس) وأثاروا عليه الحاكم الروماني لفلسطين (بيلاطس) لكنه تجاهلهم أولًا، ثم لما كذبوا عليه وتقوَّلوا على عيسى عليه السلام بأنه يدعو نفسه مسيحًا ملكًا، ويرفض دفع الجزية للقيصر، دفع ذلك الحاكم إلى إصدار أمرًا بالقبض عليه، وإصدار حكم الإعدام ضده عليه السلام.

واختفى عيسى وأصحابه عن أعين الجند، إلا أن أحد أصحابه دلَّ جند الرومان على مكانه، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام وصورته عليه، ويقال: إنه يهوذا الإسخريوطي، وقيل: غيره، فنُفِّذ حكم الصلب فيه بدلًا من عيسى عليه السلام حيث رفعه الله إليه، على أنه سينزل قبل قيام الساعة ليحكم بالإسلام، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ثم يموت كما دلت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة الصحيحة.

وقد آمن بدعوة المسيح عليه السلام الكثير ولكنه اصطفى منهم اثني عشر حواريًّا، وهناك الرسل السبعون الذين يقال بأن المسيح عليه السلام اختارهم ليعلِّموا النصرانيَّة في القرى المجاورة.

المرحلة الثانية: ويسميها مؤرِّخو الكنيسة بالعصر الرسولي

وينقسم هذا العصر إلى قسمين: التبشير وبداية الانحراف، والاضطهاد الذي يستمر حتى بداية العهد الذهبي للنصارى.

القسم الأول: التبشير وبداية الانحراف

- التبشير

بعدما رُفع المسيح عليه الصلاة والسلام، اشتد الإيذاء والتنكيل بأتباعه وحوارييه بوجه خاص؛ وقُتل يعقوب بن زبدي أخو يوحنا الصياد؛ فكان أول من قتل من الحواريين، وسجن بطرس، وعذب سائر الرسل، وحدثت فتنة عظيمة لأتباع المسيح عليه الصلاة والسلام حتى كادت النصرانيَّة أن تفنى.

وفي ظل هذه الأجواء المضطربة أعلن شاول الطرسوسي اليهودي الفريسي، صاحب الثقافات الواسعة بالمدارس الفلسفية والحضارات في عصره، وتلميذ أشهر علماء اليهود في زمانه عمالائيل، أعلن شاول الذي كان يُذيق أتباع المسيح سوءَ العذاب، إيمانه بالمسيح بعد زعمه رؤيته عند عودته من دمشق، مؤنبًا له على اضطهاده لأتباعه، آمرًا له بنشر تعاليمه بين الأمم، فاستخف الطرب أتباع المسيح، في الوقت الذي لم يصدقه بعضهم، إلا أن برنابا الحواري دافع عنه وقدمه إلى

الحواريين فقبلوه، وبما يمتلكه من حدة ذكاء وقوة حيلة ووفرة نشاط استطاع أن يأخذ مكانًا مرموقًا بين الحواريين وتسمى باسم بولس.

وانطلق الحواريون للتبشير بين الأمم اليهوديَّة في البلدان المجاورة، التي سبق أن تعرفت على دعوة المسيح عليه السلام أثناء زيارتها لبيت المقدس في عيد العنصرة.

وتذكر كتب التاريخ النصراني بأن متَّى ذهب إلى الحبشة، وقُتل هناك بعد أن أسس فيها كنيسة ورسَّم -عيَّن- لهم أسقفها.

وكذلك فعل مرقس في الإسكندرية بعد أن أسس أول مدرسة لاهوتية وكنيسة فيها بتوجيه من بطرس الذي أسس كنيسة روما وقتل في عهد نيرون عام ٦٢م.

أما بولس فذهب إلى روما وأفسس وأثينا وأنطاكية، وأسس فيها كنائس نصرانية نظير كنيسة أورشليم ورسَّم لهم أساقفة.

وفي أحد جولاته في أنطاكية صحبه برنابا فوجدا خلافًا حادًّا بين أتباع الكنيسة حول إكراه الأمميين على اتباع شريعة التوراة فعادا إلى بيت المقدس لعرض الأمر على الحواريين لحسم الخلاف بينهم.

- بداية الانحراف

فيما بين عام ٥١ - ٥٥م عقد أول مجمع يجمع بين الحواريين -مجمع أورشليم- تحت رئاسة يعقوب بن يوسف النجار المقتول رجمًا سنة ٦٢م ليناقش دعوى استثناء الأمميين، وفيه تقرر - إعمالًا لأعظم المصلحتين- استثناء غير اليهود من الالتزام بشريعة التوراة إن كان ذلك هو الدافع لانخلاعهم من ربقة الوثنية، على أنها خطوة أولى يُلزم بعدها بشريعة التوراة.

كما تقرر فيه تحريم الزنى، وأكل المنخنقة، والدم، وما ذُبح للأوثان، بينما أبيحت فيه الخمر ولحم الخنزير والربا، مع أنها محرمة في التوراة.

وعاد بولس بصحبة برنابا إلى أنطاكية مرة أخرى، وبعد صحبة غير قصيرة انفصلا وحدث بينهما مشادة عظيمة نتيجة لإعلان بولس نسخ أحكام التوراة وقوله إنها: «كانت لعنة تخلَّصنا منها إلى الأبد»، و«أن المسيح جاء ليبدل عهدًا قديمًا بعهد جديد» ولاستعارته من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة، أو ابن الإله، أو الروح القدس، وترتيبه على ذلك القول بعقيدة الصلب والفداء، وقيامة المسيح وصعوده إلى السماء؛ ليجلس على يمين الرب ليحاسب الناس في يوم الحشر.

وهكذا كرر بولس نفس الأمر مع بطرس الذي هاجمه وانفصل عنه مما أثار الناس ضده، لذا كتب بولس رسالة إلى أهل غلاطية ضمنها عقيدته ومبادئه، ومن ثم واصل جولاته بصحبة تلاميذه إلى أوربا وآسيا الصغرى ليلقى حتفه أخيرًا في روما في عهد نيرون سنة ٦٥م.

وقد استمرت المقاومة الشديدة لأفكار بولس عبر القرون الثلاثة الأولى: ففي القرن الثاني الميلادي تصدى هيولتس، وإبيبي فايتس، وأوريجين لها، وأنكروا أن بولس كان رسولًا، وظهر بولس الشمشاطي في القرن الثالث، وتبعه فرقته البوليسية إلا أنها كانت محدودة التأثير.

وهكذا بدأ الانفصال عن شريعة التوراة، وبذرت بذور التثليث والوثنية في النصرانيَّة، أما باقي الحواريين والرسل فإنهم قُتلوا على يد الوثنيين في البلدان التي ذهبوا إليها للتبشير فيها.

القسم الثاني: الاضطهاد

عانت الدعوة النصرانيَّة أشدَّ المعاناة من سلسلة الاضطهادات والتنكيل على أيدي اليهود الذين كانت لهم السيطرة الدينيَّة، ومن الرومان الذين كانت لهم السيطرة والحكم، ولذلك فإن نصيب النصارى في فلسطين ومصر كان أشد من غيرهم، إذ اتخذ التعذيب والقتل أشكالًا عديدة؛ ما بين الحمل على الخُشُبِ، والنشر بالمناشير، إلى التمشيط ما بين اللحم والعظم، والإحراق بالنار.

ومن أعنف الاضطهادات وأشدها:

١- اضطهاد نيرون سنة ٦٤م الذي قُتل فيه بطرس وبولس.

٢- واضطهاد دمتيانوس سنة ٩٠م وفيه كتب يوحنا إنجيله في أفسس باللغة اليونانيَّة.

٣- واضطهاد تراجان سنة ١٠٦م وفيه أمر الإمبراطور بإبادة النصارى وحرق كتبهم، فحدثت مذابح مُروِّعة قُتل فيها يعقوب البار أسقف أورشليم.

٤- ومن أشدها قسوة وأعنفها اضطهادُ الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤م الذي صمم على ألا يكف عن قتل النصارى حتى تصل الدماء إلى ركبة فرسه، وقد نفذ تصميمه؛ وهدم الكنائس وأحرق الكتب، وأذاقهم من العذاب صنوفًا وألوانًا، مما دفع النصارى من أقباط مصر إلى اتخاذ يوم ٢٩ أغسطس ٢٨٤م بداية لتقويمهم تخليدًا لذكرى ضحاياهم.

وهكذا استمر الاضطهاد يتصاعد إلى أن استسلم الإمبراطور جالير لفكرة التسامح مع النصارى لكنه مات بعدها، ليعتلي قسطنطين عرش الإمبراطورية.

وقد سعى قسطنطين بما لأبيه من علاقات حسنة مع النصارى إلى استمالة تأييدهم له لفتح الجزء الشرقي من الإمبراطورية حيث يكثر عددهم، فأعلن مرسوم ميلان الذي يقضي بمنحهم الحرية في الدعوة والترخيص لديانتهم ومساواتها بغيرها من ديانات الإمبراطورية الرومانية، وشيَّد لهم الكنائس، وبذلك انتهت أسوأ مراحل التاريخ النصراني قسوة، التي ضاع فيها إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام، وقُتل الحواريون والرسل، وبدأ الانحراف والانسلاخ عن شريعة التوراة، ليبدأ النصارى عهدًا جديدًا من تأليه المسيح عليه الصلاة والسلام وظهور اسم المسيحيَّة.

نشأة الرهبانيَّة والديرية وتأثير الفلسفة على النصرانيَّة

في خلال هذه المرحلة ظهرت الرهبنة في النصرانيَّة في مصر أولًا على يد القديس بولس الطيبي

٢٤١ - ٣٥٦م والقديس أنطوان المعاصر له كرد فعل على الاضطهاد، إلا أن الديرية -حركة بناء الأديرة- نشأت أيضًا في صعيد مصر عام ٣١٥ - ٣٢٠م أنشأها القديس باخوم، ومنها انتشرت في الشام وآسيا الصغرى.

وفي نفس الوقت دخلت غرب أوربا على يد القديس كاسليان ٣٧٠ - ٤٢٥م، ومارتن التوري ٣١٦ - ٣٨٧م، كما ظهرت مجموعة من الآباء المتأثرين بمدرسة الإسكندرية الفلسفية (الأفلاطونية الحديثة) وبالفلسفة الغنوصية، مثل كليمنت الإسكندري ١٥٠ - ٢١٥م، وأوريجانوس ١٨٥-٢٤٥م وغيرهما.

العهد الذهبي للنصارى

يطلق مؤرِّخو الكنيسة اسم العهد الذهبي للنصارى ابتداء من تربُّع الإمبراطور قسطنطين على عرش الإمبراطورية الرومانية عام ٣١٢م لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ النصرانيَّة.

ويمكن تقسيم ذلك العهد إلى مرحلتين رئيسيتين:

مرحلة جمع النصارى على عقيدة واحدة، ومرحلة الانفصال السياسي.

مرحلة جمع النصارى على عقيدة واحدة

(عصر المجامع أو عهد الخلافات والمناقشات)

ما إن أعلن قسطنطين إعلان ميلان حتى قرَّب النصارى وأسند إليهم الوظائف الكبيرة في بلاط قصره، وأظهر لهم التسامح، وبنى لهم الكنائس، وزعمت أمه هيلينا اكتشاف الصليب المقدس، الذي اتخذه شعارًا لدولته بجانب شعارها الوثني، فنشطت الدعوة إلى النصرانيَّة، ودخل الكثير من الوثنيين أصحاب الفلسفات في النصرانيَّة، مما كان له أثره البالغ في ظهور الكثير من العقائد والآراء المتضاربة، والأناجيل المتناقضة، حيث ظهر أكثر من خمسين إنجيلًا، وكل فرقة تدعي أن إنجيلها هو الصحيح وترفض الأناجيل الأخرى.

وفي وسط هذه العقائد المختلفة والفرق المتضاربة ما بين من يُؤَلِّه المسيح وأمه (الريمتين)، أو من يؤله المسيح فقط، أو يدعي وجود ثلاثة آلهة: إله صالح، وإله طالح، وآخر عدل بينهما (مقالة مرقيون).

أعلن آريوس أحد قساوسة كنيسة الإسكندرية صرخته المدوية بأن المسيح عليه الصلاة والسلام ليس أزليًّا، وإنما هو مخلوق من الأب، وأن الابن ليس مساويًا للأب في الجوهر، فالتف حوله الأنصار، وكثر أتباعه في شرق الإمبراطورية حتى ساد مذهبه التوحيدي كنائس مصر والإسكندرية وأسيوط وفلسطين ومقدونيا والقسطنطينيَّة وأنطاكية وبابل، مما أثار بطريرك الإسكندرية بطرس ضده ولعنه وطرده من الكنيسة، وكذلك فعل خلفه البطريرك إسكندر، ثم الشماس إثناسيوس، وضمانًا لاستقرار الدولة أمر الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥م بعقد اجتماع عام يجمع كل أصحاب هذه الآراء للاتفاق على عقيدة واحدة يجمع الناس حولها، فاجتمع في نيقية ٢٠٤٨ أسقفًا

منهم ٣٣٨ يقولون بألوهية المسيح، وانتهى ذلك المجمع بانحياز الإمبراطور إلى القول بألوهية المسيح ولينفضَّ على القرارات التالية:

١- لعن آريوس الذي يقول بالتوحيد ونفيه وحرق كتبه، ووضع قانون الإيمان النيقاوي (الإثناسيوسي) الذي ينص على ألوهية المسيح.

٢- وضع عشرين قانونًا لتنظيم أمور الكنيسة والأحكام الخاصة بالأكليريوس.

٣- الاعتراف بأربعة أناجيل فقط: متى، لوقا، مرقس، يوحنا، وبعض رسائل العهد الجديد والقديم، وحرق باقي الأناجيل لخلافها عقيدة المجمع.

- وللتغلب على عوامل انهيار وتفكك الإمبراطورية أنشأ قسطنطين مدينة روما الجديدة عام ٣٢٤م في بيزنطة القديمة باليونان على نفس تصميم روما القديمة، وأنشأ بها كنيسة كبيرة (أجياصوفيا)، ورسَّم لهم بطريركًا مساويًا لبطاركة الإسكندرية وأنطاكية في المرتبة على أن الإمبراطور هو الرئيس الأعلى للكنيسة.

وعُرفت فيما بعد بالقسطنطينيَّة، ولذلك أطلق عليها بلاد الروم، وعلى كنيستها كنيسة الروم الشرقيَّة أو كنيسة الروم الأرثوذكس.

وتمهيدًا لانتقال العاصمة إلى روما الجديدة (القسطنطينيَّة) اجتمع قسطنطين بآريوس حيث يدين أهل القسطنطينيَّة والجزء الشرقي من الإمبراطورية بعقيدته، وإحساسًا منه بالحاجة إلى استرضاء سكان هذا القسم أعلن الإمبراطور موافقته لآريوس على عقيدته، وعقد مجمع صور سنة ٣٣٤م ليعلي من عقيدة آريوس، ويلغي قرارات مجمع نيقية، ويقرر العفو عن آريوس وأتباعه، ولعن إثناسيوس ونفيه، وهكذا انتشرت تعاليم آريوس أكثر بمساندة الإمبراطور قسطنطين.

مرحلة الانفصال السياسي

قسَّم قسطنطين الإمبراطورية قبل وفاته عام ٣٣٧م على أبنائه الثلاثة: فأخذ قسطنطين الثاني الغرب، وقسطنطيوس الشرق، وأخذ قنسطانس الجزء الأوسط من شمال أفريقيا، وعمد كل منهم إلى تأييد المذهب السائد في بلاده لترسيخ حكمه.

فاتجه قسطنطيوس إلى تشجيع المذهب الآريوسي، بينما شجع أخوه قسطنطين الثاني المذهب الإثناسيوسي مما أصَّل الخلاف بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني.

وقد توحدت الإمبراطورية تحت حكم قسطنطيوس عام ٣٥٣ - ٣٦١م بعد وفاة قسطنطين الثاني، ومقتل قنسطانس، ووجد الفرصة سانحة لفرض مذهبه الآريوسي على جميع أجزاء الإمبراطورية شرقًا وغربًا.

ولم يلبث الأمر طويلًا حتى اعتلى فلؤديوس عرش الإمبراطورية ٣٧٩ - ٣٩٥م الذي اجتهد في إلغاء المذهب الآريوسي والتنكيل بأصحابه، والانتصار للمذهب الإثناسيوسي.

ولذا ظهرت في عهده دعوات تنكر الأقانيم الثلاثة ولاهوت الروح القدس، فقرر عقد مجمع القسطنطينيَّة الأول ٣٨٢م، وفيه فرض الإمبراطور العقوبات المشددة على أتباع المذهب الآريوسي.

كما تقرر فيه أن روح القدس هو روح الله وحياته، وأنه من اللاهوت الإلهي، وتم زيادته في قانون الإيمان النيقاوي، ولعن من أنكره مثل مقدنيوس، وبذلك اكتملت فكرة التثليث كعقيدة للنصارى، وذلك بالإضافة إلى عدة قوانين تنظيمية وإدارية تتعلق بنظام الكنيسة وسياستها.

نشأة البابوية

على إثر تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية، ونتيجة لضعف الإمبراطورية الغربية تم الفصل بين سلطان الدولة والكنيسة، بعكس الأمر في الإمبراطورية الشرقيَّة حيث رسخ الإمبراطور قسطنطين مبدأ القيصرية البابوية، ومن هنا زادت سلطات أسقف روما وتحوَّل كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في بلدان العالم المسيحي الغربي (روما - قرطاجة).

وقد لعب البابا داماسوس الأول ٣٦٦ - ٣٨٤م دورًا هامًّا في إبراز مكانة كرسي روما الأسقفي -سيادة البابوية- وفي عهده تم ترجمة الإنجيل إلى اللغة اللاتينيَّة، ثم تابعه خلفه البابا سيرى كيوس ٣٨٤ - ٣٩٩م في تأليف المراسم البابوية.

بداية الصراع والتنافس على الزعامة الدينيَّة بين الكنيستين

ظهر الصراع والتنافس بين كنيسة روما بما تدعي لها من ميراث ديني، وبين كنيسة القسطنطينيَّة عاصمة الدولة ومركز أباطرتها في مجمع أفسس الأول عام ٤٣١م حيث نادى نسطور أسقف القسطنطينيَّة بانفصال طبيعة اللاهوت عن الناسوت في السيد المسيح عليه السلام، وبالتالي فإن اللاهوت لم يولد ولم يصلب، ولم يقم مع الناسوت، وأن المسيح يحمل الطبيعتين منفصلتين: اللاهوتية والناسوتية، وأنه ليس إلهًا، وأمه لا يجوز تسميتها بوالدة الإله، وقد حضر المجمع مائتان من الأساقفة بدعوة من الإمبراطور ثاؤديوس الصغير، الذي انتهى بلعن نسطور ونفيه، والنص في قانون الإيمان بأن مريم العذراء والدة الإله.

وبسبب دعوى أرطاخي باتحاد الطبيعتين في السيد المسيح عقد له أسقف القسطنطينيَّة فلافيانوس مجمعًا محليًّا وقرر فيه قطعه من الكنيسة ولعنه؛ لكن الإمبراطور ثاؤديوس الصغير قبل التماس أرطاخي، وقرر إعادة محاكمته، ودعا لانعقاد مجمع أفسس الثاني عام ٤٤٩م برئاسة بطريرك الإسكندرية ديسقورس لينتهي بقرار براءته مما نسب إليه.

انفصال الكنيسة مذهبيًّا

لم يعترف أسقف روما ليو الأول بقرارات مجمع أفسس الثاني ٤٤٩م وسعى الإمبراطور مركيانوس لعقد مجمع آخر للنظر في قرارات ذلك المجمع، فوافق الإمبراطور على عقد المجمع في القسطنطينيَّة، ثم في كلدونية ٤٥١م لمناقشة مقالة بابا الإسكندرية ديسقورس: من أن للمسيح طبيعتين في طبيعة واحدة (المذهب الطبيعي - المونوفيزتية)، ليتقرر لعن ديسقورس وكل من شايعه

ونفيه، وتقرير أن للمسيح طبيعتين منفصلتين.

فكان ذلك دافعًا ألا تعترف الكنيسة المصريَّة بهذا المجمع ولا بالذي يليه من المجامع، ومنذ ذلك التاريخ انفصلت في كنيسة مستقلة تحت اسم الكنيسة المرقسية - الكنيسة الأرثوذكسيَّة - أو القبطية تحت رئاسة بطريرك الإسكندرية، وانفصلت معها كنيسة الحبشة وغيرها، ليبدأ الانفصال المذهبي عن الكنيسة الغربية.

بينما اعترفت كنيسة أورشليم الأرثوذكسيَّة بقرارات مجمع كلدونية وصارت بطريركية مستقلة تحت رئاسة البطريرك يوفيناليوس.

نشأة الكنيسة اليعقوبيَّة

واجه الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م صعوبة بالغة في تحقيق طموحه بتوحيد مذهبي الإمبراطورية لتتحقق له سلطة الإمبراطورية والبابوية معًا.

وبعد انتصاره في إيطاليا ودخول جيوشه روما حاول إرضاء زوجته بفرض مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتية) على البابا فجليوس الذي رفض ذلك بشدة، مما عرضه إلى القبض عليه وترحيله إلى القسطنطينيَّة، ليعقد مجمع القسطنطينيَّة الخامس سنة ٥٥٣م الذي انتهى بتقرير مذهب الطبيعة الواحدة، ولعن أصحاب فكرة تناسخ الأرواح، وتقرير أن عيسى عليه السلام كان شخصية حقيقية وليست بخيالية.

ومن آثار هذا المجمع استقلالُ أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وإقامةُ كنيسة منفصلة لهم، تعرف بالكنيسة اليعقوبيَّة، تحت رئاسة مؤسسها يعقوب البرادعي أسقف الرَّها مما زاد في عداء البابوية للإمبراطورية الشرقيَّة.

نشأة الكنيسة المارونيَّة

في عام ٦٧٨ - ٦٨١م عمل الإمبراطور قسطنطين الرابع على استرضاء البابا أجاثون بعدما فقد المراكز الرئيسية لمذهب الطبيعة الواحدة في مصر والشام لفتح المسلمين لهما، فتم عقد مجمع القسطنطينيَّة الثالث عام ٦٨٠م للفصل في قول يوحنا مارون من أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة.

وفيه تقرر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ولعن وطرد من يقول بالطبيعة الواحدة أو بالمشيئة الواحدة، ولذلك انفصلت طائفة المارونيَّة ولحقت بسابقتها من الكنائس المنفصلة.

انفصال الكنيسة إداريًّا

جاء هذا الانفصال بعد النزاع والصراع الطويل ابتداءً من الإمبراطور ليو الثالث ٧٢٦م الذي أصدر مرسومًا يُجرِّم فيه عبادة الأيقونات، ويقضي بإزالة التماثيل والصور الدينيَّة والصلبان من الكنائس والأديرة والبيوت على أنها ضرب من الوثنية، متأثرًا بدعوة المسلمين لإزالة هذه التماثيل

التي بالكنائس في داخل الدولة الإسلاميَّة.

وتصدى لهذه الدعوة البابا جريجوري الثاني، ثم خَلَفه البابا جريجوري الثالث ليصدر الإمبراطور قرارًا بحرمان الكراسي الأسقفية في صقلية وجنوب إيطاليا من سلطة البابا الدينيَّة والقضائية وجعلها تحت سلطان بطريرك القسطنطينيَّة.

واستمر الوضع على ذلك إلى أن جاء الإمبراطور قسطنطين الخامس ٧٤١ - ٧٧٥م، وازدادت الثورات اشتعالًا ضد دعاة اللاأيقونية، فعقد مجمعًا في القسطنطينيَّة لتبرير سياسة تحريم الصور والأيقونات.

وقد رفضت البابوية حضوره، ولم يحضره سوى ثلاثمائة وأربعين أسقفًا تحت رئاسة بطريرك القسطنطينيَّة ليقضي بتحريم تصوير المسيح في أي شكل، وكذلك تحريم عبادة صور القديسين، وتحريم طلب الشفاعة من مريم؛ لأن كل هذا من ضروب الوثنية.

ولكن هذه القرارات لم تدم طويلًا حيث أمرت الإمبراطورة الأيقونية إيرين التي خلفت زوجها الإمبراطور ليو الخزري بعقد مجمع نيقية عام ٧٨٧م بعد تعيينها للبطريرك خرسيوس المتحمس للأيقونية بطريركًا على القسطنطينيَّة، وانتهى المجمع على تقديس صور المسيح ووالدته والقديسين، ووضع الصور في الكنائس والأديرة والبيوت والطرقات بزعم أن النظر إليهم يدعو للتفكير فيها.

- وفي عام ٨٦٩م أثار بطريرك القسطنطينيَّة فوسيوس مسألة انبثاق الروح القدس من الآب وحده، فعارضه -كالعادة- بطريرك روما وقال: إن انبثاق الروح القدس من الآب والابن معًا، وعقد لذلك مجمع القسطنطينيَّة الرابع ٨٦٩م (مجمع الغرب اللاتيني) الذي تقرَّر فيه أن الروح القدس منبثقة من الآب والابن معًا، وأن جميع النصارى في العالم خاضعون لمراسيم بابا روما، وأن من يريد معرفة ما يتعلق بالنصرانيَّة وعقائدها عليه برفع دعواه إلى بابا روما.

ولذلك تم لعن وعزل فوسيوس وحرمانه وأتباعه، إلا أن فوسيوس استطاع أن يعود إلى مركزه مرة أخرى.

وفي عام ٨٧٩م عقد المجمع الشرقي اليوناني (القسطنطينيَّة الخامس) ليلغي قرارات المجمع السابق، ويعلن أن الروح القدس منبثقة من الآب وحده، ويدعو إلى عدم الاعتراف إلا بالمجامع السبعة التي آخرها مجمع نيقية ٧٨٧م.

- وهكذا تم الانفصال المذهبي للكنيسة الشرقيَّة تحت مسمى الكنيسة الشرقيَّة الأرثوذكسيَّة، أو كنيسة الروم الأرثوذكس برئاسة بطريرك القسطنطينيَّة، ومذهبًا بأن الروح القدس منبثقة من الأب وحده، على أن الكنيسة الغربية أيضًا تميَّزت باسم الكنيسة البطرسية الكاثوليكيَّة، وبزعم أن لبابا روما سيادة على كنائس الإمبراطورية، وأنها أم الكنائس ومعلمتهن، وتميزت بالقول بأن الروح القدس منبثقة عن الأب والابن معًا.

ولم يتم الانفصال النهائي -الإداري- إلا في عام (١٠٥٤م)، وبذلك انتهى عهد المجامع

المسكونيَّة (العامة)، وحلت محلها المؤتمرات الإقليمية أو سلطات البابا المعصوم لتستكمل مسيرة الانحراف والتغيير في رسالة عيسى عليه السلام.

- ومن أبرز سمات هذه المرحلة الأخيرة -القرون الوسطى- الفساد، ومحاربة العلم والعلماء، والتنكيل بهم والاضطهاد لهم، وتقرير أن البابا معصوم له حق الغفران، مما دفع إلى قيام العديد من الحركات الداعية لإصلاح فساد الكنيسة، وفي وسط هذا الجو الثائر ضد رجال الكنيسة انعقد مؤتمر ترنت عام ١٥٤٢ - ١٥٦٣م لبحث مبادئ مارتن لوثر التي تؤيدها الحكومة والشعب الألماني، وانتهى إلى عدم قبول آراء الثائرين أصحاب دعوة الإصلاح الديني.

ومن هنا انشقَّت كنيسة جديدة هي كنيسة البروتستانت ليستقر قارب النصرانيَّة بين أمواج المجامع التي عصفت بتاريخها على ثلاث كنائس رئيسية لها النفوذ في العالم إلى اليوم، ولكل منها نحلة وعقيدة مستقلة، وهي: الأرثوذكس، الكاثوليك، البروتستانت، بالإضافة إلى الكنائس المحدودة مثل: المارونيَّة، والنسطوريَّة، واليعقوبيَّة، وطائفة الموحدين، وغيرهم[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٥٦٤- ٥٧٤)، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (١/ ٥٣٣).

الفصل الثاني

المجامع النصرانيَّة

المجامع هيئات شورية في الكنيسة النصرانيَّة رسم الرسل نظامها في حياتهم، إذ عقدوا المجمع الأول في أورشليم سنة ٥١م، برئاسة أسقفها «يعقوب» الرسول، للنظر في مسألة ختان الأمم، ومن ثم نسجت الكنيسة بعد ذلك على منوالهم سنة جمع المجامع للنظر في أمور العقيدة والشريعة.

وبداية المجامع النصرانيَّة على وجه العموم قد عقدت لما ظهر التغير والفساد على دين المسيح.

والمجامع عندهم نوعان:

١- مجامع مسكونية أو عامة، أي تجمع رجال الكنائس المسيحيَّة في كل أنحاء المعمورة.

٢- مجامع مكانية أو إقليمية، وهي التي تعقدها كنائس مذهب أو أمة في دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها، أما لإقرار عقيدة، أو لرفض عقائد أخرى، أو للنظر في بعض الشئون المحلية الخالصة.

ويقول المؤرخون: إن الإحصائيات التي أجريت لمعرفة عدد المجامع العامة التي انعقدت بين المدة من القرن الأول المسيحي إلى عام ١٨٦٩م تساوي عشرين مجمعًا، مع الاختلاف والإنكار لعمومية بعضها أو لصحة قراراتها.

وأخطر المجامع التي لها صلة بانحراف عقائد النصارى أربعة وهي:

١- مجمع نيقية الأول المنعقد في ٣٢٥م.

٢- مجمع قسطنطينة الأول المنعقد في ٣٨١م.

٣- مجمع أفسس المنعقد في ٤٣١م.

٤- مجمع خليكدونية المنعقد في ٤٥١م.

وترجع أهمية دراسة المجامع لاتصالها بقضية التثليث في العقيدة النصرانيَّة؛ وذلك لأن عقيدة التثليث على النظام الموجود حاليًا، الذي تتصف به الديانة النصرانيَّة حاضرًا لم يكن من التعاليم التي جاء بها المسيح، بل ولا من تعاليم الإنجيل في حدود نصوصه الدينيَّة، ولكنه كان من تفسيرات القساوسة والأساقفة في المجامع التي انعقدت خاصة لمثل هذه التأويلات في العقيدة الدينيَّة النصرانيَّة، ومجمعًا بعد مجمع، وطائفة بعد طائفة، ولد ذلك الذي يسميه النصارى اليوم بالأقانيم.

فأهمية دراسة المجامع من زاوية أنها أضفت على وجودها مسحة من الأحقية في التشريع الديني بما لا يوجد له، ولا به، ولا فيه نص واحد من نصوص الأناجيل، بل إن الرسائل التي تعتبر المصدر الوحيد للطقوس والبروتوكول الديني، لم يتعرف بها إلا في بدء القرن الرابع الميلادي، وما

قبله من الزمن فهي أما مجهولة، أو غير معترف بصحتها.

فأهمية دراسة المجامع النصرانيَّة يرجع للآتي:

١- إنها تبرز العوامل التي ساهمت في بناء العقيدة النصرانيَّة ونشرها، كتحديد بدء الاتفاق على القول بألوهية المسيح والروح القدس وبالتثليث، وتحديد بدء إدخاله في الديانة النصرانيَّة كنظام ديني، وكذلك تحديد الفاعلين، والقائلين، والمتمذهبين بهذا التثليث وأدلتهم، ومراجعهم الدينيَّة أو التاريخية.

وكذلك تحديد بدء الاتفاق على تقديس صور المسيح والقديسين، ووضعها في الكنائس والأبنية المقدَّسة والبيوت والطرقات.

٢- معرفة كيف انفصلت الكنيسة جغرافيًا إلى شرقية وغربية، وكيف انفصلت عقائديًا إلى أرثوذكسية وكاثوليكيَّة وبروتستانتيَّة.

٣- معرفة كيف نشأت البابوية، وتملك الكنيسة البابوية الغفران، وعصمة البابا.

٤- معرفة كيف نشأت فكرة الإصلاح الديني.

٥- معرفة كيف نشأت فكرة فصل الدين عن الدولة في أوربا.

وقد تقدم الكلام عن أهم المجامع النصرانيَّة خلال السرد التاريخي للنصارى والنصرانيَّة[1].

---

(١) انظر: المجامع النصرانية، د. سلطان عبد الحميد سلطان ص(٧٩- ٨٤)، أضواء على المسيحية ص(٩٣، ٩٥)، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، د. رءوف شلبي ص(٢٠٣)، محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة ص(١٤٧)، تاريخ الأقباط، زكي شنودة (١/ ١٧٠).

الفصل الثالث

فرق النصارى

قال ابن حزم: «النصارى وإن كانوا أهل كتاب ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام، فإنَّ جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجرَّدًا بل يقولون بالتثليث»[1].

وقال الشهرستاني: «اختلافاتهم تعود إلى أمرين:

أحدهما: كيفية نزوله واتصاله بأمِّه وتجسد الكلمة.

والثاني: كيفيَّة صعوده واتِّصاله بالملائكة وتوحد الكلمة...

ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقةً وكبار فرقهم ثلاثة: الملكانيَّة، والنسطوريَّة، واليعقوبيَّة. وانشعبت منها: الأليانيَّة، والبليارسيَّة، والمقدانوسيَّة، والسباليَّة، والبوطينوسيَّة، والبوليَّة، إلى سائر الفرق»[2].

الأبيونيَّة

التعريف:

تنسب إلى قس اسمه أبيون. وقيل: الأبيونيَّة هم: الفقراء إلى الله، فسمّوا بذلك لفقرهم وزهدهم.

التاريخ والأحداث

ظهرت هذه الفرقة في القرن الأول الميلادي من أصل يهوديٍّ، وقد نشطت هذه الفرقة بعد عام ٧٠م.

وقد ذكر معتقدات هذه الفرقة المؤرخون الأوائل خلال نقدهم لعقائد فرقة الآريوسية المتأخرة، فيقول بطريرك الإسكندريَّة (عام ٣٢٦م) عن عقيدة آريوس: «فهذا التعليم الثائر على تقوى الكنيسة هو تعليم أبيون وأرطيماس، وهو نظير تعليم بولس السمياطي».

ويقول كيرلس الأورشليمي (٣٨٨م) عن الهراطقة: «فكرنثوس صنع خرابًا في الكنسية، وأيضًا ميناندر وكربو قراط وأبيون».

وقد كان لهذه الفرقة شأن، إذ كثروا حتى شمل نفوذها فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ووصل إلى روما، واستمر وجودهم إلى القرن الرابع الميلادي حيث يفهم من كلام القديس جيروم في القرن

(١) الفصل (١/٤٧).

(٢) الملل والنحل (١/٢١٩- ٢٢١).

الرابع أنَّهم كانوا في حالة من الضعف والاضطهاد، وذلك بعد مخالفتهم لأوامر قسطنطين ومجمع نيقيَّة.

ويرى بعض المحققين المسلمين أنَّ هذه الفرقة هم من عناهم المسيح بقوله في متى ٥/٣- ٩: «طوبى للمساكين بالروح، فإنَّ لهم ملكوت السموات، طوبى للودعاء، فإنَّهم يرثون الأرض، طوبى للحزانى فإنَّهم يتعزون، طوبى للجياع والعطاش فإنَّهم يشبعون».

المعتقدات والأفكار

- يقولون: إنَّ الله هو الذي خلق العالم، وينكرون القول بألوهيَّة المسيح.

- كان الأبيونيُّون يقولون بردة بولس، وكانوا يتَّهمونه بالتحريف.

- تذكر المصادر أنَّ هؤلاء استخدموا إنجيل متَّى أو إنجيل العبرانيين، ولعل الاسمين لمسمًّى واحدٍ، فلعلهم استخدموا الأصل العبراني لمتَّى، ولم يبالوا بغيره، ويرى بعض المؤرخين أنَّه بسبب هذه الفرقة دعي يوحنا لكتابة إنجيله الذي يقرر فيه لاهوتيَّة المسيح.

- يحفظون الختان، وكل العوائد المذكورة في شريعتهم[١].

الكرنثيُّون

ظهر الداعية كرنثوس في ٧٣م، وقد كان يعتقد أنَّ المسيح كان مجرد إنسان بارز، كما رفض الأناجيل عدا إنجيل متَّى (أي النص العبراني المفقود)[٢].

المعلمون أو المستنيرون

في أواخر القرن الثاني ظهر أمونيوس، فادَّعى بأنَّ المسيح إنسان خارق للعادة حبيب لله، عارف بعمل الله بنوع مدهش، وأنَّ تلاميذه أفسدوا دعوته، ويمثل هذا نادى كربو قراط، لكنهم بالغوا في إثبات بشريَّة المسيح حتى قالوا كان كسائر الحكماء، ويقدر جميع الناس أن يفعلوا مثله، ويسلكوا سلوكه، فكانت ردة فعلهم على قول القائلين بألوهيَّته غير صحيحة، ففي زحمة إنكارهم لألوهيَّته هضموه وأنقصوه عن حقِّه عليه الصلاة والسلام[٣].

البوليهنيَّة

هم أتباع بولس الشمشاطي، الذي تولى أسقفية إنطاكية عام ٢٦٠م كما كان يشغل منصبًا كبيرًا في مملكة تدمر.

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة، د. منقذ محمود السقار.

(٢) انظر: الله واحد أو ثلاثة، تخجيل من حرف التوراة والإنجيل.

(٣) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

وهم يؤمنون بأنَّ الله إله واحد، جوهر واحد، أقنوم واحد، ولا يسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة أنَّها مخلصة، ولا أنَّها من جوهر الأب، ولا يؤمنون بروح القدس المحيي، ويقولون: إنَّ المسيح إنسان خلق من اللاهوت مثل خلق آدم، وكمثل واحد منا في جوهره، وأن الابن ابتداؤه من مريم. وقد عقدت الكنسية ثلاث مجامع خلال خمس سنوات لإقناعه بالعدول عن مذهبه، آخرها مجمع في إنطاكية عام ٢٦٨م، وحضره بولس، ودافع فيه عن مذهبه، فطرد وعزل من جميع مناصبه، لكن أتباعه استمر وجودهم إلى القرن الميلادي السابع.

قال ابن حزم: «أصحاب بولس الشمشاطي وكان بطريركًا بأنطاكية، وكان قوله التوحيد المجرَّد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر، وأنَّه إنسان لا إلهيَّة فيه، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس»[١].

وقال الشهرستاني: «وبوطينوس وبولس الشمشاطي يقولان: إن الإله واحد، وإن المسيح ابتدأ من مريم عليها السلام، وإنَّه عبد صالح مخلوق إلا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته وسمَّاه ابنًا على التبني لا على الولادة والاتحاد»[٢].

وقال ابن البطريق في بيان مذهب بولس هذا: «إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصًا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهيَّة، وحلت فيه بالمحبَّة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله، ويقولون: إنَّ الله جوهر واحد، وأقنوم واحد، ويسمّون بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس»[٣].

اللوسيانيَّة

ظهر في بداية القرن الميلادي الرابع عالم مترهب يدعى لوسيان، وكان يرى أنَّ المسيح كائن سماوي أخرجه الله من العدم إلى الوجود، وتجلَّى فيه العقل الإلهي في كيفيته الشخصيَّة، فكانت روحه غير بشريَّة، لكنَّه لم يكن الإله على الإطلاق[٤].

اتباع مرقيون

زعموا أنَّ مرقيون هو رئيس الحورايين وأنكروا بطرس، وكان يقول: إن هناك آلهةً ثلاثةً: صالح، وطالح، وعدل بينهم.

---

(١) الفصل (١/ ٤٧).

(٢) الملل والنحل (١/ ٢٢٤).

(٣) انظر: محاضرات في النصرانية ص(١٨٥).

(٤) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

البربرانيَّة

قال ابن حزم: «وهم يقولون: إن عيسى وأمَّه إلهان من دون الله عزَّ وجلَّ»[(١)].

البابليدوسيَّة

يقولون: إنَّ المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية.

الأليانيَّة

يقولون: لم تحبل مريم تسعة أشهر وإنَّما مرَّ في بطنها كما يمرُّ الماء في الميزاب؛ لأنَّ الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته[(٢)].

الآريانيَّة او الآريوسيَّة

التعريف:

الآريانيَّة أو المذهب الآريوسي نسبة لأسقف الإسكندريَّة آريوس، الذي درس في مدرسة لوسيان اللاهوتيَّة في أنطاكية.

قال ابن حزم: «أصحاب آريوس، وكان قسيسًا بالإسكندريَّة، ومن قوله: التوحيد المجرَّد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنَّه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض»[(٣)].

التاريخ والأحداث

كان آريوس فيما يظهر عالمًا زاهدًا متقشفًا، يجيد الوعظ والإرشاد، فالتفَّ حوله عددٌ من المؤمنين، وانضمَّ إليه عدد كبير من رجال الأكليروس. وكان يقول: «إنَّ الابن ليس مساويًا للأب في الأزليَّة، وليس من جوهره، وقد كان الأب في الظل وحيدًا، فأخرج الابن من العدم بإرادته، والآب لا يمكن أن يراه أو يكيفه أحد، ولا حتى الابن؛ لأنَّ الذي له بداية لا يعرف الأزلي، والابن إله بحصوله على لاهوت مكتسب».

وقد توفي آريوس سنة ٣٣٦م، لكن دعوته انتشرت بعد وفاته، وأوشك العالم أن يكون كله آريوسيًا لولا تدخل الأباطرة في العمل على ضرب تلك العقيدة واستئصال تبعيتها. ويؤكد كثرة الآريوسيين المؤرِّخ ابن البطريق، وينقل أنَّ أكثر أهل مصر كانوا آريوسيين.

---

(١) الفصل (١/٤٧).
(٢) انظر: محاضرات في النصرانيَّة ص(١٨٧، ١٨٨).
(٣) الفصل (١/٤٧).

ومما يؤكد قوة مذهب آريوس إبَّان حياته وبعد موته، أنَّ الكنيسة عقدت مجامع عدة لبحث عقيدته، كما كان لآريوس وأتباعه مجامع، منها: مجمع قيسارية ٣٣٤م، وصور ٣٣٥م، وقد قرر المجتمعون في مجمع صور عزل أثناسيوس البابا -الداعي لألوهيَّة المسيح والذي كتبت أمانة النصارى بإشرافه في مجمع نيقية-كما نفوه إلى فرنسا، ثم عقدوا مجمعًا آخر في إنطاكية عام ٣٤١م حضره سبع وتسعون أسقفًا آريوسيًّا، قرروا فيه مجموعة من القوانين التي تتفق مع مبادئهم ومعتقداتهم.

ثم أعاد الإمبراطور الروماني الأسقف أثناسيوس إلى كرسي البابويَّة، فاحتج الآريوسيون لذلك، وأثاروا اضطرابات عدة، ثم عقدوا مجمعًا في آرلس بفرنسا عام ٣٥٣م، وقرروا فيه بالإجماع -عدًّا واحدًا- عزل أثناسيوس. ثم أكدوا ذلك في مجمع ميلانو ٣٥٥م، فعُزل، وتولَّى الأسقف الآريوسي جاورسيوس كرسي الإسكندريَّة، وفي عام ٣٥٩م عقد الإمبراطور مجمعين أحدهما للغربيين في ريمني، والآخر للشرقيين في سلوفيا، وقرر المجمعان صحة عقائد الآريوسيَّة، وباتت الكنائس الغربيَّة آريوسيَّة.

ويذكر المؤرخ ناسيليف أنَّ الإمبراطور قسطنطين نفسه قد تحوَّل إلى المذهب الآريوسي ممالأة لأفراد شعبه، وذلك بعد نقل عاصمته إلى القسطنطينيَّة، وقد تعلق بذلك الأنبا شنودة وهو يبرر كثرة أتباع المذهب الآريوسي، فذكر بأنَّه بسبب معاضدة الإمبراطور له.

وفي مجمع إنطاكية ٣٦١م وضع الآريوسيون صيغة جديدة للأمانة، ومما جاء فيها: الابن غريب عن أبيه، ومختلف عنه في الجوهر والمشيئة. وفي نفس العام عقدوا مجمعًا في القسطنطينيَّة وضعوا فيه سبعة عشر قانونًا مخالفًا لما صدر عن مجمع نيقية.

وفي هذا العام أيضًا تولَّى الإمبراطوريَّة يوليانوس الوثني، فأعاد أثناسيوس وأساقفته إلى أعمالهم، وجاهر بعبادة الأصنام، وسلَّم الكنائس للنصارى الوثنيين، ثم خلفه الإمبراطور يوبيانوس ٣٦٣م، فأكمل ما بدأه سلفه، وعادى الآريوسيين، وفرض عقيدة النصرانيَّة الوثنيَّة، ومما قاله مخاطبًا شعبه وأركان دولته: «إذا أردتم أن أكون إمبراطوركم كونوا مسيحيِّين مثلي»، ثم حرم مذهب الآريوسيِّين، وتبنَّى قرارات نيقية، وطلب من الأسقف أثناسيوس أن يكتب له عن حقيقة الدين المسيحي الذي كان قد أجبر الناس عليه قبل أن يقف على حقيقته.

المعتقدات والأفكار

١- إنَّ الله لا يمكن أن يولد؛ لأنَّه بلا بداية وبناء على ذلك فبما أنَّ الابن أي الشخص الثاني من الثالوث مولد، فلا يمكن أن يكون إلهًا بنفس مستوى أو معنى ألوهيَّة الأب، وبالتالي فإنَّ الابن لم يتولد من نفس الجوهر الألوهيِّ للأب، ولم يوجد منه الأزل، بل خلقه الله من لا شيء، كما خلق سائر المخلوقات. وأنَّ العلاقة بينهم علاقة خالق ومخلوق. وليست علاقة انبثاق جوهري أو ولادة حقيقيَّة.

وانقسمت إلى قسمين:

- أنصاف الآريانيِّين: قبلوا بأنَّه الابن من نفس طبيعة الأب أو من النفس الجوهر.

- الآريانيّين الجدد: لم يترددوا في التأكيد على مخلوقيَّة الابن.

٢- زعم آريوس: أنَّ الله واحد سماه آبا، وأنَّ المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم، وهو خالق الأشياء.

٣- زعم أنَّ الله تعالى روحٌ مخلوقة أكبر من سائر الأرواح، وأنَّها واسطة بين الأب والابن تؤدي إليه الوحي.

٤- زعم أن المسيح ابتدأ جوهرًا لطيفًا روحانيًا خالصًا غير مركب ولا ممزوج بشيء من الطبائع الأربع، وإنَّما تدرع بالطبائع الأربع عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم(١).

البليارسيَّة

نسبة إلى بليارس الذي كان يقول: إذا صار الناس إلى الملكوت الأعلى أكلوا ألف سنة، وشربوا وناكحوا، ثم صاروا إلى النعم التي وعدهم آريوس، وكلّها لذة وراحة وسرور وحبور لا أكل فيها ولا شرب ولا نكاح(٢).

السباليَّة

نسبة إلى سباليوس الذي زعم أنَّ القديم جوهر واحد، أقنوم واحد، له ثلاث خواص، واتَّحد بكلّيَّته بجسد عيسى ابن مريم عليهما السلام(٣).

المقدونيُّون أو الأبولنياريُّون

نسبة إلى مقدونيوس، وكان بطريركًا على القسطنطينيَّة أيَّام قسطنطين بن قسطنطين الثاني، وكان هذا الملك آريوسيًّا. وأقام مقدونيوس عشر سنين ومات، ولكنَّ مقالته لم تمت بموته، بل كان له أشياع وأتباع خصوصًا من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانيَّة، وإن أصبحوا في الجملة لا سلطان لهم. ولأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينيَّة سنة ٣٨١م.

وكان من قول مقدونيوس التوحيد المجرَّد، وإن عيسى عبد مخلوق إنسان نبي رسول الله كسائر الأنبياء، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ روح القدس والكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك(٤).

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٧)، الله واحد أو ثلاثة.

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٦).

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٦).

(٤) انظر: الفصل (١/ ٤٧)، محاضرات في النصرانية ص(١٩٠، ١٩١).

النساطرة أو النسطوريَّة

التعريف:

ينسبون إلى نسطور بطريرك القسطنطينيَّة الذي ظهر في زمان المأمون، في القرن الخامس في قيصريَّة بسورية.

التاريخ والأحداث

يُعد نسطور امتدادًا لآريوس وفرقته، وقد شايعه بعض الأساقفة والفلاسفة، وكان نسطور يقول: «إن في المسيح جزءًا لاهوتيًا، لكنَّه ليس من طبيعة المسيح البشريَّة، فلم يولد هذا الجزء من العذراء التي لا يصحُّ أن تسمَّى أم الله». ويعتقد نسطور أنَّ اتِّحاد اللاهوت بعيسى الإنسان ليس اتِّحادًا حقيقيًّا، بل ساعده فقط، وفسَّر الحلول الإلهي بعيسى على المجاز أي حلول الأخلاق والتأييد والنصرة.

وقال في إحدى خطبه: «كيف أسجد لطفل ابن ثلاثة أشهر؟» وقال: «كيف يكون لله أم؟ إنَّما يولد من الجسد ليس إلا جسدًا، وما يولد من الروح فهو روح. إنَّ الخليقة لم تلد الخالق، بل ولدت إنسانًا هو إله اللاهوت».

وقد عقد في أفسس ٤٣١م مجمع قرر عزله ونفيه إلى مصر، فمات في صحراء ليبيا، ولكن مذهبه استمر. يقول المؤرخ سايرس ابن المقفع في كتابه تاريخ البطاركة: «إنَّ نسطور كان شديد الإصرار على تجريد المسيح من الألوهيَّة، إذ قال: إنَّ المسيح إنسان فقط. إنَّه نبي لا غير».

وذكر ابن المقفع أنَّه عند نفيه أرسل له البطارقة أنَّه إذا اعترف بأنَّ المصلوب إله متجسد فسوف يعفون عنه، فيقول ابن المقفع: «فقسا قلبه مثل فرعون، ولم يجبهم بشيء».

وقد هاجرت طائفة النساطرة من الرها بعد أن أغلقت مدرستهم فيها -مدرسة الرها- على يد زينون سنة ٤٣٩م، فهاجرت الطائفة تحت قيادة بارسوما سنة ٤٥٧م إلى فارس، وأنشأت فيها مدرسة نصيبين.

ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحيَّة فقط، بل أرادوا أن ينشروا منها تعاليمهم الخاصَّة في طبيعة المسيح، فأخذوا يستعينون على بثِّ أفكارهم بأقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانيَّة. فأصبح كلُّ مبشِّرٍ نسطوريٍّ بالضرورة معلِّمًا في الفلسفة اليونانيَّة، كما أنَّه مبشِّر بالدين المسيحيِّ.

وقد تغيَّر مذهب النسطوريَّة بعد نسطور فأشبه مذاهب التثليث، إذ يقول النسطوريَّة: إنَّ المسيحَ شخصيَّة لها حقيقتان: بشريَّة وإلهيَّة، فهو إنسان حقًّا، إله حقًّا، ولكنَّه ليس شخصيَّة قد جمعت الحقيقتين، بل ذات المسيح كانت تجمع شخصيتين.

المعتقدات والأفكار

١- قال نسطور: إنَّ الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو.

ويقولون: إنَّ الله تعالى ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس، كلها لم تزل، وأنَّ عيسى ابن مريم -عليهما السلام- إله تامٌّ كلّه، وإنسان تامّ كلّه، وليس أحدهما غير الآخر. وأنَّ الإنسان من عيسى ابن مريم -عليهما السلام- هو الذي صُلِبَ وقتل. وأنَّ مريم -عليها السلام- ولدت الإنسان ولم تلد الإله، وأنَّ الله تعالى هو الذي ولد الإله.

- واتَّحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانيَّة، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبيَّة، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.

- وبعضهم يثبت لله تعالى صفات أخرى بمنزلة القدرة والإرادة ونحوهما ولم يجعلوها أقانيم كما جعلوا الحياة والعلم أقنومين.

- ومنهم من أطلق القول بأنَّ كلَّ واحد من الأقانيم الثلاثة حي ناطق إله.

- وزعم الباقون أنَّ اسم الإله لا يطلق على كلِّ واحد من الأقانيم.

- وزعموا أنَّ الابن لم يزل متولدًا من الأب، وإنما تجسد واتَّحد بجسد المسيح حين ولد.

- والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت فهو إله وإنسان اتَّحدا.

- وهما جوهران أقنومان طبيعتان: جوهر قديم وجوهر محدث إله تامٌّ وإنسان تامٌّ، ولم يبطل الاتِّحاد قدم القديم ولا حدوث المحدث لكنهما صارا مسيحًا واحدًا له طبيعة واحدة.

- وربما بدَّلوا العبارة: فوضع مكان الجوهر الطبيعة، ومكان الأقنوم الشخص.

٢- وأما قولهم في القتل والصلب فيخالف قول الملكانيَّة واليعقوبيَّة قالوا: إنَّ القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته؛ لأنَّ الإله لا تحله الآلام.

٣- ومن النسطوريَّة قوم يقال لهم المصلين قالوا في المسيح مثل ما قال نسطور إلَّا أنَّهم قالوا: إذا اجتهد الرجل في العبادة وترك التغذي باللحم والدسم ورفض الشهوات الحيوانيَّة والنفسانيَّة تصفى جوهره حتى يبلغ ملكوت السموات، ويرى الله تعالى جهرة، وينكشف له ما في الغيب فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

٤- ومن النسطوريَّة من ينفي التشبيه، ويثبت القول بالقدر خيره وشرِّه من العبد.

- تمركزهم: هذه الفرقة غالبة في الموصل والعراق وفارس وخراسان، وهي في سوريا الطبيعيَّة وتركيا وشمال العراق، وكذلك سموا بالآشوريين، ومنهم طائفة تقيم في الهند.

ومنذ عام ١٨٣٠م التزم أساقفتهم التبتل والامتناع عن الزواج[1].

اليعاقبة أو اليعقوبيَّة

التعريف:

ينسبون إلى يعقوب الرهاوي أو البراذعي. وكان راهبًا بالقسطنطينيَّة.

التاريخ والأحداث

ظهرت هذه منتصف القرن الخامس على يد بطريرك الإسكندريَّة ديسقوروسن فإنَّه أول من أعلن بأن المسيح ذو طبيعتين جامعة بين اللاهوت والناسوت، وكذلك أعلنه أفتيخيوس. وبسبب ذلك الإعلان انعقد مجمع خليكدونيَّة، وقرر أنَّ المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصريَّة عن الكنيسة الرومانيَّة.

وفي القرن السادس أعاد يعقوب البراذعي هذه الشيعة، وكان من أنشط الدعاة إليها، من أجل ذلك نسبة إليه.

المعتقدات والأفكار

١- أن المسيح حين تجسَّد لم يكن له إلا ذات واحدة وطبيعة واحدة.

وقالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنَّهم قالوا: انقلبت الكلمة لحمًا ودمًا فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو.

٢- منهم من قال: إن المسيح هو الله تعالى.

٣- ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت فصار الناسوت المسيح مظهر الجوهر لا على طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو، وهذا كما يقال: ظهر الملك بصورة إنسان أو ظهر الشيطان بصورة حيوان.

٤- وزعم أكثر اليعقوبيَّة أن المسيح جوهر واحد أقنوم واحد إلا أنَّه من جوهرين.

٥- وربما قالوا: طبيعة واحدة من طبيعتين فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيبًا كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهرًا واحدًا أقنومًا واحدًا وهو إنسان كله وإله كله.

فيقال: الإنسان صار إلهًا ولا ينعكس فلا يقال: الإله صار الإنسان

كالفحمة تطرح في النار فيقال: صارت الفحمة نارًا، ولا يقال صارت النار فحمة وهي في الحقيقة لا نار مطلقة ولا فحمة مطلقة بل هي جمرة.

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٤٨)، الملل والنحل (١/ ٢٢٣، ٢٢٤)، محاضرات في النصرانية ص(١٩١- ١٩٤)، الله واحد أو ثلاثة.

٦- وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئي لا الكلي.

- ولربَّما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج والادراع والحلول كحلول صورة الإنسان في المرآة المجلوة.

٧- وزعم قوم من اليعقوبيَّة: إنَّ الكلمة لم تأخذ من مريم شيئًا ولكنَّها مرت بها كالماء بالميزاب وما ظهر بها من شخص المسيح في الأعين فهو كالخيال والصورة في المرآة وإلا فما كان جسمًا متجسمًا كثيفًا في الحقيقة.

- تمركزهم: هو مذهب السريان الأرثوذكس في بلاد الشام، ونحوه مذهب الكنيسة القبطية في مصر التي مركزها الإسكندريَّة(١).

الملكانيَّة أو الملكانيُّون

التعريف:

أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، فصار ملك الروم البيزنطي.

المعتقدات والأفكار

١- أن للمسيح ذاتًا واحدة وطبيعتين؛ طبيعة لاهوتيَّة، وطبيعة ناسوتيَّة.

قالوا: إنَّ الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة.

ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنًا؛ بل المسيح مع ما تدرع به ابن؛ فقال بعضهم: إنَّ الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

٢- صرحت الملكانيَّة أن الجوهر غير الأقانيم؛ وذلك كالموصوف والصفة، وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث.

٣- قالت الملكانيَّة: إنَّ المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي من قديم أزلي، وقد ولدت مريم عليها السلام إلهًا أزليًا، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معًا.

٤- أطلقوا لفظ الأبوة والنبوة على الله عزَّ وجلَّ، وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: إنَّك أنت الابن الوحيد وحيث قال له شمعون الصفا: إنَّك ابن الله حقًّا، لعل ذلك من مجاز اللغة كما يقال لطلاب الدنيا: أبناء الدنيا ولطلاب الآخرة أبناء الآخرة.

- تمركزهم: معظم الروم ملكانيَّة، ونصارى مصر وسوريا(٢).

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٤٨)، الملل والنحل (١/ ٢٢٤- ٢٢٦)، محاضرات في النصرانية ص(١٩٤، ١٩٥).
(٢) انظر: الفصل (١/ ٤٨)، الملل والنحل (١/ ٢٢١).

الباب الثاني

مذاهب النصارى

الفصل الأول: الأرثوذكس.

الفصل الثاني: الكاثوليك.

الفصل الثالث: البروتستانت.

الفصل الرابع: المارونيَّة.

الفصل الخامس: الجزويت.

الفصل السادس: المورمون.

الفصل السابع: شهود يَهْوَه.

الفصل الثامن: الأبوس دبي.

الفصل التاسع: المونية (حركة صن مون التوحيدية).

الفصل الأول
الأرثوذكس

التعريف:

هي أحد الكنائس الرئيسية الثلاث في النصرانيَّة، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكيَّة الغربية بشكل نهائي عام ١٠٥٤م، وتمثَّلت في عدة كنائس مستقلة لا تعترف بسيادة بابا روما عليها.

ويجمعهم الإيمان بأن الروح القدس منبثقة عن الأب وحده وعلى خلاف بينهم في طبيعة المسيح.

وتُدعى أرثوذكسية بمعنى مستقيمة المعتقد مقابل الكنائس الأخرى، ويتركَّز أتباعها في المشرق ولذا يطلق عليها الكنيسة الشرقيَّة.

التاريخ والأحداث

في نهاية القرن التاسع الميلادي، وبالتحديد بعد انقضاء مجمع القسطنطينيَّة الخامس عام ٨٧٩م أصبح يمثل الأرثوذكسيَّة كنيستان رئيسيتان.

١- الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة أو القبطية، والمعروفة باسم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسيَّة أو كنيسة الإسكندرية، التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وتضم كنائس الحبشة والسودان، ويوافقها على ذلك كنائس الأرمن واليعقوبيَّة.

٢- الكنيسة الأرثوذكسيَّة أو كنيسة القسطنطينيَّة، والمعروفة باسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقيَّة، تخالف الكنيسة المصريَّة في طبيعة المسيح بينما توافق الكنيسة الكاثوليكيَّة الغربية بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ويجمعها مع الكنيسة المصريَّة الإيمان بانبثاق الروح القدس عن الآب وحده، وتضم كنائس أورشليم واليونان وروسيا وأوربا الشرقيَّة.

الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة

يدعي أصحابها أن مؤسسها مرقس الرسول عام ٤٥ م.

بوادر الانفصال:

ظهرت بوادر الانفصال المذهبي للكنيسة المصريَّة، منذ أن جعل الإمبراطور ثيودوسيوس كنيسة القسطنطينيَّة هي الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الشرقيَّة عام ٣٨١م وأن كنيسة الإسكندرية تليها في المرتبة، مما دفع بطريرك الإسكندرية كيرلس عام ٤١٢م إلى تولي زعامة الشعب ضد الإمبراطور وعماله في مصر.

وزادت هوَّة الخلاف بين الكنيستين على إثر إعلان نسطور -أسقف القسطنطينيَّة- مقالته التي تصدى لها كيرلس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام ٤٣١م الذي استطاع استصدار حكمًا

ضد نسطور باللعن والطرد.

الانفصال الرسمي:

بعث فلافيانوس بطريرك القسطنطينيَّة مقالة نسطور مرة أخرى فتصدى لها ديسقورس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام ٤٤٩م، والذي لم يعترف به أسقف روما، فعقد لذلك مجمع كليدونية عام ٤٥١م ليقرر لعن ديسقورس ونفيه، بل وتعين بطريرك ملكاني خلفًا له، الأمر الذي دفع الكنيسة المصريَّة لإعلان عصيانها وعدم اعترافها بمجمع كليدونية عام ٤٥١م ولا بقراراته، مما سبَّب عودة الاضطهاد مرة أخرى لحمل الكنيسة المصريَّة على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينيَّة والتي توافقها عليها الكنيسة الغربية.

وهكذا عاشت الكنيسة المصريَّة سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام ٤٨٢م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، فكان هذا التاريخ يمثل بداية الانفصال الحقيقي عن كنيسة القسطنطينيَّة.

وسرعان ما عاد الاضطهاد مرة أخرى للكنيسة المصريَّة، بعدما ولَّى هرقلُ المقوقس حُكم مصر بعد استردادها من الفرس عام ٦٢٨م في محاولة منه لتوطيد أركان ملكه عن طريق توحيد عقيدة الإمبراطورية على مذهب الطبيعتين، فلم يألُ المقوقس جهدًا في إنفاذ ذلك، كما لم يعدم حيلة، مستخدمًا الترغيب تارة، والترهيب والعذاب والتنكيل تارة أخرى، مما دفع بطريرك الكنيسة المصريَّة بنيامين للهروب إلى الصحراء، وأن يكتب إلى جميع أساقفته باللجوء إلى الجبال والبراري فرارًا بعقيدتهم.

الفتح الإسلامي لمصر:

ما أن ظهرت بشائر الفتح الإسلامي منطلقة من الجزيرة العربيَّة حتى رحبت بها الكنيسة المصريَّة، للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم نصارى الإمبراطورية البيزنطيَّة.

وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامي أرض مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ودانت لهم، حتى أُعيد بنيامين بطريرك الكنيسة المصريَّة إلى كرسيه، واجتمع به عمرو بن العاص ووافقه على ما أبداه من مقترحات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس وتجديد إصلاح البعض الآخر.

وقد تأثر الكثير من النصارى المصريين بعدالة الإسلام، وسماحة مبادئه، حيث ترك لهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة العبادة والشعائر الخاصة بهم، كما سمح لهم بالمشاركة في بعض وظائف الدولة، مما فتح قلوبهم لقبول الحق، والدخول في دين الإسلام أفواجًا، وبذلك صارت اللغة العربيَّة لغتهم ولغة البلاد، وأصبح منهم العلماء والقادة فيما بعد.

محاولات سيطرة كنيسة روما:

على الرغم من ذلك لم يهدأ لكنيسة روما بال عن فرض سيادتها على كنائس الشرق، مستخدمة

في ذلك أساليب الحرب والقوة تارة، والدبلوماسية والمفاوضات تارة أخرى.

- ففي سنة ١٢١٩م قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في محاولة لإخضاع الكنيسة المصريَّة الأرثوذكسيَّة لمذهب الكنيسة الغربية الكاثوليكيَّة.

وقد تمكنت في بادئ الأمر من احتلال مدينة دمياط وفرض بطريرك كاثوليكي من الآباء الفرنسيسكان عليها، ليمثِّل أول وجود كاثوليكي في مصر، فما أن هب المسلمون لصد العدوان حتى انهزمت الحملة وأسر قائدها وبذلك باءت مخططاتها بالفشل.

- وفي سنة ١٧٦٩م أعادت الكنيسة الغربية الكَرَّة، ولكن هذه المرة عن طريق المفاوضات والمصالحة، وعرض انضمام الكنيسة المصريَّة إليها، ليقابلها بطريرك الكنيسة المصريَّة يؤانس الثامن عشر بالرفض التام.

الإرساليات الغربية وحركات تطوير الكنيسة المصريَّة

بدأت بوادر حركة إصلاح وتطوير الكنيسة المصريَّة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبخاصة في عهد البطريرك كيرلس الرابع ١٨٥٤ - ١٨٦٢م "أبو الإصلاح" كما يسميه أتباع الكنيسة لإدخاله العديد من الإصلاحات لمواجهة نشاط الإرساليات الكاثوليكيَّة والبروتستانتيَّة، التي زاد نشاطها واستطاعت تأسيس مراكز للدعوة إلى مذاهبهم في صعيد مصر بوجه خاص.

وكانت استجابة بعض الأرثوذكس لهم دافعًا للقيام بهذه الإصلاحات وافتتاح مدارس للبنين والبنات، وإنشاء المدرسة البطريركية، بالإضافة إلى إدخال أول مطبعة إلى مصر.

وبأسلوب آخر تصدى البطريرك ديمتريوس الثاني ١٨٦٢- ١٨٧٤م للتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي في مصر، بإصدار قرارات الحرمان ضد المرسلين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط.

وقد ازدادت حملة الكنيسة المصريَّة ضراوة ضد إرساليات الكنائس الغربية في مصر في عهد البطريرك كيرلس الخامس ١٨٧٤ - ١٩٢٧م حيث أغلق مدارسهم، وأصدر قرارات تَعتبر هذه الكنائس وإرساليتها وتابعيها ومن ينضم إليها من الأقباط مهرطقين، ولم يفلح تدخل القنصل الأمريكي وليم تاير والمنصِّر جون هوم في إقناع البطريرك من أن نشاطهم غير موجه ضد الأرثوذكس.

ويُعد حبيب جرجس ١٨٦٧-١٩٥١م من أبرز رواد الإصلاح والتطوير في الكنيسة المصريَّة، إذ أنشأ مدارس الأحد والمدرسة الإكليريكية، ودعم وساهم في العديد من الأنشطة الاجتماعيَّة والثقافية التي توسَّعت بعده إلى حد كبير، فظهرت المجلات والجرائد النصرانيَّة، كما أنشأ العديد من المدارس والمكتبات ودور النشر التي تهتم بنشر التعاليم النصرانيَّة بين المسلمين.

وازدادت -تبعًا لذلك- عدد المؤسسات الاجتماعيَّة المختلفة التي تخدم الأرثوذكس، كل هذا بغية التصدي للإرساليات التبشيريَّة الغربية.

تغيُّر موقف الكنيسة المصريَّة من الكنائس الأخرى:

هذا الموقف الرافض للتعاون أو القبول بوجود الكنائس الغربية بين الأرثوذكسيَّة تغيَّر بشكل ملحوظ أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر، الذي ساعد وشجع هذا الاتجاه بما أثاره في نفوس الأقباط من أن أرض مصر المسلمة أرض نصرانية وأن المسلمين دخلاء يجب طردهم، وشجع حبيب جرجس على رفع شعار الأمة القبطية مقابل الأمة الإسلاميَّة.

- وفي عهد الخديوي إسماعيل دخل عدد كبير من الأرثوذكس القضاء والمجالس النيابية وكلفوا بالخدمة العسكرية، وظهرت في الساحة السياسية أسماء كبيرة متعاونة مع الاستعمار الإنجليزي مثل بطرس باشا غالي ويوسف باشا سليمان.

- بعد مؤتمر ١٩١٠م والذي انعقد بمناسبة مقتل بطرس باشا غالي، زاد نفوذهم السياسي وبخاصة بعد انضمامهم إلى حزب الوفد وتولّي مكرم عبيد منصب نائب رئيس الحزب.

- في عهد البطريرك يوساب الثاني أصدر القس إبراهيم لوقا مجلة اليقظة للدعوة إلى تقارب الكنيستين: البروتستانتيَّة الأسقفية والقبطية، كما دعا إلى أن الوقت قد حان لأن يتبادل قسوس الطوائف النصرانيَّة المختلفة الوعظ في كنائس بعضهم البعض.

- في عام ١٩٢١م عُقد مؤتمر حلوان بضاحية حلوان بمصر لعموم الكنائس الشرقيَّة والغربية بهدف توحيد جهود الكنائس لتنصير المسلمين لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة المصريَّة.

- وإمعانًا في التقارب انضمت الكنيسة المصريَّة إلى عضوية مجلس الكنائس العالمي الذي أنشئ عام (١٩٤٦م).

- في عام (١٩٥٢م) عاد الأقباط مرة أخرى إلى الانزواء داخل الكنيسة لخوفهم من حكومة جمال عبد الناصر، ومن ثم هاجر الكثير منهم إلى أوربا وأمريكا، مما كان لذلك أكبر الأثر في تحويل الرأي العام الغربي نحو الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة، ومساندتها وممارسة الضغط السياسي والاقتصادي على الحكومة المصريَّة لتحقيق مركز ديني وسياسي واجتماعي متميز للأقباط الأرثوذكس في مصر.

- وفي هذه الأثناء أعلن إبراهيم فهمي المحامي أحد خريجي مدارس الأحد تأسيس جماعة الأمة القبطية وأنشأ لها فروعًا على مستوى محافظات مصر. وقد دعا إلى إحياء مفهوم الأمة القبطية من خلال التمسك بالعادات والتقاليد الكنسية، وبإحياء اللغة القبطية، واستخدام التقويم القبطي، وكذلك بإصدار الجرائد والمجلات التي تهتم بالأقلية القبطية، وهكذا تطور معه الأمر إلى أن أعلن بيانًا يطالب فيه بالحكم الذاتي لأقباط مصر.

- في عام ١٩٥٤م قامت جماعة الأمة القبطية باختطاف البطريرك يوساب الثاني وإجباره على توقيع وثيقة تنازل عن كرسي البابوية، ودعوة المجمع المقدس للانعقاد، ووضع وثيقة جديدة لانتخاب البطريرك تشارك فيها كل الطوائف النصرانيَّة، لذلك ألقت الحكومة المصريَّة القبض على

زعيم الجماعة، واعتقلت أفرادها، ثم قامت بحلها وإعادة البطريرك إلى كرسيه.

- خطا البطريرك كيرلس السادس ١٩٥٩ - ١٩٦٩م خطوات جديدة نحو تطوير الكنيسة؛ حيث أنشأ العديد من الأسقفيات، منها:

١- أسقفيات الخدمات، ومهمتها العلاقات الخارجية والاتصال بالكنائس الأخرى، سواء كانت الكنائس الغربية ومؤسساتها أو بالكنائس القبطية خارج مصر.

٢- وأسقفية للخدمات والشئون المالية، مهمتها جلب فرص العمل للأقباط، والحصول على توكيلات أكبر البنوك والشركات في العالم.

٣- وأسقفية البحث العلمي، ومهمتها إنشاء معهد عالٍ للدراسات القبطية وإصدار طبعات جديدة للكتاب المقدس، ووضع دائرة معارف قبطية.

٤- كما أنشأ أسقفية للتربية الكنسية، مهمتها الإشراف على كليات اللاهوت ومدارس الأحد وجميع شئون التعليم والتربية الكنسية.

- واستغلالًا للثقل الدولي للكنيسة بعد انضمامها إلى مجلس الكنائس العالمي، ومجلس الكنائس العالمية العاملة في أفريقيا، وتعاونها مع مجلس كنائس أمريكا زاد الضغط على الحكومة لإلغاء النظام الهمايوني الذي أصدرته الدولة العثمانية في عام ١٨٥٦م كنظام إصلاحي لتنظيم بناء وترميم الكنائس النصرانيَّة داخل الدولة.

وبالفعل تمت الاستجابة لمطلبهم، وأنشئت العديد من الكنائس منها كاتدرائية القديس مرقس بميدان العباسية بالقاهرة عام ١٩٦٧م، وتم إصلاح الأديرة وتعميرها وتحويلها من أماكن للعبادة إلى مراكز إنتاجية ومراكز اتصالات واسعة ومؤثرة على شئون الكنيسة؛ مستخدمة في ذلك الدعم السخي والأموال الطائلة من الكنائس الغربية والقبطية في الخارج.

الكنيسة المصريَّة في الوقت الحالي:

في عام ١٩٧١م تولى البابا شنودة الثالث رئاسة الكنيسة المصريَّة واسمه نظير جيد، تخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة، والتحق بالقوات المسلحة كضابط احتياط، ثم عمل صحفيًّا وكاتبًا وشاعرًا، وتسمى بعد ترهبُنه باسم شنودة الثالث.

وللأب شنودة الثالث درس أسبوعي -درس الجمعة- ظل محافظًا على إلقائه في كاتدرائية العباسية منذ افتتاحها. وكان لدرسه هذا الأثر الكبير في تكوين وانتشار الأسر الدينيَّة النصرانيَّة في أروقة الجامعة المصريَّة المختلفة.

- في عهده زاد التوجه السياسي للكنيسة المصريَّة وتقديم مفهوم جديد للنصرانية على أنها دين ودولة، مستخدمًا في ذلك سياسة الانتشار الدولي، والتقارب مع الكنائس الغربية ومؤسساتها لدعم السياسات الداخلية للكنيسة وتحقيق أغراضها، كما أعلن عن تنظيمات جديدة للكنيسة،

ودعا إلى تطوير الكلية الأكليريكية وإعادة الكنيسة إلى مكانتها العالمية، فزاد اهتمامه بإنشاء الكنائس في الخارج ورسم -عيّن- لها الأساقفة، من أجل ذلك تعددت جولاته ولقاءاته.

ومن أبرز هذه اللقاءات: لقاؤه ببابا الفاتيكان بولس السادس عام ١٩٧٣م، الذي تمت فيه المصالحة بين الكنيسة الكاثوليكيَّة الغربية والكنيسة المصريَّة الأرثوذكسيَّة.

وتوقيعه وثيقة رفع الحرم المتبادل بين كنيسته والكنائس الأرثوذكسيَّة الكلدونية وغير الكلدونية في مشميزي عام ١٩٩٠م.

وأيضًا الاتفاق على تحقيق الوحدة بين كل الكنائس النصرانيَّة، وزيارته لرئيس أمريكا كارتر عام ١٩٧٧م والتي كان لها أثرها السياسي والديني لصالح الكنيسة المصريَّة.

- تحت رئاسة وإشراف البابا شنودة تعددت الاجتماعات ذات الصبغة الدينيَّة والسياسية، التي تطالب بإعطاء الكنيسة الأرثوذكسيَّة في مصر دورًا فاعلًا في السياسة، وأن يكون لها نصيبها من المناصب الوزارية.

كما دعت الحكومة المصريَّة إلى التخلي عن فكرة تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، والموافقة على إنشاء جامعة للأقباط على غرار جامعة الأزهر.

ومن أشهر هذه الاجتماعات اجتماع الكنيسة المرقسية بالإسكندرية عام ١٩٧٣م، واجتماع الإسكندرية عام ١٩٧٧م واجتماع تدزيب مدرسي ومدرسات وخدام الدين النصراني في كنيسة مارجرجس بدمنهور في ٢٧-٢٨ يناير ١٩٧٧م، واجتماع المحامين الأقباط بالإسكندرية.

كما اهتم بزيادة عدد الأبروشيات إذ ارتفعت إلى ثلاث وخمسين أبرشية بدلًا من ثلاث وعشرين في عهد سلفه، وبالتالي زاد عدد الأساقفة إلى اثنين وستين أسقفًا.

- وزادت في عهده أيضًا وبشكل ملحوظ النشرات والكتب، وحملات التنصير والاستفزاز للمسلمين، مما أشعل المواجهات بين المسلمين والنصارى فيما عرف بأحداث الفتنة الطائفية (الزاوية الحمراء ومناطق مختلفة من صعيد مصر) الأمر الذي دعا الرئيس السابق لمصر - أنور السادات- إلى عزله ونفيه في دير وادي النطرون، وقد أفرج عنه وعاد إلى كرسيه في عهد الرئيس الحالي لمصر محمد حسني مبارك.

- نتيجة للمنحى الجديد للكنيسة المصريَّة في عهد البابا شنودة الثالث، ظهرت داخل الكنيسة اتجاهات أخرى تعارضه، ويمكن تقسيم اتجاهات الكنيسة في عهده إلى:

١- اتجاه علماني:

يؤكد انفصال الدين عن الدولة في النصرانيَّة، ويرى أن الكنيسة في هذا العصر خرجت على النصرانيَّة الصحيحة -بزعمهم- لخلطها بين الدين والدولة، كما يطالب بأهمية قيام الكنيسة بواجبها الديني وابتعادها ورجال الكنيسة عن السياسة.

ومن أبرز ممثلي هذا التيار المهندس ميلاد حنا الخبير الإسكاني وأحد رموز الحركة اليسارية في مصر.

٢- اتجاه انعزالي كنسي:

يدعو إلى تبني الكنيسة للخطاب الديني المحض، ويتجه إلى إصلاح الأديرة وتطويرها، ويمثّله الأب متى المسكين اسمه يوسف إسكندر -صيدلي- انقطع للرهبنة في دير أبي مقّار قرب الإسكندرية.

٣- اتجاه روحي انعزالي:

يدعو إلى تكفير كل من يخالفه من المسلمين والأقباط على حد سواء، مستخدمًا في محاربتهم الحرب الروحية بصراع الأرواح الشريرة.

كما يدعو إلى محاربة التلفزيون كأحد أساليب مملكة الشر، وإلى مواجهة المجتمع والدولة سواء كانوا مسلمين أو نصارى مواجهة علنية.

وإلى هذا الاتجاه تُنسب الحوادث الأخيرة من إغماء الفتيات المسلمات في شوارع مصر، ويمثل هذا التيار الأب دانيال البراموسي خريج كلية الهندسة، وصاحب النشاط المؤثر بين الشباب النصراني في صعيد مصر خاصة، والقمص زكريا بطرس كاهن كنيسة مارجرجس بمصر الجديدة ١٩٧٩م الذي أُبعد عن منصبه وحُرم من الوعظ لمهاجمته الدولة ودعوته لتنصير المسلمين بشكل علني.

٤- اتجاه شمولي:

يرى أن الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم الحلول لكل المشكلات، والأجوبة لكل الأسئلة المتصلة بالدين والدنيا، ويمثله البابا شنودة الثالث، والأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمي واسمه وهيب عطا حاصل على دكتوراه في فلسفة اللغات.

٥- اتجاه توفيقي:

يرى أن للكنيسة دورًا دينيًا ذا بعد وطني، يحتّم عليها أداء أدوار وطنية محددة؛ مثل الوقوف في وجه المستعمر مع البعد عن الأمور السياسية، ويمثله المفكر القانوني وليم سليمان قلادة.

الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشرقيَّة

رغم الانفصال المذهبي للكنيسة الشرقيَّة عن الكنيسة الغربية تحت اسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقيَّة، برئاسة بطريرك القسطنطينيَّة بعد رفض قرارات مجمع القسطنطينيَّة الرابع عام ٨٩٦م إلا أنها خضعت إداريًا للكنيسة الغربية تحت رئاسة بابا روما حتى الانفصال النهائي عام ١٠٥٤م.

بوادر الانفصال

- توسعت الكنيسة البيزنطيَّة في القرن التاسع في أوربا الشرقيَّة؛ فأسست في بلغاريا كنيسة وأصبحت النصرانيَّة الدين الرسمي للدولة بعدما أجبر الحاكم البلغاري بوريس الأول ٨٥٢-٨٨٨م على قبول المعمودية من الإرساليات التبشيريَّة.

- عمل خليفته القيصر سيمون ٨٩٣ - ٩٢٧م على حماية الكنيسة، وجعل اللغة السلافية لغة الطقوس الكنيسيَّة بدلًا من اليونانيَّة وفي عهده استقلت الكنيسة البلغارية في بطريركية مستقلة.

- أثناء حكم الإمبراطور باسل الثاني ٩٧٦ - ١٠٢٥م توطدت دعائم الكنيسة الأرثوذكسيَّة السلافية على يد مبشري الدولة البيزنطيَّة مثل القديسين كيرلس، وميثوديوس والمعروفين برسل السلاف، ولذلك حيكت ضد الإمبراطور المؤامرات مما اضطره إلى الاستعانة بأمير كيف فلاديمير ٩٧٨ - ١٠١٥م للتصدي لها، فكان ذلك سببًا في اعتناق فلاديمير النصرانيَّة على المذهب الأرثوذكسي عام ٩٩٠م لتنضم روسيا إلى الكنيسة الأرثوذكسيَّة، وتصبح كنيستها أحد فروع الكنيسة اليونانيَّة.

- في الفترة ما بين القرنين العاشر والخامس عشر ظهرت داخل الأرثوذكسيَّة فرقة البوجوميلي نسبة إلى مؤسسها القس بوجوميل على أنها حركة سلافية تهدف إلى الإصلاح باسم الكنيسة الأرثوذكسيَّة البلغارية، متأثرة في ذلك بآراء الثنوية والمانوية الحديثة.

ولذلك فإنها تؤمن بأن العالم المرئي مملوء بالشر، كما تعارض عقيدة التجسد النصرانيَّة من جانبها المادي، وترفض التعميد، وتحتقر الصليب والمعجزات والكنائس الضخمة ونظام الكهنة، وبالجملة ترفض النظام الكنسي العام.

وسرعان ما انتشرت في البلدان الخاضعة للإمبراطورية البيزنطيَّة مما أدى إلى الحكم بهرطقتها، وإنزال العذاب الشديد بأتباعها، وحرق قائدهم في القسطنطينيَّة أمام الجماهير الحاشدة.

الانفصال الرسمي:

- أراد ميخائيل كيرولاريوس بطريرك القسطنطينيَّة عام ١٠٥٣م الانفصال النهائي عن سلطة الكنيسة الغربية ليصبح إمبراطورًا وبطريركًا، مساويًا لبابا روما، فاستغل الاضطراب السياسي في الإمبراطورية البيزنطيَّة وأعلن أن البابوية في روما أصبحت ألعوبة في يد رجال الدولة الغربية، وأن تقاليد الكنيسة الغربية فيها كفر ومخالفة للتعاليم النصرانيَّة الأولى؛ فتصدّى له بابا روما ليو التاسع وقضى على حركته باستمالة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع إلى جانب دعواه بأحقيَّة سيادة الكنيسة الغربية على الكنيسة الشرقيَّة.

- ما لبث أن توفي بابا روما ليو التاسع عام ١٠٥٤م حتى استغل بطريرك القسطنطينيَّة الفرصة السانحة ليجمع حول دعوى الانفصال رجالَ الكنيسة الشرقيَّة مرة أخرى، حيث خضع لرأيهم الإمبراطور وأعلن رسميًا استقلال الكنيسة الشرقيَّة استقلالًا تامًا عن الكنيسة الغربية لتصبح كنيسة

أجا صوفيا التي أعاد بناءها الإمبراطور جستنيان في القرن السادس مركزًا للحياة الدينيَّة في الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

محاولات سيطرة كنيسة روما:

- في عهد البابا أنورت الثالث ١١٩٨ - ١٢١٦م انطلقت الحملة الصليبية الرابعة لاحتلال القسطنطينيَّة والقضاء على كنيستها لتحقيق وحدة الكنيسة المسيحيَّة على مذهب روما الكاثوليكي.

- دخلت الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينيَّة عام ١٢٠٤م كالجراد المنتشر، فأتت على الأخضر واليابس، فلم تترك فيها حرمة إلا انتهكتها، ولا ديرًا ولا كنيسة إلا خربتها بعد نهب ما فيها من تحف وثروات.

ولما استقر لهم الأمر ودانت لهم الإمبراطورية تم تقسيمها وعاصمتها على زعماء الحملة، وانتُخب بلدوين دي فلاندرز إمبراطورًا للإمبراطورية اللاتينيَّة في القسطنطينيَّة ١٢٠٤ - ١٢٦١م وعين البطريرك الكاثوليكي توماس مورسيني بطريركًا لكنيستها، مما زاد من حنق ونفور البيزنطيين من الغرب وكنيسته.

محاولات توحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربية

بعد عودة كنيسة القسطنطينيَّة إلى سيادة الإمبراطورية البيزنطيَّة، قامت محاولات عديدة لتوحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربية خلال الفترة من منتصف القرن الثالث عشر حتى بدايات القرن الخامس عشر الميلادي من أهمها:

١- ما قام به الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ١٢٥٩ - ١٢٨٢م بالتعاون مع بابا روما نيقولا الثالث ١٢٧٧ - ١٢٨٠م والمتحمس لهذا الأمر، لكنها باءت بالفشل للمعارضة الشديدة من بطريرك القسطنطينيَّة الذي أصدر قرارًا بحرمان الإمبراطور ميخائيل الثامن، وأيَّده على ذلك بابا روما مارتن الرابع بقرار حرمان آخر للإمبراطور.

٢- محاولة أخرى قام بها الإمبراطور البيزنطي مايكل فلايولتوس أثناء مواجهته لملك صقلية شارل أونجو حيث أرسل اعترافًا إلى البابا جورج العاشر بسيادة الكنيسة الغربية، وبذلك نجح الإمبراطور في فرض بطريرك كاثوليكي شرقي يدعى جون بيكوس على رئاسة كنيسة القسطنطينيَّة، وما إن مات الإمبراطور حتى رفض المجلس الأرثوذكسي هذا الاعتراف.

٣- ومن آخر محاولات التوحيد في تلك الفترة ما قام به المجمع الذي عقد في فرارًا ثم فلورنس امتدادًا لمجمع بال لمواجهة نشاط العسكرية الإسلاميَّة التي طوَّقت القسطنطينيَّة، وقد نجح هذا المجمع أن يقبل الأرثوذكس معظم النقاط التي عرضها الإمبراطور جون الثامن، ورغم توقيع الإمبراطور البيزنطي حنا السادس عليها إلا أنها لم تتم للمعارضة الشديدة من الشعب وخدام كنيسة القسطنطينيَّة، بالإضافة إلى معارضة بطاركة كنائس الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس.

٤- في منتصف القرن التاسع عشر ارتفعت من جديد نداءات الاتحاد بين الكنيستين: ففي عام

١٨٤٨م وجَّه البابا بيوس التاسع نداءه إلى الكنائس الشرقيَّة للاتحاد مع كنيسة روما إلا أنه رُفِضَ كما رفض غيره من قبل.

- في عهد الأمير أيفان الأول ١٣٢٨ - ١٣٤١م أصبحت موسكو المركز الروحي لروسيا بانتقال رئيس أساقفة روسيا من كييف إلى موسكو.

تمتعت كنيسة روسيا بحماية ملوك المغول، وعدم تدخلهم في سياستها مما ضاعف من نفوذها وثرواتها.

الفتح الإسلامي للقسطنطينية:

في مايو ١٤٥٣م فتحت جيوش السلطان العثماني محمد الفاتح مدينة القسطنطينيَّة، فأمَّن أهلهم وطمأنهم على أنفسهم وأعراضهم، ومنحهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة الشعائر والعبادات الخاصة بهم، وأعلن الكثير منهم إسلامهم، ومن ثم أمر بتحويل كنيسة أجا صوفيا إلى مسجد.

في الوقت نفسه اجتمع مع الأساقفة وهدَّأ من روعهم، وأمر بتنصيب بطريرك جديد، فانتخبوا جليارنوس الذي استقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة وإكرام بالغ.

- جعل السلطانُ بطريركَ القسطنطينيَّة رئيس النصارى الديني والمدني، وجرى تقسيم الكنيسة الأرثوذكسيَّة البلقانية إلى وحدات قومية، أصبحت القسطنطينيَّة مركزًا لليونان، وأصبح للصرب بطريركًا خاصًا في بيج بيوغسلافيا، والبلغار مطرانيتهم في أوهريد، أما سكان رومانيا فكان لهم مؤسسات دينية مشابهة.

وعهدت الحكومة العثمانية للكنيسة بسلطة إدارة العديد من الوظائف والمهام الدينيَّة والمدنية. وبذلك أصبحت الكنيسة جزءًا من الجهاز الحكومي. وهكذا مارس بطريرك القسطنطينيَّة سلطات أوسع من السلطات التي كانت مُخوَّلة له عام ١٥٨٨م في الدولة البيزنطيَّة، وجرت أعيادهم وعبادتهم بحرية أوسع تحت حماية الدولة العثمانية.

الكنيسة الروسيَّة

- استقلت الكنيسة الروسية ببطريركية مستقلة عام ١٥٨٨م وأبطلت سيادة كنيسة القسطنطينيَّة عليها بعد فرار البطريرك اليوناني من القسطنطينيَّة إلى موسكو.

- وفي عام ١٥٨٩م عين الإمبراطور فيودا الأول أول بطريرك روسي وحمل بطاركة الشرق على الاعتراف به عام ١٥٩٣م.

- أصبحت الكنيسة الروسية ذات أهمية خاصة بعد سقوط القسطنطينيَّة في أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣م فقد اعتبرت نفسها المركز الحقيقي والحامية للأرثوذكسية الصحيحة، وبذلك أصبحت روما الثالثة.

يقول الراهب فليوثيوس من باسكوف: لقد سقطت الرومايان (روما والقسطنطينيَّة) وهذه روما

الثالثة، ولن يكون هناك روما رابعة.

- في أثناء حكم نيكون ١٦٥٢ - ١٦٥٨م انقسمت الكنيسة الروسية نتيجة لاقتراح نيكون بضرورة أن تتطابق الكنيسة الروسية في أفكارها، ومعتقداتها الكنيسة الإغريقية.

- ألغى بيتر العظيم عام ١٧٢١م البطريركية الروسية وتبنى المذهب البروتستانتي.

- ألغى الإمبراطور بطرس الأكبر البطريركية الروسية مرة ثانية، وتولى مجمع السينودس المقدس إدارة الكنيسة في المسائل الدينيَّة محتفظًا لنفسه وخلفائه برئاستها.

- في عام ١٧٤٤م أصدرت بطريركية الكنيسة في القسطنطينيَّة مرسومًا بتحريم الماسونية والانتساب إليها.

- وفي أيام الإمبراطورة كاترين استولت الحكومة على أملاك الكنيسة الروسية واحتفظت لنفسها بأمر تعليم الكهنة وتعيينهم.

وقد استمر أثر هذه الإجراءات حتى عام ١٩١٧م إذ أدخلت الثورة البلشفية النصرانيَّة في روسيا في مرحلة جديدة منفصلة بذلك عن الكنائس الأخرى، وانتُخِب أول بطريرك لها أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالتالي أصبحت تعلن ولاءها للحكومات الشيوعية وتؤكد سياستها ضد الغرب.

الكنيسة اليونانيَّة والبلغاريَّة واليابانيَّة

- استقلت الكنيسة اليونانيَّة في عام ١٨٣٣م عن كنيسة القسطنطينيَّة.

- ظهرت في بلغاريا حركة تعمل على إصلاح الكنيسة البلغارية برئاسة الأب نيوفت بوزقيلي، وبعد أن عينت الحكومة العثمانية أساقفة غير بلغاريين على الكنيسة البلغارية.

- وفي عام ١٨٦٠م أعلن الأسقف غيلادبون مكاريو بولسكي استقلال الكنيسة البلغارية، ووافقت السلطات العثمانية على ذلك، وأنشأت لهم كنيسةً خاصة في إستانبول تحت رئاسة مطران، وهيئةً مساعدة خاصة بهم.

- وردًا على ذلك عقد مجمع القسطنطينيَّة عام ١٨٧٣م بحضور بطاركة القسطنطينيَّة وأنطاكية وأورشليم والإسكندرية ليصدر قرارًا بحرمان جميع النظام الكنسي البلغاري.

- بعد سيادة الشيوعية في دول شرق أوربا انضمت الكنيسة البلغارية والرومانية إلى الكنيسة الروسية مرة أخرى.

- استقلت الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليابانية عام ١٩٣٩م عن الكنيسة الروسية التي ظلت تابعة لها منذ تأسيسها عام ١٨٦٠م على يد إرسالية أرثوذكسية روسية.

معتقدات وأفكار الكنيسة الأرثوذكسيَّة:

١- تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة مثل باقي الكنائس الأخرى بإله واحد مثلث الأقانيم: الآب، والابن، والروح القدس على حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي ٣٢٥م.

٢- كما تؤمن بربوبية وألوهية الرب والمسيح في آن واحد على أنهما من جوهر واحد ومشيئة واحدة، ومتساويين في الأزلية، لكن كنيسة أورشليم الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة ومن يتبعها تؤمن بأن المسيح له طبيعتان ومشيئتان موافقةً لمجمع كليدونية ٤٥١م.

٣- يؤمن الأرثوذكس بالزيادة التي أضيفت على قانون الإيمان النيقاوي في مجمع القسطنطينيَّة عام ٣٨١م التي تتضمن الإيمان بالروح القدس الرب المحيي والمنبثق من الآب وحده، فله طبيعته وجوهره، وهو روح الله وحياة الكون ومصدر الحكمة والبركة فيه.

٤- يعتقد الأرثوذكس الأقباط أن الأقانيم الثلاثة ما هي إلا خصائص للذات الإلهية الواحدة، ومتساوية معه في الجوهر والأزلية، ومنزَّهة عن التأليف والتركيب، لكن الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة ومن تبعها تعتبر أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، ولذلك فهي عند اليونان مراحل انقلب فيها الله إلى الإنسان.

٥- الإيمان بتجسُّد الإله في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم، وذريته من بعده، فيعتقدون أنه وُلد من مريم وصلب ومات فداءً لخطاياهم، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس على يمين الرب ليحاسب الخلائق يوم الحشر.

٦- الإيمان بأن السيدة مريم العذراء والدة الإله، ولذا يوجبون تقديسها كما يقدسون القديسين، والأيقونات غير المجسمة، وذخائر القديسين، ويقدسون الصليب، ويتخذونه رمزًا وشعارًا.

٧- تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة بالمجامع المسكونيَّة السابقة على مجمع كليدونية لعام ٤٥١م بينما تؤمن الكنيسة اليونانيَّة ومن تابعها وكنيسة أورشليم الأرثوذكسيَّة بجميع المجامع السابقة على مجمع القسطنطينيَّة ٨٦٩م.

٨- الإيمان بنصوص الكتاب المقدس وبما يتضمنه من أسفار التوراة وأسفار الأنبياء بالإضافة إلى باقي الأسفار الأخرى، ولكنها تستخدم في الطقوس الكنسية النموذج البروتستانتي الذي يشتمل على الأسفار الخمسة فقط، كما تؤمن بنصوص العهد الجديد ورسائل الرسل على ما أقر في مجمع نيقية الأول (٣٢٥م).

٩- تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة بالأسرار السبعة للكنيسة:

١- سر المعمودية. ٢- سر الميرون. ٣- سر القربان. ٤- سر الاعتراف. ٥- سر مسحة المرض. ٦- سر الزواج . ٧- سر الكهنوت.

١٠- الصلاة: يعتقد الأرثوذكس بوجوب سبع صلوات: صلاة باكر، وتقال في الفجر، وصلاة الساعة الثالثة، وتقال التاسعة صباحًا، وصلاة السادسة، وتقال ظهرًا، وصلاة التاسعة وتقال حوالي الثالثة بعد الظهر، وصلاة الغروب، وصلاة النوم، وصلاة نصف الليل وتقال على دفعات.

والصلاة إما أن تكون فردية أو جماعية، وهي عبارة عن دعاء بهيئة معينة، ولا تستخدم الآلات الموسيقية في الترانيم الكنسية، ولا يقام فيها القداس يوميًا.

١١- الصوم: وهو الامتناع عن الأكل حتى الغروب، ولغير المستطيع أن يصوم على قدر طاقته، ويعفى منه خمس فئات: المرضى، والرجل الشيخ، والمرأة العجوز، والأطفال أقل من اثنتي عشر سنة، والمرأة الحامل، والمرضع، ويمكنهم أن يأكلوا تبعًا لما رسمه لهم آباء الكنيسة بالامتناع عن اللحوم بأنواعها ومستخرجاتها، ويقتصر على ما تنبت الأرض.

وأنواع الصوم عندهم سبعة:

الصوم الكبير السابق لعيد القيامة عندهم، والصوم السابق لعيد الميلاد، صوم يونان، صوم الرسل بين عيد الخماسين وعيد الرسل، صوم السيدة العذراء، صوم البرمون، وذلك على مدد متفاوتة لكل منها.

١٢- الأعياد: تنقسم الأعياد في الأرثوذكسيَّة إلى:

١- أعياد سيدية كبرى.

٢- أعياد سيدية صغرى.

وللكنيسة المصريَّة أعياد خاصة بها مثل أعياد القديسين والشهداء.

وتحتفل الكنيسة الأرثوذكسيَّة بعيد ميلاد السيد المسيح في اليوم ٢٥ من ديسمبر وهو يوافق اليوم السادس من شهر يناير.

١٣- درجات الكهنوت: الكنيسة الأرثوذكسيَّة كنيسة شعبية يقوم على رأسها البابا أو البطريرك، ويرأس كل مجموعة كنائس بطريركية في البلد أو الإقليم، ويقوم بجانبها مجلس مقدس كالمجلس الملي في مصر الذي يضم مطارنة وعلمانيين، وتشرف عليه الحكومة المصريَّة.

ويتكون التنظيم الكهنوتي للكنيسة من البطريرك، ثم المطارنة، ثم الأساقفة، ثم القمامصة، ثم القساوسة، ثم الشمامسة، ولا تعترف الكنيسة بسلطة بابا روما ولا بعصمته.

١٤- الرهبنة: وهي سبع مقامات روحية، وتنقسم إلى نوعين: رهبنة فردية، رهبنة ديرية.

١٥- الدين: تؤمن الأرثوذكسيَّة مثل باقي الكنائس بعالمية النصرانيَّة، كما تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة بضرورة بعث ميراث الكنيسة القبطية وإحياء القومية واللغة القبطية.

وينادي بطريرك الكنيسة الحالي شنودة الثالث بأن الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم حلولًا لكل المشكلات وأجوبة على كل الأسئلة المتصلة بالدنيا والدين، ولذلك نشطت في عهده في التنصير وإقامة الكنائس في أفريقيا وغيرها.

١٦- تقبل زواج الكهنة إذا تزوجوا قبل الدخول في الرتب الكنسية، ولا تسمح بزواج الكهنة بعد وفاة الزوجة الثانية.

١٧- تعمل الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة على عرقلة تطبيق الشريعة الإسلاميَّة أو قصرها على المسلمين فقط، كما تسعى إلى امتلاك ناصية الاقتصاد المصري.

١٨- تمنح الكنيسة الجوائز للمتزوجين ومساعدة من يريد الزواج منهم لزيادة نسلهم.

الأعداد وأماكن التواجد

- تنتشر الكنائس الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة في الدول التالية: تركيا، اليونان، روسيا، ودول البلقان، وجزر البحر الأبيض، والمجر ورومانيا، وتشرف كنيسة أنطاكية على بيت المقدس، كما أن لطور سيناء في مصر كنيسة مستقلة تشرف على دير سانت كاترين ومطرانها هو الأب رئيس الدير.

- ينتشر نفوذ الكنيسة المصريَّة في مصر حيث يبلغ إجمالي نصارى مصر بجميع مذاهبهم وطوائفهم ٥ ٧٨,٥% من إجمالي السكان حسب الإحصائيات الرسمية بالتعاون مع عشر هيئات محلية وعالمية من بينها الأمم المتَّحدة ويتبعها نصارى الحبشة والسودان، إذ بها أقدم الكنائس التابعة لكنيسة الإسكندرية.

وفي العصر الحديث أسست الكنيسة المصريَّة عدة كنائس تابعة لها في كل من: كينيا، وليبيا، والجزائر، والكويت، والعراق، والإمارات، ودبي، وأبو ظبي، والبحرين، وبلاد الشام، وفلسطين، ودير السلطان، والأردن، ولبنان، وأمريكا الشماليَّة: كندا، استراليا، وبعض دول أوربا مثل: النمسا، وفرنسا.

- الأرمن: تتفق كنيسة الأرمن مع الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة في الأفكار والمعتقدات وإن كان لها ترتيب كنسي خاص بها.

- اليعقوبيَّة: تتفق مع الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة في الإيمان بالمذهب المونوفيزيتي في القول بالطبيعة الواحدة للمسيح، ويوجد معظم أتباعها في العراق، بينما يقيم بطريركهم في حمص بسوريا.

يتضح مما سبق:

- اختلاف أتباع المذهب الأرثوذكسي فيما بينهم في أصل العقيدة وقانون الإيمان، ولذلك فإن الكنيسة اليونانيَّة الأرثوذكسيَّة فضلًا عن الكنيسة الغربية الكاثوليكيَّة تحكم بكفر وهرطقة الكنيسة المصريَّة.

- كان للفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وللأفكار الغنوصية أثرُها على عقيدة الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

- كان للتلفيق بين تعاليم النصرانيَّة والعقائد الوثنية في مصر وبلاد الكنيسة الأرثوذكسيَّة بزعم الترغيب في النصرانيَّة أثره البالغ في انحراف عقائد وأفكار الكنيسة.

- ظهرت القسوة والاضطهاد بين أبناء الملة الواحدة لمحاولة السيطرة وفرض مذاهبهم بالقوة

مثل ما حدث بين أتباع الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة وبين أبناء الكنيسة المصريَّة من الاضطهاد والتعذيب، وبين أتباع الكنائس الغربية سواء كانت كاثوليكيَّة أو بروتستانتيَّة أو أتباع الأرثوذكسيَّة.

بالمقارنة بالمعاملة الحسنة من المسلمين للنصارى، وإظهار سماحة وعدالة الإسلام كيف كان لذلك دافعًا قويًا للدخول في دين الله تعالى أفواجًا، ويتضح ذلك من مواقف عمرو بن العاص رضي الله عنه، وسائر خلفاء الدولة الإسلاميَّة مع النصارى، ومن مواقف السلطان محمد الفاتح وسلاطين الدولة العثمانية مع رعايا دولتهم من النصارى.

- كان لتحكُّم الإمبراطورية البيزنطيَّة في الكنيسة وسياستها أثره البالغ على عدم استقرارها وكثرة انحرافاتها.

- تحالف النصارى الأرثوذكس مع الحملات الصليبية في سوريا ولبنان ومصر إبان الحملة الفرنسيَّة والحملة الإنجليزية على مصر والشام، وبرزت شخصيات نصرانية متعصبة، ومتأثرة بالدعاية الغربية التي أخذت تدعو في مصر مثلًا إلى إحياء القومية واللغة القبطية.

- الأثر البالغ والبعيد المدى لمدارس الأحد في تخريج قيادات الكنيسة المصريَّة على اختلاف اتجاهاتهم الفكريَّة.

- ظهور التوجه السياسي للكنيسة القبطية ومحاولة التأثير في السياسات الحكومية بما يوافق مصالحهم وخططهم، مستخدمة في ذلك انتشار وزيادة نفوذ الكنيسة في داخل وخارج مصر، مستغلة العلاقات الدولية والتجمعات القبطية في الخارج لتهيئة الرأي العام العالمي ضد المسلمين، لكسب المزيد من التعاطف الدولي لدعم قضاياهم الدينيَّة والسياسية.

- اهتمام الكنيسة المصريَّة بالحملات التنصيريَّة في داخل وخارج مصر مستخدمة في ذلك وسائل متعددة. أما الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة ومن يتبعها فكانت جهودهم ضعيفة في هذا الجانب نظرًا للتحجيم الشيوعي لدور الكنائس في روسيا ودول أوربا الشرقيَّة[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٥٨٣- ٥٩٩).

الفصل الثاني

الكاثوليك

التعريف:

أكبر الكنائس النصرانيَّة في العالم، وتدعي أنها أم الكنائس ومعلمتهن، يزعم أن مؤسسها بطرس الرسول، وتتمثل في عدة كنائس تتبع كنيسة روما وتعترف بسيادة بابا روما عليها.

وسميت بالكنيسة الغربية، أو اللاتينيَّة؛ لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصة.

التاريخ والأحداث

- يدعي أصحابها بأن القديس بطرس ت ٦٢م هو المؤسس الأول لكنيستها على حسب ما أشار إليه القديس سيبريان ٢٤٨ - ٢٥٨م مع أن مصادر التاريخ الكنسي تشير إلى أن لكل من بولس وبطرس دوره في وجودها.

- أول من استعمل لفظ كاثوليك للدعوة لتأييد الكنيسة مقابل حركات الخروج على مفاهيمها وعقائدها -الهرطقة- أسقُف أنطاكية القديس أغناطيوس الأنطاكي في القرن الثاني الميلادي.

- منذ أن أسس قسطنطين مدينة القسطنطينيَّة روما الجديدة وبنى فيها كنيستها أجاصوفيا وجعلها تلي كنيسة روما في المكانة، قام التنافس بين الكنيستين في السيطرة على العالم المسيحي، الذي استمر إلى أن تم الانفصال الإداري بينهما عام ٨٦٩م بعد مجمع القسطنطينيَّة.

وفي خلال تلك الفترة وما يليها وقعت أحداث جسام، وبرز باباوات وقديسون، كان لهم أكبر الأثر في تطور الكنيسة. وفيما يلي أهم تلك الأحداث وأبرز هذه الشخصيات:

تأكيد سيطرة الكنيسة الغربيَّة:

- اعترف مجمع سرديكا عام ٣٤٣ أو ٣٤٤م بحق استئناف قرارات المجامع الإقليمية إلى أسقف روما، مما زاد من دعاوى روما بأنها الحكم الأعلى للنصرانية.

- يرجع الفضل إلى البابا داماسوس الأول ٣٦٦ - ٣٨٤م في ترجمة الإنجيل إلى اللاتينيَّة، كما رأس مجمع روما عام ٣٨٢م للرد على قرارات مجمع القسطنطينيَّة لعام ٣٨١م لتأكيد صدارة روما التي تستمد مكانتها من وعد المسيح لبطرس الرسول بقوله: وأنا أقول لك أنت الصخرة، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.

- البابا ليو الأول ٤٤٠ - ٤٦١م والملقب بليو العظيم إذ كان له دور بارز في حماية روما والحفاظ عليها بعد سقوطها عام ٤١٠م في يد الآريوسيين -أتباع آريوس- ويرجع إليه الفضل في تميز الكنيسة الغربية بعقيدتها في المسيح من حيث إن له طبيعتين -المذهب الملكاني- بعد تصديه لأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح -المونوفيزتية- في مجمع كلدونية عام ٤٥١م.

- أصدر الإمبراطور فالنتيان سنة ٤٥٥م مرسومًا يقضي بخضوع كل أساقفة وموظفي الإمبراطورية للبابا، مما زاد في نفوذ وثروات الكنيسة، وأقبل الناس على الدخول في الكنيسة بأعداد كبيرة تطلعًا للمكانة والكسب المادي.

- كان لاعتناق الإمبراطور كلوفس النصرانيَّة، وتعميده على العقيدة الكاثوليكيَّة عام ٤٩٦م أكبر الأثر في اعتناق الفرنجة السالين -أحد الطوائف الجرمانية- للمذهب الكاثوليكي.

- في ٦ أغسطس سنة ٥٢٥م قرر الإمبراطور ثيودريك تسليم جميع الكنائس الكاثوليكيَّة للآريوسين، ردًا على حملة الإمبراطور جستنيان في الدولة البيزنطيَّة ضد الآريوسين. فأنزل الاضطهاد والتعذيب على الكاثوليك، وسجن في هذه الفتنة البابا يوحنا الأول عام ٥٢٥م.

العصور المظلمة:

ويطلقها مؤرخو النصرانيَّة على الفترة من تولِّي البابا جرجوري الأول عام ٥٩٠م حتى تولي شارلمان الإمبراطورية ٨٠٠ - ٨٤٠م إذ شهدت العديد من الصراعات والانشقاقات التي أدت إلى الانهيار السياسي والانحطاط العلمي والثقافي للنصرانية، وإن تميزت بقوة التبشير النصراني، بالإضافة إلى شروق شمس الإسلام من جبال فاران (بمكة المكرمة) عام ٦١٠م حتى عمت أشعتها نصف العالم، وأخضعت العديد من الممالك النصرانيَّة في مصر وأفريقيا والأندلس وصقلية ودول الشام وإيران.

ومن أبرز شخصيات هذا العصر البابا جرجوري الأول ٥٩٠ - ٦٠٤م: الذي يلقب بجريجوري العظيم، لاهتمامه البالغ بتطوير الكنيسة وإصلاحها، متأثرًا بمبادئ وأصول الأديرة البندكتية التي نشأ فيها. بالإضافة إلى اهتمامه بالنواحي السياسية والإدارية، والدعوة للنصرانية حتى امتد نفوذ الكنيسة في عهده إلى أفريقيا وغاليا -فرنسا- ودخلت أسبانيا وإنجلترا في النصرانيَّة بعد بعثة القديس أوغسطين عام ٥٩٧م، وقد أصبحت الكنيسة في عهده أشبه بالحكومة المدنية العلمانيَّة، وبذلك استطاع فرض سيادة البابوية على الأساقفة الشرقيين في النواحي القضائية بما فيهم بطريرك القسطنطينيَّة، فحقق بذلك للبابوية قسطًا من السمو لم يسبق إليه مما كان لذلك الأثر البالغ في تذكية الصراع بين البابوية والإمبراطورية.

القرون الوسطى:

وتطلق على الفترة ما بين ٨٠٠ - ١٥٢١م التي اتسمت بكثرة الحروب الأهلية، والتي دامت طويلًا بين البابوية والإمبراطورية، واتسمت بظهور حركات الخروج على مبادئ الكنيسة فيما وسَمَتها الكنيسة بالهرطقة، ولذلك توسعت في استخدام محاكم التفتيش ضد هذه الحركات، وضد الأصوات المنادية بالإصلاح الكنسي.

وفي تلك الفترة أيضًا كانت بداية الحروب الصليبية، بالإضافة إلى فتح المسلمين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م.

ويمكن تقسيم أهم أحداث الكنيسة الكاثوليكيَّة خلالها إلى:

١- العهد فيما بين شارلمان وجريجوري السابع ٨٠٠ - ١٠٧٣م:

وفيه ازدهرت البابوية، إذ اعتبر شارلمان المتوَّج من البابا ليو الثالث ٨٠٠م نفسه حاميًا للبابوية، وأنه رأس الكنيسة والدولة معًا، فأصبح يعين الأساقفة ويتولى رئاسة المجامع الرئيسية التي يدعو إليها، بالإضافة إلى تشريعه للقوانين اللازمة للكنيسة -القانون الكنسي- كما اهتم بإصلاح المدارس الدينيَّة، ورفع مستوى رجال الدين الثقافي؛ فظهرت لذلك نهضة علمية واسعة في عصره، إلا أن الصراع مع البابوية تجدد مرة أخرى لرغبة البابا ليو الثالث في التخلص من سيطرة الإمبراطور، لكنه لم يفلح في ذلك.

٢- الشقاق العظيم:

والمراد به الاختلاف الكبير الذي أدى إلى الانفصال النهائي للكنيسة الشرقيَّة والأرثوذكسيَّة عن الكنيسة الغربية الكاثوليكيَّة، بعد محاولة البابا ليو التاسع ١٠٥٤م فرض عقائد وأفكار الكنيسة الغربية على الشرق، التي رفضها بطريرك القسطنطينيَّة ميخائيل كيرولاريوس الأمر الذي فجَّر ما بينهما من الخلافات القديمة حول انبثاق روح القدس.

٣- العهد فيما بين البابا جريجوري السابع، والبابا بويفيس ١٠٧٣- ١٢٩٤م:

كان للبابوية في هذه الفترة دورها الكبير في تقرير تاريخ أوربا كما كان لها في السابق، وذلك بعد سلسلة من الصراعات بين البابوية والإمبراطورية التي عقد من أجلها اللاتران الأول عام ١١١٢م والثاني عام ١١٣٩م الذي أعلن فيه البابا أنوسنت الثاني ١١٣٠-١١٤٣م أن البابا له السيادة العليا على جميع الحكام العلمانيين، وما انتهى هذا الصراع في هذه المرحلة إلا بعد توقيع الصلح بين البابوية والإمبراطور فردريك ١١٧٧م.

ومن أهم أحداث هذه الفترة انطلاق الحملات الصليبية التي دعا إليها البابا جريجوري السابع عام ١٠٧٤م. وقد أعلن عن بداية هذه الحملات البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م، ولم يكتب هذه الحملات النصر إلا في الحملة الأولى ثم انكسرت شوكتهم بعد ذلك.

كما شهدت تلك الفترة ظهور حركات الهرطقة ضد الكنيسة، ومنها حركة المارسونية التي تُمثل أكبر بدعة ناهضت الكنيسة في تلك الفترة، بالإضافة إلى سقوط القسطنطينيَّة على يد الحملة الصليبية الرابعة ١٤٥٣م بالإضافة إلى تقنين القانون الكنسي.

٤- العهد بين البابا بونيفيس الثامن إلى عهد الإصلاح ١٢٩٤ - ١٥١٧م:

وهذه الحقبة التاريخية تمثل آخر فترات القرون الوسطى في أوربا، وفيها اشتد الصراع بين البابوية والإمبراطورية التي عملت على تفتيت قوة ونفوذ البابوية إلى أن تم إضعافها تحت ضربات حركات الإصلاح المتتالية، وتأسيس كنيسة البروتستانت - المعترضين.

ومن أهم الأحداث الكنسيَّة في تلك الفترة: فشل حركات الإصلاح الكنسي لتواطؤ البابا مارتن الخامس والبابا أبو جينوس الخامس ١٤١٧ - ١٤٤٧م على إجهاض حركات الإصلاح تحقيقًا لأطماعهم الشخصية.

كما شهدت تأسيس عدد من الجمعيَّات الرئيسية لمساعدة الكنيسة ضد حركات الخروج عليها، وإمدادها بأتباع مخلصين مثل: اليسوعيين عام ١٥٣٤م. والإخوان الفرنسيسكان والإخوان الدومينكان.

مجمع ترنت ١٥٤٢ - ١٥٦٣م:

الذي عقد على أثر ثورات الإصلاح التي علا صوتها بعد إعدام حناهس، والتي من أبرزها ثورة مارتن لوثر التي ساندتها الحكومة والشعب الألماني.

وفي الوقت نفسه كان في سويسرا ثورة أخرى بقيادة الرخ زونجلي، ليعارض الكنيسة ويؤيد دعوة لوثر، فعُقِد مجمع ترنت ليقرر عدم قبول آراء الثائرين، ويقضي بمحاكمة لوثر أمام محكمة التفتيش، ثم ليصدر البابا ليو العاشر قرارًا بحرمانه من الحقوق المدنية والرئيسية والقانونية، ليظهر بعد ذلك معارض ثالث في فرنسا: جون كلفن ١٥٠٩-١٥٦٤م الذي هرب إلى سويسرا لينشر مبادئ مارتن لوثر ويجمع حولها الأنصار، وتؤيده في ذلك بعض الدول؛ ليتقلص نفوذ الكنيسة الغربية - الكاثوليكيَّة- وتنفصل عنها كنيسة جديدة -البروتستانتيَّة- لتزيد من الفرقة والشقاق في العالم النصراني، ولتشتعل الحروب الطاحنة بين الكنيستين لعدة سنوات والتي ذهب ضحيتها خلق كثير، حتى أمكن التوصل إلى صلح -صلح أوجزبرج- سنة ١٥٥٥م على أساس إقرار مبدأ إسبيير الأول سنة ١٥٢٦م القائل: بأن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريد سريانه في إمارته.

وهكذا غربت شمس الكنيسة الكاثوليكيَّة، وتقلَّص سلطانها؛ إذ أصبح بمقدور كل دولة الخروج على سلطة البابا.

مجمع روما ١٧٦٩م:

في هذا الجو العاصف بالحركات الثائرة على الكنيسة عُقد هذا المجمع ليحدث مزيدًا من الانشقاق داخل الكنيسة بسبب تقريره عصمة البابا، لتظهر جماعة من المخالفين للقرار، سموا أنفسهم بالكاثوليك القدماء.

موقف الكنيسة من العلم والعلماء:

ما إن ظهرت في أوربا بوادر النهضة العلميَّة المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس بعد ترجمة العلوم الإسلاميَّة واليونانيَّة إلى اللاتينيَّة، وبرز عدد من العلماء الذين بينوا بطلان آراء الكنيسة العلميَّة وبخاصة في الجغرافيا والفلك، حتى تصدت لهم الكنيسة استنادًا على ما ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا: إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجًا كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق.

ولذلك استخدمت ضدهم الرقابة على الكتب والمطبوعات لئلا يذيعوا آراءً مخالفةً للعقيدة الكاثوليكيَّة، وتوسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من ١٤٨١-١٤٩٩م على تسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرِّم قراءة كتب جاليليو وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وتأمر بحرق كتبهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة.

الكنيسة في عصر النهضة:

- في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ازداد غضب الناس والعلماء والفلاسفة من سوء سلوك رجال الكنيسة، ومن الرقابة التي فرضوها على المطبوعات، وتوسُّعهم في استخدام محاكم التفتيش، ومبالغتهم في القسوة والتعذيب ضد المخالفين والعلماء، مما أثار الفلاسفة من أمثال ديكارت وفولتير، الذين وجَّهوا سهام النقد إلى الكنيسة وآرائها، ودعوا إلى إعلاء العقل مقابل النصوص الرئيسية، بفرض أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلميَّة، والخير والشر.

- في عام ١٧٩٠م أصدرت الجمعيَّة الوطنية الفرنسيَّة قرارات قاصمة لظهر الكنيسة إذ ألغت العشور الكنسية، وصادرت أموالها، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعين رجال الكنيسة بدلًا من البابا، بالإضافة إلى إغلاق المدارس التابعة للكنيسة، وتسريح الرهبان والراهبات.

- في سبيل حفاظ البابا جريجوري السادس عشر على مكانته بعد هذه القرارات أصدر البابا عدة منشورات يدين فيها حركة الحرية السياسية، والحرية الاقتصادية، على أنها تحمل مضامين تخالف الدين المسيحي.

- جاء القانون الذي أقرَّته الحكومة الفرنسيَّة ١٩٠٥م بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للشعب والملك والدستور المدني الجديد.

وقد امتدت هذه القرارات حتى شملت دول أوربا، لينتهي بذلك دور الكنيسة في محاولة السيطرة على السياسة، ولتنزوي داخل الجدران، لتمارس الوعظ والترانيم على الأنغام الموسيقية.

الكنيسة والماسونية:

- تنبه رجال الكنيسة إلى شرور الحركات السرية بعد أن رأوا أن معظم رجال تلك الحركات أعضاء في الجمعيَّات والأندية الماسونية، ويعتبر البابا تليمنوس الثاني عشر أول من تصدى لهم وكشف زيفهم في مؤتمر ٢٨/ ٤/١٧٣٨م ثم تبعه البابا بندكتوس الرابع عشر، والبابا بيوس السابع، والبابا أوربان الذي أصدر قرارًا بالبراءة من الماسونية.

- كان موقف البابا بيوس العاشر من أقوى تلك المواقف في التصدي للماسونية في العصر الحاضر وذلك بعد رفضه محاولة مؤسس الصهيونيَّة تيودر هرتزل عام ١٩٠٣م في كسب موافقة الفاتيكان للاستيطان في فلسطين، كما رفض مبدأ قيام دولة لليهود في فلسطين، والاستيلاء على القدس، إلا أن اليهود استطاعوا بعد تغلغلهم في النصرانيَّة تنصيب أحد عملائهم البابا بولس السادس الذي ما إن جلس على كرسي البابوية حتى غيَّر موقف الفاتيكان من الماسونية واليهود، حيث أعطى في ديسمبر ١٩٦٥م الحق للكهنة في إلغاء الحرمان عن الكاثوليك الذين انضموا إلى الماسونية؛ بل عقد مجمعًا في الفاتيكان ليعلن براءة اليهود من دم المسيح، ضاربًا بنصوص الكتاب المقدس وقرارات المجامع والباباوات السابقين له عرض الحائط متابعًا لرأي الكاردينال بيا اليهودي الأصل.

وقد عارضه في ذلك الكاردينال الكاثوليكي الفرنسي مارسيل ليفيفر بقوله: لقد زج المجمع المسكوني الكنيسة للثورة. ومن هذا الزواج السفاح لا يجيء غير أبناء الزنى...

وفي أثناء زيارة البابا بولس السادس للقدس عام ١٩٦٤م أعلن اعترافه بدولة اليهود في فلسطين المحتلة.

الكنيسة في خدمة الاستعمار الغربي:

- مع إقرار الكنيسة بفصل الدين عن السياسة داخل أوربا، فإن مجلس الكنائس العالمي يقرر في مؤتمر سالونيك باليونان عام ١٩٥٦م: أن السياسة هي المجال الذي يتحتم على الكنيسة في دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيَّة أن تعمل فيه، وأن على الكنائس أن تراقب خطط التنمية في تلك الدول لتميز بين ما يتفق مع إرادة الله -الزراعة والفلاحة فقط- وبين عمل الشيطان -الصناعة والتقدم العلمي- لتعلن للقوم أين يقف الله، ومن أين يطل الشيطان.

ويقرر في مؤتمر نيودلهي عام ١٩٦١م: إن على الكنيسة أن تكون متأهبة للصراع مع الدولة في أي وضع وتحت أي نظام سياسي.

وما ذلك إلا لتسخير تلك الشعوب ومقدراتها، وضمان تبعيتها باستمرار للمستعمر الغربي؛ حيث تشيع بينهم أن التقدم الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة سيأتي دائمًا معه بكثرة الخطايا والشرور.

بعث الأمة الكاثوليكيَّة:

البابا السابق للفاتيكان يوحنا بولس الثاني الكاردينال كارول البولندي الأصل الذي يتميز عن غيره بأنه رجل تنظيم وسياسة. ولذا فإنه يتبنى فكرة بعث الأمة الكاثوليكيَّة من خلال إيجاد حكومة عالمية أو إمبراطورية مقدسة، والتي لا تكون إلا من خلال تحقيق وحدة القارة المسيحيَّة الأوربية وبناء أوربا جديدة على القواعد النصرانيَّة، مما لا بد فيه من حدوث صراع سياسي ومالي وربما عسكري، وأن مهمة الفاتيكان فيه هو تهيئة الأجواء لكسب هذا الصراع الحتمي مع التجمعات

الأيدلوجية الأخرى.

والبابا متأثر في ذلك بأفكار حركة المنشأة الإلهية (Opos Dei) والقاضية بأنه بالحكم والمال وحدهما تتحقق الآمال، ويحدث التغيير.

كما راهن البابا يوحنا بولس الثاني على أن قارة أفريقيا ستصبح قارة نصرانية عام ٢٠٠٠م وفي سبيل ذلك فإنه كان يقوم بما يزيد على أربع رحلات سنويًا، ويحاول التقارب وإيجاد أرضية عمل مشترك مع الطوائف النصرانيَّة الأخرى رغم ما بينهم من خلافات جذرية.

- أعلنت لجنة الفاتيكان للعلاقات مع اليهود براءة جديدة لليهود من دم المسيح في ٢٤ يونيو ١٩٨٥م ونشرتها مجلة أوبسير فاتوري رومانو لسان حال الفاتيكان في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٨٥م، وذلك بناءً على توجيهات البابا يوحنا بولس الثاني.

كما دعت تلك الوثيقة إلى عدم اعتبار اليهود شعبًا منبوذًا أو معاديًا للمسيح. على أن المسيح نفسه كان يهوديًا وسيظل يهوديًا، ولذلك فهي تؤكد أيضًا أن أرض فلسطين المحتلة هي أرض أجداد اليهود، كما تدعو إلى ترك المفهوم التقليدي للشعب المعاقب كما في نظر النصرانيَّة؛ لأنه يبقى في النهاية الشعب المختار.

معتقدات وأفكار الكنيسة الكاثوليكيَّة:

١- **الألوهية:** تؤمن الكنيسة الكاثوليكيَّة مثل باقي الكنائس الأخرى بإله واحد مثلث الأقانيم: الأب، الابن، الروح القدس، على حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي لعام ٣٢٥م كما تؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد: إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية.

٢- **يؤمن الكاثوليك** بما أقر في مجمع القسطنطينيَّة الرابع عام ٨٦٩م من أن الروح القدس منبثق من الأب والابن معًا.

٣- **الأقانيم:** يعتقد الكاثوليك أن أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، وأن الأقانيم ما هي إلا مراحل انقلب فيها الله إلى الإنسان، ولذا فهي ذوات متميزة يساوي فيها المسيح الأب حسب لاهوته وهو دونه حسب ناسوته، كما ينص على ذلك قانون الإيمان الأثناسيوسي.

٤- **التجسد والفداء:** الإيمان بتجسُّد الله -تعالى عن قولهم- في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم وذريته من بعده، فيعتقدون أنه وُلد من مريم وصلب ومات فداءً لخطاياهم، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس على يمين الرب ليحاسب الخلائق يوم الحشر.

٥- **السيدة مريم والأيقونات:** يقدسون السيدة مريم والقديسين والقديسات، والأيقونات المجسمة والمصورة مع الإشادة بالمعجزات.

٦- **الإلهام:** تؤمن الكنيسة الكاثوليكيَّة بالإلهام كأحد مصادر المعرفة والوحي المستمرة.

٧- **الصليب:** يقدسون الصليب ويتخذونه شعارًا.

٨- الكتاب المقدس: تؤمن الكنيسة الكاثوليكيَّة بنصوص الكتاب المقدس وبما يتضمنه من التوراة وأسفار الأنبياء، وبالعهد الجديد ورسائل الرسل على ما أقر في مجمع نيقية الأول.

٩- أسرار الكنيسة: يؤمن الكاثوليك بممارسة سر الاعتراف مرة واحدة في السنة، وكذلك سر التناول في عيد الفصح، وكما يستعملون الفطير في العشاء الرباني بدلًا من الخبز المختمر، والمعمودية لا تتم إلا بالرش لا بالتغطيس ثلاثًا وتكون من الكاهن أو بالصبغة بدم الشهيد في سبيل الإيمان فقط، والمسح بالميرون المقدس يجوز تأخيره عن التعميد للقاصر حتى يبلغ سن الرشد، ولا يمسح بالزيت المقدس إلا لمن شارف على الموت، ويحرم الطلاق في جميع الأحوال حتى في حالات الزنى، وقد انفردت الكنيسة الكاثوليكيَّة بسر ثامن عن الكنائس الأخرى ألا وهو عصمة البابا عن ارتكاب المعاصي والآثام.

١٠- الحياة الأخرى: يعتقد الكاثوليك أنه يوجد بعد الموت مكان ثالث يسمى المطهر تُعتقل فيه النفوس التي لم تصل إلى درجة النقاوة الكاملة، وتظل تُعذَّب حتى تطهر بما بقي عليها من الدين للعدل الإلهي، وعندئذ يسمح لها بدخول الملكوت.

١١- خلق أفعال العباد: وأن كل ما خلقه الله تعالى حسن وإنما الشر من خلق العباد.

١٢- تبيح أكل الدم والمنخنقة على خلاف قرارات مجمع الرسل الأول في أورشليم ٥١-٥٥م ويجوز للرهبان أكل دهن الخنزير، ولبس الأساقفة الخواتم في أصابعهم، كما يجوز للكهنة حلق لحاهم على عكس الأرثوذكس.

١٣- القداس: القداس محور العبادة والحياة الروحية على أنه يقام يوميًا.

١٤- الصلاة: الصلاة الفردية أساسية في الدين على أن للصلاة طرقًا عديدة، وينبغي أن تقترن بشيء من التقشُّف.

١٥- الصوم المفروض: هو الصوم الكبير السابق لعيد الفصح، وجعل صوم الجمعة والسبت فقط عبارة عن الانقطاع عن أكل اللحوم. كما فرض أيضًا صوم الأزمنة الأربعة فيما يعرف بصوم البارامون (أي الاستعداد للاحتفالات) وهي السابقة لأعياد الميلاد، والعنصرة وانتقال العذراء وجميع القديسين.

ويوجد خلاف بين الكنيسة اللاتينيَّة وطوائف الكنيسة الكاثوليكيَّة الشرقيَّة في قواعد الصوم.

١٦- الطقوس: تتميز باستعمال اللغة اللاتينيَّة، والبخور، والصور، والتقويم الخاص بها.

وللكنيسة الكاثوليكيَّة عدة طقوس إلى جانب الطقوس الرومانية، هناك من يستعمل الطقوس الشرقيَّة مثل الروم الكاثوليك، جنوب إيطاليا، والموارنة والسريان الذين يتبعون الطقس الأنطاكي، وهناك كاثوليك أقباط وأحباش يستمسكون بالطقس القبطي.

١٧- التنظيم الكهنوتي «الإكليروس»: يدير البابا الكنيسة بواسطة كرادلة في روما ومطارنة في

جميع أنحاء العالم.

تنقسم الكنيسة عند الكاثوليك إلى أبروشيات على رأس كل أبروشية مطران يعينه البابا، وفي كل أبروشية عدة كنائس يديرها كهنة رعاة لخدمة أبناء الكنيسة.

١٨- البابا: كما تعتقد أن السيد المسيح أقام بطرس نائبًا على الأرض ورئيسًا على الرسل، ورأسًا للكنيسة، وعلى ذلك فالبابا في روما هو خليفة بطرس ورأس الكنيسة من بعده، ومرشدها الأعلى لجميع الكاثوليك في العالم.

ونظرًا لاعتقادهم بعصمة البابا؛ فإن المغفرة حق من حقوق الكنيسة تعطيها لمن تشاء.

١٩- الجماعات الدينيَّة المكونة من الرهبان والراهبات تخضع لبابا روما عن طريق رؤسائها الموجودين في روما.

٢٠- يدرس الكهنة قبل اضطلاعهم بمهمتهم العلوم الدينيَّة خمس أو ست سنوات ويدربون في معاهد دينية خاصة، ولا يتزوج رجال الدين إلا القليل منهم.

الأعداد وأماكن التواجد

تنتشر في أوربا: إيطاليا، فرنسا، لتوانيا، بولندا، سلوفاكيا، المجر، كرواتيا، بلجيكا، أسبانيا، البرتغال، أيرلندا، كندا الفرنسيَّة، أمريكا اللاتينيَّة، الفلبين، وجنوب شرق آسيا.

وهناك أقليات في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وهولندا، وألمانيا، وبعض دول أفريقيا.

يتضح مما سبق:

- إن المتأمل في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيَّة لَيجِد أنه كان لها دور كبير في أحداث تاريخ أوربا بمختلف مراحله.

- كان للصراع مع الحكام والملوك أثره في ظهور عقائد جديدة في الكنيسة لم تكن من قبل مثل: سمو مكانة البابوية والكنيسة الغربية، وعصمة البابا عن ارتكاب الآثام والمعاصي بزعم أن روح القدس ينطق من فِيهِ على ما أقر في مجمع روما عام ١٧٦٩م السر الثامن.

- ونظرًا لاتباع الهوى وترك التشريع للرجال والمجامع ظهر التضارب في آراء الكنيسة والانقسام في صفوفها، فما يُقر في مجمع يُنقض في آخر، وفي كلتا الحالتين يأخذ صفة الحكم الإلهي، ففي فترات سيطرة رجال الكنيسة على مقاليد الحكم تستند إلى أقوال القديس أغسطس القاضية بأن تخضع سلطة الدولة لسلطة الكنيسة التي تمثل مدينة الله.

وفي فترات الاضطهاد تظهر دعاوى فصل الدين عن الدولة مثلما جاء في رسالة هوزيوس أسقف قرطبة للإمبراطور قسطنطيوس عام ٣٥٥م: «أما من جهتك فينبغي ألا تجر على نفسك جريمة ارتكاب ذنب خطير، بأن تسعى لأن تتولى حكومة الكنيسة، فلتُعطِ ما لقيصر لقيصر، ولتجعل لله ما لله، فلا يجوز لنا أن نباشر سلطة دنيويَّة وليس لك أيها الإمبراطور الحق في أن تحرق البخور».

وهذا ما اعتقدته حركة الإصلاح الكلوانية أنه سبيل لإصلاح الكنيسة.

- انتشرت داخل الكنيسة كافة مظاهر الانحراف والفساد مثل السيمونية، ومخالفة القانون الكنسي، رغم دعاوى الرهبنة والعزوبة وحياة الزهد والتقشف التي فرضها القانون الكنسي، ولم تستثن أحدًا بدءًا من البابا حتى أصغر كاهن وراهب.

تقول القديسة كاترين السينائية في القرن الرابع عشر الميلادي: «إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو لم تر إلا شرًّا ورذيلة، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة، اتخذوا بطونهم إلهًا لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة، حيث يتمرغون في الأقذار، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور».

- كان للرهبانية أثرها البالغ على الأخلاق الأوربية، فانعدمت أخلاق الفتوة والمروءة التي أصبحت من المعايب والرذائل، كما هجر الناس البشاشة والسماحة والشجاعة. ومن أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم حياة الأسرة، فكثيرًا ما أصبحت الأمهات ثكلى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، بعد خطفهم من الرهبان، فأصبحوا يتكفَّفون الناس ويتوجهون إلى الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة. وكان الرهبان يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن، يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق العام والتحدث إليهن ولو كن أمهات أو زوجات أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية.

- على الرغم من الجوانب والآثار السلبية للحروب الصليبية وما تميزت به من قسوة ضد المخالفين سواء كانوا من نصارى أو مسلمين، إلا أنها كانت سببًا في انتقال المعارف الإسلاميَّة إلى أوربا.

تقول الكاتبة الألمانيَّة هونكة في شمس العرب تسطع على الغرب: «وكان للحروب الصليبية دور هام في تطور نظام الحصون وطرق الدفاع، أي في أوربا».

وتقول: «اختلط ملوك أوربا وأمراؤها بملوك الشرق وأمراء المسلمين في أثناء الحرب الصليبية، ورأوا بأعينهم أدباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم، لا سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي».

وتقول: «وفي مراكز العلم الأوربية لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومد يديه إلى الكنوز العربيَّة».

ومع ذلك لا تزال الصليبية على عهدها الأول يمنعها عن قبول الحق حواجز التقليد للآباء والأجداد والعقائد المتوارثة حتى لو شهدت الأدلة الساطعة على بطلانها.

- لم تقتصر محاكم التفتيش على المخالفين للكنيسة من النصارى فقط ولكنها طالت المسلمين أيضًا، ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد سقوط الأندلس ذبحوا وأحرقوا ما يزيد على ٣١ ألفًا من المسلمين ولم يتركوا مسلمًا على قيد الحياة أو غير منفي.

وبعد استقلال اليونان عن الدولة العثمانية أباد النصارى شعب موريا المسلم عن أخره، بل ودمروا المساجد، وما فعله الأسقف مكاريوس بمسلمي قبرص، والمتعصب جوليوس نيريري بمسلمي زنجبار منا ببعيد.

- تنتقد دائرة المعارف البريطانية دعوى الإلهام التي ما زالت تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكيَّة على أنها أحد مصادر المعرفة والوحي بقولها في المجلد الحادي عشر: "إن كل قول مندرج في الكتب المقدَّسة ليس إلهاميًا".

وهو ما أيده جيروم وكرتيس وبمركوبيس وغيرهم من علماء النصرانيَّة في القرن الثاني الميلادي إذ قالوا: «إن الذين يقولون: إن كل مندرج في الأناجيل إلهامي لا يقدرون على إثبات صحة دعواهم».

وهو ما أكدته دائرة المعارف الفرنسيَّة في المجلد السابع من أن: «هؤلاء الحواريين أصحاب المسيح ما كان يرى بعضهم بعضًا صاحب وحي كما يظهر في مباحثاتهم في محفل أورشليم».

- وكما جنت الكنيسة على الديانة النصرانيَّة بإدخال العقائد الوثنية، علاوة على التبديل والتحريف الذي لحق بالنصرانيَّة وكتابها، جنت أيضًا عليها وعلى الإنسانية بمحاربتها للعلم والعلماء باسم الدين. وظهور الفساد داخل الكنيسة، مما دفع الأفكار الإلحادية المناوئة للدين إلى الظهور تحت ستار المناداة بحرية الفكر، وحرية اختيار المذاهب الاعتقادية ولو كانت إلحادية، وبالتالي ظهرت الدعوات إلى الإلحاد والعلمانيَّة بمذاهبها المختلفة.

يقول فولتير في كتابه مقبرة التعصب: «ينبغي أن يخضع القسس للحكومة؛ لأنهم أفراد من الرعية التابعة للدولة».

ونتيجة لحرية الفكر والقضاء على رقابة الكنيسة تم بعث التراث الفلسفي اليوناني، سواء المترجم بالعربيَّة أو اليونانيَّة، وظهرت المذاهب الماديَّة الإلحادية والفلاسفة الماديين أمثال برتراندراسل، هيجل، وأنجلز، وكثرت مؤلفاتهم التي تدعو إلى القضاء على الدين.

يقول ديدرو هلباخ، وريتال في الأنسكلوبيديا: «إن الشرائع والأديان هي العوائق التي تحول دون حصول الإنسان على السعادة، فيجب عليه محوها ليرجع إلى الطبيعة».

- إن النصرانيَّة التي يتبناها الفاتيكان اليوم هي النصرانيَّة السياسية التي تريد ربط دول آسيا وأفريقيا بعجلة الغرب عن طريق نشر النصرانيَّة بينهم، وخلق جملة من الأفكار النصرانيَّة التي تقف أمام الإسلام والمسلمين في جميع الميادين. وفي سبيل ذلك تقاربت طوائف النصرانيَّة واليهوديَّة للحد من مارد الإسلام الذي بدأ يصحو من جديد.

- يقول رازينجر منظر السياسة في الفاتيكان: «من يبحث عن حل خارج الكنيسة في عصرنا الحدث ليس إلا واحد من اثنين: العودة إلى عصر ما قبل المسيح؛ أرسطو وأمثاله، التعلق بثقافة غير أوربية من جهة وبالإسلام من جهة أخرى، وبما أن الاحتمال الأول ليس له إمكانية الحياة،

فيبقى الاحتمال الثاني -الإسلام- فعلينا أن نحذر الإسلام أكثر بكثير مما مضى، فهو اليوم يعود من أعماق التاريخ ليقدم بديلًا عن نظامنا المشبع بالنصرانيَّة».

ويقول في أهمية وجود أندية لملء الفراغ الأيدلوجي لسقوط الشيوعية: «إن حدوث الفراغ الأيدلوجي في الثقافة العالمية بما يعني الانفتاح على الثقافات الأخرى بما فيها من مثل وقيم ومبادئ، وإن البقاء على التقليدية الكنسية السابقة، وما لقيصر لقيصر، ولا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، سيترك الأبواب مفتوحة على مصراعيها لدخول الإسلام».

ولذلك عملت الكنيسة على تجنيد السياسة والإعلام الأوربي، وتوجيه عموم الشعب، نحو خصم جديد -الإسلام- ويتضح ذلك من ردود فعل رجال السياسة الأوربيين وتصريحاتهم حول رواية سلمان رشدي وغيره، ومن الحملات الإعلامية حول الأصولية والإرهاب[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٠٠- ٦١٤).

الفصل الثالث

البروتستانت

التعريف:

فرقة من النصرانيَّة، احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتيَّة حيث يعترضون (Protest) على كل أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم.

وتسمى بالإنجيلية أيضًا حيث يتبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أن لكل قادر الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسئولون أمامه.

التاريخ والأحداث

الكنبسة البروتستانتيَّة حركة إصلاحية، بدأت في الكنيسة الكاثوليكيَّة في القرن السادس عشر متأثرة بدعوات الإصلاح السابقة لها، ومن ثَمَّ تحولت من حركة إصلاحية داخل الكنيسة إلى حركة عقائدية مستقلة ومناهضة لها، ومن أبرز المؤسسين: مارتن لوثر، والروخ هولدريخ زوينجلي، وجون كالفن.

مارتن لوثر:

ولد لوثر سنة ١٤٨٣م في ألمانيا، وعاش في بيئة نصرانية تشيع فيها الخرافات والمعتقدات الزائفة.

وفي عام ١٥٠٥م نال شهادة أستاذ في العلوم من جامعة إيرمورت ولكنه لم يُتم دراسته القانونية وتحول بعدها إلي الدراسات اللاهوتية، فدخل إلى دير الرهبان الأوغسطنين.

في عام ١٥٠٧م عُين قسيسًا لرعاية كنيسة كنتبرج بألمانيا.

في عام ١٥١٠م دفعته نزعته الدينيَّة وإخلاصه للكنيسة ورجالها إلى أن يحج إلي روما ليتبرك بالمقر الرسولي في روما، حيث منَّى نفسه برؤية القديسين والزهاد من الرهبان والكرادلة. ولكن ما إن حل في روما حتى هاله ما رأى من دعاوى: غفران الذنوب، وامتلاك سر التوبة، وحق منح صكوك الغفران، وتفشّي مظاهر الفساد والانحلال الخلقي في الطبقات العليا من الكنيسة بوجه أخص.

ومن ثم عاد إلى ألمانيا خائبًا رجاؤه، ومستنكرًا ما رأى، وأصبح منشغلًا بوضع خطة لإصلاح الكنيسة.

في عام ١٥١٧م أرسل البابا ليو العاشر مندوبه الراهب حنا تتزل لبيع صكوك الغفران في ألمانيا، فما أن يعلن عنها ويبالغ في أمرها حتى ثار عليه لوثر، وكتب في معارضته وثيقَته الشهيرة التي تتضمن خمسة وتسعين مبدأ في معارضة الكنيسة وعلقها على باب كنيسة القلعة.

في الوقت الذي نشط في تأليف الكتب التي تعلن مبادئه، والتي أصبحت حديث الطبقة المتعلمة في ألمانيا مما زاد في التفاف الناس حوله، ولهذا كله أصدر البابا قرارًا بحرمانه في عام ١٥٢٠م.

عندما تلقي لوثر القرار بحرمانه، قام بتحريض من بعض الأمراء الألمان من أصحاب دعوى الانفصال عن الإمبراطورية بحرقِهِ في وسط الجموع الحاشدة في وتنبرج، التي أصبحت جامعتها المهد الأساسي للتعاليم اللوثرية في ألمانيا.

في عام ١٥٢٠م بعد ما أظهر مارتن لوثر تأييدًا للنزعة القومية في الدولة الألمانيَّة في تولي إدارة كنيستها، عقدت الكنيسة في روما مجمعًا قضى بمحاكمة لوثر أمام محكمة التفتيش لكنه هرب إلى قلعة وارتبورج، وفيها ترجم العهد الجديد إلى الألمانيَّة، ثم شرع في ترجمة الكتاب المقدس كله، لكنه لم يتمه وعاد إلى وتنبرج مرة أخرى.

في عام ١٥٢٩م أراد الإمبراطور تنفيذ قرارات الحرمان ضد مارتن لوثر، فأعلن حكام الولايات الإنجيلية في ألمانيا في مجلس سبير في ١٩ نسيان أنهم مستعدون لطاعة أوامر الإمبراطور والمجلس في كل القضايا الواجبة إلا التي تتعارض مع الكتاب المقدس أو التي لا يوجد لها نص فيه، وبالتالي رفضوا تسليم لوثر لمندوبي الإمبراطور.

عندما رأى لوثر صعوبة تحقيق دعوة الإصلاح الكَنَسِيّ كرَّس كل جهده لقضايا الإيمان في الكنائس الإنجيلية الناشئة.

توفي لوثر في بلدة وتنبرج عام ١٥٤٦م مخلِّفًا مجموعة من الكتب والمؤلفات التي تؤصِّل قواعد دعوته.

الروخ هولدريخ زوينجلي:

ولد سنة ١٤٨٤م في سويسرا ونشأ بها، وأصبح قسيسًا وأحد دعاة حركة الإنسانية التي بدأت مع عصر النهضة الأوربية.

دعا إلى نفس المبادئ التي دعا إليها مارتن لوثر، وبدأ دعوته في زيوريخ بسويسرا، وقد قاوم استعمال الطقوس والصور والتماثيل في الكنائس كما عارض فكرة عزوبة رجال الأكليروس، وحبذ المسئولية الفردية في المعتقد.

لاقت دعوة زوينجلي التأييد من السلطات الحكومية في مدينة زيوريخ، فشاعت لذلك دعوته وأصبح زعيمًا للبروتستانت في جنوب ألمانيا ومعظم سويسرا.

في عام ١٥٢٩م وفي مدينة ماربورج التقى زوينجلي بمارتن لوثر وتناقشا حول إصلاح الكنيسة واختلفا حول فرضية أو سر العشاء الرباني، كما اختلفا في أسلوب معارضة الكنيسة الكاثوليكيَّة، حيث استخدم زوينجلي القوة في سبيل نشر مبادئه ابتداءً من الحظر التجاري الذي فرضه على بعض المقاطعات الكاثوليكيَّة في شرقي سويسرا، حتى القتال والصدام مع رجال الكنيسة الذي قُتل فيه وهُزم أتباعه في كابيل عام ١٥٣١م.

ذابت تعاليم زوينجلي في تعاليم جون كالفن التي ارتكز في بعضها على عقيدته.

جون كالفن:

ولد سنة ١٥٠٩م في فرنسا ونشأ بها، وتثقف بثقافة قانونية لكنه مال عنها إلى الدراسة اللاهوتية، فتأثر بآراء مارتن لوثر دون أن يقابله بواسطة بعض أقاربه وبعض أساتذته.

شارك في إعداد خطاب ألقاه نيكولاس كوب مدير جامعة السربون بفرنسا التي كانت مركزًا لأكثر علماء الكاثوليكيَّة، والذي تضمن شرحًا لآراء مارتن لوثر؛ مما أغضب آباء الكنيسة عليه فاضطر إلى الهرب إلى جنيف في سويسرا.

بعد أن عاد في الحادي والعشرين من مايو ١٥٣٤م إلى مدينة نويون مسقط رأسه سلّم كهنةَ كاتدرائيتها كل شارات الامتياز الأكليريكية الخاصة به، ثم هرب بصحبة نيكولاس كوب إلى جنيف في سويسرا مرة أخرى.

في عام ١٥٣٥م شارك كلفن في حوار دعا إليه المبشرون المصلحون مع الأساقفة الكاثوليك في المدينة الذي انتهى بانسحاب الكاثوليك، مما مكن دي فاريل صديق كلفن الحميم من الاستيلاء على الكنائس الرئيسية الثلاثة في المدينة: كنيسة سان بيتر، المجدلية، سان جرفيز؛ وتحويلها إلى كنائس إنجيلية أو بروتستانتيَّة.

استغل كلفن استقراره في جنيف في تنظيم وتقنين مبادئ زعماء الإصلاح وعلى رأسهم مارتن لوثر، وظهرت له مؤلفات وكتابات عديدة في ذلك، ولذلك فإنه يعد أحد مؤسسي المذهب البروتستانتي.

خالف كالفن لوثر في سر -فرضية- العشاء الرباني من حيث كيفية حضور المسيح العشاء رغم اتفاقهما على عدم استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح.

عدل كلفن عن فكرة لوثر في إشراف الحكومة على الكنائس، لما رأى ما يحدث للبروتستانت في فرنسا، وطالب بأن تحكم الكنيسة نفسها بنفسها، وعلى الحاكم المدني أن يساعدها ويحميها، مما كان سببًا في انقسام الكنيسة الإنجيلية إلى لوثرية وكلفينية (الإصلاحية - الكلفينية).

تميزت حركته بالانتشار في فرنسا، فأصبحت الدين الرسمي في اسكتلندا كما امتدت إلى المقاطعات شرق سويسرا، واعتنقها معظم سكان المجر، يقول فيشر: «أصبحت أكثر أشكال الإصلاح البروتستاني اتساعًا».

تأسست جمهورية هولندا عام ١٦٦٩م على مبادئ البروتستانت الكليفنية بعد الحرب الدامية بين الكاثوليك والبروتستانت.

ومات جون كالفن سنة ١٥٦٤م.

ونتيجةً للحرية الفردية في فهم وتفسير الكتاب المقدس لكل فرد من المؤمنين بالمذهب

البروتستانتي انقسمت الحركة البروتستانتيَّة إلى كنائس عديدة، وطوائف مختلفة، ففي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحدها حسب إحصائيات عام ١٩٨٢م يوجد ٧٦ ,٧٥٤ ,٠٠٩ بروتستانتي ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة إنجيلية.

ومن أهم الكنائس البروتستانتيَّة:

الكنيسة اللوثرية

- وقد بدأ إطلاق هذه التسمية على المؤمنين بأفكار معتقدات مارتن لوثر في القرن السادس عشر وذلك رغم مقاومة لوثر نفسه لهذه التسمية، وأصبحت جامعة وتنبرج المهد الأساسي لها.

- اهتم مارتن لوثر بقضايا الإيمان، وترك الأمر الإداري للكنيسة لغيره يقوم به، لكنه عيَّن بعض المراقبين ليتعاونوا مع حكام الدولة في الأقضية، وبذلك كان أول ظهور لنظام السينودس.

- ارتبطت اللوثرية في ألمانيا ارتباطًا وثيقًا بالحالة السياسية منذ أن دعا لوثر إلى إشراف الدولة على الكنيسة، ولذلك فإن الحكومة الألمانيَّة تدخلت أكثر من مرة لحل الخلافات بين أعضاء الكنيسة أو للاتفاق مع كنائس المصلحة.

- كان لظهور الكنائس المعمدانية في القرن السابع عشر أثرها في إثارة الخلافات بين البروتستانت مرة أخرى.

- في زمن فريدريك وليم الثالث ملك بروسيا تم الاتحاد بين الكنائس اللوثرية والمصلحة، ومنها تشكلت الكنيسة القديمة، غير أن جماعة كبيرة من اللوثرية لم تنضم إلى هذه الكنيسة وعرفوا باللوثريين القدماء.

- في عام ١٩٢٣م تأثرت الكنيسة بالنظام النازي في ألمانيا حيث حاول صبغ الكنيسة الألمانيَّة بصبغة قومية، فجرى توحيد ٢٨ كنيسة مصلحة ولوثرية على أساس أن الدم الآري أحد المؤهلات العضوية لهذه الكنيسة القومية العنصرية.

وقد تناول هذا التأثير العقائد والمبادئ أيضًا، مما مهَّد لقيام ثورة من آلاف القسوس البروتستانت من بينهم مارتن تيمولر للمطالبة بتشكيل السينودس الذهبي.

- في عام ١٩٣٤م عارض السينودس الذهبي تدخل الدولة في شئون الكنيسة بل رفض ذلك رفضًا حاسمًا.

- في عام ١٩٣٥م أنشأت الحكومة وظيفة وزير الدولة للشئون الكنسية، وخوَّلت له سلطات مطلقة على الكنيسة الإنجيلية الألمانيَّة.

- انتشرت في عام ١٩٣٦م حركة الإيمان الألماني التي تحالفت مع الفلسفة الوثنية الجديدة.

- بعد الحرب العالمية الثانية ألغت الكنيسة الإنجيلية دستورها المُوصَى به من النازية لعام ١٩٣٣م، وبدأت تنظيم نفسها من جديد.

- والكنيسة اللوثرية هي كنيسة الدولة في الدنمارك وأيسلندا والنرويج والسويد وفنلندا.

- يصدر الاتحاد اللوثري العالمي مجلة اللوثرية العالمية بالألمانيَّة والإنجليزية.

الكنائس المصلحة

وإن كان يُقصد بها بوجه عام جميع الكنائس البروتستانتيَّة؛ إلا أنه من الناحية التاريخية تقتصر على الكنائس البروتستانتيَّة التي يرتكز أصلها على عقائد كلفن، وعلى أساس النظام الكنسي المشيخي الذي تركَّز فيه السلطات على سلسلة مجالس من الشيوخ العلمانيين ورجال الأكليروس، وتنزع إلى الشكل البسيط في العبادة.

وقد قويت هذه الكنائس في إنجلترا في القرن السادس عشر وخصوصًا في اسكتلندا وشمال أيرلندا، وسميت كنائس سويسرا وهولندا وعدد من كنائس ألمانيا بالمصلحة، كما توجد بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة كنائس تحمل لقب المصلحة.

الكنائس الأسقفية

تطلق الكنيسة الأسقفية عند الإطلاق على الكنيسة الإنجليزية ويتبعها في أمريكا عدد من الكنائس الأسقفية، وتتبع هذه الكنائس النظام الأسقفي على أنه نظام إلهي خلافًا لسائر الفرق البروتستانتيَّة، وذلك في تعيين أو اختيار أو عزل القساوسة، والشمامسة، أو تدشين الأراضي والأبنية الدينيَّة، وإدارة تركات الموتى لحين وجود وصي شرعي للميت.

ويلقب أساقفة إنجلترا بلقب لورد حيث يُعتَبرون من أشراف المملكة، ويرأس ملوك إنجلترا الكنيسة الإنجليزية، وبذلك يعينون الأساقفة الذين يتم انتخابهم من القسوس بعد ذلك، ورئيس أساقفة كانتربري هو رأس الكنيسة، ويليه في المرتبة رئيس أساقفة يورك، أما أساقفة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة فينتخبهم نواب من قسوس الأسقفية وأهاليها قبل عرضهم على مجمع الأساقفة أو على مجمع نواب مؤلف من السينودس والأهالي.

الصهيونيَّة المسيحيَّة

كان لليهود المهاجرين من أسبانيا إلى أوربا وبخاصة فرنسا وهولندا أثرهم البالغ في تسرب الأفكار اليهوديَّة إلى النصرانيَّة من خلال حركة الإصلاح، وبخاصة الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وأنهم الأمة المفضلة، كذلك أحقيتهم في ميراث الأرض المباركة.

- في عام ١٥٢٣م أصدر مارتن لوثر كتاب عيسى وُلِد يهوديًا متأثرًا فيه بالأفكار الصهيونيَّة.

- وفي عام ١٥٤٤م أصدر لوثر كتابًا آخر فيما يتعلق باليهود وأكاذيبهم.

- كانت هزيمة القوات الكاثوليكيَّة وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتيَّة الكالفينية عام ١٦٠٩م بمثابة انطلاقة للحركة الصهيونيَّة المسيحيَّة في أوربا، مما ساعد على ظهور جمعيَّات وكنائس وأحزاب سياسية عملت جميعًا على تمكين اليهود من إقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

ومن أبرز هذه الحركات: الحركة البيوريتانية التطهيرية التي تأسست على المبادئ الكالفينية بزعامة السياسي البريطاني أوليفر كروميل ١٦٤٩-١٦٥٩م الذي دعا حكومته إلى حمل شرف إعادة إسرائيل إلى أرض أجدادهم حسب زعمه.

- في عام ١٨٠٧م أنشئت في إنجلترا جمعيَّة لندن لتعزيز اليهوديَّة بين النصارى وقد أطلق أنطوني إشلي كوبر اللورد ريرل شانتسبري ١٨٠١-١٨٨٥م، أحد كبار زعمائها شعار: «وطن بلا شعب لشعب بلا وطن» الأمر الذي أدى إلى أن يكون أول نائب لقنصل بريطانيا في القدس وليم برنج أحد أتباعها، ويعتبر اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ١٧٨٤-١٨٦٥م من أكبر المتعاطفين مع أفكار تلك المدرسة الصهيونيَّة المسيحيَّة وأيضًا فإن تشارلز. هـ. تشرشل الجد الأعلى لونستون تشرشل - رئيس الحكومة البريطانية الأسبق - أحدُ كبار أنصارها.

- انتقلت الصهيونيَّة المسيحيَّة إلى أمريكا من خلال الهجرات المبكرة لأنصارها نتيجة للاضطهاد الكاثوليكي، وقد استطاعت تأسيس عدة كنائس هناك من أشهرها الكنيسة المورمونية.

- يعتبر سايسروس سكلوفليد ١٨٤٣م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحيَّة في أمريكا.

- لعبت تلك الكنائس دورًا هامًّا في تمكين اليهود من احتلال فلسطين واستمرار دعم الحكومات الأمريكيَّة لهم -إلا ما ندر- من خلال العديد من اللجان والمنظمات والأحزاب التي أنشئت من أجل ذلك ومن أبرزها: الفيدرالية الأمريكيَّة المؤيدة لفلسطين التي أسسها القس تشارلز راسل عام ١٩٣٠م، واللجنة الفلسطينيَّة الأمريكيَّة التي أسسها في عام ١٩٣٢م السناتور روبرت واضر، وضمَّت ٦٨ عضوًا من مجلس الشيوخ، و٢٠٠ عضوًا من مجلس النواب وعدد من رجال الدين الإنجيليين، ورفعت هذه المنظمات شعارات: الأرض الموعودة، والشعب المختار.

- وفي العصر الحديث تعد الطائفة التدبيرية التي يبلغ عدد أتباعها ٤٠ مليون نسمة تقريبًا والمعروفة باسم الأنجلو ساكسون، البروتستانت البيض من أكثر الطوائف مغالاة في تأييد الصهيونيَّة، وفي التأثير على السياسة الأمريكيَّة في العصر الحاضر.

ومن أشهر رجالها اللاهوتيين: بيل جراهام، وجيري فولويل، جيمي سويجارت. ومن أبرز رجالها السياسيين الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان.

- اهتمت الكنيسة البروتستانتيَّة بنشر الإنجيل في أوربا وأمريكا منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم تطور عملها في شكل منظمات وإرساليات، ووضعت اللوائح والقوانين المنظمة لها وكذلك الميزانيات اللازمة.

ومن ثم انتقل العمل التبشيري البروتستانتي إلى القارتين الأفريقية والآسيوية، وبخاصة التي كانت تستعمرها الدول الغربية ذات العقيدة البروتستانتيَّة.

ومن أوائل الذين قادوا حركة التبشير: جوف وسلي، ووليام ولبرفورس، ووليام كيري، أبو المبشرين في العصر الحديث.

معتقدات وأفكار الكنيسة البروتستانتيَّة

تؤمن الكنائس البروتستانتيَّة بنفس أصول المعتقدات التي تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكيَّة، ولكنها تخالفها في بعض الأمور، ومنها ما يلي:

١- الخضوع لنصوص الكتاب المقدس وحده، حيث إن الكتاب المقدس بعهديه هو دستور الإيمان وعليه تقاس قرارات المجامع السابقة وأوامر الكنيسة؛ فيقبل ما يوافقه فقط، يقول لوثر: «يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر».

وعدد أسفار العهد القديم عند البروتسانت ستة وستون سفرًا وهي الأسفار القانونية، أما باقي الأسفار وعددها أربعة عشر، فتسميها الأبوكريفيا أي غير الصحيحة فلا تعترف بها.

٢- لا تؤمن الكنائس البروتستانتيَّة بعصمة البابا أو رجال الدين، وتهاجم بيع صكوك الغفران حيث ترى أن الخلاص والفوز في الآخرة لا يكون إلا برحمة الله وكرمه وفي الدنيا في الالتزام بالفرائض والكرازة - التبشير بالإنجيل.

٣- إن القديسين لقب يمكن أن يوصف به كل إنسان نصراني؛ حيث إن القداسة في فهمهم ليست في ذات الشخص ولكنها مقام يصل إليه.

٤- ترفض البروتستانتيَّة مرتبة الكهنوت حيث إن جميع المؤمنين بها كهنة، وليس هناك وسيط ولا شفيع بين الله والإنسان سوى شخص المسيح؛ لأنه جاء في معتقدهم رئيسًا للكهنة، كما لا تؤمن بالبخور والهيكل.

٥- تؤمن بسرين فقط من أسرار -فروض- الكنيسة وهما سرّا: المعمودية، والعشاء الرباني، على خلاف بينهم في كيفية حضور المسيح سر العشاء.

٦- لا تؤمن بالصوم كفريضة بل هو سنة حسنة، ولا يطلق إلا على الإمساك عن الطعام مطلقًا فقط.

٧- الصلاة ليس لها مقدار محدد، كما أنه ليس من الحتم الالتزام بحرفية الصلاة الربانية؛ ولذلك يجيزون الصلاة بلغة غير مفهومة كاللاتينيَّة التي تستعملها الكنائس الكاثوليكيَّة.

٨- لا تؤمن بالأعياد التي تقيمها الكنائس الأخرى.

٩- لا تؤمن الكنيسة البروتستانتيَّة بنظام الرهبنة.

١٠- الكهنوت درجتان فقط هما: القسوسية، الشمامسة، الراعي هو الأسقف، والرئاسة تكون بمجمع السنودس لا لفرد.

١١- منع البروتستانت اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها، معتقدين أن ذلك منهي عنه في التوراة.

١٢- تؤمن بعض الكنائس الإنجيلية -الصهيونيَّة- أن شرط المجيء الثاني للمسيح هو إقامة دولة

إسرائيل في فلسطين.

الأعداد وأماكن التواجد

تنتشر الكنائس البروتستانتيَّة في: ألمانيا، هولندا، بريطانيا، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، سويسرا، الدنمارك، وتوجد أقليات بروتستانتيَّة في باقي الدول الأخرى.

يتضح مما سبق:

- لا تختلف الكنائس البروتستانتيَّة عن باقي الكنائس النصرانيَّة سواء في الإيمان بإله واحد مثلث الأقانيم الأب، الابن، الروح القدس، تثليث في وحدة، أو وحدة في تثليث، حسب افترائهم.

- أو في الإيمان في عقيدة الصلب والفداء وتقديس الصليب.

- كانت لحركات الإصلاح البروتستانتيَّة الأثر الكبير في كشف عورات الكنيسة الكاثوليكيَّة، وفي فضح سلوك القائمين عليها.

كما أنها أفسحت المجال أمام العلماء والمفكرين وعامة المؤمنين بالكنيسة في حق فهم الكتاب المقدس، وبالتالي كسرت احتكار رجال الدين لهذا الأمر، مع ما نشأ عن ذلك من آثار سلبية عديدة على النصرانيَّة بوجه عام وعلى الكتاب المقدس بوجه خاص، حيث تعرض للنقد الشديد والتشكيك في صحة نصوصه.

- مع أن البروتستانت قرروا حرية البحث والنظر في الأمور الاعتقادية، إلا أنهم حرمُّوها فيما بعد كالكاثوليك، بل أصبحت حرية الفكر عندهم مقتصرة فقط على نقد رجال الكنيسة الكاثوليكيَّة؛ فقد عذبوا رجالًا من أجل عقائدهم مثل سرفيتوس الأسباني، ومنعوا كتبًا من النشر؛ لأنها تحوي في نظرهم ما لا يتفق وتعاليم الكتاب المقدس.

يقول هربرت فيشر في أصول التاريخ الأوربي الحديث عن لوثر: «لم يكن يؤمن بالبحث الحر ولا بالتسامح».

وينقل غوستاف لوبون في كتابه روح الثورات والثورة الفرنسيَّة تصريحًا للوثر بأنه لا يجوز للنصارى أن يتبعوا غير ما جاء في الكتاب المقدس.

وعن موقف حركة الإصلاح الديني من العلم، يقول أ. وولف في كتابه عرض تاريخي للفلسفة والعلم: «أما من حيث حركة الإصلاح الديني فإن المصلحين كانوا لا يقلُّون تعصبًا عن رجال الكنيسة الكاثوليكيَّة إن لم يزيدوا عليها». ولذلك فإنهم هاجموا النظريات العلميَّة واضطهدوا من يقول بها، ويقول كلفن بعد أن أعلن كفر من يقول بدوران الأرض: «مَن مِن الناس يجرؤ على أن يضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطة الروح القدس؟».

لم يكن اضطهاد العلماء في تلك الفترة بأقل من اضطهاد الفلاسفة؛ فكما حاربت البروتسانتية النظريات العلميَّة المخالفة لنصوص الكتاب المقدس، كذلك حاربت العقل واضطهدت الفلاسفة

أمثال آرازموس الذي حاول التوفيق بين العقل والكتاب المقدس.

يذكر ديورانت في قصة الحضارة تصريحات للوثر تبين تطرفه في إنكار العقل حيث يقول: «أنت لا تستطيع أن تقبل كلًّا من الإنجيل والعقل، فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر»، ويقول: «إن العقل أكبر عدو للدين».

- نتيجة للحروب بين الكنيستين البروتستانتيَّة والكاثوليكيَّة، واضطهاد العلماء وقتلهم، وقتل الروح العلميَّة والفكريَّة، وتطرُّف زعماء حركة الإصلاح البروتستانتي في ذم العقل، أدى ذل كله إلى ظهور الأفكار المناوئة للدين، وتعالت الصيحات الإلحادية التي تطالب بحرية الفكر وسيادة العقل، واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة، وأيضًا المناداة بفصل الدين عن الدولة.

- استطاع اليهود تهويد بعض الكنائس البروتستانتيَّة، وتسريب الأفكار الصهيونيَّة، وإنشاء أحزاب وكنائس تتبناها وتدعو إليها من خلال ما يعرف بالصهيونيَّة المسيحيَّة.

وللحقِّ فإن هناك من داخل الكنيسة الإنجيلية في أمريكا مَنْ وقف لهم بالمرصاد مثل: المجلس الوطني للكنائس المسيحي، الذي يضم ٣٤ طائفة يبلغ عدد أتباعها نحو الأربعين مليون شخص.

وتتعاطف الكنائس الإنجيلية: المشيخية، المنهجية، المعمدانية، الأسقفية، بنسب متفاوتة مع هذا الاتجاه[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦١٥- ٦٢٥).

الفصل الرابع

المارونيَّة

التعريف:

المارونيَّة: طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، قالوا بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، ينتسبون إلى القديس مارون ويعرفون باسم الموارنة متخذين من لبنان مركزًا لهم.

التاريخ والأحداث

تنتسب هذه الطائفة إلى القديس مارون الذي انعزل في الجبال والوديان مما جذب الناس إليه مشكِّلين طائفة عرفت باسمه، وكانت حياته في أواخر القرن الرابع الميلادي فيما كان موته حوالي سنة ٤١٠م بين أنطاكية وقورس.

- وقع خلاف شديد بين أتباع مارون وبين كنيسة الروم الأرثوذكس مما اضطرهم إلى الرحيل عن أنطاكية إلى قلعة المضيق قرب أفاميا على نهر العاصي مشيدين هناك ديرًا يحمل اسم القديس مارون.

- وقع كذلك خلاف آخر في المكان الجديد بينهم وبين اليعاقبة الأرثوذكس من أصحاب الطبيعة الواحدة عام ٥١٧م مما أسفر عن تهديم ديرهم فضلًا عن مقتل ٣٥٠ راهبًا من رهبانهم.

- خلال فترة الرحيل نالهم عطف الإمبراطور مرقيانوس الذي وسّع لهم الدير عام ٤٥٢م. وعطف الإمبراطور يوستغيان الكبير ٥٢٧-٥٦٥م الذي أعاد بناء ديرهم بعد تهديم اليعاقبة له. وكذلك عطف الإمبراطور هرقل الذي زارهم سنة ٦٢٨م بعد انتصاره على الفرس.

- احتكم الموارنة واليعاقبة عام ٦٥٩م إلى معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- لإنهاء الخلاف بينهم، لكن الخصومة استمرت، إذ حدثت حروب انتقامية بين الطرفين مما أسفر عن هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان وهو المكان الذي أصبح موطنًا لهم فيما بعد.

المارونيَّة الحديثة

ظهر في موطنهم الجديد بلبنان القديس يوحنا مارون الذي يعتبر صاحب المارونيَّة الحديثة ومقنن نظريتها ومعتقدها، وتتلخص سيرة حياته فيما يلي:

- ولد في سروم قرب أنطاكية، وتلقى دراسته في القسطنطينيَّة.

- عين أسقفًا على البترون على الساحل الشمالي من لبنان.

- أظهر معتقد الموارنة سنة ٦٦٧م الذي يقول بأن في المسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

- لم تقبل الكنائس النصرانيَّة هذا الرأي، فدعوا إلى مجمع القسطنطينيَّة الثالث الذي عقد سنة ٦٨٠م وقد حضره ٢٨٦ أسقفًا وقرروا فيه رفض هذه العقيدة وحرمان أصحابها ولعنهم وطردهم وتكفير كل من يذهب مذهبهم.

- يعد يوحنا مارون أول بطريرك لطائفة الموارنة وبه يبدأ عهد البطاركة المارونيين.

- تصدى بجيش من الموارنة لجيش قاده يوستنيان الثاني الذي أراد هدم معابدهم واستئصالهم إلا أن الموارنة هزموه في أميون مما أظهر أمرهم كأمة جبلية ذات شخصية مستقلة.

- لقد تحايلت كنيسة روما بعد ذلك عليهم في سبيل تقريبهم منها حيث قام البطريرك الماروني أرميا العمشيتي بزيارة لروما حوالي سنة ١١١٣م وعند عودته أدخل بعض التعديلات في خدمة القداس وطقوس العبادة وسيامة الكهنة.

- ولقد زاد التقارب بينهما حتى بلغ في عام ١١٨٢م إعلان طاعتهم للكنيسة البابوية، أما في عام ١٧٣٦م فقد بلغ التقارب حد الاتحاد الكامل معها فأصبحت الكنيسة المارونيَّة بذلك من الكنائس الأثيرة لدى باباوات روما.

المارونيون والصليبيون

لقد كان لهم دور بارز في خدمة الصليبيين من خلال تقديمهم أدلاء لإرشاد الحملة الصليبية الأولى إلى الطرق والمعابر، وكذلك إرسالهم فرقة من النشابة المتطوعة إلى مملكة بيت المقدس.

- لقد بلغ رجالهم القادرون على القتال ٤٠ ٠٠٠, على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية.

- احتل الموارنة في الممالك التي شيدها الصليبيون المرتبة الأولى بين الطوائف النصرانيَّة متمتعين بالحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الفرنجة كحق ملكية الأرض في مملكة بيت المقدس.

- لويس التاسع كان أول صديق فرنسي لهم، إذ تقدم إليه عندما نزل إلى البر في عكا وفدٌ مؤلف من خمسة عشر ألف ماروني ومعهم المؤن والهدايا، وقد سلمهم بهذه المناسبة رسالة مؤرخة في ٢١/ ٥/ ١٢٥٠م فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم فقد جاء فيها: «ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسيَّة».

- استمر هذا التعاطف من الغرب مع الموارنة في الأجيال التالية وذلك عندما أرسل نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠م وكذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما صار لبنان تحت الانتداب الفرنسي.

أبرز شخصيات الموارنة

١- تيوفيل (تيوفيلوس) بن توما من شمال سوريا، ماروني، كان يعمل منجّمًا في قصر الخليفة العباسي المهدي ٧٧٥-٧٨٥م كما قام بترجمة إلياذة هوميروس.

٢- المؤرخ اسطفانوس الدويهي المشهور، ماروني، توفي سنة ١٧٠٤م.

٣- البطريرك جرجس عميرة، ماروني، ألّف أول غراماطيق سرياني واضعًا قواعده باللاتينيَّة تسهيلًا على المستشرقين دراسة هذه اللغة.

٤- من مشاهيرهم: يوسف حبيش، وبولس مسعد، ويوحنا الحاج، والبطريرك إلياس الحويك.

٥- ومن الأساقفة: المطران جرمانوس فرحان، ويوسف سمعان السمعاني، ويوحنا حبيب، ويوسف الدبس.

٦- ومن بيوتاتهم المعروفة: آل خازن، ودحداح، وحبيش، والسعد، وكرام، والظاهر، والبستاني، والشدياق، والنقاش، والباز...

٧- ومن زعاماتهم المعاصرة: آل جميِّل، وشمعون، وفرنجية، وإده...

معتقدات وأفكار المارونيَّة

١- أهم نقطة تميزهم عن بقية الطوائف النصرانيَّة هو معتقدهم بأن للمسيح طبيعتين، وله مشيئة واحدة؛ وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

وعقيدة المشيئة الواحدة قال بها بطريرك الإمبراطور هرقل أيضًا ٦٣٨م ليوفق بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة الذين يشكلون الأكثرية من رعاياه النصارى في سوريا وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسيَّة للكنيسة البيزنطيَّة، إلا أن هذه المحاولة لم تفلح في سد الثغرة بينهما.

٢- يعتقدون أن خدمة القداس عندهم مأخوذة عن تلك الخدمة التي ينسبونها إلى القديس يعقوب، كما يعتقدون أن هذه الخدمة إنما هي أقدم خدمة في الكنيسة المسيحيَّة؛ إذ إن أصولها ترجع إلى العشاء الرباني الأخير.

٣- لا تزال الكنيسة المارونيَّة تحتفظ باللغة السريانيَّة في القداس إلى يومنا هذا، ولا يزال الطابع السرياني ساريًا حتى في الكنائس التي تعترف بسلطة البابا.

٤- منذ أوائل القرن الثالث عشر تم إدخال بعض التعديلات على الطقس الماروني القديم وذلك في عهد البابا إنوسنت الثالث ليكون أكثر تلاؤمًا مع الطقس اللاتيني ومن ذلك:

- تغطيس المعمود ثلاث مرات في الماء.
- طلبة واحدة للثالوث.
- تكريس الأحداث على أيدي المطارنة فقط.
- لقد صار الكهنة يتبعون الزي اللاتيني في لبس الخواتم والقلنسوة التي تشبه التاج والعكاز.
- استعمال الأجراس بدلًا من النواقيس الخشبية التي تستعملها سائر الكنائس الشرقيَّة في الدعوة إلى القداس متبعة بذلك التقليد اللاتيني.

الأعداد وأماكن التواجد

- البداية في أنطاكية، ومن بعدها رحلوا إلى قلعة المضيق، وأخيرًا صاروا إلى جبال لبنان موطنهم الحالي منذ النصف الثاني من القرن السابع الميلادي.

- منذ القرن الخامس عشر الميلادي أصبح دير قنُّوبين شماليلبنان فوق طرابلس المبني في صخر من صخور وادي قاديشا (أي المقدس) مقرًّا للبطريركية المارونيَّة، كما أصبحت بكركي المبنية فوق جونية المقر الشتوي حتى يومنا هذا، إذ لا يزال سيد بكركي يلقب ببطريرك أنطاكية وسائر الشرق؛ ذلك لأنه مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين، كما تخضع لإدارته مطارنة وأبرشيات وجمعيَّات رهبانية مختلفة.

- عندما استرد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس غادر الملك غوي دي ليزنيان إلى قبرص فتبعه جمهور كبير من الموارنة، لوقوفهم إلى جانب الصليبيين إبان الاحتلال، مستوطنين هناك الجبل الذي يقع شمالي نيقوسيا.

- لقد فرَّ كثير من الموارنة من لبنان بسبب الحروب والهجرة فوصلوا إلى تكريت وغيرها من المدن بين دجلة والفرات منذ القرن الثاني والثالث عشر، كما ذهب بعضهم تجاه سوريا الداخلية مستوطنين دمشق وحلب، وفريق ذهب إلى القدس وهبط بعضهم الآخر إلى مصر ورودس ومالطة، وهاجر آخرون إلى أمريكا وأفريقيا وإندونيسيا.

ولا يزال أغلبهم يعيشون في لبنان وهم يتخذون منها مركزًا لهم، ولهم أكبر الأثر في توجيه السياسة اللبنانية المعاصرة.

فمنذ عام ١٩٤٣م حتى اليوم استقر الأمر بأن يكون رئيس الجمهورية اللبنانية من الطائفة المارونيَّة وذلك بموجب الميثاق الوطني الذي تم فيه الاتفاق شفويًّا بين المسلمين والنصارى حول توزيع المناصب الرئيسية للدولة اللبنانية على مختلف الطوائف الدينيَّة فيها. ومن تنظيماتهم السياسية الحزبية العسكرية حاليًا: حزب الكتائب وحزب الأحرار(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٢٦- ٦٣١).

الفصل الخامس

الجزويت

التعريف:

الجزويت: فرقة كاثوليكيَّة يسوعية تنتشر في أوربا بصفة عامة، وفي البرتغال وأسبانيا وفرنسا بصفة خاصة.

وهي جمعيَّة دينية متعصبة تهدف حاليًا إلى القضاء على الدين الإسلامي.

التاريخ

أنشأها قسيس فرنسي يدعى أنياس لايولا في القرون الوسطى، وقد ساهمت في القضاء على المسلمين في الأندلس من خلال محاكم التفتيش، ويقوم عليها الآن مجموعة كبيرة من القسس والرهبان.

معتقدات وأفكار الجزويت

١- يلتزم الرهبان الذين ينتمون إليها بالمحافظة على أسرارها وعدم إفشائها ولو لأعضائها.

٢- يلتزم أعضاؤها كذلك بالمحافظة على سرية تعليماتها والحيلولة دون وصولها إلى أيدي الأجانب بشكل عام والأعداء بشكل خاص.

٣- تتستر هذه الجمعيَّة خلف أعمال البر كإنشاء المدارس والمستشفيات في شتى بقاع العالم، وتظهر العطف على المرضى، وتلزم أعضاءها باصطناع التواضع لاستقطاب الناس إليها وإلى الدين النصراني.

- تقبل التبرعات وتتفنن في أساليب جمع الأموال، ولكي تنفي عن نفسها مظنة الاكتناز، فإنها تتبرع ببعض الأموال في نفس المكان للإيهام بأن هدفها هو خدمة الفقراء.

- يلتزم أعضاء الجمعيَّة بالمحافظة على هيبتها، فلا يختلفون أمام الغير، بل يظهرون تماسكهم ورغبتهم في خدمة الآخرين.

- عندما يذهب أعضاء الجمعيَّة إلى إحدى المدن لأول مرة، فإنهم يجتنبون المبادرة إلى شراء الأرض، مدة معينة، حتى إذا ما ثبت أن شراء الأرض يعتبر ضروريًا، قاموا بالشراء، وغالبًا ما يتم شراء الأرض باسم مستعار حتى لا تهتز ثقة الناس في الجمعيَّة.

- تعد واردات الجمعيَّة سرًا مقدسًا، فلا يطلع عليها إلا رئيس الرهبان، وتعد خزانة الجمعيَّة في روما، بكافة محتوياتها، سرًا مقدسًا كذلك، فلا يجوز إفشاؤه.

٤- يتجنب أعضاء الجمعيَّة التكلف في اللباس ولا يقبلون الهدايا لأنفسهم، بل يحيلونها إلى دير

الجمعيَّة القريب من مكان وجودهم حتى يدخلوا في روع الناس أنهم مخلصون فيزداد العطف على الجمعيَّة.

٥- يحاول أعضاء الجمعيَّة بكافة الطرق الحيلولة دون إنشاء أو تأسيس أية مدارس بالقرب من مدارس الجمعيَّة، التي تهتم بالرياضة البدنية، وتتفانى في القيام بالعملية التربوية خير قيام، مع معاملة الدارسين معاملة حسنة، حتى يثقوا في هيئة التدريس وما تبثه من أفكار تبشيريَّة.

٦- تعمل الجمعيَّة بكافة الطرق الممكنة على كسب ود النساء الأرامل، وإذا كان لإحداهن راهب من غير الجمعيَّة فإنه يتم إبعاده ويستبدل به راهب من الجمعيَّة لإدارة أعمالها بالتدريج.

ولكي تتم السيطرة التامة على الأرامل: فإن الجمعيَّة ترغبهن في التصدق على الفقراء باسم المسيح ومريم، ويستمر هذا الوضع حتى تنفد جميع أموالهن، وفي سبيل ذلك فإن هذه الجمعيَّة لا تستنكف عن مساعدة هؤلاء الأرامل في إشباع رغباتهن وقضاء وطرهن عند الاقتضاء.

وإذا كان للأرامل بنات فإنه يتم إقناعهن بالرهبنة أو التربية النصرانيَّة، أما البنون فإنه يتم حثهم على أن يغشوا الأديرة والكنائس، مع إغراقهم في الملذات، والتلميح لهم بأنه لا إثم في العلاقات الجنسية الحرة، كما تيسر لهم سبل الانخراط في معسكرات صيفية يتم فيها إقناعهم بأهمية التربية النصرانيَّة.

٧- يكرر أعضاء الجمعيَّة زياراتهم للمرضى الميئوس من حالتهم، ويتم تخويفهم من النار وحثهم على التصدق بكل أموالهم للجمعيَّة.

٨- كل من يخرج على المبادئ الهدامة لهذه الجمعيَّة، يطرد ويتم اجتنابه ويحرم من كافة الامتيازات التي يتمتع بها الأعضاء، ويتم الطرد بوجه خاص، عند تشويه سمعة الجمعيَّة أو إفشاء أسرارها، أو الإضرار بأعضائها، أو الكسل وعدم القيام بالمهام المنوطة به.

٩- تحاول الجمعيَّة الحصول على الأسرار السياسية والأخبار الموثوقة والخطيرة، وإخبار الحكام بها للفوز بمكانة مرموقة لديهم، تساعدهم على اجتذاب أصحاب الثروات والنفوذ والأسر الكبيرة للجمعيَّة.

١٠- تحافظ الجمعيَّة على هيبتها في نفوس الآخرين، من خلال إفهامهم أنها تأسست على يد الراهب شوواكيم بإلهام إلهي، للحد من انحراف الكنيسة وإعادتها إلى وضعها الطبيعي ونشر دين عيسى في جميع أنحاء العالم، وبذا تبرر مسلكها القديم الذي كانت تبيع فيه صكوك الغفران، وترسم معالم طريقها الجديد الذي تقضي فيه على الإسلام والمسلمين.

الجزويت والأديان الأخرى

الهدف الأساسي لهذه الجمعيَّة الآن هو القضاء على أتباع الديانات الأخرى، لا سيما الدين الإسلامي، لذلك فإن أعضاءها لا يستنكفون عن استخدام كافة أساليب الاستمالة ووسائل جذب الناس من أجل تنصيرهم.

وبعد طرد هذه الجمعيَّة من كثير من الدول الأوربية، بدأت تستقطب عطف الساسة والمسئولين من خلال إظهار العداء للدين الإسلامي والتغلغل في الدول الإسلاميَّة لبث الأفكار الهدامة بين المسلمين من خلال المدارس وتحت غطاء دور الخير والبر.

ولتحقيق هذا الهدف أيضًا، فإن هذه الجمعيَّة تعمل على كسب ثقة رجال الدولة، وإرضائهم، والإشادة بهم، وغض الطرف عن ممارساتهم غير السوية وأعمالهم غير المستقيمة، وإفهامهم عند الاقتضاء أن الرب قد غفر لهم.

كما تعمل هذه الجمعيَّة على كسب ثقة حكام البلدان التي يمارسون التبشير فيها، فيرسلون إليهم مندوبين على درجة عالية من الذكاء والدهاء والثقافة، ويحرص هؤلاء المندوبون على إيهام أولئك الحكام، أنهم موفدون من قبل بابا روما، وأنهم يحملون إليهم تحياته.

وتبشير هذه الجمعيَّة يعتمد على هدم القيم الدينيَّة، ونشر الرذائل والقول بطبيعية العلاقات الجنسية الحرة، وإشاعة الأفكار الهدامة بين المسلمين، ومن ثم جعلهم لبنة هشة تقبل التشكيل الذي يلائم أهداف هذه الفرقة.

أماكن تواجدهم

تتخذ هذه الفرقة من أوربا ككل مركز انطلاق لها، وهي تتركز في البرتغال وأسبانيا إذ الرغبة في القضاء على كل أثر للإسلام هناك وفي فرنسا حيث نشأت مقولة الحرية المطلقة في مجال العقيدة، وإيطاليا حيث بابا الفاتيكان، ومن هذه المرتكزات تمد هذه الفرقة أذرعتها صوب التجمعات الإسلاميَّة في دول حوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب شرق آسيا وبخاصة في إندونيسيا[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٣٢- ٦٣٥).

الفصل السادس

المورمون

التعريف:

المورمون: طائفة نصرانية جديدة نسبيًّا منشقة عن النصرانيَّة الأم، تلبس لباس الدعوة إلى دين المسيح عليه السلام، وتدعو إلى تطهير هذا الدين بالعودة به إلى الأصل أي إلى كتاب اليهود، ذلك أن المسيح -في نظرهم- قد جاء لينقذ اليهود من الاضطهاد وليمكنهم من الأرض.

إنها -كما تسمي نفسها- طائفة القديسين المعاصرين لكنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وكتابها المقدس هو الكتاب المقدس الحديث.

التاريخ والأحداث

نبيها المؤسس هو يوسف سميث، ولد يوسف سميث في ٢٣/١٢/١٨٠٥م بمدينة شارون بمقاطعة وندسور التابعة لولاية فرمونت. وعندما بلغ العاشرة من عمره رحل مع والده إلى مدينة بالمايرا بمقاطعة أونتاريو التابعة لولاية نيويورك.

وفي الرابعة عشرة من عمره انتقل مع أهله إلى مانشستر من نفس المقاطعة.

ولما بلغ الخامسة عشرة وجد الناس حوله منقسمين إلى طوائف:

الميثوديست، والمشيخي، والمعمداني... فشعر باضطراب وقلق.

وفي ربيع عام ١٨٢٠م ذهب إلى غابة، وأخذ يصلي منفردًا طالبًا من الله الهداية، وبينما هو كذلك إذ شاهد -كما يزعم- نورًا فوق رأسه، تمثل هذا النور في شخصين سماويين هما (الله، وابنه عيسى - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا) وقد نهياه عن الانضمام إلى أي من هذه الفرق.

يدعي بأن الوحي قد انقطع عنه، وأنه خضع لاضطهاد عنيف وسخرية من جراء جهره برؤيته هذه، وقد تورط خلال ذلك بزلات طائشة إذ يقول عن نفسه: وكثيرًا ما أدت مخالطتي لشتى البيئات إلى اقتراف زلات طائشة وللاتِّسام بما للشباب من نزق، وما للطبيعة البشرية من قصور، وقد ورطني ذلك -للأسف- في ألوان من التجارب والآثام المبغضة إلى الله، ولا يتبادر إلى الذهن بسبب هذا الاعتراف أني ارتكبت إثمًا فظيعًا أو وزرًا منكرًا، فما كان بي نزوع قط إلى مثل هذه الأوزار أو تلك الآثام. شهادة يوسف ص٧ .

كما يدعي أنه في مساء ٢١ سبتمبر ١٨٢٣م نزل عليه ملاك من السماء اسمه موروني وأخبره بأنه قد أعده لمهمة ينبغي عليه إنجازها، وأخبره عن كتاب نقشت عليه كلمات على صحائف من الذهب تروي أخبار القوم الذين استوطنوا القارة الأمريكيَّة في الأزمنة الغابرة، وتاريخ السلف الذين انحدروا منهم، وأنبأه عن حجرين في قوسين من الفضة لترجمة الكتاب، وغادره هذا الملاك بعد أن

نهاه عن إظهار أحد من الناس على هذه الصحف.

وفي ١٨ يناير ١٨٢٧م تزوج من فتاة اسمها إيما هيل، فكان له من حميه فيما بعد سندًا قويًا أعانه على نشر فكرته، وذلك لما تتمتع به هذه الأسرة من مكانة طيبة.

وفي ٢٢ سبتمبر ١٨٢٧م تسلم الصحف -كما يزعم- متعهدًا بإعادتها بعد نهوضه بالمطلوب.

وقد رحل عن مقاطعة مانشستر الأمريكيَّة وذهب إلى حيث حموه في مقاطعة سوسكويهانا بولاية بنسلفانيا، واستوطن مدينة هارموني.

وشرع في الترجمة بمساعدة مارتن هاريس الذي أخذ بعض الحروف وشيئًا من الترجمة وعرض ذلك على الأستاذ تشارلز آنثون، والدكتور ميتشيل فأقرا بأن ما رأياه إنما هو ترجمة عن اللغة المصريَّة القديمة وأن الأصل إنما يتألف من حروف مصرية قديمة، وحروف كلدانية، وحروف آشورية، وحروف عربية.

وفي ٢٥ مايو ١٨٢٥م ذهب مع أوليفر كودري للصلاة في الغابة حيث زعما أنه هبط عليهما يوحنا المعمدان (أي نبي الله يحيى عليه السلام) وأمرهما بأن يعمد كل منهما الآخر، وأخبرهما بأنه قد جاء إليهما تنفيذًا لأمر بطرس ويعقوب، ورسَّمهما لرعاية الكنيسة المورمونية.

ويدعي كل من أوليفر كودري، وداود ويتمر، ومارتن هاريس أنهم قد شاهدوا الصحف وأنهم يشهدون على صحة الترجمة ودقتها وبأن هذا الكتاب إنما هو سجل لقوم نافي ولإخوتهم اللامانيين.

أعلن يوسف سميث في عام ١٨٣٠م وبحضور عدد من الشخصيات عن تأسيس كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة.

ورحل يوسف سميث وأتباعه عن نيويورك إلى مدينة كيرتلاند المجاورة لمدينة كليفلاند بولاية أوهايو إذ شيَّد هيكلًا عظيمًا، كما أنه قام بعمل تبشيري واسع النطاق في تلك المنطقة وما جاورها.

وبعث بإحدى الإرساليات إلى ولاية ميسوري للتبشير ولاكتساب المؤيدين.

وتعرضوا للاضطهاد فتنازلوا عن منازلهم ومزارعهم ورحلوا إلى ولاية إلينوي حيث اشتروا المستنقعات الشاسعة المهجورة على شاطئ المسيسبي وقاموا بإصلاحها وبنوا مدينة نوفو أي الجديدة.

سجن يوسف سميث وأخوه هايرم في مدينة كارسيج بولاية إلينوي لاتهامات ضدهما، وبينما هما في السجن في ٢٧ يونيو ١٨٤٤م دخل عليهما مسلحان مقنعان فقتلاهما بالرصاص، فانتهت بذلك حياة هذا النبي المزعوم.

وقد آلت رئاسة الحركة والنبوة بعد يوسف سميث إلى بريجام يونج الذي رحل بالقوم إلى جبال روكي إذ حدد لهم مكان إقامتهم فبنوا مدينة سولت ليك وقد خطط الهجرات إلى يوتاه إذ كان بينهم

آلاف البريطانيين والاسكندنافيين، كما يعتبر يونج مسئولًا عن هذه الرحلة المأساوية والتي حدثت عام ١٨٥٦م حيث مات أثناءها أكثر من مائتي شخص من أتباعه.

هناك أقلية من المورمون لم توافق على سيطرة يونج بعد موت يوسف سميث، فقد بقي هؤلاء في إلينوي مؤسسين -بالتعاون مع إيما سميث الزوجة الأولى لنبيهم ومع ابن سميث جوزيف- كنيسة يسوع المسيح للقديسين المعاصرين المعاد تنظيمها، ومركزها ميسوري، تنفيذًا لوصية النبي المؤسس الذي قال لهم: إن صهيون ستكون فيها.

وقامت كذلك فئات أخرى منشقة، كل منها تدعي بأنها قد تلقت صحفًا فيها كتب قديمة مقدسة.

أنبياء المورمون

رؤساء الكنيسة هم الأنبياء، وقد تتابع هؤلاء الأنبياء على النحو التالي:

يوسف سميث. بريجام يونج. جون تيلور. ويلفورد وودروف. لورينزوسنو. هيبر جرانت. جورج ألبرت سميث. داود مكاي. يوسف فليدنج سميث. وأخيرًا سبنسر كيمبل الذي ما يزال نبيًّا ورئيسًا لهم إلى الآن.

ويرد في كتبهم اسم: إلما، يارد، لحي، إنهم أنبياء في كتاب المورمون.

الكتب المقدَّسة لديهم اليوم

١- الكتاب المقدس: يعتقدون بأنه مجموعة من كتابات مقدسة تحتوي على رؤى الله للإنسان، وأنها مخطوطات تتناول قرونًا كثيرة منذ أيام آدم حتى الوقت الذي عاش فيه المسيح، وقد كتبها أنبياء كثيرون -على زعمهم- عاشوا في أزمنة مختلفة، وهو ينقسم إلى قسمين:

- **العهد القديم**: فيه كثير من النبوءات التي تنبأت بقدوم المسيح.
- **العهد الجديد**: يروي حياة المسيح وتأسيس الكنيسة في ذلك اليوم.

٢- **كتاب المورمون**: هو سجل مقدس لبعض الناس الذين عاشوا في قارة أمريكا بين ٢٠٠٠ ق.م إلى ٤٠٠ بعد الميلاد، وهو يروي قصة زيارة يسوع المسيح لشعب القارة الأمريكيَّة بعد قيامه من الموت مباشرة (كما يعتقدون).

وهذا الكتاب يعدّ الحجر الأساسي لديهم، وإن الإنسان المورموني يتقرب إلى الله بطاعة تعاليمه، وقد قام يوسف سميث بترجمته إلى اللغة الإنجليزية بموهبة الله وقوته، وقد نزل به ملاك من السماء اسمه (موروني) على يوسف سميث.

وكتاب المورمون يشبه التلمود في كل شيء ويحاكيه وكأنه نسخة طبق الأصل عنه.

٣- **كتاب المبادئ والعهود**: هو مجموعة من الرؤى الحديثة التي تخصّ كنيسة يسوع المسيح كما أعيدت إلى أصلها في هذه الأيام الأخيرة، وهو يوضح تنظيم الكنيسة وأعمالها ووظائفها، وفيه

نبوءات عن حوادث ستأتي، وفيه أجزاء فيها معلومات مفقودة لمئات السنين، وفيه تعاليم الكتاب المقدس.

٤- **الخريدة النفيسة: تحتوي على:**

١- **سفر موسى:** فيه بعض رؤى موسى وكتاباته كما كُشفت ليوسف سميث في عام ١٨٣٠م.

٢- **سفر إبراهيم:** ترجمة يوسف سميث من درج بردي مأخوذ من مقابر المصريين القدماء.

٣- **كتابات يوسف سميث ذاته:** تحتوي على جزء من ترجمة الكتب المقدَّسة ومختارات من تاريخ الكنيسة المورمونية وبنود الإيمان لديهم ورؤية المملكة السماوية.

٤- **رؤية فداء الأموات:** وهي تروي زيارة يسوع المسيح للعالم الروحي، وهي رؤية أعطيت للرئيس يوسف سميث في ٣ أكتوبر ١٩١٨م.

٥- إضافة إلى الكتب الأربعة السابقة فإن كلمات الوحي والرؤى التي يذكرها أنبياؤهم تصبح كتبًا مقدسة، وكل النشرات والتعاليم وقرارات المؤتمرات كلها تعد كتبًا مقدسة أيضًا.

بنود الإيمان

بنود الإيمان لديهم: كما وضعها يوسف سميث ذاته:

١- الإيمان بالله، الأب الأزلي، وبابنه يسوع المسيح، وبالروح القدس.

٢- الإيمان بأن البشر سيعاقبون من أجل خطاياهم، وليس بسبب تعدي آدم.

٣- الإيمان بأن جميع البشر يستطيعون أن يخلصوا عن طريق كفارة المسيح وذلك بإطاعة شرائع الإنجيل ومراسيمه.

٤- الإيمان بأن المبادئ والمراسم الأربعة للإنجيل هي:

الإيمان بالرب يسوع المسيح، التوبة، العماد بالتغطيس لغفران الخطايا، وضع الأيدي لموهبة الروح القدس.

٥- الإيمان بأن الإنسان يجب أن يُدعى من الله عن طريق النبوة، ووضع الأيدي على يد هؤلاء الذين لهم السلطة لكي يبشر بالإنجيل ويقوم بالمراسيم المتعلقة به.

٦- الإيمان بنفس التنظيم الذي قامت عليه الكنيسة القديمة؛ أي: الرسل والأنبياء والرعاة والمعلمين والمبشرين إلخ.

٧- الإيمان بموهبة الألسن، والنبوة، والرؤيا، والأحلام، والشفاء، وتفسير الألسن.

٨- الإيمان بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله بقدر ما ترجم صحيحًا، والإيمان بأن كتاب المورمون هو كلمة الله.

٩- الإيمان بكل ما كشفه الله وبما يكشفه الآن، وبأنه سيظل يكشف أمورًا كثيرة عظيمة تتعلق

بملكوت الله.

١٠- الإيمان بتجمع إسرائيل واستعادة القبائل العشر، وأن دولة صهيون (أورشليم الجديدة) ستؤسس على القارة الأمريكيَّة، وأن المسيح سيحلُّ شخصيًّا على الأرض، وأن الأرض ستتجدد وتستلم مجدها الفردوسي.

١١- يدَّعون امتياز عبادتهم لله القوي طبقًا لما يمليه عليهم ضميرهم كما يسمحون لجميع البشر بهذا الامتياز، فليعبدوا ما يريدون وكيف يريدون وأين يريدون.

١٢- الإيمان بأنه يجب عليهم الخضوع للملوك والرؤساء والحكام وأصحاب السلطة القضائية، كما يؤمنون بأنه يجب عليهم إطاعة القانون واحترامه وتعضيده.

١٣- الإيمان بأنه يجب عليهم أن يكونوا أمناء وصادقين وأطهارًا ومحسنين وأصحاب فضيلة وأن يعملوا الخير لكل البشر، وهم يسعون وراء كل شيء ذي فضيلة ومحبوب ويستحق التقدير أو المدح.

مراتبهم الدينيَّة والتنظيمية

ينقسم الكهنوت لديهم إلى قسمين:

١-كهنوت ملكي صادق: وهو أعظم كهنوت إذ يملك التوجيه والتبشير بالإنجيل كما يملك سلطة قيادة الكنيسة.

٢- كهنوت هارون: وهو الكهنوت الذي منح لهارون ولأولاده خلال جميع الأجيال، وأصحاب هذا الكهنوت يقومون بمراسم الإيمان والتوبة والتعميد.

معتقدات وأفكار المورمون

١- يعتقدون أن الله هو على شكل إنسان له لحم وعظام وبداخل جسده الملموس روح أزلية. كما يؤكدون على أن الإله متطور عن الإنسان، والناس يمكنهم أن يتطوروا إلى آلهة -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

٢- الإنسان -كروح- ولد من وَالِدَيْن سماويين، وقد بقي هذا الإنسان في منازل الأب الأبدية قبل المجيء إلى الأرض في جسد مادي، كما أن المسيح هو الروح الأولى، فهو بذلك الابن الأكبر.

٣- يسوع المسيح هو الذي خلق الأرض وكل ما فيها، وخلق كذلك عوالم أخرى بتوجيه من أبيه السماوي. ثم خلق بعد ذلك الحيوانات.

وأمه مريم العذراء التي كانت مخطوبة لشخص اسمه يوسف، وقد حلّ عليها الروح القدس وقوة العلي ظللتها، وولدها هو ابن الله، وقد جاء الولد وارثًا لسلطة إلهية من أبيه، ووارثًا الفناء من أمه.

قام يوحنا المعمدان بتعميده وهو في الثلاثين من عمره، وقد صام أربعين يومًا ليحارب

الشيطان، كما أنه قد ظهرت على يديه معجزات.

إن المسيح قد ضُرِبَ، وعُذِّبَ، ومن ثم صُلِبَ، ليسجل انتصاره على الخطيئة، وقد استودع روحه بين يدي أبيه، وقد ظل جسده ثلاثة أيام في القبر، ثم عادت إليه روحه فقام متغلبًا على الموت.

بعد قيامه بقليل ظهر في أمريكا، وأسس كنيسته، ثم صعد إلى السماء. وقد دخلت الوثنية إلى العقيدة المسيحيَّة كما حارب رجال الدين بعضهم بعضًا مما استوجب نزول المسيح مرة أخرى مع الله وهبوطهما على يوسف سميث بغية إعادتها إلى الأرض مرة أخرى كما كانت في الأصل.

٤- حواء ابنة مختارة أعطيت لآدم، وسمح لهما بالأكل من كل الأشجار عدا شجرة معرفة الخير والشر، وقد أغراهما الشيطان فأكلا منها فأصبحا فانيين يشتغلان وينجبان.

٥- الروح القدس: عضو في الهيئة الإلهية، وله جسد من الروح في شكل إنسان، وهو يوجد في مكان واحد فقط في نفس الوقت إلا أن نفوذه يصل إلى كل مكان.

٦- النبي رجل دعاه الله ليمثله على الأرض ويتكلم بالنيابة عنه، والنبوة لديهم مستمرة لا تنقطع.

٧- التعميد: ترمز المعمودية إلى الموت والقيامة وذلك بأن ينزل رجل الدين إلى الماء مع الشخص الذي يريد تعميده، فيغطسه في الماء ثم يخرجه، وبذا تنتهي الحياة الخاطئة وتبدأ الحياة الجديدة، وهي تسمى الميلاد الثاني.

٨- القربان: كانت القرابين قبل المسيح تقدم على شكل ذبائح من الحيوانات، لكن كفارة المسيح بقتله أنهت هذا النوع من القرابين، وصارت عبارة عن خبز ونبيذ مصحوبة بالصلوات. وخلال رؤية حديثة لقديسي الأيام الأخيرة جعلوها خبزًا وماءً.

٩- يقدسون يوم السبت؛ لأن الله استراح فيه بعد انتهائه من خلق الكون، ولقد كان قيام المسيح بعد صلبه في يوم الأحد الذي صار محل تقديس عوضًا عن يوم السبت.

١٠- الصوم: هو الامتناع عن الطعام والشراب مدة أكلتين متتابعتين وبذلك يصوم الشخص أربعًا وعشرين ساعة. فإذا أكل أحدهم العشاء فلا يجوز له أن يأكل مرة ثانية حتى العشاء الآخر. كما يقدم الصائم للقائد الكهنوتي إما مالًا أو طعامًا مساويًا لطعام الوجبتين وهذا يسمى بعطاء الصوم.

١١- يحرمون شرب النبيذ، والمسكرات الكحولية والتبغ والدخان بكل أنواعه، ويمتنعون عن شرب القهوة والشاي لما يحتويان عليه من عقاقير مضرة. ويحذرون من تناول المرطبات وما فيها من مشروبات الصودا والمشروبات الفوارة والمياه الغازية، والكولا أشدها خطرًا. وينبهون إلى عدم الإسراف في أكل اللحم من دون تحريم، ويبيحون تناول الفواكه والخضر والبقول والغلال مركزين على القمح بخاصة لاعتقادهم بأنه نافع لجسم الإنسان ويؤدي إلى المحافظة على صحته وقوامه.

وجدير بالذكر أن يوسف سميث كان يرقص ويشرب الخمر ويشترك في المصارعة وقد كتب يقول: «خلق الإنسان ليتمتع بحياته».

١٢- يبيحون تعدد الزوجات ويجيزون للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء؛ لأن في ذلك إعادة لما شرعه الله في الأزمان الغابرة. ولا يسمحون بذلك إلا لذوي الأخلاق العالية على أن يثبتوا قدرة على إعالة أكثر من أسرة. وقد مارس يوسف سميث هذا التعدد. كما استمرت هذه العادة حتى عام ١٨٩٠م.

تخلوا عن التعدد -ظاهريًّا- في عهد نبيهم ولفورد نتيجة للضغط الشديد الذي قوبلوا به من الطوائف الأخرى، وكذلك بغية تمكنهم من الانضمام إلى السلطات الاتحادية. وعلى الرغم من التحريم الرسمي العلني إلا أنهم يمارسون التعدد سرًّا.

١٣- يحرمون الزنى تحريمًا مطلقًا، والذي يخطئ يمكنه التوبة والرجوع عن جميع خطاياه.

١٤- يجب على كل فرد أن يدفع عُشر النقود التي يكسبها على أن يكون ذلك مصحوبًا بالفرح والسرور.

يدفعون عطاء الصوم، ويدفعون اشتراكات مختلفة وعطايا لغير سبب، فكنيستهم بذلك من الكنائس الغنية الموسرة.

١٥- من علامات القيامة:

- الشرور والحروب والاضطرابات.
- استعادة الإنجيل.
- بزوغ كتاب المورمون.
- اللامانيون يصبحون شعبًا عظيمًا.
- بناء أورشليم الجديدة في ولاية ميسوري.
- بيت إسرائيل يصبح شعب الله المختار.

١٦- بعد الحساب هناك عدة ممالك:

- المملكة السماوية: للذين تسلموا شهادة يسوع وآمنوا باسمه وتعمدوا.
- المملكة الأرضية: للذين رفضوا الإنجيل على الأرض ولكنهم استلموه في العالم الروحي.
- المملكة السفلية: للذين لم يتسلموا الإنجيل ولا شهادة يسوع سواء على الأرض أو في العالم الروحي ومع هؤلاء يكون الزناة والفجار.
- الظلمة الخارجية: للذين شهدوا ليسوع بالروح القدس وعرفوا قوة الرب؛ لكنهم سمحوا للشيطان بأن يتغلب عليهم فينكروا الحق ويَتَحدُّوا قوة الرب.

١٧- يؤمنون بالعهد الألفي السعيد الذي يدوم ألف سنة من تاريخ مجيء المسيح إلى الأرض حيث يقوم كثير من الأموات، وبعضهم يختطف للقائه عندما ينزل، وهي القيامة الأولى. أما الأشرار فيهلكون في الأجساد ويبقون كذلك مع الأشرار من الأموات حتى انتهاء الألف سنة حيث تأتي القيامة الآخرة.

وفي فترة الألف سنة هذه تسود المحبة والسلام، ويملك يسوع شخصيًا، وتجتمع الأرض في مكان واحد، فلن يكون هناك قارات مختلفة، وينمو الأطفال بدون خطيئة.

ولن يكون هناك موت؛ لأن الناس سيتغيرون من حالتهم الفانية إلى حياة الخلود في لحظة.

وفي نهاية العهد الألفي سيطلق سراح الشيطان لمدة قصيرة، وتحدث معركة بين أتباع الأنبياء وأتباع الشيطان. وعندها ينتصر المؤمنون ويطرد الشيطان إلى الأبد مدحورًا.

المورمون واليهود

لليهود دور في نشوء هذه الطائفة تعزيزًا للانشقاق داخل الكنائس المسيحيَّة بغية السيطرة عليها.

ومما لا شك فيه أن لليهود دورًا فعالًا ونشيطًا في حركة المورمون ولذلك فهم:

- يعتقدون بأن الله أعطى وعده لإبراهيم، ومن ثم لابنه يعقوب بأن من ذريته سيكون شعب الله المختار.

- وأن يعقوب الذي اسمه (إسرائيل) رزق باثني عشر ابنًا يعرفون بالأسباط.

- وأن هؤلاء الأنبياء ارتكبوا الشرور فبددهم الله في الأرض منقسمين إلى مملكتين:

١- المملكة الشماليَّة: وتسمى إسرائيل حيث عاش فيها عشرة أسباط.

٢- المملكة الجنوبية: وتسمى مملكة يهوذا حيث عاش فيها سبطان فقط.

- الأسباط الشماليون هزموا في معركة ودفعوا إلى السبي، وقد هرب بعضهم وتاهوا في البلاد.

- بعد مائة عام انهزمت المملكة الجنوبية حوالي عام ٦٠٠ق.م. عندها ترك لحي وعائلته أورشليم مستقرين في القارة الأمريكيَّة فكان منهم النافيون وكذلك اللامانيون الذين يعتبرون من سلالة لحي. وقد هدمت أورشليم عام ٥٨٦ ق.م.

- سبطا إسرائيل اللذان بقيا أُخِذا أسيرين، كما أعيد بناء أورشليم بعد المسيح، إلا أن الجنود الرومانيين قد خربوها مرة ثانية.

- يصرحون بأن في هذا الزمان قد وعد الرب بأنه سيجمع بني إسرائيل ليتعلموا الإنجيل، كما أن موسى النبي قد نزل على يوسف سميث عام ١٨٣٦م وأعطاه سلطة جمع بيت إسرائيل في هيكل كيرتلاند.

- بيت إسرائيل الآن في طريقه إلى الجمع إذ إن آلافًا من الناس ينضمون إلى الكنيسة سنويًا من الإسرائيليين الذي ينتمون إلى عائلة إبراهيم ويعقوب إما بعلاقة الدم أو بعلاقة التبني حسب ادعاءاتهم.

- سيجمع سبطا افرايم ومنسي في أرض أمريكا، وسيعود سبط يهوذا إلى أورشليم كما أن الأسباط العشرة المفقودة ستتسلم البركات التي وعدت بها من سبط افرايم في أمريكا.

- الإسرائيليون المشتتون في كل دولة يدعون للتجمع في حظيرة المسيح في أوتاد صهيون.

- هذا التجمع الحرفي لإسرائيل لن يتم حتى المجيء الثاني للمخلص كما يزعمون.

- ستكون هناك عاصمتان في العالم: الأولى في أورشليم، والثانية في أمريكا؛ لأن من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم تخرج كلمة الرب.

فهم يعملون على ربط صهيون أو القدس الجديدة بالأرض الأمريكيَّة المقدَّسة -حسب وصايا الرب- انتظارًا لعودة المسيح الذي سيعود ليملك الأرض ويملأها جنات خالدات.

- ونلاحظ تعانق الفكر الصليبي مع الفكر الصهيوني في نظرتهم إلى فلسطين، فهم يقولون منذ عام ١٨٢٥م يوم كانت فلسطين ما تزال جزءًا من أرض الإسلام في كتاب المورمون في الإصحاح العاشر الفقرة ٣١: «فاستيقظي وانتفضي من الثرى يا أورشليم، نعم والبسي حللك الجميلة يا ابنة صهيون، ووسعي حدودك إلى الأبد، لكيلا تعودي مغلوبة ولكي تتحقق عهود الأب الأزلية التي قطعها معك، يا بيت إسرائيل».

ويقولون في الإصحاح الرابع عشر فقرة ٦ مخاطبين المورمون: «لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا دوركم قدام الخنازير؛ لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت لتمزقكم».

- إن إسرائيل قد جندت كل إمكاناتها لخدمة هذه الطائفة عاملة على استمرارية العون والمساندة النصرانيَّة لها.

الأعداد وأماكن التواجد

آمن بفكرة المورمون كثير من النصارى، وكان دعاتها من الشباب المتحمس، وقد بلغ عدد أفرادها أكثر من خمسة ملايين نسمة، وما يزالون في نمو وازدياد، وثمانون بالمائة منهم في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ويتمركزون في ولاية يوتاه حيث إن ٦٨% من سكان هذه الولاية منهم، و٦٢% من سكان مقاطعة البحيرات المالحة مسجلون كأعضاء في هذه الكنيسة ومركزهم الرئيسي في ولاية يوتاه الأمريكيَّة.

ولهم شخصيات بارزة في مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب.

وانتشروا في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وأمريكا الجنوبية، وكندا، وأوربا، كما أن لهم في معظم أنحاء العالم فروعًا ومكاتب ومراكز لنشر أفكارهم ومعتقداتهم.

ويقومون بتوزيع كتبهم مجانًا، ودعوتهم تأتي خدمة لمصلحة إسرائيل وتأكيدًا لأهدافها المرسومة. ولهم ١٧٥ إرسالية تنصيريَّة، كما أنهم يملكون:

شبكة تلفزيونية، وإحدى عشرة محطة إذاعية.

ويملكون مجلة شهرية بالأسبانية، وصحيفة يومية واحدة.

ويملكون مركزًا متطورًا جدًّا للمعلومات في مدينة سولت ليك في ولاية يوتاه الأمريكيَّة.

نشرات المورمون

هناك نشرات توزعها كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة بمدينة سولت ليك بولاية يوتاه في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ومنها:

day Saints-The Church of Jesus Christ of Latter)

ومن نشراتهم باللغة العربيَّة ما يلي: - مبادئ الإنجيل. - دليل الشعبة. - دليل القائد الكهنوتي. - كلمة الحكمة. - شهادة يوسف سميث. - دليل العائلة. - ماذا عن المورمون، طبع الولايات المتَّحدة. - مقال عن المورمون في مجلة الأمة عدد ٢٢ شوال ١٤٠٢هـ/ آب ١٩٨٢م. - مقال في الموسوعة البريطانية عن المورمون.

- ولهم كذلك نشرات باللغة الإنجليزية هي: - Succession in the Presidency.

A Family home evening program suggested by the Church of - Famillies? .Y.H.W - The Lord's - .The Mormons and the Jewish people - .day saints-Jesus Christ of latter - .Perersen .Mark E ،A Word of Wisdom - .What the Mormons think of Christ - .Day How and by Whom administered?[1] .Baptism

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٣٦- ٦٤٧).

الفصل السابع
شهود يَهْوَه

التعريف:

هي منظمة عالميَّة دينيَّة وسياسيَّة، تقوم على سرية التنظيم وعلنية الفكرة، ظهرت في أمريكا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي تدعي أنها مسيحية، والواقع يؤكد أنها واقعة تحت سيطرة اليهود وتعمل لحسابهم.

وهي تعرف باسم (جمعيَّة العالم الجديد) إلى جانب (شهود يهوه) الذي عرفت به ابتداء من سنة ١٩٣١م وقد اعترف بها رسميًا في أمريكا قبل ظهورها بهذا الاسم وذلك سنة ١٨٨٤م.

التاريخ والأحداث

أسسها سنة ١٨٧٤م الراهب تشارلز راسل ١٨٦٢ - ١٩١٦م وكانت تعرف آنذاك باسم مذهب الراسلية أو الراسليين نسبة إلى مؤسسها كما عرفت باسم الدارسون الجدد للإنجيل.

وعرفت بعد ذلك باسم جمعيَّة برج المراقبة والتوراة والكراريس Watch Tower Bible and Tract Society

ثم استقر الأمر أخيرًا وعرفت باسم يهوه نسبة إلى يَهْوَه إله بني إسرائيل على ما تردد توراتهم، في سفر الخروج ٦/ ٢- ٤: وكلم الله موسى قال له أنا الرب. أنا الذي تجليت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلهًا قادرًا على كل شيء وأما اسمي يهوه فلم أعلنه لهم.

ثم خلفه في رئاسة المنظمة فرانكلين رذرفورد ١٨٦٩ - ١٩٤٢م الذي ألف سنة ١٩١٧م كتاب سقوط بابل ويرمز ببابل لكل الأنظمة الموجودة في العالم.

ثم جاء نارثان هرمر كنور ١٩٠٥م وفي عهده أصبحت المنظمة دولة داخل الدولة كما يقال.

ويمكن اعتبارهم فرقة مسيحية منفردة بفهم خاص إلا أنهم واقعون تحت سيطرة اليهود بشكل واضح ويتبنون العقائد اليهوديَّة في الجملة ويعملون لأهداف اليهود.

وقد تأثروا بأفكار الفلاسفة القدامى واليونانيين منهم بخاصة.

معتقدات وأفكار شهود يهوه

١- إشاعة الفوضى الخلقية والتحلل من جميع الفضائل الإنسانية التي حثت عليها التعاليم الدينيَّة.

٢- يؤمنون بيهوه إلهًا لهم وبعيسى رئيسًا لمملكة الله.

٣- يؤمنون بالكتاب المقدس للنصارى؛ ولكنهم يفسرونه حسب مصالحهم.

٤- الطاعة العمياء لرؤسائهم.

٥- يستغلون اسم المسيح والكتاب المقدس للوصول إلى هدفهم وهو: إقامة دولة دينية دنيويَّة للسيطرة على العالم.

٦- تهيئة النفوس لإقامة الدولة اليهوديَّة الكبرى.

٧- نفي الحساب والعقاب في الآخرة فلا إثم على من يقترف ذنبًا أو معصية في دنياه.

٨- لا يؤمنون بالآخرة ولا بجهنم ويعتقدون بأن الجنة ستكون في الدنيا في مملكتهم.

٩- يعتقدون بقرب قيام حرب تحريرية يقودها عيسى وهم جنوده يزيحون بها جميع حكام الأرض.

١٠- يقتطفون من الكتاب المقدس الأجزاء التي تحبب إسرائيل واليهود إلى الناس ويقومون بنشرها.

١١- لا يؤمنون بالروح وبخلودها ولهم معابد خاصة بهم يسمونها القاعة الملكية أو بيت الرب.

١٢- الأخوة الإنسانية مقتصرة عليهم دون سواهم من البشر.

١٣- يعادون النظم الوضعيَّة ويدعون إلى التمرد، ويعادون الأديان إلا اليهوديَّة، وجميع رؤسائهم يهود.

١٤- إشاعة الفوضى العالمية بتحريض الشعوب على التمرد على حكوماتهم، وشق عصا الطاعة عليها، ومقاطعة جميع النشاطات الرسمية في الدولة، ويبررون ذلك بما جاء في كتابهم الأخضر «ليكن الله صادقًا بأنهم سفراء الله في ملكوته المقدس»، ومن ثمَّ فهم يتمتعون بحصانة تعفيهم من الخضوع للحكومات المدنية أيًا كانت مقوماتها.

١٥- يعترفون بقداسة الكتب التي تعترف بها اليهوديَّة وتقدسها وهي ١٩ كتابًا.

١٦- يقولون بالتثليث ويفسرونه بـ (يهوه، الابن، الروح القدس).

١٧- يمر العضو فيها بمراحل معقدة ويخضع الالتحاق بها إلى شروط قاسية، وتنتظم عضوية جمعيَّة شهود يهوه ثلاث مراتب:

الأولى: **أعضاء الرجاء السماوي**: وهم أعضاء الإدارة العليا ويرأسهم العبد العظيم أو الحكيم ويعرف مقره ببيت «إيل»؛ أي: بيت الله.

الثانية: **صف جلعاد أو الرجاء الأرضي**: ويشمل من الأعضاء الرواد والمعاونين ونظار المناطق، وهؤلاء هم أعضاء الإدارة التنفيذية.

الثالثة: **المبشرون**: ويعرف أعضاؤها بالخدم، وتضم هذه المرتبة الشهود وهم الأعضاء المكلفون بتوزيع مطبوعات الجمعيَّة ورسائلها.

شعاراتهم ورموزهم

١- تبني المينورا وهي الشمعدان السباعي الذي هو رمز اليهود الديني والوطني.

٢- تبني النجمة السداسية وهي رمز لليهود كذلك.

٣- تبني اسم يهوه ويكتبونه بالعبريَّة وهو «الإله» عند اليهود.

من كتب المنظمة

١- تنطق باسمهم مجلة كانت تصدر تحت اسم برج مراقبة صهيون ثم عدلوها إلى: برج المراقبة لإخفاء كلمة صهيون.

٢- هذا الخبر الجيد عن المملكة (المقصود مملكتهم المأمولة).

٣- الأساس في الإيمان بعالم جديد.

٤- لقد اقترب علاج الأمم.

٥- العيش بأمل نظام عادل جديد.

طريقتهم في العمل

يرون أنه ثبت بالدليل أن عددًا كبيرًا من الناس لا يحضرون إلى المعابد، وأن أكثر من نصف الناس في بعض البلدان لا ينتمون إلى طائفة من الطوائف الدينيَّة، وأن ملايين من المنتمين إلى الطوائف الدينيَّة لا يحضرون عباداتهم ولا يريدون أن يستمعوا إلى رجال الدين. فعملت شهود يهوه على أن تخفي نفسها تحت أستار أنها فرقة مسيحية تطوف بالبيوت والمقاهي والأندية العامة والطرقات، حاملة الكتب والمنشورات، تعرض فيها تعاليمها بحماسة مدعية أنها حاملة رسالة دين جديد يجمع تحت لوائه أهل الأديان كافة، تتظاهر بعدم معاداة أحد أو أية طائفة من الطوائف. كما عملت على عدم الاحتفاظ بأسماء أعضائها واكتفت فقط بحفظ ناشري مطبوعاتها ونشراتها وعملت -أيضًا- على عدم الإعلان عمن يساعدها بالأموال في أداء مهامها.

يصدرون آلاف الكتب والنشرات والصحف ويوزعونها مجانًا مما يدل على قوة رصيدهم المالي.

لهم مدارس خاصة بهم ومزارع ودور صحافة ودور نشر... ولكل منها إدارة خاصة بها.

لهم مكاتب للترجمة والتأليف ولجان دينية عليا لتفسير الكتاب المقدس وفق مصلحتهم.

لهم تعاون كبير مع المنظمات المماثلة التي تعمل لصالح اليهود.

تستفيد هذه المنظمة من أعضائها في أعمال الاستخبارات والجاسوسية والدعاية.

أعدادهم وأماكن تواجدهم

لا تكاد تخلو دولة في العالم من نشاط لهذه المنظمة السرية الخطرة.

مركزهم الرئيسي في أمريكا - حي بروكلين بنيويورك: ١٢٤ Columbia Heights.

USA - New York . ١ Brooklyn (i)

وصل عدد البلدان التي يزاولون فيها نشاطهم سنة ١٩٥٥م إلى ١٥٨ دولة وكان عددهم آنذاك ٦٣٢٩٢٩ عضوًا وعدد دعاتهم ١٨١٤ داعية فكم يكون إذًا عددهم الآن؟ وقد فطنت بعض الدول إلى خطورتهم فمنعت نشاطهم وتعقبتهم ومن هذه الدول: سنغافورة، لبنان، ساحل العاج، الفلبين، العراق، النرويج، الكاميرون، الصين، تركيا، سويسرا، رومانيا، هولندا... وما يزالون ينشطون في هذه الدول بطريقتهم الخاصة السرية. أما في إفريقيا والدول الإسلاميَّة فغالبًا ما يكون نشاطهم بالتعاون مع المنظمات التبشيريَّة.

لهم علاقة وطيدة بإسرائيل وبالمنظمات اليهوديَّة العالمية كالماسونية.

لهم علاقة تعاون مع المنظمات التبشيريَّة والمنظمات الشيوعية والاشتراكية الدولية.

لهم علاقة كبيرة مع أهل النفوذ من اليونانيين والأرمن[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٤٨- ٦٥٢).

الفصل الثامن

الأبوس دبي

التعريف:

الأبوس دبي: منظمة سرية دينية لا رهبانية نصرانية كاثوليكيَّة معاصرة، تسعى إلى سيادة التعاليم الإنجيلية والعودة إلى النصرانيَّة الأولى كما هي موجودة في الإنجيل المتداول. وذلك وفق ضوابط تنظيمية دقيقة محكمة مع الاستفادة الكاملة من معطيات العصر الحديث، وتتلمس طريقها من خلال السيطرة على النواحي السياسية والاقتصادية والتربوية.

واسمها يجمع بين اسمي جمعيَّة الصليب المقدس، ومنظمة العمل الإلهي معًا.

وتختلف عن الهيئات الأخرى في عدم ارتداء زيٍّ خاص بها، وسرية النذر وعدم وجود حياة جماعية مشتركة بشكل إجباري، ومصادر دخلها تعد سرًّا من الأسرار.

التاريخ والأحداث

أسس هذه المنظمة القس خوسيه ماريا أسكريفا في أسبانيا وذلك في ٢ أكتوبر ١٩٢٨م وهو يزعم أنه قد اختير لهذه المهمة بوحي إلهي وذلك كي يضفي على هذا التأسيس هالة من التقديس.

وفي عام ١٩٣٠م تم تأسيس الفرع النسائي للمنظمة على نفس نمط الفرع الرجالي تنظيمًا وانتشارًا.

وجدت أفكار أسكريفا أرضًا خصبة في إسبانيا تحت حكم الجنرال فرانكو وبخاصة عقب الانتهاء من الحرب الأهلية فيها.

ولقد نشأت هذه المنظمة في الأصل لتكون لصيقة بنظام الجنرال فرانكو، وكان لتأييده لها أثر مهم في زيادة نفوذها وانتشارها.

لقي المؤسس اهتمامًا من الفاتيكان مما جعله يقرر الانتقال من أسبانيا إلى روما والإقامة هناك بشكل نهائي جاعلًا منها المقر الرئيسي للمنظمة.

وفي الثاني من شباط سنة ١٩٤٧م قام الفاتيكان بمنح الأبوس دبي درجة (هيئة دينية لا رهبانية) أي هيئة دينية للعمل ضمن ومن خلال المجتمع المدني.

ظل أسكريفا رئيسًا لهذه المنظمة طيلة حياته إلى أن توفي عام ١٩٧٥م.

ويمكن أن توصف المنظمة بأنها (مافيا دينية كاثوليكيَّة) بوحي من أهدافها وحسب مصلحتها للسيطرة السياسية والاقتصادية في أسبانيا بخاصة وفي مختلف دول العالم بعامة. وقد شكلت المنظمة إمبراطورية اقتصادية صناعية تماثل أرق وأحدث صور الإمبراطوريات الصناعية الاقتصادية

المتعددة الجنسيات الموجودة في العالم. وهي متغلغلة في جميع الأوساط والطبقات.

وتحاول المنظمة الوقوف بكل حزم أمام تيار المنظمات اليسارية والليبرالية والماسونية.

الهيكل التنظيمي

- المجلس العام: ويتألف من الرئيس والسكرتير العام والنائب العام وشخصيات من أربع عشرة دولة، وهو الذي يتخذ القرارات الحاسمة باعتباره أعلى سلطة في المنظمة بجميع فروعها في العالم وبأقسامها الثلاثة: القساوسة، والمدنيين، والفرع النسائي.

- القساوسة: وهي أعلى درجة يطمح العضو فيها ويرتقي إليها العضو النظامي، وحتى عندما يتحول العضو النظامي إلى قسيس؛ فإنه لا يتخلى عن عمله المهني ويصبح في هذه الحال طبيبًا قسيسًا أو محاميًا قسيسًا... إلخ.

- العضو النظامي: وهي أعلى درجة في التنظيم.

- الناذر نفسه (القربان) ويقوم بنذر نفسه للمنظمة ويكرس حياته لها.

- العضو غير النظامي.

- المتعاون، علاقته كنصير أو مؤيد.

- اعترفت الكنيسة الأسبانية بهذا الهيكل التنظيمي للأبوس دي اعترافًا شبه رسمي مما دعم مكانتها وزاد في انتشارها.

- يقوم تنظيم نسائي على يد أخوات الأعضاء البارزين في الحركة.

- إذا أظهر المرشح رغبة للانضمام فإن عليه أن يخضع (لإرادة الرب)، وإرادة الرب عندهم هي أن يدخل المرء في هذه المنظمة، وبعد ستة أشهر تقريبًا من العيش داخل المنظمة وروحانيتها يقبل المرشح بشكل رسمي.

- بعد ستة أعوام من الانضمام تقام حفلة (الإخلاص والوفاء) لتأكيد عضوية المتقدم بشكلٍ نهائي حيث يعطي خاتمًا عليه قطعة من الحجر الكريم يفرض عليه حمله طوال حياته.

- كثير من أعضاء المنظمة يجعلون من الحمار شعارًا لهم ويقولون: إن المسيح قد دخل القدس وهو راكب على ظهر حمار، ومن صلوات أسكريفا قوله مخاطبًا ربه: (أنا حمارك الجربان).

الأفكار الدينيَّة والتنظيمية

تؤمن المنظمة بكل معطيات النصرانيَّة من تثليث، وأب، وابن، وروح القدس، والعذراء، والصليب، والفداء، والقرابين، والخطيئة، وأكل لحم الخنزير، وما إلى ذلك مما يعتقده النصارى بعامة.

وأهداف المنظمة دينية صرفة، فهي تعمل من أجل إعلاء النصرانيَّة وفق العقائد الكاثوليكيَّة، عن طريق التربية والسياسة والاقتصاد.

- يتضمن نشاط المنظمة جهود رجال الدين، ومن غير رجال الدين، كما يشمل الرجال والنساء، ويعطي عناية خاصة للشباب.

- يحرض التنظيم على أن يكون أعضاؤه قدوة حسنة، كما يحرص على السرية والكتمان.

- يهدف التنظيم فيما يعلنون إلى تربية جادة صارمة لأعضائه، تقوم على الجدية، والعفة وحسن الخلق، بل والتقشف أيضًا، فكأنه يريد أن يحيي فيهم روح الأوائل.

- يقوم التنظيم على ضوابط دقيقة في الانتساب، ثم في التعامل بين الأعضاء في مرحلة ما بعد الانتساب، وحتى في حالات الاستقالة أو الفصل، وتوزع الأمور توزيعًا موضوعيًّا يعطي المرء حق التظلم والاعتراض.

- التنظيم عمل متكامل يهدف إلى المواءمة بين النواحي الروحية الدينيَّة وبين الاستفادة من كل ما تقدمه الحضارة الحديثة من أدوات تنظيمية دقيقة ذات أهداف ومناهج وضوابط وموارد مالية.

روحانيات الحركة

تتركز النواحي الروحية للحركة فيما يلي:

- تقبل الأرض عند الاستيقاظ.

- الحمام والحلاقة خلال نصف ساعة على الأكثر.

- نصف ساعة للصلاة الفردية، وبعد ذلك قداس جماعي لمدة عشر دقائق.

- بعد الغداء زيارة مكان القربان المقدس، وبعد ذلك ثلاث ساعات من الصمت الأصغر.

- (العصرونية) وهو وقت مخصص للنشاط الجماعي بسبب وجود بعض المدعوين (المرشحين) حيث تختلق مناقشات في موضوع ديني ما أو حادثة دينية معينة.

- نصف ساعة للصلاة.

- نهاية اليوم وتقرأ فيه الصلوات، ثم يجري فحص عام للنشاطات الروحية أو المالية التي جرت فيه، ويبدأ بعد الصمت الأكبر الذي يمنع فيه الكلام خلال كل الوقت الباقي حتى اليوم التالي.

- قبل النوم يرسم الأعضاء إشارة الصليب بأيديهم على جسمهم، ويرشون الماء المقدس على الفراش، ثم يقومون بصلاة قصيرة وينامون.

المؤلفات

- ألف أسكريفا كتيبًا صغيرًا عام ١٩٣٤م سماه اعتبارات روحية، لكن الكتاب اختفى فجأة ليحل محله كتاب الطريق الذي يعد إنجيل المنظمة، وقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٣٩م، ويحتوي على ٩٩٩ حكمة ومقسم إلى أربعين بابًا و١٣٦ موضوعًا.

- لأسكريفا أطروحة دكتوراه، وله كتب صغيرة حول صلاتهم.

- من كتب المنظمة القيمة الإلهية للإنسان تأليف خوسي أورتيغا، يتكلم فيه عن الإنسان الكاثوليكي الصليبي. وكتاب روحانية العلمانيين تأليف خوان باركيستا توريو.

الأعداد وأماكن التواجد

- لا يوجد في العالم بلد نصراني إلا وللمنظمة وجود فيه، فقد اتسع وجود المنظمة ليشمل أكثر من خمسين دولة في العالم تغلغلت من خلالها في جميع الجوانب الفكريَّة والثقافية والسياسية والمالية.

- تتركز قوتها في المناطق التالية: أسبانيا وفيها ثقلها الأساسي، إيطاليا حيث يقوم المركز الرئيسي والدولي في روما بشارع فيرلا برورو Virla Bruro ومهمته الإدارة والتنظيم، الفلبين في شرق آسيا، المكسيك وفنزويلا في أمريكا اللاتينيَّة، وقد دخلت الحياة العامة في كولومبيا والبيرو وتشيلي، وأخيرًا في الأرجنتين ولكن بنسب متفاوتة، وكينيا في إفريقيا.

- يصل عدد أعضاء المنظمة في العالم اليوم إلى حوالي ٧٢٠٠٠ نسمة من ٧٨ جنسية نصفهم في أسبانيا. وتملك المنظمة أكثر من ٧٠٠ مدرسة ابتدائية وإعدادية وثانوية ومعهد وبيت للطلبة ومركز ثقافي منتشرة في العالم منها ٤٩٧ جامعة ومدرسة عليا.

- يملكون ٥٢ محطة إذاعة، ١٢ شركة توزيع وإنتاج سينمائي و٦٩٤ مطبوعة دورية و٣٨ وكالة أنباء و١٣ بنكًا وشركات ومصانع وعقارات كثيرة.

- وصلت المنظمة إلى السيطرة شبه الكاملة على المجلس الأعلى للأبحاث العلميَّة في أسبانيا.

- في أسبانيا وحدها تملك المنظمة ٢١ بيتًا من بيوت الطلبة تديرها بشكل مباشر.

- وللمنظمة أعضاء وصلوا إلى الوزارة في كل من أسبانيا وإيطاليا ويشكلون ثقلًا مهمًّا في كلا البلدين.

- ولهم الآن ثلاثون نائبًا على الأقل في البرلمان الأسباني ينتمون إلى المنظمة ويتحركون بإيحاءاتها.

- وهناك أساقفة وقساوسة منتمون سرًّا للمنظمة ويعملون بين مختلف الطبقات الاجتماعيَّة الأسبانية وفي صفوف الجيش.

- ولهم رئاسة قسم الدراسات اللاهوتية في روما وهو فرع من جامعة نافارا الأسبانية [1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٥٣- ٦٥٨).

الفصل التاسع

المونية (حركة صن مون التوحيدية)

التعريف:

المونية: حركة مشبوهة تدعو إلى توحيد الأديان وصهرها في بوتقة واحدة، بهدف إلغاء الفوارق الدينيَّة بين الناس لينصهروا جميعًا في بوتقة (صن مون) الكوري الذي ظهر بنبوة جديدة في هذا العصر الحديث.

التاريخ والأحداث

مؤسس هذه النحلة هو القس الثري صن مون المولود في كوريا عام ١٩٢٠، الذي ادّعى بأنه على اتصال بالمسيح عليه الصلاة والسلام منذ عام ١٩٣٦م، وأنه منذ بلوغه السادسة والعشرين من عمره بدأ يدرس حياة الأنبياء والقادة الروحيين من مثل موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، ومن مثل بوذا وكرشنا، ويطلع على تعاليم الأديان السماوية والوضعيَّة كاليهوديَّة والنصرانيَّة والإسلام وكذلك البوذية والهندوسية.

وفي عام ١٩٧٣م انتقل إلى الولايات المتَّحدة وعقد صلات عدة مع كبار الشخصيات هناك.

وقد أُلقي القبض عليه وأودع السجن الفيدرالي بكنكتيكت لمدة سنة ونصف السنة بسبب تهربه من دفع الضرائب، وقد استطاع أتباعه تصوير سجنه على أنه اضطهاد في سبيل المعتقد الديني الذي يحمله.

ويحتل حاليًا منصب الرئيس للمجلس العالمي للأديان.

وزار ألمانيا، لكن سلطات بون أعلنت أنه شخص غير مرغوب فيه،

ويحاول صن مون أن يكون قريبًا من الأحداث المهمة؛ إذ كان له ولطائفته دور مهم في الوقوف إلى جانب الرئيس ريتشارد نيكسون في فضيحة ووترجيت، كما أنهم كانوا نشيطين في حماية برنامج الرئيس ريغان وسياسته في أمريكا الوسطى.

ويشغل منصب مساعد رئيس المجلس العالمي للأديان شانج هوان كواك، وهو أكبر معاوني مون، وقد أعلن في بيانه الذي ألقاه في المؤتمر المنعقد بتركيا سنة ١٩٨٥م عن نبوة مون وأنه يتلقى الوحي revelation من السماء.

وممن يتبع مون ويعمل في مؤسسته اليهودي فرانك كوفمان المقيم في نيويورك، وقد ناشد علماء المسلمين في مؤتمر تركيا «أن يتفهموا موقف الأديان الأخرى مثل اليهوديَّة والبوذية والهندوكية».

ومن مساعدي مون دكتور يوسف كلارك وهو قس كاثوليكي، وهو عضو مجلس إدارة المجلس العالمي للأديان، وكان ممثل المجلس في مؤتمر تركيا.

ورئيس مكتب مون في هندوراس شخص يدعى كوزا، وهو يعمل بهمة على نشر الحركة في أمريكا اللاتينيَّة.

ورئيس كنيسة مون بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة هو موسى دست.

ونظم مون عملية زواج جماعية في ميدان ماديسون جاردن بنيويورك قام خلالها بتزويج ٢٠٧٥ شابًا وفتاة على الرغم من أن المجلس القومي الكنسي في أمريكا كان قد أصدر بيانًا يعلن فيه عدم الاعتراف بكنيسة مون.

المعتقدات والأفكار

١- يزعم صن مون أنه على اتصال بالمسيح، وأنه يتلقى الوحي من السماء مدعيًا نبوة جديدة.

٢- شعاره وهدفه المعلن هو السعي من أجل توحيد الأديان على اختلاف أنواعها.

٣- يقول للنصارى بأن الإله قد رمى بالمسيحيَّة جانبًا وأبدلها برسالة جديدة هي رسالة توحيد الأديان الداعي إليها.

٤- من القانون الأساسي لحركة مون: «إن الهدف الرئيسي هو العمل من أجل توحيد العالم تحت راية إله واحد بحيث تضمحل من هذا العالم كل الحواجز والعوائق الكنسية والسياسية والوطنية والقومية والاجتماعيَّة».

٥- يقولون في كتابهم المبدأ المقدس: «إن رسالة آدم الأساسية أن يخلق الأسرة الكاملة في الأرض، وهذه المهمة لم تتحقق نتيجة لعمل الشيطان الذي كان نشيطًا في مهمته منذ بداية الخلق، وعيسى قد خلق آدم، وفشل في أمر الزواج، وترك مبدأ تكوين الأسرة الكاملة، وفشله ليس كاملًا فقد أحيا الجانب الروحي للإنسان، وقد ظل جسد الإنسان مستعبدًا للشيطان، هذا أيضًا يجب تجديده، وهذا يستلزم آدمًا ثالثًا بالاتحاد مع زوجة مثالية يمكن تحقيق هذا الهدف لإنجاب الإنسان الكامل».

٦- إنهم يقومون بدراسة رسومات بيانية يزعمون أنها «تبين أن التاريخ والأحداث متكررة ومقدرة سلفًا ووفقًا لهذه الجداول البيانية، ويقولون: إن هناك أمثلة متكررة من البشر قد اختيروا ليصيروا آباء كاملين، لكن الشيطان قد اعترض سبيلهم فلم ينجحوا، وقد وجدت هذه الأسر المثاليَّة على مر التاريخ الإنساني في فترات متقطعة على مدى أربعمائة عام سلفت».

٧- يؤكد مون محاربته للشيوعية ويركز هجومه عليها كما أنه يرسل البعثات لمناهضتها في أماكن عديدة من العالم.

طريق دعوتهم

- يتم اقتناص الشخص ليصبح عضوًا في حركتهم عن طريق دعوته أولًا إلى وجبة طعام، ثم دعوة للاشتراك في رحلة نهاية الأسبوع.

- يمنع الأفراد الجدد من التحدث بعضهم لبعض وعليهم الانتظار حتى اللقاء الآخر في نهاية الأسبوع.

- يمضي المدعو عدة أسابيع مع معلمه، وقد يجعلونه بعد ذلك في مسكن واحد مع أعضاء جدد آخرين ليلقنوهم جميعًا العقيدة الجديدة مع التركيز على تقديس وتمجيد شخصية مون والتأكيد على ضرورة التنكر لعقيدة أهاليهم ومجتمعاتهم.

- يقول مون في كتابه التوجيهي أقوال الأب الروحي: «إن عملية البعد عن العائلة والأصدقاء لا يتم بالصدفة؛ إذ لا بد أن تتمرس على حياتك الجديدة ومن بعدها يمكنك أن تتنكر لعائلتك وأصدقائك وجيرانك».

- إذا ما حاول العضو الفرار منهم فسيكون ذلك صعبًا لعدة أمور:

١- لأنه يكون قد انفصل عن عائلته فلا يستطيع العودة إليها بعد أن ناصبها العداء بسبب معتقده الجديد الذي يخالف معتقدها.

٢- لأنه يكون قد غُسِلَ دماغُه وصار أداة طيعة في أيديهم يحركونه كيفما يريدون بعد أن سيطروا عليه روحيًّا وخدعوه بالوعود السماوية الكاذبة.

٣- لأن أفراد عصابة مون سيتابعونه ويطاردونه حتى يعود إلى حظيرتهم من جديد.

٤- إذا ما استسلم العضو الجديد لهم؛ فإنهم يسخرونه لبيع الورود والشموع ليكون مصيدة لجذب الأعضاء الجدد فضلًا عن الإيراد المالي الذي يحققه لميزانية الحركة.

عقد المؤتمرات

لقد عقد مون عددًا من المؤتمرات سعيًا وراء تحقيق أهدافه، ومنها:

- مؤتمر توحيد اليهود في سويسرا.

- مؤتمر اتحاد العالم المسيحي في إيطاليا.

- مؤتمر البوذيين في اليابان.

- مؤتمر الهندوكية في سيريلانكا.

- مؤتمر اتحاد العالم الإسلامي: الذي تم عقده في تركيا قرب إسطنبول وذلك في الفترة من ١٩ - ٢٢ سبتمبر ١٩٨٥م، وقد تعاونت معهم كلية الإلهيات بجامعة مرمرة بهدف إنجاح المؤتمر.

- لديهم خطة لعقد مؤتمرات أخرى من سنة ١٩٨٩ - ١٩٩٣م.

- كان أتباع مون المشاركون في المؤتمر بتركيا يصورون الخلافات بين الأديان على أنها لا تعدو أن تكون شبيهة بتلك الخلافات الفقهية الموجودة بين المذاهب الإسلاميَّة ذاتها، وهذا محض افتراء، إذ إن الخلاف بين الأديان خلاف عقائدي قبل كل شيء، في حين أن الخلاف بين المذاهب الفقهية ليس أكثر من خلاف داخلي اجتهادي في الفروع دون الأصول.

- قال اليهودي كوفمان في الجلسة الختامية لهذا المؤتمر: «إن الأمر يحتاج إلى أن نبذل المزيد من الجهد حتى نفهم بعضنا، فإننا قد ننتسب إلى شيء واحد وعقيدة واحدة، ورغم ذلك نختلف، ومن أجل أن نلتقي لا بد لنا من أن نتفهم غيرنا من خلال نظرته!!».

المجلس العالمي للأديان

تذكر جريدة المسلمون في عددها ٣٦ أن المجلس العالمي للأديان الذي يترأسه صن مون إنما يعمل تحت رقابة المؤسسة العالمية المتَّحدة للأديان IrF، وهي واحدة من الوكالات الدينيَّة الإنسانية التابعة للكنيسة الموحدة التي هي إحدى الحركات الدينيَّة الجديدة التي أسسها صن مون في كوريا.

- وتذكر الجريدة بأن أهداف المجلس العالمي للأديان حسبما توروده مذكرة المجلس ذاته هي:

١- المناداة بوحدة الإنسانية.

٢- منح الاحترام الواجب للتراث الإنساني المختلف.

٣- دعوة الناس من كل الأديان إلى نوع من الوحدة الروحانية واحترام خصوصيات كل دين.

٤- تشجيع الفهم المتبادل والتعاون بين ومع المعتقدات الدينيَّة في العالم.

٥- معاونة هؤلاء المتطلعين إلى إيجاد تناسق وانسجام بين الأديان والمساعدة في التعاون بين المنظمات الدينيَّة.

٦- توسيع استخدام وجهات النظر الدينيَّة في حل المشكلات الإنسانية العامة.

٧- الدفاع عن حقوق الإنسان بما في ذلك حق حرية المعتقدات الدينيَّة وممارستها.

٨- التأييد العلمي للطموحات الفردية الخاصة بالمعتقدات الدينيَّة عن طريق وضع برامج من شأنها تخفيف المعاناة وتحسين حال البشرية.

أماكن تواجدهم

- تتمتع هذه الحركة بوجود ضخم في جنوب ووسط أمريكا؛ إذ إن لهم علاقات قوية مع كبار السياسيين في تشيلي وأرجواي والأرجنتين وهندوراس وبوليفيا.

- في أيرلندا لهم مركز وكنيسة أسمها الكنيسة التوحيدية، وتجدر الإشارة إلى أن لأيرلندا دورًا كبيرًا في دعم أمثال هذه الحركات.

- لهم استثمارات في جنوب كوريا، وقد سمحت لهم حكومة سيول بإقامة كنيسة لهم خارج العاصمة.

- إنهم متغلغلون في الجناح الأيمن للحزب الجمهوري بالولايات المتَّحدة كما يشكلون الجناح الأيمن للدكتاتورية في أمريكا الجنوبية.

- يمتلك زعيمهم عدة عقارات في العالم وشركات ومطاعم وأراض ومحلات لبيع المجوهرات

وشركة للنشر تسمى Paragon House، كما أسس جريدة الواشنطن تايمز التي يوزع منها ٧٥ ألف نسخة في اليابان ونيويورك وأرجواي وقبرص، ولديه فندق نيويوركر New Yorker في مانهاتن[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٥٩- ٦٦٤).

الباب الثالث

كتاب النصارى المقدّس

الفصل الأول: تعريف العهد الجديد.

الفصل الثاني: مكوّنات العهد الجديد.

الفصل الثالث: تاريخ تدوين أسفار العهد الجديد.

الفصل الرابع: تعدد الأناجيل.

الفصل الخامس: علم نقد العهد الجديد.

الفصل السادس: دراسة لنسب المسيح من خلال العهد الجديد.

الفصل السابع: صفات المسيح من خلال العهد الجديد.

الفصل الثامن: نظرة في قصة الصلب من خلال العهد الجديد.

الفصل الأول

تعريف العهد الجديد

العهد الجديد: هو الكتاب الخاص بالنصارى.

وباعتبار تسلسل النبوّات فهم يضيفون إليه أسفار العهد القديم، ليشكلا معًا -أي العهد القديم والعهد الجديد- الكتاب المقدس عند النصارى.

وكلمة عهد تعني وثيقة أو عقد، وهو عادة يكون بين طرفين، وكل من العهد القديم والجديد عند النصارى هو عهد بين الله والناس.

وأسفار العهد الجديد تعرض حياة المسيح وأعماله وأقواله وتعاليمه ونشأة الكنيسة الأولى، بالإضافة إلى وصايا ووعود للمؤمنين بالمسيح وتنبؤات عن المستقبل وكذلك عن الحياة الأبدية مع المسيح.

ويعتقد النصارى أن العهد الجديد مثل العهد القديم موحى به من الله، جاء في وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني قولهم: إن ما تتضمنه وتعرضه الكتب المقدَّسة من حقائق موحاة مكتوبٌ كله بوحي من الروح القدس، وتؤمن أمُّنا الكنيسة المقدَّسة بموجب الإيمان الرسولي أن كتب العهدين القديم والجديد كلها وبجميع أجزائها مقدسة وقانونية؛ فالله هو مؤلِّفها مكتوبةً بوحي من الروح القدس.

والعهد الجديد كتب باللغة اليونانيَّة؛ لأنها اللغة السائدة آنذاك، والتي كان يفهمها معظم البشر[١].

---

(١) انظر: مقدمة موسوعة الكتاب المقدس، شحادة بشير، وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ص(٤٠٨)، تحريف الكتاب المقدس.

الفصل الثاني

مكونات العهد الجديد

يمكن تقسيم كتب العهد الجديد والمكوَّن من ٢٧ سفرًا إلى أربع مجموعات رئيسية وهي:

المجموعة الأولى: البشائر الأربعة (الأناجيل الأربعة).

وهى كما كتبها كل من: متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وكل منهم يحكي قصة المسيح من منظور معين.

والإنجيل عند النصارى: معناه البشارة المفرحة، وهي البشارة بوجود مُخلص للعالم وهو يسوع المسيح، لذلك فالإنجيل هو إنجيل المسيح وإن كنا نطلق اسم الإنجيل حسب مؤلِّفه، فإن الاسم الكامل هو «إنجيل يسوع المسيح كما رواه متّى أو مرقس...».

١- **إنجيل متّى:** يعرض متّى يسوع المسيح كملِك ومُخلِّص وهو يستشهد بنبوءات العهد القديم ليثبت أن يسوع هو المسيح المُنتظر، وأن يسوع قد تمم نبوءات العهد القديم.

٢- **إنجيل مرقس:** وقد كتبه مرقس للمؤمنين في روما، وهو يحكى كيف عاش المسيح على الأرض كإنسان.

٣- **إنجيل لوقا:** والذي كتبه الطبيب لوقا إلى أحد معارفه، وفيه يصور كيف عاش المسيح كإنسان كامل.

٤- **إنجيل يوحنا:** وهو يؤكد أن المسيح هو ابن الله المُتجسِّد، وأن المؤمنين به يرثون الحياة الأبدية معه في الملكوت السمائي.

ورموز هذه الأسفار هي: إنجيل متّى (مت)، مرقس (مر)، لوقا (لو)، يوحنا (يو).

المجموعة الثانية: القسم التاريخي (كتاب التاريخ):

سفر أعمال الرسل: وفيه يحكي لوقا الطبيب كيف أن المسيح يسوع أرسل الروح القدس (البارقليط) حتى يواصل عمل المسيح على الأرض بعد أن صعد يسوع إلى السماء.

والسفر يحكى أيضًا كيف نشر الرسل بشارة الإنجيل في العالم، ويحكي أيضًا بصفة خاصة عن الرسول بولس الذي يُعرف برسول الأمم (غير اليهود)، وقد أسس الرسول بولس العديد من الكنائس...

ورمز هذا السفر هو: أعمال الرسل (أع).

المجموعة الثالثة: الأسفار التعليمية (الرسائل): وهي على قسمين:

القسم الأول: رسائل بولس الرسول:

وقد كتبها للكنائس ولبعض العاملين معه في نشر رسالة الإنجيل، وقد تناقلت الكنائس هذه

الرسائل فيما بينها، كذلك عملوا منها نسخًا خاصة بهم.

١- الرسالة إلى العبرانيين: توضح أن العهد الجديد في المسيح يسوع هو أفضل من العهد القديم، وتوضح أيضًا كيف أن الذبيحة في العهد القديم كانت ترمز ليسوع المسيح الذي مات من أجلنا على الصليب.

٢- الرسالة إلى رومية: تؤكد على أن الخلاص والدخول إلى الملكوت السماوي مبني على الإيمان بالمُخلِّص يسوع المسيح.

٣، ٤- رسالتا كورنثوس: كتبهما بولس ليعالج قضايا التعليم والممارسات في هذه الكنيسة.

٥- رسالة غلاطية: تؤكد مرة أخرى على أن الخلاص يكون بالإيمان وليس من خلال الأعمال الحسنة، مهما كان مقدارها.

٦، ٧، ٨- الرسائل إلى كل من أفسس وفيلبي وكولوسي: كتبها بولس الرسول في السجن بسبب تبشيره بالمسيح، وهذه الرسائل تعالج الحياة كمسيحي.

٩، ١٠- الرسالتان إلى تسالونيكي: تصفا الأمور التي سوف تحدث قبل مجيء المسيح الثاني من السماء.

١١، ١٢، ١٣، ١٤- الرسائل الأربعة: تيموثاوس الأولى والثانية، وتيطس وفيلمون: كتبها بولس لبعض للعاملين معه في خدمة الإنجيل.

ورموز هذه الأسفار هي: رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين (عب)، رسالته إلى أهل رومية (رو)، رسالتا كورنثوس الأولى والثانية (١كو، ٢كو)، غلاطية (غل)، أفسس (اف)، فيلبى (في)، كولوسي (كو)، رسالتا تسالونيكى الأولى والثانية (١تس، ٢تس)، رسالتا تيموثاوس الأولى والثانية (١تى، ٢تى)، تيطس (تي)، فيلمون (في).

القسم الثاني: الرسائل الجامعة:

في حين رسائل بولس الرسول تحمل اسم المُرسَل إليه، فإن الرسائل الجامعة تحمل اسم كاتبها؛ لأنها كُتبت للكنائس وللمؤمنين عامة.

١- رسالة يعقوب: تؤكد على أن المؤمنين بالمسيح لا بد وأن تظهر أعمالهم الحسنة.

٢، ٣- رسالتا بطرس: تشجع المؤمنين الذين يتعرضون للآلام ويحثهم على الصبر لحين عودة يسوع.

٤، ٥، ٦- رسائل يوحنا الثلاثة: يوحنا كاتب الإنجيل وسفر الرؤية هو أيضا كاتب ٣ رسائل تحمل اسمه، وهو يحث المؤمنين على أن يحبوا الآخرين؛ لأن الله محبة.

٧- رسالة يهوذا: يحذر المؤمنين من التعاليم الباطلة، ويتحدث عن عودة المسيح الثانية ليدين العالم.

ورموز هذه الأسفار هي: رسالة يعقوب (يع)، رسالتا بطرس الأولى والثانية (١بط، ٢بط)، رسائل يوحنا الأولى والثانية والثالثة (١يو، ٢يو، ٣يو)، رسالة يهوذا (يه).

المجموعة الرابعة: كتاب النبوة (سفر النبوة):

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي: وهو يتحدث بصورة رمزية عن نهاية العالم والأحداث التي تسبقها.

ورمز هذا السفر هو: سفر الرؤيا (رؤ)[١].

(١) انظر: مقدمة موسوعة الكتاب المقدس.

الفصل الثالث

تاريخ تدوين أسفار العهد الجديد

نناقش قضية تدوين أسفار العهد الجديد من خلال النقاط الست الآتية:

أولًا: مدى صحة نسبة الأناجيل إلى من نسبت إليهم:

إن كتب النصارى وخاصةً الأناجيل الأربعة متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، كتبٌ مجهولٌ كُتَّابها، ومما يبين ذلك عدة أشياء:

١- أن الأناجيل الأربعة وسفر الأعمال لم يذكر في أي واحد منها في بدايته أو نهايته اسم كاتبه، وكذلك أكثر الرسائل، ما عدا رسائل بولس.

فالأناجيل الأربعة لم يوقع أصحابها أو يكتبوا أسماءهم؛ ولذلك ففي الطبعات الإنجليزية تُكتب وفقًا لمتى، أو مرقس، أو لوقا، أو يوحنا.

٢- أن بولس صاحب أكبر مجموعة من الرسائل في العهد الجديد لم يشر ولا مرةً واحدةً لواحدٍ من تلك الأناجيل، ولم يذكر واحدًا منها ألبتة، وبولس يعتبر من أكثر المتقدمين الذين وصلت كتاباتهم الدينيَّة إلى أيدي النصارى، ومع ذلك لم يذكر ولا مرةً واحدةً في جميع رسائله إنجيلًا واحدًا من تلك الأناجيل الأربعة باسمه، وإنما ذكر ما أطلق عليه: الإنجيل، أو: إنجيل الله، كقوله في رسالته إلى تسالونيكي الأولى ٢/ ٢: جاهرنا في إلهنا أن نكلمكم بإنجيل الله بل كما استحسنا من الله أن نؤتمن على الإنجيل. . .

وهذا الإنجيل المشار إليه -أو إنجيل الله- لا وجود له بين الأناجيل المعتبرة لدى النصارى، بل إن أيًا من أصحاب الأناجيل أو الرسائل الأخرى لم يشر إلى إنجيلٍ من تلك الأناجيل، مما يدل دلالةً واضحةً أن تلك الأناجيل لم تكن معروفةً وليس لها وجود في تلكَ الأزمان وإلا وجب الإشارة إليها.

٣- إن الدراسات تثبت أنه إلى سنة ١٤٠م لم يُعرف أن أحدًا أشار إلى شيء من الأناجيل الأربعة أو ذكرها بالاسم، فقد قال أصحاب المدخل إلى العهد الجديد، والمطبوع مع العهد الجديد، الطبعة العاشرة من منشورات دار المشرق، في بيروت ١٩٨٥م ما نصه: ومهما يكن من أمر فليس هناك قبل ١٤٠م أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة، ولا يذكر أن لمؤلف من تلك المؤلفات صفة ما يلزم، فلم يظهر إلا في النصف الثاني من القرن الثاني شهادات ازدادت وضوحًا على مر الزمن، بأن هناك مجموعة من الأناجيل، وأن لها صفة ما يلزم، وقد جرى الاعتراف بتلك الصفة على نحو تدريجي، فيمكن القول: إن الأناجيل الأربعة حظيت نحو السنة ١٧٠م بمقام الأدب القانوني[1].

(١) انظر: اختلافات في تراجم الكتاب المقدس ص(٨٩)، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي ص(٩٨- ١٠٣).

ويؤرخ صاحب المدخل إلى العهد الجديد ظهورَ الأناجيل وكتب العهد الجديد ما بين ١٠٠-١٧٠م، ويقول: كانت أول مجموعة عرفتها الكنيسة من العهد الجديد هي مجموعة رسائل بولس؛ فهي أول ما جمع من كل كتب العهد الجديد... ثم يقول: أما المجموعة الثانية فهي مجموعة الأناجيل الأربعة، وقد ظهرت هذه المجموعة متأخرة بعض الوقت عن مجموعة كتابات بولس(١).

وهذا التاريخ ١٤٠م متأخرٌ جدًّا عن وفاة آخر من تنسب إليهم تلك الكتب بنحو ٧٠ سنة، فإذا كانت تلك الكتب لم تعرف إلا بعد وفاة المنسوبة إليهم بأكثر من نصف قرن فكيف يمكن إثبات صحة نسبتها إلى أولئك الكُتَّاب.

٤- إن اللغة التي كتبت بها تلك الكتب في الأصل إما الآراميَّة أو العبريَّة، إلا أنها لم تُعرف إلا باليونانيَّة ولا يعرف من هو مترجمها.

والمعروف أن المسيح تكلم اللغة التي كانت دارجةً في فلسطين وقت بعثته، وهي اللغة الآراميَّة، وتواجه العلماء صعوبة كبرى تكمن في الكيفية التي ترجمت بها أقوال عيسى من الآراميَّة إلى اليونانيَّة.

ثانيًا: إن أصحاب الأناجيل المنسوبة إليهم مجهولون تمامًا:

لا يوجد لدى النصارى أي معلومات محققة عن شخصيات كُتَّاب كتبهم، بل كل المعلومات المتوفرة هي تلك التي تشير إلى شيءٍ قليلٍ جدًّا من الحوادث ضمن أحداث مع المسيح عليه السلام، وهي لا تعطي تعريفًا بشخصيات كُتَّاب تلك الكتب.

يقول جورج كيرد: عندما كتبت الأناجيل لم يكن هناك مجرد التحقق من شخصية التلاميذ.

كما أعلن فاستوس الذي كان من أعظم علماء فرقة ماني في القرن الرابع الميلادي: إن تغيير الديانة النصرانيَّة كان أمرًا محقًّا، وإن هذا العهد الجديد المتداول حاليًا بين النصارى ما صنعه السيد المسيح ولا الحواريون تلامذته، بل صنعه رجل مجهول الاسم ونسبه إلى الحواريين أصحاب المسيح ليعتبر الناس.

ثالثًا: لا يوجد لدى النصارى أي دليل موثق لكتابة أحد من الذين نسبت إليهم تلك الأناجيل:

إنه لا يوجد معلومة صحيحة عند النصارى تؤكد أن متَّى الذي زعموا أنه حواري كتب إنجيلًا، أو مرقس الذي زعموا أنه من تلاميذ الحواريين، أو لوقا الذي هو تلميذ بولس، أو يوحنا الذي زعموا أنه من الحواريين كتبوا تلك الأناجيل بالطريقة التي يحتاج إليها لإثبات صحة الكتب، كما هو الحال مثلًا لدى المسلمين، فإن الشيخ يكتب الكتاب وينقله عنه تلاميذه بالسند المتصل، ويأخذه عنهم تلاميذهم، وهكذا حتى تصبح نسبة الكتاب إلى مؤلفه مشهورةً مؤكدةً لا يشك أدنى

---

(١) انظر: المدخل إلى العهد الجديد، فهيم عزيز، ص(١٤٦، ١٤٧).

طالب علمٍ بصحة النسبة إلى ذلك المؤلف.

أما النصارى فلا يوجد عندهم أي معلومة من هذا القبيل، ويمكن أن نضرب مثلًا بإنجيل متى ومرقس.

فأقدم معلومة معتمد عليها في ذلك وربما هي الوحيدة في ذلك هي ما نقله يوسابيوس القيصري في كتابه تاريخ الكنيسة عن رجل مجهول الحال يسمى بابياس كان أسقفًا لهيرابولس سنة ١٣٠ م.

قال بابياس: إن متى كتب الأقوال باللغة العبرانيَّة.

وقال عن مرقس صاحب الإنجيل: إن مرقس الذي صار مفسرًا لبطرس قد كتب بكل دقة كل ما نذكره من أقوال وأعمال الرب. ولكن ليس بالترتيب؛ لأنه لم يسمع الرب ولم يتبعه، ولكن كما قلت قبلًا عن بطرس الذي ذكر من تعاليم السيد ما يوافق حاجة السامعين بدون أن يهدف إلى كتابة كل ما قاله الرب وعمله، وهكذا فصل مرقس أنه لم يعمل خطًا واحدًا في كل ما ذكره وكتبه[(١)].

فهذان النصَّان يعتمد عليهما النصارى في نسبة هذين الكتابين إلى متى ومرقس، وهذان نصان لا يمكن اعتبارهما دليلًا وعمدةً لقضيةٍ خطرةٍ وعظيمةٍ كهذه القضية، وهي إثبات أن هذا الكتاب صحيح صادق موحًى به من الله من عدة أوجه:

١- أن بابياس سيء الفهم، ومحدود الإدراك؛ فقد قال عنه يوسابيوس المؤرخ: إنه أساء فهم الكتابات الرسولية، ويبدو أنه محدود الإدراك جدًا كما يتبين من أبحاثه.

وكان قد قال عنه يوسابيوس: إنه كتب روايات يقول: إنها وصلته من التقليد غير المكتوب، وأمثالًا وتعاليم غريبة للمخلص وأمورًا خرافية[(٢)].

فبهذا يكون الشخص منكر الحديث، وغير مقبول الرواية، فكيف يمكن اعتبار شهادته وجعلها أصلًا لأمرٍ خطيرٍ كهذا.

٢- إن عبارته عن متى لا تفيد شيئًا، فلم يعين من هو متى، ولم يعين الأقوال ما هي.

كما أنه ذكر أن متى كتب كتابه باللغة العبريَّة، والكتاب لم تُعرف له أصولٌ عبرية ألبتة، وإنما وجد باللغة اليونانيَّة، وهذا إما أن يدل على أن بابياس عنى كتابًا آخر غير الموجود عند النصارى، وإما أن يكون ترجم من العبريَّة إلى اليونانيَّة فينشأ من هذا إشكال آخر وهو: من هو مترجمه؟ وما مدى علمه واستقامته وتدينه؟ وكذلك ما مدى معرفته بالعبريَّة التي ترجم منها ومعرفته باليونانيَّة التي ترجم إليها؟ إذ لا بد من الاطمئنان على معرفته باللغتين للتأكد من صحة ترجمته، وهذا مهمٌ جدًا؛ لأن النسخة اليونانيَّة صارت هي الأصل، أما العبريَّة فمفقودة، فلا بد من التأكد من علم

(١) انظر: تاريخ الكنيسة ص(١٧٧)، المدخل إلى العهد الجديد ص(٢١٨).

(٢) انظر: المدخل إلى العهد القديم ص(٧٨)، قاموس الكتاب المقدس ص(٣٥٧).

مترجمها وأمانته وإلا فقدت قيمتها.

وكذلك قوله عن مرقس، فإنه لم يحدد من هو مرقس هذا الذي صار مفسرًا لبطرس وقال: إنه كتب ما تذكر، مما يدل على أن الكتابة ليست موثقة، وإنما هي كتابة من الذاكرة التي لا يمكن اعتبارها شاهدًا موثوقًا، ثم قال أيضًا: إن بطرس إنما ذكر حاجة السامعين بدون أن يهدف إلى ذكر ما قاله الرب، مما يعني محدودية المعلومات المذكورة وأن هناك أشياء كثيرة لم يذكرها، مما يدل على ضياع التعاليم ولعدم شمولها لكل أقوال المسيح، أو على الأقل أكثرها، بل الأكثر هو الذي لم يذكر.

فمن هنا يمكننا القول: إنه لا يوجد لدى النصارى الإثباتات اللازمة لتأكيد صحة نسبة الأناجيل إلى من نسبت إليهم، وأن كل دعاويهم التي يدعون: مثل أن تلك الكتب وحي من الله أو الروح القدس، أو أنها صحيحةٌ وصادقةٌ، لا دليل عليها ألبتة سوى مجرد الدعوى[١].

رابعًا: الاختلافات بين النسخ المخطوطة للعهد الجديد وتصحيحها:

لا تجد بين مخطوطات العهد الجديد نسختين متفقتين، ولا يوجد (أصل) لإنجيل عيسى لحسم أي خلاف بين روايات الأناجيل.

يقول جورج كيرد: إن أول نص مطبوع من العهد الجديد كان الذي قدمه أرازموس عام ١٥١٦ م، وقبل هذا التاريخ كان يحفظ النص في مخطوطات نسختها أيدي مجهدة لكتبة كثيرين، ويوجد اليوم من هذه المخطوطات ٤٧٠٠ ما بين قصاصات من ورق إلى مخطوطات كاملة على رقائق من الجلد أو القماش، وأن نصوص جميع هذه المخطوطات تختلف اختلافًا كبيرًا ولا يمكننا الاعتقاد أن أيًا منها قد نجا من الخطأ، ومهما كان الناسخ حي الضمير فإنه ارتكب أخطاء، وهذه الأخطاء بقيت في كل النسخ التي نقلت من نسخته الأصليَّة، وأن أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدي المصححين الذي لم يكن عملهم دائمًا إعادة القراءة الصحيحة.

ويؤكد تشيندورف الذي عثر على نسخة سيناء (أهم النسخ) في دير سانت كاترين عام ١٨٤٤، والتي ترجع إلى القرن الرابع: إنها تحتوي على الأقل على ١٦٠٠٠ تصحيح، ترجع على الأقل إلى سبعة مصححين أو معالجين للنص، بل قد وجد أن بعض المواقع قد تم كشطها ثلاث مرات وكتب عليها للمرة الرابعة[٢].

وقد اكتشف ديلتسش، أحد خبراء العهد القديم وأستاذ ومتخصص في اللغة العبريَّة، حوالي ٣٠٠٠ خطٍّ مختلفٍ في نصوص العهد القديم التي عالجها بإجلال وتحفظ.

---

(١) انظر: تحريف الكتاب المقدس.

(٢) انظر: Synopse، لهوك ليتسمان، ص(١١)، لعام ١٩٥٠ .

وتعترف طائفة شهود يهوه في الصفحة الخامسة من مقدمة كتابهم: في أثناء نسخ المخطوطات الأصليَّة باليد تدخَّل عنصر الضعف الإنساني ولذلك فلا توجد من بين آلاف النسخ الموجودة اليوم باللغة الأصليَّة نسختان متطابقتان.

خامسًا: ضعف سند الأناجيل.

إن أقدم الأناجيل الموجودة اليوم، لم تكتب في حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرةً، أو حتى بعد ذلك ببضع سنين، بل كتب أول الأناجيل بعد موت المسيح بمدة طويلة.

وقد قيل: إن من أسباب تأخر كتابتها:

١- تفشي فكرة المجيء الثاني للمسيح قبل أن يموت ذلك الجيل الذي عاصر المسيح.

٢- ما تعرض له الحواريون من اضطهاد من قبل اليهود والرومان. وهذا ابن حزم يعطينا صورةً واضحة للأحداث، والظروف التي مرت بها دعوة عيسى فيقول: «وأما النصارى فلا خلاف بين أحد منهم ولا من غيرهم في أنه لم يؤمن بالمسيح في حياته إلا مائة وعشرون رجلًا فقط، وكل من ظفر به منهم إما قتل بالحجارة، وإما صُلب أو قتل بالسيف أو بالسم، فبقوا على هذه الحالة لا يظهرون ألبتة، ولا لهم مكان يأمنون فيه، مدة ثلاثمائة سنة بعد رفع المسيح، وفي خلال ذلك ذهب الإنجيل المنزل من عند الله عز وجل إلا فصولًا قصيرة أبقاها الله تعالى حجةً عليهم وخزيًا لهم».

يضاف إلى ذلك أن عدم اعتناء النصارى بالتدوين مباشرة من فم المسيح أدى إلى أن يكون ما كتب من الذاكرة فقط بعد فترةٍ زمنية طويلة، فكانت النتيجة عدم دقة الأناجيل.

وتأخر كتابة الأناجيل فترة زمنية طويلة كفيلة بنسيان الشيء الكثير مما سمع من المسيح ونقل عنه كما نطق به، ولذلك ضاع منه ما ضاع ونسي منه ما نسي.

والكتبة: متّى، مرقس، يوحنا، لوقا، كتبة الأناجيل المعتمدة لدى النصارى لم يسمعوا جميعهم من المسيح مباشرة، ولم يكونوا جميعهم من تلاميذه، ولم يذكروا سندًا للسماع فهو سند منقطع عن المسيح[(١)].

سادسًا: أثر المعتقدات على كتابة الأناجيل.

يقول الأب بولس إلياس: إن الأناجيل بُنِيَت على المعتقدات فقد نشأت المعتقدات بواسطة بولس، ثم كتب بولس رسائله بين سنة ٥٥ وسنة ٦٣ ميلادية، بَيْدَ أنَّ الإنجيليين لم يبدءوا كتابة أناجيلهم إلا في سنة ٦٣ ميلادية.

ويقول فردريك جرانت: إن العهد الجديد كتاب غير متجانس ذلك أنه شتات مجمع، فهو لا يمثل وجهة نظر واحدة من أوله إلى آخره، لكنه في الواقع يمثل وجهات نظر مختلفة.

---

(١) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل، د. محمد شلبي شتيوي ص(١٤-١٥)

ويقول القس شورر: إن الهدف من القول بالوحي الكامل للكتاب المقدس، والمفهوم الرامي إلى أن يكون الله هو مؤلفه هو زعم باطل ويتعارض مع المبادئ الأساسية لعقل الإنسان السليم، الأمر الذي تؤكده لنا الاختلافات البينة للنصوص، لذلك لا يمكن أن يتبنى هذا الرأي إلا إنجيليون جاهلون أو مَن كانت ثقافته ضحلة(١).

وأما تفصيل الكلام عن الأناجيل فهو كالآتي:

إنجيل متَّى

شخصية متَّى غير متأكد منها، فقيل: إنه أحد تلاميذ المسيح، وقيل: غير ذلك.

والنقاد ينكرون نسبة هذا الإنجيل إلى متىّ الحواري، وينسبونه إلى أحد أتباعه الذي وضع عليه اسم متَّى تلميذ عيسى ليطمئن الناس إليه ويقبلونه باعتباره أحد الذين عايشوا عيسى وشاهدوا أحواله.

ويؤكد رحمة الله الهندي أن الإنجيل المنسوب إلى «متَّى» ليس من تأليف «متَّى الحواري»، إذ لو كان هو مؤلف هذا الإنجيل لظهر من كلامه في موضع من المواضع أنه يكتب الأحوال التي رآها، ولعبر عن نفسه بصيغة المتكلم، كما جرت به العادة سلفًا وخلفًا، وهذه العادة ما كانت مهجورة في عهد الحواريين أيضًا.

فمثلًا في متَّى ٩/٩: وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانًا جالسًا عند مكان الجباية اسمه متَّى فقال له: اتبعني فقام وتبعه.

فمَن الذي يتحدث هنا عن متى؟ إنه شخص آخر وإلا قال: رأني جالسًا فقال لي... فقمت وتبعته، وزاد المعنى إيضاحًا فقال: (وتبعته)، بدلًا من (وتبعه).

ووقت كتابة هذا الإنجيل غير محدد أيضًا، فقيل: كتب إنجيله سنة ٤١م حسب قول البعض، والبعض الآخر يرى أنه كتب سنة٦٠م.

ولم يقع اتفاق على اللغة التي كتب بها هذا الإنجيل، فقيل: العبريَّة، وقيل: الآراميَّة.

ومهما كانت لغة الأصل؛ فإن هذا الأصل المزعوم مفقود والموجود هو الترجمة اليونانيَّة للأصل المزعوم المفقود.

والمترجم أيضًا مجهول، وتاريخ الترجمة كذلك مجهول، والأصل لا وجود له، مما يجعل من الصعب التثبت من مدى تطابق الترجمة مع الأصل إن كان هناك أصل(٢).

---

(١) انظر: يسوع المسيح، بولس إلياس، ص(١٨)، حقائق حول الكتاب المقدس.

(٢) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل ص(٤٦، ٤٧)، مقارنة بين الأناجيل الأربعة، د. محمد علي الخولي ص(١٨)، الاختلافات في الكتاب المقدس.

إنجيل مرقس

في تحديد هوية مرقس ومعرفة ما إذا كان من تلاميذ المسيح أم لا فهناك ثلاثة أقوال:

١- فريق يدعي أن مرقس كان تلميذًا لعيسى أو أنه واحد من السبعين رسولًا -هكذا عند النصارى- الذين أرسلهم عيسى مبشرين بالدين الجديد في المدن التي يزمع عيسى الذهاب إليها.

٢- وفريق آخر يرى أن مرقس ليس من الحواريين الاثني عشر وليس من السبعين، ولا من المائة والعشرين الذين خطب فيهم بطرس، وإنما هو شخص مغمور من عامة الناس.

٣- وفريق ثالث يتوسط القضية فيجعل من مرقس تلميذًا لبطرس الذي كان تلميذًا لعيسى.

ولم يذكر مرقس في إنجيله أنه سمع من المسيح، ولا ذكر من أين استقى معلوماته.

وكتب مرقس إنجيله عام ٦١م، واللغة المكتوب بها الإنجيل هي اللغة اليونانيَّة، والأصل مفقود؛ أي لا توجد المخطوطة التي كتبها مرقس.

والمخطوطات الموجودة الآن لا نجد أي نسختين تتفقان تمامًا. وخاتمة إنجيل مرقس غير متفق عليها[(١)].

إنجيل لوقا

لم يدَّعِ أحد من النصارى أن لوقا من تلاميذ المسيح، ولكن كما هي العادة عند أكثر النصارى يحاول هؤلاء إضفاء صفة القدسية والرسولية على كتبة الأناجيل سواء بطريق مباشر كما ادعوا في مرقس، أو بطريق غير مباشر كما زعموا بشأن صاحب هذا الإنجيل الثالث، فقد زعموا أن لوقا كان تلميذًا لبولس، وبولس عندهم رسول وبذلك يكون إنجيل لوقا مكتوبًا بطريقة الإلهام وبمعاونة الروح القدس الذي امتلأ منه بولس الرسول المدعي، وبولس هذا لم يرَ المسيح.

وقد كتب لوقا إنجيله عام ٦٣م والأصل الذي كتبه غير موجود.

وقد كتبه دون أن يذكر مصدر رواياته وسندها، بل ولم يقل إنه كلام الله فقد قال في مقدمة الإنجيل ١/١- ٤: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن اكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به.

فيعترف هنا لوقا بأنه لم يكتب إنجيله بالإلهام من الله بل كتبه نتيجة ما سلمه إليه آخرون ويقول (إذ قد تتبعت) وفي بعض الطبعات يقول (إذ قد أدركت)، ولم يقل: (إذ قد أُلهمت) وكتب هذا كما

(١) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل ص(٥٢)، مقارنة بين الأناجيل الأربعة ص(٩٣)، النصرانية تاريخًا وعقيدة، د. مصطفى شاهين ص(١٧٣)، حقائق حول الكتاب المقدس.

كتبه الكثيرون فهو يمشي على خطى مَن سبقوه قبله.

وهذه الفقرات من إنجيل لوقا تجعل من إنجيله رسالة شخصية بين صديقين تحولت فجأة باختيار الكنيسة إلى إنجيل مقدس!! فهي رسالة ودية من لوقا إلى صديقه العزيز المسمى ثاوفيلس وليست رسالة موجهة إلى العالم. ولا يوجد ما يدعو إلى التفكير في كونها من عند الله(١).

إنجيل يوحنا

يوحنا هذا هو أحد الحواريين الاثني عشر حسب اعتقاد بعض النصارى، ولكن الأرجح لدى البعض أن كاتب إنجيل يوحنا ليس يوحنا الحواري وهذا ما صرحت به دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى، تقول دائرة المعارف البريطانية: أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوَّر، أراد صاحبه به المضادة بين اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان «يوحنا» و«متىّ» وقد ادعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو «يوحنا» الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصًّا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينًا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نُسبت إليهم، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهودهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي -الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني- بالحواري يوحنا الصياد الجليلي؛ فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى.

ويقول هورن: إن هذا الإنجيل كتب، والغرض منه التصريح بإلوهية المسيح بعد أن كان «شير ينطوس» و«أبيسون» وجماعتهما يعلِّمون المسيحيَّة بأن المسيح ليس إلا إنسانًا.

ومما يؤكد أيضًا أن كاتب هذا الإنجيل ليس «يوحنا» الحواري أن تاريخ كتابة هذا الإنجيل الذي كان عام ٩٨م وهو تاريخ متأخر عن رفع المسيح إلى السماء وإذا كان «يوحنا» هو تلميذ المسيح فلماذا تأخر هذا الوقت عن كتابة إنجيله، ثم إن هذا سن متقدم لا يكتب فيه الناس عادةً، فإذا كان كاتبه هو «يوحنا» التلميذ فسيكون سنه فوق السبعين، فماذا يتذكر الإنسان بعد هذا العمر من أقوال كانت قبل ٦٥ عامًا أو تزيد.

وفي الإصحاح ١٩/ ٣٥: والذي عاين شهد وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم.

فمَن يكون (هو) الذي يقصده يوحنا؟ إنه شخص آخر غيره يتحدث عنه.

ويؤكد هذا في الإصحاح ٢١/ ٢٤: هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن

---

(١) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل ص(٦١)، مقارنة بين الأناجيل الأربعة ص(١٠٨)، الاختلافات في الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

شهادته حق. . . وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع أن كُتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم يسع الكتب المكتوبة.

فمَن (هذا)؟، ومَن (هو) ومن القائل «وقد علمنا» و«ظننت»؟!

ومَن هو المقصود في قوله: (ونعلم أن شهادته حق)؟

إنه شخص آخر غير يوحنا كتب هذا السفر، فنسي أن يضبط وينظم ألفاظه كباقي الأسفار، فانكشفت الحقيقة بأن يوحنا لم يكتب إنجيله ولذلك لم يوقع باسمه.

والنسخة الأصليَّة من هذا الإنجيل مفقودة، والإصحاح الواحد والعشرين منه أضيف إلى الإنجيل فيما بعد.

يقول المحقق المشهور كَروتِيسَ: إن هذا الإنجيل كان عشرين بابًا فألحقت كنيسة (أفسس) الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا.

في فترة المائة والخمسين عامًا الأخيرة تحقق العلماء أن الأناجيل الثلاثة الأولى تختلف عن إنجيل يوحنا أسلوبًا ومضمونًا.

وتقول دائرة المعارف الأمريكيَّة: إن هناك مشكلة هامة وصعبة تنجم عن التناقض الذي يظهر في نواحٍ كثيرة بين الإنجيل الرابع والثلاثة المتشابهة، إن الاختلاف بينهم عظيم لدرجة أنه لو قبلت الأناجيل المتشابهة باعتبارها صحيحة وموثوقًا فيها، فإن ما يترتب على ذلك هو عدم صحة إنجيل يوحنا[١].

إنجيل المسيح

أشار مرقس في ١/ ١٤ إلى إنجيل المسيح بقوله: وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

فأين هذا الإنجيل المشار إليه؟ إن قوله: «آمنوا بالإنجيل» صريح في أنه كان بيده إنجيل، وإلا فكيف يكلفهم بأن يؤمنوا بكتاب، لم يكن موجودًا. ثم كيف يتركون التوراة لكتاب غير موجود؟

وفي أعمال الرسل ٨/ ٢٥ يقول عن بطرس ويوحنا في دعوتهما للسامريين من اليهود: وكما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبشرا بالإنجيل في قرى كثيرة للسامريين.

وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٢/ ٢، ٤: جاهرنا في إلهنا أن نكلمكم بإنجيل الله، بل كما استحسنا من الله أن نؤتمن على الإنجيل.

إذًا الإنجيل كان كتابًا موجودًا ومعروفًا بأنه إنجيل المسيح فأين هو هذا الإنجيل المشار إليه.

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية ص(٥٤)، النصرانية تاريخًا وعقيدة ص(١٨٣)، مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص(٣٦)، الاختلافات في الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به؛ لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف والزيادة والحذف.

يقول رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق: طلبنا مرارًا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، وتفحصنا في كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئًا غير الظن والتخمين.

فالإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام من الله عز وجل ليس هو الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم، فهو ليس صورة منسوخة من إنجيل عيسى عليه السلام، وإلا لاتفقت فيما بينها في اللفظ والمعنى، والنصارى يعلمون أن الأناجيل الأربعة لم تكتسب الثقة والصحة لديهم بأمر من الله، وإنما كان ذلك بقرار من الكنيسة مما أكد الشك القائم حولها؛ لأنها اختيرت من بين مجموعة كبيرة من الكتب كان الشك حولها جميعًا ثم أصبحت هذه الأربعة مقدسة مقبولة بقرار من المجمع المسكوني الأول[١].

---

(١) انظر: إظهار الحق ص(١٠٢-١٠٣)، النصرانية تاريخًا وعقيدة ص(٥١)، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الرابع

تعدد الأناجيل

كتب لوقا في ١/١- ٤: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علّمت به.

يتبين لنا من مقدمة الخطاب الموجه من لوقا إلى صاحب السمو ثاوفيلس أن كثيرين هم الذين كتبوا مثل ما كتبه لوقا في بيان حال المسيح. فأين هذه الأناجيل؟ فمن الواضح جدًا أنه كانت هناك كثرة في كتابة الأناجيل في ذلك الزمن... فأين هي؟

يقول ج. ما كنيكل في شرحه لعبارة «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة»: هذه الكلمات هي الخبر اليقين الوحيد الذي بحوزتنا عن وجود سجلات مكتوبة قبل الشروع في تدوين الأناجيل الثلاثة الأولى، لكن تلك المؤلفات اندثرت جميعها[1].

من الملاحظ أن لوقا قد كتب إنجيله حوالي عام ٦٠م كما يذكر قاموس الكتاب المقدس ص ٨٢٣، وعليه فإن تلك السجلات المفقودة تعود لذلك التاريخ وما قبله.

وتعدد دائرة المعارف الأمريكيّة (ENCYCLOPEDIA AMERCANA، ١٩٥٩) أشهر الأناجيل الغير معترف بها والتي منها: إنجيل توما - إنجيل بطرس - إنجيل باسيليوس - إنجيل فيلب - إنجيل ماتياس - إنجيل برثولماوس - إنجيل أندراوس - إنجيل الأنكراتيين - إنجيل ثداوس - إنجيل غمالائيل - إنجيل أبللس - رؤيا إستفانوس... وغيرها من الأناجيل.

وعلى ذلك لم تكن الأناجيل الأربعة التي يتضمنها حاليًا الكتاب المقدس هي الأناجيل الوحيدة التي كانت قد دُوِّنت في القرون الأولى بعد الميلاد، فقد كان هناك الكثير من الأناجيل.

وهذا هو السبب الذي دفع لوقا أن يكتب رسالته تلك إلى صديقه ثاوفيليس التي اعتبرتها الكنيسة فيما بعد من كلام الله.

ومن المعلوم أن المجامع الأولى قد حرمت قراءة الكتب التي تخالف الكتب الأربعة والرسائل التي اعتمدتها الكنيسة فصار أتباعها يحرقون تلك الكتب ويتلفونها، فنحن لا ثقة لنا باختيار المجامع البشرية لما اختارته فنجعله حجة ونعد ما عداه كالعدم.

وها هو مجمع (ترنت) الذي عقد في القرن الخامس عشر والذي صادق على قرارات مجمع (قرطاج 'Carthage' سنة ٣٩٧ بشأن الأسفار السبعة وحكم بقانونيتها، فجاءت الكنيسة

---

(١) تفسير الكتاب المقدس، جماعة من اللاهوتيين لدار منشورات النفير- بيروت.

البروتستنانية بعد ذلك في أوائل القرن السادس عشر ورفضت قرارات هذين المجمعين بمجمع آخر!

يقول القس السابق عبد الأحد داود: إن هذه السبعة والعشرين سفرًا أو الرسالة الموضوعة من قبل ثمانية كُتّاب لم تدخل في عداد الكتب المقدَّسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلا في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م.

لذلك لم تكن أي من هذه الرسائل مصدقة لدى الكنيسة... وهناك أي في مجمع نيقية تم انتخاب الأناجيل الأربعة من بين أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلًا، وتم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل العهد الجديد من بين رسائل لا تعد ولا تحصى، وصودق عليها، وكانت الهيئة التي اختارت العهد الجديد هي تلك الهيئة التي قالت بألوهية المسيح، وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحيَّة المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها[١].

ويقول المؤرخ ديورانت في كتابه قصة الحضارة المجلد الثالث: وصدر مرسوم إمبراطوري يأمر بإحراق كتب آريوس جميعها، ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام.

ويقول الكاتب المسيحي حبيب سعيد: وبذلك فض المؤتمر النزاع القائم، وقرر إبعاد آريوس وأتباعه وحرق الكتاب الذي أودعه آراءه الملحدة.

وقد أعلن «آدم كلارك» في المجلد السادس من تفسيره: إن الأناجيل الكاذبة كانت رائجة في القرون الأولى للمسيحية، وأن فابير بسينوس جمع أكثرَ من سبعين إنجيلًا من تلك الأناجيل وجعلها في ثلاث مجلدات.

وقد كتب في مسألة تعدد الأناجيل الكثير من مؤرخي النصرانيَّة، فيقول العالم الألماني «دي يونس» في كتابه (الإسلام): إن روايات الصلب والفداء من مخترعات بولس ومَنْ شابهه من المنافقين خصوصًا وقد اعترف علماء النصرانيَّة قديمًا وحديثًا بأن الكنيسة العامة كانت منذ عهد الحواريين إلى مضي ٣٢٥ سنة بغير كتاب معتمد، وكل فرقة كان لها كتابها الخاص بها.

الغريب أن الكنيسة هي التي حددت الكتب الصحيحة التي يجب أن تُداوَل وألغت الباقي واعتبرها كتب غير قانونية، ومنها كتب ورسائل للمسيح نفسه، وكتاب لمريم العذراء، وأناجيل أخرى كثيرة للحواريين تلاميذه.

فبأي سلطان عملت الكنيسة هذا؟

من بين أربعة آلاف مخطوطة مختلفة لعشرات الأناجيل قام قساوسة الكنيسة باختيار أربعة فقط كانت تتوافق مع ما يميلون إليه وسمّوها بشارات مَتّى ومرقس ولوقا ويوحنا[٢].

---

(١) الإنجيل والصليب ص(١٤).

(٢) انظر: حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الخامس

علم نقد العهد الجديد

إن التناقض والتعارض الموجودَين في الكتاب المقدس هو أكبر دليل على تحريفه وبطلانه؛ ذلك أن التناقض من صفات الفكر البشري، ولا يمكن بأي حال أن يقع في الوحي السماوي إذ معناه الكذب والاختلاف والرب سبحانه وتعالى لا يكذب ولا يختلف مع نفسه.

ويجد المطلع على العهد الجديد وبخاصة الأناجيل الأربعة أن هناك تناقضًا فيما بينها من جهة، وتناقضًا في داخل الإنجيل الواحد من جهة أخرى، بل قد وجد في الصفحة الواحدة ما يناقض بعضه بعضًا، ويظهر هذا بوضوح أكثر في توقيت الحوادث والتقديم والتأخير في تاريخ الوقائع.

يقول (ول ديورانت): «ملاك القول أن ثمة تناقضًا كبيرًا بين بعض الأناجيل وبعضها الآخر، وأن فيها نقطًا تاريخية مشكوكًا في صحتها، وكثير من القصص الباعثة على الريبة والشُّبَه بما يروى عن آلهة الوثنيين».

معايير النقد

يمكننا في دراسة نقد العهد الجديد اتباع المعايير التالية:

١- التناقض في الشرائع بين العهد الجديد والعهد القديم.

٢- التناقض في النبوءات بين العهد الجديد والعهد القديم.

٣- التناقض في وصف الإله بين العهد الجديد والعهد القديم.

٤- التناقض في حياة يسوع بين أسفار العهد الجديد.

٥- التناقض بين الرسائل.

٦- الاختلاف بين النسخ والترجمات.

وسوف نتحدث عن هذه المعايير ونذكر لها نماذج وأمثلة.

المعيار الأول: التناقض في التشريع بين العهد الجديد والعهد القديم

الإكمال أم النقض:

في متى ٥/ ١٧: لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل.

١- الطلاق.

في متى ٥/ ٣١، ٣٢: وقيل: مَن طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني.

٢- القصاص.

في متى ٥/٣٨- ٤١: سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بل مَن لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين.

٣- الزنى.

في اللاويين ٢٠/ ١٠- ١١: وإذا زنى رجل مع امرأة؛ فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه. إنهما يُقتلان كلاهما. دمهما عليهما.

ولكن في يوحنا ٨/ ٣- ١١: وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنى. ولما أقاموها في الوسط. قالوا له: يا معلم هذه المرأة أُمسكت وهي تزني في ذات الفعل وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجم فماذا تقول أنت،...، وقال لهم: مَن كان منكم بلا خطية فليرمِها أولًا بحجر،...، فقال لها يسوع: ولا أنا أدينك اذهبي ولا تخطئ أيضًا.

٤- الميراث.

في لوقا ١٢/ ١٣- ١٤: وقال له واحد من الجمع: يا معلم قل لأخي أن يقاسمني الميراث. فقال له: يا إنسان مَن أقامني عليكما قاضيًا أو مقسمًا.

٥- طلب دم الآباء من الأبناء.

في سفر التثنية ٢٤/ ١٦: لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيته يقتل.

ولكن في لوقا ١١/ ٥٠، ٥١: لكي يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم من دم هابيل إلى دم زكريا.

٦- المسكر.

في التثنية ١٤/ ٢٦: وأنفق الفضة في كل ما تشتهي نفسك في البقر والغنم والخمر والمسكر وكل ما تطلب منك نفسك وكل هناك أمام الرب إلهك وافرح أنت وبيتك.

وفي نشيد الإنشاد ٥/ ١: كلوا أيها الأصحاب اشربوا واسكروا أيها الأحباء.

ولكن في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٦/ ١٠:... ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله.

وفي لوقا ١/ ١٥ يقول ملاك الرب عن يوحنا المعمدان: لأنه يكون عظيمًا أمام الرب وخمرًا ومسكرًا لا يشرب.

بينما في متى ١١/ ١٩: جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب. فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب

خمر محب للعشارين والخطاة.

وفي يوحنا ٢/١- ١١: وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك، . . .، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له ليس لهم خمر، . . .، قال لهم يسوع املئوا الأجران ماء فملئوها إلى فوق، . . .، فلما ذاق رئيس المتكا الماء المتحول خمرا، . . .، هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه.

٧- المخصي والمجبوب.

في سفر التثنية ٢٣/١: لا يدخل مخصي بالرض أو مجبوب في جماعة الرب.

ولكن في متى ١٩/١٢: لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع إن يقبل فليقبل.

٨- الغضب.

في سفر الخروج ٢٠/١٣، والتثنية ٥/١٧: لا تقتل.

وفي الخروج ٢٣/٧: ولا تقتل البريء والبار.

ولكن في متى ٥/٢١، ٢٢: قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلًا يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم[(١)].

المعيار الثاني: التناقض في النبوءات بين العهد الجديد والعهد القديم

١- نبوءة ملاخي.

في لوقا ٧/٢٧: هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك.

وفي متى ١١/١٠: فإن هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك.

وفي مرقس ١/٢: كما هو مكتوب في الأنبياء، ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك.

وهذه النبوءة في سفر ملاخي ٣/١: هأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي.

ولفظ: أمام وجهك، لم يوجد في كلام ملاخي، وفرق بين ضمير المتكلم في لفظ: أمامي، وضمير المخاطب في لفظ: طريقك قدامك.

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

٢- نبوءة إشعياء، (فتى أم عبد).

في متّى ١٢/١٧- ٢١: لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو ذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سُرَّتْ به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق، لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحدٌ في الشوارع صوتَه، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يُطْفَأ، حتى يخرج الحق إلى النصرة، وعلى اسمه يكون رجاء الأمم.

ولكن في سفر إشعياء ٤٢/١- ٤: هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي ووضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يُطفأ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته.

٣- نبوءة إشعياء، (اسم العذراء).

في متّى ١/ ٢٢، ٢٣: وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل، هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.

وهذه النبوءة في إشعياء ٧/ ١٤: ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل.

ويعتقد النصارى اعتقادًا جازمًا أن العذراء المقصودة هي مريم، وأن عمانوئيل يقصد به المسيح.

ولكن نصوص العهد القديم تنفي ذلك تمامًا، وتؤكد أنها أسماء بلاد:

في أرمياء ١٨/ ١٣: ما يقشعر منه جدًّا عملت عذراء إسرائيل.

وفي إشعياء ٤٧/ ١: انزلي واجلسي على التراب، أيتها العذراء ابنة بابل.

وأيضًا هذه الفقرة في سفر إشعياء لا تتنبأ عن المسيح القادم بل هي وعد الله لأحاز بن يوثان ملك يهوذا على لسان النبي إشعيا بأنه سوف يعطيه آية وعلامة لزوال ملك أعدائه، وقد بين له النبي إشعياء آية خراب ملك أعدائه وزواله وهي أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنًا يسمى عمانوئيل ثم تصبح أرض أعداءه خرابًا قبل أن يميز هذا الصبي بين الخير والشر فتقول الفقرة السادسة عشر من الإصحاح السابع من سفر إشعيا: (لأنه قبل إن يعرف الصبي إن يرفض الشر ويختار الخير تخلى الأرض التي أنت خاش من ملكيها) إي إن أحاز سوف ينتصر على «إِسْرَائِيلَ وَأَرَامَ»، قبل إن يميز الصبي بين الخير و الشر.

ثم إن المسيح عليه السلام لم يُدْعَ «عمانوئيل» بل يسوع.

٤- نبوءة زكريا.

في متّى ٢١/ ٤، ٥ عن دخول المسيح أورشليم راكبًا جحش وأنثى حمار: فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعًا راكبًا علي أتان وجحش ابن أتان.

وهذا في سفر زكريا ٩/٩: ابتهجي جدًّا يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم هو ذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان، واقطع المركبة من افرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب، ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.

والكلام في سفر زكريا عن (ملك) (منصور) وله (سلطان) علي أرض واسعة... أما المسيح فقد ظل هاريًا ومختبئًا قبل دخوله أورشليم مباشرة كما يحكي إنجيل يوحنا.

وهو أيضا يتكلم بالسلام (للأمم) ومعروف لدى اليهود والنصاري أن كلمة (أمم) تعني الشعوب غير اليهود

٥- نبوءة هوشع.

في متى ٢/ ١٤، ١٥: فقام يوسف وأخذ الطفل وأمه ليلًا ورحل إلى مصر فأقام فيها إلى أن مات هيرودس، ليتم ما قال الرب بلسان النبي: من مصر دعوت ابني.

والمراد بلسان النبي القائل هو هوشع ١١/ ١: لما كان إسرائيل غلامًا أحببته، ومن مصر دعوت ابني.

إلا أن هذا الاستشهاد خطأ؛ لأن المقصود بالابن هو «إسرائيل» لا المسيح المنتظر، وهو بيان الإحسان الذي فعله الله في عهد موسى عليه السلام على بني إسرائيل وخروجهم من مصر.

٦- نبوءة زكريا وليس إرميا.

في متى ٢٧/ ٩: حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: وأخذوا الثلاثين من الفضة ثمن المثمَّن الذي ثمنوه من بني إسرائيل وأعطوها عن حقل الفخاري كما أمرني الرب.

ولا يوجد في سفر إرميا مثل هذا، ويوجد في سفر زكريا ١١/ ١٢، ١٣، ولكن لا يطابق ألفاظ متَّى ألفاظه، ولا علاقة له في الحكاية التي يرويها، فهو يتكلم عما حدث بينه وبين شعبه، فيقول: فقلت لهم إن حسن في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة، فقال لي الرب ألقها إلى الفخاري الثمن الكريم الذي ثمنوني به فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخاري في بيت الرب.

بينما يتكلم متَّى عن يهوذا الذي خان المسيح نظير ثمن قليل من الفضة.

٧- نبوءة ميخا.

في متى ٢/ ٥، ٦: لأنه هكذا مكتوب بالنبي، وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل.

وهذه النبوءة في سفر ميخا ٥/ ٢: أما أنت يا بيت لحم افراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل.

ولكن يقول ميخا عن بيت لحم إنها صغيرة، وبينما يذكرها متّى بأنها ليست صغيرة.

وأيضًا فإن المسيح لم يتسلط على إسرائيل طرفة عين.

٨- نبوءة إرميا.

في متى ٢/١٨: حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: صوت سمع في الرامة نوح وبكاء وعويل كثير رحيل تبكي علي أولادها ولا تريد أن تتعزي؛ لأنهم ليسوا بموجودين.

وهذا في سفر إرميا ٣١/ ١٥: صوت سمع في الرامة نوح وبكاء مر حاحيل تبكي علي أولادها وتأبي أن تتعزي عن أولادها؛ لأنهم ليسوا بموجودين.

ولكن متّى يتكلم عن قتل أطفال بيت لحم علي يد الملك، بينما في إرميا يتكلم عن القرية المذكورة وهي الرامة.

وأيضًا فإن إرميا يتكلم عن استبعاد اليهود في بابل، وبعدها مباشرة يخبرهم ببشارة من الله بعودتهم إلى بلادهم قائلًا: هكذا قال الرب: أمنعي صوتك عن البكاء... فيرجعون من أرض العدو.

وهذا لا علاقة له بما حدث للأطفال في حياة المسيح.

٩- اقتباس بولس.

في رسالة بولس إلى العبرانيين ١/ ٥: أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا.

وهذا مقتبس من سفر صموئيل الثاني ٧/ ١٤: أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا.

ولكن المراد بهذا الشخص هو سليمان كما جاء ذلك في سفر أخبار الأيام الأول ٢٢/ ٩ .

وأن هذا الشخص يبني بيتًا للرب كما جاء في سفر صموئيل الثاني ٧/ ١٣، وسفر أخبار الأيام الأول ٢٢/ ١٠: أنه يبني لاسمي بيتًا.

إن هذا الشخص يكون له سلطانًا كما جاء في سفر صموئيل الثاني ٧/ ١٦ .

ومن وصفه أيضًا ما جاء في سفر أخبار الأيام الأول ٢٢/ ٩: يكون صاحب راحة وأريحه من جميع أعدائه حواليه؛ لأن اسمه يكون سليمان، فاجعل سلامًا وسكينة في إسرائيل في أيامه[1] .

المعيار الثالث: التناقض في القصص ووصف الإله بين العهد الجديد والعهد القديم

١-اسم الإله.

في الخروج ٣/ ١٥: وقال الله أيضًا لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل «يهوه» إله آبائكم إله

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكرى إلى دور فدور.

ولكن في متَّى ١٨/٢٨ - ١٩: فتقدم يسوع وكلمهم قائلًا: . . . فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.

ولم يذكر في العهد الجديد ولم يستخدم اسم الله الأبدي «يهوه» ولو مرة واحدة.

٢- إله الحرب والسلام.

في سفر الخروج ٣/١٥: الرب رجل الحرب.

وفي أشعياء ٦/٤٥، ٧: أنا الرب وليس آخر مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر.

وفي صموئيل الأول ١٤/١٦: وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردي من قبل الرب.

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ١١/٢: ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب.

ولكن في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٣٣/١٤: لأن الله ليس إله تشويش بل إله سلام كما في جميع كنائس القديسين.

وفي رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤/٢: الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون.

وفي رسالة بولس إلى العبرانيين ٢٠/١٣: وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم.

٣- قدرة البشر على رؤية الرب.

في سفر التكوين ٣٠/٣٢: فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل، قائلًا: لأني نظرت الله وجهًا لوجه.

وفي الخروج ٩/٢٤ - ١١: ثم صعد موسى وهارون وياداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا.

ولكن في يوحنا ١٨/١: الله لم يره أحد قط.

وفي يوحنا ٣٧/٥: والأب نفسه الذي أرسلني يشهد لي لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته.

وفي رسالة يوحنا الأولى ١٢/٤: الله لم ينظره أحد قط.

وفي رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ١٦/٦: ساكنًا في نور لا يُدنى منه الذي لم يره أحد من

الناس ولا يقدر أن يراه الذي له الكرامة والقدرة الأبدية.

٤- تغير الرب.

في ملاخي ٣/٦: لأني أنا الرب لا أتغير.

وفي إشعياء ٤٥/٥، ٦: أنا الرب وليس آخر لا إله سواي نطقتك وأنت لم تعرفني لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أنه ليس غيري أنا الرب وليس آخر.

وفي إشعياء ٤٣/ ١٠: قبلي لم يصور إله وبعدي لا يكون، أنا الرب وليس غيري مخلص.

وفي التثنية ٣٢/٣٩: أنا أنا هو وليس إله معي.

وفي إشعياء ٤٠/١٨: فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلون به.

ولكن الله تغير في ذاته عند المسيحيين، فأصبح آبًا وابنًا وروحًا قدسًا، فيعتقدون أنه بصفته ذاتًا هو الله الآب، وبصفته ناطقًا هو الله الابن، وبصفته حيًّا هو الله الروح القدس!

ففي رسالة يوحنا الأولى ٤/ ١٤: والآب قد أرسل الابن.

وفي يوحنا ١٦/٢٨: خرجت من عند الآب.

٥- سماع صوت رب بني إسرائيل.

في سفر التثنية ٤/ ١٠- ١٢: في اليوم الذي وقفت فيه أمام الرب إلهك في حوريب حين قال لي الرب اجمع لي الشعب فاسمعهم كلامي، . . . ، فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام.

ولكن في يوحنا ٥/٣٧: والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته.

٦- الآلهة الأخرى.

في سفر الخروج ٢٠/٣: لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

ولكن في سفر أعمال الرسل ١٥/٢٦: ربنا يسوع المسيح.

وفي رسالة بولس إلى العبرانيين ١٣/ ٢٠: ربنا يسوع.

وفي رسالة بولس إلى أهل رومية ١٥/٦، ١٨، ٢٠، ورسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ١/ ٢، ٧، ٨، ١٠، ٥/ ٤، وغيرها: ربنا يسوع المسيح.

٧- محاكمة الرب.

في سفر إرميا ٤٩/١٩: لأنه من مثلي؟ ومن يحاكمني؟ ومن هو الراعي الذي يقف أمامي.

ونجد أنه قد تمت محاكمة يسوع أمام رئيس الكهنة وأمام الوالي بيلاطس وأمام هيرودس، وهو عند النصارى الرب.

٨- عدد الأسماء من آدم إلى إبراهيم.

في التكوين ٤/ ٢٥- ٢٦، ٥/ ٣- ٢٨، ١٠/ ٢١- ٢٥، ١١/ ١٠- ٢٦: وعرف آدم امرأته أيضًا، فولدت ابنًا ودعت اسمه شيئًا... وولد أنوش... وولد قينان... وولد مهللئيل... وولد يارد... وولد أخنوخ... وولد متوشالح... وولد لامك... وولد نوحًا... وولد سام... وولد أرفكشاد... وولد شالح.... وولد عابر... وولد فالج... وولد رعو... وولد سروج... وولد ناحور... وولد تارح... وولد أبرام.

بينما في لوقا ٣/ ٣٤- ٣٨: إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفكشاد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم.

ونلاحظ أن عدد الأسماء في التكوين ١٩ ولكن في لوقا ٢٠ اسمًا، بزيادة قينان بين شالح وأرفكشاد.

٩- عدد آل يعقوب.

في التكوين ٤٦/ ٢٧: جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون.

ولكن في أعمال الرسل ٧/ ١٤: فأرسل يوسف واستدعى أباه يعقوب وجميع عشيرته خمسة وسبعين نفسًا.

١٠- عدد الذين ماتوا بسبب الزنى.

في سفر العدد ٢٥/ ١- ٩: وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب... وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفًا.

ولكن في رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس ١٠/ ٧، ٨: كما هو مكتوب جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب ولا تزنِ كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفًا.

١١- الذي ذهب إليه داود لأخذ الخبز منه.

في صموئيل الأول ٢١/ ١- ٤: فجاء داود إلى نوب إلى أخيمالك الكاهن... فقال داود لأخيمالك الكاهن... والآن فماذا يوجد تحت يدك؟ أعطِ خمس خبزات في يدي أو الموجود. فأجاب الكاهن داود وقال: لا يوجد خبز محلل تحت يدي ولكن يوجد خبز مقدس.

ولكن في مرقس ٢/ ٢٦ يقول المسيح: أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله في أيام أبيأثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة وأعطى الذين كانوا معه أيضًا.

١٢- صعود غير يسوع إلى السماء.

في سفر الملوك الثاني ٢/ ١١: وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء.

ولكن في يوحنا ٣/ ١٣: وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء[1].

المعيار الرابع: التناقض في قصة يسوع بين أسفار العهد الجديد

١- يوحنا المعمدان يأكل ويشرب.

يقول متى ١١/ ١٨: لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان.

بينما يقول مرقس ١/ ٦: وكان يوحنا يلبَس وَبَرَ الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ويأكل جرادًا وعسلًا بريًّا.

وفي متّى ٣/ ٤: ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه جرادًا وعسلًا بريًّا.

٢- معرفة يوحنا ليسوع قبل التعميد.

في متّى ٣/ ١٣، ١٦: حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلًا أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي، . . . ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة وأتيا عليه.

وفي يوحنا ١/ ٣٣: وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلًا ومستقرًّا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس.

٣- يوحنا المعمدان هو إيليا.

في متى ١٧/ ١٠- ١٣ (يسوع يؤكد أنه إيليا): وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا؟ فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيليا يأتي أولًا ويرد كل شيء ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الإنسان أيضًا سوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.

ولكن في يوحنا ١/ ١٩- ٢١ (يؤكد أن يوحنا المعمدان ليس إيليا): وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه مَن أنت فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح فسألوه إذًا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا.

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

٤- دعوة المسيح للخلاص والسلام أم للسيف والانقسام.

في لوقا ٩/ ٥٣- ٥٦: فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهًا نحو أورشليم، فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا: يا رب أتريد أن نقول إن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضًا، فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أي روح أنتما؛ لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليخلص.

ولكن في لوقا ١٢/ ٤٩- ٥١: جئت لألقي نارًا على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت، ولي صبغة أصطبغها وكيف انحصر حتى تكمل، أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض كلا أقول لكم بل انقسامًا.

وفي متّى ١٠/ ٣٤، ٣٥: لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها.

٥- دعوة المسيح لبني إسرائيل أم لأمم العالم.

في متّى ١٥/ ٢٤: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

وفي متّى ١٠/ ٥- ٦: هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

وفي لوقا ٢٤/ ٤٩، ٢٠: فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي، . . .، وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله.

ولكن في متى ٢٨/ ١٩: فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس.

وفي مرقس ١٣/ ١٠: وينبغي أن يكرز أولًا بالإنجيل في جميع الأمم.

وفي مرقس ١٦/ ١٤- ١٥: أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون. . . وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، . . .، وأما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان.

٦- المسيح يدين أحدًا.

في يوحنا ٥/ ٢٢: لأن الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كل الدينونة للابن.

وفي يوحنا ٥/ ٢٧: وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا؛ لأنه ابن الإنسان.

وفي أعمال الرسل ١٠/ ٤٢: وأوصانا إن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للإحياء والأموات.

ولكن في يوحنا ٣/ ١٧: لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم.

وفي يوحنا ٨/ ١٥: أنتم حسب الجسد تدينون أما أنا فلست أدين أحدًا.

وفي يوحنا ١٢/٤٧: وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم.

٧- المسيح يعمد أم لا.

في يوحنا ٣/٢٢: وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهوديَّة ومكث معهم هناك وكان يعمد.

وفي يوحنا ٣/٢٦: فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون إليه.

ولكن بعد قليل في يوحنا أيضًا ٤/١- ٣: فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصير ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا، مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه، ترك اليهوديَّة ومضى أيضًا إلى الجليل.

٨- شهادة المسيح لنفسه.

في يوحنا ٥/٣١: إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقًّا.

ولكن في يوحنا ٨/١٤: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق؛ لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب.

٩- دخول يسوع كفر ناحوم.

في متَّى ٤/١٢- ١٩: (قبل دعوة بطرس وأندراوس): ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل. وترك الناصرة وأتى فسكن في كفر ناحوم التي عند البحر... وإذ كان يسوع ماشيًا عند بحر الجليل أبصر أخوين: سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخاه... فقال لهما هلم ورائي.

ولكن في مرقس ١/١٦: (بعد دعوة بطرس وأندراوس): وفيما هو يمشي عند بحر الجليل أبصر سمعان وأندراوس أخاه... فقال لهما يسوع: هلم ورائي... وذهبا وراءه ثم دخلوا كفر ناحوم وللوقت دخل المجمع في السبت وصار يعلم.

١٠- ترتيب أحداث تجريب الشيطان.

في متى ٤/٥- ١٠: ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدَّسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل،...، ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عالٍ جدًّا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها.

ولكن في لوقا ٤/٥- ٩: ثم أصعده إبليس إلى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان،...، ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل.

١١- ترتيب شفاء الأبرص وخادم الضابط وحماة بطرس.

في متّى ٨/٢- ١٥: وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلًا يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني، . . . ،

ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء إليه قائد مائة يطلب إليه، ويقول يا سيد غلامي مطروح في البيت مفلوجًا متعذبًا جدًّا، فقال له يسوع أنا آتي وأشفيه، . . .

ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس رأى حماته مطروحة ومحمومة. . .

ولكن في لوقا ٤/٣٨- ٧/١١: ولما قام من المجمع دخل بيت سمعان وكانت حماة سمعان قد أخذتها حمى شديدة فسألوه من أجلها، . . .

وكان في إحدى المدن فإذا رجل مملوء برصًا فلما رأى يسوع خر على وجهه وطلب إليه قائلًا يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني، . . .

و لما أكمل أقواله كلها في مسامع الشعب دخل كفر ناحوم، وكان عبدٌ لقائد مائة مريضًا مشرفًا على الموت. . .

١٢- كيفية شفاء حماة سمعان من الحمى.

في مرقس ١/ ٣١: فتقدم وأقامها ماسكًا بيدها فتركتها الحمى حالًا وصارت تخدمهم.

وفي متّى ٨/ ١٥: فلمس يدها فتركتها الحمى فقامت وخدمتهم.

ولكن في لوقا ٤/ ٣٩: فوقف فوقها وانتهر الحمى فتركتها وفي الحال قامت وصارت تخدمهم.

١٣- من جاء إلى المسيح في قصة ابنة رئيس المجمع

في لوقا ٨/ ٤٩: وبينما هو يتكلم جاء واحد من دار رئيس المجمع قائلًا له: قد ماتت ابنتك لا تتعب المعلم.

ولكن في مرقس ٥/ ٣٥: وبينما هو يتكلم جاءوا من دار رئيس المجمع قائلين: ابنتك ماتت لماذا تتعب المعلم بعد.

١٤- الطريق المؤدي للحياة والنجاة.

في متّى ٧/ ١٤: يقول المسيح: ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه.

لكن في متى ١١/ ٢٩- ٣٠: يقول المسيح: احملوا نيري عليكم وتعلموا مني. . . لأن نيري هين وحملي خفيف.

١٥- أوصى المسيح تلاميذه بأخذ العصا.

في متّى ١٠/ ٥- ١٠: هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا. . . لا تقتنوا ذهبًا ولا

فِضَّة ولا نُحَاسًا في مناطقكم ولا مزودًا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا.

ولكن في مرقس ٦/ ٧، ٨: ودعا الاثني عشر وابتدأ يرسلهم اثنين اثنين وأعطاهم سلطانًا على الأرواح النجسة، وأوصاهم ألا يحملوا شيئًا للطريق غير عصا فقط لا مزودًا ولا خبزًا ولا نحاسًا في المنطقة.

١٦- عدد الذين قالوا للمسيح بأن أمه وإخوته يطلبونه.

في متى ١٢/ ٤٦- ٤٨: وفيما يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجًا طالبين أن يكلموه فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: مَن هي أمي ومن هم إخوتي.

ولكن في مرقس ٣/ ٣١- ٣٣: فجاءت حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجًا وأرسلوا إليه يدعونه. وكان الجمع جالسًا حوله فقالوا له: هو ذا أمك وإخوتك خارجًا يطلبونك. فأجابهم قائلًا: من أمي وإخوتي.

١٧- المكان الذي ألزمهم بالذهاب إليه بالسفينة.

في متى ١٤/ ٢٢: وللوقت الزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع.

وفي مرقس ٦/ ٤٥: وللوقت الزم تلاميذه أن يدخلوا السفينة و يسبقوا إلى العبر إلى بيت صيدا حتى يكون قد صرف الجمع.

وفي يوحنا ٦/ ١٧: فدخلوا السفينة وكانوا يذهبون إلى عبر البحر إلى كفر ناحوم.

١٨- عدد العميان الذين شفاهم المسيح عند خروجه من مدينة أريحا.

في متّى ٢٠/ ٢٩- ٣٤: وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير. وإذ أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاز صرخا قائلين: ارحمنا يا سيد يا ابن داود... فتحنن يسوع ولمس أعينهما، فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه.

ولكن في مرقس ١٠/ ٤٦- ٥٢: وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالسًا على الطريق يستعطي، فلما سمع أنه يسوع الناصري ابتدأ يصرخ ويقول: يا يسوع ابن داود ارحمني... فقال له يسوع: اذهب، إيمانك قد شفاك، فللوقت أبصر وتبع يسوع في الطريق.

١٩- ذهاب قائد المائة ومقابلة يسوع لكي يشفي غلامه.

في متى ٨/ ٥- ١٣: ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء إليه قائد مائة يطلب إليه، ويقول: يا سيد، غلامي مطروح في البيت مفلوجًا متعذبًا جدًّا فقال له يسوع: أنا آتي وأشفيه. فأجاب قائد المائة وقال: يا سيد، لست مستحقًّا أن تدخل تحت سقفي، لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي... ثم قال

يسوع لقائد المائة: اذهب وكما آمنت ليكن لك فبرأ غلامه في تلك الساعة.

لكن في لوقا ٧/ ١- ٧:... دخل كفر ناحوم وكان عبدٌ لقائد مائة مريضًا مشرفًا على الموت... فلما سمع عن يسوع أرسل إليه شيوخ اليهود يسأله أن يأتي ويشفي عبده... فذهب يسوع معهم وإذ كان غير بعيد عن البيت أرسل إليه قائد المائة أصدقاء يقول له: يا سيد لا تتعب لأني لست مستحقًّا أن تدخل تحت سقفي... لكن قل كلمة فيبرأ غلامي.

٢٠- ترتيب شفاء المجنون الأخرس وإعطاء التلاميذ قدرة إخراج الشياطين.

في متى ٩/ ٣٢: وفيما هما خارجان إذ إنسان أخرس مجنون قدموه إليه، فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس.

ثم في متى ١٠/ ١، ٢: ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض.

لكن في لوقا ٩/ ١: ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطانًا على جميع الشياطين وشفاء أمراض.

ثم في لوقا ١١/ ١٤: وكان يخرج شيطانًا وكان ذلك أخرس. فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس.

٢١- سلطان التلاميذ على أن يشفوا كل مرض.

في متّى ١٠/ ١: ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف.

ولكن في متى ١٧/ ١٤: ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثيًا له وقائلًا يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديدًا ويقع كثيرًا في النار وكثيرًا في الماء، وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا إن يشفوه، فأجاب يسوع وقال: أيها الجيل غير المؤمن الملتوي إلى متى أكون معكم إلى متى احتملكم قدموه إلي هاهنا، فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفي الغلام من تلك الساعة.

٢٢- عدد المجانين الذين قابلوا المسيح عند كورة الجدريين (الجرجسيين).

في متى ٨/ ٢٨: ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور.

ولكن في مرقس ٥/ ١- ٣: وجاءوا إلى عبر البحر إلى كورة الجدريين، ولما خرج من السفينة للوقت استقبله من القبور إنسان به روح نجس.

٢٣- سؤال الفريسيين يسوع عن شفاء صاحب اليد اليابسة يوم السبت.

في متى ١٢/ ٢- ١٣: فالفريسيون... ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم وإذ إنسان يده يابسة، فسألوه قائلين: هل يحل الإبراء في السبوت لكي يشتكوا عليه، فقال لهم: أي إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه.

ولكن في مرقس ٣/ ١- ٤: ثم دخل أيضًا إلى المجمع، وكان هناك رجل يده يابسة، فصاروا يراقبونه هل يشفيه في السبت، لكي يشتكوا عليه، فقال للرجل الذي له اليد اليابسة: قم في الوسط، ثم قال لهم: هل يحل في السبت فعل الخير أو فعل الشر، تخليص نفس أو قتل؟ فسكتوا.

٢٤- حدوث التجلي.

في متى ٨/ ١٩- ٢١: فتقدم كاتب وقال له يا معلم، أتّبعك أينما تمضي، . . . ، وقال له آخر من تلاميذه يا سيد ائذن لي أن أمضي أولًا وأدفن أبي.

ثم في متى ١٧/ ١- ٣: وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا آخاه وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردين، وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور، وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه.

ولكن في لوقا ٩/ ٢٨- ٣٠: وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلي، وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضًّا لامعًا، وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا.

ثم في لوقا ٩/ ٥٧- ٥٩: وفيما هم سائرون في الطريق قال له واحد يا سيد اتبعك إينما تمضي، . . . ، و قال لآخر اتبعني فقال يا سيد ائذن لي أن أمضي أولًا وأدفن أبي.

٢٥- الأتان والجحش.

في متى ٢١/ ١- ٢: ولما قربوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلًا لهما: اذهبا إلى القرية التي أمامكما، فللوقت تجدان أتانًا مربوطة وجحشًا معها فحلاهما وأتياني بهما.

ولكن في لوقا ١٩/ ٢٩- ٣١: وإذ قرب من بيت فاجي وبيت عنيا عند الجبل الذي يُدعى جبل الزيتون أرسل اثنين من تلاميذه. قائلًا: اذهبا إلى القرية التي أمامكما وحين تدخلانها تجدان جحشًا مربوطًا لم يجلس عليه أحد من الناس قط فحلاه وأتيا به.

٢٦- الذي ركبه يسوع وهو متوجه إلى أورشليم.

في مرقس ١١/ ٧: فأتيا بالجحش إلى يسوع وألقيا عليه ثيابهما فجلس عليه.

ولكن في متى ٢١/ ٧: وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما.

٢٧- الذي طلب من يسوع أن يجلس ابنا زبدي معه في الآخرة.

في متى ٢٠/ ٢٠، ٢١: حينئذ تقدمت إليه أم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئًا فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: قل أن يجلس ابناي هذان، واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك.

لكن في مرقس ١٠/ ٣٥- ٣٧: وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي قائلين: يا معلم نريد أن

تفعل لنا كل ما طلبنا فقال لهما: ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له: أعطنا أن نجلس، واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك.

٢٨- قصة تطهير الهيكل وشجرة التين.

في متى ٢١/ ١٢- ٢٠: ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل... ثم تركهم وخرج خارج المدينة إلى بيت عنيا وبات هناك. وفي الصبح إذ كان راجعًا إلى المدينة جاع. فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئًا إلا ورقًا فقط. فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد فيبست التينة في الحال.

ولكن في مرقس ١١/ ١١- ٢٠: لما خرجوا من بيت عنيا جاع فنظر شجرة التين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئًا فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقًا؛ لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع وقال لها: لا يأكل أحد منك ثمرًا بعدُ إلى الأبد وكان تلاميذه يسمعون. وجاءوا إلى أورشليم ولما دخل يسوع الهيكل ابتدأ يُخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام... ولما صار المساء خرج إلى خارج المدينة وفي الصباح... رأوا التينة قد يبست من الأصول.

٢٩- حال يسوع عندما أقبل عليه رؤساء الكهنة لمناقشته.

في مرقس ١١/ ٢٧: وجاءوا أيضًا إلى أورشليم وفيما هو يمشي في الهيكل أقبل إليه الكهنة والكتبة والشيوخ.

ولكن في متى ٢١/ ٢٣: ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلّم.

٣٠- قصة سكب المرأة العطر على يسوع.

في مرقس ١٤/ ١- ٨: وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين... وفيما هو في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص وهو متكئ جاءت امرأة معها قارورة طِيب ناردين خالص كثير الثمن فكسرت القارورة وسكبته على رأسه وكان قوم مغتاظين في أنفسهم فقالوا: لماذا كان تلف الطيب هذا؟ لأنه كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلاثمائة دينار ويُعطى للفقراء. وكانوا يؤنبونها. أما يسوع فقال: اتركوها. لماذا تزعجونها قد عملت بي عملًا حسنًا؛ لأن الفقراء معكم في كل حين ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيرًا. وأما أنا فلست معكم في كل حين...

وفي يوحنا ١٢/ ١- ٨: ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا... فصنعوا له هناك عشاءً. وكانت مرثا تخدم وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه.

فأخذت مريم منًا من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها فامتلأ البيت من رائحة الطيب فقال واحد من تلاميذه -وهو يهوذا سمعان الإسخريوطي المزمع أن يسلمه-: لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويُعطَ للفقراء؟!، قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء بل لأنه كان سارقًا وكان الصُّندوق عنده وكان يحمل ما يُلقى فيه فقال يسوع:

اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حفظته؛ لأن الفقراء معكم في كل حين. وأما أنا فلست معكم في كل حين.

٣١- قصة العشاء الأخير.

في متى ٢٦/١٨، ١٩: فقال: اذهبوا إلى المدينة إلى فلان وقولوا له. المعلم يقول: إن وقتي قريب. عندك أصنع الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع وأعدوا الفصح.

ولكن في مرقس ١٤/١٢- ١٦: قال له تلاميذه: أين تريد أن نمضي ونعد لتأكل الفصح. فأرسل اثنين من تلاميذه وقال لهما: اذهبا إلى المدينة فيلاقيكما إنسان حامل جرة ماء. اتبعاه. وحيثما يدخل فقولا لرب البيت إن المعلم يقول: أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي. فهو يريكما علية كبيرة مفروشة معدة هناك، أعدا لنا. فخرج تلميذاه وأتيا إلى المدينة ووجدا كما قال لهما فأعدا الفصح.

ونحوه في لوقا ٢٢/٨- ١٣ وفيه سمى التلميذين: بطرس ويوحنا.

٣٢- علامة التلميذ الخائن.

في مرقس ١٤/ ٢٠: الذي يغمس معي في الصحفة.

وفي متى ٢٦/ ٢٣: الذي يغمس يده معي في الصحفة هو يسلمني.

لكن في يوحنا ١٣/ ٢٦: الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه.

٣٣- دخول الشيطان في يهوذا الإسخريوطي.

في لوقا ٢٢/٣- ٨: فدخل الشيطان في يهوذا الذي يُدعى الإسخريوطي وهو من جملة الاثني عشر فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة فواعدهم وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم خلوًّا من جمع. وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يُذبح فيه الفصح. فأرسل بطرس ويوحنا قائلًا: اذهبا فأعدا الفصح.

ولكن في يوحنا ١٣/ ٢٦، ٢٧: أجاب يسوع: هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه. فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي فبعد اللقمة دخله الشيطان.

٣٤- الاستعانة بيهوذا الإسخريوطي عند القبض على المسيح.

في متى ٢٦/ ٤٧، ٤٨: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلًا: الذي أقبّله هو هو. أمسكوه. فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام: يا سيدي. وقبّله.

وكذلك في مرقس ١٤/ ٤٣- ٥٢، وفي لوقا ٢٢/ ٤٧، ٤٨ .

ولكن في يوحنا ١٨/ ٣- ٨: فأخذ يهوذا الجند وخدامًا من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح، فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من

تطلبون، أجابوه يسوع الناصري قال لهم يسوع أنا هو وكان يهوذا مسلمه أيضًا واقفًا معهم.

وفي يوحنا ١٨/١٩، ٢٠: فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه أجابه يسوع: أنا كلمت العالم علانية، أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائمًا وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.

٣٥- المكان الذي ألقي القبض على المسيح فيه، وعدد المرات التي ترك تلاميذه ليصلي، والتي طلب منهم أن يصلوا، وأن يسهروا.

في متى ٢٦/٣٨- ٤٤: فقال لهم: نفسي حزينة جدًّا حتى الموت. امكثوا هاهنا واسهروا معي. ثم تقدم قليلًا وخرَّ على وجهه وكان يصلي... ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نيامًا.

فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجرِبة... فمضى أيضًا ثانية وصلى قائلًا: يا أبتاه... ثم جاء فوجدهم أيضًا نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلة فتركهم ومضى أيضًا وصلى ثالثة....

وفي مرقس ١٤/ ٣٢- ٤١: و جاءوا إلى ضيعة اسمها جثسيماني فقال لتلاميذه اجلسوا هاهنا حتى أصلي،...، فقال لهم نفسي حزينة جدًّا حتى الموت امكثوا هنا واسهروا،...، ثم جاء ووجدهم نيامًا فقال لبطرس: يا سمعان، أنت نائم أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة، اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة،...، و مضى أيضًا وصلى قائلًا ذلك الكلام بعينه، ثم رجع ووجدهم أيضًا نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه، ثم جاء ثالثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا.

ولكن في لوقا ٢٢/٣٩- ٤٦: وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون. وتبعه أيضًا تلاميذه. ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة. وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى... ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نيامًا من الحزن. فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟! قوموا وصلوا.

٣٦- وجود رؤساء الهيكل.

في لوقا ٢٢/٥٢: ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه.

وغير مذكورين في الأناجيل الثلاثة الأخرى.

٣٧- مرافقة يهوذا -من الاثني عشر- المسيحَ في الآخرة وقد وُعد بالهلاك.

في متى ١٩/ ٢٧- ٢٩: فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًّا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.

ولكن في مرقس ١٤/١٧- ٢١: ولما كان المساء جاء مع الاثني عشر... ويل لذلك الرجل

الذي به يُسلم ابن الإنسان. كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد.

وفي متى ١٠/ ٢٠: لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم.

٣٨- مآل أجرة الخيانة، ونهاية يهوذا، ومن الذي اشترى الحقل، وسبب تسمية حقل الدم.

في متى ٢٧/ ٣- ٨: ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة... فطرح الفضة في الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يحل أن نلقيها في الخزانة؛ لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء لهذا سمي ذلك الحقل حقل الدم إلى هذا اليوم.

لكن في أعمال الرسل ١/ ١٦- ١٩: ... يهوذا الذي صار دليلًا للذين قبضوا على يسوع... فإن هذا اقتنى حقلًا من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلومًا عند جميع سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم حقل دما، أي حقل دم.

٣٩- موقف المسيح من بطرس.

في متى ١٦/ ١٧- ١٩: فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات، وأنا أقول لك أيضًا: أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السموات. وكل ما تحله على الأرض يكون محلولًا في السموات.

ولكن بعدها في متى ١٦/ ٢٣: وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي؛ لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.

٤٠- عدد صياح الديك.

في مرقس ١٤/ ٣٠، ٧٢: قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات.

ولكن في لوقا ٢٢/ ٦١، وفي متى ٢٦/ ٧٥: قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات.

وقد ذكر الثلاثة خلال القصة صياحًا واحدًا فقط، خلافًا لما ذكره مرقس، فقد ذكر صياحين للديك.

٤١- ذكر هيرودس في محاكمة المسيح.

في لوقا ٢٣/ ٧- ١٢: وحين علم أنه من سلطنة هيرودس أرسله إلى هيرودس إذ كان هو أيضًا تلك الأيام في أورشليم...

وغير مذكور في هذا الموضع في باقي الأناجيل.

٤٢- جند بيلاطس وهيرودس.

متى ٢٧/ ٢٤- ٢٨: فلما رأى بيلاطس، ...، فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية

وجمعوا عليه كل الكتيبة، فعروه والبسوه رداء قرمزيًا.

وكذلك في مرقس ١٥/١٥- ١٧ .

ولكن في لوقا ١١/٢٣: فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزءوا به، وألبسه لباسًا لامعًا ورده إلى بيلاطس.

٤٣- الشهود وعددهم.

في مرقس ٥٧/١٤، ٥٨: ثم قام قوم وشهدوا عليه زورًا قائلين: نحن سمعناه يقول إني أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأيادٍ.

ولكن في متى ٦٠/٢٦: ولكن أخيرًا تقدم شاهدا زور. وقالا: هذا قال إني أقدر أن أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه.

وفي يوحنا ١٨/٢- ٢٠: فأجاب اليهود وقالوا له: أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟ أجاب يسوع وقال لهم: انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه.

٤٤- كلام المسيح مع بيلاطس أثناء المحاكمة.

في متى ١١/٢٧- ١٤: فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلًا: أأنت ملك اليهود؟. فقال له يسوع: أنت تقول. وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء.

فقال له بيلاطس: أما تسمع كم يشهدون عليك؟ فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًا.

ولكن في يوحنا ٣٣/١٨- ٣٨، ٩/١٩- ١١: ثم دخل بيلاطس أيضًا إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له: أنت ملك اليهود. أجابه يسوع: أمِن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟ أجابه بيلاطس ألعلِّي أنا يهودي؟... فقال له بيلاطس: أفأنت إذًا ملك؟. أجاب يسوع: أنت تقول: إني ملك. لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل مَن هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس: ما هو الحق...

٤٥- إخبار الناس بأن يسوع هو المسيح.

في لوقا ٩/ ٢٠- ٢٢: وأنتم مَن تقولون إني أنا فأجاب بطرس وقال: مسيح الله. فانتهرهم وأوصى ألا يقولوا ذلك لأحد. قائلًا إنه ينبغي أن ابن الإنسان يتألم كثيرًا ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم.

ولكن في لوقا ١/٢٣- ٣: فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس. وابتدءوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة... قائلًا إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلًا: أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول.

وفي مرقس ٦١/١٤: فسأله رئيس الكهنة أيضًا وقال له: أأنت المسيح ابن المبارك؟! فقال

يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة وآتيًا في سحاب السماء.

٤٦- حامل الصليب.

في مرقس ١٥/ ٢١: فسخروا رجلًا مجتازًا كان آتيًا من الحقل وهو سمعان القيرواني أبو الكسندرس وروفس ليحمل صليبه.

وفى متى ٢٧/ ٣٢: وفيما هم خارجون وجدوا أنسانًا قيروانيًا اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه.

وفي لوقا ٢٣/ ٢٦: و لما مضوا به أمسكوا سمعان رجلًا قيروانيًا كان آتيًا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع.

ولكن في يوحنا ١٩/ ١٧: فأخذوا يسوع ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة.

٤٧- وقت الصلب.

في مرقس ١٥/ ٢٥: وكانت الساعة الثالثة فصلبوه.

ولكن في يوحنا ١٩/ ١٤- ١٨: ونحو الساعة السادسة... حيث صلبوه وصلبوا اثنين آخرين معه.

٤٨- علة المصلوب.

في مرقس ١٥/ ٢٦: وكان عنوان علته مكتوبًا ملك اليهود.

وفي متى ٢٧/ ٣٧: وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود.

وفي لوقا ٢٣/ ٣٨: وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية وورمانية وعبرانية هذا هو ملك اليهود.

وفي يوحنا ١٩/ ١٩، ٢٠: وكتب بيلاطس عنوانًا ووضعه على الصليب وكان مكتوبًا يسوع الناصري ملك اليهود،...، وكان مكتوبًا بالعبرانيَّة واليونانيَّة واللاتينيَّة.

٤٩- موقف اللصين.

في مرقس ١٥/ ٢٧، ٣٢: وصلبوا معه لصين، واحدًا عن يمينه وآخر عن يساره... واللذان صُلبا معه كانا يعيرانه.

وفي متى ٢٧/ ٤٤: كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه.

ولكن في لوقا ٢٣/ ٣٩- ٤٣: وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه... فأجاب الآخر...: أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه. أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا. وأما هذا فلم يفعل شيئًا ليس في محله. ثم قال ليسوع: اذكرني يا رب متى جئت في

ملكوتك، فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.

٥٠- الشراب الذي أعطي على الصليب.

في مرقس ١٥/ ٢٣: وأعطوه خمرًا ممزوجة بمر ليشرب فلم يقبل.

ولكن في متى ٢٧/ ٣٤: أعطوه خلًا ممزوجًا بمرارة ليشرب. ولما ذاق لم يُرِدْ أن يشرب.

وفي لوقا ٢٣/ ٣٦: ويقدمون له خلًا.

٥١- الذي قال اترك عند الصلب.

في مرقس ١٥/ ٣٦: فركض واحد وملأ إسفنجة خلًا وجعلها على قصبة وسقاه قائلًا: اتركوا. لنرى هل يأتي إيليا لينزله.

ولكن في متى ٢٧/ ٤٧: وللوقت ركض واحد منهم وأخذ إسفنجة وملأها خلًا وجعلها على قصبة وسقاه. وأما الباقون فقالوا: اترك لنرى هل يأتي إيليا يخلصه.

٥٢- آخر الكلام على الصليب، ولمن كان يوجهه؟

في مرقس ١٥/ ٣٤: وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: ألوي ألوي لِمَ شبقتني؟! الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني؟! ونحوه في متى ٢٧/ ٤٦

ولكن في لوقا ٢٣/ ٤٦: ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروح.

وفي يوحنا ١٩/ ٣٠: فلما أخذ يسوع الخل قال: قد أكمل. ونكس رأسه وأسلم الروح.

٥٣- ترك الرب يسوع.

في يوحنا ١٦/ ٣٢- ٣٣: هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي؛ لأن الآب معي... ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم.

وفي يوحنا ٨/ ٢٩: والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه.

ولكن في مرقس ١٥/ ٣٤: وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: ألوي ألوي لِمَ شبقتني؟! الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني؟!.

٥٤- ترتيب الموت وانشقاق حجاب الهيكل، وكيفية الانشقاق.

في متى ٢٧/ ٥٠، ٥١: فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل.

وفي مرقس ١٥/ ٣٧، ٣٨: فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح، فانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل.

وفي لوقا ٢٣/ ٤٥، ٤٦: وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه، ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه في يديك استودع روحي ولما قال هذا أسلم الروح.

٥٥- قصة خروج الأموات.

في متى ٢٧/ ٥١- ٥٣: وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدَّسة وظهروا لكثيرين.

والقصة غير مذكورة في الأناجيل الثلاثة الأخرى، بل ولا في باقي كتب العهد الجديد.

وفي أعمال الرسل ٢٦/ ٢٣: إن يؤلم المسيح يكن هو أول قيامة الأموات.

ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥/ ٢٠: ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين.

٥٦- قول قائد المائة بعد الصلب ومن معه.

في متى ٢٧/ ٥٤: وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع... قالوا: حقًّا كان هذا ابن الله.

وفي مرقس ١٥/ ٣٩: ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقًّا: كان هذا الإنسان ابن الله.

ولكن في لوقا ٢٣/ ٤٧: فلما رأى قائد المائة ما كان مجد الله قائلًا: بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا.

٥٧- الطعن بالحربة بعد الصلب.

في متى ٢٧/ ٥٠- ٥٤: فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور... وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جدًّا وقالوا حقًّا: كان هذا ابن الله. وهكذا في مرقس ولوقا لم يتم الطعن بالحربة.

ولكن في يوحنا ١٩/ ٣٣، ٣٤: وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه؛ لأنهم رأوه قد مات لكن واحدًا من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء.

٥٨- الذي دفن يسوع.

في لوقا ٢٣/ ٥٠- ٥٣: وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيرًا ورجلًا صالحًا بارًّا، هذا لم يكن موافقًا لرأيهم وعملهم وهو من الرامة مدينة لليهود،...، هذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط.

وكذلك في متى ٢٧/ ٥٧- ٦٠، مرقس ١٥/ ٤٣- ٤٦، يوحنا ١٩/ ٣٨.

ولكن في سفر أعمال الرسل ١٣/ ٢٧- ٢٩: لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم، . . .، طلبوا من بيلاطس أن يقتل، ولما تمموا كل ما كتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر.

٥٩- وقت شراء النساء للحنوط والأطياب.

في مرقس ١٦/ ١: وبعدما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا ليأتين ويدهنه.

وفي لوقا ٢٣/ ٥٤- ٥٦: وكان يوم الاستعداد والسبت يلوح، وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده، فرجعن وأعددن حنوطًا وأطيابًا وفي السبت استرحن حسب الوصية.

٦٠- وقت ذهاب النساء للقبر.

في مرقس ١٦/ ٢: وباكر جدًّا في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس.

ولكن في يوحنا ٢٠/ ١: وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا والظلام باقٍ.

٦١- عدد النساء الذاهبات إلى القبر.

في يوحنا ٢٠/ ١: وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر.

وفي متى ٢٨/ ١: وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظرا القبر.

وفي مرقس ١٦/ ١، ٢: وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا ليأتين ويدهنه.

وفي لوقا ٢٣/ ٥٥، ٥٦، ٢٤/ ١: وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده، فرجعن وأعددن حنوطًا وأطيابًا. . .، ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ومعهن أناس.

٦٢- رؤية النساء للملاك أو الشاب أو أكثر وكيفية رؤيته، ووقت دحرجة الحجر.

في متى ٢٨/ ٢- ٥: وإذا زلزلة عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه. . . فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا.

ولكن في مرقس ١٦/ ٤- ٦: فتطلعن ورأين أن الحجر قد دحرج لأنه كان عظيمًا جدًّا، ولما دخلن القبر رأين شابًا جالسًا عن اليمين لابسًا حلة بيضاء فاندهشن، فقال لهن: لا تندهشن أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب. . .

وفي لوقا ٢٤/ ٢- ٥: فوجدن الحجر مدحرجًا عن القبر، فدخلن. . . إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة، وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض قالا لهن: . . .

أما في يوحنا ٢٠/ ١١، ١٢: أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكي وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحدًا عند الرأس والآخر عند الرجلين...

٦٣- وقت رؤية المرأة ليسوع.

في متى ٢٨/ ٨، ٩: فخرجتا سريعًا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه، وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له.

ولكن في يوحنا ٢٠/ ١١- ١٦: أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكي،...، ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفًا ولم تعلم أنه يسوع، قال لها يسوع يا امرأة لماذا تبكين من تطلبين فظنت تلك أنه البستاني، فقالت له: يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي: أين وضعته؟ وأنا آخذه، قال لها يسوع يا مريم فالتفتت تلك وقالت له ربوني الذي تفسيره يا معلم.

٦٤- وقت إيمان التلاميذ بقيامة المسيح.

في لوقا ٢٤/ ٣٣، ٣٤: فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدوا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم.

وهم يقولون إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز.

ولكن في مرقس ١٦/ ٩- ١٤: ظهر أولًا لمريم المجدلية... فذهبت هذه وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون فلما سمع أولئك أنه حي وقد نظرته لم يصدقوا. وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما يمشيان منطلقين إلى البرية. وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يصدقوا ولا هذين. أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام.

٦٥- توصيل النسوة لرسالة الملاك إلى التلاميذ.

في مرقس ١٦/ ٥- ٨: ولما دخلن القبر لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس... فخرجن سريعًا وهربن من القبر؛ لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن، ولم يقلن لأحد شيئًا لأنهن كن خائفات.

ولكن في لوقا ٢٤/ ٤- ٩: إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة فتذكرن كلامه ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله.

وفي متى ٢٨/ ٨: فخرجتا سريعًا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه.

٦٦- عدد المرات التي ظهر فيها يسوع للتلاميذ.

في متى ٢٨/ ١٦، ١٧: وأما الأحد عشر تلميذًا فانطلقوا إلى الجليل حيث أمرهم يسوع ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكّوا.

ولكن في يوحنا ٢٠/ ١٩- ٢٦: ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين. . . جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم سلام لكم. . . وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضًا داخلًا وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مغلقة ووقف في الوسط وقال: سلام لكم.

وفي يوحنا ٢١/ ١- ١٤: بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية. . . هذه مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات.

٦٧- ذهب التلاميذ إلى الجليل كما أمرهم يسوع لكي يظهر لهم أم ظلوا في أورشليم.

في متى ٢٨/ ١٦، ١٧: وأما الأحد عشر تلميذًا فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل حيث أمرهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له.

ولكن في يوحنا ٢٠/ ١٨، ١٩: فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا. ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم: «سلام لكم».

٦٨- زمن ومكان صعود المسيح إلى السماء.

في لوقا ٢٤/ ١- ٥٢ في أيام الفصح بالقرب من بيت عنيا خلال ٢٤ ساعة من خروجه من القبر: ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط. . . وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم. . . وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما. . . وقد مال النهار فدخل ليمكث معهما. . . فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر. . . وفيما هما يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه في وسطهم. . . وقال لهم: هذا هو الكلام الذي كلمتكم به. . . وأخرجهم خارجًا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء.

ولكن في أعمال الرسل ١/ ٣- ٩، ١٢ صعد من جبل الزيتون بعد ٤٠ يومًا من خروجه من القبر: أراهم أيضًا نفسه حيًا ببراهين كثيرة بعد ما تألم وهو يظهر لهم أربعين يومًا ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله. . . ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون وأخذته سَحابة عن أعينهم وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق. . . حينئذ رجعوا إلى أورشليم من الجبل الذي يُدعَى جبل الزيتون الذي هو بالقرب من أورشليم.

٦٩- ما صنعه المسيح لا تسعه الكتب.

في يوحنا ٢١/ ٢٥: وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كنت كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.

ولكن في أعمال الرسل ١/١، ٢: الكلام الأول أنشأته -يا ثاوفيلس- عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه[(١)].

المعيار الخامس: التناقض بين الرسائل

١- الملائكة يخطئون ولا يقومون بوظيفتهم.

في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٥/ ٢١: الملائكة مختارون بلا عيب: أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين أن تحفظ هذا بدون غرض ولا تعمل شيئًا بمحاباة.

تناقضه رسالة يهوذا ٦: والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام.

وفي رسالة بطرس الثانية ٢/ ٤: لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطئوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم.

٢- جيل نهاية الدهر.

في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٠/ ١١: نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور.

وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٤/ ١٥- ١٧: نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب.

ولكن قد مات بولس ومات جميع الذين كانوا معه ولم يأتي الرب ولم تقم القيامة.

٣- حقيقة الكتاب عند بولس.

في رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٣/ ١٦: كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر.

ولكن في رسالته إلى العبرانيين ٧/ ١٨: فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها.

وفي ٨/ ٧: فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طلب موضع لثان.

٤- شرب الخمر عند بولس.

في رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤/ ٢١: حسن ألا تأكل لحمًا ولا تشرب خمرًا.

بينما في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٥/ ٢٣: لا تكن في ما بعد شراب ماء بل استعمل خمرًا قليلًا من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة.

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

٥- رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي.

ولكن في أولها ١/١، ٢ نجد أنهما من: بولس رسول يسوع المسيح بمشيئة الله وتيموثاوس الأخ، إلى القديسين في كولوسي.

٦- رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي.

ولكن في أولها ١/١ نجد أنها من: بولس وسلوانس وتيموثاوس إلى كنيسة التسالونيكيين.

٧- الزواج عند بولس.

في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤/١- ٣: ولكن الروح يقول صريحًا إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحًا مضلة وتعاليم شياطين، في رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم، مانعين عن الزواج.

ولكن في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٧/٨: و لكن أقول لغير المتزوجين و للأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا.

وفي ٧/٢٧: أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة.

٨- يسوع إله.

في يوحنا ٢٠/١٧: قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.

ولكن في رسالة بولس إلى أهل رومية ٩/٥: ولهم الآباء ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهًا مباركًا إلى الأبد.

المعيار السادس: الاختلاف بين النسخ والترجمات

الاختلافات الموجودة بين النسخة البروتستانتيَّة (الفانديك)، والنسخة الكاثوليكيَّة (الرهبانيَّة اليسوعيَّة)، فنجد أن الفقرات الآتية موجودة في النسخة البروتستانتية وغير موجودة في النسخة الكاثوليكية:

١- في إنجيل متى:

٦/١٣: لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين.

غير موجودة

١٨/١١: لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك.

غير موجودة

٢٣/١٤: ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ولعلة تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم.

غير موجودة

٢٧/ ٣٥: لكي يتم ما قيل بالنبي اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي ألقوا قرعة.

غير موجودة

٢- في إنجيل مرقس:

٧/ ١٦: إن كان لأحد أذنان للسمع فليسمع.

غير موجودة

٩/ ٤٤: حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ.

غير موجودة

١٥/ ٢٨: فتم الكتاب القائل وأحصي مع أثمة.

غير موجودة

١١/ ٢٦: وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السموات أيضا زلاتكم.

غير موجودة

٣- في إنجيل لوقا:

١/ ٢٨: مباركة أنت في النساء.

غير موجودة

٨/ ٤٥: فقال يسوع من الذي لمسني وإذ كان الجميع ينكرون قال بطرس والذين معه: يا معلم الجموع يضيقون عليك ويزحمونك وتقول من الذي لمسني.

غير موجودة

٩/ ٥٥: فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أي روح أنتما.

غير موجودة

٩/ ٥٦: لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص.

غير موجودة

١١/ ١١: فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزًا أفيعطيه حجرًا.

غير موجودة

١٧/ ٣٦: يكون اثنان في الحقل فيؤخذ الواحد ويترك الآخر.

غير موجودة

٢٣/ ١٧: وكان مضطرًا أن يطلق لهم كل عيد واحدًا.

غير موجودة

٢٤/ ٤٢ : فناولوه جزءًا من سمك مشوي وشيئًا من شهد عسل.

غير موجودة

٤- في إنجيل يوحنا:

٣/ ١٣: وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.

عبارة: الذي في السماء غير موجودة في النسخة الكاثوليكيَّة

١١/ ٤١: فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعًا.

غير موجودة

٥/ ٤: لأن ملاكًا كان ينزل أحيانًا في البركة ويحرك الماء فمن نزل أولًا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض.

غير موجودة

٥- سفر أعمال الرسل:

٨/ ٣٧: فقال فيلبس إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز. فأجاب وقال أنا أؤمن إن يسوع المسيح هو ابن الله.

غير موجودة

٩/ ٥: فقال من أنت يا سيد، فقال الرب أنا يسوع الذي أنت تضطهده، صعب عليك إن ترفس مناخس.

غير موجودة

٩/ ٦: فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل.

غير موجودة

١٥/ ٣٤: ولكن سيلا رأى إن يلبث هناك.

غير موجودة

٢٤/ ٦- ٨: وقد شرع إن ينجس الهيكل أيضًا أمسكناه وأردنا إن نحكم عليه حسب ناموسنا، فاقبل ليسياس الأمير بعنف شديد وأخذه من بين أيدينا، وأمر المشتكين عليه أن يأتوا إليك.

غير موجودة

٢٨/ ٢٩: ولما قال هذا مضى اليهود ولهم مباحثة كثيرة فيما بينهم.

غير موجودة

٦- الرسالة الأولى ليوحنا.

٥/٧: فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد.

غير موجودة

٥/٨: والذين يشهدون في الأرض...

غير موجودة[1].

(١) انظر: حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل السادس

دراسة لنسب المسيح من خلال العهد الجديد

في متى: ١: ٢ إبراهيم ولد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته. ١: ٣ ويهوذا ولد فارص، وزارح من ثامار، وفارص ولد حصرون، وحصرون ولد آرام. ١: ٤ وآرام ولد عميناداب، وعميناداب ولد نحشون، ونحشون ولد سلمون. ١: ٥ وسلمون ولد بوعز من راحاب، وبوعز ولد عوبيد من راعوث، وعوبيد ولد يسي. ١: ٦ و يسي ولد داود الملك، وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا. ١: ٧ وسليمان ولد رحبعام، ورحبعام ولد آبيا، وآبيا ولد آسا ١: ٨ وآسا ولد يهوشافاط، ويهوشافاط ولد يورام، ويورام ولد عزيا. ١: ٩ وعزيا ولد يوثام، ويوثام ولد آحاز، وآحاز ولد حزقيا. ١: ١٠ وحزقيا ولد منسى، ومنسى ولد آمون، وآمون ولد يوشيا. ١: ١١ ويوشيا ولد يكنيا وإخوته عند سبي بابل. ١: ١٢ وبعد سبي بابل يكنيا ولد شالتيئيل، وشالتيئيل ولد زربابل. ١: ١٣ وزربابل ولد أبيهود، وأبيهود ولد الياقيم، والياقيم ولد عازور. ١: ١٤ وعازور ولد صادوق، وصادوق ولد أخيم، وأخيم ولد اليود. ١: ١٥ واليود ولد اليعازر، واليعازر ولد متان، ومتان ولد يعقوب. ١: ١٦ ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح.

وفي لوقا: ٣: ٢٣ ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي ٣: ٢٤بن متثات بن لاوي بن ملكي بن ينا بن يوسف ٣: ٢٥بن متاثيا بن عاموص بن ناحوم بن حسلي بن نجاي ٣: ٢٦بن ماث بن متاثيا بن شمعي بن يوسف بن يهوذا ٣: ٢٧بن يوحنا بن ريسا بن زربابل بن شالتيئيل بن نيري ٣: ٢٨بن ملكي بن ادي بن قصم بن المودام بن عير ٣: ٢٩بن يوسي بن اليعازر بن يوريم بن متثات بن لاوي ٣: ٣٠بن شمعون بن يهوذا بن يوسف بن يونان بن الياقيم ٣: ٣١بن مليا بن مينان بن متاثا بن ناثان بن داود ٣: ٣٢بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون ٣: ٣٣بن عميناداب بن آرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا ٣: ٣٤بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

ومن خلال المقارنة بين النصين يتضح لنا الآتي:

١- لماذا يعطي الله أبًا -وهو يوسف- لابنه عيسى وهو مولود بدون أب؟!

٢- يوسف بن يعقوب تبعًا لمتى وهو ابن هالي تبعًا للوقا.

٣- في متى المسيح من أولاد سليمان بن داود، وفي لوقا هو من أولاد ناثان بن داود.

٤- سجل متى من داود إلى المسيح ٢٦ سلفًا فقط، يكون مقابل كل جيل ٤٠ سنة، بينما سجل (لوقا) من داود إلى المسيح ٤٠ سلفًا ليسوع، ولا يوجد اسم مشترك بينهما إلا يوسف، يكون

مقابل كل جيل ٢٠ سنة؛ لأن المدة بين داود ويسوع حوالي ١٠٠٠ سنة.

٥- ذكر (متى) أن جميع آباء وأجداد المسيح إلى جلاء بابل سلاطين، وفي (لوقا) لم تكن لهم شهرة ومن ثمَّ لم يكونوا سلاطين ولم يكن معروفًا فيهم غير داود وناثان!

٦- ذكر (متى) شالتئيل بن يكنيا، وذكر (لوقا) أن شالتئيل بن نيري.

٧- ذكر (متى ١/ ١٣) أن ابن زربابل هو أبيهود، ويذكر (لوقا ٣/ ٢٧) أن ريسا ابن زربابل وفي أخبار الأيام الأول (٣/ ١٩) لم يذكر ابنًا لزربابل لا باسم أبيهود ولا باسم ريسا.

يبرر النصارى هذا الاختلاف في نسب المسيح بالقول إن أحدهم خاص بنسب مريم والآخر بنسب يوسف النجار ولكن متى ولوقا لم يقولا هذا نسب مريم أو يوسف النجار، بل قالا: إنه نسب المسيح، ثم ما دخل يوسف النجار في النسب هل هو أبوه؟!

وقد اعترف جماعة المحققين بأنهما مختلفان اختلافًا معنويًا، ونقل آدم كلارك أحد كبار مفسري الإنجيل عذرًا من (هارمرسي) في الصفحة (٤٠٨) من المجلد الخامس هكذا: ويعلم كل ذي علم أن متّى ولوقا، اختلفا في بيان نسب الرب اختلاف تحير فيه المحققون من القدماء والمتأخرين.

٨- كرَّم الكتاب المقدس شخصيات لولادتهم غير الشرعية (من الزنى) !، وهم آباء وأمهات وأجداد يسوع المسيح كالآتي:

أ - يهوذا زنى مع كنته ثامار(زوجة ابنه) وحبلت منه وولدت من هذا الزنى فارص وزارح وهم أيضًا في نسب المسيح. (تكوين ٣٨/ ١٥- ١٨)!.

ب - وسلمون ولد بوعز من راحاب (متى ١/ ٥) وراحاب امرأة زانية (يشوع ٢/ ١- ١٥).

ج - وبوعز ولد عوبيد من راعوث (متى ١/ ٥) وراعوث هي راعوث (راعوث ٤/ ٥) الموآبية.

د - وداود الملك زنى مع امرأة أوريا الحثي (صموئيل الثاني ١١/ ٤).

هـ- بغاء الأختين أهولة وأهوليبة (حزقيال الإصحاح ٢٣).

و- زنى ابنتي لوط مع أبيهما التكوين (١٩/ ٣٠- ٣٨).

ونتج عن هذا الزنى بنو عمون وبنو موآب الذين فضّلهم الرب كما يدَّعون وبعد فترة أمرهم الرب المحب بذبح شعب آخر بدون رحمة رجالًا ونساءً وأطفالًا حتى الشجر والبهائم لم تفلت من ذلك الدمار!، ولكن نسل لوط «لا تعادهم ولا تناصبهم» تثنية ٢/ ١٩ .

وغير ذلك مما ذُكروا سابقًا تم تكريمهم بإدخالهم في نسب المسيح، على الرغم من تعهد الله بأن لا يدخل زنيم في جماعة الرب

كما في التثنية ٢٣/ ٢: لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في

جماعة الرب إلى الأبد.

فهل منع الرب دخول العموني والموآبي جماعة الرب حتى الجيل العاشر أم إلى الأبد ؟!.

٩- يؤكد لوقا ادعاء اليهود أن المسيح ابن يوسف النجار، وأنه لم يأتِ بمعجزة.

في لوقا ٢/ ٤، ٢٧: «فصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهوديَّة إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر. . . وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس. . .».

ويؤكد لوقا ٢/ ٤١: «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح».

وفي لوقا ٤/ ٢١- ٢٣ يذكر مقالة اليهود أمام المسيح وعدم رده عليهم وكأنه موافقهم على هذا الاتهام!: «فابتدأ يقول لهم. . . وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون: أليس هذا ابن يوسف؟! فقال لهم: على كل حال تقولون لي هذا المثل أيها الطبيب اشفِ نفسك». فهل هذه إجابة؟!.

ويؤكد لوقا ٣/ ٢٣ في سلسلة نسب المسيح أنه ابن يوسف، كيف يقال هذا لشخص ليس له أب ووُلد بمعجزة؟!

وفي لوقا ٢/ ٤٨ مريم تؤكد أبوَّة يوسف للمسيح!: «وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بنا هكذا؟!، هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين».

وفي لوقا ٣/ ٢٣ يعلن أن سلسلة نسب المسيح على ما يظن!!: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي. . .».

فهل يجوز هذا الظن في أمر عقَدي؟![1].

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل السابع

صفات المسيح من خلال العهد الجديد

هل هذه الصفات صفات إله؟!

١- يسوع معدوم القوة:

في يوحنا ٥/ ٣٠: أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا.

ولكن في إشعياء ٤٠/ ٢٨، ٢٩: إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص. يعطى المعي قدرة ولعديم القوة يكثر شدة.

٢- يسوع لا يعلم يوم القيامة:

في مرقس ١٣/ ٣٢: وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب.

٣- يسوع لا يعلم الغيب ويجهل الموسم.

في مرقس ١١/ ١٢، ١٣: وفي الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع. فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئًا فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقًا؛ لأنه لم يكن وقت التين.

٤- يسوع مجرب من الشيطان.

في لوقا ٤/ ١، ٢، ١٣: أما يسوع... أربعين يومًا يجرب من إبليس... ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين.

وفي رسالة بولس إلى العبرانيين ٤/ ١٥ يقول عن يسوع: بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية.

بينما يقول يعقوب في ١/ ١٣: لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحدًا. ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته.

٥- يسوع يعترف بذنوبه ويتوب.

في متى ٣/ ١٣: حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه.

وقد تم تغيير لفظ «يتعمد» إلى «يُعتمد».

٦- يسوع مُرسل من غيره.

في يوحنا ٨/ ١٨: أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.

٧- يسوع يهرب من اليهود.

في يوحنا ٧/ ١: وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يرد أن يتردد في اليهوديَّة؛ لأن

اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه.

وفي يوحنا ١١/٥٣، ٥٤: فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه فلم يكن يسوع يمشي بين اليهود علانية.

٨- يسوع صفاته مثل الناس جميعًا:

أ - يسوع يجوع:

في متى ٢١/١٨: وفي الصبح إذا كان راجعًا من المدينة جاع.

ب - يسوع عطشان:

في يوحنا ١٩/٢٨: قال: أنا عطشان.

جـ: يسوع ينام:

في متى ٨/ ٢٤: وكان هو نائم

د - يسوع يتعب:

في يوحنا ٤/٦: فإذا كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر.

هـ - يسوع يبكي:

في يوحنا ١١/ ٣٥: بكى يسوع.

و - يسوع ينزعج:

في يوحنا ١١/ ٣٣: نزعج بالروح واضطرب.

ز - يسوع يحزن ويكتئب:

في متى ٢٦/ ٣٧: وابتدأ يحزن ويكتئب.

وفي مرقس ١٤/ ٣٣: وابتدأ يدهش ويكتئب.

ح - يسوع ضعيف:

في لوقا ٢٢/ ٤٣: وظهر له ملاك من السماء يقويه.

ط- يسوع يولد:

في متى ١/ ١٨: أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا.

وفي لوقا ٢/ ٧: فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل.

ي- يسوع له أخوة:

في متى ١٣/ ٥٤، ٥٥: ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا

هذه الحكمة والقوات، أليس هذا ابن النجار، أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا[١].

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس.

الفصل الثامن

نظرة في قصة الصلب من خلال العهد الجديد

تؤكد المزامير نجاة المسيح، وأن الشخص الذي أراد أن يوقع المسيح في حفرة هو الذي وقع فيها وصلب وعلق على الصليب بدلًا من المسيح.

فى المزامير ٥٧/٦: هيئوا شبكة لخطواتي... حفروا قدامي حفرة. سقطوا في وسطها.

وتؤكد المزامير ٩/١٦: الرب قضاء امضي: الشرير يعلق بعمل يديه.

فكيف حدث ذلك؟

يرى بعض الباحثين الآتي:

١- في المزامير ٥٦/٩- ١٣: وحين ترتد أعدائي إلى الوراء في يوم أدعوك فيه هذا قد علمته لأن الله لي... شكرًا لك؛ لأنك قد نجيت نفسي من الموت.

٢- في يوحنا ١٨/ ٣- ٨ اتفق مع المزامير في ارتداد أعداء المسيح إلى الوراء وزاد على ذلك بأنهم سقطوا على الأرض: فأخذ يهوذا الجند وخدامًا من عند رؤساء الكهنة والفريسيين، وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح. فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال له: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو. وكان يهوذا مسلمه أيضًا واقفًا معهم. فلما قال لهم: إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض...

فماذا يعنى ذلك ؟

٣- تدخلت قدرة الله العظيم -كما ذكر يوحنا- فسقطوا على الأرض، سقطت الجموع الغفيرة، وتدافع الجند، ووقعت المشاعل من أيديهم، ثم نهضوا ليجدوا دليلهم يهوذا الأسخريوطي وحيدًا في الساحة مبهوتًا أصابه الذهول، وقد رأى المسيح يرفع للسماء، وقد ألقى الله عليه شبه المسيح، فأخذوه لينال جزاء خيانته لسيده.

٤- فكانت لحظة سقوطهم هي لحظة الخلاص الخالدة التي تاهت عنها عيون الملايين من النصارى ممن ظن أن المأخوذ بعدها هو المسيح.

فكانت لحظةُ وقوع الجند: لحظة الخلاص كما وصفتها المزامير «الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه... هم جثوا وسقطوا، أما نحن فقمنا وانتصبنا» (المزمور ٢٠/٨).

وفي مزمور آخر: «أما أنت فتبارك، قاموا وخزوا» (المزمور ١٠٩/٢٨).

وفي مزمور آخر يسجل تلك اللحظة الخالدة: «حينئذ ترتد أعدائي إلى الوراء» (المزمور ٥٦/٩)، و «ليرتد إلى خلف، ويخجل المشتهون لي شرًّا» (المزمور ٧٠/٢)، و«عندما اقترب إلي الأشرار

ليأكلوا لحمي، ومضايقي وأعدائي عثروا وسقطوا» (المزمور ٢٧/ ٢)، «ليخز وليخجل معًا الذين يطلبون نفسي لإهلاكها، ليرتد إلى الوراء، وليخز المسرورون بأذيتي» (المزمور ٤٠/ ١٤-١٥) وغيرها.

٥- وأما المسيح فقد نزلت ملائكة الله وصعدت به إلى السماء، «وظهر له ملاك من السماء يقويه» (لوقا ٢٢/ ٤٤) لينجو من المؤامرة بحماية الله العظيم، وأعطي بذلك حياة طويلة تمتد إلى قبيل قيام الساعة حيث ينزل إلى الأرض عليه السلام لعيش عليها ويموت في سلام.

٦- بعدها حُمل يهوذا إلى المحاكمة وإلى ديوان بيلاطس، والشك في حقيقة شخصه يلاحقه في كل هذه الخطوات، فقد شك فيه رئيس الكهنة، وكانت إجاباته لبيلاطس وهيرودس تنبئ عن الذهول الذي أصابه، وعن عجزه عن بيان الحقيقة، التي لن يقنع أحدًا إن ذكرها، فكان يجيبهم: «أنت تقول» (متى ٢٧/ ١١).

٧- ولما اجتمع في النهار مشيخة الشعب، ورؤساء الكهنة، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين: إن كنت أنت المسيح، فقل لنا. فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني. منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله. فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنتم تقولون: إني أنا هو (لوقا ٢٢/٦٦ - ٧٠).

ولا يفسر هذه الإجابات الغريبة، بل وتلك الأسئلة الغريبة من أناس كانوا يرون المسيح في كل يوم، لا يفسره إلا أن نقول بأن المأخوذ هو غير المسيح، وإن أشبهه، وهذا الشبه حير رؤساء الكهنة في حقيقة المأخوذ، فحاولوا استجلاء الحقيقة بسؤال المأخوذ، فلم ينكر ولم يثبت.

وأما يهوذا فقد عرف ألا فائدة من إنكاره، إذ لن يصدقه أحد، ولربما ولفرط ندمه قد استسلم لرداه، ورضي بعقوبة الله له، أن يصلب عن المسيح، لعله بذلك أن يفديه، لذلك تكرر سكوته.

ويرى بعض الباحثين شيئًا آخر:

٣- أنه لا يمكن أن يرتد أعداء المسيح إلى الوراء ويسقطوا على الأرض إلا بسبب حدوث معجزة ومفاجأة مذهلة أفقدتهم صوابهم والقدرة على الثبات والاتزان والوقوف على أرجلهم، فارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض مع أن القوات المكلفة بالقبض على المسيح قوات خاصة مدربة على مواجه الصعاب؛ لأنهم كانوا يحملون السلاح ويتوقعون المقاومة من أتباع المسيح.

٤- كانت المفاجأة المذهلة أنهم رأوا تغير وجه يهوذا لقد صار وجهه كوجه المسيح، وكان يهوذا يقترب من المسيح ليشير إليه، فارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض فحدثت فوضى، وعندما أفاقوا قبضوا على يهوذا وهم يظنونه المسيح، وحاكموه وعلق على الصليب بعمل يديه كما قالت المزامير وكما ألمح يوحنا.

٥- عندما ارتدا أعداء المسيح إلى الوراء وسقطوا على الأرض، اتخذها المسيح وتلاميذه فرصة نادرة للهرب فهربوا، وقد هرب المسيح من أعدائه قبل ذلك أكثر من مره:

ففي يوحنا ١٠/٣٩: فطلبوا أن يمسكوه فخرج من أيديهم.

وفى يوحنا ٨/٥٩: فرفعوا حجارة ليجرموه، أما يسوع فاختفى من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى.

واعترف مرقس بعملية الهروب وقال فيه ١٤/ ٥٠: فتركه الجميع وهربوا.

ولم يلفت نظر مرقس أن المسيح هرب مع التلاميذ.

وأيد متى مرقس في عملية الهروب وذلك في ٢٦/٥٦ .

٦- هيأ الله الظروف للمسيح وتلاميذه للهروب، فكانت محاولة القبض بالليل وكانت المشاعل هي وسيلة الإضاءة الوحيدة، فلما أراد أعداؤه القبض عليه ارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، فسقطت المشاعل معهم وانطفأ أكثرها على الأقل، وكانت الإضاءة شبه معدومة، فكانت فرصة عظيمة للهروب أفضل من المرات السابقة التي هرب فيها المسيح، وعندما أفاق أعداء المسيح قبضوا على يهوذا وهم مقتنعون أنه المسيح.

٧- وكان يسوع يتخفى بعد ذلك من اليهود، مرة في صورة بستاني عندما قابل مريم المجدلية وقال لها في يوحنا ٢٠/ ١٧: لم أصعد بعد إلى أبي.

وكأنه في لغة اليهود واصطلاحهم يقول: لم أمت بعد. أو: إنني ما زلت حيًّا.

وفى المرة الثانية: عندما قابل أثنين من أتباعه وهما متوجهان إلى قرية عمواس ولم يعرفاه وذلك في لوقا ٢٤/ ١٣- ٣٣ .

فما فائدة التخفي من اليهود والمسيحُ في الأبدية؟!

ففي العبرانيين ٩/ ٢٧: وكما وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة.

لكن الحقيقة العظيمة أن المسيح لم يُقبض عليه ولم يُصلب ولم يمت بل كان هاربًا من اليهود وكان متخفيًا عن أعينهم وقد علق يهوذا على الصليب بعمل يديه كما قالت المزامير.

٨- في إنجيل مرقس ولوقا ويوحنا لم يظهر أثر ليهوذا بعد ذلك أبدًا، وهذا دليل عظيم على أنه الذي تم القبض عليه، وظن أعداء المسيح أن يهوذا هرب خوفًا من انتقام تلاميذ وأتباع المسيح.

ولو كان يهوذا حقًّا قام بتسليم المسيح لأعدائه لأصبح أكبر مجرم في التاريخ، ولما سكتت ثلاثة أناجيل عن ذكر مصيره أو ذكر أي شيء عنه بعد ذلك، والحقيقة الكبرى أن الله ألقى بشبه المسيح عليه فقبض عليه وصلب بدلًا من المسيح ووقع في الحفرة التي حفرها في المسيح كما تقول المزامير.

٩- أن يهوذا لم يستطع أن يتكلم أو يجيب بعد ذلك بشيء أثناء المحاكمة لهول ما وقع له أو لندمه على ما فعل.

ففي متى ٢٧/ ١٢: وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء، فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًّا.

وفي مرقس ١٥/ ٤، ٥: فسأله بيلاطس أيضًا قائلًا أما تجيب بشيء انظر كم يشهدون عليك، فلم يجب يسوع أيضًا بشيء حتى تعجب بيلاطس.

١٠- اتفق متى ٢٧/ ٤٥، ومرقس ١٥/ ٣٤ على أن الذي عُلق على الصليب صرخ قائلًا: إيلي إيلي لما شبقتني؛ أي إلهي إلهي لماذا تركتني.

وهذا القول لا يليق ولا يمكن أن يصدر من المسيح، ولكنه صدر من شخص آخر ندم على فعلته وتاب إلى الله ودعاه أن ينجيه، ولكن الله لم يستجب لدعائه، فعبر بهذا القول اليائس وغير المؤمن بقضاء الله وقدره، ولا بد أن يكون هذا القول ليهوذا الذي علق بعمل يديه كما قالت المزامير.

١١- ثمة ملحوظة لغوية أخرى غاية في الخطورة، وهي أن العبارة المستخدمة: أنا هو، خلاف للصياغة اللغوية الصحيحة وليست بمعنى: أنا الذي تريدون، إنما أنا: هو شخص آخر، حيث قال: Iam he لا تقال هكذا وإنما تقال: Its' me

أما Iam he فمعناها أن هناك شخصين لا شخص واحد.

وبالفرنسيَّة تقال: C'est moi، ولا تقال: Je suis ill

معناها أنا ذلك الشخص الواقف بينكم (يهوذا) فلما رأوا يهوذا (المسيح) سقطوا على الأرض من هول المفاجأة لقد صار المسيح[1].

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، هل افتدانا المسيح على الصليب، د. منقذ بن محمود السقار.

الباب الرابع

عقائد النصارى

الفصل الأول

مجمل معتقدات النصارى

يمكن إجمال معتقدات النصارى بشكل عام فيما يلي:

١- الإله:

الإيمان عندهم بالله الواحد، الأب مالك كل شيء، وصانع ما يُرَى وما لا يُرَى. هكذا في قانون إيمانهم، وواضحٌ تأثُّرهم بألفاظ الفلاسفة في قولهم صانع ما يُرَى.

٢- المسيح:

إن ابنه الوحيد يسوع المسيح بكر الخلائق ولد من أبيه قبل العوالم، وليس بمصنوع (تعالى الله عن كفرهم علوًّا كبيرًا)، ومنهم من يعتقد أنه هو الله نفسه.

٣- روح القدس:

إن روح القدس الذي حلَّ في مريم لدى البشارة، وعلى المسيح في العماد على صورة حمامة، وعلى الرسل من بعد صعود المسيح، الذي لا يزال موجودًا، وينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة يرشدهم ويعلمهم ويحل عليهم المواهب، ليس إلا روح الله وحياته، إله حق من إله حق.

٤- الأقانيم:

ولذلك يؤمنون بالأقانيم الثلاثة: الأب، الابن، الروح القدس، بما يُسمونه في زعمهم وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية. وذلك زعمٌ باطل صعُب عليهم فهمه، ولذلك اختلفوا فيه اختلافًا متباينًا، وكفرت كل فرقة من فرقهم الأخرى بسببه.

٥- الصلب والفداء:

المسيح في نظرهم مات مصلوبًا فداءً عن الخليقة، لشدة حب الله للبشر ولعدالته، فهو وحيد الله -تعالى الله عن كفرهم- الذي أرسله ليخلص العالم من إثم خطيئة أبيهم آدم وخطاياهم، وأنه دفن بعد صلبه، وقام بعد ثلاثة أيام متغلبًا على الموت ليرتفع إلى السماء.

٦- الدينونة والحساب:

يعتقدون بأن الحساب في الآخرة سيكون موكولًا للمسيح عيسى ابن مريم الجالس -في زعمهم- على يمين الرب في السماء؛ لأن فيه من جنس البشر مما يعينه على محاسبة الناس على أعمالهم.

٧- الصليب:

يُعد الصليب شعارًا لهم، وهو موضع تقديس الأكثرين، وحمْله علامة على أنهم من أتباع المسيح، وتعظم الكنائس النصرانيَّة -عدا البروتستانت- الصليب، وتعتبر منكر عبادته مرتدًا،

وتصنع لذلك الصلبان الذهبية والمعدنية والخشبية، ويسجدون لها.

ولا يخفى ما في ذلك من خفة عقولهم وسفاهة رأيهم، فمن الأولى لهم أن يكرهوا الصليب ويحقروه؛ لأنه كان أحد الأدوات التي صلب عليه إلههم وسبب آلامه. وعلى حسب منطقهم فكان الأولى بهم أن يعظموا قبره الذي زعموا أنه دفن فيه، ولامس جسده تربته فترة أطول مما لامس الصليب.

٨- الصور التماثيل:

يستعمل النصارى الصور والتماثيل في العبادة مطلقًا، ويرون وجوب استعمالها في الكنائس، وحرمان ومروق الجماعات التي تناهض وجود التماثيل والصور في الكنائس.

٩- مريم البتول:

يعتقد النصارى على ما أضيف في قانون الإيمان أن مريم ابنة عمران والدة المسيح عليه السلام، هي والدة الإله، ولذا يتوجَّه البعض منهم إليها بالعبادة المتمثلة في عدد من الصلوات التي تؤدى لها.

١٠- الدين:

يؤمن النصارى بأن النصرانيَّة دين عالمي غير مختص ببني إسرائيل وحدهم، ولا يخلو اعتقادهم هذا أيضًا من مخالفة لقول المسيح المذكور في إنجيل متى ١٠/٥، ٦: إلى طرق الأمم لا تتجهوا، ومدن السامريين لا تدخلوا، بل انطلقوا بالحري إلى الخراف الضالة من آل بني إسرائيل.

١١- الصلاة:

الأصل عندهم في جميع الصلوات إنما هي الصلاة الربانية، والأصل في تلاوتها أن يتلوها المصلي ساجدًا، أو تكون بألفاظ منقولة أو مرتجلة أو عقلية بأن تنوي الألفاظ ويكون الابتهال قلبيًّا، وذلك على خلاف كبير بين طوائفهم في عددها وطريقة تأديتها. ليس لها عدد معلوم مع التركيز على صلاتي الصباح والمساء.

١٢- الصوم:

هو الامتناع عن الطعام الدسم وما فيه شيء من الحيوان أو مشتقاته مقتصرين على أكل البقول، وتختلف مدته وكيفيته من فرقة إلى أخرى.

١٣- الختان:

يؤمن النصارى بعدم الختان للأطفال على عكس شريعة التوراة.

١٤- الأسرار السبعة:

والتي ينال بها النصراني النعم غير المنظورة في صورة نعم منظورة، ولا تتم إلا على يد كاهن شرعي، ولذا فهي واجبة على كل نصراني ممارستها وإلا أصبح إيمانه ناقصًا. وبالجملة فإنها من

ضمن التشريعات التي لم يُنزل الله بها من سلطان، وإنما هي من تخرُّصات البابوات.

وهذه الأسرار السبعة هي:

١- سر التعميد: ويقصد به تعميد الأطفال عقب ولادتهم بغطاسهم في الماء أو الرش به باسم الأب والابن والروح القدس، لتمحي عنهم آثار الخطيئة الأصليَّة، بزعم إعطاء الطفل شيئًا من الحرية والمقدرة لعمل الخير، وهذا أيضًا على خلاف بينهم في صورته ووقته.

٢- سر التثبيت (الميرون): ولا يكون إلا مرة واحدة، ولا تكمل المعمودية إلا به، حيث يقوم الكاهن بمسح أعضاء المتعمد بعد خروجه من جرن المعمودية في ستة وثلاثين موضعًا -الأعضاء والمفاصل- بدهن الميرون المقدس.

٣- سر العشاء الرباني: ويكون بالخمر أو الماء ومعه الخبز الجاف؛ حيث يتحول في زعمهم الماء أو الخمر إلى دم المسيح، والخبز إلى عظامه، وبذلك فإن من يتناوله فإنما يمتزج في تعاليمه بذلك، وكذلك ففرقهم على خلاف في الاستحالة بل وفي العشاء نفسه.

٤- سر الاعتراف: وهو الإفضاء إلى رجل الدين بكل ما يقترفه المرء من آثام وذنوب، ويتبعه الغفران والتطهير من الذنب بسقوط العقوبة، وكان الاعتراف يتكرر عدة مرات مدى الحياة، ولكن منذ سنة ١٢١٥م أصبح لازمًا مرة واحدة على الأقل، وهذه الشعيرة عندهم أيضًا مما اختُلِف في وجوبها وإسقاطها.

٥- سر الزواج: يُسمح الزواج بزوجة واحدة مع منع التعدد الذي كان جائزًا في مطلع النصرانيَّة، ويُشترط عند الزواج حضور القسيس ليقيم وحده بين الزوجين، والطلاق لا يجوز إلا في حالة الزنى -على خلاف بينهم- ولا يجوز الزواج بعده مرة أخرى، بعكس الفراق الناشئ عن الموت، أما إذا كان أحد الزوجين غير نصراني فإنه يجوز التفريق بينهما.

٦- سر مسحة المرضى: وهو السر السادس بزعم شفاء الأمراض الجسدية المتسببة عن العلل الروحية وهي الخطيئة، ولا يمارس الكاهن صلوات القنديل السبع إلا بعد أن يتثبَّت من رغبة المريض في الشفاء.

٧- سر الكهنوت: وهو السر الذي ينال به الإنسان بزعمهم النعمة التي تؤهِّله لأن يؤدي رسالة السيد المسيح بين إخوانه من البشر، ولا يتم إلا بوضع يد الأسقف على رأس الشخص المنتخب ثم يتلى عليه الصلوات الخاصة برسم الكهنة.

١٥- الرهبانيَّة:

اختلفت طوائفهم في مدى لزوم الرهبنة التي يأخذ رجال الدين أنفسهم بها.

١٦- التنظيم الكهنوتي:

تختلف كل كنيسة -فرقة- عن الأخرى في التنظيم الكهنوتي، ولكنه بوجه عام هو تنظيمٌ

استعارته الكنيسة في عهودها الأولى من الرومان حيث كان يرأسها أكبرهم سنًّا على أمل عودة المسيح، ويقدسون رهبانهم ورجال كنيستهم، ويجعلون لهم السلطة المطلقة في الدين وفي منح صكوك الغفران؛ يقول تعالى مبينًا انحرافهم: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. [التوبة: ٣١].

١٧- الهرطقة ومحاربتها:

حاربت الكنيسة العلوم والاكتشافات العلميَّة وكل المحاولات الجديدة لفهم كتابهم المقدس، ورمت ذلك كله بالهرطقة، وواجهت هذه الاتجاهات بمنتهى العنف والقسوة، مما أوجد ردة فعل قوية تمثَّلت في ظهور المذاهب العلمانيَّة والأفكار الإلحادية[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٥٧٤- ٥٧٧).

الفصل الثاني

الجذور الفكريَّة والعقائديَّة للنصارى

أخذت النصرانيَّة من معظم الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة قبلها، مما أفقدها شكلها وجوهرها الأساسي الذي جاء به عيسى عليه السلام من لدن رب العالمين.

تقول المهتدية إلى الإسلام مريم جميلة التي تقول: «لقد تتبعت أصول المسيحيَّة القائمة، فوجدتها مطابقة لمعظم الديانات الوثنية القديمة، ولا يكاد يوجد فرق بين هذه الديانات وبين المسيحيَّة سوى فروق شكلية بسيطة في الاسم أو الصورة».

ويقول العلامة روبرتسون في كتابه «وثنية المسيحيين»، الذي تحدث فيه مليًّا عن اقتباس عقائد النصرانيَّة من الوثنيات فيقول: «يسرني أن أسجل أن من بين المسيحيين الذين تعرضوا لكتابي هذا بالنقد والمناقشة لا يوجد واحد عارض الحقائق التي ذكرتها به، تلك التي قادتني إلى أن أقرر أن أكثر تعاليم المسيحيَّة الحالية مستعار من الوثنية».

ومما أخذت منه النصرانيَّة المحرفة غير اليهوديَّة: الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والفلسفة الغنوصية، والحضارات القديمة: المصريَّة، اليونانيَّة، الهندية، والديانات الوثنية: المجوسية، البوذية، الرومانية، الفرعونية، وهي على النحو التالي:

١- أساس النصرانيَّة نصوص العهد القديم، فقد انعكست الروح والتعاليم اليهوديَّة من خلاله، ذلك أن النصرانيَّة قد جاءت مكملة لليهودية، وهي خاصة بخراف بني إسرائيل الضالة، كما تذكر أناجيلهم.

٢- لقد أدخل أمنيوس ت ٢٤٢م أفكارًا وثنية إلى النصرانيَّة بعد أن اعتنقها وارتدَّ عنها إلى الوثنية الرومانية.

٣- عندما دخل الرومان في الديانة النصرانيَّة نقلوا معهم إليها أبحاثهم الفلسفية وثقافتهم الوثنية، ومزجوها بالمسيحيَّة التي صارت خليطًا من كل ذلك.

يقول ول ديورانت: «لما فتحت المسيحيَّة روما انتقل إلى الدين الجديد دماء الدين الوثني القديم: لقب الحبر الأعظم، عبادة الأم العظمى».

ويقول عند كلامه عن قسطنطين: وكان في الوقت نفسه إيذانًا باستبدال المسيحيَّة بالوثنية وجعلها المظهر الديني والعضد القوي للإمبراطوريّة الرومانية.

٤- لقد كانت فكرة التثليث التي أقرَّها مجمع نيقية ٣٢٥م انعكاسًا للأفلاطونية الحديثة التي جلبت معظم أفكارها من الفلسفة الشرقيَّة، وكان لأفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م أثر بارز على معتقداتها، فأفلوطين هذا تتلمذ في الإسكندرية، ثم رحل إلى فارس والهند، وعاد بعدها وفي جعبته

مزيج من ألوان الثقافات، فمن ذلك قوله بأن العالم في تدبيره وتحركه يخضع لثلاثة أمور:

١- المُنشئ الأزلي الأول.

٢- العقل.

٣- الروح التي هي مصدر تتشعب منه الأرواح جميعًا.

بذلك يضع أساسًا للتثليث؛ إذ إن المنشئ هو الله، والعقل هو الابن، والروح هو الروح القدس.

ويقول ليون جوتيه: «إن المسيحيَّة تشربت كثيرًا من الآراء والأفكار في الفلسفة اليونانيَّة، فاللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي صبت فيه نظرية أفلاطون الحديثة، ولذا نجد بينهما متشابهات كثيرة».

٥- تأثرت النصرانيَّة بديانة متراس التي كانت موجودة في بلاد فارس قبل الميلاد بحوالي ستة قرون التي تتضمن قصة مثيلة لقصة العشاء الرباني.

ومنه اعتقاد الفرس أن مترا تجسد لمغفرة الخطايا.

وعقيدة التثليث عند الفرس في الثالوث (أورمزد، متراس، أهرمان).

ويعتقد الفرس أن إلههم المتجسد مترا ولد في ٢٥ ديسمبر، وهو ما يقوله النصارى الأرثوذكس في تواريخهم أيضًا، وقد جرى تحديده بهذا اليوم الموافق لأعياد الوثنين عام ٥٣٠م على يد الراهب ديونيسيوس أكسيجوس، وأراد منه إبعاد المتنصرين عن احتفالات الوثنيين، وشغلهم باحتفال مسيحي، وهو ما تكرر فعله في عدة أعياد وثنية أخرى استعار النصارى منها التواريخ والطقوس.

وفكرة العشاء الرباني صنعها الفرس الذين اعتقدوا أن متراس يمنح البركة للخبز والخمر في العشاء.

ويعتقد المجوس في إلههم (زورستر) أنه قام من الأموات.

٦- في الهندوسية تثليث، وأقانيم، وتجسيد، وصلب للتكفير عن الخطيئة، وزهد ورهبنة، وتخلُّص من المال للدخول في ملكوت السموات، والإله لديهم له ثلاثة أسماء فهو فشنو؛ أي الحافظ، وسيفًا المهلك، وبرهما المُوجِد. وكل ذلك انتقل إلى النصرانيَّة بعد تحريفها.

جاء في ابتهالات التقي أتنيس: «أيها الأرباب الثلاثة. اعلموا أني أعترف بوجود إله واحد، فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي؟ فظهرت الآلهة الثلاثة وقالوا له: اعلم يا أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا، وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل، والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات».

وقد وجد في آثار الهنود صنم له ثلاثة رءوس على جسد واحد تعبيرًا منهم عن الثالوث.

وجاء في كتب الهنود «كرشنا ابن الإله من العذراء ديفاكي، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث

المقدس، خلق السموات والأرض بما فيها، وهو عندهم الأول والآخر».

ويقول المؤرخ ألن في كتابه «الهند»: «أما كرشنا فهو أعظم من كافة الآلهة التي تجسدت، ويمتاز عنها كثيرًا؛ لأنه لم يكن في أولئك إلا جزء قليل من الألوهية، أما هو (كرشنا) فإنه الإله فشنوَ ظهر بالناسوت».

وجاء في كتاب «بهاكافات بورون» الهندي أن كرشنا قال: «سأتجسد في متوار بيت يادوا، وأخرج من رحم ديفاكي، أولد وأموت، قد حان الوقت لإظهار قوتي، وتخليص الأرض من حملها».

وقالوا في كرشنا بقيامته من الأموات: «هوذا كرشنا صاعد إلى وطنه في السماوات».

وينقل العلامة هوك عن آلهة الهنود المتجسدة، فيقول: «يعتقد الهنود بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداء عن الناس من الخطيئة».

وفي كتاب (كيتا» الهندي أن كرشنا قال: «لم يأت زمان لم أكن فيه موجودًا، أنا صنعت كل شيء، أنا الباقي والأبدي، والمبدئ والكائن قبل كل شيء، أنا الحاكم القوي على الكون، أنا الأزل ووسط وآخر كل شيء».

ومن توسلات أرجون لكرشنا: «أنت الباقي العظيم، الواجبة معرفتك، أنت القابض على الكائنات أنت الإله الكائن قبل الآلهة».

ويصفه كتاب «فشنو بوراني»: «إنه بغير ابتداء ووسط وانتهاء».

٧- انتقلت بعض معتقدات وأفكار البوذية التي سبقت النصرانيَّة بخمسة قرون إلى النصرانيَّة المحرَّفة، وإن علم مقارنة الأديان يكشف تطابقًا عجيبًا بين شخصية بوذا وشخصية المسيح عليه السلام.

يقول المؤرخ دوان عن بوذا في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها من الديانات الأخرى»: «الإله بوذا المولود من العذراء مايا الذي يعبده بوذيو الهند وغيرهم ويقولون عنه: إنه ترك الفردوس، ونزل وظهر بالناسوت رحمة بالناس كي ينقذهم من الآثام، ويرشدهم صراطًا مستقيمًا».

وكذا يقول عُبّاد بوذا بقيامته من الأموات، بأنه حزن عليه بعد موته أهل السموات والأرض «حتى إن مهاويو (الإله العظيم) حزن ونادى: قم أيها المحب المقدس، فقام كام (أي بوذا) حيًّا، وبُدِّلت الأحزان والأتراح بالأفراح، وهاجت السماء، ونادت فرِحة: عاد الإله الذي ظُن أنه مات وفُقد . . .».

ويذكر المؤرخ دوان أن الأوربيين اندهشوا عندما ذهبوا إلى رأس كومورين جنوب الهند من رؤية السكان يعبدون إلهًا مخلصًا يدعونه سليفاهانا المولود من عذراء.

وينقل دوان في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها من الديانات الأخرى» تسمية الهنود لبوخص ابن المشتري بفادي الأمم.

وجاء في كتابات الهنود عن بوذا: «هو الألف والياء، ليس لوجوده ابتداء ولا انتهاء، وهو الرب المالك القادر الأبدي».

٨- من البشر الذين قيل بتجسدهم الإله فوهي في الصين، وكذا وستين نونك وهوانكتي وغيرهم، وأما الإله برومسيوس فقد قيل عنه: كان إنسانًا حقيقيًا وإلهًا حقيقيًا.

ويعتقد الصينيون أن الأب لم يخلق شيئًا، وأن الابن لاتوثو المولود من عذراء خلق كل شيء.

ويعتقد الصينيون في إلههم (لأوكيون) أنه قام من الأموات.

٩- خالطت عقيدة البابليين القديمة النصرانيَّة؛ إذ إن هناك محاكمة لبعل إله الشمس تُماثِل وتطابق محاكمة المسيح عليه السلام، وقد عقد «آرثر فندلاي» في كتابه «الكون المنشور» المقارنة بين ما قيل عن بعل قبل المسيحيَّة وما قيل عن المسيح في المسيحيَّة.

وقد قال البابليون بالتثليث حين قسموا الآلهة إلى ثلاثة مجموعات (إله السماء، إله الأرض، إله البحر).

وعن تموز يقول البابليون: «ثقوا أيها القديسون برجوع إلهكم، واتكلوا على ربكم الذي قام من الأموات».

١٠- في التراث المصري القديم أن الإله «أتوم» خلق كل شيء حي بواسطة الكلمة التي خلقت كل قوى الحياة، وكلما يؤكل، وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان.

وعقيدة التثليث في المصريَّة القديمة المتمثلة في الثالوث (أوزيريس، إيزيس، حورس).

ويقول أستاذ الحفريات جارسلاف كريني في كتابه «ديانة قدماء المصريين»: «إن التثليث دخيل على النصرانيَّة الحقة، وإنه مستورد من الوثنية الفرعونية».

وأوزوريس معبود المصريين القريب من مهد المسيحيَّة، انتشرت أسطورته في القرن الثالث قبل الميلاد. يقول المؤرخ مهامي: «إن محور التعليم الديني عند الوثنيين في مصر في القرون الخالية هو الإيمان بقيام الإله».

١١- وعقيدة التثليث أيضًا عند الإسكندنافيين في الثالوث (أووين، تورا، فري) والمكسيكين في الثالوث (تزكتليبوكا، اهوتزليبوشتكي، تلاكوكا)، ثم فلاسفة الإغريق الذين كانت وثنية النصارى أشبه بهم من سائر الوثنيات الأخرى، فقالوا بثالوثهم المكون من (الوجود، العلم، الحياة).

١٢- صيغة الأمانة التي انتهى إليها مجمع نيقية هي صيغة منحولة عن الوثنيات السابقة، فقد نقل المؤرخ مالفير عن كتب الهنود أنهم يقولون: "نؤمن بسافستري (الشمس) إله ضابط الكل،

خالق السماوات والأرض، وبابنه الوحيد آني (النار)، نور من نور، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، تجسد من فايو (الروح) في بطن مايا العذراء، ونؤمن بفايو الروح المنبثق من الأب والابن الذي هو الأب، والابن يسجد له ويمجده[1] .

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٥٧٧، ٥٧٨)، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير، ص(١٣- ٢٣، ٢٩-٣٨، ٤٧-٥٦، ١٠٥-١١٠، ١١٩- ١٢١، ١٧٣)، المسيحية، أحمد شلبي، ص(٨٣، ١١٨- ١٢٠، ١٥٠- ١٥٢، ١٥٨)، حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح، عبد الودود شلبي، ص(٦٧- ٧٣)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر، ص (١٣٩، ١٩١-١٩٢)، الله واحد أو ثلاثة، د. منقذ محمود السقار.

الفصل الثالث

عقيدة ألوهية المسيح عليه السلام

ونتناول الحديث عنها من خلال النقاط الآتية:

١- أنه لا يوجد نص واحد في الكتاب المقدس يصرح فيه المسيح بألوهيته أو يطلب من الناس عبادته، كما لم يعبده أحد من معاصريه، ولم ينظر إليه هؤلاء إلا كمدع للنبوة، آمن به بعضهم، وكفر بنبوته الأكثرون من اليهود، لكن دعوى ألوهيته لا أساس لها في الكتاب المقدس، وفي هذا الصدد يتحدى ديدات كبير قساوسة السويد في مناظرتهما المتلفزة قائلًا: أضع رأسي تحت مقصلة لو أطلعتموني على نص واحد قال فيه عيسى عن نفسه: أنا إله. أو قال: اعبدوني، وهيهات أن يجدوه.

والقس فندر يقول في كتابه مفتاح الأسرار، مبررًا عدم تصريح المسيح بألوهيته في العهد الجديد: ما كان أحد يقدر على فهم هذه العلاقة والوحدانية قبل قيامه وعروجهفلو قال صراحة لفهموا أنه إله بحسب الجسم الإنساني . . . إن كبار ملة اليهود أرادوا أن يأخذوه ويرجوه، والحال أنه ما كان بيّن ألوهيته بين أيديهم إلا عن طريق الألغاز[(١)].

والخوف من اليهود لا يقبل نسبته إلى الإله أو حتى للمسيح الذي رأيناه يواجه اليهود مرًا فيقول في متى ٢٣/١٣- ٣٤: الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . . أيها العميان . . . لأنكم تشبهون القبور المكلسة، أيها الحيات والأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم.

فكيف له بعد ذلك أن يغمض على البشرية في إظهار حقيقته، ففي ذلك إضلال وتلبيس.

٢- أن أحدًا من تلاميذ المسيح لم يكن يعتقد ألوهية المسيح، إذ لم يعبده واحد منهم، بل كلهم وجميع معاصري المسيح ما كانوا يعتقدون أكثر من نبوته.

يقول بطرس قرماج في كتابه «مروج الأخبار في تراجم الأبرار» عن بطرس ومرقس: «كانا ينكران ألوهية المسيح»، فهذا معتقد تلاميذ المسيح المقربين.

ويقول عوض سمعان: «إن المتفحصين لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان لأنهم كيهود كانوا يستبعدون أن يظهر الله في هيئة إنسان. نعم كانوا ينتظرون المسيّا، لكن المسيا بالنسبة إلى أفكارهم التي توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتي من عند الله، وليس هو بذات الله».

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٣/٧١٨-٧٢٤).

وسمعان الصفا (بطرس)، أقرب التلاميذ إلى المسيح يقول وهو ممتلئ من الروح القدس: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون، هذا أخذتموه مسلّمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أعمال الرسل ٢/ ٢٢)، فلم يشر في خطبته المهمة -التي كان فيها مؤيدًا من الروح القدس- إلى شيء من الألوهية للمسيح، ولم يتحدث عن الناسوت المتأله ولا الإله المتجسد.

ولما عرض المسيح -متنكرًا بعد الصلب المزعوم- لرجلين من أصحابه قد حزنا بسبب ما تردد عن صلبه، سألهما عن سبب حزنهما فقالا: «يسوع الناصري الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت، وصلبوه. ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل» (لوقا ٢٤/ ١٩-٢١)، فليس في قولهما حديث عن ناسوت مقتول، ولا عن لاهوت متجسد نجا من الموت، إن غاية ما كانوا يرقبونه فيه، أن يكون مخلص إسرائيل، أي المسيح المنتظر الذي بشرت به الأنبياء.

وأيضًا عجب منه تلاميذه لما رأوا بعض معجزاته، ولو كانوا يرونه إلهًا لما كان في معجزاته أي عجب، (متى ٢١/ ١٨-٢٢).

ويحيى المعمداني -عليه السلام- مع جلالة أمره لم يظن في المسيح أنه أكثر من النبي المنتظر الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل، (متى ١١/ ٣-٦).

ولما جاءته المرأة السامريَّة ورأت قدراته وأعاجيبه: «قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبي» (يوحنا ٤/ ١٩)، وما زادت على ذلك، فما وبخها ولا صحح لها معتقدها، فكان هذا معتقدًا يعتقده عامة الناس كما اعتقده تلاميذ المسيح وحواريوه.

وهو ما قاله عنه الأعمى الذي شفاه المسيح ورأى برهان الله على نبوة هذا المبارك «فقالوا له: كيف انفتحت عيناك؟ أجاب ذاك وقال: إنسان يقال له: يسوع» (يوحنا ٩/ ١٠-١١).

وكذا الجموع التي رأته كثيرًا في أورشليم، وخرجت لاستقباله لما دخل أورشليم دخول الأبطال، هذه الجموع كانت تعتقد بشريته ونبوته «فقالت الجموع: هذا يسوع النبي» (متى ٢١/ ١١).

٣- وكذلك أعداؤه عليه السلام من اليهود يلاحقونه، ويطلبون منه آية، فأخبرهم بأنه لن تأتيهم سوى آية يونان النبي (يونس) -عليه السلام- «أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلّم نريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي» (متى ١٢/ ٣٨-٣٩).

واليهود ولا ريب يبحثون عن آية تدل على نبوته التي يدعوهم إلى الإيمان بها، ولو كان ما يدعو إليه الألوهية لما رضوا منه بمثل آية يونان، بل ولطالبوه بآيات أعظم من آية يونان، وغيره من الأنبياء.

وفيما أحد الفريسيين يرقب المسيح متشككًا بنبوته تقدمت إليه امرأة خاطئة باكية تمسح رجليه بشعرها، تقبلهما وتدهنهما بالطيب، «فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك، تكلم في نفسه قائلًا: لو كان هذا نبيًّا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه؟ وما هي؟ إنها خاطئة» (لوقا ٧/ ٣٩). لقد استنكر في نفسه نبوة -لا ألوهية- هذا الذي يجهل حال الخاطئة، مما يؤكد أن دعواه -عليه السلام- بينهم إنما كانت النبوة فحسب.

ولما أراد اليهود قتله، كانت جريمته عندهم دعواه النبوة، لا الربوبية، فقد قالوا لنيقوديموس: «ألعلك أنت أيضًا من الجليل؟ فتّش وانظر. إنه لم يقم نبي من الجليل» (يوحنا ٧/ ٥٢)، إنهم يكذبونه في دعواه النبوة، وهو من الجليل التي لم يسبق أن أتى منها نبي.

والشيطان أيضًا لم ير في المسيح أكثر من كونه بشرًا، فاجترأ عليه محاولًا غوايته، لذلك فقد حصره في الجبل أربعين يومًا من غير طعام ولا شراب، وهو في ذلك يمتحنه ويمنيه بإعطائه الدنيا في مقابل سجدة واحدة له «أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جدًّا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له: أعطيك هذه جميعها، إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤/ ٩-١٠)، فهل كان الشيطان يعِد الرب العظيم -مالك كل شيء وواهبه- بالدنيا؟!!

٤- ثم إن كان المسيح إلهًا متجسدًا فكيف نفهم تبريرًا لخيانة يهوذا؟ وهل يخان الإله؟ وكيف نفهم بطرس إنكار بطرس له ثلاث مرات ولعنه في الليلة التي أراد اليهود القبض فيها على المسيح؟

بل إن كل ما قيل في سيرة المسيح يصعب فهمه مع القول بألوهيته، ويترك علامات استفهام لا إجابة عنها.

٥- والنبوءات السابقة التي يؤمن النصارى بها، ويقولون: إنها تحققت فيه عليه السلام لم تتنبأ بقيام رب أو إله، وإنما تنبأت بنبي ورسول صالح.

من ذلك ما جاء في كلام عاموس النبي «قال الرب: من أجل ذنوب إسرائيل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه؛ لأنهم باعوا البار بالفضة...» (عاموس ٢/ ٦)، فهو لم يقل: في بيعهم إياي، ولا بيع إله متساو معي، بل سماه بارًّا، وهو وصف يقتضي كمال العبودية لله.

٦- وشهد المسيح عليه السلام لربه بالوحدانية، ولنفسه بالرسالة، فقال: «أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧/ ٣).

ونحوه قوله عن نفسه: «فكانوا يعثرون به، وأما يسوع فقال لهم: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته» (متى ١٣/ ٥٧)، فاعتبر نفسه كسائر الأنبياء، لا يعرف أقوامهم لهم قدرهم ومنزلتهم.

ولما خوفه الفريسيون من هيرودس قال لهم: «ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه؛ لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارجًا عن أورشليم. يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين»

(لوقا ١٣/ ٣٣-٣٤)، فشهد لنفسه بالنبوة، وخاف من مصرعه في أورشليم كما صرع فيها غيره من الأنبياء، فغادر أورشليم، وناداها: «يا قاتلة الأنبياء» ولم يقل لها: يا قاتلة الإله. فذلك أبلغ لو صح.

ولما أظهر المعجزات لقومه قرنها بدعوى نبوته قائلًا وهو يناجي الله: «ولكن أسألك من أجل هذه الجماعة، ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني» (يوحنا ١١/ ٢٦).

ولما أرادوا قتله قال: «تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يوحنا ٨/ ٤٠)، فهو إنسان رسول، وهذا نص صريح بإنسانيته أنه رسول من الله.

ولما بعث تلاميذه للدعوة قال لهم: «فقال لهم يسوع أيضًا: سلام لكم، كما أرسلني الآب أرسلكم أنا» (يوحنا ٢٠/ ٢١).

وأكد رسالته بقوله: «الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول، وبماذا أتكلم» (يوحنا ١٤/ ٢ - ٣).

وهو في كل ما يقوله عن الله معصوم؛ لأنه ينطق بالوحي، فقد قال: «الكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني» (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وفي موضع آخر: «تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني» (يوحنا ٧/ ١٦). وقال: «ولا رسول أعظم من مرسله» (يوحنا ١٣/ ١٦).

٧- ونبوته عليه الصلاة والسلام هي معتقد الناس عامة فيه، وقد صرحوا بذلك أمامه فلم يخطئهم، فعندما أحيا المسيح ابن الأرملة في نايين «أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه» (لوقا ٧/ ١٦).

ولما أطعم الخمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة قالوا: «فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» (يوحنا ٦/ ١٤).

وقد قال بولس معترفًا برسالته وبشريته: «لأنه يوجد إله واحد، ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح» (تيموثاوس (١) ٢/ ٥).

وقد صدق السير آرثر فندلاي في قوله في كتابه «الكون المنشور»: «لا يعتبر عيسى إلهًا أو مخلصًا، إنما هو رسول من الله خدم في حياته القصيرة في علاج المرضى وبشر بالحياة الأخرى، وعلم بأن الحياة الدنيا ما هي إلا إعداد للملكوت الإلهي بحياة أفضل لكل من عمل صالحًا».

٨- ثم إن أقوى ما يتعلق به النصارى من الدليل لا يوجد إلا في إنجيل يوحنا ورسائل بولس، بينما تخلو الأناجيل الثلاثة من دليل واضح ينهض في إثبات ألوهية المسيح.

بل إن خلو هذه الأناجيل عن الدليل المفقود هو الذي دفع يوحنا -أو كاتب يوحنا- لكتابة إنجيل عن لاهوت المسيح، فكتب ما لم يكتبه الآخرون، وجاءت كتابته مشبعة بالغموض والفلسفة الغريبة عن بيئة المسيح البسيطة التي صحبه بها العوام من أتباعه.

٩- عدم الدليل الصحيح الصريح على ألوهية المسيح جعل النصارى يحرفون في طبعات الأناجيل الجديدة، ومن ذلك إضافتهم نص التثليث الصريح الوحيد في (يوحنا (١) ٥/ ٧)، وسيأتي الكلام عنه.

ومثله وقع التحريف في قول بولس: «عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد» (تيموثاوس (١) ٣/ ١٦)

فالفقرة كما قال المحقق كريسباخ: محرفة، إذ ليس في الأصل كلمة «الله»، بل ضمير الغائب «هو» أو «الذي».

ويقول القس جيمس أنِس مبينًا سبب وقوع هذا التحريف وتاريخه: «ومما يرجح صحة قراءة (الذي) عدم ذكر اللاهوتيين القدماء هذه الآية مع الآيات الكثيرة التي أوردوها ليثبتوا لاهوت المسيح، وهم يردون على ضلالة آريوس.

أما سبب تبديل كلمة (الذي) بكلمة (الله) في النسخ اليونانيَّة الحديثة، فهو ما بين اسم الجلالة (حيث كتبت على صورتها المختصرة بحرفين فقط) وكلمة (الذي) من المشابهة في صورة كتابتها، فليس بينهما فرق إلا في خط صغير؛ يقرب من النقطة التي تفرق بين الجيم والحاء في الكتابة العربيَّة . .

والراجح أن النساخ زادوا ذلك الخط الصغير ليوضحوا المعنى في بعض النسخ، فتحولت كلمة (الذي) إلى (الله)، ثم شاع استعماله في كل نسخ القرون المتوسطة؛ خلافًا للنسخ القديمة التي لم يُر فيها إلا كلمة (الذي)[(١)].

ولو أعدنا قراءة قول بولس حسب القراءة الصحيحة وبعيدًا عن التحريف المتعمد للنُّسَّاخ؛ فإنا نجده متحدثًا عن ظهور التقوى في جسد حي، فأحالته الترجمات الحديثة إلى دليل على التجسد الإلهي في المسيح.

وفي النسخة اليسوعيَّة الكاثوليكيَّة والترجمة العربيَّة المشتركة تم إزالة التحريف وتصحيح النص، ليصبح: «عظيم سر التقوى الذي تجلى في الجسد»، واختفى منها اسم الله تبارك وتعالى، وتغير المعنى، واختفت الدلالة على ألوهية المسيح من النص.

ومثله تلاعب المترجمون برسالة يهوذا، حيث جاء في النسخة البرتستانتية الأشهر في المسيحيَّة ما يوهم أن المسيح هو «القادر أن يحفظكم غير عاثرين، ويوقفكم أمام مجده بلا عيب في الابتهاج، الإله الحكيم الوحيد، مخلّصنا، له المجد والعظمة والقدرة والسلطان الآن وإلى كل الدهور» (يهوذا ١/ ٢٤-٢٥)، والصحيح أن النص يتحدث عن الله المخلص، الذي يخلص بالمسيح، وليس عن المسيح، فهو كما في نسخة الرهبانيَّة اليسوعيَّة الكاثوليكيَّة «للإلهِ الواحد مخلصِنا -بيسوع المسيح ربنا- المجدُ والجلال والعزة والسلطان». فالنص في النسخة البرتستانتية حذف اسم المسيح، ليوهم

(١) علم اللاهوت النظامي، جيمس أنِس، ص(٢٠٦)، إظهار الحق (٢/ ٤٦٠).

أنه صاحب الخلاص، وليس واسطة الخلاص، وأنه «الإله الحكيم الوحيد»، بينما النص الكاثوليكي يتحدث عن الله «الإله الواحد مخلصنا».

لقد لجئوا إلى التحريف حين أعياهم أن يجدوا دليلًا صحيحًا في دلالته على ألوهية المسيح عليه الصلاة والسلام.

وثالثة الأثافي التلاعب بعبارة بولس في سفر أعمال الرسل، حيث زعموا أنه قال: «لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أعمال ٢٠/٢٨)، وعليه فالمسيح هو الله الذي اقتنى الكنيسة بدمه، وقد قال أغناطيوس: «دعي يسوع المسيح إلهًا، وقيل في دمه: إنه دم الله»[(١)].

وهذه القراءة لا يسلم بصحتها ودقتها، وقد أشار إلى ذلك محققو الرهبانيَّة اليسوعيَّة في حاشية النص، فقالوا: قراءات مختلفة: «كنيسة الرب (يسوع)»، أو «(يسوع) المسيح»، أو «الرب»، أو «الرب (و) الله».

ويبينه القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره بقوله: «جاء تعبير (كنيسة الله) هنا في كثير من المخطوطات، خاصة السريانيَّة: (كنيسة الرب»)[(٢)].

وهكذا ترك طابعو الكتاب تلك القراءات وما في تلك المخطوطات الكثيرة، واختاروا ما يحلو لهم، وذلك في خضم تخبطهم وبحثهم عن أدلة يسندون فيها دعواهم بألوهية المسيح.

١٠- ويرى النصارى أن بعض النصوص المقدَّسة تفيد حلولًا إلهيًا في عيسى عليه السلام، وقد تتبع المحققون هذه النصوص، فأبطلوا استدلال النصارى بها، وبينوا سوء فهمهم لها.

فأما ما جاء من ألفاظ دلت على أن المسيح قد حلّ فيه الله -على ما فهمه النصارى- فإن فهمهم لها مغلوط. ذلك أن المراد بالحلول حلول مجازي كما جاء في حق غيره بلا خلاف، ونقول مثله في مسألة الحلول في المسيح.

فالله -حسب الكتاب المقدس- يحل في كثيرين؛ أي حلول المواهب الإلهية، لا حلول ذاته العلية التي تتنزه عن الحلول في المخلوقات المحدودة، فقد جاء في رسالة يوحنا «من اعترف بأن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه، وهو في الله، ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه» (يوحنا (١) ٤/ ١٥-١٦)، فحلول الله في الذين اعترفوا بالمسيح ليس بحلول ذوات، وإلا كانوا جميعًا آلهة.

ومثله فإن الله يحل مجازًا في كل من يحفظ الوصايا ولا يعني ذلك ألوهيتهم، ففي رسالة يوحنا: «ومن يحفظ وصاياه يثبت فيه، وهو فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا» (يوحنا

---

(١) علم اللاهوت النظامي ص(٢٠٩).

(٢) أعمال الرسل، القمص تادرس يعقوب ملطي، ص(٧٨٢).

(١) ٣/ ٢٤)، فليس المقصود تقمص الذات الإلهية لهؤلاء الصالحين، بل حلول هداية الله وتأييده عليهم.

وكذا الذين يحبون بعضهم لله فإن الله يحل فيهم برحمته، لا بذاته «إن أحب بعضنا بعضًا فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكمَّلت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه، وهو فينا» (يوحنا (١) ٤/ ١٢-١٣).

وكما في قوله عن التلاميذ: «أنا فيهم، وأنت فيّ» (يوحنا ١٧/ ٢٢).

ومثله يقول بولس عن المؤمنين: «فإنكم أنتم هيكل الله الحي، كما قال الله: إني سأسكن فيهم، وأسير بينهم، وأكون لهم إلهًا، وهم يكونون لي شعبًا» (كورنثوس (٢) ٦/ ١٦-١٧)، ويقول: «وأما أنتم فجسد المسيح» (كورنثوس (١) ١٢/ ٢٧)، فالحلول في كل ذلك مجازي.

فقد أفادت هذه النصوص حلولًا إلهيًا في كل المؤمنين، وهذا الحلول هو حلول مجازي بلا خلاف، أي حلول هدايته ومواهبه وتوفيقه، ومثله الحلول في المسيح، ومن زعم الفرق وجب عليه إحضار الدليل.

كما تذكر التوراة حلول الله -وحاشاه- في بعض مخلوقاته على الحقيقة، ولا تقول النصارى بألوهية هذه الأشياء، ومن ذلك ما جاء في سفر الخروج «المكان الذي صنعته يا رب لسكنك» (الخروج ١٥/ ١٧)، فقد حل وسكن في جبل الهيكل، ولا يعبد أحد ذلك الجبل.

وفي المزامير: «لماذا أيتها الجبال المسنمة ترصدون الجبل الذي اشتهاه الله لسكنه، بل الرب يسكن فيه إلى الأبد» (المزمور ٦٨/ ١٦)[١].

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة، د. منقذ محمود السقار.

الفصل الرابع

عقيدة بنوة المسيح عليه السلام

ونتناول الحديث عنها من خلال النقاط الآتية:

١- أول ما يلفت المحققون النظر إليه أنه لم يرد عن المسيح عليه السلام في الأناجيل تسميته لنفسه بابن الله سوى مرة واحدة في يوحنا ٣٦/١٠، وفيما سوى ذلك فإن الأناجيل تذكر أن معاصريه وتلاميذه كانوا يقولون بأنه ابن الله.

لذا فإن المحققين يشككون في صدور هذه الكلمات من المسيح -عليه السلام- أو تلاميذه، يقول سنجر في كتابه «قاموس الإنجيل»: «ليس من المتيقن أن عيسى نفسه قد استخدم ذلك التعبير».

ويقول شارل جنيبر: «والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن المسيح لم يدَّعِ قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه إنه ابن الله... فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحين الذين تأثروا بالثقافة اليونانيَّة»[١].

وقد قال العالم كولمن بخصوص هذا اللقب: «إن الحواريين الذين تحدث عنهم أعمال الرسل تأسَّوا بمعلمهم الذي تحفظ على استخدام هذا اللقب ولم يرغب به، فاستتوا بسنته».

ويرى جنيبر أن المفهوم الخاطئ وصل إلى الإنجيل عبر الفهم غير الدقيق من المتنصرين الوثنيين فيقول: «مفهوم «ابن الله» نبع من عالم الفكر اليوناني».

ويرى القس السابق سليمان مفسر -ويوافقه الدكتور شارل جنيبر- أن بولس هو أول من استعمل الكلمة، وكانت حسب لغة المسيح (عبد الله) وترجمتها اليونانيَّة servant، فأبدلها بالكلمة اليونانيَّة pais بمعنى طفل أو خادم تقربًا إلى المتنصرين الجدد من الوثنيين[٢].

٢- ثم هذه النصوص التي تصف المسيح -عليه السلام- أنه ابن الله معارضة بثلاثة وثمانين نصًا من النصوص التي أطلقت على المسيح لقب «ابن الإنسان»، فلئن كانت تلك التي أسمته ابن الله دالة على ألوهيته فإن هذه مؤكدة لبشريته، صارفة تلك الأخرى إلى المعنى المجازي.

ومنها قول متى ٨/ ٢٠: «قال له يسوع: للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له، أين يسند رأسه».

وأيضًا قوله في مرقس ١٤/ ٢١: «ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه».

---

(١) المسيحية، نشأتها وتطورها، شارل جنيبر ص(٥٠).

(٢) انظر: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رءوف شلبي، ص(٢٦٣-٢٦٤)، عيسى رسول الإسلام، سليمان مفسر، ص(٤٤-٤٧)، المسيحية، نشأتها وتطورها، ص(٥٠).

وقد جاء في التوراة في العدد ٢٣/٩: «ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم».

فالمسيح ليس الله.

٣- ولفظ البنوة الذي أطلق على المسيح أطلق على كثيرين غيره، ولم يقتضِ ذلك ألوهيتهم، بل حملت بنوتهم على المعنى المجازي، أي المؤمنين والصالحين.

منهم آدم الذي قيل فيه: «آدم ابن الله» (لوقا ٣/٣٨).

ومثله قوله لداود: «أنت ابني، أنا اليوم ولدتك» (المزمور ٢/٧).

وسليمان أيضًا قيل: إنه ابن الله، فقد جاء في سفر الأيام عنه: «هو يبني لي بيتًا أنا أكون له أبًا، وهو يكون لي ابنًا» (الأيام (١) ١٧/ ١٢-١٣).

كما سمى لوقا الملائكة أبناء الله لشيوع مثل هذه الاستخدام في الصدر الأول للمسيحية «مثلَ الملائكةِ وهم أبناء الله» (لوقا ٢٠/ ٣٦).

وسمت النصوص أيضًا آخرين أبناء الله، أو ذكرت أن الله أبوهم، ومع ذلك لا يقول النصارى بألوهيتهم.

فالحواريون أبناء الله، كما قال المسيح عنهم: «قولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠/ ١٧).

وقال للتلاميذ أيضًا: «فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (متى ٥/ ٤٨).

وعلمهم المسيح أن يقولوا: «فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك...» (متى ٦/ ٩).

وقوله: «أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه» (متى ٦/ ١١)، فكان يوحنا يقول: «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله» (يوحنا (١) ٣/ ١).

بل واليهود أيضًا كلهم أبناء الله كما يوضحه قول المسيح لليهود: «أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنى. لنا أب واحد، وهو الله» (يوحنا ٨/ ٤١).

وفي سفر هوشع «يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال ولا يعدّ، ويكون عوضًا عن أن يقال لهم: لستم شعبي، يقال لهم: أبناء الله الحي» (هوشع ١/ ١٠).

ونحوه قال عنهم: «لما كان إسرائيل غلامًا أحببته، ومن مصر دعوت ابني» (هوشع ١١/ ١).

ومن ذلك أيضًا ما جاء في سفر الخروج عن جميع شعب «فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر. فقلت لك: أطلق ابني ليعبدني، فأبيت» (الخروج ٤/ ٢٢).

وخاطبهم داود قائلًا: «قدموا للرب يا أبناء الله، قدموا للرب مجدًا وعزًّا» (المزمور ٢٩/ ١).

ومثله قوله: «لأنه من في السماء يعادل الرب. من يشبه الرب بين أبناء الله» (المزمور ٨٩/ ٦).

وفي سفر أيوب: «كان ذات يوم أنه جاء بنو الله، ليمثلوا أمام الرب» (أيوب ١/ ٦).

وقال الإنجيل عنهم: «طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يُدعون» (متى ٥/ ٩).

وعن المؤمنين يقول بولس: «فإذ نحن ذرية الله، لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان» (أعمال ١٧/ ٢٩)، فوسم المؤمنين بأنهم ذرية الله، أي المحبون والمطيعون لله.

كما نرى في التوراة هذا الإطلاق على الشرفاء والأقوياء من غير أن يفهم منه النصارى أو غيرهم الألوهية الحقيقية، فقد جاء فيها: «أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا... إذ دخل بنو الله على بنات الناس، وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» (التكوين ٦/ ٢).

وعليه فلا يمكن النصارى أن يجعلوا من النصوص المتحدثة عن بنوة المسيح لله أدلة على ألوهيته ثم يمنعوا إطلاق حقيقة ذات اللفظ على آدم وسليمان و إلخ، وتخصيصهم المسيح بالمعنى الحقيقي يحتاج إلى مرجح لا يملكونه ولا يقدرون عليه.

٤- معنى البنوة الصحيح: والمعنى المقصود للبنوة في كل ما قيل عن المسيح عليه السلام وغيره إنما هو معنى مجازي بمعنى حبيب الله أو مطيع الله، أو المؤمن بالله.

لذلك قال مرقس وهو يحكي عبارة قائد المائة الذي شاهد المصلوب وهو يموت فقال: «حقًّا كان هذا الإنسان ابن الله» (مرقس ١٥/ ٣٩).

ولما حكى لوقا القصة نفسها أبدل العبارة بمرادفها فقال: «بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا» (لوقا ٢٣/ ٤٧).

ومثل هذا الاستخدام وقع من يوحنا حين تحدث عن أولاد الله المؤمنين، فقال: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله. أي المؤمنين باسمه» (يوحنا ١/ ١٢)، ونحوه في قول بولس: «كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (غلاطية ٨/ ١٤).

ومثله قول يوحنا: «الذي يسمع كلام الله من الله» (يوحنا ٨/ ٤٧).

ومثل هذا الإطلاق المجازي للبنوة معهود في الكتب المقدَّسة التي تحدثت عن أبناء الشيطان، وأبناء الدهر (الدنيا) (انظر يوحنا ٨/ ٤٤، لوقا ١٦/ ٨).

٥- وأما المعنى الحقيقي للبنوة فقد نطقت به الشياطين، فانتهرها المسيح، ففي إنجيل لوقا «كانت شياطين أيضًا تخرج من كثيرين، وهي تصرخ وتقول: أنت المسيح ابن الله. فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون؛ لأنهم عرفوه أنه المسيح» (لوقا ٤/ ٤١)، فهو المسيح فحسب، وليس ابن الله على الحقيقة.

بكورية المسيح بين الأبناء

لكن النصارى يرون تميزًا مستحقًا للمسيح في بنوته عن سائر الأبناء، فهم لا ينازعون في صحة الإطلاق المجازي عندما ترد لفظ البنوة بحق سائر المخلوقات.

لكن النزاع إنما يكمن في تلك الأوصاف التي أطلقت على المسيح ويثبتها النصارى على الحقيقة محتجين بأمور، منها: أنه قد جاء وصف المسيح بأنه الابن البكر أو الوحيد لله. (انظر عبرانيين ١/٦، يوحنا ٣/١٨) أو أنه سمي ابن الله العلي (انظر لوقا ١/ ٣٢، ٧٦)، أو أنه ابن ليس مولودًا من هذا العالم كسائر الأبناء، بل هو مولود من السماء، أو من فوق. (انظر يوحنا ١/ ١٨).

ولكن ذلك كله تثبت النصوص أمثاله لأبناء آخرين.

فالبكورية وصف بها إسرائيل: «إسرائيل ابني البكر» (الخروج ٤/ ٢٢-٢٣).

وكذا إفرايم «لأني صرت لإسرائيل أبًا، وإفرايم هو بكري» (إرميا ٣١/ ٩).

وكذا داود «هو يدعوني: أنت أبي وإلهي وصخرة خلاصي، وأنا أيضًا أجعله بكرًا، فوق ملوك الأرض عليًّا» (المزمور ٨٩/ ٢٦-٢٧).

ولئن قيل في المسيح إنه ابن الله العلي، فكذلك سائر بني إسرائيل «وبنو العلي كلكم» (المزمور ٨٢/ ٦).

وكذا تلاميذ المسيح فهم أيضًا بنو العلي «أحبوا أعداءكم فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بني العلي» (لوقا ٦/ ٣٥).

الابن النازل من السماء

وتعلق مؤلهو المسيح بما ذكرته الأناجيل عن المسيح الذي أتى من فوق أو من السماء، و«الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع» (يوحنا ٣/ ٣١)، وهم يرون صورة ألوهيته مشرقة في قوله: «أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يوحنا ٨/ ٢٣)، فدل ذلك -وفق رأي النصارى- على أنه كائن إلهي فريد، وهو ابن لا كسائر الأبناء.

لكن المقصود من المجيء السماوي هو إتيان المواهب والشريعة لا إتيان الذات، وهو أمر يستوي به مع سائر الأنبياء، ومنهم يوحنا المعمدان فقد سأل المسيح اليهود: «معمودية يوحنا من أين كانت من السماء؟ أم من الناس؟ ففكروا في أنفسهم قائلين: إن قلنا من السماء، فيقولوا لنا: فلماذا لم تؤمنوا به؟ وإن قلنا: من الناس، نخاف من الشعب» (متى ٢١/ ٢٥-٢٦).

وأما النازلون على الحقيقة من السماء فهم كثر، ولا تعتبر النصارى أيا منهم آلهة، منهم الملائكة، «لأن ملاك الرب نزل من السماء» (متى ٢٨/ ٢).

وكذا صعد أخنوخ إلى السماء «وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد، لأن الله أخذه» (التكوين ٥/ ٢٤)، ومن المعلوم أن «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي

هو في السماء» (يوحنا ٣/ ١٣)، فأخنوخ مثله، ولا يقولون بألوهيته.

وكذا إيليا صعد إلى السماء «ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء» (الملوك (٢) ٢/ ١١).

كما تذكر الأناجيل أن التلاميذ، هم أيضًا مولودون من فوق أو من الله، أي هم مؤمنون به، ففي يوحنا: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنين باسمه» (يوحنا ١/ ١٢). فالمقصود بالولاد، الولاد الروحي، بحيث يتغير قلب الإنسان الخاطئ تغيرًا عظيمًا كاملًا مستمرًا، كأنه ولد ثانية، ويحدث ذلك عند توبته وإيمانه.

والمؤمنون بالمسيح -عليه السلام- مولودون من فوق بما أعطاهم الله من الإيمان، فهم كسائر المؤمنين كما قال المسيح: «الحق الحق أقول لكم: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يوحنا ٣/ ٣).

وكذا قال: «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله» (يوحنا (١) ٥/ ١).

وقال: «كل من يصنع البر مولود منه» (يوحنا (١) ٢/ ٢٩).

وقول المسيح -عليه السلام-: «أما أنا فلست من هذا العالم» ليس دليلًا على الألوهية بحال، فمراده اختلافه عن سائر البشر باستعلائه على العالم المادي، بل هو من فوق ذلك الحطام الذي يلهث وراءه سائر الناس.

وقد قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضًا بعد أن لمس فيهم حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، فقال: «لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، لكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم» (يوحنا ١٥/ ١٩).

وفي موضع آخر قال عنهم: «أنا قد أعطيتهم كلامك، والعالم أبغضهم؛ لأنهم ليسوا من العالم، كما أني لست من العالم» (١٧/ ١٤-١٥)، فقال في حق تلاميذه ما قاله في حق نفسه من كونهم جميعًا ليسوا من هذا العالم، فلو كان هذا على ظاهره، وكان مستلزمًا الألوهية، للزم أن يكون التلاميذ كلهم آلهة، لكن تعبيره في ذلك كله نوع من المجاز، كما يقال: فلان ليس من هذا العالم، يعني: هو لا يعيش للدنيا ولا يهتم بها، بل هَمُّهُ دومًا رضا الله والدار الآخرة»[1].

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

الفصل الخامس

عقيدة ألوهيَّة الروح القدس

ورد إطلاق الروح القدس في الكتاب المقدس على معان متعددة:

١- الروح الإنسانية التي يخلقها الله في الأحياء، فهي روح الله المخلوقة فيهم «وإلى أرواح أبرار مكملين» (عبرانيين ١٢/ ٢٣)، ونحوه دعاء المترنم: «تنزع أرواحها فتموت، وإلى تراب تعود، ترسِل روحك (أي يا الله) فتُخلق (أي الكائنات) وتجدد وجه الأرض» (المزمور ١٠٤/ ٢٩-٣٠)، وهذه الروح التي من الله هي النفخة التي أحيت هيكل آدم «ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حيًّا» (التكوين ٢/ ٧)، وقد سميت هذه الروح بروح من الله؛ لأنها صدرت عن الله، وإليه تعود «ترجع الروح إلى الله الذي أعطاها» (الجامعة ١٢/ ٧).

٢- الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء ومنه: «داود قال بالروح القدس» (مرقس ١٢/ ٣٦)، ومثله «وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس» (لوقا ١/ ٦٧)، وقال بطرس: «أيها الرجال الإخوة، كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذي سبق الروح القدس فقاله بفم داود» (أعمال ١/ ١٦)، وقد سمى الله الأنبياء وما يأتون به من الوحي روح القدس فقال موبخًا لبني إسرائيل: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان، أنتم دائمًا تقاومون الروح القدس، كما كان آباؤكم كذلك أنتم، أيُّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟!» (أعمال ٧/ ٥١).

٣- كما يطلق هذا اللفظ على ما يعطيه الله من تأييد وفهم وحكمة للأنبياء وغيرهم، وقد يكون بواسطة الملائكة وسواهم، ومنه قول المسيح -عليه السلام-: «كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين» (متى ١٢/ ٢٨)، وقول فرعون لعبيده، وهو يبحث عن رجل حكيم: «هل نجد مثل هذا رجلًا فيه روح الله» (التكوين ٤١/ ٣٨). وكذا «كان الرجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان بارًّا تقيًّا ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه» (لوقا ٢/ ٢٥)، وكذلك أيد روح القدس التلاميذ في اليوم الخمسين «فامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أعمال ٢/ ٤)، ومثله قول سفر النبي حجي: «روحي قائم في وسطكم. لا تخافوا» (حجي ٢/ ٥).

٤- الرياح الشديدة، ومنه قول التوراة وهي تصف الريح المدمرة: «يبس العشب، ذبل الزهر؛ لأن روح الرب هب عليه» (إشعيا ٤٠/ ٧)، وهو ينطبق على ما جاء في مقدمة سفر التكوين «وروح الله يرف على وجه الماء» (التكوين ١/ ١-٢)، فإن في ترجمته لبسًا أوهم هذا الخلط، فالنص كما ينقل الناقد الكبير اسبينوزا عن مفسري اليهود، يقصد منه رياح عظيمة أتت من عند الله، فبددت ظلمات الغمر.

ونسبة الروح إلى الله في هذين النصين وأمثالهما نسبة تعظيم وتشريف، لا نسبة تأليه، وهي كقوله: «جبال الله» (المزمور ٣٦/ ٦).

لكن جميع المعاني التي ذكرناها قبلُ للروح القدس غير مرادة عند مؤلهي روح القدس، الذين لا يوافقون على كونه مجرد قوة أو تأثير أو ملاك من الله، فالروح القدس وفق المفهوم النصراني إله، إنه ثالث أطراف الثالوث الأقدس، فمن هو الروح القدس وفق مفهومهم؟ وما أدلة النصارى على تأليهه؟ ومتى تمّ ذلك؟

في عام ٣٨١م وبأمر الإمبراطور تاؤديوس انعقد مجمع القسطنطينيَّة للنظر في قول الأسقف مكدونيوس أسقف القسطنطينيَّة الأريوسي، والذي كان ينكر ألوهية الروح القدس ويقول بما تقوله الأسفار عن الروح القدس: «إن الروح القدس عمل إلهي منتشر في الكون، وليس أقنومًا متميزًا عن الأب والابن»، وكان يقول عنه: إنه كسائر المخلوقات، ويراه خادمًا للابن كأحد الملائكة.

وقد حضر المجمع مائة وخمسون أسقفًا، وقرروا حرمان مكدونيوس وتجريده من وظائفه الكنسية، واتخذوا أحد أهم قرارات المجامع الكنسية، وهو تأليه الروح القدس، واعتبروه مكملًا للثالوث الأقدس، وقالوا: «ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس الله شيئًا غير حياته، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا: إن الله مخلوق»[١].

ويقول القس ياسين منصور: «إن الروح القدس هو الله الأزلي، فهو الكائن منذ البدء قبل الخليقة، وهو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، والحاضر في كل مكان، وهو السرمدي غير المحدود».

ويقول في موضع آخر: «إن الروح القدس هو الأقنوم الثالث في اللاهوت، وهو ليس مجرد تأثير أو صفة أو قوة، بل هو ذات حقيقي، وشخص حي، وأقنوم متميز، ولكنه غير منفصل، وهو وحدة أقنومية غير أقنوم الآب، وغير أقنوم الابن، ومساوٍ لهما في السلطان والمقام، ومشترك وإياهما في جوهر واحد ولاهوت واحد»[٢].

يتعلق النصارى في تأليه الروح القدس بما جاء في إنجيل يوحنا: «إن الله روح» (يوحنا ٤/ ٢٤)، كما يرونه الروح الموجودة منذ بدء الخليقة «في البدء خلق الله السموات والأرض . . . روح الله يرف على وجه الماء» (التكوين ١/ ١-٢)، وكذا كثير من النصوص يتحدث عن الروح أو روح الله أو الروح القدس.

---

(١) انظر: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ص(٢١٨-٢٢١).

(٢) انظر: أقانيم النصارى، أحمد حجازي السقا، ص(٤٢-٤٤)، الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان، ص(١١٦-١٢٥).

نقض أدلة النصارى على ألوهيَّة الروح القدس

لقد كان يكفينا ما ذكرنا من معاني الروح القدس في الكتاب المقدس لدفع هذا المعتقد الغريب عن الكتاب.

فالمعنى الذي يريده النصارى للروح القدس معدوم في كتابهم، ويتأكد غرابته عند تأملنا لعدد من الشواهد التي تحدثت عن الروح القدس.

١-فالروح القدس كائن متجسد على صور مختلفة، منها نزوله على شكل حمامة على المسيح وهو يصلي «نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة» (لوقا ٣/ ٢٢)، فهل كانت تلك الحمامة إلهًا؟

٢-وفي مرة أخرى أتى على شكل ألسنة نارية، وذلك حين حل على التلاميذ يوم الخمسين «وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة، وملأ البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار، واستقرت في كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس» (أعمال ٢/ ١-٤).

٣-ولِمَ لا يكون الروح القدس جبريل -عليه السلام- أو ملاك الله كما جاء كتابهم، فقد جاء الروح إلى كرنيليوس وبطرس، وهو ملاك من ملائكة الله «قال له الروح: هوذا ثلاثة رجال يطلبونك. لكن قم وانزل، واذهب معهم غير مرتاب في شيء، لأني أنا قد أرسلتهم. فنزل بطرس إلى الرجال الذين أرسلوا إليه من قبل كرنيليوس . . فقالوا: إن كرنيليوس . . أوحي إليه بملاك مقدس أن يستدعيك إلى بيته، ويسمع منك كلامًا» (أعمال١٠/ ٢٠-٢٢)، فالملاك المقدس هو الروح الذي كلم بطرس، وهو الذي طلب من كرنيليوس أن يرسل رجاله إلى بطرس.

٤-وعدو بني إسرائيل من الملائكة جبريل عليه السلام، فهو الروح القدس الذي خلص بني إسرائيل مرارًا، ثم لما أصروا على كفرهم عذبهم وغضب عليهم، وتحول إلى عدو لهم، يقول إشعيا: «وملاك حضرته خلصهم، بمحبته ورأفته هو فكّهم، ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة، ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه، فتحول لهم عدوًّا، وهو حاربهم» (إشعيا ٦٣/٨-١٠) فقد أحزنوا ملاك حضرته، الروح القدس فتحولت محبته لهم إلى عداوة.

٥-والروح القدس كان مع بني إسرائيل حين خرجوا من أرض مصر «ثم ذكر الأيام القديمة، موسى وشعبه. أين الذي أصعدهم من البحر مع راعي غنمه؟ أين الذي جعل في وسطهم روح قدسه. . . الذي شق المياه قدامهم ليصنع لنفسه اسمًا أبديًّا» (إشعيا ٦٣/ ١١)، لكنه ملاك الله، وليس أقنومًا له، فقد جاء في سفر الخروج «ها أنا مرسل ملاكًا أمام وجهك، ليحفظك في الطريق، وليجيء بك إلى المكان الذي أعددته» (الخروج ٢٣/ ٢٠-٢١)، فروح القدس هو الملاك الذي كان معهم.

٦-وروح الله ليس اسمًا خاصًا بجبريل، بل يطلق على غيره من الملائكة «ورأيت فإذا في وسط

العرش والحيوانات الأربعة، وفي وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح، له سبعة قرون وسبع أعين هي سبعة أرواح الله، المرسلة إلى كل الأرض» (الرؤيا ٥/ ٦)، فالأرواح التي رآها يوحنا ليست آلهة، وإلا تحول الثالوث النصراني إلى عاشور!!

٧- وقد تكرر الحديث عن أرواح الله السبعة في سفر الرؤيا في موضعين آخرين، حيث قال: «ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات، وأمام العرش سبعة مصابيح نار متَّقدة، هي سبعة أرواح الله» (الرؤيا ٤/ ٥)، ويقول: «واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس. هذا يقوله الذي له سبعة أرواح الله، والسبعة الكواكب...» (الرؤيا ٣/ ١).

٨- لكن أيًا كان الروح القدس فإنه ليس بإله، ولو كان إلهًا لاستقل بالفعل بنفسه، لكنه لم يكن كذلك، يقول بطرس: «الروح القدس دفع بعض الناس أن يتكلموا بكلام من عند الله» (بطرس (٢) ١/ ٢١)، فلو كان الروح القدس إلهًا أزليًا مساويًا للآب في كل شيء، لدفع الناس أن يتكلموا بكلام من عنده هو.

٩- ومما يدفع ألوهيته جهل الروح القدس -كغيره- بموعد الساعة، إذ لا يعلمه إلا الآب وحده «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب» (مرقس ١٣/ ٣٢).

١٠- ومما يدفع ألوهيته أن النصوص تجعله هبة من الله يعطيها لأوليائه، كما قال المسيح عليه السلام: «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء، يعطي الروح القدس للذين يسألونه» (لوقا ١١/ ١٣)، إذ لا يعقل أن يكون الله العظيم ممثلًا بأقنومه الثالث هدية تهدي ويمتلكها بعض البشر.

١١- ولو كان الروح القدس إلهًا لوجب القول بألوهية أولئك الذين يحل عليهم، فقد حل على كثيرين، منهم داود حيث «استوت روح الرب على داود» (الملوك (١) ٦/ ١٣)، وأيضًا «سمعان عليه روح القدس» (لوقا ٢/ ٢٥)، وحل الروح القدس على مريم «وقال لها الروح القدس: يحل عليكِ، وقوة العلي تظلِّلك» (لوقا ١/ ٣٥)، وأحبلها عيسى، فقد «وجدت حبلى من الروح القدس» (متى ١/ ١٨).

وكذا حل على التلاميذ «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهودًا» (أعمال ١/ ٨)، فصاروا يتكلمون بالروح القدس «فمتى ساقوكم ليسلموكم، فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا، بل مهما أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا، لأن لستم أنتم المتكلمين، بل الروح القدس» (مرقس ١٣/ ١١).

وأخيرًا، فقد حل على أهل كورنثوس المؤمنين ببولس، لذا يخاطبهم «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم» (كورنثوس (١) ٦/ ١٩)، فهؤلاء جميعًا يستحقون العبادة لو كان الإله قد حل فيهم، وامتلئوا منه.

١٢- ومما يدل على أن الروح القدس ليس إلهًا أن الكتاب المقدس يعتبر بعضًا ممن لم يسمعوا بالروح القدس -فضلًا عن الإيمان به- مؤمنين، بل ويعتبرهم تلاميذَ رغم جهلهم بهذا الإله المزعوم، «فحدث فيما كان أبلوس في كورنثوس أن بولس بعد ما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس، فإذ وجد تلاميذ، قال لهم: هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم؟ قالوا له: ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس» (أعمال ١٩/ ١-٢).

١٣- وأما ما يتعلق به النصارى على ألوهية روح القدس في قوله: «إن الله روح» (يوحنا ٤/ ٢٤)، فهو استدلال خاطئ؛ لأن النص ليس إخبارًا عن ذات الله وطبيعته، بل هو إخبار عن صفة من صفاته فحسب، كقوله: «الله محبة» (يوحنا (١) ٤/ ١٦) و«الله نور» (يوحنا (١) ١/ ٥).

ومقصود يوحنا أن الله لا يُرى، إذ ليس هو جسدًا ماديًّا مكونًا من لحم وعظم، وقد ورد عن لوقا ما يؤكد صحة هذا الفهم: «والروح ليس له لحم أو عظام» (لوقا ٢٤/ ٣٩)،

وهذا المعنى يؤكده صاحبا كتاب شرح أصول الإيمان في إجابتهما على السؤال التالي: «لماذا يقال إنه تعالى روح؟»، حيث يجيبان: «يقال: إنه روح، لتنزهه عن الهيولية، وعدم قابليته للفساد»[1].

وهكذا يرى المحققون أن الروح القدس هو الآخر ليس بإله، وأن التثليث صياغة بشرية قامت بها المجامع بأهواء البابوات والأباطرة، من غير أن تستند إلى دليل يؤكد أصالة هذا المعتقد، الذي لم يسمع به الأنبياء ولم يذكره المسيح ولم يعرفه الحواريون.

وقد صَدَقَتْ الموسوعة الكاثوليكيَّة الحديثة حين قالت: «إن صياغة الإله الواحد في ثلاثة أشخاص لم تنشأ موطدة وممكنة في حياة المسيحين وعقيدة إيمانهم قبل نهاية القرن الرابع»[2].

---

(١) شرح أصول الإيمان، الدكتور القس أندرواس واطسون، والدكتور القس إبراهيم سعيد، ص(٢٨).

(٢) انظر: الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد، ص(٩٥)، الله واحد أو ثلاثة.

الفصل السادس

عقيدة التثليث

التصفح الدقيق لما بين دفتي الكتاب المقدس يكشف لنا غياب الدليل الصريح عن التثليث، في العهد القديم، وأيضًا في الجديد.

أولًا : النصوص التوراتية وعقيدة التثليث

تعلق النصارى ببعض النصوص التوراتية، وزعموا أنها إشارات ورموز إلهية إلى التثليث، منها استخدام بعض النصوص التوراتية صيغة الجمع العبري (ألوهيم) عند الحديث عن الله كما في مقدمة سفر التكوين «في البدء خلق الله السماء والأرض» (التكوين ١/١)، وفي النص العبري «ألوهيم» أي: (الآلهة)، ومثله في استخدام ما يدل على الجمع في أفعال منسوبة لله، كقول التوراة أن الله قال: «هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم» (التكوين ١١/٧).

ومن الإشارات التوراتية أيضًا لتثليث الأقانيم قول الملائكة: "قدوس، قدوس، قدوس، رب الجنود» (إشعيا٦/٣)، فقد كرر ذكر كلمة قدوس ثلاث مرات، ومثله قالت الحيوانات التي رآها يوحنا في رؤياه: «قدوس، قدوس، قدوس، الرب الإله القادر على كل شيء» (الرؤيا ٤/٨).

نقد النصوص التوراتية

بداية يعترف النصارى بأن ليس في هذه النصوص ما نستطيع أن نعتبره دليلًا صريحًا على التثليث الذي تنقضه النصوص التوحيدية الصريحة، كما لم يفهم سائر قراء العهد القديم -من لدن الأنبياء الأوائل لبني إسرائيل- شيئًا عن تلك التي يعتبرها النصارى إشارات على التثليث.

ويعترف بذلك القس بوطر، فيقول: «بعدما خلق الله العالم، وتوج خليقته بالإنسان لبث حينًا من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بالوحدانية، كما تبين ذلك من التوراة، على أنه لا يزال المدقق يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية، لأنك إذ قرأت فيها بإمعان تجد هذه العبارات «كلمة الله» أو «حكمة الله» أو «روح الله» ولم يعلم من نزلت إليهم التوراة إلا في ضوء الإنجيل المعنى المراد . . . فما لمحت إليه التوراة صرح به الإنجيل»(١).

وهنا يتساءل المرء لم ألغز الله تثليث أقانيمه عن موسى وبني إسرائيل، ولم كان سبب ضلالهم بما أورده لهم من نصوص موحدة، جعلتهم يحاربون عقيدة التثليث ويرفضونها، وهل سيغفر لهم ولغيرهم أنهم لم يهتدوا إلى حقيقة المراد من هذه الألغاز.

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص(١٢١)، العقائد المسيحية بين القرآن والعقل، هاشم جودة، ص(١٢٩-١٣٠).

ونظر المحققون فيما أسمته النصارى إشارات التوراة، فوجدوها محض تمحل لا تقبله الأذواق السليمة، ولا ترتضيه دلالات الكلام وتناسق السياق.

إن غاية ما يمكن أن تدل عليه هذه النصوص تعدد الآلهة، من غير تحديد لها بالتثليث أو التربيع أو غيره.

والجمع الوارد في مثل قوله: (ألوهيم، هلم، ننزل، ونبلبل) هو جمع تعظيم لا يفيد الكثرة، وقد اعتادت الأمم التعبير عن عظمائها باستخدام جمع التعظيم، فيقول الواحد: نحن، ورأينا، وأمرنا، ومقصده نفسه، ولا يفهم منه مستمع أنه يتحدث عن ذاته وأقانيمه الأخرى.

واستخدام صيغة الجمع للتعظيم لا العدد معروف حتى في الكتاب المقدس، وله صور منها قصة المرأة العرافة التي رأت روح صموئيل بعد وفاته، فعبرت عنه باستخدام صيغة الجمع، تقول التوراة: «فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم . . فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة يصعدون من الأرض، فقال لها: ما هي صورته؟ فقالت: رجل شيخ صاعد، وهو مغطًى بجبّة. فعلم شاول أنه صموئيل» (صموئيل (١) ٢٨/ ١٢-١٤)، فقد كانت تتحدث عن صموئيل، لقد رأته على هيئة رجل شيخ، وتستخدم مع ذلك صيغة الجمع (آلهة)، فالجمع لا يفيد العدد بالضرورة، بل هو جمع التعظيم.

وعندما عبد بنو إسرائيل العجل، وهو واحد سمته التوراة آلهة مستخدمة صيغة الجمع في ثلاثة مواضع، تقول: «فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل، وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . . . صنعوا لهم عجلًا مسبوكًا، وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (الخروج ٣٢/ ٤-٨).

ويمضي السفر ليؤكد ثالثة أصالة استعمال الجمع الذي يراد منه الواحد، فيقول: «رجع موسى إلى الرب، وقال: آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة، وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب» (الخروج ٣٢/ ٣١).

وأما التكرار ثلاث مرات في قول الملائكة أو حيوانات رؤيا يوحنا وأمثال ذلك، فلا يصلح في الدلالة في شيء. فلو اطرد الاستدلال على هذه الكيفية فلسوف نرى تربيعًا وتخميسًا وغير ذلك من التعداد للآلهة.

فلئن وردت كلمة «قدوس» مثلثة مرتين في الكتاب المقدس، فإنها وردت مفردة نحو أربعين مرة، وإنما يراد من التكرار التأكيد فحسب، كما في نصوص إنجيلية وتوراتية كثيرة، منها قول اليهود: «فصرخوا قائلين: اصلبه، اصلبه» (لوقا ٢٣/ ٢١)، ونحوه في سؤال المسيح لبطرس، فقد كرره ثلاث مرات «فبعدما تغدوا قال يسوع لسمعان بطرس: يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟ قال له: نعم يا رب، أنت تعلم أني أحبك . . . قال له أيضًا ثانية: يا سمعان بن يونا أتحبني؟. . . قال له ثالثة: يا سمعان بن يونا أتحبني؟ فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة: أتحبني» (يوحنا ٢١/ ١٥-١٧).

ثانيًا: النصوص الإنجيلية وعقيدة التثليث

يعتقد النصارى أن ثمة أدلة على التثليث في أسفار العهد الجديد أصرح وأوضح من تلك التي وردت في التوراة، منها أنه «لما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة، وآتيًا عليه، وصوت من السماء قائلًا: هذا هو ابني الحبيب والروح الذي سررت به» (متى ٣/ ١٦-١٧). فقد جمع النص الآب والابن الحبيب والروح النازل مثل الحمامة.

ومثله يقول بولس: «بنعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس مع جميعكم. آمين» (كورنثوس (٢) ١٣/ ١٤).

لكن المتأمل في نص متى يرى ثلاث ذوات تمايزت بالأسماء والأعمال، لكل منها وجود ذاتي يختلف عن الباقين، فأحدها الخارج من الماء بعد التعميد، وثانيها النازل على شبه هيئة حمامة، وثالثها الذي في السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب»، فكيف بعد ذلك يقال عنها بأنها وحدة واحدة.

ثم إن النصارى يقولون بحلول الابن في عيسى، وهنا يتحدث النص عن حلول الروح عليه، وفي مواضع أخرى أكد ذلك. (انظر لوقا ٣/ ٢٢، متى ١٢/ ١٨)، فيما جاءت مواضع أخرى تتحدث عن حلول الله الأب فيه. (انظر يوحنا ١٧/ ٢١، ١٤/ ٩-١٠)، فأي الأقانيم إذًا الحال في المسيح.

ولم يرد في الكتاب المقدس ذكر عناصر التثليث الثلاث جنبًا إلى جنب إلا في نصين فقط، وهما نص الشهود الثلاثة في رسالة يوحنا الأولى، وخاتمة إنجيل متى.

١- الاستدلال بنص الشهود الثلاثة على التثليث.

وهو أهم النصين وأصرحهما، وهو ما جاء في رسالة يوحنا الأولى في قول يوحنا: «فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم الواحد» (يوحنا (١) ٥/ ٧).

فهذا النص صريح في جعل الثلاثة إلهًا واحدًا، غير أنه غير موجود في سائر المخطوطات القديمة للكتاب المقدس، بل وغير موجود حتى في أول نص مطبوع، فقد أضيف لاحقًا، وقد اعترف بإضافته علماء النصرانيَّة ومحققوها ومنهم هورن، وجامعو تفسير هنري واسكات، وآدم كلارك، وفندر، وخلت ردود القديس أكستاين (ق٤) من هذا النص على الرغم من مناظرته لفرقة إيرين المنكرة للتثليث، كما قد كتب عشر رسائل في شرح رسالة يوحنا لم يذكر في أيها هذا النص.

وقد حذفته النسخة القياسيَّة المنقحة (R S V) من نسختها الإنجليزية، كما حذفته بعض التراجم العالمية، وما يزال موجودًا في غالب التراجم، ومنها التراجم العربيَّة سوى نسخة الرهبانيَّة اليسوعيَّة والترجمة العربيَّة المشتركة؛ فإنهما حذفتاه، والنص في الأولى : «لأن الروح هو الحق، والذين يشهدون ثلاثة: الروح والدم والماء، وهؤلاء الثلاثة متفقون» (يوحنا (١) ٥/ ٦-٨)، وقد

ذكرت في مدخلها سبب حذفها لهذا النص فقالت : «لم يرد هذا النص في المخطوطات فيما قبل القرن الخامس عشر، ولا في الترجمات القديمة، ولا في أحسن أصول الترجمة اللاتينيَّة، والراجح أنه ليس سوى تعليق كتب في الهامش، ثم أقحم في النص أثناء تناقله في الغرب».

ومثله يقوله بنيامين ولسن مترجم المخطوطات اليونانيَّة: «إن هذه الآية التي تشمل على الشهادة بالألوهية غير موجودة في أي مخطوط إغريقي مكتوب قبل القرن الخامس عشر، إنها لم تذكر بواسطة أي كاتب إكليركي (إغريقي) أو أي من الآباء اللاتينيين الأولين حينما يكون الموضوع الذي يتناولونه يتطلب بطبيعته الرجوع إليها، لذلك فهي بصراحة مختلقة»[١].

٢- نقد الاستدلال بخاتمة متى على التثليث.

وأما النص الثاني فهو ما جاء في خاتمة متى من أن المسيح قبيل صعوده إلى السماء «كلمهم قائلًا: دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين» (متى ٢٨/ ١٨-٢٠).

وأول نقد يتوجه لهذه الفقرة أنها رغم أهميتها لم ترد في الأناجيل الثلاثة الأخرى التي اتفقت على إيراد قصة دخول المسيح أورشليم راكبًا على جحش. فهل كان ركوبه على جحش أهم من ذكر التثليث، فلم يذكره سوى متى؟

بل إن خاتمة إنجيل مرقس حين نقلت ذات الوصية التي أوصاها للتلاميذ لم تذكر صيغة التثليث التي انفرد بذكرها متى، حيث يقول مرقس: «وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدن» (مرقس ١٦/ ١٥)، وهذا دال على إلحاقية نص التثليث وعدم أصالتها.

وهذه الفقرة دخيلة بدليل قول علماء الغرب أيضًا، يقول ويلز: «ليس دليلًا على أن حواريي المسيح اعتنقوا التثليث».

ويقول أدولف هرنك: «صيغة التثليث هذه التي تتكلم عن الآب والابن والروح القدس، غريب ذكرها على لسان المسيح، ولم يكن لها وجود في عصر الرسل كذلك لم يرد إلا في الأطوار المتأخرة من التعاليم النصرانيَّة ما يتكلم به المسيح وهو يلقي مواعظ ويعطي تعليمات بعد أن أقيم من الأموات، إن بولس لا يعلم شيئًا عن هذا»[٢]، إذ هو لم يستشهد بقول ينسبه إلى المسيح يحض على نشر النصرانيَّة بين الأمم.

---

(١) انظر: إظهار الحق (٢/ ٤٩٧-٥٠٤)، المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، محمد وصفي، ص(١٠٦-١٠٧)، خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، أحمد ديدات، ص(١٢).

(٢) انظر: مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان، ص(٦٦)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، ص(٦١)، عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية، حسني الأطير، ص(٩٢).

ويؤكد تاريخ التلاميذ عدم معرفتهم بهذا النص، إذ لم يخرجوا لدعوة الناس كما أمر المسيح في هذا النص المزعوم، بل إنه أمرهم باجتناب دعوة غير اليهود «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع، وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٠/ ٥-٦).

ويتطابق هذا مع شهادة تاريخية تعود للقرن الثاني تناقض الأمر المزعوم بدعوة الأمم وتعميدها باسم الثالوث، إذ يقول المؤرخ أبولونيوس: «إني تسلمت من الأقدمين أن المسيح قبل صعوده إلى السماء كان قد أوصى رسله ألا يبتعدوا كثيرًا عن أورشليم لمدة اثنتي عشرة سنة»[(١)].

وقد التزم التلاميذ بأمر المسيح عليه السلام، ولم يخرجوا من فلسطين إلا حين أجبرتهم الظروف على الخروج «وأما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس، فاجتازوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكيا، وهم لا يكلمون أحدًا بالكلمة إلا اليهود فقط» (أعمال ١١/ ١٩)، ولو كانوا سمعوا المسيح يأمرهم بدعوة الأمم باسم الآب والابن والروح القدس، لخرجوا امتثالًا لقوله، من غير إكراه، ولبشروا الأمم بدعوته.

ولما حدث أن بطرس استدعي من قبل كرنيليوس الوثني ليعرف منه دين النصرانيَّة، ثم تنصر على يديه. لما حصل ذلك لامه التلاميذ فقال لهم: «أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه، وأما أنا فقد أراني الله ألا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس» (أعمال ١٠/ ٢٨)، لكنه لم يذكر أن المسيح أمرهم بذلك، بل قال: «نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات، وأوصانا أن نكرز للشعب» (أعمال١٠/ ٤٢)، أي لليهود فقط.

وعليه فبطرس لا يعلم شيئًا عن نص متّى الذي يأمر بتعميد الأمم باسم الآب والابن والروح القدس. ولذلك اتفق التلاميذ مع بولس على أن يدعو الأمميين، وهم يدعون الختان أي اليهود، يقول بولس: «رأوا أني اؤتمنت على إنجيل الغرلة (الأمم)كما بطرس على إنجيل الختان أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم، وأما هم فللختان» (غلاطية ٢/ ٧-٩)، فكيف لهم أن يخالفوا أمر المسيح - لو كان صحيحًا نص متى- ويقعدوا عن دعوة الأمم، ثم يتركوا ذلك لبولس وبرنابا فقط؟

فكل هذه الشواهد تكذب نص متى، وتؤكد أنه نص مختلق لا تصح نسبته إلى المسيح.

ثم عند غض الطرف عن ذلك كله، فإنه ليس في النص ما يسلم بأنه حديث عن ثالوث أقدس اجتمع في ذات واحدة، فهو يتحدث عن ثلاث ذوات متغايرة، قرن بينها بواو عاطفة دلت على المغايرة، والمعنى الصحيح لخاتمة متى: «اذهبوا باسم الله ورسوله عيسى والوحي المنزل عليه بتعاليم الله عز وجل».

---

(١) انظر: عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية ص(٢٣٠)، طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون، أحمد عبد الوهاب، ص(٩١-٩٤).

ولهذه الصيغة الواردة في متى مثل لا يصرفه النصارى للتثليث، فقد جاء في بعض رسالة بولس إلى تيموثاوس: «أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين» (تيموثاوس (١) ٥/ ٢١) فإن أحدًا لم يفهم من النص ألوهية الملائكة أو أنهم الأقنوم الثالث، ويقال في نص متى ما يقال في نص بولس.

ويشبهه ما جاء سفر الخروج من دعوة بني إسرائيل للإيمان بالله وبموسى من غير أن يفهم تساوي المعطوفين في قوله: «فخاف الشعب الرب، وآمنوا بالرب وبعبده موسى» (الخروج ١٤/ ٣١).

نقد عقيدة التثليث

وإذا لم نجد للتثليث دليلًا صريحًا واحدًا ينهض للاستدلال، فهل ترانا نجد لنقيضه، وهو التوحيد دليلًا في ثنايا الكتاب المقدس؟

إن المتأمل في الأسفار المقدَّسة يرى بوضوح غرابة دعوة التثليث وتسطع أمامه أصالة التوحيد في النصرانيَّة وبهاؤه، فقد دلت عليه عشرات النصوص الصريحة الناصعة في وضوحها، والتي تؤكد بأن معتقد المسيح وتلاميذه، ومن قبلهم أنبياء الله هو توحيد الله عز وجل.

أولًا: النصوص الموحدة في العهد القديم

تتلألأ دعوة التوحيد في العهد القديم، وتنطق بها النبوات، وتكثر حولها وصاياهم، وتتسابق النصوص، وهي تؤكد أصالة هذا المعتقد، منها:

١- ما جاء في سفر التثنية من وصايا موسى -عليه السلام- التي كتبها الله لموسى على لوحي الحجر، وأمر بني إسرائيل بحفظها، وجاء المسيح بعده فأكد عليها "اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذا الكلمات التي أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يديك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك» (التثنية ٦/ ٤-٩).

٢- «أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (التثنية ٥/٦).

٣- ومنها وصية الله لموسى -عليه السلام- وبني إسرائيل: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما، مّما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض» (الخروج ٢٠/ ٢-٤).

٤- وفي سفر الملوك: «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر» (الملوك (١) ٨/ ٦٠).

٥- وجاء في مزامير داود: «كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجدون اسمك؛ لأنك عظيم أنت، وصانع العجائب، أنت الله وحدك» (المزمور ٨٦/ ٩-١٠) هو وحده الله، وليس يشاركه في اسمه أو ألوهيته أحد، بما في ذلك المسيح عليه السلام.

٦- وجاء في إشعيا: «يقول الرب: . . . قبلي لم يصور إله، وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب، وليس غيري مخلص، أنا أخبرت وخلصت . . .» (إشعيا ٤٣/ ١٠-١٢).

٧- «أيها الرب إلهنا خلصنا من يده، فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب وحدك» (إشعيا ٣٧/ ٢٠).

٨- «أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السموات وحدي باسط الأرض، من معي؟!» (إشعيا ٤٤/ ٢٤)، فأين هذا ممن جعل الواحد ثلاثة، وأوكل الخلق إلى غيره؟

٩- «أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي» (إشعيا ٤٥/ ٥).

١٠- وجاء في نبوة إشعيا أيضًا «يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود: أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري. ومن مثلي ينادي، فليخبر به ويعرضه لي. . . هل يوجد إله غيري، ولا صخرة لا أعلم به» (إشعيا ٤٤/ ٦-٩).

- ومثله كثير في أسفار العهد القديم. (انظر ملاخي ٢/ ١٠، الملوك (١) ٨/ ٢٧،).

ثانيًا: النصوص الموحدة في العهد الجديد

وكذا جاءت أسفار العهد الجديد تؤكد تفرد الخالق بالألوهية والربوبية، وتذكر ذلك على لسان المسيح وحواريه.

١- يقول المسيح: «ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض؛ لأن أباكم واحد، الذي في السموات. ولا تدعوا معلمين؛ لأن معلمكم واحد، المسيح» (متى ٢٢/ ٩-١٠).

٢- ومن ذلك أيضًا ما جاء في متى: «وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله» (متى ١٩/ ١٧).

٣- وكذا قول يوحنا «كلم يسوع بهذا، ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضًا، إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته، وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧/ ٢-٣)، فليس من إله على الحقيقة إلا واحد، وهو الله تعالى، سبحانه.

٤- ولما جرب الشيطان يسوع -عليه السلام- وقال له: «أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان. لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤/ ١٠، ومثله في لوقا ٤/ ٨).

٥- وقال المسيح -عليه السلام- لليهود: «أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنى. لنا أب واحد، وهو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت؛ لأني لم آت من نفسي، بل ذاك أرسلني» (يوحنا ٨/ ٤١-٤٢).

والتوحيد معتقد تلاميذ المسيح وتلاميذهم، كما نقل عنهم ذلك العهد الجديد مرارًا.

٦- ومنه ما جاء على لسان التلميذ يعقوب: «أنت تؤمن أن الله واحد. حسنًا تفعل» (يعقوب ٢/ ١٩)، وأما القول بألوهية غير الله فليس من الحُسن في شيء.

٧- ويقول: «واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلص ويهلك» (يعقوب ٤/ ١٢).

٨- ويقول يهوذا: «الإله الحكيم الوحيد مخلصنا» (يهوذا ٢٥).

٩- بل وحتى بولس نجد له بعض النصوص التي تعترف لله بالوحدانية، ومن ذلك قوله: «يوجد إله واحد ووسيط بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح» (تيموثاوس (١) ٢/ ٥) إله واحد، له رسول واحد يبلغ الله من خلاله وحيه وهديه، هذا الرسول هو الإنسان يسوع.

١٠- ويقول واصفًا الله بالوحدانية وغيرها من صفات الجلال والكمال: «المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور، لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس، ولا يُقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية» (تيموثاوس (١) ٦/ ١٥-١٦).

١١- ويقول: «لكن الله واحد» (غلاطية ٣/ ٢٠).

فهذه النصوص وكثير مثلها تتحدث عن الإله الواحد، وليس في واحد منها أو غيرها حديث عن الإله المتعدد الأقانيم المتوحد في الجوهر الذي يدعيه النصارى.

التثليث سر لا يطيقه العقل

وإزاء هذا التناقض بين قرارات المجامع المثلثة والنصوص الموحدة كان لا بد أن يعمل النصارى عقولهم على جمع هذه المتناقضات التي يستحيل تصورها معًا، وعلى تفهيم البشر قضية الثلاثة الذين هم واحد، والواحد الذي هو ثلاثة.

وأمام ضعف هذه العقيدة وعجز العقل البشري عن تصورها، بل رفضه لها لا يجد النصارى من سبيل إلا القول بأن تثليثهم سر من الأسرار التي لا يمكن للعقل أن يقف على كنهها، بل يعترف البعض منهم بتعارض المسيحيَّة والعقل فيقول القديس سان أوغسطين : «أنا مؤمن؛ لأن ذلك لا يتفق والعقل».

ويقول كير كجارد: «إن كل محاولة يراد بها جعل المسيحيَّة ديانة معقولة لا بد أن تؤدي إلى القضاء عليها».

و قد جاء في «التعليم المسيحي»: لا يجوز التدخل في أسرار الله؛ لأننا لا نستطيع إدراك أسرار الإيمان.

ويقول القس دي جروت في كتابه «التعاليم الكاثوليكيَّة»: «إن الثالوث الأقدس هو لغز بمعنى الكلمة، والعقل لا يستطيع أن يهضم وجود إله مثلث، ولكن هذا ما علمنا إياه الوحي».

ويقول زكي شنودة: «و هذا سر من أسرار اللاهوت الغامضة التي لا يمكن إدراك كنهها بالعقل البشري».

ويقول الأب جيمس تد: «العقيدة المسيحيَّة تعلو على فهم العقل».

ويقول القس أنيس شروش: «واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، سر ليس عليكم أن تفهموه، بل عليكم أن تتقبلوه».

أما القس توفيق جيد في كتابه «سر الأزل» فإنه يجعل فهم سر التثليث من المستحيلات، التي لا طائل من محاولة فهمها، لأن «من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفة»[(١)].

ووراء هذه الحجب تختفي الحقيقة، وهي أن التثليث عقيدة يستحيل على العقل البشري فهمها، لا لضعف العقل البشري، بل لتناقضها مع أبسط المسلَمات الفطرية والمعارف الإنسانية[(٢)].

---

(١) انظر: المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص(١٣٩)، مناظرة العصر، أحمد ديدات، ص(١٠٥)، العقائد المسيحية بين القرآن والعقل ص(١٥٣)، دراسة عن التوراة والإنجيل، كامل سعفان، ص(٢٣٥)، مسيحية بلا مسيح ص(١٢٧).

(٢) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

الفصل السابع

عقيدة التجسيد

يعتقد النصارى أن الله تجسد في المسيح، ويحتجون لذلك بقول يوحنا: «والكلمة صار جسدًا، وحل بيننا» (يوحنا ١/ ١٤).

ولفهم هذا النص نقرأ ما يقوله محققو الرهبانيَّة اليسوعيَّة تعليقًا على الحكمة المتجسدة المذكورة في (الأمثال ٨/ ٢٢): «إن فكرة الحكمة المجسدة، وهو مجرد فن أدبي في مثل (الأمثال ١٤/ ١)، قد تطورت في إسرائيل ابتداء من زمن الجلاء، حين لم يبق تعدد الآلهة مهددًا الدين القويم . . . ففي جميع هذه النصوص التي تجسد فيها الحكمة أو الكلمة أو الروح؛ يصعب علينا أن نميز بين ما هو فن شعري، وما هو تعبير عن مفاهيم دينية قديمة، وما هو شعور بوحي جديد».

وهكذا، فنص تجسد الكلمة يحتمل أن يكون مجرد استعارة فنية أدبية، لا تختلف عن تجسيد الحكمة، حين خرجت «الحكمة تنادي في الخارج، في الشوارع تعطي صوتها، تدعو في رءوس الأسواق» (الأمثال ١/ ٢٠-٢١)، ومثله تجسيد الجهل بامرأة صخابة خادعة (الأمثال ٩/ ١٣-١٨).

وقد تساءل المحققون -في هذا الصدد- عن سبب تجسد الابن دون الآب أو روح القدس؟ وتساءلوا لم كان التجسد الإلهي على صورة بشر؟ ما ضرورته؟ لماذا نزل الابن من عليائه ليدخل جوف امرأة ثم يخرج من فرجها؟ لم كان هذا كله؟ اجتهد رجال الكهنوت في الإجابة عن هذه الأسئلة، ولما لم يجدوا لها إجابة في ثنايا كتابهم أعملوا عقولهم، فصدرت عنهم أقوال مختلفة، كلٌ بحسب ما أداه إليه عقله، إذ كما لم يجدوا في العهد الجديد ما يؤكد قول بولس بأن الإله قد تجسد، أيضًا لم يجدوا في هذه الأسفار تبريرًا له.

وقد انحصرت إجاباتهم في أقوال، أهمها:

أولها: أن هذا السر لا نفهمه، وينبغي أن نؤمن به.

ثانيها: أن التجسد كان لردم الهوة بين الله والبشرية وإيناسها برؤية الإله -كما سيمر معنا في كلام البابا أثناسيوس-.

ثالثها: أن التجسد كان طريقة لرد الناس لعبادة الله بعد أن عبدوا المخلوقات والمصنوعات، وتركوا الخالق وهجروا عبادته، فتجسد الله ليعبده الناس، يقول القديس أفرام: «إن الله رأى أننا (أي البشر) عبدنا المصنوعات، ولذلك لبس جسدًا مصنوعًا، ليقتنصنا به ونتعبد له».

رابعها: أن التجسد كان ضرورة للتوفيق بين عدل الله ورحمته، حيث اقتضى عدل الله موت البشرية وتسلط الموت عليها واقتضت رحمته حياتها، فكان المسيح كبش الفداء.

وفي ذلك يقول البابا أثناسيوس وهو أحد أهم رجال مجمع نيقية : «لهذا كان أمام كلمة الله أن يأتي بالإنسان الفاسد إلى عدم فساد، وفي نفس الوقت أن يؤمن مطالب الأب العادل المطالب به الجميع، وحيث إنه هو كلمة الأب ويفوق الكل، فكان هو وحده الذي يليق بطبيعته أن يجدد خلقه كل شيء وأن يتحمل الآلام عن الجميع لدى الآب لأجل ذلك نزل إلى عالمنا كلمة الله الخالي من الجسد، العديم الفساد وغير المادي وإذ لم يتحمل أن يرى الموت تصير له السيادة لئلا تفنى به الخليقة، وتذهب صنعة أبيه في البشر هباء، فقد أخذ لنفسه جسدًا لا يختلف عن جسدنا لأنه لو لم يكن الرب مخلص الجميع ابن الله قد جاء إلينا وحل بيننا ليوفي غاية الموت، لكان الجنس البشري قد هلك».

ثم ماذا بعد موت المسيح هل تغير حال البشر فلم يعد الموت متسلطًا عليهم؟

فيجيب أثناسيوس: «بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم وعندما تم ذلك بدأ البشر يموتون، وصار عليهم من الفساد في ذلك الوقت فصاعدًا، وصار له سلطان على الجنس البشري أكثر من سلطانه الطبيعي؛ لأنه أتى نتيجة تهديد الله في حال العصيان».

لكنا لم نعرف ما هو السلطان الطبيعي للموت؟ ولا ندري ما الفرق بين موت الناس قبل المسيح وبعده كما يحق لنا أن نتساءل هنا عن سر تسلط الموت على غيرنا كأنواع الحيوانات المختلفة.

كما يذكر أثناسيوس سببًا آخر للتجسد -وهو الإيناس الذي ذكرناه قبلُ- فيقول: «عندما خلق الله الضابط للكل الجنس البشري بكلمته، ورأى ضعف طبيعتهم، وأنها لا تستطيع من نفسها أن تعرف خالقها، أو أن تكون فكرة عن الله على الإطلاق لهذا تحنن الله على الجنس البشري على قدر صلاحه ولم يتركهم خالين من معرفته، لئلا يروا أن لا منفعة على الإطلاق من وجودهم في الحياة».

لقد كان الهدف من التجسد إذًا أن تأنس البشرية برؤية ومعرفة ربها وأن تنهدم الهوة الواسعة بين الخالق والمخلوق، وهو ما عبر عنه سنوت في كتابه «المسيحيَّة الأصليَّة» حيث يقول: «توجد فقط هوة واسعة لا حد لها ولو لم يكن الله بادر وتدراك الأمر لبقيت الحالة على ما هي عليه، ولظل الإنسان بلا رجاء يتخبط في دياجير اللا إرادية، ولكن الله تكلم، ولقد بادر وأعلن عن نفسه».

وهنا يتساءل الدكتور عبد الكريم الخطيب: كيف كانت صلة الأنبياء بربهم مع هذه الهوة؟ هل عرفوا ربهم المعرفة التي تدفعهم لعبادته وطاعته؟ أم كان إيمانهم باهتًا؟ وماذا تغير في حياة البشرية بعد تجسد الإله؟ هل آمن الناس وعرفوا ربهم؟ وهل زال الإلحاد من البشرية؟ ثم أين الإيناس للبشرية في رؤيتها للرب وهو يصفع ويضرب ويجلد. إن هذا من شأنه أن يقلل من مقام الألوهية عندهم، فالنفس البشرية طلعة تتوقد أشواقها إلى المجهول، وتتحرك نزعاتها إلى عالم الغيب، فإذا انكشف لهم المجهول أو ظهر لهم ما وراء الغيب سكنت نزعاتها وبردت أشواقها نحو هذا الشيء الذي كانت تسعى إليه وتجدُّ في البحث عنه.

ثم ماذا عن باقي أجيال البشرية التي لم تأنس بمعرفة هذا المتجسد. هل من العدل أن تحرم منه؟ وكيف لها أن تعرف ربها ولِمَ تراه ؟!

ثم لِمَ كان أنسنا بالإله حال طفولته وشبابه فقط، ولم نأنس به أيضًا حال كهولته وهرمه. فلماذا؟!

وهكذا يرفض المسلمون هذه التبريرات المتهافتة التي تسيء إلى عظمة الله، وتجعله عاجزًا عن العفو والغفران، حائرًا بين عدله ورحمته، ومثل هذا لا يقع به الحكماء من الناس فضلًا عن رب العالمين، أو تظهره عاجزًا عن هداية خلقه إلى عبادته إلا بموافقتهم على ما ألفوه من صور الشرك.[1].

ويرى شارل جنيبر ضعف هذه التبريرات، ويقرر أن بولس هو الذي قرر تجسد الإله، ويوضح الأسباب التي دعته لذلك، لقد ابتكر عقيدة التجسد بعد أن أدرك «أن الأتباع الجدد من المشركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول فضيحة الصلب، وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة -والتي لم يكف الأعداء بطبيعة الحال عن الرجوع إليها- تفسيرًا مرضيًّا، يجعل منها واقعة ذات مغزى ديني عميق.

وأعمل الحواري (بولس) فكره في هذه المشكلة ووضع حلًّا كان له صدى بالغ المدى قد تجاهل فكرة عيسى الناصري التي أغرم بها الاثنا عشر، ولم يتجه إلا إلى عيسى المصلوب، فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود، وتمثل نوعًا من التشخيص وقد عثر الحواري على العناصر الجوهرية في الأسرار، عثر عليها في غالب الظن دون أن يبحث عنها»[2].

لكن حرجًا آخر واجهه بولس وهو يضع لَمَساتِه النهائية على الإله المتجسد المصلوب، وهو كيف يقول بنهاية حياة المسيح على الصليب، والتوراة تنص على لعن كل مصلوب. (انظر التثنية ٢١/ ٢٣)، فهذا يزري بالمسيح ويجعله ملعونًا حسب شرائع اليهود.

لحل هذه القاصمة، رأى بولس أن يجعل من الملعون مثلًا أعلى في التضحية، وأن يجعل منه إلهًا نزل وتجسد ليفدي البشرية من خطاياها، فصار لعنة ليفتديهم من لعنة الناموس، وكما قال بولس: «ولكن الله من محبته لنا؛ لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، فبالأولى كثيرًا ونحن متبررون الآن بدمه، نخلص به من الغضب، إنه وإن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه. . .» (رومية ٥/ ٨-١٠)، لقد صار لعنة؛ لأنه حررنا من لعنة الناموس![3].

وأخيرًا، فإن هذا الذي تقوله النصارى في الرب جل وعلا من تعدد وتجسد نوع من العبث الإنساني وجرأة صارخة على مقام الرب جل وعلا وتطاول مستغرب، فإن المثَال كما يقول الأستاذ

---

(١) انظر: المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، عبد الكريم الخطيب، ص(١٣٠- ١٣٢، ١٥٨-١٧٠).

(٢) انظر: المسيحية، نشأتها وتطورها، ص(١٣٤).

(٣) يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ص(٢٦٥).

المهتدي محمد مجدي مرجان «حين يصنع تمثالًا فإنه يستطيع أن يهدمه، ولا يتصور أحد أن يدعي التمثال أنه من جِبلة صانعه، أو أنه جزء أو عنصر من هذا الصانع.

ولكن الإنسان الضعيف -أحد مخلوقات الله- تطاول على صانعه، ثم أخذه الغي، ولعبت برأسه نشوة الضلال، فقلب الوضع وعكس الآية، فقام بإعادة تكوين وتشكيل صانعه، ثم راح يعيد تقسيم خالقه إلى أقسام ثلاثة ابتدعها خياله، جاعلًا كل قسم منها إلهًا قائمًا بذاته، محولًا الإله الواحد إلى ثلاثة ثم قام بتقسيم الأعمال والأعباء والوظائف بين آلهته الثلاثة التي صنعها عطفًا وإشفاقًا من أن يتحمل كل تلك الأعمال والأعباء والوظائف إله واحد. حقًّا ما أشقى الإنسان»[(١)].

والحق أن فكرة التجسد النصرانيَّة كانت أحد أهم أسباب انتشار الإلحاد بين المسيحيين، فإن الإنسان يميل بفطرته وعقله إلى تعظيم الخالق وتنزيهه عن الشبيه والمثيل، فيما تجعله النصرانيَّة إنسانًا خرج من فرج امرأة من بني إسرائيل

يقول كيرانس ايرسولد: "أما من وجهة نظر العلم فإنني لا أستطيع أن أتصور الله تصورًا ماديًا، بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار أو أن يحل في مكان. . .»[(٢)].

وعندئذ يخيَّر الناس بين المعتقد الخاطئ والفطرة الصحيحة المؤيدة بسلطان العقل، فلا يجد كثير منهم مفرًّا من الكفر بإله الكنيسة المصفوع والمصلوب، فيكثر الإلحاد. تعالى الله عما يقول هؤلاء علوًّا كبيرًا.

ومن الآثار السيئة التي تتركها عقيدة التجسد إضعاف المثُل والقيم التي جاء بها المسيح ودعا إليها، ثم كان بسبقهم إليها قدوة صالحة لأتباعه، لكن أثر هذا الخلق يضيع مع القول بالألوهية، إذ لن يتصور البشر إمكانية تطبيق هذه المثُل التي سبقهم إليها إله.

هذا ما يراه كُتاب دائرة المعارف الأمريكيَّة في قولهم: «لو كان إلهًا فإن المثُل التي ضربها لنا بعيشته الفاضلة يفقد كل ذرة من القيمة، حيث إنه يمتلك قوى لا نملكها. إن الإنسان لا يستطيع تقليد الإله».

ويقول توماس أكمبسفي كتابه «على خُطَى المسيح»: «إذا كان المسيح إلهًا فإن المرء لا يستطيع اقتفاء أثره والسير على منهجه».

هل المسيح هو الله؟

وقد اهتم المحققون بمناقشة الطبيعة الواحدة للمسيح والتي تقول بها الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة (المرقسية).

وفي بيان معتقد الكنيسة المصريَّة يقول حبيب جرجس عميد الكلية الإكليريكية بمصر موضحًا

(١) الله واحد أم ثالوث ص(١٢٥).

(٢) طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون، أحمد عبد الوهاب، ص(٣٨-٣٩، ٤٥).

عقيدة الأرثوذكس الشرقيين في مسألة الطبيعة الواحدة: «إن فادينا العظيم قد تنزل عن سماء مجده، وقبل أن يتحد بالإنسان باتخاذه جسدًا حقيقيًّا بنفس عاقلة ناطقة، فحبل به بقوة الروح القدس واتحادهما بدون اختلاط ولا امتزاج، يصيران شخصًا واحدًا، ذا طبيعة واحدة صار المسيح ذاتًا واحدة جوهرًا واحدًا طبيعة واحدة، مشيئة واحدة».

ويعجب المسلمون كيف جعل أتباع هذا المذهب الله بشرًا؟ فالقديم الأزلي لا يصير محدثًا، ولا يجري عليه ما يجري على البشر من عوارض كالنوم والنسيان والأكل والشرب وكونه يرى

لكن النصوص المقدَّسة تثبت أن المسيح ليس الله، فثمة مفارقات واضحة بينهما، فالمسيح بشر، أصابته العوارض التي تصيب سائر البشر، وهي عوارض تنزه النصوص التوراتية، بل والإنجيلية الله عز وجل عنها.

فالمسيح -عليه السلام- مولود امرأة، وهيهات لمولود المرأة، ابن آدم الدود، أن يكون إلهًا، فقد جاء في التوراة «فكيف يتبرر الإنسان عند الله؟ وكيف يزكو مولود المرأة. هوذا نفس القمر لا يضيء، والكواكب غير نقية في عينيه. فكم بالحري الإنسان الرمّة وابن آدم الدود!» (أيوب ٢٥/ ٤-٥).

والمسيح إنسان، وهو ابن الإنسان «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يوحنا ٨/ ٤٠)، بينما الله «ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم» (العدد ٢٣/ ٩)

والمسيح نام في السفينة. (انظر مرقس ٤/ ٣٥-٣٨)، أما الله فهو «لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل» (المزمور ١٢١/ ٤).

والمسيح -عليه السلام- كان جسدًا مرئيًّا، والله لا يرى «الذي لم يره أحد من الناس، ولا يقدر أن يراه الذي له الكرامة والقدرة الأبدية» (تيموثاوس (١) ٦/ ١٦). وهو ما يقوله يوحنا: «الله لم يره أحد قط» (يوحنا ١/ ١٨).

يمضي يوحنا فيقول: «الله روح» (يوحنا ٤/ ٢٤)، أي ليس جسمًا محسوسًا، في حين كان المسيح جسمًا محسوسًا باللمس، والمسيح عن نفسه يقول: «انظروا يديَّ ورجليَّ، إني أنا هو، جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا، أراهم يديه ورجليه» (لوقا ٢٤/ ٣٧-٤١).

بل لا تقدر الأجسام أن ترى الله، ومن رآه يموت. (انظر الخروج ١٠/ ٢٨) فكيف يزعم الزاعمون بأن البشر رأوه؟

والمسيح -عليه السلام- كان صوته مسموعًا، أما الآب فالأسفار تخبر أن أحدًا لم يسمع صوته، ولم يره «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته» (يوحنا ٥/ ٣٧).

وكيف يقول النصارى: إن جسدًا بشريًّا قد اكتنفه في بطنه إلى حين ولادته، والله يستحيل عليه

ذلك، كما تخبرنا التوراة الكاثوليكيَّة حين تقول: «فقال الرب: لا تحل روحي على إنسان أبدًا، لأنه جسد» (التكوين ٦/ ٣)، فروح الله التي هي صفته لا تحل في الأجساد، فضلًا عن حلول ذاته العلية؛ لأن «العلي لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي» (أعمال ٧/ ٤٨).

ومن المحال أن يكتنفه جسد أرضي مهما عظم، فالسموات والأرض لا تسعه «هل يسكن الله حقًا على الأرض؟ هوذا السموات وسماء السموات لا تسعك، فكم بالأقل هذا البيت الذي بنيت» (الملوك (١) ٨/ ٢٧).

والمسيح صلب -كما ذكرت الأناجيل- ومات، والله عن نفسه يقول: «حي أنا إلى الأبد» (التثنية ٣٢/ ٤٠)، ويقول: «أقسم بالحي إلى أبد الآبدين» (الرؤيا ١٠/ ٦)، وهو «الذي وحده له عدم الموت ساكنًا في نور، لا يدنى» (تيموثاوس (١) ٦/ ١٦).

كما أفادت نصوص أخرى عجزًا للمسيح -عليه السلام- وقعودًا عن مرتبة الألوهية، فدل ذلك على أنه ليس الله، فقد جهل موعد الساعة «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة السموات، إلا أبي وحده» (متى ٢٤/ ٣٦).

وقال عن نفسه: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا» (يوحنا ٥/ ٣٠).

لذا عجز أن يعد ابني زبدي بالملكوت (انظر متى ٢٠/ ٢٣)، ولما سماه أحدهم صالحًا قال: «لمَ تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله» (لوقا ١٨/ ١٨-٢٠).

وذكر بولس أن للمسيح شركاء «من أجل ذلك مسحك الله بزيت الابتهاج أكثر من شركائك» (عبرانيين ١/ ٨-١٠). فهل هؤلاء شركاء له حتى في الألوهية؟

كما ثمة نصوص أفادت بأن المسيح -عليه السلام- عَبَدَ إلهًا غيرَه، وهو الله، يقول لوقا: «وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلِّي، وقضى الليل كله في الصلاة لله» (لوقا ٦/ ١٢)، وقد ذكر الإنجيليون أنه صرخ إلى ربه مستغيثًا وناداه وهو على الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني» (متى ٢٧/ ٤٦).

وقال للتلاميذ عن الله: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠/ ١٧).

كما كان المسيح -عليه السلام- يعبد ربه ويصلي له، ومن ذلك صلاته ليلة أن جاء الجند للقبض عليه. (انظر متى ٢٦/ ٣٩)، فإذا كان هو الله فلمن كان يصلي؟ هل الله يصلي لله؟ وهل الله يدعو الله؟ ثم هل يستجيب الله لدعاء الله؟!

وقال للشيطان لما طلبه أن يسجد له: «مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤/ ١٠)، فهل كان يتحدث عن نفسه؟

كما تثبت النصوص تغايرًا بين المسيح -عليه السلام- والله، وتذكر عشرات النصوص أن المسيح مرسل من الله والمرسَل غير المرسِل، منها «الكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي

أرسلني» (يوحنا ١٤/ ٢٤)، ويقول المسيح -عليه السلام- أخرى: «أرسلتني إلى العالم ليؤمن العالم أنك أرسلتني » (يوحنا ١٧/ ٢١-٢٤)، وفي رسالة يوحنا: «الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (يوحنا (١) ٤/ ٩).

وأكد يوحنا المغايرة بين الآب والابن، وأنهما ليسا واحدًا في قوله على لسان المسيح : «لم أتكلم من نفسي، لكن الأب الذي أرسلني، هو أعطاني وصية ماذا أقول، وبماذا أتكلم» (يوحنا ١٢/ ٤٩)، فإذا كان الابن مساويًا للآب في كل شيء أو هو الآب نفسه، فلم كان الابن لا يتكلم من تلقاء نفسه، بل لا بد له من موافقة الآب الذي أرسله وأعطاه وأوصاه بالكلام الذي ينبغي أن يقوله.

ومن النصوص التي أفادت المغايرة قول بولس عن المسيح: «الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢/ ١٢)، فالقائم من الموت غير الذي أقامه.

ويقول بولس: «نشكر الله أبا ربنا يسوع المسيح» (كولوسي ١/ ٣)، فالأب ليس الابن، بل أبوه.

ويقول المسيح: «كما أحبني الأب» (يوحنا ١٥/ ٩)، ويقول: «ليفهم العالم أني أحب الآب وكما أوصاني الآب» (يوحنا ١٤/ ٣١)، فالمحب غير المحبوب، والموصي غير الموصى.

ويقول: «ما سمعته من أبي» (يوحنا ١/ ١٥)، فالسامع ليس القائل.

ويؤكد الفرق بينه وبين الله، فيقول: «أبغضوني أنا وأبي» (يوحنا ١٥/ ٢٤).

ومما يفيد أيضًا المغايرة بين الأقانيم الثلاثة قول بطرس: «يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة الذي جال يصنع خيرًا» (أعمال ١٠/ ٣٨)، فالله مسح عيسى بالروح القدس، فهم ثلاث شخصيات متمايزة منفصلة.

وجاءت نصوص تقول بأن المسيح -عليه السلام- بعد القيامة «ارتفع وجلس عن يمين الله» (مرقس ١٦/ ١٩). ويقول بولس: «المسيح جالس عن يمين الله» (كولوسي ٣/ ١)، فالذي عن اليمين غير للذي عن شماله.

وقد قال لمريم المجدلية: «وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠/ ١٧)، فالصاعد غير الذي يصعد إليه.

كما أن هذه الغيرية تنطوي على عدم تساوٍ بين الله والمسيح، فقد قال المسيح: «أبي أعظم مني» (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وقال: «أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل» (يوحنا ١٠/ ٢٩)، وقال: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله» (يوحنا ١٣/ ٢٦)، وقال: «الحق أقول لكم، لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل» (يوحنا ٥/ ١٩).

وأكد بولس خضوع المسيح في النهاية لله فقال: «ومتى أخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع للذي أخضع له الكل، (أي لله) كي يكون الله الكل في الكل» (كورنثوس (١) ١٥/ ٢٨)، فهو ولا شك دون الآب، خاضع له، وليس هو الآب، فهل هذان أقنومان متساويان أم شخصان متغايران؟

كما يتغاير الابن عن روح القدس، ولا يتساويان، لذا يقول المسيح: «ومن قال كلمة عن ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال عن روح القدس فلن يغفر له، لا في هذا العالم، ولا في العالم الآتي» (متى ١٢/ ٣٢).

فدل النص على أن روح القدس أفضل من المسيح، وهو أيضًا مخالف لترتيب صيغة التثليث التي تقدم المسيح على الروح القدس.

ومما يؤكد المغايرة بين هذه الأقانيم وعدم تساويها تحريم الكنيسة تغيير ترتيب الثالوث كالقول باسم الروح القدس والابن والآب، إذ يعتبر هذا القول هرطقة، وقد كان قولًا شائعًا في أوربا في العصور الوسطى، وقد حاربته الكنيسة حتى اندثر؟ فمنع هذه الصيغة دال على عدم التساوي، والأمر بالمحافظة على الترتيب المشهور مشعر بأهمية بعض الأقانيم على بعض.

ويؤكد ذلك أيضًا رفض الكنيسة للقول بأن الابن أو الكلمة هو من حل على مريم وأحبلها المسيح، إذ يقول متى: «وجدت حبلى من الروح القدس» (متى ١/ ١٨)، ولئن كان الابن هو الروح القدس، وهما جوهر واحد، فعليه يصح قولنا بأن مريم وجدت حبلى من الابن أو الآب، وهو ما لا تقبله كنائس النصرانيَّة المختلفة.

وأخيرًا: الله ليس له شبيه ولا نظير، لا في السماء ولا في الأرض، لا المسيح ولا غيره «قال: أيها الرب إله إسرائيل، لا إله مثلك في السماء والأرض» (الأيام (٢) ٦/ ١٤)، وقال: «لأنه مَن في السماء يعادل الرب؟ من يشبه الرب بين أبناء الله؟» (المزامير ٨٩/ ٦) [١].

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

الفصل الثامن

عقيدة الصلب

النصارى يقولون بصلب المسيح، بينما يقول المسلمون بأنه لم يصلب، وأنه قد شُبه غيرُ المسيح به، ولا ينفون وقوع صلب لغيره.

إن النصارى يرون أن تجسد الإله في المسيح، هذا الحدث العظيم، إنما كان من أجل أن يصلب الإله، ويقول جوردن مولتمان في كتابه «الإله المصلوب»: (إن وفاة عيسى على الصليب هي عصب كل العقيدة المسيحيَّة، إن كل النظريات المسيحيَّة عن الله، وعن الخليقة، وعن الخطيئة، وعن الموت، تستمد محورها من المسيح المصلوب».

وهذا ما أكد عليه بولس حين ألغى دور الناموس معتمدًا على أن المسيح صلب مكفرًا بصلبه الخطيئة، فافتدانا بذلك من لعنة الناموس، فيقول: «وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطل كرازتنا، وباطل أيضًا إيمانكم» (كورنثوس (١) ١٥/ ١٤).

ويتصور مركيون تلميذ بولس محاكمة من المسيح لخالق العالم ورب السموات والأرض، فيقول: «نزل يسوع إلى رب المخلوقات في هيئة لاهوته، ودخل معه في قصاص بسبب موته على الصليب قتلًا... قال له يسوع: إن الدينونة بيني وبينك، لا تدع أي شخص آخر يكون قاضيًا، إنما شرائعك ذاتها تقضي لي ... ألم تكتب في ناموسك أن من قتل يقتل؟

وعندئذٍ أجاب (إله المخلوقات): لقد كتبت هذا... قال له يسوع: سلم نفسك إذًا ليدي... قال خالق العالم: لأني قد ذبحتك، فإني أعطيك عوضًا، كل أولئك الذين يؤمنون بك، تستطيع أن تفعل بهم ما يرضيك.

عندئذٍ تركه يسوع، وحمل بولس بعيدًا، وأراه الثمن، وأرسله ليكرز بأننا اشتُرينا بهذا الثمن، وأن كل من يؤمن بيسوع قد بيعوا عن طريق هذا الإله العادل إلى الإله الطيب»[(١)].

فهذا الشطط في المعتقد إفراز طبيعي متجدد. يسببه تناقض العدل والرحمة، والقول بنجاة المسيح من القتل يضع الأمور في ميزانها الصحيح، فتعبد البشرية ربها، وهي موقنة بأنها تعبد الرب العفُوّ الرحيم.

إبطال صلب المسيح

وسوف نتكلم عن إبطال صلب المسيح من خلال النقاط الآتية:

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية ص(٢٧٩ - ٢٨٠)، نقلًا عن أدولف هنكر في كتابه تاريخ العقيدة.

أولًا: نقد الروايات الإنجيلية لحادثة الصلب.

١- إن شهود إثبات حادثة الصلب وهي الأناجيل الأربعة مطعون فيها، فإن اثنين من الشهود الأربعة لم يروا المسيح، ولم يكونوا من تلاميذه، فكيف يعتبرون شهودًا؟ وهم مرقس ولوقا.

٢- أن شهود الإثبات جميعًا لم يحضروا الواقعة التي يشهدون فيها، كما قال مرقس: «فتركه الجميع وهربوا» (مرقس ١٤/ ٥٠)، ومثل هذه القضية لو عرضت على أي محكمة متحضرة لسارعت إلى رد شهادة هؤلاء الشهود في أقل من دقيقتين.

٣- ثم هذه الشهادة مسجلة على أكثر من خمسة آلاف مخطوط يتفاخر بكثرتها النصارى، ولا يوجد منها مخطوطتان متطابقتان، ثم لو تطابقت جميعها، فإن أيًا منها لم يسجَّل بخط مؤلفه، وإن نُسب إليه.

يقول اينوك باول في كتابه «تطور الأناجيل»: قصة صلب الرومان للمسيح لم تكن موجودة في النص الأصلي للأناجيل. وقد استند في ذلك على إعادته ترجمة نسخة متى اليونانيَّة، فتبين له أن هناك أجزاء وردت مكررة في هذا الإنجيل، مما يوحي بأنه أعيدت كتابتها في مرحلة تالية[١].

٤- ومن التغيرات التي لاحظها علماء الغرب في مخطوطات الكتاب وهي تتحدث عن الصلب أنه قد تمت إضافة أجزاء للقصة حسب رؤية النساخ وتقديرهم، فقد جاء في مرقس: «وفي اليوم الأول من الفطير، حين كانوا يذبحون الفصح، قال له تلاميذه: أين تريد أن نمضي ونعد لتأكل الفصح؟ فأرسل اثنين من تلاميذه، وقال لهما: اذهبا إلى المدينة، فيلاقيكما إنسان حامل جرة ماء اتبعاه...» (مرقس ١٤/ ١٢ - ١٦).

يقول دنيس نينهام مفسر مرقس: «إن أغلب المفسرين يعتقدون أن هذه الفقرات أضيفت فيما بعد لرواية مرقس». وقد استندوا لأمرين: أولهما: أنه وصف اليوم الذي قيلت فيه القصة بأسلوب لا يستخدمه يهودي معاصر للمسيح. والثاني: أن كاتب العدد ١٧ «ولما كان المساء جاء مع الاثني عشر» (مرقس ١٤/ ١٧) يتحدث عن جلوس المسيح مع تلاميذه الاثني عشر، وهو لا يعلم شيئًا عن رحلة اثنين منهم لإعداد الفصح.

٥-ومن التلاعب الذي تعرضت له أيضًا نسخ الأناجيل: ما ذكره جورج كيرد شارح إنجيل لوقا، فقد جاء في لوقا أن المسيح قال على الصليب: «يا أبتاه اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣/ ٣٣ - ٣٤)، ولم يذكرها غيره من الإنجيليين، كما أغفلتها بعض المخطوطات الهامة للوقا، يقول كيرد: «لقد قيل إن هذه الصلاة ربما تكون قد محيت من إحدى النسخ الأولى للإنجيل بواسطة أحد كتبة القرن الثاني، الذي ظن أنه شيء لا يمكن تصديقه أن يغفر الله لليهود،

---

(١) انظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، أحمد ديدات، ص(١٨ - ٢٠)، مخطوطات البحر الميت، أحمد عثمان، ص(١٣٩ - ١٤٤).

وبملاحظة ما حدث من تدمير مزدوج لأورشليم في عامي ٧٠م و ١٣٥م صار من المؤكد أن الله لم يغفر لهم»[١].

٦- تناقض واختلاف روايات الأناجيل الأربعة في حادثة الصلب والقيامة على وجه لا يمكن الجمع بينها، ولا جواب عنها إلا التسليم بكذب بعض هذه الروايات، أو تكذيب رواية متى في مسألة، وتكذيب مرقس في أخرى، وكذا لوقا ويوحنا.

وقد تقدم بيان ذلك عند الكلام عن كتابهم المقدس.

٧- وينفرد أحد الإنجيليين بذكر حوادث قد تكون مهمة، ومع ذلك أغفلها الآخرون، وقد يتبادر للذهن لأول وهلة أن ذلك يرجع لنظرية تكامل الروايات التي لا تعتبر زيادات البعض في روايتهم ضربًا من التناقض والتعارض.

وهذا ليس بصحيح، إذ معرفتنا البسيطة بتدوين الإنجيل وتاريخه تُنبئنا بأن الإنجيليين اعتمد اللاحق فيهم على السابق، فإغفال اللاحق لبعض ما ذكره سلفه، إنما يرجع لتشككه في جدوى الرواية، أو صحتها، أو تناسقها مع المعتقد، وهو ما يقال أيضًا في الإضافة التي قرر المتأخر زيادتها عن السابق.

ولعل مما يوضح الصورة ويجليها نقل مقدمة لوقا الذي يقول: «رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق. . . لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمتَ به» (لوقا ١/٣- ٤)، فهو ينقل عن السابقين له بتدقيق وإمعان في رواياتهم، وما يدعه من مروياتهم إنما تركه لعدم وثوقه بهذه الروايات.

وقد انفرد بعض الإنجيليين بذكر أحداث مهمة تثير أسئلة استفهام كبيرة، تبحث عن إجابة.

٨- وعند التأمل في الروايات الإنجيلية في جزئيات كثيرة اجتمع عليها الإنجيليون -أو بعضهم- نجد أن في الروايات خللًا وحلقات مفقودة لا يمكن تجاوزها، علاوة على ما في الروايات من تهافت في المعنى.

وفي كثير من هذه الملاحظات لا يمكن للنصارى الخروج منها، إلا بالتسليم بأن المصلوب ليس المسيح، أو بالتسليم بأن الروايات بشرية الوضع، غير محبوكة الصنعة.

منها: دور يهوذا في خيانة المسيح (يوحنا ١٣/٢٦ - ٢٧)، وعدم ذكر الأناجيل شيء عن موته سوى متى (متى ٢٧/ ٣-٧، وقارن مع أعمال ١/١٨)، وتناقض الروايتين وسكوت بقية الأناجيل يرجع لاختفاء يهوذا عن مسرح الأحداث في تلك الليلة التي قبض عليه فيها بدل المسيح.

وكيف جهل رؤساء الكهنة شخص المسيح حتى احتاجوا إلى من يدلهم عليه مقابل ثلاثين من الفضة؛ كيف ذلك وهو الذي كان في الهيكل يعلم كل يوم. (انظر: لوقا ٢٢/ ٥٢).

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية ص(١٣٣ - ١٣٦).

ثم إن بطرس الذي يحتل في المسيحيَّة مكانًا بارزًا، وجعلت الأناجيل بيده مفاتيح السموات والأرض أنكر المسيح في تلك الليلة ثلاث مرات، وأضاف إلى الإنكار حَلفًا -المنهي عنه عندهم- ولعنًا، لم تجرؤ أقلام الإنجيليين على بيان ذاك الذي لعنه بطرس، لكن لا يحتاج القارئ إلى كثير فطنة ليدرك أنه كان يلعن المقبوض عليه، ويبرأ منه ومن معرفته، فهل كان يلعن سيده المسيح أم المصلوب الخائن؟

ولا يمكن أن يصدر هذا الحلف واللعن من بطرس، فلا يمكن أن يهون عليه نبيه ومعلمه إلى هذا الحد، ولو فعل ذلك لما كان مستحقًّا لاسم الإيمان، فضلًا عن المعجزات والخصائص المذكورة له في الأناجيل، وعليه فإن بطرس كان صادقًا محقًّا في حلفه ولعنه، إذ الملعون هو المصلوب، وهو ليس المسيح، بل غيره، وهو مستحق للإنكار واللعن.

ويذكر الإنجيليون قيامة المسيح بعد الموت، وهذه أحد أكثر موضوعات الأناجيل إثارة، لما في رواياتها من تناقض وتنافر. فلِمَ ظهر المسيح لتلاميذه ولم يظهر لأعدائه؟ فهذا أظهر لحجته، وأدعى للإيمان به، كما نتساءل عن موقف الكهنة وقد علموا من الحراس بخروج المسيح من القبر، كيف سكتوا عن ذلك، إن الأناجيل لا تذكر أنهم حركوا ساكنًا، وكأن الأمر لا يعنيهم.

ثانيًا: إبطال وقوع صلب المسيح بالدليل التاريخي.

١- إن قدماء النصارى كثر منهم منكرو صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون النصارى أسماء فرق مسيحية كثيرة أنكرت الصلب.

وهذه الفرق هي: الباسيليديون، والكورنثيون، والكاربوكرايتون، والساطرينوسية، والماركيونية، والبارديسيانية، والسيرنثيون، والبارسكاليونية، والبولسية والماينسية، والتايتانيسيون، والدوسيتية، والمارسيونية، والفلنطانيائية، والهرمسيون.

وبعض هذه الفرق قريبة العهد بالمسيح، إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول ففي كتابه «الهرطقات مع دحضها» ذكر القديس الفونسو ماريا دي ليكوري أن من بدع القرن الأول قول فلوري: إن المسيح قوة غير هيولية، وكان يتشح ما شاء من الهيئات، ولذا لما أراد اليهود صلبه؛ أخذ صورة سمعان القروي، وأعطاه صورته، فصلب سمعان، بينما كان يسوع يسخر باليهود، ثم عاد غير منظور، وصعد إلى السماء.

ويبدو أن هذا القول استمر في القرن الثاني، حيث يقول المفسر جون فنتون شارح متى: «إن إحدى الطوائف الغنوسطية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيرواني قد صلب بدلًا من يسوع»[(١)].

(١) انظر: أقانيم النصارى ص(٧٥)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية ص(٢٧٣، ٢٧٤).

وقد استمر إنكار صلب المسيح، فكان من المنكرين الراهب تيودورس (٥٦٠م) والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص (٦١٠م) وغيرهم.

ولعل أهم هذه الفرق المنكرة لصلب المسيح الباسيليديون؛ الذين نقل عنهم سيوس في «عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانيَّة» والمفسر جورج سايل القول بنجاة المسيح، وأن المصلوب هو سمعان القيرواني، وسماه بعضهم سيمون السيرناي، ولعل الاسمين لواحد.

وهذه الفرقة كانت تقول أيضًا ببشرية المسيح، يقول باسيليوس الباسليدي: «إن نفس حادثة القيامة المدعى بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح».

ويقول جورج سايل: إن السيرنثيين والكربوكراتيين، وهما من أقدم فرق النصارى، قالوا: إن المسيح نفسه لم يصلب ولم يقتل، وإنما صلب واحد من تلاميذه، يشبهه شبهًا تامًّا، وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصًا آخر صلب بدلًا من المسيح.

وثمة فِرق نصرانية قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسيتية والمرسيونية والفلنطنيائية. وهذه الفرق الثلاث تعتقد ألوهية المسيح، ويرون القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنوة والإلهية.

كما تناقل علماء النصارى ومحققوهم إنكار صلب المسيح في كتبهم، وأهم من قال بذلك الحواري برنابا في إنجيله.

ويقول ارنست دي بوش الألماني في كتابه «الإسلام: أي النصرانيَّة الحقة» ما معناه: إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح، لا في أصول النصرانيَّة الأصليَّة.

ويقول ملمن في كتابه «تاريخ الديانة النصرانيَّة»: «إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدقهم القرآن»[(١)].

ومن المنكرين أيضًا صاحب كتاب «الدم المقدس، وكأس المسيح المقدس» فقد ذكر في كتابه أن السيد المسيح لم يصلب، وأنه غادر فلسطين، وتزوج مريم المجدلية، وأنهما أنجبا أولادًا، وأنه قد عثر على قبره في جنوب فرنسا، وأن أولاده سيرثون أوربا، ويصبحون ملوكًا عليها.

وذكر أيضًا أن المصلوب هو الخائن يهوذا الأسخريوطي، الذي صلب بدلًا من المسيح المرفوع[(٢)].

---

(١) انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي البغدادي، ص(٣٦٦، ٤٦٥)، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص(٥٠٣).

(٢) انظر: دراسة تحليلية نقدية لإنجيل مرقس، محمد عبد الحليم أبو السعد، ص(٥٣٠ - ٥٣١).

وأيضًا المؤرخ اليهودي يوسيفوس المعاصر للمسيح والذي كتب تاريخه سنة ٧١م أمام طيطوس لم يذكر شيئًا عن قتل المسيح وصلبه.

أما تلك السطور القليلة الموجودة بكتابه التي تحدثت عن قتل المسيح وصلبه، فهي إلحاقات نصرانية كما جزم بذلك المحققون وقالوا: بأنها ترجع للقرن السادس عشر، وأنها لم تكن في النسخ القديمة.

ثالثًا: إبطال صلب المسيح بنبوءات التوراة.

للأسفار التوراتية دور عظيم في قصة صلب المسيح، فقد أكثر الإنجيليون في سردهم للقصة من الإحالة إلى أسفار التوراة؛ التي يرونها تتنبأ بالمسيح المصلوب، وكانت نصف هذه الإحالات إلى المزامير المنسوبة لداود وغيره. ومجموع هذه النبوءات أربع عشرة نبوءة، ذكر متى منها ستًّا، ومرقس أربعًا، ولوقا اثنتين، بينما ذكر منها يوحنا سبع نبوءات.

ومِن جماع هذه النبوءات لا نخلص إلا بأن المزامير تنبأت بحق بأن الله مخلص مسيحه، يستجيبه من سماء قدسه، يرفعه من أبواب الموت، يرفعه فوق القائمين عليه، يرسل من العُلا فيأخذه.

أما يهوذا الإسخريوطي الذي حفر له هذه الحفرة، وأتى على رأس الجمع من جنود وخدام ليقبضوا عليه، على المسيح سيده، فإنه في الحفرة نفسها يقع، وبعمل يديه يعلق، رجع تعبه على رأسه، وعلى هامته هبط ظُلمه، صار عارًا عند البشر، فقبض عليه هو بدلًا من المسيح، وحُوكِمَ هو، وصلب بدلًا منه.

بينما لو وافقنا الرواية الإنجيلية بأن المسيح علم أنه سيصلب ثم صلب، فما فائدة تضرعه ودعائه، ولم كان جزعه يأسه وصراخه على الصليب «لماذا تركتني؟»[(١)].

رابعًا: إبطال صلب المسيح بنبوءات وأخبار الأناجيل والرسائل.

لا تخطئ عين الناظر في الأناجيل أن ترى أن الإنجيليين نقلوا عن المسيح تنبؤه بتعرضه لمؤامرة تودي به إلى الموت والصلب، فهل تصح هذه الأقوال في نسبتها إلى السيد المسيح؟

الحقيقة أن خبر تنبؤ المسيح بقتله أو صلبه (انظر متى ١٧/ ٢٢ و٢٠/ ١٦، ٢٦/ ٢، ٢٦/ ٢٣)، قول دخيل على الأناجيل، ملحق بها، والأدلة على ذلك تتضح باستقراء عدد من الملاحظات التي يقوي بعضها بعضًا:

١- إن العبارة في إنجيل متى والتي يخبر فيها المسيح عن مؤامرة يتعرض لها ابن الإنسان وتودي به إلى الموت وردت بلا مقدمة، ولا مناسبة، ولا تعليق عليها من قبل الحواريين، حتى وكأنها تتحدث عن حدث عادي، فلئن صحت، دل ذلك على أن ابن الإنسان المصلوب المسلّم لأيدي الخطاة، هو غير المسيح.

---

(١) انظر: دعوة الحق بين المسيحية والإسلام، منصور حسين.

٢- تتحدث المواضع الأربعة -التي ذكرت تنبؤه بالموت- عن تسليم ابن الإنسان، وقتله أو صلبه، ولا تنص على عيسى، لكن اللفظ -وإن تبادر في الذهن إلى المسيح- فإنه يصح أن يطلق على غيره، بدليل أنهم سألوه عن ابن الإنسان مَن هو بقولهم: «كيف تقول أنت: إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان؟ من هو هذا ابن الإنسان؟» (يوحنا ١٢/ ٣٤) ولو كان هذا اللقب بالمسيح خاصًا لما كان في سؤالهم وجه.

٣- يقترن وصف الأناجيل الثلاثة لردة فعل التلاميذ حيال هذا الخبر بكثير من الغرابة، ففي متى (٢٦/ ١ - ٢) لم يذكر لهم حسًا ولا خبرًا، بيد أنه في (متى ٢٦/ ٢٣) ذكر بأنهم «حزنوا جدًا»، ويفهم منه أنهم فهموا مراده فحزنوا، لكن مرقس يقول: «وأما هم فلم يفهموا القول، وخافوا أن يسألوه» (مرقس ٩/ ٣٢)، ويؤكد لوقا هذا بقوله: «وأما هم فلم يفهموا من ذلك شيئًا، وكان هذا الأمر مخفيًا عنهم، ولم يعلموا ما قيل».

وإضافة إلى تناقض النصوص، فإن في خوف التلاميذ من المسيح وترددهم في سؤاله ما يدعو للعجب، فقد عرف عليه السلام بدماثة خلقه، ويتحببه لهم، حتى إنه غسل أرجلهم، وكثيرًا ما كانوا يسألوه، فلِمَ لم يسألونه في هذا الأمر الخطير؟

٤- ذكر الإنجيليون الثلاثة الذين ذكروا الخبر بأن المسيح سيقوم في اليوم الثالث (انظر متى ١٧/ ٢٣، مرقس ٩/ ٣٢، لوقا ١٨/ ٣٣)، وهذا لم يحصل، بل مكث ما لا يزيد -بكل حال- عن ليلتين ويوم.

٥- ومما يدل على عدم صحة التنبؤ بالصلب والقتل: فرار التلاميذ، وفيهم بطرس الذي قال له المسيح: «طلبت من أجلك لكيلا يفنى إيمانك، وأنت متى رجعت ثبت إخوتك، فقال له: يا رب، إني مستعد أن أمضي معك، حتى إلى السجن، وإلى الموت» (لوقا ٢٢/ ٣٢ - ٣٤)، فدل هذا على معرفتهم بأن المأخوذ غيره، كما قد عرفوا ذلك فهربوا، وقد قال عنهم المسيح: «الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك» (يوحنا ١٧/ ١٢).

ثم بعد ذلك ولأن أمر المصلوب لا يهمهم وقد عرفوا بنجاة سيدهم لم يهتموا بمتابعة المصلوب وهو على الصليب، أو في أثناء المحاكمة، إلا ما جاء عن بطرس ويوحنا وبعض النسوة.

٦- كما تذكر الأناجيل دليلًا آخر يشهد على عدم صحة هذه النبوءات المتنبئة بصلب المسيح، بل تدلل على أن المسيح تنبأ بنجاته، وأن التلاميذ فهموا منه ذلك قول مرقس أن المسيح قال لتلاميذه: «كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة» (مرقس ١٤/ ٢٧).

هذا ولا تذكر الأناجيل شيئًا عن شك التلاميذ، سوى ما ذكرته عن بطرس الذي أنكر المأخوذ ثلاث مرات ليلة المحاكمة، وأما الآخرون فصمت مطبق، فكيف شك التلاميذ؟

لقد شك التلاميذ في المسيح وهم يرون المأخوذ من البستان (يهوذا) وقد قبض عليه، وظنوه المسيح، فوقعوا فيما حذرهم منه المسيح، وهو الشك فيه، لقد كان أخبرهم بنجاته من المؤامرة ثم

يرون أنه قد أخذ ولم ينجُ.

فالمسيح قد تنبأ لتلاميذه بأن مؤامرة ستدبر ضده، وستُحدث له ألمًا ومعاناة، إلا أنها ستفشل، وسينقذه الله من القتل، كما في قوله: «ستطلبونني ولا تجدونني». وهذا الذي حصل ولم يشاهده التلاميذ، بل هم قد رأوا ما حسبوه وظنوه نقيضَه، فقد رأوا المسيح مأخوذًا مصلوبًا، فوقعوا في الشك فيه؛ لأن كلامه لم يتحقق، وهذا هو الصحيح.

٧- ومما يؤكد استجابة الله للمسيح بعد دعائه بالنجاة: ظهور ملاك له ليقويه (انظر لوقا ٢٢/ ٤٣) فهل كان ذلك الملاك يضحك عليه ويهزأ به، أم يعينه فينجيه؟

وهذا الأخير هو ما يليق بعدل الله ورحمته، فقد استجاب الله للمسيح فأنجاه، وصلب يهوذا الخائن، فهذا أليق بعدل الله وكرمه من القول بعدم استجابته للمسيح، وصلبه وتسليمه إلى مرام أعدائه ومبغضيه.

خامسًا: تنبوءات العهد الجديد بنجاة المسيح.

إن خبر تنبؤ المسيح بقتله وصلبه -كما يذكر الإنجيليون- معارَض بنصوص كثيرة، أخبر المسيح تلاميذه فيها بنجاته، بل أعلنها على ملأ اليهود، وتحداهم، وأخبر بأنه غلبهم، وغلب العالم.

وقد تجاهل النصارى هذه الروايات، ولم يلتفتوا إلى الأناجيل وهي تنقل -على استحياء- عن المسيح شهادته بنجاته في نصوص عديدة:

١- ومنها قوله حسب ما جاء في يوحنا: «فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خدامًا ليمسكوه، فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني، ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» فمتى حقق المسيح هذه النبوءة؟ متى بحث عنه اليهود فلم يجدوه؟ إنه ولا ريب يوم جاءوا للقبض عليه، فنجاه الله وأخذه إلى المكان الذي لا يقدرون عليه، إلى السموات العلا.

وقد فهم منه اليهود أنه أراد نجاته منهم «فقال اليهود فيما بينهم: إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين، ويعلم اليونانيين؟ ما هذا القول الذي قال: ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟» (يوحنا ٧/ ٣٢ - ٣٦).

٢- ومرة أخرى، جاهر المسيح بنجاته منهم قائلًا: «أعلم من أين أتيت، وإلى أين أذهب، وأما أنتم، فلا تعلمون من أين آتي، ولا إلى أين أذهب . . . قال لهم يسوع أيضًا: أنا أمضي، وستطلبونني وتموتون في خطيتكم، حيث أمضي أنا، لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألعله يقتل نفسه حتى يقول: حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال لهم: أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا العالم . . .

فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون إني أنا هو، ولست أفعل شيئًا من

نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي، والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الأب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يوحنا ٨/ ٢١ - ٢٩).

٣- ثم مرة أخرى، لما أعطى يهوذا اللقمة قال لتلاميذه: «يا أولادي أنا معكم زمانًا قليلًا بعد، ستطلبونني، وكما قلت لليهود: حيث أذهب أنا، لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن . . . قال له سمعان بطرس: يا سيد، إلى أين تذهب، أجابه يسوع: حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيرًا» (يوحنا ١٣/ ٣٢ - ٣٦)، ولا يمكن أن يكون مقصوده الموت، فإنه مقدور لكل أحد.

٤- ومنها أيضًا قول المصلوب (يهوذا) وهو في المحاكمة: «من الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله» (لوقا ٢٢/ ٦٩) فقد رأى يهوذا نجاة المسيح بما رآه أو سمعه من المسيح عن نجاته، وما شاهده من نجاة المسيح لحظة ألقي الشبه عليه، وهو يخبر أنه في تلك اللحظة، المسيح في السماء، وقد رفع بقوة الله.

٥- ومن النصوص التي تحدثت أيضًا عن نجاة المسيح قوله: «هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن، تتفرقون فيها، كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي، وأنا لست وحدي؛ لأن الآب معي، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام، في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يوحنا ١٦/ ٣٢ - ٣٣)، وهكذا كان، فقد هربوا جميعًا وتركوه، لكن الله معه، لذا يطلب منهم أن يثقوا أنه غلب العالم، وأن يثقوا أنه في سلام، فأين هذا من القول بصفع المسيح وصلبه وضربه؟

٦- ومن النصوص الدالة أيضًا على نجاة المسيح قول يوحنا: «من عند الله خرج، وإلى الله يمضي» (يوحنا ١٣/ ٣) ولو كان المقصود الموت، فكل الناس إلى الله تمضي، والقول بأن مضيه إنما يكون بعد الدفن ثلاثًا، يحتاج لدليل يثبت ذلك.

٧- ومن النصوص الدالة أيضًا على نجاة المسيح ما جاء في متى «فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؛ ولكن ستأتي أيام، حين يرفع العريس عنهم، فحينئذ يصومون» (متى ٩/ ١٥)، ومقصده رفعه للسماء.

٨- ومن ذلك أيضًا: أن في أقوال بولس ما يجعل حادثة الصلب قضية غير مسلم أنها حصلت للمسيح، ويُرى ذلك بالإمعان في هذه الأقوال، يقول بولس: «أما نحن فنكرز بالمسيح مصلوبًا، شكًّا لليهود، وجهالة للأمم» (كورنثوس (١) ١/ ٢٣).

٩- ويشهد الكاتب المجهول لرسالة العبرانيين بنجاة المسيح من الصلب، حين قال في وصف ملكي صادق: «لأن ملكي صادق هذا ملك ساليم، كاهن الله العلي. . . بلا أب، وبلا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له، ولا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى إلى الأبد» (عبرانيين ٧/ ١ -٣) فيفهم من قوله هذا، أن ليس للمسيح نهاية أرضية سابقة، كما هو الحال في ملكي صادق!

١٠- لكن يبقى أظهر أدلة نجاة المسيح ما قاله كاتب رسالة العبرانيين عن المسيح: «الذي في أيام

جسده، إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه» (عبرانيين ٥/ ٧).

فهذا النص، شهادة ناطقة، بأن الله استجاب للمسيح تضرعه في تلك الليلة التي قضاها في بستان جثماني، وصرف عنه ما كان يحذره ويخافه من الصلب والبلاء، وهذا ما تيقنه المسيح من ربه «أيها الآب أشكرك؛ لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي» (يوحنا ١١/ ٤٠-٤١).

وقد رأى المحققون في هذه النصوص نبوءات تتكامل لتؤكد حقيقة واضحة تفيد بنجاة المسيح عليه السلام من يد أعدائه، وأنه سيرفع للسماء، فهو المكان الذي لا يقدرون عليه، ولا يمكن أن يكون مقصده من هذه الأقوال الموت، فإن ذلك أمر يطيقه كل أحد، كما أن أحدًا لا يتحدى أعداءه بأنه سيموت وهم لن يستطيعوه.

لقد كان المسيح يتحدى أعداءه وهو يقول: «هو ذا بيتكم، يترك لكم خرابًا، لأني أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن، حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب» (متى ٢٣/٢٨ - ٢٩).

سادسًا: إبطال صلب عيسى من حوارييه.

١- مما يؤكد نجاة المسيح وصلب غيره ما جاء في إنجيل برنابا في قصته: «فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عليّ التحفظ، وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة نقود، وعليه فأنا على يقين من أن من يبيعني يقتل باسمي؛ لأن الله يصعدني في الأرض، وسيغير منظر الخائن، حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك لما يموت شر ميتة؛ أمكث في ذلك العار زمنًا طويلًا في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزال عني هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا؛ لأني اعترفت بحقيقة مسيًا، الذي سيعطيني هذا الجزاء، أي أن أعرف أني حي، وأني بريء من وصمة تلك الميتة.

فأجاب من يكتب (أي برنابا): يا معلم. قل لي من هو ذلك التعيس؟ لأني وددت لو أُميته خنقًا. أجابه يسوع: صه، فإن الله هكذا يريد، فهو لا يقدر أن يفعل غير ذلك، ولكني متى حلت هذه النازلة بأمي، فقل لها الحق، لكي تتعزى . . .

وخرج يسوع من البيت، ومال إلى البستان ليصلي، فجثا على ركبتيه مائة مرة معفرًا وجهه كعادته في الصلاة . . . ولما دنت الجنود مع يهوذا في المحل الذي كان فيه يسوع سُمع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد».

ثم يمضي برنابا هو يصور ما حصل ليهوذا الخائن، فيقول: «ودخل يهوذا إلى الغرفة، دخل يهوذا مندفعًا أمام جميع من كانوا معه إلى الحجرة التي كان فيها عيسى، ثم رفع منها إلى السماء، بينما كان التلاميذ نيامًا، على أن الله العظيم القادر على كل شيء، تصرف تصرفًا عجيبًا، فحول يهوذا إلى صورة

عيسى وهيئته وصوته وأسلوب حديثه تمامًا، حتى اعتقدنا أنه عيسى، ولما استيقظنا من النوم كان يدور ليعرف مكان المعلم، أما نحن فعجبنا للأمر، فقلنا له: إنك أنت معلمنا ومولانا، هل نسيتنا؟

فضحك يهوذا، وقال: إنكم لحمقى، ألا تعرفونني؟ أنا يهوذا الأسخريوطي، وفي هذه اللحظة دخل الجنود، ووضعوا أيديهم على يهوذا، فقد كان صورة طبق الأصل لعيسى.

ولما سمعنا نحن قول يهوذا، ورأينا كتائب الجنود هربنا واختفينا، كان يوحنا يلتف بقماش من التيل، فاستيقظ وهرب، ولما أمسك أحد الجنود بقطعة القماش، تركها له، وفر هاربًا عاري الجسد، إذ كان الله قد سمع دعوة عيسى، وبالفعل نجا التلاميذ الأحد عشر من كل شر» (برنابا ٢١٤/١ - ٢١٦/١٣).

٢-وما وجد في مخطوطات نجع حمادي في مصر؛ حيث كشف بعد الحرب العالمية الثانية عن ثلاثة وخمسين نصًا، تقع في ألف ومائة وثلاث وخمسين صفحة، ومن هذه النصوص ما تحدث عن نجاة المسيح، وأنه لم يصلب، ولم يرد في هذه المخطوطات أيُّ ذِكْرٍ لمحاكمة المسيح وصلبه.

وفي مخطوطة من هذه المخطوطات وهي كتاب «سيت الأكبر» جاء على لسان المسيح «كان شخص آخر، هو الذي شرب المرارة والخل، لم أكن أنا . . . كان آخر الذي حمل الصليب فوق كتفيه، كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه. وكنت أنا مبتهجًا في العُلا . . . أضحك لجهلهم».

وفي مخطوطة «مقالة القيامة» ما يدل على أن المسيح مات موتًا طبيعيًا، وأن روحه المقدَّسة لا يمكن أن تموت.

٣- كما تكشف لنا الكشوف الأثرية عن إنجيل اكتُشف حديثًا في نجع حمادي منسوبًا للحواري المقرب بطرس، ينكر فيه صلب المسيح، ويقول برفعه قبل إجراء الصلب.

جاء في إنجيل بطرس على لسان بطرس: «رأيته يبدو كأنهم يمسكون به، وقلت: ما هذا الذي أراه يا سيد؟ هل هو أنت حقًا من يأخذون؟. . . أم أنهم يدقون قدميّ ويديّ شخص آخر؟. . . قال لي المخلص: . . . من يُدخلون المسامير في يديه وقدميه هو البديل، فهم يضعون الذي بقي في شبهة في العار! انظر إليّ، وانظر إليه».

٤- ويرى المحققون أن الحواريين ما كانوا يعرفون شيئًا عن صلب المسيح، بدليل خلو رسائلهم الموجودة في العهد الجديد من الحديث عن المسيح المصلوب.

يقول المؤرخ فوتيوس: إنه قرأ كتابًا يسمى «رحلة الرسل» في أخبار بطرس ويوحنا واندراوس وتوما وبولس، ومما قرأ فيه: «إن المسيح لم يصلب، ولكن صلب غيره، وقد ضحك بذلك من صالبيه»[1].

---

(١) انظر: مسيحية بلا مسيح ص(١٥)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح ص(١٤-١٦)، مخطوطات البحر الميت ص(١٣٧ - ١٣٩)، النصرانية، مصطفى شاهين، ص(٢٨٢).

وهكذا ثبت لدينا نجاة المسيح عليه السلام من الصلب كما أنبأنا بذلك أسفار العهد القديم، وكما وعد المسيح أتباعه في العهد الجديد، ورأينا مكر الله يحيق بالتلميذ الخائن الذي خان سيده، فانتشبت أرجله في الشبكة التي أخفاها، ووقع في الحفرة التي حفرها.

ورأينا ما يثبت صحة ما توصلنا إليه، فقد سجلته الدلائل المتناثرة في زوايا الكتاب المقدس، ورأينا ظلاله في تاريخ النصرانيَّة، حيث تواصل إنكار النصارى لهذا الصلب المزعوم عبر تاريخ النصرانيَّة القديم[١].

(١) انظر: هل افتدانا المسيح على الصليب، د. منقذ محمود السقار.

الفصل التاسع

عقيدة الفداء والخلاص

أثبتنا فيما سبق نجاة المسيح من الصلب، وهو أمر مبطل لكل ما يقوله النصارى عن عقيدة الفداء والخلاص.

والحديث النصراني عن المسيح المصلوب لا يلزم منه أن صلبه كان فداء للخطيئة، لكن نجاة المسيح بلا شك هدم لأساس هذا المعتقد.

وتعتبر عقيدة الفداء والخلاص مفتاح جميع العقائد النصرانيَّة، فهي أهم ما يبشر به النصارى، ولتحقيقها وضع النصارى المسيح -الذي أنجاه الله- على الصليب.

وليتحقق الفداء على صورة ترضي الإله العظيم جعلوا المصلوب إلهًا، حتى يساوي الفادي المثمن العظيم، وهو نجاة البشرية وخلاصها من الخطيئة والدينونة، وهو ما عبر عنه العهد الجديد على لسان بطرس بقوله: «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى: بفضة أو ذهب، من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حَمَلٍ بِلاَ عيْب، ولا دنس، دم المسيح» (بطرس (١) ١٨/١ - ١٩).

وأول ما نلحظه اختلاف النصوص الكتابية في تحديد ما يُغفر بدم المسيح، فبعضها يتحدث عن ذنب آدم فقط، وبعضها يشمل جميع الذنوب التي سبقت صلب المسيح؟ بل يمتد بعضها ليعمم الخلاص على جميع الذنوب التي يرتكبها العبد حاضرًا ومستقبلًا.

ومنهم من جعله عامًّا لكل البشر، ومنهم من خصه بالمؤمنين بقيامة المسيح، أو بالمؤمنين بأن المسيح ابن الله.

وهذا الاختلاف في النصوص الكتابية انعكس على الفرق النصرانيَّة، فاختلفت في حدود الخلاص الذي حصل بدم المسيح.

يعتقد الكاثوليك والأرثوذكس أن الخلاص لا يشمل جميع الذنوب، إنما يشمل الخطيئة الأصليَّة، وبعد الفداء عادت للبشرية حريتها وإرادتها التي سلبتها بذنب آدم، فإذا ما أتى المتعمِّد ذنبًا بعد معموديته، فسيعود مستحقًّا للعذاب الدائم إن كان الذنب كبيرًا، أما إن كان الذنب صغيرًا فيكون عذابه في «المطهر» الذي يعذب به المؤمنون ردحًا من الزمن حتى يخلصوا من القصاصات التي عليهم.

وكوسيلة للخلاص من عذاب المطهر ظهر عند الكاثوليك مبدأ الاعتراف الكنسي بين يدي الكاهن والتبرير بصكوك الغفران التي أقرت في المجمع الثاني عشر المنعقد في روما سنة ١٢١٥م، وقرر فيه المجتمعون أن «الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء».

أما البروتستانت فإنهم يترددون بين شرط الإيمان للخلاص، وبين إسقاط هذا الشرط، إذ يراه بعضهم خلاصًا يشمل كل الخطايا، كما ينفع كل الناس، مؤمنهم وكافرهم.

فلسفة النصارى لمسألة الخطيئة والكفارة

- إن الله خلق الإنسان وترك فيه قوة الإرادة في حرية كاملة، وأنعم عليه، وحرم عليه تناول القمح.

لكن آدم وضع قوته الإرادية في غير موضعها عندما تناول ما حرم عليه، ولم يكن صعبًا عليه تحاشي المعصية، إذ لم يكن يعرف يومذاك عواطف الهوس والشهوة.

ذنب آدم ذنب عظيم؛ لأنه يتضمن ذنوبًا عديدة:

أولها: الكفر، إذ اختار آدم أن يعيش محكومًا بسلطته، بدل أن يعيش في ظل الحكم الإلهي.

وثانيها: كفر وإساءة أدب مع الله؛ لأن الإنسان لم يتيقن في الله.

وثالثها: قتل نفسه، إذ جعل حكمها الموت.

ورابعها: الزنى المعنوي؛ لأن إخلاص الروح الإنسانية قد ضاع من أجل التصديق بقول الحية المعسول.

وخامسها: السرقة، إذ نال ما لا يحل له.

وسادسها: الطمع.

وهكذا كانت هذه الخطيئة أمًّا لكل الأخطاء البشرية «والحق أنك مهما أمعنت في حقيقة أي إثم، فستجد له انعكاسًا في هذه الخطيئة الواحدة».

- جزاء هذه الخطيئة الشنيعة الموت الدائم، أو العذاب الدائم «لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت»، كما سلب آدم بعدها الحرية الإرادية بعد أن هزمه الذنب، فأصبح حرًّا في إتيان الإثم، وغير حرٍّ في صنع المعروف، فالعقاب المعقول للذنب هو الذنب بعده، بعد تخلي رحمة الله عنه، وهكذا أصبحت الخطيئة مركبة من طبيعة الأبوين، وانتقلت منهما وراثة إلى سائر أبنائهما.

- إن الله رحيم، ولا يريد أن يغير قوانين المحكمة، وفيها أن الموت عقوبة عادلة لهذه الخطيئة الأصليَّة، فاتخذ حيلة ينجي بها عباده، فيموتون ثم يحيون من جديد، فتعود إليهم حريتهم بعد حياتهم الجديدة.

ولما كانت إماتة الناس جميعًا تتعارض مع قانون الطبيعة وسنن الكون، فكان لا بد من شخص معصوم من الذنب الأصلي يعاقبه الله بموته، ثم يبعثه، فيكون موته بمثابة موت البشرية وعقوبتها، وقد اختار الله ابنه لهذه المهمة[1].

---

(١) انظر: ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، ص(٧٨ - ٨٠).

نقض فلسفة وراثة الخطيئة الأصليّة

أولًا: وراثة الذنب ظلمًا يتنزه الله عنه، فوراثة الذنب نوعًا من الظلم لا يليق نسبته إلى الله عز وجل.

ثانيًا: جاءت نصوص التوراة تنفي وراثة الذنب، وتؤكد على مسئولية كل إنسان عن عمله، ومنها:

«النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون» (حزقيال ١٨/ ٢٠ - ٢١).

«لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل» (التثنية ٢٤/١٦).

«بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه» (إرمياء ٣١/ ٣٠).

«الذي عيناك مفتوحتان على كل طرق بني آدم لتعطي كل واحد حسب طرقه، وحسب ثمرة أعماله» (إرميا ٣٢/ ١٩).

«لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته» (الأيام (٢) ٢٥/ ٤).

«فإنه لا يموت بإثم أبيه» (حزقيال ١٨/ ١٧).

«أفتهلك البار مع الأثيم، عسى أن يكون خمسون بارًا في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًا الذين فيه، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم. حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلًا» (التكوين ١٨/ ٢٣ - ٢٥).

ثالثًا: بطلان وراثة الخطيئة بإثبات براءة الكثيرين من الخطيئة الأصليّة.

تشهد الكتب المقدَّسة عند النصارى لكثيرين بالخيرية، وتثني عليهم، ولو كانوا مسربلين بالخطيئة الأصليّة لما استحقوا هذا الثناء:

١- ومن هؤلاء الأطفال الذين قال فيهم المسيح في إحدى وصاياه: «الحق أقول لكم، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات، فمن وضع نفسه مثل هذا الولد، فهو الأعظم في ملكوت السموات» (متى ١٨/ ٣ - ٤)، (وانظر مرقس ١٠/ ١٣/ ١٦).

وعندها نهر تلاميذه أطفالًا قال: «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم؛ لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (متى ١٩/ ١٣ - ١٤) فيفهم من هذين النصين طهرة الأطفال من الخطيئة الأصليّة، لذلك جعلهم مثلًا للأبرار الذين يدخلون الجنة.

٢- والأبرار أيضًا لم يحملوا هذه الخطيئة، فهؤلاء الأبرار ذكرتهم نصوص التوراة وأثنت عليهم ولم تتحدث عن هلاكهم أو تأثرهم بالخطيئة الموروثة «كان كلام الرب إليّ قائلًا: ما لكم أنتم

تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين: الآباء أكلوا الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست، حي يقول السيد الرب . . . الإنسان الذي كان بارًا وفعل حقًا وعدلًا، لم يأكل على الجبال، ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل، ولم ينجس امرأة قريبه، ولم يقرب طامثًا، ولم يظلم إنسانًا . . . فهو بار، حياة يحيا يقول السيد الرب» (حزقيال ١٨/ ١٩ - ٢٣)، فكل من يعمل الصالحات يكون بارًا، ولا تؤثر فيه خطية آدم أو غيره.

٣- ومن هؤلاء الأبرار الذين لم تكبلهم الخطيئة، وأثنت عليهم التوراة، الأنبياء، ولو كانوا حاملين للخطيئة لما كانوا أهلًا لهداية الناس، فإن قيل عفي عنهم، فلم تراه لم يُعفَ عن بقية العالمين -من غير دم- كما عفي عن الأنبياء الذين اختار الله منهم كليمًا وخليلًا.

ومن الأنبياء الذين أثنت عليهم التوراة أخنوخ «وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه» (التكوين ٥/ ٢٤)، وقد قال عنه بولس: «بالإيمان نقل أخنوخ لكيلا يرى الموت، ولم يوجد لأن الله نقله، إذ قبل نقله شهد له بأنه قد أرضى الله» (عبرانيين ١١/ ٥).

وأيضًا نوح عليه السلام تقول عنه التوراة: «وكان نوح رجلًا بارًا كاملًا في أجياله، وسار نوح مع الله» (التكوين ٦/ ٩).

وأيضًا إبراهيم فقد قيل له: «لا تخف يا إبرام أنا ترس لك، أجرك كثير جدًا» (التكوين ١١/ ١)، وقيل عنه: «بارك الرب إبراهيم في كل شيء» (التكوين ٢٤/ ١).

ومن هؤلاء الأبرار أيوب، وقد أخبر عن نفسه أنه بريء من كل ذنب وإثم، وأنه كان بارًا مطيعًا لأقوال الله: «قد قلتَ في مسامعي، وصوت أقوالك سمعتُ. قلت: أنا بريء بلا ذنب، زكي أنا ولا إثم لي» (أيوب ٣٣/ ٨-٩).

ورغم هذه المزايا الفريدة لأيوب، فإن يوحنا المعمدان أعظم منه، كما قال المسيح: «الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١/ ١١)، ويقول عنه لوقا: «لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب» (لوقا ١/ ١٥)، فهؤلاء جميعًا لم يرثوا الخطيئة، ولم تؤثر فيهم مع أنهم من ذرية آدم، والكتاب يعلن صلاحهم وعدم احتياجهم إلى الخلاص بدم المسيح أو غيره. . .

٤- كما أثنت التوراة على أشخاص من غير الأنبياء ووصفتهم بالصلاح والبر، فدل ذلك على عدم حملهم للخطيئة الأصليَّة.

منهم هابيل بن آدم الذي تقبل الله منه ذبيحته لصلاحه، ولم يقبلها من أخيه، فلم تمنعه خطيئة أبيه من أن يكون عند الله مقبولًا (انظر التكوين ٤/ ٤)، وقد قال عنه الكاتب المجهول لرسالة العبرانيين: «بالإيمان قدم هابيل للّه ذبيحة أفضل من قايين، فبه شهد له أنه بار، إذ شهد الله لقرابينه» (عبرانيين ١١/ ٤).

وكذلك الناجون مع نوح كانوا جميعًا أبرارًا، فأنجاهم الله من الطوفان «ورأى الله الأرض.

فإذا هي فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض فقال الله لنوح: نهاية كل بشر أتت أمامي . . . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط» (التكوين ٦/ ١٢- ٧/ ٢٣). ولو كانت الخطيئة موروثة لكان الجميع خاطئين، ولما كان ثمة مبرر لهذا التفريق بين الناجين والمغرقين.

ومن الأبرار أيضًا لاوي بن يعقوب، والذي اختص وسبطه بالكهانة، حيث قال الله عنه: «عهدي معه للحياة والسلام، وأعطيته إياهما للتقوى، فاتقاني، ومن اسمي ارتاع هو، شريعة الحق كانت في فيه، وإثم لم يوجد في شفتيه، سلك معي في السلام والاستقامة، وأرجع كثيرين عن الإثم؛ لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة، ومن فمه يطلبون الشريعة؛ لأنه رسول رب الجنود» (ملاخي ٢/ ٥-٧).

كذا خاطب الرب أورشليم محدثًا إياها عن البقية المؤمنة في بني إسرائيل، فقال: «وأبقي في وسطكِ شعبًا بائسًا ومسكينًا، فيتوكلون على اسم الرب، بقيةُ إسرائيل لا يفعلون إثمًا، ولا يتكلمون بالكذب، ولا يوجد في أفواههم لسان غش؛ لأنهم يرعون ويربضون» (صفنيا ٣/ ١٢-١٣)، فهؤلاء اليهود الباقون في أورشليم منزهون عن الإثم والخطية.

وأيضًا شهد المسيح بنجاة لعازر، وقد مات قبل الصلب المزعوم للمسيح «فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الفتى أيضًا، ودفن، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه، فنادى وقال: يا أبي إبراهيم، ارحمني. . .» (لوقا ١٦/ ٢١ - ٢٤)، فلعازر نجا وقد مات قبل الصلب المزعوم للمسيح.

ويجزم المسيح بخلاص العشار زكا الذي أنفق نصف ماله في سبيل الله من غير أن يحتاج لدم يخلصه أو فادٍ يصلب عنه «فوقف زكا وقال للرب: ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف. فقال له يسوع: اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضًا ابن إبراهيم» (لوقا ١٩/ ٨-٩)، لقد نال الخلاص بالبر والعمل الصالح.

رابعًا: إبطال نظرية الذنب الموروث بشهادات النصارى:

ومما يبطل نظرية وراثة الخطيئة الأصليَّة الإنكار الذي صدر عن النصارى قديمًا وحديثًا، فعبروا عن رفضهم لهذا الظلم وعن تحمل تبعات خطيئة لم يرتكبوها ولم يستشاروا فيها، بل ولم يشهدوها، ومن ذلك:

١- أن مخطوطات نجع حمادي المكتشفة بعد الحرب العالمية الثانية خلت من الحديث عن الخطيئة والغفران الذي يتحدث عنه آباء الكنيسة.

٢- أن ثمة منكرون لهذه العقيدة في النصارى، ومنهم الراهبان في روما في مطلع القرن الخامس بيلاجوس وسليتوس وأصحابهما، فقد أنكروا سريان الخطيئة الأصليَّة إلى ذرية آدم، واعتبروه مما يمنع السعادة الأبدية، وقالوا بأن الإنسان موكول بأعماله.

٣- ومنهم كوائيليس شيس الذي نقلت عنه دائرة المعارف البريطانية أنه قال: «ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن له أي تأثير على بني النوع البشري، والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم

يكونون كما كان آدم قبل الذنب».

٤- ويقول الميجور جيمس براون عن فكرة وراثة الذنب الأول: «فكرة فاحشة مستقذرة، لا توجد قبيلة اعتقدت سخافة كهذه».

٥- ويقول الدكتور نظمي لوقا حيث تحدث عن الآثار السلبية التي تتركها هذه العقيدة فيقول: «الحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم لكل أفعال الفرد، فيمضي حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منَّة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًّا...».

ويقول: «وإن أنسى لا أنسى ما ركبني صغيرًا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى، وما سيقت فيه من سياق مروع يقترن بوصف جهنم ... جزاء وفاقًا على خطيئة آدم بإيعاز من حواء ... وإن أنسى لا أنسى القلق الذي ساورني وشغل خاطري على ملايين البشر قبل المسيح أين هم، وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة»[1].

وهكذا بطل القول بسريان الخطيئة إلى ذرية آدم، من خلال النصوص الصريحة في الكتب المقدَّسة وبشهادة العقلاء من أبناء النصرانيَّة.

نقض الخلاص عن طريق الصلب

أولًا: التوبة من الذنب كفارة له.

لقد تحدثت نصوص التوراة والإنجيل بإسهاب عن التوبة وقصصها قبول الله لها.

١- فها هو المسيح يجلس مع العشارين والخطاة، فيتذمر الفريسيون والكتبة لذلك قائلين: «هذا يقبل خطاة ويأكل معهم» (لوقا ١٥/ ٢) فأراهم المسيح حرصه على التوبة وفرحة الله بالتائب «وكلمهم بهذا المثل قائلًا: أي إنسان منكم له مائة خروف وأضاع واحدًا منها، ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال، حتى يجده، وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحًا ويأتي إلى بيته، ويدعو الأصدقاء والجيران قائلًا لهم: افرحوا معي، لأني وجدت خروفي الضال.

أقول لكم: إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب...» (لوقا ١٥/ ٣-٧)، وعليه فالتوبة مقبولة عند الله كوسيلة للخلاص من الذنب، ولا تتناقض مع قدر الله القاضي بالقصاص من العاصي.

---

(١) انظر: مخطوطات البحر الميت ص(١٥٤)، ما هي النصرانية ص(٨٨ - ٩٠)، المسيح إنسان أم إله، محمد مجدي مرجان، ص(١٣٩)، الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام، أميمة شاهين، ص(٢٧٠)، محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، ص(٧٥-٧٨).

٢- كما ضرب للتوبة وأهلها ومنزلتها مثلين آخرين، فقد شبّه الفرح بالتائب بفرح الأب بعودة ابنه الضال وبعثور صاحب الدرهم الضائع على درهمه. (انظر لوقا ١٥/٨ - ٣٢).

٣- ولقد وعد الله التائبين بالقبول ففي سفر حزقيال: «فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًّا وعدلًا، فحياة يحيا، لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، بره الذي عمل يحيا، هل مسرة أسرُّ بموت الشرير» (حزقيال ١٨/ ٢١-٢٣).

٤- وفي إشعيا يؤكد الوعد فيقول: «ليترك الشرير طريقه، ورجل الإثم أفكاره، وليتب إلى الرب فيرحمه، وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران» (إشعيا ٥٥/ ٧)، فالرب الحليم الرحيم يعد عباده العاصين بالرحمة حال توبتهم، من غير أن يتناقض عدله مع رحمته، إذ هو يفعل ما يريد.

٥- ويقول يوحنا المعمدان مخاطبًا اليهود مذكرًا إياهم بأهمية التوبة: «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا» (متى ٣/ ٧ -٩)، فالتوبة هي الطريق، وليس النسب كما ليس الفداء.

٦- تقول التوراة: «فإذا تواضع شعبي الذين دعي اسمي عليهم، وصلّوا وطلبوا وجهي، ورجعوا عن طرقهم الردية، فإنني أسمع من السماء» (الأيام (٢) ٧/ ١٤).

ثانيًا: عفو الله وغفرانه للمذنبين.

والعفو من الصفات الإلهية التي اتصف بها الرب، وطلب من عباده أن يتصفوا بها، وهو أولى بها لما فيها من كمال وحُسن، وقد عفا عن بني إسرائيل من غير كفارة ولا مصلوب «رضيت يا رب على أرضك، أرجعت سبي يعقوب، غفرت إثم شعبك، سترت كل خطيتهم، سلاه، حجزت كل رجزك، رجعت عن حمو غضبك» (المزمور ٨٥/ ١-٣).

ويقول بولس: «طوبى للذين غفرت آثامهم وسترت خطاياهم، طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية» (رومية ٤/ ٧-٨)، فثمة أناس عفا الله عن خطاياهم وذنوبهم، وسترها عليهم، من غير دم يسفك عنهم، ولا تناقض بين عدل الله ورحمته بشأنهم.

وقد علّم المسيح تلاميذه خلق العفو، وضرب لهم مثلًا قصة العبد المديون والمدين. (انظر متى ١٨/ ٢٣ - ٣٤).

وكان بطرس قد سأل المسيح: «يا رب كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: بل إلى سبعين مرة» (متى ١٨/ ٢١ - ٢٢).

ومرة أخرى قال لهم: «أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وباركوا لَاعِنِيكُم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه تشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥/ ٤٤ - ٤٥).

فالعفو عن الخاطئين صفة مدح، اللهُ أولى بها من عباده، وهو أقدر منهم وأغنى جل وعز.

ولم لا يكون العفو بصك غفران يمنحه الله لآدم، ويجنب المسيح ويلات الصلب وآلامه، أو لم لا يجعل للمسيح فدية عن الصلب، كما جعل لإبراهيم فدية فدى بها ابنه إسماعيل.

ثالثًا: الاكتفاء بالعقوبة التي نالها الأبوان.

العقوبة المستحقة لهما قد نالوها بالفعل، فما بال الخطيئة تتوارث وعقوبتها في أبنائهم، أفليس تكرار العقوبة للعاصي صورة من صور الظلم الذي يتنزه عنه الله!

ذكر سفر التكوين أن الله توعد آدم بالموت إن هو أكل من الشجرة.

لكنه بدلًا عن أن يموت وزوجه جزاء خطيئتهما وتنطفئ الفتنة والفساد والشر في المهد، بدلًا من ذلك كثّر نسلهما، فكان ذلك حياة لهما لا موتًا، وكان سببًا في زيادة الشر والفساد على الأرض.

ثم إضافة للموت الذي لم يتحقق عاقبه بقوله: «ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزًا، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب وإلى تراب تعود» (التكوين ٣/ ١٧- ١٩)، فطرد آدم من الجنة ليعيش في الأرض ويكد فيها، فتلك عقوبته.

وكذلك فإن زوجه حواء عوقبت «تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك» (التكوين ٣/ ١٦).

رابعًا: مسئولية الإنسان عن عمله.

ومما يبطل نظرية وراثة الذنب أيضًا النصوص التي تحمل كل إنسان مسئولية عمله.

وقد تعاقَب الأنبياء على التذكير بهذا المعتقد في نصوص كثيرة ذكرتها التوراة والأناجيل.

١- ومنها ما جاء في التوراة «وكلم الرب موسى وهارون قائلًا: افترزا من بين هذه الجماعة، فإني أفنيهم في لحظة، فخرّا على وجهيهما وقالا: اللهمّ إله أرواح جميع البشر، هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة» (العدد ٢٦/ ٢٣)، واستجاب الله لهما فعذب بني قورح فقط دون بقية إسرائيل.

٢- وجاء في سفر المزامير: «الأخ لن يفدي الإنسان فداء، ولا يعطي الله كفارة عنه» (المزمور ٤٩/ ٧).

٣- وأيضًا في التوراة: «لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته» (الأيام (٢) ٢٥/ ٤).

٤- وأيضًا يقول المسيح: «فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله» (متى ١٦/ ٢٧).

٥- وهو عين كلام المسيح: «كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابًا يوم

الدين؛ لأنك بكلامك تبرر، وبكلامك تدان» (متى ١٢/٣٦).

٦- والعجب أنه قد ورد إثبات مسئولية الإنسان عن عمله في كلام بولس الذي ابتدع معتقد وراثة الذنب، ومنها قوله عن الله: «الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله» (رومية ٢/٦).

خامسًا: الأعمال حسب تعليم المسيح وتلاميذه هي طريق الخلاص.

لم يذكر المسيح في نصائحه لأتباعه شيئًا عن الخلاص بغير عمل، ومن ذلك.

١- جاءه رجل: «وقال له: أيها المعلم الصالح: أية صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟

فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالح إلا واحد، وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا. قال له: أية الوصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور . . .» (متى ١٩/١٦ - ٢٠)، فلم يطلب منه المسيح الإيمان فقط، بل طالبه بالعمل بما جاء في وصايا موسى عليه السلام (انظر الخروج ٢٠/١ - ٧).

٢- وفي مرة أخرى قال المسيح لتلاميذه: «فإني أقول لكم: إن لم يزد بِركم على الكتبة والفريسيين، فلن تدخلوا ملكوت السموات» (متى ٥/ ٢٠)، فلئن كان بطرس ويوحنا محجوبين عن الملكوت إلا بعمل صالح يشفع لهما، فماذا عن مصير أولئك الذين تبعوا بولس وأبطلوا الناموس.

ويشرح العلامة ديدات النص، فيقول: «أي لا جنة لكم حتى تكونوا أفضل من اليهود. وكيف تكونون أفضل من اليهود، وأنتم لا تتبعون الناموس والوصايا؟».

٣- والذين يعملون الصالحات هم فقط الذين ينجون يوم القيامة من الدينونة، فيما يحمل الذين عملوا السيئات إلى الجحيم، من غير أن يكون لهم خلاص بالمسيح أو غيره، «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوحنا ٥/ ٢٨-٢٩).

٤- وأكد المسيح على أهمية العمل الصالح والبر، فقال للتلاميذ: «ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب، يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات، كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ أصرّح لهم: إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (متى ٧/ ٢٠-٢١)، فهؤلاء الذين يصنعون المعجزات والقوات باسم المسيح، سيتنكر لهم ويتخلى عنهم يوم القيامة، لما ارتكبوه من الموبقات، أي لمخالفتهم ناموس الله وشريعته.

٥- وأيضًا، فإن المسيح طلب من تلاميذه -بعد القيامة- أن يكرزوا ويدعوا الناس للتوبة من ذنوبهم ليحصلوا على غفران الخطايا، فقد أمر كل واحد منهم «أن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم» (لوقا ٢٤/ ٤٧)، ولو كان الخلاص متحققًا بالإيمان لكانت الدعوة إلى التوبة ضربًا من ضروب العبث وإضاعة الأوقات والتنكر للهبات.

٦- وقد ضرب المسيح عليه السلام لتلاميذه مثلًا، بيّن فيه حال العامل بالناموس فقال لهم: «لماذا تدعونني: يا رب يا رب، وأنتم لا تفعلون ما أقوله؟ كل من يأتي إلي، ويسمع كلامي، ويعمل به، أريكم من يشبه؟ يشبه إنسانًا بنى بيتًا وحفر وعمق، ووضع الأساس على الصخر، فلما حدث سيل صدم النهر ذلك البيت، فلم يقدر أن يزعزعه؛ لأنه كان مؤسسًا على الصخر.

وأما الذي يسمع ولا يعمل، فيشبه إنسانًا بنى بيته على الأرض، ومن دون أساس، فصدمه النهر حالًا، وكان خراب ذلك البيت عظيمًا» (لوقا ٦/ ٤٦ - ٤٩).

٧- ويلاحظ أدولف هرنك أن رسائل التلاميذ خلت من معتقد الخلاص بالفداء، بل إنها جعلت الخلاص بالأعمال كما جاء في رسالة يعقوب «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد: إنّ له إيمانًا، ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟ . . . الإيمان أيضًا إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته. . . الإيمان بدون أعمال ميت» (يعقوب ٢/ ١٤ - ٢٠).

ويقول: «كونوا عاملين بالكلمة، لا سامعين فقط، خادعين نفوسكم» (يعقوب ١/ ٢٢)، ويقول: «الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه: افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم» (يعقوب ١/ ٢٧).

٨- ويقول بطرس كبير الحواريين: «بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه. بل في كل أمة، الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» (أعمال ١٠/ ٣٤).

سادسًا: الدينونة دليل بطلان عقيدة الخلاص.

وتتحدث النصوص المقدَّسة عند النصارى عن الدينونة والجزاء الأخروي الذي يصير إليه العصاة والمذنبون من النصارى وغيرهم، وهو مبطل لمعتقدات كافة الفرق النصرانيَّة في الفداء، وهو مبطل لما زعموه من نسخ الشريعة بصلب المسيح.

فلو كان الناس كلهم ينجون بالفداء كما قال البرتستانت، لما كان لهذه النصوص معنى.

ثم إن كان الفداء عامًّا لكل البشر ولكل الخطايا، فإن هذا الفداء يشمل الإباحيين الذين يرتكبون الموبقات ويملئون الأرض بالفساد، وتكون عقيدة الفداء والخلاص سُلَّمًا للرذيلة ودعوة للتحلل والفساد باسم الدين.

ثم القول بفداء الجميع يجعل ضمن الناجين أعداء الأنبياء كفرعون وقارون واليهود الذين تآمروا على المسيح، كما يشمل يهوذا التلميذ الخائن الذي قال عنه المسيح : «كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد» (مرقس ١٤/ ١٢)، فلماذا تركه المسيح ينتحر؟ ولماذا لم يخبره بأن خلاصه قريب جدًّا، وأن لا داعي للانتحار؟.

وهكذا وضح لنا بالأدلة المتكاثرة أن البشر بريئون مما صنعه آدم في القديم، وأن خطيئته لا تتجاوزه إلى غيره، وأن ما يزعمه النصارى من توارث الخطيئة الأولى ولزوم الفداء بكائن إلهي، إنما هو هراء تمجه العقول وتزدريه الفطر، وهو ظلم يتنزه الله عنه، وقد نقله بولس والمجتمعون بعده في

مجمع نيقية من قصص الوثنيات السابقة للنصرانية[1].

(١) انظر: هل افتدانا المسيح على الصليب.

الباب الخامس
التنصير

الفصل الأول

تعريف التنصير

التنصير حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت في الظهور إثر فشل الحروب الصليبية؛ بغية نشر النصرانيَّة بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب.

ويساعدهم في ذلك ثلاثة عوامل:

١- انتشار الفقر والجهل والمرض في معظم بلدان العالم الإسلامي.

٢- النفوذ الغربي في كثير من بلدان المسلمين.

٣- ضعف بعض حكام المسلمين الذين يسكتون عنهم أو ييسرون لهم السبل رغبًا ورهبًا أو نفاقًا لهم.

والتنصير يطلق على النشاط الذي تمارسه أفراد وهيئات ومنظمات أجنبية في الأراضي الإسلاميَّة ضد العقيدة والمجتمع في الإسلام.

وقد طرحت الكلمة ترجمة للمصطلح الأوربي Missions بديلًا عن كلمة التبشير.

وهذه الترجمة يختلف بعض الباحثين معها، وذلك لأسباب عندهم تتعلق بصحة ترجمة اللفظ وبمفهومه.

أما عن مفهوم التنصير في البيئة الإسلاميَّة فقد صِيغ المفهوم وتحددت وظيفتهَ فيما يؤدي إلى إخراج المسلمين من دينهم وليس بالضرورة إدخالهم في النصرانيَّة.

وينقل عن السموأل صموئيل زويمر في هذا الصدد قوله: لقد أديتم الرسالة التي أنيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها أسمى التوفيق وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه، إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحيَّة لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا، كما قلتم، أحد ثلاثة؛ إما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام، وإما رجل مستخفّ بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش، وإما آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحيَّة للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحيَّة، فإن في هذا هداية لهم وتكريما. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها. ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلاميَّة. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام. وهذا ما أهنئكم وتهنئكم دول المسيحيَّة

والمسيحيون جميعًا.

وفي الخطاب السري الذي ألقاه البابا شنودة في الكنيسة المرقصية في الإسكندرية في مارس ١٩٧٣م ذكر فيه أنه: يجب مضاعفة الجهود التبشيريَّة الحالية، على أن الخطة التبشيريَّة التي وضعت بنيت على أساس أن الهدف الذي اتفق عليه التبشير في المرحلة القادمة هو التركيز إلى التبشير بين الفئات والجماعات أكثر من التبشير بين الأفراد، وذلك لزحزحة أكبر عدد من المسلمين عن دينهم، أو التمسك به، على ألا يكون من الضروري دخولهم في المسيحيَّة. ويكون التركيز في بعض الحالات على زعزعة الدين في نفوس المسلمين، وتشكيك الجموع الغفيرة في كتابهم، وفي صدق محمد.

وإذا نجحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة القادمة؛ فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات عن طريقنا. وحتى هذه الحالة إن لم تكن لنا فلن تكون علينا.

وفي المؤتمر التنصيري الذي عقد بجبل الزيتون في القدس في فلسطين المحتلة سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧م، وحضرته أربعون دولة من الدول الغربية الصليبية، حيث قام أحد أقطاب هذا المؤتمر قائلًا: أتظنون أن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا نصارى؟ إن كنتم تظنون هذا فقد جهلتم التنصير ومراميه. لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون نصرانيًا مطلقًا، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة النصرانيَّة على استحالة ذلك، ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط، ليكون مضطربًا في دينه، وعندها لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد بهديها، وعندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحمد أو مصطفى، أما الهداية فينبغي البحث عنها في مكان آخر.

وبقيت الدعوة إلى إدخال غير النصارى في النصرانيَّة جزءًا من المفهوم العام للتنصير، ولم تعد هي المفهوم الطاغي على هذه الحركة، لما فيها من الضيق في الاستجابة، رغم وجود الإمكانيات الماديَّة والبشرية العاملة في مجال التنصير في مفهومه العام [١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٦٦٥)، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د. عبد الراضي محمد عبد المحسن ص(٧، ٨)، جذور البلاء، عبد الله التل ص(٢٧٥)، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، إبراهيم السليمان الجبهان ص(٢٧)، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير ص(١٨)، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة.

الفصل الثاني

تاريخ التنصير

لقد بدأ التنصير وتوسع إثر الانهزامات التي مني بها الصليبيون طوال قرنين من الزمان ١٠٩٩ - ١٢٥٤م أنفقوهما في محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدي المسلمين.

فعندما خابت أوربا في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف، أرادت أن تثير على المسلمين حربًا صليبية جديدة عن طريق التنصير (التبشير)، وقد جاء هذا التحول بناء على وصية القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابقة التي انتهت بالفشل ووقوع لويس نفسه في الأسر والسجن في مدينة المنصورة بمصر.

وتلفت الوصية الأنظار إلى صعوبة قهر المسلمين عن طريق القوة بسبب روح الجهاد لديهم وتوصي بتلمس طرق الغزو الفكري الهادف إلى دحض العقائد الإسلاميَّة وتزييفها.

وأول نصراني تولَّى التبشير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها هو الراهب ريموند لل الأسباني ١٢٣٥- ١٣١٥، الذي صرف حياته لمهمة تنصير المسلمين؛ إذ إنه قد تعلم اللغة العربيَّة بكل مشقة وأخذ يجول في بلاد الشام مناقشًا علماء المسلمين.

وسعى جاهدًا لتحقيق هدفه عن طريقين:

١- طريق شخصي: بتصنيف الكتب الجدلية عن الإسلام والقرآن.

٢- طريق مؤسسي: بإقناع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس لإعداد المبشرين للعمل ضد الإسلام، وفي الغرب بتقديم ثلاث عرائض إلى البابا كليمان الخامس لإنشاء كلية لدراسة العربيَّة، وعدد من كراسي تعليم اللغة العربيَّة في الجامعات المختلفة لتكون من أهم وسائل الجدال ضد الإسلام والقرآن وأفضل الوسائل لتنصير المسلمين.

وبالفعل نجحت مساعي ريموند لل المؤسسية، فقد أمر يعقوب الأول ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس لإعداد المبشرين، وقام لول نفسه بإعدادهم فيها.

وقرر مجمع فيينا الكنسي ١٣١١ إنشاء خمسة كراسي لتعليم اللغة العربيَّة في أكبر خمس جامعات في أوربا: باريس، أكسفورد، بولونيا، سلمنكا، جامعة الإدارة المركزية البابوية، وعين للتدرس فيها مدرسين كاثوليكيين.

ومن المؤسسات التي أسست في سوريا أوائل القرن الثالث عشر الميلادي مدارس الفرنسيسكان المنسوبة إلى القديس فرنسيس، والدومنيكان المنسوبة إلى القديس دومنيك، وكان المنصِّر يُعَدُّ لهذه المهمة قبل أن يرسَل لمباشرتها، ومن أهم وسائل إعداده تعلُّمه اللغة العربيَّة وشيئًا من الدراسات الإسلاميَّة؛ وذلك هو الدستور الذي لا يزال سائدًا حتى الآن.

ومنذ القرن الخامس عشر بدأت الاكتشافات الجغرافية البرتغالية، التي تعد إحدى مرحلتي الاستعمار الأوربي الساعية إلى تطويق العالم الإسلامي لإضعافه تمهيدًا لضربه في الداخل، وفي أثناء هذه الكشوف دخل المبشرون الكاثوليك إلى إفريقيا، وبعد ذلك بكثير أخذت ترد الإرساليات التبشيريَّة البروتستانتيَّة إنجليزية وألمانية وفرنسية.

وممن احتك بمسلمي سواحل إفريقيا منذ وقت مبكر بيتر هلينغ.

وفي المرحلة الثانية للاستعمار الأوربي في القرن الخامس إثر الثورة الصناعية لاحتياجهم إلى المواد الخام لتشغيل مصانعهم، وإلى الأسواق التي يصرفون فيها منتجاتهم، فكان العالم الإسلامي هدفًا من أهداف هذا الاستعمار الذي ليس إلا فصلًا من فصول الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، وهذا الاستعمار الحديث مهد له المنصِّرون والمستشرقون بدراساتهم وأبحاثهم.

ونتج عن الاستعمار بمرحلتيه آثار عظيمة لا زالت الأمة الإسلاميَّة تعاني منها إلى اليوم وكان منها ممارسة التنصير، وتبديل ثقافة الأمة بثقافة أخرى ليست لها.

ومنذ عام ١٦٦٤م حرك البارون دوبيتز ضمائر النصارى إلى تأسيس كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي.

وقد ظهر إبَّان القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر المستر كاري الذي فاق أسلافه في مهنة التبشير.

وكان للمبشر هنري مارتن ت ١٨١٢م يد طولى في إرسال المبشرين إلى بلاد آسيا الغربية، وقد ترجم التوراة إلى الهندية والفارسية والأرمنية.

وفي عام ١٧٩٥م تأسست جمعيَّة لندن التبشيريَّة وتبعتها أخريات في اسكوتلانده ونيويورك.

وفي سنة ١٨١٩م اتفقت جمعيَّة الكنيسة البروتستانتيَّة مع النصارى في مصر وكونت هناك إرسالية عهد إليها نشر الإنجيل في إفريقيا.

وقد اخترق أواسط إفريقيا الرحالة بريطاني دافيد ليفنستون ١٨١٣ - ١٨٧٣م، وقد كان مبشرًا قبل أن يكون مستكشفًا.

وفي سنة ١٨٤٩م أخذت ترد إرساليات التبشير إلى بلاد الشام، وقد قامت بتقسيم المناطق بينها.

ورَأسَ الأب شانتور الكلية اليسوعيَّة في بيروت زمنًا طويلًا أيام الانتداب الفرنسي.

وفي سنة ١٨٥٥م تأسست جمعيَّة الشبان المسيحيَّة من الإنجليز والأمريكان، وقد انحصرت مهمتها في إدخال ملكوت المسيح بين الشبان كما يزعمون.

وفي سنة ١٨٩٥م تأسست جمعيَّة اتحاد الطلبة المسيحيين في العالم، وهي تهتم بدراسة أحوال التلاميذ في كل البلاد مع العمل على بث روح المحبة بينهم (المحبة تعني التبشير بالنصرانيَّة).

وقام الدكتور (لانسنج) وثلاثة من مساعديه، وهم: جيمس كانتين، وصموئيل زويمر، وفيليب فيلبس، بتشكيل مجموعة تنصيريَّة في ولاية نيوجرسي الأمريكيَّة، هدفها: نشر الدين النصراني في بعض البلدان العربيَّة، وكانت البداية في منطقة الخليج والجزيرة العربيَّة، ويذكر صموئيل زويمر السبب في هذا الاختيار بقوله: إن من الدوافع إلى العمل في المنطقة: الأسباب التاريخية؛ فللمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربيَّة التي أكدت الدلائل التي تجمعت لدينا في الخمسين سنةً الأخيرة، أن المسيحيَّة كانت منتشرةً فيها في بداية عهدها.

وبعد عدة سنوات من الاجتماعات وحملات التبرع بدأت الإرسالية الأمريكيَّة أولى رحلاتها إلى البصرة في العراق في عام (١٨٨٩م)، ثم تتابعت الرحلات إلى الكويت والبحرين وعمان والإمارات واليمن... ونحوها.

وقد نشرت مقالات ومذكرات عدد من المنصرين في هذه المنطقة في عدة كتب من أهمها: كتاب صدمة الاحتكاك.

ويعد من أكبر أعمدة التنصير في العصر الحديث صموئيل زويمر، رئيس إرسالية التبشير العربيَّة في البحرين ورئيس جمعيَّات التنصير في الشرق الأوسط، كان يتولى إدارة مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التي أنشأها سنة ١٩١١م وما تزال تصدر إلى الآن من هارتيفورد.

وقد دخل زويمر البحرين عام ١٨٩٠م، ومنذ عام ١٨٩٤م قدمت له الكنيسة الإصلاحية الأمريكيَّة دعمها الكامل.

وأبرز مظاهر عمل البعثة التي أسسها زويمر كان في حقل التطبيب في منطقة الخليج وتبعًا لذلك فقد افتتحت مستوصفات لها في البحرين والكويت ومسقط وعمان.

وقد أُسس معهد باسم زويمر في أمريكا لأبحاث تنصير المسلمين، وخلف صموئيل زويمر على رئاسة مجلة العالم الإسلامي كنيث كراج، وقام بالتدريس في الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة لفترة من الوقت، وهو رئيس قسم اللاهوت المسيحي في هارتيفورد بأمريكا، وهو معهد للمبشرين، ومن كتبه نداء المِئْذَنة صدر عام ١٩٥٦م، وكتاب القبة والصخرة.

وكان أكبر شخصية في مؤتمر لوزان التبشيري عام ١٩٧٤م دون هك كري وهو بروتستانتي، عمل مبشرًا في الباكستان لمدة عشرين سنة، وهو أحد طلبة مدرسة فلر للتبشير العالمي. وبعد مؤتمر كولورادو التبشيري عام ١٩٧٨م أصبح مديرًا لمعهد صموئيل زويمر الذي يضم إلى جانبه دارًا للنشر ولإصدار الدراسات المختصة بقضايا تنصير المسلمين ومقرها في كاليفورنيا، وهو يقوم بإعداد دورات تدريبية لإعداد المبشرين وتأهيلهم.

وقام لويس ماسينيون على رعاية التبشير والتنصير في مصر، وهو عضو مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، كما أنه مستشار وزارة المستعمرات الفرنسيَّة في شئون شمال إفريقيا.

ويرى بابا الفاتيكان بعد سقوط الشيوعية أن من مصلحة الكنيسة ومصلحة رجال السياسة

توجيه عموم الشعب المسيحي نحو خصم جديد يخيفه به وتجنده ضده، والإسلام هو الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور في المقام الأول.

ويقوم البابا بمغادرة مقره بمعدل أربع رحلات دولية لكسب الصراع مع الأيديولوجيات العالمية وعلى رأسها الإسلام.

وتوجد بلايين الدولارات تحت تصرفه للإنفاق منها على إرسال المنصرين وإجراء البحوث وعقد المؤتمرات والتخطيط لتنصير أبناء العالم الثالث وتنظيم وتنفيذ ومتابعة النشاط التنصيري في كل أنحاء العالم وتقويم نتائجه أولًا بأول[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٦٥- ٦٦٨)، الغارة التنصيرية على القرآن ص(٣١، ٣٢) التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، عبد الرحمن بن عبد الله الصالح، مجلة البيان العدد ١٥٤ ص(٥٢- ٦٢).

الفصل الثالث

هل يريدون تنصير العالم الإسلامي أم علمنته؟

يبدو أنه لا فرق بين الأمرين؛ لأن الكنيسة تعلمنت، والعلمانيَّة أحست بضرورة وجود الكنيسة؛ فالصراع زال، وحل محله الوفاق ليقوم كل بدوره تجاه أبناء النصرانيَّة العلمانيين وتجاه غيرهم.

لقد ثار الغرب ثورة الحرية على الكنيسة وقيودها، وأعلن العلمانيَّة فانتهى بذلك دور الكنيسة، وتحول الغربي إلى مادي حيواني يغب في شهواته، ويشبع غرائزه ويعيش يومه ولا يفكر في غده، ولا يؤمن بالحساب، ومنذ تلك الثورة ظلت الكنيسة تغازل العلمانيَّة، وتخطب ودها بما يقدمه رجال الدين النصراني من تنازلات لإرضاء الماديين حتى خرقوا أنظمة الكهنوت، وخالفوا تعليمات أناجيلهم المحرفة، وأباحوا للناس ما أجمعت الشرائع والعقول والفطر السليمة على تحريمه من زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء وسائر أنواع الشذوذات، كما قالت مجموعة أبناء الرب: إن الخوف من الزنى لم يعد له مكان، وإن عمليتي اللواط والسحاق مباحتان ما دامتا تتمان في جو من الحب، وقال ديفيد جاكس المتحدث باسم هذه المجموعة: «إن تقديم العون الجنسي واجب على كل فرد، وإن أفراد المجموعة من النساء مطالبات بتقديم كل ما يمكن أن يغري أعضاءً جددًا»، وأنه لا بد من تغطية نفقات المجموعة من بيع الجنس إذا اقتضى الأمر.

ولا أدل على علمنة الكنيسة من إعلان عدد من جماعات التنصير في أمركيا، وهولندا، وإيطاليا، والسويد، وألمانيا، والدانمارك، وأسبانيا، وإنجلترا -رفضهم للوصايا العشر التي جاءت في شريعة موسى، والتي تعد أهم دعائم النصرانيَّة، واعتبر بعضهم أن هذه الوصايا انتهت وانتهى زمانها.

وفي المقابل ثبت لدى العلمانيين الغربيين حاجة الفرد إلى الكنيسة؛ لأنه مفطور على التعلق بالله سبحانه وتعالى؛ لا سيما بعد فُشُوِّ أمراض القلق والجنون والفصام وغيرها من الأمراض النفسية في الغرب، وقد أدى كثير منها إلى الانتحار، فباركت العلمانيَّة تنازلات الكنيسة، ولم تمانع من وجودها بعد فقد سلطانها لإشباعٍ روحيٍّ زائف.

عولمة التنصير

مما سبق نفهم تآزر القوى العلمانيَّة مع العصابات الكنسية في عملية التنصير الضخمة التي قد شحن الغرب إمكانياته لإنجاحها، وبات من الواضح تحول الغرب من التنصير الفردي إلى التنصير الجماعي لسببين رئيسين:

١- أن التنصير الفردي بطيء جدًا لا يتناسب وعصر السرعة، ولا يتناسب مع اتساع رقعة العمل الفسيحة أمام المنصرين الذين يمكنهم الدخول إلى أي مكان ما دامت قوى الغرب السياسية تنفرد بالقرارات وتدير المنظمات الدولية.

٢- أن التنصير الفردي يؤدي إلى اقتلاع الفرد من بيئته ومجتمعه مما يجعله مشلول الإرادة، منبوذًا من قومه مما يكون سببًا في رجوعه، وإن بقي على نصرانيته يصبح عبئًا على الكنيسة التي نصّرته، ولن يستطيع التأثير فيمن حوله.

والتنصير الجماعي يعني نقل أمة من الناس قبيلة أو قرية أو مدينة كاملة من الإسلام إلى النصرانيَّة لكيلا يحس أحد منهم بالغربة، والوسيلة لتحقيق ذلك هو استغلال الأزمات والكوارث، وربما افتعالها من قِبَل مَنْ بأيديهم القرار السياسي والعسكري والاقتصادي للتدخل في بلد ما وإيجاد أزمة تخنق شعبه، ومن ثم تقوم الهيئات والمنظمات التنصيريَّة بإكمال باقي المهمة بتنصير هذا الشعب الذي يعيش الأزمة، وهذا ما نص عليه مؤتمر كولورادو التنصيري؛ إذ جاء في إحدى فقراته: (لا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن، وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانيَّة).

وليس هذا يعني بالضرورة التنسيق الكامل بين الدوائر العلمانيَّة صاحبة القرار في الغرب وبين المنظمات التنصيريَّة حتى لا يقال: إن هذا من إفرازات فكر المؤامرة ولكنه تقاطع المصالح؛ فالقوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في الغرب تخنق شعوب العالم الثالث لإثبات القوة والغطرسة أو لنهب ثرواتها أو لتأديب من يرفض قوانينها الجائرة، والهيئات التنصيريَّة تستغل فرص التجويع والإفقار والحصار لتقوم بأنشطتها التنصيريَّة، ومن سيمنعها من ذلك إذا كانت الدولة المُحَاصَرَة نفسها لم تستطع فك الحصار عن نفسها أو اختراقه فضلًا عن منع المنصرين من مد يد العون والمساعدة لشعبها المجوَّع المُحَاصَر؟!

ولن يتوقف النصارى عند هذا الحد؛ إذ صرحوا بلزوم التدخل في شئون الدول التي فيها أقليات نصرانية بزعم حمايتها من اضطهاد المسلمين مع أن هذه الأقليات تحظى في بلاد المسلمين بما لا يحظى به المسلمون من الرعاية والتكريم بل والذلة لهم وتنفيذ مطالبهم وإظهار شعائر شركهم تحت قيادة الحكومات العلمانيَّة، ومع ذلك لم يرتض الغرب المنتصر هذه السيرة، ولن ترضيه حتى يجعل الأقليات النصرانيَّة حاكمة على المسلمين أو تنفصل عن الدولة لتشكل دولة نصرانية كما حصل في تيمور الشرقيَّة وكما يريدون حصوله في جنوب السودان.

وفي زمن العولمة لن يستطيع أحد منعهم من التدخل في شئون الدول الداخلية؛ لأن القوة بأيديهم والمنظمات الدولية تأتمر بأمرهم، وتصدر قراراتها على ضوء توجهاتهم، ثم إذا منعتهم وصار قرارهم وتدخلهم فرديًا فمن سيعاقبهم ويحاصرهم؟!

وقد ضربت السودان وأفغانستان بقرار فردي لصرف الأنظار عن فضيحة جنسية؛ فهل عوقب الضارب؟ وهل حوصرت دولته[1]؟!

---

(١) انظر: مجلة البيان العدد ١٥٤ ص(٥٢- ٦٢).

الفصل الرابع

أهداف التنصير والمنصرين

يسعى المخطط التنصيري إلى تحقيق مجموعة من الأهداف في البلاد الإسلاميَّة؛ فالمنصِّرون يعتبرون الإسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم؛ فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهوديَّة؛ إذ إنها جميعًا ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها، وهي في الوقت نفسه أقل من النصرانيَّة رقيًّا.

أما الإسلام فهو كما يسمونه دين متحرك زاحف يمتد بنفسه وبلا أية قوة تساعده، وهذا هو الخطر فيه كما يقولون ومن هنا نجد أن للتنصير أهدافًا متنوعة، منها ما هو تقليدي، ومنها ما هو غير تقليدي، ومن هذه الأهداف ما هو ظاهر جليّ، ومنها ما هو باطني خفيّ، بل إن للتنصير أهدافًا بالغة الخطورة على الإسلام وعلى المسلمين، ورغم ذلك يكاد ألا يشعر بها أحدٌ من المسلمين.

ومن أهم الأهداف التي يسعى المنصرون إلى تحقيقها، في مواجهة الإسلام خاصة، وفي نشر التنصير بعامة الآتي:

١- الحيلولة دون دخول النصارى في الإسلام، وهذا الهدف موجه الجهود في المجتمعات التي يغلب عليها النصارى. ويعبّر عنه بعض المنصرين بحماية النصارى من الإسلام.

فالمنصرون يشنون هجومهم على الإسلام خوفًا على قومهم من معرفته أكثر من رغبتهم في تنصير المسلمين؛ فهم يخافون الإسلام ويرددون دائمًا أنه الدين الوحيد الخطر عليهم، ويفضل الغرب أن يظل يُنعت بالنصرانيَّة على الرغم من علمانيته وإلحاده، وعلى الرغم من تهميشه للكنيسة هناك.

ويأتي تبشير الغرب بالنصرانيَّة أو ما نسميه نحن بالتنصير مسوغًا اصطنعه ليواجه التوسع الإسلامي، وليضفي الشرعية على هذه المواجهة، ويتقاسم مع التوسع الإسلامي أسس الهداية والإيمان.

٢- الحيلولة دون دخول الأمم الأخرى -غير النصرانيَّة- في الإسلام والوقوف أمام انتشار الإسلام بإحلال النصرانيَّة مكانه، أو بالإبقاء على العقائد المحلية المتوارثة.

٣- إخراج المسلمين من الإسلام، أو إخراج جزء من المسلمين من الإسلام. وهذا من الأهداف طويلة المدى؛ لأن النتائج فيه لا تتناسب مع الجهود المبذولة له من أموال وإمكانات بشرية وماديَّة؛ ذلك لأنه يسعى إلى هدم الإسلام في قلوب المسلمين، وقطع صلتهم بالله تعالى، وجعلهم مسخًا «لا تعرف عوامل الحياة القوية التي لا تقوم إلا على العقيدة القويمة والأخلاق الفاضلة».

يقول زويمر أحد أقطاب التنصير: إن مهمة التنصير ليست هي إدخال المسلمين في المسيحيَّة (النصرانيَّة)؛ فإن هذه هداية لهم وتكريم، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله.

ويجدر بنا أن ننبه على أن هدف التنصير يختلف من منطقة إلى أخرى؛ ففي البلاد العربيَّة يكتفي بزعزعة عقيدة المسلم وإخراجه من الإسلام، وليس مهمًّا أن يدخل النصرانيَّة، أما خارج البلاد العربيَّة فيتم تنصير المسلمين فعلًا، وليس معنى هذا أن البلاد العربيَّة ذات حصانة ضد التنصير؛ فقد وقع فيها أعمال للتنصير آتت أكلها الخبيثة في أحيان كثيرة، وتنصَّر بعضٌ من الناس بالفعل في تلك البلدان، ولكن كان التنصير أكثر وقعًا في البلدان الإسلاميَّة الأخرى.

٤- بذر الاضطراب والشك في المثل والمبادئ الإسلاميَّة، لمن أصروا على التمسك بالإسلام، ولم يُجْدِ فيهم الهدف الثالث سالف الذكر.

وقد تكرر هذا الهدف في محاولات المنصر المعروف صموئيل زويمر الذي خاص تجربة التنصير في البلاد العربيَّة بعامة وركز على منطقة الخليج العربيَّة بخاصة. وقد أرسل إلى لو شاتليه رسالة في ٧ / ٨ / ١٣٢٩ هـ - ٢ / ٨ / ١٩١١ م قال فيها: «إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلاميَّة مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب. والأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير -الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وَجِهَاتٍ أخرى- هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه، ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات التعميد في معرفة عدد الذين تنصروا رسميًّا من المسلمين؛ لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم واعتنقوا النصرانيَّة من طرف خفي».

ويعقب شاتليه على رسالة زويمر بقوله: ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتيَّة وكاثوليكيَّة تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلاميَّة من نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانيَّة والهولندية والفرنسيَّة يتحكك الإسلام بصحف أوربا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينيَّة الإسلاميَّة التي تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها.

٥- الإيحاء بأن المبادئ والمثل والتعاليم النصرانيَّة أفضل من أي مثل ومبادئ أخرى، لتحل هذه المثل والمبادئ النصرانيَّة محل المبادئ والمثل الإسلاميَّة.

٦- الإيحاء بأن تقدم الغربيين الذي وصلوا إليه إنما جاء بفضل تمسكهم بالنصرانيَّة، بينما يُعزى تأخر العالم الإسلامي إلى تمسكهم بالإسلام، وهذا منطق المنصرين المتمسكين بنصرانيتهم، أما العلمانيون فإنهم يقررون أن سر تقدم الغرب إنما جاء لتخليهم عن النصرانيَّة، وأن تخلف المسلمين يعود إلى إصرارهم على التمسك بدينهم.

٧- تعميق فكرة سيطرة الرجل الغربي الأبيض على بقية الأجناس البشرية الأخرى، وترسيخ مفهوم الفوقية والدونية؛ تعضيدًا للاحتلال بأنواعه والتبعية السياسية من الشعوب والحكومات الإسلاميَّة للرجل الأبيض، ومن ثَمَّ يستمر إخضاع العالم الإسلامي سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا لسيطرة الاحتلال، ويستمر التحكم في مقدراته وإمكاناته.

ومن ثَم تهيئة الأجواء لقبول ما يسمى بـ«العولمة» أو «الكوكبة» وما يتبع هذا النظام من توحيد الأيديولوجية السياسية العالمية، وإقامة هيكل اقتصادي جديد، وبث قيم اجتماعيَّة عصرية، وإزالة الحواجز الثقافية، وتذويب الفروق بين المجتمعات الإنسانية المختلفة انتهاءً برعاية الحوارات الدينيَّة والثقافية، بل والدعوة إلى ما يشبه الدين العالمي... إلى غير ذلك من شعارات وأهداف براقة ينخدع بها الكثيرون؛ فإن ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه الخسران؛ إذ هي في حقيقتها تسعى لحصار المسلمين وفرض التبعية الغربية عليهم، وإقامة آليات السيطرة حولهم، واختراق الحضارة والهوية الإسلاميَّة خاصة بعد أن غيَّر الغرب من أساليب السيطرة العسكرية التقليدية واستبدالها بأساليب حديثة تعطي النتائج نفسها.

٨- ترسيخ فكرة قيام دولة ووطن قومي لليهود في أي مكان أولًا، ثم في فلسطين المحتلة بعدئذ، أخذًا في الحسبان أن الإنجيل (العهد الجديد) بعد تحريفه بأيدٍ يهودية يتضمن تعاليم تدعو إلى هذه الفكرة، وأنها أضحت واجبًا مقدسًا على النصارى.

ومن ناحية أخرى التخلص من الجنس اليهودي من أوربا ثم أمريكا الشماليَّة، وتجميعهم في مكان واحد، وهذا هدف فرعي لذلك الهدف العقدي، ولم يتم هذا رغم استمرار تجمع اليهود في فلسطين المحتلة.

٩- التغريب، وذلك بالسعي إلى نقل المجتمع المسلم في سلوكياته وممارساته، بأنواعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأسري والعقدي، من أصالتها الإسلاميَّة، إلى تبني الأنماط الغربية في الحياة، وهي المستمدة من خلفية دينية نصرانية أو يهودية.

وفي هذا يقول سيرج لاتوش، في كتابه تغريب العالم: إن تغريب العالم كان لمدة طويلة جدًا -ولم يكف كليا عن أن يكون- عملية تنصير: إن تكريس الغرب نفسه للتبشير بالمسيحيَّة يتضح تمامًا، قبل الحروب الصليبية الأولى، في انطلاقات التنصير قسرًا، وإن مقاومة شارل مارتل في بواتييه، وأكثر من ذلك تحويل السكسون إلى المسيحيَّة بوحشية، على يد القديس بونيفاس (٦٨٠- ٧٥٤م): ألا يشكل ذلك الحرب الصليبية الأولى، وأقصد القول بأنه شهادة لتأكيد ذاتية الغرب كقعيدة وكقوة؟

وهكذا، نجد أن ظاهرة المبشرين بالمسيحيَّة هي بالتأكيد حقيقة ثابتة للغرب، باقية في ضميره بكل محتواها الديني، يجدها الإنسان دائمًا في العمل تحت أكثر الأشكال تنوعًا، واليوم أيضًا، فإن أغلب مشروعات التنمية الأساسية في العالم الثالث تعمل بطريق مباشر أو غير مباشر تحت شارة الصليب.

١٠- الهدف الذي يذكر هنا متأخرًا قصدًا هو إدخال النصرانيَّة أو إعادتها إلى عدد كبير من البلاد الإسلاميَّة وغيرها، وبخاصّة في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، وفي هذا يقول روبرت ماكس أحد المنصِّرين من أمريكا الشماليَّة: «لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة ويقام قُدَّاس الأحد في المدينة».

ويأتي هذا الهدف متأخرًا في الترتيب؛ لأنه قد تبين من تجارب المنصرين في المجتمعات الإسلاميَّة بخاصة، والتي وصل إليها الإسلام بعامة، أنه ليس بالضرورة أن يكون هذا الهدف هو إدخال الآخرين في النصرانيَّة، بقدر ما هو محاولة لضمان استمرار سيطرة النصرانيَّة على الأمم الأخرى.

ويمكن القول بأن هذه الأهداف المذكورة أعلاه تمثل مجمل ما يسعى المنصرون بعامة إلى تحقيقه في حملاتهم التنصيريَّة.

١١- محاربة الوحدة الإسلاميَّة: فقد قال أومسبي غو وزير المستعمرات البريطاني في تقريره لرئيس حكومته بتاريخ ٩/١/١٩٣٨: إن الحرب علَّمتنا أن الوحدة الإسلاميَّة هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية وحدها بل فرنسا أيضًا، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة.

ويقول القس سيمون: إن الوحدة الإسلاميَّة تجمع آمال الشعوب الإسلاميَّة وتساعد على التخلص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلاميَّة.

ويقول لورنس براون: إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا أو أمكن أن يصبحوا أيضًا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.

ويقول مستر بلس: إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانيَّة في إفريقيا[1].

(١) انظر: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، الموسوعة الميسرة (٢/٦٦٨).

الفصل الخامس

مؤتمرات المنصرين

لقد كان للمنصرين وما يزال الكثير من المؤتمرات الإقليمية والعالمية، فمنذ قرن من الزمان، وإلى الآن توافد إليهم المنصرون العاملون من كل مكان لتبادل الآراء والمقترحات حول أنجع الوسائل وأهم النتائج، ورسموا لذلك الخطط ووضعوا البرامج، ومن هذه المؤتمرات:

١- مؤتمر القاهرة عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م وقد دعا إليه زويمر بهدف عقد مؤتمر يجمع الإرساليات التبشيريَّة البروتستانتيَّة للتفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين، وقد بلغ عدد المؤتمرين ٦٢ شخصًا بين رجال ونساء، وكان زويمر رئيسًا لهم.

٢- المؤتمر التبشيري العالمي في أدنبرة باسكوتلانده عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، وقد حضره مندوبون عن ١٥٩ جمعيَّة تبشيريَّة في العالم.

٣- مؤتمر التبشير في لكهنؤ بالهند عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م حضره صموئيل زويمر، وبعد انفضاض المؤتمر وزعت على الأعضاء رقاع مكتوب على أحد وجهيها «تذكار لكهنؤ سنة ١٩١١م» وعلى الوجه الآخر «اللهم يا من يسجد له العالم الإسلامي خمس مرات في اليوم بخشوع انظر بشفقة إلى الشعوب الإسلاميَّة وألهمها الخلاص بيسوع المسيح».

٤- مؤتمرات التبشير في القدس:

- في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.
- في عام ١٩٢٨م مؤتمر تبشيري دولي.
- في عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م وقد كان يضم ١٢٠٠ مندوب.
- في عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

٥- مؤتمر الكنائس البروتستانتيَّة عام ١٩٧٤م في لوزان بسويسرا.

٦- وأخطر المؤتمرات مؤتمر كولورادو في ١٥ أكتوبر ١٩٧٨م تحت اسم (مؤتمر أمريكا الشماليَّة لتنصير المسلمين) حضره (١٥٠) مشتركًا يمثلون أنشط العناصر التنصيريَّة في العالم، استمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق وقدمت فيه بحوث حول التبليغ الشامل للإنجيل. وتقديمه للمسلمين والكنائس الديناميكية في المجتمع المسلم وتجسيد المسيح وتحبيبه إلى قلب المسلم ومحاولات نصرانية جديدة لتنصير المسلمين، وتحليل مقاومة واستجابة المسلم واستخدام الغذاء والصحة كعنصرين في تنصير المسلمين، وتنشيط دور الكنائس المحلية في تنصير العالم الإسلامي.

وقد انتهى المؤتمر بوضع استراتيجيَّة بقيت سرية لخطورتها مع وضع ميزانية لهذه الخطة مقدارها ١٠٠٠ مليون دولار، وقد تم جمع هذا المبلغ فعلًا وتم إيداعه في أحد البنوك الأمريكيَّة الكبرى.

٧- المؤتمر العالمي للتنصير الذي عقد في السويد في شهر أكتوبر ١٩٨١م تحت إشراف المجلس الفيدرالي اللوثراني، والذي نوقشت فيه نتائج مؤتمري لوزان وكولورادو وخرج بدراسة مستفيضة عن التنصير لما وراء البحار بهدف التركيز على دول العالم الثالث.

٨- مؤتمر التبشير المنعقد في أكسفورد عام ١٩٨٦برئاسة كنيث كراج.

- ومن مؤتمراتهم كذلك:

١- مؤتمر إستانبول.

٢- مؤتمر حلوان بمصر.

٣- مؤتمر لبنان التبشيري.

٤- مؤتمر لبنان بغداد التبشيري.

٥- مؤتمر قسنطينة التبشيري في الجزائر وذلك قبل الاستقلال.

٦- مؤتمر شيكاغو.

٧- مؤتمر مدارس التبشيري في بلاد الهند، وكان ينعقد هذا المؤتمر كل عشر سنوات.

٨- مؤتمر بلتيمور بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ١٩٤٢م وهو مؤتمر خطير جدًّا، وقد حضره من اليهود ابن غوريون.

- وبعد الحرب العالمية الثانية اتخذت النصرانيَّة نظامًا جديدًا؛ إذ ينعقد مؤتمر للكنائس مرة كل ست أو سبع سنوات متنقلًا من بلد إلى آخر.

١- مؤتمر أمستردام ١٩٤٨م - هولندا.

٢- مؤتمر إيفانستون ١٩٥٤م - أمريكا.

٣- مؤتمر نيودلهي ١٩٦١م - الهند.

٤- مؤتمر أوفتالا ١٩٦٧م - أوفتالا بأوربا.

٥- مؤتمر جاكرتا ١٩٧٥م - إندونيسيا، وقد اشترك فيه ٣٠٠٠ مبشر نصراني.

٦- عقد المؤتمر السادس لمجلس الكنائس العالمي في يوليو سنة ١٩٨٠م في كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة وقد حث المؤتمر على ضرورة زيادة البعثات التنصيريَّة بين مسلمي الشرق الأوسط خاصة في دول الخليج العربي.[١]

انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٦٩- ٦٧١).

الفصل السادس

المراكز والمعاهد التنصيريَّة

يبذل المنصِّرون جهودًا دءوبة في التعرف على أحوال العالم الإسلامي واستقصاء أخباره ومعرفة ثغراته، والتقرب إلى العناصر المشبوهة فيه، حتى يتيسر لهم التغلغل في أوساط المسلمين ونشر ضلالاتهم، واجتثاث بذور الخير والصلاح، وقطع ينابيع الخير مهما ضعفت أو توارت في الأدغال أو في جزر المحيطات، . . . ولقد رصدت دوائر التنصير بعض المناشط اليسيرة التي تخشى منها أن تسهم في نشر الإسلام والدعوة إليه كإنشاء طريق قطار يربط بين جمهورية مسلمة في روسيا ببقية الجمهوريات الأخرى، وكمجلة فصلية إسلامية في اليابان وكباخرة تنقل الحجيج من أقصى الشرق حيث يقول المنصر جاير دنر: ولا شك أن حوادث كهذه سوف تحفز المسلمين في روسيا الأوربية ومناطق الفولجا وآسيا الوسطى الروسية وربما سيبريا نفسها؛ لأن الأفكار كالكهرباء تنتقل بسرعة لا سيما إذا ما نقلتها خطوط السكك الحديدية، لذا فإن خط السكة الحديدية الذي على وشك أن يمر من التركستان الروسية إلى التركستان الصينية سينقل معه الأفكار، وعلى هذا فإن الطرق التجارية التاريخية التي تعبر قلب القارة الآسيوية ستصبح في الحال أعصابًا تربط وسط آسيا المسلم في نظام محكم لم يكن من قبل.

ونتحول إلى الصين، لو أن هناك قطرًا في العالم من المفروض يقينًا أن المسلمين فيه غير مستجيبين للتأثيرات من العالم الخارجي؛ فإن ذلك القطر هو الصين، فهم المثل القائم لأكثر الصيغ الإسلاميَّة تمسكًا بدينهم. ومع ذلك نسمع عن إرسال مبعوث تركي ليكون أول مبشر مسلم مقيم في الصين، والأكثر لفتًا للنظر، عن ثلاثين طالبًا صينيًا مسلمًا يتشربون الأفكار الغربية في جامعة يابانية، ويحررون مجلة فصلية لتوزيعها على إخوانهم المتدينين في كل أنحاء الصين بعنوان ذي مغزى «أيها المسلمون استيقظوا». ولنتجه إلى الملايو، إن التأثير المعدل (المحور) هنا هو الباخرة التي تمكن عددًا هائلًا من اليابانيين والسومطريين ومسلمي الهند الشرقيَّة من أداء الحج في مكة وينتج عن ذلك التحام الإسلام في وحدة كاملة متضامنة صلبة في كل أنحاء ماليزيا.

ومن اطلع على الموضوعات المقدمة إلى مؤتمر القاهرة التنصيري عام ١٩٠٦م ومؤتمر كولورادو عام ١٩٧٨م يرى هذا الأمر جليًا لا لبس فيه؛ إذ من ضمن الموضوعات المناقشة ما يلي:

الإسلام في أفريقيا. الإسلام في الصين. الإسلام في الملايو. النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام، الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين. مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في جنوب شرق آسيا، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في الصين، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في شبه القارة الهندية، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في إيران، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في تركيا، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في

الشرق الأوسط، تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة.

ويشخص ماكري عجز المنصرين عن التغلغل في أوساط بعض المجتمعات الإسلاميَّة بسبب أن الجمعيَّات التنصيريَّة لم تعر الفوارق الطبقية أي اهتمام حيث يقول: إن العمل التنصيري لم يكن فعالًا بين المسلمين؛ لأنه لم يعر تلك الفوارق للطبقية أي اهتمام.

ثم يمضي متحدثًا عن جهود مراكز الدراسات التنصيريَّة في استقصاء أحوال العالم الإسلامي حيث يقول: إن موظفي مركز الدراسات والاتصالات المتقدمة لإرساليات التنصير قد قاموا بإعداد دراسات سريعة عن ٢٥٣ مجموعة عرقية بين المسلمين.

وتوجد هيئات ومراكز للبحوث والتخطيط يعمل بها نخبة ممتازة من الباحثين المؤهلين، ومن أهم هذه المراكز والمعاهد التنصيريَّة:

١- معهد صموئيل زويمر في ولاية كاليفورنيا، فقد تم إنشاؤه بناء على توصية من قرارات مؤتمر كولورادو.

٢- المركز العالمي للأبحاث والتبشير في كاليفورنيا الذي قام بتقديم الأشخاص اللازمين للإعداد لمؤتمر كولورادو مع تهيئة عوامل نجاح هذا المؤتمر.

٣- الجامعة الأمريكيَّة في بيروت (الكلية السورية الإنجيلية سابقًا) أنشئت عام ١٨٦٥م.

٤- الجامعة الأمريكيَّة في القاهرة أنشئت لتكون قريبة من الأزهر ومنافسة له.

٥- الكلية الفرنسيَّة في لاهور.

٦- جمعيَّة التبشير الكنسية الإنجليزية وهي أهم جمعيَّة بروتستانتيَّة وقد مضى على إنشائها قرابة قرنين من الزمان.

٧- إرساليات التبشير الأمريكيَّة، أهمها الجمعيَّة التبشيريَّة الأمريكيَّة والتي يرجع عهدها إلى سنة ١٨١٠م.

٨- جمعيَّة إرساليات التبشير الألمانيَّة الشرقيَّة، أسسها القسيس لبسيوس سنة ١٨٩٥م. وقد بدأ عملها فعلًا سنة ١٩٠٠م.

٩- أسس الإنجليز في سنة ١٨٠٩م الجمعيَّة اللندنية لنشر النصرانيَّة بين اليهود وبدأ عملها بأن ساقت اليهود المتفرقين في شتات الأرض إلى أرض فلسطين.

١٠- مركز البحوث التابع للفاتيكان.

١١- مركز البحوث التابع لمجلس الكنائس العالمي.

١٢- مركز البحث في كولورادو.

١٣- المركز المسيحي في نيروبي (كينيا وقد أنشئ في عام ١٤٠١هـ).

١٤- مركز المعلومات المسيحي في نيجيريا.

١٥- المركز المسيحي الدراسي في روالبندي (باكستان) وقد تأسس سنة ١٩٦٦م ويعتبر من أكبر المراكز في آسيا.

١٦- وممن يساهم في هذا المضمار مؤسسات الاستشراق العلميَّة التي تقدم دراسات عن العالم الإسلامي والعرب والشرق الأوسط[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٧١، ٦٧٢)، التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين.

الفصل السابع
وسائل التنصير

التنصير ظاهرة متجددة ومتطورة في آن واحد. وتطورها يأتي في تعديل الأهداف، وفي توسيع الوسائل ومراجعتها بين حين وآخر، تبعًا لتعديل الأهداف، ومن ذلك اتخاذ الأساليب العصرية الحديثة في تحقيق الأهداف المعدلة، حسب البيئات والانتماءات التي يتوجه إليها التنصير، حتى وصلت هذه الظاهرة عند البعض، إلى أنها أضحت علمًا له مؤسساته التعليمية ومناهجه ودراساته ونظرياته.

وقبل الخوض في عدّ الوسائل لا بد من توزيعها بحسب أنواعها وأنماطها، فهناك وسائل صريحة وأخرى خفية أو مختفية، كما أن هناك وسائل تقليدية وأخرى حديثة، فرضتها الحالة التي وصل إليها العالم اليوم في تقنية الاتصال والمعلومات والمواصلات، وتنوع الوسائل وتعددها وتجددها، ولم تغفل الكتابات الأجنبية هذه الوسائل، بل أولتها اهتمامًا متوقعًا من أي جهد يراد له الخروج بنتائج تبين جدوى هذه الجهود.

وقد تنبه منظرو التنصير إلى الوسائل، وأجروا عليها تقويمات وتعديلات تتناسب مع الزمان والمكان، وقد أوصلها بعضهم إلى سبعمائة طريقة أو خطة للتنصير، وآخر يقترح تخطيطًا لجملة من الاستراتيجيات لتنصير العالم، يضمنها الوسائل والطرق التي يراها، وكما لم يغفل المخططون للتنصير الزمان، ولا سيما المستقبل، لم يغفلوا كذلك المكان، فظهرت إسهامات تتعلق بالعرب خاصة.

ومع الاهتمام بالمستقبل والتخطيط له، بما في ذلك تحديث الوسائل وتجديدها، بعد مراجعتها وتقويمها لم يغفل المنصرون جهودهم السابقة التي اتكأ عليها التنصير وإن لجئوا إلى التجديد في الأساليب والطرق والوسائل.

وأبرز الوسائل وأظهرها وأوضحها التنصير الصريح، وهو على نوعين:

١- التنصير العلمي القائم على النقاش أو على السفسطة والتشكيك على طريقة الاقتضاب.

٢- التنصير القسري ويتمثل في الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش واختطاف الأطفال والقرصنة البحرية وإحراق المسلمين الرافضين للتنصير والغزوات، والاحتلال [الاستعمار].

ويمكن أن يتحقق القيام بالتنصير الصريح من خلال قيام مؤسسات تنصيريَّة ترعى الحملات، وتمكن لها، وتمدها بما تحتاجه من الموارد المالية والبشرية، وتتلقى الدعم المادي والمعنوي من الحكومات الغربية، ومن المؤسسات والأفراد عن طريق المخصصات والتبرعات والهبات والأوقاف.

ومن أبرز هذه المؤسسات التنصيريَّة قيام الجمعيَّات المتعددة في أوربا وأمريكا أو في البلاد المستهدفة، وهناك موسوعة كاملة بالإنجليزية ترصد المعلومات عن معظم الجمعيَّات التنصيريَّة في العالم، وتخضع للمراجعة الدوريَّة، فتضيف جمعيَّات جديدة، وتجدد المعلومات عن جمعيَّات قائمة، وتقدم عرضًا للجهود المبذولة على مستوى حملات التنصير في العالم.

والآن إلى الوسائل التي يستخدمها المنصرون في أداء مهمتهم:

١- تقديم الخدمات الطبيَّة

اتجه التنصير إلى طرق مغلفة وأساليب غير مباشرة، ومن أخطر هذه الأساليب ما كان عبر التطبيب، وتقديم الرعاية الصحية للإنسان، وقد ساهم في تأثير هذا الأسلوب عامل الحاجة إلى العلاج، وكثرة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة في البيئات الإسلاميَّة، خصوصًا مع مرور زمن فيه ندرة الأطباء المسلمين، بل فقدانهم أصلًا في بعض البلاد الإسلاميَّة.

والمنصرون يعتبرون الجراح والمآسي البوابة الذهبية للنصرانية (حيث تجد بشرًا تجد آلامًا، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب؛ فهناك فرصة مناسبة للتبشير).

يقول الطبيب بول هاريسون، وله كتاب الطبيب في بلاد العرب: «لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى».

ويقول س. أ. موريسون محرر في مجلة العالم الإسلامي: «وحينئذٍ تكون الفرصة سانحة حتى يبشر هذا الطبيب بين أكبر عدد ممكن من المسلمين في القرى الكثيرة في طول مصر وعرضها».

وتقول المبشرة ايد هاريس تنصح الطبيب المنصر: يجب على الطبيب أن ينتهز الفرصة ليصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فيبشر بالإنجيل، إياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات، فإنه أثمن من ذلك.

ويقول المستر هاربر بوجوب الإكثار من الإرساليات الطبيَّة؛ لأن رجالها يحتكون دائمًا بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين (مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م).

ومن المبشرين الأطباء: آن أساوودج، فورست، كار نيليوسي فانديك، جورج بوست، وتشالرز كلهون، ماري أوي، الدكتور طومسون.

يقول رشتر: (في هذه المناسبات من التطبيب مستوصف أو مستشفى يمكن للطبيب أن يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعضه في مكان غير المستشفى ومن شخص غير الطبيب لامتلئوا غيظًا وغضبًا).

وأقرب مثال حي على هذا جهود المنصِّرة الراحلة تيريزا، التي تدعى بالأم، والحائزة على جائزة نوبل، وما تقوم به في مجال التطبيب من أنشطة على مستوى القارة الهندية بالتركيز، وعلى مستوى

العالم الإسلامي بعامة، فقد تحركت في الآونة الأخيرة إلى شمال العراق، حيث محنة المسلمين الأكراد لا تزال قائمة وفيها من المجال الخصب لهذه الأعمال ما لا يخطر على قلب من لم يقف على المشكلة بنفسه.

وقد افتتحت الأم تريزا أربع مدارس تنصيريَّة أثناء زيارتها لمصر فضلًا عن رعايتها لكثير من الاجتماعات والاحتفالات «المقدَّسة».

وكذلك البعثات الطبيَّة في منطقة الخليج العربيَّة التي قدمت إليها منذ سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١م على يد الدكتور شارون توماس ثم الدكتور آرثر بينيت بين سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م وسنة ١٣٢٣ هـ / ١٩١٥ م.

وتعتمد بعثات التطبيب التنصيريَّة إلى تشغيل فتيات المجتمع ممرضات ومشرفات اجتماعيات يتمشين مع سياسة هذه المؤسسات الطبيَّة وقد يكن من بنات المجتمع المتنصرات.

وتستغل البعثات الطبيَّة التنصيريَّة -كما يقال- في إجراء التجارب حول مدى صلاحية الأدوية التي ترفض هيئات الأغذية والأدوية إجراءها على المجتمع الغربي، قبل أن تثبت فعاليتها في الأرانب أو الفئران، فيؤتى بها إلى المناطق التي تتركز فيها مستشفيات ومستوصفات ومختبرات تنصيريَّة، فتجرى فيها التجارب على البشر، ثم يكتب بها تقارير إلى هيئات الأغذية والأدوية الغربية لإقرار استخدامها لتركب وتصنع ثم تصرف للناس.

ومع أن هذا ليس هدفًا لهذه الجمعيَّات التنصيريَّة، ولم يكن في يوم من الأيام يدور في خلد المنصرين الأوائل، إلا أن بعض المنصرين المعاصرين قد لا يمانعون من مساعدة هذه الهيئات في القيام بالتجارب على البشر خارج الإطار الغربي... ويظهر هذا واضحًا أثناء الحروب باستغلال الأسرى لهذه التجارب.

٢- التعليم

إن المنصرين يضعون كل ثقلهم في استغلال التعليم وتوجيهه بما يخدم أهدافهم التنصيريَّة، وذلك إما بإنشاء المدارس والجامعات النصرانيَّة صراحة، أو بفتح مدارس ذات صبغة تعليمية بحتة في الظاهر، وكيد نصراني في الباطن، مما جعل فئامًا من المسلمين يلقون بأبنائهم في تلك المدارس؛ رغبة في تعلم لغة أجنبية، أو مواد خاصة أخرى، ولا تسل بعد ذلك عن حجم الفرصة التي يمنحها المسلمون للنصارى حين يهدونهم فلذات أكبادهم في سن الطفولة والمراهقة حيث الفراغ العقلي، والقابلية للتلقي، أيا كان الملقي، وأيا كان الملقى.

وفي هذا يقول زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م: «لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلاميَّة المستقلة، أو التي تخضع للنفوذ المسيحي، أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا. ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيَّات، وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول

الأوربية والأمريكيَّة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولًا، وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج...».

ومن عمل المنصرين في هذا المضمار:

١- إنشاء المدارس والكليات والجامعات والمعاهد العليا وكذلك إنشاء دور للحضانة ورياض للأطفال واستقبال الطلبة في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية.

ويتخذ التدريس وسيلة للدعوة إلى النصرانيَّة وبث سمومها في عقول الأطفال؛ فقد جاء في كتاب أصول التنصير في الخليج: (كان تعليم العلوم الحديثة وتدريسها باللغة الإنجليزية الذي قدمته البعثة كان مطلوبًا جدًّا وبخاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، ولذلك كانت مدارس البعثة تجد قبولًا حسنًا في العراق والبحرين والكويت، فقد واصل الآلاف من خريجي مدرسة البصرة ليدخلوا مجالات عملية بنجاح في الأعمال والسياسة، وتزعم تقارير البعثة أن الألفي طفل الذين تخرجوا في مدرسة البعثة حتى عام ١٩٣٨م قد أصبح بعضهم أطباء، وأطباء أسنان ومدراء ورؤساء وكتاب ومترجمين ومعلمين إنهم يحصلون على مرتبات جيدة، وباستثناءات قليلة جدًّا، فإنهم جميعًا قد ارتقوا في السلم الاقتصادي، وكثير منهم قد أصبحوا قادة في دولهم).

وقد وصف أبو الأعلى المودودي أثر هذه المدارس التنصيريَّة فقال: «فالمؤسسات التعليمية للمبشرين تخرج طبقة جديدة من الناس، طبقة لا تتمسك بالنصرانيَّة ولا تظل على دين الإسلام، وإنما تفصل نفسها عن تراثها ولا تطبق أي تراث أخلاقي آخر، والنتيجة هي أن تصبح نموذجًا غريبًا من الجنس البشري في مواقفها الأخلاقية ومعاييرها الثقافية، وكذلك في أخلاقها وتصرفاتها، وفي لغتها وعاداتها الاجتماعيَّة».

وقال المبشر جسب: إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحيَّة إنما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية.

٢- التداخل المباشر في المدارس الحكومية -كما كان يحدث إبان الاحتلال- وذلك من خلال تفريغ المناهج العلميَّة من مضامينها وصرفها عن وجهتها، أو من خلال تعيين المعلمين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فقد جاء في جريدة الأهرام الصادرة في ١٧ / ٣ / ١٨٩٧ م «قضي الأمر، وصدر الأمر العالي بتعيين المستر دنلوب سكرتيرًا عامًّا لنظارة التعليم، وقد شرع المستر دنلوب بعد الاتفاق مع اللورد كرومر في هدم الدراسة الثانوية التي هي أعظم أركان المعارف».

وإليك هذه الحقيقة التي تؤكد ذلك؛ ففي عام ١٨٦٣م طرح المنصر هاملين على صديقه اليهودي الفرنسي روبرت -فكرة إنشاء مدرسة ثانوية قرب قلعة الروملي، وقال هاملين مشيرًا بيده إلى قلعة الروملي: «لقد أنشأ الأتراك هنا حصنًا لفتح إستنبول، وأنا سأنشئ هنا مدرسة لهدمهم».

وقد تحقق شيء من حلم هذا اليهودي فقد ترأس العصيان والتمرد على الدولة العثمانية في

بلغاريا أول الخريجين في هذه المدرسة، وقال بعد ذلك لقد كان د. هاملين يريد فتح مدرسة فوق أعلى برج من أبراج قلعة الروملي وذلك كي تدخل النصرانيَّة من نفس الباب الذي دخل منه الإسلام إلى إستنبول.

٣- إيجاد فرص الابتعاث لأبناء المسلمين الذين تعذرت عليهم مواصلة دراستهم في بلدانهم، ومن ثم محاولة تنصيرهم في البلاد التي يتم ابتعاثهم إليها، فإن لم يتحقق ذلك فليتحقق ما دون ذلك وهو إخراجهم من دينهم وإغراقهم بالشهوات المحرمة في تلك البلاد.

وتتعرض هذه الفئات من الطلبة إلى حملات قوية من المنصرين عن طريق مكاتب الطلبة الأجانب في الجامعات، حتى الجامعات المستقلة (غير المنتمية) في الغرب تقوم بهذه الأنواع من النشاط، وتضع برامج للطلبة من زيارات للعائلات وأوجه نشاط اجتماعيَّة من حفلات ودعوات إلى الكنيسة أو ما يلحق بالكنيسة من الأفنية والملاعب.

وفي خارج المدن الجامعية يتلقف المنصرون الطلبة المسلمين بعد التعرف على عناوانهم، والوصول إليهم، وإبداء الرغبة في خدمتهم، والوقوف إلى جانبهم والتعاطف معهم، والتعرض لألوان من المحاولات مثل إرسال المطبوعات، والاتصال بالهاتف، والرسائل الهاتفية الفاكس، والاتصال الشخصي المباشر، بموعد ودون موعد.

ويُستغل ضعف بعض الطلبة المسلمين ماديًّا، حيث الكنيسة أو جمعيَّة مدعومة من الكنيسة دعم هؤلاء الضعفاء من الطلبة، وتعمل على إيجاد فجوة بين الموسرين والمعسرين من الطلبة المسلمين، تصل إلى حد الضغينة والحسد وترسيخ هذه المفهومات في الأذهان، حتى لا تقوم بين المسلمين من الطلبة رابطة قوية.

كما يستغل ضيق بعض الطلبة المسلمين لعدم قدرتهم على العودة المباشرة إلى بلادهم بسبب سوء الأحوال السياسية والاقتصادية والبحث عن إقامة نظامية في البلاد الغربية التي تتم غالبا عن طريق الزواج بمواطنة من البلد، إما أن تكون ذات ميول نصرانية قوية، أو ينشأ عندها الميول عندما تدرك أنها اقترنت برجل يختلف عنها دينا وثقافة. وتكون نتيجة هذا الزواج إنجاب الأطفال، ثم يحصل عادة فراق، فتكون رعاية الأطفال، نظامًا، لأمهم فتأخذهم إلى الكنيسة اقتناعًا أو قصدًا إلى كيد الأب ويستمر الصراع على هذه الحال.

وهذا على أفضل الأحوال. وربما يرضى الزوج بأخذ أولاده إلى الكنيسة، بل وذهابه هو معهم والانخراط في أوجه نشاطها، ولو لم يتم الإعلان الرسمي (التعميد) عن التنصير. وفي أحوال أخرى تسلم الزوجة وتستقيم الأمور، عدا المضايقات من الأهل والأقارب من جانب الزوجة على الغالب.

٤- تعليم اللغة الإنجليزية إذ تستخدم كطعم يقدم للفريسة ممزوج معه الدعوة إلى الإباحية والدعوة إلى النصرانيَّة، فقد جاء في بحث «الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين» المقدم من

فريد د. أكورود إلى مؤتمر التنصير المنعقد في كلورادو ما يلي: «إن اللغة الإنجليزية مهمة لكل عربي يرغب في متابعة دراسته، أو يود الهجرة، ولقد كتبنا إلى هيئة الإذاعة البريطانية- التي لديها سلسلة ممتازة من برامج تعليم الإنجليزية للناطقين بالعربيَّة- ولقد منحتنا السلسلة وأذنت لنا بتقديمها عبر إذاعتنا، وقد أجرينا بالفعل تعديلات على السلسلة استخدمناها «كطعم» وفي الختام كنا نتوجه بالسؤال: عما إذا كان المستمع يرغب في نسخة مجانية من كتاب يحتوي على العربيَّة والإنجليزية جنبا إلى جنب، وعندئذ نرسل له نسخة من الإنجيل بالعربيَّة والإنجليزية».

٥- التحيز ضد أبناء المسلمين، وقصر التعليم على أبناء الأقلية النصرانيَّة -في البلاد التي يوجد فيها مسلمون ونصارى- ليتحقق لهم التفوق في المجال العلمي والإداري في المناطق التي تعيش فيها الأقليات النصرانيَّة بين المسلمين، فقد شكا أبو الأعلى المودودي من ذلك بقوله: «فأسلوب العمل الذي يتبعه مبشرو الإنجيل هؤلاء شنيع للغاية، ويعتبر مصدرًا من مصادر الشقاق والخلاف، وتتمثل شكوانا في أنهم لا يقصرون نشاطاتهم على نشر الدين فحسب، ولكنهم بدلًا من ذلك يلجئون إلى أساليب وسبل لا مناص من اعتبارها وسائل للضغط السياسي والاستغلال الاقتصادي، والتخريب للأخلاق والدين، ويشهد على ذلك ما رأينا بأم أعيننا، وما يشاهد في بقية أنحاء العالم الإسلامي، فلا يمكن لأي عقل مهما كان محدودًا، ولا يليق بأي إنسان كريم أن يعتبر تلك الأساليب وسائل مناسبة ومباحة لنشر أي دين من الأديان، فقد قام هؤلاء المبشرون في مناطق شاسعة من أفريقيا بحرمان المسلمين من كافة الخدمات التعليمية وذلك بالتواطؤ مع الدول الاستعمارية وتغافلها عن جرائمهم في الوقت الذي كانوا يسيطرون فيه على تلك المناطق، فقد أوصدوا أبواب المعاهد التعليمية أمام كل شخص لا يدين بالنصرانيَّة أو على الأقل ليس لديه استعداد لتغيير اسمه الإسلامي واستبداله باسم نصراني، وبهذه الكيفية قويت شوكة الأقلية النصرانيَّة وأصبحت هي الطبقة الحاكمة، وهذه الفئة المنبتة القوية النفوذ هي التي تولت السلطات السياسية والعسكرية والاقتصادية بعد الاستقلال في كثير من الدول الأفريقية التي تعيش فيها أغلبية ساحقة من المسلمين، وهذا ظلم صارخ نزل بالمناطق الأفريقية التي تقطنها أغلبية من المسلمين».

٦- إضعاف المؤسسات التعليمية الشرعية بمصادرة أوقافها ومحاربة طلابها، وإضعاف تأثيرها وقد تحدث الفصل الرابع من كتاب: «وسائل التبشير بالنصرانيَّة بين المسلمين» الذي نشره المبشر الأمريكي «فلمنج» عن الأزهر ودوره وما اقترحه المبشرون من ضرورة إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحيَّة في الدنيا على اختلاف مذاهبها، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة. وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربيَّة. ثم قال: إن في الإمكان مباشرة هذا العمل في دائرة صغيرة وهي أن تختص أولا بتعليم المسلمين المتنصرين وتربيتهم ليتمكن هؤلاء من القيام بخدم جليلة في تنصير المسلمين الآخرين.

وختم فلمنج كلامه قائلًا: «ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا

لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلاميَّة».

وقال جاير دنر: «إن من سداد الرأي منع جامعة الأزهر أن تنشر الطلبة المتخرجين فيها في جنوب أفريقيا؛ اتباعًا لقرار مؤتمر التبشير العام؛ لأن الإسلام ينمو بلا انقطاع في كل أفريقيا».

٧- بعثات التعليم الصناعي والتدريب المهني من خلال إنشاء المدارس ومراكز التدريب والورش للشباب والشبات تستقطب إليها الطاقات. وتخضع لبرامج نظرية فيها دروس حول الثقافة والمجتمع والدين والآداب المبسطة التي تنفذ من خلالها التعاليم النصرانيَّة.

ومن ذلك إسناد الإشراف على المراكز والمدارس المهنية المحلية إلى إيرادات أجنبية، ويقوم على التدريب فيها منصرون بلباس الفنيين والمدربين.

٨- وجود الجامعات الأمريكيَّة والفرنسيَّة التي ثبت عملها في مجالات التنصير، بين المسلمين ومجالات خدمة الوجهة الغربية، كالعمل الاستخباري لصالح الحكومات التي تدعم هذه المؤسسات التعليمية العليا. وتخرج الجامعات مجموعات كبيرة من أبناء المسلمين يكون لها زمام المبادرة في شغل المناصب العليا ذات التأثير الإداري والثقافي والأدبي والسياسي، بل والديني أحيانًا.

وتُلمَّع هذه المجموعة المتخرجة من لجامعات الأجنبية، وتُعطى الهالة الإعلامية، وتساند بعضها في المناسبات العلميَّة والثقافية والأدبية وغيرها.

وفي هذا المجال يقول بيزوز الذي تسلّم رئاسة الجامعة الأمريكيَّة في بيروت سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٨ م، وكانت تسمّي حينئذ بالكلية البروتستاتية الإنجيلية: «لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلّها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان، ومن أجل ذلك تقرّر أن يُختار رئيس الكلية البروتستاتية الإنجيلية من مبشري الإرسالية السورية».

ولا تخفى هذه الجامعات والمعاهد العليا نزعتها التنصيريَّة، يقول دانيال بلس: إن كلية روبرت في إستانبول (الجامعة الأمريكيَّة حاليًا) كلية مسيحية غير مستترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها؛ لأن الذي أنشأها مبشر، ولا تزال إلى اليوم لا يتولى رئاستها إلا مبشر.

وهذا الظهور للنزعة التنصيريَّة لا يكون في الأوقات التي تجد فيها من المصلحة أن تسير مع تيار يسيطر على الساحة، كما سارت مع تيار القومية الذي شاع ردحًا من الزمن.

وكما يتوقع لها أن تسير مع تيار الصحوة التي تسميها بالأصولية لدراستها من منظور تنصيري استشراقي، يعمد إلى تشويهها ونعت أبنائها بالتطرف والإرهاب، وإلى أفكار من يدرسها أو يعمد إلى تبني هذا التوجه.

٣- الأعمال الاجتماعيَّة والتنمويَّة

إسهام الجمعيَّات التنصيريَّة في مجالات التنمية تحت شعار: من الكنيسة إلى المجتمعات، تعد أخطر من وسائل المنصرين وفي نفس الوقت تغطية لنشاطاتهم.

وقد أنشئت لهذه الصدود لجان مثل هيئة مجلس الكنائس للإسهام في أعمال التنمية، وتعمل هذه الهيئة في حقوق التنمية المتنوعة المختلفة مثل إقامة القرى الزراعية وعقد الدورات التدريبية المهنية لمختلف التخصصات التقنية والفنية، وتقديم القروض المباشرة على الفلاحين عن طريق مؤسسات (وحدات الإقراض) ومشروعات التهجير الداخلي للسكان وغير ذلك.

وتسهم هذه الهيئات إسهامًا مباشرًا في هذه المجالات، ومن خلال هذا الإسهام تسعى الجمعيَّات إلى تحقيق بعض الأهداف. ولو لم يكن إلا الإسهام هدفًا لكان كافيًا في إشعار المجتمعات أن المنصرين إنما يسعون إلى رخاء المجتمعات وإخراجها من أسر التخلف والجهل وقلة الإمكانيات.

هذا عدا ما يصحب فترة الإسهام من اتخاذ وسائل أخرى تكون مقاومتها غير ميسورة، إذا ما أشعر الأهالي أو الحكومات أن التصدي لها فيه مدعاة إلى التخلي عن الإسهام في مجالات التنمية بمشروعاتها المختلفة.

ومن أنشطة هذه الجمعيَّات والمؤسسات أيضًا:

١- إيجاد بيوت للطلبة من الذكور والإناث.

٢- إيجاد الأندية.

٣- الاهتمام بدور الضيافة والملاجئ للكبار ودور لليتامى واللقطاء.

٤- الاعتناء بالأعمال الترفيهية وحشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال.

٥- إنشاء المكتبات التبشيريَّة واستغلال الصحافة بشكل واسع.

٦- إنشاء مخيمات الكشافة التي تستغل أفضل استغلال في التنصير.

٧- زيارة المسجونين والمرضى في المستشفيات وتقديم الهدايا والخدمات لهم.

٨- تكلمت المس ولسون ومس هلداي في مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م عن دور المرأة كمبشرة لتقوم بنشر ذلك بين نساء المسلمين المسلمات.

٩- وقد كان المنصرون يعرضون على أُسَر المعتقلين في إندونيسيا استعدادهم لإعالة ذويهم وإعاشة أسرهم شريطة أن يوقعوا على صك الاعتراف بانضمامهم إلى الكنيسة.

١٠- وقد تعرّضت السودان إلى ضغوط رسمية دولية عندما سعت إلى إخراج بعض المؤسسات التنصيريَّة من السودان، وكانت الضغوط صريحة بقطع الإعانات والقروض إذا ما تم الإبعاد.

والمنصرون يسعون إلى استغلال الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية وما ينتج عنها من دمار وخراب وأوضاع مأساوية في أغراض التنصير، فضلًا عن أوضاع المسلمين المأساوية من أيتام وأرامل، وما يحتاجون إليه من طعام وكسوة ومسكن بالإضافة إلى التعليم والعلاج مما يجعلهم فريسة سائغة لاستغلال المنصرين الذين يتظاهرون بمواساتهم ماديًا ومعنويًا، ويدّعون الاهتمام بهم صحيًا وتعليميًا، وصولًا إلى اكتساب قلوب هؤلاء المسلمين البسطاء، ومن ثم السيطرة على

عقولهم وإقناعهم بأن في النصرانيَّة خلاصهم من عذاب الآخرة وفقر الدنيا، ويشترط هؤلاء المنصرون على أولئك المسلمين الذهاب إلى الكنيسة لأداء قداس الأحد مثلًا، أو يشترطون عليهم عدم المشاركة في الأنشطة الإسلاميَّة نظير خدماتهم تلك.

لقد بلغت تقديرات نسبة اللاجئين المسلمين ٨٠% من مجموع اللاجئين في العالم كله لجئوا إلى بلدان أخرى لأسباب عديدة منها: الحروب، والكوارث، وبطش الحكومات والأنظمة المعادية للإسلام، أو خوفًا من الاضطهاد الديني والسياسي العرقي، ويعاني هؤلاء اللاجئون من تشتت الأسر وفقدان مقومات الحياة الأساسية؛ ولذلك فإنهم يمثلون مجالًا واسعًا وتربة خصبة لعمل الجمعيَّات والمنظمات التنصيريَّة.

وفيما يلي بعض هذه الأمثلة:

١- منظمة «الرؤيا العالمية» التي لها نشاط في أكثر من ٨٠ دولة وتشرف على ٨٦ ألف لاجئ مسلم صومالي توفر لهم الدواء والكساء والتعليم، وتدعوهم إلى النصرانيَّة؛ علمًا بأن نسبة المسلمين في الصومال ١٠٠%، وفي الصومال أيضًا كان الهدف الحقيقي للمشروع الألماني الوطني لمحاربة أمراض العمى هو نشر النصرانيَّة والدعوة لها، وهذا ما اعترف به مسئول المشروع د. جي ميشيل بعد إسلامه.

٢- كما أن هناك حركة تنصيريَّة قوية يشارك فيها البروتستانت والكاثوليك وسط قبائل الطوارق في شمالي نيجيريا ومالي في وقت قتل الجفاف ماشيتهم، وضربت المجاعة مناطقهم، ومات منهم المئات بسبب الفقر والجوع والمرض.

٣- في البوسنة وزعت الإرساليات التنصيريَّة ٧٠٠ ألف كتاب تنصيري، كما وزعت عدة آلاف من قصص الإنجيل على أطفال العراق مع مجموعة من الأشرطة السمعية مستغلة الحصار الدولي عليه.

٤- المرأة والنسل

يهتم المنصرون بالمرأة اهتمامًا شديدًا، إذ نصف البشرية من النساء، ولأن المرأة تتعرض للفقر والفاقة والترمل أكثر من الرجل، ولانتشار الجهل بينهن؛ ولأنها هي المحضن الذي يترعرع فيها النشء فإن كانت صالحة أنتجت ذرية صالحة كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، وإن كانت غير ذلك فالذي خبث لا يخرج إلا نكدا.

فإذا تمكنت منها الجمعيَّات التنصيريَّة، أو وصلت إليها، فقد وصلت إلى الحصن الحصين والمكان الأمين، بل وصلت إلى قلب الأمة ولذا: «يصفق المنصرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها، لقد خرجت إلى الهواء، لقد نزعت عنها حجابها، ولكنهم لا يصفقون؛ لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك؛ بل لأن فعلها هذا يتيح للمنصرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التنصيريَّة» ولا يخفي المنصرون كيدهم بالمرأة المسلمة، واعتقادهم قوة

تأثيرها على أبنائها، ورغبتهم في استغلال ذلك، إذ يقول قائلهم: «بما أن الأثر الذي تحدثه الأم في أطفالها-ذكورًا وإناثًا- حتى سن العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية، وبما أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيريَّة يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلاميَّة».

ومن أجل ذلك اهتم المنصرون بالمرأة اهتمامًا شديدًا فقلما عقد مؤتمر تنصيري دون أن يكون موضوع تنصير المرأة المسلمة هو أحد الموضوعات الرئيسة لهذا المؤتمر، وكشاهد على ذلك فقد كان موضوع «المداخل النصرانيَّة للمرأة المسلمة وأسرتها» أحد الأبحاث المقدمة إلى مؤتمر التنصير المنعقد في ولاية كولورادو في أمريكا عام ١٩٧٨م.

أما مؤتمر القاهرة التنصيري المنعقد عام ١٩٠٦م فقد وجهت المنصرات المشاركات فيه النداء التالي «لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح، إن عدد النساء المسلمات عظيم جدًّا لا يقل عن مائة مليون، فكل نشاط مجد للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن، نحن لا نقترح إيجاد منظمات جديدة، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيريَّة أن تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفًا جديدًا هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن في هذا الجيل».

ونجد مجموعة من الجمعيَّات النسائية التي تعمل على نقل المرأة من بيئة إسلامية إلى بيئة غربية خالصة من خلال التبرج والسفور، وخوض مجالات عملية في الفن وفي الثقافة وفي الآداب، وفي الأعمال المهنية والحرفية الأخرى، مما يدخل في محاولات التغريب التي تتعرض لها المجتمعات المسلمة.

وتختلف أساليبهم ووسائلهم نحو تحقيق هذا الهدف، ولكن لا تختلف غايتهم، فغايتهم أن تتنصر المرأة المسلمة فإن لم يتيسر ذلك فلا أقل من أن تهجر دينها، وتعلن إفلاسها وكفرها، وترضى بأن تكون تابعة ذليلة للقافلة التي تولت استعبادها، وسلب دينها، ونهب خيراتها والاستحواذ عليها. ولأجل ذلك تتعالى صيحاتهم نحو تحرير المرأة المسلمة فحينا تعلن المنابر الغربية الكافرة أن المرأة المسلمة مسلوبة الحقوق، وحينا تعلن أن دينها ظلمها، وحينا تمارس تلك المنابر ضغوطًا على الدول المسلمة لإجبارها على تغريب المرأة المسلمة، ونزع لباسها إلى آخر الافتراءات التي لا تتوقف؛ رغبة في أن تفتح المرأة المسلمة لهذه الصيحات آذانها، فتكون بداية لتلقي المبادئ التنصيريَّة.

ولا تمثل الأعمال الترفيهية نسبة عالية في انخراط المرأة في حملات التنصير؛ لأن هذا أمر مكشوف ورخيص، ولكنه مع هذا يشيع في الحروب بين الجنود والأسرى المراد تنصيرهم.

والذي يمثل النسبة العالية في مجالات التنصير باستغلال المرأة هو عملها بكل جهد وقوة للدخول إلى مجالات النساء المستهدفات، فتجتمع بهن وتقدم لهن الخدمات الصحية والاجتماعيَّة والتربوية والثقافية الدقيقة والخاصة بشئون المرأة فيما يتعلق بعلاقاتها الأسرية وتربيتها لأولادها.

وهذا الاتجاه يلقي القبول ويرسخ في الأذهان. ولذا إعطاؤه الاهتمام بدلًا من أن يذهب التصور إلى استغلال المرأة في جوانب نفعية شهوانية قد لا تنقاد إليها جميع النساء كما هو سائر الآن.

كما ينبغي تعميق النظرة إلى أثر المرأة في هذه الحملات من خلال قدرتها على التأثير وقوتها فيه، وقدرتها أيضًا على التأثير بما حولها ومن حولها.

ولا تزال هذه الوسيلة من الوسائل المعتمدة في تصيد الآخرين، ليس على مستوى التنصير فحسب، بل على مستويات سياسية واستخبارية.

أما فيما يتعلق بالنسل فنجد في اجتماع البابا شنودة في ٥/ ٣/ ١٩٧٣م مع القساوسة والأثرياء في الكنيسة المرقسية بالإسكندرية طرحوا بعض المقررات وقد كان منها تحريم تحديد النسل أو تنظيمه بين شعب الكنيسة وتشجيع الإكثار من النسل بوضع الحوافز والمساعدات المادِّيَّة والمعنوية مع تشجيع الزواج المبكر بين النصارى. وبالمقابل تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين خاصة، علمًا بأن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء وبعض القائمين على الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة.

٥- إثارة الفتن والحروب

إذ هما الوسيلة التي تشغل الأمة عن أعدائها، وتنسى فيها حراسة ثغورها، وتنهب فيها خيراتها، وتستهلك فيها طاقاتها، وتتعدد احتياجاتها ما بين جريح ويتيم وأرملة، وتتضاعف عليها الديون، وتملي عليها الشروط، وتكبل فيها بالقيود.. فإذا الأمة ميدان فسيح لكل منصر لكي يساوم على اللقمة، ويستحوذ على الأيتام والأرامل، ويفوز بالاتفاقيات التي تخوله الوصول إلى مواقع ما كان يحلم بها قبل ذلك.

١- يعملون على تشجيع الحروب والفتن وذلك لإضعاف الشعوب الإسلاميَّة، وانظر كيف دخلت الجمعيَّات التنصيريَّة إلى داخل أفغانستان والعراق والبوسنة والهرسك وألبانيا أثناء الحروب التي سفكت فيها دماء المسلمين.

ولقد تنبه المؤتمرون في مؤتمر كولورادو التنصيري إلى ضرورة وجود ظروف خاصة تدعو إلى التحول الجماعي نحو النصرانيَّة إذ يقول ديفيد أ. فريزر: «ولكي يكون تحول فلا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات وعوامل تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية مثل التفرقة العنصرية أو الحساسية بسبب تسامح المجتمع تجاه النفاق أو الوضع الاجتماعي المتدني».

٢- إثارة الاضطرابات المختلفة بإذكاء نار العداوة والبغضاء وإيقاظ روح القوميات الإقليمية الطائفية الضيقة كالفرعونية في مصر، والفينيقية في الشام وفلسطين ولبنان، والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقيا، واستغلال جميع ذلك في التنصير.

٣- يقول زويمر في مؤتمر التبشير في لكهنؤ بالهند ١٩١١م: «إن الانقسام السياسي الحاضر في العالم الإسلامي دليل بالغ على عمل يد الله في التاريخ واستثارة للديانة المسيحيَّة كي تقوم بعملها».

٤- تلجأ المنظمات التنصيريَّة إلى تدبير الانقلابات العسكرية والتواطؤ مع منفذيها لتحقيق أغراضها في مكان تراه منطلقًا للعمل الإسلامي، أو تعذر عليها فيه التنصير. فيبدأ التخطيط لقلب نظام الحكم في ذلك الموقع، وإحلال نظام بديل يأذن لهم. بممارسة التنصير، أو التضييق على المناشط الإسلاميَّة المتواجدة في ذلك الموقع، أو محاربة الجمعيَّات الإسلاميَّة التي تنطلق من ذلك المكان إلى أماكن أخرى. فقد جاء في إحدى النشرات التنصيريَّة بأن الأمير النيجري (أحمد بلو) رحمه الله يعتبر أكبر عقبة في شمال نيجيريا ضد التنصير، بل هو الذي يفتح الباب للإسلام في نيجيريا. وبعد ذلك كان انقلاب «أورنس» الذي تربى على أيدي المنصرين، وتولى خلال الانقلاب تلامذة المدارس التنصيريَّة المراكز القيادية هناك، كما جاء في نشرة أخرى في زمن سابق بأن السودان يتولى الحركات الإسلاميَّة في أواسط أفريقيا، وعلينا أن نشد الحزام لئلا تضيع أواسط أفريقيا فدبرت لذلك ثورة جنوب السودان.

وجاء في خطاب جاير دنر الذي ألقاه في مؤتمر القاهرة التنصيري عام ١٩١٠ م: «إن زعماء بختياري.. الذين أنجزوا الانقلاب الحالي، وأصبحوا حكام الأمر الواقع، كانوا قبل أن يصلوا إلى هذه الشهرة المروعة الأصدقاء الأوفياء لإرساليات جمعيَّة التبشير الكنسية».

٦- بث الأكاذيب والأباطيل عن الإسلام والمسلمين وإثارة الشبهات لديهم

لقد دأب المنصِّرون على بث الأكاذيب والأباطيل بين أتباعهم ليمنعوهم من دخول الإسلام وليشوهوا جمال هذا الدين وصورة الإسلام ورموزه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ فكثيرًا ما يلصقون بالإسلام تهمًا كالهمجية والرجعية والإرهاب.

١- يقول هنري جسب المبشر الأمريكي: المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها، إنهم لصوص وقتلة ومتأخرون، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم.

٢- ويقول لطفي ليفونيان وهو أرمني ألف بضعة كتب للنيل من الإسلام: إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح.

٣- ويقول أديسون: محمد لم يستطع فهم النصرانيَّة ولذلك لم يكن في خياله إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به العرب.

٤- ويزعم المبشر نلسن أن الإسلام مقلد، وأن أحسن ما فيه إنما هو مأخوذ من النصرانيَّة وسائر ما فيه أخذ من الوثنية كما هو أو مع شيء من التبديل.

٥- ويقول المبشر ف.ج هاربر: إن محمدًا كان في الحقيقة عابد أصنام؛ ذلك لأن إدراكه لله في الواقع كاريكاتور.

٦- ويقول المبشر جسب: إن الإسلام مبني على الأحاديث أكثر مما هو مبني على القرآن،

ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء.

ويقول كذلك: الإسلام ناقص والمرأة في مستعبدة.

٧- ويقول المبشر جون تاكلي: يجب أن نُريَ هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا.

٨- أما القس صموئيل زويمر فيقول في كتابه العالم الإسلامي اليوم:

«يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم».

«يجب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين؛ لأنه أهم عمل مسيحي».

«تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها».

«ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ إن من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء».

- وقال صموئيل زويمر كذلك في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م:

« لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحيَّة في البلاد الإسلاميَّة ليست في إدخال المسلمين في المسيحيَّة؛ فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها».

« إنكم أعددتم نَشْئًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحيَّة، وبالتالي فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهرة وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهرة يجود بكل شيء».

٩- وقد كتب أحد المبشرين في بداية هذا القرن الميلادي يقول: «سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها كل محاولات التبشير ما دام للمسلمين هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي العام».

١٠- ذكرت الكنيسة الهولندية في تقرير مشهور لها تم توزيعه على نطاق واسع «أن الإسلام دين كاذب False Religion، وأنه خطر على العالم».

١١- نشرت إحدى المنظمات التنصيريَّة صورًا لمسجد يصلي فيه المسلمون كتب تحتها: «من أوكار الإرهاب».

١٢- قيام الحملات الإعلامية والدعايات التلفزيونية لحرب المراكز الإسلاميَّة العاملة في تلك الدول واتهامها بالعمالة لدول معادية، أو بالتخطيط للقيام بحرب دينية أو نحو ذلك، وهذا ما

حدث ضد مركز الدعوة الإسلامي العالمي الذي كان يترأسه فضيلة الشيخ أحمد ديدات رحمه الله.

١٣- قال جيري فالويل مراسل قناة cNN الأمريكيَّة عندما وقف بعد أكتوبر٢٠٠١م في مركز لتحفيظ القرآن الكريم في بيشاور: «هنا ورشة الإرهاب» وأمسك بمصحف وقال: «هذا هو إنجيل الإرهاب».

١٤- وبات رويرتسون يعمل هو الآخر في قناة CNN فقد ظهر على هذه القناة ويقول: «الآن اكتشفنا أن محمدًا زعيم من زعامات الإرهاب في التاريخ».

هذا بالإضافة إلى أن إثارة الشكوك لدى المسلم وإبعاده عن دينه يعتبر في حد ذاته هدفًا يسعى إليه المنصرون، ويقفون عنده، ويكتفون به دون أن يسعوا إلى تنصير المسلم أو حتى ترغيبه في النصرانيَّة؛ فهم يرون في أحيان كثيرة أن اعتناق المسلم للنصرانية شرف عظيم لا يستحقه المسلم.

ولعل الأمثلة الآتية توضح ذلك:

١- نشرت بعض المنظمات التنصيريَّة الإنجيل باللغة العربيَّة في عدد من الدول الإفريقية وقد كتب بطريقة «تشبه» القرآن الكريم، وفيه بعض الزخارف، ويبدأ كل فصل منه بكلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» وتشكل الكلمات بحركات التشكيل، كما حرصوا على اختيار كلمات قرآنية كثيرة في داخل الترجمة مثل «قل يا عبادي الذين هم لربهم ينتظرون. اعملوا في سبيله واحذروه كما يحذر الخدم ساعة يرجع مولاهم فما هم بنائمين. قال الحواريين أيريدنا مولانا بهذا أم يريد الناس أجمعين؟ فضرب لهم عيسى مثلًا...» «لاحظ الأخطاء النحوية فيما سبق».

إن قيام المنصرين بكتابة الإنجيل بطريقة تحاكي القرآن كما يزعمون لَهُوَ اعتراف منهم بالإخفاق الذريع، وبأن الإنجيل بعد تحريفه وتبديله لم يعد قادرًا على هداية أتباعه فضلًا عن أعدائه.

٢- وكذلك قراءة الإنجيل بطريقة «تشبه» تلاوة القرآن الكريم.

٣- إقامة القداس الأسبوعي يوم الجمعة بدلًا من يوم الأحد، وهذا فعلوه في الكويت، بل إقامته بطريقة «تشبه» صلاة المسلمين في حركاتها.

٤- تزيي المنصرين بأزياء الدعاة والمشايخ كما حدث في بلدان إفريقية كثيرة.

٥- بناء الكنائس الجديدة بتصاميم تشبه المساجد فتقام لها قبة، وما يشبه المِئْذَنة.

٦- الموافقة على بعض المبادئ والشعائر الإسلاميَّة التي من العسير جدًّا أن يتركها من يدعونهم إلى النصرانيَّة، مثل مبدأ تعدد الزوجات، فقد وجدوا أن بعض القبائل الإفريقية قد يجمع الرجل فيها بين أكثر من زوجة وزوجتين، ويصعب على مثل هذا الرجل أن يتخلى عنهن ويقتصر على واحدة إن هو تنصر، ويفضل المنصرون أن يدخل هذا الرجل في النصرانيَّة ويظل متزوجًا بأكثر من واحدة من أن يبقى على إسلامه، وربما في مرحلة لاحقة يقنعونه بالتنازل عنهن ويختار من بينهن واحدة، ومثل ذلك أيضًا موافقتهم على الختان.

٧- يقلعون عن العبارات المثيرة لسخط المسلمين ويستبدلونها بغيرها مما تروق للمسلمين وتنال استحسانهم.

فمن تلك العبارات الشهيرة التي عادة ما كان يستخدمها المنصرون: «مليار مسلم سيذهبون إلى الجحيم ما لم يتم تنصيرهم»، ومن الكلمات الملغاة كلمة «المنصرون».

وليس الأمر عند هذا الحد، بل إن القائمين على التنصير كثيرًا ما يستخدمون أسماء وعبارات تروق للمسلمين خداعًا وتضليلًا؛ فأحد البرامج بإحدى الإذاعات التنصيريَّة اسمه «نور على نور» والقائم عليه اسمه «الشيخ عبد الله»، وإحدى المستشفيات في نيروبي تسمى بـ «اسم الله» وتسمية الكناس «بيوت الله» وأنها تقام ليذكر فيها «اسم الله».

٧- الكتب والدعاية التنصيريَّة

قام المنصرون بالدعوة إلى النصرانيَّة من خلال توزيع المطبوعات من كتب ونشرات تعرف بالنصرانيَّة، وترجمات للإنجيل، ومطبوعات للتشكيك في الإسلام، والهجوم عليه، وتشويه صورته أمام العالم، ومن هذه الكتب والنشرات والمطبوعات:

١- جمعت موضوعات مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م في كتاب كبير اسمه وسائل التبشير بالنصرانيَّة بين المسلمين.

٢- صنف زويمر كتابًا جمع فيه بعض التقارير عن التبشير أسماه العالم الإسلامي اليوم، تحدث فيه عن الوسائل المؤدية للاحتكاك بالشعوب غير المسيحيَّة وجلبها إلى حظيرة المسيح مع بيان الخطط التي يجب على المبشر اتباعها.

٣- تاريخ التبشير: للمبشر أدوين بلس البروتستانتي.

٤- كتاب المستر فاردنر: ركز فيه حديثه عن إفريقيا وسبل نشر النصرانيَّة فيها وعوائق ذلك ومعالجاته.

٥- مجلة إرساليات التبشير البروتستانتيَّة التي تصدر في مدينة بال بسويسرا والتي تحدثت عن مؤتمر أدنبره سنة ١٩١٠م.

٦- مجلة الشرق المسيحي الألمانيَّة تصدرها جمعيَّة التبشير الألمانيَّة منذ سنة ١٩١٠م.

٧- دائرة المعارف الإسلاميَّة التي صدرت بعدة لغات حية.

٨- موجز دائرة المعارف الإسلاميَّة.

٩- طبع الإنجيل بشكل أنيق وبأعداد هائلة وتوزيعه مجانًا وإرساله بالبريد لمن يطلبه وأحيانًا لمن لا يطلبه أيضًا.

١٠- ومن أوائل المبشرين الرهبان الجدليين ضد القرآن الراهب الدومنيكاتي (ريكولدو دي مونت كروس) (١٢٤٣ . ١٣٢٠ م) الذي بعثه البابا نقولا الرابع إلى الشرق، فتجوَّل مبشرًا في

فلسطين ومجادلًا باللغة العربيَّة ضد القرآن، ثم ألّف أهم الكتب الجدلية ضد القرآن بعنوان: الجدل ضد المسلمين والقرآن.

١١- طباعة الشيكات وإعلانات الدعاية وأوراق المعاملات الرسمية وغيرها من قِبَل كثير من الشركات والمؤسسات المالية، وعليها صور نصرانية في خلفيتها، كما أنها قد تحتوي في جوانبها على كلمات من الإنجيل، وانتشرت ظاهرة: «الشركات المتدينة»، و «شيكات يحترمها الرب» في بعض دول العالم بل وفي بعض الدول الإسلاميَّة بهدف جذب أموال المستثمرين المتعصبين للنصرانية، إلى جانب دعاوى إحلال البركة على الأموال على حد زعمهم فضلًا عن نشر النصرانيَّة بين الموظفين والعملاء الذين تمر عليهم تلك الأوراق.

والجدير بالذكر أن هذه الأعمال وتلك الشركات تؤيدها الكنائس وتُشجَّع من قبل الاتجاهات السياسية اليمينية.

٨- وسائل الإعلام

من أهم وأخطر أساليب التنصير وسائل الإعلام، وذلك من خلال الإذاعات الموجهة للعالم الإسلامي، إضافة إلى طوفان البث المرئي عبر القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة، ومن خلال السينما والمسرح الشبكة الدولية الانترنت، فضلًا عن الصحف والمجلات والنشرات الصادرة بأعداد هائلة. . .

إذ يتمكنون من خلال الإعلام من بث الأفكار والمعتقدات الباطلة والترويج لها، والدعوة إليها، كما يتمكنون من خلاله من اجتياز الحواجز وتخطي الحدود والوصول إلى المسلمين في بلدانهم المغلقة أمام الحملات التنصيريَّة المباشرة إذ يقول فريد أكورود: «يبدو أن الإذاعة اليوم هي إحدى الوسائل الرئيسة التي يمكن بواسطتها الوصول إلى المسلمين في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا المغلقة، حيث إن الإذاعة يمكنها -كما نعلم- أن تخترق الحواجز الحدودية وأن تعبر البحار وتقفز الصحاري وأن تنفذ إلى مجتمعات المسلمين المغلقة».

ولا أدل من عنايتهم بذلك من هذا التدافع المحموم نحو استخدام هذه الوسائل الإعلامية، ومن مناقشة خمسة أبحاث ضمن المؤتمر التنصيري المنعقد في أمريكا ولاية كولورادو عام ١٩٧٨ م وهذه الأبحاث هي:

١ - الوضع الحالي للمطبوعات ووسائل الإعلام الموجهة للمسلمين.

٢ - الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين.

٣ - الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين.

٤ - مراجع مختارة للمنصرين العاملين بين المسلمين.

٥- الحاجة إلى مجلة جديدة خاصة بالإرساليات التنصيريَّة الموجهة للمسلمين.

كما جاء ضمن الموضوعات التي نوقشت في مؤتمر القاهرة التنصيري المنعقد عام ١٩٠٦ م الموضوعات التالية:

١- النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام.

٢- وسائل إسعاف المتنصرين المضطهدين.

٣- تربية المبشرين والعلاقات بينهم.

٤- كيفية التعليم في الإسلام.

وهذه الوسائل الإعلامية: المرئية، والمسموعة، والمقروءة كلها تشترك في دفع عجلة التنصير من خلال مسالك عدة:

١- الدعوة إلى النصرانيَّة بإظهار مزاياها الموهومة، والرحمة والشفقة بالعالم أجمع.

٢- إلقاء الشبهات على المسلمين في عقيدتهم وشعائرهم وعلاقاتهم الدينيَّة.

٣- نشر العري والخلاعة وتهييج الشهوات بغية الوصول إلى انحلال المشاهدين، وهدم أخلاقهم، ودك عفتهم، وذهاب حيائهم، وتحويل هؤلاء المنحلين إلى عباد شهوات، وطلاب متع رخيصة، فيسهل بعد ذلك دعوتهم إلى أي شيء، حتى لو كان إلى الردة والكفر بالله - والعياذ بالله - وذلك بعد أن خبت جذوة الإيمان في القلوب، وانهار حاجز الوازع الديني في النفوس.

وتعتمد هذه الوسائل الإعلامية طرقًا غير صريحة فتأتي ضمن المسلسلات والأفلام والبرامج الوثائقية والتعليمية، التي تطبع دائمًا بنمط العيش الغربي بما فيه من ثقافة وممارسات دينية لا تخلو منها المصطلحات والأمثال والسلوكيات. حتى أفلام الصور المتحركة (الكرتون) الموجهة للأطفال تصبغ بهذه الصبغة التي تشعر المتابع أحيانًا أنها مقصودة متعمدة. وتعمد إلى تأليف المشاهدين والمستمعين والقرّاء على الثقافة الغربية، التي لم تستطع التخلص من التأثير الديني عليها في معظم سلوكياتها ومثلها ومبادئها. بل ربما لا تريد التخلص من هذا التأثير الديني، وتسعى إلى تعميقه وترسخيه ما دام سيحقق تبعية ثقافية تقود إلى تبعيات أخرى.

والإعلام يعد من الوسائل الحديثة غير التقليدية، وبخاصة في مجالات استغلال تقنية الاتصال وتقنية المعلومات، بحيث يمكن من خلال استغلال البث المباشر بث المواعظ والخطب والبرامج التنصيريَّة الموجهة، التي يمكن تقنيًّا مشاهدتها في جميع المجتمعات التي وصلت إلى مستوى تقني متقدم.

ولا يقتصر الأمر على هذه المجتمعات التي وصلت إلى مستوى تقني متقدم. ولا يقتصر الأمر على هذه المجتمعات، بل تنقل التقنية إلى المجتمعات الأقل تقدمًا من خلال إحداث محطات محلية (إ ف. إم.) صغيرة تنصيريَّة تبث هذه البرامج الإعلامية.

وكذا الحال مع الأجهزة الشخصية العارضة للأفلام والبرامج الجاهزة كأجهزة (الفيديو)

وغيرها من الوسائل الناقلة للمعلومات، بالإضافة إلى استغلال تقنية المعلومات الحديثة مثل البريد الإلكتروني، وشبكات المعلومات القابلة للاشترك الشخصي، مثل الشبكة الدولية الإنترنت.

وقد بلغ عدد أجهزة الكمبيوتر المستخدمة لخدمة التنصير (٢٠٦٩٦١٠٠٠) جهاز عام ١٩٩٦م.

ولقد قامت شركة مايكروسوفت لبرامج الكمبيوتر العالمية بتزويد المؤسسات التنصيريَّة ببرامج مجانية بقيمة خمسة ملايين دولار خلال عام ١٩٩٣م.

وقام القس الأمريكي المشهور «بيلي جراهام» صاحب معهد خاص بتنصير المسلمين بحملة صليبية تهدف للوصول إلى ٤٠٠ مليون شخص في ٥٠٠ مدينة، عن طريق الأقمار الصناعية عبر ١٦ قرصًا للأقمار الصناعية إلى ١٧٠ دولة.

وهذه هي أكبر عملية لنشر النصرانيَّة تستخدم فيها التكنولوجيا الحديثة بهذا الزخم.

ودعت الكنيسة في إنجلترا أتباعها إلى أداء الصلاة على الإنترنت، وفتحت الكنيسة موقعًا على الشبكة تبين من خلاله كيفية أداء الصلاة بشكل بسيط، وربطت الكنيسة في الموقع نفسه بين الالتزام بالصلاة وبين التمسك بالريجيم الغذائي أو المواظبة على العناية بحديقة المنزل.

كما بدأ عرض الأفلام التنصيريَّة في القرى الإفريقية في كينيا، ووصل عدد المسلمين الذين حضروا بعض هذه العروض ٢٠٠٠ مسلم، أبدى ٦٥ مسلمًا منهم استعدادهم للتحول إلى النصرانيَّة، وما أسرع ما كانت متابعة المنصرين لهم وتقديم العون والمساعدات لهم.

وفي إحدى السنوات بمعرض القاهرة الدولي للكتاب بيعت أفلام تنصيريَّة كثيرة كفيلم يسوع Jesus الذي صور حياة المسيح ومعجزاته، وغيره من أفلام على شاكلته بيعت بأرخص الأثمان.

ووافق بابا الفاتيكان على الظهور لأول مرة في فيلم غنائي أطلق عليه: «الرجل الذي جاء من بعيد».

كما أنتجت الكنيسة البروتستانتيَّة في أمريكا فيلمًا عن حياة المسيح من وجهة نظر الكنيسة بتكلفة عدة ملايين من الدولارات، ولقد شاهد الفيلم ٥٠٣ مليون شخص منهم ٣٣ مليونًا قرروا الالتزام بالمبادئ العامة للنصرانية، وتم عرض الفيلم في ١٩٧ دولة، واستفادت منه ٣٨٠ منظمة تنصيريَّة عرضته ضمن برامج دعوتها، والفيلم موجود بـ ٢٤١ لغة مختلفة، ويتم ترجمته حاليًا إلى أكثر من ١٠٠ لغة أخرى، ويقوم بالإشراف على عرضه ٣٢٠ فريقَ عرض.

٩- رعاية ومؤازرة طلائع الفساد ورءوس الشر في البلاد الإسلاميَّة

لقيت الأمة الإسلاميَّة-على مر العصور- عنتًا شديدًا من المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، وقد حذر الله منهم وأوجب جهادهم، والغلظة عليهم، إذ هم العدو، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فكم كانوا طلائع فساد في الأمة، وكم دعوا إلى إشاعة الفواحش، وكم أعانوا من أعداء، وكم فتحوا أمام الأعداء من أبواب موصدة وكم وكم... ولذا استغلت الجماعات التنصيريَّة هذا الطابور الخامس في تحقيق مآربها، وبلوغ غاياتها، يؤكد ذلك المنصر جاير دنر حيث يقول عن مؤازرتهم لهذا الطابور الخامس في بلاد فارس: «إن زعماء بختياري الذين أنجزوا الانقلاب الحالي وأصبحوا حكام الأمر الواقع، كانوا قبل أن يصلوا إلى هذه الشهرة المروعة- الأصدقاء الأوفياء لإرساليات جمعيَّة التبشير الكنسية، أو ليست هذه الحقيقة تجعل من الأهمية الحاسمة أن ندعم ونعزز أولئك العاملين من أجل البشارة في تلك البلاد ذات الأهمية الكبيرة في انشقاق الإسلام السني، وكانت الفرصة أكبر من سنين قليلة مضت عما هي عليه اليوم».

كما يوصي جاير دنر الجمعيَّات التنصيريَّة بدعم ومساندة طلائع الفساد في تركيا بقوله: «إن الاتجاه الخفي للشبان الأتراك أنفسهم نحو التسامح الديني هو في الغالب اتجاه متقدم، والحقيقة الفعلية بأن المسيحيَّة والمسيحيين في أعماق حركتهم إلى حد كبير ينبغي أن يؤدي نتائج هامة وبعيدة المدى... أو ليست هذه الحقائق دعوة للجميعات العاملة في الإمبراطورية العثمانية لتؤازر وتدعم عملها لكي تكون مستعدة لانتهاز فرصة الإفادة من الموقف المتسع».

إن هذه الجمعيَّات التنصيريَّة تدعم وتساند هؤلاء المنافقين رغبة في انتهاز الفرص المناسبة في الوقت المناسب لإشاعة الفاحشة والتبشير بالنصرانيَّة.

ومن هذا الدعم منح الجوائز التشجعية العالمية أو شبه العالمية لمن كان لهم دور بارز في خدمة قضايا التنصير أو حتى في قضايا ضد الإسلام.

فلقد منحت لجنة جائزة «أوناسيس» (الجائزة الكبرى) وقدرها ٢٥٠ ألف دولار أمريكي للأرثوذكسي بطرس غالي سكرتير عام الأمم المتَّحدة سابقًا نتيجة جهوده في التفاهم الدولي والتميز الجماعي، ويقصدون دوره الكبير في مشكلة البوسنة والهرسك، وقد أعلن عن تلك الجائزة مباشرة بعد سقوط الجيب الآمن الذي أعلنته الأمم المتَّحدة في سربنيتشا في البوسنة وقد قتل عدة آلاف من المسلمين العزل هناك.

واختارت جمعيَّة كنائس (ماترا) في فلندا الأسقف «باريد نابان» أسقف مدينة (توريت) في جنوب السودان لجائزة (السلام) التي تمنحها عادة لأولئك الذين يبذلون جهودًا كبيرة في هذا الميدان.

١٠- البعثات الدبلوماسية

البعثات الدبلوماسية في البلاد الإسلاميَّة عن طريق السفارات أو القنصليات أو الملحقيات الثقافية والتجارية والمؤسسات الأجنبية الرسمية الأخرى.

وعلى أي حال يدرّب بعض العاملين في المؤسسات الأجنبية الرسمية من سفارات وغيرها على التنصير قبل انخراطهم العملي في السلك الدبلوماسي، ويصدق هذا على العاملين النصارى.

ومثال ذلك قصة القنصل البريطاني في زنجبار جون كرك الذي دعا سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧م الأمين العام لجمعيَّة الكنيسة التنصيريَّة هنري رايت إلى سرعة إرسال المنصرين، وأكد على أهمية ذلك الدينيَّة والسياسية للوقوف في وجه ما سماه بالامتداد المصري التركي، أي الوقوف في وجه المد الإسلامي.

ومما يدخل في أعمال الملحقيات الثقافية الأجنبية، أي غير الإسلاميَّة، في هذا المجال إنشاء المدارس الأجنبية للجاليات الأجنبية وطبعها بالطابع التنصيري في المناهج وأوجه النشاط غير المنهجية، كالثقافة التي يبدو من ظاهرها التعريف بالبلاد التي تمثلها الملحقية، وفي باطنها الدعوة المختفية إلى التنصير.

١١- المستكشفون

المستكشفون الجغرافيون يعدون نواة أو مثالًا أو نموذجًا لاستغلال الأعمال العلميَّة في تحقيق أهداف غير علمية.

والمستكشفون الجغرافيون في البلاد الإسلاميَّة وغيرها توفدهم الجامعات والجمعيَّات العلميَّة للنظر في قضايا جغرافية وطبيعية علمية تحتاج إلى الوقوف عليها من أمثال ليفنجستون، وستانلي، اللذين بعثا من الجمعيَّة الجغرافية الملكية في بريطانيا في مهمة اكتشاف منابع النيل.

وفي يوغندا وجد المستكشف ستانلي أن الملك موتيسّا وحاشيته قد اعتنقوا الإسلام منذ زمن بعيد -حيث سبق المسلمون إلى إفريقيا فانزعج ستانلي عندما علم أن الحاكم قد اعتنق الإسلام، فسارع إلى إرسال خطاب إلى جريدة الديلي تلغراف ونُشر الخطاب في ١٧ / ١ / ١٢٩٢ هـ - الموافق ١٥ / ١١ / ١٨٧٥ م، وهو يعد نقطة تحول في تاريخ الإسلام الحديث في شرق إفريقيا ووسطها.

وقد بدأ ستانلي الخطاب بذكر اعتناق الحاكم موتيسا الإسلام على يد تاجر سمّاه خميس بن عبد الله ودعا إلى سرعة إرسال المنصرين والإرساليات، وخاصة من بريطانيا. وركز على عدم تأثير الوعظ وحده فحسب على شعب يوغندا الذكي. كما ركز على أن الرجل المطلوب هو المعلم النصراني الخبير المتمرس الذي يستطيع أن يعلم أفراد الشعب كيف يصبحون نصارى، فيعالج مرضاهم ويبني لهم المساكن، ويعلم الآهلين الزراعة، ويوجه يده إلى أي شيء «كما يفعل الملاح». مثل هذا الرجل سيصبح منقذ إفريقيا من الإسلام.

وكان من تأثير هذا الخطاب أن جمعت التبرعات، ووصلت في ذلك الوقت إلى ألفين وأربعمائة [٢٤٠٠] جنيه إسترليني بعد أقل من عام على نشر الخطاب في الجريدة الديلي تلغراف. وقد وزع المبلغ على الجمعيَّات التنصيريَّة، ومنه أرسلت الإرساليات التنصيريَّة، كما كان من تأثيره قيام جمعيَّات تنصيريَّة مر ذكر شيء منها، مثل الإرسالية الجامعية لوسط إفريقيا وإرسالية كنيسة اسكوتلنده الرسمية.

وتوافد المنصرون على إفريقيا عقب بعثة ليفنجستون وستانلي سنة ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨م،

فاقتسموا مناطقها مع اختلاف جنسياتهم بين ألماني واسكوتلندي وإنجليزي ومورافي، وهؤلاء انتشرت إرسالياتهم دون انقطاع من شرق إفريقية إلى أوسطها حتى الخرطوم والحبشة وبلاد الجلا. وجاءت هذه الإرساليات بنتائج حسنة.

١٢- الإغاثة

بعثات الإغاثة، حيث يهب الجميع رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا يجلبون معهم المؤن والملابس والخيام وغيرها، ويقدمونها على أنها نعمة من عيسى ابن مريم -عليهما السلام- سواء أكان هذا الإيحاء واضحًا بالرموز والشعارات، أم بطريق خفي يصلون إليه بحذر خوف الابتعاد عنهم.

ومعلوم الآن أن ميزانيات المنصرين في هذا المجال تخطت المائة وثمانين مليار دولار سنويًّا، ولو حصرت ميزانيات الهيئات الإغاثية الإسلاميَّة العاملة في الساحة لما وصلت إلى مليار دولار سنويًّا.

ويذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين في افتتاح مكتب هيئة الإغاثة الإسلاميَّة العالمية في الرياض أن المنصرين يقدمون الحلوى الطيبة النظيفة المغلفة للأطفال ويقولون هذه حلوى عيسى -عليه السلام- ويقدمون الحلوى المنتنة المكشوفة القذرة، ويقولون هذه حلوى محمد -صلى الله عليه وسلم- فيقر في ذهن الطفل ما يقر من مؤدى هذه الوسيلة المخادعة.

وبعد الحرب الأهلية في سيراليون عام ١٩٩٦م والتي قُتل فيها أكثر من عشرة آلاف شخص، وتسببت في نزوح مليون ونصف مليون شخص من منازلهم، قال «كرسبين كول» أحد قادة منظمة الإغاثة World Releif Corporation: «إن الأبواب مفتوحة أمامنا لتنصير هؤلاء المسلمين».

١٣- العاملون

استغلال العاملين النصارى في المجتمعات المسلمة على مختلف مستوياتهم العملية وتخصصاتهم من الأطباء والخبراء والممرضات والصيادلة والعمال المهنيين والحرفيين.

وتتضح هذه الوسيلة جيدًا في مجتمع الخليج العربي، حيث تفد مئات الآلاف من الطاقات البشرية الخبيرة وغير الخبيرة. ويفد مع هؤلاء المنصرون بثياب الطبيب والممرضة والفني والعامل. ويعملون على تثبيت إخوانهم النصارى و«حمايتهم» من الإسلام بإقامة الشعائر لهم، سرًّا في بعض المناطق، وعلنًا في مناطق أخرى، كما يعملون على تنصير المسلمين من الشباب والشابات ورجال الأعمال الذين يتسم بعضهم، أو جزء كبير منهم، بالأمية الثقافية وعدم القدرة على إدراك خطر هؤلاء، كما يتسم بعضهم بعدم المبالاة ما دام هؤلاء القادمون من «الخارج» يقدمون جوًّا ترفيهيًّا ينعكس إيجابيًّا على الإنتاج والعمل!!

وكانت هذه الوسيلة من الموضوعات التي ركز عليها مؤتمر المنصرين [السادس] الذي عقد في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة سنة ١٤٠٠ هـ الموافق سنة ١٩٨٠م، حيث أكد أحد رؤساء الجمعيَّات التنصيريَّة على ذلك بقوله: «إن الباب أصبح مفتوحًا لدخول النصرانيَّة إلى البلاد المغلقة، وذلك من

خلال الشركات الوطنية المتعددة، فهناك فرص لا حدود لها في هذا المجال بالنسبة للمنصرين، حيث الحاجة الملحة إلى مهماتهم لتطوير البلاد»

وبالمتابعة من قبل المعنيين بالأمر يعثر على أماكن للعبادة تُهيأ للنصارى سرًا في بعض أجزاء من منطقة الخليج العربيَّة، وعلنًا في أجزاء أخرى من المنطقة، ويعمل المخلصون على تبليغ السلطات المعنية لتتخذ الإجراءات الضرورية التي تتفق مع عقود العمل التي يوقع عليها هؤلاء.

والمسألة هذه مستمرة، إذ تعوَّد المنصرون في هذه المناطق عدم الاستسلام للجهات المتابعة أو للعقبات التي تعترض طريقهم، بل هي تعدّ مؤشرًا على أن هناك عملًا قائمًا منهم يستحق المقاومة.

وقد نقل عن السيد داريل اندرسون أحد أعضاء الكنيسة الإنجيلية الحرة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. وهو أيضًا من خبراء العملية التنصيريَّة قوله: نحن نتحرى المجالات التي تفتقدها الحكومات المسلمة حتى نبعث إليهم مختصين من عندنا وبعد ذلك نتحدث عن عقيدتنا بحرية في حدود القدر الذي تسمح به إيديولوجية الحكومة التي تستضيفنا.

وقول السيد داريل اندرسون هذا يتطابق مع ما ذكرته مجلة تايم الأمريكيَّة في تقرير نشرته في عددها الصادر في فبراير ٢٠٠٤م من: «أن خبراء العملية التنصيريَّة يحرصون على إيفاد منصرين إلى البلاد الإسلاميَّة المختلفة من المختصين في مجالات تحتاجها تلك البلاد وبفضل ذلك فقد استطاع نشاط المؤسسات والجمعيَّات التنصيريَّة أن يجد له موطئ قدم في بعض دول العالم الإسلامي مثل الجزائر، ويبدأ يؤتي ثماره فيها حيث ذكرت صحيفة الشرق الأوسط في تقرير عن اختراق بعثات التنصير منطقة القبائل في الجزائر نشرته في عددها الصادر يوم ١٥/ ٦/ ٢٠٠٤م: إن وزارة الشئون الدينيَّة والأوقاف الجزائريَّة تجري تحقيقًا واسعًا حول الموضوع، وتخص الظاهرة ولايتي تيزي وزو وبجاية»، وقالت: «يبدو أن الظاهرة أكثر وضوحًا في (تيزي ورو) باعتبار أن فيها كنيستين وعشرات البيوت التي حوّلها أصحابها إلى كنائس» في حين كانت صحف جزائرية قد أفادت أن الكنائس تنتشر بشكل مخيف في منطقة القبائل، وأن عددها وصل إلى خمس وخمسين كنيسة في ولاية تيزي وزو وحدها.

١٤- استغلال المناصب السياسيَّة والإعلاميَّة لخدمة التنصير

فرغم أن الكنيسة ما تزال ترفع شعار الابتعاد تمامًا عن السياسة إلا أنها تدفع بالرهبان والقسس لتقلد المناصب السياسية ليتسنى لهم من خلالها خدمة التنصير.

١- ففي خمس دول إفريقية هي: توغو، بنين، الكونغو، الغابون، زائير يترأس المجالس النيابية في هذه البلاد قسس ورهبان.

٢- حَكَم (جاليوس نيريري) وهو قس سابق متعصب تنزانيا (٧٥% مسلمون) لمدة ٢٦ سنة حشد خلالها كل أجهزة الدولة ضد الإسلام، وحرم المسلمين من حق التعليم والمناصب الإدارية

وممارسة شعائر دينهم، بل من حق المواطنة، في حين قدم التسهيلات والتشجيعات للكنيسة ورجالها، ولم تخلُ خطاباته خلال حكمه من التذكير بأنه نصراني يفتخر بذلك (حتى في خطابه في جامعة القاهرة في إبريل ١٩٧٦م)، ومثله الرئيس النصراني المتشدد (دانيل آراب مويْ) رئيس كينيا السابق.

٣- ولا يفوتنا هنا أن نذكر الدور البارز الذي قام به مجلس الكنائس العالمي في إدارة حرب الجنوب في السودان علمًا بأن عدد النصارى هناك لا يتجاوز ٧% من تعداد السكان في الجنوب كما أن العميل جون جارانج قائد التمرد هناك كان يتخذ الكنائس مقرًّا وقاعدة للانطلاق.

١٥- توطين النصارى في مناطق الأقلية المسلمة

وتشجيعهم على ذلك لتغيير الصبغة الإسلاميَّة لتلك المناطق.

والأمثلة في ذلك كثيرة:

١- تم توطين النصارى القادمين من روسيا في تراقيا الغربية ذات الأغلبية المسلمة في اليونان.

٢- أُجبِر المسلمون البوسنيون على الهجرة من أراضيهم ليحل محلهم الصرب الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك، وبلغ عدد هؤلاء المسلمين المهجّرين مليونًا و ٧٣٠ ألف مسلم حتى منتصف عام ١٩٩٥م، وتكرر الأمر مرة أخرى مع مسلمي كوسوفا.

٣- ويحدث مثل ذلك أيضًا في أقاليم غرب الصين؛ حيث الأغلبية المسلمة؛ إذ بلغ عدد المسلمين في الصين ٩٣ مليونَ مسلمٍ يمثلون ١٠% من مجموع السكان، ويُعتبرون أكبر أقلية مسلمة في العالم، وقامت الحكومة الصينيَّة بتهجير المسلمين من إقليم «نيتفشيا» ذي الأغلبية المسلمة وتوطين قرابة مليون شخص من غير المسلمين هناك، كما قامت بنقل ١ . ٣ مليون شخص من غير المسلمين إلى تركستان الشرقيَّة؛ وهذا كله سيخل بالتركيبة السكانية، وسيجعل الأقلية المسلمة تذوب وتندثر في أوساط غير المسلمين.

٤- نقل رئيس أساقفة الكنيسة الأرثوذكسيَّة الصربية مقر إقامته من بلجراد إلى كوسوفا إبان حملات الناتو ليقنع الصرب بالبقاء والمقاومة.

١٦- الأدب والثقافة

استغل التنصير ودعاته مجال الثقافة والأدب وسيلة لنشر أفكارهم الضالة وبث سمومهم بين المسلمين، فلم ينته الأمر بهذا المخطط الآثم إلى الاعتماد على التعليم والخدمات الاجتماعيَّة والطبيَّة والوسائل التقليدية لتنصير المسلمين وزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ بل سعى لاستغلال الأدب والثقافة حتى تتسع دائرة نشاطه ويصل إلى أكبر عدد ممكن من المسلمين؛ فقد قام المنصِّرون بتأليف الكتب والقصص والروايات التي تدعم نشاطهم حتى اشتهر في عالم الأدب ما عرف بـ(الأدب التنصيري) وهو يتمثل في ألوان الأدب المختلفة من قصة، ومسرحية، وقصيدة، ومقالة، وخاطرة، ونصوص سينمائية، وكلها تحمل في طياتها الدعوة إلى اعتناق النصرانيَّة والتنفير من الإسلام.

ولم يكن الأدب التنصيري يسير وحده؛ فقد نسق مع جهات أخرى كثيرة تشارك معه في المصلحة والهدف وركز على منهج التربية والتعليم في البلدان التي وقعت مستسلمة تحت سيطرة الغزاة سياسيًّا وعسكريًّا وفكريًّا.

ولم يقع الأدب التنصيري في السذاجة والسطحية، بل استخدم الإمكانات الفنية المتاحة له والمجربة في بلاده بدهاء وحنكة بالغين، فمزج السم بالدسم، ولجأ إلى التلميح بدلًا من التصريح، واستخدم الرمز وألوان الإثارة والتشويق، ونأى بجانبه عن السرد الأجوف والتعبير المباشر الممل، ووظف الإيحاءات توظيفًا ماكرًا، ورسم حركة الحياة والأفراد وأنماط السلوك رسمًا يتفق ومعتقداته ويبعد بها عن النماذج الإسلاميَّة.

والواقع أن القصة كانت المجال الخصب للدعوات التنصيريَّة في كل مكان، وهذه الروايات التنصيريَّة في عمومها تتخذ منهجًا خاصًّا، يمكن إيجازه فيما يلي:

١ - تصوير القساوسة والرهبان بصورة ملائكية فريدة، يخوضون الأخطار دون خوف، ويتَّسِمون بجمال الملامح وجلال المظهر وتألق الثياب وحُسن السَّمْت.

٢ - يتصف (رجل الله) كما يسمونه بالصبر والحلم وتقديم التضحيات دون مقابل.

٣ - يعمد الكُتَّاب التنصيريون أساسًا إلى البساطة في الأسلوب مهما كان المعنى عميقًا وتجنب التعقيد والغموض.

٤ - تشويه صورة الإسلام بطريقة غير مباشرة وإظهاره بمظهر الانحراف.

٥ - الحرص على الحفاظ على القيم الجمالية للشكل الفني؛ لأنه بدون ذلك لا يمكن أن يتحقق الهدف وينجح المخطط الموضوع.

والحركة التنصيريَّة حركة معادية للإسلام تضع الأدب وفنونه في المكان الصحيح؛ تخطط له وترصد له الإمكانات الماديَّة الكافية، وتهتم بترجمته إلى عديد من اللغات حتى يؤتي أكله في كثير من مناطق العالم الإسلامي، وتتكفل بحملات إعلان عنه، وتوعز إلى النقاد بتناوله بالتقييم والتقديم، وترصد له الجوائز العالمية الكبيرة، وتجعل منه مصدرًا لأعمال سينمائية وتلفزيونية ومسرحية، وتستنهض همم كبار الكتاب للمشاركة فيه وتنعم عليهم بأرفع الأوسمة وتعرض أعمالهم بأسعار رمزية وبشتى الوسائل.

والأدب التنصيري الغربي ليس في الحقيقة مجرد تبيان لمحاسن أخلاق المنصرين والقساوسة والرهبان فحسب، ولكن هناك ما هو أخطر من هذا التصور؛ إذ يهدف هذا الأدب إلى أمرين خطيرين هما:

١- تشويه صورة الإسلام والنيل منه، وتوهين عرى الالتقاء بين المسلم وتراثه العقدي والسلوكي.

٢- التمهيد لمفاهيم غربية أشد التصاقًا بالاتجاه الديني النصراني، ولعل هذا يفسر السلوك الغربي المنافي لعقيدتنا في السهرات والاختلاط، وتجاهل القيام بالفرائض، والتخلي عن السنن والآداب الإسلاميَّة.

وقديمًا كتب كل من (إسكندر دوين) و(بريدو) و (روسّو) و(فولتير) قصصًا تنصيريَّة أوسعوا الإسلام وأشبعوه فيها سبًّا وقذفًا، ولنسمع ما قاله توفيق الحكيم عن مسرحية (محمد) التي كتبها (فولتير)؛ حيث قال: «قرأت قصة فولتير التمثيلية (محمد) فخجلت أن يكون كاتبها معدودًا من أصحاب الفكر الحرّ؛ فقد سَبَّ فيها النبي صلى الله عليه وسلم سبًّا قبيحًا عجبت له، وما أدركت له علة؛ لكن عجبي لم يطل؛ فقد رأيته يهديها إلى البابا (بنوا الرابع عشر)».

ويضيف توفيق الحكيم: «لقد قرأت فيما بعد رَدّ البابا على فولتير فألفيته ردًّا رقيقًا كيّسًا لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله حديث في الأدب»[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٦٩، ٦٧٢- ٦٧٦)، التحذير من وسائل التنصير، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، مجلة البيان العدد ١٥٣ ص(٤٦- ٥٨)، كيف نواجه هجمة التنصير، محمد خميس.

الفصل الثامن

التنصير والاستعمار

هذا التنصير الذي يلبس لبوس الشفقة ويظهر الرحمة، ويقدم الدواء، ويعلم الصغار القراءة والكتابة لينهلوا من كفر النصارى ومجونهم وخلاعتهم... ما هو إلا وجه من وجوه الحروب الصليبية ومظهر من مظاهرها يوضح ذلك ما وصف به الأب اليسوعي ميز سياسة فرنسا الدينيَّة في الشرق حينما قال: إن الحرب الصليبية التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر لا تزال مستمرة إلى أيامنا... ولقد احتفظت فرنسا طويلًا بروح الحروب الصليبية وبالحنين إلى تلك الحروب حية في نفسها.

ويقول اليسوعيون في عرض نشاطهم التنصيري: ألم نكن نحن ورثة الصليبيين، أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي.

ولقد اجتهد النصارى في فرض نصرانيتهم بالقوة في العالم الإسلامي تحت مظلة الاستعمار حينًا، وتحت مظلة الضغوط الاقتصادية والسياسية حينًا آخر، يقول القس بيرس بيفر: في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت الحضارة الأوربية والسيطرة السياسية والقوة العسكرية تجتاح العالم، وكانت النصرانيَّة تتسنم غارب هذا المد، وأصبحت الطريق ممهدة أمام المبشرين، فانتشرت النصرانيَّة مع اتساع السيطرة الأوربية في العالم، ولقد قام الاستعمار والسيطرة العسكرية بدورهما في نشر النصرانيَّة.

والتنصير في حقيقته هو الامتداد الحقيقي للحروب الصليبية، فلئن كانت الحروب الصليبية حروبًا وحملاتٍ عسكرية، فإن التنصير حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه. يؤكد ذلك ما صرح به مخططو العمل التنصيري فقد أخبر المؤرخ جان دي جوانفيل -الذي رافق الملك لويس التاسع عشر ملك فرنسا في حملته الصليبية السابعة- عن ما انتهى إليه لويس التاسع عشر في خلوته في معتقله بالمنصورة التي أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين، وقد انتهى به التفكير إلى ما أفضى به إلى أعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا متوجهًا إليها من دمياط حيث قال: إنه لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وإن هذا العبء لا بد أن تقوم به أوربا كلها لتضييق الخناق على الإسلام ثم تقضي عليه، ويتم لها التخلص من الحائل الذي يحول دون تملكها لآسيا وأفريقيا.

ويقدر رينيه جروسيه أحد المؤرخين النصارى هذا التوجه الاستراتيجي للملك لويس التاسع بقوله: إن الملك لويس التاسع كان بذلك في مقدمة كبار ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسة لسياسة شملت مستقبل آسيا وأفريقيا بأسرهما.

وكان من ضمن ما تضمنته خطة لويس التاسع ما يلي: تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه، لا فرق بين النوعين إلا من حيث نوع السلاح المستخدم في المعركة، وتجنيد المبشرين الغربيين في هذه المعركة السلمية لمحاربة الإسلام، ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويًا، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنودًا للغرب.

وتبنت الدول العظمى هذه السياسة فحملت رايات التنصير؛ لأنه يحقق لها الأهداف التي تتطلع إليها سواء كانت دينية أم سياسية أم اقتصادية، إذ في عام ١٩٢٠م أصدرت لجنة التبشير الأمريكي -التي تهتم بالاستفادة من مناسبات الحروب للتنصير- كتابًا ذكرت في مطلع مقدمته ما يلي: من أبرز الأمور المتعلقة بدخول الولايات المتَّحدة في الحرب العالمية الأولى أن الآراء والمبادئ التي كانت تهدف إليها الإرساليات التبشيريَّة قد تبنتها الأمة الأمريكيَّة، ثم أعلنت أنها هي أهدافها الأخلاقية وغايتها من خوض تلك الحرب. . إن هذه المبادئ قد سميت الآن أسماء سياسية فقط.

وقد تفرض بقوة المستعمر وسطوته كما ذكر ذلك المنصر تشارلس كرافت حيث قال: إن استراتيجيَّة التنصير الأوروبية الأمريكيَّة كانت عمومًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعقلية الاستعمارية ولهذا السبب كانت ناجحة كلما تعرضت الشعوب إلى التأثير القوي وحتى إلى التخويف بواسطة الإنجازات الثقافية الأوربية الأمريكيَّة، لقد كنا تمامًا مثل المهودين.

وعلاقة الاستعمار بممارسة التنصير، وتبديل ثقافة الأمة بثقافة أخرى ليست لها يتضح من خلال خطاب الوزير الفرنسي (صالغندي) الذي ألقاه عام ١٨٤٦م أمام جمع من الأطباء العسكريين في الجزائر؛ ومن قوله: «مما لا شك فيه أن الحكومة الفرنسيَّة تعترف لكم بجميل إخلاصكم في معاملتكم للجنود؛ غير أن لكم مهمة أخرى أكثر أهمية؛ أنتم مدعوون إلى القيام بها وهي مؤازرتكم بقسط كبير في العمل على إدخال حضارتنا في بيئة القبائل العربيَّة والبربرية. إن تبشيركم سيكون ولا شك القادر على النجاح خلال السنوات المقبلة؛ ومن جهتنا سنقوم بكل مجهوداتنا لنوفر لكم كل الظروف وسط المواطنين للعمل على نشر التعليم الطبي الذي سيصبح نافعًا في الوقت نفسه للإنسانية ولتثبيت قوتنا في هذا البلد».

وبقراءة هذا الخطاب يظهر أمامنا ثلاثة أمور أساسية:

١- الارتباط الوثيق بين التنصير والاستعمار، وأن للتنصير دورًا ثقافيًا إمبرياليًا.

٢- أشار الوزير إلى دور هؤلاء الأطباء في إدخال الحضارة الغربية في البنية العربيَّة ولكن بإدخال الثقافة الاستعمارية وليس إيجابيات الحضارة الغربية؛ بدليل أن الاستعمار الفرنسي للجزائر الذي زاد على ثلاثة قرون وثلث القرن لم تجنِ منه الجزائر إلا تخلف أبنائها ونهب خيراتها واستيطان أراضيها وإذلال شعبها.

٣- أن السلطات الاستعمارية كانت تدعم كل الجهود التي تساعد في التأثير الثقافي.

وحتى بعد رحيل المستعمرين عن ديار الإسلام ظل التأثير الثقافي مسلطًا على الديار التي

استعمروها عن طريق الجامعات الغربية كالجامعات الأمريكيَّة في كثير من الدول العربيَّة، والمدارس الغربية كذلك، وفي مصر وحدها أكثر من تسع مؤسسات تعليمية بين جامعة وكلية ومدرسة أمريكية وإنجليزية تمارس التنصير.

وكذلك عن طريق الأبناء العاقين لأمتهم المخلصين للغرب النصراني الذين درسوا في الغرب وتشربوا ثقافته، ثم سُلِّموا وزارات التربية والثقافة في البلاد الإسلاميَّة، وأُعطوا المنابر الإعلامية ليقوموا بتشويه الثقافة الإسلاميَّة، والدعاية لثقافة المستعمرين، والدعوة إلى الأخذ بها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها. . . كما قال طه حسين، وكما قال تركي الحمد: لا يمكن أن تأخذ السيارة ولا تأخذ ثقافتها أي: ثقافة صانعها.

وعن طريق النوادي الماسونية أيضًا، والجمعيَّات الغربية من نسائية وغيرها التي أنشئت في العالم الإسلامي ويصلها كل الدعم المادي والمعنوي من المستعمرين.

وفي العراق إذ أصبح هو الآخر هدفًا لحملات التنصير وهذا ما كشف عنه التقرير الذي نشرته مجلة التايم الأمريكيَّة في عددها الصادر يوم ٢٧ فبراير ٢٠٠٤م والذي أشار بالقول: «استعدادات المنصرين الإنجيليين والكاثوليك لاجتياح العراق بعد ما انفتحت أبوابه لهم على مصاريعها في ظل الاحتلال وهو ما حدث من قبل في أفغانستان حيث هيأ الاحتلال الأمريكي فرصة مواتيه لأولئك المنصرين وقالت: «إنه بينما كانت القوات الأمريكيَّة تحتشد وتستعد لغزو العراق، كانت المنظمات التنصيريَّة تعد برامج موازية لإعداد المبشرين عن طريق تعريفهم بجغرافية العراق والعالم العربي وبظروفه الاجتماعيَّة، ثم تعريفهم بالإسلام وتلقيهم عبر مائة وخمسين محاضرة كيفية التعامل مع المسلمين والنفاذ إلى قلوبهم وعقولهم».

وذكرت مجلة نيوزويك الأمريكيَّة أن البيت الأبيض أعلن الأسبوع الماضي أنه لن يمنع ما أسماه «الجمعيَّات الخيرية المسيحيَّة» من ممارسة مهامها التنصيريَّة داخل العراق. ويدين ٩٨% من العراقيين البالغ عددهم ٢٤ مليون نسمة بالإسلام، فيما يدين ٢% فقط بالمسيحيَّة واليهوديَّة.

وقالت المجلة في عددها على الإنترنت الذي نشر الخميس ١/ ٥ / ٢٠٠٣: إن جمعيَّة الكتاب المقدس الدولي أرسلت إلى العراق ١٠ آلاف نسخة من كتيبات باللغة العربيَّة، وتحمل عنوان «المسيح جاء بالسلام».

وأضافت أن الجمعيَّة تعتزم إنتاج ما يقرب من ٤٠ ألف نسخة أخرى في شهر مايو الجاري، غير أنه لم يتم الإعداد بعد لنسخ هذه الكتيبات باللغة الإنجليزية.

ولم تنشر جمعيَّة الكتاب المقدس الدولي أسماء ما تسميهم بـ«الجماعات الخيرية» التي ستقوم بتوزيع تلك الكتيبات في العراق.

ويقول روبرت فيزرلين المتحدث باسم التحالف المسيحي المبشر -إحدى الجمعيَّات المسيحيَّة التي ستقدم على الخطوة نفسها- للمجلة: «سنكون حذرين إزاء هذه المسألة».

وأضاف موضحًا «سيتم الإشارة إلى المبشرين على أنهم عاملون تابعون لكنيسة مسيحية»، مشيرًا إلى أن كلمة التبشير أصبحت كلمة سيئة.

أما مارك كيللي المتحدث باسم مجلس التبشير الدولي، فأكد أنه سيتم إرسال أيضًا نسخ من الكتاب المقدس إلى العراق، مشيرًا إلى أن المجلس يقوم بإرسال الأطعمة في صناديق مكتوب عليها كلمات من الكتاب المقدس.

كانت منظمتان تنصيريتان أمريكيتان هما المؤتمر المعمداني الجنوبي أكبر التجمعات البروتستانتيَّة في الولايات المتَّحدة، وفرانكلين جراهام ساماريتانس بيرس -قد أعلنتا أواخر شهر مارس ٢٠٠٣ أنهما تعدان فرق عمل لدخول العراق ونشر الديانة المسيحيَّة بين مواطنيه بعد انتهاء الحرب[١].

---

(١) انظر: التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، مجلة البيان العدد ١٥٤ ص(٥٢- ٦٢)، كيف نواجه هجمة التنصير.

الفصل التاسع

التنصير واليهود

عمل اليهود على مؤازرة التنصير عندما تحولت النصرانيَّة على يد شاءول أو بولس إلى خليط من الثقافات السابقة عليها، بما فيها اليهوديَّة المحرّفة، فكان هذا التآزر بين اليهوديَّة والنصرانيَّة في المجتمعات المسلمة وغير المسلمة يبرز بوضوح عندما تحتدم المشكلات المحلية أو الإقليمية، ويكون لإحدى النحلتين ضلع فيها، كما برز في الحرب الأهلية اللبنانية، وكما يبرز في حرب السودان ضد المتمردين النصارى في الجنوب، وكما برز كذلك في الحرب على المسلمين في البوسنة والهرسك، وفي كوسوفو الألبانية.

وتعمل المؤسسات اليهوديَّة داخل فلسطين المحتلة وخارجها على تعضيد التنصير وتحقيق بعض أهدافه التي تتفق مع المنطلقات والمصالح اليهوديَّة الراسخة في العقيدة، من أن الآخرين خدم لليهود وعالة عليهم كما هو مصرح به في بروتوكولات حكماء صهيون.

يقول عجاج نويهض مشيرًا إلى أساليب اليهود في ترسيخ وجودهم وتأثيرهم: حتى إذا انطلقوا بعد الثورة الفرنسيَّة يضعون مخططًا قائمًا على أساسين، كان هذان الأساسان هما:

١ - عقيدة أنهم شعب الله المختار.

٢ - عقيدة أن هذا الشعب المختار يستطيع أن يفسد العالم ويعطله ويخربه ليقيم على أنقاضه ملكًا يهوديًا داوديًا، يتفرد بحكم العالم بأسره، وما الأمم والشعوب إلا حيوانات متخلفة العقل والذهن والفهم...

أما عقيدتهم أنهم شعب مختار؛ فالإشارة إليها وإلى الماسونية شيء كثير في البروتوكولات.

وأما قدرتهم على أن يصلوا إلى نهاية مبتغاهم، فنحسب أن القطار قد فاتهم؛ ولكن قد يطول بالعالم الأمريكي والبريطاني الأمد وهو مخدر تخديرًا يهوديًا، وأهم عوامل هذا التخدير ليس الذهب والمرأة والجاسوسية، بل التنصير ظاهريًا والبقاء على اليهوديَّة باطنًا.

وقد أكثر اليهود من استعمال هذه الخدعة وبعد طردهم من البرتغال وإسبانيا وقيام مجلس التفتيش عليهم بالعذاب المعلوم.

وهكذا كان إسلام اليهود الذين جاءوا المملكة العثمانية بعد القرن الخامس عشر فأسلموا وسموا بالدونمة أي المهتدين.

وقد ظهر في صفوف المنصرين يهود منصرون وعمل بعضهم في المنطقة العربيَّة.

ويذكر أن صموئيل زويمر وعائلته كانوا يهودًا، وأن زويمر نفسه مات على اليهوديَّة، وهو يعد من أبرز المنصرين في المنطقة العربيَّة، ويكثر ذكر اسمه عند أي حديث عن التنصير في المجتمع

العربي. وقد آزره في هذا فريق من المنصرين الذين كانوا يعملون معه في المنطقة نفسها، وفيهم أخوه بيتر وزوجته إي. لو زويمر.

يقول عبد الله التل: وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن صموئيل زويمر هذا، الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنوه في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عامًا انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢، قد كشف عن يهوديته الدفنية الراسخة في أعماق نفسه، وذلك بأن طلب حاخاما يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره. وقد أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس، أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانيَّة، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيَّات التبشير التي تبذل الملايين عبثًا، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبثِّ الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحيَّة.

ويخفي اليهود انتماءاتهم اليهوديَّة وينخرطون في أعمال دينية قد تصل أحيانًا إلى التظاهر بالإسلام قصدًا إلى الإسهام في مصادرته والتظاهر بالنصرانيَّة من باب أولى، نظرًا لما للنصارى من قبول في المجتمع المسلم أكثر من قبوله لليهود.

وهذا يحقق لليهود أهدافًا أبرزها رسوخ اليهود في فلسطين المحتلة مدة أطول مما لو جابههم المسلمون بإسلامهم[(١)].

---

(١) انظر: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، بروتوكولات حكماء صهيون نصوصها، رموزها، أصولها التلمودية، عجاج نويهض ص(٢٩٦ - ٢٩٧)، جذور البلاء ص(٢٢٨).

الفصل العاشر

إمكانات المنصرين

١- في أندونيسيا يسيطرون على وسائل الإعلام، ولديهم إذاعات تبشيريَّة وصحف قومية، وإحصائية عام ١٩٧٥م تكشف بأن فيها ٨٩١٩ كنيسة لطائفة البروتستانت و٣٨٩٧ قسيسًا و٨٥٠٤ مبشرين متفرغين، ولطائفة الكاثوليك ٧٢٥٠ كنيسة و٢٦٣٠ قسيسًا و٥٣٩٣ مبشرًا متفرغًا، وقد وضعوا خطة للانتهاء من تنصيرها في عام ٢٠٠٠ ميلادية.

٢- في بنجلاديش إرساليات تبشيريَّة كثيرة لتنصير المسلمين هناك.

٣- في كينيا: يعدون لتنصيرها تمامًا في عام ٢٠٠٠ ميلادية أيضًا.

٤- إن التنصير يلقي بثقله في ماليزيا ودول الخليج وإفريقيا.

٥- ذكر في مؤتمر عدم الانحياز في كوالالمبور بأن هناك حوالي ٢٥٠٠ محطة إذاعية بـ ٦٤ لغة قومية تشن هجومًا صريحًا وضاريًا ضد الإسلام.

٦- مجموع الإرساليات الموجودة في ٣٨ بلدًا إفريقيًا يبلغ ١١١,٠٠٠ إرسالية بعضها يملك طائرات تنقل الأطباء والأدوية والممرضات لعلاج المرضى في الغابات وأحراش الجبال.

٧- يوجد الآن في العالم ما يربو على ٢٢٠ ألف مبشر، منهم ١٣٨,٠٠٠ كاثوليكي، والباقي ٨٢,٠٠٠ بروتستانتي، وفي إفريقيا وحدها ١١٩,٠٠٠ مبشر ومبشرة ينفقون بليوني دولار سنويًا.

٨- يستخدمون سفنًا معدة إعدادًا خاصًا يسمح بإقامة الحفلات على ظهرها للاستعانة بها في توزيع المطبوعات الكنسية وإقامة الحفلات التي تستغل لأهدافهم الخاصة في التنصير، ويعلنون عنها باسم إقامة معرض عائم للكتاب.

٩- يقوم مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان وهيئات أخرى بالإشراف والتوجيه والدعم المالي لكافة الأنشطة التنصيريَّة، وتتوفر مصادر تمويل ثابتة من مختلف الحكومات والمؤسسات في الدول الغربية، وعن طريق المشروعات الاقتصادية، والأراضي الزراعية، والأرصدة في البنوك والشركات التابعة لهذه الحركات التنصيريَّة مباشرة، وحملات جمع التبرعات التي يقوم بها القساوسة من حين لآخر.

١٠- استخدام المقاييس العلميَّة والتجارب المعملية في ميدان الدعوة إلى النصرانيَّة، فقد قدم بحث إلى مؤتمر كلورادو التنصيري المنعقد عام ١٩٧٨م قارن فيه المنصر بين تجربة الأرض المزروعة وكيفية اختبار التربة وتهيئتها ومتابعة الزرع حتى الحصاد وبين طريقة المنصر في بث دعوته وتعهدها ومتابعتها.

كما قدم في هذا المؤتمر بحث بعنوان تطبيق: «مقياس إينكل» في عملية تنصير المسلمين.

١١- مشاريع التنصير: طبقًا لإحدى الدراسات التنصيريَّة؛ فإنه ينشط في أنحاء العالم الآن ٣٨٧ مشروعًا تنصيريًا عالميًا، و٢٥٤ مشروعًا منها تحرز التقدم والنتائج المرجوة، ويعتبر ٢٥٤ مشروعًا من هذه المشاريع مشاريع واسعة النطاق، وهي التي ينفق كل واحد منها على العمل التنصيري عشرة آلاف ساعة عمل أو أكثر من عشرة ملايين دولار سنويًا على مدى عشر سنوات.

و ٣٣ مشروعًا من هذه المشاريع هي ما توصف بـ «المشاريع الضخمة» وهي التي ينفق كل واحد منها مائة ألف ساعة عمل أو مائة مليون دولار سنويًا أو ألف مليون دولار عبر عمرها، وأكبر هذه المشاريع الضخمة ينفق الآن ٥٥٠ مليون دولار سنويًا على أنشطتها التنصيريَّة في أنحاء العالم.

١٢- قوة المال: استخدم المنصرون إلى جانب القهر والسلطة والسياسة، قوة المال ووسائل الدعاية، فقد بلغت الأوضاع المالية للكنائس العالمية أن المسيحيَّة العالمية المنظمة أنفقت في الثمانينيات ١٤٥بليون دولار سنويًا، ويعمل في أجهزتها ١,٤ ملايين عالم متفرغ، وهي تدير ١٣٠٠٠ مكتبة عامة كبرى، وتنشر ٢٢٠٠٠ مجلة بمختلف اللغات عبر العالم، كما تنشر ٤ بلايين نسخة من الكتب في العام الواحد، وتدير ١٨٠٠ محطة إذاعية وتليفزيونية في أنحاء العالم، وتستخدم المنظمات الكنسية ٣ ملايين جهاز كمبيوتر، ويُوصف أخصائيو الكمبيوتر المسيحيون بأنهم جيش مسيحي من نوع جديد.

أموال التنصير: من المعروف أن الكنيسة تمتعت دائمًا بمصادر ضخمة. ولكنها لم تحسن استخدامها دائمًا. ومن ذلك أن مشروعًا تنصيريًا معينًا جمع له ٣٣٦ مليون دولار سنة ١٩١٨م ولكنه انهار خلال أسبوع واحد من قيامه، كما أن مشروعًا ضخمًا آخر للتنصير جُمِعَ له مبلغ ١٥٠ مليون دولار في الولايات المتَّحدة ثم أنهار فجأة سنة ١٩٨٨م نتيجة فضيحة أخلاقية وإدارية تتعلق ببعض كبار المنصرين، والإشارة هنا إلى القسين الأمريكيين (باكير) و (جيمي سواغارت) قائدي منظمة مجالس الله.

١٣- **الإخطبوط التنصيري**: إخطبوط التبشير المسيحي بلغ في سنة ١٩٨٥م ربع مليون مبشر مسيحي غربي في آسيا وإفريقيا، يمثلون ٣,٥٠٠ منظمة وجمعة تبشيريَّة في الغرب، يساعدهم ٥,٣ مليون مبشر محلي.

وينفق الغرب أموالًا طائلة على هذا المجهود فحسب قول دافيد وارين الذي يحرر دائرة المعارف المسيحيَّة العالمية: أنفقت الإرساليات المسيحيَّة عبر العالم ٧٠ بليون دولار سنة ١٩٧٠ و١٠٠,٣ بليون دولار سنة ١٩٨٠م، وكان الرقم المتوقع لسنة ١٩٨٥م هو ١٢٧بليون دولار. وبهذه الزيادة المطردة، لا بد أن يكون إنفاق الإرساليات الحالي عبر العالم قد جاوز مائتي بليون دولار في السنة.

١٤- وفي نشرة وزعتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي جاء فيها أن عدد النصارى في العالم يبلغ مليارًا، وسبع مائة وعشرين مليون (١٧٢١٠٠٠٠٠٠) نسمة.

ويبلغ عدد المنظمات التنصيريَّة في العالم أربعة وعشرين ألفًا وخمسمائة وثمانين (٢٤٥٨٠) منظمة.

وعدد المنظمات العاملة في مجالات الخدمة يزيد عن عشرين ألفًا وسبعمائة (٢٠٧٠٠) منظمة.

ويبلغ عدد المنظمات التي تبعث منصرين متخصصين في مجالات التنصير والإغاثة ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانين (٣٨٨٠) منظمة. ويزيد عدد المعاهد التنصيريَّة على ثمانية وتسعين ألفًا وسبعمائة وعشرين (٩٨٧٢٠) معهدًا تنصيريًّا.

ويبلغ عدد المنصرين المتفرغين للعمل خارج إطار المجتمع النصراني أكثر من مائتين وثلاثة وسبعين ألفًا وسبعمائة وسبعين (٢٧٣٧٧٠) منصرًا.

ويزيد عدد الكتب المؤلفة لأغراض التنصير على اثنين وعشرين ألفًا ومائة (٢٢١٠٠) كتاب في لغات ولهجات متعددة.

ويبلغ عدد النشرات والمجلات الدوريَّة المنتظمة ألفين ومائتين وسبعين (٢٢٧٠) نشرة ومجلة، توزع منها ملايين النسخ بلغات مختلفة.

ويزيد عدد محطات الإذاعات التنصيريَّة على ألف وتسعمائة (١٩٠٠) إذاعة، تبث إلى أكثر من مائة (١٠٠) دولة وبلغاتها.

وذكرت النشرة أن مجموع التبرعات التي حصل عليها المنصرون لعام واحد حوالي مائة وواحد وخمسين مليارَ (١٥١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) دولارٍ أمريكي.

وعلى أي حال فالأرقام والإحصاءات عالية ومتغيرة بسرعة عجيبة؛ نظرًا لتطور ظاهرة التنصير وأساليبه في نشر التنصير بين الناس بعامة.

١٥- إحصائية التنصير لعام ١٩٩٩م:

عدد أعضاء كل طائفة	عام ١٩٧٠	عام ١٩٩٩	عام ٢٠٢٥
الكنيسة الإنجليزية	٤٧,٥٢٠,٠٠٠	٧٤,٥٠٠,٠٠٠	١١٠,٠٠٠,٠٠٠
الأرثوذكس	١٤٧,٣٦٩,٠٠٠	٢٢٢,١٢٠,٠٠٠	٢٧١,٧٥٥,٠٠٠
البروتستانت	٢٣٣,٨٠٠,٠٠٠	٣٢١,٣٥٨,٠٠٠	٤٦١,٨٠٨,٠٠٠
الكاثوليك	٦٧١,٤٤١,٠٠٠	١,٠٤٠,٠١٨,٠٠٠	١,٣٧٦,٢٨٢,٠٠٠
النصارى في إفريقيا	١٢٠,٢٥٧,٠٠٠	٣٣٣,٣٦٨,٠٠٠	٦٦٨,١٢٤,٠٠٠
عدد المنصرين الأجانب	٢٤٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٥٥٠,٠٠٠
عدد المنصرين المحليين	٢,٣٥٠,٠٠٠	٤,٩١٠,٠٠٠	٦,٥٠٠,٠٠٠
التبرعات للكنيسة	٧٠ بليون دولار	١,٤٨٩بليون دولار	٢٦ بليون دولار
الجرائم المتعلقة بالكنيسة	٥ مليار دولار	١٢,٢ مليار دولار	٦٥ مليار دولار
عناوين الكتب النصرانيَّة التي تم طباعتها	١٧١٠٠	٢٤٨٠٠	٧٠,٠٠٠ عنوانًا

	عام ١٩٧٠	عام ١٩٩٩	عام ٢٠٢٥
المجلات الدوريّة النصرانيّة	٢٣٠٠٠	٣٣٧٠٠	١٠٠,٠٠٠
عدد الأناجيل وأجزاء الأناجيل التي تم طباعتها	٢٥١ مليونًا	٢,١٤٩,٣٤١,٠٠٠	٤,٤٣٠,٠٠٠
عدد محطات الإذاعة والتلفزيون التنصيريّة	١٢٣٠	٣,٧٧٠	١٠ ,٠٠٠ محطة
عدد مخططات التنصير في العالم	٥١٠	١٣٤٠	٣٠٠٠ خطة

١٦- نشرت المجلة الدولية للبحوث الآثارية الأمريكيّة International Bulletin of Missionary Research بعض الأرقام عن النشاط التنصيري لعام ١٩٩٠م:

عدد المنظمات العاملة:

٢١٠٠٠ منظمة.

عدد المعاهد التي تبعث بمنصرين:

٣٩٧٠ منظمة.

عدد المعاهد التنصيريّة:

٩٩٢٠٠ معهد.

عدد المنصرين العاملين داخل أوطانهم:

٣٩٢٣٠٠٠ منصر.

عدد المنصرين العاملين خارج أوطانهم:

٢٨٥٢٥٠ منصر.

عدد المجلات والدوريات التنصيريّة:

٢٣٨٠٠ مجلة دورية.

عدد نسخ الإنجيل والعهد الجديد:

١٢٩ مليون نسخة.

التبرع للكنيسة:

١٥٧ بليون دولار.

أنواع الكتيبات الجديدة:

٦٥٦٠٠ كتيب.

عدد محطات الإذاعة والتلفزيون:

٢١٦٠ محطة.

عدد المستمعين والمشاهدين شهريًّا:

١٣٦٩٦٢٠٦٠٠ شخص.

ونشرت المجلة نفسها إحصائية أخرى لأعمال التنصير لعام ١٩٩٦م جاء فيها:

عدد المنظمات العاملة:

٤٥٠٠ منظمة.

عدد المنظمات التي تبعث بمنصرين:

٢٣٢٠٠ منظمة.

عدد المنصرين العاملين داخل أوطانهم:

٤٦٣٥٥٠٠ منصر.

عدد المنصرين العاملين خارج أوطانهم:

٣٩٨٠٠٠ منصر.

التبرع للكنيسة:

١٩٣ بليون دولار.

عدد أجهزة الكمبيوتر في خدمة التنصير:

٢٠٦٩٦١٠٠٠ جهاز.

أنواع المجلات والدوريات التنصيريَّة:

٣٠١٠٠ مجلة دورية.

عدد نسخ الأناجيل والعهد الجديد:

١٧٨٣١٧٠٠٠ نسخة.

عدد محطات الإذاعة والتلفزيون:

٣٢٠٠ محطة.

١٧- نماذج من الخدمات التي تقدم للمنصرين في أمريكا:

هناك أكثر من ٦٠٠ مدرسة متخصصة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بتدريس أبناء المنصرين الذين يعيشون في إفريقيا وآسيا وغيرها kids schools missonary.

هناك شركات كثيرة متخصصة في نقل احتياجات القسس والمنصرين إلى أي مكان في العالم بسعر زهيد.

هناك شركات متخصصة في توفير السكن للقسس والمنصرين خلال الإجازة التي يقضونها في الولايات المتَّحدة كل ٧ سنوات.

هناك شركات متخصصة في التأمين على السيارات للقسس والمنصرين الذين يقضون هذه الإجازات بسعر زهيد مقارنة بالشركات التي تطلب مبالغ كبيرة عندما لا يكون الشخص ذا خبرة في قيادة السيارة في أمريكا خلال السنوات التي قضاها في إفريقيا وآسيا أو تفرض شركات التأمين عليهم؛ لأنهم يشكلون خطرًا كبيرًا في القيادة.

هناك شركات لتزويد القسس والمنصرين بالمعدات التي لا تحتاج إلى كهرباء مثل الثلاجات وغيرها التي تعمل بطاقة بديلة مثل الكيروسين، أو حركة السي دي للمسجلات... إلخ.

هناك مستشفيات نفسية خاصة لعلاج القسس والمنصرين الذين يحتاجون للعلاج النفسي سواء في الميدان أو في شمال أمريكا.

هناك شركات متخصصة في عمل برنامج توفير مالي للمنصرين، يشارك فيه المنصر والمؤسسة التي أرسلته حتى تضمن له حياة كريمة بعد التقاعد، وشركات أخرى تهتم بتوفير مبالغ لتعليم أولاد المنصرين.

هناك شركات لتدريب المنصرين على كيفية التصرف في الأزمات مثل الانقلابات العسكرية، الاضطربات الأمنية، هجوم إرهابي... إلخ.

١٨- إحصائيَّة بالمنصرين الكاثوليك:

السنة	عدد المنصرين الأمريكان الكاثوليك من الولايات المتَّحدة إلى الخارج
١٩٦٠	٦٧٨٢
١٩٦٤	٧١٤٦
١٩٦٨	٩٦٥٥
١٩٧٢	٧٦٥٦
١٩٧٦	٧٠١٠
١٩٨٠	٦٦٠١
١٩٨٤	٦٣٩٣
١٩٨٨	٦٢٤٦
١٩٩٢	٦٠٣٧
١٩٩٦	٦٠٦٣

١٩- توزيع الأناجيل في العالم:

ازدادت كمية الأناجيل الموزعة على المستوى العالمي إلى رقم جديد لم يسبق الوصول إليه في الماضي؛ حيث بلغت النسبة ١٤٠% مما كانت عليه في العام الماضي وهذه الإحصائيات تشمل ما تم توزيعه عن طريق جمعيَّات الإنجيل المتَّحدة فقط كما هو مبين أدناه:

إفريقيا: ٤,٢٠٨,٥٦٨ إنجيل.

آسيا: ٢٥,٦٩٧٧,٦١١إنجيل.

الأمريكتان: ١٥,٧٦٣,٦٢إنجيل.

وقد سمحت الصين لمطبعة أميتي في نيانجنج بطباعة ١٥ مليون نسخة نقلًا عن التقرير العالمي لجمعيَّات الإنجيل المتَّحدة ١٩٧٧م.

٢٠- ٤٠٠٠ وكالة تنصيريَّة:

والعمل التنصيري الخارجي هو أهم ما يشغل الكنائس المنظمة هذه الأيام، ففي الوقت الحاضر هناك ٤٠٠٠ وكالة تنصيريَّة (أي منظمات تعمل خصيصًا في حقل التنصير) يعمل بها ٢٦٢ . ٣٠٠ منصر متفرغ، وهم يكلفون الكنائس ٨ بلايين دولار سنويًّا، وكل سنة يصدر ١٠٠٠٠ كتاب وبحث جديد حول التنصير الخارجي.

٢١- إحصائية عن المنظمات:

اسم المنظمة التنصيريَّة البروتستانتيَّة الأمريكيَّة	عدد الإرساليات الخارجية
مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين	٣٨٣٩
شباب ذوي رسالة	٢٥٠٦
جمعيَّة ويكلف الدولية لترجمة الإنجيل	٢٢٦٩
إرسالية القبائل الجديدة	١٨٠٧
كنيسة المسيح	١٧١٧
اجتماعات الإله	١٥٣٠
كنائس المسيح	٩٨٢
اتحاد النصارى والإرساليات	٩١٧
منظمة تيم	٨٧٢
السبتيين	٨٤٢
زمالة الإنجيل المعمدانية الدولية	٧٣٤

٢٢- أكبر ١٠ منظمات تنصيريَّة بريطانية (الدخل والأوقاف):

اسم المنظمة	الدخل	الأوقاف
مجلس كنيسة إنجلترا	٢٥٧ مليون جنيه استرليني	٢٣٨١مليون جنيه إسترليني.
جمعيَّة برناردو للأطفال	٧٧,٢ مليون جنيه استرليني	١٧٤ مليون جنيه إسترليني.
العون المسيحي	٧,٤٣ مليون جنيه استرليني	١٧،٣ مليون جنيه إسترليني.
جيش الخلاص (العمل الاجتماعي)	٤٣،٣ مليون جنيه استرليني	٨٠،٣ مليون جنيه إسترليني.
جيش الخلاص (صندوق الوقف)	٣٣,١ مليون جنيه استرليني	١٦٥ مليون جنيه إسترليني.
فريق الكنيسة للإسكان	٤٠,٧ مليون جنيه استرليني	٢٨٣ مليون جنيه إسترليني.
جمعيَّة الإنجيل	٣٤,٤ مليون جنيه استرليني	٧,٨٥ مليون جنيه إسترليني.
جمعيَّة الشبان المسيحيين	٣٠,٦ مليون جنيه استرليني	٤,٩٧ مليون جنيه إسترليني.
كنيسة المسيح وقديسي اليوم الآخر	٢٥,٩ مليون جنيه استرليني	٩,٥٧ مليون جنيه إسترليني.
صندوق منظمة تير	٢٤,٧ مليون جنيه استرليني	٩,٤٥ مليون جنيه إسترليني.

٢٣- التنصير في باكستان:

سنة ١٩٩٢م كانت خصبة جدًّا للمنصرين في كراتشي؛ فقد تضاعف عدد المتنصرين خلال هذه السنة، ففي شهر ديسمبر ١٩٩٢م وحده اعتنق أكثر من ٥٠ مسلمًا النصرانيَّة في مدينة كراتشي، بينما عدد المتنصرين في المدينة خلال سنة ١٩٩٢نحو ٦٠٠ شخص، ومن أسباب هذه الزيادة أن الجهود التبشيريَّة بدأت تؤتي الآن ثمارها بعد جهد طويل. إلا أن غالبية المتنصرين كانوا من الشيعة والإسماعيلية، ولكن هناك نسبة لا بأس بها من أهل السنة الذين تنصروا لأسباب مختلفة.

يقول أحد الأساقفة: حينما أذهب إلى باكستان لأدعو إلى المسيحيَّة في إرجائها بكل حرية لا يصيبني أذى من الحكومة أو الشعب.

٢٤- قد ازداد عدد سكان بنجلاديش (١٢٠) مليون من (٧٠) مليون منذ استقلال البلاد، بينما ازداد عدد المسيحيين ليصل إلى ٣ ملايين من أصل (٢٥٠) ألف مسيحي في الوقت نفسه. هذا يعني أنه ازداد عدد السكان أقل من ضعفين بينما ازداد عد المسيحيين أكثر من عشرة أضعاف في ثلاثين عامًا مضت في بنجلاديش.

٢٥- ذكرت نشرة صوت الشهداء التنصيريَّة The voice of the martyrs أنهم يسعون لجمع الأموال لتوزيع كتاب (معاناة فانتصار) باللغة العربيَّة على النصارى الذين يعانون تحت النظم الإسلاميَّة، الهدف من توزيع الكتاب هو رفع وتقوية معنويات النصارى المضطهدين في المنطقة.

٢٦- شهداء التنصير يصل عدد المنصرين الذين يتم التعرض لهم بصورة أو بأخرى نحو

٢٣٠٠٠٠ شخص عبر العالم سنويًا.

٢٧- أحلام التنصير: يعتقد الكُتّاب النصارى أن ٨,٥٧% من سكان الأرض سيكونون قد دخلوا حظيرة المسيح بمجيء سنة ٢١٠٠م أما في السنة ٤ بليون ميلادية فسيكون ٩٩,٩٠% من سكان الأرض مسيحيين.

٢٨- نتائج التنصير: طبقًا للمصادر التنصيريَّة؛ فقد انضم إلى حظيرة النصرانيَّة خلال العقود السبعة الأولى من هذا القرن وحده ١١٥,٩ مليون شخص عبر العالم.

٢٩- تخطيط التنصير: ولأجل تسهيل العمل التنصيري فقد قسمت الإرساليات المسيحيَّة مسلمي العالم كله بدقة إلى ٣٠٠٠ مجموعة عرقية وتتقاسم مختلف المنظمات التنصيريَّة العمل داخل هذه المجموعات؛ بحيث لا يوجد تضارب أو تناطح لاقتسام مناطق النفوذ: على عكس ما كان عليه الأمر في أوائل العهد الاستعماري.

٣٠- تم تدريب أكثر من ١٠٠٠ سوداني على تنمية قدراتهم اللغوية في مجال التنصير، والهدف من المشروع تسهيل الوصول إلى جميع طبقات وطوائف الشعب، حيث إن هناك ١١٧ لغة في السودان.

٣١- نادي ٧٠٠ (club ٧٠٠)

برنامج تلفازي تنصيري بدأ في عام ١٩٩٣م وإلى الآن يبث يوميًا إلى أكثر من (٢٧٥) محطة تلفاز داخل أمريكا، ويصل البث إلى أكثر من (٦٠) دولة أخرى.

ويقدر عدد مشاهديه يوميًا في أمريكا فقط بمليون مشاهد.

هل تعلم كيف بدأ تمويل هذا البرنامج؟ يشرف على البرنامج ويقدمه المنصر العالمي المشهور (بات رابرتسون) الذي أقنع (٧٠٠) شخص بالتبرع بمبلغ عشرة دولارات شهريًا. وذلك لتغطية كلفة إنتاج وبث البرنامج. ولهذا سمى البرنامج بهذا الاسم.

٣٢- عدد اللغات في العالم (٦٧٠٣) لغة، ترجم الإنجيل إلى (٤٧٠٠) وتبقى (٢٠٠٠) لغة والعمل القائم على ترجمة الإنجيل إلى ٩٦٥ لغة تقريبًا من اللغات المتبقة.

وقد تضمن مؤتمر التنصير المنعقد في كلورادو بحثًا بعنوان: «الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين» وجاء فيه: «ونظرًا لتعدد اللهجات في اللغة العربيَّة يجري العمل على ترجمة الأناجيل الأربعة إلى اللهجة العربيَّة اللبنانية، وقد نشرت الكتب المقدَّسة أيضًا باللغات الجزائريَّة، والتشاديَّة، والمصريَّة، والفلسطينيَّة، والسودانيَّة إلا أن تلك الترجمات لم تجد قبولًا يذكر، وعلى الرغم من أن هناك دائمًا اهتمامًا ثقافيًا أو قوميًا باللهجات المحلية إلا أن سيطرة اللغة الفصحى لم تتأثر بأية محاولة في هذا الصدد».

٣٣- ذكرت مؤسسة الأبواب المفتوحة أنها أرسلت ثلاثين طنًا من الكتب والأناجيل إلى

بغداد؛ حيث إن الطلب على الإنجيل كان كبيرًا جدًّا.

٣٤- ذكرت مجلة (تايم) في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٩٦م أنه في عام ١٩٩٥م قدم الأمريكيون ١٤٣,٩ بليون دولار للمؤسسات الخيرية، وقد كان ٧٠% من هذا المبلغ مقدمًا من أفراد[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٧٥- ٦٧٧)، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، مجلة البيان العدد ١٥٣ ص(٣٤- ٥٨)، والعدد ١٥٤ ص(٥١، ١٠١).

الفصل الحادي عشر
واجب المسلمين تجاه التنصير

لا شك أن المسئولية كبيرة ومشتركة بين المسلمين؛ أفرادًا وجماعات، حكومات وشعوبًا للوقوف أمام هذا الزحف المسموم الذي يستهدف كل فرد من أفراد هذه الأمة المسلمة؛ كبيرًا كان أو صغيرًا، ذكرًا أو أنثى.

وحين ننطلق لمواجهة التنصير فلا بد أن نرتكز على **مسلمات هامة** في هذا الأمر:

١- مواجهة التنصير ينبغي أن تكون مواجهة علمية عملية ولا يمكن أن تقوم بأحدهما فقط.

٢- المواجهة تستلزم الدفاع والهجوم معًا ولن تنجح بغير ذلك.

٣- لن تنجح أي مواجهة مع التنصير سوى المواجهة القائمة على الالتزام بمنهج السلف في الفهم والتصور والاعتقاد والحركة.

٤- أن نفهم جيدًا أن هدف المنصرين الأساسي ليس إدخال المسلمين في النصرانيَّة ولكن إخراجهم عن الإسلام.

٥- أن العلاقة بين معركة التنصير والمعارك الأخرى الدائرة بين الإسلام وأعدائه علاقة وثيقة ومترابطة، باعتبار وحدة الصراع ووحدة القيادة في معسكر الكفر، وبغياب هذا المفهوم يصبح التنصير ثقبًا أسود يبتلع جهود المسلمين وأموالهم ليشغلهم عن المعركة الكبرى في ديارهم.

ويمكننا القول فيما يجب أداؤه على سبيل الإجمال-مع التسليم بأن لكل حال وواقع ما يناسبه من الإجراءات والتدابير الشرعية- ما يلي:

١- تأصيل العقيدة الإسلاميَّة في نفوس المسلمين من خلال مناهج التعليم، وبرامج التربية بصفة عامة، مع التركيز على ترسيخها في قلوب الناشئة خاصة، في المدارس ودور التعليم الرسمية والأهلية.

٢- بث الوعي الديني الصحيح في طبقات الأمة جميعًا، وشحن النفوس بالغيرة على الدين وحرماته ومقدساته.

٣- التأكيد على المنافذ التي يدخل منها النتاج التنصيري من أفلام ونشرات ومجلات وغيرها؛ بعدم السماح لها بالدخول، ومعاقبة كل من يخالف ذلك بالعقوبات الرادعة.

٤- تبصير الناس وتوعيتهم بمخاطر التنصير وأساليب المنصرين وطرائقهم؛ للحذر منها، وتجنب الوقوع في شباكها.

٥- الاهتمام بجميع الجوانب الأساسية في حياة الإنسان المسلم، ومنها الجانب الصحي

والتعليمي على وجه الخصوص، إذ دلت الأحداث أنهما أخطر منفذين عبر من خلالهما النصارى إلى قلوب الناس وعقولهم:

٦- أن يتمسك كل مسلم في أي مكان على وجه الأرض بدينه وعقيدته مهما كانت الظروف والأحوال، وأن يقيم شعائر الإسلام في نفسه ومن تحت يده حسب قدرته واستطاعته، وأن يكون أهل بيته محصنين تحصينا ذاتيًّا لمقاومة كل غزو ضدهم يستهدف عقيدتهم وأخلاقهم.

٧- الحذر من قبل كل فرد وأسرة من السفر إلى بلاد الكفار إلا لحاجة شديدة؛ كعلاج، أو علم ضروري لا يوجد في البلاد الإسلاميَّة، مع الاستعداد لدفع الشبهات والفتنة في الدين الموجهة للمسلمين.

٨- تنشيط التكافل الاجتماعي بين المسلمين والتعاون بينهم، فيراعي الأثرياء حقوق الفقراء، ويبسطون أيديهم بالخيرات والمشاريع النافعة لسد حاجات المسلمين، حتى لا تمتد إليهم أيدي النصارى الملوثة مستغلة حاجتهم وفاقتهم.

الخطة العامة لمواجهة التنصير

تقوم الفكرة الرئيسة لهذه الخطة على عنصر المواجهة الشاملة، وذلك لأن أقوى أسلحة الدعاة في هذه المعركة هو الحق الذي تخضع له النفوس وتطمئن إليه القلوب.

وتحتاج المواجهة إلى ثلاثة عناصر أساسية هي «الكوادر»، و«الإمكانيات»، و«الوسائل».

أولًا: الكوادر:

ونقصد بها الأفراد الذين يملكون من الإمكانيات ما يؤهلهم لخوض هذا الصراع، وهذه المؤهلات تتركز في ثلاث جهات أساسية هي:

١- العلم الشرعي السلفي.

٢- العلم بالنصرانيَّة من مصادرها وكتبها.

٣- القدرة على التواصل مع العامة والحوار مع الآخرين.

والطريق المثلى لتوفير هذه الكوادر هو إقامة محاضرات ودورات تعليمية وتبصيرية بالتنصير وخطره، وكيفية مواجهته، والتدريب على إدارة الحوار مع المنصرين.

إن الغالبية من شاب الإسلام المتدين اليوم تتحرق شوقًا لخدمة دينها، ولكنها تفتقد البوصلة الموجهة والقيادة التي تستثمر جهودهم وتوجهها الوجهة الصحيحة.

١- ويقترح في هذا السياق إنشاء مراكز تدريبية وتأهيلية لتدريب الشباب على التصدي للمنصرين.

٢- استغلال مراكز الدعوة لإدخال مقاومة التنصير كمادة دراسية أساسية.

٣- إعطاء دورات علمية للخطباء وطلبة العلم حول نقد المسيحيَّة وكيفية مواجهة التنصير.

٤- إعطاء دورات علمية لشباب المناطق المنكوبة بالتنصير.

٥- إعطاء دورات علمية لشباب الجامعات والمدارس.

٦- استنفار الشباب المسلم للاهتمام بهذه القضية عبر جميع وسائل الاتصال ومراكز التجمع.

٧- تحفيز الدعاة والعلماء على استنفار طلبة العلم للتصدي للمنصرين وشبهاتهم.

٨- استنفار الطلبة بكليات الدعوة وأصول الدين ومعاونتهم في إعداد البحوث والدراسات للرد على المنصرين.

٩- استنفار الكتاب والصحفيين للتصدي للمنصرين وكشف خطرهم.

١٠- الترابط بين المهتمين بمواجهة التنصير.

١١- توجيه الشباب إلى المنتديات ومواقع التصدي للتنصير الإلكترونية للتعلم والتثقف والتدريب على مقاومة التنصير.

ثانيًا: الوسائل:

وهنا ينبغي لنا أن نرصد أساليب المنصرين ووسائلهم؛ فالتنصير يستخدم جميع الوسائل الإعلامية لنشر سمومه.

ولا يصح لنا إلا أن نستخدم الوسائل الإعلامية نفسها «مرئية ومسموعة ومقروءة» في نشر جهودنا وبصورة تناسب جميع المستويات الثقافية، وذلك لخلق ثقافة عامة لدى جميع المسلمين حول حقيقة النصرانيَّة، وتناقضاتها وتحريفها، ونقترح هنا عدة اقتراحات:

١- نشر الدراسات المتخصصة في نقد المسيحيَّة بين المسلمين، وبكل الوسائل وفي كل الأماكن، وهذا الجانب يعاني من نقص خطير على النقيض تمامًا من الجانب الآخر، حيث توجد غزارة شديدة في الكتابات النصرانيَّة التي تتناول الرد على الإسلام.

٢- نشر فضائح الكنيسة والمنصرين بين العامة لتكوين حائط سد نفسي تجاه الاجتماع بهم أو الاستماع لهم أو التعاون مع المنصرين.

٣- نشر الدراسات الإسلاميَّة الخاصة بدلائل النبوة والإعجاز العلمي في القرآن والسنة على نطاق واسع بين المسلمين.

٤- إنشاء جمعيَّات ومراكز لمتابعة التنصير والتصدي له على أن يكون مقرها الأساسي في الدول الأوربية؛ لتتحاشى الإغلاق والمصادرة الداخلية.

٥- تخصيص باب بكل جريدة أو مجلة أو موقع إسلامي للرد على المنصرين.

٦ - توجيه القنوات الفضائية الإسلاميَّة إلى الرد على المنصرين ولو بطريقة غير مباشرة.

٧- توجيه الدعاة وأصحاب المنابر الدعوة إلى الرد على المنصرين.

٨- خروج قوافل دعوية إلى المناطق المنكوبة بالتنصير ولا بد من تجهيزها بقافلة طبية واجتماعيَّة.

٩- استنفار هيئات الإغاثة والجمعيَّات الاجتماعيَّة الإسلاميَّة لمساعدة المسلمين؛ لتكثيف نشاطها في الأماكن المنكوبة بالتنصير.

١٠- استنفار التجار ورجال الأعمال والموسرين مطالبتهم بالإسهام في التصدي للتنصير ولو بكفالة أسرة واحدة، أو طباعة كتاب واحد، أو نشر شريط أو سي دي واحد.

١١- مراسلة الهيئات الإسلاميَّة الدولية حول خطر التنصير وانتشاره وتقديم اقتراحات جادة ونافعة لهم.

١٢- مراسلة الجمعيَّات الطلابية وشباب الجامعة في خطر التنصير وإمدادهم بوسائل مجابهته.

١٣- مراسلة الجامعات العلميَّة الإسلاميَّة لتخصص منح دراسية لدراسة مقارنة الأديان لأهل البلاد المنكوبين بالتنصير.

١٤- كفالة طلبة العلم والمتصدين لمقاومة التنصير وذلك لنضمن تفرغهم لهذا العمل.

١٥- دعم الأبحاث والإصدارات التي ترد على النصرانيَّة، وتكشف تحريفها وتوزيعها على أكثر عدد ممكن من المكتبات ودور العرض، وجعلها في متناول الجميع.

١٦- إقامة المسابقات بين طلبة المدارس حول الأبحاث الصغيرة في نقد النصرانيَّة وخطر التنصير ورد شبهات المنصرين.

١٧- مزاحمة المنصرين في أماكن انتشارهم كمعرض الكتاب، والتجمعات الشبابية.

١٨- تكوين المجموعات البريدية لنشر الرسائل البريدية على أكبر نطاق ممكن؛ لتحذير المسلمين وتبصيرهم بالنصرانيَّة وتحريفها والرد على شبهات المنصرين.

١٩- إنشاء خط تلفوني ساخن للرد على شبهات المنصرين وإنقاذ من ابتلي من المسلمين بهم.

ثالثًا: الإمكانيات:

تتضح حاجتنا إلى الإمكانيات من خلال إمكانيات الخصم ومن خلال الواقع على الأرض، ومن خلال احتياجاتنا التي سردناها من قبل، ولكن عدم توفر الإمكانيات كلها لا يعني أن نهمل الأمر برمته، فعلينا العمل بما هو تحت أيدينا ومحاولة الاستفادة منها إلى الحد الأقصى؛ فإن الله سبحانه تعبدنا بالاستطاعة، وأن ما نحتاجه بالدرجة الأولى هو شباب مؤمن ومضحٍّ ومستعد للبذل والتضحية للدفاع عن هذا الدين.

ماذا تفعل عندما يطرق بابَك منصِّرٌ؟

لا تظن أبدًا أنك بعيد أو شريد عن هذا الخطر؛ بل لا تظن أن أحدًا من أهل بيتك أو أقاربك أو أصدقائك بعيد عن هذا الخطر؛ وذلك لأن الحقيقة البديهية تقول: إننا نعيش بين المنصرين

ونتعامل معهم في كل لحظة؛ فالمنصرين الآن قسمان:

الأول: هو المنصر المرتبط تنظيميًّا وحركيًّا بالخلايا التنصرية النشطة في بلادنا، وهؤلاء هم عيون ومصادر معلومات ووكلاء لاصطياد الضحايا.

والثاني: هو المسيحي العادي الذي تشبع بروح الكراهية والحقد على الإسلام من خلال ما تبثه الكنيسة والفضائيات المسيحيَّة ومواقع الإنترنت من سموم وأحقاد على المسلمين، ولهذا فهو يطرح على من يقابله من المسلمين كل ما سمعه عن الإسلام وملء عينه الشماتة والزهو بانتصار ساذج حققه على أحد المسلمين البعيدين عن العلم الشرعي.

وحدث ويحدث في كل لحظة أن يتصل بنا أحد المسلمين ليخبرنا بما وقع له مع سائق تاكسي، أو زميل عمل، أو دراسة، أو جار، أو بائع، أو مشترٍ، أو غير ذلك عبر رسائل بريدية أو الكترونية عبر الإنترنت، أو عبر القنوات الفضائية، أو غير ذلك يطلب المساعدة

ونحن هنا نضع ما يجب عليك فعله إذا حدث احتكاك مع المنصرين:

١- ينبغي عليك استحضار بعض الثوابت الفكريَّة لتضع الموقف في إطاره الصحيح ومن هذه الثوابت.

٢- هدف هذا المنصر من كلامه، بالطبع لو أراد معرفة الحق لذهب لعلماء الإسلام، ولو أراد النقاش لذهب للمتخصصين في هذا العلم، ولكنه يريدك أنت ليضعك في دائرة الشك وينسج حولك خيوطه القذرة.

٣- لا تظهر أية تفاعل مع الكلام الذي يطرحه المنصر مهما كانت قسوته، فإن انفعالك وتأثرك بالكلام هو أحد أهم ما يريده المنصر، وكل ما عليك هو أن تستمع ببرود شديد، وعدم اهتمام واضح.

٤- لا تحاول الإجابة على أسئلة المنصر أو الدخول معه في جدل ظنًّا منك أنه سيفهم أو يغير رأيه؛ فإن هدفه الأساسي ليس الوصول للحق، وإنما إثارة الشبهات والوساوس حول عقيدتك.

٥- لا تقبل أية هدية من المنصر؛ فهذا في حد ذاته مشجع قوي له على الاستمرار في عمله.

٦- لا تعطيه أي معلومات عنك أو عن غيرك، ولا تأخذ منه رقم هاتف أو عنوان أو بريد إلكتروني.

٧- يجب عليك أن تتعلم وتُعَلِّم أهلك وأصدقاءك بعض الأسئلة البسيطة التي تقلب بها الطاولة على المنصر بحيث تضعه في خندق الدفاع عن عقيدته.

٨- لا تهمل الشبهة المثارة من المنصر ولكن عليك أن تسعى إلى معرفة الرد عليها من أهل العلم الموثقين[1].

(١) انظر: التحذير من وسائل التنصير، تقرير مجموعة المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير.

الباب السادس

الاستشراق

الفصل الأول: تعريف الاستشراق.

الفصل الثاني: تاريخ الاستشراق.

الفصل الثالث: أهداف ودوافع الاستشراق.

الفصل الرابع: مناهج المستشرقين.

الفصل الخامس: المستشرقون والتنصير والاستعمار.

الفصل السادس: وسائل الاستشراق.

الفصل السابع: آثار الدراسات الاستشراقية.

الفصل الثامن: مواجهة الاستشراق.

الفصل الأول

تعريف الاستشراق

الاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم.

ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته.

ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبرًا عن الخلفية الفكريَّة للصراع الحضاري بينهما.

ويرى بعض الباحثين أن ثمة تعريف آخر في اللغات الأوروبية يدل على أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي وإنما الشرق المقترن معنى الشروق والضياء والنور والهداية؛ وذلك بالبحث في كلمة شرقORIENT في المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانيَّة والفرنسيَّة والإنجليزية) فوجد أنه يشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقيَّة بكلمة: تتميز بطابع معنوي وهو Morgenland وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendland وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة.

ويرى بعض الباحثين الغربيين أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقن أن البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير.

ويذكر بعض الباحثين احتمال أن تكون كلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح استشراق في الثقافة الغربية.

ومن تعريفات الاستشراق في الدوائر الغربية والعربيَّة الآتي:

- الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة. وأقرب شيء إليه إذًا أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه، كلمة استشراق مشتقة من كلمة «شرق» وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي.

- المستشرق من تبحّر في لغات الشرق وآدابه.

- إن الاستشراق ظهر للحاجة إلى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق، والحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيَّات والأقسام العلميَّة.

- إنه أسلوب في التفكير مبني على تميُّز متعلق بوجود المعرفة بين «الشرق»(معظم الوقت) وبين الغرب.

- إن الاستشراق ليس مجرد موضوع سياسي، أو حقل بحثي ينعكس سلبًا باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسسات، وليس تكديسًا لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق ... إنه بالتالي توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعيَّة وفي فقه اللغة.

- إنه المجال المعرفي أو العلم الذي يُتوصل به إلى الشرق بصورة منظمة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق.

- إنَّ الاستشراق نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق.

التعريف الشامل:

وقد قام أحد الباحثين بالجمع بين هذه التعريفات في تعريف واحد: هو دراسات «أكاديمية» يقوم بها غربيون كافرون -من أهل الكتاب بوجه خاص- للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب: عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخًا، ونظمًا، وثروات وإمكانات ... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلميَّة والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي.

وعرَّف آخرون الاستشراق تعريفًا مجملًا بأنه: دراسات وأبحاث قام بها غربيون تهدف إلى دراسة العالم الشرقي ولا سيما الإسلامي، دينًا وتاريخيًّا وحضارة وعادات وشعوبًا، بهدف فهم حقيقة الإسلام، وقد نشأت منذ أكثر من ألف سنة في العالم الغربي، وما زالت موجودة حتى يومنا هذا، إلا أنها في الفترات الأخيرة بدأت تأخذ أشكالًا أخرى في الظهور، باسم مستشارين اقتصاديين أو سياسيين أو لغويين يتبعون وزارات الخارجية والاقتصاد والمال والحربية في العالم الغربي، ومهمة هذه الدراسات فهم طبيعة العالم الإسلامي وتوجهات المسلمين، وذلك من أجل التعامل الغربي معهم.

وذكر أحد الباحثين الآخرين أنه من خلال متابعة للاستشراق يمكن أن نقول: إنَّ الاستشراق هو كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين (شرقيين وغربيين بما في ذلك السوفيت) وأمريكيين من دراسات أكاديمية (جامعية) تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، كما يلحق بالاستشراق كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية سواء بلغاتهم أو باللغة العربيَّة من إذاعات، أو تلفاز، أو أفلام سينمائية، أو رسوم متحركة، أو قنوات فضائية، أو ما تنشره صحفهم من كتابات تتناول المسلمين وقضاياهم.

كما أن من الاستشراق ما يخفى علينا مما يقرره الباحثون والسياسيون الغربيون في ندواتهم ومؤتمراتهم العلنية أو السرية.

ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي. ولا بد أن نلحق بالاستشراق ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيرًا من أفكار المستشرقين حتى إن بعض هؤلاء التلاميذ تفوق على أساتذته في الأساليب والمناهج الاستشراقية.

ويدل على ذلك احتفال دور النشر الاستشراقية بإنتاج هؤلاء ونشره باللغات الأوربية على أنها بحوث علمية رصينة أو ما يترجمونه من كتابات بعض العرب والمسلمين إلى اللغات الأوربية.

وكان الاستشراق وما زال يهتم بالشعوب الشرقيَّة عمومًا التي تضم الهند وجنوب شرق آسيا والصين واليابان وكوريا.

وعند مراجعة النشاطات الاستشراقية نجد أن هذه المناطق نالت اهتمامًا كبيرًا في الدراسات الاستشراقية، ولكنها عندما بدأت دراسة المناطق أو الدراسات الإقليمية أصبحت تخصص بدراسات خاصة بها مثل الدراسات الصينية أو الدراسات الهندية أو الدراسات اليابانية.

أما الأصل فكانت كلها تضم تحت مصطلح واحد هو (الاستشراق).

نبذ الغرب لمصطلح الاستشراق

هناك قرار غربي بالتوقف عن استخدام مصطلح استشراق أو كما قال برنارد لويس: إن هذا المصطلح قد ألقي به في مزابل التاريخ.

فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية وأن هذا المصطلح لم يعد يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي.

فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣ بأن يتم الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا ICHSANA)، وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى (المؤتمر العالمي للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية ICANAS).

وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقيَّة (روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها).

ومع ذلك ففي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية الذي عقد في بودابست بالمجر كان مصطلح استشراق ومستشرقين يستخدم دون أي تحفظات، مما يعني أن الأوربيين الغربيين والأمريكيين هم الأكثر اعتراضًا على هذا المصطلح، ولعل هذا ليفيد المغايرة بحيث يتحدثون عن المستشرقين ليثبتوا أنهم غير ذلك بل هم مستعربون Arabists، أو إسلاميون Islamists، أو باحثون في العلوم الإنسانية Humanists، أو متخصصون في الدراسات الإقليمية، أو الاجتماعيَّة، أو الاقتصادية التي تختص ببلد معين، أو منطقة جغرافية معينة.

ثم نجدهم أيضًا استبدلوا كلمة استشراق في دوائر كثيرة بمراكز المعلومات، أو دراسات الشرق

الأوسط، أو الدراسات الشرق أوسطية Middle east studies، وغيره.

أما موقفنا نحن من هذا التخصص أو التخصصات؛ فإنه يسعنا ما وسع الغربيين؛ فإنهم اختاروا أن يتركوا التسمية فلا بأس من ذلك شريطة ألا نغفل عن استمرار اهتمامهم بدراستنا، والكتابة حول قضايانا، وعقد المؤتمرات والندوات، ونشر الكتب والدوريات حول العالم الإسلامي، واستمرار أهداف الاستشراق. وألا يصرفنا تغيير الاسم عن الوعي والانتباه لما يكتبونه وينشرونه، خصوصًا أنهم في الوقت نفسه أعلنوا عن تمسكهم بمناهجهم التي اتبعوها في دراساتهم، وأنَّهم لن يتخلوا عنها لإرضاء العرب.

مع العلم بأن مصطلح استشراق ما زال قائمًا في الغرب حتى وإن تخلوا عنه رسميًّا فهذه شبكة المعلومات العالمية أو الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) تقدم آلاف المواقع المتخصصة في الاستشراق قديمًا وحديثًا.

فهم وإن تخلوا عنه في العلن؛ فإنه ما زال قائمًا في أدبياتهم وفي نشاطاتهم الفكريَّة المعاصرة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/٦٨٧)، الاستشراق، د. مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، السيد محمد الشاهد، رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب ص(٧).

الفصل الثاني
تاريخ الاستشراق

لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عنى بالدراسات الشرقيَّة، ولا في أي وقت كان ذلك، ومن الصعب تحديد بداية للاستشراق، وقد اختلف الباحثون في ذلك، ومن أقوى هذه الآراء:

١- **يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري**، وأنه نشط في الشام بواسطة الراهب يوحنا الدمشقي في كتابين الأول: حياة محمد. والثاني: حوار بين مسيحي ومسلم. وكان هدفه إرشاد النصارى في جدل المسلمين.

٢- **ويرجعه آخرون إلى أيام الدولة الإسلاميَّة في الأندلس**؛ وذلك أن احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس كان الانطلاقة الحقيقية لمعرفة النصارى بالمسلمين والاهتمام بالعلوم الإسلاميَّة، ويميل إلى هذا الرأي بعض رواد البحث في الاستشراق من المسلمين.

ومن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في أبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربيَّة إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

ومن أوائل هؤلاء الرهبان هربر دي أورلياك (٩٣٨ - ١٠٠٣م) من الرهبانيَّة البندكتية، قصد الأندلس، وقرأ على أساتذتها ثم انتخب -بعد عودته- حبرًا أعظم باسم سلفستر الثاني ٩٩٩-١٠٠٣م فكان بذلك أول بابا فرنسي لكنيسة روما.

- في عام ١١٣٠م قام رئيس أساقفة طليطلة بترجمة بعض الكتب العلميَّة العربيَّة.

- جيرار دي كريمونا ١١١٤ - ١١٨٧م إيطالي، قصد طليطلة وترجم ما لا يقل عن ٨٧ مصنفًا في الفلسفة والطب والفلك وضرب الرمل.

- بطرس المكرم ١٠٩٤ - ١١٥٦م فرنسي من الرهبانيَّة البندكتية، رئيس دير كلوني، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام.

وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينيَّة ١١٤٣م التي قام بها الإنجليزي روبرت أوف كيتون.

وممن قام أيضًا بالترجمة في هذه الفترة يوحنا الإشبيلي وهو يهودي متنصر ظهر في منتصف القرن الثاني عشر وعني بعلم التنجيم، نقل إلى العربيَّة أربعة كتب لأبي معشر البلخي ١١٣٣م وقد كان ذلك بمعاونة إدلر أوف باث.

وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربيَّة أمثال مدرسة (بادوي) العربيَّة، وأخذت الأديرة والمدارس

الغربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينيَّة وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ، واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصليَّة للدراسة قرابة ستة قرون.

ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربيَّة، وترجموا القرآن وبعض الكتب العربيَّة العلميَّة والأدبية.

٣- ويعود به آخرون إلى أيام الصليبيين؛ وذلك أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرف على المسلمين. وبخاصة أنه بعد هزيمة لويس التاسع وأسره في المنصورة وما تمخض عنه تفكيره من صعوبة هزيمة المسلمين عسكريًا فلا بد من التخطيط الفكري بجانب التخطيط الحربي والسياسي؛ مما تمخض عنه بداية الدراسات الاستشراقية.

فالحروب الصليبية كانت نقطة التحول في الصراع الفكري والعقدي والسياسي بين الغرب النصراني والشرق المسلم، وهي الدافع الأساسي للنشاط الاستشراقي المكثف، ولكن اتصال الغرب بالشرق في ذلك الوقت وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي كان اتصالًا عدائيًا مسلحًا، متمثلًا في الحروب الطاحنة التي ظلت آثارها باقية حتى الآن.

وممن ظهر في هذه الفترة:

- روجر بيكون ١٢١٤ - ١٢٩٤م إنجليزي، تلقى علومه في أكسفورد وباريس حيث نال الدكتوراه في اللاهوت، ترجم عن العربيَّة كتاب مرآة الكيمياء نورمبرج ١٥٢١م.

- ريموند لل ١٢٣٥ - ١٣١٤م قضى تسع سنوات ١٢٦٦ - ١٢٧٥م في تعلم العربيَّة ودراسة القرآن وقصد بابا روما وطالبه بإنشاء جامعات تدّرس العربيَّة لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام، ووافقه البابا.

وأيًا كان الأمر فإن حركة الاستشراق قد انطلقت بباعث ديني يستهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحيَّة.

وقد بدأ الاستشراق اللاهوتي بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربيَّة في خمس جامعات أوربية هي: باريسُ، أكسفورد، وبولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بأسبانيا، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما.

وإن كان يرى بعض الباحثين الغربيين أن القرارات الرسمية لا يتم تنفيذها بالطريقة التي أرادها صاحب القرار لذلك فإن القرار البابوي هنا لا يعد البداية الحقيقية للاستشراق.

البداية الحقيقية للاستشراق

ولا شك أن هذه البدايات لا تعد البداية الحقيقية للاستشراق الذي أصبح ينتج ألوف الكتب

سنويًا ومئات الدوريات، ويعقد المؤتمرات.

وإنما تعد هذه جميعًا من قبيل الإرهاص لها وما أتى بعدها يعد من قبيل تعميق الفكرة، والتوسع فيها وشد الانتباه إليها؛ فالبداية الحقيقية للاستشراق الذي يوجد في العالم الغربي اليوم ولا سيما بعد أن بنت أوربا نهضتها الصناعية والعلميَّة وأصبح فيها العديد من الجامعات ومراكز البحوث وأنفقت ولا تزال تنفق بسخاء على هذه البحوث قد انطلقت منذ القرن السادس عشر حيث بدأت الطباعة العربيَّة فيه بنشاط فتحركت الدوائر العلميَّة وأخذت تصدر كتابًا بعد الآخر.

ثم ازداد النشاط الاستشراقي بعد تأسيس كراسٍ للغة العربيَّة في عدد من الجامعات الأوربية مثل كرسي أكسفورد عام ١٦٣٨ وكامبريدج عام ١٦٣٢ .

وفي القرن الثامن عشر وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي، والاستيلاء على ممتلكاته، فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية، ويغيرون على المخطوطات العربيَّة في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة فيشترونها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربيَّة تنتقل إلى مكتبات أوربا وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد، وما زال هذا العدد يتزايد حتى اليوم.

وبعد تأسيس الجمعيَّات العلميَّة في أوائل القرن التاسع عشر مثل الجمعيَّة الأسيوية البنغالية، والجمعيَّة الاستشراقية الأمريكيَّة، والجمعيَّة الملكية الآسيوية البريطانية وغيرها بمنزلة الانطلاقة الكبرى للاستشراق حيث تجمعت فيها العناصر العلميَّة والإدارية والمالية فأسهمت جميعها إسهامًا فعَّالًا في البحث، والاكتشاف والتعرف على عالم الشرق وحضارته فضلًا عما كان لها من أهداف استغلالية واستعمارية.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأ عقد المؤتمرات الاستشراقية، فعقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣م، وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته، وما تزال تعقد حتى هذه الأيام.

ظهور مفهوم الاستشراق عند الأوربيين

لم يظهر ويستقر مفهوم الاستشراق في أوربا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر أولًا في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي فرنسا عام ١٧٩٩م كما أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسيَّة عام ١٨٣٨م.

وكان من المشروعات الاستشراقية المهمة إنشاء مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية في فرنسا برئاسة المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي التي كانت تعد قبلة المستشرقين الأوربيين وساهمت في صبغ الاستشراق بالصبغة الفرنسيَّة مدة من الزمن.

وأيضًا بداية منظمة المؤتمرات العالمية للمستشرقين عام ١٨٧٣ في عقد مؤتمراته السنوية.

وقد اتسع ميدان الاستشراق، فقد بدأ كما رأينا بدراسة اللغة العربيَّة والإسلام، وانتهى بعد التوسع الاستعماري الغربي في الشرق إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته، وإن كانت العناية بالإسلام والآداب العربيَّة والحضارة الإسلاميَّة هي أهم ما يعنى به المستشرقون حتى اليوم؛ نظرًا للدوافع الدينيَّة والسياسية التي شجعت على الدراسات الشرقيَّة كما سنذكره فيما بعد.

تطور الاستشراق

طرأ تطور مهم في العقود الأخيرة، فإن ما يسمى استشراقًا أو مدرسة استشراقية ذات اهتمام علمي ثقافي في غالبه، وسياسي اجتماعي في بعض جوانبه -كما عهدناه- قد انتهت كثير من تلك الجوانب ولم تعد أولوية في الاستشراق الحديث، بل تحول اليوم إلى عمل سياسي اجتماعي متخصص يهتم بمراقبة ودراسة الأوضاع السياسية، والأشخاص، والأحزاب، والأفكار السياسية، والعوامل الاجتماعيَّة في المجتمعات الإسلاميَّة دراسة وافية، ووضع حلول لها!!

فقد قرر المستشرقون منذ قرابة عشرين عامًا أنَّ العمل العلمي الثقافي في بلاد المسلمين وتراثهم ليس بذي جدوى ولا أهمية، بل هو ضياعٌ للوقت والجهد، فليس لدى العرب والمسلمين أفكار ولا كتب ولا آداب تستحق الدراسة والجهد، والقليل الذي يحتاجون له نقلوه إلى لغاتهم -وبخاصة الإنجليزية- كتاريخ الطبري، ومقدمة ابن خلدون، ورسالة الشافعي وأعمال المتصوفة! والفلاسفة والشعراء الكبار، ونحوها. والكتاب المعاصرون العرب ليس لديهم ما يستحق القراءة، وإذا حدث فسوف يكون عمله مترجمًا بلغة غربية في زمن قياسي، والمؤلف العربي يحرص على ترجمة أعماله إلى لغات غير العربيَّة، وهذا يسهل عمل من يتابع أفكارنا منهم، وهم يترجمون ما يحتاجونه حتى بعض الأشرطة السمعية، فلماذا يضيعون وقتًا طويلًا في دراسة الكتب الإسلاميَّة القديمة مع معاناة مشكلة اللغة العربيَّة؟.

لذا، اتجهوا اتجاهًا سياسيًّا عارمًا، وقطعوا الاهتمام -أو أغلبهم- بالقضايا العلميَّة والفكريَّة إلا بمقدار ما تحقق أثرًا سياسيًّا مباشرًا.

واليوم، شخص مثل برنارد لويس اليهودي المؤرخ الشهير الذي كتب عن الشرق الأوسط، والحشاشين، والأتراك، وترجم عن العربيَّة مقتطفات تاريخية وأعمالًا عديدة ذات طابع علمي، ولّى وجهه منذ زمن نحو السياسة، وأشرف على معهد الدراسات اليهوديَّة في جامعة (برنستون)، ثم تفرغ للكتابة السياسية، ويكتب عن: العرب والإسلام، واللغة السياسية في الإسلام، والإسلام والغرب، وصياغة المشرق الإسلامي الجديد، ويعمل لإعداد جيل من السياسين اليهود الأمريكيين ليخترق العالم العربي بشكل أكبر، ويقدم محاضرات سياسية واستشارات في الهدف نفسه متخذًا من قضية أمته وقومه اليهود قضيته، ورمى بالتاريخ إلى الوراء، ولا قيمة للتاريخ عنده إلا

دوره في الحاضر والمستقبل -وهذه أهم مهمة للتاريخ حقًّا-، وهو من أصحاب النظرية المركزية اليهوديَّة في غرب آسيا، حيث يرى أن على إسرائيل أن تحكم منطقة وسط وغرب آسيا، من الجمهوريات الإسلاميَّة إلى النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وأن على الغرب أن يترك هذه المنطقة لها وحدها؛ فإسرائيل هي القادرة عقليًّا وسياسيًّا وماليًّا وعسكريًّا على القيام بذلك في إدارة يسندها تحالف أمريكي مباشر ويربط هذا باستراليا؛ كما شرح في مقال له شهير عن مستقبل المنطقة، ونشره في مجلة الشئون الخارجية.

ومثل آخر هو: جون إسبوزيتو، يتجه لدراسة الإسلام المعاصر والحركات الإسلاميَّة المعاصرة، ويقيم علاقات مباشرة مع الإسلاميين وجمعيَّاتهم وزعاماتهم ليدرسها عن قرب، ويقدم الكتب من أمثال التهديد الإسلامي، أسطورة أو حقيقة، وبدأت أعداد كبيرة من الشباب تهتم بهذه الموضوعات. ويقدم هؤلاء الاستشارات والتوجيهات للحكومات الغربية كما كان يفعل السابقون في زمانهم.

واليوم يطلب الأساتذة في الجامعات الغربية أن تكون الأبحاث في الجامعات عن الحركة الإسلاميَّة المعاصرة!، عن الأفكار الجديدة والمؤثرة على الشباب في العالم الإسلامي وتطلعاته.

فالاستشراق ليس تاريخًا ماضيًا، ولكنه أيضًا سياسة قائمة يومية متجددة، نجد أنفسنا وثقافتنا فيها من خلال لغاتها مباشرة، وأعمالها ومؤتمراتها وأبحاثها وقرارات الحكومات المبنية عليها[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٨٧، ٦٨٨)، الاستشراق للمطبقاني، الاستشراق في الأدبيات العربية، علي النملة ص(٢٣- ٣١)، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، نهاية الاستشراق القديم وبداية عهد جديد، محمد حامد الأحمري.

الفصل الثالث

أهداف ودوافع الاستشراق

١- الهدف الديني:

تتداخل الدوافع مع الأهداف أحيانًا؛ فإن الهدف الديني الذي أراد الاستشراق تحقيقه كان دافعه الأساس أن رجال الدين النصارى رأوا قوة الإسلام، واندفاع كثير من النصارى للدخول فيه، واستيلاء الإسلام على أراضٍ كانت النصرانيَّة هي الدين الوحيد فيها حتى أصبح النصارى قلة؛ فخاف هؤلاء على مكانتهم ومكاسبهم الدنيويَّة والدينيَّة مما أجج أحقادهم؛ فكان لا بد أن يقفوا في وجه الإسلام حيث إنه ليس في الإسلام طبقة رجال دين أو أكليروس كما في النصرانيَّة.

فغاية الهدف الديني هي معرفة الإسلام لمحاربته وتشويهه وإبعاد النصارى عنه، وقد اتخذ النصارى المعرفة بالإسلام وسيلة لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلاميَّة، وكان هدفها الأول تنفير النصارى من الإسلام.

ولذلك فإن الكتابات النصرانيَّة المبكرة كانت من النوع المتعصب والحاقد جدًّا حتى إن بعض الباحثين الغربيين في العصر الحاضر كتب نقدًا عنيفًا لاستشراق العصور (الأوربية) الوسطى من أمثال نورمان دانيال في كتابه الإسلام والغرب.

فقد كتب دانيال أن أسباب حقد النصارى وسوء فهمهم للإسلام ما زال بعضه يؤثر في موقف الأوربيين من الإسلام بالرغم من التحسن العظيم الحديث في الفهم والذي أشاد به بعض المسلمين.

فهذا هو الهدف وراء نشأة الاستشراق، وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة، فهو يتمثل في:

١- التشكيك في صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السُّنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته.

٢- التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوتهم وتنأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتباره المصدر الأساسي لهذا الدين.

٣- التقليل من قيمة الفقه الإسلامي واعتباره مستمدًا من الفقه الروماني.

٤- النيل من اللغة العربيَّة واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربيَّة الفصحى.

٥- إرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلًا من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر.

٦- العمل على تنصير المسلمين، فالهدف التبشيري التنصيري لم يتناسوه في دراساتهم العلميَّة وهم قبل كل شيء رجال دين، فأخذوا يهدفون إلى تشويه سمعة الإسلام في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلاميَّة، والتشكيك في التراث الإسلامي، والحضارة الإسلاميَّة، وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث.

٧- الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والأخبار الموضوعة في سبيل تدعيم آرائهم وبناء نظرياتهم.

٨- لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوربا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحرب الصليبية.

٩- إفساد صورة الإسلام بطمس معالمه، وتشويه محاسنه، وتحريف حقائقه، وتقديمه للعالم على أنه دين متناقض.

١٠- إحياء النعرات القبلية، والعصبيات المذهبية، والنزعات الطائفية والعقائدية، وإثارة الخلافات، لتفريق وحدة المسلمين، وإضعاف روح الإخاء بين المسلمين، وإثارة اللهجات العامية وذلك بالتشكيك في اللغة العربيَّة ومصادرها.

١١- غرس المبادئ الغربية في نفوس المسلمين وتمجيدها، والعمل على إضعاف القيم الإسلاميَّة وتحقيرها حتى يتم لهم إفساد أبناء المسلمين، وتحللهم، ثم توجيههم لخدمة مصالحهم.

١٢- إزالة الثقة بعلماء وأعلام الأمة الإسلاميَّة؛ وذلك لقطع الصلة بين المسلمين وماضيهم، وفي المقابل تمجيد الشخصيات الغربية وتعظيمها؛ ليسهل التأثير والانقياد لهم.

٢- الهدف العلمي:

ما كان لأوربا أن تنهض نهضتها دون أن تأخذ بأسباب ذلك وهو دراسة منجزات الحضارة الإسلاميَّة في جميع المجالات العلميَّة؛ فقد رأى زعماء أوربا «أنه إذا كانت أوربا تريد النهوض الحضاري والعلمي؛ فعليها بالتوجه إلى بواطن العلم تدرس لغاته وآدابه وحضارته».

ولو رجعنا إلى قوائم الكتب التي ترجمت إلى اللغات الأوربية لعرفنا حقيقة أهمية هذا الهدف من أهداف الاستشراق؛ فالغربيين لم يتركوا مجالًا كتب فيه العلماء المسلمون حتى درسوا هذه الكتابات وترجموا عنها، وأخذوا منها.

وقد أشار رودي بارت في كتابه عن الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة- إلى إمكانية أن تقوم الأمة الإسلاميَّة في العصر الحاضر بدراسة الغرب فيما يمكن أن يطلق عليه علم الاستغراب؛ فإن المسلمين في نهضتهم الحاضرة بحاجة إلى معرفة الإنجازات العلميَّة التي توصل إليها الغرب عبر قرون

من البحث والدراسة والاكتشافات العلميَّة والاستقرار السياسي والاقتصادي.

ومن المستشرقين نفر قليل جدًّا أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم، وأديانها، وثقافاتها، ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأً في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف، بل اتجهوا إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته ودخل فيه، نذكر منهم:

١- توماس آرنولد الذي أنصف المسلمين في كتابه الدعوة إلى الإسلام.

٢- المستشرق الفرنسي رينيه فقد أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام، وكتاب محمد رسول الله، مات في فرنسا لكنه دفن في الجزائر.

٣- موريس بوكاي وهو من كبار العلماء الفرنسيين في الطبيعيات، وقد قارن بين القرآن والإنجيل والتوراة، ولما تبين له أن الكتب السماوية المحرفة تتناقض مع العلم، وأن القرآن لا يتناقض مع أية حقيقة علمية ثابتة عندئذ أعلن تشهده وإيمانه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبأن القرآن كلام الله.

على أن هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقي رواجًا لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين، ومن ثمة فهي لا تدر عليهم ربحًا ولا مالًا، ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين.

٣- الهدف الاقتصادي التجاري:

لقد كانت المؤسسات والشركات الكبرى، والملوك كذلك، يدفعون المال الوفير للباحثين، من أجل معرفة البلاد الإسلاميَّة وكتابة تقارير عنها، وقد كان ذلك جليًّا في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وعندما بدأت أوربا نهضتها العلميَّة والصناعية والحضارية وكانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، كما أنهم أصبحوا بحاجة إلى أسواق تجارية لتصريف بضائعهم كان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقًا مفتوحة لمنتجاتهم.

فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعيَّة واللغوية والثقافية وغيرها.

وهناك من يرى أن الهدف الاقتصادي كان هو الأساس في الاستشراق وقد استغل الدين والتنصير لتحقيق الأهداف الاقتصادية.

ولم يتوقف الهدف الاقتصادي عند بدايات الاستشراق فإن هذا الهدف ما زال أحد أهم

الأهداف لاستمرار الدراسات الاستشراقية.

فمصانعهم ما تزال تنتج أكثر من حاجة أسواقهم المحلية كما أنهم ما زالوا بحاجة إلى المواد الخام المتوفرة في العالم الإسلامي.

ولذلك فإن بعض أشهر البنوك الغربية (لويد وبنك سويسرا) تصدر تقارير شهرية هي في ظاهرها تقارير اقتصادية ولكنها في حقيقتها دراسات استشراقية متكاملة حيث يقدم التقرير دراسة عن الأحوال الدينيَّة والاجتماعيَّة والسياسية والثقافية للبلاد العربيَّة الإسلاميَّة ليتعرف أرباب الاقتصاد والسياسة على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي.

ومن الطريف أن شركة الخطوط الهولندية تقدم لكبار موظفيها الذين يتفاوضون مع الشركات العربيَّة الإسلاميَّة دراسات من هذا النوع حتى يتعرفوا إلى العقليات التي يتفاوضون معها وإلى خلفياتهم الاجتماعيَّة والدينيَّة والثقافية.

٤- الهدف السياسي الاستعماري:

لقد خدم الاستشراق الأهداف السياسية التوسعية للدول الغربية؛ فقد سار المستشرقون في ركاب الاحتلال -وهم كما أطلق عليهم الأستاذ محمود شاكر: حملة هموم الشمال المسيحي- فقدموا معلومات موسعة ومفصلة عن الدول التي رغبت الدول الغربية في استعمارها والاستيلاء على ثرواتها وخيراتها.

وقد اختلط الأمر في وقت من الأوقات بين المحتل والمستشرق؛ فقد كان كثير من موظفي الاحتلال على دراية بالشرق لغة وتاريخًا وسياسة واقتصادًا. وقد أصدر -على سبيل المثال- مستشرق بريطاني كتابًا من أربعة عشر مجلدًا بعنوان: (دليل الخليج: الجغرافي والتاريخي) وكان موظف الحكومات المحتلة لا يحصل على الوظيفة في إدارة الاحتلال ما لم يكن على دراية بالمنطقة التي سيعمل بها.

واستمر الارتباط بين الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة وبين الحكومات الغربية حتى يومنا هذا بالرغم من أنه قد يوجد عدد محدد جدًّا من الباحثين الغربيين دفعهم حب العلم لدراسة الشرق أو العالم الإسلامي.

ومن الأدلة على هذا الارتباط أن تأسيس مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن قد أُسِّسَت بناء على اقتراح من أحد النواب في البرلمان البريطاني.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رأت الحكومة البريطانية أن نفوذها في العالم الإسلامي بدأ ينحسر فكان لا بد من الاهتمام بالدراسات العربيَّة الإسلاميَّة فكلفت الحكومة البريطانية لجنة حكومية برئاسة الإيرل سكاربورو لدراسة أوضاع الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة في الجامعات البريطانية.

ووضعت اللجنة تقريرها حول هذه الدراسات وقدمت فيه مقترحاتها لتطوير هذه الدراسات

واستمرارها.

وفي عام ١٩٦١ كونت الحكومة البريطانية لجنة أخرى برئاسة السير وليام هايتر لدراسة هذا المجال المعرفي، وقامت اللجنة باستجواب عدد كبير من المتخصصين في هذا المجال، كما زارت أقسام الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة في الجامعات البريطانية وفي عشر جامعات أمريكية وجامعتين كنديتين.

وكانت زيارتها للولايات المتَّحدة بقصد التعرف على التطورات التي أحدثها الأمريكيون في هذا المجال، وكان ذلك بتموين من مؤسستي روكفللر وفورد.

ومما يؤكد ارتباط الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة بالأهداف السياسية الاحتلالية (رغم انحسار الاحتلال العسكري) أن الحكومة الأمريكيَّة موّلت عددًا من المراكز للدراسات العربيَّة الإسلاميَّة في العديد من الجامعات الأمريكيَّة، وما زالت تمول بعضها إما تمويلًا كاملًا أو تمويلًا جزئيًّا وفقا لمدى ارتباط الدراسة بأهداف الحكومة الأمريكيَّة وسياستها.

كما يستضيف الكونجرس وبخاصة لجنة الشئون الخارجية أساتذة الجامعات والباحثين المتخصصين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة لتقديم نتائج بحوثهم وإلقاء محاضرات على أعضاء اللجنة، كما ينشر الكونجرس هذه المحاضرات والاستجوابات نشرًا محدودًا لفائدة رجال السياسة الأمريكيين.

ويمكن إبراز أهم أهداف الاستشراق السياسية في:

١- إضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم.

٢- العناية باللهجات العامية ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة.

٣- توجيه موظفيهم في هذه المستعمرات إلى تعلم لغات تلك البلاد ودراسة آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها.

٤- في كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات؛ لسبر غور حالة المسلمين، وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي.

إن الاستشراق وإن كان قد بدأ حركة دينية ثم تحول إلى حركة مقترنة بالسياسية بحيث اشتغل معظم المستشرقين بل كلهم إلا اليسير في دوائر المخابرات الأجنبية، وخدموا وزارات الخارجية، وهذا معروف عن أساطينهم مما لا يولد الشك في اقترانهم بالسياسة، وأن ما يكتبونه يراد منه خدمة واقع سياسي، وأنه حتى بعد التطور الحديث من مطلع القرن العشرين وحتى الآن لا زال يواصل خطاه، وأن ما يبدو عليه من تعميق لبحوثه بالإفادة والاستثمار للعلوم الحديثة لن يخلصه من الإطار القديم المرسوم له، فأهداف طرح الشرق أمام الغرب بصورة مشوهة ثم عكس القضية لإضعاف ثقة المسلمين بأنفسهم، بدينهم، بماضيهم، هذا كله إضافة إلى زرع بذور العنصرية والتفرقة بين الأمة الإسلاميَّة بشتى الطرق.

٥- الهدف الثقافي:

من أبرز أهداف الاستشراق نشر الثقافة الغربية انطلاقًا من النظرة الاستعلائية التي ينظر بها إلى الشعوب الأخرى. ومن أبرز المجالات الثقافية نشر اللغات الأوربية ومحاربة اللغة العربيَّة. وصبغ البلاد العربيَّة والإسلاميَّة بالطابع الثقافي الغربي.

وقد نشط الاستشراق في هذا المجال أيما نشاط. فأسس المعاهد العلميَّة والتنصيريَّة في أنحاء العالم الإسلامي وسعى إلى نشر ثقافته وفكره من خلال هؤلاء التلاميذ.

وقد فكَّر نابليون في ذلك حينما طلب من خليفته على مصر أن يبعث إليه بخمسمائة من المشايخ ورؤساء القبائل ليعيشوا فترة من الزمن في فرنسا، «يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة (الفرنسيَّة) ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولمَّا يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم».

ولم يتم لنابليون ذلك ولكن لمَّا جاء محمد علي أرسل بعثة من أبناء مصر النابهين يقودهم رفاعة رافع الطهطاوي، وقد قال محمود شاكر إن هؤلاء «يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها؛ فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبًا لفرنسا وعلى مر الأيام يكبرون ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيرًا في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر...».

وقد حرص الغرب على الغزو الثقافي من خلال التغريب الفكري بعدة طرق:

١- التعليم من حيث المنهج ومن حيث المادة العلميَّة.

٢- وفي مجال الإعلام: تُسْتَغل كل وسائل الإعلام المتاحة وخاصة أفلام السينما والتلفاز (تأثير غير مباشر).

وظهر الهدف الثقافي من خلال الدعوة إلى العامية، وإلى محاربة الفصحى، والحداثة في الأدب والفكر؛ حيث نادى البعض بتحطيم السائد والموروث وتفجير اللغة وغير ذلك من الدعوات.

وقد بلغ من ثقتهم بأنفسهم في هذا المجال أن كتب أحدهم يتوقع ألا يمر وقت طويل حتى تستبدل مصر باللغة العربيَّة اللغة الفرنسيَّة كما فعلت دول شمال أفريقيا [(١)].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩١، ٦٩٢)، الاستشراق للمطبقاني، المسار الفكري للاستشراق، آصف حسين ص(٥٦٦- ٥٩٢)، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى خالدي وعمر فروخ ص(١٦٨)، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر ص(١٠٨، ١٤١)، رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم، السيد محمد الشاهد ص(١٨١)، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، د. أكرم ضياء العمري.

الفصل الرابع

مناهج المستشرقين

قام المستشرقون بدراسات متعددة عن الإسلام واللغة العربيَّة والمجتمعات المسلمة، ووظفوا خلفياتهم الثقافية وتدريبهم البحثي لدراسة الحضارة الإسلاميَّة والتعرف على خباياها لتحقيق أغراض الغرب الاستعمارية والتنصيريَّة.

فالدافع الذي دفع هؤلاء المستشرقين لدراسة الإسلام هو في الحقيقة العداء السافر لهذا الدين وللرسول صلى الله عليه وسلم، هذا العداء الذي بدأ منذ فجر الإسلام، فالمستشرقون ليسوا سوى امتداد لليهود والنصارى الذين بذلوا كل ما في وسعهم لطمس دين الإسلام، وإزالة معالمه من الوجود، ولم تخفف من هذا العداء القرون المتطاولة، بل ظل يأخذ صورًا شتى وأشكالًا متنوعة، تعلن تارة وتخفي أخرى، وتظهر في ثوب الود والولاء تارة، وتكشر عن أنياب العداء أحيانًا، واشتدت هذه العداوة بعد الحروب الصليبية (١٠٩٧-١٢٩٥م) (التي كانت نقطة تحول في الصراع الفكري والعقدي والسياسي بين الغرب المسيحي وبين الشرق الإسلامي)، فقد عاش المستشرقون في هذه البيئة المفعمة ببغض الإسلام، وارتضعوا من لبانها، ولذا جاء منهجهم يحوي بين طياته كل دسيسة وشبهة تطعن في هذا الدين.

وأبرز سمات هذا المنهج الذي درسوا الإسلام على أساسه:

١- تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوربية، فهم حكموا على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمغلوط الذي يجهل حقيقة الإسلام.

٢- تبييت فكرة مسبقة ثم اللجوء إلى النصوص واصطيادها لإثبات تلك الفكرة، واستبعاد ما يخالفها، وهذا خضوع للهوى وبعد عن التجرد العلمي.

فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مقدمًا، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك، ومن هناك يكون دأبه واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار بعضهم.

٣- اعتمادهم على الضعيف والشاذ من الأخبار، وغض الطرف عما هو صحيح وثابت.

وهذا الأمر مشهور إلى حد كبير؛ فهم يذهبون إلى الكتب التي تجمع الأحاديث وبخاصة مثل «كنز العمال» وغيرها من الكتب التي لا يرد فيها تصحيح أو تخريج للأحاديث، وقد كتب باحث بريطاني عن فتح المسلمين قسطنطينية بأنه وردت أحاديث عن أن الذي سيفتحها سيكون اسمه اسم نبي ثم لما لم تفتح ادعى أن الأحاديث لا تصح؛ لأن تكون مصدرًا، أما أنه لم يعرف صحة الحديث من عدمه فأمر لا يهمه وهو الذي يدعي العلميَّة والنزاهة.

٤- تحريف النصوص ونقلها نقلًا مشوهًا، وعرضها عرضًا مبتورًا، وإساءة فهم ما لا يجدون

سبيلًا لتحريفه.

قام بعض المستشرقين بتحريف كثير من الحقائق التي تخص الإسلام ورسالته وتاريخه؛ فمن ذلك مثلًا أن بعضهم أنكر عالمية الإسلام وبخاصة فيما يتعلق برسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب، كرسائله إلى هرقل والمقوقس وكسرى، وإنكار عالمية الرسالة الإسلاميَّة يظهر فيما كتبه جوستاف لوبون في كتابه «تاريخ العرب» حيث زعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أنه كان لليهود أنبياء، وكذلك للنصارى؛ فأراد أن يكون للعرب كتاب ونبي، وكأن الرسالة والنبوة أمر يقرره الإنسان بنفسه.

٥- التفسير بالإسقاط.

وهو إسقاط الواقع المعاصر المعاش، على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ؛ فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة، وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم، وهذا خطأ منهجي.

فمثلًا واقع الغربيين يدل على تنازعهم على السلطة، وإن كان الأمر يبدو في الحاضر انتخابات وحرية اختيار، ولكن الحقيقة أن من يملك المال يستطيع أن يصل إلى الأصوات حتى صدر في أمريكا كتابًا بعنوان «بيع الرئيس» وكتابًا آخر عن «صناعة الرئيس»؛ فجاء المستشرقون إلى بيعة الصديق رضي الله عنه فصوروها على أنها اغتصاب للسلطة أو تآمر بين ثلاثة من كبار الصحابة - هم واللهِ أنقى البشر بعد الأنبياء والرسل- وهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين؛ فزعموا أن هؤلاء الثلاثة تآمروا على أن يتولوا الخلافة الواحد تلو الآخر.

وذكرت كذلك أنهم سموا المنافقين بالمعارضة وغير ذلك من الإسقاطات التي تدل على سوء طوية وخبث وبعد عن المنهج العلمي.

وغربة المستشرقين عن العربيَّة والإسلام منحتهم عدم الدقة والفكر المستوعب في البحث الموضوعي.

٦- تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلًا من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ، كل ذلك انسياقًا مع الهوى، وانحرافًا عن الحق.

ومن ذلك المنهج الانتقائي، وإثارة الشكوك في معطيات السنة والتاريخ، فقد عرف عن كثير من المستشرقين في كتاباتهم حول السيرة النبوية الشريفة وحول التاريخ الإسلامي، أنهم ينتقون بعض الأحداث والقضايا ويكتبون عنها، ويهملون غيرها؛ كما أنهم يشككون في أمور من المسلمات لدينا في التاريخ الإسلامي، فقد أجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك، وقد أثاروا الشك حتى في اسم

الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده.

٧- إبراز الجوانب الضعيفة، والمعقدة، والمتضاربة، كالخلاف بين الفرق، وإحياء الشبه، وكل ما يثير الفرقة، وأخبار الصراعات والبحث عن الوثنيات والتاريخ السابق لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخفاء الجوانب المشرقة والإيجابية وتجاهلها.

وقد كثرت كتابات المستشرقين عن الفرق كالشيعة، والإسماعيلية، والزنج، وغيرهم من الفرق التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، وأعطوها من المكانة والاهتمام أكثر مما تستحق، بل إن هناك من كتب عن المنافقين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأطلق عليهم لقب المعارضة لإعطاء ما قاموا به من عداوة لله ولرسوله شرعيةً، وحصل بعضهم على درجة الدكتوراه في بحوث حول هذه الفرق.

٨- اعتماد مصادر غير موثوقة لدى المسلمين.

من العيوب المنهجية في الدراسات الاستشراقية، أنهم يعمدون إلى المصادر غير الموثقة عند المسلمين فيجعلونها هي المصدر الأساس لدراساتهم وبحوثهم ومن ذلك أنهم يرجعون إلى كتاب مثل كتاب «الأغاني» للأصفهاني؛ فيجعلونه مرجعًا أساسيًا في دراساتهم للتاريخ الإسلامي وللمجتمع الإسلامي، كما يعمدون إلى المراجع التي ضعفها العلماء المسلمون أو طعنوا في أمانة أصحابها؛ فيجعلونها أساسًا لبحوثهم، أو كان أصحاب تلك المراجع منحازين إلى فئة معينة أو متعصبين.

٩- الاستنتاجات الخاطئة والوهمية، وجعلها أحكامًا ثابتة يؤكدها أحدهم المرة تلو الأخرى، ويجتمعون عليها حتى تكاد تكون يقينًا عندهم.

١٠- النظرة العقلية المادِّيَّة البحتة التي تعجز عن التعامل مع الحقائق الروحية.

تنوع المناهج:

تنوعت مناهج المستشرقين بتنوع مدارسهم والعصر الذي كتبوا فيه، ففي بدايات الاستشراق الذي كان منطلقًا من البواعث الدينيَّة التعصبية كان المنهج السائد هو المنهج القائم على الجدل والتعصب والحقد.

وقد انتقد الغربيون أنفسهم هذا المنهج ومن هؤلاء نورمان دانيال وريتشارد سوذرن.

ولعل هذه الروح العصبية الحاقدة استمرت مع عدد من المستشرقين حتى الوقت الحاضر؛ فكان من هؤلاء على سبيل المثال مارجليوث ولامانس وبرنارد لويس.

وهناك من المستشرقين من تظاهر بالموضوعية، ولكنه كان يخفي تحت ستار الموضوعية الزائفة مناهج بعيدة كل البعد عن الموضوعية.

فمن أهم شروط الموضوعية احترام مسلمات الدين الإسلامي وثوابته، وعدم استخدام منهج الإسقاط في دراسة الدين الإسلامي.

كما ظهر في الغرب النزعة المادِّيَّة وبخاصة في الدول الشيوعية -وقد تأثر بعض الباحثين في العالم الرأسمالي بها- فحاولوا تفسير الإسلام تاريخًا وعقيدة وشريعة وفق المنهج المادي الماركسي.

وعند الحديث عن مناهج المستشرقين؛ فإننا لا بد أن ندرك أن عددًا من المستشرقين عُدُّوا قريبين من الموضوعيَّة وإن كان هؤلاء قلة قليلة جدًّا بينهم.

ولكن حتى هؤلاء الذين حاولوا أن ينصفوا الإسلام وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يستطيعوا أن ينفكوا من تأثير ثقافاتهم وعقائدهم فصدر منهم ما لا يقبله المسلم.

وهذا يعني أن أي تصنيف للمستشرقين إلى منصفين ومتعصبين هو أمر تختلف حوله الآراء؛ فقد يصدر ممن عرف عنه الاعتدال قول أو رأي مرفوض، وقد يحصل العكس فتكون بعض آراء المتعصبين إنصافًا جميلًا للإسلام، ولهذا يتوقع أن تكون بعض الأسماء التي شملها تصنيفنا الآتي محل نظر.

مستشرقون اعتبروا منصفون

١- هادريان ريلند ت ١٧١٨م ADRIANUS REELAND

مستشرق هولندي، أستاذ اللغات الشرقيَّة في جامعة أوترشت بهولندا.

له كتاب الديانة المحمدية في جزأين باللغة اللاتينيَّة ١٧٠٥م، لكن الكنيسة في أوربا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها.

والكتاب قسمان: القسم الأول: تحقيق لكتاب موجز في العقائد الإسلاميَّة لمؤلف مسلم، نشره عن مخطوط عربي وترجمه إلى اللاتينيَّة مع تعليقات وفيرة، وبهذا يعطي للقارئ الأوربي عرضًا أمينًا للعقيدة الإسلاميَّة كما يفهمها المسلمون.

والقسم الثاني: يفحص عن بعض الآراء الباطلة -المنتشرة في أوربا منذ العصر الوسيط حتى القرن السابع عشر- عن الإسلام والقرآن والسنة المحمدية، ويحاول تصحيحها استنادًا إلى القرآن والسنة ومؤلفات المسلمين.

وله من الأبحاث: بحث عن القانون الحربي عند المسلمين، وبحث عن الجواهر العربيَّة، وتحقيق وترجمة كتاب تعليم المتعلم للزرنوجي.

واهتم بالنقود والنقوش التي عثر عليها في فلسطين وكتب كتابًا في هذا الموضوع بعنوان: فلسطين موضحة بحسب الآثار القديمة ١٧٤١ .

٢- يوهان ج. ريسكه ١٧١٦ - ١٧٧٤م reiske.J.J

وهو مستشرق ألماني جدير بالذكر، يعد مؤسس الدراسات العربيَّة في ألمانيا حيث بدأ تعليم نفسه العربيَّة ثم درس في جامعة ليبزيج، وانتقل إلى جامعة ليدن لدراسة المخطوطات العربيَّة فيها كما اهتم بدراسة اللغة العربيَّة والحضارة الإسلاميَّة.

وقد اتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام، عاش بائسًا ومات مسلولًا، وأبغضه وحاربه اللاهوتيون؛ لأنه مجد الإسلام.

وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربيَّة بألمانيا، والابتعاد بالدراسات العربيَّة الإسلاميَّة عن الارتباط بالدراسات اللاهوتية التي كانت تميز هذه الدراسات في القرون الوسطى (الأوربية).

٣- سلفستر دي ساسي ١٧٥٨- ١٨٣٨م Silvestre de Sacy

تعلم اللاتينيَّة واليونانيَّة ثم درس على بعض القساوسة، ثم درس العربيَّة والفارسية والتركية، وعمل في نشر المخطوطات الشرقيَّة في مكتبة باريس الوطنية، وكتب العديد من البحوث حول العرب وآدابهم وحقق عددًا من المخطوطات.

وعين أستاذًا للغة العربيَّة في مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية عام ١٧٩٥، وأعد كتابًا في النحو ترجم إلى الإنجليزية والألمانيَّة والدنماركية، وأصبح مديرًا لهذه المدرسة عام ١٨٣٣، وعندما تأسست الجمعيَّة الأسيوية انتخب رئيسًا لها عام ١٨٢٢ .

ومن أبرز اهتماماته الدروز حيث ألف كتابًا حولهم في جزأين.

اهتم بالأدب والنحو مبتعدًا عن الخوض في الدراسات الإسلاميَّة، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزًا للدراسات العربيَّة، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي.

وعمل دي ساسي مع الحكومة الفرنسيَّة وهو الذي ترجم البيانات التي نشرت عند احتلال الجزائر وكذلك عند احتلال مصر من قبل حملة نابليون عام ١٧٩٧ .

٤- توماس وولكر أرنولد ١٨٦٤-١٩٣٠م.

إنجليزي بدأ حياته العلميَّة في جامعة كامبردج، وانتقل للعمل باحثًا في جامعة على كرا (عليكرا) في الهند حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)، ثم عمل أستاذًا للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام ١٩٠٤ عاد إلى لندن ليصبح أمينًا مساعدًا لمكتبة إدارة الحكومة الهندية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وعمل في الوقت نفسه أستاذًا غير متفرغ في جامعة لندن.

واختير عام ١٩٠٩ ليكون مشرفًا عامًا على الطلاب الهنود في بريطانيا. ومن المهام العلميَّة التي شارك فيها عضوية هيئة تحرير الموسوعة الإسلاميَّة التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعتها الأولى.

والتحق بمدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن بعد تأسيسها عام ١٩١٦ . عمل أستاذًا زائرًا في الجامعة المصريَّة عام ١٩٣٠ .

وله عدة مؤلفات سوى كتابه الدعوة إلى الإسلام الذي نقل إلى التركية والأردية والعربيَّة، ومنها الخلافة، وكتاب حول العقيدة الإسلاميَّة، وشارك في تحرير كتاب تراث الإسلام في طبعته الأولى،

بالإضافة إلى العديد من البحوث في الفنون الإسلاميَّة.

وبالرغم من شهرة آرنولد بأنه من المستشرقين المعتدلين؛ فإن البحث الدقيق في كتاباته تدل على أنه يشارك غيره من المستشرقين في الطعن في الإسلام بأسلوب هادئ وبخاصة في كتابه الخلافة وفي كتابه الدعوة إلى الإسلام كما أوضح ذلك أحد الباحثين في المعهد العالي للدعوة الإسلاميَّة في المدينة المنورة.

٥- غوستاف لوبون.

مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقًا، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلاميَّة مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره.

وله كتاب حضارة العرب تحدث فيه عن ظهور الإسلام، وحالة العرب حينذاك، ثم امتدح الفتوحات الإسلاميَّة وقال: إن العالم لم يشهد فاتحًا أرحم من العرب.

وتجد في الكتاب بعض العبارات والكلمات التي أنصفت الإسلام والمسلمين.

على الرغم من أن كتاب لوبون فيه بعض المغالطات الفكريَّة والتاريخية، والطعن على القرآن.

٦- زيجريد هونكه.

مستشرقة ألمانية اتسمت كتابتها بالإنصاف؛ وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربيَّة على الغرب في مؤلفها الشهير شمس العرب تَسْطُعُ على الغرب.

إذ قالت في كتابها: لقد وجدت اللغة العربيَّة تجاويًا من الجماعات، وامتزجت بهم وطبعتهم بطابعها، وكونت تفكيرهم ومداركهم، وشكلت قيمهم وثقافتهم، وطبعت حياتهم الماديَّة والعقلية، فأعطت للأجناس المختلفة في القارات الثلاث وجهًا واحدًا مميزًا، حتى السلاجقة والأتراك والمماليك والتتار عندما وصلوا إلى الحكم ظلوا بقلوبهم رعايا مخلصين للثقافة العربيَّة وللغتها، بل ولأساليب الحياة العربيَّة وفكرها، حقًّا إن قدرة هذه العقلية العربيَّة على طبع الشعوب لرائعة.

٧- جاك واردنبرج ١٩٣٠ .

درس القانون بجامعة أمستردام، ودرس أيضًا علم اللاهوت بالجامعة نفسها. درس العربيَّة في الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦ بجامعة أمستردام وفي ليدن وفي مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية في باريس.

وحصل على منحة من اليونسكو لزيارة بعض الدول العربيَّة والإسلاميَّة فزار إيران ولبنان ومصر والأردن.

كانت رسالته للدكتوراه بعنوان (الإسلام في مرآة الغرب) من جامعة أمستردام.

وعمل في معهد الدراسات الإسلاميَّة بجامعة ماقيل بكندا في الفترة من ١٩٦٢-١٩٦٣ .

وقام بزيارات علمية لإجراء بحوث حول الجامعات في العالم العربي في كل من تونس ولبنان

وسوريا والعراق والأردن.

وعمل باحثًا زائرًا في جامعة كليفورنيا -لوس أنجلوس وعمل في مجال التدريس في جامعة أوترخت بهولندا (١٩٦٨-١٩٨٧) ثم انتقل إلى جامعة لوزان بسويسرا وبقي فيها حتى تقاعد عام ١٩٩٥ .

وله إنتاج غزير في مجال الدراسات الإسلاميَّة منها (الإسلام في مرآة الغرب) و(واقع الجامعات العربيَّة -مجلدان) والطرق الكلاسيكية لدراسة الدين. شارك في الكتابة في دائرة المعارف الإسلاميَّة (الطبعة الثانية) وقد كتب مادة (مستشرقون).

٨- أنَّا ماري شميل ١٩٢٢ .

من أشهر المستشرقين الألمان المعاصرين، بدأت دراسة اللغة العربيَّة في سن الخامسة عشرة، وتتقن العديد من لغات المسلمين، وهي: التركية، والفارسية، والأوردو.

درَّست في العديد من الجامعات في ألمانيا وفي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وفي أنقرة.

اهتمت بدراسة الإسلام، وحاولت تقديم هذه المعرفة بأسلوب علمي موضوعي لبني قومها، حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام.

ولكن بعض الجهات المعادية للإسلام لم يرقها أن تنال هذه الباحثة المدافعة عن الإسلام في وجه الهجمات الغربية عليه -حاولوا أن يمنعوا حصولها على الجائزة.

ومتخصصة في دراسة محمد إقبال حكيم وشاعر باكستان، وترجمت إلى الألمانيَّة له ديوان (جاويد نامة) وكتاب (رسالة المشرق عن الفارسية).

أصدرت العديد من الكتب منها كتاب محمد رسول الله بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله.

وقد امتدحها رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بأنها ما زالت تواصل كتاباتها الموضوعية وترجماتها عن الإسلام.

٩- أ.ج. اربري ١٩٠٥- ١٩٦٩م J.A. Arberry.

ولد في مدينة بورتسموث بجنوب بريطانيا، والتحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينيَّة واليونانيَّة، وارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربيَّة، عاد إلى مصر ليعمل في كلية الآداب رئيسًا لقسم الدراسات القديمة (اليونانيَّة واللاتينيَّة) وزار فلسطين وسوريا ولبنان.

اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية مجنون ليلي لأحمد شوقي، كما حقق كتاب التعرف إلى أهل التصوف، وواصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري وترجمه إلى الإنجليزية، ومن كتبه الإسلام اليوم صدر ١٩٤٣م، وترجمة معاني القرآن الكريم.

وعمل آربري مع وزارة الحرب البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية مهتمًا بشئون الإعلام

والرقابة البريدية. وأصدر كتابه المستشرقون البريطانيون سنة ١٩٤٣ .

وتولى منصب أستاذ كرسي اللغة العربيَّة في مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية، ثم انتقل لجامعة كمبردج ليحتل منصب أستاذ كرسي اللغة العربيَّة في هذه الجامعة.

- ومنهم أيضًا: كارلايل، ورينيه جينو، والدكتور جرينيه، وجوته الألماني.

مستشرقون متعصبون

١- جولدتسيهر ١٨٥٠- ١٩٢٠م Goldizher .

ولد لأسرة يهودية، درس في بوادبست، ثم برلين، ثم انتقل إلى جامعة ليبسك، والتحق فيها بقسم الدراسات الشرقيَّة، ورحل إلى القاهرة وسوريا، وحضر بعض الدروس في الأزهر.

وعمل في جامعة بودابست في مجال الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة.

وأصبح أستاذًا للغات السامية عام ١٨٩٤ .

وكتب كثيرًا حول الإسلام عقيدة وشريعة وتاريخًا، ومن كتبه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي، والعقيدة والشريعة، وكان له تأثير في الدراسات الاستشراقية حتى يومنا هذا حيث انتشرت كتبه في مختلف اللغات الأوربية، ولقد أصبح زعيم الإسلاميات في أوربا بلا منازع.

وما تزال جامعة برنستون -مثلًا- تقرر كتابه دراسات إسلامية في مناهج قسم دراسات الشرق الأدنى حيث قامت الجامعة بنشر ترجمة جديدة لهذا الكتاب مع تعليقات المستشرق برنارد لويس.

وقد رد عليه كثير من المسلمين، ومن أبرزهم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، كما أعدت بعض البحوث حول الجوانب العقدية والتاريخية في كتاباته في قسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة.

٢- جون ماينارد Maynard J.

أمريكي، متعصب، من محرري مجلة الدراسات الإسلاميَّة.

٣- ص م. زويمر ١٨٦٧- ١٩٥٢م Zweimer .M.S .

أمريكي مستشرق، رئيس المنصرين في المنطقة العربيَّة من الشرق، له جهود معروفة في التنصير، وله طريقته التي أملاها على من بعده من خلال المؤتمرات المتعددة التي أقامها وشارك فيها، وله آثار عدة في العلاقات بين النصرانيَّة والإسلام، امتازت بالتعصب والتضليل الشديدين، الأمر الذي أفقدها صدقها العلمي الرصين، منها: يسوع في إحياء الغزالي، وفرنسيس الأسيزي والإسلام، وتولى رئاسة تحرير مجلة العالم الإسلامي التنصيريَّة التي أنشأها مع دنكن بلاك ماكدونالد.

وله كتاب الإسلام تحدٍّ لعقيدة صدر ١٩٠٨م، وله كتاب الإسلام عبارة عن مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م في لكهنتو بالهند.

٤- غ. فون. غرونباوم ١٩٠٩- ١٩٧٢م Von Grunbaum .G.

ألماني، يهودي، ولد في فينا ودرس في جامعتها، وفي جامعة برلين، هاجر إلى الولايات المتَّحدة، والتحق بجامعة نيويورك عام ١٩٣٨، ثم جامعة شيكاغو، ودرَّس في جامعات أمريكا، ثم استقر به المقام في جامعة كاليفورنيا حيث أسهم في تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذي أطلق عليه اسمه فيما بعد.

ومن أهم كتبه الإسلام في العصر الوسيط، كما اهتم بدراسة الأدب العربي، وله إنتاج غزير في هذا المجال، منها كتاب الأعياد المحمدية ١٩٥١م، ودراسات في تاريخ الثقافة الإسلاميَّة ١٩٥٤م.

وقد امتلأت كتبه بالاعتداءات الصارخة علي الإسلام ومقدسات وقيم وتاريخ المسلمين.

٥- أ.ج. فينسينك Wensink .J.A.

عدو للإسلام، تتلمذ على يد المستشرق هوتسمان، ودي خويه، وسنوك هورخرونيه، وسخاو.

وحصل على الدكتوراه في بحثه: محمد واليهود في المدينة عام ١٩٠٨ .

وبدأ في عمل معجم مفهرس لألفاظ الحديث الشريف مستعينًا بعدد كبير من الباحثين وتمويل من أكاديمية العلوم في أمستردام ومؤسسات هولندية وأوربية أخرى.

وأصدر كتابًا في فهرسة الحديث ترجمه فؤاد عبد الباقي بعنوان (مفتاح كنوز السنة).

وأشرف على طباعة كتابات سنوك هورخرونيه في ستة مجلدات.

وله مؤلفات عديدة منها كتاب في العقيدة الإسلاميَّة نشأتها وتطورها التاريخي سنة ١٩٣٢م.

٦- كينيث كراج Gragg .K.

أمريكي معاصر، منصر صريح متعصب، خلف زويمر في نشاطه التنصيري، وهو أستاذ الدراسات الاستشراقية في أكثر من جامعة، ومنها الجامعة الأمريكيَّة ببيروت، ورأس تحرير مجلة العالم الإسلامي التنصيريَّة.

ومن أبرز آثاره: دعوة المئذنة ١٩٥٦م، وقراءات في القرآن.

٧- لوي ماسنيون ١٨٨٣- ١٩٦٢م Massingon .L.

ولد في باريس وحصل على دبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب، كما حصل على دبلوم اللغة العربيَّة من مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية (فصحى وعامية) زار كلًّا من الجزائر والمغرب وفي الجزائر انعقدت الصلة بينه وبين بعض كبار المستشرقين مثل جولدتسيهر وآسين بلاثيوس وسنوك هورخرونيه ولي شاتيليه.

والتحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقيَّة في القاهرة عدة أعوام (١٩٠٧-١٩٠٨)، وفي عام ١٩٠٩ عاد إلى مصر وهناك حضر بعض دروس الأزهر وكان مرتديًا الزِّيَّ الأزهري.

وزار العديد من البلاد الإسلاميَّة، منها الحجاز، والقاهرة، والقدس، ولبنان، وتركيا.

وعمل معيدًا في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (١٩١٩-١٩٢٤)، وأصبح أستاذ كرسي (١٩٢٦-١٩٥٤)، ومديرًا للدراسات في المدرسة العلميَّة العليا حتى تقاعده عام ١٩٥٤ .

ولقد اشتهر ماسنيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة بالحلاج حيث حقَّق ديوان الحلاج (الطواسين) وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (آلام الحلاج شهيد التصوف) سنة ١٩٢٢م في جزأين وقد نشرت في كتاب تزيد صفحاته على ألف صفحة (ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية)، وله اهتمام بالشيعة والتشيع، وعرف عن لويس صلته بالحكومة الفرنسيَّة وتقديمه المشورة لها، حيث كان مستشارًا في وزارة المستعمرات الفرنسيَّة لشئون شمال أفريقيا، وكان يعمل في التبشير.

٨- د.ب. ماكدونالد ١٨٦٣- ١٩٤٣م D.B. Macdonald.

أصله إنجليزي، بدأ الدراسة في جلاسجو (اسكتلندا)، وانتقل إلى برلين للدراسة مع المستشرق زاخاو.

وانتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عام ١٨٩٣م لتعليم اللغات الساميّة.

وأسس في الولايات المتَّحدة مدرسة كندي للبعثات عام ١٩١١م.

وشارك مع زويمر في السنة نفسها في تأسيس مجلة العالم الإسلامي.

وتنوع إنتاجه بين الدراسات الشرعية والدراسات اللغوية، وله كتاب تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية ١٩٣٠م، وله الموقف الديني والحياة في الإسلام ١٩٠٨م، وهو متعصب يعمل في التبشير.

٩- مايلز جرين .M. Green

سكرتير تحرير مجلة الشرق الأوسط.

١٠- د.س. مرجليوث ١٨٨٥- ١٩٤٠م D.S. Margoliouth .

إنجليزي، بدأ حياته العلميَّة بدراسة اليونانيَّة واللاتينيَّة، ثم اهتم بدراسة اللغات السامية؛ فتعلم العربيَّة، ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية، وكتابه عن الإسلام، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود.

وله كتاب التطورات المبكرة في الإسلام صدر ١٩١٣م، وله محمد ومطلع الإسلام صدر ١٩٠٥م، وله الجامعة الإسلاميَّة صدر ١٩١٢م.

ولكن هذه الكتابات اتسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية؛ كما وصفها عبد الرحمن بدوي، ومن مدرسته طه حسين وأحمد أمين.

ولكن يحسب له اهتمامه بالتراث العربي كنشره لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعري وغير ذلك من الأبحاث.

١١- بارون كرَّادي فو ١٨٦٧- ١٩٥٣م Baron Carra de Voux.

فرنسي، متعصب، تعلم في مدرسة استانسلاس بباريس، ثم دخل كلية الهندسة سنة ١٨٨٦، وتفرغ للخدمات الاجتماعيَّة وللأشعار وللبحث التاريخي، ودرس اللغات الشرقيَّة وخصوصًا اللغة العربيَّة بالمعهد الكاثوليكي في باريس، وكان أحد مؤسسي مجلة الشرق المسيحي، وتولى تنظيم مؤتمرات علمية دولية للكاثوليك، ونشر دراسات في حوليات الفلسفة المسيحيَّة، والمجلة الآسيوية، ومجلة الكتاب المقدس.

ويعد من كبار محرري دائرة المعارف الإسلاميَّة.

وله من الكتب: عقيدة الإسلام ١٩٠٩، العبقرية السامية والعبقرية الآرية في الإسلام ١٨٩٧، ابن سينا ١٩٠٠، الغزالي ١٩٠٢ .

وله تحقيقات وترجمات إلى الفرنسيَّة منها: الحيل لأهرن السكندري، والآلات المائية لفيلون البيزنطي، والأكر السماوية للطوسي، التأليف الموسيقي لصفي الدين البغدادي، والقصيدة العينية في النفس لابن سينا، والتنبيه والإشراف للمسعودي، وعنى بدراسة الأجناس السامية في كتابه لوحة الأجناس السامية ١٩٤٤ .

١٢- هـ.أ.ر. جب ١٨٩٥- ١٩٦٥م H.A.r. Gibb .

إنجليزي، ولد في الإسكندرية وانتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك، والتحق بجامعة أدنبرة لدارسة اللغات السامية.

وعمل محاضرًا في مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٢١، وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذًا للغة العربيَّة عام ١٩٣٧، وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربيَّة بجامعة أكسفورد.

انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ليعمل مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذًا للغة العربيَّة في الجامعة.

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي؛ فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره، وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال تومارس آرنولد وغيره.

من أبرز إنتاجه: الفتوحات الإسلاميَّة في آسيا الوسطى ١٩٣٣، ودراسات في الأدب العربي المعاصر، وكتاب الاتجاهات الحديثة في الإسلام ١٩٤٧م، وشارك في تأليف إلى أين يتجه الإسلام.

وقد انتقل جيب من دراسة اللغة والآداب والتاريخ إلى دراسة العالم الإسلامي المعاصر، وهو ما التفت إليه الاستشراق الأمريكي حينما أنشأ الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق.

وله كتاب بعنوان المذهب المحمدية ١٩٤٧م، ثم أعاد نشره بعنوان الإسلام، وله كتاب عن

الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٣- ر.أ. نيكولسون ١٨٦٨- ١٩٤٥م r.A. Nicholson .

إنجليزي، دخل جامعة أبردين، ثم كلية الثالوث في كمبريدج وصار زميلًا بها، وانتقل إلى كلية الجامعة في لندن أستاذًا للغة الفارسية، ومرة أخرى مدرسًا للفارسية في كمبريدج، ثم كرسي اللغة العربيَّة، وتقاعد في ١٩٣٣ .

وهو ينكر أن يكون الإسلام دينًا روحيًا، وينعته بالماديَّة وعدم السمو الإنساني.

وإنتاجه العلمي يدور حول التصوف الإسلامي خصوصًا، وله مقالات عديدة فيه نشرها في دائرة معارف الدين والأخلاق، ودائرة معارف الأخلاق، كتاب «متصوفو الإسلام» ١٩١٠، وتحقيق ونشر تذكرة الأولياء للعطار، واللمع لأبي نصر السراج، وترجمان الأشواق لابن عربي.

وله اهتمام أيضًا بالأدب العربي والشعر الفارسي، ومن أعظم أعماله فيه نشره لديوان مثنوي معنوي للرومي مع ترجمة وشرح ١٩٢٥- ١٩٤٠، وتاريخ الأدب العربي ١٩٠٧ .

١٤- هنري لامنس ١٨٧٢- ١٩٣٧م H.Lammans.

ولد في مدينة خنت في بلجيكا، تعلم في الكلية اليسوعيَّة في بيروت، وبدأ حياة الرهبنة فيها.

يقول عنه عبد الرحمن بدوي: «بلجيكي، وراهب يسوعي، شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقارًا تامًّا إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويعد نموذجًا سيئًا للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين».

عمل معلمًا في الكلية اليسوعيَّة في بيروت حيث درّس التاريخ والجغرافيا، ثم أصبح أستاذًا للتاريخ الإسلامي في معهد الدروس الشرقيَّة في الكلية نفسها.

وتولى رئاسة تحرير مجلة الشرق، وتولى كذلك إدارة مجلة تنصيريَّة أخرى هي البشير.

له كتابات حول السيرة النبوية وحول الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، منها كتاب الإسلام، وكتاب الطائف، وهو من محرري دائرة المعارف الإسلاميَّة.

١٥- جوزيف شاخت ١٩٠٢- ١٩٦٩م J. Schacht.

ألماني يهودي، متعصب ضد الإسلام، درس اللغات الشرقيَّة في جامعة برسلاو وليبتسك، انتدب للعمل في الجامعة المصريَّة عام ١٩٣٤ لتدريس مادة فقه اللغة العربيَّة واللغة السريانيَّة، وشارك في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلاميَّة في طبعتها الثانية.

عرف شاخت باهتمامه بالفقه الإسلامي ولكنه صاحب إنتاج في مجال المخطوطات، وفي علم الكلام، وفي تاريخ العلوم والفلسفة، وله كتاب أصول الفقه الإسلامي.

وقد سار على نهج أسلافه -وبخاصة أستاذه جولدتسيهر- في الحط من الشريعة الإسلاميَّة، وادعى بأن الشريعة الإسلاميَّة لا تختلف عن أعراض الجاهلية، وغير ذلك من الإدعاءات.

١٦- ريجيس بلاشير ١٩٠٠- ١٩٧٣م R.L. Blacher.

ولد في باريس وتلقى التعليم الثانوي في الدار البيضاء وتخرج باللغة العربيَّة من كلية الآداب بالجزائر، وتولى العديد من المناصب العلميَّة منها أستاذ اللغة العربيَّة في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (١٩٢٤-١٩٣٥)، وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية بباريس وأستاذًا محاضرًا في السوربون ثم مدير مدرسة الدراسات العليا والعلميَّة، ثم أستاذ اللغة العربيَّة وحضارتها في باريس.

من أبرز إنتاجه: ترجمته لمعاني القرآن الكريم، وكذلك كتابه تاريخ الأدب العربي في جزأين، وكتاب «أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي»، وترجمهما إلى العربيَّة إبراهيم الكيلاني.

وكان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسيَّة كخبير في شئون العرب والمسلمين.

١٧- ألفرد جيوم ١٨٨٨ - ١٩٦٢م A. Geom.

إنجليزي، متعصب ضد الإسلام.

له من الآثار: اليهوديَّة في الإسلام، وتعليق جديد على الطبعة المقدَّسة، وجدل بين فقهاء النصرانيَّة والإسلام، وعلم الكلام المسيحي والإسلامي بين الشهرستاني وتوما الإكويني، وفقرات من الإنجيل استعملت في المدينة سنة ٧٠٠ م، وأين كان المسجد الأقصى.

١٨- برنارد لويس.

ولد برنارد لويس سنة ١٩١٦ في لندن لأسرة يهودية، تخصص منذ التحاقه بالدراسات العليا في دراسة الشرق والإسلام بالتحديد وتاريخ الإسلام والمسلمين، وحصل على درجة البكالوريوس في التاريخ من مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٣٦، كما حصل على درجة الدكتوراه في تاريخ الإسلام من المدرسة نفسها عام ١٩٣٩، وكان موضوع رسالته عن الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين.

وأثناء دراسته الجامعية عين مدرسًا مساعدًا بمدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية، غير أنه ترك العمل بالجامعة خلال سنوات الحرب (١٩٤٠ - ١٩٤٥) ليلتحق بخدمة المخابرات البريطانية وبعد الحرب، عاد للعمل بالجامعة حتى عام ١٩٧٤ . واستمرت صلته بالمخابرات البريطانية بعد ذلك، وظل مرجعًا مهمًّا ومستشارًا يُرجع إليه في شئون الشرق الأوسط، وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية غيّر اهتمامه من دراسة تاريخ الإسلام في العصور الماضية، إلى دراسة تاريخ الشرق الأوسط والعالم العربي خاصة في العصر الحديث.

والتحق بأمريكا سنة ١٩٧٤ ليعمل في جامعة برنستون، وظل أستاذًا للدراسات الشرقيَّة بها حتى تقاعده من العمل الأكاديمي في ١٩٨٦؛ إذ أصبح أستاذًا فخريًّا، وهو مركز جعله يبقى مرجعًا فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط ليس للأكاديميين الغربيين فحسب، بل لدوائر صنع القرار الأمريكي خاصة.

ويركز برنارد لويس في كتاباته عن الإسلام والمسلمين والعرب والعالم العربي على مجموعة من الآليات الخطيرة، مثل آليات (ميكانزمات) التهويل، والبتر والتقطيع لكثير من الحقائق، وآلية التهوين (الإهمال)، فهو يهوّل ما كان هامشيًا أو عفويًا أو قليل الحضور في التاريخ الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلاميَّة، ويهوّن (يهمل) ما كان غالبًا مهيمنًا في الحضارة والفكر الإسلامي وفي الثقافة الإسلاميَّة[١].

ونلاحظ من هذه الأسماء وغيرها أن اليهود لم يريدوا أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم. وبالتالي يقل أثرهم. ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين، وبذلك كسبوا مرتين: كسبوا أولًا فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانية تحقيق أهدافهم من النيل من الإسلام وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية النصارى.

المستشرقون والقرآن

منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل النقاد من الكفار وغير المسلمين يكررون آراء مشركي مكة حيال القرآن، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على الأخص، أخذ بعض علماء الغرب من المستشرقين يعيدون اعتراضات وافتراضات مماثلة حول القرآن، وذلك بحجج وادعاءات متنوعة، ورواد هؤلاء المستشرقين ألوي سبرنجر، ووليم ميوير، وثيودور نولدكة، واجناز جولدتسيهر، ودبليو فلهاوسن، وليون كايتاني، ودافيد سامويل مرجليوث.

وقد قام بتطوير آرائهم وتضخيم استنتاجاتهم آخرون تبعوهم في القرن العشرين الميلادي، وفي مقدمتهم ريتشارد بيل، وتلميذه وليم مونتغمري وات.

وجميع هؤلاء المستشرقين يسعون بشتى الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

فمثلًا يقول جورج سيل في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ١٧٣٦م: أما إن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح مع ذلك أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك.

وفي الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي بدأ اتجاه جديد بين الجيل الجديد من المستشرقين الذين يقترحون أن القرآن ليس بتأليف محمد صلى الله عليه وسلم فحسب، بل إنه اتخذ شكله الحالي تدريجيًا عبر تطورات وتعديلات تمت في القرنين الأول والثاني من الهجرة. والجديرون بالذكر من

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٨٨- ٦٩١)، الاستشراق للمطبقاني، المستشرقون والتنصير، علي بن إبراهيم الحمد النملة، موسوعة الاستشراق، د. عبد الرحمن بدوي، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

بين هؤلاء المحدثين ج. وانسبرة، وج.أ. بيلامي، وأندرو ريبين.

وقد قام ببسط ادعاءاتهم وترويجها آخرون أمثال باتريشيا كرون، ومايكل كوك، وكينيث كراج، وتوبي ليستر.

إن الذين يذهبون إلى أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم يركزون على الادعاءات التالية:

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رجلًا طموحًا واتخذ خطوات مدروسة للدور الذي قام به فيما بعد.

وهو بالأخص كرس نفسه لفن الشعر ليستطيع نظم القرآن.

وإنه لم يكن رجلًا دون معرفة بالكتابة والقراءة كما يزعم المسلمون، وإن لفظ «الأمي» المنسوب إليه يعني شيئا آخر.

وإنه اقتبس الأفكار والقصص من اليهوديَّة والنصرانيَّة ثم ضمَّنها القرآن.

وإن كثيرًا من الأخطاء العلميَّة المعاصرة، خصوصًا تلك التي تتصل بالعالم والكون، معكوسة في القرآن، كما يوجد فيه العديد من العبارات والمصطلحات الجارية والمفردات الأجنبية، وكل هذه تدل على أنه من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن كلمة «الوحي» لا تعني إلقاء النص من الله بل تعني اقتراحًا أو إشارة (suggestion) أو «التكلم الذهني» Intellectual Locution».

وأما الذين يدعون أن القرآن قد تطور عبر القرنين الأول والثاني من الهجرة فكلامهم يدور حول المزاعم التالية:

إن المصادر التاريخية الإسلاميَّة ليست معاصرة ولا يمكن تصديقها.

إن الحفريات الأثرية في جزيرة العرب؛ خصوصًا تلك التي جرت في منطقة نجف كشفت العديد من النقوش القديمة تدل على عدم وجود القرآن في القرن الأول الهجري.

إن المخطوطات القرآنية القديمة التي عثر عليها مؤخرًا في صنعاء تشير إلى تطور القرآن خلال فترة طويلة.

وإن نقد النص القرآني يشير إلى أخطاء في نسخ القرآن.

ويتضح مما سبق أن مزاعم المستشرقين لها جوانب متنوعة وأبعاد خطيرة، وأنهم لا يكفون عن محاولات النيل من القرآن[١].

---

(١) انظر: مناقشة هذه الآراء ونقدها في كتاب مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، د. محمد مهر علي، الاستشراق والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. علي بن إبراهيم النملة.

- فمثلًا ريتشارد بل يزعم بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد استمد القرآن من مصادر يهودية ومن العهد القديم بشكل خاص، وكذلك من مصادر نصرانية.

- ودوزي يزعم أن القرآن الكريم ذو ذوق رديء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل، كما يزعم أن فيه إطنابًا بالغًا ومملًّا إلى حد بعيد.

- ويقول جوستاف لوبون عن القرآن: ليس في عامية القرآن ولا صوتيته أو هويته الصبيانية التي هي من صفات الأديان السماوية ما يقاس بنظريات الهندوس.

يعني لوبون يرى أن القرآن الكريم في لغته، وفي أفكاره؛ لا يرقي إلى الهندوسية، ثم ينكر شمولية القرآن، ويرى أنه مؤقت لعصره، وأنه لا يحقق حاجات الفرد في عصور لاحقة بل يجعله سبب تخلف المسلمين.

- ويقول شيلدون آموس: «إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقيَّة معدلًا وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربيَّة»، ويقول كذلك: «إن القانون المحمدي ليس سوى قانون جستنيان في لباس عربي».

- وقال رينان الفرنسي: «إن الفلسفة العربيَّة هي الفلسفة اليونانيَّة مكتوبة بأحرف عربية».

- أما لويس ماسينيون فقد كان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني[(١)].

المستشرقون والسنة

لم يفرد المستشرقون القدامى السنة بدراسات مستقلة، بل ركزوا على العقيدة والقرآن والسيرة والتاريخ.

في نهاية القرن السابع عشر كتب هربلو وهو فرنسي (١٦٣٥ - ١٦٩٥ م) صاحب المكتبة الشرقيَّة، وهي دائرة معارف عن الشرق نُشرت ١٧٣٨ م - بحثًا في (حديث، قصة، خبر مسموع مقول، أحاديث الرسول، حديث عن أشياء قالها الرسول الزائف، وقد نقل من فم إلى فم، ومن شخص إلى آخر)، وخلاصة رأيه أن جملة الأحاديث التي في الكتب الستة والموطأ والدارمي والدارقطني والبيهقي والسيوطي مأخوذة إلى حد كبير من التلمود، ويلاحظ أنه يفرق بين السنة التي التزم المسلمون بتطبيق أحكامها وبين الحديث الذي هو مجرد خبر تاريخي غير موثوق!!

كذلك يلاحظ في دراسة هربلو التكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم، واتهامه بالزيف والألقاب الأخرى الشائنة، والزعم بأن المحمدية مستقاة من التلمود، واليهود الذين دخلوا في الإسلام، مما سيتطور فيما بعد إلى الاستقاء من عدة ديانات وحضارات كانت على صلة بجزيرة العرب، وكذلك اتهام المسلمين بعدم التميز في دراسة أصول شريعتهم، مما تبناه «جولد تسيهر» و«شاخت» وهما أبرز من تناول موضوع السنة من المستشرقين، وقد جعل الزهري أول من جمع الحديث، مما يولد فجوة

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٤، ٦٩٥).

تاريخية بين مرحلة النطق بالأحاديث وتدوينها مما يشكك في إمكانية الثقة بها.

وفي القرن الثامن عشر قسم المستشرقون حقول الدراسات الشرقيَّة بصورة موضوعية، وفي نهاية القرن برز الأمير كايتاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م)، وميور (ت ١٩٠٥ م)، وشبرنجر (ت ١٨٩٣ م) وكانوا مهتمين بتاريخ السنة، واعتقدوا الشك في صحة الأحاديث، وسعوا للكشف عما أسموه «المادة الأصليَّة للحديث»، أفاد من الثلاثة أحد المتضلعين بأصول اللغات السامية والتاريخ الإسلامي هو إجناس جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) الذي درس بالأزهر، وهو مجري الجنسية، يهودي الديانة، وقد اعتبره المستشرقون -ومن تأثر بهم- الرائد الأول في دراسة الحديث ونقده بالاستعانة بمنهج النقد التاريخي، حيث توصل إلى فكرة تطور الأسانيد والمتون في الفكر الإسلامي، ولا شك في أهمية تأثيره على سير الدراسات الاستشراقية في حقل السنة، ويرى أن وضع الحديث بدأ في جيل الصحابة المبكر، وإن كان يثبت وجود مادة أصلية، فهو يعترف بوجود أحاديث مكتوبة في الصحف في أيدي الصحابة، لكنه رغم ذلك يرى أن التدوين للسنة لم يبدأ إلا في القرن الثاني، وأن معظم الأحاديث -في رأي جولد تسيهر- وضعتها الفرق السياسية الكلامية والمذهبية في القرنين الثاني والثالث؛ لذلك هي تعكس تطور المسلمين السياسي والفكري خلال القرنين ولا تمت غالبًا إلى القرن الأول بصلة، ويركز على الصراع بين الأمويين الذين يصورهم بصورة الطغاة الجهلة وبين العلماء الأتقياء وأنصار أهل البيت، ويتهم الزهري بوضع حديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، وقد عزا جولد تسيهر أصول الإسلام إلى اليهوديَّة والمسيحيَّة، وأكد على تأثير الهلينية في تطور الإسلام، وتأثير القانون الروماني في نمو التشريع الإسلامي.

لقد صارت دراساته دستورًا للمستشرقين من بعده، وقليل منهم انتقد بعض آرائه أو عدَّل فيها مثل فيوك (ت ١٩٣٩ م)، وهوروفتس (ت ١٩٣١ م)، أما الأكثرية الساحقة فاكتفوا بتعميق آرائه بإضافة براهين جديدة أو تعميمها على حقول جديدة مثل كيوم، ونيكلسون، وهاملتون كب، وواط، وفنسنك (ت ١٩٣٩ م).

وقد ركز فنسنك على أحاديث العقيدة في كتابه العقيدة الإسلاميَّة، في حين ركز جوزيف شاخت (ولد ١٩٠٢ م) على أحاديث الأحكام في كتابه أصول الشريعة المحمدية وكتابه الآخر مقدمة في الفقه الإسلامي -وهو يهودي الديانة بريطاني الجنسية- وقد أكد شاخت على اختلاق الأحاديث، وأثنى كيب وسافوري على كتابه، واعتبره كيب أساسًا لكافة الدراسات في الحضارة الإسلاميَّة والتشريع الإسلامي في الغرب -على الأقل- في حين عده سافوري من أكبر علماء الشريعة الإسلاميَّة في العالم.

وقد درس شاخت في مؤلفه (أصول الشريعة المحمدية) كتابي «الموطأ» لمالك، و«الأم» للشافعي، ثم عمم نتائج دراسته على كتب الحديث والفقه الأخرى، فقال بنظرية «القذف الخلفي» لتفسير تطور الأسانيد، وتتلخص آراؤه في زعمه اختلاق الجزء الأكبر من الأسانيد، واعتقاده أن أقدم الأحاديث لا يرقى إلي ما قبل سنة ١٥٠هـ، وأن الأحاديث اختلقها الفقهاء وأصحاب الفرق، وأن

الشافعي هو الذي استحدث مبدأ حجية السنة، وكان العمل قبله على السنة المنهية، وقد كان أثره كبيرًا على جيله من المستشرقين.

لقد طعن شاخت في سند مالك عن نافع عن ابن عمر بأن نافعًا مات ومالك صغير وهذا خطأ؛ فمالك كان صاحب حلقة في مسجد المدينة في حياة نافع، وقد ردَّ روبسون على شاخت في هذا السند في مقاله «الإسناد في الحديث النبوي»، وفي هذه المقالة عدل عن آرائه التي تابع فيها شاخت عندما نشر بحثه، حيث كان يشك في جملة الأحاديث، ويرى أن ما يمكن عزوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن وحده، والملاحظ أن كيوم وواط وروبسون كلهم من رجال الكنيسة.

وقد ظهر توجه نحو دراسة موارد الحديث، ونقد بعض وثائقه عند روبسون (ولد ١٨٩٠ م) الأستاذ في مانشستر منذ سنة ١٩٤٩ م، وقد أثبت أن ثمة مادة أصلية من الأحاديث خلافًا لما ذهب إليه شاخت ومن قبله جولد تسيهر، كما أنه لم يوافق كايتاني وشبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣ م) في القول بأن أسانيد عروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ) مختلقة ألصقها به المصنفون المتأخرون.

لقد أشار شبرنجر (ت ١٨٩٣ م) إلى تعاسة نظام الإسناد، وأن اعتبار الحديث شيئًا كاملًا سندًا ومتنًا قد سبَّب ضررًا كثيرًا وفوضى عظيمة، وأن أسانيد عروة مختلقة ألصقها به المصنفون المتأخرون، وكذلك مقاله «أصول تدوين الوثائق عند المسلمين»، ولكنه أثبت تدوين الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالاعتماد على كتاب «تقييد العلم» للخطيب، وهذا ما خالفه فيه جولد تسيهر فيما بعد.

أما ميور معاصر شبرنجر فينتقد طريقة اعتماد الأسانيد في تصحيح الحديث لاحتمال الدس في سلسلة الرواة، ورغم أنه مثل شبرنجر أقر بأن ثمة مادة أصلية في الحديث لكنه اعتبر نصف أحاديث صحيح البخاري ليست أصلية، ولا يوثق بها.

وأما كايتاني (ت ١٩٢٦ م) فقد ذكر في حولياته أن الأسانيد أضيفت إلى المتون فيما بعد بتأثير خارجي؛ لأن العرب لا يعرفون الإسناد، وأنها استعملت ما بين عروة وابن إسحاق، وأن عروة لم يستعمل الإسناد مطلقًا، وابن إسحاق استعملها بصورة ليست كاملة.

وقد أثبت هوروفتس (١٨٧٤ - ١٩٣١ م) معرفة عروة للإسناد، وأن الإسناد دخل في الحديث منذ الثلث الأخير من القرن الأول، وألمح إلى الإسناد الجمعي عند الزهري حيث يفيد وقوفه على عدة أسانيد للمتن الواحد.

ولكن هوروفتس يرى أن العرب أخذوا فكرة الإسناد عن المدارس التلمودية عند اليهود، ويرى -ويوافقه كيوم- تشابه المسلمين واليهود في نسبة شرائعهما إلى نبييهما.

ورد فيوك (ت ١٩٣٩ م) على جولد تسيهر فبرأ المحدثين والفقهاء من تهمة وضع الأحاديث، وكشف عن منهج جولد تسيهر في التعامل مع الإسلام، وأنه يستخدم المذهب المادي لنقد التاريخ، ومنهج الشك، فانتهى إلى أن كل أحاديث الأحكام تعتبر زائفة، حتى يثبت العكس.

أما مرجليوث المعاصر لجولد تسيهر (١٨٥٨ - ١٩٤٠ م) فقد تابع جولد تسيهر، بل ذهب إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك أوامر ولا أحكامًا سوى القرآن!!

ويرى كيوم أنه لا يمكن إثبات صحة نسبة الأحاديث في الكتب الستة إلى الصحابة، ولكن لعل بعضها تسلم نسبته، ويفسر كيوم قول الزهري: «إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث» تفسيرًا خاطئًا ليدلل على وضعه للأحاديث، وهو فهم جولد تسيهر من قبله.

ويتشبث نيكلسون بقول أبي عاصم النبيل: «ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث»، فذهب إلى أن شواهده في «دراسات محمدية» لجولد تسيهر، وأن أتقى العلماء كان يستعمل الغش في الحديث لتأييد أغراض سياسية ومذهبية، وقد بين الإمام مسلم أن الكذب يجري على لسانهم ولا يتعمدونه، وقال يحيى بن سعيد القطان: «ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير والزهد»، والكذب هنا على لغة أهل الحجاز وهو مطلق الخطأ.

ويرى كولسون وكيوم أن المحدثين يبحثون في الأسانيد شكليًا بدون الاهتمام بنقد المتون.

يقول كولسون: «إذا كانت سلسلة الإسناد متصلة، وكان كل فرد من أفراده عدلًا -من وجهة نظرهم- فحينئذ قبلوا الحديث، وصار شرعًا واجبًا، ولا يمكن بسبب الإيمان السؤال عن متن الحديث؛ لأنه وحي إلهي فلا يقبل أي نقد تاريخي».

ويقول كيوم: «متى اقتنع البخاري بتحديد بحثه في سلسلة الرواة في السند مفضلًا ذلك على نقد المتن، صار كل حديث مقبول الشكل حتميًا بحكم الطبع»[1].

(١) انظر: موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

الفصل الخامس

المستشرقون والتنصير والاستعمار

لقد كان الاستشراق وليد الاحتكاك بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني أيام الصليبيين، وعن طريق السفارات والرحلات من عهد دولة الأندلس وفيما بعد ذلك.

ويلاحظ دائمًا أن هناك تقاربًا وتعاونًا بين الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار، والمستعمرون يساندون المستشرقين والمنصرين؛ لأنهم يستفيدون منهم كثيرًا في خططهم الاستعمارية.

ويشكل الاستشراق الجذور الحقيقية التي كانت ولا تزال تقدم المدد للتنصير والاستعمار، وتغذي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصِّرين والمستعمرين بالمواد يسوِّقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته، وهدم عالم أفكاره، وقد جاء هذا الغزو الثقافي ثمرة لإخفاق الغزو العسكري وسقوطه، ولتربية جيل ما بعد الاستعمار.

وقد انطلق المستشرقون في دراستهم للإسلام من منطلقين كان لهما أبلغ الأثر في توجيه الدراسات الاستشراقية:

المنطلق الأول: النزعة الصليبية التنصيريَّة التي خيمت على أذهان المستشرقين، وغطت على أفكارهم، فجاءت دراساتهم في ثوب تنصيري، فقد ارتبط الاستشراق في جميع مراحله ارتباطًا وثيقًا بالمؤسسات الكنسية التنصيريَّة.

المنطلق الثاني: النزعة الاستعمارية السياسية الماديَّة التي تهدف إلى بث النفوذ الغربي على البلدان الإسلاميَّة، ونهب خيراتها وثرواتها.

المستشرقون والتنصير

من الأهداف الدينيَّة للاستشراق الهدف التنصيري، إذ وجد جمع من المستشرقين هدفوا من دراستهم للشرق إلى تعميق فكرة التنصير في هذا المجتمع، وحاولوا بطريقتهم العلميَّة تحقيق مفهوم التنصير، مع ما تعرض له هذا المفهوم من تحوير، لا سيما عندما يكون موجهًا لمجتمع متدين كالمجتمع المسلم، وبما يحمله المفهوم من حماية النصارى من الإسلام، والحد من انتشاره بين النصارى وفي مواطنهم، ومن ثم الحد من انتشاره بين غير النصارى في مواطنهم أيضًا.

والذي يؤيد وجود هذا الهدف عدة عوامل مهمة، ومن أبرزها:

١- إن أساس العلاقة بين الشرق والغرب قد قامت على العداء الديني، ورفض الإسلام بديلًا

للنصرانية في الشرق وغيره، بما في ذلك حماية النصارى الشرقيين من الإسلام، والتأثير على الأرثوذوكس في الشرق واستقطابهم للكنيسة الكاثوليكيَّة في الغرب.

٢- وأن هذا الشعور قد ولَّد شعورًا بالاستعلاء والفوقية الغربية على بقية أمم الأرض، بما فيها المسلمون، وأن هذا الشعور بالفوقية قد انطلق من الكنيسة الغربية باحتقار كل ما هو غير بابوي النحلة والهوى. فاستمر شعورهم العميق بتفوق ما لديهم، إن حقًّا وإن باطلًا، في الوقت الذي رأوا فيه بطلان ما لدى غيرهم لعدم اتفاقه مع ما لديهم من دين وثقافة وفكر.

٣- إن طلائع المستشرقين من النصارى كانوا ذوي مناصب دينية، وأنهم قد انطلقوا من الكنائس والأديرة، ويعود هذا إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، القرن العاشر الميلادي، مع أن التبادل الثقافي والعلمي بين المسلمين ونصارى أوربا قد بدأ قبل ذلك بكثير، لا سيما في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (ت ١٨٢ هـ)، والمأمون: (ت ٢٣٠ هـ).

٤- وأن كثيرًا من المستشرقين قد بدءوا حياتهم العلميَّة بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية، وكان همهم إرساء نهضة الكنيسة وتعاليمها، لا سيما في العصور الوسطى، أي أن هدفهم كان تنصيريًّا واضحًا، فكأن الاستشراق إنما قام ليغذي التنصير بالمعلومة المنقولة بلغة المنصر، رغم محاولات تعميم اللاتينيَّة لغة للتنصير.

٥- وأن أوائل المطبوعات الغربية باللغة العربيَّة قد ركزت على الكتب الدينيَّة النصرانيَّة، وأن أول ما طبعته ليدن من الكتب كان الإنجيل (١٥٦٩ - ١٥٧٣ م) ويذكر «العقيقي» أن أول كتاب عربي طبع في هولندا كان الحروف الأبجدية والمرموز الخمسين تجربة لها (١٥٩٥ م)

٦- وأن التنصير قد اتكأ كثيرًا على الاستشراق في الحصول على المعلومات عن المجتمعات المستهدفة، لا سيما الإسلاميَّة في موضوعنا هذا، وخاصة عندما اكتسب مفهوم التنصير معنى أوسع من مجرد الإدخال في النصرانيَّة إلى تشويه الإسلام والتشكيك في الكتاب والسنة والسيرة وغيرها، فكان فرسان في هذا التطور في المفهوم هم المستشرقين.

٧- وأن من مقاصد الاستشراق الرئيسة، التي انطلق منها، التعرف على مصادر النصرانيَّة من اللغة العبريَّة، وقد ساقتهم دراسة اللغة العبريَّة إلى تعلم اللغة العربيَّة، وتعلم اللغة العربيَّة قاد إلى الاستشراق، فاللغة العربيَّة هي لغة دين وثقافة وفكر جاء ليحل محل الدين النصراني والثقافة والفكر المنبثقين عن الدين النصراني، فأوجد هذا نزعة التعصب التي قادت إلى استخدام اللغة العربيَّة والعبريَّة في هذا المنحى الاستشراقي الذي اتجه إلى الإسلام والعربيَّة، وقد قيل: إنك لا تكاد تجد مستشرقًا إلا أجاد اللغة العبريَّة والعربيَّة معا.

٨- وأن البداية الرسمية للاستشراق قد انطلقت من مجمع فينا الكنسي سنة ٧١٢ هـ ١٣١٢ م، الذي نعرف الآن أنه قد أوصى بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها اللغة العربيَّة، ولا سيما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيه البابا «إكليمنس الخامس» بتأسيس كراسي لتدريس العبريَّة واليونانيَّة

والعربيَّة والكلدانية (السريانيَّة، الآراميَّة) في الجامعات الرئيسية، وكانت هذه التوصية قائمة على دعوة «ريموند لل» لإنشاء كراسي للغة العربيَّة في أماكن مختلفة.

٩- وأن الاستشراق قد استشرى ونال رعاية الكنيسة ومباركتها عندما ثبت فشل الحروب العسكرية من خلال انحسار المد الغربي الصليبي بعد جهود قرنين من الزمان، فاتجهت الكنيسة الغربية إلى التنصير من خلال الفكر والثقافة والعلم، فكان التوجه إلى ما نسميه اليوم بالغزو الفكري في تحقيق ما فشل فيه سلاح الغزو الحربي. هذا الغزو الذي اتخذ من الاستشراق منطلقًا له، سعي من خلاله إلى تشويه الإسلام بطرق شتى، لا تتعدى كونها جملة من الإسقاطات التي نالت حظًا طيبًا من النقاش والرد، في زمان إطلاقها وبعده، من كثير من المسلمين.

وكان الهدف من هذه الدعوة هو أن تؤتي محاولات التنصير ثمارها بنجاح من خلال تعلم لغات المسلمين، وقد عبر عن هذه الثمار في دعوة «لول» بارتداد العرب إلى النصرانيَّة من الإسلام، كما كان «غريغوري العاشر» يأمل في ارتداد المغول إلى النصرانيَّة، وقبله كان «الإخوة الفرنسيسكان» قد توغلوا في أعماق آسيا يدفعهم حماسهم التنصيري، ومع أن آمالهم لم تتحقق في وقتها إلا أن الروح التنصيريَّة قد تنامت منذئذ.

وهذا يعني بتعبير أوضح «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين النصراني»، وهذا مما أدى إلى الاستنتاج أن التنصير هو الأصل الحقيقي للاستشراق، كما يذهب إليه بعض الباحثين، والعكس يذهب إليه أغلب الباحثين.

وقد انتظم الاستشراق في الفاتيكان وانتشر واستمر على أيدي البابوات والأساقفة والرهبان، فكان رجال الدين النصراني -ومجمعهم الفاتيكان يومئذ- يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا على أساس من التراث الإنساني الذي تمثله الثقافة العربيَّة، فتعلموا العربيَّة، ثم اليونانيَّة، ثم اللغات الشرقيَّة للنفوذ منها إليه. . .، وكذلك لمقارعة فقهاء المسلمين واليهود والرد عليهم، وتدريب أدلاء يتخاطبون بالعربيَّة للقيام على خدمة مرتادي بيت المقدس من النصارى، ويطلق عليهم «الحجاج»، فأسس البابا جمعيَّة الجوالين سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م، وطبعت بعد ذلك أدلة الحج، وفيها الأبجدية العربيَّة وطريقة النطق بها، وخريطة لمدينة القدس، ورسوم للزِّيِّ العربي، لا سيما اللبناني، يقول نجيب العقيقي في هذا: «فكان أول ما عرفت أوربا من الطباعة العربيَّة».

وقد أضحى هذا المنحى في الرؤية إلى نشأة الاستشراق مما يتفق عليه معظم الباحثين المسلمين في ظاهرة الاستشراق، لا سيما أولئك الذين لا يسعون إلى الاعتذار للمستشرقين بخاصة، وللغرب بعامة، وقد عد الاستشراق أقرب الطرق وأسهلها للتنصير.

وفي الحقيقة عدد كبير نسبيًّا من علماء الاستشراق كانوا مبشرين نصارى، ومن الأمثلة البارزة على ذلك وليم ميور الذي كان مبشرًا نشطًا، ومؤلفًا لعدة كتب عن الإسلام، وكانت كتبه متحيزة

جدًّا، ودراساته ضيقة الأفق إلا إنهم جعلوها إلى يومنا هذا مراجع للذين يريدون مهاجمة الإسلام، وينبغي ألّا نتفاجأ إذا هؤلاء النصارى كانوا مصدرًا لبعض الأكاذيب والتحريفات الأسوأ عن الإسلام، وقد كانت تحريفات النصارى والأكاذيب التامة عن الإسلام واسعة الانتشار كالمشاهد التالية:

١- بالكاد يدرس تاريخ الاستشراق دون تحيز لمصادر الإسلام خصوصًا عندما كان تحت تأثير التعصب النصراني، من التحريفات المتعصبة لجون الدمشقي إلى المعتذرين من الكتاب المتأخرين ضد الإسلام الذي أخبر مشاهديهم أن المسلمين عبدوا ثلاثة أوثان!

٢- ترجم بيتر (١٠٨٤.١١٥٦)، القرآن والذي أُستخدم خلال العصور الوسطى وشمل تسعة فصول إضافية، وهذه الترجمة السيئة المحرفة المباعة حذت حذو الترجمات السابقة، وسارت بنفس الاتجاه كما مع رودريل، وموير.

٣- وآخرون هاجموا شخص وصفات محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- وفي أغلب الأحيان وظّفوا القصص المخترعة والروايات التي يعتبرها المسلمون ضعيفة أو مكذوبة، أو شيء آخر، فإنهم أزالوا الحقائق بادعائهم أن المسلمين حلوا في موضع ليس هم فيه أهل، أو استخدموا العادات الخاطئة الممارسة بطريق الجهل بين المسلمين كتصوير دقيق للإسلام.

وهذه النظرة أُكدت من قبل المؤرخ الشرق أوسطي المشهور بيرنارد لويس عندما كتب: «درست النصرانيَّة في القرون الوسطى الإسلام لغايات مزدوجة: لحماية النصارى من مداهنات المسلمين، وتحويل المسلمين إلى النصرانيَّة، والعلماء النصارى -معظمهم من قسيسين ورهبان- أوجدوا مجموعة مؤلفات متعلقة بالدين، ونبيه، وكتابه، بجدلية عنيفة في صميم الدين، وغالبًا بلغة بذيئة من أجل أن تحمي وتثبط بدلًا من أن تُعلم»[١].

المستشرقون والاستعمار

إن الاستشراق قام يوم أن قام لأهداف السيطرة والاحتلال، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن بداية الاستشراق كانت من عهد الإسكندر المقدوني، في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد؛ فقد قام الإسكندر المقدوني باحتلال آسيا الصغرى، وبعض أواسط آسيا، واستمر في حربه حتى وصل أبواب الصين، وقد عاجلته المنية، ولم يتعد عمره ثلاثين عامًا، وتوفي عام ٣٢٣ق. م، وعندما اجتاح الإسكندر المقدوني الشرق فكّر في احتلال الجزيرة العربيَّة، بعدما تمّت له الغلبة على مصر والهلال الخصيب؛ إذ كان وقتها في بابل، فأرسل بعثة استطلاعية تتسقط له المعلومات اللازمة؛ تمهيدًا للاستيلاء على هذه الأصقاع المليئة بالغموض والأسرار الصعبة الاختراق، فَبَنَى أسطولًا

(١) انظر: المستشرقون والتنصير، شرح موثوق، عبد الرحيم الأخضر (١/ ٦٧)، الإسلام والغرب، بيرنارد لويس ص(٨٥- ٩٥)،

قويًّا، واتخذ مدينة بابل قاعدة للانطلاق، وأمَّر على أسطوله قائده «أرخياس» الذي عبر الخليج العربي، وصل إلى جزيرة البحرين الحالية، وكان يطلق عليها في ذلك الوقت اسم «أيلوس» وقدَّمت البعثة البحرية وغيرها من البعثات الأخرى تقارير وافية عن المناطق التي وصلت إليها، تناولت السكان، والإنتاج، والمبادلات التجارية، والوصف «الطبوغرافي» للأرض، والطرق السهلة التي يمكن لجيش جرار المرور منها في صحراء قاحلة خالية من الماء، ومن كل الوسائل المريحة التي يحتاج إليها جيش مقبل على احتلال أصقاع لم يخترقها أحد قبل ذلك التاريخ، فأخذ المهتمون بهذه الحملات تسجيل العديد من المعلومات عن الأرض الشرقيَّة التي احتلوها، ودَّونوا كثيرًا من الروايات الشفهية والسماعية عن أرض أخرى كان في نية الإسكندر ابتلاعها.

وعلى هذا يرى صاحب هذه الرؤية أنه منذ هذا التاريخ كان المستشرقون المهتمون بالدراسات الشرقيَّة مبعث اهتمامهم بهذه الدراسات يعود في المقام الأول إلى خدمة أهداف بلادهم في السيطرة على الشرق، وعند ظهور الإسلام أضيف إلى هذا الهدف هدف آخر هو محاربة الإسلام بتشويه صورته، وصورة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الشرق والغرب، وتاريخ الاستشراق الطويل يشهد بهذا.

ولما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين وهي حروب دينية استعمارية؛ لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب فبلاد الإسلام، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شئونها من عقيدة، وعادات، وأخلاق، وثروات، ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية، فنفقد الثقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية، والمبادئ العقائدية، وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعًا لا تقوم لنا من بعده قائمة.

انظر إليهم كيف يشجعون في بلادنا القوميات التاريخية التي عفا عليها الزمن واندثرت منذ حمل العرب رسالة الإسلام، فتوحدت لغتهم، وعقيدتهم، وبلادهم، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين الشعوب روابط إنسانية، وتاريخية، وثقافية، ازدادوا بها قوة، وازدادت الشعوب بها رفعة وهداية، أنهم ما برحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين، والآشورية في العراق، والفارسية في إيران، والقومية الطورانية في تركيا، أمَّا الجزيرة العربيَّة فلقد بحثوا في آثار السابقين، وأسموا دراساتهم «التاريخ الحضاري للعرب قبل الإسلام»، وذلك ليطفئوا نور الإسلام، وأنَّ الإسلام ليس وحده هو الذي قدم الحضارة الإنسانية، وليقطعوا صلة الأمة الإسلاميَّة بماضيها الحقيقي الذي بدأ بظهور الإسلام.

وهكذا يسعون لإحياء القوميات الجاهلية القديمة في العالم الإسلامي ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة، وليعوقوا قوة الاندفاع التحررية عن عملها في قوتنا وتحررنا وسيادتنا على أرضنا وثرواتنا، وعودتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضارة، والتقائنا مع إخوتنا في العقيدة والمثل العليا والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة.

ومن خدمات المستشرقين للمستعمرين:

١- كارل هنيريش بيكر ١٩٣٣ مؤسس مجلة الإسلام الألمانيَّة، قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية في أفريقيا.

٢- بارتولد ١٩٣٠ مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية، قام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى.

٣- الهولندي سنوك هرجرونجه ١٨٥٧- ١٩٣٦م قدم إلى مكة عام ١٨٨٤م تحت اسم عبد الغفار، ومكث مدة نصف عام، وعاد ليكتب تقارير تخدم الاستعمار في المشرق الإسلامي. وقد سبق له أن أقام في جاوه مدة ١٧ سنة وقد صدرت الصور التي أخذها لمكة والأماكن المقدَّسة في كتاب بمناسبة مرور مائة سنة على تصويرها.

٤- معهد اللغات الشرقيَّة بباريس المؤسس عام ١٨٨٥م كانت مهمته الحصول على معلومات عن البلدان الشرقيَّة وبلدان الشرق الأقصى مما يشكل أرضية تسهل عملية الاستعمار في تلك المناطق.

وهكذا نرى أن مثل هؤلاء المستشرقين جزء من مخطط كبير هو المخطط الصهيوني الصليبي لمحاربة الإسلام، ولا نستطيع أن نفهمهم على حقيقتهم إلا عندما نراهم في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخريج أجيال لا تعرف الإسلام أو لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال لتتبوأ أعلى المناصب ومراكز القيادة والتوجيه لتستمر في خدمة الاستعمار.

لقد كانت حركة الاستشراق مُسخَّرة في خدمة الاستعمار، وفي خدمة التنصير، وأخيرًا في خدمة اليهوديَّة والصهيونيَّة التي يهمها إضعاف الشرق الإسلامي وإحكام السيطرة عليه بشكل مباشر أو غير مباشر.

ومن ناحية أخرى فإن بدايات استشعار الغرب لقوته العسكرية والسياسية بعد أن استقرت فيه معالم نهضته الفكريَّة والحضارية عبر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، ثم بدأ في اكتساح العالم خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وكان هذا يقتضي أمرين:

أن يُهيأ الرأي العام الغربي لمثل هذا العمل؛ لأن الاقتحام العسكري، والاختراق الثقافي والسياسي والاقتصادي سيكلف الغرب الكثير، وينبغي أن يضحي من أجل ذلك بقوى عسكرية، وبإمكانات اقتصادية، وبتسخير قدرة الأجهزة العلميَّة -إلى حين- لهذه المشكلة المثارة، فالمستشرقون هم الذين صوروا الشرق أمام الغرب، هم الذين قالوا: من هم المسلمون؟ ما هي

خصائصهم العقلية، ما هي ثقافتهم، ما هي أعرافهم وتقاليدهم، إلى أي شيء يدفعهم الإسلام، وكم يؤثر فيهم، في الوقت الذي توضع فيه الخطط العسكرية والاقتصادية.

هذا الأمر -تصوير الشرقيين أمام الغربيين- كان هدفًا من الأهداف الكبيرة لحركة الاستشراق؛ إذ كان المطلوب إعطاء صورة معينة تمكن من الغزو العسكري، والاقتصادي، والثقافي، وهكذا بدأت الدراسات التي اتسمت بطابع عرقي في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، والتي أدت أولًا إلى تقسيم البشر إلى ساميين وآريين وحاميين، وأن هؤلاء البشر يتمايزون تمايزًا عرقيًا، وأن خصائصهم العقلية والجنسية تتباين، فالساميون لا يمتلكون القدرة على التفكير البعيد في المستقبل، وهم أيضًا لا يمتلكون القدرة الكافية على التنظير العقلي والربط بين الجزئيات، وهذا ما سماه المستشرق جب -وهو يعتبر معاصرًا لأنه إلى سنة ١٩٦٥ م كان يدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد- عقلية ذرية، تتسم بتجزئة الأشياء، وعدم القدرة على تجميعها وتركيبها والنظر إليها بصورة شاملة.

إن الدراسات ذات الطابع العرقي قام بها أولًا أرنست رينان، حيث كتب عدة مؤلفات عن أصول الساميين، وعن فقه اللغات السامية، وفقه اللغات كان يتجه نحو تكريس الفرق بين الساميين والآريين، أو بين الشرق والغرب.

ويعتبر العرب والمسلمون هم المركز الذي تدور حوله دراسات الاستشراق أكثر من بقية الأمم والشعوب، والدراسات التي تناولت الإسلام والمسلمين تختلف عن تلك الدراسات لبقية أرجاء الشرق، ولعل هذا لافت للنظر، لماذا تتسم الدراسات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بالتحيز والتعصب والغضب؟ ولماذا لا تتسم بذلك الدراسات عن البوذية مثلًا، أو الهندوسية، أو الثقافات الأخرى أو الحضارات الأخرى كالصين مثلًا؟ ولماذا عندما تختص القضية بجانب إسلامي، أو بجانب يتصل بمجتمعات إسلامية عندئذ تظهر جذور الانفعالات المختلفة، والعصبيات المتنوعة والغيظ؟ هذه إحدى الملاحظات التي سجلها إدوارد سعيد، وهي في الحقيقة تستحق الانتباه إليها خاصة إذا راجعنا الاستشراق في بدايات نشاطه؛ لأن بداياته الأولى ترجع إلى فترات مبكرة أكثر، وترتبط بقصة الصراع بين المسلمين والغرب من خلال فتح الأندلس، ومن خلال الحروب الصليبية، ومن خلال الصراع في صقلية وجنوب أوربا، وهذا الأمر كان يجعل الإسلام يحتك بصورة مباشرة بالنصرانيَّة التي كانت مؤسساتها الكنسية تسود العالم الغربي، وكانت هي التي تتوج الأباطرة والملوك، وتتمتع بملكية أرض واسعة مما جعلها القوة الرئيسية في الغرب، وهذا كله كان يجعل الإسلام في مواجهة مع الكنيسة النصرانيَّة، ومن ثم اندفعت أعداد من القسس لدراسة الإسلام، فهذه البدايات الدينيَّة كانت تتسم بالتشنج والعاطفية، والدراسات فيها اتهامات ممجوجة، وهي من السخف بحيث إن ذكرها في مثل هذا العصر ليس له من أثر، وإنما يدل على طبيعة العلاقات المنفعلة والمتسمة بالطوابع الذاتية في تلك الدراسات الاستشراقية الأولى.

والبعض يرى أن أوربا كانت تخشى من غزو إسلامي فكري في تلك الفترة؛ لأن المسلمين نقلوا الفكر اليوناني إلى أوربا -أقصد عن طريق حفظ الكتب اليونانيَّة التي ترجمت إلى اللغات الأوربية عن العربيَّة-، هذا الجانب لا يهمنا بوصفنا الإسلامي، ولكنه حدث وحدث معه أن ذهب أوربيون ربما لطلب مثل هذه العلوم ابتداءً، ولكنهم احتكّوا ببيئة إسلامية في الأندلس، وكان البابوات يرصدون هذه الحركة، ويرون أنها خطرة على أوربا، وأنها تمثل غزوًا حضاريًّا فكريًّا إسلاميًّا، ومن هنا أنشئت مراكز الدراسات الاستشراقية المختلفة في أوربا بإذن من البابوات، وبتنسيق المجالس الكنسية، ووضعت في كمبردج وأكسفورد وفي مراكز أخرى مثل ألمانيا.

كانت هناك قضية الصراع الفكري الديني، واستمر هذا التيار إلى أن ظهرت المرحلة الجديدة المقترنة بالتوسع الاستعماري، عندئذ صار من مهام الحكومات أن تسخر عددًا كبيرًا من الباحثين ليكتبوا عن الإسلام والمسلمين باللغات الأوربية، إذن الخطاب لم يكن موجهًا ابتداءً لناطقي العربيَّة، أو اللغات الشرقيَّة، وإلا لكانت الكتابة باللغة العربيَّة، بل كان موجهًا لأوربا، أن هذه هي صورة الإسلام فلا تتحولوا إليه، وإذا كانت هذه هي صورة المسلمين فلا تلومونا إذا اقتحمنا ديارهم، ولا تلومونا إذا استنزفنا خيراتهم، ولا تلومونا إذا تعصبنا ضدهم؛ لأن هؤلاء القوم يتسمون بخصائص عقلية وجنسية وثقافية لا تمكنهم من النهوض بأنفسهم، وهم بحاجة إلى عوننا، والدور الذي سنقوم به والذي سنحدثه إنما هو لصالح الحضارة الإنسانية، ويستمر هذا الخطاب عبر قرن من الزمان وهو القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي اشتد فيه الاستشراق، واشتدت فيه مؤسساته، وأوزرت من قبل الحكومات المختلفة الأوربية.

ومنذ مطلع القرن العشرين وإلى الوقت الحاضر نعلم كيف برزت منطقة الشرق الأوسط، وأهمية هذه المنطقة استراتيجيًّا واقتصاديًّا، وبالتالي فإن الدراسات الاستشراقية استمرت واتصلت، كما أن مؤتمرات المستشرقين واصلت طريقها بدعم من الحكومات، ومن المؤسسات، ومن الأغنياء (الأفراد) من الأمريكيين والأوربيين، ونجد أن الاستشراق الروسي يبرز بشكل أقوى منذ الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ م؛ إذ لا بد من دراسة القوم الذين يراد لهم أن يُستعمروا، ولا بد أن يعتقد الغربي أن العمل إنساني وحضاري، وكيف مُثِّل الإسلام أمام الغرب؟

لا وجود حقيقي للإسلام في الغرب لعدم وجود المؤسسات القوية القادرة على تمثيله، وهذا ولَّد فراغًا، ومكَّن المؤسسات الاستشراقية ومن ورائها عدد كبير من الدارسين الغربيين الذين لا يعرفون العربيَّة ولكنهم يتلقون الصورة من خلال المؤلفات الاستشراقية[1].

الاستشراق الأمريكي الاستعماري

من المعروف أنَّ المستشرقين المعاصرين في الولايات المتَّحدة قد أولوا عناية فائقة بدراسة

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٩٣، ٦٩٤)، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

الأوضاع القائمة في المنطقة العربيَّة منذ قيام إسرائيل وحتى الآن، وذلك في إطار تجنيد هؤلاء المستشرقين والعملية الاستشراقية الأمريكيَّة إجمالًا لتلبية احتياجات وتطلعات السياسة الأمريكيَّة في هذه المنطقة، واحتل الاهتمام بإسرائيل مكانة خاصة في الاستشراق الأمريكي المعاصر، انطلاقًا من الدور الوظيفي الذي تؤديه إسرائيل في تنفيذ الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة، فانصبت غالبية نشاطات المستشرقين الأمريكان في مجالات الأبحاث الصراعية باتجاه تعزيز المواقع الإسرائيلية على جبهة المواجهة مع العرب، ومن المستشرقين الأمريكان الذين يسعون لخدمة الصهيونيَّة «برنارد لويس» وهو يهودي بريطاني الأصل، ومنذ سنة ١٩٧٣م انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة؛ إذ أصبح عضوًا دائمًا في معهد الدراسات المتقدمة، وفي الجمعيَّة الفلسفية الأمريكيَّة، وشغل منصب أستاذ الدراسات الشرق أوسطية في جامعة برنستون، وانتقال «برنارد لويس» إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة منذ سنة ١٩٧٣م يبين لنا أنَّ هذا المستشرق انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة لهدف يسعى إلى تحقيقه من خلال الدور الأمريكي في الدعم الصهيوني، خاصة بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م التي قلبت موازين الاستراتيجيَّة الصهيونيَّة والأمريكيَّة، إضافة إلى إدراكه أنَّ الدور البريطاني في الدعم الصهيوني قد ضعف أمام قوة الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة، وأنَّ الصهيونيَّة قد حصلت من بريطانيا ما تريده منها، فلقد أدت بريطانيا دورها، والدور الآن على الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة لتحقيق بقية الحلم الصهيوني باعتبارها أكبر دولة في العالم، وإسرائيل هي الدولة المدللة لديها.

ولم يتوقف الاستشراق الأمريكي على خدمة الأهداف الصهيونيَّة، بل نجده قد تعاون مع المخابرات المركزية الأمريكيَّة لخدمة مصالح أمريكا في الشرق الأوسط، وذلك من خلال «مركز دراسات الشرق الأوسط» في جامعة هارفارد، ومن المستشرقين اليهود الأمريكان الذين تعاونوا مع جهاز المخابرات الأمريكيَّة «ندَّاف سفران» الذي عمل مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة «هارفارد» حتى إقالته عام ١٩٨٥م حيث تمَّ كشف النقاب عن تعاون «ندَّاف سفران» مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكيَّة، وكان هذا الكشف فضيحة في الأوساط الأكاديمية حيث قبض سفران مبلغًا وقدره ٤٥ ألف دولار من المخابرات الأمريكيَّة لتمويل ندوة في جامعة هارفارد حول «نمو المشاعر الإسلاميَّة في الشرق الأوسط»، وتبين كذلك أنَّ المخابرات الأمريكيَّة قد دفعت ١٠٧ ألف دولار مقابل قيام سفران بتأليف كتاب عن المملكة العربيَّة السعودية، ويتضمن هذا الكتاب الذي تعهد سفران بتنفيذه دراسة عن حجم القوى الإسلاميَّة في هذا البلد بهدف الإجابة عن سؤال مهم هو: كيف يمكن السيطرة على هذه القوى؟ وكيف يمكن أو هل يمكن لهذه القوى أن تسيطر على زمام الحكم هناك؟

وقد كلف «سفران» أحد أساتذة الجامعة العبريَّة في القدس «البروفسور آفير» بإجراء بحوث ميدانية بالتعاون مع الطلبة العرب، ودراسة الصحف الصادرة في البلد المعنية بالدراسة المتوفرة في معهد «ترومان» لأبحاث الشرق الأوسط التابع للجامعة العبريَّة، إلاَّ أنَّ الطلاب العرب في الجامعة

المذكورة رفضوا التعاون مع البروفسور الإسرائيلي، وبعد افتضاح الأمر أجرت جامعة «هارفارد» تحقيقات مع «سفران»، وأقيل على إثرها، لكن «سفران» ادعى أنَّه هو الذي قدَّم استقالته بسبب الحساسية التي سببتها تحقيقات الجامعة معه، وأخذ يدافع عن ارتباطه بوكالة المخابرات المركزية مؤكدًا أنَّ علماء كثيرين جدًّا يعملون في جامعة هارفارد، ويقيمون علاقات وطيدة مع الوكالة يتلقون منها المساعدات المالية، وأنَّ الجامعة لا تكتفي بإجازة هذه العلاقات بل تشجعها، ولم تنف جامعة هارفارد هذا الأمر.

وفي القارة الأمريكيَّة وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات، منها حوالي خمسين مركزًا مختصًا بالعالم الإسلامي، ووظيفة هذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ثم دراسته وتحليله مقارنًا مع أصوله التاريخية ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار السياسي، ومن ثم تُبنى على أساس ذلك الخطط والاستراتيجيات، وتحدد وسائل التنفيذ[(١)].

الاستشراق الصهيوني

كانت بداية الاستشراق اليهودي على موائد الاستشراق الأوربي، والذي ساهم في خلق المفاهيم والرؤى السلبية تجاه المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة، وبهذه الرؤية السلبية انطلق اليهود في استشراقهم، وتميزوا عن الاستشراق الأوربي في طبيعة عملهم، فكانت محاولات المستشرقين اليهود التركيز على ما يسمى بـ «الإرث العبري» ومحاولة نقل هذه الفكرة إلى داخل العقلية الأوربية على اعتبار أن اليهود هم جزء من الشرق، وأن إعادتهم إليه مسألة أخلاقية، ولا توجد فيها دوافع استعمارية، خصوصًا مع بروز التيار البروتستانتي، ومحاولات تأكيد الرؤية التوراتية للمنطقة.

لذلك كانت الأبحاث الاستشراقية اليهوديَّة في تاريخ العرب وجغرافيتهم هي مهمة ذات بعد صراعي يُستخدم فيها التاريخ بمدلولاته، وتستخدم الدراسات -بعد تزييفها في معظم الأحيان- كأداة لبناء منظومة من الرؤى والمفاهيم، ومحاولة تصديرها على أنها حقائق تاريخية ثابتة.

لذلك سعى المستشرقون اليهود إلى فكرة ربط اليهود بالمنطقة العربيَّة وتحديدًا فلسطين، فعمل المستشرقون اليهود على توجيه الاستشراق الغربي نحو هذا الهدف من خلال رسم هيكلية المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة وفق المنظور الاستشراقي اليهودي، رغبة منهم في أن يسير الاستشراق الغربي على خطى الاستشراق اليهودي، حيث عمل المستشرقون اليهود على استحضار عوامل صراع شرقي غربي بغية حشد الغرب في خندقهم، واستخدمت في ذلك آلاف المطبوعات الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسيَّة، وخصوصًا في السنوات الأخيرة، والتي تصل بسهولة ويسر للباحثين الغربيين في سنوات دراستهم الأولى، مما يجعل التحرر من هذه الأفكار أمرًا صعبًا.

---

(١) انظر: الاستشراق، إدوارد سعيد ص(١٠٠)، الاستشراق الجديد، سهيلة زين العابدين حمّاد، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق.

لذلك يأتي الاستشراق اليهودي ليكون مكملًا لما بدأ به الاستشراق الغربي، ثم ليعمل على إدماج النتائج المعرفية في شئون العرب والمسلمين وفق مسار محدد، يراد من خلاله المنطقة برمتها، وجعلها في أذهان الأوربيين والغرب عمومًا خلاف ما هي عليه في محاولة إثبات ما يسمى استمرارية «التاريخ اليهودي» في فلسطين وحولها تحديدًا.

لذلك جاءت محاولات كتابة ما يسمى «التاريخ اليهودي» خلال الحملات الصليبية، فأظهرتهم تارة محاربين -وهو أمر ينافيه العقل- فقد كانوا يدفعون الجزية وهذا ثابت في كل الكتابات التاريخية، فكيف يمكن لهم أن يكونوا محاربين، ثم تأتي محاولات إلصاقهم بالأرض من خلال وصفهم كمزارعين، إضافة إلى نفي الهوية الواحدة لعرب فلسطين، وجعل الهوية اليهوديَّة لفلسطين هي المسألة المركزية في أذهان الغرب.

فالاستشراق الصهيوني نظام فكري من طراز فريد، فإن الصراع التأريخي الذي يدور بيننا وبينه ليس كمثل الصراعات الدائرة في أماكن أخرى من عالمنا المعاصر كالصراع على تاريخ الهند مثلًا بين المؤرخين الهنود والبريطانيين، أو على تاريخ أفريقيا بين المؤرخين الأفارقة والأوربيين، بل هو صراع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمصير أرض يجري تغيير ملامحها ساعة بعد ساعة، إن هذا الاستشراق يسعى إلى تثبيت تاريخه هو ونفي تاريخنا نحن جملًا وتفصيلًا، ومن أبرز مقولات هذا الاستشراق فيما يتعلق بتاريخ القدس العربي المبكر كما نلمحها في الكتب والمجلات التي يستخدمها هذا الاستشراق في سبيل الوصول إلى غاياته تحت ستار مما يشبه البحث العملي، الآتي:

أولًا: يقول لنا هذا الاستشراق إن المصادر العربيَّة الإسلاميَّة حول تاريخ القدس في الفترة الأولى التي تلت الفتح متناقضة متضاربة ومنمطة؛ أي أنها على شكل نماذج من القصص الشعبية التي أخذها الإسلام إما من الأديان الأخرى -وخصوصًا اليهوديَّة- أو الذي اتخذ شكل النمط والنموذج الذي مثيله الأقرب هو الأدبيات والأساطير الشعبية.

من هنا فالوصول إلى أية حقيقة تاريخية استنادًا إلى هذه المصادر أمر شبه مستحيل، وليس بالإمكان أكثر من أن يكتشف المؤرخ النية من وراء هذه القصص، وهي في الأغلب تعكس رغبات أجيال من المؤرخين العرب المسلمين عاشت بعد الأحداث بمئات السنين، وحاولت خلق تاريخ ملائم للقدس.

ثانيًا: يقول الاستشراق أيضًا إن دخول عمر بن الخطاب إلى القدس، ولقاءه البطريرك صفرونيوس هو وهم ومجرد أسطورة الغاية منها إضفاء الاحترام والإجلال على القدس، وكلها قصص ابتدعها خيال جيل لاحق من المؤرخين العرب، ولربما في أيام الحروب الصليبية مثلما يقول بعض المستشرقين.

ثالثًا: إن الإشارة الواردة في القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج لا تدل على القدس تحديدًا، أما أحاديث الإسراء فتنتمي إلى عصور متأخرة أراد فيها المسلمون التأكيد على أهمية القدس لأسباب

سياسية؛ إذ لا ترد أية إشارة إلى الإسراء والمعراج في الآيات والكتابات الواردة على جدران قبة الصخرة مثلًا، وهو أمر متوقع فيما لو كانت القدس هي المقصودة في الآيات القرآنية.

رابعًا: إن القدس لم تتمتع بأية مكانة خاصة لا على المستوى الديني، ولا على المستوى السياسي في العصور العربيَّة الإسلاميَّة الأولى، ولم تكتسب القدس مكانتها سوى بعد مضي قرون عديدة، أما في العصور الأولى فقد كانت مدينة هامشية دينيًا وسياسيًا، ورغم أهمية قبة الصخرة والمسجد الأقصى في ميدان العمارة، فإن هذين البناءين لا يدلان بوضوح على أية أهمية خاصة ترتبط بمكانة القدس.

تطور الاستشراق اليهودي

بعد نكبة عام ١٩٤٨تطور الاستشراق اليهودي تطورًا كبيرًا، فلم تعد الأهداف الصهيونيَّة محاولة إثبات ما يسمى «التاريخ اليهودي» فحسب بل تعدى ذلك إلى دراسة التاريخ والجغرافيا، والعادات والتقاليد وكل ما أمكن عن المنطقة.

من هنا إن كان الاستشراق الغربي قد تركز حول مساعدة المؤسسات الغربية على تحقيق طموحاتها وتطلعاتها في الهيمنة، فإن الاستشراق اليهودي تجاوز ذلك ليجعل المنطقة برمتها تحت أنظاره، فالاستشراق الصهيوني اليوم يدرس أحوال المسلمين من ماليزيا وحتى تركيا وأفريقيا، ناهيك عن أحوال العرب المسلمين.

والاستشراق اليهودي الجديد يزحف ليحل محل الاستشراق التقليدي من خلال تحويل الاستشراق ذاته إلى استخبارات في الميادين الاستراتيجيَّة كافة، لتمكين هذا الكيان من الاستمرار في تحقيق التفوق، وإنما يعكس ذلك الطبيعة العنصرية لهذا الكيان، من خلال استخدام الجوانب المعرفية بغية تحقيق السيطرة، والهيمنة على المنطقة برمتها.

اهتمام بحثي

عندما نعلم أن الجامعة العبريَّة تخصص قرابة نصف ميزانيتها للمشاريع البحثية ندرك أهمية الأبحاث في العقلية الصهيونيَّة المعاصرة، فيكون الباحثون أشبه بأداة استشعار عن بعد، ترصد المخاطر التي تواجه المشروع الصهيوني في بلادنا، فلقد سبق مشروع بناء الجامعة العبريَّة في القدس والذي جاء عام ١٩١٨ بمساعدة بريطانيا، سبق نشأة هذا الكيان، وكانت خطط بنائها قد وضعت في نهايات القرن التاسع عشر، وهي منذ تشكلها تحث الباحثين اليهود على دراسة الشئون العربيَّة كافة، ويتم تقديمهم في المجتمع الصهيوني على أنهم «خبراء الشئون العربيَّة»، حيث يعمل الكثير منهم مستشارين سياسيين وأمنيين لدى القادة العسكريين.

فالصهيونيَّة التي وضعت نفسها وسط تشكل عربي وإسلامي، بدأت بدراسات مفصلة للتعرف على مكامن القوة والضعف، لامتلاك مصدر معرفي يساعدها في تعميق التناقضات، وصياغة خطاب وبرنامج ميداني للتعامل مع العرب وفق توالي الظروف السياسية وغيرها.

لذلك فالاستشراق اليهودي ليس ترفًا فكريًا، ولا ينبع من حاجات الإنسان إلى ثقافة محددة، إنما عليه أن يستطلع أحوال العرب والمسلمين من ماليزيا وحتى ساحل العاج، وبالمقابل فإن أمامه مهمة أخرى، وهي تعزيز الانتماء لليهود القادمين من الخارج من أجل التحفيز على الاستمرارية في بناء المشروع الصهيوني، ولا يتم ذلك إلا بإقامة عشرات المؤسسات البحثية، والعمل على صناعة الباحثين وصياغتهم من خلال مؤسسات الاستيعاب، فتجد الباحث الصهيوني والذي يريد دراسة أي من القضايا العربيَّة يحصل على امتيازات خاصة، وتوضع أمامه إمكانات كبيرة لإنجاز مهمته.

دراسة وتعبئة

فالحروب في الاستشراق اليهودي تشكل مادة بحثية أساسية، وتأتي دراستها وتحليل دورها في السياق العام للسياسة الصهيونيَّة، والوقوف على النتائج والاستخلاصات التي أفضت إليها تلك الحروب بغية إدماجها في رؤية مستقبلية للصراع لتحاشي التقصير، وتشغل معركة حطين الباحث الصهيوني ليس من خلال دلالاتها العسكرية فحسب بل ومن خلال دراسة الظروف التاريخية التي سبقت هذه المعركة، والعمل على منع تكرارها من جديد، بما يشكل ذلك مصدرًا للرعب لدى الكيان الصهيوني.

ففي عام ١٩٨٧ وعلى إثر انطلاق الانتفاضة الأولى أقام الكيان الصهيوني مؤتمرًا أعقبته العديد من الندوات، وذلك في ذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين، وحاول الباحثون الصهاينة من خلال ذلك التذكير من جديد باختلاف التجربة بين الحملات الصليبية وبين الصهيونيَّة.

وبكل تأكيد إن أعمال هذا المؤتمر لم تكن موجهة لغايات بحثية أكاديمية، وإنما جاءت موجهة إلى صميم المجتمع الصهيوني الداخلي، والذي بدأ يرى مع الانتفاضة صورته الغريبة عن المنطقة، ومن خلال التعاطف العربي الشعبي والإسلامي بدأ يلمس من جديد الظروف التاريخية التي سبقت معركة حطين، بما يشكله ذلك من هاجس يؤرق سريرة الصهاينة.

وهنا نلاحظ مهمة جديدة للاستشراق اليهودي أنه أخذ يخاطب المجتمع الصهيوني من الداخل بغية جعل المجتمع الصهيوني في حالة توحد مع المؤسسة العسكرية والتي لها مفهومها الخاص للأمن، فمفهوم الأمن لأي دولة يعني حماية الحدود، إلا أن هذا الكيان يرى أن مفهوم الأمن بالنسبة إليه يعني «الوجود ذاته» لذلك مع انطلاق الانتفاضة المباركة لم يعد مفهوم الردع للأنظمة العربيَّة يعني له الكثير بسبب التماس المباشر بينه وبين أصحاب الأرض.

ومن هنا نجد مفهوم الأمن إنما يستند على رؤية استشراقية من صميم الدراسات التاريخية استخلصها الباحث الصهيوني دان هورو فيتش وهو أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبريَّة، حيث يقول «هنا تكمن فرصتنا الأخيرة، فإما الوجود والاستمرار بأي ثمن، وإلا فإن أمامنا الفناء النهائي».

رعب دائم

ما جرى للصليبيين في بلادنا من الطبيعي أن يشكل حالة قلق مستمرة للصهاينة في بلادنا، فهناك مسألة لا شعورية داخلية تقود الصهاينة لدراسة هذا التاريخ للوصول إلى حالة من الاطمئنان الداخلي، فعليهم اختراع الكثير من الأوهام، وتزييف العديد من الحقائق، مع انهيار أسطورة الجندي الذي لا يقهر.

ففي عام ١٩٦٩ حصل الباحث الصهيوني «يهوشع براور» على جائزة «الدولة» لقيامه بإنجاز دراسة استنتج بموجبها أن ما جرى للصليبيين في فلسطين لن يتكرر مع الكيان الصهيوني مجددًا في بلادنا، وفي واقع الأمر لم تكن تلك الجائزة في ذلك الوقت بالتحديد -والذي شهد تحولات فلسطينية وعربية كثيرة- لم تكن أمرًا عرضيًّا، أو أمرًا أكاديميًّا صرفًا؛ بل كان الكيان الصهيوني بتلك الجائزة يحاول طمأنة نفسه، وطمأنة اليهود الوافدين أن مستقبلهم لن يكون إلى البحر كأسلافهم الصليبيين، وكما يقول «يوري أفنيري»: «إن الصليبيين حاربوا طيلة ثمانية أجيال ليجدوا أنفسهم وقد ألقوا إلى البحر، ومن هنا يتوجس اليهود من أن يصل التشابه إلى هذا المستوى».

ففي هذه العبارة الصريحة يُعبِّر «أفنيري» عن الهاجس الذي يشغل اليهود خصوصًا وأنهم أنشئوا كيانهم في ظرف استثنائي ناتج عن الشرذمة التي تعانيها الأمة العربيَّة والإسلاميَّة، وهي حالة شبيهة بالحالة التي نشأت فيها مملكة بيت المقدس اللاتينيَّة، في ظل ظروف مماثلة عاشتها المنطقة لحظة بدء الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي.

فالخوف من ملاقاة ذات المصير دفع باليهود إلى قراءة المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة قراءة ذات بعد استراتيجي بغية إدراك مواطن الضعف، والعمل على استمرارها، واكتشاف مواطن القوة وكيفية التعامل معها، لإدراك هذا الكيان أنه كيان غريب لا ينتمي لجغرافية المنطقة، وبالتالي لا يمتلك ما يلغي لديه المخاوف الأمنية التي تبقى شغله الشاغل[1].

---

(١) انظر: الاستشراق اليهودي وهواجس الرعب، أيمن خالد، تفكيك مقولات الاستشراق، د. طريف الخالدي.

الفصل السادس

وسائل الاستشراق

لقد سعى المستشرقون إلى تحقيق أهدافهم من خلال العديد من الوسائل والأساليب. وحيث إن المستشرقين جزء من مجتمعاتهم فإنهم سوف يستخدمون بلا شك الوسائل والأساليب الشائعة في مجتمعاتهم، وإن كان مجال عملهم في الاستشراق سيتطلب في بعض الأحيان استخدام وسائل وأساليب تناسب مجال عملهم وتناسب أهدافهم ودوافعهم.

ولم يترك المستشرقون مجالًا من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا إلّا تخصصوا فيها، ومنها التعليم الجامعي، وإنشاء المؤسسات العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف، وعقد المؤتمرات والندوات ولقاءات التحاور، وإصدار المجلات، ونشر المقالات، وجمع المخطوطات العربيَّة، والتحقيق والنشر وتأليف الكتب، ودس السموم الفكريَّة فيها بصورة خفية ومتدرجة، وإنشاء الموسوعات العلميَّة الإسلاميَّة، والعناية العظمى لإفساد المرأة المسلمة، وتزيين الكتابة باللغة العامية.

هذه بصفة عامة الوسائل التي اتخذها المستشرقون لتحقيق أهدافهم، وفيما يأتي توضيح هذه الوسائل والأساليب:

التعليم الجامعي والبحث العلمي

منذ أن استقر الاستشراق كفرع معرفي له أقسامه العلميَّة ومراكز البحوث الخاصة به، أخذت هذه الأقسام تستقبل الطلاب من جميع أنحاء العالم، فالأوربيون الذين يدرسون هذه المجالات يتخصصون فيها لأهداف تخصهم فقد جاء في تقرير سكاربور Scarbrough وتقرير هايتر Hayter البريطانيين الجهات التي تحتاج هذه التخصصات ابتداءً من وزارة المستعمرات (حين كانت موجودة)، ووزارة الخارجية، والاستخبارات، والتجارة، والاقتصاد، والإذاعة البريطانية وغيرها من الجهات، أما الطلاب العرب والمسلمون فقد جاءوا في بعثات دراسية إما على حساب دولهم، أو على حسابهم الخاص، أو بمنح من الجامعات الغربية التي استهوتهم لأسباب منها السمعة العلميَّة العالية التي تتمتع بها هذه الجامعات في دول العالم الثالث (حتى وإن كان بعضها متواضع المستوى)، وثانيًا لرغبة الجامعات الغربية الإفادة من هؤلاء الطلاب في مجال البحث العلمي، بالإضافة إلى الهدف الاستشراقي القديم من التأثير في طبقة من أبناء الأمة المسلمة من المتوقع أن تتسم منابر التوجيه وقيادة الرأي في بلادها.

وقد يكون أحد هذه الأسباب المرونة التي تتمتع بها هذه الجامعات في مجال الدراسات العليا وبعدها عن التعقيدات والمشكلات والقيود التي يواجهها الطلاب في الجامعات العربيَّة والإسلاميَّة.

وقد أصبحت هذه الأقسام العلميَّة تعد بالآلاف في أنحاء أوربا وأمريكا، ولما تخلص الأوربيون والأمريكيون من مصطلح الاستشراق أصبحت أقسام الدراسات الشرق أوسطية أقسام دراسات المناطق هي التي يدرس فيها هؤلاء الطلاب، ولكن هذه الأقسام لم تعد كافية لدراسة كل ما يخص العالم الإسلامي والعربي فأضيف إليها الدراسة في أقسام الجامعة الأخرى مثل: علم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم النفس، وقسم الاقتصاد والعلوم السياسية ومختلف العلوم التي يتم التنسيق بينها جميعًا من خلال معهد الشرق الأوسط كما في جامعة كولمبيا في نيويورك، أو مركز دراسات الشرق الأوسط كما في جامعة كاليفورنيا بمدينة بيركلي.

وتسهم هذه الأقسام من خلال المواد الدراسية في تكوين عقلية الطالب وفهمه وإدراكه للقضايا التي تخص الإسلام والمسلمين؛ حيث إن طريقة التدريس والمراجع المقررة وتوجهات الأساتذة لها دور كبير في الدراسة الجامعية أو الدراسات العليا (وبخاصة في أمريكا حيث إن طالب الماجستير أو الدكتوراه يكلف بدراسة عدد محدد من الساعات).

ولا شك أن بعض أبناء العرب والمسلمين يتأثرون بأساتذتهم فكريًا وأخلاقيًا وسلوكيًا، ولذلك نجد التركيز في التراجم الإسلاميَّة السؤال عن الشيوخ، ولذلك من المهم معرفة شيوخ العلماء المعاصرين من أبناء الأمة الإسلاميَّة الذين تتلمذوا على المستشرقين.

ومهما كانت قوة العقيدة والإيمان لدى معظم الطلاب العرب والمسلمين؛ فإن بعضهم يتأثر بشيوخه من المستشرقين وبخاصة أن بعض هؤلاء قد بلغوا درجة عالية من العلم والخبرة ومعرفة نفسية الطلاب العرب والمسلمين.

كما أن بعض الأساتذة في الجامعات الغربية يكونون من القساوسة والرهبان، وبعضهم من اليهود فيحرصون على التأثير في طلابهم بأسلوب غير مباشر، ولو أن يدخلوا أدنى درجة من الشك في قلوب هؤلاء التلاميذ.

الجامعات الغربية في البلاد العربية

وبالإضافة إلى أقسام دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلاميَّة في الجامعات الغربية (أوربا وأمريكا)؛ فإن الغرب حرص على فتح جامعات أوربية وأمريكية في البلاد العربيَّة الإسلاميَّة.

ومن أبرز هذه الجامعات الجامعة الأمريكيَّة التي أصبح لها العديد من الفروع في القاهرة، وفي بيروت، وفي دبي، وفي الشارقة، وفي إسطنبول، وغيرها.

والكلية الأمريكيَّة ببيروت -وهي مدرسة ثانوية درس فيها بعض كبار المسئولين في العالم العربي، ومدرسة الدراسات الشرقيَّة الأمريكيَّة بالقدس، والمدرسة الأمريكيَّة للأبحاث الشرقيَّة ببغداد، ومعهد الدراسات اليمنية في صنعاء باليمن.

وقد قامت الجامعات الفرنسيَّة بافتتاح معاهد لها في عدد من الدول العربيَّة، كالمعهد الفرنسي

للآثار الشرقيَّة في القاهرة ١٨٨٠، ومعهد الدراسات العليا في تونس ١٩٤٥، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط ١٩٣١، والمعهد الفرنسي للدراسات العربيَّة في دمشق ١٩٣٠ .

وقامت بريطانيا بافتتاح عدد من الكليات والمراكز، منها: مركز الدراسات العربيَّة في الشرق الأوسط شملان بلبنان، وكلية دلهي ١٧٩٢- ١٨٨٧، وكلية فورت-وليام بكلكتا بالهند ١٧٩٩-١٨٣٦، وكلية الملكة فيكتوريا وهي مدرسة ثانوية بمصر ودرس بها كثير من أبناء الطبقة الثرية في أنحاء العالم العربي، والتعليم فيها باللغة الإنجليزية.

كما أن لهولندا معهدًا في مصر.

كذلك تقوم الحكومة الألمانيَّة بافتتاح جامعة في مصر بعد أن كانت نواة هذه الجامعة قد أسست منذ سنوات، وقد ذكر خبر نشر في إحدى الصحف أن حجر الأساس لأول جامعة ألمانية سيوضع بتمويل من عدة جهات منها السفارة الألمانيَّة في القاهرة (يعني الخارجية الألمانيَّة) وجامعتين ألمانيتين بالتعاون مع الغرفة التجارية العربيَّة الألمانيَّة للتجارة والصناعة.

كما تم فتح مركز غوتة الألماني في لبنان.

وقد أعلنت وزارة الخارجية السويدية قبل عدة أعوام عن إنشاء مركز بحوث سويدي في الإسكندرية، وعقد هذا المعهد مؤتمرًا عن الشباب العربي المسلم في مدينة الإسكندرية بمصر في شهر فبراير ٢٠٠٣م.

كما أن كثيرًا من الجامعات أفردت أقسامًا للاستشراق كقسم الدراسات الشرق أوسطية في الجامعة الأمريكيَّة في بيروت.

- أما كيف تكون الجامعات والتعليم العالي وسيلة من وسائل الاستشراق؟ فنحن لا نتحدث عن أقسام الهندسة والكيمياء والطب والرياضيات (وإن كان يحدث فيها تأثير استشراقي) ولكن الحديث عن أقسام الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والتربية وغيرها من الدراسات الأدبية والنظرية؛ فمن التأثر أولًا بالمجتمع الغربي (وهي قضية بدأت مع البعثات قبل أكثر من قرنين) إلى التأثر بالأستاذ في طباعه وأخلاقه وسلوكه، ثم في اختيار موضوع البحث وبخاصة في مجال الدراسات العليا؛ فإن الأمة قد أوفدت أنبه أبنائها (بخاصة المبتعثين، الذين حصلوا على البعثات بجدارة) للدراسة في الخارج فحين يكون اختيار الموضوع سيئًا أو موجهًا فقد يجد الطالب نفسه أسير ذلك الموضوع حتى نهاية حياته العلميَّة وقل أن يتخلص من هذا الأسر، فيسهم الأستاذ المشرف في اختيار الموضوع وتوجيه الطالب للاهتمام بقضايا بعينها، ومن الأمثلة توجيه الطالب لاختيار كتاب الأغاني مثلًا ليكون مصدرًا لدراسة التاريخ الإسلامي أو المجتمع الإسلامي. وهو أمر خطير فكيف يكون كتاب مجون وخلاعة مصدر لدراسة تاريخ أمة هي أعظم الأمم على وجه الأرض.

كما يوجه الأساتذة طلابهم للبحث في موضوعات يريد الغربيون معرفة تفاصيلها الدقيقة وهم

لا يستطيعون الوصول إلى هذه المعلومات فيكلفون طلابهم الذين يريدون الحصول على الدرجات العليا، كما أن مثل هذه الدراسة تتيح لهم الفرصة للعودة إلى بلادهم في رحلات علمية لجمع المادة العلميَّة وتقديم الاستمارات والاستبيانات وغيرها من وسائل جمع المادة العلميَّة التي يصعب على الأستاذ أو الجهات الخارجية الوصول إليها.

وتسعى الجامعات ومراكز البحوث أن تستقطب بعض أبناء الأمة الإسلاميَّة لقضاء سنوات التفرغ بالنسبة للأساتذة الجامعيين أو العمل باحثين في هذه المراكز، وإن كان الغالب أن الجامعات الغربية ومراكز البحوث هناك تستقطب نماذج معينة من الباحثين العرب والمسلمين المتأثرين بالفكر الغربي، لكن هذا لا يمنع أن يشارك في العمل في بعض الجامعات الغربية بعض الباحثين المعتزين بدينهم وبأمتهم وبتراثهم الحضاري وينافحون عن الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، ولكنهم يبقون الاستثناء الذي يثبت صحة القاعدة كما يقولون.

الكتب

حرص الاستشراق منذ بدايته على نشر الكتب التي تتناول الإسلام من جميع جوانبه عقيدة وشريعة وتاريخًا وسيرة، وتناولت هذه الكتب الأحوال الاجتماعيَّة في العالم الإسلامي في مختلف العصور.

١- ففي مجال العقيدة كتبوا كثيرًا ومن ذلك ما نشره المستشرق اليهودي المجري بعنوان دراسات إسلامية كما ألف في مذاهب التفسير الإسلاميَّة.

٢- ونشر المستشرق دنكان بلاك ماكدونالد كتابًا بعنوان تطور العقيدة الإسلاميَّة، وقد انطلى على بعض المسلمين أنه كتاب علمي فقُرر تدريسه في أقسام الدراسات الإسلاميَّة.

٣- وألف كولسون في التشريع الإسلامي.

٤- كتاب كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، وقد عده بعضهم من المراجع الأساسية في دراسة التاريخ الإسلامي.

٥- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان ت١٩٥٦م.

٦- دائرة المعارف الإسلاميَّة: ظهرت الطبعة الأولى بالإنجليزية والفرنسيَّة والألمانيَّة وقد صدرت في الفترة ١٩١٣-١٩٣٨م. غير أن الطبعة الجديدة قد ظهرت بالإنجليزية والفرنسيَّة فقط من عام ١٩٤٥م وحتى عام ١٩٧٧م.

٧- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف والذي يشمل الكتب الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي، وموطأ مالك، ومسند أحمد بن حنبل وقد وضع في سبعة مجلدات نشرت ابتداءً من عام ١٩٣٦م.

٨- كتاب برنارد لويس تاريخ العرب عدّه بعض الأساتذة المتأثرين بالاستشراق من أهم الكتب في بابه.

ولقد بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب.

أما أبرز الجهات الاستشراقية التي تنشر الكتب فإن الجامعات الغربية لها دور نشر خاصة بها، ولعل من أشهر دور النشر هذه على سبيل المثال جامعة أكسفورد التي تطبع مئات الكتب كل عام حول العالم الإسلامي وقضاياه المختلفة، كما أن الجامعات الأوربية والأمريكيَّة لها دور نشر نشطة، تقوم بجهد يوازي إن لم يتفوق على نشاط دور النشر التجارية البحتة (قارن بينها وبين دور النشر في الجامعات العربيَّة والإسلاميَّة- دور نشر للمجاملة وللتوزيع المحدود ولا تطبع دار النشر الجامعية أكثر من عشرة عناوين سنويًّا).

ففي موقع دار جامعة أكسفورد للنشر مئات الكتب التي تهتم بالإسلام والعالم الإسلامي، ومنها موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث، وتتكون من أربعة مجلدات تتألف من ١٨٤٠ صفحة، وتهتم بموضوعات لم تكن لتهتم بها الكتب حول الإسلام، ومن هذه الموضوعات: الإرهاب والتطرف، وحقوق الإنسان، ومكانة المرأة في العالم الإسلامي وفي الإسلام. وتزعم الموسوعة لنفسها أنها متخصصة، وتقدم معلومات دقيقة وموثقة حول القضايا التي تتناولها.

ويمكن التعرف إلى مدى انتشار الكتب حول الإسلام والعالم العربي والشرق الأوسط من خلال شركة أمازون لتوزيع الكتب؛ فيكفي أن تضع كلمة الإسلام أو العرب أو الشرق الأوسط لتمدك الشركة بسيل من الكتب؛ فتحت عنوان إسلام وجدت أنه ثمة ثمانية آلاف وثمانمائة وإحدى عشر كتابًا.

المجلات والدوريات

أما المجلات والدوريات فتعد بالمئات من مختلف أنحاء أوربا وأمريكا، وبمختلف اللغات، فلا يكاد قسم من أقسام دراسات الشرق الأوسط الكبيرة في الجامعات الغربية إلا وله مجلة أو دورية، كما أن الجمعيَّات الاستشراقية لها أيضًا إصداراتها من الدوريات والمجلات.

فللمستشرقين اليوم من المجلات والدوريات عدد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة نذكر منها على سبيل المثال:

١- مجلة العالم الإسلامي The Muslim World أنشأها صمويل زويمر ت١٩٥٢م في بريطانيا سنة ١٩١١م وقد كان زويمر هذا رئيس المبشرين في الشرق الأوسط.

٢- مجلة عالم الإسلام Mir Islama ظهرت في بطرسبرج عام ١٩١٢م لكنها لم تعمر طويلًا.

٣- مجلة ينابيع الشرق أصدرها هامر برجشتال في فيينا من ١٨٠٩ إلى ١٨١٨م.

٤- مجلة الإسلام ظهرت في باريس عام ١٨٩٥م ثم خلفتها عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلميَّة الفرنسيَّة في المغرب وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلاميَّة.

٥- في عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام Der Islam.

ونذكر على سبيل المثال الجامعات الآتية التي لها دوريات مشهورة.

١- دورية مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن.

٢- دورية جسور تصدر عن مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس.

٣- مجلة العالم الإسلامي من معهد هارتفورد اللاهوتي بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

٤- مجلة العلاقات النصرانيَّة الإسلاميَّة عن معهد العلاقات النصرانيَّة الإسلاميَّة بجامعة بيرمنجهام ببريطانيا.

المؤتمرات

دأب المستشرقون منذ بداية عهدهم بالدراسات العربيَّة والإسلاميَّة على الاتصال بعضهم ببعض عن طريق المراسلات والرحلة، ففي وقت من الأوقات قيل إن باريس كانت كعبة الاستشراق حين كان سيلفيستر دو ساسي يترأس معهد اللغات الشرقيَّة الحية في باريس (١٧٩٥م وما بعدها). وكان الحال كذلك مع العواصم الأخرى حين يذيع صيت أحد المستشرقين فيسعون إليه للتلقي عنه أو يسعون إلى استضافته أستاذًا زائرًا. ولكن كان لا بد من طريقة أخرى يتوصلون إلى التبادل العلمي والثقافي؛ فكانت الندوات المحلية والإقليمية ثم الدولية وسيلة من وسائل الصلة بين المستشرقين.

وكانت مؤتمرات المستشرقين في غالبيتها عبارة عن لقاء مجموعة من الباحثين والعلماء لتقديم بحوث وأوراق عمل ونقاشات ومناسبات اجتماعيَّة على هامش المؤتمرات؟ ولم تكن في يوم من الأيام للتسلية والوجاهة والحصول على الامتيازات الماديَّة من انتدابات وبدلات وغيرها كما يحدث في دول العالم النامي، فهي بالتالي وسيلة عمل وتخطيط ودراسة؟

بدأ الأوربيون بمبادرة فرنسية -ما زال الفرنسيون يفخرون بها- منذ أكثر من قرن وربع في عقد مؤتمر دولي كل عدة سنوات -لا تتجاوز خمسًا- للبحث في مجال الدراسات الاستشراقية التي تضم الهند والصين وجنوب شرق آسيا وكذلك تركيا ودول وسط آسيا (الجمهوريات التي كانت تتبع الاتحاد السوفيتي سابقًا) وشمال أفريقيا، ولكن الدراسات الإسلاميَّة كانت وما تزال المحور الأساس لهذه المؤتمرات.

وقد عقد المؤتمر الأول عام ١٨٧٣ في باريس، وبلغت حتى الآن ستًّا وثلاثين مؤتمرًا دوليًا، وكان المؤتمر قبل الأخير قد عقد في بودابست بالمجر في الفترة من ٣-٨ربيع الأول الموافق ٧-١٢يوليو ١٩٩٧م. وقد قدم فيه ما يزيد على ألف بحث.

هذا فضلًا عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر

المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام ١٨٤٩م، ولا تزال تنعقد مثل هذه المؤتمرات باستمرار حتى الآن.

ويحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين، حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة ٩٠٠ عالم من خمس وعشرين دولة وثمانين جامعة وتسع وستين جمعيّة علمية.

المحاضرات العامة والدورات

أما المحاضرات العامة والدورات فهي أكثر من أن تحصى، ويكفي لمعرفة مدى سعة وعمق هذه النشاطات الاطلاع على مواقع الإنترنت لمراكز البحوث وأقسام دراسات الشرق الأوسط (قبل الإنترنت مثلًا كانت جامعة هارفرد تنشر نشرة نصف شهرية تزدحم فيها النشاطات)، ومن الأمثلة على هذه النشاطات أن معظم أقسام دراسات الشرق الأوسط لها لقاء أسبوعي مع محاضرة موجزة بالإضافة إلى محاضرات الأساتذة الزائرين، ومن يتابع ما يدور في هذه الجامعات ويقارن بينها وبين ما يدور في الجامعات العربيّة الإسلاميّة -يصاب بالذهول فكأن هذه مدراس ابتدائية مقارنة مع تلك.

الجمعيّات

هناك العديد من الجمعيّات الاستشراقية كالجمعيّة الآسيوية في باريس تأسست عام ١٨٢٢م، والجمعيّة الملكية الآسيوية في بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعيّة الشرقيّة الأمريكيّة عام ١٨٤٢م، والجمعيّة الشرقيّة الألمانيّة عام ١٨٤٥م.

التقارير السياسية

لما كانت الحكومات الغربية تدرك أهمية العلم والمتعلمين فقد سعت إلى الباحثين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط فطلبت إليهم تقديم نتائج بحوثهم ودراساتهم واستشارتهم في اتخاذ القرارات السياسية، وهو ما يعرف في الفكر السياسي من تقارب بين العلماء والساسة. فلا تكاد قاعات وزارات الخارجية الغربية ومجالس النواب فيها واللجان المتخصصة تخلو من الباحثين المستشرقين يقدمون عصارة فكرهم لمصلحة بلادهم وأمتهم.

ومن الأمثلة على ذلك ما نشره مجلس النواب الأمريكي (الكونجرس) عام ١٩٨٥ من تقرير وصل عدد صفحاته إلى اثنتين وأربعين وأربعمائة ضمت العديد من الدراسات والمعلومات القيمة حول ما أطلق عليه في الغرب ظاهرة الأصولية الإسلاميّة.

وقد كان من المشهور سابقًا ألا يكون للحكومات تأثير في النشاط العلمي للجامعات حتى إن جامعة هارفرد قامت بإلغاء مؤتمر كان من المقرر عقده حول الحركات الإسلاميّة في العالم العربي عندما علمت بأن وكالة الاستخبارات المركزية ساهمت في تمويل المؤتمر، ثم أصبح من المعتاد أن تهتم الوكالة نفسها بهذه القضايا وتجند لها أساتذة الجامعات والمتخصصين في الدراسات الإسلاميّة والعربيّة والدراسات الشرق أوسطية.

الإعلام

يظن الكثيرون أن ثمة فرقًا بين الإعلام والاستشراق؛ فالإعلام يقوم عليه قوم متخصصون في مجالات الإعلام المختلفة، بينما الاستشراق جهد وعمل أكاديمي تخصص فيه نفر من الغربيين الذين يعيشون في أبراجهم العاجية، لا شأن لهم بالإعلام، ربما يكون هذا الأمر صحيحًا قبل أكثر من مائة سنة حينما كان الإعلام في بداياته، أما وقد أصبحت للإعلام قوة عجيبة اليوم فأضحى التداخل كبيرًا بين الإعلام والاستشراق، وإليك تفصيل ذلك:

في بريطانيا مجلة اسمها (المستمع العربي) كانت تصدر عن هيئة الإذاعة البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي هذه المجلة وجدت العديد من المستشرقين البريطانيين قد كتبوا العديد من المقالات والدراسات عن العلاقات البريطانية العربيَّة، بل إن بعض كبار المستشرقين من أمثال آربري وبرنارد لويس قد كتب كل واحد منهما عن الجهود البريطانية في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة.

وكتب غيرهما من المستشرقين عن الحضارة الإسلاميَّة، وربما كتب مونتجمري وات عن أثر الحضارة الإسلاميَّة في الحضارة الغربية، ومثل هذه المقالات إن لم تكن علمية بحتة ففيها قدر كبير من الدعاية، ومحاولة لتقوية العلاقات العربيَّة البريطانية في وقت تحتاج فيه بريطانيا للعالم العربي ليقف معها ضد دول المحور.

وانتهت الحرب الأوربية (تسمى خطأ عالمية) فهل انقطعت الصلة بين الاستشراق والإعلام؟ بالطبع لا؛ فهذه بريطانيا ترسل أحد كبار المستشرقين، ورئيس قسم التاريخ بمدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية ليقوم بجولة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة للاتصال بوسائل الإعلام الأمريكيَّة المختلفة من إذاعة وتلفاز وصحافة ليقدم وجهة نظر الحكومة البريطانية في أحداث العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

وتصدر الإذاعة البريطانية مجلتها التالية باسم (هنا لندن)، ويستمر المستشرقون في الكتابة فيها، ومن بين الموضوعات التي كتب فيها المستشرقون في المجلة باب (السياسة بين السائل والمجيب)، وقد صدرت عدة كتيبات مستقلة فيها إجابات على أسئلة كثيرة حول أوضاع العالم العربي، ولا شك أن بعض هذه الأسئلة حقيقية ولكن بعضها أيضًا مفتعل لتروج الإذاعة لمواقف أو أفكار معينة.

وتقدم الإذاعة البريطانية أيضًا برامج منوعة منها عروض الكتب التي تصدر في بريطانيا أو الكتب العربيَّة، وتأتي اختيارات هذه الإذاعة بإيحاء استشراقي واضح، فتهتم الإذاعة مثلًا بكتب أحمد أمين (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) و(ظهر الإسلام)، وتهتم بكتاب علي عبد الرزاق مثلًا (الإسلام وأصول الحكم)، وتهتم بكتب طه حسين، ولعل إذاعة لندن هي من أطلقت عليه (عميد الأدب العربي)، وهي من أطلقت على لطفي السيد (أستاذ الجيل).

وفي أسبوع واحد عرضت الإذاعة لكتب المستشار محمد سعيد العشماوي التي يطعن فيها بالإسلام، ويشوه صورته، وينفي العلاقة بين الدين والسياسة، وتأتي مجلة عربية تصدر من لندن وتقدم لقاءً من ست صفحات مع العشماوي، فهل هناك اتفاق بين الجهتين؟

وتستمر الصلة بين الإعلام والاستشراق، وأبرز الأمثلة على هذه الصلة أن العديد من المجلات الأمريكيَّة تستكتب عددًا من المستشرقين، ومن هذه المجلات مجلة (ال نيو ريبلك New republic، ومجلة اتلانتك الشهرية Atlantic Monthly، وقبلهما مجلة كومنتري Commentary، ونشرة جريدة نيويورك تايمز لعرض الكتب New York Timesr eview of Books، فهذه المجلات تنشر الكثير من المقالات لأبرز المستشرقين الأمريكيين، ومن هؤلاء على سبيل المثال برنارد لويس، وقد دار سجال كبير بينه وبين إدوارد سعيد على صفحات هذه النشرة الأخيرة نيويورك رفيو اوف بكس.

وقد انساقت بعض المجلات التي لم يعرف عنها تناول القضايا الجدلية مثل مجلة المختار reader's Digest فنشرت مقالات تحمل طابع الكتابات الاستشراقية التي تهاجم الإسلام، وتشوه صورته، وتقدمه في صورة سلبية.

ولم يتوقف الأمر عند الصحافة، فالتلفاز والقنوات الفضائية والإذاعات ترجع إلى المستشرقين كثيرًا في أخذ رأيهم في القضايا التي تهم العالم الإسلامي، فهذه المحطات الفضائية الأوربية والأمريكيَّة وحتى العربيَّة الإسلاميَّة تستضيف ريتشارد بوليت من جامعة كولومبيا، وتستضيف فؤاد عجمي -وهو لبناني من الجنوب، ويعمل في أمريكا منذ عشرات السنين، وله آراء أخطر من كثير من المستشرقين- وتستضيف برنارد لويس، وريتشارد لت، ودانيال بايبس، وفيتالي نومكن وغيرهم كثير.

وجاء دور الإنترنت فكلمة استشراق تجدها في عشرات الألوف من الصفحات، وتحمل الآلاف من المقالات التي كتبها المستشرقون، فهناك مواقع متخصصة في الاستشراق، وأخرى تابعة لمؤسسات ومراكز بحوث ومعاهد متخصصة في دراسات الشرق الأوسط أو الشئون الدولية أو الدراسات الاستراتيجيَّة، ومن الأمثلة على النشر الإنترنتي اللقاء الذي أجراه أحد الباحثين في معهد الدراسات الدولية التابع لجامعة كاليفورنيا بمدينة بيركلي مع فيتالي نومكن، ومن الموضوعات التي تناولها اللقاء: موقف الروس من الإسلام، وموضوع العراق، والاهتمام الروسي بالدراسات العربيَّة الإسلاميَّة.

ولم يبتعد الاستشراق عن السينما، أو لم تبتعد السينما عن الاستشراق، فهناك الكثير من الأفلام التي استمدت رؤيتها للإسلام والمسلمين من كتابات المستشرقين وتراثهم الضخم في تشويه صورة العالم العربي الإسلامي، وتنميط العرب والمسلمين في السينما الأمريكيَّة معروف جدًّا، وقد كتب عنه الباحث العربي الأمريكي جاك شاهين العديد من الكتب.

إن كثيرًا من الإعلاميين من صحفيين ومخرجين ومقدمي برامج إذاعية وتلفازية عندما يريدون إعداد برنامج عن العرب والمسلمين؛ فإنهم يلجئون إلى كتابات المستشرقين القديمة والحديثة يستندون إليها، ويستمدون منها معلوماتهم.

وتبقى مسئوليتنا نحن في العالم العربي الإسلامي نترك للإعلام الغربي بشتى أشكاله أن يقدم الصورة التي يريد لنا دون أن نحرك ساكنًا، أو ننبس ببنت شفة، بل إننا نقوم في أحيان كثيرة بترجمة ما يكتبونه عنا من شتم وسب، ونقوم بتوزيعه ونشره، وهو ما فعلته إحدى الشركات في الجزيرة العربيَّة من اتفاق مع شركة ديزني لاند لترجمة العديد من مجلات الأطفال إلى اللغة العربيَّة، وهي الشركة التي كان ينبغي علينا أن نقاطعها منذ زمن طويل لما قدمته وتقدمه من أفلام تسيء إلى صورة العرب والمسلمين، وتشوه العقيدة الإسلاميَّة، والشخصية الإسلاميَّة.

إحصائيات

منذ مائة وخمسين سنة وحتى الوقت الحاضر يصدر في أوربا بلغاتها المختلفة كتاب كل يوم عن الإسلام، هذه الإحصائية التي ننتهي إليها عندما نعرف أن ستين ألف كتاب قد صدرت بين ١٨٠٠ - ١٩٥٠ م أي عبر قرن ونصف، وعندما نعرف أن في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحدها يوجد حوالي خمسين مركزًا مختصًا بالعالم الإسلامي، وأن المستشرقين يصدرون الآن ثلاثمائة مجلة متنوعة بمختلف اللغات كما قرر ذلك بوزورث في (تراث الإسلام)، وأن المستشرقين عقدوا مؤتمرات دورية خلال قرن واحد -هو المائة سنة الأخيرة- ثلاثين مؤتمرًا، هذا سوى المؤتمرات الإقليمية، وسوى الندوات، وبعض هذه المؤتمرات مثل مؤتمر أكسفورد ضم قرابة تسعمائة عالم[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٢، ٦٩٣)، الاستشراق، الإعلام والاستشراق، د. مازن مطبقاني، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

الفصل السابع

آثار الدراسات الاستشراقيَّة

قدَّم الاستشراق خدمات كبيرة للغرب النصراني في خدمة أهدافه التي قام من أجلها من أهداف دينية وسياسية واقتصادية واستعمارية وثقافية. وحتى عندما استغنى الغرب عن مصطلح الاستشراق وأنشأ أقسام دراسات الشرق الأوسط أو الشرق الأدنى أو مراكز البحوث المختلفة؛ فما زالت الأهداف القديمة موجودة.

ولكنه في الوقت نفسه أثر تأثيرات سلبية في العالم الإسلامي في المجالات العقدية، والتشريعية، والسياسية والاقتصادية، والثقافية.

وفيما يأتي أبرز هذه الآثار:

١- الآثار العقدية:

من أبرز الآثار العقدية للاستشراق في العالم الإسلامي، ظهور تيار من المفكرين، والعلماء، والسياسيين، وحتى الناس العاديين، أو العامة الذين نادوا بفصل الدين عن الحياة، أو ما يطلق عليه العلمانيَّة.

فالعقيدة الإسلاميَّة تربط كل مجالات الحياة بالإيمان بالله عز وجل وبالتصور العام الذي جاء به الإسلام للخالق سبحانه وتعالى والكون والإنسان.

فلمّا كانت أوربا قد وجدت الديانة النصرانيَّة المحرفة تعيق تقدمها ونهضتها، ظهر فيها التيار الذي أطلق عليه التنوير مناديًا بفصل الدين عن الحياة، أو قصر الدين على الشعائر التعبدية والعلاقة بين الله والإنسان. أما شئون الحياة الأخرى من سياسة واقتصاد واجتماع فلا علاقة للدين به.

ونظرًا لأن أوربا لم تعرف النصرانيَّة الحقيقية أو الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام بما أحدثه بولس فيها من تحريفات؛ فإن ما ينطبق على أوربا لا يمكن أن ينطبق على الإسلام.

ونهضت أوربا نهضتها بمحاربة الدين والكنيسة، وبلغت الذروة في هذه الحرب في الثورة الفرنسيَّة.

وقد أثر الاستشراق في هذا المجال عن طريق البعثات العلميَّة التي انطلقت من العالم الإسلامي إلى فرنسا كما يقول الشيخ محمد الصبّاغ: «إنّ إفساد الطلبة المبعوثين لم يكن ليتحقق في بلد من البلاد الأوربية كما كان يمكن أن يتحقق في فرنسا التي خرجت من الثورة الفرنسيَّة وهي تسبح في بحور من الفوضى الخلقية والفكريَّة والاجتماعيَّة . . . من أجل ذلك كانت فرنسا محل البعثات».

فانطلقت هذه البعثات من تركيا، ومن مصر، ومن إيران، ومن المغرب؛ وكانت هذه البعثات

تحت إشراف مستشرقين فرنسيين؛ فمثلًا كانت البعثة المصريَّة تحت إشراف جونار.

ويقول أحد المستشرقين عن البعثات الأولى: إنها كانت لدراسة الهندسة والفنون الحربية، ولكن المعلمين الفرنسيين كانوا حريصين على أن ينقلوا إلى الطلاب المسلمين الآداب الفرنسيَّة والثقافة الفرنسيَّة.

وأيضًا فإن مثقفي التغريب من العرب والمسلمين قد رددوا مقولات استشراقية دون وعي وإدراك؛ لأنهم قد انبهروا بالغرب، ومنهجه، وثقافته، وتقدمه التكنولوجي إلى درجة أفقدتهم مصداقيتهم، وموضوعيتهم، ومنهجيتهم، وكانوا بحق أذرع الغرب في المجتمع الإسلامي، يحاولون إنجاح ما عجز عنه المستشرقون، وتهيئة الأرضية ليسهل تشويه الإسلام، الذي يعد أكبر خطر تواجهه أوربا قديمًا وحديثًا.

ومن تأثير الاستشراق في المجال العقدي الاهتمام المبالغ فيه بالصوفيَّة وبخاصة تلك التي ابتعدت عن الكتاب والسنّة؛ فتجدهم يجعلون لابن عربي مكانة خاصة في النشاطات الاستشراقية، ويجذبون أبناء المسلمين لمثل هذه الاهتمامات.

كما أن من اهتمامات الاستشراق التي تدعو إلى الشكوك في نياتهم الاهتمام بالفرق المنحرفة كالرافضة والإسماعيلية وغيرها من الفرق، فيعطونها من وقتهم ومن دراساتهم ما تجعل الغريب عن الإسلام يظن أن هذا هو الإسلام.

وقد حرص الاستشراق والتنصير على إنشاء المدارس والجامعات الغربية في العالم الإسلامي، فمن ذلك الكلية الإنجيلية التي تحولت إلى الجامعة الأمريكيَّة التي لها فروع في كل من القاهرة، وبيروت، وإسطنبول، ودبي.

بالإضافة إلى كلية فيكتوريا (مدرسة ثانوية، وقد أصبحت منذ أكثر من عشرين سنة تضم المراحل الدراسية كلها) والكلية الأمريكيَّة في بيروت (مدرسة ثانوية)، وقد زعم كرومر في احتفال بمدرسة فيكتوريا بأن الهدف من هذه المدرسة وشبيهاتها تنشئة أجيال من أبناء المسلمين يكونون جسرًا بين الثقافة الغربية ومواطنيهم المسلمين، ولعلها عبارة ملطّفة لتكوين جيل ممسوخ لا يعرف ثقافته ولا عقيدته.

وقد وصف الشيخ سعيد الزاهري التلاميذ الجزائريين الذين درسوا في المدارس الفرنسيَّة في الجزائر -أطلق عليها خداعًا المدارس العربيَّة- بأنهم لا يصلون، ولا يصومون، ولا يتحدثون اللغة العربيَّة فيما بينهم، ولا يؤمنون بأن القرآن الكريم وحي من الله.

٢- الآثار الاجتماعيَّة:

تعد الآثار الاجتماعيَّة من أخطر الآثار التي ما زال الاستشراق حريصًا على تحقيقها في العالم الإسلامي؛ فقد اهتم المستشرقون بدراسة المجتمعات الإسلاميَّة ومعرفتها معرفة وثيقة حتى يمكنهم أن يؤثروا فيها بنجاح.

وإن دوافعهم لهذا تنطلق من النظرة الاستعلائية الغربية بأن المجتمعات الغربية وما ساد فيها من فلسفات ونظريات هي المجتمعات الأرقى في العالم، وقد تمكن الاحتلال بالتعاون مع الاستشراق في إحداث تغيرات اجتماعيَّة كبيرة في البلاد التي وقعت تحت الاحتلال الغربي.

ففي الجزائر مثلًا حطم الاستعمار الملكيات الجماعية أو المشاعة للأرض وذلك لتمزيق شمل القبائل التي كانت تعيش في جو من الانسجام والوئام.

وقد تعاون الاستشراق والاحتلال على إحداث النزاعات بين أبناء البلاد الإسلاميَّة بتشجيع النزعات الانفصالية، كما حدث في المغرب العربي أيضًا بتقسيم الشعب المغربي إلى عرب وبربر، والتركيز على فرنسة البربر وتعليمهم اللغة الفرنسيَّة ونشر الحملات التنصيريَّة في ديارهم، وقد أنشأت الحكومة الفرنسيَّة الأكاديمية البربرية في فرنسا لتشجيع هذه النزعة.

ومن الجوانب الاجتماعيَّة التي عمل فيها الاستشراق على التأثير في المجتمعات الإسلاميَّة البنية الاجتماعيَّة، وبناء الأسرة والعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمعات الإسلاميَّة؛ فقد اهتم الاستشراق بتشويه مكانة المرأة في الإسلام، ونشر المزاعم عن اضطهاد الإسلام للمرأة وشجع الدعوات إلى التحرير المزعوم للمرأة التي ظهرت في كتابات قاسم أمين، والطاهر الحداد، ونوال السعداوي، وهدى الشعراوي، وغيرهم.

ويرى الدكتور محمد خليفة أن موقف الاستشراق من المرأة المسلمة نابع من وقوعه «تحت تأثير وضع المرأة الغربية أنها نموذج يجب أن يحتذى به، وأن ما حققته من مساواة -في نظرهم- وحقوق يجب أن يتسع ليشمل المرأة المسلمة والمرأة الشرقيَّة العامة . . .» ويضيف خليفة بأن الاستشراق يسعى «إلى تقويض وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة على التمرد على النظام، والخروج باسم الحرية، وتصوير وضع المرأة المسلمة تصويرًا مزيفًا لا يعكس الحقيقة».

وقد أنشئت رابطة دراسات المرأة في الشرق الأوسط ضمن تنظيم رابطة دراسات الشرق الأوسط الأمريكيَّة، وهي التي تهتم بأوضاع المرأة المسلمة، وتشجع اتجاهات التغريب من خلال مجلتها ربع السنوية واجتماعاتها في إطار المؤتمر السنوي لرابطة دراسات الشرق الأوسط، وذلك بدعوة الباحثات المسلمات اللاتي يتبنين الأفكار الغربية من أمثال نوال السعداوي، وفاطمة المرنيسي، وحنان الشيخ، وغيرهن، ومن خلال تنظيم الندوات حول وضع المرأة المسلمة في المجتمعات الإسلاميَّة.

و يقوم الاستشراق الإعلامي بدور بارز في الترويج للفكر الغربي في مجال المرأة، ومن ذلك الصحافة الغربية والإذاعات الموجهة.

فمن الكتب التي قدمت هيئة الإذاعة البريطانية عروضًا لها كتاب (ثمن الشرف) للكاتبة البريطانية الأصل جان جودون التي تناولت فيه دراسة أوضاع المرأة في خمس دول إسلامية هي الباكستان، وأفغانستان، والكويت، ومصر، والمملكة العربيَّة السعودية. وقد خلطت الكاتبة فيه

بين موقف الإسلام من المرأة وبعض التطبيقات الخاطئة في هذه الدول.

ومن المعروف أن الإسلام حَكَمٌ على أهله، وليس سلوك المسلمين حجة على الإسلام.

وقد قدمت إذاعة لندن في شهر جمادى الأولى تقريرًا عن ندوة تعقد في إحدى الدول العربيَّة حول موضوع المرأة، وقدمت تصريحًا لمسئول في تلك الدولة يزعم فيه أن بلاده وتركيا هما الدولتان الوحيدتان اللتان أصدرتا قوانين تحرِّم تعدد الزوجات، وتعطي المرأة كثيرًا من الحقوق لمساواتها بالرجل.

وإن التوازن في عرض وجهات النظر يقتضي أن تقدم الإذاعة من يتناول وجهة النظر الأخرى لمثل هذه التصريحات.

وكانت الإذاعة قد قدمت تقريرًا عن مؤتمر عقد في قطر للمرأة المسلمة، وعرضت أخبار هذه الندوة بكثير من السخرية، ومن ذلك وصفها لانتقال النساء في حافلات ذات ستائر غامقة اللون حتى لا يراهن أحد، بالإضافة إلى عبارات أخرى مليئة بالاستهزاء من موقف الإسلام من المرأة.

٣- الآثار السياسية والاقتصادية:

يزعم الغربيون أن الديموقراطية الغربية هي أفضل نظام توصل إليه البشر حتى الآن، ولذلك فهم يسعون إلى أن يسود هذا النظام العالم أجمع، ومن بين الدول التي يريدون لنظامهم أن يسودها البلاد الإسلاميَّة.

وقد سعوا إلى هذا من خلال عدة سبل، وأبرزها هو انتقاد النظام السياسي الإسلامي، وقد ظهرت كتب كثيرة عن نظام الخلافة الإسلامي وافتروا على الخلفاء الراشدين بزعمهم أن وصول الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) إلى الخلافة كان نتيجة لمؤامرة بين الاثنين.

وكتب مستشرقون آخرون زاعمين أن النظام السياسي الإسلامي نظام قائم على الاستبداد، وفرض الخضوع والمذلة على الشعوب الإسلاميَّة؛ بل بالغ لويس في جعل النظام السياسي الإسلامي يشبه النظام الشيوعي في استبداده وطغيانه.

وقد تأثرت بعض الدول العربيَّة التي خضعت للاحتلال الغربي بالفكر السياسي الغربي؛ بأن قامت باستيراد النظام البرلماني دون أن يتم إعداد الشعوب العربيَّة لمثل هذه الأنظمة؛ فكانت كما قال أحد المستشرقين بأن العرب استوردوا برلمانات معلبّة دون ورقة التعليمات.

وما زالت هذه البرلمانات في البلاد العربيَّة يتحكم فيها الحزب الحاكم الذي لا بد أن يفوز بأغلبية المقاعد بأية طريقة كانت.

ومع ذلك فما زال الغرب حريص على نشر الديموقراطية، وقد كانت تصريحات الساسة الغربيين بأن (حرب الخليج الثانية) ستكون مناسبة لفرض الديموقراطية في العالم العربي، وستكون البداية في الكويت.

ومن الحقائق المثيرة للانتباه أن تركيا (كما رأينا) كانت من أقدم الدول الإسلاميَّة تغربًا وتطبيقًا للنظام الديموقراطي، ولكن عندما وصل الإسلاميون للحكم وانقلب السحر على الساحر-كما يقال- قلبت الدول الغربية لنظامهم الديموقراطي ظهر المجن وسعوا إلى تأييد العسكر في كبت الحريات ومصادرة الديموقراطية.

ويمكن أن يضاف إلى هذا ما حدث في الجزائر حيث كاد الإسلاميون (جبهة الإنقاذ) أن تصل إلى الحكم عن طريق صناديق الاقتراع والديموقراطية بأسلوبها الغربي ولكن تكالبت الدول الغربية وغيرها على إجهاض هذه التجربة وحرمان الإسلاميين من حقهم في الوصول إلى الحكم.

أما في المجال الاقتصادي؛ فإن الغرب سعى إلى نشر الفكر الاقتصادي الغربي الاشتراكي والرأسمالي وذلك بمحاربة النظام الاقتصادي الإسلامي، وكما يقول محمد خليفة: «إنَّ المستشرقين في سعيهم للترويج للفكر الاقتصادي الغربي قاموا بإعادة تفسير التاريخ الاقتصادي الإسلامي من وجهة نظر الرأسمالية والشيوعية كنوع من التأصيل للنظريتين وتقديمهما على أنهما لا يمثلان خروجًا عن النظام الاقتصادي الإسلامي».

وكان من نتائج الترويج للاشتراكية والرأسمالية في العالم الإسلامي؛ أن انقسم العالم الإسلامي على نفسه، فأصبح قسم منه يدور في الفلك الشيوعي، والقسم الآخر في الفلك الرأسمالي.

ولعل من طرائف المواقف الاستشراقية أن تسعى الدول الغربية إلى بث النظام الاشتراكي في بعض الدول العربيَّة بتدريس الاقتصاد الاشتراكي، والترويج بأن التنمية الحقيقية في العالم العربي تتطلب تأميم وسائل الإنتاج، وأن الحرية الاقتصادية الغربية لا تناسب مراحل التنمية الأولى.

ولا شك أن سعيهم إلى بث هذا الفكر أن يبعدوا الإسلام عن العودة إلى حياة المسلمين سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا.

وكان من تأثير الاستشراق أيضًا تشجيع الصناعة في البلاد الإسلاميَّة دون الاستعداد الكافي لها، وإهمال قطاع الزراعة فقد اقتنع العالم العربي بأن النهضة الحقيقية إنما تكون في الصناعة، ولذلك أهملت الزراعة إهمالًا شبه كلي، مع أن نهضة الغرب الصناعية بدأت بالاهتمام بالزراعة وما زال الغرب يسيطر على إنتاج الحبوب والمواد الغذائية الأساسية في العالم.

ومن الأمثلة على هذا ما حدث في مصر في عهد الرئيس عبد الناصر؛ حيث تم التوسع في مشروعات صناعية (خيالية) مع إهمال شبه تام للزراعة حتى أصبحت البلاد عالة على الدقيق الأمريكي والأسترالي وغيرهما.

وقد حدث مثل هذا في الجزائر، وإن كنّا في الحقيقة لم نتقدم لا في الزراعة ولا في الصناعة.

٤- الآثار الثقافية والفكريَّة:

حقق الاستشراق نجاحًا كبيرًا في التأثير في الحياة الثقافية والفكريَّة في العالم الإسلامي؛ فبعد أن كان القرآن الكريم والسنّة المطهرة وتراث علماء الأمة الذين فهموا هذين المصدرين فهمًا جيدًا،

وعاش المسلمون على هدي من هذه المصادر في جميع مجالات الحياة -أصبحت المصادر الغربية تدخل في التكوين الفكري والثقافي لهذه الأمة؛ سواء أكان في نظرتها لكتاب ربها سبحانه وتعالى ولسنة نبيها، أو للفقه، أو للعلوم الشرعية الأخرى، أو في منهجية فهم هذه المصادر ومنهجية التعامل معها، كما أثر الفكر الغربي في المجالات الفكريَّة الأخرى كالتاريخ، أو علم الاجتماع، أو علم النفس، أو علم الإنسان، أو غيره من العلوم.

وقد استطاع الاستشراق تحقيق هذا النجاح بما توفر له من السيطرة على منابر الرأي في العالم الإسلامي؛ فقد أنشأ الغرب العديد من المدارس كما أن العديد من أبناء الأمة الإسلاميَّة تلقوا تعليمهم على أيدي المستشرقين في الجامعات الغربية (الأوربية والأمريكيَّة).

ولمَّا كانت بعض البلاد العربيَّة والإسلاميَّة خاضعة للاحتلال الأجنبي فقد مكّن لهؤلاء الذين تعلموا في مدارسه؛ فما زالت الصلة قوية فيما بين الطلبة الذين تخرجوا في كلية فيكتوريا بعد أن تسلم كثير منهم مناصب حسأسة في بلادهم.

ومن المنابر التي استطاع الغرب أن ينشر من خلالها الثقافة والفكر الغربيين وسائل الإعلام المختلفة من صحافة، وإذاعة، وتلفاز، ونشر بأشكاله المتعددة؛ فقد أنشئت الصحف والمجلات التي تولى رئاسة تحريرها أو عملية الكتابة فيها كثير من الذين تشبعوا بالثقافة الغربية، وقد بذلوا جهودًا كبيرة للرفع من شأن تلاميذهم فهذا يطلق عليه (عميد الأدب العربي)، وآخر يطلق عليه (أستاذ الجيل)، وثالث يطلق عليه (الزعيم الوطني).

ومن هذه الصحف الأهرام، ومجلات المقتطف وغيرهما من الصحف والمجلات؛ كما أنشئوا المسارح والسينما، وأدخلوا إلى حياة الشعوب العربيَّة الإسلاميَّة فنون اللهو غير المباح من مراقص وغناء وغير ذلك.

وكان للاستشراق دوره في مجال الأدب شعرًا ونثرًا وقصة. فقد استغلت هذه الوسائل في نشر الفكر الغربي العلماني وبخاصة عن طريق ما سمي (الحداثة) التي تدعو إلى تحطيم السائد والموروث، وتفجير اللغة، وتجاوز المقدس ونقد النصوص المقدَّسة.

وقد استولى هؤلاء على العديد من المنابر العامة ولم يتيحوا لأحد سواهم أن يقدم وجهة نظر تخالفهم وإلا نعتوه بالتخلف، والرجعية، والتقليدية، وغير ذلك من النعوت الجاهزة.

وقد انتشرت في البلاد العربيَّة الإسلاميَّة المذاهب الفكريَّة الغربية في جميع مجالات الحياة: في السياسة، والاقتصاد، وفي الأدب، وفي الاجتماع.

ففي السياسة: ظهر من ينادي بالديموقراطية، ويحارب الإسلام، وفي الاقتصاد: ظهر من تبنى الفكر الشيوعي، والاشتراكي، وفي الأدب: ظهر من نادى بالنظريات الغربية في دراسة اللغة، وفي الأدب، وفي النقد الأدبي؟ وأخذ كثيرون بالنظريات الغربية في علم الاجتماع، وفي التاريخ، وفي علم النفس، وفي علم الإنسان، وغير ذلك من العلوم.

وقد دخل المستشرقون إلى مجامع اللغة، وحولوا أهدافهم إلى مناهج براقة سواء في أحياء العاميات، أو الدعوة إلى تعديل النحو، أو اللغة الوسطى، أو الكتابة العربيَّة المعاصرة، وكلها محاولات ترمي إلى إيجاد فجوة بين لغة القرآن ولغة الكتابة.

ومن قبل ذلك تسللوا للبحث عن العاميات، ولبسوا ملابس التجار والدبلوماسيين، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لجمع الأمثال العامية والمواويل بهدف مسموم هو القول بأن العامية لغة لها تراث.

وقد أولوا اهتمامًا شديدًا لدراسة اللهجات في البلاد العربيَّة، وعقدوا مؤتمرًا خاصًّا لذلك في مدينة ميونخ بألمانيا ١٩٥٧ م، وكتب المستشرقون في ذلك كتبًا منها: كتاب في لغة الغجر في البلاد العربيَّة، ودراسات في اللهجات الأمهرية؛ السحرية والقطرية وغيرها من اللهجات المستعملة في جنوب الجزيرة العربيَّة وعلى أطرافها.

والهدف من التركيز على اللهجات العامية واضح؛ فهم الذين قدموا تلك الفلسفة الضالة التي تقول: إن العامية أقدر على تصوير المشاعر، مع أن هذه المشاعر التي تصورها العامية هي المشاعر الساذجة، ومشاعر طفولة البشرية أين منها ذلك الشعر الرصين، والبيان العربي الذي يحمل صور المجتمع الإسلامي، والنفس الإسلاميَّة في مراحل الرشد الفكري؟! والهدف هو إضعاف لغة القرآن وتمييعها بالتحريض على استعمال اللهجات، وتحطيم قواعد اللغة باسم التيسير(١).

---

(١) انظر: الاستشراق للمطبقاني، الابتعاث ومخاطره، محمد الصباغ ص(٢٩، ٣٠)، الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين ص(٤٦)، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، محمد السعيد الزاهري ص(١٠٨)، المنهج الاستشراقي عند المتغربين فكريًّا، قاسم خضير عباس.

الفصل الثامن

مواجهة الاستشراق

١- علينا أن نمثل أنفسنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا، بأن تقوم مؤسساتنا العلميَّة برسم الصورة الثقافية، والتاريخية، والعقدية لأمة الإسلام دون أن تخضع للأفكار المسبقة التي رسمها المستشرقون، وهذا يعني أن يقوم الدعاة والعلماء المسلمون بواجب الدعوة بنشر كل ما يتعلق بالإسلام في شتى جوانب الحياة، وأن نسعى إلى تطبيق الإسلام التطبيق الصحيح الذي كان عليه سلف الأمة الصالح؛ فإننا متى ما عرفنا الإسلام فمن السهل أن نتعرف إلى الشبهات التي يثيرها الاستشراق، ونستطيع أن نرد عليها.

وينبغي أن نلاحظ أن تمثيل الاستشراق للإسلام وللمسلمين بالنسبة للغرب ينعكس على قضايانا السياسية، وعلى علاقاتنا مع الغرب، حيث يتصور الرأي العام الغربي أننا أمة همجية، وأننا برابرة كما تزعم كثير من الدراسات، وأننا لا نمتلك مقومات حضارية، ولا نمتلك عقلية منطقية، ولا نفكر في المستقبل، هذا كله يمكن أن يؤدي إلى مشكلة في نطاق العلاقات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والصراع بين الشرق والغرب؛ لذلك فإن قيامنا بتمثيل أنفسنا هو الحل الأمثل، نحن الذين نطرح فكرنا وديننا وعاداتنا، لكنه ينبغي أن نعترف أننا حتى الآن لم نمثل أنفسنا أمام أنفسنا، أقصد لا زلنا ندرس الإسلام، ولا زلنا ندرس أوضاع المسلمين، وندرس شرائح كثيرة تاريخية، وجغرافية، واقتصادية، واجتماعيَّة، وثقافية؛ من خلال الدراسات الغربية والاستشراقية، وأن مناهج جامعاتنا في أرجاء العالم الإسلامي مليئة بمثل هذه الكتب، وحتى تلك الكتب التي ألفها عرب لو قرأناها بدقة؛ فإننا سنجد أن كثيرًا من الأفكار مترجمة دون عزو عن الاستشراق.

فلا بد إذًا من أن نبني صرحنا الثقافي الفكري الديني بأنفسنا، وأن تكون دراستنا مستقلة ذات مناهج مستقلة، ورؤى مستقلة، وأن هذا الذي يطرح لا يكون متأثرًا وغارقًا في بؤرة الاستشراق، أن نمثل أنفسنا أولًا عن طريق بناء الصرح العلمي والرؤى الإسلاميَّة الخالصة المنبثقة عن كتاب الله -تعالى- وسنة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أن نعكس هذا على الغرب بترجمات إلى اللغات العالمية المختلفة.

٢- وثمة جانب آخر لمواجهة الاستشراق، وهو أن ندرس الاستشراق من خلال دراسة الفكر الغربي عامة؛ فكما قيل: خير وسائل الدفاع الهجوم، فعلينا أن نخرج من دائرة الدفاع التبريري إلى الهجوم، وهذا منهج قرآني في الجدال مع الأمم الأخرى والعقائد الأخرى؛ فقد فنَّد عقائد النصارى واليهود وأوضح الانحرافات العقدية، والفكريَّة، والاجتماعيَّة التي كانوا يمارسونها، كما أوضح انحرافات الجاهلية في الاعتقاد، وفي الاجتماع، وفي الاقتصاد، وفي الأخلاق.

وأيضًا علينا أن ننتقل من كوننا ذاتًا مدروسة إلى ذات دارسة، ومن ذات موضع الدراسة إلى ذات تجعل غيرها موضع الدرس، وأن نتخلص من عقد النقص التي فينا، وأن نقضي على عقدة الاستعلاء لدى عدونا، وهو ما يمكن أن نفعله حين نهيئ عددًا من أبنائنا المقيمين في الخارج لدراسة أوضاع المجتمعات الغربية.

وأمر آخر اقترحه بعض الباحثين ينبغي فعله في إطار مناهضة الاستشراق وهو إنشاء علم (الاستغراب) في جامعاتنا ومعاهدنا المتخصصة بغية استيعاب الغرب، واحتواء توجهاته، وميوله الفكريَّة، وكذلك كشف البنية التحتية للعقلية الغربية؛ حتى تكون مناهضتنا للغرب والاستشراق الغربي متسمة بالدقة والإتقان، ويكون خطابنا وردودنا نابعة عن موقف المسئولية العقلية والنضج الثقافي، وعلى مستوى الوعي الغربي والعقلية الغربية، ولعل إدوارد سعيد يمثل معلمًا رائعًا في هذا الطريق... فالرجل عربي فلسطيني حاول استيعاب الغرب وتوجهاته الاستشراقية استيعابًا أقل ما يمكن وصفه بأنه يتصف بكثير من الجدية والإتقان، ثم هو بحكم معايشته الغربيين لمدة طويلة أتقن أسلوب مخاطبة العقلية الغربية مما جعل كتابه الذي أصدره عام ١٩٧٨ ميلادي (بالإنجليزية) متناولًا فيه موضوع الاستشراق يحدث دويًّا كبيرًا في الساحة الثقافية الغربية بصورة عامة، وفي محيط الاستشراق بصورة خاصة؛ فأننا لو سرنا على خطى إدوارد سعيد وأسسنا دوائر متخصصة لإنجاز مثل هذه الأعمال؛ فإننا سنحقق الكثير في سبيل الرد على التحدي الاستشراقي بجدارة وإتقان.

٣- لا بد أن نتعرف على الاستشراق معرفة دقيقة منذ نشأته وحتى اليوم، وهذه المعرفة لا تتطلب أن نعرف كل ما كتب وما يكتب في مجال الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة في الغرب؛ بل نعرف القضايا الكبرى التي يتبناها المستشرقون؛ لأننا لو أردنا أن نرد على كل كلمة لما وسعنا الوقت والجهد، وإنهم ليفرحون بأن ننشغل بمثل هذا الأمر.

٤- ولمَّا كانت الفرصة قد أتيحت للعلماء المسلمين أن يشاركوا في الندوات والمؤتمرات الاستشراقية؛ فإن عليهم أن ينتهزوا هذه الفرصة بالحضور، والمشاركة، وإلقاء المحاضرات، ونشر الكتب والبحوث باللغات الأوربية المختلفة حرصًا على أن يصل صوت الإسلام إلى العالم أجمع؛ فقد آن الأوان أن يعرف العالمُ الإسلامَ من أبنائه المؤمنين به لا من أعدائه المحاربين له.

٥- وعلينا أن نسعى إلى تشجيع الغربيين الذين يظهر في دراساتهم بعض التوازن والاعتدال بالمساهمة في نشر إنتاجهم والترويج له، واستضافتهم في العالم الإسلامي في المنتديات الثقافية والفكريَّة.

٦- ومواجهة الاستشراق تحتاج إلى مؤسسات ذات إمكانات كبيرة؛ فعلى أصحاب الأموال والأثرياء من العالم الإسلامي أن يسهموا في هذا النشاط العلمي، فكما هبَّ العالم لمواجهة الشيوعية؛ فكونت اللجان، وعقدت المؤتمرات، ونشرت الكتب؛ فلماذا السكوت على

الاستشراق أو الفكر الغربي الوافد الذي يملك الوسائل الضخمة لنشر فكره ومبادئه وآرائه؟!

٧- ومن أساليب هذه المواجهة محاولة السيطرة على وسائل الإعلام بما تبثه من فكر مخالف للإسلام، وتشجيع العلماء والأدباء المسلمين على ممارسة دورهم في هذا الجانب.

٨- كما علينا أن نكون أشد حزمًا في التعامل مع من يحارب الإسلام والمسلمين في شتى المجالات.

٩- تنقية الذاكرة الغربية من مخلفات استشراق القرون الوسطى، والتي تثبط همم الغربيين عن دراسة الإسلام ومبادئه.

وهذا الأمر لا يكفي فيه مجرد الردود الكتابية؛ إذ إن مثل هذه الردود بذل الكثيرون فيها إلى اليوم مجهودًا مشكورًا، ولكن رغم ذلك لا زالت آثار الموقف المجافي للحقيقة، والذي ولدته كتابات العصور الوسطى في أوربا قائمة.

أما السبب في هذا الإخفاق في إزالة المفتريات الاستشراقية؛ فقد يكمن في عزوف الإنسان الغربي عن قراءة الموضوعات الدينيَّة، وعن الاهتمام بكل ما هو ميتافيزيقي، بعد انتشار الفكر الإلحادي الذي ألقى الأديان كلها -من غير استثناء- في سلة المهملات؛ فالبحوث الدينيَّة التي ألفت في هذه الفترة، سواء أكانت تتعلق بالإسلام أم المسيحيَّة أم غيرهما من الأديان لم تلق آذانًا مُصْغِية في المجتمع الغربي، فلم يقرأها إلا العدد القليل؛ مما جعل الرؤى الاستشراقية عن الإسلام تظل باقية كعادتها في عقول الغالبية العظمى من الأوربيين الذين يرثون تلك الرؤى خلفًا عن سلف.

بل الحل يكمن -بالإضافة إلى إعداد كتب جيدة تعرض الإسلام بصورة موضوعية وتناقش المفتريات الاستشراقية بصورة علمية رصينة- في تحريك العمل الدعوى في العالم الغربي على نطاق أوسع؛ بحيث لا يبقى بيت مدر، ولا وبر إلا وقد طرقنا بابه، ووضحنا لأصحابه حقيقة الإسلام والصورة الصحيحة التي كانت عليها حياة نبي الإسلام، وقبل هذا وذاك أن نخلق في الوعي الغربي أهمية التدين الصحيح بإزالة ما به من شبهات إلحادية، وتساؤلات لا دينية وذلك حتى ينصت الغربيون إلينا فيستمعوا إلى ما نود قوله بقلوب يقظة وعقول منتبهة.

١٠- مناهضة المستشرقين وهدم بنيان أفكارهم، فينبغي علينا أن نضع في الاعتبار بأن أزمة الاستشراق هي أزمة المناهج، وليست أزمة التطبيق، أي أن المستشرقين بعد عصر النهضة بدءوا يخضعون مصادر الإسلام لقواعد المنهج الفيولوجي والتاريخي وعلوم الإنسان الاجتماع وكلها بمفاهيم غربية، مما جعل حقائق الإسلام تظهر في غير ثوبها بل تصبح مشوهة المظهر، مبتورة الأطراف.

فالخطأ إذًا، يكمن في مناهج البحث أو في طريقة توظيف تلك المناهج في سبيل الوصول، إلى أهداف معينة، مما يحتم علينا إذا أردنا مناهضة الاستشراق حقًّا وحقيقة أن نغربل تلك المناهج

غربلة دقيقة، وأن نشير إلى مكامن الخطأ فيها، وأن نبرز كيف أن تلك المناهج استغلت استغلالًا مجحفًا في سبيل الوصول إلى مآرب معينة، فعلى سبيل المثال استغل طه حسين المنهج التاريخي والفيلولوجي في إبطال صحة الشعر الجاهلي، بينما أثبت ناصر الدين الأسد، وباستخدام المناهج عينها صحة الشعر الجاهلي، مما يدل على أن الخطأ قد يكمن في طريقة توظيف واستغلال منهج ما وليس في المنهج عينه.

وإبراز أخطاء المستشرقين في استخدام المناهج ثم إظهار الفكر الإسلامي وفقًا لمعايير المناهج المتقدمة ليس من الأمر المستحيل، غير أنه يبدو أننا في حين معارضة الاستشراق قد صرفنا معظم طاقاتنا في نقد التطبيقات الاستشراقية واكتفينا في حين تقديم الإسلام بالتزمت عند مناهج ينظر إليها المستشرقون نظرة الازدراء، ويطلقون عليها بأنها (بالية) و(لا تاريخية)، وهناك بعض المستشرقين ممن لا يكتفون بهذا فقط بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيرفضون أن تكون لدينا مناهج معاصرة أصلًا، فهذا المستشرق المعاصر «فرنسيسكو غابريلي» يقول -بعد أن تبجح بما لديهم من المنهجيات والأدوات-: «لا ينبغي على أصدقائنا الشرقيين أن يطلبوا منا دراسة ماضيهم وحاضرهم على ضوء علم التاريخ الحديث الشرقي، أو الفلسفة الحديثة الشرقيَّة، أو علم الجمال، أو علم الاقتصاد الشرقي، لماذا؟ لسبب بسيط هو أن ذلك غير موجود حتى الآن»!!

تطوير مناهج البحث

فنحن، إذًا، بحاجة إلى تطوير المناهج الموجودة أصلًا في تراثنا الغني، وكل ما نحتاج إليه هو إعادة إبراز تلك المناهج بقوالب معاصرة، وخلع الهيبة الأكاديمية الحديثة عليها، فما يتبجح به الغربيون من المناهج ليس إلا اقتباسات مما أبدعه العلماء العرب والمسلمون من المناهج في عصور الازدهار العلمي الإسلامي، فكل ما فعلوه هو تطوير تلك المناهج وإحداث بعض تعديلات طفيفة حتى يتساوق مع النسق الغربي في التفكير والتأمل، ثم تجربة تلك المناهج في مجالات أوسع كما اقتضته طبيعة العصر.

فمسألة تطوير المناهج لكي تواكب مصطلحات العصر ليس من الأمر المستحيل، وأقل ما يمكن فعله في هذا الإطار هو القيام بعملية الغربلة والانتقاء، وإعادة صياغة ما يتوافر لدى الغرب من مناهج البحث والتفكير وفقًا للتوجهات والمفاهيم الإسلاميَّة ثم قولبة الفكر الإسلامي وفقًا لخطوات ومصطلحات تلك المناهج الحديثة، وبهذه الصورة نستطيع أن نقف في وجه المستشرقين، ونبطل ما يبدونه من عنهجية، ويمارسونه من تطفل وتشويش على الفكر الإسلامي النقي الذي هم بعيدون عن كل البعد، قلبًا وقالبًا.

ونحن بحاجة أيضًا إلى إعادة الأمور إلى نصابها بأخذ زمام المبادرة من المستشرقين، وإعادة دراسة التراث ذاته من الداخل على أيد عربية إسلامية، ذات كفاية وخبرة ودراية، وأن تتم معالجة التراث كوحدة ضمن سياقة التاريخ الطبيعي، متسلحين برؤية تاريخية واعية، متطلعين إلى بناء المستقبل

انطلاقًا من معطيات واقعنا وخصوصيتنا ومقومات شخصيتنا، وحتى يصبح التراث معاصرًا لذاته ومعاصرًا لنا في آن[١].

(١) انظر: الاستشراق للمطبقاني، موقف الاستشراق من السيرة والسنّة النبوية، للعمري، مناهضة الفكر الاستشراقي، محمد شمس الحق، الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٥)، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، الاستشراق، أنور الجندي، الفكر الاستشراقي وأثره على الدعوة، محمد شمس الحق.

القسم الثالث

الملل

الباب الأول: أديان الفرس.

الباب الثاني: أديان الهند.

الباب الثالث: أديان الصين.

الباب الرابع: أديان اليابان.

الباب الخامس: الصَّابئة المندائيُّون.

الباب السادس: الدِّيانة المصريَّة القديمة.

الباب السابع: وثنية اليونان.

الباب الثامن: وثنية الرومان.

الباب الأول
أديان الفرس
الفصل الأول
المجوس

التعريف:

المجوس Magi كلمة يونانيَّة الأصل Magos، أطلقها اليونانيون على كهنة زرادشت، عندما دخلوا فارس بقيادة الإسكندر الأكبر، ومعناها العظيم، أو الهائل، وذلك لأنَّهم برعوا في السحر Magic، ولهذا اشتقت الكلمة الأوربيَّة التي تعني السحر من اسمهم.

والمجوس أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد يسمون، أحدهما: النور، والآخر: الظلمة. وبالفارسيَّة: يزدان وأهرمن، ولهم في ذلك تفصيل.

ومذهب ومسائل المجوس كلُّها تدور على قاعدتين اثنتين:

إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة.

والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدًا والخلاص معادًا.

إلَّا أنَّ المجوس الأصليَّة زعموا أنَّ الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزليٌّ والظلمة محدثة، ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها: أمن النور حدثت والنور لا يحدث شرًا جزئيًا فكيف يحدث أصل الشر؟ أم من شيء آخر ولا شيء يشرك النور في الأحداث والقدم.

وهؤلاء يقولون: المبدأ الأول من الأشخاص كيومرث، وربَّما يقولون: زروان الكبير والنبي الثاني زرادشت.

والكيومرثيَّة يقولون: كيومرث هو آدم عليه السلام، وتفسير كيومرث هو الحي الناطق.

تاريخ الفرس

يبدأ تاريخ الفرس على الأرجح قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وقيل: بأربعة آلاف سنة، وذلك من بدء أول ملوكهم المسمَّى كيومرث وهو أبو الفرس.

والفرس من بدء الدهر إلى أن دخلها الإسلام أربعة أجناس:

الصنف الأول: يُقال له الخداهان، وهم الأرباب، كما يُقال: رب المتاع، ورب الدار، وذلك من كيومرث إلى أفريدون أو كرساسب.

الصنف الثاني: الكيان، وهم من أفريدون إلى دارا بن دارا.

الصنف الثالث: الأشغان، وهم ملوك الطوائف بعد الإسكندر.

الصنف الرابع: الساسان، وهم ملوك الاجتماع.

وينقسم تاريخ الفرس بحسب الملوك الذين تملكوا عليهم إلى ثلاثة عصور رئيسيَّة: عصر الفرس الأولى، وعصر الطوائف، وعصر الفرس الثانية.

الفرس الأولى:

وهم الأسكيان، وهذا العصر من أول ملوك الفرس كيومرث بن لاوذ إلى دارا بن دارا، وعدد الملوك فيه تسعة عشر ملكًا، منهم امرأة وتركي. والفترة الزمنيَّة لهذا العصر حوالي سبعة وعشرين قرنًا، من القرن الواحد والثلاثين قبل الميلاد إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

وللمجوس في كيومرث هذا خطب طويل في أنَّه مبدأ النسل وينبوع النَّزْء، وأنَّه نبت من نبات الأرض، وهو الريباس، هو وزوجته، وهما شابة ومنشابة، وما كان من خبره مع إبليس، وقتله إياه، ومنهم من زعم أنَّه ابن آدم الأكبر، وذهبت طائفة منهم إلى أنَّ كيومرث هو أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. وكان ينزل إصْطَخْرَ فارس.

ثم ملك بعده أوشهنج من ولد كيومرث الملك، وقيل: إنَّه أخ لكيومرث بن آدم. ثم ملك بعده طهمورث وظهر في عهده رجل يقال له بوداسف أحدث مذاهب الصابئة.

ثم ملك بعده أخوه جمشيد وهو ممن أشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها حتَّى لقِّب بعمر كسرى، وأحدث ورسم في عهده النيروز، وأحدث الصناعات والأبنية والمهن وادعى الإلهيَّة.

ثم ملك بعده بيوارسب فبغى وتمرد في الأرض، حتى تغلَّب عليه أفريدون من ولد جمشيد وقيَّده في جبل وجعل اليوم الذي قيَّده فيه عيدًا وسمَّاه المهرجان، وكانت دار مملكته بلاد بابل. ثم أضيفت بلاد بابل إلى ولد أفريدون وهو إيراج، وأسقطت الجيم من اسمه، وجُعلت النون بدلًا منها، فقالوا: إيران شهر، والشهر: الملك.

ثم ملك بعده منوجهر بن إيران بن أفريدون، وقد قيل: كان في زمانه موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام.

وفي أول القرن السادس قبل الميلاد في عهد الملك بهراسف أرسل قائدَه بختنصر إلى الشام وفتح بيت المقدس وسبى بني إسرائيل إلى المشرق.

ثم ملك بعده ابنه يستاسف وفي عهده ظهر زرادشت بن أسبيمان نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس، واسمه عند المجوس بستاه، وتمجس هذا الملك.

ثم ملك بعده بهمن بن إسفنديار، وفي ملكه رَدّ بقايا بني إسرائيل إلى بيت المقدس، فكان مُقَامهم ببابل إلى أن رجعوا إلى بيت المقدس حوالي سبعين سنة، وذلك في أيام قورش الفارسي الملك على

العراق من قِبل بهمن، وقيل: إنَّ قورش كان ملكًا برأسه بعد انقضاء ملك بهمن.

وآخر ملوك الفرس الأولى دارا بن دارا بن بهمن، والفرس تسميه باللغة الأولى من لغاتهم داريوس، وهو الذي قتله الإسكندر بن فليبس المقدوني، ثم تغَلَّبَ كل رئيس ناحية على ناحيته وبدأ عصر ملوك الطوائف.

ملوك الطوائف:

وهم الأشغانيون أو الأردوان، وهو من مقتل دارا على يد الإسكندر بن فليبس المقدوني إلى أن ظهر أردشير بن بابك، وعدد الملوك فيه أحد عشر ملكًا. والفترة الزمنيَّة لهذا العصر أكثر من خمسمائة سنة بقليل، من حوالي سنة ٣٣٤ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثاني الميلادي.

وهؤلاء الملوك من نسل أردوان بن أشغان بن آس الجبار، وفي عهد أحد أولاده وهو سابور بن أشك ظهر المسيح عليه السلام ببلاد فلسطين.

وآخر ملوك الطوائف أردوان بن بلاس الذي قتله أردشير بن بابك بن ساسان بالعراق في مبارزة على شاطئ دجلة، ووضع تاج أردوان على رأسه، وتمهدت له البلاد، فمن ملوك الطوائف مَنْ قتلَه أردشير، ومنهم مَنْ انقاد إلى ملكه وأجاب دعوته.

الفرس الثانية:

وهم الساسانيَّة، نسبة إلى ساسان، وهو جد أردشير بن بابك، ولم يلِ الفرس الثانية أحد إلا من ولد أردشير بن بابك هذا، وعدد الملوك فيه ثلاثون ملكًا، منهم امرأتان، وقيل: اثنان وثلاثون ملكًا.

الفترة الزمنيَّة لهذا العصر أكثر من أربعمائة سنة، من أول القرن الثالث الميلادي إلى سنة ٦٥٢م.

وأوَّل ملوكهم أردشير بن بابك هو أوَّل من رتَّب طبقات خاصته، فجعلها ثلاث:

الأولى: الأساورة وأبناء الملوك، وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم.

الثانية: المَرَازبة (قواد الجيوش)، وملوك الكورا (ملوك البلاد)، والمقيمون بباب أردشير.

الثالثة: المضحكون وأهل البطالة والهزل.

ثم ملك بعده ابنه سابور، وفي أيامه ظهر ماني، وقال بالاثنين، فرجع سابور عن المجوسيَّة إلى مذهب ماني، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسيَّة، ولحق ماني بأرض الهند. ثم ملك بعده ابنه هرمز، وبنى مدينة رامهرمز من بلاد الأهواز.

ثم ملك بعده ابنه بهرام، وقد أتاه ماني بن يزيد تلميذ قاردون فعرض عليه مذاهب الثنَوِيَّة فأجابه احتيالًا منه عليه إلى أن أحضر دعاته المتفرِّقين في البلاد من أصحابه الذين يَدْعُون الناس إلى مذاهب الثنويَّة فقتله، وقتل الرؤساء من أصحابه، وفي أيَّام ماني هذا ظهر اسم الزندقة الذي إليه

أضيف الزنادقة.

وجاء من بعد ذلك سابور ذو الأكتاف الذي أهلك كثيرًا من العرب بالعراق بعد تغلُّبهم عليها، وفتح مدن الشام وقتل خلائق من الروم، وسكن في الجانب الشرقي من المدائن، وبنى هناك الإيوان المعروف بإيوان كسرى، وبنى مدينة نيسابور ببلاد خراسان وغيرها بفارس والعراق، وهلك سنة ٣٧٩م.

وجاء من بعد ذلك قباذ بن فيروز، وفي أيامه ظهر مزدك الزنديق، وإليه تضاف المزدكيَّة، وله أخبار مع قباذ. وملك من بعده ابنه أنوشروان الذي قتل مزدك وأتبعه بثمانين ألفًا من أصحابه، وجمع أهل مملكته على دين المجوسيَّة، ومنعهم النظر والخلاف والحجاج في الملل.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي ملك أبرويز بن هرمز بن أنوشروان، وكانت حروب ذي قار بين الفرس والعرب، وهو أوَّل يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل: قبل النبوَّة بقليل، وقيل: بعد النبوَّة بقليل، وقيل: بعد الهجرة، وقيل: بعد بدر، وقيل غير ذلك.

وفي سنة ٦١٤م نهبت جيوش أبرويز أورشليم وقتلت ٩٠ ألفًا من النصارى وأحرقت كثيرًا من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس وأخذت الصليب الحقّ وهو أعزُّ أثر على النصارى.

ثم قَتل أبرويز ابنُه شيرويه، وملك بعده فترة قصيرة وفي أيَّامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم. ثم ملكت بوران ومن بعدها أرزمي ابنتا كسرى أبرويز.

ثم ملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز، وهو آخر ملوك الساسانيَّة، إلى أن قتل بمرو من بلاد خراسان، وذلك لسبع سنين ونصف خلت من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، وقيل غير ذلك[1].

معتقدات وأفكار المجوس

- يؤلِّفون جماعة لا يدخل فيها أحد.
- تبيح الزواج بالأقارب المقربين.
- عقيدتهم عن الكون مبدآن: مبدأ الخير ومبدأ الشر.
- يستخدمون السحر والتعاويذ في دفع الشرور عن البشر، وقمع الشياطين الشريرة الكامنة في أجسام الموتى، ولذلك كانوا يعدون أجسام الموتى في أعلى المواضع حتى تأكلها الوحوش والطيور الجارحة، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع في صندوق صغير مثقوب، ليستطيع الميت رؤية الشمس.

---

(١) انظر: مروج الذهب للمسعودي، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٣٢).

- يتحدث نص بهلوي عن حساب الموتى فيقول: تجلس الروح ثلاثة أيَّام وثلاث ليال جانب وسادة الجسد وفي فجر اليوم الرابع إلى البرزخ الرفيع المخيف -جسر تشينفات- حيث يتحتم أن يذهب كل إنسان تنقذ روحه وكل إنسان تلعن روحه . . . وسوف تخضع الحاجات لوزن أعماله على يد (راشن) وحين تمضي روح المستنقذ على هذا البرزخ إذا بعرض هذا البرزخ يبدو كأنَّه عرض فرسخ وتأتي أعماله الصالحة للقائه في هيئة فتاة أجمل وأنصع من أي فتاة في الأرض ثم إذا هو بخطوته الأولى يبلغ السماء بالأفكار الطيبة وبالثانية بالكلمات الطيبة وبالثالثة بالأعمال الطيبة وبخطوته يصل إلى النور اللانهائي الذي هو النعيم كله. . . ويسكن إلى الأبد مع الآلهة الروحانيين في النعيم إلى غير نهاية. . . أمَّا في حالة روح الملعون فإنَّ جسده بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال يحمل ويجر إلى جسر تشِينْفَات على يد مارد ومن ثم إلى الجحيم وتتلقاه فتاة ليس فيها شبه بفتاة فيمر في جهنمات ثلاث وهي: الأفكار الشريرة، والكلمات الشريرة، والأفعال الشريرة. وينتهي بخطوته الرابعة إلى حضرة أهرمن والمردة الأخرى.

- يعتقدون أن قرارات الملك وأحكامه من وحي الإله أهورامزدا نفسه وكان -أي خروجه على هذه القرارات- خروجًا على إرادة الله ومشيئته. وكان الملك صاحب السلطة القضائيَّة العليا، لكنَّه في العادة يعهد بهذا العمل إلى أحد الكهان من أتباعه وهم الذين يضعون القوانين بتوجيه من الملك.

- حكى أبو حامد الزوزني أنَّ المجوس زعمت أنَّ إبليس كان لم يزل في الظلمة والجو خلاء بمعزل عن سلطان الله، ثم لم يزل يزحف ويقرب بحيله حتى رأى النور فوثب وثبة فصار في سلطان الله في النور، وأدخل معه هذه الآفات والشرور فخلق الله تعالى هذا العالم شبكة فوقع فيها وصار متعلِّقًا بها لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه فهو محبوس في هذا العالم مضطرب في الحبس يرمي بالآفات والمحن والفتن إلى خلق الله تعالى فمن أحياه الله رماه بالموت، ومن أصحَّه رماه بالسقم، ومن سره رماه بالحزن، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة.

وفي كل يوم ينقص سلطانه حتى لا تبقى له قوة فإذا كانت القيامة، ذهب سلطانه، وخمدت نيرانه، وزالت قوته، واضمحلت قدرته؛ فيطرحه في الجو والجو ظلمة ليس لها حد ولا منتهى، ثم يجمع الله تعالى أهل الأديان فيحاسبهم ويجازيهم على طاعة الشيطان وعصيانه.

- لهم كتاب اسمه السكيكين، ترجمه ابن المقفع من الفارسيَّة الأولى إلى العربيَّة، وهذا الكتاب تعظِّمه الفرس، لما قد تضمن من خبر أسلافهم وسير ملوكهم.

- من المجوس طائفة تسمَّى المسخيَّة قالت: إنَّ النور كان وحده نورًا محضًا ثم انمسخ بعضه فصار ظلمة.

ومنهم كذلك الخرمدينيَّة قالوا بأصلين ولهم ميل إلى التناسخ والحلول، وهم لا يقولون بأحكام وحلال وحرام.

آلهة المجوس

يعبدون آلهة الطبيعة المختلفة التي جسّموها وشخّصوها على هيئة آلهة، فعبدوا:

- الشمس بهيئة إله سمّوه مِثرا Mithras، المقرون بأنّه إله العدل والخلاص، وهو من الآلهة الإيرانيّة القديمة.

ومثرا أكبر الآلهة في الدين السابق على الدين الزرادشتي، إنّه إله الشمس، ومع هذا فكلُّ المعالم الخاصة بولادة المسيح نسبت إلى مثرا، حتى تاريخ ميلاده في ٢٥ ديسمبر، ثم أعيد نسبتها إلى زرادشت، مع قدر من التطور الفكري.

وكان مثرا يعبد في إيران كإله للعقود والاتفاقيّات، وهو يحفظ الحق والنظام ويقضي على القوى المفرقة قوى الشر والغضب والجشع والتكبر والمماطلة وجميع الأشرار من الآلهة والبشر وهو يوصف بأنّه محارب قوي جبّار، وهو الذي يتعبّد له المحاربون وهم على ظهور جيادهم قبل الذهاب إلى المعركة.

وبوصفه حارسًا للحقيقة فهو قاضي الأرواح بعد الموت وبوصفه الحافظ للاتفاقات والعقود فهو الذي يحدد متى تنتهي فترة حكم الشيطان وينتظر قدومه -وسط مظاهر من الخنوع والذل- في أيّام النصر.

وتتنبأ عرافة مثرا بمقدم الإله في نهاية العالم لتدمير الأشرار بالنار ولإنقاذ الأبرار. فصار مثرا بذلك إلهًا مطلقًا في الدنيا والآخرة.

ويوصف مثرا بأنّه ذو الأحاسيس الألف الذي يحكم كسلطان عليم بكلّ شيء له ألف أذن وعشرة آلاف عين لا ينام يقظ دائمًا ذو الجواسيس العشرة الآلاف أول إله يقترب بين يدي الشمس الخالدة ذات الحصان السريع لا سبيل إلى تسويته بالشمس.

فهو في الديانة المثرية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاد طويل، ولا يسبقه في الوجود شيء غير الأبد أو الزمان أبي الأرباب عندهم وأبي الوجود.

ويمثلون مثرا حين تجسّد على الأرض مولودًا من صخرة نائية في مكان منفردٍ لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته، فتقدّموا إليه بالهدايا والقرابين ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين، وتغذّى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع.

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد، ويحبط كلّ عمل له من أعمال الخير والفلاح، فأرسل مثرا على الأرض طوفانًا أغرقها ولم ينج معه إلا رجلٌ واحدٌ حمل آله وأنعامه في زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان، ثم طهّر الأرض بالنار، وتناول مع الملائكة طعام الوداع وصعد إلى السماء حيث يقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم إلى النجاة من حبائل الشيطان.

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد، ويحتفلون بمولده في الخامس والعشرين

من ديسمبر؛ لأنَّه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار ويقيمون له عيدًا سنويًا في اليوم السادس عشر من الشهر السابع في تقويم الفرس القديم.

- والقمر باسم ماه Mah
- والأرض باسم زام Zam
- والنار باسم أتار Atar
- والماء باسم أفام نفت Apam Napat
- والريح باسم واهيو Vahyu

- إلهة الحياة والخصب والإنتاج باسم أناهيتا Anahita، وهي إلهة المياه المقدَّسة، تتَّخذ سكناها بين النجوم تتقدم على عجلة ذات أربعة جياد وتسحقُ المردة الطغاة وكل الكائنات المؤذية. وكان أهورامزدا قد عهد إليها بالإشراف على الخلق فضمنت خصب الطبيعة ومدت حمايتها إلى القطعان والمراعي.

واسمها لا يظهر في نقوش الملوك الأخمايمينين حتى النصف الأول من القرن الرابع ق. م، حتى يذكرها أرتكسركسيس مينمون ٤٠٥- ٣٥٩ق.م، وذلك في الجملة التي تقول: باسم أوهرمزد وكل الآلهة وأناهيت السيدة.

- الإله زورفان (زروان): الذي ظلَّ ألف عام يقدِّم الأضاحي عسى أن يكون له ولد يكون اسمه أهورامزدا يخلق السماء والأرض وكل ما فيهما، وبعد أن ضحَّى هذا ألف سنة بدأ يفكر هل هذه الأضاحي التي أتقدم بها ذات فائدة وهل يكون لي ولد أم أني أحاول عبثًا؟ وحين كان يفكر حبل بكلٍ من أهورامزدا -إذ كان يعتبر ذا طبيعة مزدوجة خنثى- فأصدر يمينًا من يخرج إلى محضره أولًا يتقلَّد الملك منه، فمزَّق أهرمن الرحم وتقدم إلى أبيه وقال: إنني ابنك أهورامزدا، لكن زورفان أنكره لأنَّه كان ينتمي إلى الظلام يفوح بالرائحة الكريهة ويحبُّ الأذى وبينما كان يتحدث إلى أهرمن ولد أهورامزدا ناصبًا طيب الرائحة فعرف زورفان أنَّه أهورامزدا فاقترب أهرمن من أبيه وذكره بيمينه: انتبه ألم تحلف بذلك اليمين لأوَّل من يأتي سوف أعطي الملك؟ فأجاب زورفان: اغرب أيها الشيطان لقد جعلتك ملكًا تسعة آلاف سنة وجعلت أهورامزدا يحكم فوقك وبعد آلاف السنين التسعة سوف يملك أهورامزدا ويأتمر كل شيء بإرادته[(١)].

عبادة المجوس النار

يزعم المجوس أنهم يعظِّمون النار لمعانٍ فيها:

منها أنَّها جوهر شريف علوي.

---

(١) انظر: معتقدات آسيوية ص(٩٠- ١٠١).

ومنها أنَّها ما أحرقت الخليل إبراهيم عليه السلام.

ومنها ظنهم أنَّ التعظيم لها ينجيهم في المعاد من عذاب النار.

وبالجملة هي قبلة لهم ووسيلة وإشارة.

بيوت النيران للمجوس

أول بيت بناه أفريدون بيت نار بطوس. وآخر بمدينة بخارى هو بردسون. واتخذ بهمن بيتًا بسجستان يدعى كركو. ولهم بيت نار آخر في نواحي بخارى يدعى قباذان. وبيت نار يسمَّى كويسه بين فارس وأصبهان بناه كيخسرو. وآخر بقومس يسمَّى جرير. وبيت نار يسمَّى كنكدر بناه سياوش في مشرق الصين. وآخر بأرجان من فارس اتخذه أرجان جد كشتاسب. وهذه البيوت كانت قبل زردشت. ثم جدد بيت نار بنيسابور. وآخر بنسا. وأمر كشتاسب أن يطلب نارًا كان يعظِّمها جم (جمشيد) فوجدها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دار بجرد وتسمَّى آذرخره والمجوس يعظِّمونها أكثر من غيرها وكيخسرو لما خرج إلى غزو أفراسياب عظَّمها وسجد لها. ويقال: إنَّ أنوشروان هو الذي نقلها إلى كآريان فتركوا بعضها وحملوا بعضها إلى نسا. وفي بلاد الروم على أبواب قسطنطينية بيت نار اتخذه سابور بن أردشير فلم يزل كذلك إلى أيَّام المهدي. وبيت نار بإستينيا على قرب مدينة السلام لبوران بنت كسرى. وكذلك بالهند والصين بيوت نيران[١].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

الفصل الثاني
الكيومرثيَّة

هم أصحاب المقدم الأول كيومرث، أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن.

وقالوا: يزدان أزلي قديم وأهرمن محدث مخلوق.

وقالوا: إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكَّر في نفسه أنَّه لو كان لي منازع كيف يكون وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة وسُمِّي أهرمن وكان مطبوعًا على الشرِّ والفتنة والفساد والفسق والضرر والإضرار فخرج على النور وخالفه طبيعة وفعلًا وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة.

ثم إنَّ الملائكة توسَّطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلي خالصًا لأهرمن سبعة آلاف سنة، ثم يخلِّي العالم ويسلمه إلى النور.

والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ثم بدأ برجل يقال له: كيومرث، وحيوان يقال له: ثور فقتلهما.

فنبت من مسقط ذلك الرجل ريباس وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشة وامرأة تسمَّى ميشانة وهما أبو البشر.

ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوانات.

وزعموا أنَّ النور خيَّر الناس وهم أرواح بلا أجساد: بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن وبين أن يلبسهم الأجساد فيحاربون أهرمن فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن على أن تكون لهم النصرة من عند النور والظفر بجنود أهرمن وحسن العاقبة وعند الظفر به وإهلاك جنوده تكون القيامة.

فذاك سبب الامتزاج وهذا سبب الخلاص(١).

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٣٢، ٢٣٣).

الفصل الثالث

الزروانيَّة

قالوا: إنَّ النور أبدع أشخاصًا من نور كلُّها روحانيَّة نورانيَّة ربانيَّة، ولكنَّ الشخص الأعظم الذي اسمه زروان شكَّ في شيء من الأشياء فحدث أهرمن الشيطان يعني إبليس من ذلك الشك.

وقال بعضهم: لا بل إنَّ زروان الكبير قام فزمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعًا وتسعين سنة ليكون له ابن فلم يكن ثم حدث نفسه، وفكر وقال: لعلَّ هذا العلم ليس بشيء فحدث أهرمن من ذلك الهم الواحد، وحدث هرمز من ذلك العلم فكانا جميعًا في بطن واحد، وكان هرمز أقرب من باب الخروج فاحتال أهرمن الشيطان حتى شق بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا.

وقيل: إنَّه لما مثَّل بين يدي زروان فأبصر ورأى ما فيه من الخبث والشرارة والفساد أبغضه ولعنه وطرده فمضى واستولى على الدنيا.

وأما هرمز فبقي زمانًا لا يد له عليه وهو الذي اتخذه قوم ربًّا وعبدوه لما وجدوا فيه من الخير والطهارة والصلاح وحسن الخلق.

وزعم بعض الزروانيَّة أنَّه لم يزل كان مع الله شيء رديء: إمَّا فكرة رديئة، وإمَّا عفونة رديئة، وذلك هو مصدر الشيطان.

وزعموا أنَّ الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن وكان أهلها في خير محض ونعيم خالص، فلمَّا حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن والمحن، وكان بمعزل عن السماء فاحتال حتى خرق السماء وصعد.

وقال بعضهم: كان هو في السماء، والأرض خالية عنه فاحتال حتى خرق السماء ونزل إلى الأرض بجنوده كلِّها فهرب النور بملائكته واتبعه الشيطان حتى حاصره في جنته وحاربه ثلاثة آلاف سنة لا يصل الشيطان إلى الربِّ تعالى ثم توسَّط الملائكة وتصالحا على أن يكون إبليس وجنوده في قرار الأرض تسعة آلاف سنة بالثلاثة آلاف التي قاتله فيها ثم يخرج إلى موضعه.

ورأى الرب -تعالى عن قولهم- الصلاح في احتمال المكروه من إبليس وجنوده وألَّا ينقض الشرط حتى تنقضي المدة المضروبة للصلح فالناس في البلايا والفتن والخزايا والمحن إلى انقضاء المدة ثم يعودون إلى النعيم الأوَّل.

وشرط إبليس عليه أن يمكنه من أشياء يفعلها ويطلقه في أفعال رديئة يباشرها فلما فرغا من الشرط أشهد عليهما عدلين ودفعا سيفيهما إليهما وقالا لهما: من نكث فاقتلاه بهذا السيف(١).

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٣٣- ٢٣٥).

الفصل الرابع

الزرادشتيَّة

التعريف:

أصحاب زرادشت بن يورشب (أو بورشف)، وقيل: إنَّه زرادشت بن أسبيمان، الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب (أو يستاسف بن بهراسف) الملك، وأبوه كان من أذربيجان وأمَّه من الري واسمها دغدويَّة.

وزعموا أنَّ لهم أنبياء وملوكًا أولهم كيومرث وكان أول من ملك الأرض وكان مقامه بإصطخر، وبعده أوشنهج بن فراول ونزل أرض الهند وكانت له دعوة ثمة، وبعده طهمورث وظهرت الصابئة في أول سنة من ملكه، وبعده أخوه جم الملك. ثم بعده أنبياء وملوك، منهم منوجهر ونزل بابل وأقام بها، وزعموا أن موسى عليه السلام ظهر في زمانه، حتى انتهى الملك إلى كشتاسف بن لهراسب وظهر في زمانه زرادشت الحكيم.

تاريخ الزرادشتيَّة

زعموا أن الله عزَّ وجلَّ خلق من وقت ما في الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملكوته خلقًا روحانيًا فلمَّا مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته في صورة من نور متلألئ على تركيب صورة الإنسان وأحف به سبعين من الملائكة المكرَّمين وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبني آدم غير متحركة ثلاثة آلاف سنة.

ثم جعل روح زرادشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين وغرسها في قلَّة جبل من جبال أذربيجان يعرف باسم يذخر ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمَّه فقصدها الشيطان وعيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برئها فبرئت.

ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر فاحتالوا على زرادشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة الخيل ومدرجة الذئب فكان ينهض كل واحد منهم لحمايته من جنسه.

وعندما بلغ زرادشت السابعة من عمره أرسل بعيدًا ليدرس مع بورزين- كوروس الذي امتدت شهرته بالحكمة في جميع أنحاء إيران، وظل ثمانية أعوام مع الحكيم بورزين يدرس معه العقيدة ويعمل في الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى.

وفي الخامسة عشرة من عمره وقعت الحرب بين الفرس والتورانيين، وانتشرت المجاعة واشتد المرض وازدادت الفاقة في جميع أنحاء فارس، فتطوع زرادشت لمعالجة المرضى والجرحى من الجنود، وقضى في ذلك نحو خمسة أعوام ثم عاد إلى وطنه، وتزوج من هافريه، ورفض رغبة أبيه في أن يستقرَّ

ويعمل معه فلاحًا ومربي ماشية وواصل عمله في تخفيف آلام الآخرين.

واستحوذت فكرة معرفة مصدر الخير والشر على عقل زرادشت، فقرر اعتزال الناس إلى جبل سابلان، وبينما هو واقف على الجبل يفكر إذ أحس بنشوة روحانيَّة تجلَّى فيها كبير الملائكة فاهومانا واصطحبه في رحلة سماويَّة مثل فيها أمام رب السماء نفسه، وتلقَّى منه كلمات الحقّ والحقيقة وتعلَّم أسرار الوحي وأمر النبوة.

نزل بعد ذلك من الجبل ليصدع بأمر ربِّه فأنكر تعدد الآلهة وعبادة الأصنام وجعل الخير المحض من صفات الله وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال: إنَّ خلق الروح سابق على الجسد.

ولم يصغ أهل فارس لتعاليمه ومرت عشرة أعوام يأمل في أن يجد من يؤمن بما يبشر به دون جدوى، ولما بلغ زرادشت مبلغ الكمال بأربعين سنة وتمت له المخاطبات في سبع عودات إلى أورمزد (أهورامزدا أو يزدان) وأكمل فيها معرفة شرائع دين الله وفرائضه وسننه أمره الله بالمسير إلى كشتاسب الملك وإظهار ذكر الله واسمه.

فنفذ لأمر الله ودعا ملكين كانا بذلك الصقع يقال لهما: فوربماراي وبيويدست فدعاهما إلى دين الله والكفر بالشيطان وفعل الخير واجتناب الشر فلم يقبلا قوله وأخذتهما العزَّة بالإثم فجاءتهما ريح فحملتها من الأرض ووقفت بهما في الهواء واجتمع الناس ينظرون إليهما فغشيهما الطير من كل ناحية وأتوا على لحومهما وسقطت عظامهما على الأرض.

ولما بلغ كشتاسب لقي منه كل ما أنبأه به أورمزد من الحبس والبلاء حتى حدث أمر الفَرس الذي دخلت قوائمه في باطن بدنه حتى لم ير أثرها في جسده واستبهم حاله على الناس وتحيَّروا وأخرجه كشتاسب من الحبس وسأله الحال. فقال: تلك آية من آيات صدقي الذي أخبرني به إلهي وخالقي وشارطهم على الإيمان به إن هو دعا وأخرج قوائم الفرس، وشرطوا ودعا باسم الله فخرجت قوائم الفرس كما كانت.

فآمن به كشتاسب وأمر بجمع علماء أهل زمانه من بابل وإيران شهر وأمرهم بمحاورة زرادشت فناظروه فاعترفوا له بالفضيلة.

وأعلن كشتاسب أنَّ زرادشت هو النبيُّ الحق لهذه العقيدة الجديدة، وأصدرَ أمرًا بكتابة تعاليمه بحروف الذهب وسميت أفستا، وعيَّنَ زاردشت كبيرًا لكهنة في بلاطه، وبنى للنار بيوتًا كثيرة، وبهذا انتشرت الديانة في أنحاء المملكة ثم أرسل الملك رسلًا مبشرين بالديانة الجديدة خارج البلاد حتى وصلت توران والهند واليونان.

وكانت مدَّة نبوة زرادشت فيهم خمسًا وثلاثين سنة، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة.

ولما هلك زرادشت ولي مكانه خاناس العالم، وكان من أهل أذربيجان وهذا أول موبذ قام فيهم بعد زرادشت، نصبه لهم كشتاسب الملك.

وأعلن أتباع زرادشت أن زرادشت لم يمت كما رأى الناس في الظاهر وإنَّما نزلت بذرته الخصبة

في البحيرة المقدَّسة، وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم، فإذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة لتغتسل فيها، وإذ ذاك تتغلغل هذه البذرة إلى رحم العذراء فتحمل لساعتها بمنجي العالم، وعلى يديه ستكون نهايته، فإذا ولد وشب أخذ يدعو إلى دينه واصطفى من التلاميذ خمسة عشر رجلًا وخمس عشرة امرأة ليعاونوه على تأدية رسالته، إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الكون[1].

مقالة زرادشت في المبادئ

أورد الجيهاني إحدى مقالات زرادشت في المبادئ وهي:

إنَّ دين زرادشت هو الدعوة إلى دين مارسيان وإنَّ معبوده أورمزد (أهورامزدا).

والملائكة المتوسطون في رسالاته إليه: بهمن وأرديبهشت وشهريور وأسفندارمز وخرداد ومرداد، وقد رآهم زرادشت واستفاد منهم العلوم.

وجرت مساءلات بينه وبين أورمزد من غير توسط:

أولها: قال زرادشت: ما الشيء الذي كان ويكون وهو الآن موجود؟

قال أورمزد: أنا والدين والكلام. أما الدين: فعمل أورمزد وكلامه وإيمانه. وأما الكلام: فكلامه. والدين أفضل من الكلام إذ العمل أفضل من القول.

وأول من أبدع من الملائكة بهمن وعلمه الدين وخصه بموضع النور مكانًا وأقنعه بذاته ذاتًا فالمبادئ على هذا الرأي ثلاثة.

السؤال الثاني: قال: لِمَ لم تخلق الأشياء كلَّها في زمان غير متناه؛ إذ قد جعلت الزمان نصفين نصفه متناه ونصفه غير متناه، فلو خلقتها في زمان غير متناه كان لا يستحيل شيء منها؟

قال أورمزد: فإن كان لا يمكن أن تفنى ثم آفات الأثيم إبليس.

السؤال الثالث: قال مماذا خلقت هذا العالم؟

قال أورمزد: خلقت جميع هذا العالم من نفسي. أمَّا أنفس الأبرار فمن شعر رأسي. وأمَّا السماء فمن أم رأسي. والظفر والمعاضد فمن جبهتي. والشمس فمن عيني. والقمر فمن أنفي. والكواكب فمن لساني. وسروس وسائر الملائكة فمن أذني. والأرض فمن عصب رجلي. وأريت هذا الدين أولًا كيومرث فشعر به وحفظه من غير تعلم ولا مدارسة.

قال زرادشت: فلماذا أريت هذا الدين كيومرث بالوهم وألقيته إلي بالقول؟

قال أورمزد: لأنَّك تحتاج أن تتعلم هذا الدين وتعلمه غيرك، وكيومرث لم يجد من يقبله فأمسك عن التكلم وهذا خير لك؛ لأني أقول وأنت تسمع وأنت تقول والناس يسمعون ويقبلون.

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٣٥- ٢٤١)، معتقدات آسيوية ص(١٠٤- ١٠٦، ١١١).

فقال زرادشت لأورمزد: هل أريت هذا الدين أحدا قبلي غير كيومرث؟

قال: بلى، أريت هذا الدين جم خمسين نجمًا مخمسًا من أجل إنكاره الضحاك.

قال: إذا كنت عالمًا أنَّه لا يقبله فلماذا أريته؟

قال: لو لم أره لما صار إليك وقد أريته أيضًا أفريدون وكيكاوس وكيقباد وكشتاسب.

قال زرادشت: خلقك العالم وترويجك الدين لأي شيء؟

قال: لأن فناء العفريت الأثيم لا يمكن إلا بخلق العالم وترويج الدين ولو لم يتروج أمر الدين لما أمكن أن تتروج أمور العالم.

فلما أخذ زرادشت الدين من أورمزد الوهاب، واستحكمه وعمل به، وزمزم في بيت أبيه عليه -غاظ ذلك كون الأثيم وأقلقه إذ كان شريرًا ممتلئًا موتًا وظلمةً وبلاء ومحنة فدعا بشياطينه وأسماؤهم: بري ديوانياخ، ودويهمان زوش، ونومربفنارديو، وأمرهم جميعًا بالمسير إلى زرادشت وقتله.

فعلم زرادشت بذلك فقرأ وزمزم وأراق الماء على يدي مارسيان فانهزموا عنه مقهورين.

وجرت محاربات أخرى فهزمهم زرادشت بإحدى وعشرين آية من كتابه أوستا، وتوارت الشياطين عن الناس.

معتقدات الزرادشتيَّة

- قال الشهرستاني: وكان دينه عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واجتناب الخبائث.

- قال زرادشت: النور والظلمة أصلان متضادان وكذلك يزدان وأهرمن وهما مبدأ موجودات العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة.

والباري تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له، ولا ضد ولا ند، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانيَّة لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنَّما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم وهمَّا يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر، ثم يتخلص الخير إلى عالمه والشر ينحط إلى عالمه وذلك هو سبب الخلاص.

والباري تعالى هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها في التراكيب وربَّما جعل النور أصلًا. وقال: وجوده وجود حقيقي وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلى الشخص فإنَّه يرى أنَّه موجود وليس بموجود حقيقة فأبدع النور وحصل الظلام تبعًا؛ لأنَّ من ضرورة الوجود التضاد فوجوده ضروري واقع في الخلق لا بالقصد الأول كما ذكرنا في الشخص والظل.

- ومما جاء به زرادشت من دين مارسيان: أنَّ إلهه أورمزد لم يزل ولم يزل معه شيء سمَّاه أسنى

أسنه وهو شيء مضيء حوله وهو فوق، وأنَّ إبليس لم يزل معه شيء سَمَّاه: أستاه أستاه وهو مظلم حوله وهو أسفل.

وأول ما خلق الله من الملائكة بهمن، ثم أرديبهشت، ثم شهريور، ثم أسفندارمز، ثم خرداد، ثم مرداد، وخلق بعضهم من بعض كما يؤخذ السراج من السراج من غير أنَّ ينقص من الأول شيء.

وقال لهم: من ربكم وخالقكم؟

فقالوا : أنت ربُّنا وخالقنا.

وعلم أورمزد أن إبليس سيتحرك من ظلمته فأعلم بذلك الملائكة وبدأ بإعداد ما يورطه ويدفع شره وأذاه عن عالمه ويبطل إرادته، فخلق السماء في خمسة وأربعين يومًا وسَمَّى كاهينازي شورم ومعناه ظهور ضمائر أهل الدنيا إلى سائر الكاهينازات المذكورات عندهم وخلق الأرض في خمسة وأربعين يومًا.

وأول من ابتعثه أورمزد إلى الأرض كيومرث وقد كان يستنشق النسيم ثلاثة آلاف سنة ثم أخرجه في قامة ثلاثة رجال.

ولَمَّا أن جاء وقت تحريك إبليس في ظلمته ارتفع ورأى النور وطمع في الاستيلاء على أسنى أورمزد وتصييره مظلمًا ودخل السماء يكيد ثم لكيومرث ثلاثين سنة وصارت نطفته ثلاثة أقسام قسم أمر الله الأرض أن تحفظه وقسم أمر سروس الملك أن يحفظه وثلث اختطفته الشياطين.

وأمر أورمزد بسد الثقوب التي صعد منها إبليس فبقي داخل السماء منقطعا عن أصله وقوته فانتصب لمنابذة أورمزد ورام الصعود إلى الجنان فدفعه عن ذلك قدر ثلاثة آلاف سنة ثم أعلمه أنَّه يسعى في الباطل والخسار ويروم ما لا يقدر عليه.

واتفق الأمر بينهما على أن يبقى إبليس وجنوده في قرار الضوء تسعة آلاف سنة ويروى سبعة آلاف سنة، ثم يبطل ويحتمل خلقه الأذى في هذه السنين، ويصبرون عليه وعلى ما ينالهم من الفقر والبلاء والموت وسائر الآفات ليعوضهم منها الحياة الدائمة في الجنان.

واشترط إبليس لنفسه وشياطينه ثمانية عشر شرطًا:

الأوَّل منها: أن تصير معيشة خلقه من خلق الله.

والثاني: أن يكون ممن خلقه على خلق الله.

والثالث: أن يسلط خلقه على خلق الله.

والرابع: أن يخلط جوهر خلقه بجوهر خلق الله.

والخامس: أن يصير له السبيل إلى أن يأخذ الطين الذي في خلق الله.

والسادس: أن يصير له من النور الذي في خلق الله ما يريد.

والسابع: أن يصير له من الرياح التي في خلق الله حاجته.

والثامن: أن يصير له من الرطوبة التي في خلق الله.

والتاسع: أن يصير له من النار التي في خلق الله.

والعاشر: أن يصير له من المودَّة والمصاهرة التي في خلق الله ليخلط الأشرار بالأخيار.

والحادي عشر: أن يصير له من العقل والبصر الذي في خلق الله ليعرف خلقه مسالك المنافع والمضار.

والثاني عشر: أن يصير له من العدل الذي في خلق الله ليجعل للأشرار فيه نصيبًا.

والثالث عشر: أن تخفى على الناس معرفة عمل الصالحين والأشرار إلى يوم القيامة والحساب.

والرابع عشر: أن يصير له السبيل إلى أن يبلغ بأهل بيت الشرارة والخبث غاية الغنى والدرجات، ويصيرهم عند الناس صالحين.

والخامس عشر: أن يصير له السبيل إلى أن يجعل كذب الأشرار مقبولًا على الأخيار.

والسادس عشر: أن يصير له السبيل إلى أن يعمر من أهل الدنيا من أراد من خلقه ألف سنة أو ثلاثة آلاف سنة، ويصيرهم أغنياء أقوياء قادرين على ما يريدون، وأن يلهم الناس حتى يكونوا بإعطاء الأشرار أسخى منهم بإعطاء الأخيار وأطيب نفسًا.

والسابع عشر: أن يصير له السبيل إلى إفناء أهل بيت الصالحين حتى لا يُعرف منهم أحد بعد ثلاثمائة وخمسين سنة.

والثامن عشر: أن يملك أمر من يحيي الأموات، ويُبقي الأخيار، وينفي الأشرار إلى يوم القيامة.

فتمت البيعة أقاما عليها ودفعا سيفيهما إلى عدلين على أن يقتلا من رجع عن شرطه.

وأمر الله تعالى الشمس والقمر والكواكب أن تجري لمعرفة الأيَّام والشهور والأعوام التي جعلها عدة الإنظار والإمهال.

- ومما نصَّ عليه زرادشت: أنَّ للعالم قوةً إلهيَّةً هي المدبِّرة لجميع ما في العالم المنتهية مبادئها إلى كمالاتها، وهذه القوة تسمَّى مشاسبند، وهي:

على لسان الصابئة: المدبر الأقرب.

وعلى لسان الفلاسفة: العقل الفعال، ومنه الفيض الإلهي والعناية الربانيَّة.

وعلى لسان المانوية: الأرواح الطيبة.

وعلى لسان العرب: الملائكة.

وعلى لسان الشرع والكتاب الإلهي: الروح.

وأثبت غيره منشاه ومنشايه ويعني بهما آدم وحواء في العالم الجسماني والعقل والنفس في العالم الروحاني.

- وصف زرادشت أهورامزدا بأنَّ له سبعةَ مظاهر أو سبعَ صفات هي: النور، والعقل، والطيب، والحق، والسلطان، والتقوى، والخير، والخلود.

- ذهب بعض الكُتَّاب إلى أن زرادشت كان نبيًّا، وأن دينه كان دينا صحيحا إلهيًّا.

- يذكر بعض الكُتَّاب أن زرادشت قد أبطل معتقدات موغوش أي المجوس القدماء قائلًا: ليس هناك قوى روحيَّة كثيرة ولا عفاريت كثيرة للشر، إنَّما هو إله واحد اسمه أهورامزدا الذي ليس كمثله شيء، وهو الواحد الأحد القدوس الصمد، وهو الحق والنور، وهو الحكيم القادر الخالق الذي لا يشاركه في ملكه وربوبيته شيء وإن القوى الروحيَّة التي زعموها خالقة للخير ليست بخالقة بل هي نفسها من خلق أهورامزدا.

وكذلك صرح زرادشت بأنَّه ليس للشرِّ إله بل الذي يأمر بالشرِّ هو الشيطان انغرامي ينوش الذي حُرِّف إلى أهرمن.

- الاعتقاد بالحياة الأخرويَّة، فهو يقول: لا تنتهي حياة الإنسان بموته في هذا العالم المادي بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا فالذين عملوا الصالحات في حياتهم الدنيا يدخلون عالم السعادة، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور يدخلون عالم الشقاء.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه العقيدة قد أخذت من الديانة المصريَّة القديمة.

- الاعتقاد ببقاء الأرواح، فيقول زرادشت بفناء الجسم وأما الروح فيبقى ويلاقي جزاءه.

- قانونه الأخلاقي الذي يتلخص في صدق النية وصدق القول وصدق العمل.

- الزرادشتيون قاموا بتشجيع الزواج وإنجاب الأطفال ونعتوهما بالفضيلة.

- ذهبوا إلى أنَّ الصوم يؤدِّي إلى الضعف فيقلل من قدرة المرء على صراع الشرور وعلى فعل الخيرات كما أنَّه لا يعين على التمتع بما يسَّر الله من نعم.

- يتخذ الزرادشتيون النار نفسها إلهًا يعبدونه ويسمونها أنار، ويعتقدون أنَّها ابن إله النور وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها وتعمل على أن تظلّ نار بيتها متقدة لا تنطفئ أبدًا. وكانت الشمس نار السموات الخالد تعبد بوصفها أقصى ما يتمثل فيها أهورامزدا أو مثرا.

وكانوا يقربون إلى الشمس وإلى النار وإلى أهورامزدا القرابين من الأزهار والخبز والفاكهة والعطور والثيران والضأن والجمال والخيل والحمير وذكور الوعول . . . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتها، أمَّا الكهنة والمتعبدون فهم المستفيدون الحقيقيُّون؛ لأنَّ الآلهة على حد قول الكهنة ليست في حاجة إلى أكثر من روح القربان.

- من تعاليم زرادشت أنَّ للناس حريةَ الاختيار والكفاح في سبيل الخير أو الخضوع لمغريات

الشرّ. وقد شاع مذهب الجبريَّة بينهم نتيجة للكوارث السياسيَّة التي وقعت للفرس من ناحية، ونتيجة لانتشار التنجيم من ناحية أخرى، وفي هذا يقولون: القدر هو الغالب لكلِّ شيءٍ والمسيطر على كلِّ فرد[1].

كتاب زرادشت (الأبستاق)

له كتاب قد صنفه، وقيل: إنَّ ذلك أنزل عليه، اسمه: البستاه أو البثناه أو أوستا أو الأفستا، باللغة الفارسيَّة الأولى، ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفًا من أحرف المعجم، وليس في سائر اللغات أكثر حروفًا من هذا، وكتب هذا الكتاب في اثني عشر ألف مجلدٍ بالذهب، وفيه وعد ووعيد، وأمر ونهي، وغير ذلك من الشرائع والعبادات.

وقد عمل زرادشت تفسيرًا عند عجزهم عن فهمه، وسمُّوا التفسير زند، ثم عمل للتفسير تفسيرًا وسمَّاه بازند، ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرًا لتفسير التفسير وشرحًا لسائر ما ذكرنا، وسمّوا هذا التفسير يارده، وكان المجوس يعجزون عن حفظ كتابهم، فصار علماؤهم وَمَوَابذتهم يأخذون كثيرًا منهم بحفظ أسباع من هذا الكتاب وأرباع وأثلاث، فيبتدئ كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه، ويبتدئ الثاني منهم فيتلو جزأ آخر، والثالث كذلك، إلى أن يأتي الجميع على قراءة سائر الكتاب لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال.

وهو يقسِّم العالم قسمين: مينة وكيتي، يعني: الروحاني والجسماني، أو الروح والشخص.

وكما قسَّم الخلق إلى عالمين يقول: إنَّ ما في العالم ينقسم قسمين: بخشش وكنش، يريد به التقدير والفعل وكل واحد مقدر على الثاني.

ثم يتكلَّم في موارد التكليف وهي حركات الإنسان فيقسمها ثلاثة أقسام: منش وكويش وكنش، يعني بذلك: الاعتقاد والقول والعمل، وبالثلاثة يتم التكليف فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة، وإذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر.

- وذكر بعض الباحثين أنَّ الأبستاق يتكون من خمسة أجزاء، هي: يسنا، وبسبرد، ونديداد، ويشتها، وخرده أفستا.

يسنا: أهم الأجزاء، ومعناه: العبادة والتسبيح والصلاة والعيد، ويتلى من اليسنا وقت إجراء المراسم المذهبية.

بسبرد: معناه كل السراة، وهو من ملحقات اليسنا، ولا يتلى في المراسم المذهبية.

نديداد: معناه قانون ضد الشياطين وهو لا يتلى في المراسم الدينيَّة وعدد فصوله ٢٢ فصلًا.

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣).

يشتها: معناه العبادة والزمزمة على الطعام والتسبيح فهي تسابيح للخالق وملائكته.

خرده أفستا: أي الأبستاق الصغرى أو مختصر الأبستاق وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة بكلِّ وقتٍ من اليوم والأيَّام المباركة من الشهر والأعياد الدينيَّة في العالم وأوقات الصحَّة والمرض التي تعرض في الحياة.

- والأبستاق Avesta تم تدوينه على الأرجح قبل القرن الخامس الميلادي، وإن كانت مادته قد تمتد إلى ما قبل غزو الإسكندر لفارس عام ٣٣٠ق.م تقريبًا، وكان أن فقدت جميع نسخه وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التي كانت تشتمل على شيء منه، ثم بدأ ملوك فارس في تدوينه منذ القرن الأول الميلادي حتى القرن الخامس، فكانت إعادة التدوين من الذاكرة ومن الثقافات المحيطة ومن الأساطير الشائعة.

وقد حفظت الأبستاق أسماء أبطال كانوا من قوى الخير والشر في الدين الآري القديم الذي قام على عبادة الطبيعة، ولهذا قيل: إنَّ الأبستاق مأخوذة من كتب الفيدا التي تبلغ اليوم مائة مجلد، يدل على هذا ما هو مشترك من آلهة وأمراء ومن كلمات وتراكيب، وثمة احتمال أن يكون الأصل الآري هو المصدر الأساسي لما جاء في كل من الفيدا والأفستا.

وقد ظلت ملوك الفرس تعمل بما في الأبستاق إلى عهد الإِسكندر، ثم ضاع الأبستاق وضاع ما كان من ذكريات الملوك القدماء في القرون الخمسة التي مضت بين الإسكندر وأردشير مؤسس الدولة الساسانيَّة، ثم صار الملك بعد الطوائف إلى أردشير فأحيا دين زرادشت وترجم الأبستاق إلى الفهلويَّة، وجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها إسناد، وخلط الأبستاق بالبقية القليلة التي علقت بالذاكرة عن الملوك القدماء وبما عرف من تاريخ الأشكانيين، وأضيف إلى هذا ما عرفه الفرس عن حروب الآشوريين والعرب والتورانيين من أساطير قديمة ردوها إلى عهد قديم، وزيد على هذا وذاك ما اخترعته خيالات الجماهير، فصار هذا كلُّه قصة حماسيَّة احتفظ بها الدهاقين وحدثوا بها وأنشدها الناس في محافلهم وأعيادهم.

وفي القرن التاسع الميلادي تم تدوين عدد من الكتب الزرادشتيَّة تدافع عن (ديانة الخير) ضد الدعاية النصرانيَّة والإسلاميَّة وتقرب أفكار المذهب من رجل الشارع[١].

نبوءة لزرادشت

ومما أخبر به زرادشت في كتاب زند أوستا، أنَّه قال: سيظهر في آخر الزمان رجل اسمه أشيزريكا ومعناه الرجل العالم، يزين العالم بالدين والعدل ثم يظهر في زمانه بتياره فيوقع الآفة في أمره وملكه عشرين سنة.

(١) انظر: مروج الذهب، الملل والنحل (١/ ٢٣٧)، معتقدات آسيوية ص(١١٢- ١٢٢).

ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العلم ويحيي العدل ويميت الجور ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأول وتنقاد له الملوك وتتيسر له الأمور وينصر الدين والحق ويحصل في زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن[١].

السيسانيَّة من الزرادشتيَّة

ومن المجوس الزرادشتيَّة صنف يقال لهم السيسانيَّة والبهافريديَّة رئيسهم رجل يقال له سيسان من رستاق نيسابور من ناحية يقال لها خواف.

خرج في أيام أبي مسلم صاحب الدولة وكان زمزميا في الأصل يعبد النيران ثم ترك ذلك ودعا المجوس إلى ترك الزمزمة ورفض عبادة النيران ووضع لهم كتابًا أمرهم فيه بإرسال الشعور.

وحرم عليهم الأمهات والبنات والأخوات وحرم عليهم الخمر.

وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة.

وهم يتخذون الرباطات ويتباذلون الأموال ولا يأكلون الميتة ولا يذبحون الحيوان حتى يهرم.

وهم أعدى خلق الله للمجوس الزمازمة ثم إن موبذ المجوس رفعه إلى أبي مسلم فقتله على باب الجامع بنيسابور.

وقال أصحابه: إنَّه صعد إلى السماء على برذون أصفر وأنَّه سينزل على البرذون فينتقم من أعدائه

وهؤلاء قد أقروا بنبوة زرادشت وعظموا الملوك الذين يعظمهم زرادشت[٢].

الأعداد وأماكن التواجد

الزرادشتيون (البارسيون) اليوم يصل عددهم في الهند إلى مائتي ألف يكونون أكثر الأقليَّات نشاطًا وقدرة على العمل منهم المهندسون والموظفون ورجال البنوك ومديرو مصانع الغزل وشركات السكك الحديديَّة.

والبارسيون يعبدون النار ويقدِّسون عناصر الطبيعة ويحرصون على عدم تدنيس هذه العناصر: الأرض والنار والماء، ومن ثم لا يدفنون موتاهم في باطن الأرض أو يلقونها في البحر أو يحرقونها كالهندوك بل يضعون الميت بعد تكفينه على سطح برج عال (برج الصمت) لتكون طعامًا للكواسر فلا يبقى إلا الهيكل العظمي الذي يمكن حرقه بعد جفافه ويمكن دفن عظامه[٣].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٣٨).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) انظر: معتقدات آسيوية ص(١٢٩، ١٣٠).

الفصل الخامس

الثنويَّة

هؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين.

يزعمون أن النور والظلمة أزليَّان قديمان، بخلاف المجوس فإنَّهم قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه.

وهؤلاء قالوا بتساويها في القدم واختلافهما في: الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح.

وحكي عن قوم من الثنويَّة أن النور والظلمة لم يزالا حيين، إلَّا أن النور حساس عالم، والظلام جاهل أعمى.

والنور يتحرك حركة مستوية مستقيمة، والظلام يتحرك حركة عجرفيَّة خرقاء معوجة.

فبينا هما كذلك، إذ هجم بعض هامات الظلام على حاشية من حواشي النور فابتلع النور منه قطعة على الجهل لا على القصد والعلم، وذلك كالطفل الذي لا يفصل بين الجمرة والتمرة، وكان ذلك سبب المزاج.

ثم إنَّ النور الأعظم دبر في الخلاص، فبنى هذا العالم؛ ليستخلص ما امتزج به من النور، ولم يمكنه استخلاصه إلا بهذا التدبير[1].

الكينويَّة

حكى جماعة من المتكلِّمين أنَّ الكينوية زعموا أن الأصول ثلاثة: النار والأرض والماء.

وإنَّما حدثت هذه الموجودات من هذه الأصول، دون الأصلين اللذين أثبتهما الثنويَّة.

قالوا: والنار بطبعها خيرة نورانيَّة.

والماء ضدها في الطبع.

فما كان من خير في هذا العالم فمن النار، وما كان من شرٍّ فمن الماء.

والأرض متوسطة.

وهؤلاء يتعصبون للنار شديدًا، من حيث إنَّها علوية نورانيَّة لطيفة، لا وجود إلا بها، ولا بقاء إلا بإمدادها.

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٤٣).

والماء يخالفها في الطبع، فيخالفها في الفعل.

والأرض متوسطة بينهما.

فتركيب العالم من هذه الأصول[١].

الصياميَّة

الصياميَّة منهم أمسكوا عن طيبات الرزق، وتجرَّدوا لعبادة الله، وتوجَّهوا في عباداتهم إلى النيران تعظيمًا لها.

وأمسكوا أيضًا عن النكاح والذبائح[٢].

التناسخيَّة

والتناسخيَّة منهم قالوا بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص إلى شخص، وما يلقى الإنسان من الراحة والتعب والدعة والنصب فمرتب على ما أسلفه من قبل وهو في بدن آخر جزاء على ذلك.

والإنسان أبدًا في أحد أمرين: إمَّا في فعل، وإمَّا في جزاء.

وما هو فيه فإمَّا مكافأة على عمل قدَّمه، وإمَّا عمل ينتظر المكافأة عليه.

والجنَّة والنار في هذه الأبدان، وأعلى عليين درجة النبوة، وأسفل السافلين دركة الحية، فلا وجود أعلى من درجة الرسالة، ولا وجود أسفل من دركة الحية.

ومنهم من يقول: الدرجة الأعلى درجة الملائكة، والأسفل دركة الشياطين.

ويخالفون بهذا المذهب سائر الثنويَّة، فإنَّهم يعنون بأيَّام الخلاص رجوع أجزاء النور إلى عالمه الشريف الحميد، وبقاء أجزاء الظلام في عالمه الخسيس الذميم[٣].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٢).

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

الفصل السادس

المانويَّة

التعريف:

المانويَّة أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد أحدث دينًا بين المجوسيَّة والنصرانيَّة.

ومعنى كلمة ماني في الفارسيَّة الفريد النادر.

تاريخ المانويَّة

ماني من أسرة بارثيَّة ملكيَّة، كان والده فاتك من رجال همدان، هاجر إلى بابل حيث وُلد ابنه بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة سنة ٢١٦م، وتلقَّى تعليمه في طيفسون.

وكان والده فاتك ناسكًا ينتمي إلى إحدى الطوائف الدينيَّة، فتربَّى ماني في جوٍّ من البحث والدراسات الدينيَّة، وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنَّه أصبح صاحب النور الكامل، الذي هو القوَّة المحركة لكلِّ صاحب رسالة دينيَّة.

وبعد أن اطلع ماني على الأديان الأخرى ادَّعى النبوة وهو في سن العشرين، وسمَّى نفسه فارقليط الذي أخبر عنه المسيح عليه السلام.

وكان فصيح اللسان، وله حرِّيَّة الدخول إلى البلاط الملكي، وقد استطاع أن يقنع عددًا من القادة المؤثرين بالدخول في دينه، واستطاع أن ينال حظوة لدى الملك الساساني شابور الأول (ت ٢٧٢م)، الذي رافقه في حروبه مع الدولة الرومانيَّة وتجددت الحُظوة مع الملك بهرام الأوَّل حتَّى أيَّامه الأخيرة.

أعلم ماني أنه هو الذي جاء ليتم عمل زرادشت وبوذا والمسيح، فهؤلاء جميعًا شذرات من الحقيقة وإن كانت هذه الشذرات قد فسدت بفساد الأتباع، يقول ماني: والآن أرسلني الله لنشر دين الحقِّ... أرسلني الله من بابل حتَّى تصل دعوتي إلى العالم أجمع.

ودعا ماني إلى دين يجمع بين الأديان جميعًا، فزعم أنَّ مؤسس الأديان من قبله كانوا جميعًا على صواب، فقد كان بوذا وزرادشت وموسى والمسيح أنبياء صادقين، وزعم أنَّه قد وكِّل إليه أن يوضح تعاليمهم التي أصابها الأتباع بالنقض والاضطراب، وكان عليه أن يتوجها جميعًا بروح من زرادشت وأسلوبه وأن يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنَّه صراع بين النور والظلمة، بين أهورامزدا الإله وأهرمن الشيطان.

ولم يكتفِ ماني بالطواف في إيران مبشِّرًا بأفكاره الجديدة، بل دخل التركستان، وهبط إلى

الهند، وعبر الممرات الصينيَّة.

وقد انتشرت أفكاره شرقًا وغربًا في سرعة مثيرة، وظلت تمد العالم النصراني بأسره بالهرطقات طوال ما يقارب ألف سنة.

وعاد ماني إلى طيسفون حوالي سنة ٢٧٠م وانضمَّ إليه أنصار كثيرون، فتآمر عليه كهنة زرادشت وضيَّقوا عليه الخناق، وذكرت الشهنامة أنَّ الملك أحضر الموابذة وقال: انظروا في أمر هذا المصور فإني قد وقعت من شأنه في شكٍّ، فناظروه وباحثوه، فانقطع المصور المزور، وظهر للملك أنَّه من حيلة الصدق عاطل، وأنَّ كلامه زور وباطل.

وفي سنة ٢٧٧م أمر به الملك بهرام فصلب وسلخ، واتخذ أتباعه عيدًا لهم أسموه: بيما، ذكرى لمقتل نبيهم الشهيد، واستمرت الدعوة بشكل سريٍّ بعد اضطهاد الزردشتين لهم، ومع ذلك ظلَّت المانويَّة في فارس عدة قرون.

آلهة المانويَّة

وحَّد ماني آلهته -بوصفه رسول النور- مع آلهة المستمعين إليه، فإذا ما وجَّه خطابه إلى النصارى كان المخلِّص يسوع، وإلى الزرادشتيين كان الكائن الأول أهورامزدا...، أما إله العهد القديم (يهوه) فكان ماني يبغضه لعنفه وشدة بطشه وكثرة جرائمه.

وبهذا تمكَّن المانويُّون في عصور الاضطهاد من أن يلبسوا لكل حالة لبوسها، فهم نصارى أو يهود أو بوذيون أو زرادشتيون ما دام هذا التحول يفسح لهم طريق النجاة.

معتقدات وأفكار المانويَّة

- ذكر الشهرستاني أن ماني كان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام.

- حكى محمَّد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسيًّا عارفًا بمذاهب القوم: إنَّ الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركَّب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليَّان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم.

وزعم أنَّهما لم يزالا قويين، حساسين، دراكين، سميعين، بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفى الحيز متحاذيان تحاذي الشخص والظل.

وإنَّما تتبين جواهرهما وأفعالهما فيما يلي:

النور	الظلمة
الجوهر	
جوهره: حسن، فاضل، كريم، صافٍ، تقيٌّ، طيب الريح، حسن المنظر.	

جوهرها: قبيح، ناقص، لئيم، كدر، خبيث، منتن الريح، قبيح المنظر.

النفس

نفسه: خيرة، كريمة، حكيمة، نافعة، عالمة.

نفسها: شريرة، لئيمة، سفيهة، ضارة، جاهلة.

الفعل

فعله: الخير، والصلاح، والنفع، والسرور، والترتيب، والنظام، والاتفاق.

فعلها: الشر، والفساد، والضرر، والغم، والتشويش، والتبتير، والاختلاف.

الحيز

جهته: جهة فوق وأكثرهم على أنَّه مرتفع ناحية الشمال.

وزعم بعضهم أنَّه يجنب الظلمة.

جهتها: جهة تحت وأكثرهم على أنَّها منحطة من ناحية الجنوب.

وزعم بعضهم أنَّها بجنب النور.

الأجناس

أجناسه خمسة: أربعة منها أبدان والخامس روحه.

فالأبدان هي: النار والنور والريح والماء.

وروحها: النسيم وهي تتحرك في هذه الأبدان.

أجناسها خمسة: أربعة منها أبدان والخامس روحها.

فالأبدان هي: الحريق والظلمة والسموم والضباب.

وروحها: الدخان وتدعى الهامَّة وهي تتحرك في هذه الأبدان.

الصفات

الصفات: حيَّة خيرة طاهرة زكيَّة.

وقال بعضهم: كون النور لم يزل على مثال هذا العالم له أرض وجو.

فأرض النور: لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض بل هي على صورة جرم الشمس وشعاعها شعاع الشمس ورائحتها أطيب رائحة وألوانها ألوان قوس قزح.

وقال بعضهم: لا شيء إلا الجسم والأجسام على ثلاثة أنواع:

أرض النور: وهي خمسة

وهناك جسم آخر ألطف منه وهو الجو وهو نفس النور.

جسم آخر ألطف منه وهو النسيم وهو روح النور.

قال: ولم يزل يولد النور ملائكة وآلهة وأولياء لا على سبيل المناكحة بل كما تتولد الحكمة من الحكيم والمنطق الطيب من الناطق.

قال: وملك ذلك العالم هو روحه ويجمع عالمه: الخير والحمد والنور.

الصفات: ميتة شريرة نجسة دنسة.

وقال بعضهم: كون الظلمة لم تزل على مثال هذا العالم لها أرض وجو.

فأرض الظلمة لم تزل كثيفة على غير صورة هذه الأرض بل هي أكثف وأصلب ورائحتها كريهة أنتن الروائح وألوانها ألوان السواد.

وقال بعضهم: لا شيء إلّا الجسم والأجسام على ثلاثة أنواع:

أرض الظلمة.

وجسم آخر أظلم منه وهو الجو.

وجسم آخر أظلم منه وهو السموم.

قال: ولم تزل تولد الظلمة شياطين وأراكنة وعفاريت لا على سبيل المناكحة بل كما تتولد الحشرات من العفونات القذرة.

قال: وملك ذلك العالم هو روحه ويجمع عالمه: الشر والذميمة والظلمة.

- ثم اختلفت المانويّة في المزاج وسببه والخلاص وسببه:

قال بعضهم: إنَّ النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار.

وقال أكثرهم: إن سبب المزاج أنَّ أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت الروح فرأت النور، فبعثت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشرّ، فلمّا رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكًا من ملائكته في خمسة أجناس من أجناسها الخمسة، فاختلطت الخمسة النوريّة بالخمسة الظلاميّة، فخالط الدخان النسيم، وإنّما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم، والهلاك والآفات من الدخان. وخالط الحريق النار، والنور الظلمة، والسموم الريح، والضباب الماء.

فما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرّة وشرّ وفساد فمن أجناس الظلمة.

فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكًا من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة

لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة.

وإنَّما سارت الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة.

فالشمس تستصفي النور الذي امتزج بشياطين الحر، والقمر يستصفي النور الذي امتزج بشياطين البرد، والنسيم الذي في الأرض لا يزال يرتفع لأنَّ من شأنها الارتفاع إلى عالمها، وكذلك جميع أجزاء النور أبدًا في الصعود والارتفاع، وأجزاء الظلمة أبدًا في النزول والتسفل حتَّى تتخلص الأجزاء من الأجزاء، ويبطل الامتزاج، وتنحل التراكيب، ويصل كل إلى كله وعالمه، وذلك هو القيامة والمعاد.

قال: ومما يعين في التخليص والتمييز ورفع أجزاء النور التسبيح، والتقديس، والكلام الطيب، وأعمال البر، فترتفع بذلك الأجزاء النوريَّة في عمود الصبح إلى فلك القمر، ولا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى نصفه، فيمتلئ فيصير بدرًا، ثم يؤدِّي إلى الشمس إلى آخر الشهر.

وتدفع الشمس إلى نور فوقها فيسري ذلك العالم إلى أن يصل إلى النور الأعلى الخالص، ولا يزال يفعل ذلك حتَّى لا يبقى من أجزاء النور شيء في هذا العالم إلا قدر يسير منعقد لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه، فعند ذلك يرتفع الملك الذي يحمل الأرض، ويدع الملك الذي يجذب السموات فيسقط الأعلى على الأسفل، ثم توقد نار حتى يضطرم الأعلى والأسفل، ولا تزال تضطرم حتَّى يتحلل ما فيها من النور، وتكون مدَّة الاضطرام ألفًا وأربعمائة وثمانيًا وستين سنة.

وذكر الحكيم ماني في باب الألف من الجبلة الأولى، وفي أول الشابرقان: إنَّ ملك عالم النور في كل أرضه لا يخلو منه شيء، وأنَّه ظاهر باطن، وأنَّه لا نهاية له إلا من حيث تناهي أرضه إلى أرض عدوه.

وقال أيضًا: إنَّ ملك عالم النور في سرة أرضه.

وذكر أنَّ المزاج القديم هو: امتزاج الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والمزاج المحدث هو: الخير والشر.

- فرض ماني على أصحابه العِشر في الأموال كلِّها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحقِّ، وترك الكذب والقتل والسرقة والزنى والبخل والسحر وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله.

- اعتقاد ماني في الشرائع والأنبياء: أنَّ أوَّل من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر، ثم بعث شيئًا بعده، ثم نوحًا بعده، ثم إبراهيم بعده، عليهم الصلاة والسلام، ثم بعث بالبددة إلى أرض الهند، وزردشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم النبيِّين إلى أرض العرب.

- زعم أبو سعيد المانوي وهو رئيس من رؤسائهم أنَّ الذي مضى من المزاج إلى الوقت الذي هو فيه -وهو سنة إحدى وسبعين ومائتين من الهجرة- أحد عشر ألفًا وسبعمائة سنة، وأنَّ الذي بقي إلى وقت الخلاص ثلاثمائة سنة.

قال الشهرستاني: وعلى مذهبه: مدة المزاج اثنا عشر ألف سنة، فيكون قد بقي من المدة خمسون سنة في زماننا هذا، وهو إحدى وعشرون وخمسمائة هجريَّة، فنحن في آخر المزاج وبدء الخلاص، فإلى الخلاص الكلي وانحلال التراكيب خمسون سنة.

- زعم ماني أنَّه يؤمن بالقيمة التربويَّة للفن، فقرر تجليد الكتب تجليدًا فاخرًا، وأن تزين بالرسوم، وأن تصاحب الطقوس تراتيل وموسيقى جميلة.

- أتباع الديانة ينقسمون إلى طائفتين:

١- المقربين المصطفين: وهؤلاء يدخل فيهم الكهنة، وقد فرضت عليهم العزوبة، وحرم عليهم أكل الحيوان، وزعموا أنَّهم قد طهرت نفوسهم من الغلِّ والحسد والكذب.

٢- السامعين المطيعين: وهؤلاء قد سمح لهم بالزواج.

- مارست المانويَّة ما يشبه بعض الأسرار النصرانيَّة؛ كالتعميد، والتوبة، والقداس الإلهي، والغفران من الذنوب عند الاحتضار...، وتأثرت بالغنوصيَّة في العقائد الميتافيزيقيَّة في بدء الكون وأصل الأشياء ...، واشتقت أسماء الملائكة من المصادر السريانيَّة ...، وتأثرت بالبوذيَّة في الاعتقاد بتقمص الأرواح للأجساد وتناسخها ...، كما تأثرت بالمبادئ الزرادشتيَّة، كما أن الطقوس والعبادات التي فرضها ماني مشتقة من عبادات بابل وإيران القديمة[١].

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٤٤- ٢٤٨)، معتقدات آسيوية ص(١٣٨- ١٤١).

الفصل السابع
المزدكيَّة

التعريف:

المزدكيَّة أصحاب مزدك بن بامداد، الذي ظهر في أيام قباذ والد كسرى أنوشروان في فارس عام ٤٨٧م، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه واطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله.

تاريخ المزدكيَّة

في عهد قباذ الأول (٤٨٨- ٥٣١م) نشب نزاع حاد بين جماهير الشعوب والطبقات النبيلة، وقد اتبعت الجماهير حركة دينيَّة اجتماعيَّة تدعو إلى التساوي العادل في توزيع الملكيَّة، واقتسام أموال الأغنياء، والمشاركة في النساء، وتنسب هذه الحركة إلى مزدك.

والمزدكيَّة مستقاة من تعاليم ماني ولها قواعد خاصة بالسلوك، إذ كانت تتطلب من أتباعها الامتناع التامّ عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب على جمع المال، ولأنَّها تناهض سطوة الأغنياء والنبلاء فقد أيدها قباذ ليخضد شوكة هؤلاء الذين كانوا ينازعون سلطانه، وأدخل عدة تشريعات يتعلق بعضها بمكانة النساء، فنشبت ثورة خلعته عن العرش وحاكمته وسجنته، ونُصِّب أخوه جماسب، لكن قباذ هرب من سجنه، ولجأ إلى الإفثلاطيين (قبائل طورانيَّة وتركيَّة وراء نهر جيحون)، وعاد في سنة ٤٩٩م مع جيش منهم، فخلع أخاه، واستعاد عرشه.

وتحكي الشهنامة ٢/ ١١٨ علاقة قباذ بمزدك فتقول: اتصلٌ بقباذ رجل فصيح اللسان، غزير العلم، ذو رأي وعقل، يسمى مزدك، فقبله قباذ، وأقبل عليه، حتى اتخذه دستورًا وخازنًا، فاتفق أن أصاب الناس في ذلك العهد لَزْبة شديدة، احتبس فيها القطر، وهلك الزرع، فاجتمع أكابر إيران على باب قباذ، وضجوا بما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات، فقال لهم مزدك: إنَّ الملك سيزيل ظلامتكم، ويحقق طلبتكم، ودخل على الملك، وقال: إني سائلك من مسألة، فأجبني عنها، فقال: هاتها، قال: ماذا تقول في رجل معه جملة من الترياق المجرب، وعنده رجل قد لدغته الحيَّة، وهو على شرف الموت، وصاحب الترياق يمنعه عنه، ويضن به عليه، ويدعه حتى يموت؟ قال الملك: إنَّ صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللديغ، وينبغي أن يقتل به، فقام مزدك وخرج، وقال للمتظلمين: إني فاوضت الملك في أمركم، فانصرفوا الآن، وعاودوا الدركاء غدًا، فانصرفوا وعادوا بكرة، فدخل مزدك على الملك، ودعا له، وأثنى عليه، ثم قال: لقد أجبتني أمس عن مسألتي، وأريد الآن أن تجيبني على مسألة أخرى، فقال: سل، قال: مزدك: ماذا تقول فيمن حبس رجلًا وقيده ومنعه الطعام والشراب، حتى مات؟ قال: هذا المسكين متقلد دم يسفكه، فخرج مزدك وقال لمن حضر بالباب من المتظلمين: إن الملك قد أباحكم ما في الأهراء من

الغلات، فابسطوا أيديكم، وأينما وجدتم منها شيئًا فاستبيحوه، ففعلوا ذلك، وطنت المدينة، وماجت بالعامة الذين أخرجتهم المجاعة، وانتهت غلات الملك وغيره.

وبلغ الملك ما حدث، وأن مزدك هو الذي رخَّص في ذلك، فاستحضره، وسأله عمَّا حمله على ذلك، فقال: إنَّ الجائع هو اللديغ، والطعام هو الترياق، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق، إذا لم يتدارك حشاشة اللديغ المشرف على الموت، وقد رأيت الناس يموتون جوعًا، ولا خير عند أرباب الغلات المدخرة، فأبحتهم إيَّاها، على مقتضى حكم الملك وقوله، فسكت قباذ.

استعلى أمر مزدك، وطالت ذراعه، واتسع باعه، وكثرت أشياعه وأتباعه، وخالف الأنبياء في مللهم، وباين العلماء في طرقهم، وكان يقول: ينبغي أن تكون أمور العالم على السواء، ولا يقع تفاوت في نعم الله بين الأغنياء والفقراء، ويكون الغني كالسَّدى، والفقير كاللُّحمة، فشرع مذهب الإباحة على هذه الصفة، ولم يزل أمره يقوى إلى أن آمن به قباذ، ودخل في دينه، وشاع هذا المذهب في أطراف الدنيا، وصار بحيث لا يتجاسر أحد على مخالفته.

واتفق أن دخل على الملك وقال له: إنَّ على الباب جماعة من أهل ديننا ومتبعي ملتنا، فأذن لهم قباذ في الدخول، فقال مزدك: إنَّ هذا المكان ضيق لا يسعهم، فإن رأى الملك خرج لأجلهم إلى الصحراء، فأمر بإخراج تخته إلى الصحراء، وخرج، فاجتمع عليه نحو مائة ألف نفس من المزدكيَّة، فقال مزدك لقباذ: اعلم أن ابنك كسرى ليس على ديننا، ولا ينبغي أن يخالف مذهب الحق، والرأي أن نأخذ خطه بمتابعتنا، وترك ما هو عليه من الضلالة والجهالة، ثم قال: والذي يمنع الناس عن سلوك طريق السداد منحصر في خمسة أشياء لا غير، وهي الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر، وإذا قمعت هذه الأخلاق الشيطانيَّة استقام لك طريق الحق، ومنشؤها كلُّها من شيئين: المال والنساء، فينبغي أن يجعلا على الإباحة من الخلق أجمعين، حتى نأمن من الآفات الخمس، فأمر قباذ ابنه كسرى بالدخول في دينه، فاستمهله خمسة أشهر، على أنَّه إذا لم يظهر بطلان دينه في هذه المدة يدين معه، فرضي منه قباذ ذلك، وتفرق الناس عن ذلك المجمع، فنفَّذ كسرى كتبه إلى بلاد فارس يستدعي العلماء، فجاء مويذ من أرض أردشيرخُرّه، يسمى مِهرادز، في ثلاثين موبذا، وتفاوضوا عند كسرى في حديث مزدك، وما جاء به من الملة المدخولة، فكثرت بينهم المباحث والمناظرات حتى اتضح لهم بطلان دينه، وتقرر بينهم إدحاض حجته، وأوضحوا ذلك لكسرى فدخل على أبيه وقال: إن ظهرت حقيقة دين مزدك وبطلان دين زرادشت تبعتك، وإن ظهر بطلانه ينبغي لك أن تتبرأ منهن وتمكنني منه ومن أتباعه حتى أرى فيهم رأيي وأنفذ فيهم حكمي، فوافقه قباذ على ذلك، فأشهد به على نفسه زرمهر وجميع من حضر من العلماء والموابذة، فقام كسرى إلى إيوانه، ولما أصبح ركب ومعه الموابذة، وقال: أيها الرجل قد أتيت بدين جديد أبحت فيه النساء والأموال، ويلزم من ذلك ألا يعرف الوالد ولده، ولا الولد والده، وإذا مات الإنسان لا يدري من يرث طارفه وتليده، وإذا اختلط الناس فمن أين يعرف الكبير من الصغير والوضيع من الشريف؟ وإذا استووا فمن يتعين للرياسة ويترشح للسياسة؟

وأخذوا في المناظرة والمباحثة حتى انقطع مزدك، وظهر لقباذ أنَّه عن حلية الدين عاطل، وأنَّ كلامه باطل، ليس وراءه طائل، فرجع عن دينه، وندم على تقديمه، فسلَّمه إلى كسرى، وسلطه عليه وعلى أصحابه، وقال له: إن على الباب ثلاثة آلاف نفس من رؤساء المزدكيَّة، فنكّل بهم أولًا، ثم افعل ما شئت بمزدك ثانيًا، فقبض كسرى عليهم أجمعين وطمرت رءوسهم إلى خصورهم في التراب، وتركت أرجلهم منتصبة بادية للأبصار، كأنَّهم غرسوا غرس الأشجار، ثم استحضر مزدك وقال له: ادخل إلى البستان وانظر فيه إلى شجر لم ير مثله ذو بصر، فدخل البستان ولما شاهد ذلك غُشي عليه، فأمر به فصلب ورشق بالسهام حتى مات، بل نفق وتبدد شمل دينه بعدما اتسق.

وهناك من زعم أن مزدك طلب من قباذ أن يبعث بامرأته ليتمتع بها المزدكيُّون، فكان هذا سبب القضاء عليهم.

وبعد كسرى عاشت المزدكيَّة فرقة سريَّة... عاشت على هذا النحو أيَّام الدولة الساسانيَّة، ثم عادت إلى الظهور من جديد في بداية العصور الإسلاميَّة.

معتقدات وأفكار المزدكيَّة

- حكى الوراق أنَّ قول المزدكيَّة كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين، إلا أنَّ مزدك كان يقول: إنَّ النور يفعل بالقصد والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق.

والنور عالم حساس، والظلام جاهل أمي.

وأنَّ المزاج كان على الاتفاق والخبط، لا بالقصد والاختيار، وكذلك الخلاص إنَّما يقع بالاتفاق دون الاختيار.

- وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنَّما يقع بسبب النساء والأموال أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ.

- وحكي عنه أنَّه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة.

- ومذهبه في الأصول والأركان أنَّها ثلاثة: الماء والأرض والنار.

ولَّما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر، فما كان من صفوها فهو مدبر الخير، وما كان من كدرها فهو مدبر الشرِّ.

- وروي عنه أن معبوده قاعد على كرسيه في العالم الأعلى، على هيئة قعود خسرو في العالم الأسفل، وبين يديه أربع قوى: قوة التميز، والفهم، والحفظ، والسرور.

كما بين يدي خسرو أربعة أشخاص موبذان: موبذ، والهربذ الأكبر، والأصبهبد، والرامشكر.

وتلك الأربع يدبرون أمر العالم بسبعة من وزرائهم: سالار، وبيشكار، وبالون، وبروان،

وكازران، ودستور، وكوذك.

وهذه السبعة تدور في اثني عشر روحانيًّا: خواننده، ودهنده، وستاننده، وبرنده، وخورننده، ودونده، وخيزنده، وكشنده، وزننده، وكننده، وأبنده، وشونده، وباينده.

وكلُّ إنسان اجتمعت له هذه القوى الأربع والسبع والاثنا عشر صار ربانيًّا في العالم السفلي، وارتفع عنه التكليف.

- قال: وإن خسرو العالم الأعلى إنَّما يدبر بالحروف التي مجموعها الاسم الأعظم، ومن تصور من تلك الحروف شيئًا انفتح له السرُّ الأكبر، ومن حرم ذلك بقي في عمًى الجهل والنسيان والبلادة والغم في مقابلة القوى الأربع الروحانيَّة.

فرق المزدكيَّة

من فرق المزدكيَّة: الكوذيَّة، وأبو مسلمية، والماهانيَّة، والاسبيدخامكيَّة. والكوذيَّة بنواحي الأهواز وفارس وشهرزور، والأُخَر بنواحي سغد سمرقند والشاش وإيلاق[1].

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٤٨، ٢٤٩)، معتقدات آسيوية ص(١٤٢- ١٤٥).

الفصل الثامن

الديصانيَّة

أصحاب ديصان.

أثبتوا أصلين: نورًا وظلامًا.

فالنور: يفعل الخير قصدًا واختيارًا.

والظلام: يفعل الشَّرَّ طبعًا واضطرارًا.

فما كان من خير ونفع وطيب وحسن فمن النور.

وما كان من شر وضرر ونتن وقبح فمن الظلام.

وزعموا أنَّ النور: حيٌّ، عالم، قادر، حساس، دراك، ومنه تكون الحركة والحياة.

والظلام: ميت، جاهل، عاجز، جماد، موات، لا فعل له ولا تمييز.

وزعموا أنَّ الشَّرَّ يقع منه طباعًا وخرقًا.

وزعموا أنَّ النور جنس واحد، وكذلك الظلام جنس واحد.

وإنَّ إدراك النور إدراك متفق، فإنَّ سمعه وبصره وسائر حواسه شيء واحد، فسمعه هو بصره، وبصره هو حواسه، وإنَّما قيل: سميع بصير لاختلاف التركيب، لا لأنَّهما في نفسهما شيئان مختلفان.

وزعموا أنَّ اللون هو الطعم، وهو الرائحة، وهو المحسة، وإنَّما وجدوه لونًا؛ لأنَّ الظلمة خالطته ضربًا من المخالطة، ووجده طعمًا لأنَّها خالطته بخلاف ذلك الضرب، وكذلك القول في لون الظلمة وطعمها ورائحتها ومحستها.

وزعموا أنَّ النور بياض كلُّه، وأنَّ الظلام سواد كلُّه.

وزعموا أنَّ النور لم يزل يلقى الظلمة بأسفل صفحة منه، وأنَّ الظلمة لم تزل تلقاه بأعلى صفحة منها.

واختلفوا في المزاج والخلاص:

فزعم بعضهم أنَّ النور داخل الظلمة، والظلمة تلقاه بخشونة وغلظ، فتأذَّى بها، وأحب أن يرقصها ويلينها، ثم يتخلَّص منها، وليس ذلك لاختلاف جنسهما، ولكن كما أنَّ المنشار جنسه حديد، وصفحته لينه، وأسنانه خشنة، فاللين في النور، والخشونة في الظلمة، وهما جنس واحد، فتلطف النور بلينه، حتى يدخل تلك الفرج، فما أمكنه إلا بتلك الخشونة، فلا يتصور الوصول إلى كمال وجود إلا بلين وخشونة.

وقال بعضهم: بل الظلام لما احتال حتى تشبث بالنور من أسفل صفحته فاجتهد النور حتى يتخلَّص منه، ويدفعه عن نفسه، فاعتمد عليه فلجج فيه، وذلك بمنزلة الإنسان الذي يريد الخروج من وحل وقع فيه فيعتمد على رجله ليخرج، فيزداد لجوجًا فيه، فاحتاج النور إلى زمان ليعالج التخلُّص منه والتفرد بعالمه.

وقال بعضهم: إنَّ النور إنَّما دخل أجزاء الظلام اختيارًا ليصلحها، ويستخرج منها أجزاء صالحة لعالمه، فلما دخل تشبثت به زمانًا، فصار يفعل الجور والقبيح اضطرارًا لا اختيارًا، ولو انفرد في عالمه ما كان يحصل منه إلا الخير المحض والحسن البحت. وفرق بين الفعل الاضطراري وبين الفعل الاختياري[1].

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٤٩، ٢٥٠).

الفصل التاسع

المرقيونيَّة

أصحاب مرقيون.

أثبتوا أصلين قديمين متضادين: أحدهما النور، والثاني الظلمة.

وأثبتوا أصلًا ثالثًا هو المعدل الجامع، وهو سبب المزاج، فإنَّ المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع.

وقالوا: إنَّ الجامع دون النور في المرتبة، وفوق الظلمة، وحصل من الاجتماع والامتزاج هذا العالم.

ومنهم من يقول: الامتزاج إنَّما حصل بين الظلمة والمعدل، إذ هو أقرب منها، فامتزجت به لتطيب به وتلتذ بملاذه، فبعث النور إلى العالم الممتزج روحًا مسيحيَّة، وهو روح الله وابنه، تحننًا على المعدل الجامع السليم الواقع في شبكة الظلام الرجيم، حتى يخلصه من حبائل الشياطين، فمن اتبعه فلم يلامس النساء ولم يقرب الزهومات أفلت ونجا، ومن خالفه خسر وهلك.

قالوا: وإنما أثبتنا المعدل؛ لأنَّ النور الذي هو الله تعالى لا يجوز عليه مخالطة الشياطين، وأيضًا فإنَّ الضدين يتنافران طبعًا، ويتمانعان ذاتًا ونفسًا، فكيف يجوز اجتماعهما وامتزاجهما؟ فلا بدَّ من معدل يكون بمنزلة دون النور، وفوق الظلام، فيقع الامتزاج منه.

وهذا على خلاف ما قالته المانويَّة، وإن كان ديصان أقدم، وإنَّما أخذ ماني منه مذهبه وخالفه في المعدل، كالحاكم على الخصمين، الجامع بين المتضادين، لا يجوز أن يكون طبعه وجوهره من أحد الضدين، وهو الله الذي لا ضدَّ له ولا ندَّ.

وحكى محمد بن شبيب عن الديصانيَّة أنَّهم زعموا أنَّ المعدل هو الإنسان الحساس الدراك، إذ هو ليس بنور محض ولا ظلام محض.

وحكي عنهم أنَّهم يرون المناكحة وكل ما فيه منفعة لبدنه وروحه حرامًا، ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥١، ٢٥٢).

الباب الثاني
أديان الهند
الفصل الأول
الهندوسيَّة

التعريف:

الهندوسيَّة -ويطلق عليها أيضًا البرهميَّة- ديانة وثنيَّة، يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر.

إنَّها ديانة تضمُّ القيمَ الروحيَّة والخلقيَّة إلى جانب المبادئ القانونيَّة والتنظيميَّة متخذةً عدةَ آلهةٍ بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكلٍّ منطقة إله، ولكلِّ عملٍ أو ظاهرة إله.

تاريخ الهندوسيَّة

يعتقد الباحثون أنَّ الهند كان بها حضارة قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، لكن لا يوجد عنها معلومات كافية، وعُرف سكان الهند في تلك الفترة باسم الدَّرَافِيدْ وهم مزيج من الكول وهم البدو المتنقلون والمستوطنون في الغابات والجبال وعلى شواطئ الأنهار، والتورانيين الذين كان مسكنهم تركستان ثم نزحوا إلى بلاد الهند وأخضعوا الشعب الكولي، وبمرور الزمن اتحد العرقان -التوراني والكولي- ونتج شعب الدارفيد الذين كانوا قصار القامة وأقرب إلى الزنوج بلون بشرتهم.

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد جاء الغزاة الآريون -وقد اختلف في أصلهم: فيرى بعض الباحثين أنهم قادمون من الدانوب بأوربا، ويرى آخرون أنهم من وسط آسيا في بلاد التركستان، ويرى آخرون أنهم من إيران (الفرس) نفسها- مارِّين في طريقهم بالإيرانيين فتأثرت معتقداتهم بالبلاد التي مروا بها، وحاربوا أهل الهند الأصليين مدة ألف عام تقريبًا، ولما استقرُّوا في الهند حصل تمازج بين المعتقدات تولدت عنه الهندوسيَّة كدين فيه أفكار بدائيَّة من عبادة الطبيعة والأجداد والبقر بشكل خاصٍّ.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد تطورت الهندوسيَّة على أيدي الكهنة البراهمة الذين يزعمون أن في طبائعهم عنصرًا إلهيًّا. فوُضع مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما.

وفي القرن السادس قبل الميلاد بدأت أفكار جديدة تَرِدُ إلى الهند من اليونان ومصر وبابل والصين، فانقسم علماء الآريين إلى قسمين: قسم يحارب هذه الأفكار الجديدة، وقسم ينقِّح ويهذِّب أفكارهم على ضوء العلوم الجديدة، فبدأ الدين الهندوسيُّ يتجه إلى الفلسفة وينهج منهجها،

وألفت في هذا العهد أهم كتب الهندوسيَّة.

ثم تطوَّرت مرةً أخرى في القرن الثالث قبل الميلاد عن طريق قوانين منوشاستر، فأعادت إليها القوَّة.

الطَّبقات في المجتمع الهندوسيِّ

منذ أن وصل الآريون إلى الهند شكَّلوا طبقاتٍ ما تزال قائمةً إلى الآن، ولا طريق [illegible]؛ لأنَّهم يعتقدون أنها تقسيمات أبدية من خلق الله.

والمصدر الأساسيُّ لهذه الطبقات هو كتابهم المقدَّس رج فيدا إذ يقول: خلق الله طائفة البراهمة من فمه، والكَشْترِي من عضده، والوَيْش من فخذه، والشُّودرا من رجله. وتلي ذلك قوانين منو لوضع التفاصيل الدقيقة وتوزيع وظائف كلِّ طبقةٍ منها على النحو التالي:

١- **البراهمة**: ومعناه العارف بالله وحامل العلم والمعرفة، منهم المعلم والكاهن، والقاضي، ولهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم.

٢- **الكشتري**: ومعناه الشُّجاع صاحب السُّلْطة، يتعلمون ويقدمون القرابين ويحملون السِّلاح للدفاع.

٣- **الويش**: ومعناه الزُّرَّاع والتُّجَّار، يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينيَّة.

٤- **الشُّوَدَرا**: ومعناه الذَّليل والمهين، وهم مع الزنوج الأصليِّين يشكلون طبقة المنبوذين، وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة.

- يلتقي الجميع على الخضوع لهذا النِّظام الطبقيِّ بدافع دينيٍّ.

- يجوز للرجل أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته ويجوز أن يتزوج من طبقة أدنى على ألا تكون الزوجة من طبقة الشُّودرا الرابعة ولا يجوز للرجل من طبقة الشُّودرا أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته بحال من الأحوال.

- البراهمة هم صفوة الخلق، وقد ألحقوا بالآلهة، ولهم أن يأخذوا من أموال عبيدهم «شودرا» ما يشاءون.

- البرهميُّ الذي يكتب الكتاب المقدَّس هو رجلٍ مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه.

- لا يجوز للملك -مهما اشتدت الظُّروف- أن يأخذ جباية أو إتاوة من البرهمي.

- إن استحقَّ البرهمي القتل لم يجزْ للحاكم إلا أن يحلق رأسَه، أما غيره فيقتل.

- البرهمي الَّذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشُّودراي الَّذي ناهز المائة كما يفوق الوالد ولده.

- لا يصحُّ لبرهمي أن يموت جوعًا في بلاده.

- المنبوذون أحطُّ من البهائم وأذلُّ من الكلاب بحسب قانون منو.

- من سعادة المنبوذين أن يخدموا البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب.

- إذا مدّ أحد المنبوذين إلى برهمي يدًا أو عصًا ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه قُدِعت رجله.

- إذا هَمَّ أحد من المنبوذين بمجالسة برهميٍّ فعلى الملك أن يكوي استه وينفيه من البلاد.

- إذا ادَّعى أحد المنبوذين أنه يعلِّم برهميًّا فإنه يسقى زيتًا مغليًّا.

- كفارة قتل الكلب والقطَّة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

- ظهر مؤخرًا بعض التحسن البسيط في أحوال المنبوذين خوفًا من استغلال أوضاعهم ودخولهم في أديان أخرى لا سيما النصرانيَّة التي تغزوهم أو الشيوعيَّة التي تدعوهم من خلال فكرة صراع الطبقات.

- ولكن كثيرًا من المنبوذين وجدوا العزة والمساواة في الإسلام فاعتنقوه.

- يلاحظ هبوط المستوى الاقتصاديِّ لمعتنقي الهندوسيَّة؛ لأن بعض الطبقات لا تعمل؛ ذلك لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية كطبقة البراهمة مثلًا.

- ونظام الطبقات يعطِّل مبدأ تكافؤ الفرص.

- حاول الزعيم الهندي (غاندي) تقليص الحدة بين الطبقات وبين المنبوذين ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرِّياح، بل كان هو ذاته ضحية لهذه المحاولة.

كتب الهندوسيَّة

للهندوسيَّة عدد هائل من الكتب عسيرة الفهم غريبة اللغة وقد أُلِّفت كتب كثيرة لشرحها وأخرى لاختصار تلك الشروح، وكلُّها مقدَّسة وأهمُّها:

١- الفيدا veda : وهي مشتقَّة من كلمة ود ومعناها باللغة السنسكريتيَّة الحكمة والمعرفة، وهو ليس مؤلَّف على الأبواب والفصول إنما هو مجموعة من الأجزاء المنتشرة من تعليمات الزُّهَّاد والنُّسَّاك في القرون المظلمة قبل الميلاد والتي كان يحفظها ما يسمون: شاستري، ثم أملوها على تلاميذهم وقيَّدوها على اللوحات الحجريَّة والجلديَّة.

ويدعي الهندوس أن الفيدا أزليٌّ وقديمٌ كقدم العالم، ألهمه رجل يسمونه: منو، وهو يصوِّر حياة الآريين النازحين إلى الهند، ومدارج الارتقاء للحياة العقليَّة من السَّذاجة إلى الشعور الفلسفيِّ، وفيه أدعية تنتهي بالشكِّ والارتيابِ كما أن فيه تأليهًا يرتقي إلى وحدة الوجودِ، والفيدا تتألف من أربعة كتب هي:

١- رج فيدا Rig veda، أي الفيدا الملكيَّة، ومعناه الدُّعاء والثَّناء، أو معرفة الترانيم، وترجع إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وفيها ذكر أكثر من مائة وخمسين إلهًا، أشهرهم: إله الآلهة

(إندار)، إله النار (أغني)، إله الهواء (فَايو)، إله سُوَرَيا (إله الشمس). وهي تصف الحياة الاجتماعيَّة الأولى لطائفة الآريين الهنود وحياتهم البدويَّة وآراءهم البسيطة في الله وفي الكون والإنسان.

٢- ياجور فيدا Yajur veda أي معرفة الصيغ الخاصَّةِ بالقرابين، ويتلوها الرُّهبان عند تقديم القرابين.

وهي تصوُّر الحياة المتطوِّرة للآريين بعد نضوجهم الفكريِّ وبعد أن حدثت تغيرات شتَّى في حياته البسيطة.

٣- ساما فيدا Sama veda أي معرفة الأنغام، وقد أُلِّف لأداء المراسيم الدينيَّة، وفيه نجد أغاني كثيرةً تؤدَّى بنغمات مختلفة، كذلك نجد فيه إشاراتٍ إلى أهمِّيَّة الرقصِ.

٤- أثروا فيدا Atharva veda: عبارة عن مقالات من الرقى والتَّمائم لدفع السحر والتَّوهم والخرافة والأساطير والشَّياطين والحيوانات المفترسة، كما أنَّ فيه أدعيةً لحصول الرَّاحة والأمن والربح.

وكل واحد من هذه الفيدات يشتمل على أربعة أجزاء هي:-

أ- سَمهِتا: تمثل مذهب الفطرة، وأدعيته كان يقدِّمها سكانُ الهند الأقدمون لآلهتهم قبل زحف الآريين.

ب- البراهمانا: يقدِّمُها البراهمة للمقيمين في بلادهم مبينة أنواع القرابين.

ج- آرانياك: وهي الصلوات والأدعية التي يتقدَّم بها الشيوخ أثناء إقامتهم في الكهوف والمغاور وبين الأحراش والغابات.

د- أبانيشاد: وهي الأسرار والمشاهدات النفسيَّة للعرفاء من الصوفيَّة، فجميع أحكام التَّصوُّف دُوِّنَت في هذه الكتب، وقد لخص جوستاف لوبون المعتقدات الواردة فيها، كما يأتي:

- عبادة القوى الطبيعيَّة.
- تشخيص هذه القوى بأسماء آلهة.
- اعتقاد خلود الروح (على أساس التناسخ).
- عبادة الأجداد.
- الميل إلى إخضاع الناس والطبيعة والآلهة لإله واحد أقوى منها، وهو الإله إندرا.
- تنحصر حقيقة الدين في تناول القرابين وتقديم الفواكه باليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز.

٢- البُرَانا PURAN : وهو يعتبر عند جماهير الهندوس الفيدا الخامس؛ لأنَّ فهم الفيدا موقوفٌ عليه، وهو يتحدث عن أساطير الأولين، ويشتمل على: علم الكائنات وسعة الكائنات

وعهود منو أي الرسل، وأحوال ملوك سوريا بنسي وجندرا بنسي. والمقاصد الكبرى له إثبات عقيدة نزول الإله إلى الأرض بصورة البشر.

٣- قوانين منو: وضعت في القرن الثالث قبل الميلاد في العصر الويدي الثَّاني، عصر انتصار الهندوسيَّة على الإلحاد الَّذي تمثل في (الجينيَّة والبوذيَّة). وهذه القوانين عبارة عن شرح للويدات بين معالم الهندوسيَّة ومبادئها وأسسها.

٤- دهرم شاسْتَرا: وهي مجموعة من الكتب الفقهيَّة للدِّيانة الهندوسيَّة، وهي تحتوي على ثلاثةِ عناوين رئيسة: الأحكام لأدوار حياة الإنسان، الحدود والجنايات، العقاب الَّذي يلحق الهندوسيَّ إذا لم يخضع لقوانين وأحكام الشريعة.

٥ - مها بهارتا: ملحمة هنديَّة تشبه الإلياذة والأوديسة عند اليونان ومؤلفها (وياس) ابن العارف (بوسرا) الَّذي وضعها سنة ٩٥٠ ق.م، واشترك في تأليفه أيضًا: ويشمبايان، وسوتي، وهي تصف حربًا بين أمراء من الأسر المالكة، وقد اشتركت الآلهة في هذه الحرب. والقصَّة تتخلَّلها الأفكار الفلسفيَّة في الدِّين والسّلوك على لسان أحد الأبطال وهو كرشنا.

٦- كيتا: تصف حربًا بين أمراء من أسرةٍ ملكيَّةٍ واحدةٍ، وينسب إلى كرشنا فيها نظراتٌ فلسفيَّة واجتماعيَّة، ومنها ذكر وظائف الجيش وهي الدِّفَاع عن الوطن، وفيه تعليمات لحصول النَّجَاة بالطرق الثلاث: العلم، التعبُّد، العمل، وهذه التعليمات وغيرها في هذا الكتاب ذات اتجاه صوفيٍّ، وفي الحقيقة أنَّ كيتا جزءٌ من كتاب مها بهارتا.

٧- يوجا فَاسِشْتَا: تحتوي على أربعةٍ وستين ألفَ بيتٍ، أُلِّفَت ابتداء من القرن السادس عبر مرحلة طويلة على أيدي مجموعة من الناس، فيها أمور فلسفيَّةٌ ولاهوتيَّةٌ. وفي هذا الكتاب ثلاث طرقٍ لليوجا: الاعتقاد بالوحدة وهو أن يرى برهما هو وحده في العالم، طمأنينة القلب وهو أن يقهرَ نفسَه حتى تكون تابعةً له، مخالفةً النفس.

٨- رامايانا: يعتني هذا الكتاب بالأفكار السياسيَّة والدّستوريَّة، وفيه خطب لملك اسمه (راما) في حربه لملك سيلان اسمه رافان، والقصة تشير إلى الحرب بين الخير والشرِّ.

٩- الفِيدَانت: معناه زبدة الفيدا، ويعتبر من الكتب الفلسفيَّة والأخلاقيَّة لدى الهندوس، وهو أصغر حجمًا وأكبر تأثيرًا على الفكر الهنديِّ الفلسفيِّ والصوفيِّ من أي كتاب آخر من الكتب الهندوسيَّة، ويقال له أيضًا: برهما سوترا، وهو يشتمل على عشر مقالات مهمَّة: معرفة الإله، الرُّوح، جولان الرُّوح، الأحوال بعد الممات، قانون الجزاء، العبوديَّة المطلقة، العلم الإلهيّ، المغريات، النَّجَاة.

نظرة الهندوسيَّة إلى الآلهة

١- التَّوحيد: لا يوجد عندهم توحيد، لكنهم إذا أقبلوا على إله من الآلهة أقبلوا عليه بكل جوارحهم حتى تختفي عن أعينهم كلُّ الآلهة الأخرى، وعندها يخاطبونه برب الأرباب أو إله الآلهة.

٢- التَّعدُّد: يقولون بأنَّ لكلِّ طبيعة نافعة أو ضارَّة إلهًا يُعبد: كالماء والهواء والأنهار والجبال... وهي آلهة كثيرة يتقربون إليها بالعبادة والقرابين.

٣- التثليث: في القرن التاسع قبل الميلاد جمع الكهنة الآلهة في إله واحدٍ أخرج العالم من ذاته وهو الَّذي أسموه:

أ- براهما: من حيث هو موجود.

ب- فشنو: من حيث هو حافظ.

ج- سيفا: من حيث هو مهلك.

فمن يعبد أحد الآلهة الثلاثة فقد عبدها جميعًا أو عبد الواحد الأعلى ولا يوجد أي فارقٍ بينها. وهم بذلك قد فتحوا الباب أمام النصارى للقول بالتثليثِ.

٤- يلتقي الهندوس على تقديس: البقرة، وأنواع من الزواحف كالأفاعي، وأنواع من الحيوان كالقردة؛ ولكن تتمتع البقرة من بينها جميعًا بقداسة تعلو على أي قداسة، ولها تماثيل في المعابد والمنازل والميادين، ولها حقُّ الانتقال إلى أي مكان ولا يجوز للهندوكي أن يمسَّها بأذًى أو بذبحها وإذا ماتت دفنت بطقوس دينيَّة.

وكان غاندي من أكبر الدُّعاة إلى عبادة البقرة وتقديسها، وكان يقول: الدِّيانة الهندوسيَّة ستبقى على وجه الأرض ما دام الهندوس يحافظون على البقرة. وجعل البقرة أفضل من أمِّه الحقيقيَّة من عدة وجوه.

٥- عقيدة أَفْتَارَ: وهي نزول الربِّ إلى الأرض لإصلاح الناس بصورة البشر، وله أربعة أقسام:

أ- بُورَن أفتار: يعنون به النُّزول الكامل، مثل أفتار راما وأفتار كرشنا. فيعتقد الهندوس بأن آلهتهم قد حلَّت في إنسان اسمه كرشنا وقد التقى فيه الإله بالإنسان أو حلَّ اللاهوت في الناسوت، وهم يتحدثون عن كرشنا كما يتحدث النصارى عن المسيح.

ب-أَنْشَان أفتار: أي الَّذي يرسل لغرض خاصٍّ دون الأوَّل، مثل أفتار نرسنغ.

ج- كَلَا أفتار: الَّذي يكون أدنى من أنشان أفتار، مثل منو كَشِيب.

د- أَدْهَيا كَاري أفتار: الَّذي يعطي قوة كقوة برهما ثم تزول عنه، مثل ويد وياس عند تأليفه الفيدات.

٦- عبادة الأصنام: وجد علماء الآثار مجموعةً كبيرةً من الأصنام، أكثرها عارية من اللباس، وأخرى مزينة بالألوان ومحلاة بالحلي والملابس، وأصنام على شكل الذَّكَر والفَرْج (لِنج ويوني)، وأصنام أرضِ الوطنِ، ومجموعة من أصنام سيفا.

معتقدات الهندوسيَّة

الديانة الهندوسيَّة خالية من العقيدة الرئيسيَّة، وعلماء الهند يشعرون ويفتخرون بذلك، ولذا نجدهم يقدِّسون كلَّ جديدٍ، ويظنُّون أنَّ ذلك هو المطلوب والمقصود، ويعتبرون كلَّ مصلحٍ رسولًا منزلًا من السماء وإلهًا بصورة البشر ولو خرج عن بعضِ معتقداتهم إذا بقي في الإطار الهندوسيِّ ولم يعلن صراحةً خروجه من الهندوسيَّة إلى الإسلام أو النصرانيَّة، فمن ينتمي إلى الهندوسيَّة فهو هندوسيٌّ إلى الأبدً. فالتَّعريف الصحيح للهندوسيِّ: هو الذي وُلِد بين أبوين هندوسيَّين بغضِّ النَّظر عن العادات والتَّقاليد والعِبَادات.

وتظهر معتقدات شبه مجمعٍ عليها فيما بينهم، من أهمها الآتي:

١- خلق الكائنات: لهم في ذلك رواياتٌ وقصصٌ مختلفةٌ كثيرةٌ وقعت بين كتبهم الأساسيَّة وهو كافٍ لدلالة على التَّناقضِ والتضادِّ في مسائلَ أساسيَّة كهذه في الدِّيَانة الهندوسيَّةِ.

٢- عقيدة التناسخ أو جولان الرُّوح: إذا مات الإنسان يفنى منه الجسد وتنطلق منه الروح لتتقمَّص وتحلَّ في جسدٍ آخرَ بحسبِ ما قدَّم من عملٍ في حياته الأولى، وتبدأ الرُّوح في ذلك دورةً جديدةً، وهذا مبنيٌّ على أصلٍ عندهم وهو أزليَّة الروحِ.

٣- عقيدة الكارما: قانون الجزاءِ الَّذي يقرِّر إنْ كان الإنسان صالحًا في واحدةٍ من دورات حياته الحلوليَّة؛ فإنَّه سيَلْقَى جزاءَ ذلك في الدَّورةِ الثَّانية، وإن كان طالحًا فإنه سيَلْقَى جزاءَه في الدورة الثانية أيضًا. والكارما هو أساس التَّناسخ.

٤- عقيدة النِرفَانا، أو الانطلاق: وهي حالة الروح التي بقيت صالحةً في دورات تناسخيَّة متعاقبة ولم تعد تحتاج إلى تناسخ جديدٍ فيحصل له النرفانا (النجاة) من الجولان وتتحد الروح بالخالق. فمن لم يرغب في شيءٍ ولن يرغبَ في شيءٍ وتحرر من رقِّ الأهواء، واطمأنت نفسه، فإنَّه لا يعاد إلى حواسِّه بل تنطلق روحه لتتحد بالبراهما. والنرفانا هي أعلى درجاتٍ وأسمى غاياتٍ لكلِّ هندوسيٍّ.

٥- وحدة الوجود: التَّجريد الفلسفيُّ ارتقى بالهنادكة إلى أنَّ الإنسانَ يستطيع خلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات كما يستطيع المحافظة عليها أو تدميرها، وبهذا يتَّحد الإنسان مع الآلهة وتصير النفس هي عين القوة الخالقة.

أ - الروح كالآلهة أزليَّة سرمديَّةٌ، مستمرَّةٌ، غير مخلوقة.

ب - العلاقة بين الإنسان وبين الآلهة كالعلاقة بين شرارة النار والنار ذاتها، وكالعلاقة بين البذرة وبين الشجرة.

ج- هذا الكون كلُّه ليس إلا ظهورًا للوجود الحقيقيِّ، والروح الإنسانيَّة جزء من الروح العليا.

- وقد انتقلت فكر التناسخ والحلول ووحدة الوجود إلى بعض المسلمين الذين ضلُّوا فظهرت

هذه العقائد عند بعض المتصوِّفَة، وكذلك ظهرت عند الإسماعيليَّة وعند الفرق الضَّالَّة كالأحمديَّة والأكبريَّة وغيرهما.

٦- الأجساد تحرق بعد الموت؛ لأن ذلك يسمح بأن تتجه الروح إلى أعلى ويشكل عموديٍّ لتصلَ إلى الملكوت الأعلى في أقرب زمن، كما أن الاحتراق هو تخليص للروح من غلاف الجسم تخليصًا تامًّا.

وعندما تتخلص الروح وتصعد، يكون أمامها ثلاثة عوالم:

١- إما العالم الأعلى: عالم الملائكة.

٢- وإما عالم الناس: مقرُّ الآدميين بالحلول.

٣- وإما عالم جهنَّم: وهذا لمرتكبي الخطايا والذُّنوب.

وليس هناك جهنم واحدة، بل لكلِّ أصحاب ذنبٍ جهنَّم خاصَّة بهم.

والبعث في العالم الآخر إنما هو للأرواح لا للأجساد.

٧- يترق البرهمي في أربعِ درجاتٍ:

١- التلميذ وهو صغير.

٢- ربُّ الأسرة.

٣- الناسك ويقوم بالعبادة في الغابات إذا تقدَّم به السنُّ.

٤- الفقير: الذي يخرج من حكم الجسد وتتحكم فيه الروح ويقترب من الآلهة.

٨- المرأة التي يموت عنها زوجها لا تتزوج بعده، بل تعيش في شقاءٍ دائمٍ، وتكون موضعًا للإهانات والتَّجريح، وتكون في مرتبة أقل من مرتبة الخادم.

وقد تحرق المرأة نفسها إثر وفاة زوجها تفاديًا للعذاب المتوقع الذي ستعيش فيه، وقد حرم القانون هذا الإجراء في الهند الحديثة.

٩- الدِّيانة الهندوسيَّة تجيز عقد القَرَانِ للأطفال وهم يَحْبُون، ويحدث أن يموت الولد فتشب البنت أرملةً ابتداءً، ولكنَّ القانونَ الهنديَّ الحديثَ حَرَّم ذلك ومنع عقد القَرَان إلا في سنِّ الشباب.

١٠- ليس للفرد أهميَّةإلا إذا كان عضوًا في جماعة، وتكون هذه الجماعة عضوًا في جماعةٍ أكبر؛ ذلك لأنَّ العناية للجماعة لا للفرد.

١١- رفضت الهندوسيَّة حركة الإصلاح الداخليِّ المتمثِّلة في الإسلام وقاومتها محتفظة بتعليماتها ومعتقداتها.

١٢- يعتقد الهندوس أن الهندوسيَّة جاءت عن طريق الوحي، ولو صحَّ هذا لكان لا بدَّ أنَّه قد

حصل لها الكثير من التحريف والتَّبديل حتى أصبحت أسلوبًا في الحياة أكثر مما هي عقيدة واضحة المعالم.

١٣- وتشمل الهندوسيَّة من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأشجار والأحجار والقرود والأبقار. . . إلى غير ذلك من أنواع الوثنيَّة الَّتي تتنافى مع أبسط قواعد التوحيد.

كما أنَّ التقسيمَ الطبقيَّ فيها يتعارض مع كرامةِ الإنسان ويجعلها بعيدةً عن الوحيِ الربَّانِيِّ.

وقد عصفت بالدِّيَانة الهندوسيَّة حركتان قويتان هما الجينيَّة والبوذيَّة.

الانتشار ومواقع النفوذ

كانت الديانة الهندوسيَّة، تحكم شبهَ القارة الهنديَّة وتنتشر فيها على اختلاف في التركيز، ولكنَّ البونَ الشاسعَ بين المسلمين والهندوس في نظرتيهما إلى الكون والحياة وإلى البقرة التي يعبدها الهندوس ويذبحها المسلمون ويأكلون لحمها؛ كان ذلك سببًا في حدوث التقسيم إذ أُعلن عن قيام دولة الباكستان بجزأيها الشرقيِّ والغربيِّ والتي معظمها من المسلمين، وبقاء دولة هنديَّة معظم سكانها هندوس والمسلمون فيها أقلية كبيرة.

واشتهر عن الهندوس تعصبهم ضد المسلمين، والتفنن في ظلمهم، وتعتبر قضية «مسجد بابري» إحدى القضايا التي فتحت عيون العالم على مأساة الأقلية المسلمة في الهند على يد الهندوس، ففي ٦ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٩٢ قام ١٥ ألف هندوسيٍّ متعصبٍ بهدم المسجد أمام أنظار العالم، وقتلوا في هذا العدوان أكثر من ألفي مسلم، بزعم أن المسجد، الذي بناه الحاكم المغولي المسلم ظهر الدين بابر، في القرن السادس عشر الميلاديِّ، بُني على أنقاض معبد لهم، وُلد فيه أحد آلهتهم، واسمه «راما»، وهو الأمر الذي لم يستطع علماء التاريخ الهنود إثباته، بل أثبتت الدراسات الهنديَّة الأخيرة أن المسجد قد بني على أنقاض مسجد آخر.

ولم تنتهِ مأساة المسجد والمسلمين بهدمه، فالهندوس وبتأييد من رئيس الوزراء الهنديِّ السابق، آتال بيهارى فاجبايي، (المنتمي لحزب باهاراتيا جاناتا بارتي، الهندوسيِّ المتعصبِ والذي وصل لحكم الهند سنة ١٩٩٨) ظلوا متمسكين بإقامة معبد على أنقاض المسجد، وفي عام ٢٠٠٣ قدم أكثر من ١٢٠ عضوًا في البرلمان الهنديِّ اقتراح مشروع قانون يسمح بإنشاء معبدٍ هندوسيٍّ على أنقاض المسجد[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٧٢٤- ٧٣٠)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي ص(٥١٥- ٦٣٣)، الديانات القديمة، محمد أبو زهرة ص(٢١- ٥٢)، معتقدات آسيوية، د. كامل سعفان ص(١٤٧- ١٩١)، مجلة الراصد.

الفصل الثاني

البوذيَّة

التعريف:

هي فلسفةٌ وضعيَّة انتحلت الصبغة الدينيَّة، وقد ظهرت في الهند بعد الديانة البرهميَّة الهندوسيَّة في القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت في البداية تناهض الهندوسيَّةَ وتتجه إلى العناية بالإنسان، كما أنَّ فيها دعوةً إلى التصوف والخشونة، ونبذ الترف، والمناداة بالمحبَّة والتَّسامح، وفعل الخير، وهي تعيش في الخيالات والأوهام ولا تواجه مشاكل الحياة وصعابها.

وبعد موت مؤسسها تحولت إلى معتقداتٍ باطلةٍ، ذات طابعٍ وثنيٍّ، ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألّهوه.

وهي تعتبر نظامًا أخلاقيًا ومذهبًا فكريًّا مبنيًّا على نظريات فلسفيَّة، وتعاليمها ليست وحيًا، وإنما هي آراء وعقائد في إطار دينيٍّ.

وتختلف البوذيَّة القديمة عن البوذيَّة الجديدة في أن الأولى صبغته أخلاقيَّة، في حين أن البوذيَّة الجديدة هي تعاليم بوذا مختلطة بآراء فلسفيَّة وقياسات عقليَّة عن الكون والحياة.

تاريخ البوذيَّة

أسسها سدهارتا جوتاما الملقَّب ببوذا ٥٦٠ - ٤٨٠ ق.م وبوذا تعني العالم ويلقَّب أيضًا بسكيا موني ومعناه المعتكف. وتذكر القصص البوذيَّة أن بوذا نشأ في بلدةٍ على حدود نيبال، وكان أميرًا فشبَّ مترفًا في النعيم وتزوَّج في التاسعة عشرة من عمره ولما بلغ التاسعة والعشرين هجر زوجته منصرفًا إلى الزُّهد والتَّقشُّف والخشونة في المعيشة والتأمُّل في الكون ورياضة النفس فخرج إلى الصحاري والغابات حتى يَئِسَ من مطلبه فرجع إلى ملكه ليبدأ من جديد حياة رغدة حزينا على ما فاته، ثم حصل له علم كلِّ شيءٍ وادَّعى أنَّه علم إلهي، فبدأ ينشط من جديد وعزم على أن يعمل على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات ثم دعا إلى تبني وجهة نظره حيث تبعه أناس كثيرون.

ثم انعقد بعد موته أربعة مجالس للبوذيين:

المجلس الأول: اجتمع أتباع بوذا بفور وفاته في مؤتمر كبير في قرية راجاجراها لإزالة الخلاف بين أتباع المذهب ولتدوين تعاليم بوذا خشية ضياع أصولها وعهدوا بذلك إلى ثلاثة رهبان هم:

١- كاشيابا: وقد اهتمَّ بالمسائل العقليَّة.

٢- أوپالي: وقد اهتمَّ بقواعد تطهير النفس ونظام الحياة للرهبان.

٣- أناندا: وقد دوَّن جميع الأمثال والمحاورات لبوذا.

المجلس الثاني: بعد مائة سنة من وفاة بوذا وكان الغرض الأساسيُّ منه تنقية تعليمات بوذا من الطقوس والرسومات التي سيطرت على البوذيين.

المجلس الثالث: انعقد في حدود سنة ٢٢٤ قبل الميلاد في عهد الملك أشوكا وكان الغرض منه إزالة الاختلافات التي وقعت بين البوذيين في كثير من المسائل، وبعد انتهاء المجلس أرسل الدُّعاة والمبلغين في أرجاء الهند وخارجها.

المجلس الرابع: انعقد في نهاية القرن الأول الميلادي في عهد الملك كنشك وكان الغرض منه تفسير تعليمات بوذا بعيدا عن التأويلات.

أقسام البوذيِّين

ينقسم البوذيُّون إلى قسمين:

١- **البوذيُّون المتدينون:** وهؤلاء يأخذون بكل تعاليم بوذا وتوصياته.

٢- **البوذيُّون المدنيون:** هؤلاء يقتصرون على بعض التعاليم والوصايا فقط.

- الناس في نظر بوذا سواسية لا فضلَ لأحدٍ إلا بالمعرفة والسَّيطرة على الشهوات.

- وقد احتفظت البوذيَّة ببعض صورها الأولى في منطقة جنوب آسيا وخاصة في سيلان وبورما، أما في الشمال وعلى الأخص في الصين واليابان فقد ازدادت تعقيدًا وانقسمت إلى فرقتين هما:

الفرقة الأولى: ماهايان (يعني العربة الكبيرة): ويقصدون بها أن من انضمَّ إلى هذه الفرقة وركب على العربة الكبيرة مع البهكشو يحصل على النرفانا، وتؤمن هذه الفرقة بأن بوذا ليس له جسم بل إنَّه نور مجسم وظلٌّ ظهر في الدنيا وهو الإله الأكبر والأزليُّ، وهذه الفرقة غرقت في بحور الشرك فاتخذت من كلِّ راهبٍ إلهًا من دون الله واخترعت كثيرًا من الرسوم والطقوس وتفلسفت في العبادات وطريق النَّجَاة. والغالب أنها أُسِّسَت في عهد الملك كنشك ووُضِعَت ضوابطها في المجلس الرابع.

وانتشرت في الأرجاء الشماليَّة من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ونيبال وسومطره وأخذت كثيرًا من معتقدات هذه البلدان، وأكثر كتبها باللغة السنسكريتيَّة والصِّينيَّة والتبتيَّة واليابانيَّة، وأشهرها ديموند سوترا.

الفرقة الثانية: هنايان (يعني العربة الصغيرة): تنكر هذه الفرقة وجود الله تعالى والروح والإلهام كما تؤمن بناسوتيَّة بوذا وأنَّه إنسان ولد من أبٍ وأم وعاش كغيره من الناس ومات إلا أنه حصل له صفات عالية، وهو وصل إلى مرتبة قديس واستحق أن يلقب بآجاريا منش. واتخذت هذه الفرقة قول بوذا: لا تطلب من غيرك ملاذًا، قاعدة أساسية لحصول النرفانا. كما أنها تعتمد على قرارات المجلس الثالث.

وانتشرت هذه الفرقة في جنوب الهند وجزيرة سيلان بورما وسيام، وكتبها باللغة البالية

وأشهرها تري بتاكا وهي مجموعة من ثلاثة كتب، وقد تأخر تدوينها أربعة قرون تقريبًا بعد بوذا.

وقد عبروا عن بلوغ النفس الكمال الأسمى والسعادة القصوى وانطلاقها من أسر المادة، وانعتاقِها من ضرورة التناسخ بالنرفانا وتعني الخلاص من أسْرِ المعاناة والرغبة، واكتساب صفاء الدين والرُّوح، والتَّحرُّر من أَسْر العبوديَّة واللَّذَّةِ، وانبثاق نور المعرفة عن طريق تعذيب النفس ومقاومة النزعات، مع بذل الجهد والتأمُّل والتركيز الفكريِّ والرُّوحيِّ، وهو هدف البوذيَّة الأسمى.

كتب البوذيَّة

كتبهم ليست منزلة ولا هم يدَّعون ذلك بل هي عباراتٌ منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله سجلها بعض أتباعه، ونصوص تلك الكتب تختلف بسبب انقسام البوذيين، فبوذيو الشمال اشتملت كتبهم على أوهام كثيرة تتعلق ببوذا أما كتب الجنوب فهي أبعد قليلًا عن الخرافات.

- تنقسم كتبهم إلى ثلاثة أقسامٍ:

١- مجموعة قوانين البوذيَّة ومسالكها.

٢- مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا.

٣- الكتاب الذي يحوي أصل المذهب والفكرة التي نبع منها.

- وتعتمد جميع كتبهم على الآراء الفلسفيَّة ومخاطبة الخيال وتختلف في الصِّين عنها في الهند؛ لأنَّها تخضع لتغيرات الفلاسفة.

- شعار البوذيَّة عبارة عن قوسٍ نصف دائريٍّ وفي وسطه قائم ثالث على رأسه ما يشبه الوردة وأمام هذا التمثال صورة مجسمة لجرة الماء وبجوارها فيل يتربع عليه بوذا في لباسه التقليديِّ.

أفكار ومعتقدات البوذيَّة

كان بوذا في أول الأمر يتحاشى الدخول في مباحث الألوهيَّة؛ خوفًا من أن يقع في المتناقضات ويترك الناس حيارى، ومن هنا تشكَّك الناس كثيرًا في البوذيَّة وكونها دينًا، فإن معرفة الربِّ والخالق أساس الأديان والملل في العالم. فقال جمع من المحققين: إن البوذيَّة ليست بدين بل هي حركة عكسيَّة قامت تعاند الأفكار الهندوسيَّة بما طرأ عليها من الخرافات والبِدَعِ وخاصَّةً لمحاربة الطبقات المعروفة في الهندوسيَّة.

ومن عقائد البوذيِّين:

- يعتقد البوذيون أنَّ بوذا هو ابن الله، وهو المخلِّص للبشريَّة من مآسيها وآلامها، وأنَّه يتحمل عنهم جميع خطاياهم.

- يعتقدون أنَّ تَجَسُّدَ بوذا قد تَمَّ بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا.

- ويقولون إنَّه قد دلَّ على ولادة بوذا نَجْمٌ ظَهَرَ في أفق السماء ويدعونه نَجْم بوذا.

– ويقولون أيضًا: إنَّه لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المحبَّة للمولود المبارك.

– وقد قالوا: لقد عرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته. ولم يمضِ يومٌ واحدٌ على ولادته حتى حيَّاهُ الناس، وقد قال بوذا لأمِّه وهو طفل إنه أعظم الناس جميعًا.

– وقالوا: دخل بوذا مرة أحد الهياكل فسجدت له الأصنام. وقد حاول الشيطان إغواءه فلم يفلح.

– ويعتقد البوذيُّون أن هيئة بوذا قد تغيَّرت في آخر أيَّامه، وقد نزل عليه نور أحاط برأسه. وأضاء من جسده نور عظيم فقال الذين رأوه: ما هذا بشرًا إن هو إلا إله عظيم.

– يصلي البوذيُّون لبوذا ويعتقدون أنَّه سيدخلهم الجنة. والصلاة عندهم تؤدَّى في اجتماعاتٍ يحضرها عدد كبر من الأتباع.

– لما مات بوذا قال أتباعه: صعد إلى السماء بجسده بعد أن أكمل مهمَّتَه على الأرض.

– يؤمنون برجعة بوذا ثانيةً إلى الأرض ليعيد السلامَ والبركةَ إليها.

– يعتقدون أنَّ بوذا هو الكائن العظيم الواحد الأزليُّ وهو عندهم ذاتٌ من نور غير طبيعيَة، وأنه سيحاسب الأموات على أعمالهم.

– يعتقدون أنَّ بوذا ترك فرائض ملزمة للبشر إلى يوم القيامة، ويقولون: إنَّ بوذا أسس مملكة دينيَّة على الأرض.

– قال بعض الباحثين إن بوذا أنكر الألوهيَّة والنَّفْسَ الإنسانيَّة وأنه كان يقول بالتَّناسخ.

– من عقيدة بوذا أنَّ الألمَ أرجح كفةً من اللَّذَّةِ فخير للإنسان ألا يولد كما استنتج بعض العلماء من تعاليم بوذا أنَّه يجيز الانتحار؛ لأنَّ البقاء سبب للآلام. والبوذيُّون لا يرغبون في التَّناسل ولذا يحرم على الرهبان أن يتزوجوا حتى لا يكونوا سببًا للولادة.

الجانب الأخلاقيُّ في الدِّيانة البوذيَّةِ

– في تعاليم بوذا دعوة إلى المحبَّة والتسامح، والتعامل بالحسنى، والتصدق على الفقراء، وترك الغنى والترف، وحمل النفس على التقشُّف والخشونة، وفيها تحذير من النساء والمال، وترغيب في البعد عن الزواج.

– الحقائق الأربعة المقدَّسة عند البوذيين:

١- وجود الحزن في: الولادة، والكهولة، والمرض، والموت، وعدم الوصول إلى المحبوب.

٢- أسباب وجود الحزن: وهي الأُمْنيَّة الكاذبة، والشهوات المهلكة التي تؤدي إلى الولادة من جديد.

٣- القضاء على الآلام والأحزان: بإماتة الرغبات والشهوات، وقطع العلاقات والعزلة التامَّةِ.

٤- الأعمال التي تساعد على القضاء على الآلام والأحزان وهي الأصول الثمانية.

- يجب على البوذيِّ التقيد بثمانية أمور حتى يتمكَّنَ من الانتصار على نفسه وشهواته:

١- الاتجاه الصحيح المستقيم الخالي من سلطان الشهوة واللَّذَّة وذلك عند الإقدام على أي عملٍ.

٢- التفكير الصحيح المستقيم الذي لا يتأثر بالأهواء.

٣- الإشراق الصحيح المستقيم.

٤- الاعتقاد المستقيم الذي يصحبه ارتياح واطمئنان إلى ما يقوم به.

٥- مطابقة اللِّسان لما في القلب.

٦- مطابقة السلوك للقلب واللسان.

٧- الحياة الصحيحة التي يكون قوامها هجر اللَّذَّات.

٨- الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحقِّ وترك الملاذ.

- في تعاليم بوذا أن الرَّذائل ترجع إلى أصول ثلاثة:

١- الاستسلام للملاذِّ والشهوات.

٢- سوء النِّيَّة في طلب الأشياء.

٣- الغباء وعدم إدراك الأمور على وجهها الصحيح.

- ومن تعاليم بوذا أنه لا يقر بوجود الطبقات الموجودة في الهندوسيَّة بل سوى بين الناس جميعًا، وأنَّ التفريقَ الذي دعا إليه الهندوس ليس هو الأساس بل الأساس في التفريق صلاحِيَّة الفرد وعدمه وأعماله في الحياة الماضية، ويضيف إلى هذا بأن النجاة قد تحصل لفرد من أدنى الطبقات إذا سلك طريق العشق والمحبَّة والمراقبة. وهذا كان من أعظم المرغبات للمنبوذين في الهندوسيَّة للدخول في البوديَّة.

- من وصايا بوذا: لا تقضِ على حياة حيٍّ، لا تسرقْ ولا تغتصبْ، لا تكذبْ، لا تتناول مُسْكِرًا، لا تزنِ، لا تأكلْ طعامًا نَضِجَ في غيرِ أوانه، لا ترقصْ ولا تحضرْ مرقصًا ولا حفلَ غناءٍ، لا تتخذْ طيبًا، لا تقتنِ فراشًا وثيرًا، لا تأخذْ ذهبًا ولا فضةً. وهذه هي المحرمات العشرة المعروفة للرهبان البوذيين.

- البوذيُّ لا يحصل على النرفانا إلا بعد اقتلاع شهواته الجسديَّة اقتلاعًا تامًّا، فيقولون: إنَّ من مكونات النرفانا: السيطرة على النفس، والبحث عن الحقيقة، والنشاط، والهدوء، والغبطة، والتركز، وعلوَّ النفس.

- والخلاف الشديد بينهم في وجود الله وصفاته يجعل الرجل المفكر المتدين لا يقبل آراء بوذا في

تخليص الإنسان من المصائب والآلام وهو لا يعترف في أيِّ مرحلة من مراحل التخليص بوجود الله وقدرته ثم يدعي لنفسه أنه قد حصل له النرفانا، فالرجل المفكر يرى بين الأمرين تناقضًا وتضاربًا، وهذا التَّناقض من أحد الأسباب الأساسيَّة لفشل هذه الحركة في مولدها ونشأتها.

الانتشار ومواقع النفوذ

الدِّيانة البوذيَّة منتشرة بين عدد كبير من الشعوب الآسيويَّة؛ إذ يدين بها أكثر من ستمائة مليون نسمة، ولهم معبدٌ ضخمٌ في كاتمندو بالنيبال، وهو عبارة عن مبنى دائريِّ الشكلِ وتتوسطه قبة كبيرة وعالية وبها رسم لعينين مفتوحتين وجزء من الوجه، ويبلغ قطر المبنى ٤٠ مترًا، أما الارتفاع فيزيد عن خمسة أدوار مقارنة بالمباني ذات الأدوار.

ويمكن تقسيم انتشار البوذية إلى خمس مراحل:

١- من مطلع البوذيَّة حتى القرن الأول الميلاديِّ وقد اعتنقها الملك آشوكا وجعلها دينا رسميًا للبلاد، ودفع بها خارج حدود الهند وسيلان.

٢- من القرن الأول حتى القرن الخامس الميلاديِّ وفيها أخذت البوذيَّة في الانتشار نحو الشرق إلى البنغال، ونحو الجنوب الشرقيِّ إلى كمبوديا وفيتنام، ونحو الشمال الغربيِّ إلى كشمير وفي القرن الثالث اتَّخذت طريقها إلى الصين وأواسط آسيا ومن الصين إلى كوريا.

٣- من القرن السادس حتى القرن العاشر الميلاديِّ وفيه انتشرت في اليابان ونيبال والتبت وتعد من أزهى مراحل انتشار البوذيَّةِ.

٤- من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر وفيها ضَعُفَت البوذيَّة واختفى كثير من آثارها؛ لعودة النشاط الهندوسيِّ وظهور الإسلام في الهند فاتجهت البوذيَّة إلى لاوس ومنغوليا وبورما وسيام.

٥- من القرن السادس عشر حتى الآن وفيه تواجه البوذيَّة الفكرَ الغربيَّ بعد انتشار الاستعمار الأوربيِّ وقد اصطدمت البوذيَّة في هذه الفترة بالمسيحيَّة، ثم بالشيوعيَّة بعد أن صار الحكم في أيدي الحكومات الشيوعيَّةِ.

وتعتبر تايلند الآن أكثر دولة من حيث نسبة البوذيين فيها حيث تصل إلى حوالي ٩٥ % تليها كمبوديا بنسبة تصل إلى ٩٠ %.

من الشخصيات البوذيَّةِ المعاصرةِ:

١- الدلاي لاما الرابع عشر: الزعيم الروحيُّ لإقليم التبت (واسمه الأصلي تينزين جياتسو)، وهو من مواليد عام ١٩٣٥م، تسلم القيادة الدينيَّة لشعب التبت في عام في سنة ١٩٥٠ حين كان في الخامسة عشرة من العُمُر، وهو نفس العام الَّذي بدأ فيه الاحتلال العسكريُّ الصينيُّ، ثم تبع ذلك أحداث مأساويَّة بحقِّ التبتيين، الأمر الذي جعله يفر مع عدد كبير من أتباعه إلى شمال الهند، التي

صارت لهم مقرًّا ومركزًا.

يرأس الدلاي لاما الآن حكومةَ التبت في المنفى من مدينة دارامسالا الهنديَّة. ويحتفظ الدلاي لاما بعلاقاتٍ جيِّدةٍ مع القادة والمسئولين الغربيين الذين يسعون لاستغلال هذه العلاقات ضدّ الصين.

٢- كارمابا لاما: خليفة الدلاي لاما، وهو الآن شابٌّ صغيرٌ، حيث جرت العادة عند بوذيي التبت أن يتم البحث عن طفلٍ صغيرٍ وإعداده ليكون «الدلاي لاما» القادم. استطاع كارمابا لاما في عام ١٩٩٩ من الهرب من التبت إلى شمال الهند فرارًا من السلطات الصينية، لكن الهند تحدّ من تحركاته أحيانًا تجنبًا لإغضاب الصين.

٣- كيومي انشينجو: رئيس المؤتمر البوذيِّ العالميِّ، الذي يعنى بتنظيم مؤتمرات قمم الدول البوذيَّة، التي بدأ انعقادها في عام ١٩٩٨ في اليابان، ثم استضافت تايلند المؤتمر الثاني عام ٢٠٠٠، وانعقد الثالث منها في كمبوديا في عام ٢٠٠٢، والرابع في تايلند في ٢٠٠٥، بينما استضافت اليابان القمَّةَ الخامسة في عام ٢٠٠٨، وستحتضن فيتنام المؤتمر السادس المقرر في عام ٢٠١٠ .

٤- نورودوم سيهانوك: ملك كمبوديا السابق الَّذي تولى الحكم للمرة الأولى في عام ١٩٤١، وتنازل عن العرش عدة مرات[١] .

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٧٥٨- ٧٦٣)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٦٣٧- ٦٥٧)، الديانات القديمة ص(٥٣- ٧٩)، دراسات آسيوية ص(١٩٩- ٢١٨)، مجلة الراصد، البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها، د. عبد الله مصطفى نومسوك.

الفصل الثالث

الجَيْنِيَّة

التعريف:

الجينيَّة ديانة منشقَّةٌ عن الهندوسيَّة، ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد على يدي مؤسسها مَهَابير سوامي، ولا تزال إلى يومنا هذا. إنها مبنية على أساس الخوف من تكرار المولد، داعية إلى التحرر من كل قيود الحياة والعيش بعيدًا عن الشعور بالقيم كالعيب والإثم والخير والشر. وهي تقوم على رياضات بدنية رهبية وتأملات نفسية عميقة بغية إخماد شعلة الحياة في نفوس معتنقيها.

فمنشؤها الزُّهد والتَّقشف، وطريقتها الرِّياضة الشَّاقَّة، ومظهرها الرهبانيَّة، ويعيشون شبه عراةٍ، معرضين أجسامهم لظواهر الطبيعة، وأحيانًا يلجئون إلى قطع الروابط بالحياة عن طريق الانتحار، ويعتبرونه غاية لا تتاح إلا للخاصة من الرهبان.

تاريخ الجينيَّة

يعتقد الجينيُّون أنَّ ديانتهم ساهم في تأسيسها ٢٤ ترنكارا أو جينا، إذ يظهر كلٌّ منهم في نصف دورةٍ زمنيَّةٍ بدأت منذ الأزل. وسوف تستمر إلى ما لا نهاية. كان أول هؤلاء هو ريشابها أو أديناثا. ويعتبر وجود هؤلاء الجينيات من قبيل الأساطير التي لم تثبت تاريخيًّا.

ونيميناثا أو أريشتمانيمي: هو الجينيُّ الثاني والعشرون ويعتبرونه ابن عم كرشنا، ووصل إلى مرحلة النرفانا (الخلاص) في مدينة سوراسترا في ولاية كوجرات.

وبرشفا ابن ملك فاراناس يعتبر الجينيَّ الثالث والعشرين، وهو أول الشخصيات التاريخية. عاش في القرن الثامن قبل الميلاد.

ويعتبر مَهَابير سوامي المؤسسَ الحقيقيَّ للجينيَّة، وقد ولد عام ٥٩٩ ق.م وترهبن في سنِّ الثلاثين، وعلى يديه تبلورت معتقداتها التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

ويعتبر الجينيُّون دينَهم أزليًّا لا بدايةَ له ولا نهايةَ، وأنَّه يرجع إلى بلايين بلايين السنين، وأنها ترجع إلى ثلاثة وعشرين جينيًّا، ومهابير هو الجينيُّ الرابع والعشرون، وأنَّه الذي جدد أصولها ونشرها.

وينحدر مهابير من أسرة من طبقة الكشتري المختصة بشئون السياسة والحرب. وأبوه سدهارتها أمير مدينة في ولاية بيهار، ومهابير هو الابنُ الثاني له.

وقد عاش حياته الأولى في كنف والديه متمتعًا بالخدم والملذَّات العاديَّة، وكان شديد التقدير والاحترام لوالديه، تزوج ورزق بابنة.

ولما توفي والده، استأذن أخاه في التَّخلِّي عن ولاية العهد والتَّنازل عن الملك والألقاب.

وحلق رأسه ونزع حُليَّه، وخلع ملابسه الفاخرة، وبدأ مرحلة الزهد والخلوة والتَّبتُّل، وكانت سنُّه آنذاك ثلاثين عامًا.

وصام يومين ونصف يوم، ونتف شعر جسده، وهام في البلاد عاريًا مهتمًّا بالرياضات الصعبة والتأمُّلات العميقةِ.

واسمه الأصلي فردهامانا لكن أتباعه يسمونه مهابير ويزعمون أنَّ هذا الاسم من اختيار الآلهة له ومعناه البطل العظيم، ويطلقون عليه كذلك جينا أي القاهر لشهواته والمتغلب على رغباته المادِّيَّة.

وقد غرق في تأمُّلاته ورهبانيَّته وعرَّى جسدَه هائمًا في البلاد لمدة ثلاثة عشر شهرًا مداومًا على مراقبة نفسه في صمت مطبق، يعيش على الصدقات التي تُقَدَّمُ إليه. حصل بعدها على الدَّرجة الرابعة مباشرة؛ إذ كان مزودًا بثلاثة منها أصلًا كما يقولون.

وتابع بعد ذلك رحلة عدم الإحساس حتى حصل على الدرجة الخامسة وهي كما يزعمون درجة العلم المطلق ووصوله إلى مرحلة النَّجَاة.

وبعد سنة من الصراع والتهذيب النفسيِّ فاز بدرجة المرشد، وبدأ بذلك مرحلة الدعوة لمعتقده، فدعا أسرته ثم عشيرته، ثم أهل مدينته، ومن ثم دعا الملوك والقواد، فوافقه كثير منهم لما في دعوته من ثورة على البراهمة.

وقد استمر في دعوته حتى بلغ الثانية والسبعين حيث توفي سنة ٥٢٧ ق.م. مخلفًا وراءه خطبًا وأتباعًا ومذهبًا.

وأرياشاما: عاش في القرن الرابع بعد مهابير.

وكونداكاوندا أكياريا: تقدره فرقة الديجامبرا وكتب بعض الكتب والشروح، عاش في القرون المسيحيَّة الأولى.

- وقد انقسمت الجينيَّةُ بعده إلى عدَّة أقسامٍ وصلت إلى ثمان فرقٍ أو أكثر، أهمُّها الآن:

١- ديجامبرا: أي أصحاب الزِّيِّ السماويِّ العراة، وهم طبقة الخاصَّة الذين يميلون إلى التقشُّف والزُّهد ومعظمهم من الكهَّان والرهبان والمتنسِّكين الذين يتَّخذون من حياة مهابير قدوةً لهم، وقد انقسموا مؤخرًا إلى عدد من الفرق.

٢- سويتامبرا: أي أصحاب الزِّيِّ الأبيض، وهم طبقة العامة المعتدلون الذين يتَّخذون من حياة مهابير الأولى في رعاية والديه نبراسًا لهم إذ كان يتمتع حينها بالخدم والملذَّات، إذ يفعلون كلَّ أمرٍ فيه خير ويبتعدون عن كلِّ أمرٍ فيه شرٌّ أو إزهاق لأرواح كلِّ ذي حياة، يلبسون الثياب، ويطبقون مبادئ الجينيَّة العامَّة على أنفسهم.

وقد أقبل الملوك والحكام في الهند على اعتناق الجينيَّة مما سجل انتصارًا على العصر الويدي الهندوسيِّ الأول، ذلك أنها تدعو إلى عدم إيقاع الأذى بذي روح مطلقًا، كما توجب أن يطيع

الشعب حاكمه، وتقضي بذبح من يتمرد على الحاكم أو يعصي أوامره، فصار لهم نفوذ كبير في بلاط كثير من الملوك والحكام في العصور الوسطى.

وقد نالوا كثيرًا من الاحترام والتَّقدير أيَّام الحكم الإسلاميّ للهند، وقد بلغ الأمر بالإمبراطور أكبر الذي حكم الهند من ١٥٥٦ - ١٦٠٥م أن ارتدَّ عن الإسلام واعتنق بعض معتقدات الجينيَّة واحتضن معلم الجينيَّة هيراويجيا مطلقًا عليه لقب معلم الدنيا.

طبقات الرجال عند الجينيين

يقسمون رجالهم إلى خمس طبقات:

١- أرهت: هي الأرواح الناجية التي حصلت لها علم كامل ومعرفة تامَّةَ فوصلت إلى درجة المعبود في الحياة الدنيا قبل موتها وهم أربعة وعشرون.

٢- سدها: الأرواح التي نجت من تكرار العودة إلى الدنيا ووصلت إلى مقام النَّجاة بعد موتها الطبيعيّ وهم أيضًا أربعة وعشرون.

٣- آجاريا: هو رئيس الرهبان وقرب إلى النجاة.

٤- أباديا: هو الراهب المرشد يتجول في البلاد ويكون تابعًا لآجاريا.

٥- سادو: هو الراهب والناسك العاديُّ الذي ابتدأ بحياته الجينية.

كتب الجينية

نزل مهابير قبل موته في مدينة بنابوري في ولاية تَبْنا وألقى خمسًا وخمسين خطبة، وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالًا. فهذه الخطب وتلك الأسئلة أصبحت كتابهم المقدس.

يضاف إلى ذلك الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والرُّهبان والنُّسَّاك الجينين، وقد انتقل تراثهم مشافهةً، وقد حاولوا تدوينه في القرن الرابع قبل الميلاد لكنهم فشلوا في جمع كلمة الناس حول ما كتبوه، فتأجلت كتابته إلى سنة ٥٧م.

وفي القرن الخامس الميلادي اجتمع كبار الجينيين في مدينة ويلابهي وقاموا بتدوين التراث الجيني باللغة السنسكريتية في حين أنَّ لغته الأصليَّة كانت أردها مجدى.

ويوجد الآن عدد من الكتب والشروح والأساطير الكثيرة يختلف الاعتراف بها من طائفة إلى أخرى.

الإله عند الجينيَّة

- الجينيَّة في الأصل ثورة على البراهمة؛ لذا فإنَّهم لا يعترفون بآلهة الهندوس وبالذات الآلهة الثلاثة (برهما -فشنو - سيفا)، ومن هنا سميت حركتهم بالحركة الإلحاديَّة.

- لا تعترف الجينيَّةُ بالروح الأكبر أو بالخالق الأعظم لهذا الكون، لكنَّها تعترف بوجود أرواح خالدة.

- كلُّ روح مِن الأرواح الخالدة مستقلة عن الأخرى، ويجري عليها التناسخ.

- لم يستطيعوا أن يتحرروا تحرُّرًا كاملًا من فكرة الألوهيَّة، فاتَّخذوا من مهابير معبودًا لهم وقرنوا به الجينيات الثلاثة والعشرين الآخرين؛ لتكمل في أذهانهم صورة الدين، وليسدوا الفراغ الذي أحدثه عدم اعترافهم بالإله الأوحد.

- خلق المسالمة والمجاملة دفعهم إلى الاعتراف بآلهة الهندوس (عدا الآلهة الثلاثة) ثم أخذوا يجلّونها، لكنَّهم لم يصلوا بها إلى درجة تقديس البراهمة لها، ودعوا كذلك إلى احترام براهمة الهندوس باعتبارهم طائفة لها مكانتها في الدين الهندوسي.

- لا توجد لديهم صلاة، ولا تقديم قرابين، ولا يعترفون بالطبقات، بل هم ثورة عليها، إذ ليس لديهم سوى طبقتي الخاصَّة والعامَّة. ولم يجعلوا لخاصتهم من الرُّهبان أية امتيازات مما جعل الرهبنة ذات مشقَّةٍ وتضحيةٍ وتكليف ذاتيٍّ.

معتقدات الجينيَّة

١- الكارما: لديهم كائن ماديٌّ يخالط الروح ويحيط بها، ولا سبيل لتحرير الروح منها إلا بشدة التقشُّف والحرمان من الملذَّات.

ويظلُّ الإنسان يولد ويموت ما دامت الكارما متعلقة بروحه ولا تطهر نفسه حتى تتخلص من الكارما إذ تنتهي رغباته وعندها يبقى حيًّا خالدًا في نعيم النجاة. وهي مرحلة النرفانا أو الخلاص التي قد تحصل في الدنيا بالتدريب والرياضة أو بالموت.

٢- النَّجَاة: إنها تعني الفوز بالسرور الخالد الخالي من الحزن والألم والهموم، وتعني التطهُّر من أدران الحيوانيَّة الماديَّة، إنَّها ترمي إلى التخلُّص من تكرار المولد والموت والتناسخ.

وطريق الوصول إلى النجاة يكون بالتمسُّك بالخير والابتعاد عن الشرور والذنوب والآثام، ولا يصل إليها الإنسان إلا بعد تجاوز عوائق ومتاعب الحياة البشريَّة بقتل عواطفه وشهواته.

والشخص الناجي مكانه فوق الخلاء الكونيِّ، إنها نجاة أبديَّةٌ سرمديَّةٌ.

٣- تقديس كل ذي روح:

- يقدِّسون كلَّ ما فيه روح تقديسًا عجيبًا.

- يمسك بعض الرهبان بمكنسة ينظف بها طريقه أو مجلسه؛ خشيةَ أن يطأ شيئًا فيه روح.

- يضع بعضهم غشاءً على وجهه يتنفس من خلاله خوفًا من استنشاق أي كائن حيٍّ من الهوام العالقة في الهواء.

- لا يعملون في الزراعة حذرًا من قتل الديدان والحشرات الصغيرة الموجودة في التربة.

- لا يذبحون الحيوانات، ولا يأكلون لحومها وهم نباتيون.

- لا يشتركون في معركة ولا يدخلون في قتال خوفًا من إراقة الدماء وقتل الأحياء من البشر

فهم مسالمون بعيدون عن كل مظاهر العنف.

٤- العواطف: يجب قهر العواطف والمشاعر جميعًا، حتى لا يشعر الراهب بحبٍّ أو كره، بحزن أو سرور، بحرٍّ أو برد، بخوف أو حياء، بخير أو شرٍّ، بجوع أو عطش، فيجب أن يصل إلى درجة الخمود والجمود والذهول بحيث تقتل في نفسه جميع العواطف البشريَّة.

وترى أحدهم ينتف شعر جسده دون أن يشعر بأي ألم في ذلك.

٥- العُرِي: قمَّة قتل العواطف هي الوصول إلى مرحلة العريّ الذي يعد أبرز مظاهر الجينيَّة إذ يمشي الشخص في الشوارع بدون كساء يستر جسده من غير شعور بالحرج أو الحياء أو الخجل. وهذا تطبقه فرقة ديجامبرا من الجينية.

- الرهبان يعيشون عُرَاةً، وذلك نابع من فكرة نسيان العار أو الحياء مما يمكنه من اجتياز الحياة إلى مرحلة النجاة والخلود.

- إذا تذكر الإنسان العاري الحياة والحسن والقبح فذلك يعني أنه ما زال متعلقًا بالدنيا مما يحجبه عن الفوز والنجاة.

- الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم، وعدم الشعور بالحياء معناه عدم تصور الإثم. فمن أراد الحياة البريئة البعيدة عن الشعور بالآلام فما عليه إلا أن يعيش عاريًا متَّخذًا من السماء والهواء كساءً له.

الانتشار ومواقع النفوذ

لم تخرج الجينيَّة من الهند، فمعابدهم منتشرة في كلكتا ودلوارا، ولهم معابد في كهجورا وجبل آبو، وهي تعدُّ من عجائب الدنيا زينةً وزخرفةً، وفي القرن الثاني قبل الميلاد نحتوا كهفهم العظيم المسمى هاتي كنبا في منطقة إدريسه ولهم كهوف أخرى منتشرة في أنحاء الهند مما يدل على براعتهم في نحت التماثيل، ورسوخ قدمهم في فن معمار المعابد وزخرفتها وتزيينها بالنُّقوش العجيبة.

ويعتقد أن تعدادهم الحالي حوالي ٣- ٤ ملايين نسمة يعملون في التجارة وإقراض البنوك، فمعظمهم من الأغنياء مما ساعدهم على نشر الكتب والتأثير على الثقافة الهنديَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٤١- ٧٤٧)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٦٦١- ٦٧١)، دراسات آسيوية ص(١٩٢- ١٩٨)، مجلة الراصد.

الفصل الرابع

السيخيَّة

التعريف:

السيخ جماعة دينيَّة من الهنود الذين ظهروا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين داعين إلى دين جديد زعموا أن فيه شيئًا من الديانتين الإسلاميَّة والهندوسيَّة تحت شعار «لا هندوس ولا مسلمون».

وقد عادَوا المسلمين خلال تاريخهم، وبشكل عنيفٍ، كما عادَوا الهندوس بهدف الحصول على وطنٍ خاصٍّ بهم، وذلك مع الاحتفاظ بالولاء الشديد للبريطانيين خلال فترة استعمار الهند.

وكلمة سيخ Sikh كلمة سنسكريتيَّة تعني المريد أو التابع.

تاريخ السيخيَّة

ترجع حركتهم في الأصل إلى ظهور حركة فيسنافا باختي التي بدأت في الظهور بين الهندوس في منطقة التامل، ووصلت إلى الشمال على يد رامانوجا ١٠٥٠ - ١١٣٧م.

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبعد الاحتكاك بالمسلمين، انتشرت هذه الحركة في سهل الغانج.

ثم ظهر صوفيٌّ اسمه كابير ولد من أبوين هندوسيين في بنارس ١٤٤٠ - ١٥١٨م، عرف عنه نقده لديانة آبائه الهندوسية، ودرس الدين الإسلامي والهندوكي وكان حركة اتصال بين الدينين إذ أراد أن يؤلف بينهما عن طريق التوجيه والتأمل الصوفي.

كان كابير هذا يتساهل في قبول كثير من العقائد الهندوكيَّة ويضمها إلى الإسلام شريطة بقاء التوحيد أساسًا، لكنه لم يفلح إذ انقرض مذهبه بموته مخلفًا مجموعة أشعار باللغة البنجابيَّة تُظهر تمازج العقيدتين المختلفتين الهندوسيَّة والإسلاميَّة مرتبطتين برباط صوفيٍّ يجمع بينهما.

ثم ظهر مؤسس السيخيَّة وهو ناناك Nanakويدعى غورو أي المعلم، ولد سنة ١٤٦٩م في قرية ري بوي دي تلفندي التي تَبْعُد ٤٠ ميلًا عن لاهور، كانت نشأته هندوسيَّة تقليديَّة من طبقة الكشتري، وكان من صغره محبًا للخلوة والعزلة.

لما شب عمل محاسبًا لزعيم أفغاني في سلطانبور، وهناك تعرف على عائلة مسلمةٍ ماردانا كانت تخدم هذا الزعيم. وقد أخذ ينظم الأناشيد الدينيَّة، كما نظَّم مقصفًا ليتناول المسلمون والهندوس الطعام فيه.

درس علوم الدين، وتنقل في البلاد، كما قام بزيارة مكة والمدينة، وزار أنحاء العالم المعروفة لديه وتعلم الهنديَّة والسنسكريتيَّة والفارسيَّة.

وتأثر بالشاعر الصوفي كابير كما تأثر بغيره من المتصوِّفة أمثال: حسين درويش وإسماعيل البخاري وعلي هجويري وبابا فريد كنج.

ادَّعى أنه رأى الربَّ حيث أمره بدعوة البشر، ثم اختفى أثناء استحمامه في أحد الجداول في عام ١٥٠٠م، وغاب لمدة ثلاثة أيام ظهر بعدها معلنًا أنه خلال غيابه انتقل إلى الحضرة الإلهية، وأن الله أعطاه كوبًا من الرحيق الإلهي، أو الشراب المقدس (أمريت).

وبدأ ناناك دعوته برفع شعار «لا هندوس ولا مسلمون». إذ كان يرغب بعمل توليفة من هذين الدينين، فانتهى الأمر به إلى إنشاء دين ثالث، مزج عقائد الهندوسية بالإسلام وبغيرهما من الديانات الموجودة في الهند، كالنصرانيَّة، وبعض الدارسين ينظرون إليه على أنه كان مسلمًا في الأصل ثم ابتدع مذهبه هذا.

أنشأ المعبد الأول للسيخ في كارتاربور بالباكستان حاليًا وقبل وفاته عام ١٥٣٩م عيّن أحد أتباعه خليفة له، وقد دفن في بلدة ديرة باباناناك من أعمال البنجاب الهنديَّة الآن، ولا يزال له ثوب محفوظ فيه مكتوب عليه سورة الفاتحة وبعض السور القصيرة من القرآن.

وقد خلفه من بعده تسعة خلفاء معلمون حمل كل واحد منهم لقب غورو، آخرهم غوبند سنغ ١٦٧٥ - ١٧٠٨م الذي أعلن أنه آخر معلم وبه يكون انتهاء سلسلة المعلمين، وطلب من السيخ اتِّباع كتابهم المقدس واعتباره الغورو من بعده، وأوجد ذلك القرار الخلافات بين السيخ، بين من التزم بوصية الغورو، وبين من أباح استمرار المعلميَّة.

وصار زعماؤهم بعد ذلك يعرفون باسم المهراجا ومنهم المهراجا رانجيت سنغ المتوفى سنة ١٨٣٩م.

خالصادال (الباختا)

تعرض السيخ لاضطهاد المغول الذين أعدموا اثنين من معلميهم، وقد كان أشدّ المغولِ عليهم نادر شاه ١٧٣٨ - ١٨٣٩م الذي هاجمهم مما اضطرهم إلى اللجوء إلى الجبال والشِّعاب.

فقام غوبند سنغ وهو المعلم العاشر بإنشاء منظمة الباختا أي خالصادال التي سمى رجالها «أسودًا» ونساءها «البؤات».

وكان هدف شباب السيخ أن يصبحوا مؤهلين لأن يكونوا من رجال الخالصادال ويطلعوا على تعاليمها.

إن الخالصادال مجموعة من الشباب الذين يرتبطون بنظام سلوكيٍّ دينيٍّ قاسٍ، حيث ينصرفون إلى الصلاة والقتال من أجل الحقِّ والعدل الذي يعتقدون به ممتنعين عن المخدرات والمسكرات والتبغ.

وقد صاروا بعد عام ١٧٦١م حكامًا للبنجاب وذلك بعد ضعف المغول، حيث احتلوا لاهور عام ١٧٩٩م. وفي عام ١٨١٩م امتدت دولتهم إلى بلاد الباتان، وقد وصلت إلى ممر خيبر في عهد

المهراجا رانجيت سنغ (١٨٣٩م) متغلبين على الأفغان.

وعندما وصل الإنجليز حصلت مصادمات بينهم وبين السيخ واضطروهم لأن يتراجعوا ويتوقفوا عند نهر سوتلج واعتبار ذلك حدودًا لدولة السيخ من الناحية الجنوبيَّة الشرقيَّة.

وقد انكسروا بعد ذلك وتراجعوا أكثر، وأجبرهم البريطانيون على دفع غرامة كبيرة وتسليم جامو وكشمير، كما عينوا في لاهور مقيمًا بريطانيًا يدير بقية مملكة السيخ.

ثم صاروا بعد ذلك شديدي الولاء للإنجليز، بل ساعدوهم على احتلال البنجاب.

وتحول السيخ إلى أداة في أيدي الإنجليز يضطهدون بهم حركات التمرد ١٨٥٧م.

وحصلوا من الإنجليز على امتيازاتٍ كثيرةٍ، منها منحهم أراضٍ زراعيَّة وإيصال الماء إليها عبر قنواتٍ، مما جعلهم في رخاء ماديٍّ يمتازون به عن جميع المقيمين في المنطقة.

وفي الحرب العالميَّة الأولى كانوا يشكلون أكثر من ٢٠٪ من الجيش الهنديِّ البريطانيِّ.

ثم انضموا إلى حركة غاندي في طلب الحرية وذلك إثر قيام مشكلات بينهم وبين الإنجليز.

وبعد عام ١٩٤٧م صاروا مقسمين بين دولتين: الهند والباكستان، ثم اضطر مليونان ونصف المليون منهم أن يغادروا باكستان إلى الهند إثر صدامات بينهم وبين المسلمين.

وقد ألغت الحكومة الهنديَّة الامتيازات التي حصل عليها السيخ من الإنجليز مما دفعهم إلى المطالبة بولاية البنجاب وطنًا لهم.

وعلى إثر المصادمات المستمرَّة بين الهندوس والسيخ أمرت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند في شهر يونيو ١٩٨٤م باقتحام المعبد الذهبي في أمرتيسار، إذ اشتبك الطرفان وقتل فيه حوالي ١٥٠٠ شخص من السيخ و٥٠٠ شخص من الجيش الهنديِّ.

وفي يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨٤م أقدم السيخ على قتل رئيسة الوزراء هذه انتقامًا لاقتحام المعبد، وقد حصلت مصادمات بين الطرفين عقب الاغتيال قتل بسببها عدة آلاف من السيخ يقدرها بعضهم بحوالي خمسة آلاف شخصٍ.

وقد توترت علاقة السيخ بالمسلمين في فترات كثيرة، واستطاع السيخ أن ينتصروا في بعض الحروب، حيث قاموا في عام ١٧١٠م بمهاجمة مدينة سرهند، وقتل الآلاف من أهلها المسلمين، وتقويض الحكم الإسلامي في الهند. كما تكررت اعتداءاتهم على المسلمين.

وقد اشتهر السيخ خلال حكمهم بالعسف والظلم والجور والغلظة على المسلمين، من مثل منعهم من أداء الفرائض الدينيَّة والأذان وبناء المساجد في القرى التي يكونون فيها أكثريَّة، وذلك فضلًا عن المصادمات المسلحة بينهما والتي يقتل فيها كثير من المسلمين الأبرياء، ومن الذين قُتل على أيديهم العالم القائد شاه محمد إسماعيل الدهلوي، وهو المعروف بـ «إسماعيل الشهيد»، وذلك في معركة «بالاكوت» سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣١ م)، رحمه الله.

أفكار ومعتقدات السيخ

- يدعون إلى الاعتقاد بخالقٍ واحدٍ، ويقولون بتحريم عبادة الأصنام، وينادَوْن بالمساواة بين الناس.

ويؤكدون على وحدانية الخالق الحيِّ الَّذي لا يموت، والذي ليس له شكل، ويتعدى أفهام البشر، كما يستعملون عدة أسماء للإله منها: واه غورو والجاب، وأفضلها عند ناناك «الخالق الحقّ» وكل ما عداه وَهْمٌ (مايا).

ولكن حقيقة أمرهم هو الشرك وأساطير الهناد، يقول ناناك في فاتح الكتاب المقدس عند السيخيين الذي يرتلونه كل صباح ومساء: هو: وشنو، هو: شيو، هو: برهما، هو: باربتي، هو: لكشمي، فالذي يرد أنْ يعبِّرَ عن الربِّ يصمت ويبكم، لعدم معرفته به، وبهذا يشهد البران وكرشنا والبوذيُّون والرهبان وأنَّ دهرما دايوا يحمدك ويثني عليك . . .

- يمنعون تمثيل الإله في صورٍ، ولا يقرُّون بعبادة الشمس والأنهار والأشجار التي يعبدها الهندوس، كما لا يهتمُّون بالتطهُّر والحجِّ إلى نهر الغانج، وقد انفصلوا تدريجيًّا عن المجتمع الهندوسيِّ حتى صارت لهم شخصيَّة دينيَّة متميِّزة.

- يدعون إلى وحدة الأديان فلا يرفضون أي شخصٍ سواء كان هندوسيًّا أو بوذيًّا أو جينيًّا أو سيخيًّا أو مسلمًا أو نصرانيًّا إذا قبل بأفكارهم، وفلا فرق عندهم بين معبد الهنادك ومسجد المسلمين وبين عبادة الهنادك وصلاة المسلمين.

- يعتقدون بالحلول والاتحاد المأخوذ من الهندوس، يقول ناناك: أنت القلم، وأنت الخطُّ، وأنت الحبر، وأنت الطاولة. ويقول: فقط أنت لا غيرك. ويقول: أنت السمك، وأنت الشبك، وأنت الصياد، وأنت فقط، أنت لا غيرك.

- أباح ناناك الخمر، وأكل لحم الخنزير، وقد حرم لحم البقر مجاراة للهنادكة.

- أصول الدين لديهم خمسة بانج كهكها؛ أي: الكافات الخمس ذلك أنها تبدأ بحرف الكاف باللغة الكورمكيَّة، وهي:

١- الكيشو: وهو ترك الشعر مرسلًا بدون قص من المهد إلى اللحد، وذلك لمنع دخول الغرباء بينهم بقصد التجسس.

٢- الكارا: وهو سوار حديد يلبسه السيخيّ في معصميه بقصد التَّذلل والإقتداء بالدراويش.

٣- الكانشا: وهو سروال قصير لا يتجاوز الركبة، يرمز إلى أن الإنسان يكون مستعدًّا لأجل العمل.

٤- الكانغا: وهو مشط صغير يضعه السيخيّ في شعر رأسه، وذلك لتمشيط الشعر وترجيله وتهذيبه.

٥- الكربال: وهو خنجر من الفولاذ، يتمنطق به كلُّ رجلٍ من السيخ، كوسيلة للدفاع عن النفس، ومحارب أعدائه، ومنحه قوة واعتدادًا.

ويُعتقد بأن هذه الأمور ليست من وضع ناناك بل هي من وضع الخليفة العاشر غوبند سنغ الذي حرَّم أيضًا التَّدخين على أتباعه، ويقصد بهذه الأمور التميز عن جميع الناس.

- تأثر دين السيخ بالهندوسيَّة في التديُّن بالموسيقى والغناء، فقد كان ناناك يجيد الموسيقى واتَّخذها وسيلة لنشر مبادئه حتى رتب كتابه: كرو كرنتها صاحب على ترتيب الألحان الغنائيَّة التي بلغت واحدًا وثلاثين لحنًا، وفي آخر الكتاب فهرس طويل لهذه الألحان ولكلِّ لحن خمسة فروع وثمانية أصوات.

- معلمو السيخ ينكرون المعجزات والقصص والخرافات ذات الأساطير، إلا أنه على الرغم من ذلك فقد خلَّد السيخ معابد لهم غور دوارا مبنية على قصص تتحدث عن معجزات وقعت.

- للمعلم ويسمي عندهم غورو درجة دينيَّة تأتي بعد مرحلة الربِّ، فهو الذي يدل -في نظرهم- على الحقِّ والصدق، كما أنهم يتعبدون الإله بإنشاد الأناشيد الدينيَّة التي نظمها المعلمون.

وتوجيه المعلم غورو أساسي للوصول إلى مرحلة الانعتاق موكا.

- يعتقدون بأن ترديد أسماء الإله الناما يطهر المرء من الذنوب ويقضي على مصادر الشرِّ في النفوس، وإنشاد الأناشيد كيرتا والتأمل بتوجيه من معلم غورو كل هذا يؤدي إلى الاتصال بالإله.

- يعتقدون بأن روح كلِّ واحدٍ من المعلمين تنتقل منه إلى المعلم التالي له.

- هناك بعض التنبُّؤات وأسمها ساوساكيِّ المائة قصة والمنسوبة إلى المعلم غوبند سنغ والتي تدور حول الانقلابات في الحكم القائم ومجيء مخلِّص ينشر السيخيَّة في جميع أنحاء العالم.

- يؤمنون بولادة الإنسان وموته ثم إعادة ولادته كارما بحيث تتقرر حياة الإنسان المستقبليَّة على ضوء حياته السابقة، ويتوقف خلاصه على هذه المرحلة.

- يقدِّسون العدد خمسة الذي له معنًى صوفيٌّ في أرض البنجاب أي الأنهار الخمسة.

- الخلافات الدينيَّة يحلها مجلس دينيٌّ يعقد في أمر تيسار وقرارات هذا المجلس لها قوة روحيَّة.

- ليس لديهم طبقة دينية مشابهة للبراهمة الهندوس، إذ إنَّهم -عمومًا- يرفضون مبدأ الطبقات الهندوسيُّ كما يعارضون احتكار طبقة البراهمة للتَّعاليم الدينيَّة.

- يقسمون أنفسهم على أساس عرقي؛ منهم الجات (قبائل زراعيَّة) وغير الجات، والمذاهبي، وهم المنبوذون، لكن وضعهم أفضل بكثير من وضع المنبوذين لدى الهندوس.

- يتزوجون من زوجة واحدة فقط.

- أعياد السيخ هي نفس أعياد هندوس الشمال في الهند بالإضافة إلى عيد مولد أول وآخر غورو وعيد ذكرى استشهاد الغورو الخامس والتاسع.

- السيخيَّة تحرم الرهبانيَّة وتحظر على أتباعها الخروج من الدنيا وتركها كليًّا بل تحث النَّاس على الاشتغال بكسب الرزق بخلاف فقراء الهنادك والبوذيين والجينيين الذين يرون الدنيا هي مصدر الشرّ.

- السيخيَّة لا تقدس لغةً من اللغات المختلفة بل عندها جميع اللغات على سواء.

- السيخيَّة تعارض فكرة الأفتار وهي أن ينزل الربُّ بصورة البشر لإنقاذ عباده الصالحين، وتؤيد عقيدة الرسالة والنبوة التي أقرها الإسلام، إلا أن السيخيين لم يستقروا طويلًا على هذه العقيدة بعد وفاة مصلحهم بل سرعان ما ألَّهوا أستاذتهم ومصلحيهم فبدءوا يعبدونهم من دون الله.

- أصل نظريتهم عن الكون مستمدة من النصوص الهندوسيَّة.

- يحرقون موتاهم كالهندوس.

- تأثر ناناك بالإسلام إلا أنه اختلط عليه بعض العقائد الوثنيَّة فلم يستطع التخلص منها وفشل في محاولته التوفيق بين الملل والنحل فإن كتابه الذي نال منزلة التقديس عند السيخيين مجمع للأفكار المتضاربة والأديان المختلفة والملل المتفرقة، ودعاة السيخيين يفتخرون بهذا التجمع الفكري بدون نظر إلى المتناقضات الموجودة فيه وما حدث من أجله من البلايا والمشاكل في فهم أصل الفكرة السيخيَّة.

كتب السيخ

١- كتاب آدي غرانت وهو مجموعة أناشيد دينية ألفها المعلمون الخمسة الأوائل، وتبلغ نحوًا من ٦٠٠٠ نشيد دينيٍّ، كما ضم إليها المعلم الأخير غوبند سنغ ١١٥ نشيدًا نظمها أبوه تيغ بهادور كما تحتوي على أناشيد نظمها شيوخ من الخالصادال الباختا وبعض رجال الصوفيَّة المسلمين من مثل ابن الفارض على وجه الخصوص وبعض شعراء بلاط غورو، وهذا الكتاب هو الكتاب المقدس الذي يعتبر أساس السلطة الروحيَّة لديهم.

٢- أقدم مصدر عن حياة ناناك كتب بعد وفاته بخمسين إلى ثمانين عامًا، ومعظم علماء السيخ يرفضون عددًا من القصص الواردة فيه.

٣- هناك كتابات تاريخيَّة سيخية ترجع إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

٤- كتاب راحت ناما يحتوي على تقاليد الخالصادال وتعاليمهم.

٥- لهم كتاب مقدس مكتوب باللغة الكورمكيَّة يسمونه كرانته صاحب.

الانتشار ومواقع النفوذ

لهم بلدٌ مقدَّس يعقدون فيه اجتماعاتهم المهمَّة، وهي مدينة أمرتيسار من أعمال البنجاب وقد دخلت عند التَّقسيم في أرضِ الهند.

وهناك أربعة عروش تتمتع بالقداسة: عقل تخت وهي في أمرتيسار، وأناندبور، وباتنا، وباندد.

ولهم في مدينة أمرتيسار أكبر معبد يحجُّون إليه ويسمى دربار صاحب أي مركز ديوان السيد الملك، وأما سائر المعابد فتسمى كرو داوره أي مركز الأستاذ.

وأكثرية السيخ وهم الأقلِّيَّة الثالثة بعد الإسلام والمسيحيَّة تقطن البنجاب، إذ يعيش فيها ٨٥% منهم، فيما تجد الباقي في ولاية هاريانا، وفي دلهي، وفي أنحاء متفرقة من الهند، وقد استقرَّ بعضهم في ماليزيا وسنغافورة وشرق إفريقيا وإنجلترا والولايات المتَّحدة وكندا، ورحل بعضهم إلى دول الخليج العربي بقصد العمل. وتركّزهم في البنجاب هو الذي يجعلهم يفكرون من حين لآخر بالانفصال عن الهند، وجعْل البنجاب دولة مستقلَّةً.

ولهم لجنة تجتمع كل عام منذ سنة ١٩٠٨م، تنشئ المدارس وتعمل على إنشاء كراسي في الجامعات لتدريس ديانة السيخ ونشر تاريخها.

وقد انشق قسم من السيخ عن الاتجاه العام متبعين ابن ناناك الأكبر وسموا أدواسي إذ يتجه هؤلاء نحو التصوُّف، أما الخالصادال فلا يؤمنون بانتهاء سلالة الغورو غوبند سنغ العاشر، بل يعتقدون بأن هنالك معلمًا حيًّا بين الناس لا يزال موجودًا.

ولديهم اعتقاد راسخ بضرورة إيجاد دولة لهم وأن ذلك أحد أركان الإيمان لديهم إذ ينشدون في نهاية كل عبادة نشيدًا يقولون فيه: «سيحكم رجال الخالصادال» كما يحلمون بأن تكون عاصمتهم في شانديغار.

ويقدر عدد السيخ حاليًا بحوالي ٢٠ مليون نسمة داخل الهند وخارجها[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٦٤- ٧٧٠)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٦٧٥- ٧٠٠)، دراسات آسيوية ص(٢٣٦- ٢٣٩)، مجلة الراصد.

الفصل الخامس

المهاريشيَّة

التعريف:

المهاريشية نحلة هندوسيَّة دهريَّة ملحدة مصبوغة بصبغة عصريَّة جديدة من الحريَّة والانطلاق، فهي مزيج من اليوغا ومن الرياضات المعروفة عند الهندوس ومن طقوس صوفيَّة بوذيَّة هنديَّة.

انتقلت إلى أمريكا وأوربا متَّخِذَةً ثوبًا عصريًّا من الأفكار التي لم تخف حقيقتها الأصليَّة، وهي تدعو إلى طقوس كهنوتيَّة من التأمُّل التصاعديّ (التجاوزيّ)؛ بغية تحصيل السعادة الرُّوحية، وهناك دلائل تشير إلى صلتها بالماسونيَّة والصهيونيَّة التي تسعى إلى تحطيم القيم والمثل الدينيَّة، وإشاعة الفوضى الفكريَّة والعقائديَّة والأخلاقيَّة بين الناس.

تاريخ المهاريشيَّة

مؤسسها فقير هندوسي لمع نجمه في الستينات واسمه مهاريشي - ماهيش - يوجي لم يجد له مكانًا في الهند لمضايقة الهندوس له لخوفهم من استقطابه الأتباع بسبب إتباعه سياسة الانفتاح الجنسيّ، من ثم انتقل من الهند ليعيش في أمريكا ناشرًا أفكاره بين الشباب الضائع الذي يبحث عن المتعة الروحيَّة بعد أن أنهكته الحياة المادّيَّة الصاخبة.

فانتقل إلى أمريكا وأنشأ جامعة في كاليفورنيا، وبقي فيها ١٣ سنة حيث التحق بركب نحلته الكثيرون، ومن ثم انتقل إلى أوربا وصار له أتباع فيها، ورحل بحركته إلى أفريقيا ليقيم لها أرضية في ساليسبورغ، ووصلت دعوته إلى الخليج العربي ومصر، إذ يزرع الأتباع هنا وهناك ويتحرك فوق ثروة مالية هائلة.

وتملك المهاريشيَّة إمكانيات مادّيَّة رهيبة تدعو إلى التَّساؤل والاستغراب، وتشير إلى الأيدي الصهيونيَّة والماسونيَّة التي تقف وراءها مستفيدة من تدميرها لأخلاق وقيم الأمم.

وفي عام ١٩٧١م أنشأ زعيمهم جامعة كبيرة في كاليفورنيا سماها (جامعة المهاريش العالميَّة). ويقول بأنه فعل ذلك بعد أن أحس بتقبل مذهبه في أكثر من ٦٠٠ كلِّيَّة وجامعة في أنحاء العالم.

وفي عام ١٩٧٤م أعلن عن قيام الحكومة العالميَّة لعصر الانبثاق برئاسة مهاريشي - ماهيشي - يوجي ومقرُّها سويسرا، كما أنَّ لهذه الدولة دستورًا ووزراء وأتباعًا وثروةً طائلةً واستثماراتٍ في مختلف أنحاء العالم.

وفي كانون الأول ١٩٧٨م ادعوا بأن حكومتهم المهاريشيَّة قد أرسلت إلى إسرائيل بعثة من ٤٠٠ محافظ ليقيموا دورة هناك لثلاثمائة رجل حتى تجعل الشعب أكثر اجتماعيَّة وأقل حدةً وتوترًا.

ويعد عام ١٩٧٨م عام السلام لديهم حيث إنهم قد أعلنوا أنه لن تقهر أمة في العالم بعد ذلك.

وقد دعوا في ذلك العام إلى عقد مؤتمر في ساليسبورغ لتكوين نظام عدم القهر لأية أمة، كما أسس فيه المجلس النيابي لعصر الانبثاق.

وفي عام ١٩٨١م انتسب إلى هذه الفرقة ابن روكفلر عمدة نيويورك السابق وخصص لها جزءًا من أمواله يدفعها سنويًا لهذه الحركة، ومعروف انتماء هذه الأسرة اليهوديَّة إلى الحركة الصهيونيَّة والمؤسسات الماسونيَّة.

إنَّ اليهوديَّة قد وجدت فيها خير وسيلة لنشر الانحلال والفوضى بين البشر فتبنتها ووقفت وراءها مسخَّرة لها الأموال والصحافة، وعقدت لها المناقشات لطرح نظريتها والدعوة إليها.

ولا يستبعد أن تكون ذراعًا جديدًا للماسونيَّة، ويرى الكثيرون في ماهيش يوغي مؤسس المهاريشيَّةَ أنه راسبوتين العصر، لطابع الدَّجل والاستغلال والانحراف الذي يتحلَّى به.

فيخدم مع المهاريشيِّ سبعة آلاف خبير، ويشتري هذا المهاريشيُّ، الفقير أصلًا، عشرات القصور الفارهة فمن أين له ذلك؟

وكتبهم ومطبوعاتهم تكتب بماء الذَّهب، وهم يمتلكون أكبر المصانع والعقارات في أوربا، وقد اشتروا قصر برج مونتمور في بريطانيا لتأسيس عاصمتهم الجديدة هناك.

ويحرصون دائمًا على اعتبار مؤسستهم مؤسسة خيريَّة معفاة من الضرائب على الرغم من غناهم الفاحش.

أفكار ومعتقدات المهاريشيَّة

- لا يؤمن أفراد هذه النحلة بالله سبحانه وتعالى، ولا يعرفون إلا المهاريشيّ إلهًا وسيدًا للعالم.

- لا يؤمنون بدين من الأديان السماويَّة، ويكفرون بجميع العقائد والمذاهب، ويدعون إلى إلغاء كافَّة العقائد والأديان السابقة، ولا يعرفون التزامًا بعقيدة إلا بالمهاريشيَّة التي تمنحهم الطاقة الروحيَّة -على حد زعمهم- وهم يرددون: لا رب . . . لا دين.

- لا يؤمنون بشيء اسمه الآخرة أو الجنة أو النار أو الحساب. . . ولا يهمهم أن يعرفوا مصيرهم بعد الموت؛ لأنهم يقفون عند حدود متع الحياة الدنيا لا غير.

- حقيقتهم الإلحاد، لكنهم يظهرون للناس أهدافًا براقة لتكون ستارًا يخفون بها تلك الحقيقة. فمن ذلك أنَّهم يدعون إلى التَّحالف من أجل المعرفة أو علم الذكاء الخلَّاق، ويفسرون ذلك على النحو التالي:

علم: من حيث دعوتهم إلى البحث المنهجيِّ التجريبيِّ.

الذَّكاء: من حيث الصفة الأساسيَّة للوجود متمثلًا في هدف ونظام للتغيير.

الخلَّاق: من حيث الوسائل القويَّة القادرة على إحداث التغييرات في كل زمان ومكان.

وهم يصلون إلى ذلك عن طريق (التأمُّل التجاوزيِّ) الذي يأخذ بأيديهم -كما يعتقدون- إلى

إدراك غير محدود.

(التأمُّلات التجاوزيَّة) تتحقق عن طريق الاسترخاء، وإطلاق عنان الفكر والضمير والوجدان حتى يشعر الإنسان منهم براحة عميقة تنساب داخله، ويستمر في حالته الصامتة تلك حتى يجد حلًّا للعقبات والمشكلات التي تعترض طريقه، وليحقق بذلك السعادة المنشودة.

يخضع المتنسب للتدريب على هذه التأملات التصاعدية خلال أربع جلسات موزعًا على أربعة أيام، وكل جلسة مدتها نصف ساعة.

ينطلق الشخص بعد ذلك ليمارس تأملاته بمفرده على أن لا تقل كل جلسة عن عشرين دقيقة صباحًا ومثلها مساءً كل يوم وبانتظام.

من الممكن أن يقوموا بذلك بشكل جماعي، ومن الممكن أن يقوم به عمال في مصنع رغبةً في تجاوز إرهاقات العمل وزيادة الإنتاج.

يحيطون تأمُّلاتهم بجو من الطقوس الكهنوتيَّة مما يجعلها جذابة للشباب الغربي الغارق في المادة والذي يبحث عما يلبي له أشواقه الروحيَّة.

ينطلقون في الشوارع يقرعون الطبول، وينشدون، دون إحساس بشيء اسمه الخجل أو العيب أو القيم، ويرسلون شعورهم ولحاهم، ولعلَّ بعضَهم يكون حليق الرأس على نحو شاذٍّ، وهيئتهم رثَّة، كل ذلك جذبًا للأنظار، وتعبيرًا عن تحللهم من كل القيود.

استعاض المهاريشيَّة عن النبوة والوحي بتأمُّلاتهم الذَّاتيَّة، واستعاضوا عن الله بالراحة النفسيَّة التي يجدونها، وبذلك أسقطوا عن اعتبارهم مدلولات النبوة والوحي والألوهيَّة.

وهذا من تأثر مذهبهم بنظرية أفلوطين الإسكندري في الفلسفة الإشراقيَّة.

واستشراف الحقّ عن طريق التأمُّل الذاتيّ نظريَّة قديمة في الفلسفة اليونانيَّة وقد بعثت هذه النظريَّة من جديد على يد ماكس ميلر، وهربرت سبنسر، وبرجسون، وديكارت، وجيفونس، وأوجست، وغيرهم.

- يطلقون العنان لشبابهم وشاباتهم لممارسة كل أنواع الميول الجنسيَّة الشاذَّة والمنحرفة، إذ إن ذلك -كما يعتقدون- يحقِّق لهم أعلى مستوى من السعادة. وقد وجد بينهم ما يسمى بالبانكرز وما يسمى بالجنس الثالث.

وهذا من تأثير فلسفة فرويد ونظريته في التحليل النفسيّ ولآرائه في الكبت وطرق التخلُّص منه في معتقدات هذه النِّحلة التي راحت تبحث عن سعادتها عن طريق الإرواء الجنسيّ بشتى صوره.

- يدعون شبابهم إلى عدم العمل، وإلى ترك الدراسة، وإلى التخلِّي عن الارتباط بأرضٍ أو وطنٍ، فلا يوجد لديهم إلا عقيدة المهاريشيّ، فهي العمل وهي الدراسة وهي الأرض وهي الوطن.

- عدم إلزام النفس بأي قيد يحول بينها وبين ممارسة نوازعها الحيوانيَّة الطبيعيَّة.

- يحثون شبابهم على استخدام المخدرات كالماريجوانا والأفيون حتى تنطلق نفوسهم من عقالها سابحة في بحر من السَّعادة الموهومة.

- يلزمون أتباعهم بالطَّاعة العمياء للمهاريشيِّ وعدم الخضوع إلَّا له؛ إذ إنه هو الوحيد الذي يمكنه أن يفعل أي شيء.

- يلخصون أهدافهم ومجالات عملهم بسبع نقاط براقة تضفي على حركتهم جوًّا من الروح العلميَّة الإنسانيَّة العالميَّة، وهي أهداف لا يكاد يكون لها وجود في أرض الواقع وهي:

١- تطوير كل إمكانات الفرد.

٢- تحسين الإنجازات الحكومية.

٣- تحقيق أعلى مستوى تعليمي.

٤- التخلُّص من كل المشكلات القديمة للجريمة والشرِّ، ومن كلِّ سلوكٍ يؤدي إلى تعاسة الإنسانيَّةِ.

٥- زيادة الاستغلال الذَّكي للبيئة.

٦- تحقيق الطموحات الاقتصاديَّة للفرد والمجتمع.

٧- إحراز هدف روحي للإنسانيَّة.

وسائل المهاريشيَّة

وسائلهم المعتمدة لتحقيق هذه الأفكار هي:

١- افتتاح الجامعات في الأرياف والمدن.

٢- نشر دراسات عن علم الذَّكاء الخلَّاق، والدَّعوة إلى تطبيقها على المستوى الفرديِّ والحكوميِّ والتعليميِّ والاجتماعيِّ وفي مختلف البيئات.

٣- إيجاد تلفزيون ملون عالمي لبث التعاليم من عدة مراكز في العالم.

الانتشار ومواقع النفوذ

الحقيقة أن المهاريشيَّة ما هي إلا ضلالة جديدة انتهزت فرصة إخفاق النصرانيَّة في احتواء الشباب، وظهور صرعات الهيبيز والخنافس وأبناء الزهور، فتقدمت لتملأ الفراغ، تحت وهم جلب الراحة النفسيَّة ومطاردة موجات القلق والاضطراب، عن طريق الرياضات الروحيَّة، بعيدًا عن طريق الوحي والنبُّوات، فلذلك انتشرت في أمريكا والدول الأوربيَّة.

وقد وصل بعضهم إلى دبي وعقدوا اجتماعًا في فندق حياة ريجنسي، يدعون فيها علانية لمذهبهم وقد ألقي القبض على هؤلاء الأشخاص الأربعة الذين قدموا إليها بتأشيرة سياحيَّة ثم أبعدوا عن البلاد.

ووصل بعضهم إلى الكويت وتقدموا بطلب للحصول على ترخيص لهم باعتبارهم مؤسسة خيريَّة غير تجاريَّة، وقد نشروا في الصحافة الكويتيَّة أكثر من مقالٍ، وبث لهم التلفزيون الكويتي بعض المقابلات قبل أن تتضح أهدافهم الحقيقية.

وقد نظموا دورة لموظفي وزارة المواصلات في الكويت في فندق هيلتون وقد دعوا الموظفين أثناء الدورة إلى مراجعة مواريثهم العقائديَّة والفكريَّة.

وقد طُرد المهاريشيّ من ألمانيا بعد أن ظهر أثره السيئ على الشباب.

وقد نشرت رابطة العالم الإسلامي في مكَّة بيانًا أوضحت فيه خطر هذا المذهب على الإسلام والمسلمين، مؤكدة ارتباطه بالدَّوائر الماسونيَّة والصهيونيَّة[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٧١- ٧٧٦).

الباب الثالث

اديان الصين

الفصل الأول

الطّاوية

التعريف:

الطاوية إحدى أكبر الديانات الصينيَّة القديمة التي لا تزال حيةً إلى اليوم، إذ ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، تقوم في جوهر فكرتها على العودة إلى الحياة الطبيعيَّة والوقوف موقفًا سلبيًّا من الحضارة والمدنية. كان لها دور هامٌّ في تطوير علم الكيمياء منذ آلاف السنين وذلك من خلال مسيرتها في البحث في إكسير الحياة ومعرفة سر الخلود.

تاريخ الطاوية

يُعتقد بأن لوتس Laotse الذي كان ميلاده عام ٥٠٧ ق.م هو صاحب مذهب الطاوية التي تُرجع بعض معتقداتها إلى زمن سحيق.

وكان لوتس أمينًا للمكتبة الملكية في مقاطعة هونان في عهد أسرة تشاو، ولما عاين بداية انهيار الدولة هاجر إلى جنوب الصين حيث كانت النفوس تنزع إلى التصوف ولا تتقبل النزعة العقلية الجامدة.

ثم خرج إلى النَّاس بدعوة تقوم على إظهار جمال الفعل البشري والفضائل، والدعوة إلى التوحد مع المنهج الداخلي للكون وتطوير الإنسانية من خلال السلوك القويم.

وقد وضع كتابه طاو - تي - تشينغ Tao - te - ching أي كتاب طريق القوة. وتعتبر الطاوية سلوكًا معيشيًّا لا يخضع للربح والخسارة، للنصر والهزيمة، للقوة الضعف، للخير والشر... ولكنه الحياة المثاليَّة؛ البسيطة المتناسقة التي تقوم على كبح الرغبات والتعالي على الشهوات، وهي وحدة الإنسانية والطبيعة.

وبقيت الطاوية خلال أكثر من ألفي سنة تؤثر في الفكر الصيني وفي التغيرات التاريخية الصينية.

ثم ظهر شوانغ تسو الذي يرجع إلى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد زاعمًا بأن لوتس كان أحد المعلمين السماويين، كما قام بشرح كتاب معلمه لوتس مضيفًا إليه شيئًا من فلسفته.

لقد نمت الطاوية المنظمة في منطقة جبال شي شوان قبل غيرها.

وفي عام ١٤٢م زعم شانغ طاولينغ أنه قد جاءه الوحي من الربِّ تعالى بأن يتحمل تبعات إصلاح الدين الطاوي، وأنه قد ارتقى وسمي المعلم السماويَّ. وقاد ذلك التنظيم الذي صار تبعًا

لسلالته الذين عرفوا بالمعلمين السماويين.

وفي القرن الثاني الميلادي انتشرت الطاوية الشعبيَّة بفضل حركة السلم الكبير ping-Tai وقد كان للمعلمين السماويين دور كبير في نشرها.

وفي عام ٢٢٠م زالت أسرة هان مما أدى إلى انقسام الصينيين إلى ثلاثة أقسام، وهذا ما ترك أثره على الاختلافات الدينيَّة الإقليمية فيما بينهم.

وعقب سقوط أسرة هان، وفي القرنين الثالث والرابع الميلاديين ظهرت الطاوية الجديدة.

وفي عام ٤٠٦- ٤٧٧م ظهر المصلح لوهيوشنغ الذي يرجع إليه مفهوم القانون الكنسي لجميع الكتب المقدَّسة الطاوية.

ومؤسسو أسرتي تانغ ٦١٨ - ٩٠٧م ومينغ ١٣٦٨ - ١٦٤٤م قد استخدموا التنبُّؤات الطَّاوية والسحر لكسب التأييد الشعبيّ.

وتدَّعي عائلة شانغ الحالية للمعلمين السماويين بأنَّها من سلالة شانغ طاو لينغ المعلم السماويّ الأول الذي ظهر أيام أسرة هان.

كتب الطاوية

١- كتاب لوتس المسمى طاو - تي تشينغ لم يكن ليكتب لولا رجاء حارس الممر ين شي الذي طلب من المعلم الشيخ أن يدون أفكاره. وهذا الكتاب مجموعة قطع أدبيَّة تحيط بطبيعة طاو كما تشمل قواعد عامَّة وأمثلة للحاكم الذي يمتلك زمام أمر الطاو، وهو كتاب غامضٌ في كثير من عباراته؛ إذ إن ذلك الغموض مقصود لذاته.

٢- شوانغ تسو: بحث في النَّظْرة الطَّاوية الفلسفية، كما أجرى مقابلة بين السماء والبشر، وبين الطبيعة والمجتمع، طالبًا من الطاويين طرح كل الحيل المصطنعة، وفيه قصص عن بشر كاملين يستطيعون الطيران هم الخالدون الذين لا يتأثرون بالعناصر الطبيعية ولا يمسهم حرٌّ ولا قرٌّ، أصحاب أرواح تمتاز بحرية في تصرفها.

٣- كتاب هوانغ - تي - ني - تشينغ وهو من القرن الثالث قبل الميلاد، فيه تجارب على بعض المعادن والنباتات والمواد الحيوانيَّة وذلك انطلاقًا من اهتمامهم بالمحافظة على الصحة وإطالة الحياة.

٤- كتاب باو - بو - تسو الذي انتهوا من تأليفه عام ٣١٧م يبحث في علوم الكيمياء القديمة وفيه محاولات لتحويل المعادن إلى ذهب، وإطالة الحياة بواسطة بعض الأكاسير.

٥- لهم أدب فلسفيٌّ ودينيٌّ سريٌّ، قسم منه يعود إلى القرن الرابع والقرن الثاني قبل الميلاد ويركز على إقناع الحكام، وقسم يبدأ منذ نهاية القرن الثاني الميلادي وهو يمثل حركات دينية منظمة وينتقل من الشيخ إلى تلاميذه من أداء القسم للمحافظة على سريته.

عقيدة الطاوية

- الإله لديهم ليس بصوت، ولا صورة، أبدي لا يفنى، وجوده سابق وجود غيره وهو أصل الموجودات، وروحه تجري فيها.

- إن طاو هو المطلق الكائن، وهو مراد الكون، إنه ليس منفصلًا عن الكون بل هو داخل فيه دخولًا جوهريًّا، انبثقت عنه جميع الموجودات.

- إنهم يؤمنون بوحدة الوجود؛ إذ إن الخالق والمخلوق شيءٌ واحدٌ لا تنفصل أجزاؤه وإلا لاقى الفناء.

- إن نظرتهم إلى الإله قريبة جدًّا من مذهب الحلوليَّة الذي يذهب إلى أن الخالق حالٌّ في كل الموجودات، كما أن الخالق لا يستطيع أن يتصرف أو يعمل إلا بحلوله في الأشياء.

- يؤمنون بالقانون السماويِّ الأعظم الَّذي هو أصل الحياة والنَّشاط والحركة لجميع الموجودات في السماء والأرض.

- يرى شونغ تسي بأن الإنسان قد جاء إلى الوجود مع الكون، فهو يحبُّ الله ولكنَّه يحبُّ المصدر الذي جاء منه الله أكثر من حبِّه الله، فهو تصور يدل على أنهم يعتقدون بأن هناك مُبْدِئًا قبل الله - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-

- يذكر دوان في كتابه خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى (ص١٧٢)، بأن في الطاوية تثليثًا، فطاو هو العقل الأزليُّ الأوَّل، انبثق من واحد، ومن هذا انبثق ثالث كان مصدر كل شيء.

- شاع بينهم الاعتراف بثنائية الوجود، يعبر عنها المصطلحان: المبدأ الأنثوي (ين)، والمبدأ الذكوريّ (يانج)، وين يمثل حالة التلقي والاستيعاب والسلبية النسبية، ويانج يمثل الناحية الإسقاطيَّة الإيجابيَّة النشطة، ويكمل كل منهما الآخر، ومن هنا كان التنظيم والترتيب والاتزان في الخضوع للإيقاع العام.

- ظلَّ الشعب الصينيُّ بأسره تقريبًا يمارس على مدى تاريخه كلِّه عبادة الأجداد.

- هناك عوامل تأثر وتأثير بين الطاوية والكنفوشيوسيَّة والبوذيَّة بسبب توطُّن هذه الديانات في منطقة واحدة متجاورة، حيث يمكن ملاحظة فكرة التصوف التي يعبر عنها بأساليب مختلفة ولكن في مضمون واحد.

- الطاوية أقرب إلى الكنفوشيوسيَّة منها إلى البوذيَّة.

- أخذ الطاويون عن البوذيِّين بناءَ الأديرة وتقريرَ الرهبنة والعزوبيَّة.

الاحتفالات الدينيَّة والطُّقوس الطَّاوية

- هناك طقس شيو Chioo وهو أقدم الطقوس؛ إذ هو تجديد لعلاقة الجماعة بالآلهة، ولا

يزال هذا الطقس موجودًا في تايوان إلى اليوم.

- هناك طقوس لتنصيب الكهنة، وأخرى عند ميلاد الآلهة.

- بعض الكهنة يمارسون طقوسًا معينة في مناسبات الدَّفن والزواج والولادة.

- من طقوسهم معالجة المريض وذلك بإدخاله إلى غرفة هادئة يقضي فيها بعض الوقت متأملًا منشغلًا بذنوبه، كما يقوم بعضهم باستعمال الوسطاء الذين يسترخون في سبات ويزعمون أنهم يقومون بنقل آراء الآلهة أو الأموات أو الأقارب.

- حرق البخور موضوع أساسيٌّ لكلِّ عبادةٍ طاوية فضلًا عن استعمال الخناجر والماء المسحور والموسيقى، والأقنعة والكُتب المقدَّسة.

الصوفيَّة الطاوية

- إنَّهم متصوفة؛ إذ إنه يجب على الطاوي أن ينظِّف نفسَه من جميع المشاغل والشوائب ليُوجِدَ في داخله فراغًا هو في الحقيقة الامتلاء نفسه، وذلك بالوصول إلى الحقائق المجرَّدة، ويتم ذلك عن طريق التَّجرُّد من الماديَّات ليصبح الإنسان روحًا خالصًا.

- أعلى مراتب التصوف هي مرحلة الوحدة التَّامَّة بين الفرد والقانون الأعظم؛ وذلك بحصول اندماج بين المتصوف والذات العليا لتصيرا شخصيةً واحدةً.

- إذا ارتقى الإنسان إلى المعرفة الحقَّةِ عندها يستطيع أن يصل إلى الحالة الأثيريَّة حيث لا موت ولا حياة.

- إن الطاوية تتجه اتجاهًا سلبيًا -على عكس الكونفوشيوسيَّة - ذلك لأن الفضيلة لديهم تكمن في عدم العمل والاقتصار على التأمُّل داعين إلى الحياة على الجبال المقدَّسة وقرب الجزر النائية.

- إنهم يهاجمون الشرائع والقوانين والعلم وما إلى ذلك من مظاهر المدنية التي عملت على إفساد فطرة الإنسان الذي ولد خَيِّرًا. إن مثلهم الأعلى في ذلك هو في العودة إلى النِّظام الطبيعيِّ المتميز بنقاء الفطرة وسلامتها.

- اهتم الطاويون بطول العُمُرِ، ويعدُّ التَّقدُّم في السنِّ دليلًا على القداسة حتى صار من أهداف التصوف الطاوي السعي لإطالة العمر والخلود، وقد ذهب بعضهم إلى ادِّعاء إمكانية إطالة العمر مئات السنين. وأفضل الخالدين -في نظرهم- هم الذين يصعدون إلى السماء في وضح النهار، هذا الخلود الذي من الممكن أن يتم بواسطة تدريبات ورياضات خاصة جسديَّة وروحيَّة كما يزعمون.

- هذا الاهتمام في البحث عن إكسير الحياة كان عاملًا مهمًّا في تقدُّم الطِّبِّ والكيمياء على أيديهم فضلًا عن السحر والشَّعْوذة والدَّجل مما أدى إلى ثراء الكهنة ثراءً فاحشًا.

- إنهم يؤكدون حرصهم على التعاليم الأخلاقيَّة وعلى ضرورة المشاركة في الاحتفالات الجماعيَّة الموسميَّة.

- ليس لديهم بعثٌ ولا حسابٌ، إنما يكافأ المحسن بالصّحّةِ وبطول العُمُرِ بينما يجازى المسيء بالمرض وبالموت المبكر.

- مؤسسها الفيلسوف لوتس يرى أن الخير في الزهادة والاعتزال والعفو والتسامح مع الناس وعدم مقابلة السيئة بالسيئة.

الانتشار ومواقع النفوذ

- في عام ١٩٥٨م أعلن أن ثلاثين ألفًا من الكهنة الطاويين لا يزالون ناشطين في مختلف أنحاء الصين. ومعلوم أن الثقافة الصينية التقليدية ما تزال الطاوية حيَّة فيها.

- في عام ١٩٤٩م هرب آخر المعلمين السماويين شانغ اين بو إلى تايوان، وفي عام ١٩٦٠م انبعثت هذه الديانة من جديد وظهرت المعابد الطاوية الضخْمة كمعبد شهنان قرب تايبيه والذي يضمُّ تمثالَ لو يونغ ين الذي تقمصته روح إله الطاو كما يزعمون، وفي عام ١٩٧٠ مات هذا المعلم السماوي ليخلفه ابنه شانغ يوان هسين.

- توجد فئات طاوية في بعض نواحي ماليزيا وبينيانغ وسنغافورة وبانكوك.

- تعتبر اليابان من أوسع البلاد علمًا بالطاوية في أيامنا الحالية.

- أما تايوان فهي أهم ملجأ للطاوية في القرن العشرين بسبب الهجرة الطاوية إليها في القرنين السابع عشر والثامن عشر(١).

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٣٥- ٧٣٩)، معتقدات آسيوية ص(٢٨٨- ٢٩٧).

الفصل الثاني

الكونفوشيوسيَّة

التعريف:

الكونفوشيوسيَّة ديانة أهل الصّين، وهي ترجع إلى الفيلسوف كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد داعيًا إلى إحياء الطّقوس والعادات والتّقاليد الدينيَّة التي ورثها الصّينيُّون عن أجدادهم مضيفًا إليها جانبًا من فلسفته وآرائه في الأخلاق والمعاملات والسلوك القويم.

وهي تقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد.

تاريخ الكونفوشيوسيَّة

ترجع الكونفوشيوسيَّة إلى معتقدات الصّينيِّين القدماء، تلك المعتقدات التي ترجع إلى ٢٦٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد قبلها كونفوشيوس أولًا، والكونفوشيوسيُّون ثانيًا، دون مناقشة أو جدال أو تمحيص.

يعتبر كونفوشيوس المؤسس الحقيقيّ لهذه العقيدة الصّينيَّة، وقد ولد سنة ٥٥١ ق.م في مدينة تسو Tsou وهي إحدى مدن مقاطعة لو Lu.

واسمه المشهور به في الصّين هو كونج فوتس، وكونج Kung اسم القبيلة التي ينتمي إليها، وفوتس Futze معناه الرئيس أو الفيلسوف، فهو بذلك رئيس كونج أو فيلسوفها.

وهو ينتسب إلى أسرة عريقة تَمُتُّ في نسبها إلى فرعٍ ملكيٍّ، فجدّه كان واليًا على تلك الولاية، ووالده كان ضابطًا حربيًّا ممتازًا، وكان هو ثمرة لزواجٍ غيرِ شرعيٍّ، توفي والده وله من العمر ثلاث سنوات.

وعاش كونفوشيوس يتيمًا، فعمل في الرعي، وتزوج في مقتبل عمره قبل العشرين، ورزق بولد وبنت، لكنه فارق زوجته بعد سنتين من الزواج لعدم استطاعتها تحمل دقته الشديدة في المأكل والملبس والمشرب.

وقد تلقى علومه الفلسفيَّة على يدي أستاذه الفيلسوف لوتس Laotse صاحب النِّحلة الطاوية؛ إذ كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كونفوشيوس خالفه فيما بعد داعيًا إلى معاملة المسيء بالعدل وليس من العدل العفو عن سيئته بل أخذه بجريرة عمله، فالمسيء لا يعفى عنه ولكن يعدل معه لا يظلم ولا يظلم. وخالفه أيضًا في التَّعامل مع طريقة الآخرين فبينما يرى لوتس أن الخير كل الخير في الزهادة والانعزال بينا يرى كونفوشيوس أن الخير في إصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والنشاط والدعوة والتربية.

وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسةً لدراسة أصول الفلسفة، تكاثر تلاميذه حتى بلغوا ثلاثة آلاف تلميذ، بينهم حوالي ثمانين شخصًا عليهم أمارات النَّجَابة والذَّكاء.

وتنقل في عدد من الوظائف فقد عمل مستشارًا للأمراء والولاة، وعيّن قاضيًا وحاكمًا، ووزيرًا للعمل، ووزيرًا للعدل ورئيسًا للوزراء في سنة ٤٩٦ ق.م حيث أقدم حينها على إعدام بعض الوزراء السابقين وعددًا من رجال السياسة وأصحاب الشغب حتى صارت مقاطعة لو نموذجيَّة في تطبيق الآراء والمبادئ الفلسفيَّة المثاليَّة التي ينادي بها.

ثم رحل بعد ذلك وتنقل بين كثير من البلدان ينصح الحكام ويرشدهم ويتصل بالناس يبث بينهم تعاليمه حاثًا لهم على الأخلاق القويمة.

وأخيرًا عاد إلى مقاطعة لو فتفرغ لتدريس أصدقائه ومحبيه منكبًا على كتب الأقدمين يلخّصها، ويرتبها، ويضمنها بعض أفكاره، وحدث أن مات وحيده الذي بلغ الخمسين من عمره، وفقد كذلك تلميذه المحبّب إليه هووي فبكى عليه بكاءً مرًا.

ومات في سنة ٤٧٩ ق.م بعد أن ترك مذهبًا رسميًا وشعبيًا استمرَّ حتى منتصف القرن العشرين الحالي.

- وقد اتصف كونفوشيوس بصفات جعلت من مذهبه وطريقته مذهبًا خُلقيًا سلوكيًا بين النَّاس، ومن هذه الصفات أنه كان دمثًا، مرحًا، مؤدّبًا، يحبُّ النكتة، يتأثر لبكاء الآخرين، يبدو قاسيًا وغليظًا في بعض الأحيان، طويلًا، دقيقًا في المأكل والملبس والمشرب، مولعًا بالقراءة والبحث والتعلم والتعليم والمعرفة والآداب.

وقد كان مغرمًا بالبحث عن منصب سياسيٍّ بغيةَ تطبيقِ مبادئِه السياسيَّة والأخلاقيَّة لتحقيقِ المدينة الفاضلة التي يدعو إليها.

وكان خطيبًا بارعًا، ومتكلّمًا مفوَّهًا، لا يميل إلى الثرثرة، وعباراته موجزة تجري مجرى الأمثال القصيرة والحكم البليغة.

وكان لديه شعورٌ دينيٌّ، يحترم الآلهةَ التي كانت معبودة في زمانه، ويداوم على تأدية الشعائر الدينيَّة، يتوجَّه في عباداته إلى الإله الأعظم أو إله السماء، يُصَلِّي صامتًا، ويكره أن يرجو الإله النِّعمة أو الغفران؛ إذ إن الصلاة لديه ليست إلا وسيلة لتنظيم سلوك الأفراد، والدّين -في نظره- أداة لتحقيق التآلف بين الناس.

وكان يغني، وينشد، ويعزف الموسيقى، وقد ترك كتاب الأغاني كما أنه كان مغرمًا بالحفلات والطقوس، إلى جانب اهتمامه بالرِّماية وقيادة العربات والقراءة والرياضة (الحساب) ودراسة التاريخ.

- وقد انقسمت الكونفوشيوسيَّة إلى اتجاهين:

١- مذهب متشدِّدٌ حرفيٌّ ويمثله منسيوس؛ إذ يدعو إلى الاحتفاظ بحرفيَّة آراء كونفوشيوس وتطبيقها بكل دقَّةٍ، ومنسيوس هذا تلميذ روحيٌّ لكونفوشيوس؛ إذ إنه لم يتلقَّ علومَه مباشرةً عنه بل إنه أخذها عن حفيده وهو Tsesze الذي قام بتأليف كتاب الانسجام المركزي.

٢- والمذهبُ التحليليُّ، ويمثله هزنتسي ويانجتسي؛ إذ يقوم مذهبهما على أساسِ تحليلِ وتفسيرِ آراءِ المعلمِ واستنباط الأفكارِ باستلهام روح النصِّ الكونفوشيوسيِّ.

- ومن أبرز الشخصيات إضافة إلى من سبق:

١- تسي كنج ولد سنة ٥٢٠م وأصبح من أعظم رجال السلك السياسيِّ الصّينيِّ.

٢- تسي هسيا ولد سنة ٥٠٧م وأصبح من كبار المتفقهين في الدين الكونفوشيوسيِّ.

٣- تسينكتنز كان أستاذًا لحفيد كونفوشيوس، ويأتي ترتيبه الثاني بعد منسيوس من حيث الأهمِّيَّةِ.

٤- تشي هزيوان عاش في عصر أسرة هان ١٢٧ -٢٠٠ ميلادية.

٥- تشو هزي ١١٣٠- ١٢٠٠ ميلاديَّة قام بنشر الكتب الأربعة التي كانت تدرَّس في المدارس الأوَّليَّة والابتدائيَّة في الصّينِ، ويُعدُّ الحجة الوحيدة.

٦- الفيلسوف موتزي ٤٧٠- ٣٨١ ق.م أضاف فكرةً جديدةً وهي تشخيص إله السماء بشخصٍ عظيمٍ يشبه الآدميين.

وفي سنة ٤٢٢م أقيم معبد لكونفوشيوس في Chufu حيث قبره.

وفي سنة ٥٠٥ م أقيم معبد آخر في العاصمة، وأصبحت كتبه تدرس في المدارس على أنها كتب مقدسة.

وفي سنة ٦٣٠م أمر أحد الأباطرة ببناء معابد مزودة بتماثيل لكونفوشيوس في جميع أنحاء الإمبراطوريَّة، كما أمر بإنشاء كليَّات لتعليم آراء كونفوشيوس الذي أصبح رمزًا للوحدتين السياسيَّة والدينيَّة.

وفي سنة ٧٣٥م مُنِحَ كونفوشيوس لقب ملك.

وفي سنة ١٠١٣م مَنِحَ لقب القديس الأعظم.

وفي سنة ١٣٣٠م مَنِحَ الأفراد المنحدرون من سلالته رتبة الشرف وصاروا يُعدُّون من طبقة النبلاء.

وفي سنة ١٥٣٠م بُدِّلَت التماثيل الموجودة في المعابد بصور ولوحات حتى لا تختلط الكونفوشيوسيَّة بالوثنيَّة.

وفي سنة ١٩٠٥م بدأ نَجْمُ الكونفوشيوسيَّة بالأفول، حيث أُلغي الامتحان الدينيُّ الذي كان يُعدُّ ضروريًا للتَّعيين في الوظائف.

وفي سنة ١٩١٠م ظهر مذنب هالي Halley في الأجواء الصينية فاعتبر ذلك استياء من الآلهة على أسرة مانتشو التي بلغ الفساد في عهدها قمته مما أدى إلى ثورة شعبية انتهت بتنازل الإمبراطور عن العرش سنة ١٩١٢م وتحول الصّين إلى النِّظَام الجمهوريِّ مما أدى إلى اختفاء الكونفوشيوسيَّة من الحياة الدينيَّة والسياسيَّة، لكنها بقيت ماثلة في الأخلاق والتقاليد الصّينيَّة.

وفي سنة ١٩٢٨م صدر قرار بتحريم تقديم القرابين لكونفوشيوس ومنع إقامة الطقوس الدينيَّة له.

وعندما استولى اليابانيون على منشوريا عادت الصين إلى استنهاض الهمم بالعودة إلى الكونفوشيوسيَّة وعاد الناس في عام ١٩٣٠ - ١٩٣٤م إلى تقديم القرابين مرةً ثانيةً، كما أعيد تدريس الكونفوشيوسيَّة في كلِّ مكانٍ؛ لاعتقادهم بأن نكبتهم ترجع إلى إهمالهم تعاليم المعلم الأكبر، وسادت حركة إحياء جديدة بزعامة تشانج كاي شيك، وقد استمرت هذه الحركة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي عام ١٩٤٩م سيطرت الشيوعيَّة على الصّينِ، ولكنَّ شيئًا فشيئًا بدأت الخلافات بين الصّين والاتِّحاد السوفيتيِّ بالظهور مما أوجد تباينًا بين كلٍّ منهما، وبعد موت الزعيم الصّينيِّ الشيوعيِّ الشهيرِ ماو تسي تونج بدأ التراجع عن الشيوعيَّة في الصّين، وبدأت رياح الغرب تهبُّ عليها.

• ويعتقد الباحثون بأن الروح الكونفوشيوسيَّة ستعمل على تغيير معالم الشيوعيَّة مما يجعلها أبعد ما تكون عن الشيوعيَّة الروسيَّة التي انهارت، لما للكونفوشيوسيَّة من سيطرةٍ روحيَّة على الشعب الصينيِّ.

كتب الكونفوشيوسيَّة

لم تكن لكونفوشيوس عناية كبرى متَّجهة إلى تأليف كتب، ولكن عنايته كانت متَّجهة إلى تكوين نفوس وإلى تربية طائفة من التلاميذ يكونون نواة لتربية جيلٍ وبذلك تتوارث آراءه الأجيال.

ولقد دون تلاميذه آراءه، وما ألَّفه عبارة عن تلخيصات وشروح للكتب المقدَّسة القديمة التي نسخها وشرحها وعلَّق عليها إحياء لآداب القدماء الصينيِّين، وقد كانت شروحه وتعليقاته متضمنة منهجه وآراءه في الدين والأخلاق والسلوك القويم.

وهناك مجموعتان أساسيَّتان تمثلان الفكر الكونفوشيوسيّ فضلًا عن كثير من الشروح والتعليقات والتلخيصات، المجموعة الأولى تسمى الكتب الخمسة، والثانية تسمى الكتب الأربعة.

- الكتب الخمسة: وهي الكتب التي قام كونفوشيوس ذاته بنقلها عن كتب الأقدمين وهي:

١- **كتاب الأغاني أو الشعر**: فيه ٣٥٠ أغنيةً إلى جانب ستة تواشيحٍ دينيَّة تغنى بمصاحبة الموسيقى.

٢- كتاب التاريخ: فيه وثائق تاريخيَّة تعود إلى التَّاريخ الصينيِّ السحيق.

٣-كتاب التغييرات: فيه فلسفة تطور الحوادث الإنسانيَّة، وقد حوَّله كونفوشيوس إلى كتاب علميٍّ لدراسة السلوك الإنسانيِّ.

٤- كتاب الربيع والخريف: كتاب تاريخيٌّ يؤرخ للفترة الواقعة بين ٧٢٢ - ٤٨١ ق.م.

٥- كتاب الطقوس: فيه وصف للطّقوس الدينيَّة الصّينيَّة القديمة مع معالجة النِّظام الأساسيّ لأسرة تشو تلك الأسرة التي لعبت دورًا هامًّا في التاريخ الصينيِّ البعيدِ.

- الكتب الأربعة: وهي الكتب التي ألفها كونفوشيوس وأتباعه مدوِّنين فيها أقوال أستاذهم مع التفسير تارةً والتعليق أخرى، إنها تمثل فلسفة كونفوشيوس ذاته وهي:

١- كتاب الأخلاق والسياسة.

٢- كتاب الانسجام المركزي .Central Harmony

٣- كتاب المنتجات Analects ويطلق عليه اسم إنجيل كونفوشيوس.

٤- كتاب منسيوس: وهو يتألَّف من سبعةِ كتبٍ، ومن المحتمل أن يكون مؤلِّفها منسيوس نفسه.

المعتقدات الأساسيَّة

- تتمثل المعتقدات الأساسيَّة لديهم في عبادة ثلاثة أشياء: الإله أو إله السماء، والملائكة، وأرواح الأجداد.

١- الإله: يعتقدون في الإله الأعظم أو إله السماء ويتوجهون إليه بالعبادة، كما أن عبادته وتقديم القرابين إليه مخصوصة بالملك، أو بأمراء المقاطعات.

وللأرض إله، وهو إله الأرض، ويعبده عامَّةُ الصّينيِّين.

والشمس والقمر، والكواكب، والسحاب، والجبال. لكلٍّ منها إله وعبادتها وتقديم القرابين إليها مخصوصة بالأمراء.

٢- الملائكة: إنهم يُقَدِّسُون الملائكة ويقدمون إليها القرابين.

٣- أرواح الأجداد: يقدس الصّينيُّون أرواحَ أجدادِهم الأقدمين، ويعتقدون ببقاء الأرواح مع أسرتهم، ولذلك يعبدون أرواح الآباء وفاءً لعهودهم وشكرًا لهم على ما أسدوا من نعم لأبنائهم، ويقدِّمون لهم القرابين، وهي عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح بأنواع الموسيقى، ويوجد في كلِّ بيتٍ معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل.

معتقدات وأفكار أخرى

- لم يكن كونفوشيوس نبيًّا، ولم يدَّعِ هو ذلك، بل يعتقدون أنه من الذين وُهِبُوا تفويض السماء

لهم ليقوموا بإرشاد الناس وهدايتهم إلى السلوك المستقيم، فقد كان مداومًا على إقامة الشعائر والطّقوس الدينيَّة، وكان يعبد الإله الأعظم والآلهة الأخرى على غير معرفة بهم ودون تثبُّتٍ من حقيقة الآراء الدينيَّة تلك.

فكان في الناحية الدينيَّة ساذجًا يتشاءم من الرَّعْد، ويرتجف وترتعد فرائصه عندما يسمعه، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته. وفي الجملة كانت عقيدته ساذجَةً وعقله في هذه الناحية كان عشًّا للخرافات والأوهام، وفيه موضع لأساطير الأولين التي اكتتبها وحفظها، ولكن عبقريَّته وقوة إرادته باديتان في آرائه في السلوك الإنسانيِّ والخلق القويم ورياضة النفس عليه.

- كان كونفوشيوس مغرمًا بالسعي لتحقيق المدينة الفاضلة التي يدعو إليها وهي مدينة مثاليَّة لكنها تختلف عن مدينة أرسطو الفاضلة؛ إذ إنَّ مدينة كونفوشيوس مثاليَّة في حدود واقعٍ ممكن التحقيق والتطبيق، بينما مدينة أرسطو تجنح إلى مثاليَّةٍ خياليَّةٍ بعيدةٍ عن مستوى التطبيق البشري القاصر. وكلا الفيلسوفين متعاصران.

- الجنة والنار: لا يعتقدون بهما، ولا يعتقدون بالبعث أصلًا؛ إذ إنَّ همَّهم منصبٌّ على إصلاح الحياة الدنيا، ولا يسألون عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد. وقد سأل تلميذٌ أستاذَه كونفوشيوس عن الموت، فقال: «إننا لم ندرس الحياة بعد، فكيف نستطيع أن ندرس الموت».

- الجزاء والثواب: إنما يكونان في الدنيا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

- القضاء والقدر: يعتقدون بذلك، فيقولون: إن كلَّ الحوادثِ مقدرة في السماء معروفة، وإن تكاثرت الآثام والذُّنوب كان عقاب السماء لهم بالزلازل والبراكين.

- الحاكم ابنٌ للسماء: فإذا ما قسا وظلم وجانب العدل؛ فإن السماء تسلّط عليه من رعيته من يخلعه ليحلَّ محلَّه شخصٌ آخرُ عادلٌ.

- في القرن الرابع قبل الميلاد حدثت إضافة جديدة وهي عبادة النَّجْمة القطبيَّة لاعتقادهم بأنها المحور الذي تدور السماء حوله، ويعتقد الباحثون بأن هذه النزعة قد وفدت إليهم من ديانة بعض سكان حوض البحر المتوسط.

الأخلاق في الكونفوشيوسيَّة

الأخلاق هي الأمر الأساسيُّ الذي تدعو إليه الكونفوشيوسيَّة، وهي محور الفلسفة وأساس الدين، وهي تسعى إليه بتربية الوازع الداخليِّ لدى الفرد ليشعر بالانسجام الذي يسيطر على حياته النفسيَّة مما يخضعها للقوانين الاجتماعيَّة بشكل تلقائيٍّ.

وآراء كونفوشيوس في الأخلاق تتجه إلى ثلاث نواحٍ:

الأولى: في بيان الأصل الخُلُقِي الذي تقوم عليه الفضائل.

والثانية: إصلاح المجتمع وحمله على السلوك القويم.

والثالثة: إصلاح نظام الحكم وتقييده بالفضيلة.

- وتظهر الأخلاق في:

١- إطاعة الوالد والخضوع له.

٢- إطاعة الأخ الأصغر لأخيه الأكبر.

٣- إطاعة الحاكم والانقياد إليه.

٤- إخلاص الصديق لأصدقائه.

٥- عدم جرح الآخرين بالكلام أثناء محادثتهم.

٦- أن تكون الأقوال على قدر الأفعال، وكراهية ظهور الشخص بمظهر لا يتفق مع مركزه وحاله.

٧- البعد عن المحسوبيَّة في الوساطة أو المحاباة.

- وتظهر أخلاق الحاكم في:

١- احترام الأفراد الجديرين باحترامه.

٢- التودُّد إلى من تربطهم به صلة قربى وقيامه بالتزاماته حيالهم.

٣- معاملة وزرائه وموظفيه بالحسنى.

٤- اهتمامه بالصالح العامِّ، وأن يجعل من نفسه أبا للشعب.

٥- العطف على رعايا الدُّول الأخرى المقيمين في دولته.

٦- تحقيق الرفاهية لأمراء الإمبراطورية ولعامة أفرادها.

٧- العمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها.

- تحترم الكونفوشيوسيَّة العادات والتقاليد الموروثة، فهم محافظون إلى أبعد الحدود، فيقدِّسون العلم والأمانة، ويحترمون المعاملة اللَّيِّنة من غير خضوع ولا استجداء لجبروت.

- يقوم المجتمع الكونفوشيوسيُّ على أساس احترام المِلْكية الفرديَّة مع ضرورة رسم برنامجٍ إصلاحيٍّ يؤدِّي إلى تنمية روح المحبَّة بين الأغنياء والفقراء.

- يعترفون بالفوارق بين الطَّبقات، ويظهر هذا جليًّا حين تأدية الطقوس الدينيَّة وفي الأعياد الرسميَّة وعند تقديم القرابين.

- النِّظام الطبقِي لديهم نظام مفتوح، إذ بإمكان أيِّ شخصٍ أن ينتقل من طبقته إلى أيةِ طبقةٍ اجتماعيَّة أخرى إذا كانت لديه إمكاناته تؤهله لذلك.

- ليس الإنسان إلا نتيجة لتزاوج القوى السماويَّة مع القوى الأرضيَّة أي لتقمص الأرواح السماويَّة في جواهر العناصر الأرضيَّة الخمسة. ومن هنا وجب على الإنسان أن يتمتع بكلِّ شيءٍ في

حدودِ الأخلاق الإنسانيَّةِ القويمة.

- يبنون تفكيرهم على فكرة «العناصر الخمسة» وهي:

١- فتركيب الأشياء: معدن - خشب - ماء - نار - تراب.

٢- الأضاحي والقرابين خمسة.

٣- الموسيقى لها خمسة مفاتيح، والألوان الأساسيَّة خمسة.

٤- الجهات خمس: شرق، وغرب، وشمال، وجنوب، ووسط.

٥- درجات القرابة خمس: أبوّة - أمومة - زوجية - بنوّة - أخوّة.

- تلعب الموسيقى دورًا هامًّا في حياة الناس الاجتماعيَّة، وتسهم في تنظيم سلوك الأفراد وتعمل على تعويدهم الطاعة والنظام، وتؤدي إلى الانسجام والألفة والإيثار.

وعبادات الصينيين غناء ورقص وموسيقى، وكأنهم بهذه الأعمال يشركون آلهتهم معهم في سرورهم وأفراحهم وأغانيهم وموسيقاهم.

- الرجل الفاضل هو الَّذي يقف موقفًا وسطًا بين ذاته المركزيَّة وبين انفعالاته ليصلَ إلى درجة الاستقرار الكامل.

الانتشار ومواقع النفوذ

- انتشرت الكونفوشيوسيَّة في الصين.

- منذ عام ١٩٤٩م أبعدت الكونفوشيوسيَّة عن المسرحين السياسيِّ والدينيِّ لكنها ما تزال كامنة في روح الشعب الصينيِّ، وهذا ما يؤمل أن يؤدي إلى تغيير ملامح الشيوعيَّة الماركسيَّة في الصين.

- استطاعت الكونفوشيوسيَّة أن تصهر البوذيَّة في القالب الكونفوشيوسيِّ الصينيِّ، وتُنْتِجَ بوذيَّةً صينيَّةً خاصَّةً متميِّزةً عن البوذيَّةِ الهنديَّةِ الأصليَّة.

- ما تزال الكونفوشيوسيَّة ماثلةً في النُّظُم الاجتماعيَّة في فرموزا أو (الصين الوطنية).

- انتشرت كذلك في كوريا وفي اليابان إذ درست في الجامعات اليابانيَّة، وهي من الأسس الرئيسيَّة التي تشكل الأخلاق في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقيِّ في العصرين الوسيط والحديث.

- حظيت الكونفوشيوسيَّة بتقديرِ بعضِ الفلاسفة الغربيِّين كالفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦م) وبيتر نويل الَّذي نشر كتاب كلاسيكيات كونفوشيوس سنة ١٧١١م كما ترجمت كتب الكونفوشيوسيَّة إلى معظم اللُّغات الأوربيَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٧٤٨- ٧٥٦)، الديانات القديمة ص(٨٠- ١١١)، معتقدات آسيوية ص(٢٤٥- ٢٨٧).

الباب الرابع

أديان اليابان

الفصل الأول

الشنتويَّة

التعريف:

الشنتويَّة ديانة وضعيَّة اجتماعيَّة ظهرت في اليابان منذ قرون طويلةٍ، وما زالت الدين الأصيل فيها، وقد بدأت بعبادة الأرواح، ثم قُوى الطبيعة... ثم تطوَّر احترام الأجداد والزعماء والأبطال إلى عبادة الإمبراطور الميكادو الذي يُعَدُّ من نسل الآلهة، كما يزعمون.

تاريخ الشنتويَّة

لا تنتسب الشنتويَّة إلى شخص معين بل هي دين اجتماعيٌّ مرَّ بأدوارٍ.

فقد كان من أثر وصول الصِّينيِّين إلى اليابان واستقرارهم هناك وإسهامهم في تركيبتها السُّكَّانيَّة وفنونها -أن يتتلمذَ اليابانيُّون على الفكر الصِّينيِّ.

بالإضافة إلى أن الهواجس التي بعثها الخوف من الزَّلازِل والبراكين والعواصف والأعاصير ومياه المحيط وأسماكه المتوحشة التي كثيرًا ما تبتلع الخارجين في طلب الرِّزْقِ -كانت سببًا في ظهور اعتقادهم في أن الأرواح سارية في كواكب السماء ونجومها، وفي نباتات الحقول وحشراتها، في الأشجار والحيوان والإنسان، واعتقاد أن عددًا لا يحصى من الآلهة يحوم حول الدار وساكنيها مع ضوء الصبح ووهجه.

وكان التقرُّب إلى هذه الآلهة الكثيرة العاتية؛ خوفًا وتَقَرُّبًا إليها، أو طلبًا للمعونة والمعرفة منها -هو الذي طغى عليهم للخواء الدينيِّ الذي تتطلب الفطرة شغله. مع وجود الإجلال لكلِّ شيءٍ ذي قوةٍ أو جمالٍ، أو ذي شكلٍ يفوق المعتاد.

وكان يحدث أحيانًا أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذي مات ليدافعوا عنه في أول مراحل حياته الآخرة وكان فيه ظهور لعبادة الأسلاف التي نشأت منها طريق الآلهة (الشنتو).

وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة يماتو لها دور ممهد لهذه العقيدة الجديدة، وفعل رجال يماتو الكثير لتبسيطها وتقريبها إلى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آلهةً صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الغالبة، وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسيَّة والدينيَّة أثره الكبير في وجود توقير يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الإمبراطور (الميكادو).

وبعد انهزام اليابان في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥م عملت السياسة الأمريكيَّة على إبطال عبادة الإمبراطور، وحاولت القضاء على الوطنية الفائقة التي تغرسها الشنتويَّة في النفس اليابانيَّة، التي أفرزت أثناء الحرب العالمية الفرق الانتحاريَّة التي أنهكت الأسطول الأمريكيّ.

أفكار ومعتقدات الشنتويَّة

١- تشيع في الشنتويَّة الحالية عبادة الطبيعة وقواها المنتجة، وهي من خصائص الأديان الوثنيَّة، لذلك فإن الناس يعظمون الشَّمسَ وكذلك الأرزَ -الغذاء الرئيسيُّ لهم- والذي تكثر معابده في الأقاليم الزراعيَّة.

فهم يتجهون إلى عبادة روح الطبيعة القادرة في جميع مظاهرها، سواء في الإنسان أو الحيوان أو الجماد، فالأباطرة العظام لهم معابد تعبد فيها أرواحه، كذلك الأبطال، كما توجد معابد فيها السيوف التي خاض بها أصحابها معارك وحققوا انتصارًا، وهناك معابد للجبال ذات الشكل المتميز مثل جبل فوجي، وثمة أشجار مقدسة وملابس... وتعتبر المرآة مقدَّسة؛ لأنَّها تعكس الشمس جدة العائلة الإمبراطورية.

٢- يطلق الشنتويُّون لفظ كامي على كلِّ إلهٍ أو شيءٍ يسمو فوق الإنسانِ كالسماء أو السلطان.

وهو في العقيدة الشنتويَّة يجسِّد الاستقامة والأمانة الجوهريتين ومن ثم فهو تقدير سماويٌّ يجعلهم يعتقدون أنَّهم يعيشون حياةً سعيدةً وأمينةً تنسجم مع إرادة الكامي، الروح في الطبيعة، والإخلاص في الإنسان، والفضيلة الرئيسيَّة في فكر الشنتو.

٣- وفي الشنتويَّة يوقر الناس الأجداد والأسلاف من الزعماء والأبطال والملوك... وهناك فرق بين عبادة الأسلاف في الصِّين وبين توقير اليابانيِّين واحترامهم لأجدادهم.

٤- تطورت الشنتويَّة من احترام وتوقير الأسلاف من زعماء القبائل أو الأبطال إلى عبادتهم.

وكان رجال قبيلة يماتو أشدَّ النَّاسِ إحياءً لتوقير السلف من القبائل، وهم الذين صاروا سادةَ اليابان فيما بعدُ، وكان زعيمهم المعروف بالميكادو مركزَ دينهم وعبادتهم.

ثم زعموا أن الشمس تمتُّ إليهم بصلةِ القربى، ومنها تحدد الميكادو فحسبوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض.

فالإمبراطور الميكادو هو الخالد في نظرهم، المنزَّه عن العيوبِ والنقائص، والسمو به إلى درجة لا يشاركه فيها سواه.

وقد جاء في منشور صدر عن وزارة المعارف اليابانيَّة عام ١٩٣٧م «إنَّ أرضَنَا بلدٌ إلهيةٌ يحكمها الإمبراطور وهو إله». ولا ندري كيف يجتمع هذا السخف مع التَّقدُّمِ العلميِّ في اليابانِ الحديثةِ.

٥- الإمبراطور والدّولة هما كلُّ شيءٍ، ولا قيمة للفرد في الديانة الشنتويَّة لذلك تُعَدُّ التضحية به شرف عظيم له.

٦- يُعَدُّ الاهتمام بالنظافة أمرًا مقدَّسًا، ويكره أتباع الشنتويَّة كلَّ شيءٍ يُدَنِّسُ الجسدَ أو الثوبَ.

٧- أكثر الرموز شيوعًا في الشنتو ثلاثة:

المرآة: التي تربط الأساطير بينها وبين الإلهة أماترسو إله الشمس.

السيف والجوهرة: اللَّذان وهبتهما أماترسو لحفيدها عندما هبط إلى الأرض.

الطّقوس التَّعبُّديَّة عند الشنتويَّة

كان على الكهنة في كلِّ هيكلٍ إعداد صلوات يرونها ملائمة لكلِّ مناسبةٍ، وظلَّت هذه العادة قائمة حتى عصر ميجي (١٨٦٨- ١٩١٢م) الذي قام بتحديث البلاد وإضفاء الطَّابَع الغربيِّ عليها، ومنذ سنة ١٨٧٥م قدَّمت الدولة صلواتٍ رسميةً تؤدَّى في الأعياد والطّقوس المقرَّرة، ومنذ سنة ١٩٤٦م بدأت جمعيَّة هياكل الشنتو التي يرتبط بها أكثر من ثمانين ألفَ هيكلٍ في إعداد الصلوات وإن تركت للكهنة حرِّيَّة تأليف صلواتهم الخاصة بهم إذا رغبوا في ذلك.

ودخلت عبادة الشنتو المنزل من خلال هيكلِ المنزل، وكان من المألوف أن توجد فيه تمائم مجلوبة من هيكل آيس وهو الهيكل الذي اصطبغ بصبغة قوميَّة مع توحد الأمَّة بوصفها أسرة واحدة مع الإمبراطور الذي يقوم بدور الأب، ومن هنا سمي هيكل العِشرة، أو الهيكل المحليّ، ولا بد من تقديم القرابين كلَّ صباحٍ وكلَّ مساءٍ لألواح الهياكل وألواح الأسلافِ في آنٍ واحدٍ، ولا بدَّ للمتعبِّد الورع أن ينحني بعد مراسم الطهارة أمام الهيكل ويصفق بيديه مرتين، ثم ينحني مرة أخرى في صمت لمدة دقيقة.

كتب الشنتويَّة

إنَّ جملةَ الأساطير اليابانيَّة الأولى جمعت في بداية القرن الثامنِ الميلاديِّ في مجموعتين:

١- الكوجيكي (سجلات الأمور القديمة) سنة ٧١٢م.

٢- النيهونجي (حوليات اليابان) سنة ٧٢٠م.

وقد كُتِبَ كلٌّ من المجلدين بالصِّينيَّة، مما يفيد قوة الوجود الصينيِّ في العروق اليابانيَّة وفي ثقافتها حتى هذا الزَّمَنِ المتأخرِ[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٣٢، ٧٣٣)، معتقدات آسيوية ص(٣٢١- ٣٢٧).

الفصل الثاني
البوذيَّة اليابانيَّة

التعريف:

البوذيَّة اليابانيَّة هي البوذيَّة الهنديَّة والصينيَّة بعد أن تم مزجها بالمعتقدات والعادات اليابانيَّة، والبوذيَّة دخلت اليابانَ ولم تخرجْ منه، إلّا أنَّ البوذيَّة اليابانيَّة تختلف عن البوذيَّة الهنديَّة والصِّينيَّة في كثير من التَّعاليم.

والتَّسامحَ سائدٌ بين البوذيَّة اليابانيَّة والشنتويَّة، فنرى الناس في اليابانِ يتنقلون من هيكلٍ بوذيٍّ إلى معبدٍ شنتويٍّ دونَ حرجٍ، والعقائد التي يعتنقها الفرد اليابانيُّ العاديُّ مزيجٌ من الشنتويَّة والكونفشيوسيَّة والبوذيَّة.

وفي العصر الحديث حينما استيقظ الشُّعور القوميُّ في اليابان، ويلغ ذروتَه في ثورة ١٨٦٨م، نفر الشَّعب من كلِّ ما هو أجنبيٌّ، ومنه البوذيَّة فأزيلت تماثيل بوذا من المعابد، وأوقف الكهنة البوذيُّون عن ممارسة وظائفهم وعادت الشنتويَّة دينًا قوميًّا. وكانت الحكومة اليابانيَّة تعمل على توطيد الشنتويَّة في البلاد للاحتفاظ بعبادة الإمبراطور الميكادو.

تاريخ البوذيَّة في اليابان

دخلت البوذيَّة اليابان حوالي سنة ٥٣٩م، عندما عقد حاكم مملكة كوريَّة صغيرة تحالفًا مع حاكم ياماتو، ولكي يرضيه أرسل إليه تمثالًا صغيرًا لبوذا وبعض النصوص البوذيَّة (سوترا Sutra) التي وصفها بأنَّها أعظم كنوز يمكن أن يرسلها إليه.

وكانت اليابان متأثرة إلى حد كبير بالفكر والثقافة الصينيَّة وبخاصَّة من خلال إدخال النظام الصيني في الكتابة سنة ٤٠٥م، كما أن عبادة الأسلاف الصينيَّة قد أثرت أيضًا على موقف اليابانيين من الماضي واتحدت مع عناصر السحر التاوي، التنبؤ بالغيب في معتقدات شنتو الوطنيَّة.

ومع أنَّ دخول البوذيَّة جاء عن طريق كوريا فإنَّ استمرار الاتصال كان مع الصين حيث تكيف البوذيَّة بالفعل مع صور من الفكر الكونفوشي والتاوي، ومن ثم كان من الطبيعي أن تدخل الصورة الصينيَّة للبوذيَّة إلى اليابان، وهي بوذيَّة (المهايانا) مع قدر من التأثر بتعاليم (المهايانا).

وقد عارضت في البداية الكهانة الشنتويَّة بشدة الديانة الجديدة، وعندما انتشر الطاعون نسب الكهنة انتشاره إلى أن العبادة اتجهت إلى (كامي) أجنبي، وأدَّى هذا الاتهام إلى حرق المعابد البوذيَّة وتحطيم تماثيل بوذا.

غير أنَّ الديانة الجديدة لقيت دعمًا من دوائر البلاط فقد أدخل أحد القادة المرموقين في الثورة الثقافيَّة والدينيَّة وهو -الأمير شوتوكو (٥٩٣- ٦٢٢ تقريبًا) الذي كان وصيًّا على العرش الذي

كانت تجلس عليه عمته- دستورًا جديدًا يقوم على مبادئ البوذيَّة، فأصبحت البوذيَّة بهذا الدستور ديانة تعترف بها الدولة، وظهر في ذلك الحين أو بعده ميل إلى التوحيد بين البوذيَّة والقوانين الوطنيَّة مما جعل الدولة تتكفل بحماية الدين وتنال حقّ التصديق الديني في وقت واحد.

وقد بنى الأمير شوتوكو المعابد والأديرة، بوصفه بوذيًّا ورعًا ومن بينها معبد هوريوجي القريب من مدينة (نارا)، ويعد من أقدم المباني الخشبيَّة في العالم. وقد خلف شوتوكو وراءه ثروة من اللوحات البوذيَّة التي كانت بمثابة الوثائق التاريخيَّة لذلك العصر، وقد أرسل الأمير بعثات إلى الصين لتلقي التعليم مباشرة من منبع هذه الثقافة الرفيعة، وأخذ ينقل عن الصين نظام مؤسساتها السياسيَّة.

وقد أظهر شوتوكو سعة اطلاع وقدرة على البحث عندما نشر شروحًا على بعض النصوص المقدَّسة (Sutra) وساعد على إلحاق مستوصفات للإنسان والحيوان بالأديرة ونزل للمرضى واليتامى والمسنين.

واحتاج الأمر إلى وقت طويل حتَّى يستوعب الناس تعاليم البوذيَّة، فلا تظهر بمظهر الديانة الأجنبيَّة، وكان أيسر على الغالبيَّة العظمى فهم الجوانب الثقافيَّة للبوذية أكثر من فهمهم الجوانب المذهبيَّة والميتافيزيقيَّة الأكثر صعوبة.

وصار المعبد الرسمي إنجرياكوجي مركزًا للنشاط البوذي في اليابان لمدة ثمانمائة سنة تقريبًا وفي هذه الأثناء امتلأ منحدر الجبل بالمعابد والرهبان الذين كان بوسعهم غزو العاصمة عن طريق تشكيلات مسلحة.

ولم يتعذر على البوذيَّة أن تخلي من نفسها مكانًا في لاهوتها وفي عداد آلهتها لمذاهب شنتو وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ(أمانيراسو) وخصص مكان متواضع في المعابد البوذيَّة لضريح شنتو.

وشهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر تطورًا جديدًا هامًّا تمثل في اهتمام عامة الشعب الياباني بالمعتقدات البوذيَّة ومن أهمها خلاص الروح ودخولها الجنَّة بالإيمان البسيط بضرورة الاعتماد على إله من الآلهة البوذيَّة العديدة ولم تكن تلك المعتقدات سوى انعكاس كامل لجوهر العقيدة البوذيَّة القائلة باتحاد الذات الإنسانيَّة في الكون عن طريق التدريب القاسي للنفس وصولًا إلى مرحلة الاستنارة.

مذهب زن

نتج من تلك الأفكار ظهور حركات مذهبيَّة جديدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . . . أمَّا الفرسان فقد فضلوا من بين مذاهب الديانة البوذيَّة مذهبًا آخر عرف باسم زن Zen نقل عن الصين في أوائل عهد نظام (كاما كورا).

ويركز مذهب زن على فلسفة التأمل والبساطة والالتصاق بالطبيعة وينادي بتقشف الفرسان والانضباط النفسي الصارم من أجل ممارسة فلسفة زن في التأمل كوسيلة لتنمية إرادة التحكم في

النفس والوصول إلى الشخصيَّة الحازمة وهو الهدف من الحياة.

وقد اتخذ أباطرة أسرة آشيكاجا من رهبان زن مستشارين لهم، خصوصًا فيما يتعلق بعلاقاتهم واتصالاتهم بالصين ومن خلال هؤلاء الرهبان شهدت اليابان نهضة كبيرة في مجال العلوم والآداب الصينيَّة.

وفي أواخر العصور الوسطى وضع رهبان (زن) نظامًا جماليًّا متكاملًا أصبح فيما بعد من العناصر الدائمة في الثقافة اليابانيَّة، ارتكز هذا النظام على الاهتمام بقيمة أي عنصر بسيط طبيعي، وغير منسق أيضًا أكثر من اهتمامه بالعناصر المصنوعة الفخمة المتناسقة، وكانت التشكيلات الطبيعيَّة الخشبيَّة وجذوع الأشجار الدائريَّة ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم أكثر من قطع الخشب محددة التشكيل والمطلية بالألوان. . . وكانوا يفضلون التشكيلات المعماريَّة البسيطة غير المتنظمة، والتي لاءمت مستويات الأرض المختلفة أكثر من الطراز المعماري الصيني الثابت المتوازن المتسم بالأبهة والفخامة، وفي مجال الحدائق صمموا نماذج للحدائق الصغيرة التي تعبر عن روعة الطبيعة الوحشيَّة في صورة مصغرة، وهو اتجاه يتناقض تناقضًا شديدًا مع ولع الغربيين بأنماط الحدائق الكبيرة ذات التنسيق الهندسي، ولعل أبرز مثال لهذا الاتجاه هو حديقة الصخرة الشهيرة المعروفة باسم (رويوانجي) في مدينة كيوتو، والتي تمثل بحقٍّ المذهب الياباني.

وشهدت القرن الثالث عشر نهضة زاهرة في فن النحت، وظل تمثال بوذا العظيم القائم في مدينة كاماكورا رمزًا لذلك العصر، وهو من أكبر التماثيل البرونزيَّة في العالم.

الطقوس التعبديَّة

عرف المعبد البوذي بأنَّه بناء يحيط به سياج، وقد يشكل البناء أكثر من معبد، ويزعمون أنَّه يحرس مدخلِ المعبد تماثيل منفردة ذات وجوه عابسة، حتى تمنع الشرور، وتغطي المعابد عادة بالورق؛ لأنَّ المتعبدين يكتبون التماساتهم على قصاصات من ورق يقذفون بها إلى التماثيل، وبعد أن يلوكوها بأفواههم، وإذا التصقت بالتماثيل وثق المرء من إجابة التماسه، وكثيرًا ما يحتوي المعبد على (باغوادا pagoda) ترتفع من ثلاثة إلى أربعة طوابق مزخرفة ومنمقة في العادة، ويحتوي المحراب الرئيسي على مذبح به شموع مضاءة مع تماثيل لبواذا، والبوذات المنتظرين (بوذا ساتفا)، وآلهة الهند (ديفا)، وحول المذبح صناديق تشتمل على السوترا (النصوص). . . ولا تحصل فرقة واحدة على الشريعة (الصينية) كلها، بل يكون لكلِّ فرقةٍ أن تنتقي من النصوص ما تعتقد أنَّه النصوص المعتمدة، وتختلف الصورة المركزيَّة فوق المذبح تبعًا لكل فرقة.

ويقوم الكهنة بإنشاد النصوص، وتلاوة الصلوات، بمصاحبة الطبول والأجراس، وحرق البخور، ونادرًا ما يحضر المؤمنون العاديُّون هذه الصلوات، فعبادة هؤلاء شخصيَّة إلى حدٍّ كبيرٍ، وهي تنحصر -في كثير من الأحيان- في مذبح الأسرة بالمنزل، وهو صورة مصغرة مما يوجد في المعبد.

وتقدم كثير من المعابد -بصورة أساسيَّة- وجبات، وفقًا لحاجة الناس، كما تزودهم بتذكارات، وتنقش أسماء المساهمين في موارد المعبد الماليَّة على بعض الأشياء المقدَّسة، أو الزخارف التي يمكن وضعها في مذبح الأسرة في المنزل.

ويتأكد الجو الصوفي الغامض للمعبد بتوزيع التمائم والرق، ومع شيءٍ خاص بالمعبد البوذي، هو ميدالية تشبه القديس كريستوفر الذي يزعم أنَّه (كان يرعى المسافرين في القرن الثالث الميلادي، وفي القرن العشرين يرعى ركاب السيارات وسائقيها).

وتباع هذه الميدالية لسائقي سيارات الأجرة في طوكيو، أما الكهنة في معظم المعابد فهم على استعداد لتأدية الطقوس العامَّة، والشعائر الخاصَّة، التي تنحو نحو التوسل أكثر من التوقير الخرافي لصحة النصوص الدينيَّة.

وقوة عبادة الأسلاف -كما تمثل في القيام بالطقوس الجنائزيَّة والتذكاريَّة للمتوفى- فإنَّها تشغل الكاهن أكثر مما يشغله التعليم المنتظم للبوذيَّة.

ولقد ظهرت لوحات الأسلاف في مذبح الأسرة، ووجدت لها مكانًا فيه، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، فأصبحت تعبد جنبًا إلى جنب مع التماثيل الصغيرة لبوذا، ونسخ من النصوص المقدَّسة، والمتعبد الشنتوي يتطلع إلى أن يُصبح روحًا (karma) عندما يموت، كما أنَّ البوذي ينتظر أن يصبح بوذا (مستنيرًا)، وليس ثمة فرق بين التصورين؛ لأنَّهما تغذيا من ثدي واحد.

أما قرابين النذور، فهناك فارق على المستوى الشعبي بين ممارسي الشنتويَّة، فهناك نذور للشفاء من المرض، ونذور للحمل السهل، أو الولادة الآمنة للطفل، كما يقدم نموذج للثدي قربانًا أثناء الصلاة، ليكون لبن الأمن غزيرًا، وتقدم مغرفة للطفل أثناء الصلاة، لكن إذا كان قاع المغرفة غير صالح فإنَّ الإجهاض يكون موضوع التوسل، وتقدم شخصيات الدهارما **dharma** (المؤسس المزعوم لبوذيَّة زن، أو الجوهر الأزلي الذي يحرك العالم) بغير عيون، حتى يستجاب الطلب.

وإذا كانت زيادة الهيكل خاصَّة سار المتعبد على قدميه حافيًا بمجرد أن يتخطَّى البوابة الأولى، ولا بدَّ أن يغسل يديه وفمه من نبع طبيعي في مجمع الهيكل، ثم يصفق المتعبد -ذكرا أو أنثى- وهو يحني الرأس إجلالًا، أثناء توسلاته، غير أنَّ التَّوسل يمكن أن يكتب في ورقٍ، ويعلق على إحدى أشجار السكاكي sakaki المقدَّسة.

وتتضمن العبادة الرسمية أربعة عناصر، وهي:

١- فعل التطهير بالإضافة إلى الاغتسال، عندما يلوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكي على المتعبد.

٢- القربان الذي يكون رمزيًّا في صورة غصنٍ من شجرة السكاكي، كما يكون من الحبوب والشراب ومن المال.

٣- طقوس الصلاة.

٤- الوليمة الرمزيَّة، دلالة على تناول الطعام مع (كامي)، وكثيرًا ما يشمل هذا العنصر رشف قطرات من خمر الأرز المقدس الذي يقدمه الكاهن، ويمكن لجماعة المتعبِّدين أن تطلب أيضًا تأدية الرقصة المقدَّسة للمعبد، التي يوجد منها خمس وثلاثون رقصة تعبر عن الأساطير القديمة.

وثمة صلاة ضارعة للكامي من أجل محصول وفير: (ليت الحبة الأخيرة من الأرز التي ستحصد بحبات العرق من سواعدهم وتشد من الوحل العالق بالفخذين -ليت هذه الحبَّة تزدهر بفضلك أنت وتتفتح سنابل الأرز التي تتوق إليها الأيدي الكثيرة فتكون أولى الثمرات في الشراب وأعواد النبات).

النُّسَّاك البوذيُّون

سعى رجال من خارج المؤسسات الدينيَّة الرسميَّة إلى تقديم الحياة الدينيَّة لعامة الناس ويسمَّى هؤلاء الرجال Hijivi وهم يركزون كثيرًا على التقوى الفرديَّة، وقد سار كثير منهم على نهج النُّساك البوذيِّين. وكان الاعتقاد السائد أنَّ الناسك يستطيع أن يبلغ قوة سحريَّة تفوق قوة البشر نتيجة الميزة التي حصل عليها من خلال ممارساته الدينيَّة الصارمة.

وكان بعض النساك ينتقلون من قرية إلى قرية ويعملون (كشامانيين) لهم قدرة خارقة على شفاء المرضى والاتصال بالعالم العلوي وارتبطت طريقة النُّسَّاك بعبادة الجبال الشنتويَّة البدائيَّة ولا يزال متسلقو الجبال هم السحرة الذين يسعون إلى حالة الإلهام أو الوجد الصوفي أثناء تسلقهم . . . وقد جاء في الفكر البوذي أن صعود الجبال يوازي الصعود في الطريق ذات الشعب الثماني التي تؤدي إلى الاستنارة.

وكان جيوجي (٦٧٠- ٧٤٩م) واحدًا م النُّسَّاك المبكرين غير التقليديِّين ثم أصبح بوذيًّا بدرجة تعادل درجة المطران، وقد نظر إليه أثناء حياته على أنَّه بوذا المنتظر وارتبطت صور الشنتو الأقدم عهدًا مع خلفائه بطقوس السحر البوذيَّة وشعائرها وبالخرافات الشعبيَّة التاوية.

وترددت في تراث الرجال المقدسين أفكار الاستحواذ على كامي أو على بوذا كما أنَّ الرجال الأفذاذ الملهمين ينتقلون في بعض الحالات من جيل إلى جيل داخل الأسر، كما هو الحال مع يامابوشي (الإله المقدَّس الذي كان يعمل مرشدًا للحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدَّسة التي تسكنها آلهة الشنتو) أو كما هو الحال مع (ميكو) كاهنة هيكل الشنتو وقد يعملون وسطاء بفضل موهبة خاصَّة لديهم.

الكهنة البوذيُّون

كان الكهنة البوذيُّون الذين ظهروا في القرون الأولى يتمثل فيهم الولاء كما يتمثل العلم والرحمة وكان لهم أثر عميق في تقدم الآداب والفنون في اليابان حتى كان منهم رسَّامون أو نحَّاتون من الطراز الأول كما كان منهم علماء أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذي والصيني.

وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأنَّ الرجل في سنة الأربعين يمكنه أن يشتري عقدًا آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسومًا لأربعين معبدًا تدعو له بذلك، ويمكن للرجل في سن الخمسين أن يشتري عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين معبدًا تدعو له، وفي سن الستين يستأجر ستين معبدًا وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون في تقاه من نقص.

وكان الرهبان في عهد توكوجاوا يشربون الخمر إلى درجة الإسراف، ويحيط بهم الغانيات صراحة ويمارسون اللواط ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع ثمنًا أعلى.

يقول مردوخ: كان الرهبان في دير كيوتو ونارا العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادي في الأوقات التي كان الشعب يتضور فيها جوعًا بل يموت عشرات الآلاف من الوباء لأنَّ المؤمنين بالدين يسخون في هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء في أمثال هذه الأوقات.

ويقول مردوخ: في سنة ١٤٥٤م كان الصِّبية يباعون للكهنة وكان الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ويستعملون أسفل ضروب الاستعمال؛ لأنه من عهد يوشيمتسو الذي ضرب مثلًا سيئًا في هذا الصدد، وفي كثير غيره من الأمور، واللواط يزداد شيوعًا وخاصة في الأديرة ولو أنَّه لم يكن مقصورًا على الأديرة وحدها.

ومع هذا الفساد المتفشي في القمم الدينيَّة فقد كان ثمة محاولات لاقتحام هذا السد الصفيق العتيق.

يقول كيوسو: لا تظنوا أنَّ الله بعيد عنكم ابحثوا عنه في قلوبكم لأنَّ القلب هو مقرُّ الله.

ويقول إكن: إنَّ حمقى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك في وجودها وطلبًا لسعادة أنفسهم في الوقت الذي تراهم فيه يقترفون الموبقات.

ويقول ناكايي توجو: إنَّ عقل الإنسان هو عقل العالم الذي يخضع في سيره لمنطق العقل لكن هناك عقلًا آخر يسمى الضمير وهذا هو الجانب الذي لا ينتمي إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائي وأبدي لأنَّه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهي أو الكوني كان بغير بداية أو نهاية فإذا ما سلكنا في أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل أي بالضمير كنَّا بمثابة التجسيد اللانهائي والأبدي وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد.

ولأن هذا الفكر لم يتطور حتى مع الصحوة اليابانيَّة في نهاية القرن التاسع عشر إذ كانت الصحوة مسوقة سوقًا ماديًا قال ول ديورانت: إنَّها الحكمة التي أسماها موليير: الفضائل التي تجلب النعاس.

ديانة سيكاكيسكو (إنقاذ العالم)

تأسست في اليابان ديانة سيكاكيسكو (ديانة إنقاذ العالم، أو العالم المنتظر) على يد أوكادامو كيشي (١٨٨٢/ ١٩٥٥) عندما انشق عن فرقة أموتو، وقد اعتقد أنَّه وهب القدرة، على الأعمال الخارقة، وهي قدرة كانون kannon (بوذا المنتظر، صاحب الرحمة)، وتذهب إحدى القصص

التي تروى عنه إلى أنَّ هذه القدرة تتضمنها لؤلؤة صغيرة داخل جسمه، ويشع نور من هذه اللؤلؤة يقتل البكتريا، كما يعتقد أنَّ لديه القدرة على شفاء الأمراض، وإثراء المحاصيل، وبسبب ذلك سمي هيكارى -سان، أي رجل النور، ويزعمون أن لديه القدرة على تحويل القوة الشافية إلى قصاصات من ورق، تكتب عليها العلامة اللغوية الدالة على النور، وهنالك محاولة داخل مراكز هذا الدين لإقامة (المملكة)، فالشغل الشاغل لهذه الفرقة هو (إزالة المرض، والفقر، والحرب، من هذا العالم، تحويله إلى جنة أرضية).

ويسمى الإله باسم ميروكو miroku (بوذا المنتظر)، كما يقال: إنَّ الصحة والثراء والسلام هي عناصر مملكته، وتقول إحدى الترانيم: (تعال يا ميروكو، يأيها الإله العظيم، مزودًا بقوة عظمى قوة الثلاثة في واحد: النار والماء والتراب، ميروكو، يأيها الإله العظيم، حتى عندما يتسلل لص، فإنَّك تكون قد ولدت تحته بطريقة خفية، تاركًا خلفك العرش الممجد الرفيع، فأنت دائمًا تولد تحته لكي تجلب الخلاص) [1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٣٣، ٧٣٤)، معتقدات آسيوية ص(٣٢٨- ٣٣٦).

الباب الخامس

الصَّابئة المندائيُّون

التعريف:

الصابئة المندائيَّة هي طائفة الصَّابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم والتي تعد يحيى عليه السلام نبيًّا لها، يقدِّس أصحابها الكواكبَ والنُّجومَ ويعظِّمونها، ويعد الاتِّجاه نحو نَجْم القطب الشماليِّ وكذلك التَّعمِيد في المياه الجارية من أهمِّ معالم هذه الدِّيانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجِزْية من معتنقيها أسوةً بالكتابيِّين من اليهود والنصارى.

ويعتقد أن كلمة المندائيِّين اشتقت من الجذر (مندا) والذي يعني باللُّغة المندائيَّة -التي هي فرع من اللُّغة السريانيَّة القديمة- المعرفة أو العلم. أما كلمة الصَّابئة فهي مشتقَّةٌ من الجذر (صبا) ويعني بالمندائيَّة اصطبغ، تعمَّد، أو غطس في الماء، وهي من أهمِّ شعائرهم الدينيَّة. وبذلك يكون معنى الصَّابئة المندائيّين المصطبغين أو المتعمدين العارفين لدين الحقِّ.

واختلف بعض علماء اللُّغة في أصل كلمة الصَّابئة وأرجعها البعضُ إلى الجذر العربيِّ (صبأ) والَّذي يعني خرج وغيَّر حالته. ويعتقد بعض المسلمين أن سبب تسميتهم بالصَّابئة أنهم «صبئوا» عن الدِّين الإسلامي. في حين يعتقد بعض النَّصارى أن الصَّابئة «مارقون على المسيحيَّة»؛ لذلك أصبحوا منذ منتصف القرن السَّادس عشر الميلاديِّ هدفًا لضغط المُنَصِّرين لإعادتهم إلى صفوف المسيحيَّة، حسب اعتقاد المُنَصِّرين.

والصائبة المندائيُّون غير صابئة حرَّان الَّذين كانوا يعبدون النُّجوم وانقرضوا حاليًا، كما أنَّ الصَّابئة لا يعرفون أنفسهم بهذا الاسم بل بأنهم مندائيُّون.

تاريخ الصَّابئة المندائيِّين

- يدّعي الصابئة المندائيُّون بأن دينَهم يرجع إلى عهد آدم عليه السلام.
- ينتسبون إلى سامِ بن نوح عليه السلام، فهم ساميُّون.
- يزعمون أن يحيى عليه السلام هو نبيُّهم الَّذي أرسل إليهم.
- كانوا يقيمون في القدس، وبعد الميلاد طردوا من فلسطين فهاجروا إلى مدينة حرَّان فتأثروا هناك بمن حولهم وتأثروا بعبادة الكواكب والنُّجوم من الصَّابئة الحرَّانيِّين، أو على الأقل تقديس هذه الكواكب وتعظيمها، وتأثروا بهم في إتقان علم الفلك وحسابات النُّجوم.
- ومن حرَّان هاجروا إلى موطنهم الحالي في جنوبي العراق وإيران وما يزالون فيه، إذ يعرفون بصابئة البطائح.
- وقد تأثر الصَّابئة بكثير من الدِّيَانات والمعتقدات التي احتكوا بها، فقد تأثروا باليهوديَّة،

وبالمسيحيَّة، وبالمجوسيَّة لمجاورتهم لهم.

وتأثروا بالفلسفة الدينيَّة التي ظهرت أيام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد كان الناس حينها يعتقدون بقدرة الكواكب والنُّجوم على التأثير في حياة الناس.

وتأثروا بالفلسفة اليونانيَّة التي استقلَّت عن الدِّين، ويلاحظ أثر هذه الفلسفة اليونانيَّة في كتبِهم.

وتأثروا بالأفلاطونيَّة الحديثة التي استقرت فلسفتها في سوريا مثل الاعتقاد بالفيض الرُّوحي على العالم المادِّيِّ.

- وأشهر فرق الصَّابئة قديمًا أربعة هي: أصحاب الروحانيَّات، وأصحاب الهياكل، وأصحاب الأشخاص، والحلوليَّة.

- ولقد ورد ذكرهم في القرآن مقترنًا باليهود والنَّصارى والمجوس والمشركين (انظر الآيات٦٢/ البقرة - ٦٩/ المائدة، ١٧/الحج)، ولهم أحكامٌ خاصَّة بهم من حيث جواز أخذ الجزية منهم أو عدمها أسوة بالكتابيِّين من اليهود والنصارى.

كتب الصَّابئة المندائيِّين

لديهم عدد من الكتب المقدَّسة مكتوبة بلغة سامية قريبة من السريانيَّة وهي:

١- **الكنزاربّا**: أي الكنز العظيم، أو الكتاب العظيم، ويقال له: سدرا- آدم: أي صحف آدم، ولا يمكن اعتبار الكتاب متجانسًا، فهو مجموعة فقرات غالبًا ما تتناقض. وهو قسمان:

الأول: ويتضمن سفر التَّكوين، وتعاليم الحيِّ العظيم، والصراع الدائر بين الخير والشرِّ والنُّور والظَّلام، وكذلك هبوط النفس في جسد آدم، ويتضمن كذلك تسبيحًا للخالق وأحكام فقهيَّة ودينيَّة.

والثاني: يتناول قضايا النَّفس وما يلحقها من عقاب وثواب.

وتوجد في خزانة المُتْحَف العراقي نسخة كاملة منه، وطبع في كوبنهاجن سنة ١٨١٥م، وطبع في لايبزيغ سنة ١٨٦٧م.

٢- **دراشة إديهيا**: أي تعاليم يحيى، وفيه تعاليم وحياة النبي يحيى عليه السلام، وهو أحدث تأريخًا من الكتاب الأول.

٣- **الفلستا**: أي كتاب عقد الزواج، ويتعلق بالاحتفالات والنكاح الشرعيِّ والخطبة.

٤- **سدرة إدنشاماثا**: يدور حول التَّعميد والدَّفن والحداد، وانتقال الرُّوح من الجسد إلى الأرض ومن ثمَّ إلى عالم الأنوار، وفي خزانة المُتْحَف العراقي نسخة حديثة منه مكتوبة باللُّغة المندائيَّة.

٥- **كتاب الديونان**: فيه قصص وسير بعض الروحانيِّين مع صور لهم.

٦- **كتاب إسفر ملواشه**: أي سفر البروج لمعرفة حوادث السنة المقبلة عن طريق علم الفلك والتَّنجيم.

٧- كتاب النِّياني: أي الأناشيد والأذكار الدينيَّة، وتوجد نسخة منه في المُتحَف العراقي.

٨- كتاب قماها ذهيقل زيوا: ويتألف من ٢٠٠ سطرٍ وهو عبارة عن حجابٍ يعتقدون بأنَّ من يحمله لا يؤثر فيه سلاح أو نارٍ.

٩- تفسير بغره: يختصُّ في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعِمة المناسبة لكلِّ طقسٍ مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله.

١٠- كتاب ترسسر ألَّف شياله: أي كتاب الاثني عشر ألف سؤالٍ.

١١- ديوان طقوس التَّطهير: وهو كتاب يبين طرق التَّعميد بأنواعه على شكل ديوان.

١٢- كتاب كداواكدفيانا: أي كتاب العوذ.

طبقات رجال الدِّين

يشترط عندهم في رجل الدِّين أن يكون سليم الجسم، صحيح الحواسِّ، متزوجًا منجبًا، غير مختون، وله كلمة نافذة في شئون الطائفة كحالات الولادة والتَّسمية والتَّعميد والزَّواج والصَّلاة والذَّبح والجنازة، ورتبهم على النَّحو التالي:

١- الحلالي: ويسمى «الشماس» يسير في الجنازات، ويقيم سنن الذَّبح للعامَّة، ولا يتزوج إلا بكرًا، فإذا تزوج ثيبًا سقطت مرتبته، ومنع من وظيفته إلا إذا تعمد هو وزوجته ٣٦٠ مرة في ماء النهر الجاري.

٢- شكندا: ويقوم بمساعدة رجال الدين في ممارسة الطقوس الدينيَّة كالتَّعميد والزَّواج والذَّبح.

٣- شواليا: رجل الدين المرشح الكهانة.

٤- الترميدة: إذا فقه الحلالي الكتابين المقدَّسين سدره إنشماثا والنياني أي كتابَيْ التعميد والأذكار فإنه يتعمد بالارتماس في الماء الموجود في المندي ويبقى بعدها سبعة أيام مستيقظًا لا تغمض له عين حتى لا يحتلم، ويترقى بعدها هذا الحلالي إلى ترميدة، وتنحصر وظيفته في العقد على البنات الأبكار.

٥- الأبيسق: الترميدة الذي يختص في العقد على الأرامل يتحوَّل إلى أبيسق ولا ينتقل من مرتبته هذه.

٦- الكنزبرا: الترميدة الفاضل الَّذي لم يعقد على الثيبات مطلقًا يمكنه أن ينتقل إلى كنزبرا وذلك إذا حفظ كتاب الكنزاربّا فيصبح حينئذٍ مفسرًا له، ويجوز له ما لا يجوز لغيره، فلو قتل واحدًا من أفراد الطائفة لا يقتص منه؛ لأنه وكيل الرئيس الإلهي عليها.

٧- الريش أمه: أي رئيس الأمَّة، وصاحب الكلمة النافذة فيها ولا يوجد بين صابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة؛ لأنها تحتاج إلى علمٍ وفيرٍ وقدرةٍ فائقةٍ.

٨- الربَّانيُّ: وفق هذه الدِّيانة لم يصل إلى هذه الدَّرجة إلا يحيي بن زكريا عليهما السلام كما أنه

لا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الدَّرجة في وقتٍ واحدٍ. والربَّانيُّ يرتفع ليسكن في عالم الأنوار وينزل ليبلغ طائفته تعاليم الدين ثم يرتفع كرة أخرى إلى عالمه الرَّبَّانيِّ النورانيِّ.

معتقدات الصابئة المندائيّين

١- الإله

يعتقدون -من حيث المبدأ- بوجود الإله الخالق الواحد الأزليِّ الذي لا تناله الحواسُّ ولا يفضي إليه مخلوق، ولكنَّهم يجعلون بعد هذا الإله ٣٦٠ شخصًا خلقوا ليفعلوا أفعال الإله، وهؤلاء الأشخاص ليسوا بآلهة ولا ملائكة، يعملون كلَّ شيءٍ من رعدٍ وبرقٍ ومطرٍ وشمسٍ وليلٍ ونهارٍ وهؤلاء يعرفون الغيب، ولكلٍّ منهم مملكته في عالم الأنوار.

وهؤلاء الأشخاص الـ ٣٦٠ ليسوا مخلوقين كبقية الكائنات الحيَّة، ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا وتزوجوا بنساء من صنفهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة فتحمل امرأته فورًا وتلد واحدًا منهم.

ويعتقدون بأن الكواكب مسكن للملائكة، ولذلك يعظِّمونها ويقدِّسونها.

٢- المندي

هو معبد الصَّابئة، وفيه كتبهم المقدَّسة، ويجري فيه تعميد رجال الدِّين، يقام على الضِّفَاف اليمنى من الأنهر الجارية، له باب واحد يقابل الجنوب بحيث يستقبل الدَّاخل إليه نَجْم القطب الشماليِّ، ولا بدَّ من وجود قناة فيه متَّصلة بماء النهر، ولا يجوز دخوله من قبل النِّساء، ولا بدَّ من وجود علم يحيى فوقه في ساعات العمل.

٣- الصلاة

يعتقدون إنَّ الصَّلاة كانت في عهد آدم سبع صلوات، وهي: الصُّبح والظُّهر والعصر والمساء والعشاء، وصلاتين فيما بينهما، إلا أن يوحنا المعمدان خفَّف عنهم الصلوات وجعلها في ثلاثة أوقات: قبيل الشروق، وعند الزَّوال، وقبيل الغروب، وتستحبُّ أن تكون جماعة في أيام الآحاد والأعياد، فيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وهي تستغرق ساعة وربع الساعة تقريبًا.

ويتوجه المصلي خلالها إلى الجدي بلباسه الطاهر، حافي القدمين، يتلو سبع قراءات يمجد فيها الربَّ مستمدًا منه العون طالبًا منه تيسير اتصاله بعالم الأنوار.

٤- الصوم

صابئة اليوم يحرِّمون الصوم؛ لأنه من باب تحريم ما أحلَّ الله.

وقد كان الصوم عند الصابئة على نوعين:

الصوم الكبير (صوم ربا): ويشمل الصَّوم عن كبائر الذُّنوب والأخلاق الرديئة.

والصوم الصغير: الذي يمتنعون فيه عن أكل اللّحوم المباحة لهم لمدة ٣٢ يومًا متفرقة على طول أيام السنُة.

وينصُّ ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥هـ في فهرسته، وابن العبري المتوفى سنة ٦٨٥هـ في تاريخ مختصر الدُّول على أن الصيام كان مفروضًا عليهم لمدة ثلاثين يومًا من كل سنة.

٥- الطَّهارة

- الطَّهارة مفروضة على الذَّكر والأنثى سواء بلا تمييز.

- تكون الطَّهارة في الماء الحي غير المنقطع عن مجراه الطبيعي.

- الجنابة تحتاج إلى طهارة وذلك بالارتماس في الماء ثلاث دفعات مع استحضار نيَّة الاغتسال من غير قراءة؛ لأنَّها لا تجوز على جنبٍ.

- عقب الارتماس في الماء يجب الوضوء، وهو واجب لكل صلاة، حيث يتوضَّأ الشخص وهو متَّجه إلى نجم القطب، فيؤديه على هيئة تشبه وضوء المسلمين مصحوبًا بأدعيَّةٍ خاصَّةٍ.

- مفسدات الوضوء: البول، الغائط، الريح، لمس الحائض والنفساء.

٦- التعميد وأنواعه

- يعتبر التعميد من أبرز معالم هذه الدِّيانَّة ولا يكون إلا في الماء الحي، ولا تتم الطقوس إلا بالارتماس في الماء سواء أكان الوقت صيفًا أم شتاءً، وقد أجاز لهم رجال دينهم مؤخرًا الاغتسال في الحمَّامات وأجازوا لهم كذلك ماء العيون النابعة لتحقيق الطهارة.

- يجب أن يتم التَّعميد على أيدي رجال الدِّين.

- يكون العماد في حالات: الولادة، والزواج، وعماد الجماعة، وعماد الأعياد وهي على النحو التالي:

١- **عِماد الولادة**: يعمد المولود بعد ٤٥ يومًا ليصبح طاهرًا من دنس الولادة إذ يُدخل هذا الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتِّجاه جهة نجم القطب، ويوضع في يده خاتم أخضر من الآس.

٢- **عِماد الزَّواج**: يتمّ في يوم الأحد وبحضور ترميدة وكنزبرا، يتم بثلاث دفعات في الماء مع قراءة من كتاب الفلستا وبلباس خاصٍّ، ثم يشربان من قنينة ملئت بماء أُخذ من النهر يسمى (ممبوهة) ثم يطعمان (البهثة) ويدهن جبينهما بدهن السمسم، ويكون ذلك لكلا العروسين لكلٍّ واحد منهما على حدةٍ، بعد ذلك لا يُلمسان لمدة سبعة أيام إذ يكونان نجسين وبعد الأيام السبعة من الزَّواج يعمدان من جديد، وتعمد معهما جميع القدور والأواني التي أكلا فيها أو شربا منها.

٣- **عِماد الجماعة**: يكون في كل عيد (بنجة) من كل سنة كبيسة لمدة خمسة أيام ويشمل أبناء الطائفة كافَّة رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، وذلك بالارتماس في الماء الجاري ثلاث دفعات قبل

تناول الطَّعام في كل يوم من الأيام الخمسة. والمقصود منه هو التكفير عن الخطايا والذُّنوب المرتكبة في بحر السَّنة الماضية، كما يجوز التَّعميد في أيام البنجة ليلًا ونهارًا على حين أن التَّعميد في سائر المواسم لا يجوز إلا نهارًا وفي أيام الآحاد فقط.

٤- عِماد الأعياد: وهي:

أ- العيد الكبير: في الأوَّل من شهر شباط (دولا) المندائي، وهو رأس السَّنة الجديدة عندهم والَّذي يسمى أيضًا بداية البناء، وعيد ملك الأنوار، وفيه يعتكفون في بيوتهم ٣٦ ساعة متتالية لا تغمض لهم عين خشية أن يتطرق الشيطان إليهم؛ لأنَّ الاحتلام يفسد فرحتهم، وبعد الاعتكاف مباشرة يرتسمون، ومدة العيد أربعة أيَّام، تنحر فيه الخراف ويذبح فيه الدَّجاج ولا يقومون خلاله بأي عمل دنيويٍّ.

ب- العيد الصغير: يوم واحد شرعًا، وقد يمتد لثلاثة أيَّام من أجل التَّزاور، ويكون بعد العيد الكبير بمائة وثمانية عشر يومًا.

ج- عيد البنجة: أو الخليقة، وهو خمسة أيام تكبس بها السَّنة، ويأتي بعد العيد الصَّغير بأربعةِ أشهرٍ.

د- عيد يحيى: يومٌ واحدٌ من أقدس الأيَّام، يأتي بعد عيد البنجة بستين يومًا ويزعمون أنَّ فيه كانت ولادة النبيِّ يحيى عليه السلام الذي يعتبرونه نبيًّا خاصًّا بهم، والَّذي جاء ليعيد إلى دين آدم صفاءه بعد أن دخله الانحراف بسبب تقادم الزَّمان.

ومن أعيادهم أيضًا: عيد شيشان، وعيد الفل، والعاشوريَّة.

٥- تعميد المحتضر ودفنه

أ- عندما يحتضر الصابئ يجب أن يؤخذ -وقبل زهوق روحه- إلى الماء الجاري ليتمَّ تعميده.

ب- من مات من دون عماد نجس ويحرم لمسه.

ج- أثناء العماد يغسلونه متَّجهًا إلى نجم القطب الشمالي، ثم يعيدونه إلى بيته ويجلسونه في فراشه بحيث يواجه نجم القطب أيضًا حتى يوافيه الأجل.

د- بعد ثلاث ساعات من موته يغسَّل ويكفَّن ويدفن حيث يموت إذ لا يجوز نقله مطلقًا من بلدٍ إلى بلدٍ آخر.

هـ- من مات غيلة أو فجأة، فإنَّه لا يغسل ولا يلمس، ويقوم الكنزبرا بواجب العماد عنه.

و- يدفن الصابئ بحيث يكون مستلقيًا على ظهره ووجهه ورجلاه متَّجهة نحو الجدي حتى إذا بعث واجه الكوكب الثابت بالذَّات.

ز- يضعون في فمِّ الميت قليلًا من تراب أول حفرة تحفر لقبره فيها.

ح- يحرم على أهل الميت النَّدب والبكاء والعويل، والموت عندهم مدعاة للسرور، ويوم المأتم

من أكثر الأيَّام فرحًا حسب وصية يحيى لزوجته.

ط- لا يوجد لديهم خلود في الجحيم، بل عندما يموت الإنسان إما أن ينتقل إلى الجنَّة أو المطهر، حيث يعذب بدرجات متفاوتة حتى يطهَّرَ فتنتقل روحه بعدها إلى الملأ الأعلى، فالرُّوح خالدة والجسد فانٍ.

٦- البكارة: تقوم والدة الكنزبرا أو زوجته بفحص كلِّ فتاة عذراء بعد تعميدها وقبل تسليمها لعريسها وذلك بغية التأكد من سلامة بكارتها.

٧- الخطيئة: إذا وقعت الفتاة أو المرأة في جريمة الزنى فإنها لا تقتل، بل تهجر، وبإمكانها أن تكفر عن خطيئتها بالارتماس في الماء الجاري.

٨- الطلاق: لا يعترف دينهم بالطَّلاق إلا إذا كانت هناك انحرافات أخلاقيَّة خطيرة فيتمّ التفريق عن طريق الكنزبرا.

٩- السنة المندائيّة: تبدأ بشهر شباط / فبراير وهي ٣٦٠ يومًا، في ١٢ شهرًا، وفي كل شهر ثلاثون يومًا مع خمسة أيام كبيسة يقام فيها عيد البنجة.

١٠- يعتقدون في صحَّة التَّاريخ الهجريّ ويستعملونه، وذلك بسبب اختلاطهم بالمسلمين؛ ولأنَّ ظهور النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم كان مذكورًا في الكتب المقدَّسة الموجودة لديهم.

١١- يعظِّمون يوم الأحد كالنَّصارى ويقدِّسونه ولا يعملون فيه أي شيء على الإطلاق.

١٢- ينفرون من اللون الأزرق النيلي ولا يلامسونه مطلقًا.

١٣- ليس للرجل غير المتزوج من جنَّة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

١٤- يتنبَّئون بحوادث المستقبل عن طريق التَّأمُّل في السماء والنُّجوم وبعض الحسابات الفلكية.

١٥- لكلِّ مناسبةٍ دينيَّة ألبسةٌ خاصَّةٌ بها، ولكلِّ مرتبةٍ دينيَّة لباس خاصٌّ بها يميزها عن غيرها.

١٦- إذا توفي شخص دون أن ينجب أولادًا؛ فإنه يمرُّ بالمطهر ليعود بعد إقامته في العالم الآخر إلى عالم الأنوار، ثم يعود إلى حالته البدنيَّة مرة أخرى إذ تتلبس روحه في جسم روحانيٍّ فيتزوج وينجب أطفالًا.

١٧- يؤمنون بالتَّناسخ ويعتقدون بتطبيقاته في بعض جوانب عقيدتهم.

١٨- للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء على قدر ما تسمح له به ظروفه.

١٩- يرفضون شرب الدواء، ولا يعترضون على الدُّهون والحقن الجلديَّة.

٢٠- الشباب والشابات يأتون إلى الكهان ليخبروهم عن اليوم السعيد الذي يمكنهم أن يتزوجوا فيه، وكذلك يخبرون السائلين عن الوقت المناسب للتِّجارة أو السفر، وذلك عن طريق علم النُّجوم.

٢١- لا توكل الذبيحة إلا أن تذبح بيدي رجال الدين وبحضور الشهود، ويقوم الذابح -بعد أن يتوضأ- بغمسها في الماء الجاري ثلاث مرات ثم يقرأ عليها أذكارًا دينيَّةً خاصَّةً ثم يذبحها مستقبلًا الشمال، ويستنزف دمها حتى آخر قطرةٍ، ويحرم الذَّبح بعد غروبِ الشمس أو قبل شروقها إلا في عيد البنجة.

٢٢- تنصُّ عقيدتهم على أن يكون الميراث محصورًا في الابن الأكبر، لكنَّهم لمجاورتهم المسلمين فقد أخذوا بقانون المواريث الإسلامي.

٢٣- بعض المحرَّمات عندهم:

أ- تلويث الطبيعة والأنهار.

ب- إعطاء كتبهم المقدَّسة للآخرين ويقول أحد شيوخهم: لقد بذل عدد كبير من المستشرقين جهودًا كبيرةً وأموالًا طائلةً في سبيل الحصول علي كتبنا الدينيَّة فأخفق أكثرهم.

ج- أكل الميتة والدم والحامل والجارح والكاسر من الحيوانات والَّذي هاجمه حيوان مفترس.

د- الانتحار وإنهاء الحياة والإجهاض والرهبنة.

أماكن تواجدهم وأعدادهم

الصابئة المندائيُّون الحاليون يعيشون بشكل رئيسيٍّ في العراق وجنوب إيران، وعددهم الآن يقارب مائة ألف نسمة منهم ستون ألفًا في العراق. ويتواجدون بشكل أساسيٍّ على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات، ويسكنون في منطقة الأهواز وشط العرب، ويكثرون في مدن العمارة والناصرية والبصرة -التي يسيطرون على سوق الذهب فيها- وقلعة صالح والحلفاية والزكيَّة وسوق الشيوخ والقرنة، وهي موضع اقتران دجلة بالفرات، وهم موزعون على عدد من الألويَّة مثل لواء بغداد، والحلة، والديوانيَّة والكوت وكركوك والموصل. كما يوجد أعداد مختلفة منهم في ناصريَّة المنتفق والشرش ونهر صالح والجبابيش والسليمانيَّة، ويقدر عددهم في العراق بستين ألفًا.

وكذلك ينتشرون في إيران، وتحديدًا على ضفاف نهر الكارون والدُّز ويسكنون في مدن إيران الساحليَّة، كالمحمرة، وناصريَّة الأهواز وششتر ودزبول.

وفي الأردن يقدر عددهم بـ ٥٠٠ شخصٍ يتوجهون إلى منطقة وادي شعيب حيث المياه الجارية.

وهناك جاليات منهم في أوربا وأمريكا وكندا واستراليا.

وقد تهدمت معابدهم في العراق، ولم يبق لهم إلا معبدان في قلعة صالح، وقد بنوا معبدًا منديًّا بجوار المصافي في بغداد، وذلك لكثرة الصابئين النازحين إلى هناك من أجل العمل.

المهن الَّتي يمارسونها

يعمل معظمهم في صياغة معدن الفضة لتزيين الحلي والأواني والساعات وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم؛ لأنَّهم يحرصون على حفظ أسرارها كما يجيدون صناعة القوارب الخشبية والحدادة

وصناعة الخناجر.

ومهاراتهم في صياغة الفِضَّة دفعتهم إلى الرحيل للعمل في بيروت ودمشق والإسكندرية ووصل بعضهم إلى إيطاليا وفرنسا وأمريكا.

حياتهم السياسيَّة

منذ سنوات مضت، لم يكن للصابئة في العراق نفس الدَّرجة من الطموح السياسيِّ الذي تسعى إليه الأقليَّات الأخرى، إلاّ أنهم حاليًا يبذلون الجهود لتعزيز وضع طائفتهم وإنشاء الهيئات والمؤسسات في العراق وخارجها، مستفيدين من الظروف الحالية في العراق، والتَّوجُّه العالمي لتعزيز دور الأقليَّات، وهم يلجئون في سبيل ذلك أحيانًا إلى التَّقرُّب إلى أصحاب الدِّيانات الأخرى بنقاط التَّشابه الموجودة بينهم وبين الآخرين، ومن تلك الأنشطة:

١- سعي شيخ الطائفة السابق دخيل بن عيدان لاعتماده رسميًّا من قبل السلطات البريطانيَّة، والعهد الملكي، إذ صدر اعتراف رسميّ بالطائفة خلال الاحتلال البريطانيِّ للعراق، وأصدر المرسوم حاكم القرنة الميجر براون، وحاكم العمارة الميجر مارك، وحاكم الناصريَّة الميجر دكسن، وجاء فيه: «صدر أمر بتنظيم وترتيب أمور عمل رؤساء الدِّين، وتعيين الشيخ دخيل رئيسًا على ملَّة الصابئة، وهو بدرجة (كنزفرا)، وبمساعدة الترميذا الشيخ زهرون والشيخ عبد، مع كيفية تنظيم رواتب لرجال الدين، والطلب من رجال الدِّين بإقامة مندي (معبد) في كلِّ مكانٍ يتواجد فيه الصابئة...».

٢- زيارة وفد من رؤساء الصابئة برئاسة الشيخ عبد الله بن نجم سنة ١٩٩٠ للفاتيكان ولقائهم البابا، لمد جسور التَّواصل مع المسيحيين، وفي اللِّقاء خاطب الشيخ عبد الله بابا الفاتيكان قائلًا: «منذ ألفي عام عمّد يوحنا المعمدان السيد المسيح، وبعد ألفي عام يقلد رئيسُ طائفة المندائيِّين البابا الدرفش (راية السلام المندائية)». فأجابه بابا الفاتيكان قائلًا: «بكثير من الغبطة أرحب برجل الدِّين الشيخ عبد الله الشيخ نجم، والأعضاء الآخرين في المجلس الرّوحاني الأعلى للديانة المندائيَّة، في زيارتهم الأولى هذه للمقرِّ البابوي المقدس، وهناك الكثير من نقاط الالتقاء بين دينكم والدِّيانة المسيحيَّة، فأنتم تؤمنون بالربِّ الواحدِ، خالق الكون، وأنَّ التقدير الكبير الَّذي تكنونه ليوحنا المعمدان، والشرف الذي تتمسَّكون به لشخصية المسيح، ابن خالة يوحنا المعمدان، هو سبب سروركم بأن تدعونا أبناء خالة، إذ أنتم أقارب البابا...».

٣- زيارة رئيس الطائفة الكنزابرا ستار جبار حلو المطران فرناندو فيلوني السفير البابوي في بغداد يوم الجمعة ٢١/ ٥/ ٢٠٠٤م ،حيث أعرب الطَّرفان عن أمنياتهما بتعزيز العلاقات معتبرين أنها امتداد للعلاقة الرّوحيَّة بين النبيِّ يحيى والنبيِّ عيسى.

وفي اللِّقاء قدَّم رئيس اتحاد الجمعيَّات المندائيَّة في المهجر شرحًا عن الجمعيَّات المندائيَّة في المهجر وحال أبناء الطائفة هناك وأعرب عن الرغبة في وجود عضو ارتباط مع الفاتيكان بروما انطلاقًا من

فكرة مد أواصر التَّعاون بين الطرفين.

٤- دخول بعض أفرادهم إلى القوائم الانتخابية للانتخابات التَّشريعيَّة والبلديَّة العراقيَّة التي جرت في يناير ٢٠٠٥، وقد قتل أحد هؤلاء المرشحين وهو: (رياض راضي حبيب)، المرشح لمجلس محافظة البصرة ضمن قائمة حركة الوفاق التي يتزعمها إياد علاّوي، في مدينة البصرة، قبل إجراء الانتخابات بحوالي أسبوعين.

٥- التحذير من دستور العراق الجديد، وأثره «السلبي» على الصابئة وبقية الأقلّيّات، فقد كتب المستشار القانوني لطائفة الصابئة المندائيِّين في العراق (سابقًا) والمستشار القانوني لاتحاد الجمعيّات المندائيَّة في المهجر عربي الخميس مقالًا في (موسوعة صوت العراق ٩/ ٣/ ٢٠٠٤) مقالًا بعنوان: «ويل لمستقبل طائفة الصابئة المندائيِّين من دستور تفرضه لأكثريَّة» اعتبر فيه من أن عبارة «دين الدولة الرسمي هو الإسلام» معناها أن الصابئة قوم ملحدون كفار يباح قتلهم، وقال: إن الدستور لم يعترف بطائفة الصابئة كطائفة دينيَّة موحِّدة تؤمن بالله واليوم الآخر -على حد قوله-.

٦- إقامة عدد من المؤتمرات العالميَّة لتدارس أمر الطائفة، وعادة ما تعقد هذه المؤتمرات في العاصمة السويديَّة استوكهولم. وقد عقد المؤتمر الثاني في آب أغسطس سنة ٢٠٠٢، فيما عقد المؤتمر الثالث في الشهر نفسه حتى عام ٢٠٠٣ .

٧- إقامة شيخ الطائفة في البصرة احتفالًا تأبينيًا في محرم من كل عامٍ بمناسبة عاشوراء فيما يبدو أنه تودُّد للشيعة هناك، ومع ذلك يشتكي الصَّابئة في البصرة من ممارسات أنصار مقتدى الصدر ضدهم.

٨- تعالي أصوات بعضِ قياداتهم ومثقَّفيهم على شبكة الإنترنت بالاهتمام باللُّغةِ المندائيَّة والسعي لتيسير الطُّقوس الدينيَّة، وإجرائها دون حياءٍ أو خجلٍ، والعمل على إيصال متطلبات إجراء هذه الطقوس إلى كلِّ بيت مندائي.

ويرى هؤلاء ضرورة توجيه الإعلام المندائي بشكلٍ مدروسٍ من خلال تشجيع كتابة القصص والذكريات وإبراز الأساطير التي تحرك الوجدان المندائي وتبنيه، وإبراز المناسبات الدينيَّة وإجراءاتها التراثيَّة الفلكلوريَّة والدِّفاع عنها، وتشجيع الممارسات الدينيَّة الجماعيَّة التي تبعد التحسس من «تخلف الطقوس». ويحثُّون على إقامة المخيمات المندائيَّة والحرص الدَّائم على إقامة الاحتفاليَّات في المناسبات الدينيَّة(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧١٤- ٧٢٢)، مجلة الراصد العدد ٢٢، ص(٧- ٢٢)، موسوعة الأديان (الميسرة)، مجموعة مؤلفين، الأديان والمذاهب بالعراق، رشيد الخيون، مندائي أو الصابئة الأقدمون، عبد الحميد أفندي عبادة.

الباب السادس

الدِّيانة المصريَّة القديمة

إنَّ أشد الأمم تدُّينًا المصريُّون القدماء حتَّى قال هيرودوت: إنَّ المصريين أشدُّ البشرِ تدينًا، ولا يعرف شعب بلغ في التديُّنِ درجتهم فيه، فإنَّ صورَهم بجملتها تمثِّل أناسًا يصلون أمام إله وكتبهم في الجملة أسفار عبادة ونسك.

كانت شدة تدينهم سببًا في أن دخل الدين عنصرًا عاملًا قويًا في كلِّ أعمالهم الخاصَّة والعامَّة فالدين مسيطر حتَّى في الكتابة في الحاجات الخاصَّة وفي الإرشادات الصحِّيَّة، وفي أوامر الشرطة وسلطان الحكم، ولقد تعددت بسبب ذلك الكائنات المقدَّسة، والأشياء التي يعتبر احترامها من احترامهم آلهتهم أو هي بذاتها تبلغ رتبة الآلهة وتصل إلى مكانها في التقديس والعبادة.

عقيدة التوحيد عند قدماء المصريِّين

لشدة هذا التَّديُّن المشار إليه زعم بعض العلماء ومنهم ماسبيرو أنَّ قدماء المصريين كانوا موحدين، فقال ماسبيرو: إنَّ إله المصريِّين واحدًا فردًا كاملًا عالمًا بصيرًا -لا يدرك بالحس قائمًا بنفسه حيًّا له الملك في السموات والأرض، لا يحتويه شيءٌ فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا يغيب، يملأ الدُّنْيَا ليس كمثله شيء، ويوجد في كلِّ مكان.

وهذا الكلام ليس من الحقِّ في شيءٍ؛ لأنَّ المصريِّين لم يكونوا موحِّدين، ولذا أدرك هذا المؤلف خطأه فكتب في طبعة ثانية من كتابه ما نصُّه: تدلنا الآثار على أنَّه كان لكلٍّ من الرهبان منذ أزمان الأسرة الأولى آلهته الخاصَّة، وهذه الآلهة مقسَّمة إلى ثلاثة فرق متباينة الأصول: آلهة الموتى، وآلهة العناصر، والآلهة الشمسيَّة.

إنَّ مدنية المصريين القدماء مكثت خمسة آلاف سنة، فسار علي ديانة أهلها قوانين التحول والتدرج والانتقال من حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن غاية إلى غاية، خاصَّة أنَّها ديانة غير سماويَّة، بل إنَّ الدِّيانَات السماويَّة التي قبل الإسلام كان يعروها التحريف والتغيير والتبديل.

إنَّ عقائد المصريِّين كانت تتخالف بتخالف الأقاليم نفسها، وكانت آلهتهم محليَّة، فكلُّ مدينة كانت لها آلهتها.

فكان موطن أوزيريس في أبيدوس، وفتاح في ممفيس، وأمون في طيبة، وهورس في دفو، وهاتور في دندرة، . . . إلخ.

ومكانة الإله تتبع مكانة المدينة التي يعبد فيها.

وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض، فكانت سلسلة مراتب إلهيَّة تتبع مراتب المقاطعات السياسيَّة.

ومن هذا يفهم أنَّه لم يعرف المصريُّون حتَّى التوحيد الإقليمي بأن يجتمعوا على آلهة واحدة في كلِّ إقليم ويتفقوا عليهم مهمًّا تتباين جهة إقامتهم، بل كانت آلهتهم محليَّة كلّ إقليمٍ له آلهة خاصة به.

ولكن في خمسة آلاف سنة قد وردت على المصريِّين دعوة من دعوات التوحيد الخالص بدعوة من رسول مبين، خصوصًا أنَّه قد جاء في القرآن الكريم ما يفيد أنَّ يوسف عليه السلام وهو نبي كريم من أنبياء الله قد دعاهم إلى عبادة الواحد القهار.

لقد كانت دعوة يوسف عليه السلام إلى التوحيد لها أثرها ولكن المصريِّين ألفوا عبادة ما أنتجه خيالهم من ألوهيَّة زعموها لبعض الأشياء والحيوان، فلما جاءتهم دعوة إلى التوحيد صريحة قويَّة بما تستمده من بيِّناتٍ عقليَّة وأدلةٍ منطقيَّةٍ تستقيم مع قضايا الفكر آمن من آمن، ومن لم يكن نافذ البصيرة قوي المدارك وقع في حيرة بين قديم قد ألَّفه وتغلغل في مكنون قلبه واستولى على أهوائه ومشاعره، وجديد قد عرفه ورأى فيه استقامة في الفكرة وقوة في الاستدلال فكان في شكٍّ ومريةٍ.

ثم جاء موسى عيه السلام بعد ذلك بدعوة التوحيد أيضًا.

ثم إنَّ الهكسوس الذين جاءوا إلى مصر وحكموها أمدًا غير قصير لا يمكن أن يكون مجيئهم قد خلا من دعوات دينيَّة، وخصوصًا أنَّه ورد في بعض الآثار أنَّ إبراهيم عليه السلام قد زار مصر، فلا بدَّ أن يكون التوحيد قد كان موضع دعاية له، وإن لم يكن موضع إجابة منهم.

وإنَّ احتكاك المصريِّين بالأسيويين في الحروب الدائبة المستمرة لا بدَّ أن يكون هو أيضًا قد أطلع الغزاة والفاتحين على ما في آسيا من ديانات وآثار النبيِّين من شرائع وعقائد وأحكام، وكلُّ ذلك لا بدَّ أن ينال شيئًا من النفس المصريَّة وإن لم ينل القلوب ويستولي عليها استيلاء تامًّا.

ولكن تلك الأغذية الدينيَّة وتلك الدعوات التوحيديَّة التي كانت تجيء إليهم الحقبة بعد الحقبة لم ترفع المصريين إلى مرتبة الموحدين بل يسود عقائدهم التعدد في جملة تاريخهم، بل إنَّهم لم يصلوا إلى التوحيد المحلي بأن يجمع المصريُّون على آلهة واحدة، بل تعددت الآلهة بتعدد الأقاليم.

العقيدة الرسميَّة عند قدماء المصريِّين

تعتمد العقيدة الرسميَّة عند قدماء المصريِّين على أسطورة قديمة، ترجع إلى ما قبل التاريخ في نسبتها، وهي أنَّ إله الإنبات والخصوبة أو إله النيل واسمه أوزيريس قد عمل على تكوين مملكة إلهيَّة مكوَّنة من أخته وزوجته إلهة الحكمة والتشريع والسحر واسمها إيزيس، ووزيره إله التدبير والعلم واسمه توت وغيرهم من الآلهة، ولكن أخا أوزيريس واسمه سيت -وهو إله الشر والقحط- نفس على أخيه ما ناله من مكانة وإجلال، ودفعه الحقد إلى إيذائه فغدر به، واحتال عليه حتى وضعه في تابوت، ثم أقفله عليه وألقى به في اليم، فلما تفقدته زوجته ولم تجده أخذت تنقب عنه حتَّى عثرت عليه ولكن قبل أن تتمكن من فتح التابوت هاجمها سيت وأخذ التابوت منها عنوة، ومزق أخاه اثنين وسبعين شلوًا بعدد مقاطعات مصر إذ ذاك، ونثر هذه الأجزاء في المقاطعات في كلِّ مقاطعة شلوًا، ولكن مع ذلك لم تستيئس زوجته بل ألقى الوفاء في قلبها شجاعة لا يأس معها،

وبجد ودأب جمعت الأشلاء من كل مكان وألقت كل جزء في موضعه من الجسم، وقرأت عليه بعضا من التعاويذ والرقى السحريَّة فعاد إلى الحياة، ولكنَّها حياة قصيرة كانت بقدر ما أنسل ابنه هوروس، ثم غادر هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ليقوم بالحساب والميزان لأهل الدنيا.

وهنا تكون المعركة بين هوروس وعمه سيت إذ ينكر نسب ابن أخيه ويدَّعي أنَّه الوريث الوحيد لعرش أخيه في المملكة الإلهيَّة، ويرفع في سبيل ذلك دعوى إلى محكمة الآلهة، فتهب إيزيس مدافعة عن ابنها وشرفها فتقضي المحكمة بثبوت النسب بشهادة توت، ولكن النزاع لا ينتهي بذلك بل يأخذ كل يعمل على إفساد أعمال الآخر في الكون، وتكون دائرة هوروس في الإنتاج والعمارة ودائرة سيت في الإفساد والتدمير.

وكان من آثار ذلك التناحر ما كان بين الوجه القبلي والوجه البحري من حروب مستمرة بل قد صار كل رئيسٍ من رئيسي الوجه القبلي والوجه البحري أحد هذين الإلهين.

واستمر الحال على ذلك حتى جاء مينا الأول فجمع سلطانه حكم مصر العليا والسفلى وأعلن أنَّ الإلهين قد حلا في جسده ومن ثم ابتدأت عقيدة تأليه الملك، أو حلول روح الإله فيه.

ولقد أخذت الفلسفة الدينيَّة من ذلك الحين تعمل على التوفيق بين خلود الألوهيَّة وفناء الجثمانيَّة؛ لأنَّ فرعون يموت كما يموت سائر الناس، والإله باقٍ فكيف يحلُّ الباقي في الفاني، ثم كيف يموت من ارتفع إلى مرتبة الألوهيَّة، إنَّ الحس يؤكد الموت وعقائدهم تنافيه.

ولقد دفعتهم الرغبة الملحَّة بين التوفيق بين ما يحسون وما يعتقدون إلى أن قالوا: إن روح الإله هوروس ذات ثلاث شعب أولاها الروح الدنيا وهي التي تحلُّ في فرعون الزمان، ثم تنتقل إلى من يليه وتفيض عليه بقدسيتها، والثانية الروح العليا الحاكمة في السموات والأرضين، والثالثة روح تبقى في جسد فرعون الميت وتقوم بالنصح لفرعون الحي، ولا تبقى هذه الروح إلا إذا بقي الجسم متماسكا ولذا أعملوا الحيلة لذلك وبنوا الأهرام وشيَّدوها لتكون حفاظًا للجسم.

ولم يستمر فرعون موضع القداسة لحلول هوروس خليفة أوزيريس في الألوهيَّة بل ارتقى وصار يحلُّ فيه رع كبير الآلهة، وعلا عن سلطان أوزيريس عندما حالت العقيدة من ثالوث إلى تاسوع؛ وذلك لأنَّ العقيدة المصريَّة كانت قائمة على تقديس ثالوث مكون من أوزيريس الآب، وهوروس الابن، وإيزيس الأم، والجميع يرجع إلى واحد، ولكن لم تستمر العقيدة على التثليث بل انتقلت إلى تقديس تاسوع بدل ثالوث؛ وذلك التاسوع يرجع إلى قوى الطبيعة الظاهرة المؤثرة في تحولات الأشياء ظاهرًا.

فقد فرضوا أن العنصر الأول الذي تكونت منه الأشياء هو الماء، وأول ما ظهر من الماء هو رع (الشمس) ومنه ظهر الهواء (سرا) والفراغ (تيفينه) ومن اجتماعهما كانت الأرض (جيب) والسماء (توت) ومن اجتماع الأخيرين نشأ النيل (أوزيريس) والأرض الخصبة (إيزيس) والصحراء (سيت) والأرض القاحلة (نيفتيس).

وقد أعطى المصريُّون هذه الأشياء صفة الألوهيَّة وأضفوا عليها صفات التقديس ولم تكن هذه هي الآلهة وحدها بل هناك رب الأرباب وأطلقوا عليه اسم (توم) وهناك آلهة أخرى منها (مآت) ابنة رع (وهي إلهة الحقيقة والعدل).

تقديس الحيوان عند قدماء المصريِّين

اتفق المؤرخون على أنَّ المصرِيِّين كانوا يعبدون الحيوان وتضافرت على ذلك الأخبار، وبلغت حدًّا استفاضت معه، ولقد كانوا يتحمَّسون في عبادتهم للحيوان إلى حدٍّ لا يحفلون معه بقوى مهمًّا تكن رهبته أن يمس ذلك الحيوان بسوء.

يروى أنَّه إبان سلطان الرومان على مصر قتل أحدهم قطًّا وقد كان موضع عبادة في ذاك الوقت فهاجم القاتل جمهور من الشعب، وفتكوا به، ولم ينجِّه من صاب نقمتهم أن أرسل الملك إليهم شفاعته فيه على لسان أحد قضاته، فما قبلوا شفاعته وهم الذين اشتهروا أمام الرومان بالضراعة.

ويحكي بعض المؤرخين أنَّه رأى في أثناء زيارته لمصر في حوالي عصورها تمساحًا مقدَّسًا في طيبة فيقول: كان هذا الحيوان رابضًا على سيف غدير فاقترب منه الكهنة، وتقدَّم اثنان ففتحا فاه وحشاه ثالث حلوى وسمكًا مشويًّا وعسلًا مصفًّى.

ولقد قال أحد الكتَّاب في هذه العبادة: على هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرير فإذا ما تقدمت إلى نهاية المعبد لترى التمثال تقدم إليك كاهن في سكينة ووقار، وهو يرتل مزاميره فيزيح قليلًا من الستار ليريك الإله فلا ترى إلا قطًّا أو تمساحًا أو ثعبانًا أو حيوانًا مؤذيًا فكأنَّ إله المصرِيِّين دابة ملونة على بساط أرجواني.

ويحكي هيرودوت أنَّه شاهد يرانا قد شبت في مصر فوجد السكان جميعًا قد اتجهوا إلى إنقاذ القطط قبل أن يتجهوا إلى إطفاء النيران، وذلك لكيلا يمس معبودهم بأي أذًى.

الحياة الآخرة والنفس عند قدماء المصرِيِّين

اعتقد قدماء المصرِيِّين الحياة الآخرة، وأنَّها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية، وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين:

أحدهما: أنَّ هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشرُّ والخير والبر والفاجر، وكثيرًا ما نرى في هذا المعترك الشر ينتصر على الخير والفساق على الأبرار، فلو لم يكن هناك يوم كلُّه للخير وكلُّه على الشرِّ، يحاسب المسيء على إساءته، ويكافئ المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهي، فمن العدالة الإلهيَّة إذًا أن يكون يوم آخر للأبرار على الفجار وللأطهار لا للأشرار، وأن تكون الحياة الباقية لينتصر فيها الخير وينتصف فيها من الشرِّ.

ثانيهما: اعتقادهم في النفس الإنسانيَّة فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم وإن كانت تحلّ فيه وأن تلك النفس ذات أربع شعب: إحداها الروح، وهي أساس القوى في الإنسان، والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تمامًا، والرابعة

الجوهر الخالد السامي الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة وهو سرّ الوجود رالعلو، وهذه الشعبة من النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة، فإذا مات اتصلت به اتصالًا وثيقًا، فأمَّا الروح فهي التي تظلُّ تتردد على الإنسان في قبره إلى أن يجتاز الحساب ويصل إلى مرتبة الثواب، وعندئذٍ تعود إليه فيشعر به الأحياء.

ولقد كانوا يعتقدون أنَّ النفسَ لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليمًا وسلامته هي التي تجعله صالحًا لعودة الروح إليه بعد أن فارقته بالموت، ولذا بذلوا أقصى الجهد في سبيل المحافظة على الجسم وجعله صالحًا لحلول النفس فيه بعد الموت، وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأنَّ يخترعوا تحنيط الموتى، وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكي تعود النفس إلى غلافها.

وقد اجتهدوا مع ذلك في إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمامَ الشبهِ لكي تحلَّ فيها النفس إن كان الجسم غير صالح، وقد عددوا التماثيل للميت الواحد؛ لأنَّه عسى أن يكون أحدهما غير صالح فيكون الآخر صالحًا، ولكي تكون الروح في فسحة من الأماكن، فتنتقل من هذا إلى ذاك.

وكانوا يعتقدون أيضًا أن الميت أو روحه في العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء في هذه الدنيا من طعام وشراب، وأن يقدم من ذلك في الدنيا قربانًا على أرواح الأموات يفيدهم في الآخرة، ولذلك تكون روح الميت في أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء في الدنيا.

واعتقدوا أنَّه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لا بدَّ من الحساب، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين وأربعين قاضيا يرأسها أوزيريس نفسه، وتسأل المحكمة الشخص عمَّا قدم من خيرٍ ومن شرٍّ.

فإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط، وهو طريق ممدود فوق الجحيم فإذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى مرتبة الآلهة، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى وادٍ فيه الأفاعي والحيَّات التي تتولى عقابه بقسوة حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدَّمت يداه.

وترى من هذا أن الأبرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة، ولهذا سرى عندهم عبادة الموتى وأضافوا إليهم صفات الألوهيَّة وخواصها في نظرهم بل إنَّهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل، فتحذرهم مما عساه يكون في سبيلهم من أخطار وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير، وقد ملئت أساطيرهم بشيء كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون(١).

---

(١) الديانات القديمة، محمد أبو زهرة، ص(٥- ٢٠).

الباب السابع

وثنية اليونان

اليونان الأقدمون كانوا يؤلِّهون ظواهر الطبيعة ويعبدونها كما فعل المصريُّون وغيرهم من قبل، وذلك ظاهر في آلهتهم الأولى فإنَّهم ألَّهوا السماء والأرض والبحر والشمس والزمن، ولكنَّهم لم يقفوا عند هذا الحدِّ بل لحظوا بعد ذلك الصفات الأدبيَّة في الأحياء وفنونهم وما يؤثر فيهم فجعلوا لكلِّ واحدٍ منها إلهًا أو إلهة.

ومن هذه الآلهة هيرا ربَّة القوة المنتجة في الطبيعة، وآريس أو المريخ إله الحرب، وأبولون إله الموسيقى والنور، وهراميس رسول الآلهة، وربُّ الفصاحة والبيان، وأثينا ربَّة الحكمة، وأفروديت ربَّة الحب الجميل، وديونيسوس ربُّ الخمر والتمثيل، ولتيراجيني أو المحزن.

- وكان لكلِّ مدينة أربابها الخاصَّة بها، ومعبودات لها كثيرة، وإن اتحدت في الاسم مع أرباب المدينة الأخرى فالمسمَّى يختلف.

فأبولون في مدينة ليس هو أبولون في مدينة أخرى، وإن اتَّحد الاسم، ولكن مع هذا الاختلاف كانت هناك أرباب كثيرة أجمع اليونان في الجملة على عبادتها وتقديسها كالسماء والأرض والبحر ولها في كلِّ مكان معبد خاصٌّ بها، أو مزار يتقرب فيه إليها، وإن الأرباب التي يشترك اليونان في تقديسها كثيرة جدًّا، وكلُّها يمثل أعظم القوى الطبيعيَّة تأثيرًا في الكون ومن هذه زيوس المشترى، وهيرا وأثينا وارتيمس وهرميس (عطارد) وأريس (المريخ) وأفروديت (الزهرة) وكرونوس (زحل) وهكذا.

- وأرباب اليونان يزعمون لها التجسد ويتصورون لها حياة كحياة الإنسان وعلى أكمل وجه من أوجه الحياة الإنسانيَّة الجسديَّة والشهوانيَّة والنفسيَّة فيصورون إلههم كائنًا حيًّا في أبهى مظاهر الحياة من الصور البشريَّة، ويتمثلون المعبود أو المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة أو امرأة وسيمة المحيا واتشاح بالثياب الجميلة وتحل بالذهب والفضة.

وهذا هو ميروس في إحدى قصائده يقول عن بعض الآلهة: أنداريس وأثينا كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب، وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالأرباب إذ البشر أقزام قصار القامات.

ولكلِّ ربٍّ من أربابهم هيئته وهندامه وخصائصه، فالربَّة أثينا ربَّة الحكمة عندهم مثلًا على صورة عذراء ذات عينين براقتين تحمل رمحًا وعلى رأسها خوذة وعلى صدرها سلاح لامع.

وللأرباب كما للبشر أقرباء وأولاد وأسر، فأمهم ربَّة وأختهم أرباب أو نصف أرباب، وللأرباب تاريخ وحوادث وقصص، فالربُّ (أبولون) له ولد مثلا ولد في جزيرة ديلوس، وكانت

لجأت إليها أمّه.

ولقد صوروا لكلِّ ربٍّ من هذه الأرباب تمثالًا يعبد ولقد كان للتماثيل الكبيرة محال خاصَّة بها يزعمون أنَّ الآلهة توحي إليهم فيها على لسان الكهنة، ويتقرَّبون في تلك المحال للآلهة بالقرابين والنذور، وأشهرها معبد (دلفي) لأبولون بمدينة (فوكيس).

وقد بقيت تلك الديانة حتَّى ظهرت النصرانيَّة فغالبتها حينًا من الزمن وقضت عليها، ولكن بعد أن أثَّرت أبلغ الأثر في النصرانيَّة فلسفة الإغريق وفنونهم[1].

(١) الديانات القديمة، محمد أبو زهرة، ص(١١٢، ١١٣).

الباب الثامن

وثنية الرومان

اعتقد الرومان كما اعتقد اليونان من قبل بأنَّ كلَّ ما يحدث في هذا العالم هو مما قضت به إرادة خالق ما، ولكنَّهم لم يعتقدوا بوحدانيَّة الخالق بل عددوا أربابهم بتعدد مظاهر الطبيعة التي تتجلَّى فيها أوامر آلهتهم ونواهيها.

فهناك رب ينبت البذر، وآخر يحمي الحقل، وثالث يحرس الثمار، وهكذا.

ولكلِّ ربٍّ اسمه وجنسه وعمله، فعندهم للسماء إله وللحرب إله، وللشجاعة إله، كما عند اليونان، وسمّوا إله السماء جوبتر، وإله الحرب مارس، وإله الشجاعة هركوليس، وهو ما يسمى عند اليونان هركليس، وقد قبسوا أيضًا بعض أسماء آلهتهم وخواصها من المصريين القدماء؛ فعندهم إيزيس إلهة القمر، وأوزيريس إله الزراعة، ومراميس إله الشتاء، وكلُّها أسماء مصريَّة لآلهة مصريَّة.

وإنَّ الأرباب قد تعددت عند الرومان جدًّا فلكلِّ مظهر من مظاهر الحياة ربٌّ، ولكلِّ قوَّة في الإنسان ربٌّ، فعندما يولد الطفل يأتيه ربٌّ يعلمه النطق، وربَّة تعلمه الشرب، وأخرى تقوِّي عظامه، وربان يرافقانه إلى المدرسة، وآخران يرجعان به.

ويعتقدون أنَّ هناك أربابًا للمدينة، وللكتابة، وللجبل، ولكلِّ نهرٍ، ولكلِّ نبع، ولكلِّ شجرة ربٌّ خاصٌّ، ولقد قال الكاتب اللاتيني بترون في إحدى قصصه على لسان امرأة صالحة: إنَّ بلادنا غاصة بالأرباب، بحيث يسهل عليك أن تُلقي فيها ربًّا من أن تصادف رجلًا.

- ولقد أتى عهد على الرومان كانوا يعبدون فيه تلك الآلهة المتعددة من غير أن يتخذوا لها تماثيل، بل كانوا يعبدونها من غير تماثيل خاصَّة لكلِّ إله، فلم يكن في روميَّة في ذلك العهد صنم، ثم اتَّخذوا بعد ذلك الأصنام من الخشب أولًا، ثم اتخذوها من الرخام على مثال أصنام اليونان.

ولم تكن آلهتهم على صورة حيَّة من البشريَّة كآلهة اليونان فلم يصفوها بما يتَّصف به البشر من تحابٍ وتباغضٍ وتقاتل كاليونان.

ولم يفرضوا أن بين الأرباب صهرًا أو نسبًا وأنَّ لكلِّ إله تاريخًا يبتدئ من مولده بل كلّ ما ينحلونه للربِّ من أربابهم أنَّه يسيطر على قوَّةٍ من قوى الطبيعة، ويعمل للناس الخير والشرَّ على ما يحبُّ ويريد.

- ولقد كان الرومان يؤمنون بالطيرة أو الفأل فيذهبون إلى أن الأرباب يعرفون ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الروماني الأرباب قبل أن يشرع في عمل، فإذا أراد الحاكم عملًا يجمع لديه مجلسًا ينظر إلى الطيور السائرة فإذا كانت فيها إشارة موافقة يدركون أن الأرباب استحسنت

المشروع، وإلا كان معناه أنَّهم غير راضين عنه.

ويزعمون أنَّه كثيرًا ما يرسل الأرباب آياتهم من غير أن يسألوا، ويزعمون أنَّه قد ظهر نجمٌ ذو ذنب يوم موت قيصر فكان إشارة نعيه.

ولقد كان الرومان يقدِّسون الأمبراطرة، ويقيمون المحاريب[1].

(١) الديانات القديمة ص(١١٤، ١١٥).

القسم الرابع

المذاهب الفكريَّة المعاصرة

العلمانيَّة

التعريف:

العلمانيَّة: ترجمة لكلمة SECULARISMالإنجليزية، أو Secularit الفرنسيَّة، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينيَّة Saeculum.

وترجمتها الصحيحة: اللادينية أو الدنيويَّة، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين، سواء بالنسبة للأمة أو للفرد،

وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم.

وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العِلم SCIENCE، وقد اختيرت كلمة علمانيَّة؛ لأنها أقل إثارة من كلمة لادينية، ومدلول العلمانيَّة المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وإبقاءه حبيسًا في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه؛ فإن سمح له بالتعبير عن نفسه، ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوهما.

العلمانيَّة في المعاجم الأوربية:

- في معجم اللغة البريطانية عن مادة «علمانيَّة» ما يلي:

١ . علمانيَّة secularism ما يهتم بالدنيوي أو العالمي كمعارض للأمور الروحية، وبالتحديد هي الاعتقاد بالدنيويات.

٢ . العلماني secularist وهو ذلك الشخص الذي يؤسس سعادة الجنس البشري في هذا العالم دون اعتبار للنظم الدينيَّة أو أشكال العبادة.

٣ . علمانيَّة secularity، أو secularism؛ أي محبة هذا العالم، أو ممارسة، أو مصلحة تختص على الإطلاق بالحياة الحاضرة.

٤ . يعلمن seculariye يجعله علمانيًا، يحوّله من مقدس إلى دنيوي، أو من راهب إلى دنيوي.

٥ . علماني secular ما يختص بهذا العالم أو بالحياة الحاضرة، زمني أو عالمي أو ما يناقض كل ما هو ديني أو روحاني، أو ما لا يخضع لسلطة الكنيسة، مدني أو غير روحاني، أو ما لا يهتم بالدين، أو ما ليس بمقدس.

- وفي معجم أكسفورد بيان معنى كلمة secular كما يلي:

١ . دنيوي أو مادي، ليس دينيًا ولا روحيًا، مثل التربية اللادينية، والفن والتربية الموسيقى اللادينية والسلطة اللادينية، والحكومة المناهضة للكنيسة.

٢ . الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية.

- ويطرح معجم ويبستر:

علماني: دنيوي، ومن معانيه الشيء الذي يحدث مرة واحدة في عصره أو جيل، أو شيء وثيق الارتباط بالحياة المعاصرة، وأشهر معانيه الآن: الأشياء الدنيويَّة المتمايزة عن الأشياء الروحية غير العقدية، وغير التي لها صفة الخلود.

والعلمانيَّة هي النظام السياسي والاجتماعي الذي ينبذ كل أشكال العقيدة الدينيَّة أو العبادة.

وفي تعريف آخر: فالعلمانيَّة هي النظرة التي تقول بأن أمور التعليم والأخلاق والمعاملات يجب أن تجري بدون أي اعتبارات أو تأثيرات دينية.

- أما المعجم الدولي الثالث الجديد فيعرف بمادة secularism كما يلي: اتجاه في الحياة، أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينيَّة يجب ألا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعادًا مقصودًا؛ فهي تعني مثلًا: السياسة اللادينية البحتة في الحكومة، وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة، والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

- تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة secularism إنها: حركة اجتماعيَّة تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله [عز وجل] واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة، وظل الاتجاه إلى secularism يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين، ومضادة للمسيحية.

ودائرة المعارف البريطانية حينما تحدثت عن العلمانيَّة، تحدثت عنها ضمن حديثها عن الإلحاد، وقد قسمت دائرة المعارف الإلحاد إلى قسمين: إلحاد نظري، وإلحاد عملي، وجعلت العلمانيَّة ضمن الإلحاد العملي.

- وفي دائرة المعارف الأمريكيَّة: العلمانيَّة نظام أخلاقي مستقل مؤسس على مبادئ من الخلق الطبيعي، مستقل عن المظهر الديني أو الفوق طبيعي، إنها عرضت لأول مرة في شكل نظام فلسفي بواسطة جورج جاكوب هوليوك حوالي سنة ١٨٤٦م في إنكلترة، إنها سلمت لأول مرة بحرية الفكر، وبأن من الحق لكل إنسان أن يعتقد بنفسه ما يريد، وطبقًا لهذا التسليم، وكتتمة ضرورية له يكون من الحق أن يكون هناك اختلاف في الرأي حول كل الموضوعات العقائدية، هذا الحق في اختلاف الرأي لا يتفق بدون حق تبرير ومناقشة ذلك الاختلاف.

أخيرًا: العلمانيَّة تؤكد الحق في مناقشة ومجادلة كل الأسئلة الحيوية مثل المعتقدات المعتبرة أسس الالتزام الأخلاقي، مثل: وجود الله [عز وجل] وخلود الروح، وسلطة الضمير. العلمانيَّة: لا

تعني أنه لا يوجد خير آخر، لكن الخير في الحياة الحاضرة، إنها تعني أن الخير في الحياة الحاضرة هو الخير الحقيقي، ويُبحث عنه لأنه الخير، إنها تهدف إلى إيجاد وضع مادي يكون فيه من المستحيل أن يوجد معدم أو فقير، إنها تؤكد القوى الماديَّة في هذه الحياة، التي لا يمكن إهمالها دون الوقوع في حماقة أو مضرة، ومن الحكمة والرحمة والواجب الاعتناء بها، إنها لا تمانع المعتقدات المسيحيَّة، إنها تقول: إنه لا يوجد هاد أو منقذ في هذه الطبيعة بالأحرى إنها تعني: أن الرشد أو المنقذ يوجد في الحقيقة العلمانيَّة التي تملك من المصادفات والتجارب ما يجعلها مستقلة، فالسلوك الإنساني مستقل إلى الأبد.

العلمانيَّة في المعاجم العربيَّة:

- أول معجم عربي يورد الكلمة هو المعجم الوسيط، فقد جاء في طبعته الأولى سنة ١٩٦٠م: (العلماني): نسبة إلى العَلْم، بمعنى العالم، وهو خلاف الديني، أو (الكهنوتي)، وبقي الأمر كذلك في الطبعة الثانية الصادرة سنة ١٩٧٩م، أما في الطبعة الثالثة، التي صدرت سنة ١٩٨٥م، فقد وردت الكلمة فيه مكسورة العين، بعد أن ظلت مفتوحة في الطبعتين الماضيتين.

- وأول معجم ثنائي اللغة قدم ترجمة للكلمة هو قاموس «عربي فرنسي» أنجزه لويس بقطر المصري عام ١٨٢٨ م وهو من الجيل الذي ينتمي للحملة الفرنسيَّة، وقد كان متعاونًا مع الفرنسيين، ورحل معهم إلى باريس، وعاش هناك، وكانت ترجمته لكلمة: secularite = عالماني، seculier = علماني، عالماني.

- وفي قاموس المورد لمنير البعلبكي: العلمانيَّة تعني حرفيًّا: الدنيويَّة، أو: المذهب الدنيوي.

تاريخ مصطلح العلمانيَّة:

في القرن السابع عشر استخدم مصطلح «سيكولار Secular» لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عامًا سنة ١٦٤٨ م، عند توقيع صلح «وستفاليا» -الذي أنهى أتون الحروب الدينيَّة المندلعة في أوربا- وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة، وهو التاريخ الذي يعتمده كثير من المؤرخين بداية لمولد ظاهرة العلمانيَّة في الغرب.

وفيه تمت الإشارة إلى علمنة ممتلكات الكنيسة وحسب، بمعنى نقلها إلى سلطات غير دينية، أي إلى سلطة الدولة أو الدول التي لا تخضع لسلطة الكنيسة.

وفي فرنسا في القرن الثامن عشر أصبحت الكلمة تعني من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكيَّة: «المصادرة غير الشرعية لممتلكات الكنيسة»، أما من وجهة نظر المستنيرين فإن الكلمة تعني: «المصادرة الشرعية لممتلكات الكنيسة لصالح الدولة».

وفي القرن التاسع عشر اتسع المجال الدلالي للكلمة وبدأت الكلمة تتجه نحو مزيد من التركيب والإبهام على يد جون هوليوك ١٨١٧ - ١٩٠٦م الذي يعتبر أول من صاغ المصطلح بمعناه المعاصر، وجعله يتضمن أبعادًا سياسية واجتماعيَّة وفلسفية، وأراد هوليوك أن يُجنب المصطلح

مصادمة الأديان فعرَّف العلمانيَّة بما يشير إلى الرغبة في الحياد فقال: العلمانيَّة: هي الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادِّيَّة، دون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض.

وهوليوك كان ينفي عن نفسه تهمة الإلحاد، ولكنه في نفس الوقت يعترف بعدم وجود أدلة كافية للإيمان بالله، ويجهر أحيانًا بأن الإله إنما هو: الحاضر المعيش.

ويرجع أول استخدام لكلمة علمانيَّة عند هوليوك إلى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٦ م عندما أوردها في مقال نشره في مجلة «ذي ريزونور»؛ أي «المجادل العقلاني»، والسبب أنه شعر مع بعض زملائه وأسلافه مثل «توماس بين» و«ريتشارد كارليل» و«روبرت تيلور» أن المسيحيَّة لم تعد مقبولة لدى أكثر فئات المجتمع، وقد مست الحاجة إلى استبدالها بمبدأ حديث فكان هو «العلمانيَّة»، وقد سماها أتباع روبرت أدين بـ«الدين العقلاني».

وأسس هوليوك في عام ١٨٥٥ م «جمعيَّة لندن العلمانيَّة»، وفي ديسمبر من نفس العام تحولت الحركة العلمانيَّة إلى تيار واسع النطاق، وتزايد انتشارها بين عامي ١٨٥٣ - ١٨٥٤ م، مما دفع القس بردين جرانت إلى التصدي لها في كل أنحاء إنكلترة مفندًا ومجادلًا.

ولكن ازداد توزيع مجلة «الريزونور» العلمانيَّة إلى خمسة آلاف نسخة، وانتشرت الجمعيَّات العلمانيَّة في جميع أنحاء بريطانيا ومن أبرزها «جمعيَّة لستر العلمانيَّة» و«جمعيَّة بولتون العلمانيَّة» وجمعيَّات أخرى في سائر أنحاء البلاد.

وكان لجهود تشارلس برادلاف ١٨٣٣ - ١٨٩٤ م دورًا كبيرًا في ترسيخ المبادئ العلمانيَّة الجديدة، وإضفاء طابع الإلحاد عليها، وذلك عندما استلم رئاسة جمعيَّة لندن العلمانيَّة سنة ١٨٥٨ م بدلًا من هوليوك، واشترك سنة ١٨٦٠ م في تحرير مجلة «المصلح القومي» التي حلت محل سابقتها «الريزونور» وأسس الجمعيَّة العلمانيَّة القومية سنة ١٨٦٦ م.

اندثرت مجلة «المصلح القومي» سنة ١٨٨١ م لتحل محلها مجلة «المفكر الحر» التي زادت من جرعتها الإلحادية، فكانت لا تكف عن الاستهزاء بالأناجيل، والسخرية من الذات الإلهية، إلى درجة أنها طالبت بمحاكمة أصحاب الأناجيل الأربعة؛ لأنهم يجدفون على الله فهم يقولون بأن الله، ضاجع عذراء يهودية وأنجب منها طفلًا غير شرعي أسماه المسيح.

العَلمانيَّة والعِلمانيَّة:

إن العَلمانيَّة -بالفتح- والعِلمانيَّة -بالكسر- ظاهرتان بارزتان في الفكر الغربي، وإحداهما تكمل الأخرى.

فالعَلمانيَّة -بالفتح- المراد بها المعنى المتقدم، وهي ظاهرة قديمة وممتدة في عمق التاريخ، وتغلغلت في كافة الحضارات.

أما العِلمانيَّة -بالكسر- فهي احتكام لمنطق العلم دون سواه في تأويل الأشياء المتصلة بمختلف

أوجه النشاط البشري.

وقد ظهرت لفظة العِلمانيّة -بالكسر- في بدايات القرن العشرين تقريبًا سنة ١٩١١م تيارًا ذهنيًا يقوم على حل المشاكل الذهنية بواسطة العلوم، فهي تنطلق من الإيمان بأن للعلم قدرة فائقة على إعطاء تفسير علمي للأشياء، أو كما قال جون فيول: الاعتقاد في القدرة الفائقة للعلم الوضعي حتى في المجال الديني.

وفي القاموس الإنجليزي الجديد: العلمانيّة -بالكسر- تعني العادات وطريقة التعبير لدى رجل العلم.

ويرى فريدريك فون هايك صاحب كتاب العلمانيّة وعلم الاجتماع أن هذا المفهوم: تبلور معناه واكتمل مدلوله عندما تكونت الجمعيّة البريطانية للتطور العلمي.

وعلى هذا نقول: إن العِلمانيّة -بالكسر- مشتقة من العِلم وتدعو إلى الاحتكام إلى العلم، وهي ظاهرة جديدة وظفتها العَلمانيّة -بالفتح- توظيفًا خاطئًا وخطيرًا على البشرية والإنسانية جمعاء.

فالعلم عند الغربيين الطبيعيين لا يتناول إلا المحسوسات والمشاهدات، فهو العلم الطبيعي والرياضي فقط، ولا صلة له بالميتافيزيقا أو بالأسئلة الكبرى المتعلقة بمصير الإنسان.

فهي تقوم على عقلانيّة ماديّة وضعيّة اجتماعيّة وتطرح مفهومًا جديدًا للعلم يحيد التفكير الميتافيزيقي عن ساحته.

فالفهم العلمي العِلماني إذن يتنافى مع الإيمان بالوحي الإلهي وهكذا تعود العلمانيّة فتنقلب إلى علمانيّة.

فالحاصل أن لفظتي علمانيّة -بالفتح- وعلمانيّة -بالكسر- تصلحان تعبيرًا عن الظاهرة الماديّة التي تستولي اليوم على مجتمعاتنا الإسلاميّة، وذلك لأن الكلمتين متكاملتان متفاعلتان من حيث المفهوم، فالعلمانيّة هي تكريس للدنيويّة، والعلمانيّة أساس هذا التكريس؛ لأن العلم بمفهومها هو العلم المادي والتجريبي والطبيعي -أي الدنيوي فقط- ولا تعترف بعلوم غيبية ميتافيزيقية أخرى.

فالعلمانيّة وإن لم ترتبط بالعلم من حيث الاشتقاق ولكنها لا تنفك عنه إذ هي ارتبطت تاريخيًا بتعلم العلوم العقلية والطبيعية والتجريبية.

نهاية العلمانيّة

تبلور مؤخرًا مفهوم «ما بعد العلمانيّة» (بالإنجليزية: بوست سيكولاريزم -Post-secularism) وصاغه البروفسير جون كين، و«ما بعد» هنا تعني في واقع الأمر «نهاية»، وتشير إلى أن النموذج المهيمن قد فقد فعاليته، ولكن النموذج الجديد لم يحل محله بعد، حيث يرى أن العلمانيّة لم تف بوعودها بشأن الحرية والمساواة (حيث تنتشر العنصرية والجريمة والنسبية الفلسفية)

وأخفقت في العالم الثالث (حيث تحالفت الأنظمة العلمانيَّة مع الاستبداد والتوى العسكرية)، ولم تؤدِ إلى الجنة العلمانيَّة الموعودة، ذلك في حين ظلت المؤسسات الدينيَّة والنيم المطلقة فاعلة على مستوى المجتمع وحياة الناس اليومية، في معظم بلدان العالم الثالث[١].

تاريخ العلمانيَّة

ظهرت هذه الدعوة في أوربا في القرن السابع عشر، وانتشرت فيها، وعمت أقطار العالم بحكم النفوذ الغربي والتغلغل الشيوعي.

وقد أدت ظروف كثيرة قبل الثورة الفرنسيَّة وبعدها إلى انتشارها الواسع وتبلور منهجها وأفكارها، وقد تطورت الأحداث وفق الترتيب التالي:

وضع النصرانيَّة والكنيسة في أوربا:

١- انحرافات جذرية في عقيدة النصارى: لم تعرف أوربا دين الله الحقيقي الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام، إنما عرفت صورة محرفة عنه، هي التي أذاعها بولس ونشرها في ربوع الأرض، وبخاصة في أوربا، وقد كان بولس صاحب نظرية دينية ومعلمًا يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل، ومن تأثره بالفلسفات السابقة على المسيحيَّة فقد كان ذهنه مشبعًا بفكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانا لله، كفارة عن الخطيئة.

فما علمه بولس هو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح، وسفك الدماء لاسترضاء الإله، وهي العناصر التي أتى بها وخاصة الميثرائية التي أتى بها من ديانات فارس، والديانة الهلنستية التي جاء بها من الإغريق، والتثليث الذي استوحاه من الديانة المصريَّة القديمة.

ويقول الفيلسوف الفرنسي رينان: «إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم».

ثم لماذا يحمل الإنسان عبء عقيدة الخطيئة الأولى، وأنه يميل ميلًا فطريًّا إلى الشر؟

وهذا القيد الأبدي في علاقات الزواج غير المحتملة، وتحريم الطلاق مهما كانت دوافعه التي لا تطاق، وهو الأمر الذي دعا (مارتن لوثر) نفسه إلى القول بهذه الشناعة: «أي امرأة تتزوج من

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب المسلم (٢/ ٦٧٩)، العلمانية في المصادر الغربية، والعَلمانية والعِلمانية، د. أحمد إدريس الطعان، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٢٤، قاموس المورد، منير البعلبكي ص(٥١٠، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٧)، معجم أكسفورد ص(٨٤٩، ٨٥٠)، معجم اللغة البريطانية العالمية (٣/ ١١٣٨)، معجم ويبستر ص(٢٠٥٣)، دائرة المعارف البريطانية (١٠/ ٥٩٤)، دائرة المعارف الأمريكية (٢٤/ ٥١٠، ٥١١).

رجل عِنِّين يجب أن يُسمح لها -إذا وافق زوجها- بأن تضاجع رجلًا آخر لكي تنجب منه طفلًا، ويجب أن يُسمح لها بأن تدعي أن الطفل هو ابن زوجها».

ومن ناحية أخرى «فقد أوضح العقل أن من غير الطبيعي تمامًا أن يمسك الأصحاء عن ممارسة الجنس باسم الرهبنة، ويحرِّمونه على أنفسهم نهائيًا، وأن التبرير اللاهوتي لمثل هذا الضرب من السلوك غير الطبيعي هراء».

بل إن مسألة السعادة نفسها كانت كما قال (القديس جوست) أمام الجمعيَّة العامة الفرنسيَّة: «فكرة جديدة على أوربا».

أضف إلى ذلك وضع (النبالة الموروثة) بمعنى أفضلية طبقة محددة بامتيازات خاصة متوارثة. هل هذا أمر يخضع للمعقولية؟

٢- فصل العقيدة عن الشريعة وتقديم الدين للناس كأنه عقيدة فقط بغير تشريع تحت شعار «أدِّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله!».

وأصبح الدين النصراني دين يهمل الحياة الدنيا بدعوى تفاهتها وحقارتها وعدم جدارتها بالاهتمام، وبدعوى أن الإنسان خاطئ بطبعه، ولا سبيل إلى إصلاحه في الحياة الدنيا وكفه عن الخطيئة إلا بكفه عن ممارسة الحياة ذاتها.

دين يحتقر الجسد ويشمئز من نشاطه الفطري؛ لأن هذا النشاط هو الذي يوقع الناس في الخطيئة، وما دفع إلى الخطيئة فهو ذاته خطيئة! وعلاجه الوحيد هو الكبت والقهر.

دين يحقِّر الإنسان ليمجد الرب... كأنما لا يتحقق تمجيد الرب إلا بتحقير الإنسان... و ذلك بدعوى أن الإنسان إذا اتجه لتحقيق وجوده تمرد على الرب، فلا بد من سحقه، وإذلاله، وتحقيره لكي يتمجد الرب في قلبه، فيحصل على الخلاص.

دين يصرف الناس عن عمارة الأرض، وعن ترقية الحياة وتنميتها، بدعوى أن ذلك سيصرف الناس عن التوجه إلى الآخرة، وسيحرك شهواتهم التي لا بد أن تكبت، ومن ثم يوقعهم في الخطيئة الواقفة للإنسان بالمرصاد.

٣- سلطوية الكنيسة: تم ابتداع فكرة الكنيسة والتي لا سند لها إلا ذلك القول المنسوب إلى المسيح في إنجيل متى: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابْنِ كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطًا في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولًا في السموات.

فنشأت الكنيسة واستمدت سلطانها الزائف من تلك الأسطورة المنسوبة للمسيح، وهي التي أعطت حق الحل والربط لحواريّه بطرس، وهذا أعطاه بدوره لآباء الكنيسة من بعده، فما ربطه بطرس وخلفاؤه من بعده في الأرض لا يحل في السماء، وما حله في الأرض لا يربط في السماء؛ أي إنهم زعموا أن الأرض تحكم السماء، وأن البشر يحكمون قدر الله ومشيئته.

وقد اكتفت الكنيسة الأوربية بسلطانها الروحي على قلوب تابعيها، غير أن ذلك لم يستمر إلا في وقت استضعافها في القرون الثلاثة الأولى، حيث كان النصارى مضطهدين في عهد القياصرة الوثنيين، ولكنها استأسدت بعد ذلك في القرن الرابع حين دخل قسطنطين في النصرانيَّة، ومكن للكنيسة ورجالها، بعد أن أفلح في مزج دينها بأساطير الوثنية، وأرضى بذلك النصارى والوثنيين معًا، وأمَّن سلطانه على الإمبراطورية التي كان النزاع الديني قد أوشك على القضاء عليها!

وحين أصبح للكنيسة سلطان سياسي إلى جانب السلطان الروحي بدأ الطغيان، وفي بيان للبابا نقولا الأول ورد في كتاب قصة الحضارة للكاتب ول ديورانت، يقول «إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما قد ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكامًا كانوا أو محكومين».

٤- فساد رجال الدين وجهالتهم، فقد تحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفين سياسيين ومستبدين تحت ستار الإكليروس، والرهبانيَّة، والعشاء الرباني، وبيع صكوك الغفران.

فرضوا سلطانًا فكريًّا رهيبًا يحجر على العقول أن تفكر إلا بإذن الكنيسة، وفي الحدود التي تسمح بها الكنيسة، وقد كان هذا ضرورة لازمة منطقية مع التحريف الذي حدث في الدين، خاصة فيما يتعلق بذات الإله والعشاء الرباني، وقدرات الكهنة المتمثلة في كراسي الاعتراف وصكوك الغفران التي تدخل الجنة وغير ذلك من أمثال تلك الأسرار... كلها أمور لا يستطيع العقل أن يدركها ولا أن يتدبرها... فماذا لو أعمل الناس عقولهم، فاكتشفوا أن يقال لهم باسم العقيدة كلام لا يثبت للتمحيص؟، ماذا يبقى للكنيسة عندئذ من سلطان على الناس؟، فالحل الأمثل لهذه الحال إذن أن تحجر الكنيسة على العقل، وأن يعتبر التفكير هرطقة تفضي إلى إهدار الدم في الدنيا، والحرمان من الغفران.

٥- الصراع الذي نشأ بين الكنيسة والكشوف العلميَّة في جوانب الحياة المختلفة، فعلى الرغم من أن الديانة النصرانيَّة ديانة روحية صرفة إلا أن المؤسسة الكنسية تبنت بعض النظريات العلميَّة القديمة في بعض العلوم، ثم بمرور الزمن جعلتها جزءًا من الدين يحكم على كل من يخالفها بالردة والمروق والهرطقة، وحين تطورت العلوم الطبيعية، وبدأت تتسرب إلى أوربا من العالم الإسلامي عن طريق الترجمة التي حدثت في الأندلس، وكذلك عقب الحروب الصليبية، تبين أن الكثير من تلك النظريات كانت خاطئة وخلاف الصواب والحقيقة، وانبرت الكنيسة تدافع عن تلك الأخطاء باعتبارها من الدين، واشتعلت الحرب، وسقط ضحايا التزمت الخرافي والتعصب الأعمى غير المبرر من علماء الطبيعة ما بين مقتول ومحروق ومشنوق، ومارست الكنيسة أقصى درجات القمع الفكري والبدني على معارضيها بزعمها.

وهكذا وقفت الكنيسة ضد العلم وهيمنت على الفكر وشكلت محاكم التفتيش واتهمت العلماء

بالهرطقة، مثل:

- كوبرنيكوس: نشر سنة ١٥٤٣م كتاب حركات الأجرام السماوية، وخالف فيه ما كانت الكنيسة تعتقده من أن الأرض مركز الكون، وأن الأجرام السماوية كافة تدور حولها، وقد حرمت الكنيسة هذا الكتاب.

- وجاء بعده برونو بتأكيد نفس النظرية، فسجنته الكنيسة فأصر على رأيه فأحرقته.

- جاليليوجاليلي: أيد النظرية فلقي في السجن العذابَ والمهانةَ، وكاد أن يلقى نفس مصير برونو لولا أنه خشي على حياته فأعلن ارتداده عن أفكاره، وصنع التلسكوب فعُذب عذابًا شديدًا وعمره سبعون سنة وتوفي سنة ١٦٤٢م.

- وأهدرت الكنيسة دم كل من يقول يومئذ بكروية الأرض، أو أنها ليست مركز الكون.

- ديكارت: فدعا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة، واستثنى الدين تحت الرهبة من الكنيسة التي لم يزل لها نفوذ وسطوة.

- بيكون: أظهر المنهج التجريبي والازدواجية في الفلسفة والنظر العلمي، والفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي، الذي كان يمثل مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق له.

- سبينوزا: صاحب مدرسة النقد التاريخي وقد كان مصيره الموت مسلولًا، وله رسالة في اللاهوت والسياسة، وكان يرى «أن الكتب المقدَّسة ليست مصادر للحقيقة النظرية، وما الأديان الكبرى إلا أدوات للتنظيم الاجتماعي، وللأخلاقية العملية أولًا وقبل كل شيء».

- جون لوك: طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض.

- ثم جاء نيوتن: وظهرت نظريات علمية هزت الكنيسة وأثارتها، كان من هذه النظريات القول بأن من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها، وكانت هذه النظرية بمثابة النواة للمذهب الطبيعي، والنظرية الميكانيكية.

٦- وكان الناتج لهذا كله أن (رجال الدين) النصارى أنفسهم كانوا يدركون أن الديانة التي يحملون مسئوليتها لا تحتمل على وجه من الوجوه أي إعمال للعقل، وهو الأمر الذي يعني أن استمرار وجودها ومن ثم استمرار مسئولياتهم وامتيازاتهم رهين بضرب حجاب كثيف على العقل لإعاقة قدرته على العمل، وهو الأمر الذي تمثل في مقولة القديس (أوغسطين) الذي سادت أفكاره القرون الوسطى الأوربية: «لست أسعى للفهم لكي أعتقد، بل إنني أعتقد كي أفهم».

بل إن (مارتن لوثر) نفسه الذي جاء بعده بعشرة قرون قرر بكل وضوح: «لا تستطيع أن تقبل كُلًّا من الإنجيل والعقل معًا؛ فأحدهما لا يفسح الطريق للآخر... إن العقل عندهم هو أكبر عدو للإيمان». ولأن إلغاء العقل هو في ذاته أمر غير معقول ولا يتفق مع الطبيعة الإنسانية؛ فقد جاء

التمرد من جانب العقول المفكرة في أوربا، حيث مُورِسَتْ أبشع الوسائل الوحشية في مواجهة الخصوم الداعين إلى الحرية والفكر مما لا نظير له في التاريخ على امتداد قرون عصر النهضة الغربية أي منذ نهايات القرن الثاني عشر إلى نهايات القرن السابع عشر، وكان رد الفعل هو نبذ هذا الدين، والتحرر من سجنه، فكانت الأفكار والفلسفات التي تهرول في الاتجاه الآخر، بعيدًا عن كل ما فيه أثر من ذلك السلطان الكنسي، وكانت العلمانيَّة.

إرهاصات الثورة الفرنسيَّة:

ما أن بدأ القرن الثامن عشر حتى أصبح الانحلال طاغيًا، والإلحاد هو المذهب السائد، وكما يقول (ول ديورانت) عن صورة ذلك في فرنسا: «أصبح التحلل من الأخلاق شارة التحرر ورقي الثقافة»، وكانت النصرانيَّة قد أخذت في الاضمحلال قبل أن يصوِّب لها (فولتير) سهام قلمه حتى قال ماسينين في ١٧١٨م: «يكاد الكفر اليوم يضفي على أصحابه مظهر التميز والفخار؛ إنه فضيلة توصل إلى العظماء. . . وتجلب للمغمورين شرف الألفة بأمير الشعب».

- ظهور مبدأ العقل والطبيعة: فقد أخذ العلمانيون يدعون إلى تحرر العقل وإضفاء صفات الإله على الطبيعة.

- جان جاك روسو سنة ١٧٧٨م له كتاب العقد الاجتماعي الذي يعد إنجيل الثورة، وينادي بالعودة إلى الطبيعة إلا أنه اضطر إلى استبدال حالة الطبيعة بحالة الحضارة.

وإذا كان الإنسان في حالة الطبيعة لا يطيع أحدًا؛ فإنه لزامًا عليه في حالة الحضارة أن يطيع أوامر يعرف أنها لم تنبع من ذاته مباشرة، وإنما أملتها إرادة شارك فيها هو وغيره حتى غدت (إرادة عامة) صنعها «العقد الاجتماعي».

- ومونتسكيو له روح القوانين، أقام فلسفة التاريخ في كتابه هذا اعتمادًا على التأثيرات المختلفة لتغيرات المناخ بين الأقاليم، وأن تلك التأثرات هي التي تصنع العادات والتقاليد التي تكون ملائمة لكل إقليم عن الآخر.

- فولتير صاحب القانون الطبيعي، كان له: الدين في حدود العقل وحده، سنة ١٨٠٤م.

يقول فولتير في مقال المتناقضات: «مَنْ خوّل الكنيسة سلطة الحكم بأن تقول إن أربعة فقط من الخمسين إنجيلًا التي دونت في القرن الذي تلا موت المسيح هي وحدها -أي الأناجيل الأربعة- معتمدة، أي موحى بها من عند الله؟ وأي سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء، ثم يتعقب نسبه إلى داود (. . .) عن طريق يوسف المزعوم الخامل؟ ولماذا نبذت المسيحيَّة شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها؟ وهل كان بولس الذي نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعًا أقوى من المسيح؟».

ويقول فولتير: «إن لديَّ مائتي مجلد في اللاهوت النصراني، والأدهى من ذلك أني قرأتها وكأني أتجول في مستشفى للأمراض العقلية. . .».

وقد رأى فولتير في تاريخ النصرانيَّة «شقاء بالغًا للجنس البشري؛ فصوفية بولس، وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك في صحتها، وأساطير الشهداء والمعجزات، وبراعة الكهنة في التخطيط والتدبير تضافرت كلها مع السذاجة المتغلفة بأهداب الأمل عند الفقراء لإيجاد الكنيسة النصرانيَّة».

- وهيوم ١٧٧٦م التجريبي المتشكك في كل شيء، حتى تجريبيته؛ فقد حدد الدين الحق بأنه فلسفته الخاصة عن الدين، والتي ترجع ضرورة الاعتقاد في الله إلى الميل الذاتي في طبيعتها، وليس إلى أي دليل آخر ودون أن يؤدي ذلك إلى أية عقائد دينية.

- وليم جودين ١٧٩٣م له العدالة السياسية ودعوته فيه دعوة علمانيَّة صريحة.

- ميرابو الذي يعد خطيب وزعيم وفيلسوف الثورة الفرنسيَّة.

والواقع التاريخي يؤكد أن جميع الفلاسفة المرموقين كانوا معارضين للثورة على حكومات أوربا القائمة آنذاك، ويذكر ول ديورانت «أن منهم من وضعوا إيمانهم في الملوك؛ لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية، واحتفظ فولتير وديدرو وجريم بعلاقات صداقة إن لم تكن إعجابًا شديدًا بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبدادًا (فردريك الثاني -كاترين الثانية- جوستاف الثالث).

ومع ذلك فإنه يمكن القول إنهم قدَّموا التمهيد الطبيعي للثورة بتوفير الإعداد الأيديولوجي لها.
وقد يكون الخلاف كبيرًا حول العامل الأساسي للثورة: هل هو العامل السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي؟ ومع ذلك يظل الوقود الدافع لهذا الانقلاب الرهيب الذي حدث في فرنسا هو الرغبة في التخلص من كل الميراث الكهنوتي الرهيب المتحالف مع الملوك والإقطاع والطبقات الأرستقراطية.

وقد ذهب توكفيل إلى أن «سوء السمعة العام الذي انحدر إليه الإيمان الديني كله في نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر في سير الثورة برمته».

الثورة الفرنسيَّة:

نتيجة لهذا الصراع بين الكنيسة من جهة وبين الحركة الجديدة من جهة أخرى، وبلوغ الفساد السياسي والتدهور الاقتصادي أقصاه، ونفاد صبر الشعب ممثلًا في الفلاحين والمهنيين الذي أنهكته المجاعة، بينما كانت هناك طبقتان منغمستان في التنعم والترف يمثلهما رجال الدين والنبلاء.

فكانت ولادة الحكومة الفرنسيَّة سنة ١٧٨٩م وهي أول حكومة لا دينية تحكم باسم الشعب، وتقوم على حرية التدين، بدلًا من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلًا من التقيد بالأخلاق الدينيَّة، وعلى دستور وضعي بدلًا من قرارات الكنيسة.

وهناك من يرى أن الماسون استغلوا أخطاء الكنيسة والحكومة الفرنسيَّة وركبوا موجة الثورة لتحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافهم.

وعندما سارت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل رمز العبودية والاستبداد وكان شعارها الخبز ثم تحول شعارها إلى (الحرية والمساواة والإخاء) وهو شعار ماسوني، وشعار «لتسقط الرجعية» وهي كلمة ملتوية تعني الدين، وقد تغلغل اليهود بهذا الشعار لكسر الحواجز بينهم وبين أجهزة الدولة وإذابة الفوارق الدينيَّة، وتحولت الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه.

الثورة الأمريكيَّة:

يذهب (ول ديورانت) إلى أن الفلسفة اتفقت مع الدبلوماسية في المساندة الفرنسيَّة للثورة الأمريكيَّة «فمؤلفات فولتير، وروسو، وديدرو، ورينال، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسي لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصرت التحرير الفكري، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين -كواشنطن وفرانكلين وجيفرسون- أبناء التنوير الفرنسي؛ ومن ثم فحين قَدِمَ (سيلاس دين) إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦م) ملتمسًا قرضًا للمستعمرات الثائرة كان الرأي العام الفرنسي شديد التعاطف معه».

ومن الصعب القول بأن الشخص العادي الذي كان يعمل بالمستعمرات كان يتبع الحركة التنويرية الأوربية، ومع ذلك فقد توافرت للأسرة الميسورة الحال نسبيًّا كل من الموارد والوقت اللازمين للمشاركة في التنوير الأوربي.

«ولقد كوَّن العديد من الصفوة التي تبنت الآراء التنويرية رؤية غير تقليدية للدين؛ فالدين نفسه كان يجري تحليله بطريقة عقلانيَّة»، وإذا كان رجال الثورة الأمريكيَّة استعاروا من مونتسكيو نظرية الفصل بين السلطات؛ فإن جيفرسون قد استعار الكثير من جون لوك حين كتب نظريته السياسية كما جاءت في الفقرة الثانية من دستور الثورة.

الحركات الفكريَّة:

في القرن التاسع عشر قامت في الغرب حركة اجتماعيَّة فكرية سياسية شاملة نفضت غبار الماضي، وثارت على كل قديم، واحتدمت نيران الصراع بين القوى الاجتماعيَّة والسياسية الجديدة والقوى القديمة التي يمثلها الإقطاع وطبقات النبلاء، وانحازت الكنيسة أيضًا للقوى القديمة، بينما كانت القوى الجديدة تطالب بالحريات المساواة، وترفع شعار حقوق الإنسان، ويدعمها العلم وحقائقه، وتطور الحياة وسنتها... فالتفت الشعوب والجماهير حول القوى الجديدة الداعية إلى التقدم الاجتماعي والتطور الفكري والسياسي، وكان يدعم هذا التوجه ما عاشته الشعوب من ظلم واستغلال بشع في ظل الإقطاع والكنيسة، وكانت العلمانيَّة اللادينية هي اللافتة والراية التي اجتمعت القوى الجديدة تحتها، وبانتصار هذه القوى انتصرت العلمانيَّة، واندحرت النصرانيَّة وأخذت القوى الجديدة تبشر بعصر جديد يسعد فيه الإنسان، وتحل جميع مشكلاته، ويعم السلام والرفاهية والرخاء جميع الشعوب، وهو ما لم يتحقق إلا بعضه.

ومن هذه المذاهب الفكريَّة الشهيرة:

١- **نظرية التطور:** ظهر كتاب أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م لتشارلز دارون الذي يركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب، وقد جعلت الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة ذات خلية واحدة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخرها.

وقد حكم اثنان من علماء الأحياء في القرن الماضي هما «أوين» في إنجلترا، و«أجاسيز» في أمريكا على تلك النظرية بأنها مجرد خرافة علمية، وأنها سوف تنسى بسرعة.

كما انتقدها العالم الفلكي الشهير «هرشل» بل وسائر أساتذة الجامعات، ومع ذلك تشبث بعض علماء الغرب بها؛ وذلك لأن هذه النظرية أدت إلى انهيار العقيدة الدينيَّة ونشر الإلحاد، يقول السير آثر كيت: إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها، هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا غير وارد على الإطلاق.

٢- **ظهور نيتشه (اليهودي):** وفلسفته التي تزعم بأن الإله قد مات، وأن الإنسان الأعلى (السوبر مان) ينبغي أن يحل محله.

٣- **دوركايم (اليهودي):** جمع بين حيوانية الإنسان وماديته بنظرية العقل الجمعي، الذي تقول: إن الإنسان حيوان خاضع «لجبرية اجتماعيَّة».

٤- **فرويد (اليهودي):** صاحب نظرية التحليل النفسي الذي اعتمد الدافع الجنسي مفسرًا لكل الظواهر، والإنسان في نظره حيوان جنسي يتعامل مع كل شيء بناء على هذا الدافع.

٥- **كارل ماركس (اليهودي):** صاحب التفسير المادي للتاريخ الذي يؤمن بالتطور الحتمي وهو داعية الشيوعية ومؤسسها الأول الذي اعتبر الدين أفيون الشعوب.

٦- **جان بول سارتر في الوجودية، وكولن ولسون في اللامنتمي:** يدعوان إلى الوجودية والإلحاد.

٨- **والوضعيَّة المنطقية والعلمانيَّة التحليلية والبرجماتية:** حتى بلغ مرحلة الإجهاد التام في الفكر الحداثي وما بعد الحداثي من المذاهب الغربية؛ لأنها تمثل التيار العام الذي تولدت عنه مختلف هذه المذاهب.

الدور الماسوني اليهودي:

لليهود دور بارز في ترسيخ العلمانيَّة من أجل إزالة الحاجز الديني الذي يقف أمام اليهود حائلًا بينهم وبين أمم الأرض.

فليس غريبًا أن يكون اليهود وراء فصل الدين عن الدولة، كما صرح بذلك الكاتب الأمريكي

وليام غاي كار في كتابه (أحجار الشطرنج)؛ «بغية القضاء على الدين الذي حرَّفوه، بتعطيله عن المجتمع داخل جدران الكنيسة»؛ لأنّ العلمانيَّة تذيب الفوارق الدينيَّة الهائلة بين اليهود وغيرهم من الشعوب والأمم.

ولا يخفى هاهنا دور أدبيات المفكرين اللادينيين من اليهود السابق ذكرهم وغيرهم.

ويذكر مرفين جونز أن «ديدرو كان قوميًا في نظرته الفلسفية، ومتطرفًا، في السياسة والدين، وكان أيضًا ماسونيًا هو وعدد ممن كانوا سيقومون بالعمل في موسوعة التنوير (رغم أن هذه الحقيقة موضع شك في حالات عدة) وكتب ديدرو نفسه أقسامًا كبيرة من الموسوعة، وشارك بأقسام أخرى أناس كانوا يسمون فلاسفة التنوير أمثال فولتير وروسو ومونتسيكو ودولباش ودالمبير، وكانت الموسوعة مثلها مثل الماسونية تعبيرًا عن الإنسانية الجديدة والكونية والعقلانيَّة»

وهذا الذي قرره جونز بقدر من الشك يؤكده ول ديورانت إلى درجة أنه يذكر عن فولتير في آخر حياته «في ٧/ ٤/ ١٧٧٨م أخذ فولتير إلى محفل «الأخوات التسع» الماسوني فقُبل عضوًا دون أن يُلزَم باجتياز المراحل التمهيدية المألوفة. وكلل رأسه بإكليل من الغار، وألقى رئيس المحفل خطابًا قال فيه: «إننا نقسم بأن نساعد إخوتنا، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحسانك... لقد كنت أيها الأخ المحبوب جدًا ماسونيًا قبل أن تنال الرتبة، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها».

ويذكر جونز عن التنويريين الأمريكيين «أن بنيامين فرانكلين الذي تبنت جمعيته الفلسفية النظرة العقلانيَّة أصبح ماسونيًا عام ١٧٣١م، وسرعان ما صار رئيسًا أعظم لدولة بنسلفانيا، ومن بين الشخصيات الأمريكيَّة الماسونية الشهيرة في تلك الفترة جورج واشنطون الذي كان رئيس ميثاق محفل الإسكندرية، والجنرال هميلتون، وأبطال ثوريون من أمثال بول ريفير والأميرالاي جون بول جونز» (١).

رأي آخر في نشأة العلمانيَّة:

يذهب بعض الباحثين إلى أن نشأة العلمانيَّة كانت في الحضارة الإغريقية في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١١٠٤ق. م)، وذلك أن التراث الديني الذي عاشت عليه هو الملاحم التي تنسب إلى (هوميروس) ومجمع الآلهة في جبل الأولمب وكل هذا من الأساطير والخرافات، فطفق فلاسفتها -الذين وضعوا أسس الحضارة في التفكير الغربي مثل ديمقريطس وأرسطو وأبيقور- يبحثون عن مصدر آخر للحقيقة بعيدًا عن هذا الجو الأسطوري الدنس، وما كان للفلاسفة سوى أن يعتمدوا

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٧٩- ٦٨١)، ما هي هذه العلمانية، مجدي هلال، العلمانية التاريخ والفكرة، د. عوض محمد القرني، العلمانية النبتة الغربية عن الحضارة الإسلامية، د. محمد عمر دولة، حقيقة التنوير، محمد إبراهيم مبروك، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د. سفر الحوالي.

على عقولهم وخبراتهم الواقعية في العمل على إدراك حقائق الوجود، وإدراك حقيقة الدين نفسه.

فكانت السمة الرئيسية التي تحكم الطريقة الإغريقية في التفكير الاقتصار على العقل البشري وخبراته فقط في معرفة الحقيقة وتجريد الوعي البشري من أي معرفة دينية للحقيقة أو بقول آخر البحث عن ثمار الحقيقة في غير شجرة الدين تمامًا إلى الأبد.

وهذا هو المعنى الحقيقي للعلمانيَّة الذي لا يسمح لشيء آخر غير العقل أن يتدخل أدنى تدخل في حياة الإنسان وتصوراته، ولا يترك حتى للدين نفسه أن يحدد موقعه من تلك الحياة، بل هي -لو أرادت- التي تسمح بهذا التدخل الذي تقوم بتحديد نطاقه الضيق للدين؛ بحيث يتحتم عليه عدم الخروج منه.

وعلى هذا تكون العلمانيَّة هي طريقة التفكير التي كان ينتهجها التيار الأساسي في الفكر الإغريقي الذي يعد الفكر الغربي بوجه عام امتدادًا طبيعيًا له، ولم تنشأ كما هو سائد رد فعل لجمود الكنيسة الغربية واضطهادها للعلماء والمفكرين في عصر النهضة. وإن غاية ما حدث في ذلك أن هؤلاء العلماء والمفكرين استعانوا بها مرة أخرى في مواجهة كهنوت الكنيسة واضطهادها حتى سادت تمامًا واستمرت في الغرب حتى الآن[(١)].

الاتجاهات العلمانيَّة في العالم العربي والإسلامي

بسبب انحراف المسلمين عن مفاهيم الدين الصحيحة والمتمثل في مفهوم الألوهية ومفهوم الإيمان بالقدر، وبسبب التخطيط اليهودي الصليبي ظهرت الاتجاهات العلمانيَّة في العالم العربي والإسلامي، نذكر نماذج منها:

١- في مصر: دخلت العلمانيَّة مصر مع حملة نابليون بونابرت، وقد أشار إليها الجبرتي في تاريخه -الجزء المخصص للحملة الفرنسيَّة على مصر وأحداثها- بعبارات تدور حول معنى العلمانيَّة وإن لم تذكر اللفظة صراحة.

وأدخل الخديوي إسماعيل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م، وكان هذا الخديوي مفتونًا بالغرب، وكان أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوربا.

٢- الهند: حتى سنة ١٧٩١م كانت الأحكام وفق الشريعة الإسلاميَّة ثم بدأ التدرج من هذا التاريخ لإلغاء الشريعة بتدبير الإنجليز، وانتهت تمامًا في أواسط القرن التاسع عشر.

٣- الجزائر: إلغاء الشريعة الإسلاميَّة عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠م.

٤- تونس: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩٠٦م.

٥- المغرب: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩١٣م.

---

(١) انظر: العلمانية، محمد إبراهيم مبروك.

٦- تركيا: لبست ثوب العلمانيَّة عقب إلغاء الخلافة، واستقرار الأمور تحت سيطرة مصطفى كمال أتاتورك، وإن كانت قد وجدت هناك إرهاصات ومقدمات سابقة.

٧- العراق والشام: ألغيت الشريعة أيام إلغاء الخلافة العثمانية، وتم تثبيت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيهما.

٨- معظم أفريقيا: فيها حكومات نصرانية امتلكت السلطة بعد رحيل الاستعمار.

٩- أندونيسيا ومعظم بلاد جنوب شرقي آسيا: دول علمانيَّة.

١٠- انتشار الأحزاب العلمانيَّة والنزعات القومية: حزب البعث، الحزب القومي السوري، النزعة الفرعونية، النزعة الطورانية، القومية العربيَّة.

١١- من أشهر دعاة العلمانيَّة في العالم العربي والإسلامي: أحمد لطفي السيد، إسماعيل مظهر، قاسم أمين، طه حسين، عبد العزيز فهمي، ميشيل عفلق، أنطون سعادة، سوكارنو، سوهارتو، نهرو، مصطفى كمال أتاتورك، جمال عبد الناصر، أنور السادات صاحب شعار «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»، فؤاد زكريا، فرج فودة، وغيرهم[(١)].

منظّرو العلمنة في البلاد العربيَّة

العلمانيون في العالم العربي والإسلامي كثيرون منهم كثير من الكتاب والأدباء والصحفيين، ومنهم كثير ممن يسمونهم بالمفكرين، ومنهم أساتذة في الجامعات، ومنهم جمهرة غفيرة منتشرة في وسائل الإعلام المختلفة، وتسيطر عليها، ومنهم غير ذلك.

وكل هذه الطبقات تتعاون فيما بينها، وتستغل أقصى ما لديها من إمكانات لنشر العلمانيَّة بين الناس، حتى غدت العلمانيَّة متفشية في جل جوانب حياة المسلمين، نسأل الله السلامة والعافية.

وينبوع العلمانيَّة اللادينية: ميكافيللي، كالفن، توماس هوبز، جون لوك، جون ستيوارت، هولباخ، فولتير، ديكارت، مونتسكيو، جان جاك روسو، ثم الطبقة التي تليها هم: هيغل، كيجارد، كارلايل، داروين، انجلز، ماركس، نيتشه، فرويد، دركهايم، لينين، تروتسكي، جون ديوي، هيدجر، رسل، سارتر، وغيرهم كثير من المستشرقين والمفكرين والكتاب والفلاسفة.

هؤلاء كان لكتاباتهم الأثر الأكبر في تخريج هذه الطبقة في بلادنا العربيَّة: وهي: ألبرت حوراني، ماجد فخري، عبد الرحمن بدوي، عبد العزيز الدوري، ساطع الحصري، البستاني، عثمان أمين، محمد لطفي، زكريا إبراهيم، أنطون سعادة، شبلي شميل، فيليب حتى، سليم خياطة، رئيف خوري، جميل صليبا، حسين مروة، جورج طرابيشي، مصطفى حجازي، لطفي السيد، عبد العزيز فهمي، إسماعيل مظهر، جورجي زيدان، طه حسين، سلامة موسى، وبين تواريخ

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٨١، ٦٨٢).

وفياتهم بعض التقديم والتأخير، ومن النساء: صفية زغلول، وهدى شعراوي.

وهنا تأتي طبقة تواكب وبعضها يسبق من تقدم، لكنها تنتسب إلى الدين نوع انتساب، أو تظهر شيئًا من ذلك، مثل: رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وتأثر به سعد زغلول وأحمد لطفي السيد، وإن لم يكونوا متنسبين إلى الدين.

وكان كرومر يقول: أسميهم حبًا في الاختصار أتباع المرحوم المفتي السابق الشيخ محمد عبده.

وقد تأثر به قاسم أمين أيضًا وكان يقول: إنه استقى كتابه عن تحرير المرأة من توجيهات محمد عبده، وذكر لطفي السيد في كتابه قصة حياتي أن قاسم أمين قرأ عليه وعلى محمد عبده كتاب تحرير المرأة في جنيف قبل نشره، وعبد الله النديم يلحق بتلاميذ محمد عبده.

ثم من المتنسبين إلى الدين: الكواكبي، وطه حسين في بعض كتاباته، ويأتي في هذا الدور علي عبد الرازق، وقد ساهم هؤلاء بدور فعال في ترويج العلمنة بالقيام بدور خاص له طبيعة خاصة.

غير أن أشدهم في الدعوة إلي العلمنة والغارة على الإسلام لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي، وإسماعيل مظهر، وكان من أشد القائمين بهذا الدور بنوع من التلبيس والتخفي في بعض كتاباته، صديق إسماعيل مظهر الحميم طه حسين.

ثم جاءت طبقة أخرى أحدث: زكي نجيب محمود، فؤاد زكريا، غالي شكري، تيزيني، العروي، الجابري، مقالح، أركون، علي زيعور، سعد الدين إبراهيم، ناجي علوش، العروي، حسين قبيصي، نديم البيطار، خليل أحمد، صلاح قنصوه، عادل ظاهر، مطاع صفوري.

ويذكر أيضا محمود أمين العالم، أدونيس (على أحمد سعيد)، فرج فودة، نور فرحات، خلف الله.

وأما محمد عمارة، عادل حسين، وطارق البشري، وكمال أبو المجد، فهمي هويدي، فهم برزخ بين السلفية (بمعناها العام أي رفض الفصل بين الدين والحياة) والعلمنة.

مع أن الغالين في العلمنة يسمون هؤلاء (السلفيون الجدد)، ويجعلون منهم حسن حنفي!! ولهؤلاء دور يشبه إلى حد ما دور من أشير إليهم من المتقدمين المنتسبين إلى الدين في تسهيل تغلغل العلمنة في المجتمعات الإسلاميَّة، وتراهم معجبين بكتابات الكواكبي، ومحمد عبده، والأفغاني أيما إعجاب، ومنهم من يرى في أفكار هؤلاء هي سبيل الهدى والرشاد.

هؤلاء كلهم بغض النظر عن عدم الدقة في تواريخ الوفيات، هم منظرو العلمنة في بلادنا العربيَّة، على اختلاف تياراتها بين ماركسية شرقية -التي ولت الآن بعد ما سقط صنمها- وليبرالية غربية، والقومية العربيَّة كانت تتركب مع أحد التيارين، وقد تراجعت أيضًا، مع تيار العولمة الجارف، وهيمنة الغرب على العالم، وسيطرته بنظام أحادي القطبية.

وعلى اختلاف أيضًا داخل كل تيار من جهتين:

الأولى: نوع مدرسة المفكر (أو المفكرين) الغربيين أو الشرقيين الذين تأثر بهم المفكر العربي،

سواء كان الخلاف داخل الليبرالية (الهيجلية، والظاهراتية، والبنيوية، والفرويدية، والوضعيَّة المنطقية. . .إلخ)، وهي داخل الليبرالية العلمانيَّة كإطار عام، أو كان داخل الماركسية التي شأنها شأن الليبرالية كذلك في اختلافه الداخلي.

والثانية: درجة الحماسة أو الغلو في تبني العلمنة أو معاداة الدين والتراث.

ومن هذه السلسلة انحدرت العلمانيَّة الخليجية على اختلاف توجهاتها، والتي لا تعتبر توجهات جماعية من الناحية الفكريَّة إن صح التعبير، بقدر ما هي توجهات فردية، ليس بينها رابط فلسفي يشكل مدرسة ذات أصول فكرية واحدة أو عقل جمعي بشكل ما.

وهي كذلك ليست ذات عمق وتوغل في النواحي الفكريَّة والفلسفية في المدرسة التي تتأثر بها، وليس لأكثرهم إن لم يكن كلهم، إضافات أو حتى تحليل نقدي ذي قيمة فلسفية إن كانت الفلسفة لها قيمة حقيقية، والحق عن هذا بمعزل، وهم كتاب صحفيون في الغالب أكثر من كونهم مفكرين إلا النفر اليسير جدًّا يعدون على أصابع اليد الواحدة، مع أنهم كذلك ليسوا مفكرين، لأنهم لو كانوا يفكرون بطريقة صحيحة، لما عدلوا عن الحق الذي جاء به الإسلام.

ثم تنحدر هذه السلسلة إلى من نعيش معهم الصراع اليوم على جميع الأصعدة، في صناعة العقل العربي، وفي التأثير في واقع العالم العربي، في الإعلام، والتعليم، والتشريع، والفكر، والثقافة، والحكم، والدولة، وحتى الفن، يعيش السلفيون (بالنسبة الشرعية الأصولية لا الحزبية) الصراع معهم على هذه المستويات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في بلادنا العربيَّة.

بعض طرح للعلمانيين:

قد كان من أوائل مهندسي موقع العدو في أوائل أيام المعركة، هو (كرومر) وقد تخرج على يده تلامذة على صنفين، صنف يقاتل الإسلام علنًا، وصنف يلبس هذه الحرب لباس الدين ليزين العلمنة للمسلمين.

وألِّفت كتب خطيرة في ترويج العلمنة وتلبيسها لباس الإسلام؛ فمحمد عبده لم يكن يرى حرجًا من اقتباس القوانين التشريعية الغربية، ما دام ذلك يحقق (الإصلاح في نظره)، بل يقول العقاد وهو من المعجبين به: إنه علم أن المراجع العربيَّة لهذه القوانين لا تعطيه الإحاطة الواجبة بتلك المبادئ في أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين، فشرع في تعلم اللغة الفرنسيَّة كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر مطلقًا عليه لفظ الإصطبل، أو المارستان، أو المخروب، ويحاول إصلاحه وإصلاح التعليم كله على الطريقة الغربية، ويقول: إن كان لي حظ من العلم الصحيح. . . فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة.

وكان من أعظم خطط الإنجليز للقضاء على الشريعة الإسلاميَّة إنشاء مجلس شورى القوانين الذي كانوا يحكمون مصر من خلاله، والذي قدم الشيخ له خدمات جليلة مما دفع المستشار

القضائي الإنجليزي إلى رثائه في تقريره عن المحاكم لعام ١٩٠٥ قائلًا: ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصريَّة الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت، وأن أبدي أسفي الشديد على الخسارة التي أصابت هذه النظارة بفقده. . .

إلى أن يقول: وفوق ذلك فقد قام لنا بخدمة جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيرًا من الإصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الإصلاحات القضائية، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها، ويناضل عنها، ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك (!)، وإنه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظرًا لسمو مداركه، وسعة إطلاعه، وميله لكل ضروب الإصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف، وسياحاته إلى مدن أوربا (!) ومعاهد العلم. . .

وقد عاصر محمد عبده رجلٌ آخر من دعاة الإصلاح أيضًا هو عبد الرحمن الكواكبي (ت١٩٠٢) يحق لنا أن نقول: إنه أول من نادى بفكرة العلمانيَّة حسب مفهومها الأوربي الصريح فهو يقول: يا قوم -وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين- أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من ألا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون، فهذه أمم أوربا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري. . .

دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط (!) دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء.

ومن هذه الكتب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق في ناحية التشريع الإسلامي وحاصله أن الحكم بما أنزل الله تعالى ليس من مهمات الدين، ولا يجب الالتزام بها دينًا وشرعًا في كل شيء، وإنما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من باب السياسية التي ناسبت زمانه، لا من باب النبوة والوحي الملزم.

وقد جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد، وسرد نبذًا من سير الطواغيت ونتفًا من أقوال متملقيهم، وعمد إلى مغالطات عجيبة -كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحيَّة المحرفة علاقة روحية بين العبد والرب لا صلة لها بواقع الحياة.

ولم يفت الشيخ أن يدلنا على أحد مراجعه الرئيسية لنستكمل ما قد يكون فضيلته عجز عن بيانه فهو يقول في الكتاب نفسه: وإذ أردت مزيدًا في البحث فارجع إلى كتاب الخلافة للعلامة السير تومس آرنولد؛ ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع ومقنع، ثم يقول: تكلم عيسى ابن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة، وأمر بأن يعطي ما لقيصر لقيصر. . . وكان ما جرى في

أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة... إلخ لا يدل على شيء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر.

ويقول: إن يكن الفقهاء أرادوا بالإمامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومات كان صحيحًا ما يقولون من أن إقامة الشعائر الدينيَّة (الشعائر فقط) وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة في أي صورة كانت الحكومة، ومن أي نوع، مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو دستورية أو شورية، ديمقراطية أو إشتراكية أو بلشفية، لا ينتج لهم الدليل أبعد من ذلك، أما إن أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم (يعني الحكم الإسلامي!) فدليلهم أقصر من دعواهم، وحجتهم غير ناهضة.

ومن بين هؤلاء: خالد محمد خالد الذي كتب كتابه من هنا نبدأ هادفًا إلى ما قصده علي عبد الرزاق من قبل، ولكن بأسلوب أذكى وأحدث.

ومن قبله كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلاميَّة المستقرة في الكتاب والسنة زاعمًا أن الأمر بها للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم، إلى آخر هذا اللغو المتهافت.

ومنها (في الشعر الجاهلي) (ومستقبل الثقافة في مصر) لطه حسين، وحاصل ما كان يحوم حوله في هذين الكتابين، أن الثقافة الإسلاميَّة، وإن استندت في ناحية منها إلى الوحي، حتى لو كان القرآن؛ فإن شأنها شأن غيرها من الثقافات، يجب أن تخضع لمعايير العلوم الحديثة.

ومنها كتاب (تحرير المرأة) وحاصله تغريب حياة المرأة، وقد فتح الباب لهذا الشر فدخل منه العجب العجاب، ومنها كتاب (اليوم والغد) لسلامة موسى، وكان هذا المخذول، صريحًا جريئًا على الله ودينه، يشن غارته على الإسلام في وضح النهار جهارًا.

ومنها كتاب (اليوم والغد) لسلامة موسى الذي يدعو فيه صراحة إلى (أن يكون التعليم أوربيًّا لا سلطان للذين عليه) بل يدعوا إلى اقتلاع ما في ثقافتنا من (أثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة) كما زعم، في هجوم صريح على الدين.

وكثير من أبناء العرب من ترك طيب الثمرات في عالي الأفنان، وأتى مزابل هؤلاء العلمانيين يبتغي فضلاتهم، وجندوا أنفسهم للانتصار للفكر العلماني، وصارت هذه القضية هي أكبر معارك الثقافة والسياسة والإعلام والتعليم... إلخ، نعيشها كل يوم بل كل ساعة.

وهي من أكبر قضايا العصر الذي نعيشه، وهي أكبر أزمات الأمة في الوقت الراهن، ومنها تتفرع كل الأزمات، من التحاكم إلى غير شريعة رب العالمين، وتقديم تصورات البشر وأفكارهم وفلسفاتهم على الوحي الهادي الذي جاءت به الأنبياء[1].

---

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو العلمانية اللادينية، حامد عبد الله العلي، العلمانية نشأتها وتطورها.

وسائل وطرق العلمانيَّة من الغرب للشرق

لقد بزغ نجم العلمانيَّة وعلا شأنه في الغرب في ظل الظروف التي أشرنا إليها، وقد صاحب ظهورها في الغرب انحطاط وتخلف وهزائم في الشرق، مما أتاح للغرب أن يستلم زمام قيادة ركب الحضارة البشرية بما أبدعه من علم وحضارة، وما بذله من جهد وتضحية، فكان أمرًا طبيعيًّا أن يسعى الغرب لسيادة نموذجه الحضاري الذي يعيشه وأن يسوقه بين أمم الأرض؛ لأنه بضاعته التي لا يملك غيرها، ولأنه أيضا الضمانة الكبرى لبقاء الأمم الأخرى تدور في فلك التبعية له وتكدح في سبيل مدنيته وازدهار حضارته، وكان تسويق الغرب للعلمانيَّة في الشرق الإسلامي من خلال الوسائل والطرق الآتية:

١- من خلال الاحتلال العسكري الاستعماري:

لئن كانت العلمانيَّة في الغرب نتائج ظروف ومعطيات محلية متدرجة عبر أزمنة متطاولة، فقد ظهرت في الشرق وافدًا أجنبيًّا متكامل الرؤى والإيديولوجيات والبرامج، يطبق تحت تهديد السلاح وبالقسر والإكراه، كمن يصرّ على استنبات نبات القطب الجليدي في المناطق الاستوائية، وفي هذا من المصادمة لسنن الله في الحياة ما يقطع بفشل التجربة قبل تطبيقها؛ لأن الظروف التي نشأت فيها العلمانيَّة وتكامل مفهومها عبر السنين تختلف اختلافًا جذريًّا عن ظروف البلدان التي جلبت إليها جاهزة متكاملة في الجوانب الدينيَّة، والأخلاقية، والاجتماعيَّة، والتاريخية، والحضارية، فالشرط الحضاري الاجتماعي التاريخي الذي أدى إلى نجاح العلمانيَّة في الغرب مفقود في الشرق بل في الشرق الإسلامي نقيضه تمامًا.

وابتدأت دوائر الاستعمار تنفذ مخططها المرسوم، وتتلخص جهود هذا النجاح فيما يلي:

أ- القضاء على الحركات الإسلاميَّة الجهادية.

ب- إلغاء المحاكم الشرعية وإحلال القوانين الوضعيَّة محلها.

ج- القضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلاميَّة.

د- استخدام الطوائف غير الإسلاميَّة وإحياؤها.

هـ- اصطناع العملاء من أبناء المسلمين.

و- تنفيذ توصيات المستشرقين والمبشرين، والإشراف على إنجاح مهامهم، وتذليل العقبات التي قد تعترض جهودهم.

وحين نشأت الدولة العربيَّة الحديثة كانت عالة على الغربيين الذين كانوا حاضرين خلال الهيمنة الغربية في المنطقة ومن خلال المستشارين الغربيين أو من درسوا في الغرب واعتنقوا العلمانيَّة، فكانت العلمانيَّة في أحسن الأحوال أحد المكونات الرئيسية للإدارة في مرحلة تأسيسها وهكذا

بذرت بذور العلمانيَّة على المستوى الرسمي قبل جلاء جيوش الاستعمار عن البلاد التي ابتليت بها.

٢- **من خلال البعثات التي ذهبت من الشرق إلى الغرب لطلب العلم والتقدم:** فعاد الكثير منها بالعلمانيَّة لا بالعلم، ذهبوا لدراسة الفيزياء والأحياء والكيمياء والجيولوجيا والفلك والرياضيات؛ فعادوا بالأدب واللغات والاقتصاد والسياسة والعلوم الاجتماعيَّة والنفسية، بل وبدراسة الأديان وبالأخص الدين الإسلامي في الجامعات الغربية، ولك أن تتصور حال شاب مراهق ذهب يحمل الشهادة الثانوية ويلقى به بين أساطين الفكر العلماني الغربي على اختلاف مدارسه، بعد أن يكون قد سقط إلى شحمة أذنيه في حمأة الإباحية والتحلل الأخلاقي، وما أوجد كل ذلك لديه من صدمة نفسية واضطراب فكري، ليعود بعد عقد من السنين بأعلى الألقاب الأكاديمية، وفي أهم المراكز العلميَّة بل والقيادية في وسط أمة أصبح ينظر إليها بازدراء، وإلى تاريخها بريبة واحتقار، وإلى قيمها ومعتقداتها وأخلاقها -في أحسن الأحوال- بشفقة ورثاء، إنه لن يكون بالضرورة إلا وكيلًا تجاريًا لمن علَّموه وثقَّفوه ومدَّنوه، وهو لا يملك غير ذلك.

ولئن كان هذا التوصيف للبعثات الدراسية ليس عامًّا، فإنه الأغلب وبالذات في أوائل عصر البعثات، وما «طه حسين» و«رفاعة الطهطاوي» إلا أمثلة خجلى أمام غيرهم من الأمثلة الصارخة الفاقعة اللون مثل «زكي نجيب محمود» و«محمود أمين العالم» و«فؤاد زكريا» و«عبد الرحمن بدوي» وغيرهم الكثير...

ولئن كان هذا الدور للبعثات العلميَّة تم ابتداءً من خلال الابتعاث لعواصم الغرب فإن الحواضر العربيَّة الكبرى مثل «القاهرة - بغداد - دمشق» أصبحت بعد ذلك من مراكز التصدير العلماني للبلاد العربيَّة الأخرى، من خلال جامعاتها وتنظيماتها وأحزابها، وقلّ من يسلم من تلك اللوثات الفكريَّة العلمانيَّة، حتى أصبح في داخل الأمة طابور خامس، وجهته غير وجهتها وقبلته غير قبلتها، وإنهم لأكبر مشكلة تواجه الأمة لفترة من الزمن ليست بالقليلة.

٣- **من خلال البعثات التبشيريَّة:**

المنظمات التبشيريَّة النصرانيَّة التي جابت العالم الإسلامي شرقًا وغربًا من شتى الفرق والمذاهب النصرانيَّة جعلت هدفها الأول زعزعة ثقة المسلمين في دينهم، وإخراجهم منه، وتشكيكهم فيه، حتى وإن لم يعتنقوا النصرانيَّة، وليس أجدى من العلمانيَّة وسيلة لهذا الغرض.

وهؤلاء المبشرين: إما من الغربيين مثل «زويمر» و«دنلوب»، وإما من نصارى العرب مثل «أديب إسحاق» و«شبلي شميل» و«سلامة موسى» و«جرجي زيدان» وأضرابهم...، ومنهم من كان يعلن هويته التبشيريَّة ويمارس علمنة أبناء المسلمين؛ مثل «زويمر»، ومنهم من كان يعلن علمانيته فقط، ويبذل جهده في ذلك، مثل «سلامة موسى» و«شبلي شميل».

ولم يتوانَ المُرْسَلُون في إطار التوسع وتكريس الهيمنة عن تدعيم خليط من رجال الأعمال والمغامرين السياسيين والمستعمرين والمستشرقين في عملياتهم التوسعية، التي تهدف إلى استطلاع

المنطقة، وترسيخ دعائم السيطرة الأوربية في أذهان الأهالي، ومحاولة احتواء الثوابت الدينيَّة والمذهبية عندهم.

٤- من خلال المدارس والجامعات الأجنبية:

في أواخر الدولة العثمانية وحين سيطر الماسونيون العلمانيون على مقاليد الأمر سمح للبعثات التبشيريَّة والسفارات الغربية بإنشاء المدارس والكليات، وانتشرت في بلاد الشام والأناضول انتشار النار في الهشيم، وخرجت أجيال من أبناء وبنات المسلمين أصبحوا بعد ذلك قادة الفكر والثقافة ودعاة التحرير والانحلال.

ومن الأمثلة على ذلك الجامعة الأمريكيَّة في بيروت، والتي في أحضانها نشأت العديد من الحركات والجمعيَّات العلمانيَّة، وقد سرت العدوى بعد ذلك إلى الكثير من الجامعات والمؤسسات التعليمية الرسمية في العديد من البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، وقد قام خريجو هذه المدارس والجامعات بممارسة الدور نفسه حين عادوا لبلدانهم أو ابتعثوا للتدريس في بعض البلدان الأخرى.

٥- من خلال الجمعيَّات والمنظمات والأحزاب العلمانيَّة:

التي انتشرت في الأقطار العربيَّة والإسلاميَّة، ما بين يسارية، وليبرالية، وقومية، وأممية، وسياسية، واجتماعيَّة، وثقافية، وأدبية، بجميع الألوان والأطياف وفي جميع البلدان، حيث إن النخب الثقافية في غالب الأحيان كانوا إما من خريجي الجامعات الغربية أو الجامعات السائرة على النهج ذاته في الشرق، وبعد أن تكاثروا في المجتمع عمدوا إلى إنشاء الأحزاب القومية أو الشيوعية أو الليبرالية، وجميعها تتفق في الطرح العلماني، وكذلك أقاموا الجمعيَّات الأدبية والمنظمات الإقليمية أو المهنية، وقد تختلف هذه التجمعات في أي شيء إلا في تبني العلمانيَّة، والسعي لعلمنة الأمة كل من زاوية اهتمامه، والجانب الذي يعمل من خلاله.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أشهر الأحزاب العلمانيَّة القومية العربيَّة إنما أسسها نصارى بعضهم ليسوا من أصول عربية، أمثال «ميشيل عفلق» و«جورج حبش»، والكثرة الساحقة من الأحزاب الشيوعية العلمانيَّة إنما أسسها يهود مليونيرات أمثال «كوريل».

٦- من خلال البعثات الدبلوماسية:

سواء كانت بعثات للدول الغربية في الشرق، أو للدول الشرقيَّة في الغرب، فقد أصبحت في الأعم الأغلب جسورًا تمر خلالها علمانيَّة الغرب الأقوى إلى الشرق الأضعف من خلال الإيفاد، ومن خلال المنح الدراسية وحلقات البحث العلمي، والتواصل الاجتماعي، والمناسبات والحفلات، ومن خلال الضغوط الدبلوماسية والابتزاز الاقتصادي.

٧- من خلال وسائل الإعلام المختلفة:

من مسموعة أو مرئية أو مقروءة؛ لأن هذه الوسائل كانت من الناحية الشكلية من منتجات الحضارة الغربية -صحافة أو إذاعة أو تلفزة- فاستقبلها الشرق واستقبل معها فلسفتها ومضمون

رسالتها، وكان الرواد في تسويق هذه الرسائل وتشغيلها والاستفادة منها إما من النصارى أو من العلمانيين من أبناء المسلمين، فكان لها الدور الأكبر في الوصول لجميع طبقات الأمة، ونشر مبادئ وأفكار وقيم العلمانيَّة، وبالذات من خلال الفن، وفي الجانب الاجتماعي بصورة أكبر.

٨- من خلال التأليف والنشر في فنون شتى من العلوم وبالأخص في الفكر والأدب:

جاءت العلمانيَّة وافدة في كثير من الأحيان تحت شعارات المدارس الأدبية المختلفة، متدثرة بدعوى رداء التجديد والحداثة، معلنة الإقصاء والإلغاء والنبذ والإبعاد لكل قديم في الشكل والمضمون وفي الأسلوب والمحتوى، ومثل ذلك في الدراسات الفكريَّة المختلفة في علوم الاجتماع والنفس والعلوم الإنسانية المختلفة، حيث قدمت لنا نتائج كبار ملاحدة الغرب وعلمانييه على أنه الحق المطلق، بل العلم الأوحد ولا علم سواه في هذه الفنون.

وتجاوز الأمر التأليف والنشر إلى الكثير من الكليات والجامعات والأقسام العلميَّة التي تنتسب لأمتنا اسمًا ولغيرها حقيقة، وإن كان الأمر في أقسام العلوم الأخرى من طب وهندسة ورياضيات وفيزياء وكيمياء وأمثالها يختلف كثيرًا ولله الحمد والمنة، وهي الأقسام التي وجهها أبناء الأمة الأصلاء ممن لم يتلوثوا بلوثات العلمانيَّة، فحاولوا أن ينقلوا للأمة ما يمكن أن تستفيد منه من منجزات التقدم الغربي مع الحفاظ على هويتها وأصالتها وقيمها.

٩- من خلال الشركات الغربية الكبرى التي وفدت لبلاد المسلمين مستثمرة في الجانب الاقتصادي:

لكنها لم تستطع أن تتخلى عن توجهاتها الفكريَّة، وقيمها وأنماط حياتها الاجتماعيَّة، وهذا أمر طبيعي، فكانت من خلال ما جلبته من قيادات إدارية وعمالة فنية احتكت بالشعوب الإسلاميَّة - سببًا مهمًّا في نشر الفكر العلماني وقيمه الاجتماعيَّة وانعكاساته الأخلاقية والسلوكية، ولعل من المفارقات الجديرة بالتأمل، أن بعض البلدان التي كانت تعمل فيها بعض الشركات الغربية الكبرى من أمريكية وبريطانية لم تبتلَ بالتنظيمات اليسارية، ولم تنشأ إلا في هذه الشركات في أوج اشتعال الصراع بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الغربي.

١٠- كان للنصارى العرب المقيمين في بلاد المسلمين دورٌ كبيرٌ، وأثرٌ خطيرٌ، في نقل الفكر العلماني إلى ديار المسلمين، والترويج له، والمساهمة في نشره عن طريق وسائل الإعلام المختلفة.

وجهود نصارى الشرق في هذا المضمار كثيرة يمكن تقسيمها قسمين:

أ- الأعمال السياسية: فقد كانوا على صلة وثيقة بالجمعيَّات الهدامة في الغرب وشبكات الجاسوسية العالمية؛ ولذلك كونوا الجمعيَّات السرية التي تناهض الخلافة الإسلاميَّة، وتدعو إلى حكومة لا دينية وطنية أو قومية، ومن هذه الجمعيَّات: جمعيَّة بيروت فارس نمر، وجامعة الوطن العربي (نجيب عازوري) والجمعيَّة القحطانية، وجمعيَّة العربيَّة الفتاة، ثم الحزب القومي السوري (أنطوان سعادة) -وأخيرًا- حزب البعث (ميشيل عفلق).

ب- الأعمال الفكريَّة: كان هؤلاء أول من نشر الثقافة والفكر الغربيين مستخدمين الوسائل الحديثة لاسيما الصحافة، فأصدروا صحفًا كثيرة منها: الجنان والمقتطف والهلال، وكان محرورها أمثال نصيف اليازجي ويعقوب صروف وجرجي زيدان يمثلون طلائع اللادينية في الشرق الإسلامي.

واتجه قسم منهم إلى التراث والتأليف الموسوعي اتجاهًا يشابه طريقة المستشرقين، فألفوا المعاجم اللغوية والقواميس للترجمة وبعض الموسوعات والبحوث، ومن هؤلاء أحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ولويس شيخو.

وبعضهم انكب على الفلسفات العربيَّة فنشر مؤلفاتها، ومجد زعمائها، ودعا العرب إلى اعتناقها، وإقامة حياتهم على أسسها، من هؤلاء شبلي شميل الداروسي وسلامة موسى.

كما ظهر منهم شعراء أذكوا بشعرهم الحماسي القومي ضد الإسلام مثل: إبراهيم اليازجي، وبشارة الخوري، والشاعر القروي، وشعراء المهجر.

ويعترف ألبرت حوراني بأنه قد نادى بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتاب المسيحين السوريين، وينقل عن أحدهم شبلي شميل قوله: «ليس الحكم الديني والحكم الاستبدادي فاسدين فحسب، بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشرى نموًا صحيحًا... وهما يشجعان العقل على البقاء في حالة الجمود، وبذلك يعرقلان التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون، لكن بالإمكان تصور نظام للشرائع والحكم يقوم على نواميس الكون، ويسمح بالتالي لتطور النمو الكوني أن يستمر، وللإنسان أن يعيش وفقًا لطبيعته» إلى أن يقول: «والأمم تقوى بمقدار ما يضعف الدين، فهذه أوربا لم تصبح قوية ومتمدنة فعلًا إلا عندما حطم الإصلاح والثورة الفرنسيَّة سلطة الإكليروس على المجتمع وهذا يصح أيضًا على المجتمعات الإسلاميَّة».

وينقل عن فرح أنطوان قوله: «إن العالم قد تغير، فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين، بل على أمرين: الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث». وقوله: «أما في العصر الحديث فالوحدة تتم بخلق الولاء القومي، والفصل بين السلطة الدينيَّة والسلطة المدنية».

وصدر مثل هذه الدعاوى عن معظم الكتاب والصحفيين النصارى، وبإمكان المرء أن يلمس شيئًا من ذلك في أي كتاب لسلامة موسى، أو مقال لأمير قطر مثلًا.

أما الجمعيَّات والأحزاب السياسية فغير خافٍ ما تقوم عليه أسسها وشعاراتها من تنكر للإسلام، ودعوة صريحة إلى اللادينية.

وقد اتخذت المنظمات المعادية للإسلام من الأقليات النصرانيَّة ذريعة لرفع الشعار العلماني «الدين لله والوطن للجميع»، ومنع تطبيق الشريعة الإسلاميَّة.

١١- من خلال المناهج العلميَّة: وذلك بإدخال النظريات الباطلة، وطمس الحقائق، وتزييف

المناهج، واللعب في المناهج الإسلاميَّة باسم التطوير.

١٢- **نشر الاختلاط بين الجنسين**: والذي أدى إلى اختلال قيمة الغيرة، وأدى إلى تطور أنماط العلاقة بين الشباب مع وضعهم في حالة إثارة مستمرة مع القضاء شبه التام على مصطلح «الأجنبي» بين الشباب داخل أسوار الجامعة وخارجها في أحيان كثيرة.

١٣- **من خلال عقلية الاستتباع**: التي ارتضاها نخبة من ذوي الانبهار بقدرات الاستكبار الغربي ومن فيهم (قابلية الاستعمار)، بتعبير مالك بن نبي، ومن قَبْلِه علّامة الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون القائل: «إنّ المغلوب مُولعٌ بتقليد الغالب». فقد عاش بعض (المُتَعَالِين) من العالم الإسلامي اغترابًا كاملًا عن المقوّم الحضاري، واستجابةً عارمةً للنداء الاستكباري؛ حيث صدّق عليهم الاستعمار ظنه فاتبعوه، واستخفّهم ببُنَاه المعرفية وفلسفته الماديَّة فأطاعوه؛ وصاروا معاولَ هدم في صرح الثقافة الإسلاميَّة -كما تراه في كتابات (طه حسين)، و(أحمد أمين)، و(علي عبد الرازق)- وعواملَ نقضٍ لمقوّمات الهويّة والذاتيّة الحضاريّة؛ فقد صنع الاستعمار هذه النُّخَب على عينه، وربّى عقولها ووجداناتها وتوجّهاتها وِفق فلسفات مرجعيّته الفكريَّة؛ حتى غدَوْا متنكّرين لِقيَمهم الدينيَّة، مستكبرين على ثقافتهم الذاتيّة.

ويكفي في بيان استضعاف هذه النخبة وانهزامها واستتباعها ما كتبه أحد روادّها (د. طه حسين): «لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كلّه أمام أوربا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأن نسير مسيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا، وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلًا ولوجدنا أن أمامنا عقابًا لا تُجاز ولا تُذلّل، عِقابًا نقيمها نحن، وعِقابًا تقيمها أوربا؛ لأننا عاهدناها أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة».

١٤- **من خلال إغراء بعض ذوي النفوس الضعيفة والإيمان المزعزع** بمغريات الدنيا من المال والمناصب، أو النساء لكي يرددوا دعاوي العلمانيَّة على مسامع الناس، لكنه قبل ذلك يُقام لهؤلاء الأشخاص دعاية مكثفة في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها العلمانيون لكي يظهروهم في ثوب العلماء والمفكرين وأصحاب الخبرات الواسعة، حتى يكون كلامهم مقبولًا لدى قطاع كبير من الناس، وبذلك يتمكنون من التلبيس على كثير من الناس.

١٥- **تجزيء الدين والإكثار من الكلام والحديث والكتابة عن بعض القضايا الفرعية**، وإشغال الناس بذلك، والدخول في معارك وهمية حول هذه القضايا مع العلماء وطلاب العلم والدعاة لإشغالهم وصرفهم عن القيام بدورهم في التوجيه، والتصدي لما هو أهم وأخطر من ذلك بكثير.

١٦- **تصوير العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله في كثير من وسائل الإسلام المقروءة والمسموعة والمرئية** على أنهم طبقة منحرفة خلقيًّا، وأنهم طلاب دنيا من مال ومناصب ونساء حتى

لا يستمع الناس إليهم، ولا يثقوا في كلامهم، وبذلك تخلو الساحة للعلمانيين في بث دعواهم.

١٧- الحديث بكثرة عن المسائل الخلافية، واختلاف العلماء وتضخيم ذلك الأمر، حتى يخيل للناس أن الدين كله اختلافات، وأنه لا اتفاق على شيء حتى بين العلماء بالدين، مما يوقع في النفس أن الدين لا شيء فيه يقيني مجزوم به، وإلا لما وقع هذا الخلاف، مما يعني انصراف الناس عن الدين.

١٨- الاتكاء على بعض القواعد الشرعية والمنضبطة بقواعد وضوابط الشريعة، الاتكاء عليها بقوة في غير محلها وبغير مراعاة هذه الضوابط، ومن خلال هذا الاتكاء الضال والمنحرف يحاولون ترويج كل قضايا الفكر العلماني أو جُلّها.

فمن ذلك مثلًا قاعدة المصالح المرسلة يفهمونها على غير حقيقتها ويطبقونها في غير موضعها، ويجعلونها حجة في رفض كل ما لا يحبون من شرائع الإسلام، وإثبات كل ما يرغبون من الأمور التي تقوي العلمانيّة وترّسخ دعائمها في بلاد المسلمين.

وكذلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين واحتمال أدنى المفسدتين وقاعدة الضرورات تبيح المحظورات، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وصلاحية الإسلام لكل زمان، واختلاف الفتوى باختلاف الأحوال، يتخذون من هذه القواعد وأشباهها تُكأة في تذويب الإسلام في النحل والملل الأخرى، وتمييعه في نفوس المسلمين.

كما يتخذون هذه القواعد أيضًا منطلقًا لنقل كل النظم الاقتصادية، والسياسية السائدة في عالم الكفار إلى بلاد المسلمين، من غير أن يتفطن أكثر الناس إلى حقيقة هذه الأمور.

وهذا المسلك من أخطر المسالك وأشدها ضررًا لما فيه من شبهة وتلبيس على الناس أن هذه الأمور إنما هي مرتكزة على قواعد شرعية معترف بها، مع أن اعتمادهم على هذه القواعد أو غيرها ليس لإيمانهم بها، وليس لإيمانهم بعموم وشمول وكمال الدين الذي انبثقت منه هذه القواعد، وإنما هي عندهم مجرد أداة يتوصلون بها إلى تحقيق غاياتهم الضالة المنحرفة[(١)].

آثار العلمانيّة

١- رفض الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى؛ وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن الوحي الإلهي المنَزَّل بالقوانين الوضعيَّة التي اقتبسوها عن الكفار المحاربين لله ورسوله، واعتبار الدعوة إلى العودة إلى الحكم بما أنزل الله وهجر القوانين الوضعيَّة تخلفًا ورجعية

---

(١) انظر: العلمانية التاريخ والفكرة، العلمانيون وفكرهم وممارساتهم، سعيد ناصر الغامدي، العلمانية وثمارها الخبيثة، محمد شاكر الشريف، العلمانية النبتة الغربية عن الحضارة الإسلامية، العنمانية نشأتها وتطورها، العلمانية الانحلالية ومنظومة القيم الإسلامية، الهيثم الزعفان.

وردّة عن التقدم والحضارة، وسببًا في السخرية من أصحاب هذه الدعوة واحتقارهم، وإبعادهم عن تولي الوظائف التي تستلزم الاحتكاك بالشعب والشباب، حتى لا يؤثروا فيهم.

٢- تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه، وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلاميَّة، على أنها عصور همجية تسودها الفوضى، والمطامع الشخصية.

٣ - إفساد التعليم وجعله خادمًا لنشر الفكر العلماني وذلك عن طريق:

أ - بث الأفكار العلمانيَّة في ثنايا المواد الدراسية بالنسبة للتلاميذ، والطلاب في مختلف مراحل التعليم.

ب- تقليص الفترة الزمنية المتاحة للمادة الدينيَّة إلى أقصى حد ممكن.

جـ- منع تدريس نصوص معينة؛ لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم.

د - تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم شروح مقتضبة ومبتورة لها، بحيث تبدو وكأنها تؤيد الفكر العلماني، أو على الأقل أنها لا تعارضه.

هـ - إبعاد الأساتذة المتمسكين بدينهم عن التدريس، ومنعهم من الاختلاط بالطلاب، وذلك عن طريق تحويلهم إلى وظائف إدارية، أو عن طريق إحالتهم إلى المعاش.

و- جعل مادة الدين مادة هامشية حيث يكون موضعها في آخر اليوم الدراسي، وهي في الوقت نفسه لا تؤثر في تقديرات الطلاب.

٤- إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة، وهم المسلمون، وبين أهل التحريف والتبديل والإلحاد، وصهر الجميع في إطار واحد، وجعلهم جميعًا بمنزلة واحدة من حيث الظاهر، وإن كان في الحقيقة يتم تفضيل أهل الكفر والإلحاد والفسوق والعصيان على أهل التوحيد والطاعة والإيمان.

فالمسلم والنصراني واليهودي والشيوعي والمجوسي والبرهمي كل هؤلاء وغيرهم، في ظل هذا الفكر بمنزلة واحدة يتساوون أمام القانون، لا فضل لأحد على الآخر إلا بمقدار الاستجابة لهذا الفكر العلماني.

وفي ظل هذا الفكر يكون زواج النصراني أو اليهودي أو البوذي أو الشيوعي بالمسلمة أمرًا لا غبار عليه، ولا حرج فيه، كذلك لا حرج عندهم أن يكون اليهودي أو النصراني أو غير ذلك من النحل الكافرة حاكمًا على بلاد المسلمين، وهم يحاولون ترويج ذلك في بلاد المسلمين تحت ما أسموه بـ «الوحدة الوطنية». بل جعلوا «الوحدة الوطنية» هي الأصل والعصام، وكل ما خالفها من كتاب الله أو سنة رسول صلى الله عليه وسلم، طرحوه ورفضوه، وقالوا: «هذا يعرّض الوحدة الوطنية للخطر!!».

٥- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية

الاجتماعيَّة وتشجيع ذلك والحض عليه: وذلك عن طريق:

أ - القوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، وتعتبر ممارسة الزنى والشذوذ من باب الحرية الشخصية التي يجب أن تكون مكفولة ومصونة.

ب - وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز التي لا تكلُّ ولا تملُ من محاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة بالتلميح مرة، وبالتصريح أخرى ليلًا ونهارًا.

ج - محاربة الحجاب، وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

٦- محاربة الدعوة الإسلاميَّة عن طريق:

أ - تضييق الخناق على نشر الكتاب الإسلامي، مع إفساح المجال للكتب الضالة المنحرفة التي تشكك في العقيدة الإسلاميَّة، والشريعة الإسلاميَّة.

ب - إفساح المجال في وسائل الإعلام المختلفة للعلمانيين المنحرفين لمخاطبة أكبر عدد من الناس لنشر الفكر الضال المنحرف، ولتحريف معاني النصوص الشرعية، مع إغلاق وسائل الإعلام في وجه علماء المسلمين الذين يُبصرّوُن الناس بحقيقة الدين.

٧ - مطاردة الدعاة إلى الله، ومحاربتهم، وإلصاق التهم الباطلة بهم، ونعتهم بالأوصاف الذميمة، وتصويرهم على أنهم جماعة متخلفة فكريًا، ومتحجرة عقليًا، وأنهم رجعيون، يحاربون كل مخترعات العلم الحديث النافعة، وأنهم متطرفون متعصبون لا يفقهون حقيقة الأمور، بل يتمسكون بالقشور ويدعون الأصول.

٨ - التخلص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانيَّة، وذلك عن طريق النفي أو السجن أو القتل.

٩ - إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله، ومهاجمتها، واعتبارها نوعًا من أنواع الهمجية وقطع الطريق. والقتال المشروع عند العلمانيين وأذنابهم إنما هو القتال للدفاع عن المال أو الأرض، أما الدفاع عن الدين والعمل على نشره والقتال في سبيله، فهذا عندهم عمل من أعمال العدوان والهمجية التي تأباها الإنسانية المتمدنة؟!

١٠- الدعوة إلى القومية أو الوطنية، وهي دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامع وهمي من الجنس أو اللغة أو المكان أو المصالح، على ألا يكون الدين عاملًا من عوامل التجميع، بل الدين من منظار هذه الدعوة يُعدّ عاملًا من أكبر عوامل التفرّق والشقاق، حتى قال قائل منهم: «والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية، دلّت على أن الدين -وهو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة- ذهب بأمن الحياة ذاتها».

١١- الدعوة إلى الارتماء في أحضان الغرب، وأخذ حضارته دون وعي ولا تميز؛ فقد قام بهذه الفكرة كثير من دعاة التضليل للأمة الإسلاميَّة عند ضعف المسلمين وتفرقهم، حيث زعموا أن

سبيل التقدم والنهضة، هو السير خلف ركاب الغربيين، والأخذ بمنهجهم وطريقتهم في كل شيء، حتى نكون مثلهم في الحضارة الحديثة، بخيرها وشرها، وما يحمد منها وما يُعاب.

ومن آثار العلمانيَّة في مجال السياسة:

١- استخدام المبدأ الميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» من قبل الحكام، مما جرد السياسة من الأخلاق وأبعد عنها الدين، فأصبح استخدام كل وسيلة حلالًا كانت أو حرامًا؛ أمرًا عاديًّا، بل لم يكن سياسيًّا بارعًا من لم يفعل ذلك!!

٢- استغلال الناس للوصول إلى الحكم، عن طريق الديمقراطية المزعومة، ثم تسليط السلطة على نفي الناس وظلمهم.

٣- إبعاد الناس عن الحياة واستثناء النهج الإسلامي ذي التوجه الرباني من الوصول للحكم، بل ومحاربته والتنكيل بأنصاره، واتهامهم بالتطرف والإرهاب.

٤- نشأة التيارات المغالية التي كانت ردة فعل للأنظمة العلمانيَّة بظلمها وفسادها.

٥- ولاء الأنظمة السياسية في بلاد المسلمين لدول الكفر، ولاءً كاملًا على حساب الإسلام والمسلمين.

ومن آثار العلمانيَّة في الاقتصاد:

١- ترويج سلع العدو في بلاد المسلمين بما يقوي اقتصاده ويضعف المسلمين.

٢- أصبحت الثروة دُولةً بين عدد محدود من الأغنياء الذين لا تستفيد منه بلاد المسلمين كثيرًا.

٣- أصبح المسلمون عالةً على غيرهم، معتمدين على عدوهم في كل شيء.

ومن آثار العلمانيَّة في الاجتماع والأخلاق:

١- تحرير المرأة وتحللها من كل القيود التي تعصمها وتحفظ كرامتها.

٢- تفكك الأسر وضياع أفرادها.

٣- انتشار جرائم الأطفال وفسادهم.

٤- انتشار الخيانات الزوجية، وكثرة أبناء الزنى.

٥- الترويج للشذوذ الجنسي.

٦- ضعف الروابط بين الأقارب والأرحام؛ بسبب التركيز على الجانب المصلحي في الحياة والعلاقات بين الناس.

٧- انتشار ثقافة التحلل والتفسُّخ والشهوة، مما أدى إلى كثرة الفساد الأخلاقي، وانتشار الأمراض الفتاكة.

ومن آثار العلمانيّة في التربية والثقافة:

١- تفسير الدين تفسيرًا ضيقًا، وتحديد علومه تحديدًا قاصرًا.

٢- التفريق بين نظام تعليم رسمي حكومي، ونظام تعليم أهلي ديني؛ مع إهمال الأول والاهتمام بالأخير.

٣- إهمال اللغة العربيّة والتربية الإسلاميّة، مع إظهار الاهتمام بغيرهما من المواد العلميّة والعصرية.

٤- بث السموم والطعن في المقررات والمناهج الدراسية ضد الإسلام، مع الاهتمام بالثقافة الأوربية.

٥- انتشار ترجمات الكتب الغربية في بلاد المسلمين، بل وكذلك الكتب الغربية بلغاتها الأصليّة؛ تحت اسم الثقافة ودراسة الأدب... إلخ.

٦- عودة كثير من أبناء المسلمين الذين درسوا وتربوا على مائدة الغرب ليساهموا في نشر ثقافته وفكره وينافحوا عنها.

٧- الفصل بين ما هو ديني وما هو غير ديني في الصحف والمجلات: مجلة دينية، صحيفة دينية، صفحة دينية، برنامج ديني... إلخ.

٨- انتشار الاختلاط في المؤسسات التعليمية؛ حتى أصبح أصلًا، ومن ينادي بفصل الجنسين يصبح شاذًّا!

٩- حصر مفهوم الثقافة في أدب اللهو والمجون، والطرب والغناء[1].

العقلانيّة

التعريف.

العقلانيّة مذهب فكري يزعم أنَّه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشريَّة، وكذلك يرى إخضاع كلّ شيء في الوجود للعقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه.

ويحاول المذهب إثبات وجود الأفكار في عقل الإنسان قبل أن يستمدها من التجربة العمليَّة الحياتيَّة أي أن الإدراك العقلي المجرد سابق على الإدراك المادي المجسد.

تاريخ مذهب العقلانيَّة

العقلانيَّة مذهب قديم جديد في نفس الوقت.

---

(١) انظر: العلمانية وثمارها الخبيثة، نبذة عن العلمانية، د. إسماعيل محمد حنفي، العلمانية، عطية صقر.

فقد برز في الفلسفة الإغريقيَّة (اليونانيَّة) على يد سقراط وأرسطو، فقد كانت العقلانيَّة الإغريقيَّة لونًا من عبادة العقل وتألِهيه، وإعطائه حجمًا مزيَّفًا أكبر بكثير من حقيقته، كما كانت في الوقت نفسه لونًا من تحويل الوجود كلّه إلى قضايا تجريديَّة.

فقد جعلوا القضايا تعالَج معالجة كاملة في الذهن بصرف النظر عن وجودها الواقعي، وعن مدى قبول الواقع لهذا التفسير العقلاني أم لا، وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة لقضية الألوهيَّة وقضية الكون المادِّيّ وما بينهما من علاقة ويتشعب هذا الانحراف شعبًا كثيرة في وقت واحد.

وفي القرون الوسطى سيطرت الكنيسة على الفلسفة الأوربيَّة، حيث سخَّرت العقل لإخراج تحريفها للوحي الإلهي في فلسفة عقليَّة مسلَّمة لا يقبل مناقشتها، ومحاولة تقديمه في ثوب معقول، مثل أن يتصوَّر ثلاثة أشياء هي ثلاثة وهي واحد في ذات الوقت، وما يمكن أن يتصوَّر أنَّ الله سبحانه وتعالي ظلَّ متفردًا بالألوهيَّة وتدبير شأن هذا الكون ما لا يحصي من الزمان، ثم إذا هو -فجأة- يوجد كائنا آخر ليكون شريكًا له في الألوهيَّة ومعينًا له في تدبير الكون.

وفي ظلِّ الإرهاب الفكريِّ الذي مارسته الكنيسة انكمش نشاط العقل الأوربيِّ، وانحصر فيما تمليه الكنيسة والمجامع المقدَّسة، ومحاولة التوفيق بينه وبين مقتضيات التفكير السليم، في مغالطات فلسفيَّة هي أقرب إلي التلفيق منها إلي التوفيق، واستمرت على ذلك عشرة قرون.

وفي عصر النهضة، ونتيجة احتكاك أوربا بالمسلمين -في الحروب الصليبيَّة والاتصال بمراكز الثقافة في الأندلس وصقلية والشمال الإفريقيّ- أصبح العقل الأوربيُّ في شوق شديد لاسترداد حريته في التفكير، ولكنَّه عاد إلى الجاهليَّة الإغريقيَّة ونفر من الدين الكنسيّ، وسخَّر العقل للبعد عن الله، وأصبح التفكير الحرّ معناه الإلحاد، وذلك أنَّ التفكير الديني معناه عندهم الخضوع للقيد الذي قيدت به الكنيسة العقل، وحجرت عليه أن يفكّر، وأصبح معني الحرية الفكريَّة هو تحطيم ذلك القيد الذي يغل العقل من التفكير.

وبرز فكر العقلانيَّة في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على أيدي فلاسفة، أثَّروا كثيرًا في الفكر البشري أمثال: ديكارت وليبنتز وسبينوزا وغيرهم.

فرينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠م فيلسوف فرنسي اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامَّة ووجود الله على وجه أخص، وذلك من مقدمة واحدة عُدت من الناحية العقليَّة غير قابلة للشكّ وهي: «أنا أفكر فأنا إذن موجود».

وليبنتز: ١٦٤٦ - ١٧١٦م فيلسوف ألماني، قال بأنَّ كلَّ موجود حيٌّ وليس بين الموجودات مِنْ تفاوتٍ في الحياة إلا بالدرجة -درجة تميز الإدراك- والدرجات أربع: مطلق الحيّ أي ما يسمى جمادًا، والنبات فالحيوان فالإنسان.

ويُقِرُّ سارتر اليهودي بأنَّ اليهود هم الذين قاموا بنشر العقلانيَّة المضادة للإلهام الدينيّ، ويقدم

عذرهم في ذلك وهو أنَّه طالما كان البشر يؤمنون بالدين، فيسظلُّ يقع علي اليهود تميز مجحف على اعتبار أنَّهم يهود، أمَّا إذا زال الدين من الأرض، وتعامل البشر بعقولهم، فعقل اليهوديِّ كعقل غير اليهوديِّ، ويومئذ لن يتميز اليهود بكونهم يهودًا، ولن يقع عليهم التمييز المجحف، وسيعيشون في سلام مع غير اليهود، أي بعد أن يغطُّوا علي حقيقتهم ويندسُّوا في وسط البشريَّة مبهمين بين الجموع.

- وفي مجتمع المسلمين نجد المعتزلة تقترب من العقلانيَّة جزئيًّا، إذ اعتمدوا على العقل وجعلوه أساس تفكيرهم ودفعهم هذا المنهج إلى تأويل النصوص من الكتاب والسُّنَّة التي تخالف رأيهم. ولعلَّ أهمَّ مقولة لهم قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولو لم يرد بها شيء. ونقل المعتزلة الدين إلى مجموعة من القضايا العقليَّة والبراهين المنطقيَّة وذلك لتأثرهم بالفلسفة اليونانيَّة.

وقد فنَّد علماء الإسلام آراء المعتزلة في عصرهم، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل ثم جاء بعد ذلك ابن تيمية وردَّ عليهم ردًّا قويًّا في كتابه درء تعارض العقل والنقل وبيَّن أنَّ صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفًا لصحيح النقل.

وهناك من يحاول اليوم إحياء فكر المعتزلة إذ يعدونهم أهل الحرية الفكريَّة في الإسلام، ولا يخفى ما وراء هذه الدعوة من حرب على العقيدة الإسلاميَّة الصحيحة، وإن لبست ثوب التجديد في الإسلام أحيانًا.

العقائد والأفكار

- تعتمد العقلانيَّة على عدد من المبادئ الأساسيَّة هي:

١- العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كلِّ شيءٍ في الوجود.

٢- يمكن الوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقليِّ، وبدون لجوء إلى أية مقدِّمات تجريبيَّة.

٣- عدم الإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات.

٤- العقائد الدينيَّة ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي.

موقف الإسلام من العقلانيَّة

الإسلام يقدر العقل باعتباره من أكبر النعم التي أنعم بها الله علي الإنسان، ولكنَّه لا يبالغ في تقدير قيمة العقل كما كانت تفعل العقلانيَّة الإغريقيَّة ومن ورثها من بعد، بحيث يجعله هو المحكم في كلِّ شيء، وهو المرجع الأخير لكلِّ شيء.

فهناك أمور لا يستطيع العقل من ذات نفسه أن يصل إليها؛ لأنَّها ليست في محيط تجربته، ولا تستطيع الأدوات التي يحصل بها المعرفة وهي أدوات الحسِّ أن تصل إليها؛ لأنَّها خارجة عن نطاق

المحسوس، وإن كان في إمكان العقل أن يعقلها حين تبين له؛ فهذه تلقن للعقل تلقينًا عن طريق الوحي، ويكون دور العقل فيها أن يعقلها لا بطريق التجربة المباشرة ولا بطريق الحسّ، ولكن عن طريق التيقُّن من صدق الخبر وصدق المخبر، وهو مدعو إلى القيام بعملية التيقُّن هذه بكلِّ الوسائل التي يملكها، وهي مؤدِّية إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق. كما يحث الإسلام العقل على مزاولة نشاطه في ميادينه الطبيعيَّة التي يصلح لها ويحسن العمل فيها.

فعقلانيَّة الإسلام تكل إلى العقل مهامًّا خطيرة وواسعة، تكل إليها مهمة حراسة الوحي الذي تكفل بحفظه الله من كلِّ تأويل فاسد مضلٍّ، وحراسة أحكام الله من الانحراف بها عن مقاصد الشريعة وحراسة المجتمع من الآفات الاجتماعيَّة والسياسيَّة والفكريَّة والخلقيَّة التي تؤدِّي إلى تدميره، كما تكل إليه مهمة التقدُّم العلميِّ والبحث التجريبيِّ وعمارة الأرض.

ولكنَّها لا تكل إليه ولا تسمح له إن يحيد عن الوحيِّ الربانيِّ والمنهج الربانيِّ، ولا أن يجتهد من عنده ما لم يأذن به الله؛ لأنَّه عندئذ يجانب الصواب، ويحيد عن الخير، ويمكن للفساد، وتلك هي العقلانيَّة المتوازنة[١].

التغريب

التعريف:

التغريب تيَّار فكريٌّ كبيرٌ ذو أبعاد سياسيَّةٍ واجتماعيَّة وثقافيَّةٍ وفنيَّةٍ، يرمي إلى صبْغ حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصَّة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلَّة، وخصائصهم المتفردة وجعلهم أسرى التبعيَّة الكاملة للحضارة الغربيَّة.

وقد استطاع هذا التيَّار استقطاب كثير من المفكرين العرب، فمسخوا هويتهم، وحاولوا قطع صلتهم بدينهم، والذهاب بولائهم وانتمائهم لأمَّتهم الإسلاميَّة، من خلال موالاة الغرب والزهو بكلِّ ما هو غربيٌّ، وهي أمور ذات خطر عظيمٍ على الشباب المسلم.

إنَّ التغريب هجمة نصرانيَّة، صهيونيَّة، استعماريَّة، في آنٍ واحدٍ، التقت على هدفٍ مشترك بينها وهو طبع العالم الإسلامي بالطابع الغربي تمهيدًا لمحو الطابع المميز للشخصية الإسلاميَّة.

تاريخ التغريب

لقد ارتدت الحملة الصليبيَّة مهزومة بعد حطين، وفتح العثمانيُّون عاصمة الدولة البيزنطيَّة ومقرّ كنيستهم عام ١٤٥٣م، واتَّخذوها عاصمةً لهم وغيَّروا اسمها إلى إسلامبول أي دار الإسلام، كما أنَّ جيوش العثمانيِّين قد وصلت إلى أوربا وهددت فيينا سنة ١٥٢٩م وقد ظلَّ هذا التهديد قائمًا حتَّى سنة ١٦٨٣م.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٧٩٦- ٧٩٨)، مذاهب فكرية معاصرة.

وسبق ذلك كلّه سقوط الأندلس التي كانت مقرًّا للخلافة الأمويَّة، كل ذلك كان مدعاة للتفكير بالتغريب، والتبشير فرع منه، ليكون السلاح الذي يحطّم العالم الإسلاميّ من داخله.

فبدأ الحكّام المتغرِّبون في العالم الإسلاميّ مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر بتحديث جيوشهم وتعزيزها عن طريق إرسال بعثات إلى البلاد الأوربيَّة أو باستقدام الخبراء الغربيِّين للتدريس والتخطيط للنهضة الحديثة، وذلك لمواجهة تطلّع الغربيِّين إلى بسط نفوذهم الاستعماري إثر بدء عهد النهضة الأوربيَّة.

ولما قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشاريَّة العثمانيَّة سنة ١٨٢٦م أمر باتخاذ الزيّ الأوربي الذي فرضه على العسكريين والمدنيين على حد سواء.

وأصدر السلطان العثماني عبد المجيد منشورًا ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م يسمح فيه لغير المسلمين بأن يلتحقوا بالخدمة العسكريَّة.

واستقدم السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا وذلك لإنشاء المدارس الحربيَّة والبحريَّة.

وقد قام محمد علي والي مصر، والذي تولى سنة ١٨٠٥م، ببناء جيش على النظام الأوربي، كما عمد إلى ابتعاث خريجي الأزهر من أجل التخصص في أوربا.

وأنشأ أحمد باشا باي الأول في تونس جيشًا نظاميًّا، وافتتح مدرسة للعلوم الحربيَّة فيها ضباط وأساتذة فرنسيُّون وإيطاليُّون وإنجليز.

وافتتحت أسرة القاجار التي حكمت إيران كلِّيَّة للعلوم والفنون على أساس غربيٍّ سنة ١٨٥٢م.

ومنذ عام ١٨٦٠م بدأت حركة التغريب عملها في لبنان عن طريق الإرساليات، ومنها امتدت إلى مصر في ظل الخديوي إسماعيل الذي كان هدفه أن يجعل مصر قطعة من أوربا.

والتقى الخديوي إسماعيل في باريس مع السلطان العثماني عبد العزيز ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م حينما لبّيا دعوة الإمبراطور نابليون الثالث لحضور المَعْرِض الفرنسي العام، وقد كانا يسيران في تيّار الحضارة الغربيَّة.

وابتعث رفاعة الطهطاوي إلى باريس وأقام فيها خمس سنوات ١٨٢٦ - ١٨٣١م، وكذلك ابتعث خير الدين التونسي إليها، وأقام فيها أربع سنوات ١٨٥٢ - ١٨٥٦م، وقد عاد كلٌّ منهما محمَّلًا بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساس علمانيٍّ عقلانيٍّ.

ومنذ ١٨٣٠م بدأ المبتعَثون العائدون من أوربا بترجمة كتب فولتير وروسو ومونتسكيو في محاولة منهم لنشر الفكر الأوربيِّ الذي ثار ضد الدين والذي ظهر في القرن الثامن عشر.

وجاء «كرومر» إلى مصر كأوّل معتمدٍ بريطانيٍّ فيها قال: إنَّ مهمَّة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية في هذه البلاد -مصر- هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحيَّة إلى أقصى حدٍّ ممكن.

واختار للتعليم قسيسًا على درجة عالية من الذكاء يدعى دنلوب، وولّاه كرومر منصب مستشار وزارة المعارف المصريَّة، وجعل في يده كل السلطات الفعاليَّة لوزارة المعارف.

وضع دنلوب عينه على الأستاذ والتلميذ، وكانت عيون المراقبة التي وضعها «دنلوب» تنتقل من المدرس العادي إلى المدرس الممتاز لترى أثره في تطبيق أهداف التغريب فيكافأ على ذلك بإرساله إلى إنجلترا ليزداد صقله، وليُصاغ من جديد صياغة أدق وأشمل، ليستفاد منه على نطاق أخطر، فإذا ما عادوا يوضعون في مراكز التوجيه ليكون أثرهم في أشمل وأوسع، حتى إذا صار أحدهم في نهاية المطاف وزيرًا للمعارف حطَّم من مقدَّسات قومه ما لم يكن يجرؤ «دنلوب» على فعله.

وقد أنشأ كرومر كلية فيكتوريا بالإسكندريَّة لتربيَّة جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزيٍّ ليكونوا أداة المستقبل في نقل ونشر الحضارة الغربيَّة.

قال اللورد لويد (المندوب السامي البريطاني في مصر) حينما افتتح هذه الكلِّيَّة سنة ١٩٣٦م: «كل هؤلاء لن يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبَّعوا بوجهة النظر البريطانيَّة بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ».

وكان نصارى الشام من أوَّل من اتَّصل بالبعثات التبشيريَّة وبالإرساليات ومن المسارعين في تلقِّي الثقافة الفرنسيَّة والإنجليزيَّة، كما كانوا يشجعون العلمانيَّة التحرريَّة وذلك لعدم إحساسهم بالولاء تجاه الدولة العثمانيَّة، فبالغوا في إظهار إعجابهم بالغرب ودعوا إلى الاقتداء به وتتبع طريقه، وقد ظهر ذلك جليًّا في الصحف التي أسَّسوها وعملوا فيها.

وكان ناصيف اليازجي ١٨٠٠ - ١٨٧١م وابنه إبراهيم اليازجي ١٨٤٧-١٩٠٦م على صلة وثيقة بالإرساليَّات الأمريكيَّة الإنجيليَّة.

وأسس بطرس البستاني ١٨١٩ - ١٨٨٣م في عام ١٨٦٣م مدرسة لتدريس اللغة العربيَّة والعلوم الحديثة، فكان بذلك أوَّل نصرانيٍّ يدعو إلى العروبة والوطنيَّة إذ كان شعاره «حبُّ الوطن من الإيمان»، كما أصدر صحيفة الجنان سنة ١٨٧٠م التي استمرَّت ستَّ عشرة سنة. وقد تولَّى منصب الترجمة في قنصليَّة أمريكا ببيروت مشاركًا في التَّرجمة البروتستانتيَّة للتوراة مع الأمريكيَيْن سميث وفانديك.

وأنشأ جورجي زيدان ١٨٦١ - ١٩١٤م مجلة الهلال في مصر وذلك في سنة ١٨٩٢م، وقد كان على صلة بالمبعوثين الأمريكان، كما كانت له سلسلة من القصص التاريخيَّة التي حشاها بالافتراءات على الإسلام والمسلمين.

وأسس سليم تقلا صحيفة الأهرام في مصر، وقد سبق له أن تلقَّى علومه في مدرسة عربيَّة بلبنان، والتي أنشأها المبشر الأمريكي فانديك.

وأصدر سليم النقَّاش صحيفة المقتطف التي عاشت ثمانية أعوام في لبنان، انتقلت بعدها إلى مصر في سنة ١٨٨٤م.

وتجوّل جمال الدين الأفغاني ١٨٣٨-١٨٩٧م كثيرًا في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، وقد أدخل نظام الجمعيَّات السريَّة في العصر الحديث إلى مصر، كما يقال بأنَّه انضمَّ إلى المحافل الماسونيَّة، وكان على صلة بالمستر بلنت البريطانيّ.

وكان الشيخ محمَّد عبده ١٨٤٩-١٩٠٥م من أبرز تلاميذ الأفغاني، وشريكه في إنشاء مجلة العروة الوثقى، وكانت له صداقة مع اللورد كرومر والمستر بلنت، ولقد كانت مدرسته -ومنها رشيد رضا- تدعو إلى مهاجمة التقاليد، كما ظهرت لهم فتاوى تعتمد على أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل بغية إظهار الإسلام بمظهر المتقبل لحضارة الغرب، كما دعا الشيخ محمد عبده إلى إدخال العلوم العصريَّة إلى الأزهر لتطويره وتحديثه.

وكان المستشرق مستر بلنت يطوف هو وزوجته مرتديًا الزي العربي، داعيًا إلى القوميَّة العربيَّة وإلى إنشاء خلافة عربيَّة بغية تحطيم الرابطة الإسلاميَّة.

وقد قاد قاسم أمين ١٨٦٥ - ١٩٠٨م وهو تلميذ محمَّد عبده، الدعوة إلى تحرير المرأة وتمكينها من العمل في الوظائف والأعمال العامة. وقد كتب تحرير المرأة ١٨٩٩م والمرأة الجديدة ١٩٠٠م.

وكان سعد زغلول الذي عينه كرومر وزيرًا للمعارف سنة ١٩٠٦م مكافأة له على خدماته، ويَذكر عن كرومر أنه: كان يجلس معي الساعة والساعتين ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية. وكان يصفه بأن: صفاته قد اتفق الكل على كمالها. وقد نفذ سعد فكرة كرومر القديمة والداعية إلى إنشاء مدرسة للقضاء الشرعيّ بقصد تطوير الفكر الإسلاميّ من خلال مؤسسة غير أزهريَّة منافسة له. وكان شديد التأثر بآراء محمَّد عبده. واتصل برجال تركيا الفتاة الذين قضوا على الخلافة الإسلامية في تركيا. ونشر بعد موته حداد الماسونية على فقيد البلاد الأعظم.

وكان أحمد لطفي السيد ١٨٧٢ - ١٩٦٣م من أكبر مؤسسي حزب الأحرار الدستوريين الذين انشقوا عن سعد زغلول سياسيًّا، وكان يدعو إلى الإقليميَّة الضيِّقة وهو صاحب العبارة المشهورة التي أطلقها عام ١٩٠٧م وهي «مصر للمصريين». ومن مواقفه الشهيرة أنه مجّد اللورد كرومر ووصفه بأنه: من أعظم عظماء الرجال ويندر أن نجد في تاريخ عصرنا نداً له يضارعه في عظائم الأعمال. ونُشر عنه هذا الكلام في نفس اليوم الذي ألقى فيه كرومر خطاب الوداع فسبّ المصريين جميعًا.

وقد تولى شئون الجامعة المصريَّة منذ تسلَّمتها الحكومة المصريَّة عام ١٩١٦م وحتى ١٩٤١م تقريبًا. وقد رسم منهجاً للحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية في مصر يقوم على التبعية العامة للنفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني والفكر الغربي.

وكان طه حسين ١٨٨٩- ١٩٧٣م من أبرز دعاة التغريب في العالم الإسلامي، إذ تلقى علومه على يد المستشرق دوركايم، وقد نشر أخطر آرائه في كتابيه «الشعر الجاهلي» و«مستقبل الثقافة في مصر». يقول في كتابه الشعر الجاهلي ص ٢٦: للتوراة أن تحدِّثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن

يحدثنا أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.

ويقول بعد ذلك: وقد كانت قريش مستعدَّة كل الاستعداد لقبول هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح. كما أنَّه ينفي فيه نسب النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى أشراف قريش.

لقد بدأ طه حسين محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه ثم قال: سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيِّه لأنَّ ذلك يخالف عادة العصر. (مجلة الهلال، عدد أكتوبر ونوفمبر ١٩١١م).

وقد ازدهرت حركة التغريب بعد سيطرة الاتحاديين عام ١٩٠٨م على الحكم في الدولة العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد.

وفي سنة ١٩٢٤م ألغت حكومة مصطفى كمال أتاتورك الخلافة العثمانيَّة مما مهد لانضمام تركيا إلى الركب العلمانيّ الحديث، وفرض عليها التغريب بأقصى صورة وأعنفها.

ونشر علي عبد الرزاق سنة ١٩٢٥م كتابه الإسلام وأصول الحكم الذي ترجم إلى الإنجليزيَّة والأرديَّة. يحاول فيه المؤلف أن يقنع القارئ بأنَّ الإسلام دين فقط وليس دينًا ودولة. وقد ضرب سميث مثلًا به عندما أشار إلى أنَّ التحرريَّة العلمانيَّة والعالميَّة لا تروج في العالم الإسلامي إلا إذا فسرت تفسيرًا إسلاميًّا مقبولًا، وقد حوكم الكتاب والمؤلف من قبل هيئة العلماء بالأزهر في ١٢/ ٨/ ١٩٢٥م وصدرت ضده إدانة أخرجته من زمرة العلماء. وكان يشرف على مجلة الرابطة الشرقيَّة، كما أقام حفل تكريم لأرنست رينان ١٨٢٣- ١٨٩٢م في الجامعة المصريَّة بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة هذا المستشرق الذي لم يدخر وسعًا في مهاجمة العرب والمسلمين.

وكان محمود عزمي من أكبر دعاة الفرعونيَّة في مصر، درس على أستاذه دوركايم الذي كان يقول له: إذا ذكرت الاقتصاد فلا تذكر الشريعة، وإذا ذكرت الشريعة فلا تذكر الاقتصاد.

وسبق أن قدَّم منصور فهمي ١٨٨٦-١٩٥٩م: أول أطروحة للدكتوراه على أستاذه ليفي بريل مهاجمًا نظام الزواج في الإسلام، والتي موضوعها حالة المرأة في التقاليد الإسلاميَّة وتطوراتها. وفي هذه الرسالة يقول: محمد يشرع لجميع الناس ويستثني نفسه، ويقول: إلا أنَّه أعفى نفسه من المهر والشهود. لكنه انتقد بعد ذلك حركة التغريب في سنة ١٩١٥م وجاهر بآرائه في الأخطاء التي حملها طه حسين ومدرسته.

ويعد إسماعيل مظهر من أئمة مدرسة التغريب لكنه لم يلبث أن تحول عنها إبان عصر النهضة الحديثة.

وكان زكي مبارك في مقدمة تلاميذ طه حسين. درس على أيدي المستشرقين، وسبق له أن قدَّم أطروحة للدكتوراه في الغزالي والمأمون مهاجمًا الغزالي هجومًا عنيفًا، لكنه رجع عن ذلك فيما بعد وكتب مقاله المعروف: إليك أعتذر أيها الغزالي.

ويعتبر محمد حسين هيكل ١٨٨٨ - ١٩٥٦م رئيس تحرير جريدة السياسة في الفترة الأولى من

حياته من أبرز المستغربين، وقد أنكر الإسراء بالروح والجسد معًا انطلاقًا من نظرة عقلانيَّة (حياة محمد).

لكنه عدل عن ذلك وكتب معبرًا عن توجهه الجديد في مقدمة كتابه في منزل الوحي.

وكان الشيخ أمين الخولي وهو من مدرسي مادتي التفسير والبلاغة بالجامعة المصريَّة، يروج لأفكار طه حسين في الدعوة إلى دراسة القرآن دراسة فنية بغض النظر عن مكانته الدينيَّة، وقد استمر في ذلك حتى كشفه الشيخ محمود شلتوت سنة ١٩٤٧م.

وقاد شبلي شميل ١٨٦٠ - ١٩١٧م الدعوة إلى العلمانيَّة ومهاجمة قيم الأديان والأخلاق.

لقد استطاعت حركة التغريب أن تتغلغل في كلِّ بلاد العالم الإسلامي، وإلى كلِّ البلاد المشرقيَّة على أمل بسط بصمات الحضارة الغربيَّة المادِّيَّة الحديثة على هذه البلاد وربطها بالغرب فكرًا وسلوكًا.

لقد تفاوت تأثير حركة التغريب؛ إذ إنَّه قد ظهر بوضوح في مصر، وبلاد الشام، وتركيا، وأندونيسيا والمغرب العربي، وتتدرج بعد ذلك في البلاد الإسلاميَّة الأقل فالأقل، ولم يخلُ بلد إسلاميٌّ أو مشرقيٌّ من آثار وبصمات هذه الحركة.

وسائل التغريب

١- المستشرق الإنجليزي جب ألَّف كتاب «إلى أين يتجه الإسلام»، الذي نشر بلبنان سنة ١٩٣٢م وكان قد ألَّفه مع جماعة من المستشرقين، وهو يبحث في أسباب تعثر عمليَّة التغريب في العالم الإسلاميّ ووسائل تقدُّمها وتطوُّرها، يقول فيه: من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن.

٢- تشجيع فكرة إيجاد فكر إسلامي متطور يبرر الأنماط الغربيَّة ومحو الطابع المميز للشخصيَّة الإسلاميَّة بغية إيجاد علائق مستقرَّة بين الغرب وبين العالم الإسلامي خدمة لمصالحه.

٣- الدعوة إلى الوطنيَّة ودراسة التاريخ القديم والدعوة إلى الحرية، باعتبارها أساس نهضة الأمَّة مع عرض النظم الاقتصاديَّة الغربيَّة عرضًا مصحوبًا بالإعجاب، وتكرار الكلام حول تعدد الزوجات في الإسلام وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين.

٤- نشر فكرة العالميَّة والإنسانيَّة التي يزعم أصحابها بأنَّ ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهب واحد تزول معه الخلافات الدينيَّة والعنصريَّة لإحلال السلام في العالم، ولتصبح الأرض وطنًا واحدًا يدين بدين واحد ويتكلم بلغة واحدة وثقافة مشتركة، بغية تذويب الفكر الإسلامي واحتوائه في بوتقة الأقوياء المسيطرين أصحاب النفوذ العالمي.

٥- إنَّ نشر الفكر القوميّ كان خطوة على طريق التغريب في القرن التاسع عشر وقد انتقل من

أوربا إلى العرب والإيرانيين والترك والأندونيسيين والهنود، بغية تمزيق الكتل الكبيرة إلى كيانات جزئيَّة تقوم على رابط جغرافيٍّ يجمع أناسًا ينتمون إلى أصولٍ عرقيةٍ مشتركةٍ.

٦- عرض روكفلر الصهيوني المتعصب تبرعه بعشرة ملايين دولار لإنشاء مُتْحَفٍ للآثار الفرعونيَّة في مصر وملحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن.

٧- إن كلًا من الاستعمار، والاستشراق، والشيوعيَّة، والماسونيَّة وفروعها، والصهيونيَّة، ودعاة التوفيق بين الأديان (وحدة الأديان)، قد تآزروا جميعًا في دعم حركة التغريب وتأييدها بهدف تطويق العالم الإسلامي وتطويعه ليكون أداةً لينةً بأيديهم.

٨- نشر المذاهب الهدَّامة كالفرويديَّة، والداروينيَّة، والماركسيَّة، والقول بتطور الأخلاق (ليفي بريل) وبتطور المجتمع (دوركايم) والتركيز على الفكر الوجوديِّ والعلمانيِّ، والتحرريِّ، والدراسات عن التصوُّف الإسلاميِّ، والدعوة إلى القوميَّة والأقليميَّة والوطنيَّة، والفصل بين الدين والمجتمع، وحملة الانتقاص من الدين، ومهاجمة القرآن والنبوة والوحي والتاريخ الإسلاميِّ، والتشكيك في القيم الإسلاميَّة، والدعوة إلى التخلي عن الأصالة والتميز، والتخويف من الموت أو الفقر وذلك لإقعاد المسلمين عن فكرة الجهاد، وإشاعة فكرة أنَّ سبب تأخر العرب والمسلمين إنَّما هو الإسلام.

٩- اعتبار القرآن فيضًا من العقل الباطن مع الإشادة بعبقريَّة النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم وألمعيته وصفاء ذهنه ووصف ذلك بالإشراق الروحي تمهيدًا لإزالة صفة النبوَّة عنه.

١٠- نشر الإعلام الغربي واختراق الإعلام العربي، ويظهر ذلك فيه من خلال: عرضه للفارق بين واقع المسلم وواقع المواطن الغربي من جميع النواحي، توظيف السينما والتلفزة والكثير من الكتاب والمؤلفين لبث ما يكون فيه تشويه صورة الإسلام والمسلمين، تشجيع الخلافات المذهبيَّة بين المسلمين وتعميقها ثم إبرازها للمسلمين عبر الأقنية الإعلاميَّة على أنَّها تمثل الإسلام.

١١- نصارى العرب الذين يمثلون نسبة لا تعكس كونهم أقلية من ناحية العدد، ولكنهم من جانب آخر نصارى، كما هي عقيدة الغرب الدينيَّة.

المؤتمرات التغريبيَّة

١- عقد مؤتمر في بلتيمور عام ١٩٤٢م وهو يدعو إلى دراسة وابتعاث الحركات السريَّة في الإسلام.

٢- في عام ١٩٤٧م عقد في جامعة برنستون بأمريكا مؤتمر لدراسة (الشئون الثقافيَّة والاجتماعيَّة في الشرق الأدنى) وقد ترجمت بحوث هذا المؤتمر إلى العربيَّة تحت رقم ١١٦ من مشروع الألف كتاب في مصر. شارك فيه كويلر يونغ وحبيب كوراني وعبد الحق أديوار ولويس توماس.

٣- عقد مؤتمر (الثقافة الإسلاميَّة والحياة المعاصرة) في صيف عام ١٩٥٣م في جامعة برنستون وشارك فيه كبار المفكِّرين من مثل ميل بروز، وهارولد سميث، وروفائيل باتاي، وهارولد ألن،

وجون كرسويل، والشيخ مصطفى الزرقا، وكنت كراج، واشتياق حسين، وفضل الرحمن الهندي.

٤- وفي عام ١٩٥٥م عقد في لاهور بالباكستان مؤتمر ثالث لكنَّه فشل وظهرت خطتهم بمحاولتهم إشراك باحثين من المسلمين والمستشرقين في توجيه الدراسات الإسلاميَّة.

٥- انعقد مؤتمر للتأليف بين الإسلام والمسيحيَّة في بيروت ١٩٥٣م، ثم في الإسكندريَّة ١٩٥٤م وتتالت بعد ذلك اللقاءات والمؤتمرات في روما وغيرها من البلدان لنفس الغرض.

٦- في سبتمبر ١٩٩٤م عقد بالقاهرة مؤتمر السُّكَّان والتنمية بهدف نشر أفكار التحلل الجنسي «الغربيَّة» بين المسلمين -من إتاحة للاتصالات غير المشروعة بين المراهقين والإجهاض والزواج الحرّ والسفاح والتدريب على موانع الحمل، وقد أصدرت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربيَّة السعوديَّة فتوى بضرورة مقاطعته والحذر من توصياته وأهدافه.

مظاهر التغريب في بلاد المسلمين

١- إعطاء أسماء أجنبيَّة للمحال التجاريَّة: فالسائر في الشارع يهوله هذا الكم الخطير من الإعلانات التي تحمل أسماء أجنبيَّة، إما مكتوبة باللغة العربيَّة أو -وهو الأمرّ- مكتوبة باللغة الإنجليزيَّة.

٢- ومن مظاهر التغريب التي تصدمك في الشارع، تقليد سلوكيات الغرب وعاداتهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع.

٣- وفي أسلوب الحوار، تجدهم يحاولون إقحام كلمة باللغة الإنجليزية أثناء الحديث، حتى يبدو المتكلم وكأنَّه مثقف.

٤- وفي أوقات الفراغ تجدهم أمام شاشات التلفاز يشاهدون المسلسلات أو الأفلام التي تبث القيم الغربيَّة البعيدة أو المنافية للإسلام.

٥- وفي التفكير والسلوك، هيمن النمط الغربي للسلوك على أفراد أمَّة الإسلام.

٦- وفي المأكل والمشرب انتشرت في شوارعنا ثقافة محلات تقديم الوجبات السريعة والسندوتشات والتي يمشي الناس يأكلونها في الشارع، أو يجلسون في تلك المحال فيأكلون على أنغام الموسيقى الصاخبة والأغاني الهابطة(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٩٨- ٧٠٥)، الحصاد المر، محمود شنب، المسلمون في مواجهة الغزو الثقافي المعادي، عبد الرحمن حمادي، جناية الاستغراب على الأدب العربي، خميس بن عاشور.

القوميَّة

التعريف:

القوميَّة حركة سياسيَّة فكريَّة تدعو إلى ضرورة أن يكون أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ولاءهم واحدًا، وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم.

فالقوميَّة العربيَّة حركة سياسيَّة فكريَّة متعصِّبة تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين.

والعلاقة بين القوميَّة والوطنيَّة: أنَّ القوميَّة من معناها أيضًا السعي في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القوميَّة الواحدة في وطنٍ شاملٍ، فيكون الولاء للقوميَّة مصحوبًا بالولاء للأرض، ولكن الولاء للقوميَّة يظل هو الأصل ولو لم تتحقق وحدة الأرض.

تاريخ القومية

الدعوة القوميَّة ظهرت في أوربَّا، فقد كانت أوربَّا في وقت من الأوقات وحدة سياسيَّة تجمع قوميَّات ولغات وأجناسًا شتَّى، في ظلِّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، ولم يكن هذا التَّجمع يشكل أمَّةً بالمعنى الحقيقيِّ، فقد كانت الدولة الأمّ هي الأمَّة في نظر نفسها وفي نظر المستعمرات التي استولت عليها وألحقتها بالإمبراطوريَّة، كما كانت الدولة الأم هي السيدة والمستعمرات هي العبيد، فلم تمتزج شعوب أوربَّا قط في وحدة حقيقيَّة في تاريخها كلِّه، حتَّى بعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانيَّة وفرضها على الإمبراطوريَّة كلِّها عام ٣٢٥م، وإن كان اعتناقه قد أنشأ لفترة من الوقت لونًا من التجمع الشعوري، وكان هذا هو هدف قسطنطين الحقيقي من دخوله النصرانيَّة أن توحد الإمبراطورية التي كانت توشك على التمزق والافتراق.

وأوجدت عقيدة النصارى والكنيسة البابويَّة لونًا من التجمع والوحدة، ولكنَّ طغيان الكنيسة ما لبث أن عمِل على تقويض ذلك التجمع من أكثر من باب، وأدَّى إلى الرغبة في تحطيم نفوذ الكنيسة والتفلُّت منها والنفور والانسلاخ من الدين ذاته، مما أدَّى إلى تمرد الملوك بل ورجال الدين أنفسهم على الكنيسة وسلطانها، ومن ثم ظهور حركات الانفصال -وساعد عليه اليهود انتقامًا للاضطهاد والذي لا قوة من النصارى قبل ذلك- التي كانت البداية لظهور القوميَّات في أوربَّا التي تخلَّت عن الدين وأصحابه إن لم تطردهم وتلقيهم في غياهب السجون.

وأول ما اتجهت إليه القوميَّات هو السعي إلى توسيع رقعتها على حساب قوميَّة أخرى أضعف منها، فنشب صراع عنيف داخل أوربَّا بين هذه القوميَّات الناشئة بعضها وبعض، ومنها الحروب الإيطاليَّة بين فرنسا وأسبانيا، وحروب نابليون ... وغيرهما.

ثم مع الثورة الصناعيَّة ظهرت الأخلاق اليهوديَّة المادِّيَّة فاتجهت القوميَّات إلى تحقيق المصالح

القوميَّة بصرف النظر تمامًا عن المصالح الإنسانيَّة، وتتضاعف الصراعات بصورة ماديَّة بحتة، قامت على الرأسماليَّة المتذرعة بمقولة الداروينيَّة: البقاء للأصلح؛ ولمَّا كانت كلُّ قوميَّة تزعم لنفسها أنَّها هي الأجدر بالبقاء، وتريد أن تثبت ذلك بالفعل، فوصل الصراع إلى حدِّ الوحشيَّة، وماتت في دوامته كل المعاني الإنسانيَّة.

ومع الثورة الصناعيَّة الرأسمالية المتلبسة في ذات الوقت بالقوميَّة اتسعت رقعة الاستعمار الأوربِّيَّة المشبع بالروح الصليبية، والمتسم بالصبغة الاقتصاديَّة، الباحث عن الموارد الرخيصة، وعن الأسواق المضمونة لتوزيع فائض الإنتاج.

ونشبت الحروب بين القوميَّات المختلفة أبشع ما تكون وصارت نهاية الأمر حروبًا عالميَّة تشترك فيها كل القوميَّات ويصلاها العالم كله بذنب وبغير ذنب، وأفرزت الحرب العالميَّة الثانية معسكرين؛ المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسماليان اللذان يجتمعان ويختصمان على مبدأ التوسع والسيطرة والسلطان وتوزيع مناطق النفوذ في العالم دون أي اعتبار لمبادئ أخرى.

وهكذا صارت المصالح القوميَّة هي الأصل المعترف به في حياة الناس -الأوربيِّين-، وعلى حساب القيم والمبادئ وكل ومعنى من معاني الإنسانيَّة عرفته البشريَّة في يوم من الأيَّام.

وتم تصدير دعاوى القوميَّة والوطنيَّة إلى الشرق الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري الذي استخدمه الصليبيُّون المحدَثون في غزو العالم الإسلامي، والهادف إلى اقتلاع العقيدة الإسلاميَّة واستبدال غيرها بها.

وفي مطلع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طلب اليهود من السلطان عبد الحميد منحهم وطنًا قوميًا في فلسطين في مقابل مغريات كبيرة، فلما رفض دبَّروا لخلعه ثم لإزالة الخلافة كلِّها على يد كمال أتاتورك، وكان هذا عن طريق القوميَّة.

فيهود الدونما كانوا هم المنظمين الحقيقيين لحزب الاتحاد والترقي، الذي نادى بالقوميَّة الطورانيَّة، (وهي قوميَّة الأتراك في جاهليتهم قبل دخولهم في الإسلام)، ورفع شعار الذنب الأغبر (وهو معبود الأتراك في جاهليتهم)، كما نادى بضرورة تتريك الدولة، أي جعل المناصب فيها وفقًا على الأتراك وحدهم، ومعنى ذلك -كما حدث بالفعل- أن يحس العرب أنَّهم مظلومون في ظلِّ الحكم التركي وأنَّهم مهضومو الحقوق، عندئذ تلقفتهم الصليبيَّة -حليفة اليهوديَّة في الحرب ضد الإ سلام- فأرسلت إليهم «لورنس» ليؤجج فيهم روح القوميَّة العربيَّة، ردًا على القوميَّة الطورانيَّة، ويؤلف الثورة العربيَّة الكبرى ضد دولة الخلافة.

فنشط نصارى بلاد الشام وخاصة لبنان في الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة، وكان هذا الفكر يعمق العداوة مع الدولة العثمانيَّة المسلمة التي يكرهونها، وينبه في العرب جانبًا من شخصيتهم غير الدينيَّة، مما يبعد بهم عن العثمانيِّين.

وانضم إليهم المسلمون الذين تربوا في مدارس التبشير، ثم انضم إليهم المستغفلون من المسلمين

الذين لم يجدوا تعارضًا بين الإسلام والعروبة على أساس أنَّ العروبة هي عصب الإسلام، وأنَّ العرب هم الذين حملوا الإسلام إلى كلِّ البشريَّة.

وظهرت الحركات السريَّة وتألفت من أجلها الجمعيَّات والخلايا التي تنادي بالعروبة والقوميَّة العربيَّة، ثم في حركة علنية في جمعيَّات أدبيَّة تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسيَّة واضحة المعالم في المؤتمر العربيّ الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م.

وفيما يلي إشارة إلى أهمِّ الجمعيَّات ذات التوجُّه القوميّ حسب التسلسل التاريخي:

- الجمعيَّة السوريَّة: أسسها نصارى منهم: بطرس البستاني وناصيف اليازجي سنة ١٨٤٧م في دمشق.

- الجمعيَّة السوريَّة في بيروت: أسسها نصارى منهم: سليم البستاني ومنيف خوري سنة ١٨٦٨م.

- الجمعيَّة العربيَّة السرِّيَّة: ظهرت سنة ١٨٧٥م ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا.

- جمعيَّة حقوق المرأة العربيَّة: ظهرت سنة ١٨٨١م ولها فروع كذلك، وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والنصارى.

- جمعيَّة رابطة الوطن العربيّ: أسسها نجيب عازوري سنة ١٩٠٤م بباريس وألف كتاب يقظة العرب.

- جمعيَّة الوطن العربيّ: أسسها خير الله خير الله سنة ١٩٠٥ بباريس، وفي هذه السنة نشر أول كتاب قومي بعنوان: الحركة الوطنيَّة العربيَّة.

- الجمعيَّة القحطانيَّة: ظهرت سنة ١٩٠٩م وهي جمعيَّة سرِّيَّة من مؤسسيها خليل حمادة المصري.

- جمعيَّة (العربيَّة الفتاة): أسسها في باريس طلاب عرب منهم محمد البعلبكي سنة ١٩١١م.

- الكتلة النيابيَّة العربيَّة: ظهرت سنة ١٩١١م.

- حزب اللامركزيَّة: سنة ١٩١٢م.

- الجمعيَّات الإصلاحيَّة: أواخر ١٩١٢م وقد قامت في بيروت ودمشق وحلب وبغداد والبصرة والموصل وتتكون من خليط من أعيان المسلمين والنصارى.

- المؤتمر العربي في باريس: أسسه بعض الطلاب العرب سنة ١٩١٢م.

- حزب العهد: ١٩١٢م وهو سريّ، أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني.

- جمعيَّة العلم الأخضر: سنة ١٩١٣م، من مؤسسيها الدكتور فائق شاكر.

- جمعيَّة العلم: وقد ظهرت سنة ١٩١٤ في الموصل.

وظلت الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة محصورة في نطاق الأقلِّيَّات الدينيَّة غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها حتَّى فوجئ الصليبيون واليهود أثناء الحربين العالميتين بفدائيين مسلمين -وخاصة من مصر- اشتركوا في القتال يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة، فعملوا على ضرورة القضاء على حركة البعث الإسلامي التي أخرجت مثل هؤلاء المجاهدين، وعلى ضرورة إيجاد بديل على الراية الإسلاميَّة التي أخرجت أولئك المقاتلين وتوشك أن تمتد ظلالها من مصر إلى البلاد العربيَّة الأخرى، وكان البديل هو القوميَّة العربيَّة.

فكرت بريطانيا في إيجاد الجامعة العربيَّة على مستوى الحكومات سنة ١٩٤٦م، ولكنَّه لم يكن كافيًا إذ كان لا بدَّ من رفع راية القوميَّة العربيَّة على مستوى الجماهير.

ولما ورثت أمريكا بريطانيا وفرنسا بعد الحرب وبسطت نفوذها على الشرق الأوسط أقامت عن طريق الانقلابات العسكريَّة زعامات كاملة تدافع عن القوميَّة العربيَّة في الوقت الذي تحارب فيه الإسلام والمسلمين، وقالت الدعاية التي أقمتها أمريكا وإسرائيل: إنَّ أمريكا وإسرائيل لا تخشيان شيئًا خشيتهما للقوميَّة العربيَّة، ولا تخشيان أحدًا خشيتهما لزعيم القوميَّة العربيَّة الذي تبنى الدعوة إليها؛ وهو الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر الذي سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات دولته فأصبحت القوميَّة العربيَّة حينئذ تيارًا شعبيًّا.

ويعد ساطع الحصري ١٨٨٠-١٩٦٨م داعية القوميَّة العربيَّة، وأهم مفكريها، وأشهر دعاتها، وله مؤلفات كثيرة تعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القوميَّة العربيَّة، ويأتي بعده في الأهمِّيَّة ميشيل عفلق.

أفكار ومعتقدات القومية

- يُعلي الفكر القومي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الدين، وإذا كان بعض كتاب القوميَّة العربيَّة يسكتون عن الدين، فإن بعضهم الآخر يصر على إبعاده إبعادًا تامًّا عن الروابط التي تقوم عليها الأمَّة بحجَّة أن ذلك يمزِّق الأمَّة بسبب وجود غير المسلمين فيها، ويرون أن رابطة اللغة والجنس أقدر على جمع كلمة العرب من رابطة الدين.

- حيث إنَّ أساسها إبعاد الدين الإسلامي عن معترك حياة العرب السياسيَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة والتشريعيَّة فإنَّها تعد ردة إلى الجاهليَّة، وضربًا من ضروب الغزو الفكري الذي أصاب العالم الإسلامي؛ لأنَّها في حقيقتها صدى للدعوات القوميَّة التي ظهرت في أوربَّا.

- يرى دعاة الفكر القومي -على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكر- أن أهم المقومات التي تقوم عليها القوميَّة العربيَّة هي: اللُّغة والدم والتاريخ والأرض والآلام والآمال المشتركة.

- ويرون أن العرب أمَّة واحدة لها مقومات الأمَّة، وأنَّها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط.

- كما يرون أن الحدود بين أجزاء هذا الوطن هي حدود طارئة، ينبغي أن تزول، وينبغي أن تكون للعرب دولة واحدة، وحكومة واحدة، تقوم على أساس من الفكر العلماني.

- يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديان كما يزعمون.

لذلك يتبنى شعار: (الدين لله والوطن للجميع)، والهدف من هذا الشعار إقصاء الإسلام عن أن يكون له أي وجود فعلي من ناحية، وجعل أخوة الوطن مقدمة إلى أخوة الدين من ناحية أخرى.

- يرى الفكر القومي أن الأديان والأقلِّيَّات والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلص منها من أجل بناء مستقبل الأمَّة.

- يقول عدد من قادة هذا الفكر: نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

- ويقرر الفكر القومي أنَّ الوحدة العربيَّة حقيقة، أما الوحدة الإسلاميَّة فهي حلم.

- وأن فكرة القوميَّة العربيَّة من التيارات الطبيعيَّة التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعيَّة، لا من الآراء الاصطناعيَّة التي يستطيع أن يبدعها الأفراد.

- كثيرًا ما يتمثل دعاة الفكر القومي بقول الشاعر القوري:

هبوني عيدًا يجعل العرب أمة ... وسيروا بجثماني على دين بَرْهَمِ
سلام على كفر يوحد بيننا ... وأهلا وسهلا بعده بجهنم

- يقول بعض دعاة الفكر القومي: إنَّ العبقريَّة العربيَّة عبرت عن نفسها بأشكال شتَّى، فمثلًا عبَّرت ذات مرة عن نفسها بشريعة حمورابي، ومرة أخرى بالشعر الجاهلي، وثالثة بالإسلام.

- وقال أحد مشاهيرهم: لقد كان محمَّد كلَّ العرب، فليكن كل العرب محمَّدًا.

- يرى دعاة الفكر القومي أن من الإجرام أن يتخلى العربي عن قوميَّته، ويتجاوزها إلى الإيمان بفكرة عالميَّة أو أمميَّة، مع أنَّ إبعاد الإسلام عن معترك حياة العرب ينهي وجودهم.

- يقول بعض مفكري القوميَّة العربيَّة: إذا كان لكل عصر نبوته المقدَّسة، فإن القوميَّة العربيَّة هي نبوة هذا العصر.

- ويقول بعضهم الآخر: إنَّ العروبة هي ديننا نحن العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنَّها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحيَّة، ويجب أن نغار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبيِّ والمسيحيون على إنجيل المسيح.

- ويقرر بعضهم الآخر أنَّ المرحلة القوميَّة في حياة الأمَّة، مرحلة حتميَّة، وهي آخر مراحل التطور كما أنَّها أعلى درجات التفكير الإنساني.

نقد القومية

١- إنَّ القوميَّة في ذاتها نزعة غير إنسانيَّة فهي تُحِدُّ عَالَمَ الإنسان، فتجعل أُفُق الإنسان هو الرقعة الضئيلة من هذا العالم التي يسكن فيها قومه، بدلًا من أن يكون أفقه العالم والإنسان.

٢- إنَّ القوميَّة مصالح ماديَّة يتعارك عليها مع غيره من الهابطين مثله إلى دركه، كالمصالح التي يتعارك عليها الحيوان من أرض وكلا إذا كان من الضعاف أكلة العشب، أو أرض وصيد إذا كان من الوحوش التي يتفرس القوي منها الضعيف.

٣- تقيم تجمعها على الأمور التي لا خيار فيها للإنسان، مثل: المولد في أرض معينة، والكلام بلغة الأرض التي ولد فيها، والمصالح الماديَّة القاهرة، في الوقت التي تنبذ فيه كل الأمور التي يكون للإنسان فيها الخيار، مثلا العقيدة في الله، والقيم المنبثقة من العقيدة (كالصدق والأمانة والعدل مع كل الناس، والحب والبغض في الله).

٤- مخالفة مراد الله من جعل الناس شعوبًا وقبائل لا لينحبسوا في داخلها، ولا ليتعاركوا مع الشعوب والقبائل الأخرى بحثًا عن مصالحها القوميَّة، ولكن ليتعارفوا، وقاعدة التعارف التي تليق ببني الإنسان هي التقوى، وهي الكلمة الجامعة لكلِّ ما في الحياة الإنسانيَّة من معاني الخير.

٥- إنَّ نشأة القوميَّة في أوربًا لا ينسحب على الإسلام والمسلمين، لأنَّه انصهرت القوميات والأجناس واللغات فيها في بوتقة العقيدة فصارت أمَّة واحدة على مستوى واحد، وهي الأمة الإسلاميَّة، وتاريخ المسلمين في خير القرون يشهد بذلك.

موقف الإسلام من القومية العربيَّة

إنَّ الإسلام لا يغير انتماء الناس إلى أرضهم ولا شعوبهم ولا قبائلهم؛ لأنَّ هذا أمر ماديٌّ حسيٌّ واقع لا سبيل إلى تغييره، فالذي يولد في الأرض المصريَّة مصري بحكم مولده... وهكذا العراقي والباكستاني وغيرهم. ولكن الإسلام ينكر أن تكون صلة التجمع شيئًا غير الإسلام، غير العقيدة الصحيحة في الله، لا الدم ولا الأرض ولا اللغة ولا المصالح الأرضيَّة.

وليس معنى ذلك أنَّ الإسلام يحرم كل تلك الروابط، إنما يجيزها كلها حين تقع تحت رابطة العقيدة وداخلها، أمَّا حين تكون تلك الروابط حاجزًا يحجز بين المؤمن والمؤمن بسبب رباط الدم أو اللغة أو الأرض أو المصالح، فهذه تصبح في حكم الإسلام دعوة منتنة.

فكيف إذا كانت تلك القومية تقول لك في صراحة: إنَّ المشرك الذي يشاركك في قوميتك أقرب إليك من المسلم الذي ينتمي إلى قوميَّة أخرى.

ويصفها سماحة الشيخ ابن باز بأنَّها: دعوة جاهليَّة إلحاديَّة تهدف إلى محاربة الإسلام والتخلص من أحكامه وتعاليمه. ويقول عنها: وقد أحدثها الغربيُّون من النصارى لمحاربة الإسلام والقضاء عليه في داره بزخرف من القول... فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام، واغتبر بها كثير من الأغمار ومن قلدهم من الجهال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان

ويقول أيضًا: هي دعوة باطلة، وخطأ عظيم، ومكر ظاهر، وجاهليَّة نكراء، وكيد سافر للإسلام وأهله.

الانتشار ومواقع النفوذ

يوجد كثير من الشباب العربي ومن المفكرين العرب الذين يحملون هذا الفكر، كما توجد عدة أحزاب قوميَّة منتشرة في البلاد العربيَّة مثل حركة الوحدة الشعبيَّة في تونس، وحزب البعث بشقيه في العراق وسوريا، وبقايا الناصريين في مصر وبلاد الشام، وفي ليبيا.

كثير من الحكام يتبارون في ادعاء القوميَّة وكل منهم يفتخر بأنَّه رائد القوميَّة العربيَّة ويدعي أنَّه الأجدر بزعامتها!

يلاحظ أن الفكر القومي الآن هو في حالة تراجع وانحسار أو جمود على الأقل(١).

الوطنيَّة

التعريف:

الوطنيَّة مذهب فكريٌّ يدعو إلى أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن، والتعصب له، أيا كانت أصولها التي ينتمون إليها، وأجناسهم التي انحدروا منها. أي أنَّ الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس أو الدين.

تاريخ الوطنيَّة

التأسيس الثقافيّ للوطنيَّة مرّ بمرحلتين:

الأولى: مرحلة تقسيم الأمَّة الواحدة إلى أمَّتين؛ عربيَّة وتركيَّة، وقد جاء ذلك على يد دولة الاتحاد والترقِّي في عام ١٩٠٨م من الجهة التركيَّة، وعلى يد الثورة العربيَّة الكبرى عام ١٩١٦م من الجهة العربيَّة. ولم تستطع الثورة العربيَّة أنَّ تجمع ما كان متفرقًا، بل فرّقت ما كان مجموعًا في اتفاقيَّة سايكس- بيكو التي قطَّعت فيها الأمَّة العربيَّة إلى دويلات. ثم جاء التنظير القوميّ والدعوة إلى القوميَّة العربيَّة.

الثانية: مرحلة التأسيس الثقافيّ المستقلّ لكلّ قطر: اتَّخذ دعاة الوطنيَّة عدم التقدُّم باتجاه الوحدة خلال القرن الماضي حجَّةً من أجل اعتبار الوحدة خيالًا ووهمًا، واتَّخذوا ذلك أيضًا ذريعة من أجل الترويج للوطنيَّة والتأسيس الثقافيّ لها، والذي تجلَّى في عدة عوامل، منها؛ طباعة كتب المؤرِّخين الذين تناولوا تاريخ القطر، وإبراز الرحالة الذين مرّوا به وكتبوا عنه، وتعظيم رموز الأدب والشعر المرتبطين به، وتزكية تاريخه السابق على الإسلام، كالتاريخ الفرعونيّ والبابليّ والكلدانيّ والآشوريّ والبربريّ والسيريانيّ والفينيقيّ، وإنشاء مراكز ومؤسسات ترعى ذلك

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٤٤- ٤٤٨)، مذاهب فكرية معاصرة.

التاريخ. . . إلخ، ويرافق كلّ ذلك الاهتمام باللغة العاميَّة، والاهتمام بالشعر الشعبي والترويج لشعرائه ودواوينهم، والاهتمام بالعادات والتقاليد والفولكلور الشعبيّ الخاصّ بذلك القطر، وإنشاء المتاحف الخاصَّة به. . . إلخ.

وكان هذا من حرص الغرب وبمعونة عدد من حكَّام المسلمين أن يعملوا على زرع الناحية الوطنيَّة، وحب الوطن والتضحية في سبيله، وجعلها رابطة بين أبناء الوطن الواحد، تميزهم عن غيرهم من المسلمين. وما ذلك كله إلا زيادة في تفرقة المسلمين، ووضع العراقيل والمصاعب في وجه وحدتهم إذا ما تطلعوا لها وعملوا لها، بل أثاروا في الناس كل ما يزيد بعدهم عن الإسلام ويحول دون وحدتهم مع إخوانهم المسلمين. فبثوا في مصر «الفرعونيَّة»، وفي تركيا «الطورانيَّة»، وفي الشام؛ «الفينيقيَّة»، وفي العراق «الآشوريَّة»، وفي الجزائر «الأمازيغيَّة»، وآخرها في جزيرة العرب «الخليجيَّة»، حتَّى صدَّقت الشعوب فعلًا أنَّها «فرعونيَّة» و«طورانيَّة» و«فينيقيَّة» و«آشوريَّة» و«خليجية»، فتوحَّدت على هذه الشعارات، ونظرت إلى غيرها من الشعوب بفوقيَّة وتعالٍ.

وقد ظهر مع بداية القرن الماضي مفهومان للوطنيَّة عند المسلمين:

١- المفهوم العاطفيّ الانتمائيّ ذي الوجه الإسلاميّ الذي كان في أذهان بعض المفكرين والساسة مثل مصطفى كامل وحزبه الوطني الدَّاعين إليها الذين لا يستهدفون بها مناهضة الإسلام أو استبدالها به بل نصره من خلالها.

يقول مصطفى كامل في خطبة له في الإسكندريَّة: قد يظن أنَّ الدين ينافي الوطنيَّة أو أنَّ الدعوة إلى الدين ليست من الوطنيَّة في شيء، ولكنِّي أرى أنَّ الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأنَّ الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًّا صادقًا ويغذيه بروحه وما تملك يداه.

٢- المفهوم الوطنيّ الوثنيّ المحارب للإسلام منهجًا وانتماءً وعلاقة مع الآخرين وقد تمثلت في مصر في صحف وأحزاب ورموز مثل لطفي السيد وسعد زغلول وغيرهما.

يقول أحمد لطفي السيد عبارته الشهيرة: مصر للمصريين. وقد قاوم بهذا الفكر ذلك الاتجاه الأصيل الذي كان يحمل لواءه دعاة الوطنيَّة الصادقة وكوَّن مدرسة تحقق لها بعد الحرب العاليَّة الأولى السيطرة على مقدرات الأمور بعد أن أقصى رجال الوطنيَّة الحقَّة.

يقول ألبرت حوراني في كتابه (الفكر العربيّ في عصر النهضة) : كان لطفي كغيره من المفكرين المصريين لا يحدد الأمَّة على أساس اللغة أو الدين، بل على أساس الأرض، وهو لم يفكر بأمَّة إسلاميَّة أو عربيَّة، بل بأمَّة مصريَّة: أمَّة القاطنين أرض مصر [ص٢١٦]. وأن «لمصر في نظره ماضيان: الماضي الفرعونيّ والماضي العربيّ، ومن المهمّ أن يدرس المصريُّون الماضي الفرعونيَّ، لا للاعتزاز به فحسب! بل لأنَّه يلقنهم قوانين النمو والارتقاء» [ص ٢١٦-٢١٧] . وأنَّ «القوميَّة الإسلاميَّة ليست قوميَّة حقيقيَّة، وأنَّ الفكرة القائلة بأنَّ أرض الإسلام هي وطن كل مسلم إنَّما هي فكرة استعماريَّة تنتفع بها كلُّ أمَّة استعماريَّة حريصة على توسيع رقعة أراضيها ونشر نفوذها»!!

[ص ٢١٨]. ويقول أيضًا: «أمَّا الأمَّة الإسلاميَّة فكادت تقع خارج نطاق تفكيره» [ص ٢٢٤].

ويقول مجيد خدوري في كتابه (عرب معاصرون): «كانت فكرته -أي لطفي- في الأمَّة كما استقاها من الفكرة الأوربيِّ! إقليميَّة، لا إسلاميَّة» [ص٣٢٨] ويقول أيضًا: «نادى بهويَّة مصريَّة وطنيَّة تستند إلى تاريخها المتواصل، الذي لم يكن الحكم الإسلاميّ فيه إلا مجرد فصل واحد» [ص٣٢٨].

فقد كان لطفي السيد خصمًا للعروبة والوحدة الإسلامية، وكان يدعو إلى قصر التعليم على أبناء الأعيان، وكان يدعو إلى اللهجة العامية على وفق ما دعا إليه المستشرقون والمبشرون مثل مولار، ويلكوكس، رافعاً شعار: تمصير العربية بإحياء العامية. وكان يقاوم التضامن العربي الإسلامي فقد، عارض مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الغزو الإيطالي عام ١٩١١ م، ودعا إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطالية التركية.

الهدف من دعوى الوطنيَّة في العالم الإسلامي

١- تحويل حركات الجهاد الإسلاميّ ضد الاستعمار الصليبيّ إلى حركات وطنيَّة، كما فعل سعد زغلول في مصر وغيره من الزعماء الوطنيِّين على اتساع العالم الإسلاميّ. والحركة الوطنيَّة تفترق عن حركة الجهاد الإسلامي بادئ ذي بدء في أنَّها لا تنظر إلى العدو على أنَّه صليبيّ مستعمر ولكن على أنَّه مستعمر فقط.

٢- تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلى حركات سياسيَّة عن طريق تحويلها إلى حركات وطنيَّة، فالعدو غير قادر على التفاهم مع الحركات الإسلاميَّة؛ لأنَّه لا سبيل إلى التفاهم معها في الحقيقة إلا بإخراج ذلك العدو خارج البلاد، ومن ثم فلا سبيل إلى استعمال السياسة من جانب العدو. أما الحركات الوطنية فالتفاهم معها سهل وممكن؛ وعود من المستعمر بالجلاء، ويأتي الوقت الموعود فيتذرع المستعمر بشتَّى المعاذير لتأجيل جلائه، ويعطي وعودا جديدة... والساسة الوطنيُّون يغضبون، أو يتظاهرون بالغضب لإرضاء الجماهير، والجماهير تثور ثورة صاخبة لكنها فارغة، سرعان ما تنطفئ بعد الاستماع إلى خطبة رنانة من الزعيم الوطنيّ يعد فيها بأنَّه لم يفرط في شبرٍ من الأرض، ولم يرضَ بغير الجلاء التامّ أو الموت الزؤام، وبين هذا وذاك تجري مفاوضات بين الساسة والاستعمار تنتهي إلى أشياء تافهة يلعب بها الساسة على عقول الجماهير فيوهمونها أنَّها مكاسب وطنيَّة، وقد تنتهي إلى غير شيءٍ على الإطلاق، ومع ذلك يقول زعيم يعتبر من كبار الزعماء الوطنيِّين في العالم الإسلامي في العصر الحديث وهو سعد زغلول: خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز، ويقول: الإنجليز خصوم شرفاء معقولون.

٣- تيسير عمليَّة التغريب من خلال تحويل حركة الجهاد الإسلامي إلى حركة وطنيَّة سياسيَّة، فحين تقوم حركة الجهاد على أساس إسلاميّ يكون الباب موصدًا تمامًا بين المجاهدين وعدوهم، لا يأخذون شيئًا من فكره ولا عقائده ولا تقاليده ولا أنماط سلوكه المنافية للإسلام. أما حين يتحوَّل الجهاد إلى حركة وطنيَّة سياسيَّة فالحاجز أرقّ، يسمح بالأخذ، ومعاذير الأخذ كثيرة، فقد قال

أستاذ الجيل لطفي السيد: إنَّ الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر، وليس السبيل أن نحاربهم، بل السبيل أن نتعلَّم منهم، ثم نتفاهم معهم.

أفكار الوطنيَّة

١- تدعو الوطنيَّة إلى مبادئ تخالف دعوة الإسلام، فهي تدعو إلى الانصهار في بوتقة الوطن، واعتباره رابطًا قوميًا يعلو فوق كلِّ الروابط. يقول أحد الوطنيين: ليس أغلى على الإنسان من الوطن، ليس ثمَّة ما هو أرق من العلاقة بين المخلوق وتربته وأرضه ووطنه.

وقال آخر: إنَّ كلَّ شيءٍ يذهب ويتلاشى، إلا حبَّ الوطن، حبُّ الوطن هو الذي يستمرُّ مشتعلًا في الذات دائمًا أبدًا.

٢- الوحدة الوطنيَّة تعتبر الحب على أساس المواطنة، فما كان من وطنك تحبّه، سواء كان مسلمًا أو فاسقًا أو كافرًا، فالمهمُّ أنَّه مواطن مثلك، بينما لا تحمل هذا الشعور لأخٍ مسلمٍ من غير وطنك، ولو كان من أتقى النَّاس. فهي موالاة ومعاداة على أساس الوطن.

٣- أنَّ لكلِّ قطرٍ من أقطار المسلمين سواء كانوا عربًا أو عجمًا ثقافته الخاصَّة النابعة من أرضه وحضارته الغابرة في التاريخ القديم.

٤- من أبرز شعارهم: الدين لله والوطن للجميع.

نقد الوطنيَّة

١- لقد جاء الإسلام للبشر عامَّة لينقذهم من براثن العبوديَّة لغير الله، وذلة البشر والجور والجهل إلى عزَّة العبوديَّة لله تعالى، والعيش وفق طريقة الإسلام، فنظم حياتهم -مسلمين وغير مسلمين- دون النظر إلى أصولهم وألوانهم وأوطانهم، وجعل الأفضليَّة بينهم التقوى.

فلندع عنَّا التفاخر بالأوطان والأنساب، ولنتفاخر بعبوديتنا لله تعالى وحده، ولنعمل سويًّا لإقامة دولة الإسلام التي توحِّد الناس تحت رايتها، فترعى شئونهم بالإسلام، وتنقذهم من الدنيا إلى الآخرة بسلام.

وأينما ذكر اسم الله في بلد عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني

٢- ليس من شكٍّ بأنَّ هذا التأسيس الثقافيَّ المستقلَّ لكلِّ قطر على حدة؛ يتقاطع مع الوحدة الثقافيَّة التي عرفتها الأمَّة على مدار تاريخها السابق، وهو في حال استمراره ونجاحه فإنَّه سيؤدي إلى أخطر ما واجهته أمَّتنا على مدار تاريخها السابق، وهو تحويل الأمَّة الواحدة؛ إلى أمَمٍ متعدِّدة.

٣- أنَّ حبَّ الوطن أمرٌ غريزيٌّ جبلِّيٌّ، لا يستطيع الإنسان أن ينكره أو ينفيه، ولكنَّ الخطر الداهم أنَّ كثيرًا من دعاة الوطنيَّة اتخذوه صنمًا يُعبد من دون الله، وتخلّو عن مبادئهم الإسلاميَّة باسم الوطنيَّة، وصار ولاؤهم وبراؤهم على الوطن لا ما على فرضه الله علينا وهو الدين.

٤- شعارهم الدين لله والوطن للجميع مخالف للإسلام وشريعته؛ فالدين يجب أن يسيطر

ويهيمن على الجميع، ويكون أحبّ وأعز من الوطن، وألّا يُتّخذ الوطن ندًّا من دون الله ويُعمل من أجله ما يُخالف حكم الله، وتبذل النفوس والأموال دون كيان العصبيّة القوميّة وفي سبيل الوطن، لا في سبيل الله لإعلاء كلمته. فكلُّ شيءٍ لله عزَّ وجلّ.

الوطنيّة في مصر

منذ أن أطلق أحمد لطفي السيد عبارته المشهورة عام ١٩٠٧م وهي: مصر للمصريين، ومن حين إلى آخر يطفو على السطح من يجدِّد هذه العبارة ويحيها بظواهر شتّى، ومن أظهرها محاولة إحياء الحضارة الفرعونيّة وتلميعها ليصطبغ المصريُّون بصبغتها ويتدثرون بردائها.

وهذا الموضوع تاريخه طويل وما نذكره هو بعض ما حدث في هذه الآونة الأخيرة التي ازدادت فيه هذه الموجة وهذا التيّار المنادي بقطع الصلات بين مصر وبين الإسلام، وبين مصر وبين عروبتها والتنكر لذلك أيّما تنكر، لتصبح مصر بعد بلا هويّة سوى الهويّة المصريّة، وقد عمل على مدِّ هذا التيّار كتاب كثيرون وباحثون عدة في مختلف المجالات.

ولكنَّ الجديدَ في ذلك مع ازدياد هذه الموجة أن تخرَّج من حيِّز الكتابات والتوصيات إلى حيز العمل على تنفيذها سياسيًّا على أرض الواقع، فعلى سبيل المثال هذا الكهل الّذي يدعى محسن سعيد لطفي السيد (٧٨ عامًا) والّذي تقدَّم منذ أيام إلى لجنة الأحزاب مطالبًا موافقتها على تأسيس حزبٍ علمانيٍّ في البلاد باسم «مصر الأم» -مثلما نشرت جريدة المساء الأسبوعيّة في ١٤/٢/٢٠٠٤ - مطالبًا بنزع الصبغة الإسلاميّة والعربيّة عن مصر، ومطالبًا بإلغاء نصوص الدستور المصريِّ التي تنصُّ على أنَّ الشريعة الإسلاميّة هي مصدر التشريع الأساسيّ وأنَّ مصر دولة إسلاميّة... ويطالب باعتبار الفتح الإسلاميِّ لمصر احتلال يجب التخلُّص منه، ويطالب بترجمة القرآن الكريم إلى اللهجة العاميّة المصريّة، وإخراج مصر من الدائرة العربيّة الإسلاميّة.

وقال أحد الدارسين لهذا الموضوع: إنَّ هذا الحزب سيجمع تحت أهدافه أغلب طوائف الشعب المصريِّ وسيصبح بين يوم وليلة من أكبر الأحزاب المصريّة، إنَّ هذا الحزب يمثل حزب المستقبل بعيون الغرب... إنّه الحزب الذي أسسته أمريكا في مصر على يد السادات وقد آن الأوان للإعلان عنه... ستوفر له أمريكا والدول الأوربيّة كلَّ أسباب التميُّز والنجاح... سيمدونه بكلِّ الإمكانيّات والموارد حتى يتمكّن من استثمار حالة الإحباط والبطالة التي تعيشها البلاد... سيخلق فرص عمل جديدة لكلِّ أتباعه، وسينضمُّ إليه فريق الانتهازيّين وصفوة المجتمع، وكثير من الوزراء والكتّاب والمثقّفين، وستكون له الغلبة في أي انتخابات قادمة، وبمجرد أن يضرب جذوره في البلاد سيقوم بتشكيل حكومة توافق على تعديل الدستور، وإزالة الفقرات التي تعوق حركته، وسوف يحمي علمانيّته بالقوّة مثلما تحميها تركيا بالقضاء والقوات المسلّحة... يا سيدي إنّه ليس فكرة ... إنّه مشروع متكامل حان وقت تنفيذه [1].

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، الأمة الإسلامية وأخطار القطرية عليها، غازي التوبة.

الإنسانيَّة

التعريف:

الإنسانيَّة مذهبٌ فكريٌّ فلسفيٌّ أدبيٌّ ماديٌّ لا دينيٌّ، يؤكد فرديَّة الإنسان ضد الدين ويغلب وجهة النظر الماديَّة الدنيويَّة، وهو من أسس فلسفة كونت الوضعيَّة، وفلسفة بتنام النفعيَّة، وكتابات برتراند راسل الإلحاديَّة. وقد تسمى العالميَّة أو الأمميَّة.

وهي ترفع شعارات: كن إنسانيَّ النزعة، وجه قلبك ومشاعرك للإنسانيَّة جمعاء، دع الدين جانبًا فهو أمر شخصيٌّ، علاقة خاصة بين العبد والربّ محلها القلب، لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين، فإنَّه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر، بين الإخوة في الإنسانيَّة، تعال نصنع الخير لكلِّ البشريَّة غير ناظرين إلى جنسٍ أو لونٍ أو وطنٍ أو دينٍ.

وعلى الصعيد العمليِّ الواقعيِّ المؤثر بصورة ملموسة في أسلوب سلوك الفرد فهي شعارات زائفة ترفع لأمر يراد، فهي منَّت الإنسان بأمانٍ كاذبةٍ لم تتحقق على الإطلاق، ونسي أن طريق الخلاص لا يمكن أن يتمَّ إلا من خلال العقائد الدينيَّة.

تاريخ مذهب الإنسانيَّة

ظهر المذهب الإنسانيُّ في إيطاليا في بداية عصر النهضة الأوربيَّة. الوقود الذي أشعل هذه الحركة يحتوي على الفكر اليونانيِّ الوثنيِّ المعارض للفكر الدينيِّ، والآداب اليونانيَّة واللاتينيَّة، ومن هنا كان شعار الإنسانيَّة كلمة الفيلسوف اليوناني القديم «إنَّ الإنسان مقياس للأشياء جميعها» فضلًا عن انغماس الإنسان في المادة عند بدايته، وحب اكتناز المال والثروات، والاستمتاع بالحياة الزائلة.

وأبجديَّات النزعة إنَّما تترجم الانتفاضة التي عبَّرت عنها النهضة الأوربيَّة باعتبارها تغيرًا في الفكر نجم عنه تغير في جميع شئون الحياة. فالإنسان الأوَّل كان مكبلًا بقيود الكنيسة طوال فترة الإظلام الفكريِّ المسمَّاة بالعصور الوسطى والتي استطالت إلى أكثر من عشرة قرون، إذ كان خلالها مطالبًا بالطاعة العمياء لرجال الدين وكان يُساق كما يساق القطيع، ويكفي أنَّه من طبيعة فاسدة بسبب الخطيئة الأصليَّة!! أما المرأة، فهي لا ينبغي أن تُحبّ لأنَّها سبب الخطيئة، لذا عزف رجال الدين عن الزواج بها. وإذا سمحوا لغيرهم بالارتباط بها بالزواج فذلك فقط باعتبارها وسيلة للإنجاب واستمرار البشرية. أمَّا الرجال فهم وسيلة أيضًا لتحقيق أهداف الكنيسة، وكلّ من خرج على هذه الأهداف يواجه الموت حرقًا.

ومن أسماء الرواد الأوائل للمذهب الإنساني بوجيو ويروني، والمحامي البارز مونتبلشيانو وكلّهم

عاشوا خلال القرن الخامس عشر الميلاديّ.

أراسمس ولد في روتردام سنة ١٤٦٦م ويعد من أكبر ممثّلي المذهب الإنسانيّ من ناحية معرفته بالأدب اليونانيّ واللاتينيّ.

في فرنسا مثّل المذهب ستيفانوس وسكاليجر ودوليه.

ويعد رينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠م الفيلسوف الفرنسي من أنصار المذهب الإنساني ولكنه يؤمن بوجود الله تعالى.

وكذلك سبينوزا ١٦٣٢ - ١٦٧٧م الفيلسوف الهولندي وهو يشبه ديكارت في الاعتقاد.

وكتابات جان جاك روسّو ١٧١٢ - ١٧٧٨م تحمل الطابع الإنسانيّ.

وجون لوك ١٦٣٢ - ١٧٠٤م الفيلسوف الإنجليزيُّ كان إنسانيَّ المذهب.

والفيلسوف الألمانيّ كانت ١٧٢٤ - ١٨٠٤م في مذهبه الانتقاديّ كان إنسانيَّ المذهب.

والفيلسوف شيلر المتوفى سنة ١٩٣٧م الإنجليزيُّ الألمانيُّ الأصل.

والكاتب الفرنسيّ فرانسيس بوتر، ألّف كتابًا بعنوان المذهب الإنسانيّ بوصفه ديانة جديدة.

والأديب الإنجليزي ت. س. إليوت ١٨٨٨ - ١٩٦٥م يعتبر نفسه من أتباع المذهب الإنساني، وهو من أبرز ممثلي الشعر الحرّ.

وقد نالت هذه الدعوة حظًّا واسعًا بالانتشار في عقول كثير من المسلمين، وبعض المنتسبين للفكر والعلم! وعقدت الكثير من اللقاءات والندوات الفكريَّة والحواريَّة باسمها، لأجل التنظير لها، والمنافحة عنها.

والمُرَاجعُ لمبادئ الإنسانيَّة وحين يردها إلى أصلها وجذورها التاريخيَّة، سيجد أنَّ من أوائل من بدأ بالتركيز على إبرازها هي الحركة الماسونيَّة وأذنابها من المستعمرين الحاقدين أو ممن تلبس بلباس الإسلام من المنهزمين وكان متأثرًا ببعض نظم تلك الحركة، فإنَّ هذه المنظمة العالمية قد بنت ركائز فكرها، ودعائم منهجها على ثلاث مبادئ: الحرية - الإخاء - المساواة، وهم يسعون لنشرها بكلِّ ما أوتوا من قوة ماديَّة أو معنويَّة، حتى يتلقَّفها الجهلة، ويكونوا بوقا لنشرها والتعريف بها.

الأفكار والمعتقدات

- **تأكيد الفرديّة الإنسانيَة:**

في مجال الدين: الاستجابة لحكم الفرد الخاصّ ضدّ سلطة الكنيسة وتأييد فكرة ظهور الدول القوميَّة.

في مجال الفلسفة: تأكيد ديكارت للوعي الفرديّ عند المفكر وشدَّة الاعتماد على الفعل وتغليب وجهة النظر الماديَّة الدنيويَّة.

- قصر الاهتمام الإنسانيّ على المظاهر الماديَّة للإنسان في الزمان والمكان.

- المذهب الإنساني أوحى بالأفكار التحررية لقادة الفكر في عصر النهضة الأوربيَّة ووصل إلى ذروته إبان الثورة الفرنسيَّة.

- الثقة بطبيعة الإنسان وقابليته للكمال، وإمكان حدوث التقدم المستمر.

- تأكيد أنَّ الشرور والنقائض التي اعترضت طريق الإنسان لم يكن سببها الخطيئة كما تقرر النصرانيَّة، وإنما كان سببها النظام الاجتماعيّ السيِّئ.

- الدفاع عن حرية الفرد.

- إمكان مجيء العصر السعيد والفردوس الأرضيّ، ويكون ذلك بالرخاء الاقتصاديّ، وتحقيق ذلك يكون بتبديد الخرافات والأوهام ونشر التربية العمليَّة.

- ومن أهم الأفكار التي تبثَّها النزعة الإنسانيَّة ما يلي:

١- يجب على الإنسان أن يبحث دائمًا عن معنى وجوده وحياته.

٢- الحياة في حد ذاتها شيء، رائع ويستحقُّ أن يعيشها الإنسان مهما احتوت على صراعات وتناقضات وآلام.

٣- على الإنسان أن يواجه الألم ويتسلح بالأمل في نفس الوقت.

٤- على الإنسان أن يهتم بالمادة قبل الروح؛ لأنَّها الشيء الوحيد الذي يستطيع إدراكه والسيطرة عليه.

٥- إن الطريقة الوحيدة كي يحقق الإنسان إنسانيته هي في التمتع بكل الملذات الجسديَّة والحسيَّة؛ لأنَّها الشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان لمسه وإدراكه.

٦- الإنسانيَّة ترحب بالقوميَّة والوطنيَّة والمحليَّة، ولكنَّها تأبى العنصريَّة؛ لأنَّها امتهان صارخ لبقية العوامل المشكلة للنسيج الإنساني الشامل، والأدب العنصريّ ليس سوى جسمٍ غريبٍ في نسيج الأدب الإنساني سرعان ما يلفظه ويأباه.

نقد مذهب الإنسانيَّة

نقد الفلاسفة والمفكرون الإنسانيَّة ومن أهم ما جاء في نقدهم:

- إن تقدم العلم الحديث لم يصحبه تقدم في قدرة الإنسان على حسن استعمال العلم.

- وإنَّ البشر وجهوا اهتماماتهم جميعًا إلى المسائل الدنيويَّة، ونسوا كلَّ ما يسمو على ذلك وتركزت مطامعهم في الأشياء الزائلة التي يسَّرها لهم العلم، وحدث من جراء ذلك صدع بين تقدُّم الإنسان في المعرفة وتقدُّمه الأخلاقي.

- إنَّ الإنسانيَّة تؤكِّد على زيادة خطر الإسراف في الاعتماد على الآلة، فهذا الإسراف قد يقضي

على الأصالة والابتكار.

- كما أنَّ الأسس الأخلاقيَّة لا تصلح إلا إذا استندت إلى الاعتقاد بوجود نظام أسمى من النظام الدنيويِّ، والإيمان بالمبادئ الخالدة المطلقة، أما إذا اقتصرت الآداب على أن تكوِّم خاضعة للمواءمة بين الإنسان وبيئته، كلَّما تغيَّرت الظروف وتبدَّلت الأحوال، فإنَّها بذلك تفقد قيمتها العامة.

وطريق الخلاص هو رفع الأخلاق، ولا يحدث هذا إلا بإيحاء من الإيمان الدينيِّ، أما الآداب العلمانيَّة فلا تمنحنا الخلاص.

- إنَّ المذهب الإنساني قدم للإنسانيَّة وعودًا لم يحققها، كما أنَّه أفقد الناس الشعور بالحقائق الروحيَّة، وجعل الناس عبيدًا للقوى المادِّيَّة العمياء.

- إن وجود الشرِّ ينقض أداء المذهب الإنساني لصلاح الإنسان وقابليته للتَّقدم.

- وقد عزى الناقدون إخفاق عصبة الأمم في تسوية المشكلات في العالم وانتشار الفاشية والنازية إلى ظهور المذهب الإنساني.

- إن عيوب المدنيَّة الغربيَّة ترجع في الغالب الأعمِّ منها إلى المذهب الإنسانيِّ في تياره الإلحاديِّ.

موقف الإسلام من الإنسانيَّة

إنَّ الإنسانيَّة الحقيقيَّة والسماحة الحقيقة هي الإسلام، فحيث تكون دعاوى الإنسانيَّة والعالميَّة والتسامح في كل النظم مجرد شعارات لا رصيد لها من الواقع، فإنها في الإسلام واقع حقيقي، لا دعاوى ولا شعارات مرفوعة بغير رصيد.

والإسلام دين الله الحقّ، وكلُّ أمر فيه بما في ذلك الجهاد لنشر الدعوة، والتميز والاستعلاء بالإيمان، واعتزال أدران الجاهليَّة وعدم المشاركة فيها -هو أمر رباني، لم يبتدعه المسلمون من عند أنفسهم، ولا قاموا به لصالح أنفسهم، إنما تنفيذا الأمر لأمر الله، سواء نالهم منه في الأرض الغنم أو الغرم -بالمقاييس البشريَّة المحدودة- إنَّما يصنعونه ابتغاء مرضاة الله، وطمعًا في الجزاء في الآخرة.

ولكن غير المسلمين لا يؤمنون بذلك بطبيعة الحال، فلا نناقشهم بمنطق الإيمان الذي لا يلزمهم. بل نفترض -جدلًا- أنَّ كلَّ النظم ذات حق متساوٍ في الوجود وفي الانتشار في الأرض .. فلننظر في الواقع التاريخي نظرة علميَّة موضوعية مجردة: أي النظم مارس حقه في الوجود وفي الانتشار في الأرض بروح إنسانيَّة حقيقيَّة؟ وأيُّها مارس الوجود والانتشار بسلوك خالٍ من القيم الإنسانيَّة هابط إلى الحضيض؟

فمن كان في شك فلينظر إلى الواقع المعاصر وما يتمّ فيه من ألوان من البربرية الوحشية لا تخطر على البال، وألوان من نقض المواثيق لا تخطر على البال، وألوان من العبث بكرامات الشعوب

والاستخفاف بحقوق الإنسان لا تخطر على البال. وذلك رغم كل الشعارات المرفوعة، والقيم المسطرة في ديباجات الدساتير والمعاهدات والمواثيق.

أما الإسلام فلا يداور ولا يناور، ولا يرفع الشعارات البراقة بلا رصيد. إنما هو رغم الصراحة الحاسمة التي يعالج بها كل أمر، هو الذي يطبق الروح الإنسانيَّة الحقيقيَّة والتسامح الحقيقي . . ولا عجب في ذلك، فإنما هو المنهج الرباني الحقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه.

أماكن الانتشار

انتشرت الإنسانيَّة في أوربا، ثم عمَّت الغرب والشرق، ومعظم سلبيات المدنيَّة الغربيَّة الحاضرة تعد ثمرة من ثمارها[1].

الإلحاد

التعريف:

الإلحاد مذهب فلسفيٌّ يقوم على فكرة عدميَّة أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى، فيدَّعي الملحدون بأنَّ الكون وجد بلا خالق. وأنَّ المادَّة أزليَّة أبديَّة، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

وهناك معنى ثانٍ للإلحاد يُعدّ من إضافاتِ أفلاطونَ وهو إثبات وجود خالقٍ أو صانع، ولكنَّها لا تُعنى بشيء من حياة الخلق، فهي موجدة للخلق، لكنَّها تركت التصرُّف في الكون، وتفرغت في حياتها المثاليَّة، وقد كانَ يقول بهذا القول من الفلاسفة أبيقور.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ كثيرًا من دول العالم الغربي والشرقيِّ تعاني من نزعة إلحاديَّة عارمة، جسدتها الشيوعيَّة المنهارة والعلمانيَّة المخادعة.

تاريخ الإلحاد

الإلحاد بدعة جديدة لم توجد في القديم إلا في النادر في بعض الأمم والأفراد.

الكنيسة الأوربيَّة هي المسئول الأول عن ظهور الإلحاد، فحماقاتها هي التي أدت إلى جعل العلم بديلًا من الدين، وجعل السبب الظاهر بديلًا من السبب الحقيقيِّ، وجعل الطبيعة بديلًا من الله.

وذلك حين حاربت العلم والعلماء، وخيرتهم بين اتباع الخرافة للمحافظة على الدين -دينها الذي ابتدعته وشكَّلته على حسب أهوائها- وبين اتباع العلم والخروج من الدين. وقد اختار

---

(١) الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٩٩- ٨٠٢)، مذاهب فكرية معاصرة، رؤية شرعية في الأخوة الإنسانية، خباب مروان الحمد.

العلماء اتباع العلم؛ لأنَّهم يعرفون قدره، ويعلمون أنَّه أحقُّ بالاتِّباع من الخرافة. فلمَّا طردتهم الكنيسة من الدين كان العلم بالنسبة إليهم هو البديل من الدين. لا لأنَّه في الحقيقة بديل عنه، ولا لأنَّه بطبيعته يغني عنه، ولكن لأنَّ حماقة الكنيسة وضعت الأمور في هذا الوضع. والسبب الظاهر ليس بديلًا عن السبب الحقيقي، لأنَّه يفسر فقط كيف تحدث الأشياء على النحو الذي تحدث به، ولكنَّه لا يفسر لماذا كانت الأشياء على هذا النحو.

وحين جعلت أوربا الطبيعة بديلًا من الله لم يكن ذلك إلا مهربًا من إله الكنيسة الذي تستعبد الناس باسمه وتفرض عليهم الإتاوات والعشور، والخضوع المذِّل لرجال الدين، مع محاربة العلم، والحجر على حريَّة الفكر، ومع الوقوف الظالم مع رجال الإقطاع ضد المطالبين بالإصلاح، ولم يكن قط حقيقة علميَّة.

وكان هذا كلُّه إلحاد العلماء والفلاسفة والمفكرين، أما الجماهير فكانت ما تزال تؤمن بالدين على ما به من تحريف وتشويه وخرافة.

فيعدُّ أتباع العلمانيَّة هم المؤسسون الحقيقيون للإلحاد، ومن هؤلاء : أتباع الشيوعيَّة والوجوديَّة والداروينيَّة والعقلانيَّة.

واستغلت الحركة الصهيونيَّة كل هذا فعملت على نشر الإلحاد في الأرض، فنشرت العلمانيَّة لإفساد أمم الأرض بالإلحاد والمادِّيَّة المفرطة والانسلاخ من كلِّ الضوابط التشريعيَّة والأخلاقيَّة؛ كي تهدم هذه الأمم نفسها بنفسها، وعندما يخلو الجو لليهود يستطيعون حكم العالم.

فقد نشر اليهود نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادِّيّ للتاريخ ونظريات فرويد في علم النفس ونظرية دارون في أصل الأنواع ونظريات دور كايم في علم الاجتماع، وكل هذه النظريات من أسس الإلحاد في العالم.

وأول كتاب مصرح بالإلحاد، وداع له، ظهر في أوربا في سنة ١٧٧٠م.

أما حركات الإلحاد المنظَّمة في العالم العربي، وكذلكَ المُجاهرة بِهِ، وإعلانه على الملأ، نشأ بعد منتصف القرن التاسع عشر، حينما بدأ العالم الإسلامي والعربي يتَّصل بالعالم الغربي، عن طريق إرساليات الدراسة أو التدريب، وتسبب ذلك في رجوع مجموعة من الطلَّاب متأثِّرين بالفكر الأوربيِّ المادِّيّ، والذي كان يقومُ على أساس تعظيم علوم الطبيعة، ورفع شأن العقل، وكذلك تنحية الدين والشرع عن حكم الحياة والناس وإدارة شئونهم.

وفي بداية الأمر لم يكن ثمَّ دعوة صريحة للإلحاد، وإنَّما كانت هناك دعوات للتحرر، أو التغريب، أو فتح المجال أمام العقل، ومُحاكمة بعض النصوص الشرعيَّة إلى العقل أو الحس والواقع، ومحاولة إنشاء خلاف وهمي وصراع مُفتعل بين العقل والشرع.

ومع مرور الوقت وزيادة الاتصال بالغرب وتراثه، وانتشار موجة التغريب بين الناس ظهرت بعض الدعوات الصريحة للإلحاد وفتح باب الرِّدة، باسم الحريَّة الفرديَّة.

وحينما نشطَ اليهودُ في تركيا ودعوا إلى إقامةِ قوميَّة تركيَّة، تحُلُّ محلَّ الرابطةِ الدينيَّة، ظهرت مظاهر عدّة في الواقع تدعو إلى نبذ الدين، وتظهر العداء لبعض شعائره، ومع مرور الوقت تطوَّرت هذه الحركة، حتى جاءَ مصطفى كمال أتاتورك، وقامَ بإلغاءِ الخلافة، وأنشأ الدولة التركيَّة العلمانيَّة، وحاربَ جميعَ العلماءِ وسجنهم، وراج على إثر ذلك الكفرُ والإلحادُ، وظهرتْ عدَّة كتبٍ تدعو إلى الإلحاد، وتطعنُ في الأديان، ومنها كتابٌ بعنوان: مصطفى كمال، لكاتب اسمهُ قابيل آدم، يتضمن مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلاميّ. وفيه دعوة صريحة للإلحاد بالدين وإشادة بالعقليَّة الأوربيَّة.

هذه الجرأةُ في تركيا قابلها جرأة مماثلة في مصر، سُمِّيت ظلما وزورًا عصر النهضة الأدبيَّة والفكريَّة، بينما هي في حقيقتها حركة تغريبيَّة تهدف إلى إلحاق مصر بالعالم الغربي، والتخلُّق بأخلاقه، واحتذائها في ذلك حذوَ تركيّا التي خلعتْ جلباب الحياء والدين، وصبغتْ حياتها بطابع العلمانيَّة والسفور والتمرّد.

في تلكَ الحقبةِ في مصر ظهرَ العديدُ من المفكِّرين والأدباء، يدعونَ إلى التغريب والإلحاد، وفتح باب الرِّدَّة باسم التنوير تارة، وباسم النهضة الأدبيَّة تارة أخرى، ومرّة باسم الحرِّيات الفكريَّة، وتلقَّفتْ مصر في تلكَ الفترة دون تمييز جميعَ أمراض المجتمع الأوربي، وكذلك أخلاقه المنحلّة، وأصبحت قطعة من أوربا، ومن فرنسا تحديدًا، وعاثَ في أرضها بعضُ المستشرقين فسادًا وإفسادًا، ثمَّ سلَّموا دفَّةَ الإفسادِ إلى بعض المصريِّين، ممن لم يتوانوا في نشر الكفر والإلحاد، وسعوا سعيًا حثيثًا إلى إلغاء الفضيلة والأخلاق الإسلاميَّة، وإحلال النفعيَّة والمادِّيَّة محلَّها، حتَّى أصبح دعاة الإسلام والمُحافظة غرباء على المُجتمع دُخلاء عليه، ويُوصَفُون بالجمود والتخلُّف والعداء للحضارة.

ومن مصر انتقلت حمّى الردة والإلحاد إلى جميع دول الجوار، ابتداء من الشام، ومرورًا بالعراق، والخليج بما فيها السعوديَّة، وانتهاء ببلاد اليمن.

أعلام الإلحاد في أوربا

- أتباع الشيوعيَّة: ويتقدمهم كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣م اليهوديّ الألمانيّ. وإنجلز ١٨٢٠- ١٨٩٥م عالم الاجتماع الألمانيّ والفيلسوف السياسيّ الذي التقى بماركس في إنجلترا، وأصدرا سويًّا المانيفستو أو البيان الشيوعي سنة ١٨٤٨م.

- أتباع الوجوديَّة: ويتقدمهم:

جان بول سارتر.

وسيمون دوبرفوار.

والبير كامي.

- أتباع الداروينيَّة.

- من الفلاسفة والأدباء:

نيتشه/ فيلسوف ألمانيّ.

برتراند راسل ١٨٧٢ - ١٩٧٠م فيلسوف إنجليزيّ.

هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م فيلسوف ألمانيّ قامت فلسفته على دراسة التاريخ.

هربرت سبنسر ١٨٢٠ - ١٩٠٣م إنجليزيّ كتب في الفلسفة وعلم النفس والأخلاق.

فولتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨م أديب فرنسي.

أعلام الإلحاد في العالم الإسلاميّ

- إسماعيل أحمد أدهم توفي سنة ١٩٤٠م، كان من دعاة الشعوبيّة، وحاول نشر الإلحاد في مصر، وألف رسالة بعنوان لماذا أنا ملحد؟ وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندريّة حوالي سنة ١٩٢٦م.

- إسماعيل مظهر ١٣٠٨- ١٣٨١هـ أحد دعاة الشعوبيّة والداروينيّة، أصدر في سنة ١٩٢٨م مجلة العصور في مصر، وكانت تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعنًا قبيحًا. معيدًا تاريخ الشعوبيّة، ومتّهمًا العقليّة العربيّة بالجمود والانحطاط، ومشيدًا بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم. وأنشأ في سنة ١٩٣٠م حزب الفلاح، ليكون منبرًا للشيوعيّة والاشتراكيّة. وقد تاب إسماعيل إلى الله بعد أن تعدّى مرحلة الشباب وأصبح يكتب عن مزايا الإسلام، وألّف كتابًا أسماه: الإسلام لا الشيوعيّة.

وقد أسست في مصر سنة ١٩٢٨م جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب، واتّخذت دار العصور مقرًّا لها واسمها رابطة الأدب الجديد وكان أمين سرها كامل كيلاني، وقد تاب إلى الله بعد ذلك.

ومن الشعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور:

الشاعر عبد اللطيف ثابت الذي كان يشكك في الأديان في شعره.

والشاعر جميل صدقي بن محمد بن فيضي الزهاوي ولد سنة ١٢٧٩هـ شاعر عراقي، يعدّ عميد الشعراء المشككين في عصره.

- صادق جلال العظم أحدُ أساطين الفكر الشيوعيِّ الماديِّ، ممّن أخذَ يُجاهرُ بالإلحادِ، ويدعو إليه، وألَّفَ كتابًا يقرِّرُ فيه الإلحاد أسماه: نقد الفكر الدينيِّ، زعمَ أنَّهُ أقامَ فيهِ براهين تُثبت عدمَ وجودِ الله، وأنَّ كلَّ ذلكَ من الأوهام والأساطير. وقد ردَّ عليه الكثيرون، من أشهرهم الشيخ عبد الرحمن حبنّكة الميداني في كتابه: صراعٌ مع الملاحدةِ حتى العظم.

- عبد الله بن علي القصيمي ١٣٢٧- ١٤٢٢هـ أحدُ أشهر الملاحدة المعاصرين، له كتب عن الإسلام ثم أعلن ردّته وإلحاده، وجاهرَ بدعوتهِ الجديدةِ، وألّفَ مجموعة كبيرة من الكتب الداعية للتحرُّر من سلطة الدين والفضيلة والأخلاق، منها: هذه الأغلال، أيها العقل من رآك، الإنسان

يعصي لهذا يصنع الحضارات. وهو من دعاة الصهيونيَّة العرب، ولهُ مقالاتٌ وعباراتٌ بشعة في حقِّ اللهِ وحقِّ رسله.

- فهد بن صالح بن محمَّد العسكر ١٣٢٧- ١٣٧٠هـ شاعر كويتي ماجن، وداعية إلى التمرُّد على الأخلاق والفضيلة، ومن كبار المتشكِّكين والساخرين بالأديان في شعره.

- ومنهم أيضًا: أحمد لطفي السيد ١٢٨٨، ١٣٨٢هـ، طه حسين ١٣٠٧- ١٣٩٣هـ، زكي نجيب محمود ١٣٢٣- ١٤١٤هـ، علي أحمد سعيد المعروف بأدونيس.

أفكار الإلحاد

- إنكار وجود الله سبحانه، الخالق البارئ، المصور، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

- إنَّ الكون والإنسان والحيوان والنبات وجد صدفة، وسينتهي كما بدأ، ولا توجد حياة بعد الموت.

- إنَّ المادّة أزليَّة أبديَّة وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

- النظرة الغائيَّة للكون والمفاهيم الأخلاقيَّة تعيق تقدم العلم.

- إنكار معجزات الأنبياء لأنَّ تلك المعجزات لا يقبلها العلم، كما يزعمون.

ومن العجب أنَّ الملحدين المادّيين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينيَّة ولا سند لها إلا الهوس والخيال.

- عدم الاعتراف بالمفاهيم الأخلاقيَّة ولا بالحقِّ والعدل ولا بالأهداف الساميَّة، ولا بالروح والجمال.

- ينظر الملاحدة للتاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل وقصَّته لا تعني شيئًا.

- المعرفة الدينيَّة، في رأي الملاحدة، تختلف اختلافًا جذريًّا وكليًّا عن المعرفة بمعناها العقليِّ أو العلميِّ!!

- الإنسان مادة تنطبق عليه قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادِّيَّة.

- الحاجات هي التي تحدد الأفكار، وليست الأفكار هي التي تحدد الحاجات.

- نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادِّيِّ للتاريخ، ونظريَّة فرويد في علم النفس، ونظريَّة دارون في أصل الأنواع، ونظريَّة دوركهايم في علم الاجتماع من أهم أسس الإلحاد في العالم.. وجميع هذه النظريَّات هي مما أثبت العلماء أنَّها حدس وخيالات وأوهام شخصيَّة ولا صلة لها بالعلم.

أما القواسم المشتركة بين الملاحدة العرب، فهي:

- إنكارهم للغيب جملة وتفصيلًا، وقصرهم الإيمان بحدود الملموس والمحسوس فقط، دون ما غابَ عن العين، أو لم يُمكن إدراكه بالحسّ.

- استهزائهم بالشعائر الدينيَّة جميعها، ووصفهم لأهلها بالرجعيِّين والمتخلِّفين، ومحاربة أي دعوة تدعو إلى التديُّن، أو صبغ الحياة بمظاهر الدين.

- ميلهم نحو احتقار العرب، واحتقار عاداتهم وسلوكهم، ومدحهم للشعوبيَّة والباطنيَّة.

- دعوتهم للتغريب والالتحاق بالغرب، والأخذ بجميع ثقافاتهم وأمورهم الحياتيَّة، والتعلُّم منهم ومن سلوكيَّاتهم.

- حربهم الشرسة على الأخلاق والعادات الحميدة، وادِّعائهم أنَّه لا يوجد شيء ثابت مُطلقًا، وأنَّ الحياة والأخلاق والعادات، في تطوُّر مستمرٌ، وأنَّ الثباتَ على الشيء إنَّما هو من شأن الغوغائيين والمُتخلِّفين والرجعيِّين.

- تعظيم المادَّة والطبيعة، وكذلك تعظيم جميع العلوم الطبيعيَّة، وجعلهُ أساسَ كلِّ الحضارات، وافتعال صراع مزعوم بين الدين والعلم التطبيقيِّ.

- منعهم من محاربةِ الاحتلال، ووقوفهم دائمًا ضدّ المقاوماتِ الشعبيّة، ووصفها بصفاتٍ بشعة، والدعوة إلى مهادنة الغازي والتعايش معه.

- تعاونهم الوثيق مع الصهيونيَّة والماسونيَّة، ومدحهم اللامحدود لليهود وللصهاينة، وهذه سمة غالبة على جميع الملاحدة والمرتدِّين، حيث يجعلون إسرائيل أفضل أهل الأرض، ويميلون إليهم ويمدحونهم، ويدعون إلى التعايش معهم وقبولهم، ويقدحون في حركات المقاومة وفي أطفال الحجارة.

- يدَّعي الملاحدة أنَّ الدينَ سببٌ للتناحر ونشر البغضاء في الأرض، وأنَّه تسبَّب في إشعال وإذكاء نار الحروب، في الكثير من بقاع الأرض، وقد حان الوقت لتركه والتخلِّي عنه.

الانتشار وأماكن النفوذ

- انتشر الإلحاد أولًا في أوربا، وانتقل بعد ذلك إلى أمريكا... وبقاع من العالم.

- وعندما حكمت الشيوعيَّة في ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي قبل انهياره وتفككه، فرضت الإلحاد فرضًا على شعوبه... وأنشأت له مدارس وجمعيَّات.

- وحاولت الشيوعيَّة نشره في شتَّى أنحاء العالم عن طريق أحزابها. وإن سقوط الشيوعيَّة في الوقت الحاضر ينبئ عن قرب سقوط الإلحاد - بإذن الله تعالى.

- يوجد الآن في الهند جمعيَّة تسمَّى جمعيَّة النشر الإلحاديَّة، وهي حديثة التكوين، وتركز نشاطها في المناطق الإسلاميَّة، ويرأسها جوزيف إيدا مارك، وكان مسيحيًّا من خطباء التنصير، ومعلمًا في إحدى مدارس الأحد، وعضوًا في اللجنة المركزيَّة للحزب الشيوعي، وقد ألف في عام ١٩٥٣م

كتابًا يدعى: إنما عيسى بشر، فغضبت عليه الكنيسة وطردته فتزوج بامرأة هندوكيَّة وبدأ نشطاه الإلحادي، وأصدر مجلة إلحاديَّة باسم إيسكرا أي شرارة النار. ولما توقفت عمل مراسلًا لمجلة كيرالا شبدم أي صوت كيرالا الأسبوعيَّة. وقد نال جائزة الإلحاد العالميَّة عام ١٩٧٨م ويعتبر أول من نالها في آسيا (١).

الوضعيَّة

التعريف:

المذهب الوضعيُّ مذهب فلسفيٌّ اجتماعيٌّ ملحد يرى أنَّ المعرفة اليقينيَّة هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبيَّة، ولا سيما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي المذهب على إنكار وجود معرفة مطلقة تتجاوز التجربة الحسيَّة، ولا سيما فيما يتعلَّق بما وراء المادة وأسباب وجودها.

ويقول: إنَّ التقدُّم بدأ في العلوم الطبيعيَّة وبدأ ينتقل للعلوم الاجتماعيَّة وأنَّ العقل البشري يتقدَّم من المرحلة اللاهوتيَّة الدينيَّة إلي المرحلة الميتافيزيقيَّة لكي يصل في النهاية إلي المرحلة الوضعيَّة التي هي قمة التخلِّي عن كل العقائد الدينيَّة.

تاريخ الوضعيَّة

لقد اعتبر فرنسيس بيكون ١٥٦١-١٦٢٦م نفسه داعية للعلوم الجديدة، وهي العلوم التي كانت في طريقها إلى الانفصال عن الفلسفة في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين.

وربما عدَّ بيكون بادئ الوضعيَّة وواضع الاسم الذي سميت به في القرن التاسع عشر، ففي كتابه في المبادئ والأصول ١٦٢٣م أطلق بيكون صفة وضعي على الحقائق الأوليَّة التي يجب تقلبها إيمانًا بصدق الخبرة.

وقد كان بيكون موضع تقدير كبير من الفلاسفة التجريبِّين في القرن التاسع عشر في كل من إنجلترا وفرنسا.

وأصبحت كلمة وضعيّ تطلق على مناهج العلوم الطبيعيَّة، نظرًا لاعتماد هذه المناهج على الملاحظة واستخدمها للتجربة، ولقد أطلق سان سيمون الذي عمل كونت في خدمته كلمة وضعي في كتابه مقال في علوم الإنسان، على العلوم القائمة على الوقائع الخاضعة للملاحظة والتجريب، وقد اقتبس كونت هذه الأفكار وأقام عليها نظريته وقانونه الوضعي.

وبهذا تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يد الفيلسوف كونت، ومعظم من جاء بعده طبَّق منهجه في العلم والمعرفة. ومن أبرز شخصيات المذهب:

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٨٠٣- ٨٠٧)، مذاهب فكرية معاصرة، الإلحاد في العالم العربي دعاته وأسبابه، فتى الأدغال.

- أوغست كونت ١٧٩٨ - ١٨٥٧م وهو الفيلسوف الفرنسي المؤسس للمذهب، عمل أمينًا للسرّ (سكرتيرًا) للفيلسوف الاشتراكي سان سيمون وبدأ بإلقاء محاضرات عن فلسفته الوضعيَّة سنة ١٨٢٦م، ثم أصيب بمرض عقلي وحاول الانتحار... وقد نشر كتابه بعد ذلك تحت عنوان: محاضرات في الفلسفة الوضعيَّة، بسط فيه نظريته في المعرفة والعلوم.

ونادى بضرورة قيام دين جديد هو الدين الوضعيّ، يقوم على أساس عبادة الإنسانيَّة كفكرة تحل محل الله -سبحانه وتعالى- في الأديان السماويَّة.

- سان سيمون، وهو فيلسوف فرنسيٌّ اشتراكيُّ النزعة، في كتابه مقال في علوم الإنسان سنة ١٨١٣م أطلق كلمة وضعيّ على العلوم القائمة على الوقائع الخاضعة للملاحظة والتحليل، والعلوم التي لم تؤسس على هذا النحو يسميها العلوم الظنيَّة.

- ريتشاد كونجريف، وهو مفكر إنجليزي ناصر الوضعيَّة واعتنق أفكارها.

- زكي نجيب محمود وهو مفكِّر عربي مصري، تبع الفلسفة الوضعيَّة الملحدة، وتبنَّى أفكارها، وألف كتاب المنطق الوضعي.

- أ. إير فيلسوف إنجليزي.

- برتراند راسل فيلسوف إنجليزي.

أفكار الوضعيَّة

صاغ الفيلسوف الفرنسيُّ كونت مبادئ وأفكار المذهب الوضعيّ، ثم بلور من جاء بعده من الوضعيِّين هذه الأفكار وسار على منهجها العلميّ.

وهذه خلاصة لتلك الأفكار مع نقد المفكرين والفلاسفة لها: استحوذت على تفكير كونت فكرة التقدم الإنساني.

- وضع كونت قانون التقدُّم الإنسانيّ، وهو قانون الحالات الثلاث، الذي يتقدم العقل البشري بمقتضاه من المرحلة اللاهوتيَّة إلي المرحلة الميتافيزيقيَّة، ثم إلى المرحلة الوضعيَّة الأخيرة.

وقد قسَّم كونت المرحلة اللاهوتيَّة إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الوثنيَّة - والمرحلة التعدديَّة - والمرحلة التوحيديَّة، وهي المرحلة الأخيرة التي بدأت بظهور النصرانيَّة والإسلام.

والمرحلة الوضعيَّة بدأت بالثورة الفرنسيَّة، وهي المرحلة التي تفسر الظواهر عن طريق الاستقراء القائم على الملاحظة.

- ويطبق كونت هذا القانون في التطوُّر على جميع العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة مثل الحضارة والسياسة والفن والأخلاق.

نقد القانون

وقد نقد طائفة من المفكرين قانون الحالات الثلاثة بما يلي:

١- يعتبر كونت أنَّ الإنسانيَّة كلٌّ لا يتجزأ، وأنَّها خاضعة لقانونٍ واحدٍ، بينما نجد أنَّ هناك مجتمعاتٍ لا تسير في تطوّرها وتقدّمها على نمطٍ واحدٍ في فهم وإدراك الظواهر.

٢- يختلف الطريق الذي سلكه العقل الإنساني عن ذلك الذي حدده كونت، ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعيّ للأمور يسير مع الفهم الدينيّ أو الميتافيزيقيّ؛ ففي مجال فهم الحقائق الرياضيّة والفلكيّة مثلًا أمور كانت تسير مع الفهم الدينيّ قديمًا.

ولا تزال بعض المجتمعات تفسر الحقائق العلميَّة القائمة تفسيرًا دينيًّا. على الرغم من أننا نجتاز حاليًا المرحلة الوضعيَّة في نظر كونت.

٣- لا يستمد قانون المراحل الثلاث حقائقه من التاريخ، وإنَّما هو فكرة فلسفيَّة اختار لها كونت مجتمعات معينة حاول تطبيقها عليها دون استقراء لتاريخ المجتمعات الإنسانيَّة.

٤- يفسر هذا القانون بأنَّه التقدُّم، بينما نجد الحضارة عبارة عن مستوى عام للحياة المادِّيَّة والروحيَّة للمجتمع دون النظر إلى تقدمها أو تأخُّرها.

الانتشار ومواقع النفوذ

- زحف المذهب الوضعيّ من فرنسا إلي إنجلترا، واعتنق بعض الفلاسفة مبادئ المذهب الوضعي. إلا أنَّ بعض كبار المفكرين والفلاسفة رفضوا متابعة كونت في مفهوم دين الإنسانيَّة الذي وضعه، وبالرغم من ذلك فقد أُنشئت جمعيَّات وضعيَّة في أجزاء مختلفة من العالم على غرار النموذج الذي أسسه كونت نفسه عام ١٨٤٨م. وفي هذه الجمعيَّات كانت الإنسانيَّة هي موضوع الشعائر الدينيَّة، واتخذ من علم الاجتماع سندًا لمثل هذه الديانة الاجتماعيَّة، وقويت هذه الحركة بصورة خاصَّة في أمريكا اللاتينيَّة، ولكنَّها ازدهرت لعدة سنوات في إنجلترا

- وقد صدرت المجلة الوضعيَّة التي أطلق عليها فيما بعد اسم الإنسانيَّة من عام ١٨٩٣م إلي عام ١٩٢٥م. وقامت محاولات لإحياء الوضعيَّة في إنكلترا بعد الحرب العالميَّة الثانية مباشرة، من خلال أعمال الفلاسفة الإنجليز إير وراسل(١).

الوجوديَّة

التعريف:

الوجوديَّة اتجاه فلسفيٌّ أدبيٌّ إلحاديٌّ يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنَّه صاحب تفكير وحريَّة وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه. فهو يلغي رصيد الإنسانيَّة من الأديان وقيمها الأخلاقيَّة.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨١١- ٨١٤).

وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع. وتعد جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت والمعاناة والألم، وليست نظريَّة فلسفيَّة واضحة المعالم.

ونظرًا لهذا الاضطراب والتذبذب لم تستطع إلى الآن أن تأخذ مكانها بين العقائد والأفكار.

تاريخ الوجوديَّة

إنَّ الوجوديَّة جاءت رد فعل على تسلط الكنيسة وتحكُّمها في الإنسان بشكل متعسف باسم الدين.

وتأثرت بالعلمانيَّة وغيرها من الحركات التي صاحبت النهضة الأوربيَّة ورفضت الدين والكنيسة.

وتأثرت بسقراط الذي وضع قاعدة «اعرف نفسك بنفسك».

وتأثروا بالرواقيِّين الذين فرضوا سيادة النفس.

كما تأثَّروا بمختلف الحركات الداعية إلى الإلحاد والإباحيَّة.

ويرى رجال الفكر الغربيّ أنَّ سورين كيركجورد ١٨١٣ - ١٨٥٥م هو مؤسِّس المدرسة الوجوديَّة. ومن مؤلفاته: رهبة واضطراب.

وأشهر زعمائها المعاصرين: جان بول سارتر الفيلسوف والأديب الفرنسيّ المولود سنة ١٩٠٥م وهو يهوديّ ملحد وبناصر الصهيونيَّة، ويعدُّ رأس الوجوديِّين الملحديِّن والذي يقول: إنَّ الله خرافة ضارّة، وله عدَّة كتب وروايات تمثل مذهبه، منها: الوجوديَّة مذهب إنساني، الوجود والعدم، الغثيان، الذباب، الباب المغلق.

ومن رجالها كذلك: القس كبرييل مارسيل، وهو يعتقد أنَّه لا تناقض بين الوجوديَّة والنصرانيَّة.

وكارل جاسبرز: فيلسوف ألماني.

وبسكال بليز: مفكر وفيلسوف فرنسي.

وفي روسيا: بيرد يائيف، شيسوف، سولوفييف.

أفكار الوجوديَّة

- يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكلِّ الغيبيات وكلِّ ما جاءت به الأديان ويعتبرونها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل. وقد اتَّخذوا الإلحاد مبدأ ووصلوا إلى ما يتبع ذلك من نتائج مدمرة.

- يعاني الوجوديُّون من إحساس أليم بالضيق والقلق واليأس والشعور بالسقوط والإحباط؛ لأنَّ الوجوديَّة لا تمنح شيئًا ثابتًا يساعد على التماسك والإيمان، وتعدّ الإنسان قد أُلقي به في هذا العالم وسط مخاطر تؤدي به إلى الفناء.

- يؤمنون إيمانًا مطلقًا بالوجود الإنسانيّ ويتّخذونه منطلقًا لكلّ فكرة.

- يعتقدون بأنّ الإنسان أقدم شيء في الوجود وما قبله كان عدمًا، وأنّ وجود الإنسان سابق لماهيته.

- يعتقدون أنّ الأديان والنظريّات الفلسفيّة التي سادت خلال القرون الوسطى والحديثة لم تحل مشكلة الإنسان.

- يقولون: إنهم يعملون لإعادة الاعتبار الكليّ للإنسان، ومراعاة تفكيره الشخصيّ وحريته وغرائزه ومشاعره.

- يقولون بحريّة الإنسان المطلقة وأنّ له أن يثبت وجوده كما يشاء وبأي وجه يريد دون أن يقيّده شيء.

- يقولون: إنّ على الإنسان أن يطرح الماضي وينكر كلّ القيود دينيّة كانت أم اجتماعيّة أم فلسفيّة أم منطقيّة.

- يقول المؤمنون منهم: إنّ الدين محلّه الضمير أمّا الحياة بما فيها فمفقودة لإرادة الشخص المطلقة.

- لا يؤمنون بوجود قيم ثابتة توجّه سلوك الناس وتضبطه، إنّما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيمًا أو أخلاقًا معينة على الآخرين.

- أدّى فكرهم إلى شيوع الفوضى الخلقيّة والإباحيّة الجنسيّة والتحلل والفساد.

- على الرغم من كل ما أعطوه للإنسان فإنّ فكرهم يتّسم بالانطوائيّة الاجتماعيّة، والانهزاميّة في مواجهة المشكلات المتنوعة.

- الوجوديّ الحقّ عندهم هو الذي لا يقبل توجيهًا من الخارج، إنما يسيّر نفسه بنفسه، ويلبّي نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود.

- لها الآن مدرستان: واحدة مؤمنة والأخرى ملحدة، وهي التي بيدها القيادة وهي المقصودة بمفهوم الوجوديّة المتداول على الألسنة، فالوجوديّة إذًا قائمة على الإلحاد.

- الوجوديّة في مفهومها تمرد على الواقع التاريخي، وحرب على التراث الضخم الذي خلفته الإنسانيّة.

- تمثل الوجوديّة اليوم واجهة من واجهات الصهيونيّة الكثيرة التي تعمل من خلالها، وذلك بما تبثّه من هدم للقيم والعقائد والأديان.

الانتشار ومواقع النفوذ

- ظهرت في ألمانيا بعد الحرب العالميّة الأولى، ثم انتشرت في فرنسا وإيطاليا وغيرهما. وقد اتخذت من بشاعة الحروب وخطورتها على الإنسان مبررًا للانتشار السريع. وترى حرّيّة الإنسان في

عمل أي شيء متحللًا من كلِّ الضوابط.

- انتشرت أفكارهم المنحرفة المتحللة بين المراهقين والمراهقات في فرنسا وألمانيا والسويد والنمسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها، إذ أدَّت إلى الفوضى الخلقيَّة والإباحيَّة الجنسيَّة واللامبالاة بالأعراف الاجتماعيَّة والأديان(١).

الفرويديَّة

التعريف:

الفرويديَّة مدرسة في التحليل النفسي أسسها اليهودي سيجموند فرويد، وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيرًا جنسيًّا، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء. كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي، مما يورث الإنسان عقدًا وأمراضًا نفسيَّة.

وبذلك تريد للمجتمع أن يكون بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد فتتسع هوة الرذيلة والفساد، وتسهل لليهود السيطرة على الشعوب المتحللة خدمة لأهداف الصهيونيَّة. وبطبيعة الحال فإنَّها تنادي بأنَّ الدين الذي يضع الضوابط لطاقة الجنس لا يستحقُّ الاتباع ولا يستوجب الاحترام.

تاريخ الفرويديَّة

- المؤسس وحياته:

ولد سيجموند فرويد في ٦ مايو ١٨٥٦م في مدينة فريبورج بمقاطعة مورافيا بتشيكوسلوفاكيا الحالية من والديْن يهوديين.

استقرت أسرة أبيه في كولونيا بألمانيا زمنًا طويلًا.

وُلدت أمه بمدينة برودي في الجزء الشمالي من غاليسيا، ولما شبت تزوجت من جاكوب فرويد والد سيجموند فرويد إذ أنجبت له سبعة أبناء.

وغاليسيا مدينة ببولندا جاء منها والد فرويد، وكانت معقلًا رئيسيًّا ليهود شرق أوربا، وبسبب ظروف الشغب رحلت الأسرة إلى برسلاو بألمانيا وعمر سيجموند حينها ثلاث سنوات، ثم رحلوا مرة أخرى إلى فيينا، حيث أمضى معظم حياته وبقي فيها إلى سنة ١٩٣٨م حيث غادرها إلى لندن ليقضي أيامه الأخيرة فيها مصابًا بسرطان في خده وقد أدركته الوفاة في ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩م.

وتلقَّى تربيته الأولى وهو صغير على يدي مربية كاثوليكيَّة دميمة عجوز متشددة كانت تصحبه معها أحيانًا إلى الكنيسة مما شكل عنده عقدة ضدّ المسيحيَّة فيما بعد.

وقد نشأ فرويد يهوديًّا، وأصدقاؤه من غير اليهود نادرين، إذ كان لا يأنس لغير اليهود ولا يطمئن إليهم.

---

(١) الموسوعة الميسرة (٢/٨١٨- ٨٢١)، مذاهب فكرية معاصرة.

ودخل الجامعة عام ١٨٧٣م وعقَّب على ذلك بأنَّه يرفض رفضًا قاطعًا أن يشعر بالدونيَّة والخجل من يهوديته. لكنَّ هذا الشعور الموهوم بالاضطهاد ظلَّ يلاحقه على الرغم من احتلاله أرق المناصب.

وفي سنة ١٨٨٥م غادر فيينا إلى باريس وتتلمذ على شاركوت مدة عام، إذ كان أستاذه هذا يقوم بالتنويم المغناطيسي لمعالجة الهستيريا، وقد أعجب فرويد به عندما أكَّد له بأنَّه في حالة من حالات الأمراض العصبيَّة لا بدَّ من وجود اضطراب في الحياة الجنسيَّة للمريض.

وأخذ يتعاون مع جوزيف بروير ١٨٤٢ - ١٩٢٥م وهو طبيب نمساوي صديق لفرويد، وهو فيزيولوجي في الأصل لكنَّه انتقل إلى العمل الطبِّيّ، إذ كان ممن يستعملون التنويم المغناطيسي أيضًا.

وبدأ الاثنان باستعمال طريقة التحدث مع المرضى، فنجحا بعض النجاح ونشرا أبحاثهما في عامي ١٨٩٣ و١٨٩٥م، وصارت طريقتهما مزيجًا من التنويم والتحدُّث، ولم يمض وقت طويل حتى انصرف بروير عن الطريق كلِّها.

وتابع فرويد عمله تاركًا طريقة التنويم معتمدًا على طريقة التحدُّث طالبًا من المريض أن يضطجع ويتحدث مفصحًا عن كلِّ خواطره، وسماها طريقة (الترابط الحرّ) سالكًا طريقة رفع الرقابة عن الأفكار والذكريات، وقد نجحت طريقته هذه أكثر من الطريقة الأولى.

وأخذ يطلب من مريضه أن يسرد عليه حلمه الذي شاهده في الليلة الماضية، مستفيدًا منه في التحليل، وقد وضع كتاب تفسير الأحلام الذي نشره سنة ١٩٠٠م، ثم كتاب علم النفس المرضي للحياة اليوميَّة، ثم توالت كتبه وصار للتحليل النفسي مدرسة سيكولوجيَّة صريحة منذ ذلك الحين.

وانضمَّ عام ١٨٩٥م إلى جمعيَّة بناي برث أي أبناء العهد، وكان حينها في التاسعة والثلاثين من عمره، وهذه الجمعيَّة لا تقبل بين أعضائها غير اليهود.

وكان يعرف تيودور هرتزل الذي ولد عام ١٨٦٠م، كما سعيا معًا لتحقيق أفكار واحدة لخدمة الصهيونيَّة التي ينتميان إليها، مثل فكرة معاداة الساميَّة التي ينشرها هرتزل سياسيًّا، ويحللها فرويد نفسيًّا.

- من أصحابه وتلاميذه:

لارنست جونز، مؤرخ السيرة الفرويديَّة، مسيحي مَوْلِدًا، ملحد فِكْرًا، يهودي شعورًا ووجدانًا، حتَّى إنَّهم خلعوا عليه لقب: اليهوديّ الفخريّ.

أوتو رانك ١٨٨٤ - ١٩٣٩م قام بوضع نظريَّة تقوم أساسًا على أفكار فرويد الأصليَّة مع شيء من التعديل الهامِّ.

الفرِد آدلر: ولد في فيينا ١٨٧٠ - ١٩٣٧م، وقد انضمَّ إلى جماعة فرويد مبكرًا، لكنه افترق عنه

بعد ذلك مؤسسًا مدرسة سماها مدرسة علم النفس الفردي مستبدلًا بالدوافع الجنسيَّة عند فرويد عددًا من الدوافع الاجتماعيَّة، مع التأكيد على الإرادة القوية والمجهودات الشعوريَّة.

كارل جوستاف يونج ١٨٧٥ - ١٩٦١م ولد في زيوريخ، وهو مسيحي، نصَّبه فرويد رئيسًا للجمعيَّة العالمية للتحليل النفسي، لكنه خرج على أستاذه معتقدًا بأن هذه المدرسة التحليليَّة ذات جانبٍ واحدٍ وغير ناضجة، وكان لخروجه أثر بالغ على فرويد. وضع نظريَّة السيكولوجيا التحليليَّة مشيرًا إلى وجود قوة دافعة أكبر هي طاقة الحياة، مؤكدًا على دور الخبرات اللاشعوريَّة المتصلة بالعِرق أو العنصر.

الفرويديُّون المحدثون

حدث انسلاخ كبير عن الفرويديَّة الأصليَّة، وذلك عندما تكونت الفرويديَّة الحديثَة التي كان مركزها مدرسة واشنطن للطبِّ العقلي، وكذلك معهد إليام ألانسون هوايت في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وهي مدرسة تتميز بالتأكيد على العوامل الاجتماعيَّة معتقدة أنَّ ملامح الإنسان الأساسيَّة إيجابيَّة، وهم يلحّون على نقل التحليل النفسي إلى علم الاجتماع؛ للبحث عن أصول الحوافز البشريَّة في تلبية مطالب الوضع الاجتماعي، ومن أبرز شخصياتهم:

أريك فروم: ظهر بين ١٩٤١ - ١٩٤٧م. كان ينظر إلى الإنسان على أنَّه مخلوق اجتماعيٌّ بالدرجة الأولى، بينما ينظر إليه فرويد على أنَّه مخلوق مكتفٍ بذاته، تحركه عوامل غريزيَّة.

كارن هروني: استعملت طريقة فرويد خمسة عشر عامًا في أوربا وأمريكا، إلا أنَّها أعادت النظر فيها إذ وضعت نظريَّة جديدة تحرر فيها التطبيق العلاجي من كثير من القيود التي تفرضها النظريَّة الفرويديَّة.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الفرويديِّين المحدثين لا يزالون متمسِّكين بأشياء كثيرة من نظريَّة فرويد الأصليَّة مثل:

١- أهمِّيَّة القوى الانفعاليَّة بوصفها مضادَّة للدفع العقليِّ والارتكاسات الاشتراطيَّة وتكوين العادات.

٢- التداعي اللاشعوري.

٣- الكبت والمقاومة وأهمِّيَّة ذلك في التحليل أثناء العلاج.

٤- الاهتمام بالنزاعات الداخليَّة وأثرها على التكوين النفسيِّ.

٥- التأثير المستمر للخبرات الطفوليَّة المبكرة.

٦- طريقة التداعي الحرّ، وتحليل الأحلام، واستعمال حقيقة النقل.

أفكار الفرويديَّة

أفكار فرويد كلّها تدور -من زوايا مختلفة- حول موضوع واحد هو التفسير الجنسي للسلوك البشـ ي.

وخلاصة هذا التفسير أنَّ الطاقة الجنسيَّة هي الطاقة العظمى في الكائن البشري، وهى المسيطرة على طاقاته جميعًا، والموجهة لها، والمسخرة لها كلّها لحسابها الخاص!

يولد الطفل بطاقة جنسيَّة، وتسيطر عليه -منذ لحظة مولده- تلك الطاقة الجنسيَّة التي ولد بها، فيرضع ثدي أمه بلذَّة جنسيَّة، ويتبول ويتبرز بلذَّة جنسيَّة، ويمص إبهامه بلذَّة جنسيَّة، ويحرك أعضاءه بلذَّة جنسيَّة . . .

ثم ينمو الصبي فيحس تلقاء أمِّه بشهوة جنسيَّة «كما تحس الصبية بالشهوة الجنسيَّة تلقاء والدها» ولكنه يجد أباه حائلًا بينه وبين الاستيلاء على الأمِّ التي يشعر نحوها بتلك الشهوة الجنسيَّة، فيكره أباه الذي يحبه في ذات الوقت، ويصطرع الحب والكره اللذان يحس بهما في آن واحد تجاه الأب، فيكبت الكره في اللاشعور، الذي تدفن فيه -ظاهريا- كل الرغبات المكبوتة والمخاوف المكبوتة، ولكنها تبقى حية فاعلة مؤثرة موجهة لسلوك الإنسان دون وعي، ويظهر الحبُّ وحده على السطح لأنَّ ذلك هو الذي يعجب المجتمع!

ولكن القضية لا تنتهي عند هذا الحد ولا على هذه الصورة. فإنَّ الصبي يأخذ في حس نفسه مكان والده، تعويضًا عن عجزه عن الاستيلاء على الأم بسبب قيام والده حاجزًا بينه وبينها، فيروح ينهى نفسه ويأمرها كما ينهاه أبوه ويأمره، فينشأ الضمير، وتنشأ -في نفس الطفل- القيم الأخلاقيَّة التي يتعاطاها المجتمع ويرضى عنها، كما ينشأ الدين من ذات العقدة التي سماها عقدة أوديب (ويقابلها عقدة إليكترا عند البنت) وهي العقدة الناشئة من الكبت الجنسيِّ لشهوة الصبي الجنسيَّة نحو أمِّه (وشهوة البنت الجنسيَّة نحو أبيها) .

وهكذا تنشأ القيم العليا كلها: الدين والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين، من تلك العقدة الناشئة من الكبت الجنسي.

وتتركب النفس الإنسانيَّة من طبقات ثلاث:

١- الطبقة الشهوانية -التي تسطر عليها الشهوة الجنسيَّة وتوجهها- وتسمى عنده الذات السفلى، وهى طبقة لا شعوريَّة.

٢- والذات وهي الطبقة الوسطى التي يتمثل فيها الوعي وتصدر عنها كل التصرفات الواعية للإنسان.

٣- والذات العليا التي تتمثل فيها الضوابط الناشئة من الدين والأخلاق والتقاليد المتداولة في المجتمع، وهى لا شعوريَّة أيضًا، وتنشأ من الكبت الواقع على الذات السفلى الشهوانيَّة.

ومهمَّة الذَّات هي التحايل الدائم على الذات السفلى لإقناعها بأوامر الذات العليا، وإن كانت هي شخصيًا لا تؤمن بها! يقول فرويد : «إنَّ مهمَّة الذات بين الضغط الواقع عليها من الذات العليا والذات السفلى معًا تصبح كمهمَّة السياسي الذي يعرف الحقائق ولكنه يداور ويناور إرضاء للجماهير!!».

ويتحدث فرويد -كثيرًا- عن القيم العليا . . . عن الدين والأخلاق والتقاليد. يقول في كتاب «الطواطم والمحرمات»: إنَّه حدثت في البشريَّة الأولى حادثة هائلة ما تزال تؤثر في حياة البشريَّة إلى هذه اللحظة. ذلك أنَّ «الأولاد» شعروا بالرغبة الجنسية تجاه أمهم، فوجدوا أباهم حائلًا بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه! وكانت تلك أول جريمة ترتكب في البشريَّة الأولى «وليست هي قتل أحد الأخوين لأخيه كما جاء في الرسالات السماويَّة».

ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فقدسوا ذكراه، فنشأت أول عبادة عرفتها البشريَّة وهي عبادة الأب «وليس عبادة الله كما جاء في الرسالات السماويَّة».

ثم وجدوا أنَّهم لو تقاتلوا بينهم للاستيلاء على الأم فسيقتل بعضهم بعضًا فاتفقوا على ألا يقربها أحد منهم فنشأ أول تحريم في العلاقات الجنسيَّة وهو تحريم الأم «وليس لأنَّ الله هو الذي حرمها كما جاء في الرسالات السماويَّة».

يقول: وكل الديانات التالية والحضارات قد نشأت من ذلك الحدث الخطير الذي لم يدع للبشريَّة منذ وقوعه فرصة للراحة!!

وسنده في هذه القصة التي يبنى عليها تفسيرًا كاملًا للحياة البشريَّة بأديانها وحضارتها من أول التاريخ إلى آخر التاريخ أنَّ دارون يقول: إنَّه في عالم البقر تتجه الثيران الشابة إلى الأم لمواقعتها، فتدور بينهم معركة رهيبة، يفوز فيها أقوى الثيران وأصلبهم عودًا، فسيتولى وحده على الأم ويندحر الباقون!

بتحريف بسيط تنقل القصَّة من عالم البقر إلى عالم البشر، ويقوم عليها تفسير شامل للحياة البشريَّة!

ويقول عن الأخلاق في كتاب «الذات والذات السفلى»: إنَّها كوابت تكبت المنطلق الطبيعي للطاقة الجنسيَّة، ويقول إنَّها تتسم بطابع القسوة حتَّى في صورتها العاديَّة!

ويقول عن التسامي في كتاب «ثلاث مقالات في النظريَّة الجنسيَّة»: فأمَّا ثالث أنواع الشذوذ فإنَّه يحدث نتيجة عمليَّة التسامي، حيث تصرف الطاقة الشهويَّة الصادرة من منابع جنسيَّة فرديَّة في مجالات أخرى وينتفع بها في تلك الحالات، وبذلك يكتسب الإنسان قوة نفسيَّة كبيرة من استعداد نفسيٍّ هو في ذاته خطير!

ويقول عن العلاقات البشريَّة في كتاب «الطواطم والمحرمات»: إنَّ الازدواج العاطفي أي الشعور بالحبِّ والكره في آن واحد تجاه الشخص الواحد . . . وكبت الكره في اللاشعور وإظهار الحب على السطح لإرضاء المجتمع، هو الطابع العامّ للعواطف البشريَّة، فالولد يحبُّ أباه ويكرهه، ويحب أمَّه ويكرهها، والأخ يحب أخاه ويكرهه، والزوجة تحب زوجها وتكرهه. . . والصياح الذي يصيحه الناس على ميتهم هو لإخفاء الفرحة الداخليَّة التي ملأت نفوسهم لموته!!

ويشرح هذه الظاهرة العجيبة فيقول: إنَّها تتم بطريقة لا شعوريَّة وإنَّه لا تدخل فيها الحالات

التي يتوجه فيها الإنسان بالحبِّ لشخصٍ معين ثم يكرهه لأسباب واعية معلومة! إنَّما هو كره لا شعوري تلقائي، ينشأ في ذات اللحظة الَّتي ينشأ فيها الحب، ثم يكبت في اللاشعور ويظل يعمل من داخل اللاشعور!

ويقول في كتاب «الطواطم والمحرمات»: إنَّ الكبت هو طابع الحياة البشريَّة بسبب وجود الدين والأخلاق والمجتمع وسلطة الأب... وما إلى ذلك من القوى القاهرة... وكلّها تتجه إلى كبت الطاقة الجنسيَّة فتنشأ العقد النفسيَّة والاضطرابات العصبيَّة التي لا تترك صاحبها في راحة...

ويقول في معظم كتبه: إنَّ كلَّ الأطفال «الذكور» يصابون بعقدة أوديب في أول طفولتهم.

ويقول في كتاب ثلاث مقالات: نحن جميعًا مصابون بالهستريا إلى حدٍّ ما.

الأسس النظريَّة

- الأسس الثلاثة التي تركز عليها المدرسة التحليليَّة هي: الجنس- الطفولة - الكبت. فهي مفاتيح السيكولوجيَّة الفرويديَّة.

- نظرية الكبت: هي دعامة نظريَّة التحليل النفسيّ، وهي أهمُّ قسم فيه؛ إذ إنَّه لا بدَّ من الرجوع إلى الطفولة المبكرة وإلى الهجمات الخياليَّة التي يراد بها إخفاء فاعليات العشق الذاتي أيام الطفولة الأولى، إذ تظهر كل الحياة الجنسيَّة للطفل من وراء هذه الخيالات.

- يعتبر فرويد مص الأصابع لدى الطفل نوعًا من السرور الجنسي الفمي، ومثل ذلك عض الأشياء، فيما يعد التغوط والتبول نوعًا من السرور الجنسي الاستي، كما أنَّ الحركات المنتظمة للرجلين واليدين عند الطفل إنما هي تعبيرات جنسيَّة طفوليَّة.

- الليبدو Libido طاقة جنسيَّة أو جوع جنسيٌّ، وهي نظريَّة تعتمد على أساس التكوين البيولوجي للإنسان الذي تعتبره حيوانًا بشريًّا، «هو يرى أنَّ كلَّ ما نصرح بحبِّه أو حبِّ القيام به في أحاديثنا الدارجة يقع ضمن دائرة الدافع الجنسيّ. فالجنس عنده هو النشاط الذي يستهدف اللَّذَّة، وهو يلازم الفرد منذ مولده إذ يصبح الأداة الرئيسة التي تربط الطفل بالعالم الخارجي في استجابته لمنبهاته.

- الدفع: يقول بأنَّ كلَّ سلوك مدفوع، فإلى جانب الأفعال الإراديَّة التي توجهها الدوافع والتمنيات هناك الأفعال غير الإراديَّة أو العارضة. فكلُّ هفوة مثلًا ترضي تمنيًا، وكلُّ نسيان دافعه رغبة في إبعاد ذلك الشيء.

- الشلل أو العمى لديه قد يكون سببه الهروب من حالة صعبة يعجز الإنسان عن تحقيقها، وهذا يسمى انقلاب الرغبة إلى عرض جسديٍّ.

- الحلم عنده هو انحراف عن الرغبة الأصليَّة المستكنة في أعماق النفس، وهي رغبة مكبوتة يقاومها صاحبها في مستوى الشعور، ويعيدها إلى اللاشعور، وأثناء النوم عندما تضعف الرقابة

تأخذ طريقها باحثة لها عن مخرج.

- يتكلم فرويد عن تطبيق مبدأين هما اللَّذَّة والواقع، فالإنسان يتجه بطبيعته نحو مبدأ اللَّذَّة العاجلة لمباشرة الرغبة لكنَّه يواجه بحقائق الطبيعة المحيطة به فيتجنب هذه اللَّذَّة التي تجلب له آلامًا أكبر منها أو يؤجل تحقيقها.

- يفترض فرويد وجود غريزتين ينطوي فيهما كل ما يصدر عن الإنسان من سلوك وهما غريزة الحياة وغريزة الموت. غريزة الحياة تتضمن مفهوم الليبيدو وجزءًا من غريزة حفظ الذات، أمَّا غريزة الموت فتمثل نظريَّة العدوان والهدم موجهة أساسًا إلى الذات ثم تنتقل إلى الآخرين.

- الحرب لديه إنَّما هي محاولة جماعيَّة للإبقاء على الذات نفسيًّا، والذي لا يحارب إنَّما يعرض نفسه لاتجاه العدوان إلى الداخل، فيفني نفسه بالصراعات الداخليَّة، فالأولى به أن يفني غيره إذًا، والانتحار هو مثل واضح لفشل الفرد في حفظ حياته. وهذا المفهوم إنما يعطي تبريرًا يريح ضمائر اليهود أصحاب السلوك العدواني المدمر.

- اللاشعور: هو مستودع الدوافع البدائيَّة الجنسيَّة وهو مقرُّ الرغبات والحاجات الانفعاليَّة المكبوتة التي تظهر في عثرات اللسان والأخطاء الصغيرة والهفوات، وأثناء بعض المظاهر الغامضة لسلوك الإنسان. إنَّه مستودع ذو قوة ميكانيكيَّة دافعة وليس مجرد مكان تلقى إليه الأفكار والذكريات غير الهامَّة.

- الـ (هو): مجموعة من الدوافع الغريزيَّة الموجودة لدى الطفل عند ولادته التي تحتاج إلى الشعور الموجه، وهي غرائز يشترك فيها الجنس البشري بكافة. إنَّها باطن النفس، وقد نتجت عن (الأنا) إلا أنَّها تبقى ممزوجة بها في الأعماق أي حينما تكون (الأنا) لا شعوريَّة، وهي تشمل القوى الغريزيَّة الدافعة، فإذا ما كبتت هذه الرغبات فإنَّها تعود إلى الـ (هو) (Ego).

- (الأنا): بعد قليل من ميلاد الطفل يزداد شعورًا بالواقع الخارجي فينفصل جزء من مجموعة الدوافع الـ (هي) لتصبح ذاتا، ووظيفتها الرئيسية هي اختيار الواقع حتى يستطيع الطفل بذلك تحويل استجاباته إلى سلوك منظم يرتبط بحقائق الواقع ومقتضياته، إنَّها ظاهرة النفس التي ترتبط بالمحيط.

- (الأنا العليا): هي الضمير الذي يوجه سلوك الفرد والجانب الأكبر منه لا شعوري، وهو ما نسميه بالضمير أو الوجدان الأخلاقي، لها زواجر وأوامر تفرضها على (الأنا)، وهي سمة خاصة بالإنسان، إذ إنَّها أمور حتميَّة صادرة من العالم الداخليِّ.

- النقل: وهي أنَّ المريض قد ينقل حبَّه أو بغضه المكبوت في أعماق الذكريات إلى الطبيب مثلًا خلال عمليَّة المعالجة. وقد تعرض بروير لحبٍّ واحدة من اللواتي كان يعالجهن إذ نقلت عواطفها المكبوتة إليه، فكان ذلك سببًا في انصرافه عن هذه الطريقة، بينما تابع فرويد عمله بمعالجة الواحدة منهن بنقل عواطفها مرة أخرى والوصول بها إلى الواقع.

- استفاد كثيرًا من عقدة أوديب تلك الأسطورة التي تقول بأنَّ شخصًا قد قتل أباه وتزوج أمَّه وأنجب منها وهو لا يدري. ولما علم بحقيقة ما فعل سمل عينيه، فقد استغلها فرويد في إسقاطات نفسيَّة كثيرة واعتبرها مركزًا لتحليلاته المختلفة.

- شخصيَّة الإنسان هي حصيلة صراع بين قوى ثلاث: دوافع غريزيَّة، واقع خارجيّ، ضمير، وهي أمور رئيسيَّة تتحدد بشكل ثابت بانتهاء الموقف الأوديبي حوالي السنة الخامسة أو السادسة من العمر.

الآثار السلبية للفرويديَّة

- لم ترد في كتب وتحليلات فرويد أيَّة دعوة صريحة إلى الانحلال - كما يتبادر إلى الذهن - وإنما كانت هناك إيماءات تحليليَّة كثيرة تتخلل المفاهيم الفرويديَّة تدعو إلى ذلك. وقد استفاد الإعلام الصهيوني من هذه المفاهيم لتقديمها على نحو يغري الناس بالتحلُّل من القيم، وييسر لهم سبله بعيدًا عن تعذيب الضمير.

- كان يتظاهر بالإلحاد ليعطي لتفكيره روحًا علمانيَّة، ولكنَّه على الرغم من ذلك كان غارقًا في يهوديته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

- كان يناقش فكرة معاداة الساميَّة وهي ظاهرة كراهية اليهود، هذه النغمة التي يعزف اليهود عليها لاستدرار العطف عليهم، وقد ردّ هذه الظاهرة نفسيًّا إلى اللاشعور وذلك لعدة أسباب:

١- غيرة الشعوب الأخرى من اليهود؛ لأنَّهم أكبر أبناء الله وآثرهم عنده حاشا لله.

٢- تمسُّك اليهود بطقس الختان الذي ينبه لدى الشعوب الأخرى خوف الخصاء ويقصد بذلك النصارى لأنَّهم لا يختتنون.

٣- كراهية الشعوب لليهود هو في الأصل كراهية للنصارى المسيحيين، وذلك عن طريق النقل إذ إنَّ الشعوب التي تُنزِل الاضطهاد النازي باليهود إنما كانت شعوبًا وثنيَّة في الأصل، ثم تحولت إلى النصرانيَّة بالقوة الدمويَّة، فصارت هذه الشعوب بعد ذلك حاقدة على النصرانيَّة، لكنَّها بعد أن توحدت معها نقلت الحقد إلى الأصل الذي تعتمد عليه النصرانيَّة ألا وهو اليهوديَّة.

- يركن إلى إشباع الرغبة الجنسيَّة، وذلك لأنَّ الإنسان صاحب الطاقة الجنسيَّة القوية والذي لا تسمح له النصرانيَّة إلا بزوجة واحدة؛ إمَّا أن يرفض قيود المدنيَّة ويتحرر منها بإشباع رغباته الجنسيَّة، وإمَّا أن يكون ذا طبيعة ضعيفة لا يستطيع الخروج على هذه القيود، فيسقط صاحبها فريسة للمرض النفسي ونهبًا للعقد النفسيَّة.

- يقول بأنَّ الامتناع عن الاتصال الجنسيّ قبل الزواج قد يؤدِّي إلى تعطيل الغرائز عند الزواج.

- عقد فصلًا عن تحريم العذرة، وقال بأنَّها تحمل مشكلات وأمراضًا لكلا الطرفين، واستدل على ذلك بأنَّ بعض الأقوام البدائيَّة كانت تقوم بإسناد أمر فضّ البكارة لشخص آخر غير الزوج، وذلك ضمن احتفال وطقس رسميّ.

- لقد برَّر عشق المحارم؛ لأنَّ اليهود أكثر الشعوب ممارسة له بسبب انغلاق مجتمعهم الذي يحرم الزواج على أفراده خارج دائرة اليهود، وهو يرجع هذا التحريم إلى قيود شديدة كانت تغل الروح وتعطلها، وهو بذلك يساعد اليهود أولًا على التحرر من مشاعر الخطيئة، كما يسهل للآخرين اقتحام هذا الباب الخطير بإسقاط كل التحريمات واعتبارها قيودًا وأغلالًا وهميَّة.

وقد استغل اليهود هذه النظريَّة وقاموا بإنتاج عدد من الأفلام الجنسيَّة الفاضحة التي تعرض نماذج من الزنى بالمحارم.

- لم يعتبر التصعيد أو الإعلاء -كما يسمِّيه- إلا طريقًا ضعيفًا للتخلص من ضغط الدافع الجنسي، إذ إنَّ هذا الطريق لن يتيسر خلال مرحلة الشباب إلا لقلَّة ضئيلة من الناس وفي فترات متقطعة وبأكبر قدر من العنت والمشقَّة، أما الباقون -وهم الغالبية العظمى- فليس أمامهم إلا المرض النفسي يقعون صرعاه. كما أنَّ أصحاب التصعيد هؤلاء إنما هم ضعاف يضيعون في زحمة الجماهير التي تنزع إلى السير بإرادة مسلوبة وراء زعامة الأقوياء.

- في كفاحه ضد القيود، والأوامر العليا الموجهة إلى النفس، صار إلى محاربة الدين واعتباره لونًا من العصاب النفسي الوسواسي.

- تطورت فكرة الألوهيَّة لديه على النحو التالي:

١- كان الأب هو السيد الذي يملك كلَّ الإناث في القبيلة ويحرمها على ذكورها.

٢- قام الأبناء بقتل الأب، ثم التهموا جزءًا نيئًا من لحمه للتوحد معه؛ لأنَّهم يحبونه.

٣- صار هذا الأب موضع تبجيل وتقدير باعتباره أباهم أصلًا.

٤- ومن ثم اختاروا حيوانًا مرهوبًا لينقلوا إليه هذا التبجيل فكان الحيوان هو الطوطم.

٥- الطوطميَّة أول صورة للدين في التاريخ البشري.

٦- كانت الخطوة الأولى بعد ذلك هي التطوُّر نحو الإله الفرد، فتطورت معها فكرة الموت الذي صار بهذا الاعتبار خطوة إلى حياة أخرى يلقى الإنسان فيها جزاء ما قدم.

٧- الله -إذًا- هو بديل الأب أو بعبارة أصح هو أب عظيم، أو هو صورة الأب كما عرفها المرء في طفولته.

- نخلص من هذا إلى أنَّ العقائد الدينيَّة -في نظره- أوهام لا دليل عليها، فبعضها بعيد عن الاحتمال ولا يتفق مع حقائق الحياة، وهي تقارن بالهذيان، ومعظمها لا يمكن التحقق من صحته، ولا بدَّ من مجيء اليوم الذي يصغي فيه الإنسان لصوت العقل.

- حديثه عن الكبت فيه إيحاءات قويَّة وصارخة بأنَّ الوقاية منه تكمن في الانطلاق والتحرر من كل القيود، كما يحرم الإدانة الخلقية على أي عمل يأتيه المريض، مركِّزًا على الآثار النفسيَّة المترتبة على هذه الإدانة في توريثه العقد المختلفة مما يحرفه عن السلوك السوي.

- مما ساعد على انتشار أفكاره ما يلي:

١- الفكر الداروني الذي أرجع الإنسان إلى أصول حيوانيَّة ماديَّة.

٢- الاتجاه العقلانيّ الذي ساد أوربا حينذاك.

٣- الفكر العلمانيّ الذي صبغ الحياة بثورته ضد الكنيسة أولًا وضد المفاهيم الدينيَّة ثانيًا.

٤- اليهود الذين قدَّموا فكره للإنسانيَّة باستخدام مختلف الوسائل الإعلاميَّة بغية نشر الرذيلة والفساد، وتسهيل ذلك على ضمير البشريَّة ليسهل عليهم قيادة هذه الرعاع من الشعوب اللاهثة وراء الجنس، المتحللة من كل القيود والقيم.

- من أكبر الآثار المدمرة لآراء فرويد، أنَّ الإنسان حين كان يقع في الإثم كان يشعر بالذنب وتأنيب الضمير، فجاء فرويد ليريحه من ذلك، ويوهمه بأنَّه يقوم بعملٍ طبيعيٍّ لا غبار عليه، وبالتالي فهو ليس بحاجة إلى توبة، وبذلك أضفى على الفساد صفة أخلاقيَّة إذا صحَّ التعبير.

- ألَّف نحو ثلاثين كتابًا في الدراسات النفسيَّة من أشهرها: الذات والذات السفلى والطواطم والمحرمات وتفسير الأحلام، وثلاث مقالات في النظريَّة الحسيَّة والأمراض النفسيَّة المنتشرة في الحياة اليوميَّة. وكلها تدور -من زوايا مختلفة- حول موضوع واحد مكرَّر فيها جميعًا هو التفسير الجنسيّ للسلوك البشريّ.

الانتشار ومواقع النفوذ

- بدأت هذه الحركة في فينا، وانتقلت إلى سويسرا، ومن ثم عمَّت أوربا، وصارت لها مدارس في أمريكا.

- وقد حملت الأيام هذه النظريَّة إلى العالم كلِّه عن طريق الطلَّاب الذين يذهبون إلى هناك ويعودون لنشرها في بلادهم.

- تلاقي هذه الحركة اعتراضات قويَّة من عدد من علماء النفس الغربيِّين اليوم(١).

الداروينيَّة

التعريف:

تنتسب الحركة الفكريَّة الداروينيَّة إلى الباحث الإنجليزي شارلز دارون الذي نشر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م الذي طرح فيه نظريته في النشوء والارتقاء مما زعزع القيم الدينيَّة، وترك آثارًا سلبيَّة على الفكر العالميّ.

تاريخ الداروينيَّة

عرفت هذه الفكرة قبل دارون، فقد لاحظ العلماء راي، وباركنسون، ولينو: أنَّ الأنواع

---

(١) الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٢٢- ٨٣١)، مذاهب فكرية معاصرة.

المتأخِّرة في الظهور أكثر رقيًا من الأنواع المتقدِّمة.

واستوحى دارون نظريته أيضًا من علم دراسة السكّان، ومن نظرية مالتوس بالذات، فقد استفاد من قانونه في الانتخاب أو الانتقاء الذي يدور حول إفناء الطبيعة للضعفاء لمصلحة بقاء الأقوياء.

ففي رؤية مالتوس أنَّ العامل المؤثر الرئيسي الذي أبقى السُّكَّان تحت السَّيطرة هي الكوارث مثل: الحرب، والمجاعة، والمرض. ووفقًا لهذا الادعاء فإنَّ بعض النَّاس ينبغي عليهم أن يموتوا من أجل أن يعيش الآخرون، فقد جاء الوجود بقصد الحرب الدّائمة.

وقد تأثَّر دارون بهذه الأفكار، فعمم هذا الصراع على كلِّ الطبيعة، واقترح أنَّ الأصلح والأقوى ظهر منتصرًا من حرب الوجود هذه، وادَّعى أنَّ ما يسمَّى بالصَّراع من أجل البقاء كانت مبررة لقانون الطبيعة الثابت.

واستعان دارون أيضًا بأبحاث ليل الجيولوجيَّة حيث تمكَّن من صياغة نظريَّة ميكانيكيَّة للتطور.

وقد صادفت هذه النظريَّة جوًّا مناسبًا إذ كان ميلادها بعد زوال سلطان الكنيسة والدين، وبعد الثورة الفرنسيَّة والثورة الصناعيَّة، حيث كانت النفوس مهيَّأة لتفسير الحياة تفسيرًا ماديًّا بحتًا، ومستعدَّة لتقبل أي طرح فكريٍّ يقودها إلى مزيد من الإلحاد والبعد عن التفسيرات اللاهوتيَّة، مصيبة كانت أم مخطئة.

وشارلز دارون صاحب هذه المدرسة ولد في ١٢ فبراير ١٨٠٩م وهو باحثٌ إنجليزيٌّ نشر في سنة ١٨٥٩م كتابه أصل الأنواع، وقد ناقش فيه نظريته في النشوء والارتقاء معتبرًا أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين. وقد تطورت هذه الخليَّة ومرَّت بمراحل منها، مرحلة القرد، انتهاء بالإنسان، وهو بذلك ينسف الفكرة الدينيَّة التي تجعل الإنسان منتسبًا إلى آدم وحواء ابتداء.

وقد جاء بعده علماء تمسَّكوا بنظريته جدًّا، منهم:

- آرثر كيت: دارويني متعصب، يعترف بأنَّ هذه النظريَّة لا تزال حتى الآن بدون براهين، فيضطر إلى كتابتها من جديد وهو يقول: إنَّ نظرية النشوء والارتقاء ما زالت بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أنَّ البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا غير وارد على الإطلاق.

- جليان هكسلي: دارويني ملحد، ظهر في القرن العشرين، وهو الذي يقول عن النظريَّة: هكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد للمخلوقات كما تقول الأديان.

ويقول: من المسلَّم به أنَّ الإنسان في الوقت الحاضر سيِّد المخلوقات، ولكن قد تحلُّ محله القطَّة أو الفأر.

ويزعم أنَّ الإنسان قد اختلق فكرة الله إبان عصر عجزه وجهله، أمَّا الآن فقد تعلَّم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آنٍ واحدٍ. يقول: بعد نظريَّة دارون لم يبق الإنسان يستطيع تجنُّب اعتبار نفسه حيوانًا.

- ليكونت دي نوى: من أشهر التطوريين المحدثين، وهو في الحقيقة صاحب نظريَّة تطوريَّة مستقلَّة.

- د. هـ. سكوت: دارويني شديد التعصُّب، يقول: إنَّ نظريَّة النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن أنَّ نتخلَّ عنها حتَّى لو أصبحت عملًا من أعمال الاعتقاد.

- برتراند راسل: فيلسوف ملحد، يشيد بالأثر الدارويني مركزًا على الناحية الميكانيكيَّة في النظريَّة، فيقول: إنَّ الذي فعله جاليليو ونيوتن من أجلّ الفلك فعله دارون من أجل علم الحياة.

أفكار الداروينيَّة

نظرية دارون تدور حول عدة أفكار وافتراضات، هي:

- تفترض النظريَّة تطور الحياة في الكائنات العضويَّة من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقَّة والتعقيد.

- تتدرج هذه الكائنات من الأحطّ إلى الأرق.

- الطبيعة وهبت الأنواع القويَّة عوامل البقاء والنمو والتكيف مع البيئة لتصارع الكوارث وتتدرج في سلم الرقيّ مما يؤدِّي إلى تحسُّن نوعي مستمر ينتج عنه أنواع راقية جديدة كالقرد، وأنواع أرق تتجلى في الإنسان، بينما نجد أنَّ الطبيعة قد سلبت تلك القدرة من الأنواع الضعيفة فتعثرت وسقطت وزالت. وقد استمدَّ دارون نظريته هذه من قانون الانتقاء الطبيعي لمالتوس.

- الفروق الفرديَّة داخل النوع الواحد تنتج أنواعًا جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة.

- الطبيعة تعطي وتحرِّم بدون خطة مرسومة، بل خبط عشواء، وخط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة مطَّردة منطقيَّة.

- النظريَّة في جوهرها فرضيَّة بيولوجيَّة أبعد ما تكون عن النظريات الفلسفيَّة.

- تفترض النظريَّة أنَّ كلَّ مرحلة من مراحل التطور أعقبت التي قبلها بطريقة حتميَّة، أي أن العوامل الخارجيَّة هي التي تحدد نوعيَّة هذه المرحلة، أما خط سيرها ذاته بمراحله جميعها فهو خطٌّ مضطرب لا يسعى إلى غاية مرسومة أو هدف بعيد؛ لأنَّ الطبيعة التي أوجدته غير عاقلة ولا واعية، بل إنَّها تتخبط خبط عشواء.

- اقترح دارون أنَّ المعركة من أجل البقاء انطبقت أيضًا بين السلالات البشريَّة. وطبقًا لهذا الادعاء، كانت السلالات المفضَّلة هي المنتصرة في الصِّراع. والسلالات المفضَّلة، في وجهة نظر دارون، هم الأوربيُّون البيض. أمَّا السلالات الإفريقيَّة أو الآسيويَّة فقد تخلَّفت في الصِّراع؛ بل

ذهب دارون إلى مدى أبعد، واقترح أنَّ هذه السلالات قريبًا ستفقد كلِّيَّة في الصّراع من أجل البقاء، وبالتالي سيختفون في بعض الفترات المستقبليَّة، وهو يعتبر قصيرًا في مقياس القرون، إنَّ الأجناس المتحضِّرة الإنسانيَّة ستفنى، ويحلُّ محلها في أرجاء العالم السلالات البدائيَّة. وفي نفس الوقت، فإنَّ القرود المجسّمة في شكل الإنسان ستفنى. وستتسع والفجوة بين الإنسان وأقرب حلفائه.

الآثار التي تركتها نظريَّة دارون

- قبل ظهور النظريَّة كان الناس يدعون إلى حريَّة الاعتقاد بسبب الثورة الفرنسيَّة، ولكنهم بعدها أعلنوا إلحادهم الذي انتشر بطريقة عجيبة وانتقل من أوربا إلى بقاع العالم.

- لم يعد هناك أي معنى لمدلول كلمة: آدم، وحواء، الجنَّة، الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، الخطيئة (حسب اعتقاد النصارى بأنَّ المسيح قد صلب ليخلص البشريَّة من أغلال الخطيئة الموروثة التي ظلت ترزح تحتها من وقت آدم إلى حين صلبه).

- سيطرة الأفكار الماديَّة على عقول الطبقة المثقفة، وأوحت كذلك بماديَّة الإنسان وخضوعه لقوانين المادَّة.

- تخلَّت جموع غفيرة من الناس عن إيمانها بالله تخليًا تامًّا أو شبه تامٍّ.

- عبادة الطبيعة، فقد قال دارون: «الطبيعة تخلق كلّ شيء ولا حد لقدرتها على الخلق». ولكن لم يبين ما هي الطبيعة وما الفرق بين الاعتقاد بوجود الله الخالق ووجود الطبيعة؟

وقال: إنَّ تفسير النشوء والارتقاء بتدخُّل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت.

- لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان لأنَّ دارون قد جعل بين الإنسان والقرد نسبًا، بل زعم أنَّ الجدَّ الحقيقيَّ للإنسان هو خلية صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين.

- أهملت العلوم الغربيَّة بجملتها فكرة الغائيَّة بحجَّة أنَّها لا تهم الباحث العلمي ولا تقع في دائرة علمه.

- استبد بالناس شعور باليأس والقنوط والضياع، وظهرت أجيال حائرة مضطربة ذات خواء روحي، حتى إنَّ القرد -جدهم المزعوم- أسعد حالًا من كثير منهم.

- طغت على الحياة فوضى عقائديَّة، وأصبح هذا العصر عصر القلق والضياع.

- فرضت العنصريَّة على العلوم الاجتماعيَّة، فنظريَّة دارون البقاء للأصلح وجدت ترحيبًا شديدًا في هذا العصر من قبل العلماء الاجتماعيِّين، واعتقدوا أنَّ البشريَّة قد حقَّقت مستويات متنوعة من التطور تتوجت في حضارة الرّجل الأبيض. وفي النّصف الثّاني من القرن التّاسع عش

قُبِلَت العنصريَّة كحقيقة عن طريق الأغلبيَّة العظمى للعلماء الغربيِّين.

- (فكرة التطور) أوحت بحيوانيَّة الإنسان، و(تفسير عمليَّة التطور) أوحت بماديَّته.

- نظريَّة التطور البيولوجيَّة انتقلت لتكون فكرة فلسفيَّة داعية إلى التطور المطلق في كلِّ شيء، تطور لا غاية له ولا حدود، وانعكس ذلك على الدين والقيم والتقاليد، وساد الاعتقاد بأنَّ كلَّ عقيدةٍ أو نظامٍ أو خلقٍ هو أفضل وأكمل من غيره، ما دام تاليًا له في الوجود الزمنيِّ.

دور نظريَّة دارون في النظريَّات الأخرى:

- كانت نظريَّة دارون إيذانًا لميلاد نظريَّة فرويد في التحليل النفسي، ونظريَّة برجسون في الروحيَّة الحديثة، ونظريَّة سارتر في الوجوديَّة، ونظريَّة ماركس في المادِّيَّة، وقد استفادت هذه النظريات جميعًا من الأساس الذي وضعه دارون واعتمدت عليه في منطلقاتها وتفسيراتها للإنسان والحياة والسلوك.

- استمد ماركس من نظريَّة دارون مادِّيَّة الإنسان، وجعل مطلبه في الحياة ينحصر في الحصول على (الغذاء والسكن والجنس)، مهملًا بذلك جميع العوامل الروحيَّة لديه.

- استمد فرويد من نظرية دارون حيوانيَّة الإنسان، فالإنسان عنده حيوان جنسيّ، لا يملك إلا الانصياع لأوامر الغريزة، وإلا وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب.

- والتطور عند فرويد أصبح مفسِّرًا للدين تفسيرًا جنسيًّا: «الدين هو الشعور بالندم من قتل الأولاد لأبيهم الذي حرمهم من الاستمتاع بأمهم ثم صار عبادة للأب، ثم عبادة الطوطم، ثم عبادة القوى الخفيَّة في صورة الدين السماويّ، وكل الأدوار تنبع وترتكز على عقدة أوديب».

- استمد دوركايم من نظرية دارون حيوانيَّة الإنسان وماديته وجمع بينهما بنظرية العقل الجمعي.

- استفاد برتراند راسل من ذلك بتفسيره لتطور الأخلاق الذي تطور عنده من المحرم (التابو) إلى أخلاق الطاعة الإلهيَّة، ومن ثم إلى أخلاق المجتمع العلمي.

دور الدّارونيَّة في التهيئة الأساسيَّة للحرب العالميَّة:

عندما سيطرت الدَّارونيَّة على الثّقافة الأوربيَّة، بدأت آثار الصّراع من أجل البقاء في الظّهور. فبدأت -خاصة- الدّول الأوربيَّة الاستعماريَّة في تصوير الدّول التي استعمروها كدول نامية ارتقائيَّة واعتمدوا على الدَّارونيَّة لتبرير ذلك. وكان الأثر السّياسيُّ الأكثر دمويَّة للدَّارونيَّة هو نشوب الحرب العالميَّة الأولى في عام ١٩١٤ م.

يشرح الأستاذ المؤرخ البريطانيُّ المعروف جيمس في كتابه «أوربَّا منذ ١٨٧٠»، أنَّ أحد العوامل التي هيَّأت الأرضيَّة للحرب العالميَّة الأولى كان إيمان الحكّام الأوربيِّين في ذاك الوقت بالدَّارونيَّة. فعلى سبيل المثال، رئيس أركان أوسترو-هنجريا، كتب في مذكَّراته ما بعد الحرب: إنَّ الدِّيانات الإنسانيَّة، والتّعاليم الأخلاقيَّة، والمذاهب الفلسفيَّة قد تؤدِّي أحيانًا إلى إضعاف صراع بقاء

البشريَّة في شكلها القاسي، لكنَّهم لن ينجحوا في إزالته كمحرك محفز للعالم، إنَّه يتوافق مع هذا المبدأ العظيم، إنَّ كارثة الحرب العالميَّة حدثت كنتيجة للقوى المحفزة في حياة الدول والشُّعوب، كالعاصفة الرعديَّة التي يجب أن تفرغ شحناتها بذاتها.

وفي عام ١٩١٤م كتب كورت ريزلر، السَّكرتير الخاصّ لفون ثيوبالد وصديق المستشار الألمانيّ بيثمان- هولويج: العداوة الأبديَّة المطلقة ملازمة أساسًا للعلاقات بين الشعوب، والعداء الذي نلاحظه في كلِّ مكان ليس نتيجة لفساد الطبيعة الإنسانيَّة ولكنَّه جوهر العالم ومنبع الحياة نفسه.

وعمل جنرال الحرب العالميَّة الأولى، بيرناردي فون فريدريش، علاقةً متشابهةً بين الحرب وقوانين الحرب في الطَّبيعة، إذ أعلن بيرناردي أنَّ الحرب حاجة بيولوجيَّة، وإنَّها بمثل ضرورة صراع عناصر الطبيعة، وبما أنَّ قراراته تستند على طبيعة الأشياء، فإنَّه فقط يعطي قرارًا بيولوجيًا.

وكما رأينا، اندلعت الحرب العالميَّة الأولى بسبب أنَّ المفكّرين الأوربِّيِّين، والجنرالات والمسئولين الذين شاهدوا الحرب، وإراقة الدّماء، والمعاناة اعتبروا ذلك نوعًا من «التطور»، واعتقدوا أنَّهم لم يغيروا «قانون الطبيعة». فالأصل الأيديولوجيّ الذي جرَّ كلَّ ذلك الجيل إلى الدّمار لم تكن سوى مفاهيم دارون للصّراع من أجل الحياة والسلالات المفضَّلة.

وخلفت الحرب العالميَّة الأولى ثمانية ملايين قتيلًا، ومئات من المدن المدمّرة، وملايين من الجرحى، والمقعدين، والمشردين، والعاطلين.

والسّبب الرئيسي للحرب العالميّة الثّانية والتي اندلعت بعد ٢١ سنة وخلفت ٥٥ مليونًا قتيلًا، كان أيضًا مبنيًا على أساس الدّاروينيَّة، ففي القرن التاسع عشر غذت النَّازيَّة الدَّاروينيَّة العنصريَّة، وشكَّلت القاعدة الإيديولوجيَّة التي ستطوّر وتغرق العالم في مستنقع من الدّم خلال قرن العشرين، فهتلر عندما سمى كتابه (كفاحي)، والذي يتكلَّم عن الصّراع خصوصًا بين السلالات، كان ملهمًا بالصراع الدَّاروينيّ من أجل البقاء، ومبدأ أن النّصر للأصلح: في الألفيَّة الجديدة سيبلغ التاريخ الذروة في روعة فريدة للإمبراطوريَّة، وذلك على أساس سلسلة عرقيَّة جديدة.

أعلن هتلر، في اجتماع حزب نريمبيرج سنة ١٩٣٣م، أنَّ موضوعات الجنس الأعلى بنفسه جنس أقلّ، . . . ، الحقّ ما نراه في الطّبيعة هو الحقّ الوحيد الذي يمكن أن يتصور.

ويصف المؤرّخ هيكمان تأثير الدَّاروينيَّة على هتلر: كان هتلر مؤمن للغاية بالتطور وداعيًا إليه، وبغض النظر عن عمق، وتعقيدات هوسه، فإنَّه من المؤكد أنَّ. كتابه، (Mein Kampf)، وضع بوضوح عددًا من الأفكار الارتقائيَّة، خصوصًا تلك التي تؤكد الصّراع، والبقاء للأصلح والإبادة للأضعف وذلك لإنتاج مجتمع أفضل.

دور اليهود والقوى الهدَّامة في نشر هذه النظريَّة:

- لم يكن دارون يهوديًا، بل كان نصرانيًا، ولكن اليهود والقوى الهدَّامة وجدوا في هذه النظريَّة ضالتهم المنشودة، فعملوا على استغلالهم لتحطيم القيم في حياة الناس.

- تقول بروتوكولات حكماء صهيون: «لا تتصوروا أنَّ تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أنّ نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحًا لنا على التأكيد».

نقد نظريَّة دارون

- نقدها آغاسيرز في إنجلترا، وأوين في أمريكا: إنَّ الأفكار الداروينيَّة مجرد خُرافة علميَّة وأنَّها سوف تنسى بسرعة. ونقدها كذلك العالم الفلكي هرشل ومعظم أساتذة الجامعات في القرن الماضي.

- كريسي موريسون: إنَّ القائلين بنظريَّة التطور لم يكونوا يعلمون شيئًا عن وحدات الوراثة (الجينات) وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطور حقًّا، أعني عند الخليَّة.

- أنتوني ستاندن صاحب كتاب العلم بقرة مقدَّسة، يناقش الحلقة المفقودة وهي ثغرة عجز الداروينيُّون عن سدّها فيقول: إنَّه لأقرب من الحقيقة أن تقول: إنَّ جزءًا كبيرًا من السلسلة مفقودة وليس حلقة واحدة، بل إنَّنا لنشك في وجود السلسلة ذاتها.

- ستيوارت تشيس: أيّد علماء الأحياء جزئيًّا قصَّة آدم وحواء كما ترويها الأديان . . . ، وأنَّ الفكرة صحيحة في مجملها.

- أوستن كلارك: لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأنَّ أيًّا من المراتب الحيوانيَّة الكبرى ينحدر من غيرها، إنَّ كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عمليَّة خلق خاصة متميِّزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأةً، وفي الشكل نفسه الذي تراه عليه الآن.

- ليكونت دي نوي: أمَّا تطور الكائنات الحية بجملتها فإنَّه يناقض علم المادة الجامدة تناقضًا تامًّا، وهو يتنافي مع المبدأ الثاني من مبادئ علم القوة الحراريَّة، وهو حجر الزاوية في علمنا المرتكز على قوانين المصادفة، فلا سبب التطور ولا حقيقته يدخلان في نطاق علمنا الحاضر، وليس من عالم يستطيع إنكار ذلك.

- وتقول مجلة العلوم المصورة: إنَّ العلم يؤيِّد قصَّة آدم وحواء إلى حد ما، إننا نعترف بحقيقة فكرة الأسرة البشريَّة ذات الأصل الواحد.

- أبطل باستور أسطورة التوالد الذاتي، وكانت أبحاثه ضربة قاسية لنظرية دارون.

- أنَّ نظريَّة دارون دخلت مُتْحَف النسيان بعد كشف النقاب عن قانون مندل الوراثي، واكتشاف وحدات الوراثة (الجينات) باعتباره الشفرة السريَّة للخلق، واعتبار أنَّ الكروموسومات تحمل صفات الإنسان الكاملة وتحفظ الشبه الكامل للنوع.

- يرى المنصفون من العلماء أنَّ وجود تشابه بين الكائنات الحيَّة دليل واضح ضد النظريَّة لأنَّه يوحي بأنَّ الخالق واحد ولا يوحى بوحدة الأصل.

- أثبت العلم القائم على التجربة بطلان النظريَّة بأدلة قاطعة وإنَّها ليست نظريَّة علميَّة على الإطلاق.

- تقوم النظريَّة على أصلين كلٌّ منهما مستقلٌ عن الآخر:

١- المخلوقات الحيَّة وجدت في مراحل تاريخيَّة متدرجة ولم توجد دفعة واحدة، وهذا الأصل من الممكن البرهنة عليه.

٢- هذه المخلوقات متسلسلة وراثيًّا ينتج بعضها عن بعض بطريقة التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة. وهذا الأصل لم يتمكنوا من البرهنة عليه حتى الآن لوجود حلقة أو حلقات مفقودة في سلسلة التطور الذي يزعمونه.

والذي عملته الداروينيَّة: أنَّها دمجت بين الأصلين، وجمعت شواهد ودلائل الأصل الأول لتؤيد بها الثاني. وهذا اللبس غير العلمي هو الذي أغرى بعض العلماء بقبول النظريَّة وأضفى عليها المسحة (العلميَّة)، مع أن هذه المسحة يصح أن تضفى على الأصل الأول، ولكن إضفاءها على الثاني خطأ محض، إذ من المعلوم بديهيًّا أن الترتيب التاريخي للوجود لا يستلزم التسلسل الوراثي، بل إنَّ العقل ليؤكد ما هو أبعد من ذلك، وهو أنَّ الترتيب المنطقي لا يستلزم الترتيب التاريخي، فالترتيب المنطقي للكائنات الحية هو -تصاعديًّا- النبات ثم الحيوان ثم الإنسان، وليس في هذا الترتيب ما يدل على أنَّ الوجود التاريخي لهذه الأجناس وقع بهذا الترتيب، بل نحتاج في إثبات ذلك إلى دليلٌ خارجيٌ، وذلك يشبه تمامًا الترتيب المنطقي للأعداد: (١، ٢، ٣، ٤) وبديهي أنَّها ليس لها ترتيب تاريخي ولا يوجد بينها علاقة وراثيَّة.

الداروينيَّة الحديثة

اضطرب أصحاب الداروينيَّة الحديثة أمام النقد العلمي الذي وجه إلى النظريَّة، ولم يستطيعوا أمام ضعفها إلا أن يخرجوا بأفكار جديدة تدعيمًا لها وتدليلًا على تعصبهم الشديد حيالها، فأجروا سلسلة من التبديلات، منها:

- إقرارهم بأنَّ قانون الارتقاء الطبيعي قاصر عن تفسير عملية التطور واستبدلوا به قانونًا جديدًا أسموه: قانون التحولات المفاجئة أو الطفرات، وخرجوا بفكرة المصادفة.

- أرغموا على الاعتراف بأن هناك أصولًا عدة تفرعت عنها كل الأنواع، وليس أصلًا واحدًا كما كان سائدًا في الاعتقاد.

- أجبروا على الإقرار بتفرد الإنسان بيولوجيا رغم التشابه الظاهري بينه وبين القرد، وهي النقطة التي سقط منها دارون ومعاصروه.

- كل ما جاء به أصحاب الداروينيَّة الحديثة ما هو إلا أفكار ونظريات هزيلة أعجز من أن تستطيع تفسير النظام الحياتي والكوني الذي يسير بدقة متناهية بتدبير الحكيم.

الانتشار ومواقع النفوذ

- بدأت الداروينيَّة سنة ١٨٥٩م، وانتشرت في أوربًا، وانتقلت بعدها إلى جميع بقاع العالم، ولا تزال هذه النظريَّة تدرَّس في كثير من الجامعات العالميَّة، كما أنَّها قد وجدت أتباعًا لها في العالم الإسلامي بين الذين تربّوا تربية غربيَّة، ودرسوا في جامعات أوربيَّة وأمريكيَّة.

- والواقع أنَّ تأثير نظريَّة دارون قد شمل معظم بلدان العالم، كما شمل معظم فروع المعرفة الإنسانيَّة من علميَّة وأدبيَّة وغيرها. ولم يوجد في التاريخ البشري نظريَّة باطلة صبغت مناحي الفكر الغربي كما فعلت نظريَّة النشوء والارتقاء الداروينيَّة[١].

الشيوعيَّة

التعريف:

الشيوعيَّة مذهب فكريٌّ يقوم على الإلحاد، وأنَّ المادة هي أساس كلِّ شيءٍ، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصاديّ.

وهى تصوُّر شامل للكون والحياة والإنسان وللألوهيَّة، وعن هذا التصوّر الشامل ينبثق المذهب الاقتصاديّ. ثمَّ إنَّها من جهة أخرى مذهب اقتصاديٌّ واجتماعيٌّ وسياسيٌّ وفكريٌّ مترابطٌ متشابك لا يمكن فصل بعضه عن بعض.

وهم يسمّون نظريتهم العامة: المادِّيَّة الجدليَّة، ويسمّون تفسيرهم للتاريخ: التفسير المادِّيّ للتاريخ، ومن أقوالهم: لا إله والكون مادة. وحدة العالم تنحصر في ماديته. المادة سابقة في الوجود على الفكر. لم يكن هناك وقت لم تكن المادة موجودة فيه، وليس هناك وقت لا تكون المادة موجودة فيه. الإنسان نتاج المادة. الفكر نتاج الدماغ والدماغ مادة... إلخ.

ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسَّدت في الثورة البلشفيَّة التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود، وتوسَّعت على حساب غيرها بالحديد والنار. وقد تضرر المسلمون منها كثيرًا، وهناك شعوب محيت بسببها من التاريخ، ولكن الشيوعيَّة أصبحت الآن في ذمة التاريخ، بعد أن تخلَّى عنها الاتحاد السوفيتي، الذي تفكك بدوره إلى دول مستقلَّة، تخلت كلّها عن الماركسيَّة، واعتبرتها نظريَّة غير قابلة للتطبيق.

تاريخ الشيوعيَّة

استقى ماركس فكرة الشيوعيَّة من ثلاثة منابع: المادِّيَّة من كومت، والجدليَّة من هيجل، والتطور من دارون.

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩٣٢)، العلمانية نشأتها وتطورها، الأصل الأيديولوجي الحقيقي للإرهاب، الداروينية والمادية، هارون يحيى.

كان الفكر الأوربيّ في فترة المسيحيّة الكنسيّة قائمًا على أصول دينيّة -مع ما وقع فيها من تحريفٍ عن الأصل الصحيح- أي أنَّ مصدرها في حسهم هو الله والوحي الربانيّ، ثم إنَّ هذا الفكر كان متَّجهًا إلى الآخرة على أساس أنَّ الخلاص الحقيقيَّ هناك، وأنَّه لا خلاص في الحياة الدنيا.

أمَّا فكر النهضة فقد كان إنسانيًّا من جهة، وموجهًا إلى الحياة الدنيا من جهة أخرى؛ إنسانيّ بمعنى أنَّ الإنسان وليس الله هو الذي ينبغي أن يكونَ مصدر المعرفة، وأنَّ الفكر الإنسانيَّ لا الوحي الربانيّ هو المرجع الذي يرجع إليه الإنسان في النظر إلى أمور حياته ومتطلباتها. وفي والوقت ذاته كان هذا الفكر موجَّهًا إلى النظر في الحياة الدنيا ومقتضياتها لا إلى الآخرة ومقتضياتها.

وكان التقدُّم العلميُّ الذي حدث منذ بدء النهضة أحدَ العوامل الهامَّة التي ساعدت على اتجاه الفكر الأوربيّ ذلك الاتجاه من خلال المذهب العقليّ والتجريبيّ.

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق، فقد اكتشف نيوتن بعض قوانين الطبيعة، التي يجرى الكون المادِّيُّ بمقتضاها. وكشف عمَّا يسمَّى قانون السببيَّة، أي القانون الذي يفسِّر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة. وقد كان هذا في أوربَّا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة، أي نفى الأسباب الغيبية.

وفي القرن التاسع عشر ظهرت الفلسفة الوضعيَّة التي تقول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل، واعتبارها هي الأصل الذي ينبثق عنه كل شيء، والذي يبعث الأفكار في العقل البشري، وكان من أهم فلاسفتها: أوجست كومت (مدرسة الحسيَّة الوضعيَّة)، وفرباخ (مدرسته في الفلسفة الإنسانيَّة الطبيعيَّة).

ومن جهة أخرى فإنَّ المنطق اليونانيَّ القديم -الذي يسمّى المنطق الصوريّ- ينفي وجود التناقض في الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أنَّ الشيء ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أي شيء هو ذاته نفي قاطع لوجود نقيضه. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي -عصر سيادة العقل في الفكر الأوربي المسمَّى عندهم بعصر التنوير- قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض في الكون والحياة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم: فيشته، وهيجل (مدرسة العقليَّة المثاليَّة).

فأمَّا فيشته ١٧٦٢- ١٨١٤م فقد استخدم مبدأ النقيض كي يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة. وأمَّا هيجل ١٧٧٠- ١٨٣١م فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهيَّة من جديد، وتأكيد الوحي كمصدر أخير للمعرفة، يعتبر الله سبحانه عقلًا.

ثم جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنَّها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق، ويؤكد أنَّ الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانيَّة، وأنَّ التطور ذاته -الذي أنشأ الحياة المادِّيَّة الميتة أول

مرة، ثم تدَّرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان- هو نتيجة أسباب ماديَّة بحتة، وأنَّه يتم مستقلًا عن إرادة الكائن الحي، وبصورة حتميَّة لا يملك الكائن الحي الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف في طريقها.

ثم عملت الشيوعيَّة على تجميع الأفكار السابقة والمعاصرة، وأنشأت فلسفة مترابطة متكاملة تشمل كلَّ القضايا المحيطة بالإنسان نحو غير مسبوق في الفكر الغربي. وقد وُضِعتْ أسسها الفكريَّة النظريَّة على يد كارل ماركس اليهودي الألماني ١٨١٨- ١٨٨٣م وهو حفيد الحاخام اليهودي المعروف مردخاي ماركس، وكارل ماركس شخص قصير النظر متقلب المزاج، حاقد على المجتمع، ماديّ النزعة، ومن مؤلفاته: البيان الشيوعي الذي صدر سنة ١٨٤٨م. رأس المال ظهر سنة ١٨٦٧م.

وصرح ماركس بأنَّه اتصل بفيلسوف الصهيونيَّة وواضع أساسها النظري موشيه هيس أستاذ هرتزل الزعيم الصهيوني الشهير.

وقد ساعد ماركس في التنظير للمذهب فردريك إنجلز ١٨٢٠- ١٨٩٥م وهو صديق كارل ماركس الحميم وقد ساعده في نشر المذهب كما أنَّه ظلَّ ينفق على ماركس وعائلته حتَّى مات، ومن مؤلفاته: أصل الأسرة. الثنائيَّة في الطبيعة. الاشتراكيَّة الخرافيَّة والاشتراكيَّة العلميَّة.

ثم وضعت الشيوعيَّة موضع التنفيذ في الثورة البلشفيَّة في روسيا سنة ١٩١٧م بقيادة لينين، واسمه الحقيقي فلاديمير أليتش بوليانوف ١٨٧٠- ١٩٢٤م، وهو قاسي القلب، مستبد برأيه، حاقد على البشريَّة، وهناك دراسات تقول بأنَّ لينين يهودي الأصل، وكان يحمل اسمًا يهوديًا، ثم تسمَّى باسمه الروسي الذي عرف به. وله كتب كثيرة وخطب ونشرات أهمُّها ما جمع في ما يسمَّى مجموعة المؤلفات الكبرى.

وتكوَّن المكتب السياسي الأوَّل للثورة البلشفيَّة من سبعة أشخاص كلُّهم يهود إلا واحدًا، وهذا يعكس مدى الارتباط بين الشيوعيَّة واليهوديَّة.

وكان ستالين واسمه الحقيقي جوزيف فاديونوفتش زوجًا شفلي ١٨٧٩-١٩٥٤م هو سكرتير الحزب الشيوعيّ ورئيسه بعد لينين، وقد اشتهر بالقسوة والجبروت والطغيان والدكتاتوريَّة وشدة الإصرار على رأيه، ويعتمد في تصفية خصومه على القتل والنفي، كما أثبتت تصرفاته أنَّه مستعدٌّ للتضحية بالشعب كلِّه في سبيل شخصه. وقد ناقشته زوجته مرة فقتلها.

ودبر ستالين اغتيال تروتسكي واسمه الحقيقي بروشتاين ١٨٧٩- ١٩٤٠م، وهو يهوديّ له مكانة هامَّة في الحزب، وقد تولى الشئون الخارجيَّة بعد الثورة ثم أسندت إليه شئون الحزب. ثم فصل من الحزب بتهمة العمل ضد مصلحة الحزب؛ ليخلو الجو لستالين الذي دبر اغتياله للخلاص منه نهائيًا.

ولم تستطع الشيوعيَّة إخفاء تواطئها مع اليهود وعملها لتحقيق أهدافهم، فقد صدر منذ الأسبوع الأوَّل للثورة قرار ذو شقين بحقِّ اليهود:

١- يعتبر عداء اليهود عداء للجنس السامي يعاقب عليه القانون.

٢- الاعتراف بحقِّ اليهود في إنشاء وطن قومي في فلسطين.

أفكار الشيوعيَّة

قامت الشيوعيَّة على أمور ثلاثة رئيسيَّة:

١- المادِّيَّة الجدليَّة: وهي تصور خاص لقضايا الألوهيَّة والكون والحياة والإنسان يقوم على أساس مادِّيٍّ بحت، على أساس أنَّ المادة هي الشيء الوحيد الأصيل في هذا الكون وهي أزليَّة أبديَّة، وأنَّ كل ما في الكون ومن فيه منبثق من المادَّة ومحكوم بقوانين المادَّة، ولا وجود له خارج نطاق المادَّة. كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض في طبيعة المادَّة، ومن ثم في كلِّ ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانات بما في ذلك الكيان الإنساني، فهو كيان مادي من جهة، ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى.

٢- المادِّيَّة التاريخيَّة: وهي محاولة لتفسير التاريخ البشري على أسس المادِّيَّة؛ أي على أساس أنَّ المادة أزليَّة أبديَّة، وأنَّها هي الخالقة لكلِّ ما في الكون من مخلوقات، وأنَّ الإنسان نتاج المادَّة، والفكر نتاج المادَّة، وأنَّ قوانين المادَّة هي بذاتها التي تحكم حياة البشر الاجتماعيَّة، وأنَّ الوضع المادي والاقتصادي هو الذي يكيف شكل الحياة البشريَّة في أي وقت من أوقاتها وفي أي طور من أطوارها، وأنَّه هو الأصل الذي تنبثق منه الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التي ينشئها البشر في حياتهم، وأنَّه يأتي دائمًا سابقًا لها ولا تجيء هي سابقة له بحال من الأحوال، لأنَّ المادة تسبق الوعي ولا يمكن للوعي أن يسبق المادة؛ وأنَّ الوضع المادِّيَّ والاقتصاديَّ في تطوُّرٍ دائم، ومن ثم فإنَّ الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التي تنبثق عنه دائمة التطور كذلك، بحكم ارتباطها بالوضع الماديِّ والاقتصاديِّ وانبثاقها عنه.

٣- المذهب الاقتصاديُّ الشيوعيُّ مع الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة المصاحبة له: تقوم النظريَّة الشيوعيَّة الاقتصاديَّة على مجموعة من الأسس والمبادئ يمكن تلخيصها في النقاط الآتية: إلغاء الملكيَّة الفرديَّة إلغاء باتًّا وإحلال الملكيَّة الجماعيَّة بدلًا منها. إلغاء الطبقات بإقامة دكتاتوريَّة البروليتاريا وإبادة الطبقات الأخرى. كفالة الدولة لجميع المواطنين في مقابل تكليف القادرين منهم بالعمل رجالًا ونساء. المساواة في الأجور. إلغاء الدين. تطبيق مبدأ: من كل بحسب طاقته، ولكل بحسب حاجته. إلغاء الصراع من المجتمع البشري بإلغاء الباعث عليه وهو الملكيَّة الفرديَّة. إلغاء الحكومة في المستقبل، وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة.

هذا بجانب الأفكار والمعتقدات الآتية:

- إنكار وجود الله تعالى وكلِّ الغيبيات، والقول بأنَّ المادة هي أساس كل شيء، وشعارهم: نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكيَّة الخاصة، عليهم من الله ما يستحقُّون.

- فسروا تاريخ البشرية بالصراع بين البرجوازيَّة والبروليتاريا (الرأسماليين والفقراء)، وينتهي هذا الصراع حسب زعمهم بدكتاتوريَّة البروليتاريا.

- يحاربون الأديان ويعتبرونها وسيلة لتخدير الشعوب، وخادمًا للرأسماليَّة والإمبريالية والاستغلال، مستثنين من ذلك اليهوديَّة لأنَّ اليهود شعب مظلوم يحتاج إلى دينه ليستعيد حقوقه المغتصبة!!

- يحاربون الملكيَّة الفرديَّة، ويقولون بشيوعيَّة الأموال وإلغاء الوراثة.

- تتركز اهتماماتهم في كلِّ ما يتعلق بالمادَّة وأساليب الإنتاج.

- إنَّ كل تغيير في العالم في نظرهم إنما هو نتيجة حتمية لتغيّر وسائل الإنتاج، وإنَّ الفكر والحضارة والثقافة هي وليدة التطور الاقتصادي.

- يقولون بأنَّ الأخلاق نسبيَّة وهي انعكاس لآله الإنتاج.

- يحكمون الشعوب بالحديد والنار ولا مجال لإعمال الفِكر، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

- يعتقدون بأنَّه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب في غير هذه الحياة الدنيا.

- يؤمنون بأزليَّة المادة، وأنَّ العوامل الاقتصاديَّة هي المحرك الأول للأفراد والجماعات.

- يقولون بدكتاتوريَّة الطبقة العاملة، ويبشرون بالحكومة العالمية.

- تؤمن الشيوعيَّة بالصراع والعنف، وتسعى لإثارة الحقد والضغينة بين العمال وأصحاب الأعمال.

- الدولة هي الحزب والحزب هو الدولة.

- تنكر الماركسيَّة الروابط الأسريَّة، وترى فيها دعامة للمجتمع البرجوازي، وبالتالي لا بد من أن تحلَّ محلها الفوضى الجنسيَّة.

- لا يحجمون عن أي عملٍ مهما كانت بشاعته في سبيل غايتهم، وهي أنَّ يصبح العالم شيوعيًّا تحت سيطرتهم. قال لينين: إنَّ هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء، إنَّما الشيء المهمُّ هو أن يصبح الربع الباقي شيوعيًّا. وهذه القاعدة طبَّقوها في روسيا أيَّام الثورة وبعدها، وكذلك في الصِّين وغيرها، إذ أبيدت ملايين من البشر، كما أنَّ اكتساحهم لأفغانستان بعد أن اكتسحوا الجمهوريات الإسلاميَّة الأخرى كبُخارى وسمرقند وبلاد الشيشان والشركس، إنَّما ينضوي تحت تلك القاعدة االإجراميَّة.

- يهدمون المساجد ويحولونها إلى دور ترفيه ومراكز للحزب، ويمنعون المسلم إظهار شعائر دينيَّة، أمَّا اقتناء المصحف فهو جريمة يعاقب عليها بالسجن لمدة سنة كاملة.

- لقد كان توسعهم على حساب المسلمين، فكان أن احتلُّوا بلادهم، وأفنوا شعوبهم، وسرقوا ثرواتهم، واعتدوا على حرمة دينهم ومقدَّساتهم.

- يعتمدون على الغدر والخيانة والاغتيالات؛ لإزاحة الخصوم ولو كانوا من أعضاء الحزب.

الانتشار ومواقع النفوذ

- حكمت الشيوعيَّة عدة دول منها: الاتحاد السوفيتي، الصين، تشيكوسلوفاكيا، المجر، بلغاريا، بولندا، ألمانيا الشرقيَّة، رومانيا، يوغسلافيا، ألبانيا، كوبا، فيتنام.

ومعلوم أنَّ دخول الشيوعيَّة إلى هذه الدول كان بالقوة والنار والتسلط الاستعماري. ولذلك فإنَّ جل شعوب هذه الدول أصبحت تتململ بعد أن عرفت الشيوعيَّة على حقيقتها، وأنَّها ليست الفردوس الذي صور لهم، وبالتالي بدأت الانتفاضات والثورات تظهر هنا وهناك، كما حدث في بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا، كما أنَّك لا تكاد تجد دولتين شيوعيتين في وئام دائم.

- أمَّا في العالم الإسلامي فقد استفاد الشيوعيون من جهل بعض الحكام وحرصهم على تدعيم كراسيهم، ولو على حساب الدين، إذ اكتسحت الشيوعيَّة أفغانستان وشردت شعبها المسلم كما تحكَّمت في بعض الدول الإسلاميَّة الأخرى بواسطة عملائها.

- تقوم الدول الشيوعيَّة بتوزيع ملايين الكتيِّبات والنشرات مجانًا في جميع أنحاء العالم داعية إلى مذهبها.

- أسست الشيوعيَّة أحزابًا لها في كل الدول العربيَّة والإسلاميَّة تقريبًا، فنجد لها أحزابًا في مصر، وسورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن، وتونس، وغيرها.

- إنهم يؤمنون بالأممية، ويسعون لتحقيق حلمهم بالحكومة العالميَّة التي يبشرون بها.

انهيار الماركسية

- انهارت الشيوعيَّة في معاقلها بعد قرابة السبعين عامًا من قيام الحكم الشيوعي، وبعد أربعين عامًا من تطبيق أفكارها في أوربَّا الشرقيَّة، وأعلن كبار المسئولين في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه أنَّ الكثير من المبادئ الماركسيَّة لم تعد صالحة للبقاء، وليس بمقدورها أن تواجه مشاكل ومتطلبات العصر مما تسبب في تخلف البلدان التي تطبق هذا النظام عن مثيلاتها الرأسماليَّة. وهكذا يتراجع دعاة الفكر الماديّ الشيوعيّ عن تطبيقه؛ لعدم واقعيته وتخلفه عن متابعة التطور الصناعيّ والعلميّ، وتسببه في تدهور الوضع الاقتصاديّ، وهدم العلاقات الاجتماعيَّة، وإشاعة البؤس والحرمان والظلم والفساد، ومصادمة الفطرة ومصادرة الحرِّيَّات ومحاربة الأديان. وقد تأكَّد بوضوح بعد التطبيق لهذه الفترة الطويلة أنَّ من عيوب الماركسيَّة أنَّها تمنع الملكيَّة الفرديَّة وتحاربها وتلغي الإرث الشرعيّ، وهذا مخالف للفطرة وطبائع الأشياء، ولا تعطي الحرِّيَّة للفرد في العمل وناتج العمل، ولا تقيم العدالة الاجتماعيَّة بين أفراد المجتمع، وأنَّ الشيوعيَّ يعمل لتحقيق مصلحته ولو هدم مصالح الآخرين، وينحصر خوفه في حدود رقابة السلطة وسوط القانون، وأنَّ الماركسيَّة تهدم أساس المجتمع وهو الأسرة فتقضي بذلك على العلاقات الاجتماعيَّة.

- اقتنع الجميع بأنَّها نظريَّة فاسدة يستحيل تطبيقها، إذ تحمل في ذاتها بذور فنائها. وقد ظهر لمن

مارسوها عدم واقعيتها وعدم إمكانيَّة تطبيقها، ومن أكبر ناقدي الماركسيَّة من الماركسيين أنفسهم الفيلسوف الأمريكي أريخ مزوم في كتابه المجتمع السليم، ومن غير الماركسيِّين كارل بوبر صاحب كتاب المجتمع المفتوح، وغيرهما، ويجيء جورباتشوف كتابه البيروسريكا أو إعادة البناء ليفضح عيوب تطبيق الشيوعيَّة في الاتحاد السوفيتي.

وتبيَّن بعد انهيارها أنَّها لم تفلح في القضاء على القوميَّات المتنافرة، بل زادتها اشتعالًا، ولم تسمح بقدر ولو ضئيل من الحرِّيَّة بل عمدت دائمًا إلى سياسة الظلم والقمع والنفي والقتل وحولت أتباعها إلى قطيع من البشر. وهكذا باءت جميع نبوءات كارل ماركس بالفشل، وأصبح مصير النظريَّة إلى مزبلة التاريخ، ثم انتهى الأمر بتفكك الاتحاد السوفيتي ذاته، وأصبح اسمه مجرد أثر في تاريخ المذاهب الهدامة[١].

الراسماليَّة

التعريف:

الرأسمالية نظامٌ اقتصاديٌّ ذو فلسفة اجتماعيَّة وسياسيَّة، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضروريَّة والكماليَّة، وتنمية الملكيَّة الفرديَّة والمحافظة عليها، متوسِّعًا في مفهوم الحرِّيَّة، معتمدًا على سياسة فصل الدين نهائيًّا عن الحياة. ولقد ذاق العلم بسببه ويلات كثيرة نتيجة إصراره على كون المنفعة واللَّذَّة هما أقصى ما يمكن تحقيقه من السعادة للإنسان. وما تزال الرأسماليَّة تمارس ضغوطها وتدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي وترمي بثقلها على مختلف شعوب الأرض.

تاريخ الرأسماليَّة

- كانت أوربَّا محكومة بنظام الإمبراطوريَّة الرومانيَّة التي ورثها النظام الإقطاعيّ.

- لقد ظهرت ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر الطبقة البرجوازيَّة تالية لمرحلة الإقطاع ومتداخلة معها.

- تلت مرحلةَ البرجوازيَّة مرحلةُ الرأسماليَّة وذلك منذ بداية القرن السادس عشر ولكن بشكل متدرج.

- فقد ظهرت أولًا الدَّعوة إلى الحرِّيَّة وكذلك الدعوة إلى إنشاء القوميَّات اللادينيَّة.

- ظهر المذهب الحرّ (الطبيعي) في النِّصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا حيث ظهر الطبيعيُّون ومن أشهر دعاة هذا المذهب:

- فرنسوا كنزني ١٦٩٤- ١٧٧٨م ولد في فرساي بفرنسا، وعمل طبيبًا في بلاط لويس الخامس عشر، لكنَّه اهتم بالاقتصاد وأسس المذهب الطبيعي، فلقد نشر في سنة ١٧٥٦م مقالين عن

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩١٩- ٩٢٤)، مذاهب فكرية معاصرة.

الفلاحين وعن الجنوب، ثم أصدر في سنة ١٧٥٨م الجدول الاقتصادي، وشبَّه فيه تداول المال داخل الجماعة بالدورة الدمويَّة.

وقد قال ميرابو حينذاك عن هذا الجدول بأنَّه: يوجد في العالم ثلاثة اختراعات عظيمة هي الكتابة والنقود والجدول الاقتصادي.

- جول لوك ١٦٣٢- ١٧٠٤م صاغ النظريَّة الطبيعيَّة الحرة إذ يقول عن الملكيَّة الفرديَّة: وهذه الملكيَّة حق من حقوق الطبيعة، وغريزة تنشأ مع نشأة الإنسان، فليس لأحد أن يعارض هذه الغريزة.

- ومن ممثلي هذا الاتجاه أيضًا تورجو، وميرابو، وجان باتست ساي، وباستيا.

- ظهر بعد ذلك المذهب الكلاسيكي الذي تبلورت أفكاره على أيدي عدد من المفكرين من أبرزهم:

- آدم سميث ١٧٢٣- ١٧٩٠م وهو أشهر الكلاسيكيِّين على الإطلاق، ولد في مدينة كيركالدي في اسكوتلنده، ودرس الفلسفة، وكان أستاذًا لعلم المنطق في جامعة جلاسجو. سافر إلى فرنسا سنة ١٧٦٦م والتقى هناك بأصحاب المذهب الحرِّ. وفي سنة ١٧٧٦م أصدر كتابه بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم، هذا الكتاب الذي قال عنه أحد النُّقَّاد وهو أدمون برك: إنَّه أعظم مؤلف خطه قلم إنسان.

- دافيد ريكاردو ١٧٧٢- ١٨٢٣م قام بشرح قوانين توزيع الدخل في الاقتصاد الرأسماليِّ، وله النظريَّة المعروفة باسم قانون تناقص الغلة. ويقال بأنَّه كان ذا اتِّجاهٍ فلسفيٍّ ممتزج بالدوافع الأخلاقيَّة لقوله: إنَّ أيَّ عملٍ يعتبر منافيًا للأخلاق ما لم يصدر عن شعور بالمحبَّة للآخرين.

- جون استيوارت مل ١٨٠٦- ١٨٧٣م يعدُّ حلقة اتصال بين المذهب الفرديِّ والمذهب الاشتراكيِّ، فقد نشر سنة ١٨٣٦م كتابه مبادئ الاقتصاد السياسيِّ.

- اللورد كينز ١٨٨٣- ١٩٤٦م صاحب النظريَّة التي عرفت باسمه التي تدور حول البطالة والتشغيل، وقد تجاوزت غيرها من النظريات إذ يرجع إليه الفضل في تحقيق التشغيل الكامل للقوة العاملة في المجتمع الرأسماليِّ. وقد ذكر نظريته هذه ضمن كتابه النظريَّة العامة في التشغيل والفائدة والنقود الذي نشره سنة ١٩٣٦م.

- دافيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦م صاحب نظريَّة النفعيَّة Pragmatism التي وضعها بشكل متكامل والتي تقول بأنَّ «الملكيَّة الخاصَّة تقليد اتَّبعه الناس وينبغي عليهم أن يتَّبعوه لأنَّ في ذلك منفعتهم».

- أدمون برك من المدافعين عن الملكيَّة الخاصَّة على أساس النظريَّة التاريخيَّة أو نظريَّة تقادم الملكيَّة.

أسس الرأسماليَّة:

- البحث عن الربح بشتَّى الطرق والأساليب، إلا ما تمنعه الدولة لضرر عام كالمخدرات مثلًا.

- تقديس الملكيَّة الفرديَّة، وذلك بفتح الطريق لأنَّ يستغل كلّ إنسان قدراته في زيادة ثروته وحمايتها، وعدم الاعتداء عليها، وتوفير القوانين اللازمة لنموها واطرادها، وعدم تدخُّل الدولة في الحياة الاقتصاديَّة، إلا بالقدر الذي يتطلبه النظام العام وتوطيد الأمن.

- المنافسة والمزاحمة في الأسواق Perfect Competition.

- نظام حريَّة الأسعار Price System، وإطلاق هذه الحريَّة وفق متطلبات العرض والطلب، واعتماد قانون السعر المنخفض في سبيل ترويج البضاعة وبيعها.

أشكال الرأسماليَّة

- الرأسماليَّة التجاريَّة التي ظهرت في القرن السادس عشر إثر إزالة الإقطاع، إذ أخذ التاجر يقوم بنقل المنتجات من مكان إلى آخر، حسب طلب السوق، فكان بذلك وسيطًا بين المنتج والمستهلك.

- الرأسماليَّة الصناعيَّة التي ساعد على ظهورها تقدم الصناعة، وظهور الآلة البخاريَّة التي اخترعها جيمس وات سنة ١٧٧٠م، والمغزل الآلي سنة ١٧٨٥م، مما أدَّى إلى قيام الثورة الصناعيَّة في إنجلترا أولًا، وفي أوربًا عامَّة إبان القرن التاسع عشر. وهذه الرأسماليَّة الصناعيَّة تقوم على أساس الفصل بين رأس المال وبين العامل، أي بين الإنسان وبين الآلة.

- نظام الكارتل Cartel System الذي يعني اتفاق الشركات الكبيرة على اقتسام السوق العالميَّة فيما بينها، مما يعطيها فرصة احتكار هذه الأسواق وابتزاز الأهالي بحرِّيَّة تامَّة. وقد انتشر هذا المذهب في ألمانيا واليابان.

- نظام الترست Trust System والذي يعني تكوُّن شركة من الشركات المتنافسة؛ لتكون أقدر في الإنتاج وأقوى في التحكُّم والسيطرة على السوق.

أفكار معتقدات أخرى:

- إنَّ المذهب الطبيعي الذي هو أساس الرأسماليَّة إنَّما يدعو إلى أمور منها:

- الحياة الاقتصاديَّة تخضع لنظام طبيعي ليس من وضع أحد، إذ يحقق بهذه الصفة نموًّا للحياة وتقدُّمًا تلقائيًّا لها.

- إنَّه يدعو إلى عدم تدخُّل الدولة في الحياة الاقتصاديَّة، وأن تقصر مهمتها على حماية الأفراد والأموال والمحافظة على الأمن والدفاع عن البلاد.

- الحريَّة الاقتصاديَّة لكلِّ فرد، إذ إنَّ له الحقَّ في ممارسة واختيار العمل الذي يلائمه. وقد عبَّروا عن ذلك بالمبدأ المشهور: «دعه يعمل دعه يمر».

- إنَّ إيمان الرأسماليَّة بالحريَّة الواسعة أدى إلى فوضى في الاعتقاد وفي السلوك، مما تولدت عنه هذه الصراعات الغريبة التي تجتاح العالم معبرة عن الضياع الفكريِّ والخواء الروحيِّ.

- إنَّ انخفاض الأجور وشدة الطلب على الأيدي العاملة دفع الأسرة لأنَّ يعمل كل أفرادها، مما أدى إلى تفكك عرى الأسرة وانحلال الروابط الاجتماعيَّة فيما بينها.

- من أهم آراء آدم سميث أنَّ نموَّ الحياة الاقتصاديَّة وتقدُّمها وازدهارها إنَّما يتوقف على الحريَّة الاقتصاديَّة، وتتمثل هذه الحرية في نظره بما يلي:-

- الحريَّة الفرديَّة التي تتيح للإنسان حريَّة اختيار عمله الذي يتفق مع استعداداته، ويحقق له الدخل المطلوب.

- يرى الرأسماليُّون أنَّ الحريَّة ضروريَّة للفرد من أجل تحقيق التوافق بينه وبين المجتمع، ولأنَّها قوة دافعة للإنتاج، لكونها حقًّا إنسانيًّا يعبر عن الكرامة البشريَّة.

عيوب الرأسماليَّة

الرأسماليَّة نظام وضعي يقف على قدم المساواة مع الشيوعيَّة وغيرها من النظم التي وضعها البشر، بعيدًا عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده ولخلقه من بني الإنسان، ومن عيوبها:

- **الأنانيَّة**: إذ يتحكَّم فرد أو أفراد قلائل في الأسواق؛ تحقيقًا لمصالحهم الذاتيَّة، دون تقدير لحاجة المجتمع أو احترام للمصلحة العامَّة.

- **الاحتكار**: إذ يقوم الشخص الرأسمالي باحتكار البضائع وتخزينها، حتى إذا ما فقدت من الأسواق نزل بها ليبيعها بسعر مضاعف يبتز به المستهلكين الضعفاء.

- لقد تطرفت الرأسماليَّة في تضخيم شأن الملكيَّة الفرديَّة، كما تطرفت الشيوعيَّة في إلغاء هذه الملكيَّة.

- **المزاحمة والمنافسة**: إنَّ بنية الرأسماليَّة تجعل الحياة ميدان سباق مسعور إذ يتنافس الجميع في سبيل إحراز الغلبة، وتتحول الحياة عندها إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، وكثيرًا ما يؤدي ذلك إلى إفلاس المصانع والشركات بين عشية وضحاها.

- **ابتزاز الأيدي العاملة**: ذلك أنَّ الرأسماليَّة تجعل الأيدي العاملة سلعة خاضعة لمفهومي العرض والطلب، مما يجعل العامل معرضًا في كلِّ لحظة لأنَّ يُستبدَل به غيره، ممن يأخذ أجرًا أقل أو يؤدي عملًا أكثر أو خدمة أفضل.

- **البطالة**: وهي ظاهرة مألوفة في المجتمع الرأسمالي، وتكون شديدة البروز إذا كان الإنتاج أكثر من الاستهلاك، مما يدفع بصاحب العمل إلى الاستغناء عن الزيادة في هذه الأيدي التي تثقل كاهله.

- **الحياة المحمومة**: وذلك نتيجة للصراع القائم بين طبقتين إحداهما مبتزة يهمها جمع المال بكلِّ

السبل، وأخرى محروقة تبحث عن المقومات الأساسيَّة لحياتها، دون أن يشملها شيء من التراحم والتعاطف المتبادل.

- الاستعمار: ذلك أنَّ الرأسماليَّة بدافع البحث عن المواد الأوليَّة، وبدافع البحث عن أسواق جديدة لتسويق المنتجات، تدخل في غمار استعمار الشعوب والأمم استعمارًا اقتصاديًا أولًا، وفكريًا وسياسيًا وثقافيًا ثانيًا، وذلك فضلًا عن استرقاق الشعوب وتسخير الأيدي العاملة فيها لمصلحتها.

- الحروب والتدمير: فلقد شهدت البشريَّة ألوانًا عجيبة من القتل والتدمير؛ وذلك نتيجة طبيعيَّة للاستعمار الذي أنزل بأمم الأرض أفظع الأهوال وأشرسها.

- الرأسماليُّون يعتمدون على مبدأ الديمقراطيَّة في السياسة والحكم، وكثيرًا ما تجنح الديمقراطيَّة مع الأهواء بعيدة عن الحقِّ والعدل والصواب، وكثيرًا ما تستخدم لصالح طائفة الرأسماليِّين أو من يسمون أيضًا (أصحاب المكانة العالية).

- إنَّ النظام الرأسماليَّ يقوم على أساس ربويٍّ، ومعروف أنَّ الربا هو جوهر العلل التي يعاني منها العالم أجمع.

- إنَّ الرأسماليَّة تنظر إلى الإنسان على أنَّه كائن ماديٌّ، وتتعامل معه بعيدًا عن ميوله الروحيَّة والأخلاقيَّة، داعية إلى الفصل بين الاقتصاد وبين الأخلاق.

- تعمد الرأسماليَّة إلى حرق البضائع الفائضة، أو تقذفها في البحر خوفًا من أن تتدنى الأسعار لكثرة العرض، وبينما هي تقدم على هذا الأمر تكون كثير من الشعوب أشدَّ معاناة وشكوى من المجاعات التي تجتاحها.

- يقوم الرأسماليُّون بإنتاج المواد الكماليَّة، ويقيمون الدعايات الهائلة لها، دونما التفات إلى الحاجات الأساسيَّة للمجتمع؛ ذلك أنهم يفتشون عن الربح والمكسب أولًا وآخرًا.

- يقوم الرأسماليُّ في أحيانٍ كثيرة بطرد العامل عندما يكبر، دون حفظ لشيخوخته، إلَّا أنَّ أمرًا كهذا أخذت تخف حدته في الآونة الأخيرة بسبب الإصلاحات التي طرأت على الرأسماليَّة، والقوانين والتشريعات التي سنتها الأمم لتنظيم العلاقة بين صاحب رأس المال والعامل.

- الإصلاحات التي طرأت على الرأسماليَّة:

- كانت إنجلترا حتى سنة ١٨٧٥م من أكبر البلاد الرأسماليَّة تقدُّمًا. ولكن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت كلٌّ من الولايات المتَّحدة وألمانيا، وبعد الحرب العالميَّة الثانية ظهرت اليابان.

- في عام ١٩٣٢م باشرت الدولة تدخُّلها بشكل أكبر في انجلترا، وفي الولايات المتَّحدة زاد تدخُّل الدولة ابتداء من سنة ١٩٣٣م، وفي ألمانيا بدءًا من العهد الهتلري وذلك لأجل المحافظة على

استمراريَّة النِّظام الرأسماليِّ.

- لقد تمثَّل تدخل الدَّولة في المواصلات والتعليم ورعاية حقوق المواطنين وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعيَّة، كالضمان الاجتماعي والشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحيَّة وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة.

- لقد توجهت الرأسماليَّة هذا التوجه الإصلاحي الجزئي؛ بسبب ظهور العمال قوة انتخابيَّة في البلدان الديمقراطيَّة؛ وبسبب لجان حقوق الإنسان، ولوقف المد الشيوعي الذي يتظاهر بنصرة العمال ويدعي الدفاع عن حقوقهم ومكتسباتهم.

أفكار ومعتقدات للرأسمالية

- تقوم جذور الرأسماليَّة على شيءٍ من فلسفة الرومان القديمة، يظهر ذلك في رغبتها في امتلاك القوة وبسط النفوذ والسيطرة.

- لقد تطوَّرت متنقلة من الإقطاع إلى البرجوازيَّة إلى الرأسماليَّة، وخلال ذلك اكتسبت أفكارًا ومبادئ مختلفةً تصب في تيَّار التوجه نحو تعزيز الملكيَّة الفرديَّة والدعوة إلى الحرِّيَّة.

- قامت الرأسمالة في الأصل على أفكار المذهب الحرِّ والمذهب الكلاسيكيِّ.

- إنَّ الرأسماليَّة تناهض الدين، متمرِّدة على سلطان الكنيسة أولًا، وعلى كلِّ قانونٍ أخلاقيٍّ أخيرًا.

- لا يهم الرأسماليَّة من القوانين الأخلاقيَّة إلا ما يحقق لها المنفعة، ولا سيما الاقتصاديَّة منها على وجه الخصوص.

- كان للأفكار والآراء التي تولدت نتيجة للثورة الصناعيَّة في أوربَّا دور بارز في تحديد ملامح الرأسماليَّة.

- تدعو الرأسماليَّة إلى الحرِّيَّة، وتتبنَّى الدفاع عنها، لكنَّ الحرِّيَّة السياسيَّة تحوَّلت إلى حرِّيَّة أخلاقيَّة واجتماعيَّة، ثم تحوَّلت هذه بدورها إلى إباحيَّة.

الانتشار ومواقع النفوذ

- ازدهرت الرأسماليَّة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وفي معظم العالم الغربي.

- كثير من دول العالم تعيش في جوٍّ من التبعيَّة إمَّا للنظام الشيوعي وإمَّا للنظام الرأسمالي، وتتفاوت هذه التبعيَّة بين التدخُّل المباشر وبين الاعتماد عليهما في الشئون السياسيَّة والمواقف الدوليَّة.

- وقف النظام الرأسمالي، مثله مثل النظام الشيوعيِّ، إلى جانب إسرائيل دعمًا وتأييدًا بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ.

الإسلام والرأسمالية

إنَّ الرأسماليَّة مذهب ماديٌّ جَشِعٌ يغفل القيم الروحيَّة في التعامل مع المال، مما يزيد الأغنياء غنًى والفقراء فقرًا. وتعمل أمريكا الآن باعتبارها زعيمة هذا المذهب على ترقيع الرأسماليَّة في دول العالم الثالث، بعد أن انكشفت عوارها ببعض الأفكار الاشتراكيَّة، محافظة على مواقعها الاقتصاديَّة، وكي تبقى سوقًا للغرب الرأسمالي وعميلًا له في الإنتاج والاستهلاك والتوزيع. وما يراه البعض من أنَّ الإسلام يقترب في نظامه الاقتصاديِّ من الرأسماليَّة خطأ واضح يتجاهل عددًا من الاعتبارات:

- إنَّ الإسلام نظام رباني يشمل أفضل ما في الأديان والمذاهب من إيجابيَّات، ويسلم ممَّا فيها من سلبيَّات، إذ إنَّه شريعة الفطرة تحلل ما يصلحها وتحرم ما يفسدها.

- إنَّ الإسلام وُجِدَ وطُبِّقَ قبل ظهور النظم الرأسماليَّة والاشتراكيَّة، وهو نظام قائم بذاته، والرأسماليَّة تنادي بإبعاد الدين عن الحياة، وهو أمر مخالف لفطرة الإنسان، كما تزن أقدار الناس بما يملكون من مال، والناس في الإسلام يتفاضلون بالتقوى.

- ترى الرأسماليَّة أنَّ الخمر والمخدرات تلبي حاجات بعض أفراد المجتمع، وكذلك الأمر بالنسبة لخدمات راقصة البالية، وممثلة المسرح، وأندية العراة، ومن ثم تسمح بها دون اعتبار لما تسببه من فساد، وهي أمور لا يقرها الضمير الإسلامي. وفي سبيل تنمية رأس المال تسلك كلَّ الطرق دونما وازع أخلاقيٍّ مانع فالغاية عندهم دائمًا تبرر الوسيلة.

- النواحي الاقتصاديَّة في الإسلام مقيدة بالشرع وما أباحه أو حرمه، ولا يصحُّ أن نعتبر الأشياء نافعة لمجرد وجود من يرغب في شرائها، بصرف النظر عن حقيقتها واستعمالها من حيث الضرر أو النفع.

- القول بأنَّ الندرة النسبيَّة هي أصل المشكلة الاقتصاديَّة قول مخالف للواقع، فالمولى سبحانه وتعالى خلق الكون والإنسان والحياة وقدر الأقوات، بما يفي بحياة البشريَّة، وقدّر الأرزاق وأمر بالتكافل بين الغني والفقير.

- أدَّى النظام الرأسمالي إلى مساوئ وويلات، وأفرز ما يعانيه العالم من استعمار ومناطق نفوذ وغزو اقتصادي، ووضع معظم ثروات العالم في أيدي الاحتكارات الرأسماليَّة وديون تراكميَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩١٠- ٩١٨).

الديمقراطيَّة

التعريف:

الديمقراطيَّة نظام للحكم يكون الشعب فيه رقيبًا على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابيَّة، ويكون لنوَّاب الأمَّة سلطة إصدار القوانين.

والديمقراطيَّة Democracy كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين Demos أي الشعب، و Kratos أي سلطة، ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب.

وتُعرَّف بأنَّها نظام سياسيٌّ يوفر فرصة المشاركة لكلِّ أعضاء المجتمع الذين لهم حقُّ التصويت في اتِّخاذ القرارات التي تؤثر في حياتهم الفرديَّة والجماعيَّة على حدٍّ سواء في أي من المجالات الاجتماعيَّة أو السياسيَّة.

تاريخ الديمقراطيَّة

أول من مارس الديمقراطيَّة هم الإغريق في مدينتي أثينا وإسبرطة، حيث كانت تقوم في كل من المدينتين حكومة، يطلق عليها اصطلاحًا اسم: حكومة المدينة، أي الحكومة التي تقوم في مدينة واحدة مفردة، وكان كلّ أفراد الشعب من الرجال في كل من المدينتين يشاركون في حكم المدينة، فيجتمعون في هيئة جمعيَّة عموميَّة في العام أربعين مرة، فيتشاورون في كلِّ أمور الحكم، فينتخبون الحاكم ويصدرون القوانين ويشرفون علي تنفيذها ويضعون العقوبات علي المخالفين فكان حكم الشعب مطبقا بصورة مباشرة في كل من المدينتين، وكانت التسمية منطبقة علي الواقع انطباقًا كاملًا.

وفي ظل الإمبراطوريَّة الرومانيَّة والقانون الروماني ظل الإقطاع يحكم أوربًا أكثر من ألف عام، وفي ظلّه لم يكن للشعب وجود إلا بوصفه قطعًا آدميَّة لاصقة بالطين، لا كرامة لها ولا حقوق، وكان هناك ملوك مستبدون بالحكم يحكمون بمقتضي الحقِّ الإلهي المقدس، باعتبارهم ظلَّ الله في الأرض، فكلامهم أمر، وأمرهم مقدَّس، وما عنَّ لهم من أهواء فهي أوامر واجبة التنفيذ، ويعاونهم في تثبيت سلطانهم أمراء الإقطاعيات الواقعة في ملكهم، مقابل إطلاق يد هؤلاء الأمراء -الذين يسمون: النبلاء أو الإشراف- في إقطاعياتهم، يتصرفون فيها كيف شاءوا دون مراجعة ولا رقابة تضبط تصرفاتهم، وهم يمثلون السلطة التشريعيَّة والسلطة القضائيَّة والسلطة التنفيذيَّة جميعًا في آن واحد.

وإلي جانب الملوك والنبلاء كانت سلطة الكنيسة ورجال الدين، وكانت منصبة في النهاية كذلك علي الشعب، فإلي جانب الخضوع المذلّ لرجال الدين -وهو حقّ مقدَّس لهم- كانت هناك الإتاوات والعشور، والسخرة المجانيَّة في أرض الكنسية، والتجنيد في جيوش الكنيسة التي كانت

توجهها لتأديب الخارجين علي سلطانها من الأباطرة والملوك.

ونتيجة لاحتكاك الأوربيّين بالمسلمين في الحروب الصليبيَّة وفي حركة المبتعثين من بلاد أوربَّا لتلقِّي العلم في بلاد الإسلام تفجَّرت الثورة الفرنسيَّة وهي محمَّلة بكلِّ هذه المظالم المتراكمة، فارتدت إلي تراثها الإغريقيّ الرومانيّ تبحث فيه عن حلول مشكلاتها، ووقع اختيار أوربَّا علي الديمقراطيَّة بديلًا من الإقطاع.

وكان نقطتا الانطلاق لهم:

أولًا: وجوب إشراف الشعب علي أعمال الحكومة، أي إلغاء الحقّ الإلهيّ المقدَّس وإخضاع الحكومة لرقابة الشعب علي تصرفاتها، وفصل السلطات، وجعل الحكومة سلطة تنفيذيَّة فحسب، لا سلطة تشريعيَّة.

وثانيًا: إعطاء الشعب حقوقه الإنسانيَّة التي حرم منها أكثر من ألف عام في ظل نظام الإقطاع.

وبعد نضال وكفاح استمرَّ قرابة قرنٍ من الزمان استقرَّت الديمقراطيَّة في صورتها الحالية عن طريق التمثيل النيابي لأفراد الشعب في المجالس والبرلمانات، التي نراها في دول غرب أوربَّا وأمريكا، علي اختلاف بينها في الجزئيَّات لا يؤثر في صورتها العامة ومبادئها الرئيسيَّة.

وفي العالم الإسلامي قاد التيار القومي العربي الأمَّة بعد الحرب العالميَّة الأولى، وارتبط هذا التيار آنذاك بالديمقراطيَّة، وأقام تجارب ديمقراطيَّة في مختلف الدول التي تكونت آنذاك: العراق وسورية ولبنان والأردن... إلخ، وكانت التجربة الأبرز في العراق، الذي استقلَّ مبكرًا في عام ١٩٣٢م. ولكنَّه لم ينجح التيَّار القومي العربي في إرساء النموذج الديمقراطي.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد أمريكا بحكم العالم كقوَّة عظمى وبجانبها بعض الدول الأوربيَّة تم توجيه النظم الديمقراطيَّة لتطبيقها في الدُّول الإسلاميَّة بصورة كبيرة من خلال أطر السياسات الأمريكيَّة والأوربيَّة والصهيونيَّة.

أفكار ومبادئ الديمقراطيَّة

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ أنَّ الشعب هو مصدر السلطات بما في ذلك السلطة التشريعيَّة، ويتم ذلك عن طريق اختيار ممثلين عن الشعب ينوبون عنه في مهمَّة التشريع وسن القوانين، فالمشرع المطاع في الديمقراطيَّة هو الإنسان.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ حرِّيَّة التدين والاعتقاد، فللمرء في ظلِّ الأنظمة الديمقراطيَّة أن يعتقد ما يشاء، ويتديَّن بالدين الذي يشاء، ويرتد إلى أي دين وقتما يشاء، وإن كان هذا الارتداد مؤدَّاه إلى الارتداد عن دين الله تعالى إلى الإلحاد وعبادة غير الله عزَّ وجلَّ.

- تقوم الديمقراطيَّة على اعتبار الشعب حكمًا أوحد ترد إليه النزاعات والخصومات؛ فإذا حصل أي اختلاف أو نزاع بين الحاكم والمحكوم، أو بين القيادة والقاعدة نجد أنَّ كلًا من الطرفين

يهدد الآخر بالرجوع إلى إرادة الشعب، وإلى اختيار الشعب، ليفصل الشعب ما تم بينهما من نزاع أو اختلاف.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ حريَّة التعبير والإفصاح، أيًا كان هذا التعبير، إذ لا يوجد في الديمقراطيَّة شيء مقدَّس يحرم الخوض فيه. وأي إنكار على ذلك يعني إنكار على النظام الديمقراطي الحرِّ برمته، ويعني تحجيم الحريَّات المقدَّسة في نظر الديمقراطيَّة والديمقراطيِّين.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ فصل الدين عن الدولة، وعن السياسة والحياة، فما لله لله؛ وهو فقط العبادة في الصوامع والزوايا، وما سوى ذلك من مرافق الحياة السياسة والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة وغيرها فهي من خصوصيات الشعب.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ الحريَّة الشخصيَّة؛ فللمرء في ظلِّ الديمقراطيَّة أن يفعل ما يشاء، ويمارس ما يشاء، ما لم يتعارض مع القانون الوضعيِّ للبلاد.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ حريَّة تشكيل التجمُّعات والأحزاب السياسيَّة وغيرها، أيًا كانت عقيدة وأفكار وأخلاقيَّات هذه الأحزاب والجماعات.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ اعتبار موقف الأكثريَّة، وتبنِّي ما تجتمع عليه الأكثريَّة، فالحقُّ في نظر الديمقراطيَّة الذي لا يجوز الاستدراك أو التعقيب عليه هو ما تقرره الأكثريَّة وتجتمع عليه لا غير.

- في الديمقراطيَّة كلّ شيء حتَّى ينال القبول يجب أن يخضع للاختيار والتصويت، والاختيار يقع دائمًا كما تقدم على ما تجتمع عليه الأكثريَّة.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع شرائح وأفراد المجتمع بغضِّ النظر عن انتماءاتهم العقديَّة والدينيَّة، والسيرة الذاتيَّة لأخلاق الناس؛ فيستوي في نظر الديمقراطيَّة كافَّة الناس في تحديد من يحكم البلاد والعباد، وغيرها من الحقوق والواجبات.

- تقوم الديمقراطيَّة على نظريَّة أنَّ المالك الحقيقي للمال هو الإنسان، وبالتالي فله أن يكتسب المال بالطرق التي يشاء، كما له أن ينفق ماله بالطرق التي يشاء ويهوى، وهذا ما يسمونه بالنظام الاقتصاديِّ الحرِّ، أو الرأسماليِّ الحرِّ.

نقد الديمقراطيَّة

يتلخَّص نقد الكُتَّاب للديمقراطيَّة في أمور:

١- **ميوعة الاصطلاح**، وصعوبة تحديده بدقَّة علميَّة يمكن بواسطتها التميز بين الحقيقة وبين الادعاء المزيَّف. كل محاولة تستهدف تحديد الاستعمال الصحيح لاصطلاح الديمقراطيَّة، من شأنها أن تواجه مزيدًا من التعقيدات، حتَّى أصبح استخدام اصطلاح الديمقراطيَّة مجرد شعار من الدُّخان، لإخفاء الصراعات، صحيح أنَّ لفظ الديمقراطيَّة يعني عند إطلاقه حكم الشعب، لكن

الآراء تتضارب كثيرًا حول كيفيَّة الحكم ونوعيَّة الاقتراع والتمثيل وشروط المقترعين وتحديد الفئات السياسيَّة.

٢- **الأحزاب المتشاحنة التي لا تعبر عن إرادة الأمَّة**: إنَّ الواقع المحسوس لينطق بصراحة بأنَّ النظام الديمقراطي يقضي على وحدة الأمَّة، ويفتتها إلى تكتلاتٍ متناحرة وأحزابٍ متطاحنة لأسباب لم تكن لتستدعي التكتل والتحزُّب لولا أنَّ النظام نفسه يشجِّع على ذلك ويهيِّئه، ومع خطورة هذا التمزُّق على الأمَّة فإنَّه ينبني عليه أثر خطير بالنسبة لتحقيق مصالح الشعب.

٣- **إيجاد طبقة ثريَّة مسيطرة دكتاتوريَّة**: هذا العيب الخطر ملازم للأنظمة الديمقراطيَّة الغربيَّة، وهو أجلى عيوبها وأبرزها. فمن الحقائق المقررة عالميا أن المصالح الماديَّة هي الدافع الوحيد والمحرك الرئيسي للعمل السياسي، وكلُّ دول العالم الديمقراطي لا تخفي حقيقة أنَّها تعمل جاهدة لحماية امتيازاتها، وضمان تفوقها الاقتصادي، وتوفير المجال الحيوي لشعبها، وهذا هو القناع الظاهري الذي تتستر به إمبراطوريات المال في هذه الدول، والتي تتحكم في السياسة الخارجيَّة والداخليَّة مباشرة أو بطريق الضغط على السلطة الحاكمة. وفيما يحسب الشعب أنَّه سيد نفسه ومقرر مصيره، تقوم الطبقة الرأسماليَّة المحتكرة بسن القوانين لحماية مصالحها، والزج بسياسة الدولة فيما يخدم أغراضها النفعيَّة الخاصَّة.

٤- **تزييف وتطويع الرأي العام**: هذا العيب متلازم والعيب الذي قبله؛ فوجود طبقة ثريَّة مسيطرة يجعل وقوع وسائل الأعلام -المكون الرئيسي للرأي العام- في قبضتها أمرًا طبيعيًا، كما أن خضوع وسائل الإعلام لفئة معينة تتيح لها القدرة على تقوية مركزها ودعم نفوذها السياسي والمالي عن طريق تكوين الرأي العام أو تضليله، مما يضمن فوز المرشحين الموالين لها ونجاح مخططاتها.

٥- **الفتور في تجاوب المواطنين مع العمليَّة الانتخابيَّة**: تدعي الديمقراطيَّة أنَّها حكم الشعب، وأنَّ النوَّاب وأعضاء الحكومة إنما يختارون وفقًا لإرادة الشعب وأنَّهم تبعًا لذلك يمثلون الشعب تمثيلًا صادقًا. ولكن هذه الدعوى يناهضها عزوف نسبة ليست قليلة من الشعب عن الاشتراك في العمليَّة الانتخابيَّة، وتكون النتيجة أنَّ الذي يفوز في الانتخابات، حزبًا أو فردًا -يفوز لأنَّه حصل لا على أصوات أغلبية الشعب، بل على أصوات أغلبيَّة المشتركين فعلًا في الاقتراع. فإذا أضفنا الرافضين للانتخابات إلى الذين دخلوها معارضين، فسنجد غالبًا أنَّ الأغلبيَّة الفائزة في الانتخابات ليست سوى أقلية بالنسبة لمجموع الشعب.

٦- **القضاء على الميزات الفرديَّة**: على الرغم من أنَّ الديمقراطيَّة -في جوهرها- نظام فرديّ، كان وجوده أصلًا بمثابة رد فعل لإهدار الحقوق الفرديَّة في ظلِّ النِّظام الإقطاعي، فإنَّ الفرد الممتاز في الديمقراطيَّة مهضوم الحقِّ بالنسبة لمشاركته في صياغة القرارات التي تتخذها الحكومة.

هذا العيب لفت نظر بعض النُّقَّاد إلى آفة تعاني منها الديمقراطيَّة، فمثلًا في الدول الديمقراطيَّة عند الاقتراع على قضية اقتصاديَّة، حيث يكون نصيب عالم الاقتصاد الضليع صوتًا واحدًا فقط،

وهو ما يحصل عليه الفرد المتوسط أو الجاهل، وغالبًا ما تكون النتيجة في غير صالح الأفراد المتازين بسبب انسياق عامة الشعب وراء عواطفهم وخضوهم للتضليل الدعائي.

٧- **تعارض المصلحة الذاتيَّة للفرد والجماعة:** هذا العيب يلقي ضوءًا على المحك الذي يظهر حقيقة أي نظام أرضي بشري، فالديمقراطيَّة تدَّعي أنَّها النظام الأمثل لتحقيق المصلحة الفرديَّة والجماعيَّة بإتاحتها الفرصة للحصول عليها بطريقة قانونيَّة. لكن المشكلة تكمن في تعارض مصلحة الفرد ذاته -وكذلك الجماعة- بين اتخاذ هذا القرار أو ضده، إذ هو لا يستطيع التوفيق بين مطالبه الخاصة، كما أنَّه لا يستطيع التيقن من كون نتيجة القرار ستحقق هذه المطالب أو تنفيها. فمثلًا رفع الأجور، تطالب نقابات العمال دائمًا برفع الأجور -لكي تكسب أصواتهم- وهي إذ تطالب بذلك تعلم يقينًا أنَّ رفعها يحقق للعمال مصلحة من جهة، لكنَّه يفوتها من جهة أخرى؛ لأنَّه يكون مصحوبًا بارتفاع الأسعار.

٨- **عدم توعية المواطن إلا بما يخدم المرشحين وبما يلبِّي حاجة المواطن المادِّيَّة:** فمثلًا المواطن الأمريكي الذي ينتخب أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئيس الدولة التي تريد أن تحكم العالم هو مواطن ساذج لا يعرف شيئًا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة، وعن آليات الاستغلال الاقتصادي، وهو جاهل بما يجرى في العالم، والحزبان الرئيسيَّان (الديموقراطي والجمهوري) لا يقدمان له برامج توعية سياسيَّة، ويكتفيان بتقديم برامج متناثرة لا يربط أجزاءها رابط، حتى ترضى معظم الأذواق، إن لم يكن كلّها، وهي برامج تختزل تطلعات المواطن إلى بعدها المادي (الاقتصادي والجسماني) وقضيتها الأساسيَّة هي إشباع تطلعاته الاقتصاديَّة بشكل سريع ومباشر، ويتولى الإعلام الترفيه عنه وتفريغه من الداخل، من خلال تصعيد نزعاته الاستهلاكيَّة والجسمانيَّة، وحصره في عالم الحواس والسلع والمادة والأشياء.

٩- **عدم تكافؤ الفرص أمام المرشحين:** فالمعركة الانتخابيَّة في الدول الغربيَّة مثلًا، وخاصة الولايات المتَّحدة، تتكلف مئات الملايين من الدولارت، ومن ثم فلا مكان في هذه المعركة سوى للمرشح الثري الذي يمكنه تدبير الاعتمادات اللازمة للقيام بحملة انتخابيَّة مستمرة وفعالة، أما المرشح الذي لا يملك مثل هذه الإمكانات فمصيره التهميش الإعلامي. ويعني هذا، في عصر سيطرة وسائل الإعلام، أنَّ بوسع أصحاب المصالح وكبار الرأسماليين وجماعات الضغط التأثير في الانتخابات لا بسبب براجمهم السياسيَّة وإنما بسبب ثرواتهم، أو لأسباب أخرى لا علاقة لها بمصلحة الجماهير أو مصلحة الوطن.

١٠- التعدديَّة الديمقراطيَّة في الغرب تعدديَّة في البرامج السياسيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وهذه التعدديات هي تعدديَّة في الفكر السياسي، الذي يخضع لأنظمة الحكم الرأسماليَّة الديمقراطيَّة المتبناة في البلدان الغربيَّة، فلا علاقة لهذه التعدديَّة بالقبليَّة والعشائريَّة، أو بالأعراق والطوائف، كما لا علاقة لها بالأديان والمذاهب، بل تسير في أجواء المبدأ الرأسمالي الذي تسود القناعة به في

بلاد الغرب لتثبيت هذا المبدأ وتقوية التمسك به وتطبيقه. وبالمقابل فالتعدديَّة الديمقراطيَّة التي يريدها الغرب، وبخاصة أمريكا، للبلاد الإسلاميَّة، تعني التعدديَّة القبليَّة والشعوبيَّة، وتعني كذلك التعدديَّة المذهبيَّة والطائفيَّة، وإثارة الفرقة والتجزئة في بلاد المسلمين، فالتعدديَّة المرادة في البلاد الإسلاميَّة هي عنصر من عناصر محاربة مبدئها، ومن عناصر ضعفها، وتخلخلها، وهشاشة مجتمعاتها، وسهولة تفتيتها.

١١- **فقدان المرجعية**: من أهم القضايا التي تواجهها الديمقراطيَّة في التطبيق مشكلة المرجعيَّة النهائيَّة، أي مجموعة القيم التي تحكم الإجراءات الديمقراطيَّة ذاتها. فبوسع ٥١ بالمائة من الناخبين أن يقرروا القانون والحقيقة والقيمة، أي أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعيَّة النهائيَّة، فهي ديمقراطيَّة بلا مرجعيَّة فلسفيَّة أو أخلاقيَّة أو معرفيَّة، ويمكن تسميتها «الديمقراطيَّة الإمبريقيَّة»، أو«الديمقراطيَّة المنفصلة عن القيمة» free democracy-value، شأنها شأن «العلم المنفصل عن القيمة»، و«حرية التعبير المطلقة المنفصلة عن القيمة».

١٢- الصراعات الدائمة بين الأحزاب المنقسمة على بعضها.

١٣- الحكومات التي لم يتجاوز متوسط بقائها في الحكم طيلة نصف قرن ثمانية أشهر.

١٤- المنافسات الحمقاء بين المواطنين.

١٥- عدم وجود سياسة متجانسة لمدى طويل.

١٦- البطء الشديد في تقدم مستوى حياة الجماهير، سياسة الإسكان، عدم كفاية التربية المدنية والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

وملاحظة هذه المساوئ هي التي دفعت بالكاتب الإنجليزى أ. د لندساس إلى القول: إنَّ هناك دائمًا هوةً رهيبة بين النظريات الرفيعة عن الديمقراطيَّة التي نقرأ عنها في كتب النظريَّات السياسيَّة، وبين وقائع السياسة الفعليَّة.

ويقول أحد الفلاسفة البريطانيين المعاصرين: إذا حكمنا على الديمقراطيَّة حكمًا ديمقراطيًّا بعدد من معها وعدد من ضدها من المفكرين، لكانت هي الخاسرة.

المدارس الديمقراطيَّة

ليس هناك مفهوم موحد للديمقراطيَّة، بل هو مبدأ تتعدد مفاهيمه بحسب المدارس الفكريَّة، ومن هذه المدارس: الليبراليَّة، الاشتراكيَّة، الدكتاتوريَّة، المصلحيَّة، الجبريَّة.

أولا: المدرسة الليبراليَّة: وهي المدرسة الديمقراطيَّة بالمفهوم الرأسمالي التقليدي، وتقوم على أسس: الانتخابات. مجلس نيابي. حكومة تنفيذيَّة.

وتتضمن هذه المدرسة: تعدد الأحزاب. فصل السلطات الثلاث: التشريعيَّة، والتنفيذيَّة، والقضائيَّة. استقلال القضاء. وجود ظاهرة الأغلبيَّة والمعارضة في داخل المجلس النيابي.

.سمات هذه المدرسة كما يلي:

١- إن نتائج الانتخابات لا تعبر عن الرأي الحقيقي للناخبين، بسبب الإعلام وغيره.

٢- إن كثيرًا ممن يحق لهم ممارسة الانتخاب لا يحضرون الانتخابات، لأسباب كثيرة.

٣- التساوي في مستويات شرائح الناخبين، فلا فرق بين القائد والطالب . . .

٤- إن طبيعة الوسط الانتخابي، أو بيئته، تترك آثارًا واضحة على العمليَّة الانتخابيَّة.

٥- إن التزوير يكاد يكون الميزة الملتصقة بالانتخابات النيابيَّة باستمرار، وله أشكال شتَّى.

٦- انتهاء الانتخابات النيابيَّة عادة بالشقاق بين الأحزاب والطوائف والقبائل والأفراد.

٧- إن المرشح لا بدَّ أن يكون غنيًا رأسماليًا أو مدعومًا من جهات حزبيَّة؛ لتمويل حملته الانتخابيَّة.

٨- لا يشترط في المرشح أي مواصفات أخلاقيَّة تتعلق بحسن السيرة الذاتيَّة.

٩- المكانة العلميَّة والمستوى الثقافي لهما أثرهما في نجاح المرشح.

١٠- الاستعلاء الشخصي، والحط من قيمة المرشحين الآخرين . . .، من أهم سمات مرشحيها.

١١- إن أكثر الفائزين بكراسي المجالس النيابيَّة يتنكرون لوعودهم لناخبيهم بمجرد فوزهم.

١٢- نبض المجلس النيابي بمناقشاته وقراراته لا يعبر دائمًا عن النبض الشعبي وتوجهاته.

١٣- إن المجلس النيابي يتمتع بصلاحيات مطلقة، وله الحريَّة التامَّة في اتخاذ أي قرار مهما كان منافيًا للدين أو القيم الإنسانيَّة المعتبرة عرفًا.

١٤- يجب أن يشترك الجميع في صياغة قوانينها الدستوريَّة، ويتم من خلال المجلس، آخذًا بعين الاعتبار تحقيق مصالح أعضائه أولًا.

١٥- إن قرارات الحرب والسلام وميزانية الدولة والسياسات المختلفة لا تأخذ مجراها في إلا عن طريق موافقة المجلس النيابي عليها.

الانتشار ومواقع النفوذ:

إنَّ الليبراليَّة الديمقراطيَّة قد مدت بساط نفوذها وتنفيذها في كثير من دول العالم الثالث وخاصة الدول الإسلاميَّة، وهي تغذي السير ضاغطة بشدة على دفة المسار الديمقراطيّ في دول الاتحاد السوفييتي السابق؛ لتحذو حذوها وتختط مسارها.

ثانيا: المدرسة الاشتراكيَّة: وهي تمثل وجهًا من وجوه الحكم الشمولي، وبالتالي: فإنَّ إلحاق الوصف الديمقراطي بهذه المدرسة بحاجة إلى موائمة تبريريَّة، فبقدر ما يبرز الإيقاع الفردي في الديمقراطيَّة الليبراليَّة، يختفي هذا الإيقاع في الديمقراطيَّة الاشتراكيَّة؛ ذلك أنَّ المدرسة الاشتراكيَّة

تعتمد على التعبير الجماعي عن الحس الجماهيري، وذلك من خلال تحالف المفردات الإنتاجيَّة في أطر تنظيميَّة بإشراف الدولة تحت شعار: (لا إله، والحياة مادة).

ويتضح المفهوم الديمقراطيُّ في المدرسة الاشتراكيَّة في النقاط التالية:

١- تقوم الدوَل الاشتراكيَّة على الأحاديَّة الحزبيَّة، فلا مكان لتعدد الأحزاب؛ فالحزب الحاكم وهو الحزب الوحيد هو الذي يضع قانون الانتخابات.

٢- إنَّ المستقلِّين لا يمثِّلون في مجلس الشعب الاشتراكيِّ موقع المعارضة، إنَّما يمثِّلون حالة الانتماء فقط.

٣- إنَّ تقسيمة مجلس الشعب الاشتراكيِّ تعتمد بشكل أساسٍ على التوزيع المعدِّ مسبقًا للمساحات النيابيَّة التي تحدد لكلِّ مرفق عامل (العمال والفلاحون).

٤- إنَّ مجلس الشعب الاشتراكي يمثل صيغة تحالفيَّة للقوى المنتجة (ما يسمى بالبروليتاريا).

٥- لا ينفرز انتخابيًّا في مجلس الشعب الاشتراكي إلا الحزبيُّون الذين يتسنمون مواقع حزبيَّة قياديَّة .

٦- إنَّ قيادات القوات المسلحة لها مداخلات معينة تؤثر على قرارات مجلس الشعب الاشتراكي.

٧- إنَّ مجلس الشعب الاشتراكي يجب أن يكون في خدمة السياسة العامة للحزب الحاكم، وإلا يُحلّ.

٨- باستثناء العدد القليل من المستقلِّين، فإنَّ مجلس الشعب الاشتراكي لا يمثل الشعب بأي حال من الأحوال، بل يمثل القوى الحزبيَّة، ولذلك فإنَّ قراراته لا تصب في مصلحة الحزب.

٩- وبناء على ما ذكرت: فإنَّ الديمقراطيَّة الاشتراكيَّة هي تعبير اصطلاحي أكثر مما هي تعبير واقعي عن المفهوم اللغوي للكلمة أو المفهوم الغربي التطبيقي لها.

١٠- إنَّ القياديين الحزبيين يشكِّلون مراكز قوى ابتزازيَّة وانتهازيَّة غير منظورة، إذ إنَّهم يستفيدون ماديًّا من مواقعهم الحزبيَّة، من خلال سيطرتهم على مرافق الإنتاج؛ ولذلك فإنَّهم يشكلون طبقة رأسماليَّة ترتدي قلنسوة اشتراكيَّة .

١١- إنَّ ديمقراطيَّة الاشتراكيين، نظرًا لكونها معبرة عن تطلعات الحزبيين، فإنَّها تحظى بمعارضة شعبيَّة واسعة، تلك المعارضة التي لا تستطيع الشعوب أن تعبِّر عن مكنونها خشية من شدة بطش القمع الاشتراكي الديمقراطي.

الانتشار ومواقع النفوذ:

كان مركز نفوذها هو الاتحاد السوفيتي ولكنها انهارت من خلال تضحيات قليلة، وانتشرت في الصين ورومانيا، ولكنَّها انهارت في رومانيا من خلال تضحيات جسيمة.

ثالثًا: المدرسة الديكتاتوريَّة: هي ديمقراطيَّة اللهيب والنار، القمع والبطش، السجون والتعذيب.

يمكن تلخيص مفهوم الديمقراطيَّة الديكتاتوريَّة في النقاط التالية:

١- إن رواد الأنظمة الديكتاتوريَّة لا يؤمنون بالديمقراطيَّة إطلاقًا، لكنَّهم يتوشحون بها لتلميع صورهم البشعة، ويفعلون ذلك من خلال اصطناع مجلس نيابيٍّ.

٢- إنَّ هذا المجلس لا يعبر عن الإرادة الشعبيَّة، ولا يمثل طبقات الشعب، ولا يتشكل من خلال انتخابات حرَّة نزيهة.

٣- إنَّ تركيبة المجلس تكون معدّة سلفًا من قِبَل النظام الحاكم.

٤- أعضاء المجلس النيابيّ في ذلك النظام الديكتاتوريّ ليس لهم وظيفة سنّ القوانين التشريعيَّة التي توطد هيمنته، وتعزِّز مصالح أفراده.

٥- لا يشترط في أعضاء ذلك المجلس أي مستوى ثقافي رفيع أو وجاهة اجتماعيَّة معتبرة أو مقدرة مالية ظاهرة.

٦- هذه المجالس النيابيَّة في ظل هذه الأنظمة لا تتمتع بأدنى درجة من درجات المصداقيَّة أمام شعوبها.

٧- هذه المجالس النيابيَّة تبذل جهودًا جبارة لتجميل وجه النظام الحاكم أمام شعوبه والعالم.

٨- إن مراكز القوى في الأنظمة الديكتاتوريَّة الحاكمة تتحكم في قرارات تلك المجالس النيابيَّة بطريقة التحكم بالآلة عن بُعد.

٩- لا أحد يجرؤ من أعضاء تلك المجالس النيابيَّة على أن يفعل أو أن ينفعل بخلاف ذلك، وإلا تسحب الحصانة المجلسيَّة منه.

١٠- وهذا جائز على أعضاء المجلس جميعًا، ففي لحظة يقوم بإصدار أمره المتعالي بحل المجلس النيابي.

١١- وعندما يلتزم المجلس النيابي بتوجيهات النظام وأوامره فإنَّه يتَّخذ منه وسيلة لقمع شعبه بتشريع القوانين التي تعطيه صلاحيات واسعة للأجهزة الأمنيَّة في اعتقال وتعذيب الأبرياء، وإعدام المعارضين.

الانتشار ومواقع النفوذ:

إنَّ الأنظمة الديكتاتوريَّة يسيطر على دفة قيادتها العسكريُّون في الأغلب.

رابعًا: المدرسة المصلحيَّة: روادها هم المصلحيُّون (الوصوليُّون)، تلك الفئة التي رأت أنَّ مكاسبها تزداد وتجارتها تزدهر إذا سلكت مسلك الديمقراطيَّة. فأفكارها لا تتجاوز الفكر النفعي والمصلحيّ.

وتتضح معالم ديمقراطيَّة هؤلاء بما يلي:

١- إنَّ الهيكل العام الأغلب لهذه الديمقراطيَّة ليبرالي، فينطبق عليها كثير من الأوصاف التي ذكرت حول المدرسة الليبراليَّة.

٢- من خلال الممارسة قد تتطعم ببعض مواصفات المدرسة الاشتراكيَّة والديكتاتوريَّة.

٣- يمارس المرشحون خلال فترة الانتخابات جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة للتأثير على الناخبين لاجتذاب أصواتهم.

٤- يعتبر النوَّاب المصلحيُّون نجاحهم في احتلال كراسي المجلس النيابي فرصة ينبغي استغلالها.

٥- يجدُّون في استصدار القوانين التشريعيَّة التي تكرس مصالحهم، وإن كانت على حساب المال العام.

٦- يبادر هؤلاء المرشحون بتأسيس الشركات وافتتاح المؤسسات في كافَّة الخدمات ولجميع أنواع التخصصات بأسماء أسرهم وأقربائهم، مستفيدين من مواقعهم الجديدة.

٧- إذا ما اقترب المجلس من نهاية مدته المقررة سارع النوَّاب المصلحيُّون إلى المزايدة على شعوبهم، من خلال طرح بعض المشاريع التي تدغدغ عواطف الناس؛ لانتخابهم للمجلس النيابيِّ الجديد.

٨- إنَّ كثيرًا من النُّوَّاب المصلحيِّين لا يجدون في تصرفاتهم غضاضة، ولا يستشعرون في قلوبهم أيَّ حرج إذا أقرُّوا ووافقوا الحكومة على توقيع المعاهدات التي تسوِّد بياض البلاد وتكبل حريَّة العباد.

٩- إنَّ دستور المدرسة الديمقراطيَّة المصلحيَّة قابل للتنقيح في أي لحظة يراها أصحاب تلك المدرسة مما يعزز مصالحهم، ولكنه في البلاد الإسلاميَّة غير قابل للتنقيح إذا كان ذلك لمصلحة الإسلام أو الأمَّة.

خامسًا: المدرسة الجبريَّة: هي ديمقراطيَّة الالتقاء الجبري، إنَّها ديمقراطيَّة التعايش الحرج، فهي الخيار الأوحد عند أصحابها، فإمَّا هي وإمَّا الكارثة، هكذا يقولون. إنَّها ديمقراطيَّة الطوائف والأديان قبل أن تكون ديمقراطيَّة الجماعات والأحزاب.

ومثال هذه المدرسة هو لبنان، فإنَّ فيها من ينتسبون إلى الإسلام وهم طوائف عدة: السنة، والشيعة، والدروز. ومنهم من ينتمي إلى النصرانيَّة، وهم أيضًا طوائف من أشهرها المارونيَّة. وأمَّا الأحزاب فهي كثيرة.

أهم ما يميز هذه المدرسة ما يلي:

١- الانتخابات في إطارها الواقعي وليس القانوني تتم في الأطر الدينيَّة ثم الطائفيَّة.

٢- توزيع الرئاسات يتم في الإطار العرفي المتفق عليه، ففي لبنان مثلًا: رئيس الجمهوريَّة نصراني ماروني، ورئيس الحكومة مسلم سني، ورئيس المجلس النيابي شيعي.

٣- المصالح الطائفيَّة مقدمة على المصالح الوطنيَّة.
٤- تسود أعمال المجلس النيابي روح التربص أكثر من روح التعاون.
٥- الخلافات في داخل المجلس النيابي تستمد خلفيتها من الصراع الطائفي.
٦- استمرار بقاء الديمقراطيَّة الجبريَّة متعلِّق باستمرار وجود حالة التوازن في التمثيل الطائفي.
٧- البديل للديمقراطيَّة الجبريَّة هو التقسيم الجغرافي على أسس طائفيَّة، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا عبر حرب أهليَّة، وعندما تعجز كافَّة الأطراف عن تحقيق مكاسب على الساحة الجغرافيَّة يعود الجميع قسرًا وجبرًا إلى التعايش الحرج في إطار الديمقراطيَّة الجبريَّة.
٨- تمرير أي طائفة من الطوائف لقرار من القرارات من خلال المجلس النيابي يعتمد بالإضافة إلى عدد الأصوات الداعمة له على القوى المختلفة التي تدعمه من خارج المجلس، وخاصَّة القوى العسكريَّة والقوى السياسيَّة المحليَّة والوافدة.
٩- حلّ المجلس النيابيِّ في دول الديمقراطيَّة الجبريَّة يعتبر من أصعب القرارات السياسيَّة.
١٠- القرارات الوطنيَّة البحتة والمتعلِّقة بأمن البلاد واستقرارها وتحريرها من القوات الأجنبيَّة الغازيَّة، يمكن أن تكون محل خلاف، مما يكرِّس السيطرة الأجنبيَّة ويساعد على إبْقائها.

الملامح المشتركة لمدارس مفهوم الديمقراطيَّة:

من خلال ما تقدم يمكن الإشارة إلى الملامح المشتركة للمدارس الديمقراطيَّة كما يلي:
١- جميع تلك المدارس تشترك في كونها نتاج البشر، متحررة تمامًا من أي استدلال ربانيٍّ.
٢- إنَّها تستمد شرعيتها الحقيقية من مراكز القوى الحاكمة، سواء أكانت طبقة، أو حزبًا، أو عسكرًا، أو عائلة، أو طائفة . . ومع ذلك فإنَّها جميعًا تدعي استمداد شرعيتها الحقيقة من الشعب.
٣- إنَّ المجالس النيابيَّة، رغم كون دورها تشريعيًّا ورقابيًّا، فإنَّها لا تمارس هذه الصلاحيات بشكل مستقلٍّ، بل بحسب ما يوَدُّه النظام الحاكم.
٤- إنَّ النظام الحاكم يستطيع شراء عدد غير قليل من ذمم النوَّاب بما يغدقه عليهم من الأعطية والامتيازات، بما يجعلهم في النهاية موظفين لصالح خدمة مصالحه.
٥- من خلال المجالس النيابيَّة يصادَر أي تحرك شعبي، بحجَّة أن ممثليه في المجلس، فعلام التحرك.
٦- الأخلاقيَّات والسلوكيَّات تهدر قيمها الحقيقيَّة في جميع المدارس الديمقراطيَّة.
٧- في العالم الثالث: المجالس النيابيَّة كالخاتم في يد النظام الحاكم يلبسه متى يشاء، ويخلعه متى يشاء[(١)].

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، العلمانية نشأتها وتطورها، إشكالية مفهوم الديمقراطية من خلال مدارسها، سامي محمد صالح الدلال، مفهوم التعددية الديمقراطية وعلاقته بالأقليات، أحمد الخطيب، حكم الإسلام في الديمقراطية والتعددية الحزبية، عبد المنعم حليمة، الديمقراطية المنفصلة عن القيمة، د. عبد الوهاب المسيري، التيار القومي العربي والعودة إلى الديمقراطية، غازي التوبة.

العولمة

التعريف:

العولمة مذهب فكريٌ يهدف إلى جعل العالم عالمًا واحدًا، موجهًا توجيهًا واحدًا في إطار حضارة واحدة، ولذلك قد تسمّى الكونيَّة أو الكوكبة.

فالعولمة هي الحالة التي تتم فيها عمليَّة تغيير الأنماط والنظم الاقتصاديَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة ومجموعة القيم والعادات السائدة وإزالة الفوارق الدينيَّة والقوميَّة والوطنيَّة في إطار تدويل النظام الرأسمالي الحديث وفق الرؤية الأمريكيَّة المهيمنة، والتي تزعم أنَّها سيدة الكون وحامية النظام العالمي الجديد.

تاريخ ونشأة العولمة

اختلف الباحثون في التأريخ لنشأة العولمة على قولين:

الأول: يرى هؤلاء الباحثون أنَّ ظاهرة العولمة قديمة، عمرها خمسة قرون، أي ترجع إلى القرن الخامس عشر -زمن النهضة الأوربيَّة الحديثة- حيث التقدم العلمي في مجال الاتصال والتجارة.

الثاني: يرى فريق آخر أنَّ العولمة ظاهرة جديدة، فما هي إلا امتداد للنظام الرأسمالي الغربي بل هي المرحلة الأخيرة من تطور النظام الرأسماليٍّ العلمانيٍّ الماديٍّ النفعيٍّ، وقد برزت في المتصف الثاني من القرن العشرين نتيجة أحداث سياسيَّة واقتصاديَّة معيَّنة، منها: انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عام ١٩٦١م ثم سقوط الاتحاد السوفيتي سياسيًّا واقتصاديًّا عام ١٩٩١م، وما أعقبه من انفراد الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بالتربُّع على عرش الصدارة في العالم المعاصر وانفرادها بقيادته السياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة.

ومنها: بروز القوة الاقتصاديَّة الفاعلة من قبل المجموعات الماليَّة والصناعيَّة الحرَّة عبرة شركات ومؤسسات اقتصاديَّة متعددة الجنسيَّات مدعومة بصورة قويَّة وملحوظة من دولها.

وقد طرح تعبير العولمة في التداول السياسيِّ من قبل كتَّاب أمريكان في السبعينات وبالتحديد من كتاب ماك لوهان وكينتين فيور: حول الحرب والسلام في القرية الكونيَّة، وكتاب بريجسكي مستشار الرئيس الأمريكي جيمي كارتر: بين عصرين- دور أمريكا في العصر الإلكتروني.

- ويرجع صاحبا كتاب فخ العولمة البداية الحقيقيَّة للعولمة إلى عام ١٩٩٥م، حيث وجَّه الرئيس السوفيتي السابق غوربا تشوف الدعوة إلى خمسمائة من قادة العالم في مجال السياسة والمال والاقتصاد في فندق فيرمونت المشهور في سان فرانسيسكو لكي يبنوا معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين. وقد اشترك في هذا المؤتمر المغلق أقطاب العولمة في عالم الحاسوب والمال وكذلك كهنة الاقتصاد الكبار، وأساتذة الاقتصاد في جامعات ستانفورد، وهارفرد وأكسفورد. واشترك فيها

من السياسيِّين، الرئيس الأميركي جورج بوش الأب، ووزير خارجيته شولتز، ورئيسة الوزراء البريطانيَّة مارجريت تاتشر، ورئيس وزراء مقاطعة سكسونيا وغيرهم.

- إنَّ معظم الكُتَّاب يجمعون على أنَّ هناك أربعة أسباب أساسية يعتقدون أنَّها أدت إلى بروز تيَّار العولمة، وهي:

١- **تحرير التجارة الدوليَّة**: ويقصدون به تكامل الاقتصاديات المتقدمة والناميَّة في سوق عالمية واحدة، مفتوحة لكافة القوى الاقتصاديَّة في العالم وخاضعة لمبدأ التنافس الحرّ.

٢- **تدفق الاستثمارات الأجنبيَّة المباشرة**: حدثت تطورات هامَّة خلال السنوات الأخيرة تمثلت في ظهور أدوات ومنتجات ماليَّة مستحدثة ومتعددة، إضافة إلى أنظمة الحاسب الآلي ووسائل الاتصال والتي كفلَت سرعة انتشار هذه المنتجات، وتحوَّلت أنشطة البنوك التقليديَّة إلى بنوك شاملة، تعتمد إلى حدٍ كبيرٍ على إيراداتها من العمولات المكتسبة من الصفقات الاستثماريَّة من خارج موازنتها العموميَّة ويرجع ذلك إلى سببين رئيسين هما:

- تحرير أسواق النقد العالميَّة من القيود.
- الثورة العالميَّة في الاتصالات الناجمة عن الوسائل والأدوات التكنولوجيَّة الجديدة.

٣- **الثورة المعرفيَّة**: وتتمثل في التقدُّم العلميِّ والتكنولوجيِّ، وهو ميزة بارزة للعصر الراهن، وهذا التقدُّم العلمي جعل العالَم أكثر اندماجًا، كما سهَّل حركة الأموال والسلع والخدمات، وإلى حد ما حركة الأفراد، ومن ثمَّ برزت ظاهرة العولمة، والجدير بالذكر أنَّ صناعة تقنية المعلومات تتركَّز في عددٍ محدودٍ، ومن الدول المتقدِّمة أو الصناعيَّة دون غيرها.

٤- **تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيَّات**: هذا العصر بأنَّه عصر العولمة فمن الأصحِّ وصفه بأنَّه عصر الشركات متعددة الجنسيَّات باعتبارها العامل الأهم لهذه العولمة. ويرجع تأثير هذه الشركات كقوة كبرى مؤثرة وراء التحولات في النشاط الاقتصادي العالمي إلى الأسباب التالية:

- تحكُّم هذه الشركات في نشاطٍ اقتصاديٍّ في أكثر من قطر وإشاعتها ثقافة استهلاكيَّة موحدة.
- قدرتها على استغلال الفوارق بين الدول في هبات الموارد.
- مرونتها الجغرافيَّة.

ممهدات ظهور العولمة

إنَّ هذه الصورة من العولمة لم تكن لتظهر فجأة دون بدايات أو مقدمات مهدت لها بصورة فاعلة وخطط لها من القوى الرأسماليَّة ذات النزعة الاستعماريَّة. ومن ذلك إنشاء منظَّمة الأمم المتَّحدة، وما تبعها من مؤسسات ماليَّة دوليَّة: البنك الدولي للإنشاء والتعمير، وصندوق النقد الدولي، ثمّ اتفاقيَّة «الجات» (الاتفاقيَّة العامة على الرسوم الجمركيَّة والتجارة) التي تعود في تاريخها إلى سنة ١٩٤٧م حيث اجتمعت ثلاث وعشرون دولة صناعيَّة في جنيف للنظر في تحرير التجارة وفتح

الأبواب بين هذه الدول، وبدأت سريان هذه الاتفاقيَّة منذ أول يناير ١٩٤٨م، ويبلغ عدد الدول الموقعة عليها سنة ١٩٩٣م مائة وسبع عشرة دولة.

ثمّ معاهدة «ماستريخت» التي ضمَّت خمسة عشر بلدًا صناعيًا وظهور المناطق التجاريَّة الحرة، والاتحادات الجمركيَّة، ثم الأحداث السياسيَّة التي تتمثل بانتهاء الحرب الباردة، ثم قيام الرئيس السوفيتي الأسبق -ميخائيل غورباتشوف- وبدعم أمريكي ملحوظ عام ١٩٨٥م بالإعلان عن إصلاح النظام الاقتصاديّ الشيوعيّ الذي سمي وقتها «البيروستويكا» وقد كان هذا الإعلان بمثابة الإعلان عن سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي سياسيًا واقتصاديًا، وما تلاه من سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩م، واتحاد الألمانيتين، ثم حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١وما أسفرت عنه من تثبيت القواعد الأمريكيَّة العسكريَّة في منطقة الخليج العربي. كل هذه الأحداث ساهمت إلى حد بعيدٍ في تربع الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة على عرش النفوذ العالمي، وبالتالي برز مصطلح «النظام العالمي الجديد» و«الأحاديَّة القطبيَّة والعولمة».

وظهر أوّل نظام تجاري دولي ملزم للأقطار المنضوية تحت لوائه في شهر نيسان سنة ١٩٩٥م، حيث أعلن عن إنشاء المنظَّمة العالميَّة للتجارة (o.t.w) بمدينة مراكش المغربيَّة، وهي امتداد لاتفاقية الجات. وهذه المنظمة تمثِّل أحد أركان النظام الاقتصادي العالمي الجديد، وتختص بأعمال إدارة ومراقبة وتصحيح أداء العلاقات التجاريَّة، وستكون عامل مساعد للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي لتنفيذ وإقرار النظام الاقتصادي العالمي الجديد. وأخيرًا تم دعم صرح العولمة بالتوقيع -في شباط عام ١٩٩٧م بمدينة جنيف بسويسرا- على أول اتفاق دوليٍّ يتعلق بتحرير المبادلات الخدماتيَّة المتطورة، وخاصَّة فيما عرف «بالتكنولوجيا المعلوماتيَّة» أو ثورة الاتصالات.

وممّا ساعد على سرعة انتشار ظاهرة العولمة انضمام كثير من دول شرق أوربا إلى الحلف الأطلسي، وانفتاح دول أخرى على الحلف نفسه، وانضمام كثير من الدول العربيَّة إلى المنظمة العالمية للتجارة، وبقيَّة الدول تتفاوض للانضمام، ثم المؤتمرات الاقتصاديَّة المتلاحقة التي تنظر لهذه العولمة كأمر حتمي لا مفرَّ منه، وإظهار مزاياها الاقتصاديَّة والتنمويَّة ومن أشهرها «منتدى دافوس الاقتصاديّ» ثم المشروعات الاقتصاديَّة الإسرائيليَّة التي تستهدف عولمة الشرق الأوسط لصالح المشروع الصهيوني الذي يتمثل في دولة إسرائيل الكبرى، التي تسعى لتحقيقه اقتصاديًا وثقافيًا عبر بوابات اتفاقيات السلام التي تعقدها منفردة مع الدول العربيَّة، والاتفاقيات الاقتصاديَّة الثنائيَّة مع دول المنطقة وعبر بوابات التطبيع، التي تهيء لها بكلِّ قوةٍ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحلفاؤها في المنطقة العربيَّة، وقد أضفى ذلك كله بعدًا استراتيجيًا جديدًا على دعم الدور الأمريكي -ومن ورائه القوى الصهيونيَّة المتحكمة في السياسة والقيادة الأمريكيَّة- لقيادة النظام العالمي الجديد.

ومؤخرًا، ساهمت ثلاثة عوامل في الاهتمام بمفهوم العولمة في الفكر والنظريَّة، وفي الخطاب السياسيّ الدولي:

١- عولمة رأس المال أي تزايد الترابط والاتصال بين الأسواق المختلفة حتى وصلت إلى حالة أقرب إلى السوق العالمي الكبير، خاصة مع نمو البورصات العالميَّة.

٢- التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والانتقال والذي قلّل- إلى حد كبير- من أثر المسافة، وانتشار أدوات جديدة للتواصل بين أعداد أكبر من النَّاس كما في شبكة الإنترنت.

٣- عولمة الثقافة وتزايد الصلات غير الحكوميَّة والتنسيق بين المصالح المختلفة للأفراد والجماعات، فيما يسمى الشبكات الدوليَّة، حيث برز التعاون استنادًا للمصالح المشتركة بين الجماعات عبر القوميَّة مما أفرز تحالفات بين القوى الاجتماعيَّة على المستوى الدولي، خاصَّة في المجالات النافعة مثل: الحفاظ على البيئة، أو في المجالات غير القانونيَّة كتنظيف الأموال والمافيا الدوليَّة للسلاح.

عناصر العولمة

إنَّ العولمة تتكون من العناصر الرئيسيَّة التالية:

١- **تعميم الرأسماليَّة**: إن تغلُّبَ الرأسماليَّة على الشيوعيَّة جعلها تعمم مبادئها على كلِّ المجتمعات الأخرى، فأصبحت قيم السوق، والتجارة الحرة، والانفتاح الاقتصادي، والتبادل التجاري، وانتقال السلع ورءوس الأموال، وتقنيات الإنتاج والأشخاص، والمعلومات، هي القيم الرائجة، وتقود ذلك أمريكا وتفرضها عن طريق المؤسسات العالمية التابعة للأمم المتَّحدة، وخاصة مؤسسة البنك الدولي، ومؤسسة النقد الدولي، وعن طريق الاتفاقات العالميَّة التي تقرها تلك المؤسسات كاتفاقيَّة الجات والمنظمة العالميَّة للتجارة وغيرها.

٢- **القطب الواحد**: تفردت أمريكا بقيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وتفكيك منظومته الدوليَّة المسمى (حلف وارسو)، إنَّه لم تبلغ دولة عظمى في التاريخ قوَّة أمريكا العسكريَّة والاقتصاديَّة، مما يجعل هذا التفرد خطيرًا على الآخرين في كلِّ المجالات الاقتصاديَّة، والسياسيَّة، والثقافيَّة، والاجتماعيَّة.

٣- **ثورة التقنيات والمعلومات**: مرَّت البشريَّة بعدَّة ثورات علميَّة منها ثورة البخار والكهرباء والذرَّة، وكان آخرها الثورة العلميَّة والتكنولوجيَّة وخاصَّة في مجال التطورات السريعة والمدهشة في عالم الحاسوب الآلي (الكمبيوتر)، وتوصل الحاسوب الآلي الحالي إلى إجراء أكثر من مليارين عمليَّة مختلفة في الثانية الواحدة، وهو الأمر الذي كان يستغرق ألف عام لإجرائه في السابق، أما المجال الآخر من هذه الثورة فهو التطورات المثيرة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتي تتيح للأفراد والدول والمجتمعات للارتباط بعدد لا يحصى من الوسائل التي تتراوح بين الكبلات الضوئيَّة، والفاكسات ومحطات الإذاعة، والقنوات التلفزيونيَّة الأرضيَّة والفضائيَّة، التي تبث برامجها المختلفة عبر حوالي ٢٠٠٠ مركبة فضائيَّة، بالإضافة إلى أجهزة الكمبيوتر، والبريد الإلكتروني، وشبكة المعلومات الدوليَّة، التي تربط العالم بتكاليف أقل، وبوضوح أكثر على مدار

الساعة، لقد تحوَّلت تكنولوجيا المعلومات إلى أهم مصدر من مصادر الثروة، أو قوة من القوى الاجتماعيَّة والسياسيَّة والثقافيَّة الكاسحة في عالم اليوم.

أهداف وآثار العولمة

أولًا: الأهداف والآثار الاقتصاديَّة:

ترتبط عمليَّة العولمة بتدويل النظام الاقتصادي الرأسمالي، حيث تمّ توحيد الكثير من أسواق الإنتاج والاستهلاك، وتمّ التدخل الأمريكي في الأوضاع الاقتصاديَّة للدول، وخاصة دول العالم الثالث، عبر المؤسسات الماليَّة الدوليَّة: كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، التي تمارس الإملاءات الاقتصاديَّة المغايرة لمصالح الشعوب، وبالتالي تحقق العولمة لأصحابها عدة أهدف كبيرة في المجال الاقتصاديِّ هي:

١- السيطرة على رءوس المال العربيَّة، واستثماراتها في الغرب.

٢- الهيمنة الأمريكيَّة على اقتصاديات العالم من خلال القضاء على سلطة وقوة الدولة الوطنيَّة في المجال الاقتصاديِّ، بحيث تصبح الدولة تحت رحمة صندوق النقد الدولي، حين تستجدي منه المعونة والمساعدة عبر بوابة القروض ذات الشروط المجحفة، وخاضعة لسيطرة الاحتكارات والشركات الأمريكيَّة الكبرى على اقتصاد الدول.

٣- تحقيق مصالح المجموعات الغنيَّة في الدول الغربيَّة والقوى المتحالفة معها في الدول الأخرى على حساب شعوب العالم. وترتّب على هذا الهدف ما يلي:

- إنهاء دور القطاع العام وإبعاد الدولة عن إدارة الاقتصاد الوطني.
- عولمة الوحدات الاقتصاديَّة وإلحاقها بالسوق الدوليَّة لإدارتها مركزيًّا من الخارج.
- العمل على اختراق السوق العربيَّة من قبل السوق الأجنبي.
- إدارة الاقتصاديات الوطنيَّة وفق اعتبارات السوق العالميَّة بعيدًا عن متطلبات التنمية الوطنيَّة.
- العمل على إعادة هيكلة المنطقة العربيَّة في ضوء التكتلات الدوليَّة.
- إغواء الدول المتواضعة تقنيًّا وعلميًّا واقتصاديًّا بمشاركة العمالقة في مشاريع عابرة القارات، وهذه المشاريع كل مكوناتها من الخارج، وربما فتحوا لهم بعض الأسواق، وبعد أن يكون البلد الفقير قد دفع دم الشعب، وضحَّى بحاضره ومستقبله في مثل هذه المشاريع تتم عمليَّة السيطرة أو الإجهاض.
- السيطرة الاقتصاديَّة ذات المظاهر المتعددة، منها: شراء موارد الدول المستضعفة وموادها الخام بأقل الأسعار، وإعادة تصنيعها ثمّ بيعها لها في صورة جديدة بأغلى الأسعار، وفي حالة البترول يضيفون إليه ضريبة يسمونها ضريبة الكربون، وهي تعني ضريبة تلوث أجوائهم نتيجة الشطط التصنيعي.

٤- تركيز الثروة الماليَّة في يد قلَّةٍ من الناس أو قلَّةٍ من الدول.

٥- سيطرة الشركات العملاقة عمليًا على الاقتصاد العالمي، إنَّ خمس دول -الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا- تتوزع فيما بينها ١٧٢ شركة من أصل مائتي شركة من الشركات العالمية العملاقة.

٦- تعميق التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين الناس بل بين المواطنين في الدولة الواحدة، واختزال طاقات شعوب العالم إلى طاقة دفع لماكينة الحياة البرجماتيَّة الاستهلاكيَّة للقوى الرأسماليَّة والسياسة الغربيَّة المسيطرة.

٧- استئثار قلَّة من سكان الدولة الواحدة بالقسم الأكبر من الدخل الوطني والثروة المحليَّة، في الوقت الذي يعيش أغلبيَّة السكان حياة القلَّة والشقاء.

٨- النمو المطرد للبطالة، وانخفاض الأجور وما يرتبط بها من تقليص في قدرة المستهلكين واتساع دائرة المحرومين.

٩- فرض السياسات الاقتصاديَّة والزراعيَّة على دول العالم -وخاصة الناميَّة- بهدف تعطيل التنمية الاقتصاديَّة، وإبقائها سوقًا استهلاكيَّة رائجة للمنتجات الغربيَّة، وتسليم إرادتها السياسيَّة للقوى الحاكمة في أمريكا.

١٠- إضعاف قوة موارد الثروة الماليَّة العربيَّة المتمثلة في النفط حيث تم إضعاف أهميته كسلعة حينما تم استثناؤه من السلع التي تخضع لحريَّة التجارة الدوليَّة -أسوة بتجارة المعلومات- من تخفيض الضرائب والقيود الجمركيَّة المفروضة عليه من الدول المستهلكة.

١١- ارتفاع أسعار المواد الغذائيَّة في الدول الإسلاميَّة، نتيجة إلغاء هذه الدول الدعم الماليَّ الذي كانت تقدِّمه للسلع الغذائيَّة، وبسبب الاحتكار والمنافسة غير المتكافئة من الدول الكبرى، وبسبب قيود الجودة وشروط المواصفات العالميَّة التي تفرضها الاتفاقيات التجاريَّة والصناعيَّة الدوليَّة، وهي شروط لا تقدر الدول الإسلاميَّة الناميَّة على الوفاء بها.

١٢- ظهور عمليَّة الإغراق التي ترتبط بالسعر، وذلك بأن تطرح في الأسواق سلع مستوردة بأسعار تقل كثيرًا عن سعر المثيل في السوق المحليِّ، أو عن سعر المثيل في سوق الدولة المنتجة لهذه السلعة وتصدرها، أو انخفاض سعر البيع عن سعر تكلفة الإنتاج، ويتم تداولها لفترة زمنيَّة، بهدف استرداد نفقاتها وتحقيق الربح، تلك هي الحالات الثلاث التي تعتبر فيها السلع المستوردة بمثابة سلع أو واردات إغراق. وهذه المشكلة ظهرت مع دخول العولمة وإلغاء التعرفة الجمركيَّة، أو الحد منها على بعض السلع، حيث كان قديمًا لا يمكن حدوث ذلك لأنَّ الدول كانت تتحكم في سعر السلعة بزيادة سعر الجمارك، مما يؤدي إلى زيادة سعر المنتج المستورد عن المنتج المحلي أو على الأقل يساويه في الثمن، ولكن مع فتح الأسواق أمام التجارة العالميَّة، فإننا سنشهد حالات إغراق كثيرة، وكذلك تجاوزات لا نضمن إلى أي مدى ستصل عواقبها.

ثانيًا: الأهداف والآثار السياسيَّة:

١- فرض السيطرة السياسيَّة الغربيَّة على الأنظمة الحاكمة والشعوب التابعة لها، والتحكم في مركز القرار السياسي وصناعته في دول العالم لخدمة المصالح الأمريكيَّة والقوى الصهيونيَّة المتحكمة في السياسة الأمريكيَّة نفسها، على حساب مصالح الشعوب وثرواتها الوطنيَّة والقوميَّة وثقافتها ومعتقداتها الدينيَّة.

يقول صموئيل هنتنغتون في دراسته المسماة «المصالح الأمريكيَّة ومتغيرات الأمن»، التي نُشرتها «مجلة الشئون الخارجيَّة» في حزيران ١٩٩٣م-: «إنَّ الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بحاجة ماسَّة إلى عدو جديد يوحد دوله وشعوبه، وأنَّ الحرب لن تتوقف، حتى لو سكت السلاح وأبرمت المعاهدات، ذلك أنَّ حربًا حضاريَّةً قادمةً ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكا وطرف آخر، قد يكون عالم الإسلام أو الصين».

٢- إضعاف فاعليَّة المنظمات والتجمعات السياسيَّة الإقليميَّة والدوليَّة والعمل على تغييبها الكامل كقوى مؤثرة في الساحة العالميَّة والإقليميَّة ومن ذلك: منظمة الدول الأمريكيَّة، ومنظمة الوحدة الأفريقيَّة، والجامعة العربيَّة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمتابع لنشاطات هذه المنظمات يلاحظ أنَّها لا تستطيع اتخاذ أي موقف تجاه القضايا السياسيَّة المعاصرة وتجاه الأحداث الجارية مثل قضايا: فلسطين، والبوسنة والهرسك، وكشمير وألبان كوسوفو، والشيشان، والعراق.

٣- إبقاء الدول الإسلاميَّة -خاصة- منقوصة السيادة، حتى تبقى هذه الدول ضعيفة وتابعة للهيمنة السياسيَّة الغربيَّة.

٤- إضعاف سلطة الدولة الوطنيَّة، أو إلغاء دورها وتقليل فاعليتها، وقتل روح الانتماء في نفوس أبنائها، فالعولمة نظام يقفز على الدولة والوطن والأمَّة، واستبدال ذلك بالإنسانيَّة، إنَّها نظام يفتح الحدود أمام الشبكات الإعلاميَّة، والشركات المتعددة الجنسيات(٧٧) ويزيل الحواجز التي تقف حائلًا دون الثقافة الرأسماليَّة المادِّيَّة والغزو الفكري، الذي يستهدف تفتيت وحدة الأمَّة، وإثارة النعرات الطائفيَّة، وإثارة الحروب والفتن داخل الدولة الواحدة كما في السودان.

٥- إضعاف دور الأحزاب السياسيَّة في التأثير في الحياة السياسيَّة في كثير من دول العالم - خاصَّة الدول الإسلاميَّة- في الوقت التي بدأت فيه المنظمات غير الحكوميَّة والجمعيَّات الأهليَّة تمارس دورًا متزايدًا في الحياة السياسيَّة.

٦- إنَّ العولمة لا تكتفي بواقع التجزئة العربيَّة والإسلاميَّة الآن، بل تحاول إحداث تجزئة داخليَّة في كلِّ بلدٍ عربي أو إسلاميٍّ، حتَّى ينشغلوا بأنفسهم وينسوا تمامًا أنَّهم أمَّة عربيَّة واحدة ينتمون إلى جامعة إسلاميَّة واحدة. وهذا معناه بعثرة الشعوب المسلمة وتفرُّقها، والقضاء على مقومات الوحدة والتضامن الإسلامي، وتفريغ المنظمات والتجمعات الإسلاميَّة من مضامينها الحقيقيَّة حتَّى تبقى عاجزة عن تحقيق آمال وأماني المسلمين ولتصبح أداة طيعة في خدمة المخططات

الاستعماريَّة الغربيَّة.

ثالثًا: الأهداف والآثار الثقافيَّة:

تقوم العولمة في الجانب الثقافي علي انتشار المعلومات، وسهولة حركتها، وزيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات، أي تقوم علي إيجاد ثقافة عالميَّة، وعولمة الاتصالات، عن طريق البث التليفزيوني عبر الأقمار الصناعيَّة، وبصورة أكثر عمقًا خلال شبكة الإنترنت التي تربط البشر بكلِّ أنحاء المعمورة. ومن الأهداف التي ترمي إليها العولمة في الجانب الثقافيِّ:

١- تسييد الثقافة الرأسماليَّة لتصبح الثقافة العليا، كما أنَّها ترسم حدودًا أخرى مختلفة عن الحدود الوطنيَّة مستخدمة في ذلك شبكات الهيمنة العالميَّة على الاقتصاد والأذواق والثقافة. هذه الحدود هي: «حدود الفضاء (السبرنيتي) والذي هو بحقّ وطن جديد لا ينتمي لا إلى الجغرافيا ولا إلى التاريخ، هو وطن بدون حدود، بدون ذاكرة، إنَّه وطن تبنيه شبكات الاتصال المعلوماتيَّة الإلكترونيَّة».

٢- تجاوز الحدود التي أقامتها الشعوب لتحمي كيان وجودها، وما له من خصائص تاريخيَّة وقوميَّة وسياسيَّة ودينيَّة، ولتحمي ثرواتها الطبيعيَّة والبشريَّة وتراثها الفكري الثقافي، حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار والقدرة على التنميَّة ومن ثمَّ الحصول على دور مؤثر في المجتمع الدولي.

٣- الترويج لفلسفة النظام الغربي الرأسمالي النفعي البرجماتي، وفرض الثقافة الغربيَّة الوافدة وجعلها في محلِّ الصدارة والهيمنة في العالم وقهر الهوية الثقافيَّة للأمم والشعوب الأخرى، على أن تظل الثقافات الأخرى محدودةً في نطاق السلوك الفردي لا تتعداه، فالدساتير والنظم والقوانين والقيم الأخلاقيَّة يجب أن تستمد من الفلسفة المادِّيَّة النفعيَّة، ومن ثقافة الرجل الأبيض العلمانيَّة، المناهضة للعقائد والشرائع السماويَّة.

٤- إنَّ المستهدَف بهذا الغزو الثقافي هم المسلمون. وذلك لما يلي:

- ما تملكه بلادهم من مواد أوليَّة هائلة يأتي على رأسها النفط والغاز وثروات طبيعيَّة أخرى.

- ما ثبت لهم عبر مراكزهم وبحوثهم وجامعاتهم ومستشرقيهم من أنَّ هذه الأمَّة مستعصية على الهزيمة، إذا حافظت على هويتها الإسلاميَّة ومن ثم فالطريق الوحيد لإخضاعها يتمثَّل في القضاء على تفرد شخصيتها وإلغاء دينها الذي يبعث فيها الثورة والرفض لكلِّ أشكال الاحتلال والسيطرة.

- الحفاظ على أمن الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، وهو من أهم أهداف العولمة في بلاد العرب والمسلمين.

- الحضارة الإسلاميَّة بعقيدتها وشريعتها ونظام أخلاقها وإنجازاتها التاريخيَّة هي النقيض الوحيد الشامل لفلسفة العولمة ودينها وأنظمتها وقيمها الهابطة في هذه الدنيا التي نعيش فيها.

ومن آثار العولمة في الهوية الثقافيَّة:

١- شيوع الثقافة الاستهلاكيَّة -لأنَّ العولمة تمجِّد ثقافة الاستهلاك- التي استخدمت كأداة قويَّة فاعلة في إطلاق شهوات الاستهلاك إلى أقصى عنان ومن ثمَّ تشويه التقاليد والأعراف السائدة في العالم الإسلامي.

٢- تغريب الإنسان المسلم وعزله عن قضاياه وهمومه الإسلاميَّة، وإدخال الضعف لديه، والتشكيك في جميع قناعته الدينيَّة، وهويته الثقافيَّة.

٣- إشاعة ما يسمى بأدب الجنس وثقافة العنف التي من شأنها تنشئة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب للحياة وكظاهرة عادية وطبيعيَّة.

٤- ومن آثار عولمة الثقافة انتشار نوعيَّة مميزة من الثقافة المادِّيَّة والمعنويَّة الأمريكيَّة حيث سيطرت الثقافة الأمريكيَّة الشعبيَّة على أذواق البشر فأصبحت موسيقى وغناء مايكل جاكسون، وتليفزيون رامبو، وسينما دالاس هي الآليات والنماذج السائدة في مختلف أنحاء العالم وأصبحت اللغة الإنجليزيَّة ذات اللكنة الأمريكيَّة هي اللغة السائدة.

٥- ومن آثار العولمة في طمس الهوية الثقافيَّة للأمَّة الإسلاميَّة انتشار الأزياء والمنتجات الأمريكيَّة في كثير من الدول الإسلاميَّة، لأنَّ هذه السلع تحمل في طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها وظهور اللغة الإنجليزيَّة على واجهات المحلات والشركات، وعلى اللعب والهدايا وعلى ملابس الأطفال والشباب.

رابعًا: الأهداف والآثار الدينيَّة:

١- التشكيك في المعتقدات الدينيَّة وطمس المقدسات لدى الشعوب المسلمة لصالح الفكر المادِّيِّ اللادينيِّ الغربيِّ، أو إحلال الفلسفة المادِّيَّة الغربيَّة محل العقيدة الإسلاميَّة.

٢- استبعاد الإسلام وإقصاؤه عن الحكم والتشريع، وعن التربيَّة والأخلاق وإفساح المجال للنظم والقوانين والقيم الغربيَّة المستمدَّة من الفلسفة المادِّيَّة والعلمانيَّة البرجماتيَّة.

٣- تحويل المناسبات الدينيَّة إلى مناسبات استهلاكيَّة، وذلك بتفريغها من القيم والغايات الإيمانيَّة إلى قيم السوق الاستهلاكيَّة، فعلى سبيل المثال: استطاع التقدُّم العلمي والتقني الحديث أن يحوِّل شهر رمضان (شهر الصوم والعبادة والقرآن) وعيد الفطر خاصة من مناسبة دينيَّة إلى مناسبة استهلاكيَّة.

٤- الحماية الدوليَّة المعنويَّة والمادِّيَّة باسم الحريَّة والديمقراطيَّة وحقوق الإنسان للقوى المحليَّة العلمانيَّة، التي تقوم بمحاربة الهوية الثقافيَّة الإسلاميَّة، وإثارة الشبه والشكوك حول النظم والتشريعات الإسلاميَّة، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين المرأة والرجل وقضايا المرأة المسلمة، وتطالب بعضها جهارًا نهارًا الحكومات والمجالس البرلمانيَّة إصدار القوانين وفق مواثيق الأمم المتَّحدة المتعلقة بحقوق الإنسان بعيدًا عن النظم والتشريعات الإسلاميَّة.

٥- أخطر ما في العولمة نسبيَّة الحقيقة التي تقوم عليها، وهي التي تتصادم تصادمًا مباشرًا مع ثوابت الدين الإسلامي المستمدة من النص: القطعي الثبوت القطعي الدلالة، لذلك نجد أنَّ قوى العولمة تدعم كل من يروج لنسبية الحقيقة.

خامسًا: الأهداف والآثار الاجتماعيَّة والخلقيَّة:

١- التركيز على حريَّة الإنسان الفرديَّة إلى أن تصل للمدى الذي يتحرر فيه من كل قيود الأخلاق والدين والأعراف المرعية، والوصول به إلى مرحلة العدميَّة، وفي النهايَّة يصبح الإنسان أسيرًا لكلِّ ما يعرض عليه من الشركات العالميَّة الكبرى التي تستغله أسوأ استغلال، وتلاحقه به بما تنتجه وتروج له من سلع استهلاكيَّة أو ترفيهيَّة، لا تدع للفرد مجالًا للتفكير في شيء آخر وتصيبه بالخوف.

٢- تكريس النزعة الأنانيَّة لدى الفرد، وتعميق مفهوم الحريَّة الشخصيَّة في العلاقة الاجتماعيَّة، وفي علاقة الرجل بالمرأة، وهذا بدوره يؤدِّي إلى التساهل مع الميول والرغبات الجنسيَّة، وتمرد الإنسان على النظم والأحكام الشرعيَّة التي تنظم وتضبط علاقة الرجل بالمرأة. وهذا بدوره يؤدي إلى انتشار الإباحيَّة والرذائل والتحلل الخلقي وخدش الحياء والكرامة والفطرة الإنسانيَّة.

٣- إنَّ ثقافة العولمة ثقافة ماديَّة بحتة لا مجال فيها للروحانيَّات أو العواطف النبيلة، أو المشاعر الإنسانيَّة، إنَّها تهمل العلاقات الاجتماعيَّة القائمة على التعاطف والتكافل والاهتمام بمصالح وحقوق الآخرين ومشاعرهم. فهي تشكل عالمًا يجعل من الشح والبخل فضيلة، ويشجع على الجشع والانتهازيَّة والوصول إلى الأهداف بأي وسيلة دون أدنى التفات إلى القيم الشريفة السائدة في المجتمع.

٤- لتنفيذ مخططاتهم في هدم كيان المجتمع الإسلامي من خلال المرأة لأهمِّيَّة دورها في بناء كيان الأسرة والمجتمع، ساروا في ثلاثة مسارات في آن واحد، وهي:

أ- التمويل الأمريكيّ والأوربيّ للجمعيَّات والمنظمات الأهليَّة النسائيَّة العلمانيَّة، والاتفاقيَّات الدوليَّة الخاصة بحقوق الإنسان، والمؤتمرات العالميَّة للتعليم والمرأة من أجل تنفيذ مخططات إخراج المرأة المسلمة من الأخلاق الإسلاميَّة، وتمردها على أحكام الشريعة الربانيَّة.

ب - الاتفاقيَّات الدوليَّة الخاصَّة بحماية حقوق الإنسان، وإزالة آثار كافة أشكال التمييز ضد المرأة، وإلزام الدول الإسلاميَّة بالتوقيع عليها، مقابل إعفائها من بعض الديون المترتبة عليها.

ج- المؤتمرات النسائيَّة والتي يقصد بها هدم المجتمعات البشريَّة، ولا سيما المجتمعات الإسلاميَّة. وبمراجعة البحوث التي ألقيت في المؤتمرات النسائيَّة التي عقدت في بعض البلاد الإسلاميَّة، نجدها جميعها تريد إخراج المرأة المسلمة من النظام الاجتماعيِّ الإسلاميِّ الذي ينظر إلى المرأة من خلال فطرتها واستعداداتها وكرامتها.

٥- إنَّ العولمة تجيز الشذوذ الجنسيَّ والعلاقات الجنسيَّة الآثمة بين الرجل والمرأة، بل بين الرجل والرجل. ولبيان هذا الجانب الخطير المدمر للحياة الاجتماعيَّة في العالم الإسلامي، ويظهر ذلك عند مراجعة وثيقة مؤتمر الأمم المتَّحدة المسمَّى المؤتمر الدولي للسُّكَّان والتنمية الذي عقد في القاهرة من ٥- ١٣ سبتمبر عام ١٩٩٤م.

٦-ومن آثار العولمة في الجانب الاجتماعي زيادة معدلات نسبة الجريمة ليس في الدول النامية وحدها، بل في كل الدول الأوربيَّة الغنية.

٧-ومن آثار العولمة في الجانب الاجتماعي أيضًا زيادة معدلات الفقر والبطالة، وتوهين العلاقات الاجتماعيَّة بين الأفراد، والظلم الاجتماعي الذي يصيب الأسر الفقيرة نتيجة تقليص الدولة للدعم الاجتماعي لهذه الأسر.

وسائل العولمة

لجأت القوى الرأسماليَّة الغربيَّة وعلى رأسها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة إلى الوسائل التالية من أجل تحقيق الأهداف المنشودة من وراء العولمة:

١- إنشاء التكتلات والمنظمات الاقتصاديَّة والتجاريَّة التي تمرِّر من خلالها السياسات والإملاءات لصالح العولمة، ومن ذلك اتفاقية الجات (الاتفاقيَّة العامة للتجارة والتعرفة الجمركيَّة) أعضاؤها ١١٧ دولة، وتكتل «النافتا» المكون من كندا وأمريكا والمكسيك، والسوق الأوربيَّة المشتركة و«إيباك» المكون من دول «النافتا» واستراليا ونيوزلندة واليابان وإندونيسيا وماليزيا، ومنظَّمة التجارة العالميَّة التي تنتمي إليها كثير من دول العالم.

٢- استخدام الشرعيَّة الدوليَّة الزائفة وعبر استغلال الأمم المتَّحدة وأجهزتها السياسيَّة والماليَّة والثقافيَّة كالبنك الدولي، ومنظَّمة اليونسكو ومنظَّمة حقوق الإنسان، وغيرها، وكلها تخضع للتوجيه الأمريكي الواضح أو المستتر.

٣- تقديم الدعم الاقتصادي والمعنوي للأنظمة والحكومات المعادية للإسلام، فرض سياسة الحصار والتجويع على الأنظمة المتمردة على الإرادة الأمريكيَّة، أو الأنظمة التي تسعى إلى اتخاذ الإسلام منهجًا وشريعةً للحياة. استخدم العقوبات الدوليَّة التي تفرضها أمريكا -من خلال الأمم المتَّحدة- طبقًا لمعايرها الخاصة التي تحقق أهداف العولمة.

٤- تقييد الحكومات في العالم الإسلامي بالاتفاقيَّات المجحفة الظالمة كاتفاقيَّة منع انتشار الأسلحة النوويَّة والكيماويَّة في الوقت الذي يسمح فيه لليهود ومن على شاكلتهم بامتلاك تلك الأسلحة وتطويرها.

٥- تسخير القوى العلمانيَّة الداخليَّة من الكُتَّاب ورجال الإعلام والتربيَّة لصالح العولمة والاستفادة من جهود المستشرقين وقادة الغزو الفكري.

٦- كتم الصوت الإسلامي المعبر عن آمال الأمَّة وتطلعاتها في الحريَّة والاستقلال وعدم التبعيَّة

للسيطرة الغربيَّة.

٧- الإكثار من المنظمات والجمعيَّات والمؤسسات الخدماتيَّة الأهليَّة ذات الأهداف اللادينيَّة ودعمها ماليًا ومعنويًا.

٨- إحلال الثقافة الغربيَّة من خلال نشر اللغة الإنجليزيَّة، من خلال الأزياء، والمأكولات، والمنتجات الغربيَّة، وإقامة المطاعم الأمريكيَّة (ماكدونالدز) وإقامة شركات إنتاج المواد الغذائيَّة الأمريكيَّة ومن أمثلتها شركة (كوكا كولا) للمشروبات الغازيَّة.

٩- استخدام وسائل الدعاية والإعلام وشبكات الاتصال الحديثة: كالأقمار الصناعيَّة، والقنوات الفضائيَّة، وشاشات الحاسوب، لإحداث التغيرات المطلوبة لعولمة العالم.

١٠- التوسع في قبول الطلاب الأجانب في الجامعات والمعاهد الغربيَّة ففي أمريكا وحدها أكثر من عشرين ألف جامعة ومعهد مهمتها القيام بالبرامج الثقافيَّة التي ترسخ لديهم الثقافة الغربيَّة، وتستخدمهم وسائل للعولمة.

١١- استخدام ما يسمى بالديمقراطيَّة وحقوق الإنسان واعتبارات الحياة المعاصرة ومواثيق الأمم المتَّحدة في محاربة منظومة القيم والأخلاق والتشريعات السائدة في المجتمعات الإسلاميَّة.

١٢- المؤتمرات الاقتصاديَّة، ومؤتمرات التنمية والسُّكَّان، التي تعقد في كافة دول العالم، واستخدامها للترويج لثقافة وفكرة العولمة.

١٣- تنظيم المهرجانات الفنيَّة الغنائيَّة والموسيقيَّة واللقاءات الشبابيَّة التي تشترك فيها فرق ووفود من كل أنحاء العالم.

١٤- استغلال المرأة عبر دعوات لتحقيق المساواة بينها وبين الرجل وسن قوانين عالمية بحجَّة حماية حقوق المرأة.

١٥- سياسة السوق وفتح المجال أمام الشركات الأمريكيَّة والشركات الكبرى متعددة الجنسيَّات للقيام بالاستثمار غير المباشر في دول العالم والاعتماد على خوصصة الشركات والمؤسسات الاقتصاديَّة والخدماتيَّة الوطنيَّة والحكوميَّة، أي نزع ملكيَّة الوطن والأمَّة والدولة لها، ونقلها للخواص من الداخل والخارج، لإضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لصالح ظاهرة العولمة، ومن ثمَّ إحداث هزات ماليَّة في أسواق العالم، وفتح الأسواق المحليَّة أمام السلع ورءوس الأموال والمعلومات الوافدة، وهدم الأسوار الجمركيَّة والقيود أمام التجارة الدوليَّة، وعدم إعطاء الدعم لبعض السلع بحجَّة أنَّ ذلك يضر التنمية، وتسريح الجيوش أو الحد من أعدادها وخوصصة القطاع العام، وتخلِّي الدولة عن دورها في إدارة اقتصادها وحمايته وفق رؤيتها ومصالحها الخاصَّة[١].

---

(١) انظر: العولمة، د. صالح الرقب.

العصرانيَّة

التعريف:

العصرانيَّة مذهب فكريٌّ مبنيٌّ على الاعتقاد بأنَّ التقدم العلميَّ والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينيَّة التقليديَّة على ضوء المفاهيم الفلسفيَّة والعلميَّة السائدة.

وهي الحركة التي سعت إلى تطويع مبادئ الدين لقيم الحضارة الغربيَّة ومفاهيمها والتي هي ربيبة الثقافة اليونانيَّة وإخضاع الدين لتصوراتها ووجهة نظرها في شئون الحياة.

ولقد زعم أصحاب هذه المدرسة أنَّهم يريدون التجديد لتنهض الأمَّة من كبوتها، ويريدون إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من خلال طرح العديد من الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتراث؛ إلَّا أنهم عمدوا إلى إحياء وتمجيد الاتجاهات الفكريَّة المنحرفة، وعرضها في إطار عقلانيٍّ تحت مظلَّة الانتماء إلى التراث الإسلاميِّ.

ثم قاموا بطرح العديد من الشعارات الجديدة التي تصل بين مفهومهم عن الإسلام والماركسيَّة، أو القوميَّة والاشتراكيَّة، أو بين الإسلام والديمقراطيَّة الغربيَّة.

تاريخ العصرانيَّة

العصرانيَّة حركة تحديث واسعة نشطت في داخل الأديان الكبرى، داخل اليهوديَّة، وداخل النصرانيَّة، وداخل الإسلام أيضًا، إنَّ هذه الحركة عرفت في الفكر الديني الغربي باسم العصرانيَّة Modernism، وكلمة عصرانيَّة هنا لا تعني مجرد الانتماء إلى هذا العصر ولكنها مصطلح خاصٌّ؛ إذ تعني العصرانيَّة في الدين.

وهناك قاسمًا مشتركًا بين العصرانيِّين اليهود والنصارى والمسلمين.

- العصرانيَّة عند اليهود:

بدأت في أوائل القرن التاسع عشر الميلاديِّ في ألمانيا نزعات جديدة تظهر بين اليهود، تكونت منها فيما بعد فرقة جديدة عرفت باسم (اليهوديَّة المتحررة)، وتسمى أيضا: اليهوديَّة التجديديَّة أو الإصلاحيَّة.

وكان ذلك يتم للملاءمة بين الديانة اليهوديَّة ومعطيات الحضارة الغربيَّة الجديدة.

وكان الدافع لهذه الحركة هو رغبة اليهود في اللحاق بركب العصر، ثم ألف زعيمها مندلسون العديد من الكتب، وكان شعاره في ذلك: الاستجابة للعادات وأعراف المجتمع العصريَّة، مع المحافظة والإخلاص لدين الآباء.

وكان من شعارات هذه الحركة: أنَّ الدنيا كلّها تتغير من حولنا فلماذا نتخلف نحن.

وتطورت هذه الحركة اليهوديَّة على يد جيلٍ من المفكِّرين من أحبار اليهود؛ مثل فيرى (هولد هايما)، أنَّ الشريعة الإلهيَّة موقوتة بظروفها وينبغي إيجاد تشريعات بديلة عنها!

ويرى آخرون: أنَّ جوهر اليهوديَّة ليست أشكالها ولا حتَّى شريعتها، ولكنَّ جوهرها هو أخلاقها.

وقد وجدت هذه الحركة ضجَّة كبيرة وسط اليهود، حتَّى إنَّ بعضَهم كان يرى أنَّ موت اليهوديَّة هو تطويعها لمبادئ العصر وإلى هذا التطور المتحرر من كلِّ قيدٍ.

- **التجديد العصرانيُّ للنصرانيَّة:**

في الوقت نفسه الذي كانت تزدهر فيه حركة التجديد في اليهوديَّة، كانت النصرانيَّة بشقيها: الكاثوليكي والبروتستانتي، تشهد تطورات مماثلة تشترك في الهدف نفسه، وهو إيجاد التآلف بين إيمان الآباء وبين أفكار العالم الحديث ومنطلقاته المتطورة.

يقول أحد كُتَّاب الغرب ممن سجلوا هذه الظاهرة، وهو (جون راندال) في كتابه: (تكوين العقل الحديث): (إنَّ الذين دعوا أنفسهم بالمتدينين الأحرار في كلِّ فرقةٍ دينيَّة سواء بين البروتستانت أو اليهود، أو حتَّى الكاثوليك قد ذهبوا إلى القول بأنَّه وإنَّ كان للدين أن يُشكِّل حقيقة حيَّة، وإذا كان له أن يظل تعبيرًا دائمًا عن الحاجات الدينيَّة للجنس البشري فلا بدَّ له أن يتمثَّل الحقيقة والمعرفة الجديدتين، وأن يتآلف مع الشروط المتغيِّرة في العصر الحديث من فكريَّة واجتماعيَّة.

(فالعصرانيَّة تقيم نظرتها على رفض سلطة المنقول؛ لأنَّه يناقض ما أثبته العلم الحديث في نظرها، وتدَّعي أنَّ المنقول سواء تمثل في الأناجيل أو في شروحها، ما هو إلا تعبير عن التطوُّر المرحلي للفكر الديني في العصر الذي كتب فيه . . . وبناء على هذا يعتقد أنَّ الحقائق الدينيَّة تخضع لتفسيرات متطورة حسب تقدم المعرفة البشريَّة، وكلَّما تقدَّمت المعرفة، حدثت تصورات جديدة لحقائق الدين).

ويؤكد هذا المفهوم في تطور الحقائق الدينيَّة بلا ضوابط ثابتة قول أحد كتاب الإنجليز (ثرنون ستور): (العصرانيَّة هي تلك المحاولات التي تبذلها مجموعة من المفكرين لتقديم حقائق الدين المسيحي في قوالب المعرفة المعاصرة. إنَّنا الآن لا نلبس ملابس أجدادنا، ولا نتكلم لغتهم، فلماذا في ميدان اللاهوت نُكرهَ على أن نفكِّر بعقول العصور البالية. . . الويل للكنيسة التي تغمض عينيها فتعمى عن رؤية نعمة المعرفة الجديدة).

وهؤلاء الآباء نقدوا التوراة والإنجيل في إطار ما سُمِّي بالنقد التاريخي؛ إذ يؤكد الراهب (بلويزيا) (أنَّ الأناجيل في صورتها الحالية تشتمل على مجموعة من الأساطير والخرافات؛ لهذا لا يمكن أن تكون هي كلمات الله المقدَّسة، ومن هذه كل ما هو غيبي وخارق للطبيعة). وكان من نتائج هذا النقد التاريخي أن دخلت فكرة التطور في تعاليم الدين، ويتبع ذلك مفهوم نسبيَّة الحقيقة).

وفي الوقت نفسه سار التجديد في البروتستانتيَّة الحرَّة، وتوصلوا إلى النتائج السابقة نفسها عند الكاثوليك الأحرار، وقالوا: إنَّ الكتاب المقدس خليط مما هو إلهي وبشري، وكان عيسى عليه السلام مجرَّد بشرٍ.

ومن الملاحظ أن (البابا) (بيوس العاشر) كان قد أصدر منشورين عن الحركة العصرانيَّة عام (١٩٠٧م) ودمغها بالكفر والإلحاد، ووصفها بأنَّها (مركب جديد لكلِّ عناصر البدع والهرطقة القديمة

- العصرانيَّة في العالم الإسلاميّ:

هذه القصَّة بكلِّ فصولها نقلت إلينا من الغرب، فظهرت لها نزعات مشابهة في العالم الإسلامي منذ القرن الماضي عند بعض المتغربين، والتيار التغريبي، فنادوا بتفسير بعض القضايا الإسلاميَّة تفسيرًا عقلانيًّا، وحاولوا إخضاع القرآن والسُّنَّة للمقاييس المادِّيَّة حتَّى تتلاءم مع منهج الغرب وقيم الحضارة الحديثة التي بهرت كثيرًا من الذين كانوا يرونها المقياس الوحيد لكلِّ نهوض وتقدُّم.

ثم جاء من سار على خُطا من سبقهم من المعتزلة الجُدد والمدرسة الإصلاحيَّة، ورددوا آراء المستشرقين، ونسبوا كلَّ ذلك إلى أنفسهم، وقلَّما أشاروا في كتاباتهم إلى هذه الجذور المريبة.

والعصرانيُّون ليسوا سواء فهناك من يصدر في كتاباته عن نيَّة صريحة في هدم الإسلام، متأثرًا بأفكارٍ قوميَّة علمانيَّة، أو يساريَّة شيوعيَّة.

وهناك من يحاول إثارة الارتباك في أفكار الإسلاميِّين عن طريق شغلهم باصطلاحات مبتدعة صعبة الضبط، أو عن طريق قلب مواقف التراث بأفكاره وحركاته، فيجعل المنحرفين والضُّلَّال أصحاب انفتاح وثورة، في حين يجعل علماء الإسلام أهل جمود ورجعيَّة. وأكثر العصرانيِّين في هذه المرحلة من هذا الصنف.

ومنهم من يصدر في معالجته لقضايا الإسلام عن مصلحة سياسيَّة يعمل من أجلها، فيركب الموجة في إعلان حربه على أصحاب الصحوة الإسلاميَّة متأثرًا بالأهواء الرخيصة.

ومنهم من يصدر عن حسن نية، محاولًا الاجتهاد، إلا أنَّه يبقى مشدودًا إلى تصورات المناهج الغربيَّة التي تلقاها خلال دراسته أو ابتعاثه إلى ديار الغرب، أو يظلّ متأثرًا بأفكار المعتزلة، أو يكون ممن جُمعت هذه كلّها في عقليته، فوقع في الاضطراب والخلل والتناقض. وكان من هؤلاء مع الأسف بعض رموز العمل الإسلامي الحديث.

ومن أبرز رموز العصرانيِّين الجدد: محمد أحمد خلف الله، محمد عمارة، أحمد كمال أبو المجد، حسن الترابي، محمد فتحي عثمان، حسن حنفي، عبد الله العلايلي، فهمي هويدي، محمد جابر الأنصاري، حسين أحمد أمين، طه جابر العلواني الذي أنشأ المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ سنة ١٤٠١هـ لتأصيل وترويج أطروحات أهل العصرانيَّة.

أفكار العصرانيّين

١- دعوى تطوير الدين ليساير بزعمهم الحضارات الوافدة: لقد دأب هؤلاء على محاولات تطويع نصوص الشريعة حتى تساير معطيات الحضارة المادّيّة، واتّبعوا في ذلك آراء المستشرقين من اليهود والنصارى. وقد سار على نهج العصرانيّة المتحررة عدد من كُتّاب المسلمين، وظهرت لهم مؤلفات عديدة في هذا المجال.

٢- تقديس العقل عند العصرانيّين: سار العصرانيُّون الجدد على خُطا من سبقهم من المعتزلة وأهل الكلام والفلسفة؛ حيث إنّهم اعتبروا العقل مبدأ أصول العلم، وجعلوا الوحي تابعًا له، بل حكّموا العقل في نصوص الشرع، فلا يقبلون منها إلا ما أيّده العقل ووافقه، ويرفضون منها ما عارضه وخالفه.

ويتفق أصحاب (الاستنارة) عامّة على إعلاء دور العقل وافتراض الصراع بينه وبين النقل؛ وما ذلك إلا من أجل تنفيذ رغبتهم في تطوير الشريعة أو تجاوز نصوصها.

٣- الدعوة إلى التجديد في تفسير القرآن: يرى العصرانيُّون أنّه في ضوء الظروف الجديدة، وتوسع المعرفة الإنسانيّة، لا يمكن الاعتماد في فهم القرآن على التفاسير القديمة التي اشتملت على كثير من الخرافات كما يزعمون، ولكن ينبغي فهم النصّ القرآني من خلال معرفتنا وتجاربنا الذاتيّة.

ولذلك فهم يردون كثيرًا من الأحاديث النبويّة وآراء السلف في التفسير، ودعا العصرانيُّون إلى التجديد في قضايا تفسير كتاب الله، انطلاقًا من الذوق والواقع المعاصر.

٤- الدعوة إلى تطوير أصول الحديث، وعدم الأخذ بالسُّنّة النبويّة في مجال المعاملات خاصّة؛ لأنّ الأحاديث الشريفة تقف حجر عثرة أمام رغبتهم في تطوير الشريعة، ليتجاوزوا ما خلفه علماؤنا من تراثٍ فقهيٍّ غزير.

ومن محاولاتهم المشبوهة خلال التشكيك في السُّنّة، والسعي للابتعاد عن الأخذ بحجيتها في الأحكام:

أ- أنهم قسموها إلى سنة تشريعيّة، وسنة غير تشريعيّة.

ب- موقفهم المريب من أحاديث الصحيحين وخبر الآحاد.

فهم يعتمدون على ضرورة انسجام معنى الحديث مع عقولهم مهما علت مرتبة هذا الحديث. ولقد رد هؤلاء أحاديث كثيرة تتعلق بالغيب والجن، وأخبار الآخرة، كما ردّها قبلهم المعتزلة ورجال المدرسة الإصلاحيّة.

ج- ردّهم كثيرًا من الأحاديث بحجّة أنّ القرآن أولى بالاتباع.

٥- الدعوة إلى تطوير أصول الفقه، وخاصّة في المعاملات، وسياسة الحكم، وشئون المجتمع،

فلكتَّاب المدرسة العصرانيَّة أقوال عجيبة حول تجديد أصول الفقه مآلها الفصل بين الدين والدولة، ومحاولة تمييع العلوم المعياريَّة للوصول إلى الفوضى، والتمهيد لتطبيق القوانين الوضعيَّة الغربيَّة تحت مظلَّة الإسلام.

وهم يشنون حملتهم على الفقه والفقهاء ويدعون إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لكلِّ مدعٍ وعاميٍّ لا علم له بالكتاب والسُّنَّة.

ويدعون إلى صهر المذاهب الفقهيَّة في بوتقة واحدة، وجعلها مستمَدًا لا ينضب معينه، وذلك بالتسليم بكل ما قالت به المدارس الفقهيَّة على اختلافها وتناكرها، بغضِّ النظر عن أدلتها، ثم اختزانها في مدونة منسَّقة الأبواب كمجموعة (جوستينان) ويعنون كل ما أعطت المدارس: الإباضيَّة والزيديَّة والجعفريَّة والسنيَّة، وذلك بجعل هذه الثروة الفقهيَّة منجمًا لكلِّ ما يجدُّ ويحدث.

٦- دعوا إلى الثورة على الحجاب وتعدد الزوجات وإباحة الطلاق، لقد اعتبر العصرانيُّون مسألة تعدد الزوجات التي شرعها الله من سمات عصر الإقطاع، ويرى هؤلاء أنَّ الحجاب الشرعيَّ قيد يجب التخلُّص منه، وأباحوا الاختلاط بين الرِّجال والنساء. ودعا العصرانيُّون إلى مشاركة المرأة في السياسة والقانون والتجارة والاقتصاد بلا قيود، ويرون جواز مشاركتها في الانتخابات والمجالس النيابيَّة؛ بل ويرى بعضهم ولاية المرأة للقضاء، وحتى الولاية العامة جائزة عندهم بإطلاق.

٧- رفضوا إقامة الحدود الشرعيَّة بحجج واهية كالشفقة على المجرمين، وأنَّ قطع اليد أو الرجم ما هي إلا قسوة ووحشية لا تناسب العصر الحاضر.

٨- إباحة الربا في البنوك.

٩- زعموا أنَّ أحكام أهل الذمَّة كانت لظروف خلت وأن تطور العصر يرفضها.

١٠- زعموا أن القوانين الوضعيَّة لا تخالف الشريعة الإسلاميَّة، كما دعوا إلى التوفيق بين الشريعة وتلك القوانين، أي أنَّهم دعوا إلى الفصل بين الدين والدولة، ويدعون إلى علمانيَّة مصبوغة بمفهومهم عن الإسلام.

١١- هاجم العصرانيُّون نظام الخلافة، ويرون أنَّها صورة تاريخيَّة لم تعش طويلًا، وعلى المسلمين ألَّا يفكروا فيها مرَّة أخرى، فلم تكن الدولة هدفًا من أهداف الوحي، ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة.

١٢- العبث في التاريخ الإسلاميِّ، وتمجيد الشخصيَّات المنحرفة، وطمس معالم الصفحات المضيئة من تاريخنا الإسلاميِّ من منطلق دوافع قوميَّة، ومن ذلك فتوحات العثمانيِّين، وانتصار المماليك، وحتى انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيِّين حاولوا الغمز من صاحبه البطل المجاهد.

١٣- تمجيد الحركات الهدَّامة والفرق الضَّالَّة التي ظهرت في تاريخ المسلمين فقد مجَّدوا

الخوارج، واعتبروا أنَّهم حزب العدالة والجمهوريَّة والقيم الثوريَّة التي جاء بها الإسلام، واعتبروا أنَّ القرامطة هم الجناح اليساري في الحركة الشيعيَّة، بل كانوا حركة ثوريَّة ضد الإقطاع، وقد مجَّدوا المعتزلة وأعجبوا بمنطقهم وفلسفتهم، كما أعجبوا بالقدريَّة والشيعة، ومجَّدوا الدولة العبيديَّة، وثورة الزنج.

١٤- تمجيد الشخصيات المنحرفة، فمجدوا غلاة الصوفيَّة كابن عربي والحلاج وأمثالهما، ومدحوا أصحاب الحركات الباطنيَّة كإخوان الصفا والحشاشين والقرامطة، ومجَّدوا انحرافات المعتزلة ورجالاتهم؛ كالقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، عمرو بن عبيد، ويشيدون بالجوانب المظلمة من مسيرة جمال الدين الأفغاني، ويمجِّدون الشيخ علي عبد الرازق على خدماته الرائعة لهدم الشريعة على طريقة الكنائس النصرانيَّة في كتابه الإسلام وأصول الحكم.

١٥- الدعوة إلى الوحدة والتقارب بين الأديان.

نقد العصرانيَّة

١- إنَّ التطور يعتبر طبيعيًّا إذا كان اجتهادًا في الفروع وما يسع الخلاف فيه، وليس في الأصول المعلومة من الدين بالضرورة، أما إذا استجاب الدين لكلِّ تفسيرٍ، فذلك يعني تجاوزه إلى عقول البشر ويعني العلمانيَّة، أي فصل الدين عن الحياة باسم التجديد والتطوير.

ولو صدق هذا الأمر على اليهوديَّة والنصرانيَّة بسبب ظروف تاريخيَّة، وبسبب ما حصل فيهما من تحريفٍ؛ فإنَّ هذا لا ينطبق على الإسلام أبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والتطور التشريعي نوعان: منه ما هو إداري بحت، يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ومن ذلك ما عمله عمر رضي الله عنه في ديوان الجند، وشراؤه دار صفوان بن أميَّة وجعلها سجنًا في مكَّة المكرمَّة، مع أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتخذ سجنًا ولا أبو بكر؛ فهذا النوع من الأنظمة لا يخرج عن قواعد الشرع ومراعاة المصالح العامَّة.

وهذا مما يدخل تحت أحكام الشريعة عن طريق المصالح المرسلة، وهي أحكام تقرها الشريعة السمحة بضوابط معتبرة.

أما النوع الثاني من الأنظمة، المتمثل في القوانين الوضعيَّة، التي تحرم ما أحلَّ الله، وتحل ما حرَّم الله، فإنَّ إقراره كفر بخالق السموات والأرض وذلك بإجماع المسلمين، وإذا كان التطور على حساب العقيدة والشريعة فذلك خروج على الدين ولا شكَّ.

٢- تجاهل العصرانيُّون قيمة العقل في الإسلام فوقعوا في مزالق خطيرة؛ قال الشاطبي رحمه الله: (اهتم الإسلام بالعقل اهتمامًا بالغًا وجعله مناط التكليف، فإذا فُقِد ارتفع التكليف، ويُعَد فاقده كالبهيمة لا تكليف عليه).

وليس ثمَّة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنساني وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلاميَّة، وليس هناك من كتاب أطلق سراح العقل وأعلى من قيمته وكرامته كالقرآن الكريم: ﴿وَلَعَلَّكُمْ

﴿تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، إلَّا أنَّ للعقل مجالاتِه وحدودَه؛ لأنَّه محدود الطاقات فلا يستطيع أن يدرك كلَّ الحقائق مهما أوتي من قدرة على الاستيعاب، فأقام الإسلام العقل مع الاستسلام والامتثال للأمر الشرعي الصريح، حتى ولو لم يدرك الحكمة والسبب في ذلك، كأمور الغيب مثلًا والروح، وما شابه ذلك، وقد كانت أول معصية لله ارتكبت بسبب عدم هذا الامتثال من قبل إبليس لعنه الله.

والواقع أنَّ التعارض بين العقول السليمة وبين الشرع غير موجود.

٣- إن السُّنَّة هي الركيزة الأولى في تفسير القرآن الكريم؛ حيث إنَّ القرآن الكريم كتاب منزَّل من عند الله تعالى على نبيِّه ليبينه للناس؛ وحينئذ لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ مفهومه السليم الموثوق به، هو ما أدركه النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

ومن الملاحظ أنَّ تقدُّم المعارف البشريَّة المعتمدة على تجارب البشر الذاتيَّة قد تكشفت عن أخطاء في معارف العصور الماضية، فهل يؤثر ذلك في فهم القرآن؟! وهل تتغير معاني القرآن تبعًا لذلك؟!

وبسبب الاعتماد على معارف البشر العصريَّة وما فيها من القصور والأخطاء، وبسبب إهمال تفاسير الأولين وقعت العصرانيَّة في انحرافات شنيعة في التفسير. وحسبنا أمثلةً على ذلك تفسير سيد أحمد خان، وتفسير الشيخ محمد عبده.

٤- تقسيمهم السُّنَّة إلى تشريعيَّة وغير تشريعيَّة باطل سبقهم إليه الإصلاحيُّون مدرسة محمَّد عبده عندما قسَّموا السُّنَّة إلى سنَّة عمليَّة يؤخذ بها في الأحكام الشرعيَّة كالعبادات وقضايا العقيدة الأساسيَّة وسنَّة غير عمليَّة وهي الأحاديث القوليَّة ولا يلتزمون بها إلا ضمن شروط تنسجم مع قواعدها العقليَّة، فأخرجوا منها قضايا السياسة والمجتمع.

وقد اعتبر بعضهم أنَّ العصمة تكون في أمور التبليغ فقط، وأنَّ ما اندرج من السُّنَّة النبويَّة تحت أمور السياسة والمجتمع ليس دينًا. ومن ثمَّ؛ فإنَّه موضوع للاجتهاد والشورى، والقبول والرفض، والإضافة والتعديل. فالسياسة والحكم والقضاء وشئون المجتمع ليست دينًا وشرعًا يجب فيها التأسي والاهتداء بما في السُّنَّة من وقائع، وأواصر، ونواهٍ وتطبيقات؛ لأنَّها أمور تقررت بناء على بيِّنات قد نرى غيرها، وعالجت مصالح هي بالضرورة متطورة ومتغيرة.

وهذه الشبهة دعوة صريحة إلى رد السنن، وترك العمل بها، والتحاكم إليها، ثم إلى تفسير القرآن بالتفسيرات الشاذَّة، التي توافق أهواءهم، ثم إلى تركه وراءهم ظهريًّا. وبذلك يرتمون في أحضان العلمانيَّة صرحوا بذلك أم أنكروا.

٥- لقد أصبح الاقتصار على ما في كتاب الله تُكَأة في يد بعض العلمانيِّين وأصحاب الأهواء، إذا أرادوا الخروج على الشريعة وتجاوز حدود الله؛ إذ يتبجحون بأنَّهم ليسوا (نصوصيِّين) وإنَّما هم يدركون (روح الدين) ويراعون المقاصد العامة للإسلام.

هذا، والحديث الشريف ثاني مصادر الشريعة الإسلاميَّة هو المفسر الأول، والمبين لكتاب الله،

ولذلك عُنيَ به علماء المسلمين عناية تفوق الوصف، فظلَّ الحديث مصفًّى من الشوائب، وكان لا بدَّ للمبتدعَة من أن يحاولوا اختراق هذا الجدار المنيع الذي يحمي أسس العقيدة والشريعة، ليتمكَّنوا من الزيادة في الدين أو النقص منه حسبما يشاءون. فالقرآن والخبر الصحيح شيء واحد، وحكمهما واحد في وجوب الطاعة لهما.

٦- هذه الدعوة التي تطالب بإعادة النظر في التشريع الإسلاميِّ كلِّه دون قيد ليفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين، ولأصحاب الورع وأصحاب الأهواء، حتى ظهرت الفتاوى التي تبيح الإفطار لأدنى عذر، وتبيح الربا إلا ربا النسيئة، وظهرت آراء تحظر تعدد الزوجات، وتحذر من الطلاق؛ وبذلك تحوَّل الاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير للشريعة الإسلاميَّة، يهدف إلى مطابقة الحضارة الغربيَّة. والنتيجة التي يودُّ هؤلاء أن يصلوا إليها من تطوير الشريعة هو تحكيم القوانين الوضعيَّة، وفي ذلك تنفيذ لمخططات أعداء الإسلام، الذين زعموا أنَّ الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني.

وغني عن القول أنَّ كلَّ أصلٍ من الأصول الفقهيَّة ثبتت حجيته بالكتاب والسُّنَّة، وقد بيَّن أهل العلم أدلة كلٍّ من: الإجماع والقياس والمصلحة وحجية ذلك... فهي ليست مبتدعة كما يزعم هؤلاء؛ بل هي منهج الاستنباط الشرعي الذي هو من الدين.

المدرسة العصرانيَّة ذات النزعة الماديَّة

أضاف رواد هذه المدرسة إلى الانحرافات السابقة انحرافات جديدة، إذ اعتمدوا منهج التفكير الماديِّ (الوضعيِّ)، الذي ينظر إلى العالم الخارجي، باعتباره يمثِّل الحقيقة الكبرى الكاملة، وأنَّ هذه الحقيقة الموضوعيَّة، ذات وجود مستقلٍّ عن الإنسان.

وفي المنهج الماديِّ: يكون التعامل مع النصوص الشرعيَّة بإلغاء دلالتها، والحصول على المعرفة من مصادر وضعيَّة، مثل: التاريخ والسير في الأرض، لمعرفة: كيف بدأ الخلق؟! والاعتماد على سنن الأنفس والآفاق، وقوانين الطبيعة والاجتماع، وقد تبنَّى أصحاب هذه المدرسة آراء المعتزلة والقدريَّة في القول بالمشيئة، وتبنَّوا نظريَّة داروين والمذهب الوضعي للفيلسوف (كانت)، كما أنَّهم أظهروا إعجابهم بالنتائج التي توصلت إليها الماركسيَّة.

ويعتبر جودت سعيد من أبرز دعاة المذهب الماديِّ المعاصر، فهو يدعو إليه منذ أكثر من ثلاثين سنة، من خلال الخطاب الإسلاميِّ، في كتبه ومقالاته وندواته.

وسار على هذا الطريق الطبيب خالص جلبي تلميذه وزوج أخته، وتكاد تكون آراؤه رجعَ الصدى، لآراء شيخه جودت[1].

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية، مفهومها ونشأته، خصائصها ومزاعمها، وموقف العصرانيين من الفقه وأصوله، والمدرسة العصرانيَّة في نزعتها الماديَّة، محمد حامد الناصر.

الحداثة

التعريف:

الحداثة مذهب فكريٌّ أدبيٌّ علمانيٌّ، ولد ونشأ في أوربا، وقام على الأفكار اليهوديَّة الإلحاديَّة مثل الماركسيَّة والوجوديَّة والفرويديَّة والداراوينيَّة، ووصلت إلى شكلها النهائي على يد اليهودي (عزرا باوند) وقام الشيوعيُّون بنقلها إلى المسلمين غالبًا.

وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة وتحطيم كلِّ القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة والإنسانيَّة بحجَّة أنَّها قديمة وموروثة لتبني الحياة على الإباحيَّة والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانيَّة، وذلك باسم الحرية، والنفاذ إلى أعماق الحياة.

والحداثة خلاصة مذاهب خطيرة ملحدة، ظهرت في أوربا كالمستقبليَّة والوجوديَّة والسرياليَّة وهي من هذه الناحية شرٌّ لأنَّها إملاءات اللاوعي في غيبة الوعي والعقل، وهي صبيانيَّة المضمون وعبثيَّة في شكلها الفني وتمثل نزعة الشرِّ والفساد في عداء مستمرٍّ للماضي والقديم، وهي إفراز طبيعيٌّ لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوربيِّ ولظهور الشكِّ والقلق في حياة الناس، مما جعل للمخدرات والجنس تأثيرهما الكبير.

الحداثة عند الغربيِّين

بدأ مذهب الحداثة منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريبًا في باريس على يد كثير من الأدباء السرياليين والرمزيين والماركسيين والفوضويين والعبثيين.

ويعد شارل بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧م مؤسس الحداثة في العالم الغربي، وهو أديب فرنسي أيضًا نادى بالفوضى الجنسيَّة والفكريَّة والأخلاقيَّة، ووصفها بالساديَّة أي مذهب التَّلذذ بتعذيب الآخرين.

له ديوان شعر باسم أزهار الشرِّ مترجم للعربيَّة من قبل الشاعر إبراهيم ناجي، ويعتبره الحداثيون «نبي الحداثة».

ومن رواد الحداثة الغربيِّين بعد بودلير، الشاعر الفرنسي آرتور رامبو، وعلى آثاره كان مالارميه ١٨٤٢ - ١٨٩٨م، وبول فاليري، وغوستاف فلوبير ١٨٢١ - ١٨٨٠م، ووصلت الحداثة في الغرب إلى شكلها النهائيِّ على يد الأمريكيِّ اليهوديِّ عزرا باوند، والإنجليزيِّ توماس إليوت، . . .

ثم واصلت الحداثة رحلتها حين قادها مجموعة من الشيوعيِّين، مثل: نيرودا، ولوركا، وأراجون، وناظم حكمت، ويفتشنكو، أو من الوجوديِّين مثل: بول سارتر، وعشيقته سيمون دو بوفوار، وألبير كامو.

والحداثة إفراز طبيعيٌّ من إفرازات الفكر الإلحاديِّ المتمرِّد على الدين، والذي نشأ بعد ظهور

الرأسماليَّة والعلمانيَّة، في بداية ما يسمَّى عصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلاديِّ، حين انفصلت المجتمعات الأوربيَّة عن الكنيسة، وثارت على سلطتها الروحيَّة، ونشأت النزعات التحريريَّة والقوميَّة بدون أي ضابط، إلَّا العمل على الكسب الماديِّ المبنيِّ على الفكر الماديِّ الإلحاديِّ.

فالحداثة شكل من أشكال الإلحاد، والذي شجع عليه وهيَّأ المناخ له هو انتشار الفكر الماركسيِّ، وضعف التمسك بالدين المسيحيِّ بين سكان أوربا بسبب نشاط التنظيمات اليساريَّة الأوربيَّة.

فالحداثة ليست امتدادًا للتيارات المسيحيَّة الأصوليَّة كالمحافظين الجدد بل هم على عداء كبير في قضايا الإلحاد والإباحيَّة مع الاتفاق على مسائل مثل الحريَّة السياسيَّة والثقافيَّة، ولذلك فإنَّ جميع منظري الحداثة في العالم هم من الماركسيِّين والشيوعيِّين.

الحداثة العربيَّة

ارتبطت حركة التحول الحديثة في فن الشعر عند العرب، ببواكير النهضة العربيَّة الحديثة والذي تولى جلبها لنا هم الشيوعيُّون العرب.

وبسبب القوة العسكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة التي كان يتمتع بها الشرق والغرب آنذاك، انجذبت جموع من هذه الأمَّة إلى ما عند الغرب، وتشبَّثوا في تبعيته له أكثر من أهله أنفسهم.

وأخيرًا انتقل وباء الحداثة إلى ديار العرب على أيدي المنهزمين فكريًّا، وقد حاول هؤلاء «المنهزمون» أن ينقلوا إلى المجتمعات الإسلاميَّة، والعربيَّة على وجه الخصوص، كلّ ما احتوته الحداثة الشرقيَّة والغربيَّة من إباحيَّة ومجون، مع فارق واحد هو كتابتها بأحرف عربيَّة.

وقد أكَّد كتاب وشعراء الحداثة العرب كثيرًا على الارتباط الوثيق بين حداثتهم، وبين الحداثة الشرقيَّة والغربيَّة، وعلى الانسلاخ من الأدب العربي القديم، إذ يقول أحد رموزهم (غالي شكري): «إن المفاضلة بين الشعر التقليدي والشعر الحديث، تصبح غير ذات موضوع؛ لأنَّهما لا يملكان في حقيقة الأمر من عناصر الأرض المشتركة سوى اللغة».

ويقول غالي شكري أيضًا: «وعندما أقول الشعراء الجدد، وأذكر كبار شعراء الحركة الحديثة من أمثال: أدونيس، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتي، وخليل حاوي... عند هؤلاء سوف نعثر على إليوت، وإزرا باوند، وربما على رواسب من رامبو، وفاليري، وربَّما على ملامح من أحدث شعراء العصر في أوربا وأمريكا، ولكنا لن نعثر على التراث العربي».

ويؤكد أدونيس، وهو من أكبر رموزهم المعاصرين، على الارتباط بين الحداثة العربيَّة والغربيَّة بقوله: «قد تكون علاقتي بسوفو كليس، أو شكسبير، أو رامبو، أو مايا كوفسكي، أو لوركا، أعمق من علاقتي بأي شاعر عربيٍّ، دون أن يعني ذلك أنِّي خارج على التراث الشعري العربي».

إذًا، حاول مجموعة من الأدباء والشعراء العرب المتأثرين بالإباحيَّة الأوربيَّة والمجون والانحلال نقل هذه الأفكار إلى الأمَّة بجذافيرها، إلَّا أنَّ ذلك جوبه برفض المسلمين، الَّذين يغارون على دينهم، ويعترضون على الإساءة إليه، خاصَّة أنَّ الحداثة، مبدأ غربي وافد على الأمَّة، ولا يعقل على الحداثيين أن يواجهوا جماهير المثقفين المسلمين في البداية بفكرة غربيَّة ولباسها غربي، فبحثوا عن ثوب عربي يلبسونه الفكرة الغربيَّة، حتى يمكنها أن تتسلل إلى العقول في غيبة يقظة الإيمان والأصالة.

وهذا الثوب «العربي» الذي حاول الحداثيُّون إلباسه لمذهبهم الجديد، لم يكن سوى «الزندقة» التي شاعت في بدايات الدولة العباسيَّة، وفي فترات أخرى، وأخذوا ينقبون للحداثة عن أي أصول لها في التاريخ العربي، «لعلها تكتسب بذلك الشرعيَّة، وتحصل على جواز مرور إلى عقول أبناء المسلمين».

وهكذا بدأ الحداثيُّون ينبشون كتب التراث، ويستخرجون كلّ شاذٍّ ومنحرف من الشعراء والأدباء والمفكرين، مثل بشار بن برد، وأبي نواس، لأنَّ في شعرهم الكثير من المروق على الإسلام، والتشكيك في العقائد، والسخرية منها، والدعوة للانحلال الجنسي.

وقد اعتبر الشاعر أدونيس أنَّ ما يجذبه ويجذب الحداثيِّين إلى شعر الزنادقة كأبي نواس وعمر بن أبي ربيعة، هو تدنيس المقدَّسات الذي يسميه الانتهاك، فيقول: «إنَّ الانتهاك هو ما يجذبنا في شعرهما، والعلة في هذا الجذب، أننا لا شعوريًّا نحارب كل ما يحول دون تفتح الإنسان، فالإنسان من هذه الزاوية ثوري بالفطرة، الإنسان حيوان ثوري».

وإضافة إلى الزنادقة من شعراء العصر العباسي، فقد اتجه الحداثيُّون إلى مؤلفات أتباع الفرق المنحرفة كالصوفيَّة، وأثنوا عليهم خيرًا وألَّفوا في مدحهم القصائد والمسرحيات، وعلى رأسهم الحلاج والبسطامي وابن عربي.

أبرز ما نادى به الحداثيُّون

يعد أدب الحداثة امتدادًا لفكر الزندقة، ولقد «ساهم الشعر الحديث في إشاعة الإلحاد، والتطاول على المقدَّسات الإسلاميَّة، ونشر أدب الفجور والانحلال بشكل ليس له نظير، محتمين بالقوانين العلمانيَّة، ومحاربة الإسلام في دياره، ومَن أمن العقاب أساء الأدب».

كما أنَّ اللافت للنَّظر، أنَّ غالبية رموز الحداثة العربيَّة هم من أصحاب الفكر الشيوعي، ومن أصحاب التوجه اليساري الملحد إضافة إلى أنَّ كثيرًا منهم بالأصل ينتمون إلى النصرانيَّة، وإلى بعض الفرق المنحرفة كالنصيريَّة. ولكن شيوعيتهم هي الدافعة لهم على نشر الحداثة.

أهم ملامح هذا المذهب، وأهم ما نادى به وتناوله:

١- استبعاد الدين تمامًا من معاييرهم وموازينهم، بل ومصادرهم، إلَّا أن يكون ضمن ما يسمونه بالخرافة والأسطورة. وهذا من بدايات الحداثة فهذا أدونيس صاحب الدور المرسوم في

حركة الحداثة وتمكينها على أساس ما ادعاه من الثبات والتحول كان يقول: لا يمكن أن تنهض الحياة العربيَّة ويبدع الإنسان العربي إذا لم تتهدم البنية التقليديَّة السائدة في الفكر العربي والتخلص من المبنى الدينيِّ التقليديِّ الإتباعي. وقد استخدم أدونيس مصطلح الحداثة الصريح ابتداءً من نهاية السبعينات عندما أصدر كتابه: صدمة الحداثة عام ١٩٧٨م وفيه لا يعترف بالتحول إلا من خلال الحركات الثوريَّة السياسيَّة والمذهبيَّة، وكلّ ما من شأنه أن يكون تمردًا على الدين والنظام تجاوزًا للشريعة.

٢- الاستهزاء بالمقدَّسات الإسلاميَّة، والتطاول على الله تعالى وعلى أنبيائه وكتبه وشريعته، ومن ذلك قول نزار قباني، وهو من أبرز شعراء الحداثة:

من بعد موت الله مشنوقا
على باب المدينة
لم تبق للصلوات قيمة
لم يبق للإيمان أو للكفر قيمة.

وقول الشاعر عبد الوهاب البياتي، والعياذ بالله:

الله في مدينتي مشرَّد طريد الله في مدينتي يبيعه اليهود
أراد الغزاة أن يكون
لهم أجيرًا شاعرًا قواد يخدع في قيثاره المذهّب العباد
لكنه أصيب بالجنون

٣- شن الحرب على اللغة العربيَّة، كونها لغة القرآن الكريم، والتقليل من شأنها، وربطها بالتخلُّف والجمود. وفي المقابل تعظيم شأن الثقافات والديانات واللغات الأخرى، وكذلك اللهجات العاميَّة. ولقد دعا ميخائيل نعيمة إلى هجر اللغة العربيَّة، والبحث عما أسماه «لغة عالمية موحدة، تتجمع حولها الشعوب كلّها».

وفي لبنان، تبنَّى الشاعر سعيد عقل الدعوة إلى العاميَّة، التي يسميها اللغة اللبنانيَّة، ووصل به التطرُّف إلى كتابة هذه اللغة بحروف لاتينيَّة، وله صحيفة أسبوعيَّة محدودة الانتشار، تطبع بالحروف اللاتينيَّة.

وقد صرَّح أحد مؤسسي الرابطة القلميَّة (عبد المسيح حداد) بأنَّ أعضاء الرابطة من أدباء الحداثة كانوا يعتبرون الأدب العربي، الوجه الآخر للعقيدة الإسلاميَّة.

٤- الدعوة إلى الانحلال الجنسيِّ، والفحش والمجون، ويقف على رأس الحداثيِّين في ذلك، الشاعر السوري نزار قباني، الذي كرَّس حياته وشعره لهدم كيان الأسرة، وكانت معظم دواوينه في وصف جسد المرأة، والدوران حول قضايا الجنس، وقد قال: «لو كنت حاكمًا لألغيت مؤسَّسة الزواج، وختمت أبوابها بالشمع الأحمر»، وقال: «العري أكثر حشمة من التستر».

٥- الغموض، فإنَّ من يقرأ أدب الحداثة يقع في حيرة من أمره، بحيث يجزم بأنَّ هذه الأشعار ليست من لغة العرب، سواءً في مفرداتها أو تراكيبها، وقد طغى الغموض حتى على عناوين قصائدهم وكتاباتهم.

ومن الأسباب التي تدفع شعراء الحداثة للغموض:

- رغبتهم بالانطلاق بلا ضوابط وبلا معايير في كل شيء.

- كسر الإطار العام للغة العربيَّة، وتحويلها مع مرور الزمن والأيام، ومن خلال استبدال مفرداتها وتراكيبها ومعانيها إلى لغة جديدة، لا صلة لها باللغة العربيَّة الفصحى.

- إيجاد واقع فكريٍّ جديد، منفصل عن واقع الأمَّة الفكريِّ، وماضيها العلميِّ والعقليِّ والأدبيِّ، في الشكل والمضمون، إذ لجأ الحداثيُّون إلى الرموز الوثنيَّة والإشارات الإلحاديَّة، وضمنوها في أشعارهم.

مراحل الحداثة

مرت حركة الحداثة بعدة مراحل، كان لكلِّ مرحلة أفرادها، وسماتها المميزة، وقد لجأ الحداثيون إلى إنشاء الروابط والنوادي الأدبيَّة، وإصدار الصحف والمجلات.

المرحلة الأولى: البداية التي يرجح أنَّها كانت على يد خليل مطران (١٨٧٢ . ١٩٤٩م)، حيث بدأ مطران في نشر مفاهيم جديدة، ورؤية محدثة للأدب عامَّة، وللشعر بوجه الخصوص، عبر صفحات مجلته «المجلة العصريَّة» التي أصدرها عام ١٩٠٠م، وفيها يقول: «للعرب عصرهم، ولنا عصرنا، ولهم آدابهم وأخلاقهم وعلومهم وحاجاتهم... ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلًا لتصورنا وشعورنا».

وقد حاول مطران محاكاة الأدب والشعر الفرنسيِّ، ورغم أنَّه يعتبر رائد الحداثة الأوَّل، إلَّا أنَّ محاولاته كانت محدودة وحذرة، ولم تشكل ظاهر عامة في شعره.

المرحلة الثانية: في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، حيث ظهر في مصر في تلك الفترة جماعة أطلق عليها جماعة «الديوان» وتشكلت من عبد الرحمن شكري، وعباس العقاد، وإبراهيم المازني. وقد كانت هذه الجماعة وزعيمها شكري متأثرة إلى حد كبير بالمدرسة الإنجليزيَّة في الشعر، وسرعان ما دبت الخلافات بين أفرادها، ولم تستطع أن تخلف تيارًا ثابتًا وواعيًا لمنهجها في الشعر العربي، أو أن تكون مدرسة لها تمتد بعد زعمائها الأوائل.

المرحلة الثالثة: وقد جاءت متزامنة ومواكبة لجماعة الديوان في مصر، لكن هذه المرحلة نشأت في المهجر، وتحديدًا في أمريكا، وقادها أمين الريحاني (١٨٧٦ـ ١٩٤٠)، وجبران خليل جبران، (١٨٨٣ـ ١٩٣١) وميخائيل نعيمة مؤسسين لـ«الرابطة القلمية» في نيويورك سنة ١٩٢٠، وقد اشترك في تأسيسها عدد من مسيحيي لبنان في المهجر مثل: إيليا أبي ماضي، ونسيب عريضة وإلياس عطا الله، وعبد المسيح حداد.

وكان على رأس هذه المرحلة جبران، الذي كان منذ نعومة أظفاره يكره العرب، وكل ما يتصل بالعربيَّة، حيث كان نزَّاعًا إلى الغرب الأوربيِّ.

وقد صرَّح بعض الباحثين، بأنَّ المصدرين الرئيسين، اللذين أثرا على التكوين الفكري والأدبي لشعراء الرابطة القلميَّة، هما: الثقافة المسيحيَّة وما انتهى إليها من فلسفات الشرق وأديانه، والثقافات الأجنبيَّة وما اطلعوا عليه من آداب الغرب وفلسفاته.

المرحلة الرابعة: ممثلة بجماعة «أبوللو» التي نشأت في مصر في أوائل العقد الرابع من القرن الماضي، على يد د. أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢- ١٩٥٥) كحركة أدبيَّة اجتماعيَّة.

وقد ضمت «أبوللو» عددًا من الشباب الموهوبين، أمثال إبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، وأبي القاسم الشابي، وصالح جودت، وحسن الصيرفي، وغيرهم، وقد كان مؤسِّس هذه المدرسة «د. أبو شادي» وصاحب مجلتها «أبوللو»، غربي النشأة والتكوين النفسي والمزاج.

وعلى الرغم من أن عمر جماعة أبوللو لم يتجاوز السنتين، إلَّا أنَّها استطاعت أن تخلف على الساحة الأدبيَّة جيلًا، تعدت آثاره إلى البلاد العربيَّة الأخرى، ولعدة عقود تالية.

المرحلة الخامسة: وهي التي برز فيها العراقيون، مع نهايات العقد الخامس، وعلى رأسهم «نازك الملائكة» التي دعت إلى نوع جديد من النظام الشعري، أطلقت عليه اسم «الشعر الحر» لا يلتزم بالقافية، ولا بأوزان العرب المعروفة، وقد كان ديوانها الثاني «شظايا ورماد» الصادر عام ١٩٤٩، أول ديوان شعري يحمل لواء هذه الدعوة.

وقد حملت نازك بقسوة على الشعر العربي، ومن أقوالها: ما لطريقة الخليل؟ وما اللغة التي استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون؟ ألم تصدأ لطول ملامستها الأقلام والشفاه، منذ سنين وسنين؟ ألم تألفها أسماعنا، وترددها شفاهنا، وتعلكها أقلامنا حتى مجَّتها وتقيَّأتها؟!.

وكان من رواد هذه المرحلة: بدر شاكر السياب (١٩٢٦. ١٩٦٤)، وعبد الوهاب البياتي من العراق، وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي من مصر.

المرحلة السادسة: وفيها انتقلت حيوية الحركة الشعريَّة إلى لبنان خلال العقدين السادس والسابع، بفعل ثلاث بؤر أدبيَّة ناشطة، تحلقت حول ثلاث مجلات وهي على التوالي: الآداب، وشعر، وحوار.

وكان الخط الفكريُّ والنفسيُّ متقاربًا إلى حد بعيد بين البؤر الثلاث، مجملًا في الدعوة إلى: أيديولوجيَّة وجوديَّة، مبدؤها العدم، والغثيان والكينونة، وحرِّيَّة الوجود الفرديِّ.

ومن الحداثيين البارزين في تلك المرحلة: يوسف الخال، وشوقي أبو شقرا، وعلي أحمد سعيد «أدونيس»، ونذير العظمة.

وقد كانت هذه المجلات الثلاث تتبنى بوضوح عمليَّة تغريب الشعر العربي، تغريبًا تامًّا، حتى

اعتبر النقاد أن شعرهم كأنَّه مترجم عن الشعر الأجنبي.

الأدب الشيوعي: إنَّ الاشتراكيَّة أو الشيوعيَّة شكَّلت تيارًا بارزًا في الشعر العربي منذ نهاية العقد الخامس وبدايات السادس، وطرحت مفاهيم جديدة، ومعاني محدثة.

وقد ولد هذا التيار في أحضان الحركة الشيوعيَّة المصريَّة، وعبر نفر من شبابها، أمثال: كمال عبد الحليم، وكيلاني سند، وعبد الرحمن الخميس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وأحمد عبد المعطي حجازي.

وميلاد هذا التيار الجديد في مصر، كان غريبًا ومهملًا، ولا يكاد يلتفت إليه أحد، على مستوى الحركة الأدبيَّة العامَّة حتى وقع له التحول الكبير وواسع النطاق مع نجاح ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وظهور تحولاتها الاشتراكيَّة في الحكم والفكر والأدب، وسرعان ما امتدت هذه الروح الجديدة، لتعم معظم بلدان العرب الأخرى.

وهذه المرحلة كان من رموزها: سلامة موسى، ولويس عوض، وأنور المعداوي، ومحمود أمين العالم، وحسين مروة، وغائب طعمة، وبدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وبلند الحيدري، وجبرا إبراهيم جبرا، ومحمود درويش، ومعين بسيسو، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وأدونيس وغيرهم.

ورافق هذا التيار الاشتراكيّ، بل كان رديفًا له، تيار يأخذ بالفكر الوجوديّ، يمثله يوسف الخال، وخليل حاوي وأمثالهم[(١)].

المثاليَّة

التعريف:

المثاليَّة مذهبٌ فلسفيٌّ يشمل جانبًا كبيرًا من المذاهب الميتافيزيقيَّة (ما بعد الطبيعة أو الغيبية)، وهي اتجاه فلسفيٌّ يبحث عن مسألة الوجود (أو الانطولوجيا)، في حين أنَّ العقلانيَّة اتجاه مذهبيٌّ يبحث في أصل المعرفة، ويردُّ هذا الأصل إلى العقل فقط، وينكر دور الحواسِّ أو المعرفة القلبيَّة أو المعرفة عن طريق الوحي، وعكس العقلانيَّة التجريبيَّة، وهذه الأخيرة تعتمد على التَّجربة الحسيَّة فقط من دون العقل المجرَّد.

وعكس المثاليَّة «المادِّيَّة». والمثاليَّة تعطي الأولويَّة في الوجود للرُّوح على أن يكون وجود المادَّة ثانويًا في حين أنَّ المادِّيَّة تعطي الأولويَّة في الوجود للمادَّة، على أن تكون الرُّوح انعكاسًا للمادَّة وظلًا لها.

---

(١) انظر: مجلة الراصد العدد ٣٥، ص(٦- ١٦)، الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٦٧- ٨٧٣)، الحداثة في ميزان الإسلام، عوض القرني، أدب الردة، جمال سلطان، التيارات الفكرية والعقدية في النصف الثاني من القرن العشرين، محمد فاروق الخالدي، المذاهب والتيارات المعاصرة، د. محمود إبراهيم الخطيب.

وتقترب المثاليَّة كثيرًا من الفلسفة؛ لأنَّها تبلور مباحث الفلسفة الثلاثة الرئيسيَّة: الحقُّ والخير والجمال.

تَارِيخ المثاليَّة

ظهرت المثاليَّة في القرن الثامن عشر الميلاديِّ، ومن أبرز الفلاسفة الَّذين أثَّروا في المذهب، وكان لهم تأثيرٌ كبيرٌ في مجرى الفكر الأوربيِّ عامَّة:

- جورج باركلي ١٦٨٥ - ١٧٥٣م وهو راهبٌ أيرلنديٌّ، كان على جانبٍ كبيرٍ من النَّشاط والجاذبيَّة الفطريَّة والقدرة على الإقناع، ويعدُّ المؤسس الحقيقيّ للمثاليَّة. وقد عاش طوال حياته متشبِّعًا بالفكر الدينيِّ مولعًا بالفلسفة والفكر اللاهوتي، ومدافعًا عن الإيمان الدينيِّ والإدراك الفطريِّ السليم. فضلًا عن محاولته وهو في منتصف عمره، إقامة جامعة لتخريج مبشِّرين بالنصرانيَّة. هذه الجذور الدينيَّة العميقة كان لها أكبر الأثر في توجهه الفلسفيِّ نحو القول بالمثاليَّة، وأنَّه لا حقيقة إلَّا للرُّوح ولخالقها الله -تعالى-، وأنَّ الوجودَ الماديَّ وجودٌ ظاهريٌّ يحس به الإنسان ويدركه بعقله فقط. وكانت أفكاره ذات تأثيرٍ كبيرٍ فيمن جاء بعده من المفكرين والفلاسفة.

- عمانوئيل كانت ١٧٢٤ - ١٨٠٤م وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ، ألَّف كتبًا مشهورة أهمُّها نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، وكان يعتقد أنَّ هناك حجَّة أخلاقيَّة كافية للبرهان على وجود الله هي القانون الأخلاقيّ.

- جوهان فيشته ١٧٦٢ - ١٨١٤م وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ، درس اللاهوت والفلسفة وتتلمذ على يد كانت، وكان لخطبه الشهيرة في برلين بين عامي ١٨٠٧- ١٨٠٨م عميق الأثر في إحياء بروسيا بعد هزائمها على يد نابليون بونابرت القائد الفرنسيّ الشهير.

- جورج فلهلم هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ كان من أكبر الفلاسفة تأثيرًا في فلسفات عدة مثل الوجوديَّة، والماركسيَّة، والذرائعيَّة، في مجال الديالكتيك (الجدل)، وكان يعتقد أنَّ الوجودَ الماديَّ مظهرٌ للرُّوح.

- آرثر شوبنهور ١٧٨٨ - ١٨٦٠م وهو فيلسوف ألمانيٌّ، تأثر كثيرًا بفلسفة أفلاطون المثاليَّة وكانت، من كتبه العالم إرادة وفكرة، وقد تأثَّر بالبوذيَّة، لكنه لم يقبل مذهب تناسخ الأرواح.

- ت.هـ. جرين ١٨٣٦ - ١٩٢٤م وهو فيلسوفٌ إنجليزيٌّ، أثر تأثيرًا كبيرًا في إكسفورد، واهتمَّ بشكل خاصٍّ بالربط بين المثاليَّة والنصرانيَّة وبين المثاليَّة والأفكار السياسيَّة الحرَّة.

- ف.هـ. برادلي ١٨٤٦ - ١٩٢٤م وهو فيلسوفٌ إنجليزيٌّ، قال بأنَّه ينبغي علينا افتراض وجود مطلق يجاوز نطاق الفكر.

أفكار المثاليَّة

- إنَّ جوهر الحقيقة روحيٌّ، والرُّوح لا تستطيع أن تدرك نفسها إلا في علاقتها بعنصر ماديٍّ موضوعيٍّ، وهذا هو علَّة وجود المادَّةِ أو كما قال هيجل: المادة مظهر تتبدَّى به الرُّوح.

- إنَّ الأرواح هي الفاعل وهي الَّتي تملك إرادة.

- إنَّ الأشياء المادِّيَّة المحسوسة ليست سوى مجموعات من الأفكار على حدِّ تعبير باركلي، أو من المعطيات الحسِّيَّة على حدِّ تعبير من جاءوا بعده. وإنَّنا لا نستطيع أن نتصوَّر الصفاتِ الَّتي ننسبها إلى الأشياء المادِّيَّة مجرَّدة من تجربتنا الحسِّيَّة لها.

- إنَّ الأشياء الطبيعيَّة الَّتي لا يدركها الإنسان موجودة في علم الله، (باركلي).

- إنَّ معرفتنا مقتصرة على الظَّواهر، ولا نستطيع معرفة الأشياء في ذاتها، (كانت).

- ترى المثاليَّة أنَّ الشرَّ شيءٌ عارض وعابر في الحياة؛ والأدب المثاليُّ يحاول الكشف دائمًا عن الطبيعة الخيِّرة والجميلة للإنسان.

الانتشار ومواقع النفوذ

انتشرت المثاليَّة في أوربا عامَّةً وألمانيا بصفة خاصَّةٍ[(١)].

المنفعة

التعريف:

المنفعة مذهب أخلاقيٌّ اجتماعيٌّ لا ديني، يجعل من نفع الفرد والمجتمع مقياسًا للسلوك، وأنَّ الخير الأسمى هو تحقيق أكبر سعادة لأكبر عددٍ من الناس.

وفي مجال الاقتصاد يقرر مذهب المنفعة أنَّ قيمة السلعة تتوقف على قدر منفعتها، وليس على نفقة العمل أو التكلفة.

تاريخ مذهب المنفعة

- صور الاتجاه النفعي عمومًا:

تطور الاتجاه النفعيُّ في أوربا وأمريكا، وأخذ صورًا مختلفة، ويمكن إيجازها في ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب المنفعة الشخصيَّة، وله صورتان:

١ - صورة دعا إليها أرستبوس: وهو أحد تلامذة سقراط، وقد فسر السعادة لدى أستاذه باللَّذات العاجلة بدلًا من الآجلة، وأنَّ إشباع الدوافع في حينها أمرٌ ضروريٌّ؛ لأنَّ تأخيرها يؤدِّي إلى الشعور بالحرمان والكآبة، فلا حياء ولا خجل في طلب اللَّذات في آية صورة كانت، ويعتبرون

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨١٥- ٨١٧).

أنَّ السلوك الَّذي يحقق هذه السعادة سلوك أخلاقيٌّ.

٢- الصورة الثانية: تتمثل في الفرديَّة التي دعا إليها هوبز، ومن سلك مسلكه، فقد ادَّعى أنَّ الطبيعة الإنسانيَّة طبيعة أنانيَّة تعمل لمصلحة الذَّات، وقد اخترع الإنسان المبادئ الأخلاقيَّة ليتَّخذها وسيلةً يحقِّق فيها منفعته الشخصيَّة. ومن هنا يرى أنَّ الأخلاق ما هي إلَّا وسيلة لتحقيق المنفعة وليست طبيعة في الإنسان.

المذهب الثاني: مذهب المنفعة العامة

قال أصحابه: على الإنسان أن ينشد منفعة البشر عامَّة حتى الحيوانات، واعتبروا أنَّ إقرارَ المنفعة غاية للأفعال الإنسانيَّة، ومعيارٌ للأخلاق، وتقاس أخلاقيَّة الفعل بنتائجها لا ببواعثها.

المذهب الثالث: مذهب النفعية العملية

المذهب البراجماتي، ويهتم البراجماتي عادةً بما له من قيمة معنويَّة. وهو يرجع المُثُل الأخلاقيَّة إلى نتائج الظروف الواقعيَّة للإنسان، فهي ليست مبادئ مطلقة ثابتة يضعها الفلاسفة، كما أنَّها ليست من وضع المجتمع، ولا من وضع السماء. ثم ينكر أن تكون للأخلاق غاية عليا سامية وثابتة، وأنَّ لها مبادئ مطلقةً لا تقبل التغيُّر، ذلك لأنَّ الحياة متطورِّة.

- لقد سيطرت هذه الفلسفة بمذاهبها المختلفة على أخلاق الناس والحكومات في أوربا بقسميها وفي أمريكا، فاهتزَّت الأخلاق واضطربت الموازين، وسيطرت المنفعة والأنانيَّة، وتحوَّل الناس إلى ذئاب بشريَّة، ومن ثم طغت الرُّوح الرومانيَّة والفلسفة الإغريقيَّة على أوربا من جديد.

وصارت بعض القيم، كالصدق والأمانة والاستقامة مُثُلًا لا تطبَّق إلا في حدود القوميَّة ومصلحة البلاد على أساس ما تجلبه من النَّفع لحاملها، وتبطل إذا بطلت المنفعة القريبة أو البعيدة.

وها هي المواثيق تعقد وتوثق، وفي لحظة غادرة تنقض وتصبح حبرًا على ورقٍ مجرَّد أن تلوح المصلحة القوميَّة في نقض الميثاق.

ويمرُّ الناس بهذا الأمر غير مبالين؛ لأنَّ النَّظريَّة شيءٌ والتطبيق شيءٌ آخر بموجب فلسفة الجاهليَّة اليونانيَّة.

- مذهب المنفعة:

نجد جذور مذهب المنفعة عند كلٍّ من: تومامس هوبز ١٥٨٨- ١٦٧٩م الفيلسوف الإنجليزيّ الذي يرى أنَّ كلمة خير يقصد بها الشهوة، وكلمة شرّ يقصد بها النفور. وجون لوك ١٦٣٢- ١٧٠٤م الفيلسوف الإنجليزيّ، وفرنسيس هتشون ١٦٩٤- ١٧٤٧م الفيلسوف الأيرلنديّ، ونظريته في الحسِّ الأخلاقيِّ تعبر في بعض جوانبها عن مذهب المنفعة إلَّا أنَّها ترتكز على الدين. وديفيد هيوم ١٧١١- ١٧٧٦م الفيلسوف الإنجليزيّ الَّذي يرى أنَّه لا شيء يؤثر في الفعل الإرادي غير اللَّذة والألم، وقد يكون التأثير مباشرًا.

ثم جاء جيرمي بنتام ١٧٤٨ - ١٨٣٢م، ولد في لندن، ويُعَد مؤسس مذهب المنفعة، وقد استفاد من كلٍّ من سَبَقوه منتهيًا إلى نظريَّةٍ متكاملة، في رأيه، ومستخدمًا إيَّاها على أوسع نطاق. وقدَّم نظريته في المنفعة في كتابه مقدمة لأصول الأخلاق والتشريع.

وجون ستيوارت ميل ١٨٠٦- ١٨٧٣م وهو فيلسوف إنجليزيٌّ، ألَّف كتابَ مذهب المنفعة ونادى بالحرِّيَّة الفردِيَّة.

وهربرت سبنسر ١٨٢٠ - ١٩٠٣م وهو فيلسوف إنجليزيٌّ قال بتطور الأنواع قبل دارون.

وج.أ. مور ١٨٧٣ - ١٩٥٨م وهو فيلسوف إنجليزيٌّ - ألَّف كتاب أصول الأخلاق وأدخل تعديلاتٍ على مذهب المنفعة إذ قبل الرأي القائل بأنَّ صواب أي فعل من الأفعال يتوقف على النتائج الحسنة والسيِّئة التي تترتب عليه.

- ثم دخل مذهب المنفعة بلاد المسلمين من خلال الغزو الفكريِّ، فتبناه كثير من المثقَّفين والمفكرين العرب، ومنهم أحمد لطفي السيد ١٨٧٢- ١٩٦٣م الذي استقى مذهب المنفعة من جون ستيوارت ميل، فكان مذهب المنفعة هو القاعدة في تفكيره السياسي والاجتماعي، فالمنفعة هي الحافز الأصيل للعلاقة بين الدُّول بعضها ببعض، وبين الحكومة والأفراد، أو بين الأفراد فيما بينهم.

وتطبيقًا لهذا المذهب الغربي فقد عارض لطفي السيد مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الغزو الإيطالي الاستعماري عام ١٩١١، وكتب في هذا المعنى تحت عنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف)! مقالاتٍ متعددة دعا فيها المصريين إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطاليَّة التركيَّة وإلى الضَّنِّ بأموالهم أن تبعثر في سبيل أمرٍ لا يفيد بلادهم.

أفكارُ مذهب المنفعة

يعدُّ مذهب المنفعة نظريَّة في الأخلاق، طبعت أتباعها بطابع مميز. . إذ كان كل همهم الاهتمام بالحياة الدُّنيا والاغتراف من لذاتها.

ويمكن تلخيص أفكاره فيما يلي:

- إنَّ صواب أي عمل من الأعمال، إنما يحكم عليه بمقدار ما يسهم في زيادة السعادة الإنسانية أو في التقليل من شقاء الإنسان، بصرف النَّظر عن السداد الأخلاقي لقاعدة ما، أو مطابقتها للوحي أو للسلطة أو للتقليد أو للحس الأخلاقي أو للضمير.

- اللَّذة هي الشيء الوحيد الذي هو خير في ذاته، والألم هو الشيء الوحيد الَّذي هو شرٌّ في ذاته، والسعادة تشمل اللَّذة والتَّخلُّص من الألم، وإن رجحان كفة اللَّذة قد يعود هو نفسه فيصبح مصدرًا للمزيد من اللَّذة.

- يمكن دفع الناس إلى التَّصرُّف على نحوٍ يؤدِّي إلى السعادة العامَّةِ من خلال ما يلي:

١- القانون بقصاصه، والرأي العام بجزاءاته من ثوابٍ وعقابٍ، فهما يحولان بين الناس وبين أن يأتوا من الأعمال ما يضاد الصالح العام.

٢- المنفعة الذّاتيَّة المستنيرة تدل الناس على أن الصَّالح العامَّ ينطوي في أغلب الأحوال على منفعتهم الخاصة.

الانتشار ومواقع النفوذ

- انتشر مذهب المنفعة في أوربا وأمريكا في كافَّة المجالات السياسيَّة والاقتصاديَّة والتجاريَّة والاجتماعيَّة ... وصار له السطوة والهيمنة على مستوى الأفراد والمجتمعات. وأصبحت الأخلاق الحديثة تُستمد من القيم المادِّيَّة النفعيَّة تحدوها ميكافيليَّة صريحة، وأضحى التَّعامل الاجتماعيّ قائمًا على رابطة المصلحة وحدها، على الأخلاق التّجاريَّة.

- لقد غزت فلسفة الغربيِّين النفعيَّة مجتمعاتنا المسلمة من خلال غزوهم الفكريّ لبلادنا، ويرى أصحاب هذه الفلسفة (النفعيَّة) أنَّ السعادة الحقَّة هي التي يشعر بها الإنسان نتيجة لإشباع دوافعه الطبيعيَّة وغرائزه الحسيَّة دون التقيد بدينٍ أو خلقٍ قويمٍ.

- وقد فتن بعض المسلمين في القرن الحالي بحضارة أوربا وظنوا أنَّها ذات ركائز تصلح لأن يُقتدى بها، ونسي كثير منهم أن يميزوا بين التقدُّم المادِّيّ والتخلُّف العَقَديّ والأخلاقيّ، فتنوا ببعض ما يبدو من صدق وأمانة حينًا؛ لأنَّها عند القوم تؤمن لهم ثقة ووقتًا، إلَّا أنَّ أخلاقهم هذه ستتغيَّر إذا لاحت منفعة أشدُّ، ومصلحة أقوى.

- وقد عانت أمَّة المسلمين من مذهب المنفعة الأمرّين خلال الاستعمار القديم وأثناء التَّعامل المعاصر من ازدواجيَّة مريرة في قرارات الأمم وما يسمى بمجلس أمنها. كان الاستعمار يتوسل بكلِّ سفالات الأرض ليوطد سلطانه، ويمتصُّ دماء الناس، ولا يرى في ذلك انحرافًا فالغاية تبرر الوسيلة، ولا يهم عندهم أن تكون الغاية ذاتها نظيفة.

وصار ما ينصح به أشرار اليهود في خططهم هو ما يفسر سياسة المستعمرين: إنَّ السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم المقيَّد بالأخلاق ليس بسياسيٍّ بارع، وهو لذلك غير راسخٍ على عرشه [١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٨٠٨، ٨٠٩)، شيوع الأخلاق النفعيَّة في العصر الحديث، محمد الناصر، رجال اختلف فيهم الرأي، أنور الجندي.

البراجماتيَّة (الذرائعيَّة)

التعريف:

البراجماتيَّة (الذرائعيَّة) مذهب فلسفيٌّ اجتماعيٌّ نفعيٌّ يقول بأنَّ الحقيقة توجد من خلال الواقع العمليِّ والتجربة الإنسانيَّة، لا في الفكر النظريِّ البعيد عن الواقع. وأنَّ المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأنَّ صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للنَّاس. وأنَّ الأفكار في طبيعتها غائيَّة، فهي مجرد ذرائع يستعين بها الإنسان لحفظ بقائه ثم البحث عن الكمال. وعندما تتضارب الأفكار فإن أصدقها هو الأنفع والأجدى.

والبراجماتيَّة اسم مشتقٌّ من اللَّفظ اليونانيِّ براجما Pragma، بمعنى العمل أو الفعل أو الممارسة أو المزاولة.

وقد أصبحت البراجماتيَّة (الذرائعيَّة) طابعًا مميزًا للسياسة الأمريكيَّة وفلسفة الأعمال الأمريكيَّة كذلك، لأنَّها تجعل الفائدة العمليَّة معيارًا للتقدُّم بغضِّ النَّظر عن المحتوى الفكريِّ أو الأخلاقيِّ أو العقائديِّ.

تاريخ البراجماتيَّة

نشأت الذرائعيَّة (البراجماتيَّة) كمذهب عمليٍّ في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة مع بداية القرن العشرين: وقد وجدت في النِّظام الرأسماليِّ الحرِّ الذي يقوم على المنافسة الفرديَّة، خير تربة للنمو الازدهار.

ومن أبرز رموز المذهب وأغلبهم من الأمريكيين:

- تشارلز بيرس ١٨٣٩ - ١٩١٤م ويعد مبتكر كلمة البراجماتيَّة في الفلسفة المعاصرة في مقال له بعنوان: كيف نجعل أفكارنا واضحة، حيث ذكر فيه أنَّه: لكي نبلغ الوضوح التَّام في أفكارنا من موضوع ما فإننا لا نحتاج إلا إلى اعتبار ما قد يترتَّب من آثار يمكن تصوُّرها ذات طابع عمليٍّ، قد يتضمَّنها الشيء أو الموضوع. وعلى ذلك فإنَّ بيرس يزعم: أنَّ كلَّ اصطلاح يكون حقًّا إذا كان له مدلول، والمدلول له وجود حقيقيٌّ إذا كان ينتج بعض النتائج في هذه الدُّنيا الَّتي نشاهدها، وإلا فلا معنى للاصطلاح ولا جود للمدلول أو الشيء. فهو يدعو إلى أنَّ حقيقة كلِّ المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلميَّة.

وقد عمل محاضرًا في جامعة هارفارد الأمريكيَّة، وكان متأثِّرًا بـ«دارون» ووصل إلى مثل آرائه... وكان أثره عميقًا في الفلاسفة الأمريكيِّين الَّذين سنذكرهم فيما يلي:

- وليم جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠م وهو عالم نفسي وفيلسوف أمريكيٌّ من أصلٍ سويديٍّ بنى مذهب الذرائعيَّة البراجماتيَّة على أصول أفكار بيرس، ويؤكِّد أنَّ المنفعة العمليَّة هي مقياس صحَّة

الفكرة ودليل صدقها. وأنَّ البراجماتيَّة لا تعتقد بوجود حقيقة مثل الأشياء مستقلة عنها. فالحقيقة هي مجرد منهج للتفكير كما أنَّ الخير هو منهج للعمل والسلوك؛ فحقيقة اليوم قد تصبح خطأ الغد؛ فالمنطق والثوابت التي ظلَّت حقائق لقرون ماضية ليست حقائق مطلقة، بل ربَّما أمكننا أن نقول: إنَّها خاطئة. وكان كتابه الأول: مبادئ علم النفس ١٨٩٠م الذي أكسبه شهرة واسعة ثم توالت كتبه: موجز علم النفس ١٨٩٢م، وإرادة الاعتقاد ١٨٩٧م، وأنواع التجربة الدينيَّة ١٩٠٢م، والبراجماتيَّة ١٩٠٧م، وكون متكثر ١٩٠٩م يعارض فيه وحدة الوجود.

ويؤكد جيمس في كتبه الدينيَّة أنَّ الاعتقاد الدينيَّ صحيح؛ لأنَّه ينظم حياة الناس ويبعث فيهم الطاقة.

- جون ديوي ١٨٥٦ - ١٩٥٢م فيلسوف أمريكيٌّ، تأثَّر بالفلسفة الذرائعيَّة، وكان له تأثير واسع في المجتمع الأمريكيِّ وغيره من المجتمعات الغربيَّة، إذ كان يعتقد أنَّ الفلسفة مهمَّة إنسانيَّة قلبًا وقالبًا وعلينا أن نحكم عليها في ضوء تأثُّرها الاجتماعيِّ أو الثقافيِّ.

كَتب في فلسفة ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) وفلسفة العلوم والمنطق وعلم النفس وعلم الجمال والدين. وأهم مؤلفاته: دراسات في النظريَّة المنطقيَّة ١٩٠٣م، وكيف تفكر ١٩١٠ والعقل الخالق ١٩١٧م والطبيعة الإنسانيَّة والسلوك ١٩٢٢م وطلب اليقين ١٩٢٩م. وذهب إلى أنَّ العقل ليس أداةً للمعرفة وإنَّما هو أداة لتطور الحياة وتنميتها؛ فليس من وظيفة العقل أن يعرف، وإنَّما عمل العقل هو خدمة الحياة. ووصف البراجماتيَّة بأنَّها فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصوُّرات، وبقدر صدق هذه التصوُّرات تكون النتائج، أما البراجماتيَّة فهي تَدعُ الواقعَ يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حقٌّ أو حقيقة ابتدائيَّة تفرض نفسها على الواقع.

- فرديناند شيلر ١٨٦٤ - ١٩٣٧م وهو فيلسوف بريطانيٌّ، كان صديقًا لوليم جيمس، وتعاطف معه في فلسفة الذرائعيَّة: وقد آثر أن يطلق على آرائه وموقفه: المذهب الإنسانيّ أو المذهب الإراديّ.

وهو يأخذ لنفسه تعبير بروتاجوراس المشهور: الإنسان مقياس كلِّ شيء. ويؤيد السوفسطائيين اليونان، ويدافع عنهم ضد المذهب العقلي لأفلاطون.

- والبراجماتيَّة امتدادٌ أصيلٌ لروافد رئيسة في الفكر الأوربيِّ أبرزها الفكر التجريبيّ المستند إلى فلسفة العلوم الطبيعيَّة الذي يحتوي على مكون مادِّيٍّ مهمٍّ. فقد طورت البراجماتيَّة الفكر التجريبيَّ العلميَّ المادِّيَّ الأوربيَّ النشأة، وجعلت منه الأساس لمذهب يتجاوز نطاق الفكر الفلسفيِّ المتخصِّص في مباحث علم المعرفة أو الميتافيزيقا إلى المجالات الاجتماعيَّة والسلوكيَّة وميادين القيم والدَّوافع، وقبل كلِّ شيء الأخلاق.

وذهب بعض الباحثين إلى البراجماتيَّة عبارة عن تطوير جديد لمزاوجة فلسفيَّة بين مذهبين هما: السوفسطائيَّة، والأبيقوريَّة. فخلاصة الموقف في هذه الفلسفة هو اتخاذ المنافع الأبيقوريَّة غاية يتم

تسويغها بوسائل سوفسطائيَّة.

أفكار البراجماتيَّة

من أهمِّ أفكار ومعتقدات البراجماتيَّة (الذرائعيَّة) ما يلي:

- إنَّ أفكار الإنسان وآراءه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولًا ثم السير نحو السمو والكمال ثانيًا.

- إذا تضاربت آراء الإنسان وأفكاره وتعارضت كان أحقّها وأصدقها أنفعها وأجداها، والنفع هو الَّذي تنهض التجربة العمليَّة دليلًا على فائدته.

- إنَّ العقل خُلق أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فليست مهمَّته تفسير عالم الغيب المجهول، بل يجب أن يتوجه للحياة العمليَّة الواقعيَّة.

- الاعتقاد الدينيّ لا يخضع للبينات العقليَّة: والتناول التجريبيّ الوحيد له هو آثاره في حياة الإنسان والمجتمع إذ يؤدِّي إلى الكمال، بما فيه من تنظيم وحيويَّة.

- النشاط الإنساني له وجهتان: فهو عقل، وهو إرادة، ونموه كعقل ينتج العلم، وحين يتحقق كإرادة يتجه نحو الدين، فالصّلة بين العلم والدين ترد إلى الصّلة بين العقل والإرادة.

- يقول وليم جيمس عن الاتجاه البراجماتي: إنَّه اتجاه تحويل النّظر بعيدًا عن الأشياء الأوليَّة؛ المبادئ والنواميس والفئات، الحتميات المسلَّم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة: الثمرات، النتائج، الآثار، الوقائع الحقائق.

والبراجماتيَّة ليس لها أية عقائد يقينيَّة أو جزميَّة أو أيَّة مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها؛ فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحكك البراجماتيّ، وسنفوز عند ذلك بالنَّجاة من الجدل الباطل العقيم، فإذا لم يكن ثمة فرقٍ عمليٍّ بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك؛ إذًا فالاثنان حقًّا عبارة واحدة في شكلين كلاميين، وإذا لم يكن ثم فرق عمليٍّ يحدث سواء كانت عبارة معينة صحيحة أو باطلة؛ إذًا فالعبارة ليس لها معنًى حقيقيٌّ، وفي كلتا الحالتين فليس هناك شيء يستحقُّ أن نتنازع من أجله، وأوْلى بنا أن نوفِّر جهدنا، ونمضي إلى أمور أكثر جدوى وأهمِّية».

إنَّ الحقيقيَّ في أوجز عبارة لدى وليم جيمس «ليس سوى النافع المطلوب في سبيل تفكيرنا تمامًا، كما أنَّ الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا».

و«البراجماتيَّة» لا تمثل ولا تناصر أي نتائج معينة من طريقتها، كما أنَّ حيازة الحقيقة عندها بعيدة كل البعد عن أن تكون غاية في ذاتها؛ فهي لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الإشباع والرضا والسرور، والحقّ يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف -أي البحث عن أيهما أنفع- أما إذا لم يرتبط بذلك فإنَّ الحقَّ يتساوى مع الباطل؛ ولأنَّ الحقيقة ترتبط بالنتائج

البراجماتيَّة فهي نفسها في حالة تغير وتبدل وانتقال.

- خلاصة المذهب هي: البحث عن تسويغ المنافع كما يراها أصحابها في عالم يخلو من الحقيقة، وقد أرهقه البحث عنها.

ويشاع بين بعض الناس أنَّ البراجماتيَّة تمثل تسويغًا فلسفيًّا لمبدأ الغاية تسوغ الوسيلة، وهذا اعتقاد ساذج؛ لأنَّ البراجماتية أبعد شرًّا من ذلك؛ فهذا المبدأ يعني أن الوسيلة القذرة قد تسوغها الغاية الشريفة، لكن البراجماتيَّة لا يهمُّها الغايات الشريفة في شيء وإنما المهمُّ لديها هو أن تكون الوسائل قادرة على تحقيق الغايات، كما أنَّ البراجماتيَّة لا تمارس ذلك على أنَّه عمل لا أخلاقي أو حتى مكيافيللي تسوغه الضرورة، ولكن على أن ذلك هو الحقُّ والحقيقة، وما غيره لا شيء ألبتة، وسندها الوحيد في ذلك هو ما يدرُّه هذا السلوك من نفعٍ على صاحبه.

نقد البراجماتيَّة (الذرائعيَّة)

- تعرضت البراجماتيَّة لانتقادات معيَّنة، وعرضت على أنَّها تبرير لأخلاقيات رجال الأعمال الأمريكيين.

- أما عن فكرة الاعتقاد فمن رأي جيمس «أنَّها مفيدة لأنَّها صادقة» و«أنَّها صادقة لأنَّها مفيدة». وقد أنكر معظم الدارسين هذه المعادلة إذ إنَّ موقف جيمس يسمح بصدق الفكرة؛ لأنَّها «مفيدة ونافعة» لشخص ما، ويكذبها لعدم وجودها عند الآخرين.

وهكذا فإنَّ جيمس طرح الحقيقة على أنَّها لعبة ذاتيَّة للأفكار التي تستهوي الإنسان فائدتها: فيعتقد في صدقها.

- إن الذرائعيَّة اندثرت كحركة فكريَّة فرديَّة، ولكنها كمجموعة أفكار ما زالت تعمل في الفكر البشري... ومن أهم آثار هذه الأفكار تفسير الفكر والمعنى على أنهما من أشكال السلوك الناتي عند الإنسان.

- التيار البراجماتيُّ يدعو إلى الذرائعيَّة، وتمييع المفاهيم، وتقديس الواقعية، وتسويغ الوسائل للوصول إلى الغايات العمليَّة.

- قد تكون للبراجماتيَّة أصول أوربيَّة رغم الزعم بأنَّها ذات أصول أمريكيَّة بحتة، وقد تكون لها دعاوى فكريَّة عالية المستوى تمثلت في طروحات فلسفيَّة؛ لكنها عند التطبيق على مجال الأخلاق والسياسات والسلوكيَّات الاجتماعيَّة -وهو مجالها النَّهائي حسب تعريفها هي- نجدها ولَّدت لنا الاتجاهات النسبيَّة الكبرى التي زعزعت ميدان الأخلاق نفسه، وجعلت منه عبثًا بلا طائل؛ لأنَّ القيم فيه متغيِّرة تغيُّر الواقع الذي يزداد تغيُّرًا كل يوم مع تراكم التغيُّرات بشكل مطَّرد، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أدواء تعاني البشريَّة منها اليوم كثيرًا في مجال القيم والأخلاق في كلِّ منحًى من مناحي الحياة تعود في أصولها إلى سريان الفكر البراجماتيِّ واستشرائه في أفق التفكير الفلسفي المنعزل عن الحياة ليصبح هو الشريعة والقانون الذي يهدي السلوك البشري ويحكمه، ولعلنا نضيف أن واسطة

الانتقال من ذلك المجال إلى هذا كان هو التعليم ومؤسساته.

- مخاطر هذا المذهب الفلسفيّ على العقيدة واضحة جليّة فهو مذهب يحبذ إلغاء دور العقل في الإفادة من معطيات النقل أو الوحي.

- رأينا في واقعنا المعاصر كيف أفلست البراجماتيّة كما أفلست سواها من الفلسفات المادّيّة وعجزت عن إسعاد الإنسان بعدما أدّت إلى تأجيج سعار المادّيّة، وأهدرت القيم والأخلاق السامية التي دعت إليها جميع الأديان السماويّة.

- المذهب الذرائعيُّ البراجماتيُّ ربّما كان مطيّةً يمتطيه أصحاب الفكر العلماني للوصول إلى مآربهم وأهدافهم في تمييع شرائع الدِّين ونقض أصوله وثوابته. فالفكر البراجماتي يقول: إنه لا بأس بوجود القنوات الفضائيّة العربيّة الماجنة طالما أنّها تصرف المشاهدين المسلمين عن القنوات الكفريّة المنحلة، أو تنادي بأنّ التّمكين في الأرض واستخلافها يسوّغ بعض الربا إذا ما أدّى إلى انتعاش موارد الأمّة وقوة اقتصادها. كما أنّه ليس في بعض الكفر والإلحاد بأس إذا ما أنتج الأدب إبداعًا ثقافيًا مميزًا.

الانتشار ومواقع النفوذ

- تأسس المذهب في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ثم انتقل إلى أوربا وبريطانيا بشكل خاصٍّ.

وهو يمثل الفلسفة السائدة في المجتمع الأمريكي والبعد الفكري لقيم ذلك المجتمع ومفاهيمه ولسياسات أجهزة الحكم والقرار وتوجهاتها هناك.

- إنَّ الفكر البراجماتيَّ قد ظهر في بعضه وفي آخر تجلّياته في البلاد الإسلاميّة في الفكرة التي نسمعها كثيرًا حول تطوير الشريعة أو في مفهوم الاجتهاد الفقهي لا باعتبار ذلك أداةً لبسط سلطان المبادئ

الشرعيّة على نواحي الحياة؛ بل أداةً لهدم عموميّة مبادئ الشريعة الإسلاميّة نفسها وفرض النسبيّة والتغير العشوائي عليها، كما يؤدّي في النِّهاية إلى إلغاء تلك المبادئ ذاتها؛ وذلك كلُّه تحت شعارات: مجاراة العصر، واللِّحاق بركب التقدُّم، والتحلّي بروح العلم، والتمشّي مع الواقع. وكلُّها من الأفكار التي تنضح بروح البراجماتيّة، وقبلها بروح العلمانيّة أو اللادينيّة [١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٣٢- ٨٣٥)، البراجماتيّة نشأتها وأثرها على سلوك المسلمين، د. أحمد بن عبد الرحمن الشميري، البراجماتيّة، د. محمد يحيى، البراجماتيّة، محمد إبراهيم مبروك.

القسم الخامس

الأحزاب والحركات المعاصرة

حركة تحرير المرأة

التعريف:

حركة تحرير المرأة: حركة علمانيَّة، نشأت في مصر في بادئ الأمر، ثم انتشرت في أرجاء البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، وهي تدعو إلى تحرير المرأة من الآداب الإسلاميَّة والأحكام الشرعيَّة الخاصة بها، مثل: الحجاب، وتقييد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات، والمساواة في الميراث، وتقليد المرأة الغربية في كلِّ أمرٍ، ونشرت دعوتها من خلال الجمعيات والاتحادات النسائيَّة في العالم الغربي.

تاريخ حركة تحرير المرأة:

بدأت ما أسموه حركة تحرير المرأة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فحينما بعث محمد علي باشا والي مصر المبعوثين إلى فرنسا ليتلقوا هناك الخبرات والمهارات الفنيَّة ثم يحملوها معهم إلى مصر، رجع المبعوثون من فرنسا حاملين تياراتٍ فكريةً ماديَّةً، بعد أن بهرتهم رهبانيَّة العلم المادي وسلطان العقل، لقد عاد أولئك المبعوثون يحتلون مراكز الصدارة والتوجيه في مختلف الميادين السياسيَّة والتربويَّة والفكريَّة.

وكان من أعضاء الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين **رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣)**، الذي أقام في باريس نحو خمس سنوات (١٨٢٦- ١٨٣١)، وما إن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة على البيئة المصريَّة، تلك الدعوات التي حمل جراثيمها معه من فرنسا، وكان منها أفكار عن المرأة، فكان هو أول من أثار قضية تحرير المرأة في مصر، وقد تجلَّى ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم الفتاة، وتعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين؛ حيث ادَّعى في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز أن: السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعيًا إلى الفساد. وذلك ليُسوِّغ دعوته إلى الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص مدعيًا أن: الرقص على الطريقة الأوربيَّة ليس من الفسق في شيء بل هو أناقة وفتوة. وأنه لا يخرج عن قوانين الحياء. ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجال.

مع العلم أنَّ الطهطاوي لما عاد إلى القاهرة أشرف على حركة الترجمة وعُيِّن رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية وكتب المقالات وألف الكتب وترجم القوانين وعُيِّن ناظرًا لمدرسة الألسن، وبارك حاكم البلاد دعوته، وبارك أول كتاب وضعه وهو تخليص الإبريز، وأمر بطبعه وقراءته في المدارس المصرية.

وفي سنة ١٨٩٤ أصدر مرقص فهمي الصليبي كتابه: المرأة في الشرق، ودعا فيه صراحة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة وهي: القضاء على الحجاب الإسلامي، إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها، تقييد الطلاق وإيجاب وقوعه أمام القاضي، منع الزواج بأكثر من واحدة، إباحة

الزواج بين المسلمات والأقباط.

وفي غمرات هذا الكتاب صدر كتاب ألفه الدوق دراكير باسم: المصريون، حمل فيه على نساء مصر، وهاجم المصريين، وتعدى على الإسلام، ونال من الحجاب الإسلامي، وقرار المرأة المسلمة في البيت، واقتصار وظيفتها على تربية النشء، ورعاية الزوج، وقد هاجم (المثقفين) المصريين بصفة خاصة لسكوتهم وعدم تمردهم على هذه الأوضاع.

وقد سار على الدرب الذي رسمه الطهطاوي جمال الدين الأفغاني صاحب النشاط المريب والعلاقات بالمحافل الماسونية، وتبنيه لمبادئ الثورة الفرنسية، وكذلك تلميذه محمد عبده(١٨٤٢-١٩٠٥)، الذي كان اللورد كرومر يشيد بدعوته وبتلامذته ويعلق عليهم أمله في تغريب المجتمع المصري ويذكر أنهم لذلك يستحقون: أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه.

وكان من أبرز تلاميذ محمد عبده لطفي السيد، وسعد زغلول، وقاسم أمين الذي أفسد الحياة الاجتماعية في مصر بدعوته إلى تحرير المرأة.

نشأ قاسم أمين (١٨٦٥- ١٩٠٨) في أسرة تركية مصرية، وحصل على ليسانس الحقوق الفرنسية من القاهرة، وهو في سن العشرين. ثم سافر إلى فرنسا ليتم تعليمه هناك، وانبهر بالحياة في أوربا، وعاد يدعو إلى تعليم المرأة وتحريرها. يقول في مذكراته: إنه التقى هناك بفتاة فرنسية أصبحت صديقة حميمة له! وإنه نشأ بينه وبينها علاقة عاطفية عميقة، ولكنها بريئة، وإنها كانت تصحبه إلى بيوت الأسر الفرنسية والنوادي والصالونات الفرنسية، فتفتح في وجهه البيوت والنوادي والصالونات، ويكون فيها موضع الترحيب.

وقام قاسم بتأليف كتابين: الأول: كتاب تحرير المرأة نشره عام ١٨٩٩م، بدعم من الشيخ محمد عبده وسعد زغلول، وأحمد لطفي السيد، وقد انصرف جهد المؤلف في هذا الكتاب إلى التدليل على ما زعمه من أن: حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده. وقد تناول في كتابه هذا أربع مسائل وهي: الحجاب، واشتغال المرأة بالشئون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق. وهو يذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين زاعمًا أن ذلك هو مذهب الإسلام.

مع العلم أن أفكار كتاب تحرير المرأة قد نبتت في حديقة أفكار الشيخ محمد عبده، وتطابقت مع كثير من أفكاره التي عبر فيها عن حقوق المرأة وحديثه عنها في مقالات الوقائع المصرية وفي تفسيره لآيات أحكام النساء.

وفي نفس العام هاجم الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل كتاب تحرير المرأة وربط أفكاره بالاستعمار الإنجليزي، وكتب في اللواء عام ١٩٠١: انتشر خبر كتاب تحرير المرأة في جهات الهند واهتم الإنجليز بترجمته وبث قضاياه وإذاعة مسائله لما وراء العمل به من فائدة لهم. وألَّف

الاقتصادي المصري الشهير محمد طلعت حرب كتاب تربية المرأة والحجاب في الرد على قاسم أمين ومما قاله: إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربا من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الإسلامي. وقام عدد كبير بالرد على قاسم أمين من خلال المقالات، والكتب التي بلغ عددها مائة كتاب، والتي تبطل شبهاته وتقيم الحجة عليه من أدلة الشريعة المطهرة.

وهذه المعارضة عنيفة جعلت قاسم أمين ينزوي في بيته خوفًا أو يأسًا، ويعزم على نفض يده من الموضوع كله، ولكن سعد زغلول شجعه، وقال له: امض في طريقك وسوف أحميك. وضمن تنفيذ أفكار قاسم تنفيذًا عمليًا. عندئذ قرر أن يعود، ويؤلف كتابه الثاني: المرأة الجديدة، نشره عام ١٩٠٠م، وهو يتضمن نفس أفكار الكتاب الأول، ويستدل على أقواله وادعاءاته بآراء الغربيين، وصار يعلن أن المرأة المصرية ينبغي أن تصنع كما صنعت أختها الفرنسية، لكي تتقدم وتتحرر، وأسقط الحاجز المميز للمرأة المسلمة، وصارت هي والمشركة أختين بلا افتراق، والدعوة إلى السير في الطريق ذاته الذي سارت فيه الغربية من قبل، ولو أدى ذلك إلى المرور في جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات. وقد كان من بين تلك الأدوار التبذل وانحلال الأخلاق، قال: ولا نرى مانعًا من السير في تلك الطريق التي سبقتنا إليها الأمم الغربية؛ لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يومًا فيومًا.

وقال: وبالجملة فإننا لا نهاب أن نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن في حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية، حتى لو كان من المحقق أن يمررن في جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات.

وأكمل المسيرة بعده لطفي السيد (١٨٧٢- ١٩٦٣) الذي حمل على عاتقه الدعوة إلى خروج النساء باسم التحرير، وأدخل الفتيات طالبات في الجامعة مختلطات بالطلاب سافرات الوجوه، ولأول مرة في تاريخ الجامعة المصرية، وكان عضده ونصيره في تلك الخطوة طه حسين وكامل مرسي. وظل لطفي يروج لحركة تحرير المرأة على صفحات جريدة حزب الأمة.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى صدرت مجلة السفور، من قبل أنصار سفور المرأة، وقد أخذت على عاتقها نشر الدعوة ضد الحجاب وضد الآداب الإسلامية، وتركز على السفور والاختلاط، وممن كتب فيها داعيًا إلى السفور: عبد الحميد حمدي، ومصطفى عبد الرازق، وعلي عبد الرازق، وطه السباعي، وغيرهم.

وتبني القضية فريق من النسوة على رأسهن هدى شعراوي ابنة محمد سلطان باشا الذي كان يرافق الاحتلال الإنجليزي في زحفه على العاصمة، وزوجة علي شعراوي باشا أحد أعضاء حزب الأمة (حاليًا الوفد) ومن أنصار السفور. وقد سافرت إلى فرنسا لتتعلم وسافرت محجبة، ولكنها حين عادت كانت سافرة.

واتخذت شعراوي من بيتها صالونًا تقابل فيه الرجال سافرة في غير وجود محرم، وتحلق حولها بعض النسوة، وبعض الرجال الذين يدافعون عن قضية المرأة في الصحف والمجلات، بالنثر وبالشعر، لقاء جلسة لطيفة في صالون هدى شعراوي أو ابتسامة تخص بها أحدهم أو مبلغ من المال تدسه في يد واحد من الصحفيين المرتزقة فيكتب مقالًا في رقة الهانم ولطفها وابتسامتها العذبة وحسن استقبالها لضيوفها الرجال، أو يكتب عن اجتماعاتها وتحركاتها، أو يكتب عن قضية تحرير المرأة.

والتنفيذ العملي لسفور المرأة كان على يد سعد زغلول المنفذ الفعلي لأفكار قاسم أمين، والأكثر حماسًا لتحرير المرأة من شيخه محمد عبده وصديقه قاسم أمين، فقد اشترط على السيدات اللواتي يحضرن سماع خطبه أن يزحن النقاب عن وجوههن.

وفي سنة ١٩١٩م قامت ثورة مصرية في ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية) أمام ثكنات الجيش الإنجليزي، وملأت المظاهرات شوارع القاهرة وغيرها من المدن تهتف ضد الإنجليز، وتطالب بالجلاء. وفي وسط هذه المظاهرات الجادة قامت مظاهرة النسوة، وعلى رأسها صفية زغلول زوجة سعد زغلول وابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء في تلك الأيام، وأشهر صديق للإنجليز عرفته مصر، وتجمعت النسوة أما ثكنات قصر النيل، وهتفن ضد الاحتلال، ثم -بتدبير سابق- ودون مقدمات ظاهرة، خلعن الحجاب، وألقين به في الأرض، وسكبن عليه البترول، وأشعلن فيه النار.

وبعد عودة سعد زغلول من منفاه -المتفق عليه- سنة ١٩٢٠ هُيئ الجو في الإسكندرية لاستقباله، وأعد سرادق كبير للرجال، وآخر للنساء المحجبات، ونزل سعد من الباخرة، وعلى استقبال حافل وهتافات أخذ طريقه إلى سرادق النساء -دون سرادق الرجال- فلما دخل على النساء المحجبات استقبلته هدى شعراوي بحجابها، فمد يده فنزع الحجاب عن وجهها -تبعًا لخطة معينة- وهو يضحك، فصفقت هدى، وصفقت النساء لهذا الهتك المشين، ونزعن الحجاب، ومن ذلك اليوم أسفرت المرأة المصرية استجابة لرجل الوطنية (سعد) وأصبح الحجاب نشازًا في حياة المسلمة المصرية.

وتأسس الاتحاد النّسائي في نيسان ١٩٢٤م بعد عودة مؤسسته هدى شعراوي من مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في روما عام ١٩٢٢م، ومعها سيزا نبراوي (واسمها الأصلي زينب محمد مراد): وهي صديقة هدى شعراوي في المؤتمرات الدولية والداخلية. ونادى الاتحاد بجميع المبادئ التي نادى بها من قبل مرقص فهمي المحامي وقاسم أمين.

وحضرت الدكتورة (ريد) رئيسة الاتحاد النّسائي الدولي بنفسها إلى مصر لتدرس عن كثب تطور الحركة النّسائية.

وقد مهد هذا الاتحاد بعد عشرين عامًا لعقد مؤتمر الاتحاد النّسائي العربي عام ١٩٤٤م وقد

حضرته مندوبات عن البلاد العربيَّة، وقد رحبت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكيَّة بانعقاد المؤتمر، حتى إن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت مؤيدة للمؤتمر.

ورحلت درية شفيق وهي من تلميذات لطفي السيد وحدها إلى فرنسا لتحصل على الدكتوراه، ثم إلى إنجلترا، وصورتها وسائل الإعلام الغربية بصورة الداعية الكبرى إلى تحرير المرأة المصرية من أغلال الإسلام وتقاليده مثل: الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات.

ولما عادت إلى مصر شكلت حزب (بنت النيل) في عام ١٩٤٩م بدعم من السفارة الإنجليزية والسفارة الأمريكية، وهذا ما ثبت عندما استقالت إحدى عضوات الحزب وكان هذا الدعم سبب استقالتها. وحضرت درية المؤتمرات الدولية النِّسائية للمطالبة بحقوق المرأة، على حد قولها. ومنها مشاركتها في مؤتمر نِسائي دولي في أثينا عام ١٩٥١م ظهر من قرارته التي وافقت عليها أنها تخدم الاستعمار أكثر من خدمتها لبلادها.

وقد قادت درية شفيق المظاهرات، وأرسلت جمعية (سان جيمس) الإنجليزية برقية إليها تهنئها على اتجاهها الجديد في القيام بمظاهرات للمطالبة بحقوق المرأة. وأشهر هذه المظاهرات مظاهرة في ١٩ فبراير ١٩٥١م، و ١٢ مارس ١٩٥٤م بالتنسيق مع أجهزة عبد الناصر، فقد أضربت النساء في نقابة الصحافيين عن الطعام حتى الموت إذا لم تُسْتَجَب مطالبهن، وأجيبت مطالبهن ودخلت درية شفيق الانتخابات ولم تنجح، وانتهى دورها.

وأعلنت كاميلا يفي الهندية أن الاتحاد النِّسائي الدولي واقع تحت ريادة الدول الغربية والاستعمارية واستقالت منه.

وتربت في الجامعة الأمريكية في مصر سهير القلماوي، وتخرجت من معهد الأمريكان، وتنقلت بين الجامعات الأمريكية والأوربية، ثم عادت للتدريس في الجامعة المصرية.

ومن تلميذات طه حسين، الأديب المصري الذي دعا إلى تغريب مصر، أمينة السعيد التي ترأست مجلة حواء، وقد هاجمت حجاب المرأة بجرأة، ومن أقوالها في عهد عبد الناصر: كيف نخضع لفقهاء أربعة وُلِدوا في عصر الظلام ولدينا الميثاق. تقصد ميثاق عبد الناصر الذي يدعو فيه إلى الاشتراكية، وسخرت مجلة حواء للهجوم على الآداب الإسلامية، وهي لا تزال تقوم بهذا الدور.

وتولت نوال السعدوي زعامة الاتحاد النِّسائي المصري، وأعلنت عام ١٩٨٧م أثناء مؤتمر الاتحاد أنَّ الدول الغربية هي التي هيأت المال اللازم لعقد مؤتمر الاتحاد النِّسائي، والدول العربية لم تساهم في ذلك.

الأفكار والمعتقدات

نجمل أفكار ومعتقدات أنصار حركة تحرير المرأة فيما يلي:

١- تحرير المرأة من كل الآداب والشرائع الإسلاميَّة وذلك عن طريق:

- الدعوة إلى السفور والقضاء على الحجاب الإسلامي.

- الدعوة إلى اختلاط الرجال بالنساء في كل المجالات: في المدارس، والجامعات، والمؤسسات الحكومية، والأسواق.

- تقييد الطلاق، والاكتفاء بزوجة واحدة.

- المساواة في الميراث مع الرجال.

- تقليد المرأة الغربية في كل شيء.

٢- الدعوة إلى العلمانيَّة الغربية أو اللادينيَّة، بحيث لا يتحكم الدين في مجال الحياة الاجتماعية خاصة، بل تجعل العلمانيَّة واللادينيَّة أساس حركة المرأة والمجتمع.

٣- المطالبة بالحقوق الاجتماعية والسياسية.

٤- أوربا والغرب عامة هم القدوة في كل الأمور التي تتعلق بالحياة الاجتماعية للمرأة: كالعمل، والحرية الجنسية، ومجالات الأنشطة الرياضية والثقافية.

٥- الوصول من خلال هذه الحركة إلى إفساد المرأة خلقيًّا واجتماعيًّا، وبفسادها يفسد المجتمع الإسلامي وتنتهي موجة حماسة العزة الإسلامية التي تقف في وجه الغرب الصليبي وجميع أعداء الإسلام وبهذا الشكل يسهل السيطرة عليه.

صور من تخطيط دعاة حركة تحرير المرأة

- كتبت روز اليوسف في مذكراتها -وكانت تقوم بالتمثيل على المسرح قبل اشتغالها بالصحافة وإصدار مجلتها التي تحمل اسمها- تقول: إنها طلبت إعانة لمسرحها من الحكومة، وكانت مصر إذ ذاك خاضعة للنفوذ البريطاني المباشر، فنصحها المندوب السامي البريطاني (وهو الحاكم الحقيقي في مصر في ذلك الحين) أن تذهب إلى الريف، وتعرض مسرحيتها هناك، فإن فعلت ذلك نالت الإعانة في الحال!.

والهدف واضح، فالريف المصري في ذلك الوقت محافظ على بقايا من الدين والأخلاق، ومحافظ بشدة على التقاليد المستمدة من الإسلام (بصرف النظر عما غشاها في بعض الجوانب من الانحرافات) ومن أشد ما يحافظ عليه الريف من التقاليد -وفي الصعيد خاصة- قضية الحجاب، وقضية العفة، وقضية العرض، وقضية صيانة المرأة بصفة عامة من التبذل والانحلال والانفلات. وبقاء الريف على هذه الصورة عقبة ولا شك أمام المخططين، فالريف هو معظم مصر، ولن يؤتي المخطط ثماره كاملة إن فسدت العاصمة وحدها، وبقي الريف سليمًا حتى ولو في محيط التقاليد، فإن هذا يطيل الأمر على المخططين، ويستنفد من وقتهم وجهدهم شيئًا غير قليل (لم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد، ولا التليفزيون بطبيعة الحال) فمن هنا يوجه المندوب السامي البريطاني روز اليوسف -وهو أعلم بحقيقتها، وحقيقة دورها- أن تذهب إلى الريف، لعل مسرحها ومسرحياتها أن

تزحزحه قليلًا عن تقاليده الصامدة، فيأخذ في حالة الذوبان، فتنفرج الأمور.

- تخصص مجموعة من القصصين والمسرحين والسينمائيين في موضوع معين، يتكرر بصورة مختلفة، خلاصته أن فتاة -جامعية في الغالب، ومتعلمة بصفة عامة- لها صديق، يقع بينهما ما يقع -على درجات مختلفة من الوقوع- ثم يتقدم للزواج منها فيرفضه أبواها -الريفيان في الغالب، والرجعيان التقليديان بصفة عامة- إما لأنهما يرتبان لها زواجًا معينًا بعقليتهما المتخلفة، وإما لأنهما -حرصًا منهما على التقاليد- يشعران بميل الفتاة له فيرفضانه من أجل هذا السبب بعينه، ثم تمضي القصة أو المسرحية أو الفيلم بإصرار الفتاة على موقفها، بصورة مختلفة من الإصرار، أدناها رفض الخطيب الذي يقدمه لها والداها، وأشدها ترك البيت والهروب مع الصديق، وينتهي الأمر في كل حالة بتنفيذ ما أصرت عليه الفتاة، ورضى الوالدين، أو تسليمهما لأمر الفتاة التقدمية إذعانًا للأمر الواقع، أو اقتناع الأم خاصة، ومحاولة إقناعها الأب بأنهما كانا مخطئين، وأن الفتاة على حق!.

- تخصص مجموعة من الكتاب -في وقت من الأوقات- في القول بأن المجتمع لم يكن نظيفًا من الجريمة الخلقية وقت أن كان محافظا على التقاليد، وأن الفاحشة كانت تقع تحت ستار الحجاب، وذلك ردًا على الذين كانوا يقولون: إن السفور والاختلاط سيؤديان حتمًا إلى التحلل الخلقي.

وكون المجتمع -أي مجتمع مهما كان محافظًا- لا يخلو من وقوع جريمة فيه، فهذه حقيقة، يكفي شاهدًا لها أن الفاحشة وقعت في مجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنه من التبجح الغليظ أن يقال: إنه ما دامت الفاحشة تقع هنا وتقع هناك، فلا فائدة في الدين، ولا فائدة في الأخلاق، ولا فائدة في التقاليد، ولا قيمة لكل التوجيهات الخلقية! فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذًا يستنكر، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر!

- كتب إحسان عبد القدوس في إحدى توجيهاته التي كان يبثها في مجلة روز اليوسف: إنني أطالب كل فتاة أن تأخذ صديقها في يدها، وتذهب إلى أبيها، وتقول له: هذا صديقي!

- كتب أنيس منصور في إحدى مقالاته في أخبار اليوم: أنه زار إحدى الجامعات الألمانية ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجًا أزواجًا مستلقين على الحشائش في فناء الجامعة، قال: فقلت في نفسي: متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط! لكي تراه عيون أهل الصعيد، وتتعود عليه![1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/٤٥٣- ٤٥٨)، قضية تحرير المرأة، عودة الحجاب.

القبيسيَّات (التنظيم النِّسائيّ الصوفيّ)

التعريف:

القبيسيَّات تنسب إلى منيرة القبيسيّ، وهي جماعة دينيَّة نسائيَّة تنتشر بشكل خاصٍّ في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والكويت ودول الخليج.

ولهذه الجماعة، التي تقتصر على النساء، عقائد وأفكار وسلوكيَّات وتصوُّرات خاصَّة للإسلام، يمارسنها بشيء من السرِّيَّة والانعزاليَّة، وعدم الإفصاح عن حقيقة عقائدهن وأفكارهن إلا بعد أن تمضي العضوة الجديدة فترة زمنية طويلة معهن، ويرفض حضور أي فتاة لحلقاتهم دون موعد مسبق عن طريق واحدة من عضواتهن الفاعلات، ويقمن باستمالة الشخصيات ذوات المناصب أو الثراء، أو العائلات الكبيرة لضمِّهنَّ للجماعة.

تاريخ القبيسيَّات

منيرة قبيسي امرأة سورية تعيش حاليًا في إحدى الحارات القديمة في العاصمة دمشق، تتجاوز الخامسة والسبعين من عمرها، خريجة كلية العلوم بجامعة دمشق، ثم التحقت بكلية الشريعة، وعيِّنت مدرسة لمادة العلوم في إحدى مدارس دمشق، وكان عمها من تلاميذ أحمد كفتارو، مفتي سوريا الذي توفي مؤخرًا وشيخ الطريقة الصوفيَّة النقشبنديَّة في سوريا، وهو الذي أشار عليها بالدّخول إلى هذه الطريقة الصوفيَّة، وقد بدأت القبيسي نشاطها في سنوات السبعينات من القرن الماضي.

وقد تفرقت تلميذات منيرة القبيسي في بلاد الشام ودول الخليج، واستطعن تأسيس جماعات أطلق عليها: الطبَّاعيَّات في الأردن، والسّحَريَّات في لبنان، . . . ، وبنات البيادر في الكويت. كما استطعن إنشاء الجمعيَّات الخيريَّة والمؤسَّسات التعليميَّة والتربويَّة، وتحقيق انتشار لافت بين الأوساط النِّسائيَّة، خاصَّةً في المدارس والجامعات.

العقائد والأفكار:

١- تحمل هذه الجماعة أفكار الطريقة النقشبنديَّة وهي إحدى طرق الصوفيَّة، ويظهر هذا من خلال الاعتقاد بوحدة الوجود، وتقديس الشيخة والتسابق إلى تقبيل يدها، وقدمها أحيانًا على نحو ما يفعله الصوفيَّة تجاه شيوخهم.

٢- تكرر في أقوالهن وكتب شيخاتهنَّ الاعتقاد بوحدة الوجود، وهي عقيدة صوفيَّة فاسدة، تعني أنَّ الله والعالم شيء واحد، وأنَّه لا فرق بين الخالق والمخلوق.

وقد جاء في كتاب «مزامير داود»، وهو من أقدم وأهمّ مؤلفات هذه الجماعة، ما يفيد اعتقادهم بوحدة الوجود، فقد وردت فيه عبارات مثل: «كل ما تهواه موجود في ذات الله»، وفيه أيضًا قول الشاعر:

قل الله وحدَه في الكثرة ما ترى سواه في كل كائنة

وفيه أيضًا قولهن: «شيختنا معنا، أينما كنَّا لا تضيّعُنا».

وقد ألَّفت إحدى شيخات هذه الجماعة واسمها نوال أ. كتابًا سمّته «المتاح من الموالد والأناشيد الملاح»، وأعادت فيه ذكر بعض العبارات التي وردت في «مزامير داود»، وأضافت عليه أشياء تؤيِّد الاعتقاد بوحدة الوجود، من قبيل:

يا جمال الوجود طاب فيك الشهود

ومن قبيل:

أنت نسخة الأكوان فيك صورة الرحمن

٣- تقديس الشيخة، وعدم مناقشتها، واعتبار أنَّ أمرها مطاع، وأنَّه مقدم على طاعة الأب أو الزوج أو ولي الأمر، ويقولون في هذا الصدد: «لا علم ولا وصول إلى الله من دون مربيِّة»، و«من قال لشيخه لِمَ، لم يفلح أبدًا»، و«كوني كالميتة بين يدي آنستك»، وهنَّ يعتبرن منيرة قبيسي إحدى مجددات الدِين.

٤- المواظبة على بعض الأوراد والصلوات المبتدعة، مثل صلاة ركعتين قبل المغرب ويسمونها «صلاة الأوّابين»، ولديهن ذكر يطلق عليه «الصلاة الناريَّة».

يوجد كتاب اسمه «الأوراد الدائمة خلف الصلوات القائمة» مملوء بالخرافات والخزعبلات وعبارات الكفر فلكلِّ مريدة وردٌ يوميٌّ، وهو عادة مرتين بعد صلاة الفجر، ومرة بعد العشاء، وهو بأن تجلس المريدة متوجهة إلى القبلة بعد الانتهاء من الصلاة والدعاء ثم تقول: اللهم يا مفتّح الأبواب، ويا مسبِّب الأسباب، ويا مقلِّب القلوب والأبصار، ويا دليل الحائرين، ثبت قلبي على الإيمان. وتتخيل المريدة شيختها، والآنسة الكبرى «منيرة قبيسي» أمامها، فإن فعلت ذلك تخيلًا وأصبحت ترى وجه شيختها، فعليها أن تبدأ بالذكر؛ لأنَّها هي التي تربط قلبها بالله، لأنَّه سيمتد قبس من نور من قلب «الشيخة»، أو الآنسة إلى قلب الفتاة ليوصلها إلى الله!

ويكون الذكر بترديد اسم الجلالة مفردًا «الله . . الله . . الله» وذلك بطريقة خاصَّةً أيضًا عن طريق رفع مقدم اللِّسان بسقف الحلق ووضع اليد اليمنى على القلب مع حركة كفِّ اليد من أعلى إلى أسفل على الجهة اليسرى من الصدر وتتخيل بذلك أنَّها تكنس الأمراض من القلب.

٥- استعمال السحر، والاستعانة بالجن ضد من يترك جماعتهن، أو يتكلم عنهن بسوء، وقد حدثت عدة حالات بهذا الصدد، يقول زوج إحدى العضوات السابقات في الكويت بعد أن اكتشف حقيقة الجماعة، وساءت علاقته معها: «وبعدها بدأت محاربتهنَّ لي، وذلك بوضع مواد السحر كالبيض الفاسد على سيارة ولدي البكر، ومرات يضعن الدم على سيارتي، ومرات يسكبن سوائل على مدخل بيتي، . . . وقد لمسنا تأثير تلك الأعمال الشريرة على ولدي وعلى نفسي وتعالجنا منها، والحمد والفضل لله وحده».

المفاهيم والسلوكيَّات الخاصة

١- العزوف أحيانًا عن الزواج، رغبة في التفاني في خدمة الجماعة، وعدم الانشغال بشيء عنها، إضافة إلى ضرورة استئذان الشيخة في أمر الزواج.

٢- تميز أنفسهن بلبس الجلباب الكحلي والمنديل المعقوف (المربوط داخل الجلباب)، وذكر بعض الباحثين أنه قصير إلى أنصاف الساقين، ولهن في لبس الجلباب نظام خاصٌّ، بحيث إنَّ لون الجلباب يعبر عن مرتبة الانتماء للجماعة.

٣- انعزال هذه الجماعة على نفسها، وتظهر هذه الانعزاليَّة في عدم قدرتهنَّ على الاندماج الحقيقيِّ مع المجتمع (صداقات - علاقات أسريَّة) ما دامت خارج نطاق جماعتهنَّ. ولذلك يستخدمن التَّقيَّة والكذب مع الأهل والمجتمع.

٤- الحرص على استقطاب الفتيات الموسرات، لذلك تحتلُّ المكانة الاجتماعيَّة والثراء والذَّكاء معايير هامَّة عند انضمام الفتيات إلى هذه الجماعة.

٥- السريَّة التامَّة في جميع الأمور والاجتماعات والبيانات، ويطلقون على ذلك «الحسّ الأمنيّ».

٦- اهتمامهن بالرقائق والإيمانيَّات على حساب طلب العلم الشرعيِّ، إذ يلاحظ الضعف العلمي العام لدى المنتسبات، وعدم وجود منهج محدد ومنظم لدراسة العلوم الشرعيَّة، ومعظم الكتب التي يتم تدريسها هي لمؤلفات من الجماعة.

٧- توجيه العضوات إلى العمل في قطاع التعليم، باعتباره عملًا «يخدم الدعوة، ويغذيها بالعناصر الجديدة». كما تتلقى العضوات تعليمات حول كيفية التعامل مع الطالبات، من البشاشة، وحسن المعاملة، وإلقاء السلام، ليسهل التحبب إليهن، وترغيبهن في الانضمام إلى الجماعة.

٨- كشف أسرار البيوت للمربيَّة، بحجة أن ذلك يساعدها في أن تأخذ يد الفتاة إلى الله، ويعتبرون المربيَّة كالطبيب الذي يجب أن يتم إخباره بالخصوصيات ليساعد في العلاج، ويقولون: «يجب أن يستعلي عندك حب الشفاء على الحرج من كشف العورات»، ويقولون أيضًا: «بين إخواني أكسر ميزاني».

٩- كثيرًا ما تتميز علاقاتهن مع أزواجهن وآبائهن بالتوتر، كون الشيخة أو الآنسة تسعى لأن تكون الآمر الناهي حتى في العلاقات الزوجيَّة، وبسبب كثرة الخروج من المنزل، وتقديم أمر الجماعة على أي شيء آخر.

الانضمام إلى الجماعة

١- من أسس الدخول في الجماعة كتابة رسالة توضح فيها الفتاة أسرارها الشخصيَّة الخاصَّة

والذنوب التي ارتكبتها، على طريقة كرسي الاعتراف عند النصارى، ولهنَّ عبارة في ذلك وهي «افتضح واسترح».

٢- تقسيم الفتيات إلى مجموعات وحلقات، وكل حلقة تحتوي على مجموعة بينها صفات مشتركة كالعمر والفترة الزمنيَّة في الدعوة، وغير مسموح للفتاة بحضور حلقات غير الحلقة التي تخصها.

وعمومًا، هناك ثلاث فئات للفتيات وهي:

أ- النوادر: وهن البنات من عمر ١٤- ١٨ سنة.

ب- البشاير: الفتيات من عمر ١٨ - ٢٤ سنة.

ج- البيادر: الفتيات من عمر ٢٤ سنة فما فوق.

الانتشار والمؤسَّسات

تفرقت تلميذات منيرة القبيسي في أنحاء مختلفة من بلاد الشام ودول الخليج، واستطعن تأسيس عمل نسائيٍّ، وجماعات حملت اسم الشيخة غالبًا، في حين تعتبر منيرة قبيسي زعيمة هذه الجماعة، أو «الشيخة الكبرى» أو «الآنسة الكبرى» كما يطلقن عليها، وبسبب وجودها في سوريا، أصبحت زيارة الشام عندهن أشبه بالواجب، أو الحلم، حتى أطلقت بعضهن اسم «رحلة كعبة المعاني» على رحلة الشام، في حين أنَّ التوجه إلى مكة المكرمة لأداء الحج والعمرة هي «رحلة كعبة المباني».

وللقبيسيَّات دعاء خاصٌّ عند مقابلة قبيسي هو: اللهم اجمعنا على ألمها، واجمعنا على أملها.

١- سوريا

يطلق عليهن هناك اسم «القبيسيَّات»، ولهن من المدارس هناك «مدارس النعيم»، ومن المكتبات المهتمة ببيع كتبهن «مكتبة السلام»، بالقرب من دائرة الجوازات والهجرة في دمشق.

وتعتبر سعاد ميبر، أبرز تلميذات القبيسي في سوريا، وهي تدرس في «معهد الفتح» فرع الإناث في دمشق، وكتبها مقررة عند هذه الجماعة، ومن كتبها «عقيدة التوحيد من الكتاب والسُّنَّة».

ولهن العديد من المدارس والمعاهد في سوريا.

٢- لبنان

تزعمت الجماعة هناك في البداية، أميرة جبريل، وهي شقيقة أحمد جبريل الزعيم اليساريِّ الفلسطينيِّ، ولكنَّ أميرة جبريل أخلت الساحة فيما بعد لسحر حلبي، حيث صرن في لبنان يعرفن بالسّحريات، وبلغ من تعصبهنَّ هناك لسحر حلبي أنَّ بعضهنَّ فترن قول الله تعالى ﴿نجيناهم بسحر﴾، أي أنَّ الله نجّاهن من الضلال بسحر حلبي!

٣- الأردن

ويعرفن فيها باسم «الطبّاعيات» نسبة إلى شيختهن فادية الطَّبّاع، التي تملك وتدير مدرسة بارزة في العاصمة عمّان، هي مدارس الدر المنثور في حي أم السماق، حيث تعتبر تلك المدرسة أهم

معاقل هذه الجماعة، إضافة إلى مدرسة أخرى في عمّان، هي مدرسة الخمائل.

وكانت فادية الطّبّاع فيما سبق تدرس في مدراس الأقصى التي أسّسها شاعر الأقصى يوسف العظم، وكانت على خلاف مع الدكتورة مهديَّة الزميلي، أبرز الداعيات في جماعة الإخوان ومديرة مدارس الرضوان حاليا بسبب قضية تقصير الجلباب وإظهار الساق، كما يروي العظم ذلك في سيرته.

٤- الكويت

أسّست الجماعة فيها أميرة جبريل، شقيقة أحمد جبريل زعيم إحدى المنظمات اليسارية الفلسطينيَّة. ثم تأسّست «جمعيَّة بيادر السلام النّسائيَّة».

وجمعيَّة بيادر السلام هي الجمعيَّة الرسميَّة التي تعمل الآنسات من خلالها، وقد تأسست سنة ١٩٨١م، وتشرف على عدد من المؤسسات التربويَّة منها: مدرسة القطوف الخاصَّة، وحضانة السلام، وحضانة دار الفرح.

ورأست مجلس إدارة الجمعيَّة دلال عبد الله العثمان. وقد جاء إنشاء الجمعيَّة نتيجة جهود كبيرة بذلها يوسف سيد هاشم الرفاعي رأس الصوفيَّة الكويتيَّة، بعدما فشل في دعوة الرجال على مستوى الساحة الكويتيَّة، ولجأ بذكاء إلى الجنس النّسائيّ مستغلًا عاطفتهنَّ وقلّة علمهنَّ، وموجدًا بهذا التوجه متنفسًا لمشاكلهنَّ الاجتماعيَّة وظروفهنَّ الأسريَّة.

وللجماعة كذلك انتشار في دول الخليج ومصر وفلسطين، وبعض الدول العربيَّة والأجنبيَّة ولكن لا توجد معلومات كافية عن ذلك[(١)].

القُرَآنِيُّون

التعريف:

يقوم فكر القرآنيِّين أساسًا على إنكار السُّنَّة، ونبذها، وعدم اعتبارها مصدرًا للتشريع الإسلامي، فتخبَّطوا وضلُّوا، وجاءت أحكامهم ناقصة مشوشة، بعيدة عن مرادها، إذ رفعوا شعار: حسبنا كتاب الله، متناسين أنَّ السُّنَّة جاءت موضحة لكتاب الله ومفسّرة، ومكمِّلة لأحكامه.

تاريخ القرآنيِّين

في نهاية القرن التاسع عشر الميلاديّ، بدأت تغزو الهند الدعوة إلى الاعتماد على القرآن ونبذ

---

(١) انظر: مجلة الراصد العدد ٣٣، ص(٧- ١٩)، تقرير عن جمعية بيادر السلام النسائية، لجنة من الباحثين، التنظيم النسائي السري الخطير، أسامة السيد، جماعة القبيسيات الصوفية، شبكة الدفاع عن السنة، القبيسيات، منتدى السقيفة، فتوى اللجنة الدائمة رقم (١٦٠١١) ١٨/ ٥/ ١٤١٤هـ.

السُّنَّة في التشريع الإسلاميِّ، وعُرف هؤلاء باسم (أهل القرآن أو القُرآنِيِّين)، وإن كان منهج إقصاء السُّنَّة النَّبويَّة قد عرف بعض الشيء في عصور مبكِّرة.

وقد استفحلت أفكار هؤلاء في القارة الهنديَّة، وانتقلت بعد ذلك إلى بعض الدول الإسلاميَّة، ومنها مصر، التي لا يشكل القرآنيون فيها تنظيمًا قويًّا كالذي ظهر في الهند. والسودان التي تلبورت هذه الفرقة في قالب جديد هو الحزب الجمهوري.

وقد مهَّد لظهور جماعة القرآنيين، حركة العصرنة والتجديد التي قادها أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨م) بين مسلمي الهند.

وقد بدأ أحمد خان حياته العمليَّة بالاتصال بالإمبراطور بهادر شاه آخر ملوك دهلي المسلمين، فأنعم عليه برتب والده ونعوته، وكان والده قد تقلَّد عددًا من المناصب. ولمَّا تغلَّب البريطانيون على الهند، عمل أحمد خان لديهم موظَّفًا في شركة الهند الشرقيَّة، ثم أصبح أمينًا للسجلات في القلم الجنائي بدهلي، وعمل لديهم بإخلاص ونشاط.

وحين ثار الهنود المسلمون في دهلي على الاستعمار البريطاني لبلادهم سنة ١٨٥٧م، وقف أحمد خان ضد هذه الثورة، معتبرًا أنَّها ستلحق الأذى بشعبه، فأخذ يحث على إنهائها، وعرَّض حياته للخطر في سبيل ذلك، وكان رأيه أن سبب الثورة أو «التمرد» كما أطلق عليها، أنَّ الشعب الهندي أساء فهم طبيعة الحكم البريطاني، وأنَّ البريطانيين تجاهلوا شروط الحكم.

ولمَّا انتهت الثورة، وفتك المستعمر بالمسلمين، أكرم البريطانيون أحمد خان بلقب «صاحب نجمة الهند»، كما عُيِّن زميلًا وعضو شرف في الجمعيَّة الملكيَّة الآسيويَّة في لندن، وعيَّنوا له راتبًا شهريًّا يرثه ابنه البكر من بعده.

وبعد ذلك، أخذ خان على عاتقه نشر الثقافة الغربيَّة بين المسلمين، معتبرًا أنَّ ذلك من أهم وسائل إصلاح أحوالهم، وفي سنة ١٨٦٢م، نشر شرحًا واسعًا للإنجيل، ليكون أول مسلم يقوم بهذا النوع من البحث.

وقام بالتَّعاون مع أغاخان الثالث، إمام الإسماعيليَّة الأغاخانيَّة، وبتمويله السخي بافتتاح أول (جامعة إسلاميَّة عصريَّة) في عليكرة، وقد تسلَّم إدارتها في بادئ الأمر بريطانيون.

وأخذ أحمد خان يفسر آيات القرآن تفسيرًا عقليًّا محاولًا توفيقها مع العصر، ويؤول المعجزات المذكورة في القرآن تأويلًا مخالفًا لما عليه عموم المسلمين.

ومن آرائه: القول بأنَّه لا يوجد في القرآن ما يدل صراحة على أنَّ المسيح ولد من غير أب! كما حاول تفسير آيات الجنة والنار تفسيرات روحيَّة رمزيَّة، خلاف مضمونها الظاهريِّ، كما رفض أحاديث علامات الساعة، من طلوع الشمس من مغربها، وخروج دابَّة الأرض، ونزول المسيح عليه السلام وغير ذلك.

وقد كان أحمد خان بمنهجه هذا أوَّل من اختطَّ طريق التعويل على القرآن فقط، وفهمه فهمًا

عصريًا كما يزعم، والتشكيك بالأحاديث والأخبار، والدَّعوة لغربلة التراث.

أهم أفكار القرآنيِّين

١- اعتبار القرآن الكريم المصدر الوحيد للشريعة الإسلاميَّة دون ما سواه.

٢- استبعاد كل المصادر الأخرى المشكلة للشريعة الإسلاميَّة كالسُّنَّة، والسيرة والتفسير والقياس والاجتهاد وسير الصحابة والإجماع وفتاوى الأئمَّة.

٣- وفيما يتعلق بالسُّنَّة النَّبويَّة على وجه التحديد، فقد وجّه القرآنيون سهامهم نحوها، وأبعدوها من مذهبهم منكرين أنَّها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بل ومنكرين لها جملة وتفصيلًا بزعم أنَّها غير محفوظة مثل القرآن، وأنَّ نسبتها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم غير يقينيَّة.

٤- ادِّعاؤهم بأنَّ الصوم في شهر شعبان، وليس في رمضان.

٥- اعتبارهم أنَّ الكعبة صنم، وأنَّ الطواف حولها من طقوس الوثنيين في الجاهلية.

٦- ينكرون وجود النسخ بأقسامه الثلاثة -نسخ الحكم، ونسخ التلاوة، ونسخ الحكم والتلاوة- في القرآن الكريم.

٧- يرى بعضهم أنَّ لا وجود للمجمل في القرآن الكريم، كما يختلفون في مسألة تخصيص القرآن، وتقييده بغيره.

٨- يعتمدون في فهم القرآن وتفسيره على اللُّغة العربيَّة فقط، وذلك بسبب استبعادهم للسُّنَّة النبويَّة الموضحة والمفصِّلة للقرآن، فصرفوا الآيات والأحكام عن مرادها.

٩- تبني نظريَّة (مركز الملّة) التي تعني أنَّ الآياتِ التي تأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم غير مختصة بهما، إنما تعني طاعة الحاكم أو الإمام الذي يتولى منصب النبيِّ صلى الله عليه وسلم من بعده.

وقد أعطوا لهذا (المركز) صلاحيَّات تعيين حكم الشرع في الأحكام التي لم يرد ذكرها في القرآن، دون أن يلتزم بما سبقته من الأنظمة، والتمتع بالتحريم والإطلاق والتقييد لما يراه غير موافق لظروفه من الأحكام القرآنيَّة.

١٠- وفي الجانب الاقتصاديِّ، يروجون للنظريَّة الاشتراكيَّة، التي تبنتها الشيوعيَّة ويطلقون عليها (نظرية نظام القرآن الاقتصادي)، وتعني سيطرة الدولة على الثروات ووسائل الإنتاج، وإلغاء الملكيَّة الفرديَّة.

١١- إنكار وقوع خوارق العادات من محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وأمَّته من بعده، ما عدا معجزة القرآن.

١٢- ذهب بعضهم إلى القول بأنَّ المسيح عيسى ابن مريم ولد من أبوين شرعيين، لا من مريم وحدها. كما صرح بعضهم بعدم عودته إلى الأرض مرة أخرى، وقالوا بأنَّ معتقد العودة دخل إلى

الإسلام من المسلمين الذين كانوا نصارى قبل الإسلام.

١٣- ينكر القرآنيُّون الحياة البرزخيَّة في القبر. أما الجنَّة والنار، فذهب بعضهم إلى أنهما (أماكن حقيقية ستخلق يوم القيامة، وأنَّه لا وجود لهما حاليًا)، وذهب فريق ثانٍ إلى (أنَّ الجنة والنار وما وصفتا به من نعيم وعذاب صورتان تمثيليتان)، ورأى فريق ثالث أنَّ (الجنَّة والنار طور من أطوار الحياة البشريَّة، وأنَّ نمو الحياة وازدهارها يعني حياة الجنة، وتوقفها وعدم الرقي فيها يعني حياة الجحيم والنار).

١٤- لهم آراء في الميراث تخالف ما عليه أهل السُّنَّة، مثل اعتقادهم بأنَّ اختلاف الدين بين الوارث والمورث لا يمنع من الميراث، وأنَّ الأنبياء يورثون، وأنَّ الرقَّ لا يمنع من الميراث، وأنَّ أولي الأرحام هم من يرتبط الميت بهم بصلة الرحم والقرابة، فيدخل فيهم الأب والأم والأولاد والإخوة والأخوات والأعمام وأبناء الإخوة...

من أبرز شخصياتهم

أولًا: في القارَّة الهنديَّة:

١- عبد الله بن عبد الله الجكرالويّ مؤسس جماعة أهل الذكر في القرن التاسع عشر، كان أحد المتأثرين بأحمد خان، وكان كثير الإهانة للتراث الإسلاميّ، وله مؤلفات كثيرة، منها: تفسير القرآن بآيات الفرقان، وترجمة القرآن بآيات الفرقان، ورد النسخ المشهور في كلام الربّ الغفور، والبيان الصريح لإثبات كراهة التراويح.

وقد استغل البريطانيُّون الذين كانوا يحتلُّون القارَّة الهنديَّة حركة جكرالوي، وقد كان «المشروع البريطاني» يضمُّ في صفوفه عددًا كبيرًا من القساوسة المنصِّرين، الذين أُعجبوا بنهج جكرالوي في إنكار السُّنَّة النبويَّة، وأخذوا يشجِّعونه، وأخذت كتب التأييد والرسائل تصل إليه من القساوسة، وتعده بالمساعدات الماديَّة، وتشكره على هذا «المجهود الجبَّار».

٢- أحمد الدين الأمرتسري مؤسِّس فرقة الأمَّة الإسلاميَّة المتوفى سنة ١٩٣٦م، ومن مؤلفاته: معجزة القرآن، وتفسير بيان للناس، وغيرهما، وكان ناقدًا لاذعًا لنظام الميراث عند المسلمين، وغير ذلك.

٣- حافظ محمد أسلم جراجبوري المتوفى ١٩٥٥م، وكان من أركان القرآنيِّين البارزين، وكاتبًا لأحد الأعمدة الرئيسيَّة لصحيفة بيسة اليوميَّة التي كانت تصدر في لاهور بباكستان، وعمل محاضرًا في جامعتي عليكرة، والمليّة، ومن مؤلفاته: الوراثة في الإسلام، حياة عمرو بن العاص، تاريخ نجد، تاريخ القرآن، تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة، عقائد الإسلام.

٤- غلام أحمد برويز، رئيس جمعيَّة أهل القرآن المتوفى سنة ١٩٨٥م، ومؤسس حركة طلوع إسلام، ونشأ في بداية حياته متأثرًا بالطريقة الصوفيَّة الجشتية النظاميَّة التي كان جدّه على صلة وثيقة بها.

أصدر سنة ١٩٣٨ مجلة "طلوع إسلام" دون تسجيلها باسمه الخاص، وكان يمتاز بالاطلاع الواسع على الأفكار الأوربيَّة، ويرى وجوب صبغ الإسلام بها، وبالإضافة إلى ذلك يعتقد أنَّ النظريات العلميَّة حقائق لا تقبل الجدل والمناقشة، لذا يجب تفسير القرآن بمقتضاها، مثل القول بالتطور في وجود الخلق، وإنكار خوارق العادات.

ويعتبر برويز أكثر القرآنيِّين كتابة وتأليفًا، حتى أسماه البعض (مؤلِّف الحركة القرآنية)، ومن مؤلفاته: تبويب القرآن، وهو عبارة عن معجم لبعض معاني القرآن، وأنا والرب، وإبليس وآدم، والمجتمع المسلم، وعالم الغد، والحركة القاديانية وختم النبوة، والقرآن والدكتور محمد إقبال.

وقد وقف علماء القارة الهنديَّة له -ولغيره- بالمرصاد، وفندوا عقائده وأفكاره، وكان للشيخ المودودي دور كبير في تسليط الأضواء على أفكار برويز، وتحذير الناس من اتِّباعها. وفي سنة ١٩٦١م، وضعت أفكار برويز ومعتقداته على طاولة البحث الإسلامي أمام العلماء ليفتوا فيها، وتولى إجراء هذا الاستفتاء المدرسة العربيَّة الإسلاميَّة بكراتشي، فأفتى ما لا يقل عن ألف عالم من علماء الدين من باكستان والهند والشام والحجاز بتكفيره وخروجه عن ربقة الإسلام.

٥- جعفر شاه بلواري، أحد زعماء جماعة «طلوع إسلام»، وأحد المكثرين في الكتابة عن آراء القرآنيِّين في الآونة المعاصرة. تقلَّد عدة مناصب حكوميَّة في باكستان، وفي السبعينيات من القرن العشرين الميلادي، كان أحد أعضاء إدارة الثقافة الإسلاميَّة بلاهور، التي تعمل تحت إشراف الدولة.

وله عدة مؤلفات منها: مقام السُّنَّة، رياض السنة، الدين يسر.

٦- محمد رمضان المتوفى سنة ١٩٣٩م، أحد تلاميذ عبد الله جكرالوي، من أهم أعماله إصدار مجلة بلاغ القرآن التي لا تزال تحمل آراء بعض القرآنيِّين إلى الآفاق الباكستانيَّة حتى الآن، وله من المؤلفات: صلاة القرآن كما علّم الرحمن.

٧- جراغ علي، تأثر بأفكار أحمد خان عندما شاركه بترجمة بعض الكتب، وكان يطالب بإعادة تدوين الفقه الإسلامي من جديد.

وعن قواعد الجرح والتعديل، والمعايير التي وضعها علماء الحديث لتمييز الحديث الصحيح من غيره، كان يقول: «. . . لا حاجة إليها لتمييز صحيح الحديث من سقيمه؛ لأنَّ الحديث -في حد ذاته- شيء لا يمكن الاعتماد عليه».

٨- عناية الله المشرقي، خريج جامعة كامبردج في بريطانيا. أخذ على عاتقه مهاجمة العلماء والسخريَّة منهم، معتبرًا أنَّهم «تقليديُّون».

ثانيًا: في مصر:

١- د. أحمد صبحي منصور، كان يعمل أستاذًا بجامعة الأزهر، فتم فصله بسبب انحرافاته. غادر مصر إلى الولايات المتَّحدة واستقرَّ بها. ويعتبر الأب الروحي للقرآنيِّين في مصر.

٢- أمين يوسف علي، الزعيم السابق للقرآنيين بمنطقة المطرية بالقاهرة، وكان يعمل خطيبًا بمساجد وزارة الأوقاف. وهو أحد الذين تم حبسهم في قضية هذا التنظيم عام ٢٠٠٢م.

٣- علي المندوه السيسي، وهو أحد الذين تم حبسهم أيضًا عام ٢٠٠٢، لمدة ٣ سنوات.

٤- إيهاب عبده، صاحب كتاب: استحالة وجود عذاب في القبر.

وينبغي هنا الإشارة إلى أن حركة إنكار السُّنَّة كليًا أو جزئيًا في مصر وبعض البلدان العربيَّة سبقت تنظيم القرآنيين الذين صدرت بحق أفراده أحكام بالسجن سنة ٢٠٠٢م[١].

عبدة الشيطان

التعريف:

جماعات شبابيَّة توجهت إلى عبادة الشيطان وتقديسه من دون الله، وهذه المجموعات بدأت تظهر في بعض مجتمعات المسلمين، ويطلق عليها «عبدة الشيطان» وبدت متأثرة ببعض الأفكار والأديان التي انتشرت في الغرب.

تاريخ عبدة الشيطان

يُعتقد أنَّ بداية هذا الفكر كانت في القرن الأول للميلاد عند الغنوصيين، الذين كانوا ينظرون إلى الشيطان على أنَّه مساوٍ لله تعالى في القوة والسلطان.

وقد ظهرت فكرة عبادة الشيطان وتقديسه في عدد من الديانات القديمة، وكان عند بعضها آلهة عديدة تمثل الشرَّ. ففي الحضارة المصريَّة القديمة، وُجد الإله (سيت) أو (سيث) وهو يقترب من كلمة satan أي شيطان، الذي يمثل قوة الشرِّ، وقد قدم المصريُّون له القرابين اتقاءً لشرِّه. وفي الحضارة الهنديَّة، كان للشيطان دور كبير في حياتهم الدينيَّة، عبروا عنه باسم الراكشا. وعند الإغريق كان اسمه دي إت بولس (Boles-D it)، أي المعترض. وفي أرض فارس، بدأت عبادة الشرِّ والشيطان على تخوم الصحراء الآسيويَّة، وكانوا يعبدون شياطين الليل التي تطوَّرت للتعبير عن الشرِّ بالظُّلمة، والخير بالنور، وبما يعرف باسم «الثنويَّة». وفي بابل وآشور، تذكر الأساطير أنَّ صراعًا حدث بين آلهة الخير، وآلهة الشرِّ، وفي التراث الأفريقي، ما زال يعتبر سحر الفودو، وهو السحر الرسميّ الوحيد في العالم كنوع من تقديس الشيطان، والحصول منه على قدرات خارقة للسيطرة على بعض الناس.

القرون الوسطى.

وفي القرون الوسطى، ظهرت في أوربا عدة جماعات تتَّخذ من الشيطان إلَهًا ومعبودًا، منها

---

(١) مجلة الراصد العدد ٢٧، ص(٧- ١٥)، القرآنيون وشبهاتهم حول السنة، خادم حسين إلهي بخش، الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، سعد رستم.

جماعة «فرسان الهيكل» التي ظهرت في فرنسا، وكان لها اجتماعات ليليَّة مغلقة تبتهل فيها للشيطان، وتزعم أنَّه يزورها بصورة امرأة، وتقوم هذه الجماعة بسب المسيح وأمِّه وحوارييه، وتدعو أتباعها إلى تدنيس كل ما هو مقدَّس.

وكان فرسان الهيكل يتميزون بلبس قميص أسود يسمُّونه «الكميسية». وقد انتشرت هذه الجماعة في فرنسا وإنجلترا والنمسا، ثم اكتشفتها الكنيسة، وقامت بحرق مجموعة من أتباعها، وقتلت زعيمها ما بين عامي ١٣١٠. ١٣٣٥م.

ثم ظهرت عدة جماعات مشابهة بعد ذلك، أخذ بعضها يمارس تعذيب الأطفال وقتلهم، وقد خطف لهذا الغرض مئات الأطفال بين عامي ١٤٣٢. ١٤٤٠م، والبعض الآخر أخذ يقوم بتسميم الآبار والينابيع مثل «جمعيَّة الصليب الوردي».

وفي القرن السابع عشر ظهرت جمعيَّة تسمى «ياكين» تمارس الطقوس نفسها، وقد أعدم منها فوق الثلاثين فردًا، ثم ظهرت جمعيَّات أخرى مثل: الشعلة البافاريَّة، الشعلة الفرنسيَّة، وإخوَّة آسيا.

وفي ١٧٧٠، أسس الألماني آدم وايزهاويت مذهبًا مشابهًا باسم «حملة النور الشيطانيّ»، وقد أغلقت حكومة بافاريا محافل هذا المذهب سنة ١٧٨٥، وحظرت أي نشاط لها.

ثم اختفت هذه الأفكار لتعاود الظهور في منتصف الأربعينات من القرن العشرين.

ظهورها الحديث

في عام ١٩٤٨، ألَّف البريطانيُّ ألستر كراولي الذي تخرج في جامعة كامبردج كتابًا أسماه «الشيطان الأبيض» دافع فيه عن الإثارة والشهوات الجنسيَّة، وألقى محاضرات مطوَّلة عن الجنس في بريطانيا، وأصبح بعد ذلك هو المعلم الأول لجماعة عبدة الشيطان التي أخذت تنتشر أيضًا في الولايات المتَّحدة، ليتزعَّمها بعد ذلك يهوديٌّ أمريكيٌّ هو انطوان شذليفي، الملقب بالبابا الأسود.

وقد ترعرع ليفي في كاليفورنيا، وفي سنة ١٩٦٦ أعلن عن فرقته، وأسَّس في سنة ١٩٦٩ معبدًا يدعى بكنيسة الشيطان (cos)، كما ألَّف عددًا من الكتب الفلسفيَّة لترويج الفكر الشيطانيِّ، منها كتاب «الشيطان يقول» ويحتوي على عبارات الشيطان التسع وأحكام الأرض الإحدى عشر، وكتاب «الإنجيل الأسود»، وهدف إلى تحقير طقوس المسيحيَّة وشعائرها، وإلى بيان كيفية ممارسة العبادة، ويعتبر مرجعًا أساسيًّا لتوجيه الأتباع.

وبالرغم من أنَّ معظم الباحثين يذهب إلى أنَّ آنتون ليفي هو مؤسِّس فكر عبادة الشيطان في العصر الحديث، إلَّا أنَّ البعض ينسب هذا الفكر حديثًا إلى موسيقى الروك والمغني الأمريكي ليتل ريشارد، الَّذي أدخل سنة ١٩٥٢م إلى هذا الرقص أنغامًا وحركات تعود إلى العنف، وبعده في عام ١٩٥٥م، تزعم ألفيس بريسلي الحركة الموسيقيَّة، وراح يخاطب غرائز الشباب، ويشجِّعهم على رفض القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة، وعلى الحياة نفسها.

وإضافة إلى الولايات المتَّحدة، فإن عبادة الشيطان تشهد تزايدًا في فرنسا أيضًا، فقد أشار تقرير صدر في شهر مارس/ آذار سنة ٢٠٠٥ عن البعثة الوزاريَّة لمراقبة ومكافحة التجاوزات الطائفيَّة، وتم تسليمه إلى رئيس الوزراء أن ظاهرة عبادة الشيطان تكتسب أرضًا جديدة في فرنسا مما يؤدي إلى زيادة عمليَّات تدنيس المقابر وطقوس معادية للمسيحيَّة.

كما تشهد الظاهرة تزايدًا أيضًا في الدول الاسكندنافيَّة وروسيا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا واليونان وجنوب أفريقيا، واعترفت بعض الدول بها.

وحسب تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي في الولايات المتَّحدة، فإنَّه يدخل في كل عام في هذه الديانة ٥٠ ألف شخص من مختلف دول العالم، كما أكَّد أنَّ هذه الطائفة وراء كثير من جرائم القتل وخطف الأطفال، وخاصة في ولايتي سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس، حيث كانت الشرطة تجد بقايا دماء أطفال، وحيوانات مذبوحة بجوارها الشموع والأقنعة السوداء والجماجم.

تسربها إلى الدول العربيَّة

١- مصر

أول ظهور لعبدة الشيطان في مصر، يعود إلى أواخر سنة ١٩٩٦م، وفي ٢٧/ ١/ ١٩٩٧ خرجت الصحف المصريَّة تحمل خبرًا مثيرًا للجدل، عن القبض على ٨٦ شابًا وفتاة يعبدون الشيطان.

وقد تبين أن هذه المجموعة تتراوح أعمارهم بين ١٥و ٢٤ سنة، وأنَّهم من خريجي المدارس الأجنبيَّة، ومن أولاد الطبقة الغنيَّة.

كما تبيَّن أنَّهم اعتنقوا هذا الفكر عن طريق الاختلاط بالإسرائيليِّين في المنطقة المصرح فيها بدخولهم إلى الأراضي المصريَّة بدون جوازات سفر إلى جوار طابا ومن خلال استدراجهم بالجنس والمخدرات والخمور.

كما قبضت السلطات المصريَّة في شهر مايو/ أيار سنة ٢٠٠١م على ٥٥ من الشاذِّين من عبدة الشيطان، ووجّهت لهم تهم ازدراء الأديان، واستغلال الدين في ترويج أفكار متطرِّفة.

وقد تم القبض على هذه المجموعة على متن باخرة نيليَّة، وكانوا يتخذون من صالة «الديسكو» فيها مكانًا لتجمُّعهم، وإقامة حفلات التعارف والتزاوج بعد تقسيم أنفسهم إلى رجال أزواج، ورجال زوجات.

ومن القيادات الرئيسية في جماعة عبدة الشيطان في مصر أحمد عمر عبد الغفار وطارق حسن، وهو صاحب فرقة موسيقيَّة، وشاب آخر اسمه تامر علاء.

ومن بين الأماكن التي اتخذها عبدة الشيطان في مصر مقرًّا لممارسة طقوسهم، قصر البارون الشهير، الذي بني سنة ١٩٠٥م، وهُجر فيما بعد، ولم تكن عليه حراسة فعَّالة، إذ كانت تتسلل جموع الشباب والشابات إلى القصر لإقامة طقوسهم، وعندما كانوا يبدءون بحفلاتهم، يظن الناس

أنها أصوات لأشباح وعفاريت، ثم تبين أنَّها لم تكن سوى تلك الصرخات الشيطانية المصاحبة لموسيقى الروك.

٢- الأردن

ظهرت عبدة الشيطان في الأردن في منتصف التسعينات، وقد حاولت السلطات آنذاك التقليل من حجمها إلى أن قبضت على مجموعة منهم في شهر سبتمبر/ أيلول سنة ٢٠٠٢، في إحدى قاعات الاحتفال في منطقة عبدون الراقية في عمّان، وهم يمارسون طقوسًا غريبة، ويرتدون ملابس فاضحة، ويتقلدون بسلاسل من ذهب، ويرقصون بطريقة مثيرة على أنغام موسيقى غربية صاخبة.

كما داهمت السلطات عددًا من المحال التجاريَّة التي تقوم بتوزيع أشرطة الفيديو، وأقراص CD، التي تروج لفكر عبادة الشيطان. وأعلنت دائرة المطبوعات والنشر عن مصادرة نحو ألف شريط فيديو، ومئات أقراص الكمبيوتر.

وكانت قد شهدت بعض الجامعات الخاصَّة تجمعات لهؤلاء الشباب والفتيات، مما سبب بعض الصدامات مع الطلّاب والمدرسين، وقد تكرر في بعض الجامعات حوادث تلويث المصليات بالقاذورات، وهو ما حدث أيضًا في مسجد زيد بن حارثة بمنطقة الجبل الأخضر في مدينة عمان.

٣- لبنان

في مطلع عام ٢٠٠٣ أطلق وزير الداخليَّة اللبنانيُّ آنذاك إلياس المر صرخة نذير بشأن شباب لبنان، بسبب تفشي الظاهرة بينهم، داعيًا إلى التشدد في تطبيق القوانين تجاه عبدة الشيطان.

كما أعلن الوزير عن انتحار ١١ شخصًا سنة ٢٠٠٢ وقعوا في براثن هذه الجماعة التي كانت قد شهدت انتشارًا في السنوات الماضية، ولا تزال تتغلغل في المدن. كما أعلن عن نية وزارته إنشاء مكتب مكافحة «عبدة الشيطان».

ويقول اللبنانيُّون إنَّ عبدة الشيطان يعود ظهورهم في بلادهم إلى فترة الحرب الأهليَّة، وتحديدًا إلى عام ١٩٨٦، عندما قامت القوى الأمنية بمداهمة أحد الفنادق في منطقة جونيه بشمال بيروت، وألقت القبض على مجموعة منهم.

٤- البحرين

نقلت وكالة يو بي آي عن صحيفة الوطن السعوديَّة في ١٢/ ٤/ ٢٠٠٥ أن السلطات البحرينيَّة على وشك القبض على رئيس تجمع عبدة الشيطان في البحرين، بعد حصولها على معلومات عنه، عقب اكتشافها حفلات للشواذ في أحد فنادق العاصمة المنامة.

ونقلت الصحيفة عن طالب في المرحلة المتوسطة أنَّه تلقَّى دعوة إلى الحضور من جماعة مجهولة نظمت ٣ لقاءات منذ العام الماضي، في حين تجاوز أعداد الحضور ١٥٠ شخصًا من عبدة الشيطان، غالبيتهم تقل أعمارهم عن ١٥ عامًا.

وقال هذا الطالب بأنّه حضر لقاءاتهم مرتين، مصطحبًا كاميرا لتصوير الحفل، إلاّ أن سوء الإضاءة لم يمكنه من ذلك. وأشار إلى أن الحضور يبدءون بالرقص العاري، وتناول الخمور والمخدرات على وقع موسيقى صاخبة، إلى أن يدخل الجميع في حالة هيجان عامة تؤدي إلى الإغماء، يتخللها ممارسات شاذة لا أخلاقيّة.

٥- المغرب

بدأت تنتشر في المدن السياحيّة كالدار البيضاء والرباط ومراكش وفاس وأغادير والصويرة. وينظمون حفلات بشكل دوري، أما لقاءاتهم العاديّة فتتم داخل مقاهٍ يلتقون فيها سرًا، وقد يشاهدهم الناس منعزلين في ركن منها، وهم يتشحون بالسواد الذي يرمز للعوالم الشيطانية، ويتحدثون عن الموت بينما يدخنون الحشيش.

وفي بداية شهر آذار مارس ٢٠٠٣، كتبت الصحف عن اعتقال ١٤ شابًا أحدهم مصري الجنسية، وتم الحكم عليهم بالسجن والغرامة الماديّة. واستنكر أهالي الشباب الأحكام الصادرة ضدهم قائلين إن أبناءهم مجرد أشخاص مولعون بالموسيقى.

٦- الجزائر

نشرت وسائل الإعلام هناك بتاريخ ٣/ ٢/ ٢٠٠٢ تقريرًا إخباريًّا جاء فيه أنَّ مجموعة تلتقي كل ليلة في مقبرة مسيحيَّة في الجزائر العاصمة وبحوزتها أشرطة تتحدث عن القوى الشيطانيَّة، والقوى الخفية، وكانت تلك المجموعة تقدم قربانًا، عبارة عن ديك أو قط أسود، يذبحونه ويلطخون أجسادهم العارية من دمه، ثم يهمهمون بكلام غامض، ويدورون حول الدم المأخوذ من الحيوان الذي مزقوه قبل أن يبدءوا بتصرفاتهم الشاذة.

ونقل معد التقرير عن طالب جامعي جزائري قوله: «لا يهمني ما يقوله الناس عني، مشرك أم كافر أم ملحد... أنا أشعر براحة الضمير، وواثق من تصرفاتي».

وعن سبب انضمام هذا الشاب إلى عبدة الشيطان، أفاد بأن ذلك كان من خلال محاضرة عبر الإنترنت ألقاها شخص سويسري من أتباع هذه الطائفة.

٧- تركيا

كتبت إحدى الصحف في ٢٤/ ١/ ٢٠٠٢ عن القلق الذي تبديه السلطات تجاه تزايد حالات الانتحار من قبل بعض الفتيات المنتميات لعبدة الشيطان، فقد ألقت طالبة في المرحلة الثانوية نفسها من فوق جسر بوغازيجي إلى مياه مضيق البسفور، كما انتحرت طالبة أخرى تدرس في مدرسة أجنبيَّة خاصَّة في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠، وقد ذكرت صحيفة «زمان» التركيَّة اليوميَّة أن عدد عبدة الشيطان في تركيا يصل إلى ثلاثة آلاف.

٨- ماليزيا

اكتشفت السلطات الماليزية أول تواجد لعبدة الشيطان في عام ٢٠٠١، واعتقلت آنذاك ١٥٠ شخصًا، وفي بداية شهر ديسمبر/ كانون الأول سنة ٢٠٠٥، وفيما يبدو أنَّه إحياء لتنظيم عبدة الشيطان، تم القبض على ١٠٥ شباب، بينهم ٤ فتيات في عملية مداهمة لحفل موسيقي صاخب في قاعة بولاية نيجري سيمبيلان جنوب البلاد.

وتراوحت أعمار المجموعة بين ٢٠ و ٣٠ عامًا، ودلت الاختبارات التي أجريت عليهم أن ٣٠ منهم تعاطوا المخدرات.

وتقول وزيرة التنمية الاجتماعيَّة في ماليزيا زهرة سليمان: إنَّ هذه الطائفة تقوم بأعمال إلحاديَّة، وحرق الكتب الدينيَّة كالمصاحف، والقيام بسلوكيات غير عاديَّة.

وحظرت ماليزيا جميع أشكال موسيقى بلاك ميتال، وقال رئيس المجلس الوطني الإسلامي شكور حسين: رغم أنَّ بلاك ميتال مجرد شكل من أشكال الموسيقى، إلا أنَّ ثقافتها تدفع أنصارها إلى عبادة الشيطان والتمرد والقتل وتحض على الكراهية، وتدفعهم لممارسة شعائر مثل شرب دماء بشرية مخلوطة بدماء ماعز، أو إحراق نسخ من القرآن الكريم.

أهم وسائل انتشارها

١- تطور وسائل الاتصالات، خاصَّة وأنَّ شبكة الإنترنت هي الوسيلة الأهم لنشر أفكارهم، والتواصل بين الأتباع. ولهم على هذه الشبكة أكثر من ثمانية آلاف عنوان.

٢- تسارع وتيرة التطبيع بين الدولة اليهوديَّة، والعديد من الدول العربيَّة والإسلاميَّة، الأمر الذي أدى إلى ازدياد الخلطة بين مواطني هذه الدول وبين اليهود، خاصة في مصر، التي يفد إليها الكثير من اليهود، وبخاصة عبر منفذ طابا، الذي تحول إلى نقطة التقاء مهمَّة بين اليهود والمصريين، ولا يخفى هنا حرص اليهود على إفساد المسلمين، وصرفهم عن دينهم، ونشر الأفكار المنحرفة بينهم، ومنها أفكار عبادة الشيطان.

٣- ترويج الكُتَّاب اليساريين للأفكار المنحرفة في المجتمعات الإسلاميَّة. وقد اعتبر أن من إرهاصات فكر عبادة الشيطان في بلادنا، المحاضرة التي ألقاها في بيروت الشيوعي السوري د. صادق جلال العظم سنة ١٩٩٦ بعنوان «مأساة إبليس»، دعا فيها إلى رد الاعتبار لإبليس، والكف عن كيل السباب له والتعوذ منه، والعفو عنه، وطلب الصفح له، وهي المحاضرة التي ساقته إلى المحاكمة والتي تراجع أمامها لينجو من العقاب، وهو تراجع كاذب، وقد ضمنها من بعد كتابه «نقد الفكر الديني».

٤- تسخير كافة وسائل الإعلام والثقافة والفن، لنشر أفكار عبادة الشيطان، وجعلها مستساغة عند المسلمين، ومن ذلك نشر وسائل الإعلام الغربيَّة لأفلام تتحدث عن مصاصي الدماء، وأشخاص ذوي قدرات سحرية، ليغروا الشباب بامتلاكها إن وجدت، مثل فيلم الغراب

the crow، ومسلسل بافي، وإنجل وغيرها، وللأسف تساهم كثير من الفضائيات العربيّة في نشر مثل تلك الأعمال.

ومن سبل الدعاية لهذا الفكر بعض أنواع الموسيقى، مثل موسيقى Black Metal، وهي موسيقى صاخبة تعتمد على الجيتار الإليكتروني، ومن أشهر الفرق التي تتغنى بعظمة الشيطان وتدعو إلى فكره، فرقة Dimmu Borgir وفرقة slayer، وأشهر مغنٍ يدعو إلى هذا الفكر يدعى مارلين مانسون، الذي ألّف كتاب «الطريق الخارج من جهنم»، ويخرج أغانيه بأسلوب فلسفيّ يثير غرائز الشباب، ويدعوهم للإعجاب بهذا الفكر. ويقول علماء النفس أن موسيقى بلاك ميتال تصنع نوعًا من الغياب الذهنيّ.

كما ألّف أتباع هذه الطائفة الكتب الكثيرة للدعوة إلى باطلهم، منها: «صمت إبليس» تأليف د. لورانس بازدر، و«إبليس تحت الأرض»، و«جاء لتحرير الرهائن» و«الطقوس الشيطانيّة» و«الساحر الشيطاني»، و«مذكرة الشيطان».

أفكارهم وطقوسهم وممارساتهم

١- اعتقادهم بأنَّ الشيطان ظُلم من قبل الله -حاشا لله- عندما طرده من الجنة لمّا رفض السجود لآدم، لذلك فإنَّهم يعتبرون أنَّ الشيطان يستحقُّ التقدير، وهو رمز القوة والإصرار. كما يعتبرون الشيطان القوة العظمى التي تحرك الحياة والبشر.

٢- إطلاق العنان لممارسة الجنس والشهوات وتعاطي المخدرات والخمور.

٣- من طقوسهم: ارتداء الثياب السوداء، وإطالة الشعور، ورسم وشم الصليب المعقوف على صدورهم وأذرعهم، أو النجمة السداسية، ولبس قلادة سوداء عبارة عن نجمة خماسية يتوسطها رأس شيطان بقرنين ملتويين إلى الخلف.

٤- يفضلون الاجتماع لأداء طقوسهم في أماكن مهجورة أو نائية أحيانًا، ويرسمون على جدرانها أشكالًا مخيفة كالأفاعي والجماجم، أو أشكالًا غريبة تدمج فيها أكثر من حيوان أو هيئة.

٥- يرافقهم في هذه الجلسات الموسيقى الصاخبة Hard Rock، ويرددون بعض الكلمات على شكل أغانٍ ينشد فيها الموت والانتحار، إضافة إلى تعاطي المخدرات والمسكرات بشكل مبالغ، وفي مثل هذه الحالات قد يلعقون دماء بعض، أو يمزقون قطة أو كلبًا، أو ديكًا ويختارون اللون الأسود من الحيوانات، ويمزقونه وهو حي يعبثون بدمائه.

٦- إقدام بعضهم على الانتحار، لأنَّ هذا من الحرية التي يزعمونها، إذ يقولون إنَّ للإنسان الحرية أن يأكل ما يشاء، ويلبس ما يشاء، ويموت متى يشاء! والانتحار عندهم انتقال إلى عالم السعادة الحقيقية، وأشبه بمحطة من محطات كثيرة يتدرج فيها الإنسان.

٧- نبش القبور وإخراج جثث الموتى، ويتراقص كبيرهم فوق الجثة التي يعثرون عليها. ويقولون إنَّهم يفعلون ذلك لتقسية قلوبهم، ولمعاينة العدم والشعور به محسوسًا، والتدريب على

ممارسة القتل دون أن تطرف لهم عين.

٨- اعتبارهم أنَّ الأخلاق تكرس الضعف، وحماية الضعفاء، وهم إنَّما يريدون أن تقوم العلاقات بين الناس وفق اللَّذة والمنفعة، ويعتبرون الأخلاق عنصر تعويق، لا عامل دفع وترقية.

الوصايا التسع

وهي مجموعة من الوصايا والمبادئ التي تعتبر من ثوابتهم:

١- أطلق العنان لأهوائك وانغمس في اللَّذَّة.

٢- اتبع الشيطان، فهو لن يأمرك إلَّا بما يؤكد ذاتك ويجعل وجودك وجودًا حيويًّا.

٣- الشيطان يمثل الحكمة والحيويَّة غير المشوَّهة، وغير الملوَّثة، فلا تخدع نفسك بأفكار زائفة سرابيَّة الهدف.

٤- أفكار الشيطان محسوسة ملموسة ومشاهدة، ولها مذاقٌ، وتفعل بالنفس والجسم فعل الترياق، والعمل بها فيه الشفاء لكل أمراض النفس.

٥- لا ينبغي أن تتورط في الحبِّ، فالحبُّ ضعف وتخاذل وتهافت.

٦- الشيطان يمثل الشفقة لمن يستحقُّونها بدلًا من مضيعة الحبِّ للآخرين وجاحدي الجميل.

٧- انتزع حقوقك من الآخرين، ومن يضربك على خدك، فاضربه بجميع يديك على جسمه كلِّه.

٨- لا تحب جارك، وإنما عامله كأحد الناس العاديِّين.

٩- لا تتزوج، ولا تنجب، فتتخلص من أن تكون وسيلة بيولوجية للحياة وللاستمرار فيها، وتكون لنفسك فقط[1].

حزب الوفد

التعريف:

الوفد حزبٌ سياسيٌّ شعبيٌّ، ليس له توجه ديني معين، تشكل في مصر سنة ١٩١٨م، وكان حزب الأغلبية قبل ثورة ٢٣ يوليو المصرية، التي أنهت عهد الملكية، وحولت البلاد إلى النظام الجمهوري. ولم يعد الحزب إلى نشاطه السياسي إلا في عهد الرئيس أنور السادات، بعد سماحه للتعددية الحزبية. وقد اتخذ لنفسه اسم حزب الوفد الجديد سنة ١٩٧٨م، ويعد الآن من أكبر أحزاب المعارضة في مصر.

---

(١) مجلة الراصد العدد ٣١، ص(٧- ١٩)، عبدة الشيطان وحركات انحرافية أخرى، حسن الباش، بدعة عبادة الشيطان، د. أسعد السحمراني، إظهار الحق في الأديان والفرق، الدكتور محمد مختار المفتي، موسوعة الأديان الميسرة، دار النفائس.

تاريخ حزب الوفد

خطرت لسعد زغلول فكرة تأليف الوفد المصري للدفاع عن قضية مصر سنة ١٩١٨م، إذ دعا أصحابه إلى مسجد وصيف للتحدث فيما كان ينبغي عمله للبحث في المسألة المصرية بعد الهدنة (بعد الحرب العالمية الأولى).

تشكل الوفد المصري الذي ضم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وأحمد لطفي السيد وآخرين، وأطلقوا على أنفسهم (الوفد المصري).

وقد جمعوا توقيعات من أصحاب الشأن، وذلك بقصد إثبات صفتهم التمثيلية وجاء في الصيغة: نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات: سعد زغلول و. . . في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل التي تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى.

واعتقل سعد زغلول ونفي إلى مالطة هو ومجموعة من رفاقه في ٨ آذار (مارس) ١٩١٩م فانفجرت ثورة ١٩١٩م في مصر التي كانت من أقوى عوامل زعامة سعد زغلول والتمكين لحزب الوفد.

وبقي حزب الوفد الذي هو حزب الأغلبية أو كما أطلق عليه الحزب الجماهيري الكبير يتولى الوزارة معظم الوقت في مصر منذ عام ١٩٢٤م وحتى عام ١٩٥٢م.

ومن شخصيات حزب الوفد الذين تولوا الوزارة: عبد الخالق ثروت، ومصطفى النحاس باشا الذي تولى مرات عديدة رئاسة الوزارة في مصر، حتى ألغت ثورة يوليو ١٩٥٢م سائر الأحزاب السياسية المصرية.

وكان فؤاد سراج الدين باشا عضوًا في حزب الوفد سنة ١٩٤٦م، ثم سكرتيرًا عامًّا للحزب سنة ١٩٤٨م، ثم اختير وزيرًا بوزارات الزراعة والداخلية والشئون الاجتماعية، ثم وزيرًا للداخلية والمالية معًا سنة ١٩٥٠م.

ثم عمل فؤاد سراج الدين على تسجيله تحت اسم حزب الوفد الجديد سنة ١٩٧٨م ليشارك في الحياة السياسية، وأصبح رئيسًا له حتى رحيله.

وحاز حزب الوفد على ٥٧ مقعدًا في مجلس الشعب بعد انتخابات عام ١٩٨٤م، و٢٥ مقعدًا عام ١٩٨٧م، وقاطع انتخابات عام ١٩٩٠م، وعلى ستة مقاعد عام ١٩٩٥م، وثلاثة مقاعد في انتخابات عام ٢٠٠٠م.

ويترأس الحزب نعمان جمعة، وهو أول رئيس للحزب لا يحمل لقب باشا.

العقائد والأفكار

من مبادئ الوفد المعلنة السياسية والاجتماعية:

- تحقيق استقلال البلاد وحريتها وتحقيق الوحدة بين مصر والسودان.
- التمسك بميثاق الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية.
- التمسك بعروبة فلسطين.
- العمل على رفاهية الشعب وترقيته عن طريق النظام الليبرالي.
- دعم النظام الدستوري الديمقراطي.

وهكذا نرى أنه ليس للدين أي مكانة في مبادئ الحزب.

أما المبادئ التي يعلنها الحزب فتبقى في أكثر الأحيان حبرًا على ورق، إذ تبقى المصالح الحزبية والشخصية هي المحرك الأساسي في الحزب.

- يعد سعد زغلول المؤسس الأول لحزب الوفد علمانيَّ النزعة ومن أشد أنصار تحرير المرأة بالمعنى المعروف في الغرب.
- الحزب لا يعادي التوجه الإسلامي كما أنه لا يلتزم به فيما يصدر عن قيادته من قرارات[1].

الناصريَّة

التعريف:

الناصريَّة حركة قوميَّة عربيَّة، نشأت في ظل حكم جمال عبد الناصر (رئيس مصر من عام ١٩٥٢م. ١٩٧٠م) واستمرت بعد وفاته، واشتقت اسمها من اسمه، وتبنت الأفكار التي كان ينادي بها وهي: الحرية والاشتراكية والوحدة، وهي نفس أفكار الأحزاب القومية اليسارية العربية الأخرى.

تاريخ الناصرية

أول من أطلق لفظ (الناصرية) محمد حسنين هيكل، الصحفي الذي رافق عبد الناصر إبان حكمه، وأصبح له شهرة في العالم العربي، وذلك بمقال له في جريدة الأهرام في ١٤/ ١/ ١٩٧٢م.

وجاء بعده كمال رفعت وأصدر في عام ١٩٧٦م كتيبًا بعنوان ناصريون، ذكر فيه مبادئ الناصرية وأهدافها.

وبلور الدكتور عبد القادر حاتم الذي كان وزيرًا في عهد عبد الناصر المذهب الناصري في تأبينه لعبد الناصر، كما جاء في جريدة الأخبار (٢/ ١٠/ ١٩٧٠م) حينما قال: أصبح في العالم اليوم مذهب سياسيٌّ متميز ينتسب إلى عبد الناصر.

وقد وافق القضاء المصري على إعلان الناصرية كحزب باسم (الحزب الديمقراطي الناصري)

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٥٠- ٤٥٢)، الموسوعة العربية العالمية.

وذلك في يوم الاثنين ١٨/ شوال/ ١٤١٢هـ (٢٠/ ٤/ ١٩٩٢م) برئاسة ضياء الدين داود المحامي، وعضو مجلس الشعب المصري.

وهناك من قادة الدول العربية -مثل معمر القذافي رئيس الجماهرية الليبية- من يصرح بأنه يسير على نهج عبد الناصر.

نظرة تاريخية على مؤسس الناصرية:

جمال عبد الناصر: كان يتردد على مركز الإخوان المسلمين لسماع حديث الثلاثاء منذ عام ١٩٤٢م. (مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف).

وفي أوائل عام ١٩٤٦م بايع الإخوان المسلمين على التضحية في سبيل الدعوة الإسلامية مجموعةً من الضباط منهم جمال عبد الناصر. (مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف).

وبدأت علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية منذ آذار (مارس) ١٩٥٢م أي قبل قيام الثورة بأربعة أشهر، كما اعترف بذلك أحد رفاقه وهو خالد محيي الدين زعيم التنظيم اليساري في مصر، وهو أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، يقول: إن عبد الناصر كانت له علاقة بالمخابرات الأمريكية منذ مارس ١٩٥٢م أي قبل قيام الثورة بأربعة أشهر.

وقد تحدث اللواء محمد نجيب أول رئيس لمصر بعد الثورة عن هذه العلاقة في مذكراته، وأنهم هم الذين كانوا يرسمون له الخطط الأمنية ويدعمون حرسه بالسيارات والأسلحة الجديدة.

وفي ٢٧ يوليو ١٩٥٤م عقد اتفاقية الجلاء مع بريطانيا وعارضه فيها الإخوان المسلمون.

وفي ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤م أعفي محمد نجيب من منصبه كرئيس للجمهورية ليصبح عبد الناصر فرعون مصر الجديد -على حد تعبير رفاقه- كمال الدين حسين وحسن التهامي.

وفي ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤م (١٢ ربيع الآخر ١٣٧٤هـ) نفذ عبد الناصر حكم الإعدام في ستة من قادة جماعة الإخوان المسلمين منهم عبد القادر عودة مؤلِّف التشريع الجنائي في الإسلام. فضلاً عن الاعتقالات التي شملت الآلاف من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، وذلك بعد اتهامهم بالتآمر على قتله في حادثة المنشية بالإسكندرية (في نفس العام) والتي قيل بأنها مسرحية دبرها عبد الناصر مع المخابرات المركزية للتخلص من الإخوان المسلمين الذين كانوا يشكلون عقبة كبيرة لحكمه الفردي البعيد عن الدين، ولتلميع شخصيته كزعيم وطني حتى تتعلق به الجماهير.

وفي عام ١٩٥٦م كان الاعتداء الثلاثي على مصر من قبل انجلترا وفرنسا وإسرائيل، ولم ينسحب المعتدون إلا بعد استيلاء إسرائيل على شرم الشيخ في سيناء، وجزيرة تيران في البحر الأحمر.

وشارك في الحرب اليمنية: التي قتل فيها الآلاف من الشعب المصري المسلم، وخسرت فيها الملايين.

وفي عام ١٩٦٦م أقدم عبد الناصر على إعدام ثلاثة من كبار جماعة الإخوان المسلمين منهم سيد

قطب مؤلّف في ظلال القرآن، وكان قد اعتقل آلافا منهم في عام ١٩٦٥م.

وفي نفس العام صدر القرار الجمهوري (نيسان ـ أبريل ـ ١٩٦٥م) بالعفو الشامل عن جميع العقوبات الأصلية والتبعية ضد الشيوعيين في مصر، ودخل الماركسيون في جميع مجالات الحياة في مصر بعد ذلك.

وفي عام ١٩٦٧م كانت النكبة الثانية للعرب والمسلمين، فقد احتلت دولة اليهود في فلسطين المحتلة، ثلاثة أمثال ما اغتصبوه عام ١٩٤٨م (سيناء والجولان والضفة الغربية) وسقطت القدس بلا قتال.

يقول حسن التهامي وهو من أقرب المقربين لعبد الناصر(في الأهرام ١٩٧٧/٨/٥م): إن عبد الناصر هو الذي أمر القوات المصرية بالانسحاب إلى الضفة الغربية من قناة السويس عام ١٩٦٧م. وأن عبد الناصر هو الذي دس السم لعبد الحكيم عامر، في بيت عبد الناصر نفسه. ويقول حسين الشافعي وهو أحد الضباط الأحرار الذين قاموا بالانقلاب العسكري سنة ١٩٥٢م (في محاضرة له في جمعية الشبان المسلمين): انقلوا عني: أن الجيش المصري لم يحارب في معركة ١٩٦٧م بل هُزم بسبب الإهمال والخيانة، وأقول الخيانة وأضع تحتها عشرة خطوط.

وتوفي عبد الناصر سنة ١٩٧٠م بعد أن غرقت مصر في الديون وبعد أن خرّب مصر سياسيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيًّا، وملأ العالم العربي بالشعارات الجوفاء.

من مبادئ الناصرية

- الحرية والاشتراكية والوحدة، للقضاء على مشكلات العالم العربي الأربعة: وهي الاستعمار، والتخلف، والطبقية، والتجزئة بين أقطار العالم العربي. (وهي نفسها أفكار حزب البعث القومي اليساري: الوحدة، الحرية، الاشتراكية).

- الحرية المطلوبة هي حرية الناصريين وليست حرية الشعب بكامله، إذ إن الناصرية القديمة (في عهد عبد الناصر نفسه) رفعت شعارات لا حرية لأعداء الحرية، وهي تعتقد بأن كل معارض لها من أعداء الحرية.

- الاشتراكية أساس التقدم الاقتصادي، وهي أساس بناء مجتمع الكفاية والعدل، والمجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية كما يزعمون.

- ونادت الناصرية بتوزيع الثروة الوطنية لتحقيق التغيير الاجتماعي.

- نادت بالاشتراكية العلمية، وهي خليط من الاشتراكية الماركسية والليبرالية الغربية والأفكار والوطنية مع شيء من الأفكار الدينية.

- الوحدة هي أساس القوة العربية، والعروبة أو القومية العربية هي أساس قيام الوحدة. وأغفلت الناصرية رباط العقيدة التي لا تؤمن الشعوب العربية إلا بها ولا تجتمع إلا حول رايتها.

وهي أساس وحدة العرب في الصدر الأول.

- نادت الناصرية بالديمقراطية، ومفهوم الديمقراطية لديها هو ديمقراطية التحالف السياسي، تبعًا لتحالف القوى الاجتماعية، أو كما وصفها محمد حسنين هيكل بديمقراطية الموافقة: أي أن الزعيم الحاكم ينفرد بالحكم وبإصدار القرارات المصيرية... ودور الشعب يقتصر على تأييد هذه القرارات. لأنه يفترض في الزعيم العصمة والصواب والحكمة وتجسيد إرادة الشعب وحقوق التعبير عنها.

- العلمانية أو اللادينية من أسس الناصرية، فليس للدين علاقة بالمجتمع وقوانينه ونظام حياته، وإنما هو طقوس تعبدية في المسجد فحسب.

النفوذ وأماكن الانتشار

نشأت الناصرية في مصر وانتشرت في باقي البلاد العربية، وإن كان أتباعها في البلاد العربية قلة من المتنفعين، وقد طالب بعض الذين تعاونوا مع عبد الناصر إبان حكمه بتشكيل حزب ناصري في مصر وقد سمح لهم بذلك.

من نقد الناصرية

- إنَّ الناصرية تتجسد في حفنة من الذين تعاونوا مع عبد الناصر إبان حكمه وأظهروا الولاء لشخصه فلما سمح بالتعددية الحزبية في مصر اتفقوا على التجمع باسم القومية العربية وتحت لواء الحرية والاشتراكية والوحدة دون تحديد واضح لمضمون هذه الأهداف. ولكنهم على أية حال يدينون بالولاء لعبد الناصر ويعتبرونه رائدهم مشيدين بمواقفه الإيجابية بحكم أنه أنهى الملكية الفاسدة في مصر وأمم قناة السويس، وأنهى الاحتلال البريطاني، وبنى السد العالي، وحرر اليمن الشمالي، وحقق مكاسب للعمال والفلاحين. ولكنهم يتغافلون عن سلبيات حكمه الفظيعة، التي تتمثل في إعلان الحرب على الاتجاه الإسلامي في الداخل والخارج، وتعذيب حملة لوائه عذابًا نكرًا، وتقتيل فطاحل علمائه من أمثال عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهم بعد محاكمات صورية.

- كما دأب على الوقوف دائمًا في صف أعداء الإسلام ومناصرة سياستهم، فأيد نهرو في مواقفه الجائرة ضد باكستان، وأيد نيريري الذي قام بمذبحة ضد مسلمي زنجبار، وأيد مكاريوس الذي كافح من أجل إضاعة حقوق المسلمين في قبرص. وأحيا جاهلية القرن العشرين بإثارة نعرة القومية العربية.

- ورغم أنه في أول حكم الثورة كان قد جعل الديمقراطية أحد مبادئها، إلا أنه لم يسمح ببزوغ فجرها، ووأدها في مهدها، وقضى على كافة الأحزاب المطالبة بها، وأنشأ الحزب الشمولي، وألغى الدستور، وجمع السلطة كلها في يده، وظل طوال حكمه مثال الحاكم المستبد الذي يضرب خصومه بيد من حديد، دون أدنى مراعاة للقيم الأخلاقية ويفتعل المؤامرات للقضاء عليهم قضاء مبرمًا.

وانتشر في عهده التحلل الأخلاقي والتفكك الأسري والتزلف النفعي والفساد، وقام بإلغاء الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية، وأضعف كيان الأزهر، وأصبح للمخابرات والمباحث العامة والأمن القومي السيطرة على كل المؤسسات في الدولة، وقاصمة الظهر في هذا كله أنه عرَّض الجيش المصري لهزيمة ساحقة لم يعرف لها التاريخ مثيلًا، وضاعت بسببها سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة وهضبة الجولان والقدس الشريف، وتمكنت إسرائيل من توسيع رقعتها بما لم تكن تحلم به.

- ويعد مسئولاً عن انفصال السودان عن مصر، وعن حرب اليمن، وعن السماح لإسرائيل باستعمال مضيق تيران.

- والمؤمل، إذا تجملت الناصرية -بعد أن سمح لها من جديد بتشكيل حزب سياسي في مصر- أن يفتح أنصارها عيونهم على هذه الحقائق المؤلمة، ويصححوا مسارها نحو فهم جديد مستند للإسلام، كأهم عنصر إيجابي في تحقيق حكم نظيف قوامه العدالة الاجتماعية، وإنجاز الحرية والشورى كأساس متين لتجمع المسلمين ووحدتهم. ولعلهم بذلك يخفون وجه الناصرية القبيح، ويقضون على آثارها المتعفنة، ورموزها القذرة، ولهم في ماضيهم عبرة وفيما حدث في الكويت تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[١].

حزب البعث العربي الاشتراكي

التعريف:

حزب البعث حزبٌ قوميٌّ علمانيٌّ، يدعو إلى الانقلاب الشامل في المفاهيم والقيم العربية لصهرها وتحويلها إلى التوجه الاشتراكي، شعاره المعلن (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وهي رسالة الحزب، أما أهدافه فتتمثل في الوحدة والحرية والاشتراكيَّة.

تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي

في سنة ١٩٣٢م عاد من باريس قادمًا إلى دمشق كل من ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وذلك بعد دراستهم العالية محملين بأفكار قومية وثقافة أجنبية.

عمل كل من عفلق والبيطار في التدريس، ومن خلاله أخذا ينشران أفكارهما بين الزملاء والطلاب والشباب.

وأصدر التجمع الذي أنشأه عفلق والبيطار مجلة الطليعة مع الماركسيين سنة ١٩٣٤م وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم (جماعة الإحياء العربي).

أخذ التجمع شكل تنظيم سنة ١٩٤٢م، ولكن الحزب تأسس بشكل رسمي وانطلق بشكل عملي

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٨٥- ٤٩٠).

نضالي وتنظيم حزبي كامل في أبريل ١٩٤٧م تحت اسم (حزب البعث العربي)، وقد كان من المؤسسين: ميشيل عفلق، صلاح البيطار، جلال السيد، زكي الأرسوزي، كما قرروا إصدار مجلة باسم البعث.

وفي سنة ١٩٥٣م اندمج كل من (حزب البعث) و(الحزب العربي الاشتراكي) الذي كان يقوده أكرم الحوراني في حزب واحد أسمياه (حزب البعث العربي الاشتراكي).

دور حزب البعث في سوريا

كان للحزب دور فاعل في الحكومات التي طرأت على سوريا بعد الاستقلال سنة ١٩٤٦م وهذه الحكومات هي:

١- حكومة شكري القوتلي: من ١٩٤٦م وحتى ٢٩/٣/١٩٤٩م.

٢- حكومة حسني الزعيم: استلم السلطة عدة شهور من سنة ١٩٤٩م.

٣- حكومة اللواء سامي الحناوي: بدأ حكمه وانتهى في نفس عام ١٩٤٩م.

٤- حكومة أديب الشيشكلي: استمر حكمه حتى سنة ١٩٥٤م.

٥- حكومة شكري القوتلي: عاد إلى الحكم مرة ثانية واستمر إلى توقيع اتفاقية الوحدة مع مصر سنة ١٩٥٨م.

٦- حكومة الوحدة برئاسة جمال عبد الناصر: ١٩٥٨- ١٩٦١م.

٧- حكومة الانفصال برئاسة الدكتور ناظم القدسي: وقد دام الانفصال من ٢٨/٩/١٩٦١م وحتى ٨/٣/١٩٦٣م. وقد قاد حركة الانفصال عبد الكريم النحلاوي.

ومنذ ٨/٣/١٩٦٣م وإلى اليوم فقد وقعت سوريا تحت حكم حزب البعث، وقد مرت هذه الفترة بعدة حكومات بعثية هي:

- حكومة قيادة الثورة: ١٩٦٣م وفيها برز صلاح البيطار كرئيس للوزراء.

- حكومة أمين الحافظ: من ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٦م.

- حكومة نور الدين الأتاسي: ١٩٦٦- ١٩٧٠م، حيث لعبت القيادة القطرية للحزب دورًا بارزًا في الحكم، وقد برز في هذه الفترة كل من صلاح جديد الذي عمل أمينًا عامًّا للقيادة القطرية وحافظ الأسد الذي عمل وزيرًا للدفاع.

- حكومة حافظ الأسد: من سنة ١٩٧٠م وإلى يومنا هذا.

ومن الشخصيات السورية البارزة التي ظهرت في تاريخ الحزب:

- سامي الجندي: تقلد منصب وزير الإعلام بعد انقلاب ١٩٦٣م.

- حمود الشوفي: عمل سكرتيرًا عامًّا للقيادة القطرية الأولى إلا أنه انشق وجماعته عن الحزب في

آذار سنة ١٩٦٤م، وهو الآن في العراق.

- منيف الرزاز: (أردني) عمل سكرتيرًا عامًا للقيادة القوميَّة للحزب من نيسان ١٩٦٥م إلى شباط ١٩٦٦م.

- مصطفى طلاس: ولد سنة ١٩٣٢م، درس في الكلية العسكرية بحمص، انضم إلى الحزب في سنة ١٩٤٧م وعمل رئيسًا لمحكمة الأمن القومي للمنطقة الوسطى من ١٩٦٣م، ورئيس أركان اللواء المدرع الخامس من ١٩٦٤م- ١٩٦٦م ورئيس الأركان للقوات المسلحة من شباط ١٩٦٨م ونائب وزير الدفاع من ١٩٦٨- ١٩٧٢م وفي آذار ١٩٧٣م وصار وزيرًا للدفاع.

- اللواء يوسف شكور: خلف مصطفى طلاس في رئاسة الأركان وهو من منطقة حمص.

- اللواء ناجي جميل: من دير الزور، كان قائدًا لسلاح الجو من تشرين الثاني ١٩٧٠م وحتى آذار ١٩٧٨م.

- سليم حاطوم: حاول أن يقود انقلابًا عام ١٩٦٦م لكنه فشل في ذلك. وقد أعدم في عام ١٩٦٧م.

- زكي الأرسوزي: (من لواء إسكندرون) مؤسس مع ميشيل عفلق ومنافس له.

- شبلي العيسمي: ولد عام ١٩٣٠م، عمل وزيرًا للإصلاح الزراعي ثم وزيرًا للمعارف، ثم وزيرًا للثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٣- ١٩٦٤م ونائبًا للأمين العام لحزب البعث ١٩٦٥م.

- عبد الكريم الجندي: من أنصار صلاح جديد، انتهى منتحرًا عام ١٩٦٩م.

- سليمان العيسى: (من لواء إسكندرون) منظّر ومفكّر وشاعر.

- أحمد الخطيب: استلم رئاسة الجمهورية من تشرين الثاني ١٩٧٠م واستقال في شباط ١٩٧١م وهي الفترة الانتقالية بين حكومة نور الدين الأتاسي وحكومة حافظ الأسد، وقد كان عضو القيادة القطرية الموسعة من ١٩٦٥م كما استلم رئاسة مجلس الشعب لفترة قصيرة.

- يوسف زعين: مولود في البوكمال ١٩٣١م طبيب، عمل وزيرًا للإصلاح الزراعي ١٩٦٣- ١٩٦٤م، وسفيرًا في بريطانيا، وفي ١٩٦٥م انتخب عضوًا في القيادة القطرية، ومن شباط ١٩٦٦م إلى تشرين الأول ١٩٦٨م، كان رئيساً للوزراء حتى عام ١٩٧٠م.

- جلال السيد: عضو مؤسس في حزب البعث وهو من مدينة دير الزور وقد ترك الحزب لكنه بقي نشيطاً في السياسة السورية.

- عبد الحليم خدَّام: ولد ١٩٣٢م في بانياس، خريج كلية الحقوق بدمشق، تنقل في عدة وظائف، حيث عمل محافظاً لمدينة حماة ومحافظًا لمدينة القنيطرة ومحافظًا لمدينة دمشق ١٩٦٤م ووزيرًا للاقتصاد ١٩٦٩م ووزيرًا للخارجية من ١٩٧٠م وهو عضو القيادة القطرية منذ عام ١٩٦٩م وقد ارتقى عام ١٩٨٤م ليكون نائب رئيس الجمهورية للشئون السياسية.

- حافظ الأسد: ولد بالقرداحة من قرى اللاذقية سنة ١٩٣٠، تخرج في الكلية العسكرية بحمص ١٩٥٥م، عمل قائدًا لقاعدة الضمير الجوية ١٩٦٣م، وقائدًا لسلاح الطيران ١٩٦٤م، انضم إلى المجلس الوطني لقيادة الثورة ١٩٦٥م، انضم إلى صلاح جديد في انقلاب ١٩٦٦م، وصار وزيرًا للدفاع من ١٩٦٦م إلى ١٩٧٠م. ومن تشرين الثاني ١٩٧٠م صار رئيسًا للجمهورية بعد قيادته الحركة التغييرية التي أوصلته إلى السلطة.

- زهير مشارقة من حلب، عين نائب رئيس الجمهورية لشئون الحزب.

استيلاء حزب البعث على ناصية الحكم في العراق:

في الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٥٨م دخل لواء بقيادة عبد السلام عارف إلى بغداد قادمًا من الأردن، واستولى على محطة الإذاعة، وأعلن الثورة على النظام الملكي، وقتل الملك فيصل الثاني وولي عهده عبد الإله ونوري السعيد وأعوانه وأسقط النظام الملكي، وبذلك انتهى عهد الملك فيصل، ودخل العراق دوامة الانقلابات العسكرية.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٨م أي بعد عشرة أيام من نشوب الثورة وصل ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث وزعيمه إلى بغداد وحاول إقناع أركان النظام الجديد بالانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة (سوريا ومصر) ولكن الحزب الشيوعي العراقي أحبط مساعيه ونادى بعبد الكريم قاسم زعيماً أوحد للعراق.

وفي اليوم الثامن من شهر فبراير لعام سنة ١٩٦٣م قام حزب البعث بانقلاب على نظام عبد الكريم قاسم وقد شهد هذا الانقلاب قتالًا شرسًا دار في شوارع بغداد، وبعد نجاح هذا الانقلاب تشكلت أول حكومة بعثية، وسرعان ما نشب خلاف بين الجناح المعتدل والجناح المتطرف من حزب البعث فاغتنم عبد السلام عارف هذه الفرصة وأسقط أول حكومة بعثية في تاريخ العراق في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٣م، وعين عبد السلام عارف أحمد حسن البكر أحد الضباط البعثيين المعتدلين نائبًا لرئيس الجمهورية.

وفي شهر فبراير سنة ١٩٦٤م أوصى ميشيل عفلق بتعيين صدام حسين عضوًا في القيادة القطرية لفرع حزب البعث العراقي.

وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٦٦م قام حزب البعث العراقي بالتحالف مع ضباط غير بعثيين بانقلاب ناجح أسقط نظام عارف.

وفي اليوم الثلاثين من شهر يوليو عام ١٩٦٨م طرد حزب البعث كافة من تعاونوا معه في انقلابه الناجح على عارف، وعين أحمد حسن البكر رئيسًا لمجلس قيادة الثورة ورئيسًا للجمهورية وقائدًا عامًا للجيش، وأصبح صدام حسين نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة ومسئولًا عن الأمن الداخلي.

وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠م تم اغتيال الفريق حردان التكريتي في مدينة الكويت، وكان من أبرز أعضاء حزب البعث العراقي وعضوًا في مجلس قيادة الثورة ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرًا للدفاع.

وفي شهر نوفمبر من عام ١٩٧١م تم اغتيال السيد فؤاد الركابي وكان المنظّر الأول للحزب وأحد أبرز قادته في العراق وقد تم اغتياله داخل السجن.

وفي ٨ يوليو سنة ١٩٧٣م جرى إعدام ناظم كزار رئيس الحكومة وجهاز الأمن الداخلي وخمسة وثلاثين شخصًا من أنصاره وذلك في أعقاب فشل الانقلاب الذي حاولوا القيام به.

وفي السادس من شهر مارس عام ١٩٧٥م وقّعت الحكومة البعثية العراقية مع شاه إيران الاتفاقية المعروفة باتفاقية الجزائر وقد وقعها عن العراق صدام حسين وتقضي الاتفاقية المذكورة بأن يوافق العراق على المطالب الإقليمية للشاه في مقابل وقف الشاه مساندته للأكراد في ثورتهم على النظام العراقي.

وفي شهر أكتوبر لعام ١٩٧٨م طردت الحكومة البعثية الخميني من العراق وقامت في شهر فبراير عام ١٩٧٩م الثورة الخمينية في إيران.

وفي شهر يونيو عام ١٩٧٩م أصبح صدام حسين رئيسًا للجمهورية العراقية بعد إعفاء البكر من جميع مناصبه وفرض الإقامة الجبرية عليه في منزله.

وفي يوليو سنة ١٩٧٩م قام صدام حسين بحملة إعدامات واسعة طالت ثلث أعضاء مجلس قيادة الثورة وأكثر من خمسمائة عضو من أبرز أعضاء حزب البعث العراقي.

وفي اليوم الثامن من شهر أغسطس من العام نفسه أقدم صدام حسين على إعدام غانم عبد الجليل وزير التعليم، ومحمد محجوب وزير التربية، ومحمد عايش وزير الصناعة، وصديقه الحميم عدنان الحمداني، والدكتور ناصر الحاني سعيد، ثم قتل مرتضى سعيد الباقي تحت التعذيب، وقد سبق لكل من الأخيرين أن شغلا منصب وزير الخارجية، وقد بلغ عدد من أعدمهم صدام حسين خلال أقل من شهر واحد ستة وخمسين مسئولًا حزبيًّا، ولم يبق على قيد الحياة من الذين شاركوا في انقلاب عام ١٩٦٨م سوى عزت إبراهيم الدوري وطه ياسين رمضان وطارق حنا عزيز.

وفي اليوم التاسع من شهر إبريل عام ١٩٨٠م قام صدام حسين بإعدام محمد باقر الصدر أحد أبرز علماء الشيعة وأخته زينب الصدر المعروفة باسم (بنت الهدى).

وفي يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٨٠م شن صدام حسين حربه على إيران التي أسفرت عن سقوط ما يقارب نصف المليون من أزاهير شباب العراق فضلاً عن سبعمائة ألف من المعاقين والمشوهين، إضافة إلى نفقات الحرب التي تجاوزت المائتي ألف مليون من الدولارات، وكذلك تجميد كل تنمية طوال مدة زمنية تجاوزت الثماني سنوات، خرج صدام بعد كل هذه التضحيات ليعلن للعالم أن حربه مع إيران كانت خطأ، وأن الحق كل الحق في العودة إلى الاتفاقية المبرمة بينهما -اتفاقية الجزائر-.

وفي أثناء حربه مع إيران أنزل بالمواطنين الأكراد أبشع أنواع القتل والبطش والتنكيل والإبادة

باستخدام الغازات السامة والكيماوية وقنابل النابالم الحارقة.

وفي ٢ أغسطس سنة ١٩٩٠م (١١ محرم سنة ١٤١١هـ) قام باجتياح دولة الكويت واستباحة أرضها وطرد شعبها وتخريب منشآتها، إلى أن تم تحريرها.

قامت أمريكا أخيرًا في ٢٠٠٣م بإسقاط صدام ونظامه البعثي، واحتلت العراق، ونصبت حكومة علمانية موالية لها؛ وسط مقاومة عظيمة من الشعب العراقي السني المسلم.

سلوكيات ومبادئ حزب البعث العراقي:

- نادى مؤسس الحزب بضرورة الأخذ بنظام الحزب الواحد؛ لأنه كما يقول: إن القدر الذي حمّلنا هذه الرسالة خولنا أيضاً حق الأمر والكلام بقوة والعمل بقسوة، لفرض تعليمات الحزب، ومن ثم لا يوجد أي مواطن عراقي يتمتع بأبسط قدر من الحرية الشخصية أو السياسية، فكل شيء في دولة حزب البعث العراقي يخضع لرقابة بوليسية صارمة، تشكل دوائر المباحث والمخابرات والأمن قنوات الاتصالات الوحيدة بين المواطنين والنظام.

- تركيز سياسة الحزب على قطع كافة الروابط بين العروبة والإسلام، والمناداة بفصل الدين عن السياسة، والمساواة في نظرتها للأمور بين شريعة حمورابي وشعر الجاهلية وبين دين محمد عليه والصلاة والسلام، وبين ثقافة المأمون، وجعلها جميعاً تتساوى في بعث الأمة العربية وفي التعبير عن شعورها بالحياة.

- ادّعت سياسة الحزب أن تحقيق الاشتراكية شرط أساسي لبقاء الأمة العربية ولإمكان تقدمها، مع أن النتيجة الحتمية للسياسة الاشتراكية التي طبقت في العراق لم تجلب الرخاء للشعب ولم ترفع مستوى الفقراء، ولكنها ساوت الجميع في الفقر، وبعد أن كان العراق قمة في الثراء ووفرة الموارد والثروات أصبح بطيش حزب البعث عاجزًا عن توفير القوت الأساسي لشعبه.

- قيامه بتجريد الدستور العراقي من كل القوانين التي تمت إلى الإسلام بصلة، وأصبحت العلمانية هي دستور العراق، ومعتقدات البعث ومبادئه هي مصدر التشريع لقوانينه.

- ورد في التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع والمنعقد في بغداد في شهر يونيو من عام ١٩٨٢م ما يلي: (وأما الظاهرة الدينية في العصر الراهن فإنها ظاهرة سلفية ومتخلفة في النظرة والممارسة).

(ومن الأخطاء التي ارتكبت في هذا الميدان أن بعض الحزبيين صاروا يمارسون الطقوس الدينية، وشيئًا فشيئًا صارت المفاهيم الدينية تغلب على المفاهيم الحزبية).

(إن النضال ضد هذه الظاهرة -يقصد الظاهرة الدينية- يجب أن يستهدفها (الحزب) حيث وجدت... لأنها كلها تعبر عن موقف معادٍ للشعب وللحزب وللثورة وللقضية القومية).

- حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي علماني انقلابي له طروحات فكرية متعددة يتعذر

الجمع بينها أحياناً فضلاً عن الاقتناع بها، لقد كُتِبَ عنه كثير وتحدث زعماؤه طويلاً، ولكن هناك بون واسع بين ممارسات وأقوال فترة ما قبل السلطة، وممارسات وأقوال فترة ما بعدها.

- الرابطة القومية عنده هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة، وتكبح جماح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية حتى قال شاعرهم:

آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له وبالعروبة دينًا ما له ثان

- تعلن سياسة الحزب التربوية أنَّها ترمي إلى خلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها أخذًا بالتفكير العلمي، طليقًا من قيود الخرافات والتقاليد والرجعية، مشبعًا بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه، في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الإنسانية، يقول إبراهيم خلاص -فيلسوف الحزب في العراق-: الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن بأن الله والأديان والإقطاع ورأس المال وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ.

من التوصيات العامة لمقررات المؤتمر القومي الرابع: تقول التوصية الرابعة: يعتبر المؤتمر القومي الرابع الرجعية الدينية إحدى المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة ولذلك يوصي القيادة القومية بالتركيز في النشاط الثقافي والعمل على علمانية الحزب، خاصة في الأقطار التي تشوه فيها الطائفية العمل السياسي.

التوصية التاسعة تقول: إن أفضل سبيل لتوضيح فكرتنا القومية هو شرح وإبراز مفهومها التقدمي العلماني وتجنب الأسلوب التقليدي الرومنطيقي في عرض الفكرة القومية، وعلى ذلك سيكون نضالنا في هذه المرحلة مركزًا حول علمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي لاستقطاب قاعدة شعبية لا طائفية من كل فئات الشعب.

- أما عن الوحدة، فجاء في المنطلقات النظرية للمؤتمر القومي السادس: ليست الوحدة العربية مجرد تجميع ولصق لأجزاء الوطن العربي، بل هي التحام فصهر لهذه الأجزاء، لذا فإن الوحدة ثورة بكل أبعادها ومعانيها ومستوياتها، وهي ثورة لأنها قضاء على مصالح إقليمية عاشت وتوسعت وترسبت عبر القرون، وهي ثورة لأنها تجابه مصالح وطبقات تعارض الوحدة وتقف في وجهها.

- وأما الاشتراكية فهي تعني تربية المواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي متفتح، ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة ويؤمن بقيم جماعية.

- الرسالة الخالدة: يفسرونها بأن الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم.

ويمكن ملاحظة ما يلي:

- إن كلمة الدين لم ترد مطلقًا في صلب الدستور السوري أو العراقي.

- كلمة الإيمان بالله على عموميتها لم ترد في صلب الدستور، لا في تفصيلاته ولا في عمومياته، مما يؤكد على الاتجاه العلماني لديه.

- في بناء الأسرة لا يشيرون إلى تحريم الزنى ولا يشيرون إلى آثاره السلبية.

- في السياسة الخارجية لا يشيرون إلى أية صلة مع العالم الإسلامي.

- لا يشيرون إلى التاريخ الإسلامي الذي أكسب الأمة العربية مكانة وقدرًا بين الشعوب.

- رغم مطالبة الحزب بإتاحة أكبر قدر من الحرية للمواطنين، فإن ممارساته القمعية فاقت كل تصور وانتهكت كل الحرمات، ووأدت كل الحريات، وألجأت الكثيرين إلى الهجرة والفرار بعقيدتهم من الظلم والاضطهاد.

- القوانين في البلاد التي يحكمها البعث علمانية، وحانات بيع الخمور مفتوحة ليل نهار، والنظام المالي ربوي، ودعاة الإسلام مضطهدون بشكل سافر.

أفكار ومعتقدات حزب البعث

١- يعتمد الحزب على الفكر القومي الذي ظهر وبرز بعد سقوط الدولة العثمانية في العالم العربي والذي نادت به أوربا، والذي نادى به منظِّر القومية العربية في العالم العربي آنذاك ساطع الحصري.

٢- يعتمد الحزب على الفكر العلماني إذ ينحي مسألة العقيدة الدينية جانباً، ولا يقيم لها أي وزن سواء على صعيد الفكر الحزبي أو على صعيد الانتساب إلى الحزب أو على صعيد التطبيق العملي.

٣- يستلهم الحزب تصوراته من الفكر الاشتراكي ويترسم طريق الماركسية رغم انهيارها، والخلاف الوحيد بينهما أن اتجاهات الماركسية أممية، أما البعث فقومي، وفيما عدا ذلك فإن الأفكار الماركسية تمثل العمود الفقري في فكر الحزب ومعتقده، وهي لا تزال كذلك رغم انهيار البنيان الماركسي فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي.

٤- لقد كان الحزب واجهة انضوت تحته كل الاتجاهات الطائفية (درزية، نصيرية، إسماعيلية، نصرانية) وأخذ هؤلاء يتحركون من خلاله بدوافع باطنية يطرحونها ويطبقونها تحت شعار الثورة والوحدة والحرية والاشتراكية والتقدمية، وقد كانت الطائفة النصيرية أقدر هذا الطوائف على استغلال الحزب لتحقيق أهدافها وترسيخ وجودها.

الانتشار ومواقع النفوذ

للحزب أعضاء ينتشرون في معظم الأقطار العربية، بعضهم يعمل بشكل علني وبعضهم الآخر

سري، ويتفاوت وجودهم وتأثيرهم من بلد إلى آخر على حسب طبيعة البلد ونوعية حكمه.

ويحكم حزب البعث بلدين عربيين مهمين هما: سوريا، والعراق سابقا، وقد عجز الحزب عن تحقيق الوحدة بين فصائله، بل إن الصراع بين شطري البعث مستمر وعلى أشده، واتهامات الخيانة بين الطرفين لا تنقضي، وإذا كان هذا هو شأن الحزب في بلدين يخضعان له فهو من باب أولى عاجز عن تحقيق وحدة الأمة العربية بكاملها.

والبعثيون يتطلعون إلى استلام السلطة في جميع أرجاء الوطن العربي باعتبار ذلك جزءًا لا يتجزأ من طموحاتهم البعيدة، وقد أدّت بهم هذه الرغبة العارمة إلى السقوط في حمأة الإنذار المقنع والتهديد السافر والعدوان الصريح، وربما يكون حزب البعث في العراق من أسوأ ما شهده التاريخ[١].

الحزب القومي السوري

التعريف:

هو حزب يدعو إلى القوميّة العربيّة، واعتبار الوطن السوري البيئةَ التي نشأت فيها الأمة السورية، والقول بأن النهضة السورية تستمد روحها وتاريخها السياسي والقومي من مواهب الأمة السورية. وقد اتخذ الحزب اسم «الحزب القومي الاجتماعي»، وشعاره زوبعة لها أربعة رءوس ترمز إلى الحرية والواجب والنظام والقوة.

تاريخ الحزب القومي السوري

في الثلاثينات من هذا القرن، وتحديدًا في ١٦ نوفمبر ١٩٣٢م، ظهر على مسرح السياسة في لبنان شاب عائد من البرازيل اسمه أنطوان سعادة الذي كان يدرس اللغة الألمانية في الجامعة الأمريكية ببيروت، فقد ألّف حزبًا منظمًا دقيقًا مركزيًّا يعرف بالحزب القومي السوري.

لقد نشأ هذا الحزب بدعوى محاربة الطائفية والنزعة الانعزالية مستغلًا وجود العديد من الطوائف والديانات في لبنان، داعيًا إلى رابطة تلغي جميع الفوارق بين الناس وتربطهم برباط واحد هو رباط الأرض، وقد بارك الغرب هذا الحزب وأمده بالمال والسلاح.

أقيم الحزب السوري القومي بطريقة سرّية، فلم تعلم بقيامه سلطات الانتداب الفرنسي إلا في ١٦ نوفمبر ١٩٣٥م، حيث اعتُقل رئيسه أنطوان سعادة ووُضع في السجن لعدة أشهر. وفي السجن ألّف كتابه نشوء الأمم.

وخلال فترة الثلاثينيات انتشر الحزب القومي السوري في سوريا ولبنان. وانبرت له سلطات الانتداب الفرنسي وألقت القبض على مؤسسه مرتين، ولكنه تمكن من الفرار في المرة الثالثة إلى

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٧٠- ٤٨٤).

أمريكا الجنوبية، حيث بقي في الأرجنتين حتى عام ١٩٤٧م.

عاد أنطوان سعادة بعد الحرب العالمية الثانية إلى بيروت عام ١٩٤٧م، ووجد أن لبنان قد أصبح دولة مستقلة لا تنتمي إلى سوريا التي كان يخطط لها حزبه. وعندما استُقبل في بيروت لدى عودته، ألقى خطابًا في جمع حاشد رفض فيه انعزال لبنان، فأصدرت السلطات اللبنانية بحقه مذكرة توقيف، فاختفى لعدة شهور ريثما تهدأ الأحوال، ثم أخذ يطوف في المناطق السورية واللبنانية.

وحدثت مواجهة سياسية بينه وبين حزب الكتائب اللبناني الذي كان تدعمه السلطة اللبنانية آنذاك. وردًّا على هجوم حزب الكتائب على جريدة الحزب الجيل الجديد، قام أنصار أنطوان سعادة بمهاجمة بعض مراكز الشرطة في لبنان، ولجأ سعادة نفسه إلى سوريا. وهناك ألقى حسني الزعيم القبض عليه وسلمه للسلطات اللبنانية التي سارعت بإعدامه في ٨ يوليو ١٩٤٩م.

بعد إعدام سعادة، دخل الحزب مرحلة جديدة. فسار خلال فترة الخمسينيات في خط سياسي مضاد لحركة القومية العربية الصاعدة المتمثلة في حزب البعث العربي الاشتراكي والحركة الناصرية. وقد عمد أحد أعضاء الحزب بتنفيذ أمر من رئيسه جورج عبدالمسيح بقتل عدنان المالكي (الضابط البعثي) في دمشق وذلك في أبريل ١٩٥٥م. وعلى الفور بدأت سلسلة ملاحقات بحق أعضاء الحزب وحظر نشاطه في سورية فلجأت قيادته إلى بيروت.

ثم حدث بعد ذلك انشقاق نتيجة لما حدث في دمشق وقاد جورج عبد المسيح مجموعة في حين قاد أسد الأشقر، الذي أعيد إلى صفوف الحزب، مجموعة أخرى.

كان أسد الأشقر ينادي بالواقع اللبناني، وكان أنطوان سعادة قد عزله بسبب ذلك. وقد قاد أسد الأشقر الحزب في مواجهة الناصرية وانتفاضة ١٩٥٨م. وقد أثرت مواقف الحزب هذه على نموه وانتشاره نتيجة لابتعاده عن المنطلقات النظرية لمؤسسه، ولوقوفه -كما يعتقد بعض الباحثين- إلى جانب حلف بغداد والمخططات الاستعمارية والقوى المتعاونة مع تلك المخططات.

جرت محاولات ترميم لوضع الحزب في أواخر الخمسينيات لكن هذه المحاولات توقفت بعد أن نفذ الحزب انقلابًا فاشلًا في لبنان وذلك في العام ١٩٦١م، واعتقلت معظم قياداته لفترة امتدت حتى عام ١٩٦٨م.

وبعد عام ١٩٦٩م، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي، وذلك بعد مؤتمر ملكارت، في مارس ١٩٦٩م، الذي عقده الحزب بعد الإفراج عن قياداته في لبنان. وقد برز في المؤتمر خط سياسي جديد أدان بشكل حازم الممارسات اليمينية والتعاون مع الرجعية، (وفي ذلك إشارة واضحة إلى أحداث ١٩٥٨م في لبنان) والتعاون بين قيادات الحزب المتلاحقة في الخمسينيات وبين القوى الرجعية والاستعمارية حسب ما دار في مداولات المؤتمر. وشدد قادة الخط السياسي الجديد على يسارية الحزب، وعلى أن منطلقاته اشتراكية، كما اعتبر أن المنطلقات

النظرية للحزب ليست مضادة للعروبة. وكانت عدة عوامل قد أدت إلى نشوء هذا التيار منها نمو المقاومة الفلسطينية وأثر ذلك على الشعوب العربية، والمسيرة الفاشلة للحزب خلال مرحلة وقوفه إلى جانب القوى اليمينية، وهزيمة يونيو ١٩٦٧م وأثرها على كافة القوى والتنظيمات الشعبية. وبالرغم من ذلك فقد حدثت مواجهة جديدة بين التيار اليميني داخل الحزب الذي يريد إبقاء الحزب في مسيرته السابقة (قاد هذا التيار أسد الأشقر وعصام المحايري) والتيار اليساري الذي قاده الدكتور عبدالله سعادة. واستمرت المواجهة عنيفة حول انتهاج الخط السياسي الجديد إلى أن تم خروج المجموعة اليمينية ورفضها العمل في إطار الحركة الوطنية اللبنانية.

أما التيار اليساري الذي قاده إنعام رعد فقد التزم بالمقررات والتوصيات التي أعلنها مؤتمر ملكارت السابق ذكره، وخاض المعارك جنبًا إلى جنب مع حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في مواجهة المليشيات اليمينية والجيش اللبناني وذلك طوال فترة الحرب الأهلية اللبنانية.

الأفكار والمعتقدات

تتركز مبادئ الحزب القومي السوري في الأفكار التي يذكرها أنطوان سعادة في كتابه نشوء الأمم وهي:

- فصل الدين عن الدولة.
- منع رجال الدين من التدخل في الشئون السياسية والقضائية والقومية.
- إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.
- إلغاء الإقطاع، وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج، وإنصاف العامل، وصيانة مصلحة الأمة والدولة.
- إعداد جيش قومي ذي قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن.

كما أن للحزب منطلقاته التي تعبر عن أفكاره ومعتقداته وتصوراته لحركة التاريخ، ومن ذلك:

- سوريا للسوريين، والسوريون أمة تامة.
- يتميز السوريون عن أبناء الأمة العربية كما يتميز الفرنسيون عن الإنجليز، وكما يتميز الروس عن الألمان.
- القضية السورية هي الأمة السورية والوطن السوري.
- الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل التاريخ الحالي.
- الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة.
- مصلحة سوريا فوق كل مصلحة.

- القوميون السوريون يعتزون بالماضي السحيق الذي يمثله الفينيقيون بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولذاتهم، ويعتزون بالثقافة الروحية والطابع العمراني الذي نشرته سوريا في البحر السوري المعروف بالبحر المتوسط.

- الاعتزاز بما خلده العظام من مثل: كرينون، بيار صليبي، يوحنا فم الذهب، أفرام العمري، ديك الجن الحمصي، الكواكبي، جبران.

- الاعتزاز بالمحاربين الخالدين مثل: سرجون الكبير، أسرحدون، سنحاريب، نبوخذ نصر، آشور بانبال، هاني بعل إلى يوسف العظمة، وهم بذلك يغفلون مشاهير وعظماء الإسلام.

- أزهى العصور في تاريخ سوريا هو العصر الفينيقي.

- الفتح الإسلامي يعتبر فتحًا أجنبيًّا، ولا يرون في التاريخ الإسلامي في سوريا بعد الفتح إلا تاريخًا سوريًّا خالصًا، فمعاوية رضي الله عنه أصبح سوريًّا لإقامته في دمشق عشرين عامًا قبل الخلافة، وأمجاد الأمويين أمجاد سورية محضة، والنزاع بين معاوية وعلي رضي الله عنهما إنما هو نزاع بين القومية السورية والقومية العراقية، ويجعلون للأرض والتراب والجو أثرًا سحريًّا يحول الإنسان خلال فترة وجيزة من قومية إلى قومية ومن تاريخ إلى تاريخ.

- عندما يتحدثون عن سوريا فإنما يقصدون بذلك سوريا الكبرى والتي تضم سوريا الحالية ولبنان والأردن وفلسطين.

- دعوتهم انعزالية تقتصر على الوطن، فهي تعمل على انكماش العالم العربي والإسلامي إلى عالم صغير محدود في عصر التكتلات العالمية والمعسكرات الدولية والتجمعات الأممية.

- هذه الدعوة الانعزالية تخدم مصالح الغرب المستعمر، وتخدم الصهيونية في تفتيت الوطن الإسلامي الكبير، وتمزيق القوة المحيطة بإسرائيل.

- تدعو إلى الاستهتار بالقيم الأخلاقية، وذلك بتهيئة فرص الإغراء للشباب والفتيات بالانضمام إليها في حلقات ماجنة تلعب فيها الخمر بالرءوس، وتنطق فيها الغرائز جامحة مسترسلة.

موقف الحزب القومي السوري من الدين

رجالات هذا الحزب يحاربون الدين بكل قواهم، ويستنكرون الرابطة الدينية بين الناس، وينطلقون في ذلك من عدة معتقدات وأفكار، من أهمها ما يلي:

- الزعم بأن فكرة الألوهية اخترعها الإنسان يوم أن كان رازحًا تحت سلطان الخوف والوهم والخرافة.

- النظر إلى الكون والإنسان والحياة نظرة مادية تنكر وجود الله والبعث والرسالات واليوم الآخر.

- الزعم بأن الإسلام دين جامد، وإنما الذي جعله متطورًا هم الخلفاء والفقهاء.
- ينادون بفصل الدين عن الدولة وهي فكرة غربية يرفضها الإسلام جملةً وتفصيلًا.
- يعتبرون التجمع على أساس ديني من أخطر العقبات في سبيل التقدم، وينادون بالتخلي عنه حتى يسلم الكيان السوري القومي من التناقضات.

الانتشار ومواقع النفوذ

اتخذ هذا الحزب من لبنان مركزًا له، وصار له أتباع في سوريا، ولكنه لقي اضطهادًا من مختلف الحكام؛ لأنه يتعارض مع فكرة القومية العربية التي كان لها نفوذ أكبر، ومع ذلك ظل يعمل بشكل علني في لبنان متخذًا له اسمًا جديدًا وهو «الحزب القومي الاجتماعي».

وقد عبر أنطوان سعادة عن حدود القومية السورية في كتابه نشوء الأمم بأنها البيئة الجغرافية المتميزة عما سواها فهي تمتد من جبال طوروس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري (المتوسط) في الغرب إلى الصحراء في الشرق حتى الالتقاء بدجلة.

والحزب الآن في حالة انحسار كبير[١].

الحزب الديمقراطي الكردستاني

التعريف:

الحزب الديمقراطي الكردستاني حزب قومي علماني اشتراكي يدعو إلى إنشاء دولة كردية في منطقة كردستان بعد توحيدها.

نبذة عن كرادستان

تقع كردستان (أرض الأكراد) في كل من تركيا وإيران والعراق وسورية والاتحاد السوفيتي السابق. وتبلغ مساحتها نصف مليون كيلومتر مربع تقريبًا. وعدد سكانها ٤٠ مليون نسمة يدين أكثرهم بالإسلام وتوجد أقليات كردية في كل من باكستان وأفغانستان والسودان.

وتمتاز كردستان بثروتها النفطية والمعدنية والحيوانية والمائية، إذ يمر فيها أنهار دجلة والفرات وآراس والخابور.

ويتكلم الأكراد اللغة الكردية التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية، التي تمثل فرعًا من أسرة اللغات الهندية وأوربية التي تضم: الكردية والفارسية والبشتو والطاجيكية. وتكتب اللغة الكردية في إيران والعراق بالحرف العربي، وفي تركيا وسورية بالحرف اللايتني، وفي الدولة التي تسلل إليها الاتحاد السوفيتي بالحرف الروسي.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٦٢- ٤٦٥)، الموسوعة العربية العالمية.

ويذكر أن كردستان مهد البشرية (في الجودي، بعد الطوفان) وفي القرن السادس قبل الميلاد سقطت مملكة ميديا الكردية على أيدي الفرس الأخمينيين.

وفي عام ١٨ من الهجرة النبوية دخل الإسلام إلى كردستان على يد عياض بن غنم رضي الله عنه.

وقسمت كردستان بعد الحرب العالمية الأولى ووزعت على العراق وسورية وتركيا وإيران وروسيا.

وقد اتبعت الدول المذكورة فيهم سياسة التتريك والتعريب والتفريس مع محاولة القضاء على إسلامهم، بإثارة النزعات القبلية ونشر الأفكار الماركسية والعلمانية فيهم، ولم يخضع الأكراد لهم، فقامت ثورات لم تنطفئ حتى يومنا هذا.

تاريخ الحزب الديمقراطي الكردستاني

في عام ١٩٢٧م توحدت جميع المنظمات الكردية في حزب (خويبون) الذي أسسه عدد من المهاجرين الأكراد المقيمين في الخارج.

وفي العام نفسه انعقد المؤتمر الأول للحزب في مصيف بحمدون في لبنان، وقد أسهم في أعمال المؤتمر زعيم من الأرمن اسمه ف. بابازيان.

اعتمد الحزب على تأييد الدول الاستعمارية التي كانت ترى في المسألة الكردية وسيلة للضغط على تركيا (من الدول المؤيدة للأكراد انجلترا وفرنسا بشكل خاص).

كان الحزب يخضع بشكل مباشر لنفوذ الطاشناق المؤلف من القوميين الأرمن ذوي الاتجاه الغربي، والمعادين لتركيا بشكل شديد.

وفي عام ١٩٣٠م قام الأكراد بثورة إسلامية في تركيا في العهد الكمالي العلماني المعادي للإسلام، بقيادة الشيخ سعيد النورسي.

وفي عام ١٩٤٤م تأسست منظمة اسمها «كومة له زياني كورد» أي: «جمعية الإحياء الكردي» في مهاباد عاصمة كردستان الإيرانية.

وفي عام ١٩٤٥م (١٥ آب) تأسس الحزب الديمقراطي الكردي أو ما يطلق عليه: «البارتي» في مهاباد بإيران، متخذاً جمعية الإحياء الكردي قاعدة له.

وفي ١٩٤٦م (٢٣ ديسمبر) أعلن عن تأسيس حكومة وطنية كردية ذات نظام جمهوري في كردستان إيران، برئاسة قاضي محمد، زعيم الحزب، واستمر الحكم أقل من سنة، وقضي على الجمهورية بعد معركة مع الجيش الإيراني، ذبح فيها ما يزيد على ١٥٠٠٠ من أفراد الحزب ومن الأكراد.

وفي ٣١ مارس ١٩٤٧م أعدم قاضي محمد وأخوه صادر قاضي عضوا البرلمان الإيراني وابن عمه

سيف قاضي وزير دفاع الجمهورية الكردية.

أما قائد القوات المسلحة التابعة لجمهورية «مهاباد» الكردية وهو مصطفى البرزاني فلم يلق السلاح في المعركة، وهرب إلى العراق، إلا أن الجيش العراقي كان في انتظاره، فهرب مع ٥٠٠ فرد من مقاتليه إلى تركيا، ثم عاد إلى إيران مجددًا، وبعد معركة حاسمة دخل مصطفى البرزاني وقواته الاتحاد السوفيتي ولم يعودوا إلى العراق إلا بعد الثورة العراقية عام ١٩٥٨م.

وقاد مصطفى البرزاني أخر الثورات سنة ١٩٦١م التي انتهت سنة ١٩٧٥م بعد اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران.

الأفكار والمعتقدات

من برنامج الحزب الديمقراطي الكردي المعلن عند تأسيسه:

١- الحرية والحكم الذاتي للشعب الكردي ضمن نطاق الدولة الإيرانية.

٢- استعمال اللغة الكردية في التعليم وجعلها اللغة الرسمية في الشئون الإدارية.

٣- تولي السلطة العليا في المنطقة الكردية.

٤- إقامة علاقات أخويه مع شعب أذربيجان في النضال المشترك جنبًا إلى جنب مع بقية الأقليات القومية.

٥- تحسين الأوضاع الاقتصادية باستثمار الموارد الطبيعية في كردستان وتنمية الزراعة والتجارة وتطوير الخدمات الصحية والتعليمية.

- يرجع الحزب الديمقراطي الكردستاني في أفكاره إلى الفكر القومي العرقي الذي ساد في المنطقة العربية وتركيا في بداية هذا القرن.

- نظراً لعلمانية هذا الحزب، فإن الفكر الماركسي الشيوعي يسير جنبًا إلى جنب مع الفكر القومي، كما هو الحال في الأحزاب القومية العربية مثلًا.

- يعد نضاله جزءًا من نضال الحركة الديمقراطية للبروليتاريا (طبقة العمال والفلاحين).

- يعلن زعماؤه دائمًا عن ارتباط حزبهم برباط الصداقة مع الاتحاد السوفيتي قبل انهياره والمعسكر الاشتراكي قبل زواله.

ويمكن ملاحظة ما يلي:

- لم ترد كلمة الإسلام الذي هو دين الأكراد في مبادئ الحزب وتوجهاته أبدًا، بينما ينوّه الحزب بالرباط المتين الذي يربطهم بالأرمن في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه، خاصة، وبالأحزاب الأرمينية المتطرفة في العالم بصفة عامة.

- يستخدم الحزب المصطلحات الشيوعية في كتاباته وتوجيهاته مثل، الحزب التقدمي، الطبقة العاملة، طبقة الفلاحين، الطبقة البرجوازية، البروليتاريا... إلخ.

- يتكلم زعماء الحزب عن الأكراد الذين يعيشون في أرمينيا ويعدونهم من البناة النشطين للمجتمع الشيوعي السوفيتي قبل انهياره، ولا يذكرونهم على أنهم ذوي قومية تطالب بالانفصال كما هو شأن الأكراد في إيران والعراق وسوريا وتركيا.

أماكن الانتشار

ينتشر الحزب الديمقراطي الكردستاني في كل من إيران والعراق وتركيا وسوريا[١].

منظمة التحرير الفلسطينية

التعريف:

منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الرسمي للشعب العربي الفلسطيني، ويتمثل هدفها الرئيسي في استرجاع فلسطين التي اغتصبتها إسرائيل.

وتضم منظمة التحرير الفلسطينية المنظمات الفدائية والشعبية، واتحادات الأطباء والعمال والمحامين والنساء والطلاب والمدرسين. وتهيمن عليها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) باعتبارها أكبر المنظمات الفدائية.

تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية

أعلن عن قيام منظمة التحرير خلال المؤتمر الفلسطيني الأول الذي انعقد في القدس في ٢٨ مايو ١٩٦٤م بحضور وفود تمثل الجامعة العربية وكثير من الدول العربية. وافتتحه الملك حسين عاهل الأردن وألقى فيه خطابًا.

في مؤتمر القمة العربي الثاني الذي انعقد في ٥ سبتمبر ١٩٦٤م، لمناقشة المشروع الصهيوني لتحويل مياه نهر الأردن للأراضي الإسرائيلية والموقف العربي المطلوب لمواجهته، اتخذت اللجنة التنفيذية للمنظمة عدة قرارات تؤكد على أهمية استكمال بناء القوة العسكرية العربية لمواجهة مشروع التحويل الإسرائيلي. واقترحت بناء كيان مستقل يمثل الفلسطينيين حيثما تواجدوا.

وعلى إثر انتهاء مؤتمر القمة، تم البدء في إنشاء الدوائر والمكاتب المركزية للمنظمة وافتتاح مكاتب للمنظمة في عواصم الدول العربية وبعض الدول الأخرى وإنشاء محطة إذاعية في القاهرة باسم صوت فلسطين، صوت منظمة التحرير الفلسطينية، وإنشاء مركز أبحاث في بيروت للعمل على إغناء الفكر الفلسطيني والعربي وتشجيع البحث وتعريف العرب والعالم بحقيقة الكيان الصهيوني، والبدء بتشكيل القوات الفلسطينية المقاتلة وتدريبها وتسليحها، وقيام الصندوق القومي الفلسطيني بالجباية من أبناء الشعب الفلسطيني والأمة العربية.

وقد قامت مجموعات فدائية بشن هجمات ضد العدو الإسرائيلي بين حين وآخر، وقام العدوّ

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٥٩- ٤٦١).

الإسرائيلي بدوره بمهاجمة قواعد منظمة التحرير الفلسطينية.

وعقدت منظمة التحرير الفلسطينية دورات للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة وغزة أعوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٨، ١٩٦٩م، وعين ياسر عرفات رئيسًا للمنظمة.

وقد تقلص عدد أعضاء المجلس الوطني بعد حرب يونيو ١٩٦٧م. وبعد ذلك تمثلت في المجلس جميع منظمات المقاومة الفلسطينية الأمر الذي دل على أهمية الكفاح المسلح.

وبين عامي ١٩٦٥ و١٩٧١، زاولت منظمة التحرير الفلسطينية نشاطها القتالي من الأردن. غير أنها أجبرت على مغادرة البلاد عام ١٩٧١م بعد صدامات عنيفة وقعت فيما عرف بأحداث أيلول ١٩٧٠م، فاتجهت المنظمة إلى لبنان. ومن هناك واصلت هجماتها ضد العدو

وفي عام ١٩٧٤م أقرت الحكومات العربية اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وفي وقت متأخر من تلك السنة اعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا للشعب الفلسطيني، وحصلت على مركز المراقب في منظمة الأمم المتحدة.

وفي عام ١٩٨٢ قام العدو الإسرائيلي باجتياح لبنان تحت سمع العالم وبصره وأجبر منظمة التحرير الفلسطينية على إخلاء جنوب لبنان وبيروت. ومنذ ذلك الحين، لم يتمكن أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية من العودة إلى جنوب لبنان.

وفي عام ١٩٨٣م ساندت الحكومة السورية بعض المعارضين من داخل المنظمة لزعامة ياسر عرفات، وتم إبعاد ياسر عرفات وقواته من شمال لبنان.

وفي عام ١٩٨٧م تفجرت انتفاضة أطفال الحجارة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وحينئذ تمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من مد يد العون إلى الفلسطينيين.

وفي محاولة لوضع حد للدعم القادم من منظمة التحرير الفلسطينية، قامت القوات الإسرائيلية باغتيال أبي جهاد خليل الوزير الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان مسئولًا عن تدفق هذا الدعم، حتى إنه لقب بمهندس الانتفاضة. ومع ذلك ظلت الانتفاضة مستمرة وازدادت ضراوة يومًا بعد يوم.

وفي عام ١٩٨٨م أوقف الأردن ارتباطه بالضفة الغربية، وفي أواخر العام نفسه أعلن ياسر عرفات اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل في الوجود إلى جوار دولة فلسطينية. كما أعلن أيضًا نبذه لاستخدام العنف.

وفي عام ١٩٩٣م، كشف النقاب عن اتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل بشأن إقامة حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتم التوقيع على اتفاق غزة -أريحا أولًا في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣م بواشنطن.

وفي مايو ١٩٩٤م وقع رابين وياسر عرفات اتفاق السلام الذي وعد بحكم ذاتي للفلسطينيين.

وفي يوليو ١٩٩٤م وصل ياسر عرفات إلى غزة ليدير سلطة الحكم الذاتي. ثم انتخب رئيسًا للسلطة الفلسطينية في ٢١ يناير ١٩٩٦م بعد أن حاز ٨٨ % من أصوات الناخبين.

وبعد أن أصبح بنيامين نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل في مايو ١٩٩٦م، واجهت السلطة الفلسطينية صعوبات كثيرة في تنفيذ بنود الاتفاقية بسبب تعنته وسياساته الاستيطانية مما أدخل عملية السلام برمتها في نفق مظلم.

ولم تتحسن الأحوال في عهد خلفه، أيهود باراك الذي فاز في الانتخابات عام ١٩٩٩م، وأصبح رئيساً للوزراء. فقد فشلت كافة اللقاءات بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي وأشهرها لقاء منتجع كامب ديفيد برعاية الرئيس الأمريكي السابق بل كليتتون عام ٢٠٠٠م.

ونشطت الانتفاضة بعد أن دنس مجرم الحرب آرييل شارون المسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م، وقدمت مئات الشهداء وآلاف الجرحى خاصة بعد انتخابه رئيسًا للوزراء في فبراير ٢٠٠١م.

وفي ٣ ديسمبر ٢٠٠١م أحاطت الدبابات الإسرائيلية مقر الرئيس عرفات، وحاصرته ردًّا على عمليتين فدائيتين أعلنت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) مسئوليتها عنهما. وظل محاصرًا حتى مطلع عام ٢٠٠٤م.

هيكل منظمة التحرير

تتألف الإدارات الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية من: اللجنة التنفيذية، واللجنة المركزية، والمجلس الوطني.

أما اللجنة التنفيذية، فهي أعلى سلطة تنفيذية للمنظمة، وهي الهيئة الرئيسية لصنع القرار، وتتكون من ممثلين للمنظمات الرئيسية وبعض الأعضاء المستقلين.

ومهامها: تمثيل الشعب الفلسطيني والإشراف على تشكيلات المنظمة وإصدار اللوائح والتعليمات واتخاذ القرارات الخاصة بتنظيم أعمال المنظمة وتنفيذ السياسة المالية وإعداد الميزانية.

وقد أنشأت اللجنة التنفيذية للمنظمة الدوائر التالية (١٩٦٨م): الدائرة العسكرية، دائرة الشئون السياسية والإعلامية، دائرة الصندوق القومي الفلسطيني، دائرة البحوث والمؤسسات المتخصصة، دائرة الشئون الإدارية.

وقد عُيِّن لكل دائرة مدير عام وعدد من الموظفين. والمدير العام هو أحد أعضاء اللجنة التنفيذية.

وأما اللجنة المركزية، فتشتمل على ممثلين لكافة المنظمات الفدائية، فتعمل كهيئة استشارية للجنة التنفيذية.

وأما المجلس الوطني الفلسطيني، فهو يتألف من ١٨٠ عضوًا يعمل كبرلمان للشعب الفلسطيني[١].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

حزب الأمة السوداني

التعريف:

حزب الأمة حزب سوداني كان يطالب باستقلال السودان وأن يكون السودان للسودانيين. وكان هذا يعني أنه لا يوافق على الوحدة مع مصر.

تاريخ حزب الأمة

نشأ حزب الأمة في السودان عام ١٩٤٥م بقاعدة الأنصار، وهم أتباع السيد عبد الرحمن بن محمد أحمد المهدي.

وكان المهدي الكبير قد رفع لواء الثورة على الحكم المصري في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وفصل السودان من الحكم المصري بمساعدة الجنرال غوردون البريطاني.

ومع أن حزب الأمة كان ينادي بالاستقلال، إلا أنه كان ميالًا إلى التفاهم الودي مع البريطانيين وإدارتهم التي كانت تدير أمر شئون السودان.

دخل الحزب أول انتخابات جرت في السودان في ١٩٥٣م، ورغم كثرته العددية، إلا أنه لم يكسب من المقاعد البرلمانية ما يوازي عدده، وكانت خيبة أمل كبيرة لقياداته؛ إذ فاز الحزب الوطني الاتحادي بأغلبية مقاعد البرلمان، وكان عدد مقاعده ٥١ مقعدًا بينما كانت مقاعد حزب الأمة ٢٢ مقعدًا، وقد عكس ذلك ميل الشعب السوداني لوحدة وادي النيل.

لكن الأحداث في مصر بعد ذلك أثَّرت على مجريات الأمور في السودان خاصة عندما أُعفي اللواء محمد نجيب من منصبه كرئيس لجمهورية مصر ولمجلس الثورة.

واستطاع حزب الأمة أن يتفق مع الحزب الوطني الاتحادي على إعلان استقلال السودان من داخل البرلمان في اليوم الأول من يناير ١٩٥٦م، وقبلت بذلك دولتا الحكم الثنائي بريطانيا ومصر، وهكذا حقق حزب الأمة ما كان يصبو إليه.

ثم قام ائتلاف بين حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي في حكومة بعد إسقاط حكومة الحزب الوطني الاتحادي. ورأس الحكومة الأميرالاي (بالمعاش) عبد الله خليل. ولما ضعفت هذه الحكومة وآلت للسقوط دعا رئيسها الجيش سرًا للاستيلاء على السلطة في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م بقيادة الفريق إبراهيم عبود، القائد العام للقوات المسلحة السودانية.

ولم يعترض السيد عبد الرحمن المهدي على حكم عبود، بل إنهما اجتمعا، وأعلن السيد عبد الرحمن أنه يثق في قدرة عبود على حكم البلاد والحفاظ على استقلالها.

وبعد وفاة السيد عبد الرحمن المهدي تولى ابنه الصِّدِّيق المهدي زعامة حزب الأمة، ودخل في صراع مع حكم الفريق إبراهيم عبود العسكري. وكان السيد الصِّدِّيق يدعو لعودة الديمقراطية.

وساءت العلاقات بين جموع الأنصار والحكم العسكري. وفي ظل ذلك الصراع، توفي السيد الصديق واستمر عبود في الحكم.

ولكن بعد فترة من الوقت قام السودان بأجمعه بانتفاضة قوية في أكتوبر ١٩٦٤م ضد حكم عبود ووقف الشعب وقفة رجل واحد ضده، فاضطر الفريق إبراهيم عبود إلى إنهاء حكمه العسكري على أن يظل رئيسًا للدولة. ولكن سرعان ما قدم استقالته للحكومة المدنية.

بعد وفاة الصديق المهدي تولى أخوه الهادي زعامة حزب الأمة. وقد بقي كذلك حتى قام العقيد جعفر نميري بانقلاب عسكري مع بعض الضباط في مايو ١٩٦٩م. وعارض الإمام الهادي ذلك الحكم وقاد تمردًا مدنيًا ضده في الخرطوم انطلق من جزيرة أبا. ولكن الجيش السوداني أمطر الهادي وأنصاره بوابل من القنابل والصواريخ، ثم طورد إلى الحدود الأثيوبية حيث لاقى حتفه. وأصبحت الأزمة واسعة بين حزب الأمة ونظام نميري.

وقد خلف الهادي في زعامة الحزب ابن أخيه الصادق بن الصديق المهدي، واستمر التوتر بين الجانبين حتى نهاية حكم نميري.

بعد سقوط حكومة جعفر نميري عام ١٩٨٦م ولجوئه إلى مصر، تولى الصادق المهدي زعامة الحزب السياسية والروحية، وأصبح رئيسًا للوزراء في وزارة ائتلافية بعد استقالة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، واستمر في ذلك المنصب حتى أطاح به انقلاب العقيد عمر البشير في ٣٠ يونيو ١٩٨٩م.

وظل الصادق المهدي يعارض حكم البشير، كما أن التوتر بينه وبين الحكومة ظل على أشده خاصة بعد خروجه من السودان خفية في ١١ ديسمبر ١٩٩٦م، حيث وصل إلى أسمرة عاصمة إرتريا، وانضم هناك للمعارضة السودانية في الخارج، وانضم إلى هيئة التجمع الوطني الديمقراطي المعارض.

وفي نوفمبر ٢٠٠٠م، عاد الصادق إلى الخرطوم وأعلن انسلاخه عن التجمع المعارض، ولكنه ظل يعارض البشير وحكومته[١].

الحزب الوطني الاتحادي (الحزب الاتحادي الديمقراطي)

التعريف:

الحزب الوطني الاتحادي حزب سوداني كان ينادي بالوحدة مع مصر، وإخراج الإنجليز من السودان. وهو مؤيد بالطائفة الختمية. وتولى رئاسة أول حكومة سودانية، وتطور بعد ذلك إلى الحزب الاتحادي الديمقراطي.

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

تاريخ الحزب الوطني الاتحادي

أُسِّس الحزب في السودان عام ١٩٤٣م باسم الأشقاء أولًا، وكانت أهم أهدافه إقامة حكومة ديمقراطية سودانية في اتحاد مع مصر.

واستمر الحزب بهذا الاسم حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بمصر، فارتحلت إلى هناك كل الأحزاب الاتحادية لمقابلة اللواء محمد نجيب الذي كان رئيس جمهورية مصر آنذاك، الذي استطاع جمع شتاتها في الحزب الوطني الاتحادي.

وأيّد هذا الحزب الزعيم الديني السيد علي الميرغني راعي طائفة الختمية الذي كان له أتباع كثيرون في شرق السودان وشماله ووسطه، ويتزعم الحركة السياسية في حزبهم السيد إسماعيل الأزهري. ووقف الحزب ندًّا لحزب الأمة الذي كان يرعاه الإمام السيد عبد الرحمن المهدي.

وكان الحزب الوطني الاتحادي قويًّا أيضًا في أغلب مدن السودان، كما كان يجد تأييدًا قويًّا من حكومة الثورة في مصر. وقد استطاع الحزب كسب عدد من مقاعد الجنوب لأعضاء في حزبه مما جعله يفوق في ذلك عدد أعضاء حزب الأمة.

وأدى محمد نجيب دورًا مهمًّا في توحيد رأي الأحزاب السودانية في مستقبل السودان، بقبولها إجراء انتخابات لفترة انتقالية لثلاث سنوات يجلو فيها الجيشان البريطاني والمصري عن السودان، ويقرر بعدها السودانيون مصير بلادهم السياسي، إما استقلالًا تامًّا أو وحدة مع مصر.

فعقدت الانتخابات في ١٩٥٣م، وفاز الاتحاديون بأغلبية مقاعد البرلمان، وشكلوا أول حكومة سودانية برئاسة السيد إسماعيل الأزهري.

واستجابة للمناداة بالاستقلال في صفوف الحزب الوطني الاتحادي ولضغوط من جبهة الأحزاب الاستقلالية، انحاز الحزب الوطني الاتحادي للاستقلال، وأعلن في البرلمان في اليوم الأول من يناير ١٩٥٦م. وأدى الإعلان إلى انشقاق الختمية وخروجهم عن الحزب الوطني الاتحادي، وأنشئوا حزبًا جديدًا هو حزب الشعب الديمقراطي برعاية السيد علي الميرغني، ورئاسة السيد علي عبد الرحمن الضرير.

وحدث خلاف بين رئيس الحكومة وراعي الحزب وهو السيد علي الميرغني في سنة ١٩٥٤م، فصوتت الأغلبية البرلمانية مع حجب الثقة عن الأزهري، فأسقطت حكومته، إلا أن الأزهري عاد ونجح بصوت واحد وعاد لرئاسة الوزارة التي خسرها بالصوت نفسه. ومنذ ذلك الحين، كان الزعيمان يتعاملان معًا في حذر وتوجُّس.

ثم ائتلف راعي الحزب الوطني الاتحادي السيد علي الميرغني وراعي حزب الأمة السيد عبد الرحمن المهدي على الإطاحة بإسماعيل الأزهري. وبالفعل أسقطا حكومته، وانتُخبت حكومة جديدة برئاسة الأميرلاي عبد الله خليل سكرتير حزب الأمة، وأُخرج الأزهري من الوزارة.

وفي عام ١٩٥٨م، كان عبد الله خليل رئيسًا للوزراء فسلم الحكم للفريق إبراهيم عبود الذي

أعلن أن البلاد أضحت تحت حكمه العسكري. وعارض هذا الحكم الحزب الوطني الاتحادي بقيادة الأزهري، كما عارضه أيضًا حزب الأمة. فأُرسل كل من الأزهري وعبد الله خليل إلى سجون بعيدة.

هب الشعب السوداني ثائرًا ضد الحكم العسكري وأُطيح بالفريق عبود بثورة شعبية عرفت بثورة أكتوبر ١٩٦٤م الشعبية التي ناصرها بعض ضباط الجيش.

قامت حكومة انتقالية برئاسة السيد سر الختم الخليفة، ثم عُقدت انتخابات تحت مظلة حكومة من الأحزاب والهيئات، وفاز الحزب الوطني الاتحادي بأغلبية جعلت من الأزهري رئيسًا لمجلس السيادة، ومن حزب الأمة رئيسًا للوزراء ممثلًا في محمد أحمد محجوب.

ولكن في ٢٥ مايو ١٩٦٩م، قام بعض الضباط بقيادة العقيد جعفر محمد نميري بانقلاب عسكري أطاح بالحكم المدني، وأعلن عن العقيد جعفر محمد نميري رئيسًا لمجلس قيادة الثورة، وبأبكر عوض الله رئيسًا لمجلس الوزراء، في تحالف بين نميري واليساريين والقوميين العرب، ووضع الأزهري وغيره في السجون، ثم ما لبث أن توفي الرئيس إسماعيل الأزهري وهو رهين السجن.

ولم تكن مقاومة الحزب الوطني الاتحادي الداخلية قوية للحكم العسكري. وكانت المعارضة خارج السودان بقيادة زعيمه الشريف حسين الهندي، الذي قاد المعارضة ضد نظام نميري بالتضامن مع الإمام الهادي المهدي، وبعد مقتل الأخير، كوّن الجبهة الوطنية للمقاومة، وبدأ في إثيوبيا، ثم ليبيا وأخيرًا في لندن.

بعد الإطاحة بجعفر نميري عام ١٩٨٥م، كونت حكومة برئاسة السيد الصادق المهدي مؤتلفة من حزبه (حزب الأمة)، والحزب الاتحادي الديمقراطي، والأخير هو الحزب الوطني الاتحادي القديم بعد ضم جناحيه: الحزب الوطني الاتحادي وحزب الشعب الديمقراطي، مع تمثيل غير يسير للجبهة القومية الإسلامية (جبهة الميثاق سابقًا)، التي تزعمت المعارضة.

وفي ٣٠ يونيو ١٩٨٩م وقع انقلاب عسكري بقيادة العميد عمر حسن أحمد البشير، باسم ثورة الإنقاذ الوطني، مشكّلة حكومة الانقاذ الوطني، بدعم سياسي من الجبهة القوميّة الإسلاميّة.

ظل الحزب الاتحادي الديمقراطي يمثل فئة من المعارضين لحكومة الفريق عمر البشير، وظل هؤلاء تحت رعاية زعيم طائفة الختمية السيد محمد عثمان الميرغني والشريف زين العابدين الهندي، خارج البلاد يعملون على إنهاء نظام الحكم الحالي في السودان.

أما الشريف زين العابدين فقد عاد للسودان في ١٩٩٧م مؤيدًا لحكومة الإنقاذ ومشاركًا في أجهزتها، إذ عين نائبًا لرئيس المؤتمر الوطني، أي نائبًا للفريق البشير الذي ترأس المؤتمر بدءًا من فبراير ١٩٩٨م[1].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة

(المؤتمر الوطني/ المؤتمر الشعبي)

التعريف:

الجبهة الإسلامية القومية اسم أُطلق على الحركة الإسلامية الحديثة في السودان عقب انتفاضة الشعب السوداني على حكم الرئيس الأسبق جعفر نميري عام ١٩٨٥م. ثم تطور بعد ذلك إلى اسم المؤتمر الوطني، الذي انشق عنه بعد ذلك حزب المؤتمر الشعبي.

تاريخ الجبهة الإسلامية القومية

تُعد الجبهة الإسلامية القومية امتدادًا للحركة الإسلامية الحديثة في السودان التي بدأت في أواخر الخمسينيات تحت اسم الإخوان المسلمين، ثم جبهة الميثاق الإسلامي عقب ثورة أكتوبر ١٩٦٤م التي اشترك في إشعالها كافة قطاعات الشعب السوداني وأحزابه، وكان حسن الترابي من أبرز قادة هذه الثورة، وقد فاز في دوائر الخريجين في الانتخابات التي أعقبتها حيث نال أكثر الأصوات، وقد شغل منصب الأمين العام لجبهة الميثاق الإسلامي من عام ١٩٦٤ - ١٩٦٩م.

وتم تأسيس الجبهة الإسلامية القومية رسميًّا عام ١٩٨٥م بعد مؤتمر جامع دعيت له كل الفعاليات الإسلامية والقومية، وتكون هيكل التنظيم المركزي للجبهة الإسلامية القومية من الأجهزة التالية:

المؤتمر العام، هيئة الشورى، القيادة التنفيذية، الأمين العام، الذي شغله حسن الترابي من عام ١٩٨٥- ١٩٨٩م.

وبرز الدور المتعاظم للجبهة الإسلامية القومية عقب الانتخابات التي أُجريت عام ١٩٨٦م، حيث فازت في ٥٤ دائرة انتخابية، وأصبحت بذلك الحزب الثالث من حيث القوة الانتخابية بعد أكبر حزبين في البلاد. وبرزت في تلك الانتخابات سيطرتها على دوائر المثقفين، ودوائر العاصمة السودانية.

واستطاعت نتيجة لهذه القوة الانتخابية الاشتراك في حكومة ائتلافية مع حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي بعد أن فشل الائتلاف بينهما.

تميزت الجبهة الإسلامية القومية بالتركيز على أهدافها الاستراتيجية؛ ولذلك فهي حسب طرحها لا ترى غضاضة في الاشتراك في أي نظام سياسي يحقق أهدافها ويتيح فرصة التمكين للمشروع الإسلامي؛ ومن هذا المنطلق تصالحت مع نظام جعفر نميري ودخلت في ائتلاف مع الأحزاب إبَّان فترة الديمقراطية الثالثة، وتحالفت مع حكومة الإنقاذ بقيادة الفريق البشير الذي استولى على السلطة عام ١٩٨٩م لطرحه الإسلامي الذي يتوافق مع ما تدعو الجبهة له داخليًّا وخارجيًّا.

فنجد أنه رغم حل الجبهة رسميًا كبقية الأحزاب فإن معظم أعضائها، بمن فيهم مؤسسها حسن عبدالله الترابي، قد انخرطوا في المشاركة في نظام الفريق البشير بفعالية سواء من خلال إدارة الحكم، أو القيام بالمهام الطوعية والدعوية والجهادية.

وفي ١٩٨٩م تم حل الجبهة واتخذت اسمًا جديدًا هو المؤتمر الوطني، الذي تحول في ما بعد إلى حزب سياسي بموجب قانون التوالي السياسي، وشغل حسن الترابي منصب الأمين العام له عام ١٩٩٨م.

وفي أواخر عام ١٩٩٩م نشأ خلاف بين البشير والترابي، وعزل الرئيس البشير حسن الترابي من جميع مناصبه، فأدى إلى انشقاق المؤتمر الوطني.

وكون الترابي في عام ٢٠٠٠م حزبًا سياسيًّا جديدًا أطلق عليه اسم حزب المؤتمر الشعبي وجذب إليه بعض قادة حزب المؤتمر الوطني.

أهداف الجبهة الإسلامية القومية

طرحت الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة عند تكوينها كثيرًا من الأهداف مثل:

الدعوة إلى سيادة الإسلام عقيدة وشريعة.

تأكيد قوامة المجتمع على نظام الاقتصاد توجيهًا ومراقبة.

بث روح الدين وشعائره وآدابه لتطهير أعراف التدين من البدع السيئة في أنماط السلوك والأوضاع الاجتماعية ولإزالة الدواعي النفسية والاجتماعية للشقاق والعصبية.

كما دعت الجبهة إلى رفع مكانة العلم وحملته في المجتمع وإلى نشر الثقافة وبسط العلم.

تقول أدبيات الجبهة: إنها تتوسل بولاية السلطة السياسية والاشتراك في مؤسسات الحكم المختلفة، وباتخاذ القوانين والسياسات وسائر تدابير الحكم لتنفيذ تلك الأهداف.

ولزعيمها حسن الترابي ومدرستِه الكثيرُ من الانحرافات الفكرية التي نبَّه عليه كثير من الدعاة وطلبة العلم.

الانتشار ومواقع النفوذ

للجبهة الإسلامية القومية وجود فعّال في الوسط الطلابي والشبابي، وكذلك في الوسط النسائي، والنقابي، والعمل الطوعي والإغاثي[١].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، نظرات شرعية في فكر الدكتور حسن الترابي، سليمان بن صالح الخراشي.

فهرس

القسم الأول: اليهود

القسم الثاني: النصارى

القسم الثالث: الملل

القسم الرابع: المذاهب الفكريَّة المعاصرة

القسم الخامس: الأحزاب والحركات المعاصرة

الموسوعة المفصلة

في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة

6222011502739

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة

٥ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٩٠٣ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٦٢٠

جوال: ٠٠٢٠١٠٩٧٥٧٢٨٨ - ٠٠٢٠١٠٣٣٥٠٦٩٧

E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com